بسم الله الرحمن الرحيم
(وقف لله تعالى)

يوزع مجاناً

مَوارِدُ الظمآن لدروس الزمان

خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه
عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض

بِـالله يَـا نَـاظِـراً فِيـهِ ومُنْتَفِـعـاً ● مِنـهُ سَلِ الله تَـوفيقـاً لِجَـامِعِـهِ
وقُـلْ أنـلْهُ إلـهَ العـرشِ مَغْفِـرَةً ● واقبَـلْ دُعَـاه وجَنِّب عن مَـوانعِـهِ
وخُصَّ نفسَـكَ مِن خَيْـر دَعَـوتَ بـه ● ومَن يَقـومُ بمـا يَكْـفي لِـطَابِعِـهِ
والمسلمينَ جَميْعـاً مَـا بَـدَا قَمَـرٌ ● أو كَـوكَبٌ مسْتَنِيْـرٌ مِن مَـطَالِعِـهِ

بسم الله الرحمن الرحيم
(وقف لله تعالى)

يوزع مجاناً

مَوَارِدُ الظمآن لدرُوس الزمَان

خطب وحكم واحكام وقواعد ومواعظ وآداب واخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه
عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض

الجزءُ الأول

الطبعة الحادية عشر

١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م

بِـالله يَـا نَـاظِـراً فِيـهِ ومُنْتَفِـعـاً ● مِنـهُ سَلِ الله تَـوفيقـاً لِجَـامِعِـهِ
وقُـلْ أنـلْهُ إلـهَ العـرشِ مَغْفِـرَةً ● واقبَـلْ دُعَـاه وجَنِّب عن مَـوانِعِـهِ
وخُصَّ نفسَـكَ مِن خَيْـر دَعـوتَ بـه ● ومَن يَقـومُ بمـا يَكـفي لِـطَابِعِـهِ
والمسلمينَ جَميْعـاً مَـا بَـدَا قَمَـرٌ ● أو كَـوكَبٌ مسْتَنِيْـرٌ مِن مَـطَالِعِـهِ

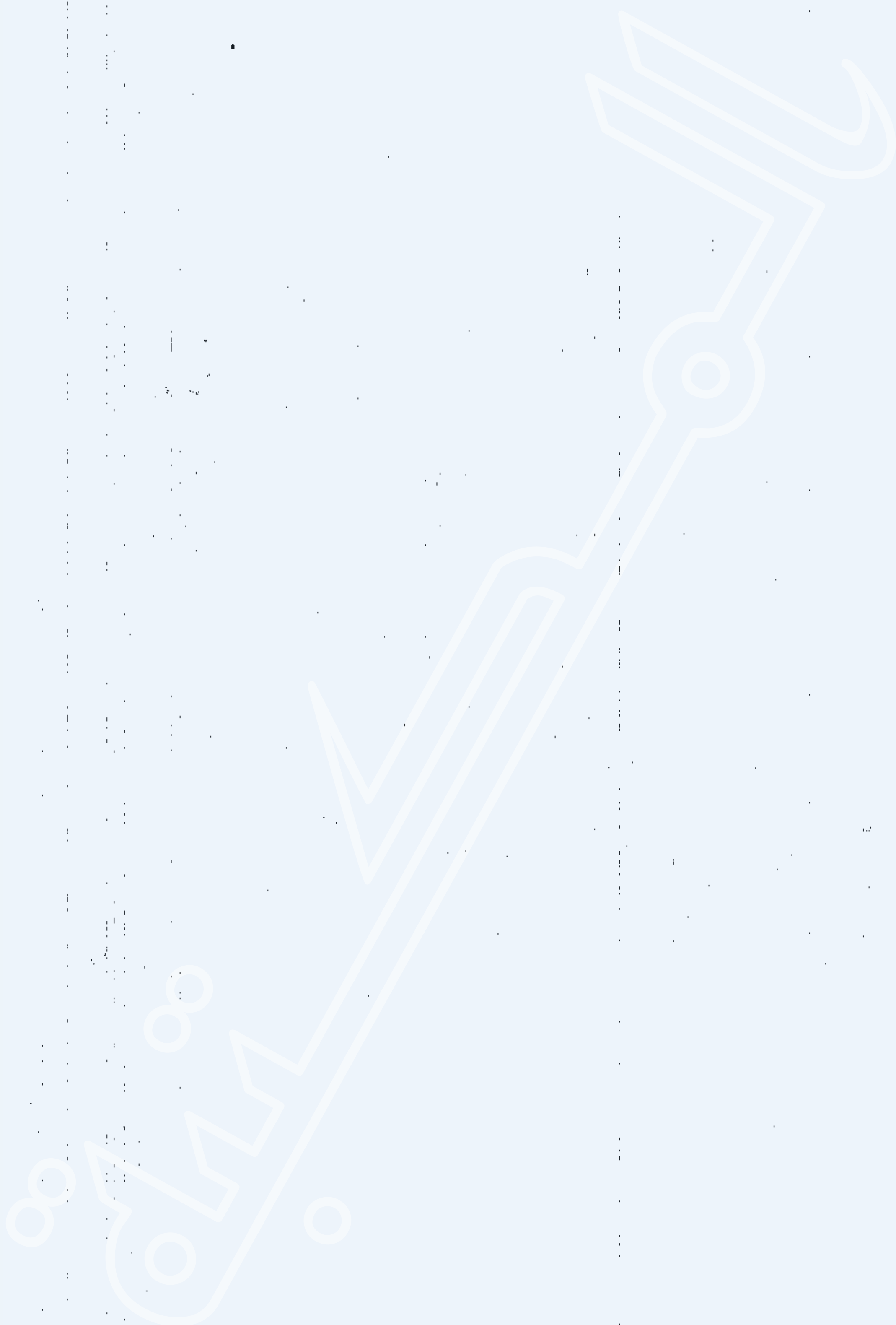
وَمَن أرادَ طِبَاعَتِهِ إبْتِغَاءَ وَجْه اللَّه تَعَالىٰ لا يُرِيْدُ به عرضاً مِن الدنيا ، فقد أُذِنَ لَه في ذلك وَجَزَى اللهُ خيراً مَن طَبَعَهُ وَقْفاً لِلهِ ، أو أعانَ على طبعِهِ ، أو تَسَبَّبَ لِطَبْعِهِ وتوزيعه على إخوانه المسلمين . فقد وَرَدَ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إنَّ اللهَ يُدْخِلُ في السَّهْمِ الوَاحِدِ ثلاثةَ نَفَرٍ الجَنَّة : صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ في صَنْعَتِهِ الخَيْرَ والرَّامِيْ بِهِ ، ومُنْبِلَه » الحديث ، رواه أبو داود .

وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إذَا مَاتَ الإنسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُوْ له » الحديث رواه مسلم .

وَعَنْ زَيْدْ بن خَالد رَضي اللهُ عَنْهُ أنّ رسُول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ جهَزَ غَازياً في سَبيلِ اللَّهِ فقَدْ غَزا وَمَنْ خَلف غازياً في أهْله بِخَير فَقَدْ غزا » متفق عليه .



(بسم الله الرحمن الرحيم)

خطبة الكتاب

الحمدُ للهِ الذي تَفَرَّدَ بالجلالِ والعظمةِ والعِزِ والكبريآء والجَمَالِ وأشكرُهُ شكرَ عَبدٍ مُعْتَرِفٍ بالتقصيرِ عن شكرِ بعض ما أوليهُ مِن الانعامِ والأفضالِ وأشهد أنْ لَا إلـهَ إلَا اللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صلّىٰ اللّه عليهِ وَسَلَمْ .

وَبَعْدُ فَبِمَا أَنِي رَأَيتُ كِتَابَ المَنَاهلِ الحسانِ مطلوباً ومرغوباً رأَيتُ أَني أَوّسِعُهُ وَأَزِيْدُ فيهِ زِيادَاتٍ كَثِيْرَةً مَا بَيْنَ حِكَمٍ وأَحْكامٍ وَقَوَاعِدَ وَمَوَاعظَ وَآدابٍ وأخلاقٍ وقصائِدَ زُهْديات لِيَكُونَ جامِعاً نَافِعاً صَالِحاً وَمُنَاسِباً لِرَمَضَانَ وَغَيْرِهِ ولِلْعَالِمِ والمُتَعَلِمِ ولِلأَئمَّةِ وَغَيْرِهِمْ وَبَذَلْتُ وُسْعِي وَاعْتَنَيْتُ جُهْدِي في تَهْذِيْبِهِ وَتَنْقِيْحِهِ وَتَرْتِيْبِهِ وَقَدْ أَكْملتُ تَشْكِيْلَهُ لِيَعْذُبَ لِلسَّامِعِ والقَارِىءِ وَيَسْهُلَ عَلَيهِ .

وأَسْأَلُ اللّهَ الحَيَّ القَيُّومَ العَلِيَّ العَظِيْمَ القَوِيَّ العَزِيْزَ ذَا الجَلالِ والإِكرامِ الوَاحدَ الأحدَ الفردِ الصَمدَ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدْ الحَليمَ الكَريمَ القَريبَ المُجِيْبَ أَنْ يَجْعَلَ عَملَنَا خَالِصاً لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ مُقَرّباً لَنَا وَلِمَنْ قَرأَهُ وَسَمِعَهُ لَدَيْهِ في جَناتِ النَعِيْمِ وأَنْ يأَجرَ مَنْ

طَبَعَهَ وَمَنْ أَعَانَ عَلىٰ طَبْعِهِ وَمَنْ تَسَبَّبَ لِطَبْعِهِ مَدَىٰ اللَّيَالِي والأَيَّامِ وأَنْ يَغْفِرَ لَنَا وَلَهُ وَلِوَالِدِيْنَا وَوَالِدَيْهِ وَجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ الأَحْيَاءِ منهُمْ والمَيتِينَ بِرَحْمَتِهِ إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين وصَلّىٰ اللّه على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِين .

وَسَمَّيْتُ هَذَا الكِتَابَ الجَامِعَ المُسَلِّي لِقَارِئِهِ وَسَامِعِهِ :

(مَوَارِدَ الظَّمْآنِ لِدُرُوْسِ الزَّمَان)

حِكَم وأَحْكَام وَقَوَاعِد وَمَوَاعِظ وآداب وأَخْلَاق حِسان .

عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد امام الدعوة
بالرياض

(هَذَا الكِتَاب وقف للّه تَعَالىٰ عَلَىٰ طَلبة العلمْ) وَغَيرهمْ مِمَنْ يُريد الانتفَاع به .

بِــالـلهِ يَــا قَــارئــاً كُتْبِيْ وَسَــامِعَـهَــا
أَسْبِــلْ عَليـهَــا رِدَاءَ الحُـكْـمِ والـكَــرَمِ
واسْتُــرْ بِلُطْفِـكَ مَــا تَلْقَــاهُ مِن خَـطَاءٍ
أَوْ أَصْـلِحَنْــهُ تُـثَبْ إِنْ كُـنْـتَ ذَا فَـهَـمِ
فَكَـمْ جَــوادٍ كَبَـى والـسَّـبْــقُ عَــادَتُــه
وَكَـمْ حُـسَــامٍ نَــبَــا أَوْ عَــادَ ذُوْ ثُـلَمِ
وَكُــلُّنَــا يَــا أَخِــيْ خَــطَآءٌ ذُوْ زَلَــلٍ
والـعُــذْرُ يَقْـبَلُهُ ذُوْ الـفَضْــلِ والـشِيَـمِ

وقال آخر :

أَخَــا العِلْم لا تَـعْـجَــلْ لِـعَيْـب مُـصَنِّفٍ
ولــم تَــتَـيَقَّــنْ زَلَّــةً مِــنْــهُ تُــعْـرَفُ
فَـكَمْ أَفْـسَــدَ الــرَّاوِيْ كَــلاَمَــاً بِـنَـقْـلِهِ
وَكَمْ حَـــرَّفَ المَنْقُــوْلَ قَـــوْمٌ وَصَــحَّفُــوْا
وَكَمْ نَــاسِــخٍ أَضْحَى لِمَـعْنىً مُغَـيِّـراً
وَجَــاءَ بِشَـيْءٍ لَـمْ يُــرِدْهُ الـمُـصَـنِّـفُ

الفصل الأول
في التوبة من المعاصي

اعْلَمْ وَفقَنَا اللّهُ واياكَ وَجَميعَ المُسلمينَ ، أن الذنوبَ حجابٌ عن اللّهِ ، والانصرافُ عن كِلِ ما يُبْعِدُ عن اللّهِ واجبٌ ، وانما يَتمُ ذلكَ بالعِلم والندمِ والعزمِ ، فانه مَتى لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الذنوبَ أسْبابُ البُعْدِ عن اللّهِ لَمْ يَنْدَمِ على الذنوبِ ولم يَتوَجَّعْ بِسَبَبِ سُلُوكِهِ طَرِيْقَ البُعْدِ ، وإذَا لَمْ يَتَوَجَّعْ لَمْ يَرْجِعْ ، والتَّوْبَةُ : الرجوعُ عَن المَعْصِيَةِ إلى الطاعةِ وهِيَ واجبةٌ مِنْ كلِ ذَنْبٍ ، فان كانتِ المعصيةُ بينَ العبدِ وبينَ ربهِ تَعالى لا تَتعَلَّقُ بِحَقِّ آدمِيٍ ، فلها ثَلاثَةُ شُروطٍ :

الأولُ : الإقلاعُ عَنْ المَعْصِيةِ التي هُو مُتَلَبِّسٌ بِهَا ، وَعَلامَتُهُ مُفَارَقَةُ الذنبِ فَوْراً .

الثاني : النَّدَمُ عَلَىٰ فِعْلِهَا ، وَعَلامَتُهُ طُوْلُ الحُزْنِ على مَا فَاتَ وورد عن ابن مسعودِ رضيَ اللّهُ عَنْهُ ، أنّ رَسُولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليهِ وَسَلَمْ قال : « الندمُ تَوبةٌ » .

الثالثُ : العَزْمُ أَنْ لا يَعُوْدَ إلى مَعْصِيَةٍ أبـدًا ، وَعَلامَتُـهُ التَّدارُكُ لِمَا فَاتَ وَاصْلاَحُ مَا يَأتِي ، فانْ كَانَ المَاضِيْ تَفْرِيْطاً في عِبادةٍ

قَضَاهَا ، أَوْ مَظْلَمةٍ أدَّاهَا ، أَوْ خَطِيْئَةٍ لا تُوْجِبُ غَرَامَةً حَزِنَ اذْ تَعَاطَاهَا .

فإن فُقِدَ أَحَدُ الشُرُوْطِ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ . وانْ كَانَتْ المعصيَةُ تَتَعَلَّقُ بآدمِيٍ ، فَشُرُوْطُها أرْبَعَةُ ، الثلاثةُ الشُروطُ المذكورةُ والرابعُ : أن يَبْرَأَ مِنْ حَقّ صَاحِبِها ، فانْ كَانَتْ مالاً أو نحوَهُ رَدَّهُ إليهِ ، إنْ كانَ مَوْجُوداً أَوْ رَدَّ بدَلَهُ عندَ تَلَفِهِ مِن قِيْمَةٍ أو مِثْلٍ . وانْ كَانَتْ حَدَّ قذفٍ وَنَحْوَه مَكّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ ، وانْ كَانَتْ غِيْبَةً اسْتَحَلَّهُ مِنْهَا انْ كَانَ عَاقِلاً حَلِيْماً ، يَغْلِبُ عَلَىٰ الظَنِ أنَّهُ اذَا جَاءَهُ أُخُوُهُ المُسْلِمُ نادِماً تائباً عَفَا عَنْهُ وَسَامَحَهُ ، وإلاَ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَهُ . لِمَا وَرَدَ عَن أنسٍ قَالَ : قَالَ رسولُ اللّهِ صلّى اللّه عليه وسلم : « إنَّ مِنْ كَفَّارَةِ الغِيْبَةِ أَنْ تَستغفرَ لِمَنِ اغْتَبْتَهُ تَقُولُ : اللهم اغْفِرْ لَنَا وَلَهُ » .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مظلمةٌ لأَخِيْهِ مِن عِرْضٍ أو مالٍ فَلْيَتَحَلّلْهُ منهُ اليومَ قبلَ أنْ لا يكونَ دِرْهَمٌ ولا دينارٌ ، إنْ كانَ له عملٌ صالحٌ أُخِذَ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وانْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئَآتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَليه » .

وَقَدْ أَمَرَ اللّهُ سُبْحَانَه وَتَعالَىٰ بالتَّوْبَةِ ، وَبَيَّنَ مَا لِلتَّائِبِينَ مِن الكَرَامَةِ والأَجْرِ ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللّه توبةً نصوحاً عَسى رَبُكم أَنْ يُكَفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جناتٍ تجري مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَار ﴾ .

قال ابنُ القَيّم رحمهُ اللّه : والنُّصْحُ في التوبةِ يَتَضَمَّنُ ثَلاثَةَ أَشْيَاء ،

الأولُ : تعْمِيْمُ جَمِيْعَ الذُنُوبِ واستغْراقُهَا بها بِحَيْثُ لا تَدَعُ ذَنْباً إلا تَناوَلَتْهُ
وَالثانِي : اجماعُ العَزْمِ والصِّدْقِ بِكُلِّيَتِهِ عَلَيْهَا بِحَيْثُ لا يَبْقى تَرَدُّدٌ ولا تَلُوُمٌ ولا انْتِظارٌ بَلْ يُجْمِعُ كلَّ إرَادَتِهِ وَعزِيْمَتِـهِ مُبادِراً بِهَـا .

الثالثُ : تَخْلِيْصُهَا مِن الشَّوَائِبِ والعِلَلِ القَادِحَةِ في اخْلاَصِهَا وَوُقُوْعِهَا لِمَحْضِ الخَوْفِ مِن خَشْيَةِ اللّهِ ، والرَّغْبَةِ فِيْمَا لَدَيْهِ ، والرَّهْبَةِ مِمَّا عِنْدَهُ ، لا كَمَنْ يَتُوبُ لِحفْظِ جَاهِهِ وحُرْمَتِهِ وَمَنْصِبِهِ ورِيَاسَتِهِ ، أو لِحفْظِ حَالِهِ أو لِحفْظِ قُوَّتِهِ وَمَالِهِ أو اسْتِدْعَاءِ حَمْدِ الناسِ أو لِهَرَبٍ مِن ذَمِّهِمْ أَوْ لِئَلاَ يَتَسَلَّطْ عَلَيْهِ السُفَهَاءُ أو لِقَضَاءِ نَهْمَتِهِ مِن الدنيا أو لإفلاسِهِ وَعَجْزِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِن العِلَلِ الَّتِي تَقْدَحُ في صِحَّتِهَا وَخُلُوصِهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أ هـ .

وأخْبَرَ أَنَّهُ غَفَّارٌ لِذُنُوبِ التَّائِبِيْنَ ، فقال عَزَّ شَأْنُه : ﴿ والذينَ اذا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظَلَمُوا أنْفُسَهم ذَكَرُوْا اللّهَ فاستغفروا لِذُنُوبهم وَمَن يَغفرُ الذنوبَ إلَّا اللّهُ ولَمْ يُصِرُوا على ما فَعَلُوا وهُم يَعْلَمُون . أولئكَ جَزاؤهُم مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهم وجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحتِهَا الأَنهارُ خالدينَ فِيها وَنِعْمَ أجرُ العامِلين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وتُوبُوا إلى اللّهِ جميعاً أَيُها المؤمنـونَ لَعَلَكم تُفْلِحُون ﴾ وأخبرَ سبحانَه أنه يُحِبُ التوابينَ ، فقال تعالى : ﴿ إنَّ اللّه يُحِبُ التوابينَ ﴾ .

وقال النَبي صلّى اللّه عليه وسلم : « يا أيُها الناسُ تُوبُوا إلى اللّهِ واستَغْفِرُوْهُ فإني أَتُوبُ في اليوم مائةَ مَرة » رواه مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « والله إني لاستغفرُ اللّهَ وأتُوبُ اليه في اليومِ أكثرَ مِنْ سَبْعِيْنَ مَرَّة » رواه البخاري .

وقال صلّى الله عليه وسلم : « لَلَّهُ أَشَدُ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِيْنَ يَتُوبُ إليهِ مِنْ أَحدِكُم كانَ على رَاحِلتِه بأرضِ فلاةٍ فانفَلتَتْ منه وَعَليهَا طَعامُه وَشَرَابُه فأيِسَ منها ، فأتى شَجرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا وَقَدْ أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَمَا هُو كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قائِمةً عندَهُ فأَخَذَ بِخِطامِهَا ، ثُمَّ قَال مِن شِدَّةِ الفَرَحِ : اللهم أنْتَ عَبْدِي وأنا رَبُّك ، أخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ » الحديث رواه مسلم .

وقال صلّى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللّهَ تَعَالى يَبْسُطُ يَدَهُ بِالليلِ لِيَتُوْبَ مُسيءُ النهارِ ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ الليلِ حتَّى تَطْلُعَ الشمسُ مِن مَغْرِبِهَا » رواه مُسلم .

والأحاديثُ في هذا كَثِيْرةٌ ، والاجماعُ مُنْعَقِدٌ عَلى وُجُوْبِ التَّوبَةِ لأَمْرِ اللّهِ ورسولِهِ بها ، ولِأن الذنوبَ مُهْلِكاتٌ مُبْعداتٌ عن اللّهِ فَيَجِبُ الهَرَبُ مِنْها على الفَورِ ، ولْيَحْذَرْ الإنسانُ كُلَّ الحذرِ مِن الذنوبِ الكبَائِرِ والصَّغائِرِ . وُوُجُوبُ التوبةِ مِن الكبائرِ أَهَمُّ وآكدُ ، والاصْرارُ على الصغيرةِ أيضاً كبيرةٌ ، فلا صَغِيرةَ مع الإِصْرارِ ولا كَبيرةَ مَعَ التوبةِ والْاسْتِغْفارِ . وَتَواتُرُ الصَّغَائِرِ عظيمُ التأْثيرِ في تَسْوِيدِ القلبِ وهوَ كَتَواتُرِ قَطَراتِ الماءِ على الحَجَرِ ، فإنهُ يُحْدِثُ فيهِ حُفْرَةً لا مَحَالةَ مَعَ لِيْنِ الماءِ وَصَلابةِ الحجرِ . فَعَلَى العاقِلِ أن يَسْتَرْصِدَ قَلبَهُ باسْتِمْرَارٍ ويُراقِبَ حركاتِهِ وَيُسجّلَ تصَرُّفَاتِهِ ولا يَتَساهلَ ولا يقولَ إنها مِن التوافِهِ الصِغارِ وَصَدَقَ رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم حيثُ يقولُ : « إِياكُمْ وَمُحقَّراتِ الذنوبِ

فإنهنَّ يجْتمعْنَ على الرجل يُهْلِكنَه .

وَإلى هذا المَعْنَى أشَارَ الشاعرُ :

ولا تَـحْتَقِـرْ كَيْـدَ الـضَّعِيْفِ فَـرُبَّـمـا
تَمُـوْتُ الأَفَـاعِي مِن سُمُـوم العَقَـارِبِ
وَقَـدْ هَـدَّ قِـدْمَـاً عَـرْشَ بَلْقِيْسَ هُـدْهُـدُ
وَخـرَّبَ حَـفْـرُ الـفَـارِ سَـدَّ مَـآرِبِ

وقال الآخر :

لا تَحْقِـرَنَّ صَـغيـرَاً في مُخَـاصَمَـةٍ
إنّ الـبَعُـوضَـةَ تُـدْمِـي مُـقْـلَةَ الأَسَـدِ

وكما أنَّ خيرَ الأعْمالِ الصالحةِ أدْوَمُها وإنْ قَلَّ ، وأيضَاً الكبائِرُ قَلَّما تَقَعُ مِن غَيرِ سَوابِقَ وَمُقَدِّماتٍ مِن الصَغَائِرِ ، فَمَثَلاً الزنا ـ والعِيَاذُ باللّهِ ـ قَلّمَا يَقَعُ فَجْأَةً بل تَتَقدَّمُ عليهِ مُرَاوَدَةٌ أو قَبْلَةٌ أو لَمْسٍ .

اللهم أرزِقْنَا العَافِيَةَ في أبْدانِنَا والعِصْمَةَ في دِيْنِنَا وأَحْسِنْ مُنْقَلَبِنَا وَوَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بطاعَتِك أبَدَاً ما أبْقَيْتَنا واجْمَعْ لَنَا بَينَ خَيْرَيِ الدنيا والآخِرةِ واغْفِرْ لنا وَلِوالِدِيْنا وَلِجَميعِ المسلمين الأحياءِ منهُمْ والميّتِين برحْمتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصلّى اللّهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجمعين .

الفصل الثاني

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللّهُ : وللمَعَاصِي من الآثارِ المُضِرَّةِ بالقلبِ والبَدَنِ في الدنيا والآخرةِ ما لا يَعْلمُهُ إلا اللّه ، فمنها أنها مَدَدٌ مِنَ الإنسانِ يَمُدُّ بِهِ عَدُوَّهُ عليهِ وَجَيْشٌ يُقَوِّيهِ بهِ على حَرْبِهِ ومِن عُقُوباتِها أَنَّهَا تَخُونُ العَبْدَ أَحْوَجَ ما يكون إلى نفْسِهِ . ومنها أنها تُجَرِّىءُ العبدَ على مَنْ لم يكُنْ يَجْتَرِىءُ عَليهِ . وَمنها الطَبْعُ على القلب إذا تكاثَرَتْ حتى يَصير صَاحبُ الذَنْبِ منَ الغافِلين ، كما قال بعضُ السَلَفِ في قوله تَعَالى : ﴿ كلا بَلْ رانَ على قلوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبُون ﴾ هو الذَنْبُ بعدَ الذنْبِ وقال : هو الذَنْبُ على الذنْبِ حتى يَعْمَى القلبُ . وأصْلُ هذا أنَّ القَلْبَ يَصْدأُ مِنَ المعصيةِ فإذا زادَتْ غَلَبَ الصدأُ حتى يَصير رَاناً ثم يغلبُ حتى يَصِيرَ طَبْعاً وَقَفْلاً وَخَتْماً فَيَصِيرَ القلبُ في غِشَاوةٍ وَغِلافٍ .

ومنها إفْسادُ العقلِ فإنَّ العقلَ نُورٌ والمعصيةُ تُطْفىءُ نُورَ العقلِ .

ومنها أن العبدَ لا يَزالُ يَرْتَكِبُ الذُنوبَ حتى تَهونَ عليهِ وَتَصْغُرَ في قلبِهِ .

ومنها أنْ يَنْسَلِخَ مِنَ القلبِ ٱسْتِقْباحُها فتصيرَ لهُ عادةً .

ومنها أنَّ المعاصِيَ تزْرَعُ أمثالَها وَيُوَلِّدُ بعضُها بَعضاً .

ومنها ظُلْمَةٌ يَجِدُها في قلبِهِ يُحِسُّ بِها كما يُحِسُّ بِظُلْمَةِ الليلِ .

ومنها أنَّ المعاصِيَ تُوهِنُ القلبَ والبَدَنَ أمّا وَهَنُها لِلْقلبِ فَأمْرٌ ظاهِرٌ بل لا تزالُ تُوهِنُهُ حتى تُزيلَ حياتَهُ بالكُلِيَّةِ وأمَّا وَهَنُها للبَدَنِ فانّ المؤمنَ قُوتُهُ في قلبِهِ وكُلّما قَوِيَ قلبُهُ قَوِيَ بَدَنُه .

وَمنْها أنّ المعاصِيَ تَمْحَقُ العُمْرَ إذْ أنَّ المَعاصِيَ كُلَّها شُرُورٌ .

وَمِنْهَا شَمَاتَةُ الأَعْداءِ فَإنّ المَعَاصِيَ كُلَّها أَضْرارٌ في الدِّينِ والدُّنْيَا وَهَذَا مَا يُفَرِّحُ العَدُوَّ وَيُسِيءُ الصَّديقَ .

وَمِنْهَا تَعْسيرُ أُمُورِهِ فَلاَ يَتَوَجَّهُ لِأَمْرٍ إلاَّ يَجِدُهُ مُغْلَقاً دُوْنَه أَوْ مُتَعَسِّراً عَلَيْه .

وَمِنْهَا الْوَحْشَةُ الَّتي تَحْصُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَلاَ سِيَّمَا أَهلُ الخَيْرِ .
وَمِنْهَا حِرْمَانُ دَعْوَةِ الرَّسُولِ صَلّىٰ اللّهُ عليْهِ وَسَلَّمَ وَدَعْوةِ الملاَئِكَةِ لِلَذِيْنَ تابُوا وَمِنْهَا أنَّ الذُنُوبَ تَدْخُلُ العَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ .

وَمِنْهَا أَنَّها تُحْدِثُ في الأَرْضِ أَنوَاعاً مِنَ الفَسَادِ في المِيَاهِ وَالْهَوَاءِ والزَّرْعِ وَالثِّمارِ والمَسَاكِنِ .

وَمِنْهَا أَنَّها تُطْفِىءُ مِنَ الْقَلْبِ نارَ الغَيْرَةِ .

وَمِنْهَا ذَهَابُ الحيَاءِ الذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ القلبِ .

وَمِنْهَا أنَّها تُضْعِفُ في القلبِ تَعْظِيمَ الرّبِّ وَتُضْعِفُ وَقَارَهُ في قَلْبِ العَبْدِ .

وَمِنْهَا أنّهَا تَسْتَدْعِي نِسْيَانَ اللّهِ لِعَبْدِهِ وَتَرْكِهِ . وَمِنْهَا أنَّهَا تُخرِجُ العَبْدَ مِنْ دائِرةِ الإِحْسَانِ وَتَمْنَعُهُ ثَوابَ المُحْسِنِين . ومِنْهَا أنّها تُضْعِفُ سَيْرَ القَلْبِ إلى اللّهِ والدَّارِ الآخِرَةِ . ومنها أنّها تَصْرِفُ القلبَ عنْ صِحَّتِهِ واسْتِقَامَتِهِ .

وَمِنْهَا أنَّها تُعْمِي بَصِيرَةَ القلبِ وَتَطْمِسُ نُورَهُ وَتَسُدُّ طُرُقَ العِلْمِ . وَمِنْهَا أنَّها تُصَغِّرُ النَفْسَ وَتَحْقِرُهَا وَتَقْمَعُهَا .

وَمِنْهَا أنَّ العَاصِيَ في أَسْرِ شَيْطَانِهِ وَسِجْنِ شَهَوَاتِهِ .

وَمِنْهَا سُقُوطُ الجَاهِ والمَنْزِلَةِ والكَرَامَةِ عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ . وَمِنْهَا أنَّها تُوجِبُ القَطِيعَةَ بينَ العبْدِ وَبينَ رَبِّهِ . وَمِنْهَا أنَّهَا تَسْلُبُ صَاحِبَها أسْماءَ المَدْحِ والشرَفِ . وَمِنْهَا أنَّها تَجْعَلُ صَاحِبَها من السَفَلَةِ انتهى .

شعراً :

أَلاَ أيُّهـا المُسْتَطرِفُ الـذَّنْبَ جَـاهِـداً
هُـوَ الـلّهُ لا تَخْفَى عليـه الـسَّـرَائِـرُ
فَـإنْ كُنْتَ لم تَعْـرِفْـهُ حِيْنَ عَصَيْتَـهُ
فَـانَّ الـذِي لا يَـعْـرِفُ الـلّهَ كَـافِـرُ
وإنْ كُـنْـتَ عـن عِـلْمٍ وَمَـعْـرِفَـةٍ بِـهِ
عَصَيْتَ فَـأَنْتَ الـمُسْتَهِيْنُ الـمُجَاهِـرُ

فَـأَيَّـةَ حَـالَـيْـكَ اعْـتَـقَـدْتَ فـإِنَّـهُ
علِيمٌ بـمـا تُـطْوَى عليـه الـضَـمَـائِـرُ

اللهم اهْدِنا لِصَالِح الأعمالِ والأخلاقِ لا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إلَّا أَنْتَ واصْرِفْ عَنَّا سَيِّءَ الأَعْمَالِ والأخلاقِ لا يَصْرِفُ عَنَّا سَيِّئهَا إلا أنْتَ واغفِر لنا وَلِوَالدينا ولِجَميع الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتك يا أَرْحَمَ الراحمين وصلّى اللّه على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفصل الثالث

قَالَ ابنُ القَيّم رَحَمَه اللّهُ تعالى : ممَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الذنوبَ والمَعَاصيَ تَضُرُ ولا بُدَّ ، أنَّ ضَرَرَهَا في القَلْبِ كَضَررِ السُّمُومِ في الأبدانِ على إختلافِ دَرَجَاتِها في الضَرَرِ . وهَلْ في الدُنيا والآخِرَةِ شَرٌّ وداءٌ ، إلَّا بِسَبَبِ الذُنوبِ والمعاصِي ؟

الى أن قالَ رحِمَهُ اللهُ : فما الذي أخْرجَ الأبَوَيْنِ مِنَ الجنةِ والنَعيمِ واللَّذةِ والبَهْجَةِ والسُرور إلى دارِ الآلامِ والأحْزانِ والمصائِبِ وما الذي أخْرجَ إبْليسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَماءِ وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ وَمَسَخ ظاهِرَهُ وباطِنَهُ فَجعَلَ صُورَتَهُ أقْبَح صُوْرَةٍ وأشْنَعَهَا وباطِنَهُ أقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأشْنَعَ وَبُدِّلَ بالقُرْبِ بُعْداً وبالرَّحْمَةِ لَعْنَةً وبالجَمَالِ قُبْحاً وبالجنةِ ناراً تلظَّى وبالأيْمَانِ كُفْراً ، وَبِمُوَالاةِ الوَليِّ الحَميدِ عَداوَةً وَمُشَاقَّةً وبِزَجَلِ التَّسْبيحِ والتَّقْدِيْسِ والتَّهْليلِ زَجَلَ الكُفْرِ والفُسوقِ والعِصْيَانِ ، فَهَانَ على اللّهِ تعالى غَايَةَ الهَوَانِ وسَقطَ مِنْ عَيْنِهِ غايَةَ السُقوط وحَلَّ عليْهِ غَضَبُ الربِّ تعالى فأهْوَاهُ ، وَمَقَتَهُ أَكْبَرَ المَقْتِ فأرْدَاهُ ، فَصَارَ قَوَّاداً لِكُلِّ فاسِقٍ ومُجْرِمٍ رَضِيَ لِنَفْسِهِ بالقِيادَةِ بَعْدَ تِلْكَ العِبَادَةِ والسِّيادَةِ .

فَعِياذاً بِكَ اللهُمَّ مِنْ مُخالفَةِ أَمْرِكَ وآرْتِكابِ نَهْيِك .

وَمَا الذِي أَغْرَقَ أَهْلَ الأَرْضِ كُلَّهم حَتَّى عَلاَ الْمَاءُ فَوقَ رُؤُوْسِ الجِبَالِ . وَمَا الذي سَلّطَ الريحَ على قومِ عادٍ حتى أَلْقَتْهم مَوْتَى على وَجْهِ الأرضِ كأنَّهم أعْجازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ودمَّرَتْ ما مَرّتْ عليه مِنْ دِيارِهِمْ وحُرُوْثِهِمْ وزُرُوْعِهِمْ وَدوابِّهِمْ حتى صارُوا عِبْرةً للأُمَمِ إلى يومِ القِيامةِ .

وَمَا الذي أَرْسل على قومِ ثَمُودَ الصَيْحَةَ حتى قَطَعَتْ قُلوبَهم في أَجْوَافِهِمْ وماتُوا عن آخِرِهم ، وما الذي رَفَعَ قُرى اللُوطيّةِ حتى سَمعتْ الملائكةُ نُباحَ كِلابِهِم ثم قَلَبَها عليهم فَجَعَلَ عالِيَها سافِلَها فأهلكهم جميعا ثم أَتْبَعَهم حجارةً مِنْ السماءِ أَمرَها عليهم فجمع عليهم مِنْ العُقوبَةِ ما لَمْ يَجْمعْه على أُمَّةٍ غيرِهِم ، ولِإخوانِهِم أمثالُها قال تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالِمينَ ببعيد ﴾ .

وَمَا الذي أرسل عَلى قَومِ شُعَيْبٍ سَحابَ العذابِ كالظُّلَلِ فَلَمَّا صَارَ فوقَ رؤوسِهِمْ أَمْطَرَ عليهم ناراً تلظَّى . وَمَا الذي أَغْرَقَ فرعونَ وقومَهُ في البحر ثم نُقِلَتْ أَرْوَاحُهُم إلى جَهَنَّمَ ، فالأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ والأَرواحُ لِلْحَرَقِ ، وَمَا الذي خَسَفَ بقَارُوْنَ وَدَارِهِ ومالِهِ وأَهْلِهِ ، وَمَا الذي أهلَكَ القُرُوْنَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بأنواعِ العُقوباتِ ودَمَّرها تدميراً ، وَمَا الذي أهلكَ قومَ صاحِبِ يَس بالصيحةِ حتى خَمَدُوا عنْ آخِرِهم .

وَمَا الذي بعثَ على بني إِسْرائيلَ قوماً أُولى بأسٍ شديدٍ فجاسُوا خِلال الدِّيارِ وقَتَلوا الرِجالَ وسَبَوُا الذُرّيةَ والنسَاءَ ، وأَحْرقوا الديارَ ونَهَبُوا الأموالَ ، ثم بَعَثَهُم عليهم مَرَّةً ثانِيَةً فأَهْلَكُوا ما قَدِرُوا عليه وتَبَّروا ما عَلَوْا تَتْبيرا ، وَمَا الذي سَلَّط عليهم أنواعَ العُقوباتِ مَرَّةً بالقتل والسَّبى وخَراب البلادِ ومَرَّةً بِجَوْرِ الملوكِ ومَرَّةً بمَسْخِهِمْ قِرَدَةً وخنازيرَ وآخِرُ ذلك أقسم

الربُّ تبارك وتعالى لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يوم ِ القيامةِ مَنْ يَسُؤْمُهُمْ سُوءَ العذابِ .

شعراً :

دَعُـونِـيْ على نَـفْـسِـي أَنُـوحُ وأنْـدُبُ
بِـدَمْـعٍ غَـزيْـرٍ واكِـفٍ يَـتَـصـبَّـبُ
دعُـونِـيْ على نَفْسِـي أنـوحُ فـانَـنـي
أخَـافُ على نَفْسِي الضَّعِيْفَـةِ تَـعْـطَبُ
وَإِنِّـيْ حَـقـيـقٌ بـالـتَـضـرُّعِ والـبُـكَـا
إذا مـا هَـدَا الـنُّـوامُ والليـلُ غَـيْهَـبُ
وَجَـالَتْ دَوَاعي الحُـزنِ مِنْ كُـلِّ جانبٍ
وغـارَتْ نُجُـومُ الليـلِ وانْقضَّ كَـوْكبُ
كَـفَى أَنَّ عَـيْـنِـي بـالـدُمُـوعِ بَـخِـيْـلَـةٌ
وأَنِّـيْ بـآفـاتِ الـذُنـوبِ مُـعَـذَّبُ
فَمَنْ لي إذا نـادَى المُنادِي بِمَنْ عَصَى
إلـى أيـنَ إلْـجَـائِـي إلـى أَيْـنَ أهْـرُبُ
وقـد ظَهَـرتْ تِلكَ الفضـائـحُ كُلُّهـا
وَقَـدْ قُـرِّبَ الـمـيـزانُ والـنـارُ تَـلْـهَـبُ
فَيَـا طُولَ حُـزْنِي ثم يـا طُـولَ حَسْـرَتي
لئنْ كُنـتُ في قَـعْـرِ الجحيمِ أُعَـذَّبُ
فقـدْ فـازَ بـالمُلْكِ العَظيمِ عِصَـابةٌ
تَبِيتُ قيـامـاً في دُجَى الليـلِ تَـرْهَبُ

إذا أشْـرَفَ الْجَبَّـارُ مِنْ فَـوْقِ عَـرْشِـهِ
وقـد زُيِّنَتْ حـورُ الـجِنـانِ الـكَـواعِبُ
فَـنَـادَاهُـمُ أَهـلاً وسـهـلاً ومَـرْحَـبـاً
أبَحْتُ لَكُمْ دارِي ومـا شِئْتُمُ اطْـلُبُـوا

قال العلمآءُ وتعظُمُ الصغيرةُ بأسبابٍ منها : أنْ يَسْتَصْغِرَها الانسانُ ويَسْتَهينَ بها فلا يَغْتمَّ بسببِها ولا يُبَالي ، ولكنَّ المؤمنَ المُجلَّ للّهِ المُعَظمَ له هو المستعظمُ لذَنْبِهِ وإنْ صَغُر فإنَّ الذنْبَ كلَما آستعظَمَهُ العَبْدُ صَغُرَ عِنْدَ اللّهِ تعالى وكُلَما استصغرَهُ كَبُرَ عِنْدَ اللّهِ تعالى فإنَّ استعظامَهُ يَكونُ عَنْ نُفورِ القلبِ مِنْهُ وكَراهيَتِهِ لَهُ .

قال ابنُ مسعودٍ : إنّ المؤمنَ يَرَى ذنْبَهُ كأنَّهُ في أصْلِ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يَقَعَ عليهِ وإنّ الفاجِرَ يَرَى ذنْبَهُ كذُبابٍ وقَعَ على أنفِهِ فقال بِهِ هَكَذَا ، أخْرَجاه في الصحيحين . وفي البُخاري مِنْ حَديثِ أنَسٍ رضِيَ اللّهُ عنْهُ : إنكُمْ لَتَعْمَلون أعْمَالاً هِيَ أدَقُّ في أعْيُنِكُم مِنْ الشَعْرِ كُنّا لَنَعُدُّها على عَهدِ رسولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلمَ مِنْ المُوبِقَاتِ .

وقَالَ بِلالُ بنُ سعدٍ رضِيَ اللّهُ عنْهُ : لا تَنْظُرْ إلى صِغَرِ الخَطِيئةِ ولكنْ انظُرْ إلى عَظَمَةِ مَنْ عَصَيْتَ . ومنها : السُرورُ بِها والتَبَجُّحُ بسبَبِها واعتِقَادُ التَّمَكُّنِ منها نِعْمةً حتى إنَّ المُذنِبَ المُجاهِرَ بالمَعاصِي لَيَفْتخِرُ بِها فيقولُ : ما رَأَيتَنِي كيف شَتَمتُهُ وكَيْفَ مَزَّقْتُ عِرْضَه وكَيْفَ خَدَعتُهُ في المُعَامَلَةِ .

ومنها : أن يَتَهاوَنَ بِسترِ اللّهِ عَلَيهِ .

ومنها : أن يُجاهِرَ بالذنْبِ ويُظْهِرَهُ ويَذْكُرَهُ بعدَ فِعْلِهِ ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : « كلُ أُمتّي مُعَافىً إلا المُجاهِرُون » . ومِنها : أنْ تَصْدُرَ الصغيرةُ عنْ عالِمٍ يُقْتَدَى بَهَ فذلك عظيمٌ ، لأِنه يَتْبَعُهُ عليها خَلْقٌ كثيرٌ ، ويَبْقَى أثرُهَا بَعْدَهُ .

اللهمَّ كَما صُنْتَ وجُوْهَنا عنِ السُّجُودِ لِغَيرِكَ فَصُنْ وُجُوْهَنا عنِ المسألةِ لِغَيْرِكَ . اللهم مَنْ كان علي هَوَىً وهو يَظُنُّ أنه عَلى الحقّ فرُدَّهُ إلى الحقِ حَتّى لا يَظِلَّ مِنْ هذِهِ الأُمةِ أَحَدٌ . اللهم لا تَشْغَلْ قُلوبَنا بمَا تكفَّلتَ لنا بِهِ ولا تَجْعَلْنَا في رِزْقِكَ خَوَلاً لِغيرِكَ ولا تَمْنَعْنَا خيرَ ما عِندَكَ بشرِّ ما عِندَنا واغفرْ لنا ولِوَالِدِيْنا ولَجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والميتين برحمَتِك يا أرحمَ الراحمين ، وصلى اللّه على مُحَمَدْ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

الفصل الرابع

واعلمْ أنَّ التوبةَ إذا صحتْ بأَنِ اجْتمعتْ شروطُها وانْتفَتْ مَوانِعُها قُبِلتْ بلا شكٍ إذا وقَعتْ قبلَ نزولِ الموتِ ، لو كانتْ عن أيِّ ذنْبٍ كانَ وقبلَ طُلوعِ الشمسِ مِنْ مغْرِبِها كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتي بعضُ آياتِ ربِك لا ينفعُ نفساً إيْمانُها لم تَكُنْ آمنتْ مِنْ قبلُ أو كسَبَتْ في إيمانِها خيراً ﴾ .

وأخرجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ عن آبنِ عُمرَ أنَّ رسولَ اللّهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنّ اللّهَ تعالَى يَقْبَلُ توبةَ العبْدِ ما لمْ يُغَرْغِرْ أيْ ما لمْ تَبْلُغْ روحُهُ حُلْقومَهُ فيكونُ بمَنْزلةِ الشْيءِ الذي يَتَغَرْغرْ بِهِ الْمَريضُ ، والغَرْغَرةُ أنْ يُجْعلَ المَشْرُوْبُ في الفمِ ويُرَدَّدَ إلى أصْلِ الحَلْقِ ولا يُبْلَعَ ، فهذه الحالةُ حالةُ حُضور الموتِ وبعدَ حُضورِ الموتِ لا يُقْبَلُ مِن العاصِينَ تَوبةٌ ولا مِنَ الكَافرينَ رُجوعٌ كما قال تعالى عن فِرعونَ : ﴿ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قال : آمنتُ أنَّهُ لا إلهَ إلا الذي آمنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيل ﴾ .

ومِنَ المُعوّقاتِ الضَّارَّةِ التَّسْويفُ بالتَّوْبَةِ فَمِنْ أَيْنَ يَعْلَمُ الانسانُ . أنَه يَبْقَى إلى أنْ يَتوبَ فتَارِكُ المُبَادَرَةِ بالتوبةِ بَيْنَ خَطَرَيْنِ عَظِيْمَينِ أحَدُهُما

أَنْ تَتَرَاكَمَ الظُّلْمَةُ على قَلْبِهِ مِنَ المَعَاصِي حتى تَصِيْرَ رَيْناً وَطَبْعاً وثانِيْهِمَا أَنْ يُعَاجِلَهُ المَرَضُ فلا يَجِدَ مُهْلَةً لِلِاشْتِغالِ بِمَحْوِ ما وَقعَ مِنَ الظلمةِ في القَلْبِ فَيَأتي رَبَّه بقلبٍ غيرِ سَليمٍ ولا يَنْجُو إلا مَنْ أتى اللّهَ بقلبٍ سليمٍ .

ويَجبُ على الانسانِ أنْ لا يَمْتَنِعَ مِنَ التوبةِ خشْيَةَ الوُقُوْعِ في ذَنْبٍ مَرّةً أُخْرَى فإنّ هذا ظَنٌّ يُدْخِلُهُ الشيطانُ في قلْبِهِ لِيُؤخِرَ التوبةَ وَلَرُبَّمَا يَقُولُ في نَفْسِهِ سَأسْتَمِرُّ في المعاصِي أيَّامَ شَبَابِي وصِحَّتي ثُمَّ أتوبُ بعدَ ذلك ، وهكذا يُسَوِّفُ ويُؤخِّرُ ، واذا بالموتِ أو المرضِ يُفاجِئُهُ فلا يَجِدُ مُتَّسعاً للتوبةِ والرّجوعِ الى اللّهِ . نعوذُ باللّهِ مِنْ سوءِ الخاتِمَةِ . ولِذلكَ كان السلَفُ الصالحُ تكادُ تنخلعُ قلوبُهم في كلِ مَرْضةٍ يَمْرَضُونَها ، لاحْتِمالِ أنْ تكونَ تلك المَرْضَةُ إخراجاً لهم مِنَ الدُنيا قبلَ أن يتَمكَنوا مِنْ تَدارُكِ ما فاتَ مِنَ الهَفَواتِ بالتوبةِ النّصُوحِ ولِلاسْتِكْثارِ مِنَ الباقياتِ الصالحاتِ . ومَرِضَ مرةً بعضُ الصالحينَ فدخلَ عليهِ أصحابُهُ يَعُودُوْنَهُ فقالوا له كيفَ تجِدُكَ ؟ قال : مُوَقّراً بالذنوبِ فقالوا : هَلْ تَشْتَهي شيئاً ؟ قال : نعم ! أنْ يَمُنَّ عليَّ ربي بالتوبةِ عن كلِ ما يَكرَهُ قَبلَ موتي .

وقد قال العلماءُ ما مِثالُ المُسَوّفِ بالتوبةِ إلّا مِثالُ مَنْ احتاج الى قلْعَ شجرةٍ فرآها قَويةً لا تنقلعُ إلا بمشقةٍ شديدةٍ فقال : أؤخِرُها سنة ثُم أعودُ إليها وهو يعلمُ أنّ الشجرة كُلما بَقِيتْ ازدادتْ قوةً لرُسُوخِها وكلما طال عُمُرُهُ ازْدَادَ ضَعْفُه فلا حَماقةَ في الدنيا أعظمُ مِن حَماقتِهِ إذْ عَجزَ معَ قُوَّتِهِ عن مُقاومةِ ضعيفٍ فأخَذَ يَنْتَظِرُ الغَلَبَةَ عليه إذا ضَعُفَ هو في نفسِهِ وقوِيَ الضعيفُ .

قال ابنُ القيمِ رحمه اللّه : إذا أراد اللّهُ بعبدِهِ خيراً فَتَحَ لهُ أبوابَ

التوبةِ والندَمِ والانكِسارِ والذُلِ والافتقارِ والاستِعانَةِ بِهِ وصِدْقَ اللجأ اليهِ ودوامَ التضرُّعِ والدعاءِ والتقربِ اليهِ بما أمكنَ مِنَ الحسناتِ ما تكونُ تلكَ السيئةُ به سببَ رحمتِهِ حتى يقولَ عدُوُّ اللّهِ يا ليتَنِي تركتُهُ ولمْ أُوقِعْهُ وهذا معنى قولِ بعضِ السلفِ إنّ العبدَ ليَعْمَلُ الذنبَ يَدْخُلُ بِهِ الجنةَ ويَعملَ الحسنةَ يدخلُ بها النارَ قالوا : كيفَ ؟ قال : يعملُ الذنبَ فلا يزالُ نُصْبَ عينيهِ خائفاً منهُ مُشْفِقاً وَجلاً باكياً نادِماً مُسْتَحْيَاً مِنْ رَبِّهِ تعالى ناكِسَ الرأسِ بَينَ يدَيهِ مُنْكَسرَ القَلْبِ له فيكونُ ذلك الذنبُ أنفعَ له مِنْ طاعاتٍ كثيرةٍ بما ترتَّبَ عليه مِنْ هذه الأمورِ التي بها سعادةُ العبدِ وفلاحُهُ حتى يكونَ ذلك الذنبُ سبَبَ دخولِ الجنةِ .

ويَفْعَلُ الحَسَنَةَ فلا يَزَالُ يَمُنُّ بها على ربهِ ويَتَكَبَّرُ بها وَيَرَى نَفْسَهُ شيئاً ويُعجَبُ بها ويَسْتَطيْلُ بها ويقولُ فَعَلْتُ وفَعَلْتُ ، فيُورِثُهُ مِنَ العُجْبِ والكِبْرِ والفَخْرِ والاسْتِطالَةِ ما يكونُ سبَبَ هلاكِهِ .

فاذا أرادَ اللّهُ تعالى بهذا المسكينِ خيْراً ابْتَلاهُ بأمرٍ يَكْسِرُهُ به ويُذِلُ به عُنقَهُ ويُصَغِّرُ بهِ نَفْسَهُ عندَه ، وإذا أراد بهِ غيرَ ذلك خَلاَّهُ وعُجْبَهُ وكِبْرَهُ وهذا هو الخِذْلانُ المُوْجِبُ لِهَلاكِهِ فإنَّ العارفينَ كلَّهمْ مُجْمعون على أن التوفيقَ هو أنْ لا يَكِلَكَ اللّهُ تعالى إلى نفسِكَ ، والذلَّ أنْ يَكِلَكَ اللّهُ إلى نفسِكَ . انتهى .

يا مَنْ يُغِيْثُ الوَرَى مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا
إرْحَمْ عِباداً أَكُفَّ الفَقْرِ قَدْ بَسَطُوا
عَوَّدْتَهُمْ بَسْطَ أرْزَاقٍ بلا سَبَبٍ
سِوَى جَمِيلِ رَجَاءٍ نحوَهُ انْبَسَطُوا

وَعَـدْتَ بـالفَضْـلِ في وِرْدٍ وفي صَـدَرٍ
بـالجُودِ إنْ أَقْسَـطُوا والحِلْمِ إنْ قَسَطُوا
عَـوارِفُ ارْتَبَـطَتْ شُمُّ الأُنـوفِ بـهـا
وكُـلُّ صَـعْبٍ بقَيْـدِ الجُـوْدِ يَـرْتَبِطُ
يـا مَنْ تَعَـرّفَ بـالمَعـروفِ فـاعْتَـرَفَتْ
بِـجَـمّ إنْـعـامِـهِ الأطـرافُ والـوَسَطُ
وعـالِـمـاً بخَفِيَّاتِ الأُمُـورِ فـلا
وَهْـمٌ يَـجُـوزُ عـليـهِ لا ولا غَـلَطُ
عَبْـدٌ فَقِيـرٌ بِبَـابِ الجُـوْدِ مُنْكَسِـراً
مِـنْ شـأنِـهِ أنْ يُـوافي حِيْنَ يَـنْضَـغِطُ
مَـهْـمَـا أَتَـى لِـيَـمُـدَّ الكفَّ أخجَـلَهُ
قَـبَـائـحُ وخَـطايَـا أَمْـرُهـا فَـرَطُ
يـا واسعاً ضـاقَ خَطْوُ الخَلْقِ عنْ نِعَمٍ
منـه إذا خَـطَبُـوا في شكـرِهـا خَبَـطُوا
ونـاشـراً بِـيَـدِ الإجْـمـالِ رَحْـمَـتَـهُ
فـلَيْسَ يَلْحَـقُ منـه مُـسْـرِفـاً قَـنَطُ
إرْحَمْ عِبـاداً بضَنْـكِ العَيشِ مـالَهُمُ
غَيـرُ الـدُجْنّـةِ لُـحْفٌ والثّـرى بُـسُطُ
لَـكـنّـهـم مِـنْ ذُرَى عَلْيـاكَ فـي نَـمَطٍ
سَـامٍ رفِيـعِ الـذُرَى مـا فَـوقَـه نَمطُ
وَمَـنْ يَكُـنْ بـالـذي يَهـواهُ مُـجْتَـمِعـاً
فمـا يُبـالـي أقَـامَ الحَيُّ أَمْ شَحَـطُوا

نَحْنُ العَبِيْـدُ وأَنْتَ المَلْكُ لَـيْسَ سِـوَى
وكـلُ شَيءٍ يُـرَجَّى بَـعْـدَ ذا شَـطَطُ

اللهم أَلْهِمْنا القيامَ بحقِك ، وباركْ لنا في الحلالِ مِنْ رِزقِك ، ولا تفضحنا بين خلقك ، يا خيرَ مَنْ دعاه داعٍ وأفضلَ مَنْ رجاه راجٍ يا قاضِيَ الحاجاتِ ويا مجيبَ الدعواتِ هَبْ لنا ما سألناه وحَقّقْ رجاءَنا فيما تمنيناه وأمّلْناه يا مَنْ يملكُ حوائجَ السائلينَ ويعلمُ ما في ضَمائِرِ الصامِتين ، أذقْنا بَرْدَ عفوِك ، وحلاوة مغْفِرَتِك ، يا أرحمَ الراحمين وصلى اللّه على محمد وآله وصحبه أجمعين .

الفصل الخامس

وقال رحمه الله :

إعلَمْ أن صاحبَ البصيرةِ إذا صدرتْ منه الخطيئةُ فلهُ نَظَرٌ إلى أمور : أحدُها أنْ ينظرَ إلى أمرِ اللّهِ وَنَهْيِهِ فيُحْدِثَ له ذلك الاعترافَ بكونِهَا خطيئةً . والإقْرَارَ على نفسِه بالذَنْب . والثاني أنْ ينظرَ إلى الوعدِ والوعيدِ فيُحْدِثَ له ذِلك خوفاً وخشيةً تحمِلُهُ على التوبةِ . والثالثُ أنْ يَنْظُرَ إلى تَمْكِينِ اللهِ لَهُ مِنها وتَخْلِيَتِهِ بَيْنَه وَبَيْنَها وَتَقْدِيرِها عليه وأنه لو شاء لِعَصَمَهُ منها فَيَحْدثَ له ذلك أنواعاً مِنَ المعرفةِ باللهِ وأسمائِهِ وصِفاتِهِ وحِكْمَتِهِ ورَحْمَتِهِ وعَفوِهِ وحِلمِهِ وكرمِهِ وتوجبُ له هذه المعرفةُ عُبوديةً بهذه الأسماءِ لا تحصُلُ بدُونِ لَوَازِمِها البَتَّةَ وَيَعْلَمُ ارتباطَ الخلق والأمرِ والجزاءِ والوعْدِ والوعيدِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأنَّ ذلك بموجبِ الأسماءِ والصفاتِ وأثرها في الوجودِ وأنَّ كلَ اسمٍ وصِفةٍ مُقْتَضٍ لأثرِهِ وَمُوْجِبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِهِ لا بُدَّ منه .

وَهَذا المَشْهَدُ يُطْلِعُهُ على رِياضٍ مُوْنِقَةً مِن المَعَارِفِ والإيمانِ وأسْرَارِ القَدَرِ والحِكمَةِ يَضِيْقُ عن التعبيرِ عنها نِطاقُ الكَلِمِ فَمِنْ بعضِها ما ذكره الشيخُ « يُريدُ صاحِبَ المنازلِ » : أنْ يَعْرِفَ العبدُ عِزَّتَهُ في قَضائِهِ

وَهُوَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ العَزِيْزُ الذي يَقْضِي بما يشاءُ وأنه لِكمالِ عزتِهِ حَكَمَ على العبدِ وقضى عليهِ بأنْ قلبَ قَلْبَهُ وصرَّفَ إرَادَتَه على ما يَشَاءُ وحالَ بينَ العَبْدِ وقلبِهِ وَجَعَلَهُ مُـرِيْـدَاً شائِياً لِمَا شَاءَ مِنْه العَزِيزُ الحَكِيمُ وهذا مِنْ كَمالِ العِزَّةِ ، إِذْ لا يَقْدِرُ على ذَلِكَ إلَّا اللهُ وغايةُ المَخْلُوقِ أَنْ يَتَصَرَّفَ في بَدَنِكَ وظاهِرِكَ ، وأمَّا جَعْلُك مُرِيداً شائياً لِمَا يَشَاؤُهُ مِنْكَ وَيُرِيْدُه فلا يَقدَرُ عليهِ إلا ذُوْ العِزَّةِ البَاهِرَةِ .

فإذا عرف العبدُ عِزَّ سيدِهِ ولاحظَ بقلبِهِ وتمكَّنَ شهودُهُ مِنهُ كان الاشتغالُ بهِ عن ذُلِّ المَعصيةِ أولى بهِ وأنفعَ له لِأَنَّهُ يَصْيرُ مَعَ اللهِ لا مَعَ نَفْسِهِ ، ومِنْ مَعْرِفةِ عِزتِهِ في قَضَائِهِ أنْ يَعْرِفَ أنه مُدَبَّر مَقْهُورٌ ناصيتُهُ بِيدِ غيرِهِ لا عِصْمَةَ لَه إلَّا بِعِصْمَتِهِ ولا تَوفيقَ له إلَّا بِمَعُوْنَتِهِ فَهُوَ ذَليلٌ حقيرٌ في قبضةِ عَزيزٍ حميدٍ .

وَمِنْ شُهودِ عزَّتِهِ في قَضَائِهِ أنْ يَشْهَدَ أنَّ الكَمالَ والحَمْدَ والغِنَى التامَّ والعزةَ كلهَا لِلهِ وأنَّ العَبْدَ نَفْسَهُ أَوْلى بالتقصيرِ والذمِّ والعَيبِ والظُّلمِ والحَاجةِ وكُلَّمَا ازدادَ شُهودُهُ لِذِلّهِ وَنَقْصِهِ وَعَيْبِهِ وَفَقْرِهِ ازدادَ شهودُهُ لِعِزَّةِ اللهِ وَكَمالِهِ وَحَمْدِهِ وَغِنَاهُ وكذلك بالعكسِ فنقْصُ الذنْبِ وذِلتُهُ يُطْلِعُهُ على مَشْهَدِ العِزّةِ .

ومنها أن العبدَ لا يُريدُ مَعْصِيَةَ مَوْلَاهُ مِنْ حَيثُ هِيَ مَعْصِيَةٌ فاذا شَهِدَ جَرَيَانَ الحُكْمِ وَجَعْلَهُ فَاعلاً لِمَا هُوَ مُختارٌ ، له مُرِيداً بإرَادتِهِ وَمَشيئتِهِ واختيارِهِ فكأنَهُ مُخْتَارٌ غَيْرُ مُخْتَارٍ مُرِيْدٌ شَاءٍ غيرُ شَاءٍ فهذا يَشْهَدُ عِزةَ اللهِ وعَظَمَتَهُ وكَمَالَ قُدْرَتِهِ .

ومِنْ ذلك أن يَعرفَ بِرَّهُ سبحانَه في سَتْرِهِ عليهِ حالَ ارتكابِ المعصيةِ معَ كمالِ رؤيتِهِ لهُ ولو شآء لَفَضَحَهُ بينَ خَلْقِهِ فَحَذِرُوه وهذا مِن كمالِ بِرِّهِ ومِنْ أسمائِه البَرُّ ،وهذا البرُ مِنْ سيدِهِ كان عن كمالِ غِنَاهُ وَكمالِ فقْرِ العبدِ إليهِ فيشتغلُ بمطالعَةِ هذه المِنةَ وَمُشَاهَدَةِ هَذا البِّرِ والاحسانِ والكرم فيَذهَلُ عن ذِكرِ الخَطِيْئةِ فَيَبْقَى مَعَ اللهِ سبحانه وذلك أَنْفَعُ لهُ مِن الاشتغالِ بجنايَتِهِ وَشُهُوْدِ ذُلِ الْمَعْصِيَةِ فإنَّ الاشْتِغَالَ باللهِ والغَفْلَةَ عَمَّا سِوَاهُ هُوَ المَطْلَبُ الأعلى والمقصَد الأسْنَى .

ومنها شُهودُ حِلْمِ اللهِ سبحانه وتعالى في إمْهَالِ رَاكِبِ الخَطِيْئَةِ مُطْلقاً ولو شآءَ لَعاجَلَه بالعُقُوبَةِ ولكِنَهُ الحَلِيْمُ الذي لا يَعْجَلُ فَيُحْدِثُ له ذلك مَعْرِفةَ رَبِهِ سبحانه بآسْمِهِ الحليمِ ومُشَاهَدَة صفةِ الحِلْمِ والتَّعَبُدِ بهذا الاسمِ . والحكمةُ والمصلحةُ الحاصلةُ من ذلك بتوسّطِ الذَنْبِ أحبُّ الى اللهِ وأصلحُ للعبدِ وأنفِعُ من فوْتِها ، ووجودُ الملزومِ بدونِ لازمِهِ مُمْتَنِعٌ ومنها مَعْرِفَةُ العَبْدِ كَرَمَ رَبِهِ في قُبولِ العذرِ منه إذا اعتذرَ إليهِ بنحْوِ ما تقدمَ مِن الاعتذارِ لا بالقَدَرِ فإنه مخاصَمَتُه وَمُحَاجّة .

ومنها أنْ يَشهدَ فضلَهُ في مَغفرتِهِ فإن المَغْفِرَةَ فضْلٌ مِن اللهِ وإلا فَلَو أَخَذَ بمحْض حَقّهِ كان عادِلاً مَحْمُوْداً .

وإِنَّما عَفْوُهُ بِفَضْلِهِ لا باسْتِحْقاقِكَ فَيُوجبُ ذَلِكَ شُكراً لهُ وَمحَبةً وإنابَةً إليه وفرحاً وابتهاجاً بِهِ ومعرِفَةً له بِاسمِهِ الغفارِ وَمُشَاهَدَةً لِهَذِهِ الصِّفَةِ وَتَعَبُّداً بِمُقتَضاها وذلكَ أَكْمَلُ في العُبودِيةِ والمَحبَّةِ والمَعْرِفَةِ .

ومنها أنْ يُكْمِلَ لِعَبدِهِ مَرْتَبَةَ الذُلِ والخُضوعِ والانكسارِ بَينَ يَديهِ والافتقارِ اليه .

ومنها أنَّ أَسْمَاءَ الربِ تَقْتَضِي آثارَهـا اقْتضاءَ الأَسْبَـابِ التَّامَّـةِ لِمُسبَّباتِها فاسمُ السميعِ البصيرِ يَقْتَضِي مَسْمُوعاً وَمُبْصَراً ، واسْمُ الرَّزَّاقِ يَقْتَضِي مَرْزُوْقاً واسْمُ الرحِيمِ يَقْتَضِي مَرْحُوْماً وكذلك أسماء « الغَفورِ العَفُوِّ والتوابِ والحَليم » يَقْتَضِي مَنْ يَغْفِرُ له وَيَتُوْبُ عليه وَيَعْفو ويَحْلمُ وَيَسْتَحِيْلُ تَعْطِيْلُ هَذِهِ الأسْماءِ والصفاتِ إذْ هِيَ أسْمَاءُ حُسْنَى وَصِفَاتُ كَمَالٍ وَنُعوتُ جَلالٍ وأَفعالُ حِكمةٍ وإحسانٍ وَجُودٍ فلا بدّ مِن ظهورِ آثارِها في العالَم .

وإلى هذا أشار أعلمُ الخلقِ باللهِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ حيثُ يَقولُ لو « لم تُذْنبوا لذهب الله بكمْ وَلَجاءَ بقومٍ يُذنِبُونَ ثم يَسْتَغْفِرُوْنَ فَيَغْفِرُ لهم » وأَنْتَ إذا فرضْتَ الحيوانَ بجُمْلَتِهِ مَعْدُوْماً فَمَنْ يَرْزُقُ الرزاقُ سبحانهُ وإذا فَرَضْتَ المَعْصِيَةَ والخَطِيْئَةَ مُنْتَفِيَةً عن العالَم فلِمَنْ يغفرُ؟ وعمَّنْ يَعْفُو؟ وعلى مَن يتوبُ وَيَحْلَم ؟ وإذا فرضْتَ الفاقات كُلَها قد سُدَّتْ والعبيدَ أغنياءَ مُعَافَيْنَ فأَيْنَ السُؤآلُ والتَّضَرُّعُ والابْتِهَالُ والإِجَابةُ وَشُهودُ المنةِ والتخصيصُ بالانعام والاكرامِ فسُبْحانَ مَنْ تَعرَّف إلى خَلقِهِ بجميعِ أنواعِ التعرّفاتِ وَدَلّهم عليه بأنواعِ الدلالاتِ انتهى .

شعراً :

حَتَّى مَتَى تُسْقَى النُفوسُ بكأسِها
رَيْبَ المَنونِ وأَنْتَ لاهٍ تَلْعَبُ
عَجَباً لِأَمْنِكَ والحَيَاةُ قصيرةٌ
وَبِفَقْدِ إلْفٍ لا تَزالُ تُرَوَّعُ

أَفَقَدْ رَضِيْتَ بأنْ تُعلّلَ بالمُنَى
وإلى المَنِيَّةِ كُلَّ يومٍ تُدْفَعُ
لا تَخْدعَنَّكَ بَعْدَ طولِ تجارُبٍ
دُنيا تَغُرُّ بوصْلِهَا وسَتُقْطَعُ
أَحْلامُ نَومٍ أو كَظِلٍّ زَايِلٍ
إنّ اللبيبَ بِمِثْلِها لا يُخْدَعُ
وَتَزَوَّدَنَّ لِيَومِ فَقْرِكَ دائماً
أَلِغَيْرِ نَفْسِكَ لا أَبَا لَكَ تَجْمَعُ

اللهم أحْينا في الدنيا مؤمنينَ طائعينَ وتوفَّنا مسلمينَ تائبينَ واغفِرْ لنا ولوالِدِيْنا ولجميعِ المسلمينَ برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

الفصل السادس

وقالَ رَحِمَهُ اللهُ لِلتَوْبةِ المقْبولةِ علاماتٌ :

مِنْهَا أنْ يكونَ بعدَ التوبةِ خيراً مِمّا قبلَها ومنها أنَّه لا يزالُ الخوفُ مُصَاحِباً لهُ لا يأمنُ مكرَ اللهِ طرْفةَ عيْنٍ فخوفُهُ مُسْتَمِرٌ إلى أنْ يَسْمَعَ قولَ الرُسُلِ لِقَبْضِ رُوْحِهِ (٤١) : ٣٠ ﴿أنْ لا تخافُوا ولا تَحْزَنُوا وأبْشِروا بالجنةِ التي كُنتُمْ توعَدون﴾ فهُنا يَزُوْلُ الخوفُ .

ومنها انْخِلاَعُ القَلْبِ وَتقطُّعُهُ نَدَماً وَخَوْفاً وهذا على قَدْرِ عِظَمِ الجِنَايةِ وَصِغَرِهَا . وهذا تأويلُ ابنُ عُيَيْنَةَ لقولِهِ تعالى (٩ : ١١٠) ﴿لا يزَآلُ بُنْيَانُهُم الذي بَنَوْا رَيبَةً في قُلُوبهم إلاَّ أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهم﴾ . قال : تَقْطُعُها بالتَّوْبَةِ . وَلاَ رَيْبَ أنَّ الخَوفَ الشدِيْدَ مِنَ العُقوبةِ العَظيمَةِ يُوْجِبُ انْصِداعَ القَلْبِ وانْخِلاعَهُ .

وهذا هُوَ تَقَطُّعُهُ وهذا حَقِيْقَةُ التَّوْبَةِ لأنَهُ يَنْقَطِعُ قَلْبُهُ حَسْرَةً على ما فَرطَ منهُ وَخَوْفاً مِنْ سُوءِ عاقبَتِهِ فمَنْ لم يَنْقَطِعْ قَلْبُهُ في الدنيا على مَا فَرطَ حَسْرةً وَخَوْفاً تَقَطَّعَ في الآخِرَةِ إذا حُقَّتِ الحقَائِقُ وعايَنَ ثَوابَ المُطِيْعينَ وَعِقابَ العاصِينَ فلا بُدَّ مِنْ تَقَطّعِ القَلْبِ إما في الدُنيا وإما في الآخرة .

ومِنْ مُوْجِباتِ التوبةِ الصحيحةِ أَيْضاً كَسْرَةٌ خاصَّةٌ تَحْصُلُ لِلْقَلْبِ لاَ يَشْبِهُهَا شَيءٌ ، ولا تكونُ لِغَيْرِ المُذْنِبِ لا تَحْصُلُ بجُوعٍ ولا رِياضَةٍ ولا حُبٍ مُجرَّدٍ وإِنَّمَا هِيَ أَمْرٌ ، وَرَاءَ هذا كُلِهِ ، تُكَسِّرُ القَلْبَ بَيْنَ يَدَي الرَّبِ كَسْرةً تامةً قد أَحَاطَتْ بهِ مِنْ جَمِيْعِ جِهَاتِهِ وأَلقَتْهُ بين يَدَي رَبِهِ طَرِيْحاً ذَلِيْلاً خَاشِعاً كَحَالِ عَبْدٍ جَانٍ أَبَقَ مِنْ سَيِّدِهِ فأُخِذَ فأُحضِرَ بينَ يَدَيْهِ ولم يَجِدْ مَنْ يُنجِيْهِ مِن سَطْوتِهِ وَلَم يَجدْ منه بُداً ولا عنه غَنَاءً ولا مِنهُ مَهْرَباً وَعَلِمَ أنّ حَيَاتَهُ وَسعادَتَه وفلاحَه ونجاحَه في رِضَاهُ عنهُ ، وقدْ عَلِمَ إحاطةَ سَيِّدِهِ بِتَفَاصِيْلِ جِنَايَاتِهِ ، هذا مَعَ حُبهِ لِسَيِّدِهِ وشِدَّةِ حاجتِهِ إليهِ وعِلْمِهِ بِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ وَذُلِهِ وَقُوَّةِ سيدِهِ وَعِزَّتِهِ . فَيَجْتَمِعُ في هَذِه الأَحْوَالِ كَسْرَةٌ وذُلٌ وَخُضُوعٌ ما أنفعَهَا لِلْعَبدِ وما أَجْدَى عائِدَتُهَا عليهِ وما أعظمَ جبْرُهُ بها وما أَقْرَبَهُ بها مِن سَيِّدِهِ فليْسَ شَيءٌ أَحبَّ إلى سَيِّدِهِ مِن هذِهِ الكسْرةِ والخُضوعِ والتذللِ والإِخْباتِ والانطِراحِ بَيْنَ يَدَيْهِ والاسْتِسْلامِ لَهُ .

فلِلهِ مَا أَحْلَى قَوْلَهُ في هذِهِ الحَالِ أَسْأَلُكَ بعِزِّكَ وَذُلِي إلاَّ رَحِمْتَنِي . أسألك بقُوتِكَ وَضعْفِي ، وبِغِنَاكَ عَنّيْ وَفَقْرِي إليكَ هذِهِ ناصِيَتِي الكاذبةُ الخاطئةُ بينَ يَدَيْكَ ، عَبِيْدُكَ سِوَايَ كثيرٌ وَليسَ لي سَيِّدٌ سِوَاكَ لا مَلجأً ولا مَنْجَى مِنْكَ إلا إليكَ ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلةَ المِسكينِ ، وأَبْتَهِلُ إليكَ ابْتِهَالَ الخَاضِعِ الذليل ، وأدعُوكَ دُعاءَ الخائِفِ الضّرِيْرِ ، سُؤالَ مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ ، وَرَغِمَ لَكَ أنفُه ، وفاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ ، وذَلَّ لَكَ قَلْبُهُ .

فَهَذَا وأمثالُه مِنْ آثَارِ التوبةِ المَقْبُوْلَةِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ في قَلْبِهِ فَلْيَتَّهِمْ تَوْبَتَهِ وَلْيَرْجِعْ إلى تَصْحِيْحِها فَمَا أَصْعَبَ التَوبةَ الصَّحِيْحَةَ بالحَقِيْقَةِ

وَمَا أَسْهَلَها باللسانِ والدَّعْوَى ، وَمَا عَالجَ الصَّادِقُ بِشيءٍ أشَدَّ عَلَيهِ مِنَ التَّوْبَةِ الخالِصةِ الصَّادِقةِ ولا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَا باللهِ .

وَحَقائِقُ التَّوْبَةِ ثَلَاثَةٌ : وَعَدَّ منها اتْهامَ التوبةِ قال : لِأنها حقُ عليهِ لا يَتَيَقّنُ أنه أدَّى هذا الحقَ على الوجهِ المطلوبِ مِنْهُ الذي يَنْبَغِي لهُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ عليه ، فيَخافُ أنه ما وفَّاها حَقَها وأنها لم تُقبلْ منه وأنه لَمْ يبذلْ جُهدَه في صِحَّتِها ، وأنها تَوْبَةُ عِلّةٍ وهو لا يَشْعُرُ بها كَتَوْبةِ أرْبَابِ الحَوَائِجِ والإفلاسِ والمُحَافِظِينَ على حَاجَاتِهِم وَمَنازِلِهِمْ بينَ النّاسِ .

أَوْ أَنَّهُ تابَ مُحَافَظَةً على حَالِهِ فَتَابَ لِلْحَالِ لَا خَوْفاً مِنْ ذِي الجَلالِ ، أو أنه تَابَ طَلَباً لِلرَّاحَةِ مِنَ الكدِّ في تَحْصِيلِ الذنْبِ أو اتِّقاءَ ما يَخافُهُ على عِرْضِهِ وَمَالِهِ وَمَنْصِبِهِ أو لِضَعْفِ داعِي المعصيةِ في قلبِهِ وَخُمُودِ نارِ شَهْوتِهِ أو لِمُنافاةِ المعصِيَةِ لِمَا يَطْلُبُهُ من العلمِ والرزقِ وَنَحْوِ ذلك مِنَ العِلَلِ التي تَقْدَحُ في كونِ التَّوْبةِ خَوْفاً مِنَ اللهِ وتعظيماً لَهُ ولِحُرُمَاتِهِ وإجْلالاً لَهُ وَخَشْيَةً مِنْ سُقُوطِ المنْزِلةِ عندَهُ وعن البُعْدِ والطردِ عَنْهُ والحِجابِ عن رُؤْيةِ وَجْهِهِ في الدارِ الآخِرَةِ فَهَذِهِ التوْبَةُ لَوْنٌ وَتَوْبَةُ أَصحابِ العِللِ لَوْن قال :

ومِنَ اتّهامِ التَوْبةِ ضَعْفُ العَزِيْمَةِ وَالْتِفاتُ القَلْب إلى الذنْبِ الفَيْنَةَ بعدَ الفينةِ وتذكُّرُ حَلاوَةِ مُواقعَتِهِ . ومِنَ اتّهامِ التَوْبَةِ طُمَأْنينتُهُ وَوُثوقُهُ مِنْ نفْسِهِ بأنَهُ قدْ تابَ حتى كأنهُ قد أُعْطِيَ مَنْشُوراً بالأمانِ فهَذِهِ مِن عَلاماتِ التُهْمَةِ .

ومِنْ عَلاماتِها جُمُودُ العَيْنِ واسْتِمْرَارُ الغَفْلَةِ وأنْ لَا يَسْتَحْدَثَ بَعْدَ التوبةِ أَعْمَالاً صَالِحةً لَمْ تَكُنْ له قَبْلَ الخَطِيئةِ .

« موعظة »

كَتَبَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ إلى وَلَدِهِ الحُسَيْنِ مِنْ عبدِ اللهِ عَليٍّ أميرِ المؤمنينَ الوَالِدِ الفَانِي الذَّامِّ للدُّنْيَا السَّاكِنِ مَسَاكِنَ المَوْتَى ، إلى الوَلَدِ المُؤَمِّلِ مَا لاَ يُدْرَكُ السالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ، عُرْضَةُ الأسْقامِ وَرَهينَةُ الأيامِ وأَسِيْرُ المنايا وقرِينُ الرَّزَايَا وَصَرِيْعُ الشَهَوَاتِ وَنُصُبَ الآفاتِ وَخَلِيْفَةُ الأمْواتِ . يا بُنيَّ إنْ بَقِيْتُ أو فَنِيْتُ فإني أُوصِيْكَ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجلّ وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكرِهِ والاْعْتِصَامِ بحبْلِهِ فإنّ اللهَ يَقُولُ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تفرَّقوا واذكُرُوا نِعْمةَ اللهِ عليكم الآية وأيُّ سَبَبٍ يا بُنَيّ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَك وَبيْنَ اللهِ عزَّ وجلّ أَحْيِ قلبَكَ بالمَوْعِظَةِ وَنَوِّرْهُ بالحِكْمَةِ وَقَوِّهِ بالزُهْدِ وَذَلِّلْهُ بالمَوْتِ وَقَرِّرْهُ بالفَنَاءِ وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَهْرِ وَتَقَلُّبَ اللَيَالي وآعْرِضْ عليهِ أَخْبَارَ الماضِينَ وَسِرْ في دِيارِهِمْ وآثارِهِمْ فانظُرْ مَا فَعَلُوا وأَيْنَ حَلُّوا فإنَكَ تجِدُهُمْ قَدِ آنْتَقَلُوا مِنْ دارِ الغُرورِ وَنزَلُوا دارَ الغُرْبَةِ وكأنكَ عنْ قَليلٍ يا بُنَي قد صِرْتَ كأحَدِهِمْ فبعْ دُنْيَاكَ بآخِرَتِكَ وَلاَ تبِعْ آخِرَتك بدُنياكَ وَدَعِ القَوْلَ فِيمَا لا تَعْرِفُ والأمْرَ فِيمَا لا تُكَلَّفُ وَمُرْ بالمعروفِ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ وَكُنْ مِن أَهْلِهِ وأَنْكِرِ المُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ وَخُضْ الغَمَرَاتِ إلى الحَقِّ وَلاَ تَأخُذْكَ في اللهِ لَوْمَةُ لائِمَ واحْفَظْ وَصِيَّتي فلا خَيْرَ في عِلْمٍ لا ينفَعُ وَاعْلَمْ أنه لا غِنَى بك عن حُسْنِ الارتِيَادِ مَعَ بَلاغِكَ مِنَ الزادِ فإنْ أَصبْتَ مِنْ أهلِ الفَاقَةِ مَنْ يَحْتَمِلُ عنْكَ زَادَكَ فيُوَافِيكَ بِهِ في مَعَادِكَ فاغْتَنِمْهُ فانَّ أمامَكَ عقبةً كَؤُوداً لا يُجاوزُها إلا أخفُّ الناسِ حِمْلاً وأَجْمِلْ في الطَلَبِ وأَحْسِنْ في المَكْسَبِ فَرُبَّ طَلَبٍ قدْ جَرَّ إلى حَرْبٍ وإنَّما المَحْروبُ مَنْ حُرِبَ دِينَهُ

والمَسلوبُ مَنْ سُلِبَ يَقينَه واْعْلَمْ أنهُ لا غِنَى يَعْدلُ الجَنةَ وَلاَ فقرَ يَعْدِلُ النارَ والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ .

قال الناظم رحمه الله :

وكُنْ بينَ خَوفٍ والرَّجَا عاملاً لِمَا
تَخَافُ وَلاَ تَقْنطْ وُثُوقاً بِمَوْعِدِ

تَذَكَّرْ ذُنوباً قَدْ مَضَيْنِ وَتُبْ لَهَا
وَتُبْ مُطْلقاً مَعْ فَقْدِ عِلْمِ التَّعَمُّدِ

وبادِرْ مَتَاباً قَبْلَ يُغْلَقُ بابُه
وَتُطوَى على الأعمالِ صُحْفُ التزَوُّدِ

فحِيْنَئِذٍ لا يَنْفَعُ المَرْءَ تَوْبَةٌ
إذا عايَنَ الأَمْلاكَ أو غَرْغَرَ الصّدِي

ولا تَجْعَلِ الآمَالَ حِصْناً فَإنَّها
سَرَابٌ يَغُرُّ الغافلَ الجاهلَ الصَّدِي

فَبَيْنَا هُوْ مُغْتَراً يُفَاجِئُهُ الرَّدَى
فَيُصْبحُ نَدماناً يَعَضُّ على اليَدِ

وَتَوْبَةُ حقِّ اللهِ يَسْتَغْفرُ الفَتى
وَيَندمُ يَنوي لا يَعودُ إلى الرَّدِي

وإنْ كانَ مِمَّا يُوجِبُ الحدَّ ظاهِراً
فسِتْرُكَ أَوْلَى مِنْ مُقِرٍّ لِيُحْدَدِ

وإن تابَ مِنْ غَصْبٍ فيُشرَطُ رَدُّهُ
وَمَعْ عَجْزِهِ يَنْوي مَتَى وَاتَ يَرْدُدِ

وَمِنْ حَـدِّ قَـذْفٍ أو قِصـاصٍ مَتَـابُـهُ
بتَمْكِيْنِـهِ مِنْ نَفْسِـهِ مَـعَ مَـا ٱبتُـدِي
وَتَـحْـلِيْـلُ مَـظْلُوم مَـتَـابٌ لِـنَـادِمٍ
تَـدَارُكُ عُـدوانِ الـلِسَـانِ أَوِ الـيَـدِ

اللهم يا مَنْ لا تَضُرُّهُ المعصيةُ ولا تنفعُهُ الطاعَةُ أيقظْنَا مِنْ نَومِ الغفلةِ وَنَبِّهْنا لاغتِنَامِ أوقاتِ المُهْلَةِ وَوَفِّقْنَا لِمَصَالِحِنَا واعْصِمْنا من قبائِحِنَا ولا تؤاخِذْنا بما انْطَوَتْ عليهِ ضَمائِرُنا وأَكَنَّتْهُ سَرائِرُنا مِنْ أنواعِ القَبَائِحِ والمعائِبِ التي تَعْلَمُها مِنا ، وامنُنْ علينا يا مولانا بتوبةٍ تمحو بها عنا كُلَ ذَنْبٍ واغفِرْ لنا ولـوالدِيْنـا ولجميعِ المسلمين الأحيـاءِ منهم والميتينَ بـرحمَتِك يـا أرحمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمـدٍ وآلِهِ وصحْبِـهِ أجمعين .

الفصل السابع

فيما يَنْبَغِي التَّنبيهُ عليه والتحذيرُ مِن ٱرْتِكابِهِ .

قال ابنُ الجوزي رحمه الله : المسلمون المُغترّون طبقاتٌ :

الطبقةُ الأولى (طبقة العلماء) : وهُمْ قومٌ أحْكَمُوا العِلْمَ وَتَرَكُوا العملَ بِهِ ظناً منهُم أنَّهُمْ قد حَفِظوا الشريْعَةَ فَلَهُم عندَ اللهِ قَدْرٌ ، ولو حَقَّقُوْا النَّظَرَ ، لعَلِمُوا أنّ العِلْمَ لا يُرادُ إلا لِلْعَمَلِ وكأنّهم يَزِيْدُوْنَ مِنَ الحُجّةِ عليهِم ومنهم قومٌ أحْكموا العِلْمَ والعَمَلَ إلاَ أنَهُمْ لم يُصْلِحُوا الصِّفاتِ البَاطِنةَ المَذمُوْمَةَ مِنَ الكِبْرِ والحَسَدِ والرِّياءِ ولَمْ يَدْرُوا أنَّ هَذِهِ شُعَلٌ تَعْمَلُ في بَيْتِ القَلبِ فتُحْرِقُ بَوَاطِنَ المَعْرِفِةِ .

قُلْتُ وَهؤلآءِ كَمَريضٍ ظَهَرَ بهِ جُرُوْحٌ أَصْلُها في البَاطِنِ فأمَرَ الطبيبُ مَنْ بِهِ ذلكَ أنْ يَغْسِلَ الظّاهرَ بِدَوَاءٍ وأمَرَهُ بشُرْبِ دَواءٍ آخرَ لِمَا نَشأَ عنه الظاهرُ فاسْتَعْمَلَ ما لِلظّاهِرِ وَتَرَكَ ما لِلْبَاطِنِ فأزال مؤقّتاً ما بظاهِرِه وأمَّا مَا في باطِنِهِ فَعَلَى حَالِهِ ، فَلَوْ شَرِبَ ما لِلْباطنِ مِنَ الدَّواءِ بَرِىءَ الظاهرُ إذا أَرادَ اللهُ واسْتراحَ ظاهِرُهُ وبَاطنُه فكذلك الذنوبُ والمعاصِي إذا اخْتَفَتْ في القلبِ ظهرَ أثرُها على جَوَارِحِ الانسانِ .

ومِن العُلَماءِ قومٌ سَلِمُوا مِنْ هذِهِ الآفاتِ ، لَكِنَّهم في خِدْمةِ الهَوَى مِنْ حيثُ لا يعلمون فهم يُصَنِّفون وَيَتَكَلَّمُون ومُرادُهم ذِكْرُهم بذلكَ وَمَدْحُهم وَكِثْرَةُ اتباعِهِم وهذهِ الآفَةُ مِن خَبَايَا النفوسِ لا يَفْطِنُ لها إلا الأكياسُ مِن الناسِ .

الطبقة الثانية (طبقةُ العُبَّاد) : فمنهم مَن حَققوا التَّعبُّدَ إلا أنه يَرى نفسَهُ فهو مَغرورٌ بذلكَ ومنهم مَن ترَكَ كثيراً مِنَ الفَرائضِ شُغْلاً بالنَّوافِلِ فَمِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُهُ الوَسْواسُ في نِيَّـةِ الصلاةِ ثم يَتْرُكُ قَلْبَه في باقِيها يُسْرَحُ في الغَفَلاتِ،ومنهم مَن يُكْثِرُ التِلَاوَةَ ولا يعملُ بما يَتْلو، ومنهم مَنْ يصومُ ولا يتحفَّظُ مِنْ غَيْبتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يخرجُ الى الحجِّ ولا يخرجُ من المظالِمِ ، ولا يَنْظُرُ في نَفَقتِهِ ، ومنهم مَنْ يجاورُ بمكةَ وَيَنْسَى الحُرمَة ومنهم مَنْ يأمرُ بالمعروفِ وَينْسَى نفسَه .

ومنهم مَنْ يَزْهَدُ في المالِ وهو راغبٌ في الرياسةِ بالزُهْدِ . ومنهم مَنْ يتخلقُ بأخلاقِ الفقراءِ في صُوَرِ ثيابِهِمْ وَمُرَقَّعَاتِهِمْ وَيتْرُك أخلاقَهُم الباطِنَة ، فيشبعُ من الشهواتِ ، وينامُ الليلَ ولا يعرفُ واجباتِ الشرْعِ ، قلتُ وهؤلاءِ غرورُهم عظيمٌ كما قال بعضُ العلماءِ ، لأنهمْ يظنون أنهم يُحِبون في اللهِ ورسولِه وما قَدِروا على تحقيق دقائق الإخلاصِ إلا وهم مخلصون ، ولا وَقَفوا على خبايا النفسِ الا وهم مُنَزَهون ، وهم أَحَبُّ في الدنيا مِنْ كل أحد وَيُظهرون الزهدَ في الدنيا لشدةِ حِرْصِهِم عليها وَقوةِ رغبتِهِمْ فيها .

يَحُثُّون على الاخلاصِ وهم غيرُ مخلصينَ وَيُظْهِرونَ الدُعاءَ إلى اللهِ وهمْ منه فارُّونَ وَيُخَوِّفون باللهِ وهُمْ منه آمِنون . ويُذَكِّرون باللهِ وهم

له ناسُون ، ويحُثُون على التمسكِ بالسنةِ بالدقيقِ والجَليلِ وهم لها نابِذُون وَيَذمّون الصفاتِ المذمومةَ وهم بها مُتَّصِفونَ ، وكأنه لَمْ يَطرُقْ أسْماعَهُمْ قولُهُ تعالى ﴿ أتأمرون الناسَ بالبِرِّ وَتَنسَوْن أنفسَكُم وأنتم تَتْلون الكتابَ أفلا تعقلون ﴾ .

وقولُه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ، كَبُرَ مقْتاً عندَ اللهِ أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ . وقولُهُ تعالى حكايةً عمَّا قال شُعيبُ ﴿ وما أُريدُ أنْ أُخالِفَكُم إلى ما أنْهاكُم عنه ﴾ وَوَرَدَ عن ابنِ عباسٍ أنه جاءه رجلٌ فقال : إني أُريد أن آمُرَ بالمعروفِ وأنهَى عن المُنْكَر . قال أَبَلَغْتَ ذلك ؟ قال : أرجو . قال : إنْ لَمْ تخشَ أن تَفْتَضِحَ بثلاثِ آياتٍ من كتابِ اللهِ فافْعَلْ يشيرُ ابنُ عباسٍ الى الآياتِ المتقدمةِ .

الطبقةُ الثالِثةُ : « أَرْبابُ الأموالِ » فَمِنْهم قومٌ يَحْرِصونَ على بناءِ المساجدِ والمْدَارسِ وَيَكْتُبونَ أَسْمَاءَهُم عليها لِتَخْلِيْدِ ذِكْرهِمْ وَمَنْ أرادَ وجهَ اللهِ لَمْ يُبالِ بِذكْرِ الخَلْقِ وهؤلآء قَال بعضُ العلماءِ : إنهم اغْتَرُّوا مِن وَجْهَيْن : أحَدُهُما أَنّهم اكْتَسَبوها مِنَ الظُلْمِ والشُبُهاتِ والـرُشَاءِ والجِهَاتِ المَحْظُورةِ فهؤلآءِ تَعَرَّضُوا لِسَخَطِ اللهِ في كَسْبِها فإذا عَصَوُا اللهَ في كَسْبِها فالواجِبُ عليهِمْ التَوْبةُ وَرَدُّ الأموالِ إلى أربابها إنْ كَانُوا أحْيَاءً وإلى وَرَثَتِهِمْ إنْ كانُوا أمْوَاتاً ، وإنْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ وَرَثَةٌ فالواجِبُ عليهمْ أَنْ يَصْرِفُوها في أهمِ المَصَالِحِ وَرُبما يكُونُ الأهَمُّ تَفرِقَتَها على المساكينِ .

والوجهُ الثاني : أَنَّهمُ يَظُنونَ بأنفُسِهِمْ الإخْلاصَ وَقَصْدَ الخَيرِ في الانفاقِ وعُلوِّ الأبْنِيَة . ولو كُلِّفَ واحدٌ منهم أَنْ يُنْفِقَ ديناراً على مِسكينٍ لَم تَسْمَحْ نَفْسُهُ بذلك ، لأِنّ حُبَّ المدْحِ والثناءِ مُسْتَكِنٌّ في باطِنِه .

ومنهُمْ قَومٌ يَتصَدَّقُونَ ولكنْ في المَحَافِلِ وَيُعطُونَ مَنْ عادتُهُ الشُكرُ وافشاءُ المعروفِ .

ومنهم مَنْ يُكْثِرُ الحَجَّ وَرُبما تركَ جِيرانَهُ جياعاً .

ومنهم قومٌ يَجْمَعُونَ المالَ وَيَبخَلونَ بإخراجِهِ ، ثم يَشْتَغِلُونَ بالعِبادات البَدَنِيَّةِ التي لا تحتاجُ إلى نفقةٍ كالصيامِ والصلاةِ ، ولا يَدْرونَ أنَّ جِهادَ النفسِ في البخلِ المُهلِكِ أوْلى .

شعراً :

لَقَدْ خابَ مَنْ غَرّتْهُ دُنْياً دَنِيَّةٌ
وما هِيَ أنْ غرَّتْ قُروناً بطائِلِ

أَتَتْنَا عَلى زِيِّ العَزيزِ بُثَينَةٍ
وَزِيْنَتِها فِي مِثْلِ تِلْكَ الشَّمائِلِ

فَقُلْتُ لَها غُرِي سِوَايَ فإنَّني
عَزوفٌ عن الدنيا وَلَسْتُ بجاهِلِ

وَهَبْها أتَتْنا بالكُنوزِ وَدُرِّها
وأَمْوَالِ قارُوْنٍ وَمُلْكِ القَبائِلِ

أَلَيْسَ جَمِيْعاً لِلفَناءِ مَصِيرُها
وَيُطْلبُ مِنْ خُزّانِها بالطَّوائِلِ

فَغُرّيْ سِواي إنَّنِيْ غَيْرُ رَاغِبٍ
لِمَا فِيكِ مِنْ عِزٍ وَمُلْكٍ ونائِلِ

وَقَدْ قَنِعَتْ نَفْسِي بِمَا قد رُزِقْتُهُ
فَشأنَكِ يا دُنْيا وأَهْلَ الغَوائِلِ

فــإنّـــي أَخَـــافُ الـــلهَ يَـــوْمَ لِـــقَـــائِـــهِ
وأَخْـشَى عِـقَـابـاً دائِمـاً غَـيْـرَ زائِـلِ

اللهمَّ نَجّنا برحمتِكَ مِن النارِ وعافِنا مِن دارِ الخِزْيِ والبَوَارِ وأَدْخِلنا بِفَضْلِكَ الجنةَ دارَ القَرارِ وعامِلْنَا بكَرَمِكَ وَجُودِكَ يا كريمُ يا غَفارُ واغْفِرْ لنا ولوالِدِيْنا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهْم والميتينَ برحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصَلّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

الفصل الثامن

الطبقةُ الرابعةُ طبقةُ العَوامّ وغُرورُهُمْ مِنْ وُجوهٍ : فمنهم مَنْ يُصَلّي كَيْفَمَا اتَّفَقَ ولا يَسْألُ عمَّا يُصْلِحُ الصلاةَ وما يُفسِدُها . ومنهم مَنْ يَواظِبَ على النوافِلِ كالتراويحِ ، ولا تكادُ تَجِدُهُ في صلاةِ الجَماعةِ ومنهم مَنْ يلازِمُ مَجَالِسَ الوَعْظِ ولا يعملُ بما يَسْمَعُ ولا يَنْتَهي عنْ قَبيحِ ما يَأتي ، كأنَّ المقصودَ الحُضُورُ فقطْ قُلْتُ : لأنّ مَجالسَ الذِكْرِ والإرْشادِ إنّما تُفِيدُ لِكوْنِهَا مُرَغِّبَةً في الخَيْرِ وباعِثةً في الغالِبِ عليه فإنَّ لمْ يَنْشَأْ عنها ذلكَ فلا خيرَ فيها وصِفةُ هؤلآءِ كما قال بعضُ العُلماءِ : كمِثْلِ مريضٍ يحضُرُ مجالِسَ الأطباءِ وَيَسْمَعُ منهم ما يَصِفونَهُ مِن الأدويةِ ولا يَفْعَلُها وَلاَ يَشْتَغِلُ بها فأيُّ فائِدةٍ يَحْصَلُ عليها .

فكُل وَعْظٍ لا يُغيّرُ مِنكَ صِفةً تَتَغَيَّرُ بها أفعالُك حتى تُقْبِلَ على اللهِ عزَّ وجَلَّ وَتُعْرِضُ عن الدنيا وَتُقبلُ إقْبالاً قويّاً ، فإنْ لَمْ تَفْعلْ فذلكَ كان زيادَةَ حُجةٍ عليكَ ، وهذا غُرورٌ عظيمٌ .

ومنهم مَنْ يَتَنَفَّلُ بالعباداتِ وَيُهْمِلُ الفرائضَ .

ومنهم مَنْ يَتطَوَّعُ بالخيرِ وَيُكثرُ التسبيحَ معَ معامَلَتِهِ بالرِّبا واسْتِعْمَالِ

الغِشِّ ، وَرُبَما صاحَ على وَالِدَيهِ وَأخذَ أعْراضَ الناسِ ، وَجُمهورُ الناسِ قد اتَّكَلوا على العفْو والحلمِ فهُمْ مُصِرّون على ذُنوبٍ وخطايا فإذا ذَكَرْتَ لهمُ العُقوبَةَ قالُوا : هو كريمٌ ويَنْسَوْنَ أنه شَدِيْدُ العِقابِ ، ومنهم أقوامٌ يَسْتَعْجِلُونَ المعصيةَ مُوَافقةً لِلْهَوَى وَيُضْمِرون أننا سَنَتُوبُ وَيُسَوِّفُونَ بالتوبةِ ، ومِنَ العُصاةِ مَنْ يَغْتَرُّ بِفِعْلِ خيرٍ فربما تصَدَّق أوْ سبَّحَ وَظَنَّ أنَّ هذا يُقاوِمُ ذُنوبَهُ .

وَيَنْسَىْ ما حَصلَ منه مِنَ الغِيْبَةِ والكَذِبِ والرِّياءِ وغيرِ ذلكَ مِن المعاصِي التي تَقْضِي على الحَسَناتِ التي أمثالُ الجبالِ .

ومِنَ المغترِّين مَنْ يغرُّهُ صلاحُ آبائِهِ وربما قال : أبِي يَشْفَعُ لي ولا يَدْري أنَّ أباه فُضِّلَ بالتقوَى وكان مَعَ التَقْوَى خائفاً ؟ ومِنْ أينَ له أن يَشْفَعَ لَهُ ، أوْ مَا سَمِعَ قوله تعالى : ﴿ ولا يَشْفعونَ إلا لِمَن ارتضى ﴾ .

وَلَمْ يعلمْ أنَّ نُوحاً عليهِ السلامُ أَرادَ أنْ يَحْمِلَ ابْنَهُ مَعَهُ في السفينةِ فَمُنِعَ منْ ذلكَ وأغرقَ اللهُ ابنَهُ مَعَ المُغرَقِينَ .

وفي الحديث الصحيحِ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « يا فاطمَةُ لا أُغْنِي عنكِ مِنَ اللهِ شيئاً » فالعاقلُ منْ عَمِلَ على الحِرْصِ وأخذَ بالأحوَطِ فَمَنْ تأمَّلَ العلمَ وَتَصَفَّحَهُ وشاوَرَ العقلَ دَلَّهُ على الحزْمِ فَسَلِمَ مِنَ الاغْتِرارِ ، واللهُ الموفِّقُ .

وطبقةٌ أخرى أكَبُّوا على تِلاوةِ كتابِ اللهِ وتركوا تَدَبُّرَهُ والعملَ بهِ ، وَرُبما خَتَموه في يومٍ وليلةٍ بألْسِنَتِهِمْ ، أما قلوبُهُمْ فهي في أوديةِ الدنيا ترَدَّدُ ، ولا تتفكرُ في معاني القرآنِ لِتنْزجرَ بزواجِرِهِ وَتتعظَ بمواعِظِهِ وتقِفَ عندَ أوامِرِه ونواهِيه وَتَعْتبِرَ بمواضع الاعْتبارِ . فَمَنْ قَرأَ كتاباً عدةَ مَراتٍ

وتركَ العَمَلَ بهِ يُخْشَى عَليهِ من العُقُوبَةِ .

وَطَبَقَةٌ اغْتَرُّوْا وَأَكْثَرُوا الصِّيامَ وَهُمْ مَعَ ذَلكَ لا يَحْفَظُونَ أَلْسِنَتَهُمْ عن الغِيْبَةِ والنميمةِ والكذِبِ والتمَلُّقِ عندَ الفُسَّاقِ وأعْدَاءِ الدِّينِ وَلاَ يَعْرِفُونَ الْوَلاءَ والبَراءَ ولا يَحْفَظُونَ بُطُونَهُمْ عن الْحَرامِ وَلا أَعْيُنَهم عن النَّظرِ المُحَرَّمِ وَلا أسْمَاعَهُم عنِ الملاهِي والمُنكَراتِ وَلاَ يَقُومُونَ عَلى أَولادِهِمْ وَيأْمُرُونهم .

وطبقةٌ أخْرَى أَكثرتْ مِن نَوافِلِ الحَجّ مِنْ غيرِ خُرُوْجٍ مِنَ الْمَظَالِمِ وَقَضَاءِ الدُّيُونِ واسْتِرْضَاءِ الوَالِدَيْنِ وَلاَ طَلَبُوْا لِذلِكَ الزَّادَ الحَلاَلَ وَرُبَّما ضَيَّعُوا صَلاةَ الجَمَاعَةِ أو الصَّلاَةَ المكتُوبَةَ ، وَرُبَّمَا كانُوا لا يُبالُونَ بالنَّجاسَاتِ ، وَرُبَّمَا كان نَفَقَةُ أَحَدِهِمْ حَراماً كُلّهُ هَوَ وَرُفَقاؤُهُ ، وَرُبَّمَا كانَ مُرَائِياً في إنْفَاقِهِ فَيَعْصِي اللهَ في كَسْبِ الحِرَامِ أولاً وفي إنفاقِهِ لِلرّياءِ ثانياً نَعُوذُ باللهِ مِنَ الغُرورِ . وفِرقةٌ أخذَتْ في طَرِيْقِ الأَمرِ بالمَعْرُوفِ وارْشادِ الخَلْقِ وأنكَرُوْا على الناسِ وتَركُوْا أَنْفُسَهُم وَأوْلادَهُم وَمَنْ يَخْشَوْنَهم أو يَرجُونهم . وَفِرْقَةٌ أُخرى غَلَبَ عليها البُخلُ فلا تَسْمَحُ نُفوسُهم بأداءِ الزكاةِ كامِلةً مُكمّلةً يُخرِجُ مقدارَ رُبعِهَا فقط وَيتأولُ الباقِي وَيَعِدُ أنه إذا وجدَ فقيراً أعطاهُ وَيَرى أنَّ ما يدفعُهُ إذا تقدَّم فقيرٌ في بعضِ الأيامِ وأعطاهُ كافياً ورُبما كانتْ زكاتُهُ عدَدَ أيامِ السنةِ مئاتٍ مِنَ الريالات نعوذُ بالله من الغُرورِ .

شعراً :

المـوتُ في كـلِ حينٍ ينشُـرُ الكَفَنَـا
ونـحـنُ فـي غَـفـلةٍ عـمـا يُـرادُ بِـنـا

لا تَــطْمِئِنَّ إلى الــدُنيــا وَبَـهْـجَـتِـهـا
وإنْ تَــوَشَّحْتَ مِـنْ أَثْــوابِـهَــا الـحَسَـنَـا
أَيْـنَ الأحِبَّـةُ والــجيـرانُ مـا فَـعَـلُوا
أيـنَ الــذين هُـمُ كـانُــوا لَـنـا سَـكَـنَـا
سَقَـاهُمُ المـوتُ كـأسـاً غيــرَ صَافِيَـةٍ
فَـصَـيَّــرَتْـهُـمْ لِأَطْبــاقِ الـثَّـرَى رُهُـنَـا
تَـبْكِـيْ المَـنَــازِلُ مِنْـهُـمْ كــلُ مُنْسَجِمٍ
بــالمكــرُمَــاتِ وتَـرْثـي الـبِـرَّ والمِـنَنَـا
حَسْبُ الحِمَــامِ لَــوَ اَبْقـاهُـمْ وأَمْـهَلَهُـمْ
ألَا يَـظُنّ عــلى مَـعْـلومِـهِ حَـسَـنَـا

مــوعظــة

خطب عمرُ بنُ عبدِ العزيز آخرَ خطبةٍ خَطَبَهَا فَقَالَ فيهَا : أمَا بَعدُ « إنكمْ لَمْ تُخلقوا عَبَثاً ، ولَنْ تُتْرَكُوا سُدَى ، وإنَّ لَكُمْ مَعَاداً ينزلُ اللهُ فيهِ للفَصْلِ بينَ عبادِهِ ، فقدْ خابَ وخسِرَ مَنْ خَرجَ مِنْ رحمةِ اللهِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ وَحُرِمَ جَنةً عرضُها السمواتُ والأرضُ ، ألا تَرَوْنَ أنكُمْ في أسلابِ الهالكين ، وَسَيرِثُها بعدَكُمْ الباقون كذلكَ حتى تُرَدَّ الى خيرِ الوَارِثين ، وفي كلِ يومٍ تُشَيّعُون غادِياً ورائحاً إلى اللهِ قَضَى نَحْبَه وانقَضى أجلُه فتَدَعُونَه في صَدْعٍ من الأرضِ غيرَ مُوَسَّدٍ ولا مُمَهَّدٍ ، قَدْ خَلَعَ الأسبابَ ، وفارقَ الأحْبابَ ، وَسَكَنَ الترابَ ، وَوَاجَهَ الحِسابَ ، غَنِيَّاً عَمَّا خَلَّفَ ، فقيراً إلى مَا أَسْلَفَ ، فاتقوا اللهَ قَبْلَ نُزولِ الموتِ وانقضاءِ مَوَاقِيْتِهِ ، وإنّي لأقولُ لكُمْ هذهِ المقالةَ وما أعلمُ عندَ أحدٍ مِن

الذنوبِ أكثرَ مِمَّا أعلمُ عندي ، ولكنْ استغفرُ اللهَ وأتوبُ اليهِ ، ثمَّ رفعَ طرْفَ رِدائِهِ وبكَى حتى شهقَ ثم نزلَ ، فما عادَ إلى المنبَرِ بعدَها حتى ماتَ رحْمةُ اللهِ عليه .

أتَبكِـيْ لِهَـذَا الـمـوتِ أمْ أنتَ عـارِفُ
بِـمَنْـزِلَـةٍ تَـبْقَـى وَفـيـهـا الـمَـتَـالِفُ
كَـأَنَّـكَ قـدْ غُيِّبْتَ في اللَحْدِ والثَـرَى
فَتَلْقَـى كمـا لاقَـى القُـرونُ الـسَّـوالِفُ
أرَى المَوْتَ قَدْ أفْنَى القُرونَ التي مَضَتْ
فـلم يَـبْـقَ ذو إلْـفٍ ولـم يَـبْـقَ آلِـفُ
كـأنَّ الفَتَى لم يَغْنَ في النـاسِ سَـاعَـةً
إذا عُـصِبَـتْ يـومـاً عـليـه الـلَّفَـائِـفُ
وقـامـتْ عـليـهِ عُـصْبـةٌ يـنـدُبُـونـه
فَـمُـسْـتـعـبِـرٌ يَـبْـكِي وآخَـرُ هـاتِـفُ
وَغُـوْدِرَ فـي لَـحْـدٍ كَـرِيْـهٍ حُـلُولُـهُ
وتُـعقَـدُ مِنْ لِبْنٍ عـليـه الـسَّـقَـائـفُ
يَقِـلُّ الغِنَى عنْ صـاحِبِ اللَّحدِ والثَرَى
بـمـا ذَرَفَـتْ فـيـهِ الـعُـيُـونُ الـذَّوَارِفُ
ومـا مَـنْ يَخَـافُ البَـعْـثَ والنـارَ آمِـنٌ
وَلَكِنْ حـزيـنٌ مـوجَـعُ القـلبِ خـائفُ
إذا عَـنَّ ذِكْـرُ الـمـوتِ أَوْجَـعَ قَـلبَـهُ
وَهـيَّـجَ أَحْـزانـاً ذُنُـوبٌ سَـوالِـفُ

اللهمَّ آنظِمْنا في سِلكِ حِزبِكَ المُفلِحِين ، واجْعلنا مِنْ عبادِكَ المُخْلِصين وآمِنَّا يومَ الفَزَعِ الأكبَرِ يومَ الدِين ، واحشُرْنا معَ الذين أنعمْتَ عليهم مِنَ النَبيين والصِّدِّيقينَ والشُهداء والصالحينِ واغفِرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهمْ والميتينَ برحمتِكَ يا أرْحمَ الراحمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعِين .

فصلٌ في العلمِ وفضْلِه

العلمُ صفةٌ يُمَيِّزُ المُتَّصِفُ بها تميزاً جازِمَاً مطابقاً ، وقيلَ هو إدراكُ الشيءِ بِحَقيقتِهِ ، والعلمُ فضلُهُ أَشْهَرُ مِنْ أنْ يُذْكَرَ وهو أفضلُ مِنْ كلِ ما اكتَسَبَهُ الانسانُ وأَشْرفُ مُنْتَسَبٍ وأنْفَسُ ذخيرةٍ تُقْتَنَى وأطيب ثَمرةٍ تُجْتَنَىْ ، بهِ يُتَوَصَّلُ إلى الحقائِقِ وإذا عَمِلَ بِهِ الإنسانُ على وَفْقِ الشريعةِ أدْركَ رِضَا الخالِقِ .

والعلمُ لا يُوصَلُ الى معرفَةِ فَضْلِهِ وجلالَةِ قدْرِهِ إلّا بالعِلْمِ وَلَا يَضِيعُ صاحبُ العلمِ الدينيّ الصحيحِ الذي جاء عن النبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وَلَا يَفْتَقرُ كاسِبُ العلمِ ولا يَخيبُ طالبُهُ وَلا تنْحَطُّ مَراتبُهُ ما دامَ مُطَبِّقاً لِعِلْمِهِ بالعَمَلِ وَلا يَجْهَلُ شَرفَ العِلْمِ إلّا الجاهلُ لِقُصُورِ فَهْمِهِ عن عظيمِ مَنافِعِهِ وَكَريمِ مَواقِفِهِ ، وَحامله الصائنُ له عن الأدْناسِ عزيزٌ عندَ الناسِ إنْ قَالَ فكلامُهُ مَرْموقٌ بعينِ التقدير وَإنْ أَمَرَ فأمْرُهُ مَسْمُوعٌ .

وَهُوَ وَسيلةٌ لِلْفضائِلِ وهو نُورٌ زاهِرٌ لِمَنْ اسْتضاءَ بِهِ وَقُوْتٌ هَنِيءٌ لِمنْ تَقوَّتَ بِهِ تَرْتاحُ بِهِ الأنفُسُ إذْ هُوَ غِذاءُها وَتَفرحُ بِهِ الأفئِدةُ إذْ هُوَ قُواها

وهو يدُلُّ على الخيرِ ، وعوْنٌ على المُروْءةِ وهوَ الصاحبُ في الغُرْبَةِ والمُؤْنِسُ في الخَلْوَةِ ، والشرفُ في النَسَبِ وللعلم آثارٌ جليلةُ القدْرِ كمْ جلَّ بهِ مِنْ حقيرٍ .

وكُلَّما كان الرجلُ أعْلمَ كان جَليلاً عندنا . مضَى سلفُنَا الصالحُ العامِلون بعلمِهِمْ الوَرِعُونَ الذين لا تأخُذُهُم في اللهِ لومةُ لَائِمٍ الذين إذا ذُكِرُوا ، وَمَا قَامُوا بِهِ مِنْ نَصْرِ دِينِ اللهِ والدعوةِ اليهِ اسْتنارتْ المجالسُ وأسْفرتْ الوُجُوهُ وارتاحَتْ الأنفُسُ وَقَوِيَتْ القلوبُ وَنَشِطَتْ الأبدانُ على الطاعاتِ والعباداتِ وَوَدَّ المسْتمعون المحِبون لِلدّينِ وأهلِهِ أن يزدادُوا مِنْ أخبارِهِمْ وَسِيَرِهِم وذلك بما وَهَبَهُمُ اللهُ مِنَ العلمِ الديني والتمَّسكِ بهِ وآثارِهِ الجَليلةِ ، وكانوا خيرَ الناسِ بعدَ النبيينَ وكانوا أشجَعَ الناسِ لأنَّهمْ عَلِمُوا أنَّ الأجَلَ لا يُطِيْلُه الجُبْنُ وكانوا أغْنَى العالَمِ نُفوساً وأقْواهم تَوَكُّلاً على اللطيفِ الخبيرِ لأنَّهمْ رَضُوا بِقِسْمةِ مَوْلانا العليمِ الحكيمِ ، وكانُوا مَحطَّ رِحالِ الكَرَمِ والجُودِ لأنهم يعلمونَ أنَّ البُخلَ لا يُرضِي اللهَ ، وكانُوا في الحِلْمِ كالجبالِ الراسِياتِ لأنهُم عَرَفوا ما لِلحِلْمِ مِن مَزايا دُنيا وأُخرى .

وكانُوا يَسْتَقْبلونَ البَلَايَا بالصبْرِ الجميلِ لِعِلْمِهِمْ أنَّها بِتَقْدِيرٍ وتَصْرِيْفِ الحكيمِ الخبيرِ وكانُوا دائِماً يَسْتَقْبِلون النِعَمَ بالشكرِ والحَمدِ والثناءِ على اللهِ لِجزْمِهِمْ أنها ليسَتْ منهُم ولا مِنْ سائِرِ المخلوقينَ بلْ مِنَ الكريمِ الدَائمِ الإِحْسانِ الذي عَمَّ إحسانُه الخلايقَ كلَّهُمْ ، وكانُوا يُحبون الخيرَ لِبَعْضِهِمْ كَمَحَبَّتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ عملاً بقولِ الرسولِ الكريمِ « لا يؤمِنُ أحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لِاخيهِ ما يُحبُ لنفسِهِ » ولِعِلْمِهِمْ أن كرَاهَتَهُم لا

تُحْدثُ أيَّ تغَيّرُ وَقَدْ عَرَفُوا قولَ النبيّ صَلّى اللهُ عليهِ وسلمَ لِابنِ عباسٍ يا غُلامُ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ الحَديث رواه الترمذي .

وكانوا لا يُحِبون الشرَّ وأهْلَهُ وَينْهَوْنَ عَنْهُ وَينْأَوْنَ عَنْهُ . وكـانوا يُرَاقِبونَ مَولاهُمْ دَائِماً وَيَعلمونَ أنهُ يَعْلمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُم وأنَه أحاط بكلِ شيءٍ علماً فلِهذا كانُوا إذا قالُوا أوْ فَعَلُوا تَحَرَّوْا ما يُرْضِيه جَلَّ وَعَلا فيما يَقُولونَه وَيفعَلُونَه وهَكَذا كانوا إذا أرادُوا أنْ يَتَحَركُوا أو يَسْكنوا باسْتِشَارةِ ما وَهَبَهُمُ اللهُ مِنَ العلمِ الديني يَتَحَرَّكُون وَيَسْكنون لِهذا كانوا لليومِ مَوْضِعَ اعجابٍ وَنَالوا فوقَ هذا رِضَى رَبِّ العالمينَ هكذا كانوا بِبَرَكاتِ ما وَهَبَهُمْ مولاهُم مِنَ العلمِ الدِيني والتمسُّكِ بهِ تماماً .

وكانوا أزهَدَ الناسِ في الدُنيا لأنَّهم يعلمون حقارَتَها وَسُرْعةَ زَوالِها وَكثْرةَ هُمُومِها وَغُمومِها وإشْغالِها عَنْ طاعةِ اللهِ ولِذالكَ كانَ النـاسُ يُقَدِّرُونهم وَيَضْرِبُونَ بِهِمُ الأمثالَ وأنتَ تَرَى أنه على قَدْرِ قَنَاعَةِ العُلَمَآءِ في الدُنْيا تَكُوْنُ مَكَانتُهُم في نُفُوسِ الناسِ والتَفَافُهُم حَوْلَهم والاسْتِمَاعُ لِنَصائِحِهمْ والانقيادُ لإرْشاداتِهِمْ والرُجوعُ إليهمْ فِيْمَا يُشْكِلُ عليهِمْ وعَلَى قدْرِ تَعَلّقِ العُلَمَاءِ بِالدُنْيا وَتوَجُّهِهِمْ إليها تكونُ زَهَادَةُ الناسِ في العُلماءِ وَعَدمُ الثِّقَةِ بِهِمْ واتِّهَامُهُم والنفرةُ مِنهُم وأكلُ لُحُومِهِمْ وَعَدمُ قبولِ كَلَامِهِمْ وإرشادِهِمْ وَنَصائِحِهم فلا يَسْمعونَ لهمْ قَولاً ولا يُعَوّلُون عَليهِمْ في ما يَجْهَلُونَهُ وَيَحْرِصُونَ على البُعْدِ عنهُمْ وَيَستثْقِلُونهم والسببُ الوحيدُ كما عَلمتَ أولاً هو التعلقُ بالدنيا ضِدَّ ما عليه السلفُ الصالحُ .

قال ابنُ القَيِّمِ رحمهُ اللهُ :

كلُّ مَنْ آثَرَ الدنيا مِنْ أهلِ العلمِ واسْتَحَبَّهَا فلا بُدَّ أنْ يَقُوْلَ على

اللهِ غيرَ الحقّ في فَتْواهُ وَحُكْمِهِ ، في خَبَرِهِ وإلزامِهِ لأنَّ أحكامَ الربِّ سبحانَه كثيراً ما تأتِي على خلافِ أغْراضِ الناسِ ، وَلاَ سِيَّما أهلُ الرِّيَاسَةِ والذين يَتَّبِعون الشُّبُهاتِ فإنَّهُمْ لاَ تَتِمُّ لَهُمْ أغْرَاضُهُم إلاّ بِمُخالَفَةِ الحقّ وَدَفْعِهِ كَثِيْراً فإذا كان العالِمُ والحاكمُ مُحبْينَ للرِّياسةِ مُتَّبِعِينَ للشَهَوَاتِ لَمْ يَتِمَّ لَهُمَا ذَلكَ إلا بِدَفْعِ ما يُضادُّه مِنَ الحقِ ولاَ سِيَّما إذا قامَتْ لَهُ شُبْهَةٌ فَتَتَّفِقُ الشُبْهَةُ والشَّهْوَةُ وَيَثُورُ الهَوَى فَيَخْفَى الصَّوابُ وَيَنْطَمِسُ وَجْهُ الْحَقِّ ، وإذا كان ظاهراً لا خَفاءَ بِهِ وَلا شُبْهَةَ فيهِ أقدم على مُخالفَتِهِ وقال لِي مَخْرَجٌ بالتوبةِ وفي هؤلآءِ وأشباهِهِمْ قال تعالى : ﴿ فَخَلِفَ مِنْ بعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يأخذون عَرَضَ هذا الأدنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لنا وإنْ يأتِهِمْ عَرَضٌ مثلُهُ يأخذوه ألَمْ يُؤخَذْ عليهِمْ مِيثاقُ الكتاب أنْ لا يقولوا على اللّه إلا الحَقّ وَدَرَسُوا ما فيهِ والدارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يَتقُون أفلا تعقلون ﴾ .

فأَخبَرَ سُبحانَهُ أنَّهُمْ أخَذُوْا العَرَضَ الأدْنَى مَعَ عِلْمِهِمْ بِتَحْرِيمِهِ عليهِمْ وقالوا سَيُغْفَرُ لَنا وإنْ عَرَضَ لهم عَرَضٌ آخرُ أخَذُوهُ فَهُمْ مُصِرُّونَ على ذلك وهو الحامِلُ لهمْ على أنْ يقولوا على اللهِ غيرَ الحقّ فيقولُونَ هذا حُكْمُهُ وَشَرْعُهُ ودِينُهُ وهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ دينَهُ وَشَرْعَهُ وَحُكْمَهُ يُخالِفُ ذلك أوْ لاَ يَعلَمُوا أنَّ ذلك دِينُه وشرعُه وحُكْمُه فَتارةً يقولون على اللهِ مالا يَعْلَمُونَ وتارةً يقولون عليهِ ما يَعْلَمُون بُطْلانَهُ : قال وهؤلآءِ لا بُدَّ أنْ يَبْتَدِعُوا في الدينِ مَعَ الفُجورِ في العَمَلِ فَيَجْتَمِعُ لهمْ الأمْرانِ فإنَّ اتباعَ الهَوَى يُعْمِي عينَ القلبِ فلا يُميزِ بينَ السُنَّةِ والبِدْعَةِ أو يُنَكِّسُهُ فيرَى البِدْعةَ سُنَّةً والسُّنَّةَ بِدْعَةً فهذِهِ آفةُ العُلَمآءِ إذا آثرُوا الدُنيا وَآتبعُوا الرِيَّاسَاتِ والشَهَواتِ وهَذهِ الآياتُ فيهِمْ إلى قولِهِ تعالى : ﴿ وآتْلُ عليهِمْ نَبأَ الذي

آتيناهُ آياتِنَا فانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشيطانُ فكان مِنَ الغاوينَ وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْنَاهُ بها وَلكنَّهُ أخْلَدَ إلى الأرضِ واتَّبَعَ هواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلبِ إنْ تَحْمِلْ عليهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْه يلهثْ ﴾ . فهذا مَثَلُ عالِمِ السوءِ الذي يعملُ بِخِلافِ عِلْمِهِ .

وخِتاماً فإنَّ العَاقِلَ اللَّبِيْبَ يَتَأَسَّفُ على إهْمالِ كِتابِ اللهِ وَسُنةِ رَسولِهِ صلى اللهُ عَليهِ وسلمَ وَكُتُبِ أَهْلِ العِلْمِ والإيمانِ يَبْنى عليهما الغُبارُ ويُسْتبدلُ بِهِما قَتْلُ الوَقْتِ في أُلُوَ كَمْ باع فلانٌ وكم شَرَى فلانٌ وأيْنَ قَضَّيْتَ العُطْلَةَ فيهِ وأيْنَ تقضِّي المُسْتَقْبَلَةَ وارْفَعْ الجَريدةَ وأعْطِني الأخرَى وأينَ المَجَلَّةُ الفُلانِيَّةُ وما الذِي ظَهَر في التلفزيونِ وماذا بالإذاعةِ الفلانيةِ هذا وأمثالهُ كثيرٌ مِنْ نَوَاحِي معلوماتِنا مَعْشَرَ هذا الجيل يَشِبُّ الواحدُ مِنَّا وَيَشِيْبُ وهو جاهلٌ بِسيرِ سَلَفِنَا وتطبيقِها والاقتِداء بِمَنْ أَمَرَنَا سيدُنا ومولانا باتِباعِهِمْ مِن رُسُلِهِ الكِرامِ وَمَن اقتدَى بِهِمْ وَحذا حَذْوَهُمْ وَنَهج مَنْهَجَهُم مِمَّنْ تَتَجافَى جُنُوبُهُم عن المضاجعِ يَدْعُون رَبَّهُم خَوْفاً وطَمَعاً ومِمَّا رَزَقَهُم مَوْلاهم ينفقون ﴿ وعبادُ الرحمنِ الذين يمشون على الأرضِ هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلونَ قالوا سَلاماً ﴾ إلى آخر السورة .

اللهم إليكَ بدُعائِنا تَوجَّهْنا وَبِفِنَائِكَ أنَخْنَا واياكَ أَمَّلْنا وَلِما عندَكَ مِنَ الجُودِ والإحسانِ طَلَبْنا وَلِرَحْمتِكَ رَجَوْنا وَمِنْ عَذابِكَ أشْفَقْنا وَلِغُفْرانِكَ تَعَرَّضْنا فاغفِرْ لنا ولوالدِيْنا وجميعِ المسلمينَ برحمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعين .

هذه قصيدةٌ تَحْتَوِي على الحَثِّ على طَلَبِ العِلْمِ والزُهْدِ في الدُنيا والإقبالِ على الآخرةِ :

تَـفُـتُّ فُـؤادَكَ الأيَّـامُ فَـتَّـاً
وتَنْحَتُ جِسْمَـكَ السـاعـاتُ نَحْتـاً
وَتْـدعُـوكَ الـمَـنُـونُ دُعَـاءَ صِـدْقٍ
ألَا يَـا صَـاحِ أنـتَ أُريـدَ أنْـتَـا
أَرَاكَ تُـحِـبُّ عِـرْسَـاً ذاتَ غَـدْرٍ
أبَـتَّ طـلاقَـهـا الأكْـيَـاسُ بَـتَّـاً
تَـنَـامُ الـدَّهـرَ، وَيحَـكَ، فـي غَطِيْطٍ
بِـهَـا حَـتّـى إذا مِـتَّ آنـتَـبَـهْـتَـا
فَـكَـمْ ذَا أنْـتَ مَـخْـدُوْعٌ فَـحَـتَّـى
مَتَـى لَا تَـرْعَـوِي عـنـهـا وَحَـتَّـى ؟!
أَبَـا بَـكْـرٍ دَعَـوْتُـك لَـوْ أَجـبـتَ
إلـى مـا فِـيـهِ حَـظُّـكَ لـو عَـقِـلْتَـا
إلـى عِـلْـمٍ تـكـونُ بِـهِ إمـامـاً
مُـطاعـاً، إنْ نَـهَـيْـتَ وإنْ أَمَـرْتَـا
وَيَـجْـلو مـا بِـعَـيْـنِـكَ مِـنْ غِـشَـاءٍ
وَيَـهْـدِيْـكَ الـصِـراطَ إذا ضَـلَلْتَـا
وَتَـحْـمِـلُ مـنـهُ فـي نـادِيـكَ تَـاجـاً
وَيَـكْـسُـوكَ الـجَـمَـالَ إذا آغْـتَـرَبْـتَـا
يَـنَـالُـكَ نَـفـعُـهُ مـا دُمْـتَ حـيَّـاً
وَيَـبْـقَـى ذِكْـرُهُ لَـكَ إنْ ذَهَـبْـتَـا
هُـوَ الـعَـضْـبُ الـمُـهـنَّـدُ لَـيْـسَ يَـكْـبُـو
تَـنَـالُ بِـهِ مَـقَـاتِـلَ مَـنْ ضَـرَبْـتَـا

وكـنـزٌ لا تـخـافُ عـليـهِ لِـصَّـاً
خفيفُ الحَـمْـلِ يُـوجَـدُ حيثُ كُنْتَـا
يَـزِيـدُ بِـكَـثْـرةِ الإنـفـاقِ مِـنْـهُ
وَيَـنْـقُصُ إنْ بِـهِ كـفَّـاً شَـدَدْتَـا
فـلو قـدْ ذُقْـتَ مِـنْ حَلْواهُ طَـعْـمَـاً
لآثَـرْتَ الـتَّـعَـلُّمَ واجـتـهـدْتَـا
ولـم يَشْـغَـلْكَ عـنـهُ هَـوَىً مُـطاعٌ
ولا دُنْـيَـا بِـزُخْـرُفِـهَـا فُـتِـنْـتَـا
وَلا يُـلْهِـيـكَ عـنْـهُ أنـيـقُ رَوْضٍ
ولا خَـوْدٌ بـزيـنَـتِـهَـا كُـلِفْـتَـا
فَـقُـوْتُ الـرُّوحِ أرْواحُ الـمَـعَـالـي
وَلَـيس بـأنْ طَـعِـمْـتَ وأنْ شَـرِبْـتَـا
فَـوَاظِـبْـهُ ، وَخُـذْ بـالـجِـدِّ فـيـهِ
فـإنْ أعـطاكَـهُ الـبـارِي أَخَـذْتَـا
وإنْ أُوتـيْـتَ فِـيـهِ بِـطُولِ بَـاعٍ
وقـالَ الـنـاسُ : إنـكَ قـدْ سَبَـقْـتَـا
فـلا تـأَمَـنْ سُـؤالَ الـلهِ فـيـهِ
بتَـوْبِيْـخٍ ، عَـلِمْتَ فـهـلْ عَمِلْتَـا ؟!
فـرأسُ الـعِـلْمِ تَـقْـوَى الـلهِ حَـقّـاً
وَلَـيْسَ بـأَن تَـعَـالَـى أوْ رَئِـسْـتَـا
وَضَـافِـي ثَـوْبِـكَ الإحـسـانُ لَا أنْ
تُـرَى ثـوبَ الإسـاءةِ قـد لَـبِـسْـتَـا
وإنْ أَلْـقَـاكَ فَـهْـمُـكَ فـي مَـهَـاوٍ
فَـلَيْـتَـكَ ثـم لَـيْـتَـكَ مـا فَـهِـمْـتَـا

إذا ما لَمْ يُفِدْكَ العلمُ خَيْراً
فَخيرٌ مِنْهُ أنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا
سَتَجْنِي مِنْ ثِمارِ اللَّهْوِ جَهْلاً
وَتَصْغُرُ في العُيُونِ إذا كَبِرْتَا
وَتُفْقَدُ إنْ جَهِلْتَ، وأنتَ باقٍ
وَتُوجَدُ إنْ عَلِمْتَ إذا فُقِدْتَا
سَتَذْكُرُ لِلنَّصِيْحَةِ بَعْدَ حِينٍ
وَتَطْلُبُها إذا عَنْهَا شُغِلْتَا
وَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عليها
وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إنْ نَدِمْتَا
إذا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ في سَماءٍ
وقَدْ رُفِعُوا عليكَ، وَقَدْ سُفِلْتَا
فراجعها وَدَعْ عنكَ الهُوَيْنا
فَمَا بالبُطْءِ تُدْرِكُ ما طَلَبْتَا
وَلَا تَحْفِلْ بِمَالِكَ، وَالْهُ عنهُ
فَليسَ المَالُ إلا مَا عَلِمْتَا
وليسَ لِجَاهِلٍ في الناسِ مَغْنَىً
وَلَوْ مُلْكُ الأَنَامِ لَهُ تَأَتَّى
سَيَنْطِقُ عنكَ مالُكَ في نَدِيٍّ
وَيَكْتُبُ عنكَ يَوماً إنْ كَتَبْتَا
وما يُغْنِيْكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي
إذا بالجَهْلِ دِينَك قد هَدَمْتَا

جَعَلْتَ المَالَ فوقَ العِلْمِ جَهْلاً
لَعَمْرُكَ في القَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا
وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الوَحْيِ فَرْقٌ
سَتَعْلَمُهُ إذا «طَهَ» قَرَأْتَا
لَئِنْ رَفَعَ الغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ
فَأَنْتَ لِوَاءَ عِلمِكَ قَدْ رَفَعْتَا
وإنْ جَلَسَ الغَنِيُّ على الحَشَايَا
فأنتَ على الكواكِبِ قَدْ جَلَسْتَا
وإنْ رَكِبَ الجِيادَ مُسَوَّماتٍ
فأنتَ مَنَاهِجَ التقْوَى رَكِبْتَا
وَمَهْمَا افتَضَّ أَبكَارَ الغَوَانِي
فكَمْ بِكْرٍ مِنَ الحُكْمِ افْتَضَضْتَا
وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإقْتَارُ شَيْئاً
إذا مَا أنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا
فيامَا عِنَدَهُ لكَ مِنْ جَزِيْلٍ
إذا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا
فَقَابِلْ بالقَبُولِ صَحيْحَ نُصْحِي
وإنْ أَعْرَضْتَ عنهُ فَقَدْ خَسِرْتَا
وإنْ راعَيْتَهُ قَوْلاً وَفِعْلاً
وَعامَلْتَ الإلَهَ بِهِ رَبِحْتَا
فَلَيْسَتْ هذه الدنيا بشيءٍ
تَسُوْؤكَ حِقْبَةً، وَتَسُرُّ وَقْتَا

وَغَـايَـتُـهَـا إذا فَـكَّـرْتَ فِـيـهـا
كَفَيْئِكَ ، أَوْ كَحُلْمِكَ إنْ رَقَـدْتَـا
سُجِنْتَ بِهَـا وأنتَ لَهَـا مُـحِبٌّ ،
فكيفَ تُحبُّ مَنْ فِيهـا سُجِنْتَـا ؟!
وَتُطْعِمُـكَ الطَّعَـامَ وَعَـنْ قَـلِيْلٍ
سَتُطْعَمُ مِنْكَ مـا مِنْهَـا طَعِمْتَـا
وَتَعْـرَى إنْ لَبِسْتَ بِـهَـا ثِـيـابـاً
وَتُكْسَى إنْ مَـلاَبِسَـهَـا خَـلَعْـتَـا
وَتَشْـهَـدُ كُـلَ يـومٍ دَفْـنَ خِـلٍّ
كـأَنـك لا تُـرادُ بِـمَـا شَـهِـدْتَـا
ولـمْ تُـخْـلَقْ لِتَـعْـمُـرَهَـا ، وَلَـكِـنْ
لِتَعْبُرَهـا ، فَجِـدَّ لِـمَـا خُلِقْـتَـا
وإنْ هُـدِمَـتْ فَـزِدْهَـا أَنْـتَ هَـدْمـاً
وَحَصِّنْ أمـرَ دِيـنِـكَ مَـا اسْتَـطَعْتَـا
ولا تَـحْـزَنْ لِـمَـا قَـدْ فـاتَ مِـنْـهـا
إذا مَـا أَنْـتَ فـي أُخْـرَاكَ فُـزْتَـا
فَـلَيسَ بِـنَـافِـعٍ مـا نِـلْتَ مـنـهـا
من الفـانـي اذا البـاقـي حُـرِمْتَـا
وَلَا تَـضْحَـكْ مَـعَ السُفهـاءِ جَـهْـلاً
فـإنَّـكَ سَـوف تَـبْكِـيْ إنْ ضَحِكْـتـا
وَكَـيـفَ بِـكَ الـسُـرورُ وأنـتَ رَهْـنٌ
ولا تَـدْرِي غَـداً أَنْ لَـوْ غُـلِبْـتَـا ؟!

وسَلْ مِنْ رَبِّكَ التوفيقَ فيها
وأَخْلِصْ في الدُعاءِ إذا سَألْتَا
ونادِ إذ سُجِنْتَ بِهِ اعْتِرافاً
كَمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بنُ مَتَّى
ولازِمْ بابَهُ قَرْعاً عَسَاهُ
سَيَفْتَحُ بابَهُ لَكَ إنْ قَرَعْتَا
وأكْثِرْ ذِكْرَهُ في الأرضِ دَابَاً
لِتُذْكَرَ في السماءِ إذَا ذَكَرْتَا
وَلَا تَقُلِ الصِّبَا فيه امْتِهالٌ
وَفَكِّرْ، كَمْ صَغِيْرٍ قدْ دَفَنْتَا
وَقُلْ لِيْ: يَا نَصِيْحِيْ لأَنْتَ أوْلَى
بِنُصْحِكَ، إذْ بِعَقْلِكَ قَدْ عُرِفْتَا
فَتَعْذِلُني عن التَّفْرِيطِ يَوْماً
وبالتفرِيْطِ دَهْرَكَ قد قَطَعْتَا
وفي صِغَرِيْ تُخَوِّفُني المَنَايَا
وَمَا تَجْرِيْ بِبَالِكَ حِيْنَ شِخْتَا
وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أهْدَى سَبيلا
فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نُكِسْتَا
وَهَا أنَا لَمْ أخُضْ بَحْرَ الخَطايا
كما قد خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا
وَلَمْ أشْرَبْ حُمَيَّا أمّ دفْرٍ
وأنْتَ شَرِبْتَها حَتَّى سَكِرْتَا

ولـم أحْـلِلْ بِـوَادٍ فـيـهِ ظُـلْمٌ
وأنْـتَ حَللتَ فـيـهِ ، وانْـتَـهَـكْـتـا
ولـمْ أنْـشَـأْ بـعَـصْـرٍ فيـهِ نَـفْـعٌ
وأنـتَ نشَـأْتَ فيـه ، فمـا انْتَفعْتَـا
ونـاداكَ الـكِـتـابُ فـلمْ تُـجِـبْـهُ
وَنَـبَّـهَـكَ الـمشيـبُ فمـا انـتَبهْتَـا
وقـد صاحـبْـتَ أعْـلاَمـاً كـثـيـراً
فلم أرَكَ انْـتَـفَـعْـتَ بِـمَـنْ صَحِـبْـتَـا
ويَـقْـبُـحُ بـالـفَـتَـى فِـعْـلُ التَّـصَـابِي
وأقْـبَـحُ مـنـه شـيـخٌ قـدْ تَـفَـتَّـى
فـأنْـتَ أحَـقُّ بـالـتَـفـنِـيـدِ مِـنِّـي
ولـو سَكَتَ الـمُسيءُ لَـمَـا نَـطَقْـتَـا
فَـنَـفْـسَـكَ ذُمَّ ، لا تَـذْمُـمْ سِـوَاهـا
بِـعَـيْـبٍ ، فـهـي أجْـدرُ إنْ ذَمَـمْـتَـا
ولـو بَـكَتِ الـدِّمَـا عَـيْـنَـاكِ خَـوْفـاً
لِـذَنْـبِـكَ لمْ أَقُـلْ لـكَ قـدْ أمِـنْتَـا
فَـمَـنْ لـكَ بـالأمـانِ وأنْـتَ عـبْـدٌ
أُمِـرْتَ ، فمـا ائتَمَـرْتَ ، ولا أَطَعْتَـا
فسِـرْتَ القَـهْقَـرَى ، وَخَـبَـطْتَ عَشْـواً
لَعَمْـرُكَ لَـوْ وَصِلْتَ لَـمَـا رَجَـعْتَـا
ثَقُلْتَ مِنَ الـذُّنُـوبِ ، وَلَسْتَ تَخْشَى
لِـجَـهْـلِكَ أنْ تَـخِـفَّ إذا وُزِنْـتَـا

وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ
وناقَشَكَ الحسابَ إذاً هَلَكْتَا
ولم يظْلِمْكَ في عَمَلٍ، ولكنْ
عَسِيرٌ أنْ تقُومَ بما حَمَلْتَا
تَوَجَّعُ لِلْمُصِرِّ على الخَطَايَا
وَتَرْحَمُهُ، وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا
ولو قد جِئْتَ يومَ الفصْلِ فَرْداً
وأَبْصَرْتَ المَنازِلَ فيهِ شَتَّى
لأَعَظَمْتَ النَدَامَةَ فيهِ لَهْفاً
على ما في حَيَاتِكَ قَدْ أضَعْتَا
تَفِرُّ مِنَ الهَجِيْرِ وَتَتَقِيْهِ
فَهَلَّا مِن جَهَنَّمَ قدْ فَرَرْتا !!
وَلَسْتَ تُطيقُ أَهْوَانَها عَذاباً
ولو كُنْتَ الحَدِيْدَ بِها لَذُبْتَا
ولا تكْذِبْ، فإنَّ الأَمْرَ جِدٌّ
وَلَيس كَمَا حَسِبْتَ، وَمَا ظَنَنْتَا
أَبَا بَكْرٍ، كَشَفْتَ أقَلَّ عَيْبي
وما اسْتَعْظَمْتَهُ منها سَتَرْتَا
فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِن المَخازِي
وضاعِفْهَا، فإنَّكَ قَدْ صَدَقْتا
وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلِفَرْطِ عِلْمي
بباطِنَتِي كأنك قد مَدَحْتَا

ولا تَــرْضَـى الـمـعــائبَ فـهـي عــارٌ
عـظيـمٌ ، يُـورِثُ الإنْـسَــانَ مَـقْـتَــا
وَتَــهْـوَى بــالــوَجِيْــهِ مِــنَ الـثُـرَيَــا
وَتُــبـدِلُــهُ مَـكــانَ الـفَـوْقِ تَــحْـتَــا
كَــذَا الـطَّاعَــاتُ تُـبـلِغُـكَ الـدَّرَارِي
وَتَـجْـعَـلُكَ القَـرِيْـبَ ، وإنْ بَـعُـدْتَــا
وَتَـنْشُـرُ عَـنْـكَ فِي الـدُّنْيَـا جَمِيْـلًا
فَتَلْقَى الـبِـرَّ فـيـهـا حَـيْـثُ شِئْـتَـا
وتُـمـسِـي فـي مَـسَـاكِـنِـهَـا عَـزِيْـزاً
وَتَـجْنِي الحَـمْـدَ مِمَّـا قـد غَـرَسْتَـا
وأَنْــتَ الـيــومَ لـمْ تُـعْـرِفْ بِـعَـيْـبٍ
وَلَا دَنَّــسْــتَ ثــوبَــك مُــذْ نَــشَــأْتَـا
ولا سـابَـقْـتَ فــي مَـيْـدانِ زُورٍ
ولا أَوْضَـعْـتَ فـيــه ، ولا خَـبَـبْـتَـا
فــإنْ لـمْ تَـنْـأَ عــنــهُ نَـشَـبْـتَ فـيــهِ
فَـمَـنْ لــكَ بــالــخَـلاصِ إذا نَـشَـبْـتَـا ؟!
وَدُنِّسَ مِــنْــكَ مــا طَـهَّــرْتَ حَــتَّـى
كـأنـك قَـبْـلَ ذلــك مــا طَهُرْتَـا
وصِــرْتَ أَسِـيـرَ ذَنْـبِـكَ فــي وِثـاقٍ
وكيْفَ لَـكَ الفِكَـاكُ وَقَـد أُسِـرْتَـا ؟!
فَـخَفْ أَبْـنَـاءَ جِنْسِـكَ ، وآخْشَ مِنْهُمْ
كمـا تَخْشَى الـضَّـراغِمَ والـسَّبَنْتَـا

فَخَالِطْهُم ، وَزَايِلْهُمْ حِذاراً
وكُنْ كالسّامِرِيّ إذَا لُمْستَا
وان جَهِلُوا عليكَ فقُلْ : سلامٌ
لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إنْ سَلِمْتَا
وَمَنْ لَكَ بالسَّلامَةِ في زَمَانٍ
يُزِلُّ العُصْمَ إلَّا إنْ عُصِمْتَا
ولا تَلْبثْ بِحَيّ فيهِ ضَيْمٌ
يُميتُ القَلْبَ إلَّا إنْ كُبِلْتَا
فَغَرِّبْ ، فالتَّغَرُّبُ فيه خَيْرٌ
وَشَرِّقْ إنْ بِرِيْقِكَ قدْ شَرِقْتَا
فَلَيسَ الزُهْدُ في الدنيا خُمُولاً
فأنْتَ بها الأميرُ إذا زَهِدْتَا
فَلَو فَوقَ الأَمِيرِ يكُونُ عَالٍ
عُلُوّاً وارْتِفَاعاً كُنْتَ أنْتَا
فإنْ فارَقْتَهَا ، وَخَرجْتَ منها
إلى دارِ السَّلامِ ، فقد سَلِمْتَا
وإنْ أكرمتَها ، وَنَظَرْتَ فيها
بإجْلالٍ ، فنفسَكَ قدْ أَهَنْتَا
جَمَعْتُ لكَ النَّصائحَ فامتَثِلْها
حَياتَك ، فَهْيَ أفضَلُ ما امتَثَلْتَا
وَطَوَّلْتُ العِتابَ ، وَزِدْتُ فيهِ
لأنكَ في البَطالةِ قدْ أَطَلْتَا

فــلا تــأخُــذْ بتَقْـصِيــرِي ، وَسَـهْــوي
وَخُــذْ بِــوَصِــيَّـتــي لَــكَ إنْ رُشِــدْتَــا

وقــد أرْدفْــتُــهَــا سِــتّــاً حِــسَــانــا
فــكــانــا قَــبْــلَ ذا مِــائــةً وَسِــتَّــا

وصــلى الــلهُ مــا أوْرَقْ نِــضَــارٌ
عــلى الــمــخــتــارِ فــي شَــجَــرٍ وَحَــتَّــا

اللهمَّ علمْنَا ما ينفعُنَا وآنفَعْنَا بما علَّمْتَنَا وبارِكْ لنا في علومِنَا وأعمالِنا وأعمارِنا وأَصْلِحْ نياتِنا وذُرِّياتِنا واغفِرْ لنا ولـوالدِينـا ولجميع المسلمين برحْمَتِك يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعين .

(فصــل)

وممّا ورد في فضلِ العلمِ والحَثِّ على تَعلُّمِهِ وتعليمِهِ ما يلي مِنَ الآحاديث :

١ ـ فعن مُعاوِيَةَ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين » . رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ .

٢ ـ وعَنْ عبدِ اللهِ يَعْنِي ابنَ مَسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذَا أرادَ اللهُ بِعَبدٍ خَيْراً فَقَّهَهُ في الدينِ وألْهَمَهُ رُشْدَهُ » . رواهُ البَزَّارُ والطَّبَرَانِي في الكبيرِ بإسْنادٍ لا بأسَ بِهِ .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم : « مَنْ نفّسَ عن مُؤْمنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ اللهُ عنهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يومِ القيامَةِ ومَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ في الدنيا والآخِرةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عليهِ في الدنيا والآخرةِ ، واللهُ في عوْنِ العبدِ ما كانَ العبدُ في عَوْنِ أخيهِ ، ومن سَلَكَ طريقاً يَلْتَمِسُ فيه عِلْماً سهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طريقاً إلى الجنةِ ، وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بُيوتِ اللهِ يتْلون كتابَ اللهِ ويتدارسُونَهُ بينهمْ إلا حفَّتْهم الملائكةُ ونزلتْ عليهم السكِينةُ وَغَشيَتْهُمُ الرحمةُ وذكَرَهُمُ اللهُ فيمَنْ عندَهُ ، وَمَنْ أَبْطَأَ بهِ عملُهُ لمْ يُسْرِعْ بهِ نَسَبُهُ » . رواهُ مسْلِمٌ وأبو داوودَ والتُرْمُذِي والنَّسائي وابنُ ماجَه وابنُ حِبَّان في صحيحِهِ والحاكمُ وقال صحيحٌ على شَرْطِهِمَا .

٤ ـ وعن أبي الدرْداءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى

اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ : « مَنْ سَلَكَ طَريقاً يلتمِسُ فيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لهُ بهِ طريقاً إلى الجَنَّةِ وإنَّ الملائكة لتَضَعُ أجْنِحَتَها لِطَالِبِ العِلْمِ رِضاً بما يَصْنَعُ وإنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لهُ مَن في السموات وَمَن في الأرض حتى الحِيْتانِ في الماءِ . وفَضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفضْلِ القَمَر على سائرِ الكواكِبِ . وإنَّ العُلَماءُ وَرَثةُ الأنبياءِ ، إنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا ديناراً ولا دِرْهَماً ، إنَّما وَرَّثُوا العِلْمَ فمَنْ أخَذَهُ أخذَ بحظٍّ وافِرٍ » . رواهُ أبو داوودَ والتِرْمِذِي وابنُ ماجَه وابنُ حِبَّانَ في صحيحِهِ والبَيْهَقِي .

٥ ـ وعن صَفوانَ بنِ عَسَّالٍ المُرادِي رضي اللهُ عنهُ قالَ : أتيتُ النَبيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ وهو في المسجدِ مُتَّكِىءٌ على بُرْدٍ لَهُ أحْمَرُ ، فَقُلْتُ لَهُ يا رَسُولَ اللهِ إنِّي جئتُ أَطْلُبُ العِلمَ ، فقال : « مرْحَباً بطالِبِ العِلْمِ إنَّ طالبَ العلمِ تحُفُّه الملائكةُ بأجْنِحَتِها ، ثم يَرْكَبُ بعضُهم بعضاً حتى يَبْلُغُوا السَّماءَ الدُنيا مِنْ محَبّتِهم لِمَا يَطْلُبُ » . رواه أحمدُ والطبراني بإسنادٍ جيّدٍ واللفظ لَهُ وابنُ حِبانَ في صحيحِهِ والحاكمُ وقال صحيحُ الاسنادِ . وَرَوَى ابنُ ماجَه نحوَه باختِصارٍ ويأتي لفظُهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

وَرُوِي عن أنسِ بنِ مالِكٍ رضي اللهُ عنه قالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ على كلِّ مسلمٍ وواضعُ العِلْمِ عندَ غيرِ أهلِهِ كمُقَلّدِ الخَنَازِيرِ الجَوْهَرَ واللؤلؤَ والذهب » . رواه ابن ماجه وغيره .

ورُويَ عن ابن عباس رضي اللهُ عنهما قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « مَنْ جاءهُ أجَلُهُ وهو يَطْلُبُ العِلْمَ لَقِيَ اللهَ ولَمْ يكُنْ بَينَهُ وبينَ النبيينَ إلاَّ دَرَجَةُ النُبُوَّةِ » . رواهُ الطَبَراني في الأوسط .

٦ - وَرُوِي عنْ سخبرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : مَرَّ رجلانِ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ وهو يذْكُرُ ، فقالَ اجْلِسَا فإنكما على خيرٍ ، فلمَّا قامَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وَتفرَّقَ عنه أصحابُهُ قاما فقالا يا رسولَ اللهِ : إنكَ قُلْتَ لَنا إجْلِسا فإنَكُمَا عَلَى خيرٍ أَلَنا خاصَّةً أَمْ لِلنَّاسِ عامَّةً . فقالَ : « ما مِنْ عَبْدٍ يَطْلُبُ العِلْمِ إلا كان كَفَّارَةَ ما تقدَّمَ » . رواه التِرمُذِي مختصراً والطَبَرانِي في الكبيرِ واللفظُ لَهُ .

٧ - وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اكْتَسَبَ مُكْتَسِبٌ مِثْلَ فَضْلِ عِلْمٍ يَهْدِي صاحِبَهُ إلى هُدَى ، أَوْ يَرُدَّهُ عنْ رَدَى وَمَا استقامَ دِيْنُهُ حتى يَسْتَقِيْمَ عَمَلُه » . رواه الطبراني في الكبيرِ واللفظُ والصغيرِ إلا أنه قَالَ فيهِ : حتى يَسْتَقِيْمَ عَقلُهُ . واسنادُهُما متقارِبٌ .

٨ - وَرُوِي عن أبي ذَرّ ، وأبي هُريرةَ رضي اللهُ عنهُما أَنهُما قالا : لبابٌ يتعلمُهُ الرجلُ أحَبُّ إلى الله مِنْ ألفِ رَكْعةٍ تَطوُّعاً وقالا : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم : « إذا جاءَ الموتُ لِطَالِبِ العِلْمِ وَهُوَ على هَذِهِ الحالةِ ماتَ وهو شهيدٌ » . رواه البزارُ والطبرانيُّ في الأوسطِ إلا أنه قالَ : خيرٌ له مِنْ ألفِ رَكْعة .

٩ - وعنْ أبي ذَرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « يا أبا ذرٍّ لأنْ تَغْدُو فتَعَلَّمَ آيةً مِنْ كِتَابِ اللهِ خيرٌ لك مِنْ أنْ تُصَلِّيَ مائةَ ركعةٍ وَلأَنْ تَغْدُوَ فَتعلَّمَ باباً مِن العِلمِ عُمِلَ بِهِ أوْ لمْ يُعْمَلْ بِهِ خيرٌ لكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ ألفَ رَكْعَةٍ » . رواه ابنُ ماجَه بإسْنادٍ حَسَنٍ .

١٠ - وعن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : سمعْتُ رسولَ اللهِ صلى

اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ : « الدنيا مَلْعونةٌ ملعونٌ ما فِيها إلا ذِكرَ اللهِ وما والاهُ وعالِماً وَمُتَعَلِّماً » . رواهُ التِرمُذِي وابنُ ماجَه والبَيْهَقِي وقالَ الترمذيُّ حديثٌ حَسَن .

١١ ـ وعن ابنِ مسعودٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « لا حَسَدَ إلا في اثنين : رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحَقِّ ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحِكْمةَ فهو يَقْضِي بِها وَيُعَلِّمُهَا » . رواهُ البخارِي ومسلم .

١٢ ـ وعن أبي موسى رضي اللهُ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بهِ مِنَ الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أصابَ أرضاً فكانتْ منها طائفةٌ طيبةٌ قَبِلَتْ الماءَ وأنْبَتَتْ الكلأَ والعُشْبَ الكثيرَ وكانَ منها أجادِبُ أمْسَكتْ الماءَ فنفعَ اللهُ بها الناسَ فشَرِبُوا منها وَسَقَوْا وزرعُوا ، وأصابَ طائفةً أُخرَى منها إنّما هي قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دينِ اللهِ تعالى ونفعَهُ ما بَعَثَني اللهُ بهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَل مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلك رأساً ولَمْ يقبلْ هُدَى اللهِ الذي أُرسلتُ بِهِ » . رواهُ البخارِي ومسلم .

شعراً :

واَعْلَمْ بأنَّ العِلمَ أرفعُ رُتْبَةً
وأَجَلُّ مكتسباً وأسْنَى مَفْخَرِ
فاَسْلُكْ سبيلَ المُقْتفينَ لهُ تَسُدْ
إنَّ السيادَةَ تُقْتَنَى بالدَّفْتَرِ

والـعـالِمُ المـدعُـوُّ حَـبْـراً إنَّمـا
سَـمَّـاه بـاسمِ الحَـبْـرِ حَمْـلُ المَـخْـبَـرِ
تَسْمُـوا إلى ذِي العِلْمِ أبْصَـارُ الـوَرَى
وَتَغُضُّ عن ذِي الجَهْلِ لاَ بَـلْ تَـزْدَرِي
وَمُـضَـمَّـرُ الأقـلامِ يَـبْـلغُ أهـلُهـا
مـا لـيسَ يُبْـلغُ بـالـعِـتَـاقِ الـضُّـمَّـرِ
والـعـلمُ لـيس بـنـافـعٍ أربـابَـهُ
مـا لمْ يُـفِـدْ عَـمَـلاً وَحُـسْـنَ تَـبَـصُّـرِ
فـاعْـمَـلْ بعلْمِـكَ تُـوفِ نَفْسَـكَ وَزنها
لا تَـرْضَى بـالتَّضْيِيْـعِ وَزْنَ المَخْسَـرِ

اللهمَّ وفقْنا لمعرفَتِك بأسمائِك وصِفاتِك وأفعالِك وآرزقْنا الرِّضَا بِقضَائِكَ وَقَدَرِكَ والتوكُّلَ عليكَ في كُلِّ ضيقٍ وَسَعةٍ وشدةٍ وَرَخَاءٍ وكلِّ ما تيسَّرَ واغفِرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعَلى آله وصحبه أجمعين .

(فصـــل ١١)

١٣ ـ عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « إنَّ مِمّا يلحَقُ المؤمنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَناتِهِ بعدَ موتِهِ عِلْماً علَّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَدَاً صالِحاً تركَهُ ، أوْ مصْحَفاً وَرَّثَهُ ، أو مسجداً بناه أو بيتاً لابنِ السبيلِ بناهُ أو نهراً أجْرَاهُ أو صَدَقةً أخرجَها مِنْ مالِهِ في صِحّتِهِ وحَياتِهِ تلحقُهُ مِنْ بعدِ موتِهِ » . رواهُ ابنُ ماجَه باسنادٍ حسنٍ والبَيهَقيُّ .

١٤ ـ وعن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلاّ مِنْ ثَلَاثٍ : صدقةٌ جاريةٌ أو عِلمٌ ينتَفِعُ الناسُ بهِ ، أوْ ولدٌ صالحٌ يدعُو لَهُ » . رواهُ مسلمٌ وغيرُهُ .

١٥ ـ وعن أبي أُمامَةَ قالَ : ذُكِرَ لِرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ رجلانِ : أحدُهُمـا عابِـدٌ ، والآخرُ عـالِمٌ ، فقالَ عليـهِ أفضلُ الصـلاةِ والسلامِ : « فضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلِي على أدْناكُمْ » ، ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « إنّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ السمواتِ والأرضِ حتى النملة في جُحْرِهَا ، وحتى الحوتَ ليُصَلّونَ على مُعَلِّمِ الناسِ الخيرَ » . رواه الترمذي وقالَ حديثٌ حسَنٌ صحيحٌ . وَرَواهُ البَزّارُ مِنْ حديثِ عائشة مختصَراً قال :معلمُ الخيرِ يستغفرُ لهُ كلُّ شيءٍ حتى الحيتانُ في البحر .

١٦ ـ وَرُوِيَ عن أبي هُريرةَ عن النبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ : « ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في دينٍ وفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ

من ألفِ عابدٍ ولِكّلِ شيءٍ عِمادٌ ، وعِمادُ هذا الدين الفقهُ ، وقالَ : أبو هريرةَ لأنْ أجلسَ ساعةً فأفقهَ أحبُّ إليّ مِنْ أنْ أُحْيِيَ ليلةَ القدْر . رواهُ الدارَ قُطني والبيهقيُّ إلا أنَّـهُ قال : أحبُّ إلي مِنْ أنْ أحيِيَ ليلةً إلى الصَّباح ، وقال . المحفوظُ هذا اللفظُ منْ قولِ الزُهْرِي .

١٧ ـ وعنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ مرَّ بسوقِ المدينةِ فوقَفَ عليها ، فقالَ يا أهلَ السُوقِ ما أَعْجزَكُمْ ؟ قالوا : وما ذاكَ يا أبا هريرةَ ؟ قالَ ذاكَ مِيْرَاثُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، يُقْسَمُ وأنتُم هَاهُنا ، ألا تذْهَبُونَ فتأخُذُون نَصِيْبَكُم مِنهُ . قالُوا وأينَ هُوَ؟ قال في المَسْجدِ فَخَرَجُوا سِرَاعاً وَوَقفَ أَبُو هُريرةَ لهمْ حَتَّى رَجَعُوا فقالَ لهمْ : مالكُمْ ؟ فقالوا يا أبا هُريرةَ قد أتيْنَا المسجدَ فدخَلْنا فيهِ فلمْ نَرَ فيه شيئاً يُقسَمُ فقال لهم أبو هريرة : وما رأيْتُمْ في المسجدِ أحداً قالوا بلى رَأينا قوماً يُصلُّون ، وقَوماً يَقرءون القُرْآنَ وقوماً يَتذاكَرُون الحَلالَ والحرامَ ، فقال أبو هريرةَ : ويحُكُمْ فذاكَ مِيراثُ محمدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . رواهُ الطبرانيُّ في الأوسَطِ باسنادٍ حَسَنٍ .

١٨ ـ وعن جابرٍ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَم العِلْمُ عِلْمانِ : عِلْمٌ في القَلْبِ فذاكَ العِلْمُ النافِعُ وعِلْمٌ على اللسانِ فذاك حُجَّةُ اللهِ على ابنِ آدمَ . رواه أبو بكرٍ الخطيبُ باسنادٍ حَسَن . ورواهُ ابنُ عبدِ البَرّ النَمِري في كتابِ العلمِ عن الحَسَن مُرْسَلاً باسنادٍ صحيحٍ .

١٩ ـ وعن زِرّ بن حُبَيْش قالَ أَتَيْتُ صَفْوَانَ بنَ عَسَّالٍ المُرَادِيّ رضي اللهُ عَنْهُ قالَ : ما جاء بِكَ ؟ قُلْتُ : العِلْمُ . قال فإنّي سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : ما مِنْ خارجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ في طَلَبِ العِلْمِ

إلّا وَضَعَتْ لهُ الملائكةُ أجْنحَتَها رِضاً بِمَا يَصْنَعُ . رَواهُ التِرْمذيَّ وصَحَّحه وابنُ ماجَه واللفظُ لهُ ، وابنُ حِبّانَ في صحيحِهِ والحاكِمُ وقالَ صحيحُ الإسنادِ .

وَرَوَى عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دخلَ المسجِدَ فإذا هُوَ بِمَجْلِسَيْنِ أحدُهُما يذْكرون اللهَ تعالى والآخرون يَتَفَقَّهُون ، فقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ كِلا مَجْلسَينِ على خَيْرٍ وأَحَدُهما أحَبُّ إليّ مِنْ صاحِبِهِ أمَّا هؤلآءِ فَيَسْألُونَ اللهَ تعالى وَيَذْكُرُوْنَه فإنْ شَاءَ أعْطَاهُمْ وإنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ وأما المَجْلِسُ الآخَرُ فَيَتَعَلَّمُون الفِقْهَ وَيُعَلِّمُونَ الجاهِلَ وإنما بُعِثْتُ مُعَلِّماً وَجلسَ إلى الفقهِ ورُوِي عن النبيِ صلى اللهُ عليه وسلمَ أنهُ قَالَ خِيَارُ أُمَّتِي عُلَماؤُها وَخِيارُ عُلَمَائِها فُقَهَاؤُهَا .

شــعراً :

تَـعَـلَّمْ فَـإنَّ الـعِـلْمَ زيـنٌ لأهْـلِهِ
وَفَـضْـلٌ وَعـنـوانٌ لِـكُـلِّ المَحَـامِـدِ
وكُـنْ مُـسْـتَـفِـيْـداً كُـلَّ يـومٍ زِيَـادَةً
من العِلْمِ واسْبَـحْ في بُحُورِ الفَـوَائِـدِ
تَـفَـقَّـهْ فَـإنَّ الـفِـقْـهَ أَفْـضَـلُ قـائِـدٍ
إلى الـبِـرِّ والـتـقْـوَى وأَعْـدَلُ قـاصِـدِ
هُـوَ الـعَـلَمُ الهَـادِي إلى سُـنَنِ الهُـدَى
هُـوَ الحِصْنُ يُنْجِي مِنْ جَمِيْعِ الشَّـدائِـدِ
فَـإنَّ فَـقِـيْـهـاً وَاحِـداً مُـتَـورّعـاً
أَشَـدُّ عـلى الشَّيْـطانِ مِن أَلْفِ عَـابِـدِ

آخر : ذَوو العِلْمِ في الدنيا نُجومُ هِـدَايةٍ
إذا غـابَ نَـجْـمٌ لاحَ بـعـدُ جَـدِيـدُ
بِهِـمْ عَـزَّ دِيـنُ الـلهِ طُـرّاً وهُـمْ لـهُ
مَـعَـاقِـلُ مِـنْ أَعْـدَائِـهِ وَجُـنُـودُ

اللهمَّ طَهِّر قُلوبَنا بالتَّوبةِ النَّصُوحِ مِنَ الفَسادِ واجْمَعْ قُلُوبَنَا على محبتِكَ وخِشْيَتِكَ واهدِنا إلى أقْرَبِ الطُرقِ إليكَ وهَبْ لنا من مواهِبِكَ الجِسامِ ما يكونُ وسيلةً إلى حُلولِ دارِ السلامِ وآغفِرْ لنا ولوالدِيْنَا ولجميعِ المسلمينَ برَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

(فصــل ١٢)

قال ابنُ القَيّمِ رَحِمَهُ اللهُ :

الأصلُ الأولُ في العِلْمِ وَفَضْلِهِ وشرَفِهِ وَبَيانِ عُمُومِ الحاجَةِ إليهِ وَتَوقُفِ كَمالِ العبدِ ونجاتِهِ في معاشِهِ وَمَعادِهِ عليهِ .

قال اللهُ تعالى : ﴿ شهد اللهُ أنه لا إلهَ إلا هُوَ والملآئكةُ وَأُولوا العلمِ قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلا هُوَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ استشْهدَ سبحانه بأولي العِلمِ على أَجَلِّ مشهودٍ عليهِ وهُوَ توحيدُهُ فقالَ ﴿ شهدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلا هو والملآئكةُ وأولوا العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ ﴾ وهذا يدلُّ على فضْلِ العِلْمِ وأهلِهِ مِنْ وُجوهٍ . أَحدُها استشهادُهُم دونَ غيرِهِمْ من البَشَر ، والثاني اقترانُ شهادَتِهِمْ بِشَهادِتِهِ ، والثالثُ اقترَانُها بشهادَةِ ملائِكتِهِ ، والرابعُ أنّ في ضِمْنِ هذا تزْكِيَتَهُم وَتَعْدِيلَهُمْ فإنّ اللهَ لا يستشْهِدُ من خلقِهِ إلا العُدولَ ومنْهُ الأثَرُ المَعْروفُ عن النَّبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يحْمِلُ هذا العلمَ مِنْ كلِّ خَلَفِهِ عُدُوله ينفُونَ عَنْهُ تحريفَ الغالين وانتحالَ المُبْطِلِينَ وَتَأويلَ الجاهلين .

والخامسُ: أنـهُ وَصَفَهُمْ بكـونِهِمْ أُولى العِلْمِ وهـذا يـدُلُّ عـلَى اختِصاصِهِمْ بهِ وأنهُمْ أهلُه وأصحابُهُ ليس بمستعارٍ لهُمْ .

السادسُ : أنه سبحانه استشهد بنفسِهِ وهو أجلُّ شاهدٍ ثم بخيارِ خلقِهِ وهم ملائكتُهُ والعلماءُ مِنْ عبادِهِ ويكفيهِمْ بهذا فضلاً وَشَرَفاً .

السابعُ : أنهُ آستشهدَ بهِمْ على أجَلِّ مشهودٍ بِهِ وأعظمِهِ وأكبَرِهِ وهو شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ والعَظِيمُ القَدْرِ إنَّما يَسْتَشْهِدُ على الأمرِ العظيمِ أكابِرَ الخَلْقِ وساداتِهِمْ .

الثامنِ : أنه سُبحانَهُ جَعَلَ شَهادَتَهُمْ حُجَّةً عَلى المنكِرِينَ فَهُمْ بِمَنْزِلَةِ أدِلَّتِهِ وآياتِهِ وَبَرَاهِينِهِ الدالة على توحيدِهِ .

التاسع أنه سبحانه أفردَ الفعلَ المتضمنَ لِهذِهِ الشهادَةِ الصادرةِ منهُ ومِنْ ملائكتِهِ ومِنْهُمْ ولَمْ يعطِفْ شهادَتَهُمْ بِفِعْلٍ آخَرَ غيرَ شهادتِهِ .

وهذا يدلُ على شدةِ ارتباطِ شهادتِهِمْ بشهادتِهِ فكأنَّهُ سبحانَه شهِدَ لِنفْسِهِ بالتوحيدِ على ألسِنَتِهِم وأنْطَقَهُم بهذِهِ الشهادةِ فكانَ هو الشاهدَ بها لنفسِهِ إقامَةً وإنْطاقاً وَتَعْلِيماً وهُمْ الشاهِدونَ بِها لَهُ إقْراراً واعتِرَافاً وَتَصْديقاً وإيماناً .

العاشرُ : أنه سبحانَهُ جَعَلَهُمْ مؤدِّينَ لحقِّهِ عندَ عبادِهِ بهذِهِ الشهادةِ فاذا أدَّوْهَا فقدْ أدَّوا الحقَّ المشهودَ بهِ فثبتَ الحقُّ المشهودُ بهِ فَوَجَبَ على الخَلْقِ الاقرارُ بِهِ وكانَ ذلك غايةَ سَعَادَتِهِمْ في مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ وكلُّ مَنْ نالهُ الهُدَى بشهادتِهِم وأقرَّ بهذا الحقِّ بسببِ شهادتِهِم فلهُمْ مِنَ الأجْرِ مثلُ أجْرِهِ أيضاً فهذِهِ عشرة أوجُهٍ في هذه الآيةِ .

الحادي عشر : في تفضيلِ العِلْمِ وأهْلِهِ أنهُ سبحانه نَفَى التسْوِيَةَ بينَ أهْلِهِ وبينَ غيرِهِمْ كما نفى التسويةَ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار . فقال تعالى ﴿ قُلْ هل يستوي الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يعلمونَ ﴾ كما قالَ تعالى ﴿ لا يسْتوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجَنّةِ ﴾ وهذا يَدُلُّ على غايةِ

فضْلِهِمْ وَشَرَفِهِمْ .

الوجهُ الثاني عَشَر: أنَّهُ سبحانَهُ جعَلَ أهلَ الجهلِ بمنزلةِ العُمْيانِ الذينَ لا يُبْصِرونَ فقالَ ﴿ أَفَمَنْ يعلمُ أنَّما أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبّكَ الحقُّ كمَنْ هو أعْمَى ﴾ فما ثَمَّ إلا عالِمٌ أو أعْمَى وَقَدْ وَصَفَ سُبْحانَهُ أهلَ الجَهْلِ بأنَّهمْ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ في غيرِ مَوْضِعٍ مِنْ كتابِهِ .

الوجهِ الثالثَ عَشَرَ : أنّهُ سُبْحانَهُ أخبَرَ عن أُولي العِلْمِ بأَنَّهُمْ يَرَوْن أنَّ مَا أُنزلَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ حَقٌّ وجعل هذا ثَنَاءً عليهِمْ واستِشْهاداً بهِمْ . فقالَ تعالَى ﴿ وَيَرَى الذينَ أوتوا العلمَ الذي أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ ﴾ .

الوجهُ الرابعَ عَشَرَ : أنهُ سبحانَه أمَرَ بسُؤالِهِمْ والرجوعِ إلى أقوالِهِمْ وجعَلَ ذلكَ كالشهادةِ مِنْهُمْ . فقال ﴿ وما أرْسلْنا قَبْلَكَ إلَّا رِجالاً نُوحِي إليهم فاسْئلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُون ﴾ وأهلُ الذِكْرِ هُمْ أهلُ العِلْمِ بِما أُنزِلَ على الأنبياءِ .

الوجهُ الخامسَ عَشَرَ : أنه سبحانه شَهِدَ لِأَهْلِ العلمِ شَهَادَةً في ضِمْنِها الاستِشْهادُ بهِمْ على صِحَّةِ ما أَنزَلَ اللهُ على رَسولِهِ فقالَ تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أبتغِي حَكَماً وهو الذي أَنزَلَ إليكمُ الكتابَ مُفَصَّلاً والذين آتيناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أنهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالحقِّ فلا تكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِين ﴾ ،

الوجهُ السادسَ عَشَرَ: أنهُ سبحانه سَلَّى نَبيَّهُ بإيمانِ أهلِ العِلْمِ بهِ وأمَرَهُ أنْ لا يَعْبَأَ بالجاهلين شيئاً . فقال تعالى : ﴿ وقُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ على الناسِ على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تنزيلاً قُلْ آمنوا بِهِ أو لا تؤمنوا إنَّ الذينَ أُوتوا

العلمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عليهِمْ يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّداً ويقولونَ سُبْحانَ رَبّنا إنْ كانَ وعدُ رَبِّنا لمفعولاً ﴾ وهذا شَرَفٌ عظيمٌ لأهْلِ العلمِ وتحتَه أنَّ أهلَهُ العالمونَ قد عَرَفوهُ وآمَنُوا بهِ وَصَدَّقُوا فسواءٌ آمنَ به غيرُهُم أوْ لا .

الوجْهُ السابَعَ عَشَرَ : أنهُ سُبحانَهُ مَدَحَ أهلَ العِلْمِ وأثنَى عَليهِمْ وَشَرَّفَهُمْ بأنْ جَعَلَ كِتابَهُ آياتٍ بيناتٍ في صُدورِهِمْ وهذهِ خاصةٌ وَمَنْقَبَةٌ لَهُمْ دونَ غيرِهِمْ . فقال تعالى ﴿ وكذلك أنزلنا الكتابَ فالذين آتيناهُمُ الكتابَ يؤمِنُونَ بهِ ومِنْ هَؤلاءِ مَنْ يؤمِنُ بهِ وَمَا يَجْحَدُ بآياتِنَا إلا الكافِرون ﴾ .

وما كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِيْنكَ إذاً لارتابَ المُبْطِلونَ بَلْ هُوَ آياتٌ بيْناتٌ في صُدورِ الذين أوتوا العِلْمَ وما يجحدُ بآياتِنا إلا الظالمونَ ﴾ وَسَواءٌ كانَ المعنَى أنَّ القرآنَ مُسْتَقِرٌ في صُدورِ الذين أوتوا العِلْمَ ثابتٌ فِيهَا محفوظٌ وهو في نفسِهِ آياتٌ بَيناتٌ فيكونُ أخبَرَ عنهُ بِخَبَرَيْنِ . أحدُهُما أنه آياتٌ بيناتٌ . الثاني أنهُ محفوظٌ مُسْتقرٌ ثابتٌ في صدورِ الذين أوتوا العلمَ . أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم أي كونُه آياتٍ بيناتٍ معلومٌ لهمْ ثابتٌ في صدورِهِمْ والقَوْلانِ مُتَلازِمانِ لَيْسَا بمُخْتَلِفَيْنْ . وعلى التَّقْديرَيْنِ فهوَ مدْحٌ لَهُم وثَناءٌ عليهم في ضِمْنِهِ الاستشهادُ بهِمْ فتأمَّلْهُ .

الوجهُ الثامنَ عَشَرَ : أنه سبحانه أمرَ نَبيَّهُ أنْ يَسْألَهُ مَزِيْدَ العِلْمِ فقال تعالى ﴿ فتعالَى اللهُ الملكُ الحقُّ ولا تعْجَلْ بالقرآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضَى إليكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبي زِدْني عِلْماً ﴾ وكفَى بهذَا شَرَفاً لِلْعِلْمِ أنْ أَمَرَ نبيَّهُ أنْ يَسْألَهُ المزيدَ مِنْهُ .

الوجهُ التاسِعَ عَشَرَ أنَّهُ سُبْحانَه أخبرَ عنْ رَفْعِهِ دَرَجاتِ أهلِ العلمِ والإيمانِ خاصَّةً . فقال تعالى ﴿ يا أيُها الذين آمنوا إذا قيلَ لكُمْ تفسَّحُوا في المجالِسِ فٱفسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لكمْ وإذا قِيلَ انشُزُوا فٱنشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الذين آمَنوا منكم والذين أُوتوا العِلْمَ درَجَاتٍ واللهُ بما تَعمَلونَ خبير ﴾ .

قَصِيْدةٌ في الحَثِّ على طَلَبِ العِلْمِ :

يـا تـارِكـاً لِـمَـرَاضِـي الـلهِ أَوطَـانـاً
وسـالِكـاً في طَـرِيقِ العِلمِ أَحْـزَانَـا
كُنْ بـاذِلَ الَجدِّ في علمِ الحديثِ تَنَـلْ
كُـلَّ العُلومِ وَكُنْ بـالأَصْـلِ مُشْتَـانَـا
فـالـعِـلْمُ أَفْـضَـلُ مَـطْلُوبٍ وطـالـبُـهُ
مِن أكمـلِ النـاسِ مِيـزاناً وَرُجْحـانَـا
والعِلمُ نـورٌ فكُنْ بـالعلمِ مُعْتَـصِمـاً
إنْ رُمْتَ فَـوْزاً لَـدَى الـرحمنِ مَولانَـا
وهــو الـنجـاةُ وفـيـهِ الخـيـرُ أجمـعُـهُ
والـجـاهلُون أخـفُّ الـنـاسِ مِـيـزانَـا
والعِلمُ يَـرفَـعُ بَيتـاً كـان مُنْخَـفِضـاً
والجهـلُ يَخفِضُـهُ لـو كـان مـا كـانَـا
وأرفـعُ الـنــاسِ أهـلُ العـلمِ مَنْـزِلَـةً
وأوضـعُ النَـاسِ مَنْ قـد كـان حَيْـرانَـا
لا يَـهْـتَـدي لِـطَـريقِ الحقِ مِنْ عَـمَـهٍ
بـلْ كـانَ بـالجهـلِ مِمَّن نـال خُسـرانَـا

تلقـاهُ بينَ الـوَرَى بـالجَهـلِ مُنْكسِـراً
لا يَـدْرِ مَـازانَـهُ في النـاسِ أوشَـانَـا
والـعِلمُ يَـرْفَعُـهُ فـوقَ الـوَرَى دَرَجَـاً
والنـاسُ تَعْـرِفُـهُ بـالـفَضْـلِ إذْعَـانَـا
وطـالـبُ الـعِلمِ إنْ يَـظْفَـرْ بِبُغْيَتِـهِ
يَـنـالُ بـالـعلمِ غُـفْـرانـاً وَرِضْـوانَـا
فـاطلبْـهُ مُجْتَهِـداً مـا عِشْتَ مُحْتَسِبـاً
لا تَبْـتغِي بَـدَلاً إنْ كُـنْـتَ يَقْـظَانَـا
مَنْ نَـالَـهُ نَـالَ في الـدَّارينِ مَنْـزِلـةً
أو فـاتَـهُ نَـالَ خُـسـرانـاً وَنُقْـصـانَـا
وبـاذلُ الـجِـدِّ فـي تـحـصيلِهِ زَمَـنـاً
ولَمْ يكنْ نـالَ بعـدَ الجِـدِّ عِـرْفـانَـا
فـلنْ يَـضِيـعَ لـهُ سَـعْـيٌ ولا عَـمَـلٌ
عـنْـدَ الإلَـهِ ولا يُـولِيـهِ خُـسْـرانَـا
فـطالبُ العِـلمِ إنْ أصْفَـى سَـريـرَتَـهُ
يَـنـالُ مِـنْ رَبّـنِـا عَـفْـوَاً وَرِضْـوانَـا
فـالـعِلمُ يَـرْفَعُـهُ في الـخُلْدِ مَـنْـزِلَـةً
والجَهَـلُ يُصْليهِ يـومَ الحَشْـرِ نِيـرانَـا
والجَهَـلُ في هـذهِ الـدُنيـا يُنَقِّصُـهُ
والـعلمُ يـكْسُـوْهُ تـاجَ الـعِـزِ إعْـلانَـا
وإنْ تُـرِدْ نَهْـجَ هـذا العِلْمِ تَسْلُكُـهُ
أو رُمْتَ يومـاً لمـا قـد قُلْت بُـرْهـانَـا

فَـأَلْقِ سَمْعـاً لمـا أُبْـدِي وكُـنْ يَقِـظاً
ولا تـكنْ غـافِـلاً عـن ذاكَ كَسْـلانَـا

قـد أَلَّفَ الشيـخُ في التـوحيـدِ مُخْتَصَـراً
يَكْفِي أَخَـا اللُبِّ إيضَـاحـاً وَتِبْـيـانَـا

فيـهِ البيـانُ لِتَـوْحِـيـدِ الإلـهِ بمـا
قـد يَفعـلُ العبـدُ للطاعـاتِ إيمـانَـا

حُـبّـاً وَخَـوفـاً وَتَـعْـظِيمـاً لـهُ وَرَجَـا
وَخَـشْيـةً مـنـهُ لِلرَّحْـمـنِ إذْعـانَـا

كـذاكَ نَـذْراً وَذَبْـحـاً واسْتِـغـاثَـتُـنـا
والاسـتـعـانـةُ بـالـمـعـبـودِ مَـوْلانَـا

وغـيـرُ ذلـكَ مـمَّـا كـان يَـفْـعَـلُهُ
لِـلـهِ مِـنْ طـاعـةٍ سِـرّاً وإعْـلانَـا

وفيـهِ تَـوْحيـدُنَـا رَبَّ الـعِبـادِ بـمـا
قـد يَـفعـلُ اللهُ أحْكـامـاً وإتْـقـانَـا

خَـلْقـاً وَرِزْقـاً وإحْـيـاءً وَمَـقْـدُرةً
بـالاخْتِـرَاعِ لِمَـا قـد شـاءَ أو كـانَـا

وَيَخْـرُجُ الأمـرُ عنْ طَـوْقِ العَبـادِ لـهُ
وذاك مِـنْ شـأنِـهِ أَعْـظِمْ بـهِ شـانَـا

وفـيـهِ تـوحيـدُنـا الـرحـمنَ أنَّ لَـهُ
صِـفـاتِ مَـجْـدٍ وأسْـمـاءً لِـمَـوْلانَـا

تِسْـعٌ وَتِسعُـونَ إسْمـاً غيـرَ مـا خَفِيَتْ
لا يَسْتَـطِيْـعُ لهـا الانسـانُ حُسْبـانَـا

مِمَّا بِهِ آسْتأْثَرَ الرحمنُ خالِقُنا
أو كان علَّمَهُ الرحْمنُ إنسانَا
نُمِرُّها كَيْفَ جَاءَت لا نُكَيِّفُها
بَلْ لا نُؤَوِّلُها تأوِيْلَ مَنْ مَانَا
وَفِيهِ تِبْيانُ إشْراكٍ يُناقِضُهُ
بل مَا يُنَافِيهِ مِن كُفْرانِ مَنْ خانَا
أَوْ كَانَ يَقْدَحُ فِي التَّوحْيْدِ مِنْ بِدَعٍ
شَنْعاءَ أحْدثها مَنْ كان فَتَّانَا
أوِ المَعَاصِي الَّتِي تُزْرِي بِفَاعِلِها
مِمَّا يُنَقِّصُ تَوْحِيْداً وإيمانَا
فَسَاقَ أنْواعَ تَوْحِيْدِ الإلهِ كَمَا
قد كانَ يَعْرِفُهُ مَنْ كانَ يَقْظَانَا
وَسَاقَ فيهِ الذي قد كان يَنْقُضُهُ
لِتَعْرِفَ الحقَّ بالأضْدَادِ إمْعَانَا
مُضَمِّناً كُلَّ بابٍ مِنْ تَرَاجِمِهِ
مِنَ النُصُوصِ آحَادِيثاً وَقُرآنَا
فالشيخُ ضَمَّنَهُ ما يَطْمَئِنَّ لَهُ
قَلْبُ الموحِّدِ إيْضَاحاً وَتِبْيانَا
فاشْدُدْ يَدَيْكَ بهِ فِي الأصْلِ مُعْتَصِماً
يُورِثْكَ فِيْمَا سِوَاهُ اللهُ عِرْفانَا
وانْظُرْ بِقَلْبِكَ فِي مَبْنَى تَراجِمِهِ
تَلقَى هُنالِكَ لِلتَّحْقِيْقِ عُنْوانَا

وَلِلْمَسَائِلِ فَانْظُرْ تَلْقَهَا حِكَماً
يَزْدَادُ مِنهنَّ أَهْلُ العِلْمِ إتْقَانَا
وَقُلْ جَزَى اللهُ شيخُ المسلمينَ كَما
قَدْ شَادَ لِلمِلَّةِ السَّمْحَاءِ أَرْكَانَا
فقامَ لِلهِ يَدْعُو النَاسَ مُجْتَهِداً
حتى استجابُوا لَهُ مَثْنَى وَوُحْدانَا
وَوَحَّدُوْا اللهَ حَقّاً لا شَرِيْكَ لَهُ
مِنْ بَعْدِ مَا انْهَمَكُوا في الكُفْرِ أزْمَانَا
وأَصْبحَ الناسُ بعدَ الجهلِ قَدْ عَلِمُوا
وطَالَ ما هَدَمُوا لِلدِّين بُنْيانَا
وأَظْهَرَ اللهُ هَذا الدِينَ وانْتَشَرَتْ
أَحْكامُهُ في الوَرَى مِنْ بَعْدِ أَنْ كَانَا
بالْجَهْلِ والكُفْرِ قَدْ أَرْسَتْ مَعَالِمُهُ
لا يَعْرِفُ الناسُ إلَّا الكُفْرَ أَزْمَانَا
يَدْعُونَ غيرَ الإلهِ الحقّ مِنْ سَفَهٍ
وَيَطْلُبُوْن مِنَ الأمواتِ غُفْرانَا
وَيَنْسِكُونَ لِغَيْرِ اللهِ ما ذَبَحُوا
وَيَنْذِرونَ لغيرِ اللهِ قُرْبَانَا
وَيَسْتغِيْثُونَ بالأَمْواتِ إنْ عَظُمَتْ
وأَعْضَلَتْ شِدَّةٌ مِنْ حادِثٍ كانَا
وَيَنْدِبُونَ لَهَا زيداً لِيَكْشِفَها
بَلْ يَنْدِبُونَ لَها تاجاً وَشُمْسَانَا

فَـزَالَ ثَـمَّ بِهَـذَا الشيـخِ حِينَ دَعَـا
مَنْ صَـدَّ أَوْ نَـدَّ عَنْ تَـوْحِيْـدِ مَـوْلانـا
فَلَيْسَ مِـنْ أَحَـدٍ يَـدْعُـو وَلـيجَـتَـهُ
يـومـاً بـنـجْـدٍ ولا يَـدْعُـونَ أَوْثـانـا
بَـلِ الـدُّعـا كـلُّهُ والـدِّينُ أجْمعُـهُ
لِـلِهِ لا لِـسِـوَى الـرَّحْـمـنِ إيْـمَـانـاً
فـاللهُ يُعْلِيـهِ في الفِـرْدَوسِ مَنْـزِلَـةً
فَضْـلاً وَجُـوداً وَتَكْـريـمـاً وإحْسَـانـا
والـلهُ يُـوْلِـيـهِ أَلْـطَافـاً وَمَـغْـفِـرَةً
ورحْـمـةً مِـنْـهُ إحْـسَـانـا وَرِضْـوَانَـا
ثم الصـلاةُ على المَعْصُـومِ سـيِّـدِنـا
أزْكَـى الـبـرِيـةِ إيْـمـانـاً وعِـرْفـانـا
مـا نَـاضَ بَـرْقٌ ومـا هبَّ النّسِيْمُ وَمَـا
مسَّ الـحَـجِيْـجُ لِـبَـيْـتِ الـلّهِ أرْكـانـا
أَوْ قَهْقَـهَ الـرَّعْـدُ في هَـدْبـاءَ مُـدْجِنَـةٍ
أوْ نـاحَ طيـرٌ عَلى الأغصـانِ أزْمـانـا
والآلِ والـصَّـحْـبِ ثُمَّ الـتـابعيـنَ لـهُـمْ
عـلى المَـحَـجَّـةِ إيْـمـانـاً وإحْـسَـانـا

اللهمَّ هبْ لَنَا ما وَهَبْتَهُ لأَوليائِكَ وَتَوَفَّنا وأنت راضٍ عَنَّا وقد قَبِلْتَ اليسيرَ مِنّا واجعلْنا يا مولانا من عبادِكَ الذين لا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزَنونَ واغْفِرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أرْحمَ الراحِمينَ وصلى اللهُ على محمّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجْمعين .

(فصـــل ١٣)

وقدْ أخْبَرَ سبحانَهُ في كتابِهِ برَفْعِ الدرجاتِ في أربعةِ مواضِعَ ، أحدُها هذا . والثاني قوْلُهُ ﴿ إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم واذا تُلِيَتْ عَلَيهم آياتُه زادتْهُم إيماناً وعلى رَبّهِمْ يَتَوَكّلُون ، الذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أولئك هُمُ المؤمنـون حَقاً لهمْ درجاتٌ عندَ رَبِّهِمْ ومَغْفِرَةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾ . (والثالثُ) قولُه تعالى ﴿ ومَنْ يأْتِهِ مؤمناً قد عَمِلَ الصالحاتِ فأولئكَ لهُمُ الدرجاتُ العُلَى ﴾ (والرابعُ قولُه تعالى ﴿ وفَضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجْراً عظيماً درجاتٍ منهُ ومغفِرةً وَرَحْمَة ﴾ فهذِهِ أربعةُ مواضِعَ في ثلاثةٍ مِنْها الرِّفَعةُ بالدرجاتِ لِأَهْلِ الرِّفْعةِ بالجِهاتِ فعادَتْ رِفْعَةُ الدرجاتِ كلِّهَا إلى العِلْم والجهادِ اللذَيْنِ بهما قِوامُ الدِّيْنِ .

الوجهُ العشرون : أنه سُبْحانَه آسْتَشْهَدَ بأهْلِ العِلْمِ والإيمانِ يومَ القِيامَةِ على بُطْلانِ قَوْلِ الكُفَّارِ فقالَ تعالى ﴿ ويَوْمَ تقومُ الساعةُ يُقْسِمُ المُجْرِمونَ مَا لبِثُوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُؤْفَكونَ وقال الذين أُوتوا العِلْمَ والإيْمانَ لقدْ لَبِثْتُمْ في كِتَابِ اللهِ إلى يَوْمِ البَعْثِ فهذا يومُ البَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كنتمْ لا تعلمونَ ﴾ .

الوجهُ الحادِي والعشرونَ أنَّهُ سُبْحانَه أخْبَرَ أنهُمْ أهْلُ خَشْيَتِهِ بل خَصَّهمْ مِنْ بينِ الناسِ بذلك . فقال تعالى ﴿ إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العلماءُ إنَّ اللهَ عزيزٌ غفورٌ ﴾ .

وهذا حَصْرٌ لِخَشْيَتِهِ في أُولي العِلْم . وقال تعالى ﴿ جزاؤهُم عندَ رَبِّهِمْ جنات عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ خالدِينَ فِيها أَبَدَاً رضِيَ اللهُ عنهُمْ وَرَضوا عنه ذلك لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ أَهلَ خَشْيَتِهِ هُمُ العُلَماءُ . فَدَلَّ على أنَّ هذا الجزاءَ المذكورَ للعلماءِ بمجموعِ النَّصَّيْنِ . وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ كَفَى بخشيةِ اللهِ عِلْماً وَكَفَى بالاغْتِرَارِ باللهِ جَهْلاً .

الوجهُ الثاني والعشرونُ : أَنَّهُ سبحانَه أَخْبَرَ عنْ أَمْثَالِهِ التي يضرُبها لِعبادِهِ يَدُلُّهم على صِحَّةِ ما أخبرَ بِهِ أنَّ أهلَ العلمِ هم المُنْتَفِعُونَ بِها المختصُّونَ بعِلْمِهَا فقالَ تعالَى ﴿ وتلكَ الأمثالُ نضرِبُهَا للنّاسِ وما يَعْقِلُها إلا العَالِمونَ ﴾ وفي القرآنِ بِضْعةٌ وأربعونَ مَثَلاً وكان بعضُ السَّلَفِ إذا مَرَّ بِمَثَلٍ لا يفهَمُهُ يَبْكي ويقولُ لَسْتَ مِنَ العالمِين .

الوجهُ الثالثُ والعشرون : أَنَّهُ سُبْحانَهُ ذَكَرَ مُناظَرةَ إبراهيمَ لأبيهِ وَقَوْمِهِ وَغَلَبتِهِ لَهُمْ بالحُجةِ وأخبَرَ عن تفضيلِهِ بذلكَ وَرْفعِهِ دَرجَتَهُ بعلمِ الحُجَّةِ فقالَ تعالَى عُقَيْبَ مُناظَرَتِهِ لِأَبيهِ وَقَومِهِ في سُورةِ الأنعام ﴿ وتلكَ حُجَّتُنَا آتَيْناها إبراهيمَ على قَومِهِ نَرفعُ درجاتٍ مَنْ نَشاءُ إنَّ رَبَّكَ حكيمٌ عليمٌ ﴾ قال زيدُ بنُ أَسْلَمَ رَضِيَ اللهُ عنهُ نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاءُ بعلمِ الحُجَّةِ .

الوجهُ الرابعُ والعشرونَ : أنَّه سُبْحانَهُ أخبَرَ أنَّهُ خَلَقَ الخَلْقَ ووضَعَ بيتَهُ الحرامَ والشهرَ الحرامَ والهَدْيَ والقَلائدَ لِيُعْلِمَ عِبادَهُ أنهُ بكلِ شيءٍ عليمٌ وعلى كلِ شيءٍ قديرٌ فقالَ تعالَىَ ﴿ اللّهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ وَمِن الأرضِ مثلَهُنَّ يَتنَزَّلُ الأمرُ بينَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ عَلَى كلِّ شَيءٍ قَدِير

وَأَنَّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكلِّ شَيءٍ علماً﴾ فَدَلّ على أنّ علمَ العِبادِ بربِّهِمْ وَصِفاتِهِ وعبادَتِهِ وَحْدَهُ هو الغايةُ المطلوبةُ مِنْ الخَلْقِ والأمْرِ .

العِلْمُ يَغْرِسُ كُلَّ فَضْلٍ فاجْتَهِدْ
أنْ لا يفوتَكَ فَضلُ ذاكَ المَغْرِسُ
واَعلمْ بأنَّ العِلْمَ ليس ينالُهُ
مَنْ هَمُّهُ في مَطْعَمٍ أو مَلْبَسِ
إلاَّ أَخُو العِلْمِ الذي يزهو بهِ
في حالَتَيْهِ عارِياً اَوْ مُكْتَسِي
فاجْعلْ لنفسِكَ مِنْهُ حَظّاً وافِراً
واهجُرْ لَهُ طِيْبَ الرُّقادِ وَعَبِّسِ
فَلَعلَّ يوماً إن حَضَرْتَ بِمَجْلِسٍ
كُنْتَ الرَّئِيسَ وَفخْرَ ذاكَ المجْلِسِ

آخر :

عَوِّدْ بَنِيْكَ على الآدابِ في الصِّغَرِ
كَيْمَا تَقَرَّ بِهِمْ عَيْنَاكَ في الكِبَرِ
فإنَّما مَثَلُ الآدابِ تَجْمَعُها
في عُنْفُوَانِ الصِّبا كالنَّقْشِ في الحَجَرِ
هِيَ الكُنوزُ التي تَنْمُو ذخائِرُهَا
وَلَا يُخافُ عليها حادِثُ الغِيَرِ
إنّ الأديبَ إذا زَلَّتْ به قَدَمٌ
يَهْوِي على فُرُشِ الدّيباجِ والسُرُرِ

اللهمَّ يا خالقَ الخَلْقِ يا قَيُّومُ نسألُكَ بأسْمائِكَ الحُسْنَى أنْ تنصُرَ الإسْلاَمَ والمسلمينَ وأنْ تُعْلِيَ بفضْلِكَ كَلِمَةَ الحقِّ والِّدينِ وأنْ تَشْمَلَ بعنايَتِكَ وَتَوْفِيقِكَ كلَّ مَنْ نَصَرَ الدِّينَ وأنْ تَمْلأَ قلوبَنا بِمَحَبَّتِكَ وَمَحَبَّةِ مَنْ يُحِبُّكَ وأنْ تأخُذَ بِنَوَاصِيْنَا إلَى ما تَرْضَاهُ وأنْ تَرْزُقَنا الاْسْتعدادَ لِمَا أمَامَنَا وأنْ تُهَوِّنَ أمْرَ الدُنْيا علينا وأن تَغْفِرَ لَنا ولوالدِيْنَا وَلِجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى أهْلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

(فصــــل)

الوجهُ الخامِسُ والعشرونَ : أنه سُبْحانَهُ أَمَرَ أَهْلَ العِلْمِ بالفَرَحِ ، بما آتاهُمْ وأخبَرَ أنهُ خيرٌ مِمَّا يَجْمعونَه الناسُ فقالَ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فبذلك فَلْيَفْرَحُوا هو خيرٌ مِمَّا يَجْمَعُون ﴾ وَفَسَّرَ اللهُ الفضْلَ بالإيمانِ وَرَحْمَتَهُ بالقرآنِ والإيمانُ والقرآنُ هما العلمُ النـافعُ والعمـلُ الصالحُ والهُدَى ودينُ الحقِّ وهما أفضلُ عِلْمٍ وأفضلُ عَمَلٍ .

الوجهُ السادسُ والعشرون : أنَّهُ سُبْحانَهُ شَهِدَ لِمَنْ آتاهُ العِلْمَ بأنهُ قد آتاهُ خيراً كثيراً فقال تعالى ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ من يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً ﴾ قال ابنُ قُتَيْبَةَ والجُمهورُ الحكمةُ إصابةُ الحقِّ والعملُ بِهِ وهِيَ العِلْمُ النافعُ والعَمَلُ الصالحُ .

الوجهُ السابعُ والعشرونَ : أنه سُبحانَهُ عدَّدَ نِعَمَهُ وَفَضْلَهُ على رسولِهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وجعلَ مِنْ أجَلِّهَا أنْ آتاهُ الكِتابَ والحِكْمةَ وَعلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ فقال تعالى ﴿ وأنزلَ اللهُ عَليكَ الكتابَ والحِكْمةَ وَعلَّمَكَ مَا

لَمْ تَكُنْ تَعلمُ وكَان فضْلُ اللهِ عَليكَ عظيماً ﴾ .

الوجه الثامِنُ والعشْرونَ : أنَّهُ سُبْحانَهُ ذَكَرَ عِبادَهُ المؤمنينَ بِهَذِهِ النِّعْمةِ وأَمَرَهُمْ بِشُكْرِهَا وأنْ يَذْكُرُوهُ على إسْدائِها إليْهِمْ فَقَالَ تعَالَى ﴿ كَمَا أرْسَلْنَا فيكُمْ رسولاً منكُمْ يَتْلُو عليكُم آياتِنا وَيُزَكّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تكونوا تَعْلمون . فاذْكُروني أذكُرْكُم واشْكُروا لي ولا تَكْفُرُون ﴾ .

الوجهُ التاسعُ والعِشْرونَ : أنَّهُ سُبْحانَه لمَّا أنْ عَرَّفَهُمْ فَضْلَ آدمَ بالعِلْمِ وَعَجْزَهُم عن مَعْرِفَةِ ما عَلَّمَهُ قال لَهُمْ ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ أنّي أعْلَمُ غَيْبَ السمواتِ والأرْضِ وأعْلَمُ ما تُبْدُونَ وما كنتُمْ تَكْتُمون ﴾ فعرَّفَهُمْ سبحانه نَفْسَه بالعِلمِ وأنه أحاطَ عِلمُهُ بظاهِرِهِمْ وباطِنِهِمْ وَبِغيبِ السمواتِ والأرضِ فَتَعَرَّفَ إليْهِمْ بِصِفَةِ العِلْمِ وَعَرَّفَهُمْ فَضْلَ نَبِيِّهِ وَكليمِهِ بالعِلْمِ وَعَجْزَهُمْ عَمَّا آتاهُ آدمَ مِنَ العِلْمِ وَكَفَى بهذا شَرَفاً للعِلْمِ .

وَبَيانُ فَضْلِ العِلْمِ مِنْ هذه القصةِ مِنْ وُجُوهٍ . احَدُها أنه سُبْحانَهُ جَعَلَ في آدَمَ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ مَا كَانَ بِهِ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ المَخْلوقاتِ وأرادَ سُبحانَهُ أنْ يُظْهِرَ لِمَلائِكَتِهِ فَضْلَهُ وَشَرَفَهُ فَظَهَرَ لهُمْ احْسَنُ ما فيهِ وَهُوَ عِلْمُهُ فَدَلَّ على انَّ العِلْمَ أشْرَفُ مَا في الإنْسانِ وأنَّ فضْلَهُ وَشَرَفَهُ إنَّما هو بالعِلْمِ وَنَظِيرُ هذا ما فَعَلَهُ بِنَبِيِّهِ يُوسُفَ عليهِ السلامُ لَمّا أرادَ إظْهارَ فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ على أهلِ زَمانِهِ كُلِّهِمْ أظهرَ للمَلِكِ وأهلِ مِصرَ مِنْ عِلْمِهِ بتأويلِ رؤ ياهُ مَا عَجزَ عنهُ علماءُ التعبيرِ فحينئذٍ قَدَّمَهُ وَمَكَّنَهُ وَسَلَّم إليهِ خزائنَ الأرْضِ وكانَ قَبلَ ذلك قدْ حَبَسَهُ على ما رآهُ مِنْ حُسْنِ وجهِهِ وَجمالِ صُورتِهِ ولَما ظَهَرَ لَهُ حُسْنُ صُورةِ علمِهِ وجمالُ مَعْرِفَتِهِ أطلقَهُ مِنَ

الحَبْسِ وَمَكَّنَهُ في الأَرْضِ فَدَلَّ على أنَّ صُورةَ العِلْمِ عنْدَ بَني آدمَ أبْهَى وأحْسَنُ من الصورةِ الحِسِّيَّةِ ولو كانتْ أجملَ صُورَةٍ . وهذا وجهٌ مستقلٌّ في تفضيلِ العِلْمِ مضافٌ إلى ما تقدَّمَ فتمَّ بهِ ثلاثين وَجْهاً .

الوجهُ الحادي والثلاثون : أنه سُبْحانَهُ ذمَّ أهلَ الجَهْلِ في مواضعَ كثيرةٍ من كِتابِهِ .

الوجه الثاني والثلاثون أنّ العلمَ حَياةٌ وَنُورٌ ، والخيرُ كله سَبَبُهُ النورُ والحياةُ فإنّ النورَ يكشِفُ عن حقائِقِ الأشياءِ وَيُبَيِّنُ مَراتِبهَا والحياةُ هي المُصَحِّحَةُ لصفاتِ الكمالِ الموجِبَةُ لِتَسْدِيدِ الأَقوالِ والأعمالِ فَكُلّما تَصَرَّفَ مِنَ الحياةِ فَهُوَ خيرٌ كلُهُ كالحَياءِ الذي سببُهُ كمالُ حياةِ القلبِ وَتَصَوُّرُهُ حقيقةَ القُبْحِ وَنُفرتُهُ منهُ وَضِدُّهُ الوَقاحةُ والفُحْشُ وَسَبَبُهُ موتُ القلبِ وعدمُ نُفْرتِهِ مِنَ القبيحِ وكالحَيَا الذي هو المطرُ الذي بهِ حياةُ كلِّ شيءٍ قال تعالى ﴿ أو مَنْ كانَ مَيْتاً فأحْيَيْناهُ وجعلنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بهِ في الناسِ كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُلُماتِ ليس بخارجٍ منها ﴾ كان مَيْتاً بالجهلِ قَلبُهُ فأحياهُ بالعِلْمِ وَجَعَلَ لَهُ مِنَ الإيمانِ نُوراً يَمْشِي بِهِ في الناسِ .

الوجهُ الثالثُ والثلاثون : أن اللهَ سبحانَهُ جَعَلَ صَيْدَ الكلبِ الجاهِلِ مَيْتَةً يحرُمُ أكلُها وأباحَ صَيْدَ الكلبِ المُعَلَّمْ وهذا أيضاً مِنْ شَرَفِ العلمِ أنهُ لا يُباحُ إلا صَيْدُ الكلبِ العالِم وَأمَّا الكلبُ الجاهلُ فلاَ يَحِلُّ أكلُ صَيْدِهِ فدلَّ على شَرَفِ العِلمِ وَفَضْلِهِ .

انتهى كلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ .

(فصــل ١٥)

ومِمَّا قالَهُ العُلماءُ والأُدَباءُ والحُكَماءُ في فَضْلِ العِلمِ والْحَثِّ عليهِ تَعَلُّماً وتعليماً قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، النّاسُ أَبناءُ ما يُحْسِنُونَ وقالَ مُصْعَبُ بنُ الزُبَيْرِ تَعَلَّمْ العِلْمَ فإنْ لَمْ يكُنْ لكَ مالٌ كان العلمُ لك جَمالاً وإنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مالٌ كان لكَ مَالاً وقال عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ لِبَنيهِ يا بَنِيَّ تعلَّموا العلمَ فإنْ كنْتُمْ سادةً فُقْتُمْ وإنْ كنتُمْ وَسَطاً سُدْتُمْ وإنْ كنتُمْ سُوقَةً عِشْتُمْ .

وقال بعضُ الحُكماءِ العلمُ شَرَفٌ لا قَدْرَ لَهُ والأَدَبُ مالٌ لا خَوْفَ عليهِ وقال بعضُ الأُدباءِ العلمُ أفضَلُ خَلَفٍ والعملُ بِهِ أملُ شَرَفٍ وقال بعضُ البُلغاءِ تَعَلَّمْ العلمَ فإنَهُ يُقَوِّمُك وَيُسَدِّدُك صغيراً وَيُقَدِمُكَ وَيُسَوِّدُك كبيراً وَيُصْلِحُ زَيْفَك وفاسِدَكَ وَيُرْغِمُ عَدُوَّكَ وحاسِدَكَ وَيُقَوِّمُ عِوَجَكَ وَمَيْلَكَ وَيُصَحِّحُ هِمَّتَكَ وأَمَلَكَ .

قلتُ وهذا صحيحٌ في حَقِّ العاقِلِ اللبيبِ القابِلِ لِذَلِكَ دُونَ الأَحْمَقِ المُتَكَبِّرِ الجاهِلِ جَهْلاً مُرَكَّباً قَالَ بعضُهُمْ :

العِلْمُ لِلرَّجُلِ اللَّبِيْبِ زِيادَةٌ
وَنقيصَةٌ لِلأحمقِ الطَّيَّاشِ
مِثْلُ النَّهارِ يَزِيْدُ أَبْصارَ الوَرَى
نُوراً وَيُعْشِي أعْيُنَ الخُفَّاشِ

شعراً :

مَا الفَخْرُ إلّا لأَهْلِ العِلْمِ أنهُمُ
عَلَى الهُدَى لِمَنِ آسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وَقَدْرُ كلِّ آمرِىءٍ ما كان يُحْسِنُهُ
والجاهلون لأهْلِ العلمِ أعْداءُ
فَفُزْ بعِلمٍ تَعِشْ حيًّاً بهِ أَبَداً
النَاسُ مَوْتَى وأهلُ العِلْمِ أحْياءُ

آخر :

تعلَّمْ فليسَ المرءُ يُولَدُ عالِماً
وليس أخو علمٍ كَمَنْ هُوَ جاهِلُ
وإنَّ كَبيرَ القَوْمِ لا عِلْمَ عِنْدَهُ
صغيرٌ إذا الْتَفَّتْ عليهِ المَحَافِلُ
وإنَّ صَغيرَ القومِ إنْ كانَ عالِمَاً
كبيرٌ إذا رُدَّتْ إليْهِ المسائِلُ

وقال بَعْضُهُمْ العالِمُ يَعْرِفُ الجاهِلَ لِأَنّهُ كان جاهِلًا بالأولِ والجاهِلُ لَا يَعرفُ العالِمَ لِأَنَهُ لَمْ يَكُنْ عَالِماً وَرُبَّما ذَمَّ العالِمَ وَعِلْمَهُ ، قال بعضُهُمْ :

أَتانَا أنَّ سَهْلاً ذَمَّ جَهْلاً
عُلومَاً لَيْسَ يَعرفُهُنَّ سَهْلُ
عُلومَاً لَوْ قَرَاهَا مَا تَلاهَا
وَلكنَّ الرِضَا بالجهلِ سَهْلُ

وَدَخلَ على الخَلِيلِ ابنٌ لَهُ مُتَجَلِّفٌ وهو يُقطِّعُ بَيْتَ شِعْرٍ فَخَرَجَ وقال إنّ أبي قد جُنَّ فقالَ أبوهُ :

لَـوْ كُنتَ تعلمُ مـا أقـولُ عَـذَرْتَنـي
أوْ كُنتَ تَفْهَـمُ مـا أقـولُ عَـذَلْتُكَـا
لكـنْ جَـهِلْتَ مَقَـالَتي فَعَـذلْتَنِي
وَعَلِمْتُ أنـك جـاهِـلٌ فَـعَـذَرْتُكـا

وَكُلُّ ما وَرَدَ في ذَمِّ الجَهْلِ فَهُوَ مَدْحٌ للْعِلْمِ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ﴿ وأَعْرِضْ عنِ الجَاهِلين ﴾ وقالَ لِرَسُولِهِ نوحٍ عليهِ السلامُ ﴿ إنّي أعظُكَ أنْ تكونَ مِنَ الجاهِلِيْن ﴾ وقال مُوسَى عليهِ السلامُ ﴿ أعوذُ باللهِ أَنْ أكونَ مِنَ الجَاهِلين ﴾ وقالَ جَلَّ وَعَلا لِنَبِيِّهِ ﴿ فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهِلِين ﴾ وقال تَعَالى ﴿ وإذا سَمِعُوا اللغْوَ أعْرَضُوا عَنْهُ وقالُوا لَنا أعْمَالُنا ولكُمْ أعمالُكُمْ سلامٌ عليكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِيْن ﴾ وقالَ تعَالَى ﴿ وإذا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً ﴾ وقال صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لِعُوَيْمِرٍ كيفَ أنتَ يا عُوَيْمرُ إذا قِيلَ لكَ يومَ القِيامةِ أَعَلِمْتَ أمْ جَهِلْتَ فإنْ قُلْتَ عَلِمْتُ قيلَ لكَ فما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ وَإنْ قُلْتَ جَهِلْتُ قيلَ لكَ فَما كانَ عُذْرُكَ فيما جَهِلْتَ ألا تَعَلَّمْتَ رَوَاهُ ابنُ عَساكِرَ في تاريخِهِ عَنْ أبي الدَّرداء وَهَذا مِمَّا يَدُلُّ على شَنَاعَةِ الجَهْلِ وَقُبْحِهِ وَمَهَانَتِهِ وَرَذالَتِهِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ .

شـعراً :

وفي الجهـلِ قَبْـلَ المـوتِ مـوتٌ لِأَهْلِهِ
فـأجْسَـامُـهُـمْ قَبـلَ القُبـورِ قُبُـورُ

وَإنَّ آمـرءاً لـم يَحْيَى بـالـعلم مَيِّتٌ
فـليس لـهُ حتـى النُشـورِ نُـشـورُ
آخـر : مـعَ الـعِـلْمِ فـاسْـلُكْ حيثُ مَا سَلَكَ العِلْمُ
وَعَنْـهُ فكـاشِفْ كُـلَّ مَنْ عِـنْـدَهُ فَهْـمُ
فَـفِيـهِ جَـلاءٌ لِلْقُلوبِ مِنَ الـعَـمَـى
وَعَـوْنٌ على الـدِّينِ الـذي أَمْـرُهُ حَتْمُ
فـإنـي رأيتُ الْـجَـهْـلَ يُـزْرِي بـأَهْلِهِ
وذو العِلْمِ في الأَقْـوامِ يَـرْفَعُـهُ العِلْمُ
يُعَـدّ كَبيـرَ القَـوْمِ وهـو صغيـرُهُمْ
ويَـنْفُـذُ منـهُ فيهِمُ الـقـولُ والحُـكْـمُ
وأيُّ رَجـاءٍ في امـرىءٍ شـابَ رأسُـهُ
وَأَفْـنَى سِنِيـهِ وَهُـوَ مُـسْـتَـعْـجِـمٌ فَـدْمُ
يَـرُوْحُ وَيَغْـدُو الـدّهْـرَ صـاحِبُ بِطْـنَـةٍ
تَـرَكَّبَ في أَحْضـانِهَـا اللّحْمُ والشَّحْـمُ
إذا سُئِـلَ الـمِسْكِيـنُ عَـنْ أمْـرِ دِيْـنِـهِ
بَـدَتْ رُحَضَـاءُ العِيِّ في وَجْهِـهِ تَسْمُـو
وَهْـلْ أبصَـرَتْ عَيْنَـاكَ أقْبَـحَ مَـنْـظَراً
مِـنْ أشْيَـبٍ لا عِلْمٌ لَـدَيْـهِ وَلاَ حُـكْـمُ
هِيَ السَّـوْأةُ السَّوْءَاءُ فـاحـذرْ شَمَـاتَهـا
فـأوَّلُـهَـا خِـزْيٌ وآخِـرُهَـا ذَمُّ
فَخَـالِطْ رُوَاةَ العِلْمِ وآصْحَبْ خِيـارَهُـم
فَـصُحْبَتُـهُـمْ زَيْـنٌ وَخِـلْطَتُـهُـمْ غُـنْـمُ

وَلَا تَـعْـدُوَنَ عَيْـنَـاكَ عَـنْـهُـمْ فَـإِنَـهُـمْ
نُجُـومٌ إِذا مَـا غَـابَ نَجْمٌ بَـدَا نَجْمُ
فَـوَاللّهِ لَـوْلَا العِلْمُ مَـا اتضَـحَ الْهُـدَى
وَلَا لَاحَ مِـنْ غَيْـبِ الْأُمـوْرِ لَـنَـا رَسْمُ

قالَ في مِنْهَاجِ اليَقِيْنِ واْعْلَمْ أنَّ كلَّ العُلومِ شريفَةٌ وَلِكُلِّ عِلْمٍ مِنْهَا فَضِيْلَةٌ والاحاطَةُ بجميعِها مَحَالٌ لِعَجز عُقُولِ الْبشرِ عنْ إحاطتِهَا أوْ لِعَدَمِ تناهِي الأعمارِ وإِحَاطَةِ الغيرِ المُتَناهِي بالمُتَنَاهِي مُحَالٌ وقيلَ لِبَعْضِ الحُكَمَاءِ مَنْ يَعْرِفُ كلَّ العُلوم ؟ فقال كلُ النَّاسِ وَرُوِي عنِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أنهُ قالَ مَنْ ظَنَّ أن لِلْعلمِ غايةً فقد بَخَسَهُ حقَّهُ وَوَضَعَهُ في غيرِ مَنْزِلَتِهِ التي وَصَفَهُ اللهُ بها حيثُ يقولُ ﴿ ويسألونَكَ عنِ الروحِ قُلِ الروحُ مِنْ أمْرِ رَبِي وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ العِلْمِ إلّا قَلِيْلَا ﴾ انتهى .

قالَ المُفَسّرُوْنَ سألَ أهْلُ الكتابِ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ عن الروحِ فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن الرُوحِ ﴾ الآيةِ فقالوا تزعُمُ أنّا لَمْ نُؤْتَ مِنَ العِلْمِ إلا قليلاً وَقَدْ أُوتينا التَوْراةَ وهي الحِكْمَةُ ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كثِيراً ﴾ قالَ فنَزَلَتْ ﴿ وَلَوْ أنَّ ما في الأرضِ مِنْ شَجَرةٍ أقلامٌ ، والبحرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبحُرٍ ﴾ .

قالَ ما أوتيتُمْ مِنْ عِلمٍ فَنجَّاكُمْ اللهُ بهِ مِنَ النارِ فهوَ كَثيرٌ طَيّبٌ وهو في عِلْمِ اللهِ قليلٌ وقالَ بعضُ العُلمَاءِ لوْ كُنَّا نَطْلبُ العِلمَ لِنبْلُغَ غايَتَهُ كُنا قَدْ بَدَأْنا بالنَقيصةِ ولكِننا نطلبُهُ لِنَنْقُصَ في كلِّ يوْمٍ مِنَ الجَهْلِ وَنَزْدادَ في كُلِّ يَوْمٍ مِنَ العِلْم .

وقال آخر :

مـا حَـوَى الـعِـلْمَ جـمـيـعـاً أحُـدٌ
لا ولـو حـاوَلَـهُ ألـفَ سَـنَـه
إنَّمـا الـعِـلْمُ كـبـحـرٍ زاخِـرٍ
فـاتّـخِـذْ مِنْ كـلِ شـيءٍ أحْـسَـنَـه

واذا لَمْ يكُنْ إلى مَعرفةِ جميعِ العُلُومِ سبيلٌ وَجَبَ صَرْفُ الاهتمامِ إلى مَعْرِفَةِ أَهَمِّها والعنايةُ بأَوْلاها وأفضَلِها وأَوْلَى العُلومِ وأَفْضَلُهَا علمُ الدِّيْن المُبَيَّنِ بالكتابِ والسُنةِ والمُسْتَنْبَطِ منهُما لأنَّ الناسَ بمعرفَةِ علومِ الشرْعِ يَرْشُدُون وَيَهْتَدُونَ وَبِجَهْلِهِ يَضِلّونَ ولا تَصِحُّ العبادةُ مِمَّنْ لا يَعْرِفُ صِفَتَهَا ولا شروطَها ولا أرْكانَهَا والذي يجبُ على المكلَّفِ تَعلُّمُهُ مِنَ العلومِ الدينيةِ كلُّ ما يحتاجُهُ في عِباداتِهِ وَمُعَامَلاتِهِ وَمَا عَدَا ذلك مِنَ العُلومِ الشَّرْعِيَّةِ أوْ ما هُو وَسيلةٌ إليهَا فمُسْتحَبٌّ قال اللهُ تعالى ﴿ فلو لاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ منهم طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إليهِمْ لعلَّهُمْ يَحْذَرُون ﴾ .

قال بعضُ العُلَمَاءِ المُحَققينَ على قولِ اللهِ تَعالى ﴿ وَلِيُنْذِرُوا قَـوْمَهُم ﴾ وَلِيَجْعلُوا غَرَضَهُمْ وَمَـرْمَى هِمَّتِهِمْ في التَّفَقُّهِ إنْـذَارَ قومِهِمْ وإرْشادَهُمْ والنصيحَةَ لهُمْ لا مـا يُنْتِجُهُ بعضُ العلمـاءِ مِن الأغْرَاضِ الخَسِيسةِ وَيَؤُمُّونَهُ مِنَ المَقاصِدِ الرَّكِيْكَةِ مِن التَّصدُّرِ والتَّرؤُسِ والتَّبَسُّطِ في البلادِ والتشبُّهِ بالظَلَمَةِ في مَلابِسِهِم وَمساكِنِهِمْ وَمَراكِبِهِمْ وَعاداتِهِمْ وَمُنافَسَةِ بعضِهِم بعضاً وَفُشُوّ داءِ الضرائرِ بينهم وانقلابِ حَماليقِ أحدِهِمْ إذا لَمَح بِبَصَرِهِ مدَرّسَةً لآخر أو شرْذِمَةً جَثَوْا بين يَدَيْهِ وتهالُكِهِ على أنْ

يكونَ مُوَطَّأَ العَقِبِ دونَ الناسِ كلِهِمْ فما أبعدَ هؤلاءِ مِنْ قولِهِ عزَّ وجَلّ ﴿ لا يُريدون عُلُوّا في الأرْضِ ولا فَساداً ﴾ .

شــعراً :

يَقُــولُــونَ لِيّ فِـيْـكَ انْقِبــاضٌ وإنَّمَــا
رَأَوْا رجُــلًا عن مَـوْقِفِ الــذُّلِّ أَحْجما
ومــا زِلْتُ مُنْحَــازاً بِعِــرْضِـيَ جـانِبـاً
عَـنِ الــذَمِّ أعْتَــدُّ الصِّيــانَــةَ مَغْنَمَــا
أَرَى النــاسَ مَنْ دَانَـاهُمْ هَــانَ عنــدَهُمْ
وَمَـنْ أكْــرَمَتْــهُ عِــزَّةُ الـنَّفْسِ أُكْــرِمَـا
إذا قِـيْــلَ هــذا مَــوْرِدٌ قُـلْتُ قــدْ أَرَى
ولـكنَّ نفسَ الحُــرِّ تَـحْتَـمِــلُ الــظَّمَــا
أَنَهْنِهُهَــا عنْ بَعْضِ مــا قــد يَشِيـنُهَــا
مَخــافــةَ أَقــوَالِ العِــدا فِـيمَ أو لِـمَــا
فــإنْ قُلْتُ زَنْــدُ العِـلْمِ كـابٍ فــانَّمَــا
كَبَــا حَيثُ لم تُـحْمَـى حِمَــاهُ وأَظْـلَمَــا
وَلَــوْ أنَّ أَهـلَ العِلمِ صَــانُــوهُ صــانَهُمْ
وَلَــوْ عَـظَّمُــوهُ في النُّفُــوسِ لَعُــظِّمـا
وَلَــكِـن أَهَــانُــوهُ فَــهَــانُــوا وَدَنَّــسُــوا
مُـحَيَّــاهُ بــالأطـمــاعِ حَـتَّـى تَـجَـهَّـمَــا
وَلَمْ أُقضِي حَقَّ العِلْمِ إنْ كــانَ كُـلَمَّــا
بَــدَا طَـمَـعٌ صَيَّـرْتُــهُ لِـيَ سُـلَّمَــا

وَلَمْ أبْتَذِلْ في خِدْمةِ العلمِ مُهْجتِي
لِأخْدِمَ مَنْ لَاقيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أأشْقَى بِهِ غَرْسَاً وأجْنِيهِ ذِلَّةً
إذاً فاتّباعُ الجهلِ قَدْ كان أحْزَمَا

ثم اعلمْ أنَّ مَنْ لَمْ يصُنْ نَفسَهُ بوِقايَتِهَا عنِ المُحَرَّماتِ وَمُخِلِّ المُرُوْاتِ لَمْ يَنْفَعْهُ علمُهُ لأنَّ العِلْمَ للعَملِ فكما لا ينفعُ السلاحُ للمجاهِدِ ما لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ ولا الكتُبُ النافِعَةُ المُستَمَدَّةُ من الكِتابِ ما لَمْ يُطَالْعها وَيَتَعَلّمْ مِنها ولا الاطْعِمَةُ النَفِيسَةُ المُدَّخَرَةُ لِلْجائِعِ ما لَمْ يأكلْ مِنْها. فكذلكَ العِلْمُ وقديماً قيلَ :

إذا كنْتَ تَهْوَى أَنْ تَعِيْشَ بِذِلَةٍ
فلا تَسْتَعِدّنَّ الحُسامَ اليَمَانِيَا
وَلا تَسْتَطِيلَنَّ الرِّماحَ لِغَارةٍ
وَلا تَسْتَجِيْدَنَّ العِتاقَ المَذَاكِيا

فصِيانةُ النفسِ أصْلُ الفضائِلِ لأنَّ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ ثِقَةً بِما مَنَحَهُ اللهُ مِنْ فَضيلةِ عِلْمِهِ وَتَوكّلاً على ما يلزَمُ الناسَ مِنْ صِيانَتِهِ سَلَبُوهُ فضيلةَ عِلمِهِ وَوَسَمُوهُ بقبيحِ تَبَذُّلِهِ فلم يَفِ ما أُعْطِي مِنَ العِلْمِ بما سَلَبَهُ منهُ التبذّلُ لأنّ القبيحَ أشْيَعُ مِنَ الْجَمِيلِ والرذيلةُ مَشْهُوْرَةٌ تُنقَلُ وتُذَاعُ بسُرْعَةٍ لِمَا في طِباعِ الناسِ مِن الحسدِ والبُغْضِ والحِقدِ ونِزاعِ المنافَسَةِ فَتَنْصَرِفُ عُيونُهُمْ عن المحاسِنِ إلى المَسَاوِي فلا يُنْصِفُونَ مُحْسِناً ولا يجاملون ولا يُسامحونَ مُسيئاً يَذكُرون المَسَاوِيَ كُلَّها غالباً لا سِيَّما إذا كان

المَرْموقُ عالماً فإنّ زَلّتَهُ عِندَهُم لا تُقالُ وَهَفْوَتَهُ لا تُعْذَرُ لأنَّ العيْبَ الصغيرَ يَعْظُمُ في حَقِّ أَهْلِ المُرْوآتِ والعَيْبَ في الجاهلِ المغمورِ مَغْمورٌ ولهذا يَنْبَغِي للعالِمِ أنْ يُحَسِّنَ أخلاقَهُ وَخَلْقَهُ لِيُقْتَدى بِهِ وَيَسْلَمَ عرضُهُ مِن الطعنِ والاعتراضاتِ .

شـعراً :

أرى الـعِلْم كـالـمِـرْآةِ يَـصْـدَأُ وَجْـهُـهُ
وَلَيْسَ سِـوَى حُسْنِ الخَـلاَئِقِ مِنْ جَـالِي
أَخُــو العِلْمِ لا يَغْلُو على سُوءِ خُلْقِــهِ
وذُو الجَهْـلِ إنْ أخْـلاقُـهُ حَسُنَتْ غـالِ
ولــو وازَنَ الـعلمُ الـجبـالَ ولـم يـكُـنْ
لــهُ حُسْنُ خُلْقٍ لمْ يـزِنْ وزْنَ مِـثْقَــالِ
وإنَّ المَسَــاوِي وهـي في خُـلقِ عــالِمٍ
لاقبــحُ مِنْـهَــا وهِيَ فـي خُلْقِ جُـهَّــالِ

ورُوِي عنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أنهُ قالَ تعلَّمُوا العلمَ وَعَلِّمُـوهُ ولا تكونوا جَبَابِرَةَ العُلماءِ فلا يَقُومَ جهلُكم بعلْمِكُم وقال في مِنهَاجِ اليَقِينِ وينبغي لِمَنْ اسْتَدَلَّ بِفِطْرَتِهِ على اسْتِحْسَانِ الفضائِلِ واستِقْباحِ الرذائِلِ أنْ يَنْفِيَ عَنْ نَفْسِهِ رَذائِلَ الجَهْلِ بفضائِلِ العِلْمِ وينفي غفلة الاهْمالِ باستيقاظِ المعاناةِ ويرغب في العلم رغبةَ مُتحقِّقٍ لِفَضائِلِه واثقٍ بِمَنَافِعِهِ وَلاَ يُلْهيهِ عنْ طَلبِهِ كثْرةُ مالٍ وُجِد ولا نفوذُ أمرٍ وَعُلُوُّ مَنْزِلَةٍ فإنَّ مَنْ نفذَ أمرُهُ فَهُوَ إلى العِلْمِ أحوجُ ليكونَ أمرُهُ وَنَهيُه على البَراهينِ الشَّرْعِيةِ وَمَنْ عَلَتْ مَنزلَتُهُ فهو بالعلم أحَقُّ لِيُعْرَف فَضْلَهُ ونهيُه على البراهينِ الشرْعِيَّةِ .

شــعراً :

تـفنَّـنْ وَخُـذْ مِنْ كُـلِّ عِـلْمٍ فـإنَّـمـا
يفـوقُ امـرُوءٌ في كـلِ فَـنٍّ لـهُ عِلْمُ
فـأَنْـتَ عـدُوٌ لـلذي أَنْـتَ جـاهـلٌ
بـهِ ولِـعـلْمٍ أنْـتَ تُـتْـقِـنُـهُ سِـلْمُ

آخر :

العِـلم زَيْـنٌ وَتَـشْـريـفٌ لِصَـاحِـبِـهِ
فـاطْلُبْ هُـديتَ فُنـونَ العلمِ والأَدَبـا
كَـمْ سَـيِّـدٍ بَـطَلٍ آبـاؤُهُ نُـجُـبٌ
كَـانـوا الـرؤوسَ فأمْسَى بعـدَهُمْ ذَنَبـا
وَمُـقْـرِفٍ خـامِـلِ الآبـاءِ ذِي أَدَبٍ
نـالَ الـمَعَـالِـيَ بـالآدابِ والـرُّتَبـا
الـعِـلم زَيْـنٌ وذُخْـرٌ لا فَـنَـاءَ لَـهُ
نِعمَ القَـرِينُ إذا مـا صـاحِبٌ صَحِبَـا
قـدْ يَجْمَـعُ المَـالَ شَخْصٌ ثُمَّ يُحْرَمُـهُ
عمَّـا قَلِيْـلٍ فَيَلْقَى الـذُّلَّ والحَـرَبَـا
وجـامـعُ الـعِـلمِ مَـغْبُـوطٌ بـهِ أبـداً
ولا يُـحـاذرُ مـنـه الـفَـوْتَ والـسَّـلَبَـا
يـا جـامِـعَ العلمِ نِعْمَ الـذخـرُ تَجْمَعُـهُ
لا تـعْـدِلَـنَّ بـهِ دُرّاً ولا ذَهَـبـا

وقال في منهاجِ اليَقينِ «وآعلمْ أنَّ لكلِّ مَطْلُوبٍ باعِثاً والباعثُ

على المطلوبِ شيئآنِ رغبةٌ أو رَهْبةٌ فليكنْ طالبُ العلمِ راغباً راهباً أما الرَغبةُ ففي ثوابِ اللهِ تعالى لطالِبي مَرْضاتِهِ وحافِظِي مُفْتَرَضاتِهِ بإقامَتِها وتعليمِها مَنْ لا يَعْلَمُها والأمْرُ بالمَعْروفِ ، وأما الرَهْبَةُ فمِنْ عِقابِ اللهِ تعالى لِتارِكِي أوامِرِهِ وَمُهْمِلي زواجِرِهِ فإذا آجْتَمَعَتْ الرغبةُ والرهبةُ أدَّتا إلى كُنْهِ العلمِ وحقيقةِ الزُهدِ بإذنِ اللهِ لأنَّ الرغبةَ في الثوابِ أقوَى الباعِثَيْنِ على العلمِ والباعثُ الآخرُ حُبُّ النَّباهَةِ ونَحِوها والرَهبةُ منَ العِقابِ أقوَى السَّبَبَيْنِ في الزُهْدِ وَقَدْ قَالتِ الحُكماءُ « أصْلُّ العِلْمِ الرَغبةُ وَثَمرَتُهُ السعادةُ وأصلُ الزُهْدِ الرَّهْبةُ وثَمرتُهُ العِبَادةُ » فإذا اقترَنَ العِلمُ والزُهدُ فقدْ تمَّتْ السعادةُ الدِيْنِيةُ والدُنْيَوِيَّةُ وعمَّتْ الفَضِيْلةُ وقد رُوِيَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أنهُ قالَ مَنِ ازْدادَ في العِلْمِ رُشَداً ولمْ يزدَدْ في الدنيا زُهْداً لم يزدَدْ مِن اللهِ إلا بُعْداً وقال مالكُ بنُ دينارٍ مَنْ لم يُؤْتَ مِنَ العلمِ ما يَقْمَعُهُ فما أوتِي منهُ لا يَنفعُهُ وقال بعضُ الحُكماءِ الفقيهُ بغيرِ وَرَعٍ كالسِّراجِ يُضِيءُ البيتَ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ . وبالتالي فالعِلمُ فَضْلُهُ يَعْرِفُهُ كلُّ مُنْصِفٍ والناسُ يَحتاجُونَ إليهِ في كُلِّ وقتٍ قال حَرْبٌ سمعتُ أحمدَ بنَ حَنبلٍ يقولُ الناسُ مُحتَاجُونَ إلى العِلْمِ قبلَ الخُبْزِ والماءِ لأنَّ العلمَ يَحْتاجُ اِليهِ الانسانُ في كلِّ ساعةٍ والخبزُ والماءُ في اليومِ مرةً أو مرَّتيْنِ .

وقال شيخُ الاسلامِ بنُ تيميةَ في قصيدةٍ له حلَّ بها لُغْزاً لَفْظَةَ عِلْم :

والـعـلمُ بـالـرحـمـنِ أولُ صـاحِـبٍ
وأهــمُّ فَـرْضِ الـلهِ فـي مَـشْـرُوْعِـهِ

وأخُــو الــدِّيَــانَــةِ طَــالِــبٌ لِـمَـزِيـدِهِ
أبَـداً ولــمَّــا يُـنْـهِـهِ بِـقُـطُوْعِـهِ
والـمَـرْءُ حَــاجَـتُـهُ إلـيـهِ أشَـدُّ مِنْ
فَـقْـرِ الغِـذَاءِ لِعِلْمِ حُـكْمِ صَنِيْعِـهِ
فـي كُـلِّ وَقْـتٍ والـطَّـعَـامُ فـإنَّـمـا
يَـحْـتَـاجُـهُ فـي وَقْـتِ شِـدَّةِ جُـوعِـهِ
وهــو السَبِـيْــلُ إلى الـمَحَـاسِـنِ كلِّهَـا
والـصـالِـحـاتِ فَـسَـوْأةً لِـمُـضِـيـعِـهِ

وَيُرْوَى عنْ مُعاذٍ رضِيَ اللهُ عنهُ تَعَلَّمُوا العِلْمَ فإنَّ تعلُّمَهُ للّهِ خَشْيَةٌ وطلبَهُ عِبادةٌ وَمُدارسَتَهُ تَسْبِيْحٌ والبَحْثَ عنهُ جِهادٌ وَتَعْلِيْمَهُ مَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ وَبَذْلَهُ لِأهْلِهِ قُرْبَةٌ وَهُوَ الأنيْسُ في الوَحْدةِ والصاحِبُ في الخَلْوَةِ والدليلُ على الدِّيْنِ والمُصَبِّرُ على السرَّاءِ والضرَّاءِ والوَزِيرُ عِندَ الأخِلّاءِ والقَرِيْبُ عندَ الغُرَباءِ وَمَنارُ سَبْيلِ الجَنَّةِ يَرْفَعُ اللهُ بِهِ أقْواماً فيجعلُهُمْ في الخَيْرِ قادةً سادةً هُدَاةً يُقْتَدَى بهم أدِلَّةً لِلْخَيرِ تُقْتَفَى آثارُهُمْ وَتُرْمَقُ أفْعالُهُمْ وَتَرْغَبُ الملائكةُ في خُلَّتِهِمْ وبأَجنحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ وَكُلُّ رَطْبٍ ويابسٍ لهُمْ يَسْتَغْفِرُ حتى حِيْتانُ البحرِ وَهَوامُّهُ وَسِبَاعُ البَرّ وأنْعامُهُ والسماءُ وَنُجُومُها لأنَّ العِلْمَ حَياةُ القُلُوبِ مِنَ العَمَى وَنُورُ الأبْصَارِ مِنَ الظُلَمِ وَقُوَّةُ الأبْدانِ مِنَ الضَّعْفِ يَبْلُغُ بِهِ العَبْدُ مَنَازِلَ الأبْرارِ والدَّرَجاتِ العُلَى وَمُدَارَسَتُهُ بالقيامِ . بِهِ يُطاعُ اللهُ عزَّ وجلَّ وَبِهِ يُعْبَدُ وبِهِ يُوَحَّدُ وَبِهِ يُمَجَّـدُ وبِهِ يُتَوَرّعُ وَبِهِ تُوْصَلُ الأرْحامُ وَبِهِ يُعرَفُ الحلالُ والحرامُ وهو إمامٌ والعَمَلُ تابعُهُ يُلْهَمُهُ السُعداءُ وَيُحْرَمُهُ الأشْقِيَاءُ .

وورِدَ عنْ خالدِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي بَكْرَةَ عن أبيهِ عن النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قال : « أُغدُ عالِماً أو متعلماً أو مُسْتمِعاً أو مُحِباً ولا تكنْ الخامسةَ فتَهْلِكَ » .

وعن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « الدُنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكرُ اللهِ وما والاه أو معِلمٌ أو متعلِّمٌ » .

وعن عطاءِ بنِ السائبِ عن الحَسنِ قال : أُغْدُ عالِماً أو متعلِّماً أو مستمِعاً ولا تكُنْ رابعاً فتَهْلِكَ .

وعن الحسن أنّ أبا الدرداءِ قالَ : كُنْ عالِماً أوْ مُتعلِّماً أو مُحِباً أو مُتَّبِعاً ولا تكنْ الخامسَ فتهْلِكَ قال قلتُ للحسنِ وما الخامسُ قال : المُبْتَدِعُ .

شــعراً :

علىٰ العِلمِ نبكي إذْ قَـدِ آنْـدرَسَ العِلْمُ
ولـم يَبْـقَ فيـنـا مـنـهُ روحٌ ولا جِـسْـمُ
ولـكـنْ بَـقِـيْ رَسْـمٌ مـن الـعـلمِ دارِسٌ
وعمَّـا قليـلٍ سـوف يَنْـطَمِسُ الـرَسْمُ
فـآنَ لِـعَـيْـنٍ أنْ تـسِـيْـلَ دُمـوعُـهـا
وآن لِـقَـلْـبٍ أنْ يُـصَـدِّعَـهُ الـهَـمُّ
فـإنَّ بِـفَـقْـدِ الـعِـلْمِ شَـراً وَفِـتـنـةً
وَتَـضْـيِـيْـعَ دِيـنٍ أمـرُهُ واجـبٌ حَـتْـمُ

ومـا سَـائِـرُ الأعْـمـالِ إلا ضَـلالـةٌ
إذا لـمْ يـكـنْ لـلعَـامِلـيـنَ بـهـا عِـلْمُ
ومـا النـاسُ دُونَ العـلمِ إلاّ بِـظُلْمَـةٍ
مِن الجَهـلِ لا مِصباحَ فيهـا ولا نَجْمُ
فَـهـل يُهْـتَـدَى إلاَّ بـنـجْـمِ سَـمَـائِـهِ
إذا مـا بَـدَا مِـنْ أُفْقِـهِ ذَلِـكَ الـنَّجْـمُ
فَـهَـذَا أَوَانُ الـقـبْـضِ لِـلْعِـلْمِ فَـلْيـنُـحْ
عليـه الـذي في الحُـبِّ كَـانَ لَـهُ سَهْمُ
فَـلَيْسَ بِمُـبْـقِي العِـلْمِ كـثـرةُ كُـتْـبِـهِ
فمـاذا تفيـدُ الكتْبُ إنْ فُـقِـدَ الفَـهْمُ ؟
ومـا قَـبْـضُـهُ إلا بِـمَـوْتِ وُعَـاتِـهِ
فـقـبـضُـهُـمُ قـبضٌ لـهُ وَبِـهـمْ يَـنْـمُـو
فَـجِـدَّ وأدِّ الـجَـهْـدَ فـيـهِ فـإنّـه
لِصَـاحِبِـهِ فَـخْـرٌ وَذُخْـرٌ بـه الـغُـنْـمُ
فـعـارٌ على الـمَـرْءِ الـذي تَـمَّ عَـقْـلُهُ
وقـد أمَّلَتْ فـيـهِ الـمُـرُوْءةُ والـحَـزْمُ
إذا قِيـلَ : مـاذا أوْجَبَ اللهُ يـا فَتى ؟
أجـابَ بـلا أدْرِي وأنَّـى لِـيَ الـعِـلْمُ
وأقْـبَـحُ مِـنْ ذَا لَـوْ أَجَـابَ سُـؤالَـه
بِـجَـهْـلٍ فـإنّ الـجَـهْـلَ مَوْدِدٌ وخْمُ
أَيَرْضَى بأنَّ الجَهْلَ مِنْ بَعْضِ وَصْفِهِ
ولـو قِيـلَ يـاذا الجَهْـلِ فـارَقَهُ الحِلْمُ

فَكَيفَ إذا مَا الْبَحْثُ مِنْ بَيْنِ أهلِهِ
جَرَى وهو بينَ القومِ لَيْسَ لهُ سَهْمُ
تَدُورُ بِهِمْ عَيْنَاهُ لَيْسَ بناطِقٍ
فغيرُ حَرِيٍّ أنْ يُرَى فاضِلاً فَدْمُ
وما العِلمُ إلا كالحَيَاةِ إذا سَرَتْ
بِجِسْمٍ حَيي والمَيْتُ مَنْ فاتَهُ العِلْمُ
وكَمْ في كِتَابِ اللهِ مِنْ مِدْحةٍ لهُ
يكادُ بها ذُو العِلْمِ فوقَ السُّهَى يَسْمُو
وكَمْ خَبَرٍ في فَضْلِهِ صَحَّ مُسْتَنَداً
عن المصطَفَى فاسْأَلْ بِهِ مَنْ لَهُ عِلْمُ
كَفَى شَرَفاً لِلعِلْمِ دَعْوَى الوَرَى لهُ
جَمِيعاً وَيَنْفِي الجَهْلَ من قُبْحِهِ الفَدْمُ
فَلَسْتُ بِمُحْصٍ فَضْلَهُ إنْ ذكرْتُهُ
فقدْ كَلَّ عنْ إحصائِهِ النثْرُ والنَّظْمُ
فيا رافِعَ الدُّنْيا على العِلْمِ غَفْلَةً
حَكَمْتَ فلم تُنْصِفْ وَلَمْ يُصِبِ الحُكْمُ
أتَرْفَعُ دُنيا لا تُسَاوي بأسْرِهَا
جَنَاحَ بَعُوضٍ عندَ ذِي العَرْشِ يا فَدْمُ
وَتُؤْثِرُ أصْنَافَ الحُطَامِ على الذي
بِهِ العِزُّ في الدارَيْنِ والمُلْكُ والحُكْمُ
وَتَرغَبُ عن إرْثِ النَّبِيِّيْنَ كُلِّهِمْ
وَتَرغَبُ في مِيْرَاثِ مَنْ شَأْنُهُ الظُلْمُ

وَتَــزْعُـمُ جَـهْـلاً : أنَّ بَـيْـعَـكَ رابِـحٌ
فَهيْهـاتَ لم تَـرْبَـحْ ولم يَصْـدُقِ الـزَّعْمُ
أَلَـمْ تَعْـتَبِـرْ بـالـسـابقـينَ ؟ فـحـالُهُمْ
دَلـيــلٌ عـلى أنَّ الأجَـلَّ هُـوَ الـعِـلْمُ
فَكَمْ قَــدْ مَضَى مِنْ مُتْـرَفٍ مُتَكَبِّـرٍ
وَمِـنْ مَلِكٍ دَانَتْ لَــهُ العُـرْبُ والـعَجْـمُ
فـبـادُوا فلمْ تَـسـمَـعْ لَـهُـمْ قَطُّ ذاكِـراً
وإنْ ذُكِــرُوا يَــوْمـاً فَــذِكْـرُهُـمُ الـذَّمُّ
وكــمْ عــالِـمٍ ذِي فــاقَــةٍ وَرَثـاثَـةٍ
ولــكـنَّــهُ قــدْ زَانَــهُ الـزُهْـدُ والـعِـلْمُ
حَيـا ما حَيَـا في طِيْبِ عَيْشٍ وَمُذْ قَضَى
بَقِيَ ذكـرُهُ في النـاسِ إذْ فُقِـدَ الجِسْمُ
فـكُـنْ طـالِبـاً لِلْعِلْمِ حَقَّ طِـلابِـهِ
مَـدَى العُمْرِ لاَ يُـوْهِنْكَ عنْ ذلـكَ السَّأْمُ
وهـاجِـرْ لَـهُ في أيّ أرضٍ وَلَـوْ نـأتْ
عَـلَيْـكَ فـإعْمَـالُ الـمَـطِيّ لـهُ حَتْمُ
وأنْفِقْ جَمِيـعَ العُمْـرِ فيـهِ فَمَنْ يَمُـتْ
لــه طـالبـاً نـالَ الـشـهَّـادَةَ لاهَــظْمُ
فــإنْ نِـلْتَـهُ فَلْيَـهْـنِـكَ الـعِـلْمُ إنَّـهُ
هــو الغَـايــةُ العُـلْيَـاءُ واللَّـذَةُ الجِسْمُ
فـلِلّهِ كَمْ تَـفْـتَضُّ مِنْ بِـكْـرِ حِـكْـمَـةٍ
وَكَمْ دُرَّةٍ تُـحْـظَى بِـهَـا وَصْفُـهـا اليُتْمُ

وَكَمْ كـاعِبٍ حَسْنـاءَ تكشِفُ خِـدْرَهَـا
فَيُسْفِـرُ عَنْ وَجْـهٍ بِـهِ يَبْـرأُ السُّقْـمُ
فتِلْكَ التي تَـهْـوَى ظَفِـرْتَ بِـوَصْلِهَـا
لقد طالَ مـا في حُبِّها نَحَـلَ الجِسْمُ
فعـانِقْ وَقَبِّـلْ وارْتَشِـفْ مِنْ رُضَـابِهـا
فعَـذْلُك عن وَصْلِ الحَبيْبِ هـو الظُّلْمُ
فجـالِسْ رُواةَ العِلْم واسْمَـعْ كـلامَـهُمْ
فـكمْ كَلِمٍ مِـنْـهُـمْ بِـهِ يَبْـرأُ الكَلْمُ
وإنْ أَمَـرُوا فـاسْمَـعْ لهُمْ وأَطِـعْ فهُـمْ
أُولـوا الأمْرِ لامَنْ شـأْنُـهُ الفَتْـكُ والظُّلْمُ
مَـجَـالِسُـهُمْ مِـثْـلُ الـرِّيـاضِ أنِيـقَـةٌ
لقد طَابَ مِنها اللَّونُ والـرِّيـح والطَّعْمُ
أَتْعتَـاضُ عن تِلْكَ الـرِّيَـاضِ وَطِيْبِهـا
مَجـالِسَ دُنيـا حَشْـوُهَـا الـزُّورُ والإِثْمُ
فمـا هِيَ إلَّا كَـالـمَـزَابِـلِ مَـوْضِعـاً
لِـكُـلِّ أذَىً لا يُـسْـتَـطاعُ لـه شَـمُّ
فَـدُرْحَـوْلَ قـالَ الـلهُ قـالَ رسـولُـهُ
وأصحـابُـه أيضـاً فـهَـذَا هـو العِلْمُ
ومـا العِلْمُ آراءُ الـرِّجـالِ وظَـنُّـهُـمْ
ألَمْ تَـدرِ أنَّ الـظنَّ مِنْ بَعْضِـهِ الإِثْـمُ
وَكُنْ تـابِعَـاً خَيْـرَ القُـرُونِ مُمَسِّكـاً
بـآثـارِهِمْ في الـدِّينِ هذا هُـوَ الحَزْمُ

وَصَلِّ إلهَ العَالَمِينَ مُسَلِّماً
على مَنْ بِهِ لِلأَنْبِيَاءِ جَرَى الخَتْمُ
كذا الآلِ والأَصْحَابِ ما قالَ قائلٌ
على العِلْمِ نَبْكِيْ إذْ قدِ انْدَرَسَ العِلْمُ

والله أعلمُ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجْمعين .

الفصلُ التاسعُ
في الاخلاصِ والنيَّةِ

اعْلمْ رَحِمَكَ اللهُ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُتَصَوَّرُ أنْ يَشُوبَهُ غيرُه فإذَا صُفِّيَ عَنْ شَوْبِهِ وَخَلَصَ عنهُ سُمِّيَ خالِصاً ، ويُسَمَّى الفِعلُ المُصَفَّى المُخْلَصَ إخْلاصاً قال الله تعالى : ﴿ مِنْ بينِ فَرْثٍ وَدَمٍ لبَناً خالِصاً سَائِغاً للشَّارِبِيْن ﴾ فَإنّما خُلُوصُ اللبَنِ أنْ لا يكونَ فيه شَوْبٌ من الدَّمِ والفَرْثِ ومِنْ كُلِّ ما يُمْكنُ أن يَمْتَزِجَ به. والإِخْلَاصُ يُضادُّهُ الإِشْرَاكُ ، والمخلصُ الصادقُ هو الذِي لا يُبَالي لو خَرَجَ كلُّ قَدْرٍ له في قلوبِ الخَلْقِ مِنْ أجْلِ إصْلاحِ قَلْبِهِ ولا يُحِبُّ إطّلاعَ الناسِ على أعْمالِهِ.

وقال حُذَيفَةُ المَرْعَشِي رَحِمَهُ اللهُ : الإِخْلاصُ أَنْ تَسْتَوِيَ أَفْعَالُ العبدِ في الظهرِ والباطِنِ وقالَ غيرُهُ : الإِخْلاصُ إفْرادُ الحقِّ سُبْحانَهُ وتعالى بالطَّاعةِ بالقَصْدِ وهو أن يُريدَ بطاعتِهِ التقرُّبَ إلى اللهِ تَعَالَى دونَ شَيْءٍ آخَرَ مِنْ تَصَنُّعٍ لمخلوقٍ أو اكْتِسَابِ مَحْمَدَةٍ عندَ الناسِ أو محبةِ مَدْحٍ مِنَ الخَلْقِ أو مَعْنىً مِن المعاني سِوَى التقرُّبِ إلى اللهِ .

وقال آخر : نَظَرَ الاكياسُ في تفسيرِ الإخْلاصِ فَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ هذا أَنْ تكونَ حَرَكَتُهُ وسكونُهُ في سِرِّهِ وَعَلانِيَتِهِ للهِ تَعالَى لا يُمازِجُهُ نفسٌ ولا هَوَىً وَلَا دُنْيا . وقالَ بعضُهُمْ : الإخْلاصُ التَّوَقِّي عنْ مَلاحَظَةِ الخَلْقِ ، والصِّدْقُ التَنَقِّي مِنْ مُطَاوَعَةِ النفْسِ فالمخلصُ لا رِياءَ لَهُ ، والصادِقُ لا إعْجابَ لَهُ .

وقال آخرُ : ثلاثٌ مِنْ علاماتِ الإخْلاص : إسْتَواءُ المَدْحِ والذَّمِّ مِنَ العامّة ، ونِسْيانُ رؤيةِ الأعمالِ في الأعمالِ ، واقتِضَاءُ ثوابِ العملِ في الآخرةِ . وقد وَرَدَ في فَضْلِ الاخلاصِ آياتٌ وأحاديثُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِيْنَ لهُ الدينَ ﴾ وقال : ﴿ ألا لِلهِ الدِّينُ الخالصُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إلّا الذينَ تابُوا وأَصْلَحُوا واعتصموا باللهِ وأخلصوا دِيْنَهم للهِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَمَنْ كانَ يَرْجُو لقاءَ رَبِّهِ فليعمَلْ عملاً صالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بعبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ وقال : ﴿ لنْ ينالَ اللهَ لحومُها ولا دِماؤُهَا ولكنْ يَنالُهُ التقوى مِنْكُم ﴾ .

وأخبَرَ تعالَى عمَّا قالَهُ المُخْلِصونَ مِنْ عبادِهِ ﴿ إنَّما نُطْعِمُكُمْ لوجهِ اللهِ لا نُريدُ مِنكم جزاءً ولا شُكورا ﴾ وقال : ﴿ وما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ولسوف يرضى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ومَنْ يخرجْ مِنْ بيتِهِ مُهاجِراً إلى اللهِ ورسولِهِ ثُم يدرِكْهُ الموتُ فقد وَقَعَ أجرُهُ على اللهِ ﴾ .

وعن أبي هُريرة رضيَ اللهَ عنهُ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « مَنْ خرجَ حاجّاً فماتَ كُتِبَ لهُ أجرُ الحاجِّ إلى يومِ القيامةِ .

وَمَنْ خرجَ مُعْتمِراً فماتَ كُتِبَ لَهُ أجرُ المُعْتَمِرِ إلى يومِ القيامةِ . وَمَنْ خرجَ غازِياً في سبيلِ اللهِ فماتَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الغازِي إلى يومِ القِيامةِ » .

وعنْ أنَسِ بْنِ مالكٍ رَضيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ قال : « مَنْ فارقَ الدنيا على الإخلاصِ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ فارقَها واللهُ عنهُ راضٍ » رواهُ ابنُ ماجه والحاكمُ وقال على شَرْطِ الشيخين .

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ عنْ النبيِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أنه قال : في حَجّةِ الوَدَاع : نضَّرَ اللهُ امرءاً سَمِعَ مقالتي فَوَعَاها فرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ ليس بفقيهٍ ، ثلاثٌ لا يُغَلُّ عليهنَّ قلبُ امرىءٍ مؤمن : إخلاصُ العملِ للهِ والمناصَحَةُ للأئمَّةِ المسلمينَ ولُزومُ جَمَاعَتِهِمْ فإنَّ دعاءَهُمْ محيطٌ مِنْ وَرَائِهِمْ . رواه البزّارُ بإسنادٍ حَسَنٍ ورواهُ ابنُ حِبَّانِ في صحيحِهِ مِنْ حديثِ زَيدِ بنِ ثابتٍ .

وعن مُصْعَبِ بنِ سعدٍ عن أبيهِ رضيَ اللهُ عنهُ أنهُ ظنَّ أنّ لهُ فضلاً على مَنْ دونَهُ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فقال النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ إنما يَنْصُرُ اللهُ هذه الأمـةَ بضَعِيفِها بـدعْوَتِهِمْ وصلاتِهِمْ واخلاصِهِمْ . رواه النسائي وغيرُه .

وما وردَ عن عُمَرَ بْنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : سمعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ : إنَّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ ، وإنَّما لِكُلّ آمرِىءٍ ما نَوَى فمنْ كانتْ هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ ، ومنْ كانتْ هجرتُهُ لدنيا يُصيبُها أو امرأةٍ ينكِحُها فهجرتُهُ إلى ما هاجَرَ اليهِ ، متَّفَقٌ عليه .

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ كُنا معَ النّبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ في غزاةٍ فقال : إنّ بالمدينةِ لَرجالاً ما سِرْتُمْ مَسيراً ولا قَطَعْتُمْ وادياً إلا كانوا معكم حَبَسَهم المرضُ وفي روايةٍ إلا شَرَكوكُمْ في الأجْر . رواهُ مسلمٌ وفي رِوايةٍ حَبَسَهُمْ العذرُ .

وعن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « يغزو جيشٌ الكعبةَ فإذا كانوا ببيداءَ مِن الأرضِ خُسِفَ بأولِهِمْ وآخرهم قالتْ : قلتُ يا رسولَ اللهِ كيف يُخسَفُ بأولِهِمْ وآخِرِهِمْ وفيهِمْ أسْواقُهُم وَمَنْ ليس منهُمْ ، قال : يُخْسَفُ بأولِهِمْ وآخِرِهِمْ ثم يُبعثونَ على نِيَّاتِهِمْ . متفقٌ عليه .

وعن معنِ بنِ يزيدَ قالَ : كان أبي يزيدُ أخرجَ دنانيرَ يتصدَّقُ بها فوضعها عندَ رجلٍ في المسجِدِ فجئتُ فأخذتها فأتيتُهُ بها فقال : واللهِ ما إياكَ أردتُ . فخاصَمتُهُ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فقال : لكَ ما نَوَيْتَ يا يَـزيدُ ولكَ ما أخذْتَ يا مَعْنُ رواهُ البخاري .

وفي حديثِ سعدِ بنِ أبي وَقّاصٍ ، أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال له : إنّك لن تُخلف فتعملَ عملاً تَبْتَغِي بِهِ وجهَ اللهَ إلا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً ورِفعةً الحديث . وعن أبي هُريرةَ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : إنّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى أجْسامِكُم ولا إلى صُوَرِكُمْ ولكنْ ينظُرُ إلى قُلوبِكُم . رواهُ مسلم .

وعن أبي موسى الأشعَرِي قال سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ عن الرجلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَـاءً أيُّ ذلِكَ في

سبيلِ اللهِ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : مَن قَاتَلَ لِتكونَ كلمةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ في سبيلِ اللهِ . متفق عليه ، وقال صلى اللهُ عليهِ وسلمَ إنَّ أولَ الناسِ يُقْضَى يومَ القيامةِ عليهِ رجلٌ اسْتُشْهدَ فأُتِيَ بِهِ فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها قال : فما عَمِلْتَ فيها ، قال : قاتلتُ فيكَ حتى اسْتُشْهِدْتُ ، قال : كَذَبْتَ ولكنّك قاتلْتَ لأَنْ يقالَ : فلانٌ جَرِيء فقد قِيلَ ثم أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ على وجِهِهِ حتى أُلقِيَ في النار .

ورجلٌ تعَّلمَ العلمَ وعَلَّمَهُ وقرأ القُرآنَ فأُتِيَ بهِ فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها قال فما عَمِلْتَ فِيها قال تعلمتُ العلمَ وعمِلْتُ بهِ وقرأتُ فِيكَ القرآنَ . قال : كذبْتَ ولكنّكَ تعلّمْتَ لِيُقالَ عالمٌ وقرأتَ القرآنَ لِيُقالَ هو قارِئٌ ، فقدْ قِيل ، ثم أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ على وجِهِهِ حتى أُلقِيَ في النار . ورجلٌ وَسَّعَ اللهُ عليهِ وأعطاهُ مِنْ أصنافِ المال ، فأتَى بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفَها فقال : ما عَمِلتَ فيها قال : ما تَركْتُ منْ سَبيلٍ تُحِبّ أنْ يُنفقَ فِيْهَا إلاَّ أنفقتُ فِيها لَكَ ، قال : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هو جَوادٌ فقدْ قِيلَ ثم أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حَتى أُلقِيَ في النار .

وفي الصحيحينِ مِنْ حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ عن النبّيِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قال : مَنْ هَمَّ بحَسَنةٍ فلمْ يعملْها كُتبتْ له حَسَنة . وعن أبي كَبْشَةَ الأنصارِي قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم مَثلُ هذهِ الأُمَةِ مَثلُ أرْبَعَةِ نَفرٍ رَجُلٍ أتاهُ اللهُ مالاً وعِلْماً فهو يَعْمَلُ بِهِ في مَالِهِ يُنْفِقُهُ في حَقِّهِ ، وَرَجُلٍ أتاهُ اللهُ عِلماً ولم يُؤْتِهِ مالاً وَهو يَقُولُ : لَو كَانَ لِي مِثْلُ هَذا عَمِلْتُ فيهِ مِثْلَ الذي يَعْمَلُ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَهُمَا في الأَجْرِ سَوَاء ، وَرَجُلٍ آتاهُ اللهُ مالاً ولم يُؤْتِهِ عِلْماً فَهُوَ يَخبِطُ فيهِ يُنْفِقُهُ

فِي غيرِ حَقِّهِ ، وَرَجُلٍ لم يُؤْتِهِ مَالاً ولم يُؤْتِهِ عِلْماً فيقولُ : لَو كانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فيه مِثْلَ الذي يَعْمَلُ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَهُمَا في الوِزْرِ سَوَاء .

وقال عُمُرُ : رَضِيَ اللهُ عنه ، أَفْضَلُ الأَعْمَالِ أَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللهُ تَعالَى والوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعالَى وَصِدْقُ النِّيَةِ ، وقال بعضُهم : دُلُونِي على عَمَلٍ لا أَزَالُ بِهِ عَامِلاً لِلهِ تَعالَى فَقِيْلَ لَهُ : أنو الخيرَ فإنكَ لا تَزَالُ عاملاً وإنْ لم تَعْمَلْ ، فالنيةُ الصالِحَةُ بِعَمَلٍ وان عُدِمَ العَمَلُ لِعُـذْرٍ شَرْعِي ، فإنَّ مَن نَوَى أنْ يُصَلِيَ مِن الليلِ فنامَ كُتِبَ لَهُ ثوابُ مَا نوى أن يَفْعَلَهُ وقد جاء في الحديث ، ما مِنْ رجلٍ يكونُ لهُ ساعةٌ من اللَّيلِ يَقُومُهَا فَيَنَامُ عنها إلا كُتِبَ له أَجْرُ صَلاتِهِ وكان نَومُهُ صَدَقَةً تُصُدِقَ بِهِ عَليهِ فالمَرْءُ ما دَامَ قد أَسْلم وَجْهَهُ للهِ وأخلصَ نِيَّتَهُ لِلهِ فإنَّ حَرَكاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَنَوْمَاتِهِ وَيَقْظَاتِه تُحْسَبُ خَطَواتٍ إلى مَرْضَاةِ اللهِ .

قال بعضُ السلفِ : إنِّي لأَسْتَحِبُ أن يَكونَ لِي في كُلِّ شيءٍ نيةٌ حَتَّى في أكلي وَشُرْبِي وَنَومِيْ وَدُخُولِ الخَلاءِ وفي كلِ ذَلِكَ مِمَّا يُمْكِنُ أن يُقْصَد بِهِ التَقربَ إلى اللهِ تَعالى لأَنَّ كلَّ ما هُوَ سَبَبٌ لِبَقَاء البَدَنِ وَفَراغِ القلبِ مِنَ مُهِمَّاتِ الدِيْنِ فَمَنْ قَصَدَ مِن الأكِلِ التَّقَوِي على العبَادَة ومن النكاحِ العَفَافَ وَتَحْصِيْنَ الدِيْن وَتَطْيِيْبِ قَلْبِ أهلِهِ وَالتَوصُلِ إلى وَلَدٍ يَعْبُدُ اللهَ بَعْدَهُ أُثِيْبَ على ذلك .

ولا تَحْتَقِرْ شيئاً مِن حَرَكَاتِكَ وَسَكنَاتِكَ فَصَلاحُ النيةِ واخلاصُ القلبِ لِرَبِ العالمينَ يَرْفعانِ مَنْزِلَةَ العَمَلِ الدُنْيَوي البَحْتِ فَيَجْعَلانه عِبادَةً مُتَقَبَّلَةً كما أنَ فَسَادَ النيةِ يَنزِلُ بالطاعَاتِ وَتَنْقَلِبُ مَعَه مَعَاصِي فلا يَنَالُ المرء

بَعْدَ التعبِ في أَدائها إلا الفَشَلُ والخَسَارَةُ .

قال ابن القيم : رحمه اللهُ لا يَجْتَمِعُ الاخلاصُ في القلبِ وَمَحَبَّةُ المدحِ والثَنَاءِ والطَّمَعِ فيما عِندَ الناسِ إلا كَمَا يَجْتَمِع الماءُ والنارُ والضبُ والحوتُ ، فاذا حَدَثَتْكَ نَفْسُكَ بطلَبِ الاخلاصِ فأقبِلْ عَلى الطَّمَعِ أولاً فأذبَحْهُ بسِكِيْنِ اليَأْسِ ، واقبلْ على المدَحِ والثناءِ فازْهَدْ فِيْهِمَا زُهْدَ عُشَاقِ الدُّنْيا في الآخرةِ ، فاذا استقامَ لكَ ذَبحُ الطَّمعِ والزهدُ في الثناءِ والمدحِ سَهُلَ عليكَ الاخلاصُ فان قلتَ : وما الذي يُسَهلُ عَلَيَّ ذَبحَ الطَّمَعِ والزُّهْدَ في الثناءِ والمدحِ قلتُ : أما ذَبحَ الطَمعِ فَيُسَهّلُهُ عَلَيْكَ يَقِيْناً أنه ليسَ شيءٌ يُطْمَعُ فيه إلا وَبيدِ اللهِ وَحدَهُ خِزَانَتُهُ لا يَمْلكُهَا غَيْرُهُ وَلَا يُؤْتَى العَبْدُ منها شَيْئاً سِوَاهُ وأما الزُهْدُ في الثناءِ والمدحِ فَيُسَهّلهُ عليكَ عِلْمُكَ أَنَّهُ ليسَ أَحَدٌ يَنْفَعُ مَدْحُهُ وَيزِيْنُ ، وَيَضُرُّ ذمُهُ وَيَشِيْنُ إلا اللهُ وَحْدَهُ ، قال ذلكَ الاعرابيُ للنَبي صلى الله عليهِ وَسَلَّمَ : ان مَدْحِي زَيْنٌ وَذَمِي شَيْنٌ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذلكَ اللَهُ عَزَّ وَجَلَّ .

فازهَدْ في مَدْحِ مَن لَا يَزيْنُك مَدْحُهُ وفي ذَمِ مَن لا يَشيْنُكَ ذَمُّهُ ، وارْغَبْ في مَدحِ مَن كُلِ الزَّيْنِ في مَدْحِهِ وَكلُ الشَيْنِ في ذَمِهِ ، ولن يَقْدِرْ عَلى ذَلكَ إلا بالصَّبر واليَقينِ فَمَتَى فَقَدْتَ الصَّبْرَ واليقينَ كُنْتَ كَمَنْ أَرادَ سَفراً في البَحْرِ في غَيْرِ مَرْكَبٍ قال الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَق ولَا يَسْتَخفنك الذينَ لا يُوقِنون ﴾ . وقال : ﴿ وجَعَلناهُمْ أئِمة يهدونَ بِأَمرِنَا لما صَبروا وكَانوا بِآياتِنا يُوقِنون ﴾ .

وقد يَعْجزُ عن عمل الخيرِ الذي يَتَمَنَّى فِعْلَهُ لِضَعْفِ بَدَنِه أو قِلَّة مالِهِ

ولكن اللهُ المطلعُ على السَّرائِر اللطيفُ الخبيرُ يُثِيْبُ الحَرِيْصَ على فِعْلِ الخَيْرِ كما في الحَدِيْثِ اذا مَرِضَ العَبْدُ أو سَافَرَ كُتِبَ له ما كانَ يَعْمَلُ صَحِيْحَاً مُقِيْمَاً .

وفي غزوةِ العُسْرَةِ تَقَدَّمَ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم رجالٌ يُرِيْدُون أنْ يُقَاتِلوا الكفارَ وأن يَجُودُوا بِأنفُسِهم في سبيلِ اللهِ فقالَ لهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم : لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عليه فعادُوْا وفي حُلُوقِهِمْ غُصَّةٌ لِتَخَلُفِهم عن مَيْدَانِ القِتَالِ في سبِيلِ اللهِ وفيهم نَزَلَ ﴿ ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدم حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ فَنَوَّهَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم بإيمانِهِمْ واخلاصِهِم وقال لِلْجَيْشِ السّائِرِ مَعَه : (ان بالمدينةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُم مَسِيْراً ولا قَطَعْتُمْ وادِياً إلّا كانُوْا مَعَكُم) الحديث وَتَقدم قريباً .

اللهمَّ اعْطنا مِن الخيرِ فوقَ مَا نَرْجوهُ وآصْرف عَنا مِن السوءِ فوقَ مَا نَحْذر فإنكَ تَمحُو مَا تَشَاء وَتَثْبت وعندكَ أُم الكِتاب .

اللهمَّ وآجعلنَا ممَّن يأخُذ الكِتاب باليمين ، وآجعلنَا يَوم الفزعِ الأكبرِ آمنين ، وأوصلنا بِرَحْمَتِكَ وَكَرَمِكَ إلى جَناتِ النعيم ، واغْفِر لَنَا وَلوَالِدينَا ولِجَميع المسلمين ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَم الراحِمين ، وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجْمعين .

الفصــل العــاشر

وقال ابن القيم رحمه الله : يَعْرِضُ لِلْعَامِل في عَمَلِهِ ثلاثُ آفاتٍ رؤ يتُهُ وملاحظتُه وطلبُ العَوَضِ عليه ورضاهُ بِهِ وَسكونُهُ إليه . ففي هذه

الدرجةِ يَتَخَلَّصُ مِن هَذِهِ البَلِيَّةِ . فالذي يُخَلِّصُه مِن رُؤْيَةِ عَمَلِهِ مُشَاهَدَتُهُ لِمنَّةَ الله لا مشيئته هو ، كما قال تَعالى ﴿ وما تشاؤونَ إلا أن يشاء اللَّهِ ربِ العالمين ﴾ وأنَّهُ آلةٌ مَحْضَة وأنه لَو خُلي وَنَفْسَهُ لم يكنْ مِن فِعْلِهِ الصَّالِحِ شَيءٌ ، فانَّ النَّفْسَ جَاهِلةٌ ظالِمةٌ طَبْعُها الكَسَلُ وايثارُ الشهواتِ والبطالةُ ، وهي مَنْبَعُ كُلِّ شَرٍ ومأوَى كُلِّ سُوْءٍ ، وما كانَ هَكَذَا لم يَصْدُرْ مِنهُ خَيْرٌ وَلَا هُو مِن شَأْنِهِ فَالخَيرُ الذي يَصْدُرُ مِنها إنَّمَا هُوَ مِن اللهِ وبِهِ ، لا مِن العبد ولَا بِهِ ، كما قال تعالى :

﴿ ولو لا فضلِ اللهِ عليكم وَرَحمته ما زكى مِنكم مِن أحدٍ أَبَدَا ولكن الله يُزَكِّيْ مَنْ يَشَاء ﴾ وقال أهلُ الجنة : ﴿ الحمدُ لله الذي هدانا لِهَذا ﴾ وقال تبارك وتعالى لرسوله : ﴿ ولولاَ أن ثبتنَاكَ لقد كِدْتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولكن الله حبب اليكمْ الإيمان وزَينه في قُلوبكم ﴾ الآية .

فكلُ خيرٍ في العبدِ فهو مُجَرَّدُ فضلِ اللهِ وَمِنَّتِهِ وإحسانِهِ وَهُوَ المَحْمُودُ عليهِ فرؤيةُ العبدِ لِأَعْمَالِهِ في الحقيقةِ كَرُؤْيتهِ لِصفاتِهِ الخَلْقِيَّةِ مِن سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وإدْرَاكِهِ وَقُوَّتِهِ ، بَلْ مِن صِحَّتِهِ وَسَلاَمَةِ أعضائِهِ ونحو ذلكَ ، فالكلُ مُجَرَّدُ عَطَاءِ اللهِ وَنعمتِهِ وَفَضْلِهِ فالذي يُخَلِّصُ العَبْدَ مِن هذهِ الآفةِ مَعْرِفَةُ رَبِّهِ وَمَعْرِفَةُ نَفْسِهِ .

والذي يُخَلِّصُهُ مِن طلبِ العِوَضِ على العملِ عِلْمُهُ بأنه عَبْدٌ مَحْضٌ ، والعَبْدُ لا يَسْتَحِقُ على خِدْمَتِهِ لِسَيّدِهِ عِوَضاً ولا أجْرَةَ ، اذْ هُو يَخْدِمُهُ بِمُقْتَضي عُبُودِيتِهِ ، فَمَا يَنالَه مِن سَيِّدِهِ مِن الأجر ، والثوابِ تَفَضُّلٌ منه واحسانٌ إليهِ وانْعَامٌ عليهِ لَا مُعَاوَضَةَ ، إذِ الأُجْرَةُ إنما يَسْتَحِقُّهَا الحُرُّ أو

عَبْدُ الغَيْرِ فأمَّا عَبْدُ نَفْسَهُ فلا . والذي يُخلِصُه مِنَ رِضَاهُ بِعَمَلِهِ وَسُكُونِهِ إليهِ أمْرَانِ : أحدُهُمَا مطالعةُ عُيُوبِهِ وآفاتِهِ وَتَقصيرِهِ فيه وما فيهِ مِن حَظِ النَّفْسِ والشيطانِ ، فَقَلَّ عَمَلٌ مِن الأَعْمَالِ إلا وللشَّيْطَانِ فيه نَصِيْب وإنْ قَلَّ وَلِلنَّفسِ فيه حظ .

الثاني : عِلْمُهُ بما يَسْتَحِقُّهُ الربُ جَلَ جَلاَلُه مِن حُقُوقِ العُبوديةِ وآدابِهَا الظاهرةِ وَالباطنةِ وشروطِهَا وأن العَبْدَ أضعفُ وأعجزُ مِن أنْ يُوَفِيها حَقاً وأن يَرْضَى بِهِ لِرَبِّهِ فالعَارِفُ لا يَرْضَى بِشَيْءٍ مِن عَمَلِهِ لِرَبِّهِ ولا يَرْضَى نَفْسَهُ لِلهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَيَسْتَحِي مِن مُقابَلَةِ اللهِ بِعَمَلِهِ . وَكَان بَعْضُ السَلَفِ يُصَلِي في اليومِ والَّيْلَةِ أَرْبَعْمائَةِ رَكْعَةٍ ، ثُمَّ يَقْبِضُ على لِحْيَتِهِ وَيَهُزُهَا وَيقولُ لِنَفْسِهِ : يَا مَأْوَى كُلِّ سُوْءٍ وهل رَضِيْتُكَ لِلهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ . وقال بَعْضُهُم : آفةُ العَبْدِ رِضَاهُ عن نَفْسِهِ وَمَن نَظر إلى نَفْسِهِ باستحسان شيءٍ منها فَقَدْ أَهْلَكَهَا وَمَن لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ على دَوامِ الأوقاتِ فهو مَغْرُوْرٌ . انتهى .

وختاماً فَعَلَى المُسْلِم المخلصِ أن يَحْذَرَ كُلَّ الحَذَرِ أن يَمْتَزِجَ باخلاصِ عَمَلِهِ شيءٌ آخرُ مِن رِياءٍ أو غَيرِهِ كَمَنْ يَصُومُ لِيَنْتَفِعَ بالحُمِيْةِ الحَاصِلةِ بالصومِ وَمَعَ قَصدِ التقربِ أو يُعْتِقَ رَقِيْقَهُ لِيَتَخَلَّصَ مِن مَؤُنَتِهِ وَسُوْءِ خُلُقِهِ أو يَحُجَّ لِيَصِحَّ بَدَنُه بِحَرَكَةِ السَّفَرِ أو لِيَتَخلَّصَ مِن شَرٍّ يَعْرُضُ له بِبَلَدِهِ أو يَغْزُو لِيَتَمَرَنُ عَلَى الحَرْبِ وَيُمَارِسَها أو يَتَعَلم العِلْمَ لِيَسْهُلَ عليهِ طَلَبُ مَا يَكْفِيْهِ مِن المال أو لِيَكونَ عزيزاً بينَ أبناءِ جِنْسِهِ وَعَشِيْرَتِهِ ، أو لِيَكونَ مَالُهُ مَحْرُوْسَا بعِزِ العِلْمِ عَن الاطمَاع ، أو عادَ مَرِيْضاً لِيُعَادَ إنْ مَرِضَ أو شَيَّعَ جَنَازَةً لِيُشَيَّعَ جَنَائِزَ أهلِهِ ، أوْ فَعَلَ شَيْئاً مِن ذلكَ لِيُعْرَفَ بالخيرِ وَيُذْكَرَ بهِ وَيُنْظَرَ إليه بِعَيْنِ الصَّلاحِ والوَقَارِ أو تصدقَ لِيُثْني عليهِ

وَيُقَالَ أنه كَرِيْمٌ يَبْذُلُ المَالَ أو قَامَ بِمَشَارِيْعَ خيْرِيَّةٍ لِيُثْنَى عَلَيهِ فكلُ هَذِهِ وَنَحْوَها مِن مُكَدِّرَاتِ صَفْوِ الاخلاصِ نَسأل اللهُ العصمةَ لَنَا وَلاخواننا منها .

وكم مِن أعْمَالٍ يَتْعَبُ الشخصُ فيها وَيظُنُّ أنَّهَا خَالصةً لِوَجْهِ اللهِ ، ويكونُ فيها مَغْرُوْراً لأنه لا يَرَى وَجْهَ الآفةِ فيها ، فَدقائقُ الآفاتِ قَلَّمَا تَسْلَمُ الاعمالُ منها .

قال بعضُ السلفِ لَا يَزَالُ العَبْدُ بِخَيرٍ ما عَلِمَ ما الذي يُفْسِدُ عليهِ عَمَلَهُ فلا غِنَى بالعَبدِ عن مَعْرفةِ ما أُمِرْنَا باتّقَائِهِ مِن الرياءِ وَغيرِهِ وَلا سِيَّما الرِّياءُ إِذْ وُصِفَ بالخَفاءِ في الحديثِ أنه أَخفَى مِن دَبِيبِ النَملِ فما خفيَ لا يُعْرَفُ إلا بشِدَّةِ التَّفَقُدِ وَنَفَاذِ البصيرةِ بِمَعرِفَةٍ لَهُ حِيْنَ يَعْرُضُ وإلا لَم يَنْفَعِ التفقدُ لِمَا لَا يُعْرَفُ .

فبالخوفِ والحذرِ يَتَفَقَّدُ العَبْدُ الرِّيَاءَ، وَبِمَعْرِفتِهِ بِبَصرِهِ حينَ يَعْرِضُ لَهُ .

وَمَنِ فوائِد الاخلاصِ أنه يَمُدُ جَأْشَ صَاحِبه بِقُوَّةٍ فَلا يَتَباطأُ أَنْ يَنْهَضَ لِلدّفاعِ عَن الحَق .

ومن فوائِدِهِ أنه يَشْرَحُ صَدْرَ صَاحِبِهِ للانْفاقِ في وُجُوهِ البِر فَتَجدُهُ يؤْثِرُهَا بِجَانِبٍ مِن مَالِهِ وان كانَ به خَصَاصَةٌ . وَمِنَ فوائِدِهِ أنه يُعْلِّم صَاحِبَه الزُّهْدَ في عَرَضِ الدُنْيا ، فلا يُخْشَى مِنْهُ أَنْ يُنَاوِىءَ الحَقَّ أو يُلْبِسَه بِشَيءٍ مِن البَاطِلِ ، ولو أُعْطِيَ الشَّيءَ الكثيرَ مِن المَالِ . وَمِنَ فوائِدِهِ أنه يَحْمِلُ القاضِي على تَحْقِيْقِ النَّظَرِ في القَضَايَا فَلا يَتَسَّرَعْ في القَضِيَّة وَيْفصِلُ فيها إلا بَعْدَ أَنْ يَتَثَبَّتَ وَيَتَبَيَّنَ لَهُ الحقُ . وَمِن فوائِدِهِ أنه يَحْمِلُ المُعَلِّمَ أنْ يَبْذِلَ جُهْدَهُ في ايضاحِ ما خَفِيَ على التّلْمِيْذِ وأن لا

يَبْخلَ عَلى الطلاَبِ بما تَسَعُه أفهامُهُم مِن المَبَاحِثَ المفيدَةِ . ومِن فَوَائِدِهِ أن الاسْتَاذَ يَحْرِصُ عَلَى أن يَسْلُك في طَرِيْقَةِ التَدرِيْس الأَسَالِيْبَ التي تُجَدِّدُ نَشَاطَهُم وَتَحفِزُهُم إلى التَعمُقِ في المَسَائِل .

وَمِن فَوَائِدِ الاخلاص أنه يَمْنَعُ التاجِرَ مِنَ الخِيَانَةِ فلا يَخُوْنُ الذي يأتمنُه في صِنْفٍ مِن أَصْنَافِ البِضَاعَةِ ، أَوْ قِيْمَتِها . وَمِن فَوائِدِ الاخلاص أنه يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلى إجَادَةِ العَمَلِ وأَنْ يكونَ مُحْسناً فِيه ومِن فوائِدِهِ أنه يَمْنَعُ الكاتبَ أن يَقْلِبَ بَعضَ الحقائِقِ أو يَكسُوْهَا لوناً غَيْرَ لَوْنِها . وَمِن فوائِدِ الاخلاص أنَه يَحْمِلُ صَاحِبَه عَلى تَجَنُّبِ الغِش فَكُلُ غشاشٍ فهو ليسَ بِمُخْلِصٍ ، وَتَقَدَمَ حديثُ مَن غَشَّنَا فَليسَ مِنَّا ومِن فوائدِ الاخلاص أَنه يَحْمِلُ صَاحِبَهُ على الوَفَاءِ بالعهدِ والوعدِ ، وَمِن فوائدِ الاخلاص أنه يَحْمِلُ صَاحِبَه على أنْ يكوُنَ عَمَلُه لِلْقَرِيْبِ والبعيدِ سَوَاء .

ومِن فوائدِهِ أنه يَحْمِلُ صَاحِبَه على تَنظيمِ أعمَالِهِ . ومِن فوائِدِهِ أَن المُتَّصِفَ به يكونُ مُقَدَّراً مَرْمُوقاً بعَينِ الاحْتِرَامِ والاجلالِ ، ومِن فوائدِهِ أنه يَحْمِلُ صَاحِبَه على الابتعادِ عن الرِشوةِ ، وَمِن فوائدِهِ أنه يحملُ صَاحِبَه إذا كانَ مِن أهلِ الحَلّ والعَقدْ وَزيراً أو رَئِيساً أو مِديراً أنْ يَتَحَرَّى لِلأَعْمَالِ الأَتقى وَالأَرضى ، الذي تُوْجَدَ فيهِ المؤهلاتُ حقيقةً ، وهِيَ القوةُ والأَمانَةُ والحفظُ والعلمُ . عاملاً بقوله صلى اللهُ عليه وسلم : مَن اسْتَعْمَلَ رَجُلاً على عِصَابَةٍ وفيهم مَن هُوَ أَرْضَى للهِ منه فَقَدْ خَانَ الله ورسولَهُ والمؤمنينَ ، ومِن فوائِدِهِ أن العَمَل الخَالِصَ القَلِيْلَ منه يُجْزِي كما في حَدِيثِ معاذٍ أن النبي صلى الله عليه وسلَم قالَ لَهُ : أَخلِصْ العَمَلَ يُجْزِكَ مِنه القَلِيْلُ ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

والـلهُ لا يَـرْضَـى بِـكَـثْـرةِ فِـعْـلِنَـا
لـكـن بـأحْـسَـنِـهِ مَـعَ الايْـمَـانِ
فـالـعَـارِفُـونَ مُـرَادُهُـم احـسـانَـهُ
والـجـاهـلونَ عَـمُـوا عَن الاحْـسَـانِ

ومِن فوائدِ الاخـلاصِ أن العبدَ لا يَتَخَلَّصُ مِن الشيطانِ إلا بالاخلاصِ ، قال الله اخباراً عَمَّا قاله ابليسُ لعنه اللهُ : ﴿ الا عبادَكَ منهم المُخْلَصِين ﴾ ، وَمِن فوائدِ الاخلاصِ أنه يُمَيزُ العَمَلَ مِن العُيُوْبِ كَتَمْيِيزِ اللَّبَنِ مِن الفَرْثِ (والـدمِ) ، ومِن فوائدِهِ أنَّ المُخْلِصَ إذَا نَامَ حَتَّى يُرِيْحَ نَفْسَهُ وَيُجِمَّهَا لِلْعَمَلِ لِيَتقَوَّى عَلَى العِبادةِ يكونُ نومُهُ عِبَادةً .

مـوعظـة

عبادَ اللهِ أَخْلِصُوا في أَعْمَالِكُم كُلَّها لَا فَرْقَ بَيْنَ عَمَلٍ وَعَمَلٍ سَواءٌ أَكُنْتُم تَعْمَلُونَ لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ أَمْ كُنْتُم تعملونَ لِخَلْقِ اللهِ وَسواءٌ أَكُنْتُم بَيْنَ الخَلْقِ وأنتُم تَعْمَلونَ أَمْ كُنْتُمْ في مَحَلٍ خَفِيٍ لَا يَرَاكُم إلا اللهُ والكرامُ الكاتبونَ وسواءٌ أكنتُم في سَرَّاءَ وَقْتِ العملِ أم في ضَرَّاءَ .

ذَلكَ الاخْلاصُ هو أَنْ تَعْمَلَ العَمَلَ الصالحَ لا تُرِيْدُ جَزَاءً عليهِ إلا مِن اللهِ يكونُ ذلكَ قصدُكَ قبلَ العملِ وحينَ مُبَاشَرَتِهِ وَبعدَ الفَرَاغِ مِنهُ لَا تَذْكُرْهُ بِلسَانكَ إلا مِن بَابِ التحدثِ بنعمِ اللهِ أو لِيَقْتَدِي بِكَ غَافِلٌ مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ ، بِهَذا يَكُونُ العَمَلُ عبادةً حقاً وتكونُ أنتَ مِن العابِدِينَ وبِهذا يَثمرُ عَمَلُكَ القَبُولَ عندَ رَبكَ وعندَ الناسِ ، وبهذا تكونُ أَقْوَى الناسِ لأنَّ وَلِيَّكَ حِيْنَئِذٍ يكونُ مَوْلَاكَ القَوِيُ المَتِيْنُ وبهذا تكونُ مِن أَهْلِ الكَرَامَةِ في

هذهِ الدارِ وفي دارِ الجزاءِ .

أَمَّا إذا عَمِلْتَ العَمَلَ الصَّالِحَ لِيُقْبلَ عَلَيْكَ الناسُ وَيقُوْلُوا إنكَ مِن الصَّالِحينَ فأنتَ إذاً تكونُ مُرَائِياً لا تُخْلِص العَمَلَ بَلْ تَشْرِكْ مَعَه الناظرينُ فتكونُ في دَعْوَى تَمْحِيْصِ العملِ للهِ تعالى لَسْتَ بصَادِقٍ بَلْ مِن الكاذبين .

وانْظُرْ كَيفَ تكونُ حَالُ مَن يَكْذِبُ على مَن لا تَخْفَى عليهِ خافيةٌ ، لا في الأرضِ ولا في السماءِ ، إن المُرَائِيَ مَهْمَا أَخْفَى رِياءَهُ يُظْهِرُ اللهُ تعالى ما فِي قَلْبِهِ لِلْعَالَمين ، رَوَى الامامُ أحمدُ عن أبي سعيدٍ مَرفوعا « لو أَنَّ أَحَدَكُم يَعْمَلُ في صَخْرَةٍ ليسَ لَهَا بابٌ ولا مَنْفَذٌ لأَخْرَجَ اللهُ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ كائناً مَا كان » .

ولذلكَ يكونُ لأعمالِ المُرائِي مِن السَّمَاجَةِ في نُفُوسِ الناسِ مالا يَحْكِيْهِ اللّسَانُ ولِهذا يكونُ مَرْذُوْلاً ثَقِيْلاً عندَ الناسِ ، ومِن هذا تَرَاه يَتَوَدَّدُ إلى الناسِ وَيَضْحَكُ إليهِمْ وَنُفُورُهُم عنه عِبْرَةٌ عند العقلاء ثم هو عندَ اللهِ أسوأ حالاً خصوصاً في اليومِ الذي يَشِيْبُ فيه الاطفالُ فقد يُؤْمَرُ بهِ إلى النارِ وله مِن الأعمالِ أمثالُ الجبالِ لكنَّهَا لَمَّا لَم يُرْد بِهَا وَجْهَ اللهِ خَالِصةً صَارَتْ وبالاً عليه نعوذُ باللهِ مِن الرِّياءِ .

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم .

الفصل الحادي عشر
في محاسبة النفس

اعلم وفقنا الله واياك وجميع المسلمين أنه يَجِبُ على الانسان أولاً أن يَعلمَ أنه عبدٌ مَرْبُوبٌ لَا نَجاةَ لَهُ إلَا بِتقوى اللهِ ولا هلاكَ عليه بَعْدَهَا ثم يُفكِّرُ (لأيِ شيءٍ خَلقَهُ اللهُ ولِمَا خَرجَ في هذِهِ الدارِ الفانيةِ فَيَعْلَمَ أنه لم يُخْلَقْ عَبَثاً كما قال الله أفحسبتم أنمَا خَلَقْنَا كَم عبثا) وقال ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ﴾ وانما وُضِعَ في هذِهِ الدارِ لِلْبَلْوَى والاختِبَارِ هَلْ يَطِيْعُ رَبَّهُ فَيَنْتَقِلْ إلى دَارِ نَعِيْمٍ أَبَدِيْ سَرمَدِي أَو يَعصِي رَبَّهُ فَينتقل إلى عذابِ الأبدِ إلى جَهَنَّمَ وَبئسَ المِهَاد .

اذا فَهِمَ ذَلكَ عَلمَ أنهُ لا نَجاةَ لهُ إلا بطَاعَةِ رَبِهِ وأن الدليلَ على طاعَةِ اللهِ العلمُ ثم العملُ بأمرِهِ وَنهيِهِ في مَوَاضِعه وعِلَلِهِ وأسبابِهِ ولن يجدَ ذلكَ إلا في كتابِ اللهِ وسنةِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم لأنَّ الطَاعَةَ سَبِيْلَ النجاةِ والعِلْمُ هُوَ الدليلُ على السبيلِ . قال الله تعالى : ﴿ فأعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ .

ثم يَتَأَمَّلُ مَا أَمَامَهُ مِن الشَّدَائِدِ والْكُرَب والعَقَبَاتِ والأَهْوالِ التي أوْضَحَها اللهُ في كِتابِهِ وَبَيَّنَهَا رسولُه صلى الله عليهِ وسلَم قال تعالى ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وقوله ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ وقال ﴿ يوم يَبعثُهُم اللّه جَميعاً فَيُنَبِؤُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أحْصَاه اللّهُ وَنَسوهُ واللّه

على كلِّ شيءٍ شَهيدٍ ﴾ وَقَال ﴿ يَومئذٍ يصْدُرُ النّاسُ أشْتَاتاً لِيُرَوا أعمَالهُم فمنْ يَعْمَلْ مِثقَالَ ذرّةٍ خيراً يَرهُ ومنْ يَعملْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شراً يَرَه ﴾ وقال ﴿ يومَ تَجدُ كلُّ نفْسٍ مَا عملتْ من خَيرٍ محْضراً وَمَا عَملتْ من سُوءٍ تودُّ لوْ أنّ بينهَا وبينهُ أمداً بعيدَةً ﴾ وقال ﴿ واعْلمُوا أنّ اللّهَ يعْلمُ ما في أنْفُسكمْ فاحْذرُوه ﴾ .

ـ فاذا عَلِمَ أنّه مُنَاقَشٌ في الحِسَابِ عنْ مثاقِيلِ الذَّرِّ في يَومٍ كان مقّدارُه خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ أحوجَ ما يَكونُ الى الحَسَناتِ وغُفْرانِ السّيئَاتِ تَحقّقَ أنّه لا يُنجيْهِ مِنْ هذهِ الأَخْطارِ إلَا اعتمَادُه على اللّه وَمَعونَتهِ على مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَمُرَاقَبَتِها وَمُطَالَبَتِهَا في الأَنْفَاسِ والْحرَكَاتِ وَمُحَاسَبَتِها في الخَطرَاتِ واللّحظَاتِ فَمَنْ حَاسَب قَبْل أنْ يُحَاسَبَ خفَّ في القيامةِ حِسَابُه وَحضَرَ عندَ السّؤال جوابُه وحَسُن مُنقَلبه وَمآبُه .

قال ابنُ القيِّم : رَحمهُ اللّهُ هَلاكُ القَلْبِ من إهْمالِ محَاسبتِهَا ومنْ موَافَقتِهَا واتّباع هَواهَا وفي الحديثِ قال رَسولُ اللّه صلّى اللّه عَليـهِ وسلّم : الكيِّسُ منْ دَانَ نَفْسَه وَعَمِلَ لما بعْدَ الموْتِ والعَاجِزُ منْ أتْبَعَ نَفْسه هَواهَا وَتَمنّى على اللهِ الأماني » دانَ نفسه أي حاسبها .

وذَكر الامامُ أحمدُ عنْ عُمَرَ بنِ الخَطّاب رَضِيَ اللَّه عَنهُ أنّهُ قَال : حَاسبُوا أنفسَكمْ قبلَ أنْ تُحَاسبُوا وزنُوهَا قبل أنْ تُوزَنوا فإنَه أهونُ عليكُم في الحِسَابِ غداً أنْ تُحاسبوا أنْفسَكمْ اليومَ وَتَزَيَّنُوْا لِلْعرضِ الأكبَرَ يَومئذٍ تُعرضونَ لَا تَخْفى مِنكُم خافية » على اللهِ . وَذَكَرَ أيضاً عن الحَسَن لا تَلْقَى المُؤمِنَ إلا يُحَاسبُ نَفْسه ماذا أردْتُ بكَلمتيْ ماذا أردُت بِشرْبَتِي ؟ والفَاجرُ يَمْضِي قُدُماً لا يُحاسبُ نَفسهُ . وقال قَتادةُ في قَوله تعالى :

﴿ وكان أمْرُه فُرُطا ﴾ ، أَضَاعَ نَفْسَهُ وَغُبِنَ مَعَ ذلك تَراهُ حَافظاً لِما له مُضيّعاً لِدِيْنِه .

وَقَال الحَسنُ : إنّ العبْدَ لا يَزالُ بِخير مَا كَانَ لَهُ وَاعظٌ مِنْ نَفسِه وكانَتِ المُحاسبةُ مِن هِمّتِهِ وقال مَيمُونُ بنُ مُهرانِ : لا يَكونُ العَبْدُ تَقيّاً حتّى يَكونُ لنفسهِ أشَدَّ مُحاسَبةٍ مِنَ الشّريْكِ ، ولهذَا قِيْلَ النّفْسُ كالشّريكِ الخَوّانِ إنْ لَمْ تُحَاسبُه ذَهَبَ بِمالِكَ وقال مَيمُونُ أيضاً : إنّ التقيَّ أَشَدُّ مُحاسبةً لِنَفْسِهِ مِنْ سُلطانٍ قَاضٍ وَمِنْ شَريْكٍ شَحِيْحٍ .

وَذَكَرَ الامَامُ أَحْمدُ عنْ وَهْبٍ قَال مكْتُوبٌ في حِكْمَةِ دَاوُودِ ، حَقٌّ عَلى العَاقِل أنْ لَا يَغْفلَ عنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ سَاعةٍ يُناجِي فِيهَا رَبّه وَسَاعةٍ يُحَاسِبُ فيهَا نَفْسُهُ وَسَاعَةٍ يَخْلُو فِيْهَا مَعَ إخْوانِه الّذينَ يُخْبِرُونَه بِعُيوبِهِ وَيصَدّوُنَه عَنْ نَفْسه ، وَسَاعةٍ يُخليّ فيهَا بَيْنَ نَفسه وَبينَ لذّتِهَا فِيمَا يَحُلُّ وَيَجْمُلُ ، فإنَّ في هَذِهِ السّاعةِ عَوناً عَلى تِلكَ السّاعَاتِ وإجْمَامًا للقُلوبِ .

وَقَال الحَسَنُ : المؤمِنُ قوَّامٌ عَلى نَفْسه للّهِ وإنّما يَخُفُّ الحِسَابُ يَومَ القِيَامَةِ على قَومٍ حَاسَبُوا أنْفسَهم في الدّنيا وإنَّما شَقّ الحسَابُ يومَ القِيَامَةِ على قَومٍ أَخَذوُا هَذا الأَمْرَ منْ غَيرِ مُحاسبةٍ .

إنّ المُؤمنَ يَفْجَؤهُ الشّيْءَ يُعْجبُه فيقولُ : واللّهِ إنّي لأَشْتَهيْكَ وإنّكَ لِمَنْ حَاجتِي ولَكنْ واللّهِ مَا مِنْ صِلَةٍ إليْكَ هَيْهَاتَ حِيْلَ بَينِي وَبَيْنِكَ ، وَيَفْرطُ مِنْهُ الشّيءُ فَيرجعُ إلى نَفْسِه فَيقولُ : مَا أردْتُ إلَى هَذَا مَا لِي وَلِهَذَا واللّهِ لَا أعودُ إلَى هَذَا أبداً إنّ المؤْمِنينَ قَوْمٌ وَقَفَهُم القُرآنُ وَحَالَ بَيْنَهم وَبَيْنَ هَلَكتِهِمْ إنّ المؤمنَ أَسِيرٌ في الدّنْيا يَسعِيَ في فَكَاكِ رَقَبتِهِ لَا

يَأمَنُ شَيئاً حَتّى يَلقَى اللّهَ لِيعْلَم أنّهُ مَـأْخُـوْذٌ عَليهِ في سَمْعهِ وفي بَصَرِه وفي لِسَانِهِ وفي جَوارِحِهِ .

قالَ ابنُ القيِّمِ : رَحِمَهُ اللّهُ عَلى قَوْلِ صَاحِبِ المَنازِلِ : المحَاسَبةُ لَها ثَلاثةُ أرْكانٍ ،أحدُهَا أَنْ تُقايِسَ بَيْنَ نِعمتهِ وجِنَايَتكَ يَعْني تُقايس بَيْنَ ما مِن اللهِ وَمَا مِنْكَ فَحينَئذٍ يَظهرُ لَكَ التَفاوُتُ وَتَعلمُ أنّه ليسَ إلا عَفوهُ وَرَحمتُه أوْ الهَلاكُ والعَطَبُ وبِهَذِهِ المقَايسةِ تَعلمُ أنّ الربَّ رَبٌّ والعَبْدَ عَبْدٌ وَيَتبيّنَ لكَ حَقيقَةُ النَفسِ وصِفَاتُهَا وَعَظمةُ جَلالِ الرُّبُوبيّةِ وَتُفردُ الرّبَّ بالكَمَالِ والأفْضَالِ وأنّ كلَّ نِعمةٍ فَضْلٌ وكُلَّ نِقْمةٍ مِنهُ عَدلٌ وأَنتَ قَبْلَ هذه المقَايَسةِ جَاهلٌ بِحقيقةِ وَبِرُبُوبيّةِ فَاطِرِهَا وَخَالِقِهَا .

فإذَا قَايَستَ ظَهرَ لكَ أَنّها مَنبعُ كلِّ شَرٍ وأَسَاسُ كلِّ نَقصٍ وأنّ حَدَّهَا الجَاهلَةُ الظّالِمَةُ وأنّه لو لا فضلُ الله ورَحْمَتُه بِتزْكِيَتِهِ لها مَا زَكَتْ أبداً وَلَوْلا هُداهُ ما اهْتَدتْ ولولا إرشَادهُ وَتَوفيقُهُ لما كانَ لها وُصُولٌ إلى خيرٍ البَتَّةَ وانّ حُصول ذَلك لها مِنْ بَارِئها وَفَاطِرِهَا ، ثُمَّ تُقايس بينَ الحَسناتِ والسّيئاتِ فَتعلمُ بِهذِهِ المُقَايسة أيُّهما أكثرُ وأرجَحُ قَدْراً وَصِفَة .

قال : وهذه المُقايسةُ تَشُقّ عَلى مَنْ لَيْسَ لهُ ثَلاثةُ أشْياءٍ ، نُورُ الحِكْمةِ وَسُوءُ الظّنِّ بالنَّفسِ ، وَتَمييزُ النِّعمةِ مِنْ الفِتْنةِ يَعني أنّ هَذِهِ المُقايسة والمُحَاسَبة تَتوقَفُ على نُورِ الحكْمةِ وهو النور الذي نَوَّرَ اللهُ بِهِ قلوبَ أتْبَاعِ الرُسُلِ فبقدْرِهِ تَرَى التّفاوتَ وَتَتَمكّنَ مِن المُحاسبةِ نُورُ الحِكْمةِ هَهنا هُوَ العِلمُ الذي يُميّزُ بهِ العَبْدُ بينَ الحَقِّ والباطِلِ والهُدَى والضّلالِ والضّارِّ والنّافعِ والكاملِ والنّاقِص والخيرِ والشّرِ وَيُبْصِرُ بهِ مَرَاتِبَ الأعْمالِ رَاجِحِهَا وَمَرْجُوحِهَا وَمقبُولَهَا وَمَرْدُودِهَا كلّما كان حَظهُ مِن

هذا النّورِ أقوىٰ كانَ حَظّهُ مِن المحاسبةِ أكملَ وَأتمَّ .

أما سُوءُ الظَّنِّ بالنّفس فإنّما احتَاجَ اليْه لأنّ حُسنَ الظّنِ بالنّفسِ يَمنعُ منْ كَمالِ التّفتيشِ وَيُلَبّسُ عليه فيرى المُسَاوىء محاسنَ والعُيوبَ كَمالاً ولا يُسيءُ الظّنَ بِنَفْسِهِ إلّا مَنْ عرفهَا وَمَنْ أحْسنَ ظَنّه بِنفْسِهِ فَهْوَ مِنْ أجْهَلِ النَّاسِ بِنفْسِهِ . وأمّا تَمْييزُ النِّعمَةِ مِنَ الفتْنةِ فَلْيفْرِقْ بين النّعمةِ الّتي يَرى بهَا الاحْسَانَ واللُّطفَ وَيُعانَ بهَا على تَحْصِيل سَعادتهِ الأبديّةِ وبين النّعمةِ الّتي يَرىٰ بِها الاسْتدراجَ فكْم مِن مُستَدرَجٍ بالنِّعم وهو لا يَدْري مفْتونٌ بِثناءِ الجُهّالِ عَليْهِ مغْرورٌ بِقَضاءِ اللّهِ حَوائِجَه وَسَترهِ عَليْهِ وأكْثَرُ النّاسِ عنْدهُم أنّ هذِهِ الثّلاثَة عَلاَمةُ السّعادَةِ والنّجاحِ ، ذلك مَبلغُهم مِنْ العلمِ وَقَدْ مُثلتِ النّفسُ معَ صَاحِبهَا في المَالِ ، وكَمَا أنّه لا يَتِمُّ مقْصُودُ الشّركَةِ من الرّبْحِ إلا بالمشَارَطَةِ علَى مَا يَفْعلُ الشّريكُ أولاً ثمّ بِمطالعَةِ مَا يَعمَلُ والإشرَافُ عَليْهِ وَمُراقَبتِهِ ثَانياً ، ثُمّ بمحَاسَبتهِ ثَالثاً ، ثمّ بِمنْعِهِ مِنَ الخِيَانَةِ أنْ اطّلعَ عَليْهَا رَابعاً ، فَكذلكَ النّفسُ يُشارِطُها أوّلاً على حِفظِ الجَوارِحِ السّبعَةِ الّتي حِفظُهَا هوَ رَأسُ المَال والرّبْحُ بَعدَ ذَلِكَ فَمَنْ لَيْسَ لهُ رأسُ مَالٍ كَيفَ يَطْمَعُ في الرّبحِ ؟ .

وَهَذِهِ الجَوارِحُ السّبْعةُ هِيَ : العَينُ والأُذُنُ والفَمُ واللّسَانُ والفَرْجُ واليَدُ والرِّجْلُ هِيَ مَرْكَبُ العَطَبِ والنّجاةِ فَمِنهَا عَطِبَ مَنْ عَطِبَ باهْمالِهَا وَعَدَمِ حِفْظِهَا وَنَجا مَنْ نَجا بِحِفْظِهَا وَمُراعَاتِها فَحَفِظُهَا أَسَاسُ كلِّ خَيرٍ وَإهمَالُها أسَاسُ كلِّ شَرٍ قال الله تعالى : ﴿ قُل للمُؤمنينَ يغضُّوا مِن أبصَارِهِم ويَحفظوا فُروجَهم ذَلكَ أزْكَى لَهُم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ السّمْعَ والبَصَر والفُؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنْهُ

مسئُولا ﴾ فإذا شارطَهَا على حِفظِ هذِهِ الجَوارِحِ وانتَقل مِنْها إلى مُطَالَعتها والإشْرافِ عَلَيْهَا وَمُراقبَتِها فلا يُهْملها فإنّه إنْ أَهمَلهَا لَحْظَةً وَقَعتْ في الخِيَانةُ ولا بُدّ فإنْ تَمادَى على الإهْمَالِ تَمادَتْ في الخِيانَةِ حَتّى يَذهَبَ رَأسُ المَالِ كُلِّهِ فمتى أَحَسَّ بالخُسْرانِ وَتيَقّنهُ اسْتدْرَكَ منهَا ما يَستَدْرُكُه الشَّريكُ مِنْ شَرْيكِهِ مِن الرُّجُوع عَليْهِ بِمَا مَضَى والقِيَام بالحِفْظ والمرَاقَبةِ في المُستقْبَلِ ولا مَطْمَع لهُ في فَسْخِ هذِهِ الشركَةِ مَعَ هذا الخَائِنِ فَليَجْتهدْ في مُراقَبتهِ وَمُحَاسَبتهِ وَليَحْذَرْ مِنْ اهْمَالِهِ ، وَيُعيْنُهُ على هَذه المرَاقَبةِ والمحَاسَبةِ مَعرفتُهُ أنّه كُلّما اجْتهَدَ فيها اليَومَ استَراحَ منْهَا غَداً اذا صَارَ الحِسَابُ إلىٰ غَيْرِهِ وَكُلّما أَهمَلهَا اليَوْمَ اشْتَدّ عليهِ الحِسَابُ غَداً ، وَيُعيْنهُ عَليهَا أيضاً مَعْرفتُهُ أَنَّ ربْحَ هذه التِّجَارَةِ سُكْنَىٰ الفِرْدَوسِ والنّظَر إلى وَجْهِ الرّبِّ وَخَسَارتها دَخولُ النّار والحِجَابِ عنْ الرّبِّ فإذا تَيَقنَ هذا هَانَ عَليْهِ الحِسَابُ اليَومَ .

فَحَقٌّ على الحازِم المُؤمِنِ باللهِ واليَومِ الآخِر أَنْ لاَ يَغْفُلَ عنْ مُحَاسَبةِ نفسِهِ والتّضييقِ عليهَا في حَركَاتهَا وسَكناتِهَا وَخَطواتِهَا فَكلُّ نَفسٍ من أنْفَاس العُمْرِ جَوهَرةٌ نَفْيسةٌ لا خَطَر لَهَا يُمكنُ أن يَشتَرِي بهَا كُنْزاً مِن الكنوز لا يَتنَاهَى نَعيمُهُ أبدُ الآبادِ .

فإضاعةُ هذه الآنفاسُ أو مُشترَى صَاحِبهَا بِهَا ما يَجلبُ هَلاكَهُ خُسرانٌ عَظيْمٌ لا يَسْمَحُ بِمثْلِهِ إلا أَجْهلُ النّاسِ وأحمَقهُم وأقلُّهم عَقْلاً

وانمَا يَظْهَرُ لَهمْ حَقيقةَ هَذَا الخُسرانِ يومَ التغابُنِ ﴿ يومَ تجدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَملَتْ من خيرٍ مُحْضراً وما عملتْ مِنْ سُوءٍ تَودُّ لو أنّ بينَها وبينهُ أمداً بَعْيداً ﴾ .

اللهُمّ احفظنَا بالاسلَامِ قائمينَ واحفظْنَا بالإسلامِ قَاعِدِينَ واحفظنا بالإسلامِ رَاقدينَ ولا تُشمِتْ بنا الاعداءَ ولا الحاسِدينَ اللهمّ وعافِنا من محنِ الزّمانِ وعوارضِ الفِتنِ فإنَا ضعَفاء ، عن حَمْلها وإن كنّا مِن أهْلها فَعافيتُكَ أَوْسَعُ يا واسعُ يا عليمُ واغفر لَنا ولوالِدينَا ولجميعِ المُسلمينَ يا أرحمَ الرَّاحِمينَ وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ أجمعينَ .

« موعظـــة »

أيُّهاَ المسْلمونَ لقد تَراكَمَتْ عليكُم الذنوبُ وأنتمْ في غَيِّكمْ ولهوَكِمْ في دُنياكمْ مُشْتَغِلونَ أحاطَتْ بكم البَلايَا مِنْ كلّ جَانِبٍ ولَسْتمُ لإِصْلاحِ أنفسِكمْ تَجنحوُنَ ، كُلمّا أوضَحَ لكمْ الواعظُ طَريقَ الهدَايةِ تعامَيْتمُ فلاَ أنتُم بالكُرْوبِ مُعتَبِرونَ ولا مِن البَلايَا مُنْزجِرونَ أمَا سَمعْتمْ قولَ اللهِ جلّ وعَلاَ ﴿ سَنستدْرجُهمْ من حَيثُ لا يَعلمْونَ وأُملِي لَهُمْ أنّ كَيدِيْ مَتينٌ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ذَرْهمُ يَأكلوُا وَيتمَتَعوا وَيُلْهِهمُ الأَملُ فسَوفَ يَعلمُونَ ﴾ .

وقال : ﴿ أيحْسبوُنَ انّما نَمدهُم بهِ من مَالٍ وبَنينَ نُسارِعُ لَهمُ في الخيْراتِ بلْ لا يَشعروُن ﴾ وقوله ﴿ فَلمّا نسَوُا ما ذُكّرُوا بهِ فَتحْنَا عَليْهم أبَوابَ كلِّ شَيءٍ حَتّى اذَا فرحوُا بِمَـا أوتُوا أخـذْنَاهمْ بَغْتـةً فإذَا هُمْ مُبْلسِونَ ﴾ أيُّها المُسلمُ أنظرْ في نَفْسِكَ هَلْ تجِدُها عَامِلةً بمقْتضَى الدِّينِ هل أتيْتَ بِالصّلاة على الوَجْهِ الأكْملِ واجْتَنبْتَ المعَاصِيَ المنَافِيةَ لِلدِّينِ هل أَدّيتْ الزَكَاةَ كامِلةً مُكمَّلةً بيقِينٍ فَتّشْ هَلْ تَجدُ فِيْهاحياءً مِن اللهِ بيَقِيْنٍ هَلْ أَنتَ سالمٌ مِن الكذبِ والخِيانَةِ والاحْتَيالِ هَلْ سَالمٌ مِنَ الرّياءِ في أَقْوَالِكَ وأَعْمَالِكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِن الرِّبَا في مُعَامَلاَتِكَ هَلْ أنْتَ سَالمٌ مِن

المُدَاهَنَةِ والنِّفَاقِ هَلْ أنْتَ سَالِمٌ مِن الغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ والبَهْتِ واللَّعْنِ وسَيِ ءِ المَقالاتِ هَلْ أنْتَ سَالِمٌ مِن الغِش ِ في بَيْعِكَ وشِرَائِكَ وسَائِرِ تَصَرُّفَاتِكَ هَلْ أنتَ صَائِنٌ لِسَانَكَ عن مَا يَضُرُّكَ مِن الأقوال والأعمالَ هَلْ أنْتَ سَالِمٌ مِن الكِبْرِ والإِعْجَابِ وقَطِيْعَةِ الرَّحمِ والعُقُوقِ هَلْ أنتَ سَالِمٌ مِن أذِيَّةِ الجَارِ هَلْ قلبُكَ لَيِّنٌ رَحُومٌ تَرْحَمُ المِسْكِينَ وتُكْرِمُ اليَتِيْمَ هَلْ أنَتْ تَقْضِي حُقُوقَ الناس ِ بدُوْنِ مِطالٍ ولِجَاجٍ هَلْ أنْتَ تُحِبُ في اللَّهِ وتُبْغِضُ في اللهِ هَلْ أنتَ سَالِمٌ مِن حَلْقِ اللِّحْيَةِ أوْ صَبْغِهَا أوِ الدُخانِ هَلْ أنْتَ سَالِمٌ مِن الخَنَافِسِ والتَّواليتِ ونحوِ ذَلِكَ مِن الأَخْلاقِ السَّافِلاتِ هَلْ بَيْتُكَ خَالٍ عن صُوَرِ ذَواتِ الأَرواحِ وهَلْ هُوَ خَالٍ مِن المِذياعِ والتِّلفِزْيُونِ والسِّيْنَماتِ وهَلْ أنتَ سَالِمٌ مِن بَيْعِ هَذِهِ المُحَرَّمَاتِ هَلْ قُمْتَ عَلَى أوْلادِكَ لِلصَّلاةِ والتَّوجِيْهِ إلى الأعمالِ الصالحةِ والأَخلاقِ الحَمْيدةِ فَعَلَيْكَ أنْ تَتَفقَدَ لِنفْسِكَ بِدِقَّةٍ كُلَّ يَومٍ وتُعَالِجْ مَا بِكَ مِن هذهِ الأَمْراضِ المُهْلِكَاتَ فَإِنَّهَا أشَدُّ ضَرراً وفتكاً مِن أمراضِ البَدَنِ التي لا نَصْبِرُ عليها إنْ لم نَجِدْ لَهَا عِلاجاً ذَهَبْنَا إلى الخَارِجِ رَجَاءَ بُرْئِهَا والله أعلم .

(فصل)

قَالَ وَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ نَوْعَانِ أَمَّا الأَولُ فَيَقِفْ عندَ أَوَّلِ هِمَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ ولا يُبَادِرُ بالعملِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُجْحَانُهُ على تركِهِ قال الحسنُ : رَحِمَ اللهُ عبداً وَقفَ عندَ هَمِّهِ فانْ كانَ لِلهِ مَضَى وَانْ كَانَ لِغَيرِهِ تأَخَّرَ ، النَّوع الثاني مُحَاسَبَةٌ بَعْدَ العَمَلِ وهو ثَلاثَةُ أنواعٍ : أحدُهَا مُحَاسَبَتُهَا على طَاعَةٍ قَصَّرَتْ فِيهَا مِن حَقِّ اللهِ فلم تُوْقِعْهَا عَلَى الوَجْهِ الذي يَنْبَغِي .

وَحَقُ اللهِ في الطاعاتِ بِمُرَاعاتِ سِتَّةِ أُمُورٍ وهِيَ الاخلاصُ في

العمل والنصيحةُ للهِ فيه وَمُتَابَعَةُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلم فيه وشُهُودُهُ مَشْهَدَ الاحسانِ فيهِ وَشُهُوْدُ مِنّةِ اللهِ عليهِ فيه وَشُهُودُ تَقْصِيْرِهِ فيهِ بَعْدَ ذلكَ كُلِّهِ فَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ هَلْ وَفّي هَذهِ المَقَامَاتِ حَقَّهَا وَهَلْ أَتى بِهَا في هَذهِ الطَاعَاتِ ، الثاني أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ على عملٍ كَان تَركَهُ خيراً له مِن فعله ، الثالث أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى أَمْرٍ مباحٍ أو مُعتادٍ لِمَ فَعَلَهُ وَهَلْ أَرَادَ بِهِ اللهَ والدَارَ الآخِرةَ فيكونُ رَابِحاً فيهِ أَوْ أَرَادَ بِـهِ الدُنْيَا وَعَاجِلَتَهَا فَيَخْسَرُ ذَلِكَ الرِّبْحَ وَيفُوتُهُ الظَفَرُ بِهِ قال : وَجِمَاعُ ذَلِكَ أن يُحَاسِبَ نَفْسَه أولاً على الفَرائِضِ فإذا تَذَكَّرَ فِيْهَا نَقْصاً تَدارَكَهُ إما بِقَضَاءٍ أَوْ إصلاحٍ ثم يُحَاسِبُ عَلَى المَنَاهِيْ فانْ عَرَفَ أنه ارْتَكَبَ منها شيئاً تَدَارَكَهُ بالتوبةِ والاستغفارِ والحسناتِ الماحِيةِ ثُمَّ يُحَاسِبُ نفسَه على الغَفْلَةِ فإن كَانَ قَدْ غَفَلَ عَمَّا خُلِقَ لَهُ تَدارَكَهُ بالذِكْرِ والاقبالِ على الله

ثم يُحَاسِبُهَا بما تَكَلَّمَ به لِسَانُهُ أَوْ مَشَتْ به رِجْلاَهُ أو بَطَشَتْهُ يَدَاهُ أَوْ سَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ ماذَا أَرَدْتُ بهذَا ولِمَ فَعَلْتُ وعَلى أيْ وَجْهٍ فَعَلْتُهُ ، ويَعْلَمُ أَنَّه لا بُدّ أنْ يُنْشَرَ لِكلِّ حَرَكةٍ وكَلِمَةٍ مِنْه دِيوانٌ لِمَ فَعَلْتَهُ وَكَيْفَ فَعَلْتَهُ فالأَوّلُ سُؤالٌ عَنْ الإخْلاصِ .

والثَّاني سُؤالٌ عَنْ المُتَابَعَةِ : فَوربِّك لَنسْأَلَنَّهمْ أَجْمعِينَ عَمَّا كانوا يَعْمَلونَ وقَالَ : فَلَنسْأَلَنَّ الّذيْنَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ولنسْألَنَّ المُرْسَلينَ فَلنقُصَّنَّ عليهِم بِعِلْمٍ ومَا كُنّا غَائِبينَ وقَالَ : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقينَ عن صِدْقِهِمْ ﴾ فَاذا سُئِلَ الصَّادِقونَ وحُوسِبُوا على صِدْقِهمْ فَمَا الظَّنُ بالكاذِبينَ وقالَ : قَتَادةُ كَلِمَتَانِ يُسئلُ عَنْهمَا الأوّلَونَ والآخِرونَ ماذا كُنتمُ تَعبُدُونَ وماذا أجبْتمُ المُرسَلينَ فَيُسألونَ عن المعْبُودِ وعنِ العِبادَةِ وقال تَعالىٰ : ثُمّ لَتُسألنَّ يومئذٍ

عن النَّعيمْ .

قال مُحّمدُ بنُ جريرٍ : يَقُولُ اللَّه تَعالىٰ : ﴿ لِيَسْألنَّكُم اللَّهُ عزَّ وجلَّ عن النَّعيمِ الّذي كُنتمْ فيهِ في الدُّنيَا ماذا عَمِلتمُ فيهِ ومِنْ أيْنَ وصَلتُم إليهِ وفِيمَ أصَبْتُمُوهُ وَمَاذَا عملتم بِهِ وقَال قتادةُ : انَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلّ عَبدٍ عَمّا اسْتودَعهُ مِنْ نِعمَتهِ وَحَقِهِ، والنَّعيمُ المَسْؤُولُ عَنه نَوعانِ نوعٌ أُخذ مِنْ حِلِهِ وصُرِفَ في حَقِّهِ فُيسَألُ عن شُكْرِهِ وَنَوْعٌ أُخَذَبِغيرِ حِلِّه وَصُرِف في غَيْرِحَقّه فُيسأَلُ عن مُستَخرَجه وعن مَصرَفهِ وقد دلَّ على وُجوبِ المحَاسَبةِ قَولهُ تَعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّها الّذينَ آمَنوا اتّقوا اللَّهَ ولْتنظْر نَفْسٌ ما قَدَّمتْ لِغدٍ الآية انتهى باختصار .

اللّهُم هَبْ لَنا ما وهَبتهُ لأوْلِيائِكَ وتَوفّنَا وأنتَ رَاضٍ عنّا وقَد قَبِلْتَ اليَسيرَ منّا واجْعلنَا يا مْولانا مِنْ عِبادِكَ الذينَ لا خَوفٌ عَليهِمْ ولا هِمُ يَحزنُونَ واغْفرْ لنَا ولوالِديْنا ولجَميعِ المسلمينَ برحمتكَ يا أرحمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى اللهُ على محمّدٍ وعلى آلهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

و في مُحاسَبةِ النّفس عِدَّةُ مَصالحٍ ، أوّلاً الإطّلاعُ عَلى عُيوبها ومَنْ لمْ يطّلعْ على عَيبِ نَفْسِهِ لمْ يُمْكنهُ إزَالتهُ ومِنْ ذلك أنّه لولا أنّ اللّهَ وفّقَ العَبدَ لمحاسبتِهَا لشقِيَ في القِيامَةِ ومِنْ ذَلكَ أنّ المُحَاسَبةَ للنْفسِ مِنْ الكَياسَةِ ومِنْ ذلكَ استِراحَةُ المحاسِبِ مِن التَّعَبِ الطَّوْيلِ يومَ القيَامةِ ومنْ ذلكَ أنّهُ لا يَتَحسّرُ المحاسِبُ في القيامةِ كالذينَ لمْ يُحاسِبُوا أنفسَهم ومِن ذلكَ تَمْرِينُ النّفسِ على العبادةِ .

وَمِنْ ذلكَ أنّ المُحَاسبة تُضْعفُ الأعمالَ السّيئةَ وتُوقِّفُها ومِن ذلك أنّها تَحُضُّ الانسانَ على الأعمالِ الصَّالحةِ ومِن ذلك أنها تُخلِّصُ النّفسَ مِن العُجْب ورُؤْيَةِ العَملِ ومن ذلك أنَّ المُحاسبةَ تَفتحُ للإنسانِ بَابَ الذُّلِ والانكسَارِ والخُضُوعِ للّهِ ومِن ذلكَ أنّها تَدْعُو الانسانَ إلى أنْ يَنظُرَ في حَقِّ الله عليه .

ومِنْ ذَلك أنّها تُوجبُ للانسانِ أنْ يمقُتَ نفْسَهُ ويَعلَمَ أنَّ النَجْاةَ لا تَحْصُلُ إلاَّ بِعَفوِ اللهِ ورحْمَتِه .

وإذَا تَأملْتَ حَال أكْثَر النّاسِ وَجَدتَهمُ بضِدْ ذَلكَ يَنظُرونَ في حَقّهم على اللّه ولا يَنظرُونَ في حَقِّ اللّهِ عَليْهم ومنْ هُنَا انقَطعوُا عن اللّهِ وحُجبَتْ قلوُبهُم عن معْرفتِهِ ومحَبّتِهِ والشّوقِ الى لِقائِه والتنّعْيمِ بذكْرهْ وهذا غَايةُ جَهْلِ الإنسانِ بربّهِ وبِنفسه فَمُحَاسَبْةُ النّفسِ هِيَ نَظرُ العَبْدِ في حقّ اللّه عَليهِ أوّلاً ثُمّ نَظرَهُ هَلْ قامَ به كما يَنبغِي ثَانياً .

ويَنْبغي للإنسان أنّه إذَا حاسَبَ نَفْسه فرآهَا قَدْ قَارفَتْ مَعْصيةً أنْ يَتوبَ تَوبَةً نَصوُحاً ويُتْبعُ السّيئةَ بالحسناتِ التي تَمحوُهَا فقدْ ورَدَ عن النّبي صلّى اللّهُ عليه وسلم أنهِ قَال : (وأتْبعْ السّيئةَ الحَسَنةَ تَمْحُها) وإنْ تَوانىٰ عن بَعْضِ الفَضَائِل أو فَاتَتهُ نِسياناً فَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَدْرِكَ جَبْرَ ما نَقَصَ بالنوافِلِ فقد ورَدَ عن عُمرَ بنِ الخَطّابِ رضي الله عنه حِيْنَ فاتَتْهُ صَلاةَ العصْرِ في جَماعةٍ أنّه تَصَدّق بأرْض كانتَ لهُ قِيمتُها مِائَتا ألفِ دِرْهَمٍ .

ورَوىَ عنه أنّه شَغَلَهُ أمرٌ عن المغْرب حتّى طَلعَ نجمَانِ فَلمّا صَلاّها أعْتقَ رَقبتينِ وفَاتَتْ ابنُ أبي رَبيْعة ركْعتَا الـفَجر فاعتَقَ رقَبةً وورد أنَّ ابنَ عُمرَ كانَ اذا فاتَتهُ صَلاةٌ في جَماعةٍ أحيَا تِلكَ اللّيْلَةِ وكانَ بَعْضُهُمْ يَجعِلُ

على نَفْسِهِ صَومُ سنَةٍ أوَ الحَجُّ ماشِياً أو التَّصدّقُ بالشِيءِ الكثَيرِ كلُّ ذَلك مؤاخَذَةٌ لهَا بما فيهِ نَجاتُها .

موعظــة

رُوِيَ عن عَليّ بن أبي طَالب أنّه قَالَ : لا تَكُنْ مِمَّنْ يَرجوُ الآخرةَ بغيرِ عَمَلٍ ويَؤخرُ التّوبةَ لِطوُلِ الأَملِ ويقَولُ في الدّنيا بِقوْلِ الزّاهدِينَ ويعَملُ فيها عَمَلَ الراغِبينَ إنْ أُعْطِيَ مِنَ الدّنيا لم يَشْبَعْ وإن مُنْعَ منهَا لَمْ يَقْنَعْ ويأْمرُ النّاسَ بمَا لا يَأتِيْهِ يُحِبُّ الصَّالِحِينَ ولا يَعملُ أعمَالهمُ ويُبغِضُ المُسيئِينَ وهوَ مِنْهمْ يكرهُ الموْتَ لِكَثْرةِ ذُنوبه ويُقيْمُ علىَ ما يَكرَهُ لَهُ المَوْتَ إنْ سَقِمُ ظَلَّ نَادماً وانْ صَحّ أمِنَ لاهِياً يَعَجبُ مِن نْفسِه إذَا عُوفيَ ويَقنَطُ إذَا تَغلِبهُ نفْسُهُ على ما يَظُنُّ ولا يَغلِبُهَا على ما يَسْتقِينُ ولا يَثقُ مِن الرِّزقِ بما ضُمِنَ لهُ ولا يَعْملُ مِن العَمَلِ بمَا فُرِضَ عَلَيْهِ إنْاسْتغنَى بَطِروانْ افتَقرِ قَنِطَ وَحزِنَ فهو منَ الذّنبِ في حَال النِّعمة والمِحْنة مُوقرٌ ، يَطلبُ الزيادة ولا يشكرُ ويتكلّفُ مِن الناس مالا يُؤمرُ ويضيّعُ الموتَ ولا يُبادرُ الفَوْتَ يَستكبرُ مِن مَعصيةِ غيرِهِ ما يَسهُلُ أكثرُه مِن نفْسه . مَزاهرُ اللهْوِ مع الأغْنياءِ أحبُّ إليهِ مِن الذِّكرِ مع الفُقراءِ يَحكمُ على غيرِهِ لِنفسِهِ ولا يَحكمُ عليها لِغيرِهِ .

شعراً :

تَجهَّـزِي بـجَهـازٍ تَبـلُغيـنَ بـه
يا نفسُ قَبلَ الرّدَى لم تُخْلقي عَبثَا
وسَـابِقِي بَغْتَـةَ الآجـال وانْكَمشِي
قَبْلَ اللّزامِ فـلا مَلْجـا ولا غـوثَـا

ولا تَكُـدِّي لِمَنْ يَبْقَى وتَـفتَـقِـرِي
إنَّ الـرَّدَى وارِثُ البَـاقِي ومَـا وَرَثَـا
وأخْشَـيْ حَوادِثَ صَرْفِ الدّهرفي مَهَلٍ
واسْتَيَقِـظِي لا تكونِي كـالّذي بَحَثـا
عنْ مُـدْيَـةٍ كـانَ فيهَـا قَـطْعُ مُـدَّتِـهِ
فَـوافَتْ الحرْثَ محـرُوثاً كَمَـا حُرِثَـا
مَنْ كانَ حينَ تُصِيْبُ الشّمسُ جَبهتَهُ
أو الغُبَــارُ يَخَــافُ الشَّيْنَ والشَّعَثَــا
ويَــأْلَفُ الـظِّلَّ كَيْ تَبْقَى بَشَــاشَتُـهْ
فَسَـوفَ يَسكُنُ يَـوْمـاً رَاغمـاً جَـدَثَـا
في قَعْــرِ مُـوحِشَــةٍ غَبْـرَاءَ مُقْفِـرَةٍ
يُطِيلُ تَحْتَ الثَـرا في جَوْفِهَـا اللَّبَثَا

اللهم أمْنُنْ علينَا باصْلاحِ عُيوبِنَا واجعلْ التقْوى زادَنا وفي دِيْنِكَ اجتهادَنا وعليك توكّلنا واعتَمادُنا واغفرْ لنا ولوالِديْنَا ولجميعِ المسلمينَ الاحياءِ منهم والميتينَ برحمتك يا أرحمَ الراحمينَ وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبهِ أجمعين .

الفصل الثالث عشر

في موعظة جليلة

قال بعضُ العلماءِ على قوله تعالى : ﴿ولاتَكونوا كالذين نَسوُا الله فأنساهُمْ أنفسَهم أولئكَ همُ الفاسقونَ﴾ .

كَشفتْ لنا هذه الآيةُ الشريفةُ عن سُنةٍ من سُنن الله تعالى : وهي أنّ مَن غَفلَ عن تذكرُ الله فَنَسِيَهُ والْهتهُ دُنياهُ عن العملِ للدّارِ الآخرةِ أنساهُ الله نفَسه التي بينَ جنبيهِ فلا يَسعىَ لما فيه نَفعُها ولا يأخِذُ في أَسْبابِ سعادتِها وإصلاحِها وما يكمّلُها ولا السّعيُ في ازالةِ عِللِها وأمراضِها التي تَؤولُ بها الى الفساد والدّمارِ والهلاكِ وهذا مِنْ أعظمِ العُقوُبةِ لِلْعامّةِ والخاصّةِ فأيُّ عُقوبةٍ أعظمُ مِن عقُوبةِ مَن أهْملَ نفسَه وضيّعَها ونَسِيَ مَصالِحها وداءَها ودَواءَها وأسبابَ سَعادتِها وصَلاحِها وحَياتِها الأَبَدِيَّة في النَّعِيْمِ المقِيْم .

ومَن تأملَ هذا المَوضِعَ تبيْنَ لَهُ أنّ أَكْثَر هَذَا الخَلْق قَدْ نَسُوا أنْفُسَهُمَ وضَيَّعُوْهَا وأَضَاعُوُا حَظَّها مِن اللهِ وباعُوها رَخيْصَةً بثَمن بَخْس بيعَ المغْبُوْنِ ويَظْهَرُ ذلكَ عندَ الموتِ ويَتجلّى ذلكَ يَومَ التغابُن يومَ لا يَنْفَعُ نفساً إِيْمَانُها لَمَ تَكُنْ آمنتْ مِن قبلُ أو كَسَبَتْ في إِيمَانِها خَيْراً ، إنهَا لِحَسَرْةٌ على كلّ ذي غَفلةٍ دُونَها كلّ حَسْرَةٍ هؤلاء هِمُ الذينَ اشتروا الضلالةَ بالهدى فما رَبِحتْ تجارتُهم وما كانوا مُهتدينَ .

وأما الرَّابِحُون فهمُ الذينَ أنارَ اللّهُ قُلُوبَهم للْحَقِ فَعَرَفُوا الدُنْيَا وقِيْمَتها وقالُوا مَا مِقْدَارُ هَذِهِ الدُّنيا من أوَّلِهَا إلى آخِرِها حَتَّى نَبْيعَ حَظّنا مِن اللهِ تَعالى والدّارِ الآخرة بها فكيفَ بِمَا يَنال العَبْدَ منها في هذا الزّمن القَصِيْرِ الذّي هُوَ في الحَقِيْقَةِ كَغَفْوَةِ حُلْمٍ لا نِسْبة له إلى دَارِ القَرارِ البتّة .

قال الله تعالى ﴿ ويَومَ يحشرُهُم كأنْ لم يَلْبَثُوا الا سَاعةً مِن النَهارِ يتعارفُون بينهم ﴾ وقال ﴿ كأنّهم يَومَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إلّا عشيّةٍ أو ضُحاهَا ﴾ هَؤُلاءِ هُمُ الكَيِّسونَ الذين عَلموْا حقيقةَ الدّنيا كما عَلِمُوا قِلّة

لُبثِهم فيها وأنّ لهم داراً غيرَ هذه الدارِ دَارِ الحَيوان وَدَارِ البقاءِ اتّجَرُوا تِجَارَةَ الأكْياسِ ولم يَغْتَرّوا بتجَارة السُّفهاءِ مِن الناس فَظَهَر لهم يومَ التّغابنِ رَبْح تِجَارَتِهم وَمِقْدَار ما اشْتَرُوْا قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدُلكم على تجارةٍ تُنجيكمْ مِن عَذَابٍ أَلِيْم تُؤْمِنونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدون في سبيل اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون ﴾ .

وفي هذا المَعْنَى يَقُول عُمرُ : رضيَ الله عنه إنمَا الدنيا أَملٌ مُخْتَرمٌ أي مُنْتَقَض وبَلاغٌ الى دارٍ غيرها وسَيرٌ إلى المَوْتِ لَيْسَ فيه تَعْرِيْجٌ فَرحِمَ اللهُ امْرءاً أفكَرَ في أمَرِهِ ونَصَحَ لِنَفْسِهِ ورَاقبَ رَبّه واستقالَ ذَنْبَه وتابَ إلى رَبِّه إلى أن قال إيّاكم والبطْنةَ فانها مَكْسَلةٌ عن الصَّلاةِ ومَفْسَدَةٌ لِلْجِسْمِ ومُؤَدّيَةٌ لِلسُّقمِ وعَلِيكمُ بالقَصْدِ في قُوتِكمْ فهو أبعدُ عن السَّرفِ وأَصَحُّ لِلْبَدَنَ وأقْوى على العِبَادَةِ إنَّ العَبْدَ لَنْ يَهْلَكَ حَتَّى يُؤْثر شَهْوَتَهُ على دِيْنِهِ .

ومِن العَجَبِ العُجاب أنَّ العَبْدَ يَسْعَى بِنَفْسِهِ في هَوانِ نفسِهِ وهو يَزعُمُ أنها لَها مُكْرمٌ ويَجْتَهِدُ في حِرْمَانِهَا مِن حُظُوظِها وشرفِها وهو يَزعمُ أنّه يَسْعَى في حِفظِهَا ويَبْذِلُ جُهدَهُ في تَحقْيرِهَا وتَصْغِيرهَا وتَدْنِيْسِهَا وهو يَزعِمُ أنّه يَسْعَى في صَلاحِها وكان بَعْضُ السَّلفِ يَقول في خُطبَتِهِ ألاَ رُبَّ مُهِيْنٌ لِنَفْسِهِ وهو يَزْعمُ أنَّهُ مُكْرِمٌ لَهَا ومُذَلٌ لِنفْسِهِ وهو يَزْعُمُ أنه مُراعٍ لحقِّها وكفىَ بالمَرءِ جَهْلاً أن يَكُونَ مَعَ عَدوهِ لِنَفْسِهِ يَبلغُ منها بِفعلِهِ ما لا يَبْلغُهُ مِنها عَدوُّه .

مـا يَـبْـلُغُ الأَعْـدَاءُ مِـن جَـاهِـلٍ
مـا يَـبْـلُغُ الـجَـاهِـلُ مِن نَـفْـسِـهِ

فالعاقلُ هو الذي يعملُ مُجِداً لِآخِرَتِهِ ولا يُنسِيْهُ نَصْيَبُه مِن الدنيا.

حَظِّه مِن الآخِرة عَاملاً بقوله تعالى : ﴿ وابْتغِ فِيمَا أتاكَ الله الدارَ الآخرةَ ولا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِن الدُنيا ﴾ ولَو أنّه تَأَمَّلَ قَليلاً لَوجدَ أنّ لَذائِذَ الدُّنياَ مُتولّدةٌ مِنْ آلاَمِهَا فمثلاً لَذةُ الطّعامِ لا تَتحَققُ إلا بألمِ الجوَع ولذةُ الشّرابِ لا بدَّ أنْ يَسبِقَها حُرقَةُ العَطش ولذّةِ النَوّم لا يَجَدُ الانْسانُ لها شَوقاً إلّا بَعْدَ أنَ يُضنِيهِ التّعبُ الشّديدُ وَهُنَاكَ نَوعُ آخرُ مِنْ الحِكمةِ غَفلَ عنْهُ الكَثيرونَ مِنَ النّاسِ وهوَ أنّها بمثابةِ بَراطِيلَ تَحمْلُ الإنْسانَ على قَوامِه وبَقاءِ حَياتِهِ فَلذّةُ الطعّامِ تَدفعُه إلى ألاّ يُهمِلَ جسْمهُ مِن الغِذَاء ولوَلا ما جَعلَ اللَّهِ مِن لَذّةِ النّكاح لا نقرضَ النّوعُ الإنْسانيُّ مِنَ الوُجُودِ ولما وَجدنَا دَابةً تَدُبُّ على وَجْه الأَرْضِ ولا طَائِراً يَطيرُ في السّماءِ وكذلكَ فَرْحَةُ الأُمِ بطِفْلِهَا تُنْسِيْهَا آلامَ الحَمْلِ والوَحْم والوِلادةِ والتّعبِ والنَصب والرَّضَاع والسّهرِ الطَويل في التّمريضَ ممَا يَقُضّ مَضْجعِهَا ويُنسيَها نَفسَها فَسُبحانَ الحكيمِ العلَيمِ الذّي خَلَق كلَّ شَيءٍ فقدّرهُ تقْديراً ، انتهى بتصرف يسير .

مـــوعظـــة

كتَب الحسنُ الى عُمر بنِ عبدِ العزيز في ذَمِّ الدُّنْيا كِتاباً طَويلاً قال فيه : أمّا بعدُ فإنّ الدُّنيا دَارُ ظَعَنٍ لَيْسَتْ بدارِ مُقَام وانّما أُنزلَ اليهَا آدمُ عُقوبةً فاحْذرْهَا يا أَميرَ المؤمنين فانَّ الزّادَ منهَا تَركُها والغِنَى فيها فَقرُهَا تُذلّ من أَعزّها وَتُفقرُ منْ جمعها كالسُّمِ يأكلهُ مَن لا يَعْرِفُهُ وَهُوَ حَتْفهُ فاحْذرْ هَذِهِ الدّارَ الغرّارةَ الخَتّالةَ الخدّاعةَ وكُن أَسَرَّ ما تكونُ فِيْهَا أحذَرْ ما تكونُ لهَا ، سُرورُهَا مشُوبٌ بالحُزنِ وَصفوُها مشُوبٌ بالكَدِر فلوْ كان الخَالقُ لم يُخبْره عنْها خبَرا وَلم يَضْرِبْ لَهَا مَثلاً لَكُنْتُ قدْ أيقظْتُ النّائمَ ونبّهتُ الغَافلَ فكيفَ وَقَــدْ جَاء مِن اللّهِ عزّ وجلّ عنها زاجرٌ وفيها واعِظُ

فما لَها عندَ اللّه سبحانه قَدْرٌ ولا وَزْنٌ ، ما نَظَرَ إليها مُنذُ خَلقهَا وَلَقَدْ عُرِضَتْ على نبيّنا صلى الله عليه وسلم مَفاتِيحُها وَخزائنُها لا يَنقصُ عند اللّه جَناحَ بَعُوضةٍ فأبى أنْ يَقبلَهَا وَكَرِهَ أن يُحبَّ ما أبغضَهُ خَالقهُ أو يَرفعَ ما وَضَعهُ مليكُه زَواها اللهُ عن الصّالحين اختياراً وَبَسَطَهَا لِأعْدَائِه اغْتِرَاراً أَفيَظُنُّ المغْرورُ بها أنّه أُكْرِمَ بِهَا وَنَسِيَ ما صَنَعَ اللهُ بمحمدٍ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ حينَ شدَّ على بَطْنِهِ الحَجَرَ ، واللّهِ ما أحدٌ مِن الناسِ بُسِطَ له في الدُّنيا فَلمْ يَخَفْ أن يكونَ مَكراً إلا كانَ قَدْ نقَص عقْلُه وَعَجَزَ رأيهُ وما أمْسَكَ عن عَبدٍ فلم يَظُنّهُ خيراً لهُ فيهَا إلَّا نَقَصَ عقْلُهُ وَعَجَزَ رأيهُ .

اللّهُمَّ الهمْنا ذكركَ وَشُكرِكَ وأرزقْنا الاستقامةَ طوعَ أمركَ وَتفضّلْ علينا بعافِيتكَ وجزيلِ عَفوِكَ واغفْر لنا ولوالدِينَا ولجميع المسلمينَ الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتكَ يا أرحمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمّدٍ وعلى آلِهِ وصحْبهِ أجْمعين .

مــوعظــة

وقال الشّيخُ الواسِطيُّ في بعض رَسائِلهِ : اذا أرادَ اللّهُ بعبدٍ خيراً أقامَ في قلبِهِ شاهِداً منْ ذكر الآخرة يُريدُ فَناءَ الدّنيا وَزَوَالَها وبقاءَ الآخرةِ ودوامها فَيزهّدهُ في الفَاني وَيُرَغّبُهُ في الباقي فَيبدأُ في السّير والسُلوكِ في طريقِ الآخرة وأوّلُ السيرِ فيهَا تَصحيحُ التَّوبةِ ، والتّوبةُ لا تتمُّ إلا بالمُحاسبةِ ورعَايةِ الجَوارح السّبعةِ ، العينُ والأُذنُ واللّسانُ والبَطْنُ والفَرْجُ واليَدُ والرِّجلُ وكفّها عن جميع المحَارم والمكَارِهِ والفضُول هذا أحدُ شَطْرَي الدّين وَيَبْقَى الشّطرُ الآخرُ وهو القيامُ بالأوامِرِ فَتَحْقِيْقُ الشّطرِ الأوّلِ وهو تَركُ المناهِي مِنْ قلبهِ وَقَالبِهِ .

أما القَالَب فلا يَعصِي اللّهَ بجَارحةٍ مِن جَوارحهِ ومتَى زلَّ أو أخْطأَ تابَ وأما القلبُ فَتُنَقّي منه المُوبقاتُ المُهلِكاتُ مثلُ الرّياءِ والعجْب والكِبْر والحَسَد والبُغْض لِغيرِ اللّهِ وَحُبِّ الدّنيا وردِّ الحقّ واستثقالِهِ والازْدِرَاءِ بالخَلْقِ وَمَقْتُهم وَغيرُ ذلك مِن الكَبائِر القَلبيّةِ التي هِي في مُقابَلَةِ الكَبائرِ القَالَبيَةِ مِن شُرْبِ الخَمْرِ والزّنَا والقَذْفِ وغيرِ ذلك فهذِهِ كَبائِرٌ ظاهِرَةٌ وَتِلْك كَبَائرٌ بَاطِنَةٌ . وكلاهما ضرر .

قال : فَمَنْ انْطوى على شَيءٍ مِن الكبائرِ البَاطنيّة ولم يَتُبْ حَبِطَ عَمَلُه بدليل لا يدخل الجَنّةَ مَن كان في قلبِهِ مثالُ ذرةٍ مِن كِبَر وجاء إنّ الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ وجاء بقول الله تعالى : ﴿ أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عن الشركِ مَنْ عمِلَ عملاً فأشركَ مَعِيَ فيه غَيري تَرَكْتُه وشركَه ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَمن كانَ يرجو لقاءَ ربه فليعملْ عملاً صالحَاً ولا يشركْ بعبادةِ رَبِّـه أحداً ﴾ .

فمتَى تَنقَّى القلبُ مِن مثْلِ هذهِ الخبائثِ والرذَائِل طَهُرَ وَسَكَنتْ فيه الرّحمةُ في مكان البُغضِ والتواضُع في مَقابلةِ الكِبْر والنّصيحةُ في مُقابلَةِ الغِشِّ والاخلاصُ في مقابلةِ الرِّياءِ ورؤ ية المنّةِ في مُقابَلةِ العُجْب ورؤ يةُ النفس فعندَ ذلكَ تَزْكوا الأَعمالُ وَتَصْعَدُ إلى اللهِ تعالى وَيَطْهُرُ القلبُ وَيَبْقَى مَحلاً لِنَظَر الحَقِّ بِمَشيْئَةِ الله وَمَعُوْنَتِهِ فهذا أحَدُ شَطْريْ الدِين وهو رِعَايَةُ الجَوارحِ السّبعةِ عن المآثم والمحَارم وانما تَصْلُح وَتَطْهُرُ بِرِعَايَةِ القلبِ وَطَهَارَتِهِ مِن المُوبِقَاتِ والجَرائِمِ وَمَعْنَى المُوبقاتِ المهلكات أهـ .

وقال ابنُ القيم رحمه اللهُ : والقلوبُ ثلاثةٌ ، قَلبٌ خـالٍ مِن الإيمانِ وجَمِيْعِ الخيرِ فذلِكَ قَلبٌ مُظلمٌ قد اسْتَراحَ الشيطانُ مِن إلقاءِ

الوَسَاوسَ إليه لأنه قد اتّخذهُ بيّتاً وَوطناًوَتحكَّمفيهِ بما يُريْدُ وَتمكّنَ منه غايةَ التّمكُنِ ، القلبُ الثاني : قلبٌ قد استَنَارَ بِنُوْرِ الايمان وأُوقَد فيه مِصبَاحُه لكن عليه ظُلْمَةُ الشَّهواتِ وَعوَاصِفُ الأَهْوِيَةِ فلِلشَّيْطَانِ هُنَاكَ اقْبَالٌ وإِدْبارٌ وَمَجَالاتٌ وَمَطَالِعُ فالحَرْبُ دُوَلٌ وَسِجَال وَتَخْتَلِفُ أَحْوَالُ هذا الصِّنفِ بالْقِلَّةِ والكَثْرَةِ فَمِنْهُم مَنْ أوقاتُ غَلبَتِهِ لِعَدُوّهِ أَكْثرُ وَمِنْهُم مَنْ أوقاتُ غَلَبَةِ عَدوّهِ أكْثرُ ومِنهم مَنْ هو تَارةً وَتَارة .

القلبُ الثّالثُ : قلبٌ محْشوّ بالايمانِ قَـد اسْتَنَارَ بِنُـوْرِ الإِيمانِ وانْقَشَعَتْ عَنه حُجُبُ الشّهواتِ وأقْلَعَتْ عنه الظُّلُمَاتُ فَلِنُورِهِ في صَدْرِهِ إِشْرَاقٌ ولِذَلِكَ الإِشراقُ إيقَادٌ لَوْدَنَا منه الوَسْوَاسُ احْترقَ بِهِ فَهْوَ كالسّماءِ الّتي حُرسَتْ بالنّجوم فلَوْ دَنَا مِنْهَا الشّيطانُ يَتخطّاها رُجِمَ فَاحْترق .

وَلَيْستِ السّماءُ بأَعظَمَ حُرْمةٍ من المؤْمن وحِراسَةُ اللّه تعالى لَهُ أَتمُّ مِنْ حِراسَةِ السّماء والسّماءُ مُتَعبّدُ الملائكةِ وَمُستَقَرُّ الوحي وفيها أَنوارُ الطّاعَاتِ وَقَلبُ المؤْمنِ مُستَقر التّوحِيْدِ والمحبّةِ والمعْرِفةِ والإِيمَان وَفيهِ أنْوارُها فهوَ حَقيقٌ أَنْ يُحرسَ وَيُحفَظَ مِن كَيْدِ العدوّ فَلا يَنالُ منهُ إلا خَطْفةً تَحْصلُ له على غِرّةٍ وَغَفْلةٍ مِن العَبْدِ إِذْ هُو بَشَرٌ وأَحكَامُ البَشَريّةِ جَارِيَةٌ عَلَيْهِ مِن الغَفلةِ والسّهو والذّهُول وَغَلبةِ الطّبع انتهى .

اللهمّ اجْعلَنا مِن حِزْبِكَ المفْلِحينَ وَعِبادِكَ الصّالحينَ الذين أَهّلتهم لِخدمَتِكَ وَجَعلتهُم مِمَن قَبلتَ أَعمَالَه يا ربَّ العَالمينَ وصلّى اللّه على مُحمّدٍ وآله وَصَحْبه أَجْمعين .

كتـاب الصــلاة

كتاب الصلاة :

الصّلاةُ لغةً الدّعاءُ قال الله تعالى : ﴿ وصَلّ عَليهِم أَنّ صَلاتَك سَكَنٌ لهم ﴾ والصّلاةُ في الشّرعِ أَقْوالٌ وأَعْمالٌ مخْصُوصَةٌ مُفْتَتَحةٌ بالتّكبير مُخْتتمةٌ بالتّسليم وسُمّيتْ صَلاةٌ لاشْتِمالِها على الدّعاءِ وقِيلَ لأنها ثانيةُ الشّهادتينَ .

وقيل لما تَتَضَمّنُ من الدَّعاءِ والخُشُـوع والخَشْيَةِ ، وقيـل لأَنَّ المُصَلِّي يَتْبعُ مَن تَقَدَمَهُ ، والصّلاةُ عِمَادُ الدّين قَال في مَراصِد الصّلاة للقَسطلاني الحِكْمَةُ في فَرْضِ الصَّلاة وَتَخْصِيْصِهَا بالخَمْس ، أحَدُهَا أنّ الأنْفُسَ البَشَريّةَ المقْتَضيَةَ للشَّهوةِ والغفلةِ والسَّهو والنسّيانِ والشّره في العَمَلِ والفَتْرةِ عَنْه فاقْتضتْ الحِكْمةُ أن تُذكّر نِسيَانَها وَتُوقظَ غَفلَتَها وَتُقْمَعَ شَهْوَتَها بقَطعِهَا عن عاداتِها وَمُناجَاتِها الذي كَفَلها بنعَمِهِ وغَذّاها بجُوده وَكَرمِهِ ولَعلْمِهِ بِضَعفِ قُواها لم يَجْعل هَذهِ العِبَادَةَ إلَّا في أَوْقَاتٍ يَكْثُرُ الفَرَاغُ فِيْهَا مِن اشْغَالِ العَادَاتِ وهذا هُوَ الحكمـةُ في تَنْقِيْصِهَا مِن الخَمْسِين إلى الخمس .

والوجه الثاني : أن العبدَ في هذِه الدارِ يَعْمَلُ لِنَجَاتِهِ في الدارِ الأخْرَى وهِيَ مُشْتَمِلةٌ على أهْوَالٍ وَمَشَاقٍ وَمَتَاعِبَ وأَمَامَ العبدِ دُوْنَهَا خَمْسُ عقَبَاتٍ الأُوْلَى الدنيا وَشُرُوْرُهَـا وآفَاتُهـاوَمَحْذُورَاتُهـا وَشَوَاغلُهـا وَعَلائِقُهَا القَاطِعَةُ عن مَزِيْدِ السَّعَادَةِ ، الثانيةُ الموتُ وما يُخْشَى مِن فِتْنَتِهِ وشِدَّةِ سَكَرَاتِهِ وما يُشَاهَدُ عندَهُ مِن الأُمُورِ العِظَامِ والآلامِ الجِسَامِ ، الثالثةُ القَبْرُ وَضيْقَتُهُ وَوَحْشَتُهُ وَسُؤَالُ مُنْكَرٍ وَنكِيرٍ وَذلك صَعْبٌ خطِيْرٌ ،

الرابعةُ المَحْشِرُ وَهو لَهُ وَما فِيه مِن الخَوفِ الشَّدِيْدِ والْفَـزَعِ الأكِيْدِ ، الخامسةُ الحِسَابُ وما يُخْشَى فيه بَعْدَ العِتابِ مِن وُقُوعِ العقابِ فكان فِعْلُ الصَّلوَاتِ الخَمْسِ مُسَهِّلاً لِهَذِهِ العَقباتِ مُحَصِّلاً لِنَيْلِ المَسَرَّاتِ في دَارِ الكَرَامَاتِ وهِيَ أَجلُ مَبَانِيْ الاسْلامِ بَعْدَ الشَّهَادتَيْنِ وَمَحلُّهَا مِن الدِيْنِ مَحَلُ الرأسِ مِن الجَسَدِ فكَمَا أَنَّهُ لا حَيَاةَ لِمنْ لا رَأْسَ لَهُ فَكَذَلِكَ لا دِيْنَ لِمنْ لا صَلاةَ لَهُ .

وَهِيَ خَاتِمَةُ وَصِيَّةِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ آخِرِ عَهْدِهِ مِن الدُنيا فَعَن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قال : كانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ حِيْنَ حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِنَفْسِهِ ﴿ الصلاةَ وما مَلَكَتْ أيمانُكُم ﴾ رواه أحمد وأبو داود .

وهيَ أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الحديثُ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال : سَمعتُ رَسُولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم يَقولُ : « إنَّ أَوَّلَ ما يُحَاسِبُ بِهِ العَبْدُ يومَ القِيَامَةِ مِن عَمَلِهِ صَلاتَهُ فإن صَلَحَتْ فَقَد أَفْلَحَ وأَنْجحَ وان فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وخَسِرَ » الحديث أخرجه الترمذي .

وهِيَ أَكْبَرُ عَوْنٍ لِلْعَبْدِ على مَصَالِحِ دِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ قال تعـالى : ﴿ واسْتَعِينُوا بالصبرِ والصلاةِ وإنها لَكَبِيْرةٌ إلا عَلى الخَاشِعيْنَ ﴾ وقال : ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنوا اسْتَعِينوا بالصبرِ والصلاةِ إنَ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ فَبِمُدَاوَمَةِ العَبْدِ عَلى الصَّلاةِ تَقْوَى رَغْبَتُهُ في الخَيْرِ وَتَسهُلُ عليهِ الطاعاتُ وَتَهُونُ عَليهِ المشَاقُ وتَسْهُلُ عليهِ المصائِبُ وَيُيَسرُ اللهُ لَهُ أُمُوْرَهُ وَيُبَارِكُ لَهُ في مَالِهِ وأَعْمَالِهِ وَتَنْهَاهُ عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ كَمَا قال تَعَالَى : ﴿ ان

الصَّلاةَ تَنْهى عن الفَحشَاءِ والمُنْكَرِ ﴾ الآية وفي الصحيح المتفق عليهِ مِن رواية أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه قال سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقولُ : « أرَأَيْتُم لَوْ أَنَّ نَهراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِن دَرَنِهِ شَيءٌ قالُوا لا يَبْقَى مِن دَرَنِهِ شيءٌ قال فذلكَ مَثَلُ الصَّلواتِ الخَمْسِ يَمْحُوْ اللهُ بِهِنَّ الخطايا » وَوَرَدَ مِن حَديثِ ثوبانَ رضيَ اللهُ عنه قالَ : قَال رسولُ اللهِ صلى اللهُ علية وسلم : « اسْتَقِيْمُوا ولَنْ تُحْصُوْا واعْلَمُوا أنَّ خيْرَ أعْمَالِكُم الصَّلاةُ » ولا يُحَافِظُ على الوضوءِ إلَّا مُؤْمِنُ ، وعن عثمانَ بن عَفَّان رَضِيَ اللهُ عنه قال : سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : « مَا من أمْرءٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةَ مَكْتُوبَةٌ فيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وخُشُوْعَهَا ورُكُوْعَهَا إلا كانَتْ كَفَارَةً لِما قَبْلَهَا مِنَ الذُنُوبِ مَا لَم تُؤْتَ كَبِيْرَةٌ وذلكَ الدّهْرَ كُلَّهُ »

وفي البخاري ومسلم عن ابن مَسْعُودٍ رضيَ اللهُ عنه قال : سَأَلْتُ رَسُوْلَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أيُّ العَمَلِ أَحبُ إلى اللهِ تعالى ؟ فقال : الصلاةُ على وَقْتِهَا قُلْتُ ثُمَّ أيُّ ؟ قال : بِرُ الوَالِدَيْنِ قُلْتُ ثُمَّ أيُّ ؟ قال الجهادُ في سبيلِ الله ، قال : حَدَثِنِيْ بِهِنَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ولو اَسْتزَدْتُهُ لَزَادَنِي وأخْرَجَ الامامُ أحمدُ عن رجلٍ من أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قال : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عليه وسلم أيُّ العَمَل أفْضَلُ ؟ قال : سَمِعْتُهُ قال أفْضَلَ العَمَلِ الصلاةُ لِوَقْتِهَا وبِرُ الوَالِدَيْن والجهَاد) ورواته محتج بهم في الصحيح .

اللهم جَنِبْنَا البِدَعَ والمُنْكَراتِ واغفر لَنا جميعَ الـزَّلاتِ وَوَفِّقْنا لِلأعْمَالِ الصالحاتِ واَسكِنّا فَسِيْحَ الجناتِ وجميعَ المسلمين الأحياءِ

مِنهم والأَمْوَاتِ برحمتكَ يا أرحم الراحيمن وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ .

(فصــل)

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ : إذَا وَقفَ في الصَّلاةِ صَاحِبُ القَلْبِ العَامِرِ بِمَحَبَّةِ اللهِ وَخَشْيَتِهِ والرَّغْبةِ فِيه واجْلالِهِ وَتَعْظِيْمِهِ وَقفَ بِقَلْبٍ مُخْبِتٍ خَاشِعٍ لَه قَرِيْب مِنهُ سِلِيْمٍ مِن مُعَارَضَاتِ السُوءِ قَدْ امتَلأَتْ أَرْجَاؤهُ بالهَيْبَةِ وَسَطَعَ فَيهِ نُورُ الإيمانِ وَكُشِفَ عَنهُ حِجَابُ النَّفْسِ وَدُخَانُ الشَّهواتِ فَيَرْتَعُ في رِياضِ مَعَانِي القُرآنِ وخَالَطَ قَلْبَهُ بَشَاشَةُ الإيمانِ بِحَقَائِقِ الأسماءِ والصِّفاتِ وَعُلُّوهَا وَجَلالِهَا الأَعْظَمِ وَتَفرَدِ الربِ سُبحَانَهُ بنُعُوتِ جَلالِهِ وصفاتِ كَمَالِهِ .

فاجْتَمَعَ هَمُّهُ على اللهِ وَقرَّتْ عَيْنُهُ بِهِ وأَحَسَّ بقُرْبِهِ مِن اللهِ قُرْباً لاَ نَظِيْرَ لَهُ ففَرَّغ قَلْبَهُ لَهُ وأَقْبَلَ عَليهِ بِكُلِّيتِهِ وَهَذا الاقبالُ مِنه بَيْنَ اقْبَالَينِ مِن رَبِّهِ فانه سبحانَهُ أقبلَ عليهِ أَوَّلاً فانْجَذَبَ قَلْبُهُ باقْبَالِهِ فلمّا أَقْبَلَ على رَبِّهِ حُظِيَ مِنْهُ إقْبَالاً آخَرَ أَتَمَّ مِن الأَوَّلِ .

وهَا هُنَا عَجِيْبَةٌ مِن عَجَائِبِ الأسماءِ والصفاتِ تَحْصُلُ لِمَنْ تَفقَّهَ قَلْبُه في مَعَانِي القُرآنِ وَخَالَطَ بَشَاشَةَ الايمانِ بها قَلْبُهُ بحَيْثُ يَرَ لِكَمْ اسْمٍ وصفةٍ مَوْضِعاً مِن صَلاتِهِ وَمَحَلاً مِنها فاذَا انْتَصَبَ قائماً بَيْنَ يَدَيْ الربِ تَبارَكَ وتعالَى شاهَدَ بِقَلْبِهِ قَيُومِيَّتَهُ واذا قال الله أكْبَرُ شاهَدَ كِبْرِياءَهُ .

واذا قال : سبحانَكَ اللَّهُم وبِحَمْدِكَ وَتَبارَكَ اسْمُكَ وتَعالَى جَدُّكَ ولا إلهَ غَيْرَكَ شَاهد بِقَلْبِهِ رَباً مُنَزَّهاً عَن كُلِّ عَيْبٍ سَالِماً مِن كُلِّ نَقْصٍ

مَحْمُوْداً بِكُلِ حَمْدٍ فَحَمْدُهُ يَتضَمَّنُ وَصْفَهُ بِكلِ كَمَالٍ وَذلك يَسْتَلزِمُ بَرَاءَتَهُ مِن كُلِّ نَقْصٍ تَبَارَكَ اسْمُهُ فلا يُذكرُ على قَلِيْلٍ إلا كَثَّرَهُ ولا عَلى خَيْرٍ إلا أَنْمَاهُ وَبارَكَ فيهِ ولا على آفةٍ إلا أَذْهَبَهَا ولا على الشيطانِ إلَّا طَرَدَهُ خاسِئاً دَاحِراً وكمالُ الإسم مِن كَمَال مُسَمَّاهُ فاذا كانَ هذا شأنُ اسْمِهِ الذي لا يَضُرُّ مَعَهُ شيءٌ في الأَرضِ ولا في السماءِ فَشَأْنُ المُسَمَّي أعْلاَ وأجَلُ وتعالى جَدُّهُ أيْ ارْتَفعَتْ عَظَمَتُه وَجَلَّتْ فَوقَ كُلِّ عَظَمَةٍ وَعَلا شأنُهُ على كُل شأنٍ وَقَهَرَ سُلْطَانُه على كُلِّ سُلْطَانٍ فتَعَالَى جَدُّهُ أنْ يكُونَ مَعَهُ شَرِيْكٌ في مُلْكِهِ وَرُبُوْبِيَّتِهِ أو في الهَيْئَتِهِ أو في صِفَاتِهِ كَمَا قَالَ مؤمِنُوا الجِن وأَنَّهُ تعالى جدر بنا ما اتخذَ صَاحِبَةً ولا ولداً فكَمْ في هَذِهِ الكلماتِ مِن تَجلِّ لِحَقَائِقِ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ على قَلْبِ العارِفِ بِها غَيْرِ المُعَطِّلِ لِحَقَائِقِها وإذَا قَالَ أعُوْذُ باللهِ مِن الشيطانِ الرجيمِ فقد آوَى إلَى رُكْنِهِ الشَّدِيْدِ واعتصَمَ بحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ من عَدُوّه الذي يُرِيْدُ أَن يَقْطَعَهُ عن رَبِهِ وَيُبَاعِدَهُ عن قرْبِهِ لِيكُونَ أسْوَأَ حَالاً .

فإذَا قَالَ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ وَقَفَ هُنَيْهَةً يَسِيْرَةً يَنْتَظِرُ جَوَابَ رَبِهِ لَهُ بِقولِهِ حَمِدَنِي عَبْدِي فاذا قال الرَّحْمٰنِ الرحِيْمِ انتظرَ الجَوابَ بِقولِهِ : اثْنَى عَلَيَّ عَبْدِيْ فاذا قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدين ﴾ انتظرَ جَوَابَهُ بقولِهِ مَجَّدَنِيْ عَبْدِي .

فَيَا لَذَّةَ قَلْبِهِ وَقُرَّةَ عَيْنِهِ وَسُرُوْرِ نَفْسِهِ بِقَولِ رَبِّهِ : عَبْدِيْ ثلاثَ مَرَّاتٍ فَواللهِ لَولاَ مَا عَلَى القُلُوبِ مِنْ دُخَانِ الشَّهَواتِ وغَيْمِ النُفُوسِ لاسْتُطِيْرتْ فَرَحاً وَسُرُوْراً بقولِ رَبِها وَفَاطِرِهَا وَمَعْبُودِهَا حَمِدَنِي عَبْدِيْ وأَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِيْ وَمَجَّدَنِي عَبْدِيْ ثُمَّ يَكُونُ لِقَلْبِهِ مَجَالٌ مِن شُهُودِ هَذِهِ الأسماءِ الثلاثةِ

التي هِيَ أُصُوْلُ الأَسْماءِ الحُسْنَى وهي اللهُ والربُّ والرحمنُ فَشَاهَدَ قَلْبُهُ من ذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى إِلـهاً مَعْبُوْداً مَوْجُوداً مَخوْفاً لَا يَسْتَحِقُ العِبَادَةَ غَيْرُهُ وَلَا تَنْبَغِي إِلَا لَهُ قَدْ عَنَتْ له الوُجُوْهُ وَخَضَعَتْ لَهُ المَوْجُودَاتُ وَخَشَعَتْ لَهُ الأَصْوَاتِ تُسَبِحُ لَهُ السمواتُ السبعُ والأرضُ وَمَنْ فِيْهِنَّ وأنَّ مَن شَيءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴿ ولَهُ مَن في السمواتِ والأَرضِ كلٌ له قانِتُونَ ﴾ .

وكذالكَ خَلْقُ السَّمَواتِ والأَرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَخَلقَ الجِنَّ والانسَ والطيرَ والوحشَ والجنةَ والنارَ وكذلك أرسلَ وأَنْزَلَ الكتبَ وشَرَعَ الشرائعَ والْزَمَ العِبَادَ الأمرَ والنَّهْيَ .

• وَشَاهَدَ مِن ذِكْرِ اسْمِهِ رَبَّ العالمين قَيُوْماً قَامَ بِنَفْسِهِ وقَامَ بِهِ كُلُ شَيءٍ فَهُوَ قائِمٌ عَلى كُلِ نَفْسٍ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا قَدْ اسْتَوَى على عَرْشِهِ وَتَفردَ بِتَدْبِيرِ مُلْكِهِ فالتدْبِيْرُ كُلُّهُ بِيَدِهِ مَصِيْرُ الأُمُوْرِ كُلِّهَا إِليهِ فَمراسِيْمُ التَدْبِيرَاتِ نَازِلَةٌ مِن عِنْدِهِ عَلىَ أَيْدِيْ مَلَائِكتِهِ بالعَطَاءِ والمَنْعِ والخفْضِ والرّفْعِ والإِحْيَاءِ والامَانَةِ والتَّوْبَةِ والعَزْلِ والقَبْضِ والبَسْطِ وكَشْفِ الكُرُوْب وإِغاثَةِ المُلْهُوْفِ واجابَةِ المُضْطَرّيْنَ ﴿ يَسألهُ مَن في السمواتِ والأرضِ كُلَّ يومٍ هو في شأن ﴾ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطى ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ ولا مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ ولا رَادَّ لِأمْرِهِ ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ تَعْرُجُ الملائِكةُ والرُوْحُ إِلَيْهِ وَتُعْرَضُ الأَعْمَالِ أَوّلَ النهارِ وآخِرَهُ عليهِ فَيُقَدَّرُ المقادِيرِ وَيُوَقّتُ المَوَاقِيْتَ ثُمَّ يَسُوقُ المقادِيْرَ إِلى مَوَاقِيْتِهَا قَائِماً بِتَدْبِيرِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَحِفْظِهِ وَمَصالِحِهِ .

ثم يَشْهَدُ عندَ ذِكْرِ اسْمِهِ الرَّحْمنِ جَلَّ جَلَالُهُ رباً مُحْسِناً إِلَى خَلْقِهِ بأَنواعِ الاحْسَانِ مُتَحَبِّباً إِليهم بصُنُوفِ النّعَمِ وَسَعَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وعِلْماً

وأوْسَعَ كُلَّ مَخْلُوقٍ نِعْمَةً وَفضْلاً فَوَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيءٍ وَوَسِعَتْ نِعْمَتُهُ كُلَّ حَيٍ فَبَلَغَتْ رَحمَتُهُ حَيْثُ بَلَغَ عِلْمُهُ فاسْتَوَى على عَرْشِهِ بِرَحْمَتِهِ وَخلق خَلْقَهُ بِرَحْمَتِهِ وأنْزَلَ كُتُبَهُ بِرَحْمَتِهِ وأرْسَلَ رُسُلَهُ بِرَحْمَتِهِ وَشَرَعَ شَرَائعَهُ بِرَحْمَتِهِ وَخَلَقَ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ والنارَ أيضاً بِرَحْمَتِهِ فإنها سَوْطُهُ الذي يَسُوقُ بِهِ عِبَادَهُ المؤمنينَ إلى جَنَّتِهِ وَيُطَهِّرُ بِهَا أدْرانَ المُوَحِّدِينَ مِنْ أهلِ مَعْصِيَتِهِ وَسِجْنُهُ الذي يَسْجِنُ فيهِ أعداءَهُ مِن خَلِيْقَتِهِ .

فَتَأمَّلْ مَا في أمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَصَايَاهُ وَمَوَاعِظِهِ مِن الرَّحْمَةِ البَالِغَةِ والنِّعْمَةِ السَّابِغَةِ وَمَا في حَشْوِهَا مِن الرَحمةِ والنِّعْمَةِ فالرَّحْمَةُ هِيَ السَّبَبُ المُتَصِلُ مِنه بِعِبَادِهِ كَمَا أنَّ العُبُوْدِيَّةَ هِيَ السَّبَبُ المُتَصِلُ مِنهم بِهِ فَمِنْهُم إليهِ العُبُودِيَّةُ وَمِنْهُ إليهِم الرحمة .

ومِن أخَصِّ مَشَاهِدِ الاسْمِ شُهُودُ المُصَلِيْ نَصِيْبُهُ مِن الرحمةِ الذي أقامَهُ بِهَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِهِ وَأهَّلَهُ لِعُبُودِيَتِهِ وَمُناجَاتِهِ وَأعْطَاهُ وَمَنَعَ غَيْرَهُ وَذَلِكَ مِن رَحْمَتِهِ بِهِ .

فاذا قال ﴿ مَالِكِ يَومِ الدين ﴾ فَهُنَا شَهِدَ المَجْدَ الذي لا يَلِيْقُ بِسِوَى المَلكِ الحَقِ المبين فَشَهِدَ مَلِكاً قاهِراً قَدْ دَانَتْ له الخَلِيْقَةُ وَعَنَتْ لَهُ الوُجُوْهُ وَذَلَّتْ لِعَظَمَتِهِ الجَبابِرَةُ وَخَضَعَ لِعِزَّتِهِ كُلُّ عَزِيْزٍ فَيَشْهَدُ بِقَلْبِهِ مَلِكاً عَلى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيمِناً لِعِزَّتِهِ تَعْنُوْ الوُجُوهُ وَتَسْجُدُ وإذا لَمْ تُعَطّلْ صِفَةٌ حَقِيْقَيْةً صِفةَ المُلْكِ أطْلَعَتْهُ على شُهُودِ حَقَائِقِ الأسْمَاءِ والصِّفَاتِ التي تَعْطِيْلُهَا تَعطِيلٌ لِمُلْكِهِ وَجَحْدٌ لَهُ فَإنَّ المَلكَ الحَقَّ التَّامَّ الحَقَّ لا يَكونُ إلا حَياً قَيُوماً سَمِيْعاً بَصِيْراً مُدَبِّراً قادِراً مُتَكَلِّماً آمِراً نَاهِيَاً مُسْتَوِياً على سَرِيْرِ مَمْلَكَتِهِ يُرْسِلُ إلى أقاصِيْ مَمْلَكَتِهِ بأوامِرِهِ فَيَرْضَى على مَنْ يَسْتَحِقَ الرِّضَا

وَيُثِيبُهُ وَيُكْرِمُهُ وَيُدْنِيهِ وَيَغْضَبُ على مَنْ يَسْتَحِقُ الغَضَبَ وَيُعَاقِبُهُ وَيُهِينُهُ وَيُقْصِيهِ وَيَقْصِيَ مَن يَشاءُ ، لَهُ دَارُ عَذابٍ وَهِيَ النارُ وَلَهُ دَارُ سَعَادَةٍ وَهِيَ الجَنَّةُ . فَيُعَذِبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَيُعْطِي مَن يَشَاءُ وَيُقَرِّبُ مَن يَشَاء .

فَمَنْ أَبْطَلَ شَيْئاً مِن ذَلكَ أَوْ جَحَدَهُ وأَنْكَرَ حَقِيْقَتَه فَقَدْ قَدَحَ في مُلْكِهِ سُبْحَانَهُ وتَعالى وَنَفى عَنْهُ كَما لَهُ وَتَمامَهُ .

وكذلكَ مَنْ أَنْكَرَ عُمُومَ قَضَائِه وَقَدَرِهِ فَقَدْ أَنْكَرَ عُمُوْمَ مُلْكِهِ وَكَمَالِهِ فَيَشْهَدُ المُصَلِيْ مَجْدَ الربِ تَعَالَى في قَولِهِ ﴿ مَالِكِ يَومِ الدِين ﴾ فاذا قال : ﴿ ايَّاكَ نَعْبُدُ وايَّاكَ نَسْتَعِيْن ﴾ فَفِيْهَا سِرُّ الخَلْقِ والأَمْرِ والدُّنْيَا والآخِرَةِ وهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِأَجَلِّ الغَايَاتِ وأفضلِ الوَسَائِلِ .

فأَجَلُّ الغَايَاتِ عُبُودِيَّتُهُ وأَفْضَلُ الوَسَائِلِ إِعَانَتُهُ فلا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُ العِبَادَةَ إلا هُوَ ولا مُعِيْنَ على عِبَادَتِهِ غَيرُهُ فَعِبَادَتُهُ أَعْلَى الغَايَاتِ واعانَتُهُ أَجَلُّ الوَسَائِلِ وَقَدْ أَنْزَلَ سُبْحَانَهُ وتعالى مائةَ كِتَابٍ وأَرْبَعَةَ كُتُبٍ جَمَعَ مَعَانِيْهَا في أَرْبَعَةِ وهِيَ التَّوْرَاةُ والانجيلُ والقرآنُ والزَّبُورُ وجَمَعَ مَعَانِيْهَا في القُرآنِ وَجَمَعَ معانيهِ في المُفَصَّلِ وَجَمَعَ مَعَانِيْهِ في الفاتحةِ وجَمَعَ مَعَانِيْهَا في إِيَّاكَ نَعْبُدُ وايَّاكَ نَسْتَعِيْن .

وقد اشْتَمَلَتْ هذِهِ الكلمةُ على نَوْعَيْ التَّوْحِيد وَهُمَا تَوْحِيْدُ الرُبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيْدُ الأُلُوهِيَّةِ وَتَضَمَّنَتْ التَّعَبُدَ باسْمِ الربِ واسمِ اللهِ فَهوَ يُعْبَدُ بالأُلُوهِيَّةِ وَيُسْتَعَانُ بِرُبُوْبِيَتِهِ وَيَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ بِرَحْمَتِهِ فكانَ أَوَّلُ السُوْرَةِ ذِكْرُ اسْمِ اللهِ والربِ والرحمنِ تَطَابَقا لِأَجَلِ المَطالِبِ مِن عِبَادَتِهِ

واعانَتِهِ وهِدَايَتِهِ وهو المُنْفَرِدُ باعْطَاءِ ذَلِكَ كلِهِ لا يُعِيْنُ على عِبَادَتِهِ سِوَاهُ وَلَا يَهْدِيْ سِوَاهُ ثُمَّ يَشْهَدُ الدَّاعِيْ بِقَولِهِ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيم شِدَّةَ فَاقتِهِ وَضَرُوْرَتِهِ إلى هَذِهِ المسألةِ التي لَيْسَ هو إلى شَــيءٍ أَشَدَّ فاقةً وَحَاجَةً مِنه إليهَا البَتَةَ فانَّه مُحْتَاجٌ إليه في كُلِ نَفسٍ وَطَرفَةِ عَيْنٍ وَهَذا المَطْلُوبُ مِن الدُعَاءِ لا يَتِمُ إلا بالهِدايَةِ إلى الطَّرِيْقِ المُوْصِلُ إِلَيْهِ سُبْحانَهُ والهِدَايَةِ فيهِ أيْ هِدَايَةِ التَفْصِيْلِ وَخَلْقِ القُدْرَةِ على الفِعْلِ وارَادَتِهِ وَتَكوِيْنِهِ وَتوفِيْقِهِ لإِيْقَاعِهِ عَلى الوَجْهِ المَرْضِي المَحْبُوْبِ لِلرَّبِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى وَحِفْظِهِ عليهِ مِن مُفْسِدَاتِهِ حَالَ فِعْلِهِ وَبَعْدَ فِعْلِهِ .

وَلَمَّا كَانَ العَبْدُ مُفْتَقِراً في كُلّ حَالٍ إلى هَذِهِ الهِدَايَةِ في جَمِيْعِ ما يِأتِيْهِ وَيَذَرُهُ مِن أُمُورٍ قَدْ أَتَاهَا عَلى غَيرِ الهِدَايَةِ فهو يَحْتَاجُ إلى التَّوبَةِ منها .

وأُمورٍ هُدى إلى أَصْلِهَا دُوْنَ تَفْصِيْلِهَا أَوْ هُدِي إليهَا مِن وَجْهِ دُوْنَ وَجْهٍ فَهُوَ يَحْتَاجُ إلى تَمَامِ الهِدَايَةِ فِيْهَا لِيَزْدَادَ هُدَى .

وأُمُورٍ يَحْتَاجُ إلى أنْ يَحْصُلَ لَهُ مِن الهِدَايَةِ فِيهَا بالمُسْتَقْبَلِ مِثلَ مَا حَصَلَ لَهُ في الماضِيْ .

وأُمُوْرٍ هُوَ خَالٍ عَن اعْتِقَادٍ فِيهَا فَهُوَ يَحْتَاجُ إلى الهِدَايَةِ فِيْهَا .

وأُمُورٍ لم يَفْعَلْهَا فَهُوَ يَحْتَاجُ إلى فِعْلِهَا على وَجْهِ الهِدَايَةِ .

وأُمُورٍ قَدْ هُدِيْ إلى الإِعْتِقَادِ الحَقّ والعَمَلِ والصوابِ فِيها فهو مُحْتَاجُ إلى الثَّبَاتِ عَلَيْهَا إلى غَيْرِ ذلكَ مِن أنواعِ الهِدَايَةِ .

فَرَضَ اللهُ سبحانَهُ عليه أنْ يَسْأَلَ هَذِهِ الهِدَايَةِ في أَفْضَلِ أَحْوَالِهِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ في اليَـومِ واللَّيْلَةِ ثم بَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ هَـذِهِ الهِدَايَـةِ هم المُخْتَصُّونَ بِنِعْمَتِهِ دُوْنَ المَغْضُوبِ عَلَيهم وهم الذين عَرَفُوا الحقَّ وَلَم يَتَّبِعُوْهُ وَدُوْنَ الظَّالِينَ وهم الذينَ عَبَدُوْا اللهَ بِغَيرِ عِلْم فالطائفتانِ اشْتَرَكَتَا في القَوْلِ في خَلْقِهِ وأَمْرِهِ وأَسْمَائِهِ وَصِفاتِهِ بغيرِ عِلْم فَسَبِيْلُ المُنْعَم عَلَيهِم مُغَايِرَةٌ لِسَبِيْلِ أَهْلِ الباطلِ كُلِّها عِلْماً وَعَمَلاً فَلَمَّا فَرَغَ مِن هَذا الثَّناءِ والدُّعاءِ والتوحِيدِ شُرِعَ لَهُ أَنْ يَطْبَعَ عَلى ذَلكَ بِطَابعٍ مِن التأمِيْنِ يَكُونُ كالخاتِمِ لَهُ وَافقَ فيه مَلائِكَةَ السماءِ وهذا التأمِيْنُ مِن زِيْنَةِ الصلاةِ كَرَفْعِ اليَدِيْن الذي هُوَ زِيْنَةُ الصلاةِ واتِّباعاً لِلسُّنَّةِ وَتَعْظِيْمَ أمْرِ اللهِ وَعُبُوْدِيَةُ اليَدَيْنِ وَشِعَارُ الانتقالِ مِن رُكْنٍ إلى رُكْنٍ ثُمَّ يأخُذُ في مُنَاجَاةِ رَبِّهِ بكلامِهِ واسْتِماعِهِ مِن الامامِ بالانصاتِ وَحُضُورِ القَلْبِ وَشُهُودِهِ .

اللَّهم يَا مَنْ خَلَقَ الإنسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيْم وَبِقُدْرَتِهِ التي لاَ يُعْجِزُها شيءٌ يُحْيِي العِـظَامَ وهي رَمِيْمٌ ، نسأَلـك أَنْ تَهْدِينَـا إلى صِراطِـك المستقيم ، صِراط الذيْنَ أَنْعَمْتَ عَليهم مِن النَّبيينَ والصِّدِيْقِيْنَ والشُّهَداءِ والصَّالِحَينَ وأن تَغفرَ لنا وَلِوَالِدينَا وَلِجَمِيـــع المسلمين الأحياءِ منهم والميتين برحمتكَ يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ أجْمعين .

(فصــــل)

عِبَادَ اللهِ إن الصلاةَ عِمَادُ الدِيْنِ وأَعْـظَمُ أَرْكَانِ الإِسـلامِ بَعْدَ الشهادَتَيْن مَنْ حَافَظَ عَلَيهَا فَهُوَ السَّعِيْدُ وَمَن أَضَاعَهَا وأَهْمَلَهَا فهو الشَّقِيُّ العَنِيْدُ ، وقد أَمَرَ اللهُ بالمحافظةِ عَلَيْهَا وأَمَرَ باقامَتِها في آياتٍ كَثِيْرَةٍ قال

تعالى : ﴿ حافِظُوا على الصلواتِ والصَلواةِ الوُسْطَى ﴾ وَقَالَ : ﴿ والذينَ هُمْ عَلَى صَلاَتهم يُحَافِظُوْنَ ﴾ وقالَ : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

وَقَالَ ﴿ وأقِيْمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَقِم الصَّلاَةَ لدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ الآية وَقَال : ﴿ والمقيمينَ الصَّلاةِ ﴾ وقالَ : ﴿ وأَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفي النَّهَار ﴾ الآية ، وقالَ : ﴿ الذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ﴾ وقالَ ﴿ الذينَ يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ وَيُقِيْمُونَ الصَّلاةَ ﴾ قال : ابنُ عَبَّاسٍ يُقيمونَ الصَّلاةَ بِفُروضِهَا وقال : الضَّحاكُ عَن ابنِ عباسٍ اقامةُ الصَّلاةِ اتمْامُ الرُّكُوعِ والسُّجود والتِّلاوةِ والخُشوعِ والاقبالِ عليهِ فيهَا وقال قَتَادَةُ : اقامَةُ الصَّلاةِ المُحَافَظَةُ عَلى مَواقِيْتِهَا وَوُضُوئِهَا ورُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا .

وَقَالَ مُقَاتِلٌ : اقامَتُها المُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيْتِهَا واسْبَاغُ الطَّهُورِ فيْهَا واتْمَامُ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَتِلاَوَةِ القُرْآنِ فِيْهَا والتشَهّدُ والصّلاةُ على النبي صَلى اللهُ عليهِ وسَلّمَ وَحَثَّ صَلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَلى المُحَافَظَةِ عَلَيْهَا في أَحَاديْث كثيرةٍ مِنْهَا مَا وَرَدَ عَنْ أَبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ : « خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إيْمَانٍ دَخلَ الجَنَّـةَ مَنْ حَافَظَ على الصَّلواتِ الخَمْسِ عَلى وُضُـوئِهِنَ وَرُكُوعِهِنَّ وَمَواقِيْتِهِنَ وَصَامَ رَمضَانَ وَحَجَّ البَيْتَ إنْ اسْتَطَاعَ إليهِ سَبِيْلاً وآتى الزَّكَاة طَيَّبَةً بِهَا نَفْسُهُ وأدّى الأمانة قيل يَا رَسُولَ اللهِ وَما أَدَاءُ الأمانَةِ قَالَ الغُسْلُ مِنَ الجَنَابَةِ انَّ اللهَ لَمْ يأْمَنْ ابنَ آدَمَ على شَيْءٍ مِنْ دِيْنِهِ غَيْـرَها » رواه الطبراني .

وعن عَائِشَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلَّمَ

قَالَ : ثلاثٌ أَحْلِفُ عَليهن لا يَجْعَلُ اللهُ مَنْ لَهُ سَهْمٌ في الإسلام كَمَنْ لا سَهْمَ لَهُ وأَسْهُمُ الإِسْلامِ ثلاثةٌ الصَّلاةُ والصَّومُ والزَّكاةُ ولا يَتولَّى اللهُ عَبْداً في الدُّنيا فيُوَليه غيرَهُ يومَ القِيَامَةِ ولا يُحِبُّ رجلٌ قوماً إلا جُعِلَ مَعَهُمْ ، الحديثَ رواهُ أحمدُ باسنادٍ جيدٍ ورواهُ الطَّبَراني في الكَبِيرِ من حديثِ ابنِ مَسْعُودٍ .

وَعَنْ عمر بنِ مُرَّة الجُهَنِي قَالَ : جَاءَ رجلٌ الى النبيّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فقالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أرأَيْتَ إِنْ شَهدتُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهَ وأنكَ رَسُولُ اللهِ وَصَليتُ الصَّلواتِ الخَمْسِ وأَدَّيْتُ الزَّكاةَ وَصُمْتُ رَمَضَانَ وَقُمْتُهُ فَمِنْ مَنْ أَنَا ؟ قَالَ : من الصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ رواهُ البَزَّارُ وابنُ خزيمةَ وابنُ حِبَّانَ في صَحِيْحَهِمَا واللفظُ لابنِ حِبَّانَ ومن الأَدِلَةِ الدَّالةِ عَلى وُجُوبِهَا مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِن الكتَّابِ والسُّنَّةِ قَولُه تَعالى ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ حُنفَاءَ وَيُقِيْمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وأَمَّا السُّنَّةُ فَعَنْ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا عَنْ النَّبِي صَلّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَنَّهُ قَالَ : « بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلى خَمسٍ شهادةِ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأَنَّ محمداً رَسُولُ اللهِ واقامِ الصَّلاةِ وايْتاءِ الزكاةِ وصِيامِ رَمَضَانَ وَحجِّ البَيتِ مَنْ اسْتَطَاعَ اليْهِ سَبيلاً » .

وأَجْمَعَتْ الأمةُ عَلى وُجُوبِ خَمْسِ صَلَواتٍ في اليَوْمِ واللَّيْلَةِ وَفُرِضَتْ الصَّلاةُ لَيلةَ الإِسْراءِ قَبْلَ هِجْرَتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بنحوِ خَمْسِ سِنينَ وَقِيْل قَبْلَ الهِجْرَةِ بِسَنَةٍ .

اللَّهُم وَفِقْنَا للاسْتِعْدَادِ ، واهْدِنَا الى سَبِيْل الرَّشَادِ ، وَوَفِقْنَا للعَمَلِ الصَّالِحِ ليومِ المَعَادِ ، واغفرْ لنَا وَلوالِدَيْنا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ ، الأحياءِ

مِنْهُمْ والميتِيْنَ ، بِرَحْمَتِك يا أَرْحَمَ الراحِمينَ وَصَلّى اللهُ على مُحَمدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

وَيحْرمُ تَأْخِيرُ الصَّلاةِ عَنْ وَقْتِهَا عَلَى القَادِرِ عَلى فِعْلِهَا الذَّاكِرِ لَهَا إلَّا لِنـا والجَمْعِ لِنَحْوِ سَفَرٍ أوْ مَرَضٍ لأنه يَجبُ ايقاعُهَا في الوقتِ فإذا خَرَجَ وَقْتُهَا ولم يأتِ بِهَا كانَ تَارِكاً للواجِبِ مُخَالِفاً للأمْرِ وَلئلا تَفُوتَ فائدةُ التأقِيْتِ .

وأمَا الدَّليلُ على جَوازِه للعُذْرِ وَتَحْريمه لغيرِ العذْر فَحديُث أَبي قتادَةَ مرفوعاً لَيْس في النَّوْم تفريط إنمَا التفريط في اليَقَظَةِ أَنْ تُؤَخِر الصَّلاةَ إلى أنْ يَدْخلَ وَقْتَ أخْرَى وَقَدْ وَرَدَ في تَفسِيرِ قولِهِ تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ للمصَلّين الذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُوْنَ ﴾ عن بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ تأخِيرُها عَنْ وَقْتِهَا وَسَمَّاهُمْ مُصَلّينَ لكنَّهم لما تَهَاوَنُوا بِهَا وأَخَروهَا عَنْ وَقْتِهَا وَعَدَهُم بويل وَهُو شِدّةُ العَذَابِ وقِيلَ هو وادٍ في جَهَنَمَ لو سُيّرتْ فِيه جِبَالُ الدّنيا لذابَتْ مِنْ حَرِّه وهو مَسْكن من يَتَهَاوَنُ بالصَّلاةِ وَيُؤخِرُهَا عَنْ وَقْتِها إلا أَنْ يَتُوبَ وَينْدَم وَيعْزِمَ أَنْ لا يَعُودَ وَيتُوبَ اللهُ عَليهِ وقال تَعالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أمْوالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولَئِكَ هُمْ الخَاسِرُونَ ﴾ قَالَ المفسرونَ المُرادُ بِذِكْرِ اللهِ في هَذِه الآيةِ الصَّلواتُ الخَمْسُ فَمَنْ اشْتَغَلَ بِمَالِه في بَيْعِهِ وَشِرَائِهِ وَمَعِيْشَتِهِ وَضيْعَتِهِ وَأَوْلَادِهِ عَنْ الصَّلاةِ في وَقْتِهَا كَانَ مِنَ الخَاسِرينَ . وفي حَدِيثِ أَبي ذرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ : « كَيْفَ أَنْتَ إذَا كَانَتْ عَليكَ أُمَراءُ يُمِيْتُونَ الصَّلاَةَ أَوْ قَال : يُؤَخِّرونَهَا عَنْ وَقْتِهَا » .

وَقَالَ تَعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوْا الصَّلاةَ ﴾ قال ابنُ

مَسْعودٍ وابراهيمُ أَخَّرُوْهَا عَنْ وَقْتِها وَقَالَ سَعِيْدُ بنُ المسيبِ : هُوَ أنْ لَا يُصَلِّي الظُّهرَ حتى يَأْتِيَ العَصْرُ وَلَا العَصْرَ حَتى تَغْرُبَ الشَّمسُ وَجَاحِدُ الصَّلاةِ مَا يَخْلو امَّا أنْ يكونَ مِمَّنْ لَا يَجْهَلُ وُجُوْبَها كَمَنْ نَشَأَ بِدَارِ الإِسْلام فَهَذَا يَكْفُرُ بِجَحْدِهِ لأَنهُ مكذبٌ لِلهِ وَلِرَسُولِهِ واجماعِ الأمَّةِ وَيَصيْرُ مُرْتَداً وأمّا أَنْ يَكُونَ مِمَنْ يَجْهَلُ وُجوبَهَا كَمَنْ نَشَأَ بِبَادِيَةٍ وَكَحَدِيثِ عَهْدٍ باسْلامٍ فَهَذا يُعَرَّفُ وُجُوبَهَا فانْ أَصَرَّ عَلى الجَحْدِ كَفَرَ .

فانْ تَرَكَهَا تَهَاوُناً وَكَسَلاً دَعَاهُ امامٌ أَوْ نَائِبُهُ الى فِعْلِهَا فإنْ أَبَى حَتى تَضَايَقَ وَقْتُ الّتي بَعْدَها وَجَبَ قَتْلُه وَمُدَّةُ اسْتِتَابةِ الجَاحِدِ لوُجُوبِهَا وَتَارِكِهَا تَهاوُناً وكَسَلاً ثَلاثَةُ أَيَّامٍ بِلَيَالِيها كَسَائِرِ المُرْتَديْنَ ، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِمَا وَيُدْعَيَانِ كُلَّ وَقْتٍ صلاةٍ اليْهَا فانْ تَابا بِفعْلِهَا مَع إِقْرَارِ الجَاحِدِ لوُجُوبِهَا خُلِّيَ سَبِيْلُهُمَا وإلا ضُرِبَتْ عُنُقُهُمَا .

وحيثُ كَفَر فانّه يُقْتَلُ بَعدَ الاسْتِتَابَةِ ولا يُغَسَّلُ وَلَا يُصَلَّى عَلَيهِ وَلَا يُدْفَنُ في مَقَابِرِ المُسلِمينَ وَلَا يُرقُّ ولا يُسْبَى لَهُ وَلَدٌ وَلَا أَهْلٌ كَسَائِرِ المُرْتَدِين .

اللهمّ اعْصِمْنَا عَن المَعَاصِي والزَّلّات ووفّقْنا للعَمَلِ بالبَاقِيَاتِ الصَالِحَاتِ واغفرْ لَنَا وَلِوَالدَينا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمين الأحياءِ مِنْهُم والميّتينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ وَصَلىٰ اللهُ على محمدٍ وَعَلى آله وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين .

(فصـــل)

في الأَدِلَةِ عَلى كفْر تَارِكِ الصَّلاةِ

والدَّلِيْلُ عَلَى كُفْر تَارِكِ الصَّلاةِ قولُه تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوْا

الصَّلاةَ وآتَوْا الزَّكَاةَ فإخْوانُكم في الدِّين ﴾ وقَالَ : ﴿ فانْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيْلَهُمْ ﴾ ، وقال تَعَالى مُخْبِراً عَنْ أَصْحَابِ الجَحِيْمِ : ﴿ ما سَلَكَكُمْ في سَقَرَ قَالوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلّين ﴾ . . الآية .

وعَن جَابِر بنِ عَبْدِ اللّهِ قَالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ : « بَينَ الرَّجُل وبَيْنَ الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ » . رواه الجماعة الا البُخاريُ والنَسَّائي .

وعن بُرَيْدَةَ قَالَ سَمِعتُ رسولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ يقول ﴿ العَهْدُ الذي بَيْنَنَا وبَيْنَهم الصَّلاةُ فَمَنْ تَركَهَا فقَدْ كَفَرَ ﴾ . رواه الخَمْسَةُ وفي الحديث الآخر « مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ مُتعمّداً فَقدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَرَسُولِهِ » رواه أَحْمَدُ باسْنَادٍ عَنْ مَكْحوُلٍ وَهو مرسَلٌ جيدٌ .

وعن عَبدِ اللهِ بنِ شَقِيْقٍ قَالَ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ لا يَرَوْنَ شَيئاً مِنَ الأعمالِ تَـرْكُهُ كُفْـرٌ غيرَالصَّـلاةِ رواهُ التَرمِذِي .

وعنْ عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرو بنِ العَاصِ أَنَّه ذَكَر الصَّلاةَ يَوْمَاً فقالَ : من حَافَظَ عَلَيهَا كَانَتْ لَه نُوراً وَبُرْهاناً ونجاةً وَمَنْ لَمْ يُحافظ عَلَيْهَا لَمْ تَكُنْ لَه نُوراً ولا بُرهاناً ولا نجاةً وكانَ يومَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَونَ وهَامَانَوأُبي بن خَلَفٍ . رَواهُ أَحْمَدُ وقالَ عُمَرُ لَاحظَّ في الاسْلامِ لمنْ تَرَكَ الصَّلاةَ وقَالَ عَليٌ مَنْ لَمْ يُصَلِّ فَهُو كَافِرٌ .

وقالَ ابنُ حَزْمٍ وقدْ جَاءَ عنْ عُمَرَ وَعَبدِ الرحمَن بن عَوْفٍ ومعاذِ بنِ

جَبَل وأبي هُريرةَ وغيرهم مِنَ الصحابةِ أن مَن تَرَكَ صَلاةَ فَرْضٍ واحدةٍ متعمِّداً حَتى يَخرجَ وَقتُها فَهُوَ كافِرٌ مُرْتَدٌ .

وَقَالَ الحافظُ عَبْـدُ الحق الإشْبيلي في كِتابـِهِ ذَهَبَ جُمْلَةٌ مِن الصَّحَابةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ الى تَكْفِيرِ تَارِكِ الصَّلاةِ مُتَعَمِداً لِتَرْكِهَا حَتَّى يخرجَ وَقْتُها مِنْهُم عُمَرُ بنُ الخَطاب ومعاذُ بنُ جَبَلٍ وعبدُ اللهِ بنِ مَسْعودٍ وابنُ عَبّاسٍ وَجَابِرٌ وأبو الدرداءِ وَكَذَلِكَ رويَ عَنْ علي ، وَمِنْ بَعْدِهِمْ أحمدُ بنُ حنبلٍ واسْحَاق وعبدُ اللهِ ابنُ المبارَكِ وابراهيمُ النَّخَعي والحَكَمُ بنُ عيينةَ وأيوبُ السِّختيانيُ ، كل هؤلاء ذَهَبوا إلى تكْفيرِ تاركِ الصّلاةِ حتى يخرجَ وقتُها .

وحُكيَ عَنْه أَنَّهُ قَالَ مَن تَرَكَ الصَّلاةَ متعمداً مِنْ غَيرِ عِلَّةٍ حَتى أُدْخَل وَقْتاً في وقتٍ فهُو كافرٌ .

نسألُ اللهَ العفوَ والعَافِيَةَ في الدّنيَا والآخِرَةِ . .

مـــوعظـــة

أيُهَا النَّاس إنَّ سُبُلَ العَافِيَةِ مُندَرِسَةٌ لقلةِ سُلاَّكِهَا وإنَّ عللَ القُلوبِ القَاسِيةِ مؤذنةٌ بِهَلاكِهَا وإنَّ رُسُلَ المَنُونِ قانِصَةٌ لا تُفْلِتُ أَحَداً من شِبَاكِهَا فمَا للعيونِ ناظرةٌ ولا تُبْصِرُ وَمَا للقلوبِ قاسيةٌ ولا تُفْكِّرُ وَمَا للعقولِ طَائِشَةٌ لاهِيَةٌ بِجَمْعِ الدُّنْيَا ولا تَشْعُرُ ، وَمَا لِلنفُوسِ قَاسِيَةٌ وَلَا تَذكرُ أغَرَّهَا إنْظارُها وإمْهَالُهَا أَمْ بَشّر بالنجَاةِ صالحُ أعْمَالِهَا أَمْ لَمْ يَتَحقَقْ عِندَهَا منَ الدّنيَا زوالها .

شـــعراً :

هَـــوِّنْ عليــكَ فَمــا الــدُّنْيَــا بِــدَائِمَــةٍ
وانَّـمَــا أَنْــتَ مِـثْــلُ النَّــاسِ مَـغْـرُورُ
ولــو تَصَــوَّرَ أَهْــلُ الــدَّهْــرِ صُــوْرَتَــهُ
لَــمْ يُمْسِ مِنْهُـمْ لَبِيْبُ وَهُــوَ مَـسْــرُورُ

تاللهِ لَقَدْ شَمِلَتْ القُلُوبُ الغِفلةُ فاسْتَحْكَم عَلى القُلُوبِ أَقْفالُها ، فَكأنَ قَدْ كَشَفَ الموتُ لأَهْلِ الغَفْلَةِ قِنَاعَهُ وأَطْلَقَ عَلَى صِحَاحِ الأَجسَام أَوْجَاعَهُ وَحَقَّقَ بِكلِ الأَنَامِ إيقَاعَهُ وَلَمْ يَمْلِكْ أحَدُ من الخَلْق دِفاعَهُ فَخفَقَ من المنزولِ به فُؤادُهُ وَرَحِمَهُ أَعداؤُهُ وَحُسَّادُه وَقَرُبَ عَنْ أَهْلِهِ وَوَطَنِهِ بِعَادُهُ والتَحَقَ بِذُلّ اليُتْم أَوْلادُه فيالَهُ من وَاقِعٍ في كُرَبِ الحَشَارِجِ الى أنْ أُدْرِجَ في تِلْكَ المَدَارِجِ وَقَدِمَ عَلى اللهِ ذِي المَعَارِج في مَنْزِلَ لا يَبْرَحُ مِنه مَنْ نَزَلَهُ حَتّى يَلْحَقَ آخِرُ الخلقِ أَوَّلَهُ فانتَبِهُوا رَحِمَكُم اللهُ قبلَ أَنْ يَصلَكُمْ الدَّوْرُ واستدْركوا مَا فَاتَكمْ ومَا قَصَّرتمْ بِهِ مِن الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ عَلى الفَوْرِ . أفيَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ الخَلْقَ لِيُهمِلَهُ .

كَلّا وَاللّهِ لَيَبْعَثَنَّ الخَلْقَ بَعْدَ مَا أَمَاتَه وَلَيَسْأَلَنَّ عَنِ الرَّسُولِ وَمْن أَرْسَلَه وَلَيُوَفِيَنَّ كلَّ عَامِلٍ مَا عَمِلهُ .

شـــعراً :

تَـبَيَّـنَ ثَغْــرُ الـفَـجْــرِ لِـمَــا تَبَـسَّـمَــا
فَسُبَحانَ مَن في الذِكْـرِ بالفَجْـرِ أَقْسَمَا

فَصَلِ عَلَى المَبْعُوْثِ لِلْخلْقِ رَحْمَةً
عَسَى شَمُلتنا أَوْ لَعَلَّ وَرُبَّمَا
كما شَمَلَتْ آلَ الرسُولِ وَصَحْبِهِ
فأكرمْ بهِمْ آلا وَصَحْباً وأَعظِمَا
أَتى بالهُدَى نوراً إلينَا وَنِعْمَةً
وقَدْ كَانَ وَجهُ الكَوْنِ بالشِّرْكِ مُظْلِمَا
فَجَلَّى بأنْوارِ الهُدَى كُلَّ ظُلْمَةٍ
وأَطْلَعَ في الآفَاقِ للدِّيْنِ أَنْجُمَا
أَتى بِكِتَابٍ أَعْجَزَ الخلقَ لَفْظُهُ
فكلُّ بَلِيْغ عُذْرُهُ صَارَ أَبْكَمَا
تَحدَّى به أَهلَ البلاغَةِ كلُّهم
فلمْ يَفْتَحوا فيمَا يُعَارِضُهُ فَمَا
حَوَىَ كلَّ بُرهَانٍ على كُل مَطْلَب
وَيَعْرِفُ هَذا كُلُّ مَنْ كَان أَفْهَمَا
وأَخْبَرَ فِيهِ عَن عَواقِبَ مَن عَصَى
بأَنَّ له بَعْدَ المَمَاتِ جَهَنَّمَا
وَعَمَّنْ أَطَاعَ اللَّهَ أَنَّ لهُ غَداً
نَعِيْماً بِهِ مَا تَشْتَهي النَّفْسُ كُلَّمَا
مُحَمَّدٌ المَبْعُوْثُ لِلْخَلْقِ رَحْمَةً
فَصَلِّ عليهِ مَا حَيِيْتَ مُسَلِّمَا
وأَسْرَى به نَحْوَ السَّمَواتِ رَبُّه
وأرْكَبَهُ ظَهْرَ البُرَاقِ وأَكْرَمَا

وَقَــدْ فـتِحَـتْ أبْــوابُـهــا لِـصُـعُــودِه
فَمَـا زَالَ يَـرْقَى مِن سَمَـاءٍ إلى سَمَا
وَلاَقَى بِهَـا قَـوْماً مِن الـرُّسْــلِ كلِّهِمْ
يقـولُ لـه يَـا مَـرْحَبـاً حِيْنَ سَلَّمَـا
وكَــانَ بِــهِ فَــرْضُ الصَّــلاةِ وَحَبَّــذَا
تَــرَدُّدُهُ بَــيْـنَ الــكَـلِيْــمِ مُـكَــلِّمَـا
وَصَيَّــرَهَـا مِنْ بَعْــدِ خَمْسِينَ خَمْسَــةً
فُـرُوْضـاً وأمْـرُ اللهِ قَـدْ كَــانَ مُبْـرَمَـا
وعَــادَ إلى بَيْتِ أُمِّ هَــانِىء مُـخْبِـراً
لَهَـا بـالـذي قَـدْ كَــانَ مِنْـهُ وَمُعْلِمَــا
فَخَــافَتْ عَلَيْــهِ أَنْ يُكَــذِّبَــهُ المَــلاَ
وَيَــزْدَادُ مَنْ في قَلْبِــهِ مَــرَضٌ عَمَـى
فَجَــاءَ إلى البَيتِ العَتيقِ فَـأَخْبَــر الْـ
ـعِبـادَ فَمِنْهُـمْ مَنْ بِتَكْــذِيْبِــهِ رَمَى
وَكَــان بِــهِ الصِّــدِّيقُ خيـرَ مُصَــدِّقٍ
فَصَـدَّقَ خيرَ الـرُسْلِ في خَبَـرِ السَّمَـا
مُحَمَّــداً الـمَبْـعُــوثَ لِلْخَلْقِ رَحْمَــةً
فَصَــلِّ عليــهِ مـا حَيِّـيتَ مُسَلِّمَـا
وَقُمْ حَــامِــداً لِلّهِ في كُــلِّ حَــالَـةٍ
تَجِـدْ حَمْدَهُ في يَـوْمِ حَشْـرِكَ مَغْنَمَـا
وَصَــلِّ على المَبْعـوثِ للخلقِ رَحْمَــةً
مَـحـمَّـدِ الـمـخْـتَـارِ والآلِ كُـلَّمَـا

سَرى البَرْقُ مِنْ أَرْجَاءِ مَكةَ أو سَـرَى
نَسِيْـمٌ على زَهْـرِ الـرُّبَى مُتَبَسِّـمَـا
وَرَضِّيْ عَلى الأَصْحَابِ أَصْحَابِ أَحْمَدٍ
وكُنَ لَهُمُ في كُـلِّ حِيْنٍ مُـعَـظِّمَـا

اللَّهُمّ انظِمْنَا في سِلْكِ عِبَادِكَ المخلصينَ ووفّقْنَا للقِيَامِ بأَرْكانِ دينكَ القَويمِ وَنَجنا مِن لَفَحاتِ الجَحِيْمِ وأَسْكِنَّا في جَناتِ النَّعيم واغفرْ لَنا ولِوالدِيْنَا ولِجَميع المُسْلمين الأحْيَاءِ منهم والميتين بِرَحْمَتِك يا أَرَحَمَ الراحِمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وعلى آله وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

(فَصْــلٌ)

إذا فَهِمْتَ ما تَقَدَّمَ مِنْ مَحَاسِن الصَّلاةِ وحِكَمِهَا وَحُكْمُ تأْخِيرِهَا وَتَرْكِهَا فاعْلَمْ أَنَّ النَاسَ في الصَّلاةِ على مَراتِبَ خَمْسٍ ذكرها الامام المحقق ابن القيم رحمه الله فقال :

أَحَدُهَا مَرْتبةُ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ المفَرِّطِ وهُوَ الذي انْتَقَصَ مِنْ وُضوئِها وَمواقِيْتِهَا وَحُدُودِها وأَرْكَانِها .

الثاني : مَنْ يُحَافِظُ على مَواقِيْتِها وَحُـدودِهَا وأَرْكَـانِهَا الـظاهرةِ وَوُضوئِهالَكِنْ قَدْ ضَيَّعَ مُجاهَدَةَ نَفْسِهِ في الوَسْوَسَةِ فَذَهَبَ مَعَ الوَسَاوِسِ والأَفْكارِ .

الثالثُ : مَنْ حَافَظَ عَلى حُدُودِهَا وأَرْكَانِهَا وَجَاهَدَ نَفْسَهُ في دَفْعِ الوَسَاوسِ والأَفْكار فَهُوَ مَشغولٌ بِمُجَاهَدَةِ عَدُوِّهِ لَئِلَّا يَسْرِقَ صَلاَتَه فَهُوَ في

صَلاةٍ وَجِهَادٍ .

والرَّابعُ : مَنْ اذَا قَامَ إلى الصَّلاةِ أكْمَلَ حُقُوقَهَا وأَرْكانَها وَحُدُوْدَها واسْتَغرقَ قَلْبُه مُراعاةَ حُدُوْدِهَا وَحُقوقِهَا لِئلاّ يَضِيْعَ شَيءٌ مِنْهَا بَلْ هَمُّهُ كلّه مَصْرُوْفٌ إلى إقامَتِهَا كما يَنْبَغِي إكْمَالُها وإتْمَامُها قَدْ اسْتغْرقَ قلبُه شَأْنَ الصلاةِ عُبُودِيَّةُ ربهِ تَبَارَكَ وَتعالى فِيهَا .

الخامِسُ : مَنْ اذَا قَامَ إلى الصَّلاةِ قَامَ اليْهَا كَذَلِكَ ولَكِنْ مَعَ هَذَا قَدْ أَخذَ قَلْبَه وَوَضَعَهُ بَيْنَ يَديْ رَبهِ عَزَّ وَجَلَّ نَاظِراً بِقَلْبِهِ إلَيْهِ مُراقِباً لَهُ مُمْتَلِئاً مِن مَحَبَّتِه وَعَظَمَتِهِ كأَنَّهُ يَراهُ وَيُشَاهِدَهُ ، وَقَدْ اضْمَحَلَّتْ تِلكَ الوَسَاوِسُ والخَطَرَاتُ وارْتَفَعَتْ حُجُبُهَا بَيْنَهُ وَبينَ رَبِّهِ فَهَذا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ في الصَّلاةِ أَفْضَلُ وأَعْظَمُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ وَهَذا في صَلاتِه مشغولٌ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَرِيرُ العين .

فَالقِسْمُ الأَوَّلُ مُعَاقَبٌ والثاني مُحَاسَبٌ والثَّالثُ مُكَفَّرٌ عَنْهُ والرابعُ مُثَابٌ والخَامِسُ مُقرَّبٌ مِن رَبِّهِ لأَنَّ لهُ نَصِيْباً مِمَّنْ جُعلَتْ قُرَّةُ عينهِ في الصَّلاةِ فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنِهِ بِصَلاَتِهِ في الدُّنْيَا قَرَّتْ عَيْنُهُ بِقُرْبِهِ من رَبِّهِ عَزَّ وَجلَّ في الآخِرَةِ وَقَرَّتْ عَيْنُه بِهِ في الدُّنْيَا وَمَنْ قَرَّتْ عيْنُه باللهِ قَرَّتْ بهِ كلُّ عَيْنٍ وَمَنْ لمْ تَقرَّ عينُه باللهِ تعالَى تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ على الدُّنْيَا حَسَرَات .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ العَبْدَ اذا قَامَ يُصَلِّي قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : « ارْفَعُوْا الحُجُبَ فإذا الْتَفتَ قَالَ أَرْخُوهَا وَقَدْ فُسِّرَ هَذا الالْتِفَاتُ بالْتِفاتِ القَلْبِ عَن اللهِ عَزَّ وَجلَّ إلى غَيْرِهِ فَإذَا الْتَفتَ إلى غَيْرِهِ أُرْخِيَ الحِجَابُ بَيْنَه وَبَيْنَ العَبدِ فَدَخلَ الشيطانُ وَعَرَضَ عَلَيْهِ أُمور الدُّنْيَا وأَراهُ إيَّاهَا في صُوْرَةِ المرْآةِ

واذا أَقْبَل عَلى اللّهِ وَلَمْ يَلْتَفِتْ لَمْ يَقْدِرْ الشَّيْطان عَلى أَنْ يَتَوَسَّطَ بَيْنَ اللّهِ تَعَالى وَبَيْنَ ذلك القَلْبِ وانَّمَا يَدْخلُ الشَّيْطَانُ اذا وَقَعَ الحِجَابُ فإن فَرَّ إلى اللهِ تَعَالى وأَحْضَرَ قَلْبَه فَرَّ الشَّيْطانُ فإنْ التَفَت حَضَرَ الشَّيْطَانُ فَهُوَ هكذا شَأْنُه وَشَأْنُ عَدُوِّهِ في الصَّلاةِ .

اللّهُمَّ اجْعَلْ في قُلوبِنَا نُورفا نَهْتَدي بِهِ إلَيْكَ وَتولَّنَا بِحُسْنِ رِعَايَتِكَ حَتّى نَتَوَكلَ عَلَيكَ وارْزُقْنَا حَلاوَةَ التَّذلِلِ بَينَ يَدَيكَ فَالعزِيزُ مَنْ لاَذَ بِعزّكَ والسَّعيدُ مَن الْتَجَأَ إلى حِمَاكَ وَجُودِكَ والذليلُ مَنْ لَمْ تُؤَيِّدْهُ بعنايَتِكَ والشَّقِيُّ مَن رَضِيَ بالإِعْرَاضِ عنْ طَاعَتِكَ اللهم نَزِّهْ قُلوْبَنَا عنْ التَّعَلق بِمَنْ دُونَك واجْعَلْنَا مِنْ قوم تحبُّهُمْ ويُحِبُونَكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الراحِمِينَ وصلى اللهُ علَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَقَالَ رَحِمَهُ اللّهُ تَعَالى عَلى قَوْلِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ في الحَدِيثِ وآمُرُكُمْ بالصَّلاةِ فَلاَ تَلْتَفِتُوا فإِنَّ اللّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ في صَلاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ .

الالْتِفَاتُ المَنْهِيُّ عَنْهُ في الصَّلاة قِسْمَان :

أَحدُهُمَا التِفَاتُ القَلْبِ عن اللّه عَزَّ وَجلَّ إلى غَيْرِ اللّهِ تَعَالَى .

والثَّاني : التفاتُ البَصَرِ وكِلاَهُمَا مَنْهيٌّ عَنْهُ ولا يَزالُ اللّهُ مُقبِلاً عَلى عَبْدِهِ مَا دَامَ العَبْدُ مُقبِلاً عَلى صَلاتِهِ فاذا التَفَتَ بِقَلْبِهِ أَوْ بَصَرِهِ أَعْرَضَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَقَدْ سُئِلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ التِفَاتِ الرَّجُلِ

فِي صَلاَتِهِ فَقَالَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاةِ العَبْدِ .

وفِي أَثَرٍ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إلى خَيْرٍ مِنِّي ومِثَالُ مَنْ يَلْتَفتُ في صَلاتِهِ بِبَصَرِهِ أَوْ بِقَلْبِهِ مَثَلُ رَجُلٍ قَدْ اسْتَدْعَاهُ السُّلْطَانُ فأَوقَفَهُ بَيْنَ يَدَيهِ وأَقْبَلَ يُنَادِيْهِ وَيُخَاطِبُهُ وَهُوَ في خِلالَ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ عَنْ السُّلطَانِ يَمِيْنًا وَشِمَالاً وَقَدْ انصَرَفَ قَلبُهُ عن السُّلطانِ فَلاَ يَفْهَمُ مَا يُخَاطِبُهُ بِهِ لأَنَ قَلْبَهُ لَيْسَ حاضِراً مَعَهُ فَمَا ظَنُّ هَذَا الرَّجلِ أَنْ يَفْعَلَ بِهِ السُّلْطَانُ أَفَلَيْسَ أَقَلُّ المَرَاتِبِ في حَقِّهِ أَنْ يَنْصَرِفَ مِنْ بَينَ يَدَيْهِ مَمْقوتاً مُبْعداً قَدْ سَقَطَ مِنْ عَيْنَيْهِ .

فَهذا المُصَلِّي لاَ يَسْتَوِي والحَاضِرُ القَلْبِ المُقْبِلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالى في صَلاَتِهِ الذي قَدْ أَشْعَرَ قَلْبَهُ عَظَمَةَ اللهِ الذي هُوَ واقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فامْتَلأَ قَلْبُهُ مِنْ هَيْبَتِهِ وَذَلَّتْ عُنُقُهُ لَهُ واسْتَحَى مِنْ رَبِّهِ تَعَالى أَنْ يُقْبلَ على غَيرِهِ أَوْ يَلْتَفِتَ عَنْهُ .

وَبَيْنَ صَلاتَيْهِمَا كَمَا قَالَ حَسَّانُ بنُ عَطِيَّةَ : إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيكُوْنَانِ في الصَّلاَةِ الوَاحِدَةِ وإِنَّ مَا بَيْنَهُمَا في الفَضْلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمَا مُقْبِلٌ بِقَلْبِهِ عَلى اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ والآخَرُ سَاهٍ غَافِلٌ فإِذا أَقْبَلَ العَبْدُ عَلَى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ وَبيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ لَمْ يَكُنْ إِقبالاً ولا تَقْرِيْباً فَمَا الظَنُّ بالخَالِقِ عَزَّ وَجلَّ وإِذا أَقْبَلَ على الخَالِقِ عَزَّ وَجلَّ وَبَيْنَهُ وَبينهُ حِجَابُ الشَّهَوَاتِ والوَسَاوِسِ ، والنَّفْسُ مَشْغُوفَةٌ بِهَا مَلأَىٰ مِنْهَا فَكَيْفَ يَكُوْنُ ذلك إقْبالاً ، وَقَدْ أَلْهَتْهُ الوَسَاوِسُ والأَفْكارُ وَذَهَبَتْ بِهِ كلَّ مَذْهَبٍ بِهَا .

اللهمَّ اغْمُرْ قُلُوبَنَا بِذِكْرِكَ وشُكْرِكَ . وَوَفِّقْنَا لاِمتِثَال أَمْرِكَ وأَمِّنَا مِنْ سَطْوَتِكَ وَمَكْرِكَ واجْعَلْنَا مِن أَوْلِيَائِك المُتَّقِيْنَ وَحِزْبِكَ المفلحِيْنَ واغْفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الراحِمِينَ وَصَلّى اللهُ عَلى

محمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : والعَبْدُ اذَا قَامَ في الصَّلاَةِ غَارَ الشَّيْطَانُ مِنُه فانهُ قَدْ قَامَ في أَعْظَمِ مقامٍ وأَقْرَبِهِ وأَغْيَظِهِ للشَّيْطَانِ وأَشَدِّهِ عَلَيْهِ . فَهُوَ يَحْرِصُ وَيَجتَهِدُ كُلَّ الاجْتِهَادَاتِ أَنْ لا يُقِيْمَه فيه ، بَلْ لَا يَزَالُ بِهِ يَعِدُهُ وَيُمَنِّيهِ وَيُنْسِيْهِ وَيَجلِبُ عَلَيْهِ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ حَتَّى يُهَوِّنَ عَلَيْهِ شَأْنَ الصَّلاةِ فَيَتَهَاوَنُ بِهَا فَيَتْرُكُها . فانْ عَجِزَ عَنْ ذَلِكَ مِنْهُ وَعَصَاهُ العَبْدُ وَقَامَ في ذَلكَ المَقَامِ أَقْبَل عَدُوُّ اللهِ حَتَّى يَخْطُر بَيْنَه وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَيَحُولَ بَيْنَه وَبَيْنَ قَلْبِهِ فَيُذَكِّرَه في الصَّلاةِ مَا لَمْ يَذكُرْ قَبْلَ دُخُولِهِ فِيْهَا حَتَّى رُبَّمَا كانَ قَدْ نَسِيَ الشَّيْءَ والحَاجَةَ وأَيِسَ مِنْهَا ، فَيُذْكِرَهُ إِيَّاهَا في الصَّلاَةِ لِيَشْغَلَ قَلْبَهُ بِهَا ، وَيَأْخُذَه عَن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَقُومُ فِيْهَا بلا قَلْب فَلا يَنَالُ مِنَ إقبالِ اللهِ تعالَى عَلَيْهِ وكَرَامَتِهِ وقُربِهِ مَا يَنَالُه المقبلُ عَلى رَبِّهِ عَزَّ وَجلَّ الحاضِرُ القَلْب في صَلاَتِهِ فَيَنْصَرِفُ مِنْ صَلاتِهِ مثلَ مَا دَخَلَ فِيْهَا بِخَطَايَاهُ وَذُنُوبِهِ وأَثْقَالِهِ لَم تَخُفَّ عَنْهُ بالصَّلاةِ .

فالصَّلاةُ انَّمَا تُكَفِّرُ سَيئاتِ مَنْ أَدَّى حَقَّهَا وأَكْمَلَ خُشوعَهَا ، وَوَقَفَ بينَ يَدي اللهِ تَعَالى بِقَلْبِهِ وَقَالَبِهِ ، فَهَذَا اذَا انْصَرَفَ منْهَا وَجَدَ خِفَّةً في نَفْسِهِ ، وأَحَسَّ باثقَالٍ وُضِعَتْ عَنْهُ ، فَوَجَدَ نَشَاطاً وَرَاحَةً وَرَوحاً حَتَّى أَنَّهُ يَتمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا لأَنَّها قُرَّةُ عَينِهِ وَنَعِيْمُ رُوحِهِ وَجَنَّةُ قَلْبِهِ وَمُسْتَرَاحُه في الدُّنْيَا فَلاَ يَزَالُ كَأَنَّه في سِجْنٍ وَضِيْقٍ حَتَّى يَدْخلَ فِيْهَا فَيَسْتَرِيْحُ بِها لا مِنْهَا .

اَلمُحِبُّونَ يَقولُونَ : نُصَلّي فَنَسْتَريـحُ بِصَلاتِنَـا كَمَا قَـالَ إِمَامُهم

وَقُدْوَتُهـم وَنَبِيُّهُمْ صَلى اللهُ علَيهِ وسلمَ يَا بِلالُ أَرِحْنَا بالصَّلاةِ وَلَمْ يَقُلْ أَرِحْنَا مِنْهَا .

وَقَالَ صَلّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاةِ فَمَن جُعَلْت قُرةُ عَيْنِهِ في الصَّلاةِ كَيْفَ تَقَرُّ عَيْنُه بِدونِهَا وَكَيْفَ يُطِيْقُ الصَّبْرَ عَنْهَا فَصَلاةُ هَذا الحاضِرِ بِقَلْبِهِ الذي قُرّةُ عَيْنِهِ في الصلاةِ هِيَ الّتِي تَصْعَدُ وَلَها نُوْرٌ وَبُرْهَانٌ حَتَّى يُسْتَقْبَلَ بِهَا الرَّحْمَنُ فَتَقُولُ حَفِظَكَ اللهُ تَعَالى كَمَا حَفِظْتَنِي وأَمَّا صَلاَةُ المُفَرّطِ المُضَيّعِ لِحُقُوقِهَا وَحُدُودِهَا وَخُشُوعِهَا فإِنَّهَا تُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الخَلِقُ وَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِها وَتَقُوْلُ ضَيَّعَكَ اللّهُ كَمَا ضَيَّعْتَني .

وَقَدْ رُوِيَ في حَدِيْثٍ مَرْفُوعٍ عَنْ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَرْفَعُهُ أَنَّهُ قَال : مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُتِمُّ الوُضُوْءَ إلى أَمَاكِنِهِ ثُمَّ يَقُوْمُ إلى الصَّلاَةِ في وَقْتِهَا فَيُؤَدّيْهَا لِلّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَنْقُصْ مِنْ وَقْتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَاوَمَعالِمِهَا شَيْئاً إلا رُفِعَتْ لَهُ إِلى اللّهِ عَزْ وَجَلَّ بَيْضَاءَ مُسْفِرةً يسْتَضِيءُ بِنُوْرِهَا مَا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ حَتّى يَنْتَهِي بها إلى الرَّحْمن عزوَجَلَّ .

وَمَنْ قَامَ إلى الصَّلاةِ فَلَمْ يُكْمِلْ وُضُوْءَهَا وأَخَّرَهَا عَنْ وَقتِهَا وَاسْتَرَقَ رُكُوْعَهَا وَسُجُوْدَهَا وَمَعَالِمِهَا رُفِعَتْ عَنْهُ سَوْدَاءَ مُظْلِمَةً ثُمَّ لا تُجَاوِزُ شَعَرَ رَأْسِهِ تَقولُ ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي ولِلَّهِ دَرُّ اسْماعِيْلَ المُقْرِي رَحِمَهُ اللّهُ حَيْثُ قَالَ :

تُصَلّي بِلاَ قَلْبٍ صَلاَةً بِمِثْلِهَا
يَكُونُ الفَتَى مُسْتَوجِباً لِلْعُقُوبَةِ

تَـظَلُّ وَقَـدْ أَتْمَمْـتَهَـا غَـيْـر عَـالِمٍ
تَـزِيُدُ إحْتِيَـاطاً رَكعـةً بَعْـدَ رَكْعَـةِ

فَـوَيْلَكَ تَـدْرِي مَنْ تُنَاجِيْـهِ مُعْـرِضاً
وَبَيْنَ يَـدَيْ مَنْ تَنْحَى غَـيـرَ مُخْبِتِ

تَـخَـاطِبُـهُ إِيَّـاكَ نَـعْبُـدُ مُـقْبِـلاً
عَـلَى غَيْـرِهِ فِيْهَـا لِغَـيْـرِ ضَـرُورَةِ

وَلَـوْ رَدَّ مَنْ نَـاجَـاكَ للغَيْـرِ طَـرْفُـهُ
تَـمَـيَّـزْت مِـنْ غَـيظٍ عَـلَيْـهِ وَغَـيـرِةِ

أَمَا تَسْتَحِي مِنْ مَالِكِ الملكِ أَنْ يَرَى
صُـدُودَك عَنْـهِ يَـا قَلِيـلَ الـمُـرُؤَةِ

إلَهِيْ اهْـدِنا فِيْمَنْ هَـدَيْتَ وَخُـذْ بِنـا
إِلى الحَقِّ نَهْجاً في طَـرِيقِ السَّـوِيَّـةِ

اللهم انـظُمْنَا في سِلْكِ عِبَـادِكَ المُفْلِحِينَ واجْعَلْنَا من عِبَـادِكَ المُخْلِصِينَ الذينَ لا خَوْفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ واغْفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ الاحْيَاء مِنْهُم والمَيِّتِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلّى اللهُ على نَبِيِّهِ مُحَمّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

(فصـــل)
فـــائدةٌ جليـــلةٌ

قَالَ ابْنُ القَيّم رَحِمَهُ اللّهُ في حَادِي الأَرْواحِ وَقَدْ جَعَلَ اللّهُ سبحانَهُ لكلّ مَطْلوبٍ مِفْتَاحاً يُفْتَحُ بِهِ فَجَعَلَ مِفْتَاحَ الصَّلاةِ الطُّهورِ وَمِفْتَاحَ الحَجِّ

الإِحْرامُ ومفتاحَ البِرِ الصدقَةُ وَمِفْتَاحَ الجَنةِ التَّوحِيدُ ومِفتاحَ العِلم حُسْنُ السؤَالِ وَحُسْنَ الاصْغَاءِ وَمفتاحَ النَّصْرِ والظَفَرِ الصَّبْرُ وَمفتاحَ المزيدِ الشُّكْرُ وَمِفْتَاحَ الوِلاَيَةِ المَحبَّةُ وَمِفْتَاحَ الرغْبةِ في الآخِرةِ الزُّهْدَ في الدُّنيا .

ومفتاحَ الإيمانِ التفكرُ فيمَا دَعا اللَّهُ عِبَادَهُ الى التَّفَكُر فيهِ وَمفْتَاحَ الدُّخُولِ عَلى اللهِ اسلامَ القَلْبِ وَسَلاَمَتَهُ لَهُ والاخْلاَصَ لَهُ في الحْبّ والبُغْضِ لَهُ والفعلَ والتَّرْكَ ومفتاحَ حياةِ القَلْبِ تدبّرَ القُرْآنِ والتَضَرُّع بالأسْحَارِ وَتَرْكَ الذنوبِ وَمفتاحَ حُصُولِ الرحْمَةِ الاحسانُ في عِبادَةِ الخَالِقِ والسَّعْىَ في نَفْعِ عَبِيْدِهِ وَمفْتَاحَ الرِّزْقِ السَّعيُ مَعَ الاسْتغفارِ والتَّقْوَى وَمِفْتَاحَ العِزّ طَاعَةُ اللهِ وَمِفْتَاحَ الاسْتعدَادِ للآخِرَةِ قَصْرُ الأمَلِ وَمِفْتاحَ كُلِّ خَيْرٍ الرَّغْبَةُ في اللّهِ والدّارَ الآخِرَةَ وَمِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍ حُبُّ الدُّنْيَا وَطُولُ الأمَلِ .

وَهَذَا بابٌ عظيمٌ مِن أَنْفَعِ أَبْوابِ العِلْمِ وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَفَاتِيْحِ الخيرِ والشَّرِ ولا يُوَفَّقُ لِمَعْرِفَتِهِ وَمُرَاعَاتِهِ إلا مَنْ عَظُمَ حَظُّهُ وَتَوفيقه فإنَّ اللهَ سبحانَه وتَعَالى جَعَلَ لِكُلِّ خيرٍ وَشَرٍ مِفْتاحاً وَبَاباً يُدْخَلُ مِنْه إليهِ كَمَا جَعَلَ الشِّرْكَ والكِبْرَ والإِعْرَاضَ عَمَّا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ والغَفْلَةُ عن ذِكْرِهِ والقِيَامِ بِحَقهِ مِفْتَاحاً لِلنَّارِ وَكَما جَعَلَ الخَمْرَ مِفْتَاحَ كُلِّ إثْمٍ وَجَعَلَ الغِنَاءَ مُفْتَاحَ الزِّنَا وَجَعَل اطلاقَ النَّظَر في الصُّوَرِ مِفْتَاحَ الخَيْبَةِ والحِرْمَانِ وَجَعَلَ المَعَاصِيَ مِفْتَاحَ الكُفْرِ وَجَعَلَ الكَذِبَ مِفْتَاحَ النِّفَاقِ وَجعَل الشُّحَ والحِرْصَ مِفْتَاحَ البُخْلِ وَقَطِيْعَةَ الرَّحِم وأَخذَ المَالِ مِنْ غَيْرِ حِلّهِ وَجَعَلَ الاعْراضَ عَما جَاءَ بِهِ الرسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مِفْتَاحَ كُلِّ بِدْعَةٍ وَضَلاَلٍ وَهَذِهِ أُمُورٌ لا يُصَدِّقُ بِهَا إلاَّ كلُّ مَن لَهُ بَصِيْرَةٌ صَحيحةٌ وَعَقْلٌ يَعْرِفُ بِهِ مَا في

نَفْسِهِ انتهى .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى : عَلاَمَةُ تَعْظِيْمِ الأَوَامِرِ والنَّواهِي رِعَايَةُ أَوْقَاتِها وَحُدُودِها والتَّفْتيشُ على أَرْكانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَكَمَالُهاوالحِرْصُ على تَحَيُّنِها في أَوْقَاتِهَا والمُسارَعَةُ إِليْهَا عِنْدَ وُجُوبِهَا والحُزْنُ والكآبَةُ والأَسَفُ عِنْدَ فَوَاتِ حَقٍّ مِنْ حُقوقِهَا كَمَنْ يَحْزَنُ عَلى فَوَاتِ الجَمَاعَةِ وَيَعْلَمُ أَنَّهَا لَوْ تُقْبِلَتْ منهُ صلاتُهُ مُنْفَرِداً فإِنَّهُ قَدْ فَاتَهُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُوْنَ ضِعْفاً .

وَلَوْ أَنَّ رَجُلاَ يُعَانِي البَيْعَ والشِّرَاءَ يَفُوتُهُ في صَفْقَةٍ وَاحِدَةٍ في بَلَدِهِ مِنْ غيرِ سَفَرٍ وَلاَ مَشَقةٍ سَبْعَةٌ وَعِشْرُوْنَ دِينَاراً لأَكلَ يَديهِ نَدَماً وأَسَفاً فكيفَ وَكُلُّ ضِعْفٍ مِمَّا تُضَاعَفُ بِهِ صَلاةُ الجماعَةِ خيرٌ مِن أَلْفٍ وأَلفِ أَلفٍ وما شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

فإذا فَوَّتَ العَبْدُ على نَفْسِهِ هَذا الربْحَ ، وَكَثيرٌ مِن العُلَماءِ يَقُولُ لا صَلاةَ لَهُ . وَهُوَ بارِدُ القَلْبِ فارِغٌ مِن هَذِهِ المُصِيْبَةِ غيرُ مُرْتاعٍ لَهَا فَهَذا مِنْ عَدَمِ تَعْظِيْمِ أَمْرِ اللهِ تَعَالى في قَلْبِهِ وَكَذلكَ إذا فاته أَوَّلُ الوَقْتِ الذي هو رضوانُ اللهِ تَعَالى ، أوْ فَاتَه الصَّفُ الذي يُصَلى اللهُ وَمَلائِكَتُه على مَيامِنِهِ ولَوْ يَعلمُ العَبْدُ فَضِيْلَتَهُ لَجالَدَ عَليهِ وَلَكانَتْ قُرْعَةً .

وكذلكَ لَو فَوَّتَ الجَمْعَ الكثيرَ الَّذي تُضَاعَفُ الصَّلاةُ بِكَثْرَتِهِ وكُلَّما كَثُرَ الجَمْعُ كانَ أَحبَّ إِلى اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ وَكُلَّمَا بَعُدَتْ الخُطَا كَانَ كُلَ خُطْوَةٍ تَحُطُّ خَطِيئَةً وأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً وَكَذلِكَ لو فَوَّتَ الخُشُوْعَ في الصَّلاةِ وَحُضُورَ القلبِ فيْمَا بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِ وَتَعالى الذي هُوَ رُوحُ الصَّلاةِ وَلُبُّهَا فَصَلاةٌ بِلا خُشُوعٍ ولا خُضُوعٍ كَبَدَنٍ مَيّتٍ لاَ رُوْحَ فِيهِ أَفَلاَ يَسْتَحِي العبد أَنْ يُهْدِيَ إِلى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ عَبْداً مَيْتاً أَوْ جَارِيَةً مَيْتَةً ، فما ظَنُ هَذَا

العَبْدِ أَنْ تَقَعَ الهدِيَّةُ مِمَّنْ قَصَدَهُ بِهَا مِن مَلِكٍ أو أَمِيْرٍ أَوْ غيرِهِ ، فَهَكَذَا سُوْءُ الصَّلاةِ الخَالِيَةِ مِنَ الخُشُوعِ والحُضُورِ وَجَمْعِ الهِمَّةِ عَلى اللهِ تَعَالى فِيها بِمَنْزِلَةِ هَذِهِ الأَمَةِ أَو العَبْدِ المَيِّتِ الذي يُرِيْدُ إهْدَاءَهُ إلى بَعْضِ المُلُوكِ .

وَلِهَذا لا يَقْبَلُهَا اللهُ تَعَالى مِنه وإنْ اسقَطتْ الفُرض في احكام الدنيا ولا يُثِيْبُه عَلَيْهَا فإنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبدِ مِن صَلاَتِهِ إلَّا مَا عَقَلَ مِنْهَا ، كَمَا في السُنَنِ وَمَسندِ الامامِ أحمدَ وَغَيْرِهِ عن النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلم أَنَّهُ قالَ : إنِ العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَلاَةَ وما كتبَ لَهُ إلا نِصْفِها إلا ثُلُثَهَا إلا رُبُعَهَا إلا خُمُسَهَا حَتَّى بَلَغَ عُشْرَهَا . وَيَنْبَغِي أنْ يُعْلَمَ أَنَّ سَائِرَ الأَعْمَالِ تَجْرِيْ هَذا المَجْرَى فَتَفَاضُلُ الأعمالِ عندَ اللهِ تعالى بِتَفاضُلِ ما في القُلُوبِ مِن الإيمانِ والإِخلاصِ والمَحَبَّةِ وتوابِعِهَا .

وتَفَاضُلِ الأَعْمَالِ يَتْبَعُ مَا يَقُوْ
مُ بِقَلْبِ صَاحِبِهَا مِن الإِيْمَانِ
حَتَّى يَكُونَ العَامِلاَنِ كِلاَهُمَا
فِي رُتْبَةٍ تَبْدُوْ لَنَا بِعِيَانِ
هَذَا وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَا
وَالأَرْضِ في فَضْلٍ وفي رُجْحَانِ
وَيَكُوْنُ بَيْنَ ثَوَابِ ذَا وَثَوابِ ذَا
رُتب مُضَاعَفَةٌ بِلاَ حُسْبَانِ
هَذَا عَطَاءُ الرَّبِ جَلَّ جَلاَلُهُ
وَبذاكَ تُعْرَفُ حِكْمَةُ الرَّحْمنِ

فالمَدَارُ عَلى أعْمَالِ القُلُوبِ فإذا كانَ القَلْبُ حَاضِراً وَمُلْقٍ سَمْعَهُ لِما يَسْمَعْ وَلِمَا يَنْطِقُ هُوَ بِهِ مِن قِرَاءَةٍ وَتَكْبِيْرٍ وَتَسْبِيْحٍ وَقَوْلِ ربي اغفرْ لِيْ وَقول سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ وَمعانِي الفاتِحَةِ والتحياتِ ونحو ذلكَ مِن صَلاتِهِ وأمَّا الغافِلُ الذي لا يَتدَبَّرُ ولا يَتَفَهَّمُ وَيَعْبَثُ ولَا يَهْتَمُ لَهَا فَهَذا مَحْصُوْلُهُ ضَئِيلٌ جِدّاً أو معدوم .

شـــعراً :

لَكَ الحَمْدُ يَا ذَا الجُوْدِ والمَجْدِ والعُلَا
تَبَـارَكْتَ تُعْـطِي مَنْ تَشَـاءُ وَتَمْـنَـعُ
إلـهِيْ وَخَـلَّاقِيْ وَسُـؤْلِـيْ وَمَـوْئِـلِيْ
إلَيْـكَ لـدَى الاعْسَـارِ واليُسْـرِ أفْـزَعُ
إلـهِي لَئِـنْ خَـيَّبْتَـنـي وَطَـرَدْتَـنِـيْ
فَمَنْ ذَا الـذيْ عَمَّـا أُحَـاذِرُ يَنْفَـعُ
إلـهِي لَئِـنْ جَلَّتْ وَجَمَّتْ خَـطِيْئَتِـيْ
فَـعَفْـوُكَ عَـن ذَنْـبِـيْ أجَـلُّ وَأَوْسَـعُ
إلهِي لَئِـنْ أعْـطَيْتُ نَفْسِـي سُؤْلَـهَـا
فَهَـا أنـا في رَوْضِ النَّـدَامَـةِ أرْتَـعُ
إلهِيْ تَـرَى حَـالِيْ وَفَقْـرِيْ وَفَـاقَتِيْ
وأنْـتَ مُنَـاجَـاتِيْ الخَـفِيَّـةَ تَـسْمَـعُ
إلهِيْ فَـلا تَقْـطَعْ رَجَـائِي وَلَا تُـزِغْ
فُؤَادِيْ فَلِي في سَيْبِ جُوْدِكَ مَطْمَعُ

إلـهِـيْ أَجِرْنِـي مِـنْ عَذَابـك إنَّـنـي
أَسِيْـرٌ ذَلِيلٌ خائِـفٌ لَـك أخـضـعُ
إلـهِيْ فَآنِسْنِي بِتَـلْقِيْـنِ حُـجَّـتِـيْ
إذا كَـانَ لِيْ في القَبْـر مَثْوىً وَمَضْجَـعُ
إلـهِيْ لَئِـنْ عَـذَّبْتَـنِـيْ أَلْـفَ حَـجَّـةً
فَـحَبْـلُ رَجَـائِـيْ مِنْـكَ لا يَـتَقَـطَّعُ
إلـهِي أَذِقْـنِيْ طَـعْـمَ عَـفْـوِكَ يَـوْمَ لاَ
بَـنُـوْنَ وَلا مَـالٌ هُـنَـالِـكَ يَـنْـفَـعُ
إلهِيْ لَئِنْ لَم تَـرْعَني كُنْتُ ضَـائِعـاً
وإنْ كُنْتَ تَـرْعَـانِـي فَلَسْتُ أُضَيَّـعُ
إلهِيْ إذَا لَمْ تَعْفُ عَن غَيْـرِ مُحْسِنٍ
فَـمَنْ لِمُسِيءٍ بِـالْـهَـوَى يَـتَـمـتَّـعُ
إلهِيْ لَئِنْ قَصَّـرْتُ فـي طَلَبِ الـتُّقَـى
فَلَسْتُ سِـوَى أَبْـوَابِ فَضْلِكَ أَقْـرَعُ
إلـهِيْ اقِـلْنِيْ عَـثْـرَتِيْ وَامْـحُ زَلَّـتِيْ
فَـإنِّـي مُـقِـرٌ خَـائِـفٌ مُـتَـضَـرِّعُ
إلـهِيْ لَئِـنْ خَـيَّـبْـتَـنِـي وَطَـرَدتَـنِـيْ
فَمَـا حِيْلَتِيْ يَـا رَبُّ أَمْ كَيْـفَ أَصنَعُ
إلهِيْ حِلِيْفُ الحُبِّ بِـاللَّيْـلِ سَـاهِـرٌ
يُـنَـاجِيْ وَيَبْكِـيْ والغَـفُـولُ يُهَـجِّـعُ
إلهِيْ لَئِـنْ تَعْـفُـو فَعَـفْـوُكَ مُنْـقِـذِيْ
وإنِيْ يَـا رَبَّ الـوَرَى لَـكَ أَخْضَـعُ

اللهم ارْحَمْ عِباداً غَرَّهُمْ طُوْلُ إمْهَالِكَ وأَطْمَعَهُمْ دَوَامُ إفْضَالِكَ وَمَدُّوْا أَيْدِيَهُمْ إلى كَرَمِ نَوَالِكَ وَتَيَقَّنُوا أنَّ لا غِنَى لَهُم عَن سُؤَالِكَ وَجُدْ عَلَيْنَا وَعَليهِمْ بِرَحْمَتِكَ الوَاسِعَةِ واغفر لنا وَلَهُم وَلِجَمِيْعِ المسلمينَ يا ربَّ العالمِينَ وصلى الله على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجْمعين .

مــوعظــة

عِبَادَ اللهِ تَغَيَّرَ الناسُ في أَحْوَالِهم الدِّيْنِيَّةِ تَغيُّراً يُدْهِشُ الناظِرِيْنَ في زَمَنٍ قَلِيْلٍ ، هَذِهِ الصَّلاةِ التي هِيَ آكَدُ أركَانِ الإسلَامِ بَعْدَ الشهادَتَينِ وهِيَ عَمُودُ الإسلامِ قَدْ أَعْرَضَ عنها الكثيرُ مِن الناسِ غَيْرَ مُبَالِينَ بِذَلِكَ جَهِلُوا مَا هِيَ الصَّلاةَ وأيُ قِيمَةٍ قِيْمَتُهَا وَمَا مَنْزِلَتُهَا بَيْنَ الطَاعاتِ ، وما علموا أَنَّها الصِلةُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ وَلِذَلِكَ هِيَ تُطَهِّرُ المُصَلِيْ مِن جَمِيْعِ ذُنُوْبِهِ إذا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ كَالزِّنَا واللِّواطِ وأَكْلِ الرِّبَا .

وَيزِيْدُكَ مَعْرِفَةً بِهَا أنْ تَعْرِفَ مَالَهَا مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ . ذَلِكَ أَنَّهُ إذَا تَوَضَّأَ لَهَا ذَهَبَتْ ذُنُوبُ أَعْضَاءِ وُضُوئِهِ مَعَ ذَهَابِ الماءِ فإذا تَشَهَّدَ بَعد الوُضُوءِ فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَدْخلُ مِن أَيِّهَا شَاءَ فإذا مَشَى إلى المَسْجِدِ كَانَ لَهُ بِكُلِ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا تَحُطُّ عنه خَطيئَةً وَرُفِعَ لَهُ دَرَجةً فإذا انْتَظر الصلاةَ فإنهُ لا يَزَالُ في صلاةٍ .

وأما المُؤَذِّنون فَهُمْ أَطْوَلُ الناسِ أَعْنَاقاً يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَشْهَدُ لَهُمْ كلُ مَا يَسْمَعُهُم حتَّى الأَشْجَارَ والأَحْجَارَ .

وَمَنْ قَالَ مِثْلَ مَا يَقُوْلُ المُؤَذِّنُ ثُمَّ دَعَا عَقِبَهُ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَةُ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلم وأَمَا قَمُّ المسجدِ وَتَنْظِيْفُهُ فَهُوَ مَهْرُ الحُورِ العَيْنِ في الجَنَّاتِ

وَمَن بنى لِهِ مَسْجِداً وَلَو كَمَفْحَص ِ قَطَاةٍ بنى اللهُ له بَيْتاً في الجنةِ .

والخُلاصَةُ أنَّ المُؤْمِنَ بِصَلاتِهِ أَبعَدَ الناس ِ مِن المُحَرَّمَاتِ والفَوَاحِش ِ والزِّنَا واللِّواطِ وَشُرْبِ الخَمْرِ والدخانِ والمَيْسِرِ وَقَوْل ِ الزُّوْرِ والسَّرِقَةِ والقَتْل ِ والقَذْفِ وحَضُورِ آلاتِ اللَّهْوِ المذياع ِ والتلفزيونِ والسِّيْنَمَاءِ والبَكَمَاتِ وأبْعَدَ الناس ِ عن الغِشّ ِ والرِّبَا والبَخْس ِ والمَكْرِ والخِدَاع ِ وَغيرِهِمَا مِمَّا يُخِلُ بالدِّيْنِ أو يُنَقِّصُ المُرؤةَ والشَّرَفَ ، إذْ مِن غَيْرِ المَعْقُول ِ أنَّ مَنْ بَلَغَ بِهِ حُبُهُ في الاستقامَةِ أنْ يَقِفَ أَمَامَ سَيِّدِه وَمَوْلاَهُ الذي رَبَّاهُ وَرَبَّى جَمِيْعَ العَالمين بِنِعَمِهِ وَيَسْتَهْدِيْهِ طَرِيْقَ الهِدَايَةِ وَقَدْ قَدَّرَ رَبَّهُ وَرَكَعَ لَهُ وَسَجدَ وَحَمدَهُ وَأَثْنَى عَليهِ بِمَا هُوَ أهْلُهُ وَشَكرَ لَهُ أن يُرى بَعْدَ ذَلِكَ جَوَّالاً في طُرُقِ الغوايَةِ والمآثِم ِ الَّتِي يَنْتَابُهَا الفُسَاقُ الذِيْن مَرَدُوْا على الفُجُورِ وَتَفَنَّنُوا فِيهِ . . صَدَقَ اللهُ العظيم .

إن الصَّلاةَ تَنْهَى عَن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ : هَذِهِ مِن ثَمراتِ الصَّلاةِ .

اللهم انْظمْنَا في سِلْكِ عِبَادِكَ المُفْلِحِينَ وَنَجِّنَا مِن لَفَحَاتِ الْجَحِيْم واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلجَمِيْع ِ المُسلمينَ الأَحْيَاءِ مِنهم والميتين برحمتكَ يا أرحمَ الرَّاحمين وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجْمعين .

(فصل)

في ذِكْرِ بَعْض ِ فَوائدِ صَلاةِ الجَمَاعَةِ وبَيانِ حُكْمِهَا وأَدلةِ وجُوبِهَا وذِكْرِ طَرَفٍ مِن فَوَائِدِ صَلاةِ الرَّوَاتِبِ والنَّوافِل

إعلمْ وَفَّقَنا اللهُ وإيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أَنَّهُ شُرِعَ

لِهذِهِ الأُمَّةِ الاجْتِمَاعُ لِلْعِبَادَةِ في اوقاتٍ مَعْلُومَةٍ ، فمِنْهَا ما هُوَ في اليَومِ واللَّيْلَةِ لِلْمَكْتُوْبَاتِ ومِنْهَا مَا هُوَ في الأُسْبُوعِ وهُوَ صَلاةُ الجُمُعَةِ ومنها ما هُوَ في السَّنَةِ مُتكَرِّرٌ وهُوَ صَلاةُ العِيْدَيْنِ لِجَماعَةِ كُلِ بَلَدٍ ومنها ما هُوَ عَامٌّ في السَّنَةِ وهُوَ الوُقُوفُ بعَرفَةَ ، وذلكَ لأَجْلِ التَّوَاصُلِ والتَّوَادُدِ والتَّعَاوُنِ والتَّآخِيْ والتَّآلُفِ والتَّعَارُفِ والتَّعَاطُفِ والتَّـرَاحُمِ ، وقُوَّةٌ لِلرَّابِطَةِ بَيْنَ المسلِمِينَ ، ومُضَاعَفَةَ الأَجْـرِ بالاجْتِمَـاعِ ، وَكَثْرَةِ الخُطَى ، ولِتَعْلِيْمِ الجَاهِلِ لِأَحْكَامِ الصَّلاةِ .

فَصَلاةُ الجَمَاعَةِ هِيَ المتَكَرِّرُ يَوْمياً الاجْتِمَاعُ لَهَا في المَسَاجِدِ وهِيَ وَاجِبَةٌ وُجُوْبَ عَينٍ على الرجالِ القادِرِيْنَ حَضَراً وسَفراً حتى في شِدَّةِ الخَوْفِ لِقَولِهِ تَعالى : ﴿ وإِذَا كُنْتَ فِيهم فأَقَمْتَ لَهُمُ الصلاةَ فلتقمْ طائفة منهم معكَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أو رُكْباناً ﴾ .

وعن أبي هُرَيْرَةَ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « اثقلُ الصلاةِ على المُنَافِقِينَ صَلاةُ العِشَاءِ وصَلاةُ الفَجْرِ ولو يَعْلَمُونَ ما فِيهِمَا لأَتَوهُمَا ولَو حَبْوًا . ولقد هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بالصلاةِ فَتُقَامَ ثمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيُصَلِيْ بالنَّاسِ ثُمَّ انْطَلِقَ مَعي بِرجَالٍ مَعَهُم حِزَمٌ مِن حَطَبٍ إلى قَوْمٍ لا يَشْهَدُوْنَ الصلاةَ فأحَرِّقَ عليهِم بُيُوتَهمُ في النارِ » متفق عليه .

وعن أبي هريرة أَنَّ رَجُلاً أَعْمَى قال يا رسولَ اللهِ ليسَ لِيْ قَائِدٌ يَقُودُنِي إلى المسجدِ فسأَلَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يُرَخِصَ لَهُ فَيُصَلِيَ في بَيْتِهِ فَرَخَصَ لَهُ فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فقال هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ قالَ : نَعَمْ قال : فَأَجِبْ . رواه مسلم والنسائي .

وروى أبو داود عن عَمْرِو ابن أُمِّ مَكْتُومٍ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صلى اللهُ

عليه وسلم فقال : يا رَسولَ اللهِ إنَّ المدينةَ كَثِيْرةُ الهوَّامِ والسِّبَاعِ وأنا ضَرِيرُ البَصَرِ شَاسِعُ الدَّارِ وَلِيْ قَائِدٌ لا يُلاَئِمُنِيْ فَهَلْ تَجد لي رخصةً أن أصلي في بيتي فقال النبي صلَّى الله عليهِ وسلم : هـل تَسْمَعُ النِّداءَ قال نَعَمْ قال فَأجِبْ فإنِي لا أَجِدُ لَكَ رُخْصَةً فَهَذا رَجُلٌ ضَرِيْرٌ شَكَا مَا يَجِدُ مِن المَشَقَّةِ في مَجِيْئِهِ إلى المسجدِ وليسَ له قائِدٌ يَقودُهُ إليهِ وَمَع هذا لَمَ يُرَخِصْ لَهُ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم في الصلاةِ في بَيْتِهِ فكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ صَحِيْحُ البَصَرِ مُتَوفِرةُ الأَنْوارُ في طرِيْقِهِ وهُوَ آمِنٌ على نَفْسِهِ وأهلِهِ ومالِهِ .

ومَعَ ذلكَ لا يُجِيْبُ دَاعِيَ اللهِ الذي خَلَقَهُ وَرزَقَهُ وأَعْطَاهُ وأَقْنَاهُ وَوَعَدَهُ إنْ أطَاعَهُ بِجَمِيْعِ ما تَطْلبُهُ نَفْسُهُ وتَمَنَّاهُ ، وَهَدَّدَ وتَوعَدَ مَن عَصَاهُ واتَّبَعَ هَوَاه .

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَن سَمِعَ النِّداءَ فلم يَأتِ فلا صَلاةَ لَهُ إلا مِن عُذْرٍ » . وأخرجَ الحاكمُ في مُسْتَدْرَكِهِ عَن ابنِ عباسٍ رَضيَ اللهُ عنهما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ثلاثةٌ لَعَنَهُم اللهُ ، مَن تَقَدَّمَ قَوْماً وهُمْ لَه كارِهُونَ وامرأةٌ باتَتْ وَزَوْجُها عَلَيْها سَاخِطٌ ورَجُلٌ سَمِعَ حَيَّ على الصَّلاةِ حَيَّ على الفَلاحِ ثُمَّ لَمْ يُجِبْ » وحَدِيْثِ لا صَلاةَ لِجَارِ المَسْجِدِ إلا بالمسجدِ رُوِيَ مَرْفُوعاً وَمَوْقُوفاً .

عن ابن عباسٍ قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ سَمِعَ النداء فلمْ يَمْنَعْهُ مِن اتِبَاعِهِ عُذْرٌ قالوُا ومَا العُذْرُ قال خوْفٌ أو مَرَضٌ لم تُقْبَلْ منه الصلاةُ التِّي صَلَّى » .

وعن معاذِ بن أنس عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « الجَفاءُ كلُ الجَفَاءِ والكُفْرُ والنِّفَاقُ مَن سَمِعَ مُنَادِيَ اللهِ يُنَادِي إِلَى الصلاةِ فلا يُجِيْبُهُ » رواه أحمد والطبراني .

وعن أبي الدرداءِ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ما مِن ثَلاثَةٍ في قَرْيَةٍ ولا بَدْوٍ لا تُقَامُ فِيهم الصَّلاةُ إلا قد اسْتَحْوَذَ عليهم الشيطانُ فَعَلَيْكَ بالجَمَاعَةِ فإنمَّا يَأْكُلُ الذِئْبُ القاصِيَةَ » . رواه أحم د وأبو داود والنسائي .

وعن أمير المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه قال : « ما بالُ أقْوَامٍ يَتَخَلَّفُونَ عن الصلاةِ فَيَتَخَلَّفُ لِتخَلُّفِهِم آخَرُوْنَ لأَنْ يَحْضُروا الصلاةَ أَوْ لأَبْعَثَنَّ عليهم مَن يُجَافِي رِقَابِهم . وقال ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه : « مَن سَرَّهُ أنْ يَلْقَى اللهَ غَداً مُسْلِماً فلْيُحَافَظَ على هؤلاءِ الصلواتِ الخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَي بِهنَّ فانَّ اللهَ تعالى شَرَعَ لِنَبّيكمُ سُنَنَ الهُدَى وإنهنَّ مِن سُنَنِ الهُدَى ولوَ أنَّكُم صَلَيْتُم في بُيُوتِكم كَمَا يُصَلِي هذا المُتَخَلِّفُ في بَيْهِ لَتَركْتُمْ سُنَّةَ نَبّيكمُ وَلوَ تَركْتُمْ سُنَّةَ نَبّيِكُم لَظَلْلتُمْ ولَقَدْ رَأيْتُنَا وما يَتَخَلَّفُ عَنَها الا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ » .

وقال أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه : « لأَنْ تَمْتَلِىءَ أُذُنُ ابنِ آدَمَ رَصَاصاً مُذاباً خَيْرٌ لَهُ مِن أنْ يَسْمَعَ حَيَّ علىَ الصلاةِ حَيَّ على الفلاحِ ثُمَّ لَمْ يُجِبْ » وسُئِل ابنُ عَباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا عن رَجُلٍ يَقوُمُ اللَّيْلَ ويَصُومُ النَّهارَ وهُوَ لا يَشْهَدُ الجُمَعَةَ والجَماعَةَ فقال هُو في النارِ ولَمَّا كانَ عَتَّابُ بنُ أُسَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عنه وَالِياً للنَّبِي صلى الله عليه وسلم عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَسَمِعَ بِرجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عن الصلاةِ في المَسَاجِدِ جَماعةً فقال يا أهلَ مَكَّةَ واللهِ

لا أَسْمَعُ بِرِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عن الصلاةِ في الجَمَاعَةِ في المَسَاجِد إلا ضَرَبْتُ أَعْنَاقهم فَعَلَم الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم بِذَلِكَ فَزَادَهُ رِفْعَةً عِنْدَهُم وارْتَفَعَ قَدْرُهُ .

وصلاةُ العِشَاءِ والفَجْرِ في جَمَاعَةٍ أَشَدُّ تَأْكِيْداً لِمَا وَرَدَ عن عثمانَ بنِ عفانَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ مَن صَلىَّ العِشَاءَ في جَمَاعةٍ فكأنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيلِ وَمن صَلَى الصُبْحَ في جَمَاعَةٍ فكأنَّمَا صَلَّى الليلَ كُلَّهُ رواه مسلمَ .

وفي رواية الترمذي عن عثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَن شَهِدَ العِشَاءَ في جَمَاعَةٍ كان لَهُ قِيَامُ نِصْفِ لَيْلَةٍ ومَن شَهِدَ العِشَاءَ والفَجْرَ في جَمَاعَةٍ كان لَهُ كَقِيَامِ لَيْلةٍ قال الترمذي حديث حسن صحيح .

وعن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ ولو يَعْلَمُونَ مَا في العَتَمَةِ والصُبحِ لأَتَوْهُمَا ولَوْ حَبْوَا متفق عليه . وعنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ليسَ صَلاةٌ أثْقَلُ على المُنَافِقِينَ مِن صَلاةِ الفَجْرِ والعِشَاءِ ولو يَعْلَمُونَ ما فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا ولَو حَبْوَا متفق عليه .

وروى عن أَبِي أمامةَ رَضَي اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَن صَلَّى العِشَاءَ في جَمَاعَةٍ فَقدْ أَخَذَ بحَظِّهِ مِن لَيْلَةِ القَدْرِ . رواه الطبراني في الكبير .

وعن جُنْدُبِ القَسْرِي قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَنْ

صَلى صَلاَةَ الصُبْحِ فَهُوَ في ذِمَّةِ اللهِ فلا يَطْلُبَنَّكم اللهُ مِن ذَمَّتِهِ بشيءٍ فإنَّهُ مَن يَطْلُبْهُ مِن ذِمَّتِهِ بِشَيءٍ يُدْرِكْهُ ثُمَّ يَكُبهُ على وَجْهِهِ في نارِ جَهَنَّمَ رواه مسلم .

فهذا نَهْيٌ مِنهُ صلى اللهُ عليه وسلم عن التَّعَرُضِ لِمَنْ هُوَ في ذِمَّةِ اللهِ بشيءٍ مِن السُوْءِ وقَدْ قِيْلَ إنَّ الحَجَاجَ مَعَ جَوْرِهِ وظُلْمِهِ وتَعَدِيْهِ لِحُدُوْدِ اللهِ كانَ يَسْأَلُ كُلَّ مَنْ يُؤتَى بِهِ نَهاراً صَلَيْتَ الصُّبحَ في جَماعَةٍ فانْ قَالَ نَعم خَلَى سبيلَهُ مَخافَةَ أَنْ يطلبَهُ اللهُ بشيءٍ مِن ذِمتهِ .

وعَن ابن عُمرَ رضيَ اللهُ عَنهُما قَال كُنا إذا فَقَدْنَا الرجلَ في الفَجْرِ والعِشَاءِ أساءنا بهِ الظنَّ رواهُ الطبرانِي وابنُ خُزَيْمَةَ في صَحِيحِهِ .

اللهُمَّ أَنْظِمْنَا في سِلْكِ عِبادِكَ المُفلِحينَ واحْشُرنَا مَعَ الذينَ أنعمتَ عليهم مِن النبيينَ والصديقينَ والشهَداءِ والصَّالِحينَ واغفرْ لنا ولوَالِدَيْنا ولجميعِ المسلمينَ الاحياءِ منهم والميتينَ برحمتِكَ يا أرحمَ الراحِمينَ وصلَّى اللهُ على مُحمدٍ وعَلى آلهِ وَصحبِهِ أجمَعِينَ .

(فَصْـلٌ)

وَصَلاةُ الجماعَةِ تفضلُ على صلاةِ الفذِّ بسبعٍ وعشرينَ درجةً كمَا وردَ عَن ابنِ عـمرَ عن النبي صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ قال : صَلاةُ الجماعةِ تفضلُ صلاةَ الفذِ بسبعٍ وعشرينَ درجةً متفقٌ عليهِ .

وَعن أبي هُريرةَ رَضى اللهُ عنهُ قالَ : قال رسولُ اللهِ صَلى اللهُ

عليهِ وسلمَ صَلاةُ الرجلِ في جَماعَةٍ تَضْعُفُ على صَلاتِه في بيتِهِ وفي سوقِ خَمساً وعشرينَ ضِعفاً وذلكَ أنهُ اذا تَوضَّأ فَأَحْسَنَ الوُضوءَ ثم خرجَ إلى المسجِدِ لا يُخرجُه إلا الصلاةَ لِم يَخْطُ خطوةً إلا رُفعَتْ له بها دَرجةٌ وحُطتْ عنه بها خَطيئةٌ فاذا صَلى لم تَزلْ الملائكةُ تُصلِّي عَليهِ ما دَامَ في مُصَلَّاهُ مَا لم يُحْدِثْ ، تَقولُ اللهم صَلِّ عَليهِ اللهم ارحَمْهُ ، ولا يزالُ في صلاةٍ ما انتظرَ الصلاةَ » متفقٌ عليهِ .

وَوَرَدَ عنه صَلى اللهُ عليهِ وَسلمَ أنهُ قالَ من صَلى أربعينَ يوماً في جَماعَةٍ يُدركُ التكبيرةَ الأُولَى كُتِبَتْ له بَراءتَانِ مِن النَّارِ وَبَراءَةٌ من النِّفاقِ رَواهُ الترمِذي وَغيرُه من حديث أنسٍ وَهُوَ حديث حَسنٌ صَحَحَهُ الحاكمُ وغيرهُ .

وَقَدْ وَرَدَ في فَضْلِ الصَّفِ الأولِ واتْمَامِ الصُّفوف ما يَلي فعن جَابرِ بن سَمُرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنهُمَا قالَ : خَرجَ عَلينَا رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم فقَالَ : « ألا تَصُفونَ كمَا تَصُفُّ الملائكةُ عِندَ رَبِّها فقُلنَا يا رسولَ اللهِ وكيفَ تصفُّ الملائكةُ عندَ رَبِّهَا قَال يُتمُّونَ الصُّفُوفَ الأوَل وَيتَرَاصُّون في الصَّفِّ » رواهُ مُسْلمٌ .

وَعن أَبي هُريرَةَ رَضْيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ قالَ : « لَو يَعْلَمُ النَّاسُ مَا في النداءِ والصَّفِّ الأولِ ثُم لمْ يَجِدُوا إلَّا أَنْ يَسْتهِمُوا عليهِ لاسْتَهمُوا » مُتفقٌ عَليهِ .

وَعَن أبي مَسْعُودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : كانَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ يَمْسَحُ مُناكِبنَا في الصَّلاةِ ويقولُ : « اسْتَووُا ولا تَخْتَلِفُوا فَتخْتَلِفَ قُلوبُكم لِيَلِنيْ مِنْكُم أولوُا الاحْلَامِ والنُّهَى ثُمّ الذين يَلُونهم ثم

الذين يَلونهُم » رواهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنَ أنسٍ رَضيَ اللهُ عنهُ قَالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ : « سَووا صُفوفَكُم فانَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِ من تَمامِ الصَّلاةِ » مُتفقٌ عَليهِ .

وَعن البَراءِ بن عَازبٍ رَضْي اللهُ عَنْهُما قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَم يتخَللُ الصَّفَّ من نَاحِيَةٍ إلى ناحِيَةٍ يَمْسَحُ صُدُوْرَنَا وَمَناكِبنَا ويقولُ لا تختلفُوا فتختَلِفُ قُلوبُكُمْ . وَكانَ يقولُ ان اللهَ وملائِكَته يُصلونَ على الصَّفِّ الأولِ . رواهُ أبو داودَ باسنادٍ حَسَنٍ .

وَعن ابن عُمَر رضي اللهُ عَنهُما أنَّ رسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسلمَ قال أقيمُوا الصُّفوفَ وحاذُوا بينَ المناكبِ وسُدُّوا الخللَ ولينُوا بأيدِي اخوانِكُم ولا تذُروا فُرُجَات للشيطانِ ومن وَصَل صَفاً وصَلهُ اللهُ ومَن قَطعَ صَفاً قطعهُ اللهُ . رواهُ أبو دَاودَ .

(فَصْـلٌ)

وَكَانَ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ إذا كَبَّرَ للصلاةِ يَسْتَفْتِحُ . فَعنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ كانَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلمَ إذا كَبَّرَ في الصلاةِ سَكَتَ هُنَيْهَةً قبلَ القِرَاءَةِ فقلتُ يا رسولَ اللهِ بأَبِيْ أنتَ وأُمي أَرَأَيْت سُكُوتَكَ بينَ التكبيرِ والقِرَاءَةِ ما تَقُولُ ، قالَ أقولُ اللهمَّ باعِدْ بَيْنِيْ وبينَ خطايَايَ كمَاباعدْتَ بينَ المشرِقِ والمغربِ اللهمَّ نَقِّنِيْ مِن خطايَايَ كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ منِ الدَّنسِ اللهم اغْسِلنِي مِن خَطايَايَ بالماءِ والثلجِ والبردِ رواهُ الجَمَاعَةُ إلا الترمِذي .

وَعنْ عَائِشَةَ قالَتْ كَانَ النبيّ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ إذَا اسْتَفتحَ الصلاةَ قال سبحانكَ اللهمّ وبحمدِكَ وتبارَكَ اسْمُكَ وتَعالى جدُّك ولا إلهَ غيرُكَ ، رواهُ أبو دَاودَ والدَّارَقُطْنِيّ .

وَكَانَ يَتعَوَّذُ قبلَ القراءةِ في الرَّكعةِ الأُولى بعدَ الاستفتاحِ فعَنْ أبِي سعيدٍ الخُدريّ عَنْ النبيّ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ أنهُ كانَ إذا قامَ الى الصلاةِ استفتحَ ثم يَقوُل أعوذُ باللهِ السميعِ العَليمِ مِن الشيطانِ الرجيمِ مِن هَمْزِه وَنفْخِهِ ونَفْثِه رَواهُ أحمدُ والتِّرمِذيّ .

وقالَ ابنُ المُنْذِرِ جَاءَ عن النبيّ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ أنهُ كانَ يَقُولُ قَبْلَ القراءةِ أعوذُ باللهِ مِنْ الشيطانِ الرَّجِيمِ .

وعَنْ أبي سَعيدٍ الخُدريّ أنَّ النبيّ صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ كانَ يَقْرَأُ في صَلاةِ الظهر في الركعتينِ الأُوْلَيَيْنِ في كُل رَكْعَةٍ قَدْرَ ثلاثينَ آيةً وفي الْاخَرَيَيْنِ قَدْرَ خَمْسَةَ عَشَر آيةً ، أو قَالَ نِصْفَ ذلِك ، وفي العَصْرِ في الركعتَينِ الأُوْليينِ في كل رَكعةٍ قَدْرُ خمسَ عَشْرَة آيةً ، وفي الأُخْرَيَيْنِ قدرَ نِصْفِ ذلكَ رواهُ أحْمَدُ ومُسْلِمٌ .

وَعَنْ جُبير بن مُطْعِمٍ قالَ سمعتُ رسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ يقرْأُ في المغربِ بالطُوْرِ رواهُ الجماعةُ الا الترمِذيّ .

وَعَنْ ابنِ عباسٍ أنَّ أُمَّ الفَضلِ بِنْتَ الحَارِثِ سَمِعَتْهُ وهُوَ يقرَأُ والمرسلاَتِ عُرفاً فقالَتْ يا بُنيَّ لقد ذَكَّرْتَنِي بقرائَتِكَ هذِهِ السُّورَةَ إنَّها لأَخِرُ ما سَمِعْتُ مِن رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلمَ يقرأُ بهَا في المَغْرِبِ رواهُ الجَماعةُ الا ابنُ مَاجه .

وَقالَ أبوُ بَرْزَةَ الأَسْلَمِيّ كانَ النبيُّ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ يُصَلي الصُّبْحَ فينْصَرِفُ الرجلُ فَيَعْرِفُ جليسَهُ ، وكان يَقرأُ في الركعتينِ أو أحَدِهِمَا ما بَين الستينَ إلى المائةِ متفقٌ على صِحَّتِهِ .

وَفي صَحيح مُسْلِمٍ عن عبدِ اللهِ بن السائِبِ قالَ صَلى بنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلمَ الصبحَ بمكةَ فاستفتح سُورَةَ المؤمنينَ حَتى إذا جَاءَ ذِكرُ موُسَى وهارونَ أوَ ذِكرُ عِيْسَى أخذَتْ النبيَ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ سَعْلَةٌ فركَعَ .

وَرَوى النِسائِيّ من حَديثِ ابنِ مسعودٍ أنَّ النبيّ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلمَ قرأَ في المغربِ بالدُّخانِ .

وفي صَحيحِ مسلمٍ من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدري قالَ كانَتْ صلاةُ الظهرِ تقامُ فينطلقُ أحدُنا إلى البقيعِ فيقضي حاجَتَهُ ثم يأتي أهلَهُ فيتوضَّأُ ثم يَرْجِعُ إلى المسجدِ ورسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ في الرَّكعةِ الأولى .

وقَالَ أبُوْ سَعيدٍ الخُدري كُنَّا نَحْزِرُ قِيَامَ رسولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ في الظهرِ والعصرِ فَحَزَرْنا قيامَه فَي الركعتَيْنِ الأُوْلَيَيْنِ مِن الظُهرِ قدرَ « ألَم تنزيلُ السَّجْدِةِ » .

وَحرزنَا قيامَه في الأخريينِ قدرَ النصفِ من ذلكَ وحزرنَا قيامَه في الركعتينِ الاوْلَيَينِ من العَصْرِ على النصفِ مِنْ ذلك .

وفي روايةٍ بَدَلَ قولِه تنزيلُ السجدةِ قدرَ ثلاثينَ آيةً ، وفي الأُخْرَيَيْنِ

قدرَ خمْسَةَ عَشَرَ آيةً وفي العَصْرِ في الركعتينِ الأُوْلَيَيْنِ في كُلِّ رَكْعةٍ قَدَر خَمسةَ عَشرةَ وفي الأُخْرِيَينِ قَدَر نِصفِ ذَلكَ .

وَفي سُنن النَسائي عَن البَراءِ قَالَ كَانَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم يُصَلي بنا الظهرَ فنَسْمَعُ مِنهُ الآيةَ مِن سُورةِ لُقمَانَ وَالذاريَاتِ وَقالَ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم أنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ وَقِصرَ خُطبتِهِ مَئِنَّة مِن فِقْهِهِ فأطِيلُوا الصَّلاةَ واقْصرُوا الخطبة . وَعَنَ ابنِ مَسْعودٍ رَضيَ اللهُ عنهُ أنهُ قَالَ انكم في زَمَانٍ الصَّلاةُ فيهِ طَويْلَةٌ والخطبة فِيْهِ قَصِيرَةٌ وعُلمَـاؤُه كثيرٌ وَخُطباؤُه قليلٌ وسَيأتِي عَلى النَّاسِ زَمَانٌ الصلاةُ فيهِ قصيرةٌ والخُطبةُ فيه طَويلةٌ .

وَأخرَجَ البُخاري وَأبوُ دَاودَ والترمِذي مِن حَديثِ زَيدِ بنِ ثابتٍ أن النبي صَلى اللهُ عليهِ وَسلمَ قرأ في المغربِ بُطُوْلَى الطُولَيَيْن .

زادَ أبو داودَ قلتُ ومَا طُوْلَى الطُوليين قَالَ الأَعْرَافُ قالَ الحَافظُ في الفتحِ إنهُ حَصلَ الاتفاقُ على تفسيرِ الطُّولَى بالاعرافِ .

وَعن سَعيدِ بن جُبيرٍ عن أنسٍ قالَ ما صَلَيتُ وَراءَ أحدٍ بعدَ رسولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ أشْبَهَ صَلاةً برسولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم مِن هَذا الفتَى يَعني عُمَرَ بن عَبْدِ العزيزِ ، قالَ فَحَزرنَا في رُكوعِهِ عَشْرَ تَسْبيحاتٍ ، وفي سُجُودِهِ عَشَرْ تسبيحَاتٍ رَوَاهُ أَحْمَدُ وأبو داودَ والنَسائِي .

وَعَن ابنِ عَباسٍ عَن النبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم كَانَ إذَا رَفَعَ رأسَه من الركوعِ قالَ اللهمَّ رَبنا لكَ الحُمدُ ملءَ السمواتِ وَملءَ الارضِ ، وَملءَ ما بينَهُما وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعدُ أهلَ الثناءِ والمجدِ ، لا مانعَ

لما أعْطَيتَ ولا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذَا الجدِ منكَ الجَدُّ ، رواهُ مُسلمٌ والنسَائِي .

وَرواهُ من حَديثِ ابنِ أبي أوفيَ وزادَ فيهِ بعدَ قولِهِ منْ شَيءٍ بَعْدُ اللهمَ طَهرنِي بالثلجِ والبردِ والماءِ اللهمَ طهرنِي مِنْ الذنوبِ وَالخَطايا كمَا يُنَقى الثَّوْبُ الأبيضُ مِن الدَّنسِ .

اللهمَّ انا نسألكَ العافية في الدُّنيا والآخرَةِ اللهُمَّ انَّا نَسْأَلُكَ العَفَو والعَافيةَ في دِينِنَا ودُنيانَا وآخِرَتَنا وَأَهِلِنَا وَمَالِنَا اللهمَّ اسْتُر عَوراتِنا وَأمِنِ روعاتِنا واحْفَظنا مِن بين أيدينا ومِن خَلفنا وَعن أيمانِنَا وعن شَمائِلنا ومن فَوقِنا ونَعُوذ بعَظمتِكَ أن نُغتَالَ من تَحتِنا واغفِرْ لنا وَلِوَالِـدَيْنَا ولجميعِ المسلمينَ برحمتِك يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على مُحمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ أجْمَعينَ .

(فَصْـلٌ)

وَفي المسندِ من حديثِ أبي قَتادةَ قالَ قَالَ رسولُ الله صَلى اللهُ عليهِ وسَلم أسْوَأُ الناسِ سَرقةً الذي يَسْرِقُ مِن صَلاتِهِ قالوا يَا رسولَ اللهِ كيفَ يَسرِقُ صَلاتَه قال لا يُتمُّ رُكوعَها ولا سُجُودَها ، أو قَالَ لا يُقيمُ صُلْبَهُ في الركوعِ والسجودِ فصَرَّحَ بأنهُ أسْوَأُ حَالاً مِن سَارِقِ الأمْوالِ .

وَفي المُسْنَدِ من حَديثِ سالمٍ عـن أبي الجَعْدِ عن سَلمَانَ هُو الفَارسِي قَالَ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلم الصَّلاةُ مكيالٌ فمَن وَفىَّ وُفيِّ له وَمن طَفَّفَ فقدْ علمتُم مَا قالَ اللهُ في المُطَفِّفِينَ .

وقالَ ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ : والايجازُ هو الذي كانَ يَفعَلُهُ صَلى

اللهُ عليهِ وَسَلمَ لَا الْإِيجازُ الذي كان يَظَتنهُ مَنْ لَم يَقِفْ عَلى مِقْدارِ صَلاتِهِ فإِنَّ الايجَازَ أَمرٌ نِسبِيّ إضَافِي راجِعٌ إلى السُّنَّةِ لا إلى شَهوةِ الامَامِ وَمَنْ خلفَهُ .

فَلمَّا كانَ يقرأُ في الفَجْرِ بالسِّتينَ إلى الْمَائِةَ كَان هَذا الايجَازُ بِالنِّسْبَةِ إلى سِتِّمائةٍ إلى ألفٍ ولَمَّا قرأ في المغربِ بالأعْرَافِ كان هَذا الايجازُ بالنسبةِ إلى البَقرةِ .

وَيَدُلُّ عَلى هَذا أنَّ أنساً نَفسَه قالَ في الحديثِ الذي رَواهُ أبو داودَ والنسائِي مِن حديثِ عَبدِ اللهِ بن ابراهيمَ بن كَيْسَانَ حَدثني أبِيْ عَن وَهَبِ بن مَأْنُوس سَمعتُ سَعيدَ بِن جُبيرٍ يَقُولُ سَمِعتُ أنسَ بن مالكٍ يقولُ ما صَليتُ وراءَ أحدٍ بَعدَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلمَّ أشبهَ صلاةً برسولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليَةِ وَسَلمَ من هَذَا الفتى يِعنِي عُمرَ بنَ عَبدِ العَزيزِ فَحَزَرْنَا في رُكوعِه عشرَ تسبيحاتٍ وفي سُجودِهِ عَشرَ تَسبِيحَاتٍ .

وأنسٌ أيضاً هوَ القائلُ في الحَديثِ المتفقِ عليهِ اني لا آلُو أن أُصَلى بكمُ كمَا كانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَليهِ وسلمَ يُصَلِّي بِنَا .

قالَ ثابتٌ : كانَ أَنسٌ يصنعُ شيئاً لا أراكُم تَصْنَعُونَهُ كَانَ إذَا رفعَ رأسَه مِن الركوعِ انتصبَ قائماً حَتى يقولَ القائلُ قد نَسِيَ .

وإذَا رفَع رأسَه مِن السجدةِ مَكَثَ حتى يقولَ القائلُ قد نَسِيَ .

وَانسٌ هُوَ القائلُ هذَا وهُوَ القائلُ ما صليتُ وراءَ امام أَخفَّ صلاةً ولا أتمَّ صلاةً مِن النبي صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ وحديثُه لا يَكَذِّبُ بعضُه بَعْضاً .

وَمِمَّا يُبينُ ما ذكَرنَاهُ ما رَواهُ أبو دَاودَ في سُننهِ من حَديثِ حَمادِ بن سَلمةَ أخبرَنا ثابتُ وحُميدُ عن أَنسٍ بن مالكٍ قال ما صَليتُ خلفَ رجلٍ أوجَز صَلاةً مِن رسولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ في تَمَامٍ .

وَكَانَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ إذا قَالَ سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَهُ ، قامَ حتى نقولَ قدْ أَوْهِمَ فجمعَ أَنَسٌ رضْيَ اللهُ عنهُ في هَذا الحَديثِ الصَّحيح بينَ الاخبارِ بايجازِه صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ الصلاةَ واتْمَامِها وَبَيَّنَ فِيهِ أن من اتمَامِهَا الذي أخبرَ به اطَالةُ الاعتدَالينِ حَتى يَظنَّ الظانُّ أنهُ قد أَوْهَمَ أو نَسِيَ مِن شِدَّةِ الطُّولِ .

وَفي الصَّحِيْحَينِ عَن البراءِ بن عازبٍ قالَ رَمَقْتُ الصَّلاةَ معَ مُحمدٍ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ فوَجَدْتُ قِيامَه فرَكْعته فاعْتِدَالَه بعدَ الركوعِ فسجدَتَه فجلسَتَه بين السَّجدتينِ ، فَسَجدَتَهُ ، فجَلْسَتَهُ مَا بينَ التَسليمِ والانْصِرَافِ قريباً مِن السَّواءِ .

الَّهُمَّ ارْحَمْنَا اذا عَرِقَ الجَبينُ وكَثُرَ الانينُ وأَيِسَ مِنَّا القَريبُ والطبيبُ وَبكى عَلينَا الصديقُ والحبيبُ وَارحمنَا يا مَولاَنَا اذا وَارانَا الترابُ ووَدَّعَنا الاحْبابُ وفارَقْنَا النعيمَ وانقطَع عنا النَّسْيِمُ واغفِرْ لنا ولوالدَيْنا ولجميعِ المسلمينَ برحَمتِكَ الواسِعَةِ يا أرحمَ الراحِمْينَ وَصَلى اللهُ على محَمدٍ وَعلى آلهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعينَ .

(فَصْلٌ)

وَقَالَ رحمهُ اللهُ بَعْدَ أن ذَكرَ المُسْرِعينَ فيها الذِيْنَ يَمُرُّونَ فِيْهَا مَرَّ

السهمِ : وَهَذا كُله تلاعُبٌ بالصَّلاةِ ، وتَعْطِيْلٌ لها وخِدَاعٌ مِن الشيطانِ وخلافٌ لأمرِ اللهِ ورسولِه صلى اللهُ عليهِ وسَلم حَيثُ قالَ تعالى ﴿ أَقِيْمُوا الصلاةَ ﴾ فأمَرَنَا باقامَتِهَا وهُوَ الاتيانُ بها قائِمَةً تامةَ القيامِ والركـوعِ والسُّجودِ والاذكَارِ .

وَقدْ عَلَّقَ سُبحانَهُ الفَلاحَ بخُشُوعِ المصَلِّي في صَلاتِه فَمَنْ فَاتَهُ خُشُوعُ الصلاةِ لَمْ يَكُنْ من أهلِ الفلاحِ ويَسْتَحيلُ حُصُوْلُ الخُشوعِ مَعَ العَجلَةِ والنَّقرِ قَطْعاً بل لا يَحْصُلُ الخُشُوْعُ إلا مَعَ الطُّمَأنينةِ وَكُلَّما زادَتْ الطمأنينةُ ازدَاد خُشُوعاً وكُلمَا قلَّ خُشوعُه اشتدَتْ عَجَلَتُه حتى تَصيْرَ حَرَكَةُ يديهِ بمَنْزِلَةِ العَبَث الذي لا يَصْحَبُه خُشوعٌ ولا إقبالٌ على العُبُوديةِ ولا معرفةُ حَقيقةِ العبوديةِ .

وَاللهُ سُبحانَه قد قالَ ﴿ أقيمُوا الصلاةَ ﴾ وقَالَ ﴿ الذِيْنَ يُقيمونَ الصلاةَ ﴾ وقالَ ﴿ والمقيمِ الصلاةِ ﴾ وقالَ ابراهيمُ عليهِ السلامُ « ربِّ اجعلنِي مقيمَ الصلاةِ » ، وقالَ لِمُوسَى ﴿ فاعْبُدْنِي وأقِمْ الصلاةَ لِذكْرِي ﴾ فلنَ تْكادُ تَجدُ ذِكْرَ الصلاةِ في مَوْضُوعٍ مِنْ التنزيلِ الا مقروناً باقامَتِهَا .

فَالمُصَلُونَ في الناسِ قَليلٌ ومُقيمُ الصلاةِ منهُمْ أقَلُّ القليلِ ، كَمَا قالَ عُمَرُ رضيَ اللهُ عنهُ الحاجُّ قليلٌ والرَّاكِبُ كَثْيرٌ ، فالعَاملونَ يَعملونَ الأعمـالِ المأمُورِ بهَا على التَّرويْجِ تَحِلّهَ القَسَمِ ويَقولونَ يكْفينا أدنَى ما يقعُ عليهِ الأَسمُ ولَيْتَنا نأتيْ به .

ولو عَلِمَ هَؤلاءِ أنّ الملائكةَ تَصْعدُ بصلاتهمْ فتَعرضُها على الرّبِّ جلّ وعلاَ بمنْزِلةِ الهَدايَا التّي يتقرَّبُ بها النّاسُ إلى مُلوكِهمْ وكُبرائِهم ، فليسَ مَنْ عَمِدَ إلى أفْضلِ ما يَقْدرُ عليهِ فيُزَيّنه ، ويُحسّنهُ ، ما استطاعَ ثم

يَتَقَرَّبُ به إلى مَن يَرجُوْهُ ، ويَخَافُه ، كَمَنْ يَعْمِدُ إلى أَسْقَطِ مَا عِنْدهُ ، وَأهونِهِ عليهِ فَلْيَسْتَرِيح مِنه ، وَيَبْعَثِه إلى مَن لا يَقَعُ عندَهُ بمَوْقِع .

وليسَ مَن كانَتْ صلاَتُه رَبيْعاً لِقَلْبِهِ ، وَحَيَاةً لَهُ ، وَرَاحَةً وقُرَّةً لِعَيْنِهِ وجَلاَءً لِحُزْنِهِ وذَهاباً لِهَمِّه ، وغَمِّهِ ومَفْزَعاً لَهُ في نوائِبِهِ ، ونوازِلِه ، كَمَن هِيَ سِجْنٌ لِقَلْبِهِ ، وَقَيْدٌ لِجوَارِحِهِ ، وتكْلِيْفٌ لَهُ ، وثقلٌ عَلَيه ، فهِيَ كَبِيْرَةٌ علىَ هَذَا وقُرَّةُ عَينٍ ورَاحَةٌ لِذلِكَ .

وقال تعالى ﴿ واستَعِينُوا بالصبرِ والصلاةِ وإنهـا لكبيرةٌ إلَّا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون ﴾ فإنَّما كَبُرَتْ على غيرِ هؤلاءِ لِخُلُو قُلُوبِهم مِن مَحَبَّةِ اللهِ تعالى وتَكْبِيْرِهِ وتَعْظِيمِهِ والخُشُوعِ لَهُ وقِلَةِ رَغبَتِهِمْ فيه فانَّ حُضُوْرَ العَبْدِ في الصَلاَةِ وخُشُوْعَهُ فِيهَا وتَكْمِيْلُهُ لَهَا واستِفْرَاغُهُ وُسْعَهُ في إقَامَتِهَا واتْمَامِهَا عَلَى قَدْرِ رَغْبَتِهِ في اللَّهِ .

قال الامامُ أحمدُ في رواية مُهَنَّا بنِ يَحْيَى ، إنَّمَا حَـظُّهُمْ مِن الاسلامِ على قدرِ حظهمِ مِن الصلاةِ ورغَبتِهم في الاسلامِ على قدر رغبتِهم في الصلاةِ فاعْرَفْ نَفْسَكَ يا عَبدَ اللهِ واحْذَرْ أنْ تَلْقَى اللهَ عزَّ وجلَّ ولا قَدْرَ لِلإِسْلامِ عندَكَ فإن قَدْرَ الاسلامِ في قَلْبِكَ كَقَدْرِ الصلاةِ في قَلْبِكَ .

اللهم ارحمنا إذا نُسِيَ اسْمُنَا وانْدَرَس ذِكْرُنَا ولَمَ يَزُرْنَا زَائِرٌ ، اللهم ارحمنا يومَ تُبْلَى السَّرائِر وتَفْنَى الضمائِر وتُنْشَرُ الدَواوِينُ وتُنصبُ الموازِينُ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى

الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصــلٌ)

يُسَنُّ ذِكْرُ اللهِ والدُّعاء والاسْتغْفَارُ عَقبَ الصلاةِ المكتوبةِ كما وَرَدَ في الاخبار فيقولُ استغفرُ اللهَ ثلاثَ مراتٍ ويقول اللهم أَنْتَ السلامُ ومنكَ السلامُ تَبارَكْتَ ياذَا الجلالِ والاكرامِ كما وَرَدَ عن ثوبانَ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلَم اذا انصرفَ مِن صَلاتِهِ اسْتَغْفَر ثلاثاً وقال اللهم أَنْتَ السلامُ ومنكَ السلامُ تباركْتَ ياذَا الجلالِ والاكرامِ . رواه الجماعة الا البخاري .

ومِمَّا وَرَدَ مِن الذِّكْرِ : ما رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بن الزُّبَيْرِ أنه كان يقول في دُبُرِ كلِ صلاةٍ حينَ يُسَلِّمُ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ . له المَلكُ وله الحَمدُ وهو على كل شيء قدير ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العلي العظيمِ ولا نَعبُدُ إلا ايَّاهُ له النِعْمَةُ ولَهُ الفضلُ ولَهُ الثناءُ الحَسَنُ لا الهَ الا اللهُ مخلصينَ لَهُ الدينَ ولو كره الكافرون : قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كلِ صلاةٍ . رواه أحمد ومسلم .

ومِمَّا وَرَدَ مَا رَوَى المغيرةُ بنُ شُعْبَةَ أن النبي صلى الله عليه وسلم كَان يقولُ في دُبُرِ كُلِ صلاةٍ مَكْتُوب لا إله إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له لَهُ الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِ شيءٍ قَدِير :اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذا الجدِ منكَ الجَدُ مُتَّفَقٌ عليه .

ويُسَبّحُ ثلاثاً وثَلاَثِيْنَ ، ويَحْمَدُ ثلاثاً وثلاثينَ ، ويُكَبِرُ ثلاثاً وثلاثين لما في الصحَيحينِ من رواية أبي صالح السَّمَّان عَن ابي هريرة مرفوعاً

تَسَبِحُونَ وتَحْمَدُوْنَ وتكِبَرُوْنَ دُبُرَ كل صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ وتمامُ المائَةِ ـ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ . له الملكُ وَلَهُ الحَمْدُ وهو على كل شيءٍ قَدِيْر ، وَيَعْقِدُهُ بيدِهِ وَيَعْقِدُ الاستغفارَ بيدِه » أيَ يَضْبِطُ عَدَدهُ بأصَابِعِهِ .

وعن عبدِ الله بن عمرَ قال : قال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم خَصْلَتانِ لا يُحْصِيْهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إلا دَخَلَ الجنةَ وهما يَسِيْرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهمَا قَليلٌ يُسَبحُ اللهَ في دُبُرِ كل صَلاةٍ عَشْراً ويُكَبِرُهُ عَشْراً ويَحْمَدُهُ عَشْراً قال فَرَأَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم يَعْقِدُها بِيَدِهِ فَتِلْكَ خَمْسُوْنَ ومائَةٌ باللِّسَانِ وألفٌ وخَمْسُمائَةٍ في المِيْزانِ واذا آوَى إلى فِراشِهِ سَبَّحَ وحَمِدَ وَكَبَّرَ مائةَ مَرَّةٍ فَتِلْكَ مِائةٌ باللّسَانِ وألفٌ بالمِيْزَانِ رواه الخمسة وصححه الترمذي .

وعن سعد بن أبي وقَّاصٍ أنه كان يُعَلِّمُ بَنِيْه هَؤلاء الكَلِمَاتِ ويقولُ إنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَم كان يَتَعَوَّذُ بِهنَّ دُبُرَ الصلاةِ اللهم إنِّي أعُوذُ بِكَ مِن البُخلِ وأعُوذُ بِكَ مِن الجُبْنِ وأعَوذُ بِكَ مِن عذاب القَبْرِ . روَاه البخاري والترمذِي وصححه .

وعن أمّ سَلمَةِ أن النبيَّ صَلَى اللهَ عَليْهِ وسلم كَانَ يقولُ إذا صَلَّى الصَبحَ حِينَ يُسَلِّمُ اللَّهم إنِي أسْألُكَ عِلْماً نَافِعاً ورزقاً طَيباً وعَملاً مُتقَبّلا رواه أحمد وابنَ ماجه .

وعن أبي أُمَامَةَ قال قِيْلَ يا رسولَ اللهِ أيُّ الدُعاء أسْمَعْ قال جَوفُ الليلِ الآخرِ ودُبُر الصلواتِ المكتوباتِ .

وعن عائشة قالَتْ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سلم لم يَقْعُدْ إلا مِقْدار مَا يقولُ اللهم أنتَ السلامُ ومنكَ السلامُ تباركتَ يا ذا

الجَلالِ والاكرامِ رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه .

وعن أبي هريرة عن رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال مَن سَبَّح دُبُرَ كلِ صَلاةٍ ثلاثا وثلاثينٍ وحَمِدَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ وكَبَّرَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ فتلْكَ تَسْعةً وتِسْعُون وقال تَمَام المائةِ لا إله إلا اللهُ وحَدَهُ لا شريكَ لَهُ لَهُ المِلكُ وله الحمدُ وهو على كلِ شيءٍ قدير غُفِرَتْ خطاياهُ ولو كانَتْ مِثل زبدِ البحرِ رواه مسلم .

وفي رواية أخرى أن التكبيرَ أربعةٌ وثلاثون . .

وعن معاذِ بن جبلٍ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أوْصيْكَ يا معَاذُ لا تدعَنَّ دُبُرَ كُلِ صَلاةٍ أن تقولَ اللهم أعِنِّيْ على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادَتِكَ رواه أحمد وأبو داود والنسائي بسند قوى .

وعن أبي أمامةَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن قَرأ آيةَ الكُرْسي دُبُرَ كُلِ صلاةٍ مَكْتُوبةٍ لم يَمْنَعْهُ مِن دخولِ الجنةِ الا الموتُ . رواه النسائي وصححه ابن حبان وزاد فيـه الطبراني وقل هو الله أحد .

وعنه قال ما دَنُوتُ من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في دُبُرِ مكتوبةٍ ولا تَطُوعٍ إلا سَمِعْتُهُ يقولُ اللهم اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وخَطايَايَ كُلَّها اللَّهم انْعشْنِي وَأَجْبُرْنِي واهدنِي لصالحِ الأعمال والاخلاقِ إنَّه لا يَهْدِي لِصَالِحَها ولا يصرفُ سيئَها إلا أنْتَ .

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِي أنَّ النبيَ صلى اللهُ عليه وسلم كان اذا فَرَغَ مِن صَلاتِهِ لا أدْرِي قَبْلَ أن يُسَلِّمَ أوْ بَعْدَ أنْ يُسَلِم يقولُ سُبحانَ ربِكَ رَبَّ العِزَّةِ عَما يَصِفوُنَ وَسَلامٌ على المرسلين والحمدُ للهِ ربِ العالمين .

وعن أنس قَال كان النبي صلى الله عليه وسلم يقولُ إذَا انْصَرفَ مِن الصلاةِ اللهم اجْعَلْ خَيْرَ عُمُرِي آخِرَهُ وخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ واجْعَلْ خَيْرَ أَيَّامِي يَومَ ألقَاك .

وعن أبي بكرٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقولُ في دُبُرِ الصلاةِ اللهم إني أعوذُ بِكَ مِن الكفرِ والفقرِ وعَذَابِ القَبْرِ ، وعن أنسِ بن مالكٍ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلمَ مَن صَلَّى الغداةَ في جَمَاعةٍ ثم قَعَدَ يَذكُرُ اللهَ حتَّى تَطْلعُ الشمسُ ثم صَلَّى رَكْعَتَيْن كانَتْ له كأجْرِ حَجَّةٍ وعَمْرَة ، قالَ قَالَ رَسولُ اللَّه صلّى الله عليه وسلّم تَامّةً تَامّةً تامّةً .

وعن أبي ذرّ رضْيَ الله عنهُ أنّ رَسولَ الله صلّى الله عليه وسلمَ قال مَنْ قال في دُبُرِ صَلاةِ الصُّبحِ وهوَ ثانٍ رْجليهِ قَبل أنْ يتكلّمُ لا إله إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهَ لهُ الملكُ ولهُ الحمْدُ يُحيي ويُميت وهوَ على كلِّ شيءٍ قَدير عَشْرَ مرّاتٍ كُتِبَ له عَشرُ حسناتٍ ومُحِيَ عنهُ عَشرُ سَيئاتٍ ورُفِعَ لهُ عَشْرُ دَرَجاتٍ وكانَ يَومَه ذَلِـكَ في حِرْزٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُوْهٍ وحُرِسَ مِنَ الشِّركَ بالله تَعالَى قالَ التّرمذيُّ هذا حديثٌ حَسَنٌ وفي بَعْضِ النُّسخ صَحيْحٌ .

وعن الحَارثِ بنِ مسلم التَّميميِّ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ قالَ لي النّبيُّ صلّى الله عليهِ وسلمَ اذا صَلّيتَ الصُّبحَ فَقُلْ قَبْلَ أنْ تَتكلّمَ الّهُمَ أجرْني مِن النّارِ سَبْعَ مرّاتٍ فإنّكَ إنْ مُتَّ مِنْ يَوْمِكَ كَتَبَ اللهُ لكَ جِوَاراً مِن النَّارِ وإذا صَلّيتَ المغربَ فقُلْ قَبْلَ أنْ تتكلّمَ اللهُمّ أجِرْني مِن النارِ سَبْعَ مرّاتٍ فانّكَ ان مُتّ منْ ليلتكَ كَتَبَ الله لكَ جِوَاراً مِن النَّارِ رواه النسائيُ وهذا

لفظهُ وأبو دَاودَ .

وعن أبي أيّوبَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم قالَ من قَالَ اذا أصبَحَ لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شريك لهُ لهُ الملكُ وله الحَمْدُ وهُوَ على كلِّ شيءٍ قدير عَشْرَ مرّاتٍ كَتَبَ اللهَ لهُ بِهنَّ عَشْرَ حَسَناتٍ وَمَحا بِهنَّ عَشَرَ سيئآتٍ وَرَفَعَ لَهُ بِهِنَّ عَشْرَ دَرَجَاتٍ وَكُنَّ لَهُ عِدْلَ عِتَاقَةِ أربَعِ رِقَابٍ وَكُنَّ له حَرَساً حتى يُمْسيْ وَمَن قالهُنَّ إذا صلّى المغربَ دُبْرَ صَلاتِهِ فَمِثْلُ ذلكَ حتّى يُصبحَ . رواه أحمدُ والنّسَائيُ وابنُ حِبّانَ في صَحيحِهِ وهذا لفْظهُ .

وعن أبي أُمَامَة رضيَ اللهُ عنه قَال قَال رسولُ اللّه صلَّى اللّه عليه وسلمَ مَن قال دَبُرَ صَلاةِ الغَداةِ لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شَريكَ لهُ لَهُ الملكُ وَلَهُ الحمدُ يُحيي وَيُميتُ بيدهِ الخيرُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرِ مائة مرّةٍ قَبْلَ أن يَثْنَى رِجْليهِ كانَ يومئذٍ مِن أفْضلِ أهْلِ الأرضِ عَملاً إلا مَنْ قَالَ مِثْلَ ما قَال أو زَادَ عَلَى مَا قَالَ رواه الطّبَرانيُ في الأوسطِ باسنادٍ جيِّدٍ .

وَرُوِيَ عن معاذِ بنِ جَبلٍ رَضِيَ الله عنهُ قال سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليهِ وسلمَ يقولُ مَن قال بعدَ صَلاةِ الفَجْرِ ثَلَاثَ مرّاتٍ وبعدَ العَصْرِ ثلاثَ مرّاتٍ استغفر اللّهَ الّذِي لَا إلَهَ إلا هُوَ الحيُّ القيُّومُ وأتوُبُ إليهِ كُفّرتْ عنه ذُنوبُه وإنْ كانتْ مِثْلَ زَبدِ البحْرِ . رواه ابنُ السُّنِي في كتابِهِ وفي مُسندِ الامامِ أحمـد وَسُنَنِ بنِ ماجة وكِتابِ ابن السُّنِيّ عن أمِّ سَلمةَ رَضِيَ اللهُ عنها قَالتْ كانَ رَسولُ اللهِ صلى اللّه عليهِ وسلّم إذا صَلّى الصُّبحَ قال اللهمَّ إني أسْألكَ عِلْماً نافِعاً وَعَملاً مُتقبَّلاً وَرِزْقاً طَيّباً .

وعن صهيْبٍ رضيَ الله عنه أَنَّ رسولَ اللّه صلّى اللّهَ عليْهِ وسلم

كانَ يُحركُ شَفَتيهِ بعد صلاةِ الفَجْرِ بِشَيءٍ فقلتُ يا رَسولَ الله ما هَذا الذي تَقولُ قالَ اللهُمَّ بِكَ أُحَاوِلُ وَبِكَ أُصَاوِلُ وَبِكَ أُقاتِلُ وَيُسْتَحَبُّ الجهرُ بالتسْبيحِ والتَّهْلِيْلِ والتّحْمِيْدِ والتّكبيرِ لِقَول ابنِ عبّاسٍ كُنْتُ أعْلَمُ إذا انصَرفُوا بذلكَ إذا سَمِعْتُهُ وفي رِوَايةٍ كُنْتُ أعْرفُ انْقِضَاءَ صلاةِ النَّبي صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ بالتّكبير متفق عليه .

اللهمّ قَوِي إيْمانَنَا بكَ وبملائِكتكَ وبرسُلكَ وباليومِ الآخرِ وبالقَدَر خيرِه وشرّهِ اللهمّ الهمْنَا ذِكركَ وشُكرِك ووفقنَا لِطَاعَتِكَ وامتثالِ أمرِكَ واجعلنَا مِن عِبادكَ المفلحينَ الّذين لا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يَحْزنونَ واغفرْ لنا ولوالِدينَا ولجميعِ المسلمينَ برحْمتك يا أرحمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آله وصحبهِ أجمعينَ .

(فصــل)

ومِنْ تَمامِ المُحافَظَةِ على الصّلاةِ حُسْنُ المُحافظةِ على الرَّواتِبِ والنّوافِلِ وَهَذه المُطْلقةُ فيها فَوائدُ كَثِيرةٌ منها تكفيرُ السّيئات وتكثيرُ الحَسَناتِ ورَفْعُ الدرجاتِ وَجَعلُ القُلوبِ مُتّصلةً باللّهِ مُعَظّمَةً لَه وأنها سَبَبٌ لِتَقْوِيَةِ الحَيَاءِ مِن اللهِ ومنها التّلَذُذُ بالمنَاجاةِ . . ومنها الحصولُ في منزلةِ المُبَاهَاةِ فِيْمَنْ أقيْمَ مِن الملائكةِ في تلكَ الحالاتِ . ومنها الشكرُ والنعمُ المتجددةُ والمَواهبُ المُتَعَدّدَةُ وَعِمَارَة لِلْقُلُوبِ التي خُلقَتْ لِذكرِ الله تعالى . ومنها حِفْظُ الزَّمَنِ عن ضَيَاعِهِ في غيرِ طَاعةِ اللهِ .

ومنها تكميلُ ما نقصَ مِن الفرائضِ ، كما وَرَدَ في الحديث مِن رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « ان أَوَّلَ ما يُحَاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ مِن عملِهِ صَلاتُهُ

فان صَلَحَتْ فقدْ أَفْلَحَ وأَنْجحَ وان فَسَدَتْ فقد خَابَ وَخَسِرَ فانْ انْتَقَصَ مِن فَرِيضَتِهِ شَيْئاً فإن الربَّ عَز وَجَل يقول : ﴿ أنظُروا هَلَ لِعَبْدِي مِن تَطَوُّعٍ فيُكَمِلُ بها ما نَقَصَ مِن الفَرِيْضَةِ ﴾ ثم يكون سَائرُ عَمَلِهِ على ذلكَ أخرجه الترمذي : وَمَنها مَحبَّةُ اللهِ لَهُ ، كما وَرَدَ في الحديث ولا يَزالُ عبدي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فاذا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعَ بِهِ وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلهُ التي يَمْشِي بها ولئن سَألني لاعطِيتَهُ ولئِنْ استعاذَنِي لأُعْيِذَنَّهُ رواه البخاري .

ومنها أنها سَبَبٌ لِتَسْهِيْل عُسْرِ المَوْقِفِ في الحَشْرِ وَتَخْفِيْفِ الحِسَابِ في دَارِ المآبِ لأنَّهُ يَكْثِرُ ثَوَابُهُ إِذا وَفقَهُ اللهُ لِلتَّقَرُبِ بالنوافِل ومنها نَضَارَةُ الوَجْهِ وَتَنْشِيْطِ الجَوَارِحِ ومنها أَنَّهَا تُوقِظُ الضَّمِيْرَ ومنها الاقْتِداءُ بالصالحينَ ومنهَا غَرْسُ الصِدْقِ والأمانَةِ في النُفُوسِ ومنهَا أنَّ النَّوافِلَ تُقَوّي شَجَرَةَ الإيمانِ وَتُنَمّي الإيمانَ ومنها السُّمُوُ إلى دَرَجَةِ الكَمَالِ ومنها أَنَّهُ إذا قَطَعه عنها مَرَضٌ أو سَفَرٌ كُتِبَتْ لَهُ كامِلةً كما في حديث أبي مُوسَى الأَشْعري رَضِيَ اللهُ عَنهُ اذا مَرِضَ العَبْدُ أو سَافَرَ كُتِبَ له ما كان يَعْمَلُ صَحِيْحاً مُقِيْماً رواه البخاري .

ومنها مَحَبَّةُ أَهْلِ السَّمَاء لِمَنْ أَحَبَّهُ الله كما في حديث أبي هريرة أن الله تعالى : إذا أَحَبَّ عَبْداً دعا جِبْرِيْلَ فقال : إني أُحِبُ فلاناً فأَحِبَّه فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي في السَّمَاءِ فَيقولُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أهلُ السماءِ ثُمَّ يُوْضَعُ لهُ القَبُولُ في الأَرضِ ومنها اسْتِعْمَالُ نِعْمَةِ المُنْعِم في طاعتِهِ وهذا في غَايَةِ الحُسْنِ ولا يَخْفَى على عاقلٍ أَنْصَفَ مِن عَقْلِهِ ومنها مُخَالَفَةُ المنافقين الذينَ إذا قاموا إلى صلاةِ الفريضةِ قاموا كسالى

يُراؤ ون الناسَ ولا يذكرون اللهَ إلا قليلاً . ومنها القُرْبُ مِن اللهِ للحديث المتقدم ولِحَدِيثِ أَقَرَبُ ما يكون العَبْدُ مِن رَبِّهِ وهو سَاجِد . ومنها مُخَالَفَةُ المُشْرِكَينَ العَابِدِيْنَ لِمَنْ لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ وَلَا يُغْني شيئاً وأَنْتَ تعبدُ مَن يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَعْلَمُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وهو حَيٌّ لا يَمُوْتُ ومنها قِيامُ العبدِ بينَ يَدَيْ سَيِّدِه مَقَامَ المُتَضَرِعِ المتذَلِّلِ المسْكِين الضَّعِيْفِ واضعاً يَدَهُ اليُمْنَى على اليُسْرَى مُظْهِراً العَجْزَ والضَّعْفَ وأنه لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا باللهِ العلي العظيمِ .

اللهم إنَّك تَعْلَمُ صِدْقنَا في رَجَاءِ رِفْدِكَ وَخَالِص وِدِّكَ يا مَنْ عَمَّ الخلائقَ كرمُه وجودُهُ يا أَوَّلُ بلا بِدَايَةٍ ويا آخِرُ بلا نِهَايَةٍ يا وَاحدٌ لا شريكَ له نَسألكَ أن ترحمَ ضَعْفَنا وَتَغْفِرَ ذَنْبَنا وَتَرْأف بِنَا يَا رَؤُوْفُ يا رَحِيْم ولا تَحْرِمْنا لذَّةَ النظِر إلى وَجْهِكَ الكريمِ في جناتِ النعيمِ وصلى الله على محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجْمعين .

(فصــل)

وقال ابنُ القيمِ رحمه اللهُ وأما فوائدُ الصلاةِ فكثيرةٌ أوَّلاً إمتثالُ أَوَامِرِ اللهِ وَمُوَافَقَةُ اللهِ وَمُوَافَقَةُ مَلائِكَتِهِ وتكفيرُ السيئاتِ وزيادةُ الحسناتِ ورفعةُ الدرجاتِ .

ومنها أنها سَبَبٌ لإجَابَةِ الدُّعَاء وَلِشَفَاعَةِ النبي صلى الله عليه وسلم والقُربِ منهُ ولِكِفَايَةِ الهَمّ والغَمْ وَقضَاءِ الحَوَائِجِ وَسَبَبٌ لِصَلاةِ اللهِ على المُصَلِي وَصَلاةُ مَلائِكَتِهِ وَهِيَ زَكَاةٌ لِلْمُصَلِي وَطُهْرَةٌ لَهُ وَسَبَبٌ لِلْتَبْشِيْرِ بالجَنَّةِ والنَجَاةِ مِن النارِ وَسَبَبٌ لِرَدِّ النَّبي صلى اللهُ عليه وسلم السلام

وَلتَذْكِيْرِ العَبْدِ ما نَسِيَهُ وَلِطِيْبِ المَجْلِسِ وأَنْ لَا يَعُودَ عَلى أَهْلِهِ حَسْرَةً وَلِنَفْيِ الفقْرِ والبُخْلِ وَللنَّجَاةِ مِن نَتَن المَجْلِسِ الذي لا يُذْكَرُ اللهُ فيهِ وَلَا رَسولُه ولِتَمامِ الكلامِ وَبَرَكَتِهِ وَلِوُفُورِ نُورِ العَبْدِ على الصِراطِ وَلِلْخُرُوْجِ مِن الجَفَاء ولِإبْقَاءِ الثناءِ الحَسَن لِلْمُصلى عليه بين السماء والأرض وللْبَرَكَةِ في ذات المُصَلِي عُمَرِهِ وَعَمَلِهِ وأسبابِ مَصالحه وَلِنَيلِ رَحْمَةِ اللهِ وَلِدَوَامِ مَحبتِهِ صلى الله عليه وسلمَ وَزِيادَتِهَا وَتَضاعُفِهَا وَلِمَحبَّةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم وسَببٌ لِحَيَاةِ القَلْبِ وَهِدَايَتِهِ وَسَبَبُ عَرْضِ اسم المُصَلِي على النبي صلى الله عليه وسلم وسببُ لِتَثْبِيْتِ القَدَمَ على الصِرَاطِ والجَوَاز عليه وَمُتَضَمِّنَةٌ لِذِكْرِ اللهِ وَشكرِهِ وَمَعْرِفَةِ إِنْعَامِ اللهِ على عَبِيْدِهِ بإرسالِهِ ولِأَداءِ قَليلٍ مِن حَقِّهِ . وهي دعاءٌ مِن العبدِ وسؤالُـهُ نَوعَان :

أحدُهُما سؤال مَطَالِبِهِ وَمَا يَنْوِيْهْ .

والثاني : سؤالُهُ أَنْ يَثنِيَ على حبيبِهِ وخليلهِ وَيَزيدَ في تَشْرِيفِهِ وتكريمِهِ ورفْعِه ذكرَهُ ولا رَيبَ أنّ اللهَ يُحِبُ ذلكَ وَرَسُوْلُهُ يُحِبُّهُ فالمُصَلِّي قَدْ صَرَفَ سُؤَآله لِما يُحِبُهُ اللهُ وَرَسُوْلُهُ وآثَر ذلكَ على طَلبِ حَوائِجِهِ وَمَحابِّهِ هُو ، بَلْ كانَ هَذَا المَطْلُوبُ مِن أَحبِّ الأُمُورِ إِلَيْهِ والجَزَاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ فَمَنْ آثَرَ اللهَ على غَيرِه آثَرَهُ اللهُ عَلى غيرِهِ .

وَهَهُنَا نُكْتَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ عَلَّمَ أُمَّتَهُ دِيْنَهُ وَمَا جَاءَ بِهِ وَدَعَاهُمْ إليهِ وَصَبر على ذلِكَ وَهِيَ : أن النبيَّ صَلى الله عليه وسلم له مِن الأَجْرِ الزَّائِدِ على أَجْرِ أُمَّتِهِ مِثْلُ أُجورِ مَن تَبِعَهُ فالداعِي إلى سُنَّتِهِ وَدِيْنِهِ والمُعَلِّمُ الخَيْرِ لِلأُمَّةِ إذا قَصَدَ تَوْفِيرَ هذا الحَظ لِرَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وَصَرفَهُ إليهِ

وَكانَ مَقْصُوْدَهُ بدُعَاءِ الخلقِ إلى اللهِ التقرُّبَ إليهِ بارشادِ عبادِهِ وَتَوْفير أُجُوْرِ المُطيْعِينَ لَهُ على رسولِهِ مَعَ تَوْفِيَتِهِم أجُوْرَهُم كامِلة كان له مِن الأَجْرِ بدعوته وتعليمٍ بحَسَبِ هذِه النيةِ وذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيه مَن يشاء .

شــعراً :

إلَـى كَمْ تَـمَــادَى في غُــرُوْرٍ وَغَـفْلَةٍ
وَكَمْ هَكَــذا نــومٌ إلَـى غَيــرِ يَـقْـظَةِ
لَقَـدْ ضَاعَ عُمْرٌ سَـاعَـةٌ منه تُشْـترى
بمِــلءِ السَـمـا والأرضِ أَيَّــةَ ضَيْعَـةِ
أتَرْضَى مِن العَيْشِ الـرَّغِيْـدِ وَعِيْشَــةٍ
مَــعْ المـلأ الأَعْلَى بِعَيْش البَهِـيْمَــةِ
فَيَــادُرَّةً بَيْـنَ الـمَـزَابِـلِ أُلْـقِيَــتْ
وَجَــوْهَــرَةً بِـيْعَـتْ بــأَبْخسِ قِـيْـمَــةِ
أَفَــانٍ بِـبَـاقٍ تَشْـتَـرِيْـهِ سَــفَـاهَــةً
وَسُـخْـطاً بِــرِضْــوَانٍ ونــاراً بـجـنـةِ
أأَنْـتَ صَـدِيقٌ أَمْ عَـدوٌ لِـنَـفْـسِـهِ
فـإنَّــكَ تَـرْمِيْهَــا بِـكُـلِّ مُصِيْبَـةِ
ولـو فَعَـلَ الأَعْـدَا بِنَفْسِـكَ بَعْض مَـا
فَعَلْتَ لَـمَسَّتْهُـم لَهَــا بَعْضُ رَحْمَـةِ
لَقــد بِعْتَهـا هَــوْنـاً عَلَيْـكَ رَخيْصَــةً
وكَــانَتْ بِهَــذا مِنْـكَ غَيْـرَ حَقِيْـقَـةِ

كَلِفْتَ بـهـا دُنْيـا كَـثِيْـرٍ غُـرُوْرُهَـا
تُقَـابِلُنَا في نُصْحِهَـا في الخَـدِيْعَـةِ
عَلَيْكَ بمـا يُجْـدِي عَلَيْكَ مِن التُقَى
فـإنَّـكَ فـي سَهْـوٍ عَـظيـمٍ وَغَفْـلَةِ
تُـصَلِيْ بـلا قَـلْبٍ صَـلاةً بِـمِـثْـلِهَـا
يكُـونُ الفَتَى مُسْتَـوْجِبـاً لِلْعُـقُـوْبَـةِ
تُـخَـاطِـبُـهُ إيَّـاكَ نَـعْـبُـدُ مُـقْـبِـلاً
عَـلَى غَيْـرِهِ فَـيهَـا لِـغَـيْـرِ ضَـرُوْرَةِ
ولَـو ردَّ مَن نَـاجَـاكَ لِلغَيْـرِ طَـرْفَـهُ
تَـمَـيَّـزْتَ مِـن غـيظٍ عـليـهِ وَغَـيْـرَةِ
فـوَيلَكَ تَـدْرِي مَن تُـنـاجِيْهِ مَعْـرِضـاً
وبَيْنَ يَـدَي مَن تَنْحَنِي غَيْـرَ مُخْبِتِ
أيَـا عَـامِـلاً لِـلنَّـارِ جِسْـمُـكَ لَـيِّـنٌ
فَجَـرِّبْـهُ تَـمْـرِيْـنَـاً بِحَـرِّ الـظَّهِـيْـرَةِ
وَدَرِّبْـهُ في لَـسْـعِ الـزَّنَـابِيـرِ تَجْتَـرِي
عَـلَى نَهْشِ حَـيَّـاتٍ هُنَـاكَ عَـظِيْـمَـةِ
فـإنْ كُنْتَ لاَ تَقْـوَى فَـوَيْلَكَ مـا الـذي
دَعَـاكَ إلَـى اسْخَـاطِ رَبِّ الـبَـرِيَّـةِ
تُـبَـارِزُهُ بِـالـمُـنْـكَـراتِ عَـشِـيَّـةً
وَتُصْبِـحُ في أثْـوَابِ نُسْـكٍ وَعِـفَـةِ
تُـسِيءُ بِـه ظَـنـاً وَتُحِـسِنُ تـارةً
على حَسْبِ ما يَقْضِي الهوَى بالقَضِيَّةِ

فـأَنْتَ عليهِ أَجْـرَى منكَ عَلى الـوَرَى
بِمَـا فِيْـكَ مِن جَهْـلٍ وَخُبْثِ طَـوِيَّـةِ
تَقُـولُ مَـعَ العِصْيـانِ رَبـيَ غَـافـر
صَـدَقْتَ وَلَكِـنْ غَـافـرٌ بـالمَشِيْئَـةِ
وَرَبُّـكَ رَزَّاقٌ كَـمَـا هُـوَ غَـافِـرٌ
فَلِمَ لاَ تُصَـدِّقْ فِيْهِـمَـا بـالسَّـوِيَّـةِ
فَكَيْفَ تُـرَجِّي العَفْـوِ مِن غَيْـرِ تَـوْبَـةٍ
وَلَـسْتَ تُـرجِّي الـرِّزْقَ إلاَّ بـحِـيْـلَةِ
عـلى أَنَّـه بـالـرِّزْقِ كُفَّـلَ نَـفْـسَـهُ
وَلَـمْ يَـتَـكَـفَّـلْ لِـلأَنَـام بـجنَّـتِيْ
ومـا زِلْتَ تَسْعَى بـالـذي قَـدْ كُفِيَتَـهُ
وَتُـهمِـلَ مـا كُلِفتَـهُ مِـن وَظِـيْـفَـةِ
إِلٰهي أجِـرْنَـا مِنْ عَـظِيْمِ ذُنُـوبِـنَـا
ولا تُخْـزِنَـا وَانْـظُرْ إلينـا بِـرَحْـمَـةِ
وَخُـذْ بِنَـواصِيْنَـا إِلَيـكَ وَهَـبْ لَنـا
يَـقيـنـاً يَقِـيْـنَـا كُـلَّ شَـكٍ وَرِيْـبَـةِ
إِلٰهي اهْـدِنَا فِيْمَنْ هَـدَيْتَ وَخُـذْ بِنَـا
إِلى الحَقِّ نَهْجاً في سَـواءِ الـطَّرِيْقَـةِ
وكُنْ شُغْلَنـا عَن كُـلِ شُغْـلٍ وَهَمَّنـا
وَبُـغْـيَـتَـنَـا عـن كُـلِّ هَـمٍّ وَبُـغْـيَـةِ
وَصَـلِّ صَـلاةً لا تَنَـاهىٰ عَلى الـذي
جَـعَلْتَ بـهِ مِسْكـاً خِتَـامَ النُّبُـوَّةِ

اللهمّ توفنَا مُسلمين وأَلحقنَا بالصالحِينْ غير خَزايا ولا مَفتونينَ واغفرْ لنَا وَلِوالدَيْنَا ولِجميعِ المسلمينَ برحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينْ وصلّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينْ .

٣١ كتاب الزكاة

ويبحث في :

١ ـ الأموالِ التي تجب فيها الزكاة .
٢ ـ نِصابِ الزكاة .
٣ ـ مَصارفِ الزكاة .
٤ ـ تعريفِ أهلِ الزكاةِ وبيانِ مِقدارِ ما يعطاهُ كلُّ صِنْف .

١ ـ الأموال التي تجب فيها الزكاة :

إعْلَمْ ـ رَحِمَك الله ـ أن اللهَ سبحانَهُ وتَعالَى أَوْجَبَ على المؤمنين أصحابِ الأموالِ الزَّكويَّةِ زكاةً لِمن ذَكَرَهُمْ اللهُ في كتابِهِ ، وقَسَّمها بَيْنَهُم وَرَتَّبَ الثوابَ عَلَى أدائِها ، والعِقابَ على مَنْعِها ، وَقَرَنَها بالصلاةِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيْرَةٍ من كِتَابِهِ ، تَعْظِيْماً لِشَأنِهَا ، وتَنْبِيْهَاً بِذِكْرِها ، وحَثَّاً على أَدائِها لِتَطْهِيْرِ النفسِ مِن دَرَنِ الشُّحِ وَالبُخْلِ ، ودَفعِ النَّفْسِ إلى الجُودِ ، والتَصَدُّقِ والانفاقِ في مَراضِي اللهِ تعالى : لِتَحْصِيلِ النَماءِ والزيادةِ والبَركةِ والفَلاحِ والطَّهارَةِ ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِن أموالِهِم صدقةً تُطَهِّرُهُم وتزكِيهم بها ﴾ .

فالزكاةُ تُطَهِّرُ المُزَكِّي مِن أنجَاسِ الذُنُوبِ ، وَتُنَقِيْهِ مِن أَوْسَاخِها وتُزَكِيْ أَخْلاَقَه بالتَّحَلِّيْ بالجُودِ والسَّخاءِ وتُمَرِّنُهُ على السَّخاءِ الذي يُحِبُه

كلُّ بَرٍ وفاجرٍ وتُبْعِدُه عن الشُّحِّ الذي هو مَذمُومٌ عندَ كلِّ أحدٍ وتُطَهِّرُ القَلْبَ عن حُبِّ الدنيا ببذلِ اليَسيرِ. فاليَسِيْرُ هُوَ الواجِبُ وهوَ بذلُ القليل مِن الكثيرِ قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْأَلْكُم أمْوَالَكم . إنْ يَسْأَلْكُمُوها فيُحْفِكم تَبْخَلوا ويُخْرِجْ أضغانكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وتُحِبونَ المالَ حُباً جَمّا ﴾ وقال ﴿ إنه لِحُبِّ الخيرِ لَشَدِيْد ﴾ .

فالشارِعُ الحكيمُ اللطيفُ بعبادِهِ أَوْجَبَ شَيئاً يَسيْراً بعدَ مُدَّةٍ طَويْلَةٍ اذا اعتادَ الإنسانُ إخراجَهُ مِن المالِ المحبوبِ طَبْعاً امتثالاً لِأمْرِ اللهِ ورَسُولِهِ اسْتَفَادَ حُبَّ خالِقِهِ الذي رَزَقَهُ ايَّاهُ وَوَعَدَهُ أن يَخْلِفَ عليهِ مَا أنْفَقَهُ . قال تعالى : ﴿ وما أنفقتُم مِن شيءٍ فهو يُخْلِفُهُ وهو خيرُ الرازقين ﴾ وقال : ﴿ وانْفِقُوا مِمَّا رَزَقناكُم مِن قبلِ أن يَأتيَ أحدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لَولا أخرتني إلى أجَلٍ قَرِيْبٍ فَأَصَّدَقَ وأكُنْ مِنَ الصالحين ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَا مِنْ يَومٍ يُصْبِحُ العِبادُ فيه إلاّ وَمَلَكانِ يَنْزِلانِ فيقُولُ أحدُهُما اللَّهم أعطِ مُنْفِقاً خَلَفَا وَيقُولُ الآخرُ اللهمَ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفَاً) وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : ﴿ أَنْفِقْ يا بنَ آدَمَ يُنْفَقْ عليكَ ﴾ متفقٌ عليه .

إذا فَهِمْتَ ذلكَ فاعلَمْ أنَّ الزكاةَ هِيَ أحدُ أركانِ الإسلامِ ومَبانِيْهِ العِظَامِ المُشَارُ إليها بقوله صلى الله عليه وسلم « بُنِيَ الإسْلامُ على خَمْسٍ » ذَكَر منها إيتاءَ الزكاةِ . وَتَجِبُ الزكاة في خمسةِ أشياءَ :

١ ـ بهيمةِ الأنعامِ وهي الابلُ والبقرُ والغنمُ .

٢ ـ الخارجِ مِنْ الأرضِ وما في مَعْنَاهُ كالعَسَلِ الخَارِجِ مِن النحلِ .

٣ ـ عُرُوْضِ التجارةِ .

٤ ـ الأَثْمان .

٥ ـ الثِّمَارِ

ولا زكاةَ في شيءٍ مِن ذلكَ حَتَّى يَبْلَغَ نِصَاباً، ولا زكاةَ في مالٍ حَتَّى يَحُولَ عليهِ الحولُ ، إلَّا في الخارج مِنَ الأَرضِ لِقولِهِ تعالى : ﴿ وآتوا حَقَّه يومَ حَصَادِهِ ﴾ وإلَّا نِتَاجَ السَّائِمَةِ ، وَرِبْحَ التجارةِ فانَّ حَوْلَهُما حَوْلُ أَصْلِهِما إنْ كانَ نِصَاباً ، والا فابتدَاء الحولِ مِن حينِ كَمُلَ نِصَاباً .

وَمَنْ كَانَ عندَه مالٌ وعليه دَيْنٌ فإن كان بمقدار ما عنده فلا زكاةَ فيه ، فإن كان عندَه عشرةُ آلافٍ وعليه دينٌ عَشَرَةُ آلافٍ فأصْبَحَ مَا يَمْلِكُ شَيئاً وإنْ كَانَ عندَه عِشْرُوْنَ أَلفاً وعليه عَشَرَةُ زَكَّى عَشَرَةً وَانْ كَانَ عليهِ عشْرُوْنَ وعندَه عَشَرةٌ فَلَيْسَ عليهِ شَيءٌ ولَه الأَخذُ مِن الزكاةِ لأَنَّه مِن الفُقَراءِ ولأنه غارِمٌ .

وَيُضَمَّ المُسْتَفَادُ إلى نِصَابِ بيدِهِ مِن جِنسِهِ ، أو في حُكْمِهِ في وُجُوبِ الزكاةِ لا في الحَوْلِ ، فَيُزَكِّيْ كلَّ واحدٍ إذا تَمَّ حَوْلُهُ .

وتجبُ الزكاةُ فيما زادَ على النصابِ بحسَابِهِ إلَّا في السائِمةِ فلا زكاةَ في وَقْصِهَا لما رَوَى أبو عُبَيْدَةَ في غَرِيْبِهِ : (وليسَ في الأوقاصِ صدقةَ) ، وقال : « الوَقْصُ ما بَيْنَ الفَرْضَيْنِ » .

أَمَّا عُرُوْضُ التِّجَارَةِ ، فهو كُلُ ما أُعِدَّ لِلْبَيْعِ والشرَاءِ لأَجْلِ الرِّبْحِ

والتَّكَسُبِ مِن جَمِيْعِ السِّلَعِ التِّجَارِيَّةِ : كالمُجَوْهَرَاتِ وَالأَطعِمَةِ والأَقْمِشَةِ والسَّيَارَاتِ والمَكَائِنِ ، والثَّابِتَاتِ : كالعَقَاراتِ مِن أَرَاضٍ وبُيُوتٍ ونحوهَا ، إذا تَملَّكَهَا بِفِعْلِهِ بِنِيَّةِ التِّجارةِ وَبَلَغَتْ قِيْمَتُها نِصَاباً ، لِمَا وَرَدَ عن سَمُرَةَ بن جُنْدَبٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : إنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « أَمَرَنا نْ نُخْرِجَ الصَدَقَةَ مِمَّا نُعِدُّه لِلْبَيْعِ » رواه أبو داود .

فَتُقَوَّمُ العُرُوْضُ إذا حَالَ عَلَيها الحَوْلُ ، وَأَوَّلُهُ مِن حِيْنِ بُلُوغِ القِيْمَةِ نِصَاباً بالأَحَضِ لِلْفُقَراءِ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ ، ولَا يُعْتَبَرُ مَا اشْتُرِيَتْ بِهِ ، ويُخْرَجُ رُبُعُ عُشْرِ قِيْمَتِهَا . وَمَنْ استفادَ مالاً خارجاً عن ربحِ التجارَةِ كالأُجرةِ والرَاتبِ ونحوهما ، فانه يَبْتَدِي حَوْلاً مِن حينِ الاسْتِفَادَةِ ان كان نِصاباً ، والا فَمِنْ كَمَالِهِ وَيُزَكِّيْهِ إذا تَمَّ حَوْلُه .

وأما الأثمانُ ، وهِيَ النُقُودُ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ ، أو مَا يَقُومُ مَقَامَها مِن فُلُوسٍ أو أَوْراقٍ نَقْدِيَّةٍ ، وكذلكَ حُلِيُّ الذَّهَبِ والفضةِ إذا بَلَغَ نِصَاباً بِنَفْسِهِ ، أو بما يَضُم إليهِ من جِنْسِهِ أَوْ فِي حُكْمِهِ ولم يكن مُعَداً لِلاستعمالِ أو للإعَارَةِ ، فإن أُعِدَّ للإستِعمالِ أو للإعَارَةِ فلا زَكَاةَ فيه .

وأقلُ نِصَابِ الذَّهَبِ عِشْرُوْنَ مِثْقَالاً ، وفيها نِصْفُ مِثْقَالٍ وهو رُبعَ العُشْرِ ، لِحديثِ عائشةَ وابن عُمرَ ـ رضيَ اللهُ تعالى عنهما ـ مرفوعا : « أنه كانَ يَأْخذُ مِنْ كُلِ عِشْرِينَ مِثْقالاً نِصفَ مِثْقَال » رواه ابنُ ماجَه .

٢ ـ نِصَابُ الزكاة :

والنِّصَاب مِنَ الذّهب بِالجنيهِ السُعُودِيّ أَحَدَ عَشَرَ جُنَيْهاً وَنصفُ جُنَيهٍ تَقْرِيباً ، وكذلكَ بالجُنيهِ الإفرَنْجِي أَحَدَ عَشَرَ جُنَيْهاً وَنِصفُ جُنَيْهٍ

تَقْرِيباً وَأَقلُّ نِصابُ الفِضّةِ مَائَتَا دِرْهَمٍ ، وبالرِّيَالِ العَرَبِي سِتةٌ وَخَمْسُون رِيالاً تَقْرِيْباً ، وبالرِيالِ الفَرَنْسِي ثلاثةٌ وَعِشْرُوْنَ رِيَالاً تَقْرِيْباً .

وأما الأَوْرَاقُ المَوجُوْدَةُ فإذا مَلَكَ منها ما يُقَابِلُ نِصَاباً مِن الفِضةِ وَحَالَ عليهِ الحولُ فإنّه يُخْرِجُ منها رُبُعَ العُشْرِ .

وَمَنْ كان عِندَهُ فِضَّةَ وأَرَادَ أن يُخْرِجَ زكاتها مِن الأَوْرَاقِ المَوْجُوْدَةِ المُتَعَامَلِ فِيها نَظَرَ إلى قِيْمَةِ الفِضَةِ مِنَ الأَوْرَاقِ وأَخْرَجَ رُبُعَ عُشْرِ المُقَابِلِ لها فَمَثَلاً إذا كان عِنْدَهُ ألفُ ريالٍ مِن الفِضَّةِ يُسَاوِي ثَلاثة آلافٍ مِن الأَوْرَاقِ أخْرَجَ عَن الفِضَّةِ خَمْسَةً وسَبْعِيْنَ رِيالاً هي مُقابِلُ زَكاةِ الألْفِ مِن الفضةِ وهي خَمْسٌ وعِشرُون .

وإن كانَ عِنْدَهُ ذَهَبٌ ، وَأَرَادَ أن يُخْرِجَ زكاتَهُ مِن الأَوْرَاقِ المُتَعَامَلِ فِيها نَظَرَ إلى قيمةِ الذهَبِ مِن الأَوْرَاقِ وأخْرَجَ رُبُعَ عُشْرِ المُقَابِلِ لَهَا فَمَثَلاً إذا كان عندَهُ مائةُ جُنَيْهٍ وكَانَ الجُنَيْهُ يُساوِي خَمْسِيْنَ رِيالاً (٥٠) فَتكون المائَة في خمسةِ آلآفِ رِيَالِ فزكَاتُها مِن الأوْرَاقِ مائَة وخَمْسٌ وعِشْرُونَ رِيالاً هُوَ مُقَابِلُ زَكَاةِ مِائة الجُنَيْهِ وهو جُنَيْهَانِ ونِصْفُ جُنَيْهٍ مِن زَكاةِ المائةِ وهو جُنَيْهَانِ ونِصْفٌ .

وتَجِبُ الزكاةُ في مالِ الصَّبِيِّ والمَجْنُوْنِ لِعُمُومِ حَدِيثِ مُعَاذٍ لَمَّا بَعَثَهُ صلى اللهُ عليه وسلم إلَى اليَمَنِ ، ويُخْرِجُ عَنهما وَلِيُّهُما في مالِهِما مِن مالِهِما .

اللهم الهمنا ذكرَك ووفقنا لِلقيام بحقكَ ، وخلّصنا مِن حقوقِ خلقكَ ، وباركْ لنا في الحلالِ مِن رِزْقكَ ، ولا تَفْضَحْنا بينَ خَلقكَ ،

يا خَيْرَ مَنْ دَعاهُ دَاعٍ وأَفْضَلَ مَن رجاهُ راجٍ يا قَاضِيَ الحَاجَاتِ ، ومُجِيْبَ الدعواتِ ، هَبْ لنا ما سَألناهُ ، وحقق رَجَاءَنَا فيما تَمَنَيْنَاهُ ، يا مَنْ يَمْلِكُ حَوَائِجَ السائِلينَ ويَعلمُ ما في صُدُورِ الصَّامِتِينَ أذقنا بَرْدَ عَفْوِكَ وَحَلاَوَةَ مَغْفِرَتِكَ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأَحْيَاءِ منهم والمَيتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

٣ ـ وأَمَّا زَكاةُ الخَارِجِ مِن الأَرضِ فَتَجِبُ في كُلِّ مَكِيْلٍ مُدَّخَرٍ مِن الحَبِّ كالقَمْحِ والشَّعِيْرِ والذُرَةِ ومَن الثمرِ كالتَمْرِ والزَّبيبِ قال الله تعالى ﴿ يا أَيها الذين آمنوا أنفقوا مِن طَيباتِ ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ وقولُهُ صلى الله عليه وسلم (فِيْمَا سَقَتِ السَمَاءُ والعُيُونُ أو كان عَثِرياً العُشْرُ وفيما سُقِيَ بالنَّضْحِ نِصفُ العُشْرِ) رواه البخاري .

وإنما تَجِبُ فيه بِشَرْطَينِ الأولُ : أن يَبْلُغَ نِصاباً وقَدْرُهُ بَعْدَ تَصْفِيَةِ الحبِ وجَفَافِ الثمرِ خَمْسَةُ أوسُقٍ والوَسَقُ سِتُوْنَ صاعاً نَبوياً فتكونُ خَمْسَةُ الأَوسُقِ (٣٠٠) ثَلاَثمائةِ صَاعٍ بالصَّاعِ النَبَوِي وبالصَّاعِ الحَالِي مائَتَيْنِ وثَمَانِيَةٍ وعِشْرِيْنَ صاعاً وَوَزْنُ الصَّاعِ النبوي بالرِّيالِ الفَرَنْسِي ثَمانُونَ رِيَالاً (٨٠) وَوَزْنُ الصَّاعِ الحَالِي بالرِّيالِ الفَرَنْسِي مائَةٌ وَأَرْبَعَةٌ (١٠٤) فيكونُ زَائِداً على الصَّاعِ النَّبَوِي بخُمُسٍ وَخُمُسِ الخُمُسِ تَقْرِيْباً .

والشرط الثاني : أن يكون مالكاً لِلنِّصَابِ وَقْتَ وُجُوبِها فوَقْتُ الوُجُوبِ في الحَبِّ اذا اشْتَدَّ وفي الثَّمرِ إذا بَدَا صَلاحُها لأنه حِيْنَئِذٍ يُقْصَدُ

لِلأَكْلِ والإِقتيَاتِ به فأشْبَهَ اليَابِسَ وعن عائشَةَ أنَّ النبيَ صلى اللهُ عليه وسلمَ كان يَبْعَثُ عَبْدَ اللهِ بنَ رَوَاحَةَ إلى يَهُودَ فَيَخْرِصُ عليهم النَّخْلَ حِينَ يَطِيْبُ قَبْلَ أن يُؤكَلَ منه . رَواه أبو داود .

ويَجبُ فيما سُقِيَ بلا مَؤنَةٍ العُشْرُ وفيما سُقِيَ بكُلْفَة نِصفُ العُشُر لِحَديثِ ابنِ عمرَ مَرفوعاً فيما سَقت السَّماءُ العُشْرُ وفيما سُقِيَ بالنَّضْحِ نصفُ العُشْرِ رواه أحمد والبخاري وللنسائي وأبي داود وأبن ماجه فيما سَقَتِ السماءُ والأنهارُ والعيونُ أو كان بَعْلاَ العُشرُ وفيما سُقِيَ بالسَّوانِي والنُّضْحِ نصفُ العُشْرِ .

ويَجِبُ اخْرَاجُ زَكَاةِ الحَبِّ مُصَفًّى مِنْ قِشْرِهِ وَالثَّمرِ يَابِسَاً لِمَا وَرَدَ عَن عَتَّابِ بنِ أُسَيْدٍ أن النبي صلَّى اللهُ عليه وَسَلم أَمَرَ أن يُخْرِصَ العنبُ زبيباً كما يُخْرَصُ التَّمْرُ ولا يُسَمَّى زَبِيْبَاً ولا تَمراً حَقِيقَةً إلا اليابسُ وقِيْسَ الباقِي عليهما . ولا يَستَقِرُ وُجُوبُها إلَّا بجَعْلِهَا في الجَرِيْنِ أو في البَيْدَرِ أو في المِسْطَاحِ ونَحوِهِ .

فإن تَلِفَتِ الحُبُوبُ والثِمارُ التي تَجِبُ فِيها الزكاةُ قبلَ الوضعِ بالجَرين ونحوِهِ بِغيْرِ تَعَدٍّ منه سَقَطَتْ خُرِصَتْ أو لم تُخْرَصْ وإنْ تَلِفَ البَعضُ مِنَ الزرعِ والتَّمرَ قَبْلَ الاسْتِقْرَارِ زَكّى الباقِيَ ان كان نِصَاباً والا فلا زكاةَ فيه لقوله صَلى اللهُ عليه وسلم (لَيْسَ فيما دُوْنَ خَمسةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ) .

ولا تَتكَرَّرُ زَكَاةُ المُعَشَّر إذَا لَم يَقْصُدْ بِهِ التِّجارَةَ فإن كَانَتْ مُعَدَّةً للتِّجارَةِ كالذي يَشْتَرِي البُرَّ أو الأَرُزَّ أو الزَّيْتَ يَتَربَّصُ بِهِ أو يُقَطِّعُهُ فَهذِهِ

تُعْتَبَرُ عُرُوْضَاً إذا كانَتْ تَبْلُغُ نِصَاباً كُلَّمَا دَارَ عَلَيْهَا الحَوْلُ قَوَّمَهَا بالأنْفَعِ لِلْفُقَراءِ مِن عَيْنٍ أَوْ وَرَقٍ ولا يُعْتَبَرُ ما اشْتُرِيَتْ بِهِ .

ويُسْتَحَبُّ لِلإمَامِ بَعْثُ خَارِصٍ لِثَمَرِ النَّخْلِ والكَرْمِ إذا بَدَا صَلاَحُها . وشُرِطَ كَونُهُ مُسْلَمَاً أميْنَاً خَبيْراً لِحَدِيثِ عائشة قالَتْ كان عليه الصلاةُ والسلامُ يَبْعَثُ عَبدَ اللهِ بنَ رَوَاحَةَ إِلَى اليهودِ يَخْرِصُ عليهم النَّخِيْلَ قَبْلَ أنْ يُؤْكَلَ متفق عليه .

وفي حديثِ عَتَّابِ بن أُسَيْدٍ أن النبيَ صلى اللهُ عليه وسلم كان يَبعثُ على الناسِ مَنْ يَخْرِصُ عليهم كُرُوْمَهُم وثِمَارَهُم رواه الترمذيُ وابنُ ماجةَ وصَحَّ عنه صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ خَرَصَ على امرأةٍ بِوَادِي القُرَى حَديْقَةً لَهَا وَحَدِيْثُها في مُسْنَدِ أحمدَ .

وَيَجِبُ أنْ يَترُكَ الخَارِصُ لِرَبِّ المال الثُّلثَ أو الرُبعَ فَيَجْتَهِدُ السَّاعِي بحَسَبِ المَصْلَحَةِ لِحَدِيْثِ سَهلِ بنِ أبي حَثْمةُ قال قَال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخرَصتم فَخُذُوْا وَدَعُوا الثُلُثَ فإن لم تَدَعُوا الثُلثَ فَدَعُوا الربعَ رواه الخمسة .

موعظة

أَيُهَا الغَافِلُ رَاقِبْ مَن يَرَاكَ في كُلِّ حَالٍ ، وَطَهِّرْ سِرَّكَ فَهْوَ عَلِيْمٌ بما يَخْطُرُ بالبَالِ ، إلى مَتَى تَمِيْلُ مَعَ الزَخَارفَ وإلى كَمْ تَرغَبْ لِسَمَاعِ المَلاَهِيْ والمعازِفِ والمُحَرَّمَاتِ أمَا آنَ لكَ أن تُجَالِسَ صَاحِبَ الدِّين والصلاحِ العاكِفِ على عَمَلِهِ يَقْطَعُ لَيْلَهُ بالقيام حَتَّى الصَّباحِ وَنَهَارَهُ بالصِّيامِ لا يَمِلُّ ولا يَتَوَانَى رَجاءَ الفَوْزِ بالأَرْباحِ وأنتَ في غَمْرةٍ هَوَاكَ

مَفْتُوناً في الانْهِمَاكِ بِدُنْيَاكَ وكأني بكَ وقد هَجَمَ عليكَ مَا بَدَّدَ شَمْلَكَ وَأَوْهَنَ قُوَاكَ وَافْتَرسَكَ مِن بَيْنِ أَهْلِكَ وعَشِيرَتِكَ وأخِلاَّئِكَ وَتَخَلَّى عَنْكَ خَلِيْلُكَ وأصْدِقَاؤُكَ لا يَسْتَطِيْعُونَ رَدَّ ما نَزَلَ بكَ ولا تَجِدُ له كاشِفاً فانتَبِهْ ما دَامَ جِسْمُكَ صَحِيحاً والعَمَلُ منكَ في إمكان .

اللهم وَفِّقْنَا لِصَالِحِ الأَعْمالِ وَنَجِّنا مِن جميعِ الأهوالِ وأَمِّنَا مِن الفزعِ والرجفِ والزِلزال ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجميعن .

٣٣ ـ فصلٌ في بيانِ مصارف الزكاة :

ويُشْتَرَطُ لاخراجِهَا نِيَّةٌ مِن مُكَلَّفٍ ، لِحَديثِ : « إِنَّمَا الأَعمـالُ بالنياتِ وإنما لِكل امرِىءٍ ما نوَى » ، فَيَنْوِيْ الزكاةَ ، أو الصدقةَ الواجبةَ ، أَوْ صَدَقَةَ المالِ .

ويُسنُ أَنْ يُفرقَ زَكَاتَهُ عَلى أقاربِهِ الذين لا تَلزَمُهُ مَؤُونَتُهم لما وَرَدَ عن سلمانَ بنِ عامرٍ ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصدقةُ على المسكين صَدَقَةٌ ، وهي على ذِي الرحِمِ اثنتانِ : صـدقةٌ وصلةٌ » رواه أحمـد ، والترمـذي ، والنسـائي ، وابن مـاجـه والدارمي .

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُولَ المُخْرِجُ : اللهم اجْعَلْهَا مَغْنَماً ، ولا تَجْعَلْهَا مَغْرَماً . ويَحْمَدُ اللهَ على تَوْفِيْقِهِ لِأَدائِهَا ، لما رَوَى أَبو هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال : قَالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أَعْطَيْتُمْ الزكَاةَ

فلا تَنْسَوْا ثوابَها أنْ تَقُولُوا اللهم اجعلها مَغْنَماً ولا تَجْعَلْهَا مَغْرَمَاً . رواهُ ابن ماجه .

ويَقُولُ الآخِذُ وهو الفَقِيرُ أو المِسْكِيْنُ أو أحَدُ الأَصْنَافِ آجَرَكَ اللهُ فيما أعْطَيْتَ وبارك لَكَ فِيمَا أَبْقَيْتَ وَجَعَلَهُ لَكَ طَهُوراً .

قال الله تعالى : ﴿ خُذْ مِن أَمْوَالِهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيْهِم بها ، وصَلِّ عليهم ، ان صلاتك سكن لهم ﴾ أيْ ادْعُ لَهُمْ ، كمَا روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفي ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أُتِيَ بصَدَقَةِ قومٍ صَلَّى عليهِم . فأتاه أَبِيْ بصَدَقَتِهِ ، فقَالَ : « اللهم صَلِي عَلَى آلِ أبِي أوفَى » .

وللمُزَكِّي دفعُها الى الإمامِ وَإِلَى السَّاعِي ، ويَبْرَأُ بذَلِكَ ، ولا يُجْزِي دَفْعَها إلى كافِرٍ غيرِ مؤلَّف ، ولا حَظَ فِيها لِغَنِيّ وَلَا لِقَوِيٍ مُكتَسبٍ لما وَرَدَ عن عبدِ الله بن عَدِي رضي الله عنه أَنَّ رَجلَين أخْبَرَاهُ أنهما أَتَيَا النبيَّ صَلَّى الله عليه وسلم يَسْأَلانِهِ مِن الصَّدَقَةِ فقَلَّبَ فِيهما البَصَرَ وَرَآهما جَلْدَيْن فقال لهمَا إن شِئتُمَا أعْطَيتُكُمَا ولا حَظّ لِغَنِي ولا لِقَوِي مُكْتَسِب فالواجبُ تأَمُلُ حالِ السائلِ والتَّفَرُّسُ فِيهِ كما فَعَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فكم مِن انسانٍ يَدّعي الفقرَ وَهو غَنِي .

وكَمْ مِن مُتَعَارِجٍ وما بِهِ عَرَجُ ولكِنْ لأَمرٍ مَّا تَعارُجُهُ .

وكَمْ مِن حَامِلِ وَرَقَةٍ يَأكُلُ بها لا يَدْرِي مَا فِيْهَا ولَوْ بَرَّقْتَ وسَبَرْتَ بِدقةٍ لَوَجَدْتَ العجَائِبَ ، لأنّ الوازِعَ الدِيْنِيَ قدِ ضَعُفَ جِدّا واخْتَلطَ الحَابِلُ بالنَابِلِ فلا يُمَيِّزُ الفقيرُ والمُستَحِقَ لِلزَّكاةِ إلا إنْسَانٌ مُتبصِّرٌ بَعْدَ

التَّأَمُّلِ والبَحْثِ التام والحَرِيْصُ على ابْرَاءِ ذِمَّتِهِ وايْصَالِ زَكاتِهِ إلى المُسْتَحِقِ لَها يَعْرِفُ كَيفَ يَجِدُ موْضعَها تَمامًا مِمَن لا يَسْأَلُوْنَ الناسَ إلحَافاً المحتاجِين المخْتَفِيْنَ الحَيِّيْنَ الأَرَامِلَ ذَوِيْ العَوائِلِ ورُوِيَ أنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه سَمِعَ سَائِلًا يَسْأَلُ بَعْدَ المغربِ فَقَالَ لِرَجُلٍ مِن قَوْمِهِ عَشِّ السَّائلَ فَعَشّاهُ ثم سَمِعَهُ ثَانِياً يَسألُ فقَالَ أَلَمْ أقلْ لَكَ عَشِّ السَّائلَ قَال قَدْ عَشَيتُهُ فَنَظَر عُمُرُ له فاذا تَحْتَ يَدِهِ مِخْلاةٌ مَمْلُوْءَةٌ خُبْزاً فقَالَ لَسْتَ سَائِلًا لكنَّكَ تَاجِرٌ ثم أَخَذَ المِخْلَاةَ وَنثرَهَا بَينَ يَدَيْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ وضَرَبَهُ بالدُرةِ وقال لَا تَعُدْ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍ وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍ » . رواه أحمدُ وأبو داود .

ولا يَدْفَعُ بالزكاةِ مَذَمَّةً ، ولا يَقِيْ بِها مَالَهُ ، ولا يَسْتَخْدِمُ بها ، ويَلْزَمُ الانسانُ الذي يُرِيْدُ إِبْرَاءَ ذِمَّتِهِ صَحْيحاً أنْ يُفَتِّشَ على أهلِ العوائدِ وَيَسْأَلْ عنهم بدِقَّةٍ مِن يَعْرِفُ حَالَهُم مِن جِيرانٍ وَأَقَارِبَ حَتَّى يتَأَكَّدَ هَلْ هُمْ أَغْنِيَاءُ فلا يَدْفَعُهَا إِليهِم لأَنَّ دَفْعَهَا لهم مَع الغنى وجُوْدُهُ كَعَدَمِه فلاَ تَبْرَأُ ذِمَّتُهُ وتَبْقَى الزَّكاةُ في ذِمَّتِهِ وَلا يَحْمِلُه الحَياءُ فَيُعْطِي صَاحِبَ الغِنَى قَبْلَ أنْ يَبْحَثَ عنه هَلْ هو على فَقْرِه .

لأنَّ كثيراً مِن الفُقَراء في وَقْتِنا انْفَتَحَ لهَم أبوابُ الرزْقِ مِن أَوْلَادٍ أو بَنَاتٍ أو عَقَارٍ أو شُؤُوْنٍ ولا يُبَالِي بغَضَبِ مَن مَنَعَهُ عَادَتَهُ مَع اسْتِغْنَائِهِ وَيَلْتَمِسُ رَضا اللهِ جلَّ وعَلَا وَسَواء كانُوا أقْرِبَاءَ أو غَيْرَ أقرباء .

ولا يَجُوزُ صَرْفُ الزَّكَاةِ لِغَيْرِ الأَصْنَافِ الثمانيَةِ المَـذْكُوْرِيْنَ في

الآية ، قال الله تعالى : ﴿انما الصدقات للفقراء والمساكينِ ، والعاملينَ عليها والمؤلفةِ قلوبُهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ .

فلا يَجُوزُ صَرْفُها في بِنَاءِ المَدَارِسِ أو المَسَاجِدِ ، ولا وَقْفِ مَصَاحِفَ ، ولا كُتْبِ عِلم . ولا تكفينِ مَوْتَى ، وَلا تَوقِيْفِ مَقَابِرَ ولا غيرِهَا مِن جِهَاتِ الخيرِ ، لأَنَّ اللهَ تعالى تَوَلَّى الحُكمَ فيها بنَفْسِهِ ، فقدْ وَرَدَ عن زِيادِ ابنِ الحارثِ الصُدّائِي ـ رضي الله عنه ـ قال : أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فَبايَعْتُهُ ، فذكرَ حديثاً طويلاً ، فأتاهُ رجلَ فقال : اعْطِني مِن الصَّدقةِ ، فَقَال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن اللهَ لم يَرْضَ بحُكْمِ نَبِي ولا غَيْرِهِ في الصَّدَقاتِ ، حَتَّى حَكَم فيها فَجَزأَهَا ثمانيةَ أجزاءِ ، فَان كَنتَ مِن تلكَ الأجزاءِ أعطيتُكَ » .

فيأخُذُ الفَقِيرُ وهو مَن لا يَجِدُ شَيئاً أو يَجِدُ بَعْضَ الكَفايَةِ من الزكاة تَمَامَ كِفَايَتِهِ مَعَ عَائِلَتِهِ سَنَةً لأنَّ وُجُوبَ الزكاةِ يَتكَرَّر يَتكَرُّرُ الحَوْلِ .

ويأخذُ المِسْكِينُ وهو مَن يَجدُ الكِفَايَةَ أَوْ نِصْفَهَا تَمَامَ كِفَايَتِهِ مَعَ عَائِلتِهِ سَنةً لأنَّ وُجُوبَ الزكاةِ يَتكررُ بِتكرُرِ الحَولِ .

وَيُعْطَى مِن الزكاةِ العَامِلُ وَهُوَ كَجَابٍ وَحَافِظٍ . وَكَاتِبٍ وَقَاسِمٍ وَجَامِعِ المواشِي وَعَدِّهَا وَكَيَّالٍ ووزانٍ وَسَاعٍ وراعٍ وَحَمَّالٍ وَجمالٍ قَدْرَ أجرتِهِ وانْ تَلَفَتْ في يَدِهِ بلا تَفريْطٍ منه فَيُعْطَى أَجْرَتَهُ مِن بَيْتِ المالِ لأنَّ لِلإِمَامِ رَزْقُهُ على عَمَلِه مِن بَيْتِ المالِ .

ويُعْطَى مِن الزَّكَاةِ المُؤَلَّفُ وهوَ السَّيِدُ المُطَاعُ في عَشِيْرتِهِ ما يَحْصُلُ به التأليفُ لأنه المَقْصُودُ .

٥ ـ ويُعْطَى مِن الزكاةِ الرِّقابُ وهُم المكاتَبُونَ وفَاءَ دَينِ الكتابةِ وَيَجُوزُ أنْ يُفدِي مِن الزكاةِ أسيراً مُسْلِمَا في أيدِي الكفار .

٦ ـ ويُعْطَى الغَارِمُ مِن الزَّكَاةِ وهو مَنْ تَدَيَّنَ لإصْلاحِ ذاتِ بَيْنٍ أو تَحَمَّلَ بَسَبَبِ اتلافِ نَفْسٍ أو مَالٍ أَوْ نَهْباً أو مَالاً لِتَسْكِيْنِ فِتنِةٍ وقَعَتْ بَيْنَ طائفَتَيْنِ ويَتوَقَفُ صُلُحُهُمَا على مَن يَتَحَمَّلُ ذَلكَ أو تَدَيّنَ لِشَرَاءِ نَفْسِهِ مِن كُفَارٍ أو لِنَفْسِهِ في مُبَاحٍ وأعْسَرَ وَفَاءَ دَيْنِهِ كمُكاتَبٍ ، وَدَينُ اللهِ كَدَينِ الآدَمِي .

٧ ـ ويُعْطَى الغَازِي في سَبِيلِ اللهِ ما يَحْتَاجُ لِغَزْوِهِ ذَهَاباً وإيابَا وإقامةً في أرضِ العَدُوِ ونحوِ ثَمَنِ سِلاحٍ ودِرْعٍ وفَرَسٍ لِفَارِسٍ ويُعْطَى مِن الزَّكاةِ إبنُ السبِيل وهو المُسَافِرُ المُنقَطَعُ بهِ بِغيرِ بلدِهِ ما يُبَلِغُه بَلَدَهُ أو مُنْتَهَى قَصْدِهِ وعَوْدِهِ إليهَا إن لم يَكُنْ سَفَرُهُ مُحرماً أو مَكْرُوْهَا .

موعظة

عبادَ الله إن وُجُودَ الموتِ بينَ الناسِ مَوْعِظَةٌ كُبْرَى لوَ كَانُوا يعقلون فانه بلِسَانِ الحَالِ يقولُ لِكُلِ واحدٍ مِنا : سَأنْزِلُ بكَ يوماً أو لَيلةً كما ترَى الناسَ بعَيْنِكَ يَمُوتُونَ وقد يَكُونُ لأَحَدِهِم مِن المالِ والجاهِ والقوَّةِ والجَمَالِ والعِلمِ والفصاحَةِ والمَرْكَزِ الدُّنيوي ِ ما يُدهشُ الناظرينَ لَهُ ، وقد يكونُ قَدْ طَالَ عُمُرُهُ وطالَ أمَلُهُ حتى مَلّ ومُلَّ مِنْهُ . وبَيْنَ ما هو في حالٍ مِن النَّشَاطِ قويّ مشْدُودُ أسْرُهُ ، ذُو هِمَّةٍ تَضِيْقُ بها الدنيا ، قدْ أَقْبَلَتْ

عليهِ الدُنيا مِن كُلِّ جِهَةٍ ، وزَهَتْ لَهُ ، إذا تَراهُ جُثَّةً هَامِدَةً أشْبَهَ بِأعْجَازِ النَّخْلِ الخَاوِيةِ لا حِسَّ لَهُ ولا حَرَكَةَ ولا أقوالٌ وَلا أفعالٌ قَدْ ضَيَّقَ على مَن حَوْلَهُ وإذا لم يُسْرِعُوا بِهِ إلى الدَّفْنِ يَكُونُ جيْفةَ مِن الجِيَفِ تُؤْذِي رَائِحتُهَا الكرِيهةُ كلَ مَن قَرُبَ منها ، هَذا كُلُّهُ يكونُ بعدَ ذلكَ النَّشَاطِ والقُوَى لِأنَّ هَادِمَ اللَّذاتِ نَزَلَ بِهِ .

ويَعْدَ نُزُولِه لا تَسْأَلُ كان لَهُ ما كَانَ ، وفي الحالِ تُصْبحُ زَوْجَته أرْمَلَةً ويُصبحُ أَوْلَادُهُ أيتَامَاً . وفي الحالِ تُقَسّم أَمْوَالُهُ التي جَمعَهَا وقَاسَى على جَمْعِهَا الشَّدَائِدَ . لأَنَّ المَوْتَ يُزيْلُ مُلْكَهُ وينْقُلُهُ إلى مُلْكِ وَرَثَتِهِ نَقْلاً تَعْجَزُ عن نَقْضِهِ الأيامُ ، نَعَمْ إنَّهُ بالموت يزولُ مَالُه كُلُّهُ وهِيَ أكْبَرُ مُصِيْبَةٍ مَالِيَّةٍ .

وأَكْبَرُ مِنَها أَنَّهُ يُسْأَلُ عنه كُلّهِ دَاخِلاً وخَارِجاً مِن حَلَالٍ أَمْ مِن حَرَامٍ وبَعْدَ مُدَّةٍ يَسيْرةٍ يُنْسَى هُو وَيُنْسَى مالُه وَيُنسَى جَاهُهُ ويُنْسَى مَرْكَزُهُ ومَكَانَتُهُ ولو كان مَلِكاً أوْ وَزِيْراً وَمَا كأنهُ رَأَتْهُ العُيُونُ ولا سَمِعَتْ كَلامَهَ الآذانُ ، كما قِيْلَ :

كــأنَّــهـم قَطْ مــا كــانُــوا ولا وُجِـدُوا
ومــاتَ ذِكْــرُهُــمُــوْا بَـيْـنَ الــوَرى وَنُـسُــوْا

إن الناسَ يَرَوْنَ المَـوْتَ كلَ يَـومٍ بأعْيُنِهم في بُيُـوتِهِم أَوْ في المُسْتَشْفَيَاتِ ، ويَرَوْنَ مَاله من آثارٍ ومَعَ ذلكَ فانهم بمُجَرَّدِ أن يَمُوْتَ بَيْنَهم مَيتٌ يكونُ منهم مَع مَوْتِهِ هَذا مَا يُدْهِشُ الأفكارَ فترى مِن أقاربَهِ مَن يَتَسَابَقُونَ إلى البَحْثِ عَمَّا خَلَّفَ وانْتِهَابِ ما اتّصَلَتْ إليه أَيْدِيهِم مِن

مالِهِ ، وربَّمَا شَبَّتْ بَينَ وَرَثَتِهِ الحُرُوْبُ مِن أجلِ أن يَتَمَيَّزَ كُلُ واحدٍ منهم في التَّرِكَةِ عَمَّن سِوَاهُ وقد تَشْتَدُّ بِهِم تِلكَ العَدَاوَةُ تَعْمَلُ عَملَهَا ما بَقِيْتْ تِلكَ .

يَفْعَلُوْنَ هَذَا كُلَّهُ عَقِبَ مَنْ يَمُوْتُ بَدَلَ أنْ يَعْتَبرُوْا ويَتَّعِظُوْا بِهِ فَيُزَهِّدُهُمْ هَذَا التَّفْكِيْرُ والإعتِبَارُ فِيْ ذَلِكَ الْمالِ الفَانِيْ الذَّاهِبُ عَنْ أَيْدِيْهِمْ عَنْ قَرِيْبٍ كَمَا ذَهَبَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرِيْقِهِ لَقَدْ سَبَقَ أَقْوَامٌ كَانُوْا يُؤْمِنُوْنَ بِالْمَوْتِ حَقَّ الْإِيْمَانِ فَكَانُوا يُقَدِرّوْنَ الدُّنْيَا حَقَّ التَّقْدِيْرِ كَانُوا يَعْرِفُوْنَ أَنَّهَا فَانِيَةٌ وَأَنَّهَا غَرَّارَةٌ خَدَّاعَةٌ وَأَنَّهُمْ تَارِكُوهَا يَوْماً رَغْمَ أُنُوْفِهِمْ لَا رُجُوْعَ بَعْدَهُ لِقَلِيْلٍ مِنْهَا وَلا كَثِيْرٍ قَرَؤُوْا قَوْلَهُ تَعالَى : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ فَاسْتَعِدّوا واقْرؤُوْ قولَهُ تَعالى : مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَذُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ فَكَانُوْا إذَا حَصَلَ لَهُمْ شَيءٌ مِنَ الدُّنْيَا صَرفُوْا ذَلِكَ لِمَا يَنْفَعُهُــمْ في الدَّارِ الآخِرَةِ . وَإذَا سَمِعْتَ أَنَّهُمْ كَانُوْا يَطْلُبُونَ الدُّنْيَا فَلِمَا ذَكَرْنَا .

قَالَ ابْنُ مَسْعُوْدٍ لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةَ كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُوْرِنا فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيْرٍ فَقَالُوا مُرَائِي وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوْا إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعٍ هَذَا فَنَزَلَتْ الآيَةُ : ﴿الَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ الْمُطَّوِّعِيْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فِيْ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِيْنَ لَا يَجِدُوْنَ إلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ .﴾

ومِنْ طَرِيْقٍ آخَرَ حَثَّ الرَّسُوْلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّدَقَةِ يَعْنِي في غَزْوَةِ تَبُوْكَ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بِأَرْبَعَةِ آلافٍ فَقَالَ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ مَالِي ثَمانِيَةُ آلافٍ جِئْتُكَ بِنِصْفِهَا وَأَمْسَكْتُ بِنِصْفِهَا فَقَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيْمَا أَمْسَكْتَ وَفِيْمَا أَعْطَيْتَ وَجَاءَ

أَبُوْ عَقِيْل بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ فَقَالَ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ أَصَبْتُ صَاعَيْن مِنْ تَمْرِ صَاعٍ أَقْرَضْتُهُ لِرَبِّي وَصَاعٍ لِعَيالِيْ قَالَ فَلَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا : مَا أَعْطَى ابْنُ عَوْفٍ إِلَّا رِياءً وَقَالُوا أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ غَنِيَّيْنِ عَنْ صَاعِ هَذَا وَهَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَجْعَلُوْنَ مَا نَالُوْا مِنَ الدُّنْيَا وَسِيْلَةً إِلَى الآخِرَةِ :

شعرا :

إذا اكْتَسَبَ المَالَ الفَتَى مِن وُجُوْهِهِ
وأحْسَنَ تَدبْيراً لَهُ حِيْنَ يَجْمَعُ
ومَيَّزَ في إنْفَاقِهِ بَينَ مُصلِحٍ
مَعِيْشَتَهُ فِيْمَا يَضُرُ وَيَنْفَعُ
وأَرْضَى به أهْلَ الحُقُوقِ ولم يُضِعْ
بِهِ الذُخْرَ زَاداً لِلَّتي هِيَ أَنْفَعُ
فَذَاكَ الفَتَى لا جَامِعَ المَالِ ذاخِراً
لِأولادِ سُوءٍ حَيْثُ حَلّوا وأَوْضَعُوْا

اللهم تَقَبَّلْ منَّا يَسيرَ الأَعْمَالْ ، وهَبْ لَنا إسَاءَتنا في الأقوالِ والأفعالِ وَسَامِحْنا عَنِ الغفلةِ والإهمَالِ واغفرْ لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمينَ برحمَتِكَ يا أرحم الراحمين . وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

٣٤ ـ فِيْمَا وَرَدَ مِن الوَعِيْدِ الشَّدِيْدِ على تَرْكِ الزَّكَاةْ :

إذا فَهِمْتَ ما تَقَدَّمَ مِمَّا تَجِبُ فيهِ الزكاةُ وبيانِ نِصَابِ الزكاةِ ومَصْرفها وما يَنْبَغِيْ أنْ يَقولَ الدافِعُ والمدفوعُ إليهِ . فاعلَمْ أَنَّها مَا خَالَطَتْ مَالاً إلا أفسدَتْهُ ومحقتْ بَرَكَتَهُ وأيَّ خَيرٍ ونَفْعٍ في مالٍ مَمْحُوقِ البَرَكةِ بَاقٍ شَرُّهُ وفِتْنَتُهُ وشُغْلُ البدنِ والقلبِ وإتْعَابُهُما ؟

والمَحْقُ : مِنْه ما هُوَ ظَاهِرٌ ، وهُوَ ذَهَابُ صُوْرَة المالِ ورُجُوْعُ الانسانِ بعدَ الاستغناءِ فَقِيْراً ، وقَدْ وَقَعَ ذلكَ لِخَلْقٍ كثيرٍ مِن المتساهِلِينَ بأَمْرِ الزَّكاة .

ومِن المَحْق : مَحْقٌ بَاطِنٌ وهُوَ أَنْ يَكُوْنَ المالُ في الصُوْرَةِ مَوْجُوْداً وكَثِيْراً ولكنْ لا يَنْتَفِعُ فيه صاحبُهُ لا في دِينهِ في وجُوْهِ البرِّ والمَشارِيْعِ الخَيْريَّةِ وبَذْلِ المعرُوْفِ ، ولاَ يَنْتَفِعُ فيه في نَفْسِهِ ومروءَتِهِ بالسَّتْرِ والصِيانِةِ ، ومَعَ ذلَكَ يَتَضَرَرُ بِهِ تضرُرا كثيراً بامْسَاكِهِ عن حَقِّهِ وَوَضْعِهِ في غَير جِهَتِهِ إمّا بانْفَاقِهِ بالمَعَاصِيْ والعِيَاذُ باللهِ . وإمَّا في الشَّهَواتِ البَهِيْمِيَّةِ التي لا نَفْعَ فيها ولا حَاصِل .

وقد وَرَدَ في مَنْعِ الزكاةِ عن اللهِ ورسُوْلِهِ تَشْدِيْدَاتٌ هَائِلَةٌ وتَهْدِيْدَاتٌ عظيمة ويُخْشَى على مَانِعِ الزكاةِ مِن سُوْءِ الخَاتِمِةِ والتَعرُّضِ لوَعِيْدِ اللهِ وغَضَبِهِ والخُروجِ مِن الدنيا على غَيرِ مِلّةِ الاسلامِ ومِمَّا جَاء مِن الوَعِيْدِ في حَقِّ مَنْ بخِلَ بِهَا أوَ قَصَّرَ في إخراجِهَا قولُه تعالى : ﴿ولاَ يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلُونَ بما آتاهم اللهُ مِن فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلوُا به يومَ القيامة ، ولِلهِ ميراثُ السمواتِ والارضِ والله بما تعملون خبير﴾ .

وقال تعالى : ﴿والذين يَكْنِزُوْنَ الذَّهَبَ والفِضَّــةَ ولا يُنفِقُونَهَا في سَبِيْلِ اللهِ ، فَبَشِرْهُمْ بعَذَابٍ أليمْ ، يومَ يُحْمَى عليها في نارِ جَهنم فَتُكْوَى بها جباهُهُم وجُنوبُهم وظُهُورهُم ، هذا ما كَنَزْتُم لأنْفُسِكُمْ فَذُوْقُوا ما كُنْتُم تَكْنِزُون﴾ .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِن صاحبِ ذهبٍ ولا فِضَّةٍ لا يُؤَدِيْ منها حَقَّهَا إلا إذا كانَ يَوْمُ القيامةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِن نارٍ فأُحْمِيَ عليها في نارِ جَهنَّمَ، فيُكْوَى بها جَنْبُهُ وجَبْينُهُ وظَهْرُهُ ، كلما بَرَدَت أعيدتْ له في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنة حتى يُقضَى بَينَ العِبادِ فيَرى سَبِيْلَهُ : إمَّا إلى الجَنةِ ، وإمَّا إلى النارِ .

قِيلَ : يا رسولَ الله فالابِلُ ؟ قال : « ولا صاحبُ إبلٍ لا يُؤْدِيْ حَقَّها ـ ومِن حَقِّهَا حَلْبُهَا يَوْمَ وِرْدِها ـ إلا إذا كان يومُ الْقِيامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيْلاً وَاحِدا : تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بأفْواهِهَا ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُوْلَاهَا رَدَّ عَلَيْهِ أخْرَاهَا في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ ألفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبَادِ فيَرَى سَبِيْلَهُ : إمَّا إلىٰ الجَنَّةِ ، وإمّا إلىٰ النَّارِ .

قِيْلَ : يَا رَسُوْلَ اللَّهِ ، فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ؟ قَالَ : « وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لا يُؤَدِّيْ مِنْهَا حَقَّهَا إلَّا إذَا كانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطَح لَهَا بَقَاعٍ قَرْقَرٍ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئاً لَيس فِيْهَا عقْصَاءُ وَلَا خَلْجَاءُ وَلَا عَضْبَاءُ ، تَنْطَحُهُ بِقُرُوْنِهَا وَتَطَؤُهُ بأظْلافِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أَوَّلُهَا رُدَّ عَلَيْهِ آخِرَهَا فِيْ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَينَ الْعِبادِ فيَرَى سَبِيْلَهُ : إمَّا إلى الْجَنَّةِ ،

وإمَّا إلىٰ النّارِ .

وَعَنْ جابِرٍ ـ رضِىَ اللّهُ عَنْهُ ـ قال : سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « مَا مِنْ صَاحِبِ إبلٍ لا يَفْعَلُ فِيْهَا حَقَّهَا إلاّ جاءَتْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أكْثَرَ ما كَانَتْ ، وَقَعَدَ لَها بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَسْتَنُّ عَلَيْهِ بِقَوائِمِها وَأَخْفَافِهَا ، وَلاَ صَاحِبَ بَقَرٍ لاَ يَفعلُ فِيْهَا حَقَّهَا إلاَّ جاءَتَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَوْفَرَ ما كَانَتْ وَقَعَدَ لَهَا بِقاعٍ قَرْقَرٍ فَتَنْطَحُهُ بِقُرُوْنِهَا ، وَتَطَؤُهُ بأظْلافِها ، لَيْسَ فِيْهَا جَمَّاءُ وَلا مُنْكَسِرٌ قَرْنُهَا وَلاَ صَاحِبِ كَنْزٍ لا يَفْعَلُ فِيْهِ حَقَّهُ إلاَّ جاءَ كَنْزُهُ يَوْمَ القِيامَةِ شُجَاعاً ، أَقْرَعَ يَتْبَعُهُ فاتِحاً فَاهُ ، فإذَا أَتَاهُ فَرَّ مِنْهُ ، فَيُنَادِيْهِ خُذْ كَنْزِكَ الَّذِي خَبَّأْتَهُ فأنَا عَنْهُ غَنِيٌّ ، فَإذا رَأَى أَنْ لاَ بُدّ مِنْهُ سَلَكَ يَدَهُ في فِيْهِ فَيَقْضِمُهَا قَضْمَ الفَحْلَ » .

وَفي رِوايَةٍ لِلنَّسائي قال : قالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : « ما مِنْ رَجُلٍ لاَ يُؤَدِيْ زَكاةَ مَالِه إلَّا جاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجاع مِنْ نار فَتُكْوَى بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ ألفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ » . وَاللّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فصل)

وَعَنْ جَابِرٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ يا رَسُوْلَ اللَّهِ ، أرأَيْت أنْ أدَّى الرَّجُلُ زَكاةِ مَالِهِ ، فقالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أدىّ زَكَاةَ مَالِهِ فَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُ شَرُّهُ » .

وَعَنْ الأَحْنفَ بْنِ قَيْس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ : جَلَسْتُ إلَى مَلأٍ

مِنْ قُرَيْشٍ فَجَاءَ رَجُلٌ خَشْنُ الشَّعْرِ وَالثِّيَابِ والْهَيْئَةِ حَتَّى قَامَ عَلَيْهِمْ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ : بشِّرْ الْكَانِزِيْنَ بِرَضْفٍ يُحْمَى عَلَيْهِ فِيْ نَارِ جَهَنَّمَ ، ثُمَّ يُوْضَعُ عَلَى حَلَمَةِ ثَدْيِ أَحَدِهِمْ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نَغض كَتِفِهِ وَيُوْضَعُ عَلَى نَغضِ كَتِفِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَلَمَةِ ثَدْيِهِ فَيَتَزَلْزَلُ .

ثُمَّ وَلَّى ، فَجَلَسَ إِلَى سَارِيَةٍ ، وَتَبِعْتُهُ وَجَلَسْتُ إِلَيْهِ ، وَأَنَا لَا أَدْرِي مَنْ هُوَ ، فَقُلْتُ : لَا أَرَى الْقَوْمَ إِلَّا قَدْ كَرِهُوا الذِي قُلْتَ ، قَالَ إِنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ، قَالَ لِي خَلِيْلِي ، قُلْتُ مَنْ خَلِيْلُكَ ؟ قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَم : أَتُبصِرُ أَحداً ؟ قال : فَنَظَرْتُ إِلَىٰ الشَّمْسِ مَا بَقِي مِنْ النَّهَارِ وَأَنَا أَرَى أَنَّ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرْسِلُنِيْ فِيْ حَاجَةٍ لَهُ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً أَنْفِقُهُ كُلَّهُ إِلَّا ثَلَاثَةِ دَنَانِير ، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَعْقِلُوْنَ ، إِنَّمَا يَجْمَعُوْنَ ، لَا وَاللهِ لَا أَسْأَلُهُمْ دُنْيَاً وَلَا اسْتَفْتِيْهِمْ عَنْ دِيْنٍ حَتَّى أَلْقَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَفِيْ رِوَايَةٍ لِمسُلْمٍ ، أَنَّهُ قَالَ : « بَشِّرْ الْمُكَانِزِيْنَ بَكَيٍّ فِي ظُهُوْرِهِمْ فَيَخْرُجُ مِنْ جُنُوْبِهِمْ ، وَبكَيٍّ مِنْ قِبَلِ أَقْفَائِهِمْ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ جِبَاهِهِمْ قَالَ : ثُمَّ تَنَحَّى فَقعَدَ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَذَا قَالُوْا : هَذَا أَبُو ذَرٍّ ، قَالَ : فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقْلْتُ : مَا شَيْءٌ سَمِعْتُكَ تَقُولُ قُبَيْلُ ؟ قَالَ : مَا قُلْتُ إِلَّا شَيْئاً قَدْ سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال قُلْتُ ما تقول في هذا العطاء قال خُذْهُ . فإنَّ فِيْهِ اليومَ مَعُوْنَةٌ فإذا كان ثمناً لِدِيْنكَ فَدَعْهُ » .

وَروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : سَمِعْتُ مِن عُمَرَ بنِ الخَطَابِ ـ رَضْيَ اللهُ عنه ـ حَدِيْثاً عن رسولِ اللهَ صلى الله عليه وسلم ، ما سَمِعْتُهُ مِنه ، وكُنْتُ أَكْثَرَهُم لُزُوْماً لِرَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم ،

قال عُمَرُ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تَلِفَ مَالٌ في بَرٍ ولا بَحْرٍ الا بحبسِ الزكاة » .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالتْ : قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « ما خَالَطَتِ الصَّدَقَةُ ـ أو قال الزكاةُ ـ مالاً إلا أفْسَدَتْهُ » .

وعن الحَسَنِ : أنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قال : « حَصِنُوا أَمْوَالكُم بالزَّكاةِ ، وداوُوْا مَرْضَاكُم بالصَّدَقـةِ ، واسْتَقْبِلُوا أَمْوَاجَ البَـلاءِ بالدُّعَاءِ والتَّضَرُّعِ » .

فَتَأَمَّلْ يَا أَخِيْ الآياتِ الكَرِيْمَاتِ والأَحَادِيْثِ الشَّرِيْفَاتِ . .

وانْظُر كَيْفَ يُؤْتَى بالمالِ الذِي كان يُحِبُه مَانِعُ الزكاةِ حُباً شَدِيداً ويُعِزُّهُ العِزَّ الذِي يَصِلُ بِهِ إلى أنَ يُمْسِكُهُ ويَجْمَعَهُ ويُوَعِيْهِ ولَا يُفَرِّطُ في شَيءٍ مِنه ، حَتَّى ما كَانَ مِنه حَقاً لِلْفُقَرَاءِ البُؤْسَاءِ المَسَاكِيْنِ يُؤتَى بِه بِعَيْنِهِ ويُجْعَلُ صَفَائِحَ وَمَعَ أن هَذِهِ الصَّفَائِحَ مِنَ نَارٍ يُحْمَى عَلَيْهَا في نَارِ جَهَنَّمَ لِتَشْتَدَّ حَرَارَاتُها وتَزْدَادَ لِيَكُونَ المُهَا الوَاقِعُ عَلَى بَدَن مَانِعِ الزكاةِ بالغاً النِّهَايَةَ في الشِّدَّةِ حِيْنَ يُكْوَى بها جَنْبُهُ وجَبِيْنُهُ وَظَهْرُهُ .

وَتَخْصِيْصُ هَذِهِ الأَعْضَاءِ الثَّلاثَةِ قال بعضُ العُلَمَاءِ لأنَّ المُعَذَّبَ وَهو مانِعُ الزكاةِ اذا جَاءَهُ الفَقِيْرُ يَسْألُهُ شَيْئاً مِن حَقِهِ عَبَّسَ وَجْهَهُ وَعَقَدَ جَبِيْنَهُ عُبُوساً وَتَعْقِيْداً يَدُلُ على كَرَاهَتِهِ لِهذا السؤال .

فإذا ألَحّ الفقيرُ عليه زادَ في عُبُوسِهِ أنْ يَضُنَّ بمُوَاجَهَةِ ذَلِكَ الفَقيرِ فَيَنْتَقِلُ مِن المُواجَهَةِ إلى الانْحِرَافِ عَنْهُ ويَجْعَلُ جَنْبَهُ في وجْهِ المِسكينِ السَّائِلِ مُبَالَغَةً في إظهارِ الكَرَاهِيَةِ لِسُؤالِهِ .

فإذا ازْدَادَ الفَقِيْرُ واشْتَدَّ في الطَّلَبِ والإلْحاحِ بَالَغَ المَسْؤُولُ في الغَضَبِ فانْصَرَفَ عنهُ وَوَلاَهُ ظَهْرَهُ ماشَياً مِن مَكَانِهِ وتَارِكاً له يَهْوِي في هُوَّاتِ احْتِيَاجِهِ بدُوْنِ أي اكِتْرَاثٍ فلَمَّا كَانَ هَذَا حَالُ تِلْكَ الأَعْضَاءِ الثلاثَةِ في الدُّنْيَا خُصَّتْ في الآخِرةِ بالكَيِّ بتِلْكَ الصَّفَائِحِ التي هِيَ مَالُه وبذلك يَعْرِفُ أَنهُ يُهانُ بالمالِ الذي كان يُعزهُ في دُنياه .

ولو كان يُهِيْنُهُ بالدُنيا بِمُفَارِقَةِ مَا كَانَ يَجِبُ عليه منه لَكَانَ سَبباً لإكْرَامِهِ في ذلك اليَومِ الرَّهِيْبِ المُفزِعِ .

وانْظُرْ كَيفَ تَأتِي نِعَمُهُ إبلُهُ وَبقَرُهُ وغَنَمُهُ التي لم يُؤَدِّ حَقَّ اللهِ فيها أَقْوَى ما كَانَتْ وَأوْفَرَهْ فَتطؤُهُ الإِبلُ بأخْفَافِها وتَعضُّهُ بأَنْيَابِهَا الحَادَّةِ وتَطؤُهُ البَقَرُ والغَنَمُ باظلافِهَا وتَنْطَحُهُ بقُرُوْنِهَا السَّلِيْمَةِ لِيَكُونَ النَّطْحُ بها أَوْجَعَ وآلَمَ ولا تَجِيءُ بَقَرَةٌ ولا نَعْجَةٌ إلا وَلَها قَرْناها لَيْسَ بِهِمَا أيُّ مَانِعٍ يَمْنَعُ مِن تَوْجِيْهِهِمَا إليهِ وَطَعْنِ المانِعِ بِهِمَا الطَّعْنَ الأليمَ . وإنما كانَتْ أقْوَى مَا كَانَتْ لِيَكُوْنَ وطؤُها ونَطْحُهَا وعَضُّها بمُنْتَهى القُوَّةِ . وإذَا كَانَ مَبطُوحاً لَهَا

وهِيَ تَتردَّدُ عَلَيهِ بالوَطْءِ كانَ أَمْكَنَ لَهَا في فِعْلِ ما تُعَذِّبُهُ بهِ وهَذا العَذابُ لا يكونُ زَمَنُه قَلِيْلاً ولكنَّهُ يَدُوْمُ ما دَامَ المَوقِفُ .

ومِقْدَارُ المَوْقِفِ خَمْسونَ ألفَ سَنَةٍ ونَوعٌ آخرَ مِن الْعَذَابِ خَاصٌ بمانِعِ الزكاةِ وهو أنْ يُوْضَعَ حَجَرٌ مُحْمَى عليهِ وقَدْ زِيْدَ في حَرَارَتِهِ فأُحْمِيَ عليهِ كذلك في نار جَهَنَّمَ فلا يَتَحَمَّلُ اللَّحْمُ شِدَّةَ حَرَارَتِهِ فَيَذُوْبُ ذَوَباناً فَيَدْخُلُ الحَجَرُ الجِسْمَ واللَّحْمُ يَذوْبُ أمامَهُ حَتى يَخْرُجَ مِن القِطْعَةِ الرَّقِيْقَةِ التي في طَرَفِ الكتِفِ .

ثُمَّ يُوضَعُ عَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ الرَّقِيْقَةِ وَقَدْ عَادَ الْجِسْمُ إلى مَا كَانَ عَلَيْهِ فيُفْعَلُ بِهِ كَمَا تَقَدَّمَ يَخْرُجُ مِنْ حَلَمَةِ ثَدْيِهِ وَيَزِيْدُ في الألَم حَالَ التَّعْذِيْبِ أَنَّ الحَجَرَ يَتَزَلْزَلُ لا يَمُرُّ فِيْ الْبَدَنِ مُسْتَقِيْماً وَقْتَ نُفُوْذِهِ .

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعَامِلَنَا بِعَفْوِهِ وَجَمِيْعَ الْمُسْلِمِيْنَ وَقَدْ لَا يَكُوْنُ هَذَا الْعَذَابُ كَافِياً فَيَكُونُ سَبِيْلَهُ إلى النَّارِ التِّيْ فِيْهَا أَلْوَانُ الْعَذَابِ الأَلِيْمِ مِنْ زَقُّوْمٍ وَحَمِيْمٍ وَغَسَّاقٍ وَضَرِيْعٍ وَوَيْلٍ وَغِسْلِيْنٍ .

وَلِمَنْعِ الزَّكَاةِ شَكْلٌ آخرٌ من الشُّؤْمِ الدُّنْيَوِي غَيْرُ مَا تَقَدَّمَ كَمَا فِيْ حَدِيْثِ مَا تَلِفَ مَالٌ فِيْ بَرّ وَلَا بَحْرٍ إلَّا بَحَبْس الزَّكَاةِ فَالْحَدِيْثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أيُّ مَالٍ يَضِيْعُ فِيَ أيِّ مَكَانٍ فِيِ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ سَبَبُ تلفِهِ تَرْكُ الزَّكَاةِ . وَهِيَ عُقُوبَةٌ تَعْكِسُ على الْمَانِعِ قَصْدَهَ ، إذْ هَوَ يَقْصِدُ بِمَنْعِهِ لَهَا تَكْثِيرَ الْمَالِ وَالْهُرُوْبِ من نَقْصِهِ باخراجِ القَدْرِ الواجِبِ مِنهُ . ولَوَ أَخْرَجَ القَدْرَ الواجِبَ وهُوَ قَلِيْلٌ مِن كَثِيْرٍ ، لَحُفِظَ مَالُه بإِذْنِ اللهِ ولكانَ لَهَ ثَوابٌ عظيمٌ هوَ ثوابُ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الإِسلامَ ، ولكانَ لَهُ مِن الفضْلِ على المُعْطَى مَا لا يَنْسَاهُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ .

أَمَّا العُقُوبةُ الأُخرْوِيَّةُ فَالنارُ الَّتِيْ قال الله تعالى عنها : ﴿كَلَّا إِنهـا لظَى نَزَاعةٌ لِلشَّوَى تَدْعُو مَن أَدْبرَ وَتَولىّ وَجَمعَ فَأَوْعَى﴾ .

فَعَلَيْكَ أيُّها العَاقِلُ ، أنْ تُحَاسِبَ نَفْسَكَ بِدِقَّةٍ وَتُقَوِّمَ ما أَعْدَدْتَه لِلبَيْعِ والشِراءِ وأن تُبرِىءَ ذِمَتَكَ بِيقِيْنٍ ، بإخراجِ الزكاةِ كُلِّهَا إذَا تَمَّ الحَولُ ، وأَنْ لا تَدْفَعَهَا إلا لِمَن تَعْلَمُ أَنَّهُ مِمَّنْ يَسْتَحِقها يَقِيْناً أَوْ يَغْلِبُ عَلَى الظَنِّ أَنَّهُ مِن أهلِها .

واحْذَر كُلَّ الحَذَرِ مِنَ التَّهَاوُنِ بِتَرْكِ شَيءٍ مِنها أو التَّسْوِيْفِ بِها أوْ سُلُوكِ الطُرقِ المُلْتويةِ لِلتَّخَلُّصِ مِن أدَائِهَا أوِ التَّحَايُلِ على تَركِ شَيءٍ منها فَكُلُّ حِيلةٍ تُستَعْمَلُ لِتضْيِيْعِ حَقٍ مِن حُقُوق اللهِ أو حُقُوقِ عبادِهِ أوْ تُبِيحُ ما حَرَّمَ اللهُ أو تَحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ فَهِيَ مِن الحِيلِ المُحَرَّمَةِ التي سَيُجازَى عليها أشَدَّ الجَزَاءِ وما رَبُّكَ بظلامٍ لِلْعَبيد .

ويَجُوزُ تَعْجِيْلُ الزكاةِ لِحَولَين فَأَقَلَّ إذا كَمُلَ النِصابُ لِمَا وَرَدَ عن علي علَيه السلامُ أنَّ العَبَاسَ بنَ عبدِ المُطَّلِب سَأل النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم في تَعْجِيلِ صَدَقَتِهِ قَبْلَ أن تَحِلَّ فَرَخَّصَ له في ذلك رواه الخمسة الا النسائي .

وعن أبي هريرةَ قال بَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم عُمَرَ على الصدقةِ فَقِيْلَ مَنَعَ ابنُ جَميلٍ وخالدُ بنُ الوليدِ والعَبَاسُ فقال رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ما يَنْقِمُ ابنُ جَمِيْلٍ إلَّا أنَّهُ كان فقيراً فأغناهُ اللهُ ورسولهُ وَأَما خالدٌ فإنكم تظلمون خالداً وقد حَبَسَ أَدْراعَهُ وَأَعْتَادَهُ في سبيلِ اللهِ وأَمَا العَبَاسُ فَهِيَ حَقٌ عَلَيَّ وَمثلُهَا مَعهَا ثُمَّ قَال يَا عُمَرُ أَمَا شَعِرْتَ أنَّ عَمَّ الرجلِ صِنْوُ أبيهِ متفقٌ عليهِ .

اللهم اغفر لنا ما قَطعَ قُلُوبَنا عن ذِكرك واعفُ عن تَقْصِيرنا في طاعَتِكَ وشُكْرِكَ وأدمْ لَنَا لزُومَ الطريق إليكَ وهَبْ لنا نوراً نَهْتَدِي به إليكَ واسْلُكْ بنا سَبيْلَ أَهْلِ مَرْضَاتِكَ واقْطعْ عَنَّا كُلَّ ما يُبعدُنا عَن سَبيْلِكَ ويَسِّرْ لَنَا ما يَسَّرْتَهُ لأَهْلِ مَحَبَّتِكَ وأَيْقِظْنَا مِن غَفَلاتِنَا وألهِمْنَا رُشْدَنا وحَقِّقْ بِكَرمِكَ قَصْدَنَا واسْتُرْنَا في دُنيانا وآخِرَتِنَا واحْشُرْنَا في زُمْرَةِ المتقين وألحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصالِحين واغفر لنا ولِوالدينا ولِجميع المسلمين الأَحْيَاءِ

منهم والميتين برَحْمَتِك يا أرحَمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

*** في بعض آداب الزكاة :**

قال في مِنهاجِ القاصِدين إعلم أن على مُريد الزكاةِ وظائفا :

الوَظِيفَةُ الأُوْلَى : أن يَفْهَمَ المرادَ مِنَ الزكاةِ ، وهو ثَلاَثَةُ أَشْيَاءَ : إبْتِلاَءُ مُدَّعِي مَحَبةِ اللهِ تعالى ، باخراجِ مَحْبُوبِهِ والتنزُهُ عن صفةِ البُخْلِ المُهْلِكِ ،وشُكرُ نعمةِ المال .

الوَظِيْفَةُ الثانيةُ : الأسْرَارُ باخْرَاجِهَا لقوله تعالى :﴿ إن تُبْدُوْا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وإن تُخْفُوها ، وتُؤتُوها الفُقَراء فهو خيرٌ لكم ﴾ وحديثِ السبعةِ وَعَدَّ مِنهم رَجُلاً تَصَدَّقَ بِصَدَقةٍ فأَخْفَاهَا حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ لِكَوْنِهِ أَبْعَدَ عن الرِّياءِ والسُّمْعَةِ ، وفي الإِظْهَارِ إِذْلالٌ لِلْفَقِيْرِ أَيْضَاً ، فإِنْ خَافَ أنْ يُتَّهَمَ بِعَدَمِ الإِخْرَاجِ أَعْطَى مَن لاَ يُبَالِي مِنَ الفُقَراءِ بالأخْذِ بَيْنَ الجماعَةِ علانِيَةً وأَعْطَى غَيْرَهُ سِراً .

الوظيفةُ الثالثةُ : أَنْ لا يُفْسِدَها بالمَنِّ والأذى . وذلك أنَّ الإنسانَ اذا رَأىَ نَفْسَهُ مُحْسِناً إلى الفَقِيرِ مُنْعِمَاً عليه بالاعطاءِ ، رُبَّمَا حَصَلَ منه ذلكَ ، ولو حَقَّقَ النظرَ لَرأَى الفقيرَ مُحْسِناً إليه ، بقَبُولِ حَقِ اللهِ الذي هُوَ طُهْرٌ له ، واذا اسْتَحْضَرَ مَعَ ذلكَ أنَّ إخراجَهُ لِلزَكاةِ شُكْرٌ لِنِعْمَةِ المالِ ، فلا يَبْقَى بَيْنَهُ وبينَ الفقيرِ مُعَامَلَةٌ ، ولا يَنْبَغِي أنْ يَحْتَقِرَ الفقيرَ بِفَقْرِهِ لأَنَّ الفَضْلَ لَيْسَ بالمالِ ولا النقصَ بعدَمِهِ .

الوظيفةُ الرابعةُ : أنْ يَسْتَصْغِرَ العَطيَّة ، فإنَّ المُسْتَعْـظِمَ لِلْفعْل مُعْجَبٌ بِهِ ، وقَدْ قِيْلَ : لَا يَتِمُّ المَعرُوْفُ إلا بثلاثٍ : بِتَصغيرِهِ وتعجيلِهِ وسَتْرِهِ .

الوظيفةُ الخامسةُ : أن ينتَقِي مِن مَالِهِ أحلَّهُ وأَجْوَدَهُ وأَحَبَّهُ إليهِ ، أما الحِلُ فإنَّ اللهَ تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيّباً . وأمَّا الأجْوَدُ فقَد قال الله تعالى : ﴿ ولا تَيَمَمُوا الخبيثَ منه تُنفقون ﴾ .

وعن عبد اللهِ بن عمر رضي الله عنهما قال : أصَابَ عُمَرُ أَرْضَا بِخَيْبَرَ ، فأتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْتَأْمِرُه فيها ، فقال : يا رسول الله إني أصَبْتُ أرضاً لم أُصِبْ مالاً قطُّ هُوَ أنْفَسُ عِندي منه ، فما تأمُرني ؟ قال : ان شِئْتَ حَبَّسْتَ أصْلَها وتصَدَّقْتَ بها . قال : فتصدَّقَ بها عُمَرُ ، غيرَ أنَّهُ لا يُبَاعُ أَصْلُها ولا يُورَثُ ولا يُوهَبُ . قال : فَتَصَدقَ بها عُمَرُ في الفُقَراءِ وذَوِيِ القُربَى وفي الرِقابِ وفي سبيل اللهِ وابنِ السبيلِ والضَّيفِ ، لا جُنَاحَ على مَن وَلِيَها أنْ يَأْكُلَ مِنها بالمَعْرُوفِ أو يُطْعِمَ صَديقا غيرَ مُتمَولٍ فيه ، وفي لفظ غَيْرَ مُتَأثِلٍ رواه الجماعة .

وعن أنس ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : كان أبو طَلحةَ ـ رضي الله عنه ـ أكثرَ الأنصارِ بالمدينةِ مالاً مِن نَخلٍ ، وكان أحبَّ أَمْوَالِهِ اليهِ بَيْرُحاء ، وكانَتْ مَسْتَقْبِلَةَ المَسجدِ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَشْرَبُ مِن ماءٍ فِيها طيّبٌ . قال أنسُ : فَلَمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ ﴿ لن تنالوا البِرَّ حتى تُنفقوا مِمَّا تُحبون ﴾ جَاء أَبُو طلحةَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : يَـا رسـولَ اللهِ ، إن الله تعالى أنزَلَ عليك ﴿ لن تَنالُوا البِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون ﴾ وإن أَحَبَّ مَالي إليَّ بَيْرُحَاء وأنها صَدقَةٌ للهِ تعالى

أَرْجُو بِرَّهَا وذُخرَهَا عِنْدَ اللهُ تعالى فَضَعْهَــا يا رَسولَ اللهِ حَيْثُ أمَرَكَ اللهُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بَخٍ بَخٍ ذلك مالٌ رابحٌ ، وقد سَمِعْتُ ما قُلْتَ ، وإنِّي أَرَى أن تَجْعَلها في الأَقْرَبِينَ ، فقال أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يا رَسُولَ اللهِ ، فقَسَّمَهَا أَبُو طَلْحَةَ في أَقارِبِهِ وَبَني عَمِّهِ متفق عليه .

وَيَنْبَغِي أنْ يُلاَحِظَ في ذلك أَمْرَيْن :

أَحَدُهُمَا : حَقُ اللهِ سبحانه وتعالى بالتَّعْظِيمِ لَهُ ، فَإِنَّهُ أَحَقُّ من إخْتيرَ لَهُ ، ولو أن الإنسانَ قَدَّمَ إلى ضَيفِهِ طعاماً رَدِيئاً لأوغرَ صَدْرَهُ .

والثاني : حَقُ نفسِهِ فإن الذي يُقَدِّمُهُ هو الذي يَلْقَاهُ غَداً في القيامَةِ فَيَنْبَغِي أنْ يَخْتَارَ الأَجْوَدَ لِنَفْسِهِ ، وأَمَّا أَحَبَّهُ إليهِ ، فَلقوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ .

وكان ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ اذا اشتدَّ حبُه لِشَيءٍ مِن مَالِهِ قَرَّبَهُ للَّهِ عزَّ وجلَّ . وَرُوِيَ أنه نَزَلَ الجُحفَةَ وهُوَ شَاكٍ ، فقال : إنِّي لَأشْتَهِي حِيْتَاناً فالتَمَسُوا لَهُ فلَم يَجِدُوْا لَهُ إلا حُوْتاً فأخَذَتْهُ امرأتُهُ فَصَنَعَتْهُ ، ثم قَرَّبَتْهُ إليهِ فأتى مسكينٌ ، فقال ابنُ عُمَر ـ رضي اللهُ عنهما ـ خُذْهُ ، فَقالَ لَهُ أَهْلُهُ : سُبْحَانَ اللهِ قد عَنَّيْتَنا ومَعَنَا زَادُ نُعْطِيهِ ، فقال : إن عبدَ الله يُحبُه .

وَرُوِيَ أن سَائلاً وَقَفَ بِبَابِ الربيعِ بنِ خَيْثَمَ رحمَه اللهُ تعالى ، فقال : أَطْعِمُوهُ سُكَّراً ، فإن الربيعَ يُحِبُّ السُّكر .

الوظيفةَ السادِسَةُ : أن يَطْلُب لِصَدَقَتِهِ مَن تزكُو بِهِ ، وهُم خُصُوصٌ مِن عُمُومِ الأصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ ، ولهم صِفاتٌ :

الأُولى : التَّقْوى ، فَلْيَخُصَّ بصَدَقَتِهِ المتّقِينَ فإنه يَرُدُّ بها هَمَهَم إلى اللهِ تعالى ، وفي الحديث الذي رواه ابنَ حبانَ في صحيحِـهِ عن أبي سعيدِ الخدري عن النبي صلى الله عليه وسـلم أطعِمُوا الأَتْقِيَاءَ وأَوْلُوا مَعْرُوفَكُم المؤمنين ، وقد كانَ عَامِرُ بنُ عبدِ اللهِ بنَ الزبير يَتَخَيَّرُ العُبَّادَ وهم سُجُودٌ فيأتيهم بالصُرَّةِ فيها الدنانيرُ والدراهِمُ فَيَضَعُهَا عندَ نِعَالِهِم بحَيْثُ يُحِسونَ بها ولا يَشْعُرونَ بمَكَانِهِ ، فقيلَ لَهُ : ما يَمْنَعُكَ أن تُرْسِلَ بها إليهِم ؟ فيقُولُ أكرَهُ أن يَتَمعَرَ وَجْهُ أحَدِهِم إذا نَظَرَ إلى رَسُولِيَ .

الصفةُ الثانيةُ : العِلمُ فإنَ إعطَاءَ العالِم إعانَةٌ على العِلْمِ ونَشْرِ الدينِ ، وذلك تَقْوِيَةٌ لِلشريعةِ .

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ : أَنْ يَكُوْنَ مِمَّنْ يَرَى الإِنْعَام مِنَ اللهِ وحدَه ولا يَلْتَفِتُ إِلَى الأَسْبَابِ إلا بقَدْرِ ما نُدِبَ إليهِ مِن شُكْرِها ، فأَمَّا الذي عَادَتُهُ المَدْحُ عندَ العَطَاءِ فانَّهُ سَيَذُمُّ عندَ المنع .

الصفةُ الرابعةُ : أَنْ يكونَ صائناً لِفَقْرِهِ ، سَاتِرَاً لِحَاجَتِهِ ، كاتِماً لِلشَّكْوَى ، كما قال تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ .

ومِن آدابِ المُـزَكِّي التي تَتَأَكَّـدُ عليه أَنْ يكُـونَ طَيِّبَ النَّفْسِ بإِخْرَاجِهَا فَرِحـاً مَسْرُورَاً مُسْتَبْشِـرَاً بقَبُولِ الفقيـرِ المُسْتَحِقِ لِزَكَـاتِـهِ ، وَلْيَحْـذَرْ مِن أنْ يَكُونَ كارِهاً لإِخْرَاجِهَا فإِنَّهُ مِن صِفَاتِ المنافِقِين ، قال الله تعالى : ﴿ ولا يُنفِقونَ الا وهم كارهون ﴾ وأَخْبَرَ سُبحَانَهُ أن المنافِقَ يُصَلِي ولكن لا يَأْتِيْهَا الا وَهُوَ كَسْلان وقَدْ يُزَكِي ولكن مَعَ الكَرَاهَةِ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَن تشبَّهَ بقَومٍ فهو مِنْهُم » وفي لفظ : « ليسَ منا مَن تَشَبَّهَ بِغيْرِنا » وهو حديث جيد .

عبادَ اللهِ أنْ كُنْتُم في سَعةٍ مِن العَيْشِ فاحْمَدُوْا اللهَ تَعالَى أن جَعَلَكُمْ مِن أهْلِ الإيسَارِ وأديْمُوا شُكْرَهُ يُدِمْ عَليكُم النِّعْمَةَ ويَزِدْها ، وهو الكريمُ الجوادُ . ومِن تَمامِ النِعمَةِ أن تَنسَّخُوْا مِنَ الزكاة بإخراجِها كاملةً إلى ذَوي الحَاجاتِ لعلكم أنْ تَفُوزُوا بالخَلَفِ والثَّوابِ الجَزيْلِ مِن فاطِرِ الأرضِ والسَّمواتِ ، أَحْسِنُوا إلى عِبَادِ الله كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إليكُمْ وَراعُوا عندَ الإحسانِ الأدَبَ فلا تَمُنُوا على الفَقِيْرِ ولا تُؤْذُوْهُ فإن ذلك مُحْبِطٌ لِلأعمَالِ واسْتُرُوْا عَطاءَكُم مُخْلِصِينَ مُتَيَقِنِيْنَ أنَّ حَاجَتَكُمْ إلى الثَّوابِ وتكفيرِ الذُنُوبِ أَشَدُّ مِن حَاجَةِ الفقير إلى ما تُخْرِجُونَ . واعْلَمُوا أن إحْسَانَكُمْ إنَّما هو لِأنْفسِكُم وَاعْصُوا الشيطانَ فإنَّهُ يأمُرُ بالبُخْلِ وينْهَى عن العَطْفِ على المَسَاكِين ، يُخِيفُكُمْ إن تَصَدَقْتُم أنْ يَذهَبَ مَالكُم وأَنْتُم تَعْلَمُون أنَّ نَصِيْحَةَ العَدُوِ مَهْلَكَةٌ ، وقد أخبرَ اللهُ جَلَّ وعَلاَ أن الشيطَانَ للإنسانِ عَدُوٌّ مُبِيْن ، وأَخْبَرَ صلى الله عليه وسلم أنهُ مَا مِن يَومٍ يَصبحُ العِبادُ إلا مَلَكَانِ ينزلانِ فيَقُوْلُ أَحَدُهما اللَّهم أَعْطِ مُنْفِقاً خلفاً وَيقول الآخرُ اللَّهم أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفَا . رواه البخاري ومسلم .

اللهمَّ اعصِمْنَا عَنِ المخالفةِ والعصيانِ وألْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ يا كريمُ يا مَنّان واغفر لنا ولوالدَينا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتكَ يا أرحمَ الراحمين وصلَى الله على محمد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ .

*** فَصْلٌ فِيْمَنْ تَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَة :**

إعلم وفَّقَنا اللهُ وإياكَ وجمِيْعَ المُسْلِمينَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، أَنَّ مِمَّا

يَتَعَيَّنُ على كُل مُؤْمِنٍ أن يَصُوْنَ نَفْسَهُ عنه ، مَسألةَ الناسِ إلا عندَ الضَرُورةِ أوِ الحاجَةِ الشَّدِيدةِ الَّتِي لا بُدَّ لَهُ منها ولا غنى له عَنها ، وذلِكَ لِما وَرَدَ عَن قَبِيْصَةَ بنِ مُخَارِقٍ الهِلاَلِي قال : تَحَمَّلْتُ حَمَالةً ، فأتَيْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أسْأَلُه فيها ، فقال : أَقِمْ حتى تَأتينا الصَّدَقة فآمُرَ لكَ بها ثم قال يا قَبِيصَةُ إن المسألَةُ لا تَحِلُ إلا لأَحَدِ ثلاثةٍ رَجُلٍ تحمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ المسألَةُ حَتَّى يُصيبَهَا ثم يُمْسِكُ . أو رَجُلٌ أَصابَتْهُ جَائحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لهَ المَسألَةُ حتى يُصيبَ قِوَاماً مِن عَيْشٍ ، أو قال سَدَاداً مِن عَيْشٍ وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حتى يَقُوْمَ ثلاثَة ، مِن ذَوِي الحِجَا مِن قومِهِ يقولُونَ لَقَدْ أصَابَتْ فلاناً فاقَةٌ ، فَحَلَّتْ له المسألَةُ حتى يُصِيْبَ قِواماً مِن عَيْشٍ أو قال : سَداداً مِن عَيْشٍ ـ فَمَا سِوَاهُنَّ مِن المسألةِ يا قَبيصةُ سحتٌ يأكُلُها صَاحِبُها سُحتَا

* **التحذيرُ مِن أخذِ الصدقةِ لِمن لا تحِلّ لَهْ :**

عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سأَلَ الناسَ أموالَهُم تَكَثُراً فإنَّما يَسألُ جَمْراً ، فَلْيَسْتَقِلِ أو لِيَسْتَكثِرَ » .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال ، قَال رســول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يزالُ الرجلُ يَسْأَلُ حتى يأتيَ يومَ القيامةِ ليس في وجهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ » .

وعن معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ قالَ : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُلْحِفُوا في المسألة . فَواللهِ لا يَسْأَلُني أحدٌ منكم شيئاً

فَتخْرِجُ لَه مَسْألَتُهُ مِنّي شَيئاً أنا كارِهٌ له ، فيُبارَكُ لهُ فيما أَعْطَيْتُه » .

وعن الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأنْ يأخُذَ أحدُكم حَبْلَه فيأتِي بحُزْمَةِ حَطَبٍ على ظهرِهِ فَيَبيْعَها ـ يَكَفَ اللهُ بِها وَجْهَهُ ـ خيرٌ له مِن أَنْ يَسألَ الناسَ : أَعْطَوْهُ أَو مَنَعُوْه » .

وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدَبٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّما المَسَائلُ كدُوْحُ يَكْدَحُ بهِا الرجلُ وجهَه ، فمَنْ شَاءَ أبقَى على وجْهِهِ ، ومَن شَاءَ ترَكَ ، إلا أن يَسألَ الرجلُ ذا سُلطانٍ أو في أَمْرٍ لَا يَجِدُ منهُ بُد » .

وعن عبدِ الله بن مسعودٍ ـ رَضِيَ اللهَ عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن سَألَ الناسَ وله ما يُغْنِيهِ : جَاءَ يومَ القيامةِ ومَسألتَه خُموشٌ أوْ خُدوشٌ أو كُدُوحٌ » ، قيلَ يا رسولَ اللهِ ، وما يُغْنِيْه ؟ قال : « خَمْسُونَ دِرهما أو قيمَتُها مِنَ الذَهبِ » .

ولأبي داودَ عن سهلِ بن الحَنْظَلِيَّةِ ، قيلَ : وما الغِنَى الذي لا يَنْبَغِي معه المسألة ؟ قالَ صلى الله عليه وسلم : « قَدْرُ ما يُغَدِّيْهِ أو يُعَشِّيْهِ » .

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً مِن الأنصارِ أَتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْأَلُهُ ، فقال : « ما في بَيْتِكَ شَيءٌ . قال : بَلَى ، حِلْسٌ نَلْبَسُ بعضَه ونَبْسُط بَعْضَه وقَعْب نَشْرَبُ فيه الماءَ ، قال : ائْتِنِي بهما ، فأتاه بهِما ، فأخذَهما رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيدِه وقال : مَن

يَشْتَرِي هذين ؟ قال رجلٌ :

أنَا أخُذُهُما بدِرْهمٍ ، قال صلى الله عليه وسلم مَن يَزيدُ على دِرْهَم ، مَرَّتَيْنِ أو ثَلاثاً ؟ قال رجلٌ : أنا أخذُهُمَا بدِرهَمين ! فأعطاهُما إيَّاه ، فأخَذَ الدِرْهَمَين وأعْطَاهُما الأنَصارِي وقال : اشْتَرْ بأحدِهِما طَعَاماً فانْبِذهُ إلى أهْلِكِ ، واشْتَرْ بالآخر قَدُوْماً فأتْنِي به ، فَأتَى به فَشَدَّ فيه صلى الله عليه وسلم عوداً بيدَهِ ، ثم قَال : اذْهَبْ فاحتَطِبْ ، وبِعْ ولاَ أرَينَّكَ خَمْسَةَ عَشَر يوَماً ، فَذَهَبَ الرجلُ يَحْتَطبُ ويَبيْعُ ، فجَاءَ وقدْ أصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِم فاشْتَرى بِبعْضِها ثَوْباً وببَعْضِها طعاماً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا خَيْرٌ لَكَ مِن أن تَجِيءَ المسألةُ نُكتَةً في وَجْهِكَ يَومَ القيامةِ ، ان المسألةَ لا تَصْلُحُ الا لِثَلاثَةِ : لِذي فَقرٍ مُدْقِعٍ ، أوْ لِذِي غُرْمٍ مُقْطِع ، أو لِذِي دَمٍ مَوْجِع » .

ولِلتّرمذِي نَحْوُه عن حَبَشِي بن جُنَادَة ، وفيه : « ومَن سَألَ الناسَ لِيُثْرِيَ به مالَهُ كَانَ خُمُوشاً في وجْهِهِ يومَ القيامةِ ، وَرَضْفاً يأكله في جَهنَّمَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُقْلِلْ ، ومَن شَاءَ فَلْيُكْثِرْ » .

وعن ابن مَسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن نَزَلَتْ فاقةٌ بهِ فأنْزَلَها بالناسِ لم تُسَدَّ فَاقَتُهُ ، ومَن نَزَلَتْ به فاقة فأنْزَلَها باللهِ فَيُوشِكُ اللهُ لهُ برِزْقٍ عَاجِلٍ أو آجِلٍ » .

وعن أبي كَبْشَةَ عَمروٍ بن سَعْدٍ الأنْمَارِي ـ رضي اللهُ عنه ـ أنه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ : ثلاثةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وأُحَدِثُكُم حَديثاً فاحْفَظُوه : ما نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِن صَدَقَةٍ ، ولاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيها إلا زَادَهُ اللهُ عِزَا ، ولا فَتَحَ عَبدٌ بابَ مسألةٍ إلا فَتحَ اللهُ عليه بابَ

فَقْرٍ ـ أو كَلِمَةً نَحْوَهَا ـ

وَعَنْ ثَوْبَانَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْه وسَلَّمَ : « مَنْ يَتَكَّفل لِيْ أَنْ لاَ يَسْأَل النَّاسَ شَيْئاً أَتَكَفَّلُ لَهُ الجَنَّةَ ؟ فَقُلْتُ : أَنَا ! فَكَانَ لا يَسْأَلُ أَحداً شَيْئاً » .

وعَنْ حَكِيْم بْنِ حِزَامٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلى الله عَليه وسَلم فَأَعْطَانِي ، ثُمَّ قَالَ « يَا حَكِيْمُ ، إِنَّ هَذَا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَن أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُوْرِكَ لَهُ فِيْهِ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِاشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيْهِ ، وكَانَ كَالذِي يَأْكُلُ ولَا يَشْبَعُ ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنْ اليَدِ السُّفْلَى ، قَالَ حَكِيْمُ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَالذِيْ بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَا أَرزَأُ أَحداً بَعْدَكَ شَيْئاً حَتَّى أُفارِقَ الدُّنْيَا » .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ مَا أَحْسَنَ أَنْ يَعِيْشَ المَرْءُ قَانِعاً بِمَا رَزَقَهُ اللهُ في هَذِهِ الحَيَاةِ فَلا يَمُدُّ بَصرَهُ إلى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَلا تَتَطَلَّعُ نَفْسُهُ إلى سَلْبِ حُقُوقِ النَّاسِ أَوْ ظُلْمِهِمْ وَالاعْتِدَاءِ عَلَى مَا وَهَبَ اللهُ لَهُمْ مِنْ نِعَمٍ جِسَامٍ فَانَّ القَانِعَ يَشْعُرُ وَيُحِسُّ بِسَكِيْنَةٍ وَطُمَأْنِيْنَةٍ كَمَا يَشْعُرُ بِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَن كُلِّ الخَلْقِ قَالَ الشَّاعِرُ :

إذَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا قَنُوعاً
فَأَنْتَ وَمَالِكُ الدُّنْيَا سَوَاءُ

وَذَلِكَ أَنَّ لَهُ نَفْساً رَاضِيَةً بِمَا قَسَم اللهُ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً لَمْ يَتَسرَّبْ اليهَا الجَشَعُ وَالطَّمَعُ اللذَان هُمَا مِنْ أَقْبح القَبَائِحِ وَأَسْوأِ الشَّمَائِلِ وَلاَ يَزَالُ

صَاحِبُ هَذَيْنِ أَوْ أَحَدُهُمَا إلَّا وَهُوَ مَذْمُومٌ وَبأقبح الصِّفَاتِ مَوْسُومٌ لَا تَعْرُضُ لَهُ القَنَاعَةُ وَلَوْ كَانَتَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَهُ . قَدْ مَلَأَ حُبُّهَا قَلْبَهُ وَغَمَرَ مَحَبَّتُها وَالتَّفَانِي فِي طَلَبِهَا قَلْبَهُ وَصَارَ لَا يَرْضَى مِنْهَا باليَسِيْرِ وَلَا يَقْنَعُ بالكَثِيْرِ وَقَلَّمَا تَجِدُ مُتَّصِفاً بِهَذَا الوَصْفِ إلَّا وَهُوَ مُتَشَتِّتُ الفِكْرِ قَلِيْلُ الرَّاحَةِ عِنْدَهُ مِنَ الحَسَدِ والهَلَعِ وَضَعْفِ التَّوَكُّلِ عَلى اللهِ الشَّيْءَ الكَثِيْرَ الذِيْ يُخْشَى عَلَيْهِ مَعَ اسْتِدَامَتِهِ مَعَهُ مِنْ سُوْءِ الخَاتِمَةِ .

أَمَّا القَانِعُ ذُوْ النَّفْسِ الأَبيَّةِ الرَّاضِيَةِ المُطْمَئِنَّةِ المُتَوكِّلَةِ عَلَى اللهِ فَيُرجَى لهَا أَنْ تَنَالَها الآيَة الكَرِيْمَةُ : ﴿يَا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّة ارْجِعِيْ الى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ الآيةِ .

قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ مَنْ أَصْبَحَ آمِناً في سِرْبِهِ مُعَافَى فِيْ بَدَنِهِ مَعَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ فكأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيْرهَا .

وقَالَ ابْنُ مَسْعُوْدٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مَا مِنْ يَوْمٍ الَّا يُنَادِي فِيْهِ مَلَكٌ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ يَا ابْنَ آدَمَ قَلِيْلٌ يَكْفِيْكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيْرٍ يُطْغِيْكَ .

وقَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ : أَطْيَبُ العَيْشِ القَنَاعَةُ وَأَنْكَدُ العَيْشِ الجَشَعُ وَمِنْ الاخْلَاقِ الذَّمِيْمَةِ التِيْ تَجْعَلُ الانْسَانَ بَخِيْلاً بِمَا فِيْ يَدِهِ مُتَطَلِّعاً لِمَا في أَيْدِيْ النَّاسِ الحِرْصُ والافْرَاطُ في حُبِّ الدُّنْيَا وَجَمْعِهَا وَلَوْ أَدَّى ذَلِكَ إلى اهْدَارِ الكَرَامَةِ وَارَاقَةِ مَاءِ الوَجْهِ فَالحَذرَ عِبَادَ اللهِ مِنْ الحِرْصِ عَلى الدُّنْيَا فَإِنَّ حُبَّهَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ .

شِعْراً :

وَانِّيْ امْـرُؤٌ بِالـطَّبْـعِ أَلْغِيْ مَـطَامِعِيْ
وَأزْجُـرُ نَفْسِيْ طَابِعـاً لاَ تَـطَبُّعَـا
وَعِنْـدِيْ غِنَى نَفْسٍ وَفَضْـلُ قَنَـاعَـةٍ
وَلَسْتُ كَمَنْ إنْ ضَاقَ ذَرْعاً تَضَـرَّعَا
وَإنْ مَــدَّ نَحْـوَ الـزَّادِ قَـوْمٌ أَكُفَّهَـا
تَـأَخَّرْتُ بَـاعاً إنْ دَنَـا القَوْمُ أَصْبُعَـا
وَمُــذْ كَـانَتْ الـدُّنْيَا لَـدَيَّ دَنِيْئَـةً
تَعَـرَّضْتُ لِلإِعْـرَاضِ عَنْهَـا تَـرَفُّعَـا
وَذَاكَ لِـعِلْمِــيْ إنَّـمَــا الـلَّهُ رَازِقٌ
فَمَنْ غَيْـرُهُ أَرْجُـو وَأَخْشَى وَأُجـزَعَـا
فَلاَ الضَّعْفُ يُقْصِي الرِّزْقَ انْ كَانَ دَانِياً
وَلاَ الحَـوْلُ يُـدْنِيْـهِ إذَا مَـا تَجـزَّعَـا
فَلاَ تَبْطِرَنْ إنْ نِلْتَ مِنْ دَهْرِكَ الغِنَى
وَكُنْ شَامِخاً بِالأنْفِ إنْ كُنْتَ مُدْقِعاً
فَـقَــدْرُ الفَـتَـى مَــا حَــازَهُ وَأَفَـادَهُ
مِنْ العِلْمِ لاَ مَـالٌ حَـوَاهُ وَجَمَّعَـا
فَكُنْ عَـالِماً في النَّـاسِ أَوْ مُتَعَلِّمـاً
وَإنْ فَـاتَكَ القِسْمَـانِ أَصْغِ لِتَسْمَعَـا
وَلاَ تَكُ لِلأَقْسَامِ مَا اسْتَطَعْتَ رَابِعَا
فَتُــدْرَأَ عَنْ وُرْدِ النَّجَـاةِ وَتُــدْفَعَـا

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا بَدِيعَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ نَسْأَلُكَ أَنْ تُوفِّقَنا لِمَا فِيهِ صَلاَحُ دِيْنِنا وَدُنْيَانَا وَأَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا وَأَكْرِمْ مَثْوَانَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيُّ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبي صَلَّىَ اللهُ عَليْهِ وَسَلم تِسْعَة أو ثَمَانِية أو سَبْعَةً ، فَقالَ : « ألا تُبايعُونَ رَسُولَ اللهِ ؟ وَكُنَّا حَدِيْثِيْ عَهْدِ بِبيْعَةٍ ، فَقُلْنَا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رسُولَ اللهِ ! ثُمَّ قَالَ : أَلاَ تُبَايعُونَ رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : فبَسَطْنَا أَيْدِيْنَا وَقُلْنَا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ ، فعَلاَمَ نُبَايعُكَ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بهِ شَيْئاً ، والصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، وَتُطِيْعُوا اللهَ وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً ، وَلاَ تَسْأَلُونَ النَّاسَ شَيْئاً ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُوْلَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوطُ أَحَدِهِمْ فَما يَسْأَلُ أَحَداً يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ .

وَعَنْ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ قَالَ : شَرِبَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لَبناً فَأَعْجَبَهُ ، فَسَأَلَ الذي سَقَاهُ : مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ ؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ وَرَدَ عَلى مَاءٍ ـ قَدْ سَمَّاهُ ـ فإذَا نَعَمُ مِنْ نَعَم الصَّدَقَةِ وَهُمْ يَسْقُوْنَ ، فَحَلَبُوا مِنْ أَلْبَانها فَجَعَلْتُهُ فِي سِقَائِي فهو هذا فَأَدْخَلَ عُمَرُ يَدَهُ في فَمِهِ فَاسْتَقَاءَ . أي أَخْرَجَهُ مِن جَوْفِهِ .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : كَانَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِيْنِي العَطَاءَ ، فَأَقُولُ أَعْطِهِ أَفْقَرَ مِنِّي ، فَقَالَ : خُذْهُ

فتمَوَّلْهُ وَتَصَدَّقْ بِهِ ، فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ وَأنتَ غَيْرَ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ ، فَخُذْهُ ، وَمَالَا فَلا تُتْبِعْهُ نَفسَكَ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ ابْنِ السَّاعِدِي قَالَ : اسْتَعْمَلَنِي عُمَرُ عَلى الصَّدَقَةِ ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْهَا وَأَدَّيْتُها الَيْهِ أَمَرَ لِي بِعَمَالَةٍ . فَقُلْتُ انَّما عَمِلْتُ لِلهِ ، قَالَ : خُذْ مَا أُعْطِيْتَ فاني قَدْ عَمِلْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَعَمَّلَنِي ، فَقُلْتُ : مِثْلَ قَوْلِكَ . فَقَالَ لِيْ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم : « إِذَا أُعْطِيْتَ شَيْئاً مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْأَلَهُ فَكُلْ وَتَصدَّقْ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ : أَنَّ أُنَاساً مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلم فَأَعْطَاهُم ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُم حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ : « مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ اللهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ ، وَمَا أُعْطِي أَحَدٌ عَطَاءً خيراً وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ » رَوَاهُ الخَمْسَةُ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضْيَ اللهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عليه وسَلم قَالَ : « لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ » رَوَاهُ البُخَارِي وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا .

وَقَدْ اشْتَمَلَ الحَدِيْثَانِ الأَخِيْرَانِ عَلى جُمَلٍ جَامِعَةٍ نَافِعَةٍ :

الأوْلَى : قَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ اللَّهُ » فَفِيْهَا الحَثُّ عَلى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلى انْصِرَافِهَا عَنْ التَّعَلّقِ بِالمَخْلُوقِيْنَ ، وَذلِكَ بِالاسْتِعْفَافِ عَمَّا فِي أَيْدِيْهِمْ ،فَلا يَطْلُبُ مِنْهُم شَيْئاً لا

بِلَسَانِ الحَالِ وَلاَ بِلِسَانِ المَقَالِ ، بَلْ يَكُوْنُ معْتَمِداً عَلى اللهِ وَحْدَهُ .

وَفي الجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ : وَهِيَ قَوْلُه صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ » الحَثُّ عَلى الاسْتِغْنَاءِ بِاللَّهِ وَالثِّقَةِ بِهِ والاعْتِمَادِ عَلَيْهِ في الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْلِ .

والثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : « وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ » فَفِيْهَا أَيْضاً الحَثُّ عَلى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى الصَّبْرِ الذِي هُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى مَا تَكْرَهُ تَقَرُّباً إلى اللّهِ لأَنَّهُ يَحْتَاجُ إلى الصَّبْرِ عَلى طَاعَةِ اللهِ حَتَّى يُؤَدِّيْهَا وَعَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ حَتّى يَتْرُكَهَا لِلهِ ، وَإلى الصَّبْرِ عَلى أَقْدَارِ اللهِ المُؤْلِمةِ فَلا يَتَسَخَّطْ .

وَفي الحَدِيْثِ الآخَرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ . . . الخ » بَيَانٌ أَنَّ الغِنى لَيْسَ بِسَعَةِ الثَّرْوَةِ وَوَفْرَةِ المالِ وَكثْرَةِ المَتَاعِ ، وَلَكِنْ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ ، فَمَنِ اسْتَغْنَى بِمَا فِي يَدِه عَمَّا في أيْدِي النَّاسِ ، وَلَمْ تَشْرُفْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَلَمْ تَتَطَلَّعْ إلَيْهِ فَهُوَ الغَنِيُّ الجَدِيرُ بِلَقَبِ الغَنِيّ ، وانْ كَانَ في المَالِ مُقِلاً ، إذْ رِضَاهُ بِمَا قَسَمَ اللهُ ، وَعِفَّتُهُ وَزُهْدهُ وَقَنَاعَتُهُ جَعلَتْهُ في دَرَجَةٍ مِنْ الغِنَى دُوْنَهَا بِطَبَقَاتٍ أَهْلُ الثَّرَاءِ الذِيْنَ حُرِمُوْا الزَّهَادَةَ وَالقَنَاعَةَ وَالرِّضَا بمَا كَتَبَ اللهُ لَهُمْ ، الذِيْنَ تَذْهَبُ أَنْفُسُهُمْ حَسْرَةً إذَا فَاتَتْهُم صَفْقَةٌ أَوْ ضَاعَتْ عَلَيْهِمْ فُرْصَةٌ . بَلْ مَا جَاءَهُ رَضِيَ بِهِ وَقَنِعَ بِخَلاَفِ مَنْ كَثُرَ مَالُهُ وَتَشَعَّبَتْ أَمْلاَكُهُ وَصارَ قَلْبُهُ مُوَزَّعاً بَيْنَ ضَيْعَتِهِ وَعِمَارَاتِهِ وَذَهَبِهِ وَفِضَّتِه وَأَوْرَاقِهِ وَسَائِرِ أَمْوَالِهِ وَلَيْسَ لَهُ هَمٌّ إلاَّ جَمْعُ المَالِ فَهُو مَعْشُوْقُهُ يَحْرِصُ عَلَيْهِ أَشدَّ الحِرْصِ ، وَيَتَميَّزُ غَيْظاً إذَا فَاتَهُ مِنْهُ القَلِيْلُ وَبِوُدّه لَوْ ضَمَّ مَا فِي أَيْدِيْ النَّاسِ إلى مَا فِي يَدِهِ فَصَارَ لاَ

يَتَلَذذُ بِمَأْكَلٍ وَلاَ بِمَشْرَبٍ وَلاَ يَرْتَاحُ لِمنَادمَةِ جَلِيْسٍ لاشْتِغَالِ قَلْبِهِ بِهِ فَهَذَا هُوَ الفَقِيْرُ حَقّاً المحْرُوْمُ صِدْقاً وَصَدَقَ مَنْ قَالَ :

وَمَنْ يُنْفِقْ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ
مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالذي فَعَلَ الفَقْرُ

اللَّهُمَّ يسِّرْ لَنَا أَمْرَ الرِّزْقِ وَاعْصِمْنَا مِنْ الحِرْصِ وَالتَّعَبِ في طَلَبِه وَمِنْ شَغْلِ القَلْبِ وَتَعَلُّقِ الهَمِّ بِهِ ، وَمِنْ الذُّلِّ لِلخَلْقِ بِسَبَبِهِ وَمِنْ التَّفكِيْرِ وَالتَّدْبِيْرِ في تَحْصِيْلِهِ ، وَمِنْ الشُّحِّ وَالحِرْصِ عَلَيْهِ بَعْدَ حُصُولِهِ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الاحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ أُوْصِيْكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللهِ العَزِيزِ العَلَّامِ الحَيِّ القَيُّوْمِ الذِي لَا يَنَامُ وَأُوْصِيْكُم في مُعَامَلَتِهِ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ في الاقْدَامِ وَالاحْجَامِ وَالفَزَعِ الَيْهِ عِنْدَ تَفَاقُمِ الشَّدَائِدِ وَاشْتِبَاهِ الاحْكَامِ ، والاعْتِمَادِ عَلَيْهِ في الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْلِ ، والتَّسْلِيْمِ لَهُ في النَّقْضِ وَالابْرَامِ ، وَالرَّغْبَةِ فِيْمَا لَدَيْهِ فَبِيَدَيْهِ الخَيْرُ وَهُو الكَرِيْمُ الجَوَادُ ، وَمُقَابَلَةِ قَضَائِه بِحَقِيْقَةِ الرِّضى والاسْتِسْلَامِ ، أَمَا خَلَقَكُم وَأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَة وَهُو جَزِيْلُ الانْعَامِ ، أَمَا شَرَّفَكُمُ وَفَضَّلَكُمُ بِجَزِيْلِ العُقُولِ وَالافْهَامِ ، أَمَا أوضَحَ لَكُمْ الطَّرِيْقَ المُوصِلَ إلى دَارِ السَّلَامِ ، أَمَا بَعَثَ إلَيْكُم مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَبْلِيْغِ الشَّرَائِعِ وَالاَحْكَامِ ، أَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا أَوْدَعَهُ فِيْهِ مِنَ الأَحْكَامِ ، أَمَا دَعَاكُمْ إلى

التَّوكُّلِ عَلَيْهِ وَالاعْتِصَامِ ، أَمَا حَثَّكُم إلى العَمَلِ فِيْمَا يُقَرِّبُ إلى دَارِ السَّلَامِ ، أَمَا حَذَّرَكُمْ عَوَاقِبَ مَعَاصِيْهِ وَنَهَاكُمْ عَنْ الآثامِ ، أَمَا أَنْذَرَكُم هَوْلَ يَوْمٍ أَطْوَلَ الأَيَّامِ ، اليَوْمُ الذي يَشِيْبُ فِيْهِ الوِلْدَانْ ، وَتَنْفَطِرُ فِيْهِ السَّمَاءُ ، وَتَنْكَدِرُ فِيْهِ النُّجُومِ ، وَتَظْهَرُ فِيْهِ أُمُورٌ عِظَامٌ ، أَمَا خَوَّفَكُمْ مَوَارِدَ الحِمَامِ ، أَمَا ذَكَّرَكُم مَصَارِعَ مَن قَبْلَكُمْ مِنْ الأَنَامِ ، أَمَا أَمَدَّكُم بالأبْصَارِ وَالاسْمَاعِ وَصِحَّةِ الاجْسَامِ ، أَمَا وَعَدَكُمْ بقَبُولِ تَوْبَةِ التائِبِيْنَ رَحْمَةً مِنْهُ جَرَتْ بِهِ الاقْلَامُ ، فَوَاللهِ لَحُقَّ لِهَذا الرَّبِ العَظِيْمِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى عَلَى الدَّوَامِ ، فَيَا أَيُّهَا الشُّيُوخُ بَادِرُوا فَمَا لِلَّزرْعِ اذَا أُحْصَدَ الَّا الصِّرَامُ ، وَيَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ جُدُّوا في العَمَلِ فَرُبَّ امْرِىءٍ مَا بَلَغَ التَّمَامَ ، وَاحْذَرُوا عِقَابَ رَبِّكُم يَوْمَ يُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالاقْدَامِ ، يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّموات وَبَرَزُوا لِلهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ، يَوْمٌ مَا أَطْوَلَ الوُقُوْفَ فِيْهِ وَأَثْقَلَهُ عَلى كُلِّ مُجْرِمٍ جَبَّارٍ يَوْمُ المُنَاقَشَةُ فِيْهِ عَنْ الفَتِيْلِ وَالنَّقِيْرِ وَالقِطْمِيْرِ وَصَغَائِرَ الاعْمَالِ وَالكَبَائِرْ ، فَتَأَهَّبُوا لِذَلِكَ اليَوْمِ العَظِيْمِ وَاسْتَعِدُّوا لَهُ أَتَمَّ اسْتِعْدَادٍ .

شِعْراً :

لَكَ الحَمْدُ وَالنَّعْمَاءُ وَالمُلْكُ رَبَّنَا
وَلَا شَيْءَ أَعْلَا مِنْكَ مَجْداً وَأَمْجَدُ
مَلِيْكٌ عَلى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِنٌ
لِعِزَّتِهِ تَعْنُوا الوُجُوْهُ وَتَسْجُدُ
فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَقْدُرُ الخَلْقُ قَدْرَهُ
وَمَنْ هُوَ فَوْقَ العَرْشِ فَرْدٌ مُوَحَّدُ

وَمَنْ لَمْ تُنَازِعْهُ الخَلائِقُ مُلْكَهُ
وَإنْ لَمْ تُفَرِّدْهُ العِبَادُ فَمُفْرَدُ
مَلِيْكُ السَّمَوَاتِ الشِّدَادِ وَأَرْضِهَا
وَلَيْسَ بِشَيءٍ عَنْ قَضَاهُ تَأَوُّدُ
هَوَ اللّهُ بَارِي الخَلْقِ ، وَالخَلْقُ كُلُّهُمْ
إمَاءٌ لَهُ طَوْعاً جَمِيْعاً وَأَعْبُدُ
وَأنَّى يَكُوْنُ الخَلْقُ كَالخَالِقِ الذِيْ
يُمِيْتُ وَيُحْيِي دَائِباً لَيْسَ يَهْمِدُ
تُسَبِّحُهُ الطَّيْرُ الجَوانِحُ في الخَفَا
وَإذْ هِيَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ تُصَعِّدُ
وَمِنْ خَوْفِ رَبِّي سَبَّحَ الرَّعْدُ فَوْقَنَا
وَسَبَّحَهُ الأشْجَارُ وَالوَحْشُ أبَّدُ
وَسَبَّحَهُ النِّيْنَانُ وَالبَحْرُ زَاخِراً
وَمَاطَمَّ مِنْ شَيءٍ وَمَا هُوَ مُقْلَدُ
ألَا أيُّهَا القَلْبُ المُقِيْمُ عَلى الهَوَى
إلى أيِّ حِيْنٍ مِنْكَ هَذا التَّصَدُّدُ
عَنْ الحَقِّ كَالأعْمَى المُمِيْطِ عَنْ الهُدَى
وَلَيْسَ يَرُدُّ الحَقَّ الَّا مُفَنَّدُ
وَحَالَاتُ دُنْياً لَا تَدُوْمُ لِأَهْلِهَا
فَبَيْنَ الفَتَى فِيْهَا مَهِيْبٌ مُسَوَّدُ
إذْ انْقَلَبَتْ عَنْهُ وَزَالَ نَعِيْمُهَا
وَأَصْبَحَ مِنْ تُرْبِ القُبُوْرِ يُوَسَّدُ

وَفَـارَقَ رُوْحـاً كَـانَ بَيْنَ جَنَـانِـهِ
وَجَـاوَرَ مَـوْتَـى مَـا لَهُـمْ مُـتُـرَدَّدُ
فَـأَيُّ فَـتًى قَـبْـلِيْ رَأَيْـتَ مُـخَـلَّداً
لـهُ في قَـدِيمِ الـدَّهْـر مَـا يَتَـوَدَّدُ
فَلَمْ تَسْلَمْ الـدُّنْيَا وَانْ ظَنَّ أَهْلُهَـا
بِصِحَّتِهَـا وَالـدَّهْـرُ قَـدْ يَتَـجَـرَّدُ
أَلَسْتَ تَـرَى فِيْمَـا مَضَى لَـكَ عِبْـرَةً
فَمَـهْ لَا تَكُنْ يَـا قَلْبُ أَعْمَى يُلَدَّدُ
فَكُنْ خَـائِفـاً لِلْمَـوْتِ وَالـبَعْـثِ بَعْـدَهُ
وَلَا تَـكُ مِـمَّـنْ غَـرَّهُ الـيَـوْمُ أَوْ غَـدُ
فَـإِنَّـكَ فـي دُنْـيَـاً غَـرُورٍ لِأَهْـلِهَـا
وَفِيْهَـا عَـدُوٌّ كَـاشِـحُ الصَّـدْرِ يُـوْقِـدُ

اللَّهُمَّ أَرْحَمْ غُرْبَتَنَا في القُبُورِ وَآمِنَّا يَوْمَ البَعْثِ وَالنُّشُوْرِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

فَصْلٌ في صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ

يَبْحَثُ في :

١ ـ مَا وَرَدَ مِنْ الآثَارِ الشَّرْعِيَّةِ في فَضْلِهَا .
٢ ـ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ .

٣ ـ بَيَانُ عِظَمِ ثَوَابِ الصَّدَقَةِ في شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَفِي الحَرَمَيْنِ .
٤ ـ الأَوْلَوِيَّةُ في الصَّدَقَةِ لِلأقرِبَاءِ وَطُلاَبِ العِلْمِ .

١ ـ مَا وَرَدَ مِنْ الآثَارِ الشَّرْعِيَّةِ في فَضْلِهَا :

تُسَنُّ صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ في كُلِّ وَقْتٍ ، قَالَ تَعالَى : ﴿ مَنْ ذَا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيْرَةً . . . الآية ﴾ ، وَعَنِ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إلاَّ الطَّيِّبَ ، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِيْنِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ : كُنَّا في صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ قَوْمٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ العَبَاءِ ، مُتَقَلِّدِيْ السُّيُوفِ ، عَامَّتُهم مِنْ مُضَر بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَر . فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُوْلِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَم لِمَا رَأى بِهِمْ مِنْ الفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلاَلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ، ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ : ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ـ إلى آخِرِ الآيةِ ـ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيْبا﴾ والآيَةُ التي في الحَشْرِ ﴿ اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ تَصَدَّقَ رجُلٌ مِنْ دِيْنَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ حَتَّى قَالَ : وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ قَالَ : فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَتِفُهُ تَعْجَزُ عَنْهَا ، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ .

ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهِ

رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ كَأَنَهُ مِذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَهَذَا الكَلَامُ البَلِيْغُ دَعْوَةٌ إِلى التَّنَافُسِ فِي الخَيْرِ والتَّسَابُقِ فِي افْتِتَاحِ مَشْرُوْعَاتِهِ .

وَعَنْ أَبِي مَسْعُوْدٍ الأَنْصَارِيْ رَضِي اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلى رَسُوْلِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ بِنَاقَةٍ مَخْطُوْمَةٍ . فَقَالَ : هَذِهِ فِي سَبِيْلِ اللهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ سَبْعُمَائَةِ نَاقَةٍ كُلُّها مَخْطُوْمَةٌ » .

وَعَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مَرْفُوعَا : « إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ ، وَتَدْفَعُ مِيْتَةَ السُّوْءِ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ .

وَكَمَا أَنَّهَا تُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَهِيَ تُطْفِىءُ الذُّنُوبَ وَالخَطَايَا كَمَا يُطْفِىءُ الماءُ النَّارَ .

وَعَنْ مِرْثَد بنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ : حَدَّثَنِيْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَقُولُ : « إِنَّ ظِلَّ المُؤمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ صَدَقَتُهُ » رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَصَدَقَةُ السِّرِّ أَفْضَلُ مِنْ صَدَقَةِ العَلانِيَةِ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ إِنْ تُبْدُوْا

الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عليه وسلمَ أَنَّهُ قَالَ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ الا ظِلُّهُ » وَذَكَرَ مِنْهُم رَجُلا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَفي التِّرْمِذِي عَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَل قَالَ : كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمَاً قَرِيْبَاً مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيْرُ فَقَالَ : أَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَبوابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، والصَّدَقَةُ تُطفِىءُ الخَطِيْئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ الماءُ النَّارَ ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ شِعَارُ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ تَلَا ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهم خَوْفَاً وَطَمَعَاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾ وَفِي بَعْضِ الآثَارِ بَاكِرُوا بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ البَلَاءَ لَا يَتَخَطَّاها .

وَفي حَدِيْثِ سَعِيْدِ بنِ المُسَيِّبِ عَنْ عَبدِ الرَّحْمنِ بنِ سَمُرَةَ بنِ جُنْدَبٍ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَوْماً وَكُنَّا في صُفَّةٍ بِالمَدِيْنَةِ فَقَامَ عَلَيْنَا فَقَالَ إِنِّي رَأَيْتُ البَارِحَةَ عَجَباً رَأَيْتُ رَجُلا مِنْ أُمَّتِي أَتَاهُ مَلَكُ المَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوْحَهُ فَجَاءَ بِرُّهُ بِوَالِدَيْهِ فَرَدَّ مَلَكَ المَوْتِ عَنْهُ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدْ بُسِطَ عَلَيْهِ عَذَابُ القَبْرِ فَجَاءَهُ وُضوؤُهُ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَرَأَيْتُ رَجُلا مِنْ أُمَّتِي قَدْ احْتَوَشَتْهُ الشَّيَاطِيْنُ فَجَاءَهُ ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وجلَّ وَطَرَدَ الشَّيَاطِيْنَ عَنْهُ وَرَأَيْتُ رَجُلا مِنْ أُمَّتِي قَدْ احْتَوَشَتْهُ مَلائِكَةُ العَذَابِ فَجَاءَتْهُ صَلَاتُهُ فَاسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ أَيْدِيْهِمْ وَرَأَيْتُ رَجُلا مِنْ أُمَّتِي يَلْتَهِبُ وَفِي رِوَايَةٍ يَلْهَثُ عَطَشاً كُلَّمَا دَنَا مِنْ حَوْضٍ مُنِعَ وَطُرِدَ فَجَاءَهُ صِيَامُ رَمَضَانَ فَسَقَاهُ وَأَرْوَاهُ وَرَأَيْتُ رَجُلا مِنْ أُمَّتِي وَرَأَيْتُ النَّبِيِّيْنَ جُلُوْساً حِلَقاً

حِلَقاً كُلَّما دَنَا إِلَى حَلْقِةٍ طُرِدَ فَجَاءَهُ غُسْلُهُ مِنَ الجَنَابَةِ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَقْعَدَهُ إِلَى جَنْبِي ، وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ ظُلْمَةٌ وَمِنْ خلفِهِ ظُلْمَةٌ وَعَنْ يَمِيْنِهِ ظُلْمَةٌ وَعَنْ يَسارِهِ ظُلْمَةٌ وَمِنْ فَوْقِهِ ظُلْمَةٌ وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِيْهَا فَجَاءَهُ حَجُّهُ وَعُمْرَتُهُ فَاسْتَخْرَجَاهُ مِنْ الظُّلْمَةِ وَأَدْخَلاَهُ فِيْ النُّوْرِ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي يَتَّقِي بِوَجْهِهِ وَهجَ النَّارِ وَشَرَرَه فَجَاءَتْهُ صَدَقَتُهُ فَصارَتْ سُتْرَةً بَيْنَهُ وَبينَ النَّارِ وَظَلَّلَتْ عَلَى رَأْسِهِ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي يُكَلِّمُ المُـؤْمِنيـنَ. وَلاَ يُكَلمُونَهُ فَجَاءَتْهُ صِلَتُهُ لِرحِمِهِ فَقَالَتْ يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِيْنَ انهُ كَانَ وَصُولاً لِرَحِمِهِ فَكَلِّمُوهُ فَكَلَّمَهُ المُؤْمِنُونَ وَصافَحُوهُ وَصافَحَهُمْ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ احْتَوَشَتْهُ الشَّيَاطِيْنُ فَجَاءَهُ أَمْرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُه عَنْ المُنْكَرِ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ أَيْدِيْهِمْ وَأَدْخَلَهُ في مَلائِكَةِ الرَّحْمَةِ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي جَاثِياً عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَبَيْنَهُ وَبينَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ حِجابٌ فَجَاءَهُ حُسْنُ خُلُقِهِ فَأَخَذَ بِيَدِهِ وَأَدْخَلَهُ عَلَى اللهِ .

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ ذَهَبَتْ صَحِيْفَتُهُ مِنْ قِبَلِ شِمَالِهِ فَجَاءَهُ خَوْفُهُ مِنْ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فَأَخَذَ صَحِيْفَتَهُ فَوَضَعَهَا في يَمِيْنِهِ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي خَفَّ مِيْزَانُهُ فَجَاءَهُ أَفْرَاطُهُ فَثَقَّلُوا مِيْزَانَهُ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَائِماً عَلَى شَفِيْرِ جهنَّمَ فَجَاءَهُ رَجَاؤُهُ في اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذَلِكَ وَمَضى .

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَدْ أَهْوَى في النَّارِ فَجَاءَتْهُ دَمْعَتُهُ التِي بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ ذَلِكَ .

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي قَائِماً عَلَى الصِّرَاطِ يَرْعُدُ كَمَا تَرْعُدُ السَّعْفَةُ في رِيْحٍ عَاصِفٍ فَجَاءَهُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَسَكَنَ رِعْدَتَهُ وَمَضَى ،

وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِن أُمَّتِي يَزْحَفُ عَلى الصِّرَاطِ وَيَحْبُو أَحْيَاناً وَيتَعَلَّقُ أَحْيَاناً فَجَاءَتْهُ صَلاَتُهُ فأَقَامَتْهُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَأَنْقَذَتْهُ وَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِيْ انْتَهَى إلى أَبْوَابِ الجَنَّةِ فَغُلِّقَتْ الأَبْوَابُ دُوْنَهُ فَجَاءَتْهُ شَهَادَةُ أنْ لَا اله إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُوْلُ اللهِ فَفُتِحَتْ لَهُ الأَبْوَابُ وأَدْخلتهُ الجَنَّةَ رَوَاهُ الحَافِظُ أبو مُوْسَى المَدِيْنِي قَالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ وَكانَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنْ تَيمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوْحَهُ يُعَظِّمُ شَأْنَ هَذا الحَدِيثِ وَبلَغَنِي عَنْهُ أنهُ كَانَ يَقُولُ شَوَاهِدُ الصِّحَّةِ عَلَيْهِ انْتَهَى .

وَبِمُنَاسَبَةِ سِيَاقِهِ هُنَا قَوْلُهُ فَجَاءَتْهُ صَدَقَتُهُ فَصارَتْ سِتْرَاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ وَظَلَّلَتْ عَلى رَأْسِهِ : قَالَ: رَحِمَهُ اللهُ وَفِي تَمْثِيْلِ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لِلصَّدَقَةِ بِمَنْ قُدِّمَ لِيُضْرَبَ عُنُقُهُ فَافْتَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِمَالِهِ كِفَايَةَ فَإِنَّ الصَّدَقَةَ تَفْدِي العَبْدَ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى فَإِنَّ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ تَقْتَضِي هَلاكَهُ فَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ تَفْدِيْهِ مِنْ العَذَابِ وَتَفُكُّهُ مِنْهُ وَلِهَذَا قَالَ النَّبي صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ في الحَدِيْثِ الصَّحِيْحِ لَمَّا خَطَبَ النِّسَاءَ يَوْمَ العِيْدِ : « يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ فإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » وَكأَنَّهُ حَضَّهُنَّ وَرَغَّبَهُنَّ عَلَى مَا يَفْدِيْنَ بِهِ أَنْفُسَهُنَّ مِنْ النَّارِ » .

اللَّهُمَّ قَوِّ إيْمَانَنَا بِكَ وَبِمَلائِكَتِكَ وَبِكُتُبِكَ وَبِرُسُلِكَ وَ باليَوْمِ الآخِرِ وَبِالقَدَرِ خَيْره وَشَرهِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْناَ وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَصَدَقَةُ التَّطَوُّعِ بِطِيْبِ نَفْسٍ أَفْضَلُ مِنْهَا بِدُونِهِ ، لِمَا في حَدِيْثِ

مُعَاوِيَةَ الغَاضِري قالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم : « ثَلاثٌ مَنْ فَعَلهُنَ فَقَد ذَاقَ طَعْمَ الايْمَانِ : مَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ ، وَعَلِمَ أَنْ لا إِله إلَّا الله وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُه » رَوَاهُ أَبُودَاوُدَ .

وَالصَّدَقَةُ فِي الصِّحَّةِ أَفْضَلُ مِنْهَا في غَيْرِهَا ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ـ رَضِي اللهُ عَنهُ ـ قال : جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْراً ؟ قَالَ : « أَنْ تصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيْحٌ شَحِيْحٌ تَخْشَى الفَقْرَ وَتَأْمَلُ الغِنَى ، وَلَا تُهْمِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومُ قُلتَ : لِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلانٍ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

فَالعَاقِلُ مَنْ يُسَابِقُ في مَيْدَانِ الخَيْرَاتِ بِمَا يُقَدِّمُهُ مِنَ الصِّلَةِ والاحْسَانِ لِإِخْوَانِهِ الفقَرَاءِ الذِيْنَ أَنَاخَ الفَقْرُ عَلَيْهِمْ وَعَضَّهُمْ البُؤْسُ بِنَابِهِ وَأَوْجَعَهُمْ بِكِلَابِهِ الذينَ لَا مَوارِدَ لَهُمْ لَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيْرٌ الذينَ لَوْ رَأَيْتَهُمْ لظَنَنْتَهُمْ مِنْ الأغْنِيَاءِ وَأَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالمَالِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُقَاسُوْنَهُ مِنَ الدُّيُونِ لِمَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ الصِّغَارِ وَالكِبَارِ وَمَا يُقَاسُوْنَ مِنْ أَلَمِ الجُوْعِ وَالفَقْرِ وَالشِّدَةِ وَالعُسْرِ لَكِنْ يَمْنَعُهُمْ الحَيَاءُ وَعِزَّةُ النَفْسِ أَنْ يَمُدُّوْا أَيْدِيَهِمْ لِلسُّؤَالِ وَأَنْ يَطْلُبُوْا الرِّزْقَ الا مِنْ اللهِ الكَبِيْرِالمُتَعَالِى الرَّزَّاقِ وَهَؤُلاءِ هُمْ الذِيْنَ يَنْبَغِي الاعْتِنَاءُ بِهِمْ وَالبَحْثُ عَنْ أَحْوالِهِمْ وَذَلِكَ عَنْ طَرِيْقِ جِيْرَانِهِمْ وَأقْرِبَائِهِمْ حَتى تَقَعَ الصَّدَقَةُ مَوْقِعَهَا وَقَدْ وَرَدَ في القُرآنِ وَصْفُهُمْ قَالَ تَعَالى : ﴿ يَحْسَبُهُمْ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ ﴾ .

وَأَوْصَى بِهِمْ النَّبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ فَفِي الحَدِيْثِ الذيْ رَوَاهُ البُخَارِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ قَالَ: « لَيْسَ المِسْكِيْنُ الذي يَطُوفُ عَلى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ وَلَكِنْ

المِسْكِيْنُ الذي لا يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ وَلا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ » .

وَلَمَّا كَانَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ حَرِيْصِيْنَ جِدَّاً عَلَى مَا يُقَرِّبُ إلى اللهِ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ سَأَلَ أَحَدُهُم النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ فَأَجَابَهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيْحٌ » أَيْ الجِسْمُ مُعَافاً في البَدَنِ تَتَمَتَّعُ بِقوَاكَ العَقْلَيَّةِ وَالجِسْمِيَّةِ شَحِيْحٌ تَأْملُ الغِنَى أَيْ تَطْمَعُ فِيْهِ لِقُدْرَتِكَ عَلَيْهِ عَنْ طَرِيْقِ المَكَاسِبِ وَالأَرْبَاحِ وَتَخْشَى الفَقْرَ « وإِنَّما كَانَتْ الصَّدَقَةُ في هَذِهِ الحَالِ أَفْضَلُ لِما تَسْتَدْعِيْهِ مِنْ شِدَّةِ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلى إِخْرَاجِ المَالِ مَعَ قِيَامِ المَانِعِ وَهُوَ الشُّحُّ فَإِخْرَاجُهُ حِيْنَئِذٍ دَلِيْلٌ وَاضِحٌ عَلَى قُوَّةِ الايمَانِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ وَصِحَّةِ القَصْدِ وَشِدَّةِ الرَّغْبَةِ فِيْمَا يُقرِّبُ إلى اللهِ وَلاَ تُهْمِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومُ » أي بَلَغَتِ الرُّوحُ مَجْرَى النَّفسِ وَذلِكَ عِنْدَ الغَرْغَرَةِ « قُلْتَ لِفُلانٍ كَذَا وَلِفُلانٍ كَذَا » وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ المُوصِي وَالمُوصَى لَهُ فَالحَدِيثُ يُرْشِدُنَا إلى أَنَّهُ لا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُؤَخِّرَ الصَّدَقَةَ إلى وَقْتِ مُعَايَنَةِ المَوْتِ وَالايْذَانِ بِالانْصِرَافِ عَنْ الدُّنْيا وَمُفَارَقَةِ نَعِيْمِهَا وَقَدْ نَبَّهَنَا اللهُ جَلَّ وَعَلاَ عَلَى هَذَا حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إلى أَجَلٍ قَرِيْبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِيْنَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

اللهُم اخْتِمْ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ أَعْمَارَنَا وَحَقِّقْ بِفَضْلِكَ آمَالَنَا وَسَهِّلْ لِبُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلَنَا وَحَسِّنْ في جَمِيْعِ الأَحْوَالِ أَعْمَالَنَا يا مُنْقِذَ الغَرْقَى وَيَا مُنْجِيَ الهَلْكَى وَيَا دَائِمَ الإِحْسَانِ أَذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وَأَنِلْنَا مِنْ

كَرَمِكَ وَجُودِكَ مَا تَقَرُّ به عُيُونُنَا مِنْ رُؤْيَتِكَ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

(فَصْلٌ)

رَوَى البُخَارِيْ من حَدِيْثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ»؟ قَالوا يَا رَسُوْلَ اللهِ ، مَا مِنَّا أَحَدٌ الا وَمَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ . قَالَ : « فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ» .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ : « يَقُولُ العَبْدُ : مَالِي مَالِي ، وَإِنَّما مَالَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلاثٌ : مَا أَكَلَ فَأفْنَى ، أوْ لَبِسَ فَأَبْلَى ، أَوْ أَعْطَى فَأَقْنَى ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِنَّاسِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٢ ـ وَأَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدٌ مِنْ مُقِل :

وَكَانَ السَّلَفُ يُؤْثِرُون عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَيُقَدِّمُونَ المَحَاوِيْجَ عَلَى حَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ وَيَبْدَؤُنَ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ في حَالِ احْتِيَاجِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

وَثَبَتَ في الصَّحِيْحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ المُقِلِّ » وَهَذَا المَقَامُ أَعْلَى مِنْ حَالِ الذِيْنَ وَصَفَهُمْ اللهُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَيُطْعِمُوْنَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيْنَاً ﴾ وَقَولِهِ :

﴿ وَآتى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ فَإنَّ هَؤُلاَءِ تَصَدَّقُوا وَهُمْ يُحِبُّونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ وَقَدْ لاَ يَكُون لَهُمْ حَاجَةٌ إلَيْهِ وَلاَ ضَرُورَة وَهؤلاء آثَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ خَصَاصَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إلى مَا أَنْفَقُوهُ ، وَمَنْ هَذَا المَقَامِ تَصَدَّقَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ بِجَمِيْعِ مَالِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ فَقَالَ : أَبْقَيتُ لَهُم اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَهَكَذَا المَاءُ الذي عُرِضَ عَلى عِكْرِمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ اليَرْمُوكِ فَكُلٌّ مِنْهُمْ يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إلى صَاحِبِهِ وَهُوَ جَرِيْحٌ مُثْقَلٌ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ الى الماءِ فَرَدَّ الآخَرُ إلى الثَّالِثِ فَمَا وَصَلَ إلى الثَّالِثِ حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ يَشْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ .

٣ ـ بَيَانُ عِظَمْ ثَوابِ الصَّدَقَةِ في شَهْرِ رَمَضَانَ وَفي الحَرَمَيْنِ :

وَالصَّدَقَةُ فِي رَمَضَانَ أَفْضَلُ مِنْهَا في غَيْرِهِ لِحَدِيْثِ ابْنِ عَبَّاسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ ـ وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُوْنُ في رَمَضَانَ حِيْنَ يَلْقَاهُ جِبْرِيْلُ يَلْقَاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِيْنَ يَلْقَاهُ جِبْرِيْلُ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيْحِ المُرْسَلَةِ » .

وَلِأَنَّ الصَّدَقَةَ في رَمَضَانَ إعَانَةٌ عَلى أَدَاءِ فَرِيْضَةِ الصَّوْمِ ، وَفي أَوْقَاتِ الحَاجَاتِ أَفْضَلُ مِنْهَا في غَيْرِها لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَو إِطْعَام في يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيْمَاً ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكَيْناً ذا مَتْرَبَةٍ ﴾ .

وَالصَّدَقَةُ في كُلِّ زَمَانٍ فَاضِلٍ كَالعَشْرِ ، أَفْضَلُ مِنْهَا في غَيْرِها لِحَدِيْثِ ابنِ عَبَّاسٍ ـ رضي اللهُ عنهُ ـ : « مَا مِنْ أَيَّامِ العَمَلُ فِيْهِنَّ أَحَبُّ

إلى اللهِ مِن هَذِهِ الأيامِ ، يَعْنِي أَيَّامَ العَشْرِ ، قَالُوا يَا رَسُوْلَ اللهِ وَلاَ الجِهَادُ في سَبِيْلِ اللهِ ؟ قَالَ : وَلاَ الجِهَادُ في سَبِيْلِ اللهِ ، الاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ » .

وَالصَّدَقَةُ في الحَرَمَيْنِ أَفْضَلُ مِنْهَا فِي غَيْرِهِمَا لِتَضَاعُفِ الحَسَنَاتِ بالأَمْكِنَةِ الفَاضِلَةِ .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قالَ : « صَلاَةٌ في مَسْجِدِيْ هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلفِ صَلاَةٍ فِيْمَا سِوَاهُ الا المَسْجِدَ الحَرامَ » . وَزَادَ في رِوَايَةٍ : « فَإِنِّيْ خَيْرُ الأَنْبِيَاءِ وانَّ مَسْجِدِيْ خَيْرُ المَسَاجِدِ » .

وَزَادَ « صَلاَةٌ في المَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيْمَا سِوَاهُ » .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَيَسِّرْنَا لِلْيُسْرَى وَجَنِّبْنَا العُسْرَى وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

٤ ـ الأَوْلَوِيَّةُ في الصَّدَقَةِ لِلأَقْرِبَاءِ وَالجَارِ وَطُلاَّبِ العِلْمِ :

وَالصَّدَقَةُ عَلى ذِي الرَّحِمِ أَفْضَلُ مِنْهَا عَلَى غَيْرِهِ لاَ سِيَّمَا مَعَ عَدَاوَةٍ ، أَمَّا الدَّلِيْلُ عَلى أَفْضَلِيَّتِهَا في القَرَابَةِ فَلِحَدِيْثِ سَلْمَانَ المُتَقَدِّمَ « الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِيْنِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِيْ الرَّحِمِ ثِنْتَانِ : صَدَقَةٌ ، وَصِلَةٌ » .

وَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِيْ طَلْحَةَ :

« وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِيْنَ » فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَسَّمَهَا أَبُوْ طَلْحَةٍ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ .

وَأَمَّا الدَّلِيْلُ عَلَى التَّأَكُّدِ مَعَ العَدَاوَةِ فِلِمَا وَرَدَ عَنْ أُمِّ كُلْثُوْمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الكَاشِحِ رَوَاهُ الطَّبَرَانِي وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيْحِ .

وَعَنْ حَكِيْمِ بْنِ حِزَامٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ قَالَ : إِنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ ، عَنِ الصَّدَقَاتِ أَيُّها أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « عَلَى ذِي الرَّحِمِ الكاشِحِ » .

ثُمَّ الصَّدَقَةُ عَلَى الجَارِ أَفْضَلُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالجَارِ ذِيْ القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ ﴾ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالاَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا زَالَ جِبْرِيْلُ يُوْصِيْنِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ » .

وَعَنْ أَبِيْ شُرَيْحٍ الخُزَاعِيْ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إلى جَارِهِ » .

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَخُصَّ بِالصَّدَقَةِ مَنْ اشْتَدَّتْ حَاجَتُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مِسْكِيْناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ ، وَكَوْنُهَا على عَالِمٍ أَفْضَلُ ، لِأَنَّ في إِعْطَائِهِ اعَانَةٌ عَلى العِلْمِ وَنَشْرِ الدِّيْنِ وَذَلِكَ لِتَقْوِيَةِ الشَّرِيْعَةِ ، وَكَوْنُهَا على صَاحِبِ

دَيْنٍ أفضلُ ، وكَذَا عَلَى ذِي عَائِلَةٍ أَفْضَلُ مِمَّنْ لَيْسَ كَذَلِكَ .

وَالمَنُّ بالصَّدَقَةِ كَبِيْرَةٌ ، وَيَبْطُلُ الثَّوابُ بِهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بالمَنِّ والأذى ﴾ .

وَمَنْ أَخْرَجَ شَيْئاً يَتصَدَّقُ بِهِ ، أَوْ وَكَّل في ذَلِكَ ، ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ لا يَتَصَدَّقَ بِهِ اسْتُحِبَّ أَنْ يُمْضِيَهُ ، وَلاَ يَجِبُ ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو بْنِ العَاصِ رَضْيَ اللهُ عَنهُمَا أَنَّهُ كَانَ اذا أَخْرَجَ طَعَاماً لِسَائِلٍ فَلَمْ يَجِدْهُ عَزلَهُ حَتَّى يَجِيءَ آخَرُ . وَقَالَهُ الحَسَنُ : وَيَتَصَدَّقُ بِالجَيِّدِ وَلاَ يَقْصِدُ الخَبِيْث فَيَتَصَدَّقَ بِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُوْنَ ﴾ وَأَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ المُقِلِّ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ مَرْفُوعَاً « قِيْلَ يا رَسُولَ اللهِ : أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : أَفْضَلُ الصَّدقَةِ جُهْدُ المِقلِّ » .

مَوْعِظَةٌ

اخْوَانِي إِنَّكُمْ في دَارٍ هِيَ مَحَلُّ العِبَرِ وَالآفَاتِ ، وَأَنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَالطَّرِيْقُ كَثِيْرَةُ المَخافَاتِ ، فَتزَوَّدُوا مِنْ دُنْيَاكُمْ قَبلَ المَمَاتِ ، وَتَدَارَكُوا هَفَوَاتِكُمْ قَبْلَ الفَواتِ ، وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ وَرَاقِبُوا اللهَ في الخَلَواتِ ، وَتَفكَّرُوا فِيْمَا أَرَاكُمْ مِنْ الآيَاتِ ، وَبَادِرُوْا بِالأعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، وَاسْتَكْثِرُوا في أَعْمَارِكُمْ القَصِيْرَةِ مِنْ الحَسَنَاتِ ، قَبْلَ أَنْ يُنَادِيْ بِكُمْ مُنادِ الشَّتَاتِ ، قَبْلَ أنْ يُفَاجِئَكُمْ هَادِمُ اللَّذَاتِ ، قَبْلَ أنْ يَتَصَاعَدَ مِنْكُمْ الأنِيْنُ وَالزَّفَرَاتُ قَبلَ أَنْ تَنقَطِعَ قُلُوبُكُمْ عِنْدَ فِرَاقِكُمْ حَسَرَاتٍ ، قَبْلَ أَنْ يَغْشَاكُمْ مِنْ غَمِّ المَوْتِ الغَمَرَاتُ ، قَبْلَ أَنْ تُزْعَجُوا مِنْ القُصُوْرِ إلى بُطُوْنِ

الفَلَوَاتِ ، قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ما تَشْتَهُونَ مِنْ هَذِهِ الحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ تَتَمَنَّوا رُجُوعَكُمْ الى الدُّنْيا وَهَيْهَات .

شِعْرا :

أَيَا لَاهِياً في غَمْرَةِ الجَهْلِ وَالهَوَىٰ
صَرِيْعاً عَلى فُرُشِ الرَّدَى يَتَقَلَّبُ
تَأَمَّلْ هَدَاكَ اللّهُ مَا ثَمَّ وَانْتَبِهْ
فَهَذَا شَرَابُ القَوْمِ حَقًّا يُرَكَّبُ
وَتَرْكِيْبُهُ في هَذِهِ الدَّارِ انْ تَفُتْ
فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ المَنِيَّةِ مَطْلَبُ
فَيَا عَجَباً مِنْ مُعْرِضٍ عَنْ حَيَاتِهِ
وَعَن حَظهِ العَالي وَيَلْهُو وَيَلْعَبُ
ولَو عَلِمَ المَحْرُوْمُ أَيَّ بِضَاعَةٍ
أَضَاعَ لَأَمْسَى قَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
فَإِنْ كَانَ لَا يَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ
وَانْ كَانَ يَدْرِي فَالمُصِيْبَةُ أَصْعَبُ
بَلى سَوْفَ يَدْرِي حِيْنَ يَنْكَشِفُ الغِطَا
وَيُصْبِحُ مَسْلُوباً يَنُوْحُ وَيَنْدِبُ
وَتَعْجَبُ مِمَّنْ بَاعَ شَيْئاً بِدُوْنِ مَا
يُسَاوِي بِلَا عِلْمٍ وَأَمْرُكَ أَعْجَبُ
لأَنَّكَ قَدْ بِعْتَ الحَيَاةَ وَطِيْبَها
بِلَذَّةِ حُلْمٍ عَنْ قَلِيْلٍ سَيَذْهَبُ

فَهَلاَّ عَكَسْتَ الأَمْرَا إنْ كُنْتَ حَازِماً
وَلكِنْ أَضَعْتَ الحَزْمَ وَالحُكْمُ يَغْلِبُ
تَصُــدُّ وَتَنْــأى عَنْ حَبِيْبِــكَ دَائِمــاً
فَـأَيْنَ عَنْ الأحْبَابِ وَيْحَـكَ تَـذْهَبُ
سَتَعْـلَمُ يَــوْمَ الحَشْــرِ أَيَّ تِجَــارَةٍ
أَضَعْتَ إذا تِلْكَ المـوَازِينُ تُـنْصَـبُ

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِنَا سَبِيْلَ الأَبْرَارِ ، واجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ، وَامْنُنْ عَلَيْنَا بِالعَفْوِ وَالعِتْقِ مِنْ النَّارِ ، وَاغْفِرْ لَنَـا وَلِوَالِـدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

فِي ذِكْرِ طَرَفٍ مِنْ الفَوَائِدِ المُتَرَتِّبَةِ عَلى أَدَاءِ الزَّكَاةِ

وَبَذْلِ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ وَالمَضَارِّ المُتَرَتِّبَةِ عَلَى مَنْعِ الزَّكَاةِ : ـ

١ ـ امْتِثَالُ أَمْرِ اللهِ وَرَسُوْلِهِ .

٢ ـ تَقْدِيْمُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ عَلى مَحَبَّةِ المَالِ .

٣ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ بُرْهَانٌ عَلى إِيْمَانِ صَاحِبِهَا كَمَا في الحَـدِيْثِ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ .

٤ ـ شُكْرُ نِعْمَةِ اللهِ المُتَفَضِّلِ عَلى المُخْرِجِ بِمَـا أَعْطَاهُ مِنْ

المَالِ .

٥ ـ السَّلاَمَةُ مِنْ وَبَالِ المَالِ في الآخِرَةِ .

٦ ـ تَنْمِيَةُ الأَخْلاَقِ الحَسَنَةِ والأَعْمَالِ الفَاضِلَةِ الصَّالِحَةِ .

٧ ـ التَّطْهِيْرُ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوْبِ وَالأَخْلاَقِ الرَّذِيْلَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيْهِمْ بِهَا ﴾ .

٨ ـ اضْعَافُ مَادَّةِ الحَسَدِ وَالحِقْدِ وَالبُغْضِ أَوْ قَطْعِهَا كُلِّياً .

٩ ـ تَحْصِيْنُ المَالِ وَحِفْظِهِ لِحَدِيْثِ حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بالزَّكَاةِ .

١٠ ـ انَّ الصَّدَقَةَ دَوَاءٌ مِنْ الأَمْرَاضِ لِحَدِيْثِ « دَاوُو مَـرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ » .

١١ ـ الاتِّصَافِ بِأَوْصَافِ الكُرَمَاءِ .

١٢ ـ إِنَّهَا سَبَبٌ لِدَفْعِ البَلاَءَ .

١٣ ـ التَّمَرُّنِ على البَذْلِ وَالعَطَاءِ .

١٤ ـ أَنَّهَا سَبَبٌ لِدَفْعِ جَمِيْعِ الأَسْقَامِ لِحَدِيْثِ « بَاكِرُوا بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ البَلاَءَ لا يَتَخَطَّاهَـا » .

١٥ ـ انَّهَا سَبَبٌ لِجَلْبِ المَوَدَّةِ لِأَنَّهَا احْسَانٌ ، وَالنُّفُوسُ مَجْبُوْلَةٌ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا .

١٦ ـ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلدُّعَاءِ مِنْ القَابِضِ لِلدَّافِعِ وَتَقَدَّمَتْ الأَدِلَّةُ .

١١٧ ـ أَنَّ مَنْعَ الزَّكَاةِ سَبَبٌ لِمَنْعِ القَطْرِ لِحَدِيْثِ « وَلاَ مَنَعُوْا الزَّكَاةَ الا حُبِسَ عَنْهُمْ القَطْرُ » .

١٩ ـ الفَوْزُ بالمَطْلُوْبِ وَالنَّجَاةِ مِنْ المَرْهُوْبِ قَالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ وَمَنْ يُوْقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلئِكَ هُمْ المُفْلِحُوْنَ ﴾ وَقَدْ فُسِّرَ الفَلاَحَ بِأَنَّهُ الفَوْزُ بالمَطْلُوبِ وَالنَّجَاةُ مِنْ المَرهُوبِ وَهَذَا مِنْ جَوَامِعِ الكَلِمْ .

٢٠ ـ أَنَّهَا تَدْفَعُ مِيْتَةَ السُّوءِ كَمَا في الحَدِيْثِ « انَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِيءُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ مِيْتَةَ السُّوْءِ » .

٢١ ـ أَنَّ المُتَصَدِّقَ يَكُونُ في ظِلِّ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَمَا في الحَدِيْثِ « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ في ظِلّهِ وَذَكَرَ مِنْهُمْ رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ » الحَدِيْثِ وَتَقَدَّمَ وفي الحَدِيْثِ الآخَرِ « وَانَّما يَسْتَظِلُّ المُؤْمِنُ يَوْمَ القِيَامَةِ في ظِلِّ صَدَقَتِهِ » .

٢٢ ـ الفَوْزُ بِالثَّنَاءِ مِنْ اللهِ لأنَّ اللهَ مَدَحَ المُنْفِقِيْنَ وَالمُتَصَدِّقِيْنَ .

٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ـ الفَوْزُ بِالأَجْرِ مِنْ اللهِ وَالأَمْنِ مِمَّا يُخَافُ مِنْهُ وَنَفى الحَزَنَ عَنْهُم قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَالذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

٢٦ ـ أَنَّ أَدَاءَ الزَّكَاةِ سَبَبٌ لِنُزُوْلِ القَطْرِ كَمَّا أَنَّ مَنْعَهَا سَبَبٌ لِحَبْسِهِ .

٢٧ ـ أَنَّهَا سَبَبٌ لِمَحَبَّةِ اللهِ لأَنَّ المُتَصَدِّقَ مُحْسِنٌ عَلَى المُتَصَدَّقِ عَلَيْهِ واللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِيْنَ .

٢٨ ـ السَّلاَمَةُ مِنْ كُفْرِ نِعْمَةِ اللهِ .

٢٩ ـ الخُرُوْجُ مِنْ حُقوقِ اللهِ وَحُقُوقِ الضُّعَفاءِ .

٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ـ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلرِّزْقِ وَالنَّصْرِ كَمَا في الحَدِيْثِ « وَكَثْرَةُ الصَّدَقَةِ في السِّرِّ وَالعَلاَنِيَةِ تُرْزَقُوا وَتُنْصَرُوا وَتُجْبَرُوا » .

٣٣ ـ أَنَّها تُطْفِيءُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ القُبُورِ كَما في الحَدِيْثِ « إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِيءُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ القبُورِ » .

٣٤ ـ أَنَّها تَزِيْدُ في العُمْرِ كَمَا في الحَدِيْثِ « أَنَّ صَدَقَةَ المُسْلِمِ تَزِيْدُ في العُمْرِ » .

٣٥ ـ السَّلاَمَةُ مِنْ الَّلعْنِ الوَارِدِ في مَانِعِ الزَّكَاةِ لِمَا رَوى الأَصْبِهَانِي عَنْ عَلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرِّبَا وَمُوْكِلَهُ وَشَاهِدَهُ وَكَاتِبَهُ وَالوَاشِمَةَ والمُسْتَوْشِمَةَ وَمَانِعَ الصَّدَقَةِ وَالمُحَلِّلَ وَالمُحَلَّلَ لَهُ .

٣٦ ـ الفوزُ بالقُرْبِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ انَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيْبٌ مِنْ المُحْسِنِيْنَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ وَرَحْمَتِيْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ فَسأَكْتُبها لِلذِيْنَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ ﴾ الآيَةِ .

٣٧ ـ الوَعْدُ بِالخَلَفِ لِلْمُنْفِقِ لِحَدِيْثِ « اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً » .

٣٨ ـ الظَّفَرُ بِدُعَاءِ المَلاَئِكَةِ لِلْمُنْفِقِ .

٣٩ ـ أَنَّ في اخْرَاجِ الزَّكَاةِ حَلٌّ لِلأَزَمَاتِ الاْقْتِصَادِيَّةِ وَسُوْءِ الحَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فَلو أَنَّ أهْلَ الأَمْوَالِ الزَّكَوِيَّةِ تَسَخُوا مِنْهَا وَوَضَعُوهَا في مَوَاضِعِهَا لَقَامَتْ المَصَالِحُ الدِّيْنِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ وَزَالَتْ الضَّرورَاتِ وَانْدَفَعَتْ

شُرُوْرُ الفُقَرَاءِ وَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ حَاجِزٍ وَسَدّ يَمْنَعُ عَبَثَ المُفْسِدِيْنَ، وَفِي الحَدِيْثِ «وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم حَمَلَهُم عَلى أنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُم وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُم.

٤٠ ـ أَنَّ اللهَ يُعِينُ المُتَصَدِّقَ عَلى الطَّاعَةِ وَيُهَيِّءُ لَهُ طَرِيْقَ السَّدَادِ وَالرَّشَادِ وَيُذَلِّلُ لَهُ سُبُلَ السَّعَادَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾.

٤١ ـ أَنَّ مَنْعَ الزَّكَاةِ يُخَبِّثُ المَالَ الطَّيِّبَ لِحَدِيْثِ «مَنْ كَسَبَ طَيِّباً خَبَّثَهُ مَنْعُ الزَّكَاةِ، وَمَنْ كَسَبَ خَبِيْثاً لَمْ تُطَيِّبْهُ الزَّكَاةُ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِي في الكَبِيْرِ مَوْقُوْفاً بِإسْنَادٍ مُنْقَطِعٍ.

٤٢ ـ أَنَّ مَنْعَ الزَّكَاةِ سَبَبٌ لِتَلَفِ المَالِ لِحَدِيْثِ «مَا تَلِفَ مَالٌ في بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ إلا بِحَبْسِ الزَّكَاةِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِي في الأَوْسَطِ وَهُوَ حَدِيْثٌ غَرِيْبٌ.

٤٣ ـ أَنَّ مَنْعَ الزَّكَاةِ سَبَبٌ لِلْابْتِلَاءِ بِالسِّنِيْنَ لِمَا في الحَدِيْثِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إلَّا ابْتَلاهُم اللهُ بالسِّنِيْنَ رَوَاهُ الطَّبَرانِي في الأَوْسَطِ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

٤٤ ـ أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ في مَالِهِ أَنَّهُ أَحَدُ الثَّلاثَةِ الذِيْنَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ لِحَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ فَالشَّهِيْدُ وَعَبْدٌ مَمْلُوْكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ وَعَفِيْفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُوْ عِيَالٍ وَأَمَّا أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُوْنَ النَّارَ فَأَمِيْرٌ مُسَلَّطٌ وَذُوْ ثَرْوَةٍ مِنْ مَالٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ في مَالِهِ

وَفَقِيْرٌ فَخُورٌ رَوَاهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ في صَحِيْحِهِ وَابْنُ حِبَّانَ مُفَرَّقاً في مَوْضِعَيْنِ .

٤٥ ، ٤٦ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ يُذْهِبُ اللهُ بِهَا الكِبْرَ وَالفَخْرَ لِحَدِيْثِ « إِنَّ صَدَقَةَ المُسْلِمِ تَزِيْدُ في العُمْرِ وَتَمْنَعُ مَيْتَةَ السُّوْءِ وَيَذْهَبُ بِهَا الكِبْرُ وَالفَخْرُ » رَوَاهُ الطَبرَانِيّ .

٤٧ ـ السَّلامَةُ مِن التَّطْوِيقِ بالشُّجَاعِ الأَقْرَعِ كَمَا في الحَدِيْثِ : « مَا مِنْ أَحَدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إلا مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ يَطَوَّقُ بِهِ عُنُقَهُ » .

٤٨ ـ السَّلَامَةُ مِنْ صِفَةِ المُنَافِقِيْنَ لمَا فِيْ الحَدِيْثِ « ظَهَرَتْ لَهُمْ الصَّلاَةُ فَقَبِلُوْهَا ، وَخَفِيَتْ لَهُم الزَّكَاةُ فَأَكَلُوْهَا أُوْلَئِكَ هُمْ المُنَافِقُونَ» رَوَاهُ البَزارُ .

٤٩ ، ٥٠ ـ إِنَّ البَلَاءَ لَا يَتَخَطَّى الصَّدَقَةَ وَأَنَّهَا تَسُدُّ سَبْعِيْنَ بَاباً مِنْ السُّوْءِ . رَوَاهُ الطبراني في الكَبيْرِ ، وَعَنْ أَنَسٍ بن مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ بَاكِرُوا بالصَّدَقَةِ فإِنَّ البَلَاءَ لَا يَتَخَطَّاهَا رَوَاهُ البَيْهَقِي مَرْفُوعاً وَمَوْقُوفاً عَلى أَنَسٍ وَلَعَلَّهُ أَشْبَهُ .

٥١ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ حِجَابٌ مِنْ النَّارِ لِمَنْ احْتَسَبَهَا لِمَا رُوِيَ عَنْ مَيْمُونَةَ بِنْتِ سَعْدٍ أَنَّها قَالَتْ يَا رَسولَ اللهِ أَفْتِنَا عَنْ الصَّدَقَةِ فَقَالَ إِنَّها حِجَابٌ مِنْ النَارِ لِمَنْ احْتَسَبها يَبْتَغِيْ بِهَا وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِي .

٥٢ ـ أَنَّ اخرَاجَ الصَّدَقَةِ يُؤْلِمُ سَبْعِيْنَ شَيْطَاناً لِمَا وَرَدَ عَنْ بُرَيْدَةَ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ لاَ يُخْرِجُ شَيْئاً مِنْ الصَّدَقَةِ حَتَّى يَفُكَّ عَنْهَا لِحْيَيْ سَبْعِينَ شَيْطَاناً رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالبَزَّارُ وَالطَّبَرانِي وَابْنُ خُزَيْمَةَ في صَحِيْحِهِ .

٥٣ ـ انَّ اللهَ يُسَخِّرُ لِلْمُتَصَدِّقِ مَا يَكُونُ سَبَباً لِنُمُوِّ مَالِهِ كَبَرَكَةٍ في ظماءِ نَهْرٍ وَسَقْيِ أَرْضٍ كَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَا رَجُلٌ في فَلاةٍ مِنْ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتاً في سَحَابَةٍ : اسْقِ حَدِيْقَةَ فُلانٍ فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فأَفْرَغَ مَاءَهُ في حَرَّةٍ فَاذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الماءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الماءَ فإذَا رَجُلٌ قَائِمٌ في حَدِيْقَةٍ يُحَوِّلُ المَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَال لَهُ يَا عَبْدَ اللهِ مـا اسْمُكَ قال فلانٌ للإِسْمِ الذي سَمِعَ في السَّحَابَةِ فقال لَهُ يا عَبْدَاللهِ لِمَ سَأَلْتَنِيْ عَنْ اسْمِيْ قَال سَمِعْتُ في السَّحَابِ الذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ : اسْقِ حَدِيْقَةَ فُلانٍ لاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيْهَا قَالَ أَمَّا اذْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إلى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثلثه وَأَرُدُّ فِيْهَا ثَلثَهُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٥٤ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ لا تُنْقِصُ المَالَ خِلاَفاً لما يَظُنُّهُ بَعْضُ الجُهَّالِ لِحَدِيْثِ أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه أن رسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ قَالَ مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ الحَدِيْثُ رَوَاهُ مُسْلِمُ .

٥٥ ـ أنَّ الصـدقة اذا كـانت من كسب طَيِّبٍ فإنَّ اللهَ يَقْبَلُهَـا بيمينِهِ ثُمَّ يرَبُّها لِصَاحِبِهَا كَمَا وَرَدَ في حَدِيْثِ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَصدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ الا الطَّيبَ فَانَّ اللهَ يَقْبلها بِيَمِيْنِهِ ثم يُرَبِّيها لِصَاحِبِهَا كَما يُرَبِّي أَحدُكم فُلُوَّه حَتَّى تكونَ مِثْلَ الجَبَلِ مُتفقٌ عليهِ .

٥٦ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ المَعِيَّةِ الخَاصَّةِ لأَنَّ المُتَصَدِّقَ مُحْسِنٌ وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى : ﴿ انَّ اللهَ مَعَ الذِيْنَ اتَّقَوْا والذِيْنَ هُم مُحْسِنُونَ ﴾ .

٥٧ ـ أَنَّ المصَّدِقِيْنَ يُضَاعِفُ اللهُ لَهم ثواب أَعْمَالِهم الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إلى سَبْعِمائةِ ضِعْفٍ إلى حَيْثُ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ تَعالى : ﴿ إنَّ المُصَّدِّقِيْنَ والمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوْا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُ وَلَهُم أَجْرٌ كَرِيْمٌ ﴾ .

٥٨ ـ أَنَّ الصَّدَقَةَ لِتُطْفِيءُ غَضَبَ الربِّ وَتَدْفَعُ مِيْتَةَ السُّوْءِ » رَوَاهُ الترمذي وابنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ ، وَقَالَ التِّرمِذِي حَسَنٌ غَرِيْبٌ .

٥٩ ـ أَنَّ بِإِخْرَاجِ الزَّكَاةِ كُلَّ سَنَةٍ يَرى الفُقَرَاءُ أَنَّ الأغْنِيَاء لَهُمْ فَضْلُ عَلَيْهِمْ فَيُدَافِعُوْنَ عَنْهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا أَمَّا كَفُّ اليَدِ عَنْهُمْ وَمَنْعُ مَعْرُوْفِهِمْ أَنْ يَصِلَ الَيْهِمْ فَإِنَّهُ يُوْغِرُ صُدُوْرَهُمْ وَيَمْلَؤُهَا حِقْداً عَلَيْهِمْ وَيَجْتَهِدُونَ في سَلْبِ حَيَاتِهِمْ لِلْوُصُولِ إلى أَمْوَالِهِمْ المَخْزُوْنَةِ فَتَكُوْنُ الحَيَاةُ مُهَدَّدَةٌ وَالأَمْنُ مَفْقُوداً .

٦٠ ـ أَنَّ مَنْعَ الصَّدَقَاتِ يُزِيْلُ النِّعَمَ وَيُخَرِّبُ الدِّيَارَ العَامِرَةَ وَتَأَمَّلْ قِصَّةَ أَصْحَابِ الجَنَّةِ المَذْكُوْرَةِ في سُوْرَةِ نُ وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُوْنَ قَالَ تَعَالَى ﴿ فَتَنَادَوا مُصْبِحِيْنَ أَنْ اغْدُوا على حَرْثِكُمْ ان كُنْتُم صَارِمِيْنَ فَإِنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا اليَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِيْنٌ ﴾ الى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيْمِ ﴾ .
وَتَأَمَّلْ قِصَّةَ ثَعْلَبَةَ في سُوْرَةِ التَّوْبَةِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنْ الصَّالِحِيْنَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا

بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُم نِفَاقاً في قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا اخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

مَــوْعِظَــةٌ

عِبَادَ اللهِ انَّ المُؤْمِنَ باللهِ حَقّاً يَبْتَعِدُ عَنْ المَعَاصِي كَمَا يَبْتَعِدُ عَنْ النَّارِ فَإِذَا زَلَّ مَرَّةً مِنْ المَرَّاتِ اضْطَرَبَتْ أَعْصَابُهُ وَجَعَلَ قَلْبُهُ يَخْفِقُ وَأَصَابَهُ نَدَمٌ عَظِيْمٌ وَكُلَّمَا تَذَكَّرَ تِلْكَ الهَفْوَةِ احْمَرَّ وَجْهُهُ خَجَلاً وَهَاجَتْ عَلَيْهِ أَحْزَانُهُ وَتَذَكَّرَ عِصْيَانَهُ لِسَيِّدِهِ وَمَوْلاَهُ وَلاَ يَزَالُ مُوْجَعَ القَلْبِ مِنْكَسِرُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا وَيُوَارَى في التُّرَابِ .

هَذَا هُوَ المَعْرُوفُ عَنْ المُؤْمِنِ ، وَلاَ يُعْرَفُ سِوَاهُ في أَهْلِ الإِيْمَانِ لأَنَّهم يُدْرِكُونَ تَمَاماً أَنَّهُم إنْ عَصَوا خَالِقَهُم وَرَازِقَهُم أَنهم سَيَنْدَمُونَ وَيُعَاقَبُونَ إنْ لَمْ يَتُوبُوا إلى مَوْلاَهُم ، هَذَا مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ وَمَنْ تَبِعَهُم ، وَانْظُرْ مَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ النَّاسِ اليَوْمَ في هَذَا العَصْرِ المُظْلِمِ مِنْ الجُرْأَةِ عَلى انْتِهَاكِ مَحَارِمِ اللهِ تَتَمَثَّلُ أَمَامَكَ حَالُهُم بِحَالَةِ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُوْنَ بِثَوَابِ وَلاَ عِقَابِ تَرَاهُمْ قَدْ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَأَصَرُّوا على مَنْعِ الزَّكَاةِ إلا النَّوَادِرَ مِنْهُم تَراهُم يُطَارِدُونَ النِّسَاءَ في الأَسْوَاقِ وَيَشْرَبُونَ الدُّخَانَ عَلناً وَيَحْلِقُونَ اللحَا كَذَلِكَ وَيَغُشُّوْنَ في مُعَامَلاَتِهم تَرَاهُم أَمَامَ المَلاهِي وَالمُنْكَرَاتِ لَيْلاً وَنَهارًا ، تَرَاهُم يُوَالُوْنَ أَعْدَاءَ اللهِ وَيُعَظِّمُونَهُم تَرَاهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بالمَعَاصِي في بِلاَدِهِم بل يَذْهَبُونَ إلى البِلاَدِ الأُخْرَى ، بِلاَدِ الفِسْقِ والفُجُورِ وَالحُرِّيَةِ وَيُنْفِقُوْنَ فِيْهَا الأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ في مَا يُغْضِبُ اللهَ الذي أَغْنَى وَأَقْنَى وَلَكِنْ لِيَعْلَمْ هَؤُلاَءِ الفَسَقَةُ أَنَّ اللهَ لاَ يَغْفَلُ عَنْ أَعْمَالِهِم السَّيِّئَةِ وَسَوْفَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم بِهَا الأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ ، وَلاَ تَبْكِي عَلَيْهِم لاَ

هَذِهِ وَلَا هَذِهِ يَوْمَ يَتَجَرَّعُوْنَ كَأسَ المَمَاتِ ، وَيَشْهَدُ بِهَا عَلَيْهِم المَلَكَانِ كَاتِبُ الحَسَنَاتِ ، وَكَاتِبُ السَّيِّئَاتِ ، وَيَشْهَدُ بِهَا عَلَيْهِمْ الحَفَظَةُ الذِيْنَ يَتَعَاقَبُونَ عَلى حِفْظِهِمْ تَعَاقُبَ الحُرَّاسِ وَيَشْهَدُ بِهَا عَلَيْهِمْ جَوارِحُهُمْ التِي بَاشَرَتْ فِعْلَ المَعَاصِيْ وَيَشْهَدُ بِهَا خَيْرُ شَاهِدٍ وَهُوَ مَوْلَاهُمْ جَلَّ وَعَلا الذي تَسْتَوِي الشَّهَادَةُ عِنْدَهُ وَالغُيُوْبُ ، وَيَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَيْهِم كُتُبُ أَعْمَالِهِم التي كُلُّ مَا فَعَلُوا بِهَا مَكْتُوبٌ حَتَّى إِذَا رَأَوْهَا يَومَ القِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُم في حِسَابٍ فَزِعُوْا وَقَالُوْا يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيْرَةً وَلَا كَبِيْرَة إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوْا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدا ، كُلُّ هَؤُلَاءِ يَشْهَدُوْنَ عَلى العَاصِيْنَ بالمَعَاصِيْ فَيُسَجِّلُونَ عَلَيْهِمْ مَا قَدَّمَتْهُ أَيْدِيْهِمْ وَلَيْسَ لِذَلِكَ نَتِيْجَةٌ انْ لَمْ يَتُوْبُوا إلا غَضَبُ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ ، وَالقَاؤُهُمْ في دَارِ المُجْرِمِيْنَ الجَانِيْنَ جَهَنَّمَ ، وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ هَكَذَا فَلِمَاذَا يَفْرَحُ العُصَاةُ ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ التِيْ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . التِي تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالقَصْرِ كَأنهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ .

شِــعْراً :

وَكَـيْفَ قَــرَّتْ لِأَهْــلِ الـعِلْمِ أَعْـيُنُـهُـمْ
أَوْ اسْتَلَذوا لَــذِيْــذَ النَّــوْمِ أَوْ هَجَـعُــوْا
وَالـمَــوْتُ يُـنْــذِرُهُــمْ جَـهْــراً عَــلَانِـيَـةً
لَـوْ كَـانَ لِلْقَوْمِ أَسْمَـاعٌ لَقَــدْ سَمِعُــوا
والـنَّــارُ ضَــاحِيَــةٌ لَا بُــدَّ مَــوْرِدُهُــمْ
وَلَـيْسَ يَـدْرُونَ مَنْ يَـنْجُــوْ وَمَـنْ يَـقَــعُ

آخَرُ :

وَكَـيْفَ يَـلَذُّ العَـيْشَ مَنْ كَـانَ مُـوْقِنـاً
بِـأَنَّ الـمَـنَـايَـا بَـغْـتَـةً سَـتُـعَـاجِـلُهْ
وَكَـيْفَ يَـلَذُّ العَـيْشَ مَنْ كَـانَ مُـوْقِنـاً
بِـأَنَّ إِلَـهَ الـخَـلْقِ لَا بُـدَّ سَـائِـلُهْ

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى النَّجَاةَ مِنْهَا وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِلأَعْمَالِ المؤَهِّلَةِ لِدَارِ الخُلْدِ وَأَنْ يُوفقَ وُلَاتَنَا لِلقِيَامِ عَلى هَؤلَاءِ المجْرِمِينَ ، وَرَدْعِهِمْ والزَامِهِمْ سُلُوْكَ طُرقِ الحَقِّ إِنهُ القَادِرُ عَلى ذَلِكَ .

اللهُمَّ اجْعَلْ في قُلُوْبِنَا نُوْراً نَهْتَدِي بِهِ اليْكَ وَتَوَلَّنَا بِحُسْنِ رَعَايَتِكَ حَتَّى نَتَوكَلَ عَليْكَ وَارْزُقْنَا حلَاوَةَ التَّذَلُّلَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

الفَصْـلُ الأَوَّلُ
شَهْرُ رَمَضَانَ

١ ـ دَرْسُ اليَوْمِ الأَوَّلِ :

يَقُولُ اللهُ تَعَالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلكُمْ تتقُونَ ﴾ .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ :

يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى مُخاطِباً المؤْمِنِيَنَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَآمِراً لَهُمْ بِالصِّيَامِ وَهُوَ الإِمْسَاكُ عَنْ الطَّعَامِ ، وَالشَّرَابِ ، والوِقَاعِ ، بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ للهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لما فِيْهِ مِنْ زَكَاةِ النُّفُوسِ ، وَطَهَارَتِهَا وَتَنقِيَتِهَا مِنْ الأَخلاَطِ الـرَّدِيْئَةِ ، وَالأَخْلاَقِ الرَّذِيْلَةِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ أَوْجَبَهُ على مَنْ كَانَ قَبْلِهِمْ، فَلَهُم فِيْهِمْ أُسْوَةٌ ، وَلِيَجْتَهِدَ هَؤُلاءِ في أَدَاءِ هَذَا الفَرْضِ أَكْمَلَ مِمَّا فَعَلَهُ أُولَئِكَ « انْتَهَى كَلاَمُهُ رَحِمَهُ اللهِ » .

وَقَدْ وَرَدَتْ في فَضْلِهِ ، وَمُضَاعَفَةِ أَجْرِهِ أَحَادِيْثُ كَثِيْرَةٌ :

رَوَى الامَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيْ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَليهِ وَسَلم ، يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ بِقُدومِ شَهْرِ رَمَضَانَ فَيَقولُ :

« جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ ، كَتَبَ اللهُ عَلَيْكُم صِيَامَهُ فِيْهِ تُفْتَحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ ، وَتُغْلَقُ فِيْهِ أَبْوَابُ الجَحِيْمِ ، وَتُغَلُّ فِيْهِ الشَّيَاطِيْنُ ، وَفِيْهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ » .

وَقَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ : « هَذَا الحَدِيْثُ أَصْلٌ في تَهْنِئَةِ النَّاسِ بَعْضَهُمْ بَعْضاً بِشَهْرِ رَمَضَانَ » .

وَفي الحَدِيْثِ الآخَرِ :

« لو يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي رَمَضَانَ لَتَمَنَّتْ أُمَّتِيْ أَنْ يَكُوْنَ رَمَضَانُ السَّنَةَ كُلَّهَا » .

وَعَن عُبَادَةَ مَرْفُوْعاً :

« أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرُ بَرَكَةٍ ، يَغْشَاكُمْ اللهُ فِيْهِ ، فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةَ ، وَيَحُطُّ الخَطَايَا ، وَيَسْتَجِيْبُ فِيْهِ الدُّعاءَ ، يَنْظُرُ اللهُ إلى تَنَافُسِكُمْ فِيْهِ ، وَيُبَاهِي بِكُمْ مَلائِكَتَهُ ، فَأَرُوا اللهَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خيراً ، فَإِنَّ الشَّقِي مَنْ حُرِمَ فِيْهِ رَحْمَةَ اللَّهِ » .

وَفي الصَّحِيْحَيْنِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنْ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ قَالَ : اذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جهَنَّمَ وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِيْنُ .

وَلِمُسْلِمٍ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ وَفي الصَّحِيْحَيْنِ عَنْ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قَالَ : إنَّ في الجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ غَيْرُهُمْ وَفي رِوَايَةٍ فَاذَا دَخلُوا أُغْلِقَ البَابُ وَفي رِوَايَةٍ مَنْ دَخَلَ مِنْهُ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً .

وَلِمُسْلِمٍ أَيْضاً ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ مَرْفُوعاً : « إِذَا جَاءَ رَمضانُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الجَنةِ ، وَأُغْلِقَتْ أَبْـوَابُ النَّارِ ، وَصُفِّـدَتْ الشَّيَاطِيْنُ » .

وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم : « اذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ منْ رَمضَانَ صُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الجنِّ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النِّيْرَانِ ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ ، وَيُنَادِي مُنَادٍ : يَا بَاغِيَ الخَيْرِ أَقْبِلْ ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنْ النَّارِ ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ » .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، والجُمُعَةُ الى الجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانَ مُكَفِّراتُ مَا بَيْنَهُنَّ اذا اجْتُنِبَتْ الكَبَائِرُ » .

وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ثَلاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَالامَامُ العَادِلُ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الغَمَامِ ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ : «وَعِزَّتِي وَجَلالِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » . رَوَاهُ التِّرْمِذِي وَحَسَّنَهُ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال : « أُعْطِيَتْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ في رَمَضَانَ لَمْ تُعْطَهَا أُمَّةٌ قَبْلَهُمْ . خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيْحِ المِسْكِ ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمْ الحِيْتَانُ حَىَّ يُفْطِرُوْا ، وَيُزَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ يَوْمٍ جَنَّتَهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : يُوْشِكُ عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُم المُؤنَـةَ ، وَيَصِيْرُوا إِلَيْكِ ، وَتُصَفدُ فِيْهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِيْنِ فَلاَ يَخْلُصُوا فِيْهِ إلى مَا كَانُوا يَخْلصُونَ إِلَيْهِ في غَيْرِهِ ، وَيُغْفِرُ لَهُم في آخِرِ لَيْلَةٍ » .

قِيْلَ : يَا رَسُوْلَ اللهِ أَهِيَ لَيْلَةُ القَدْرِ ؟ .

قَالَ : « لاَ ، وَلَكِنَّ العَامِلَ إِنَّمَا يُوفيَّ أَجْرُهُ إِذَا قَضَى عَمَلَهُ » .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِي صلى اللَّهُ عليهِ وَسَلم صَعِدَ المَنْبَرَ ، فَقَالَ : « آمِيْنَ ، آمِيْنَ ، آمِيْنَ ، قِيْلَ يَا رَسُولَ اللهِ : إِنَّكَ صَعَدْتَ المِنْبَرَ فَقُلتَ : آمين ، آمين ، آمين » فَقَالَ : « جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، أَتَانِيْ فَقَالَ : مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ ، فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ قُلْ

آمِيْن ، فَقُلْتُ آمِين الحَدِيْثِ » .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أظللكُم شَهْرُكُم هَذا ، بِمَحْلُوفِ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسلم مَا مَرَّ بِالمُسْلِمِيْنَ شَهْرٌ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْهُ ، وَلاَ مَرَّ بِالمُنَافِقِيْنَ شَهْرٌ شَرٌّ لَهُمْ مِنْهُ ، بِمَحْلُوْفِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّ اللهَ لَيَكْتُبُ أَجْرَهُ وَنَوافِلَهُ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهُ ، وَيَكْتُبُ اصْرَهُ وَشقَاءَهُ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ المُؤْمِنَ يُعِدُّ فِيْهِ القُوْتَ وَالنَّفَقَةَ لِلْعِبادَةِ ، وَيَعُدُّ فِيْهِ المُنَافِقُ اتبَاعَ غَفَلاتِ المؤْمِنِيْنَ واتبَاعَ عَوْرَاتِهِمْ ، فَغُنْمٌ يَغْنَمُهُ المُؤْمِنُ » .

وَقَالَ بنْدَارُ في حَدِيْثِهِ : « فَهُوَ غُنْمٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغْتَنِمُهُ الفَاجِرُ » رَوَاهُ ابْنُ خَزَيْمَةَ في صَحِيْحِهِ وَغَيْرِهِ .

وَعَنْ أَنَسٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو بِبُلُوغِ رَمَضَانَ ، فَكَانَ إذا دَخَلَ شَهْرُ رَجَبٍ قَالَ : « اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا في رَجَبٍ وَشَعْبَانَ وَبَلِّغْنَا رَمضَانَ » رَوَاهُ الطَّبَرَانِيْ وَغَيْرُهُ .

وَقَالَ عَبْدُ العَزِيْزِ بْنِ مَرْوَانَ : « كَانَ المُسْلِمُوْنَ يَقُوْلُوْنَ عِنْدَ حُضُوْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ اللهُمَّ قَدْ أَظَلَّنَا شَهْرُ رَمَضَان وَحضرَ فَسَلِّمْهُ لَنا وَسَلِّمْنَا لَهُ ، وَأَرْزُقْنَا صِيامَهُ وَقِيَامَهُ ، وَأَرْزُقْنَا فِيْهِ الجِدَّ وَالاجْتِهَادَ وَالنَّشَاطَ ، وَأَعِذْنَا فِيْهِ مِن الفِتَنِ » .

وَقَالَ مُعَلَّى بْنِ الفَضْلِ : كَانُوا يَدْعُونَ اللهَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يُبَلِّغَهُم رَمَضَانُ ثُمَّ يَدْعُونَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يَتقَبَّلَهُ مِنْهُمْ . وَقَالَ يَحيَى بْنُ أَبِي كَثِيْرِ كَانَ مِنْ دُعَائِهِمْ : « اللهُمَّ سَلِّمْنِيْ إِلى رَمضَان وَسَلِّمْ لِيْ رَمَضَانُ وَتَسَلَّمْهُ

مِنِّيْ مُتَقَبَّلاً » .

قَال النَّاظِمُ :

وَخُـذْ في بَيَـانِ الصَّـوْمِ غَيْرَ مُقَصِّـرٍ
عِـبَـادَةِ سِرٍّ ضِـدَّ طِـبْـعٍ مُـعَـوَّدِ
وَصَبْـرٌ لِفَقْدِ الإِلْفِ مِنْ حَـالَةِ الصِّبَـا
وَفَـطْمٌ عَـنْ الـمَـحْبُـوبِ والـمُـتَـعَـوَّدِ
فَثِقْ فِيْـهِ بِـالـوَعْـدِ القَـدِيْمِ مِنْ الـذي
لَـهُ الصَّـوْمُ يُجْـزِيْ غَيْـرَ مُخْلِفِ مَـوْعِـدِ
وَحَـافِظْ عَـلى شَهْـرِ الصِّيَـامِ فَـإِنَّـهُ
لَـخَـامِسُ أَرْكَـانٍ لِـدِيْـنِ مُـحَـمَّـدِ
تُـغَـلَّقُ أَبْـوَابُ الـجَحِيْمِ إِذَا أَتَـى
وَتُـفْـتَـحُ أَبْـوَابُ الـجِـنَـانِ لِـعُـبَّـدِ
تُـزَخْـرَفُ جَـنَّـاتُ النَّعِيْـمِ وَحُـوْرُهَـا
لِأَهْـلِ الـرِّضَـا فِيْـهِ وَأَهْـلِ التَّـعَبُّـدِ
وَقَـدْ خَـصَّـهُ اللهُ الـعَـظِيْمُ بِـلَيْلَةٍ
عَـلى أَلْفِ شَـهْـرٍ فُـضِّـلَتْ فَـلْتُـرَصَّـدِ
فَـارْغِمْ بِـأَنْفِ القَـاطِـعِ الشَّـهْـرِ غَـافِـلاً
وَأَعْـظِمْ بِـأَجْـرِ الـمُـخْـلِصِ المُـتَعَبِّـدِ
فَـقُـمْ لَـيْـلَهُ وَاطْـوِ نَـهَـارَكَ صَـائِـمـاً
وَصُنْ صَـوْمَـهُ عَنْ كُـلِّ مُـوْهٍ وَمُفْسِـدِ

اَللَّهُمَّ أَهِلَّ شَهْرَنَا عَلَيْنَا بِالسَّلَامَةِ وَالإِسْلَامِ وَالأَمْنِ وَالإِيْمَانِ ، وَاغْفِرْ

لَنَا كُلَّ قَبِيْحٍ سَلَفَ وَكَانَ ، وَأَعْتِقْنَا فِيْهِ مِنْ لَفَحَاتِ النِّيْرَان وَأَعِنَّا عَلَى الخَيْرِ يَا كَرِيْمُ يَا مَنَّانُ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ، وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ أَخْرَجَ البُخَارِيْ فِي صَحِيْحِهِ عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يَضْمَنْ لِيْ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْه أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ ، عِبَادَ اللهِ انَّ هَذَا الحَدِيْثُ عَلى ايْجَازِهِ لَيَحْتَوِي على وَصِيَّةٍ ثَمِيْنَةٍ مِنْ أَبْلَغِ الوَصَايَا وَأَقْيَمِهَا وَأَجَلِّهَا وَأَنْفَعِهَا فَقَدْ اشْتَمَلَ عَلى الأَمْرِ بِحِفْظِ عُضْوَيْنِ عَلَيْهِمَا مَدَارٌ عَظِيْمٌ حَقِيْقَيْنِ بِتَعَاهُدِهِمَا بالرِّعَايَةِ وَالاسْتِقَامَةِ وَالرَّقَابَةِ وَالصِّيَانَةِ أَلَا وُهُمَا اللسَانُ وَالفَرْجُ وَلَا شَكَّ أَنَّهُمَا إِنْ أُطْلِقَ سَرَاحُهُمَا فِي الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَطُرُقِ الغَيِّ وَالفَسَادِ كَانا أَصْلًا لِلْبَلاءِ وَالفِتْنَةِ وَالشَرِّ وَالهَلَاكِ .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن وُقِيَ شَرَّ قَبْقَبِهِ وَذَبْذَبِهِ وَلَقْلَقِهِ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ الحَدِيْثِ أَخرَجَهُ مَنْصُورُ الدَّيْلَمِي مِنْ حَدِيْثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَالقَبْقَبُ البَطْنُ وَالذَّبْذَبُ الفَرْجُ وَاللقْلَقُ اللسَانُ .

فَهَذِهِ الشَّهَوَاتُ بِهَا يَهْلَكُ أَكْثَرُ الخَلْقِ وَسُئِلَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَايُدْخِلُ النَّارَ فَقَالَ الأَجْوَفَانِ الفَمُ والفَرْجُ .

فَالعَاقِلُ مَنْ يُبْصِرُ مَـوَاقِعَ الكَـلَامِ وَيَحْفَظُ لِسَانَـهُ مِنْ الفُضُوْلِ والهَذَيَانِ وَلَا يَتعدَّى بِفَرْجِهِ زَوْجَتَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمِيْنَهُ .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم « مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ » إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ زَلَّاتِ اللسَانِ عَظِيْمَةٌ فَزَلَّةٌ مِنْ زَلَّاتِهِ قَدْ تُؤَدِيْ بِالإِنْسَانِ إلى الهَلَاكِ والعَطَبِ وَمُفَارَقَةِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَأَصْدِقَائِهِ وَجِيْرَانِهِ فَلْيَحْذَرْ الإِنْسَانُ مِمَّا يَجْرِي بِهِ لِسَانُهُ .

قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْتَقِيْمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيْمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيْمَ قَلْبُه حَتَّى يَسْتَقِيْمَ لِسَانُهُ الحَدِيْثِ .

وَعَنْ سَعِيْدِ بنِ جُبَيْرٍ مَرْفُوْعاً إلى رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ أَصْبَحَتْ الأَعْضَاءُ كُلُّهَا تُذَكِّرُ اللسَانَ أَيْ تَقولُ اتَّقِ اللهِ فِيْنَا فَإِنَّكَ انْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَانْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَأَى أَبَا بَكْرٍ الصِّديقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ يَمُدُّ لِسَانَهُ بِيَدِهِ فَقَالَ لَهُ مَا تَصْنَعُ يَا خَلِيْفَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ قَالَ : هَذَا أَوْرَدَنِي المَوَارِدَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ قَالَ : لَيْسَ شَيءٌ مِنْ الجَسَدِ إلا يَشْكُو إلى اللهِ اللسَانَ عَلَى حِدَّتِهِ .

وَعَنْ ابنِ مَسْعُودٍ أَنَّه كَانَ عَلى الصَّفَا يُلَبِّي وَيَقُولُ يَا لِسَانُ قُلْ خَيْراً تَغْنَمْ وَاسْكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمَ فَقِيْلَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمنِ أَهَذَا شَيءٌ تَقُولُه أو شَيءٌ سَمِعْتَهُ فَقَالَ لا بَلْ شَيءٌ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ يَقُوْلُ إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَم في لِسَانِهِ .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ وَقَاهُ اللهُ عَذَابَهُ وَمَنْ اعْتَذَر إلى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ إخْزِنْ لِسَانَكَ إلَّا مِنْ خَيْرٍ فَإنَّك بِذَلِكَ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ . وَقَال صَلى الله عليه وسلم إذاً رَأيْتُم المُؤْمِنَ صَمُوتاً وَقُوراً فادْنُوا مِنْهُ فَإنَّهُ يُلَقَّنُ الحِكْمَةَ .

وَأخْرَجَهُ ابنُ مَاجَه مِن حَدِيثِ خَلَّادٍ بِلَفْظ إذَا رَأيْتُم الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِى زُهْداً في الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فإنَّهُ يُلقَّى الحِكْمَةَ » .

وَلَا تَحْسَبَنَّ حِفْظَ اللِّسَانِ قَاصِراً عَلى الصَّمْتِ في مَوْضِعِهِ أو الكَلاَمَ بل يَتَعَدَّى إلى حِفْظِهِ مِنْ طَعَام مَشْبُوهٍ أَوْ حَرَام وَانَّ مِنْ المَعْلُوم أَنَّ اللِّسَانَ هُو الوَسِيْلَةُ لِمَضْغ مَا يَأْكُلُهُ المَرْءُ وَقَذْفِهِ في المَعِدَةِ بَيْتِ الطَّعَامِ وَمُسْتَقَرُّهُ وَلِيَصُنْهُ مِنْ الزَّلَلِ وَالحَرَامِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ في عَاقِبَةِ أَمْرِهِ .

وَأَمَّاحِفْظُ الفَرْجِ فَبِتَرْكِ التَّعَدِّي عَلى أَعْرَاضِ النَّاسِ وَحُرُمَاتِهِم وَوَضْعِهِ في الحَلاْلِ في الطُّرُقِ المَشْرُوعَةِ وَكفِّهِ عن الزِّنَا وَالحَرَامِ والزِّنَا آفَةٌ وَبَيْلَةٌ على المُجْتَمَعِ الإنْسَانِي وَقَدْ بَيَّنَا مَضَارَّهُ في الجُزْءِ الثَّانِي وَاللهُ أَعْلَمُ .

(فَصْــلٌ)

وَيَبْحَثُ في

١ ـ حُكْمِ صَوْمِ رَمَضَانَ .

٢ ـ بَيَانِ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ الصَّوْمُ .

٣ ـ مَا يَثْبُتُ بِهِ الشَّهْرُ .

٤ ـ مَا يَترَتَّبُ عَلى ثُبُوتِ رُؤْيَةِ الهِلَالِ .

٥ ـ لَا يَصِحُّ صَوْمُ رَمَضَانَ وَلَا غَيْرُه مِنْ الصِّيَامِ الوَاجِبِ إلا بِنِيَّةٍ مِنْ اللَّيْلِ لِكُلِّ يَوْمٍ .

١ ـ حُكْمُ صَوْمِ رَمَضَانَ :

صَوْمُ رَمَضَانَ فَرِيْضَةٌ : وَالأَصْلُ في فَرِيْضَتِهِ : الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، وَالإِجْمَاعِ .

أَمَّا الدَّلِيْلُ مِنْ الكِتَابِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوْا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ ﴾ .

وَأَمَّا السُّنَّةُ ، فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلهَ إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ البَيْتِ » .

وَأَمَّا الإِجْمَاعُ ، فَأَجْمَعَ المُسْلِمُوْنَ عَلى فَرِيْضَةِ صَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ .

٢ ـ بَيَانُ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ الصَّوْمُ :

وَيُفْتَرضُ عَلى كُلِّ مُسْلِم عَاقِل بَالِغٍ قَادِرٍ أَدَاءً وَقَضَاءً ، وَلَا يَجِبُ عَلى كافِرٍ ـ سَوَاءً كَانَ أَصْلِيًا أَوْ مُرْتَداً ـ لِإِنَّ الصَّوْمَ عِبَادَةٌ لا تَصِحُّ مِنْهُ في حَالِ كُفْرِهِ ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ قَضَاءُهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿قُلْ لِلْذِيْنَ كَفَروا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ .

وَلأَنَّ في ايْجَابِ قَضَاءِ مَا فَاتَ في حَالِ كُفْرِهِ تَنْفِيْراً عَنْ الإِسْلَامِ وَلَوْ أَسْلَمَ في أَثنَائِهِ لَمْ يَلْزَمْهُ مَا مَضَى مِنْ الأَيَّامِ وَيَصُوْمُ مَا بَقِيَ مِنْ

الشَّهْرِ .

وَلِحَدِيْثِ ابن مَاجَه فِي وَفْدِ ثَقِيْفٍ : قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي رَمَضَانَ ، فَضَرَبَ عَلَيْهِمْ قُبَّةً بالمَسْجِدِ فَلَمَّا أَسْلَمُوا ، صَامُوا مَا بَقِيَ عَلَيْهِم مِنَ الشَّهْرِ ، اذْ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ عِبَادَةٌ مُفْرَدَةٌ .

وَلَا يَجِبُ الصَّوْمُ عَلَى مَجْنُونٍ ، وَلَا صَبِيّ حَتَّى يَبْلُغَ ، لِقَوْلِهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم : « رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ : عَنِ الصَّبِيْ حَتَّى يَبْلُغَ ، وَعَنْ المَجْنُونِ حَتَّى يَفِيْقَ ، وَعَنْ النَّائِم حَتَّى يَسْتَيْقِظَ » .

وَأَمَّا اشْتِرَاطُ القُدْرَةِ عَلى الصَّوْمِ فَلأَنَّ مَنْ لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ بِحَالٍ وَهُوَ الكَبِيْرُ وَالعَجُوْزُ ـ اذَا كَانَ الصَّوْمُ يُجْهِدُهُمَا وَيَشُقُّ عَلَيهِمَا مَشَقَّةً شَدِيْدَةً ـ فَلَهُمَا أَنْ يُفْطِرَا وَيُطْعِمَا لِكُلِّ يَوْمٍ مِسْكِيْناً ، لِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا ـ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعَلى الـذِيْنَ يُطِيْقـونَهُ فِـديَةٌ ﴾ : لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ فِي الشَّيْخِ الكَبِيْرِ ، وَالمَرْأَةِ الكَبِيْرةِ اللذَيْنِ لَا يَسْتَطِيْعَانِ الصَّوْمَ فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كلِّ يَوْمٍ مِسْكِيْناً .

وَرُوِيَ أَنَّ أَنَس بْن مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ ضَعُفَ عَنْ الصَّوْمِ فَصَنَعَ جَفْنَةً مِنْ ثرِيْدٍ ، فَدَعَا ثَلاثِيْنَ مِسْكِيْناً فأَطْعَمَهُم .

وَالمَرِيْضُ الذِي لَا يُرْجَى بُرْؤُهُ ، حُكْمُهُ حُكْمُ الشَّيْخِ الكَبِيْرِ ، يُطْعِمُ لِكلِّ يَوْمٍ مِسْكِيْناً .

٣ ـ مَا يَثْبُتُ بِهِ الشَّهْرُ :

وَيَجِبُ صَوْمُ رَمَضَانَ بِرُؤْيَةِ هِلَالِهِ ، أَوْ اكْمَـالِ شَعْبَانَ ثَـلاثِيْنَ

يَوْماً وَتَثْبُتُ رَؤْيَةُ هِلالِ رَمَضانَ بِخَبرِ مُسْلِمٍ مُكَلَّفٍ عَدْلٍ وَلَوْ عَبْدَا أَوْ أُنْثَى .

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : « اذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا ، وإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فأَفْطِرُوا ، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُم فاقدُرُوا له » .

وَعَنْ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ قَالَ : « تَرَآى النَّاسُ الهِلاَلَ فَأَخْبَرْتُ النَّبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ أَنِّي رَأَيْتُهُ ، فَصَامَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ » .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : إِنَّ اعْرَابِيَّاً جَاءَ الى النَّبِي صَلى الله عليه وسلم ، فَقَال : إني رَأَيْتُ الهِلاَلَ ، فقَالَ : « أَتَشهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ » قَالَ : نَعَم ، قالَ : « أَتشهَدُ أَنَّ مُحمداً رسُولُ اللهِ ؟ » قَالَ : نَعَم ، قَالَ : « فَأَذِّنِ في النَّاسِ يَا بِلاَلُ أَنْ يَصُومُوا غَداً » .

وَيُسْتَحَبُّ إِذَا رَأَى الهِلاَلَ أَنْ يَقُولَ مَا وَرَدَ ، وَمِنْهُ حَدِيثُ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسَلم إِذَا رَأَى الهِلاَلَ قَالَ : اللهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُم أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بالأَمْنِ والإِيْمَانِ والسَّلاَمَةِ والإِسْلاَمِ والتَّوْفِيْقِ لِمَا تُحِبُّ وتَرْضَى » .

وَمِنْهُ حَدِيثُ طَلْحَةَ بن عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ النبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم كَانَ إذَا رَأَى الهِلاَلَ قَالَ : « اللهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنا بِالأَمْنِ وَالإِيْمَانِ وَالسَّلاَمَةِ والإِسْلاَمِ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ، هِلاَلُ رُشْدٍ وَخَيْرٍ » .

وانْ حَالَ دُوْنَ مَطْلَعِ الهِلَالِ لَيْلَةَ الثَّلاثِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ غَيْمٌ أَوْ قَتَرٌ أَوْ غَيْرُهُمَا ، فَإِنَّهُ لا يَجِبُ صَوْمُه وَلَا يُسْتَحَبُّ ، بَلْ المَشْرُوْعُ فِطْرُه لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَم : « صُوْمُوا لِرُؤْيَتِهِ . وَأَفطِرُوا لِرُؤيتِهِ ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُم فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِيْنَ » .

وَعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ : « مَنْ صَامَ اليَوْمَ الذي يَشكُّ فِيْهِ فَقَدْ عَصَى أَبَا القَاسِمِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

وَعَنْ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وَسَلم : « صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ ، فَإِنْ حَالَ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُ سَحَابٌ فَكَمِّلُوا العِدَّةَ ثَلاثِيْنَ وَلا تَسْتَقْبِلُوا الشَّهْرَ اسْتِقْبَالاً » .

وَيُسْتَثْنَى القَضَاءُ ، والنَّذْرُ وَالعَادَةُ ، فَيَجُوْزُ صَوْمُهَا فِيْهِ .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَقَدَّمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلا يَوْمَيْنِ إلا رَجُلٌ كانَ يَصُومُ صَوْماً فَلْيَصُمْهُ » .

٤ ـ فِيْمَا يَتَرَتَّبُ عَلى ثُبُوتِ رُؤْيَةِ الهِلَالِ :

وإِذَا ثَبَتَ رُؤْيَةُ هِلَالِ رَمَضَانَ بِبَلَدٍ لَزِمَ النَّاسَ كُلَّهُم الصَّوْمُ إِذَا اتَّفَقَتْ المَطالِعُ لِمَا رَوَى « كُرَيْبٌ » قالَ : قَدِمْتُ الشَّامَ ، وَاسْتَهَلَّ عَليَّ رَمَضَانَ وَأَنا بِالشَّامِ ، فَرَأَيْتُ الهِلَالَ لَيْلَةَ الجُمْعَةَ ، ثُم قَدِمْتُ المَدِيْنَةَ في آخِرِ الشَّهْرِ فَسَأَلَني عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ . ثُمَّ ذَكَرَ الهِلَالَ فَقَالَ : مَتى رَأَيْتُم الهِلَالَ ؟ قُلْتُ : رَأَيْناهُ لَيْلَةَ الجُمُعَةَ فَقَالَ : أَنْتَ رَأَيْتَهُ ؟ قُلْتُ نَعَمْ وَرَآهُ النَّاسُ ، وَصَامُوا ، وَصَامَ مُعَاوِيَةُ ، فَقَالَ : لَكِنَّا رَأَيْناهُ لَيْلَةَ السَّبْتِ فَلاَ نَزَالُ

نَصُوْمُ حَتَّى نُكْمِلَ ثلاثِيْنَ أَوْ نَرَاهُ . فَقُلْتُ : أَفَلا تَكْتَفِيْ بِرُؤْيَةِ مُعَاوِيَةَ وَصِيَامِهِ ؟ فَقَالَ لاَ ، هَكَذَا أَمَرَنَا بَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ومَنْ رَأى وَحْدَهُ هِلَالَ رَمَضَانَ وَرُدَّ قَوْلُهُ لَزِمَهُ الصَّوْمُ وَجَمِيْعُ أَحْكَامِ الشَّهْرِ مِنْ طَلَاقٍ وَعِتْقٍ ، وَغَيْرِهِمَا مُعَلَّقَيْنِ بِهِ ، لِعُمُوْمِ قَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « صُوْمُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ ، وَلأَنَّهُ تَيَقَّنَ أَنَّهُ مِنْ رَمَضَانَ فَلَزِمَهُ صَوْمُه وَأَحْكَامُهُ بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنْ النَّاسِ ، وَمَنْ رَأَى وَحْدَهُ هِلَالَ شَوَّالَ لَمْ يُفْطِرْ لِحَدِيْثِ « الفِطْرُ يَوْمَ يُفْطِرُ النَّاسُ ، وَالأَضْحَى يَوْمَ يُضَحِّي النَّاسُ » .

وَحَدِيْثِ : « الفِطْرُ يَوْمَ يُفْطِرُونَ ، والأَضْحَى يَوْمَ يُضَحُّونَ » .

وَرَوَى أَبُو رَجَاءٍ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ :

أَنَّ رَجُلَيْنِ قَدِمَا المَدِيْنَةِ وَقَدْ رَأَيَا الهِلَالَ ، وَقَدْ أَصْبَحَ النَّاسُ صِيَاماً فَأَتَيَا عُمَرَ ، فَذَكَرَا ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ لِأَحَدِهِمَا : أَصَائِمٌ أَنْتَ ؟ قَالَ : بَلْ مُفْطِرٌ . قَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلى هَذا ؟ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَصُوْمَ وَقَدْ رَأَيْتُ الهِلَالَ وَقَالَ لِلآخَرِ ، قَالَ : انِّي صَائِمٌ ، قَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلى هَذَا ؟ قَالَ : لَمْ أَكُنْ لِأُفطِرَ وَالنَّاسُ صِيَامٌ . فَقَالَ لِلذِيْ أَفْطَرَ : لَوْلَا مَكَانُ هَذَا لَأَوْجَعْتُ رَأْسَكَ ، ثُمَّ نُودِيَ فِي النَّاسِ أَنْ أَخْرُجُوا .

وإِنَّمَا أَرَادَ ضَرْبَهُ لإِفْطَارِهِ بِرُؤْيَتِهِ وَحْدَهُ ، وَدَفَعَ عَنْهُ الضَّرْبَ لِكَمَالِ الشَّهَادَةِ بِهِ ، وَلَوْ جَازَ لَهُ الفِطْرُ لَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ وَلَا تَوَعَّدَهُ ، وَانْ صَامَ النَّاسُ بِشَهَادَةِ اثْنَيْنِ : ثَلاثِيْنَ يَوماً فَلَمْ يَرَوْا الهِلَالَ أَفطَرُوا لِقَوْلِ النَّبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ : « فَانْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَصُوْمُوا ثَلَاثِيْنَ ثُمَّ أَفْطِرُوا » .

وَإِذَا قَامَتْ البَيِّنَةُ أَثْنَاءَ النَّهَارِ لَزِمَ أَهْلَ وُجُوبِ الصَّوْمِ الإِمْسَاكُ وَلَو بَعْدَ أَكْلِهِمْ لِتَعَذُّرِ امْسَاكِ الجَمِيْعِ فَوَجَبَ أَنْ يَأْتُوا بِمَا يَقْدِرُوْنَ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ وَحَدِيْثِ : « إِذَا أَمَرْتُكُم بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .

٥ ـ لَا يَصِحُّ صِيَامُ رَمَضَانَ إلا بِنِيَّةٍ مِنَ اللَّيْلِ :

وَلَا يَصِحُّ صَوْمَ رَمَضَانَ ، وَلَا غَيْرُهُ مِنَ الصِّيَامِ الوَاجِبِ إِلَّا بِنِيَّةٍ مِن اللَّيْلِ لِكُلِّ يَوْمٍ ، رَوَتْ حَفْصَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَنْ النَّبِيْ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ لَمْ يُبَيِّتْ الصِّيَامَ قَبْلَ الفَجْرِ فَلَا صِيَامَ لَهُ » .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَرْفُوْعاً : « مَنْ لَمْ يُبَيِّتْ الصِّيَامَ قَبْلَ طُلُوْعِ الفَجْرِ فَلا صِيَامَ لَهُ » .

وَمَنْ نَوَى الصَّوْمَ مِنْ اللَّيْلِ ثُمَّ أَتَى بَعْدَ النِّيَّةِ فِي اللَّيْلِ بِمَا يُبْطِلُ الصِّيَامَ كَالأَكْلِ لَمْ تَبْطُلْ النِّيَّةُ لِظَاهِرِ الخَبَرِ وَلأَنَّ اللهَ أَبَاحَ الأَكْلَ إِلى آخِرِ اللَّيْــلِ فَلَوْ بَطَلَتْ بِهِ فَاتَ مَحلُّهَا وَمَنْ خَطَرَ بِبَالِهِ أَنَّهُ صَائِمٌ غداً فَقَدْ نَوى ، لأَنَّ النيةَ مَحلُّهَا القَلْبُ ، وَالأَكْلُ وَالشُّرْبُ بِنِيَّةِ الصَّوْمِ نِيَّةٌ قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّيْنِ هُوَ حِيْنَ يَتَعَشَّى عَشَاءَ مَنْ يُرِيْدُ الصَّوْمَ ، وَلَوْ نَوَتْ حَائِضٌ أَوْ نُفَسَاءُ صَوْمَ غَدٍ وَقَدْ عَرفَتْ أَنَّهَا تَطْهُرُ لَيْلاً صَحَّ لِمَشَقَّةِ المُقَارَنَةِ وَاللّهُ أَعْلَمُ .

اللَّهُمَّ انْظُمْنَا فِي سِلْكِ الفَائِزِيْنَ بِرِضْوَانِكَ ، وَاجْعَلْنَا مِنَ المُتَّقِيْنَ الذِيْنَ أَعْدَدْتَ لَهُمْ فَسِيْحَ جِنَانِكَ ، وَأَدْخِلْنَا بِرَحْمَتِكَ فِي دَارِ أَمَانِكَ ، وَعَافِنَا يَا مَوْلَانَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ جَمِيْعِ البَلَايَا وَأَجْزِلْ لَنَا مِنْ مَوَاهِبِ

فَضْلِكَ وَهِبَاتِكَ وَمَتِّعْنَا بالنَّظَر إلى وَجْهِكَ الكَرِيْمِ مَعَ الذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِيْنَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالميِّتِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَم الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللهُ عَلى مُحمدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ حُكْمِ صَوْمِ التَّطَوّعِ بِنِيَّةٍ مِنْ النَّهَارِ .

٢ ـ فِيْمَنْ يُبَاحُ لَهُ الفِطْرُ وَمَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ .

٣ ـ مَنْ عَرَضَ لَهُ جُنُوْنٌ أَوْ اغْمَاءٌ .

١ ـ حُكْمُ صَوْمِ التَّطوّعِ بِنِيَّةٍ مِنْ النَّهَارِ :

وَيَصِحُّ صَوْمُ التَّطَوّعِ بِنِيَّةٍ مِنْ النَّهَارِ قَبْلَ الزَّوالِ وَبَعْدَهُ لِمَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : دَخَلَ عَليَّ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ : « هَلْ عِنْدَكُمْ شَيءٌ فَقُلْنَا لاَ ، فَقَالَ : فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ » ، ثُمَّ أَتَانَا يَوْماً آخرَ ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ أُهْدِيَ لَنَا حَيْسٌ ، فَقَالَ : « أَرِنِيْهُ ، فَلَقَدْ أَصْبَحْتُ صَائِماً فَأَكَلَ » .

وَزَادَ النَّسَائِيْ ، ثُمَّ قَال : « إِنَّمَا مَثَلُ صَوْمِ التَّطَوّعِ ، مَثَلُ الرَّجُلِ يُخْرِجُ مِنْ مَالِهِ الصَّدَقَةَ ، فَإِنْ شَاءَ أَمْضَاهَا وَإِنْ شَاءَ حَبَسَها » ، وَمِنْ لَفْظٍ لَهُ أَيْضاً قَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، إِنَّمَا مَنْزِلَةُ مَنْ صَامَ في غَيْرِ رَمَضَانَ أَوْ في التَّطَوّعِ بِمَنْزِلَةِ رَجُل أَخْرَجَ صَدَقَةَ مَالِهِ فَجَادَ مِنْهَا بِمَا شَاءَ فَأَمْضَاهُ ، وَبَخِلَ مِنْهَا بِمَا شَاءَ فَأَمْسَكَه » .

قَالَ البُخَارِيّ ، وَقَالَتْ أُمُّ الدَّرْدَاءِ : كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُوْلُ : عِنْدَكُمْ طَعَامٌ ؟ فإِنْ قُلْنَا : لاَ ، قالَ : فَإِنِّي صَائِمٌ يَوْمِي . قَالَ وَفعَلَهُ أَبُو طَلْحَةَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَحُذَيْفَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ .

وَيُحْكَمُ بِالصَّوْمِ المُثَابُ عَلَيْهِ ، مِنْ وَقْتِ النِّيَّةِ ، لِحَدِيْثِ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى » ، وَمَا قَبْلَهُ لَمْ يُوْجَدْ فِيهِ قَصْدُ القُرْبَةِ ، لَكِنْ يُشْتَرطُ أَنْ لاَ يُوْجَدَ مُنَافٍ غَيْرَ نِيَّةِ الافْطَارِ ، اقْتِصَاراً عَلى مُقْتَضَى الدَّلِيْلِ ، وَنَظَراً إِلى أَنَّ الإِمْسَاكَ هُوَ المَقْصُودُ الأَعْظَمُ ، فَلاَ يُعْفَى عَنْهُ أَصْلاً ، فإِنْ فَعَلَ قَبْلَ النِّيةِ مَا يُفطِّرُهُ لَمْ يَجزْ الصِّيَامُ ، فَلاَ يَصِحُّ صَوْمُ مَنْ أَكَلَ ثُمَّ نَوَى بَقِيَّةَ يَوْمِهِ لِعَدَمِ حُصُولِ حِكْمَةِ الصَّوْمِ ، وَيَصِحُّ تَطَوُّعُ حَائِضٍ وَنُفَسَاءَ طَهُرَتْ في يَوْمٍ بِصَوْمٍ بَقِيَّتِهِ وَتَطَوُّعُ كَافِرٍ أَسْلَمَ في يَوْمٍ لَمْ يَأْتِيَا فِيْهِ بِمُفْسِدٍ مِنْ أَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ وَنَحْوِهِمَا وإِنْ بَلَغَ صَبِيٌّ ، أَوْ أَسْلَمَ كَافِرٌ ، أَوْ أَفَاقَ مَجْنُونٌ في أَثْنَاءِ النَّهَارِ ، وَهُمْ مُفْطِرُوْنَ ، لَزِمَهُمْ الإِمْسَاكُ عَنْ مُفْسِدَاتِ الصَّوْمِ ، لِحُرْمَةِ الوَقْتِ وَلِزَوَالِ المُبِيْحِ ، وَانْ طَهُرَتْ حَائِضٌ أَوْ نُفَسَاءُ ، أَوْ قَدِمَ مُسَافِرٌ مُفْطِرٌ .

فَعلَيْهِمْ الإِمْسَاكُ وَالقَضَاءُ وَلاَ خِلاَفَ في وُجُوبِ القَضَاءِ عَلَيْهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ... فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيْضاً ، أَوْ عَلى سَفَرٍ ، فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرُ ﴾ .

وَلِقَوْلِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - كُنَّا نَحِيْضُ عَلى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ ، وَكَذَا الحُكْمُ في المَرِيْضِ إِذَا صَحَّ في أَثْنَاءِ النَّهَارِ ، وَكَانَ مُفْطِرًا .

وَيُسَنُّ الفِطْرُ لِمُسَافِرٍ يُبَاحُ لَهُ القَصْرُ ، وَلِمَرِيْضٍ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيْضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر ﴾ وَلِحَدِيْثِ «لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ» .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « . . . عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللهِ التِيْ رَخَّصَ لَكُمْ فَاقْبَلُوْهَا » وَإِنْ صَامَ أَجْزَأَهُ .

وَلِحَدِيْثِ : « هِي رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُوْمَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ » .

وَعَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَمْرِو الأَسْلَمِيْ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلّى اللّهُعَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَصُوْمُ فِي السَّفَرِ ؟ قَالَ : « انْ شِئْتَ فَصُمْ ، وَانْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ » .

٢ ـ فِيْمَنْ يُبَاحُ لَهُ الفِطْرُ وَمَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ :

وَيُبَاحُ الفِطْرُ ، لحاضِرٍ سافر في أَثْنَاءِ النَّهار . لِحَدِيْثِ أَبِي بَصْرَةَ الغِفَارِيْ : أَنَّهُ رَكِبَ في سَفِيْنَةٍ مِنْ الفِسْطَاطِ في شَهْرِ رَمَضَانَ ، فَدَفَعَ ، ثُمَّ قَرَّبَ غَدَاءَهُ ، فَلَمْ يُجَاوِزْ البُيُوتَ حَتَّى دَعَا بالسُّفْرَةِ ، ثُمَّ قَالَ : اقْتَرِبْ ! قِيْلَ : أَلَسْتَ تَرَى البُيُوتَ ؟ قَالَ أَتَرْغَبُ عَنْ سُنَّةِ مُحَمَّدٍ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَأَكَلَ .

وَانْ صَامَ أَجْزَأَهُ ، لِحَدِيْثِ : « هِيَ رُخْصَةٌ مِنْ اللهِ فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُوْمَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ » .

وَيُبَاحُ الفِطْرُ لِحَامِلٍ ، وَمُرْضِعٍ ، إِذَا خَافَتَا على أَنْفُسِهِمَا ، فَيُفْطِرَانُ وَيَقْضِيَانِ كَالمَرِيْضِ الخَائِفْ عَلَى نَفْسِهِ ، وانْ خَافَتَا عَلَى وَلَدَيْهِمَا أَفْطَرَتَا وَقَضَتَا ، وَلَزِمَ وَلِيُّ الوَلَدِ اطْعَامُ مِسْكِيْنٍ لِكُلِّ يَوْمٍ لِقَوْلِهِ

تَعَالَى : ﴿ وَعَلى الذِيْنَ يُطِيْقُوْنَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِيْنٍ ﴾ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : « كَانَتْ رُخْصَةً لِلشَّيْخِ الكَبِيْرِ وَالمَرْأَةِ وَهُمَا يُطِيْقَانِ الصِّيَامَ أَنْ يُفْطِرَا وَيُطْعِمَا مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِيْناً وَالحُبْلَى وَالمُرْضِعُ إِذَا خَافَتَا عَلى أَوْلَادِهِمَا أَفْطَرَتَا وَأَطْعَمَتَا » . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ وَلَا مُخَالِفَ لَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَيْسَ لِمَنْ جَازَ لَهُ الفِطْرُ بِرَمَضَانَ أَنْ يَصُوْمَ غَيْرَهُ فِيْهِ لِأَنَّهُ لَا يَسَعُ غَيْرَ مَا فُرِضَ فِيْهِ وَلَا يَصْلُحُ لِسِوَاهُ، وَيَجِبُ الفِطْرُ عَلى مَنْ احْتَاجَهُ لِإِنْقَاذِ مَعْصُوْمٍ مِنْ مَهْلَكَةٍ. كَغَرَقٍ لِأَنَّهُ يُمْكِنُهُ تَدَارُكَ الصَّوْمِ بِالقَضَاءِ بِخِلَافِ الغَرِيْقِ وَنَحْوِهِ ، وَيَجِبُ الفِطْرُ عَلى الحَائِضِ وَالنُّفَسَاءَ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

٣ ـ مَنْ عَرَضَ لَهُ جُنوْنٌ أَوْ اغمَاءٌ :

وَمَنْ نَوى الصَّوْمَ ثُمَّ جُنَّ أَوْ أُغْمِيَ عَلَيْهِ جَمِيْعَ النَّهَارِ ، وَلَمْ يُفِقْ جُزْءاً مِنْهُ لَمْ يَصِحَّ صَوْمُهُ لأَنَّ الصَّوْمَ : الإِمْسَاكُ مَعَ النِّيَّةِ لِحَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ ، كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِيْ ، وَأَنَا أَجزِي بِهِ يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِيْ . . . » ، فَأَضَافَ التَّرْكَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ لَا يُضَافُ إِلى المَجْنُونِ وَالمغْمَى عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَجُزْ وَالنِّيَّةُ وَحْدَهَا لَا تُجْزِي ، وَيَصِحُّ الصَّوْمُ مِمَّنْ أَفَاقَ جُزْءاً مِنْهُ حَيْثُ نَوى لَيْلاً لِصِحَّةِ إِضَافَةِ التَّرْكِ إِلَيْهِ إِذاً ، وَيُفَارِقُ الجُنُوْنُ الحَيْضَ بِأَنَّهُ لَا يَمْنَعُ الوُجُوْبَ بَلْ يَمْنَعُ

الصِّحَّةَ وَيَحْرُمُ فِعْلُهُ ، وَيَصِحُّ صَوْمُ مَنْ نَامَ جَمِيْعَ النَّهَارِ لأَنَّ النَّوْمَ عَادَةً لَا يَزُولُ الإِحْسَاسُ بِهِ بالكُلِّيَةِ لأَنَّه مَتَى نُبِّهَ انْتَبَهَ . وَيَقْضِي مُغْمَى عَلَيْهِ زَمَنَ إِغْمَائِهِ لِأَنَّهُ مُكَلَّفٌ ، وَلِأَنَّ مُدَّةَ الإِغْمَاءِ لَا تَطُوْلُ غَالِباً ، وَلَا تَثْبُتُ الوِلَايَةُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَقْضِي مَجْنُونٌ زَمَنَ جُنُونِهِ لِعَدَمِ تَكْلِيْفِهِ .

مَـــوْعِظَـــةٌ

أَخْوَانِي إِنَّ الغَفْلَةَ عَنْ اللهِ مُصِيْبَةٌ عَظِيْمَةٌ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُوْنُوْا كَالذِيْنَ نَسَوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ فَمَنْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَأَلْهَتْهُ الدُّنْيَا عَنْ العَمَلِ لِلدَّارِ الآخِرَةِ أَنْسَاهُ العَمَلَ لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ فَلَا يَسْعَى لَهَا بِمَا فِيْهِ نَفْعُهَا وَلَا يَأْخُذُ فِي أَسْبَابِ سَعَادَتِهَا وَاصْلَاحِهَا وَمَا يُكَمِّلُهَا وَيُنْسَى كَذَلِكَ أَمْرَاضَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَآلَامَهُ فَلَا يَخْطُرْ بِبَالِهِ مُعَالَجَتُهَا وَلَا السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ عِلَلِهَا وَأَمْرَاضِهَا التي تَؤُلُ إِلى الهَلَاكِ وَالدَّمَارِ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ العُقُوبَاتِ فَأَيُّ عُقُوبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ وَضَيَّعَهَا وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا وَدَاءَهَا وَدَوَاءَهَا وَأَسْبَابَ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَحَيَاتِهَا الأَبَدِيَّةِ فِي النَّعِيْمِ المُقِيْمِ وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا المَوْضِعَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ كَثِيراً مِنْ الخَلْقِ قَدْ نَسُوْا أَنْفُسَهُم وَضَيَّعُوهَا وَأَضَاعُوا حَظَّهَا وَبَاعُوْهَا بِثَمَنٍ بَخْسٍ بَيْعَ المَغْبُوْنِ وَيَظْهَرُ ذَلِكَ عِنْدَ المَوْتِ وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ كُلُّهُ يَوْمَ التَّغَابُنِ « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُوْنَ » الآيَةُ .

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي ايْمَانِهَا خَيْراً﴾ انَّهَا لَحَسْرَةٌ عَلى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ دُوْنَهَا كُلُّ حَسْرَةٍ ، هَؤُلَاءِ هُمْ الذِيْنَ اشْتَرَوا الضَّلَالَةَ بِالهُدى فَمَا رَبِحَت تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِيْنَ نَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ .

اللَّهُمَّ اعْطِنَا مِنْ الخَيْرِ فَوْقَ مَا نَرْجُوْ وَاصْرِفْ عَنَّا مِنْ السُّوْءِ فَوْقَ مَا نَحْذَرُ . اللَّهُمَّ عَلِّقْ قُلُوْبَنَا بِرَجَائِكَ وَاقْطَعْ رَجَاءَنَا عَمَّنْ سِوَاكَ . اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ عُيُوْبَنَا فَاسْتُرْهَا وَتَعْلَمَ حَاجَاتِنَا فَاقْضِهَا كَفَى بِكَ وَلِيًّا وَكَفَى بِكَ نَصِيْرًا يَا رَبَّ العَالَمِيْنَ اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِسُلُوْكِ سَبِيْلِ عِبَادِكَ الأَخْيَارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَيَبْحَثُ فِي :

١ ـ ذِكْرِ أَشْيَاءَ تَحْرُمُ عَلى الصَّائِمِ وَيُفْطِرُ بِهَا .

٢ ـ حُكْمُ مَا إِذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ نَاسِياً .

٣ ـ بَعْضُ فَوَائِدِ الصَّوْمِ .

١ ـ ذِكْرُ أَشْيَاءَ تَحْرُمُ عَلَى الصَّائِمِ وَيُفْطِرُ بِهَا :

يَحْرُمُ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ عَاقِلٍ تَنَاوُلُ مُفَطِّرٍ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَنْ أَفْطَرَ يَوْماً مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ رُخْصَةٍ وَلَا مَرَضٍ ، لَمْ يَقْضِهِ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ وَانْ صَامَهُ » .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أَتَانِي رَجُلَانِ فَأَخَذَا بَضَبْعَيَّ فَأَتَيَا بِي جَبَلًا وَعْراً فَقَالَا اصْعَدْ فَقُلْتُ إِنِّي لَا أُطِيْقُهُ فَقَالَا إِنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ فَصَعَدْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي سَرَاةِ الجَبَلِ اذا بِأَصْوَاتٍ شَدِيْدَةٍ قُلْتُ مَا هَذِهِ

الأَصْوَاتُ قَالَا هَذَا عُوَاءُ أهل النَّارِ ثُمَّ انْطُلِقَ بي فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِيْنَ بِعَرَاقِيْبِهِمْ مُشَقَّقَةً أَشْدَاقهم تَسِيْلُ أَشْدَاقُهُم دماً قالَ قلتُ مَنْ هَؤُلاءِ قَالَ الذِيْنَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ » الحَدِيْثِ رَوَاهُ ابنُ خُزَيْمَةَ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِمَا .

وَمِمَّا يَحْرُمَ عَلى الصَّائِمِ الأَكْلُ وَالشُّرْبُ بَعَدَ تَبَيُّنِ الفَجْرِ الثَّانِي لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ... حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنْ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنْ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إلى اللَّيْلِ ﴾ .

فَمَنْ أَكَلَ أَوْ شَرِبَ مُخْتَاراً ذَاكِراً لِصَوْمِهِ أَبْطَلَهُ ، لأَنَّهُ فَعَلَ مَا يُنَافي الصَّوْمَ لِغَيْرِ عُذْرٍ .

٢ ـ حُكْمُ مَا إِذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ نَاسِياً :

وَلَا يُفْطِرُ مَنْ أَكَلَ أَوْ شَرِبَ نَاسِياً ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ ، فَانَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ » .

وَرَوَى الحَاكِمُ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَفْطَرَ في رَمَضَانَ نَاسِياً فَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ وَلَا كَفَّارَةَ ، وَمَنْ اسْتَقَاءَ فَسَدَ صَوْمُهُ ، وَعَلَيْهِ قَضَاءٌ » .

وَمَنْ ذَرَعَهُ القَيْءُ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ ذَرَعَهُ القَيْءُ فَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ اسْتَقَاءَ فَعَلَيْهِ القَضَاءُ » .

وَمِمَّا يُفَطِّرُ : الحِجَامَةُ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ـ رَضِيَ اللهُ

عنهُ ـ أَنَّ النَّبِي صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ ، أَتى عَلى رَجُلٍ بِالبَقِيْعِ وَهُوَ يَحْتَجِمُ في رَمَضَانَ ، فقَالَ : أَفْطَرَ الحَاجِمُ والمَحْجُوْمُ » .

وَعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيْجٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ : « أَفْطَرَ الحَاجِمُ وَالمَحْجُوْمُ » .

وَمِمَّـا يَحْرُمُ عَلَى الصَّـائِمِ ، وَيُبْطِلُ صِيَـامَهُ الجِمَـاعُ في نَهَارِ رَمَضَانَ ، وَعَلَيْهِ القَضَاءُ وَالكَفَّارَةُ ، وَهِيَ عِتْقُ رَقَبَةٍ فإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فاطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيْناً ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوْسٌ عِنْدَ النَّبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فقَالَ : « هَلَكْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ ، قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَمَا أَهْلَكَكَ ؟ قَالَ : وَقَعْتُ عَلى امْرَأَتِي في رَمَضَانَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ تَجِدُ مَا تُعْتِقُ رَقَبَةً ؟ قَالَ : لاَ ، قَالَ : اجْلِسْ . وَمَكَثَ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أَتَى النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ بِعَرَقٍ فِيْـهِ تَمْرٌ ، والعِـرُقُ المِكْتَلُ الضَّخْمُ ، قَالَ : أَيْنَ السَّائِلُ ؟ قَالَ أَنا قَالَ : خُذْ هَذَا فَتَصَدَّقْ بِهِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : أَعَلَى أَفقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ ، فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لاَ بَتَيْهَا ـ يُرِيْدُ الحَرَّتَيْنِ ـ أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ؟ فَضَحِكَ النَّبِي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَواجِذُهْ ، ثُمَ قَالَ « أَطعِمْهُ أَهْلَكَ » مُتفَقٌ عَلَيْهِ .

وَتَحْرُمُ المبَاشَرَةُ فِيْمَا دُوْنَ الفَرْجِ إِنْ ظَنَّ إِنْزَالاَ ، فَإِنْ بَاشَرَ فِيْمَا دُوْنَ الفَرْجِ ، فَأَنْزَلَ مَنِيًا فَسَدَ صَوْمُهُ ، لأَِنَّهُ إِنْزَالٌ عن مُباشَرَةٍ ، فَأَشْبَهَ الجِمَاعَ .

وَمِمَّا يُفَطِّرُ : (الرِّدَّةُ عَنْ الإِسْلاَم ـ أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا) قَالَ اللهُ

تَعَالَى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُوْنَنَّ مِنَ الخَاسِرِيْنَ ﴾ الزُّمَر ٦٥ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الخَاسِرِيْنَ ﴾ المائِدَة ٥ .

وَمِمَّا يُفَطِّرُ : إِيْصَالُ الأَغْذَيَةِ بالابْرَةِ إلى الجَوْفِ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الأَكْلِ وَالشُّرْبِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ وَأَمَّا الحُبُوبُ الغِذَائِيَّةِ وَالدَّوَائِيَّةِ وَالمُشْتَرَكَةِ فَيُفْطِرُ مَنْ أَكَلَهَا .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ إِنَّ قَوَارِعَ الأَيَّامِ خَاطِبَةٌ ، فَهَلْ أُذُنٌ لِعِظَاتِهَا وَاعِيَةٌ ، وَإِنَّ فَجَائِعَ المَوْتِ صَائِبَةٌ فَهَلْ نَفْسٌ لِأَمْرِ الآخِرَةِ مُرَاعِيَةٌ ، إِنَّ مَطَالِعَ الآمَالِ إلى المُسَارَعَةِ إلى الخَيْرَاتِ سَاعِيَةٌ أَلاَ فَانْظُرُوا بِثَواقِبِ الأَبْصَارِ وَالبَصَائِرِ فِي نَوَاحِيْ الجِهَاتِ وَالاقْطَارِ فَمَا تَرَوْنَ فِي حُشُوْدِكُمْ وَجُمُوعِكُمْ إِلا الشَّتَاتَ وَلاَ تَسْمَعُوا فِي رُبُوْعِكُم إِلَّا فُلاَنٌ مَرِيْضٌ وَفُلاَنٌ مَاتَ أَيْنَ الآبَاءُ الأَكَابِرُ أَيْنَ العُلَمَاءُ العَامِلُونَ بِعِلْمِهِمْ الذِيْنَ لا تَأْخُذُهُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ المُنَاصِحُوْنَ لِوُلاَتِهِمْ وَأَمَّتِهِم الزَّاهِدُونَ فِي حُطَامِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ أَيْنَ الكُرَمَاءُ الأَفَاضِلُ الذِيْنَ يَغَارُونَ إِذَا انْتُهِكَتْ المَحَارِمُ أَيْنَ الهَاجِرُونَ المُصَارِمُونَ لِلفَاسِقِ وَالفَاجِرِ أَيْنَ المُنَاصِرُونَ لِلْقَائِمِ عَلى أَهْلِ المَعَاصِيْ وَالكَبَائِرِ أَيْنَ أَهْلُ الوَلاَءِ وَالبَرَاءِ المُحِبُّونَ فِي اللَّهِ المُبْغِضُونَ لِأَعْدَائِهِ .

أَيْنَ المُتَّقُوْنَ لِمآكِلِهِمْ وَمَلاَبِسِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ عَنْ الحَرَامِ وَالمُشْتَبِهِ وَهُوَ مَا كَانَ القَلْبُ فِي الاقْدَامِ عَلَيْهِ وَالكَفِّ عَنْهُ حَائِرٌ .

أَيْنَ الذِيْنَ لاَ يَسْكُنُونَ إِلا بِرِضَا صَاحِبِ المُلْكِ خَوْفاً مِن المُخَاطَرَةِ

فِي صَلَاتِهِمْ وَصِيَامِهِمْ وَنِكَاحِهِمْ وَمُكْثِهِمْ فِي الامْلَاكِ المَسْكُوْنَةِ قَهْراً وَغَصْبَاً .

أَيْنَ المُتَفَقِّدُونَ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِيْنِ الذِينَ لَيْسَ لَهُم مَوَارِدُ . عَثَرَتْ وَاللهِ بِهِمْ العَوَاثِرُ وَأَبَادَتْهم السِّنِيْنُ الغَوَابِرُ وَبَتَرَتْ أَعْمَارُهُم الحَادِثَاتُ البَوَاتِرُ وَاخْتَطَفَهُمْ عَقَبَاتُ كَوَاسِر . وَخَلَتْ مِنْهُمْ المشَاهِدُ وَالمَحَاضِرُ وَعُدِمَتْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ تِلْكَ الجَوَاهِرُ وَطَفِئَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ الأَنْوَارُ الزَّوَاهِرُ وَابْتَلَعَتْهُمْ الحُفَرُ والمَقَابِرُ إلى يَوم تُبْلى السَّرَائِرُ فَلَوْ كُشِفَتْ عَنْهُمْ أَغْطِيَةُ القُبُوْرِ بَعْدَ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثِ لَيَالٍ لَرَأَيْتَ الأَحْدَاقَ عَلى الخُدُوْدِ سَائِلَةً وَالأَوْصَال بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ مَائِلَةً وَدِيْدَانَ الأَرْضِ فِي نَوَاعِمِ تِلْكَ الأَبْدَانِ جَائِلَةً والرُّؤُسَ المُوَسَّدَةُ عَلَى الايْمَانِ زَائِلَةً يُنْكِرُهَا مَنْ كَانَ عَارِفاً بِهَا وَيَنْفُرُ عَنْهَا مَنْ لَمْ يَزَلْ آلِفاً بِهَا .

فَلَا يُعْرَفُ السَّيدُ مِنْ المَسُوْدِ وَلَا المَلِكُ مِنْ المَمْلُوكِ وَلَا الذَّكِيُّ مِنْ البَلِيْدِ وَلَا الغَنِيُّ مِنْ الفَقِيْرِ فَرَحِمَ اللهُ عَبْداً بَادَرَ بالاقْلَاعِ عَنْ السَّيِّئَاتِ وَوَاصَلَ الإِسْرَاعَ وَالمبَادَرَةَ فِي الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ قَبْلَ انْقِطَاعِ مُدَدِ الأَوْقَاتِ وَطَيِّ صَحَائِفِ المُسْتَوْدَعَاتِ وَنَشْرِ فَضَائِحِ الاقْتِرَافَاتِ وَالجِنَايَاتِ فَلَا تَغْتَرُّوا بِحَيَاةٍ تَقُوْدُ إِلى المَمَاتِ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّمَا تُوْعَدُوْنَ لآتٍ فَالبِدَارَ البِدَارَ قَبْلَ أَنْ تَتَمنَّوا المُهْلَةَ وَهَيْهَاتَ .

شِـــعْراً :

نَمْضِيْ عَلى سُبُلٍ كَانُـوا لَهَا سَلَكُـوا
أَسْــلَافُنَــا وَهُمْ لِلدِّيْنِ قَــدْ شَــادُوْا

لَـنـا بِـهِـمْ أُسْـوَةٌ إِذْ هُـم أَئِـمَّـتُـنَـا
وَنَـحْـنُ لِـلْـقَـوْمِ أَبْـنَـاءٌ وَأَحْـفَـادُ
وَالـصَّـبْـرُ يَـا نَـفْسُ خَـيْـرٌ كُـلُّهُ وَلَـهُ
عَـوَاقِـبٌ كُـلُّهَـا نُـجْـحٌ وَإِمْـدَادُ
فَـاصْبِـرْ هُـدِيْتَ فَـانَّ المَـوْتَ مُشْتَـرَكٌ
بَـيْـنَ الأَنَـامِ وانْ طَـاوَلْـنَ آمَـادُ
والنَّـاسُ في غَفَـلاَتٍ عَنْ مَصَـارِعِهِمْ
كَـأَنَـهُـمْ وَهُـمْ الأَيْـقَـاظُ رُقَّـادُ
دُنْـيـاً تَـغُـرُّ وَعَـيْشٌ كُـلُّهُ كَـدَرٌ
لَـوْلاَ النُّفُـوسُ الَّـتِي لِلْوَهْمِ تَـنْقَـادُ
كُنَّـا عَـدَدْنَـا لِهَـذَا المَـوْتِ عُـدَّتَـهُ
قَبْـلَ الـوَفَـاةِ وَأَنْ تُحْـفَـرْنَ أَلْحَـادُ
فَـالـدَّارُ مِنْ بَعْـدِ هَـذِي الـدَّارِ آخِـرَةٌ
تَـبْـقَـى دَوَامـاً بِـهَـا حَـشْـرٌ وَمِيْـعَـادُ
وَجَـنَّـةٌ أُزْلِـفَـتْ لِلْمُـتَّـقِـيْـنَ وَأَهْـ
ـلُ الـحَقِّ وَالـصَّـبْـرِ أَبْـدَالٌ وَأَوْتَـادُ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِـكَ مِنْ قَبْلِ المَمَـاتِ وَلاَ
تَعْجَـلْ وَتَكْسَـلْ فَـإِنَّ المَـرْءَ جَهَّـادُ
لاَ يَـنْفَـعُ الـعَـبْـدَ إلا مَـا يُقَـدِّمُـهُ
فَبَـادِرِ الفَـوْتَ وَاصْـطَدْ قَبْـلَ تُصْـطَادُ
وَالـمَـوْتُ لِلْمُؤْمِنِ الأَوَّابِ تُـحْـفَـتُـهُ
وَفِـيْـهِ كُـلُّ الـذِي يَـبْـغِـي وَيَـرْتَـادُ

لِقَـا الكَـرِيْمِ تَعَـالَى مَجْـدُهُ وَسَمَـا
مَـعَ النَّعِيْمِ الـذيْ مَـا فِيْـهِ أَنْكَـادُ
فَضْـلٌ مِنَ اللهِ إِحْسَـانٌ وَمَـرْحَـمَـةٌ
فَـالـفَـضْـلُ لِـلَّهِ كَـالآزَالِ آبَـادُ
فَـالـظَّنُّ بِـالـلهِ مَـوْلاَنَـا وَسَيِّـدِنَـا
ظَنٌّ جَمِيْـلٌ مَـعَ الأَنْفَـاسِ يَـزْدَادُ
نَـرْجُـوْهُ يَـرْحَمُنَا نَـرْجُـوْهُ يَسْتُـرُنَـا
فَـمِـنْـه لِـلْكُـلِّ إِمْـدَادُ وَإِيْـجَـادُ
نَـدْعُـوْهُ نَـسْـأَلُـهُ عَفْـواً وَمَـغْـفِـرَةً
مَـعْ حُسْنِ خَـاتِمَـةٍ فَـالعُمْـرُ نَفَّـادُ
وَقَـدْ رَضِيْنَـا قَضَـاءَ اللهِ كيفَ قَضَـا
وَاللُّطْفَ نَـرْجُـو وَحُسْنُ الصَّبْـرِ إِرْشَـادُ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِسُلُوْكِ مَنَاهِجِ المُتَّقِيْنِ ، وَخُصَّنَا بِالتَّوْفِيْقِ المُبِيْنِ ، وَاجْعَلْنَا بِفَضْلِكَ مِنْ المقرَّبِيْنَ الذِيْنَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ، وَاغفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

٣ - بَعْضُ فَوَائِدِ الصِّيَامِ :

عِبَادَ اللهِ إِنَّ لِشَهْرِ رَمَضَانَ شَرَّفَهُ اللهُ فَوَائِدُ عَظِيْمَةٌ وَمَنَافِعُ جَمَّةٌ وَآثَارٌ حَسَنَةٌ فَهُوَ يَضْبِطُ النَّفْسَ وَيُطْفِيءُ شَهْوَتَهَا فَانَّهَا إِذَا شَبِعَتْ تَمَرَّدَتْ في الغَالِبِ وَسَعَتْ في شَهَـوَاتِهَا ، وإِذَا جَاعَتْ سَكَنَتْ وَخَضَعَتْ وَامْتَنَعَتْ عَنْ مَا تَهْوَى ، فَفِي حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُوْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ

صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ البَاءَةَ فَلْيَتزَوَّجْ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَانَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

ذَلِكَ أنه يَكسِر مِنْ شَهْوَةِ الشَّبَابِ حَتَّى لَا تَطْغَى عَلَيْهِ الشَّهْوَةُ ، فَكَانَ الصَّوْمُ وَسِيْلَةً إِلى كَفِّ النَّفْسِ عَنْ المَعَاصِيْ ، فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ حَكِيْمٍ عَلِيْمٍ ، فَالصِّيَامُ يُرَبِّي في الإِنْسَانِ الفَضَائِلَ وَالإِخْلَاصَ والأَمَانَةَ وَالصَّبْرَ عِنْدَ الشَّدَائِدَ ، لِأَنَّهَا إِذَا انْقَادَتْ لِلامْتِنَاعِ عَنْ الحَلَالِ مِنْ الغِذَاءِ الذِي لَا غِنَى لَهَا عَنْهُ طَلَباً لِمَرْضَاةِ اللهِ تَعالَى وَخَوْفاً مِنْ أَلِيْمِ عِقَابِهِ .

فَالأَحْرَى بِهَا أَنْ تَتَمَرَّنَ على الامْتِنَاعِ عَنْ الحَرَامِ الذي هِيَ غَنِيَّةٌ عَنْهُ وَتُبْعِدَ عَنْهُ كُلَّ البُعْدِ فَلَا يَغْدُرُ وَلَا يَخُوْنُ وَلَا يُخْلِفُ وَعْداً وَلَا يَكْذِب وَلَا يُرَائِي .

فَاذَا وَفَّقَهُ اللهُ لِصَوْنِ صِيَامِهِ عَنْ المُفْسِدَاتِ وَالمُنَقِّصَاتِ فَالصَّوْمُ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ سَبَبٌ في اتِّقَاءِ المَحَارِمِ وَقُوَّةِ العَزِيْمَةِ وَالتَّحلي بالفَضَائِلِ وَالتَّخَلِّيْ عَنْ الرَّذَائِلِ ، وَالى هَذا أَشَارَ جَلَّ وَعَلَا بِقَوْلِهِ : ﴿ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ فَالصَّوْمُ يَدْعُو إلى شُكْرِ نِعمَةِ اللهِ ، إِذْ هُوَ كَفُّ النَّفْسِ عَنْ الطَّعَام وَالشَّرَابِ ومُبَاشَرَةِ النِّسَاءِ ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ جَلَائِلِ نِعَمِ اللهِ عَلى خَلْقِهِ .

وَالامْتِنَاعِ عَنْ هَذِهِ النِّعَمِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى آخِرِهِ يُعَرِّفُ الإِنْسَانَ قَدْرَهَا ، إِذْ لَا يُعْرَفُ فَضْلُ النِّعْمَةِ إِلَّا بَعْدَ فَقْدِهَا فَيَبْعَثُه ذَلِكَ عَلى القِيَامِ بِشُكْرِهَا وَشُكْرُ النِّعْمَةِ وَاجِبٌ على العِبَادِ ، والى هَذا أَشَارَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَدَاكُم

وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ ﴾ .

وَأَيْضاً فَالصِّيَامُ يَبْعَثُ في الإِنْسَانِ فَضِيْلَةَ الرَّحْمَةِ بالفُقَرَاءِ وَالعَطْفِ عَلى البَائِسِيْنَ ، فَإِنَّ الإنْسَانَ إذا ذاقَ أَلَمَ الجُوْعِ في بَعْضِ الأَوْقَاتِ تَذَكَّرَ الفَقِيْرَ الجَائِعَ في جَمِيْعِ الأَوْقَاتِ فَيُسَارِعُ إلى رَحْمَتِهِ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِ . قِيْلَ لِيُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَكَانَ كَثِيرَ الجُوْعِ : لِمَ تَجُوعُ وَأَنْتَ على خَزَائِنِ الأَرْضِ ؟ فَقَالَ : انِّي أَخَافُ أَنْ أَشْبَعَ فَأَنْسَى الجَائِعَ .

وَمِنْ فَوَائِدِ الصِّيَامِ مَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّهُ يُنَقِّي الجِسْمَ مِنَ الفَضَلاتِ الرَّدِيْئَةِ وَرُطُوْبَاتِ الأَمْعَاءِ ، وَيَشْفِي كَثِيْراً مِنَ الأَمْرَاضِ بإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ، وَفِيْهِ مِنَ المَزَايَا الصِّحِيَّةِ مَا شَهِدَ بِهِ العَدُوُّ قَبْلَ الصَّدِيْقِ ، فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ عَلِيْمٍ حَكِيْمٍ .

وَمِنْ فَوَائِدِ الصِّيَامِ أَنَّهُ يُقَوِّي النَّفْسَ عَلى البِّرِ وَالحِلْمِ وَهُمَا تَجَنُّبِ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ اثَارَةُ الغَضَبِ لأَنَّ الصَّوْمَ نِصْفُ الصَّبْرِ ، وَالصَّبْرُ نِصْفُ الإِيْمَانِ كَمَا قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلِمَا رَوَى النَّسَائِيْ عَنْ مُعَاذِ ابْنِ جَبَلَ في حَدِيْثِهِ الطَّوِيْلِ : أَنَّ النبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم قَالَ لَهُ : (أَلَا أَدلّكَ عَلى أَبْوَابِ الخَيْرِ ؟ قُلتُ : بَلى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : الصَّوْمُ جُنَّةٌ فالصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنْ العَذَابِ وَمِنْ الاخْلاَقِ السَّيِّئَةِ) .

وَمَنْ يُلاَحِظْ حَالَ الصَّائِمِيْنَ المُوَفَّقِيْنَ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَحَرِّيْ الطَّاعَةِ وَتَحرِّي سُبُلَ الخَيْرَاتِ وَالابْتِعَادِ عَنْ المَعَاصِيْ وَالرَّغْبَةِ في الاحْسَانِ يُدْرِكُ أَنَّ الصَّوْمَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الهِدَايَةِ ، وَيُدْرِكُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُوْنَ ﴾ وَيُدْرِكُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الصَّوْمُ جُنَّةٌ » وَيُدْرِكُ مَا فِيْهِ مِنْ تَهْذِيْبِ النَّفْسِ

وَتَطْهِيْرِهَا مِنْ الأَخْلاَقِ المَوْبُوْءَةِ وَتَـرْوِيْضِهَا عَلى الـطَّاعَاتِ وإِعْـدَادِهَا لِلسَّعَادَتَيْنِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ ، وَحَسْبُكَ » في فَضْلِ الصِّيَامِ قَوْلُهُ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَالذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَخلوْفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيْحِ المِسْكِ » .

يَقُوْلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَذَرُ شَهوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ لِأَجْلِيْ فَالصَّوْمُ لِيْ وَأَنَا أَجْزِيْ بِهِ ، قَالَ ابْنُ القَيمِّ رَحِمَهُ اللهُ وَقَدْ اخْتُلِفَ في وُجُوْدِ هَذِهِ الرَّائِحَةِ مِنْ الصَّائِمِ هَلْ هِيَ في الدُّنْيَا أَو في الآخِرَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ وَفَصْلُ النِّزَاعِ في المَسْأَلَةِ أَنْ يُقالَ حَيْثُ أَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ ذَلِكَ الطِّيبَ يَكُوْنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلأَنَّهُ الوَقْتُ الذي يَظْهَرُ فِيْهِ ثَوَابُ الأَعْمَالِ وَمُوْجِبَاتُهَا مِنْ الخَيْرِ وَالشَّرِّ فَيَظْهَرُ لِلْخَلْقِ طِيْبُ ذَلِكَ الخُلُوفُ عَلى المِسْكِ كَمَا يَظْهَرُ فِيهِ دَمُ المَكْلُومِ في سَبِيْلِهِ كَرَائِحَةِ المِسْكِ وَكَما تَظْهَرُ في السَّرَائِرِ وَتَبْدُو عَلَى الوُجُوهِ وَتَصِيْرُ عَلاَنِيَةً وَيَظْهَرُ فِيْهِ قُبْحُ رَائِحَةِ الكفَّارِ وَسَوَادُ وُجُوْهِهِمْ وَحَيْثُ أَخْبَرَ بِأَنَّ ذَلِكَ حِيْنَ يَخْلُفُ وَحِيْنَ يُمْسُونَ فَلأَنَّهُ وَقْتُ ظُهُورِ أَثَرِ العِبَادَةِ وَيَكُوْنَ حِيْنَئِذٍ طِيْبُهَا عَلى رِيْحِ المِسْكِ عِنْدَ اللهِ تَعالَى وَعِنْدَ مَلائِكَتِهِ وَانْ كَانَتْ تِلْكَ الرَّائِحَةُ كَرِيْهَةً لِلْعِبَادِ .

فَرُبَّ مَكْرُوْهٍ عِنْدَ النَّاسِ مَحْبُوبٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَبِالعَكْسِ فَإِنَّ النَّاسَ يَكْرَهُوْنَهُ لِمُنافَرَتِهِ لِطِبَاعِهِمْ واللَّهُ تَعَالَى يَسْتَطِيْبُهُ وَيُحِبُّهُ لِمُوافَقَتِهِ لِأَمْرِهِ وَرِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ فَيكُوْنُ عِنْدَهُ أَطْيَبُ مِن رِيْحِ المِسْكِ عِنْدَنَا فإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ظَهَرَ هَذا الطِّيْبُ لِلْعِبادِ وَصَارَ عَلاَنِيَةً .

وَهَكَذَا سَائِرُ آثَارِ الأَعْمَالِ مِنْ الخَيْرِ وَالشَّرِّ وإِنَّمَا يَكْمُلُ ظُهُوْرُها وَيَصِيْرُ عَلاَنِيَةً في الآخِرَةِ .

اللَّهُمَّ يَا مَنْ خَلَقَ الإنْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ وَبِقُدْرَتِهِ التِيْ لاَ يُعْجِزُهَا شَيءٌ يُحْيِيْ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيْمٌ . نَسْأَلكَ أَنْ تَهْدِيْنَا إلى صِرَاطِكَ المُسْتَقِيْمِ صِرَاطَ الذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَأَنْ تَغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَيَبْحَثُ فِيْ

١ ـ ذِكْرِ أَشْيَاءَ تَخْفَى عَلى بَعْضِ النَّاسِ .
٢ ـ ذِكْرِ أَشْيَاءَ تَحْرُمُ وَيَتَأَكَّدُ تَحْرِيْمُهَا في حَقِّ الصَّائِمِ .
٣ ـ الحَثُّ عَلى صِيَانَةِ الوَقْتِ وَصَرْفِهِ فِيْمَا فِيْهِ النَّفْعُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .
٤ ـ فِيْمَا يُسْتَحَبُّ لِلصَّائِمِ أَنْ يَقُوْلَهُ أَوْ يَفْعَلَهُ .
٥ ـ أَحْكَامُ القَضَاءِ .

١ ـ ذِكْرُ أَشْيَاءَ تَخْفَى عَلَى بَعْضِ النَّاسِ :

يَجُوزُ لِمَنْ جَامَعَ بِاللَّيْلِ أَنْ لاَ يَغْتَسِلَ حَتَّى يَطْلَعِ الفَجْرِ ، وَصَوْمُهُ صَحِيْحٌ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنها ـ أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، تُدْرِكُنِيْ الصَّلاَةِ وَأَنَا جُنُبٌ أَفَأَصُومُ ؟ فَقَالَ رَسولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلاَةُ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُوْمُ » فقالَ : لَسْتَ مِثْلَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَقَالَ : « وَاللهِ ، إِنِّي لأَرْجُوْ أَنْ أَكُوْنَ أَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي » .

وَعَنْ عَائِشَةَ ، وَأُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ النَّبِيَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « كَانَ يُصْبِحُ جُنُباً مِنْ جِمَاعٍ غَيْرَ احْتِلَامٍ ، ثُمَّ يَصُوْمُ في رَمَضَانَ » .

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم يُصْبِحُ جُنُبَا مِنْ جِمَاعٍ لَا حُلُمٍ ، ثُمَّ لَا يُفْطِرُ وَلَا يَقْضِي .

لَكِنْ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ لَزِمَهُ الغُسْلُ لَيْلاً مِنْ جُنُبٍ وَحَائِضٍ وَنُفَسَاءَ انْقَطَعَ دَمُهَا ، وَكَافِرٍ أَسْلَمَ ، أَنْ يَغْتَسِلَ قَبْلَ طُلُوعِ الفَجْرِ الثَّانِيْ .

وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يَأْكُلَ أَوْ يَشْرَبَ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الصَّوْمُ في نَهَارِ رَمَضَانَ نَاسِياً أَوْ جَاهِلاً وَجَبَ على مَن رَآهُ اعْلَامُهُ . لِأَنَّه مِنْ بَابِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ المُنْكَرِ وَمِنْ بَابِ النَّصِيْحَةِ لِلْمُسْلِمِ .

وَمَنْ أَكَلَ شَاكّاً في طُلُوعِ الفَجْرِ ، وَدَامَ شَكُّهُ ، فَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ لِظَاهِرِ الآيَةِ ، وَانْ أَفْطَرَ يَظُنُّ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ غَابَتْ ، وَلَمْ تَغِبْ فَعَلَيْهِ القَضَاءُ ، لِمَا رَوَى هِشَام عَنْ عُرْوَةَ عَن فَاطِمَةَ امْرَأَتُهُ عَنْ أَسْمَاءَ ـ رَضى اللهُ عَنهَا ـ قَالَتْ : « أَفْطَرْنَا على عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلم في يَوْمِ غَيْمٍ ، ثُمَّ طَلَعَتْ الشَّمْسُ » قِيْلَ لِهِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ ـ وَهُوَ رَاوِي الحَدِيْثِ ـ أُمِرُوا بِالقَضَاءِ ؟ قَالَ : لَا بُدَّ مِن قَضَاءٍ .

وَلَا يَفْسُدُ صَوْمُ مَنْ طَارَ الى حَلْقِهِ ذُبَابٌ ، أَوْ غُبَارٌ مِنْ طَرِيْقٍ ، أَوْ دَقِيْقٍ أَوْ دُخَانٍ ، لِعَدَمِ إمْكَانِ التَّحَرُّزِ مِنْهُ وَأَمَّا الدُّخَانُ الذي بُلِيَ بِهِ كَثِيْرٌ مِنْ النَّاسِ فَمُحَرَّمٌ وَيُفْطِرُ مَنْ شَرِبَهُ .

وَلَا يُفْطِرُ انْ فكَّر فَأَنْزَلَ ، لِقَوْلِهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم : « عُفِى لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تعْمَلْ بِهِ أَوْ تَتكَلَّمْ » .

وَلَا يُفطِرُ إنْ احْتَلَمَ ، لِإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسَبَبٍ مِنْ جِهَتِهِ .

وَمَنْ اغْتَسَلَ ، أَوْ تَمَضْمَضَ ، أَوْ اسْتَنْشَقَ فَدَخَلَ المَاءُ إلى حَلْقِهِ بِلَا قَصْدٍ ، لَمْ يفْسُدْ صَوْمِهِ ، لِمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ عَائِشَةَ ، وَأُمِّ سَلَمَةٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَتَا : « نَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ إنْ كَانَ لَيُصْبِحُ جُنُباً مِنْ غَيْرِ احْتِلَامٍ ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ ».

وَتُكْرَهُ المُبَالَغَةُ فِي المَضْمَضَةِ وَالاسْتِنْشَاقِ لِلصَّائِمِ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ لَقِيْطِ بْنِ صَبُرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلم : « أَسْبِغْ الوُضُوءَ ، وَخَلِّلْ بَيْنَ الأَصَابِعْ ، وَبَالِغْ في الاسْتِنْشَاقِ إلا أَنْ تَكُونَ صَائِماً » .

٢ ـ ذِكْرُ أَشْيَاءَ تَحْرُمُ وَيَتَأَكَّدُ تَحْرِيْمُهَا في حَقِّ الصَّائِمِ :

يَجِبُ اجْتِنَابُ كُلِّ كَذِبٍ مُحَرَّمٍ ، أَمَّا الكَذِبُ لِتَخْلِيْصِ مَعْصُوْمٍ مِنْ قَتْلٍ فَوَاجِبٌ ، قُلْتُ وَيَتَرَجَّحُ عِنْدي مِثْلُهُ أَيْضاً تَخْلِيْصُ مَالِهِ مِنْ ظَالِمٍ أَوْ قَاطِعِ طَرِيْقٍ أَوْ غَاصِبٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَالمالُ مُثْمَنٌ والأَحْسَنُ يَتأَوَّلُ ، وَلا صْلَاحٍ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فَمُبَاحٌ لِمَا وَرَدَ عَنْ أُمِّ كُلْثُوْمٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا قَالتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم : لَيْسَ الكَذَّابُ الذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَقُولُ خَيْراً أَوْ يَنْمِى خَيْرا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

ثُمْ اعْلَمْ أَنَّ الدَّاعِي الى الكَذِبِ مَحَبَّةُ النَّفْعِ الدُّنْيَوِيْ وَحُبُّ التُّرَاثِ

وَذَلِكَ أَنَّ المُخْبِرَ يَرَى أَنَّ لهُ فَضْلاً عَلى المُخْبَر بِمَا عَلَّمَهُ فَهُوَ يَتَشَبَّهُ بِالعَالِمِ الفَاضِلِ فَيَظُنُّ أَنَّه يَجْلِبُ بِمَا يَقُوْلُهُ فضْلاً وَمَسَرَّةً وَهُوَ يَجلِبُ بِه نَقْصاً وَفَضِيْحَةً فَالكَذِبُ رَذِيْلَةٌ مَحْضَةٌ مِنْ أَرْذَلِ الرَّذَائِلِ يُنْبِىءُ عَنْ تَغَلْغُلِ الفَسَادِ في نَفْسِ صَاحِبِها وَعَنْ سُلُوكٍ يُنْشِيءُ الشَرَّ انْشَاءً فَالكَذِبُ يَتَصَدَّعُ بِهِ بُنْيَانُ المَجْتَمَعِ وَبِهِ يَخْتَلُّ سَيْرُ الأُمُوْرِ ، وَيُسْقِطُ صَاحِبَهُ مِنْ العُيُوْنِ وَلَا يُوْثَقُ في قَولِهِ ، وَلَا يُوثَقُ بِهِ في عَمَلٍ ، وَلَا يُرْغَبُ لَهُ مَجْلِسٌ ، وَأَحَادِيْثُهُ عِنْدَ النَّاسِ مَتْرُوْكَةٌ ، وَشَهَادَتُهُ مَرْدُوْدَةٌ وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليه وسَلم يُطْبَعُ المؤمِنُ عَلى الخِلَالِ كُلِّهَا إلَّا الخِيَانَةَ وَالكذِبَ رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَعَنْ بَهْزِ بْنُ حَكِيْمٍ عَنْ أَبِيْهِ عَنْ جَدِّهِ مَرْفُوْعاً وَيْلٌ لِلْذِي يُحَدِّثُ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ .

وَعَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ مَا كَانَ خُلُقٌ أَبْغَضَ إلى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ مِنْ الكَذِبْ وَلَقْد كَانَ الرَّجُلُ يَكْذِبُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم الكَذْبَةَ فَمَا يَزَالُ في نَفْسِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ أَحْدَثَ مِنْهَا تَوْبَةً رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَفي الحَدِيْثِ الآخَرِ أنهُ قِيْلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم أيَكُوْنُ المؤْمِنُ كذَّاباً قَالَ لَا الحَدِيْثِ رَوَاهُ مَالِكُ وَالبَيْهَقِي في شُعَبْ الايْمَانِ .

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : إيَّاكَ وَالكَذِبَ فَانَّهُ يُفْسِدُ عَلَيْكَ تَصَوُّرَ المَعْلُومَاتِ عَلى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَيُفْسِدُ عَليْكَ تَصوِيْرَهَا وَتَعْلِيْمَهَا لِلنَّاسِ فَانَّ

الكَاذِبَ يُصَوِّرُ المَعْدُومَ مَوْجُوداً وَالمَوْجُوْدَ مَعْدُومَا وَالحَقَّ بَاطِلاً وَالبَاطِلَ حَقًّا وَالخَيْرَ شَرًّا فَيُفْسَدُ عَلَيْهِ تَصوُّرُهُ وَعِلْمُهُ عُقُوبَةً له ثُمَّ يُصَوِّرُ ذَٰلِكَ فِي نَفْسِ المُخَاطَبِ المُغْتَرِ بِهِ الرَّاكِنُ الَيْهِ فَيُفسِدُ عَلَيْهِ تَصوُّرَهُ وَعِلْمَه وَنَفْسُ الكَاذِبِ مُعْرِضَة عَنْ الحَقِيْقَةِ المَوجُودَةِ تَرَّاعَةٌ إلى العَدَمِ مُؤْثِرَةٌ لِلْبَاطِلِ وَلِهَذَا كَانَ الكَذِبُ أَسَاسُ الفُجُوْرِ .

كَمَا قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ الكَذبَ يَهْدِي إلى الفُجُوْرِ وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ ، وَأَولُ مَا يَسْرِي الكذِبُ من النَّفْسِ إلى اللِّسَانِ فَيُفسِدُهُ ثُمَّ يَسْرِي إلى الجَوَارِحِ فَيُفْسِدُ عَلَيْهَا أَعْمَالَهَا كَمَا أَفْسَدَ على اللسَانِ أَقْوَالَهُ فيَعُمُّ الكَذِبَ أَقْوَالَهُ وَأَعْمَالَهُ وَأَحْوَالَهُ فَيَسْتَحْكِمُ عَلَيْهِ الفَسَادُ وَيَترامَى دَاؤهُ إلى الهُلَكَةِ انْ لَم يَتَدارَكْهُ اللهُ بِدَوَاءِ الصِّدْقِ بِقَلْعِ تِلْكَ المَادَّةِ مِنْ أَصْلِهَا .

وَلِهَذا كَانَ أَصْلُ أَعْمَالِ القُلُوبِ كُلِّهَا الصِّدْقَ وَأَضْدَادُهَا مِنْ الرِّيَاءِ وَالعُجْبِ وَالكِبْرِ وَالفَخْرِ وَالخُيَلاَءِ وَالبَطَرِ والأَشَر والعَجْزِ وَالكَسَلِ وَالجُبْنِ وَالمَهَانَةِ وَغَيْرِهَا أَصْلُهَا الكَذِبُ فَكُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ ظَاهِرٌ أَوْ بَاطِنٌ فَمَنْشَؤُهُ الصِّدْقُ وَكُلُّ عَمَلٍ فَاسِدٍ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ فَمَنْشَؤُوهُ الكَذِبُ ، واللَّهُ تَعَالى يُعَاقِبُ الكَذَّابَ بِأَنْ يُقْعِدَهُ وَيُثَبِّطَهُ عَنْ مَصَالِحِهِ وَمَنافِعِهِ وَيُثِيْبُ الصَّادِقَ بِأَنْ يُوَفِّقَهُ لِلْقِيَامِ بِمَصَالِحِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ .

فَمَا اسْتُجْلِبَتْ مَصَالِحُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بِمِثْلِ الصِّدْقِ وَلاَ مَفَاسِدُهُمَا وَمَضَارُّهُمَا بِمِثْلِ الكَذِبْ قَالَ تَعَالى : ﴿يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُوْنُوْا مَعَ الصَّادِقِيْن﴾ وَقَالَ ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِيْنَ صِدْقُهُمْ﴾ وَقَالَ ﴿فاذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيراً لَهُمْ﴾ .

شِعْراً :

عَوِّدْ لِسَانَكَ قَوْلَ الصِّدْقِ تَحظَ بِهِ
إنَّ اللِّسَانَ لِمَا عَوَّدْتَ يَعْتَادُ
مُوَكَّلٌ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ
في الصِّدْقِ وَالكِذْبِ فَانْظُرْ كَيْفَ يَرْتَادُ

اللَّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الايْمَانِ وَثَبِّتْهَا عَلى قَوْلِكَ الثَّابِتْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وَتَوفَّنَا مُسْلِمِيْنَ وَالْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ يَا أَكْرَمَ الأكْرَمِيْنَ وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)
في بَيَانِ أَنْوَاعِ الْكَذِبِ

وَيَتَنَوَّعُ الكَذِبُ الى أَنْوَاعٍ ، فَمَا كَانَ مُتَعَلِّقاً بِأَمْوَالِ النَّاسِ وَأَعْرَاضِهِم وَأَنْفُسِهِم هُوَ مِنْ أَشَدِّ الكَبَائِرِ وَأَقْبَحِ الجَرَائِمِ التِي تُضِرُّ بالمُجْتَمعِ الانسَانِي ، وَتَقْضِي عَلى العَدْلِ ، فانَّ الذِي يَقُولُ الزُّوْرَ لِيَقْتَطِعَ حُقُوْقَ عِبَادِ اللهِ أَوْ يَثْلِمَهُمْ في أَعْرَاضِهِمْ مِن كلِّ مَا يَضُرُّ الانْسَانِيَّةَ وَيُؤْلِمُهَا .

وَقَدْ عَرَّضَ نفْسَهُ لِغَضَبِ اللهِ وَكَانَ سَبَباً في بَثِّ الفَوْضَى وإغْرَاءِ المُجْرِمِيْنَ عَلى اقْتِرَافِ الجَرَائِمْ فَيَنَالُوْنَ مِنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ وَأَمْوَالِهِمْ مَا يَشْتَهُوْنَ وَهُمْ آمِنُوْنَ مِنْ العُقُوْبَةِ لأَنَّهُمْ يَجِدُوْنَ شَاهِدَ الزُّوْرِ يُسَاعِدُهُمْ عَلى الافْلاَتِ مِنْهَا ، وَقَدْ أَكْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَرَ قَوْلِ الزُّوْرِ وَأَعْظَمَ

جُرْمَهُ كَمَا فِي الحَدِيْثِ قَالَ : « الاشْرَاكُ باللَّهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ ، وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ ، فَقَالَ : أَلاَ وَقَوْلَ الزُّوْرِ ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ » ، فَجُلُوسُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ بَعْدَ اتِّكَائِهِ إهْتِمَاماً بِشَأْنِهِ ، وَصَدّرَ قَوْلَه بأَدَاةِ التَّنْبِيهِ وَكَرَّرَ كَلِمَتَهُ حَتَّى شَقَّ عَلَى نَفْسِهِ وَبَدَا الغَضَبُ في وَجْهِهِ ، وَتَمَنَّى أَصْحَابُهُ لَوْ سَكَتَ .

وَقَوْلُ الزُّوْرِ يَشْمَلُ الشَّهَادَةَ بِالبَاطِلِ وَالحُكْمَ الجَائِرَ وَرَمْيَ الأَبْرِيَاءِ وَالقَوْلَ عَلَى اللهِ بِلاَ عِلْمٍ .

وَعَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ قَالَ صَلى رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلم صَلاَةَ الصُّبح فَلمَّا انْصَرَفَ قَامَ قَائِماً فَقَالَ عَدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّوْرِ بِالإِشْرَاكِ باللهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَرَأَ : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّوْرِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرَكِيْنَ بِهِ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَابْنُ مَاجَهْ .

وَشَاهِدُ الزُّوْرِ يُسِيءُ الى نَفْسِهِ اذْ يَبِيْعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ ، وَيُسِيءُ إلى مَنْ شَهِدَ لَهُ بِإعَانَتِهِ عَلى ظُلْمِهِ ، وَيُسِيءُ إلى مَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ في إضَاعَةِ حَقِّهِ وَيُسِيءُ إلى القَاضِيْ الذي جَلَسَ يَتَحَرَّى العَدْلَ لِيَحْكُمُ بِهِ وَيُنْصِفَ الضّعَفَاءِ مِنْ الأَقْوِيَاءِ وَيَنْتَزِعَ حَقَّ المَظْلُومِ مِنْ الظَالِمَ بأَنَّهُ بِشَهَادَتِهِ بِالزُّوْرِ يُظَلِّلُه وَيَسُدُّ أَمَامَهُ طَرِيْقَ الحَقِّ وَيَفْتَحْ بَابَ البَاطِلِ .

وَبِهَذَا يَشُلُّ يَدَ العَدَالَةِ أَنْ تَقْتَصَّ لِلْمَظْلُوْمِ مِنْ الظَّالِمِ وَيُسِيءُ شَاهِدُ الزُّوْرِ إلى أَوْلادِهِ وَأُسْرَتِهِ لانّه يُلَوِّثها بِهَذِهِ السُّمْعَةِ السَّيِّئَةِ وَالفَائِهَةِ القَبِيْحَةِ وَيَحْمِلُ النَّاسَ على أَنْ يَقُوْلُوا لَهُمْ عَائِلَةُ المُزَوِّرِ ، وَأَعْظِمْ بِهَا مِنْ أَذِيَّةٍ لِلْمُسْتَقِيمِيْنَ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضْيِ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم : « انَّ الصِّدْقَ يَهْدِيْ إلىٰ البِرِّ ، وَالبِرُّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ ، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيْقا ، وَإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُوْرِ ، وَإنَّ الفُجُوْرَ ، يَهْدِيْ إلىٰ النَّارِ ، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيكذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابَا » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَفي الحَدِيْثِ أَنَّ الكَذِبَ مِنْ صِفَاتِ النِّفَاقِ .

اللَّهمَّ أتْمِمْ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ الوَافِيَةَ وَأَرْزُقْنَا الاخْلَاصَ فِيْ أَعْمَالِنَا وَالصِّدْقَ في أَقْوَالِنَا وَعُدْ عَلَيْنَا بِاصْلَاحِ قُلُوْبِنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

في التَّحْذِيرِ مِنْ الغِيْبَةِ

وَيَجِبُ اجْتِنَابُ الغِيْبَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ أَيْ لَا يَتَنَاوَلْ بَعْضُكُمْ بَعْضَا بِظَهْرِ الغَيْبِ بِمَا يَسُوؤُهُ ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى لِلْغِيْبَةِ مَثَلًا فَقَالَ : « أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحمَ أَخِيْهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوْهُ » ، وَعَنْ البَرَاءِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ عَن النبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قَالَ ان أَرْبَى الرِّبَى اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ في عِرْضِ أَخِيْهِ وَفي الحَدِيْثِ الآخرِ فَإنَّ دِمَاءَكُم وَأَمْوالكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوْعاً انَّ مِنَ الكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ المَرْءِ في عِرْضِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ .

وَعَنْ سَعِيْدِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ النَّبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم قَالَ انَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبا الأَسْتِطَالة في عِرْضِ المُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبو دَاوُدَ .

فَإِنْ قِيْلَ مَا الغِيْبَةُ ؟ قِيْلَ قَدْ حَدَّهَا النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَدْ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُوْلِ اللّهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَتَدْرُونَ مَا الغِيْبَةُ ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : ذِكْرُكَ أَخاكَ بِمَا يَكْرَهُ ، قَالَ (أحدهم) : أَفَرَأَيْتَ انْ كَانَ في أَخِي مَا أَقُولُ ؟

قَالَ : إنْ كَانَ فِيْهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ ، وانْ لَمْ يَكُنْ فِيْهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ » أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ .

وَمِنْ الغِيْبَةِ التَّمْثِيْلِيَّاتِ لِلأَشخَاصِ وَالهَيْئَاتِ وَمُحَاكَاتِهِمْ فِي اللِّبَاسِ عَلى وَجْهِ التَّنَقُّصِ وَالأَسْتِهْتَارِ كَمَا يَفْعَلُهُ المُنْهَمِكُوْنَ في أَكْلِ لُحُوْمِ الغَوَافِلِ . فَتَكُوْنُ الغِيْبَةُ بِالتَّعْرِيْضِ وَبِالكِنَايَةِ وَبِالحَرَكَةِ وَبِالرَّمْزِ وَالإِشَارَةِ باليَدِ وَكُلُّ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ المَقْصُودُ فَهُوَ دَاخِلٌ في الغِيْبَةِ وَهُوَ حَرَامٌ .

فَقَدْ وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ دَخَلَتْ عَلَيْنَا امْرَأَةٌ فَلَمَّا وَلَّتْ أَوْمَأَتُ بِيَدِي أَيْ قَصِيْرَةٌ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ اغْتَبْتِهَا وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاودَ وَالترْمِذِي وَصَحَّحَهُ قَوْلُ عَائِشَةُ عَنْ صَفِيَّةَ أَنَّها قَصِيْرَةٌ وَأَنَّ النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزجَتْهُ .

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بالنبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « وَنَظَرَ في البَابِ فَإذا قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الجِيَفَ ، قَالَ : « مَنْ هَؤُلاَءِ يَا أَخِي يَا جِبْرِيْلُ » ؟ قَالَ : « الذِيْنَ يَأكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ » .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ أَكَلَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْلَةً فَإِنَّ اللهَ يُطْعِمُهُ مِثْلَهَا في جَهَنَّمَ ، وَمَنْ كُسِيَ ثَوْباً بِرَجُلٍ مسلم فَإِنَّهُ يَكْسُوهُ مِثْلَهُ في جَهَنَّمَ وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ فَإِنَّ اللهَ يَقُوْمُ بِهِ مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ يَوْمَ القِيَامَةِ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

فَالغِيْبَةُ عَادَةٌ مَرْذُوْلَةٌ ، كَثِيْراً مَا تَقْطَعُ الصِّلَةَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَتُثِيْرُ الأَحْقَادَ ، وَتُشَتِّتُ الشَّمْلَ ، ثُمَّ هِيَ مَعَ ذَلِكَ مَضْيَعَةٌ لِلْوَقْتِ بالأَشْتِغَالِ بِمَا يَضُرُّ الأنْسَانَ ، وَلاَ يَنْفَعُهُ . وَمِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ تَحْرِيْمُ الغِيْبَةِ وَخَطَرُهَا وَشَرُّهَا فَإِذاً يَجِبُ الأَنْكَارُ عَلَى المُغْتَابِ وَرَدْعُهُ .

وَقَدْ رَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَضْيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : مَا مِنْ امْرِىءٍ يَخْذُلُ امْرءاً مُسْلِماً في مَوْطِنٍ تُنْتَهَكُ فِيْهِ حُرْمَتُهُ إلا خَذَلَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيْهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِنْ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ امْرَءاً مُسْلِماً في مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيْهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيْهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إلا نَصَرَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيْهِ نُصْرَتَهُ .

وَفي حَدِيْثٍ آخَرَ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ فَلَمْ يَنْصُرْهُ أَذَلَّهُ اللهُ عَلَى رُؤُوْسِ الخَلاَئِقِ .

وَقَالَ عُمَرُ بْن الخَطَّابِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ في خُطْبَتِهِ : لَا يُعْجِبَنَّكُمْ مِنْ الرَّجُلِ طَفْطَفَتُهُ وَلَكِنْ مَنْ أَدَّى الأَمَانَةَ وَكَفَّ عَنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ فَهُوَ الرَّجُلُ وَقَالَ أَيْضاً كَفَى بِالمَرْءِ عَيْباً أَنْ يَسْتَبِيْنَ لَهُ مِنْ النَّاسِ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَيَمْقَتُ النَّاسَ عَلَى مَا يَأْتِي .

وَقَالَ الحَسَنُ يَا ابْنَ آدمَ لَنْ تَنَالَ حَقِيْقَةَ الأيْمَانِ حَتَّى لَا تَعِيْبَ النَّاسَ بِعَيْبٍ هُوَ فِيْكَ وَتَبْدَأً بِذَلكَ العَيْبِ مِنْ نَفْسِكَ فَتُصْلِحَهُ فَمَا تُصْلِحُ عَيْباً إلَّا تَرَى عَيْباً آخرَ فَيَكُونُ شُغْلُكَ في خَاصَّةِ نَفْسِكَ وَقِيْلَ لِرَّبِيْعِ بْنِ خَيْثَمْ مَا نَرَاكَ تَعِيْبُ أَحَداً وَلَا تَذُمُّهُ فَقَالَ مَا أنَا عَلَى نَفْسِي بِرَاضٍ فَأَتفَرَّغَ مِنْ عَيْبِهَا الى غَيْرِهَا وَلَقَدْ أَحْسَنَ القَائِلُ :

شَرُّ الوَرَى مَنْ بِعَيْبِ النَّاسِ مُشْتَغِلاً
مِثْلُ الذُّبَابِ يُرَاعِي مَوْضِعَ العِلَلِ.

آخر :

إِذَا مَا ذَكَرْتَ النَّاسَ فَاتْرُكْ عُيُوبَهُمْ
فَلَا عَيْبَ إلا دُوْنَ مَا مِنْكَ يُذْكَرُ
فَإِنْ عِبْتَ قَوْمَاً بِالذِي فِيْكَ مِثْلُهُ
فَكَيْفَ يَعِيْبُ العَوْرَ مَنْ هُوَ أَعْوَرُ
وإنْ عِبْتَ قَوْمَاً بِالذي هُوَ فِيْهِمُ
فَذَلِكَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ مُنْكَرُ

وَبِالتَّالِي فَخطَرُ اللِّسَانِ عَظِيْمٌ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِنْ الأَعْضَاءِ فَإِنَّ العَيْنَ لَا تَصِلُ إلى غَيْرِ الأَلْوَانِ والصُّوَرِ وَالأُذُنُ لَا تَصِلُ الى غَيْرِ الأَصْوَاتِ وَاليَدُ لَا تَصِلُ الى غَيْرِ الأَجْسَامِ واللِّسَانُ يَجُولُ في كُلِّ شَيْءٍ وَبِهِ يَبِيْنُ الأيْمَانُ مِنَ الكُفْرِ .

وَقَدْ رَوَى أَنَسُ بنُ مَالكٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَن النَّبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قَالَ لَا يَسْتَقِيْمُ ايْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيْمَ قَلبه وَلَا يَسْتَقِيْمَ قَلْبُه

حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ .

وَفي الصَّحِيْحَيْنِ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النبي صلى اللهُ عليه وسلَّم قَالَ انَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيْهَا يَزِلُّ بِهَا في النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَأَخْرَجَ الترمذي وَلَفْظُهُ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ الشَّرِّ مَا يَعْلَمُ مَبْلَغَهَا يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ رَوَاهُ في شَرْحِ السُّنَّةِ وَرَوَاهُ مَالِكُ وَالتِّرْمِذِي وَابْنُ مَاجه نَحْوَهُ .

فَالغِيْبَةُ مِن آفَاتِ اللسَانِ وَمِنْ الذُّنُوبِ التِي قَلَّ مَنْ يَسْلَمُ مِنْهَا كَالكَذِبِ وَالرِّيَاءِ وَالرِّبَا وَالمداهَنَةِ .

وإِذَا فَهِمْتَ مَا سَبَقَ فَاعْلَمْ أَنَّ الذُّنُوبَ المُتَعَلِّقَةَ بِحُقُوقِ العِبَادِ لا تُمْحَى إلا أَنْ عَفَوْا عَنْهَا أَو رُدَّتْ لَهُمْ مَظَالِمَهُمْ،فَقَدْ وَرَدَ عَنْ النَّبِي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « الدَّوَاوِيْنُ عِنْدَ اللهِ ثَلاثَةٌ : دِيْوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئاً ، وَدِيْوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئاً ، وَدِيْوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ ، فَأَمَّا الدِّيْوَانُ الذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ » .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ ﴾ الآيَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ انَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةُ ﴾ .

وَأَمَّا الذِي لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئاً فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ أَوْ صَلَاةٍ ، فَإِنَّهُ يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزَ انْ شَاءَ وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الذِي لَا يَتْرُكُ مِنْهُ شَيْئاً فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضَهُمْ بَعْضاً القِصَاصُ لَا مَحَالَةَ رَوَاهُ أَحْمَدَ في مُسْنَدِهِ وَالحَاكِمْ في مُسْتَدْرَكِهِ فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ هُوَ أَخفُّ الدَّوَاوِيْنِ وَأَسْرَعُهَا مَحْواً فانَّهُ يُمْحَى بِالتَّوْبَةِ وَالأَسْتِغْفَارِ

والحَسَنَاتِ المَاحِيَةِ وَالمَصائِبِ المُكَفِّرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَلاَ رَيْبَ أَنَّ الغِيْبَةَ جِنَايَةٌ عَلَى أَعْرَاضِ النَّاسِ وَهُمْ غَافِلُوْنَ فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يَتَحَلَّلَ مِمَّنْ اغْتَابَهُ وَيَطْلُبَ مِنْهُ العَفْوَ انْ كَانَ لَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ وَيَتُوْبُ وَيَتَنَدَّمُ وَيَسْتَغْفِرُ لِمَنْ اغْتَابَهُ وَيَذْكُرُهُ بِمَا فِيْهِ مِنْ الخِصَالِ الحَسَنَةِ عِنْدَ مَنْ اغْتَابَهُ عِنْدَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَهُ وَيَغْفِرَ لَهُ إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ .

وَتَقَدَّمَ حَدِيْثُ أَنَسٍ وَقَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ مِنْ كَفَّارَةِ الغِيْبَةِ أَنْ تَسْتَغفِرَ لِمَنْ اغْتَبْتَهُ تَقُوْلُ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنا وَلَهُ » .

واعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا تَرَتَّبَ عَلَى الغِيْبَةِ مَصْلَحَةٌ أَوْ دَرْءُ مَفْسَدَةٍ كَانَتْ لاَزِمَةً وَإِذَا تَرَتَّبَ عَلَيْهَا أَمْرٌ جائِزٌ فَجَائِزَةٌ ، وَيُمْكِنْ ضَبْطُ الأَوَّلُ في خَمْسَةِ أُمُورٍ أَوْ سِتَّةِ أُمُوْرٍ .

الأَوَّلُ : المَظْلُومُ الذِي يُرِيْدُ أَنْ يَشْكُوَ لِمَنْ يَرْفَعُ مَظْلَمَتَهُ ، فَلَهُ أَنْ يَذْكُرَ عَيْبَ ظَالِمِهِ الذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ في بَيَانِ حَقِّهِ .

الثَّاني : الأسْتِعَانَةُ عَلَى تَغْيِيرِ المُنْكَرِ لِمَنْ يَظُنُّ أَنَّ لَهُ قُدْرَةً عَلَى إِزَالَتِهِ ، فَإِنَّ لَهُ أَنْ يَقُوْلَ : إِنَّ فُلاناً ارْتَكَبَ كَذَا وَفَعَلَ كَذَا .

الثَّالِثُ : الأَسْتِفْتَاءُ فَإِنَّهُ يَجُوْزُ لِلْمُسْتَفْتِي أَنْ يَقُوْلَ لِلْمُفْتَى : إِنَّ فُلاَناً ظَلَمَنِي في كَذَا وَكَذَا ، فَهَلْ يَجُوْزُ لَهُ ذَلِكَ مَثَلاً ؟

الرَّابِعُ : التَّحْذِيْرُ فَيُحَذِّرُ المُسْلِمِيْنَ مِنْ شَرِّ مَنْ يَتَصَدَّى لِلزَّعَامَةِ فِي أُمُوْرِهِمْ العَامَّةُ ، أَوْ مَنْ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ القَضَاءُ في مَصَالِحِهِمْ ؛ أَوْ مَنْ

يَتَصَدَّى لإفْتَائِهِمْ وَتَعْلِيْمِهِمْ ، كَالزُّعَمَاءِ في الشُّؤون الدِّينيَّةِ وَالدُّنْيَـوِيَّةِ وَالشُّهُودِ وَالمُدَرِّسِينَ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّنْ يُشْتَرَطُ فِيْهِمْ الأَمَانَةُ والإتِّصَافِ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ ، فَيَصِحُّ أَنْ يُبَيِّنَ مَا فِيْهِمْ مِنَ النَّقَائِصْ وَالعُيُوْبِ ويَرْفَعَ بِأَمْرِهِمْ لِيُبْعَدُوا .

الخَامِسُ : أَنْ يَتَجَاهَرَ بِفِسْقِهِ ، وَقَدْ قَالَ صَلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إلاَّ المُجَاهِرُونَ .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتِكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَارْزُقْنَا القِيَامَ بِطَاعَتِكَ وَجَنِّبْنَا مَا يُسْخِطُكَ وَأَصْلِحْ نِيَّاتِنَا وَذُرِّيَاتِنَا وَأَعِذْنَا مِنْ شَرِّ نُفُوسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا وَأَعِذْنَا مِنْ عَدُوِّكَ وَاجْعَلْ هَوَانَا تَبَعاً لِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُكَ صَلى اللهُ عليه وسلَّم وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَأَسْبَابُ الغِيْبَةِ أَحَدَ عَشَرَ :

١ ـ تَشَفِّي الغَيْظِ بِذِكْرِ مَسَاوِي المَوْقُوْعِ في عِرْضِهِ بالغِيْبَةِ قَوْلاً أَوْ فِعْلاً .

٢ ـ مُوَافَقَةُ الأَقْرَانِ وَالزُّمَلاءِ وَمُسَاعَدَتُهُمْ وَيَرَى ذَلِكَ في حُسْنِ المُعَاشَرَةِ .

٣ ـ أَنْ يَسْتَشْعِرَ مِنْ انْسَانٍ سَيَقْصِدُهُ وَيُطَوِّلُ لِسَانَهُ عَلَيْهِ أَو يُقَبِّحَ حَالَهُ عِنْدَ مُحْتَشِمٍ فَيُبَادِرَهُ فَيَطْعَنُ فِيْهِ لِيُسْقِطَ شَهَادَتَهُ .

٤ ـ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ شَيءٌ فَيَذْكُرَ أَنَّ الذي فَعلَهُ فُلاَنٌ وَيَتَبَرَّأَ مِنْهُ مَعَ أَنَّ التَّبَرُّأَ يَحْصَلُ بِدُونِ أَنْ يَذْكُرَ الغَيْرَ بِشَخْصِهِ .

٥ ـ أَنْ يَنْطَوِي عَلَى عَدَاوَةِ شَخْصٍ وَيَحْسِدَهُ فَيَرْمِيْهِ بِمَسَاوِيءَ وَمَعائِبَ يَنْسِبُهَا إِلَيْهِ لَيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ عَنْهُ وَيُسْقِطَ مَهَابَتَهُ وَمَكَانَتَهُ مِنَ النُّفُوسِ وَيَقْصِدُ بِذَلِكَ اثْبَاتُ فَضْلِ نَفْسِهِ وَلَكِنَّ العَاقِلَ اللَّبِيْبَ يَعْرِفُ أَنَّهُ ما أَضَرُّ عَلَى الأَعْدَاءِ وَلاَ أَشَدُّ مِنْ التَّمَسُّكِ بِالأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ وَالإِعْتِرَافِ بِالفَضْلِ لِأَهْلِهِ كَمَا قِيْلَ :

وَمَا عَبَّرَ الأَنْسَانُ عَنْ فَضْلِ نَفْسِهِ
بِمِثْلِ اعْتِقَادِ الفَضْلِ في كُلِّ فَاضِلِ
وَلَيْسَ مِنْ الأَنْصَافِ أَنْ يَدْفَعَ الفَتَى
يَدَ النَّقْصِ عَنْهُ بِانْتِقَاصِ الأَفَاضِلِ

٦ ـ أَنْ يَقْدَحَ عِنْدَ من يُحِبُّ ذَلِكَ الشَّخْصَ حَسَدَاً لِأكرَامِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ لَهُ .

٧ ـ أَنْ يَقْصِدَ اللَّعِبَ وَالهَزَلَ وَالمُزَاحَ وَالمُطَايَبَةِ وَيُضْحِكَ النَّاسِ .

٨ ـ السُّخْرِيَةُ وَالأَسْتِهْزَاءُ بِالشَّخْصِ اسْتِحْقَاراً لَهُ وَهُوَ يَجْرِي في الحُضُورِ والغَيْبَةِ وَمَنْشَؤُهُ التَّكَبُّرُ وَاسْتِصْغَارُ المسْتَهْزَأَ بِهِ وَتَنَقُّصُهُ وَازْدِراءُهُ .

٩ ـ أَنْ يَتَعَجَّبَ مِنْ فِعْلِ الغَائِبِ لِلْمُنْكَرِ وَهَذَا مِنْ الدِّيْنِ لَكِنْ أَدَّى إلى الغِيْبَةِ بِذِكْرِ اسْمِهِ فَصَارَ مُغْتَاباً مِنْ حَيْثُ لاَ يَدْرِي .

١٠ ـ أَنْ يَغْتَمَّ لِسَبَبْ مَا يُبْتَلَى بِهِ فَيَقُولُ مِسْكِيْنٌ فِلاَنٌ قَدْ غَمَّنِي أَمْرُهُ

وَمَا أبْتُلي بِهِ مِنْ المَعْصِيَةِ وَغَمّهُ وَرَحْمَتهُ خَيْرٌ لَكِنْ سَاقَهُ إلى شَرٍّ وَهُوَ الغِيْبَةُ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي أَنَّهُ صَاغَهَا بِصِيْغَةِ التَّرَحُّمِ والتَّوَجُّعِ .

١١ ـ أظْهَارُ الغَضَبِ لِلّهِ عَلَى مُنْكَرٍ قَارَفه إنْسَانٌ فَيَذْكُرُ الأنْسَانَ بِاسْمِهِ وَكَانَ الوَاجِبُ أَنْ يُظْهِرَ غَضَبَهُ عَلَى فَاعِلِهِ وَلَا يُظْهِرَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ بَلْ يَسْتُرُ اسْمَهُ وَهَذِهِ الثَّلاثَةُ رُبَّمَا تَخفَى عَلَى العُلَمَاءِ وَطَلَبَةِ العِلْمِ فَضْلاً عَن العَوامّ وَلِذلِكَ تَسْمَعُ مِنْهُم كَثِيْراً مَا يَقُوْلُونَ فُلانٌ وَنِعْمَ لَوْلا أَنَّه يَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا يُعَامِلُ بِالرِّبَا مَثَلا وَكَانَ الوَاجِبُ نُصْحُهُ بَدَلَ الغِيْبَةِ .

شعراً :

يُشَارِكُكَ المُغْتَابُ في حَسَنَاتِهِ
وَيُعْطِيْكَ أَجْرَيْ صَوْمِهِ وَصَلاتِهِ
وَيَحْمِلُ وِزْراً عَنْكَ ظَنَّ بِحَمْلِهِ
عَنْ النُّجْبِ مِنْ أبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ
فَكَافِيْهِ بِالحُسْنَى وَقُلْ رَبِّ جَازِهِ
بِخَيْرٍ وَكَفِّرْ عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ
فَيَا أَيُّهَا المُغْتَابُ زِدْنِي فَإنْ بَقِي
ثَوَابُ صَلاةٍ أَوْ زَكَاةٍ فَهَاتِهِ
فَغَيْرُ شَقِيٍّ مَنْ يَبِيْتُ عَدُوُّهُ
يُعَامِلُ عَنْهُ اللهَ في غَفَلاتِهِ
فَلَا تَعْجَبُوا مِنْ جَاهِلٍ ضَرَّ نَفْسَهُ
بِامْعَانِهِ في نَفْعِ بَعْضِ عُدَاتِهِ

وَأَعْجَبُ مِنْهُ عَاقِلٌ بَاتَ سَاخِطاً
عَلى رَجُلٍ يُهْدِى لَـهُ حَسَنَاتِـهِ
وَيَـحْـمِـلُ مِـنْ أوْزَارِهِ وَذُنُـوبِـهِ
وَيَهْلَكُ فـي تَخْلِيْصِـهِ وَنَجَـاتِـهِ
فَـمَنْ يَحْتَمِلْ يَسْتَوْجِبِ الأجْرَ وَالثَّنا
وَيُحْمَدُ في الـدُّنْيَـا وَبَعْـدَ وَفَـاتِـهِ
وَمَنْ يَنْتَصِفْ يَنْفَخْ ضِرَاماً قَدْ انْطَفَى
وَيَجْمَـعُ أَسْبَابَ المَسَـاوِيْ لِذَاتِـهِ
فَـلاَ صَالِـحٌ يُجْزَي بِـهِ بَعْـدَ مَـوْتِـهِ
وَلا حَسَنٌ يُثْنَـى بِـهِ في حَيَـاتِـهِ
يَـظَلَّ أَخُـو الانْسَـانِ يـأْكُـلُ لَحْمَـهُ
كَمَـا في كِتَـابِ اللهِ حَـالَ مَمَـاتِـهِ
وَلاَ يَسْتَـحِيْ مِـمَّنْ يَـرَاهُ وَيَـدَّعِي
بـأنَّ صِفَـاتِ الكَلبِ دُوْنَ صِفَـاتِـهِ
وَقَـدْ أكَلاَ مِنْ لَحْمِ مَيْتٍ كِـلاَهُـمَا
وَلَكِنْ دَعَى الكَلْبَ اضْـطِرَارُ اقْتِيَاتِـهِ
تَسَـاوَيْتُمَـا أَكْـلاً فَـأَشْقَـاكُمَـا بِـهِ
غَـداً مَنْ عَلَيْهِ الخَـوْفُ مِنْ تَبَعُـاَتِـهِ
وَمَـا لِكَـلامٍ مَـرَّ كَـالـرِّيْـحِ مَوْقِعٌ
فَـيَبْـقَى على الانْـسَـانُ بَـعْضُ سِـمَـاتِـهِ

اللّهُمَّ أرْزُقْنَا حِفْظَ جَوَارِحِنَا عَنْ المعَاصِي مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنْ وَنَقِّ

قُلُوبَنا مِنْ الحَقْدِ وَالحَسَدْ وَالإِجَنْ . اللهُمَّ انا نَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَمَاتَهِ الأَعْدَاءِ وَعُضَالِ الدَّاءِ وَخَيْبَةُ الرَّجاءِ وَزَوَال النِّعْمَةِ اللّهُمَّ توفَّنا مُسْلِمْينَ وَأَلْحِقْنا بالصَّالِحِيْنَ غيْرَ خزايَا وَلاَ مَفْتُوْنِيْنَ وَاْغفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَمِمَّا يَتَأَكَّدُ اجْتِنَابُهُ وَلاَ يَتِمُّ الصِّيَامُ لِمَنْ لَمْ يَجْتَنِبْهُ ، النَّظَرُ إلى المَرْأَةِ الأَجْنَبِيَّةِ وَالرَّجُلِ الأَمْرَدِ لِغَيْرِ ضَرُوْرَةٍ أَوْ حَاجَةٍ شَرْعِيَّةٍ لِأَنَّ المَرْأَةَ كُلُّهَا عَوْرَةٌ لاَ يَصِحُّ أَنْ يرَى مَنْ لَيْسَ مِنْ مَحَارِمِهَا شَيْئاً مِنْ جَسَدِهَا وَلاَ شَعْرِهَا المُتَّصِلِ بِهَا وَمَا تَفْعَلُهُ بَعْضُ نِسَاءِ هَذَا الزَّمَانِ مِنْ التَّبَرُّجِ وَالتَّجَمُّلُ في الأَسْواقِ مَا هُوَ إلَّا مُجَاهَرَةٌ بِالمَعاصِي وَتَشَبُّهُ بِنِسَاءِ الإِفرَنْجِ .

فَمِنْ أَعْظَمِ المُنْكَرَاتِ وَأَفْظَعِهَا خُرُوجُ المَرْأَةِ كَاشِفَةً رَأْسِهَا أَوْ عُنُقَهَا أَوْ نَحرَهَا أَوْ ذِرَاعَيْهَا أَوْ سَاقَيْهَا أَوْ وَجْهِهَا أَوِ الجَمِيْعَ أَوْ الثِّيَابِ المُظْهِرَةِ لِلْمَفَاتِنِ أَوْ اللِّبَاسِ الشَّفافِ الذِي وُجُودُهُ كَعَدَمِهِ لاَ يَسْتُرُ مَا تَحْتَهُ فَهَذَا دَاخِلٌ في التَّبَرجُّ فَيَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَمْنَعَ نِسَاءَهُ وَمَنْ لَهُ عَلَيْهِنَّ وِلاَيَة وَيَقْبَلْنَ مِنْهُ جَمِيْعَ مَا تَقَدَّمَ وَيُلزِمُهُنَّ السَّتَر وَالتَّحَفُّظَ وَيَنْصَحَ إخْـوَانَهُ المُهْمِلِيْنَ لِلمُتَّصِفَاتِ بِذَلِكَ .

وَمِنْ الآدَابِ التِي أَمَرَ اللهُ تَعالَى بِهَا نِسَاءَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ مَعَ أَنهُنَّ القُدْوَةُ الحَسَنَة في العَفَافِ والتُقى وَالتَّستُّرِ والحَيَاءِ وَالايْمَانِ وَمَعَ حَيَاءِ النَّاسِ مِنْهُنَّ وَاحْتِرَامِهِمْ لَهُنَّ مَا ذَكَرَهُ تَعالَى في سُوْرَةِ الأَحْزَابِ

بِقَوْلِهِ : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوْتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُوْلَى ﴾ .

قَالَ مُقَاتِلُ : التَّبَرُّجُ أَنَّهَا تُلْقِيْ الخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا وَلَا تَشُدُّهُ فَيُوَارِيْ قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا وَيَبْدُوْ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا وَذَلِكَ التَّبَرُّجُ .

وَقَالَ تَعَالَى آمِراً لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِيْنَ أَنْ يَغُضُّوْا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فَلا يَنْظُرُوا إِلَّا لِمَا أَبَاحَ لَهُمْ النَّظَرُ إِلَيْهِ : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغُضُّوْا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوْجَهُمْ » .

قَالَ أَبُو حَيَّانٍ فِي تَفْسِيْرِهِ : قُدِّمَ غَضُّ البَصَرِ عَلَى حِفْظِ الفُرُوْجِ لأَنَّ النَّظَرَ بَرِيْدُ الزِنَا وَرَائِدُ الفُجُوْرِ وَالبَلْوَى فِيه أَشَدُّ وَاكْثَرُ لا يَكَادُ يَقْدُرُ على الاحْتِرَازِ مِنْهُ ، وَهُوَ البَابُ الأَكْبَرُ إِلَى القَلْبِ وَأَعْمَرُ طُرُقِ الحَوَاسِّ إِلَيْهِ وَيَكْثُرُ السُّقُوْطُ مِنْ جِهَتِهِ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ﴾ قَالَ البَغوِي : أَيْ خِيَانَتُهَا ، وَهِيَ اسْتِرَاقُ النَّظَرِ إِلى مَالَا يَحِلُّ .

قَالَ مُجَاهِدُ: هُوَ نَظَرُ الأَعْيُنِ إِلى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ أَنَّ النَّبي صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ قَالَ : « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنْ الزِّنَا ، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، العَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعِ ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الكَلَامُ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيْ عَنْ ابنِ مَسْعُوْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ يَعْنِي عَنَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُوْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيْسَ

مَنْ تركَهَا مِنْ مَخَافَتِيْ أَبْدَلْتُهُ إِيْمَاناً يَجِدُ حَلاَوَتَهُ فِيْ قَلبِهِ .

وَرَوَى الاصْبَهانيْ عَنْ أَبِيْ هُرَيرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ ، يَوْمَ القِيَامَةِ إلاَّ عَيْناً غَضَّتْ عَنْ مَحارِمِ اللهِ وَعَيْناً سَهِرَتْ في سَبْيلِ اللهِ وَعَيْناً خَرجَ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . وَأَخْرَجَه الامَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ في حَيْحِهِ وَقَالَ صَحِيْحُ الإِسْنَادِ وَاعْتَرَضَهُ المُنْذِرِي .

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اضْمَنُوْا لي سِتًّا مِنْ أَنْفسِكُمْ أَضْمَنْ لكمُ الجَنةُ اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُم وَأَوْفُوا اذَا وَعَدْتُم وَأَدُّوا إِذَا ائْتُمِنْتُم واحْفَظُوْا فُرُوْجَكُم وغُضُّوْا أَبْصَاركُم وَكُفُّوا أَيْدِيَكُم . وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ والنَّظَرُ أَصْلُ عَامَّةِ الحَوَادِثِ التي تُصِيْبُ الانْسَانَ فانَّ النَّظْرَةَ تُوَلِّدُ خَطرَةً ثُمَّ تُوَلِّدُ الخَطْرَةُ فِكْرَةً ثم تُوَلِّدُ الفِكْرَةُ شَهْوَةً ثم تُولدُ الشَّهْوَةُ إرَادَةً ثم تَقْوَى فَتَصِيْرُ عَزِيْمَةً جَازِمَةً فَيَقَعُ الفِعْلُ وَلاَ بُدَّ مَا لَمْ يَمْنَعْ مَانِعٌ .

وَفي هَذَا قِيْلَ : الصَّبْرُ عَلى غَضِّ النَّظَرِ أَيْسَرُ مِنْ الصَّبْرِ عَلى أَلَمٍ بَعْدَهُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

كُلُّ الحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ
وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا
فَتْكَ السِّهَامِ بِلاَ قَوْسٍ وَلاَ وَتَرِ

وَالعَبْـدُ مَـا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُـقَلِّبُـهَـا
فِيْ أَعْيُنِ الغِيْـدِ مَوْقُـوفُ عَلَى خَطَرِ
يَسُـرُّ نَـاظِـرَهُ مَـا ضَـرَّ خَـاطِـرَهُ
لَا مَـرْحَباً بِسُـرُوْرٍ عَـادَ بِـالضَّـرَرِ

وَعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ لِعَلِيْ « يا عَلَي لا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ ، فَانَّ لَكَ الأوْلَى وَلَيْستْ لَكَ الآخِرَةُ » رَوَاهُ أحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ وَأَبُوْ دَاوُدَ وَالدَّارِمِيْ .

وَفي حَدِيْثِ جَرِيْرٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ عَنْ نَظْرَةِ الفُجَاءَةِ فَقَالَ : اصْرِفْ بَصَرَكَ وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيرةِ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ قَالَ انَّ المَرْأَةَ تُقْبِلُ في صُوْرَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ في صُوْرَةِ شَيْطَانٍ فَاذَا رَأَى أَحَدَكُمْ مِنَ امْرَأَةٍ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَانَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا في نَفْسِهِ .

وَعَنْ ابنِ مَسْعُودِ عَنْ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ المَرْأَةُ عَوْرَةٌ فَاذَا خرجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ رَوَاهُ التِّرمِذِيّ .

وَعَنْ أَبِيْ سَعِيْدٍ الخُدْرِيْ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبي صَلَّى اللهُ عَليْهِ وسَلمَ أنه قَالَ : » إنَّ الدُّنيا حُلوَةٌ خَضرةٌ وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيْهَا فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُوْنَ فَاتَّقُوا الدُّنْيا وَاتَّقُوْا النِّسَاءَ فَإن أَوَّل فِتْنَةِ بَنِيْ اسْرَائِيلَ في النِّسَاءِ رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : « مَا مِن مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إلى مَحاسِنِ امْرَأَةٍ أَوَّل مَرَّةٍ ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إلَّا أَحْدَثَ اللهُ لَهُ

عِبَادَةً يَجِدُ حَلاوَتَهَا » رَوَاهُ أَحْمَدُ .

شِعْراً :

لَا تَخْـلُ بِـامْـرَأَةٍ لَـدَيْـكَ بِـرِيْبَـةٍ
لَـوْ كُنْتَ فِيَ النُّسَّـاكِ مِثْـلَ بَنَـانِ
وَاغْضُضْ جُفُونَكَ عَنْ مُلَاحَظَةِ النِّسَاء
وَمَحَـاسِنِ الأَحْـدَاثِ وَالـصِّبْيَـانِ
إِنَّ الـرِّجَـالَ النَّـاظِـرِيْنَ الى النِّسَـاء
مِثْـلُ الكِلَابِ تَـطُوْفُ بِـالُّلحْمَـانِ
إِنْ لَمْ تَصُنْ تِلْكَ الُّلحُـوْمُ أُسُـوْدُهَـا
أُكِـلَتْ بِـلَا عَـوضٍ وَلَا أَثْـمَـانِ

اللَّهُمَّ انَّ نَوَاصِيْنَا بِيَدَيْكَ وَأُمُوْرُنَا تَرْجِعُ الَيْكَ وَأَحْوَالُنَا لَا تَخْفَي عَلَيْكَ ، وأَنْتَ مَلْجَؤُنَا وَمَلاذُنَا ، وَالَيْكَ نَرْفَعُ بَثَّنَا وَحُزْنَنَا وَشِكَايَتَنَا ، يَا مَنْ يَعْلَمُ سِرَّنَا وَعَلَانِيَتَنَا نَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنَا مِمَّنْ تَوَكَّلَ عَلَيْكَ فَكَفَيْتَهُ واسْتَهْدَاكَ فَهَدَيْتَهُ وَهَبْ لَنَا مِنْ فَضْلِكَ العَظِيْمِ وَجُدْ عَلَيْنَا بِاحْسَانِكَ العَمِيْمِ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالميِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللهُ عَلَى مُحمد وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

قَالَ شَيْخُ الاسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ : يُقَالُ انَّ غَضَّ البَصَرِ عَنْ الصُّوْرَةِ التِي يُنْهَى عَنْ النَّظَرِ إِلَيْهَا كَالمَرْأَةِ والأمرَدِ الحَسَنِ يُوْرِثُ ثَلاثَ فَوائِدَ:

احْدَاهَا : حَلاَوَةُ الايْمَانِ ، وَلَذَّتَهُ التي هِيَ أَحْلَى وأَطْيَبُ مِمَّا تَرَكَهُ لِلهِ ، فَانَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِله عَوَّضَهُ اللهُ خَيْراً مِنْهُ .

الفَائِدَةُ الثانِيَةُ : أَنَّ غَضَّ البَصَرِ يُوْرِثُ نُوْرَ القَلْبِ والفِراسَةِ .

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ : قُوَّةُ القَلْبِ وَثبَاتُهُ وَشَجَاعَتُهُ فَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ سُلْطَانَ البَصِيْرَةِ مَعَ سُلْطَانِ الحُجَّةِ ، فَإِنَّ في الأَثَرِ « الذِيْ يُخَالِفُ هَوَاهُ يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ » .

وَإِذَا كَانَ النَّظَرُ إلى مَنْ لاَ يَحِلُّ النَّظَرُ اليْهِ مُحَرَّماً فَالخَلْوَةُ بِمَنْ لاَ تَحِلُّ مُحَرَّمَةٌ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى لِأَنَّ الوَسَاوِسَ الشَّيْطَانِيَّةِ تَجِدُ لَهَا مَجَالاً في هَذِهِ الحَالَةِ وَثَوَرَانِ الشَّهْوَةِ يَجِدُ لَهُ مُبَرِّراًفَيَضْعُفُ العَقْلُ عِنْدَ هَذَا ، وَلاَ يَكُوْنُ لَهُ تَأْثِيْرٌ عَلى زَجْرِ الشَّهْوَةِ فَتَسُوْقُهُ نَفْسُهُ الأَمَّارَةُ بالسُّوْءِ إِلى الفَاحِشَةِ ، لِهَذا نَهى المُصْطَفَى صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم عَنْ الخَلْوَةِ فَقَدْ رُوى عَنْ ابن عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قَالَ : « لاَ يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُم بامْرَأَةٍ الا مَعَ ذِيْ مَحْرَمٍ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالدخُولُ عَلى النِّسَاءِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ ؟ قَالَ : الحَمْوُ المَوْتُ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَالحَمْوُ : قَرِيْبُ الزَّوْجِ كَأَخِيْهِ وَابْنِ أَخِيْهِ وَابْنِ عَمِّهِ .

وَعَنْ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ قَالَ أَلا لا يَخْلُو رَجُلٌ بامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثُهُمَا الشَّيْطَانُ رَوَاهُ امَامُ

أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ وَالتِّرمِذِيّ في جَامِعِهِ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَليهِ وسَلمٍ أَنَّهُ قَالَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِر فَلا يَخْلُوَنَّ بامْرَأَةٍ لَيْس بَيْنَهُ وَبَيْنهَا مَحْرَمٌ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيْ في الكَبِيرْ .

وَرَوَى الطَّبَرَانِي أَيْضاً عَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قَالَ اِيَّاكَ وَالخَلوَةُ بالنِّسَاءِ والذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَلاَ رَجُلٌ بامْرَأَةٍ الَّا وَدَخَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمَا ،ولأَنْ يَزْحَمَ الرَّجُلُ خِنْزِيْراً مُتَلِطِّخاً بِطِيْنٍ أَوْ حَمَأةٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أن يَزْحَمَ مَنْكِبُهُ مَنْكِبَ امْرَأةٍ لا تَحِلُّ لَهُ .

وَمِنْ أَخْطَرِ مَا يَكُوْنُ عَلَى النِّسَاءِ خِدْمَةُ الرِّجَالِ في البُيُوتِ إذَا كَانَ هُنَاكَ أخْتِلاطٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ خُصُوصاً إِذَا كَانَ الرَّجُلُ المُسْتَخدَمُ مِنَ الشُّبَّانِ وَانْ كَانَ لَهُ وَسْمَةُ جَمَالٍ فَأَقْرَبُ الى الخَطَر وَقَدْ يَكونُ أَشَبَّ مِن صَاحبِ البَيْتِ وَأَجْمَل وَهُوَ مَلازِمٌ لِلبَيْتِ لَيْلَهُ وَنَهارَهُ وَهُوَ تَحتَ امْرِ الزَّوْجَةِ أوْ نَحوِهَا وَفي إمْكَانِهَا إبْقَاؤُهُ أو طَرْدُهُ فَالخَطَرُ عَظِيْمٌ ، وَانْ كَانَتِ المَرْأَةُ ذَا شَرَفٍ وَمَكَانَةٍ وَتَأَمَّلْ قِصَّة امْرَأَةِ العَزِيْزِ مَعَ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلامِ حيْنَ رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَاذَ باللهِ مِنْ شَرِّهِنَّ وَكَيْدِهِنَّ فَعَصَمَهُ اللهُ عِصْمَةً عَظِيْمَةً وَحَمَاهُ فَامْتَنع أَشَدَّ الإمتِنَاعِ عَنْهَا وَاخْتَار السِّجْنَ عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا في غَايَةِ مَقَامَاتِ الكَمَالِ أَنَّهُ مَعَ شَبَابِهِ وَجَمَالِهِ وَكَمالِهِ تَدْعُوهُ سَيِّدَتُهُ وَهِيَ امْرَأَةُ عَزِيْزِ مِصْرَ وَهِيَ مَعَ هَذا في غَايَةِ الجَمَال وَالمَالِ وَالرِّيَاسَةِ وَيَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ وَيخْتَارُ السِّجنَ على ذَلِكَ خَوْفاً مِنْ اللَّهِ وَرجَاءَ ثَوَابِهِ وَلهَذا ثَبَتَ في الصَّحِيْحَيْنِ أنَّ مِنْ السَّبْعَةِ الذِيْنَ يُظلُّهُمْ اللهُ في ظِلِّهِ رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّيْ أَخَافُ اللَّهَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ نَحْنُ فِي زَمَنٍ كُلُّهُ عَجَائِبُ يُعْجِبُ العَاقِلُ اللَّبِيْبُ وَمِنْ أَعْجَبِ مَا فِيْهِ أَنَّ الرِّجَالَ أَصْبَحُوْا لَا سُلْطَانَ لَهُمْ عَلى النِسَاءِ إِلا النَّادِرَ القَلِيْلَ ، نَعَمْ أَصْبَحْنَا في زَمَنٍ لِلنِّسَاءِ فِيْهِ جَبَرُوْتٌ أَمَامَهُ الرِّجَالُ في حَالٍ ضَئِيْلٍ انْعَكَسَ الأَمْرُ فَصَارَ القَوِيُّ ضَعِيْفاً وَالضَّعِيْفُ قَوِيًّا فَانْ كُنْتَ في شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ فَاخْرُجْ وانْظُر في الشَّوَارِعِ تَرَى النِّسَاءَ تَجُوْلُ فِي الشَّوَارِعِ ذَاهِبَاتٍ أَيِبَاتٍ وَيَتَثَنَّيْنَ في تَبَخْتُرِهِنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ الزِّيْنَةِ مَا يُرْغِمُ عَلى النَّظَرِ إِلَيْهِنَّ كُلُّ مَنْ لهُ عَيْنَانِ .

وَلَا تَسْأَلْ عَمَّا يُحْدِثُهُ ذَلِكَ النَّظَرِ في نُفُوْسِ الشُّبَّانِ وَأَشْبَاهِ الشُّبَّانِ تَرَاهُ إِذَا لَمَحَها أَتْبَعَهَا نَظْرَهُ ثُمَّ جَرى وَرَاءَهَا لأَنَّهُ يَفْهَمُ مِنْ هَيْئَتِهَا وَتَثَنِّيهَا وَتَلَفُّتِهَا فَهْمَاً لَا يُقَالُ لَهُ إِنَّهُ فِيْهِ غَلْطَانٌ ، إِنَّه يَفْهَمُ أَنَّها إِذَا لَمْ تَكُنْ تُرِيْدُ مِنْهُ مَا تُرِيْدُ مَا عَرَضَتْ نَفْسَهَا فِيْ الشَّارِعِ بذَلِكَ التَّهَتُّكِ وَذَلِكَ الازْدِيانُ وَهِيَ فِي بَيْتِهَا أَمَامَ زَوْجِهَا الذي يَنبَغِي أَنْ تَتجمَّل لَهُ تَكُوْنُ بِحَالةٍ تَشْمَئِزُّ مِنْ رُؤْيَتِهَا نَفْسُ الانْسَانِ ، تَلْبَسُ لَهُ أَرْدَى المَلابِسِ وَلَا تَمسُّ طِيْباً وَلَا تَعْتَنِيْ لَهُ ، فَاذَا أَرادَتْ الخُرُوْجَ بَذَلَتْ مِنْ العِنَايَةِ في تَجْمِيْلِ نَفْسِهَا مَا يُلْهِبُ نَارَ الشَّوْقِ إِلَيْهَا في نُفُوسِ النَّاظِرِيْنَ .

وَهَذِهِ حَالَةٌ تَجْعَلُ العُيُونَ وَقْفاً عَلى النَّظَرِ إِلى تِلْكَ الأَجْسَامِ وَتَشْغَلُ القُلُوْبَ شُغْلاً بِهِ تَنْسَى كُلَّ شَيءٍ حَتَّى نَفْسَهَا وَرَبَّهَا وَمَا لَهُ عَلَيْهَا مِنْ وَاجِبَاتٍ ، وَتُوَجِّهُ الأَفْكَارَ إِلى أُمُورٍ دَنِيْـئَةٍ يَقْصِدُهَا مِنْ أُوْلئِكَ النِّسَاءِ أَرْبَابُ النُّفُوسِ الدَّنِيْئَاتِ ، بَلْ وَتَدْفَعُ النُّفُوسَ دَفْعاً تَسْتَغِيْثُ مِنْهُ الفَضِيْلَةُ وَيَغْضَبُ لَهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ .

إنَّ أُولَئِكَ النِّسَاءُ زَوْجَاتُ وَبَنَاتُ وَأَخَوَاتُ رِجَالٍ يَرَوْنَهُنَّ بِأَعْيُنِهِمْ فِي الشَّوَارِعِ بتلِكَ الحَالِ يَرَوْنَهُنَّ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الغَيْرَةِ مَا يُفهِمُ أنهم مِنْ صِنْفِ الرِّجَالِ ، وَأَمَامَهُمْ يُجْرِيْنَ الزِّيْنَةَ التِي يَخْرُجْنَ بِهَا إلى تِلْكَ المَيَادِيْنَ المَلأَى بِالأَنْذَالِ ، وَبَعْضُهُمْ يَسْتَصْحِبُ زَوْجَتَهُ مَعَهُ سَافِرَةً فِي الشَّوَارِعِ وَرُبَّمَا فَهِمَ بَعْضُ الفُسَّاقِ أَنَّهُ يَتَصَيَّدُ لَهَا وَذَلِكَ يَجْرِي عَلى أَلسِنَةِ كَثِيْرٍ مِنْهُمْ .

أَيُّهَا الأَخُ عَصَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ أَنْتَ أَقْوَى عَقْلاً وَأَقوى دِيْناً مِنْ المَرْأَةِ لاَ خِلافَ فِي ذَلِكَ إِنْ لَم يَعْصِمْكَ اللهُ تَتَمَنَّى أَنْ يَكُوْنَ مِنْكَ مَعَ المَرْأَةِ مَا يَكُوْنَ إذَا وَقَعَ نَظَرُكَ عَلَى مَا لَهَا مِنْ بَهَاءٍ وَجَمَالٍ فَتَأَكَّدْ كُلَّ التَّأَكُّدِ أَنَّ تَمَنِّيْ المَرْأَةِ أَقْوَى مِنْ تَمَنِّي الرَّجُلِ إذَا وَقَعَ نَظَرُهَا عَلى جَمِيْلٍ مِنْ الرِّجَالِ وَلاَ تَشُكُّ أنها بَعْدَ رُؤْيَتِهَا الجَمِيْلَ تَتَمَنَّى فِرَاقَكَ إِلَيْهِ وَرُبَّمَا دَعَتْ عَلَيْكَ ، نَحْنُ فِي جَوٍّ مَوْبُوءٍ بِفَسَادِ الأَخْلاَقِ ، مَنْ تَعَرَّضَ لَهَ أَصَابَهُ مِن ذلك الوَبَاء مَا يُضَيِّعُهُ فِي دُنْيَاهُ وَفِي الدِّيْنِ .

فَصُنْ نِسَاءَكَ عَنْ الخُرُوْجِ اليْهِ انْ أَرَدْتَ العَافِيَةَ وَالاَّ فَلاَ تَلُمْ الا نَفْسَكَ اذَا أَصْبَحْتَ فِي عِدَادِ الضَّائِعِيْنَ وَالضَّائِعَاتِ أَنْتَ تَرَى كُلَّ يَوْمٍ مَا يَكُونُ فِي الطُّرُقِ لِنسَاءِ غَيْرِكَ فَلاَ تَشُكَّ أَنَّ نِسَاءَكَ يُلاقِينَ مِثْلَهُ وَأَشَدَّ مِنْهُ وَأيُّ رَجُلٍ يَرْضَى أَنْ تَخْرُجَ نِسَاؤُهُ لِيَلْعَبَ بِعَفَافِهِنَّ وَشَرَفِهِنَّ مَنْ لاَ دِيْنَ لَهُ وَلاَ شَرَفَ وَلاَ أَخْلاَقَ ، إنَّ البَهِيْمَ يَغَارُ وَمَعَارِكُ ذُكُوْرِ البَهَائِمِ عَلى إنَاثِهَا مَعْرُوفَةٌ ، فَلاَ تَكُنْ أَقَلَّ غَيْرَةً مِنْ البَهِيْمِ ، وَلَوْلاَ أَنَّنَا نرى بِأَعْيُنِنَا مَبْلَغَ ضَعْفِ رِجَالِنَا أَمَامَ النِّسَاءِ مَا صَدَّقْنَا أَنْ يَسْتَصْحِبَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ سَافِرَةً رَاكِبَةً أَوْ غَيْرَ رَاكِبَةٍ تَقْدُمُهُ .

أيُّهَا الأخُ أنْتَ الذِي تَلَقَّى المَشَاقَّ مِنْ حَرٍّ وَبَرْدٍ وَأنْتَ مَشْغُولٌ بِالكدِّ لأجْلِ جَلْبِ الرِّزْقِ ، يَكُوْنُ مِنْكَ ذَلِكَ لِتُطْعِمَ المَرْأَةَ وَتَكْسُوْهَا وَتُنْعِمَ عَلَيْهَا فَفَضْلُكَ عَلَيْهَا كَبِيْرٌ كَمَا قَالَ تَعَالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ على النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ وَأَنْتَ أَرْجَحُ مِنْهَا عَقْلاً وَأكْمَلُ دِيْناً ، فَمِنْ الغَلَطِ أنْ تَكُونَ مَعَها كَالعَبْدِ المَمْلُوكِ يُصَرِّفُهُ مَوْلاَهُ كَيْفَ شَاءَ . وَإذَا كُنْتَ كَمَا ذَكَرَ اللهُ قَوّاماً عَلَيْهَا فَأَنْتَ مَسْئولٌ عَنْهَا لِأنَّكَ رَاعِيْهَا والرَّاعِيْ مَسْئُولٌ عنْ رَعِيَّتِهِ ، فَأَنْتَ مُثَابٌ إنْ وَجَّهْتَهَا إلَى عَمَلِ الخَيْرِ وَآثِمٌ انْ سَكَتَّ عَنْهَا وَهِي تَعْمَلُ أعْمَالاً لَيْسَتْ مَرْضِيَّةً ، فَانْظُرْ مَاذا عَلَيْكَ مِنْ الإثْمِ فِي خُرُوجِ زَوْجَتِكَ وَمَا يَترَتَّبُ عليْهِ مِنَ بَلاَيَا مَرْئِيَّةٍ وَغَيْرَ مَرْئِيَّةٍ ، فَحُلْ بَيْنَها وَبَيْنَ مَا تَعْلَمُ أنَّ فِيْهِ ضَرَرٌ عَلَيْهَا وَكُلُّ عَمَلٍ يُغْضِبُ رَبَّكَ ، وَالا فَأَنْتَ شَرِيْكٌ لَهَا في كُلِّ مَا لَها مِنْ أَوْزَارٍ . أ هـ .

كُلُّ هَذَا سَبَبُهُ مُخَالَطَةُ رَبَائِبِ الاسْتِعْمَارِ الذِيْنَ تَشَبَّهُوا بِهِ وَقَلَّدُوْهُ في الأَقْوالِ وَالأفْعَالِ ، وَقَلَّدَهُمْ كَثِيْرٌ مِنْ نِسَائِنَا ، وَصَدَقَ المُصْطَفَى صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم حَيْثُ يَقُوْلُ : لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ وَذِرَاعاً بِذَرَاعٍ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحدَهُمْ دَخَلَ حُجْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوْهُ وَحتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جَامَعَ امْرَأَتَهُ بِالطَّرِيْقِ لَفَعَلْتُمُوْهُ ، فَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيْلِ أ هـ .

اللهُمَّ احْفَظْنَا مِن المُخَالَفَةِ وَالعِصْيَانِ وَلا تُؤَاخِذْنَا بِجَرائِمِنَا وَمَا وَقَعَ مِنَّا مِن الخَطأَ وَالنِّسْيَانِ وَاغْفِر لنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمين الأحْيَاءِ مِنْهم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَى اللّهُ عَلى مُحمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

فِيمَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُوْلَهُ أَوْ يَفْعَلَهُ

يُسْتَحَبُّ أَنْ يَتَسَحَّر لِلصَّوْمِ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبي صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال : « تَسَحَّروا فَإِنَّ في السَّحُورِ بَرَكَةً » .

وعَنْ عَمْرو بن العَاصِ قَال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ فَصْلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ » .

وعَنْ ابن عُمَرَ - رَضِي اللهُ عنهُمَا - أَنَّ النبيَّ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ قَال : « انَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ على المُتَسَحِّرِيْنَ » .

وَعَنْ العِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ قَالَ دَعَانِيْ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلمَ الى السَّحُورِ في رَمضانَ فقَالَ : « هَلُمَّ إلى الغَدَاءِ المُبَارَكِ » .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُوُلُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم : « نِعْمَ سَحُورُ المُؤْمِنِ التَّمْرُ » .

وَيَنْبَغِي أَنْ يُخَفِّفَ عَشَاءَهُ في لَيَالِي رَمَضَانَ لِيَهْضِمَ طَعَامَهُ قَبْلَ السَّحُورِ وَلِأَنَّ الامْتِلاءَ مِنَ الطعَامِ رُبَّما يَكُونُ سَبَباً لِلتُّخَمْ .

وَعَنْ المِقْدَادِ بن مَعْدِ يكْرِبَ - رَضَيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ يَقُولُ : « مَا مَلأَ ابنُ آدمَ وَعاءاً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ بِحَسَبِ ابنِ آدمَ أكلاتٍ يُقِمنَ صُلْبَهُ فإنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلثٌ طَعَامٌ وَثُلثٌ شَرَابٌ وثُلثٌ نَفسٌ » .

والشِّبَعُ مَذْمُومٌ لأنَّهُ يُوجِبُ تَكَاسُلَ البَدَنِ وَكَثْرَةُ النَّوْمِ وَبَلاَدَةِ الذِّهْنِ وَذَلِكَ يُكْثِرُ البُخَارُ في الرَّأسِ حَتَّى يُغَطِي مَوْضِعَ الذِّكْرِ والفِكْرِ ، والبِطْنَةُ تَذْهبُ الفِطْنَةَ وَتَجْلِبُ أمراضاً عَسِرةً ، وَمقَامُ العَدْلِ أنْ لاَ يَأكُلَ حَتَّى تَصْدُقَ شَهْوَتُهُ وَأنْ يَرْفَعَ يَدَهُ وَهُوَ يَشْتَهِي وَنِهَايَةُ مَقَامِ الحُسْنِ قَوْلُهُ تَعَالى : ﴿كُلُوا وَاشرَبُوا وَلاَ تُسْرِفوا﴾ وَقَوْلُهُ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَم : « ثُلُثٌ طَعَامٌ وَثُلُثٌ شَرَابٌ وَثُلُثٌ نَفَسٌ » .

والأكْلُ عَلَى مَقَامِ العَدْلِ يُصِحُّ البَدَنَ وَيُبْعِدُ المَرَضَ باذْنِ اللهِ وَيُقَلِّلُ النَّوْمَ وَيُخففُ المَؤُنَةَ وَيُرقِّقُ القَلْبَ وَيُصَفِّيْهِ فَتَحْسُنُ فِكْرَتُهُ وَتُسَهِّلُ الحَرَكَاتِ وَالتَّعْبِيْرَاتِ ، والشِّبَعُ يُمِيْتُ القَلْبَ وَمِنْهُ يَكُونُ الفَرَحُ وَالمرَحُ وَالضَّحِكُ .

وَيُسْتَحَبُ تَأْخِيْرُ السَّحُورِ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ ابنْ ثَابِتٍ ـ رَضِى اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : تَسَحَّرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ ثُمَّ قَامَ الى الصَّلاَةِ قَالَ أَنَسٌ : قُلتُ لِزَيدٍ : كَمْ كَانَ بَيْنَ الأذَانِ وَالسَّحُورِ ؟ قَالَ : قَدْرُ خَمسِينَ آيَةٍ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . وَلَما وَرَدَ في البُخَارِي عَنْ سَهْلِ بنْ سَعْدٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْتُ أتَسَحَّرُ في أَهْلي ثُمَّ تَكُوْنُ سُرْعَتِي أنْ أُدْرِكَ السُّجُودَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم .

وَعَنْ سَهْل بن سَعْد السَّاعِدي ـ رَضي اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم قَال : « لا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ وَأخَّرُوا السَّحُور » .

وعَن ابنِ عَطِيَّةَ قَالَ : دَخَلْتُ أنا وَمَسْرُوقٌ عَلى عَائِشَةَ ، فَقُلْنَا : يَا

أمَّ المؤمِنين ، رَجُلانِ مِنْ أصْحَابِ مُحَمد أحدُهُما يُعَجِّلُ الافطَارَ وَيُعَجِّلُ الصَّلاةَ وَالآخرُ يُؤخِرُ الافْطَارَ وَيُؤُخِّرُ الصَّلاةَ ، قَالَتْ : أيُّهُمَا يُعَجِّل الافْطَارَ وَيُعَجِّلَ الصَّلاةَ ؟ قُلْنَا: عَبْدُ اللهِ بن مَسْعُودٍ ، قَالَتْ: هَكَذَا صَنَعَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم والآخَرُ أبوُ مُوسَى .

وَلأنَّ السَّحُورَ يُرَادُ بِهِ التَّقَوّى عَلى الصَّوم . فَكَانَ التَّأْخِيْرُ أبْلَغ في ذَلِكَ وَأوْلَى ، وَيُسَنُّ تَعْجِيْلُ فِطْرٍ إذَا تَحَقَّقَ الغُرُوبَ لِمَا وَرَدَ عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَال : قَال رسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ انَّ أَحبَّ عِبَادِي إلَيَّ أعْجَلُهُمْ فِطْرا » .

وعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ - رَضْيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَزَالُ الدِّيْنُ ظَاهِراً مَا عَجَّلَ النَّاسُ الفِطْرَ ، لِأَنَّ اليَهُودَ وَالنَّصارَى يُؤَخِّرُونَ » . وَلِحَدِيْثِ سَهْلٍ وَحَدِيْثِ أبي عَطِيَّةَ وَقَدْ تَقَدَّمَا قَرِيْبًا .

وَيُسَنُّ أَنْ يَكُوْنَ فِطْرُهُ عَلَى رُطَبٍ ، فَانْ عَدِمَ فَتَمْرٌ فَانْ عَدِمَ فَمَاءٌ لما وَرَدَ عَن أنَسٍ - رَضي اللهُ عَنْهُ - قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم يُفْطِرُ عَلى رُطَبَاتٍ قَبلَ أَنْ يُصَلِّي فَانْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٍ فتَمراتٍ ، فَانْ لَمْ تَكُن تَمرَاتٍ حَسَا حَسَواتٍ مِنْ مَاءٍ ، وَعَنْ سَلْمَانَ بن عَامِرٍ الضَّبِّيْ قَال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اذَا أفطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلى تَمْرٍ ، فَانَّهُ بَرَكَةٌ فَانْ لَمْ يَجِدْ تَمْراً فَالمَاءُ فانَّهُ طَهُورٌ » .

والفِطْرُ قَبْلَ صَلاَةِ المَغْرِبِ أفْضَلُ ، لِحَدِيْثِ أَنَسٍ - رَضْيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : « مَا رَأيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم يُصَلِّي حَتَّى يُفْطِرَ ، وَلَوْ شَرْبَةَ مَاءٍ » .

وَيُسْتَحَبُّ قَوْلُ الصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ :

اللُّهُمَّ لَكَ صُمْتُ ، وَعَلى رِزْقِكَ أَفْطَرْتُ ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ اللهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّيْ ، انَّكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ . لِمَا وَرَدَ عَنْ مُعَاذِ بنِ زَهْرَةَ : أَنَّهُ بَلغَهُ أَنَّ النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ اذا أَفْطَرَ قَالَ : « ذَهَبَ الظَّمأُ وَابْتَلَّتْ العُرُوقُ ، وَثَبَتَ الأجْرُ إنْ شَاءَ اللهُ » وَثَبَتَ عَنِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةٌ لَا تَرَدُّ » وَلِحَدِيْثَي ابنْ عَبَّاسٍ وَأَنَسٍ ـ رَضْيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالَا : كَان النبي صَلى اللهُ عَليه وَسَلم اذَا أَفْطَرَ قَالَ : « اللهُمَّ لَكَ صُمْنَا ، وَعَلى رِزْقِكَ أفطَرْنَا ، اللهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا إنكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ » .

وَعَنْ عَبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ : أَفْطَرَ رَسُولُ الله صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم عِنْدَ سَعْدِ بن مُعَاذٍ ، فَقَالَ : « أَفْطَرَ عِنْدَكُم الصَّائِمُونَ وَأَكَلَ طَعَامَكُم الأَبْرَارُ وَصَلتْ عَلَيْكُمْ المَلائِكَةُ » .

وَعَلى الانْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ أَنْ يَكُونَ فِطْرُهُ عَلى حَلَالٍ ، وَأَنْ يَحْذَرَ أَنْ يَكُونَ على حَرَامٍ ، فَإِنَّ أَكْلَ الحَرَامِ مِنْ جُمْلَةِ مَوَانِعِ قَبولِ الدُّعَاءِ ، فَقَدْ وَرَدَ عن أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضْي اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ : « إنَّ اللهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ الَّا طَيِّباً ، وَان اللهَ أَمَرَ المُؤمِنينَ بِمَا أَمَرَ به المُرْسَلِيْنَ ، فَقَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ وَقَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاء وَيَقُوْلُ : يَا رَبُّ يَا رَبُّ ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ » .

وفي الحَدِيثِ ألاَ إنَّ أوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنْ الانْسَانِ بَطْـنُهُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ ألا يَأكُلَ الا طَيِّباً فَلْيَفْعَلْ الحَدِيْثِ .

وَمِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَمِيْمِ القَلْبِ فَعَنْ أَبِيْ هُرَيْـرَةَ ـ رَضي اللهُ عَنه ـ قَالَ : قَال رَسُـولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم : أُدْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوْقِنُـونَ بالاجَابَـةِ واعْلَمُوا أَنَّهُ لاَ يَسْتَجِيْبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ وَأن يَكُونَ دُعَائَهُ في السَّرَّاءِ والضَرَّاءِ .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم مَنْ سَرَّهُ أنْ يَسْتَجِيْبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكُرَبِ فَليُكْثِـرْ الدُّعَاء في الرَّخَاءِ وَأَنْ يَكُونَ بِالتَّضَرُّعِ بالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالى : ﴿ادْعُوا رَبكُم تَضَرُّعاً وَخُفيَةً﴾ وَقَالَ : ﴿إنهُم كَانُوا يُسَارِعُونَ في الخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِيْنَ﴾ وَقَالَ في حَقِّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلامُ : ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبحِينَ لَلَبِثَ في بَطْنِهِ الى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وَأَنْ يَفْتَتِحَ الدُّعَاءَ بِالثَّنَاءِ عَلى اللهِ وَالصَّلاَةِ عَلى نَبِيِّهِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

رَوَى التِّرْمِذي وَغَيْرُهُ عَنْ فَضَالَةَ بن عُبَيْدٍ قَالَ بَيْنَما رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَّ قَاعِدٌ إذْ دَخَلَ رَجَلٌ فَصلَّى فقَالَ اللهُمَّ اغفِرْ لي وارْحَمْنِيْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ عَجِلْتَ أَيُّها المُصَلي إذا صَلَّيْتَ فَقَعْدْتَ فَاحْمَدِ اللهِ بمَا هُوَ أَهْلُه وَصَلِّ عَليَّ ثُمَّ ادعُهُ قالَ ثُم صَلى رَجُلٌ آخَرُ بعْدَ ذلكَ فحَمِدَ اللهَ وصَلى عَلَى النبي صَلى اللهُ عليهِ وسَلم فقَال لَهُ النبي صَلى اللهُ علَيْهِ وَسَلمَ أيُها المُصَلي أُدْعُ تُجَبْ .

وَعَنْ عُمَرَ قَال إنَّ الدُّعَاءَ مَوقُوفٌ بينَ السَّماءِ والأَرضِ لاَ يَصْعَدُ منهُ

شَيءٌ حَتى تُصَلي عَلَى نَبِّيكَ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ وأَنْ يُخْفي الدُّعَاءَ ، قَالَ الحَسَنُ بَين دَعوةِ السِّرِ وَدَعْوَةِ العَلانِيَةِ سَبْعُونَ ضِعْفاً وَانْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ القُرآنَ وَمَا يَشْعُرُ بهِ النَّاسُ وَان كَان الرَّجُلُ لقد فَقِهَ الفِقْهَ الكثيرَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ وإنْ كانَ الرجُلُ لِيُصَلي الصَّلاةَ الطويلَةَ في بَيتِهِ وَعندَهُ الزُّوَّارُ مَا يَشْعُرونَ به وَلَقدْ أَدرَكْنَا أَقْواماً ما كَان عَلى الأَرض مِن عَمَلٍ يَقْدُرُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ في السرِ فَيَكُونُ عَلانيةً أبَداً وَلقَدْ كَانَ المُسْلِمُونَ يَجْتهِدُونَ في الدعاءِ ومَا يُسْمَعُ صَوتٌ إنْ كَانَ الَّا هَمْسَاً بينَهُم وبينَ رَبِّهِم وذَلِكَ أَنَّ اللهَ يَقُولُ : ﴿ ادعُو ربَّكمُ تَضَرُّعاً وخُفيةً ﴾ وَذلكَ أَنَّ اللهَ ذَكرَ عَبْداً صَالِحاً رَضِيَ فِعْلَهُ فَقالَ اذ نَادَى ربَّه نِداءً خَفِيّاً ﴾ .

شِعْرَاً :

الى مَتَى يَـا عَيْـنُ هَـذَا الـرُّقَـادُ
أَمَـا آنَ أنْ تَـكْتَـحِلِيْ بِـالـسُّـهَـادِ
تَـنَـبَّـهِـيْ مِنْ رَقْـدَةٍ وَانْـظُرِيْ
مَـا فَاتَ مِنْ خَيـرٍ عَلَى ذِي الرُّقَـادِ
يَـا أَيُّـهَـا الـغَـافِـلُ فـي نَـوْمِـهِ
قُمْ لِتَـرى لُـطْفَ الكَـريمِ الجَـوَادِ
مَـوْلَاكَ يَـدْعُـوكَ إلَـى بَـابِـهِ
وَأنتَ في النَّـومِ شَبْيـهُ الجَـمَـادِ
وَيَـبْـسُطُ الـكَـفَّـينَ هَـلْ تَـائِـبٌ
مِنْ ذَنْبِـهِ هَلْ مَنْ لَـهُ مِنْ مُـرَادِ

وَأَنْتَ مِنْ جَنْبٍ إلى جَانِب
تَدُورُ فِي الفُرْشِ وَلِيْنِ المِهَادِ
يَدْعُوْكَ مَوْلاكَ إلى قُرْبِهِ
وَأنتَ تَختَارُ الجَفَا والبِعَادِ
كَمْ هَكَذا التَّسْوِيْفُ في غَفْلَةٍ
لَيسَ عَلى العُمْرِ العَزِيْزِ اعْتِمَادِ
لَقَدْ مَضَى لَيْلُ الصِّبَا مُسْرِعاً
وَنَيِّرُ صُبحِ الشَّيْبِ فَوْقَ الفُؤَادِ
أفِقْ فَإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ
رَحْمَتُهُ عَمَّتْ جَمِيْعَ العِبَادِ

اللهمَّ تَوَفَّنا مُسْلِمينَ وَألْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وَاغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا ارْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمد وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

في أَحْكَامِ القَضَاءِ

وَيُسْتَحَبُّ قَضَاءُ رَمَضَانَ فَوْراً مَعَ سَعَةٍ وَقْتٍ مُسَارعَةً لِبَرَاءَةِ الذِّمَةِ وَيُسَنَّ التَّتَابُعْ في قَضَائِهِ لانَّهُ أشْبَهُ بالأَدَاءِ وَأَبْعَدُ عَن الخِلَافِ . وَيَجُوزُ تَفْرِيْقُهُ لِمَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ قَالَ : « قَضَاءُ رَمَضَانَ إنْ شَاءَ فَرَّقَ وَإنْ شَاءَ تَابَعَ » .

وَرَوى الأَثْرَمُ بِاسْنَادِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ المُنْكَدِرِ أَنَّهُ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ

النَبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم سُئِلَ عَنْ تَقْطِيْعِ قَضَاءِ رَمَضَانَ ، فَقَالَ : « لَوْ كَانَ عَلىٰ أَحَدِكُمْ دَيْنٌ فقَضَاهُ مِن الدِّرْهَمِ وَالدِّرْهَمَيْنِ حَتَّى يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الدَّيْنِ ، هَلْ كَانَ قَاضِياً دَيْنَهُ ؟ قَالُوا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ فَاللهُ أَحَقُّ بِالعَفْوِ وَالتَّجَاوُزِ مِنْكُمْ » .

قَالَ البُخَارِي : قَالَ ابْنُ عَبَّاس ـ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا ـ لَا بَأْسَ أَنْ يُفَـرِّقَ لِقَوْلِـهِ تَعَالى : ﴿فَعِـدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَـرَ﴾ مُتَتَابِعَـاتٍ ، فَسَقَطَتْ مُتَتَابِعَاتٍ .

وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرَ قَضَاءَ رَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ آخَرَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ ، لِمَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِي اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : كَانَ يَكُونُ عَليَّ الصَّوْمُ مِنْ رَمَضَانَ فَمَا أَسْتَطِيْعُ أَنْ أَقْضِيَ إلاَّ فِيْ شَعْبَانَ .

وَفي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : إنْ كَانَتْ اِحْدَانَا لَتُفْطِرُ في زَمَانِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم فَمَا تَقْدِرُ أَنْ تَقْضِيَهُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا فِي شَعْبَانَ . وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ : قَالَتْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ مَا كُنْتُ أَقْضِيَ مَا يَكُونُ عَلَّى مِنْ قَضَاءِ رَمَضَانَ إلاَّ في شَعْبَانَ حَتَّى تُوفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَاذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ شَعْبَانَ لا قَدْرُ مَا عَلَيْهِ ، وَجَبَ القَضَاءُ فَوْرَاً مُتَابِعَاً لِضِيْقِ الوَقْتِ ، كَأَدَاءِ رَمَضَانَ في حَقِّ مَنْ لَا عُذْرَ لَهُ .

وَلَا يُكْرَهُ القَضَاء في عَشْرِ ذِي الحِجَّةِ ، فَإِنْ أَخَّرَ القَضَاءَ لِغَيْرِ عُذْرٍ حَتَّى أَدْرَكَـهُ رَمَضَانُ آخَـرَ فَعَلَيْـهِ مَـعَ القَضَـاءِ إِطْعَـامُ مِسْكِيْنٍ لِكُـلِّ يَوْمٍ : وَيُرْوَى ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا ـ وَابْنِ عُمَرَ رَضِيَ

اللهُ عَنْهُمَا ـ وَأَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَلَمْ يُرو عَنْ غَيْرِهِمْ خِلاَفُهُ . قَالَهُ فِي الشَّرْحِ .

وَمَنْ فَاتَهُ رَمَضَانُ قَضَا عَدَدَ أَيَّامِهِ تَامًّا كَانَ أَوْ نَاقِصاً لأَنَّ القَضَاءَ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ بِعَدَدِ مَا فَاتَهُ كالمَرِيْضِ وَالمُسَافِرِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَولِهِ تَعَالَى : ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وَيَجُوزُ أَنْ يَقضِيَ يَوْمَ صَيْفٍ عَنْ يَوْمٍ شِتَاءٍ وَأَنْ يَقْضِيَ يَوْمَ شِتَاءٍ عَنْ يومِ صَيْفٍ .

ثُم اعْلَمْ وَفقنا وَإِيَّاكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ لِلصِّيَامِ مَحَاسِنَ كَثِيْرَةً وَهِيَ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ مَحَاسِنِ الدِّيْنِ الاسْلاَمِي ثَبَّتَنَا اللهُ وَايَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ عَلَيْهِ فَمِنْهَا أَنَّ الانْسَانَ إِذَا جَاعَ بَطْنُهُ انْدَفَعَ جُوْعُ كَثِيْرٍ مِن حَوَاسِهِ فَاذَا شَبِعَ بَطْنُهُ جَاعَ عَينُه وَلِسَانُهُ وَيَدُهُ وَفرْجُهُ فكان تَشْبِيْعُ النَّفْسِ تَجْوِيْعاً لِهَذِهِ المذْكُورَاتِ وَفِي تَجْوِيْعِ النَّفْسِ تَشْبِيْعُهَا فَكانَ هَذَا التَّجْوِيعُ أَوْلَى وَمِنْ ذَلكَ أنهُ إِذَا جَاعَ عَلِمَ حَالَ الفُقَرَاءِ فِي جُوْعِهِمْ فَيَرْحَمُهُم وَيُعْطِيْهِمْ مَا يَسُدُّ بِهِ جَوْعَهُمْ إذ لَيْسَ الخَبَرُ كالمُعَايَنَةِ لاَ يَعْلَمُ الرَّاكِبُ مَشَقَّةَ الرَّاجِلَ إلا إذا تَرَجَّلَ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الصِّيَامِ فِي فَرْضِهِ وَشَرْعِهِ أَنَّهُ لَمْ يُفْرَضْ فِي كُلِّ العُمْرِ مَعَ مَا فِيْهِ مِنَ الحُسْنِ بَل فُرِضَ شَهْراً مِن كُلِّ سَنَةٍ شَهْرَ رَمَضَانَ وَرُخِصَّ فِي الافْطَارِ عِنْدَمَا يَحْصُلُ لِمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ عُذْرٌ وَأَيْضاً أُمِرَ بِالصَّوْمِ فِي النَّهَارِ وَأُبِيْحَ فِيْ اللَّيْلِ الإِفْطَارُ وَهذَا مِنْ لُطْفِ اللهِ أَمَرَ عِبَادَهُ على وَجْهٍ يُمْكِنُ لَهُمْ فِيْهِ احْرَازُ الفَضِيْلَةِ واكْتِسَابُ الوَسِيْلَةِ وَمِنْ ذَلكِ إِنَّهُ خَصَّ الصِّيَامَ بِالنَّهَارِ لأنَّ الأَكلَ فِيْهِ مُعْتَادٌ ، وَالنَّوْمُ فِي اللَّيْلِ مُعْتَادٌ وَمِنْ مَحَاسِنِ

الصَّوْمِ اكْتِسَابِ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ لِأَنَّ قِلةَ الأَكْلِ مِنْ مَحَاسِنِ الاخْلاَقِ .

وَلِذلِكَ لَمْ يُحْمَدْ أَحَدٌ بِكَثْرَةِ الأَكْلِ وَيُحْمَدُ على قِلَّةِ الأَكْلِ يَحْمَدُهُ كلُّ ذِي دِيْنٍ في كُلِّ حِيْنٍ وَلَمْ يُرَوَ عَنْ أَحَدٍ مِن الأَنْبِيَاءِ كَثْرَةُ الأَكْلِ وَمِنْ جُمْلَةِ المحَاسِنِ في الصِّيَامِ أَنَّ اللهَ مِنْ لُطْفِهِ بِعَبَادِهِ لَمْ يَشْتَرِطْ في القَضَاءِ مَا في الأداءِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَلَمْ يَشْتَرِطْ في القَضَاء طُوْلَ اليَوْمِ باليَوْمِ وَلاَ حَرَارَتَهُ وَلاَ بُرُوْدَتَهُ فَإذَا أَفْطَرَ في أَطْوَلِ يَوْمٍ ثُمَّ قَضَاهُ في أَقْصَرِ يَوْمٍ أَجْزَاهُ وَكَفُاهُ .

وَمِنْ جُمْلَةِ المَحَاسِنِ في الصَّوْمِ أَنَّهُ لَمْ يُشْتَرَطْ فِيْهِ قِرَانُ النِّيَةِ عِنْدَ الشُّرُوعِ كَمَا في سَائِرِ العِبَادَاتِ لأَنَّ هَذَا الوَقْتِ وَقْتُ نَوْمٍ وَغفْلَةٍ قَلَّمَا يَقِفُ العَبْدُ عَلَيْهِ فَلوَ شُرِطَ لَضَاقَ الأَمْرُ عَلى النَّاسِ فَيَسَّرَ الأَمْرَ على عِبَادِهِ حَتّى أجَازَ الصَّوْمَ بِنِيَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ تَقَعُ بِجُزْءٍ مِن اللَّيْلِ وَإِنْ طَرَأَ عَلَيْهِ الأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالرَّفُثُ لِأَنَّ اللهَ أَبَاحَ الأكْلَ وَالشُّرْبَ إلى آخِرِ اللَّيْلِ فَلَوْ بَطَلَتْ بِهِ فَاتَ مَحلُّهَا .

مَوْعِظَةٌ

كَتَبَ عُمرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ إلى القُرَضِي أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِيْ كِتَابُكَ تَعِظُنِي وَتَذْكُرُ مَا هُوَ لِيْ حَظٌّ وَعَلَيْكَ حَقٌّ وَقَدْ أَصَبْتَ بِذَلِكَ أَفْضَلَ الأَجْرِ انَّ المَوْعِظَةَ كالصَّدَقَةِ بَلْ هِيَ أَعْظَمُ أَجْراً وَأبْقَى نَفْعاً وَأَحْسَنُ ذُخْراً وَأَوْجَبُ عَلى المُؤْمِن حَقاً ، لكَلِمَةٌ يَعِظُ بِهَا الرَّجُلُ أَخَاهُ لِيَزْدَادَ بِهَا في هُدًى رَغْبَةً خَيْرٌ مِنْ مَالٍ يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْهِ وَانْ كَانَ بِه إلَيْهِ حَاجَةٌ وَلَما يُدْرِكُ

أَخُوْكَ بِمَوْعِظَتِكَ مِنْ الهُدَىٰ خَيْرٌ مِمَّا يَنَالُ بِصَدَقَتِكَ مِنْ الدُّنْيَا وَلأَنْ يَنْجُوَ رَجُلٌ بِمَوْعِظَتِكَ مِنْ هَلَكَةٍ خَيْر مِنْ أَنْ يَنْجُوَ بصَدَقَتِكَ مِنْ فَقْرٍ .

فَعِظْ مَنْ تعِظ لِقَضَاءِ حَقٍّ عَلَيْكَ وَاسْتَعْمِلْ كَذَلِكَ نَفْسَكَ حِيْنَ تَعِظْ وَكُنْ كَالطَّبِيْبِ المُجَرِّبِ العَالِمِ الذِيْ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا وَضَعَ الدَّوَاءَ حَيْثُ لَا يَنْبَغِي أَعْنَتَ نَفْسَهُ وَإِذَا أَمْسَكَ مِنْ حَيْثُ يَنْبَغِيْ جَهِلَ وَأَثِمَ وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُدَاوِيَ مَجْنُوناً لَمْ يُدَاوِهِ وَهْوَ مُرْسَلٌ حَتَّى يَسْتَوْثِقَ مِنْهُ وَيُوَثِّقَ لَهُ خَشْيَةَ أَنْ لَا يَبْلُغَ مِنْهُ مِنَ الخَيْرِ مَا يَتَّقِى مِنْهُ مِنْ الشَّرِ وَكَانَ طِبُّهُ وَتَجْرِبَتُهُ مِفْتَاحُ عَمَلِه وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ المِفْتَاحُ عَلى البَابِ لِكَيْمَا يُغْلَقُ فَلا يُفْتَحُ أَوْ لِيُفْتَحَ فَلا يُغْلَقُ وَلَكِنْ لِيُغْلَقَ في حِيْنِهِ وَيُفْتَحَ في حِيْنِهِ .

وَكُنْ نَـاصِحـاً لِلْمُسْلِمِيْنَ جَمِيْعِهِمْ
بِـارْشَـادِهِمْ لِلْحَقِّ عِنْـدَ خَفَـائِـهِ

وَمُـرْهُمْ بِمَعْـرُوفِ الشَّـرِيْعَـةِ وَأنْهَهُمْ
عَنْ السُّوْءِ وَازْجُرْ ذَا الخَنَا عَنْ خَنَائِهِ

وَعِـظْهُمْ بِـآيَـاتِ الكِتَـابِ بِحِكْمَـةٍ
لَـعَـلَّكَ تُـبْـرِيْ دَاءَهُـمْ بِـدَوَائِـهِ

فَـإِنْ يَهْـدِ مَـوْلاَنَـا بِـوَعْـظِكَ وَاحِـداً
تَنَـلْ مِنْهُ يَـوْمَ الحَشْرِ خَيْـرَ عَـطَائِهِ

وإلاَّ فَقَـدْ أَدَّيْتَ مَـا كَـانَ وَاجِبـاً
عَلَيْـكَ وَمَـا مُلِّكْتَ أَمْـرَ اهْتِـدَائِـهِ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ خَلَقَ الانْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ وَبِقُدْرَتِهِ

التِيْ لاَ يُعْجِزُهَا شَيءٌ يُحْيِي العِظَامَ وَهْيَ رَمِيْمٌ نَسْأَلُكَ أنْ تَهْدِيْنَا إلَىٰ صِرَاطِكَ المُسْتَقِيْمِ صِرَاطِ الذيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَأَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

في صَلاَةِ التَّرَاوِيْحِ

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ مَشْرُوعِيَّةِ صَلاَةِ التَّرَاوِيْحِ .
٢ ـ صِفَةِ أو كَيْفِيَّةِ التَرَاوِيْحِ .
٣ ـ مَذاهِبِ العُلَمَاءِ رَحِمَهُم الله في عَدَدِ رَكَعَاتِهَا .
٤ ـ مَا يُسْتَحَبُّ فِيْهَا .

١ ـ مَشْرُوْعِيَّةُ صَلاَةِ التَّرَاوِيْحِ :

التَّرَاوِيْحُ سُنةٌ مُؤَكَّدةٌ سَنَّها رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَعَن عَائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا ـ أَن النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى في المَسْجِدِ فَصَلَّى بِصَلاَتِهِ نَاسٌ ثم صَلى الثانية فَكَثُرَ الناسُ ثم اجْتَمَعُوا مِن اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ أَو الرَّابعَةِ فَلَمْ يَخْرُجْ إلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ رَأَيْتُ الذِي صَنَعْتُم فَلَمْ يَمْنَعِني مِنْ الخُرُوجِ إلَيْكُمْ الا أَنِّي خَشِيْتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُم وَذَلِكَ في رَمَضَانَ مُتفقٌ عَلَيهِ .

وَفي رِوَايَةٍ : قَالَتْ : « كَانَ النَّاسُ يُصَلُّونَ في المَسْجِدِ في رَمَضَانَ بالليْلِ أَوْزَاعاً مَعَ الرَّجُلِ الشَّيْءَ مِن القُرْآنِ ، فَيَكُونُ مَعَهُ النَّفَرُ الخَمْسَةُ ، أو السَّبْعَةُ ، أو أقلّ من ذَلِكَ أَوْ أكثَرَ ، يُصَلُّونَ بِصَلاَتِهِ ، قَالَتْ : فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ أَنْ أَنْصِبَ لَـهُ حَصِيْرَاً عَلَى بَـابِ حُجْرَتِي ، فَفَعَلْتُ ، فَخَرَجَ إليْهِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةِ فاجْتَمَعَ إلَيْهِ مَنْ في المَسْجِد فَصَلَّى بِهِمْ . وَذَكَرَتْ القِصَّةَ بِمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ ، غَيْرَ أَنَّ فِيْهَا أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ إلَيْهِمْ في الليْلَةِ الثَّانِيَةِ » .

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِي ذَر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : صُمْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمْ يُصَلِّ بِنا حَتَّى بَقِيَ سَبْعٌ مِن الشَّهْرِ فَقَامَ بِنَا حَتَّى ذَهَبَ شَطْرُ اللَّيْلِ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، لَوْ نَفَّلْتَنَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِنَا هَذِهِ : فَقَالَ « مَنْ قَامَ مَعَ الإمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كَتَبَ اللهُ لهُ قِيَامَ لَيْلَةٍ » ، ثُمَّ لَمْ يَقُمْ بِنَا حَتَّى بَقِيَ ثَلاَثٌ مِنَ الشَّهْرِ فَصَلَّى بِنَا في الثَّالِثَةِ ، وَدَعَا أَهْلَهُ وَنِسَاءَهُ حَتَّى تَخَوَّفنَا الفَلاَحَ ، قُلْتُ لَهُ : وَمَا الفَلاَحُ ؟ قَالَ السُّحُوْرُ » .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضي اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَغِّبُ في قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِعَزِيْمَةٍ » ، فَيَقُوْلُ : « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيْمَاناً وَاحتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ : أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « انَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ صِيَامَ رَمَضَانِ ، وَسَنَنْتُ قِيَامَهُ فَمَنْ صَامَهُ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

وَعَنْ زَيْدِ بن ثابِتٍ : « أَنَّ النبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اتَّخَذ حُجْرَةً في حَصِيرٍ ، فَصَلَّى فِيْهَا لَيَالٍ اجْتَمَعَ عَلَيهِ نَاسٌ ، ثُمَّ فَقَدُوا صَوْتَهُ لَيْلَةً فَظَنُّوا أَنَّهُ نَامَ ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَتَنَحْنَحُ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : مَا زَالَ بِكُمْ الذي رَأَيْتُ مِن صَنِيْعِكُمْ حَتَّى خَشِيْتُ أن يُكْتَبَ عَلَيْكُم ، وَلَو كُتِبَ عَلَيْكُم ما قُمْتُمْ به ، فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ في بُيُوتِكُمْفَانَ أَفْضَلَ صَلاةِ المرء في بَيْتِهِ إلاَّ الصَّلاَةَ المَكْتُوبَةَ » .

٢ ـ صِفَةُ أو كَيْفِيَّةُ صَلاَةِ التَّرَاوِيْحِ :

صَلاةِ التَّرَاوِيْحِ بِجَمَاعَةٍ أَفْضَلُ ، قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ : « كَانَ عَلي وَجَابِرُ وَعَبْدُ اللهِ ـ رَضي اللهُ عَنْهُم ـ يُصَلُّونَهَا جَمَاعَةً » ، وَرُوِي عَنْ عَلي ـ رَضْي اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ كَانَ يَجْعَل لِلرِّجالِ اماماً ولِلنِّسَاءِ إِمَاماً » .

وَفي حَديْثِ أَبِي ذَرٍّ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : « إِنَّ النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ وَقَالَ : انَّهُ مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلِهِ » .

وَيَجْهَرُ الإِمَامُ بِالقِرَاءَةِ لِنَقْلِ الخَلَفِ عَن السَّلَفِ . وَيُسَلِّمُ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ ، وَوَقْتِهَا بَعْدَ صَلاَةِ العِشَاءِ ، قَبْلَ الوِتْرِ إِلَى طُلُوعِ الفَجْرِ ، وَفِعْلُهَا فِي المَسْجِدِ أَفْضَلُ ، لأَنَّ النَّبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاَّهَا ثَلاَثَ لَيَالٍ مُتَوَالِيَةً ، كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ وَمَرَّةً ثَلاَثَ لَيَالٍ مُتَفَرِّقَةٍ كَمَا رَوَى أَبو ذَرٍّ ، قَالَ : « مَنْ قَامَ مَع الإِمَامِ حُسِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَفْعَلُونَهَا فِي المَسْجِدِ أَوْزَاعاً في جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ في عَهْدِهِ .

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ القَارِيءْ قَالَ : « خَـرَجْتُ مَعَ عُمَـرَ بْنِ الخَطَّابِ فِي رَمَضَانَ إلى المَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتفَرِّقُون يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلاَتِهِ الرَّهْطُ ، فَقَالَ عُمَرُ : إنِّي أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِيءٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمثَلَ . ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَي بْنِ كَعْبٍ ثم خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَةِ قَارِئِهِمْ ، فَقَالَ عُمَرُ : « نِعْمَتْ البِدْعَةُ هَذِهِ ، وَالتِي يَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِن التِي يَقُومُوْنَ » يَعْنِي آخِرَ الليلِ ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أولهُ . فَدَلَّتْ هَذِهِ الأَخْبَارُ وَغَيْرِهَا عَلَى أَنَّ فِعْلَ التَّراوِيْحِ جَمَاعَةً أَفْضَلُ مِن الإِنْفِرَادِ وَكَذَا اجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ الأَمْصَارِ عَلَى ذَلِكَ .

وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُوْرِ العُلَمَاءِ ، وَتَجوزُ فُرادَى واخْتُلِفَ أَيُّهما أَفْضَلُ لِلقَارِيء ، قَالَ البَغويّ وَغَيْرُهُ : الخِلاَفُ بِمَنْ يَحْفَظُ القُرآنَ ، وَلاَ يَخَافُ الكَسَلَ عَنْهَا لَوْ انْفَرَدَ ، وَلاَ تَخْتَلُّ الجَمَاعةُ بِتَخَلُّفِهِ ، فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ هَذِهِ الأُمورِ فَالجَمَاعَةُ أفضَلُ بِلا خِلاَفٍ وَأَمَّا عَدَدُ صَلاَةِ التَّراويْحِ ، فَقَالَ القَاضِي : لاَ خِلاَفَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيْ ذَلِكَ حدٌّ لاَ يُزَادُ عَلَيْهِ وَلاَ يَنْقَصُ مِنْهُ .

فَاخْتَارَ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَجُمْهُورُ العُلَمَاءِ عِشْرِيْنَ رَكْعَةً : لِمَا رَوَى مَالِكُ في « المُوَطَّأ » عَنْ يَزِيْدِ بْنِ رُوْمَانَ قَالَ : كَانَ النَّاسُ فِيْ زَمَنِ عُمَرَ يَقُومُونَ في رَمَضَانَ بِثَلاثِ وَعِشْرِينَ رَكْعَةً » .

وَقَال السَّائِبُ بن يَزِيدَ : لَمَّا جَمَعَ عُمَرَ النَّاسَ عَلَى أُبيٍّ بنْ كَعْبٍ ، وَكَانَ يُصَلِّي بِهِمْ عِشْرِيْنَ رَكْعَةً : وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ في كِتَابِهِ « الشَّافِي » عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلي

فِي شَهْرِ رَمَضَانَ عِشْرِيْنَ رَكْعَةً .

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ : لَهُ أَنْ يُصَلِّيْهَا عِشْرِيْنَ كَمَا هُوَ المَشْهُورُ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ والشَّافِعِي ، وَلَهُ أَنْ يُصَلِّيْهَا سِتًّا وَثَلَاثِيْنَ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ ، وَلَهُ أَنْ يُصَلي إحْدَى عَشْرَةَ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ وَكُلُّهُ حَسَنٌ ، فَيَكونُ تَكْثِيرُ الرَّكَعَاتِ أو تَقْلِيْلُهَا بِحَسَبِ طُوْلِ القِيَامِ وَقِصَرِهِ : وَقَالَ : الأَفْضَلُ ، يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ المُصَلِّيْنَ فَإِنْ كَانَ فِيْهِمْ احْتِمَالٌ بِعَشْرِ رَكَعَاتٍ وَثَلَاثٍ بَعْدَهَا ، كَمَا كَانَ النبي صَلى الله عَليه وسَلَّمَ يُصَلِّي لِنَفْسِهِ فِي رَمَضَانَ وَغَيْرِهِ فَهْوَ الأَفْضَلُ ، وانْ كَانُوا لَا يَحْتَمِلُونه ، فَالقِيَامِ بِعِشْرِيْنَ هُوَ الأَفْضَلُ وَهُوَ الذي يَعْمَلُ بِهِ أَكْثَرُ المُسْلِمِيْنَ ، فَإِنَّهُ وَسَطٌ بَيْنَ العَشْرِ والأَرْبَعِيْنَ . وَانْ قَامَ بِأَرْبَعِيْنَ وَغَيْرِهَا جَازَ ، وَلا يُكْرَهُ شَيءٌ مِنْ ذَلِكَ . وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ قِيَامَ رَمَضَانَ فِيهِ عَدَدٌ مُؤَقَّتٌ لَا يُزَادُ فِيْهِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ فَقَدْ أَخْطَأَ ، وَقَدْ يَنْشَطُ العَبْدُ فَيَكُونُ الأَفْضَلُ فِي حَقِّهِ تَخْفِيْفَهَا .

وَقَالَ : قِرَاءَةُ القُرْآنِ فِي التَّرَاوِيحِ سُنَّةٌ بِاتِّفَاقِ المُسْلِمِيْنَ ، بَلْ مِنْ أَجلِ مَقْصُودِ التَّرَاوِيْحِ قِرَاءَةُ القرآنِ فِيْهَا لِيَسْمَعُوا كَلَامَ اللهِ ، فَإِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ فِيهِ نَزَل القُرْآنُ ـ فِيْهِ كَانَ جِبْرِيْلُ يُدَارِسُ النَّبِيَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ ـ انْتَهى كَلَامَهُ رَحِمَهُ اللهُ .

٤ ـ مَا يُسْتَحَبُّ فِيْهَا :

وَعَلَى الإِمَامِ أَنْ يَتَّقِي اللهَ ، فَلَا يُسْرِعُ سُرْعَةً تَمْنَعُ المَأْمُومَ مِنَ الأتْيَانِ بِرُكْنٍ كالطُمَأْنِيْنَةِ ، أو وَاجِبٍ كَتَسْبِيْحِ رُكُوعٍ وَتَسْبِيْحُ سُجُودٍ ، أو قَوْلِ : « رَبِّ اغفِرْ لِيَ » وَمِنَ المُؤْسِفِ أَنَّ كَثِيْراً مِن النَّاسِ ، أَثْقَلُ الأئِمَةِ

عِنْدَهُ مَنْ يُصَلِّي التَّرَاوِيْحَ بِخُشُوعٍ وَخُضوعٍ وَاطْمِئْنَانٍ ، وَلِذَا يَفِرُّونَ مِنْهُ وَيَذْهَبُونَ إلى مَنْ يُسْرِعُ بِهَا وَلاَ يُتِمُّها عَلَى الوَجْهِ المَشْرُوعِ ، وَلاَ يَطْمَئِنُّ بِهَا ، وَالطُّمَأْنِيْنَةُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الصَّلاَةِ ، وَقَدْ قَالَ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّم لِلمُسِيءِ في صَلاَتِهِ لَمَا أَخلَّ بِالطُّمَأْنِيْنَةِ : ارْجِعْ فَصَلِّ ، فَإنَّكَ تُصَلِّ » .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونيْ أُصَلِّي » وَكَانَ السَّلَفُ يَعْتَمِدُونَ عَلَى العُصِيِّ مِنْ طُولِ القِيَامِ .

وَعَنْ الأَعْرَجِ قَالَ : مَا أَدْرَكْنَا النَّاسَ الا وَهُمْ يَلْعَنُونَ الكَفَرَةَ في رَمَضَانَ وَقَالَ : وَكَانَ القَارِىءُ يَقْرَأُ سُورَةَ البَقَرَةِ في ثَمانِ رَكَعَاتٍ ، وَاذا قَامَ بِهَا في اثْنَتى عَشْرَةَ رَكْعَةً رَأى النَّاسُ أَنَّهُ قَدْ خَفَّفَ » .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَكْرٍ قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : كُنَّا نَنْصَرِفُ في رَمَضَانَ مِنْ القِيَامِ فَنَسْتَعْجِلُ الخَدَمَ بالطَعَامِ مَخافَةَ فَوْتِ السَّحُوْرِ ، وَفي أُخرى : « مَخَافَةَ الفَجْرِ » .

وَعَنْ السَّائِبِ بن يَزِيدَ قَالَ : أَمَرَ عُمَرُ أُبيَّ بنَ كَعْبٍ ، وَتَمِيْماً الدَّارِي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم - أَنْ يَقُومَا للنَّاسِ في رَمَضَانَ بِإحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةٍ ، فَكَانَ القَارِىءُ يَقْرَأُ بِالمِئِيْنَ حَتَّى كُنَّا نَعْتَمِدُ عَلَى العُصيِّ مِنْ طُولِ القِيَامِ ، فَمَا كُنَّا نَنْصِرِفُ إلا في فُرُوعِ الفَجْرِ .

وَيُسْتَحبُّ أَنْ يَقْرَأَ بِسُورَةِ القَلَمِ في عِشَاءِ الآخِرَةِ مِن الليلةِ الأُولَى مِن رَمَضَانَ بَعْدَ الفَاتِحَةِ لأنَّها أولُ مَا نَزَلَ مِن القُرْآنِ . وَيُسْتَحبُّ أَنْ لاَ يَنْقُصَ عَنْ خَتْمَةٍ في التَّرَاوِيْحِ لِيَسْمَعَ النَّاسُ جَمِيْعَ القُرآنِ . وَيَتَحرَّى أَنْ يَخْتِمَ آخِرَ التَّرَاوِيْحِ قَبْلَ رُكُوْعِهِ وَيَدْعُوْ .

وَلِشَيْخِ الإِسْلاَمِ فِي ذَلِكَ دُعَاءٌ جَامِعٌ شَامِلٌ . وَقَالَ : رُوِيَ أَنَّ عِنْدَ كُلِّ خَتْمَةٍ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ :

تَمَسَّكْ بِحَبْلِ اللهِ وَاتَّبِعِ الهُدَى
وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ
وَدِنْ بِكِتَابِ اللهِ وَالسُّنَنِ الَّتِيْ
أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللهِ تَنْجُو وَتَرْبَحُ
وَقُلْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَلَامُ مَلِيْكِنَا
بِذَلِكَ دَانَ الاتْقِيَاءُ وَأَفْصَحُوْا
وَقُلْ يَتَجَلَّى اللهُ لِلْخَلْقِ جَهْرَةً
كَمَا البَدْرُ لَا يَخْفَى وَرَبُّكَ أَوْضَحُ
وَلَيْسَ بِمَوْلُوْدٍ وَلَيْسَ بِوَالِدٍ
وَلَيْسَ لَهُ شِبْهٌ تَعَالَى المُسَبَّحُ
وَقَدْ يُنْكِرُ الجَهْمِيُّ هَذَا وَعِنْدَنَا
بِمِصْدَاقِ مَا قُلْنَا حَدِيثٌ مُصَحَّحُ
رَوَاهُ جَرِيْرٌ عَنْ مَقَالِ مُحَمَّدٍ
فَقُلْ مِثْلَ مَا قَدْ قَالَ فِي ذَاكَ تَنْجَحُ
وَقَدْ يُنْكِرُ الجَهْمِيُّ أَيْضاً يَمِيْنَهُ
وَكِلْتَا يَدَيْهِ بِالفَوَاضِلِ تُفْتَحُ
وَقُلْ يَنْزِلُ الجَبَّارُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ
بِلَا كَيْفٍ جَلَّ الوَاحِدُ المُتَمَدِّحُ
إِلَى طَبَقِ الدُّنْيَا يَمُنُّ بِفَضْلِهِ
فَتُفْرَجُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتُفْتَحُ

يَقُـولُ أَلا مُسْتَغْـفِـراً يَلْقَ غَـافِـراً
وَمُسْتَمْنِحـاً خَيْـراً وَرِزْقـاً فَيُمْنَـحُ
رَوَى ذَاكَ قَـومٌ لَا يُـرَدُّ حَـدِيثُهُـم
أَلَا خَـابَ قَـوْمٌ كَـذَّبُـوهُـم وَقُبِّحُـوا
وَقُـلْ إنَّ خَيْرَ النَّـاسِ بَعْـدَ مُحَمـدٍ
وَزِيْـرَاهُ قِـدْمَـاً ثُـمَّ عُثْمَـانَ الأَرْجَـحُ
وَرَابِعُهُـمْ خَيْـرُ الـبَـرِيَّـةِ بَعْـدَهُـمْ
عَليٌّ حَلِيْفُ الخَيْـرِ بِـالخَيْـرِ مُمْنَـحُ
وإنَّـهُـمُـوا لَـلرَّهْطُ لاَ شَـكَّ فِيْـهِـمْ
عَلَى نُجَبِ الفِرْدَوْسِ بِالخُلْدِ تَسْرَحَ
سَعِيْـدٌ وَسَعْـدٌ وابنُ عَـوفٍ وطَلْحَـةٌ
وَعَـامِـرُ فِهْـرٍ وَالـزُّبَيْـرُ المُمَـدَّحُ
وَقُلْ خَيْرَ قَـوْلٍ فِي الصَّحَابَـةِ كُلِّهِمْ
وَلَا تَـكُ طَعَّـانَـاً تَعِيْبُ وَتَـجْـرَحُ
فَقَـدْ نَـطَقَ الـوَحْيُ المُبِيْنُ بِفَضْلِهِمْ
وَفِي الفَتْـحِ آيٌ لِلصَّحَـابَـةِ تَمْـدَحُ
وَبِالْقَـدَرِ المَـقْـدُورِ أَيْـقِـنْ فَـإِنَّـهُ
دِعَـامَـةِ عَقْـدِ الـدِّيْنِ وَالـدِّيْنُ أَفْيَـحُ
وَلَا تُنْكِـرُوْنَ جَهْـلاً نَكِيْـراً وَمُنْكَـراً
وَلَا الحَـوْضَ والمِيْزَانَ أَنَّـكَ تُنْصَـحُ
وَقُـلْ يُخْـرِجُ اللهُ العَـظِيْمُ بِفَضْلِهِ
مِنَ النَّارِ أَجْسَاداً مِنَ الفَحْمِ تُطْرَحُ

عَلَى النَّهْرِ فِي الفِرْدَوْسِ تَحْيَا بِمَائِهِ
كَحَبِّ حَمِيْلِ السَّيْلِ إِذْ جَاءَ يَطْفَحُ
وَأَنَّ رَسُـولَ الـلهِ لِلْخَلْقِ شَـافِـعٌ
وَأَنَّ عَـذَابَ القَبْـرِ بِـالحَقِّ مُـوْضَـحُ
وَلاَ تُكْفِرَنْ أَهْلَ الصَّـلاَةِ وَانْ عَصَوا
فَكُلُّهُمْ يَعْصِي وَذُو العَـرْشِ يَصْفَـحُ
وَلاَ تَـعْتَـقِـدْ رَأْيَ الـخَـوَارِجْ انَّـهُ
مَقَـالٌ لِمَنْ يَهْـوَاهُ يُـرْدِي وَيَفْضَحُ
وَلاَ تَـكُ مُـرْجِيَّـاً لَعُـوْبـاً بِـدِيْنِـهِ
أَلاَ إِنَّمَـا المُـرْجِيْ بِـالدِّينِ يَمْـزَحُ
وَقُـلْ إِنَّمَـا الأَيْمَـانُ قَـوْلٌ وَنِيَّـةٌ
وَفِعْـلٌ عَلَى قَـوْلِ النَّبِي مُصَـرَّحُ
وَيَنْقُصُ طَـوْرَاً بِـالمَعَـاصِيْ وَتَـارَةً
بِطَاعَتِـهِ يَنْمَى وَفِي الـوَزْنِ يَـرْجَـحُ
وَدَعْ عَنْـكَ آرَاءَ الـرِّجَـالِ وَقَـوْلَهُمْ
فَقَـوْلُ رَسُـولِ اللهِ أَزْكَى وَأَرْجَـحُ
وَلاَ تَـكُ مِنْ قَـوْمٍ تَلَهَّـوا بِـدِيْنِهِمْ
فَتَـطْعَنَ فِي أَهْلِ الـحَدِيْثِ وَتَقْـدَحُ
إِذَا مَا اعْتَقَدْتَ الدَّهْرَ يَا صَاحِ هَذِهِ
فَـأَنْتَ عَلَى خَيْـرٍ تَبِيْتُ وَتُـصْبِـحُ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ عَمَّ البَرِيَّةَ جُوْدُهُ وَإِنْعَامُه نَسْأَلُكَ أَنْ تَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِعَفْوِكَ

وَغُفْرَانِكَ ، وَجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَى اللهُ عَلَى مُحمدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

في صَلاةِ الوِتْرِ

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ مَشْرُوعِ صَلاَةِ الوِتْرِ ، وَحُكْمُهَا .
٢ ـ وَقْتِ صَلاَةِ الوِتْرْ .
٣ ـ القِرَاءَةِ المُسْتَحَبَّةُ فِيْهَا .
٤ ـ عَدَدِ رَكَعَاتِهَا .
٥ ـ دُعَاءِ القُنُوتِ في الوِتْرِ .

١ ـ مَشْرُوعِيَّةُ صَلاَةِالوِتْرِ ، وَحُكْمُهَا :

الوِتْرُ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ لِمُدَاوَمَتِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَيْهِ في حَضَرِهِ وَفي سَفَرِهِ ، وَلِمَا وَرَدَ عَن عَلي ـ رَضْي اللهُ عَنهُ ـ قَالَ : لَيْسَ الوِتْرُ بِحَتْمٍ كَهَيْئَةِ المَكْتُوبَةِ ، وَلَكِنْ سُنَّةٌ سَنَّهَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم (رَوَاهُ التِّرمِذِيّ وَالنَّسَائِي وَحَسَّنَهُ ، والحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ، وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ) وَلَفْظُهُ : انَّ الوِتْرَ لَيْسَ بِحَتْمٍ وَلاَ كَصَلاتِكُمْ ، وَلَكِنَّ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْتَرَ ، فَقَالَ : « يَا أَهْلَ القُرْآنِ أَوْتِرُوا فانَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ » .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قَامَ شَهْرَ رَمَضَان ، ثُمَّ انْتَظَرُوهُ مِن القَابِلَةِ فَلَمْ يَخْرُجْ ، وَقَالَ :

« خَشِيْتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْكُم الوِتْرُ » . رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ .

وَعَنْ ابن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم أَوْتَرَ عَلى بَعِيرِهِ . رَوَاهُ الجَمَاعَةُ .

٢ ـ وَقْتُ صَلاةِ الوِتْرِ :

وَوَقْتُ الوِترِ بَعْدَ صَلاةِ العِشَاءِ وَسُنَّتِهَا لِمَا رَوَى خَاجَةُ بنُ حُذَافَةَ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ ذَاتَ غَدَاةٍ ، فَقَالَ : « لَقَدْ أَكْرَمَكُمْ اللهُ بِصَلاةٍ هي خَيْرٌ لكُم مِنْ حُمُرِ النَّعَم ، قُلْنَا : وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : الوِتْرُ فِيْمَا بَيْنَ صَلاَةِ العِشَاءِ الى طُلُوعِ الفَجْرِ » . رَوَاهُ الخَمْسَةُ الا النَّسَائِيْ .

وَرَوَى أَبُو بَصْرَةَ : أَنَّ النبي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم قَال : « انَّ اللهَ زَادَكُم صَلاةً فَصَلُّوهَا مَا بينَ صَلاَةِ العِشَاءِ الى صَلاَةِ الصُّبْحِ ، الوِتْرُ » . رَوَاهُ الامَامُ أَحْمَدُ . وَلِحَدِيْثِ أَبِي سَعِيْدٍ مَرْفُوعا : « أَوْتِرُوا قَبْلَ أَنْ تُصْبِحُوا » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَاذَا خَشِيْتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِوَاحِدَةٍ » . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

والأَفْضَلُ فِعْلُهُ سَحَراً ، لِقَوْلِ عَائِشَةَ : مِنْ كُلِّ الليلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليه وَسلم فَانْتَهَى وِتْرُهُ الى السَّحَرِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَمَنْ كَانَ لَهُ تَهَجُّدٌ جَعَلَ الوِتْرَ بَعْدَهُ ، وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لَا يَقُومَ ، أَوْتَرَ قَبْلَ أَنْ يَنَامَ، لِمَا وَرَدَ عَنْ جَابِرٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ

صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم : « مَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَيْلِ فلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُوْمَ آخِرَهُ ، فَلْيُوتِرْ آخِرَهُ ، فَانَّ صَلاَةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ » ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضْيِ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ النَّبِيَّ صَلى الَّلــهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « اجْعَلُوا آخِرَ صَلاَتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرَا » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وانْ أَحَبَّ مَنْ لَهُ تَهَجُّدٌ مُتَابَعَةَ الإِمَامِ في وُتْرِهِ قَامَ إِذَا سَلَّمَ الاَمَامُ وَأَتَى بِرَكْعَةٍ بَعْدَ الوِتْرِ شَفَعَ بِهَا رَكْعَــةَ الوِتْرِ . ثُمَّ إِذَا تَهَجَّدَ أَوْتَرَ فَيَنَالُ فَضِيْلَةَ مُتَابَعَةِ الامَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ ، لِقَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ : « مَن قَامَ مَعَ الامَامِ حَتَّى يَنصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ » . صَحَّحَهُ التِّرْمِذِي .

وَيَنَالُ فَضِيْلَةَ جَعْلِ وِتْرِهِ آخِرَ صَلاتِهِ لِحَدِيْثِ : « اجْعَلُوا آخِرَ صَلاتِكُمْ باللَّيْل وِتْرا » . مُتَّفَّقٌ عَلَيْهِ ، وَيَقْضِيْهِ مَعَ شَفْعِهِ اذَا فَاتَ وَقْتُهُ لِحَدِيْثِ أبي سَعِيْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : « مَن نَامَ عَنِ الوِتْرِ أَوْ نَسْيَه فَلْيُصَلِّ اذا أَصْبَحَ أو ذَكَرَهُ » رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ .

وَلَا يَصِحُّ الوِتْرُ قَبْلَ صَلاَةِ العِشَاءِ لِعَدَمِ دُخُولِ وَقْتِهِ ، وَأَقَلُّ الوِتْرِ رَكَعَةٌ ، وَلاَ يُكْرَهُ الاتْيَانُ بِهَا مُفْرَدَة وَلو بِلاَ عُذْرٍ مِنْ سَفَرٍ أَوْ مَرَضٍ وَنَحْوِهِمَا لِما وَرَدَ عَن ابن عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّهُمَا سَمِعَا النَّبي صَلى اللهُ عَليه وسَلمَ يَقولُ : « الوِتْرُ رَكْعَةٌ مِنْ آخِرِ اللَيْلِ » . رَوَاهُ أحمَدُ وَمُسْلِمُ .

وَعَنْ أَبِي أَيُوبَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم : « الوِتْرُ حَقٌ ، فَمَنْ أَحبَّ أَنْ يُوتِرَ بِخَمْسٍ فلْيَفعلْ ، وَمَنْ أَحبَّ أَنْ يُوْتِرَ

بِثَلاثٍ فلْيَفْعَلْ » . رَوَاهُ الخَمْسَةُ الا التِّرْمِذِي .

وَثَبَتَ عَنْ عَشَرَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ أَنَّ الْوِتْرَ رَكْعَةٌ مِنْهُمْ : أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم - وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ أَهْلِ العِلْمِ مَالِكٍ والشَّافِعِي وَغَيْرِطهمْ - رَحِمَهُم اللهُ تَعَالى .

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم يُصَلِّي مَا بَيْنَ صَلاَةِ العِشَاءِ إلىَ الفَجْرِ إحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً يُسَلِّمُ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ويُوْتِرُ بِوَاحِدَةٍ » .

وَفِي لَفْظٍ كَانَ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلم : يُصَلي بِاللَّيْلِ إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةٍ وَيُوتِرُ بِوَاحِدَةٍ . وَأَدْنَى الكَمَالِ في الوِتْرِ ثَلاَثُ رَكَعَاتٍ بِسَلامَيْنِ ، لِما رَوَى عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَر - رَضي اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ عَنْ الوِتْرِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « افْصِلْ بَيْنَ الوَاحِدَةِ والثِّنْتَيْنِ بِالتَّسْلِيمِ » . رَوَاهُ الأَثْرَمُ .

وَعَنْ ابنِ عُمَرَ - رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ كَانَ يُسَلِّمُ بَيْنَ الرَّكْعَتَيْنِ وَالرَّكْعَةِ بالتَّسْلِيْمِ في الوِتْرِ ، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِبَعْضِ حَاجَتِهِ . رَوَاهُ البُخَارِيْ .

وَيَجُوزُ سَرْدُ الثَّلاثِ بسَلامٍ وَاحِدٍ ، فَلا يَجْلِسْ إلَّا في آخِرِهِنَّ ، وَتَجُوز كمَغْرِبِ . وَمَن أَدْرَكَ مَعَ الامَامِ رَكْعَةً مِن الثَّلاثِ فَإنْ كَانَ الامَامُ يَسَلِّمُ من كُلِّ اثْنَتَيْنِ أَجْزَأَ لأَنَّ أَقَلَّ الوِتْرِ رَكْعَةٌ ، وانْ لَمْ يَكُنْ الامَامُ يُسَلِّم مِنْ كُلِّ اثْنَتين قَضَى ، لِحَدِيْثِ : « ما أَدْرَكْتُمُوْهُ فَصَلُّوا ، وَمَا فَاتَكم فَاقضُوا » وَلأَنَ القَضَاءَ يَحْكِي الأَدَاءَ .

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَقْرَأَ في الرَّكْعَةِ الأُولَى : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، وَفي الثَّانِيَةِ : ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الكافِرُونَ﴾ وفي الثَّالِثَةِ : ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدَ﴾ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ : « كَانَ النبي صَلى اللهُ عَليه وَسلم يُوْتِرُ بِثَلاثٍ لَا يَفْصِلُ فِيْهِنَّ » . رَوَاهُ أحمَدُ والنَّسَائِي .

وَعَنْ أُبَيِّ بن كَعْبٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ؟قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهِ عليه وسَلم يُوْتِرُ بـ « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ، وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . رَواهُ أَبُو دَاوُد ، وَالنَّسائِي ، وَزَادَ : وَلَا يُسَلِّمُ الَّا في آخِرِهِنَّ ، وَلَابِي دَاوُدَ والتِّرمِذي عَنْ عَائِشَةَ نَحْوُهُ ، وَفِيْهِ كُلُّ سُوْرَةٍ في رَكْعَةٍ ، وفي الأَخِيْرَةِ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ وَالمعَوِّذَتَينِ .

والسُّنَّةُ لِمَنْ أَوْتَر بِمَا زَادَ عَلى رَكْعَةٍ أَنْ يُسَلِّمَ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ لِمَا رَوَى ابْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ النَّبِي صَلى اللهُ عليه وَسَلم كَانَ يَفْصِلُ بَيْنَ الشَّفْعِ وَالوِترِ ، ويُسِنُّ فِعْلُ الرَّكْعَةِ عَقِبَ الشَّفْعِ بِلَا تَأخِيرٍ لَهَا عَنْهُ ، وَإِنْ صَلَّى الاحْدَى عَشْرَةَ كُلُّها بِسَلامٍ وَاحِدٍ بِأَنْ سَرَدَ عَشْراً وَتَشهَّدَ التَّشهُّدَ الأَوَّلَ ، ثُمَّ قَامَ فَأَتَىٰ بِالرَّكْعَةِ جَازَ ، أَوْ سَرَدَ الجَمِيْعَ وَلَمْ يَجْلِسْ إلَّا في الأَخِيْرَةِ جَازَ لكِنْ الصِّفَةُ الأُوْلَى أَوْلَى لِأَنَّها فِعْلُهُ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلمَ .

٤ ـ عَدَدُ رَكَعَاتِهَا :

يَجُوزُ الوِترُ بِخَمْسٍ وَبِسَبْعٍ وبِتِسْعٍ ، فانْ أَوْتَرَ بِتْسِعٍ سَرَدَ تَمَاماً وَجَلَسَ وَتَشَهَّدَ التَّشَهُّدَ الأَوَّلَ وَلَمْ يُسَلِّم ، ثُمَّ اذا صَلَّى التَّاسِعَةَ وَتَشَهَّدَ سَلَّمَ ، لما وَرَدَ عَنْ سَعِيْدِ بن هِشَامٍ قَال انْطَلَقْتُ إلـى عَائِشَةَ فَقُلْتُ : يَا

أمَّ المؤمِنينَ ، أَنْبِئيْنِيْ عَن خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم ، فَقَالَتْ : أَلَسْتَ تَقْرأُ القُرآنَ ؟ قُلتُ : يَا أُمَّ المؤمِنينَ ، أَنْبِئِنِي عَنْ وِتْرِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم فقَالَتْ : كُنَّا نُعِدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ فَيَبْعَثُهُ اللهُ مَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِن الليلِ ، فَيَبُولُ وَيَتوضَّأُ وَيُصَلّى تِسْعَ رَكَعَاتٍ ، لَا يَجْلِسُ فِيْهَا إلا في الثَّامِنَةِ فَيَذْكُرُ اللهَ وَيَحْمَدُهُ ، وَيَدْعُوهُ ، ثُمَّ يَنْهَضُ وَلَا يُسَلِّمَ ، فَيُصَلِّي التَّاسِعَةَ ، ثُمَّ يَقْعُدُ فَيَذْكُرُ اللَّهَ ، وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ ، ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيْماً فَيُسْمِعُنَا ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ مَا يُسَلِّمُ وَهُوَ قَاعِدٌ ، فَتِلْكَ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يَا بُنَيَّ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَانْ أَوْتَرَ بِسَبْعٍ إوْ بِخَمْسٍ لَمْ يَجْلِسْ الَّا فِي آخِرِهَا لِمَا وَرَدَ عن أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوْتِرُ بِسَبْعٍ وَبِخَمْسٍ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُنَّ سَلامٌ وَلَا كَلامٌ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنِّسَائِيْ وَابنُ مَاجَهْ .

وَعَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّم يُصَلى مِنْ الليلِ ثَلاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةٍ ، يُؤْتِرُ مِنْ ذَلِك بِخَمْسٍ وَلَا يُجْلِسُ فِيْ شَيْءٍ إِلَّا فِيْ آخِرِهِنَّ . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

٥ ـ دُعَاءُ القُنُوتِ في الوِتْرِ :

وَيُسَتَحَبُّ أَنْ يَقْنُتَ في الرَّكْعَةِ الأَخِيْرَةِ بَعْدَ الرُّكُوعِ لأَنَّهُ صَحَّ عَنْهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . مِن رَوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنسٍ وابنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ عَمْرو وَعَلي أَنَّهُمَا كَانَا يَقْنُتَانِ بَعْدَ الرُّكُوْعِ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالأَثْرَمُ ، وَلَوْ كَبَّر وَرَفَعَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَنَتَ قَبْلَ الرُّكُوْعِ جَازَ لحديث أَبِي بنِ كَعْبٍ : أَنَّ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم كَانَ يَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوْعِ . رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ .

وَرَوَى الأَثْرَمُ عَنْ ابْنِ مَسْعُوْدٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْنُتُ في الوِتْرِ ، وَكَانَ اذا فَرَغَ مِنْ القِرَاءَةِ كَبَّرَ وَرفَع يَدَيْهِ ، ثُمَّ قنتَ . وَقَالَ أَبو بَكْرٍ ابْنِ الخَطِيْبِ : وَالقُنُوتُ : الدُّعَاءُ وَهْوَ مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ - رَضْيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَنَتَ فقَالَ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم : اللَّهُمَّ انَّا نَسْتَعِيْنُكَ وَنَسْتَهْدِيْكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ وَنتُوبُ إلَيْكَ ، وَنُؤْمِنُ بِكَ وَنتوكَّلُ عَلَيْك ، وَنُثْنِي عَلَيْكَ الخَيْرَ كُلَّهُ وَنَشْكُرُكَ ، وَلاَ نَكْفُرُكَ وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ . اللهُمَّ إيَّاكَ نَعْبُدُ وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ وَالَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخْشَى عَذَابَكَ ، إنَّ عَذَابَكَ الجِدَّ بِالْكُفَّارِ مُلْحَقٌ .

وَرَوَى الحَسَنُ بْنُ عَلَي - رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ عَلَّمَنِي رَسُولَ الله صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم كَلِمَاتٍ أَقُوْلُهُنَّ في قُنُوْتِ الوِتْرِ وَهُنَّ : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيْمَنْ هَدَيْتَ ، وعَافِنِي فِيْمَنْ عَافَيْتَ وَتوَلَّنِي فِيْمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِيْ فِيْمَا أَعْطَيْتَ ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، فَإنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَى عَلَيْكَ ، انَّهُ لاَ يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، وَلاَ يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتعالَيْتَ » .

وَعَنْ علي بن أَبِي طَالِبٍ - رَضْيِ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقولُ في وِتْرِهِ : « اللَّهُمَ إنِّي أَعُوْذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوْبَتِكَ ، وَبِكَ مِنْكَ ، لاَ نُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » . رَوَاهُ الخَمْسَةُ ثُمَّ يُصَلي عَلَى النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِحَدِيْثِ الحَسَنِ بنِ عَلِي - رَضْيَ اللهُ عَنْهُ - وَفِي آخِرِهِ « وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمّدَ » . رَوَاهُ النِّسَائِي .

وَعَنْ عُمَرَ : « الدُّعَاءُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، لاَ يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءُ حَتَّى تُصَلِّي عَلَى نبيِّكَ »رَوَاهُ التِّرمِذِي . ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ ، هُنَا

وَخَارِجَ الصَّلَاةِ إذَا دَعَا . لِعُمُومِ حَدِيثِ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ كَانَ النبي صَلى اللَّهُ عليهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ في الدُّعَاءِ ، لَا يَحُطُّهُمَا حَتَّى يَمْسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ » . رَوَاهُ التِّرمِذِي .

وَلِقَولِهِ صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَدِيثِ ابنْ عَبَّاس « فَاذَا فَرَغْتَ فامْسَحْ بِهِمَا وَجْهَكَ » . رَوَاهُ أبـو دَاوُدَ وابْنُ مَاجَـه . وَيُؤَمِّنُ المُنْفَرِدُ الضَّمِيرَ ، وإِذَا سَلَّمَ مِن الوَتْرِ سُنَّ قَوْلُهُ : « سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ » ـ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ـ يَرْفَعُ صَوْتَهُ في الثَّالِثَةِ ، لِمَا رَوَى أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَلَّمَ في الوِتْرِ قَالَ : « سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ » . وَزَادَ ثَلَاثَ مَراتٍ يُطِيلُ في آخِرِهِنَّ .

وَفي رِوَايَةٍ لِلنِّسَائِي عَن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبْزَى عَنْ أَبِيْهِ قَالَ : كَانَ يَقُولُ إِذَا سَلَّم : « سُبْحَانَ الملكِ القُدُوسِ » ثَلَاثـاً ، وَيَرْفَـعُ صَوْتَـهُ بالثَّالِثَةِ .

وَصَـلِّ بِشَهْرِ الصَّـوْمِ عِشْرِيْنَ رَكْعَـةً
تَـرَاوِحَ في جَمْـعٍ وَبِـالـوِتْـرِ شَيِّـدِ
وَقُمْ بَعْـدَهَا واشْفَـعْ هُـدِيْتَ بِـرَكْعَـةٍ
لِتُـوتِـرَ إِمَّـا شِئْتَ بَعْـدَ التَّجَهُّـدِ
وَأَفْضَـلُ نَفْـلِ المَـرْءِ لَيْـلاً بِبَيْتِـهِ
فَقُمْ تِلْوَ نِصْفِ مِثْلِ داودَ فَـاسْجُـدِ
وَإِنْ شِئْتَ اجْهَرْ فِيهِ مَا لَم تَخَفْ أَذَى
لِإِبعَـادِ شَيْـطَانٍ وَإِيْـقَـاظِ رُقَّـدِ

وَخُـذْ قَدْرَ طَـوْقِ النَّفْسِ لاَ تَسْأَمَنَّـهُ
وَقِـلْ تَسْتَعِنْ بِـالنَّـوْمِ عِنْـدَ التَّجَهُّـدِ
فَـإِنْ لَمْ تُصَلِّ فَـاذْكُـرِ اللهَ جَـاهِـدَاً
وَتُبْ واسْتَقِـلْ مِمَّـا جَنَيْتَ وَسَـدِّدِ
فَلاَ خَيْرَ فِي عَبْدٍ نَؤُومٍ إلى الضُّحَى
أَمَـا يَسْتَحِي مَـوْلاً رَقِيْبـاً بَمَـرْصَـدِ
يُنَـادِيهِ هَـلْ مِنْ سَائِـلٍ يُعْطَ سُؤْلَـهُ
وَمُـسْتَـغْـفِـرٍ يُـغْـفَـرْ لَـهُ ويُـؤَيَّـدِ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا توفيقاً يَقِيْنَا عَنْ مَعَاصِيْكَ وَأَرَشِدْنَا إلى السَّعْيِ فِيْمَا يُرْضِيْكَ وأَجِرْنَا يَا مَوْلَانَا مِنْ خِزْيِكَ وَعَذَابِكَ وَهَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لأَوْلِيَائِكَ وأَحْبَابِكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

كِتَابُ الفَضَائِلِ

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ مَا وَرَدَ مِن الحَثِّ عَلَى الأجْتِهَادِ في العَشْرِ الأَخِيرِ مِنْ رَمَضَان . وَالحَثُّ عَلَى القِيَامِ عُمُوماً .

٢ ـ ما وَرَدَ في فضل هذا العَشْرِ الأَخِيْرِ ، والحَثِّ على القيامِ عموماً .

٣ ـ مَا وَرَدَ في لَيْلَةِ القَدرِ مِنَ الفَضْلِ وَذِكْرِ عَلاَمَتِهَا .

١ ـ مَا وَرَدَ مِن الحَثِّ عَلى الاجْتِهَادِ في العَشْرِ الأَخيرَةِ مِنْ رَمَضَانَ :

يُسْتَحَبُّ الاجْتِهَادُ والحِرْصُ عَلى مُدَاوَمَةِ القِيَامِ في العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِن رَمَضَان وَإحْيَاؤُهَا بِالعِبَادَةِ وَاعْتِزَالُ النِسَاءِ وَأَمْرُ الأَهْلِ بالاسْتِكْثَارِ مِنَ الطَّاعَةِ فِيْهَا ، لِمَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ « أن النبيَّ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَمَ ، كَانَ اذا دَخَلَ العَشْرُ الأَواخِرُ أَحْيَا الليلَ ، وَأَيقَظَ أَهْلَهُ ، وَشَدَّ المِئْزَرَ » . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْهَا قَالَتْ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْتَهِدُ في العَشْرِ الأَواخِرِ مِنْهُ مَالا يَجْتَهِدُ في غَيْرِهِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَلي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ « أَنَّ النبيَ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُوقِظُ أَهْلَهُ في العَشْرِ الأَواخِرِ مِنْ رَمَضَانَ وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبيرٍ يُطِيْقُ الصَّلاَةَ » .

وَفِي التِّرمِذِيّ عَنْ ام سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : « لَمْ يَكُن النبيْ صَلَى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ . إذا بَقِيَ مِنْ رَمَضَانَ عَشَرَةُ أَيَّامٍ يَدَعُ أَحَداً مِنْ أَهْلِهِ يُطِيْقُ القِيَامَ إلا أَقامَهُ » .

٢ ـ مَا وَرَدَ في فَضلِ هَذَا العَشْرِ الأخيرِ :

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَن قَامَ ليلةَ القدرِ ايمَاناً واحتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » . رَوَاهُ الجَمَاعَةُ إلا ابْن مَاجه .

وَعَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهَا ـ قَالَتْ ، قُلتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أرأيتَ ان عَلِمْتُ أيَّ لَيْلَةٍ لَيلةُ القَدْرِ مَا أَقُولُ فِيْهَا ؟ قَالَ : « قُولِيْ اللهُمَّ إنكَ عفوٌ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي » رَوَاهُ التِّرْمِذيّ .

قَالَ ابنُ جَرِيرِ : كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَغْتَسِلُ ، وَيَتَطَيَّبُ فِي اللَّيَالِيْ التي تَكُونُ أَرْجَى لِلَيْلَةِ القَدْرِ .

وَرُوِيَ عَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لَيْلَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِين اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ وَلَبِسَ حُلَّةً وَازاراً وَرِدَاءً ، فَإِذَا أَصْبَحَ طَوَاهُمَا فَلَمْ يَلْبَسْهُمَا إِلى مِثْلِهَا مِنْ قَابِلَ .

وَقَالَ حَمَّادُ بنُ سَلَمةَ : كَانَ ثَابِتٌ وَحُمَيْدٌ يَلْبَسَانِ أَحْسَن ثِيَابِهِمَا وَيَتَطَيَّبَانِ وَيُطَيِّبَانِ المَسْجِدَ بالنُّضُوحِ وَالدُّخْنَةِ في اللَّيْلَةِ التي تُرْجَى فِيْهَا لَيْلَةُ القَدْرِ فَيُسْتَحَبُّ في اللَيَالِي التِي تُرْجَى فِيْهَا لَيْلَة القَدْرِ التَّنَظُّفُ وَالتَّطَيُّبُ والتَّزَيُّنُ بِالغُسْلِ والطيِّبِ واللبَاسِ الحَسَن كَما شُرِعَ ذَلِكَ في الجُمَعِ والأَعْيَادِ ، وَكَذَلِكَ يُشْرَعُ أخذُ الزِّينَةِ مِن الثِّيَابِ في سَائِرِ الصَّلَواتِ ، قَال اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَا بَنِيْ آدَمَ خُذُوا زِيْنَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ : « اللهُ أَحَقُّ أَنْ يُتَزَيَّنَ لَهُ » .

وَرُوِيَ عَنْهُ مَرْفُوعَا عَنْ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلاَ يَكْمُلُ التَزينُ الظَّاهِرُ إلا بِتَزْيْينِ البَاطِنِ بالتَّوْبَةِ والانَابَةِ الى اللهِ تَعالى ، وَتَطْهِيْرِهِ مِن أَدْنَاسِ الذُنوبِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ لاَ يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُم وَأَجْسَامِكُم ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأَعْمَالِكُم .

فَمَنْ وَقَفَ بينَ يَدَيْهِ فَلْيُزَيِّنْ ظَاهِرَهُ باللِّبَـاسِ ، وَبَاطِنَـهُ بِلِبَاسِ التَّقْوَى ، وَقَال الله تَعالى : ﴿ يا بَنِيْ آدَمَ قد أنزلْنَا عليكُم لباساً يُوَارِيْ سَوْآتِكم وَرِيْشاً وَلِبَاسُ التَقوَى ذلكَ خَير ﴾ .

عِبَادَ اللهِ : إنَّ عَشْرَكُمْ هَذَا هُوَ العَشْرُ الأَخِيرُ ، وَفِيهِ الخَيراتُ والأُجُورُ الكَثِيرَةُ تَكْمُلُ فِيْهِ الفَضَائلُ ، وَتَتمُّ فيهِ المَفاخِرُ ، وَيَطَّلعُ عَلى عِبَادِهِ الرَّبُ العَظِيمُ الغَافِرُ وَيُنيلُهُم الثَّوابَ الجَزيلَ الوَافِرَ ، فِيهِ تَزكُـو الأَعمالُ ، وَتُنَالُ الآمَالُ ، وَقدذَكَرَ جَلَّ وَعَلا مِنْ مَحَاسِنِ أَهْلِ الإيمَانِ ، أَنَّهم تَتَجَافي جُنُوبُهم عَن المَضَاجِعِ ، عَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَل عَن النبي صَلى الله عليه وسلم في قَولِهِ تَعالَى : ﴿ تتجَافي جُنوبُهم عَنِ المضَاجِعِ ﴾ قَالَ : هِيَ قيامُ العَبْدِ أولَّ الليلِ .

وَرَوى الامامُ أَحْمَدُ عَن ابن مَسْعودٍ أَنَّ النبيَّ صَلى اللهُ عليه وسلم قالَ : « عجِبَ رَبُّنا مِن رَجُلَين : رَجُلٌ ثَارَ مِن وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِن بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إلى صَلاَتِهِ رَغبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي » الحَدِيْث .

وَقَالَ الحَسَنُ وَمُجَاهِدُ وَمَالِكُ وَالأَوْزَاعِيُّ وَغَيرُهُم : « إنَّ المرادَ بِالتَّجَافي القِيَامُ لِصَلاَةِ النَّوافِلِ باللَّيلِ » ، وَفي آيَةِ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ . أَخْبَرَ جَلَّ وَعَلاَ أَنَّهم كَانُوا يَنَامُونَ القَلِيْلَ مِنَ اللَّيل ، وَيَتهَجَّدون مُعْظَمَهُ قالَ تَعالَى : ﴿ كَانُوا قَليلاً مِن الليلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ .

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ مَا تَأْتِي عَلَيْهِمْ لَيْلَةٌ يَنامُوا حَتَّى يُصْبِحُوا إلاَّ يُصَلُّونَ فِيْهَا شَيْئاً ، إمَّا مِن أَوَّلِهَا أَوْ مِنْ أَوْسَطِهَا . وَقَالَ الحَسَنُ : كَابَدُوا قِيَامَ الليلِ فَلا يَنَامُوا مِنَ اللَّيلِ إلا قَلِيْلَهُ .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَم أنهُ قَالَ : « عَلَيْكُمْ بِقيَامِ اللَّيلِ ، فَانَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُم ، وَهُوَ قُرْبُكُم مِنْ رَبِّكم وَمَغْفِرَةُ لِلسَّيئَاتِ وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ .

وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ : كَانَ الأَحْنَفُ بِنُ قَيسٍ يَقُولُ : عَرَضْتُ عَمَلِي عَلَى عَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، فَإِذَا قَوْمٌ قَدْ بَاينُونَا بَوْناً بَعِيْدَا ، وَإِذَا قَوْمٌ لَا تَبْلَغُ أَعْمَالُهُمْ ، كَانُوا قَلِيْلًا مِنَ اللَّيلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَعَرضْتُ عَمَلي على عَمِلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَاذا قَوْمٌ لَا خَيْرَ فِيْهِم مُكَذِّبُونَ بِكِتَابِ اللهِ وَلرُسُلِ اللهِ مُكَذبُون بِالبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ ، فَقَدْ وَجَدْتُ مِن خَيرِنَا مَنْزِلَةً قَوماً خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَر سَيِّئاً .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِن زَيْدِ بن أَسْلَمَ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ لِأَبِي : يَا أَبَا أُسَامَةَ صِفَةَ لَا أَجِدُهَا فِيْنَا ، ذَكَرَ اللهُ تَعالى قَوْماً فقَالَ : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الليلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ وَنَحْنُ واللهِ قليلاً مَا نَقُومُ ، فَقَال لَهُ أَبِي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : طوُبَي لِمَنْ رَقَدَ إِذَا نَعَسَ ، وَاتَّقَى اللهَ إِذا اسْتَيْقَظَ .

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنِ سَلامٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم المدينَةَ انجفَلَ النَّاسُ عَنْهُ ، فَكُنْتُ فِيْمَن انْجَفَلَ ، فَلَمَّا رَأَيتُ وَجْهَهُ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلمَ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّاب ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُ مِنه صَلَّى اللهُ عَلِيهِ وَسَلَّم يَقُولُ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصِلُوا الأَرحَامَ وَأَفْشُوا السَّلاَمَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ » .

مَـوْعِظَةٌ

اخْوَانِي : إِنَّ قِيامَ الليلِ كَمَا عَلِمْتُمْ فِيهِ فَضْلٌ عَظِيمٌ وَثَوابٌ جَزِيلٌ لِمَن وَفَّقَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ ، وَهُوَ مِنْ أَثقَل شَيءٍ عَلى النَّفْسِ وَلاَ سِيَّما بَعْدَ أَنْ يَرْقُدَ الانسَانُ ، وانَّمَا يَكُونُ خَفِيفاً بالاعْتِيَادِ ، وَتَوطِينِ النَّفْسِ وَتَمْرِينِهَا عَلَيْهِ والمَدَاوَمَةِ والصَّبرِ عَلى المَشَقَّةِ والمُجَاهَدَةُ في الابْتِدَاءِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْشَرِحُ وَيَنْفَتِحُ بَابُ الأُنْسِ بِاللهِ وَتَلَذُّ لَهُ المَنَاجَاةُ وَالخَلْوَةُ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَشْبَع الانسَان مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَسْتَثِقِلَهُ أَو يَكْسَل عَنْهُ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ . قَالَ بَعْضُهُم : أَهْلُ الليلِ في لَيْلِهم أَلَذُّ مِن أَهلِ اللهو في لَهْوِهِم وَيَا بُعْدَمَا بَيْنَ الحَالَتَينِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ وَفقَ أَقْوَاماً فَتقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالنَّوافِل ، وَأَبْعَدَ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ آخَرِين فَهُمْ عَنْ مَا يَنْفَعهم في حَاضِرِهم وَمَآلِهِم غَافِلُونَ .

شِـعْرَاً :

دُنُـوبُـكَ يَـا مَغْـرُورُ تُحْصَىٰ وَتُحْسَبُ
وَتُـجْمَـعُ فـي لَـوْحٍ حَفِـيْظٍ وَتُكْـتَبُ
وَقَـلْبُـكَ في سَـهْـوٍ وَلَهْـوٍ وَغَـفْلَةٍ
وَأَنتَ عَلى الـدُّنْيَا حَـرِيصٌ مُعَـذَّبُ
تُبَـاهِي بِجَمْـعِ المَـالِ مِنْ غَيْـرِ حِلِّهِ
وَتَسْعَى حَثِيْثـاً في المَعَـاصِيْ وَتُـذْنِبُ
أَمَا تَذْكُـرُ المَوْتَ المُفَـاجِيْكَ في غَـدٍ
أَمَـا أَنْتَ مِن بَعْـد السَّلاَمَـةِ تَعْـطَبُ

أَمَــا تَــذْكُــرُ القَبْرَ الــوَحِيْش وَلَحْـدَهُ
بِـهِ الجِسْمُ مِن بَعْـدِ العَمَـارَةِ يَخْـرُبُ
أَمَـا تَـذْكُـرُ اليَـوْمَ الـطَّوِيْـلَ وَهُــو لَـهُ
وَمِـيْــزانَ قِـسْطٍ لِلْـوَفَاءِ سَـيُنْـصَـبُ
تَــرُوْحُ وَتَغْـدُو فِي مَــرَاحِـكَ لَاهِيــاً
وَسَــوْفَ بِــأَشْـرَاكِ الـمَنِيَّــةِ تَنْـشَـبُ
تُعَـالِجُ نَـزْعَ الرُّوحِ مِنْ كُـلِّ مَفْصِـلٍ
فَــلَا رَاحِـمٍ يُنْـجِى وَلَا ثَـمَّ مَهْــرَبُ
وَغُمضَتِ العَيْنَــانِ بَـعْـدَ خُــرُوجِهَــا
وَبُسِّــطَتْ الـرِّجْــلَانِ وَالـرَّأْسُ يُعْصَبُ
وَقَـامُوا سِـرَاعـاً فِي جَهَـازِكَ أَحْضَـرُوا
حَنُــوطاً وَأَكْفَــانــاً وَلِلْمَــاءِ قَــرَّبُــوا
وَغَــاسِلُكَ المَحْــزُونُ تَبْكِي عُـيُــونُـهُ
بِــدَمْــعٍ غَــزِيْـرٍ وَاكِـفٍ يَتَـصَـبَّــبُ
وَكُـــلُّ حَــبِـيْــبٍ لُـبُّــهُ مُـتَـحَــرِّقٌ
يُـحَـرِّكُ كَـفَّـيْـهِ عَلَيْـكَ وَيَــنْــدُبُ
وَقَـدْ نَشَـرُوا الأَكْفَـانَ مِنْ بَعْـدِ طَيِّهَـا
وَقَــدْ بَـخَّــرُوا مَنْشُــورَهُنَّ وَطَـيَّـبُـوا
وَأَلْـقَــوْكَ فِـيْـمَــا بَـيْـنَـهُــنَّ وَأَدْرَجُــوا
عَـلَيْـكَ مَثَـانِي طَـيِّـهُـنَّ وَعَـصَّـبُــوا
وَفِي حُـفْــرَةٍ أَلْقَــوكَ حَيْــرانَ مُـفْـرَداً
تَضُمُّــكَ بَيْــدَاءُ مِن الأَرْضِ سَبْسَبُ

إِذَا كَـانَ هَـذَا حَـالُنَا بَعْـدَ مَوْتِنَـا
فَكَيْفَ يَطِيْبُ اليَومَ أَكْـلٌ وَمَشْـرَبُ ؟!
وَكَيْفَ يَـطِيْبُ العَيْشُ وَالقَبْـرُ مَسْكَنٌ
بِـهِ ظُـلُمَـاتٌ غَيْـهَبٌ ثُـمَّ غَيْـهَبُ
وَهَــوْلٌ وَدِيْـدَانٌ وَرَوْعٌ وَوَحْـشَـةٌ
وَكُـلُ جَـدِيْـدٍ سَوْفَ يَبْلَى وَيَـذْهَبُ
فَيَـا نَفْسُ خَـافِي اللهَ وَارْجِي ثَـوابَـهُ
فَهَـادِمُ لـذَاتِ الفَتَى سَـوْفَ يَقْـرُبُ
وَقُـولِي إِلَـهِي أَوْلِنِي مِـنْـكَ رَحْمَـةً
وَعَـفْـواً فَـانَّ اللهَ لِـلذَّنْـبِ يُـذْهِبُ
وَلَا تُحْـرِقَنْ جِسْمِي بِنَـارِكَ سَيِّـدِيْ
فَجِسْمِي ضَعِيفٌ وَالـرَّجَا مِنْـكَ أَقْـرَبُ
فَمَـا لِيَ إِلَّا أَنْتَ يَـا خَـالِقَ الـوَرَى
عَلَيْـكَ إِتِّكَـالِيْ أَنْتَ لِلْخَلْقِ مَهْـرَبُ
وَصَـلِّي إِلَـهِـيْ كُـلَّمَـا ذَرَّ شَـارِقٌ
عَلَى أَحْمَـدَ المُخْتَـارِ مَـا لَاحَ كَـوْكَبُ

اللهم انا نَعُوذُ بِكَ مِن الشَّكِ بَعْدَ اليَقِيْنِ ، وَمِن الشَّيْطَانِ الرجيم ، ومِن شَدَائِدِ يَوْم الدِيْن ، وَنَسْأَلكَ رِضَاكَ والجَنَّةَ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن سَخطِكَ وَالنَّارِ ، اللهم ارْحَمْنَا إذا عَرِقَ الجَبِيْنُ واشْتَدَّ الكَرْبُ والأَنِيْنُ ، واغفر لنا ولوالدينَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِين الأَحياء منهم والمَيتين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِه أجمعين .

لَيْلَةُ القَدْرِ
فَضَائِلُهَا وَعَلاَمَاتُهَا

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ مُتَحَرِّيَاً فَلْيَتَحَرَّهَا لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِين ـ أو قال ـ : تَحَرَّوْهَا لَيلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِين ، يَعني لَيْلَةَ القَدْرِ . رواه أحمد باسناد صحيح .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أَنَّ رَجُلاً أَتَى نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فقال : « يا نَبِيَ اللهِ ، إني شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلِيْلٌ يَشُقُّ عليّ القيامُ فَأمُرْني بِلَيلةٍ لَعَلَّ الاهَ يُوَفِقُنِي فِيهَا لِلَيْلَةِ القَدْرِ ، فقال : « عَلَيْكَ بالسابِعَةِ » رواه أحمد .

وعن زِرّ بن حُبَيْشٍ قال : سَمِعْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ يَقُولُ : وقِيلَ لَه ان عَبد اللهِ بنَ مَسْعُودٍ ـ رَضِي الله عنه ـ يقولُ : مَن قَامَ السَّنَةَ أصابَ ليلة القَدر ، فقال أُبَيّ : واللهِ الذي لا إلهَ إلا هُو إنَّهَا لَفِيْ رَمَضَانَ يَحْلفُ مَا يَسْتَثْنِي ، والله إني لأَعْلَمُ أيَّ لَيْلَةٍ هِيَ ، هِيَ اللَّيْلَةُ التي أَمَرَنا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِقِيَامِها هِيَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشرِينَ ، وأمارَتُها أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ في صَبِيْحَةِ يَوْمِهَا لا شُعَاعَ لها . رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي وصححه .

وَرَوَى البُخَارِيُ عن أَبِي سَعِيْدٍ ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ قال : اعتَكَفْنَا مَعَ النبيِ صلى اللهُ عليه وسلم العَشْرَ الأَوْسَطَ مِن رَمضانَ ، فَخَرَجَ صَبِيْحَةَ عِشْرِيْنَ فَخَطَبَنَا وَقَال : « إني رَأَيتُ لَيْلَةَ القَدْرِ ثم أنسِيْتُهَا أَوْ نَسِيْتُهَا ، فالتَمسُوْهَا في العَشْرِ الأَوَاخِرِ في الوِتْرِ ، إني رَأَيْتُ أَنِّي أَسْجُدُ في مَاءٍ

وَطِيْنٍ فَمَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَلْيَرْجِعْ » فَرَجَعْنَا وما نَرَى في السَّماءِ قَزَعَةً ، فَجاءَتْ سَحَابَةٌ فَمَطَرَتْ حتى سَالَ سَقْفُ المَسْجِدِ ـ وكانَ مِن جَرِيْدِ النَّخْلِ ـ وأُقِيْمَتِ الصَّلاةُ فَرَأَيْتُ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَسْجُدُ في المَاءِ والطِّيْنِ ، حَتَى رَأيتُ أثَرَ الطِّيْنِ في جَبْهَتِهِ .

وعن عَبدِ اللهِ بن أُنَيْس : أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم قال : « رَأَيْتُ لَيْلَةَ القدرِ ثُم أُنْسِيْتُهَا وإذا بِي أَسْجُدُ صَبِيْحَتَهَا في مَاءٍ وطِيْنٍ » . قال : فَمُطِرْنا في لَيْلَةِ ثلاثٍ وَعِشْرِيْنَ فصلَى بنا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وانصرفَ ، وانَّ أثَرَ الماءِ والطِّيْنِ عَلَى جَبْهَتِهِ وأنْفِهِ . رواه أحمد ومسلم وزاد .

وعن أبي بكرةَ : أنه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُول : « التَمِسُوْهَا في تِسْعٍ بَقِيْنَ ، أو سَبْعٍ بَقِيْنَ ، أو خَمْسٍ بَقِيْنَ ، أو ثلاثٍ بَقِيْنَ أَوْ آخرَ ليلةٍ » . قال : وكان أَبُو بَكْرَةَ يُصَلِي في العِشْرِيْنَ مِن رَمَضَانَ صَلَاتَهُ في سائِرِ السَّنَةِ فاذا دَخَلَ العَشْرُ اجْتَهد . رواه أحمد ، والترمذي وصححه .

وعن أبي نَضْرَةَ عن أبي سعيدٍ في حديث لَهُ : أَنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم خَرَجَ على الناس فَقال : « يا أَيُّها الناسُ . إنها كانَتْ أُبِيْنت لي ليلةُ القَدْرِ ، وَإني خَرَجْتُ لِأُخبِرَكُم بِهَا فَجاءَ رَجُلَانِ يَحْتَقَّانِ مَعَهُما الشَّيْطَانُ فَنَسِيْتُها ، فالتَمِسُوْهَا في العشرِ الأواخِرِ مِن رَمَضَانَ ، التَمِسُوْهَا في التَّاسِعَةِ والخَامِسَةِ والسَابِعةِ » . قال : قُلْتُ يَا أَبَا سَعِيْدٍ : إنكم أَعْلَمُ بِالعَدَدِ مِنَّا ، فقال : أَجَل ! نَحْنُ أَحَقُ بِذَلِكَ مِنكم ، قالَ : قُلتُ : ما

التاسعةُ والسابعةُ والخامسةُ ؟ قال : إذا مَضَتْ وَاحِدَةٌ وَعِشْرُوْنَ فالتي تَلِيْهَا اثْنَانِ وَعِشْرُوْنَ فَهِيَ التَّاسِعَةُ ، فإذا مَضَتْ ثَلاثٌ وَعِشْرُوْنَ فالتي تَلِيْهَا السابعةُ ، فاذا مَضَتْ خَمْسٌ وَعِشْرُوْنَ فالَّتِي تَلِيْهَا الخامسةُ . رواه أحمد ، ومسلم .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ النبيَ صلى اللهُ عليهِ وسلم قال : « التَمِسُوْهَا في العَشْرِ الأَواخِرِ مِن رَمَضَانَ لَيْلَةَ القَدْرِ في تاسِعَةٍ تَبْقَى ، في سَابِعَةٍ تَبْقَى ، في خَامِسَةٍ تَبْقَى » . رواه أحمد ، والبخاري ، وأبو داود .

وفي رواية : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هِي في العَشْرِ الأخِيرِ سَبْعٌ يَمْضِيْنَ أو تِسْعٌ يَبْقِيْنَ ، يَعْنِي لَيْلَةَ القَدْرِ رواه البخاري .

وعن ابن عُمَرَ ـ رضي اللهُ عنهما ـ أَنَّ رِجَالاً مِن أَصْحَابِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم أُرُوْا لَيْلَةَ القَدْرِ في المنامِ في السَّبْعِ الأَواخِرِ ، فقال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَرَى رُؤْيَاكمْ قَدْ تَواطَأَتْ في السَّبْعِ الأَوَاخِرِ ، فَمَنْ كانَ مُتَحَرِّياً فَلْيَتَحَرَّهَا في السَّبْعِ الأَوَاخِرِ » .

وَلِمُسْلِمٍ قال : أُرِيَ رَجُلٌ أَنَّ لَيْلَةَ القَدْرِ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِيْنَ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَرَى رُؤْيَاكُم قد تَوَاطَأَتْ في العَشْرِ الأَواخِرِ فاطْلُبُوهَا في الوِتْرِ مِنها » .

وعن عائشة ـ رضي اللهُ عنها ـ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم قال : « تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأَواخِرِ مِن رمضان » رواه مسلم والبخاري .

وعن عُبَادَةَ بْن الصَّامِتِ ـ رَضي اللهُ عنه ـ قال : خَرجَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ القدْرِ فتَلاحَى رَجُلاَنِ مِن المُسْلِمِيْنَ ، فقال : « خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ فتَلاحَى فلانٌ وَفُلانٌ فرُفِعَتْ وَعَسَى أن يَكونَ خَيْراً لَكُم فالتَمِسُوْهَا في التَّاسِعَةِ والسَّابِعَةِ والخامِسَةِ » رواه البخاري .

وَعن عبدِ الله بن أُنَيْسٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قُلْتُ يا رسولَ اللهِ ، إنَّ لِيْ بَاديةً أَكُونُ فيها وأنا أُصَلِي فيها بِحَمْدِ اللهِ ، فَمُرْنِي بِليلةٍ أَنْزِلُها إلى هَذا المَسْجِدِ فقال : « انْزِلْ ثلاثٍ وَعشرِين » رواه أبو داود .

قِيْلَ لابْنِهِ : كَيْفَ كَانَ أَبُوكَ يَصْنَعُ ؟ قال : كَانَ يَدْخُلُ المَسْجِدَ إذا صَلَّى العَصْرَ فلا يَخْرُجُ مِنْهُ إلَّا لِحَاجَةٍ حَتَّى يُصَلِّي الصُبْحَ ، فإذا صَلَّى الصُّبْحَ ، وَجَدَ دابَتَهُ على بابِ المَسْجِدِ ، فَجلَسَ عليها وَلَحِقَ بِبادِيَتِهِ .

قال البَغَوِيُ : وفي الجُمْلَةِ أَبْهَمَ اللهُ هذِهِ اللَّيْلَةَ على هذِهِ الأُمَّةِ لِيَجْتَهِدُوا بِالعِبَادَة في لَيَالِي رَمَضَانَ طَمَعاً في إدْرَاكِهَا ، كَمَا أَخْفَى سَاعَةَ الإجَابَةِ في يَومِ الجُمُعَةِ ، وأَخْفَى الصَّلاةَ الوُسْطَى في الصلواتِ الخَمْسِ ، واسْمَهُ الأَعْظَمَ في الأَسْمَاءِ ، وَرِضَاهُ في الطاعاتِ لِيَرْغَبُوا في جَمِيْعِهَا وَسَخَطَهُ في المَعَاصِي لِيَنْتَهُوْا عن جَمِيْعِهَا ، وأَخْفَى قِيَامَ الساعةِ لِيَجْتَهِدُوا في الطاعاتِ حَذَراً مِن قِيامِهَا .

إذا تَقَرَّرَ هَذَا وَعَلِمْتَ مَا وَرَدَ مِن الحَثِ عَلَيْهَا ، فاعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِ مُوَفَّقٍ مُرِيْدٍ لِلْكَمَالِ والسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ أَنْ يَبْذِلَ وُسْعَهُ وَيَسْتَفْرِغَ جُهْدَهُ في إحْيَاءِ لَيَالِيْ العَشْرِ الأَخِيْرِ وَقِيَامِهَا لَعَلَّهُ أَنْ يُصادِفَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الجَلِيْلَةَ

التي اخْتَصَّ اللهُ تعالى بِهَا هَذِه الأُمَّةَ ، وآتاهُمْ فِيها مِن الفَضْلِ ما لا يَحْصُرُهُ العَدَدُ .

فيا عِبَادَ اللهِ إنَّ هَذَا عَشْرُ . شَهْرٍ . مُبَارَكِ اللَّيالِي والأَيَّامِ وَهُوَ سَبَبٌ لِمَحْوِ الذُّنُوبِ والآثامِ ، وفيه يَتوفَّرُ جَزِيْلُ الشُّكْرِ والانْعَامِ ، فاعْتَذِرُوْا فيه إلى المَوْلَى الكَرِيْمِ ، وأَقْبَلُوا بِقُلُوْبِكُمْ إليهِ وَقِفُوا بالخُضُوعِ لَـدَيْهِ ، وانْكَسِرُوا بينَ يَدَيْهِ فإنه رَحِيْم كريم .

عِبَادَ اللهِ : إنَّكُمْ الآنَ في رَمَضَانَ ، وَهُوَ وَحْدَهُ عُمُرٌ طَوِيْلٌ لِمَنْ رَامَ الثوابَ الجَزيلَ ، فإن في لَيَالِيْهِ لَيْلَةً واحدةً خيراً من ألفِ شَهْرٍ ، قال الله تعالى : ﴿ لَيلةُ القَدْرِ خَيْـرٌ مِن ألفِ شَهْر ﴾ فـاجْتَهِدُوا رَحِمَكُم اللهُ باخلاصِ الاعمالِ لِلّهِ جَلَّ وَعَلاَ وَبَادِرُوْا بالتوبَةِ والاستغفارِ والابتهالِ إلى ذِي الجلالِ والإكرامِ .

واعْلَمُوْا رَحِمَكُم اللهُ أَنَّ المَوْتَى في قُبُورِهِم يَتَحَسَّرُوْنَ على زِيَادَةٍ في أَعْمَالِهِم بِتَسْبِيْحَةٍ أَو تَحْمِيْدَةٍ أَوْ رَكْعَةٍ ، رُئِيَ بَعْضُهُمْ في المنامِ فقال : ما عِنْدَنا أَكْثَرَ مِن الندامةِ ، وما عندكُم أَكْثَرَ مِن الغَفْلَةِ ، وَرُئِيَ بَعْضُهُم فقال : قَدِمْنَا على أَمْرٍ عَظِيْمٍ نَعْلَمْ وَلاَ نَعْمَل ، وأنتم تَعْلَمُونَ ولا تَعْمَلُون واللهِ لَتَسْبِيْحَةٌ أو تَسْبِيْحَتَانِ ، أَوْ رَكْعَةٌ أو رَكْعَتَانِ في صَحِيْفَةِ أَحَدِنا خَيْرٌ مِنَ الدنيا وما فِيها .

وفي الترمذي : مَا مِن مَيِّتٍ يَمُوْتُ إلَّا نَدِمَ ، إنْ كانَ مُحْسِناً نَدِمَ أن لا يكونَ ازْدَادَ ، وان كان مُسِيْئاً نَدِمَ أن لا يَكونَ اسْتَعْتَبَ .

قال الشاعر :

تَـذَكَّـرْ ولا تَنْسَ المَعَـادَ وَلَا تَكُـنْ
كـأَنَّـكَ مُخْلىً لِلْمَـلاعِبِ مُـمْـرَجُ
ولا تَنْسَ إِذْ أَنْتَ المُـوَلْـوَلُ حَـوْلَـهُ
وَنَفْسُـكَ مِن بَيْنِ الجَـوَانِـحِ تَخْـرُجُ
وَلَا تنسَ إذ أَنْتَ الـمُسَـجَّى بِثَـوْبِـهِ
وإِذْ أَنْتَ في كَرْبِ السِّيَاقِ تُحَشْـرِجُ
ولا تَنْسَ إِذْ أَنْتَ الـمُعَـزَّى قَـرِيْبُـهُ
وإِذْ أَنْتَ في بِيْضٍ مِن الـرَّيْطِ مُدْرَجُ
ولا تَنْسَ إذ يَهْدِيكَ قَـوْمٌ إلى الثَّـرَى
إِذا مَـا هَدَوْكَـاهُ انْثَنَوْا لم يُعَـرِّجُـوْا
ولا تَـنْسَ إِذْ قَـبْـرٌ وإِذْ مِـن تُـرَابِـهِ
عَـلَيْـكَ بِـهِ رَدْمٌ وَلِـبْـنٌ مُـشَـرَّجُ
ولا تَنْسَ إِذْ تُكْسَى غَـداً مِنْهُ وَحْشَـةً
مَـجَـالِسُ فِيهِنَّ الـعَنَـاكِبُ تَنْسِـجُ
ولا بُــدَّ مِن بَيْـتِ انقـطاعٍ وَوَحْـدَةٍ
وانْ سَـرَّكَ البَيْتُ العَتِيْقُ المُـدَبَّـجُ
أَلا رُبَّ ذِيْ طِمْـرٍ غَـداً في كَـرَامَةٍ
وَمَـلْكٍ بِتِـيْجَـانِ الـهَـوَانِ مُتَـوَّجُ
لَعَمْـرُكَ مَا الـدُّنْيَـا بِـدَارِ إِقَـامَـةٍ
وإِنْ زَخْـرَفَ الغَـاوُوْنَ فِيْهَـا وَزَبْـرَجُـوا

★ ★ ★

اللهم يا مَن خلق الانسانَ وَبَنَاه واللّسَانَ وأَجْرَاهُ ، يا مَنْ لا يُخَيِّبُ مَن دَعَاهُ ، هَبْ لِكُلٍّ مِنَّا مَا رَجاهُ ، وَبَلِّغْهُ مِن الدَّارَيْنِ مُنَاهُ ، اللهم اغفر لنا جميعَ الزلات ، واستر علينا كلَّ الخطيئاتِ وسامِحْنَا يَوْمَ السُؤالِ والمُنَاقَشَات ، وانفعْنَا وَجَمِيْعَ المُسْلِمِينَ بما أَنْزَلْتَهُ مِن الكلمات يا أَرْحَمَ الراحمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

★ ★ ★

فصل في ذِكْرِ بَعْضِ الأَدْعِيَةِ الوَارِدَةِ :

عِبَادَ اللهِ ، اغْتَنِمُوا هَذِهِ الأَوْقَاتِ وَأَكْثِرُوْا مِن الدُعَاءِ والتَّضَرُعِ إلى عَالِمِ السِّرِ والخَفِيَّاتِ، قال تعالى : ﴿ ادْعُوني أستجبْ لكم ﴾ وقال سبحانه :﴿ واذا سَأَلكَ عِبَادِي عَنِيْ فإني قريبٌ أجيبُ دَعوةَ الداعِ إذا دَعَانِ ﴾ فأخبرَ جلَّ وَعَلا أنه سَميعٌ لِلأقوالِ خبيرٌ بأَحْوالِ العِبَادِ ، فيجيبُ دَعوةَ الداعِيْنَ وَيُجَازِيْهم بأعمالِهم ، فَفِي هَذَا حَثٌ لهُم على الدُعَاءِ ، فَمَنْ دَعا رَبَّهُ بِقَلْبٍ حاضِرٍ وَدُعَاءٍ مُشْرُوْعٍ ، ولم يَمْنَعْ مِن الإِجَابَةِ لِلدُّعَاءِ مَانِعٌ كَأَكْلِ الحَرَامِ وَنَحْوِهِ ، فإِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَ بالاجابةِ ، وَخُصُوْصاً إذا أَتى بأَسْبَابِ الإجابَةِ لِلدُعَاءِ ، وهِيَ الاستجابةُ للهِ تعالى : بـالانقيادِ لِأوامِرِهِ ، والإنتهاءِ عن ما نَهَى عنه .

فعليكُم عِبَادَ اللهِ بالاجتهادِ بالدعاءِ ، وعليكُم بِجَوامِعِ الدُّعَاءِ التي تَجْمَعُ خيرَ الدنيا والآخرةِ ، وفي الصحيحين : « كان أَكْثَرُ دُعَاءِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم : اللهم آتِنَا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

وَمِن دعائِهِ صلى الله عليه وسلم إذا سَافَرَ : « أنه كانَ يَتَعَوَّذُ مِن وَعْثَاءِ السَّفرِ وكآبةِ المَنْظَرِ ، والحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ ، وَدَعْوَةِ المَظْلُومِ ، وَسَوءِ المَنْظِرِ في الأَهْلِ والمال » رواه مسلم .

وَمِن مَا وَرَدَ عن أبي بكرةَ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم دَعَوَاتُ المَكْرُوْبِ « اللهم رَحْمَتَكَ أَرْجُو فلا تَكِلْنِيْ إلى نَفْسِي طرفةَ عَيْنٍ وأصلِحْ لِيْ شَأنِي كلَّهُ لا إلهَ إلَّا أَنْتَ . رواه أبو داود وعن أبي سَعِيد الخُدْري قال : قال رَجُلٌ لَزِمَتْنِيْ هُمُوْمٌ وَدُيُوْنٌ يا رسولَ اللهِ ، قال : أفلا أعَلِّمُكَ كَلاماً إذا قُلْتَهُ أذهَبَ اللهُ هَمَّكَ وَقَضى عَنْكَ دَيْنَكَ قال : قُلْتُ : بَلَى ، قَال : « قُلْ إذا أَصْبَحْتَ وإذا أَمْسَيْتَ اللَّهُم إني أَعُوْذُ بِكَ مِن الهَمِّ والحَزَنِ ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِن العَجْزِ والكَسَلِ ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِن البُخْلِ والجُبْنِ وأَعُوْذُ بِكَ مِن غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجالِ » قال : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فأذهبَ هَمِّي وَقَضى عَنِّيْ دَيْنِيْ ، رواه أبو داود .

وَمِن دُعَائِهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « اللهم إني أَسْأَلُكَ الهُدَى والتُّقَى والعَفَافَ والغِنَى ، اللهم اغفر لِي وارحمني واهـدني وعافني وارزقني ، اللهم إني أعوذُ بِكَ مِن زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عافِيَتِكَ وَفَجْاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَميعِ سَخَطِكَ ، اللهم إنَي أَعُوْذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعْ وَمِن قَلْبٍ لَا يَخْشَعْ وَمِن نَفْسٍ لَا تَشْبَعْ وَمِن دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَها » .

وقالت أُمُّ سَلَمَةَ ـ رضي اللهُ عنها ـ : « كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النبي صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلّمْ يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِيْنِكْ » .

وَمِنْ دُعَائِه صلى اللهُ عليه وسلمْ : « اللّهُمّ إنّي أَسْأَلُكَ الجَنّةَ وَمَا

قَرّبَ اليْهَا مِنْ قولٍ وَعَملْ ، وأعوذُ بكَ من النّارِ وَمَا قَرّبَ اليْهَا من قولٍ وَعَملْ ، وأسْأَلُكَ من الخَيْرَ كُلَّه عاجِلِهِ وآجِلِهِ ما عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَم أَعْلَمْ ، وأعوذُ بِكَ مِن الشّرِّ كُلِّهِ عاجِلِهِ وآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَم أَعْلَمْ » .

وَقَالَ صَلّى اللهُ عليهِ وسلمْ : « تَعَوّذُوا بِاللّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلاءِ وَدَرَكِ الشّقَاءِ وَسُوءِ القَضَاءِ وَشَمَاتَةِ الأعداءِ » .

وَمِن دُعَائِهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمْ : « اللّهُمّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكّها أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكّاهَا أَنْتَ وَلِيُّها وَمَوْلاَهَا » .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَنْ ابْنُ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلّم . كَانَ يَقُولْ : « اللّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكّلْتُ وإلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ ، اللّهُمْ إنّي أَعُوذُ بِعزّتِكَ لاَ إلهَ إلاّ أَنْت أَنْ تُضِلّنِي أَنْتَ الْحيّ الّذي لا يَمُوتْ والْجِنُّ والإنْسُ يَمُوتُونْ » .

وَمِنْ دُعَائِهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلمْ : « اللّهُمْ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالقِلّةِ والذّلّةِ ، وأَعُوذُ بِكَ مِن أنْ اَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمْ » .

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « كانَ رَسولُ اللّهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمْ يَتَعوّذُ مِنْ خَمْس : مِن الْجُبْن ، والْبُخْلِ ، وَسُوءِ العُمُرْ ، وَفِتْنَةِ الصّدْرِ وَعَذابِ الْقَبْرِ » رواهُ أبو داودَ والنّسَائِي .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَةِ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ رسولَ الله صلى اللّه عليهِ وسَلّم كانَ يقولُ : « اللّهُمّ إنّي أعوذُ بِكَ مِن الشّقاقِ والنِّفاقِ وَسُوْءِ الأَخْلاَقِ » رواهُ أبو دَاودْ .

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللّه صلى اللّه عليهِ وَسَلَّمَ كانَ يقولُ : « اللّهم إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُوعِ فإنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيْع وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فإنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةْ » رَواهُ أبو داودَ ، والنَّسائِي وابْن مَاجَهْ .

وَعَن أنس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أنّ رَسولَ الله صلى اللّه عليهِ وسَلَمَ كان يقولُ : « اللَّهمّ إنّي أعُوْذُ بِكَ مِن الْبَـرَصِ والْجُذَامِ والْجُنونِ ومِنَ سَيِّءِ الأَسْقَامِ » رواهُ أبو داودَ والنَّسائِي .

وَعَنْ قُطْبَةَ بْنُ مَالِكٍ - رَضِيَ اللّهُ تَعالَى عَنْهُ - قَالْ : كَانَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وَسلمَ يَقُولْ : « اللّهمّ إنّي أعوذُ بِكَ مِن مُنْكَرَاتِ الأَخْلاَقِ والأَعْمَالِ والأهواءِ والأدواء » رواه الترمذي .

وَعَنْ شُتَيْرِ بْنِ شكل بن حُمَيْدٍ عَن أبيهِ قالْ : قُلْتُ : يا نَبِيّ اللّهْ ، عَلّمْنِي تَعْوِيذاً أتَعَوّذُ بِهِ قَالْ : « قُلْ اللَّهُمّ انّي أعوذُ بِكَ مِن شَرّ سَمْعِي وَشَـرِّ بَصَرِي وَشَـرِّ لِسَانِي وَشَـرِّ قَلْبِي وَشَـرِّ عَيْني » رواهُ أبـو داودَ ، والترمذي ، والنّسائِي .

وَعَنْ أبِي اليُسْرِ أنّ رَسولَ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ كَانَ يَدْعُو : « اللهمّ إنّي أَعوذُ بِكَ مِن الْهَدْم ، وأعوذُ بكَ مِن التَّرَدّي وَمِنَ الْغَرَقِ والْحَرَقِ والْهَرَمْ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن أنْ يَتَخَبّطَنِي الشَّيْطانُ عِنْدَ الموتِ ، وأعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أموتَ في سَبِيْلَك مُدْبِراً وأعوذُ بِكَ مِنْ أنْ أمُوتَ لِديْغا » رواهُ أبو داودَ والنِّسائِيْ .

وَمِنْ دُعائِهِ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلّمْ : « اللّهُمّ اغْفِرْ لي خَطِيْئَتِي وَجهْلِي واسْرَافِي في أمْرِي وَمَا أنْتَ أعْلَمُ بِهِ مِنّيْ ، اللهمّ اغْفِرْ لِي جِدّي

وَهَزْلِي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي اللَّهمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وما أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أنتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وأَنْتَ المْؤَخِّرُ وأنتَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ » مُتَّفَقٌ عليهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا عَلَّمَهُ صَلى اللّهُ عليهِ وَسَلَّمَ الصّدِيْقَ قَالَ لَهْ : « قُلْ اللّهمّ إِنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمَاً كثيراً وَلَا يَغْفِرُ الذُنُوبَ إلَا أَنْتَ فاغفِرْ لِي مغفرةً منْ عِنْدِكَ وارْحَمني إِنَّكَ أنتَ الغفورُ الرحيمْ » متفق عليه .

وَعَنْ أنسٍ ـ رضي الله عَنْهُ ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قَالْ : « إلْظوا بِيَاذَا الجلالِ والاكرامْ » أيْ الزَمُوا هذِهِ وَأَلِحُّوا بِها وَدَاوِمُوا عَلَيْهَا .

وَعَنْ عائشةَ قالتْ : كَانَ النبيُّ صلى اللهُ عليـهِ وَسَلَّمَ يقولُ : « اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِن الكسلِ والهَرَمِ والمغْرَمِ والمأْثَمِ اللهمَّ إني أعوذُ بِكَ من عَذَابِ النارِ وَفِتْنَةِ النارِ وَفِتْنَةِ القَبْرِ وَعَذابِ القَبْرِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الغِنَى وَمِنْ شَرِّ فِتنةِ الفقْرِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المسيحِ الدَّجَالِ اللهمَّ أغْسِلْ خَطَايَايَ بِمَاءِ الثلْجِ والْبَرَدِ وَنَقِّ قَلْبِي كَمَا يُنَقَّى الثوبُ الأَبيضُ مِن الدّنَسْ وباعدْ بيْنِي وَبَينَ خَطَايَايَ كَمَا باعدتَّ بينَ المشرقِ والمغربْ متفق عليهْ .

وَعَنْ عبدِ اللهِ بْن يَزِيدِ الخَطْمِي عَنْ رَسُولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم أنَهُ كان يَقولُ في دُعَائِه اللهمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّه عِنْدَكَ اللهمَّ ما رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فاجْعَلْهُ قُوةً لِيَ فِيما تُحِبّ اللهمَّ ما زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فاجْعَلْهُ فَرَاغاً فِيْمَا تُحِبُّ رواهُ الترِّمِذِي .

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قالْ : قَالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلمْ كانَ مِنْ دُعَاءِ داودَ يَقولُ اللهمَّ إنِّي أسْأَلُكَ حُبَّكْ وَحُبَّ مَنْ يُحبُّكْ والعْمَلُ الذي يُبَلِّغْني حُبُّكَ اللهُّم اجْعَلْ حُبَّكَ أحبَّ إليَّ مِنْ نَفْسِي وَمَالِي وأَهْلِي وَمِنَ الماءِ البارِدِ الحديثْ رواهُ الترمذي وعنْ أمِّ مَعْبَدٍ قالتْ سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : اللّهم طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفاقِ وَعَملِي مِن الرِّيَاءِ وَلِسَاني مِنَ الكَذِبِ وَعَيْنِي مِن الخِيَانَةِ فَإنَّكَ تَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْينِ وَمَا تُخْفِي الصُّدورْ ﴾ رواه البَيْهَقِي في الدَّعواتِ الكبير .

وَعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ عَمْرو قالْ : كانَ رسولُ اللهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم يقولْ : (اللهمَّ إنِّي أسْأَلُك الصِّحَةَ والْعِفَّةَ والأمانَةَ وَحُسْنَ الخُلقْ والرِّضَى بالقَدَرْ) رواهُ البيهقِي في الدَّعواتِ الكبيرْ .

اللهمَّ ظَلَمْنا أنفُسَنَا فأغفرْ لنا ذنوبَنَا وَهَبْ لَنا تقْواكْ واهْدِنا بِهُدَاكْ ولا تَكِلَنا إلى أحدٍ سِوَاكْ واجعلْ لَنَا مِن كُلِّ همٍّ فَرجَا ، وَمِن كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجَا اللهم اعذْنَا بِمَعافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَبِرِضَاكَ مِنْ سَخْطِكَ واحْفَظ جَوارِحَنَا مِن مُخَالَفَة أمْرِك واغْفِرْ لنَا وَلِوالِدَيْنا وَلِجميع المسلمينَ الأحياءِ منهم والمَيتين بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمين وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحبِهِ أجمعين .

مَــوْعِظَــة

عِبادَ اللَّه إن النّاسَ في هَذا الزَّمَنْ لَمْ يَعرِفُوا رَبَّهُمْ المَعْرِفَةَ التي تَلِيْقُ بِجلاَلِهِ وَعَظَمَتِه وَلَو عَرَفُوه حَقَّ المَعْرِفَةَ لَمْ يَكُونُوا بِهَذِهِ الحَال لأنّهُ من كَانْ باللَّهِ أَعْرَفْ كَانَ مِنْهُ أَخْوفْ إِنَّ العارِفَ باللهِ يَخْشَاهُ فَتَعْقِلُهُ هَذه

الخَشْيَةَ بإِذْنِ اللهِ عَمَّا لا يَنْبَغِي مِن الأقوالِ والأفْعالِ قالَ اللَّهُ تَعالى :
﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلُمَاءُ ﴾ .

العارِفُ بِاللّهِ لَا يَجْرؤُ أنْ يُحَرّكَ لِسانَهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ المُنْكَرَاتِ أَفْعَالٍ أوْ أقوالٍ كالغيبةِ والنّمِيمَةِ والكذبِ والقَذفِ والْفِسْقِ والسُّخْرِيَةِ والاسْتِهْزاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَلا يَسْتَعْمِلُ عُضْواً مِنْ أعْضَائِهِ في عَمَلٍ لَيْسَ بِحَلالٍ بَلْ يَكُفُّ بَصرَهُ وَسَمْعَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ عَن المُحَرمَّاتْ لأَنَّهُ يؤمِنُ حَقَّ الايمانِ بأنَّ اللّهَ جَلّ وَعَلا مَهمَا تَخَفّى وَتَستَّرَ العَبْدُ عَنْهُ فإِنّهُ يَراهْ .

والعارِفُ باللّهِ لا يَنْطَوي عَلى رَذِيْلَةٍ كالْكِبْرِ والْحِقْدِ والْحَسَدِ وَسُوءِ الظّنِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرّذَائِلِ الممْقُوتاتِ لأَنَّهُ يُصَدِّقُ أنّ اللهَ لا يَخْفى عَلَيهِ شيء في الأَرْضِ وَلَا في السّمَاءِ وأَنّهُ يَعْلَمُ مَا تُكِنّهُ الصّدورُ ، كَمَا يَعْلَمُ العلانِيَة ، فَلَا يَسْتريحُ العارِفُ حَتّى يَكُونَ باطِنُهُ كَظَاهِرِهِ مُطَهّراً مِنْ كُلِّ فَحْشَاءٍ وكذلك لا تَسْمَعُ مِنْ فَمِ العارِفِ عِنْدَ نُزُولِ المصَائِبِ والْبَلايَا وَالشّدَائِدِ إلَّا الْحَسَنَ الجميلَ فَلَا يَغْضَبُ لِمَوْتِ عزيزٍ أَوْ فَقْدِ مَالٍ أَو مَرَضٍ شَدِيْدٍ طَوِيْلٍ لِأَنّهُ يَعْلَمُ أَنْ غَضَبَهُ وَتَسَخُّطُهُ يُفَوّتُ عَلَيهِ أَجْرَهُ وَلَا يَرُدُّ مَا فَاتَ كَمَا قِيْلْ :

لا تَـلْقَ دَهْـرَكَ إلَّا غَـيْـرَ مُـكْـتَـرِثٍ
مَـا دَامَ يَصْحَبُ فيـهِ رُوْحَـكَ الْـبَـدَنُ
فَـمَـا يَـدُومُ سُـرورٌ مَـا سُـرِرْتَ بِـهِ
وَلَا يَـرُدُّ عَـلَيْـكَ الـفَـائِـتَ الْـحَـزَنُ

وَلَا يَيْأَسُ العَارِفُ مِنْ زَوالِ شِدّةٍ مَهْمَا اسْتَحْكَمَتْ فَإِنَّ الْفَرَجَ بِيَدِ

اللّهِ الّذِي قَالَ وَقَوْلُهُ الحَقْ إِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا وَلَا يَيْأسُ مِن حُصُولِ خيرٍ مَهمَا سَمَا وابْتَعَدَ لِأَنَهُ يُؤْمِنُ أَنَّ الأَمْرَ بِيَدِ مَنْ إذا أرادَ شَيْئاً قالَ لَهُ كُنْ فَكَانْ وإن بَدَا مُحَالاً في نَظَرِ الجُهلَاءِ وَلا يَقْنطُ الْعَارِفُ وَلَا يُقَنِّطُ مُؤْمِناً مِنْ رَحْمَةِ اللهِ الّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ وانْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ والرِّمالِ وَلَا يُؤَمِّنُ الْعارِفُ مُسْتَقِيْماً مِنَ الْعَذَابِ مَهْمَا كَانَ العَمَلُ مِنَ الصَّالحاتْ لأَنّهُ يُصَدّق أنَهُ يَغْفِرُ الذّنُوب جَميعاً وأنّهُ لَهُ الْحُجّةُ الْبَالِغَةُ وأَنَّ القُلوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِن أصَابِعِهِ جَلّ وَعَلَا فَلَا تَغْفل عَنْ ذَلِكَ وإِنْ أَهْمَلَهُ الكثيرُ مِنَ النَاسِ .

★ ★ ★

اللّهُمّ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا فاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَهَبْ لَنَا تَقْوَاكَ وَاهْدِنَا بِهُدَاكْ وَلَا تَكِلْنَا إِلى أَحدٍ سِواكَ واجْعَلْ لَنَا مِن كُلِّ هَمٍ فَرَجَا ، وَمِنْ كُلٍّ ضِيْقٍ مَخْرَجا اللَّهُمّ اعِذْنَا بِمُعَافَاتِك مِنْ عُقُوبَتِكَ وَبِرِضَاكَ مِنْ سَخطِكَ واحْفَظْ جَوارِحَنَا مِنَ مُخَالَفَةِ أمرِكْ واغفرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَميعِ المسلمينَ الأَحْيآءِ مِنْهُم والميتينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرّاحِمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبهِ أجمعينْ .

(فصل)

ويبحث في :

١ ـ زكاة الفطر وما وَرَدَ مِن الآثارِ في شَرْعِيَّتِهَا .

٢ ـ وَقْتُ وجُوبِهَا والأفْضَلِ مِنه .

٣ ـ الواجبُ في الفِطْرَةِ .

١ ـ زكاةُ الفِطرِ ومَا وَرَدَ مِن الآثارِ في شَرْعِيَّتِهَا :

زكاةُ الفِطرِ واجبةٌ بالفِطْرِ مِن رَمَضَانَ ، لِمَا رَوَى ابنُ عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ « أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فرضَ زكاةَ الفِطْرِ في رَمَضَانَ على الناسِ صاعاً مِن تَمْرٍ ، أو صاعاً مِن أَقِطٍ ، أو صَاعاً مِنْ شَعِيْرٍ عَلى كلِ حُرٍ وعَبْدٍ ذكَرٍ وأنثَى مِن المسلمين » متفق عليه .

وعنهُ : « أنَّ رسولَ اللَّه صلى اللهُ عليه وسلم أمَرَ بِزَكاةِ الفطرِ أنْ تُؤَدَّي قَبْلَ خُروجِ الناسِ إلى الصلاة » .

وعنْ أَبي سعيدِ الخُدْرِيْ : كُنّا نُخْرِّجُ زَكَاةَ الفِطْرِ صَاعاً مِنْ طَعام ، أو صَاعاً مِن تَمْرٍ ، أو صاعاً مِن أقِطٍ ، أو صاعاً مِن زَبِيبْ . متفق عليه .

قالَ سعيدُ بنُ المُسَيَّبْ ، وَعُمرُ بنُ عبدِ العزيز ـ رَحِمَهُمَا الله ـ في قولِه تعالى : ﴿ قد أفلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ هُوَ زكاةُ الْفِطْر .

وأُضِيفَتْ هذِه الزكاةُ إلى الفطرِ لِأَنَّها تَجِبُ بالفِطْرِ مِنْ رَمَضَان ، وهذِهِ يُرادُ بها الصدقةُ عن البدنِ والنفسِ ومَصْرَفُهَا كزكاةِ المالِ لِعُمُومْ : ﴿إنما الصدقاتُ للفقراء . . .﴾ الآية .

ولا يَمْنَعُ وُجُوبَهَا دَيْنٌ إلاّ مَعَ طَلَبْ ، وهِيَ واجبةٌ على كُلِّ حُرٍّ وعبدٍ ذكرٍ وأنْثى مِن المسلمين ، فَضُلَ لَهُ عَنْ قوتِهِ ، وَمَنْ تَلْزَمُهُ مؤُونَتُهْ يومَ العيدِ وَلَيْلَتِهِ صاعُ لانَّ النفقةَ أَهَمُّ فَيَجِبُ البَدَاءَةُ بِها ، لقولِه صلى اللهُ عليه وسلم : « إبْدأ بِنَفْسِكْ » رَواهُ مُسلمْ .

وفي رِوَايَة : (. . . . وابْدأ بِمَنْ تَعُولْ) رواه الترمذي .

ويُعْتَبَرُ كونُ ذلكَ الصاعُ فاضلاً عمَّا يَحْتَاجُهُ لِنَفْسِهْ ، وَمَنْ تَلْزَمُهُ مؤُونَتُهُ مِنْ مَسْكَنٍ وخَادِمٍ ودَابةٍ وثيابِ بذلَة ونحوِهِ ، وكُتُبٍ يَحْتَاجُهَا لِنظْرٍ لأَن هَذِهِ حَوائجُ أصليةٌ يَحْتَاجُ إليها كالنفقةِ ، وتَلْزَمُهُ عن نفسِهِ وعنْ من يَمُونُهُ مِن المسلمينْ كزوجةٍ وعبدٍ وولدٍ ، لِعُمُومِ حديثِ ابنِ عُمرَ ـ رضي الله عَنْهُمَا ـ « أمرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقةِ الفطرِ عن الصغيرِ والكبيرِ مِمَّنْ تَمُونُون » رواه الدّرَاقُطْنِي .

فانَ لَمْ يَجْدهُ لِجميعِهِمْ بدأ بِنَفْسِهْ ، فَزَوَجَتِهِ ، فَرَقيْقِهِ ، فأمّهِ ، فأبِيْهِ . فوَلَدِهِ ، فأقْرَبَ في مِيْراثٍ ، وَيُقْرعُ مَعَ الاسْتواءِ .

أمَّـا دَليلُ البدّاءة بـالنفسِ فِلحِدِيثْ « ابـدْأ بنفسكَ ، ثمَّ بِمنْ تَعُولُ » .

وأمَّا الزوجةُ فلوُجُوْبِ نَفَقَتِهَا في حَالَةِ اليُسْرِ والعُسْرِ لِأَنها على سَبِيْلِ المُعَاوَضَةِ .

وأما الرقيقُ فلوجُوْبِ نَفَقَتِهِ مَعَ الاعْسَارِ بخلافِ الأقارِبِ لِأَنَّها صِلةٌ تَجبُ مَعَ اليَسَارِ دُوْنَ الإعسَارِ .

وأما الأُمُّ فلقِولِه صلى اللهُ عليهِ وسلم لِلأَعرابِّي حِينَ قالَ لَهْ : « مَنْ أَبَرُّ ؟ قالَ أمَّكَ ، قَالَ ثُمَّ مَن آقالَ أمَّكَ ، قال ثمَّ مَنْ ؟ قال : أمكَ ، قالَ ثمَّ مَنْ ؟ قالَ : أبوكَ » ولِأَنَّهَا ضَعيفَةٌ عن الكَسْبِ .

وأمَا الأَبْ فلمَا سَبقْ وَحديثْ : « أَنْتَ ومالُكَ لأَبِيْكَ » .

وأما الوَلدُ فَلِقُرْبِهِ وَوُجُوبِ نَفَقَتِهِ في الجُمْلَةِ .

وأما الأقربُ في المِيْرَاثِ فلأنهُ أَوْلَىٰ مِن غَيرهِ كالمِيراث .

وَتُسْتَحَبُّ عن الجَنين لِفِعْلِ عُثْمَانَ ـ رضِيَ اللهُ عنهْ ـ وَعَنْ أَبي قِلَابَةَ قالْ : « يُعْجِبُهُمْ أنْ يُعْطُوا زكاةَ الفطرِ عن الصغيرِ وَالكبيرِ حَتَّى عنْ الحَملِ فـي بَطْنِ أمِهِ » رواهُ أبو بَكْرَ .

وَلَا تَجِبْ ، قالَ ابنُ المُنْذِر : « كل من نَحْفَظُ عنهُ لا يُوْجِبُها عن الجنينْ ، وتَجِبُ عَلَى اليتيم ، وَيُخرِجَ عنهُ وليهُ مِنْ مَالِهَ » .

ولَا يَلْزَمُ الزَوجَ فِطرةُ زَوْجَةٍ نَاشِزٍ وَقْتَ الوُجُوبِ ، وَلَا تَلْزَمُ الزوجَ فِطرةَ مَنْ لا تَلْزمهُ نفقَتُها ، كَغيرِ المدْخُولِ بِهـا إذا لمْ تُسَلَّمْ اليهِ ، والصغيرةِ التي لا يُمْكِنُ الاسْتِمْتَاعُ بِهَا .

وَمَنْ لَزِمَ غَيْرَهُ فِطرتُهُ كالزَّوجَةِ ، فأخرجَ عن نَفسِهِ بغيرِ إذنِ مَنْ وَجَبتْ عليه أَجْزأَ .

٢ ـ فصلُ في وقتِ وجوبِ صَدَقَةِ الفطرِ ، والأفضلُ مِنْه :

وَتَجِبُ زكاةُ الفِطر بغُرُوْبِ شَمْسِ لَيْلَةِ الفِطْرِ ، لِقَولِ ابنِ عباسٍ ـ رضي اللهُ عنهُمَا ـ « فرَض رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صَدَقَةَ الفِطْرِ طُهْرةً لِلصَّائمِ من اللَّغْوِ والرَّفَثِ ، وَطُعْمَةً لِلْمسَاكِين » . رواه أبو داود ، والحاكم وقالَ على شرطِ البخاريِ فأضافَ الصدقةَ إلى الفطرِ فكَانَتْ وَاجِبَةً بِهِ لانّ الإضَافَةَ تَقْتَضِيْ الاخْتِصَاصَ .

وأَوَّلُ فِطْرٍ يَقَعُ مِنْ جَمِيْعِ رَمَضانَ بِمَغِيب الشمْسِ مِن لَيْلَةِ الفِطْرِ ،

فَمْن أسْلَمَ بَعد الغرُوبْ ، أو تَزوَجَ بعدَ الغُروبِ ، فلا فِطرةَ وانْ وُجِدَ ذَلِكَ ، بأنْ أسلَمَ أو تَزَوَّجَ ، أو وُلِدَ له ولد ، أوْ مَلَكَ عبداً ، أوْ أيْسَر قَبْلَ الغُروبِ وَجَبَتِ الفِطْرَةُ لوُجُودِ السَّبَبِ فالاْعتِبَارُ بحَالِ الوُجُوْبِ .

وانْ مَاتَ قَبْلَ الغُروبِ هُوَ ، أوْ زَوْجَتَهِ ، أوْ رَقِيقُهُ ، أو قريبُه ونَحوُه ، أوْ أعْسَرَ ، أوْ أبانَ الزوجةَ ، أو أعتقَ العبدَ ، أوْ باعهُ أو وَهَبَهُ لم تَجِبِ الفِطْرَةُ لِمَا تَقَدَّمْ .

وَلاَ تَسْقُطُ الْفِطْرَةُ بَعْد وُجُوبِها بموتٍ وَلاَ غَيْرِه ، والأفضلُ إخْرَاجُهَا يومَ العيدِ قبْلَ الصلاةْ ، لِمَا في المتَّفَقِ عليهِ مِن حديث ابنِ عُمر ـ رضي اللهُ عنهما ـ مرفوعا ، وفي آخرِهْ : « وأَمَرَ بِهَا أنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُروْجِ الناسِ إلى الصَّلاةِ » .

وفي حديثِ ابن عباسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عنهما ـ « مَنْ أدَّاهَا قَبلَ الصلاةِ فَهِيَ زَكاةٌ مَقْبُوْلَةٌ ، ومَن أدَّاها بَعْدَ الصلاةِ فَهِيَ صَدقةٌ مِن الصَدَقاتِ » .

وتُكْرَهُ بَعْدَهَا خُرُوْجَا مِن الخِلافِ ، ولِقَولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم :

« أغْنُوْهُم عَنِ الطلبِ في هذا اليومِ » . رواه سعيدُ بنُ منصور .

فإذا أخَّرَهَا بَعَدَ الصلاةِ لم يَحْصُلِ الاغْنَاءِ لَهُم في هَذَا اليومِ كُلِّهِ .

ويَحْرُمُ تَأْخِيرُهَا عَن يَومِ العِيْدِ مَعَ القُدْرَةِ ، لِأَنَّهُ تَأْخِيرٌ لِلْحَقِّ الوَاجبِ عن وقْتِهِ ، وكان عليه الصَلاةُ والسَلاَمَ يَقْسِمُهَا بَيْنَ مُسْتَحِقِيْهَا بَعدَ الصَّلاةِ . فَدَلَّ على أَنَّ الأَمْرَ بتَقْدِيْمِهَا على الصلاةِ لِلاسْتِحْبَابِ .

وَيقْضِيْهَا مَن أَخَّرَهَا لأَنَّه حَقٌ مَالِيٌ وَجَبَ ، فلا يَسْقُطُ بفَواتِ وَقْتِهِ كالدَّيْنِ ، وتُجْزِي قَبْلَ العِيْدِ بيَوْمٍ أَوْ بِيَوْمَيْنِ ، لِقَولِ ابنِ عُمَرَ ـ رضي اللهُ عنهما ـ : « كَانوا يُعْطُونَ قَبْلَ الفِطْرِ بِيَوْمٍ أو يَوْمَينِ » رواه البخاري .

وهذا إشَارَةٌ إلى جَمِيْعِهم فَيكُونُ إجْمَاعاً ، ولأَنَّ ذَلِكَ لا يُخِلُّ بالمَقْصُوْدِ ، إذْ الظَاهِرُ بَقَاؤُهَا أَوْ بَعْضُهَا ، إلى يومِ العِيْدِ .

وَمَنْ وَجَبَتْ عَلَيْه فِطْرَةُ غَيْره أَخْرَجَهَا مَعَ فِطْرَتِهِ مَكانَ نَفْسِه ، لِأَنَّهَا طُهْرَةٌ لَهُ ، وفِطْرَةُ مَنْ بَعْضُهُ حَرٌ وبَعْضُهُ رَقِيْقٌ ، وفِطْرَةُ قِنٍّ مُشْتَرَكٍ . وفِطْرَةُ مَنْ لَهُ أَكْثَرُ مِن وَارِثٍ أَوْ مُلْحَقٌ بأَكْثَرَ مِن واحدٍ تُقَسَّطُ ، ومَن عَجَز مِنهم لَمْ يَلْزَمِ الآخرَ سِوَى قِسْطِهِ .

٣ ـ الوَاجِبُ في الفِطْرَةِ :

الواجِبُ على كُلِّ شَخصٍ صَاعُ بُرٍ ، أَوْ مِثْلُ مَكِيْلِه مِن تَمْرٍ ، أَوْ زَبِيْبٍ ، أَوْ أقطٍ ، لِحَديثِ أَبِي سَعِيدٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ « كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الْفِطْرِ ، إذْ كانَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاعاً مِنْ طَعَامٍ ، أَوْ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ ، أَوْ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ ، أَوْ صَاعاً مِنْ زَبِيبٍ ، أَوْ صَاعاً مِنْ أقط » مُتفَقٌ عَلَيْهِ .

ويُجزي دَقِيقُ البُرّ وَالشَّعِيرِ إذَا كَانَ بِوَزْنِ الْحَبِّ ، نَصَّ علَيْهِ ، وَاحْتَجَّ بِزِيَادَةٍ تَفَرَّدَ بِهَا ابْنُ عُيَيْنَةَ : ان أَحَداً لَمْ يَذْكُرْهُ فِيهِ ، قَالَ : بَلْ هُوَ فِيهِ . رَوَاهُ الدَّرَاقُطْنِي .

قَالَ الْمَجْدُ : بَلْ هُوَ أَوْلَى بِالاِجْزَاءِ لِأَنَّهُ كُفِيَ مُؤُونَتَهُ كَتمرٍ مَنْزُوعٍ

نَوَاهُ وَيُخْرُجُ مَعَ عَدْمِ ذَلِكَ مَا يَقُومُ مَقَامَهُ مِنْ حَبٍّ يُقْتَاتٍ كَذُرَّةٍ وَدُخنٍ وَبَاقِلاءَ لِأَنَّه أَشْبَهُ بِالْمنصُوْصِ عَلَيْه ، فَكَانَ أَوْلَى .

وَيَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَ الْجَمَاعَةُ فِطْرَهُمْ لِوَاحِدٍ ، وَأَنْ يُعْطِيَ الْوَاحِدُ فِطْرَتَهُ لِجَمَاعَةٍ .

وَلَا يجْزِي إِخْرَاجُ الْقِيمَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ .

وَيَحْرُمُ عَلى الشَّخْصِ شَرَاءُ زَكَاتِهِ وَصَدَقَتِهِ مِمَّنْ صَارَتْ إِلَيْهِ ، لِحَدِيثِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - « لَا تَشْتِره ، وَلَا تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ ، وَإِنْ أَعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ ، فَإِنَّ الْعَائِدَ في صَدَقَتِهِ كَالْعَائِدِ في قَيْئِهِ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَحَسْماً لِمادّة اسْتِرْجَاعِ شَيءٍ مِنْهَا حَيَاءً ، أَوْ طَمَعاً فِي مِثْلِهَا ، أَوْ خَوْفاً أَنْ لَا يُعْطِيَهُ بَعْدُ ، فَإِنْ عَادَتْ إِلَيْهِ بارْثٍ أَوْ وَصِيَّةٍ أَوْ هِبَةٍ أَوْ أَخَذهَا مِنْ دَيْنِهِ مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَلَا مُوَاطَأَةٍ طَابَتْ بِلَا كَرَاهَةٍ لِعَدْمِ الْمَانِعِ . وَلِحَدِيثِ برِيْرَةَ - رَضِي اللَّهُ عَنْهَا - اَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ ، فَقَالَتْ : إِنِّي تَصَدَّقْتُ عَلَى أَمِّي بِجَارِيَةٍ وَإِنَّهَا مَاتَتْ ، فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « وَجبَ أَجْرُكَ وردَّهَا عَلَيْكِ الْمِيرَاثُ » مُتَّفَقٌ عَلَيْه . رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ إِلاَّ الْبُخَارِي وَالنَّسَائِي .

ويُجْزِي إِخْرَاجُ صَاعٍ مَجْموعٍ مِنْ تَمْرٍ وَزَبِيبٍ وَبُرٍّ وَشَعِيرٍ وأقط كَمَا لَوْ كَانَ خالِصاً مِنْ أَحَدَهَا .

وَلا يُجْزي مُخْتَلِطٌ بأكْثَرِ مِمْا لَا يُجْزِي .

وَلَا يُجْـزِي اخْرَاجُ مَعِيْبٍ كَمُسَـوِّسٍ ، وَمَبْلُولٍ ، وَقَدِيْمٍ تغَيَّـرَ طَعْمُهْ .

والأفْضَلُ تَمْرٌ ، لِفِعْلِ ابْنِ عُمَرْ ، قَالَ نَافِعُ : وَكَان ابْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا ـ يُعْطِي التَّمْرَ إلّاَ عاماً واحداً أَعْوَزَ التّمْرُ فَأَعْطى شَعِيْراً رواهُ أحْمَدُ وَالبُخَارِي .

وقَالَ لَهُ أبو مَجلَز : انّ اللّهَ قَدْ أوْسَعْ . والْبُرُّ أَفْضَلْ ، فَقَالَ إنَّ أصْحَابي سَلَكُوا طَرِيْقاً ، فأنَا أُحِبُّ أنْ أسْلُكَهُ رواهُ أحْمَدُ واحْتَجَّ بِهْ .

وظَاهِرُهُ أنّ جَماعَةَ الصّحَابَةِ كَانُوا يُخْرِجُونَ التّمْر ، وَلأَنَّهُ قُوْتُ ، وَأقْرَبُ تَنَاوُلا وأقلُّ كُلْفَةٍ ، وَيَلِيهِ في الأفْضَلِيَّةِ الزّبِيبُ لِانّ فيه قُوتاً وَحلاَوَةً وقِلّةَ كُلْفَةٍ ، ثُمَّ البُرُ ، لِانّ الْقِيَاسَ تَقْدِيمُهُ على الْكُلْ ، لكِنْ تُرِكَ اقْتداءً بالصّحَابَةِ فِي التَّمرِ وَمَا شَارَكَهُ في الْمَعنى وَهْوَ الزَّبِيْبُ ، ثُمَّ الأنْفَعُ في الاقتيـاتِ وَدفْعِ حـاجَةِ الْفَقِيْـر ، ثُمَّ شَعِيـره ، ثُمّ دَقِيْقُ شَعِيـرْ ، ثُمّ سَوْيقُهُمَا ، ثُمَّ أقِطْ والأفضَلُ أن لا يُنْقَصَ مُعْطَىً مِنْ فِطَرةٍ عَنْ مُدُّبرٍ أوْ نِصْفِ صَاعٍ مِن غَيْرِهِ لِيُغْنِيَهُ عَنِ السُّؤالِ في ذلِكَ الْيَوْمِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صلّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم :

« أَغْنُوهُمْ عَن السُّوآلِ في ذَلِكَ اليومِ ، وَيُسَنُّ التَّكْبِيرُ المُطْلَقُ وَهْوَ الذي لم يُقَيَّدُ بِأدْبَارِ الصّلَواتْ والجَهْرُ بِهِ في لَيْلَتَيْ الْعِيْدَيْنِ إلى فَراغِ الخُطْبَةِ لِقَولِه تعالى : ﴿وَلتُكْمِلُوا العُدَّةَ ولِتُكَبِّروا اللّهَ على مَا هَدَاكُمْ﴾ وعَنْ عَليٍّ رَضْي اللهُ عَنْهُ أنّهُ كانَ يُكَبِّرُ حَتَّى يُسْمِعَ أهَلَ الطَّرِيْقِ وَصِفةُ التّكْبِيرِ ، اللّهُ أكْبَرُ ، اللّهُ أكْبَرُ ، لَا إلهَ إلا اللّهُ ، اللهُ أكْبَرُ ، اللّهُ أكبَرْ ولِلّهِ الحَمْدُ ، وفِي كُلِّ عَشْرِ ذِي الْحِجّةِ » .

قال البُخَارِيْ كَانَ ابْنُ عُمَرَ وأبُو هُرَيْرَةَ يَخْرُجَانِ إلى السُّوقِ في أيّامِ

العَشرِ يُكَبِّرانِ ويُكَبِّرُ النَّاسُ بِتَكْبِيرِهِمَا والتَّكْبِيرُ المُقَيّدُ في الأَضْحَى عَقِبَ كُلِّ فَرِيْضَةٍ . صلاَّهَا في جَمَاعَةٍ مِن صَلاةِ الفَجْرِ يَوم عَرَفَة إلى عَصْرِ آخِرِ أيَّامِ التَّشْرِيق لِحديثِ جَابِر أنَّ النبيَّ صلَى اللهُ عليه وسلم صَلَّى الصُّبْحَ يومَ عَرَفَة ثم أقْبَلَ علينَا فقالَ اللَّهُ أكْبَرُ ومَدَّ التَّكْبيرَ الى آخِرِ أيامِ التَّشْرِيق رواهُ الدَّارَقُطْنِي بِمَعْنَاهُ إلاَّ المُحْرِمِ فيُكَبِّرُ مِن صَلاةِ ظُهْرِ يومِ النّحرِ إلى آخرِ أيامِ التشريق .

اللهمَّ أعفُ عنْ تَقْصِيرنَا في طَاعَتِكَ وشُكْرِكَ وأَدِمْ لَنَا لُزومَ الطَّرِيقِ إلى مَا يُقَرِّبُنَا إليكْ وَهبْ لَنا نوراً نَهْتَدِيَ بهِ اليكَ ويَسِّرْ لَنا ما يَسَّرْتَهُ لاهْلِ مَحَبَّتِكَ وأيْقِظْنا مِن غَفْلاتِنا وألهِمْنَا رُشْدَنا واسْتُرْنا في دُنْيَانَا وآخِرَتِنَا واحْشُرْنَا في زُمْرَةِ المتقِين وأَلْحِقْنَا بعبَادِكَ الصالِحينْ واغفرْ لنا ولوالِدينا ولجميع المسلمين الأحياءِ مَنهم والميتينَ برَحمَتِكَ يا أرحم الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبهِ أجمعينَ .

(فَصْلٌ)

الحَمْدُ لِلَّهِ غَافِرِ الذُّنُوْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ، شَديدِ العِقَابِ ذِي الطَّولِ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ اليهِ المصير ، وأشْهَدُ أنّ محمداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ البشِيْرُ النَّذِيْرُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَّمَ أولي الجِدّ في العبادَةِ والتشْمِيْرِ.

عِبَادَ اللهِ ، إنَّ شَهْرَ رَمضَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى الرَّحِيْلِ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَحْسَنَ فَعَلَيْهِ بالتَّمَامِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ فَرَّطَ فيه فَلْيَخْتِمْهُ بالْحُسْنَى ، فالعمَلُ بِالْخِتَامِ ، وَبَادِرُوا رَحِمَكُمْ اللهُ أوقاتَ شهْرِكُم الباقِيَةَ ، وَاسْتَدْرِكُوا

ما مَضَى منه بالحَسْرَةِ والنَّدَمِ ، واختِمُوهُ بالتَّوْبَةِ النَّصُوْحِ والرُجُوعِ إلى صالِحِ العملْ .

عِبَادَاللهْ ، كَمْ أناسٍ صَلُّوا في هذا الشَّهْرِ صلاةَ التراويحِ وأوقَدُوا في المساجِدِ طلباً للأجْرِ المَصَابِيْحِ ، ونَسَخُوا بإحْسَانِهِمْ كُلَّ فِعْلٍ قَبِيْحٍ ، وَقبلَ التَّمَامِ سَكَنُوا الضَّرِيْحَ ، ولَمْ يَنْفَعُهُمْ المالُ والآمَالُ لَمَّا نُقِلُوا ، رَحلُوا عن الدُّنْيَا قِدْماً قِدْمَاً ونُقِصَ مَا بَنَوْهُ هَدْماً هَدْمَا ، أَدَارَتْ عَلَيْهِمُ المنُونُ رَحاهَا وَأحلَّتْ وُجُوهَهُمْ في الثَّرى فَمَحَاهَا .

وَهَذَا حَالُكَ عَنْ قَرِيْبٍ فَتيَقَّظْ يَا قَلِيْلَ الزَّادِ ، وَحَادِي رَحِيْلِهِ قَدْ حَدَى تَأهَّبْ لِلَّتلفِ وَتَهَيَّأْ للرَّدَى ، ذَهَبَ عَنْكَ شَهْرُ الصيامِ وَوَدَّعَكَ ، وَسَارَتْ فِيهِ قَوَافِلُ الصَّالِحِيْنَ ، وَجَهْلُكَ مَنَعَكَ والتَّوْبِيْخُ مُتَوَفِّرٌ ، فَمَا أَرْجَعَكَ وَلاَ أَزْعَجَكَ وَأنْتَ تُؤَمِّلُ مَنَازِلَ العامِلِيْنَ بأفعالِ الغَافِلِيْنَ فما أَطْمَعَكَ .

يَا مَنْ أَصْبَحَ ساعياً إلى مَا يَضُرُّهُ سَتَعْلَمُ مَنْ يأتِي غَدَاً حَزِيْناً مُتَنَدِّمَاً ، كَمْ مِنْ صَائِمٍ يَفْضَحُهُ الحِسَابُ والعَرْضِ ، وَكَمْ مِنْ عاصٍ في هذا الشهْرِ تَسْتَغيْثُ مِنْهُ الأرْضُ ، فيا ليت شِعْرِي من المقبولُ مِنَّا فَنُهَنِّيهِ على توفيقِ اللهِ لهُ بِحُسْنِ عَمَلِهِ وَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَنِ المَطْرُودُ فَنُعَزِّيْهِ بسوءِ عَمَلِهِ ، فَيَا أَيُّها المقبولُ هَنِيْئاً لَكَ بثَوَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ورِضْوَانِهِ وَرَحْمَتِهِ وَغُفْرَانِهِ وَقَبُولِهِ واحْسَانِهِ وَعَفْوِهِ وامْتِنَانِهِ .

وَيَا أَيُّهَا المطْرُودُ بإصْرَارِهِ ، وطُغْيَانِهِ وظُلْمِهِ وَغَفْلَتِهِ وخُسْرَانِهِ وَتَمادِيْهِ في عِصْيَانِهِ ، لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيْبَتُكَ وخَسِرَتْ تِجَارَتُكَ ، وَطَالَتْ نَدَامَتُكَ ، فَيَا لَهَا مِنْ خُسَارَةٍ لاَ تُشْبِهُهَا خَسَارَةٌ ، لِلّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ حَرَسُوا

بالتُّقى أوْقَاتَهمْ ، وَتَدَرْعُوا دُرُوْعَ المُرَاقَبَةِ في صَبْرِهِمْ وَجَمَعُوا بَيْنَ الصِّدقِ والاخلاص في ذِكْرِهِمْ ، صَبَرُوا باليَقِيْنِ على ظَمَإٍ الهَوَاجِرِ ، وَبَسَطُوا أقْدَامَهُمْ عَلَى بِسَاطِ الدَّيَاجِر وَعَمِلُوا لِيَوْمٍ فيهِ القُلُوْبُ لَـدَى الحَنَاجِرِ .

أَقْبَلُوا على خِدْمَةِ رَبِّهِمْ إقْبَالَ عَالِمْ ، وَمَا سَلَكُوا إلاّ الطريقَ السَّالِمْ تَذَكَّرُوْا ذُنُوبَهُمْ القَدَائِمَ ، فَجَدَّدُوا التَّوْبَةَ بِصِدْقِ العَزَائِمْ ، وَعَدُّوْا التَّقْصِيرَ مِن العَظَائِمِ ، وبَذَلُوا المهْجَ الكِرَائِمَ ، فإذا جَنَّ اللَّيْلُ فَسَاجِدُ وَقَائِمُ ، وَلاَ يَخافُونَ في اللهِ لَوْمَةَ لائِم ،أينَ أنْتَ وَهُمْ ؟ فَهَلْ تَرَى السَّاهِرَ كالنَّائِمْ ؟ كَلاَّ ، وَلاَ المُفْطِرَ كالصَّائِمْ .

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحمَهُ اللهُ مَنْ أرَادَ اللهُ بِهِ خَيراً فَتَحَ لَهُ بَابَ الذُّلِّ والانْكِسَارِ وَدَوامِ اللجُوءِ إلى اللهِ تعالى والافْتِقَارِ إليه وَرُؤْيَةِ عُيُوبِ نَفْسِهِ وَجَهْلِهَا وَعُدْوَانِهَا وَمُشَاهَدَةِ فَضْلِ رَبِّهِ واحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ وَجُوْدِهِ وَبِرِّهِ وَغِنَاهُ وَحَمْدِهْ . فالعارِفُ : سَائِرُ إلى اللهِ تَعالى بَيْنَ هَذَيْنِ الجَنَاحَيْنِ لا يُمْكِنُهُ أنْ يَسِيرَ إلاَّ بِهِمَا فَمَتَى فَاتَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فَهُوَ كالطيرِ الذي فُقِدَ أحدُ جَنَاحَيْهِ .

وقَالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهْ الْعَارِفُ يَسِيرُ إلى اللهِ بينَ مُشَاهَدَةِ المِنَّةِ ومُطَالَعَةِ عَيْبِ النَّفْسِ والْعَمَلِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم في الحديثِ الصَّحِيْحِ مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ رَضي الله عَنْهُ سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أنْ يقولَ العبدُ اللهمَّ أنْتَ رَبّي لَا إلَهَ إلاَّ أنْتَ خَلَقْتَنِي وَأنَا عَبْدُكَ وأنا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما صَنَعْتُ أبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لي إنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنْتَ فَجَمَعَ

في قَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم أبوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي بَيْنَ مُشَاهَدَةِ المِنَّةِ وَمُطَالَعَةِ عَيْبِ النفسِ والعَمَلْ .

فَمُشَاهَدَةُ المِنَّةِ تُوجِبُ المَحَبَّةَ والحَمْدَ والشُّكْرَ لِوَلِيِّ النِّعَمِ والإِحْسَانِ ومُطَالَعَة عَيْبِ النَّفْسِ والْعَمَلِ تُوجِبُ لَهُ الذُّلَّ والانْكِسَارَ والافْتِقَارَ والتَّوْبَةَ في كُلِّ وقت وأن لَّا يَرَى نَفْسَهُ إلَّا مُفْلِسًا وأَقْرَبُ بَابٍ يَدْخُلُ منهُ العبْدُ على اللهِ تعالى هُوَ بَابُ الإِفْلَاسِ فَلَا يَرَى لِنَفْسِهِ حالاً وَلَا مَقاماً وَلا سَبَباً يَتَعَلَّقُ بِهِ وَلَا وَسِيْلَة مِنْهُ يَمَنُّ بِها .

بَلْ يَدْخُلُ على اللهِ من بَابِ الافْتِقَارِ الصِّرْفِ والافلَاسِ المحضِ دُخُوْلَ مَنْ كَسَرَ الفقْرُ والمَسْكَنَةُ قَلْبَهُ حَتَّى وَصَلَتْ تِلْكَ الكَسْرَةُ إلى سُوَيْدَائِهِ فانْصَدَعَ وَشَمَلَتْهُ الكَسْرَةُ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ وَشَهِدَ ضَرُورَتَهُ إلى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وكَمَالَ فَاقَتِهِ وَفَقْرِهِ إِلَيْهِ وأَنَّ فِي كُلِّ ذَرةٍ من ذَرَّاتِهِ الظَّاهِرَةِ فاقَةٌ تَامةٌ وضَرُورَةٌ الى رَبِّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى وأَنَّهُ إن تَخَلَّى عَنهُ طَرْفَةَ عينٍ هَلَكَ وخَسِرَ خسارَةً لَا تُجْبَرُ إلَّا أنْ يَعُودَ إلى اللهِ تعالى ويَتَدارَكَهُ بِرَحْمَتِهِ انْتَهى .

شِعْرًا :

دَعِ البكاءَ على الأطْلَالِ والدَّار
واذْكُرْ لِمَنْ بَانَ مِنْ خِلٍّ وَمِنْ جَارِ
وَأَذرِ الدُّمُوعَ نَحِيباً وابْكِ مِن أَسَفٍ
على فِرَاقِ لَيالٍ ذَاتِ أَنْوَارِ

عَلَى لَيَالٍ لِشَهْرِ الصَّوْمِ مَا جُعِلَتْ
إِلَّا لِتَمْحِيصِ آثَامٍ وَأَوْزَارِ
يَا لَائِمِي فِي البُكَاءِ زِدْنِي بِهِ كَلَفاً
وَاسْمَعْ غَرِيْبَ أَحَادِيثِي وَأَخْبَارِي
مَا كَانَ أَحْسَنَنَا والشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ
مِنَّا المُصَلِّي وَمِنَّا القَانِتُ الْقَارِي
وَفِي التَّرَاوِيْحِ لِلرَّاحَاتِ جَامِعَةٌ
فِيْهَا المَصَابِيْحُ تَزْهُو مِثْلَ أَزْهَارِي
فِي لَيْلِهِ لَيْلَةُ القَدْرِ الَّتِي شَرُفَتْ
حَقَّاً عَلَى كُلِّ شَهْرٍ ذَاتِ أَسْرَارِ
تَنَزَّلُ الروحُ والأَمْلَاكُ قَاطِبَةً
بِإِذْنِ رَبٍّ غَفُوْرٍ خالقٍ بَارِي
شَهْرٌ بِهِ يُعْتِقُ اللهُ العُصَاةَ وَقَدْ
أَشْفُوا على جُرُفٍ مِن خُطَّةِ النَّارِ
نَرْجُوا الإِلَهَ مُحِبَ العِفْوِ يُعْتِقُنَا
وَيَحْفَظُ الكُلَّ مِن شَرٍّ وَأَكْدَارِ
وَيَشْمَلُ العَفْوُ والرِّضْوَانُ أَجْمَعَنا
بِفَضْلِكَ الْجَمِّ لا تَهْتِكْ لأَسْتَارِ
فَابْكُوا عَلى مَا مَضَى فِي الشَّهْرِ واغْتَنِمُوا
مَا قَدْ بَقِيَ فَهُوَ حَقٌّ عَنْكُمُ جَارِي

* * *

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا من حِزْبِكَ وَعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ الذينَ أَهَّلْتَهُمْ لِخِدْمَتِكَ وَجَعَلْتَهُمْ مِمَّنْ قَبِلْتَ صِيامَهُ وَقِيَامَهُ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ولجميع المسلمينَ الأحياءِ منهم والميتينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصَلى اللهُ على محمدٍ وصَحْبِهِ أجميعن .

(فَصْلٌ)

في تِلَاوَةِ القُرآنِ الْكَرِيْمِ

وَيَبْحَثُ فِي :

١ ـ ما وَرَدَ مِنَ الحَثِّ على قِرَاءَةِ القرآنِ الكريمْ .

٢ ـ مَا جَاءَ في فَضْلِ حَمْلِ القرآنِ وتِلَاوَتِهِ .

٣ ـ ما وَرَدَ في فَضْلِ تَدَبُّرِ القرآن وَتَفَهُّمِهِ .

٤ ـ ما وَرَدَ في اسْتِحْبَابِ تَرْتِيْلِ القرآنِ الكريمْ .

٥ ـ ما وردَ في بيانِ عِظَمِ بَعْضِ السُّوَرْ .

٦ ـ اسْتِحْبَابُ تَحْسِيْنِ الصَّوتِ في التِّلَاوَةْ .

٧ ـ يَنْبَغِي الخُشُوعُ والخَشْيَةُ والبُكَاءُ عِنْدَ تِلَاوَةِ كِتَابِ الله تعالى .

٨ ـ ما وَرَدَ في تَعَاهُدِ القرآنِ والتَّرْهِيْبِ من نِسْيَانِهِ .

١ ـ ما وَرَدَ مِن الحَثِّ على القُرآنِ الكَرِيمْ :

يُسْتَحَبُّ حِفْظُ القرآنِ عَنْ ظَهْرِ قَلْب ، والإِكْثَارُ مِن تِلَاوَتِهِ كُلَّ وقْتْ لِأَنَّ تِلَاوَتَهُ مِن أفْضَلِ العِبَادَاتِ وأعْظَمِ القُرُبَاتِ وأجَلِّ الطَّاعَاتِ وفيها أجرٌ عَظِيمٌ وَثَوابٌ جَسِيْمٌ مِنَ المَوْلَى الكرِيمْ ، ولَا سِيَّمَا في شَهْرِ رَمَضَانْ قال

اللهُ تعالى آمِرَاً رسولَهُ صلى اللهُ عليه وسلَّم بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ العزيزِ وابْلَاغِهِ إلى الناسِ : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كَتَابِ رَبِّكْ ﴾ .

وأخبرَ تَعالَى عن عِبَادِهِ المؤمِنِينَ الذين يَتْلُوْنَ كِتَابَهُ ويؤمنونَ به ويعْمَلون بِمَا فيهِ من إِقَامِ الصَّلاةِ والانفاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ تعالى في الأوقاتِ المشروعةِ لَيلاً وَنَهَاراً سِرَّاً وعَلاَنِيَةً ، فقالْ : ﴿ انَّ الذينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وأقامُوا الصلاةَ وأنفقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرَّاً وعلانيةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبوْر لِيُوفِّيَهُمْ أُجورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ غفورٌ شَكُور﴾ .

وَعَنْ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَن النَّبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم قـال : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُـرْآنَ وَعَلَّمَهْ » . رواهُ البخـاريُّ ، ومسلم .

٢ ـ ما جاءَ في فَضْلِ حَمْلِ القرآن :

وَعَنْ عائِشَةَ ـ رِضْيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « الذي يَقْرأُ القُرْآنَ وَهْوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ الْبَرَرَةِ ، والذي يَقْرَأُ القرآنَ وَهْوَ يَتَتَعْتَعُ فِيه وَهْوَ عَلَيْهِ شـاقٌ لَهُ أَجْـرانِ » رواهُ البخاري .

وَعَنْ أبي أُمامَةَ الْبَاهِليُ ـ رَضْيَ اللهُ تعالى عَنْهُ ـ قَالْ : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولْ : « إِقْرَؤُوا القرآنَ فإِنَّهُ يأتِي يَوْمَ القيامَةِ شَفِيعَاً لِأَصْحَابِهِ » رواهُ مُسْلِمْ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ

عليه وسلمْ : « تَعَلَّمُوا القرآنَ فاقْرَؤُهْ ، فَإِنَّ مَثَلَ القُرْآنَ لِمَن تَعلَّمَهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ بِهِ ، كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍ مِسْكَاً تَفُوحُ رِيْحُهُ في كُلِّ مكانٍ ، وَمَثَلَ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَرَقَدَ وَهْوَ في جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أُوْكِيَ على مِسْكٍ » رواهُ الترمذي والنِّسائي وابنُ مَاجَهْ .

وَعَنْ أَبِي مُوسى الأشعَرِي ـ رضي اللهُ عَنْهُ ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « مَثَلُ المؤمن الذي يقرأُ القرآنَ مَثلُ الأتْرُجَّةِ رِيْحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الذِي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ لَا رِيْحَ لها وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ حُلْوٌ ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذِيْ يقرأ القرآن مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيْحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ المُنافِق الذي لا يقرأ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيْحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ » . رواهُ البخاري ومسلم .

وَعَنْ ابن عُمر ـ رضْيَ اللهُ عَنْهُما ـ عن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالْ : « لَا حَسَدَ إلا في اثْنَتينِ : رجلٍ آتَاهُ اللهُ القرآنْ ، فَهْوَ بِهِ آناءَ الليل وآناءَ النهارِ ، وَرَجُلٍ تَعَلَّمَ عِلْماً فَهوَ يُعَلِّمُ الناسَ مِنْهُ». رواهُ البخاريُ ومسلم .

وَعَن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنْهما ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « انَّ الذي لَيْسَ في جَوْفِهِ شَيءٌ مِن القرآنِ كالبَيْتِ الْخَرِبِ » رواهُ الترمذي وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

وَعن أبي هريرةَ ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالْ : « ما اجْتَمَعَ قومٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ يَتْلُوْنَ كتابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ فِيْمَا بَيْنَهُمْ إلا نَزَلَتْ عليهمُ السَّكِيْنَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرحمةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيْمَنْ عِنْدِهِ . أخرجَ البخاريُ في صحيحهِ عن أُسَيْدِ بنِ حُضَير رِضي اللهُ عنه قالْ : بَيْنَمَا هُوَ يقرأُ سَورَةِ

البقَرَةِ وَفَرَسَهُ مَرْبُوطَةُ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الفرسُ فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ فقَرَأ فَجَالَتِ الفَرَسُ ، فَسَكَتَ وَسَكَنَتْ الفَرَسُ ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ فانْصَرَفَ .

وكان ابنُهُ يَحْيى قَرِيْبَاً مِنْها فاشْفَقَ أنْ تُصِيْبَهُ ، فَلَمَّا أخَذَهُ رَفَعَ رأسَهُ إلى السَّمَاءِ حَتَّى يَرَاهَا فَلَمَّا أصْبَحَ حَدَّثَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال لَهُ : إقرأْ يا ابْنَ حُضَيْرٍ إقْرَأْ يا ابْنَ حُضَيْرٍ قالْ فأشْفَقْتُ يا رسولَ اللهِ أن تَطَأَ يَحْيى وكانَ مِنْهَا قَرِيباً فَرَفَعْتُ رَأْسِي فانْصَرَفْتُ إليهِ فرفعتُ رأْسِي إلى السماء فإذَا مِثْلُ الظُّلَةِ فيها أمثالُ المصَابِيحِ فَخَرَجْتُ حَتَّى لا أرَاهَا قَالَ : « وَتَدرُونَ ما ذاكَ قلتُ لا قَالَ تِلْكَ الملائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ ولو قَرَأتَ لأصْبَحَتْ يَنْظُرُ الناسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوارَى » .

فالْعَاقِلُ مِنْ يُكْثِرُ تِلاوتَهُ واسْتِذْكَارِهِ للاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ والاسْتِرْشَادِ بَمواعِظِهِ والاعتبارِ بِقَصَصِهِ والالتِقَاطِ مِن دُرَرِهِ وَحِكَمِهِ والاسْتِضَاءَة بِنُوْرِهِ كَيْفَ لَا وهُوَ أَسَاسُ الفَصَاحَةِ وَيَنْبُوعُ البلاغَةِ والبَراعَةِ فتجِدُ الخَطِيبَ المِصْقِعَ والشَّاعِرَ البَلِيْغَ يَقْتَبِسَانِ مِن آياتِهِ وَيَسْتَمِدَّانِ مِن عُذُوْبَةِ ألفاظِهِ ومَعانِيهِ ما يُزَيْنَانِ بِهِ كَلامَهُما ويُحَسِّنَانِ بهِ مَقامَهُمَا .

وَهْوَ أسَاسُ الشريعةِ الاسْلامَيةِ ومِنهُ تُسْتَمَدُّ الأَحكامُ الشَّرْعِيةُ والمسائلُ الفقْهِيةُ والحقُ أنهُ عِمادُنَا في أمْرِ دِينِنا ودُنْيانَا وفَّقَنَا اللهُ وجمِيعَ المسلمينَ لِلتَّمَسُّكِ بأهْدَابِهِ والمُسَارَعَةِ إلى امْتِثالِ أمْرِهِ واجْتِنَابِ نَهْيه والوُقُوفِ عِنْدَ حَدِّهِ والتَّفكرِ في أمثالِهِ ومُعْجِزَهْ والتَّبَصُّرُ في نُورِ حِكمِهِ واغْفِرْ لَنَا ولوالِدينَا ولِجَميعِ المُسلمين بِرحمتك يا أرحمَ الراحمينَ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين .

(فصـل)

وعنْ عبدِ اللهِ بن عُمَرْ ـ رضيَ الله عنهُما ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إذَا قَرأ ابنُ آدمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ ، اعْتَزَلَ الشيطانُ يَبْكِي ، ويَقولُ : يا وَيْلَهُ ! » .

وفي رِوَايةِ : « يا وَيْلِي ! أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ فَسَجَدْ فَلَهُ الجَنّةُ ، وأمرْتُ بالسجودِ فأبَيْتُ فِليَ النارُ » رواه مسلمُ وأبُو داود .

وعن النَّوْاسِ بن سِمْعَانْ ـ رضي اللهُ عنه ـ قالْ : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليهِ وسلّمَ يقولُ : « يُؤْتَى بالقرآنِ يومَ القِيَامَةِ وأَهْلِهِ الذينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بهِ في الدنيا تَقْدُمُهُ سُوْرَةُ البقرةِ وآلِ عمرانَ » وضَرَبَ لَهُمَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ثلاثةَ أمثالٍ ما نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ قال « كأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أو ظُلَّتَانِ سَوْدَوَانِ بَيْنَهُمَا شَرَقٌ ، أوْ كَأَنَّهُمَا فُرْقَانٌ مِن طَيرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عن صَاحِبِهما » رواه مسلم .

وعن عبد اللهِ بن مسعودٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَن قَرَأَ حَرْفاً من كِتابِ اللهِ تعالى ، فَـلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لا أَقُولُ : أَلَم حَرْفٌ ولكنْ ألِفٌ حَرْفٌ ولامٌ حَرْفٌ ومْيمٌ حَرْفٌ » رواه أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي .

وعن أَبِي ذرٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال قُلْتُ يا رسولَ اللهِ ، أَوْصِنِي ، قال : « عَلَيْكَ بَتقوَى اللهِ فإِنَّهُ رَأسُ الأَمْرِ كُلّهِ » ، قُلْتُ : يا رسولَ الله زِدْنِي ، قال : « عَليكَ بِتلاوَةِ القُرآنِ فإِنَّهُ نُورٌ لَكَ في الأَرضِ وذُخْرٌ لك في السماء » رواه أبِن حبان .

وعن عبد الله بنِ عُمَرَ ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ أنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : « مَنْ قَرَأَ القُرآنَ فَقَدْ اسْتَدْرَجَ النُّبُوةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أنَّهُ لا يُوْحَى إليه ، لا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ القُرآنِ أنْ يَجِدَ مَعَ مَنْ وَجَدَ ، ولَا يَجْهَلَ مَعَ مَنْ جَهِلَ وفي جَوْفِهِ كَلامُ اللهِ » رواه الحاكم .

وروى عن علي بن أبِي طالبٍ ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ قال : قال رسوُل اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فاسْتَظْهَرَهُ ، فأَحَلَّ حَلَالَهُ وحَرَّمَ حَرَامَهُ أدخلَهُ اللهُ الجَنَّةَ وشَفَّعَهُ في عَشْرةٍ مِن أهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهمُ قَدْ وَجَبَتْ لَهُم النارُ » رواه ابن ماجه والترمذي .

وعن أَبِي ذَرٍ ـ رَضْيَ اللهُ عنه ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « يا أبا ذَرٍ لأَنْ تَغْدُوَ فتتَعَلَّمَ آيةً مِن كِتابِ اللهِ خيرٌ لَكَ مِن أن تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ ، وَلأَنْ تَغْدُوَ فتَتَعَلَّمَ بَاباً مِن العِلمِ عُمِلَ بِهِ أوْ لَمْ يُعْمَل بِهِ خَيْرٌ مِن أن تُصَلِّيَ ألفَ رَكعةٍ » رواه ابن مَاجه .

اللهم اهْدِنَا إلى سَوَاءِ السَّبِيْلْ، وَوَفِّقْنَا لِلْفِقْهِ في دِيْنِكَ القَوِيْمِ ، واجعلنا مِن العَامِلينَ بِهِ قولاً ، وفِعْلاً الدّاعيْنَ إليهِ ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياءِ منهم والميتين برحمتك يا أرحمَ الراحمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)
مَا وَرَدَ في فَضْلِ القُرآنِ وتَفَهُّمِهِ

يُسْتَحَبُ التَّعَوُذَ لِمَنْ أرادَ الشُرُوْعَ في القِرَاءَةِ بأَن يَقُوْلَ « أعُوذُ باللهِ مِن الشيطانِ الرجيمِ » لِقَولِهِ تعالى : ﴿ فإذَا قَرَأْتَ القُرآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ مِن

الشيطانِ الرجِيم ﴾ .

وكان جَماعَةٌ مِن السَّلفِ يَقُولُونَ : أعوذُ باللهِ السَّمِيْعِ العليمِ مِن الشيطانِ الرجيم ، فان قَطَعَ القِرَاءَة قَطْعَ تَرْكٍ على أنْ لا يَعُودَ قَريْباً إليْهَا أعادَ التَّعوُذَ الأوَّلَ وَإِنْ تركَهُ قَبْلَ القِراءَةِ فَيَتوَجَّهُ أن يَأتِيَ بِهَا ثُمَّ يَقْرَأُ لِأَنَّ وَقْتَهَا قَبلَ القِرَاءَةِ لِلْاسْتِحْبَابِ فلا يَسْقُطُ تَرْكُها إذاً وَلِأَنَّ المَعْنَى يَقتَضِي ذلكَ .

فإِذَا شَرَعَ في القِرَاءَةِ فَلْيَكُنْ شَأْنُهُ التَّدبُّرَ واليَحْذَرْ أَنْ يَكُوْنَ مِثْلَ بَعضِ الهَمَجِ يَقْرَأُ القُرآنَ وعُيُونُهُ تَجُولُ فِيْمَا حَوْلَـهُ مِن المَخْلُوقاتِ يَتلاعَبُ بالقُرآنِ ولا يَهْتَمُّ لَهُ ، قال تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَرُوْا آياتِهِ ﴾، وقال تعالى في مَعْرَضِ الانكارِ ﴿ أفَلا يَتَدَبَرُوْنَ القُرآنَ ، أمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ .

٤ ـ مَا وَرَدَ في اسْتِحبَابِ تَرْتِيْلِ القُرْآنِ الكَرِيْم :

ويُسْتَحبُّ لِقَارِىءِ القُرْآنِ أنْ يُرَتِّلَ قِراءَتَهُ لِقَولِهِ تَعالى : ﴿ وَرَتِلِ القُرْآنَ تَرْتِيْلا ﴾ .

وثَبَتَ عَن أُمّ سَلَمَةَ ـ رَضيَ اللهُ عَنها ـ أنَّها تَنْعَتُ قِرَاءَةَ مُفَسَّرةً حَرْفاً حَرْفاً . رواه أبو داود ، والنسائي ، والترمذي .

وعن عبدِ الله بنِ عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرآنِ اقْرأْ ورَتِّلْ كَمَا كُنْت تُرَتِّلُ في الدُنْيَا فإِن مَنْزِلَكَ عندَ آخِرِ آيةٍ تَقْرَؤُهَا . رواه أحمد ، والترمذي وأبو داود والنسائي .

وعن قَتَادَةَ قال : سُئِلَ أَنَسٌ ،كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ؟ فقال : كانَتْ مَداً مَداً ، ثم قَرَأ ﴿ بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ﴾ يَمُدُّ بـ ﴿ بسمِ اللهِ ﴾ وَيَمُدُّ بِـ ﴿ الرحمنِ ﴾ وَيَمُدُ بـ ﴿ الرحيمِ ﴾ رواه البخاري .

وعن مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ عن عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ ، قال : رَأَيْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ يَقْرأُ سُوْرَةَ الفَتْحِ يُرَجِّعُ في قِرَاءتِهِ ، رواه البخاري ومسلم .

وقد رَوَى أبُو ذَرٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَامَ لَيْلَةً بآيةٍ يُرَدِّدُهَا : ﴿ إِنْ تُعَذِبْهُمْ فإنهُمْ عِبادُكَ ﴾ وقَامَ تِمَيْمٌ الدَارِي بآيةِ ﴿ أمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُوا السيئاتِ ﴾ وقال أبوُ سُلَيْمانَ إنيْ لأُقِيْمُ في الآيةِ أرْبعَ لَيَالٍ أو خَمْسَ وقال ابنُ مَسْعُودٍ مَنْ خَتَم القُرآنَ نهاراً غُفِرَ لَه ذلكَ اليَومِ ومَن خَتَمه لَيْلاً غُفِرَ لهُ تِلكَ اللَّيلِ وعن طَلْحَةَ بِنِ مُصَرِّفٍ قال : مَن خَتَمَ القُرآنَ فِي أيِّ ساعةٍ مِنَ النَّهارِ كانَتَ صَلَّتْ عليه الملائكةُ حَتَّى يُمْسِي أوْ أي سَاعةٍ مِن لَيلٍ كانَتْ صَلَّتْ عليه الملائكةُ حَتَّى يُصْبحُ .

(مَوْعِظَة)

قال ابنُ القَيِّم رَحمهُ الله : عَشَرَةُ أَشْيَاء ضَائعةٌ لا يُنْتَفَعُ بها عِلْمٌ لا يُعْمَلُ بِهِ وعَمَلٌ لا إِخْلاَصَ فِيه ولا اقْتِدَاءَ فيهِ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم فإنَّه لا يُوَفَّقُ لَهُمَا إذا لم يُخْلِصِ العَمَلَ ومَالٌ لا يُنْفَقُ مِنه فلا يَسْتَمْتِعُ بِه جَامِعُهُ في الدُنيا وَلاَ يُقَدِّمُهُ أَمَامَهُ لآخِرَتِهِ وَقَلْبٌ فارِغٌ مِن مَحبَّةِ اللهِ والشَّوْقِ إلى لِقَائِهِ والأُنْسِ بِهِ وبَدَنٌ مُعَطَّلٌ مِن طَاعَةِ

اللهِ وخِدْمَتِهِ ومَحَبَّةُ لا تَتَقيّدُ بِرِضَا المْحبُوْبِ وامتثالِ أوامِرِهِ .

وَوَقْتٌ مُعَطَلٌ مِن اسْتِدْرَاكِ فَارِطٍ واغْتِنَامُ بِرٍ وقُرْبَةٍ ، وفِكْرٌ يَجُولُ فِيمْا لا يَنْفَعُ وخِدْمَةُ مَن لا تُقَرِّبُكَ خِدْمَتُهُ إلى اللهِ ولا تَعُوْدُ عليكَ بصَلاحِ دُنْيَاكَ وخَوْفُكَ وَرَجَاؤكَ مِمَّنْ نَاصِيَتُهُ بيدِ اللهِ وهو أَسيرٌ في قبضتِهِ ولا يَمْلِكُ لِنَفسِهِ نَفْعاً ولا ضَرراً ولا مَوْتاً ولا حَياةً ولا نُشُوْرَاً .

وأعظمُ هذِهِ الإضَاعَاتِ إِضَاعَةُ القَلْبِ وإِضَاعَةُ الوَقْتِ فإِضَاعَةُ القَلْبِ عن اللهِ مِن إِيثَارِ الدُنْيا عَلى الآخرةِ وإِضَاعَةُ الوَقْتِ مِن طُوْلِ الأَمِلِ فاجْتَمَعَ الفَسَادُ كلُهُ في اتِّبَاعِ الهَوى وطُولِ الأملِ والصلاحُ كُلُهُ في اتّبِاعِ الهُدَى والاسْتِعْدِادِ لِلّقَاءِ اللهِ .

إلى أنْ قالَ ولِلهِ على عَبْدِهِ أَمْرٌ أَمَرَهُ بهِ وقَضَاءٌ يَقْضِيْهِ عليهِ ونِعَمٌ يُنْعَمُ بِهَا عليهِ فلا يَنْفَكُ مِن هذه الثلاثةِ والقَضَاء نوعانِ إِمَّا مَصَائِبُ وإما مَعَائِبُ ولَهُ عَليهِ عُبُودِيَّةَ في هَذه المَراتِبِ كُلِهَا فأَحَبُّ الخَلْقِ إليهِ مَن عَرَفَ عُبُودِيَتَهُ في هَذِهِ المَرَاتِبَ كُلِّهَا وَوَفَّاهَا حَقَّهَا فَهَذا أقربُ الخَلْقِ إليهِ وأَبْعَدُهُم مِنه مَن جَهِلَ عُبُودِيَتَهُ فَعَطَلهَا عِلْماً وَعَمَلاً . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فصل)

٥ ـ ما وَرَدَ في عِظَمِ فَضْلِ بَعْضِ السُوَرِ :

وعن أَبي الدَّرْدَاءِ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَيَعْجَزُ أَحدُكم أنْ يَقْرَأَ في لَيْلَةٍ ثُلُثَ القُرآنِ قالُوا وكَيْفَ

يَقْرأُ ثُلُثَ القُرآنِ قال ﴿ قل هُوَ اللهُ أَحد ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرآن » رواه مسلم .

وعن عبد الله بنِ عُمَرَ ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال : « لم يَفْقَهْ مَن قَرَأ القُرآنَ في أَقَلَّ مِنْ ثلاثٍ » رواه الترمذي وأبو داود والدارمي .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهْ عَنْهُمَا ـ قَالْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: « أَلاَ يَسْتَطِيعَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ أَلْفَ آيَةٍ في كُلِّ يَوْمٍ » قَالُوا وَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَ أَلْفَ آيَةٍ في كُلِّ يَوْمٍ ؟ قَالَ : « أَمَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ الْهَاكُمُ التَكَاثُرْ » رَوَاهُ الْبَيْهَقِي .

وَقَالَتْ عَائِشَةَ ـ رَضَي اللَّهُ عَنْهَا ـ : « ولا أَعْلَمُ نَبِيَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلمَّ قَرَأَ القُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ . . . » الحْدِيث رَوَاهُ مُسْلِمْ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالْ « لا تَنْثِروُهُ نَثْرَ الرّمْلِ ولا تَهْذُوهُ هَذّا الشّعْر قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ وَحرِّكُوا بِهِ الْقُلوُبَ وَلاَ يَكُنْ هَمْ أَحَدُكُمْ آخَرَ السُّورَةِ » رَواهُ الْبغوْي .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالْ : « لانْ أَقْرَأَ سُورَةً أُرَتِّلهَا أَحبُّ إليَّ مِنْ أَنَّ القُرْآنَ كُلَّه » وَقَدْ نِهُيْ عَنِ الْإِفْرَاطِ فِيْ الاسْرَاعِ وَيُسَمَّى « الْهَذْرَمَةَ » ، فَثبَتَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أنَ رَجُلاً قَالَ لَهُ : اقْرَأُ المُفَصّلَ في رَكْعَةٍ واحِدَةٍ ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودْ : كَهذَا الشِّعْر ، إِنَّ قَوْماً يَقْرَؤ وُنَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ في الْقَلْبِ فَرَسَخ نَفَعْ » رواهُ البخارِيُ وَمُسْلِمْ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمْ رَحِمَهُ اللَّه : إذَا أَرَدتَ الإنْتِفَاعَ بِالْقرْآنِ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ وَأَلْقِ سَمْعَكَ وَاحْضَرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبَهُ بِهِ مَنْ يَتَكَلَّم بِهِ مِنْهُ إلَيْهِ ، فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ لَكَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ قال تَعالى :

﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لِذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمْعَ وَهُوَ شَهِيدْ ﴾ وَذَلِكَ أنَّ تمَامَ التَأْثِيرَ لَمَّا كَانَ مَوقوفاً على مُؤَثِّرٍ مُقْتضي ومحلٍ قابلٍ وَشُرطَ لِحُصُولِ الأثرِ انْتِفَاءُ المانِع الَذي يَمْنَعُ مِنْه : تَضَمَّنَتِ الآيَةُ بَيَانِ ذِلك كُلِّهِ بأوْجَزِ لَفْظِ وأبْيَنِهِ على المَرادْ .

وَقالَ شَيْخُ الاسْلَامْ : وَمِمّا يَنْبِغي أنْ يُعْلَمَ أَنَّ أَفْضَلَ الْقراءَةِ والذِّكْرِ والدّعاءِ والصّلاةِ وغيرِ ذلِكَ يختَلِفُ باختلافِ حَال الرجل فالقراءةُ بِتَدَبُّر أَفْضَلُ مِنَ القِرَاءَةِ بِلَا تَدبّرٍ والصّلاةُ بِخُشُوعٍ وحُضُورِ قَلْبِ أفْضَلُ مِنَ الصّلاةِ بِدُونِ ذلِكْ .

٦ ـ اسْتِحْبَابُ تَحْسِينِ الصَّوْتِ في التّلاوَةْ :

يُسْتَحَبّ لِقَارِىءِ القُرْآنِ أنْ يُحْسِّنَ صَوْتَهُ بالْقِراءَةِ، لِأَنَّ تَحْسِينَ الصّوتِ بالْقِرَاءةِ مُعِيْنٌ عَلى حُضوُرِ الْقَلْبِ وَخُشُوعِهِ وبَاعِثٌ علَى حُسْنِ الاسْتِمَاعِ والاصْغاءِ إلى القُرْآنِ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رضْيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسَلّمُ : « لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يَتَغنَّ بالْقُرْآنِ » رَواهُ البخاري . وعنْهُ قالْ : قالَ رسولُ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّمْ : « ما أَذِنَ اللهُ لِشَيءٍ كما أذِنَ لِنَبِيٍ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنّى بالقُرآنِ ويَجْهَرُ به » متفق عليه .

قالَ جمُهورُ العُلماءِ : مَعْنَى (لَمْ يَتغَنَّ) ، أَيْ لَمْ يُحَسِّنْ صَوْتَهُ .

وَعَنِ البَراءِ بْنِ عَازِب ـ رَضْيَ اللهُ عَنْه ـ أنَّ النّبيَ صلّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ قال : « زَيّنُوا القُرْآنَ بأصْـواتِكُمْ » رواهُ أحمدُ وأبـوُ داودَ وابْنُ ماجـه والدّرامي .

وعَنْه أيْضاً قَالْ : سَمِعْتُ رَسولَ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ يقولْ : « حَسّنُوا الْقُرْآن بِأصْواتِكم ، فإنّ الصَّوْتِ الْحَسَنَ يزيْدُ القرآنَ حُسْناً » رواه الدرامي .

وَرَوى مُسْلِمٌ في صَحْيحَهِ عن أَبِي مُوسَى الأشعري ـ رَضْيَ اللّه تعَالى عَنْهُ ـ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لأبِي موسى : « لَوْ رَأيْتني وَأنا أسْتَمِعُ لِقَراءَتِكَ الْبَارِحَةْ ، لَقَدْ أُوْتِيْتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزامِيرِ آل داوِدْ » ، قالَ العلماءُ المُرَادُ بالمِزْمَارِ هُنَا الصَّوتُ الحَسَنُ .

اللهمَّ قابلْ سَيْئاتِنَا باحْسَانِك ، واسْتُر خَطيْئتِنَا بِغُفْرَانِكْ وأَذْهِبْ ظُلَمةَ ظُلْمِنَا بِنُورِ رِضْوَانِكْ ، واقْهَر عَدُوَّنا بعِزِّ سُلْطَانِكْ ، فَمَا تَعَوَّدَنا مِنْك إلَّا الْجَميلْ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوالِدِينَا ولجميعِ المسلمينَ الاحياءِ منهم والميتينْ ، بِرَحَمَتِكَ يا أرْحَمَ الراحمينَ ، وصلى الله على محمدٍ وآلهِ وصحَبـهِ أجمعين .

٧ ـ يَنْبَغِي الخُشوعُ والخَشْيةُ والبُكاءُ عِنْدَ تِلاوةِ كِتابِ اللّهِ تعالى :

وَيُسْتَحبُ البكاءُ عِنْدَ تلاوةِ القرآنْ،وَهُوَ صِفَةُ الْعَارِفِيْنَ وَشَعَارُ عِبادِ الله الصالحين ، قَالَ اللهُ تعالى في وَصفِ الخاشِعينَ مِنَ عَبادِه عِنْدَ تلاوةِ كِتابه : ﴿إِنَّ الذينَ أوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ اذا يُتْلَى عليهِمْ يَخِرُّونَ لِلاذَقانِ سُجَّدَا ، وَيقُولُونَ سُبْحانَ ربّنَا إنْ كانَ وعدُ ربنا لَمَفْعُوْلاَ ، وَيَخِرُّونَ

لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ، وَيَزِيْدُهُم خشوعا﴾ سورةَ الإسْرَاء .

وَلمَّا ذَكَرَ تعالى الأَنْبِيَاءَ الْمُكَـرمِيْنَ وَخَواصَّ المُـرْسَلِين ، وَذَكَرَ فَضَائِلَهُمْ وَمَرَاتِبَهُمْ أخْبَرَ أنَّهُمْ كانُوا إذا تُتْلَى عليهم آياتُ الرَّحمنِ (خَرُّوْا سُجَّداً وبُكيًّا) وقال اللهُ تعالى : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ كِتَاباً مُتشابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جلودُ الذينَ يَخْشَون رَبَّهم ثم تَلِيْنُ جُلودُهُمْ وقُلُوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ﴾ .

وقَدْ وَرَدَتْ فيهِ أَحَاديثُ كَثيْرَةٌ ، وآثارٌ لِلسَّلف ، فَمِنْ ذَلكَ ما وَرَد عن النبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلم أنهُ قالْ : « اقْرَأُوا القُرْآنَ وابْكُوا ، فإنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَباكَوْا » وعنْ عبدِ اللّهِ بنِ مَسْعُودٍ ـ رضيَ اللهُ عنهْ ـ قالْ : قالَ لِي رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم : « اِقْرَأ عَليَّ » قُلْتُ : أأقْرأ عَليْكَ وعَليْكَ أنْزِلْ ؟! قالْ : « فَإنِّي أُحِبُّ أنْ أَسْمَعَهُ مِن غَيْري » فَقَرأْتُ مِن سورةِ النِّسَاءِ حتى أتَيْتُ إلى هذِه الآية : ﴿فَكيفَ اِذَا جِئْنَا مِنْ كلِّ أمةٍ بِشَهيدٍ ، وَجِئْـنَا بِكَ على هَؤلاءِ شَهيْدَا﴾ قـالْ : « حَسْبُكَ الآنَ » ، فالْتَفَتُّ اليهِ فاذا عَيْنَاهُ تَذْرُفانِ . مُتَّفق عليه .

وعنْ مُطرِفِ بنِ عَبْدُ اللهِ بنُ الشِّخِّيْرِ عَنْ أبيهِ قالْ : رَأَيتُ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم يُصَلي وفي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المُرْجَلِ مِن البُكاءِ ، أخْرجهُ الخمسةُ إلا ابنَ ماجه وصَحَّحَهُ ابنُ حِبّانْ .

وَلمَّا اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللّه صلى الله عليـه وسلم وَجَعَهُ قِيْـلَ لَهُ الصَّلاةَ ، فَقالَ : « مُرُوا أبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالناسِ » ، قالتْ عَائِشَةَ إنَّ أبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ اِذا قَرأ غلبهُ البُكَاء ، قَالْ « مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ » رواهُ مسلِّم .

وَعَنْ عُمَرَ ـ رضي اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ صلَّى بالجَمَاعَةِ الصُّبْحَ ، فقرأ سورةَ يُوسُفَ فبَكى حَتى سَالَتْ دُمُوعُهُ ، وفي رِوَايةٍ : أَنَّهُ كانَ في صَلاَةِ العِشَاءِ ، وفي رِوَايَةٍ : أَنَّهُ بَكَى حَتَّى سَمِعُوْا بُكَاءَهُ مِنْ وَرَاءِ الصُفُوفِ .

وَقَرأ عُمَرَ بنُ عبدِ العزيز بالنَّاسِ ذَاتَ لَيْلَةٍ واللَّيْلِ اذا يَغْشِى فَلَّما بَلَغَ فـأَنْذَرْتُكَمْ نَاراً تَلَظَى خَنَقَتْهُ العَبْرَةُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْفُذَهَا فَرجع حَتى إذا بَلَغهَا خَنَقْتهُ الْعَبْرَةُ فَلمْ يَسْتَطِع أَنْ يَنفُذهَا فقَرأ سُوْرَةَ غَيْرَها .

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكونَ ذَلِكَ حَالُ العُلَمَاءِ فَقَدْ أخْرَجَ ابنُ جَرِيرٍ وابنُ المُنذرِ وَغَيرُهمَا عن عبدِ الأعْلَى التَّيْمِيْ ، أنهُ قالْ : اِنّ مَنْ أوْتِيَ مِنَ العلمِ مَالاَ يُبْكِيهِ لخَلِيْقٌ أَنّ قَدْ أوتِيَ مِن العلم مَالا يَنْفَعة ، لأَنَّ الله تعالَى نَعَتَ أهلَ العلمِ فَقالْ : « وَيَخِرُّونَ للأذقانِ يَبْكُوْنَ » وقال صلى اللهُ عليهِ وسلم لَا يَلِجُ النَّارَ مَن بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعودَ اللَّبن في الضَّرع الحديث رواهُ الترمذي وقال صلى اللهُ عليه وسلم عَيْنَانِ لَا تَمَسَّهُمَا النارْ عَينٌ بَكَتْ مِن خَشْيَـةِ اللهِ وعَينٌ باتتْ تَحْـرِسُ فِي سَبِيلِ اللهِ رواهُ الترمذي .

وَيُسْتَحَبُّ إذَا مَرَّ بِآيةِ رَحْمَةٍ أَنْ يَسْأل اللَّه من فَضْلِهْ ، وإذَا مَرَّ بآيةِ عذابٍ أَنْ يَسْتَعِيذَ باللهِ مِن الشّرّ أو مِنَ العذابِ ، أو يقول : « اللهمَّ انِّي أسألك الْعافِيَة » أوْ يَقُولَ : « أسأَلُكَ المُعافاةَ مِن كُلّ مَكْرُوهٍ » أو نحوِ ذَلك .

واذَا مَرّ بآيةِ تَنْزِيْهٍ نَزَّهَ اللَّه تعالى فَقالْ « سُبحانَهُ وتَعالى » أوْ « تَبَارَكَ وَتعالى » أوْ « جَلّتْ عظَمَةُ رَبّنا » ، فَقَدْ صَحَّ عنِ حُذَيفَة بن الْيَمانِ ـ رَضي اللهُ عَنْهُ ـ أنهُ قَالْ : صَلَّيْتُ مَعَ النبيِّ صلى الله عليهِ وسلم ذات لَيْلَةٍ

فافْتَتَح البَقَرة ، فَقلتُ يَرْكَعُ عِنْدَ المائِةْ ثُمَّ مَضَى ، فَقَلْتُ يُصَلِّي بِهَـا في رَكعَةٍ فَمضى ، ثُمَّ افْتَتَحَ آل ِ عِمْرَانِ فَقرأَهَا ثُمَّ افْتَتح النّساءِ فَقرأَها ، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً إِذَا مَرَّ فيها بِتَسْبِيح سَبَّحْ ، واذَا مَرَّ بسؤ آل ِ سَألْ وإذَا مَرَّ بِتَعُّوذٍ تَعَوَّذْ ثَمَّ رَكَعْ . رواه مسلم .

موعظة

عَبَادَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَعْظِيم رَبِّنَا جَلَّ وَعَلا تِعْظِيمُ كُتُبِه وَرُسُلِه وَذَلكَ مِنْ أصول ِ الايمانِ فَمَن اسْتَخَفَّ بكتابِ اللهِ أو آيةٍ مِنْهُ أو اسْتَخَفَّ بِرُسُلِهِ خَسِرَ كُلَّ الْخُسْرَانِ عِبَادَ اللهِ أيْنَ الْغَيْرَةُ الدِّينِيَّةُ كُلَّ يوم ٍ نَجْدُ الكُتَبَ التي تَحْتَوي على التَّوْحِيدِ وَعَلى الآياتِ مِن كتابِ اللهِ وعلى الأحاديثِ الشريْفةِ مُلْقات مَعَ القَمَائم ِ وفي الْحُفَرِ الْقَذِرَةِ تُدَاسُ بالنِّعال ِ وَتُلَوَّثُ بالأقْذارِ تُلَوَّثُ تَلوْيثاً تَسْتَغِيثُ مِنْهُ العوَاطِفُ الايْمَانِيْةِ أليْسَ هَذَا مِن المُنْكَرَاتِ لِمَاذَا لا تُصَانُ وتُرْفَعُ أوْ تُقْبَرُ في مَحِّل ٍ طَاهِرٍ .

قُوْلُوا لِمَنْ يُلْقِيْهَا وَلِمَنْ يَقْدِرُ على مَنْعِهِمْ مِن الْقَائِهَا اتَّقُوا اللَّهَ هَذِهِ حالةٌ واللهِ تُؤْلِمُ النفوسَ وتُشْمِتُ بِنَا الأعداءَ قُوْلُوا لَهُمْ كيفَ تسْمَح نُفُوسُكُمْ تُلْقُونَهَا هَذَا الالْقَاءِ الْحَقِيرَ وَكَذلِكَ كُتُبُ فِقْهٍ وانْ لَمْ يَكُنْ فِيْهَا آياتٌ وَلاَ أَحَادِيْثُ يَنْبَغِي احْتَرامُهَا وَرَفْعُها .

وكذلِكَ يَنْبَغِي التَّنْبِيْهِ على بَعْضَ الكُتُبِ التي جُمِعَ والْعِياذُ باللهِ بِهَا مَعَ الآياتِ الْقُرآنيةِ والأحاديثِ النبويةِ صُوَرُ ذَواتِ الأرواحِ ِ وقد تكونُ فوقَ الآيةِ خُصُوصَاً إِذَا أطْبِقَ الكتابُ وَهَذَا واللّه اسْتِهَانَةٌ عَظِيْمَةٌ وَاسْتِخْفَافُ بالآياتِ والآحاديثِ والكُتُبِ الدِّينيةِ لاَ يَجُوزُ السّكوتُ على هذهِ الحالةِ المُزْرِيَةِ .

وَمِمَّا يَنْبغي التَّنْبيهُ عَلَيْهِ هُوَ عَدمُ وَضع الآيـاتِ والأحَادِيْثِ في الجَرَائِدِ بَلْ يشارُ إلى مَحَلاَّتِها وأَرْقَامِها لأَنَّ الجَرائدَ صارَتْ قِسْمٌ كبيرٌ مِنْ قُمَامَةِ المَحلاَّتِ وَفِيهَا صُورُ ذواتِ الأرْوَاحِ وهذِهِ حَالةٌ مُخِيْفَة إنْ دَامَتْ مَعَ مَا انْتَشَرَ مِن المُنْكَراتِ والمَعاصِيَ الَّتِي مَلأتِ البرَّ والبَحْرَ يُخْشَى أنْ تُحِيْطَ بِهِمْ عُقُوبَتُهَا .

نسألُ اللَّه أنْ يُنَجِّيْنَا مِنْ عُقوبَتِهَا وأنْ يُوْقِضَ وَلاَتَنَا وَيُنَبِّهَهَمْ لاِزَالَتِهَا وَتَطْهِيرِ الأرضِ مِنْهَا إنَّهُ القَادِرُ على ذَلِكَ وَلاَ أَرَى مَخْلِصاً لِلانْسَانِ الذي قَدْ ابْتُلَى بِشِراءِ الجريدةِ حَمَّالَةِ الْكَذِبِ قتَّالةِ الوَقْتِ إلاّ أنَّهُ يُحْرِقُهَا مِنَ حِينَ يَخْلَصُ مِنْ قِرَاءتِها لِيَسْلَمَ مِن باقِي شُرُورِها وَأُوزَرَارِها .

وَسَوْفَ يُنَاقَشُ عَنْهَا يومَ القيامةِ عَنِ الوَقْتِ الَّذِي ضَيَّعَهُ فِيها والمالُ الذي أنفقهُ فِيها وَما حَصَل بِسَبَبِهِ على الآياتِ والأحاديثِ الَّتِي فِيهَا مَنْ الاسْتِهَانَة والامْتِهَانِ واخْرَاجِ الملائِكَةِ عن الْمَحَلِّ الَّتِي وَضَعَهَا فِيه إذا كانَ فِيهَا صُوَرِ ذَواتِ الأرْوَاحِ حَيثُ أنَّ الملائِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ صُورَةَ .

قَالَ بَعْضُهُمْ :

شِعْرا :

أَلاَ ارْعِـوَاءَ لِمَنْ كَـانَتْ اِقَـامَتُـهُ
عِنْـدَ الْـمَذَابِيْـعِ والتِّلْفَـازِ والـطَّرَبِ
مُضَيِّعَـاً فِيْهَـا عُمُـراً مَـا لَـهُ عِـوَضٌ
إذا تَـصَـرَّمَ وَقْتٌ مِـنْـهُ لَـمْ يَـؤُبِ

أَيَحْسِبُ الْعُمْـرَ مَـرْدُوداً تَصَــرّمُـهُ
هَيْهَاتَ أنْ يَرْجِعَ الماضِي ِ مِنَ الْحُقُبِ
أَمْ يَحْسَبُ العُمْــرَ مَــا وَلَّتْ أَوَائِلُهُ
يُنَـالُ بَعْـدَ ذَهَـابِ الْعُمْـرِ بِـالـذَّهَبِ
فَبَادِرِ الْعُمْـرَ قَبْـلَ الفَـوْتِ مُغْتَنِمــاً
مَا دُمْتَ حَيَّاً فانَّ الموتَ في الطَّلَبِ
وَأحْرِصْ وبَادِرْ اِذَا مَا أُمكَنَتْ فُرَصٌ
في كَسْبِ مَا تُحْمَدَنْ عُقْبَاهُ عَنْ رَغَبِ
مِنْ نَفَعِ ذِي فَاقَهٍ أوْ غَوْثِ ذِي لَهَفٍ
أوْ فِعْلِ بِرٍّ واصْـلاَحٍ لِـذِي شَغَبِ
فَـالْعُمْــرُ مُنْصَـرِمٌ والـوَقتُ مُغْتَنَـمٌ
والـدَّهْرُ ذُو غَيـرٍ فـاجْهَـدْ بِـهِ تُصِبِ
فأعْمَلْ بِقَـوْلِي وَلاَ تَجْنَحْ إلى فَـدَمٍ
مُـخَـادِعٍ مُــدَّعٍ لِـلْعِـلْمِ والأدَبِ
يَرَى السَّعادَةَ في كَسْبِ الحُطَامِ وَلَوْ
حَـوَاهُ مَعَ نَصَبٍ مِنْ سُـوءِ مُكْتَسَبِ
فَـالرَّأيُ مـا قُلْتُهُ فـاعْمَل بـهِ عَجِـلاً
وَلاَ تُصِخْ نَحْوَ فَدْمٍ غَيْرِ ذِي حَدَبِ
فَغَفْلَةُ الْمَــرءْ مَــعَ عِلْمٍ وَمَعْــرِفَــةٍ
عَنْ واضحٍ بَيِّنٍ مِنْ أَعْجَب العَجَبِ

واللهُ أعلمْ وصلى الله على محمدٍ وعَلى آلِهِ وسلمِ .

(فصل)

٨ مَا وَرَدَ في تَعَاهُدِ القرآنِ الكريمْ ، والتَّرْهِيبِ مِنْ نِسْيَانِهِ ، والاعْرَاضِ عِنْه :

يُسَنُّ خَتْمُهُ في كلِّ أسْبُوعٍ لِقولِه صلى اللهُ عيهِ وسلمْ لِعبدِ اللَّه بن عَمْرو ـ رضي اللهُ عَنْهُمَا ـ : « واقْرَأْ في كلِّ سَبْعِ لَيالٍ ولا تَزد عَلى ذلك » متفق عليه .

قالَ عَبْدُ اللّهِ بنُ أحْمَدَ بن حَنْبل ـ رَحِمَهما الله ـ كَانَ أبي يَخْتِمُ القرآنَ في النَّهارِ في كلِ أُسْبُوعْ ، يقرأُ كُلَّ يومِ سُبْعاً لَا يكادُ يتْرِكَهُ نَظَراً لقولِه صلى الله عليهِ وسلم لِعَبدِ الله بن عَمْرو ـ رضي الله عَنْهُمَا ـ : « واقرَأْ في كِلِّ سَبْع » ، وانْ قَرأ في ثِلاثٍ فَحَسَنْ ، لِمَا وَرَدَ عن عبدِ اللهِ بن عَمْرو ـ رضي الله عَنْهُمَا ـ قُلْتُ يا رسولَ اللّهِ ، إنَّ لِي قُوَّةً ، قَالْ : « اقْرَأْ في كُلِّ ثلاثٍ » رواهُ أبُو داودْ ، وَلَا بَأسَ فِيمَا دُونَها أحْياناً ، وفي الأوْقاتِ الفَاضِلِةِ كَرَمَضانَ ، خُصوصاً اللَّيالِيَ التَّي تُطْلَبُ فِيها لَيْلَةُ القدر .

وَيَنْبَغي لِقَارِىءِ القُرْآنْ أنْ يَتَعَّهدَهُ بالْحِفْظِ والْمُداوَمَةِ عَلى تَلَاوتِهِ ، وليَحْذرْ كُلَّ الْحَذَرِ مِن هِجْرَانِه وترْكِ التَّعَهُّدِ لَهُ ، فَيَتَعَّرضَ بِذلِك لِنِسْيَانِهِ وَتَرْكِ العَمَلِ بِهِ الّذي هُوَ مِن أعْظَمِ الذُّنوبِ .

قالَ ابنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ الله : هَجْرُ القُرْآنِ أنْوَاعْ :

أَحَدُهُمَا : هَجْرُ سَمَاعِهْ ، والايمانِ بهِ ، والإِصْغاءِ إليْهِ .
والثَّاني : هَجْرُ العَمَلِ بِهِ والوُقوفِ عِندَ حَلالِهِ وحَرامِهْ ، وإنْ قَرأهُ وآمنَ بِهِ .

والثالثْ : هَجْرُ تَحْكِيمِهِ والتَّحَاكُمِ اليهِ في أُصولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ واعْتِقَادِ أنَّهُ لا يُفِيدُ اليَقينِ وأنَّ أدلّتهُ لَفْظِيَةَ لا تُحَصِّلُ العِلمَ .

والرَّابعْ : هَجْرُ الاسْتِشْفَاءِ والتَّداوِي بِهِ في جَمِيْعِ أَمْرَاضِ القُلوبِ وأدْوَائِها ، فَيَطْلُب شِفَاءَ دَائِه مِنْ غيْرِهِ وَيَهجُرُ التَدَّاوي بهِ .

والخامِسُ : هَجْر تَدَبُّرِهِ وَتَفهُّمِهِ وَمَعْرِفَةِ مَا أَرادَ المُتَكَلِّمِ مِنْهُ .

وَكُلُّ هَذَا دَاخِلُ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآنَ مهجورا ﴾ .

وَرَوَى الامامُ أحمدْ ـ رضيَ اللهُ عَنْهُ ـ مِنْ حديثِ سَمُرَةْ : أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأى رَجُلاً مُسْتَلْقِياً عَلَى قَفَاهُ ، وَرَجُلاً قَائِماً بِيَدِهِ فِهْرٌ أوْ صَخْرَةٌ فَيَشْدَخُ بِهَا رَأْسَهُ : فَيَتَدَهْدَهْ ، فَاذَا ذَهَبَ لِيَأْخُذَهُ عَادَ رَأْسَهُ كَمَا كانَ فَيَصْنَعُ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَسَأَلَ عَنْهُ ، فَقِيْلَ لَهُ : رَجُلٌ أتَاهُ اللهُ القُرْآنَ فَنامَ عَنه بالليْلِ وَلَمْ يَعْمَل بِهِ بِالنَّهَارْ ، فَهْوَ يَفْعَلُ بِهِ ذلِكَ إلى يومِ القيامَ .

وَفي حدِيثِ عَمْرو بن شُعَيْب مَرْفُوعاً : « يُمَثَّلُ الْقُرآنُ يومَ القِيامَةِ رَجُلاً فَيُؤْتَى بالرَّجُلِ قَدْ حَمَلَهُ فَخَالَفَ أمْرَهُ فَيَتَمَثَّلُ لَهُ خَصْماً ، فَيَقُولُ : يا رَبْ ، حَمَّلْتَهُ إيَّايَ فَبِئْسَ حَامِلٌ تَعدَّى حُدُودِي ، وَضَيَّع فَرائِضِي ، وَرَكِبَ مَعْصِيَتِي وَتَرَكَ طَاعَتِي ، فَمَا يَزَالُ يَقْذِفُ عليهِ بالحُجَجِ حَتَّى يقالُ شَأنَكَ بِهِ فَيَأخُذُ بِيَدِهِ فَمَا يُرْسِلَهُ حَتَّى يُكِبَّـهُ على مَنْخِرِهِ في النَّـارِ» الحديث .

وعَنْ سَعْدِ بنِ عُبادَةَ ـ رِضَى اللهُ عنهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) « مَا مِنْ إمْرِىءٍ يَقْرَأُ القرآنَ ثُمَّ يَنْسَاهُ إلَّا لَقِيَ الله يومَ القيامَةِ أجْذَمْ » رواهُ أبو داوُد .

وَعَنْ أبي مُوْسَى الأشْعَرِي ـ رِضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبي صلى اللهُ عليه وسلَّمَ أنهُ اَلْ : « تعَاهَدُوا هَذَا القرآنْ ـ فوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهْ ـ لَهْوَ أشَدَّ تَفَلّتاً من الإِبِلِ مِنْ عُقُلِهَا » رَواهُ البخاري ومسلمَ ، وعن ابن عُمَر ـ رضِيْ الله عنْهُما ـ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمْ قالْ : إنَّما مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كمَثَلِ الأبلِ المُعَلَّقَةْ إن عَاهَدَ عِلْيَها أمْسَكَهَا وإنْ أطْلَقَها ذَهَبَتْ ، متفق عليه .

قال ابنُ عباس ـ رضي اللهُ عَنْهُما ـ تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ القرآنَ وَعَمِلَ بِمَا فيه أنْ لَّا يَضِلَّ في الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى في الآخِرَةِ ، ثُمَّ قَرَأَ قولَهُ تَعالى : ﴿فإمَّا يأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَيٌّ فَمَنْ اتَّبعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أعْرَضَ عَن ذِكري فإنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكَاً وَنَحْشُرُهُ يومَ القيامَةِ أعمى قالَ رَبِّ لِما حَشَرْتَنِي أعْمَى ، وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرا قال كذلِكَ أتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وكذلكَ اليومَ تُنْسَى﴾ أ هـ .

وَرَوَى أنسٌ ـ رضْيَ اللهُ عَنه ـ أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم قالْ : عُرضَتْ عَلَيَّ أجُورَ أمَّتي حَتَّى الْقِذاةَ يُخْرِجُهـا الرَّجُـلُ مِن المسجدِ وَعُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبَ أمتي فلمْ أَرَ ذَنْبَا أعْظَمَ مِنْ سُوْرَة مِن القرآنِ أوْ آيَةٍ أوْتِيهَا الرَّجُلَ ثُمَّ نَسِيَها ، ويا للأَسفِ اسْتَبْدَلُوا الخَبِيْث بالطَّيِّبِ أَكَبُّوا على الجَرائِدِ والمجلّاتِ والكُتُبِ الخَلِيعَاتِ بَدَل تِلَاوَةِ كِتَابِ الله فَلا حَوْلَ ولا قُوةَ الاّ باللهِ العلي العظيم : وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكِيْل .

وَفي الحديثِ الذي رَواهُ التّرمِذِيُ وَغيْرُه عَنْ عَليْ - رَضْيَ اللهُ عَنْهُ - قالْ: قَالَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «إِنَّها سَتكُونُ فِتَنٌ، قُلْتُ: فَمَا الْمُخْرِجُ مِنْهَا يا رَسُولَ الله؟ قالَ: كِتَابُ اللهِ فيْهِ نبأ ما قبلكم وَخبَرُ ما بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ ما بيْنَكُمْ، هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بالهَزْلِ مِنْ تركَهُ مِنْ جبَّارٍ قَصمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغى الهُدَى في غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِيْنُ وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيْم وَهُوَ الصِّراطِ المُسْتَقِيْم، وَهُوَ الذِي لَا تَزِيْغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسُنُ، ولا تَنْقَضِيْ عَجَائِبُهُ ولا تَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَآءُ مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعى إِلَيْهِ هُدِيَ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ».

إِذَا فَهِمْتَ ذلِكَ فاعْلَمْ أنَّ القرآنَ قَدْ بُيِّنَ فِيهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إليهِ العِبادَ مِن أُصُوْلِ الدِّينِ وفُرُوعِهِ وأحكامِ الدّارَيْنِ حَتَّى أَنَّهُ تَعالَى يُثَنِّي الأمُور الكِبَارَ التي يَحْتَاجُ القَلْبُ لِمُرُورِهَا عليهِ كُلَّ وَقْتٍ وإِعَادَتِهَا في كلِّ سَاعَةٍ بألفاظٍ مُخْتَلِفَةٍ وأدلةٍ مُتَنوِّعَةٍ لِتَسْتَقِرَّ في القلوبْ.

قَالَ تعالى لِرَسُولِهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمْ: «وأنْزَلنا اليْكَ الذِّكْر لِتُبَيِّن لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلـيْهِمْ وَلعَلَّهُمْ يَتفكَّرُونَ» وَقَالَ «وأنزلنا عليك الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شيءٍ» وقالَ تَعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيْلًا﴾ فَفِيْهِ بَيَانُ الحلالِ والحرامِ والثَّوابِ والعِقَابِ وَهُدىً مِن الضَّلَالَةِ رَحْمَةً لِمَنْ صَدَّقَ بِهِ وَعَمِلَ فِيهِ وَحَكَّمَهُ في الدَّقِيْقِ والْجَلِيْلِ والوَيْلُ لِمَنْ رَجَعَ إلى القَوانِينِ وَتَركَهُ فَكُلُّ حُكْمٍ سِوَى حُكْمِ اللهِ فَهْوَ باطِلٌ مَرْدُود وَكُلُّ حَاكِمٍ بِغَيْرِ حُكْمِهِ وَحُكْمِ رَسُوْلِهِ فَهُوَ طَاغُوْتُ كَافِرٍ باللّهِ وَمَا أَكْثَرَ في هذا الزَمنِ. الَمُحَكِّمِينَ لِلْقَوانِيْنِ الْوَضْعِيَّةِ والأَنْظِمَةِ الحَالِيَّةِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُمُ

الكافِرون﴾وَهَذا عامٌ شَامِلٌ فَمَا مِنْ قَضِيَّةٍ الاّ وَلِلَّهِ فِيْهَا حُكْمٌ،قالَ اللهُ تَعالى ﴿ مَا فَرَّطْنا في الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ ﴾ وَقَالَ تعالَى : ﴿ اليومَ أكْمَلْتُ لكم دينَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعمتي ، فَهَذِهِ الآيةُ الجَلِيْلَةُ القَدْرِ عَظِيْمَةُ الموقِعْ كَبِيْرَةُ الفَائِدَةْ حَسَنَةُ المِغْزَى اخْتَارَهَا الرَّبُّ سَبْحَانَهُ وَتعَالَى لِيَخْتِمَ بِهَا كِتَابَهُ الكَرِيْمَ وَوَحْيَهُ المعْجِزَ وأحكامَ شَرِيْعَتِهِ السَّمْحَةِ وَدِيْنَهُ الحَنِيْفْ .

وَمِنْ مَزَايَا هَذِهِ الآيةِ الكَرِيْمَةِ التي انْفَرَدَتْ بِهَا عَمَّا بَقِيَ مِنْ السُّوَرُ والآياتِ أنَّ اللهَ أكْمَلَ بِهَا الدِّينَ بِمَعْرِفَةِ الأَحْكَامِ الشَّرعِيَةِ ، مِن الفرائِضِ والسُّنَنِ والحُدودِ والأحكامِ وَالحلالِ والحرامِ وَلَمْ يَنْزِلُ بَعْدَهَا حلالٌ ولاَ حَرَامٌ ولاَ شَيْءٌ مِنَ الفَرائِض وأتمّ بِهَا النعمَةُ على عِبَادِهِ المؤمِنِينَ بِهداَيَتِهِم لِأحكامِهِ وتَوْفِيْقِهِم لِمَعْرِفَةِ أمرِهِ ونَهْيِهِ وحلالِهِ وحَرَامِهِ وانجازِهِ سُبْحَانَهُ ما وَعَدَهُمْ بِهِ في قولِهِ ﴿وَلِأُتُمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُم ﴾ .

فَكَانَ مِنْ تَمامِ نِعْمَتِهِ أنْ دَخلُوا مَكَّةَ آمِنِيْنَ وَحَجُّوا مُطَمئِنِيْنَ لَمْ يُخَالِطُهُمْ أحدٌ مِن المشْرِكِيْنَ وأنَّهُ سُبْحَانَهُ اخْتَارَ لِهَذِهِ الأُمَّةَ دِيْنَ الاسلامِ ومِلَّةَ إبْراهِيْمَ عَلَيْهِ السلامُ عن الأدْيَانِ كُلِّهَا بياناً لِشَرفِ هَذا الدِّيْنِ واعْتِنَاءً بِأمَّةِ مُحَمّد صلى اللهُ عليهِ وسلم وَحَسْبُنا مِن ذلِكِ قولُهُ تعالَى ﴿ إنَّ الدِّينَ عِند اللهِ الاسلامُ ﴾ وَقولُهُ تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الاسلامِ ديناً فلن يُقْبلِ مِنهُ وهْوَ في الآخِرَةِ من الخاسِرين ﴾ .

وَهَـذَاْ ما دَعَا كعبُ الأحبارُ وذلك قَبْل أنْ يُسْلِمَ وكانَ مَعَهُ نفرٌ مِن اليهودِ أن يقول لِخليفةِ المسلمينَ عَمَرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه يا امير المؤمنينَ آيةٌ في كتَابِكم تقرؤنَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَر اليهودِ نَزَلَتْ لاَتَّخذْناها عِيْدَا وأقمْنا لَهَا مُحْتَفَلاً في كل عامِ نُجَدِّدُ ذِكراها ونَتَدارسُ فضَائِلَهَا

الكثيرةِ وذِكْرَيَاتِهَا العَطِرَةْ .

فَيَبْتَدِرُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي اللهُ عنه قائلاً : أيُ آيةِ هِي قَال كَعْبٌ : « اليومَ أكملتُ لكم دِينَكُم وأتْمَمْتُ عليْكُمْ نِعْمَتِي ورضِيْتُ لكُمُ الاسْلاَمَ دينا » فَيُجِيْبُهُ أميرُ المؤمنينَ بِكُلِّ تؤُدَةٍ وَسَكِيْنَةِ قائِلاً قَدْ عَرفْنَا ذلِكَ اليومَ والمكانَ الذي نَزلَت فيهِ على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلمْ وَهْوَ قائمٌ بِعَرفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ وفي روايةِ اسحاقَ بنِ قَبِيْضَةَ نَزلَتْ يَوْمَ جُمُعَةٍ يوْمَ عَرفَة وكِلاَهُمَا بحَمْدِ اللهِ لنا عَيْدَاً أ هـ .

وَمِنَ الأدلَةِ على وُجُوبِ الرُّجوعِ إلى الكِتَابِ والسَّنةِ عِنْدَ التَّحَاكُمِ ما يلي :

قال تعالى ﴿ وَنَزَّلنا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِ شَيْءٍ ﴾ .

وقالْ فإنْ تَنَازَعْتُم في شيءٍ فَرُدُّوهُ الى اللهِ والرسولِ انْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ بِاللهِ الآية .

وقال تَعالى فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ الآية .

وقالَ تعالى اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إليكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُوْنِهِ أوْلِيَاءَ .

وقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « تَركْتُكُمْ على الْمَحجَّةِ البَيْضَاءِ لَيْلُها كَنَهارِهَا ، لاَ يَزِيْغُ عَنْهَا بَعْدِيْ إلاَّ هَالكٌ » وقالَ فِيْمَا صَحَّ عنه « مَا بُعِثَ مِن نَبيٍّ إلاّ كانَ حقاً عَلَيْه أنْ يَدُلَّ أمَّتَهُ على خَيْرِ ما يَعْلَمَهُ لهُمْ وَيَنْهاهُمْ عن

شَرٍّ مَا يَعْلَمَهُ لَهم » وقالَ أبو ذَرْ : لَقَدْ تُوُفِّي رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَناحَيْهِ في السَّماءِ الا ذَكَرَ لَنا مِنْهُ عِلْمَا .

ولا شَكَّ أنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ كِتَابِ اللهِ وَسَنَّةَ رَسُوْلِهِ وَاعْتَاضَ عَنْهُمَا بالقَوانِيْنِ الوضْعِيَّةِ أنَّهُ كافرٌ كُفْرٌ نَاقلٌ عَنِ المِلَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَكَذَا مَنِ اسْتَهْزَأَ بالقُرْآنِ أو طَلَبَ تَنَاقُضَهُ أو دَعْوَى أَنَّهُ مُخْتَلِفٌ أوْ مَخْتَلِقٌ أَوْ أثْبَتَ شَيْئاً نَفَاهُ القُرْآنُ أوْ نَفَا ما أثْبَتَهُ القُرْآنُ فَقَدْ كَفَرَ قَالَ تَعالَى ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ على أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لا يأتون بِمِثْلِهِ ﴾ . وَقَالْ ﴿ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غير اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ إخْتِلَافاً كَثِيْراً ﴾ . وَلَا خِلَافَ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ في أَنَّ مَنْ جَحَدَ مِنَ القُرْآنِ سُوْرَةً أَوْ آيَةً أو كَلِمَةً أَوْ حَرْفَاً مُتَّفَقاً عَلَيْهِ أَنَّهُ كَافِرٌ وَقَالَ عَلِيٌّ مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلِّهِ .

وَكَذَا مَنْ زَعَمَ أنَّهُ يَسَعُهُ الخُروجُ عَنْ شَرِيْعَةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلمْ ، كَمَا وسِعَ الخَضْرُ الخروجُ عن شَرِيْعَةِ مُوسى . أوْ زَعَمَ أنَّ هَدْي غيرِ مُحَمَّدٍ أفْضَلُ مِنْ هَدْيِهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم أوْ أَحْسَنْ ؛ أوْ زَعَمَ أنَّهُ لا يَسَعُ النَّاسَ في مِثْلِ هذهِ العُصُورِ إلَّا الخروجُ عن الشريعةِ ، وأنَّها كانَتْ كافيةً في الزَّمَانِ الأوَّلِ فَقَطْ وأمَّا في هَذهِ الأزْمِنَةِ فَالشَّرِيْعَةُ لا تُسَايِرُ الزَّمَنَ ولا بُدَّ مِن تَنْظِيْمِ قوانِينَ بِمَا يُنَاسِبُ الزَّمَنُ ، فَلَا شَكَّ أنَّ هَذَا الأعْتِقَادَ إذا صَدَرَ مِنْ انْسَانٍ فإنَّهُ قَدْ اسْتَهَانَ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةُ رسولِهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّم وتَنَقُّصَهُمَا ، وَلَا شَكَّ في كُفرِهِ وخُروجِهِ مِن الـدِّينِ الاسلامِي بالْكُلِّيَّةْ .

وكَذلِكَ مَنْ زَعَمَ أنَّهُ مُحْتَاج لِلشَّرِيعَةِ في عِلْمِ الظَّاهِرِ دوُنَ الْباطِنْ ، أَوْ في عِلْمِ البَّاطِنِ فَقطْ أوْ في عِلْمِ الشَّرِيْعَةِ دُوْنَ عِلْمِ الحَقِيْقَةِ أوْ أنَّ

هذِهِ الشَّرائِعِ غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ بِدِينِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ إسْتَهانَ بِدِينِ الأسْلَامْ ، أَوْ تَنَقَّصَهُ أوْ هَزَلَ بِهِ أوْ بِشَيْءٍ مِن شَرَائِعِهِ أوْ بِمَنْ جاءَ بِهِ وَكَذَلِكَ الْحَق بَعْضُ العُلَمَاءِ الأَسْتِهَانَةِ بِحَمَلَتِهِ لِأجْلِ حَمْلِهِ فَهَذِهِ الأمورُ كُلُّهَا كُفْرْ . قَالَ تَعالَى : ﴿ قُلْ أبا لَّلهِ وآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُون ، لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ ايْمَانِكُمْ ﴾ .

اللَّهُمَّ قَوِّي إيمَانَنَا بِكَ وَنَوِّر قُلُوبَنَا بِنُورِ الأيمانِ واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنْ اللَّهمَّ يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا على دِينِكَ وَالْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وأمِّنَّا مِنْ سَطْوَتِكَ وَمَكْرِكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وجميع المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَاحِمين .

وصلى اللهُ عَلَى محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

(فَصْلٌ)

وَقَالَ في تَحْذِيرِ أهْلِ الأيمانِ عَنِ الحُكْمِ بِغيرِ مَا أَنْزَلَ الرحْمَنُ بَعْدَ سِيَاقِهِ لِقَولِ اللهِ تَعالى ﴿ ألَمْ تَرَ الى الذينَ يَزْعُمُونَ **أنهم** آمنوا **بما** أُنْزِلَ إليكَ وَمَا أنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآيتين : ثُمَّ لَوْ لَمْ يَكُنْ في القرآنِ المَجِيدِ في الزَّجْرِ عَنِ اتّباعِ القَوانينِ البَشَرِيَّةِ غَيْرُ هَذِهِ الآيةِ الكَرِيْمَةِ لَكَفَتْ العَاقِلَ اللَّبِيْبَ الذي أُوتِيَ رُشْدَهُ وأَهَمَّهُ صَلاحُ قَلْبِهِ عَنْ تَطَلُّبِ غَيْرِهَا فَكَيْفَ والْقُرْآنِ كُلُّهُ يَدْعُوْ إلى تَحْكِيمِ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَعَدَمِ تَحْكِيْمِ مَا عَدَاهُ إمَّا تَصْرِيْحاً وإمَّا تَلْوِيْحاً وَلَهُ جَاهَدَ وَيُجَاهِدُ مَنْ يُجَاهِدُ مِنْ عِبَادِ اللهِ المُتَّقِيْنَ مِنْ لَدُنْ بُعِثَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وآلِهِ وسَلَّمَ إلى يومِ تَقُومُ السَّاعَةْ .

وَقَدْ صَحّ عَنْهُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قالْ لَا تَزَالُ طَائِفَةُ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الحقِّ لَا يَضُرَّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا خِلَافُ مَن خَالَفَهُمْ حتَّى يَأتِيَ أَمْرُ اللهِ وأنّهُ قالَ لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ ، فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ مِنَ المُمْتَنِعُ بِالسَّمْعِ أَنْ يَتَمَالأَ العَالَمُ كُلُّهُمْ شَرْقَاً مِن أُمَّةِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم عَلى اتِّبَاعِ القَوانينَ البَشَرِيَّةِ وَعَدَمِ الْمُبالَاةِ بالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بَلْ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ وَلَو واحدٌ يُنْكِرُ عَلَى هَؤلاءِ الْكُلِّ إمَّا بِلِسَانِهِ انْ أَمْكَنَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يَفْتِكُوا بِهِ وإمَّا بِقَلْبِهِ وَظَنَّ الفَتْكَ بِهِ كَمَا قَد كَانَ أيامَ الأَسْتِبْدَادْ .

والْغَرَضُ بَيَانُ أَنَّ طَائِفَةً عَلَى الْحَقِّ لَا تَزَالُ تُقَاتِلُ وَتُجَاهِدُ عَلَى تَحْكِيمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ باللِّسَانِ والْبَيانِ والبَدَنِ والسِّنَانِ والمالِ وَكلِّ مُمْكِنٍ لِنَوْعِ الانسانِ وأنَّ بِهِ يِتِمُّ نِظَامُ العْدْلِ والمُلْكِ والدِيْنِ والدُّنيا وبهِ يَسْتَقِيمُ أَمْرُ المَعاشِ والمعَادِ وتَكْمُل لَهُمُ الرَّاحَةُ والأَمْنُ والحُرِّيَةُ التَّامةُ والسِّيَاسَةُ العَامةُ لِجَمِيعِ المِلَلِ والرَّعَايَا المُخْتَلِفَةِ الأصْنَافِ والالْسِنَةِ والأمزجَـةِ .

وَمَنْ شَكَّ في هَذا فَلْيَنْظُرِ الفرْقَ بَيْنَ حَالِ الإِسْلامِ في هذه القُرونِ المُتَأَخِّرَةِ الَّتـي عُطِّلَتْ فِيهَا حُدودُ الشَّرْيعَةِ وأَحْكامُها وحالِهِ في القُرُوْنِ المُتَقَدِّمَةَ التَّي مَا كَانَتْ عَلَى شيءٍ أَحْفَظُ مِنْهَا عَلَى أحْكامِ الشرَّيعَةِ وأَرْعى لها يَجِدِ الْفَرقَ كَمَا بَيْنَ الثَّرى والثُّرَيَّا وَكَمَا بيْنَ السَّمَاءِ والأرضِ وَكما قالَ الشَّاعِرُ :

نَـزَلُـوا بِمكَّـةَ فـي قَبَـائِـلِ هَـاشِـمِ
وَنـزَلْـتُ بـالْبَـيْـداءِ أَبْعَـدَ مَـنْـزِلِ

أَلَا تَرَىَ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضْيَ اللَّهُ عنهم بَعدَ وفَاةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللهُ

عليهِ وسَلم فَتَحوا مَا فَتحوا مِنْ أقَالِيم البُلْدَانِ ونَشَرُوا الاسْـلامَ والايـمان والقُرآنِ في مُدَّةِ نَحْوِ مِائةِ سَنَةٍ مَع قِلَّةِ عَدَدِ المُسْلِمين وَعُدَدِهِمْ وَضِيْقِ ذَاتِ يَدِهمْ وَنَحْنُ مَعَ كَثْرَةِ عُدَدِنَا ووفْرَةِ عَدَدِنَا وَهَائِلِ ثرْوتِنَا وَطائِلِ قَوَّتِنا لا نَزْدَادُ إلَّا ضُعْفَاً وَتَقَهْقُراً إلى الورى وَذُلّاً وَحَقَارَةً في عيُونِ الأَعداءِ ذلِكَ لأن مَنْ لا يَنْصُرُ دْينَ اللهِ لا يَنْصُرُهُ اللهْ قالَ اللهُ تعالى ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنوا إِنْ تَنْصُروا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقْدَامكم ﴾ فرَتَّبَ نَصْرَهم على نَصْرِهِ باقِامَةِ طَاعَتهِ وَطاعَةِ رَسُوْلِهْ .

وَقَالَ شَيْخُ الاسْلامَ رَحِمَه اللهُ على قَولِه تعالى ﴿فَلا وَربِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَر بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنْفُسِهم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيْماً﴾ .

فَمَنْ لَمْ يَلْتَزِمْ تَحْكِيمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهم فَقَدْ أَقْسَمَ سُبْحانَه بِنَفْسِهِ أنَّ لا يُؤْمِنُوا . وأمَّا مَنْ كَانَ مُلْتَزِماً لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ظاهِراً وباطِناً لِكنْ عَصَى واتَّبع هَوَاهُ فهذَا بِمنْزِلَةِ أمْثَالِهِ من العُصَاةْ فَمَنْ لَمْ يَلْتَزِمْ حُكْمَ اللهِ ورَسُولِه فَهُوَ كَافِرُ وهَذا واجُبٌ على الأُمةِ في كلِّ مَا تَنازَعَتْ فيهِ مِنَ الأمورِ الاعْتِقَادِيةِ والعَمَليّـةِ .

فالأمُورُ المُشْتَرَكَةُ بَيْنَ الأمةِ لَا يُحْكَمُ فِيْها إلَّا بالكْتَابِ والسُّنة لَيْسَ لأحَدٍ أنْ يُلْزِمَ النَّاسَ بِقَولِ عالِم ولَا أميرٍ ولا شَيْخٍ ولا مَلِكٍ وَحُكّامُ المسليمنَ في الأمُورِ المُعَيَّنَةِ لا يَحْكُمونَ في الأمورِ الكُلِّيةِ واذَا حَكَمُوا في المُعينَاتِ فعليهِمْ إِنْ يَحْكمُوا بِمَا في كِتابِ اللهِ فانْ لَمْ يكُنْ فَبِمَا في سُنَّة رسولِ اللهِ فانْ لَمْ يَجدُوا اجْتَهَدَ الحاكِمُ برأيةِ انتهى .

لِأَنَّهُ صلى اللهُ عليهِ وسَلَمَّ لَمَّا بعَثَ مُعاذاً إلى اليمنِ قالَ بِمَ تَحْكُمْ قالَ بكتابِ اللهِ قالَ فإنْ لَمْ تَجِدْ قَالَ بسنةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمْ قَالَ فانْ لَمْ تجِدْ قَالَ أَجْتَهِدُ رَأْبِي قالَ الحمدُ لِلَّهِ الذي وَفَّق رَسُولَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم لِمَا يرْضِي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

وفي كِتَابِ عُمْرَ بنُ عبد العزيزِ إلى عُروَة كَتَبْتَ إليَّ تَسْأَلَنِي عن القضاءِ بين الناسِ وإنَّ رأسَ القْضَاءِ اتِّباعُ ما في كِتاب اللهِ ثم القْضَاءُ بِسُنَّةِ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثمَّ بِحُكم أَئِمَّة الهُدَى ثم اسْتِشَارةِ ذَوِي العلمِ والرَّأي وَذُكِرَ عَنْ سُفْيانَ ابنُ عُيَيْنَة قالْ كانَ ابنُ شُبْرُمَة يقولَ :

ما في القْضَاءِ شَفَاعَةٌ لِمُخاصِمٍ
عِنْد اللَّبيبِ ولا الفَقْيهِ العالِمِ
هَوِنْ عَلَّي إذا قَضَيْتُ بِسُنَّةٍ
أَوْ بالكِتَابِ بِرَغْمِ أنفِ الرَّاغِمِ
وَقَضَيْتُ فِيْمَا لَمْ أَجِدْ أثراً بِهِ
بِنَظائِرٍ مَعْرُوْفَةٍ وَمَعالِمِ

وَعَنْ بنُ وَهْبِ قَالْ : قَالَ مالِكُ الحُكْمُ حُكْمَانْ حُكْمُ جَاءَ بهِ كِتَابِ اللهِ وحُكْمُ أحْكَمَتَّهُ السُّنُة قالَ وَمُجْتِهدٌ رَأْيَهُ فَلَعَلَّهُ يُوفق .

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهْ : على قَولِهِ تَعالى فَلاَ وَربِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ الآية .

فأقْسَمَ سُبْحَانه بِأَجلٍّ مُقْسَم بِهِ وَهْوُ نَفْسُهُ عَزَّ وَجَلْ عَلَى أَنَّه لا يَثْبُتُ

لَهمُ إيْمَانَ وَلَا يَكونُونَ مِنْ أهْلِهِ حَتَّى يُحَكِّمِوا الرَّسُولَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم في جميعِ مَوارِدِ النزّاعِ في جميعِ أبْوابِ الدِّين فإنَّ لَفْظَةَ (مَا) مِنْ صِيغِ العموم تَقْتَضي نَفْيَ الإيمَانِ أوْ يُوجَدَ تَحْكَيِمُه في جميعِ مَا شَجَر بَيْنَهُمْ .

وَلَمْ يَقْتَصر على هَذا حَتَّى ضَمَّ إليهِ انْشَراحُ صُدورِهم بِحُكْمِه حَيْثُ لا يَجِدُونَ في أنْفسِهم حَرَجاً وَهْو الضِّيْقُ والحَصْرُ مِنَ حُكْمِهْ بَلْ يْقبلُوا حُكْمَهُ بالانْشِرَاحِ وَيُقَابِلُوهُ بالتَّسْلِيمِ لا أَنَّهُمْ يأخُذُونَهُ على إغْمَاضٍ وَيشْرَبُونَ على قَذىً فَانَّ هذا مُنَافٍ للإيْمَان بَلْ لَا بدُ أنْ يَكونَ أَخْذُهُ بِقُبولٍ ورِضَا وانْشِرَاحِ صُدُورٍ .

ومَتَى أرادَ العَبْدُ أن يَعْلَم هَذا فَلْيَنْظُر في حالِهِ وَيُطَالِعَهُ في قَلْبِهِ عِند وُرُودِ حُكْمِهِ عَلى خِلافِ هَواهُ وغَرَضِهِ فَسُبْحَان اللهِ كمْ مِنَ حَزَازَةٍ في نفُوسِ كثيرٍ مِن الناسِ مِنْ كِثيرٍ منَ النَّصوصِ وَبِودِّهِمْ أن لَو لَمْ تَرِدْوَكَمْ مِنْ حَرَارَةٍ في أكْبَادِهِم مِنْها وَكَمْ مِن شَجَىً في حُلُوقِهِم مِنْهَا ومِنْ مُوْرِدَها سَتَبْدُو لَهَمْ تِلْكَ السَّرائرُ بالذي يَسُوءُ وَيَخْزِي يَومَ تُبْلى السَّرائِر .

ثُمَّ لَمْ يَقْتَصرُ سُبْحَانَهُ على ذَلِكِ حتَّى ضَمَّ إليهِ قَولَه تَعالى ﴿ وَيُسَلِّموا تسليما فذكرَ الفِعْلَ مُؤَكَّداً بِمَصْدرِه القائِم مَقَامَ ذِكْرِهِ مَرَّتَين وَهُوَ الخُضُوعُ لَهُ والانقيادُ لِمَا حَكَمَ بهِ طَوْعاً وَرِضَاً وتسليماً لا قَهْراً ومُصَابَرَةً كَمَا يُسَلِمُ المقهُورُ لِمنْ قَهَرَهُ كُرْهاً بَلْ تَسْلِيمَ عَبْدٍ مُطيعٍ لِمَوْلَاهُ وسَيِّدِهِ الذي هُو أحَبُّ شيء إليهِ يَعلَمُ أنّ سَعادَتَهُ وَفلاحَه في تَسْلِيمهِ إليه وَيْعلَمُ بأنّه أوْلى بهِ من نَفْسِهِ وأَبَّر بهِ مِنْهَا وأرْحَمُ بهِ مِنْها وأنْصَحَ لَهُ مِنها وأَعْلَمَ بِمَصالِحِهِ منها وأقْدَرَ على تَخْلِيصِها .

وتأمَّلْ لهذَا المعنى المذكُورِ في الآيةِ بوُجوهٍ عَديدَةٍ مِن التَّأْكِيدِ أولها تصديرُها بالقسم يَتضَمَّنِ المُقْسَمَ عليه وهو قوله لا يؤمنون وثانيها : تأكيده بنفَسْ القسم وثالثَها تأكيده بالمُقْسَمِ بهِ وَهو إقْسامهُ بِنَفسِه لا بِشَيءٍ مِنِ مَخْلُوقَاتِه ورَابعاً تأكِيْدُه بانتِفاءِ الحَرَجِ وَهُوَ وُجُودُ التَّسْلِيْم وخامُسُها تَأكِيْدُ الفِعْل بالمْصْدرِ ومَا هَذا إلا لِشِدَّةِ الحاجةِ إلى هذا الأَمْرِ العَظِيْمِ وأنَّهُ مِمَّا يُعْتَنَى بهِ وَيُقَرَّرُ في نُفُوسِ العِبَادِ .

وقال رَحِمَهُ اللهُ :

لَمَّا أعْرَضَ النَّاسُ عَن تَحْكِيمِ الكِتَابِ والسُّنةِ والمُحَاكَمَةِ إلَيْهُمَا واعْتَقَدُوْا عَدَمَ الاكْتِفاءِ بِهِمَا وَعَدلَوا إلى الآراءِ والقياسِ والاسْتْحِسَانِ وأقوَالِ أهلِ الآراءِ عَرَضَ لَهمْ مِن ذَلِكَ فَسادٌ في فِطَرهِمْ وظُلْمَة في قُلُوبِهـم وكَدَرٍ في أفْهامِهِمِ وَمحْقٍ في عُقُولِهِم فَعَـمَّتْهمُ هذهِ الأمُوُرُ وغَلَبَتْ عَليْهِمْ حَتَّى رَبَى فِيها الصَّغيرُ وَهَرِمَ عَليْها الكبيرُ فلمْ يَرَوْهـا مُنْكراً .

فَجَاءَتهم دَوْلَةٌ أُخرَى أقَامَتْ فِيها الْبِدَعَ مَقامَ السُّنَنِ والْهَوى مَقامَ الرُّشْدِ والضَّلاَلَ مَقامَ الهِدَايَةِ والمُنكرَ مَقَامَ المعْرُوفِ والجَهْلَ مَقامَ العلْمِ والرِّياءَ مقامَ النَّصِيْحَةِ والظُّلمَ مَقامَ العَدْلِ فَصارَتْ الدَّولَةُ والْغَلَبَةُ لِهذِهِ الأُمور وأهْلُها هُمُ المُشارُ إليهم .

فإذَا رَأَيْتَ هَذهِ الأُمُورَ قَدْ أقْبَلَت وراياَتها قَدْ نُصِبَتْ وجُيُوشَهَا قَدْ رّكِبَت فَبْطنُ الأَرضِ واللهِ خَيرٌ مِنْ ظَهْرِها وَقُلل الجبالِ خَيْرٌ مِن السُّهولِ ومُخَالَطَة الوَحْشِ أسْلمُ مِنْ مُخَالَطَةِ النَّاس .

اقْشَعْرَّتِ الارضُ وأظْلَمَتِ السَّماءُ وَظَهر الْفَسَادُ في البرِّ والبْحَرِ مْنِ ظُلمِ الفَجَرَةِ وَذَهَبَتْ البْرَكَاتُ وَقلّتِ الخَيْرات وَهَزِلَتِ الْوحْشُ وتَكَدَّرْتِ الْحَيَاةُ مِنَ فِسْقِ الظَّلَمةِ وبَكَى ضَوءُ النَّهارِ وظُلْمَةِ الليِّل مِنْ الأعمَالِ الخَبِيْثَةِ والأَفْعَالِ الفِظيْعةِ وشَكَا الكرامُ الكَتابُونَ والمُعَقَّباتُ إلى رَبِّهمْ مِنْ كَثْرَةِ الفوَاحِشِ وَغَلبَةِ المُنْكَراتِ والقَبَائِحْ .

وَهَذَا واللهِ مُنْذِرُ بِسَيْلٍ عَذَابٍ قَدْ انْعَقَدَ غَمَامُهُ وَمُؤذِنُ بلَيْلٍ قَدْ ادْلَهَمَّ ظَلامُهُ فَاعْزِلوا عَنْ طَريقِ هذا السَّيلُ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ مَا دَامَتِ التَّوبَةُ مُمْكِنَةٌ وبَابُها مَفتُوحاً وكَأنَّكُمْ بِالْبَابِ وَقَدْ أغْلِقْ وَبالرَّهْنِ وَقَد غَلِقَ وبَالِجَناحِ وَقَد عَلِقَ وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونْ .

وَقالْ :

واللهِ مَا خَوْفِي الذُّنوبَ فانَّها
لَعَلَى سَبِيلِ العَفْوِ والغُفْرَانِ

لَكِنَّمَا أخْشَى انْسِلاخَ القلبِ مِنْ
تحكيم هذا الوحْي والقُرآن

وَرِضاً بِآرَاءِ الرِّجَالِ وخَرْصِهَا
لا كانَ ذاكَ بِمِنَّةِ الْمَنَّانِ

فَبِأيِّ وَجْهٍ ألْتَقِيْ رَبّي إذا
أعْرَضْتُ عَنْ ذا الوَحْيِ طُولَ زَمَانِ

وَعَزْلتُهُ عَمَّا أريدُ لأجْلِهِ
عَزْلاً حَقِيْقِياً بِلاَ كِتْمَانِ

وقَالَ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ ابْراهيمَ في رَدّه على مُحكِّمِي القوانينْ : إنَّ مِنَ الكُفْرِ الأكبَرَ المُسْتَبِينِ تَنْزيلُ القانُونِ اللّعيْنِ مَنْزِلةَ مَا نزلَ بهِ الروحُ الأمينُ على قلبِ محمدِ صلى الله عليهِ وسلم لِيكُونَ مِن المنذِرين بلسانٍ عربيٍ مبينٍ في الحُكْم بهِ بيْن العالمينِ والرَّدِ إلَيْهِ عند تَنَازُع المتنازِعين مُنَاقضَةً ومُعَاندَةً لِقَولِ الله عزَّ وجل « فإنَ تَنِازَعْتم في شيء فرُدُوْهُ إلى اللهِ والرسولِ إنْ كُنْتُم تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخر ذلكِ خيرٌ وأحْسن تأويْلاً »

وَقَدْ نَفى اللهُ سُبْحَانَه وتعالى الايمانَ عَنْ مَنْ لَمْ يُحكِّمُ النَّبيَ صلى اللهُ عليهِ وسلم فِيمَا شَجر بيْنَهم نَفْياً مؤكَّداً بِتكَرُّرِ أداةَ النَّفْي وبالقَسَم قالَ تعالى ﴿فَلا وَرَبِكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّموكَ فِيما شَجرَ بَيْنَهُمْ ثُم لا يَجدُوا في أنفُسِهم حَرَجاً مِمَّا قضَيْتَ ويُسَلمِّوا تَسْلِيماً﴾ .

قَالَ وَتأَمَّل . ما في الآية الأولى وَهي قَولُه تعالى ﴿فإنْ تَنَازَعتُم في شيءٍ فَردُّوهُ إلى اللهِ والرسولِ﴾ الآية كَيْفَ ذَكَرَ النَّكِرَةَ وَهِيَ قَوْلُه شَيءٍ في سِياقِ الشَّرطِ وَهْوَ قولُه جَلَّ شأْنُهُ﴿فانْ تنازَعْتُم﴾ المفيدُ العمُومِ فِيْمَا يُتَصوَّرُ التَّنازُعِ فِيه جِنْساً وَقَدْراً .

ثُمَّ تَأَمَّلْ كَيْفَ جَعَلَ ذَلِكَ شَرْطاً في حُصُولِ الايمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ بقولهِ ﴿إنْ كَنْتُمْ تؤمنونَ باللهِ واليِومِ الآخر﴾ ثُمَّ قال جَلَّ شَأنه ذلِكَ خيرٌ فَشَيءُ يُطْلِقُ اللهُ عليهِ أنهُ خيرٌ لا يَتطَرَّقُ إليهِ شرٌ أبداً بَلْ هُو خيرٌ مَحْضُ عَاجِلاً وَآجِلاً .

ثُمَّ قَالْ ﴿وأَحْسَنُ تأويلاً﴾ أيْ عَاقِبةً في الدُّنيا والآخرةِ فَيُفِيدُ أنَّ الرَّد إلى غيرِ الرَّسولِ صلى اللهُ عليه وسلمْ عِنْدَ التَّنازُع شَرُّ مَحْضٌ وأسْوأ

عَاقِبَةً في الدّنيا والآخرةِ عَكْسَ مَا يَقُولُهُ المنافِقُونَ « إنْ أرَدْنَا إلاَّ إحْسَاناً وَتَوْفِيقاً » وقَوْلِهم ﴿إنَّما نَحْنُ مُصْلِحون﴾ .

وَلِهَذا رَدَّ اللهُ عليهم قَائِلاً ﴿ألا أنَّهم هُمُ المُفْسِدُون ولَكِنْ لا يَشْعُرون﴾ وعَكْسُ مَا يَقولُهُ القَانُونِيُّونَ مِنْ حُكْمِهِم عَلَى القَانونِ بِحَاجَة العَالَم بَلْ ضَرُورَتِهِم إلى التّحاكُمِ إليهِ وَهَذَا سُوءُ ظَن صِرْفٌ بمَا جَاء بِهِ الرسول صلى الله عليه وسلم ومَحْضُ استنقاصٍ لبيان الله ورَسوله والحكم عليه بعدم الكِفَايَةِ لِلنّاسِ عِنْدَ التَّنازُعِ وسَوْءِ العَاقِبَةِ في الدُّنيا والآخرةِ إنَ هَذا لازِمٌ لهُمْ .

قالَ وقَدْ نَفَى اللهُ الايمانَ عَن مَنْ أرادَ التحاكُم إلى غيرِ مَا جَاء بِهِ الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلمَ مِنِ المنافقينَ كَمَا قالَ تَعالى ﴿أَلَمْ تَرى إلى الذَّينَ يَزْعُمُونَ أنَّهم آمنوا بِمَا أُنْزِلَ إليكَ وَمَا أنُزل من قَبْلِك يُرِيدُونَ أن يَتَحاكَمُوا إلى الطَّاغَوتِ وَقَدْ أمِروا أن يكفُروا بهِ ويريدُ الشَّيطانُ أن يَظِلَّلهُمْ ظَلاَلاً بَعيداً﴾ .

فانَّ قَوله « يَزْعُمُونَ تَكْذِيبٌ لَهُمْ فِيْمَا أدَّعوهُ مِنَ الايْمَانِ فانَّه لاَ يَجْتَمعُ التَّحاكُمِ إلى غَيْرِ ما جَاء بِهِ النبيُ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّم مَعَ الايمانِ في قَلْبِ عَبْدٍ أصْلاً بَلْ أحَدهُمَا يُنَافِي الآخرَ والطَّاغُوتُ مُشْتَقٌ مِن الطُّغْيَانِ وَهْوَ مُجاوَزَةُ الحَدِّ فَكُلُّ مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا جَاءَ بِهِ الرسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ أوْ حَاكَمَ إلى غَيْرِ مَا جاءَ بهِ النبيُ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ فَقَدْ حَكَمَ بالطَّاغُوتِ وحَاكَمَ إليهِ وذلِكَ أنَّهُ مِنْ حَقِّ كُلِّ أحدٍ أنْ يَكُونَ حَاكِماً بِمَا جَاءَ بهِ النَّبيُ صلى اللهُ عليه وسلم فَمَنْ حَكَمَ بِخَلاِفِهِ أوْ حَاكَمَ

إلى خِلافِه فَقَدْ طَغَى وَجاوَزَ حَدَّهُ حُكْماً أوْ تَحْكِيْماً فَصارَ بِذَلِكَ طَاغوتاً لِتَجاوُزِهِ حَدّهْ .

قَالْ وَتَأَمَّلْ قَوْلَهَ عَزَّ وجَلَّ ﴿وقَدْ أُمِرُوا أنْ يَكْفُروا بِهِ﴾ تَعْرِفُ مِنْهُ مُعَانَدَةَ الْقَانُونِيّينَ وإرَادَتَهُم خِلَافَ مُرادِ اللهِ مِنْهُم حَوْلَ هَذا الصَّدَدِ فالمُرَادُ مِنْهُم شَرْعاً والذِي تُعبِّدُوا بِهِ هُوَ الْكُفْرُ بالطَّاغِوتِ لا تَحْكِيْمُهْ « فَبَدَّلَ الذينَ ظَلموا قَوْلاً غيرَ الذي قِيلَ لَهُمْ » .

ثُمَّ تَأمَّلْ قَوْلِهُ ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أنْ يُظِلَّهُمْ ظَلَالاً بَعْيداً﴾ كَيْفَ دَلَّ على أنَّ ذَلِكَ ضَلالٌ وهَؤلاءِ الْقَانُونِيُونِ يَرونَه مِن الهُدى كَمَا دَلّتِ الآيَةُ على أنَّهُ مِن إرَادَةِ الشَّيطَانِ عَكْسُ ما يَتصَوَّرَهُ الْقَانُونِيُّونَ فَتكُونُ عَلى زَعمِهِم مُرَادَاتُ الشَّيْطانِ هِي صَلاحُ الانْسَان وَمُرَادُ الرَّحْمَنِ وَمَا بَعَثَ بِهِ سَيِّدَ وَلَدِ عَدْنَانَ مَعْزولاً مِنْ هَذا الوصفِ وَمُنَحَّىً عنَ هذا الشَّأن .

وَقَدْ قَال تَعالى مُنْكِراً على هذا الضَّرْبِ مِنَ النَّاسِ وَمُقَرِّراً اِبْتِغَاءَهم أَحْكَامَ الجَاهِلِيةِ ومُوَضِّحاً أنَّهُ لَا حُكْمَ أحْسَنُ مِنْ حُكمِهِ « أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيةِ يَبْغونَ وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لقومٍ يُوقِنُونْ » .

فَتَأَمَّلْ هذِهِ الآيةُ الكريمةْ وَكَيْفَ دَلَّتْ أن قِسْمَةَ الْحُكْمِ ثُنَائِيَّةْ وأنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ حَكْمِ اللهِ تَعالى الَّا حُكْمَ الجاهِلِيةَ الْمُوضِّحُ أنَّ القانُونِيّينَ في زُمْرَةِ أهلِ الجَاهلية شاؤُا أمْ أبَوا بَلْ هُمْ أسْوَأُ حالاً مِنْهُم وأكْذَبُ مِنْهُم مَقالاً ذَلِكَ أنَّ أهْلَ الجاهِليةِ لَا تَنافُسَ لَدَيْهم حولَ هَذَا الصَّدَدْ .

وأمَّا القَانُونِيُّونَ فَمُتَنَاقِضُونَ حَيْثُ يَزْعُمونَ الايْمَانَ بِمَا جَاءَ بِهِ

الرسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلمْ وَيُنَاقِضُونَ وَيُرِيْدُونَ أنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبْيلا وَقَدْ قَالَ اللهُ في أمْثَالِ هَؤُلَاءِ (أُولَئِكَ هُمُ الكافرونَ حَقَّاً واعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عذاباً مُهينا) .

ثُمَّ انْظُر كَيْفَ رَدَّتْ هذهِ الآيةُ الكريمةُ على الْقَانُونِيِّين مَا زَعَمُوهُ مِنْ حُسْنِ زُبَالَةِ أذْهانِهِمْ وَنُحَاتَةِ أفْكَارِهِمْ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلْ ﴿وَمَنْ أحْسَنُ مِن اللهِ حُكمَاً لقومٍ يُوقِنُونْ﴾ .

قَالْ الحَافِظُ بنُ كَثيرٍ في تَفْسيرِ هذهِ الآيَةْ : يُنْكِرُ تعالى عَلى مَن خَرَجَ مِنْ حُكْمِ اللهِ المحْكَمِ المُشْتَمِلُ على كُلِّ خَيْرٍ النّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍ وَعَدَلَ إلى مَا سِوَاهُ في الآرَاءِ وَالأهْوَاءِ والإصْطِلاَحاتِ التي وَضَعَها الرِّجُالُ بِلا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيْعَةِ اللهِ كَمَا كَانَ أهْلُ الجاهِلية يَحْكُمونَ بِـهِ مِنَ الضَّلاَلاَتِ والْجَهَالاَتِ مِمَّا يَضَعُونَهُ بِآرَائِهِمْ وأهْوَائِهِمْ وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْملكيّةِ التي يُقَدِّمُونَها عَلى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّة رَسُولِهِ صَلّى اللهُ عليه وسلم .

فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهْو كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالَهُ حَتَّى يَرْجَعُ إلى حُكْمِ اللهِ ورَسُولِهِ فَلا يُحَكِّمُ سِوَاهُ في قَليلٍ وَلا كثيرٍ قَال تَعالى ﴿أفحُكْمَ الجاهليةِ يَبْغُونَ﴾ وَعَنْ حَكْمِ اللهِ يَعْدِلون ﴿وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكماً لقومٍ يُوقِنُونْ﴾ أيْ وَمَنَ أعْدَلُ مِن اللهِ في حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ مِنَ اللهِ شَرْعَهُ وآمَن بِهِ وأيْقَنَ وَعَلِمَ أنَّ اللهَ أحْكَمُ الحَاكِمينَ وأرْحَمُ مَن الوَالِدَةِ بولَدِهَا فإنَّه تَعالى الْعَالِمُ بِكُلِّ شيءٍ القَادِرُ على كُلِّ شَيءٍ العادِلُ في كلِّ شَيْء .

وَقَالَ تَعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنْزَلَ اللهُ فأولَئِكَ هُمُ الكافرون﴾ ﴿وَمَنْ لم يَحْكُمْ بِمَا أنْزَلَ اللّهُ فأولَئِكَ هُمُ الظَّالِمون .﴾

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونْ .

فانْظُرْ كَيْفَ سَجَّلَ تَعالى عَلى الْحَاكِمِينَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ بالْكُفْرِ والظُّلْمِ والفِسْقِ وَمِنَ المُمْتَنِع أنْ يُسَمَّى اللهُ سُبْحَانهُ الحاكِمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ كافراً ولا يكوَنُ كافراً بَلْ هُوَ كافرٌ مُطْلَقاً إمّا كُفْرُ عَمَلٍ وإمَّا كُفْرُ اعتِقاد .

وَمَا جاءَ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ في تَفْسِير هذِه الآيةِ يَدُلُّ عَلى أَنَّ الْحَاكِمَ بِغَيْرِ ما أنْزَلَ اللهُ كافِرٌ إمَّا كُفْرُ اعْتِقَادٍ نَاقِلٍ عِنِ المِلَّةِ وامَّا كُفرُ عَمَلٍ لا يَنْقُلِ عَنِ المِلّة .

قَالَ وهَذِهِ الْمَحَاكِمُ الآن في كَثِيرٍ من أمْصَارِ الاسْلاَمِ مُهَيَّأةٌ مَفْتُوحَةُ الأبْوابِ والنَّاسُ إليها أسْراب إِثْرَ أسْرَابٍ يَحْكُم حُكَّامُها بَيْنَهُم فِيْمَا يُخَالِف حُكْمَ الكتابِ والسُّنةِ مِنْ أحْكَام ذلك القانُونِ وَتُلْزِمُهُمْ به وَتُحتِمُّهُ عليهم فأيُّ كُفْرٍ فوقَ هَذا الكُفْرِ وأيُّ مُنَاقضَةٍ لِلشَّهادَةِ بأنَّ مُحَمداً رسولُ اللهِ بعدَ هذِهِ المُناقَضَةِ نسْألُ اللهَ الْعِصْمَةَ عَنْ جَميعِ الْمَعَاصِي وأنْ يُثَبِّتَنا على قَولِه الثَّابِتُ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة إ هـ.

وَمِمَّا قِيْلَ في الحثِ على التَّمَسُّكِ بالقرآنِ الكريمِ ما قَالَهُ الصَّنْعَاني :

وَلَيْسَ اِغْتِرَابُ الدِّينِ الَّا كَمَا تَرَى
فَهَلْ بَعْدَ هَذا الاغْتِرَابُ اِيَابُ
وَلَمْ يَبْقَ لِلرَّاجِي سَلاَمَةَ دَيْنِهِ
سِوَى عُزْلَةٍ فيهَا الْجَليسُ كِتَابُ
كِتَابٌ حَوَى كُلَّ العلومِ وكُلَّمَا
حَوَاهُ مِن العلمِ الشريفِ صَوابُ

فَـإنْ رُمْتَ تَـارِيْخـاً رَأَيْتَ عَجَـائِبـاً
تَـرَى آدَمـاً إِذْ كَـانَ وَهْـوَ تُـرَابُ
وَلاقَيْتَ هَـابِيـلاً قَتِيْـلَ شَقيْقِـهِ
يُـوارِيْـهِ لَـمَّـا أَنْ أَرَاهُ غُـرابُ
وَتَنْظُرُ نوحاً وَهْوَ في الفُلْكِ قَدْ طَغَى
على الأرضِ مِنْ مَاءِ السَّماءِ عُبَابُ
وانْ شِئْتَ كُـلَّ الأنْبِيَـاءِ وَقَـوْمَهُمْ
ومـا قَالَ كُـلٌّ مِنْهُمُـو وَأَجَـابُـوا
وَجَنَّـاتِ عَـدْنٍ حُـورَهَـا وَنعِيْمَهـا
وَنَـاراً بِـهـا لِلْمُـشْـرِكِيـنَ عَـذَابُ
فَـتِلْكَ لأَرْبَـابِ الـتُّـقَـاءِ وَهَـذِهِ
لِـكُـلِّ شَقِـيٍّ قَـدْ حَـوَاهُ عِقَـابُ
وإنْ تُـرِدِ الـوَعْظَ الّـذِي اِنْ عَقَلْتَـهُ
فَـانَّ دُمُـوعَ العَيـنِ عَنْـهُ جَـوَابُ
تَجِـدْهُ وَمَـا تَهْـوَاهُ مِنْ كُـلِّ مَشْـرَبٍ
ولِـلرُّوحِ مِـنْـهُ مَـطْعَـمٌ وَشَـرَابُ
وانْ رُمْتَ إِبْـرَازَ الأَدِلَّـةِ في الـذي
تُـرِيْـدُ فَمَـا تَـدْعُـو إليـهِ تُجَـابُ
تَـدُلُّ على التَّـوحِيـدِ فيه قَـوَاطِعٌ
بِهـا قُـطِّعَتْ لِـلْمُلْحِـدِيـنَ رِقَـابُ
وَمَـا مَـطْلَبٌ إلاّ وَفِـيـهِ دَلِـيْـلُهُ
ولَـيَسْ عـليـهِ لِـلذَّكِي حِـجَـابُ

وَفِيـهِ الـدَّواء مِنْ كُـلِّ دَاءٍ فَثِقْ بِـه
فَـوَالـله مـا عَنْـهُ يَنُـوبُ كِتَـابُ
يُـرِيْـكَ صِـرَاطـاً مُسْتَقِيمـاً وغَيْـرُه
مَـفَـاوِزُ جَهْـلٍ كُـلُّهـا وَشِـعَـابُ
يَـزِيْـدُ عَلى مَـرِّ الجَـدِيْـدَيْنِ جِـدَّةً
فَـأُلفَـاظُـه مَهْـمَـا تَلَوْتَ عِـذَابُ
وَآيَـاتُـهُ فـي كُـلِّ حِيْـنٍ طَـرِيَّـةٌ
وتَبْلُغُ أقْصَى العُمْـرِ وَهْـيَ كِعَـابُ
وَفِيْـهِ هُـدىً لِلْعَـامِلينَ وَرَحْـمَـةٌ
وفِـيـهِ عُـلومٌ جَـمَّـةٌ وَثَـوابُ

اللهم اِجْعلنَا لِكِتَابِك مِن التَّالينِ ولكَ بهِ مِن العامِلينَ وبِمَا صَرَّفْتَ فيهِ مِن الآياتِ مُنْتَفعين ، وإلى لذيذِ خِطَابِه مُسْتَمِعينَ ، ولِأوَامِرِهِ ونَواهِيهِ خاضِعين وبالأعمالِ مُخْلِصِين ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوالِدينا ولجميع المُسْلِمينَ الأحياءَ مِنْهُم والميتينَ بِرَحْمَتِك يا أرحمَ الرَّاحِمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

(فَصْلٌ)

في فَضَائِلِ ذِكْرِ اللّهْ

يُسْتَحَبُ الاكْثَارُ من ذكْرِ اللهِ تعالى في كُلِّ وقتٍ ، ولاَ سِيَّمَا في رَمَضانْ . قال اللهُ تعالى ﴿ولَذِكْرُ اللهِ أكْبَر﴾ وقال : ﴿فاذْكُروني أذكُرْكُمْ﴾ وقالْ : ﴿واذكُروا الله كَثيرا لعَلَّكُمْ تَفْلِحُون﴾ ، وقالْ : ﴿والذّاكِرينَ اللهَ كَثيراً والذَّاكِرَات أعَدَّ الله لهُمْ مَغْفِرةً وأجراً عَظِيْما﴾ ، وقالْ : ﴿واذْكُرْ

رَبّكَ في نَفْسِك تَضُرُّعاً وخفْيَةً ﴾. الآية ، وقالْ : ﴿يا أَيُّها الذينَ آمنوا اذْكُروا اللهَ﴾ ، وعن أبي هريرة ـ رضي اللهُ عنهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « كلَمتَانِ خَفِيْفَتَانِ عَلى اللِّسَانِ ، ثَقِيْلَتَانِ في الميزانْ ، حَبِيْبَتَانِ إلَى الرَّحمَنْ : سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللهُ العظَيم » متفق عليه .

وعنهُ ـ رَضْي اللهُ عنْهُ ـ قالْ : قالَ رسُول اللهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلم : « لأَنْ أقُولُ سُبْحَانَ اللهِ والحمدُ للهِ ، وَلا الَهَ إلَّا اللهْ ، واللهُ أكْبَرْ ، أَحَبَّ إلَيّ مِمَّا طَلَعْت عليهِ الشَّمْسُ » رواهُ مُسْلم .

وَعَنْهُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالْ : « مَنْ قَالَ لَا الَه الَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَريكَ لهْ ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمْدُ ، وَهُوَ على كُلِّ شَيءٍ قديْرٌ في كُلِّ يوم ٍ وليْلَةٍ مائةَ مَرَّةٍ كانَتْ لَهُ عَدْلُ عَشْرُ رِقابٍ وَكُتِبَ لَه مائةُ حَسنةٍ ومُحَيَتْ عَنْهُ مائةُ سَيّئةٍ ، وكانَتْ لَهُ حِرْزاً مِن الشَّيطانِ يَومَهُ ذلكَ حتَّى يُمْسِى ، وَلَمْ يَأْتِ أحَدٌ بَأُفضَلَ مِمّا جاءَ بهِ إلا رَجُلٍ عَمِلَ أكثَرَ مِنْهُ » ، وقالْ « مَنْ قَالَ : سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ في يوم ٍ مائةُ مَرَّةٍ حُطّتْ عنه خَطَايَاهُ ، وإنْ كانتْ مِثْلَ زَبدِ البَحْر » متفق عليه .

وعَنْ أبي أيوبِ الأنْصَاري ـ رضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالْ : « مَنْ قالَ : « لا اِلَه الَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شرِيكَ لَهْ، لَهُ المُلْكُ ، ولَهُ الحَمْد، وَهُوَ على كلِّ شَيءٍ قَدِيْر ، عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كانَ كَمَنْ أعْتَقَ أرْبَعة أنْفُسٍ مِنْ ولدِ اسْمَاعِيل » . مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

وَعَنْ أبي ذُرٍ ـ رَضْي اللهُ عَنْهُ ـ قالَ قالَ رسولُ اللهَ صلى الله عليه

وسَلمْ : « أَلاَ أخْبِرُكَ بأحَبِّ الكلامِ إلى اللهْ » قُلْتُ : بَلى يَا رَسُولَ اللهِ أخْبِرْنِي بأحَبِّ الْكَلامِ إلى اللهْ ، فقَالَ : « إنَّ أحبَّ الكلامِ إلى اللهِ سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ » رواه مسلم .

وعَنْ عُمَرُ بنُ شُعيْبٍ عَنْ أبيهِ عنْ جَدِّهِ قالْ :قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ مائةَ بالْغَدَاةِ وَمائةً بالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ حَجَّ مِائةَ حَجَّةٍ وَمَنْ حمِدَ اللهَ مِائةً بالغَدَاةِ ومَائةً بالْعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ حَملَ عَلى مائةِ فَرَسٍ في سَبيلِ اللهِ أوْ قال غَزَا مائةَ غَزوةٍ ومَنْ هَلَّلَ اللهَ مِائةٍ بالْغَدَاةِ ومِائةً بالْعَشِيِّ كَانَ كَمَن أعْتَقَ مِائةَ رَقَبَةٍ مِن وَلَدِ اسماعِيلَ وَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ مِائةً بالْغَدَاةِ وَمِائةً بالْعَشِيِّ لَمْ يَأتِ في ذِلِكَ اليومِ أحَدٌ بأكْثَرَ مِمَّا أتى بِه إلاَّ مَن قَالَ مِثْلَ ما قَالَ أو زَادَ عَلى مَا قَالَ رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب .

وفي الصحيحين عن علي أَنَّ فاطِمةَ أَتتِ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم تشكُو إليه مَا تَلْقَى في يَدِهَا مِن الرَّحى ، وبَلَغَهَا أنَّهُ جاءَ رَقِيْقٌ فَلَمْ تُصَادِفْهُ فَذَكَرَتْ ذلكَ لِعَائِشَةَ فَذهَبْنَا نَقُومُ فقال عَلى مَكَانِكُمَا فَجَاءَ وَقَعَدَ بَيْنِيْ وبَيْنَهَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمِهِ على بَطْنِي فَقال أَلاَ أَدُلُكُمَا عَلى خَيْرٍ مِمَّا سَألْتُمَا ، إذا أَخذْتُمَا مَضْجِعَكُمَا فَسَبِّحَا ثلاثاً وثلاثين واحْمَدَا ثَلاثاً وثلاثِينَ وكَبِرَا أرْبَعاً وثلاثينَ فَهُو خَيْرٌ لكُمَا مِن خَادِمٍ .

وجَاءَ عَنِ مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مَن قَالَ حِيْنَ يُصبحُ ثلاثَ مَرَّاتٍ أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِن الشيطانِ الرجيم وقَرَأ ثلاثَ آياتٍ مِن آخِرِ سُوْرَةِ الحَشْرِ وَكَّلَ اللهُ به سَبْعِيْنَ ألفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْه حتَّى يُمْسِيْ وانْ ماتَ في ذَلِكَ اليومِ ماتَ شَهِيْداً ومَن

قَالَها حين يُمْسِي كانَ بتِلكَ المَنْزِلةِ حَسَّنَهُ الترمذيُ وغَرَّبَه .

اللهم اكْتُبْ في قُلُوبِنَا الايمانَ وأَيِّدْنَا بنُوْرٍ مِنْكَ يا نُوْرَ السمواتِ والأَرضِ اللهم وافْتَحْ لِدُعَائِنَا بَابَ القَبُولِ والاجَابَةِ وأغفر لنا وارحمنا برحمتك الواسعة انك انت الغفور الرحيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصل)

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله . صلى الله عليه وسلم يَسِيْرُ في طَرِيْقِ مَكَّةَ ، فَمَرَّ على جَبَلٍ يُقَالُ له (جُمْدَانُ) فقال : « سِيْرُوْا هَذَا جُمْدَانُ ، سَبَقَ المفُرَّدُوْنَ » قالوا : وما المُفَرِّدُوْنَ يا رَسولَ اللهِ ؟ قال : « الذَّاكِرُوْنَ اللهَ كَثِيْراً والذاكِرَات » رواه مسلم .

وعن أبي مُوْسَى قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكُرُهُ مَثَلُ الحَيّ والمَيّتِ » متفق عليه .

وعن أبي هريرة قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يقول الله «أنا عِندَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِي ، وأنا مَعَهُ اذا ذَكَرنِي ، فانْ ذَكَرَنِيْ في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِيْ وإنْ ذَكَرَنِيْ في مَلأٍ ذَكرتُهُ في مَلأٍ خَيْرٍ منهم » متفق عليه .

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عَبْدَ اللهِ بنَ قَيْسٍ ، ألا أَدُلُّكَ على كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ : لا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلا باللهِ » متفق عليه .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن اللهَ تعالى يَقُولُ : أنا مَعَ عَبْدِي إذا ذكَرَنِي ، وتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ » رواه البخاري .

وعن عبدِ اللهِ بنِ بُسْرٍ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رَجُلًا قال يا رسولَ اللهِ إنَّ شَرائعَ الاسلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَليَّ فأخْبِرْنِي بِشَيءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ ، قَال : « لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِن ذِكْرِ اللهِ » . رواه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وصححه ابن حبان والحاكم . وَرَوَى عُمَرُ بنُ الخطابِ رضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ذَاكرُ اللهَ في رَمَضَانَ مَغْفُورٌ لَهُ ، وسائلُ اللهَ فِيْهِ لا يَخِيْبُ » رواه الطبراني في (الاوسط) والبيهقي ، والاصبهاني .

وعن أبي سَعِيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ : لا إلهَ إلَّا اللهُ ، وسبحانَ اللهِ ، واللهُ أكْبَرُ ، والحَمْدُ لِلهِ ، ولا حَول ولَا قُوَّةَ إلا باللهِ » أخرجه النسائي ، وصححه ابن حبان والحاكم .

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ علَيْهِ وسلم « ألا أخبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وأزْكَاهَا عِندَ مَلِيْكِكُم وأَرْفَعِهَا في دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِن إنفاقِ الذَّهَبِ والوَرَقِ وخيرٌ لكم مِنْ أنْ تلْقَوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرُبُوا أعْنَاقَهُم وَيَضْرِبُوْا أعْنَاقَكُمْ؟ قَالوا بَلَى ، قال ذِكْرُ اللهِ » .

وعَنْ عبدِ اللهِ بنِ بُسْرٍ قال : « جاءَ أَعْرَابيٌّ إلى النبي صلى اللهُ عليهِ وسلم فقالَ : أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ فقال : طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمُرُهْ وحَسُنَ عَمَلُهُ ، قال : يا رسولَ اللهِ أيُ الأعمالِ أفضَلُ ؟ قال : أَنْ تُفَارِقَ الدُنيا

ولِسَانُكَ رطْباً مِن ذِكْرِ اللهِ » .

قال ابنُ الْقَيم رحِمه اللهُ قراءةُ القُرآنِ أفضلُ مِن الذِكْرِ والذِكْرُ أَفْضَلُ مِن الدُعاءِ هَذَا مِن حَيْثُ النَّظَرِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مُجَرَّدَاً وَقَد يَعْرُضُ لِلْمَفضُولِ ما يَجْعَلَهُ أَوْلَى بَلْ يُعَيِّنُهُ فَلاَ يَجُوزُ أَنْ يَعْدِلَ عنه إلى الفَاضِلِ وهذَا كَالتَّسْبِيحِ في الرُّكُوعِ والسُّجُودِ فإنه أفضَلُ مِن قِراءَةِ القُرآنِ فِيْهِمَا بَلْ مَنْهِيٌ عنها نَهْيَ تَحْرِيْمٍ أو كَرَاهَةٍ .

لما وَرَدَ عن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما قال كَشَفَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ السِتَارَةَ وَالناسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أبِي بَكْرٍ فقال : (يَا أَيُّها الناسُ إنه لم يَبْقَ مِن مُبَشِّرَاتِ النُبُوَّةِ إلاَّ الرُؤْيَا الصَّالِحَة يرَاهَا المُسْلِمُ أو تُرَى لَهُ ألا وَإنِي نُهِيْتُ أنْ أقرأَ القرآنَ رَاكِعَاً أو سَاجِدَاً ، أَمَّا الرُكُوعُ فَعَظِّمُوْا فِيهِ الرَّبَّ ، وأما السُجُودُ فَأجْتَهِدُوا في الدُعاءِ فَقَمِنٌ أنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ) رواه أحمد ومسلم النسائي وأبو داوُد .

وكذا التسبيحُ والتحميدُ في مَحَلِهِمَا أَفْضَلُ مِن القِرَاءَةِ وكَذَا التشهدُ وكذلكَ ربِّ اغْفِرْ لِيْ وارْحَمْنِي واهْدِنِي وَعَافِنِي وأرْزُقْنِي بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ أفضَلُ مِن القراءَةِ وكذلك الذكرُ عقِبَ السلامِ مِن الصلاةِ ـ ذِكْرُ التَّهْلِيلِ والتسبيحِ والتكبيرِ والتحميدِ أفضلُ مِن الاشتغالِ عنه بالقِراءَةِ .

وَكَذَلِكَ إجابَةُ المُؤَذِّنِ والقَولُ كَمَا يَقُولُ أَفْضَلُ مِن القِراءَةِ وإنْ كان فَضْلُ القُرآنِ على كُلِ كلامٍ كَفَضْلِ اللهِ تعالى على خَلْقِهِ لكِن لِكُلِ مَقَامٍ مَقَالٍ مَتَى فاتَ مَقَالَهُ فيه وعَدَلَ عنه إلى غيرِهِ اختَلَّتْ الحِكمةُ وفُقِدَتِ المَصْلَحَةُ مِنه .

وهَكَذَا الأذكارُ المُقَيَّدَةُ بِمَحالٍ مَخْصُوصَةٍ أَفْضَلُ مِن القِراءَةِ المُطْلَقَةِ والقِرَاءَةُ المُطْلَقَةُ أَفْضَلُ مِن الأذكارِ المُقَيَّدَةِ بِمَحَالٍ مَخْصُوصَةٍ ، والقِراءَةُ المُطْلَقَةُ أفْضَلُ مِن الأذْكَارِ المُطْلَقَةِ اللهُمَّ إلا أنْ يَعْرُضَ لِلْعَبْدِ مَا يَجْعَلَ الذِّكْرَى أو الدُعَاءِ أَنْفَعَ لَهُ مِنَ القُرْآنِ مِثَالُهُ أَنْ يَتفَكَّرَ في ذُنُوبِهِ فَيُحْدِثُ لَهُ تَوبَةً مِن استِغْفَارٍ أو يَعْرُضَ لَهُ مَا يَخَافُ أذاهُ مِنَ شَيَاطِين الإنْسِ والجِنِ فَيَعْدِلَ إلى الأذكارِ الْمُقَيَّدَةِ بِمَحَالٍ مَخْصُوصَةٍ ، والقِرَاءَةُ المُطْلَقَةُ أَفْضَلُ من الأذْكارِ المُطْلَقَةِ اللهُمَّ إلا أنْ يَعْرُضَ لِلْعَبْدِ مَا يَجْعَلُ الذِّكْرَى أَو الدُعاءِ أَنْفَعَ لَهُ مِنَ قِراءَةِ القُرآنِ مِثَالُهُ أَنْ يَتفَكَّر في ذُنُوبِهِ فَيُحْدِثُ لَهُ تَوْبَةً مِنَ استِغْفَارٍ أو يَعْرُضُ لَهُ مَا يَخَافُ أذاهُ مِنَ شَيَاطِينِ الإِنْسِ والجِنِ فَيَعْدِلَ إلى الأذكارِ والدَّعَوَاتِ التي تُحَصِّنُهُ وتَحُوْطُه .

وكَذَلِكَ أَيْضاً قَدْ يَعْرِضُ لِلْعَبْدِ حَاجَةٌ ضَرُوْرِيَّةٌ إذا اشْتَغَلَ عن سُؤالِها بِقِرَاءَةٍ وذِكْرٍ لم يَحْضُرْ قَلْبُهُ فِيْهَا وإذا أَقْبَلَ على سُؤَالِهَا وَالدُعَاءِ إليها اجتَمَعَ قلبُهُ كُلُّهُ على اللهِ تَعَالى وأحْدَثَ له تَضَرُّعاً وخُشُوعاً وابْتِهَالاً فهذا قد يَكُونُ اشْتِغَالُهُ بالدُعاءِ والحَالَةُ هَذِهِ أَنْفَعُ وانْ كَانَ كُلٌ مِن القِراءَةِ والذِكرْ أَفْضَلُ وأَعْظَمُ أَجْراً .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إن لِلهِ مَلائكةً يَطُوفُونَ في الطُرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِكْرِ فإذا وَجدُوْا قَوْماً يَذْكُرُوْنَ اللهَ تَنادَوا هَلِمُوا إلى حَاجَتِكُمْ .

قال فَيَحُفُونَهُم بأَجْنِحَتِهِم إلى السَّماءِ الدُنْيَا قال فَيَسْأَلُهُم رَبُهُمْ وَهُوَ أعلمُ بِهِم ما يَقُولُ عِبَادِي قال يَقولونَ : يُسَبِّحُونَكَ ويكَبِرُونَكَ ويَحْمَدُونَكَ ويُمَجِّدُونَكَ قال فَيقُولُ هَلْ رَأَوْنِي قال فَيَقُولُونَ لا واللهِ ما رَأوكَ قال فَيَقُولُ

كَيْفَ لَوْ رَأونِي .

قال فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبادَةً وأشَدَّ لَكَ تَمْجِيْدَاً وأكثَرَ لكَ تَسْبِيْحَاً قال فَيَقُولُ فَمَا يَسْألونَ قالُوا يَسْأَلُونَكَ الجنةَ قال فيقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا فيقولونَ لاَ وَاللهِ يا ربُّ ما رَأَوْهَا قال يَقُولُ فكيفَ لو رَأُوهَا .

قال يَقُولُونَ لَو أَنَّهُمْ رَأَوْهَا لَكَانُوا أشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصَاً وأَشَدَّ لَهَا طَلَبَاً وأعظَمَ فِيها رَغْبَةً قال فَمِمَّ يَتعَوَّذُوْنَ قال يَقولُونَ مِن النارِ قال فَهَلْ رَؤهَا قال يَقولُونَ لا واللهِ يَا رَبُّ ما رَأَوْهَا قال يَقُولَ فَكَيْفَ لو رَأَوْهَا قال يَقولُونَ لَو رَأَوهَا كانُوا أشَدَّ فِراراً وأشَدَّ لَهَا مَخافَةً .

قال فَيَقُولُ فأشْهِدُكُم أني غَفَرْتُ لَهُم قَالَ يَقُولُ مَلَكٌ مِن المَلاَئِكَةِ فِيهِمْ فلانٌ لَيْسَ مِنهم إنما جَاءَ لِحَاجَةٍ قال هُمُ الجُلَسَاءُ لا يَشْقى جَلِيْسُهُمْ» ولِذَلِكَ حَثَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم على الجُلُوسِ في مَجَالِسِ الذِكْرِ وشَبَّهَهُ بِرَوْضَةِ الجَنَةِ .

وَرَوَى الترمذِيُّ عن أنسٍ رَضيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم إذا مَرَرْتُم بِرِيَاضِ الجنةِ فارْتَعُوا قالُوا وما رِيَاضُ الجنةِ قالَ حِلَقُ الذِكْرِ وَرَوَى أبُو دَاوُدَ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُوْمُوْنَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُ اللهُ فيه إلا قَامُوا عَن مِثْلِ جِيْفَةِ حِمارٍ وكان عَلَيْهِمْ حَسْرَةً .

وروى مسلم عن حَنْظَلَةَ بنِ الرَّبِيْعِ الأَسَدِي قَالَ لَقِيَني أَبُو بَكْرٍ فقال كَيْفَ أَنْتَ يا حَنْظَلَةُ قلتُ نَافقَ حَنْظَلَةُ قال سُبْحَانَ اللهِ ما تقولُ قُلْتُ نَكُونُ عندَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم يُذَكِّرُنَا بالنارِ والجنة كَأَنَّا رَأيَ عَيْنٍ

فإذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ والضَّيْعَاتِ نَسِيْنَا كَثِيراً .

قال أَبُو بَكْرٍ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ ذَلِكَ فانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا على رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَقُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا رَسولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ وَتُذَكِّرُنَا بالنارِ والجنةِ كَأنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فاذَا خَرَجْنَا مِن عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ والأَوْلاَدَ والضَّيْعَاتِ نَسِيْنَا كَثِيْراً .

فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم والذي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لو تَدُوْمُوْنَ على مَا تَكُونُونَ عِنْدِيْ وفي الذِكْرِ لَصَافَحَتْكُم الملائِكَةُ على فُرُشِكُم وفي طُرُقِكُم ولكن يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلاَثَ مَرَّات .

قال أَحَدُ العُلَمَاءِ اذا حَصَلَ الأُنْسُ بِذِكْرِ اللهِ انْقَطَعَ عَنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللهِ ومَا سِوَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ هُوَ الذي يُفَارِقُ عندَ الموتِ فَلاَ يَبْقَى مَعَهُ في القَبْرِ أَهْلٌ ولا مَالٌ ولا وَلَدٌ ولا وِلاَيَةٌ ولا يَبْقَى إلاَّ عَمَلُهُ الصالِحُ ذِكْرُ اللهِ ومَا وَلاَهُ .

فَإِنْ كَانَ قَدْ أَنِسَ بِهِ تَمَتَّعَ بِهِ وَتَلَذَّذَ بِانْقِطَاعِ العَوَائِقِ الصَّارِفَةِ عَنْهُ إِذْ ضَرُوْرَاتُ الحَاجَاتِ في الحَيَاةِ الدنيا تَصُدُّ عَن ذِكْرِ اللهِ وعَن الأَعْمَالِ الصالِحَةِ ولا يَبْقَى بَعْدَ الموتِ عائِقٌ فَكَأَنَّهُ خُلِيَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَحْبُوْبِهِ فَعَظُمَتْ غِبْطَتُهُ وَتَخَلَّصَ مِنَ السِّجْنِ الذي كانَ مَمْنُوْعاً بِهِ عَمَّا بِهِ أُنْسُهُ .

ولِذَلِكَ قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم إِنَّ رُوْحَ القُدُسِ نَفَثَ في رَوْعِي «احْبِبْ ما أَحْبَبْتَ فإِنَّكَ مُفَارِقُهُ أرادَ بِهِ كلَّ ما يَتَعَلَّقُ بِالدنيا فإِنَّ ذَلِكَ يَفْنَى بالموتِ في حَقِّهِ فَكُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوْ

الجَلَالِ والإِكْرَامِ أ هـ .

اللَّهُمَّ اجْعَلِ الأيمانَ هادِماً لِلسيئآت ، كَمَا جَعَلْتَ الكُفْرَ هَادِماً لِلْحَسَنَاتِ وَوَفقنا لـلأَعْمَالِ الصـالِحاتِ ، واجعلنـا مِمَّنْ توكَّـلَ عليكَ فَكَفيْتَهُ ، واسْتَهْدَاكَ فَهدَيْتَهُ وَدَعَاكَ فأَجَبْتَهُ ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياءِ منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

« فصل في فوائِدِ ذِكرِ اللهِ تعالى »

قالِ ابنُ القيم ـ رحمه اللهُ ـ : وفي ذِكْرِ اللهِ أَكْثَرُ مِن مِائَةِ فائِدَةٍ يرْضِي الرَّحْمٰنَ ويَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ويُزِيْلُ الهَمَّ ويَجْلِبُ الـرزقَ ويَكْسِبُ المَهَابَةَ والحَلَاوَةَ ويُوْرِثُ مَحبَةَ اللهِ التي هِيَ رُوْحُ الأَسْلَامِ .

وَيُوْرِثُ المَعْرِفَةَ والانَابَةَ والقُرْبَ وحَيَاةَ القَلْبِ وذِكْرُ اللهِ لِلْعَبْدِ هُوَ قُوْتُ القَلْبِ ورُوْحُهُ ويَجْلِي صَدَاهُ ويَحُطُ الخَطَايَا ويَرْفَعُ الدَّرجَاتِ ويُحْدِثُ الأُنْسَ ويُزِيْلُ الوَحْشَةَ .

ويُذَكِّرُ بِصَاحِبِهِ ويُنْجِيْ مِن عَـذَابِ اللهِ ويُوْجِبُ تَنَـزُّلَ السَّكِيْنَةَ وغَشَيَانَ الرحْمَةِ وحُفُوفَ الملائِكَةِ بالِذاكِرِ وَيَشْغَلُ عن الكَلَامِ الضَّارِ ويُسْعِدُ الذاكِرَ ويُسْعِدُ بِهِ جَلْيْسَهُ وَيُؤَمِّنُ مِنَ الحَسْرَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ وهو مَعَ البُكَاءِ سَبَبُ لإظلالِ اللهِ العبدَ يَوْمَ الحَشْرِ الأكْبَرِ في ظِلِ عَرْشِهِ .

وأنه سَبَبٌ لِعَطَاءِ اللهِ لِلذَّاكِرِ أَفْضَلَ ما يُعْطِي السَّائِلِينَ ، وأنَّه أَيْسَرُ العِبَادَاتِ وهُوَ مِن أجلِّهَا ،وأَفْضَلِهَا ؛ وأنه غِرَاسُ الجَنَّةِ ، وأنَّ العَطَاءَ والفضلَ الذي رُتِّبَ عليه لم يُرَتَّبْ على غَيْرِهِ ، وأن دَوامَ الذِكْرِ لِلرَّبِّ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُوْجِبُ الأمانَ مِن نِسْيَانِهِ الذِيْ هُو سَبَبُ شَقَاءِ العَبْدِ في مَعَاشِهِ ومَعَادِهِ .

وأن الذِكْرَ يُسَيِّرُ العَبْدَ وهُوَ في فِرَاشِهِ وفي سُوْقِهِ ، وأن الذِكْرَ نُوْرُ الذَّاكِرِ في الدُنْيَا ونُورٌ له في قَبْرِهِ ونورٌ له في مَعَادِهِ وأن في القَلْبِ خَلَّةً وفَاقَةً لا يَسُدُّها شَيْءٌ البَتَّةَ إلا ذِكْرُ اللهِ عزَّ وجَلَّ .

وأن الذِكْرَ يَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ عَلَى العَبْدِ مِن قَلْبِهِ وإِرَادَتِهِ وهُمُوْمِهِ وعَزْمِهِ والذِكْرُ يُفَرِّقُ ما اجْتَمَعَ عليه مِن الهُمُومِ والغُمُوْمِ والأحزانِ والحَسَرَاتِ على مَوْتِ حُظُوظِهِ ومَطَالِبِهِ ويُفَرِّقُ مَا اجْتَمَعَ على حَرْبِهِ مِن جُنْدِ الشَيْطَانِ .

وأن الذِكْرَ يُنَبِّهُ القَلْبَ مِن نَوْمِهِ ويُوقِظُهُ ، والقَلْبُ إذا كَانَ نَائِمَاً فَاتَتْهُ الأَرْبَاحُ والمَتَاجِرُ ، وأن الذِكْرَ شَجَرَةٌ تُثْمِرُ المَعَارِفَ والأَحْوالِ التي شَمَّرَ إليها السَّالِكُونَ ، فلا سَبِيْلَ إلى نَيْلِ ثِمَارِهَا إلا مِن شَجَرَةِ الذِكْرِ .

وأنَّ الذَّاكِرَ قَرِيْبٌ مِن مَذْكُورِهِ ومَذْكُوْرُهُ مَعَهُ وَهَذِهِ المَعِيَّةُ مَعِيَّةٌ خَاصَةٌ ، وأنَّ الذكرَ يَعْدِلُ عِتْقَ الرِّقَابِ وَنَفَقَةَ الأموالِ والحَمْلَ على الخَيْلِ في سبيلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، وإنَّ الذِّكْرَ رأسُ الشُكْرِ ، وأن أَكْرَمَ الخَلْقِ على اللهِ مِن المُتَّقِيْنَ مَن لاَ يَزَالُ لِسَانُهُ رَطْباً مِن ذِكْرِ اللهِ .

وأن في القَلْبِ قَسْوَةً لا يُذِيْبُهَا إلا ذِكْرُ اللهِ تعالى وإنَّ الذِكْرَ شِفَاءُ القَلْبِ وَدَوَاؤُهُ والغَفْلَةَ مَرَضُهُ ، وأن الذِكْرَ أَصْلُ مُوالاَةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وأنَّهُ مَا اسْتُجْلِبَتْ نِعَمُ اللهِ واسْتُدْفِعَتْ نِقَمُهُ بِمِثْلِ ذِكرِ اللهِ .

وأن الذِكْرَ يُوْجِبُ صَلاَةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ومَلاَئِكَتِهِ على الذَاكِرِ وأَنَّ مَنَ شَاءَ أَنْ يَسْكُنَ رِيَاضَ الجنةِ في الدُنْيَا فَلْيَسْتَوْطِنْ مَجَالِسِ الذِكْرِ فإِنَها رِيَاضُ الجنةِ ، وأن مَجَالِسَ الذِكْرِ مَجَالِسُ الملائكة .

وأَن اللهَ عزَّ وجَلَّ يُبَاهِي بالذَّاكِرِيْنَ مَلاَئِكَتَهُ ، وأَنَّ مُدْمِنَ الذِكْر يَدْخُلُ الجنةَ وهو يَضْحَكُ وأن جَمِيْعَ الأعْمَالِ إنما شُرِعَتْ إِقَامَةً لِذِكْرِ اللهِ تعالى ، وأن أَفْضَلَ أَهْلِ كلِ عَمَلٍ أكثَرُهُم فيه ذِكراً لِلّـهِ عز وجَلَّ ، فَأَفْضَلُ الصُّوَامِ أكثَرُهُمْ ذِكْرَاً لِلَّهِ عز وجل .

وأن ذِكْرَ اللهِ يُسَهِّلُ الصَّعْبَ ويُيَسِرُ العَسِيْرَ ويُخَفِّفَ المَشَاقَ ، وأن ذِكْرَ اللهُ يُذْهَبُ عن القلبِ مَخاوِفَهُ كُلَّهَا ، ولَهُ تأثيرٌ عجيبٌ في حُصُوْلِ الأمْنِ ، وأن في الأشتغالِ بالذِكْرِ اشْتِغَالاً عن الكلامِ الباطِلِ مِن الغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ واللَّغوِ ، وأنَّ عُمَّالَ الآخِرَةِ كُلُهُم فِي مِضْمَارِ السِّبَاقِ والذَاكِرُونَ أَسْبَقُهُم في ذلك المِضْمَارِ ولكِن القَتَرَةُ وَالغُبَارُ يَمْنَعَانِ مِن رُؤْيَةِ سَبْقِهِم .

فَإِذَا إِنْجَلَى الْغُبَارُ وانْكَشَفَ ، رآهُمْ النَّاسُ ، وقَدْ حازُوا قَصَبَ السَّبْقِ ، وأنَّ الذِّكْرَ سببٌ لِتَصْدِيقِ الرَّبِّ عزَّ وَجلَّ عَبْدَهُ . فإِنَّهُ أَخْبَرَ عن اللهِ بأَوْصَافِ كَمالِهِ ونُعُوتِ جلاَلِهِ فَإِذَا أَخْبَرَ بِهَا العَبْدُ صَدَّقَهُ رَبُّهُ وَمَنْ صَدَّقَهُ اللهُ لمْ يُحْشَرَ مَعَ الكاذِبِيْنَ وَرُجِي لَهُ أَنْ يُحْشَرَ مَعَ الصَّادِقِيْنَ .

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لِلْقِيَامِ بِحَقِّكَ وَبارِكْ لَنَا فِي الحلال مِن رِزْقِكَ ولاَ تَفْضَحْنَا بين خَلْقِكَ يَا خَيْرَ مَنْ دَعَاهُ داعٍ وأَفْضَلَ مَن رجاهُ راجٍ يا قاضِي الحاجاتِ ومُجِيْبَ الدعواتِ هَبْ لَنَا ما سَأَلْنَاهُ وَحَقِّقْ رَجَاءَنَا فِيْمَا تَمَنَّيْنَاهُ يَا مَنْ يَمْلِكُ حَوائِجَ السَّائِلين ويَعْلَمُ ما فِي ضَمَائِرِ الصَّامِتِيْنَ أَذِقْنَا

بَرْدَ عَفْوِكَ وحَلاَوَةَ مَغْفِرَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ وصلى اللهُ على مُحمدٍ وآلِهِ أجمعِين .

* * *

(فَصْلٌ)

وَمِنُ فَوائِد الذِّكْر أيْضا ما ذَكَرَهُ ابنُ القَيّم رَحَمهُ اللَّهَ :

أَنَّ دُورَ الجنةِ تُبْنَى بالذِّكرِ ، فـاذا أمْسَكَ الذّاكِرُ عَن الذّكْرِ أمْسَكت الملائكةُ عن البناءْ ، وأنّ الذِكْرَ سَدٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وبَين جَهَنَّمَ فإذَا كانَتْ لهُ إلى جَهَنَّمَ طريقُ عَمَلٍ مِن الأَعْمال ، كان الذِكْرُ سَدًّا في تِلْكَ الطريْقِ ، وأنّ الملائِكة تَسْتَغْفِر لِلذَّاكِر كَمَا تَسْتَغْفِرُ لِلتَّائِبِ ، وأنَّ الجِبَالَ والقِفَارَ تَتبـاهَى وتَسْتَبْشَرُ بِمَنْ يَذْكُر اللهَ عزّ وجَلَّ عَلَيْهَا ، وأنَّ كَثْرَةَ ذِكْرَ اللهِ عَزَّ وجَل أمانٌ مِن النِّفاقِ ، فإنّ المنافقينَ قَلِيْلُوا الذِكْرِ لِلّه عَزَّ وجَلّ .

قال تَبَارَكَ وتعالى في المُنَافِقين : ﴿ولا يَذْكُرونَ اللّهَ إلاَّ قليلا﴾ وأنّ للذكْرِ مِن بَينِ الأعمالِ لَذّةً لا يُشْبِهُهُا شَيءٌ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلعَبْدِ مِن ثوَابهِ إلا اللَذّةَ الحَاصِلَةَ لِلذَّاكِرَ ، وأنه يَكْسُو الوجْه نَضْرَةً في الدُنيا ونُوْراً في الآخرةِ ، وأنْ في دَوَامَ الذّكْرِ في الطرِيقِ والبَيْتِ والحَضَـرِ والسَّفَرِوالبِقَاعِ تَكْثِيْراً لِشُهُوْدِ العَبْدِ يوم الْقِيَامَةْ ، فانَّ البُقْعَةَ والدَّار والْجبَل والأَرضَ تَشْهَدُ للذَّاكِر يومَ القيامَةْ . وانّ الذِكْرَ يُعْطِي الذّاكِرَ قُوةً حَتَّى أنّهُ ليفَعَلُ مَعْ الذكرِ مَا لَمْ يَظنَّ فِعْلَهُ بِدونِهِ ، قالَ وقَدْ شَاهَدتُ مِن قُوَّةِ شَيْخ الاسلام ابنِ تَيْميَّةَ في سُنَنِه وكلاَمِهِ واقْدَامِهِ وكِتَابَته أمْراً عَجِيْباً ، فكانَ يَكْتُبُ في اليومِ مِن التَّصْنِيَفِ ما يَكْتُبُه النّاسِخُ في جُمْعَةٍ وأكْثَرْ .

وقَدْ عَلَّمَ النَّبيُ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ابْنَتَهُ فاطمةَ وعلياً ـ رضي الله عنهما ـ أن يُسَبِّحا كلّ لَيْلَةٍ إذَا أخَذَ مَضَاجِعُهُما ثلاثاً وثلاثين ، ويَحْمَدا ثلاثاً وثَلاثين ، ويُكَبِرّا ، أَرْبَعاً وثلاثِين ، لَمَّا سَأَلْتَهُ الخادِمَ ، وشَكَتْ إليه ما تُقَاسِيه من الطَّحْنِ والسَّعْي والخِدْمَة ، فعَلَّمَها ذَلِكَ ، وقال : إنّه خيرٌ لَكُمَا مِنْ خَادَم .

فَقيلَ انَّ مَنْ دَاوَمَ على ذلك وجَد قُوةً في عَمَله مُغْنِيَةً عَنْ خَادِمْ ، قالَ وسَمِعْتُ شَيْخَ الاسْلام ِ ابنُ تَيْمِيَّةٍ ـ رَحِمه الله تعالى ـ يَذْكُر أثراً في هَذَا البابِ ، ويَقُول : انّ الملائكة لمَا أُمُروا بِحَمْلِ الْعَرْشْ ، قالُوا يا رَبَّنا كَيْفَ نَحْمِلُ عَرْشَكَ وعليهِ عَظَمَتُكَ وَجلاَلَكْ ، فقالْ : قُولُوا لا حوْلَ ولا قوة الاَّ باللهْ .

فَلَّمَا قالُوا حَمَلُوهُ حَتَّى رَأْيْتُ ابْنَ أبي الدّنْيَا قَدْ ذَكَر هَذَا الأَثَر بِعَيْنه عن اللَّيثِ بن سَعْد عَنْ مُعَاويةِ بن صالح قالَ حَدَّثَنا مَشْيَخَتُنا أنّهُ بَلَغَهُم أنَّ أوّل مَا خَلَقَ اللهُ عزَّ وجل حِين كانَ عَرْشُه على الماءِ حَمَلةَ العرشِ قالُوا : رَبَّنا لِمَ خلَقْتَنا ؟ قَالْ : خَلَقتُكْمْ لِحَمْلِ عَرْشي . قالوا : رَبّنا وَمَنْ يَقْوَى على حَمْلِ عَرْشِكَ وعليهِ عظمتُكَ وجلالُك وَوَقارُكَ ، قالْ : لذلكَ خَلَقْتكم ، فأعادُوا عليهِ ذلكَ مِراراً ، فقالْ : قُولوا لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ الا بالله فَحَمَلُوهْ .

قالْ : وهذِهِ الكَلِمَةُ لَهَا تأثيرٌ عَجِيب في مُعَانَاةِ الأَشْغَالِ الصَّعْبَةِ ، وتَحَمُّلِ المشاقِ والدُّخولِ على الملُوكِ وَمَنْ يُخَافُ ، ورُكُوبِ الأهْوَالِ ، ولَهَا أَيْضَا تأثِير في دَفْعِ الفَقْر قالْ : ومَبْنى الدِّينِ على قَاعِدَتَيْن الذِكْرِ والشُّكْرِ .

وليسَ المرادُ بالذّكْرِ مُجرّدَ ذكْرِ اللسانِ بَلْ الذّكْرُ الْقَلْبِي واللّساني ، وذلك يَسْتلْزِمُ مَعْرفَته والايمانَ بهِ وبصفاتِ كَمَاله ونُعُوتِ جَلالِهِ والثَنَاءِ عليهِ بأنواعِ المدْحِ وذلكَ لاَ يَتِمُّ إلاّ بتَوحيدِهِ فذِكْرُه الحَقِيْقِي يَسْتَلْزِمُ ذِكْرَ نِعَمِهِ وآلائِهِ وإحْسَانِهِ إلَى خَلْقِهِ .

وأمّا الشُّكْر فَهْو القيامُ بِطَاعَتِهْ ، فَذِكْرُهُ مُسْتلْزِمٌ لِمَعْرفَتِهِ وشُكْرُهُ مُتَضمّنٌ لِطاعَتِهِ وهُمَا الغايةُ التي خُلِقَ لأَجْلِهَا الجِنُّ والانْس .

(فَائِدَةْ) قَالَ الشَّيْخُ تَقِي الدِّيْن : مَن أُبْتُلِيَ بِبَلاءِ قَلْبٍ أَزْعَجَهُ فأعظَمُ دَواءٍ لَهُ قُوّةُ الالْتِجَاءِ إلى اللهِ وَدَوامُ التّضَرُّعِ والدّعاءِ بَأنْ يَتَعلمّ الأدْعِيَةَ المأثُورَةَ وَيَتَوخّى الدّعاءِ في مَظَانّ الإجَابَةِ مِثْلُ آخِرَ اللّيْلِ وَأوقاتِ الآذانِ والإقَـامَـةِ وفي السُّجُـودِ وادبـارِ الصّلَواتْ ، ويَضُمُّ إلى ذلـك الاسْتِغْفَار .

وَلَيَتَخِذُورْداً مِن الأذكارِ طَرَفَي النَّهارِ وعِنْدَ النَّوم،وَلْيَصْبِرُ على ما يَعْرِضُ لهُ من الموانِعِ والصّوارِفِ ، فانّهُ لا بُد أنْ يُؤَيّدَهُ اللهُ بِرُوْحٍ مِنْهُ ويَكْتُبَ الايْمَانَ في قَلْبِه وليْحَرِصَ عَلى عَمُودُ الدِيْنِ ، ولَيَكُنْ هُجَيْرَاهُ لا حوْلَ ولا قوَةَ الا باللهِ العَلِيِ العظيمْ .

فانّهُ بها يَحْمِلُ الأثْقَالَ ويُكَابِدُ الأَهْوَالَ ، ويَنَالُ رَفِيْعَ الأَحْوالِ ولا يَسْأَمُ مِن الدُّعاءِ والطّلَبْ ، فانَّ العَبْدَ يُسْتَجابُ له ما لم يَعْجَل ولْيَعْلَمَ أنَّ النّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وأنّ الفَرَج مَعَ الكَرْب وانّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَا ، ولَمْ يَنَلْ أحَدٌ شَيْئاً مِن عَمِيْمِ الخَيْرِ إلا بالصَّبْرِ والله الموفق .

شِعْرا :

بِــذِكْـرِكَ يَــا مَـوْلى الْــوَرَى نَتَنَعَّمُ
وقدْ خابَ قومٌ عن سَبِيْلِكَ قَدْ عَمُوا
شَهِــدْنَا يَقِيْنــاً أنَّ عِلْمَـكُ واسِـعٌ
فَأنتْ تَـرى مـا في القُلوبِ وَتَعْلَمُ
اِلَهِى تَـحَمَّـلْنَـا ذُنُــوبــاً عَـظِيْمَــةً
أَسَــأْنا وقِصّــرْنا وجُــودُكَ أعْــظَمُ
سَتَـرْنَـا مَعَــاصِيْنـا عن الخلقِ غَفْلَةً
وأنتَ تَــرانَــا ثُمَّ تَـعْفُــو وتَــرْحَـمُ
وَحَقِّــكَ مــا فِيْنَــا مُســيءٌ يَسُــرُّهُ
صُــدُودُكَ عَنْـهُ بَــلْ يَخَـافُ ويَنْــدَمُ
سَكَتْنَـا عَنِ الشَّكْـوَى حَيــاءً وَهَيْبَـةً
وَحَــاجَــاتُنَــا بــالْمُـقْتَـضَى تَـتَكَـلَّمُ
إِذَا كَـانَ ذُلُّ العَبْدِ بـالحـال نَـاطِقاً
فَهَـلْ يَسْتَـطِيع الصَّبْـرَ عَنْـهُ وَيَكْتُمُ
اِلَهِي فَجُـدْ واصْفـحَ وأَصْلِحْ قلُوبَنـا
فـأنْتَ الذِيْ تُـولِيْ الجَمِيـلَ وَتُكْـرِمُ
وأنْتَ الـذِي قَـرَّبْتَ قَـوماً فَـوَافَقُـوْا
وَوَفَّـقْتَـهُم حَـتَّى أنــابُـوا وسَـلَّمُــوْا
وَقُلْتَ آسْتَقَــامُــوا مِنَّــةً وَتَـكَــرُّمــاً
فــأنْتَ الــذي قَــوَّمْتَهُم فَـتَقَــوَّمُــوا

لَهُمْ فِي الدُّجَى أُنْسٌ بِذِكْـرِكَ دَائِماً
فَهُمْ فِي اللَّيَـالِي سَـاجِـدُونَ وقُـوَّمُ
نَـظَرْتَ إِلَـيْـهِـمْ نَـظْرَةً بِـتَـعَـطُفٍ
فَعَـاشُوا بِهَـا والنَّـاسُ سَكْـرَى وَنُـوَّمُ
لـكَ الحَمْدُ عَـامِلْنـا بِمَـا أنتَ أَهْلُهُ
وَسَـامِـح وسَلِّمْنَـا فَـأَنْتَ الْمُسَلِّمُ

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكْرِكَ وشُكْرَكَ وَوَفِقْنَا لِمَا وَفّقْتَ لَهُ الصّالحين من خَلْقِكَ واغفرْ لنا ولوالدِينا وجميع المسلمين بِرَحْمتك يا أرْحَم الرّاحمين وصلى الله على محمدٍ وآلهِ وصحبه أجمعين .

(فصل)

قَالَ في حَادي الارْواحْ ولَمَّا عَلِمَ الموفَّقُونَ ما خُلِقُوا لَهُ ومَا إِيْجَادُهُمْ لَهُ رَفعُوا رُؤُوْسَهم فإذَا عَلمُ الجَنَّةِ قَدْ رُفِعَ لَهُمْ شَمَّرُوا إِلَيْهِ وإِذَا صِرَاطُهَا المسْتَقِيم قَدْ وَضَحَ لَهُمْ فأسْتَقَامُوْا عليهِ ورَأَوْا مِنْ أعْظم الغَبْنِ بَيْعُ مَالاَ عَينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلبِ بشرٍ .

في أبَدٍ لا يَزُول ولا يَنْفَدْ بِصُبَابَةِ عَيْشٍ إنَّما هُو أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ أو كَطَيْفٍ زارَ في المَنامِ مَشُوبٍ بالنَّغَص مَمْزُوجٍ بالْغُصَص إِنْ أَضْحَكَ قَلِيْلًا أَبْكَى كَثيراً وإِنْ سَرَّ يَوْماً أحزَنَ شُهوراً آلامُهُ تزيدُ على لَذّاتِهِ وأحْزَانُهُ أضْعافُ مَسَّراتِهِ أوّلُهُ مَخَاوِفُ وآخِرُهُ متالِفُ .

فَيَا عَجَباً مِنْ سَفِيهٍ في صُورةِ حَكيم ومَعْتُوهٍ في مِسْلاخِ عاقِلِ آثَرَ الحَضَّ الفانِي الخَسِيْسَ على الحضّ الْبَاقي النَّفْيس باعَ جَنَّةٍ عَرْضُها

الأَرْضُ والسّمواتُ بِسِجْنٍ ضَيّقٍ بَيْنَ أَرْبَابَ الْعَاهَاتِ والْبَلِّياتِ ومَساكِنَ طَيِّبَةً في جنّاتِ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الانْهَار بأعْطانٍ ضَيّقَةٍ آخِرُها الْخَرابُ والبَوارُ .

وأبكاراً عُرْباً أتراباً كأنّهُنَّ الْياقُوتُ والْمَرْجَانُ بِقَذرَاتٍ دَنِسَاتٍ سَيِّئاتِ الأخْلاقِ مُسَافِحَاتِ أوْ مُتّخِذَاتِ أخْذانٍ وحُوْراً مقْصُوراتاً في الخِيامِ بِخَبْثَاتِ مُسَبَّاتٍ بَيْنَ الأنام وأنْهَاراً مِنْ خَمْرٍ لَذّةٍ لَلشّاربينَ بِشَرابٍ نَجَسٍ مُذْهَبٍ لِلْعَقْلِ مِفْسِدٍ لِلدُّنْيَا والدِين ، ولَذّةَ النّظَرِ إلى وَجْهِ الْعَزيْزِ الرّحيمِ بالتّمَتّعِ بِرُؤْيَةِ الْوَجْهِ القبِيحْ الذّميم .

وسَمَاعَ الْخِطابِ مِن الرحمن بِسَماعِ الْمَعازِفِ والْغِنَاءِ والألْحَانِ والجُلُوسِ على مَنابِرِ اللُؤْلؤِ والياقُوتِ والمُرْجَانِ والزَّبَرْجَدِ ويَوْمَ المزيدِ بالجُلُوسِ في مَجالِسِ الفُسوقِ مَعَ كُلِّ شيطانٍ مَرِيدٍ .

وإنَّما يَظْهَرُ الْغَبْنُ الفاحِشُ في هَذَا البيع يومَ الْقِيَامَةِ ويَتَبَيَّنَ سَفهُ بائِعِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ والنّدامَةِ اذا حُشِرَ المتَّقونَ إلى الرَّحمنِ وفْداً وسِيْقَ المُجْرِمُون إلى جَهَنّم وِرْداً ونَادى المُنادِي على رؤوسِ الأشْهادِ لِيَعْلَمَنَّ أهْلُ المَوقف مَنْ أولى بالكَرمِ مِن بَيْنِ العِبادْ .

فَلَو تَوَهَّمَ المُتَخَلِّفُ عَنْ هذِه الرِّفْقَةُ ومَا أُعِدَّ لَهُم مِنَ الاكْرامِ وَادُّخِرَ لَهُمْ مِن الفَضْلِ والانْعَامِ ومَا أُخْفِي لَهُم مِنْ قُرَّةِ أعْينٍ لَمْ يَقَعُ على مِثِلها بَصَرٌ ولا سَمِعَتْهُ أذنٌ ولا خَطر على قَلْبِ بَشَرٍ عَلِمَ أيَّ بِضَاعَةٍ أضَاعْ وأنّهُ لا خَيْرَ لَهُ في حَياتِهِ وهْوَ مَعْدُودٌ مِن سَقَطِ الْمَتَاعْ .

وأنّ الْقَوْمَ قَدْ تَوَسَّطُوا مُلْكَاً كَبيراً لا تَعْتَريه الآفاتُ ولا يَلْحَقُه الزَّوالُ

وفَازُوا بالنّعيم المقيم في جِوَارِ الرّبِ الكبيرِ المُتَعَالِ ، فَهُمْ في رُوْضَاتِ الجَنّاتِ يَتَقَلَّبونَ وَعَلى أَسِرّتِهَا تَحْتَ الحِجَالِ يَجْلِسُونَ وعلى الفُرُشِ التي بَطائِنُها مِنِ اسْتَبْرَقٍ يتّكِئُونَ وبالحُورِ العينِ يَتَمَتَّعُونْ .

وبأنواعِ الثِّمارِ يَتَفَكَّهونَ ﴿يَطُوفُ عليهم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون بأكْوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَعينٍ لا يُصَدّعُونَ عَنْها ولا يُنْزِفُون وفاكِهَةً مِمَّا يَتَخَيَّرُوْنَ ولحم طير مِمّا يَشْتهون وحُورٌ عِينٌ كأمْثالِ اللُؤْلِؤُ والمكنونِ جَزَاءاً بمَا كانوا يَعْمَلونْ﴾ يُطَافِ عليهم بِصَحافٍ مِنْ ذَهبٍ وأكْوابٍ وفِيْها ما تَشْتَهِيهِ الأنْفُسُ وتَلَذُّ الأعْينَ وأنْتُم فيها خالدون﴾ تا اللهِ لقَدْ نُودِي عليها في سُوقِ الْكَسادِ فَمَا قَلَّبَ ولا اسْتَامَ إلا أفْرادٌ مِن العِبَادِ وقال رحمه الله في النونية :

بِــاللّهِ مــا عُــذْرُ امْرِءٍ هُــو مُؤْمِنٌ
حَـقّــا بِـهـذا لَـيْسَ بـالْـيَـقْـظَانِ
بَــلْ قَلْبُـهُ في رَقْـدَة فـاذا اسْتَفـا
قَ فَـلُبْسُــهُ هُــو حُـلَّةُ الْـكَسْــلاَنِ
تَـا اللَّهِ لَـوْ شـاقتْـكَ جَنَّــاتُ النَّعِيْـ
ـمِ طَـلَبْتَـهــا بِنـفــائِسِ الاثْـمــانِ
وسَعَيْتَ جُهْـدَكَ في وِصَالِ نَـواعِمٍ
وكَــواعِـبٍ بِيْضِ الـوُجُـوْهِ حِسَــانِ
جُلّيَتْ عـلـيـك عَـرائسٌ واللهَ لَــوْ
تُجْلَى عـلى صَخْـرٍ مِـنَ الصُّـوَّانِ
رَقَّـتْ حَــواشِـيْــهِ وعــادَ لِـسوْقَـتِـهِ
يَنْهَــالُ مِـثْـلَ نَقىً مِن الـكُثْـبَـانِ

لَكِنَّ قَلْبَك في القَسَاوَةِ جَازَ حَدْ
دَ الصَّخْرِ والْحَصْبَاءِ في أَشْجَانِ
لَوْ هَزَّكَ الشَّوْقُ المُقيمُ وكُنْتَ ذَا
حِسٍّ لَمَا اسْتَبْدَلْتَ بالأَدْوَانِ
أَوْ صَادَقَتْ مِنْكَ الصِّفاتُ حَياةَ قَلْ
بٍ كُنْتَ ذَا طَلَبٍ بِهَذَا الشَّانِ
حُورٌ تُزَفُّ إلى ضَرِيْرٍ مُقْعَدٍ
يا مِحْنَةِ الحَسْنَاءِ بالْعُمْيَانِ
شَمْسٌ لِعِنِّينٍ تَزَفُّ إليه مَا
ذَا حِيلَةُ الْعِنّيْن في الْغَشَيَانِ
يا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيْصَةً
بل أنْتِ غالية على الْكَسْلانِ
يا سِلْعَةَ الرحمن ليس يَنَالُهَا
بالأَلْفِ إلا واحِدٌ لا اثْنَانِ
يا سِلْعَةْ الرحمن ماذا كَفُوْهَا
إلا أُولُوا التّقْوَى مَعَ الإِيْمَانِ
يا سِلُعةَ الرَّحمنِ سُوقُكِ كاسِدٌ
بين الأرَاذَلِ سَفْلَةِ الْحَيَوانِ
يا سِلْعَةَ الرحمن أيْنَ المَشْتَرِي
فَلَقَدْ عُرِضْتِ بأيسرِ الأثْمانِ
يا سِلْعَةَ الرحمنِ هَلْ مِنْ خَاطِبٍ
فالْمَهْرُ قَبْلَ الموتِ ذُو إمْكَانِ

يا سِلْعَةَ الرحمن كَيْفَ تَصْبُّر الْـ
خُطّابُ عَنْكَ وَهُمْ ذَوُوْ إيْمَانِ
يا سِلْعَةَ الرحمنِ لَوْلاَ أنَّهَا
حُجِبَتْ بِكُلِّ مَكَارِهِ الإنْسَانِ
مَا كَانَ عَنهَا قَطُ مِن مُتَخلِّفٍ
وتَعَطّلتْ دَارُ الجَزاءِ الثّانِي
لَكِنَّهَا حُجِبَتْ بِكُلِّ كَرِيْهَةٍ
لِيَصُدَّ عَنْهَا الْمُبْطِلُ المُتَوانِي
وتَنَالُهَا الْهِمَمُ الَتِي تسْمُوا إلى
رَبِّ الْعُلى بِمَشِيْئَةِ الرّحمنِ

اللهَّمَّ اجْعَلْنَا مِن المتقينَ الأبْرارِ وأَسْكِنَّا مَعَهمُ في دارِ القرارَ ، اللهم وفقنا بِحُسْن الاقبالِ عَليك والإصْغاءِ إليك ووَفّقْنا لِلتّعاوُنِ في طَاعَتِكَ والمُبَادَرةِ إلى خِدْمَتكَ وحُسْن الآداب في مُعَامَلَتِكَ والتّسليم لِأمْرِكَ والرِّضا بِقَضَائِكَ والصَّبْرَ عَلى بَلائِك والشّكْرِ لِنَعْمَائِكَ ، واغفرَ لَنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتِكَ يا أرْحَمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمدِ وآلِهِ أجمعين .

(فصلٌ)

في فَضَائِل الاسْتِغْفَار

يُسْتَحَبُّ الإكْثَارُ مِن الاسْتِغْفار في كُلِّ وَقْتٍ ، ويَتَأَكّدُ في الزمَّانِ الفَاضِل ، والمكانِ الفاضِلْ ، قال تَعالى : ﴿ والمُسْتَغْفِرين بالأسْحَار ﴾ وقال : ﴿ أفلاَ يَتُوبُون إلى اللهِ ويَستغفرونَهُ واللهُ غفورٌ رَحيم ﴾ ، وقال

تعالى : ﴿ ومَا كان اللهُ مُعذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغفِرون ﴾ ؛ وقالَ تعالى ، مُخْبِراً عن نوح : ﴿ .. فَقُلت استغفروا رَبّكُم إنه كانَ غفّاراً يُرْسِلِ السّماءَ عليكم مِداراً وَيُمْدِدْكُمْ بأمْوالٍ وَبَنِيْنَ وَيْجعل لَكُمْ جَنّاتْ ﴾ الآيَـةْ ، وقَالَ تَعالَى ﴿ والَّذِيْنَ إذا فَعَلوا فاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا انْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّهَ فاسْتَغْفرُوا لِذُنُوبِهمْ ، ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ الاّ اللّهْ ﴾. وقَالَ تَعالى : ﴿ وَمنْ يَعْمَل سُوءاً ويَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ ، يَجِدِ ، اللّه غَفُوراً رَحِيْما ﴾ .

وَعَنْ شَدّادٍ بْنُ أوْسٍ ـ رَضْي اللّهُ عَنْهُ ـ عَنِ النّبيّ صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلّمْ ، قالْ : « سَيِّدُ الاسْتِغفَارُ أنْ يَقُولَ العَبْدُ : اللّهُمّ أنْتَ رَبِّي ، لاَ إلهَ إلاّ أنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وأنَا على عَهْدِكَ ووَعدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْت ، أبوُءُ لَكَ بِنْعَمتِكَ عَلَيْ ، وأبُوء بِذَنْبي ، فاغْفِرْ لِي ، إنّهُ لاَ يَغْفُر الذُّنُوبَ إلا أنْتَ »[1] .

وَعَنِ ابْنِ عُمَرْ ـ رَضْي اللّهُ عَنهُما ـ قَالْ : إنّا كُنّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللّهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلّمْ في المجْلِس يَقُولْ : « رَبِّ إغفِرْ لِي ، وتَبْ عَلَيْ ، إنّكَ أنْتَ التّوابُ الغَفُور » مِائِةَ مَرّةْ[1] .

وَعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنُ بُسْرٍ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ قالَ : قَالَ رسُولُ اللّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ : « طُوبَى لِمَنْ وُجِدَ في صَحِيْفَتِهِ : اسْتِغفَـارُ كَثِيرْ »[2] .

وعَنْ أبِي هَرِيْرَةَ ـ رَضْي اللّهُ عَنه ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ : « انّ اللّهَ عزّ وَجلْ لَيَرْفَعُ الدّرجَة لِلْعَبْدِ الصّالِحِ في الجَنّة فيَقُولُ : يَا رَبِّ ، أنّي لِي هَذِه ؟ فَيَقُولُ : باسْتِغْفارِ وَلَدِكَ لَكْ »[4] .

وعَنْ ابْنُ عَبّاسٍ ـ رَضْي اللّهُ عَنْهُما ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عليهِ وسَلم : « مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجَا وَمِنِ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجَا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب »(٣)

وَعَن الأَغَـرِ المُزَنِي ـ رَضْي اللّهْ عَنْهِ ـ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عَلَيِهِ وسَلّمْ : « إنَّهُ لَيُغَانُ على قَلْبِي ، وَإنّي لأَسْتَغْفِرُ اللّهَ في اليوم مِائَةَ مَرَّةْ »(٥) .

وَقَالَ حُذَيْفَةْ : كُنْتُ ذَرِبَ اللّسَانِ عَلَى أهْلِي ، فَقُلْتُ : يا رسولَ اللّهْ ، لَقَدْ خَشِيْتُ أنْ يُدْخِلنِي لِسَاني النَّارْ ، فَقَالَ النّبيُّ صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلّمْ : « فأيْنَ أنْتَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ ، فَإنِيِّ لأَسْتَغْفِرُ اللّهَ في اليوم مِائَةَ مَرّة » أخرْجَهُ النَّسَائِي .

وَعَنْ زَيْدٍ مَـوْلَـى رسولَ اللّه صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلَمْ ، أنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلّم يَقُولْ : « مَنْ قَالْ : أَسْتَغْفِرُ اللّهَ الذي لا إلهَ إلّا هُو ، الحَيّ الْقَيّومُ ، وأَتُوبُ إليهِ غَفَرَ لَهُ ، وإنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزّحْفِ » رواهُ أبو دَاوُدْ .

وَعَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْرِي ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ عَنِ النّبي صَلّى اللّه عليهِ وسَلّم قال : « مَن قالَ حِينَ يأوِي الى فِرَاشِهَ : أَسْتَغْفِرُ اللّهَ الذي لا إله الّا هُو ، الحَيُّ القيومُ ، وأتوُبُ اليْه ـ ثلاثَ مَرّاتْ ـ غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُه ، وانْ كانَت عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ ، وأنْ كانَتْ عَددَ أيامِ الدّنْيا » رواهُ الترمذي .

وَعَنْ أنَس ـ رَضي اللّهُ عَنْه ـ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عليهِ وَسَلّمْ يقول : « قالَ اللّهُ تعالى : يَا ابْنَ آدْم إنَّكَ ما دَعَوْتَني وَرَجَوْتَني

غَفَرْتُ لَكَ عَلى مَا كانَ مِنْكَ ولا أُبالِي ، يا ابْنَ آدَم ، لو بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمّ اسْتَغْفَرتِنِي غَفَرتُ لَكَ ولا أُبَالِي ، يا ابْنَ آدَمَ إنّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرابِ الأرْضِ خَطَايَا ثُمّ لَقِيْتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئا لأَتَيْتُكَ بِقرابِها مَغفَرةً رواهُ التّرمذي .

وَعَنْ أبِي سَعِيْدٍ الخُدْري ـ رَضْي اللّهُ عَنْهِ ـ عَن النَّبـي صَلّى اللّهُ عليهِ وَسَلَمّ قَالْ : « قَالَ ابلِيْسُ : وعِزّتِكَ لا أبْرَحُ أغْوِيْ عِبَادَكَ ما دَامَتْ أَرواحُهُمْ في أجْسَادِهُم ، فَقَالْ : وَعِزّتِي وَجَلاَلِي لا أزَالُ أغْفِرُ لَهُمْ ما اسْتَغْفَرُونِي »[٣] .

وَعَنِ الزُبَيْرِ ـ رَضِي اللّهُ عَنْه ـ أنَّ رَسُولَ اللّه صَلّى اللّهُ عليه وسلم قال : « مَنْ أحَبّ أنْ تَسُرَّهُ صَحِيْفَتُهُ فَلْيُكْثر فِيها مِنَ الاسْتِغْفَارْ »[٤] .

وعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ عَنِ الرّسُولِ صَلّى اللّهُ عليه وسَلَّمْ قالْ : « إنّ العَبْدَ إذَا أخْطَأَ خَطِيئةً نَكَتَتْ في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ ، فانْ هُوَ نَزَعَ واسْتَغْفَرَ صُقِلَتْ ، فَانْ عَادْ زِيْدَ فِيْها حَتى تَعْلُو قَلْبَهُ ، فذلِكَ الرّانُ الذِي ذَكَرُ اللّه تَعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلى قُلوُبِهمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونْ[١] ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ أنَسْ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ أنّ رَسولُ اللّهِ صَلّى اللهِ عليهِ وسَلمْ قَالْ : « إنّ لِلْقُلوُبِ صَداً كَصَدإِ النُّحَاسِ ، وجَلاَؤُهَا الاسْتِغْفَارُ »[٢] .

وَرَوِيَ عَنْ أنَس بْنُ مَالِكَ ـ رَضْيَ اللّهُ عَنْه ـ قَالْ : كَانَ رسُولُ الله صلى الله عليهِ وسَلمَ في مَسْيرَةٍ ، فَقَالْ : « اسْتَغْفِرُوا اللّهَ ، فاسْتَغْفَرْنَا ، فَقَالَ : « أتِمُّوْهَا سَبْعَينَ مَرّةْ » فَأَتْمَمْنَاهَا ، فَقَالَ رَسولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ

وَسَلّمْ : « مَا مِنْ عَبْدٍ وَلَا أمَةٍ يَسْتَغْفِرُ اللّهَ في يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً إلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ سَبْعُمِائَةَ ذَنْب ، وَقَدْ خَابَ عَبْدُ أو أمَة عَمِلَ في يَوم ٍ ولَيْلَةٍ أكْثَرُ مِنْ سَبْعِمِائةِ ذَنْبٍ »[٣] .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْي اللّهُ عَنْه ـ قَال : قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم : « والّذِي نَفْسِي بَيدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللّه تعالى بِكُمْ وَلَجَاء بِقَوْمٍ يُذْنِبُون فَيستَغْفِرُونَ اللّهَ تعالى فَيَغْفِرُ لَهُمْ » رواهُ مُسْلَمٍ .

وَفِي حَدْيث سَلْمَانْ : « فاسْتَكْثُروا فِيه مَنْ خَصْلَتَيْنِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكَمْ وَخْصلِتينِ لا غِنَى لَكُمْ عَنْهُما ، فأمّا الخَصْلَتانِ اللّتَانِ تُرْضُون بِهمَا رَبّكمُ فَشهادَةُ أنّ لّا إله إلّا اللّه ، والِاسْتِغفَارُ وَأَمّا التِي لا غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا فَتَسْألونَهُ الجَنّة وتَعُوذُون بِهِ مِنَ النّارْ» .

فَهذِهِ الخِصَالُ الأرْبَعُ المذكُورَةِ في الْحَدْيثِ كُلّ مِنْهَا سَبَبٌ لِلْمَغْفِرةِ والْعْتقِ مِنَ النارِ، فأمّا كَلِمَةُ الإِخْلاصِ فإِنّها تَهْدِمُ الذُّنوبَ وتَمْحُوها مَحْواً ، وَلَا تُبْقى ذَنْباً ، وَلَا يَسْبِقُها عَمَلٌ ، وَهْيِ تَعْدِلُ عِتْقَ الرِّقَاب الّذِي يُوجِبُ الْعِتْقَ من النَّارِ ، وَمَنْ أتىَ بِهَا حِيْنَ يُصْبِحُ وَحِيْنَ يُمْسِي أعْتَقَهُ اللّهُ مِنَ النّارْ ، وَمَنْ قَالها خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ حَرّمَهُ اللّهُ عَلَى النّارِ .

وَأَمّا كَلِمَةُ الاسْتِغْفَارُ فَمِنْ أعْظَمِ أسْبَابِ الْمَغْفِرَةْ . فَإِنَّ الاسْتِغْفَار دُعَاءٌ بالمغْفِرَةْ ، وَدُعَاءُ الصّائِمِ إذَا اجْتَمَعَتْ لَهُ الشّرُوطُ وانْتَفَتْ المَوانِعْ مُسْتَجَابٌ حَالَ صِيَامِهِ وعِنْدَ فِطْرِهْ .

وفِي حَدْيثِ أبِي هُرَيْرَةَ : « وَيَغْفِرُ اللّهُ إلّا لِمَنْ أبَى ، قالُوا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَمَنْ يَأبَىَ؟ قَالْ : يَأْبى أنْ يَسْتَغْفِرَ اللّهْ » .

وَقَالَ لُقْمَانُ لابْنِهْ : يَا بُنَيَّ عَوِّدْ لِسَانَكَ الاسْتِغْفَارْ ، فَإِنَّ لِلّهِ سَاعَاتٍ لاّ يَرَدُّ فِيْهِ سَائِلاَ، وَقَدْ جَمَعَ اللّهُ بَيْنَ التّوْحِيْدِ والاسْتِغْفارِ ، في قَوْلِهِ : ﴿ فاعْلَمْ أَنّهُ لا إلهَ إلاّ اللّهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكْ ﴾ .

وَفي بَعْضِ الآثَارْ : أَنّ ابْلِيْسَ قَالَ : أَهْلَكْتُ النَّاسَ بالـذنُوبِ وأَهْلكُونِي بالْاستغفارِ وَلاَ إِله إلاَّ اللّهُ .

والاسْتِغْفَارُ خِتامُ الأعْمَالِ الصّالِحَةِ كُلِّهَا فَيُخْتَمُ بِهِ الصّلاَةُ والحَجُّ والْقِيامُ في اللّيْلِ وَيُختَمُ بِهِ المجَالِسُ ، فإِنْ كانَتْ ذِكْراً كانَ كالطّابَعِ عَلَيْهَا وإِنِ كانَتْ لَغْواً كَانَ كَفّارَةٌ لَها ، فَكَذَلِكَ يَنْبغي أنْ يُخْتَتَم صِيَامُ رَمَضانَ بالاسْتِغْفَارِ يُرَقِّعُ مَا تَخرّقَ مِن الصِّيَامُ باللّغْوِ والرّفَثِ « وَيْجتَهِدُ في الاكْثَارِ مِنَ الاعْمَالِ وَالتَّقلُّلِ مِنْ شَواغِلِ الدُّنْيا والإِقْبالِ على الآخِرَةِ ما دَامَ في قَيْدِ الحياةْ » .

ومِن عِظَةِ الْحَسَنِ الْبَصْرِي لِعُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ أَمّا بَعْدُ فانّ الدَّنْيا دَارُ ظَعَنِ لَيْسَتْ بِـدار إقَامَةْ لَهَا في كُلِّ حِيْنٍ قَتِيلْ تُذِلَّ مَنْ أعزّهَا وَتُفْقِرُ مَن جَمَعَهَا هِيَ كالسُّمِّ يَأْكُلهُ مَنْ لاَ يَعرِفُهُ وفيهِ حَتْفُهُ فَكُنْ فِيْها كا المدَاوي جِرَاحُه يَحْتَمِي قَلَيْلاً مَخافَة مَا يَكْرَهُ طَوِيْلاً ويَصْبرُ على شِدَّةِ الدّواءِ مَخَافَةَ طُولِ الدّاءِ ، فأَحْذَرْ هَذهِ الدّنْيا الخَدَّاعةَ الغَدّارَةَ الخَتّالَـةَ الّتي قَدْ تَـزَيَّنَتْ بِخِدَعِهَا وقَتَلَتْ بِغُرُورِهَا وتَحَلَّتْ بآمالِها وسَوّفَتْ بِخُطَّابِها .

فأصْبَحَتْ كالْعَرُوْسِ المَجْلِيَّةْ العُيُوْنُ إِلَيْهَا نَاظِرَةٌ والْقَلوبُ عَلَيْها وَإلِهةٌ وَهْي لأَزْوَاجِها كُلِّهِمْ قَالِيَة ، فَلا الْباقِي بالْماضِي مُعْتَبِرٌ وَلاَ الآخِرُ بالأَوّلِ مُزْدَجِرٌ ، فَعَاشِقٌ لَهَا قَدْ ظَفِرَ مِنْها بِحَاجَتِهِ فاغْتَرَّ وَطَغَى وَنَسِيَ

المَعَادَ فَشغَلَ فِيْها لُبَّهُ حَتّى زَلّتْ بِهِ قَدَمُهُ فَعَظُمَتْ نَدَامَتُهُ وكَثُرَتْ حَسْرَتُهُ واجْتَمَعَتْ عليهِ سَكَراتُ الْموتِ وتألُمهُ وحَسَراتُ الفَوْتِ بِغُصَّتِهِ وراغِبٌ فِيها لَمْ يُدْرِكْ مِنْهَا مَا طَلَبْ وَلَمْ يُرِحْ نَفْسَهُ مِنَ التّعَبِ فَخرَجَ بِغَيْر زَادٍ وقَدمَ على غَيْرِ مِهادٍ .

فاحْذَرْهَا يا أميرَ المؤْمِنَينَ وَكُنْ أَسَرَّ مَا تَكُونُ فِيها أحْذَرُ لَهَا فإِنَّ صَاحِبَ الدُّنْيا كُلّما اطْمأَنّ فِيْها إلى سُرورٍ أشْخَصَتْه إلى مَكْرُوهٍ وضَارٍ وَقَدْ وصِلَ الرَّخاءُ مِنْها بالبَلاءِ وجُعِلَ البَقَا ء إلى فَناءِ فَسُروُرُها مَشُوبٌ بالأحْزَانْ أمَانِيُّهَا كَاذِبَةٌ وآمَالُها باطِلَةٌ وَصَفْوهَا كَدَرٌ وعَيْشُها نَكَدٌ وابْنُ آدَمَ فِيْها عَلى خَطَرٍ إ هـ .

شِعْرَاً :

فَيَـا أيُّهـا النّـاسِي لَيـومِ رَحِيْـلِهِ
أرَاكَ عـنِ الـموتِ الـمُفـرِّقِ لاَهِـيـا
أَلا تَـعْـتَـبِـرُ بـالـرَّاحـلْيـنَ إلـى الْـبـلَى
وتـركِـهُـم الـدّنْـيَـا جَـمْـيعـاً كَـمَـا هِـيَـا
وَلَمْ يَخْـرُجُـوا إلاّ بِقُـطنٍ وخِـرْقَـةٍ
وَمَـا عَمَّرُوا مِنْ مَنْـزِلٍ ظَـلَّ خَـالِيَـا
وَأنْتَ غَـداً أَوْ بَعْدَهُ في جِـوارِهِمْ .
وَحِيْـداً فـرِيْـداً في المَقـابِـر ثِـاوِيَـا

اللّهُمّ يَا مَنْ لاَ تَضُرُّهُ الْمعصِيَةُ ولاَ تَنْفَعُه الطَّاعَةُ أيْقِظْنَا مِنْ نَوْمِ الغَفْلَةِ وَنَبّهنْا لاغْتِنام أوْقَاتِ المُهْلَةِ وَوَفّقْنا لِمصَالِحِنَا واعْصِمْنَا مِنْ قَبَائِحِنا وذُنُوبِنا ولا تؤَاخِذْنَا بمَا انْطوَتْ عليْهِ ضَمائِرُونا واكَنّتْهُ سَرَائِرُونا مِنْ أنْواعِ

القَبَائِحِ والمَعَائِبِ التي تَعْلَمُها مِنّا واغْفِرْ لَنا ولِوالِدِيْنا ولِجميعِ المُسْلِمينَ الاحْياءِ مِنهُمْ والميتينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الرّاحِمينَ وصَلى اللهُ على مُحَمّدٍ وعَلَى آلهِ وَصَحْبِه أجْمعين .

(فَصْلٌ)

في أحْكَامِ الأعْتِكَافِ في المسْجِدْ

الإِعْتِكَافُ لُغَةً : لُزُوْمِ الشَّيء ، وَحَبْسُ النَّفْسِ عَلَيْهِ بِرّاً كَانَ أو غَيْرِهِ ، وفي الشَّرْعِ : لُزُوْمُ مُسْلِمٍ لا غُسْلَ عَلَيْهِ ، عَاقِلٍ وَلَوْ مُمَيّزاً ، مَسْجِدَاً وَلَوْ سَاعَةً مِن لَيْلٍ أو نَهارٍ لِطَاعَةِ اللّهِ .

وَهُوَ سُنَّةٌ في كُلِّ وَقْتٍ،وَفي رَمَضَانَ آكَدَهُ،وَآكَدُهُ عَشْرَهُ الأَخِيْرُ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ عائِشَةً ـ رَضْيَ اللهُ عنْهـا ـ قالَتْ : « كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانْ .

وَعَنْ أَنَسٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالْ : « كَانَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانْ ، فَلَمْ يَعْتَكِفْ عاماً فَلَمَّا كَانَ في الْعَامِ المُقْبِلِ إعْتَكَفَ عِشْرِيْنَ » .

أَمَّا كَوْنُهُ لا يَصِحُّ مِنَ الكافِرْ،فَلِأَنَّهُ مِنْ فُرُوعِ الإيمانِ ، وَلَا يَصحّ مِنْهُ كالصَّوْمِ ، وأَمَّا منْ زَالَ عَقْلُهُ كالمَجْنُونِ فَلِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أهْلِ العِبَادَاتِ فَلَمْ يَصِحْ مِنْه .

أَمَّا كَوْنُهُ لا غُسْلَ عَلَيْهِ ، فَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ في حَدِيْثِ عائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عنْهـا ـ : « إِنِّي لاَ أُحِلُّ الْمَسْجِـدَ لِحَائِضٍ وَلَا جُنُبْ » .

وأمّا كَوْنُهُ في مَسْجِدٍ ، فَلِقَوْلِهِ تعَالى : ﴿ وَأَنْتُمْ عَاكِفُوْنَ في المَسَاجِدِ ﴾ وَلَا يَصِحُّ إلَّا فـي مَسْجِدٍ تُقَامُ فِيهِ الْجَمَاعَةْ ، لِأَنَّ الإِعْتِكَاف في غَيْرِهِ يُفضِي إمّا إلى تَرْكِ الْجَماعَةِ ، أو تكَرُّرِ الْخُروجِ إلَيْهَا كَثِيراً مَعَ إِمْكَانِ التَّحَرُّرِ مِنه ، وَهُوَ مُنَافٍ لِلإِعْتِكَافِ .

وَالإِعْتِكَافُ في مَسْجِدٍ تُقَامُ فِيه الْجُمُعَةَ أفْضَلُ ، لِئَلَّا يَحْتَاجَ إلى الخُروجِ إلَيْهَا ، وَلأَنَّ ثَوابَ الجَماعَةِ في الجَامِعِ أَكْثَرُ ، وَلِأَنَّهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أعْتَكَفَ في الْمَسْجِد الْجَامِعِ .

وَيَجِبُ الأعْتِكَافُ بالنَّذْرِ ، قَالَ إبْنُ المُنْذِرِ أجْمَعَ أَهْلُ العِلْمِ على أنَّ الأعْتِكَافَ لا يَجِبُ عَلَى النَّاسِ فَرْضَاً إلّا أنّ يُوجِبَ المرءُ عَلَى نَفْسِهِ الإِعْتِكَافُ نَذْراً ، لِقَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطْعِهُ » .

والأَفْضَلُ أنْ يَعْتَكِفَ بِصَوْمٍ ، وَلِأَنَّ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسَلَّمَ كَانَ يَعْتَكِفُ في شَهْرِ رَمضَانَ، فَإن اعْتَكَفَ بِغَيْرِ صَوْمٍ جَازْ ، لِحَدِيْثِ عُمَرَ ـ رَضِي اللهُ عَنْه ـ قال : قُلتُ : يا رَسُولَ اللَّهْ ، إنِّي نَذَرْتُ في الْجَاهِلِيَّةِ أنْ أعْتَكِفَ لَيْلَةً في الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قَالْ : « فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ » .

وَلَوْ كَانَ الصَّوْمُ شَرْطَاً فِيه لَمَا صَحَّ اعْتِكَافُ اللَّيْلِ ، وكَالصَّلَاةِ وسَائِرِ الْعِبَادَاتِ .

وَلَا يَصِحُّ اعْتِكَافُ الأَبْنِيَةِ ، لِأَنَّهُ عِبَادَةٌ مَحْضَةٌ ، وَلِحَدِيثِ : « إنّما الأعْمَالِ بالنِيات » .

وَمَنْ نَذَرَ الأعْتِكَاف أو الصَلاَةَ في مَسْجِدٍ غَيْرِ الثَّلاَثَةْ ، وَهِيَ . المَسْجِدُ الحَرَامُ ، ومَسْجِدُ الْمَدِينَةِ ، والْمَسْجِدُ الأقْصَى : جَازَ لَهُ أنْ

يَعْتَكِفَ في غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لا مَزِيَّةَ لِبَعضِها عَلَى بَعْضٍ .

وَإِنْ نَذَرَ أنْ يَعْتَكِفَ في الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَزِمَهُ أنْ يَعْتَكِفَ فِيه لِمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنَّهُ سَأَلَ النَّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ، قال : كُنْتُ نَذَرْتُ في الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، قَال : « أَوْفِ بِنَذْرِكَ » .

وَلِأَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الْمَسَاجِدِ ، وَلاَ يَجُوزُ أنْ يُسْقِطَ فَرْضَهُ بِمَا دُوْنَهُ .

وَإِنْ نَذَرَ أنْ يَعْتَكِفَ في مَسْجِدِ الْمَدِيْنَةِ جَازَ لَهُ أَنْ يَعْتَكِفَ في الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، لِأَنَّهُ أفْضَلَ مِنْهُ ، وَلَمْ يَجُزْ أنْ يَعْتَكِفَ في الْمَسْجِدِ الأقْصَى ، لِأَنَّ مَسْجِدَ النَّبيّ صلَّى اللهُ عليْهِ وَسَلَّمْ أفضَلُ مِنْهُ .

وَإِنْ نَذَرَ أنْ يَعْتَكِفَ في الْمَسْجِدِ الأقْصَى جَازَ لَهُ أنْ يَعْتَكِفَ فِي أَيِّ المَسْجِدَيْنِ أَحَبَّ لأنَّهما أَفْضَلَ مِنْـهُ . بِدَلِيْـلِ قَـوْلِـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمْ : « صَلاَةٌ في مَسْجِدِي هَذَا أفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيْمَا سِوَاهُ إلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامِ » .

وَلَا يَجُوزُ لِلْمُعْتَكِفِ أنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ لِغَيْرِ عُذْرٍ ، لِمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ : « إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لَيُدْخِلُ عَلَيَّ رَأْسَهُ وَهُوَ في الْمَسْجِدِ فَأُرَجِّلُهُ ، وكانَ لَا يَدْخُلَ البَيْتَ إلاَّ لِحَاجَةٍ إذَا كَانَ مُعْتَكِفًا » .

وَعَنْهَا ـ رَضْيَ اللَّهُ عَنْها ـ قَالَتْ : « السُّنَّةُ عَلَى الْمُعْتَكِفِ أَنْ لَّا يَعُودَ مَرِيْضاً ، وَلَا يَشْهَدَ جَنَازَةً ، وَلَا يَمسَّ إمْرَأَةً وَلَا يُبَاشِرَهَا ، وَلَا يَخْرُجَ

لِحَاجَةِ إنْسَانِ الاّ مِمَّا لاَ بُدَّ مِنْهُ ، وَلاَ اعْتِكَاف إلاّ بِصَوْمٍ ، ولاَ اعْتِكَافُ إلَّا في مَسْجِدٍ جَامِعٍ » .

فَإنْ خَرَجَ من غَيْرِ عُذْرٍ بَطُلَ إعْتِكَافُهُ، لإِنَّ الإعْتِكَافَ: اللُّبْثُ في المَسْجِدِ ، فَإِذَا خَرَجَ فَقَد فَعَلَ مَا يُنَافِيْهِ مِن غَيْرِ عُذْرٍ كَمَا لَو أَكَلَ في الصَّوْمِ ذَاكِرَاً .

وَيَجُوْزُ أن يَخْرُجَ لِحَاجَةِ الإنْسَانِ ولا يَبْطُلُ اعْتِكَافُهُ ، وَكَذَا إِنْ خَرَجَ مِن المسجِدِ نَاسِيَاً لَمْ يَبْطُل إعْتِكَافُهْ ، لِقَوْلِهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمْ : « رُفِعَ عن أمّتِي الخَطأُ والنسيانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عليهْ » .

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُعْتَكِفِ التَّشَاغُلِ بفعلِ القُرَبِ كَقِرَاءَةِ القُرآنِ ، والأَحَادِيثِ الصَّحِيْحَةِ ، والصَّلاَةِ ، وذِكْرُ اللَّهِ ، ونَحْوِ ذَلِكْ .

وَسُنَّ لَهُ اجْتِنَابُ مَا لاَ يَعْنِيْهِ مِنْ جَدَلٍ وَمِرَاءٍ وكَثْرَةِ كَلامٍ لِمَا وَرَدَ عنْ أبِي هُرَيْرَة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ : « مِنْ حُسْنِ إسْلاَمِ المرءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيْهِ » .

اللَّهُم وَفّقْنَا لِصَالِحِ الأعْمَالَ ،ونَجِّنَا من جميعِ الأَهْوَالِ ، وأَمِّنّا مِنَ الفَزَعِ الأكْبَرِ يومَ الرَّجْفِ والزِلْزَالْ ، وَاغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا ، وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْيَاءِ منهم والميتين بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصَلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

في بِنَاءِ المساجِدِ وآدَابِهَا

وَيَبْحَثُ فِي :

١ ـ مَا وَرَدَ فِي الحَثِّ على بِنَاءِ المساجِدِ وَثَوَابِهَا العظيم .

٢ ـ ما وَرَدَ في صِيَانَةِ المَسَاجِدِ عن الأقذارِ وتَنْظِيْفِهَا .

٣ ـ مَا ورَدَ في تَجَنُّبِ آكِلِ البَصَلِ والثُّوْمِ الصَّلاَةَ في المساجِدِ ، وإبْعَادِ الصغيرِ والمجنون .

٤ ـ يَنْبَغِي تَجْنِيْبُ المساجِدِ البيعَ والشِّرَاءَ وَرَفْعَ الصَّوْتِ وَنُشْدَانَ الضَّالَةِ فِيْهَا .

٥ ـ حُرْمَةُ المبالَغَةِ في زَخْرَفَةِ المساجِدِ .

٦ ـ كَرَاهَةُ إلْتِزَامُ مَوْضِعٍ مُعَيَنٍ مِن المسجِدِ لِلصَّلاَةِ لِغَيرِ الإمَامْ .

١ ـ مَا وَرَدَ في الحَثِّ على بِنَاءِ المساجِدِ ، وثَوَابِهَا العظيمْ :

بِنَاءُ المساجِدِ في الأمْصَارِ والقُرَى والمَحَالِّ ونَحْوِهَا حَسَبِ الحَاجَةِ فُرْضُ كِفَايَةٍ وَيُسْتَحَبُّ إتَّخاذُ المساجِدِ في الدُّورِ ، وتَنْظِيفِها وتَطْبِيبِهَا ، قَال تَعالى : ﴿ في بُيُوتِ أذنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذْكر فِيْها اسْمُهْ . . ﴾ الآية ، لِما رَوَتْ عَائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عنها ـ قَالَتْ : أمَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمْ بِبِناءِ المساجِدِ في الدَّوْرِ ، وأنْ تُنَظِّفَ وتُطَيَّبْ .

وَعَنْ عُثْمَانَ بنُ عفّانٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ

صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم يقُولُ : « مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدَاً بَنَى اللّه لَهُ مِثْلَه في الْجَنّةْ » .

وَعَنْ ابْنُ عَبّاسٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ عَن النّبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قالْ : « مَنْ بَنَى لله مَسْجِدَاً وَلَوْ كَمَفْحَص قَطَاةٍ بَنى لَهُ بَيْتَاً في الجنة » .

وَعَنْ عُمَرَ بْنُ الخَطَّابِ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمْ يَقُولْ : « مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدَاً يُذْكَرُ فِيهِ اللَّهُ ، بَنى اللَّهُ لَهُ بَيْتَاً في الجنة » .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ بَنَى بَيْتَاً يُعْبَدُ اللهُ فِيْهِ ، مِن مَالٍ حَلَالٍ بَنى اللهُ لَهُ بَيْتَاً في الجنة » .

وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَن النَّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ قالْ (مَنْ بَنَى مسْجَدَاً لَا يُرِيْدُ رِيَاءً ولا سُمْعَةً بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتَاً في الجنة » .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَة ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالْ : قَالَ رسولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ : « إنّ مِمّا يَلْحقُ المُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ : عِلْمَاً عَلّمَهُ وَنَشَرَهُ أوْ وَلداً صَالِحَاً تَركَهُ ، أوْ مُصْحفَاً وَرّثَهُ ، أوْ مَسْجِدَاً بَنَاهُ أو بَيْتَاً لابْنِ السّبِيلِ بَنَاهُ ؛ أوْ نهرَاَ أجْرَاهُ ، أو صَدَقَةً أخْرَجَهَا مِن مَالِهِ في صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ ، تَلْحَقُهُ مِن بَعْدِ مَوْتِهِ » .

وَأَحبُّ البلادِ إلى اللّهِ مَسَاجِدُها ، وأبغَضُ البلادِ الى اللهِ أسْوَاقُها ، فَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا ـ عَن النَّبيّ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمْ قَالْ :

« أَحَبُّ البلادِ إلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا ، وأبْغَضُ البلادِ إلى اللهِ أسْوَاقُها » .

٢ ـ ما وَرَدَ في صِيَانَةِ المساجِدِ وتَنْظِيْفِهَا :

وَيُسَنُّ صِيَانَةُ المَسَاجِدِ عَنْ كُلِّ وَسَخٍ ، وَقَذَرٍ ، وَقَذَاةٍ ، ومُخَاطٍ ، وبُصَاقٍ ، وَتَقْلِيْمِ أظْفَارٍ ، وقَصِّ شارِبٍ ، وحَلْقِ رأسٍ ، ونَتْفِ إبْطٍ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أنَسْ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال : قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمْ « عُرِضَتْ عَلَيّ أجُورُ أعْمَالِ أُمَّتِي حَتَّى الْقَذَاةَ يُخْرِجُهَا الرَّجُل مِنَ المسجِدِ » .

وَعَنْ أنسٍ ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ « الْبُصَاقُ في الْمَسْجِدِ خَطِيْئَة ، وَكَفّارَتُها دَفْنُهَا » .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَة ـ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنّ إمرأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ المَسْجِدَ فَفَقَدَهَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمْ فَسَأَلَ عَنْهَا بَعْدَ أيّامٍ ، فَقِيْلَ لَهْ : إنَّهَا مَاتَتْ ، فَقَالْ : « فَهلّا أذَنْتُمونِي » ؟ فأتَى قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا .

وعَنْ سَمْرَةَ بنُ جُنْدَبٍ ـ رَضْيَ اللهُ عنه ـ قالْ : أَمَرَنَا رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم أنّ نَتْخِذَ المساجِدَ في دِيَارِنا ، وأمَرَنَا أنْ نُنَظِّفُهَا .

وعَنِ ابْنِ عُمَر ـ رضْي اللهُ عَنْهُما ـ قَالَ بَيْنَما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ يَوماً ، إذْ رَأى نُخَامَةً في قِبْلَةِ المسجدِفَتَغَيّظَ على النّاس ، ثُمّ حكّها ، ـ قال وأحْسِبُه قالْ ـ : فَدَعا بِزَعْفَران فَلَطَخَهُ بِهِ ، وقالَ : « إنّ الله عزَّ وجَلّ قِبَلَ وَجْهِ أحَدِكُمْ إذا صَلَّى ، فلا يُبْصُقُ بِينَ يَدَيه » .

وعَنْ حُذَيفَة ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ قالْ: قالَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم: مَنْ تَفلَ تِجاهَ الْقِبْلِةِ جَاءَ يَومَ القِيَامَةِ وتَفْلُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وعن أبِيْ سَهْلَةَ السَّائِبِ بنِ خَلاّدٍ مِن أُصْحَابِ النبي صلى الله عليهُ وسلّم أنَّ رَجُلاً أمَّ قَوْماً فَبَصَقَ في القِبلَةِ وَرسُولُ اللهِ يَنْظُرُ فقال رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّم حِيْنَ فرَغَ: « لا يُصَلِيْ لَكُمْ هَذَا، فأرَادبَعْدَ ذَلِكَ أن يُصَلِيَ لَهُمْ فَمَنَعُوهُ وأخَبَرُوْهُ بقْولِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليهُ وسَلّمَ فَذَكَر ذلكَ لِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ علَيه وسَلّمَ فقال: نَعَمْ، وحَسِبْتُ أنّهُ قَالَ: « انَّكَ آذَيْتَ اللَّهَ ورَسُوْلَه ».

٣ ـ ما وَرَدَ في تَجنبِ آكِلِ البَصَلِ والثّومِ الصّلاَةَ فيالمَسَاجِدِ وابعادِ الصّغِيرِ والمجنونِ عنهما:

يُسَنُّ صِيَانَةُ المِساجِدِ عن رائحةٍ كريهةٍ مِنّ بَصلٍ وثُومٍ وكُرّاثٍ ونحوها، لِمَا وَرَدَ عن أنسٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ قالْ: قَالَ النّبي صلى اللهُ عليه وسلمْ: « مِنْ أكل مِن هذِه الشّجَرَةِ فلا يَقْربَنا وَلا يُصَلّينّ مَعَنا ».

وعَن ابْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهما ـ أنَّ النبيَ صلى اللهُ عليهِ وسلم قَالْ: « مَنْ أكَلَ مِنْ هَذِه الشَّجَرَةِ ـ يَعْنِي الثُّومَ ـ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ».

وعَنْ جَابِرٍ ـ رَضْي اللهُ عَنْهُ ـ قال: قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمْ: « مَنْ أَكَلَ ثُوماً أو بَصَلاً، فَلْيَعْتزِلْنَا ـ أو، فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمْ: « مَنْ أَكَلَ البَصَلَ والثُّومَ والكُرّاثَ، فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فانَّ الملائِكَةَ تَتأَذّى مِمّا تَأذّى مِنْه بَنُو آدم ».

وعَنْ عُمَر بنُ الخَطّاب ـ رضْي اللهُ عَنْهُ ـ أنّهُ خَطَبَ يَوَمَ الجُمُعةْ،

فقالَ في خُطْبَتِهِ ، ثُمَّ انَّكَمْ أيُّها النّاسُ تَأكُلونَ شَجَرتَينِ لاَ أَراهُمَا إلاّ خَبِيْثَتين ، الْبَصَلُ والثّومُ ولقدْ رأيتُ رسولَ اللهَ صلى سالله عليه وسلم إذَا وَجَد رِيْحَهُما مِنَ الرّجُل في المْسجِدِ أمَرَ بِهِ فأخْرِجَ الى البَقِيعِ ، فَمَنْ أكَلَهُما فلْيُمِتْهُما طَبْخا .

اللّهُمَّ انْظِمْنَا في سِلْكِ أهلِ السّعادَةْ ، واجْعَلْنَا مِن عبادِك المُحْسِنينَ الذَينَ لهُم الحُسْنَى وزِيَادَةٌ ، واغْفِر لَنَا ولوالِديْنا ولجميع المُسْلِمينَ الأحياءِ مِنْهُم والميتينَ بِرَحْمَتِك يا أرْحَمَ الراحَمين ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين .

(فصلٌ)

يُسَنُّ أنْ يُصَانَ الْمسجدُ عنْ صغيرٍ لا يُمَيِّزُ لِغَيْرِ مَصْلحَةٍ ، وأنْ يُصَانَ عن مَجْنُونٍ حَالَ جُنُونِهْ ، وعنْ لَغطٍ ، وخُصُوْمَةٍ وكَثْرةِ حَدِيْثٍ لأَغٍ ، ورفْعِ صَوْتٍ بِمَكْرُوهْ ، وعَنْ رَفْعِ الصِّبْيانِ أصوَاتهم باللعبِ وغيرِهِ ، ويُمْنَعُ فيهِ اخْتِلَاطُ الرّجَالِ والنّسَاءِ ، وإيذاءُ المُصَلّينَ وغيرِهِم بقولٍ أو فعلٍ ، ويُمْنَعُ السّكْرانُ من دُخُولِهْ ، وعَنْ واثِلَةَ بنُ الأسْقِعِ : أنّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم قالْ : « جَنِّبُوا مَسَاجِدَكَم صِبيانَكُم ومَجَانِيْنَكَمْ وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ ، واتّخِذُوا على أبْوابِها المطاهِرَ وجَمِّرُوهَا في الْجُمَعِ » .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ ـ يَعْنِي ابنُ مَسْعودٍ رضْي اللهُ عَنْهُ ـ قَال : قَالَ رسولُ الله صَلّى اللهُ عليهِ وسَلّمْ : « سَيَكُونُ في آخرُ الزّمَانِ قَوْمٌ يكونُ حَدِيْثُهم في مَساجِدِهم لَيْس لِلّه فِيْهم حَاجَةٌ » .

وعَنْ حَكِيمِ بنُ حِزامٍ ـ رضيْ اللهُ عَنه ـ قالَ : قَال رسولُ الله

صلى الله عليهِ وسّلم : « لا تَقَامُ الحدودُ في الْمَساجِدِ ، ولاَ يُسْتَفادُ فِيها » .

وعَنْ الْحَسَنِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ مُرْسَلاَ قَالْ : قَالَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسَلمْ : « يَأْتِي على النّاسِ زمانٌ يكونُ حَدِيْثُهُم في مَسَاجِدِهم في أمْرِ دُنْياهُم فلا تُجَالِسُوهم فَلَيْس لِلّهِ فِيْهم حاجَةْ » .

وَعَنِ السائِب بنُ يَزيدِ قالْ : « كُنْتُ نَائِماً في الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ فَنظَرْتُ فإذَا هوُ عُمَرُ بنُ الْخَطّابْ ، فقالَ : اِذْهَبْ فأْتِني بِهَذَيْن ، فَجِئْتُهُ بِهمَا ، فقالْ : مِمَّنْ أنْتُما ـ أوْ مَنْ أيْنَ أنْتُما ؟ قالاَ ، مِنْ أهْلِ الطّائِفُ ، قالْ : لَوْ كُنتُما مِنْ أهْلِ المدِيْنةِ لاوْجَعْتُكُما ، تَرْفَعَانِ أصْواتَكُما في مَسْجِدِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم » .

وعَنْ مالِك قَالْ : بَنِي عُمَرُ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُ ـ رَحَبَةٍ في نَاحِيَةِ تُسَمَّى « البَطْحاء » ، وقَالْ مَنْ كَانَ يُرِيدِ أنْ يَلْغَطَ أو يُنْشِدَ شِعْرا ، أوْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ فَلْيَخْرُجْ إلى هَذِه الرَّحَبَةِ .

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضْي اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ الله صلى الله عليهِ وسَلّم: إذَا اتَّخَذَ الفَيء دُولاَ والأمانةُ مُغْنَمَا والزكاةُ مَغْرما، وتُعلّمَ لِغَيْرِ الدّيْنِ، وأطاعَ الرَّجُلُ امْرأتَهُ وعَقَّ أُمَّهْ، وأدْنى صَدِيقهُ وأقْصى أباهْ، وظَهَرتِ الاصْواتُ في المساجِدِ وسَادَ القبيلةَ فاسِقُهُمْ ، وكانَ زَعِيْمُ القومِ أرْذَلَهُمْ ، وأُكْرِمَ الرّجُلُ مَخافَةِ شَرّه ، وظَهـرتِ القَيْنَاتُ والمعـازفُ ، وشُرِبَتِ الخمورُ ، ولَعَنَ آخِرُ هذِه الامّةُأوْلَهَا ، فارْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رَيْحا حَمْرَاءَ وزَلْزَلَةَ وخَسْفَا ومَسْخا ، وقَذْفا وآياتِ تَتَابَع كَنِظَامِ قُطِعَ سلْكهُ فَتَتَابَعْ » .

٤ ـ يَنبغي تَجْنِيبُ المساجدِ الْبَيْع والشّراء ، ورَفْع الصّوتِ ونَشْدَان الضّالةِ فِيْها :

وَيَحْرَمُ في الْمَسْجِد البيعُ والشّرَاءُ ، فانْ فَعَل فالبيعُ باطِلٌ لِحَديثِ عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال : « نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسَلَّم عن البيعِ والابتياعِ وعَنْ تَناشُدِ الأشْعَار في المساجِدِ » رواهُ أحْمَد وأبو داود ، والنّسائي ، والترمذي وحَسّنه .

وَيُسَنُّ أنْ يُقَالَ لِمَنْ بَاعَ أوِ آشْتَرى في المسجد : لَا أرْبَحَ الله تِجارَتَك ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رضِيَ الله عنه ـ قال : قالَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم : « إذا رَأيْتُم مَنْ يَبِيْعُ أوْ يَبْتَاعُ في المسجد فقُولوا : لا أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ وإذا رأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ ضَالَّةً فقُولُوا : لَا رَدّهَا اللهُ عليكَ » رواهُ الترمذي والدّرامي .

وَمِمّا يَنْبَغي التّفَطُّنُ لَهُ ، والتحذيرُ عَنْهُ وابعادُهُ عن المساجدِ الكُتُبِ التي فِيها صُورُ ذواتِ الأرْواح ، كالْهِجاء لِلسَّنَةِ الأولى الإبْتِدَائِيةِ ، وكالمطالَعَةِ لِسائِر السّنَواتِ ، وكالعلوم ، فانَّ بَعْضَ التّلَامِيذِ يأتون بِهَا إلى المساجدِ لِيُطَالِعوا فِيها واذا تَخَلّقَتْ وَضَعَها في المسجد ، وَقد وَرَدَ عَنْ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قالْ : وَعَدَ رَسُولَ اللهِ جِبْرِيلُ أن يأْتِيَهُ فَرَاثَ عليهِ حتّى اشْتَدَّ على رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ، فخرَجَ فَلَقِيَه جِبْرِيلُ ، فَشَكا إليه ، فقالْ : « إنّا لا نَدْخُلِ بَيْتاً فيهِ كلبٌ وَلَا صُورة » رواهُ البُخَاري .

وَيُسَنُّ صَوْنُ المسجد عن انْشَادِ شِعْر قَبِيْحٍ ، وإنْشَادِ ضّالَّة وَنُشْدَانِهَا ، وَيُسَنُّ لِسَامِع نُشْدَانِ الضّالة أنْ يَقُولْ : لَا رَدّها الله عَلَيْكَ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أبي هريرة ـ رضي اللهُ عنه ـ قالْ : قالَ رَسولُ الله صلى اللهُ

عليه وسَلّم : « مَنْ سَمِعَ رَجُلاً يُنْشِدُ في المسجدِ ضَالّةً فلْيَقُلْ : لا أدّاهَا الله إليكَ . فإنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لِهَذَا » رواهُ أحْمَدُ وَمُسْلِم وابْنُ مَاجَهْ .

وَعَنْ بُرَيْدَةَ : أنَّ رَجُلاً نَشَدَ في المسجِدِ فَقَالَ : مَنْ دَعَا إلى الجَمَل الأَحْمَر ؟ فقالَ النّبِيُّ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلَّم : « لا وُجدت ، إنّما بُنِيَتِ المساجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ » رواهُ أحْمَدُ ومسلمُ وابن ماجَهْ .

٥ ـ حُرمَةِ المُبالَغةِ في زَخْرَفَةِ المساجِدْ :

وَتَحْرُمُ زَخْرَفَتُهَا بِنْقشٍ وَصِبْغٍ وَكِتَابَةٍ وغيرِ ذَلِكَ مِمَّا يُلْهِي المُصَلّي عَنْ صَلاَتِهِ غالِباً ، وإنْ فُعِلَ ذَلِكَ مِن مالِ الوقْفِ حَرُمَ فِعْلُهْ ، وَوَجَبَ ضَمَانُ مالِ المُوْقَفِ الذي صُرِفَ فِيْهِ لا لِمَصْلَحةٍ فيه .

عَنِ ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال : قَالَ رَسولُ اللّهِ صلى الله عَليهِ وسلم : « مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ المساجِدِ » قالَ ابْنُ عَبّاس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ لَتُزَخْرِ فُنَّها كَمَا زَخْرَفَتِ اليهودُ والنّصارى » رواهُ أبو داود .

وَعَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ أنَّ النَّبي صلى اللهُ عليهِ وسلم قالْ : « لا تقومُ السّاعَةُ حتَّى يَتَبَاهَى النّاس في المساجِد » رواهُ الخمسةُ إلا التّرمذي .

وقالَ البخارِي ـ رَحِمَه اللّهْ ـ قالَ أبو سَعيد : كَانَ سَقْفُ المسجِدِ مِنْ جَرِيدِ النّخل ، وأمَرَ عُمَرُ بِبنَاءِ المسجِدِ ، وقالْ : أَكِنَّ الناسَ مِن المطر وإيّاكَ أن تُحَمِّرَ أو تُصَفِّرَ فَتَفْتِنَ الناسَ . وَيَنْبَغِي أن لا يَسْتَعْمِلَ النَّاسُ حُصُرَ المسجدِ وَقَنَادِيلَهُ وَسَجَاجِيدَهُ وَبُسطَهُ وَسَائِرَ ما وُقِفَ لِمَصَالِحِهِ في مَصَالِحِهِمْ ، كالأعراسِ وَيَجِبُ صَرْفُ الوَقْفِ لِلْجِهَةِ التي عَيَّنَهَا

الواقِفْ .

٦ ـ كَراهةُ الْتِزَامِ مَوْضِع مُعَيَّنٍ مِنَ المسجِدِ لِلّصلاةِ ، لِغيرِ الامامْ :

وَيَكْرَهُ لِغَيْرِ الامامِ مُدَاوِمَةُ مَوضِعٍ مُعَيَّنٍ مِن المسجد لاَ يُصَلى إلّا فِيه ، لِمَا وَرَدَ عَنْ عَبْدُ الرَّحمنِ بنِ شبل قالْ : نَهى رَسولُ الله صلى الله عليهِ وَسَلَّم عَنْ نَقْرَةِ الغُرابْ ، وَافْتِرَاشِ السَّبَعْ وأنْ يُوَطِّنَ الرَّجلُ المكانَ في المسجد كَمَا يُوَطِّنُ البَعْيرُ . رواهُ أبو داود ، والنِّسائي والدِّرامي . فَإِنْ دَاوَمَ على الصلاة بموضعٍ فليسَ هو أَوْلَى مِنْ غَيرِهِ فإذا قَامَ منه فلغيره الجُلُوسُ فِيهِ ، لِحَدِيْثِ (مَنْ سَبَقَ إلى مباحٍ فَهُوَ لَهْ) قالَ في الاختِيَارَاتِ الفقهيةِ وَإِذَا فَرَشَ مُصَّلى وَلَمْ يَجْلِس عليهِ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ وَلِغَيْرِهِ رَفْعُهُ في أَظْهَرِ قَوْلِي العُلماءِ قُلْتُ وَمِثْلُهُ وَضْعُ خِرْقَة أوْ عَصَا أو نَعْل أوْ تَقْدِيم خَادِمٍ أوْ وَلَدٍ ثُمَّ إِذَا حَضَرَ قامَ عَنْهُ وَجَلَسَ فيهِ فهذا لاَ يَجوزُ والله أعلم .

وَقَالَ في إغاثَةِ اللَّهفَانْ ولَمْ يُصَلِّ رَسولُ اللهِ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ على سُجّادَةٍ قَطْ وَلاَ كَانَتْ السُّجّادَةُ تُفْرَشُ بَيْنَ يَدَيْهِ بَلْ كَانَ يُصَلّي على الأَرضْ وَرُبَماسَجَدَ على الطِّينِ وكانَ يُصَلّي على الحَصِيرِ فَيُصَلي على ما اتَّفقَ بَسْطُهُ فإن لَمْ يَكُنْ شَيءٌ صَلَّى على الأَرض .

قالَ النَّاظِمُ لاخْتِيَارَاتِ شَيْخِ الاسْلاَم بْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللّهْ :

وَوَضْـعُ المُصَلّي في المَسَاجِـدِ بِدْعَـةٌ
ولَيْس مِنَ الهَـدْي الْقَـوِيمِ المُحَمَّـدِ
وَتَقْـدِيْمُـهُ في الصّفِ حَجْـرُ لِـرَوْضِـةٍ
وَغَـصْبٌ لَـهّـا عَنْ دَاخِـلٍ مُـتَعَـبِّـدِ

وَيُشْبِهُـهُ وَضْـعُ العَـصَـاءِ وَحُكْـمُهـا
كَحُكْم المُصَلَّى في ابْتِـدَاعِ التَّعَبُّـدِ
بَلَى مُسْتَحَبٌّ أنَّ يُمَـاطَـا وَيُـرْفَـعَـا
عَن الـدّاخِلينَ الـرَّاكِعين بِـمَسْـجِـدِ
لَئِنْ لَمْ يَـكُـنْ هَـذا بِنَص مُقَـرَّرٍ
ولا فِعْـلُ أَصْحَـابِ الـنّبيِّ مُحَـمَّـدِ
فَخَيْـرُ الأُمُورِ السّـالِفَـاتُ عَلى الْهُـدَى
وَشَـرُّ الأمـورِ الـمُحْـدَثَـاتُ فَـبَعّـدِ

اللَّهمّ ألْحِقْنا بِعِبَادِك الصّالِحينَ الأَبْرَارْ ، وَآتِنَا في الدُّنْيا حَسَنةً وفي الآخِرَةِ حَسنةً ، وَقِنَا عذابَ النّارْ ، واغْفِرْ لَنَـا وَلِوَالِـدَيْنا ، وَلِجَمِيْـعِ المُسْلِمينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم والمَيْتِين ، بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمين ، وَصَلَّى اللهُ على سَيّدِنا مُحَمّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجمعين .

(فَصْـلُ)

في الأَيّامِ الّتي يُسَنّ أوْ يكْرَهُ صِيامُها

وَيَبْحَثُ في :

١ ـ مَا وَرَدَ مِنَ الثّوابِ العظيم في صَوْم بَعْضِ الأَيامْ .

٢ ـ بَيَانُ الأيّامِ التي يُكْرَهُ أوْ يَحْرُمَ صِيامُها ، والنَّهي عَنِ التّشَبُّهِ بالغيرْ .

١ ـ مَا وَرَدَ مِنَ الثّوابِ العظيمِ في صَوْمِ بَعْضِ الأيامْ :

يُسَنُّ صِيامُ أيّامِ البيضْ ، وَهِيَ الثّالثُ عَشَرَ والرّابعُ عَشَرَ والخامِسُ

عشر ، لما ورد عن أبي ذرٍّ ـ رضي اللهُ عنهُ ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليهِ وَسلمْ : « إذا صُمْتَ مِنَ الشّهْرِ ثَلاثاً ، فَصُمْ : ثلاثَ عَشَرَة وَأَرْبع عَشَرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ » رواهُ الترمِذيْ .

وَعَنْ قَتَادَةَ بْنِ مِلْحَانُ ـ رضي اللهُ عنهُ ـ قال : كَانَ رَسولُ اللّهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ يأْمُرنا بِصِيَامِ أيّامِ البيضِ ثَلاثَ عَشَرةِ وأرْبَع عَشَرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَة ، رواه أبو داود .

وَعَنْ أبي هُـرَيْـرَةَ ـ رَضِي اللهُ عَنْهُ ـ قالْ : أَوْصَانِي خَلِيْلي صلى اللهُ عليهِ وسلم بِصِيامِ ثلاثةِ أيّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، وَرَكْعَتا الضّحُى ، وأنْ أوْتِرَ قَبْلَ أن أنام » متفق عليه .

وَعَنْ أبي الدَرْدَاءِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال أوْصَانِيَ خَلِيْلي صلى اللهُ عليهِ وسلم بِثَلاثٍ ، لَنْ أَدعَهُنّ مَا عِشْتُ : بِصِيامِ ثَلاثَةِ أيّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ ، وَصَلاةِ الضُّحى وَبِأَنْ لاَ أَنَامَ حَتّى أوْتِرَ رواهُ مُسْلِم .

وَيُسَنّ صِيامُ أيّامِ الاثنينِ والْخَميسِ ، وَسِتٍّ مِنْ شَوّالٍ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أبي قَتَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يومِ الإثْنَيْنِ فَقَالْ : « ذَلِكَ اليَوْمُ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيْهِ ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ فِيْه ، وأنْزِلَ عَليّ فِيْه » رواهُ مُسْلِمْ .

وَعَنْ أبِي هُرَيرَة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ : « تُعْرَضُ الاعْمَالُ يَوْم الإِثْنَيْنِ ، والْخَمِيْس فَأُحُبّ أنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ» رواهُ التّرْمِذي وَقالْ : حَدِيْثُ حَسَنٌ وَرواهُ مُسْلِمٌ بِغَيْرِ صَوْم .

وَعَنْ أَبي أَيُّوبِ الانْصَارِيّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ قَالْ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانْ ، ثُمّ أَتْبَعَهُ سِتّاً مِنْ شَوّالٍ كَانَ كَصِيامِ الدّهْرِ » رواهُ مُسْلِمْ .

واسْتَحَبَّ صِيامُ سِتّةٍ أيّامٍ مِنْ شَوّالِ أكْثَرُ الْعُلَمَاء وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابْنُ عَبَّاسٍ وَطَاوُوسٍ والشّعْبِي ، وَمَيْمُونِ بْنِ مَهْرَان ، وَهُوَ قَولُ ابْنُ المُبارَكْ ـ رَحِمَهُمُ اللّهُ ـ وأكْثَرُ الْعُلَمَاء : عَلَى أنّهُ يُسْتَحَبُّ صِيَامُها مُتَتَابِعَة أولُ الشّهْرِ ثَانِي الفُطْر ، وَقَدْ رُوِيَ في ذَلِكَ حَدِيثٌ مَرْفُوْع : « مَنْ صَامَ سِتّةَ أيّامٍ بَعْدَ الْفِطْرُ مُتَتَابِعَة فَكَأَنّمَا صَامَ السّنَةْ » أَخْرَجَهُ الطّبَرانِي وَغيْرِه .

وَفِي حَدِيْثِ عِمْرَان بْنُ حُصَيْنٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنِ النّبِي صلى اللهُ عليهِ وَسَلّم أَنّهُ قالْ لِرَجُل : « إِذا أَفْطَرْتَ فَصُمْ » وإنّما كَانَ صِيَامُ رَمَضَانَ واتْبَاعُهُ بِسِتٍّ مِنْ شَوّالَ يَعْدِلُ صِيامَ الدّهْرِ لِأَنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا .

وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ مُفَسَّراً مِنْ حَدِيْثِ ثَوْبَانَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَن النّبي أنّهُ قَالْ: « صِيَامُ رَمَضَان بِعَشْرَةِ أَشْهُر ، وَصِيَامُ سِتّةِ أيّامٍ بِشَهْرَيْن ، فَذَلِكَ صِيَامُ السّنَةِ ، يَعْنِي صِيَام رَمَضَانَ وَسِتّةِ أيّامٍ بَعْدَهْ » أَخْرَجَه : الامامُ أَحْمَدُ وَالنّسَائِي . وهَذَا لَفْظُهْ . وَخرّجَهُ : ابْنُ حِبّانَ في صَحِيْحِهِ . وَصَحّحَهُ أبُو حَاتِم الرّازِيْ .

وَيُسَنُّ صِيَامُ يومِ عَرَفَةَ لِغَيْرِ حَاجٍّ بِهَا ، وَشَهْرُ المُحَرَّمِ وآكدُهُ العاشِرُ ، ثُمّ التّاسِع ، لِمَا وَرَدَ عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عَنْه ـ قالْ : قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم : « أفضلُ الصّيامِ بَعْدَ رَمَضَانِ شَهْرُ اللَّهِ المُحَرّمُ ، وأفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الفريضَةِ صلاةُ اللّيل. رواهُ مُسْلِم .

وفي حديثِ أبي قَتَادَةَ قَالْ : قالَ عُمَر ـ رضي الله عنه ـ يا رسول الله ، كَيْفَ مَنْ يَصُومُ الدَّهْرَ كلَّهْ ؟ قالْ : « لا صامَ ولاَ أفطَرْ » وقال : « لم يصم وَلَمْ يُفْطِر » قالَ : كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يَوْمَينِ وَيُفْطِرُ يَوْماً ؟ » قال : « ويطيق أحدٌ » قال : « كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يوماً ويفطِرُ يوماً » ذَلِكَ صَومُ دَاود » ، قَالْ : كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يَوماً وَيَفْطِرُ يَوْمَيْن ؟ قالَ وَدِدتُ أَنّي طُوِّقْتُ ذَلِكَ ثم قالَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « ثَلاثٌ مِن كُلِّ شَهْرٍ ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانْ ، فَهَذَا صِيامُ الدّهْرِ كُلِّهِ ، صِيَامُ يَوْمَ عَرَفَةَ احْتَسِبُ على اللهِ أنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الّتي قَبْلَهُ والسّنَةَ التي بَعْدَهُ ، وصيامُ يومِ عاشُورَاء أحْتَسِبُ على اللهِ أن يُكَفِّرَ السَّنَة التي قَبْله » رواهُ مُسْلمْ .

وَعَن ابْنُ عَبّاسٍ ـ رضي اللهُ عَنْهُما ـ أنّ رسولَ اللهِ صَلى الله عليهِ وَسلم صَامَ يَومَ عَاشُورَاء وأَمَرَ بِصِيَامِهِ . متفق عليه .

وَعَنْهُ ـ رضي اللهُ عَنْهما ـ : لئِنْ بَقِيْتُ إلى قَابِلٍ ، لأَصُوْمَنَّ التَّاسِعَ » متفق عليه .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة ـ رَضِي اللهُ عنه ـ أنَّ رَسولُ الله صلّى الله عليه وسلم « نَهَى عن صَوْم يومِ عَرَفَة بِعَرَفَةَ » رواهُ أَبُو داود والنّسَائِي وابنُ خُزَيْمَةَ في صَحِيْحِهِ .

وَيُسَنُّ صِيامِ تِسْعُ ذي الحِجّةْ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عَنْهُما ـ قالْ : قالَ رَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : « مَا مِنْ أيام العَمَلُ الصّالِحُ فِيها أحَبُّ إلى اللهِ مِن هَذِهِ الأَيَّامْ » يَعْنِي أيامَ الْعَشْر ، قَالُوا : يا رسولَ اللّهِ ، وَلاَ الجِهادُ في سَبيل اللّهِ ، قالَ : « وَلاَ الجِهادُ في سبيلِ اللهِ إلاّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعُ مِن ذَلِكَ بِشَيْءٍ » رواهُ

البخاري .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة ـ رَضِي الله عَنه ـ قالْ : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ أيّامٍ أَحَبُّ إِلى اللّهِ أن يُتَعَبّدُ لَهُ فِيها مِن أيامِ العَشْرِ ، وإِنّ صِيَامَ يوم ٍ فِيْها لِيَعْدِلُ صِيامَ سَنَةٍ ، وَلَيلةٍ فِيْها بِلَيْلَةِ القَدْرِ » رواهُ ابن ماجه والتّرمِذيُ وقالَ حديثٌ غريب .

اللّهُمَّ انَّا نَسْأَلُك التَّوبَةَ وَدوامَها ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن المَعْصِيَةِ وأسْبَابها ، اللّهمّ أفِض ِ علَيْنا مِن بَحْرِ كَرَمِكَ وَعَوْنك حَتّى نَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا على السّلاَمَةِ مِن وَبَالِها وارْأَفْ بِنا رَأْفَةَ الحَبِيْبِ بِحَبِيْبِهِ عِنْدَ الشّدَائِدِ وَنُزُولِها ، وارْحَمْنا مِن هُمُوم ِ الدّنْيا وَغُمومِها بالرَّوْحِ والرّيْحانِ إلى الجنةِ وَنَعِيْمِها ، وَمَتِّعْنا بالنّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكريم في جَنَّاتِ النَّعيمْ : مَعَ الذين أَنْعَمْتَ عليهم من النبيينَ والصّدّيقينَ والشُّهَدَاءِ والصّالِحين ، واغْفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ ِ المُسلِمينَ ، الأَحياءِ منهم والميتينَ بِـرَحْمَتِكَ يـا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِه وصحبهِ أَجْمَعِينْ .

(فَصْــلٌ)

في بيانِ الأَيّام ِ التي يُكْرَه أَوْ يُحْرَم صِيَامُها والنّهي عن التّشَبُّهِ بالغَيْرِ

وَيُكْرَهُ إِفْرَادُ رَجَبَ بِالصّوْم ِ ، والجُمُعَةِ والسّبْتِ ، أَمّا رَجَبٌ : فَلما رَوىَ أَحْمَدُ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ عَنْ خَرْشَةَ بْنِ الحُرِّ قالَ : رَأَيْتُ عُمَرَ يَضْرِبُ أَكُفَّ المُتَرِّجِبِيْن حَتَّى يَضعُوها في الطَّعَامِ ، وَيَقُولُ كُلُوا ! فإِنَّما هُوَ شَهْرٌ كانَتْ تُعظِمُهُ الجاهِلِيَّةُ .

وَبِإسْنَادِهِ عَن ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأى النَّاسَ وَمَا يُعِدّونَهُ لِرَجَبْ كَرِهَه وقالْ : « صُومُوا مِنْه وأَفْطِرُوا » .

وَأَمَّا الجُمُعَةْ ، فَلِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هريرة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَن النَّبِّي صلّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قال : « لَا تَخُصُّوا لَيْلَةَ الجُمُعَةَ بِقِيَامٍ مِن بَيْن اللَّيَالِيْ ، وَلَا تَخُصُّوا يَوْمَ الجُمُعَةِ بِصِيامٍ مِن بَيْن الأَيامِ إلّا أنْ يَكُونَ في صَوْمٍ يَصُومُهُ أَحدُكُمْ » رواهُ مُسْلِمْ .

وَعَنْهُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمْ : « لَا يَصُومَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ إلَّا أنْ يَصُومَ يوماً قَبْلَهُ أوْ يَوْماً بَعْدَه » مُتَّفَقٌ عليه .

وَأَمَّا السَّبْتُ فَلِمَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بُن بُسْر عَنْ أُخْتِهِ ـ رضي اللهُ عَنْهُما ـ أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالْ : « لَا تَصُومُوا يَوْمَ السَّبْتِ إلّا فِيمَا أفْتِرِضَ عليْكُمْ ، فإنْ لَمْ يَجِدْ أحَدُكُمْ إلّا لِحَاءَ عِنَبَةٍ ، أو عودَ شَجَرةٍ فَلْيَمْضَغْهُ » رواهُ الخمسَةُ إلَّا النّسائِي .

وَيُكْرَهُ تَقَدُّمِ رَمَضَانَ بِصَومِ يومٍ أو يَوْمِيْن ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ قالْ : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمْ : « لا تَقْدِمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يومٍ ولَا يَوْمِيْنِ إلَّا رَجُلٌ كانَ يصومُ صوماً فَلْيَصُمْهُ » متفق عليه .

وَيُكْرَهُ صَوْمُ الدّهرِ ، لِحَدِيْثِ عَبْدِ اللّهِ بنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُما ـ قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : لا صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدْ » مُتفق عليه .

وَلِمُسْلِم مِنْ حديثِ أَبِي قَتَادَةْ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ بِلَفْظِ « لَا صَامَ وَلَا أَفْطَرَ » .

وَيُكْرَهُ صَوْمِ النَّيْرُوزِ والْمَهْرَجَانِ وَكُلِّ عِيدٍ لِلْكُفّارَ ، أَوْ يَوْمٍ يُفْرِدُونَهُ بالتّعظيْمِ ، لِمَا فِيْهِ مِن مُوافقَةِ الكفارِ في تَعْظِيْمِها ، قال عَبْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ : مَنْ تَأَسَّى بِبِلادِ الأعاجِمِ نَيْرُوزِهِمْ وَمِهْرَجَانِهِمْ وَتَشَبَّهَ بِهِم حَتَّى يَمُوتُ حُشِرَ مَعَهُمْ .

قَالَ الشّيْخُ وَغَيرِه : مَا لَمْ يُوافِقْ عَادَةً أَوْ يَصُمْهُ عَنْ نَذْرٍ وَنَحْوِهْ ، قال : وَكَذَلِكَ يَوْمُ الْخَمِيْسِ الذي يَكُونُ في آخِرِ صَوْمِهِمْ كَيومِ (عيدِ المائِدَةِ) وَيَوْمِ الأَحد الذي يُسَمّونَهُ (عِيْدَ الفُصْحِ) وَ(عيد النّورِ) و(العيدِ الكَبِيرِ) وَنَحو ذَلِكَ ، لَيْسَ لِلْمُسْلِمِ أنْ يُشَابِهَهُمْ في أصْلِهِ وَلَا فِي وَصْفِهِ .

وَقَالْ : لَا يَحِلّ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا فِي شَيء مِمَّا يَخْتَصُّ بِأَعْيَادِهِم ، لَا مِنْ طَعامٍ ، ولا مِنْ لِباسٍ ، وَلَا اغْتِسَالٍ ، وَلَا إيْقَادِ نِيْرانٍ ، وَلَا تَبْطِيْلِ عادَةٍ مِنْ مَعيْشَةٍ أَوْ عِبَادَةٍ أو غَيْر ذلك ، وَلَا تُمَكَّنُ الصّبْيانِ وَنَحْوِهِمْ مِن اللّعِبَ الّتي في الأَعْيَادِ ، وَلَا إظْهَارِ زِيْنَةٍ .

وَبِالْجُمْلَةِ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَخُصُّوا أَعْيَادَهُمْ بِشَيءٍ مِنْ شَعَائِرِهِمْ بَلْ يَكُونُ يَوْمَ عِيْدِهم عِنْدَ المُسْلِمينَ كَسَائِرِ الأَيّامِ ، لَا يَخُصَّهُ المُسْلِمُونَ بِشَيءٍ مِنْ خَصَائِصِهِمْ .

وَتَخْصِيْصُهُ بِمَا تَقَدَّمَ فَلَا نِزَاعَ فِيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، بَلْ قَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلى كُفْرِ مَنْ يَفْعَلُ هَذِهِ الأمورَ : لِمَا فِيْهَا مِن تَعْظِيم شَعَائِرِ الْكُفْرِ .

وَقد اشْتَرَطَ عُمَرُ والصَّحَابَةُ وَسَائِرُ أَئِمَّةِ المُسْلِمِيْن أَن لا يُظْهِرُوا أَعْيَادَهُم في دِيَارِ المُسْلِميْن فَكَيْفَ إذا أَظْهَرَهَا المُسْلِمُون ؟ حَتَّى قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّاب : لاَ تَتَعلّمُوا رِطَانَةَ الأَعاجِمِ ، وَلاَ تَدْخُلُوا على المشركين في كَنَائِسِهِمْ يَوْمَ عِيْدِهِمْ ، فَإِنَّ السُّخْطَةَ تَنْزِلُ عَلِيْهِمْ ، وَإذَا كَانَ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَفْعَلُ مَا يُسْخِطُ اللَّهَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِمَّا هُوَ مِنْ شَعَائِرِهِمْ ؟ وَقَالَ عُمَرُ : مَا تَعَلّمَ رَجُلٌ الفارِسِيَّةَ إلَّا خَبَّ ولا خَبَّ إلا نَقَصتْ مَرُوءَتُهُ .

وَقَدْ قَالَ غَيْرُ واحد مِن السّلَفِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ والّذِيْنَ لا يَشْهَدُوْنَ الزّورَ﴾ قال: أَعْيَادُ الكُفّارِ ، فإذَا كَانَ هَذَا في شُهُودِهَا مِنْ غَيْرِ فِعْلٍ ، فَكَيْفَ بالافْعالِ الّتي هِي مِنْ خَصَائِصِهَا ؟!

وَقَدْ رُوِيَ عن النّبي صلى اللهُ عليهِ وسلم في المُسْنَدِ والسُّنَنِ أنّه قالَ : « مَنْ تَشَبّهَ بقومٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » ، وفي لفظ : « لَيْس مِنّا مَنْ تَشَبّهَ بغيْرِنَا » وَهُوَ حَديثٌ جَيّدٌ ، فإذا كانَ هَذَا في التّشَبّهِ ـ وان كانَ مِن العادَاتِ ـ فَكَيْفَ التّشبُّهِ بِهِمْ فِيْما هُوَ أَبْلَغُ مِن ذَلِكَ ؟ .

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمَ رَحِمَهُ اللّهْ اعْتِيَادُ اللّغَةِ يُؤَثِّر في الْعَقْلِ والخُلُقِ والدّينِ تَأْثِيراً قَوياً بَيِّناً بِحَسَبِ تِلْكَ اللُّغَةِ وَقَالَ في اقْتِضَاءِ الصّراطِ المستقيم عن نافِعٍ عَنْ ابْنُ عُمَرَ قالْ : قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : من يُحْسِنُ أنْ يَتَكَلّمَ بالْعَرَبِيّة فَلاَ يَتَكَلّمُ بالْعُجْمَةِ فإنّهُ يُورّثُ النِفَاق .

قالَ ابْنُ القيم ـ رَحِمَهُ الله ـ عَلى حَدِيْث : « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فهو مِنْهُمْ » أي بالانْدِمَاجِ وَتَلاَشَتْ شَخْصِيَّتُه فِيهِم فَمَا يَكونُ ذَلكَ إلا عَنْ

تَعْظِيم وإكْبَارٍ لَهُمْ ، فَهْوَ لِذَلِك يُلْغِي شَخْصِيَّتَهُ وَيَتَلاَشَى فِي شَخْصِيَّةِ الآخَرِين ، فَمَنْ تَشَبَّهَ بالرَّسُولِ صلى اللهُ عليه وسلم وأصْحَابِه بالْغَاءِ شَخْصِيَّةِ الجاهليةِ السَّفِيْهَةِ ، وَانْدَمَج في مَعْنَوِيَّةِ الرسولِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وأَصْحَابِهِ عِلْمَاً وَعَملاً واعْتِقاداً وأدَباً ، فَهُو بِلا شَكٍ مِنْهُمْ .

وَمَنْ تَشَبَّهَ بالإفْرِنْجِ فِي لِبَاسِهِم وأخْلاَقِهِم وَنُظُمِهِمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ فَهُوَ بِلا شَكٍ افْرنْجِيٌ غَيْرُ مُسْلِمٍ ، وانْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَم أنهُ مُسْلِمْ ، فَلِهَذَا التَّشَبُّهِ وَنَتائِجِهِ الدِّينِيَّـةِ والدُّنْيَـوِيَّةِ نَـرَى الْمُعَظِّمِيْنَ لِلنَّصَـارَى والْوَثَنِيِّينَ الحَرِيْصِيْنَ على التَّشَبُّهِ بِهِم والانْدِمَاج فيهمْ يُعاوِنُونَهُمْ على الضَّرَرِ بِدِيْنِهِم وَبِلادِهِمْ وأُمَمِهِم عَنْ قَصْد وَعَنْ غَيْرِ قَصْدٍ أ هـ .

وَيُكْرَهُ وصَالٌ إلاَّ مِنَ النَّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم ، لِمَا وَرَدَ عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عنهُ ـ قالْ نَهَى رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم عن الوِصالِ ، فقال رَجُلٌ مِن المسلمينَ : فإنّكَ تُواصِلُ يا رسولَ اللهَ فقَالْ : « وَأَيُّكُمْ مِثْلِي إنّي أَبيْتُ يُطْعِمُنِي رَبّي وَيَسْقِيْنِي » فَلَمَّا أبوا أنْ يَنْتَهُوا عن الوِصَالِ واصَلَ بِهِم يَوْماً ثُمّ يوماً ، ثُمّ رَأَوُا الْهِلالَ فقَالْ : « لَوْ تَأَخّرَ الهِلاَلُ لَزِدْتكُمْ » كالمُنَكِّلِ لَهُم حِيْنَ أبوا أنْ يَنْتَهُوا ، مُتّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَلاَ يَجُوزُ صَوْمُ الْعِيدَين عَنْ فَرْضٍ أَوْ تَطَوُّعٍ ، وَإِنْ قَصَدَ صِيَامَهَا كَانَ عَاصِياً ، وَلاَ يُجزِءُ عَن الْفَرْضِ .

وَلاَ يَجُوزُ صِيَامُ أَيَّام التَّشْرِيقِ إلاَّ عَنْ دَمِ مُتْعَةٍ وَقِرَانٍ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم « أَنَّهُ نَهَى عَنْ صَوْمِ يَوْمَيْنِ : يَوْمِ الْفِطْرِ ، وَيَوْمِ النَّحْرِ » مُتَفَقٌ

عَلَيْهِ .

وَرَوَى أَبُو عُبَيْدٍ مَوْلَى أَزْهَرْ ، قَالَ : شَهِدْتُ الْعِيدَ مَعَ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَابِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فَقَالَ : « هَذَانِ يَوْمَانِ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ صِيَامِهِمَا : يَوْمُ فِطرِكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ ، وَالْيَوْمُ الآخَرُ تَأْكُلُونَ فِيه مِنْ نُسُكِكُمْ » مُتفَقٌ عَلَيْهِ .

وأما أَيَّامُ التَّشْرِيْق ، فَلِمَا رُوِيَ عَن نُبَيْشَةِ الهُذَلِي ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال : قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ » رَوَاهُ مُسْلِم .

وَعَنْ عَائِشَةَ وَابْن عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عنهُمْ ـ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « نَهَى عَنْ صَوْمِ خَمْسَةِ أَيَّامٍ في السَّنَةِ : يَوْمِ الْفِطْرِ ، وَيَوْمِ النَّحْرِ ، وَثَلاَثَةِ أَيَامِ التَّشْرِيقِ » رَوَاهُ الدَّار قُطْنِي .

اللَّهُمَّ اسْلكْ بِنَا مَسْلَكَ الصَّادِقِينَ الأَبْرَارْ ، وَالْحِقْنَا بِعبَادِكَ الْمُصْطَفيْنَ الأَخْيَار ، وَآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارْ .

اللَّهُمَّ أَحْي قُلُوباً أَمَاتَهَا الْبُعْدُ عَنْ بَابِكَ ، وَلاَ تُعَذّبْنَا بِأَلِيمِ عِقَابِكَ يَا أَكْرَمَ مَنْ سَمَحَ بِالنَّوالِ وَجَادَ بِالإِفْضَالِ ، اللَّهُمَّ أَيْقَضْنَا مِنْ غَفْلَتِنَا بِلُطْفِكَ وَاحْسَانِكَ ، وَتَجَاوَزْ عَنْ جَرَائِمِنَا بِعفْوِكَ وَغُفْرَانِكَ ، وَاغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

(فَصْــلٌ)

في الْحَثِّ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

عِبَادَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا وَصِيَّةُ اللَّهِ لِلأَوَّلِينَ والآخرينَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الْذِيْنَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإيَاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فَمَا مِنْ خَيْرٍ عَاجِلٍ وَلَا آجِلٍ ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ إلَّا وَتَقْوَى اللَّهِ سَبِيلٌ مُوصِلٌ إِلَيْهِ ، وَوَسِيلَةٌ مُبْلِغَةٌ لَهُ ، وَمَا مِنْ شَرٍّ عَاجِلٍ وَلَا آجِلٍ ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ إِلَّا وَتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِرْزٌ مَتِينٌ وَحِصْنٌ حَصِينٌ لِلسَّلَامَةِ مِنْهُ وَالنَّجَاةِ مِنْ ضَرَرِهِ .

وَكَم عَلَّقَ اللهُ العظيمُ في كِتَابِهِ العَزِيزِ على التَّقْوَى من خَيْرَاتٍ عَظِيْمَةٍ وَسَعَادَاتٍ جَسِيْمَةٍ مِن ذَلِكَ المَعِيَّةُ الخـاصَّـةُ المُقْتَضِيَةُ للحفظ والعِنَايَةِ والنَّصْرِ والتَّأْيِيْدِ ، قَال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وَمِن ذَلِكَ المَحبَّةُ لِمَنَ اتَّقَى اللهَ ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَمِنْ ذَلِكَ التَّوْفِيقُ لِلْعِلْمِ قَالَ تَعالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ نَفْيُ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ عَن الْمُـتَّقِي الْمُصْلِح قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَن اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونْ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ الفرقَانُ عِنْدَ الإِشْتِبَاهِ وَوُقُوعِ الاشْكَالِ وَالْكَفَّارَةِ لِلسَّيِّئَاتِ وَالْمَغْفِرَةِ لِلذُّنُوبِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يـا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانَاً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيْمِ ﴾ .

وَمِنْ ذَلِكَ النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَانْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِياً ثُمَّ نُنَجِّي الْذِينَ اتَّقَوْا ﴾ وَقـالَ تَعَالَى :

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِيْنَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونْ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ الْمَخْرَجُ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

وَمِنْ ذَلِكَ الْيُسْرُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى . ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ عِظَمُ الأَجْرِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعَظِّمْ لَهُ أَجْراً ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ الْوَعْدُ مِنَ اللَّهِ بِالْجَنَّةِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ الآيَاتْ إِلى قَوْلِهِ مَنْ كَانَ تَقِيّاً .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمَتَقِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾

ومن ذَلِكَ الْكَرَامَةُ عِنْدَ اللَّهِ بِالتَّقْوَى قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ التَّقْوَى هِيَ امْتِثَالُ الأَوامِرْ وَاجْتِنَابُ النَّوَاهِي ، فَالْمُتَّقُونَ هُمُ الذِينَ يَرَاهُم اللهُ حَيْثُ أَمَرَهُم ولا يُقْدِمُونَ على مَا نَهَاهُمْ عنه .

الْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِيْنَ يَعْتَرِفُونَ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِمْ وَيَعْرِفُونَهُ وَيُؤَدُّونَهُ ، وَيُنْكِرُونَ الْبَاطِلَ وَيَجْتَنِبُونَهُ وَيَخَافُونَ الرَّبَّ الْجَلِيْلَ الَّذِي لَا تُخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، الْمُتَّقُونَ يَعْمَلُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ فَيُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَهُ وَيُحِلُّونَ مَا أَحَلَّهُ .

وَلَا يَخُونُونَ فِي أَمَانَةٍ وَلَا يَرْضَونَ بِالذُّلِّ وَالاهَانَةِ وَلَا يَعْقُونَ وَلَا

يَقْطَعُونَ ، وَلَا يُؤْذُونَ جِيرَانَهُمْ وَلَا يَضْرِبُونَ اخْوانَهُمْ ، يَصِلُونَ مَنْ قَطَعَهُمْ ، وَيُعْطُونَ مَنْ حَرَمَهُمْ ، وَيَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ الْخَيْرُ عِنْدَهُمْ مَأْمُوْلٌ ، وَالشَّرُّ مِنْ جَانِبِهِمْ مَأْمُوْنٌ لَا يَغْتَابُونَ وَلَا يَكْذِبُونَ وَلَا يُنَافِقُونَ .

وَلَا يَنِمُّونَ وَلَا يَحْسِدُونَ وَلَا يُراؤُنَ وَلَا يُرابُونَ وَلَا يَقْذِفُونَ وَلَا يَأْمُرون بِمُنْكَرٍ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ مَعْرُوفْ ، بَلْ يَأْمُرُوْنَ بالمعروفِ وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرْ ، تِلْكَ صِفَاتُ المُتّقِيْنَ حَقّاً الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيبِ وَهُمْ مِنَ السّاعَةِ مُشْفِقُوْنْ .

اخْوانِي ، لَوْ تَحلَّى كُلٌ مِنّا بالتّقْوَى لَحسُنَ عَمَلُهْ ، وَخَلُصَتْ نِيّتُهْ ، واسْتَقَامَ على الهُدَى ، وابْتَعَد عَنِ المَعَاصِي والرّدَى ، وكانَ يَوْمَ القيامةِ مِن النّاجِين .

وَصْفُ الْمُؤْمِنْ المُتَّقِي
لِلإمَامِ عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

اَلمُتَّقُونَ هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ مَنْطِقُهُمْ الصَّوابُ وَمَلْبَسُهُمْ الاقْتِصَادُ وَمَشْيُهُمْ التَّوَاضُعُ غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَوَقَّفُوْا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ نَزَلَتْ أَنفسهم مِنْهُمْ في الْبَلَاءِ كَمَا نَزَلَتْ في الرَّخاءِ وَلَوْلَا الأَجَلُ الّذِي كَتَبَ اللَّهَ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ في أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقَاً إلى الثَّوَابِ وَخوْفاً مِنَ الْعِقَابِ .

عَظُمَ الْخَالِقَ في أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ في أَعْيُنِهِمْ فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنعِمُونَ وَهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعذَّبُون قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ وَحاجَاتُهُمْ خَفِيفَـةٌ

وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً وَتِجَارَةً مُرْبِحَةً يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ .

أَرَادَتْهُم الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهُ تَرْتِيلاً يُحْزِنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ .

فَإِذَا مَرُّو بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وَظَنُّوا أَنَّهَا نَصْبَ أَعْيُنِهِمْ وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَئِيرَ جَهَنَّم وَشَهِيقَها في أُصُولِ آذَانِهِم فَهُم حَانُونَ على أَوْساطِهِم مُفْتَرِشُونَ لِجِباهِهِمْ وأَكُفِّهِم وَرُكَبِهِمْ وأَطْرَافِ أَقْدَامِهِم يَطْلُبُونَ إِلى اللهِ تعالى في فَكَاكِ رِقابِهِم وأَمَّا النَّهارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارُ أَتقياءُ .

قَدْ بَرَاهم الخَوفُ بَرْيَ القِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِم الناظِرُ فَيَحْسَبُهُم مَرْضَى وَمَا بالقَـوْمِ مِن مَرَضٍ وَيَقُولُ قَدْ خُولِطُوا وَلَقَدْ خَالَطَهُم أَمْرٌ عَظِيْمٌ ؟ لَا يَرْضَوْنَ مِن أَعْمَالِهِم القَلِيْلَ وَلَا يَسْتَكْثِرُوْنَ الكثيرَ فَهُم لِأَنْفُسِهِم مُتَّهَمُونَ وَمِن أَعْمَالِهِم مُشْفِقُونَ إذا زُكِيَ أَحَدُهُم خَافَ مِمَّا يُقَالُ فيقولُ أنا أَعْلَمُ بِنَفسي مِن غَيْرِي وَرَبِي أَعْلَمُ بي مِن نَفْسِي اللهم لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنونَ ، واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُوْنَ .

فَمِنْ عَلامَةِ أَحدِهِم أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فيدِيْنٍ وَحَزْماً في لِيْنٍ وإِيْمَاناً في يَقِيْنٍ ، وَحِرْصاً في عِلْمٍ ، وعِلْماً في حِلْمٍ وَقَصْداً في غِنَى وَخُشُوعاً في عِبادَةٍ وَتَحمُّلاً في فاقَةٍ وَصَبْراً في شِدَّةٍ وَطَلَباً في حَلَالٍ وَنَشاطاً في هُدَى وَتَحَرُّجاً عن طَمَعٍ .

يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَة وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ ، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُكْرُ ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِكْرُ يَبِيْتُ حَذِراً وَيُصْبِحُ فَرِحاً ، حَذِراً لِمَا حَذِرَ مِن الغَفْلَةِ ، وَفَرِحاً بِمَا أَصابَ مِن الفَضْلِ والرَّحْمَةِ ، إِنْ اسْتَصْعَبَتْ عليه نَفْسُهُ فِيْمَا تَكْرَهُ ، لم يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيْمَا تُحِبُّ .

قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيْمَا لا يَزُوْلُ ، وَزَهَادَتُه فِيمَا لا يَبْقَى ، يَمْزِجُ الحِلْمَ بالعِلْمِ ، والقَولَ بالعَمَلِ ، تَرَاهُ قَرِيْبَاً أَمَلُهُ ، قَلِيْلاً زَلَلُهُ ، خَاشِعاً قَلْبُهُ ، قَانِعَةً نَفْسُه ، مَنْزُوْراً أَكْلُهُ سَهْلاً أَمْرُهُ ، حَرِيْزاً دِيْنُهُ ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ مَكْظُوماً غَيْظُهُ ، الخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ ، والشَرُ مِنْهُ مأمونٌ .

إِنْ كَانَ في الغَافِلِيْنَ كُتِبَ في الذَّاكِرِيْنَ وانْ كَانَ في الذَّاكِرِيْنَ لَمْ يُكْتَبْ مِن الغَافِلين يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَيُعْطِي مَن حَرَمَهُ وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، بَعِيْداً فُحْشُهُ ، لَيِّناً قَوْلُهُ غائِباً مُنْكَرُهُ ، حَاضِراً مَعْرُوْفُهُ ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ ، مُدْبِراً شَرُّهُ ، في الزَّلاَزِلِ وَقُوْرٌ ، وفي المَكَـارِهِ صَبُوْرٌ وفي الرَّخاءِ شَكُورٌ .

لاَ يَحْيفُ على مَن يُبْغِضُ ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيْمَنْ يُحِبُ ، يَعْتَرِفُ بِالحَقِّ قَبْلَ أَن يُشْهَدَ عَليه ، لا يُضَيِّعُ ما اسْتُحْفِظَ ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِرَ ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ ، وَلاَ يُضَارُّ بالجَارِ ، وَلاَ يَشْمُتُ بالمُصَابِ ، ولاَ يَدْخُلُ في البَاطِلِ ، ولا يَخْرُجُ مِن الحَقِّ .

إِن صَمَتَ لَم يَغُمُّه صَمْتُهُ ، وانْ ضَحِكَ لم يَعْلُ صَوْتُهُ ، وإِنْ بُغِيَ عَليهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُو الذي يَنْتَقِمُ لَهُ ، نَفْسُهُ مِنْهُ في عَنَاءٍ والنَاسُ مِنْهُ في رَاحَةٍ ، أَتْعَبَ نَفْسَهُ لآخِرَتِهِ ، وأَرَاحَ الناسَ مِن نَفْسِهِ .

بُعْدُهُ عَمَّنْ تَباعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ ، ودُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِيْنٌ وَرَحْمَةٌ ، لَيْسَ تَباعُدُه بِكِبْرٍ وَعظَمَةٍ ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمكْرٍ وَخَدِيْعَةٍ .

قالَ فَصَعِقَ هَمَّامُ صَعْقَةً كَانَتْ نَفْسُهُ فِيْهَا . فَقَالَ أَمِيْرُ المُؤْمِنينَ عليهِ السلامُ أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَال هَكَذا تَصْنَعُ المَوَاعِظُ البَالِغَةُ بِأَهْلِهَا فقَالَ لَهُ قَائِلٌ : فَمَا بَالُكَ يا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ فقالَ وَيْحَكَ ، إن لِكل أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوْهُ وسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُه أ هـ .

عَلَيْكُم بِتَقْوَى اللهِ لَا تَتْرُكُوْنَهَا
فَإِنَّ التُّقَى أَقْوَى وأَوْلَى وأَعْدَلُ
لِبَاسُ التُقى خَيْرُ الملابِسِ كُلِّهَا
وأَبْهَى لِبَاساً في الوُجُودِ وَأَجْمَلُ
فَمَا أَحْسَنَ التَّقْوَى وأَهْدَى سَبِيْلَهَا
بِهَا يَنْفَعُ الإِنسَانَ مَا كَانَ يَعْمَلُ
فَيَا أَيُّهَا الإنسانُ بادِرْ إلى التُقَى
وَسَارِعْ إلى الخَيْرَاتِ مَا دُمْتَ مُمْهَلُ
وَأَكْثِرْ مِن التَّقْوَى لِتَحْمِدَ غِبَّهَا
بِدَارِ الجَزَاء دَارٍ بها سَوْفَ تَنْزِلُ
وَقَدِّمْ لِمَا تَقْدَمْ عَليهِ فَإِنَّمَا
غَداً سَوْفَ تُجزَى بالّذي سَوْفَ تَفْعَلُ
وأَحْسِنْ ولا تُهْمِلْ إذا كُنْتَ قادِراً
فَدَارُ بَنِيْ الدُنْيَا مَكَانُ التَّرَحُّلِ

وأَدِّ فُـرُوْضَ الـدِّيْنِ واتْقِـنْ أَدَاءَهَـا
كَـوَامِـلَ فـي أَوْقَـاتِـهَـا والـتَّـنَـفُـل
وَسَـارِعْ إِلى الخَيْـرَاتِ لا تَهْمِلَنَّهَـا
فـإِنَّـكَ إِنْ أَهْمَلْتَ مَـا أَنْتَ مُهْمَـلُ
وَلَكِنْ سَتُجْـزَى بـالـذي أَنْتَ عَـامِـلٌ
وعن ما مَضَى عن كُلِّ شَيْءٍ سَتُسْأَلُ
وَلَا تُلْهِـكَ الـدُنْيَـا فَـرَبُّـكَ ظَـامِنٌ
لِـرِزْقِ الـبَـرَايَـا ظَـامِنٌ مُـتَـكَـفِـلُ
وَدُنْيَـاكَ فـاعْبُـرْهَـا وآخْـرَاكَ زِدْ لَهَـا
عَـمَـاراً وإِيْثَـاراً إِذا كُـنْـتَ تَـعْـقِـلُ
فَمَنْ آثَـرَ الـدُنْيَـا جَهُـولٌ وَمَنْ يَبِـعْ
لأُخْـرَاهُ بـالـدُنْـيَـا أَضَـلُّ وأَجْهَـلُ
وَلَـذَّاتُـهَـا والجَـاهُ والـعِـزُّ والغِـنَـى
بِـأَضْـدَادِهَـا عَـمَّـا قَلِيْـلٍ تَـبَـدَّلُ
فَمَنْ عَاشَ في الدُنْيَا وإِن طَالَ عُمْرُهُ
فـلا بُـدَّ عَنْهَـا رَاغِمـاً سَـوْفَ يُنْقَـلُ
وَيَـنْـزِلُ دَاراً لا أَنِـيْسَ لَـهُ بِـهَـا
لِكُـلِ الـوَرَى مِنهم مَعَـادٌ وَمَـوْئِـلُ
وَيَبْقَى رَهِيْنـاً بـالتـرابِ بِمَـا جَنَى
إِلى بَعْثِـهِ مِن أَرْضِـهِ حِيْنَ يَـنْسِـلُ
يُـهَـالُ بـأَهْـوَالٍ يَشِـيْبُ بِـبَعْـضِهَـا
وَلَا هَـوْلَ إِلا بَعْـدَهُ الـهَـوْلُ أَهْـوَلُ

وفي البَعْثِ بَعدَ المَوتِ نَشْرُ صَحائِفٍ
وَمِـيْـزَانُ قِسْطٍ طَـائِشٍ أَوْ مُـثَـقَّـلُ
وَحَشْـرٌ يَشِيْبُ الطفْـلُ مِنه لِهَـوْلِـهِ
وَمنـه الجِبَال الـرَّاسِيَـاتُ تَـزَلْـزَلُ
وَنَـارٌ تَلَظَّى في لظَـاهَـا سَـلاسِـلٌ
يُـغَـلُّ بِهَـا الفُجَـارُ ثُـمَّ يُـسَلْسَـلُ
شَـرَابُ ذَوِيْ الإِجْـرَامِ فِيهَـا حَمِيْمُهَـا
وَزقُّـوْمُهَـا مَـطْعُـومُهُمْ حِيْنَ يُؤْكَـلُ
حَـمِـيْـمٌ وَغَـسَّـاقٌ وآخَـرُ مِـثْـلُهُ
مِن المُهْلِ يَغْلِي في البُطُونِ وَيَشْعَـلُ
يَـزِيْـدُ هَـوَانـاً مِن هَـوَاهَـا ولاَ يَـزَلْ
إلى قَعْـرِهَـا يَهْـوِي دَوامـاً وَيَنْـزِلُ
وَفـي نَـارِهِ يَـبْـقَـى دَوامـاً مُـعَـذَّبَـاً
يَـصِيْـحُ ثُـبُـوراً وَيْـحَـهُ يَـتَـوَلْـوَلُ
عَـلَيْـهَـا صِـرَاطٌ مَـدْحَضٌ وَمَـزَلَّـةٌ
عَلَيْـهِ البَـرَايَـا في القِيَـامَـةِ تُحْمَـلُ
وفـيـهِ كَـلاَلِـيْـبٌ تَـعَـلَّـقُ بـالـوَرَى
فَهَـذَا نَجَـا مِنهـا وَهَـذا مُـخَـرْدَلُ
فَـلا مُـذْنِبٌ يَفْـدِيْـهِ مَـا يَفْتَـدِيْ بِـهِ
وإنْ يَعْتَـذِرْ يَـومـاً فـلا العُـذْرُ يُقْبَـلُ
فَهَـذَا جَـزَاءُ المجـرمينَ على الـرَّدَى
وهـذا الـذي يَـومَ القِيَـامَـةِ يَحْصُـلُ

أعُــوذُ بِــرَبِي مِن لَــظَى وَعَــذَابِهَــا
وَمِن حَــالِ مَن يَهْـوِيْ بِهَـا يَتَجَلْجَـلُ
وَمِن حَـالِ مَن في زَمْهَـرِيْـرٍ مُعَذَّبٍ
وَمَن كَـانَ في الأَغْـلاَلِ فِيْهَـا مُكَبَّـلُ
وَجَنَّـاتُ عَـدْنٍ زُخْـرِفَتْ ثُمَّ أُزْلِفَتْ
لِقَـوْمٍ على التَّقْـوَى دَوَامـاً تَبَتَّـلُ
بِهَـا كُـلُ مَـا تَهْـوَى النُفُـوسُ وَتَشْتَهِي
وَقُـرَّةُ عَيْـنٍ لَـيْسَ عَـنـهـا تَـرَحُّـلُ
مَــلاَبِسُهُـم فِيْـهَـا حَـرِيْـرٌ وَسُنْـدُسٌ
وَإِسْـتَـبْـرَقٌ لا يَـعْـتَـرِيْـهِ التَّـحَـلُّلُ
وَمَــأْكُـوْلُهم مِن كُـلِ مَـا يَشْتَهُـونَـهُ
وَمِن سَلْسَبِيْـلٍ شُـرْبُـهُم يَـتَسَـلْسَـلُ
وأَزْوَاجُـهُم حُـوْرٌ حِـسَـانٌ كَـوَاعِـبٌ
على مِثْلِ شَكْلِ الشَّمْسِ بل هُوَ أَشْكَلُ
يُـطَافُ عَلَيْهِـم بـالـذي يَشْتَهُـونَـهُ
إذا أَكَـلُوا نَـوْعـاً بـآخَـرَ بُـدِّلُـوْا
فَـوَاكِهُهَـا تَـدْنُـوا إلى مَنْ يُـرِيْـدُهَـا
وَسُكَّـانُهَـا مَهْمَـا تَـمَنَّـوْهُ يَـحْصُـلُ
وأنْهَــارُهَـا الأَلْبَـانُ تَجْـرِي وأَعْسُـلُ
تَـنَـاوُلُـهَـا عِـنْـدَ الإرَادَةِ يَـسْـهُـلُ
بِهَـا كُـلُ أَنْـوَاعِ الفَـوَاكِـهِ كُـلِّهَـا
وَخَـمْـرٌ وَمَـاءُ سَلْسَبِيْـلُ مُـعَسَّـلُ

يُقَـالُ لَهُمْ طِبْتُمْ سَـلِمْتُمْ مِن الأَذَى
سَـلامٌ عَلَيْكُم بـالسَّـلامَـةِ فـأدْخُلُوا

بـأَسْبَـابِ تَقْـوَى اللهِ والعَمَـلِ الـذي
يُـحِبُّ إلى جَنَّـاتِ عَـدْنٍ تَـوَصَّلُوا

إذا كَـانَ هَـذَا والـذي قَبْلَهُ الجَـزَاء
فَحَقٌّ على العَيْنَينِ بـالـدَّمْـعِ تُهْمِـلُ

وَحَقٌّ على مَـن كَـانَ بـاللهِ مُـؤْمِنـاً
يُـقَـدِّمْ لَـهُ خَـيْـراً وَلاَ يَـتَـعَـلَّلُ

وأَنْ يَـأْخُـذَ الإِنْسَـانُ زَاداً مِن التُقَى
ولا يَسْـأَمِ التَّقْـوَى وَلاَ يَتَـمَـلْمَـلُ

وإِنَّ أَمَـامَ النـاسِ حَشْـرٌ وَمَـوْقِـفٌ
وَيَـومٌ طَـوِيْـلٌ ألفُ عَـامٍ وَأَطْـوَلُ

فَيَـالَـك مِن يَـوْمٍ عَلى كُـلِّ مُبْـطِلٍ
فَضِيْـعٍ وأَهْـوَالُ القِيَـامَـةِ تُـعْضِـلُ

تَكُـونُ بـه الأَطْـوادُ كَـالعِهْنِ أَوْ تَكُنْ
كَثِيْبـاً مَـهِـيْـلاً أَهْـيَـلاً يَـتَـهَـلْهَـلُ

بِــه مِلَّةُ الإِسْـلامِ تُقْبَـلُ وَحْـدَهَـا
وَلاَ غَـيْـرُهَـا مِن أَيِ دِيْـنٍ فَـيَـبْـطُلُ

بِـهِ يُسْـأَلُـونَ النـاسُ مـاذا عبـدتمـوا
ومـاذا أَجَبْتُم مَن دَعَـا وَهُـوَ مُـرْسَـلُ

حِسَـابُ الـذي يَنْقَـادُ عَـرْضٌ مُخَفَّفٌ
وَمَن لَيسَ مُـنْقَـاداً حِـسَـابٌ مُثَقَّـلُ

وَمِنْ قَبْلِ ذَاكَ الموتُ يَأْتِيْكَ بَغْتَةً
وَهَيْهَاتَ لا تَدْرِي مَتَى المَوتُ يَنْزِلُ

كُؤُسُ المَنَايَا سَوْفَ يَشْرَبُهَا الوَرَى
عَلى الرَّغْمِ شُبَّانٌ وَشِيْبٌ وَأَكْهُلُ

حَنَانَيْكَ بَادِرْهَا بِخَيْرٍ فَإِنَّمَا
على الآلَةِ الحَدْبَا سَرِيْعاً سَتُحْمَلُ

إذا كُنْتَ قَدْ أَيْقَنْتَ بالمَوتِ والفَنَا
وبالبَعْثِ عَمَّا بَعْدَهُ كَيْفَ تَغْفُلُ

أَيَصْلُحُ إِيْمَانُ المَعَادِ لِمُنْصِفٍ
وينسى مَقَامَ الحَشْرِ مَن كَانْ يَعْقِلُ

إذا أَنْتَ لَم تَرْحَلْ بِزَادٍ مِن التُقَى
ابنْ لِي أَبِنْ يومَ الجَزَا كَيْفَ تَفْعَلُ

أَتَرْضَى بأَنْ تأتي القِيَامَةَ مُفْلِساً
على ظَهْرِكَ الأَوْزَارُ بالحَشْرِ تَحْمِلُ

إلٰهي لَكَ الفَضْلُ الذي عَمَّمَ الوَرَى
وَجُوْدٌ على كُلِ الخَلِيْقَةِ مُسْبَلُ

وَغَيْرُكَ لَو يَمْلِكْ خَزَائِنَكَ الْتِي
تَزِيْدُ مَعَ الانْفَاقِ لَا بُدَّ يَبْخَلُ

وإنّي بِكَ اللَّهُمَّ ربي لَوَاثِقٌ
وما لِي بِبَابٍ غيرِ بَابِكَ مَدْخَلُ

وإنّي لَكَ اللَّهُمَّ بالدِيْنِ مُخْلِصاً
وَهَمِّي وَحَاجَاتِي بِجُوْدِكَ أُنْزِلُ

أعـوذُ بِـكَ اللَّهُمَّ مِن سُـوْءِ صُنْعِنَـا
وَأَسْأَلُـكَ التَّثْبِيْـتَ أُخْـرَى وَأَوَّلُ
إلـهي فَثَبِّتْنِيْ عَـلى دِيْـنـكَ الـذِي
رَضِيْـتَ بِـهِ دِيْـنـاً وإِيَّـاهُ تَـقْـبَـلُ
وَهَبْ لِي مِن الفِرْدَوْسِ قَصْرَاً مُشَيَّداً
وَمُـنَّ بِـخَـيْـرَاتٍ بِـهَـا أَتَـعَـجَّـلُ
وَلِـلَّهِ حَـمْـدٌ دَائِـمٌ بِـدَوَامِـهِ
مَدَى الدهْرِ لا يَفْنَى ولا الحَمْدُ يَكْمُلُ
يَـزِيْـدُ عـلى وَزْنِ الخَـلائِقِ كُلِّهَـا
وأرْجَـحُ مِن وَزْنِ الجَمِيْـعِ وأثْـقَـلُ
وإِنّي بِحَمْدِ اللهِ في الحَمْدِ أَبْتَـدِي
وأَنْهِيْ بِحَمْـدِ اللهِ قَـوْلِيْ وَأَبْـتَـدِي
صَـلاةً وَتَسْـلِيْمـاً وَأَزْكَـى تَـحِيَّـةً
تَـعُمُّ جَمِيْـعَ الـمُـرْسَلِيْـنَ وَتَشْـمَـلُ
وأَزْكَـى صَـلاةِ الـلهِ ثُـمَّ سَـلامُـهُ
عَلَى المُصْطَفَى أَزْكَى البَرِيَّـةِ تَنْـزِلُ

اللهم وَفِقْنَا لِمَا وَفَّقْتَ إِليه القَوْم وأَيْقِظْنَا مِن سِنةِ الغَفْلَةِ والنَّوم وأرزِقْنَا الاستعدادَ لِذَلِكَ اليَوْمِ الذي يَرْبَحُ فيه المُتَّقُونَ اللهم وعامِلنا بإحْسَانِكَ وَجُدْ علينا بِفَضْلِكَ وامْتِنَانِكَ واجعلنا مِن عِبادِكَ الذين لا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون اللهم ارحَمْ ذُلَّنا بَيْنَ يَدَيْكَ واجعلْ رَغْبَتَنا فِيما لَدَيْكَ ، ولا تَحْرِمنا بِذُنوبنا ، ولا تَطْرُدْنَا بعيوبِنا ، واغفر لنا وَلِوالدينا

وَلجميع المُسْلمين الأَحياء مُنْهُم والمَيتين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَم الرَّاحِمِيْن وصلّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينْ .

(فَصْــلٌ)
في الوعظ والارشـــاد

إِعْلَمْ وَفَّقَنا اللهُ وإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المسلمينَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيرْضَاهُ أَنَّ الدعوةَ الى اللهِ عَمَلُ الأَنبياءِ والمرسلينَ صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِم أجمعين ، وأن العُلَماءَ نُوَّابٌ عن الأنبياءِ في هَذَا الأَمْرِ الخَطِيْرِ فَهُم أُمَنَاءُ اللهِ عَلَى شَرْعِهِ والحَافِظُونَ لِديْنِهِ القَوِيْم والقائِمُونَ على حُدُوْدِ اللهِ والعَارِفُونَ بِمَا يَجِبُ لِلهِ مِن كَمَالٍ وَتَنْزِيْهٍ .

لِذَلِكَ كَانَ أَئِمَةُ المُسْلِمِيْنَ المُخْلِصُونَ في أَعْمَالِهِم الصَّادِقُونَ في أقوالِهِم البَعِيْدُونَ عَن الرِيَاءِ وحُبِّ الشُهْرَةِ والمَدْحِ يَسِيْرُوْنَ بالخَلْقِ نَحوَ سَعَادَتِهِم بِمَا يُعَلِّمُونَهُم مِن أُمُوْرِ دِيْنِهِم وَبِمَا يُرْشِدُوْنَهُم إِليهِ مِن التَّحَلِّيْ بِالفَضِيْلَةِ والتَّخَلِّيْ عِن الرَّذِيْلَةِ واعْتَقَدَ الناسُ فيهم ذَلِكَ وأَمّلوهُم لَهُ فَأَحَلُّوهُمْ مِن أَنْفُسِهِم مَحلاً لَم يَبْلُغْهُ سِوَاهم مِن البَشَرِ حَتَّى اكْتَسَبُوا في قُلُوبِهم مَكانَةً يُغْبَطُونَ عَلِيْهَا وَرَبِحُوا مَنْزِلَةً تَصْبُوْا إِلَيْهَا نُفُوسُ ذَوِيْ الهِمَّةِ العَالِيَةِ والفَضْلِ .

وَنَاهِيْكَ بِقَومٍ إذا فَعَلُوا لَحَظَتْهُم العُيُونُ وإِذَا قَالُوا أَصْغَتْ الآذانُ وَوَعَتِ القلوبُ وَحَكَتِ الأَلْسُنُ فَهُم مَطْمَحُ الأَنْظَارِ وَمَوْضِعُ الثِّقَةِ والحُجَّةِ البَالِغَةِ والبُرْهَانِ القَاطِعِ والنُوْرِ السَّاطِعِ قال الله تعالى ﴿ وَمَن أَحْسَنُ قولاً مِمَّنْ دَعَا إِلى اللهِ وَعَمِلَ صالحاً وقال إِنَّنِي مِن المُسلِمِين ﴾ .

المَعْنَى لاَ أَحَدَ أَحْسَنَ كَلاَماً وَطَرِيْقَةً وَحَالَةً مِمَّنْ دَعَا النَاسَ إِلى طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ وَذَلِكَ بِتَعْلِيم جَاهِلِهِم وَوَعْظِ غَافِلهم وَنُصْحِ مُعْرِضِهِم وَمُجَادَلَةِ مُبْطِلِهِم بِالأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللهِبِجَمِيْعِ أنواعِهَا والحَثِّ عليها وَتَحْسِيْنِهَا وَتَحْبِيْبِهَا مَهْمَا أَمْكَن والزَجْرِ عمَّا نَهى اللَّهُ وَرَسُولُه عَنْهُ وَتقْبِيحِهِ والتَّحْذِيْرِ مِنْهُ بِكُلِّ وَسِيْلَةٍ وَطَرِيْقَةٍ تُوجِبُ تَرْكَهُ .

وَكَانَ الْحَسَنْ إِذَا تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ يَقُولُ هَذَا حَبِيبُ اللّهِ ، هَذَا وَلِيُّ اللّهِ ، هَذَا صَفْوَةُ اللّهِ ، هَذَا خِيْرَةُ اللّهِ ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الأَرْضِ إِلَى اللَّهِ ، أَجَابَ اللَّهُ في دَعْوَتِهِ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ ، وَعَمِلَ صَالِحاً في إِجَابَتِهِ .

وَقَالَ في هِدَايَةِ الْمُرْشِدِينَ إِنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ عَلَى الدَّاعِي الْعِلْمُ بِالْقُرْآنِ وَالْمُرَادُ بِالنَّظرِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى كَوْنِهِ هُدىً وَمَوْعِظَةً وَعِبْرَةً .

وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ وَمَا صَحَّ مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسِيرَتِهِ وَسِيَرَةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِيْنَ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ وَبِالْقَدْرِ الكَافي مِنَ الأَحْكَامِ وَأَسْرَارِ التَّشْرِيعِ مَعَ الصِّدْقِ في نَشْرِهَا فَإِنَّ مَرْتَبَةَ التَّبْلِيغِ عَنِ اللَّهِ لَمْ تَكُنْ إِلاَّ لِمَنْ اتصِفُ بِالْعِلْمِ مَعَ الصِّدْقِ .

وَالْمُرْشِدُ وَارِثٌ لِهَذِهِ الْمَرْتبَةِ وَلْيَتمَكَّنْ مِنْ تَعْلِيم ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ فَلاَ يَزِيغُ في عَقِيدَتِهِ وَلاَ يَعْجَزُ عَنْ اقْنَاعِ النُّفُوسِ الْمُتَطَلِعةِ إِلى مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ الأَحْكَامِ الشَّرعِيَّةِ فَيَكُونُ الإِذْعَانُ لَهُ أَتَمَّ والْقَبُولُ مِنْهُ أَكْمَلَ .

فَأَمَّا الْجَاهِلُ فَضَالٌّ مُضِلٌ وَضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، وَمَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ إِذْ لاَ تَمِييزَ لِجَاهِلٍ بَيْنَ الْحَقِ والْبَاطِل وَلاَ مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ تُرْشِدُ

إلى إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ .

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْري رَحِمَهُ اللَّه الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ ، وَفي الْحِكَمِ مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً بِغَيْرِ دَلِيلٍ ضَلَّ ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِغَيْرِ أَصْلٍ زَلَّ .

وأَمَّا الْكَاذِبُ فَلَا خَيْرَ فِيهِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ، لِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَفْحَشِ الْكَبَائِرِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَر مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، والإِثْمَ ، والْبَغْيَ بِغَيْرِ الحقِ ، وأَنْ تُشْرِكُوا باللَّهِ ما لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وأَنْ تَقُولُوا على اللَّهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ .

وَهَذَا يَعُمُّ القولَ على اللَّهِ في أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَذَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَفي دِيْنِهِ وَشَرْعِه ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿ ولا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُم الكَذِبَ هَذا حَلال وهَذَا حَرام لِتَفْتَروا عَلى اللَّهِ الكَذِبَ انَّ الذيْنَ يَفْتَرُون على اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونْ ﴾ .

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنَّ يَتّصِفَ بِهِ الدّاعِيْ الْعَمَلُ بِعِلْمِهِ فَلَا يُكَذِّبُ فِعْلُه قَوْلَهُ ، ولا يُخَالِفُ ظَاهِرُهُ باطِنَه ، فَلا يَأْمُرُ بِشَيءٍ إِلَّا وَيَكُونُ أَوّلَ عَامِلٍ بِهْ ، وَلَا يَنْهَى عَنْ شَيءٍ إِلَّا وَيَكُونُ أَوّلَ تَارِكٍ لَهْ ، لِيُفِيْدَ وَعْظُهُ وارشَادُهْ . فأمّا إِنْ كانَ يَأْمُرُ بالْخَيْرِ وَلَا يفعَلُهُ وَيَنْهَى عَنْ الشَّرِّ وَهُوَ وَاقِع فِيْهِ ، فَهُوَ بِحَالِه عَقَبَةً في سَبِيلِ الإِصْلَاحْ ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يُنْتَفعَ بِهْ ، فإِنَّهُ فاقِد الرّشْدِ في نَفْسِهِ فَكَيْفَ يُرْشِدَ غَيْرَهُ .

اللّهُمّ اجْعَلْنَا من التَّالِيْنَ لِكِتَابِك الْعَامِلينَ بِهِ الْمُحَلِّلِيْنَ حَـلَالَهُ

الْمُحرّمِين حَرَامَهُ الْمُمْتَثِلِينَ لِأَوَامِرِهِ الْمُجْتَنِبِينَ نواهِيَهُ الْمُتّعظِينَ بِمواعِظِهِ الْمُنْزَجِرِينَ بِزَواجِرِهِ الْمُتفكِّرِيْنَ في مَعَانِيهِ الْمُتَدّبْرِينَ لِأَلْفَاظِـهِ الْبَاكِينَ المقْشَعِرِّيْنَ عِنْدَ تِلَاوَتِه وَسَماعِهِ واغْفِر لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمين الأَحْياءِ مِنْهُمْ والْمَيتِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ وَصَلَّى اللَّهُ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينْ .

(فَصْـــلٌ)

قالَ مَالِكُ بْنُ دَيْنَارٍ إِنَّ الْعَالِمَ اذا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُه عَن القلوبِ كَمَا يَزِلُّ القَطْرُ عن الصَّفا فانّ مَن حَثَّ على التَّحَلي بِفَضِيْلةٍ ، وهو عَاطِلٌ مِنها ، لا يُقْبَلُ قَوْلُه ، كَمَنْ يَحُثَّ النّاسَ على الْحِلمِ والصّبْرِ والكَرَم وَهُوَ بِضِدّ ذلكِ قالَ تَعَالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ الناسَ بِالبِرّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتم تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُون ﴾ .

وَمِثْلُ ذَلكَ مَن يَنْهى عن الأَخْلاقِ السَّاقِطَةِ والبِدَعِ والمَلَاهِي وَهُو مُتَلَوِّثٌ بِهَا كَمَنْ يَنْهِي عن الدُّخانِ أبي الخبائِثِ والخَمْرِ أُمُ الخَبَائِثُ وَهُوَ يَشْرَبُهُمَا ، وَكَمْن يَأْمُرُ بـالابتعَادِ عن التّلفـزيُون والمِـذياعِ والسِّيْنَمَـاءِ والبَكَماتِ ، وَهُو يَشْتَرِيْهَا أَوْ يَحْظُرُهَا .

وَكَمَنْ يَنْهَى عن حَلْقِ اللِّحْيَةِ والخَنَافِسِ والتَّشَبُهِ بالنساءِ والمُردِ والكُفارِ وهو مُتَلَبِسٌ بها وَكَمَنْ يَنْهَى عن الكُورَةِ وهو يَحْظُرُهَا ، أَوْ يَنْهَى عن بَيْعِ هَذهِ المَلَاهِي وشرائِهاوَتَصْلِيحِهاوهو يَفْعَلُ ذلِكَ ، فهذا يُقابَلَ قَولُهُ بالرَّدِ ، ولا يُعَامَلُ إلا بالإعْرَاضِ ، والإهْمَالِ ، بل مَحَلُّ سُخْرِيَّةٍ ، واسْتِهْزَاءٍ في نَظَرِ العُقَلَاءِ .

فإنَّ مَنْ تناوَلَ شَيْئاً فَأكَلَهُ وَقالَ لِلنَّاسِ لاَ تَتَنَاوَلُوهُ ، فإِنَّهُ سُمٌّ مُهْلِكٌ سَخِرَ النَّاسُ مِنه ، واسْتَهْزَؤُا بِه واتَّهَمُوهُ في دِيْنِهِ وعِلمِهِ وَوَرَعِهِ ، وَكَأَنَّهُ بِزَجْرِهِ وَنَهْيِهِ حَرَّصَهُم عليه ، فيقولُونَ لَوْلا أَنَّهُ لَذِيْذ مَا كَانَ يَسْتَأْثِرُ بِهِ .

كَذَلِكَ الدَّاعِي إِذا خَالَفَ فِعْلُه قَوْلَهُ ، أَمَّا الإِئْتِمَارُ بِمَا سَيَأْمُرُهُم بِهِ أَوَّلاً وَالتَّخَلُّقُ بِمَا يَدْعُوهُم إِليهِ فَهُوَ وَاقِعٌ في نُفُوسِ السَّامِعِينَ ، وأَقْرَبُ إِلى اذْعَانِ الرَّاغِبِيْنَ .

فَمَنْ لَمْ يُكَابِدْ قِيَامَ اللَّيْلِ وَسَهرِهِ ، فَكَيْفَ يُسْمَعُ مِنه فَضْلُ قِيَامِ الليل ، وَكَمَنْ يَحُثُ على الصَدَقَةِ والمُشَارَكَةِ في الأَعْمَالِ الخَيْرِيَّةِ والمَشَارِيْعِ الدِّيْنِيَّةِ ، ولا يُسَاهِمْ فِيهَا أَبَدَا ، فَهَذَا لا يُقْبَلُ قَوْلُهُ ، وَيَكونُ مِمَّنْ يُعِيْنُ عَلى سَبِّهِ ، وَغِيْبَتِهِ ، لما عَرَفْتَ مِن أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلى صَالِحِ الأعمالِ وَمَكارِمِ الأَخْلاَقِ ترْبِيَة ، والتَّرْبِيَةُ النَّافِعَةُ إِنَّما تَكُونُ بالعَمَلِ ، لأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ على القدوَةِ الصَّالِحَةِ والأُسْوَةِ الحَسَنةِ ، لا بِمُجَرَّدِ القَوْلِ .

يَدُلُّكَ على ذَلِكَ مَا في قِصَّةِ الحُدَيْبِيَةِ عن المِسْوَرِ بن مَخْرَمَةِ قال فَلَمَّا فَرَغ مِن قَضِيَّةِ الكِتَابِ قال رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لأَصْحَابِهِ قُوْمُوا فانْحَرُوْا ثُمَّ احْلِقُوا ، فَوَاللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ منهم حتَّى قال ذلكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنهُم أَحَدٌ دَخلَ على أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِن النَّاسِ .

فَقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يا نَبِيَّ اللهِ أَتُحِبُّ ذلكَ ، أُخْرُجُ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحداً منهم بِكَلِمَةٍ حَتَّى تَنْحَرَ بُدَنَكَ وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحداً مِنهم ، حَتَّى فَعَلَ ذَلكَ ، نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحلَقَهُ ، فَلَمَّا رَؤَا

ذلكَ قَامُوا فَنَحَرُوْا ، وَجَعَل بَعْضُهُم يَحْلِقُ بَعْضاً ، حَتَّى كادَ يَقْتُلُ بَعْضُهُم بعضَا أَيْ إِزْدَحَاماً وَغَمّاً .

وفي حديث أبي سعيد قال أَتَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على نَهْرٍ مِن مَاءِ السماءِ والناسُ صِيامٌ في يَوْمٍ صَائِفٍ مُشَاةً وَنَبِيُّ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على بَغْلَةٍ لَهُ فَقال اشْرَبُوا أَيُّها الناسُ ، قال فأَبَوْا قال إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُم إني أَيْسَرُكُمْ إِني رَاكِبٌ فأبوْا ، فَثَنَى رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَخِذَهُ فَنَزَلَ فَشَرِبَ وَشَرِبَ الناسُ ، وَمَا كانَ يُرِيْدُ أَنْ يَشْرَبَ رواه أحمد .

قال فإِذَا لَمْ يَكُنْ الدَّاعِيْ إلا ذَا قَوْلٍ مُجَرَّدٍ مِن العَمَلِ لَمْ يَكُنْ نَصِيْبُ المَدْعُو مِنه إلا القولَ ، وأَيْضا فَمَثَلُ المُرْشِدِ مِن المُسْتَرْشِدِ مِثْلُ العُوْدِ مِن الظِلِ ، فَكَمَا أَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يَعْوَجَّ العُوْدُ وَيَسْتَقِيْمَ الظِلُ كذلكَ مُحَالٌ أَن يَعْوَجَّ المُرْشِدُ وَيَسْتَقِيْمَ المُسْتَرْشِدِ .

قال الغَزَالِي فِيْمَا كَتَبه إلى أَبِيْ حَامِدِ أَحْمَد بن سَلَامَةَ بالمَوْصِلِ أَمَّا الوَعْظُ فَلَسْتُ أَرَى نَفْسِيْ أَهْلاً لَهُ لِأَنَّ الوَاعِظَ زَكاةُ نصابِهِ الاتِّعَاظُ فَمَنْ لَا نِصَابَ لَهُ كَيْفَ يُخرِجُ الزكاةَ وَفَاقِدُ النُورِ كَيْفَ يَسْتَنِيْرُ بِهِ غَيْرُهُ وَمَتى يَسْتَقِيْمُ الظِلُّ والعُوْدُ أَعْوَجُ ولهذا قيل :

يَـا أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ المُـعَـلّمُ غَـيْـرَهُ
هَـلَّا لِنَـفْـسِـكَ كَـانَ ذَا الـتَّـعْـلِيْـمُ
تَصِفُ الـدَّوَاءَ لِـذِي السِّقَـامِ مِن الضِّنَـا
كَـيْـمَـا يَـصِـحُ بِـهِ وأَنْـتَ سَـقِـيْـمُ

مَـا زِلْتَ تُلْقِـحُ بـالـرَّشَـادِ عُـقُـولَنَـا
عِـظْتَ وأَنْـتَ مِـن الـرَّشَـادِ عَـدِيْـمُ
إِبْـدَأْ بِـنَفْسِـكَ فـانْهَـهَـا عن غَـيِّـهـا
فـإِذا انْـتَـهَـتْ عَـنْـهُ فَـأَنْتَ حَـكِـيْـمُ
فَهُـنَـاكَ يُـقْـبَـلُ مـا تَـقُـولُ وَيُـقْـتَـدَى
بـالـرَّأْيِ مِـنْـكَ وَيَـنْـفَـعُ الـتَّـعْـلِيْـمُ
لا تَـنْـهِ عَـن خُـلُقٍ وَتَـأْتـيَ مِـثْـلَهُ
عَـارٌ عَـلَيْـكَ إذافَـعـلْتَ عَـظِيْـمُ

قال وقولُ اللهِ تعالى ﴿ أَتَأْمرونَ الناسَ بِالبر وتَنْسَونَ أنفسَكم وأنتُم تتلونَ الكتابَ أفلا تعقلون ﴾ تَعْجِيْبٌ لِلْعُقَلاءِ مِن هَذَا المَسْلَكِ المَعِيْبِ ، وَلِلتَّعَجُّبِ وُجُوهٌ مِنْهَا أَنَّ المَقْصُوْدَ مِن الأَمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ إِرْشَادُ الغَيْرِ إلى الخَيْرِ وَتَحْذِيْرُهُ مِنَ الشَّرِ وارْشَادُ النَّفْسِ إِلَيْهِ وَتَحْذِيْرُهَا مِنْهُ مُقَدَّمٌ بِشَوَاهِدِ العَقلِ والنقل .

أَمَّا العَقْلُ فَبَدِيْهِيٌ وأَمَّا النَّقْلُ فَكَثِيْرَةٌ مِنها قولُه تعالى حِكَايَةً عن نوح ﴿ ربِّ اغفر لِيْ وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ وعن خَلِيلِ اللهِ ابراهيمَ ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيْمَ الصلاةِ وَمِن ذُرِّيَتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِيْ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ ، فَمَنْ وَعَظَ غَيْرَهُ ولم يَتَّعِظْ فكأَنَّه أَتَى بِمَا لا يَقْبَلُه العَقْلُ السَّلِيْم .

شـعراً :

تَمَسَّـكْ بِتَقْـوَى اللهِ فـالمَـرءُ لَا يَبْقَى
وكـلُ امـرِىءٍ مـا قَدَّمَتْ يَـدُهُ يَلْقَى

ولا تَظْلِمَنَّ النـاسَ في أَمْـرِ دِيْنِهِم
ولا تَـذكُرَنْ إفكَـاً ولا تَحْسِدَنْ خَلْقَـا
ولا تَقْـرَبَنْ فِـعْـلَ الحَـرَامِ فـإِنَّـهُ
لَـذَاذَتُـه تَـفْنَـى وأَنْتَ بِـهِ تَـشْقَـى
وعَـاشِرْ إذا عَـاشَـرْتَ ذَا الدِّيْنِ تَنْتَفِـعْ
بِعِشْـرَتِـهِ واحْـذَرْ مُعَـاشَـرَةَ الحَمْقَى
ودَارِ عَـلى الاطـلاَقِ كُـلاًّ ولا تَـكُـنْ
أَخَـا عَجَلٍ في الأَمْـرِ واسْتَعْمِلِ الرِّفْقَـا
وَخَـالِفْ حُـظُوظَ النَّفْسِ فِيْمَـا تَرُوْمُـهُ
إذا رُمْتَ لِلْعَلْيَـا أَخَـا اللُّبِّ أَنْ تَـرْقَـى
تَـعَـوَّدْ فِعَـالَ الـخَيْـرِ جَـمْعـاً فَكُلَّمَـا
تَـعَـوَّدَهُ الانسـانُ صَـارَ لَـهُ خُـلْقَـا

اللهمّ ثَبتنَا عَلى قَولِكَ الثابِت في الحَيَاة وفي الآخِرَة وآتِنا في الدُّنْيا حَسَنة وفي الآخِرَةِ حَسَنة وَقِنا عَذَاب النَّار واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْن بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينْ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينْ .

★ ★ ★

(فَصْـلٌ)

ومنها أن الواعِظَ الفاعلَ لِلْمُحرماتِ المُحَذرَ عنها يكونُ سَبَبَاً لِلْمَعْصِيَةِ لأَنَّ الناسَ يَقُولُونَ لولا أَنَّ هَذا الواعِظَ مُطَلِّعُ على أنه لا أَصْل لِهَذِهِ التَّخْوِيْفاتِ لَمَا أَقْدَمَ على المَنَاهِي والمُنْكَرَاتِ فَيَكُونُ دَاعِياً إِلى التَّهَاوُنِ بالدِّيْنِ والجَراءَةِ

على المَعَاصِي ، وَهَذَا مُنَافٍ لِلْغَرَضِ مِن الوَعْظِ فَلَا يَلِيْقُ بِالعُقَلَاءِ .

وَمنها أَنَّ غَرَضَ الداعِي تَرْوِيْجُ كَلَامِهِ وَتَنْفِيْذُ أَمْرِهِ ، فَلَو خالَفَ إِلى مَا نَهَى عَنْهُ صَارَ كَلَامُهُ بِمَعْزِلٍ عن القَبُولِ وهَذَا تَنَاقُضٌ لَا يَلِيْقُ بِالعُقَلَاءِ .

وفي مِثْلِ هَذا يَقُولُ ابنُ القيم رحمَه اللهُ عُلَمَاءُ السُوء جَلَسُوا على بابِ الجَنَةِ يَدْعُونَ إِليها الناسَ بأَقْوَالِهم وَيَدْعُونَهُم إِلى النارِ بِأَفعالِهِم ، فَكُلَّما قالَتْ أَقوالُهُم لِلنّاسِ هَلمُوا قَالَتْ أَفعَالُهم لا تَسْمَعُوا مِنهُم فَلَو كَانَ مَا دَعَوا إِلَيهِ حَقاً كَانُوا أَوَّلَ المُسْتَجِيْبِيْنَ لَهُ ، فَهُم في الصُوَرِ أَدِلاّ وفي الحَقِيْقَةِ قُطَّاعُ طَرِيْقٍ ، قلت وما أكثر هؤلآء في زمننا .

وَذَكَرَ بَعضُ العُلماءِ عن ابن مسعودٍ رضي اللهُ عنه أنه قال سَيأْتِي على الناسِ زمانٌ تَمْلُحُ فِيه عُذُوْبَةُ القلوبِ فلا يَنْتَفِعُ بالعِلْمِ يَوْمئذٍ عالِمُهُ ولا مُتَعَلِّمُهُ فتكونُ قُلُوبُ عُلمَائِهم مِثْلَ السّبَاخِ مِن ذواتِ المِلحِ يَنْزِلُ عَلَيهَا قَطْرُ السَّمَاءِ فلا يُوْجَدُ لَهَا عُذُوْبَة .

وذلكَ إِذا مَالَت قُلُوبُ العُلَمَاءِ إلى حُبّ الدُنْيَا وإِيثَارِهَا على الآخرةِ فعِندَ ذلكَ يَسْلُبُهَا اللهُ تعالى يَنَابِيْعَ الحِكْمَةِ وَيُطْفِيءُ مَصَابِيحَ الهُدَى مِن قُلُوبِهم فَيُخْبِرُكَ عَالِمُهم حِيْنَ تَلْقَاهُ أَنَّهُ يَخْشَى اللهَ بِلِسَانِهِ والفُجُورُ ظاهِرٌ في عَمَلِهِ . قلتُ وَمَا أَكْثَرَ هَؤُلآءِ في زَمَنِنَا فَتَأمل وَدَقِّق النَّظَرَ تُصَدِّق .

فَمَا أَخْصَبَ الأَلْسُنَ يومئذٍ وَمَا أَجْدَبَ القُلُوبَ فَوَاللهِ الذي لا إِلَه إلاَّ هُوَ ما ذلكَ إلا لأَنَّ المُعَلِّمِيْنَ عَلَّمُوا لِغَيْرِ اللهِ والمُتَعَلِّمِينَ تَعَلَّمُوا لِغَيْرِ اللهِ .

وبالحَقِيْقَةِ إذا نَظرتَ إلى الأَكْثَرِيَّةِ السَّاحِقَةِ مِمَّنْ حَوْلَكَ مِن أَسَاتِذَةٍ وَمُدَرى وَطُلاَبٍ وَجَدْتَ هَيْبَةَ الإسلامِ والعِلْمِ والعَمَلِ والشَّهَامةِ والرُّجُولَةِ الاسلاميةِ قَدْ نُزِعَتْ مِنهم يَحْلِقونَ لِحَاهُم كاليَهُودِ والنَّصارَى والمَجُوسِ .

وَيُوفَرُوْنَ شَوارِبهم وَيَجْعَلُون تَوالَيْتَاتٍ وَرُبَّمَا خَنفَسُوا وَتَجِدْهُم يُجَالِسُونَ الفَسَقَةَ وَيَنْدَمُجُونَ مَعَهُم وَبَعْضُهم تَجِدْهُ يَشْرَبُ أبا الخَبَائِثِ الدُخَانَ وَرُبَّمَا فَعَلَه أَمَامَ الطُلاَبِ والعِيَاذُ باللهِ .

ولا تَجدْهُ في الغَالِب يُصَلِي مَعَ الجَماعَةِ وَيُعَامِلُ المُعَامَلَة التي لا تَلِيْقُ بِمَنْصِبِه وَتَجِدْهُ يَجْلِس أمامَ التَّلَفزيُون وعند المذْيَاعِ وأغانيهِ وعند السِّيْنماءِ والفِدْيُو وَنحو ذلك من المُحَرَّمَات الَّتِي قَتَلَتِ الأَخْلَاق.

وَيُحِبُ الشُّهْرَةَ والظُهُورَ رِياءً وَسُمْعَةً فَكَيْفَ يَخْطُر بالبالِ أَنَّ مِثْلَ هَؤُلآءِ يأمُرُوْنَ بِمَعْرُوفٍ أو يَنْهَونَ عن مُنكرٍ كَلَّا واللهِ إِنَّهُم لا يُزِيْلُونَ المُنْكَرَ عن أَنْفُسِهِم وَلاَ عَن بُيُوتِهم .

فَعْلِمُ هَؤُلآءِ العِلْمُ الذِي يَضُرَ ولا يَنْفَعُ وهو الذِي اسْتَعَاذَ منه النبي صلى الله عليه وسلمبقولِهِ اللهُمَّ إني أعوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفعْ وقلبٍ لا يَخْشَعْ وَدُعَاءٍ لا يُسْمَعُ (فأبْعِدْ عَنْهُم وكُنْ على حَذَرٍ منهم أَيُّها المُعَافَى).

شــعراً :

صَــارَ الأَسَــافِـلُ بَعــدَ الــذُلِّ أَسْنِمَــةً
وَصَــارَتِ الــرُوْسُ بَعــدَ العِــزِ أَذْنَــابَــا
لــم تَـبْـقَ مَــأثَـرَةٌ يَـعْـتَـدُهَـا رَجُــلٌ
إلا الــتَــكَــاثُــرُ أَوْرَاقــاً وَأَذْهَـابَـا

آخـــر :

ولَمْ أقْض حَقَّ العِلْمِ إنْ كَـانَ كُـلَّمَـا
بَـدَا طَـمـعٌ صَيَّـرْتُـهُ لِـيَ سُـلَّمَـا
ولم أبْتَـذِلْ في خِـدْمَـةِ العِلْمِ مُهْجَتِي
لأَخْـدِمَ مَن لاقَـيْتُ لَكِـنْ لأُخْـدَمَـا
أأَشْـقَى بِـهِ غَـرْسـاً وأجْـنِـيْـهِ ذِلَّـةً
إذاً فـاتِّبَـاعُ الجَهْـلِ قَـدْ كَـانَ أحْـزَمَـا
فـإنْ قُلْتُ زَنْـدَ العِلْمِ كَـابٍ فـإنَّمـا
كَبَـا حِيْنَ لم تُحْـمَ حِمَـاهُ وأظْـلَمَـا
وَلَـوْ أَنَّ أهـلَ العِلمِ صَـانُـوهُ صَـانَهُم
وَلَـوْ عَـظَّمُـوهُ في النُفُـوسِ لَعُـظِّمَـا
« وَلَـكِـنْ أَهَـانُـوهُ فَـهَـانُـوا وَدَنَّـسُـوا
مُحيّاهُ بـالأَطْمَـاعِ حَتَّى تَجَـهَّـمَـا »

وَنَعُودُ إلى كَلاَمِنَا السَّابِقِ حَوْلَ الآيةِ الكَرِيْمَةِ :

فالآيةُ كَمَا تَرى نَاعِيَةٌ على كُلِّ مَن يَعِظُ غَيْرَهُ ولا يَتَّعِظْ بِسُوءِ صَنِيْعِهِ وَعَدَمِ تَأثُّرِهِ ، وانَّ فِعْلَهُ فِعْلَ الجَاهِلِ بالشَّرْعِ أو الأَحْمَقِ الذي لا عَقْلَ لَهُ فإنَ الآمرَ بالخَيْرِ مَعَ حِرْمَانِ النفسِ مِنه مِمَّا لا يَتَّفِقْ وَقَضِيَّةَ العَقلِ والمُرادُ بِهَا حَثُّه على تَزْكِيَةِ النفسِ والإقبالِ عليها بالتكميلِ لِتَقُومَ بالحقِ فَتُكَمِّلَ غيرَهَا .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُون كَبُرَ مَقْتاً

عِندَ اللهِ أن تقولوا ما لاَ تَفْعَلون ﴾ فهذا وَعِيدٌ شَدِيدٌ مِن اللهِ لِمَنْ يَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عن المنكرِ وهو في نَفْسِهِ مُقَصِّرٌ كَمَنْ يَكْذِبُ في قولِهِ أوْ يُخْلِفُ مَا وَعَدَ .

وَعَن أُسَامَةَ بن زَيدِ بنِ حارِثَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهما قال سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ « يُؤْتَى بالرجلِ يومَ القِيامةِ فَيُلْقَى في النار فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كما يَدُورُ الحِمَارُ في الرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إليهِ أَهْلُ النار فَيَقُولُونَ يا فُلانُ مالكَ أَلَمْ تَكُنْ تأْمُرُ بالمَعْرُوْفِ وَتَنْهَى عن المُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ ولا آتِيْهِ وأنْهَى عن المنكرِ وآتِيْهِ متفق عليه .

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال : «قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رأيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالاً تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بِمَقارِيضَ مِن النارِ فَقُلْتُ مَن هَؤُلاَءِ يا جِبْرِيْلُ فقَال الخُطَبَاءُ مِن أُمَّتِكَ الذينَ يَأْمُرُونَ الناسَ بِالبِرِ وَيَنْسَونَ أنفسَهُم وهُم يَتْلُونَ الكتابَ أفلا يعقلون » رواه ابن حَبان في صحيحه .

وإنما يُضَاعَفُ عَذَابُ العَالِمِ في مَعْصِيَتِهِ لأَنَّهُ عَصَى عَن عِلْمٍ قال اللهُ تعالى ﴿ قل هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمُون والذينَ لاَ يَعْلَمُون ﴾ ولأَنَّهُ قُدْوَةٌ فَيَزِلُ بِزَلَّتِهِ خَلْقٌ كَثِيْرُونَ ، وَلِذَلِكَ قِيلَ زِلةُ العَالِمِ زَلَّةُ العَالَمِ وقِيلَ هُوَ كالسَّفِيْنَةِ إذا غَرِقَتْ غَرِقَ مَعَهَا أُمَمٌ ما يُحْصِيْهِم إلا اللهُ .

وفي الخَبَرِ وَمَن سَنَّ سُنَّةً سَيئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِن بَعْدِهِ مِن غَيْرِ أنْ يَنْقُصَ مِن أَوْزَارِهِم شَيْئًا ، وَذَلِكَ أنَّ اتْبَاعَهُم اقْتَدوا بِهِم في السُّوْءِ فَيَنَالُهم مِثْلُ عِقَابِ أَتْبَاعِهِم قَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالَهم

وأثقالاً مَعَ أثقَالِهِم وَليسْئلُنَّ يَوْمَ القِيامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُون ﴾ وقال ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كاملةً يومَ القِيَامَةِ وَمِن أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُم بغَيرِ عِلْم ﴾ قال : وَجُمْلَةُ الأمرِ أَنَّ مَن فَتَح بَابَ الشَّرِ لِغَيرِهِ وَسَهَّلَ لَهُ الدُّخُول فِيه فَقَدْ عَظُمَ عَذَابُهُ وكذلك مَن دَعَا إِلى خَيْرٍ وَأَمَر بالمَعْرُوفِ وَسَهَّلَ لَهُ طَرِيْقَهُ فَقَدْ عَظُمَ قَدْرُهُ وَحَسَن جَزَاؤُهُ عِندَ اللهِ تَعَالَى أَخْرَجَهُ مُسلم والترمذي وقال صلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ مَثَلُ الَّذِيْ يُعَلِّمُ الخَيْرَ وَلاَ يَعْمَلُ بِهِ مِثْلُ الفَتِيْلَةِ تُضِيْءُ لِلنَّاسِ وَتُحْرِقُ نَفْسَهَا رواه الطبراني في الكبير عن أبي برزةَ بسندٍ حَسَنٍ م .

وقال أَبُو الدَّرْدَاء وَيْلٌ لِلْجَاهِلِ مَرَّةً وَيْلٌ لِلْعَالِمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ وقال عليٌّ رضي اللهُ عنه قَصَمَ ظَهْرِي رَجُلانَ عَالِمٌ مُتَهَتِّكٌ وَجَاهِلٌ مُتَنَسِّكٌ فالجاهلُ يَغُرُ الناسَ بِنُسُكِهِ والعَالِمُ يَغُرُهُم بِتَهَتُكِهِ وقال حَكِيْمٌ أَفْسَدَ الناس جَاهِلٌ نَاسِكٌ وعَالِمٌ فاجِرٌ هَذا يَدْعُو الناسَ إِلى جَهْلِهِ بِنُسُكِهِ وهذا يُنَفِرُ الناسَ عن عِلْمِهِ بِفِسْقِهِ .

ومنها التَّواضعُ ومُجَانَبَةُ العُجْبِ فَذَلِكَ بالدُعَاةِ والمُرْشِدِيْنَ أَلْيَقُ وَلَهُم أَلزَمُ لِأَنَّ التَّواضُعَ عَطُوفٌ وَالعُجْبَ مُنَفِّرٌ وَهُوَ بِكُلِ أَحَدٍ قَبِيْحٌ وبالمرشِدِيْنَ أَقْبَحُ لِأَنَّ الناسَ بِهِم يَقْتَدُونَ ، وكَثِيْراً ما يُدَاخِلُهم العُجْبُ لِتَوَحُدِهِم بِفَضِيْلَةِ العِلْمِ وَلَوْ أَنَّهُم نَظَرُوْا حَقَّ النَّظَرِ وَعَمِلُوا بِمُوجَبِ العِلْمِ لَكَانَ التَّواضُعُ بِهِم أَوْلَى وَمُجَانَبَةُ العُجْبِ بِهِم أَحْرَى وَأَنْسَبُ ، لِأَنَّ العُجْبَ نَقْصٌ يُنافِي الفَضْلَ ، فلا يَفِي ما أَدْرَكُوهُ مِن فَضِيْلَةِ العِلْمِ بِمَا لَحِقَهُم مِن نَقْصِ العُجْبِ .

وقد رَوَى ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال : قال رسولُ اللهِ صلى

الله عليه وسلم قَلِيْلُ الفِقْهِ خَيْرٌ مِن كَثِيْرِ العِبَادَةِ وَكَفَى بالمَرْءِ جَهْلاً إِذَا أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ، وإِنَّمَا الناسُ رَجُلانِ مُؤْمِنٌ وَجَاهِلٌ فَلا تُؤْذِ المُؤْمِنَ ، ولا تُحَاوِرِ الجَاهِلَ وقال صلى الله عليه وسلم لِأَبِي ثَعْلَبَةَ حِيْنَ ذَكَرَ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةَ ما تَؤُلُ إِليهِ مِن الحَوادِثِ ، إذا رَأَيْتَ شُحاً مُطاعاً وَهوىً مُتَّبعاً ، واعْجَابَ كُلَّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِه ، فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ ، رواه أبو داود .

وقال صلى الله عليه وسلم « ثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ ، شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ ، واعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ » ، رواه الطبراني في الاوسط ويأتي إِن شَاءَ اللهُ مَوْضُوعُ التَّواضِعُ ، وَافِياً بأَدِلَتِهِ وعِلَّةُ اعْجَابِ المُعْجَبِ بِعِلْمِهِ ، نَظَرُهُ إلى كَثْرَةِ مَنْ دُوْنَهُ مِن الجُهَالِ وانْصِرَافِ نَظَرِهِ عن مَن فَوقَهُ مِن العُلَمَاءِ ، فإِنَّهُ مَا حَوَى العِلْمَ كُلَّه أَحَدَ مِن الخَلْقِ ، فَمَا مِن عَالِمٍ إلا وَفَوْقَهُ مَن هُوَ أَعْلَمُ مِنه قال تعالى ﴿ وَفَوقَ كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلِيْم ﴾ فاللهُ جَلَّ وَعَلا هُوَ الذي يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ كما قال تعالى ﴿ وانَّ الله قَدْ أَحاطَ بِكلِّ شَيءٍ عِلْمَا ﴾ وقالَ ﴿ واللهِ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيْم ﴾ وقال ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ ﴾ ، وقال ﴿ وعندهْ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا في البَرِّ والبَحْرِ وما تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا ولاَ حَبَّةٍ في ظُلمَاتِ الأَرضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إلاَّ في كِتابٍ مُبِيْن ﴾ .

وَقَلَّمَا تَجِدُ مُعجَباً بِعِلْمِهِ شَامِخاً بأَنْفِهِ إِلاَّ وَهُوَ قَلِيْل العِلْمِ ضَعِيْف العَقْلِ لِأَنَّهُ يَجْهَلُ قَدْرَهُ وَيَحْسِبُ أَنه نَالَ مِنه أَكْثَرَهُ ، والله يَقُولَ ﴿ وَمَا أُوْتِيْتُم مِن العِلْم الاَّ قَلِيْلاً ﴾ قال : ومنها أَنْ لاَ يَبْخَلَ بِتَعْلِيْم مَا يَحْسُن ولا يَمْتَنِعُ مِن إِفادَةِ مَا يَعْلَمُ فإن البُخلَ بِهِ ظُلْمٌ وَلُؤمٌ والمَنْعَ منه إِثْمٌ .

قال تَعَالَى ﴿وإذأَخَذَ اللهُ مِيْثَاقَ الذِيْنَ أُوْتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلناسِ ولا تكتمونه﴾ ورُوِيَ عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال : لا تَمْنَعُوا العِلْمَ أَهْلَهُ ، فإِنَّ في ذلكَ فَسَاد دِيْنِكُم والْتِبَاسُ بَصَائِرِكُم ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إِنَّ الذِيْنَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِن البَيِنَاتِ والهُدَى مِن بَعْدِ مَا بيَّنَاهُ لِلنَّاسِ في الكِتَابِ أُولئكَ يَلْعَنُهُم اللهُ وَيَلْعَنُهم اللَّاعِنُون إلا الذينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وبَيَّنُوا فأولَئك أتُوبُ عليهم وأنا التَّوابُ الرحيم﴾ .

قال ابنُ كَثِيرْ على هَذِهِ الآيةِ هَذا وعِيْدٌ شَدِيْدٌ لِمَنْ كَتَم مَا جاءَتْ بِهِ الرُسُلُ مِن الدّلالاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى المَقَاصِدِ الصَّحِيْحَةِ والهُدَى النَّافِعُ لِلْقُلُوبِ مِمَّا بَيَّنَهُ اللهُ تعالى لِعِبَادِهِ في كُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا على رُسُلِهِ أ هـ .

وَقَد وَرَدَ في الحَديث عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال مَن سُئِلَ عن عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَومَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نار .

وفي الصحيح عن أبي هريرةَ أَنَّهُ قالَ لَولاَ آيةٌ في كِتَابِ الله ما حَدَّثْتُ أَحداً شَيْئاً ﴿ إِنَّ الذين يَكْتُمونَ ما أَنْزَلنا مِن البيناتِ والهُدَى﴾ الآيةَ وَمِمَّا يَحْسُنُ بالدَّاعِي والمُرْشِدِ ، أَنْ يَتَحلَّى بالوَرَعِ باتقاءِ الشُبُهَاتِ ، والبُعْدِ مِن مَواضعِ الرِّيْبَةِ ، وَمَسَالِكِ التُّهْمَةِ .

فإِنَّ ذَلِكَ أَبْرَأُ لِدِيْنِهِ ، وأَسْلَمُ لِعِرْضِهِ ، وأَدْعَى إِلى الإِنْقِيَادِ لَهُ لأَنَّ حَالَ الدَّاعِي يُؤَثِرُ في القُلُوبِ أَكْثَرَ مِن مَقَالِهِ ، فاذا كَانَ وَرِعَاً تَقِياً مُتجنّباً مَا فِيهِ شُبهَةٌ اقْتَدَى بِهِ النَاسُ ، وأَحَبُّوْهُ وقَبِلُوا وَعْظَهُ ، وإِرْشَادَهُ ، وَهكَذا كَانَتْ صِفَةُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، وأَصحابِهِ ، والتابعينَ لَهُم

والهُدَاةُ المُرشِدِيْن .

ففي صحيح البُخاري مِن حَدِيثِ أَنَسٍ قال مَرَّ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم بِتَمْرَةٍ سَاقِطَةٍ فقالَ « لو لا أنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لأَكَلْتُهَا ، وَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ مِسْكٌ وَعَنْبَرٌ مِن البَحْرَيْنِ فقالَ ، واللهِ لَوِدِدْتُ أَنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً حَسْنَةَ الوَزْنِ تَزِنُ لِي هَذَا الطِّيْبَ حَتَّى أَقْسِمَه بَينَ المُسْلِمِينَ فَقَالَتْ امْرَأتُهُ عَاتِكَةُ أَنَا جَيِّدَةُ الوَزْنِ فأنا أَزِنُ لَكَ قال لَا ، فَقَالَتْ لِمَ ، قَالَ لأَنِّيْ أَخْشَى أَنْ تَأخُذِيْهِ ، فَتَجْعَلِيْهِ هَكَذَا ، وأَدْخَلَ أَصَابِعَهُ في صُدْغَيْهِ وَتَمْسَحِي بِهِ في عُنُقِكِ فأَصِيْبُ فَضْلاً مِن المُسْلمين .

وكانَ يُوْزَنُ بَينَ يَدَي عُمَرَ بن عَبْدِ العَزِيْزِ مِسْكٌ لِلْمُسْلِمِينَ فَسَدَّ أَنْفَهُ بِيَدِهِ ، حَتَّى لا تُصِيْبُهُ الرَّائِحَةُ ، وقال وَهَلْ يُنْتَفَعُ منه إلا بِرِيْحِهِ ، قال ذلكَ لَمَّا اسْتُبْعِدَ ذلِكَ مِنه ، وهذا مِن وَرَعِ المُتَقِين .

قُلْتُ وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَتَصِفَ به أيضا قَطْعُ العَلائِقِ حَتَّى لا يَكْثُرَ خَوفُهُ ، وَيَقْطَعَ الطَمَعَ عن الخلائِقِ فلا يَكُونُ لَهُ عندَهُم حَاجَةٌ تُذِلُّهُ لَهُم ، وَتَدْعُوهُ إلى المُدَاهَنَةِ ، والاغْضَاءِ عن أَعْمَالِهم القَبِيْحَةِ ، وَهَذِه طَرِيْقَةُ الأَنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ ، قال الله تعالى ﴿ قُل لَا أَسأَلُكم عَلَيْهِ أجراً إن أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العالمين ﴾ .

وَرُوِيَ عن بَعْضِ الحُذَّاقِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ كَلْبٌ وَلَهُ صَدِيْقٌ قَصَّاب يَأْخُذُ مِنه لِكَلْبِهِ بَعْضَ السَّواقِطِ ، فَرَأَى على القَصَّابِ مُنْكَراً يَتَعَاطَاهُ ، وقال لَا بُدَّ أَنْ أُبرِيَ ذِمَّتِيْ وَأَنْصَحُهُ ، ولكِنْ أَبْدَأُ أَوَّلاً بِقَطْعِ الطَّمَعِ فَدَخَلَ البُسْتَانَ وأَخْرَجَ الكَلْبَ وَطَرَدَهُ ثُمَّ جاءَ واحْتَسَبَ على القَصَّابِ وَنَصَحَهُ

وأَغْلَظَ عَلَيهِ فقَال لَهُ القَصَّابُ سَوْفَ لاَ أُعْطِيْكَ لِكَلْبِك شَيْئاً أَبَدَا فقَالَ أنا حَاسِبٌ لِهَذَا الكَلام ما أَتَيْتُكَ إلا بَعْدَ أَنْ طَرَدْتَ الكَلْبَ عن بُسْتَانِي .

فَمَنْ لَم يَقْطَع الطَّمَعَ ، وَيَسُدُ بابَهُ لم يَقْدِرْ عَلَى الحِسْبَةِ ، قُلْتُ وَمِثْلُه عِندي في الغَالِب مَن يُوَالِي العَطَاء على انسانٍ فَيَبْعُدُ إذا رآهُ صَدرَ مِنه مَعْصِيَةٌ أو مَعَاصِيْ أَنَّه يَنْصَحُهُ أَوْ يُنْكِرْ عَلَيهِ لأَنَّهُ يَرْجُوهُ وَيَخَافُهُ يَرْجُو الصِّلَةَ وَيَخَافُ قَطْعُهَا وَلَو فَرضْنَا أنَّهُ أَنَّهُ أَقْدَمَ على ذلكَ وأَنكرَ عليه فَيَبْعُدُ أيْضاً قَبُوْلُ صَاحِبِ الفَضْلِ لِلنَّصِيْحَةِ مِن ذلكَ الشَّخْصِ المُنْتَظِرْ لِمَا في يَدِهِ نَسْأَل اللهَ العصمة .

وكَمْ ضلَّ عن الطريقِ السَّوي أُنَاسٌ مِن أَهل الإيْمَانِ بِسَبَبِ مُدَاهَنَةِ المُدَاهِنِ وَتَغْرِيْرِهِ لَهُم ، هَذِهِ قِيْمَةُ النَّاصِحِ ، والمُدَاهِنِ عِنْدَ المُؤْمِن الصادقِ الإيمانِ ولكن نَرَى الناسَ اليومَ عَكَسُوا الأَمرَ في هَذِهِ الأزمانِ ، لا مُنْتَهَى لِحُبِّهِم مَن وَافقَهُم على مَا هُمْ عليه ، ولو كانَ ذَنْباً عَظِيْماً ، ولا غَايَةَ لِبُغْضِهِم مَن أَرْشَدَهُم إلى الحَقّ والصَّوابِ وَرُبَّمَا هَجَرُوْهُ جَزَاءَ نُصْحِهِ وأَما المُدَاهِنُ والمُتَمَلّقُ المُنافِقُ ذُو الوَجْهَينِ فَبِكَلِمَةٍ مِن مُدَاهَنَاتِه ، أَوْ وَشَايَاتِهِ أَوْ تَمَلُّقَاتِهِ أَوْ كَذَابَاتِه يَمْلِكُ قُلُوبَ الكَثِيْرِ مِن أَهْلِ هذا الزمانِ وَقَدْ يُرَفَّعُ وَيُقَدَّرْ مَن اتَّصَفَ بالصِّفاتِ الذَمِيْمَةِ كَما قيل :

(مَتَى مَا تُدَاهِنْ أَوْ تَكُنْ ذَا تَملُّقٍ
وَنَمٍّ وَبَهْتٍ تَخْطُبْكَ المَرَاتِبُ)
(وانْ تَجْمَعِ الاخلاصَ والصِّدْقَ والوَفَا
وَعِلْماً وَحِلْمَاً تَجْتَنِبْكَ المَنَاصِبُ)

اللهم هَبْ لنا مِن جَزِيلِ عطائِكَ وَوَفِقْنَا لِلسَّعَادَةِ بِلِقَائِكْ وَتَفَضَّلْ علينا بالزِيادةِ مِن نعْمَائِكَ وآلائِكَ وَاجْعَلْ لَنا نوراً في حياتِنا وَنُوراً في مَمَاتِنَا ونوراً في قُبُورِنَا ونوراً في حَشْرِنَا واغفر لنا وَلِوَالِدَيْنَـا وَلجميع المسلمين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعين .

مــوعظة

عِبَادَ اللهِ إِنَّ مِن أَخصّ صِفَاةِ المُؤْمِن عَمَلُهُ بِقولِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم الدِّيْنُ النَّصِيْحَةِ ومَحَبَّتُهُ لِلنَّاصِحِيْن ، وُكُلَّمَا اجْتَهَدَ المُسْلِمُ وبَالَغَ في النَّصِيحة لإِخْوَانِهِ المسلمين قَوِيتَ مَحَبَّتُهُ في قُلُوب إخوانِهِ المؤمنين .

وأما المُدَاهِنُ والمُتَمَلِّقُ الذي يُحَسِّنُ لِكُلِّ إنسانٍ حَالَهُ ، ولو كانَتْ حَالَةَ اجْرَام وَفَسَادٍ ، فَهذا يَنْفُرُ منه المؤمنونَ ، ولا يُحبُّونَهُ وَيرَوْنَ صَداقَتَهُ مُصِيْبَةً ، وَبَلِيَّةً ، فَلِذَا يَبْتَعِدُونَ عنه كُلَّ البُعْدِ .

لِأَنَّهُ إن صَحِبَ مُسْتَقِيْماً أَدْخَلَ عليه العُجْبَ في عَمَلِهِ ، وَخَيَّلَ إِليهِ أَنَّه مِن صَفْوَةِ عِبَادِ اللهِ المتقين ، فَيَغُرُّهُ بِنَفْسِهِ والمَرْءُ إذا اغْتَرَّ هَوِيَ في هُوَّةِ الأَشْقِيَاءِ وإذا صَحِبَ المُدَاهِنُ المُتَمَلِّقُ مُعَوَّجاً زَادَ اعْوِجَاجَهُ حَيْثُ أَنَّهُ يُفْهِمُهُ بِمُدَاهَنَتِهِ أَنَّه مِن خِيَارِ الفُضَلاءِ ومِن الأَجِلاءِ النُبَلاَءِ .

وَمَتى فَهِم ذَلِكَ عن نَفْسِهِ اسْتَمَرَّ وتَمَادَى في اعْوِجَاجِهِ ، وَقَوِيَتْ وَتَمكَنَتْ مِنه الأَخْلاَقُ الفَاسِدَةُ ، وَمَاتَ وَهُوَ على تِلْكَ الحَال الشَّنِيْعَةِ ، وأما المؤمنُ الناصِحُ المُحِبُّ لأَخِيْهِ ما يُحِبُ لِنَفْسِهِ فَيُفْهِمُ المُهَذبَ المُتَنَوِّرَ أنه مَهْمَا كَانَ كَمَالُهُ أَنَهُ مُقَصِّرٌ في شُكْرِ مَوْلاَهُ الذي جَعَله مِن بَنِي آدَمَ ولم

يَجْعَلْه مِن سَائِرِ الحَيَوانَاتِ ، وَوَفَّقَهُ لِلإِيْمَانِ ، وَتَفَضّل عَليه بالحَوَاسِ الخَمْسِ وَغَيْرِهَا وَوَهَبَهُ العَقْلَ ، وَسَائِرَ النِّعَم التي لا تُعَدُّ ، ولا تُحْصَى .

وَمَتَى فَهِمَ أَنَّهُ مُقصِّرٌ ، حَمِدَ مَوْلاَهُ وَشَكَرَهُ على مَا أَوْلاَهُ ، وَجَدَّ واجْتَهَدَ فِيْمَا بِه رُقِيُّهُ في دُنْيَاهُ وأُخْرَاهُ وإن رَأى مُعْوَجاً أَفْهَمَهُ مَا هُو عَلَيْهِ مِن نَقْصٍ وَوَضَّحَ لَهُ عُيُوبَهُ ، وَما عِندَهُ مِن تَقْصِيْرٍ في دِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ وَحَثَّهُ على الجِدِّ والاجْتِهَادِ والسَّعْي إلى مَعَالِي الاخلاقِ .

وَمَتَى عَرَفَ العَاقِلُ نَقْصَهُ ، وأَنَّ الضَّرَرَ عائِدٌ إليْهِ ، أَقْلَعَ عنه ، وأصْبَحَ مِن المُهَذَّبِيْنَ المُتَنَوِّرِيْنَ ، الصَّاعِدِينَ إلى أَوْجِ الكَمَالِ ، فَكَم اهْتَدَى بإذْنِ اللهِ بِسَبَبِ المُؤْمِن الناصِحِ مِن أُناسٍ قد تَاهُوا وَتَمادَوْا في الضَّلاَلِ .

واسْمَعْ إلى قَوْلِ الإمَامِ ابنِ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا ذَكَرَ نُفَاةَ الصفاتِ أهلَ البِدَعِ وَحَيْرَتُهُم وَشُبُهَاتِهِم وَشُكُوْكَهُم وأنه جَرَّبَ ذَلِكَ وأَنه وَقَعَ في بَعْضِ تِلكَ الشِّبَاكِ والمصَايد حَتَّى أَتَاحَ لَهُ المَولَى بِفَضْلِهِ مَن نَشَلَهُ وأَوضَحَ له تِلْكَ الشُبَهِ وازاحَ عنه تِلْكَ الشُكُوكَ وهُوَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ بنِ تَيْمِيَّةَ رحمهُ اللهُ فقال في النونَية :

يَـا قَـوْمُ بِـاللهِ العـظيمِ نَصِيْـحَـةٌ
مِـن مُـشْـفِـقٍ وأَخٍ لَـكُـمْ مِـعْـوانِ
جَـرَّبْـتُ هَـذا كُـلَّهُ وَوَقَـعْـتُ فـي
تِـلكَ الـشِّـبَـاكِ وكُـنْـتُ ذَا طَـيْـرانِ
حَـتَّـى أَتَـاحَ لِـيَ الإلَـهُ بِـفَـضْـلِهِ
مَـنْ لَـيْسَ تَـجـزيْـه يَـدِيْ وَلِـسَـانِـي

حَـبْـراً أتَـى مِـن أرْض حَـرَّانٍ فَيـا
أهْـلاً بِـمَـن قَـدْ جَـاءَ مِـن حَـرَّانِ
فـالـلهُ يَـجْـزِيْـهِ بِـمَـا هُـوَ أهْـلُهُ
مِـن جَـنَّـةِ الـمَـأْوَى مَـعَ الـرِّضْـوانِ

أخَـذَتْ يَدَاهُ يَـدِيْ وَسـارَ فَلَمْ يَـرِمْ
حـتَّـى أرَانِـي مَـطْلَعِ الإيْـمَـانِ
وَرَأَيْتُ أعْـلامَ المَـدِيْنَـةِ حَـوْلَهـا
نَـزَلَ الهُـدى وعَسَـاكِـرَ الـقُـرْآنِ
وَرَأَيْـتُ أثـاراً عَـظِيْـمـاً شَـأْنُـهَـا
مَـحَـجُـوُبَـةً عن زُمْـرَةِ العُـمْـيَـانِ
وَوَرِدْتُ رَأْسَ الـمـاءِ أبْيَضَ افِيـاً
حَـصْبَـاؤهُ كَـلآلِـيءِ الـتِّـيْـجَـانِ

وَرَأَيْـتُ أكْـوَابـاً هُـنَـاكَ كَـثِـيْـرَةً
مِـثْـلَ الـنُّـجُـومِ لِـوَارِدِ ظَـمْـآنِ
وَرَأَيْتُ حَـوْضَ الكَـوثَـرِ الصَّـافِي الـذِي
لَا زَالَ يَـشْـخَـبُ فـيـه مِـيْـزَابـانِ
مِـيْـزَابُ سِـنَّـتِـهِ وَقَـوْلُ إلٰـهِـهِ
وَهُـمَـا مَـدَى الأزْمَـانِ لا يَـنِـيَـانِ
والـنـاسُ لا يَـرِدُوْنَـه إلا مِـن الْـ
آلافِ أفْـرَادٌ ذَوُوْا إيْـمَـانِ

اللهمّ أرْزقنا حُبَّكَ وَحُبَّ مَن يُحِبُّك وَحُبَّ العَملِ الذي يُقَرِّبُنَا إلى

حُبِّكَ اللهم أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَوَفِقْنَا لاِمْتِثَالِ أمْرِكَ واجتنابِ نَهْيِكَ واغفرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وصَلَّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فَصْــلٌ)

في ذِكْرِ نَمَاذِج مِن صَبْرِ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَم على الشدائِدِ والأَذى في الدعوةِ إلى اللهِ

ومِن تَحَمُّلِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم للشَّدَائِدِ والأَذَى في الدعوة إلى الله مَا وَرَدَ عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم لَقَدْ أوْذِيْتُ في اللهِ وما يُؤْذَى أَحَدٌ ، وأخِفْتُ في اللهِ وما يُخَافَ أَحَدٌ ، وَلَقد أَتتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِن بَيْن يَومٍ وَلَيلةٍ ، وَمَالِي ولِبِلالٍ ما يَأْكُلُه ذُو كَبِدٍ إلا ما يُوَارِي إِبْطُ بلالٍ خرجه أحمد .

وعند البيهقي أَنَّ أبا طالبٍ قالَ لَهُ صلَّى اللهُ عليه وسلم : يا ابنَ أخِي إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاؤُنِي وقالُوا كَذَا وَكَذَا فأبْقِ عَلَيَّ وَعلى نَفْسِكَ ، وَلاَ تُحَمِّلْنِي مِن الأَمْرِ ما لا أطِيْقُ أَنَا وَلاَ أَنْتَ ، فاكْفُفْ عن قَومِكَ مَا يَكْرِهُونَ مِن قَولِكَ ، فَظَنَّ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم أَنْ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فيهِ ، وأنهُ خَاذِلُهُ ، وَمُسَلِّمُهُ ، وَضَعُفَ عن القِيَامِ مَعَهُ .

فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يا عَمٌّ لَو وُضِعَتِ الشمسُ في يَمِيْنِي والقَمَرُ في يَسَارِي ، ما تَرَكْتُ هَذا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ ، أَوْ أَهْلِكَ في طَلَبِهِ ، ثم اسْتَعْبَرَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم فبَكَى ، فَلَمَّا وَلَّى قال لَهُ حِيْنَ رَأَى مَا بَلَغَ الأمرُ برسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم

يا ابْنَ أَخِيْ فَأقبل عليهِ فقال امْضِ لأَمْرِكَ وافْعَلْ ما أَحْبَبْتَ فواللهِ لا أَسلِّمُكَ لِشَيءٍ أبَدًا .

وأَخْرَجَ البيهقيُ عن عبدِ الله بن جَعْفَر ، قال لَمَّا مَاتَ أَبُو طالبٍ عَرَضَ لِرَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم سَفِيْهٌ مِن سُفَهَاءِ قُريشٍ فألْقَى عَلَيهِ تُرَاباً ، فَرَجَعَ إلى بَيْتِهِ فأَتَتْهُ امْرَأةٌ مِن بَنَاتِهِ تَمْسَحُ عن وَجْهِهِ التُرابَ وَتَبْكِيْ ، فَجعَل يَقولُ أَيْ بُنَيَّةْ لا تَبكِيْنَ فإن اللهَ مانِعٌ أَبَاكِ ، ويقولُ مَا بَيْنَ ذلكَ مَا نَالتْ قُريشٌ شيئاً أكْرَهُهُ حَتَّى ماتَ أَبُو طَالبٍ ثُمَّ شَرَعُوا .

وأخرج أبُو نعيمٍ في الحِلْيَةِ عن أَبِي هريرة قال لَمَّا مَاتَ أَبُو طالبٍ تَجَهَّمُوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقالَ يا عَمُّ مَا أَسْرَعَ ما وَجَدْتُ فَقْدَكَ ، وأخرجَ الطبرانيُ عن الحارث بنِ الحارثِ قُلْتُ لأَبِي ما هَذِهِ الجَماعَةُ قال هَؤُلاءِ قومٌ اجْتَمَعُوا على صَابِىءٍ لَهُم فَنزلْنا فإذا رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم يَدْعُو الناسَ إلى تَوْحِيْدِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ والإيمانِ بِهِ وَهُم يَرُدُّونَ عليهِ وَيُؤْذُوْنَهُ حَتَّى إذا انْتَصَفَ النهارُ ، وانْصَدَعَ الناسُ عنه أقبَلَتْ امْرَأةٌ قد بَدَا نَحْرُهَا تَحْمِلُ قَدَحاً وَمِنْدِيْلاً فَتنَاوَلَه مِنْهَا فَشَرِبَ ، وَتَوَضَأَ ، ثُم رَفَعَ رَأْسَه فقال يَا بُنَيَّةَ خَمِّرِيْ عَلَيكِ نَحْرَكِ ولا تَخَافِيْنَ على أَبِيْكِ ، قُلْنَا مَنْ هَذِهِ قالوا هَذِهِ زَيْنَبُ بِنْتُهُ رَضِيَ اللهُ عنها قال الهيثمي رِجاله ثقات .

وأخرج البخاريُ عن عروة بنِ الزبير عن عبد اللهِ بنِ عَمْرو رضي اللهُ عنه قال قلْتُ لَهُ مَا أَكْثَرَ مَا رأيتَ قريشاً أصابَتْ مِن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فِيْمَا كانَتْ تُظْهِرُ مِن عَدَواتِهِ قال حَضرْتُهم وقد اجْتَمَعَ أَشْرَافُهم في الحِجْرِ .

فقالُوا ما رَأَينا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عليه مِن هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ ، سَفَّهَ أَحْلاَمَنَا ، وَشَتَم آبائَنَا ، وعَابَ دِيْنَنَا ، وَفرَّقَ جَماعَاتِنا ، وَسَبَّ آلِهَتنَا ، لَقَدْ صَبَرْنا مِنه على أمرٍ عَظِيْمٍ ، أَوْ كَمَا قالُوا .

قال فَبَيْنَمَا هُم في ذلكَ إذ طَلِعَ عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم فأَقْبَلَ يَمْشِيْ حَتَّى اسْتَقْبَلَ الرُكْنَ ثم مَرَّ بِهِم طائفاً بالبَيتِ ، فَلمَّا مَرَّ بهِم غَمَزُوْهُ : ـ أي أشَارُوْا إِلَيْهِ ـ بِبَعْضِ مَا يقولُ قَالَ فَعَرفْتُ ذَلِكَ في وَجْهِهِ .

ثم مَضَى فَلَمَّا مَرَّ بِهم الثَّانِيَةَ بِمِثْلِهَا فَعَرَفْتُ ذَلِكَ في وَجْهِهِ ثم مَضَى فَلَمَّا مَرَّ بِهِم الثالثةَ فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا فقالَ أَتَسْمَعُونَ يا مَعْشَرَ قُرِيشٍ ، أَمَا وَالَّذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُم بالذَّبْحِ ، فأخذَتِ القَوْمَ كَلِمَتُه ، حَتَّى مَا مِنهم رَجُل إِلَّا كَأَنَّ عَلى رَأسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُم فِيهِ وَصَاءَةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ بأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِن القَولِ حَتَّى لَيَقُولُ انْصَرِفْ يَا أَبَا القَاسِمِ ، انْصَرِفْ رَاشِدًا فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُوْلاً .

فَانْصَرَفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم حَتَّى إذا كَانَ الغَدُ اجْتَمَعُوا في الحِجْرِ وأنا مَعَهُم فقال بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ذَكَرْتُم ما بَلَغَ منكم ومَا بَلَغكُم عَنْهُ حَتَّى إذا بَادَاكُم بِمَا تَكْرَهُون تركتُمُوهُ ، فَبَيْنَمَا هُم في ذلك إذا طَلَعَ عَلَيهِم رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَوَثَبُوا عَلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ واحدٍ فَأَطَافُوا بِهِ يقولُون أَنْتَ الذي تَقُولُ كذا وكَذَا لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُم مِن عَيْبِ آلِهَتِهِمْ ودِيْنِهِمْ .

قال فيقولُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَعَمْ أَنَا الذِيْ أَقُولُ

ذلِكَ ، قال فلقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً مِنهم أَخَذَ بمَجْمَعِ رِدَائِهِ ، وقَامَ أبوُ بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ دَوْنَهُ يَقُولُ وهو يَبكِيْ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أن يقولَ ربيِ اللّهُ ، ثم انْصَرَفُوا عنه فإِنَّ ذلكَ لأشدُّ مَا رَأيْتُ قُرَيْشاً بَلَغَتْ مِنه قَطُّ .

وأخرجَ أبَوُ يَعْلَى عن أنسِ ابنِ مالكٍ رضي اللهُ عنه قال لَقَدْ ضَرَبُوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَرةً حَتَّى غُشِيَ عَلَيهِ ، فقامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللهُ عنه فَجعَلَ يُنَادِي وَيْلَكُم أَتقتلونَ رَجلاً أَنْ يَقُولَ رَبّيَّ اللهُ ، فَقَالُوا مَنْ هَذا فقالُوا أبُو بَكْرٍ المَجْنُون .

وفي الحديث الذي أخرجه أَبُو يعلى عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ أَنَّ المُشرِكِينَ لَهَوا بأَبِي بَكْرٍ عن رَسوْل اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم وأَقْبَلُوا عليهِ قَالَتْ فَرَجَعَ إلينَا أَبُو بَكْرٍ فَجعَل لا يَمسُّ شَيْئاً مِن غَدَائِرهِ ـ أي جَدَائِله إلاَّ جَاءَ مَعَهُ ، وهُو يَقولُ تَبارَكْتَ يا ذا الجلالِ والاكرام .

وأَخْرَجَ البَزَارُ في مسندهِ عن محمد بن عَقِيْلٍ عنِ علي رضي اللهُ عنه أنه خَطَبَهُم فقال يا أَيُّهَا الناسُ مَنَ أَشَجَعُ الناسِ ، فَقَالُوا أَنْتَ يَا أَمْيرَ المُؤْمِنينَ فقال أَمَّا أَنَا مَا بارَزَنِي أَحَدَ إلاَّ انْتَصَفْتُ منه ، ولكِن هُوَ أبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ إنا جَعَلْنَا لِرَسُوْلِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم عَرِيْشاً فَقُلْنَا مَن يَكُونُ مَعَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِئلاَ يَهْوِي إليه أَحَدٌ مِن المُشْرِكين فَوَاللهِ مَا دَنَا مِنَّا أَحَدٌ إلاَ أَبُو بَكْرٍ رضِيَ اللهُ عنه شَاهِرَاً بالسَّيْفِ على رَأَسِ رَسُولَ اللهُ صلى الله عليهِ وسلم لا يَهْوِ إليه أَحَدٌ إلا أهْوَى إليهِ فَهذا أَشْجَعُ الناسِ .

قالَ ولَقَدْ رأيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأَخَذَتْهُ قُرَيْشٌ

فهذا يُحَادُّهُ وهَذَا يُتَلْتِلُه ويَقُولُونَ أَنْتَ جَعَلْتَ الآلهَةَ إلهاً وَاحِداً فَوَاللهِ مَا دَنَا مِنَّا أَحَدٌ إلا أَبُو بَكْرٍ يَضْرِبُ هَذَا ويُجَاهِدُ هَذا ويُتَلْتِلُ هذا ، وهُوَ يقولُ وَيْلَكُمُ أتقتُلونَ رجَلًا يقولُ ربِي الله .

ثم رَفَعَ على بُرْدَةٍ كَانَتْ عَليهِ فَبكَى حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ ، ثم قَالَ أنشُدُكُم اللهَ أَمُؤْمِنُ آلِ فِرعَونَ خَيرٌ أَمْ هُو ، فَسكَتِ القومُ ، فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه ، فَوَاللهِ لَسَاعَةٌ مِن أَبي بَكْرٍ خَيْرٌ مِن مِلْءِ الأَرْضِ مِن مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَونَ ، ذَاكَ رَجُلٌ يَكْتُمُ إيْمَانَهُ ، وهَذا رَجُلٌ أعْلَنَ إيمانَهِ الحديث .

اللهم يسر لَنَا سَبْيلَ الأَعْمَالِ الصالحاتِ وَهَيِّءْ لَنَا مِن أَمْرِنا رَشَدَا واجْعَلْ مَعُونَتَكَ العُظْمَى لَنَا سَنَدَاَ واحْشُرْنَا إذا تَوَفَيْتَنَا مَعَ عِبَادِكَ الصالحينَ الذينَ لا خوفٌ عَلَيهم ولاَ هم يَحْزَنُونَ ، واغفَر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

أَخْرَجَ البُخَارِيُ عن عُرْوَةَ رَضي اللهُ عنه قال سَأَلْتُ ابنَ أَبِي العاصِ رضيَ اللهُ عنه فقُلْتُ أخْبِرْنِي بأشَدِّ شَيءٍ صَنَعَهُ الْمُشْـرِكُونَ بِرَسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلمْ ، قَالَ بَيْنما النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي في حِجْرِ الكعْبَةِ إذْ أقْبَل عليه عُقْبَةُ ابنُ أبي مُعَيْطٍ فَوضَع ثَوْبَه على عُنقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقاً شَدِيْداً .

فأقْبَلَ أبو بَكرٍ رَضْيَ اللهُ عنه حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكبهِ ، ودَفَعهُ عَن النبي

صلى اللهُ عليهِ وسلمْ ، وَقال أَتَقْتُلون رَجُلاً أنْ يَقُولَ رَبِّي الله وقدْ جَاءكم بالبيْناتِ مِنْ رَبِكُمْ الآية .

وَعنْد ابْن أبي شَيبة عَنْ عُرْوَةَ بنِ العاصِ رضيَ الله عنه قالْ : ما رأيتُ قُرَيْشاً أرادُوا قَتْلَ النبيَّ صَلّى الله عليه وسلم إلَّا يوماً اِئْتَمَرُوا بهِ وَهُمْ جلوسٌ في ظِلِ الكَعبةِ وَرَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يُصَليَّ عِنْدَ المقامْ ، فَقَامَ إليهِ عُقْبَةَ بنُ أَبِي مُعَيطٍ فَجَعَل رِداءَهُ في عنُقِهِ ثُمَّ جَذَبَهُ حَتَّى وَجَبَ لِرُكبَتَّيْهِ سَاقِطاً ، وتَصَايَح الناسُ فَظَنُّوا أنه مَقتُول .

فأقْبَل أبوُ بَكْر رَضْي اللهُ عَنْهُ يَشْتَدْ حَتَّى أَخَذَ بضَبُعَيْ رَسول الله صلى الله عليه وسلم مِن وَرَائِه وَهوَ يقول « أتُقْتُلونَ رجلاً أن يقولَ ربي اللهُ » الحديث .

وأخْرَجَ البَزَّاز والطَّبَراني عن عبدِ الله بنَ مَسْعودٍ رَضْيَ اللهُ عنهُ قالْ بَيْنَما رَسُولُ اللهِ صَلى اللهَ عليهِ وسلَّمَ في المسجد وأبوُ جَهْل وشَيْبَةُ وعُتْبَةُ أَبْنَاءُ رَبيعَةَ وعُقْبَةُ بنُ أبي مُعْيطِ وأمَيَّةُ ابنُ خَلفَ ورَجُلانِ آخرَانِ كانُوا سَبْعةً ، وَهُمْ في الحِجْر ورَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يُصَليٍّ فلمَّا سَجَد أطالَ السُّجودَ .

فَقَالَ أَبو جَهْلٍ أَيُّكُمْ يَأْتِي جَزورَ بني فُلان فَيأتِيْنا بفَرْثِها فَنَكْفَئُهُ على مُحَمدٍ صلى الله عيه وسلمْ ، فانْطَلَق أشْقَاهُمْ عُقْبَةُ ابنُ أبِي مُعْيطِ فأتى بهِ فألقاهُ على كَتِفَيْهِ صلى الله عليه وسلم وهُوَ ساجد قالَ ابنُ مَسْعودٍ وَأَنَا قَائِمٌ لا أسْتَطِيعُ أنْ أتكلَّمْ ، لَيْسَ عِنْدي مَنَعَةٌ تَمنَعُني ، إذْ سَمِعَتْ فاطمةُ بنتُ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلمْ فأقبَلتْ حتى ألقَتْ ذلِكَ عَن

عَاتِقِه .

ثم اسْتَقْبَلتْ قُرَيْشاً تَسُبُّهمْ فَلَمْ يَرْجِعُوا إليها شَيْئا ، ورَفَعَ رسولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم رَأسَه كَما كانَ يَرْفَعُ عِنْدَ تَمَامِ السُّجود ، فَلَمَّا قَضى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلاَتَهُ ، قالْ اللَّهمَّ عَليْك بِقُرَيْشٍ ثَلاَثاً ، عَلَيك بِعُتْبَةَ ، وعُقْبَةَ ، وأبيَ جَهْلٍ وشَيْبَة .

ثُمَّ خَرَجَ مِن المسجدِ فَلَقِيَهُ أَبُو البَخْتَرِيُ بِسَوط يَتَخَصَّرُ بِهِ ، فَلَمَّا رأىَ النبيَّ صلى الله عليه وسلمْ أنكَرَ وَجْهه فقالَ مَالَكَ ، فقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمْ خَلِّ عَنِّي قالَ عَلِمَ اللهُ لا أُخَلِّى عَنْكَ ، أوْ تُخْبِرْني مَا شَأْنُكَ ، فَلَقَدْ أصَابَكَ شَيْءٌ فَلَّما عَلِمَ النَّبيُ صلى الله عليه وسلم أنهُ غيرُ حَمْلٍ عَنْهُ أخْبَرَه .

فقالْ انَّ أبا جَهْلٍ أَمَرَ فَطرُحَ عَليَّ الفَرْث، فقَالَ أَبُو البُخْتِرى هَلُمَّ إلى المسْجِد فأتىَ النبيُّ صَلى اللهُ عليهِ وسلم وأَبُوْ البُخْتِري فَدَخلا المسجدَ .

ثُمَّ أقْبَل أبوُ البَخْتَرِي إلى أَبي جَهْلٍ فَقَالَ يا أَبا الْحَكَمْ أَنْتَ الذي أمَرْتَ بِمُحمدٍ فَطُرِحَ عليه الفَرْثَ ، قَالَ نَعمْ قَال فَرفَع السَّوطُ فضَرَبَ به رأسَه قال فَثَارَ الرِّجالُ بَعْضُهم إلى بَعْضٍ قَالَ وصَاحَ أبو جَهْلٍ وَيْحَكُمْ هِيَ لَهْ إنَّما أرادَ مُحمدٌ صلى الله عليه وسلم أن يُلْقِي بَيْنَنَا العَدَاوةَ ، ويَنْجُو هَوَ وأصْحَابُه الحديث .

وأخْرَجَ الطَّبَراني عَنْ يَعْقُوبَ بنْ عُتْبَة بنِ الْمُغيرَة بنِ الأخْنَس بن شَرِيق حليفِ بَنِي زُهْرة مُرْسَلا ، أَنَّ أبَا جَهْلٍ اعْتَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى

اللهُ عليهِ وَسَلمْ بالصَّفَا فآذاهُ .

وَكَانَ حَمْزَةُ رَضْي اللهُ عَنْه صَاحِبَ قَنْصٍ ، وَصيْدٍ ، وَكَانَ يومَئِذٍ في قَنْصِهِ ، فَلَّما رَجعَ قالت لهُ امْرَأَتْهُ وَكَانَتْ قد رأَتْ ما صَنعَ أبُو جَهْل بِرَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، يا أَبَا عَمارَةَ لو رأَيت مَا صَنعَ تَعْنِي أبَا جَهْلٍ بابنِ أخِيكَ ، فَغضِبَ حَمْزَةُ رَضيَ اللهُ عنهُ وَمضى كمَا هُو قَبْلَ أنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ .

وَهو مُعلَّقٌ قَوْسَهُ في عُنُقِه حَتَّى دَخلَ المسجدَ فَوَجَد أَبا جَهْلٍ في مَجْلسٍ مِن مَجَالِسِ قُرَيشٍ فَلَمْ يُكَلِّمَهُ حَتَّى عَلاَ رأسَهُ بِقَوْسِهِ ، فَشَجَّهُ فقامَ رِجُال مِنْ قُرَيشٍ إلى حَمْزَةَ يُمْسِكُونَهُ عَنْهُ ، فقالَ حَمْزَةُ دِيني دِينُ مُحمدِ صلى اللهُ عيهِ وسلم أشْهَد أنَّهُ رَسُولَ الله ، فواللهِ لا أنْثَنِي عَنْ ذَلك ، فامْنَعُوْني مِن ذلِك إنْ كُنْتُم صَادِقِينْ .

فَلمَّا أسْلَمَ حَمْزَةُ رضي الله عنهُ ، عَزَّ بِهِ رسَولُ اللَّه صَلى الله عليه وسلمَ والمُسْلِمون ، وثَبتَ لَهُمْ بعضُ أمْرهِمْ ، وهَابَتْ قُرَيْشُ وَعلِمُوا أنَّ حَمْزَةَ رضِيَ اللهُ عنه سَيمْنَعُهُ ، قال الْهَيْثَمِي وَرِجَاله ثِقَاتْ .

وأخْرَجَ أبو نُعيم في دَلائِل النُبوةَ عَنْ عُرْوَةَ بنُ الزُّبَيْرِ رَضَي اللهُ عَنْهُمَا قالْ ومَات أَبُو طَالب وازْدادَ مِنْ الْبَلا عَلى رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِشِدَّةٍ ، فَعمِدَ إلى ثِقيْفٍ يَرْجُو أنْ يُؤْوُوهُ ويَنْصُرُوه ، فَوجَدَ ثلاثةَ نَفرٍ مِنهمْ ، سَادَةُ ثِقيْف ، وهَمْ أخْوَةُ عَبْدُ يالِيلْ بنِ عَمْرو ، وَحَبيْبُ ابْنُ عَمْروِ ، وَمَسْعُودُ بنُ عَمْرو ، فَعرضَ علَيْهِم نَفْسَهُ ، وشكا إلَيْهِم البلاءَ ، وَمَا انْتَهك قَوْمُهُ مِنْه .

فقال أحدُهُمْ أنَا أَسْرقُ ثِيابَ الكَعْبَةِ إن كَانَ اللهُ بَعَثَك بشَيءٍ قَطْ ، وقالَ آخرُ واللهِ لا أكْلِّمكَ بَعْدَ مَجْلِسِكَ هذا كِلْمَةً واحِدةً أَبَدا لِأَنْ كُنْتَ رَسُولا لانْتَ أعْظَمُ شَرَفاً وَحَقاً مِن أَنْ أُكلِمَكَ . وقالَ الآخَرُ أعَجزَ اللهُ أَنْ يُرسِلَ غَيْرَكَ .

وَأَفْشَوا ذَلِكَ في ثَقِيْفٍ الذينَ قَالَ لَهُمْ ، واجْتَمعُوا يَسْتَهْزِؤُنَ برسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَّ ، وَقَعدُوا لَهُ صَفَّينَ على طَريقةِ ، فأخَذُوْا بِأيْدِيهم الحِجَارَة فَجعَلَ لا يَرْفَعُ رِجْلَهُ وَلَا يَضعُهَا إلَّا رَضَخُوهَا بالحِجَارَةِ ، وَهُمْ في ذِلِكَ يَسْتَهزِؤُنَ وَيسْخَرُونَ .

فَلَمَّا خَلَصَ مِن صَفَّيْهم وَقَدمَاهُ تَسِيْلَانِ بالدماء ، عَمِدَ إلَى حَائطٍ مِنْ كُرُومِهِمْ فأتَى حَبلَةً مِنَ الْكَرْمْ فَجَلَسَ في أصْلِها مَكْرُوباً مُوْجَعاً تَسِيْلُ قَدَماهُ الدِّمَاء فإذَا في الْكَرْمِ عُتْبةُ بنُ ربيعة وشَيْبَةُ ابنُ ربِيْعَة فَلمَّا أبْصَرَهُمَا كَرِهَ أنْ يَأْتِيْهُمَا لِمَا عَلِمَ مِن عَدَاوَتِهِمَا لِله ولِرَسُولِهِ وَبِهِ الذي به فأرْسَلاَ إليِهِ غُلاَمَهُمَا عَدَّاساً بِعِنَبٍ وَهْوَ نَصْرَانِي مِن أَهْلِ نِيْنوى ، فَلَّما أتاهُ وَضَعَ العِنَبَ بَين يَدَيهِ .

فقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم بِسْمِ اللهِ فَعَجِبَ عَدَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ رسولُ الله صَلى اللهُ عليهِ وسلم مِنْ أيْ أرْضٍ أَنْتَ يا عَدَّاسُ قَالَ أنَا مِنْ أهْلِ نَيْنَوَى .

فقالَ النبيُّ صلى الله عليهِ وسلمَ مِن أهْلِ مَدِيْنَةِ الرَّجُلِ الصَّالحِ يُونُسُ بنُ مَتَّى ، فَقَالَ لَهُ عدَّاسُ وَمَا يُدْرِيْكَ مَنْ يُونُسُ بنُ مَتَّى ، فَأخبرَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهَ عليهِ وسلم مِن شأنِ يُونُسَ ما عَرَفْ .

وَكَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم لاَ يَحْقِرُ أَحداً يُبَلِّغهُ رِسَالاتِ اللهِ تَعالى ، قَالَ يَا رَسولَ اللهِ أخْبرْنِي خَبرَ يُونُسَ بنِ مَتَّى ، فَلمَّا أخبرَهُ رسولُ اللهِ صلى الله عَلَيه وسلم مِن شأنِ يُونُس بنِ مَتى مَا أُوْحِيَ إليهِ مِن شأنِهِ خَرَّ ساجداً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم ، ثم جَعَل يُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَهُمَا تَسِيْلاَنِ الدِّماءَ . فَلمَّا أبْصَر عُتْبَةُ وأخوهُ شَيْبَةُ ما فَعَلَ غُلاَمُهُمَا سَكَتَا ، فلمَّا أتَاهُما قالاَ لهُ ما شَأْنُكَ سَجَدّتْ لِمُحُمَّدِ وقَبَّلْتَ قَدميْهِ ، ولَمْ نَرَكَ فَعَلْتَ هذَا بِأَحدِنَا .

قالَ هذَا رجلٌ صَالِحٌ حَدَّثَنِي عَنْ أشْيَاءَ عَرَفْتُهَا مِن شَأْنِ رَسُولِ بَعَثَهُ اللهُ تعالى إلَيْنَا يُدْعَى يُونُسُ بنُ مَتَى فَأَخْبَرنِي أنهُ رسولُ اللهُ فَضَحِكَا وقالاَ لا يَفْتِنُكَ عَنْ نَصْرَانِيَّتِكْ إنّه رَجُلٌ يَخْدَعْ ، ثمَّ رَجَعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَّ إلى مَكَّة انتهى .

اللهم نَوِّرْ قُلُوبَنَا بنورِ الايمانْ واجْعَلْنَا هُداةً مُهْتَدِيْنَ وألْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ واغفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنا وَجَميعِ المُسلِمِينْ بِرَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلَى آلِه وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

أخرَجَ ابنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَائِشَةَ رضيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ أبُو بَكْرٍ لَوْ رَأيْتَنِي وَرسُول اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلمْ اذْ صَعَدَ الغَارْ فَأَمَّا قَدمَا رَسولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فَتَفَطَّرَتَا ، وأمَّا قَدَمَاي فَعَادَتْ كأَنَّهُمَا صَفْوَانٌ ، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي اللهُ عَنْهَا إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لَمْ يَتَعَوَّدْ الْحُفْيَةَ .

وأخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أنسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ كُسِرَتْ رَبَاعَيَّتِه يَوْم أحُدٍ وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ فَجعَلَ يَسْلِتُ الدّمِ عنْ وَجْهِهِ ، وَيَقُول كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ، وَهْوَ يَدْعُوهُمْ إلى اللهِ ، فَنَزَلْ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِن الأمرِ شيءٌ ﴾ الآية .

وَعِنْدَ الطَّبَرَانِي فِي الْكَبِير عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ أُصِيْبَ وَجْهُ النبيّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يَوْمَ أحُدٍ ، فاسْتَقْبَلَهُ مَالِكُ بنُ سِنَانٍ فَمَصَّ جُرْحَهُ ثُمَّ ازْدَرَدَهْ ـ أيْ ابْتَلَعَهُ ! قَالَ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ مَنْ أحَبَّ أنْ يَنْظُرَ إلَى مَنْ خَالَطَ دَمُهُ دَمِي فَلْيَنْظُرْ إلى مَالِكِ بن سِنَانْ .

وأَخْرَجَ الطَّيالِسي عَنْ عَائِشَةَ رضيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ كانَ أبُو بكر رضْيَ اللهُ عَنه إذا ذَكَرَ يَوْمَ أُحُدٍ قالْ ذاكَ يومٌ كُلُّهُ لِطَلْحَةَ ثمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّث قَالَ كُنتُ أَوَّلَ مَنْ فَأَ يَوْمَ أحُدٍ فَرَأيْتُ رَجُلاً يُقَاتِلُ في سَبِيْلِ اللهِ دُونَهُ ، وأرَاهُ قال حَمِيَّةً ، قَالَ فَقُلْتُ كُنْ طَلْحَةَ حَيْثُ فَاتَنِي مَا فاتَنِي فقلتُ يكونُ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي أحَبُّ إليَّ . وبَيْنِي وبَيْنَ المُشْرِكِيْنَ رَجُلاً لا أعْرِفُهُ وأنَا أقْرَبُ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم مِنْهُ وَهْوَ يَخطِفُ الْمَشي خَطْفاً لَا أَخْطِفُهُ .

فإذَا هُوَ أبُو عُبَيْدَة بنُ الجرَّاحِ رَضْيَ اللهُ عَنهُ فانْتَهَيْنَا إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ ، وَقَدْ كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ ، وَشُجَّ فِي وَجْهِهْ ، وَقَدْ دَخَلَ في وَجْنَتِهِ حَلْقَتَا مِنْ حلقِ الْمِغْفَرْ . قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَمْ عَلَيْكُمَا صَاحِبَكُمَا يُرِيدُ طَلْحَة ، وقدْ نَزَفَ فَلَمْ نَلْتَفِتْ إلى قَوْلِهِ ، قَالَ وَذَهَبْتُ لِأَنْزِعَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِهِ فَقَالَ أَبُوْ عُبَيْدَةَ أُقْسِمُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لَمَا تَرَكْتِنِي فَتَرَكْتُهُ . فَكَرِهَ تَنَاوُلِهَا بِيَدِهِ فَيُؤذِي رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ فَأَزَمَّ عَلَيْهَا

بغيه أي عَضَّ عليها ، فاسْتَخرجَ احدى الحَلْقَتين وَوَقَعَتْ ثَنِيَّته مَعَ الحَلْقَة وَذَهَبْتُ لأَصْنَعَ ما صَنَعَ فَقَالَ أقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي لِمَا تَرَكْتَنِي قَالَ فَفعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ في المَرَّةِ الأُوْلَى فَوَقَعَتْ ثَنِيَّته الأُخْرَى مَعَ الْحَلْقَةِ .

فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ مِن أَحْسَنِ النّاسِ هَتْماً فأَصْلَحْنَا مِن شَأْنِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسلَّمْ ، ثُمَّ أَتَيْنَا طَلْحَةَ في بَعْضِ الجِفَارِ ، فإذَا بِهِ بِضْعُ وَسَبْعُوْنَ طَعْنَةً وَرَمْيَةً وَضَرْبَةً وإذَا قَدْ قُطِعَتْ أُصْبُعِهِ فأَصْلَحْنَا مِن شَأْنِهِ .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا ، وارْزُقْنَا مَحَبَّةُ أَوْلِيَائِكَ وأَصْفِيَائِكَ واجْمَعْنَا وَإيَّاهُمْ في دَارِ كَرَامَتِكَ ، يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِيْنَ وأَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى اللهُ علَى محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجميعنَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ الله انَّ اللهَ اخْتَارَ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمْ وَخَصَّهُ بِمَزَايَا لَمْ تَكُنْ لأحدٍ مِنَ الْعَالَمِيْنَ وَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَاباً خِيْرَةَ النَاسِ مِنْ خَلْقِه ، وَخَصَّهُمُ بِمَزَايَا لَمْ تَكنْ لِسُوَاهُمْ مِنْ النَّاسِ أَجمَعِين ، حَاشَا الأنبياءَ والمرسَلِيْن ، وأَثْنَى عليهم ، سُبْحَانَهُ في غَيْرِ مَوْضِعٍ مِن القرآنِ الكَرِيْمِ تَنْبِيْهَاً عَلَى جَلالَةِ قَدْرِهِمْ ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِم ، وَعِظَمِ فَضْلِهِمْ ، وَشَرَفِهِمْ . قَالَ تَعالَى ﴿ والسَّابقونَ الأولَونَ مِن المهاجرين ، والأَنْصَارِ والذين اتبعوهم بإحْسَانٍ رضي اللهُ عنهُمْ وَرَضُوا عنه ﴾ .

وقَالَ تَعَالَى يَصِفُهُمْ بِشِدَّةِ الرَّحْمَةِ ولِيْنِ الْجَانِبِ لِبَعْضِهِمْ بَعْضا وَشِدَّتِهِمْ عَلَى الكُفَّارِ المُعَانِدِيْنَ ، مُحَمَّدُ رسولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ وَرُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ

ورِضْوَانَاً سِيْمَاهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ .

وَقَالَ تَعَالَى يَصِفُ الْمُهَاجِرِيْنَ والأنْصَارِ بأفْضَلِ مَا يَصِف بِهِ إنْسَانَاً « لِلْفُقَرَاءِ المهَاجِرِيْنَ الذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأمْوالِهِمْ يَبْتَغُون فَضْلاً من اللهِ وَرِضْوَانَا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أولئك هُمُ الصَّادِقُون . والَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّار والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إليْهِمْ ، وَلَا يَجِدُوْنَ في صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أوتُوا ، وَيُؤْثِرُون عَلَى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِم خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأوُلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ » .

وَقَالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ ، وَلَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ أصْبَرُ النَّاسِ بعد الرُّسُلِ عَلَى الأذى في اللهِ فَلَقَدْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ إلَّا أنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ وَصُبَّ عَلَيْهِمُ الأذى مِن كُلِّ صَوْب ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذلِكَ إلا إيْمَانَاً قالَ تَعَالى : ﴿ الذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم ايْمَاناً ﴾ .

﴿وَقَالُواحَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيلِ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِن اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء ﴾ ا الآيَة .

وإذا كانَ الصَّحَابَـةُ رَضْيَ اللهُ عَنْهُم أرْفَعَ النَّـاسِ بَعْدَ النَّبِّيِّنَ والمُرْسَلِيْنَ دَرَجَةً وأعْلَاهُمْ مَكَانَاً بِشَهَادَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ فَلَا عَجَبَ أنْ يُعْلِنَ المُصْطَفَى صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمْ بِفَضْلِهِمْ وَيُحَذِّرُ مِنْ سَبِّهِمْ وَمَقْتِهِمْ ، وَيَقُولُ فِيمَا رَوَى التِرْمِذِي « اللَّهَ اللَّهَ في أصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضَاً بَعْدِي ، فَمَنْ أحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذاهُمْ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهُ يُوشِكُ أنْ يَأْخُذَهْ » .

ويقولُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تَسُبُّوا أصْحَابِي فو الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

لَوْ أنَّ أحَدُكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ آحَدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِمْ وَلاَ نَصْيْفَهْ ، فَأَصْحَابُ النَّبيِّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَشُكُّ عاقِلُ أَنَّهُمْ هُمْ الّذي حَازُوا قَصَبَاتِ السَّبْقِ ، واسْتَوْلَوْا عَلى مَعَالِي الأمورَ مِنَ الفَضْلِ والمعرُوفِ والصِدقِ والعِفَةِ ، والكرَمِ والإحْسَانِ ، والقناعةِ ، وعُلُوِّ الهِمَّةِ ، والنَّزاهةِ ، والشَجاعَةِ ، والتُّقى والتَّواضُعِ ، ونَحْوِ ذَلِكَ .

فَالسَّعِيْدْ مَنِ اتَّبَعَ طَرِيقَهُمْ ، واقْتَفى مِنْهَجَهُمْ القويم ، والشَّقِيُ مَنْ عَدَلَ عَنْ طَرِيْقِهِمْ ، وَلَمْ يَتَحَقَّقْ بِتَحْقِيقِهِمْ ، فأيُ خِطَّةِ رُشْدِهِمْ لَمْ يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا ، وأيُ خَصْلَةِ خَيْرٍ لَمْ يَسْبِقُوا إليها ، لَقَدْ وَرَدُوا يَنْبوعَ الحَيَاةِ عَذْباً صَافِيَاً زُلالاً . ووَطَّدُوا قواعِدَ الدّيْنِ ، والمَعْرُوْفِ فَلَمْ يَدعُوا لِأحَدٍ بَعْدَهُمْ مَقالاً .

فَتَحُوا القلُوبَ بالقُرآنْ ، والذّكْرَ والأيمان، والْقِرَى بالسَّيْفِ والسِّنَانِ . وَبَذَلُوا النُّفُوسَ النَّفِيْسَةِ في مَرْضَاةِ رَبّهِم ، فَلاَ مَعْرُوْفَ إلَّا مَا عُرِفَ عَنْهُم ، وَلاَ بُرْهَانَ إلَّا مَا بِعُلُومِهِمْ كُشِفْ ، وَلاَ سَبيْلَ نَجاةٍ إلَّا مَا سَلَكُوهُ وَلاَ خَيْرَ سَعَادَةٍ إلاَّ مَا حَقَّقُوهُ وحَلَّوهُ فرِضْوَانُ اللهِ عليهم ، مَا تَحَلَّتْ المَجَالِسُ بِنَشْرِ ذِكْرِهِمْ ، وَمَا تَنَمَّقَةِ الطُرُوسُ بِعَرْفِ مَدحِهِمْ وَشُكْرِهِمْ :

وَلَيْسَ في الأُمَّةِ كالصَّحابَةْ
بِالْفَضْلِ والمَعْرُوفِ والإصَابَةْ
فإنَّهُمُ قَدْ شَاهَدُوا المُخْتَارَ
وَعَايَنُوا الأسْرَارَ والأَنْوَارَا
وَجَاهَدُوا في اللهِ حَتَى بَانَا
دينُ الهُدَى وَقَدْ سَمَا الأَدْيَانَا

وَقَـدْ تُلِيْ في مُحْكِمَ التَّنُـزِيْـلِ
مِنْ فَضْلِهِمْ مَـا يَشْفِي مِنْ غَلِيْـلِ
وَفـي الأحـاديـثِ وفـي الأخْـبَـارِ
وَفـي كـلامِ القَـوْمِ والأشْـعَـارِ
مَـا قَـدْرَ بَي مِنْ أن يُحِيطَ نَـظْمِي
بِبَعْضِـهِ فـاسْمَـعْ وَخُـذْ مِنْ عِلْمي

(فصل)

ذِكْرُ نَمَاذجَ مِن صَبْرِ الصحابةِ على الأَذى والشدائدِ في الدعوةِ إلى اللهِ فأولُ ذلكَ في تَحَمُّلِ أبِي بكرٍ

أخرج الحافظُ أبُو الحَسَنِ الأطرابُلسي عن عائشة رضي اللهُ عنها قالت لما اجْتَمَعَ أصحابُ النبي صلى اللهُ عليه وسلمْ ـ وكانوا ثَمَانِيَةً وَثَلاثِينَ رَجُلاً أَلَحَّ أَبُو بكرٍ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلَمَ في الظُهُورِ فقال يا أبا بكرٍ إنَّا قَلِيْلٌ فلَمْ يَزَلْ أبو بكرٍ يُلِحُ حَتَّى ظَهَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُعليهِ وسلمَ وتَفَرَّقَ المسلمونَ في نَواحِي المسجدِ كُلُّ رَجُلٍ في عَشِيْرَتهِ .

وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ في الناسِ خَطِيْباً ورسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم جالسٌ فكانَ أولَّ خَطِيْبٍ دَعَا إلى اللهِ وَإلَى رَسُولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم وثارَ المُشْرِكُونَ على أَبِي بَكْرٍ وعلى المسلمين فَضُرِبُوا في نَواحِي المسجدِ ضَرْباً شَدِيْدَاً ، وَوُطِيءَ أبُو بكرٍ وَضُرِبَ ضَرْباً شَدِيْدَاً وَدَنا مِنْهُ الفَاسِقُ عُتْبَةُ

بنُ رَبِيْعَةَ فَجعَلَ يَضرِبُهُ بِنَعْلَيْنِ مَخْصُوفَتَيْنِ ، ويُحَرِّفُهُمَا لِوَجهِهِ وَنزا عَلَى بَطْنِ أبِي بَكْرٍ حَتَّى مَا يُعْرَفُ وَجْهُهُ مِن أَنْفِهِ .

وجَاءَ بَنُو تَمِيْمٍ يَتَعادَوْنَ فَأَجْلَتِ المُشْرِكِيْنَ عَن أَبِي بَكْرٍ وَحَمَلَتْ بَنو تَمِيْمٍ أَبَا بَكْرٍ في ثَوْب حَتَّى أدخَلُوهُ مَنْزَلَهُ ولا يَشُكُون في مَوْتِهِ ، ثم رَجَعَتْ بَنُو تَمِيْمٍ فَدَخَلُوا المسجِدِ وَقَالُوا واللهِ لَئِنْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ لَنَقْتُلَنَّ عُتْبَةَ بنَ رَبِيْعَةَ فَرَجِعُوا إلى أبِي بكرٍ فَجَعَلَ أَبُو قُحَافَةِ وَبَنُوا تَمِيْمٍ يُكَلِمُونَ أَبا بَكْرٍ حَتَّى أَجَابَ فَتَكَلَّمَ آخِرَ النهارِ فَقَالَ مَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَم فَمَسُّوا مِنْه بِأَلْسِنَتِهِمِ وَعَذَلُوهُ ثم قامُوا وقالوا لِأمِّهِ أُمِّ الخَيْرِ انْظُرِي أنْ تُطْعِمِيْهِ شَيْئاً أو تَسْقِيْهِ إياه .

فَلَمَا خَلَتْ بِهِ أَلَحتْ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ يَقُولُ ما فَعَلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالت مَالِي عِلْمٌ بِصَاحِبِكِ فقال إذْهَبِي إلى أُمّ جَمِيْل بِنْتِ الخَطّابِ ، فاسأليْهَا فخَرَجَتْ حتى جاءتْ أمَّ جَمِيْلٍ فَقَالَتْ إنَّ أبا بَكْرٍ يَسْأَلُكِ عن مُحَمّدِ بنِ عبدِ اللهِ .

فقالَتْ مَا أَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ ولا مُحَمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ ، وإنْ كُنْتِ تُحِبينَ أنْ أَذْهَبَ مَعَكِ إلى ابنكِ قالَتْ نَعَمْ فَمَضَتْ مَعَهَا حتى وَجَدَتْ أبا بَكْر صَرِيْعَاً دَنِفَاً ، فَدَنَتِ أُمُّ جَمِيْلٍ وَأَعْلَنَتْ بالصِياحِ ، وقالَتْ واللهِ إنَّ قَوماً نَالُوا هَذَا مِنْكَ لأَهْلُ فِسْقٍ وكُفْرٍ ، وإنِّي لأَرْجُو أنْ يَنْتَقِمَ اللهُ لَكَ مِنهم .

قَالَ فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قالَتْ هذِهِ أُمُّكَ تَسْمَعُ قال فلا شيءَ عليكِ منها قالَتْ سَالِمٌ صالِحٌ .

قال أينَ هُوَ قَالَتْ في دَارِ ابن الأرقمِ قال فإن لِلهِ عَلَيَّ أَنْ لا أَذُوقَ

طَعَامَاً ولا أشْرَبَ شَراباً أَوْ آتِيَ بِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فأمْهِلَنا حَتَّى إذا هَدَأَتِ الرِّجْلُ وَسَكَنَ الناسُ خَرَجَتا بِهِ يَتَكِىءُ عَلَيْهِمَا حَتَّى أَدْخَلَتَاهُ عَلَى رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم قالَ فأكَبَّ عليهِ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فَقَبلَهُ وأكَبَّ عليه المسلمونَ وَرَقَّ لَهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم رِقَّةً شَدِيْدَةً .

فقال أبُو بَكْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِي يَا رَسولَ اللهِ ، لَيْسَ بِي بَأْسٌ إنَّ مَا نَالَ الفَاسِقُ مِن وَجْهِي ، وَهَذِهِ أمِّي بَرَّةً بِوَالِدِهَا وأَنْتَ مُبَارَكٌ فأدْعُهَا إلى اللهِ ، وَادعُ الـلهَ لَهَا عَسَى اللهُ أنْ يَسْتَنْقِذَهَا بِكَ مِن النارِ ، قالَ فَدَعَا لَهَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم ، وَدَعَاهَا إلى اللهِ فأسْلَمَتْ وأقامُوا مَعَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في الدار شَهْرَاً وهُمْ تِسْعَةٌ وثلاثون رَجُلاً وقَدْ كَانَ حَمْزَةُ رَضْيَ عنه أسْلَمَ يَوْمَ ضُرِبَ أَبُو بَكْرٍ رضي اللهُ عنه .

ودَعَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أَو لِأَبي جَهْلٍ بنِ هِشامٍ فأصبحَ عُمَرُ وكانَتْ الدَّعْوَةُ يَومَ الاربعاءِ فأسْلَمَ عُمَرُ يومَ الخمِيْسِ فكَبَّرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأهلُ البيتِ تكبيرةً سُمِعَتْ بِأَعْلا مَكَّةَ .

وَخرَجَ أبُو الأرْقم وهُوَ أَعْمَى كَافِرٌ وَهُو يَقُولُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِبَنِي عُبَيْدِ الأرقمِ فإنه كَفَرَ فَقَامَ عُمَرُ فقال يا رَسولَ الله عَلامَ تُخْفِي دِيْنَنا وَنَحن على الحَقِّ ويُظْهِرُوا دِيْنَهُم وهُم على البَاطِل قال يَا عُمَرُ إنَا قَلِيْلٌ قد رَأَيْنَا مَا لَقِيْنَا .

فقال عُمَرُ فَوَالذِي بَعَثَكَ بالحَقِ لا يَبْقَى مَجْلِسٌ جَلَسْتُ فيه بالكُفْرِ

إِلَّا أَظْهَرْتُ فِيهِ الإِيمانَ ثُم خَرَجَ وطافَ بالبَيْتِ .

ثم مَرَّ بِقُرَيْش وهِيَ تَنْتَظِرُهُ فقال أَبُو جَهْلٍ بنُ هِشَامٍ يَزْعُمُ فلانٌ أنكَ صَبَوْتَ .

فقال عُمَرَ أشهدُ أَنْ لا إِلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ وأنَّ محمداً عَبدُهُ ورَسُولُهُ فَوَثَبَ المشركُونَ إليهِ وَوَثب عَلَى عُتْبَةَ وبَرَكَ عَلَيهِ وَجَعَلَ يَضْرِبُهُ فَجَعَلَ عُتْبَةُ يَصِيْحُ فَتَنَحى الناسُ ، فقامَ عُمَرُ حَتَّى أَعْجَزَ الناسَ واتَّبَعَ المَجَالِسَ التي كان يُجالِسُ فِيها فيُظْهِرُ الايمان .

ثم انْصَرفَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهُوَ ظَاهِرٌ عليهم ، قال مَا عليكَ بأَبِي وأمِّي واللهِ ما بَقِي مَجْلِسٌ كُنْتُ أَجْلِسُ فيه بالكفرِ إلا أظهرتُ فيه الايمانَ غيرَ هَيَّابٍ ولا خَائِفٍ .

فَخَرَجَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وخَرَجَ عُمَرُ أَمَامَهُ وحَمْزَةُ ابْنُ عبدِ المطلبِ حَتَّى طافَ بالبيتِ ، وصَلَّى الظُّهْرَ مُؤَمَّناً ، ثم انْصَرفَ إلى دَارِ الأرقمِ ومَعَهُ عُمَرُ ، ثم انْصَرفَ عُمَرُ وَحْدَهُ، ثم انْصَرَفَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم .

وأَخْرَجَ البُخارِيُ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قَالَتَ لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُ إلَّا وَهُمَا يَدِيْنَانِ الدِّيْنَ ولم يَمُرَّ عَلَينا يَوْمٌ إلا يَأْتِيْنَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم طَرَفَي النهارِ بكرةً وعَشِيَّةً ، فلما ابْتُلِيَ المسلمونَ خَرَجَ أَبُو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه مُهَاجِراً نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَةِ حَتَّى إذا بَلغَ بَرْكَ الغمادِ لَقِيَهُ ابنُ الدَّغِنَةِ وهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ فقالَ أَيْنَ تُرِيْدَ يَا أبا بَكْرٍ فقال أَبُو بَكْرٍ أخرَجَنِي قَوْمِي فأُرِيْدُ أن أَسِيْحَ في الأَرْضِ وأعبُدَ رَبي قال ابنُ الدَّغِنَةِ

فانَّ مِثْلَكَ يا أَبا بَكْرٍ لا يُخْرَجُ ولا يَخْرُجُ إنكَ تَكْسِبُ المَعْدُوْمَ ، وتَصِلُ الرَّحِمَ وتَحْمِلُ الكَلَّ وتَقْرِيْ الضَّيْفِ وتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِ فأنَا لكَ جار ، إرْجِعْ وأعْبُدْ رَبَّكَ في بَلَدِكَ .

فَرَجَعَ وارْتَحلَ مَعَهُ ابنُ الدَّغِنَةِ فَطَافَ بنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً في أشْرَافِ قُرَيْشٍ فَقَال لَهُم إن أبا بَكرٍ لا يُخْرَجُ مِثْلُهُ ، ولا يَخْرُجُ أتخرِجُوْنَ رَجُلاً يَكْسِبُ المَعْدُوْمَ ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَحمِلُ الكلَّ ، وَيَقْرِيْ الضَّيْفَ وَيُعْيِنُ على نَوائِبِ الحَقِّ ، فَلَم تَكْذِبْ قُرَيْشٌ بِجوارِ ابنِ الدَّغِنَةِ .

وقالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ في دَارِهِ فَلْيُصَلِ فِيهَا واليَقْرَأ مَا شَاءَ ولا يُؤْذِيْنا بِذَلِكَ ، ولا يَسْتَعْلِنْ بِهِ فإنَّا نَخْشَى أنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأبْنَاءَنَا فقالَ ذَلكَ ابنُ الدَغِنةِ لِأبي بَكْرٍ .

فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ في دَارِهِ ولا يَسْتَعْلنُ بِصَلاَتِهِ ولا يَقْرَأُ في غَيرِ دَارِهِ ، ثُمَّ بَدا لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَا مَسْجِداً بِفِنَاءِ دارِهِ ، وكان يُصَلِي فِيهِ وَيقْرَأُ القُرآنَ فَيَتَقَذَّفُ عَلَيهِ نِساءُ المشركينَ - أيْ يَزدَحِمُونَ عليه - وأبْنَاؤُهُم وهُم يَعْجَبُونَ مِنْهُ ويَنْظُرونَ إليْهِ .

وكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَاءً لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرأَ القُرآنَ ، وأَفْزَعَ ذلكَ أشرافَ قُرِيشٍ مِن المشركينَ ، فأَرْسَلُوا إلى ابْنِ الدَغِنَةِ ، فَقَدِمَ عَلَيهِم فقالُوا إنا كُنَّا أَجَرْنَا أَبا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ على أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ في دَارِهِ فَقَدْ جاوَزَ ذَلِكَ فابْتَنَى مَسْجِداً بِفِنَاءِ دَارِهِ فأعْلَنَ بالصلاةِ والقِراءة فيه ، وإنا قَدْ خَشِيْنَا أنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنا وأَبْنَاءَنَا ، فانهَهُ فإن أحبَّ أنْ يَقتَصِرَ عَلى أن يَعْبُدَ رَبَّهُ في دَارِهِ فَعَل ، وإن أَبِيَ إلا أنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إليكَ ذِمَّتَكَ ، فانا قَدْ

كَرِهْنَا أنْ نَخْفِرَكَ ، ولَسْنَا مُقِرِّيْنَ لِأبي بَكْرٍ الاسْتِعْلانَ .

قالتَ عائِشةُ رضيَ اللهُ عنها فأَتى ابْنُ الدَّغِنَةِ إلى أبِي بَكرٍ فقال قَدْ عَلِمْتَ الذي عاقَدْتُكَ عليه ، فإمَّا أنْ تَقْتَصِرَ على ذلكَ وإما أنْ تُرَجِّعَ إلَيَّ ذِمَّتي .

فإني لا أحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أنِّي أُخْفِرْتُ في رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ فَقَالَ أبوُ بَكْرٍ : فإنِيْ أَرُدُّ إلَيْكَ جِوَارَكَ وأرْضَى بِجِوارِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، هذا قليلٌ مِن كَثيرٍ مِن تَحَمُّلُ أبِي بَكْرٍ رَضِي اللهُ عنه وأَرْضَاه وجَعَلَ جَنَّةَ الفَرْدَوْسِ مَثْوَانا ومَثْوَاهُ فَلَهُ مِن الفَضْلِ والسَّابِقَةِ ما لَيَسَ لِغيرِهِ ولقد قَدَّمَهُ المُصْطَفى صلى اللهُ عليه وسلم على جَمِيْعِ الصَّحابَةِ قال في النُونِيَّةِ ما قال الرسول صلى الله عليه وسَلم لِأَبي بكر :

ويَقُولُ في مَرَضِ الوَفَاةِ يَؤُمُكُمْ
عَنِيْ أبوُ بَكْرٍ بِلا رَوَغَانِ
ويَظَلُّ يَمْنَعُ مِن إمَامَةِ غَيْرِهِ
حَتَّى يُرَى في صُوْرَةٍ مَيَلَانِ
ويَقولُ لَو كُنْتُ الخليلَ لِوَاحِدٍ
في الناسِ كانَ هُوَ الخَلِيْلُ الدَّانِ
لَكِنَّهُ الأَخُ والرَّفِيْقُ وصَاحِبِي
ولَهُ عَلينَا مِنَّهُ الإحْسَانِ
ويَقَولُ لِلصِّدِّيْقِ يَومَ الغَارَ لَا
تَحْزَنْ فَنحْنُ ثَلاثَةٌ لا اثْنَانِ

أَلـلَّهُ ثـالِـثُـنَـا وتِـلْكَ فَـضِـيْـلَةٌ
مـا حَـازَهَـا إلا فَتًـى عُـثْـمَـانِ

اللهم سلمنا مِن شُرُوْرِ أنْفُسِنَا الَّتي هِي أَقْرَبُ أَعْدَائِنا وأَعِذْنَا مِن عَدُوكَ واعْصِمْنا مِن الهَوى ومِن فِتنةِ الدنيا وَمَكِّنْ مَحبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وقَوِّهَا وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وفَرِّحْ قُلُوبَنَا بالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكَرِيم في جَنَّاتِ النعيم واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصـل)

أَخْرَجَ ابنُ اسحاقَ عن ابنِ عُمْرَ رضي الله عنهما قال لَمَّا أَسْلَمَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عنه ، قال : أيُّ قُرَيْش أَنْقَلُ لِلْحَديْثِ فَقِيلَ لَهُ جَمِيْلُ بنُ مَعْمَرٍ فَغَدا عَلَيهِ قال عبدُ الله وغَدَوْتُ أَتْبَعُ أَثَرَهُ وأَنْظُرُ ما يَفْعَلُ وأنا غُلامٌ أَعْقِلُ كُلَّمَا رَأَيْتُ حَتَّى جَاءَهُ فقال أَعَلِمْتَ يا جَمِيْلُ أَنِي أَسْلَمْتُ وَدَخَلْتُ في دِيْنِ مُحَمدٍ صَلى اللهُ عليه وسلم قال فوَ اللهِ مَا رَاجَعَهُ حتَّى قَامَ يَجُرُ رِدَاءَهُ واتبَعهُ عُمَرُ واتَّبَعْتُهُ أنا حتى قامَ على بابِ المسجدِ وصَرخَ بأَعْلَى صَوْتِهِ يا مَعْشَرَ قُريشٍ وهمُ أَنْدِيَتُهُم حَوْلَ الكَعبةِ ألا إنَّ ابنَ الخَطَابَ قَدْ صَبأَ .

قال يقولُ عُمَرُ مِن خَلْفِهِ : كَذَبَ ولكِنِي قَدْ أَسْلَمْتُ وشَهِدتُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ ، وأن مُحَمداً رسولُ اللهِ ، وثَارُوْا إليهِ ، فَمَا بَرِحَ يُقَاتِلُوْنَهُ حَتَّى قامَتِ الشَّمْسُ على رُؤُسِهِم ، قَال وَطَلَحَ : ـ أي أعْيَا ـ فَقَعَد وقَامُوا على رَأْسِهِ ، وهُوَ يَقولُ افْعَلُوا مَا بَدَا لَكُم فأَحْلِفُ باللهِ أنْ لَو قَدْ كُنَّا ثَلاثَمائَةِ

رَجُلٍ لقد تَرَكْنَاهَا لكُم أَوْ تَرَكْتُمُوهَا لَنا .

قال فَبَيْنَما عَلَى ذَلِكَ إِذْ أقْبَلَ شَيْخٌ مِن قُرَيْشٍ عَلَيهِ حُلَّةٌ حَبِرَةٌ وَقَمِيصٌ مُوَشَّى حَتَّى وَقفَ عَليهم ، فقال مَا شَأْنُكم فقالوا صَبَأَ عُمَرُ ، قَالَ فَمَهْ ، رَجُلٌ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أمْراً ، فَمَاذا تُرِيْدُوْنَ أَتروْنَ بَنِي عَدِي يُسْلِمُونَ لكُم صَاحِبَهُم هكذا ، خَلُوا عن الرَّجُلِ .

قال فوَ اللهِ لكانَّمَا كَانُوا ثَوْباً كُشِطَ ـ أَيْ كُشِفَ عنه ، قال فَقُلْتُ لأبي ـ بَعْدَ أَنْ هَاجَرُوا إلى المدينةِ ، يَا أبتِ مَن الرُّجُلُ الذي زَجَرَ القومَ عَنكَ بمَكَّةَ يومَ أَسْلَمْتَ وهمُ يُقاتِلُونَكَ ، قال وذَاكَ أَيْ بُنَيَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ السَّهْمِي وهَذا اسِنادُهُ جَيدٌ قَوِيٌ .

أخرج ابنُ سَعْيدٍ عن محمدِ بنِ ابراهيمَ التَّيْمِي ، قال لَمَّا أَسْلَمَ عُثمانُ بن عَفانٍ رضي اللهُ عنه أخذَهُ عَمُّهُ الحكمُ بنُ أبي العَاصِ بنُ أمَّيَة فأوثَقَهُ رِباطاً ، قال أتَرْغَبُ عن مِلَّةِ آبائِكَ إلى دِيْنٍ مُحْدَثٍ ، واللهِ لا أحُلَّكَ أَبَدَاً حتى تَدَعَ مَا أنتَ عليه مِن هذا الدينِ ، فقال عُثْمَانُ واللهِ لا أدعُهُ أبدَاً وَلا أُفَارِقُهُ ، فلَمَّا رَآى الحَكَمُ صَلابَتَهُ في دِيْنِهِ تَركَهُ .

وأخرج البُخاري في التاريخ عن مَسْعُودِ بنِ خِرَاشٍ رضي اللهُ عنه قال بَيْنَما نَحْنُ نَطُوفُ بينَ الصَّفَا والمروةِ إذا أُناسٌ كَثِيْرٌ يَتْبَعُونَ شَاباً مُوْثقاً بِيَدِهِ في عُنُقِهِ ، قُلْتُ مَا شَأْنُهُ قالوا هذا طَلحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ صَبأَ وَامْرَأَةٌ وَرَاءَهُ تُدَمْدِمُ وتَسُبُّهُ قُلْتُ مَن هَذِهِ قالوا الصَّمَّةُ بِنْتُ الحَضْرَمِي أُمُّهُ .

وأخرج الحاكم في المستدرك عن ابراهيمَ بنِ محمدٍ بن طلحة

قال : قال لِيْ طَلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنه حَضَرْتُ سُوْقَ بُصْرَى فإذا رَاهِبٌ في صَوْمَعَتِهِ يقولُ سَلُوا أَهْلَ هَذا المَوْسِمِ أفيهِمِ وَاحِدٌ مِن أَهْلِ الحَرَمِ .

قال طلحةُ رضِي اللهُ عنهقُلْتُ نَعَمْ أَنَا فَقَال هَلْ ظَهَر أَحْمَدُ بَعْدُ قال قُلْتُ ومَن أَحَمْدُ قال ابنُ عَبدِ اللهِ بنُ عبدِ المُطَّلِب هَذا شَهْرُهُ الذي يَخْرُجُ فيه وهُو آخِرُ الأَنْبياءِ مَخْرَجُهُ مِن الحَرَمِ ، ومُهَاجَرُهُ إلى نَخْلٍ وحَرَّةٍ وسِبَاخٍ ، فإِيَّاكَ أنْ تُسْبَقَ إليه .

قال طلحةُ فَوَقَع في قَلْبِي مَا قَالَ ، فَخَرَجْتُ سَرِيْعاً حَتَّى قَدِمْتُ مَكَّةَ فَقُلْتُ هَلْ كَانَ مِن حَدَثٍ قالُوا نَعَمْ ، مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الأمْينُ تَنَبأَ ، وقَدْ تَبِعَهُ بنُ أبي قُحافَةَ قال فَخَرجْتُ حَتى دَخَلْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضَيَ الله عنهُ فَقُلْتُ اتَّبَعْتَ هَذَا الرَّجُلَ قال نَعَمْ فانطَلِقْ فأدخُلْ عَليهِ فاتَّبعْهُ فإِنَّهُ يَدْعُو إلى الحَقِّ فأخْبَرَهُ طَلْحَةُ بمَا قَال الرَّاهِبُ فَخَرجَ أَبُو بَكْرٍ بِطَلْحَةَ فَدَخَلَ بِهِ على رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فأَسْلَمَ طَلْحَةُ وأَخْبَر رَسُول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بما قَالَ الرَّاهِبُ فَسُرَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فلَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ وطَلْحَةُ أَخَذَهُمَا نَوْفَلُ بنُ خُوَيْلِدِ بنِ العَدَوِّيةِ ، فَشَدَّهُمَا في حَبْلٍ وَاحِدٍ ولم يَمْنَعْهُمَا بَنُو تَمِيْمٍ وكانَ نَوْفَلُ بنُ خُويلدٍ يُدْعَى « أَسَدَ قُرَيشٍ » فَلِذَلِكَ سُمِيَ أَبُو بَكْرٍ وَطَلْحَةُ القَرِيْنَيْنِ فذَكَرَ الحديثَ وأخرجه البيهقي وفي حديثه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اكْفِنَا شَرَّ بنِ العَدَوِيَّةِ .

وأَخْرَجَ أبُو نُعَيمٍ في الحِليةِ عن أبي الاسودِ قال أسلم الزُبَيْرُ بنُ العَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عنه وهو ابنُ ثمانِ سِنينٍ ، وهاجَرَ وهو ابنُ ثمانِ عشرَةَ

سَنَةً وكانَ عَمُّ الزُبَيْرِ يُعلِقُ الزُبَيْرَ في حَصيْرٍ ويُدَخّنُ عليهِ بالنارِ وهو يَقُولُ ارْجِعْ إلى الكُفْرِ فيقولُ الزُبَيْرِ لا أكْفُرُ أبَدًا .

وأَخْرَجَ أبُو نُعَيْمٍ أَيضاً عن حَفْصِ بنِ خَالِد قال حدثني شيخٌ قَدِمَ علينَا مِن الموصِلِ قال صَحبْتُ الزُبَيْرَ بنَ العَوامِ رضي اللهُ عنه في بَعْضِ أسْفارِهِ فأصَابتْهُ جَنَابَةٌ بأرَضٍ قَفْرٍ فقالَ اسْتُرْنِي فِسَتَرْتُهُ فحانَتْ مِني التِفاتَةٌ فَرَأَيْتُهُ مُجَدَّعاً بالسُيُوفِ قُلْتُ واللهِ لَقَدْ رَأيتُ بِكَ آثاراً ما رَأيتُهَا بأحَدٍ قَطُّ .

قَالَ وقَدْ رَأَيْتَ ذلكَ قُلْتُ نَعَمْ قال أَما واللهِ مَا مِنها جِرَاحَةٌ إلا مَعَ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وفي سبيلِ اللهِ ، وعِندَ أبي نَعَيْمِ عن علي بن زيْدِ قال أَخْبَرَني مَن رَأى الزُبَيْرَ وإنَّ في صَدْرَهُ لأمْثَالُ العُيُونِ مِن الطَّعْنَ والرَّمْيِ .

أَخْرَجَ الإمامُ أَحْمَدُ وابنُ ماجَةَ عن ابنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه قال أولُ مَن أَظْهَرَ الاسلامَ سَبْعَةٌ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأبُو بَكرٍ وعَمَّارُ وأُمُّهُ سُمَيَّةُ وصُهَيْبٌ وبِلَالٌ والمِقْدَادُ رضي الله عنهم .

فأما رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم فَمَنَعَهُ اللهُ بَعمِّه ، وأما أَبُو بَكْرٍ فَمنَعَهُ اللهُ بقَومِهِ ، وأما سَائِرُهُمُ فأخَذَهُم المشرِكُونَ فَأَلْبَسوهُمْ أَدْرُعَ الحديدِ وصَهَرُوْهُمْ في الشَّمسِ فَمَا مِنْهُمْ أحدٌ إلَّا وَقَدْ أتاهُمْ على مَا أَرَادُوا إلَّا بِلالْ فانهُ هَانَتْ عليهِ نَفْسُهُ في الله ، وهَانَ على قومِهِ فأخَذُوهُ فَأعْطَوهُ الوِلْدَان فَجعلوا يَطُوفُونَ بهِ في شِعَابِ مَكة وهو يَقُول أحَدُ أحَدٌ .

وأخْرَجَ أبُو نُعَيْمُ في الْحِلْيَةَ عَنْ هِشَامُ بنُ عُرْوَةَ عَنْ أبيهِ قَالْ كَانَ

وَرَقَةُ بنُ نوفَلَ يَمُرُّ بِبِلاَلٍ وَهو يُعَذَّبُ وَهْوَ يَقُولُ أَحَدٌ أحَدٌ فَيَقُولُ أحَدٌ أحَدٌ ، اللَّهُ يا بِلالُ ثُمَّ يُقْبِلُ وَرَقَة بنُ نَوْفَلٍ عَلى أمُيَّةَ ابِنْ خَلَفٍ وَهْوَ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِبَلال فيقولُ أحْلِفُ باللهِ عزَّ وَجلَّ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ على هذِهِ لاَتَّخِذَنَّهُ حَنَاناً .

حَتَّى مَرَّ بهِ أبوُ بَكْرٍ الصِّديقِ يَوْماً وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَقالْ لِأُمَيَّة ألا تَتّقِي اللهَ في هَذا المْسِكينَ حَتَّى مَتَى قالَ أنْتَ أفْسَدْتَهُ فأنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى فَقَالَ أبو بَكْرٍ أفْعَلْ عِنْدي غُلاَمٌ أسود أجْلَدُ مِنْهُ وأقوَى عَلى دِيْنِكَ أُعْطِيْكَهُ بِهِ قالَ قَدْ قَبِلْتُ قَال هُو لَكَ فأعْطَاهُ أبو بَكْرٍ غُلاَمَهُ ذَلِكَ وأخَذَ بِلاَلاً فأَعْتَقَهْ .

ثُمَّ أعْتَقَ مَعَهُ على الاسْلاَم قَبْل أن يُهَاجِرَ مِنْ مَّكَةَ ست رَقابْ بِلاَلٌ سَابِعُهُم . وَذَكَر أبوُ نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ عَنْ ابنِ اسْحَاقٍ كَانَ أُمَيَّةُ يُخْرِجُهُ إذا حَمِيَتِ الشَّمْسُ فيطْرَحُهُ على ظَهْرِهِ في بَطْحَاءِ مَكَّةَ ثُمَّ يَأْمُرُ بالصَّخْرَةِ العظِيمَةِ فَتُوضَعُ عَلى صَدْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ لا تَزَالُ هَكَذا حَتَّى تَمُوتَ أو تَكْفُرَ بِمُحَمّدٍ وتَعْبُدَ اللاَّتَ والعُزَّى .

وَهْوَ يَقُولْ في ذَلِكَ الْبَلا أَحَدٌ أحَدٌ قالَ عَمَّارُ بنُ يَاسِرَ وهُوَ يَذْكُرُ بِلاَلاً وأصْحَابَه وَمَا كانُوا فيهِ مِن البلاءِ واعْتَاقِ أبا بَكْرٍ إيَّاهُ وكانَ اسمُ أبي بَكْرٍ عَتِيْقاً رضْي اللهُ عَنْه .

جَزَى اللَّهُ خَيْراً عَنْ بِلاَلٍ وصَحْبِهِ
عَتِيْقاً وأخْزَى فَاكِهاً وأبَا جَهْلِ
عَشِيَّةَ هَمَّا في بِلاَلِ بِسَوءَةٍ
ولم يَحذَرا ما يَحْذرُ المرءُ ذُو عَقْلِ

بِتَـوْحِيـدِهِ رَبَّ الأَنَـامِ وَقَـوْلِـهِ
وَلَمْ يَحْذَرَا مَا يَحْذُر المرءُ ذُو عَقْلِ
فَـانّ يَقْتُلونِي يَقتُلوُنِي فَـلَمْ أكُـنْ
لِأُشْـرِكَ بالـرَّحْمَن مِنْ خِيْفَةِ القَتْـلِ
فَيَـارَبَّ ابْـرَاهِيمَ والعـبْـدِ يُـونُسٍ
ومُـوسَى وعِيْسى نَجِّنِي ثُمَّ لَا تُبْـلِ
لِمَنْ ظَلَّ يَهْوَى الغَيَّ مِنْ آلِ غَالِبٍ
على غيـرِ بِـرٍّكَـانَ مِنْـهُ وَلَا عَـدْلِ

اللهمَّ نَوِّرْ قُلْوبِنَا واجْعَلِ الايمانَ لَنا سِراجاً ولا تَجعَلَه لَنَا اسْتِدْرَاجـاً واجْعَلْهُ لنا سُلَّمَاً إلى جَنَّتِكْ ولا تَجعلهُ لنا مَكْراً مِنْ مَشيْئَتِكْ إنَّكَ أنْتَ الحليمُ الغفورُ الشَّكُورُ بِرَحْمَتِك يا أرحَمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين .

(فَصْلٌ)

أَخْرَجَ الطَّبَرانِي والْحَاكِمُ والبيهقي وابنُ عَسَاكِرُ عَنْ جَابِرٍ رضِي اللهُ عَنْهُ أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَرَّ بِعَمَّارٍ وأهلِهِ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَقَالْ : أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ وآلُ يَاسِر فإنَّ مَوْعِدَكُمْ الجنة قال الْهَيْثَمي رجالُ الطَّبَراني رِجالُ الصَّحيح غَيْرَ ابراهيم بن عبد العزيزِ المقوم وَهْوَ ثِقَة .

وأخْرَجَ أبو أحْمَدُ الحاكِمُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنُ جعفرِ رَضْي اللهُ عَنْهُمَا قالْ مَرَّ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلمّ بِيَاسِرٍ وَعَمَّارٍ وأُمِّ عَمَّارٍ وَهُمْ يُؤْذَوْنَ في اللهِ تَعالى فَقالَ لَهُمْ صَبْراً آلَ يَاسِر صَبْراً آلَ ياسِرْ فإنَّ مَوْعِدِكُمُ

الجنة رواهُ ابنُ الكَلْبي عَنْ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عَنْهُما نَحْوهُ وَزَادَ وَعَبْدُ اللهِ بنُ يَاسِرٍ وزادَ وَطَعَنَ أبو جَهْل سُمَيَّةَ في قَبلِهَا فَمَاتَتْ ومَاتَ ياسِر في العذابِ ورُمِي عبدُ اللهِ فَسَقَط .

وَعِنْدَ أحْمَد عَنْ مُجَاهِدٌ قَالْ أولُ شَهِيْدٍ كَانَ في أوَّلِ الاسْلَامِ اسْتُشْهِد أمُّ عَمَّارٍ سُمَيّةَ طَعَنَها أبُو جَهْلِ بِحَرْبَةٍ في قُبُلِهَا وَعَنْ عَمْرِو بنِ مَيْمُونٍ قالْ : أحْرَقَ المشْركُونَ عَمَّارَ بنَ ياسِرٍ بالنَّارِ قَالْ فكَانَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم يَمُرُّ بِهِ وَيُمِرُّ يَدَهُ عَلى رَأْسِهِ فَيَقُولْ : يا نَارُ كُونِي بَرْداً وسَلَاماً على عَمَّار كَما كُنْتِ عَلى ابْرَاهِيم عليهِ السَّلام تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةْ .

وَعِنْدَ الْحَاكِمُ في الْكُنَى وابنِ عَسَاكِرٍ عَنْ عُثْمانَ رَضْي اللهُ عنهُ قَالْ بَيْنَما أنَا أمْشِي مَعَ رَسَولِ الله صلى اللهُ عليهِ وسلم بالبَطْحَاءِ إذْ بِعَمَّارٍ وأبِيهِ وأمِّهِ يُعَذَّبُونَ في الشَّمْسِ لِيَرْتَدّوا عَنِ الاسلامْ،فَقَالَ أبُو عمَّارٍ يا رَسُولَ اللهِ الدَّهْرُ هَكَذا فقالَ صَبْراً يَا آلَ يَاسِرْ ، اللهمَّ اغْفِر لآلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعلْتَ .

وأخْرَجَ أبو نُعَيمٍ في الْحِلْيَةِ ج (١) ص (١٤٠) عَنْ أبي عُبَيْدَةَ بنِ مُحَمّدٍ بن عَمّارٍ قال أخَذَ المشْرِكُونَ عَمّاراً رضيَ اللهُ عَنْهُ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمْ ، وَذكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ، فلمَّا أتىَ رسَولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ قالَ مَا وَراءَكَ قَالَ شَرٌّ يا رَسُولَ اللهِ ما تُرِكْتَ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ ، وذَكَرْتُ آلِهَتَهمُ بِخَيْرٍ فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ قال أجِدُ قَلْبي مُطْمَئِنٌ بالايْمانِ ، قالَ فإنْ عَادُوا فَعُدْ ، وأخرَجَ بنُ سَعْدِ عن أبي عُبَيْدَة نَحْوَهْ .

أَخْرَجَ ابنُ سَعْدٍ عَنْ الشَّعْبِي قَالْ دَخَلَ خَبَّابُ بنُ الآرَتْ رضْيَ اللهُ عنه على عُمَرُ بنُ الخطاب رَضي اللهُ عنه فأجْلَسَه على مُتَّكَئِهِ فَقَالْ : مَا عَلى الارْضِ أحَدٌ أحقُّ بِهَذَا المجْلِسِ مِنْ هَذَا إلاّ رَجُلٍ وَاحِدٍ قالَ لَه خَبَّابُ مَنْ هُو يا أميرَ المؤمنينَ قالْ : بِلالٌ : فَقَالَ خَبَّابُ ما هُو أحَقُّ مِنِّي إنَّ بِلالاً كانَ لَهُ في المشْرِكِينَ مَنْ يَمْنَعُه اللهُ بِهْ ، ولَم يكُنْ لِي أحَدٌ يَمْنَعُنِي فَلَقَدْ رَأيْتني يَوْماً أخَذُوْني فأوْقَدُوا لِيْ ناراً ، ثُمَّ سَلْقَوْنِي فِيْها ثُمَّ وَضَع رَجُلٌ رِجلَهُ عَلى صَدْرِي فَمَا اتَّقَيْتُ الأرضَ أوْ قَالْ بَرْدَ الأرْضِ إلا بِظَهْرِي ، ثُمَّ كَشَفَ عن ظَهْرِه فاذا هُو قَدْ بَرِصَ ، أيْ مِنْ أثرِ التَّعذِيبِ بالنَّارْ .

وأَخْرَجَ أحْمَدُ عن خَبَّاب رضْي اللهُ عَنْهُ قَالْ كُنْتُ رَجُلاً قَيْناً وكَانَ لِي على العاص بْنُ وائِلِ دَيْنٌ فَأتَيْتُه أتَقَاضَاهُ فَقالْ لا وَاللهِ لا أقْضِيـنكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمدٍ ـ صلى الله عليهِ وسلمْ ـ فَقُلْتُ لاَ واللهِ لا أكْفُرُ بمحمدِ صلى الله عليهِ وسلم حَتَّى تَموتُ ثمَّ تُبْعَثُ قال فإنيِّ إذَا مِتُّ ثُمَّ جِئْتَنيِ وَلِي ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ فأُعْطِيْكْ .

فأنْزَلَ(اللهُ أفَرَأيْتَ الذي كَفَر بآياتِنَا وقال لا أوتَيَنَّ مالاً وولدًا) إلى قوله ويأتِينا فَرْدا ، وَعِنْدَ أبِي نُعَيْمٍ في الْحِلْيَة عَنْ الشَّعْبِي قالَ سَألَ عُمَر رَضْيَ اللهُ عنهُ بلالاً عَمَّا لَقِي مِن المُشْرِكِينَ فقال خَبَّابُ يا أميرَ المؤمنينَ انْظِرْ إلى ظَهْرِي فَقَالَ عُمَرُ ما رأيت كاليومِ قالَ أوْقَدُوا لِي ناراً فما اطْفَاءَها إلاَّ وَدَكُ ظَهْرِي .

قالَ عِيسى بنُ مَريمَ عليهِ السَّلام ألَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُم مُجالَسَةً قَالَوا بَلى يا رُوح اللهْ قال مَن تُذَكِّرُكُمْ بالله رُؤيَتَه وَيَزِيْدُكُمْ في عَمَلِكم مَنْطِقُه

ويُشَوِّقُكُمْ الى الجنةِ عَمَله ، وقالَ عِيْسَى عليهِ السلامُ لِلْحَوارِّيين وَيْلَكُمْ ، يا عَبيدَ الدُّنـيَا كَيْفَ تُخَالِفُ فُرُوعكُمْ أصُولَكُمْ وَأَهْوَاؤُكُم عُقولَكُمْ قَوْلُكُمْ شِفَاءٌ يُبْرِؤُ الدَّاءَ وَفِعْلِكُمْ دَاءٌ لا يَقْبَلُ الدَّوَاءَ لَسْتُمْ كَالْكَرْمَةِ التي حَسُنَ وَرَقُهَا وطَابَ ثَمَرُهَا وسَهُلَ مُرْتَقَاهَا ولكِنّكُمْ كالسَّمُرَةَ التي قَلَّ وَرَقُها وكَثُرَ شَوْكُها وَصَعُبَ مُرْتَقَاهَا .

وَيْلَكُمْ يَا عَبِيدَ الدُّنْيَا جَعَلْتُم الْعَمَلَ تَحْتَ أقْدَامِكُمْ مَنْ شَاءَ أَخَذَهُ وجَعَلْتُمُ الدّنْيَا فَوْقَ رُؤُسِكُمْ لا يُمْكِنُ تَنَاوُلِها فَلاَ أَنْتُم عبِيْدٌ نُصَحَا ولا أحْرَارٌ كِرامٌ ويْلَكُمْ يا أُجَرَاءَ الـسوءِ الأجْرُ تَأْخُذَونَ والْعَمَلَ تُفْسِدُونَ سَوْفَ تَلْقَوْنَ مَا تَحْذُرُونَ إذَا نَظَر رَبُّ الْعَمَلِ في عَمَلِه الذي أفْسَدتُمْ وأَجْرُهُ الذي أَخَذْتُمْ .

وقَالَ عليهِ السَّلامُ إتَّخِذَوا المساجِدَ بُيوتَا والْبُيُوت مَنازِلَ وَكُلُوا بَقْلَ الْبَرِّيَّةِ واشْرَبُوا الماءَ الْقُرَاحَ وانْجُوا مِنَ الدُّنْيَا سَالِمين وقالَ عليه السَّلامُ لِلَّحَوارِيّين لاَ تَنْظُروا في أعْمَالِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أرْبَابٌ وانـظُروا في أعْمَالِكُمْ كأَنَّكُمْ عَبيدٌ فإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلانِ مُبْتَلىً وَمَعَافَي فارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلا واحْمَدُوا اللَّهَ على الْعَافِيَةِ وقَالْ : عَجَباً لكُمْ تَعْمَلُونَ لِلدُّنْيا وأنْتُم تُرْزَقونَ فِيها بِلا عَمَلٍ ولاَ تَعْلَمُونَ للآخِرَةِ وأنْتُم لا تُرْزَقُونَ فِيها بِلا عَمَلْ .

اللهــم) سَلّمْنَا مَنْ جَمِيع الآفاتْ وعَافِنَا مَنْ أسْبَابِ المِحَنِ والْبَلِيَّاتْ ووفِقْنَا لِلْعَمَلِ بالبَاقِياتِ الصَّالِحاتْ وارْفَعْ لَنَا في مَرْضَاتِكَ الدّرجَاتْ وَمتّعْنَا بالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكريمِ في فَسيحِ الجَنَّاتْ واغْفِر لَنَا ولِوَالِديـنا وجَمِيع المُسْلِمين بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمين وصلى اللهَ على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين .

(فصل)

أخْرَجَ الْبُخَارِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا قالْ لَمَّا بَلَغ أبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال لِأخِيهِ ارْكَبْ إلى هذَا الوادِي فأعْلَمْ عِلْمَ هذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أنه نَبيٌّ يَأتِيهِ الخَبَرُ مِنَ السّماءِ واسْمَع قَوْلَهُ ، ثُمَّ ائْتِنِي ، فانْطَلَق الأخُ حَتَّى قَدِمَهُ وسَمِعَ من قَوْلِهِ ، ثمَّ رجع إلى أبي ذَرّ فقالَ لَهُ رَأيْتُهُ ، يأمُرُ بِمَكارِمِ الأخلاقِ وكَلاماً ما هو بالشعرِ فقالَ شَفَيْتنِي مِمَّا أرَدْتُ .

فَتَزَوَّدَ حِمْلُ شَنَّةٍ فيْهَا مَاءُ حَتَّى قَدِمَ مَكَّة فأتَى المَسْجِدِ فالْتَمَسَ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم ولا يَعْرِفُهْ وَكِرِهَ أنّ يَسْألَ عَنْهُ حَتَّى أدْرَكَهُ بَعْضُ اللّيل اضْطَجَع فَرَآهُ علي رضي اللهُ عنهُ فَعَرَف أنّهُ غَرِيْبُ فَلمَّا رَآهُ تَبِعَهُ فَلمْ يَسْألُ واحِدٌ مِنْهُمَا صَاحبَهُ عنْ شَيءٍ حَتَّى أصْبَحْ .

ثُمَّ احْتَمَلَ قِرْبَتَهُ وزَادَهُ إلى المَسْجِدِ وَظَلَّ ذَلِكَ اليومُ وَلَا يَراهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلّم حَتّى أمسيَ ، فَعادَ إلى مَضْجَعِهْ ، فَمَرَّ بِهِ عَلِيْ فقَالْ أمَا آنَ لِلرّجُلِ أنْ يعْلَمَ مَنْزِلَهْ ، فأقَامَهْ ، فَذَهَبَ بِهِ مَعَهْ ، لا يَسْألُ واحدُ مِنْهُمَا صَاحِبَه عَن شَيْءٍ ، حَتَّى إذا كَانَ يومُ الثالثْ ، فَعادَ عليٌّ مِثْلَ ذلِك فأقَامَ مَعْهُ .

ثُمَّ قالَ ألاَ تُحَدّثْنِي ما الذي أقدَمَكْ قَالْ إنْ أَعْطيْتَنِي عَهْداً وَمِيثاقاً لَتُرْشِدَنِي فَعَلْتُ فَفعَلَ ، فأُخْبَرَهُ قال فإنَّه حقٌّ وهُوَ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم فَإذَا أصْبَحْتَ فاتْبَعْنِي فَإنِّـي إنْ رَأيْتُ شَيْئا أخافُ عليكَ قُمْتُ كأنّي أُرِيقُ الماءَ فإنْ مَضيْتُ فاتَّبِعْنِي حَتَّى تَدْخُلَ مَدْخلِي فَفعَلْ ، فانْطَلَقَ

يَقْفُوهُ ، حتَّى دَخَلَ على النبي صلى الله عليهِ وسلَّمَ وَدخَلَ مَعَهُ فَسَمِعَ مِنْ قوْلِهِ وأسْلَمَ مَكانَهُ فقالَ لَهُ النبيُّ صلى الله علِيهِ وسلمَ إرْجِعْ إلى قومِكْ فأخْبِرْهُمْ حتَّى يأتِيكَ أمْرِي .

قَال والذي نَفْسِي بِيدِهِ لأصْرَخَنَّ بِها بَيْنَ ظهُرانَيهِم ، فَخَرجَ حتَّى أتى المسجدَ فنادَى بأعلى صَوْتِه : أشْهَدُ أنَّ لا اِلهَ الاّ الله وأنّ محمدِ رسولُ الله ، ثم قامَ القومُ فَضَربُوه حَتَّى أضْجَعُوهْ ، وأتى العَبّاسَ فأكَبَّ عليهِ فقال : وَيْلَكُم ألسْتُم تَعْلَمون أنّه مِنْ غِفَار وأنَّ طَريقَ تِجَارَتِكُم إلى الشَّام فأنقذَهُ مِنْهُم .

ثُمَّ عادَ مِن الغد بِمْثِلِهَا ، فَضَربُوهُ وثارُوا إليه فاكَبَّ العَبّاسُ عليه وعِنْدَ البُخاري أيْضا مِنْ حديثِ ابْنِ عَبَّاس رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا فقالَ يا مَعْشَر قُرَيْش ، إنّي أشْهَد أن لا إلهَ إلا الله وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه ورسُولُه فقالوا قُومُوا إلى هذا الصَّابِيءِ فقامُوا فَضُرِبْتُ لأَمُوتَ .

فَأدْرَكَنِي العَبّاسُ فأكَبَّ عَليَّ ثُمَّ أقْبَل عَليهِمْ فَقَالَ ويْلَكُمْ تَقْتُلونَ رَجُلاً مِنْ غِفَارٍ ومَتْجَرُكم وممرّكم على غِفَار فأقْلَعُوا عَنّي .

فَلَمَّا أنْ أصْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قلْتُ بالأمْسَ ، فَقَالُوا قُومُوا إلى هَذَا الصَّابِيء فَصَنَعَ بيَ مِثْلَ ما صَنَعَ بالأمسِ فأدْرَكَنِي العَبَّاسُ فأكَبَّ عَلَيَّ وقالَ مِثلَ مقالتَهُ بالأمس .

وفي الحديثِ الذي أخْرَجَه مُسْلِمُ يقُول أبوُ ذَرٍّ فرَمَانِي النَّاس حَتَّى كأنّي نَصَبُ أحْمَر فاخْتَبَأْتُ بينَ الكعبةِ واسْتَارِهَا ولَبْثْتُ فيها خَمْسَ عَشْرَةَ مِن يَوْمٍ ولَيْلَةٍ مالي طَعامٌ ولا شَرابٌ إلا مَاءُ زَمْزَم .

قالَ ولقَينا رسَولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم ، وأبو بَكْر رضي اللهُ عَنْهُ ، وقَدْ دَخلا المسجد فوالله إنِّي لَأوّلُ النّاسِ حَيَّاهُ بِتَحِيَّة الاسْلامِ فقُلْتَ السَّلامُ عَليْكَ يا رَسُولَ الله فقَال وَعَليْكَ السَلامُ ورَحْمَةَ اللهِ ، مَنْ أنْتَ فقُلْتُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَار فقالْ صَاحِبُه إئْذَنْ لِي يا رَسُولَ الله في ضِيَافةِ الليلة ، فانْطَلَق بِي إلى دَارٍ في أسْفل مكة فقَبَضِ لِي قَبْضَاتٍ مِنْ زَبِيْبْ ، قَالْ فَقَدِمْتُ عَلى أخَي فأخْبَرْتَهُ أنّي أسْلَمْتُ قال فانِّي على دِيْنِكْ ، فانْطَلَقْنَا إلى أُمِّنا فقَالَتْ إنّي عَلى دِيِنِكُما ، قَالْ وأتيتُ قومِي فَدَعوتُهم فَتَبِعَنِي بَعْضُهمْ .

وأخْرَجَهَ الطَّبَراني وأبو نُعْيم في الْحِلْية مِنْ طَرِيقِ ابنِ عَبَّاس رَضْي اللهُ عَنْهما عن أبي ذَرٍ رضْي اللهُ عنه قالْ أقَمْتُ معَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم بِمَكّة فَعَلَّمَني الاسْلامَ وقَرأْتُ مِنَ القُرآنِ شَيْئا فَقُلْتُ يا رسولَ اللهِ اِنّي أرُيدُ أنْ أُظْهَرَ دِيْني فقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم اِنّي أخافُ عليك أَنْ تُقْتَل قُلْتُ لا بُدَّ منه وان قُتِلْتُ قال فَسَكَتَ عني فَجِئْتُ وقُرَيشٌ حِلقاً يَتَحَّدثُونَ في المسجدِ فَقُلْتُ : أَشْهدُ أن لا إلـهَ الا اللهُ وأن محمداً رسولُ الله .

فانْتَفَضَتِ الْحِلَقُ فَقَامُوافَضَربـوني حَتَّى تَركُونِي كَأنّي نُصُبٌ أحْمَرْ ، وكانُوا يَروْنَ أنَّهم قَدْ قَتلُوني ، فأَفَقْتُ فَجِئْتُ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمْ ، فرأَى ما بِي مِنَ الحالْ ، فقالَ ألَمْ أنْهَكْ ، فَقُلتُ يا رسولَ الله كانَتْ حَاجَة في نَفْسِي فَقَضَيْتُها ، فأقَمْتُ مَع رسولَ الله صلى اللهُ عليهِ وسلَّم ، فقالَ الْحَقْ بِقَوْمِكَ فَاذا بَلَغَكَ ظُهُورِي فأْتِني .

وعَنْ أبي ذرٍ رضْيَ اللهُ عَنْهُ قَال أَتَيْتُ مَكَّةَ فَمالَ عليَّ أهْلُ الوادي بكُلِ مَدَرَةٍ ، وعَظْمٍ فَخَرَرْتُ مَغْشياً عَليَّ ، فارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ كأنّي نُصُبٌ أحْمَرُ .

موعظة

عِبَادَ اللهِ تَزَوَّدُوا لِلرَّحِيْلِ فَقَدْ دَنَتْ الآجَالُ واجْتَهِدُوا واسْتَعِدّوا لِلرَّحِيْل فقَدْ قَرُبَ الارْتِحَالُ وَمَهّدُوا لأنْفُسِكُمْ صَالِحَ الأعْمَالِ فإن الدُّنيا قد آذَنَتْ بالفِرَاقِ وإنّ الآخِرَةَ قَدْ أشْرَفَتْ لِلتَّلاَقِ فَتَزَوّدُوا مَن دَارِ الانْتِقَالُ إلى دَارِ القَرَار .

واسْتَشْعِرُوا التَّقْوَى في الأَقْوالِ والأَفْعَالِ وأحْذَرُوا التَّفَاخُرَ والتكَاثُرُ في الدنيا بِجَمْعِ الحُطَامِ واكْتِسَابِ الآثامِ وإيّاكُمْ والاغْتِرار بالآمَالِ فوراءَكُمْ المَقَابِرُ ذَاتُ الوَحْشَةِ والهُمُوْمُ والغُمُـومِ والكُرُبَـاتُ وتَضَايِقُ الأنْفَاسِ والأهوالِ المُفْضِعَاتِ .

فَسَوْفَ تَرَوْنَ ما لَمْ يَكُنْ لَكُمْ في حِسَابِ إذَا نُودِيْتُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً مُهْطِعْينَ إلى الدّاعي وَتَعَلَّقُ المَظْلُومُون بالظَّالِمْينَ ووَقَفْتُمَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العالَمِينَ وَحَلَّ بِكُمْ كَرْب المقَامِ واشْتَدَّ بالْخَلْقِ في ذَلِكَ الموقِفُ الزِّحَامُ وأُخِذَ المجرِمُوْن بالنَّواصِي والاقْدامِ وبَرَزَتْ جَهَنَّم تُقَادُ بِسَبْعِيْنَ أَلْفِ زِمَام مَعَ كُلِّ زمامٍ سَبْعُونَ ألفَ مَلَكٍ يَجُهرونَها والخَزَنَةُ حَوْلَهَا غِلاَظُ شِدَادٌ .

وَيُنَادِي عِنْدَ ذَلِكَ العزيزُ الحَميدُ الجَبَّارُ فَيَقُولُ هَلْ امْتلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيد هُنالِكَ يَنْخَلِع قَلْبُكَ وَتَتَذَكَّرُ ما فَرَّطتَ فيه مِن الأوقَاتِ وَتَتَندَمُ

ولاتَ ساعةَ مَنْدِمٍ وَتَتَمَنَّى أنْ لو زِيدَ في الحَسَنَاتِ وخُفِّفَ مِن السَّيِئَآتِ ولكن أنَّى لَكَ بِهَذَا وَهَيْهَات ﴿هُنالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أسْلَفَتْ وَرُدُّوا إلى اللهِ مَوْلاَهُمْ الحَقُّ وَضَلَّ عَنْهم ما كانُوا يَفْتَرُون﴾ .

اللَّهُم وفِّقْنا للاسْتِعْـدَادِ لِمَا أَمَـامَنَا ، اللَّهُمَّ وَقَـوِّي إيْمَانَنَـا بِكَ وَبِمَلاَئِكَتِكَ وَبِكُتُبِكَ وبِرُسُلِكَ وباليومِ الآخر وبالقَدر خَيرِهِ وشَرِهِ ، اللَّهُمَّ نوِّر قُلُوبَنَا واشْرَحْ صُدُورَنَا وَوَفِّقْنَا لِمَا تُحِبّهُ وَتَرْضَاهُ وأَلْهِمْنَا ذِكْركَ وشُكْرك وأَعِذْنَا مِن عَدُوِّكَ واغفِر لَنَا ولِوَالِدَيْنا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

مَا أصَابَ سَعِيْدَ بن زَيدٍ وَزَوْجَتَهُ فَاطِمَةَ أُخْتَ عُمَرَ أَخْرجَ ابنُ سَعْدٍ عَن أنسٍ رَضيَ اللهُ عنه قالَ خَرجَ عُمَرُ مُتَقَلِّداً السَّيْفَ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ من بَنِي زُهْرَةَ قال أَيْنَ تَعْمِدُ يا عُمَرُ فقالَ إرِيْدُ أَنْ أَقْتُلَ مُحَمَّداً قالَ وكَيْفَ تَأْمَنُ مِن بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي زُهْرَةَ إذا قَتَلْتَ مُحَمَّداً قالَ فقال لَهُ عُمَرُ ما أراكَ إلا قَدْ صَبأتَ وَتَرَكْتَ دِيْنَكَ الذي كُنْتَ عليه فَقَالَ أفلا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَعْجَبُ مِن ذَلِكَ قَالَ وَمَا هُو قَالَ أُخْتُكَ وَخَتَنُكَ قَدْ صَبَوا وتَرَكَا دِيْنَكَ الذي أَنْتَ عليه .

قال فَمَشِيَ عُمَرُ ذَامِراً حَتَّى أَتَاهُمَا وعِنْدَهُمَا رَجُلٌ مِن المُهَاجِرِيْنَ يُقَالُ خَبَّابُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال فَسَمِعَ خبابُ حِسَّ عُمَرفَتوارَى فَدَخلَ عَلَيْهِمَا فقال ما هَذِهِ الهَيْمَنَةُ التي سَمِعْتُهَا عِنْدَكُم قال وكانُوا يَقْرؤ نَ (طه) فَقَالا ما عَدَا حَدِيْثاً تَحدَّثْنَاهُ بَيْنَنا قَال فَلَعَلَّكُما قَدْ صَبوتُما .

قال فقال لَهُ خَتَنُهُ أَرَأَيْتَ يا عُمَرُ إِنْ كَانَ الحَقُّ في غَيْرِ دِيْنِكَ فَوَثَبَ عُمَرُ على خَتَنِهِ فَوطأَهُ وَطأً شَدِيْداً فَجاءَتْ أُخْتُهُ فَدَفَعَتْهُ عن زَوْجِها فَنَفَحَهَا بِيَدِهِ ـ أَيْ لَطَمَهَا ـ فَدَمَّى وَجْهَهَا فَقَالَتْ وهي غَضْبَى يَا عُمَرُ إِنْ كَانَ الحَقُّ في غَيْرِ دِيْنِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وأَشْهَدُ أن مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ .

فَلَمَّا يَئِسَ عُمَرُ قال أَعْطُونِي الكِتَابَ هَذَا الذي عِنْدَكُم فاقْرأهُ قال وَكَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ الكُتُبَ فقالَتْ أُخْتُهُ: إِنك رِجْسٌ ولا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُوْنَ فاغْتَسِلْ وَتَوَضَأْ قالَ فَقَامَ وَتَوَضَّأَ ثُمَّ أَخذَ الكتابَ فَقرأَ طه حَتَّى انْتَهَى الى قولِهِ «انَّنِي أنا اللهُ لا إِلهَ إِلا أَنا فاعْبُدْنِي وأقم الصلاةَ لِذِكْرِي» قال فقال عُمَرُ دُلُونِي على مُحَمَّدِ فَلَمَا سَمِعَ خَبَابُ قَوْلَ عُمَرَ خَرجَ مِن البَيْتِ فَقَالَ أَبْشِرْ يَا عُمَرُ فإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ دَعْوَةُ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَكَ لَيْلَةَ الخميسِ .

اللَّهُم أَعِزَّ الأسلامَ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَابِ أَوْ بِعُمَرَ بنِ هِشَامٍ قَالَ ورسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم في الدارِ التي في أصلِ الصَّفَا فانطَلَقَ عُمَرَ حَتَّى أَتَى الدارَ .

قال وعلى بابِ الدارِ حَمْزَةُ وَطَلْحَةُ رضِي اللهُ عَنْهُمَا وأُنَاسٌ مِن أَصْحَابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فَلَمَّا رَأى حَمْزَةُ وَجَلَ القَوْمِ مِن عُمَرَ قال حَمْزَةُ . نَعمْ فَهَذَا عُمَرُ فإِنْ يُرِدِ اللهُ بِعُمَرَ خيراً يُسْلِمْ وَيَتْبَعْ النبيَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم وَإِنْ يُرِدْ اللهُ غَيْرَ ذلكَ يكن قَتْلُهُ علينا هَيِنًا .

قال ورسول الله صلى اللهُ عليه وسلم دَاخِلٌ يُوحيَ إِلَيْهِ قال فَخَرجَ رَسُولُ الله صَلى اللهُ عَليهِ وسلم حتى أتى عُمَرُ فَأَخذَ بِمَجَامِعِ ثَوْبِهِ

وَحَمَائِلِ السَّيْفِ وقال مَا أنْتَ بِمُنْتَهٍ يَا عُمَرُ حَتَّى يُنَزِلُ اللهُ بِكَ مِن الخِزْيِ والنُكَالِ مَا أَنْزَلَ بالوَلِيْدِ بنِ المُغِيْرَةِ اللهم هَذا عُمَرُ بنُ الخطابِ اللَّهُم أَعِزَّ الدِيْنَ بِعُمَرَ بنِ الخطابِ قال فقالَ عُمَرُ أَشْهَدُ أنكَ رَسُولُ اللهِ فأَسْلَمَ وقَالَ أُخْرُجْ يا رسولَ اللهِ .

أخرج أَبُو نُعَيْم في الحِلْيَةِ عن عُثْمَانَ قال لَمَّا رَأَى ابنُ مُظْعُونٍ رَضي اللهُ عَنْهُ ما فيهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم مِن البلاء وهُو يَغْدُوْ ويَرُوحُ في أَمَانٍ من الوَلِيدِ بنِ المغيرةِ ، قال واللهِ إنَّ غُدُوِّي وَرَوَاحِي آمِناً بِجِوَارِ رَجُلٍ مِن أهْلِ الشِرْكِ وأَصْحَابِي وأَهْلُ دِيْنِي يَلْقَوْنَ مِن الأَذَى والبَلاَءِ ما لا يُصيبُنِي لَنَقْصٌ كَبِيْرٌ في نَفْسِي .

فَمَشَى إلى الوَلِيدِ بنِ المغِيرَةِ فقال له يَا أبَا عَبْدِ شَمْسٍ وَفَتْ ذِمَّتُكَ قَدْ رَدَدْتُ إليكَ جِوارَكَ قالَ لِمَ يَا ابْنَ أَخِي لَعَلَّهُ آذَاكَ أَحَد مِن قَوْمِي قَالَ لاَ ولكِنِّي أَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولا أُرِيْدُ أَنْ أَسْتَجِيْرَ بِغَيْرِهِ قال فانطلقْ إلى المَسجِدِ فارْدُدْ عَلَيَّ جِوارِي عَلاَنِيَةً كَمَا أَجَرْتُكَ عَلانِيَةً .

قال فانْطَلَقَا ثم خَرَجَا حَتى أَتَيَا المسجِدَ فقال لَهُم الولِيْدُ هذا عُثْمانُ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ جَاءَ يَرُدُ عَلَيَّ جِوَارِي قَالَ لَهُم قَدْ صَدَقَ قَدْ وَجَدْتُهُ وَفِياً كَرِيْمَ الجِوَارِ ولكِنِّيْ أَحبَبْتُ أنْ لا أَسْتَجِيْرَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ رَدَدْتُ عليهِ جِوارَهُ .

ثم انْصَرَفَ عُثْمَانُ وَلَبِيْدُ بنُ رَبِيْعَةَ بنُ مَالِكِ بنُ كِلاَبِ القَيْسِي في المَجْلِسِ مِن قُرَيْشٍ يُنْشِدُهُم فَجلَسَ مَعَهُم عُثْمَانُ فَقَالَ لَبِيْدُ وَهُوَ يُنْشِدُهُم : الاَ كُلُّ شَيءٍ مَاخَلاَ اللهَ بَاطِلُ .

فقال عُثْمَانُ صَدَقْتَ فَقَالَ : وكُلُ نَعِيْمِ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ ، فقال عثمانُ كَذَبْتَ نَعِيْمُ الجَنَّةِ لا يَزُوْلُ قال لَبِيْدُ بنُ رَبِيعَةَ يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَاللهِ مَا كَـانَ يُؤْذِى جَلِيْسُكُم فَمَتى حَدَثَ فِيْكُم هَذَا فَقَالَ رَجُلٌ مِن القَوْمِ إنَّ هَذَا سفِيْهٌ في سُفَهَاءٍ مَعَهُ قَدْ فَارَقُوا دِيْنَنَا فَلاَ تَجِدَنَّ في نَفْسِكَ مِن قَوْلِهِ فَرَدَّ عَلَيهِ عُثْمَانُ حَتَّى سَرَى ـ أَيْ عَظُمَ أَمْرُهُمَا فقَامَ إليه ذَلِكَ الرَّجُلُ فَلَطَمَ عَيْنَهُ فَخَظَّرَهَا والْوَلِيْدُ ابنُ المُغِيْرَة قَرِيْبٌ يَرَى مَا بَلَغَ مِن عُثْمَانَ .

فَقَالَ أَمَا وَاللهِ يَا ابْنَ أَخِي إنْ كَانَتْ عَيْنُكَ عَمَّا أَصَابَهَا لَغِنِيَّةٌ لَقَدْ كُنْتَ في ذِمَّةٍ مَنِيْعَةٍ فَقَالَ عُثمانُ بَلَى واللهِ إن عَيْنِيْ الصَحِيْحَةُ لَفَقِيْرَةٌ إلى مَا أَصَابَ أُخْتَهَا في اللهِ وإني لَفِيْ جِوَارِ مَنْ هُوَ أَعزُّ مِنْكَ وأَقدَرُ يَا أبَا عَبْدِ شَمْسٍ وَقَالَ عُثْمانُ بنُ مظعون فِيْمَا أَصِيْبَ مِن عَيْنِهِ :

فإِنْ تَكُ عَيْنِي في رِضَى اللهِ نَـالَهَا
يَـدَا مُلْحِدٍ في الـدِّيْنِ لَيْسَ بِمُهْتَـدِ
فَقَـدْ عَـوَّضَ الـرَّحْمَنُ مِنْهَـا ثَــوَابَـهُ
وَمَن يُـرْضِهِ الـرحمنُ يا قَـوْمُ يَسْعَدِ
فـإِنّـي وَقَــدْ قُلْتُـمْ غَــوِيٌ مُـظَلَّلٌ
سَفِيْـهٌ على دِيْنِ الـرَّسُـولِ مُحَمَّـدِ
أُرِيْــدُ بــذَاكَ الحَقَ والـحَقُ دِيْـنُنَـا
على رَغْمِ مَن يَبْغِي عَلَيْنَـا وَيَعْتَدِي

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فصل)

أَخْرَجَ ابنُ سَعْدٍ عَن مُحَمَّدٍ العَبْدَرِي عن أَبِيْهِ قَالَ كَانَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ فتى مَكَةَ شَبَابَاً وجَمالاً وكانَ أبوَاهُ يُحِبَانِهِ وكانَتْ أُمَّهُ مَلِيْئَةً ـ أيْ غَنِيَةَ كَثِيْرَةَ المالِ ـ تَكْسُوهُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِن الثِيَابِ ، وأَرَقهُ ، وكَانَ أعْطَرَ أَهْلِ مَكَّةَ ، يَلْبَسُ الحَضْرَمِيَّ مِن النِعَالِ ، فَكَانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُهُ ويَقُولُ ، ما رَأَيْتُ بِمَكَةَ أَحْسَنَ لِمَّةً ، ولاَ أَرَقَّ حُلَّةً ، ولا أنعَمَ نِعْمَةً مِن مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ .

فَبَلَغَهُ أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم يَدْعُو إِلَى الإِسلامِ في دَارِ أَرْقَمَ ، فَدَخَلَ عليه فأَسْلَمَ ، وصَدَّقَ بِهِ ، وَخَرَجَ فكَتَمَ اسْلاَمَهُ ، خَوْفَاً مِن أُمِّهِ وَقَوْمِهِ ، فكَانَ يَخْتَلِفُ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم سِراً ، فبَصَرَ به عُثْمَانُ بنُ طَلْحَةَ يُصَلِّي فأخبَرَ أمَّهُ وقَوْمَهُ ، فَأَخَذُوْهُ فَحَبَسُوهُ فَلَمْ يَزَلْ مَحْبُوْسَاً ، حتى خَرَجَ إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ في الهِجْرَةِ الأُوْلَى ، ثم رَجَعَ مَعَ المسلمين حِيْنَ رَجَعُوا ، فَرَجَعَ مُتَغَيَّرَ الحالِ قَدْ حَرِجَ فَكَفَتْ أُمُّهُ عَنْهُ مِن العَذْلِ .

وأخرَجَ الطَّبراني والبَيْهَقِي عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه قال نَظَرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلى مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُقْبِلاً عَلَيْهِ إهابُ كَبْشٍ ـ أَيْ جِلْدِ كَبْشٍ ـ (قد تَنَطَّقْ به) ـ أَيْ شَدَّهُ في وَسَطِهِ ، فقال « أنْظُرُوا إلى هذا الذي نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ ولَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبوَيْن يَغْذُوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ والشَّرابِ ، ولَقَدْ رَأيتُ عليه حُلَةً شَرَاهَا ـ أَوْ شُرِيَتْ ـ بِمَائَةِ دِرْهَمٍ فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ ورسولِهِ إلى مَا تَرَوْنَ .

وأخرج الترمذيُ وحَسَّنَهُ أَبُو يَعْلى وابنُ رَاهُوَيهْ عن علي رضي الله عنه ، قال خَرَجْتُ في غَداةٍ شاتِيَةٍ مِن بَيْتِي جَائِعاً حرصاً قَدْ أَذْلَقِني البَرْدُ ، فأخذْتُ إهَاباً مَعْطُوناً كانَ عِندَنَا فَجَبَبْتُهُ .

ثم أَدْخَلْتُهُ في عُنُقِي ثم حَزَمْتُه على صَدْرِي أَسْتَدْفِيء بِهِ ، فَوَاللهِ مَا فِي بَيْتِي شَيء آكلُ منه ، ولوَ كانَ في بَيْتِ النبي صلى الله عليه وسلم لَبَلَغَنِي ، فَخَرجْتُ في بَعْضِ نَواحِيَ المدِيْنَةِ ، فاطَّلَعْتُ إلى يَهُوْدِي في حَائِطٍ مِن ثَغْرَةِ جِدَارِهِ ، فقالَ مَالَكَ يا أَعْرَابِي هَلْ لَكَ في كُلّ دَلْوٍ بِتَمْرَةٍ ، فَقُلْتُ نَعَمْ فافْتَحْ الحَائِطَ فَفَتَحَ لِي فَدَخَلْتُ فَجعَلْتُ أَنْزِعُ دَلْواً وَيُعْطِيْنِي تَمْرَةً حتَّى امْتَلاءَتْ كَفِيْ ، قلْتُ حَسْبِي مِنْكَ الآنَ .

ثم جِئْتُ إلى النبي صلى اللهُ عليه وسلم فَجَلَسْتُ إليهِ في المَسْجِدِ ، وهو في عِصَابَةٍ مِن أَصْحَابِه فاطَّلَعَ عَلَينَا مِصْعَبُ ابنُ عُمَيْرٍ رَضِي اللهُ عنه في بُرَدَةٍ لهُ مَرْقُوعَةٍ ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذَكَرَ مَا كَانَ فيهِ مِن النَّعِيْمِ ورَأى حَالَهُ الذي هوُ عليها فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَبكَى ثم قالَ كيفَ أنتُمْ إذا غَدَا أَحَدُكُم في حُلَّةٍ وراحَ في أُخْرَى ، وسُتِرَتْ بُيوتِكم كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ قلنا نَحْنُ يومَئِذٍ خَيْرٌ نُكْفَى المؤنَةَ ، ونَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ ، قال بل أَنْتُمُ اليومَ خَيرٌ مِنكمُ يَوْمَئِذٍ والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فصل)

قِصَّةُ عَبدِ اللهِ بن حُذَافَةَ السَّهْمِي قِصَّتُهُ مَعَ مَلِكِ الفُرْسِ مَشْهُورةُ وذَلكَ أنَّهُ في السنةِ السادسةِ مِن الهِجرةِ ، حِيْنَ عَزَمَ النبي صلى

اللهِ عليه وسلم أن يَبْعَثَ بَعْضَ أصحابِهِ بكُتُبٍ إلى مُلُوكِ الأَعَاجِمِ ، يَدْعُوهُم إلى الاسلام .

ولقد كانَ صلى اللهُ عليه وسلمَ يُقَدِّرُ خُطُورَةَ هَذِهِ المُهِمَّةَ فَهَؤُلآء الرُسُلُ سَيذهَبُوْنَ إلى بِلادٍ نائِيَةٍ لَا عَهْدَ لَهُمُ بِهَا مِن قَبْلُ ، يَجْهَلون لُغاتِهِم ولا يَعْرِفُونَ شَيْئاً عَن أخْلاَقِ مُلُوكِهِم ، ثم إنَّهُمْ سَيَدْعُوَنَ هَؤُلآءِ إلى تَرْكِ مَا عَلَيه آبَاؤُهُمْ والدُخُولِ في دِينِ الإِسلامِ الذي هوضِدُ مَا هُمْ عليه مِن الإِلْحَادِ والكُفْرِ .

إنَّها رِحْلَةٌ خَطِيْرَةٌ الذَاهِبُ إلَيْهَا مَفْقُودٌ ، والعَائِدُ مِنْهَا مَوْلُودٌ ، لِذَلِكَ جَمَع المصطفى صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ أصْحَابَهُ وقَامَ فِيْهِم خَطِيْباً ، فَحَمَدَ اللهَ وأثنى عليه ، وتَشَهَّدَ ثم قَالَ أمَّا بَعْدُ فإني أُرِيْدُ أَنْ أَبْعَثَ بَعْضَكُم إلى مُلُوكِ الأَعَاجِم ، فلا تَخْتَلِفُوا عَليَّ ، كَما اخْتَلَفَتْ بَنْوا اسْرائِيلَ عَلى عِيْسَى بنِ مَرْيَمَ .

فقالَ أَصْحَابُ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَحْنُ يا رَسُولَ اللهِ نُؤَدِيْ عَنْكَ مَا تُرِيْدُ ، فأبْعِثْنَا حَيْثُ شِئْتَ ، انْتَدَبَ صلى الله عليه وسلم سِتَّةً مِن الصَّحَابَةِ لِيَحْمِلُوا كُتُبَهُ إلى مُلُوكِ العَرَبِ والعَجَم ، وكان أحَدُ هَؤُلآء السِّتةِ ، عَبدُ اللهِ ابنُ حَذافةَ السَّهْمِي ، اختارَهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِه إلى كِسْرَى مَلِكِ الفُرْسِ .

فَجهَّزَ عَبدُ اللهِ رَاحِلَتَهُ وَودَّعَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ ، ومَضَى إلى غَايَتِهُ تَرْفَعه النِّجَادُ وتَحُطُهُ الوِهَادِ ، حَتى بَلَغَ دِيَارَ فَارِسَ ، فاسْتَأذَنَ بالدُخُولِ عَلَى مَلِكَهَا ، وأخْطَرَ أَعْوَانَ الملكِ بالرِسَالَةِ التي يَحْمِلُها بانَّهَا ذاتُ اهْتِمَامٍ .

عِندَ ذَلِكَ أَمَرَ كِسْرَى بإيْوَانِهِ فزُيِّنَ ، ودَعَا عُظَمَاءَ فَارِسَ لِحُضُورِ مَجْلِسِه ، فَحَضَرُوا ، ثم أذنَ لِعَبْدِ اللهِ بن حُذَافَة بالدُخُول ، فَدَخَلَ عَبدُ اللهِ بنُ حُذَافَةَ على سَيِّدِ فَارِسَ ، مُشْتَمِلاً شَمْلَتَهُ ، مُرْتَدِياً عبَاءَتَهُ الصَّفِيْقَةَ ، عَليه بَسَاطَةُ الأَعْرَابِ .

لَكِنَّهَ عَالِي الهَامَةِ ، مَشْدُوْدَ القَامَةِ ، تَأَجَّجُ بَيْنَ جَوَانِحِه عِزَّةُ الإسلام فَلَمَّا رَآهُ كِسْرَى مُقْبِلاً أشَارَ إلى أحدِ رِجَالِه بأنْ يأخُذَ منه الكتابَ .

فقال لَا : إنَّما أَمَرَني رَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم أنْ أَدْفَعَهُ لكَ يَداً بيَدٍ ، لا أخالفُ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ كِسْرَى لِرِجَالِهِ أتْرُكُوهُ يَدْنُو مِنِّي ، فَدَنَا مِن كِسْرَى ، فَنَاوَلَهُ كِتَابَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِيَدِهِ .

ثم دَعَا كِسْرَى كَاتِباً عَرَبياً مِن أَهْلِ الحِيْرَة وأَمَرَهُ أَنْ يَفُضَّ الكتابَ بينَ يَدَيْهِ ، وأنْ يَقْرَأ عَلَيه ، فاذا فيه « بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم مِن مِحَمَّدٍ رسولِ الله إلى كِسْرَى عَظِيْمِ فَارِسَ ، سَلاَمٌ ، على مَن اتبعَ الهُدَى » .

ولما سَمِعَ كِسْرَى هَذَا المِقْدَارَ مِن الرِّسَالَةِ اشْتَعَل غَضَبُهُ في صَدْرِهِ فاحْمَرَّ وَجهُهُ ، وانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ ، لِأَنَّ النبيَ صَلَى اللهُ عليه وسلم بَدَأَ بِنَفْسِهِ ، فَجذَبَ الرِّسالَة من يَدِ كاتِبِهِ ، وجَعَل يُمَزِّقُهَا ، دُوْنَ أَنْ يَعْلَمَ ما فِيها ، ويَقُولُ أيَكْتُبُ لِي بِهذا وهُوَ عَبْدِي .

ثم أَمَرَ بعَبْدِ اللهِ بنِ حُذَافَةَ أَنْ يُخْرَجَ مِن مَجْلِسِه ، فأُخْرِجَ مِن

المَجْلِس ، وهُوَ لا يَدْرِي مَاذَا يَكُونُ بعدَ ذلكَ ، لكنّهُ مَا لَبِثَ أنْ قَالَ والله مَا أُبَالِي عَلى أيّ حَالٍ أكُوْن بَعْدَ أنْ أدَيْتُ كِتَابَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ورَكِبَ رَاحِلَتَهُ وانْطَلَق .

ولما سَكَتَ غَضَبُ كِسْرَى ، أَمَرَ أنْ يَرُدُوْهُ إليه ، فالتَمَسُوْهُ فلم يَجدُوهُ ، فارْسَلُوا في أثرِهِ ، وطَلَبُوهُ في الطَّرِيقِ ، فَلَمْ يَجدُوْهُ ، فَلمَّا قَدِمَ عَلى رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَخْبَرَهُ بمَا كَانَ مِن أَمْرِ كِسْرَى ، وتَمْزِيْقِهِ الكتابَ ، فمَا زَادَ عليه الصلاةُ والسلامُ علي أنْ قال « مَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ » .

أمَّا كِسْرَى فَكَتَبَ إلى باذَانَ نَائِبَهُ على اليمنِ ، أَنْ أبْعَثْ إلَى هَذَا الرجُلِ الذي ظَهَرَ بالحِجَازِ رَجُلَينِ جَلْدَيْنِ مِن عِنْدَكَ . ومُرْهُمَا أَنْ يَأتِيَانِ بِهِ ، فَبَعَثَ باذانُ رَجُلَينِ مِن خِيْرَةِ رِجَالِهِ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وحَمَّلَهُمَا رِسَالَةً لَهُ يأمُرُهُمَا بأدَائِها لَهُ ، ويأمُرهُ فِيها بأنْ يَنْصَرِفَ مَعَهُمَا إلى لِقَاءِ كِسْرَى دُوْنَ إبْطَاءً .

وطَلَبَ إلى الرَّجُلَين أنْ يَقِفَانِ على خَبَرِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم أنْ يَسْتَقْصِيَا أَمْرَهُ ، وأنْ يَأتِيَاهُ بمَا يَقِفانِ عليه مِن أمْرِهِ مِنْ مَعْلُوماتٍ .

فَخَرَجَ الرَّجُلانِ حَتَّى بَلَغَا الطَّائِفَ ، فَوَجَدَا رِجالاً تُجَّاراً مِن قُرَيْشٍ فَسَألَاهُم عنِ مُحمد عليه السلامُ ، فقالُوا هُوَ في يَثْرِبَ ، ثم مَضَى التُجَارُ إلى مَكةَ فَرَحِيْنَ مُسْتَبْشِرِيْنَ ، وجَعَلوُا يُهَنُونَ قُرَيْشاً ، ويَقُولُونَ قُرُّوْا عَيْناً فإنَّ كِسْرَى تَصَدَّى لِمُحَمَّدٍ وَكَفَاكُمْ شَرَّهُ .

أمَّا الرَّجُلانِ فَيَمَّمَا وَجْهَيْهِمَا شَطْرَ المَـدِيْنَةِ ، حَتَّى إذا وَصِلَا إلَيْهَا ،

لَقِيا النَّبيَ صلى اللهُ عليه وسلم ودَفَعَا إليه رِسَالَةَ بَاذَانَ ، وقالاَ لَهُ إن مَلِكَ المُلُوكِ كِسْرَى كَتَبَ إلى مَلِكِنَا بَاذَانَ أنْ يَبْعَثَ إليكَ مَن يَأْتِيْهِ بِكَ .

وقَدْ أتَيْنَاكَ لِتَنْطَلِقَ مَعَنَا فإنْ أَجَبْتَنَا كَلَّمْنَا كِسْرَى بِمَا يَنْفَعُكَ ، ويَكُفَ أذاهُ عَنكَ ، وإنْ أبَيْتَ فَهُو مَن قَدْ عَلِمْتَ سَطْوَتَهُ ، وبَطْشَهُ ، وقُدْرَتَهُ عَلى إهلاكِكَ ، واهْلاكِ قَوْمِكَ .

فَتَبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم ، وقال لَهُمَا إرْجِعَا إلى رِحَالِكُمَا اليَوْمَ ، وأْتِيَا غداً ، فَلَمَّا غَدَوَا عَلَى النبي صلى اللهُ عليه وسلم في اليَوْمِ التَالِي ، أخْبَرَهُمَا بأنَّ اللهَ قَتَلَ كِسْرَى حَيْثُ سَلَطَ عليه ابنَهُ « شِيْرَوِيْهِ » في لَيلَةِ كَذا مِن شَهرِ كَذَا .

فَحَدَّقَا في وَجْهه وبَدَتْ الدَّهْشَةُ على وَجْهَيْهِمَا ، وقَالاَ أَتَدْرِيْ ما تَقُولُ أنَكْتُبُ بذَلَكَ لِبَاذَانَ ، قال نَعَمْ وقُولاَ لَهُ إنَّ دِيْنِي سَيَبْلُغُ ما وَصِلَ إليه مُلْكُ كِسْرَى ، وإنَّكَ إنْ أسْلَمْتَ ، أَعْطَيْتُكَ ما تَحْتَ يَدَيْكَ ، وَمَلَكْتُكَ عَلى قَوْمِكَ وخَرَجَ الرَّجُلانِ مِن عندِ الرسولِ صَلواتُ اللهِ وسلامه عَليهِ وقَدِمَا عَلى بَاذانَ وأَخْبَرَاهُ الخَبَرَ .

فقال لئِنْ كَانَ مَا قَالَهُ مُحَمدٌ حَقاً فَهُو نَبِيٌ وإنْ لَم يَكُنْ كَذَلِكَ فَسَنَرَى فِيه رَأَياً فلَمْ يَلْبَثْ أنْ قَدِمَ عَلى بَاذانَ كِتَابُ شِيْروِيْهِ .

وفيه يَقُولُ أَمَّا بَعْدُ فَقَد قَتَلْتُ كِسْرَى ولَمْ أَقْتُلْهُ إلا انْتِقاماً لِقَومِنَا فَقَدْ اسْتَحَلَّ قَتْلَ أَشْرَافِهم وسَبَي نِسَائِهَمُ وانْتَهَبَ أمْوَالَهمُ فاذَا جَاءَكَ كِتابِي هَذا فخذْ لِيْ الطاعةَ مِمَّنْ عِندَكَ .

فلَمَّا قَرأَ باذانُ الْكِتَابَ كِتاب شَيْروِيْهِ طَرحَهُ جانِباً وَأَعْلَنَ دُخُوْلَهُ في الاسْلامِ وَأَسْلَمَ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ الفُرْسِ باليَمَنِ انْتَهى .

اللهُمَّ هَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لِعَبادِكَ الاخْيَارِ وَانْظُمْنَا في سِلْكِ المُقَرَّبِيْنَ والابْرَارِ وآتِنَا في الدُّنْيا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا ولِجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللهُ على مُحمدٍ وعَلَى آلهِ وَصَحْبِه أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ وَقِصَّتُهُ مَعَ مَلِكِ الرُّوْمِ

أَخْرَجَ الْبَيْهَقيُّ وَابْنُ عَسَاكِرَ عنْ أَبيْ رَافِعٍ قَال وَجَّهَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَيْشاً إلى الرَّوْمِ وَفِيْهِمْ رَجُلٌ يُقالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ مِنْ أَصْحَابِ النّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، فَأَسَرَهُ الرُّوْمُ فَذَهَبُوا بهِ إلى مَلِكِهِمْ فقَالُوْا لَهُ إنَّ هَذَا مِنْ أصْحَابِ مُحَمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فقَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ هَلْ لَكَ أَنْ تَنصَّرَ وأُشْرِكَكَ في مُلْكِيْ وَسُلْطَانِيْ .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ أَعْطَيْتَنِيْ مَا تَمْلِكُ وَجَمِيْعَ مَا مَلَكَتْهُ الْعَرَبُ عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِيْنِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ مَا فَعَلْتُ ، قَالَ إذاً أَقْتُلُكَ قَال أَنْتَ وَذاكَ ، فَأَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ ، وَقَالَ لِلرُّمَاةِ أرمُوهُ قَرِيْباً مِنْ بَدَنِهِ قرِيْباً ، مِن رِجْلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ وَهوَ يَأْبَى .

ثُمَّ أمَرَ بِهِ فَأُنْزلَ ثُمَّ دَعَا بِقْدِرٍ فَصُبَّ فِيْهِ حَتَّى احْترَقَ ، ثُمَّ دَعا بِأسيْرَين مِنْ المُسْلمينْ فَأَمَرَ بِأَحدِهِمَا فَأُلْقيَ فِيْهَا ،وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ ، وَهُوَ يَأْبَى ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقيَ فِيْها ، فَلَمَّا ذُهِبَ بِهِ بَكَى ،

فَقِيْلَ لَهُ إِنَّهُ قَدْ بَكى فَظَنَّ أَنَّهُ جزِع ، فَقَالَ رُدُّوْهُ فَعرَضَ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ فَأَبَى فَقَالَ مَا أَبْكَاكَ إِذاً .

قَالَ أَبْكَانِيْ أَنِّيْ قُلْتُ في نَفْسِيْ تُلْقَى السَّاعَةَ فِي هَذَا الْقِدْرِ فَتَذْهَبَ فكُنْتُ أشْتَهِيَ أنْ يَكُونَ بِعَدَدِ كُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسدِيْ نَفْسٌ تُلْقَى فِي اللَّهِ قَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ هَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِيْ وَأُخَلِيَّ مِنْكَ ، قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ وَعَنْ جَمِيْعِ أُسَارَى المُسْلِمِيْنَ ، قَالَ وعَنْ جَمِيْعِ أُسارَى الْمُسْلِمِيْنَ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَقُلْتُ فِيْ نَفْسِي عَدُوٌّ مِنْ أَعْدَاء اللَّهِ ، أُقَبِّلُ رَأْسَهُ يُخَلِّي عَنّي وَعَنْ أُسَارَى الْمُسْلِمِيْنَ ، لا أُبالِيْ فَدَنَا مِنْهُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الأُسَارَى ، فَقَدِمَ بِهِمْ عَلَى عُمَرُ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ عُمَرُ حَقٌّ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ ، وأَنَا أَبْدَأ فَقَامَ عُمَرُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ .

شعرا :

أَسِيْرُ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ يَقْرَعُ
يَخَافُ وَيَرْجُو الفَضْلَ فَالْفَضْلُ أَوْسَعُ
مُقِرٌّ بِأثْقَالِ الذُّنُوْبِ وَمُكْثِرٌ
وَيَرْجُوكَ فِي غُفْرانِهَا فَهْوَ يَطْمَعُ
فَإِنَّكَ ذُوْ الإِحْسَانِ وَالْجُوْدِ وَالْعَطَا
لَكَ الْمَجْدُ وَالإِفْضَالُ وَالْمَنُّ أَجْمَعُ
فَكُمْ مِنْ قَبِيْحٍ قَدْ سَتَرْتَ عَنَ الْوَرَى
وَكَمْ نِعَمٌ تَتْرَى عَلَيْنَا وَتَتْبَعُ

وَمَنْ ذَا الـذَّيْ يُرْجَى سِواكَ وَيُتقَّى
وَأَنْتَ إِلــهُ الْخَلْقِ مَـا شِئْتَ تَصْنَــعُ
فَيَـا مَنْ هُوَ الْقُـدُّوْسُ لاَ رَبَّ غَيْـرَهُ
تَبَـارَكْتَ أَنْتَ اللَّهُ لِلْخَلْقِ مَـرْجِـعُ
وَيا مَنْ عَلَى العَرْشِ اسْتَـوى فَوْقَ خَلْقِهِ
تَبَـارَكْتَ تُعْطِى مَنْ تَشَـاءُ وتَمْنَعُ
بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى وَأَوْصَافِكَ الْعُلَى
تَـوَسَّـلَ عَبْـدٌ بَـائِسٌ يَتَضَـرَّعُ
أَعِنِّيْ على المَـوْتِ الْمَرِيْـرَةِ كَـأْسُـهُ
إذا الـرُّوْحُ مِنْ بَيْنِ الْجَوانِـحِ تُنْزَعُ
وَكُنْ مُؤْنِسِي في ظُلْمَةِ الْقَبْرِ عِنْدَمَا
يُـركِّمُ مَنْ فَـوْقِـيْ التُّـرَابُ وَأُوْدَعُ
وَثَبِّتْ جَنَـانِيْ لِـلسُّؤَالِ وَحُـجَّتِـيْ
إِذَا قِيْـلَ مَنْ رَبٌّ وَمَنْ كُنْتَ تَتْبَـعُ
وَمِنْ هَوْلِ يَوْمِ الحَشْرِ وَالْكَرْبِ نَجِّنِيْ
إِذَا الرُّسْلُ وَالأَمْـلاكُ وَالنَّاسُ خُشَّعُ
وَيَا سَيِّدِيْ لاَ تُحزِنِيْ فِي صَحِيْفَتِيْ
إِذَا الصُّحْفُ بَيْنَ الْعَـالَمِينْ تُـوَزَّعُ
وَهَبْ لِيْ كِتَـابِي بِـالْيَمِـيْنِ وَثَـقِّلَنْ
لِمِيْزَانِ عَبْـدٍ فِي رَجَـائِكَ يَـطْمَعُ
وَيَـارَبِّ خَلِّصْنِيْ مِنَ النَّـارِ إِنَّهَـا
لَـبِئْسَ مَقَـرٌّ لِـلْغُـوَاةِ وَمَـرْجِـعُ

أَجِـرْنِيْ أَجِـرْنِيْ يَـا إِلَهِيْ فَلَيْسَ لِيْ
سَـوَاكَ مَـفَـرٌّ أَوْ مَـلاَذٌ وَمَـفْـزَعُ
وَهَبْ لِيْ شِفَـاءً مِنْكَ رَبِّي وَسَيِّـدِيْ
فَمَنْ ذَا الـذِيْ لِلضُّـرِّ غَيْـرُكَ يَـدْفَـعُ
فَـأَنْتَ الَّـذِيْ تُـرْجَى لِكَشْفِ مُلَمَّـةٍ
وَتَسْمَـعُ مُضْـطَرًّا لِبَـابِـكَ يَقْـرَعُ
فَقَدْ أَعْيَتِ الأَسْبَابُ وَانْقَـطَعَ الرَّجَـا
سِوَى مِنْكَ يَـا مَنْ لِلْخَلائِقِ مَفْـزَعُ
إِلَيْـكَ إِلَهِي قَـد رَفَعْتُ شِكَـايَتِيْ
وَأَنْتَ بِمَـا أَلْقَـاهُ تَـدْرِي وَتَسْمَـعُ
فَفَـرِّجْ لَنَا خَـطْباً عَـظِيْماً وَمُعْضَـلاً
وَكَـرْبَـاً يَكَـادُ الْقَلْبُ مِنْـهُ يُصَـدَّعُ
وَمَـاذَا عَـلى رَبِّي عَـزِيْـزٌ وَفَضْلُهُ
عَلَيْنَـا مَدَى الأَنْفَـاسِ يَهْمِي وَيَهمَعُ
فَكَمْ مِنَحٍ أَعْـطَى وَكَمْ مِحَنٍ كَفَى
لَـهُ الْحَمْدُ والشُّكْـرانُ وَالْمَنُّ أَجْمَـعُ
وَأَزْكَـى صَـلاَةِ الـلَّهِ ثُـمَّ سَـلاَمُـهُ
عَلى الْمُصْطَفَى مَنْ في الْقِيَامَةِ يَشْفَعُ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِصَالِحِ الأَعْمَال وآتِنا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةَ وفِيْ الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيْعِ الْمُسْلِمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

« سَعِيْدُ بْنُ عَامِرٍ الْجُمَحِيُّ وخُبَيْبُ »

خُبَيْبُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ أَحَدُ الْمُعَذَّبِيْنَ فِي اللَّهِ الثَّابِتِيْنَ عَلَى الْأيْمَانِ بِاللهِ ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَمِمَّنْ حَضَرَهُ يَوْمَ قَتْلِهِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ سَعِيْدُ بنُ عَامِرٍ الجُمَحِيُّ خَرَجَ إِلَى التَّنْعِيْمِ فِيْ ظَاهِرَةِ مَكَّة بِدَعْوَةٍ مِنْ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ لِيَشْهَدَ مَعَهُمْ مَصْرَعَ خُبَيْبٍ بْنِ عَدِيٍّ أَحَدِ صَحَابَةِ مُحَمَّدٍ بَعْدَ أَنْ ظَفِرَ بِهَ الأَعْدَاءُ الْمُشْرِكُونَ غَدْراً .

وَقَدْ أَقْدَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَتمكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ أَسِيْرِ قُرَيْشٍ مُكَبَّلاً بِقُيُودِهِ يُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ ، فَوَقَفَ سَعِيْدُ يُطِلُّ عَلَى خُبَيْب وَهُوَ يُقَدَّمُ إِلَى خَشَبَةِ الصَّلْبِ وَسَمِعَ صَوْتَ خُبَيْبٍ الثَّابِتُ الهَادِئ يَقُولُ إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَتْرُكُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ مَصْرَعِيْ فَافْعَلُوا .

ثُمَّ نَظَرَ سَعِيْدُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْن يَا لِحُسْنِهِمَا وَيَا لِتَمَامِهِمَا وَسَمِعَهُ وَهُوَ يَقُولُ لَوْلاَ أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي أَطَلْتُ الصَّلاَةَ جَزَعَاً مِنَ الْمَوْتِ لاَ اسْتَكْثَرْتُ مِنَ الصَّلاَةِ .

ثُمَّ رَأَى الْمُشْرِكِيْنَ وَهُمْ يُمَثِّلُوْنَ بِخُبَيْبٍ حَيَّاً وَيُقْطَعُوْنَ مِنْهُ الْقِطْعَةُ تِلْوَ الْقِطْعَةِ وَيَقُولُوْنَ لَهُ أَتُحِبّ أَنْ يَكُوْنَ مُحَمَّدٌ مَكَانَكَ وَأَنْتَ نَاجٍ ، فَيَقُوْلُ وَالدِّمَاءُ تَنْزِفُ مِنْهُ والرُّوْحُ تَتَسَلَّلُ مِنْ بَدَنِهِ ، وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ آمِناً وَادِعَا فِي أَهْلِي وَوَلَدِيْ وَأَنَّ مُحَمَّدَاً يُوخَزُ بِشَوْكَةٍ .

ثُمَّ أَبْصَرَ سَعِيْدُ بْنُ عَامِرَ خُبَيْباً وَهُوَ يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ فَوقِ

خَشَبَةِ الصَّلْبِ وَهُوَ يَقُوْلُ اللَّهُمَّ احْصِهِمْ عَدَداً وَاقْتُلْهُمْ بَدَداً وَلاَ تُبْقِي مِنْهُمْ أَحَداً ثُمَّ خَرَجَ رُوْحُهُ الطَّيِّبَةُ وَبِهِ الشَّيْءُ الْكَثِيْرُ مِنْ ضَرَبَـاتِ السُّيُوفِ وَطَعَنَاتِ الرِّمَاحِ .

ثُمَّ إِنَّ سَعِيْدَاً أَخَذَ دَرْسَا ، فَعَلِمَ إِنَّ الْحَيَاةَ الْحَقَّةَ عَقِيْدَةٌ ، وَجِهَادٌ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ حَتَّى الْمَوْتِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الأَيْمَانَ الثَّابِتَ لاَ يُزَلْزِلُهُ شَيْءٌ البتَّةَ .

وَعَلِمَ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِيْ تَبْلُغُ مَحَبَّتُهُ وَالذَّبُّ عَنْهُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ إِنَّمَا هُوَ رَسُولٌ مُؤَيَّدٌ مِنَ السَّمَاءِ ، عِنْدَ ذَلِكَ شَرَحَ الله صَدْرَ سَعِيْدِ بْنِ عَامِرٍ لِلْإِسْلَامِ ،فَقَامَ فِي مَجْمَعٍ مِنَ النَّاسِ وَأَعْلَنَ بَرَاءَتَهُ مِمَّا عَلَيْهِ الْمُشْرِكُوْنَ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ، وَهَاجَرَ سَعِيْدُ ابْنُ عامِرٍ إِلَى الْمَدِيْنَةِ ، وَلَزِمَ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ وَشَهِدَ مَعَهُ خَيْبَرَ ، وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْغَزَوَاتِ .

وَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَلَّ سَيْفاً ، مَسْلُوْلاً فِيْ يَدَيْ خَلِيْفَتَيْ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبِيْ بَكْرٍ وَعُمَرَ وَكَانَا يَعْرِفَانِ لَهُ صِدْقَهُ وَتَقْوَاهُ .

وَلَمَّا آلَتِ الْخِلاَفَةُ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَتَاهُ سَعِيْدُ فَقَالَ لَهُ ، يَا عُمَرُ أُوْصِيْكَ أَنْ تَخْشَى اللهَ فِي النَّاسِ ، وَلاَ تَخْشى النَّاسِ فِيْ اللَّهِ ، وَأَنْ لاَ يُخَالِفَ قَوْلُكَ فِعْلَكَ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ .

يَا عُمَرُ أَقِمْ وَجْهَكَ لِمَنْ وَلاَّكَ اللَّهُ أَمْرَهُ مِنْ بَعِيْدِ الْمُسْلِمِيْنَ وَقَرِيْبِهِمْ وَأَحبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ ، وأَكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ ، وَخُضْ الْغَمَرَاتِ إِلى الْحَقِّ وَلاَ تَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ .

فقالَ عمرُ ، وَمَنْ يَسْتَطِيْعُ ذلكَ يا سَعِيْدُ ، فقالَ يَسْتَطِيْعُهُ مِثْلُك مِمن وَلَّاهُم اللهُ أمْرَ أمةِ محمّدٍ ، ولَيْس بينَهُ وبينَ اللهِ أحَدٌ ، عِندَ ذلِكَ دَعَا عُمَرُ سَعِيداً إلى مُسَاعَدَتِهِ فقالَ له إنا مُوَلُوكَ حِمْصَ .

فقالَ يا عُمَرُ نَشَدْتُكَ اللهَ أَنْ لَا تَفْتِنِيْ فَغَضِبَ عُمَرُ وقالَ وَيْحَكُمْ وَضَعَتُمْ هذا الأَمْرَ في عُنُقِي ثم تَخَلَّيْتُمْ عَنِي ، واللهِ لا أدَعُكَ ثم ألزَمَهُ بِحِمْص وقالَ ألَانَفْرِضُ لَكَ رِزقا قالَ وما أفْعَلُ بهِ يا أميرَ المؤمنينَ فإن عَطائِي مِنْ بَيْتِ المالِ يَزِيْدُ عنْ حاجَتِي .

ثم مَضَى وَالِياً على حِمْص وما مَضَى إلا زَمَن يَسِيرٌ حَتَى جاءَ بعضُ أهلِ حِمْص إلى عُمَرُ فقال اكتُبُوا أسْماءَ الفُقَراءِ عِنْدَكُم بحِمْص حتى أسُدَّ حاجَتَهم ، فرَفعوا لهُ كِتَابا فيه بعضُ الفقراءِ الموجودِين بِحِمْص ومن جملةِ الفقراءِ المكتُوبِين ، سَعِيْدٌ بنُ عامِرٍ الجُمَحِي .

فقالَ عُمَرُ مَنْ سَعِيْدُ بنُ عامِرٍ ، فقالُوا أمِيْرُنَا قالَ أَمِيرُكُم فَقِيرٌ ، قالوا نَعَمَ ، واللهِ إنه لَيَمُرُ عَلَيْهِ الأَيَّامُ الطِّوَالُ ، ولا يوقد في بيته نارٌ ، فبكى عمر رضي الله عنه بكاءً شديداً ، حتى بَلَّتْ دُمُوْعُهُ لِحْيَتَهُ .

ثمَّ عَمَدَ إلى ألِفِ دِينَارٍ فَجعَلَهَا في صُرَّةٍ وقالَ اقرؤُا عليهِ السَلام وقُولُوا لهُ يَسْتَعِيْنُ بِهَذا عَلَى قَضاءِ حَوَائِجِهِ فَجَاؤُهُ بِهَا فلما نَظَرَ إلَيْهَا وأخْبَرُوهُ ، جَعَلَ يُبْعِدُهَا عَنْهُ ، ويَسْتَرْجِعُ .

فَجاءَتِ زَوْجَتُهُ وقالَتْ لَهُ ما شأَنَك ، أمَاتَ أميرُ المُؤمنينَ ، قَالَ بلْ أعظَمَ مِنْ ذَلِكَ ، قالتْ وما ذَاكَ ، قَالَ دَخلَتْ عليَّ الدنيا لِتُفْسِدَ آخِرَتِي وَحلَّتِ الفِتْنَةُ في بَيْتِي ، قَالَتْ تَخَلَّصْ مِنها ، قال هَلْ تُعِينِيْني على

ذَلِكَ ، قَالَتْ نَعَمْ فَوَزَّعَهَا على فُقَرَاءِ المسلمينَ .

ثم لَمْ يَمْضِ إلا مُدَّةٌ يَسِيْرَةٌ حَتَّى أتى عُمَرُ إلى حِمْص يَتَفَقَّدُهَا وَيَسْأَلُ عن أميرِهِمْ وسِيرَتِهِ مَعَهُم ، وهَلْ نَقِمُوْا عليه بِشَيء ، فَذَكَرُوا أَرْبَعَ مَسَائِلَ .

أَحَدُها قالوا إِنَّهُ لا يَخرجُ إلينا حَتَّى يَتَعَالَى النهارُ ، فسأل عُمَرُ سعيداً لِمَاذا فَقَالَ إني أكرَهُ أن أقولَ ذلكَ ، ولكن حَيْثُ أَنَّهُ لا بُدَّ مِن تَوْضِيحِهِ ، فإِنَّهُ ليسَ لأهْلِي خادِمٌ فأقُومُ الصبحَ فأعْجِنُ لَهُم عَجِيْنَهُم ، ثُمَّ أنتظرُهُ يَخْتَمِرُ ، ثمَّ أَقُومُ فأخْبِزُهُ لهم ، ثم أتَوَضَّأ وأخرُجُ إليهم .

وأما الثانيةُ فقالوا إنه لا يُجِيْبُ أَحداً بالليل ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ عن ذلك فقال إني أَكْرَهُ أنْ أذكُرَهُ ، ولكن لِمَا أَنَّهُ لا بُدَّ مِن ذلكَ فإني قد جَعَلْتُ النهارَ لهم ، ولِرَبّي عَزَّ وجَلَّ الليلَ .

قال عمرُ وما هي الثالثةُ قالوا إنه لا يَخْرُجُ يوماً مِن كُلِ شَهْرٍ ، فسأله فقال إنهُ لَيْسَ لِي خادِمٌ ، وليس عِندي ثِيَابٌ غَيْرَ التي عليَّ فَأنا أَغْسِلُهَا في الشهر مَرَّةً ، وأنتظِرُهَا حتى تَجِفَّ ، ثم أخرجُ إليهم آخِرَ النهار .

وأما الرابعةُ فقالوا إنه تُصِيْبُهُ غَشْيَةٌ في بَعْضِ الأَوْقَاتِ فَيَغِيْبُ عَمَّنْ في المجلِسِ ، فَسَأَلهُ عمرُ عَنْهَا فقال إني حَضَرْتُ مَصْرَعَ خُبَيْبٍ بن عَدِيَ ، وأنا مُشْرِكٌ وَرَأيْتُ قُرِيشاً تُقَطِعُ جَسَدَهُ وهيَ تَقُولُ أَتُحِبُ أن يكونَ مكانَكَ مُحَمَّداً ، فقال واللهُ ما أُحِبُ أن أكونَ آمِناً وأهلي وَوَلَدِي وأَنَّ مُحَمَّداً تَشُوْكُهُ شَوْكَةٌ .

فإذا ذَكَرتُ ذلكَ المَشْهَدَ وأني لَم أَنْصُرهُ ظَنَنْتُ أنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ لِي فَتُصِيبُنِيْ تِلْكَ الغَشْيَةُ ، ثم بَعَثَ لَهُ عُمَرْ بألفِ دِينارٍ يَسْتَعِينُ بها على حَوَائِجِه ، فَلَمَّا عَلِمَتْ زَوْجَتُهُ قالَتْ الحمدُ لِلهِ الذي أغنانا عَن خِدْمَتِكَ اشْتَرْ لنا مَؤُنَةً واستأجِرْ لنا خَادِماً فقالَ لَهَا وَهَلْ لكَ فِيْمَا هُوَ خَيْرٌ مِن ذَلِكَ قَالَتْ وَمَا ذَاكَ قال نَدْفَعُهَا إلى مَنْ يَأْتِيْنَا بِهَا وَنَحْنُ أُحوجَ مَا نَكُونُ إليهَا قَالَتْ وَمَا ذَاكَ قال نُقْرِضُهَا اللهَ قَرْضَاً حَسَنَاً قالَتْ نَعَمْ وَجُزِيْتَ خَيْرَاً فَمَا قَامَ مِن مَجْلِسِهِ حَتَّى وَزَّعَهَا عَلَى الأَيْتَامِ والأَرَامِلِ والمَسَاكِين فَرَضِيَ اللهُ عنه وأرضَاهُ لَقَدْ كَانَ مِن الذِينَ يُؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ أ هـ باختصار .

شعرا :

وما النـاسُ إلَّا رَاحِلُونَ وَبَيْنَهُمْ
رِجَالٌ ثَوَتْ آثارُهُم كالمَعَالِمِ
بِعِـزَّةِ بَـأْسٍ واطِّـلَاعِ بَصِيْـرَةٍ
وَهَـزَّةِ نَفْسٍ واتِّسـاعِ مَـرَاحِـمِ
حُظُوظُ كَمَالٍ أَظْهَـرَتْ مِن عَجَائِبٍ
بِمِرْآتِ شَخْصٍ مَا اخْتَفَى في العَوَالِمِ
وما يَسْتَطِيْعُ المَرءُ يَخْتَصُّ نَفْسَهُ
أَلَا إنَّمـا التَّخْصِيْصُ قِسْمَـةُ رَاحِمِ
وَمَنْ عَـرَفَ الـدُّنْيَا تَيَقَّنَ أَنَّهَـا
مَـطِيَّـةُ يَقْـظَانٍ وَطَيْفَـةُ حَـالِـمِ
فللهِ سَـاعٍ في مَنَاهِـجِ طَـاعَـةٍ
لإِيـلَافِ عَـدْلٍ أو لإِتْـلَافِ ظَالِمِ

اللهم طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِن النِّفَاقِ وأخلصْ عَمَلَنَا مِن الرياءومَكْسَبَنَا مِنَ الرِبَا ونَوِّرْ قلُوبَنَا بِنُورِ الإِيمانِ وَثَبِّتْهَا على طَاعَتِكَ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين يا أرحم الراحمين وصلى اللهُ على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

قصة

لِلْبَراءِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِي

للبَرَاءُ بنُ مالك الأنصاري أَخُو أنَسِ بنِ مالكٍ خادِمِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم كان البَراءُ شجَاعَاً قَتَلَ مَائةً مِنَ المشركينَ مُبَارَزَةً وهو وَحْدَهُ غَيْرَ الذين قَتَلَهُمْ في غِمَارِ المَعَارِكِ مَعَ المحاربين .

وَبَعْدَ أن التَحَقَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلام بالرَّفِيقِ الأَعْلَى إرْتَدّ قَبَائلُ مِن العربِ وخَرَجُوا مِن الاسلامِ ، ولم يَبْقَ الَّا أهْلُ مكةَ والمدينةَ ، وجماعاتٍ مُتَفَرِّقَة هُنا وهُناكَ ، مِمَّنْ ثَبَّتَ اللهُ قُلُوبَهُم على الإيمان .

وَصَمَدَ الصّدِيْقُ رضيَ اللهُ عنهُ لِهَذِهِ الفِتْنَةِ المُدَمِّرَةِ العَمْياءِ صُمُودَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ، وَجَهَّزَ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصارِ أَحَدَ عَشَرَ جَيْشاً .

وَعَقَدَ لِقَادَةِ هذِهِ الجُيُوشِ أحدَ عَشَرَ لِوَاءَ ، وَدَفَعَ بِهِمْ في أَرْجَاءِ جَزِيْرَةِ العَرَبِ لِيُعِيدُوا المُرْتَدِيْنَ إلى سَبِيْلِ الهُدَى والحَقِ .

وكانَ أَقوَى المُرْتَدين بأْسَاً وأَكْثَرُهُم عَدَداً بَنُوا حَنِيفَةَ ، أَصْحابُ مُسَيْلَمَةِ الكذَّابِ فقد اجتَمَعَ مَعَ مُسَيْلَمَةَ مِن قَومِهِ وحُلَفَائِهِ أربَعُونَ ألفاً

وكانَ أكثرُهُم قَدْ اتَّبَعُوا مُسيلمَةَ عَصَبِيَّةً لا إيماناً بِهِ .

فَلِذَلِكَ صَرَّحَ بَعْضُهُمْ وقالَ أشْهَدُ أنَّ مُسَيْلَمَةَ كَذَّابٌ وَمُحَمَّدَاً صَادِقٌ لكِنْ كَذَّابَ رَبيعَة أحَبُّ إلينا مِنَ صَادِقِ مُضَرَ : قَدَّرَ اللهُ أنَّ جَيْشَ مُسَيْلَمَةَ يَهْزِمُ أَوَلَّ جَيْشٍ خَرَجَ إلَيْهِ مِنْ جُيُوشِ المسلمين بِقِيَادَةِ عِكرِمَةَ بنِ أبي جَهْل .

فَأَرْسَلَ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ جَيْشَاً ثانياً بِقِيَادَةِ خالِدِ ابنِ الوَلِيدِ حَشَدَ فيهِ وُجُوهَ الصَّحَابَةِ مِن المهاجِرينَ والأنصار .

وكانَ في طَلِيْعَةِ هَؤُلاَءِ وهَؤُلاَءِ البَرَاءُ بن مَالِكِ الأَنْصَارِي وَنَفَرٌ مِن كُمَاةِ المسلمين ، والتَقَا الجَيْشَانِ في أَرْضِ اليَمَامَةِ ، فَما هُوَ إلاّ أَنْ رَجَحَتْ كِفَةُ مُسَيْلَمَةَ وأَصْحَابِهِ وَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ تَحْتَ أقْدَامِ المُسْلِمِيْنَ وَطَفِقُوا يَتَرَاجَعُونَ عن مَوَاقِفِهِمْ حَتَّى اقْتَحَمَ قَوْمُ مُسَيلَمَةَ وَمَنْ مَعَهُمْ فُسْطَادَ خالدِ بنِ الوليدِ واقْتَلَعُوهْ مِنْ أُصُولِهِ .

عِندَ ذلِكَ شَعُرَ المُسْلِمُونَ بالخَطَرِ الدَّاهِم وأَدْرَكُوا أَنَّهُمْ إنْ يُهْزَمُوْا أَمامَ مُسَيْلَمَةَ فَلَنْ تَقُومَ للإسلامِ قائِمَةٌ ، وهَبَّ خالِدٌ إلى جَيْشِهِ فَأَعَادَ تَنْظِيْمَهُ فَمَيَّزَ المهاجِرِيْنَ عن الأنصارِ ، وَمَيَّزَ أَبْنَاءِ البَوَادِي عَنْ هَؤُلاَءِ وهـؤُلاَءِ ، وَجَمعَ أَبْنَاءَ كُلِّ أَبٍ تَحْتَ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ لِيَعْرِفَ بَلاَءَ كُلِّ فَرِيْقٍ مِنْهُمْ ، وَلْيَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ المُسْلِمُوْنَ .

ثُمَّ دَارَتْ رَحَى الحَرْبِ مَعْرَكَةٌ ضَرُوسٌ لَمْ يُعْرَفْ لَهَا نَظِيْرٌ ، وَثَبَتَ قَوْمُ مُسَيْلَمَةِ في سَاحَاتِ الوَغَى ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَلَمْ يُبالُوا بِكَثْرَةِ ما قُتِلَ مِنْهُمْ ، وَأَبْدَى المُسْلِمُوْنَ مِنْ الشَّجَاعَةِ وَالبُطُولَةِ ما لَوْ جُمِعَ لَكَان

مَلْحَمَةً مِنْ رَوَائِعِ المَلاَحِمْ .

فَهَذَا ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ حَامِلُ لِوَاءِ الأنْصَارِ يَتَحَنَّطُ وَيَتَكَفَّنُ وَيَحْفِرُ لِنَفْسِهِ حُفْرَةً في الأرضِ فَيَنْزِلُ فِيْهَا إلى نِصْفِ سَاقِهِ وَيَبْقَى ثَابِتاً يُجَالِدُ عَنْ رَايَةِ قَوْمِهِ حَتَّى خَرَّ صَرِيْعاً شَهِيْدَاً .

وَهَذَا زَيْدُ بنُ الخَطَّابِ أَخُو عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يُنَادِي في المُسْلِمِيْنَ أيُّها النَّاسُ عُضُوا عَلَى أَضْرَاسِكُمْ واضْرِبُوْا في عَدُوِّكُمْ وَامْضُوا قُدُمَاً أَيُها النَّاسُ وَاللهِ لاَ أَتكَلَّم بَعْدَ هَذِهِ الكَلِمَةِ أَبَدَاً حَتَّى يُهْزَمَ مُسَيْلَمَةُ أَوْ أَلْقَى اللَّهَ ، فَأُدْلِيَ إِلَيْهِ بِحُجَّتِي ، ثُمَّ كَرَّ عَلَى قَوْمِهِ فَمَا زَالَ يُقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ .

وَهَذَا سَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ يَحْمِلُ رايَةَ المُهَاجِرِيْنَ فَيَخْشَى عَلَيْهِ قَوْمُه أَنْ يَضْعُفَ أَوْ يَتزَعْزَعْ فَقَالُوا لَهُ إِنَّا لَنَخْشَى أَنْ نُؤْتَى مِنْ قِبَلِكَ فَقَالَ إنْ أُتِيْتُمْ مِنْ قِبَلِي فَبِئْسَ حَامِلُ القُرآنِ أكُوْنُ ، ثمَّ كَرَّ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ كَرَّةً بَاسِلَةً حَتَّى أُصِيْبَ .

فَلَمَّا رَأَى خَالِدُ أَنَّ الوَطِيْسَ حَمِيَ وَاشْتَدَّ التَفَتَ إلى البَرَاءِ بنِ مَالِكٍ وَقَالَ إِلَيْهِمْ يا فَتَى الأَنْصَارِ ، فالْتَفَتَ البَرَاءُ إلى قَوْمِهِ وَقَالَ يَا أَهْلَ المدِيْنَةِ لا يُفكِّرَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالرُّجُوْعِ إلى يَثْرِبَ ، فَلا مَدِيْنَةَ لَكُم بَعْدَ اليَوْمِ ، وَإِنَّمَا هُوَ اللهُ وَحْدَهُ ، ثُمَّ الجَنَّةُ .

ثُمَّ حَملَ عَلَى الأَعْدَاءِ وَحَمَلُوا مَعَهُ وَانْبَرَى يَشُقُّ الصُّفُوْفَ ، وَيُعْمِلُ السَّيْفَ في رِقَابِ أَعْدَاءِ اللهِ حَتَّى زُلْزِلَتْ أَقْدَامُ مُسَيْلَمَةَ وَأَصْحَابِهِ ، فَلَجَؤُوا إلى الحَدِيْقَةِ المَعْرُوْفَةِ بِحَدِيْقَةِ المَوْتِ لِكَثْرَةِ مَنْ قُتِلَ فِيْهَا في ذَلِكَ

الْيَوْمِ فَأَغْلَقَ مُسَيْلَمَةُ وَالآفُ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ الأَبْوابَ وَتَحَصَّنُوا بِعَالِي جُدْرَانِهَا وَجَعَلُوا يُمْطِرُوْنَ المُسْلِمِيْنَ بِنَبَالِهِمْ مْنْ دَاخِلِهَا فَتَسَاقَطُ عَلَيْهِمْ تَسَاقُطَ المَطَرِ .

عِنْدَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ البَرَاءُ بنُ مَالِكٍ وقَالَ يا قَوْمُ ضَعُوني عَلَى تُرْسٍ وارْفعُوا التُرْسَ عَلَى الرِمَاحِ ثَمَّ اقْذِفُوْنِي بالحَديقَةِ قريباً مِنْ بَابِهَا فإمَّا أنْ أُسْتَشْهَدَ وإمَّا أَنْ أَفْتَحَ لَكُمْ البابَ وفي زَمَنٍ يَسِيْرٍ جلَسَ البَرَاءُ عَلَى التُرْسِ وَرَفَعَتْهُ الرِّمَاحُ وألقَتْهُ في حَدِيقَةِ الموتِ قُرْبَ البابِ بينَ الآلافِ المؤلفةِ مِن جُنْدِ مُسَيْلَمَةَ .

فَنَزَلَ عليهِم نُزُوْلَ الصَّاعِقَةِ فجالَدهُمْ أمَامَ بَابِ الحَدِيقَةِ حتّى قَتَلَ عَشْرَةً مِنْهُمْ وَفَتَحَ البابَ لِلْمُسْلِمِيْنَ وبهِ بِضْعٌ وثَمانُون جُراحةٌ فَتَدَفَّقَ المُسلِمُوْنَ على الحَدِيقَةِ مِن حِيطانِهَا وَأَبْوَابِها وَاعمَلُوا السُيُوفَ في رِقَابِ المرتدِينَ حتّى قَتلُوا مِنهم قَرِيْباً مِن عِشْرِيْنَ ألفاً وَوَصَلُوا إلى مُسَيْلَمَةَ الكذابِ فقَتَلُوه .

ثُمَّ حَمَلُوا البَرَاءَ بنَ مالِكٍ الى رَحْلِهِ لِيُدَاوى فيهِ وأقامَ عليهِ خالدُ ابنُ الوَلِيْدِ شَهْراً يُعَالِجهُ حَتَّى أذِنَ اللهُ لهُ بالشِفَاءِ وَظَلَّ البَرَاءُ بعدَ ذَلِكَ يَتَمَنّى الشهادَةَ التي فاتَتْهُ يومَ الحَدِيْقَةِ حتّى كان فَتْحُ تَسْتُرَ مِن بلادِ الفُرْسِ في إحْدَى القِلاعِ المُمرّدَةِ .

فَحَاصَرَهُمْ المُسْلِمُوْنَ وأحاطُوا بِهِمْ فَلَمَّا طَالَ الحِصَار واشْتَدَّ البَلاءُ على الفُرْسِ جَعَلُوا يُدْلُوْنَ مِن فَوْقِ أَسْوَارِ الْقَلْعَةِ سَلاَسِلَ مِن حَدِيْدٍ عُلِقَتْ بها كَلاَلِيبُ مِن فُولاَذِ حُمِّيَت بِالنار فَكَانَتْ تَنْشَبُ في أَجْسَادَ المُسْلِمِيْنَ

وَتَعْلَقُ بِهِمْ فَيَرْفعوْنَهُمْ إلَيْهِمْ إمَّا مَوْتى وإلا عَلى وشَك المَوتِ فعَلِقَ كَلُوْب منها بِأنَسِ بن مِالِكٍ أخِي البَرَاءِ بنِ مالك .

فَوَثَبَ البَرَاءُ على جِدَارِ الحِصْن وأَمْسَكَ السِّلْسِلَةَ التِي مَسَكَتْ أخَاهُ وَجعَلْ يُعَالِجُ الكُلَّابَ لِيُخْرِجه مِن جَسَدِ أَخِيْهِ وأخذَتِ يَدَاهُ تَحْتَرِقُ فَلَمْ يُبالِ إلى أنْ خَلَّصَ أَخَاهُ وَهَبَطَ إلى الأرض بَعْدَ أنْ صَارَتْ يَدُه عِظَاماً لَيْسَ عَلَيْهَا لَحْمٌ ثُمَّ دَعَا البَرَاءُ رَبَّهُ أَنْ يَرْزُقَه الشهادَةَ فأجَابَ اللهُ دعاءَه واسْتَشْهَدَ رضيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاهُ أ هـ باختصار مِنْ صُوَر مِنْ حَيَاة الصحابَةِ رضيَ اللهَ عنهم .

شعرا :

لَهَفِيْ عَلَى سُرُجِ الدُنْيَا الَّتِي طَفِئتْ
وَلاَ يَـزَالُ لَهَـا في النـاسِ أنـوَارُ
لَهَفِيْ عليهم رِجـالاً طَـالَمَـا صَبَـرُوْا
وَهـكَـذَا طَـالِبُ الـعَلْيَـاءِ صَبَّـارُ
لَهَفِيْ عَلَيْهِم رَجَـالاً طـالَمَـا عَـدَلُـوا
بينَ الأَنَـامِ ومـا حَـابَـوْا ولا مَـارُوا
مـالُـوا يَمِيْنَـاً عن الـدنيا وَزَهْـرَتِهـا
لأِنـهـا في عُـيُـونِ القَـوْمِ أَقْـذَارُ
وَصَـاحَبُـوْهـا بـأجْسَـادٍ قَلُوبُهُـم
طَيْرٌ لَهَا في ظِـلاَلِ العَرْشِ أَوْكَـارُ

اللهم قَوِّ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وثَبِّتْنَا عَلَى قَولِكَ الثابِتِ فِي الحياةِ الدُنْيَا وفي الآخِرَةِ واجعلنا هداةً مُهْتَدِيْن سِلْمَاً لأوليائِكَ حرباً لأعدائِكَ واغفر لنا

ولوالدينا وجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصَلَى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

قصة

لِأُم سَلَمَةَ وما حَصَلَ لَهَا مِنْ الأذَى

اسْمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّة سَيِّدٌ مِن ساداتِ مَخْزُومِ المَرْمُوقِيْنَ وجَواداً يُقَالُ له زَادُ الراكِبِ لأنَّه إذا سَافَرَ لا يَتْرك أحداً يُرَافِقُهُ ومَعَهُ زَادٌ بل يَقُومُ بِرِفْقَتِهِ مِن الزَّادِ ، وَزَوْجُ أمّ سَلَمَةَ عبدُ اللهِ بنُ عَبْدِ الأسَدِ أَحَدِ العشرةِ السابقينَ إلى الاسلامِ لم يُسْلمِ قَبْلَهُ إلا أَبُو بَكْرٍ وَنَفرٌ قليلٌ .

أَسْلَمَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مَعَ زَوْجِهَا فَكَانَتْ هيَ الأُخْرَى مِن السابِقاتِ إلى الإِسلاَمِ ، ولَمَّا شَاعَ خَبَرُ اسْلاَمِهَا هَاجَتْ قُرَيْشٌ وَجَعَلَتْ تَصُبُّ عَلَيْهِمَا الأَذى الشَّدِيْدُ ، فلَمْ يُؤَثِّرْ بِهِمَا ولم يُزَلْزِلْهُمَا ولَمْ يَتَرَدَّدَا .

وَلَما اشْتَدَّ عَلَيْهِمَا الأَذَى وأذنَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم لِأَصْحَابِهِ بالهِجْرَةِ إلى الحَبَشَةِ كَانَا فِي طَلِيعَةِ المُهَاجِرِيْنَ وَمَضَتْ أُمُ سَلَمَةَ وَزَوْجُها إلى دِيَارِ الغُرْبَةِ وَخَلَّفَتْ وَراءَهَا في مَكةَ بَيْتَها الفَسِيْحَ العَالي ، وَعِزَّها الشَّامِخَ ، وأقْرِبَائها وَمالَها ، مُحْتَسِبَةً الأَجْرَ مِن العَلِيِّ العَظِيم مُحْتَقِرَةً ما تَرَكَتْ في جَانِبِ مَرْضَاةِ اللهِ .

وبِالرَّغْمِ مِمَّا حَصَلَ لِأُمّ سَلَمَةَ وَمَن هَاجَرَ مَعَهَا مِن الحَفَاوَةِ والاكْرَامِ والتَقْدِير ، فَقَدْ كانَ الشَّوْقُ يَحْدُوْهَا إلى مَهْبَطِ الوَحْيِ وإلى النبِي الكريم .

ثم تَتَـابَعَتِ الأَخْبَارُ عَلَى المُهَـاجِرِيْنَ إلى أَرْضِ الحَبَشَـةِ بِأَنَّ المُسْلِمِيْنَ في مَكَةَ قَدَ كَثُرُوْا وَاقْتَوَوْا وَعَزّوا ، وأَنَّ إِسْلاَمَ حَمْزَةَ وعُمَرَ بنَ الخطَابِ قَدْ شَدَّ إِزْرَهُمْ وَكَفْكَفَ شَيْئاً مِن أَذَى قُرَيْشٍ عن المسلمين .

فَعَزَمَ فَرِيْقٌ مِن المُهَاجِرِيْنَ عَلَى العَوْدَةِ إلى مَكَّةَ يَحْدُوْهُم الشَّوْقُ ويَدْعُوْهُم الحَنِيْنُ ، فَكَانَتْ أمُ سَلَمَةٌ وَزَوْجُهَا مَعَ العَازِمِيْنَ على العودَةِ .

لَكِنْ سَرعَانَ ما تَبَيَّنَ لِلْعَائِدَيْنَ أَنَّ مَا نُقِلَ لَهُمْ مِن الأَخْبَارِ أَنَّهُ كَانَ مُبَالَغاً فِيهِ ، وأَنَّ المُشْرِكِيْنَ قَدْ قَابَلُوا زِيَادَةَ القُوَّةِ والعِزَّةِ بِالتَّهوُرِ والتَّفَنُنِ في التَّعْذِيْبِ وَتَرْوِيْعِهِمْ وَازْعَاجِهِمْ وَأَذَاقُوْهُمْ العَذَابَ الأَلِيْمَ .

عِندَ ذَلِكَ أَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِأَصْحَابِهِ بالهِجْرَةِ إلى المَدِيْنَةِ ، فَعَزَمَت أُمُ سَلِمَةَ ، وَزَوْجُهَا على الهِجْرَةِ إِلى المَدِيْنَةِ لَكِنْ هِجْرَتُهُمَا لم تَكُنْ كَمَا ظَنَّا أَنَّها سَهْلَةٌ بَلْ كَانَتْ صَعْبَةً عَسْرَةً خَلَّفَتْ وَرَاءَها مأسَاةً تَهُوْنُ دُوْنَها كُلُ مَأْسَاةٍ .

قَالَتْ أمُ سَلَمَةُ وَلَمَّا عزَمَ أَبُو سَلَمَة على الخُروجِ إلى المَدينَةِ أَعَدَّ لِي بَعِيراً ، ثم حَمَلَنِي عليهِ وجعلَ طِفْلَنَا سَلمَةَ في حَجْرِي ، وَمَضَى يقودُ بِنَا البعِيرَ ، وهو لا يلْوِيْ على شَيْءٍ ، وقبلَ أن نَفْصِلُ عن مَكَةَ رآنا رِجَال مِن قَوْمِي مِنْ بَنِي مخْزُوم فَتَصَدُوا لنا .

وقالوا لِأبِي سَلَمَة إنْ كنتَ قَدْ غَلَبْتَنا على نَفْسِكَ فَما بالُ امرأَتِكَ وَهِيَ بِنتُنا ، فَعَلاَم نَتْرُكُكَ تأخذها مِنّا وتَسِيْرُ بها ثُمَّ وَثَبُوا عليهِ وانْتَزعُونِي ، ومَا إن رَآهُمْ قَوْمُ زَوْجِي بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ يأخذونَنِي أَنَا وطفلي حتَى غَضِبُوا غضباً شَدِيدًا .

وقَالُوا لا واللهِ لا نَتْرِكُ الوَلَدَ عِنْدَ صَاحِبتكُمْ بَعْدَ أَنْ انَتزَعْتُمُوهَا مِن صَاحِبِنَا انْتِزَاعاً فهو ابْنُنَا ونَحْنُ أَوْلَى بِهِ ، قالَتْ ثم طَفِقُوا يَتَجَاذَبُونَ الطِّفْلَ بَيْنَهُمْ حتَّى ضَرُّوا يَدَهُ وأخَذُوْهُ .

وَبَعْدَ لَحظَاتٍ وَجَدْتُ نَفْسِي مُمَزَّقَةَ الشَّمْلِ وحِيْدَةً فَرِيَدةً فَزَوْجِي اتَّجَهَ إلى المَدِيْنَةِ فَرَاراً بِدِيْنِهِ وَنفْسِهِ وَوَلَدِيَ اخْتَطَفَهُ بَنو عَبْدِ الأَسَدِ مِن بَيْنِ يَدَيَّ خَطْفَاً مُحَطَّماً مُهَيَّضا .

أَمَّا أَنَا فَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَيَّ بَنُو مَخْزُوْمٍ قَوْمِي وَجَعلُونِي عِنْدَهُمْ فَفُرِّقَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ ابْنِيْ فِي ساعةٍ قَالَتْ ، ومِنْ ذَلِكَ جَعَلْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غداةٍ إلى الأبْطَحِ فأجْلِسُ في المَكَانِ الذي شَهِدَ مَأسَاتِي ، وأسْتَعِيْدُ فيها صُوْرَةَ اللَّحظَاتِ الَّتِي حِيْلَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ زَوْجِي وَوَلَدِيَ فيها .

وَأَظَلُّ أَبْكِي حَتَّى يُخَيِّمُ عَلَيَّ اللَّيْلُ وَبَقِيْتُ عَلَى ذَلِكَ قَرِيْبَاً مِن سَنَةٍ ، قَالَتْ إلَى أنْ مَرَّ بِيَ رَجُلٌ مِن بَنِي عَمِّيْ فَرقَّ لِحَالِي وَرَحِمَنِيْ ، قال لِبَنِيْ قَوْمِي ألاَ تُطْلِقُونَ هَذِهِ المِسْكِيْنَةَ فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِها وَوَلَدِهَا وَمَا زَالَ بِهِم حَتَّى قَالُوا لِيْ الْحَقِيْ بِزَوْجِكِ إنْ شِئْتِ .

قَالَتْ أُمُ سَلَمَةَ ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي أَنْ الْحَقَ بِزَوْجِي في المدِينَةِ وأَتْرُكُ فَلْذَةَ كَبِدِيْ وَلَدِي في مكة عِنْدَ بَنِيْ عَبْدِ الأَسَدَ ، قَالَتْ وَرَأى بعضُ النَاسِ ما أُعَالِجُ مِن أَحْزَانٍ وأشْجَانٍ فَرِقَّتْ قُلُوبُهُم لِحَالِي وكلمُوا بَنِي عَبْدِ الأَسَدِ في شأْنِي وَاسْتَعْطَفُوهُم عليَّ فَرَدُوا لِيْ وَلَدِيْ سَلمَةَ قَالَتْ أمُ سلمَة فَأعددتُ بَعِيْرِي وَوَضَعْتُ ولدِي في حَجْرِي وخَرَجْتُ مُتَوجِهَةً إلى المدينَةِ أُرِيْدُ زَوْجِي وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِن خلقِ اللهِ .

قالَت وما وَصِلْتَ التَنْعِيم حَتّى لَقِيتُ عُثْمَانَ بن طلحةَ فقالَ إلى أينَ يا بِنتَ زادِ الراكبِ فقلتُ أريدُ زَوجي في الْمدِيْنَةِ قالَ أمَا مَعَك أحدٌ قُلْتُ لا واللهِ إلا الله ثم ابنِي هَذَا قالْ عثمانُ واللهِ لا أترُكُكِ أبدَا حتى تَبْلغُي المدينةَ قالتْ أمُ سَلَمَة ثُمَّ أخذَ بِخِطَامِ بَعِيْري وانطلق يَهْوِي بِي قالتْ فواللهِ مَا رَأَيتَ أكرمَ مِنْهُ ولاَ أشْرَفَ وسارَ مَعِي حَتى بَلَغْنَا المدِيْنَةَ .

فلمَّا نَظَرَ إلى قَرْيَةٍ بِقُبَاءِ لِبني عَمْرِو بنِ عَوْفِ قالَ زَوْجُكِ فِي هَذِهِ القَرْيَةِ فادْخُلِيها عَلَى بَرَكَةِ الله ، ثم انصرفَ راجِعاً إلى مَكَةَ ونَزَلَتْ على زَوجها وقَرَّتْ عَيْنُهَا بِهِ وبوَلَدِهَا .

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ شَهِدَ أبُو سَلمةَ بَدْراً وعَادَ مِنْهَا مَعَ المسلِمِينَ ، وقد انْتَصَروا نصْراً مُؤَزّرا ، وشَهِد أُحُداً وأَبْلَى بلاءً حَسَنا ، لكِنّه خُرِجَ منها وقَدْ جُرِحَ جُرْحا بَلِيْغاً ، فَمَا زَال يُعَالِجُه حَتى توارَى له أنَّه قَد اِنْدَمَلَ والْتأَمَ .

لكِن الجُرْحِ كانَ بِناؤُهُ على فَسَادِ ، فَمَا لَبِثِ أَنْ نفَرَ وأَلْزَمَ أبَا سَلَمة الفِرَاشَ .

وبَيْنَما أبو سَلَمَة يُعالجُ جَرْحَهُ قَالَ لِزَوجَتِهِ يا أمَّ سَلَمَةَ سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقول لا يُصِيبُ أَحدَاً مُصِيبةٌ فَيَسْتَرجِعُ عِندَ ذَلك وَيَقُولَ اللَّهمَّ عندَكَ أحْتَسِبُ مُصِيْبَتِي هَذهِ ، اللهمَ أخلُفِني خيراً منها إلا أعطاهَ الله عَزَّ وجل .

وظَلَ أَبُو سَلَمة على فِراشِ مَرَضِهِ أَيَّاماً وفي ذَاتِ صَباحٍ أَقْبَلَ رسولُ اللهِ صلى اللهِ عليه وسلم على بَيْتِهِ لِيَعُودَهُ ، فلمْ يَكَدْ يُجَاوِزُ بابَ

الدارِ حتَّى فارَق أبُو سَلَمة الحَياةَ .

فأَغْمَضَ النبيُ صلى الله عليه وسلم أباً سلمةَ وقالَ إن الرُّوْحَ إذا قُبِضَ اتبعهَ البصرُ ورَفَع صلى الله عليه وسلم طَرْفَهُ إلى السماءِ وقالَ اللهم اغفر لِأَبي سَلَمَةَ وارْفَعْ دَرَجَتَه في المَهْدِيْنَ واخْلُفْهُ في عُقبِه وافَسَحْ لهُ قَبْرَه ونَوِّرْ له فيه ، ثُمَّ ما كادَتْ تَخْرُجُ مِنْ حِدادِ حتَّى تَتَابع عَلْيها الخُطَّابُ فَتَقَدَّمَ أبو بَكْرٍ إليها يَخْطُبُها فأبَتْ أَنْ تَسْتَجِيبَ له ثم تَقَدَّمَ عُمُرُ ابْنُ الخطَّابِ فَرَدَّتْهُ كَمَا رَدتْ صَاحِبَهُ .

ثم تَقَدَّمَ النبيُ صلى اله عليه وسلم فقالتَ لهُ يا رسولَ الله إن فيَّ خِلالاً ثلاثاً فأنا امْرَأةٌ شَدِيْدةُ الغَيْرةِ فأَخَافَ أن تَرى شيئاً مِني يُغْضِبُك فَيُعَذِبُنِيْ اللهُ .

وأَنا امرأةٌ قَدْ دَخلْتُ في السِنّ وأنَا امْرَأةٌ ذاتُ عِيالٍ .

فقال صلى الله عليه وسلم أما مَا ذكَرْتِ مِنْ غَيْرتِكَ فإنِيْ أَدْعو اللهَ عزّ وجل أنْ يُذْهِبَها عَنْكِ .

وأَمَّا مَا ذَكَرْتِ في السِّن فقدَ أَصابَنِي مِثْلُ الذِيْ أصابَكِ وأَمَّا ما ذَكَرْتِ مِن العِيال فإنَّما عِيالُكِ عِيالي .

ثم تَزَوَّجها رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فاسْتَجابَ اللهُ دعاءَها وأخلَفَها خَيْراً مِن أَبِي سَلَمةَ .

ومُنْذُ ذَلِكَ اليومِ لمْ تَكُنْ أمُّ سَلَمَةَ فَقَطْ بَلْ كانَتْ أمّاً للمُؤْمنينَ رضيَ اللهُ عنها وأرضَاها وجَعَل جَنَّةَ الفِرْدَوْسِ مَثْوانا ومَثْوَاهاً أ هـ .

باختصارٍ بسيطٍ من صورٍ مِن حياةٍ الصحابةِ .

شعرا :

فَياوَيْحَ مَن شَبَّتْ على الـزَّيْغِ نَفْسُهُ
إلى أن دَهَـاهَـا الشَّيْبُ وهـو نَـذِيْـرُ
وماتَ ومَا لاقَى سِوَى الخِزْيِ والشَّقَا
وَوَبـخَـهُ بَـيْـنَ الـقُـبُـورِ نـكِـيـرُ
ولاَقَى إلَه العَرْشِ فِي ثَـوْبِ حَسْرةٍ
وقـد كـانَ في ثَـوْبِ الغُـرُورِ يَـدُوْرُ
فـقَال خُـذُوهُ لِـلْجَحِـيْمِ مُـكَبَّـلاً
وصَـلُّوهُ نـاراً إنّـهُ لَـكَـفُـوْرُ
ويـا فَـوْزَ مَن أَدَّى مَنَـاسِكَ دِيْنِـه
وعـاشَ سَليْمَ القلْبِ وهْـوَ طَهُـوْرُ
وتَـابَـعَ دِينَ الحَقِ فِقْهـاً وحِكمَـةً
ولـبىَ نِـدَاءَ الـلهِ وهْـوَ شَـكُـوْرُ
فَهَـذا الـذِي في الخُلْدِ يَنْعَمُ بـالُـه
وَتَحْـظَوْا بـهِ بَيْنَ الأرَائِـكِ حُـوْرُ
فَـلاَ تُهْمِلُوا يـا قَـوْمُ آدابَ دِينكِمْ
فَـهَجْـرُ طـريـق الأنْبِـيَـاءِ فُجُـوْرُ
ومـا العَيْشُ إلا غَمْضَـةٌ والتِفَـاتَـةٌ
وحُـلْوُ أمـانِـي فَـوْتُـهُـنَّ مَـرِيْـرُ

ومـا المَـرْءُ إلَّا طـائِـرٌ وجَنَـاحُـهُ
مُـرُورُ لَيَـالِي العُمْـرِ وهْـوَ قَصِيْـرُ
ومَـا المـوتَ إلَّا جَـارِحٌ لا يَعـوُقُـهُ
إذا انـقَضَّ بُنْيَـانٌ عَـلاَ وقُـصُـوْرُ
ورَامِيْ المَنَـايَـا لا تُـرَدُّ سِهـامُـه
سَـواءٌ لـدَيْـهَـا حَـاكِمٌ وحَـقِيْـرُ
وإنّـا وإنْ عِـشْنَـا زَمَـانـا مُـطوَّلاً
وطـابَ لـدَيْنَـا العَيْشُ وهْـوَ نَـظِيْـرُ
فَبَـطْنُ الثَـرَى حَتْمـاً مَحَطُ رِحَـالِنـا
وهَـلْ ثَمَّ حَيٌّ مَـا حَـوَتَـهْ قُبُـوْرُ
ويَـا لَيْتَهـا كَـانَتْ نِهَـايَـةُ ظَعْنِنَـا
ولـكِنَّ عُـقْبَـى الـظَّاعِنِـينَ نُـشُـوْرُ
وحَشْـرٌ مَهُـوْلٌ وازْدِحَـامٌ بمَـوْقِفٍ
علىَ كُـلِّ إخْـوانِ الضَيَـاعِ عَسِيْـرُ
ومَصْـرَفُـهُ سِجْنٌ لِمنْ عَـاشَ لاهِيـاً
بـهِ لهَبٌ يَشْـوِي الحَشـا وسَعِيْـرُ
وخُضْـرُ جِنَـانِ لِلَّذي مـاتَ تَـائِبـاً
وكـانَ لـهُ في الـدَاجِيَـاتِ زَفِيْـرُ
فـلا تُسْلِمُـوْا لِلنَّارِ حَـرَّ وُجُـوهِكُمْ
ولا تُغْضِبُـوا الـرحمنَ فَهْـوَ غَيُـوْرُ
وتُـوبُـوا إليْـهِ واسـأَلُـوه حَنَـانَـهُ
فَـوالـلهِ ربـي إنَّـهُ لـغَـفُـوْرُ

وَلاَ يَغْتَـرِرْ ذُو الجَـاهِ مِنْكُمْ بجاهِـهِ
فـأكْبَـرُ عَـاتٍ في المَعَـادِ حَقِيْـرُ
وعَن جاهِهِ والمالِ مَنْ مَاتَ خَارِجٌ
وأَغْـنَـى غَـنِـيٍّ إذ يـمَـوُتُ فَـقِـيْـرُ
وَلاَ تُلْهِكُم دُنْيـاً أَبـادَتْ وأهْـلَكَتْ
مُـلُوكَ قُـرُونٍ عَـدُهُـنَّ كَـثِـيْـرُ
وإنّـا وإنْ كَـانَتْ أسـافِلُ قَـوْمِنا
تَـسَـاوَى لَـدَيهِـم مُؤْمِـنٌ وكَـفُـوْرُ
وبَـاعُـوا بـسُـدُنْيَاهُـم فَضَـائلَ دِينِهم
وفَـاسِـقُهُـمْ لِـلْمَـاكِـريـنَ نَـصِـيْـرُ
فَقَدْ أَسْخُطْوا الـرَّحْمنَ حَتَى أَهَانَهُمْ
ولَـيْسَ لَـهُـمْ لِـلإنْـتِـقَـامِ شُـعُـوْرُ
فَمِنَّـا أُنَـاسَ فِي الـدَّيَـاجي نَـواحُهُـمْ
تَبين لَهُـمْ عِنْـدَ البُكَـاءِ صُخُـوْرُ
يُنَـادُونَ يَـا رَحْمَنُ لُـطْفـاً فَـإنَـنـا
عَهِـدْنَـاكَ عَـطْفاً لِلَّهُـوفِ تَجِيْـرُ
فَيَـا مَصْلِحَ الأَحْوَالِ جَمِّلْ شُؤُونَنا
فـأنْتَ لِإصْلاَحِ الشُؤُونِ جَـدِيْـرُ
وأَنْـتَ إلـهُ العَـالِـميـنَ بـأَسْـرِهِمْ
وأنْـتَ سَـمِـيْـعٌ عَـالِـمٌ وبَـصِـيْـرُ
فَلاَ يَأْسَ إذْ أنْتَ القَـدِيْرُ وكُـلُ مَنْ
تَـوَلَّاهُ يَـأسٌ مِنْـكَ فَهْـو كَـفُـورُ

وصَـلِّ وسَـلِّم يـا إلهي تَفَضُـلًا
علَى مَنْ بِـذِكْـرَاهُ القُلُوبُ تُـنِيْـرُ
مَحَمَّـدُ قُطْبُ المُـرْسَلِينَ ومَنْ رَحَى
رِسـالَتِهِـمْ جَمْعـاً عـليـهِ تَـدُورُ

اللهم يا حيُ يا قَيُّومُ طَهِّر قُلوبَنا من النّفَاقِ وعَمَلنا مِن الرِّيَاء وأَلْسُنَنا مِن الكَذِبِ وأعْيُنَنا مِن الخِيانة إنَّكَ تعلمُ خائنةَ الأعيُن وما تُخْفِي الصُدُور واغْفِرْ لنَا ولِوالدِينا ولِجَميع المسلمِينَ برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

نَمَاذِجُ مِنْ سِيْرَةِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ الْمُخْلِصِيْنَ وَنُصْحِهِمْ لِوُلَاةِ الأُمُوْرِ وَبُعْدِهِمْ عَنْ الطَّمَعِ وَالْجَشِع عَكْسُ مَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ عُلَمَاءِ هَذا الزَّمَانِ

عَنْ الأَوْزَاعِيِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُمَرَ قَالَ بَعَثَ إليَّ أَبُـو جَعْفَرٍ الْمَنْصُوْرُ أَمْيْرُ الْمؤمِنيْنَ وَأَنَا بالسَاحَل فأَتَيْتُهُ ، فَلمَّا وَصَلْتُ إِلَيْهِ وسَلّمْتُ عَلَيْهِ بالْخِلاَفَةِ ، رَدَّ عَلَيَّ وَاسْتَجْلَسَنِيْ ، ثُمَّ قَالَ لِيْ مَا الَّذِي أَبْطَأَ بِكَ عَنَّا يَا أَوْزَاعِيُّ .

قَالَ قُلْتُ ومَا الَّذي تُرِيْدُ يَا أَميْرَ الْمُؤْمِنيْنَ ، قَالَ أُرِيْدُ الْأَخْذَ عَنْكُمْ وَالْإِقْتبَاسَ مِنْكُمْ ، قَالَ فَقُلْتُ فانْظُرْ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْ لَا تَجْهَلَ شَيْئاً مِمَّا أقوْلُ لَكَ ، قَالَ كَيْفَ أَجْهَلُهُ وأَنَا أسْأَلُكَ عَنْهُ وَفِيْهِ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ وَأَقْدَمْتُكَ لَهُ .

قَالَ قُلْتُ أخَافُ أنْ تَسْمَعَهُ ، ثُمَّ لَا تَعْمَلُ بِه ، قَالَ فَصَاحَ بِيْ الرَّبِيْعُ

وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى السَّيْفِ ، فَانْتَهرهُ المَنْصُورُ وقَالَ هَذا مَجْلِسُ مَثُوبَةٍ لاَ مَجْلِسُ عُقُوْبَةٍ فَطَابَتْ نَفْسِي ، وَانْبَسَطْتُ فِيْ الْكَلامِ .

فَقُلْتُ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ حدَثَنِيْ مَكْحُوْلُ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ بِشْرٍ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيُّمَا عَبْدٍ جَاءَتْهُ مَوْعِظَةٌ من اللَّهِ فِي دِيْنِهِ ، فإنَّهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ سيقَتْ إِلَيْهِ ، فَإِنْ قَبلَهَا بِشُكْرٍ وإلا كَانَتْ حُجَّةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، لِيَزْدَادَ بِهَا إِثْماً وَيَزْدَادَ اللَّهُ بِهَا سُخْطاً عَلَيْهِ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ حَدَّثَنِي مَكْحُوْلُ عَنُ عَطيَّة ابْنِ يَاسِر قَال قَال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ «أيّما والٍ مَات غَاشاً لِرَعِيّتِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ كَرِهَ الْحَقَّ فَقَدْ كَرِهَ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِيْنُ ، إنَّ الذّي لَيَّنَ قُلُوبَ أُمتِّكِمْ لَكُمْ حِيْنَ وَلَاّكُمْ امُورَهُمْ لِقَرَابتكُم مِنْ رَسُوْلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وقَدْ كَانَ بِهِمْ رَؤُوفاً رَحِيْماً مُوَاسِياً لَهُمْ بِنَفْسِهِ في ذَاتِ يَدِهِ مَحْمُوداً عِنْدَ اللَّهِ وعِنْدَ النَّاسِ ، فَحَقِيْقٌ بِكَ أَنْ تَقُومَ لَهُ فِيْهِمْ بِالْحَقِّ ، وأنْ تَكُوْنَ بِالْقسْطِ لَهُ فِيْهِمْ قَائِماً ، وَلِعَوْراتِهِمْ ساتِراً لا تُغْلَقْ عَلَيْكَ دُوْنَهُمْ الْحِجَابَ ، تَبْتَهِجْ بِالنِّعْمَةِ عِنْدَهُمْ وتَبْتَئِسْ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ سُوءٍ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ قَدْ كُنْتَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ مِنْ خَاصَّةِ نَفْسِكَ عَنْ عَامَّةِ النَّاسِ الذِّيْنَ أَصْبَحْتَ تَمْلِكُهُمْ أَحْمَرِهِمْ وَأَسْوَدِهِمْ مُسْلِمِهِم وَكَافِرِهِمْ وَكُلٌّ لَهُ عَلَيْكَ نَصِيْبٌ مِن الْعَدْلِ ، فَكَيْفَ بِكَ إِذَا انْبَعَثَ مِنْهُمْ فِئَامٌ ، ولَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إلاَّ وَهُوَ يَشْكُو بَلِيَّةً أَدْخَلْتَهَا عَلَيْهِ أَوْ ظَلاَمَةً سُقْتَها إِلَيْهِ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ حَدَّثَنِي مَكْحُولٌ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ رُوَيْمٍ قَالَ كَانَ بِيَدِ رَسُوْلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ جَرِيْدَةٌ يَسْتَاكُ بِهَا وَيُرَوِّعُ بِهَا الْمُنَافِقِيْنَ فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ لَهُ يَا مُحَمَّدُ مَا هَذِهِ الْجَرِيدَةُ الَّتِي كَسَرْتَ بِهَا قُلُوْبَ أُمتِّكَ وَمَلأْتَ قُلُوْبَهُمْ رُعْباً ، فَكَيْفَ بِمَنْ شَقَّقَ أَسْتَارَهُمْ وَسَفَكَ دِمَاءَهُمْ وَخَرَّبَ دِيَارَهُمْ ، وَأَجْلاهُمْ عَنْ بِلَادِهُمْ وَغَيَّبَهُمْ الْخَوْفُ مِنْهُ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِينَ حَدَّثِنِي مَكْحُولُ عَنْ زِيَادَةَ عَنْ حَـارِثَةَ عَنْ حَبِيْبِ ابْنِ مَسْلَمَةَ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا إِلَى الْقِصَاصِ مِنْ نَفْسِهِ فِي خَدْشٍ خَدَشه أعْرَابيٌّ لَمْ يَتَعَمَّدْهُ ، فَأَتَاهُ جِبْرَيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إنّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْكَ جَبَّاراً وَلاَ مُتَكَبِّراً ، فَدَعا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ الأَعْرَابِيُّ فَقَالَ « اقْتَصَّ مِنِّي » فَقَالَ الاعْرَابِيُّ قَدْ أَحْلَلْتُكَ بِأَبِي أنْتَ وأُمِيْ ، وَمَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ أبداً ، ولَوْ أتَيْتَ على نَفْسِيْ فَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ .

يَا أمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ رَضِّ نَفْسَكَ لِنَفْسِك ، وَخُذْ لَهَا الأمَانِ مِنْ رَبِّكَ ، وَارْغَبْ في جَنّةٍ عَرْضُهَا السَّمواتُ والأرْضُ ، التّيْ يَقُوْلُ فِيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ لَقَيْدُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ فِيْ الْجَنّةِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا .

يَا أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْـنَ إنَّ الْمُلْكَ لَوْ بَقِيَ لِمَنْ قَبْلَكَ لَمْ يَصِلْ إلَيْكَ ، وَكَذا لا يَبْقَى لَكَ كَمَا لَمْ يَبْقَ لِغَيْرِكَ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَدْرِيْ مَا جَاءَ فِي تَأْوِيْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَنْ جَدِّكَ ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيْرَةً ولَا كَبِيْرَةِ إلَّا أَحْصَاهَا﴾ قَالَ الصَّغِيْرَةُ التَّبَسُّمُ

وَالْكَبِيْرَةُ الضَّحِكُ ، فَكَيْفَ بِمَا عَمِلَته الايْدِيْ وحَصَدَتْهُ الأَلْسُنُ .

يا أَميْرَ الْمُؤْمِنْين بَلَغَنِيْ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَوْ مَاتَتْ سَخْلَةٌ عَلَى شَاطِىءِ الفُرَاتِ ضُيّعَتْ لَخَشَيْتُ أنْ أُسْأَلَ عَنْهَا ، فَكَيْفَ مِمَّنْ حُرِمَ عَدْلَكَ وهُوَ عَلى بِسَاطِكَ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنْينَ أَتَدْرِيْ مَا جَاءَ فِيْ تَأْوِيْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَنْ جدِّكَ ﴿يَا دَاوُدُ انَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً في الاَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالْحَقِّ ولاَ تَتَّبعِ الْهَوَى فَيضِلُّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ﴾ قَالَ اللَّهِ تَعَالى في الزَّبُورِ يَا دَاوُدُ إذَا قَعَدَ الخَصْمَانُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَكَانَ لَكَ فِي أحَدِهِمَا هَوَى ، فَلا تَتَمَنَّيَنَّ فِيْ نَفْسِكَ أَنْ يَكُوْنَ الْحَقُّ لَهُ فَيُفْلِحَ عَلى صَاحِبِه ، فَأَمْحُوكَ عَنْ نُبُوَّتِي ثُمَّ لاَ تَكُونُ خَلِيْفَتِيْ ، وَلاَكَرَامَةَ ، يَا دَاوُدُ إنَّما جَعَلْتُ رُسُلِيْ الى عِبَادِي رُعَاةً كَرُعَاةِ الإِبلِ ، لِعِلْمِهِمْ بالرِّعَايَةِ وَرِفْقِهِمْ بالسِّيَاسَةِ لِيَجْبُرُوا الْكَسِيْرَ وَيُدَلُّوا الْهَزِيْلَ عَلى الْكَلاَءِ وَالْمَاءِ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِينَ إنَّكَ قَدْ بُلَيْتَ بِأَمْرٍ لَوْ عُرِضَ عَلى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ لأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهُ وَاشْفَقْنَ مِنْهُ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنْينَ حَدَّثني يزيْدُ بْنُ جَابِرٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ عَمْرَة الانْصَارِي أنّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رَضِي اللَّهُ عَنْهُ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنَ الانْصَارِ عَلى الصَّدَقَةِ ، فَرآه بَعْدَ أَيَّام مُقِيْماً فَقَالَ لَهُ مَا مَنَعكَ مِنَ الْخُرُوْجِ إلى عَمَلِكَ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لَكَ مِثْلَ أَجرْ الْمُجَاهِدِ في سَبِيْلِ اللَّهِ ، قَالَ لاَ ثُمَّ قَالَ وَكَيْفَ ذلِكَ قَالَ إنّهُ بَلَغنِي أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وسَلَّم قَالَ مَا مِنَ وَالٍ يَلِيْ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ النَّاسِ إلاّ أُتِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إلى

عُنُقِهِ ، لاَ يَفُكُّهَا إلاَّ عَدْلُهُ ، فَيُوقَفُ عَلَى جَسْرٍ مِنَ النّارِ يَنْتَفِضُ بِهِ ذَلِكَ الْجَسْرُ انْتِفَاضَةً تُزِيلُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهُ عَنْ مَوْضِعِه ، ثُمَّ يُعَادُ فَيُحَاسَبُ ، فَانْ كَانَ مُحْسِناً نَجَا بِإحْسَانِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُسِيْئاً انْحَرَفَ بِهِ ذَلِكَ الْجسرُ ، فَيَهْوَى بِهِ فِي النَّارِ سَبْعَيْنَ خَرِيْفاً ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِمَّنْ سَمِعْتَ قَالَ مِن أَبِيْ ذَرٍّ وَسَلْمَانُ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا عُمَرُ فَسَأَلَهُمَا فقـــالا نَعَمْ سَمِعْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَقَالَ عُمَرُ واعُمَرَاهُ مَنْ يَتَوَلاَّهَا بِمَا فِيْهَا فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَنْ سَلَتَ اللَّهُ أَنْفَهُ ، وَأَلْصَقَ خَدَّهُ بِالأَرْضِ قَالَ فَأَخَذَ الْمِنْدِيْلَ فَوَضَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى أَبْكَانِي .

ثُمَّ قُلْتُ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ قَدْ سَأَلَ الْعَبّاسُ النَّبِيَّ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِمَارَةَ مَكّةَ أَوْ الطّائِفَ أَوْ اليَمَنَ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ النَّبِيِّ نَفْسٌ تُحْيِيْهَا خَيْرٌ مِنْ أَمَارَةٍ لاَ تُحْصِيهَا ، نَصِيحَةٌ مِنْهُ لِعَمِّهِ وَشَفَقَةٌ عَلَيْهِ ، وَأَخبرَهُ أَنَّهُ لاَ يُغْنِيْ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِذْ أَوْحَى اللَّهُ اِلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ﴾ ، فَقَالَ يَا عَبَّاسُ ويَا صَفِيَّةُ ويَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ إِنِّي لَسْتُ أُغْنِي عَنْكُمْ مِن اللَّهِ شَيْئاً إِنّ لِي عَمَلِيْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ لاَ يَقْسِمُ أَمْرَ النَّاسِ إِلاَّ حَصِيْفُ الْعَقْلِ أَرِيْبُ الْعقدْ ، لاَ يُطّلَعُ مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ ، لاَ يُخَافُ مِنْهُ عَلَى حُرَّةٍ ، وَلاَ تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ ، وقَالَ الامُرَاءُ أَرْبَعَةٌ فَأَمِيْرٌ قَوِيُّ ظَلِفَ نَفْسَهُ وَعُمالَهُ ، فَذَلِكَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ يَدُ اللَّهِ بَاسِطَةٌ عَلَيْهِ الرَّحْمَةِ ، وَأَمِيرٌ فِيْهِ ضَعْفٌ ظَلَفَ نَفْسَهُ وَأَرْتَع عُمَّالَهُ لِضَعْفِهِ ، فَهُوَ عَلى شَفَاءِ هُلاَكٍ إِلاّ أَنْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ ، وَأَمِيرٌ ظَلَفَ عُمَّالُه لِضَعْفِهِ ، فَهُوَ عَلى

شَفَاءِ هلاكٍ إلاّ أنْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ ، وَأَمِيْرٌ ظَلَفَ عُمَّالَهُ وَارْتَعَ نَفْسَهُ فَذَلِكَ الْحُطَمَةُ ، الذَّي قَالَ فِيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شَرُ الرَّعَاءِ الْحُطَمَةُ فَهُوَ الْهَالِكُ وَحْدَهُ ، وأمِيْرٌ أَرْتَعَ نَفْسَهُ وعُمّالَهُ فَهَلَكُوا جَمِيْعاً .

وَقَدْ بَلَغَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَتى النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَتَيْتُكَ حيْنَ أَمَرَ اللَّهُ بِمَنافِخِ النَّارِ فَوُضِعَتْ عَلى النَّارِ تُسَعَّرُ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فقَالَ لَهُ يا جَبْرِيْلُ صِفْ لِيْ النَّارَ فَقَالَ إنَّ اللهَ تَعالى أمَرَ بِهَا فأوقدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرّتْ، ثُمَّ أَوْقَد عَلَيْهَا ألف عَامٍ حَتَّى اصْفَّرتْ ، ثُمَّ أوْقَدَ عَلَيْهَا ألفَ عامٍ حَتَّى اسْودَتْ ، فهي سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ ، لا يُضْيءُ جَمْرُهَا ، وَلاَ يَطْفَأُ لَهَبُهَا ، وَالّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لوْ أنَّ ثَوْباً مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ أُظْهِرَ لِأَهْلِ الاَرْضِ لَمَاتُوا جَمِيْعاً وَلَوْ أنَّ ذُنُوباً مَنْ شَرابها صُبَّ في مِيَاهِ الأَرْضِ جَمِيْعاً قَتَلَ مَنْ ذَاقَهُ ، وَلَوْ أنَّ ذِرَاعاً مِنْ السِّلْسِلَةِ التَّيْ ذَكَرَ اللَّهُ وُضِعَ عَلَى جِبَالِ الأَرْضِ جَمِيْعاً لَذابَتْ وَمَا اسْتَقَلّتْ ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً أُدْخِلَ النَّارَ ثُمَّ أُخرِجَ مِنْها لمَاتَ أهْلُ الاَرْضِ مِن نَتَنِ رِيْحِهِ وَتَشْوِيْهِ خَلْقِهِ وَعِظَامِهِ .

فَبَكَى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبكى جبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِبُكَائِهِ فقَالَ أَتَبْكِي يَا مُحَمَّدُ وَقَدّ غفرَ اللّهُ لكَ مَا تقَدمَّ مِنْ ذَنْبِك وَمَا تَأَخَّرَ ، فَقَالَ أَفلاَ أَكُوْنُ عَبْداً شَكُوْراً ، وَلِمَ بكَيْتَ يَا جِبْرِيْلُ وأنْتَ الرُّوْحُ الأَمِيْنُ أَمِيْنُ اللَّهِ على وَحْيُهِ .

قَالَ أَخَافُ أَنْ أُبْتَلى بِمَا ابْتُلِيَ بِهِ هَارُوْتُ وَمَارُوْتُ ، فَهُوَ الَّذِي مَنَعَنِي مِنْ اتِّكَـالِي عَلَى مَنْزَلَتِي عِنْدَ رَبِّي ، فَأَكُوْنُ قَدْ أَمِنْتُ مَكْرَهُ ، فَلَمْ يَزَالاَ يَبْكِيَانِ حَتَّى نُودِيَا مِنَ السَّمَاءِ ، يَا جِبْرِيْل ، وَيَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ

أَمَّنكُمَا أَنْ تَعْصِيَاهُ ، فَيُعَذِّبَكُمَا ، وَفَضْلُ مُحَمَّدٍ على سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ كَفَضْلِ جِبْرِيل عَلَى سَائِرِ الملائِكَةِ .

وَقَدْ بَلَغَنِي يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ اللهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُبَالِي إِذَا قَعَدَ الْخَصْمَانِ بَيْنَ يَدَيَّ عَلَى مَنْ مَالَ الْحَقُّ مِنْ قَرِيْبٍ أَوْ بَعِيْدٍ ، فَلاَ تُمْهِلْنِيْ طَرْفَةَ عَيْنٍ .

يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ انَّ أَشَدَّ الشِّدَّةِ الْقِيَامُ لِلَّهِ بِحَقِّهِ ، وَانَّ أَكْرَمَ الْكَرَمِ عند الله التَّقْوَى ، وإِنَّهُ من طَلَبَ العِزَّ بطاعةِ اللَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ وَأَعَزَّهُ .

وَمَنْ طَلَبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ أَذَلَّهُ اللَّهُ ، وَوَضَعَهُ ، فَهَذِهِ نَصِيْحَتِيْ الَيْكَ والسَّلَامُ عَلَيْكَ ، ثُمَّ نَهَضْتُ فَقَالَ لِي إِلَى أَيْنَ فَقُلْتُ إِلى الْوَلَد وَالْوَطَن ، بِإِذْنِ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَقَالَ قَدْ أَذِنْتُ لَكَ ، وَشَكَرْتُ لَكَ نَصِيْحَتِكَ ، وَقَبِلْتُهَا ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلْخَيْرِ وَالْمُعِيْنُ عَلَيْهِ ، وَبِهِ أَسْتَعِيْنُ ، وَعَلِيْهِ أَتَوَكَّلُ ، وَهُوَ حَسْبِيْ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ فَلاَ تُخْلِنِيْ بِمُطَالَعَتِكَ ايَّايَ ، بِمِثْلِ هَذَا فَإِنَّكَ الْمَقْبُولُ الْقَوْلَ غَيْرَ الْمُتَّهَم في النَّصِيْحَةِ ، قُلْتُ أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ واللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّم .

(فَصْــلٌ)

وَلَمَّا اسْتَوْلَى الْمَلِكُ الصَّالِحُ عَلَى دِمَشْقَ اسْتَعَـانَ بِالإِنْفـرَنْجِ ، وَاصْطَلَحَ مَعَهُمْ عَلَى أَنْ يُسْعِفُوهُ ضِدَّ أَخِيْه ، مَلِك مِصْرَ ، وَيُعْطِيْهِم مُقَابِلَ مَعُوْنَتِهِمْ صَيْدَا وَقَلْعَةَ الشَّقِيْفِ ، وَغَيْرَهَا مِنْ حُصُوْنِ الْمُسْلِمِيْنَ .

وَدَخَلَ الصَّلِيْبِيُّونَ دِمَشْقِ ، لِشِرَاء السِّلاحِ فَاسْتَفْظَعَ الشَّيْخُ الْعِزُّ بْنُ

عَبْدِ السَّلَامِ ذَلِكَ ، وَغُمَّ غَمًّا شَدِيْداً ، فأفْتَى بِتَحْرِيْم بَيْـعِ السِّلاحِ لِلإفْرَنْجِ ، وَتَرْكَ الدُّعَاءَ لِلسُّلْطَانِ في خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ .

وَنَدَّدَ بِخِيَانَةِ السُّلْطَانِ لِلْمُسْلِمِيْنَ ، وَكَانَ مِمَّا دَعَا بِهِ في خُطبةِ : « اللَّهُمّ أَبْرِم لِهَذِهِ الأُمّةِ أَمْرَ رُشْدٍ تُعِزُّ فِيْهِ وَلِيَّكَ ، وَتُذِلُّ بِهِ عَدُوَّكَ ، وَيُعْمَلُ فِيْهِ بِطَاعَتِكَ ، وَيُنْهَى فِيْهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ ، وَالنَّاسُ يُؤَمِّنُوْنَ عَلَى دُعَائِهِ ، فَبِمِثْلِ لَمْحِ الْبَرْقِ بَلَّغَ الْمَلِكَ مَا فَعَلَهُ قَاضِي الْقُضَاةِ .

وَمَا أَكْثَرَ الْمُبَلِّغِيْنَ وَالْمُتَوَدِّدِيْنَ وَالنَّمَّامِيْنَ فِيْ كُلِّ زَمَانٍ ، وَمَكَانٍ ، فَغَضِبَ السُّلْطَانُ ، وَعَزَلَ الشَّيْخَ عَنِ الْقَضَاءِ فَرَحَلَ الشَّيْخُ عَنْ دِمَشْقَ إِلَى مِصْرَ ، وَبَيْنَمَا هُوَ في الطَّرِيْقِ أَرْسَلَ السُّلْطَانَ في أَثَرِهِ ، فَأَدْرَكَتْهُ رُسُلُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَطَلَبُوا مِنْهُ الرُّجُوْعَ ، وَقَالُوْا لَهُ إِنَّ السُّلْطَانَ عفَا عَنْكَ وَسَيَرُدُّكَ إِلَى مَنْصِبِكَ عَلَى أنْ تَنْكَسِرَ لَهُ وَتَعْتَذِرَ ، وَتُقَبِّلَ يَدَهُ .

فَقَالَ لَهُمْ الشَّيْخُ أَنَا مَا أَرْضَى أَنْ يُقَبِّلَ يَدِيْ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ أُقَبِّلَ يَدَهُ ، يَا قَوْمُ أَنْتُمْ في وَادِي ، وَأَنَا في وادِي ، ثُمَّ مَضَى فِي طَرِيْقِهِ حَتَّى وَصَلَ مِصْرَ هكذا العلماء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم.

(فَصْــلٌ)

وَلَمَّا عَلِمَ مَنْذِرُ بْنُ سَعِيْدٍ قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقُرْطَبَةَ ، أَنَّ أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ النَّاصِرُ بَنَى مَدِيْنَةَ الزَّهْرَاءِ وَوَضَعَ فِيْهَا الصَّرْحَ الْمُمَرَّدَ ، وَاتَّخَذَ لِقُبَّتِهِ قَرَامِيدَ مِن الذَّهَبِ والفِضّةِ .

فَغَضِبَ الشَّيْخُ لِذَلِكَ ، وَتَأَلَّمَ لِهَذَا الْبَذْخِ في مَالِ الدَّوْلَةِ وَعَلِمَ أَنَّهُ الْمَسْؤُولُ الأَوَّلُ أَمَامَ بَدِيْعِ السَّمَواتِ والأَرْضِ ، وأَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْهَى

عَنْ هَذَا السَّرَفِ الْمُضِرِّ بِصَالِحِ الْمُسْلِمِيْنَ .

فَجَاءَ إِلى النَّاصِرِ وَقَبَّحَ عَمَلَهُ هَذَا وَأَنَّبَهُ بِقَوْلِهِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَخْزَاهُ اللَّهُ بَلَغَ بِكَ هَذَا الْمَبْلَغَ ، وَلَا أَنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ قِيَادِكَ هَذَا التَّمْكِيْنَ حَتَّى أَنْزَلَكَ اللَّهُ مَنَازِلَ الْكَافِرِيْنَ مَعَ مَا آتَاكَ اللَّهُ وَفَضَّلَكَ عَلَى الْعَالَمِيْنَ .

فاقشَعرَّ عَبْدُ الرَّحْمنِ النَاصِرِ مِنْ قَوْلِ الشَّيْخِ وَقَالَ لَهُ أُنْظُرْ مَاذَا تَقُولَ كيفَ أَنْزَلَنِي مَنَازِلَهُمْ قَالَ نَعمْ أَلَيْسَ اللهُ تَعالى يَقُول ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ الناسُ أُمَّةً واحِدةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمنِ لِبُيوتِهِم سُقُفاً مِن فِّضةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبواباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُوْنَ وُزُخْرفاً ، وإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتاعُ الحَيَاةِ الدُّنيا والآخِرَةُ عِنْدَ رَبِكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

فَسَكَتَ الناصِرُ وَنَكَّسَ رَأْسه سَاعةً ، واغْرَورَقَتْ عَيْنَاهُ مِنَ البُكاءِ وصارَتْ دُمُوعُهُ تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهِ وَلِحْيَتِهِ ، خَوْفاً مِنْ اللهِ حيثُ وَصَلَتِ المَوعِظَةُ الخالِصةُ إِلَى قَلْبِهِ ، وَتَأَثَّرَ تَأَثُراً عَظِيْماً لِأَنَّهَا مِن قَلْبٍ إِلى قَلْب .

ثم قالَ لِلشَّيخِ جَزَاكَ اللهُ عَنَّا وَعَنِ المُسْلِمِيْنَ خَيْراً ، وأَكْثَرَ فِيْنَا مِن أَمْثَالِكَ ، فالذي نَطَقْتَ بِهِ حَقٌّ واللهِ وقامَ مِنْ مَجْلِسِهِ يَلْهَجُ بالاستغفارِ ثم أَمَرَ بِنَقْضِ سَقْفِ القُبَةِ ، وأَعَادَ قَرَامِيدَهَا تُرابا .

فَتَأَمَّل يا أَخِي كَيْفَ أَنَّ سُلْطَانُ الدُّنْيَا والمَادَّةِ وَقَفَ خَاشِعاً أَمامَ هَذَا العَالِمِ الذي لا تَأْخُذُهُ في اللهِ لَومةُ لائِمٍ الذي أَدَّى وَاجِبَه على الوَجْهِ الأَكمل مُعْتَمِداً على فاطِرِ السمواتِ والأَرْضِ الذي ما مِن دَابَةٍ الَّا هُو آخِذٌ بِنَاصِيَتِها وَلَو كَانَ مِن عُلَمَاءِ هذا العَصْرِ المُظْلِمِ لَسَمِعْتَ غَيْرَ هَذَا فَلَا حَولَ وَلَا قُوَةَ إِلَّا باللهِ العلي العَظِيمِ وهو حَسْبُنَا ونِعمَ الوكيل .

وَذُكِرَ أَنَّه قَدِمَ أَمِيْرُ المُؤمِنينَ المَنْصُوْرُ مَكَّةَ شَرَّفَهَا اللَّهُ حَاجاً فكانَ يَخْرُجُ مِنَ دارِ النَّدْوَةِ إِلى الطوافِ في آخِرِ الليلِ ، يَطُوفُ وَيُصَلِّي وَلَا يُعْلَمُ بِهِ ، فإِذا طَلَعَ الفَجْرُ ، رَجَعَ إِلى دَارِ النَّدْوَةِ ، وَجاءَ المؤذِّنون فَسَلَّمُوْا عَلَيه وأقِيْمَتِ الصلاةُ فيصَلِي بالناسِ .

فَخَرَجَ ذاتَ لَيْلَةٍ حِيْنَ أَسْحَرَ فَبَيْنَما هُو يَطُوفُ إِذْ سَمِعَ رَجُلاً عِنْدَ المُلْتَزَمِ وَهُوَ يقولُ ، اللهم إني أَشكُو إِليكَ ظُهُورَ البَغْيِ والفَسَادِ في الأَرضِ ، وما يَحُولُ بَيْنَ الحَقِ وَأَهْلِهِ مِن الظُلمِ ، والطَّمَعِ ، فأَسْرَعَ المَنْصُورُ في مَشْيِهِ ، حَتَّى مَلأَ مَسَامِعَهُ مِن قولِهِ وَفَهِمَ قَولَهُ كَلَّهُ .

ثم خَرَجَ فَجلَسَ نَاحِيَةً مِنَ المسجِدِ ، وأَرْسَلَ إِليهِ فَدَعَاهُ ، فأَتَاهُ الرسولُ ، وقال له أَجِبْ أميْرَ المؤمنينَ ، فَصَلَّى ركعتينِ واسْتَلَمَ الرُكْنَ وأَقْبَلَ مَع الرسولِ فَسَلَّمَ عليهِ فقال لهُ المنصورُ : مَا هَذَا الذي سَمِعْتُكَ تقولُ مِنْ ظُهورِ البَغْيِ والفَسادِ في الأَرضِ وما يَحُولُ بَيْنَ الحق وأهلهِ مِنْ الطَّمَعِ والظُلمِ ، فواللهِ لَقَدْ حَشَوْتَ مَسامِعِي ما أَمْرَضَنِي وأَقْلَقَنِي .

فقالَ يَا أَمِيْرَ المُؤمنينَ إِن أَمَّنْتَنِي على نَفْسِي أَنبأتُكَ بالأُمُوْرِ مِن أُصُولِها وإلا اقْتَصَرْتُ على نَفْسِي فَفِيهَا لي شُغُلٌ شَاغِلٌ ،فَقال لَه أَنْتَ آمِنٌ عَلَى نَفْسِكَ فقال الذي دَخَلَهُ الطمعُ حَتَّى حَالَ بينَهُ وَبَيْنَ الحَقِ واصْلاحِ ما ظَهرَ مِن البَغْيِ والفَسادِ في الأَرضِ أَنْتَ .

فَقَال وَيْحكَ يَدْخُلني الطمَعُ والصَّفْراءُ والبَيْضاءُ في يَدِي والحُلْوُ والحَامِضُ في قَبْضَتِي قالَ وَهلْ دَخَلَ أَحَداً مِنَ الطَّمَعِ مَا دَخَلَكَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ إِن اللهَ تعالى اسْترعَـاكَ أُمُورَ المُسْلمينَ وأَمْـوالَهُم فأغْفَلْتَ أُمورَهُم واهْتَمَمْتَ بِجَمْعِ أَمْوَالِهِم .

وَجَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُم حِجَاباً مِن الجصّ ، والآجُرِ وَأَبْوَاباً مِن الحَدِيْدِ وحَجَبْتَ معَهم السِّلاحُ ثم سَجَنتَ نَفْسَكَ فِيها عَنْهُم وبَعَثْتَ عُمّالَكَ في جَمْعِ الأموالِ وَجِبَايَتِها .

واتَّخَذْتَ وُزَرَاءَ وأَعْواناً ظَلَمَةً إن نَسِيْتَ لم يُذَكِّرُوكَ وإِنْ ذَكَرْتَ لم يُعِينُوكَ وَقَوّيتَهُم على ظُلْمِ الناسِ بالأَمْوَالِ والكُراعِ ، والسِّلاحِ وأَمَرْتَ بِأَنْ لَا يَدْخُلَ عليكَ مِن النَاسِ إِلَّا فُلَانٌ وفلانٌ نَفَرٌ سَمَّيتَهُم ولم تَأْمُر بإيصالِ المَظْلُومِ والمَلْهُوْفِ ولا الجَائِعِ ولا العارِي ولا الضَّعِيْفِ ولا الفقيرِ ولا أحدٌ إلا ولَهُ في هذا المالِ حَقٌ .

فَلَمَّا رَآكَ هَؤُلَآءِ النَّفَرُ الذين اسْتَخْلَصْتَهُم لِنَفْسِكَ وآثَرْتَهُم على رَعِيْتِكَ وأَمَرْتَهُم أنْ لَا يُحْجَبُوا عَنَكَ تَجْبِي الأَمْوَال ولا تَقْسِمُهَا قالُوا هَذَا قَدْ خَانَ اللهَ فما لَنَا لا نَخُونُهُ وقد سُخِرَ لَنَا .

فائْتَمَرُوا على أَنْ لَا يَصِلَ إِليكَ مِن عِلْمِ أَخْبَار الناسِ إِلَّا ما أرادُوا وانْ لَا يَخْرُجَ لكَ عَامِلٌ فَيُخَالِفَ لَهُم أمراً إِلَّا أَقْصَوهُ حَتَّى تَسْقطَ مَنْزِلَتُه وَيَصْغُرَ قَدْرُه .

فلمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَعَنْهُم ، أَعْظَمَهُم الناسُ ـ وَهَابُوهُم وكانَ أَوَّلُ مَن صَانَعهُم عُمَّالُكَ بِالهَدَايَا والأموالِ لِيَتَّقَوْا بِهِم على ظُلْمِ رَعِيَّتِك .

ثم فَعَلَ ذلِكَ ذَوُوْ القُدْرَةِ والثَّرْوَةِ مِن رَعِيَّتِكَ لِيَنالُوْا ظُلْمَ مَن دُوْنَهُم مِن الرعيةِ فامْتَلَأَتْ بلادُ اللهِ بالطمعِ بَغْياً وَفَساداً وَصارَ هَؤُلَاءِ القومُ شُرَكَاءَكَ في سُلْطانِكَ وأنْتَ غافلٌ .

فإن جَاء مُتَظَلِّمٌ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُخُولِ إِلَيْكَ وإِنْ أَرادَ رَفْعَ صَوْتِهِ أَوْ

قِصَّتِهِ إليكَ عندَ ظُهُورِكَ وَجَدَكَ قد نَهَيْتَ عن ذَلِكَ ، وَقَّفْتَ لِلنَاسِ رجلاً يَنْظُرُ في مَظَالِمهم ، فإن جاءَ ذَلِكَ الرجُلُ وبَلَّغَ بِطَانَتَكَ سَأَلُوا صَاحِبَ المَظَالِمِ أَنْ لَا يَرْفَعَ مَظْلَمَتَهُ وان كانَتْ لِلْمُتَظَلِّمِ بِهِ حُرْمَةٌ وإِجَابَةٌ لم يُمَكِّنْهُ مِمَّا يُرِيْدُ خَوْفاً مِنْهم .

فَلاَ يَزَالُ المظلومُ يَخْتَلِفُ إليهِ وَيَلُوْذُ بِهِ وَيَشْكُو ، وَيَسْتَغِيْثُ وهو يَدْفُعهُ وَيَعْتَلِي عليه ، فإذا جُهِدَ ، وأُخرِجَ وَظَهَرْتَ صَرَخَ بينَ يَدَيْكَ فَيُضْرَبُ ضَرباً مُبَرِحاً ، لِيَكُونَ نَكَالاً لِغَيْرِهِ ، وأنْتَ تَنْظُرُ ، وَلاَ تُنْكِرُ وَلاَ تُغْنِي ، فما بقاءُ الإسلامِ وأهلِهِ على هذا .

وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ وكانَتِ العَرَبُ لا يَنْتَهِيَ إِليهم المَظْلُومُ إلا رُفِعَتْ ظَلامَتُه إليهم ، فَيُنْصَفُ ولَقَد كان الرَجلُ يأتِيْ مِن أَقْصَى البِلادِ حَتَّى يَبْلُغَ بَابَ سُلْطَانِهم ، فَيُنَادِي يا أَهْلَ الإسلامِ فَيَبْتَدِرونَهُ مَالَكَ فيرفَعُونَ مَظْلَمَتَهُ إلى سُلْطَانِهم فَيَنْتَصِفُ .

وَلَقد كُنْتُ أُسَافِرُ إلى أَرْضِ الصِيْنِ وبها مَلِكٌ فَقَدِمْتُها مَرَّةً وَقَدْ ذَهَبَ سَمْعُ مَلِكِهِم ، فَجَعَلَ يَبْكِي فقال وُزَرَاؤُهُ مَا لَكَ تَبكِي لَا بَكَتْ عَيْنَاكَ .

فقال أَما إني لَسْتُ أَبْكِي على المُصِيْبَةِ التي نَزَلَتْ بِي ، ولكن أَبْكِيْ لِمَظْلُومٍ يَصْرَخُ بالبابِ فلا أَسْمَعُ صَوْتَهُ .

ثم قال أمَا إنْ كَانَ ذَهَبَ سَمْعِي فإنَّ بَصَرِيْ لَمْ يَذْهَبْ ، نَادُوا في الناسِ أَلَا لَا يَلْبَسُ ثَوْباً أَحْمَرَ إلا مَظْلُوماً ، فكان يَرْكَبُ الفِيْلَ وَيطُوفُ طَرَفي النَّهَارِ هَلْ يَرَى مَظْلُوماً فَيُنْصِفَهُ .

هذا يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنينَ مُشْرِكٌ باللهِ ، قَدْ غَلَبَتْ رَأْفَتُهُ بالمُشْرِكِينَ ، وَرِقَتهُ ، على شُحِّ نَفْسِهِ في مُلْكِهِ وأَنْتَ مُؤْمِنٌ باللهِ ، وابنُ عَمِّ نَبِي اللهِ لا تَغْلِبُكَ رَأفتُكَ بالمُسْلمين ، ورِقَّتُكَ على شُحِّ نَفْسِكَ ، فَانكَ لَا تَجْمَعُ الأَمْوَالَ إلَّا لِوَاحِدٍ مِن ثَلاثَةٍ .

إن قُلْتَ أَجْمَعُهَا لِوَلَدِي فَقَدْ أراكَ اللهُ عِبَراً في الطِّفْل الصَّغِيرِ يَسْقُط مِن بَطْنِ أُمِّهِ وَمَالَهُ على الأَرْضِ مَالٌ ، وما مِن مالٍ إلا وَدُوْنَهُ يَدٌ شَحِيْحَةٌ تَحْوِيهِ ، فَمَا يَزالُ اللهُ تعالى يَلْطُفُ بِذَلِكَ الطِفْلِ حَتَّى تَعْظُمَ رغبَةَ النَاسِ إليهِ ، وَلَسْتَ الذي تُعْطِي بَلِ اللهُ يُعْطِي مَن يَشَاء .

وان قُلْتَ أَجْمَعُ لأُشَيِّدَ سُلْطَانِي فَقَدْ أَرَاكَ اللهُ عِبَراً فِيمَنْ كان قبلكَ مَا أَغنَى عَنْهُم ما جَمعُوهُ مِنَ الذهَبِ والفضةِ ، وما أعدُّوا مِنَ الرجَال والسلاحِ والكُراعِ وَمَا ضرُّكَ وَوَلَدَ أَبيكَ ما كنتُم فيهِ مِن قِلةِ الجِدَةِ والضَّعْفِ حينَ أرادَ الله بِكُمْ ما أراد .

وان قُلْتَ أَجْمَعُ لِطَلَبِ غَايَةِ هِيَ أَجْسَم مِن الغَايَةِ التي أنتَ فِيها فَواللهِ ما فَوقَ مَا أَنْتَ فِيه إلا مَنْزِلَةٌ لا تُدْرَكُ إلا بالعمَلِ الصالحِ - يُرِيدُ الجَنَّةَ وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللهُ - .

يا أميرَ المؤمنين هَلْ تُعاقِبُ مَن عَصَاكَ مِن رَعِيَتِّكَ بأَشَدَ مِنْ القَتْلِ قَالَ لَا قَالَ فَكَيْفَ تَصْنعُ بِالمَلِكِ الذي خَوَّلَكَ ، وَمَا أَنْتَ عليهِ مِن مُلْكِ الدُنيا .

وهو تعالى لَا يُعاقِبُ مَنْ عَصَاهُ بالقَتْل ، ولكنْ يُعَاقِبَ مَن عَصَاهُ بالخُلُودِ في العَذابِ الأليمِ ، وهو الذي يَرَى مِنكَ مَا عَقَدَ عليهِ قَلْبُكَ

وَأَضْمَرَتْهُ جَوارِحُك فَمَاذَا تَقُولُ إذا انْتَزَعَ الْمَلِكُ الحقُ المُبين مُلْكَ الدنيا مِن يَدِكَ وَدَعَاكَ إلى الحِسَابِ هَلْ يُغْنِي عَنْكَ عندَهُ شَيءٌ مِمَّا كُنْتَ فيهِ مِمَّا شَحَحَتَ عليهِ مِن مُلْكِ الدنيا .

فَبَكَى المَنْصُورُ بُكَاءً شَدِيْدَاً حَتَّى نَحبَ وارْتَفَعَ صَوْتُهُ ثُم قَالَ كَيْفَ احْتيالِي فِيْمَا خُوِّلْتُ فِيهِ ولم أَرَ مِنَ الناسِ إلَّا خَائِناً قال يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنين عَلَيْكَ بالأئمةِ الأَعْلَامِ المُرشَدِين قال وَمَن هُم ، قال العُلَمَاءُ قال قَدْ فَرُّوا مِنِّيْ ، قَالَ هَرَبُوا مِنْكَ مَخَافَةَ أن تَحْمِلَهُم على مَا ظَهَرَ مِن طَرِيْقَتِكَ مِن قِبَلِ عُمَّالِكَ .

ولكن افْتَحْ الأَبْوَابَ وَسَهِّل الحِجَابَ ، وانْتَصِرْ لِلْمَظْلُومِ من الظَّالِمِ ، وامْنَعِ المَظَالِمَ وَخُذْ الشَّيءَ مِمّا حَلَّ وَطَابَ واقْسِمْهُ بالحَقِ والعَدلِ ، وأنا ضَامِنٌ عَلَى أنَّ مَن هَرَبَ مِنْكَ أَنْ يَأتِيْكَ ، فَيُعَاوِنَكَ على صَلاحِ أَمْرِكَ ، وَرَعِيَّتِكَ فقالَ المَنْصُورُ اللَّهُمَّ وَفِّقْنِي أَنْ أَعْمَلَ بما قالَ هذا الرجلُ وأقِيْمَتِ الصلاةُ فَخَرَجَ فَصَلَى بِهِم الخ .

اللهم قَوِ إيمانَنَا بِكَ وبملائكتِكَ وَبِكُتُبِكَ وَبِرُسُلِكَ وباليومِ الآخر وبالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ اللهمّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِطَاعَتِكَ وَحُل بَيْنَنا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِكَ وأَلْهِمْنَا ذِكرَكَ وَشُكْرَكَ واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدين واغفر لَنَا وَلِوالِدَينا ولجميعِ المسلمينِ بِرَحْمَتِكَ يا أَرحَمَ الراحِمين وصلَّى الله على نبينا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أَجْمَعِيْن .

نَصِيْحَةُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيْ لِهرُوْنَ الرَّشِيْد

مِن عَبْدِ اللهِ هَارُوْنَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، إلى أخيهِ في اللهِ سُفيانَ ابنِ

سعيدٍ الثَّوْرِي .

أما بَعدُ يا أخي ، فَقدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ آخى بَيْنَ المُؤْمِنينَ ، وَقَد آخَيْتُكَ في اللهِ مُؤآخاةً لم أصْرِمْ فِيهَا حَبْلكَ ، ولم أَقْطَعْ منها وِدَّكَ ، وإِنِي مُنْطوٍ لَكَ على أَفْضَلِ المَحَبَّةِ ، وأَتَمِّ الإِرَادَةِ .

ولولاَ هَذهِ القِلاَدَةِ الَّتِي قَلَّدنيْهَا اللهُ تعالى لأَتَيْتُكَ ولو حَبْواً ، لما أجدُ لَكَ في قَلْبِي مِن المَحَبَّةِ ، وإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ أحدٌ مِن إخواني إلَّا زَارَنِي وهَنأَنِي بِمَا صِرْتُ إِليهِ .

وقد فَتَحْتُ بُيُوتَ الأَمْوَالِ ، وأَعْطَيْتُهُـم مِن المَوَاهِبِ السَّنِيةِ ، ما فَرِحَتْ بِهِ نَفْسِي وَقرَّتْ بِهِ عَيْنِي وَقَدْ اسْتَبْطَأْتُكَ ، وقد كَتَبْتُ كِتاباً مِنِي إِليكَ أُعْلِمُكَ بالشوقِ الشَّدِيْدِ إليكَ .

وقد عَلِمْتَ يا أَبا عَبدِ اللهِ ما جَاءَ في فَضْلِ زيارَةِ المؤمِنِ وَمُوَاصَلَتِهِ فَاذا وَرَدَ عَلَيْكَ كِتابِي هذا فالعَجَلَ العَجَلَ .

ثم أَعْطَى الكِتَابَ لِعَبَّادِ الطالِقانِي وأَمَرَه بايْصَالِهِ إِليْهِ ، وأَنْ يُحْصِى عليهِ بِسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ دَقِيْقَ أَمْرِهِ وَجَلِيْلَهُ لِيُخْبِرَهُ بِهِ . قال عَبّادُ : فانطلَقْتُ إِلى الكُوفَةِ فَوَجْدْتُ سُفيانَ في مَسْجِدِهِ ، فلما رآنِي على بُعْدٍ قَامَ وقالَ : أَعُوذُ باللهِ السَّمِيْعِ العَلِيمِ مِن الشيطَانِ الرجيم ، وأعوذُ بكَ اللَّهُم مِن طارِقٍ يَطْرُقُ إلا بخيرٍ .

قال : فَنَزَلتُ عن فَرَسِي ببابِ المسجدِ ، فقامَ يُصَلِي وَلَمْ يَكُن وَقتَ صَلاةٍ : فَدَخَلْتُ وَسَلَّمْتُ فَمَا رَفَع أَحَدٌ مِن جُلَسَائِهِ رأسَه إليَّ ، قالَ : فَبَقِيْتُ وَاقِفاً وَمَا مِنْهم أَحَدٌ يَعْرِضُ عَلَيَّ الجُلُوسَ ، وَقَدْ عَلَتْنِي مِن

هَيْبَتِهم الرِّعْدَةُ ، فرَمَيتُ بالكِتَابِ إليهِ .

فلمَّا رأى الكِتَابَ إرتَعَدَ وتَبَاعَدَ مِنْه كأنَّه حَيَّةٌ عَرَضَتُ لَهُ في مِحْرَابِهِ فرَكَعَ وَسَجَدَ وَسَلَّمَ وأدْخَلَ يَدَهُ في كُمِّهِ وأخَذَهُ وَقَلَبَهُ بِيَدِهِ ، ورماهُ الى مَنْ كان خَلَفَهُ ، وقال : لِيَقْرَأَهُ بَعْضُكُم فإني أَسْتَغْفِرُ اللهَ أَنْ أمس شَيْئاً مَسَّهُ ظَالِمٌ بِيَدِهِ .

قال عَبادُ : فَمَدّ بَعْضُهم يَدَهُ اليهِ وَهُوَ يرْتَعِدُ كَأَنَّهُ حَيَّةٌ تَنْهَشُهُ ثم قرأَهُ فَجَعَل سُفيَانُ يَبْتَسِمُ تَبَسُّمَ المُتَعَجِّبِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِن قِرَاءَتِهِ ، قال أقْلِبُوْهُ وأكْتُبْوا لِلظَّالِمِ على ظَهْرِهِ ، فَقِيلَ له يا أَبَا عَبْدِ اللهِ إِنَّهُ خَلِيفَةٌ فَلو كَتَبْتَ إليهِ في بَياضٍ نَقي لَكَانَ أَحْسَنَ .

فقال : اكتُبوا لِلظَّالِمِ في ظَهْرِ كِتَابِهِ ، فإنْ كَانَ اكْتَسبَه مِن حَلالٍ فَسَوْفَ يُجْزَى بِهِ وإن كانَ اكتَسَبَهُ مِن حَرَامٍ فَسَوْفَ يُصْلَى بهِ ولا يَبْقَى شَيءٌ مَسَّهُ ظَالمٌ بِيَدِهِ عِنْدَنَا ، فَيُفْسِدُ عَلَيْنَا دِيْنَنَا ، فَقِيل له ما نَكْتُب إليهِ ، قال : اكْتُبُوا لَهَ :

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنَ العَبْدِ المَيِّتِ سُفْيَانُ إلى العبدِ المَغْرُوْرِ بالآمالِ هارونِ الذي سِلِبَ حلاوةَ الايمانِ ، وَلَذَّة قِراءةِ القرآنِ .

أَما بعدُ . . فإني كَتَبْتُ إليكَ أُعْلِمُكَ أَنِي قَدْ صَرَمْتُ حَبْلَكَ ، وَقَطَعْتَ وُدَّكَ ، وأنكَ قَدْ جَعَلْتَنِيْ شَاهِداً بإقرارِكَ على نَفْسِكَ في كتابِكَ بِما هَجَمْتَ عَلَى بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ فَأنفَقتَهُ في غَيرِ حَقِّهِ ، وأَنْفَذْتَهُ بِغَيْرِ حُكْمِهِ ، وَلَم تَرْضَ بِمَا فَعَلْتَ وَأَنْتَ نَاءٍ عِني حَتى كَتَبْتَ إليَّ تُشهِدُني

على نَفْسِكَ .

فأَمَّا أنا فإني قد شَهِدْتُ عَلَيْكَ أنا وَإخْوَانُكَ الذينَ حَضَرَوْا قِرَاءَةَ كِتابِك، وَسَنُؤَدِي الشهادَةَ غداً بَيْنَ يَدَي اللهِ الحَكَمِ العدلِ يا هارُوْنُ هَجَمْتَ على بَيْتِ مالِ المُسْلِمِيْنَ بِغيرِ رِضاهُم .

هَلْ رَضِيَ بِفِعْلِكَ المُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهم ، والعَامِلُونَ عَلَيْهَا في أَرِضِ اللهُ ، والمُجَاهِدُوْنَ في سَبْيلِ الله وابنُ السبيلِ ، أمْ رَضِيَ بِذَلِكَ حَمَلَةُ القُرْآنِ وأَهْلُ العِلْم يَعْنِي العَامِلِيْنَ ، أمْ رَضِيَ بِفِعْلِكَ الأَيْتَام والآراملُ ، أم رَضِيَ بِذَلِكَ خَلْقٌ مِن رَعِيَّتِكَ .

فَشُدَّ يَا هَارُوْنُ مِئْزَرَكَ ، وأَعِدَّ لِلْمَسْأَلَةِ جواباً وَلِلْبَلاَءِ جِلْبَاباً ، واعْلَمْ أَنَّكَ سَتَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ الحَكمِ العدلِ فاتِقّ اللهَ في نَفْسِكَ اذْ سُلِبْتَ حَلاَوَةَ العِلْمِ والزُّهْدِ وَلَذَّةِ قِراءةِ القُرْآنِ ، وَمُجالَسَةَ الأَخْيَارِ ، وَرَضِيْتَ لِنَفْسِكَ أن تُكونَ ظالماً وَلِلْظَّالِمينَ إماماً .

يا هَارُوْنُ . . قَعَدْتَ على السَّرِيْرِ ، وَلَبِسْتَ الحَرِيْرَ ، وأَسْبَلْتَ سُتُوراً دُونَ بَابِك ، وَتَشَبَّهْتَ بالحَجَبَةِ بِرَبِّ العالمينَ ثم أَقْعَدْتَ أَجْنَادَكَ دُوْنَ بَابِكَ ، وَسِتْرِكَ يَظْلِمُونَ الناسَ ولا يُنْصِفونَ ، وَيَشْرَبُـونَ الخَمْرَ وَيَحُدُّونَ الشَّارِبَ ، وَيَـزْنُونَ وَيَحُـدُّونَ الزانِيَ ، وَيَسْـرِقُونَ وَيَقْـطَعُون السَّارِقَ ، وَيَقْتُلُوْنَ ويُحدُّون القاتل .

أفلاَ كَانَتْ هَذِهِ الأَحْكَامُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِم قَبْلَ أن يَحْكمُوا بِها على الناسِ .

فكيفَ بِكَ يا هَارُوْنُ غَدَا إذا نَادَى المُنَادِي مِن قِبَلِ اللهِ أَحْشَرُوْا

الظَّلَمَةَ وَأَعْوانَهُم ، فَتَقَدّمت بَيْنَ يَدَي اللهِ ويَداكَ مَغْلُولَتَانِ إِلَى عُنُقِكَ لَا يَفُكهُمَا إلا عَدْلُكَ وإنصَافُكَ ، والظالِمُونَ حـوْلـكَ وأَنْت لَهُمْ إمَامٌ أو سَائِقٌ إلى النارِ .

وكَأَنِي بِكَ يَا هَارُوْنَ وَقَدْ أُخِذتَ بِضيقِ الخِنَاقِ ، وَوَرَدْتَ المَسَاقَ وَأَنتَ تَرَى حَسَناتِكَ في مِيْزَانِ غيرِكَ ، وَسَيّئاتِ غيرِكَ في مِيْزَانِكَ على سَيِّئَاتِك ، بلاءٌ على بَلاَءٍ ، وَظُلْمَةٌ فوقَ ظُلْمَةٍ .

فاتّقِ اللهَ يا هارُوْنُ في رَعِيَّتِكَ ، واحْفَظْ مُحَمَّداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمَتِّهِ ، واعْلَمْ أنَّ هَذَا الأَمَر لم يَصِرْ إِلَيْكَ إِلاّ وَهُوَ صَائِرٌ إِلى غيرِكَ ، وَكَذَلِكَ الدُنْيَا تَفْعَلُ بِأهْلِهَا وَاحِداً بَعْدَ واحِدٍ ، فَمِنْهم مَن تَزَوَّدَ زَاداً نَفعَهُ ، وَمِنْهُم مَن خَسِرَ دُنْيَاهُ وآخِرَته ، وايَّاكَ ثمَّ إِيَّاكَ أنْ تَكْتُبَ إليَّ بَعْدَ هَذا ، فإِنِّيْ لا أَجِيْبُكَ والسَّلام .

وَلَما وَلى ابْنُ هُبَيْرَةَ حُكْمَ الْعراق جَمعَ فُقَهاءَهَا وَاسْتَشَارَهُمْ فِيْمَا يَفْعَلُ إذَا أَمَرَهُ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ بِالاَمرِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ أنَّ فِيْهِ ظُلْماً فَالآنَ لَهُ بَعْضُ العُلَمَاءِ الْقَوْلَ .

وَأَبي الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إلَّا أَن يَصْدَعَ بالْحَقِّ وَيُنْقِـذَ الشَّعْبَ مِنْ ظُلْمِ ابْنِ هُبَيْرَةَ وَيُنقِذَ ابْنَ هُبَيْرَة مِنْ عذابِ اللهِ انْ أَطَاعَهُ فَقَالَ لَهُ إِنَّ حقَّ الرَّعِيَّةِ لاَزِمٌ لَكَ وَحَقٌّ عَلَيْكَ أَنْ تَحُوطَهُمْ بِالنَّصِيْحَةِ وَقَدْ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيْهُ اللَّهُ رَعيّةً يَمُوْتُ يَوْمَ يَمُوْتُ وَهُوَ غَاشّ لِرَعْيَّتِهِ إلَّا حَرَّمَ اللَّهَ عَلَيْهِ الجَنَةَ .

اعْلَمْ أَنَّ حَقَّ اللَّهِ أَلْزَم مِنْ حَقِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُطَاعَ

وَلَا طَاعَةَ لِمَخْلوقٍ في مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ يَا ابْنَ هبَيْرَة اتَّقِ اللَّهَ فإِنَّهُ يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيْكَ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ يُزِيْلُكَ عَنْ سَرِيْرِكَ وَيُخْرِجُكَ مِنْ سِعَةِ قَصْرِكَ إِلى ضِيْقِ قَبْرِكَ فَتَدَعُ سُلْطَانَكَ وَدُنْيَاكَ خَلْفَ ظَهْرِكَ وَتَقْدَم على رَبِّكَ وَتَنزلُ على عَمَلِكَ .

يَا ابْنَ هُبَيْرَةَ إِنَّ اللَّهَ لَيَمْنَعُكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَلَا يَمْنَعُكَ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنَ اللَّهِ وَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَوْقَ كلِّ أَمْرٍ وَإِنِّي أُحَذِّرُكَ بَأسَهُ الَّذِيْ لا يُرَدُّ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِيْنَ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ إِرْبَعْ عَلَى ظَلْعِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ وَأَعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ أَمِيْـرِ الْمُؤْمِنِيْنَ فانَّ أميْـرَ الْمُؤْمِنِيْنَ صَاحِبُ الْعِلْمِ وَصَـاحِبُ الحُكْم وَصَاحِبُ الفَضْلِ وَإِنَّمَا وَلَّاهُ الله تَعَالَى مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ لِعِلْمِهِ بِهِ وَمَا يَعْلَمُهُ مِنْ فَضْلِهِ وَنِيَّتِهِ فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ يَا ابْنَ هُبَيْرَةَ الْحِسَابُ وَرَائَكَ سَوْط بِسَوْط وَغَضَبٌ بِغَضَبٍ وَاللَّهُ بالْمِرْصَادِ إِنَّكَ إِنْ تَلْقَ مَنْ يَنْصَحُ لَكَ في دِيْنِكَ وَيَحْمِلُكَ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَلْقَى رَجُلاً يَغرُّكَ وَيمنِّيك فَقَامَ ابنُ هُبَيْرَةَ مِن المَجْلِسِ وَقَد اصْفَرَّ وَجْهُهُ وَتَغَيَّر لَوْنُهُ وعَلَيْهِ الْكَآبه وَقَامَ الحَسَنُ وَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ وَأَرْضَى رَبَّهُ وَأَخْلَصَ لَهُ وَنَصحَ لِأُمَّتِهِ وَهكَذا العُلَمَاءُ يَنْبَغِي أنْ يكُوْنُوا .

هَذِهِ نَمَاذِجُ وَأَمْثِلَةٌ سُقْنَاهَا مِنْ سِيْرَةِ العُلَمَاءِ الْمُخْلِصِيْنَ الْعَامِلِيْنَ بِعِلْمِهِمْ الَّذِيْنَ لَا تَأْخُذُهُمْ في اللهِ لَوْمةُ لَائِمٍ واللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيْنَا مُحَمْدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْــلٌ)
في الأَمْر بالمَعْرُوْفِ والنَّهْي عَن الْمُنْكَر

اعْلَم وَفَّقَكَ اللَّهَ أَنَّ الآمْرَ بِالْمَعْرُوْفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ يَجِبَانِ وُجُوب كَفائِيٍّ يُخَاطَبُ بِهِ الْجَمِيْعُ ، وَيَسْقُطُ بِمَنْ يَقُوْمُ بِهِ ، وَان كَانَ الْعَالِمُ بِهِ وَاحِداً تَعَيَّنَ عَلَيْهِ ، وَانْ كانُوا جَمَاعَةً لَكِنْ لَا يَحْصُلُ الْمَقْصُودُ الَّا بِهِمْ جَمِيْعاً تَعَيَّنَ عَلَيْهِمْ .

وَأَمَّا تَعْرِيْفِهُمَا ، فالمَعْرُوْفُ اسْمُ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا عُرِفَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَالتَّقَرُّبِ الَيْهِ وَالاحْسَانِ الى النَّاسِ ، والمُنْكَرُ ضِدُّهُ وَعَرَّفَهُ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ الْمُنْكَرُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَنْهَى عَنْهُ وَالمَعْرُوْفُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنَ الإِيْمَانِ والْعَمَلِ الصّالِحِ .

وَقَدْ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا الْخَيْرَ وَأَمَرَنَا أَنْ نَدْعُوَ إِلَيْهِ ، وَكَرَّهَ إِلَيْنَا الْمُنْكَرُ وَنَهانَا عَنْهُ ، وَأَمَرَنَا بِمَنْعِ غَيْرِنَا مِنْهُ ، كَمَا أَمَرَنَا بِـالتَّعَاوُنِ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَعاوَنُوْا عَلى البِرِّ والتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ العِقَابِ ﴾ .

وَالأَصْلُ في وجُوْبِهما : الْكِتَابُ وَالسُّنَّةَ وَالإِجْمَاع قَالَ اللَّهُ تَعالَى : ﴿ وَلتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُوْنَ ﴾ .

وَأَبَانَ جَلَّ وَعَلَا أَنَّنا بِهِمَا خَيْرُ الأُمَمِ فَقَالَ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـأْمُرُوْنَ بِـالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنْ الْمُنْكَر ، وَتُؤْمِنُـوْنَ بِاللَّهِ ﴾ .

وَفِيْ الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ مِنْ حَدِيْثِ عَمْرو بْنِ مُرَّةَ عَنْ سَالِم بْنِ أَبِيْ الْجَعْدِ عَنْ أَبِيْ عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدَ اللَّهِ بِنْ مَسْعُوْدٍ عَنْ أَبِيْهِ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَان إِذا عَمِلَ الْعَامِلُ الْخَطِيئَةَ جَاءَهُ النَّاهِيْ تَعْذِيْراً فإِذَا كَانَ الْغَدُ جَالَسَهُ وَوَاكَلَهُ وَشَارَبَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى خَطِيْئَةٍ بِالأَمْسِ فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ بِقُلُوْبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ .

وَالَّذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوْفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ السَّفِيْهِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْراً أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوْبِ بَعْضِكُم عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لِيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ .

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِيْ الدُّنْيَا عَنْ ابْرَاهِيْمَ بْنِ عَمْرو الصَّنْعَانِيِّ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى يُوشِعَ بْنِ نُونٍ إِنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِيْنَ أَلْفاً مِنْ خِيَارِهِمْ وَسِتِّيْنَ أَلْفاً مِنْ شِرَارِهِمْ قَالَ يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ الاشْرَارُ فَمَا بَالُ الأَخْيَارِ قَالَ إِنَّهُمْ لَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِيْ وَكَانُوا يُوَاكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُوْنَهُم .

وَذَكَرَ أَبُوْ عُمَرَ بْن عَبْدِاللَّهِ عَنْ أَبِيْ عِمْرَانَ قَالَ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكَيْنِ إِلى قَرْيَةٍ أَنْ دَمِّرَاهَا بِمَنْ فِيْهَا فَوَجَدُوا فِيْهَا رَجُلاً قَائِماً يُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ فَقَالَا يَا رَب إِنَّ فِيْهَا عَبْدَكَ فُلَاناً يُصَلِّيْ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دَمِّرَاهَا وَدَمِّرَاهُ مَعَهُمْ فَإِنَّهُ مَا تَمَعَّرَ وَجْهُهُ فِيَّ قَطُّ .

وَذَكَرَ الْحُمَيْدِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ حَدَّثَنِيْ سُفْيَانُ ابْنُ سَعِيْدٍ عَنْ مِسْعَرٍ أَنَّ مَلَكاً أُمِرَ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ فَقَالَ يَا رَبِّ إِنَّ فِيْهَا فُلَاناً العَابِدَ .

فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ أَنْ بِهِ فَابْدَأْ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمعَرَّ وَجْهُهُ فِىَّ سَاعَةً قط .

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ وَهَبْ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ لَمَّا أَصَابَ دَاوُدُ الخَطِيْئَةَ قَالَ يَا رَبِّ اغْفِرْ لِيْ قَالَ قَدْ غَفَرْتُ لَكَ وَأَلْزَمْتُ عَارَهَا بَنِيْ اسْرَائِيْلَ قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ وَأَنْتَ الحَكَمُ الْعَدْلُ لَا تَظْلِمُ أَحداً أَنَا أَعْمَلُ الْخَطِيْئَةَ وَتُلْزِمُ عَارَهَا غَيْرِيْ .

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّكَ لَمَّا عَمِلْتَ الْخَطِيْئَةَ لَمْ يَعْجُلُوا عَلَيْكَ بِالإِنْكَارِ .

وَأَوْضَحَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الأَجْرَ بِهِمَا عَظَيْمٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا خَيْرَ فِيْ كَثِيْرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ مَعْرُوْفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيْهِ أَجْراً عَظِيْماً ﴾ .

وَوَصَفَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيقِيْمُونَ الصَلاَةَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَيُطِيْعُونَ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ .

وَشَهِدَ اللَّهُ بِالصَّلَاحِ لِلْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ أَضَافُوْا إِلَى ايْمَانِهِمْ الْقِيَامَ بِهِمَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُسارِعُونَ فِيْ الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِيْنَ ﴾ .

وَبَيَّنَ جَلَّ شَأْنُهُ أَنَّ قَوماً مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ اسْتَحَقُّوْا اللَّعْنَ بِتَرْكِهِمَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لُعِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ

وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُوْنَ ، كَانُوْا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُوْنَ ﴾ .

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَبَّخَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلَمَاءَهُمْ فِـيْ تَرْكِهِمْ نَهْيَهُمْ فَقَالَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

قَالَ وَدَلَّتْ الآيَةُ عَلَى أَنَّ تَارِكَ الْمُنْكَرِ الَّذِيْ لاَ يَنْهَى عَنْهُ كَمُرْتَكِبِهِ .

وَذَلِكَ أَنَّ الأُمَّةَ في عَهْدِ اسْتِقَامَتِهَا وَتَمَسُّكِهَا بالسُّنَنِ لاَ تَتْرُكُ بَيْنَ أَظْهُرِهَا عَاصِياً وَلاَ مَعْصِيَةً فَإِذَا رَأَتْ شَيْئَاً مِنْ ذَلِكَ ثَارَتْ ثَوْرَةَ الأُسُوْدِ وَلَمْ تَسْكُنْ حَتَّى تُذِيْقَهُ مَا يَسْتَحِقّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ .

كُلُّ ذَلِكَ غَيْرَةً عَلَى دِيْنِهَا وَطَلَباً لِمَرْضَاةِ رَبِّهَا . وَالْعُصَاةُ وَالْفَسَقَةُ يَرْتَدِعُونَ عِنْدَمَا يَرَوْنَ رَدْعَ اخْوَانِهِمْ . انْتَهَى كَلاَمُهُ .

وَفِي سُوْرَةِ الاعْرَافِ يُخْبِرُنَا جَلَّ وَعَلاَ عَمَّا كَانَ مِنْ بَنِي اسْرَائِيْلَ وَمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ العَذَابِ فَيَقُوْلُ : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْمَاً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْدَاً قَالُوْا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوْا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا بِعَذَابٍ بَئِيْسٍ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ فَلَمَّا عَتَوا عَمَّا نُهُوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوْا قِرَدَةً خَاسِئِيْنَ﴾. فَأَفَادَتْ هَذِهِ الآيَاتُ أَنَّ بَنِي اسْرَائِيْلَ صَارُوْا إِلَى ثَلاَثِ فِرَقٍ .

فِرْقَةٌ ارْتَكَبَتْ الْمَحْذُوْرَ وَاحْتَالُوْا عَلَى اصْطِيَادِ الأَسْمَاكِ يَوْمَ السَّبْتِ الْمُحَرَّمِ فِيْهِ الصَّيْدُ ، وَفِرْقَةٌ نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ وَاعْتَزَلَتْهُمْ ، وَفِرْقَةٌ سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْه وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكِرَةِ لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ

مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْداً ، أَيْ لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلاَءِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوْا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوْبَةَ مِنَ اللَّهِ فَلاَ فَائِدَةَ فِي نَهْيِكُمْ إِيَّاهُمْ .

قَالَتْ لَهُمْ الْمُنْكِرَةُ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ أَيْ فِيْمَا أُخِذَ عَلَيْنَا مِنْ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ أَيْ وَلَعَلَّ لِهَذَا الإِنْكَارِ يَتَّقُوْنَ مَا هُمْ فِيْهِ وَيَتْرُكُوْنَهُ وَيَرْجِعُوْنَ إِلَى اللَّهِ تَائِبِيْنَ فَإِذَا تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ .

فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ (أَيْ فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُوْنَ قَبُوْلَ النَّصِيْحَةِ) أَنْجَيْنَا الَّذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوْءِ وَأَخَذْنَا الَّذِيْنَ ظَلَمُوا (أَيْ اللَّذِيْنَ ارْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةِ) بِعَذَابٍ بَئِيْسٍ ، فَنَصَّتْ الآيَاتُ عَلَى نَجَاةِ النَّاهِيْنَ وَهَلاكِ الظَّالِمِيْنَ وَسَكَتَتْ عَنْ السَّاكِتِيْنَ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانُوا ثَلاثَةً ثُلُثٌ نَهَوْا وَثُلثٌ قَالُوا لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْداً وَثُلُثٌ أَصْحَابُ الْخَطِيْئَةِ فَمَا نَجَا إِلاَّ الَّذِيْنَ نَهَوْا وَهَلَكَ سَائِرُهُمْ وَهَذَا اسْنَادُهُ جَيِّدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

وَفِيْ الحَدِيْثِ الثَّابِتِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِيْق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ عَلَى مِنْبَرِ رَسُوْلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَكُمْ تَقْرءوْنَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ .

وَإِنِّي سَمِعْتَ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوْهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ منه » وَفِيْ لَفْظٍ

(مِنْ عِنْدِهِ) رَواهُ أَبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيْ وَقَالَ حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ وابْنُ مَاجَةَ والنَّسَائِيُّ وَلَفْظُهُ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « إِنَّ الْقَوْمَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيرُوْهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ » .

وَفِيْ رِوَايَةٍ لأَبِيْ دَاوُدَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِيْ ثُمَّ يَقْدِرُوْنَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوْا ثُمَّ لاَ يُغَيِّرُوْا إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ » وَفِيْ رِوَايَةٍ : « إِنَّ النَّاسَ إِذا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُم اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ » .

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حُمَيْدٍ وَلَقَدْ وَصَلْنَا إِلى حَدٍ مَاتَتْ فِيهِ الْغَيْرَةُ الدِّيْنِيَّةُ عِنْدَ كُلِّ أَحدٍ مِمَّنْ يُرْجَى وَيُظَنُّ أَنَّهُمْ حُمَاةِ الإِسْلاَمِ وَأَبْطَالَ الدِّيْنِ مِمَّا جَعَلَ العُصَاة يَمْرَحُونَ فِي مَيَادِيْنِ شَهَواتِهِمْ وَيَفْتَخِرُوْنَ بِعِصْيَانِهِمْ بِدُوْنِ حَسِيْبٍ وَلاَ رَقِيْبٍ .

وَلَوْ شِئتُ لَقُلْتُ وَلاَ أَخْشَى لائِماً نَحْنُ فِيْ زَمَنٍ عَلاَ فِيْهِ وَاعْتَزَّ أَرْبَابُ الرَّذائِلِ وَأَصْبحتْ الدَّوْلَةُ لَهُمْ وَأَهْلُ الْفَضِيْلَةِ الْمُتَمَسِّكُوْنَ بِأَهْدَابِ دِيْنِهِمْ عِنْدَمَا يُنْكِرُوْنَ عَلَى الْمُجْرِمِيْنَ إِجْرَامهُمْ يَكُوْنُوْنَ كَالْمضغَةِ في الأَفْواهِالْبَذِيْئَةِ تَرْمِيْهِمْ بِكُلِّ نَقِيْصَةٍ وَأَقَلُّ مَا يَقُوْلُوْنَ إِنَّهُمْ مُتَأَخِّرُوْنَ جَامِدُوْنَ في بَقَايَا قُرُوْنِ الْهَمَجِيَّةِ يَسْتَهْزِؤُنَ وَيُقَهْقِهُوْنَ وَيَغْمِزُونَ بالحَواجِبِ وَالعُيونِ وَيُخرِجُون أَلسِنَتَهم سُخْرِيَة واسْتِهْزاءً بهم وَيَضْحَكُون مِن عُقولِهم لَمَّا راجَتْ الرَّذِيْلة هَذا الرَّواجُ وما دَرَى هَؤلاَءِ أنَّهم في غَايَةٍ مِن السُّقُوطِ والهَمَجِيَّةِ لِفَسَادِ عُقولِهم وَبُعْدِهم عن مَعْرِفَةِ أَوَامِرِ دِيْنِهِم .

وَنَاهِيْكَ لَوْ قَامَ كُلّ مِنّا بما عَلَيهِ مِن الدَّعْوَةِ لـلإسْلاَمِ والأَمـرِ

بالمَعْرُوفِ والنهي عن المنكر وارشَادِ النَّاس وَعِظتِهم وَتَذْكِيْرِهم بما فِيْهِ صَلاَحُهم واسْتِقَامَتُهم لا اسْتَقَرَّ الخَيْرُ والمَعْرُوفِ فِيْنا وَامْتَنَع فُشُوُّ الشَّرِّ والْمُنْكَرِ بَيْنَنا أ هـ والله أعلَمُ وصلَّى اللهُ على مُحَمَّد .

(فَصْــلٌ)

وَعَن أبي سَعِيْد الخُدْري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهُ صَلَّى الله عَلَيهِ وسَلَّمَ يَقولُ : « مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَراً فَليُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فإنْ لَمْ يَسْتَطع فَبِلِسَانِهِ فإنْ لَم يَسْتَطع فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ » رَوَاهُ مُسْلِم .

وَعَنْ ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قالَ : « مَا مِن نبي بَعَثَه اللهُ في أمّةٍ قَبْلِي إلا كانَ لَه مِنْ أُمَّتِهِ حَوارِيُّونَ وأصْحَابٌ يأخذُون بِسُنّتِهِ ، وَيَقْتَدُوْن بِأَمْرِهِ » .

ثُمَّ تَخَلَّفَ مِن بَعْدِهم خُلوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُون مَا لا يُؤمَرُونَ ، فَمَن جَاهَدَهُم بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَن جَاهَدَهُم بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُم بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، ليس وَرَاءَ ذَلِكَ مِن الإِيْمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ ، رَوَاهُ مُسْلم .

وَعَنْ حُذَيفة رَضِيَ اللهُ عنهُ عن النَّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم قال : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرونَّ بالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ أَوْ لَيُوْشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عليكُم عِقَاباً مِنهُ ثم تَدْعُوْنَهُ فَلاَ يُسْتَجابُ لَكُمْ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ ، وَقَالَ حَدِيْث حَسَنٌ .

وَروى الترمذيّ عن أبي هريرة أنّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَرَّ على صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَل يَدَه فيها فَنالَتْ أَصَابِعُه بَللاً فقالَ : « مَا هَذا

يَا صَاحِبَ الطَّعَام ؟ فقال : أَصَابَتْهُ السَّماءُ يَا رَسولَ اللهِ قال : أَفَلا جَعَلْته فَوْقَ الطَّعَامِ حتى يَرَاهُ النَّاسُ مَن غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

فَهَذَا نَهْيٌ منهُ صَلَّى الله عليه وسلم عَن مُنْكَرٍ ، هُوَ غِشُّ الناسِ في طَعَامهم وأَجْمَعَتْ الأُمَّةُ على وُجُوبِ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عن المُنْكَر .

وَأَخرَج الامَامُ أَحْمَد في المَسْندِ أنَّ الوَليدَ بن عُقْبَةَ أَخَّر الصلاةَ مرّةً فقامَ عبْدُ اللهِ بن مَسْعُودٍ فَثَوَّبَ بالصَّلاَةِ فَصَلَّى بالنَّاسِ فَأَرْسَلَ إِليهِ الوَلِيْدُ : مَا حَملكَ على مَا صَنَعْتَ أَجَاءَكَ مِن أَميرِ المؤمنينَ أمْرٌ فِيْمَا فَعَلْتَ أَم ابْتَدَعْتَ قالَ لَمْ يَأْتِنِي أَمْرٌ مِن أَمِيْرِ المؤمِنِينَ وَلم ابْتَدعُ وَلَكِنْ أَبَى اللهُ وَرَسُولَهُ عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَظِرُكَ بِصَلاتِنا وَأَنْتَ في حَاجَتِكَ .

قَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ رَحِمَهُ اللهُ : لاَ بُدَّ مِن العِلْمِ بالمَعْرُوْفِ والمُنْكَرِ والتَّمْيِيْزِ بَيْنَهُمَا . الثَّاني أنه لا بُدَّ مِن العِلْمِ بِحَالِ المَأْمُورِ والنَّهْيِ ، وَمِنَ الصَّلاَحِ أَنْ يَأتِيَ بالأَمْرِ والنَّهي بالصِّرَاطِ المُستقيمِ وهو أَقْرَبُ الطّرقِ إلى حُصُولِ المَقْصُودِ ولا بدَّ في ذلكَ مِن الرِّفقِ وَلا بُدَّ أنْ يكونَ حَلِيْماً صَبُوراً على الأذى فانَّهُ لا بُدَّ أن يَحْصُل له أذىً فإنْ لَم يَحْلَمْ وَيصْبِرَ كانَ ما يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ فَلاَ بُدَّ مِنَ العِلْمِ والرِّفْقِ والصَّبْرِ ، والعِلْم قَبْلَ الأَمْرِ والنَّهي والرِّفْقِ مَعَهُ والصَّبْرُ بَعْدَهُ .

وَقال سُفيانُ لا يَأْمُرْ بالمَعْرُوفِ ولا يَنْهى عن المُنْكَر إلاَّ مَنْ كَان فِيهِ خِصَالٌ ثلاثٌ رَفِيقٌ بِمَا يَأْمُرُ رَفِيقٌ بما يَنْهى عَدْلٌ بما يأمر عَدلٌ بما يَنْهى عالِمٌ بما يَأمُرُ عالِمٌ بما يَنْهَى .

وَقال عبدُ الملكِ بنِ عمرَ بن عبدِ العزيزِ لأَبيهِ يَا أَبَتِ ما يَمْنَعُكَ أن تَمْضِي لِمَا تُرِيْدُ مِن العَدْلِ فواللهِ مَا كُنْتُ أُبَالِيْ لو غَلّتَ بي وبكَ القدورُ في ذلكَ قال يَا بُنَيَّ إنِّي إنَّمَا أُرَوِّضُ الناسَ رِياضَةَ الصَّعْبِ إني أُرِيْدُ أَنْ أَجِيءَ الأَمرَ مِن العَدْلِ فأؤُخِرُ ذَلِكَ حَتَّى أُخْرِجَ مَعَهُ طَمعاً مِن طَمَعِ الدنيا فَيَنْفِرُوْا مِن هَذَا وَيَسْكُنُوا لِهَذِهِ .

وَيُشْتَرَطُ في وُجُوبِ الانكارِ أَنْ يَأْمَنَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، فانْ خَافَ السَّبَ أَوْ سَمَاعَ الكلامِ السَّيءِ لم يَسْقطْ عنه والحَزْمُ أَنْ لاَ يُبَالِي لِمَا وَرَدَ « أَفْضَلُ الجهادِ كَلِمَةُ حَقٍ عِنْدَ سُلْطانٍ جَائِرٍ » وَقَولُه « لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُم هَيْبَةُ النَاسِ أن يَقُولَ بِحَقٍ إذا عَلِمَهُ » .

وقال ابنُ القيم رحمه اللهُ : انكارُ المنكرِ له أربعُ درجاتٍ :

(الأُولَى) أَنْ يَزولَ وَيَخلُفَهُ ضِدُّهُ .

(الثانيةُ) أن يَقِلَّ وانْ لَم يَزلْ مِن جُمْلَتِهِ .

(الثالثة) أن يَخْلُفَهُ ما هُو مِثلُهُ .

(الرابعة) أن يَخْلُفَهُ ما هُوَ شَر منه .

فالدرجتان الأُولَيَانِ مَشْرُوْعَتَانِ ، والثالثةُ مَوْضِعُ اجتهادٍ والرابعةُ مُحَرَّمَةٌ ، وَلْيَحْذَرِ الآمرُ والناهِيُ مِن أنْ يُخَالِفَ قولَهُ أو أنْ يَأمُرَ بِمَالا يَأْتَمِرُ بِهِ .

فَقَدْ وَرَدَ عن أَنسٍ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال : قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : « مَرَرْتُ ليلةَ أُسْرِيَ بِي على قومٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُم

بِمَقَارِيْضَ مِن نَارٍ : قال قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ قَال خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِن أهلِ الدنيا مِمَّنْ كانُوا يأمُرُوْنَ الناسَ بالبرِ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُم وَهُمْ يَتْلُونَ الكتابَ أفلا يَعْقِلون » . وَحَتَّى لَا يَتَعَرَّضَ لِسُخْرِيَّةِ الناسِ بِهِ واسْتِهْزَائِهِم به وحتى تكونَ دعوتُه مَقْبُولَةً .

(فَصْــلٌ)

قال شَيخُ الإسلامِ رحمـه اللـه : مَن لَمْ يَكنْ في قَلْبِهِ بُغْضُ ما يُبْغِضُه اللهُ وَرَسولُه مِن المنكرِ الذي حَرَّمَهُ مِن الكفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ ، لم يَكُنْ في قَلْبِهِ الإيمانُ الذي أَوْجَبَهُ اللهُ عليه فانَّ مَن لم يَكنْ مُبْغِضاً لِشَيءٍ مِن المُحَرَّمَاتِ أَصْلاً لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إيمانٌ أَصْلاً .

والحَاصلُ أنَّ الإنسانَ يَأْتِيْ مِن ذَلِكَ بِمَا يَسْتَطِيعُ ولا يُقَصِّرُ في نُصْرةِ دِين اللهِ ولا يَعْتَذِرْ في إسْقَاطِ ذَلِكَ بِالاعْذَارِ التي لا تَصِحُ وَلَا يَسْقُطُ بها ما أَوْجَبَ اللهُ عليهِ مِن أَمْرِ اللهِ ، وَعَليهِ بالأخذِ بالرِفقِ واللُّطْفِ واظهارِ الشَّفَقَةِ والرحمةِ فانَّ ذلكَ عليهِ مَدَارٌ كَبِيْرٌ عندَ الأَمْرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنْكَرِ .

قال الله تعالى : ﴿ أدعُ إلى سَبِيل رَبك بالحِكمةِ والموعظَةِ الحسنةِ وَجَادلهم بالتّي هي أحسن ﴾ وَمِن الحكمةِ أَنْ يَدْعُوَ كُلَّ أحدٍ على حَسَبِ حالهِ وَفَهمهِ وَقَبُولِهِ وانقيادِهِ .

وَمِن الحِكْمَةِ الدَّعْوَةُ بالعلمِ والبَدَاءَةُ بالأَهَمِ فالأَهَم ، وبالأَقربِ إلى الأَذهَانِ والفَهْمِ وَبِما يكونُ قَبُولُه أتَمَّ ، وبالرِّفْقِ واللّينِ ، فإنْ انْقَادَ بالحِكْمَةِ والا فَيُنْتَقَلُ مَعَه إلى الدَّعْوَةِ بالموعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَهُوَ الأَمْرُ

وَالنَّهيُ المَقْرُوْنُ بالترغيب والترهيب .

وَلْيَحْذَرْ مِن المُداهَنَةِ في الدِيْن ، وَمَعْنَاهُ أن يَسْكُتَ الإنسانُ عن الأَمِرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهيِ عن المنكرِ وعن قولِ الحقِ وكلمةِ العدلِ : طَمَعاً في الناسِ وتوَقُّعاً لِمَا يَحْصُلُ منهم مِن جاهٍ أو مالٍ أو حُظُوظِ الدنيا .

وقال أَبُو عَبْدِ اللهِ لِعُمَرَ بنِ صَالِحٍ يا أَبا حَفْصٍ يَأتِيْ على الناسِ زمانٌ يكونُ المؤمنُ فيه بينَهُمْ مِثلَ الجِيْفَةِ ويكونُ المُنافِقُ يُشَارَ اليهِ بالاصَابع فَقُلْتُ يا أَبا عبد الله وَكَيْفَ يُشَارَ إلى المُنَافِقُ بالاصَابعِ فقال يا أبا حَفْص صَيَّروا أمر الله فُضُولا .

وَقَال المؤمِنُ اذا رَأى أمْراً بالمعروف أو نَهْياً عن المُنكر لم يَصْبِرْ حتى يَأمُرَ وَيَنْهَى قالوا يعني هَذا فُضُولٌ قال والمنافقُ كُلُّ شيءٍ يَراهُ قَال بِيَدِهِ على فَمِهِ « أيْ صَمَتَ فلم يَنْهَ ولم يَأْمُرْ فقالوا : نِعْمَ الرَّجُلُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الفُضُولِ عَمَلٌ » .

وَقَد رُوِيَ أن الجَارَ يومَ القيامِةِ يَتَعَلَّقُ بجارِهِ وَيقولُ ظَلَمني فَيَرُدُّ عَلَيهِ بأنُهُ ما ظَلَمَهُ وَلاَ خَانَهُ في أهلٍ ولا مَالٍ فَيَقُولُ الجَارُ صَدَقَ إِنَّهُ لم يَخُنِّي في أَهْلٍ وَلاَ مَالٍ وَلَكِنَّهُ وَجَدَنِي أَعْصِي اللهَ فلم يَنْهَنِي هَذا الأَثَرُ بالمعنى وَرُوِيَ حَدِيْثُ آخَر وَيْلٌ للعَالِم مِنْ الجَاهِلِ حَيْثُ لاَ يُعَلِّمْهُ .

وعن عُبَادة بن الصَّامِتْ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ بَايَعْنا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم على السَّمْعِ والطَّاعَةِ في العُسْرِ واليُسْرِ والمَنْشَطِ والمَكْرَه وعلى أَثَرَةٍ عَلَيْنا وَعلى أَنْ لاَ يُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إلا أَنْ تَروا كُفْراً بُوَاحاً

عِنْدَكُم مِنْ اللهِ تَعَالَى فِيه بُرْهَانٌ وَعَلى أَنْ نَقُولَ بالحَقِّ أَيْنَما كُنَّا لاَ نَخَافُ في اللهِ لومَةَ لائِمٍ رَواهُ البُخارِيْ وَغَيْرُهُ .

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وغيرُه مِن حَدِيثِ عَبْدِاللهِ بن عَمْرُو بن العَاصِ إِذَا رَأَيْتَ أُمّتِي تهَابُ الظالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ : إِنّكَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوَدِّع مِنْهُم وَلَقدْ كَان سَلفُنا الصَّالِحُ الكِرامُ لَهُم مَواقِفُ عَظِيْمَةٌ شَرِيْفَةٌ وَنَوادِرُ طَرِيفَةٌ وَقِصَصٌ غَرِيْبَةٌ وحِكَايَاتُ عَجِيْبَةٌ دَالَّةٌ على صِدْقِ إِيْمَانِهم وَقُوّةِ يَقِيْنِهِمْ وَشِدَّةِ وَرَعِهم فكانُوا لا يَخشونَ في اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ أَوْ كَلِمَةَ مُدَاهِنْ أو فِرْيَةَ مُفْتَرٍ أو قُوَّةَ ظَالِمٍ بَلْ يُجَاهِرُونَ بالحَقِّ بِكُلِّ صَرَاحَةٍ وَيَنْطِقُوا بالصدْقِ وإِنْ غَضِبَ الخَلقُ وَيَأْمُرُونَ بالمَعْرُوْفِ وَيَنْهَونَ عن المُنْكَرِ في أَشَدِّ المواقِفِ وأَحْرَجِهَا .

وَإِليكَ ما كانَ مِن مَوْقِفِ الصَّحَابِّي الجَرِيْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي رَضِيَ اللهُ عنه مَعَ مَرْوَانِ بنِ الحكمِ أمير مِن قِبلِ معاوية بن أَبِي سُفيان فَمِن السنة المأثُورةِ والطريقةِ المعروفةِ مِن فِعْلِهِ صَلَّى الله عليه وسلم إذا خَرَجَ يومَ الفِطرِ والأَضْحَى إِلى المُصلى فَأَوَّلُ شيءٍ يَبْدَأَ بِهِ الصلاةَ .

ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَيَقُوْمُ مُقَابِلَ الناسِ والناسُ جُلُوسٌ على صُفُوفِهم فَيعَظُهُم وَيُوْصِيْهِم بتقْوى الله وَيَأْمُرَهُم بحَلالِ اللهِ وَيَنْهَاهُم عن حَرَامِهِ ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ ، قال أبو سَعِيْدٍ فَلَمْ يَزَلِ الناسُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَرَجَتُ مَعَ مَرْوَانَ وَهُوَ أمير المدينةِ في عِيْدِ الأَضْحَى أو الفِطرِ فلمَّا أَتَيْنا المُصَلَّى إِذَا مِنْبَرٌ بَنَاهُ كَثِيرُ بنُ الصَّلْتِ التابعي الكَبِيرِ والمَولُود في الزَّمَن النَّبَوي .

فإذا مَرْوَانُ يُرِيْدُ أنْ يَرْتَقِيهِ قَبْلَ أَنْ يُصَلِي وفيه مُخَالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ

الصَّحِيْحَةِ والعَملِ المأثورِ عن النبي صلَّى الله عليه وسلم فَجَذَبْتُ بِثَوْبِهِ لِيَبْدَأَ بِالصلاةِ قَبْلَ الخُطْبَةِ فَجَذَبَنِي فارْتَفَعَ على المِنْبَرِ فَخَطَبَ قَبْلَ الصلاةِ .

فَقُلْتُ لَهُ ولأَصْحَابِهِ غَيَّرتُمْ واللهِ سُنَةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وخلفائِهِ مِن بَعْدِهِ فإِنَّهُم كانُوا يُقَدِمُون الصلاةَ على الخُطْبَةِ في العِيْدَين فقال مَرْوَانُ يا أبا سَعيدٍ قَدْ ذَهَبَ مَا تَعْلَمُ مِن تَقْدِيم الصلاةِ على الخُطْبةِ في العِيْدَيْنِ فَقُلتُ مَا أعلَمُ واللهِ خيرٌ مِمَّا لا أعلَمُ .

لأَنَّ الذِي أَعْلمُ طَرِيْقُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم الذي أُمِرْنا باتِّباعِهِ والتأسِي بهِ ﴿لقد كَانَ لَكمْ في رَسول الله أُسوةٌ حَسَنَةٌ﴾ فقالَ مَرْوانُ مُعْتَذِراً عن تَرْكِ السُنةِ إن الناسَ لم يَكُونوا يَجْلِسُونَ لَنَا بَعْدَ الصلاة فَجَعَلْتُها قَبْلَ الصلاةِ » .

فَتَأَمَلْ هَذَا المَوقِفَ المشرِفَ الذي وَقَفَه أبو سعيدِ الخدري رَضِيَ اللهُ عنه وكَيْفَ جَذبَ مَرْوَانَ بِثَوْبِهِ وقال لَهُ غَيرتُم واللهِ وَلم يَخفْ صَولةَ الإمارَةِ وجاهَ الحُكم وَجَاهَرَ بالحقِّ وأنكرَ البدعةَ وأمرَ بالسنةِ على رُؤُسِ الأشهادِ مِنَ الناسِ فَحَفِظَهُ اللهُ ونصَرَه وأيده وَأعزَه وصدَق الله حيثُ قال ﴿ وَلَيَنْصُرَّن اللهُ مَن يَنْصُرُه ﴾ .

وَرُوِيَ أَنَّ ضَبَّةَ بنَ مِحْصَنٍ العَنَزي قال كَانَ عَلَيْنَا أبُو مُوسَى الأَشْعَري أميراً بالبصرةِ فكان إذا خَطَبنَا حَمِدَ الله وأَثْنَى عليهِ وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشأَ يَدْعُو لِعُمَر رَضِيَ اللهُ عنه قال فَغاضَنِي ذَلِكَ فَقُمْتُ إليهِ فقلتُ له أيْنَ أنْتَ مِن صَاحِبِهِ تُفَضِّلُهُ عليه فَصَنَعَ ذَلِكَ جُمَعاً .

ثم كَتَبَ إلى عُمَرَ يَشْكُونِي يَقولُ إنَّ ضَبَّةَ بنَ مِحْصَنٍ العَنَزِي يَتَعَرَّضُ لِيْ في خُطْبَتِي فَكَتَبَ إليهِ عُمَرُ : أَنْ أشْخِصْهُ إليَّ فأشخصَنِي إليهِ فَقَدِمتُ فَضَرَبْتُ عليهِ البابَ ، فقال مَن أَنْتَ فَقُلتُ أنا ضَبَّةُ فقال لا مَرْحَباً ولا أَهْلاً قُلْتُ أَمَّا المَرْحَبُ فمِنَ اللهِ ، وَأَمَّا الأهلُ فلا أَهْلَ لِي ، ولا مَالَ فَبِمَا اسْتَحْلَلْتَ يا عُمَرُ إشْخاصِي مِنْ مِصْرِي بِلا ذَنْبٍ أذْنَبْتُهُ ، ولا شيءٍ أَتَيْتُه ، فقال مَا الذي شَجَرَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَامِلِي ، قال قُلْتُ الآنَ أُخْبِرُكَ بِهِ ، إنه كانَ اذا خطبنا حَمِدَ اللهَ وأثنَى عليهِ وَصَلَّى على النبي صلَّى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يَدْعُوْ لكَ فغاظَنِي ذَلِك مِنه ، فَقُمْتُ إليهِ فقلتُ لَهُ أينَ أنتَ مِن صَاحِبِه ، تُفضِّلُهُ عليه ، فَصَنَعَ ذَلِكَ جُمَعاً .

ثُمَّ كَتَبَ إليكَ يَشْكُوني ، قال فانْدَفَعَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ باكِياً ، وهُوَ يَقُولُ أَنْتَ واللهِ أَوْفَقُ مِنه وَأَرْشَدُ فَهَلْ أَنْتَ غافِرٌ لِيْ ذَنْبِي يَغْفِرَ الله لَك .

قال فَقُلْتُ غَفَرَ اللهُ لكَ قال ثُمَّ انْدَفَعَ بَاكِياً ، وهو يَقُوْلُ واللهِ لليلةُ مِن أَبِي بكرٍ ، وَيَوْمٌ خيرٌ مِن عُمَرَ وآلِ عُمَرَ ، وَبَعثَ الحَجَّاجُ الظالمِ المَشهورُ إلى الحَسَن فَلَما دَخلَ عليهِ قالَ أنْتَ الذي تقولُ قاتَلَهم اللهُ قَتَلوا عِبادَ اللهِ عَلى الدِرْهَمِ والدِّيْنَارِ . قال نَعَمْ قال ما حَمَلَكَ على هَذَا قالَ ما أَخذ اللهُ على العُلَمَاءِ مِنَ المواثيقِ ﴿ لَيُبَيِّنُنَّهُ للناسِ ولا يَكْتُمُونَه ﴾ قال يا حَسَنُ أَمْسِكْ عَليكَ لِسَانَك وإيَّاكَ أن يَبْلَغَنِي عنكَ ما أَكْرَه فَأفرِّق بَينَ رأسِكَ وَجَسَدِكَ نَعُوذُ باللهِ مِن الظلمةِ وأعوانِ الظلمةِ من أمثالِ الحَجَّاجِ .

ثُم تَطاوَل الزمنُ وَمَضَتْ فَتْرَةُ مِنْهُ فاندَرَس هَذَا الوَاجِبُ وَعفَتْ أثارُهُ وامحَتْ مَعالِمُهُ وانْطَوتْ أَخْبارُهُ وَداهَن النَاسُ بَعْضُهُم بَعْضاً وَجبُنَ الناسُ

عن المُصَارَحِة لِلْوُلَاتِ في المُخَالَفاتِ إلا نَوادِرُ مَرُوْا خِلال القُرُوْنِ الأَوْلَى أمَّا نحنُ فَصَارَتْ شَجَاعَتُنَا وَصَلاَبَتُنَا وإنكَارَاتُنا حَوْلَ ما يَتعَلَّقُ بالدنيا أمَّا مَا يَتَعَلَقُ بالدينِ فَلَيْسَ عِنْدَنَا مِن الإِنكارِ إلا التَلاوُم فِيمَا بَيْنَنَا إذا أَمِنَ بَعْضُنا مِن بَعْضٍ فلا حَوْلَ ولا قُوَةَ إلَّا باللهِ العليِ العليم العظيم .

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ الله :

قُــلْ لِيْ مَتَى سَلِمَ الـرسـولُ وَصَحْبُـهُ
والـتـابِعُـونْ لـهـم عـلَى الإِحْـسَانِ
مِـن جَـاهِـلٍ وَمُـعَـانِـدٍ وَمُـنَـافِقٍ
وَمُـحَـارِبٍ بَـالـبَـغْـيِ والـطُغْـيَـانِ
وَتَـظُنُّأَنَّـكَ وارِثـاً لَـهُـمُ ومَـا
نـلْتَ الأَذَى في نُـصْـرَةِ الـرَّحْـمَـنِ
كَـلاَّ ولا جَـاهَـدْتَ حَـقَّ جِـهَـادِهِ
فـي الـلهِ لا بِـيَـدٍ ولا بِـلِسَـانِ
مَـنتـكَ والـلهِ المُـحَـالَ الـنفس فَـاسْـ
تحْـدِثْ سِـوَى ذا الـرأيِ والحُسْبَـانِ
لَـوْ كُـنْـتَ وارثَـهُ لآذاكَ الأُولَـى
وَرَثُـوا عـدَاهُ بِـسَـائِـرِ الأَلْـوَانِ

وقد قِيْلَ : إن المُنْكَـرَاتِ أشْبَه بِجَـراثِيْم الأَمْرَاضِ في تَنقُلِهـا وانتِشَارِهَا ، والتأثرِ بها بإِذْنِ اللهِ . فــان وَجَدَتْ كِفاحاً يَحْجُرُ عليها في مَكَانِهَا حَتَّى يَقْتُلَها وَيُبِيْدَهَا سَلِمَ منها مَوْضِعُهَا ، وَسَلَم منها ما وراءَهُ ، وإذا لَم تَجِدْ كِفاحاً وَتُرِكَتْ وَشَأنَهَا اتَّسعَتْ دائرتها ، وَتَفَشَّتْ في جَمِيْعِ

الأَرْجَاءِ وَقَضتْ عَلَى عَنَاصِرِ الحَيَاةِ وَعَرَّضَتْهَا للفَنَاءِ والدَّمَارِ .

وَمِنْ هُنَا كَانَ أَثَرُ المنْكَرَاتِ غَيْرَ خَاصٍ بِمُرْتَكِبِيْهَا ، وَكَانَ السَّاكتونَ عَلَيها عامِلين على نَشْرِها وإذاعَتِهَا ، وَبِهَذا الموقِفِ السَّلْبِي يَكُونُون أَهْلاً لِحُلُولِ العِقَابِ بِهم وإصَابَتِهمْ بِمَا يُصَابُ بِهِ المباشِرُون لها .

وَمِمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا قَولُه تَعَالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيْبَنَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْد اللهِ بنُ مُحَّمدِ بنِ حُمَيدٍ في آخِرِ رِسَالةٍ له تَتَضَمَّنُ الحَثَّ عَلَى الأَمْر بالمَعْرُوفِ والنهي عن المنكرِ : قِفانَبْكِ عَلَى رُسُومِ عُلومِ الدّينِ والاسلامِ الذي بَدَأَ يَرْتَحِلُ مِن بِلَادِهِ وَلَكنْ يا للأَسَفِ عَلَى مَنَامِ القلوبِ وَقِيَامِ الأَلْسُنَةِ بالتَّقَوُّلِ والتأويلِ عَلى الإسلامِ بِمَا لاَ حَقِيقَةَ لَهُ .

لَقَدْ انْطَمَسَ المَعْنَى وَذَهَبَ اللبُ وما بَقِيَ إلا قُشُورٌ وَرُسُومٌ اكْتَفَى الكَثِيْرُونَ مِن الإِسلامِ بِمُجَرَّدِ الانْتِسَابِ إِلَيْهِ بدون أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ وَيَقُومُوا بالدَّعْوةِ إليهِ تَحْذيراً وإِنْذَاراً وَأَمْراً وَنَهْياً وَتَبْصِيْراً لِلنَّاسِ بِدِيْنِهِمْ بِذِكْرِ فَضْلِهِ وَعَظَمَتِهِ وإِيْضَاحِ أَسْرَارِهِ وَحِكَمِهِ وَغَرْسِ العَقِيْدَةِ الحَقّةِ في قُلوبِهِمْ فَهَذَا وَاجِبُ المسلمينَ بَعْضِهِم لِبَعْضٍ كُلٌ عَلَى قَدْرِ استِطَاعَتِهِ وَمَقْدِرَتِهِ أ هـ .

وَقَولُهُ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم في حَدِيثِ جابر « أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلامُ انْ أقلبْ مدِينةَ كَذَا وكَذا بِأَهْلِهَا ، قَالَ يَا رب إِنَّ فِيْهِمْ فلاناً لَمْ يَعْصِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَالَ : فَقَال : اقْلِبْها عليهِ وَعَلَيْهِمْ ، فانَّ وَجْهَهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ فِيَّ سَاعَةً قط .

وَذَكَرُ الامامُ أَحْمَدَ عَنْ مالِكِ بنِ دينار قَالَ كَانَ حَبْرُ مِنْ أَحْبَابِ بَنِي

إسرائِيلَ يَغْشَى مَنْزِلَهُ الرِّجالُ والنِّسَاءُ فَيعِظُهُمْ وَيُذَكِرُهُمْ بأيامِ اللهِ فَرَأى بَعْضَ بَنِيْهِ يَغْمِزُ النِّسَاءَ في يَوْمٍ فَقَالَ مَهْلاً يَا بُنَيَّ فَسَقَطَ مِنْ سَرِيْرِه فَانْقَطَعَ نُخَاعُهُ واسْقَطَتْ امرأَتُه وَقُتِلَ بَنُوه .

فَأَوْحَى اللهُ الى نَبِيِّهِمْ أَنْ أَخْبِر فلاناً الحَبْرَ أَنِّي لا أُخْرِجُ مِنْ صُلْبِكَ صِدِّيقاً أَبَداً مَا كانَ غَضَبُكَ إِلَّا أَنْ قُلْتَ مَهْلاً يَا بُنَيَّ .

إذا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الانْتِقَامَ إذا وَقَعَ ليسَ هو أخذاً للبريءِ بِجَرِيْمَةِ المُذْنِبِ كَمَا يَظُنُّ البَعْضُ ، وإنمَا هُوَ أخـذاً للمذنب بجريمةِ ذَنْبِهِ ، فالذَّنْبُ ذَنْبانِ : ذَنبٌ يَصْدُرُ عَنْ شَخْصٍ ، وَهُوَ الفِعْلُ نَفْسُهُ ، وَذَنْبٌ يَصْدرُ عَن مَنْ يَعْلَمُ هَذَا الذنبَ ، وَهُو يَقْدِرُ عَلَى مُكافَحَتِهِ .

ثُمَّ هُو يُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنْ مكافَحَةِ هَذَا الذَّنْبِ طَمَعاً في مَالٍ أَوْ مَكانَةٍ وَبِذلكَ يَكُونُ شريكاً في العَملِ على نَشْرِهِ أ هـ .

وفي السُّننِ أَنْ عَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَكَمَ بِكُفْرِ أَهْلِ مَسْجدٍ بالكوفةِ قَالَ وَاحدٌ إِنَّمَا مُسَيْلَمَةُ عَلَى حَقٍّ فِيْمَا قَالَ وَسَكَتَ البَاقُونَ فَأَفْتَى بِكُفْرِهِمْ جَمِيعاً أ هـ من الدرر السنيةِ .

قُلْتُ لأَنَّ الواجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكَذِّبُوهُ وَيَقُولوا لَهُ كَذَبْتَ بَلْ هُوَ عَلَى بَاطِلٍ فَالسَّاكِتُ شَرِيْكُ الفاعِلِ لقدرَتِهِ عَلَى الإِنْكارِ باللِّسَانِ .

وقَالَ سُفْيَانُ إِذَا أَمَرْتَ بالمَعْرُوفِ شَدَدْتَ ظَهْرَ المُؤْمِنِ وإِذَا نَهَيْتَ عَنِ المُنْكَرِ أَرْغَمْتَ أَنْفَ المُنَافِقِ .

اللهُمَّ اجْعَلنَا مِنْ حِزْبِكَ المُفْلِحينَ ، وَعِبادِكَ الصَّالِحينَ الذينَ أَهَّلْتَهُم لِخِدمَتِكَ وَجعَلْتَهُمْ آمِرِيْنَ بالمَعْرُوفِ فَاعِلِينَ لَهُ ، وَنَاهِيْنَ عَن

المُنْكَرِ ، وَمُجْتَنِبِيْنَ لَهُ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المسلمينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والمَيتِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ ، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحمدٍ وعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعينَ .

(فَصْــلٌ)

وَكَتَبَ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز الى بعضِ عُمَّالِهِ ، أَمَّا بَعْدُ فإِنَّهُ لَمْ يظهرْ المنكرُ في قومٍ قَطّ ثم لَمْ يَنْهَهمْ أَهْلُ الصَّلاحِ مِنْهُمْ إلَّا أَصَابَهُمْ اللهُ بعذابٍ من عندهِ أو بأيْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَا يَزَالُ الناسُ مَعْصُومِينَ مِنَ العُقُوباتِ والنَّقَمَاتِ ما قُمِعَ أهلُ الباطلِ واسْتُخْفِيَ فِيهم بالمَحَارِمِ .

فَلا يَظْهرُ مِن أَحدٍ مُحَرَّمٌ إلا انْتَقموا مِمنْ فَعَلَه فإذَا ظَهرتْ فيهم المَحَارمُ فَلَمْ يَنْهَهَم أَهْلُ الصَّلاحِ أُنْزِلَتِ العُقوباتُ مِن السماءِ إلى الأرضِ ولعلَّ أهلَ الإِدْهَانِ أَنْ يَهْلِكوا مَعَهم وإِنْ كَانُوا مُخَالفينَ لَهُمْ ، فانّي لم أسمعْ اللهَ تباركَ وتَعالى فِيمَا نَزَّل مِن كِتابهِ عند مُثْلَةٍ أَهْلَكَ بها أحداً نَجَّى أَحَداً مِن أَولئِكَ ، إلا أَنْ يَكونُ الناهِين عن المنكرِ .

وَيُسَلِّطُ اللهُ عَلى أَهْلِ تِلْكَ المحارمِ إنْ هُوَ لم يُصِبْهُمْ بِعذابٍ مِن عندِهِ أَوْ بِأَيْدِي مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ مِن الخوفِ والذُلّ والنّقَمِ فإنه رُبَّمَا انْتقَمَ بالفاجرِ مِن الفاجِرِ وبالظَالمِ مِنَ الظَالمِ ثُم صارَ كِلا الفريقَينِ بِأَعْمَالِهِمَا إلى النارِ ، فَنَعُوذُ باللهِ أَنْ يَجْعلنَا ظالمينَ ، أَوْ يَجعَلنَا مُداهِنِينَ لِلظَّالمين .

وانَّهُ قَدْ بَلَغَني أَنّه قَد كَثُرَ الفُجورُ فِيكُم وأَمن الفُسَّاقُ في مدائِنِكُمْ وَجَاهَرُوا بالمَحَارِمِ بأَمْرِ لا يُحِبُّ اللهُ من فَعَلَهُ ولا يَرْضَى المُدَاهَنَةَ عليه ،

كانَ لا يَظْهَر مِثْلُه في عَلانيةِ قومٍ يَرْجُونَ للهِ وقاراً وَ يَخافُونَ منه غِيَراً وَهُمْ الأَعزُّونَ الأَكْثَرون مِن أَهْلِ الفجورِ . أي أكثرُ مِنْ أَهْلِ الفُجُورِ وَأعزُّ منهم .

وَلَيْسَ بِذَلِك مَضَى أَمْرَ سَلَفِكُم ولا بِذَلِك تَمَّتْ نِعمةُ اللهِ عليهِمْ بل كانُوا ﴿أَشِدَّاءُ عَلى الكُفّارِ رحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾﴿أذلَّةٍ عَلى المُؤْمِنينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِيْنَ يُجَاهِدُونَ في سَبِيْلِ اللهِ وَلَا يَخُافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ .

وَلَعَمْرِي إنَّ مِنَ الجِهَادِ الغِلظةُ على مَحارِمِ اللهِ بالأَيْدِي والأَلْسُنِ والمُجاهَدِةِ لهم فيهِ .

وإنْ كانُوا الآباءَ والأَبْنَاءَ والعَشَائِرَ ، وإنَمَا سبيلُ اللهِ طاعَتُهُ .

وَقَدْ بَلَغني أَنَّهُ بَطَّأَ بِكَثِيرٍ مِنَ الناسِ عَنْ الأَمْرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر ، إتّقاءُ التلاوُمِ أَنْ يُقَالَ فلانٌ حَسَنُ الخُلْق ، قليلُ التكلفِ ، مُقبلٌ على نَفْسِهِ ، وَمَا جعَلَ اللهُ أُوْلئِكَ أحاسِنَكُمْ أَخْلاقاً بَلْ أولَئكَ أَسْؤُكُمْ أَخْلاقاً .

وَمَا أَقْبَلَ عَلى نَفْسِهِ مَنْ كَانَ كَذلكَ ، بلْ أَدْبرَ عَنْهَا ، وَلاَ سَلِمَ مِنَ الكُلفةِ لها ، بَلْ وَقَعَ فِيْهَا ، إِذْ رَضِيَ لِنَفْسِهِ مِن الحالِ غيرَ ما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ أَنْ يكونَ عليهِ ، مِن الأمرِ بالمعروفِ ، والنهي عن المنكرِ .

وَقَدْ ذَلَّتْ أَلْسِنَةُ كَثِيْرٍ مِن الناسِ بآيةٍ وَضَعُوهَا غَيْرَ مَوْضِعِهَا ، وَتَأَوَّلوا فِيْهَا قول اللهِ عزَّ وَجَل ﴿ يا أَيُّها الذِيْنَ آمَنُوا علَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَصَدقَ اللهُ تبارَكَ وَتَعالى ، ولا يَضُرنا ضلالَةُ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْنَا ، وَلَا يَنْفَعُنا هَدْيِ مَنْ اهتَدى إذا ضَلَلْنَا ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرةٌ وِزْرَ

أُخْرَى ﴾ وإنَّ مِمَّا عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَنْفُسِ أُوْلئك ممَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِن الأمْرِ بالمَعرُوفِ والنهي عن المنكرِ ، فلا يُظهرُوَا للّهِ مُحَرَّماً إلا انتَقَمُوا مِمَنْ فَعَلَه مِنْهم ، مَنْ كُنْتُم ، وَمَنْ كانُوا ، وَقَولُ مَنْ قالَ إنَّ لنا في أَنْفُسِنَا شُغْلاً ، وَلَسْنَا مِن الناسِ في شيءٍ .

وَلَو أَنَّ أهلَ طاعةِ اللهِ رجعَ رأيهُم إلى ذلك ، ما عُمِلَ لِلهِ بِطاعةٍ ، ولا تَنَاهَوا له عن معصيةٍ ، ولقَهَر المُبْطِلونَ المُحِقينَ ، فصَارَ الناسُ كالأَنْعَامِ ، أَوْ أَضلَّ سَبيلاً ، فتسلَّطُوْا على الفُسَّاقِ مَن كُنْتُمْ وَمَنْ كانُوا فادْفَعُوْا بحَقِكمْ باطِلَهُم ، وَبِبَصَرِكُمْ عَمَاهُمْ ، فإن اللهَ جَعَل لِلأبْرارِ على الفُجَارِ سُلْطاناً مُبِيْناً ، وإنْ لَمْ يَكُونُوا وُلاةً ولا أَئِمَّةً .

مَن ضَعُفَ عَن ذَلِكَ فليرْفَعْهُ إلى إِمَامِهِ ، فإنَّ ذَلِكَ مِن التعاونِ على البرّ والتّقْوَى ، قَالَ الله لأِهلِ المعاصِي : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِيْنَ مَكَرُوا السَّيئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمْ الأَرْضَ أو يَأْتيهُمْ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ في تَقَلُّبِهِمْ فَمَاهم بِمُعْجِزِيْنَ ﴾ .

وَلَيتنتَهِينَّ الفُجارُ أَوْ لَيُهِيْنَنَّهم اللهُ بما قَالَ ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ الآية .

وَذَكَرَ ابنُ أَبِي الدُّنيا عَن أَنس بنِ مالكٍ أَنَّهُ دَخَلَ على عَائِشَةَ هُوَ وَرَجُلٌ آخرُ فَقالَ لهَا الرَّجُل: يا أمّ المؤمنينَ حَدِّثينا عن الزَّلْزِلةِ، فقالتْ إِذَا اسْتَبَاحُوا الزِّنَا ، وَشَرِبُوا الخُمُورِ ، وَضَرَبُوا بالمَعازِفِ ، غَارَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سَمَائِهِ ، فَقَالَ لِلأَرْضِ تَزَلْزَلِي بِهِمْ ، فَإِنْ تَابُوا وَنَزَعُوْا وإلا هَدَمَهَا عَلَيْهِم .

قَالَ يَا أُمَّ المؤمنينَ أَعذاباً لَهُمْ ؟ قَالتْ بل مَوْعِظَةً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمنينَ

وَنَكَالاً وَعَذَاباً وَسُخْطاً على الكافِرينَ فقال أَنَسُ مَا سَمِعْتُ حديثاً بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلَّم أنَا أَشَدُّ فَرَحاً بِهِ مِني بِهَذَا الحَديثِ .

وَذَكَرَ ابنُ أَبي الدُّنيا حديثاً مرسلاً أَنَّ الأَرضَ تَزَلْزلت عَلَى عَهْدِ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ، فوضَعَ يَدَهُ عَلَيهَا ثمَّ قَالَ اسْكُني فَانَّه لم يأنِ لكِ بَعْدُ .

ثُمَّ التفَتَ إلى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ إنَّ رَبَّكم لَيَسْتَعْتِبكُمْ فَأَعِتبُوهُ ، ثُمَّ تَزَلْزَلَتْ بالنّاسِ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بنِ الخطابِ ، فَقَالَ أَيّها الناسُ مَا كانَتْ هَذِهِ الزَّلزَلَةُ إلاَّ عَلَى شَيءٍ أَحَدَثْتُمُوهُ ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِئِنْ عَادَتْ لا أُسَاكِنُكُمُ فِيهَا أَبَداً .

وفي مَنَاقِبِ عُمَرَ لِابْنِ أَبِي الدُّنَيا أَنَّ الأَرضَ عَلَى عَهْد عُمَرَ تَزَلْزَلَتْ فَضَربَ يَدَهُ عَلَيْهَا ، وَقَالَ مالَكِ ؟ أَمَا إنها لَوْ كَانَتْ القِيَامَةُ حَدَّثَتِ أَخْبَارَكِ ، سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يَقولُ إذا كانَ يَومُ القيامةِ فَلَيْسَ فِيها ذِرَاعٌ ولا شِبْرٌ إلا وهو يَنطقُ .

وَكَتَبَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيز إلى الأَمْصار أَمَّا بعدُ فإنَّ هَذَا الرَّجْفَ شَيءٌ يُعاقِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَ بِهِ العبادَ ، وقدْ كَتَبْتُ إلى الأَمْصار أَنْ يَخْرُجُوا في يوم كذَا وكذَا في شَهْر كَذَا وَكَذَا فَمَنْ كَانَ عِندَهُ شيءٌ فَلْيَتَصدَّق بِهِ ، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَ يقولُ ﴿ قَدْ أَفْلَح مَنْ تَزكَّى وَذَكَر اسْمَ رَبّهِ فَصَلَّى ﴾ وَقُولُوا كَمَا قَالَ آدمُ ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفسنا وَإنْ لَم تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾ وَقُولوا كما قَالَ يُونسُ ﴿ لَا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنّي كُنْتُ مِن الظَّالِمينَ ﴾ .

اللهُم يا عالمَ الخفياتِ وَيَا سَامِعَ الأَصْواتِ ويَابَاعِثَ الأَمْواتِ وَيَا مُجِيْبَ الدَعوَاتِ وَيَا قَاضِيَ الحَاجَاتِ يَاخَالقَ الارضِ والسَّمواتِ أَنْتَ اللهُ الاحدُ الصمدُ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يولَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحد الوَهَّابُ الذي لا يَبْخَلُ والحَليمُ الذي لا يَعْجَلُ لا رادَّ لامْرِكَ ولا مُعَقِّبَ لِحُكَمِكَ نَسْأَلُكَ أَنْ تغفرَ ذنوبَنَا وَتُنورَ قلوبنا وَتُثبِّتَ مَحَبَّتَكَ في قُلوبِنَا وَتُسْكِنَنَا دَارَ كَرَامَتِكَ إنكَ عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَدِير وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وآلِه وَصَحْبِه أَجْمَعِيْنَ .

مــوعظة

قَالَ اللهُ تَعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِيْنَ ﴾ وَقَالَ ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَىٰ﴾ وَقَالَ تَعَالى ﴿ فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيْدِ ﴾ فيَا عِبَاد اللهِ لَقَدْ خَاطَبَ اللّٰهُ المؤمنينَ بقولِهِ ﴿ كُنتُم خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ تَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ ﴾ خَاطَبَهُمْ بِهَذَا الخِطَابِ الرّائعِ وَوَصَفَهُمْ بِهَذَا الوَصْفِ العَظِيْمِ ، بِأَنَّهُمْ خَيْرَ أُمّةِ أُخْرِجَتْ للنَّاس ، وأنَّ مجتَمَعَهُمْ أَعْلا وَأَعَزُّ مُجتمعٍ في العالم حاضِره وَمَاضِيهِ لِمَا اتَّصفُوا بِهِ مِن الصِفاتِ الفاضِلةِ ، والأَخلاقِ العالِيَةِ ، والغَيْرةِ الصَّادِقَةِ ، على حُدُودِهِ .

وَهذا الوَصْفُ وَقْتَ انْ كـانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِتَعـاليم دِيْنِهِمْ ، وَكَانَ الاسْلامُ وَبَهاؤُهُ يَلُوحُ في أَعْمَالِهِمْ ، وَمُعَامَلاتِهِمْ ، وَأَخْلاَقِهِمْ فَلا غِشَّ وَلاَ خِدَاعَ ولا كَذِبَ ، ولا خِيانَةَ وَلاَ غَدْراً ، ولا نَميمَةَ ، ولا غِيْبَةَ ، وَلاَ ظُلْمَ وَلاَ نِفَاق وَلاَ رُشَا ولا مَلْق ولا رِياءَ ولا بَهْتَ ولا سُخْرِيَّةَ ولا عُقُوق ولا قَطِيْعَة.

هَدَفُهُم القَضَاءُ عَلى المُنكَراتِ وإماتَتِهَا ، وإِعْزَازُ المَعْروفِ وَنَشْره

بَيْنَ المسلمين ، وَهَذا يَدُلُ على قوةِ إيمانِهم ، وَشِدَّةِ تَمسُكِهِمْ بِهِ وَرَغبةٍ في النَّجاةِ التي وَعَدَ اللهُ بِهَا النّاهِي عَنْ السُّوءِ ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّروْا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنَ السُّوْءِ وَأَخذْنَا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا بِعَذابٍ بَئِيْسٍ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ ﴾ .

فَيَا عِبَادَ اللهِ تَأملوا حَالَتَنَا الحَاضِرَةِ ، وَحَالَة سلفنا الكِرام الذينَ كانوا كلُّ مِنْهم يحبُ لأَخِيهِ ما يُحبُّ لِنَفْسِهِ ، وَيَرْحَمُ كبيرُهم الصغيرَ ويوقِرُ الصغيرُ الكبيرَ ، يَتآمَرون بالمَعروفِ ، وَيَتناهَونَ عن المنكرِ ، يُنْصِفُونَ حَتَّى الأعْداءِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأولادِهِمْ .

فَالقَويُّ عِنْدَهُمْ ضَعِيْفٌ ، حَتَّى يُسْتَوْفى مِنه الحقُّ ، والضَعِيْفُ عِنْدَهم قَويٌ حَتَّى يَؤْخَذَ حَقُّهُ ، إذا فَقَدُوا أَخاهُم بَحثُوا عنه فإنْ كانَ مَرِيضاً عادُوه وساوَوْهُ واذا مَاتَ شَيَّعُوهُ ، وانْ احتاجَ أَقْرَضُوهُ ، وَوَاسَوْه وإنّ نزَلَ عليهم أَكْرَمُوه .

عامِلِيْنَ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم « مَثَلُ المؤْمِنيْنَ في تَوادِّهم وتراحُمِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعى له سَائِرُ الجَسَدِ بالسهر والحمى » ، وحديثِ « المؤمنُ للمؤمِن كالبنيانِ يشد بعضُه بعضاً » .

أما نَحْنُ فحالتُنا حالةٌ مُخِيْفَةٌ جِداً لأَننَّا على ضِدِ ما ذَكَرْنَا مِن حالةِ سَلَفِنَا ولا حَاجَةَ إلى تَكْرارٍ ، أَلْقِ سَمْعَكَ وَقَلِّبْ نَظَرَكَ ، وأحضرْ قَلْبَكَ تَـرَى ذَلِك بِعَيْنِ بَصيـرتِكَ وَتَـرى مَا يُخِيْفُـكَ وَيُقْلِقُ رَاحَتَكَ وَيُقَضُّ مَضْجَعَكَ من المنكرات في البيوتِ والأسواقِ والبر والبحر.

وإن شَكَكْتَ فَفَتِشْ على نَفْسِكَ تَجِدْ ذلك ، فالمُنْكَرُ نَراهُ بِأَعْيُنِنَا وَنَسْمَعُه بِآذَانِنَا بَلْ وفي بُيوتِنَا فهَلْ بيتكَ خالٍ من صِوَرِ ذواتِ الأرواحِ هَلْ هُوَ خالٍ مِن المِذْيَاعِ ، هل هُوَ خالٍ من التِّلفزيون ، والسِّيْنَماء والبَكَمَاتِ وَمُسَجِّلاتِ الاَغاني ، هَلْ هو خالٍ مِنْ شَرابِ المُسْكراتِ ، هَلْ مَا يَأْتِي لِبَيتكَ إلا أُنَاسٌ طيبينَ طاهِرِي الأَخْلاقِ ، هَلْ هُوَ خالٍ من حَالقي اللِّحى هَلْ هُوَ خالٍ من المخَنْفِسِيْنَ ومطِيْلِي أَظفارِهِمْ تَشَبُّهاً باليَهُود ، وهَل هُو خالٍ من المتشبهينَ بالمَجُوسِ والمتشَبِهِيْنَ بالإِفْرَنجِ ، هل هو خالٍ مِمَّن لا يَشْهُدونَ صَلاةَ الجَمَاعةِ أو لا يَصلونَ أَبداً ، هَلْ هُو خَالٍ مِن النساء القاصَّاتِ لِرُؤسِهِنَّ المُطِيْلاتِ لِأَظْفَارِهِنّ ، هَلْ هو خالٍ من شَرَّابِ أَبِ الخَبَائِث الدُّخَانِ ، ونحوهِ مِن المنكرات وأمَا في الاسْواقِ فحدِثْ عَن كثرةِ المنكرَاتِولَا حَرَجَ على حدِّ قولِ المتنبي :

وَقَـدْ وَجَـدَتُ مكـانَ القـولِ ذا سَعـةٍ
فـإن وجَـدتَ لِسَـانـاً قـائـلاً فَقُـلِ

وَمَعَ ذَلِكَ فَلا أَلْسِنَةٌ تَنْطِقُ ولا قُلُوبٌ تَتَمَعَّرُ إلا النَّوادِرَ ، الموجودُ هو التلاومُ والقيلُ والقالُ ، والمداهَنَةُ ، والجُلوسُ مَعَ أَهْلِ المَعَاصِي ، وَمُحَادَثَتُهم وَمُبَاشَرَتُهم وإظْهَارُ البِشْرِ لَهُمْ وَتَعْظِيْمُهم وَتَقْلِيدُهُمْ في الأقوالِ والأَفْعَالِ .

فَيَا عِبَادَ اللهِ اتقُوا اللهَ واسْلُكوا طريقَ سَلفِكُمْ واصْدعُوا بالحقِ وَأمْرُوا بالمَعْرُوفِ وانْهَوْا عن المُنْكَرِ ، واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً ولا تَفرَّقُوا ، وَكُونوا عِبادَ اللهِ إخواناً ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِمَنْ قَبْلَكُمْ ، وَتُضْـرَبَ قُلوبُ بَعْضِكِم عَلَى بَعْضٍ ، قَبـلَ فِتْنَـةٍ لَا تُصِيْبَنَّ الـذين

ظَلَمُوْا مِنْكُم خاصَّةً ، قَبْلَ أنْ تُلْعَنُوا كَمَا لُعِنَ الذينَ مِنْ قَبْلِكُم ، بِسَبَبِ عَدَمِ تَنَاهِيْهِمْ عَنْ المُنْكَر .

قَالَ اللهُ تَعَالى ﴿ لُعِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائيلَ على لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوْا لَا يَتَنَاهُوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ ﴾ .

فَيَا عبادَ اللهِ إِنَّ الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عَنْ المنكرِ لَمِنْ أَعْظَمِ الشعَائِرِ الاسْلامِيّةِ ، وأقوى الأسُس التي يقومُ عليهَا بناءُ المجتمعاتِ النزيهةِ الراقيةِ ، فَاذا لَمْ يَكنْ أمرٌ ولا نهيٌ أو كانَ ولكنْ كالمَعدومِ ، فعلى الأَخلاقِ والمُثْلِ العُلْيَا السَّلامُ ، وَيَلٌ يومئذٍ لِلْفَضِيْلةِ مِن الرذيلةِ ، ولِلْمُتَدَيِّنين مِن الفَاسِقِيْنَ والمنافقين .

فَيا عبادَ اللهِ تَدَاركُوا الأَمْرَ قَبْلَ أنْ يَفوتَ الأَوَانُ وَتَعضُّوا على البَنَانِ فقدْ قَالَ لَكْم سيدُ ولدِ عَدْنان مَنْ رَأى منكَم منكراً فليغيْره بيدِهِ ، فانْ لَمْ يَسْتَطِع فبِلِسَانِه ، فان لَمْ يَسْتَطِعْ فبقلبِهِ وذلكَ أضْعَفُ الايْمانِ .

عبادَ اللهِ بالأمْرِ بالمعروفِ والنّهْي عن المُنْكَرِ نأْمَنُ بإذنِ اللهِ على الدِّينِ من الاضْمْحلالِ والتَلاشيَ ، ونَأْمَنُ بإذنِ اللهِ عَلى الأخلاقِ الفاضلةِ مِن الـذهابِ والانْحِلَالِ ، والحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ مُخَالَفَةِ القَولِ لِلفِعْل ، فتأثيرُ الدَّعْوةِ بالفِعلِ أَقْوَى بكثيرٍ منْ الأقوالِ المجَّردَةِ مِن الأفْعَالِ .

وفي المُسْندِ وغيرِه منْ حَديثِ عروةَ عن عَائِشَةَ قالتْ دَخَلَ عَلَيَّ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ ، وقدْ حَفزَهُ النَّفَسُ فعَرَفْتُ في وجْهِهِ أنْ قَدْ حَفزَهُ شَيءٌ ، فمَا تَكَلّمَ حتى تَوضَّأ وَخرَجَ فلصِقْتُ بالحُجْرةِ ، فصَعِدَ

المِنْبَر فحَمَدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيهِ ، ثم قالَ أَيُّهَا الناسُ إنَّ اللهَ عَز وجَلَّ يقولُ لَكُمْ مُرُوا بالمَعْرُوفِ وانْهَوْا عَن المنكَرِ ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُوني فَلا أُجيْبكم ، وتَسْتَنْصُروني فَلاَ أَنْصُركُم ، وتَسألوني فَلا أُعْطِيكُمْ .

وقال العُمَري الزَّاهدُ إنَّ مِنْ غَفْلَتِكَ عنْ نَفْسِك وإعرَاضِكَ عن اللهِ أنْ تَرَى مَا يُسْخِطُ اللهَ فَتَجَاوَزَهُ ، ولا تَنْهَى عَنه ، خَوفاً مِمَنْ لا يَمْلكُ لنفْسِهِ ضَراً ولا نَفْعَاً ، قُلْتُ ومَا أكثرَ المدلْسِين السَّاكِتينَ الذينَ يَمرّونَ بالجَالِسين أَمَامَ التلفِزيُونْ وعندَ المذيَاع والكورةِ بلْ ولا يأمرُونَهم بالتّي هِيَ أحْسَن ويَمُرّونَ بأولادِهِمْ في فُرُشِهِم ولا يُوْقِضونَهم للصَّلاةِ وكَأَنَّ أَمْرَهُمْ أمرٌ مُبَاحٌ إن شَاءَ أَنْكَرَ وإن شَاءَ تَرَكَ ، وَقَالَ مَن تَـرَكَ الأَمْرَ بالمَعْروف والنهيَ عن المنكر مَخَافَةً مِن المَخْلوقِينَ نُزِعَتْ منهُ الطَّاعةُ ، ولو أَمَرَ وَلَدَهُ أو بَعْضَ مَواليهِ لا اسْتَخَفَّ بِحَقِهِ .

وَذَكَرَ الامامُ أحمدُ عن عمرَ بن الخطابِ تُوشِكُ القُرَى أَنْ تَخْرُبَ وهي عامرةٌ قيلَ وكَيْفَ تَخْربُ وهِي عامِرةٌ ، قَالَ إذا عَلاَ فُجَّارُها أَبْرارَها وَسَادَ القبيلةَ مُنافِقُوها قلتُ وممَّا يُؤَيّدُ ذَلِكَ قوله تعَالَى ﴿ وذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيْهَا فَفَسقُوا فِيْهَا ﴾ الآية وإليك هذَا نَظْم للأَسْبَابِ التي بِهَا حياةُ القلبِ فَأَلْقِ لَهَا سَمْعَكَ وَأَحْضِرْ قَلْبَكَ .

حَمِـدْتُ الّـذي أَغْنَى وَأَقْنَى وَعَلَّمَـا
وَصَيَّـرَ شُكْـرَ العَبْـدِ لِلخَيْـرِ سُلَّمَـا
وأُهـدِي صَـلاَةً تَسْتَمِـرُّ عَلَى الـرِّضَـا
وَأَصْـحـابِـهِ والآل جَمْـعَـاً مُسَـلَّمَـا

أَعَادَ لَنَا في الْوَحْي والسُّنَنِ الَّتِي
أَتَانَا بِهَا نَحْوَ الرَّشَادِ وعَلَّمَا
أَزَالَ بِهَا الأَغْلَاف عَنْ قَلْبِ حَائِرٍ
وَفَتَّحَ آذاناً أُصِمَّتْ وَأَحْكَمَا
فيا أَيُّهَا البَاغِي استنَارَةَ عَقْلِهِ
تَدَبَّرْ كِلَا الوَحْيَينِ وانْقَدْ وَسَلِّمَا
فَعُنْوانُ اسْعَادِ الفَتَى في حَيَاتِهِ
مَعَ اللهِ إقبالاً عليهِ مُعَظِّمَا
وَفَاقِدُ ذا لا شَكَّ قَدْ مَاتَ قَلْبُهُ
أو اعْتَلَّ بالأَمْراضِ كالرَّينِ والعَمَا
وآيةُ سُقْمٍ في الجَوَارِحِ مَنْعُهَا
مَنَافِعَهَا أو نَقْصُ ذلكَ مِثْلَمَا
وَصِحّتُها تَدرِي بِاتْيَان نَفْعِهَا
كَنُطْقٍ وَبَطْشٍ وَالتَّصَرُّفِ والنَّمَا
وَعَيْنُ امْتِرِاضِ القَلْبِ فقدُ الذي لَهُ
أُرِيدَ مِن الأَخْلاصِ والحُبِّ فاعْلَمَا
وَمَعْرِفَةٌ والشَّوْقُ إليهِ انابَةً
بِايْثَارِه دُونَ المَحبَّاتِ فَاحْكَمَا
وَمُوثِرُ مَحْبُوبٍ سِوَى اللهِ قَلْبُهُ
مَرِيضٌ على جُرْفٍ مِنَ المَوْتِ والعَمَا
وَأَعْظَمُ مَحْذُورٍ خَفَى مَوْتُ قَلْبِهِ
عَلَيْهِ لِشُغْلِ عَنْ دَوَاهُ بِصَدِمَا

وآيَـةُ ذَا هُـوْنُ القَبَـائـحِ عِنْـدَهُ
وَلَـوْلاَهُ أَضْـحـى نَـادِمـاً مُتَـألِّـمَـا
فَجَـامِـعَ أمْـراضٍ القلوبِ اتِّبـاعُهَـا
هَـواهَـا فخَـالِفهَـا تَصِـحَّ وَتَسْلَمَـا
وَمِن شُؤْمِـهِ تَـرْكُ اغتِـذَاءٍ بِنَـافِـعٍ
وَتَـرْكُ الدَّوا الشَّـافِي وَعَجْـزٌ كِـلاَهُمَـا
إذا صَـحّ قَلبُ العَبْـدِ بَـانَ ارتِحَـالُـهُ
إلى دَارِهِ الأخْـرَى فَـرَاحَ مُسَـلِّمـا
وَمِنْ ذاكَ إحْسَـاسُ الـمُحِـبّ لِقَـلْبِـهِ
بِضَـرْبٍ وَتَحْـرِيـْكٍ إلى اللهِ دَائِمَـا
إلى أَنْ يُهَـنَّـا بِـالإنَـابَـةِ مُخْبِتـاً
فَيَسْـكُنُ فـي ذَا مُـطْمَئِنـاً مُنَـعَّـمَـا
وَمِنْهـا دَوَامُ الـذِكْـر في كُـلّ حَـالَـةٍ
يَـرى الأُنْسَ بـالـطّاعَـات لِلهِ مَغْنَمَـا
وَيَـصْحَـبُ حُـرَّادَلَّـهُ فـي طَـرِيْقِـهِ
وكَـان مُعِيْنَـا نَـاصِحـاً مُتَيَـمّـمَـا
وَمـنهـا إذَا مَـا فَـاتَـه الـوِرْدُ مَـرَّةً
تَـرَاهُ كَئِـيْـبـاً نَـادِمـاً مُـتَـأَلِّـمَـا
وَمِنْهَـا اشْتِياقُ القَلْبِ في وَقْت خِـدْمَةٍ
إلَيْهَـا كَمُشْتَـدٍّ بـه الجُـوعُ والـظَّمَـا
وَمِنْهَـا ذَهَـابُ الهَمّ وَقْتَ صَـلاَتِـهِ
بِـدُنْيَـاهُ مُـرتَـاحَـا بِهـا مُتَنَـعِّمَـا

وَيَشْتَدُّ عَنْهَا بَعدَهُ لِخُرُوجِهِ
وَقَدْ زَالَ عنهُ الهَمُّ والغَمُّ فاسْتَمَا
فَأكْرِمْ بِهِ قَلْباً سَلِيْماً مُقَرَّباً
إلى اللَّهِ قَدْ أَضْحى مُحِبّاً مُتَيَّمَا
وَمِنْهَا اجْتِمَاعُ الهَمِّ منهُ بِرَبِّهِ
بِمَرضَاتِهِ يَسْعَى سَرِيعاً مُعَظِّمَا
وَمِنْهَا اهْتِمَامٌ يُثْمِرُ الحِرْصَ رَغْبَةً
بِتَصْحِيْحِ أَعْمَالٍ يَكُونُ مُتَمِّمَا
بِإِخْلَاصِ قَصْدٍ وَالنَّصِيْحَةِ مُحْسِناً
وَتَقْيِيْدِهِ بالاتِّبَاعِ مُلازِمَا
وَيَشْهَدُ مَعْ ذا مِنَّةَ اللهِ عِنْدَهُ
وَتَقْصِيْرَهُ في حَقِّ مَوْلَاهُ دَائِمَا
فَسِتٌ بِهَا القَلْبُ السَلِيمُ ارْتِدَاءُهُ
وَيَنْجُو بِهَا مِنْ آفَةِ الموتِ والعَمَا
فَيَارَبِّ وَفِّقْنَا إلى مَا نَقُولُهُ
فَمَازِلْتَ يَاذَ الطَّوْلِ بَرّاً ومُنْعِمَا
فَإِنِي وَإِنْ بَلَغْتُ قَولَ مُحَقِّقٍ
أُقِرُّ بِتَقْصِيرِي وَجَهْلِي لَعَلَّمَا
وَلَما أَتَى مِثْلِي إلى الجَوِّ خَالِياً
مِنَ العِلمِ أَضْحَى مُعْلِناً مُتَكَلِّمَا
كَغَابٍ خَلا مِنْ أُسْدِهِ فَتَوَاثَبَتْ
ثَعَالِبُ مَا كَانَتْ تَطَافِي فِنَا الحِمَا

فَيَا سَامِعَ النَّجْوَى وَيَا عَالِمَ الخَفَا
سَأَلْتُكَ غُفْرَاناً يكونُ مَعَمِّمَا
فَأَجْرَ أَنِي إلَّا اضْطِرَارٌ رَأَيْتُهُ
تَخَوُّفْتُ كَوْنِي إنْ تَوقَّفْتُ كَاتِمَا
فَأَبْدَيْتُ مِن جُرَّاهُ مُزْجِي بِضَاعَتي
وَأَمَّلْتُ عَفْواً مِن إلٰهي وَمَرْحَمَا
فَمَا خَابَ عَبْدُ يَسْتَجِيرُ بِرَبِّهِ
أَلَحَّ وَأَمْسَى طَاهِرَ القَلْبِ مُسْلِمَا
وَصَلُّوا عَلَى خَيْرِ الأنَامِ محمدٍ
كَذا الآلِ والأصحابِ مَا دَامَتْ السَّمَا

(فَصْلٌ)

اعلَمْ وفقنَا اللهُ وايَّاكَ وجميعَ المسلمينَ لما يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَجَعَلَنَا وإياكَ وإيَّاهُمْ مِن الْمُصَدِّقِينَ لِلهِ ولِرُسُلِهِ فِيْمَا أَخْبَرُوْا بِهِ وَحَيْثُ أَنَّهُ قَدْ كَثُرَ في زَمَنِنَا المُنْكِرونَ لِلْجِنِّ وَغَالِبُهُمْ يَسْتَنِدُونَ في إنكارِهم بِأَنَّ طَرِيْقَ مَعْرِفَةِ وُجُودِهِم هِيَ النَّظَرُ أَوْ السَّمْعُ أو اللَّمْسُ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا جِنّاً وَلَمْ يَسْمَعُوهُم وَلَم يَمَسّوْهُمْ .

وَلَكِنْ عَدَمُ النَّظَرِ أَو السَّمعِ أو اللَّمْسِ أَوْ عَدَمِ وُصُولِ أَحَدِ الحَوَاسِّ الخمسِ إلى وُجُودِ الجِنّ لا يَقُومُ دليلاً عَلَى عَدَمِ وُجُودِهم لا نَقْلاً ولا عَقْلاً أَمَا العقلُ فانه يُجَوِّزُ وُجُود كائِنٍ حَيٍ غَيْرِ مَرْئِي بالْعَينِ بِدُوْنِ واسِطَةِ الْمَجْهَرِ المكتَشَفِ أَخِيراً فانَّ المكروبَ كائنٌ حَيٌّ خلقَهُ اللهُ وَهُوَ كَثِيرٌ في طَبَقَاتِ الجَوِ ولا يُمكن رُؤْيَتُه بالعَيْنِ .

وَمَنْ لم يُقرَّ وَيَعْتَقِدَ ما غَابَ عَنْ سَمْعِهِ وَلَمْسِهِ لَزِمَهُ إنكارُ الرُوْحِ والآلامِ والعَقْلِ والجُوْعِ والظَّمَاء لأنها لَيْسَتْ مَرئِيةً ولا مَسْمُوعَةً ولا مَلْمُوْسَةً وَلاَ مَذُوْقَةً وَأَمَّا النَّقْلُ فَكَثِيْرٌ فَمِنَ الأدِلَةِ قولُه تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ وَقَالَ اللهُ تَعَالَى آمراً رسولَه صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ أَنْ يُخْبِرَ قَوْمَهُ أَنَّ الجِنَّ اسْتَمَعُوا لِقِراءَةِ القُرْآن فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوا لِمَا قَالَ وَتَلاَ وانْقَادُوا لهُ كَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ أُوْحِيَ اليَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ من الجِنِّ فَقَالوا إنّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجبَا يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبّنَا أَحَداً ﴾ الآيات . وقال تعالى ﴿ وإذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِن الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِي وَلوا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِيْنَ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقبيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرُوْنَهُمْ ﴾ . وَهَذَا من حِكمَةِ اللهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ البَشَرِ فَلَوْ كَشَفَ لَنَا عَنْ حَقِيْقَتِهِمْ وَسَلَّطَ نَظَرَنَا المَحْدُودَ على ذَوَاتِهِم لَمَا أَمْكَنَ واللهُ أَعْلَمُ أَنْ يَعِيشَ الإِنْسَانُ مَعَهُمْ وقال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِن الجِنّ والإِنسِ ﴾ .

وَقَال ﴿ قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتْ الإِنَسِ والجِنُّ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ . وقال في مَنْ سخَّرَ لِسُلَيْمَانَ ﴿ وَمِنَ الجِنّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الآيات ، وقالَ تعالى ﴿ الَّذِيْنَ يَأْكُلُونَ الرّبَا لا يَقُوْمُونَ إلا كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطَهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمِسّ ﴾ . قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ آكلُ الرّبَا يُبْعَثُ يومَ القِيَامَةِ مَجنوناً يُخْنَقُ رواهُ ابنُ أَبِي حَاتِم قالَ وَرُوِيَ عَنْ عَوفِ بن مَالِكٍ وَسَعِيدِ ابنِ جُبَير والسُّدّى والرَّبيعِ بن أَنسٍ وَقَتَادَةَ وَمُقَاتِلِ بنِ حَيانَ نَحوُ ذلكَ إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ .

وَأَمَّا السُّنةُ فورَدَ عَن النبيّ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « ان عفريتاً مِن الجِنّ تَفَلَّت عَلَيَّ البَارِحَةِ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةِ فأمكَنَنِي اللهُ مِنهُ فَأَرْدَتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلى سَارية مِن سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُروا إِلَيْهِ فَذَكرْتُ قَولَ أَخِي سُلَيْمَانَ ﴿ رَبّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحدٍ مِنْ بَعدِي ﴾ .

وَوَرَدَ أنَّ صفيةَ زوجَ النبي صلى اللهُ عليهِ وسلمَ جاءَتْ تَزُورُهُ وَهُوَ معتكفٌ فقام مَعَهَا مودّعاً حَتَّى بَلَغَتْ بَابَ المَسْجِدِ فرآهُ رَجُلانِ مِن الانْصَارِ فَسَلْمَا عَليهِ فقالَ عَلى رِسْلِكُمَا إنمَا هِي صَفِيَّةُ بنتُ حُيَى فقالاَ سُبحانَ اللهِ يَا رَسُولُ اللهِ وَكبُرَ عَلَيْهِمَا فَقَالَ النبيُ صَلَّى اللهُ علهِ وَسَلَّمَ إنَّ الشَّيطانَ يَبْلغُ مِن الانسانِ مَبْلَغَ الدم وإني خَشِيْتَ أن يَقْذِفَ في قُلوبِكُمَا شَيْئاً .

وَهَذَا صَرِيحٌ واضحٌ في أَنَّ الشَّيْطَان يَخْتَرِقُ الجِسْمَ البَشَرِي وَيَسْرِي فيهِ كَمَا يَسْري الدَّمُ وَمَعَ خَفَائِهِ فَقَدْ التَزمَ الشيطَانُ لعنهُ اللهُ في عَدَاوَته سَبْعَةَ أُمُور : أَرْبعَةُ في قولـه تَعَالى﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُـرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنّ آذانَ الأنعامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فليغيُّرنَّ خلْقَ اللّهِ ﴾ وثلاَثةٌ منهَا في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ ثُم لآتِيَنَّهُم مِنْ بينِ أَيْدِيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِيْنَ ﴾ .

وَهَذَا الإِلتِزَامُ يُبينُ أَنَّهُ عَدوّ مُتَظَاهِرٌ بالعَدَاوَةِ وَلِذَلِكَ فَصَّلَ اللهُ عَداوتَهُ باشْتِمَالِهـا عَلى ثَلاثَـةِ أَشْيَاءَ : (السُّـوءُ) وَهُو مُتَنَـاوِلٌ جَمِيْعَ المَعَاصِي مِنَ القَلْبِ والجَوارِحِ (والفَحْشَاء) وهِيَ ما عظمَ جُرْمُهُ وَذَنْبُهُ كالكَبَائِرِ التي بَلَغَت الغَايَةَ في الفُحْشِ وذلك كالزنَا واللِّواطِ . والقولِ

عَلى اللهِ بِلا عِلْمٍ في أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرْعِهِ .

وَرَوَى مُسلم أَنَّ فتىً مِن الأَنْصَارِ قَتَل حَيَّةً في بَيْتِهِ فَمَاتَ في الحَال فَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَم : إنَّ في المَدِيْنَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا فإذَا رَأَيْتم مِنهْم شيئاً فآذِنُوهُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فانْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذلك فَاقْتُلوهُ فانما هُوَ شَيْطَانٌ .

وَهَكَذا تَكَرَّرُ الرِّوَايَاتُ الصحيحةُ أَنَّ الجِنَّ كانُوا بالمَدِيْنَةِ وقد أَسْلَم بَعضُهُمْ وَرَوَى مسلمٌ في صحيحهِ عَنْ أبيهُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ قالَ ﴿ مَا مِنْ مَولودٍ يُولَدُ إلا نَخسَهُ الشَّيْطَانُ إلا ابنَ مَرْيمَ وَأُمَّهُ ﴾ .

وَرَوى مُسْلم قَوْلَ النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ : مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلَّا وَقَدْ وُكِّلَ اللهُ به قَرِيْنَهُ مِنَ الجِنِّ ، فَرأَى الصحابَةُ أَنَّ قَوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلمَ عامٌ فقالُوا يا رسول اللّه وإِيَّاكَ ، أَيْ حَتَّى أَنْتَ فقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (وإِيَّايَ لكنَّ اللهَ قَدْ أَعَانَني عَلَيهِ فَأَسْلَم فَلا يَأْمُرُنِي إلا بِالخَيرِ) .

وَرَوَى البُخاريُ في صحيحهِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بِحِفْظ زَكاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخفْتُهُ وَقُلْتُ لأَرْفَعنَّكَ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَم قال دَعْنِي فإِنِّي مُحْتَاجٌ وَلِي عِيَالٌ وَبِي حَاجَةٌ شَدِيْدَةٌ .

قَالَ فَخَلّيتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم (يا أَبَا هُريرةَ ما فَعَلَ أَسِيْرُك البَارِحة) قال قُلْتُ يا رسولَ الله شَكَا حَاجةً شديدةً وعيالاً فَرحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيْلَهُ قَالَ أَمَا إِنهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيعودُ فَرَصَدْتُه

فَجَاءَ يَحْثُو مِن الطعام فَعَلَ ذَلِكَ ثلاثَ لَيَالٍ كلُّ ذَلِك والرَّسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَك وسَيَعُودُ .

فَلَمَا كان في الثالثةِ قُلْتُ لأَرْفعَنَّكَ إلى رَسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ ، وَهَذا آخرُ ثَلاث مَرَّاتٍ تَزْعُمْ أَنَّكَ لا تَعُودُ فقَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كلمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا فقلتُ وَمَا هِـي قَالَ اذا أَوَيْتَ إلى فِرَاشِكَ فاقْرأْ آيةَ الكُرْسي ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إلا هُوَ الحَيُّ القيومِ ﴾ حتى خَتَمَ الآيةَ فإنه لَنْ يَزَالَ عليكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ولا يَقْرَبُكَ شَيْطانٌ حتى تُصْبِحَ فقال النبي صلى الله عليه وسلم أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ وهو كَذُوبٌ تَعْلَمُ مَن تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قُلْتُ لا قال ذَلِكَ شَيْطَانٌ .

عن أَبِي السَّائِبِ أَنَّه دَخَلَ على أَبِي سَعيدٍ الخُدْرِي في بَيْتِهِ قال فَوَجَدْتُهُ يُصَلي فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَقْضِي صَلاتَهُ فَسَمِعْتُ تَحْرِيْكاً في عَرَاجِيْنٍ في نَاحِيَةِ البَيْتِ فالتَفَتُّ فاذا حَيَّةٌ فَوَثَبْتُ لأَقْتُلَهَا فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ أَجْلِسْ فَجَلَسْتُ فَلَمَّا انْصَرفَ أَشَارَ إِلى بَيْتٍ في الدَّارِ فقال أَترى هَذا البَيْتَ فَقُلْتُ نَعَمْ فَقَالَ كَانَ فِيه فَتىً مِنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِعُرْسٍ قَالَ فَخَرجْنَا مَعَ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم إلى الخَنْدَقِ فَكَانَ ذَلِكَ الفَتى يَسْتَأْذِنُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم بأَنْصَافِ النَّهَارِ فَيرجِعَ إِلى أَهْلِهِ .

فاسْتَأْذَنَه يَوماً فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم خُذْ عَلَيْكَ سِلاَحَكَ فإنِي أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ فَأَخذَ الرجلُ سِلاَحَهُ ثم رَجَعَ فإذا امْرَأَته بَيْنَ البَابَينِ قَائِمةً فَأَهْوَى إِليْهَا بالرِّمحِ لِيَطْعُنَهَا بِهِ فَأَصَابَتْهُ ، فَقَالَتْ اكْفُفْ عَلَيْكَ رُمْحَكَ وادْخُل البَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الذِيْ أَخْرجَنِي فإذا بِحَيَّةٍ عَظِيْمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ على الفِرَاشِ فَأَهْوَى إِلَيْهَا بالرُمْحِ فَانْتَظَمَهَا بِهِ ثُمَّ خَرجَ فَركَزَهُ في الدارِ فاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ فَما يُدْرى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتاً الحَيَّةُ أمِ

الفَتى قَال فَجِئْنَا إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ وَقُلْنَا ادْعُ اللهَ يُحْيِيْهِ لَنَا فقالَ اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ .

ثُمَّ قَال إنَّ بالمَدِيْنَةِ جِنّاً قَدْ أَسْلَمُوا فإذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئاً فَآذِنُوهُ ثَلاثَةَ أَيَّامِ فإنْ بَدَا لَكُم بَعْدَ ذَلِكَ فَاقتُلُوهُ فإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ وفي روايةٍ عنه فقال رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم إن لِهَذِهِ البُيُوتِ عَوَامِرَ فإذا رَأَيْتُمْ شَيْئاً مِنْهَا فَحَرِّجُوْا عَلَيْهَا ثَلَاثَةً فإنْ ذَهَبَ وإلا فاقْتُلُوهُ فإنَّهُ كَافِرٌ وقال لَهُم اذْهَبُوا فادْفُنُوا صَاحِبَكُم .

وعن أبي هريرةَ رَضِي اللهُ عنه قال قال رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم « إذا نُودِيَ بالصلاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حتى لا يَسْمَعَ التَّأْذِيْنَ فإذا قُضِيَ النِّدَاءُ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثوبَ بالصلاةِ أَدْبَرَ حتى اذا قُضِيَ التَّثْوِيْبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا واذْكُرْ كَذَا ـ لِمَا لَمْ يَذْكُرْ مِن قَبْلُ ـ حَتى يَظَلَّ الرَجُلُ ما يَدْرِيْ كَمْ صَلَّى » متفق عليه « التثويب » : الإقامة يَخْطُر : يُوَسْوِسْ .

وعن ابن مسعودٍ رضِي اللهُ عنه قال ذُكِرَ عِنْدَ النبي صلَّى الله عليه وسلم رَجُلٌ نامَ لَيْلَةً حَتَى أَصْبَحَ قال « يَعْقِدُ الشيطانُ على قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُم إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ على كُلِّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيْلٌ فَارْقُدْ فإن اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهُ تعالى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فإن صَلَّى انْحَلَّتِ عُقَدُهُ كُلُّهَا فاصْبَحَ نَشِيْطاً طَيِّبَ النَّفْسِ وإلا أصْبَحَ خَبِيْثَ النَّفْسِ كَسْلَانٌ متفق عليه .

وروى مسلمٌ عن ابنِ مَسْعُودٍ قَالَ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم لا تَسْتَنْجَوا بالرَّوْثِ ، ولا بالعِظامِ ، فإنه زَادُ اخوانِكُم مِن الجِن

وَورَدَ في السنةِ الصَّحِيْحَةِ باللَّفْظِ الصَّرِيْحِ أَكْلُ الشَّيْطَانِ ، وَشُرْبُهُ فَقَدْ وَرَدَ إذا أَكَلَ أَحَدُكُم فَلْيَأكُلْ بِيمِيْنِه وَلْيَشْرَبْ بيَمِيْنِهِ ، فإِنَّ الشيطَانَ يَأْكُل بِشِمَالِه ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ ، وَيأْخُذُ بِشِمَالِهِ وَهَذَا لا يَحْتَاجُ إِلى شَرْحٍ ، ولا تَأْوِيلٍ لوضوحه .

وَحَدِيْثِ الوَادِي الذي نَامَ فِيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، عن زَيْدِ بن أسلمَ قال عَرَّسَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَيْلَةً بِطَرِيْقِ مَكَّةَ، وَوكَّلَ بِلالاً يُوْقِظُهُم لِلصَّلاةِ ، فَرَقَدَ بِلاَلٌ وَرَقَدُوا ، حَتَى اسْتَيْقَظُوا وَقَدْ طَلَعَتْ عَلَيْهِم الشَّمْسُ ، فَاسْتَيْقَضَ القَومُ قَدْ فَزِعُوا ، فَأَمَرَهُم رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم أنْ يَرْكَبُوا ، حَتَّى يَخْرُجُوا مِن ذلك الوادِي .

وَقال هَذَا وَادٍ فِيْهِ الشيطانُ ، فَرَكِبُوا حَتَّى خَرَجُوا مِن ذَلِكَ الوَادِي ثُمَّ أَمَرهم النبيُ صَلَّى اللهُ عليه وسلم أنْ يَنْزِلُوا ، وأَنْ يَتَوَضَؤُا ، وَأَمَرَ بلالاً أنْ يُنَادِي بالصَّلاةِ ، فصَلى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم بالناسِ ثُمَّ انْصَرَفَ ، وَقَدْ رَأَى مِن فَزَعِهِم ، فقال أَيُّها الناسُ إِنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا وَلَو شَاءَ لَرَدَّهَا إِلَيْنَا في حِيْنٍ غَير هذا ، فإذا رَقَدَ أَحَدُكُم عن الصلاةِ أَوْ نَسِيَهَا ، ثم فَزِعَ إِلَيْهَا فَلْيُصَلِهَا كما كان يُصَلِيْهَا في وَقْتِهَا .

ثم التَفَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم إِلى أبِي بَكْرٍ الصِّدِيْقِ فقال إِنَّ الشيطانَ أَتَى بلالاً وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِي فَأَجْمَعَهُ ، ثم لم يَزَلْ يُهَدِيْهِ كَمَا يُهَدَى الصَّبِيُ حَتَّى نَامَ ، ثم دَعَا رَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بلالاً فَأَخْبَرَ بلالُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِثْلَ الذي أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَبَا بَكْرٍ ، فقال لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه أَشْهَدُ

أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ رواه مالك في الموطاء مرسلاً .

وعن ابن مَسْعُودٍ قال خَرَجَ رَجُلٌ مِن الإنْسِ فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِن الجِنّ فقال هَلْ لَكَ أَنْ تُصارِعَنِي ، فإنْ صَرَعْتَنِي عَلَّمْتُكَ آيَةً إذا قَرَأْتَها حِيْنَ تَدْخلُ بَيْتَكَ لم يَدْخُلْهُ شَيْطَانٌ ، فَصَارَعَـهُ فَصَرَعَـهُ ، فقال إنّي أَرَاكَ ضَئِيْلاً ، كأنَّ ذِرَاعَيْكَ ذِرعَا كَلْبٍ ، أَهَكَذَا أَنْتُمْ أَيُّها الجِنُ ، أَمْ أَنْتَ مِن بَيْنِهم ، قال إنّي فِيْهِم لَضَلِيْعٌ فَعَاوِدْنِي فَعَاوَدَهُ فَصرَعَهَ الانْسِيُ قَالَ تَقَرأُ آيَةَ الكُرْسِي ، فإنه لاَ يَقْرَؤُها أَحَدٌ إذا دَخَلَ بَيْتَهُ إلا خَرَجَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ خَجِيْجٌ كخَجِيْحِ الحِمَارِ فَقِيْلَ لابنِ مسعودٍ أَهُو عُمَرُ قال مَن عَسَى أَنْ يَكُونَ إلاَّ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه .

وَمِن ذلكَ مَا فِي مَجِيءِ الشَّيْطَانِ في صُوْرَةِ شَيْخٍ نَجْدِي في دَارِ النَّدْوَةِ .

ومِن قِصَّتِهَا أَنَّهُ لَمَّا اجْتَمَعَ قُرَيْشٌ لِلتَّشَاوُرِ في أَمْرِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، قال أهْلُ العلمِ بالأَخْبَارِ هَاجَرَ أَصْحَابُ النبي صلى اللهُ عليـه وسلم مِثْلُ عُمَـرَ بِن الخَطَّابِ ، وابنِـهِ عبدِاللّهِ وأَخِيـهِ زَيْدِ بْنِ الخطاب ، وعثمانَ بْنِ عَفَّان ، وطَلْحةِ بن عُبَيْدِ اللهِ ، وحمزةِ بنِ عبدِ المطلبِ ، عَمِّ رسولِ اللهِ صلى الله عليـه وسلم وزيدِ بنِ حَـارِثةَ وَغيرِهِمْ .

وأَقَامَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بَعْدَ أَصْحَابِهِ يَنْتَظِرُ الإذْنَ في الهِجْرَةِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ معه بمكَّةَ أَحَدٌ مِن المُهاجِرِيْنَ ، إلا مَنْ حُبِسَ ، أَوْ فُتِنَ ، إلا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ ، وَعلي بْنُ أَبِي طَالِبٍ وكانَ أَبُو بَكْرٍ كَثِيراً ما يَسْتَأْذِنُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فيقولُ لَهُ لا تَعْجَلْ لَعَلَ اللهَ أنْ

يَجْعَلَ لَكَ صَاحِباً ، فَيَطْمَعُ أبو بَكْرٍ أَنْ يَكُونَ هُوَ .

وَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ لِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم شِيْعَةً ، وَأَصْحاباً مِن غيرِ بَلَدِهِم ، وَرَأَوْا خُرُوْجَ المُهَاجِرِيْنَ إِلَيْهِم ، حَذِرُوْا خُرُوْجَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَعَلِمُوْا أَنَّهُ قَدْ أَجْمَعَ لِحَـرْبِهِم فاجْتَمَعُوا في دَارِ النَّدْوَةِ ، وهِيَ دَارُ قُصَيِّ ابنِ كِلابٍ ، وكانَتْ قُرَيْشٌ لا تَقْضِيْ أَمْراً إِلَّا فِيْهَا يَتَشَاوَرُوْنَ فِيْمَا يَصْنَعُونَ ، بِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حِيْنَ خَافُوْهُ .

قال ابنُ عَباسٍ لَمَّا خَرَجُوا في اليومِ الذي اتَّعَدُوْا لَهُ ، كان ذَلِكَ اليَوْمُ يُسَمَّى يَوْمَ الرَّحْمَةِ ، فاعْتَرَضَ إِبليسُ في هَيْئَةِ شَيْخٍ جَلِيْلٍ ، عَلَيْهِ بَتْلَةٌ أَيْ كِسَاءٌ غَلِيْظٌ ، فَوَقَفَ عَلى بَابِ الدَّارِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُـوا مَن الشَّيْخُ ، قال شَيْخٌ مِن أَهْلِ نَجْدٍ ، سَمِعَ بالذِي اتَّعَدْتُمْ لَهُ ، فَجَاءَ لِيَسْمَعَ ما تَقُولُونَ ، وعَسَى أنْ لا يَعْدِكَمْ مِنه رَأْياً ، وَنُصْحاً ، قالُوا فأدْخُلْ .

وقد اجْتَمَعَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قد كَانَ مِن أَمْرِهِ مَا قَدْ رَأَيْتُم ، وإِنا وَاللهِ مَا نَأْمَنُهُ عن الوُثُوبُ عَلَيْنَا ، فَأجمعُوا فِيه رَأْياً ، فَقَالَ قَائِلُ احْبِسُوهُ في الحَدِيدِ وَأَغْلِقُوا عليهِ بَاباً ، ثُمَّ تَرَبصُوا بِهِ مَا أَصَابَ أَمْثَالَهُ مِن الشُعَراءِ مِن الموتِ ، فقال الشَّيْخُ النَّجْدِيَّ لا واللهِ مَا هَذَا لَكُم بِرأْيٍ ،واللهِ لَئِنْ حَبَسْتُمُوْهُ كَمَا تَقُوْلُونَ لَيَخْرُجَنَّ أَمْرُهُ إِلى أَصْحَابِهِ فَيَثِبُوْا عَلَيْكُم فَيَنْتَزِعُوهُ مِنكم ، ما هَذَا لَكُم بِرَأي فانْظُرُوْا في غَيْرِهِ .

فَتَشَاوَرُوْا ، ثُمَّ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُم نُخْرِجُهُ عن بِلَادِنَا ، ثُمَّ إذا خَرَجَ فَواللهِ لا نُبَالِي أَيْنَ ذَهَبَ ، فقال الشيخُ النَجْدي لَا واللهِ مَا هَذَا لَكُم

بِرأْيٍ أَلَمْ ترَوْا حُسْنَ حَدِيْثِهِ ، وَحلَاوَةَ مَنْطِقِهِ ، وَغلَبَتَهُ على قلوبِ الرِجالِ بِمَا يَأْتِي بِهِ ، واللهِ مَا هُوَ رَأْيٌ .

فَقَالَ : أَبُو جَهْلٍ واللهِ إِنَّ لِيَ رَأْياً ، قَالُوا وَمَا هُوَ يا أَبَا الحَكَمِ قَالَ أَرَى أَنْ نَأْخُذَ مِن كُلِّ قَبِيْلَةٍ شَاباً ، ثُمَّ نُعْطِي كُلَّ فتىً سَيْفاً ، ثُمَّ يَعْمِدُوْا إِليهِ فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَيَقْتُلُوْهُ فَتَسْتَرِيْحُوا مِنه فإِنَّهم إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تفرقَ دَمُهُ في القَبَائِلِ جَمِيْعاً ، فَلَمْ يَقْدِرْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلى حَرْبِ قَوْمِهِم جَمِيْعاً ، فرَضُوا بالعَقْلِ فَعَقَلْنَا لَهُمْ .

فقال الشَّيْخُ النَّجْدِيْ هَذَا هُوَ الرَّأْيُ الذِي لا أَرَى غَيْرَهُ ، فَتَفَرَّقَ القومُ على ذَلِكَ ، فَأَتَى جِبْرِيْلُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، فقال لا تَبِيْتَ اللَّيْلَةَ عَلَى فِرَاشِكَ ، فَلَمَّا كَانَ عَتَمَةٌ مِن اللَّيلِ ، اجْتَمَعُوا على بَابِهِ يَرْقُبُونَهُ حَتَّى يَنَامَ فَيَثِبُوْنَ عَلَيهِ .

فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَكَانَهُم قال لِعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ نَمْ عَلى فِرَاشِيْ وَتَسَجَّ بِرِدَائِي الأَخْضَرَ ، فإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِليكَ شَيءٌ تَكْرَهُهُ مِنهم ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا على بَابِهِ قال أَبُو جَهْلٍ إِن مُحَمَّداً يَزْعُمُ أنكُم إِنْ تَابَعْتُوهُ عَلَى أَمْرِهِ كُنْتُمْ مُلُوكَ العَرَبِ ، والعَجَمِ ثم بُعِثْتُم مِن بَعْدِ مَوْتِكُم وَجُعِلَتْ لَكُم جَنَّاتٌ كَجَنَّاتِ الأَرْدُنِ ، وإِنْ لَم تَفْعَلُوا كَانَ فِيكم ذَبْحٌ ، ثم بُعِثْتُمْ مِن بَعْدِ مَوْتِكُم ، ثم جُعِلَتْ لكمُ نَارٌ تُحْرَقُونَ فِيها .

قَالَ وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَأَخَذَ حَفْنَةً مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ نَعمْ أَنَا أَقُولُ ذلكَ أَنْتَ أَحَدُهُمْ فَأَخَذ اللهُ على أَبْصَارِهِم عَنْهُ فَلَا يَرَوْنَهُ وَجعَلَ يَنْثُرُ ذَلِكَ الترابَ على رُؤُوْسِهِم ، وَهُوَ يَتْلُو عَلَيْهِم يسٓ والقرآنِ الحَكِيْم إِلى قَولِهِ فأَغْشَيْنَاهُم فَهُم لَا يُبْصِرُون ، ولم يُبْقِ مِنهم

رَجُلاً إلَّا وَقَدْ وَضعَ عَلى رَأْسِهِ تْرَاباً .

ثم انْصَرِفَ فَأَتَاهُم آتٍ فَقَالَ ما تَنْتَظِرُوْنَ هَهُنَا ، قالُوا مُحَمَّداً قال خَيَّبَكُم اللهُ ، واللهِ خَرجَ عَلَيكُم مُحَمَّدٌ ثُمَّ مَا تَرَكَ مِنكم رَجُلاً إلَّا وَقَدْ وَضعَ عَلى رَأْسِهِ تُرَاباً ، وانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ .

قال فَوضَعَ كُلُ وَاحِدٍ مِنهم يَدَهُ على رَأْسِهِ فاذَا عَلَيْهِ تُرَابٌ ، ثُم جَعَلَوا يَتطَلَّعُونَ ، فَيَروْنَ علياً عَلى الفِرَاشِ مُسَجَّى بِبُرْدِ رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، فَيَقُولُونَ واللهِ إنَّ هَذَا لَمُحَمَّدٌ نَائِماً في بُرْدِهِ ، فلم يَبْرَحُوا كَذَالكَ حَتَّى أَصْبَحُوا .

فَقَامَ عَليٌّ عَن الفِرَاشِ فَقَالُوا وَاللهِ لَقَدْ صَدَقَنَا الذي كَانَ حَدَثَنَا وَأَنْزَلَ اللهُ في ذلكَ ﴿ وإذ يَمْكُر بِكَ الذينَ كَفروا لِيُثبتُوكَ أَوْ يَقْتُلوكَ أَوْ يُخْرِجوكَ وَيَمْكُرُوْنَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرين ﴾ والشاهدُ هُوَ مَجِيءُ الشيطانِ وَرُؤْيَتُهُ وَكَلامُهُ وهو أَبُو الجِنِ لَعَنَهُ اللهُ .

ومِن ذَلِكَ صِيَاحُ ابْلِيْس يَوْمَ أُحُدٍ أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قُتِلَ ، فَلَمْ يُشَكَّ في ذَلِكَ ، حَتَّى طَلَعَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بَيْنَ السَّعْدَيْنِ ، قال الرَّاوِيْ نَعْرِفُهُ بِكَتِفَيْهِ إذا مَشَى قال فَفَرِحْنَا حَتَّى كَأَنَّهُ لم يُصِبْنَا مَا أَصَابَنَا ، فاؤمَأ نَحْونَا الحَدِيْث .

وَ مِن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه قال قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُم مِن مَنَامِهِ فَلْيَتَوَضَأ وَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فإن الشَيْطَانَ يَبِيْتُ على خَيَاشِيْمِهِ متفق عليه .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن أبي سعيدٍ الخُدري أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ

عليه وسلم قامَ فَصَلى صَلاةَ الصُّبْحِ وهو خَلْفَهُ فقرأَ فالتُبِسَتْ عَلَيْهِ القِرَاءةُ فَلَمَّا فَرَغَ مِن صَلاتِهِ قَالَ لَوْ رَأَيْتُمُونِي وابْلِيْسَ فَأَهْوَيْتُ بِيَدِي فَمَا زِلْتُ أَخْنِقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعابِهِ بَيْنَ أَصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ الإِبْهَامِ وَالتي تَلِيْهَا وَلولا دَعْوَةُ أَخِيْ سُلَيْمان أَصبَح مَرْبُوطاً بِسَارِيَةٍ مِن سَوَارِي المَسْجِدِ يَتَلاعَبُ بِهِ صِبْيَانُ المَدِيْنَةِ .

وقال شَيْخُ الإِسلامِ والجِنُ يَتَصَوَّرُوْنَ في صُوَرِ الإِنْسِ ، والبَهَائِم فَيَتَصَوَّرُوْنَ في صُوَرِ الحيَّاتِ، والعَقَارِبِ ، وَغَيْرِهَا ، وفي صُوَرِ الإِبلِ ، والبَقَرِ والغَنَمِ ، والخَيْلِ ، والبِغَالِ ، والحَمِيْرِ ، وَفي صُوَرِ الطَّيْرِ ، وفي صُوَرِ بَنِيْ آدمَ ، كَمَا أَتَى الشَّيْطَانُ قُرَيْشاً في صُوْرَةِ سُرَاقَة بْنِ مالكٍ بنِ قَشم ، لَمَّا أَرَادُوْا الخُرُوْجَ إلى بَدْرٍ ، قال تعالى ﴿ واذْ زَيَّنَ لَهُم الشيطانُ أَعْمَالَهُم وقال لا غَالِبَ لَكُم اليَوْمَ مِن النَّاسِ وإني جَارٌ لكُم ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ واللهُ شَدِيْدُ العِقَابِ ﴾ .

وَذَكَر ابنُ أَبي الدُنْيا في كِتَابِهِ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ أَنَّ رَجُلاً مِن أَهْلِ الشامِ مِن أَمَرَاءِ مُعَاوِيَة غَضَبَ ذَاتَ لَيْلَةٍ على ابْنِهِ ، فأَخْرَجَهُ مِن مَنْزِلِهِ فَخَرَجَ الغُلامُ لا يَدْرِيْ أَيْنَ يَذْهَبُ ، فَجَلَسَ وَرَاءَ البَابِ مِن خَارِجٍ ، فَنَام سَاعةٍ ثُمَّ اسْتَيْقَضَ ،وَبَابُهُ يَخْمِشُهُ هِرٌ أَسْوَدٌ بريّ ، فَخَرَجَ إليهِ الهِرُ الذِيْ في مَنْزِلِهِمْ .

فقال لَهُ البرِيُ وَيْحكَ افْتَحْ ، فَقالَ لا أَسْتَطِيْعُ فَقَالَ وَيْحَكَ ائْتِنِيْ بِشَيءٍ أَتبَلَغُ بِهِ ، فإني جَائِعٌ وَأَنَا تَعْبَانٌ ، هَذَا أَوانُ مَجِيْء مِن الكُوفَةِ وَقَدْ حَدَثَ اللَّيْلَةَ حَدَثٌ عَظِيْمٌ ، قُتِلَ عَلِيُ بِنُ أَبِي طَالِبٍ ، قَالَ فَقَالَ لَهُ الهِرُ الأَهْلِي واللهِ إنه لَيْسَ شيءٌ هَاهُنَا ، إلَّا وَقَدْ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، غَيْرَ سَفُّوْدٍ

كَانُوا يَشْوُوْنَ عَلَيهِ اللَّحْم .

فقال ائْتِنِي بِهِ فَجَاءَهُ بِهِ فَجَعَل يَلْحَسُهُ حَتَّى أَخَذَ حَاجَتَهُ وانْصَرَفَ وذَلِكَ بِمَرْأى مِن الغُلَامِ ،وَسَمْعٍ ،فقامَ إلى البَابِ فَطَرَقَهُ،فَخَرج إليهِ أَبُوهُ ، فَقَالَ مَنْ فقَالَ افْتَحْ ، فَقالَ وَيْحكَ مَالَك ، فَقَالَ افْتَحْ فَفَتَحَ فَقَصَّ عَلَيهِ خَبَرَ مَا رَأَى .

فَقَالَ وَيْحكَ أَمَنَامٌ هَذَا ، قال لَا وَاللهِ قَالَ وَيْحكَ ، فَأَصَابَكَ جُنُونٌ بَعْدِي ، قال لَا وَاللهِ ، وَلَكِنْ الأَمْرُ كَمَا وَصَفْتُ لَكَ .

فاذْهَبْ إلى مُعَاوِيَةَ الآنَ فاتَّخِذْ عِنْدَهُ بِمَا قُلْتُ لَكَ ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ فاسْتَأذَنَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ خَبرَ مَا ذَكَرَ لَهُ ، وَلَدُهُ ، فَأَرَّخُوْا ذَلِكَ عِنْدَهُم قَبْلَ مَجِيْءِ البُرُدِ ، وَلَمَّا جَاءَتْ البُرُدُ وَجَدُوْا مَا أَخْبَرَهُم قَبْلَ مَجِيْءِ البُرُدِ ، وَلَمَّا جَاءَتْ البُرُدُ وَجَدُوْا مَا أَخْبَرُوْهُم بِهِ مُطَابقاً لِما كَان خَبَّرَ بِهِ الغُلامُ .

وَرُوِيَ أَنَّ سَعْدَ بن عُبَادَةَ بَالَ بِجُحْرٍ بالشام ثُمَّ اسْتَلْقَى مَيِّتاً فَسُمِعَ مِن بِئْرٍ بالمدَيْنَةِ قَائلًا يَقُولُ نَحْنُ قَتَلْنَا سَيِّدَ الخَزْرَجِ سَعْدَ بنَ عُبَادَة ، رَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ فَلَمْ نُخْطِي فُؤَادَهُ ، فَحَفِظُوا ذَلِكَ اليومَ الذي ماتَ فيه سَعْدٌ فَوَجَدُوْه اليومَ الذي سُمِعَ فيه الخَبَرُ ، والله أعلم .

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِتَدبُر كِتَابك وإطَالةِ التأمُلِ فيه وَجَمْعِ الفِكْرِ على مَعَانِي آياته . اللهم ثَبِّت قَوَاعِدَ الإيمانِ في قُلُوبِنَا وَشَيِّدْ فيها بُنْيَانَهُ وَوَطِّدْ فِيها أَرْكَانَهُ وَأَلْهِمنا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وآتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النار واغْفِرْ لَنَا ولِوَالدينا وجميع المسلمين بِرحمتك يا أَرْحم الراحِمين وصلَى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فَصْــلٌ)

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمه اللهُ ، ولا رَيْبَ أَنَّ الأوثانَ يَحْصُلُ عِندَهَا مِن الشياطينِ ، وَخِطَابِهِم ، وَتصرُّفِهم ما هُوَ مِن أَسْبَابِ ضَلالِ بَنِي آدَمَ ، وَجَعْلُ القُبُورِ أَوْثَاناً ، هُو أَوَّلُ الشِّرْكِ ، وَلِهَذَا يَحْصُلُ عِنْدَ القْبورِ لِبَعْضِ النَاسِ مِن خِطابٍ يَسْمَعُهُ ، وَشَخْصٍ يَرَاهُ ، وَتَصرُّفٍ عَجِيْبٍ ، مَا يَظُنُّ أَنَّهُ مِن المَيْتِ .

وَقَد يَكُونُ مِن الجِنِّ والشَّيَاطِيْنِ ، مِثْلُ أَنْ يرَى القَبْرَ قَدْ انْشَقَ ، وَخَرَجَ مِنه المَيِّتُ ، وَكَلَّمَهُ وَعَانَقَهُ وَهَذا يُرى عِنْدَ قُبُورِ الأَنْبياءِ وَغَيْرِهِم وإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ فإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَصَوَّرُ بِصُوَرِ الإِنْسِ ، وَيَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ النَّبِيُ فُلاَنٌ أَوِ الشَّيْخُ فُلانٌ وَيكُونُ كاذِباً في ذَلِكَ .

وفي هَذَا البَابِ مِن الوَقَائِعِ مَا يَضِيْقُ هَذا المَوْضِعُ عَنْ ذِكْرِهِ وهِيَ كَثِيْرَةٌ جِدَّاً ، والجَاهِلُ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ الذي رَآهُ قَدْ خَرَجَ مِن القَبْرِ وَعانَقَهُ أَوْ كَلَّمَهُ هُوَ المَقْبُوْرُ أَوِ النَّبِيُ ، أَو الصَّالِحُ ، أَوَغيْرُهُمَا ، والمُؤْمِنُ العَظِيْمُ يَعْلَمُ أنَّهُ شَيْطَانٌ ، وَيَتَبَيَّنُ ذلك بأمورٍ .

أَحَدَها أَنْ يقْرَأَ آيَةَ الكُـرْسِيْ بِصِدْقٍ ، فـإِذَا قَرأَهـا تَغيَّبَ ذَلِكَ الشَّخْصُ ، أَوْ ساخَ فِي الأَرْضِ ، أَو احْتَجبَ ، وَلَوْ كَانَ رَجُلاً صَالِحاً أَوْ مَلَكا أَوْ جِنِّياً مُؤْمِناً لَمْ تَضُرَّهُ آيةُ الكُرْسِيْ ، وإِنَّمَا تَضُرُ الشَّيَاطِيْنَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيْحِ مِن حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ إِقْرَأ آيَةَ الكُرْسِيْ إِذا أَوَيْتَ فِرَاشَكَ ، فإِنَّهُ لاَ يَزالُ عَلَيْكَ مِن اللهِ حَافِظٌ ولا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبَح ، فقال النَّبِيُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوْبٌ .

وَمِنْهَا أَنْ يَسْتَعِيْذَ باللهِ مِن الشَّيَاطِيْنِ.

وَمِنْهَا أَنْ يَسْتَعِيْذَ بالعُوْذَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، فانَّ الشَيَاطِيْنَ كَانَتْ تَعْرِضُ لِلأَنْبِيَاءِ في حَيَاتِهِم ، وَتُرِيْدُ أَنْ تُؤْذِيْهِمْ ،وَتُفْسِدُ عِبَادَتَهُم كَمَا جَاءَتِ الجِنُّ إِلى النَّبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم بِشُعْلَةٍ مِن نَارٍ تُرِيْدُ أَنْ تَحْرِقَهُ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ بالعُوْذَةِ المَعْرُوفَةِ ، الَّتِي تَضَمَّنَها الحَديثُ المَرْوِيُ عَن أَبِي التَيَّاحِ أَنَّهُ قال سَأَلَ رَجُلٌ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ حُبَيْشٍ ، وكان شَيْخاً كَبِيراً قَدْ أَدْرَكَ النَّبِيَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم كيفَ صَنَعَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم حِيْنَ كادَتْهُ الشَّيَاطِينُ ، قال تَحَدَرَتْ عَلَيْهِ مِن الشِّعَابِ ، والأَوْدِيَةِ ، وفِيْهِم شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِن نَارٍ ، يُرِيْدُ أَنْ يُحْرِقَ بها رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

قَالَ فَرُعِبَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام ، فقال يا مُحَمَّدُ قُلْ قَالَ مَا أَقولُ قَالَ قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ ، الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌ وَلَا فَاجِرٌ ، مِن شَرِّ ما خَلَقَ ، وَذَرَأَ وَبرَأَ وَمِن شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِن السَّمَاءِ ، وَمِن شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيها ، ومِن شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِن الأَرْضِ ، ومِن شَرِّ مَا يَنْزِلُ فِيها، ومِن شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ، وَمِن شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ يَطْرُقُ إلَّا طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَن .

قال فَطَفِئَتْ نَارُهُم ، وَهَزَمَهُم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وفي صحيح مسلم عن أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسلم يُصَلِّي ، فَسَمِعْنَاهُ يَقولُ أَعُوْذُ باللهِ مِنْكَ ، ثم قَالَ أَلْعَنُكَ بلَعْنَةِ اللهِ ثلاثاً ، وَبَسَطَ

يَدَهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئاً ، فَلَمَّا فَرَغَ مِن صَلاتِهِ ، قُلْنَا يا رَسُولَ اللهِ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ شَيْئاً في الصلاةِ لم نَسْمَعْكَ تقولُ قَبْلَ ذلكَ ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ .

قَالَ إِنَّ عَدُوَ اللهِ إِبْلِيْسُ جَاءَ بِشِهَابٍ مِن نَارٍ ، لِيَجْعَلَهُ في وَجْهِي ، فَقُلْتُ أَعُوْذُ باللهِ مِنكَ ثلاثَ مَرَّاتٍ ، ثم قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ فاسْتَأْخَرَ ، ثم أَرَدْتُ أنْ آخُذَهُ ، وَلَولاَ دَعْوَةُ أَخِيْنَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوْثَقاً يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ المَدِيْنَةِ .

وَكَثِيْراً مِن العُبَّادِ يَرَى الكَعْبَةِ تَطُوفُ بِهِ وَيَرَى عَرْشاً عَظِيماً ، وَعَليهِ صُوْرَةٌ عَظِيْمَةٌ ، وَيَرَى أَشْخَاصاً تَصْعَدُ ، وَتَنْزِلُ فَيَظُنُّهَا المَلائِكَةَ وَيَظُنُ أَنَّ تِلْكَ الصُوْرَةَ هِيَ اللهُ ، تَعَالَى ، وَتَقَدَّسَ ، وَيَكُونُ ذَلِك شَيْطَاناً .

وَقَدْ جَرَت هَذِهِ القِصَّةُ لِغَيْرِ وَاحِدِ مِن النَّاسِ ، فَمِنْهُم مَن عَصَمَهُ اللهُ وَعَرَفَ أَنَّه الشَّيْطَانُ ، كالشَّيْخِ عبدِ القَادِرِ في حِكَايَتِهِ المَشْهُوْرَةِ ، حَيْثُ قَالَ كُنْتُ مَرَّةً في العِبَادَةِ فَرَأَيْتُ عَرْشاً عَظِيْماً ، وَعَلَيهِ نُوْرٌ ، فقال لِيْ يَا عَبْدَ القَادِرِ ، أَنَا رَبُّكَ ، وَقَدْ حَلَّلْتُ لَكَ مَا حَرَّمْتُ على غَيرِكَ ، قال فَقُلْتُ لَهُ أَنْتَ اللّهُ الذي لا إله اْلا هُوَ ، إخْسَأْ يا عَدُوَ اللهِ ، قال فَتَمَزَّقَ ذَلِكَ النُوْرُ ، وَصَارَ ظُلْمَةً ، وقال يا عَبْدَ القَادِرِ نَجَوْتَ مِنِّيْ بِفِقْهِكَ في دِيْنِكَ ، وَعِلْمِكَ وَمُنَازَلَتِكَ ، في أَحْوَالِكَ ، لَقَدْ فَتَنْتُ بِهَذِهِ القِصَّةِ سَبْعِيْنَ رَجُلاً .

فَقِيْلَ لَهُ كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ قَالَ بِقَوْلِهِ لِيْ حَلَّلْتُ لَكَ مَا حَرَّمْتُ عَلَى غَيرِكَ ، وَقَدْ عَلِمتُ أَنَّ شَرِيْعَةَ مُحَمَّدٍ لاَ تُنْسَخُ وَلاَ تُبَدَّلُ ، وَلأَنَّهُ قَالَ أَنَا رَبُّكَ ، ولم يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ أنا اللهُ الذي لا إِلَهَ إِلاَّ أَنا ، وَمِن

هَؤُلآء مَن اعْتَقَدَ أنَّ المَرْئِي هُوَ اللّهُ وصارَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُم يَرَوْنَ اللهَ تَعالى ، في اليَقظَةِ ، وَمُسْتَنَدُهُم ما شَاهَدُوْهُ ، وَهُمْ صَادِقُونَ فِيمَا يُخْبِرُوْنَ بِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الشَّيْطَانُ .

وَهَذَا قَدْ وَقَعَ كَثِيْراً لِطَوائِفَ مِن جُهَالِ العُبَّادِ يَظُنُّ أَحَدُهُم أَنَّهُ يَرى اللهَ تَعالى بِعَيْنِهِ في الدُّنْيَا لأَنَ كَثِيْراً مِنهم رَأى مَا ظَنَّ أنَّهُ اللهُ وإنمَا هُوَ شَيْطَانٌ .

وَكَثِيْرٌ مِنْهُم مَن رَأى مَن ظَنَّ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ صَالحٌ أَوْ الخَضرْ وَكَانَ شَيْطَاناً قَالَ وَمِنْهُم مَن يَظُنُّ أَنَّهُ مَلَكٌ والمَلَكُ يَتميَّزُ عن الجِنّي بِأُمُورٍ كَثِيْرَةٍ والجِنُ فِيْهم الكُفَّارُ والفُسَّاقُ والجُهَالُ وفيهم المُؤْمِنُونَ المُتبِعُونَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فَكَثِيْراً مِمَّنْ لَم يَعْرِف أنَّ هَؤلآء جِنّ وَشَيَاطِيْنُ يَعْتَقِدُهُمُ مَلائِكَة وإِنَّمَا هُمْ مِن الْجِنِّ والشَّيَاطِينِ .

قال والشَّيَاطِينُ يُوَالُونَ مَن يَفْعَلُ مَا يُحِبُّوْنَهُ مِن الشِرْكِ والفُسُوقِ والعِصْيَانِ فَتَارَةً يُخْبِرُوْنَهُ بِبَعْضِ الأُمُورِ الغَائِبَةِ ، لِيُكَاشِفَ بِهَا ، وَتَارَةً يُؤْذُوْنَ مَنْ يُرِيْدُ أذاهُ ، بِقَتْلٍ ، وَتَمْرِيْضٍ ، وَنَحْوِ ذلك .

وَتَارَةً يَجْلِبُونَ لَهُ مَايُرِيْدُ ، مِنَ الانْسِ وَتَارَةً يَسْرِقُونَ لَهُ مَا يَسْرِقُونَهُ مِن أَمْوَالِ الناسِ مِن نَقْدٍ وَطَعَامٍ ، وَثِيَابٍ وَغَيرِ ذَلِكَ ، فَيَعْتَقِدُ أنهُ مِن كَرَامَاتِ الأَوْلياءِ ، وإِنَّمَا يَكُونُ مَسْرُوْقاً .

وَتَارَةً يَحْمِلُونَهُ في الهَوَاءِ فَيَذْهَبُوْنَ بِهِ إِلى مَكَانٍ بَعِيْدٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُونَ بِهِ إلى مَكةَ عَشِيَّةَ عَرفَةَ ، وَيعُودُوْنَ بِهِ فَيَعْتَقِدُ هَذا كَرامَةً، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَحُجَّ حَجَّ المُسْلِمِينَ لا أَحْرَمَ ولا لَبى وَلاَ طَافَ بِالبَيْتِ ولا بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ وَمَع أَنَّ هَذا مِن أَعْظَمِ الضَّلاَلِ انتهى باختصار .

« مَوْعِظَةٌ في التَّحْذِيْر عَن الانْهِمَاكِ »
« في الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا وَشَهواتِهَا »

عِبَادَ اللهِ إن مَن نَظَر إلى الدُنيا بِعَيْنِ البَصِيْرةِ أيْقَنَ أَنَّ نَعِيْمَهَا ابْتِلاءٌ ، وَحيَاتَهَا عَنَاءٌ وَعَيْشَهَا نكدٌ ، وَصَفوهَا كدَرٌ وَأَهلَهَا مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ إما بِنِعْمَةٍ زائِلةٍ ، أَوْ بَلِيَّةٍ نَازِلةٍ أَوْ مَنِيَّةٍ قَاضِيَةٍ .

مِسْكِيْنٌ مَن اطْمَأَنَّ وَرَضِيَ بِدَارٍ حَلالُهَا حِسَابٌ ، وَحَرامُهَا عِقَابٌ ، إن أَخَذَهُ مِن حَلاَلٍ حُوْسِبَ عَلَيْهِ ، وإنْ أَخَذَهُ مِن حَرامٍ عُذِّبَ بِهِ ، مَنْ اسْتَغْنَى في الدُّنيا فُتِنَ ، وَمَن افْتَقَرَ فِيها حَزِنَ ، مَن أَحَبَهَا أَذَلَّتْهُ ، وَمَن التَفَتَ إليها وَنَظَرَهَا أَعْمَتْهُ .

« لَوْ كُنْتَ رَائِدَ قَوْمٍ طَاعِنِيْنَ إلى
دُنْيَاكَ هَذِي لَمَا أُلْفِيْتَ كَذَّابَا »
« لَقُلْتَ تِلْكَ بَلاَءٌ نَبْتُهَا سَقَمٌ
ومَاؤُهَا العَذْبُ سُمٌ لِلْفَتَى ذَابَا »

وَكَمْ كُشِفَ لِلسَّامِعِينَ عَن حَقِيْقَةِ الدُنْيَا وَبَيّنَ لَهُمْ قِصَرَ مُدَّتِهَا وانْقِضَاءَ لَذَتِهَا بِمَا يُضْرَبُ مِن الأمْثَالِ الحِسّيَةِ قال اللهُ تَعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّما الحياةُ الدنيا لعبٌ وَلَهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بَيْنَكُم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفارَ نَبَاتُهُ ثم يَهِيْجُ فَتَراهُ مُصْفَراً ثم يَكُونُ حُطَاماً وفي الآخِرةِ عَذابٌ شَدِيْدٌ وَمَغفرةٌ مِن اللهِ وَرِضْوانٌ وما الحَيَاةُ الدنيا الا متاعُ الغُرُور ﴾ .

شَرَحَ لنا العَلِيمُ الحَكِيمُ في هذهِ الآيةِ حَالَ الدُنْيَا التي افْتَتَنَ الناسُ

بِها الذينَ قَصُرَ نَظَرُهُم وبَيَّنَ أَنَّهَا مِن مُحقَّرَاتِ الأُمُوْرِ التي لا يَرْكَنُ إِلَيْهَا العُقَلَاء فَضْلاً عن الافْتِتَانِ بِهَا والانْهِمَاكِ في طَلَبِها وَقَتْلِ الوَقْتِ في تَحْصِيْلِهَا بأَنَّهَا لَعِبٌ لا ثَمرَةَ فِيه سِوَى التَّعَبِ ، وَلَهْوٌ تَشْغَلُ صَاحِبَهَا وَتُلْهِيْهِ عَمَّا يَنْفَعُهُ في آخِرَتِهِ ، وَزِيْنَةٌ لا تُفِيْدُ المَفْتُونَ بِهَا شَرَفاً ذَاتِياً كَالمَلَابِسِ الجَمِيْلَةِ والمَرَاكِبِ البَهِيَّةِ والمَنَازِل الرَّفِيعَةِ الواسِعَةِ ، وَتَفاخُرٌ بالأَنْسَابِ والعِظَامِ البَالِيَةِ وَمُبَاهَاتٌ بِكَثْرَةِ الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ وعِظَمِ الجَاهِ .

ثم أَشَارَ جَلَّ شَأْنَهُ إلى أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ سَرِيْعَةُ الزَّوالِ ، قَرِيْبَةُ الاضْمِحْلالِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ رَاقَ الزُّرَّاعَ نَبَاتُهُ النَاشِيءُ بِهِ ، ثم يَهِيْجُ وَيَتَحرَكُ وَيَنْمُو إلى أَقْصَى ما قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ فَسرَعَانَ مَا تَرَاهُ مُصْفَرَاً مُتَغَيِّراً ذَابِلاً بَعْدَمَا رَأَيْتَهُ أَخْضَرَ نَاضِراً ، ثم يَصِيْرُ مِن اليُبْسِ هَشِيْماً مُتَكَسِّراً ، فَفِيْهِ تَشْبِيْهُ جَمِيْعِ مَا في الدُنْيَا مِن السِنِينِ الكَثِيْرَةِ بِمُدَّةِ نَباتِ غَيثٍ وَاحِدٍ يَفْنَى وَيَضْمَحِلُ وَيَتَلَاشَى في أَقَلِّ مِن سَنَةٍ .

إِشَارَةٍ إلى سُرْعَةِ زَوالِهَا وَقُرْبِ فَنَائِهَاوَبَعْدَ ، مَا بَيَّنَ جَلَّ وَعَلا حَقَارَةَ الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوالِهَا تَزْهِيْدَاً فِيْهَا ، وَتَنْفِيْراً وَتَحْذِيْرَاً مِن الانْهِمَاكِ في طَلَبِهَا أَشَارَ إلى فَخَامَةِ شَأنِ الآخِرَةِ وَفَظَاعَة مَا فِيْهَا مِن الآلام وَعِظَمِ مَا فِيْهَا مِن اللَّذَاتِ تَرْهِيْباً مِن عَذَابِهَا الأليم ، وَتَرْغِيْباً في تَحْصِيْلِ النَّعِيْم المُقِيْم والعَيْشِ السَّلِيْمِ مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر .

والناسُ فِيْهَا قِسْمَانِ فُطَنَاءُ قَدْ وَفَّقَهُم اللهُ فَعَلِمُوا أَنَّهَا ظِلٌ زَائِلٌ وَنَعِيْمٌ حَائِلٍ وَأَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، بَلْ فَهِمُوا أَنَّها نِعَمٌ في طَيِّهَا نِقَمٌ ، وَعَرَفُوا أَنَّهَا حَيَاةٌ فَانِيَةٌ ، وَأَنَّهَا مَعْبَرٌ وَطَرِيْقٌ إلى الحَياةِ البَاقِيَةِ ، فَرَضُوا مِنهَا باليَسِيْرِ ،

وَقَنِعُوا مِنها بالقَلِيْلِ ، فاسْتَرَاحَتْ قُلُوبُهم مِن هَمِّهَا وَأَحْزَانِهَا واسْتَرَاحَتْ أَبْدَانُهُم مِن نَصَبِهَا ، وَعَنَائِهَا ، وَسَلِمَ لَهُم دِيْنُهُم ، وَكَانُوا عِندَ اللهِ هُم المَحْمُوْدِين ، فلم تَشْغَلْهُم دُنْيَاهُمْ عن طاعَةِ مَوْلاهُم .

جَعَلُوا النَّفَسَ الأَخيْرَ وَمَا وَرَاءَهُ نَصْبَ أَعْيُنِهم ، وَتَدَبَّرُوْا مَاذَا يَكُونُ مَصِيْرهُم ، وَفَكَّرُوا كَيْفَ يَخْرُجُونَ مِن الدُّنْيَا ، وإِيْمَانُهُم سَالِمٌ لَهُم وَما الذي يَبْقَى مَعَهُم مِنْهَا في قُبُورِهم ، وَمَا الذي يَتْرُكُونَهُ لِأَعْدَائِهم في الدنيا ، وَمَن لا يُغْنِيْهِم مِن اللهِ شَيْئَاً ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ ﴾ ، ﴿ يَومَ لا يُغْنِي مَوْلاً عَن مَوْلاً شَيْئاً ﴾ ، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِن أَخِيْهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيْهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْه ﴾ وَيَبْقَى عليهم وبَالَ مَا جَمَعُوا وَمَا عَمَرُوا في غَيرِ طَاعةِ اللهِ .

أَدْرَكُوْا كُلَّ هَذا فَتَأَهَّبُوا لِلسَّفرِ الطَّوِيْلِ ، وَأَعَدُّوا الجَوابَ لِلْحِسَابِ ، وَقَدَّمُوا الزَّادَ لِلْمَعَادِ وَخَيْرُ الزادِ التَّقْوَى ، فَطُوبَى لَهُم خَافُوا فَآمِنُوا وَأَحْسَنُوا فَفَازُوا وأفْلَحُوا .

شــعراً :

إِنَّ لِلِهِ عِبَاداً فُطَنَا
طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا
نَظَرُوْا فِيْهَا فَلَمَّا عَلِمُوْا
أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ سَكَنَا
جَعُلُوهَا لُجَّةً واتَّخَذُوْا
صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيْهَا سُفُنَا

اللهم نَوِّرْ قُلُوبَنَا بنُوْرِ الإيمانِ وَأَعِنَّا على أَنْفُسِنَا والشَّيْطَان وَأَيِّسْهُ مِنَّا كَمَا أَيَّسْتَهُ مِن رَحْمَتِكَ يا رَحْمَان وآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

والقِسْمُ الثاني مِن الناسِ جُهَّالٌ عُمْيُ البَصَائِرِ لَمْ يَنْظُرُوْا في أَمْرِهَا وَلَمْ يَكْشِفُوا سُوءَ حَالِهَا وَمَآلِهَا ، بَرَزَتْ لَهُم بِزِيْنَتِها فَفَتَنَتْهُمْ ، فإليهَا أَخْلَدُوْا ، وَبِهَا رَضُوا ، وَلَهَا اطْمَأَنُوا ، حتى أَلْهَتْهُم عن اللهِ تعالى ، وَشَغَلَتْهُم عن ذِكْرِ اللهِ ، وَطَاعَتِهِ ، نَسُوا اللهَ فأَنْسَاهُم أَنْفسَهم أولَئِكَ هُمُ الفَاسِقون » .

قال تعالى ﴿ إِنَّ الذِيْنَ لا يَرْجُونا لِقَاءَنَا وَرَضُوا بالحَيَاةِ واطمأنُوا بِهَا والذيْنَ هُمْ عَن آيَاتِنَا غَافِلُون ، أولَئكَ مَأْوَاهُم النارُ بما كانوا يكْسِبُوْن﴾ .

نَعَمْ إِنَّهُم نَسُوا اللهَ وَأَهْمَلُوا حُقُوْقَهُ وَمَا قَدَرُوْهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، ولم يُرَاعُوا لِانْهِمَاكِهِم في الدُنْيَا وَتَهَالُكِهِم عَلَيْهَا مَوَاجِبَ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيْهِ حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فأَنْسَاهُم أَنْفُسَهُم أَنْسَاهُم مَصَالِحَهُمْ وَأَغْفَلَهُم عَن مَنَافِعِهَا وَفَوَائِدِهَا فَصَارَ أَمْرُهُمْ فُرُطَا فَرَجَعُوا بِخَسَارَةِ الدَّارَيْنِ ، وَغُبِنُوا غَبْناً لا يُمْكِنُ تَدَارُكُهُ ولا يُجْبَرُ كَسْرُهُ ، وَسَيَرَوْنَ يوم القِيَامَةِ مِن الأَهْوَالِ ما يُنْسِيْهِم أَرْوَاحَهُمْ ، وَيَجْعَلَهُم حَيَارَى ذَاهِلِيْنَ يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُ مُرْضِعَةٍ عن ما أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرَى النَاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ولكن عَذَابَ اللهِ شَدِيْد .

وفي مِثْلِ هَذَا يَقُولُ أَحدُ العُلَمَاءِ اجْتِهَادُكَ فِيْمَا ضُمِنَ لَكَ مَعَ تَقْصِيْرِكَ فِيمَا طُلِبَ مِنكَ دَلِيْلُ انْطِمَاسِ بَصِيْرَتِكَ ، أَقامُوْا الدُنْيا فَهدَمَتْهُم ، واعْتَزُوْا بِهَا مِن دُوْنِ اللهِ فَأَذَلَّتْهُم ، أَكْثَرُوْا فِيها مِن الآمَالِ وَأَحبُوْا طُوْلَ الآجَالِ وَنَسُوا الموتَ وَمَا بَعْدَهُ مِن الشَّدَائِدِ في الدُنْيا وَالآخِرَةَ قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِيْنَ الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُم وأهلِيْهِم يَومَ القِيَامَةِ ألا ذلك هُوَ الخُسْرَانُ المُبِين ﴾ .

وَرَوَى التِرمِذِي مِن حَدِيْثِ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ كانتِ الآخرةُ هَمُّهُ جَعَل اللهُ غِنَاهُ في قَلْبِهِ وَجَمعَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَأَتتِ الدُنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ .

وَمَنْ كَانَتِ الدُنْيَا هَمُّهُ جعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ولم يَأْتِهِ مِن الدُنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ ، فلا يُمْسِي إلا فَقِيراً ولا يُصْبِحُ إِلَّا فَقِيْراً .

وما أَقْبَلَ عَبْدُ على اللهِ بِقَلْبِهِ إلا جَعَلَ اللهُ قُلُوبَ المُؤْمِنِيْنَ تَنْقَادُ إليهِ بالوِدِ والرَّحْمَةِ ، وكان اللهُ بِكُلِ خَيْرٍ إليه أسْرَع أ هـ .

وقال في عِدَةِ الصَّابِرِيْن ، وقد أَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم أَنَّها لَو سَاوَتْ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنها شَرْبَةَ مَاءٍ ، وأَنَّها أَهْوَنُ على اللهِ مِن السَّخْلَةِ المَيتَةِ عَلَى أَهْلِهَا .

وَأَنَّ مَثَلَهَا في الآخِرَة كَمَثَلِ مَا يَعْلَقُ بِأَصْبعِ مَن أَدْخَلَ أَصْبُعَهُ في البَحْرِ وَأَنَّها مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيها إِلَّا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَلاهُ ، وعَالِمٌ وَمُتَعلِّمٌ وَأَنَّها سِجْنُ المؤمِنِ وَجَنَّةُ الكافرين .

وأَمَرَ العَبْدَ أَنْ يَكُونَ فِيها كَأَنَّه غَرِيبٌ أَوْ عابِرُ سَبِيْلٍ وَيَعُدُّ نَفْسَهُ مِن

أَهْلِ القُبُورِ وإذا أَصْبحَ فَلاَ يَنْتظِرِ المَسَاءَ وإذا أَمْسَى فلا يَنْتَظِر الصَّباحَ .

وَنَهى عَن اتّخاذِ ما يُرغِبُ فِيْهَا ، وَلَعَنَ عَبْدَ الدِيْنَارِ وَعَبْدَ الدِرْهَمِ وَدَعَا عَلَيْهِ بالتّعسِ والانْتِكَاسِ وَعَدَمِ إِقَالَةِ العَثْرَةِ بالانتقَاشِ

وَأَخْبَـرَ أَنَّها خَضـرَةٌ حُلْوَةٌ أَي تَأْخُـذُ العُيُون بِخُـطْرَتِهَا والقُلُوبَ بِحَلاَوَتِهَا ، وأَمَرَ باتّقائِهَا والحَذَرِ مِنها كما يُتّقى النِسَـاءُ وَيُحْذَرُ مِنْهُنَّ وأَخْبَرَ أَنَّ الحِرْصَ عَلَيْها ، وعلى الرِّيَاسَةِ والشَّرَفِ يُفْسِدُ الدِّيْنَ .

وَأَخْبَرَ أنّه في الدُّنْيَا كَراكِبٍ اسْتظَلَّ تحتَ شَجَرَةٍ في يوم صَائِفٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا ، وَهذَا في الحَقِيقَةِ حَالُ سُكانِ الدنيَا كُلِّهِمْ ، وَلَكِنْ هُوَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ شَهِدَ هَذِهِ الحَالَ ، وَعُمِيَ عنها بنـو الدُّنيا .

وَمَرَّ بِهِمْ وَهُمْ يُعَالِجُونَ خُصَّالَهُمْ قَدْ وَهِيَ ، فقالَ ما أَرَى الأَمْرَ إلا أَعْجَلَ من ذَلِك ، وأَمر بِسترٍ على بابهِ فَنُزِعَ وقالَ إِنَّه يُذَكّرني الدُّنيا ، وأَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ لَيْسَ لأَحدٍ مِنْهم حقٌ في سِوى بيتٍ يَسكنُه ، وَثَوْبٍ يُوارِي عَوْرَتَه وَقوتٍ يُقِيمُ صلبَهُ .

وَأَخْبَرَ أَنَّ الميتَ يتبعُهُ أهلُهُ ، ومالُهُ ، وعَمَلُهُ فيرجِعُ أَهْلُهُ ومالُهُ ويبقى عَمَلُه ، وكانَ يقولُ : الزُّهْدُ في الدُّنْيَا يُرِيحُ القلبَ والبَـدَنَ ، والرغبةُ في الدّنيا تُطِيْلُ الهُمُومَ ، والحزَنَ، وكانَ يقولُ مَنْ جعَلَ الهُمُومَ كُلَّهَا هَمَّاً واحداً ، كفاهُ اللهُ سَائِرَ هُمومِهِ ، وَمَنْ تَشَعّبَتْ بِهِ الهُمُومُ في أَحْوالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبالِ اللهُ في أَيِ أَودِيَتِها هَلَكَ .

وَأَخْبَرَ أَنَّ بَذْلَ العَبدِ ما فَضَلَ عن حاجتِهِ خيرٌ له ، وامسَاكُهُ شَرٌّ لهُ

وأنَهُ لا يُلامُ على الكَفَافِ ، وأَخْبَرَ أَنَّ عِبَادَ اللهِ لَيُسُوا بالمتنَعِمِّيْنَ فِيْهَا فإِنَّ أَمَامَهُمْ دَارَ النعيم فهمْ لا يَرْضُونَ بِنَعِيْمِهم في الدّنيا عِوَضاً مِنْ ذَلِكَ النَعِيم .

وفي حَدِيْثِ مناجاةِ مُوسَى : ولا تُعجِبَنَّكُمَا زَينته ولا مَا مُتِّعَ به ولا تَمُدَّانِ إِلى ذَلِكَ أَعْيُنَكُمَا ، فإِنَّهَا زهرةُ الدّنيا ، وزينةُ المترَفِيْنَ وإِنّي لو شِئْتُ أَنْ أُزَيّنَكُمَا من الدّنيا بزينةٍ يَعْلَمُ فرعونُ حِيْنَ يَنظُر إِليهَا أَنَّ مَقْدِرَتَهُ تَعْجَزُ عن مِثْلِ ما أوتِيْتُمَا فَعَلْتُ .

ولكنْ أَرْغَبُ بِكُمَا عن نَعِيْمِها ذَلِكَ ، وَأَزْوِيهِ عَنْكُمَا ، وَكَذَلِكَ أَفْعَل بِأَوْلِيَائِي ، وقديماً ما أَخَّرْتُ لَهُم في ذَلِكَ فإِنِّي لأذُودُهُمْ عَنْ نَعِيْمِهَا وَرَخَائِهَا كَمَا يَذُودُ الرّاعِي الشَّفِيْقُ غَنَمَهُ عن مَرَاعِي الهَلَكَةِ وإِنّي لأُجَنِّبُهُمْ سَلوَتَها ، وَعَيْشَها كما يَذُودُ الراعي الشفيق إبله عن مَبَارِكِ الغِرَّةِ .

وَمَا ذلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ ، وَلَكِنْ لِيَسْتَكْمِلُوا نصيْبَهُمْ مِن كَرَامَتِي سَالماً مُوَفَّراً لم تَكلِمْهُ الدُّنيا وَلَمْ يُطْغِهِ الهَوَى .

واعْلَمْ أَنَّه لَمْ يَتَزَيَّنْ لِيَ العِبادُ بِزِيْنَةٍ هِيَ أَبْلَغُ مِن الزُّهدِ في الدُّنْيا فانَّهَا زِيْنَةُ المُتَّقِينَ عَلَيْهِم مِنْهَا لِباسٌ يُعْرَفُونَ بِهِ مِن السَّكينةِ ، والخُشُوع سِيْمَاهم في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السَّجودِ .

أُولَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقاً فَإِذَا لَقِيْتُهُمْ فاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَذَلِّلْ لَهُم قَلبُكَ ، وَلِسَانكَ ، وَقَالَ الحَوارِيُّونَ يا عِيْسَى مَنْ أَوْلَيَاءُ اللهِ الذينَ لا خَوْفٌ عليْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنونَ ؟ .

قالَ الذينَ نَظَروا إِلى بَاطِنِ الدُّنْيَا ، حينَ نَظَرَ الناسُ إِلى عَاجِلِهَا

فَأَمَاتُوا مِنْهَا ما يَخْشَونَ أَنْ يُمِيْتَهُمْ ، وَتَركُوا ما عَلِمُوا أَنْ سَيَترُكَهُمْ ، فصَارَ استِكْثَارُهُمْ مِنْهَا استِقْلالاً ، وَذِكْرُهم إيّاهَا فَوَاتاً ، وَفَرَحُهُمْ بمَا أَصابُوا مِنْهَا حَزَناً ، فَمَا عَارَضَهُمْ مِن نائِلِها رَفَضُوهُ ، وما عَارَضَهم مِن رِفْعَتِها بغَيرِ الحقِ وَضَعُوْهُ .

خَلُقَتْ الدُّنْيا عندَهُم فَلَيْسُوا يُجَدِّدونَهَا ، وَخَرِبَتْ بَيْنَهُمْ فَلَيْسُوا يَعْمِرُونهَا ، وماتَتْ في صُدُوْرِهم ، فَلَيْسُوا يُحْيُونَهَا ، يَهْدِمُونها فَيَبْنُونَ بها آخِرَتَهُم ، وَيَبِيْعُونَها، فَيَشْتَرُونَ بِهَا ما يَبْقَى لَهُمْ .

رَفَضُوهَا فكانُوا بِهَا هُمْ الفَرِحِينَ ، وَنَظَرُوا إلى أَهْلِهَا صَرْعَى قَدْ حَلَّتْ بِهِمْ المَثُلاتُ، فَأَحْيَوا ذِكرَ الموتِ وأَمَاتُوْا ذِكْرَ الحياةِ .

يُحِبّونَ لله ، وَيُحِبّونَ ذِكْرَهُ ، وَيَسْتَضِيْئُونَ بِنُوْرِهِ ، وَيُضِيْئُونَ بَهِ لَهُمْ خَبَرٌ عَجِيْبٌ وَعِنَدَهْم الخَبَرُ العَجِيْبُ ، بِهِمْ قَامَ الكتابُ ، وَبِهِ قامُوا وَبِهِمْ نطَقَ الكتابُ ، وَبِهِ نَطَقُوا ، وَبِهِمْ عُلِمَ الكتابُ ، وبِهِ عَمِلُوا لَيْسُوا يَرَونَ نائلاً مع ما نَالُوا ، ولا أَمَاناً دُونَ ما يَرْجُونَ ، ولا خَوْفاً دُونَ ما يَحْذَرُونَ .

وَقَالَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، اجْعَلُوا بُيُوتَكُم كَمَنَازِلِ الأَضْيَافِ فَمَا لَكُمْ في العَالَمِ مِنْ مَنْزِلٍ إنْ أَنْتُمْ إلا عَابِري سَبِيْلٍ .

وَقَالَ يَا مَعْشَرَ الحَوَارِيينَ أَيُّكُمْ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَبْنِي فَوقَ مَوجِ البحر دَاراً ، قَالوا يَا رُوحَ اللهِ مَنْ يَقدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، قَالَ إياكُمْ والدُّنْيا فَلا تَتَّخِذوهَا قَراراً .

وَقَال حلاوةُ الدُّنْيا مَرارةُ الآخِرَةِ ، وَمَرارةُ الدُّنْيا ، حَلاوةُ الآخِرَةِ .

وَقَالَ يَا بَني اسْرائِيْلَ تَهاوَنُوا بالدُّنْيَا ، تَهُنْ عَلَيْكُمْ ، وَأَهِيْنُوا الدُّنْيا

تَكْرُم عَلَيكُمْ الآخِرَة ، ولا تُكْرِمُوا الدُّنْيَا ، تَهُنْ عَلَيْكُمْ الآخِرَة ، فانَّ الدُّنيا لَيْسَتْ بأهْلٍ لِلْكَرَامَةِ ، وَكُلُ يَوْمٍ تَدْعُوا إلى الفِتْنَةِ والخَسَارَةِ .

قَالُوا وَقَدْ تَوَاتَرَ عَنْ السَّلَفِ أَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ الخَطَايَا ، وَأَصْلُهَا وَقِيْلَ انَّ عِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ عليهِ السَّلامُ قَالَ رَأْسُ الخَطِيئَةِ حُبُّ الدُّنْيَا ، والنِّسَاء حُبَالَةُ الشَّيْطَانِ ، والخَمْرُ جِمَاعُ كُلِ شَرّ .

شعراً : قال الإمام الشافعي رحمه الله :

خَبَتْ نَــارُ نَفْسِي بـاشْتِعَــالِ مَفَـارِقِي
وَأَظْـلَمَ لَـيْـلِي إِذْ أَضَــاءَ شِـهَــابُـهَــا
أَيَـا بُـوْمَـةً قَـدْ عَشَّشَتْ فَـوْقَ هَـامَتِي
عَلَى الـرَّغْمِ مِنِّي حِيْنَ طَـارَ غُـرَابُهَـا
رَأَيْتِ خَـرَابَ العُمْـرِ مِنِّي فَـزُرْتِنِي
وَمَـأْوَاكِ مِنْ كلِ الـدِّيَارِ خَـرَابُـهَـا
أَأَنْعَم عَيْشاً بَعْـدَ مَـا حَـلَّ عَـارِضِيْ
طَـلائِـعُ شَيْبٍ لَيْسَ يُغْنِي خِضَـابُـهَـا
إِذَا اصْفَـرَ لَـوْنُ المَـرْءِ وابْيَضَّ شَعْـرُهُ
تَـنَـغَّصَ مِـنْ أَيَـامِـهِ مُـسْـتَـطَابُـهَـا
وَعِــزَةُ عُمْــرِ المَــرْءِ قَـبْـلَ مَشِـيْبِـهِ
وَقَــدْ فَنِيَـتْ نَفسٌ تَــوَلّى شَبَــابُـهَـا
فَـدَعْ عَنْكَ سَـوْآتِ الأُمـورِ فَـإِنَّهَـا
حَـرَامٌ على نَفْسِ التَّقِيِ ارْتِكَـابُهَـا

وَأَدِّ زَكَـاةَ الـجَـاهِ واعْـلَمْ بِـأَنَّـهَـا
كَمِثْـلِ زَكَـاةِ المَـالِ تَمَّ نِصَـابُهَـا

وَأَحْسِنْ إِلى الأَحْــرارِ تَمْلِكْ رِقَـابَهُمْ
فَخَيْـرُ تِجَـارَاتِ الـرِّجَـالِ اكْتِسَـابُهـا

وَلاَ تَمْشِيَن في مَنْكِبِ الأَرْضِ فَـاخِراً
فَعَمَّـا قَلِيـلٍ يَحْتَـوِيْـكَ تُـرَابُهَـا

وَمَنْ يَـذُقِ الـدُّنْيَـا فـاني طَعمتُهَـا
وَسِيْقَ إِلـيْنَـا عَـذْبُهَـا وَعَـذَابُهَـا

فَـلم أَرَهَـا إِلَّا غُــرُوراً وَبَـاطِـلاً
كَمَا لاَحَ في ظَهْـرِ الفَـلاةِ سَرَابُهَـا

ومَـا هِـيَ إِلَّا جِيْفَـةٌ مُسْتَحِـيْلَةٌ
عَـلَيْهَـا كِـلاَبٌ هَـمُّهُنَّ اجْتِـذَابُهَـا

فَـإِنْ تَجْتَنِبْهَـا كُنْتَ سِلْمـاً لأَهْلِهَـا
وإِنْ تَجْتَـذِبْهَـا نَـازَعَتْـكَ كِـلاَبُهَـا

إِذا انْسَـدَ بابٌ عَنْـكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ
فَـدَعْهَـا لأُخْـرَى يَنْفَتِـحْ لَـكَ بَـابُهَـا

فَـإِنَّ قُـرَابَ البَـطْنِ يَكْفِيْـكَ مِـلؤُهُ
وَيَكْفِيـكَ سَـوآتِ الأُمُـورِ اجْتِنَـابُهـا

فَـطُوبى لِنَفْسٍ أَوْطَنَتْ قَعْـرَ بَـيْتِهـا
مُغلَقَـةَ الأَبـوابِ مُـرْخَىً حِجَـابُهَـا

فَيَـارَبِّ هَبْ لِي تَـوْبَـةً قَبْـلَ مَهْلَكٍ
أُبَـادِرُهَـا مِنْ قَبْـلِ إِغْـلاقِ بَـابِهَـا

فَمَـا تَخْـرَبُ الـدُّنْيَـا بِمَـوتِ شِـرَارِهَـا
وَلَكِنْ بِـمَـوْتِ الأكْـرمِيْـنَ خَـرَابُهَـا

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى قَوْلِكَ الثَّابِتِ فِي الحياةِ الدُنيا وَفي الآخِرَةِ اللهم وَأَيِّدْنَا بِنَصْرِكَ وَأَرْزِقْنَا مِن فَضلِكَ وَنَجِّنَا مِنْ عَذَابِكَ يومَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الراحِمينَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وسَلَّمَ .

(فَصْــلٌ)

وَعَنْ سُفْيانَ قَالَ كَانَ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ يقولُ حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ خَطيئةٍ والمالُ فيهِ داءٌ كثيرٌ ، قَالُوا وَمَا دَاؤُهُ قَالَ لا يَسْلَمُ مِن الفَخْرِ والخُيَلاءِ ، قالوا فَإِنْ سَلِمَ ، قالَ يَشْغَلُه إصْلاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

قَالُوا وَذَلِكَ مَعْلُومٌ بالتَّجْرِبَةِ والمُشَاهَدَةِ ، فانَّ حُبَّهَا يَدْعُوا إلى خَطِيئَةٍ ظَاهِرَةٍ وبَاطِنَةٍ،ولا سِيَّمَا خَطيئةٌ يَتوَقّفُ تَحْصِيْلُهَا عَلَيْها،فَيُسْكِرُ عَاشِقَهَا حُبُّهَا عَن عِلْمِهِ بِتِلْكَ الخَطِيئةِ ، وَقُبْحِهَا وعن كَرَاهَتِهَا واجْتِنَابِها .

وَحُبُّهَـا يُوْقِـعُ في الشُّبُهَـاتِ ، ثُمَّ في المَكْـرُوهَـاتِ ، ثمَّ في المُحَرَّمَاتِ ، وَطَالَمَا أَوْقَعَ في الكُفْرِ ، بَلْ جَمِيْعُ الأمَمِ المُكَذِّبَةِ لأنْبيائِهِمْ إنما حَمَلَهُمْ على كُفْرِهِمْ وَهَلاكِهِمْ حُبُ الدُّنيا ، فإِنَّ الرسل لما نَهَوْهُمْ عَنْ الشِّرْكِ والمَعَاصِي التي كَانُوا يَكْتَسِبُونَ بِهَا الدُّنيا ، حَمَلَهُمْ حُبُهَا عَلَى مُخَالَفَتِهم وَتَكْذِيبِهِمْ .

فكلُّ خَطِيئَةٍ في العَالَمِ أَصْلُها حُبُّ الدُّنْيَا ، ولا تَنْسَ خَطِيْئَةَ الأَبَوَيْنِ قَدِيْماً ، فانَّما كَانَ سَبَبُهَا حُبُّ الخُلُودِ في الدُّنْيَا ، وَلاَ تَنْسَ ذَنْبَ ابْلِيسَ

وَسَبَبُهُ حُبُّ الرِّيَاسَةِ ، التي مَحَبَّتُهَا شَرٌّ مِنْ مَحَبَّةِ الدُّنيا .

وَبِسَببهَا كَفَرَ فِرْعَونُ وَهَامانُ وَجنودُهُمَا ، وَأَبُو جَهْلٍ وَقَوْمُهُ ، واليَهُودُ ، فَحُبُّ الدُّنْيَا والرِّيَاسَةُ هو الذي عَمَرَ النَّارَ بِأَهْلِهَا .

والزُّهْدُ في الدُّنْيَا والزُّهْدُ في الرِّيَاسَةِ هُوَ الَّذِي عَمَر الجَنَّةَ بِأَهْلِهَا .

والسُّكْرُ بِحُبّ الدُّنْيَا أَعْظَمُ مِن السُّكْرِ بِشُرْبِ الخَمْرِ بِكَثِيرٍ ، وَصَاحِبُ هَذَا السُّكْرِ لاَ يُفِيقُ مِنْهُ ، إلا في ظُلْمَةِ اللَّحْدِ ، وَلَوْ انكشَفَ عَنْهُ غِطاؤُهُ في الدُّنْيَا لَعَلِمَ مَا كَانَ فيهِ مِنَ السُّكْرِ ، وأَنَّهُ أَشْدُّ مِن سُكْرِ الخَمْرِ والدُّنْيَا تَسْحَرُ العُقُولَ أَعْظَم سِحْرٍ .

قَالَ الامامُ أَحْمَدُ حدثنا سَيّارٌ حَدثَنَا جَعْفَرٌ قالَ سَمِعْتُ مالكَ ابنَ دِينارٍ يقولُ اتقُوا السَّحَارَةَ ، اتَّقُوا السَّحَارَةَ ، فانَّهَا تَسْحَرُ قلوبَ العُلَمَاءِ .

(فَصْــلٌ)

وَأَقَلُّ مَا في حُبِّهَا أَنَّهُ يُلْهِى عن حُبّ اللهِ ، وَذِكره ، وَمَنْ أَلْهَاهُ مَالُهُ عَنْ ذكر اللهِ فَهُوَ من الخَاسِرِيْنَ ، قَالوا وإِنَّمَا كَانَ حُبُّ الدُّنْيَا رأْسُ الخَطَايَا وَمُفسِداً لِلدِّين مِن وُجوهٍ ، أَحَدُهَا أَنه يَقْتَضِي تَعظِيْمَهَا وهِيَ حَقِيرةٌ عند اللهِ .

ومِن أَكْبَرِ الذُّنوبِ تَعْظِيمُ ما حَقَّرُهُ اللهُ ، وَثَانِيْهَا أَنَّ اللهَ لَعَنَهَا ، وَمَقَتَهَا ، وأَبْغَضَهَا إلا مَا كَانَ لَهُ فِيْهَا ، وَمَنْ أَحَبَّ ما لَعَنَهُ اللهُ ، وَمَقَتَهُ وَأَبْغَضَهُ ، فَقَدْ تعَرَّضَ لِلْفِتْنَةِ ، وَمَقْتِهُ وَغَضَبِهِ .

وثالِثُهَا أَنَّهُ إذا أَحَبَّهَا صَيَّرهَا غَايَتَهُ ، وَتَوَسَّلَ إِليهَا بالأَعْمَالِ التي

جَعلَهَا اللهُ وَسَائِلَ إِلَيْهِ ، وإِلى الدَّارِ الآخِرَةِ ، فَعَكَس الأَمْرَ وَقَلَبَ الحِكْمَةَ فانتَكَسَ قَلْبُهُ ، وانْعَكَسَ سَيْرُهُ إِلى وَرَاءَ .

فَهَاهُنا أَمْرانِ : أَحَدُهُمَا جَعْلُ الوَسِيلةِ غَايَـةً ، والثَّانِي التَّـوَسُّل بأعْمَالِ الآخرةِ إلى الدُّنْيَا ، وهذا شرٌ مَعْكوسٌ مِن كلِّ وجهٍ ، وقلبٌ منكوسٌ غاية الانتِكاسِ .

وَهَذَا هُوَ الذِي يَنْطَبِقُ عليه حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ قَولُهُ تَعَالَى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِيْنَتِهَا نُوَفِّ إِلَيْهِم أَعْمَالَهُمْ فِيْهَا وَهُمْ فِيْهَا لَا يُبْخَسُونَ أَوْلَئِكَ الذِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فيْهَا وَبَاطِلٌ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَقَولُه ﴿ مَنْ كانَ يُرِيْدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا له جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوْماً مَدْحوراً ﴾ وقوله ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْث الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيْبِ ﴾ .

فهذه ثلاثُ آياتٍ يُشبِهُ بعضُها بَعْضاً ، وَتَدُلَّ عَلَى معنَىً واحِدٍ ، وَهُوَ أَنَّ مَن أَرَادَ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا وَزِيْنَتَهَا دُونَ اللهِ والدّارِ الآخرةِ ، فَحظُّهُ مَا أَرَادَ ، وَهُوَ نَصِيْبُهُ ، لَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ غَيْرُهُ .

وَالأَحَادِيْثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسلَّمَ مُطابِقَةٌ لِذَلِكَ مُفَسّرَةٌ لَهُ ، كَحَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الثَلاثَةِ الذينَ هُمْ أَوّلُ مَن تُسعرُ بِهِمْ النارُ ، الغازِي والمتصَدّقُ ، والقارِىءُ الذينَ أَرادُوا بِذَلِكَ الدُّنْيَا والنّصِيْبَ وَهُوَ في صَحِيْحِ مُسْلِمٍ .

وفي سُنَنِ النَّسَائِي عن أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إلى النّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ يَا رَسُوْلَ اللهِ: رجلٌ غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا شَيْءَ لَهُ، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَراتٍ يَقُوْلُ لَهُ رَسُوْلُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لَا شَيْءَ لَهُ ثُمَّ قَالَ إِنَّ الله تَعَالَىٰ لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًاً وابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ.

فَهذَا قَدْ بَطَلَ أَجْرُه وَحَبِطَ عَمَلُه مَعَ أَنَّه قَصَدَ حُصُولَ الأَجْرِ لَمَّا ضَمَّ الَيْهِ قَصْدَ الذِكرِ بَيْنَ الناسِ فَلَمْ يُخْلِصَ عَمَلَهُ للهِ فَبَطَلَ كُلُّهُ، قَالَ وَرَابِعُهَا أَنَّ مَحَبَّتِهَا تَعْتَرِضُ بَيْنَ العَبْدِ، وَبَيْنَ فِعْلِ مَا يَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ في الآخِرَةِ، لاشْتِغَالِهِ عَنْهُ بِمَحْبُوبِهِ والنَاسُ هَاهُنَا مَرَاتِبٌ.

فمنهُمْ مَنْ يَشْغَلُهُ مَحْبُوبُه عن الإيمانِ، وَشَرَائِعِهِ.

ومِنْهُمْ مَن يَشْغَلُه عن الوَاجِبَاتِ التي تَجِبُ عَلَيهِ لِلهِ وَلِخَلْقِهِ فلا يَقُومُ بِهَا ظَاهِراً ولا بَاطِناً.

ومِنْهُمْ مَن يَشْغَلُهُ حُبُهَا عَنْ كَثيرٍ مِن الوَاجِبَاتِ.

وَمِنْهُمْ مَن يَشْغَلُه عن وَاجِبٍ يُعَارِضُ تَحْصِيْلَهَا وإِن قَامَ بِغَيْرِهِ.

وَمِنْهُمْ مَن يَشْغَلُهُ عن القيامِ بالواجِبِ في الوَقْتِ الذي يَنْبَغِي عَلَى الوَجْهِ الذي يَنْبَغي فَيُفَرّطُ في وَقْتِهِ، وفي حُقُوقِهِ.

وَمِنْهُمْ مَن يَشْغَلُهُ عن عُبُودِيَّةِ قَلْبِهِ في الوَاجب، وَتَفْرِيْغِهِ لِلَّهِ عِنْدَ أَدَائِهِ، فَيُؤَدِّيْهِ ظَاهِراً لَا بَاطِنَاً، وَأَيْنَ هَذَا مِن عُشَّاقِ الدُّنْيَا وَمُحِبّيْهَا هَذَا مِنْ أَنْدَرِهِمْ، وَأَقَلُّ دَرجاتِ حُبّهَا أَنْ يُشْغِلَ عن سَعَادَةِ العَبْدِ وَهُوَ تفريغُ

القَلْب لِحُبِّ اللهِ ، وَلِسَانِهِ لِذِكْرِهِ وَجَمْع قَلْبِهِ على لِسَانِهِ وَجَمْعِ لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ عَلى رَبِّهِ ، فَعِشْقُهَا وَمَحَبَّتُهَا تُضِرُّ بِالآخِرَةِ ، وَلَا بُدَّ ، كَمَا أَنَّ مَحَبَّةَ الآخِرَةِ تُضِرُّ بالدُّنْيَا .

وَخَامِسُهَا أَنَّ مَحَبَّتَهَا تَجْعَلُهَا أَكْثَرَ هَمِّ العَبْدِ .

وَسَادِسُهَا أَنَّ مُحِبَّها أَشَدُّ الناسِ عذاباً بِهَا ، وَهُوَ مُعَذَّبٌ في دُوْرِهِ الثلاثِ ، يُعَذَّبُ في الدُّنيا بِتَحْصِيْلِهَا ، وفي السَّعِيْ فِيْهَا وَمُنَازَعَةِ أَهْلِهَا وفي دَارِ البَرْزَخِ أي في القَبْرِ بِفَوَاتِهَا ، والحَسْرَةِ عَلَيْهَا ، وَكَوْنِهِ قَدْ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَحْبُوْبِهِ على وَجْهٍ لَا يَرْجُو اجتماعَهُ بِهِ أَبَداً وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ هُنَاكَ محبوبٌ يُعَوِّضُهُ عَنْهُ .

فَهَذَا أَشَدُّ الناسِ عَذَاباً في قَبْرِهِ ، يَعْمَلُ الهمُّ ، والغَمُّ ، والحَزَنُ والحَسْرَةُ ، في رُوْحِهِ ما تَعْمَلُ الدِيْدَانُ وَهَوَامُّ الأَرضِ في جِسْمِهِ .

وَسَابِعُهَا أَنَّ عَاشِقَهَا وَمُحِبَّهَا الَّذِي يُؤْثِرُهَا عَلى الآخِرَةِ مِن أَسْفَهِ الخَلقِ وَأَقَلِّهِمْ عقلاً ، إذْ آثَرَ الخَيَالَ عَلَى الحَقِيْقَةِ ، والمَنَامَ على اليَقْظَةِ والظِلَّ الزائِلَ على النَّعِيْمِ الدَّائِمِ والدّارَ الفانِيَة على الدارِ الباقِيَةِ إِنَّ اللَّبِيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ .

ثم عقَدَ فَصْلاً وَذَكَرَ فِيْهِ أَمْثِلَةً تُبَيِّنُ حقيقةَ الدُّنْيَا : المثالُ الأَولُ : للعبدِ ثَلَاثَةُ أَحْوالٍ ، حَالَةٌ لَمْ يَكُنْ فِيهَا شَيئاً ، وَهِيَ مَا قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ ، وحالةٌ أُخْرَى وهِيَ مِن سَاعة موتِهِ ، إلى مَالاَ نِهايَة له في البَقَاءِ السَّرْمَدِي فَلِنَفْسِهِ وجودٌ بَعدَ خُرُوجِهَا مِنَ البَدَنِ ، إمَّا في الجَنَّةِ وإمَّا في النَّارِ .

ثمَّ تُعَاد الى بَدَنِهِ ، فَيُجَازَى بِعَمَلِهِ ، ويَسْكُنُ إِحْدَى الدَّارَيْنِ في

خُلُودٍ دائِمٍ ثم بَيْنَ هَاتَيْنِ الحَالَتَيْنِ وَهِيَ مَا بَعْدَ وجُودِهِ وَمَا قَبْلَ مَوْتِهِ حَالَةٌ مُتَوسِّطَةٌ ، وَهِيَ أَيَّامُ حَيَاتِـهِ فَلْيَنْظُرْ إلى مِقْـدَارِ زَمانِهَـا ، وَيَنْسِبه إلى الحَالَتَين ، يَعْلَمُ أنه أقَلُّ مِن طَرَفَةِ عَيْنٍ في مِقْدَارِ عُمُرِ الدُّنْيَا .

وَمَنْ رَأَى الدُّنْيَا بِهَذِهِ العَيْنِ لم يَرْكَنْ إِليْهَا ، وَلَمْ يُبَالِ كَيْفَ تَقَضَّتْ أَيَّامُهُ فِيْهَا في ضُرٍّ وَضِيْق أَوْ فِي سَعَةٍ وَرَفَاهِيَّةٍ وَلِهَذَا لَمْ يَضَعْ النبيُ صَلَّى الله عليهِ وسلم لَبِنَةً على لَبِنَةٍ ولا قَصَبَةً على قَصَبَةٍ ، وقال مَالِي وَلِلْدُّنْيَا ، إنَمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ قَالَ في ظِلِّ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا .

وإلى هَذَا أَشَارَ المسيحُ بِقَوْلِهِ عليهِ السلامُ « الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فاعْبُرُوهَا ولا تَعْمِرُوهَا » ، وَهَذَا مَثَلٌ صَحِيْحٌ فإِنَّ الحَيَاة مَعْبَرٌ إلى الآخِرَةِ ، والمَهْدُ هُوَ الرُّكْنُ الأَوَّلُ ، عَلَى أَوَّلِ القَنْطَرةِ ، واللَّحْدُ هو الرُّكْنُ الثاني عَلَى آخِرِهَا .

وَمِنَ الناسِ من قَطَعَ نِصفَ القَنْطَرَةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَطَعَ ثُلْثَيْها ،وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَبْقَ لَهُ إلَّا خُطْوةً واحدة،وهو غافلٌ عنهَا وكيْفَمَا كانَ فلا بُدَّ مِن العُبُورِ ، فَمَنْ وَقَفَ يَبْنِي على القَنْطرةِ ، وَيُزَيِّنُها بأَصْنافِ الزِيْنَةِ ، وَهُوَ يُسْتَحَثُّ على العُبورِ فَهُوَ في غايةِ الجَهْلِ والحُمْقِ . المِثَالُ الثاني شَهَوَاتُ الدُّنْيَا في القَلْبِ كَشَهواتِ الأَطْعِمَةِ في المَعِدَةِ ، وسوفَ يَجِدُ العبدُ عندَ الموتِ لِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا في قَلْبِهِ مِن الكَرَاهَةِ والنَّتَنِ والقُبْحِ ما يَجِدُه لِلأَطْعِمَةِ اللَّذِيْذَةِ إذا انْتَهَت في المَعِدَةِ ، غَايَتُها،وكمَا أَنَّ الأَطْعِمَةِ كُلَّمَا كانَتْ أَلَذَّ طَعْمَاً وأَكْثَرَ دَسَماً وأَكْثَرَ حلاوةً كانَ رجِيْعُهَا أَقْذَرُ ، فكذلِكَ كُلُّ شهوةٍ كانَتْ في النَّفْسِ أَلَذُّ وَأَقْوى فالتَّأذِي بِهَا عندَ المَوْتِ أَشَدُّ ، كَمَا أَنَّ تَفَجُّعَ الانسانِ بِمَحْبُوبِهِ إِذَا فَقَدَهُ يَقْوَى بِقَدْرِ مَحَبَّةِ المَحْبُوبِ .

شعراً قال بعضُهُمْ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ :

إلى مَ أَرَى يا قَلْبُ مِنْكَ التَّـراخِيَا
وَقَدْ حَلَّ وَخْطُ الشَّيْبِ بالرَّأْسِ ثَاوِيَا

وأخْبَرَ عن قُرْبِ الرَّحِيلِ نَصِيْحَـةً
فَدونَكَ طَاعَاتٍ وَخَلِّ المَسَاوِيَـا

وَعُضَّ عَلَى مَا فَاتَ مِنْـكَ أَنَامِـلاً
وَفَجِّرْ مِنَ العَيْنِ الدّمُوعَ الهَوَامِيَـا

فَكَمْ مَرَّةٍ وَافَقْتَ نَفساً مَرِيْدَةً
فَقَدْ حَمَّلَتْ شَراً عليكَ الرَّوَاسِيَـا

وَكَمْ مَرةٍ أَحْدَثتَ بِدْعاً لِشَهْوَةٍ
وَغَادَرْتَ هَدْياً مُسْتَقِيْماً تَوانِيَـا

وَكَمْ مَرَّةٍ أَمْرَ الإلٰه نَبَذْتَهُ
وَطَاوَعْتَ شَيْطَاناً عَدُوّاً مُدَاجِيَـا

وَكَمْ مَرَّةٍ قد خُضْتَ بَحْرَ غِوَايَةٍ
وَأَسْخَطْتَ رَباً باكْتِسَابِ المَعَاصِيَا

وكَمْ مَرَّةً بِرَّ الإلٰه غَمَصْتَهُ
وقد صِرْتَ في كُفْرانِهِ مُتَمَادِيَـا

وَلاَ زِلْتَ بالدُّنْيَا حَرِيْصاً وَمُوْلَعاً
وَقَدْ كُنْتَ عن يوم القِيَامَةِ سَاهِيا

فَمَا لَكَ في بَيْتِ البلا إِذْ نَزَلْتَهُ
عَنِ الأَهْلِ والأَحْبَابِ والمَالِ نَائِيَا

فَتُسْأَلَ عن رَبِّ وَدِيْن مُحَمَّدٍ
فإن قُلْتَ هَاهٍ فادْرِ أَنْ كُنْتَ هَاوِيَا
وَيَأْتِيْكَ مِن نَارٍ سَمُومٌ أَلِيْمَةٌ
وَتُبْصُرُ فِيْهَا عَقْرباً وَأَفَاعِيَا
وياليْتَ شِعْرِيْ كَيْفَ حَالُكَ إِذْ نُصِبْ
صِرَاطٌ ومِيْزَانٌ يُبِينُ المَطَاوِيَا
فَمَنْ نَاقشَ الرَّحْمَنُ نُوْقِش بَتَّةً
وَأُلْقِيَ فِي نَارٍ وإنْ كَانَ وَالِيَا
هُنَالِكَ لا تَجْزِيْهِ نَفْسٌ عنِ الردَى
فَكُلُ امْرىءٍ في غَمِّهِ كَانَ جَاثِيَا

اللَّهُمَ ثَبِّتْ قلوبَنَا على دِيْنِكَ وألهِمْنَا ذكرَكَ وشُكرَكَ واخْتِمْ لَنَا بِخَاتِمَةِ السَّعَادَةِ واغفِرْ لَنَا ولوالِدَيْنَا وَجَمِيعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وَعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

المثالُ الثَّالثُ لَهَا ولأَهْلِهَا في اشْتِغَالِهِمْ بِنَعِيْمِهَا عَن الآخِرَةِ وما يُعْقِبُهُمْ مِن الحَسَراتِ مَثَلُ أَهْلِ الدُّنْيَا في غَفْلَتِهِمْ مَثَلُ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِيْنَةً فَانْتَهَتْ بِهِمْ إلى جَزِيْرَةٍ فَأَمَرَهُمْ الملاحُ بالخُروجِ لِقَضَاءِ الحَاجَةِ وَحَذَّرَهُمْ الابْطَاءَ ، وَخَوَّفَهمْ مُرُوْرَ السَّفِيْنَةِ .

فَتفرقُوا في نَواحِي الجَزيرةِ ، فَقَضى بعْضُهم حاجَتَه وَبَادَرَ إلى السفينةِ فَصَادَفَ المكانَ خالياً ، فَأخَذَ أَوْسَعَ الأَمَاكِنِ وأَلْيَنَهَا .

ووقَفَ بَعضُهم في الجَزِيرةِ ، يَنْظُرُ إلى أزْهَارِهَا وَأنْوَارِهَا العَجِيْبَةِ وَيَسْمَعُ نَغمَاتِ طُيُورِهَا ، وَيُعْجِبُهُ حُسْنُ أَحْجَارِهَا ، ثم حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِفواتِ السَّفِيْنَةِ ، وَسُرْعَةِ مُرورِهَا ، وَخَطَرِ ذَهَابِهَا فَلَمْ يُصَادِف إلا مَكَاناً ضَيّقاً فَجلَسَ فِيْهِ .

وأكبَّ بَعْضُهم على تِلْكَ الحِجَارَةِ المُسْتَحْسَنَةِ ، والأَزْهَارِ الفائِقَةِ فَحَمَلَ مَنْهَا حِمْلَهُ فلَمَّا جَاءَ لم يَجِدْ في السَّفِيْنَةِ إلا مكاناً ضيقاً ، وزَادَهُ حِمْلُه ضِيْقاً ، فصارَ مَحْمُوْلُه ثقْلاً عَلَيْهِ ، وَوَبَالاً وَلَمْ يَقْدِر على نَبْذِه بَلْ لم يَجِدْ مِن حَمْلِهِ بُدَّاً وَلَمْ يَجِدْ لَهُ في السفينةِ مَوْضِعاً ، فَحَمَلُه على عُنُقِهِ وَنَدِمَ على أَخْذِهِ ، فَلم تَنْفَعْهُ النَّدَامةُ ، ثم ذَبلَتْ الأَزْهَارُ ، وتَغَيَّرتْ أَرايِيْحِهَا وَآذَاهُ نَتَنُهَا .

وتولَّجَ بَعْضُهم في تِلكَ الغِيَاضِ ، وَنَسِيَ السَّفِينَةَ ، وَأَبْعَدَ في نُزْهَتِهِ ، حَتَّى إن المَلاَّحَ نادَى بالنَّاسِ ، عِندَ دَفْعِ السَّفِيْنَةِ ، فلم يَبْلُغْهُ صَوْتُه ، لاشْتِغَالِهِ بِمَلاهِيْهِ ، فَهُوَ تارةً يَتَنَاوَلُ مِنَ الثَّمرِ وتارةً يشُمُّ تِلْكَ الأَزهارِ وتارَةً يُعْجَبُ مِن حُسْنِ الأَشْجَارِ .

وَهُوَ على ذَلِكَ خائفٌ مِن سَبُعٍ يَخْرُجُ عليهِ ، غيرَ مُنْفَكٍّ مِن شَوْكٍ يَتَشَبّثُ في ثِيَابِهِ ، وَيَدْخُلُ في قَدَمَيهِ أَوْ غُصْنٍ يَجرَحُ بَدَنَهُ أَوْ عَوْسَجٍ يُخَرّقُ ثِيابَهُ ، وَيَهْتِكُ عَوْرَتَهُ ، أَوْ صَوتٍ هائلٍ يُفزِعُهُ .

ثم مَن هؤلاءِ مَن لَحِقَ بالسَّفِيْنَةِ ، ولَمْ يَبْقَ فِيْهَا مَوْضِعٌ ، فَمَاتَ على السَّاحِلِ ، ومِنْهُم مَن شَغَلَهُ لَهْوُهُ ، فافْتَرَسَتْهُ السبَّاعُ وَنَهَشَتْهُ الحَيَّاتُ ومِنْهُم مَن تَاهَ فَهَامَ على وَجْهِهِ حَتَّى هَلَكَ ، فَهَذا مِثَالُ أَهْلِ الدُّنْيَا في

اشْتِغَالِهِمْ بِحُظُوظِهِم العَاجِلَةِ ، وَنِسْيَانِهِمْ مَورِدَهُم وعاقِبَةَ أَمْرِهِمْ ، وما أَقبَحَ بالعاقِلِ أَنْ تَغُرَّهُ أَحْجارٌ ، وَنباتٌ يَصِيرُ هَشِيماً .

المثالُ الرابعُ لاغتِرَارِ الناسِ بالدُّنْيا ، وضَعْفِ إِيْمَانِهِمْ بالآخِرَةِ أَنَّ رسولَ الله صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ لأصْحابِهِ ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قومٍ سَلَكُوا مَفَازَةً غَبْرَاءَ ، حَتَّى إذا لَمْ يَدْرُوا ما سَلَكُوا مِنْها أَكْثَرَ أَمْ ما بَقِيَ ، أَنْفدُوا الزَّادَ ، وَحَسَرُوا الظَّهْرَ ، وَبقُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ المَفَازَةِ ، لا زَادَ ولا حَمُولَةَ ، فَأَيْقَنُوا بالهَلَكَةِ .

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ في حُلَّةٍ يقْطر رأْسُهُ ، فَقَالُوا إِنَّ هَذَا قَرِيبُ عَهْدٍ بريْفٍ ، وما جاءَكُمْ هَذَا إِلا مِنْ قَرِيْبٍ ، فلمَّا انتهَى اليهِمْ ، قالَ يا هَؤُلاءِ علامَ أَنْتُمْ ، قالُوا على مَا تَرَى ، قال أَرأَيْتُم إِنْ هَدَيْتُكم على ماءٍ رُوَاءٍ ورِيَاضٍ خُضْرٍ ما تَجْعَلُونَ لِي ؟ .

قَالوا لا نَعْصِيْكَ شَيْئاً ، قالَ عُهُودَكُمْ ، وَمَواثِيْقَكُمْ باللهِ ، قـالَ فَأَعْطَوهُ عُهْودَهُمْ ، ومواثِيْقَهُمْ باللهِ لا يَعْصُونَهُ شيئاً قَالَ فَأَوْرَدهُم مَاءً وَرِيَاضاً خُضْراً قالَ فَمَكَثَ ما شَاءَ اللهُ .

ثم قالَ يَا هَؤُلاءِ الرَّحِيْلَ ، قالوا إلى أَيْنَ، قَالَ إلى ماءٍ لَيْسَ كَمَائِكُم ورياضٍ لَيْسَتْ كَرِياضِكُمْ ، قالَ فقالَ جُلُّ القومِ ، وهُمْ أَكْثَرُهُمْ واللهِ ما وَجَدْنَا هَذَا حتى ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَجِدَهُ ، وما نَصْنَعُ بِعَيْشٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْ هذا ؟ .

قال وقالَتْ طائفةٌ وَهُمْ أَقَلُّهُمْ ، أَلَمْ تُعطُوا هَذَا الرَّجُلَ عُهُودَكُمْ ، وَمَواثِيْقَكم باللهِ ، لا تَعْصُونَهُ شيئاً ، وَقَدْ صَدَقَكُم في أَوَّلِ حَدِيْثِهِ ، فَوَاللهِ

لَيَصْدُقَنَّكُمْ في آخِرِه ، فَرَاحَ بِمَن اتَّبَعَهُ ، وتخَلَّفَ بَقِيَّتُهُمْ ، فَبَادَرَهُمْ عَدُوُهُمْ ، فَأَصْبَحُوا بيْنَ أَسِيْرٍ وَقَتِيْلٍ .

شــعراً :

إذَا عَـاجَـلَ الـدُّنْيَـا أَلَـمَّ بِـمَفْـرَحٍ
فَـمِنْ خَـلفِـهُ فَـجْـعٌ سَـيْـتـلُوهُ آجِـلُ
وَكَـانتْ حَيـاةُ الحَيِّ سَـوْقـاً إلى الـرَّدىٰ
وَأَيَّـامُـهُ دُوْنَ الـمَـمَـاتِ مَـرَاحِـلُ
ومـا لُبْث مَنْ يَغْدُو وفي كُـلِّ لَحْـظَةٍ
لَـهُ أجـلٌ فـي مُـدَّةِ العُـمْـرِ قَـاتِـلُ
وَلِـلْـمَـرْءِ يـومٌ لا مَـحَـالَـة مَـا لَـهُ
غَـدٌ وَسْطَ عَـامٍ مـالَـهُ الـدَّهْـرَ قَـابِـلُ
كَـفَـانـا اعْـتـرافـاً بِـالـفَـنَـاءِ وَرُقْـبَـةً
لِـمَـكْـروهِـهِ أَنْ لَـيْـسَ لِـلْـخُـلْـدِ آمِـلُ

اللهم ثَبِّتْ محبَتَك في قُلوبِنا وَثَبِّتْ إيْمَانَنَا وَنَوِّرْ بَصَائِرَنَا واهدنا سُبُلَ السَّلاَمِ وَجنِّبْنَا الفواحِشَ ما ظهرَ مِنْهَا وما بَطَنَ وأَلْهِمْنَا ذِكْرك وشُكْرَكَ واعمُرْ أَوقَاتَنَا بِتِلاَوَةِ كِتابِكَ وأرْزُقْنَا التَدبُر له والعَمَل به في الدقِيْقِ والجليل واغفْرِ لَنَا وَلِوَالدَيْنَا وجميعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

المثالُ الخامِسُ لِلدُّنْيا وَأَهْلِهَا ، مَا مَثَّلَها بِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ كَظِلِ شَجَرَةٍ ، والمَرْءُ مُسَافِرٌ فِيها إلى اللهِ ، فاسْتَظَلَّ في ظِلِ تلكَ

الشجرةِ في يومٍ صَائِفٍ ، ثم راحَ وَتركَهَا .

فَتَأَمَّلْ حُسْنَ هذا المِثَال ، ومُطَابَقَتَهُ لِلْوَاقِعِ سَوَاءً ، فإنَّها في خُضْرَتِهَا كَشَجَرَةٍ ، وفي سُرْعَةِ انقضائِهَا وَقَبْضِهَا شيئاً فَشَيْئاً كالظِّلِّ والعَبْدُ مُسَافرٌ إلى رَبِّهِ ، والمُسَافِرُ إذَا رَأَى شَجَرَةً في يومٍ صَائِفٍ لا يَحْسُنُ به أَنْ يَبْنِيَ تَحْتَهَا داراً ، ولا يَتَّخِذَهَا قَراراً ، بَلْ يَسْتَظِلُّ بها بِقَدْرِ الحاجةِ ، وَمَتَى زَادَ على ذَلِكَ انْقَطَعَ عن الرِّفَاقِ .

المثالُ السادِسُ تَمْثِيْلُهُ لها صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ بِمُدْخِلِ أَصْبُعِهِ في اليَمِّ ، فالذيْ يَرْجِعُ بِهِ أَصْبُعُه مِن البَحْرِ هُوَ مَثَلُ الدُّنيا بالنِّسْبَةِ إلى الآخِرَةِ .

المِثالُ السابِعُ ما مَثَّلَهَا بِهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَمَ في الحديثِ المتفَقِ على صِحَّتِهِ من حَدِيثِ أبي سَعِيْدِ الخُدْرِي رَضِيَ اللهُ عنْهُ ، قالَ إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَمَ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ ، عَلَى المِنْبَرِ وَجَلسْنَا حَوْلَهُ ، فقالَ إنَّ مِمَا أَخَافُ عليكُم مِن بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عليكُمْ مِن زَهْرَةِ الدُّنْيَا ، وزِيْنَتِها فقالَ رجلٌ يا رسولَ اللهِ : أَوَ يَأْتِي الخَيْر بالشَّرِ ، فَصَمَتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ .

ثُمَّ قالَ كَيْفَ قُلْتَ ؟ قَالَ يا رَسُولَ اللهِ أَوَ يَأْتِي الخيرُ بالشَّرِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إنَّ الخَيْرَ لَا يَأْتِي إلا بِالخَيْرِ ، وإنَّ مِمَا يُنْبِتُ الرَّبِيْعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطاً أَوْ يُلِمُّ ، إلّا آكِلَةَ الخَضِرِ ، أَكَلَتْ حتى اذا امْتَلأتْ خَاصِرَتَاهَا ، اسْتَقبَلت الشَّمْسَ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ، ثم اجْتَرَّتْ فعادَتْ فَأَكَلَتْ .

فَمَنْ أَخَذَ مالاً بِحَقِّهِ بُورِكَ له فِيْهِ ، ومَنْ أَخذَ مالاً بغير حَقٍّ ، فَمَثَلُهُ كَمَثِلِ الذي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ ، فَأَخْبَرَ صلى اللهُ عليه وسلم أنَّ مما يَخَافُ عليهِمْ الدُّنْيَا ، وَسَمَّاهَا زَهْرَةً ، فَشَبَّهَهَا بالزَّهرِ ، في طِيْبِ رائِحَتِهِ وَحُسْنِ مَنْظَرِهِ ، وقِلَّةِ بَقَائِهِ .

فهذهِ الفِقْرَةُ اليَسِيْرةُ ، مِن جَوامِعِ كَلِمة صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ، حَوَتْ على إيْجَازِها بَشارةَ الصَحابَةِ الكرامِ بِمَا سَيكونُ عَلى أَيْدِيْهِمْ ، مِن فَتْح البِلادِ ، وإخْضَاعِ العِبادِ ، وَجَلْبِ الأَمْـوالِ الطائِلَةِ ، والغَنَـائِمِ الكَثيرةِ ، وَتَحْذِيْرِهِم مِنَ الغُرُورِ ، والرُّكُون إلى هذهِ الاشياءِ الفانيَةِ ، والأَعْرَاضِ الزَّائِلَةِ .

وَضَرَب صلَّى اللهُ عليه وسلمَ مَثَلَيْنِ حكِيْمَينِ أَحدَهُمَا مَثَلُ المَفرِّط في جَمْعِ الدنيا ، والآخرَ مَثلُ المَقْتَصِدِ فِيْهَا ، أَمَّا الأوَّلُ ، فَمَثلُه مَثلُ الرَّبِيْعِ وذَلِكَ قولُه فإنَّ مِمَا يُنْبتُ الرَّبِيْعُ ما يَقْتُلُ حَبطـاً أو يُلِمَّ ، بأَنْ يُقارِبَ الهَلاَكَ .

فهذا المطرُ ماءٌ ينزلِهُ لإغاثَةِ الخَلْقِ وإرْواءِ كلِّ ذي رُوحٍ فرَغْمَ فَوائِدِهِ الكثيرةِ وَمَنَافِعِهِ الغزيْرةِ وما يَتَسبَّبُ عن ذلك مِنْ إِنْبَاتِ العُشْبِ والكَلاَءِ ، يَأْكُل منهُ الحيوانُ فَيُكْثِرُ فينتفـخُ بَطْنُـه ، فَيَهْلِكُ أو يقاربُ الهلاكَ ، وكذَلك الذي يُكْثِرُ من جَمْعِ المالِ ، ويكونُ عندَهُ مِن الجَشَعِ والشَّرَهِ ، والحِرْصِ ، ما يتجَاوزُ بِهِ الحَدَّ ، ولاسِيَّمَا اذا جَمَعَ المالَ مِن غَيْرِ حِلّه ، وَمَنَع ذا الحَقِ حَقَّهُ ، فإنْ لم يَقْتُلْهُ قارَبَ أَنْ يَقْتُلَه .

وَلِذَلِكَ كَثِيْرٌ منْ أَهْلِ الأَمْوالِ قَتَلَتْهُم أَموالُهم فانَّهم شَرِهُوا في

جَمْعِهَا ، واحْتَاجَ إليهَا غيرُهم ، فلم يَصِلوا إلى ذَلِك إلا بِقَتْلِهم ، أو ما يُقارِبُ ذَلِكَ مِن إذْلَالِهم وَقَهْرِهم والضَّغْطِ عَليهم .

وأَمَّا المثالُ الثاني : وهُوَ مثالُ المُقْتَصِد في جَمْعِ الدُّنْيَا ، الطَّالِبِ لحِلِّهَا ، فقَدْ مَثَّلَ له صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ بقولِه « إلَّا آكِلَةِ الخُضَرِ » ، فكأنهُ قالَ ألا انظرُوا آكِلَة الخَضْراءِ ، واعتَبِرُوا بشأْنها « أَكَلتْ حتى إذَا امْتَدَتْ خاصِرتَاهَا » وَعَظُمَ جَنْبَاهَا ، أَقْلَعَتْ سَرِيعاً « اسْتَقْبَلت عينَ الشَّمْسِ » تَسْتَمْرِئُ بذلكَ ما أَكَلتْ وَتَجْتَرُّه « فَثَلَطَتْ » أَلقَتْ ما في بَطْنِها مِن أَذَى سَهْلاً رَقِيْقاً .

وفي قوله « اسْتَقْبَلَتْ عينَ الشَّمسِ فَثَلَطَتْ وبالَتْ » ثلاثُ فوائِدَ أحدُها أنَّها لَمَّا أَخَذَتْ حاجَتَها مِن المَرْعى تَرَكَتْهُ ، وَبَرَكَتْ مُسْتَقْبِلةً عينَ الشَّمْسِ ، تَسْتَمْرِيءُ ،الفائدةُ الثانيةُ أَنَّهَا أَعْرَضَتْ عَمَّا يَضُرُّها مِن الشَّرَهِ في المَرْعَى ، وأَقْبَلَتْ على مَا يَنْفَعُهَا ، مِن استقبالِ الشَّمْسِ التي يَحْصُل لها بِحَرارَتِهَا انْضَاجُ ما أَكَلَتْهُ وإخراجُهُ .

الثالثةُ : أَنَّها استَفْرغَتْ بالبَوْلِ والثَّلْطِ ما جَمَعَتْهُ مِن المَرْعَى في بَطْنِهَا ، فاسْتَرَاحَتْ بإخْرَاجِه ولو بَقِيَ فِيها لَقَتَلَها ، هَكذا جامعُ المالِ مَصلحتُه أَنْ يَفْعَلَ بِهِ كَمَا فعَلَتْ هَذِهِ الشَّاة فَتَنَبَّهْ لِذَلِكَ أَيُّها المُغَفَّلُ الجَمُوْعُ المَنُوْع .

وإيَّـاكَ والـدُّنْـيَـا الـدَّنِيَّـةَ إِنَّـهَـا
هِيَ السِّحْـرُ في تَـخْيِيْلِهِ وافْتِـرَائِـهِ
مَـتَـاعُ غُـرُوْرٍ لَا يَـدُوْمُ سُـرورُهَـا
وَأَضْـغَـاثُ حُلْمٍ خَـادِعٍ بـهَـبَـائِـهِ

فَمَن أَكْرَمَتْ يوماً أَهَانَتْ لَـهُ غَداً
وَمَنْ أَضْحَكَتْ قَـدْ آذنَتْ بِبُكَـائِـهِ
وَمَن تُسْقِـهِ كَـأْسـاً مِن الشهْدِ غُـدْوَةً
تُجَـرِّعُـهُ كَـأسَ الـرَّدَى في مَسَـائِـهِ
وَمَن تَكْسُ تَـاجَ المُلْكِ تَنْزَعُـهُ عَاجِـلاً
بِأَيْـدِي المَنَـايَـا أَوْ بِـأَيْـدِي عِـدَائِـهِ
أَلاَ إنَّهـا لِلْمَــرْءِ مِـنْ أكبَـرِ الـعِـدَا
وَيَحْسَبُهَــا المَغْـرُوْرُ مِن أَصْـدِقَـائِـهِ
فَـلَذَّاتُـهـا مَـسْـمُـومَـةٌ وَوُعُـودُهـا
سَـرَابٌ فَمَا الـظَّامِي رَوَى مِن عَنَـائِـهِ
وَكَمْ في كِتَـابِ اللهِ مِنْ ذِكْـرِ ذَمِّهَـا
وَكَمْ ذَمَّهَـا الأخْيَـارُ مِن أَصْفِيَـائِـهِ
فَـدُوْنَـكَ آيـاتِ الكتـابِ تَجِـدْ بِهَـا
مِن العِلْمِ مَـا يَجْلُوا الصَّـدَا بِجَـلاَئِـهِ
وَمَن يَـكُ جَمْـعُ المـالِ مَبْلَغَ عِلْمِـهِ
فَمَـا قَـلْبُـهُ إلاَّ مَـرِيْـضـاً بِـدَائِـهِ
فَـدَعْهَـا فَـإِنَّ الـزُّهْـدَ فِيْهَـا مُحَتَّمٌ
وإنْ لَم يَقُـمْ جُـلُّ الـوَرَى بِـأَدَائِـهِ
وَمَن لَمْ يَـذَرْهَـا زَاهِـداً في حَيَـاتِـهِ
سَتَـزْهَـدُ فيـهِ النـاسُ بَعْـدَ فَنَـائِـهِ
فَتَتْـرُكُـهُ يَـومـاً صَـرِيْعـاً بِقَبْـرِهِ
رهِـيْـنـاً أَسِـيْـراً آيِـسـاً مِـن وَرَائِـهِ

وَيَنْسَاهُ أَهْلُوْهُ المُفَدَّى لَدَيْهِمُ
وَتَكْسُوهُ ثَوبَ الرُّخصِ بَعْدَ غلائِهِ

وَيَنْتَهِبُ الوُرَّاثُ أَمْوَالَهُ التي
على جَمْعِهَا قاسَى عَظِيمَ شَقَائِهِ

وَتُسْكِنُهُ بَعدَ الشَّواهِقِ حُفْرَةً
تَضِيقُ بِهِ بَعْدَ اتِّسَاعِ فَضَائِهِ

يُقِيمُ بهَا طولَ الزمانِ وَمَالَهُ
أنيسٌ سوى دُوْدٍ سَعَى في حَشَائِهِ

فَوَاهاً لَهَا مِن غُربةٍ ثم كُرْبَةٍ
ومِن تُربَةٍ تَحْوِي الفَتَى لِبَلائِهِ

وَمِن بَعدِ ذا يَومُ الحِسَابِ وِهَوْلُه
فَيُجزَى بِهِ الانسانُ أَوْ فى جَزائِهِ

وَلَا تَنْسَ ذِكرَ الموتِ فالموتُ غائبٌ
ولا بُدَّ يَوْماً لِلْفَتى مِن لِقَائِهِ

قَضَى اللهُ مَوْلانا عَلى الخَلْقِ بِالفَنَا
ولا بدَّ فِيهم مِن نُفُوذِ قَضَائِهِ

فَخُذْ أُهْبَةً لِلْمَوتِ مِن عَمَلِ التُّقَى
لِتَغْنَمَ وَقْتَ العُمْرِ قَبلَ انْقِضَائِهِ

وإيَّاكَ والآمالَ فالعُمْرُ يَنْقَضِي
وَأَسْبَابُهَا مَمْدُوْدَةٌ مِن وَرائِهِ

وَحَافِظْ على دُينِ الهُدَى فَلَعلَّهُ
يَكونُ خِتامَ العُمْرِ عندَ انتِهَائِهِ

فَـدَوْنَـك مِنّي فـاسْتَمعهـا نَصِيْحَـةً
تُضَـارِعُ لَـونَ التِّبْـرِ حَـالَ صَفَـائِـهِ
وصَلّي على طُـوْلِ الـزمـانِ مُسَلِّمَـاً
سَـلاماً يَفُـوقُ المِسْـكَ عَـرْفُ شَـذَائِـهِ
عَلى خـاتَمِ الرسْـلِ الكِـرَامِ مُحَمَّـدٍ
وأَصـحـابِـهِ والآلِ أهـلِ كِـسَـائِـهِ
واتْبَـاعِهِم في الدينِ مـا اهْتَزَّ بـالـرُّبَـا
رِيـاضٌ سَـقَـاهَـا طَـلُّهَـا بِـنَـدَائِـهِ

اللهمَّ اجْعَل قلوبَنا مَمْلوءَةً بِحُبِّكَ وألْسِنَتَنا رَطْبَةً بِذِكْرِكَ وَنُفُوسَنَا مُطِيْعَةً لِأَمْرِكَ وأرْزقنَا الزُّهْدَ في الدُّنْيَا والاقبالَ على الآخرةِ واغفرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ولِجَمِيعِ المسلمينَ برحمتِكَ يا أرحَمَ الراحمينَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وسَلم .

(فَصْــلٌ)

اعلمْ وَفَّقَنَا اللهُ وايَّاكَ وجميعَ المسْلِمِينَ لما يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ ، أن الأُلْفَةَ ثمرةُ حُسْنِ الخُلُقِ ، والتَّفرُّقَ ثمرةُ سوءِ الخلقِ ، فَحُسْنُ الخُلُقِ يوجِبُ التَّحَابَ ، والتَآلفَ والتوافُقَ ، وَسُوءُ الخلقِ يثمرُ التبـاغضَ ، والتحَاسُدَ ، والتَدَابُرَ .

ومهمَا كانَ المثمِرُ محموداً ،كانَتْ الثمرةُ محمودةً ،وحُسْنُ الخلقِ لا تخفَى في الدِّينِ فَضيلتُه ، وقالَ اللهُ تعالى لِنَبيه ﴿ وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيْمٍ ﴾ وقال صلى اللهُ عليه وَسَلم (أَكْثَرُ ما يُدْخِلُ الجنةَ تَقوىً ، وحُسْنَ الخُلُقِ) ، وقالَ أُسَامةُ بنُ شَرِيكٍ قلنَا يا رَسُولَ اللهِ ما خَيْرُ ما

أُعْطِيَ الإِنْسَانُ ؟ فقال : حُسْنُ الخلقِ) وقالَ صلى الله عليهِ وسلم (بُعِثْتُ لأُتَمِمَ مكارِمَ الأَخْلاَقِ) .

وقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (أثْقَلُ ما يُوضَعُ في المِيْزانِ خُلُقٌ حَسَنٌ) ، وقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلم (المُؤْمِنُ الِفٌ مَأْلوفٌ ، ولا خَيْرَ فِيْمَنْ لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ) ، ولأبِي عبدِ الرحْمَنَ السُّلَمِي في آدَابِ الصُّحْبَةِ مِنْ حديثِ عَليٍ : مِنْ سَعادَةِ المرْءِ أنْ يكونَ لَه إخْوان صالحين) .

وللإِخَاءِ أَربعُ خُصَالٍ : الأوْلَى العَقْلُ الموفُوْرُ الهَادِي إلى مَرَاشِدِ الأمُورِ بِإذْنِ اللهِ ، فَإنَّ الحُمْقَ لا تَثْبُتُ مَعَهُ مَوَدَةٌ ولا تَدُومُ معه صُحْبَةٌ ، لِعَدَمِ مُراعاتِهِ حُقُوقَ الإِخَاءِ .

والخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ الدِّيْنَ الوَاقِفُ بِصَاحِبِهِ عَلَى الخَيْراتِ ، فإنَّ تارِكَ الدِّيْن عَدوٌ لِنَفْسِهِ يُلقِيْهَا في المَهَالِكِ ، فَكَيْفَ يُرْجَى مِنْه نَفْعٌ وَمَوَدَّةٌ لِغَيْرِهِ .

وقالَ بعضُ الحُكَماءِ اصْطَحبْ مِنَ الاخوانِ صَاحِبَ الدِّيْن ، والحَسَبِ ، والرَّأْي والأدب ، فانه عَوْنٌ لَكَ عندَ حاجَتِكَ ، لأنَّ دِيْنَه يُحتِّمُ عليه ذلك ، لأنه مِنْ مُقْتَضَيَاتِهِ وَيَدٌ عندَ نائِبَتِك ، وذلِكَ مِن مُوْجِبَاتِ رَأْيهِ ، وَحَسَبِهِ ، وأُنسٌ عندَ وَحْشَتِك لأدَبِهِ .

وَمِنْ كلامِ بَعْضِ العارِفين : الأَخُ الصَّالحُ خيرٌ مِن نَفْسِكَ ، لأن النفسَ أمَّارةٌ بالسُّوءِ ، والأخُ الصالحُ لا يَأمُرُ إلا بالخيرِ .

الثالثةُ : أن يكونَ مَحْمُودَ الأخلاقِ ، مَرْضِيَّ الأفعالِ ، مُؤْثراً

لِلْخَيْرِ ، آمراً به لِخَلِيْلِهِ ، كارهاً لِلشَّرِّ دِيَانَةً ، وَخُلُقاً ، ناهياً عن الشر مُرُوْءَةً وَحَسَباً ، فإِنَّ مَوَدَّةَ الشرّيْرِ تَكْسِبُ الأعداءَ ، وَتُفْسِدُ الأخْلاقَ ، ولا خيرَ في مَوَدَّةٍ تَجْلِبُ عَداوةً ، وَتُوْرِثُ مَذَمَّةً وَمَلامةً .

وقد ضَرَبَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مَثَلَين لِلْجَلِيْسِ الصَّالحِ ، والجَلِيْسِ السُّوءِ ، فعنْ أبي مُوسى الاشعَري رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ (مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ ، والْجَلِيسِ السُّوءِ ، كَحَامِلِ المِسْكِ ، وَنَافِخِ الكِيْرِ ، فَحَامِـلُ المِسْكِ إِمَّـا أَنْ يَحْذِيكَ ، وامَّا أَنْ تَبْتَاعَ منهُ ، وإِمَا أَنْ تَجِدَ منه ريحاً طيبةً ، ونافخُ الكيرِ إما أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ ، وإما أن تَجِدَ منه رِيْحَةً خَبِيْثَةً) ، متفقٌ عليه .

هذا الحديثُ يُفِيْدُ انَّ الجَلِيْسَ الصَّالِحَ جميعُ أَحْوالِ صَدِيْقِهِ مَعَهُ خَيرٌ وَبركَةٌ وَنَفعٌ وَمَغْنَمٌ مِثْلُ حَامِلِ المِسْكِ الذي تَنْتَفِعُ بما معه منْه ، إِمَّا بِهِبَةٍ ، أو بِبَيْعٍ أو أَقَلُّ شَيْءٍ مُدَّةَ الجُلوسِ مَعَهُ ، وأنتَ قريرُ النَفسِ ، مُنْشَرِحِ الصَّدرِ ، بِرَائِحَةِ المِسْكِ .

وهذا تقريبٌ ، وَتَشْبِيْهٌ لَهُ بِذَلِكَ وإلا فَمَا يَحْصُل مِنَ الخيرِ الذي يُصيبُه العبدُ من جَلِيْسِهِ الصَّالِحِ أَبلغُ وَأَفْضَلُ من المِسْكِ الأَذْفرِ ، فانه إِمَّا أنْ يُعلِّمَكَ أموراً تَنْفَعُكَ في دِينكَ ، وإِمَّا أَنْ يُعَلِّمَكَ أُمُوراً تَنْفَعُكَ في دُنياكَ ، أو فِيْهما جَمِيْعاً، أو يُهْدِيْ لَكَ نَصِيْحَةً تنفعُكَ مُدّةَ حياتِكَ ، وَبَعْدَ وَفَاتِكَ أوِ يَنْهَاكَ عَمَّا فِيْهِ مَضرةٌ لكَ .

فَأَنْتَ مَعه دائماً في مَنْفَعةٍ ، وَرِبْحُكَ مَضْمُونٌ بإذنِ اللهِ ، فَتَجدهُ دائماً يَرى أَنَّكَ مُقصِّرٌ في طاعةِ اللهِ ، فَتَزْدَادُ هِمَّتُكَ في الطاعةِ ، وَتَجْتَهِدُ

في الزِّيَادَةِ منها ، وَتَراهُ يُبصِّرُكَ بِعيُوبِكَ ، وَيَدْعوكَ إلى مَكَارِمِ الأخلاقِ ، وَمَحَاسِنِها بقولِهِ وَفِعْلِه وَحَالِهِ .

فالإنسانُ مَجْبُولٌ على التقْلِيدِ ، والاقتداءِ بِصَاحِبِه ، وجَليسهِ ، والطباعُ والأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ ، يَقُودُ بعضُها إلى الخيرِ ، أَو إلى الشرِ ، وأقلُ نفعٍ يَحْصُلُ مِن الجَلِيسِ الصالحِ انكفافُ الإنسانِ بِسَببهِ عن السيئاتِ ، والمسَاوِي والمَعَاصِي ، رِعايَةً لِلصُّحْبَةِ ، وَمُنَافَسَةً في الخَيرِ وَتَرَفُعاً عن الشرِ .

وَمِنْ ما يُستفادُ مِن الجليسِ الصالح أَنَّه يَحْمِي عِرْضَك في مَغِيْبِكَ ، وفي حَضْرتِكَ ، يُدافِعُ وَيَذُبُ عنكَ ، ومِن ذلكَ أنكَ تَنْتَفِعُ بِدُعَائِهِ لَكَ حَياً أَوْ مَيّتاً .

وأمَّا مُصَاحَبَةُ الأَشرارِ فَهيَ السُّمُ الناقِعُ ، والبَلاَءُ الواقِعُ ، فَتَجدهُمْ يُشَجّعُونَ على فِعْلِ المعاصِي ، والمنكراتِ ، وَيَرْغبونَ فيهَا وَيَفْتَحُونَ لِمَنْ خَالَطَهُمْ ، وجالَسَهُمْ أَبْوابَ الشُرُوْرِ وَيُزَيِنُونَ لِمُجَالِسِيْهِمْ أنواعَ المَعَاصِي .

وَيَحُثُونَهم على أَذِيَّةِ الخَلْقِ ، وَيُذَكِّرُونَهُمْ بأُمُورِ الفَسَادِ ، الَّتِي لَمْ تَدرْ في خَلَدِهِمْ ، وإن هَمَّ بِتَوْبَةٍ وانْزِجَارٍ عن المَعَاصِي حَسَّنُوا عِندَهُ تأجيلَ ذلك ، وطوْلَ الأَمَلِ ، وأَنَّ ما أَنْتَ فيهِ أَهْونُ مِن غيرِهِ ، وفي إمكانِكَ التّوبةُ ، والإنابةُ إذا كَبُرْت في السِّنِ .

وما يُقلِّدُهُم بهِ وَيَكْسَبُه مِن طِباعِهِم أَكْثَرُ مِن مَا ذكَرْنَا ، وكم قادُوا أصحابَهم إلى المَهَالِكِ والله أعلمْ وصلى الله على محمدٍ وآله وسلم .

(فَصْــلٌ)

وَكَمْ حَثَّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ على أَهْلِ الدِّينِ فعن أَبِي هريرةَ رضي اللهُ عنهُ قَالَ قَالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ (الْمَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فلينظرْ المرءُ مَنْ يُخَالِلْ) قالَ العلماءُ معناهُ لا تُخَالِلْ إلا مَنْ رضيتَ دِينَه وأمانَتَه فإنكَ إذا خَالَلْتَه قَادَكَ إلى دِينِهِ ، وَمَذْهَبِهِ ، ولا تُغَرِّرْ بدِيْنِك ولا تُخَاطِرْ بِنَفْسِك ، فَتُخَالِلْ مَن لَيْسَ مَرْضياً في دِينِهِ ومذهَبِهِ .

وقالَ سِفيانُ بنُ عيينةَ ، وَوَقد روي في تَفسير هَذَا الحديثِ انْظُرُوا إلى فِرْعَونَ مَعَهُ هامَان وانظُروا إلى الحجاجِ مَعَهُ يزيدُ بنُ أبي مُسْلِم شَرٌّ مِنْه قُلْتُ وانظروا إلى يزيدِ بنِ معاويةَ معه مُسْلِمُ ابنُ عقبةَ المُرّي شرٌ منه انظروا إلى سليمان بنِ عبدِ الملكِ صحبَهُ رجاءُ بنُ حَيْوَةَ الكنْدِيُ أَحَدُ الأعلامِ الأَفاضِلِ ، فقَوَّمَهُ وسَدَّدَهُ .

وعن أَبي سعيدٍ الخدري عن النبي صَلَّى الله عليه وسلم قال « لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمناً ولا يَأكلِ طعَامَكَ إلا تَقِيٌّ » قَالَ العلماءُ مَعنى الحديثِ لا تَدْعُو إلى مُواكَلَتِكَ إلاَّ الأتقياءَ ، لأنَّ المُؤاكلةَ تَـدْعو إلى الأُلْفَةِ ، وتُوجِبُهَا ، وَتَجْمَعُ بينَ القلوبِ ، يقول النبي صلى الله عليهِ وسلمَ فَتَوَخَّ أنْ يكونَ خُلَطاؤُكَ وَذَوُو الاختصاصِ بك أَهْلُ التقوى .

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها قَالَتْ قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تَلْزَمُوا مَجالسَ العَشَائِرَ فإنَّها تُميتُ القلبَ ، ولا يُبَالي الرجلُ بما تَكَلم ، ناديهم ، وَتَفرقُوا في العَشَائِرِ فَإنهُ أَحْرَى أَنْ تُحْفَظُوا في المَقَالَةِ) .

قالَ العلماءُ قَدْ حَذَّرَ النبيُ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم مِن مُجالَسَةِ مَنْ لا يَسْتَفيدُ المَرْءُ بهِ فَضِيْلةً ، ولا يَكْتَسِبُ بِصُحْبَتِهِ عِلْماً وَأَدَباً .

وعن وَدِيْعَةَ الانْصَارِي قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بن الخطابِ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ وهو يَعِظُ رَجلاً لا تَتَكلمْ فيما لا يَعْنِيكَ ، واعتزلْ عَدُوَّكَ ، واحذرْ صَدِيْقَكَ ، إلا الأمينَ ولا أَمِيْنَ إلا مَنْ يَخْشَى اللهَ عَزَّ وجلَ ، ويطيعُه ، ولا تَمْشِ مَع الفَاجِرِ ، فَيُعَلِّمَكَ مِن فُجُورِهِ ، ولا تُطلعْه على سِرِّكَ ولا تُشاوِرْ في أمرِكَ إلا الذينَ يَخْشَونَ اللهَ سبحانَه .

وَوَعظَ بعضُهم ابنَهُ فقالَ له إِيَّاكَ واخوانَ السُوءِ ، فإِنَّهُمْ يَخُونونَ مَن رَافَقَهمْ ، وَيُفْسِدونَ مَن صَادَقَهم ، وَقُرْبُهم أَعْدَى مِن الجَرَبِ ، وَرَفْضُهم والبُعْدُ عَنْهُمْ مِن استكمالِ الأَدبِ والدِّين والمْرءُ يُعْرَفُ بِقَرِينهِ ، قالَ والإِخوانُ إِثنانِ فَمُحَافِظٌ عليكَ عندَ البَلاَءِ ، وَصَدِيْقٌ لكَ في الرَّخاءِ ، فاحفظ صديقَ البَلِيَّة ، وَتَجَنَّبْ صَدِيقَ العَافِيَةِ فانَّهمْ أَعْدَى الاعْدَاءِ وفي هَذَا المعنى يقولُ الشاعرُ :

« أَرَى النـاسَ إِخـوانَ الـرَّخـاءِ وإِنَّمـا
أَخُـوكَ الـذي آخَـاكَ عِنـدَ الشَّـدائِـد »

« وكـل خـليـلٍ بـالهـوْيـنـا مـلاطِفٌ
ولـكـنَّـمـا الإِخـوان عـنـد الـشـدائِـد »

آخـر : فما أَكْثَرَ الإِخوانَ حِيْنَ تَعدُّهُمْ
ولـكـنـهُـمْ فـي الـنـائِـبَـاتِ قـلـيـلُ

آخـر : فريـدٌ مِن الخـلانِ في كِلّ بلدةٍ
إِذا عـظَـمَ المـطلوبُ قَـلَّ المسـاعـدُ

وعن شريكِ بن عبدِ اللهِ كانَ يُقَالُ لا تسافرْ مع جَبَانٍ فانَّهُ يَفِرُ مِن أبِيهِ وأمِه ، ولا تُسَافرْ مَعَ أحْمَقَ ، فإنْهُ يخذلِك أَحْوَجَ ما تكونُ إليهِ ولا تُسَافِرْ مَعَ فاسِقٍ فإنَه يَبِيْعُكَ بِأكْلَةٍ وَشَرْبَةٍ .

وعن أَبي مُوسَى الاشْعَرِي قال قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ الله خلقَ آدمَ عليهِ السلامُ مِن قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِن جَمِيْعِ أَجْزَاءِ الأَرض فَجَاءَ بَنُوا آدمَ عَلى قَدْرِ الأَرْض ، مِنْهُمْ الأَحمرُ والأَسَودُ والأَبيضُ والسَّهْلَ والحَزَنُ .

قال العُلَماءُ في هَذَا الحديثِ بيانُ أَنَّ الناسَ أَصنافٌ ، وطَبقاتٌ ، وأنهمْ مُتَفَاوِتُونَ في الطِّبَاعِ ، والأَخلاقِ ، فمنهُمْ الخَيِّرُ الفاضلُ ، الذي يُنْتَفَع بِصُحْبَتِهِ ، وصداقَتِه ، وَمُجَاوَرَتِهِ ، ومُشَاوَرَتِهِ وَمُقَارَنتهِ وَمُشَارَكَتِهِ وَمُصَاهَرَتِهِ .

ومنهُمْ الرَّدِيءُ الناقصُ العقلِ الذي يُتَضَرَّرُ بقُرْبِهِ ، وعِشْرَتِهِ وَصَداقَتِهِ وَجَمِيْعُ الاتصالاتِ به ضررٌ وشرٌ ، ونكدٌ ، وأشبهُ ما لِهَذَا الدَّلْبُ المسمَّى الخُنَيْز ، وَبَعضُهم يُسَمِيْه شَبَّابَ النارِ ، فهذا النَّبْتُ يَمُصّ الماءَ عن الشَّجرِ والزَّرْعِ وَيُضَيّقُ عليهِ ، وَيَضُرُ مَن اتَّصَلَ بِهِ ، قال ابنُ القيمُ رحمهُ اللهُ في وَصْفِ المنحرِفينَ مُشَبِّهاً لَهُمْ بِهِ وهو شَبَهٌ مُطَابقٌ :

فَهُمُ لَدَى غَرْسِ الإلهِ كَمِثْلِ غَرْ
سِ الدَّلْبِ بَيْنَ مَغَارِسِ الرُّمانِ
يَمْتَصُّ مَاءَ الزَّرْعِ مَعْ تَضْيِيْقِهِ
أَبَدَاً عليهِ وليسَ ذَا قِنْوانِ

ومنها السِّباخُ الخَبِيْثَةُ التي يَضِيْعُ بُذُورُهَا ، وَيَبِيْدُ زرْعُهَا وما بين ذلكَ على حَسَبِ ما يُشَاهَدُ منها وَيُوْجَدُ حساً .

وعن أَبِي هريرةَ رضِي اللهُ عنهُ قالَ قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَمَ الناسُ مَعَادنٌ قال الخَطابي عِلى هَذا الحديثِ ، وفي هذا القولِ أيضاً بيانُ أَنَّ اختلاف الناسِ غرائزُ فيهمْ ، كَمَا أن المعادِنَ ودائعُ مَرْكُوزةٌ في الأَرضِ فمنهَا الجوهَرُ النفيسُ ومنها الفِلْزُ الخَسِيْسُ .

وكذلكَ جواهِرُ الناسِ ، وطباعُهُمْ ، منهَا الزكيُّ الـرضيُّ ومنها الناقِصُ الدَّنِيءُ وإذا كانُوْا كذلِكَ ، وكانَ الأَمْرُ على العِيَانِ مِنْهم مُشْكِلاً واسْتِبْراءُ العَيْبِ فيهمْ مُتَعذِّراً فالحَزْمُ إذاً الامْسَاكُ عنهُمْ ، والتَّوقُفُ عَن مُدَاخَلَتِهِمْ إلى أن تَكْشِفَ المِحْنةُ عن أَسْرارِهْم وَبواطِنِ أَمْرِهِمْ فيكونُ عندَ ذَلِكَ إقدامٌ على خِبْرةٍ ، أو إحْجَامٌ عنْ بَصِيْرَة .

وَلَعَلَّكَ أسْعَدَكَ اللهُ إِذَا خَبَرْتَهم قَلَيْتَهُم ، وإذا عَرفَتَهم أَنكَرْتَهُمْ ، إلا مَن يَخُصُّهُم الثَّنْيَاءُ وَقَلِيْلٌ مَا هُمْ ، وَعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلمَ كَانَ جالساً ذاتَ يومٍ وَقُدَّامُه قومٌ يَصْنَعُونَ شيئاً كَرِهَهُ مِن كَلَامٍ وَلَغَطٍ ، فقيلَ يا رسولَ اللهِ أَلا تَنْهَاهُمْ ، فقالَ لو نَهَيْتُهم عن الحجُون ، لأَوشَكَ بَعْضُهُم أَنْ يَأْتِيَهُ ، وَلَيْسَتْ لَهُ حَاجَةٌ .

قال الخَطَّابِي على هَذا الحديثِ قد أَنْبَأَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بهذا القول أنَّ الشَّرَ طباعٌ في الناسِ ، وأَنَّ الخِلافَ عادةٌ لَهُم ، قُلْتُ ومِمَّا يَدُلُ على ذلكَ قِصَّةُ آدمَ وَحوَاءَ حِيْنَمَا نَهاهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن الأكلِ مِن الشجرةِ أَكَلَا مِنها .

فَبَعْضُ الناسِي نَهْيُهُ عن الشيءِ كَأَنَّه إغراءٌ لهُ فيهِ ، فَإِذَا نَهيْتَه عن شِدَةِ الإقبالِ على الدُّنيا والإقْلالِ مِن مَحَبَّتِهَا ، ازْدادَ وَفَطِنَ لِأَشْيَاءَ قَدْ نَسِيها قال بعضهم :

وإذَا زَجَرتَ النَّفْسَ عن شَغَفٍ بها
فكأنَّ زَجْرَ غَويّها إغْرَاؤُهَا

قال بَعْضُ الحُكَمَاءِ الشرُّ في طباعِ الناسِ ، وحُبِّ الخِلافِ لهم عادةٌ ، والجَورُ فيهم سُنّةٌ .

وَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ يُؤْذُونَ مَن لا يُؤْذِيهم ، وَيَظْلِمونَ مَنْ لا يَظْلِمُهُمْ ، وَيُخَالِفُونَ مَن يَنْصَحُهُم وَقَدِيْماً قِيْلَ :

والظُّلْمُ مِن شِيَمِ النُفُوسِ فإنْ تَجِدْ
ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

قيلَ لِرَجُلٍ أَمَا تَسْتَحِي تُؤْذِي جِيرانَك ، قَالَ فَمَنْ أُوْذِي ، أُوذِي مَنْ لا أَعْرِفُ ، نَعُوذُ باللهِ مِن هذهِ الحالِ هذا مَطْبُوعٌ على الشَرِّ والأَذِيَّةِ .

إذا فَهِمْتَ ذَلِكَ فاعْلَمْ أَنَّ الإخَاءَ فِيْمَا مَضَى غالباً بينَ الأَخَوَيْنِ كانَ أَحَدُهُمْ يَعْتَمِدُ على اللهِ ثُمَّ عَلَى أَخِيْهِ ، وَيَطْمَئِنُ إليهِ ، في مَهَامِّهِ كُلَّ الإطْمِئْنَانِ ، كَان أَحدُهُم يُؤآخِي أخاهُ على الصَّفَاءِ بيْنَهُم والحَنَانِ ، كأَنَّ الأخَ نَفْسُ أخيهِ ، وربَّمَا زادَ عنه ، في القيامِ بِشُؤُنِهِ مرَّاتٍ ، كان الأَخُ لا يُؤآخِي إلَّا إذا أَحبَّ لِأَخِيهِ ما يحبُ لنفسِهِ .

وكانَ أَحَدُهُمْ يدخلُ بَيْتَ أخيهِ بِحَضْرَتِهِ وَيَأْخُذُ مِن خِزَانَته ما يُرِيْدُ

كانَ أحدُهم إذا سأَلَ أَخَاهُ ما هُو محتاجٌ إليه أَنِبَ نَفْسَه إِذْ أَهْمَلَهُ حتى أَفْصَحَ هو عَنْ حاجَاتِه ، كانَ بعضُهم يُلاَحِظُ بعضاً فإذا رَأى فُرْجَةً سَدَّها وَوَجْهُ أَخِيْهِ غَيْرُ مَبْذُولٍ .

كانَتِ الصُّحْبَةَ أَوَّلاً صَافِيَةً وكانَ الحُبُ لِلهِ مَا فيهِ شائبةٌ ، أو طَمَعٌ مِنِ الأطماعِ ، وَحَيْثُ أنَّ الصاحبَ هُوَ العَضُدَ الأَقْوى ، والساعد الأَيْمَن لِلْمَرْءِ في حَيَاتِهِ وما يَنْتَابُهُ في مُلِمَّاتِهِ فَعَلى العَاقِلِ أن يَخْتَارَ أَصحابَهُ وَيَنْتَقِيَ جُلَسَاءَهْ وَيَنْتَخِبَهُمْ مِن ذَوِي السِيْرةِ المَحْمُوْدَةِ والعقلِ الراجِحِ ، والرَّأْيِ السَّدِيدِ ، والدِّين المتين ، ولْيَحْذَرْ مِنْ مؤآخاةِ مَن لا يَصْلَحُ للأخوةِ ، ولا يُرَاعِي حقَّ الوِدَادِ وآدابِ المُجَالَسَةِ والمُحَادَثَةِ .

وأَوْصَى بَعْضُهُم ابنَهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ فقالَ يا بُنيَ إذا أَرَدتَ صُحْبَةَ انسانٍ فاصْحَبْ مَن إذا خَدَمْتَه صَانَكَ ، وإن صَحِبْتَهُ زَانَكَ ، اصحبْ مَنْ اذا مدَدْتَ يَدَكَ للخيرِ مَدَّهَا ، وان رَأى منكَ حَسَنَةً عَدَّهَا ، وان رَأى منك سَيِّئةً سَدَّهَا .

اصْحَب مَن إذا حَاوَلْتَ أَمْراً أعانَك ، وَنَصرَكَ ، وان تَنَازَعْتُمَا في شيءٍ آثَرَكَ ، فإن يَسَّرَ اللهُ لكَ بصاحبٍ مِن هَذَا الطِّرازِ فاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِه ، قال الامامُ الشافعيُ رحمهُ اللهُ لولا القيامُ بالأسحارِ ، وصُحْبَةُ الأخيارِ ، ما أَخْتَرتُ البَقاءَ في هذِهِ الدارِ ، وقال بعضُ الأُدَباءِ أَفْضَلُ الذَّخائِرِ أَخٌ صاحبُ وفاءٍ وقال بعضُ الشعراء :

(هُمُومُ رِجَالٍ في أُمُوْرٍ كَثِيرَةٍ
وَهَمِي مِنَ الدُّنْيَا صَدِيْقٌ مُسَاعِدُ)

(نَكُــونُ كَــرُوْحٍ بَيْنَ جِسْمَيْـنِ قُسِّـمَتْ
فَجَسْمَـاهُمَـا جِسْمَـانِ والـرُوْحُ وَاحِـدُ)

ورُوِيَ عن النبيِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ عليكمْ باخوانِ الصِدْقِ فإنهم زِينةٌ في الرَّخاءِ وعِصْمةٌ في البَلاءِ .

فإذا عَزَمَ الانسانُ على اصْطِفَاءِ الاخوانِ سَبَرَ أَحْوالَهم قبلَ إخَائِهِمْ وكَشَفَ عن أَخْلاقِهم قَبْلَ اصطفائِهم قال بعضُهُمْ :

أبْــلِ الــرِّجَــالَ إذا أَرَدْتَ إخــاءَهُــمْ
وَتُــوَسَّــمَــنْ أُمُــورَهــم وَتَــفَــقَّــدِ
فــإذا ظَـفِــرْتَ بِــذِي الأَمَــانَــةِ والتّـقى
فَـبِـهِ الـيَـدَيـنِ قَــرِيْــرَ عَـيْـنٍ فـأَشْـدُدِ

ولا تَبْعَثُهُ الوَحدَةُ على الاقدامِ قبلَ الخِبْرَةِ ، ولا حُسْنُ الظنِ على الاغترارِ بالتَّصَنُعِ .

فان التَّملقَ الذي هُو القَولُ الحَسَنُ مَعَ خُبْثِ القَلْبِ ، مَصَائِدُ العُقولِ ، والنِّفَاقُ تَدْلِيْسُ الفِطَنِ ، والمَلْقُ والنِّفَاقُ سَجِيَتا المُتَصَنِّعِ ، وليسَ فِيْمَنْ يكونُ النِفاقُ والمَلْقُ سَجَاياهُ خيرٌ يُرْجَى ، ولاصلاحٌ يؤمَّلْ بَلِ الشَّرُ والأَذَى فيهِ ، فلْيَكُنْ اللَّبِيْبُ فَطِناً حاذِقاً ، صاحبَ فِراسَةٍ لا يُحْسِنُ الظنَّ بكُلِّ أحدٍ .

وقالتِ الحُكَمَاءُ إعْرِفْ الرجُلَ مِن فِعْلِهِ ، لا مِنْ كَلَامِهِ، وأعْرِفْ مَحَبَّتَهُ مِن عَيْنَيْهِ ، لا مِنْ لِسَانِهِ ، وَعَلَيكَ بِمَنْ حَالاَهُ في العُسْرِ ، واليُسْرِ واحِدةٌ أَيْ يُحبُّكَ كلَّ حِيْنٍ ، سَواءٌ كُنتَ غَنِياً أو فَقِيْراً أَمَّا إخوانُ الرخاءِ

فاترُكْهُمْ ، قالَ بعضهم :

ولا خَـيْـرَ فـي ودّ مْـرىءٍ مُـتَـلَوّنٍ
إذا الـرِّيْـحُ مَـالَتْ مَـالَ حَيْثُ تَمِيْـلُ
جَـوَادٌ إذ اسْتَغْنَيْتَ عن أَخْـذِ مَـالِـهِ
وعِنْـدَ احْتِمَـالِ الفَقْـرِ عنْـكَ بَخِيْـلُ
فَـمَـا أَكْثَـرَ الإخـوانِ حِيْـنَ تَـعـدُّهُـمْ
وَلَـكِـنَّـهـمْ فـي الـنَّـائِـبَـاتِ قَـلِيْـلُ

على أَنَّ الإنسانَ مَوْسُومٌ بِسِمَاتِ مَن قارَبَ ، وَمَنْسُوبٌ إليه أفاعِيلُ مَن صَاحَبَ ، قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم (المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ . وقَالوا ما مِنْ شيءٍ أَدَلُّ على شيءٍ مِنَ الصاحبِ على صَاحِبِهِ وقديماً قيل :

عَنِ المَـرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَـلْ عَنْ قَـرِيْنِـهِ
فَكُـلُّ قَـرِيْـنٍ بـالـمُـقَـارِنِ يَـقْـتَـدِي
آخر : إذا كُنْتَ في قَومٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ
ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فتَرْدَى مَعَ الـرَّدِي
آخـر : إذا قَـرَّبَ السُلطانُ أَخْيـارَ قَـوْمِـهِ
واعْـرَضَ عن أشـرارِهِمْ فَهُـوَ صـالِـحُ
وإنْ قَـرَّبُ الـسُـلطانُ أَشْـرَارَ قَـوْمِـهِ
واعْـرَضَ عن أَخْيَـارِهِم فَهُـوَ طَـالِـحُ
وكُـلُ امْـرىءٍ يُنْبِيْـكَ عَنْـهُ قَـرِيْـنُـهُ
وذلِـكَ أَمْـرٌ فـي الـبَـرِيَّـةِ وَاضِـحُ

والله أَعْلمُ وصلى اللهُ على محمد وآله وسَلم .

(فَصْــلُ)

والمُؤآخاةُ في النَّاسِ عَلى وَجْهَينِ أحدُهُمَا أُخُوَّةٌ مُكْتَسَبةٌ بالاتفاقِ الجارِي مَجْرَى الاضْطِرَارِ ، والثانيةُ مُكْتَسَبةٌ بالقَصْدِ والاختِيَارِ ، فأَمَّـا المُكْتَسَبَةُ بالاتّفَاقِ فَهِيَ أَوْكَدُ حَالاً ، لِأَنَّهَا تَنْعَقِدُ عَنْ أَسبابٍ مَوْجُودَةٍ في المُتَاخيينِ ، تَعُودُ المؤآخاةُ إلى تِلكَ الأَسْبابِ ، وهي مَوْجُودَةٌ فِطْرَةً .

فـالمؤآخـاةُ ضَرُوْرِيَّةٌ لا يُمْكِنُ دَفْعُهَا ، كَمَا لا يُمْكِنُ دفعُ الإِيلام ، والمُكْتَسَبَةُ بالقَصْدِ ، تُعقَدُ لها أَسْبابٌ اختياريَّةٌ ، تَنْقَادُ إليها ، وَتَعْتَمِدُ عَلِيها بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَضَعْفِهَا ، وربَّما تَكُون تكلُّفـاً وَخَدِيْعَـةً ، فَتَصِيرُ المؤآخاةُ معاداة ، وما كان جارياً بالطَّبْعِ فهو أَلْزَمُ ، مِمَّا هُوَ حَادِثٌ بالقَصْدِ .

وانَّمَا كانَ كذلكَ لِأَنَّ الائتلافَ بالتشاكُلِ ، والتَّوافُقِ ، والتَّشاكُلُ بالتَّجَانُسِ فإذا عُدِمَ التجانسُ مِن وَجْهٍ ، انْتَفى التشاكُلُ مِن وَجْهٍ وَمعَ انتفاءِ التشاكلِ يُعْدَمُ الائتلافُ فَثَبَتَ أَنَّ التَّجَانُسَ ، وإِنْ تَنَوَّعَ أَصْلُ الإِخاءِ وقاعِدَةُ الإِئتلافِ .

وقد رُوِيَ عن عَائِشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ « الأَرْواحُ جنودٌ مجندةٌ فَمَا تَعَارفَ منها ائْتَلَفَ وما تَناكَرَ مِنهَا اختَلَفَ » رواه البخاري ، فالظواهرُ التي تَبْدُو لَنَا وَنرَاها في الاجْتِمَاعاتِ العامَّةِ ، مَيْلُ كُلُّ امرىءٍ إلى مَنْ يُشَاكِلُهُ وَيُنَاسِبُهُ ، رُوْحاً وَخُلُقاً ، أَوْ دِيْناً ، وَأَدباً أَوْ مَبْدأً أو مَذْهَباً أَوْ حِرْفَةً وَعَملاً .

فَتَرَى المُجْتَمِعِيْنَ بَعْدَ مُدَّةٍ وَجِيْزَةٍ مِن بَدْءِ الاجتماعِ ، قَدْ انْقَسَمُوا جَمَاعاتٍ ، تَتَحَدَّثُ كل جماعةٍ في شُؤُونِها الخَاصَةِ ، وأُمُورِهَا المُشْتَرَكةِ ، وَتَتَغَيَّرُ نُفُوسُها إذا رَأَتْ دَخِيْلاً بَيْنَ جَمَاعَاتِهَا لا تَرْبِطُهُ بِهِمْ صِلَةٌ ، ولا تَجْمَعُهُم بِهِ جَامِعَةٌ ، وَعِنْدَمَا تَرْكَبُ في قطارٍ ، أو سيارةٍ أو سَفِيْنَةٍ أو في مجلسٍ مِن المجالسِ ، ترى نَفْسَك مُنْجَذِبةً إلى بَعْضِ الحاضِرِيْنَ مُشْمَئِزَةً ونافِرةً مِن الآخَرِيْن ، ورُبَّمَا أَنَّهُ لم يَكُنْ قَبْلَ ذلك اجْتِمَاعٌ ولا تَعارُفٌ ، ولا تَعَادٍ وتَخَاصُمٌ .

فالسِّرُ في هَذَا ما بَيَّنَهُ المصطَفى صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ بهذا الحديثِ فهُو يَقُولُ إنَّ أَرْوَاحَ العِبَادِ وَنُفُوسَهمُ جُنُودُ مُجْتَمِعَةٌ ، وجُيُوشٌ مُجَيَّشَةٌ فالتي بيْنَها تَعارفٌ وتَشَاكلٌ وتَوافُقٌ وَتَنَاسُبٌ ، يَأْلفُ بعضُها بعْضاً ، ويُسَرُّ باجتماعِهِ ، وَيَفْرَحُ لِلِقَائِهِ ، لاتِّفَاقٍ في المَبْدإِ وَتَقَارُبٍ في الرُّوْحِ .

رَوَى أبو يعلى في مُسندِهِ عن عَمْرَةَ بنتِ عبدِ الرحمنِ قالَتْ كانَتْ امرأةٌ بمكةَ مَزَّاحَةٌ ، فنزَلَتْ على امرأةٍ مِثْلِها في المدينةِ ، فَبلَغَ ذلك عائشةَ رضي اللهُ عنها فقالتْ صَدَقَ حِبِّي سَمِعْتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلم يقولُ الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تعارفَ منها ائتلفَ ، وما تناكَرَ منها اختلفَ .

فالأَخْيارُ الأَبرارُ الأَتْقِيَاءُ الأمْجَادُ الأَطهارُ ، إذا وُجِدُوا في مُجْتَمَع جَذَبُوا أَشبَاهَهَم ، أَوْ انْجَذَبُوا إِلَيْهِم ، وَسَرَى بَيْنَهُم تَيَارٌ مِن المحبةِ جَمَعَ قُلُوبَهم وَقَوَّى رَوَابِطَهَا وَثَبَّتَ صِلَتَهَا .

وكَذَلِكَ الأَشْرَارُ والفُجَّارُ والفَسَقَةُ والظَلَمَةُ ، إذا حَضَرُوْا بِنادٍ بادَرَ

إليهم الفَسَقَةُ ، والمُجْرِمُونَ ، والسُّفَّلُ ، واللؤَمَاءُ ، وَجَذبَهُمْ قُرنَاؤُهُم ، وَنَفَرُوْا مِمَنْ لاَ يَتخَلَّقُ بأَخلاقِهِمْ ، ولا يَسِيْرُ في رِكابِهم .

قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَمَ « لو أَنَّ مؤمناً دَخلَ إلى مَجْلِسٍ فيهِ مائةُ مُنَافِقٍ ، وَمُؤْمِنٌ وَاحِدٌ ، لَجَاءَ حَتَّى يَجْلِسَ إليه ، وَلَوْ أَنَّ مُنَافقاً دَخلَ إلى مجلسٍ فيه مَائةُ مُؤْمِنٍ ، ومنافِقٌ واحدٌ ، لَجَاء حتى يَجْلِسَ إليهِ .

وهذا يدلُّ على أَنَّ شِبْهَ الشيءِ مُنْجَذِبٌ اليه بالطَبْعِ ، وإن كانَ هُوَ لا يَشْعُرَ بهِ ، وكانَ مالكُ بنُ دينارٍ يقولُ « لا يَتَّفقُ إثنانِ في عِشْرةٍ إلا وفي أَحَدِهِمَا وَصْفٌ عن الآخَرِ ، وانّ أَجناسَ الناسِ كأجناسِ الطيرِ ولا يتفقُ نوعانِ مِن الطيرِ في الطيرانِ إلا وبينهُمَا مُناسَبةٌ .

قال فَرَأَى يوماً غراباً مَعَ حَمَامةٍ فَعجِبَ مِنْ ذَلِكَ فقالَ اتَّفَقَا وَلَيْسَا مِن شَكْلٍ واحِدٍ ، ثُمَّ طَارَا فإذا هُمَا أَعْرَجانِ فَقَالَ مِنْ هَاهُنا اتَّفَقَا ، وقَالَ بَعضُ الحكماءِ كلُّ انسانٍ إلى شَكْلِهِ كَمَا أَنَّ كُلَّ طَيرٍ يَطِيْرُ مَعَ جِنْسِهِ قال بعضهم :

(لِكلِّ امرىءٍ شَكْلٌ يَقَرُ بِعَينِهِ
وقرةُ عينِ الفَسْلِ أنْ يَصْحَبَ الفَسْلاَ)

ويقول الآخر :

فَلاَ تَحْتَقِر نَفْسِي وَأَنتَ خَلِيْلُهَا
فكلُّ امرىءٍ يَصْبُو إلى مَنْ يُشَاكِلُ

آخر :

وقُـلْتُ أَخِـي قَـالُـوا أَخٌ مِـن قَـرَابَـةٍ
فَـقُـلْتُ لـهُـمْ إِنَّ الـشُّـكُـولَ أَقَـارِبُ

نَـسِـيْبِـيَ فـي رَأْيٍ وعَـزْمِـي وَهِـمَّـتِـي
وإنْ فَـرقَتْنَـا في الأُصُـوْلِ المَنَـاسِبُ

واذا عَرَفْتَ رِجَالاً بالبِرِّ والتُقَى والاسْتقامة ونَفَرَتْ منْهُم نَفْسُكَ ونَبَا عنهم قلبُك ، فاعْلَمْ أنكَ مَرِيضٌ ، إمَّا مَرَضُ شُبْهَةٍ وإلا مَرَضُ شَهْوةٍ ، وأنَّك نَاقِصٌ مَعِيبٌ ، دُوْنَهُمْ في الطهَارةِ ، فَدَاوِ نفسَك مِن عُيوبِها ، وَطَهِّرْهَا مِن أَوْزَارِهَا حَتَّى تَتَقَارَبَ الأَرْوَاحُ وَتَتَشَاكلَ النُفوسُ ، فَتَحُلَّ الإلْفَةُ مَحَلَّ النُّفْرَةِ .

وإذا رَأَيْتَ نَفْسَكَ تَمِيْلُ إلى مَنْ تَعْرِفُهُمْ بالشَّر والفُجُورِ ، والفِسْق والخَلاَعَةِ والعُهْرِ فإتْهِمْ نَفْسَكَ واسْتَدْرِكْ عُمرَكَ ، قَبْلَ الفَوْتِ ، وابْتَعِدْ عنهم كُلَّ البُعْدِ ، وتُبْ إلى اللهِ واسأَلْهُ أَنْ يُعافِيَكَ ، مِمَّا ابْتَلاهُمْ .

وإذا رَأَيْتَ نَفْسَكَ تُحَدِّثُكَ بأَنَّكَ البَرُ الأَمِيْنُ التَّقِيُّ المُخْلَصُ أو الإنسانُ المُهَذَّبُ ، فَكَذِّبْ نَفْسَكَ في هذا الإعْجَابِ ، وفي هذا الوَهْم الكاذِبِ ، وأعْتَقِدْ أَنكَ غِرٌّ مَخْدُوعٌ ، وأَبْلَهٌ مَفْتُونٌ ، فَفَتِشْ في زَوَايَا قَلْبِكَ ، تَجدْ لِلْبَاطِلِ رُكْناً ، وَلِلْشَّيْطانِ حَظاً ، وَلِلْفَسَادِ جَوّاً وهذَا مَا جَذَبَ قَلْبَكَ إلى الأشْرَارِ .

واذا رَأَيْتَكَ تَمِيْلُ إلى الأخيارِ ، وَتُحِبُ مَجَالِسَهُمْ ، وَتَنْجَذِبُ نَفْسُكَ إلَيْهِمْ ، مَعَ عِلْمِكَ بِسُوْءِ سِيْرَتِكَ واعْوجَاجِ طَرِيْقَتِكَ ، فاعْلَمْ أَنَّ فِيْكَ

بَقِيَّةَ خَيْرٍ ، ولا يَزَالُ فِيْكَ أملٌ فَرَبِّ هذهِ البَقِيَّةَ وَقَوِّ هَذَا الأَمَلَ ، حتى يَرْحَلَ عنكَ الشَّرُ ، وَتَدْخُلَ في حِزْبِ الخيرِ .

وكذلكَ إِذا رَأَيتَ في نَفْسِكَ بَعْضَ المَيْلِ للمُجـرِمِيْنَ ، وَأَنْتَ طَاهِرٌ تَقِيٌّ نَقِيٌّ ، فاعْرِفْ أَنَّ الشَّيطانَ قَدْ نَفَثَ فِيْكَ نَفْثَةً ، وثَغَرَ في قَلْبِكَ ثَغْرَةً ، فَتَدَارَكْ أَمْرَكَ وتَحصَّن منه واسْتَعِذْ باللهِ قال اللهُ تعالى لِنبيهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ﴿ وإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَان نَزْغٌ فاستعِذْ باللهِ ﴾ الآية ، وقالَ ﴿ قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ﴾ الى آخرِ السورةِ أهـ من الادَبِ النبوي .

وعن أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ قَالَ : الصَّاحِبُ ، الْخَيِّرُ خَيْرٌ مِنَ الوَحدةِ والوَحْدَةُ خيرٌ من جَلِيس السُّوءِ وَمُمْلِي الخَيرَ خيرٌ مِن الساكِتِ والسَّاكِتُ خيرٌ مِن مُمْلِي الشَّرِ والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فَصْــلٌ)

قال بعضُ الحُكَمَاءِ عَداوةُ العاقل أَقلُّ ضَرراً مِن مَودَّةِ الأَحْمَقِ لأَنَّ الأَحْمَقِ رُبَّمَا ضَرَّ وهو يَقْدِرُ أَنْ يَنْفَعَ لِعَدَمِ تَمْيِيْزِهِ بَيْنَ النفعِ والضَّرِ فَيَتَجَاوَزُ الحدَّ ، والعَاقِلُ لا يَتَجاوَزُ الحَدَّ في مَضَرَّتِهِ فَمَضَرَّتُهُ لَها حَدٌّ يَقِفُ عليهِ العَقْلُ إذا انْتَهَى إلى ذلكَ الحدِّ .

وَمَضرةُ الجَاهِلِ لَيْسَتْ بِذَاتِ حَدٍّ والمَحْدُوْدُ أَقلُّ ضَرَراً مِمَّا هُوَ غيرُ مَحْدُوْدٍ قَالَ بعضهم :

ولأَنْ يُعَـادِيَ عَـاقِـلاً خَيـرٌ لَـهُ
مِـن أنْ يَـكُـونَ لَـهُ صَـدِيْـقٌ أَحْـمَـقُ

فـارْغَبْ بِنَفْسِـكَ أنْ تُصَـادِقَ جَـاهِـلاً
إنَّ الـصَّـدِيْقَ عـلى الصَّـدِيْـقِ مُصَـدَّقُ

وقال بعضُ الأُدَبَاءِ مَن أشارَ عليكَ بِمُصَاحبةِ جَاهِلٍ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَمْرَيْن إِمَّا أَنْ يكونَ صَدِيقاً جاهلاً ، مَا يَعْرفُ ولا يُمَيِّزُ بَيْنَ مَن يَصلحُ لِلصُحْبَةِ وَمَنْ لا يَصْلُحُ وإمَّا أنْ يكونَ هذا المُشِيرُ عليكَ عدواً لكنَّهُ عاقلٌ لأِنه يُشِيْرُ بما يَضُرّكَ وَيَحْتَالُ عليكَ بالأشياءِ الْتِي تَضُرَّكَ ، وقديماً قيل :

ولا تَصْحَبِ الحَمْقَى فَذَو الجَهْلِ إنْ يَرُمْ
صـلاحـاً لأمْـرٍ يَـا أخَـا الحَـزْمِ يُفْسِـدِ

ويقول الآخر :

فَـعَـدَاوَةٌ مِـنْ عـاقـلٍ مُـتَـجَـمّـلٍ
أَوْلـى وأَسْـلَمُ مِـن صَـدَاقَـةِ أَحْـمَـق

وقال بعضُهمْ الأَصْدِقَاءُ ثلاثةٌ أَحدُهم كالغذَاءِ لا بُدَّ مِنْهُ ، والثاني كالدَّواءِ يُحتاجُ إليهِ في وَقْتٍ دُوْنَ وَقْتٍ . والثالثُ كالدّاءِ لا يُحْتَاجُ إليهِ قَطّ ، وقد قِيلَ مَثَلُ جُمْلَةِ الناسِ كَمَثَلِ الشَّجرِ والنَّباتِ فمِنْها مالَهُ ظلٌّ وَلَيْسَ له ثَمَرٌ وهو مِثْل الذي يُنْتَفعُ به في الدُّنيا دُوْنَ الآخِرَةِ ، فإِنَّ نَفْعَ الدنيا كالظلِ السَّرِيعِ الزَّوالِ وَمِنْهَا مَالَهُ ثَمرٌ وليْسَ له ظلٌّ .

وَمِنْهَا ما لَيْسَ له واحدُ منهُمَا كأُمِّ غَيْلان تُمزّقُ الثيابَ ولا طَعْمَ فيها ولا شَرَابِ ومثلهُ مِنَ الحَيوانِ الحيةُ والْعَقْربُ والفَأْرُ ومثلهُ في النَّباتِ الخُنَيْزُ فإنه يُضيّقُ على الزَّرْعِ وَيَضُر مَنْ لَمِسَهُ ولا يُؤكلُ ولا لَهُ ثَمرٌ يؤكلُ وَيَشْرَبُ ماءَ الزّرْعِ وَيُعَوِّقُ نُمو الزّرْعِ .

شعراً :

النـاسُ شَتَّى إذَا مَا أَنْتَ ذُقْتَهُـمُ
لَا يَسْتَوُوْنَ كَمَا لَا يَسْتَوِي الشَّجـرُ
هَـذَا لَـهُ ثَـمَـرٌ حُـلْوٌ مَـذَاقَتُـهُ
وذاكَ لَـيْسَ لَـهُ طَـعْـمٌ ولا ثَـمَـرُ

اذا فَهِمْتَ تفاوتَ النَّاسِ في العَقْلِ والدِّيْنِ فعليكَ قَبْلَ الصَّدَاقَةِ أَنْ تَفْحَصَ عَنْ مَنْ تُرِيْدُ صَدَاقَتَهُ وإخَاءَه فإِذَا حَصَلْتَ على مَنْ تَرْضَاهُ ديناً وَعَقْلاً وأَدَباً فألزَمْهُ ، كَمَا قِيل :

ابْـلُ الـرِّجَـال إذا أَرَدْتَ إخَـاءَهُـمْ
وَتَـوَسَّـمَـنْ أُمُـورَهَـمْ وَتَـفَـقَّـدِ
فَـإذَا ظَـفِـرْتَ بِـذِي الأَمَـانَـةِ والتُّـقَى
فَـبِـهِ الـيَـدَيْـنِ قَـرِيْـرَ عـيـنٍ فـاشْـدُدِ

مـوعظـة

عِبَادَ اللهِ لا شَيء أَغْلى عَليكُمْ مِن أَعمارِكُمْ وَأَنْتُم تُضَيِّعُونَهَا فيما لا فَائِدَةَ فيه . وَلَا عَدُوَّ أعدَى لَكُمْ مِنْ إبْلِيْسَ وَأَنْتُمْ تُطِيْعُونَهُ ، ولا أَضَرَّ عَليكُمْ مِن مُوافَقَةِ النَّفْسِ الامَّارَةِ بالسُّوءِ وأَنْتُم تُصَادِقُونَهَا ، لَقَدْ مَضَى مِن أعمارِكُمْ الاطَايِبُ ، فما بَقِيَ بعد شَيْبِ الذوائِب .

يا حاضِرَ الجسم والقلبُ غائبُ ، اجتماعُ العَيْبِ مَعَ الشَّيبِ مِن أعظَم المَصَائِب ، يَمْضِي زَمَنُ الصِّبَا في لَعِبٍ وسَهْوٍ وَغَفْلَةٍ ، يا لَهَا مِن مَصَائِب ، كَفَى زاجراً واعظاً تشيبُ منه الذَوائِب ، يا غافلاً فاتَه الأَرْبَاحُ

وَأَفْضَلُ المَنَاقِبِ ، أَيْنَ البُكاءُ والحَزَنُ والقلقُ لِخَوفِ العظيمِ الطالبِ أَيْنَ الزَّمَانُ الذي فَرَّطْتَ فيهِ ولَمْ تخشَ العَواقِبَ ، أَيْنَ البُكَاء دماً عَلى أَوقَات قُتِلَتْ عندَ التَّلَفِزْيُون والمِذياعِ والكُرَةِ والسِيْنَماءِ والفيديُوْ والخَمْرِ والدُّخَانِ والمَلاعِبْ .

كَمْ في يومِ الحَسْرةِ والنّدامَةِ مِن دَمْعٍ سَاكِبْ على ذُنُوبٍ قَد حَوَاها كِتَابُ الكَاتِبْ ، مَنْ لَكَ يَومَ يَنْكَشِفُ عَنْكَ غِطَاؤكَ في مَوقِفِ المُحَاسِبْ ، إذا قيلَ لَكَ مَا صَنَعْتَ في كُلِّ وَاجِبْ ، كَيْفَ تَرْجُو النجاةَ وأنتَ تَلْهُوْ بِأسِرِ المَلاَعِبْ ، لقد ضَيَّعتكَ الأمَاني بالظن الكاذِب ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الموتَ صَعْبٌ شَدِيْدُ المَشَارِبْ ، يُلْقِي شَرَّهُ بكأسٍ صُدُوْرِ الكَتائِبْ ، وأَنَّهُ لا مَفَرَّ مِنْهُ لِهَارِبْ فانظرْ لِنَفْسِكَ واتَّقِ اللهَ أَنْ تَبْقَى سَلِيْماً مِن النَّوائِبِ فقدْ بَنَيْتَ كَنَسجِ العنكبوتِ بَيْتاً أَيْنَ الذينَ عَلَوا فوقَ السُّفنِ والمراكبِ أينَ الذينَ عَلَوْ على مُتونِ النجائِبِ ، هَجَمت عليهِمْ المنايَا فأصبحوا تَحْتَ النصَائِبْ وأنتَ في أَثَرِهِمْ عن قريبٍ عَاطِب ، فانظرْ وَتَفَكَّرْ واعْتَبِرْ وَتَدَبَّرْ قبلَ هُجُومِ مَن لا يَمنعُ عنه حَرَسٌ ولا بابٌ ولا يَفوتُهُ هَرَبُ هارِب .

شـعراً :

وكيفَ قَـرَّتْ لِأَهْـلِ العِلم أَعْيُنُـهُمْ
أَوْ اسْتَلَذوْا لَـذيـذَ النَـومِ أَو هَجَعـوا
والمـوتُ يُنـذِرُهُمْ جَهْـراً عـلانيـةً
لَـوْ كانَ لِلقـومِ أَسْمَـاعٌ لَقَـد سَمِعُـوا

والنـــارُ ضـاحِيَــةٌ لا بُــدَّ مَــوْرِدُهُــمْ
وليسَ يَــدْرُونَ مَن يَنْجُــو وَمَنْ يَقَــعُ
قَـدْ أَمْسَتْ الـطيـرُ والأنعــامُ آمِنــةً
والنّـونُ في البَحرِ لا يُخْشَى لهَـا فَزَعُ
والآدَمِـيّ بـهــذَا الـكَسْـبِ مُـرْتَـهَـنٌ
لــه رَقـيـبٌ عــلى الأَسْــرارِ يَــطَّلِعُ
حَتَّى يُـرَى فِيـه يـومَ الجَمْـعِ مُنْفَـرِداً
وَخَصْمُــهُ الجِلْدُ والأَبْصَــارُ والسَّـمَــعُ
واذْ يَـقــومُــونَ والأشـهــادُ قــائِـمــةٌ
والجنُّ والإنسُ والأمـلاكُ قـد خَشعُـوا
وطـارتْ الصُّحُفُ في الأَيْـدِي مُنْشّـرَةً
فـيهــا الـسَّــرائـرُ والأخْـبَــارُ تُــطَّلَعُ
فـكيـفَ بــالنّـاسِ والأنبــاءُ واقِـعَـةٌ
عَمَّــا قَلِيلٍ وَمَــا تَـدْرِي بِمَــا تَقَــعُ
أَفِي الجِنَــانِ وَفَــوزٍ لا انقــطَاعَ لَــهُ
أمْ في الجَحِيمِ فــلا تُبْقِي ولا تَـدَعُ
تَهْـوِيْ بُسُكَّــانِهَــا طَــوْراً وَتَــرْفَعُهُــمْ
إذا رَجَـوْا مَخْرَجاً مِنْ غَمِّهَـا قُمِعُــوا
طَــالَ البُكــاءُ فَلَم يَنْفَــعْ تَضــرُّعُــهُم
هَـيْهَــاتَ لا رِقَــةٌ تُـغْنِـي ولاَ جَــزَعُ

اللهم ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُور الإيمانِ واجعلنا

هُدَاةً مُهْتَدِيْن وآتِنا في الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عذَابَ النارِ واغْفِرْ لَنَا ولوالدينا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

وقالَ ابنُ القَيّم أَصْلُ الخَيرِ والشَّرِ مِن قبلِ الفِكْرِ ، فَإِنَّ الفكرَ مَبْدأُ الإِرادَةِ والطَّلَبِ في الزُهْدِ ، والتّرْكِ ، والحُبِ والبُغضِ وَأَنْفَعُ الفِكْرِ في مَصَالِحِ المَعَادِ وفي طُرُقِ اجتلابهَا ، وفي دَفْعِ مَفَاسِدِ المعادِ وفي طُرُقِ اجْتِنَابِهَا ، فَهَذِهِ أربعةُ أفكارٍ ، هِي أَجَلُّ الأَفكارِ ، وَيَليها أربعةٌ ، فِكرٌ في مَصَالِحِ الدّنيا وَطُرُقِ تَحصيلِها وفكْرٌ في مَفَاسِدِ الدنيا وطرق الاحْتِرَازِ منها فَعَلى هذِهِ الأقسامِ الثَّمانيةِ دارت أفكارُ العُقلاءِ .

وَرَأْسُ القِسْمِ الأولِ ، الفِكْرُ في آلاءِ اللهِ وَنعَمِهِ وأَمْرِه وَنَهْيِهِ وَطُرُقِ العِلْمِ بِهِ ، وبأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ مِن كتَابِهِ وَسُنّةِ نَبيّهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم وَمَا وَالاَهُمَا ، وَهَذَا الفِكْرُ يُثْمِرُ لِصَاحِبِهِ المَحبَّةَ ، والمَعْرِفَةَ ، فإِذَا فَكَّرَ في الآخرةِ وَشَرَفِهَا ، وَدَوامِهَا وفي الدنيا وَخِسَّتِها وفَنائِها أثمرَ لَه ذلكَ الرَّغْبَةَ في الآخرةِ والزهْدَ في الدنيا .

وكلَّمَا فكَّرَ في قِصَرِ الأمَلِ . وضِيْقِ الوَقْتِ ، أَوْرَثَه ذلك الجِدَّ والاجْتِهَادَ ، وَبَذْلَ الوُسْع في اغتنَامِ الوَقْتِ .

وهذه الأفكارُ تَعْلِي هِمتَه ، وَتُحْيِيْهَا بَعْدَ موتِهَا وَسُفُولِهَا وَتَجْعَلَهُ في وادٍ والناسُ في وادٍ .

وبإِزَاءِ هذِه الأَفْكارِ الرَّدِيْئَةِ ، الّتِي تَجُولُ في قُلُوبِ أَكْثَرِ هذا

الخَلْقِ ، كالفِكْرِ فِيما يُكلّفُ الفِكْرُ فِيه ، ولا أُعْطِيَ الاحاطَةَ بهِ مِن فُضُولِ العِلْمِ الذي لا يَنْفَعُ ، كالفِكْرِ في كَيفيةِ ذاتِ اللهِ وصفاتِهِ مما لا سَبِيْلَ لِلْعُقولِ إلى إدْراكِهِ بِهِ .

ومنها الفِكرُ في الصِّناعاتِ الدّقِيْقَةِ التي لا تَنْفَعُ بل تَضُرُّ ، كالفِكْرِ في الشّطْرَنْجِ والمُوْسِيْقَى وَأَنواعِ الأشْكالِ ، والتَّصَاوِيْرِ .

ومِنْهَا الفِكْرُ في العُلُومِ التي لَوْ كَانَتْ صَحِيْحَةً لَمْ يُعْطِي الفِكْرُ فيهَا النَّفْسَ كَمالاً ولا شَرَفاً كالفِكْرِ في دَقَائِقِ المَنْطِق ، والعِلْم الرِّياضِي ، والطَّبِيْعِي ، وأكْثرِ علوم الفلاسِفَةِ التي لَو بَلغَ الانسانُ غايتَهَا لَمْ يَكْمُلْ بِذَلِكَ ، ولم يُزَكِّ نَفْسَهُ .

ومنها الفكر في الشَّهواتِ ، واللّذاتِ وطُرُقِ تَحصيلِهَا ، وهَذا وإنْ كانَ للنَّفْسِ فيهِ لذةٌ لكِنْ لا عاقِبَة له ومضَرَّتُه في عَاقِبةِ الدُّنيا قَبْلَ الآخِرَةِ أَضْعَافُ مَسَرَّتِهِ .

ومنها الفِكْرُ فِيْمَا لَمْ يكُنْ لو كانَ كَيْفَ كَانَ كالفِكْرِ فِيْمَا إذا صَارَ مَلِكاً أَوْ وَجدَ كَنزاً أو مَلَكَ ضَيْعَةً مَاذَا يَصْنَعُ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ ، وَيَأْخُذُ وَيُعْطِي وَيَنْتَقِمُ ونحوَ ذلكَ مِن أَفْكارِ السُّفَلِ .

ومنها الفِكْرُ في جُزْئياتِ أحوالِ الناسِ ، وَمَاجِرِيَّاتِهِمْ ، وَمَدَاخِلِهِمْ وَمَخارِجِهِمْ ، وَتَوابعِ ذَلِكَ مِن فكر النُّفُوسِ المُبْطِلَةِ الفَارِغَةِ ، مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ والدارِ الآخرةِ .

ومنها الفِكرُ في دَقائِقِ الحِيَلِ ، والمَكْرِ ، التّي يَتَوصَّلَ بِهَا إلى أَغْرَاضِهِ وَهَوَاهُ مُباحَةً كانَتْ أَو مُحَرَّمةً .

وَمِنْهَا الفكْرُ في أَنْواعِ الشِّعْرِ ، وصُروفِهِ وَأَفَانِيْنِه في المدْحِ والهِجَاءِ والغَزَلِ والمَراثِي وَنَحْوِهَا ، فإِنَّه يَشْغَلُ الإِنْسَانَ عن الفِكْرِ فِيْمَا فِيْهِ سَعَادَتُهُ وَحَيَاتهُ الدَّائِمَةُ .

ومنهَا الفكرُ في المُقَدَّرَاتِ الذِّهْنِيَةِ ، الْتِي لا وُجُودَ لَهَا في الخارِجِ ولا بالنّاسِ حاجةٌ إِليها البتَةَ ، وذلك موجودٌ في كُلّ علمٍ حَتَّى في عِلْمِ الفِقْهِ والأُصُولِ والطِّبِّ ، فكلُّ هذهِ الأفكارِ مَضَرَّتُها أَرْجَحُ مِن مَنْفَعَتِهَا وَيَكْفِي في مَضَرَّتِهَا شُغْلُها عن الفِكْرِ فيما هُوَ أَوْلَى بِهِ ، وأعودُ عَليهِ بالنفعِ عاجلاً وآجلاً أهـ .

شــعراً :

يَـا غافـلاً عنْ صُروفِ الـدَّهْـرِ في سِنَـةٍ
والـدَهْـرُ يُـوقِظُ بـالآيـاتِ والـعِـبَـرِ

كَـمْ ذَا تَنَـامُ وَعَـيْنُ الـدَّهْـرِ سَـاهِـرَةٌ
لَـهُ حَـوَادِثُ فـي الـغُـدْوَاتِ والـبُـكَـرِ

لا تَـأْمن الـدَّهْـرَ وأحـذَرْ مِن تَـقَلُّبِـهِ
فَشِيْمَـةُ الـدَّهْـرِ شَوْبُ الصَّفْـوِ بـالكَـدَرِ

وارغَبْ بِنَفْسِـكَ عَمَّـا سَـوفَ تُـدْرِكُـه
فِعْـلَ اللبِيْبِ أخِـي التَّـحْقِـيقِ والـنَّـظَرِ

مـاذَا يَـغـرُّكَ مِـن دارِ الـفَـنَـاءِ ومِـنْ
عُـمْـرٍ يَمُـرُّ كَمِثْـلِ اللَّمْـحِ بـالبَصَـرِ

فـامْهَـدْ لِنَفْسِـكَ فـالسـاعـاتُ فَـانيَـةٌ
والـعُـمْـرُ مُـنْتَقَصٌ والمَـوْتُ فـي الأَثَـرِ

اللهم أَعِذْنَا مِن الهَمّ والحَزَنِ والعَجْزِ والكَسلِ والجُبْنِ والبُخلِ وضِلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا ، ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمين وصَلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

اعلم وفقنَا اللهُ واياكَ وَجَميعَ المُسلمينَ أَنَّ الحُبَّ في اللَّهِ والبُغْضَ في الله ، أَصْلٌ عَظِيْمٌ مِن أُصُولِ الإِيْمَانِ يَجِبُ مُرَاعَاتُه ولهذا جَاءَ في الحَدِيثِ (أَوْثَقُ عُرَىٰ الإِيْمَان الحُبُّ في الله والبُغْضُ في الله) ، وأَكْثَرَ اللهُ مِن ذِكْرِهِ في القرآنِ قالَ الله تعالى ﴿ لَا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ المُؤْمِنِيْنَ ﴾ .

فالمعنَى أَنَّ لَكم أَيُّهَا المؤمِنُونَ في مُوَالاتِ المُؤْمِنينَ مَنْدُوْحَةً عن مُوالاتِ الكفَّارِ ، فَلا تُؤْثِر وهُمْ عليهِمْ ، وقولُهُ ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ في شَيءٍ ﴾ المعنى وَمَنْ يَتولَّاهُمْ فهو بَرِىءٌ مِن اللهِ واللهُ بَرِىءٌ منه كقولِهِ تَعَالى ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وقوله ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُم تُقَاةً ﴾ أي إِلا أَنْ تَخافُوا عَلَى أَنْفسِكُمْ في إبداءِ العدَاوةِ للكافِرينَ ، فَلَكم في هَذِهِ الحال الرُّخْصةُ في المُسَالَمَةِ والمهَادَنَةِ ، ولا في التَّولّي الذي هُوَ مَحبَّةُ القَلْبِ الذي تَتْبَعُهُ النُّصْرةُ ، بلْ يكونُ القلبُ مُطْمَئِناً بالعَدَاوةِ ، والبَغْضاءِ ، يَنتظرُ زَوَالَ المَانِعِ .

وقال اللهُ تَعَالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُوْنِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَا لأَودّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، هَا أَنْتُمْ أَوْلاءِ تُحِبّونَهُم وَلاَ يُحِبّونَكُمْ وَتُؤْمنونَ بالكتاب كله واذا لَقوكم قالُوا آمنا ، واذا خَلَوا عَضُوا عليكم الأنامِلَ مِن الغَيظِ قلْ مُوتوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيْمُ بِذاتِ الصَّدورِ ، إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وان تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌيَفْرَحُوا بِهَا ﴾ الآية .

ففي هذهِ الآياتِ تحذِيرٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ المؤمنينَ عَنْ وِلايةِ الكفَّارِ واتِّخاذِهِم بطانَةَ أَوْ خَصِيْصةً وأَصدِقاءَ ، يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ ، وَيُفْضُونَ لهم بأَسْرارِ المؤمنينَ ، فَوَضَّحَ لِعِبَادِهِ المؤمنينَ الأُمُورَ الْمُوْجِبَةَ لِلْبَراءَةِ مِنْ اتِخاذِهِمْ بطانةً ، أَوّلاً أَنَّهُم لا يُقَصِّرُونَ في مَضَرَّةِ المؤمنين ، وإِفْسادِ الأمرِ على المؤمنينَ مَا استطاعُوا إلى ذلك سبيلاً .

ثانياً : مَحَبَّتُهم ما شَقَّ على المؤمنينَ ، وَتَمَنِّيْهِمْ ضرَرَ المؤمنينَ في دُنْيَاهُمْ وَدِيْنِهِمْ .

ثالثاً : أَنَّهم يُبْدونَ العَدَاوةَ والبَغْضَـاءَ في كَلامِهِمْ وفي فَلَتَـاتِ أَلْسِنَتِهِمْ .

رابعاً : أَنَّ ما تُخْفِيْهِ صُدُورُهُمْ مِنَ البَغْضَاءِ والعَدَاوةِ أَكْبَرُ مِمَّا ظَهَرَ لكمُ مِنْ أَقْوالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، ثُم ذَكَرَ نوعاً آخرَ مِن التَّحْذِيْرِ عن مُخالَطَةِ الكافِرِينَ واتخاذِهِمْ بِطَانةً .

وفيهِ تَنبيهٌ على خَطَئِهِمْ في ذلكَ وقدْ ضَمَّنَهُ أُموراً ثلاثاً كلٌ منها يَسْتَدْعِي الكَفَّ عن مُخَالَطَةِ الكُفَّارِ ، أَوَّلاً أنكُم تُحِبونَهم ولا يُحِبونَكم ، ثانياً أَنَّكُمْ تُؤمنونَ بالكِتَابِ كُلِّهِ مَا نَزَلَ عَلى نَبِيِّكُم ومَا نَزَلَ على نَبِيِّهِمْ ،

ثالثاً أنَّهم يُدَاهِنُونَكم وَيُنَافقوْنَكمْ فإذا لَقوكُمْ قالوا آمَنَا وإذا خَلَوْا مَعَ بَنِي جِنْسِهِمْ عَضَّو عليكُم الأنامِلَ مِنَ الغَيظِ والبُغْضِ .

وانَّما فَعَلُوا ذَلِكَ لِمَا رَأَوْا مِن ائْتِلافِ المُسْلِمِيْنَ ، واجْتماعِ كَلِمتِهِم وَصَلاحِ ذاتِ بَيْنِهمْ ، وَنَصْرِ اللهِ إِيَّاهُم ، حتى عَجِزَ أَعْداؤهُم أَنْ يَجِدوا إلى ذَلِكَ التَّشَفِّي سَبيلاً ، فاضطُرّوا إلى مُدارَاتِهم .

وقالَ تَعالى ﴿ يَا أَيُّها الْذِيْنَ آمَنوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وَالآياتُ هَذِهِ تُنادِي بالنَّهْي المُطْلَقِ عن الوَلاءِ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وعن الاسْتِنْصَارِ بِهِمْ ، والرُّكُونِ إِلَيْهِم والثِّقَةِ بِهِمْ ، وَبِمَوَدَّتِهِم والاعْتِقَادِ في قُدْرَتِهم على إِيصَالِ خيرٍ لِلْمُسلمينَ ، أَوْ دَفْعِ أَذى بلْ هُمْ على العَكْسِ لا يَأْلُونَ جُهْداً في دَفْعِ النَّفْعِ عَن المسلمينَ ، وإيْصَالِ الضَّرَرِ والأَذى لِلْمُسْلِمِينَ فانتبِهْ يا أَخِيْ وَاحْذَرْهُمْ وَحَذِّرْ عَنْهُمْ .

قَالَ شَيْخُ الاسْلَامِ وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَسْتَدِلّونَ بِهَذِهِ الآياتِ عَلَى تَرْكِ الاسْتِعَانَةِ بِهِمْ في الوِلَايَاتِ ، فَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدَ بِاسْنَادٍ صَحِيْحٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ قُلْتُ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، إِنَّ لِي كَاتِباً نَصْرَانِياً ، قَال مَالَكَ قَاتَلَكَ اللَّهُ ، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ ﴿ يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا اليَهُوْدَ والنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْض ﴾ أَلَا اتَّخَذْتَ حَنِيْفياً .

قَالَ قُلْتُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ لِي كِتَابَتُهُ وَلَهُ دِيْنُهُ ، قَالَ لَا أُكْرِمُهُمْ إِذَا أَهَانَهُمْ اللَّهُ ، وَلَا أُعِزِّهُمْ إِذَا أَذَلَّهُمْ اللَّهُ ، وَلَا أُدْنِيْهِمْ إِذَا أَقْصَاهُمْ اللَّهُ

« بَلِّغْ يَا أَخي مَنْ وَالاَهُمْ وَوَلاَّهُمْ وَوَثِقَ بِهِمْ » .

وَلِمَا دَلَّ عَلَيْهِ مَعْنَى الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِهِ سُنَّةُ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَّةُ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِيْنَ ، التي أَجْمَعَ الفُقَهَاءُ عَلَيْهَا بِمُخَالَفَتِهِمْ ، وَتَرْكِ التَّشَبُهِ بِهِمْ ، فَفِي الصَحِيْحَيْنِ عَن أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَمَ إِنَّ اليَهُودَ والنَصَارَىٰ لا يَصْبَغُونَ ، فَخَالِفُوهُم أَمْرٌ بِمُخَالَفَتِهِمْ قَال .

وَقَالَ تَعَالَىٰ لِنَبِيه عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلاَمُ ﴿ لَسْتُ مِنْهُمْ في شَيْءٍ ﴾ وذَلِكَ يَقْتَضِي تبرّؤُهُ مِنْهُمْ في جَمِيْعِ الأَشْيَاءِ ، وَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ بَرّأَ رَسُولَهُ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَمِيْعِ أُمُورِهِمْ ، فَمَنْ كَانَ مُتَّبِعاً للرّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَوَسلَم حَقِيْقَةً كَانَ مُتَبرئاً مِنْهُمْ ، كَتَبَرّئِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَم مِنْهُم وَمَنْ كَانَ مُوَافِقاً لَهُم كَانَ مُخَالِفاً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم بِقَدْر مُوافقَتِهِ لَهُمْ .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : إِنَ مُشَابَهَتَهُمْ في بَعْضِ أَعْيَادِهِمْ ، تُوجِبُ سُرُور قُلوبِهِمْ بِمَا هُمْ عَلَيهِ مِنَ البَاطِل ، خُصُوصاً إِذا كَانُوْا مَقْهُورِيْنَ ، تَحْتَ ذُلّ الجِزْيَةِ والصَّغَارِ ، فَإِنَّهُمْ يَرُوْنَ المُسْلِمِيْنَ قَدْ صَارُوا فَرْعاً لَهم في خَصائِصِ دِينِهِم ، فإِنَّ ذَلِك يوجِبُ قَسْوَةَ قُلوبِهِمْ وَانْشِرَاح صُدُورِهِمْ وربَّمَا أَطْمَعَهم ذَلِكَ في انْتِهَازِ الفُرَصِ واسْتِذلالِ الضُّعَفَاءِ وَقَالَ رَحِمَهُ الله .

وَكُلَّمَا كَانَتْ المُشَابَهَةُ أَكْثَرَ كان التَّفَاعُلُ فِي الأَخْلاَقِ والصِّفَاتِ أَتَم حَتَّى يَؤُلَ الأَمْرُ إلى أَنْ لا يُمَيَّزَ أحدُهُما عَنِ الآخَرِ إلا بِالعَينَ فَقَطْ .

وَلَمَّا كَانَ بَيْنَ الإِنْسَانِ مُشَارَكَةٌ في الجِنْسِ الخَاصّ ، كَانَ التَّفَاعُلُ فِيهِ أَشَدُّ ، ثُمَّ بَيْنَهُ وبينَ سَائِرِ الحَيَوَانِ مُشَارَكَةٌ في الجِنْسِ المُتَوَسِّطِ ، فَلاَ بُدَّ مِنْ نوعِ تَفَاعُلٍ بِقَدْرِهِ .

ثُمَّ بَيْنَه وَبَيْنَ النَّبَاتِ مُشَارَكَةً في الجِنْسِ البَعِيْدِ مَثَلاً ، فَلاَ بُلّ مِنْ نَوْعٍ مَا مِنَ المُفَاعَلَةِ : قَالَ وَلأَجْلِ هَذَا الأَصْلِ وَقَعَ التَّأَثُّرُ وَالتَّأثِيرُ في بَنِي آدَمَ ، وَاكْتِسَابِ بَعْضِهِمْ أَخْلاقَ بَعْضٍ بالمُشَارَكَةِ ، وَالمُعَاشَرَةِ ، وَكَذَلِكَ الآدَمِيُّ إذا عَاشَرَ نَوْعَاً مِنَ الحَيَوَانِ ، اكْتَسَبَ مِنْ بَعْضِ أَخْلاقِهِ .

وَلِهَذَا صَارَتْ الخُيَلاَءُ وَالْفَخْر في أَهْلِ الإِبِلِ ، وَصَارت السَّكِيْنَةُ في أَهْلِ الغَنَمِ ، وَصَارَ الجَمّالُونَ والبَغَّالُونَ فِيْهِمْ أَخْلاقٌ مَذْمُومَةٌ ، مِن أَخْلاَقِ الجِمَالِ والبِغَالِ ، وَكَذَا الكَلاَبُّون .

قُلْتُ وَهَذا وَاضِحٌ مُشَاهَدٌ عِنْدَ الذِيْنَ يَتَأَمّلون بِدِقَّةٍ ، فَالمعَاشِرُونَ لِلدَّجَاجِ والحَمَام ، والأَرَانِبِ والحُمُرِ والبَقَرِ يَأْخُذُونَ مِنْ أَخْلاَقِهَا .

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَصَار الحَيَوانُ الإِنْسِي فِيهِ بَعْضُ أَخْلاقِ الإِنْسِ مِنَ المُعَاشَرَةِ والْمُؤَالَفَةِ وَقِلَّةِ النُّفْرَة ، فالمشَابَهَةُ والمُشَاكَلَةُ في الأُمُورِ الظَّاهِرَةِ تُوجِبُ مُشَابَهَةً وَمُشَاكَلَةً في الأُمُورِ البَاطِنَةِ عَلَى وَجْهِ المَسارَقَةِ والتَّدرِيْج الخَفِي .

قَالَ : وَقَدْ رَأَيْنَا اليَهودَ الَّذِيْنَ عَاشَرَوا المُسْلِمِيْنَ ، هُمْ أَقَلُّ كُفْراً مِنْ غيرهم، كَمَا رَأَيْنَا المُسْلِمِيْنَ الّذِيْنَ أَكْثَروا مِن مُعاشَرَةِ اليَهُودِ والنَّصارَى هُمْ أَقَلُّ ايماناً من غَيْرِهِمْ ، والمُشَارَكَةُ في الهَدْى الظاهِر ، تُوجِبُ أَيْضاً مُناسبةً وائتلافاً وإِنْ بَعُدَ المَكَانُ ، والزَّمَانُ ، فَهَذا أَيْضاً أَمْرٌ مَحْسُوسٌ

فَمُشَابَهَتُهُمْ في أَعْيَادِهِمْ وَلَوْ بالقَلِيلِ ، هُوَ سَبَبٌ لِنَوْعٍ مَا مِن اكْتِسَابِ أَخْلاَقِهِمْ التي هِيَ مَلْعُونةٌ .

فَنَقُولُ مُشَابَهَتُهُمْ في الظاهِرِ سَبَبٌ وَمَظِنةٌ لمشابَهَتِهِمْ في عينِ الاخْلاق والأفعالِ المَذمُومَةِ ، بل في نَفْس الاعتقادِ ، وتأثيرُ ذَلِكَ لَا يَظْهَرُ ولا يَنْضَبِطُ وَنَفْسُ الفَسَادِ الحَاصِلِ مِن المشابهةِ قد لا يَظْهَرُ ولا يَنْضبِطُ وقد يَتَعسَّرُ ، أو يَتَعذَّرُ زَوالهُ ، بَعْدَ حُصولِهِ لو تفطِنَ لهُ .

وَكُلُّ ما كان سبباً إلى مِثْل هَذا الفَسَادِ فإن الشَّارِعَ يُحَرِمُهُ كمَا دَلتْ عليهِ الأُصُولُ المقررةُ .

وقَالَ إنَّ المُشَابَهَةَ في الظاهِرِ تُورثُ نَوْعَ مَوَدَّةٍ وَمَحَبَّةٍ وموالاةً في الباطن قالَ والمَحَبَّةُ والموالاةُ لَهُمْ تُنَافِي الإِيْمَانَ قَالَ اللهُ تَعالَى ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوْا لا تَتخذوْا اليَهودَ والنَّصارَى أولياء ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فأصبحوا خاسرين ﴾ وقال تعالى فيما ذم به أهل الكتاب ﴿ لعن الذينَ كَفروا مِن بَني اسرائيْل على لِسَان داودَ وَعِيسى بِن مَريم ﴾ الآيات إلى قوله ﴿ ولكِن كثيراً مِنهم فاسقون ﴾ .

فَبَيَّنَ تعالى أَنَ الإِيْمَانَ باللّهِ والنبي وَمَا أَنْزَلَ مُسْتَلْزِمٌ لِعَدَمِ ولاَيَتِهِمْ فَثُبُوتُ وِلاَيَتِهِمْ يُوجِبُ عَدَمَ الإِيْمانِ ، انتهى كلامه .

إذا فَهِمتَ ذلك ، فاعْلَمْ أَنَ المقصودَ مِن كُلّ ما ذكَرْنا ، هُوَ أَنَّكَ تَكُونُ مُتَيَقِضاً حافظاً لِمَنْ وَلاَّكَ اللهُ عَلَيْهِمْ حَسَبَ قُدْرَتِكَ وَاسْتِطَاعَتِكَ مُبْعِداً لَهُمْ كُلَّ البُعْدِ عَنْ الإِتِّصَالِ بالكُفَّارِ ، والسَّفَرِ إلى بِلادِهِمْ ، والإقامةِ عندَهُمْ ، لِمَا وَضَّحْنَا لَكَ سَابِقاً فان قَبِلْتَ ذَلِكَ فَهو المطلوبُ ،

والحَمْد لِلهِ عَلَى ذلك وإنْ أَبَيْتَ قُبولَ هَذِهِ النَّصِيْحَةِ فَسَوفَ تَعْلَمُ إِذَا انْجَلَى الغُبَارُ ، أَفَرسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارٌ ، واللهُ المُسْتَعانُ واللهُ أَعْلَم وَصَلَّى اللهُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَم .

(فَصْــلٌ)

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ تَرَى كَثِيْراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الذِيْنَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُم أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِي العَذَاب هُمْ خَالدون ﴾ الآيتين وقال ﴿ ولا تركنوا إلى الذينَ ظلموا فتمسكم النَّارُ وَمَالكمْ مِن دونِ اللهِ مِن أَوْلياءَ ﴾ الآية .

قال ابْنُ عَبَّاس : لَا تَمِيْلُوا وقَالَ عِكْرِمَةُ أَنْ تُطِيْعُوهُمْ أَوْ تَوَدُّوهُمْ ، أَوْ تَصْطَنِعُوهُمْ ، أَيْ تُوَلّوهُمْ الأعْمَالَ ، كَمَنْ يُوَلّي الفُسَّاقَ والفُجَّارَ .

وَقَالَ الثَّورِيُ وَمَنْ لَاقَ لَهُمْ دَوَاةً أَوْ بَرى لَهُمْ قَلَماً أَوْ نَاوَلَهُمْ قِرْطَاساً دَخَل فِي هذا ، قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِيْن فِي الآيَةِ فالنَّهْيُ مُتَنَاولٌ لِلانْحِطَاطِ فِي هَوَاهُمْ ، والانقِطَاعِ إِلَيْهِمْ ، وَمُصَاحَبَتِهِمْ ، وَمُجَالَسَتِهِمْ ، وَزِيَارَتِهِمْ وَمُدَاهَنَتِهِمْ والرِّضَا بِأَعْمَالِهِمْ والتَّشَبُّهِ بِهِمْ والتَّزَيي بِزِيِّهِمْ ، وَمَدّ العَيْنِ إِلَى زَهْرَتِهمْ ، وَذِكْرِهم بِمَا فِيهِ تَعْظِيْماً لَهُمْ قُلتُ مَا أَكثر هذا فِي زَمَننا نسأل اللهَ أنْ يَحْفَظَنا عن ذَلِكَ .

وَقَالَ آخرُ لَا تَسْتَنِدُوا وَتَطْمَئِنُوا إِلَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا و إِلَى الجَبَّارِيْنَ الطُّغَاةِ الظالِمِيْنَ ، أَصْحابِ الجَوْرِ والظُلْم الذِيْنَ يَقْهَرون بِقُوتِهِمْ ، وَيَظْلِمُونَ لا تَمِيلوْا إِلَيْهِمْ طَالِبِينَ نُصْرَتَهم أو حِمَايَتَهُمْ مَهْمَا يَكُنْ فِي أَيْدِيهِم مِنَ القوةِ والسُّلْطانِ والمالِ ، فإِنَّ رُكُونَكم إِليهمْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ

يَقْدَحُ في اعْتِمَادِكُمْ عَلَى اللهِ ، وفي إخْلاصِكُمْ بالتـوجُهِ إلَيْـهِ وَحدَهُ والاتكالِ عَلَيْهِ وَحْدَه والاعتزازِ به وَحْدَهُ .

والرُكُونُ إلى الظَّلمةِ المُتَسَلِّطِينَ سَواءٌ كانُوا أَفْراداً أَوْ كانُوا دُوَلاً يَتَمَثّلُ في صُوَرٍ شَتّى ، وَمِنْهُ التّعاوُنُ مَعَ الطُّغَاةِ على الشُّعُوبِ ، الذينَ لا يَحْكُمُونَ بما أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَمِنْهُ مُعَاهَدَاتِ الحماية ، وَمُعَاهَداتُ الدِّفاعِ المُشْتَرَك ، وَمُعَاهَدَاتُ الصَّدَاقَةِ ، والتَّحَالُفِ مَعَ الَّذِيْنَ يُؤْذُونَ المؤمِنينَ في دِيَارِهِمْ ، وَكُلُّ صُورَةٍ يَتَحَقَّقُ فِيهَا اعْتِمَادُ المُسْلِمينَ عَلَى أَهْل الظُلم أَفْرَاداً وَدُوَلاً والاسْتِنادُ إلى قُوَّتِهم ، وَعَوْنِهم ، وَمُسَاعَدَتِهِمْ .

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّيْ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بالمودَّةِ ﴾ صَدْرُ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَ في حَاطِبِ بْن أَبِي بَلْتَعَةَ ، لما كَتَبَ إلى المُشْرِكِيْنَ ، يُخْبِرُهُمْ بِمَسِيْرِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليْهِمْ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُعَوِّلُ عَلَى الْكَفَرَةِ وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِمْ وَيَتَّخِذُهُمْ أَوْلِيَاءَ نَسْأَلُ اللَّه العِصْمَةَ إنَهُ القَادِرُ عَلَى ذلِكَ .

فَيَجِبُ عَلَيْنَا مَعْشَرَ المُؤْمِنِيْنَ أَنْ نَتَبَاعَدَ عَنْهُمْ وَلاَ نُقَارِبَهُمْ في المَنَازِلِ وَلاَ نَذْهَبَ إلَيْهِمْ ، وَلاَ نَكُونَ مَعَهُمْ ، وَأَنْ نَنْصَحَ مَنْ كانَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ في بلادِهِمْ ، بِأَنْ يُهَاجِرَ عَنْهُمْ ، وَأَنْ نُبَينَ لَهُ ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ « لا تَسْتَضِيْئُوْا بِنَارِ المُشْرِكِيْنَ » .

وَقَالَ « مَنْ جَامَعَ المشْرِكَ أَوْ سَكَن مَعَهُ فَهُوَ مِثْله » وَحَدِيْثُ « أَنَا بَرِيْءٌ مِنْ مُسْلِمٍ بَيْنَ أَظْهُر المُشْرِكِيْنَ لا تَرَائى نَارَاهما » ، وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُ عَلَى أَصْحَابِهِ عِنْدَ البَيْعَةِ يَأْخُذُ عَلَى يَدِ أَحَدِهِمْ « أَنْ لا تَرَى نَارُكَ نَارَ المُشْرِكينَ إلا أَنْ تَكُوْنَ حَرْباً لَهُمْ » .

وَفِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ مَرْفُوعاً « لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُسْلِمٍ عَمَلاً أَوْ يُفَارِقَ الْمُشْرِكِيْنَ » ، أَخْرَجَهُ النَّسَائِي وَوَرَدَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ أَقْسَمَ لاَ يُظِلُّهُ سَقْفٌ ، هُوَ وَقَاطِعُ رَحِمٍ » .

فَكَيْفَ بِمَنْ يَذْهَبُ إلى بِلاَدِ الكُفْرِ وَيَجْلِسُ مَعَهُمْ ، وَيأْكُلُ ، وَيَشْرَبُ وَيَتَبَادَلُ مَعَهُمْ الْكَلاَمَ بِلِيْنٍ وَبِشْرٍ وَيَنَامُ وَيَصْحُو ، وَيَقُومُ وَيَقْعُدُ وَهُوَ بَيْنَهُمْ في تَقَلُّبَاتِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ .

وَلَقَدْ وَصَلَ الأَمْرُ في هَذَا الزَّمَن إلى أَنَّ أُناساً يَبْعَثُونَ أَمَانَاتِهم أَفْلاذَ اكْبَادِهِمْ إِلى بِلادِ الكُفْرِ والشِّرْكِ والحُرِّيَّةِ والفَسَادِ يَتَعَلَّمُونَ عِنْدَ أُولئك الكَفَرَةِ أعداءِ الاسلام وَأَهْلِهِ الَّذِيْنَ تَجِبُ الهِجْرَةُ مِنْ بِلاَدِهِمْ وَرُبَّمَا كَانَ عِنْدَ الأَوْلاَدِ المَبْعُوثِيْنَ لِلتَّعلمِ عِنْدَ الكفَرَةِ مَبَادِىءُ طَيِّبَةٌ وَأَخْلاقٌ فاضِلَةٌ فإِذَا ذَهَبُوْا إلى بِلاَدِ الكُفْرِ والعِيَاذُ باللهِ ضَيَّعُوا دِيْنَهَمْ وَأَخْلاَقَهُمْ واعْتَاضُوا عَنْ قَصْدٍ وَعَنْ غَيْرِ قَصْدٍ شُروراً وَسُمُوماً يَحْمِلُونَهَا ثُمَّ يَأْتُونَ بِهَا فَيَنْفُثُونَهَا بَيْنَ المُسْلِمينَ ثُمّ يُعْدُونَ أَقْرَانَهُمْ وَيُزَيِّنُونَ لَهُمْ طَرِيْقَتَهُمْ فَيَهْلِكُون وَيُهْلِكُونَ وَلاَ أَدْرِيْ مَاذا عِنْدَ مُضَيِّعِ هَذِهِ الأَمَانَةِ مِنَ الجَوَابِ إِذَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ الجَبَّارِ جَلَّ وَعَلاَ وَسَأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الأَمَانَةِ وَمَا أَعْقَبَتْ مِنْ شُرورٍ وَفَسَادٍ .

هَلْ يَدَّعِي أَنَّهُ لاَ يَعْرفُ أَنَّهَا بِلادُ كُفْر وَإِلْحادٍ فَيَكُونُ كاذِباً أَوْ يَقُولُ إِنَّهُ يَدْرِيْ وَلَكِنّه لا يُبَالِي بِهَذِهِ الأَمَانَةِ قُولُوا لَه أَلَسْتَ تَقْرَأُ قَوْلَ اللهِ تَعَالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمواتِ وَالأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾ الآيَةَ .

وَقَوْلَهُ تَعالَى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوْا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ هَذَا إِذَا كَانَ البَاعِثُ رَاضِياً بِذَلِكَ أَوْ آمِراً بِهِ .

فَهَلْ الكُفَّارُ أَهْلٌ لِوَضْعِ هَذِهِ الأَمَانَةِ عِنْدَهُمْ أَمَا تَخْشَى اللَّهَ هَذَا وَاللَّهِ جُرْمٌ عَظِيْمٌ قَالَ تَعَالَى ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ، فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَي القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿ إِنَّ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ .

والشَّيءُ الّذي يُضْحِكُ الإِنْسَانَ مِنْ جِهَةٍ وَيُبْكِيْهِ مِنْ جِهَةٍ هُوَ أَنَّهُ رُبَّمَا يَكُوْنُ المُرْسِلُوْنَ مِنَ الّذِيْنَ يُعَدّون طَاهِرَةً قُلُوبُهُمْ وَلَكِنْ غَفَلُوا عَنْ هَذِهِ المَسْأَلَةِ فَلَمْ يَسْأَلُوا عَنْهَا هَلْ يَجُوزُ لَهُمْ أَمْ لاَ ثُمَّ الشَّيءُ الثَانِي يَأْتِي أُنَاسُ آخَرُونَ لاَ يَعْرِفُونَ الوَلاَء والبَرَاءَ أَوْ يَعْرِفُوْنَهُ وَلَكِنْ يَتَسَاهَلُونَ فَيَأْخُذُونَ الذي جَاؤُا مِن بِلاَدِ الكُفْرِ يَحْمِلُونَ شَهَادَاتِهِمْ بِالدَّوَائِرِ وَالْوَلائِم وَهَذا وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَشجِيْعاً عَلَى المَعَاصِي وَحَثَّاً عَلَيْهَا وإغراءً بها نسأل الله العافية .

لأنَ الوَاجِبَ هَجْرُهُمْ والابْتِعَادُ عَنْهُمْ وَلَوْ كَانُوْا آباءَهم أَوْ أَبْنَاءَهُم أَوْ إِخوَانَهم كَمَا هُوَ المَعْهُود في الزَّمَنِ البَعِيْدِ وَالْقَرِيْبِ فِيْمَنْ جَاءَ مِن الْبِلاَدِ التي مُسْتَعْمَرَةٌ لِلْكَفَرَةِ يُهْجَرُ لاَ يُكَلَّمُ وَلاَ يُدْعَى وَلاَ تُجَابُ دَعْوَتُهُ عِنْدَ المُتَمَسِّكِيْنَ بالدِيْنِ تَمَاماً الصَّدَّاعِيْنَ بِالحَقِ المُخْلِصِيْنَ لِلهِ النَّاصِحِيْنَ لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِوُلاَةِ المُسْلِمِيْنَ وَلَكِنْ يَا لِلأَسَفِ ذَهَبَ النَّاسُ وَبَقِيَ النَّسْنَاسُ الذِيْنَ لاَ يَعْرِفُونَ الوَلاَءَ وَالْبَرَاءَ إِلا فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِحُطَامِ الدُّنْيَا .

فَمَا النّاسُ بِالنَّاسِ الذين عَهِدْتَهُمْ
وَلاَ الدَّارُ بِالدّارِ التّي كُنْتَ تَعْرِفُ

وَيُذْكَرُ عَنْ عِيسَى عَلَيهِ السَّلامُ أَنَّهُ قَالَ تَحَبَّبُوْا إِلَى اللَّهِ بِبُغْضِ أَهْلِ المَعَاصِي ، وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللّهِ بِالْبُعْدِ عَنْهُمْ ، واطْلُبُوْا رِضَى اللَّهِ بِسَخْطِهِمْ فَإِذَا كَانَ هَذَا مَعَ أَهْلِ المَعَاصِي ، فَكَيْفَ بالكَفَرةِ والمُشْرِكَيْنَ والمُنَافِقِيْنَ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالمُؤمنين .

وَقَدْ أَجَابَ أَبْنَاءُ شَيْخِ الإِسْلامِ مُحَمدِ بن عبدِ الوهابِ لَمَّا سُئِلُوا عَن السَّفَرِ إلى بِلادِ المُشْرِكِيْنَ ، لِلتّجَارَةِ بِمَا حَاصِلُهُ أَنهُ يَحْرُمُ السَّفَرُ إلى بِلَادِ المُشْرِكِيْنَ إلا إذا كانَ المُسْلِم قَوِيّاً لَهُ مَنعَةٌ يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ دِيْنِهِ وإِظْهَارُ الدِّيْنِ تَكْفِيْرُهُم وَعَيْبُ دِيْنِهِمْ والطَّعْنُ عَلَيْهِمْ والبَرَاءَةُ مِنْهُمْ والتَّحَفُّظُ مِنْ مُوَادَّتِهِمْ والرُّكُونُ إِلَيْهِمْ وَاعْتِزَالُهُمْ وَلَيْسَ فِعْلُ الصَّلَوَاتِ فَقَطْ إِظْهَارٌ لِلدِّيْنِ أهـ .

نَسْأَل الله السَّلاَمَةَ والْعَافِيَةَ فَيَا أَيُّهَا المُعَافي احْمَدْ رَبَّكَ حَمْداً كَثِيْراً طَيِّباً مُبَارَكاً وأَكْثِرْ مِنْ قَولِ : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ وَمِنْ قَوْلِ يَا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِيْنِكَ وَيَا مُصَرِّفَ القُلُوبِ اصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلى طَاعَتِكَ وَقَوْلِ اللهُمَّ لاَ تَكِلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنَ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَأَحْسِنْ خَاتِمَتِي في الأُمورِ كلّهَا واغْفِرْ لِي وَجَمِيعِ المُسْلِمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

مــوعظــة

عِبَادَ اللَّهِ كُلُّنَا يَعْلَمُ أَنَ النَاسَ قِسْمَانِ ، قِسْمٌ انْحَازَ إِلَى اللَّهِ ، وَهَؤُلاءِ حِزْبُ اللّهِ ، الذِيْنَ قَالَ اللّهُ فِيهِمْ ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ المُفْلِحُونَ ﴾ .

وَقِسْمٌ انْحَازَ إِلَى عَدُوِّ اللَّهِ إِبْلِيْسَ لَعَنَهُ اللَّهُ وَهَؤُلآءِ حِزبُ الشَّيْطَانَ الذِيْنَ قَالَ اللَّهُ فِيْهِمْ :﴿أوْلئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ألا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الخَاسِرُون﴾ فَالأَوَّلُوْنَ الذِيْنَ هُمْ حِزْبُ اللهِ لاَ تَرَاهُمْ يُطِيْعُونَ الشَّيْطَانَ أَبَداً وَلِذَلِكَ لا تَجِدُهُمْ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ ، بَلْ هُمْ بَرَكَةٌ في هَذَا الوُجُودِ .

فَإِذَا رَأَيْتَ مَسْجِداً مَعْمُوراً فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللَّهُ لِبِنَائِهِ ، وَإِنْ قِيلَ لَكَ إِنَّهُمْ لاَ يَظْلِمُونَ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الظُّلْمِ والجَوْرِ فَصَدِّقْ ، وَإِنْ رَأَيْتَ مُحْتَاجاً سُدَّتْ حَاجَتُه ، فَهُمْ الْذِيْنَ وَفَّقُهُمْ اللّهُ لإِنْعَاشِهِ ، وَسَدِّهَا ، وإِنْ رَأَيْتَ عَارِياً فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقهُمْ اللّهُ لِكِسْوَتِهِ ، وإِنْ قِيْلَ إِنَّ المُنْكَرَ الفُلاَنِي أُزِيْلَ فَهُمْ الذيْنَ وَفَّقَهُمْ اللّهُ لِلتَّسَبُبِ في إِزَالَتِهِ ، وَإِنْ قِيلَ لَكَ إِنْ إِصْلاحاً في الأَرْض كَانَ صَعْباً فَسُهِّلَ بِإِذْنِ اللهِ ، فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقهُم اللَّهُ لإِزَالَتِهِ أَوْ تَسْهِيْلِهِ .

وَإِنْ قِيْلَ إِنَّ أُنَاساً يَدُورُونَ عَلَى البُيُوْتِ يَتَفَقَّدُونَ الفُقَرَاءَ الذين لَيْسَ لَهُمْ مَوَارِدُ فَهُمْ الذِيْنَ وَفَّقَهُمْ اللَّهُ لِذَلِكَ ، وَإِنْ قِيلَ إِنَّ أُنَاساً يَتَفَقَّدُونَ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَيَتَسَبَّبُونَ لِوَفَائِهِ ، فَهُمْ الذينَ وَفَّقَهُمْ اللَّهُ لِذَلِكَ ، وإِنْ قِيلَ إِنَهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ عِبادَةَ مَنْ لاَ يَملُّ وَلاَ يَفْتُرُ ، فَصَدِّقْ بُمجَرَّدِ مَا يُقَالُ لَكَ .

وإِنْ قِيلَ إِنَّ بَعْضَ البُيُوتِ وَهِيَ القَلِيْلَةُ إِنَّكَ تَسْمَعُ فِيها باللَّيْلِ صَوْتَ بُكَاءٍ وَأَنِيْنٍ وَتَهَجُدّاً واستغفاراً ، فَهُم أُولَئكَ الذينَ وَفقَهُم اللهُ وجَعَلَهُم حِزْبَهُ .

وإِنْ قِيلَ لَكَ إِنَّ أُناساً عِنْدَهُم عَطْفٌ عَلَى الفُقَراءِ ، وَرَحْمَةٌ وايثارٌ واحْسانٌ إلى الجارِ ، وَمُوَاسَاتٌ لِلضُّعَفَآءِ ، وَغيرِ ذَلِك ، مِمَّا يَكَادُ في زَمَنِنَا

هَذَا أنْ يَكُونَ نَادِراً فهُم أُولَئِكَ الذينَ وَفقَهُم العَلِيمُ الخَبِيْرُ ، وَهَؤلآءِ هُم المُهَذَّبُونَ المُتَنَوِّرُوْنَ المُتَأَدِبُون .

أما الفَرِيْق الثاني عَصَمَنَا اللهُ وإيَّاكَ عن طريق سُلُوكِهِم ، فَهُم حِزْبُ الشيطان لا يحْصُلُ فَسَادٌ في الأَرْضِ إلَّا مِنْهُمْ ، لأَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطانِ وإنْ قِيْلَ إنَّ مُؤْمِناً قُتِلَ فَهُم الذينَ قَتَلُوهُ ، أو تَسَبَبُوا لِقَتْلِهِ ، لَا يَخْتَلِفْ في ذلك اثْنَانِ ، وإنْ قِيْلَ لكَ إنَّ سَيارَةً سُرِقَتْ فَهُمْ الذَينَ سَرَقُوْهَا .

وإنْ قِيْلَ إنَّ مَنْزِلاً هُوْجِمَ وَسُرِقَ فَقُلْ بِلَا تَرَدُّدٍ هُم الذينَ هَاجَمُوهُ ، وَسَرَقُوهُ ، وَهَلْ حِزْبُ الرحمن يَعْتَدُوْنَ مِثْلَ هَذَا العُدْوَانِ ، وإن قِيْلَ إنَّ إنْسَاناً خُطِفَ وَغُيِّبَ ولا يُعْلَمُ أيْنَ كَانَ ، فَقُلْ هُمُ الذِينَ خَطَفُوهُ وَغَيَّبُوهُ ، وإن قِيْلَ إنَّ مُسْلِماً ذَا ثَرْوَةٍ نُشِلَ وأُخِذَ منه آلافٌ ، فَقُلْ وَهَلْ يَنْشُلُ وَيَخْطِفُ وَيَعْبَثُ بِأَمْوالِ الناسِ إلا أولَئِكَ الأَشْرَارُ حِزْبُ الشيطانِ .

حِزْبُ اللهِ المُوَفَّقُونَ الكُمَّلُ بَعِيْدُونَ عن المَعَاصِي جِدَا ، فَلَا تَرَى الوَاحِدَ مِنهم يَتَعَمَّدُ الجُلُوسَ في الطُرقِ ، وَيُدَاوِمُ المُرُوْر فِيْهَا لِمُطَارَدَةِ النِساء ، وَمُغَازَلَتِهِنَّ ، ولا تَرَاهُ يُرْكِبُ النِسَاءَ بلا مَحْرَمٍ ولا يُدْخِلُهَا لِتَشْتَرِيْ أَوْ يُفَصِّلُ عَلَيهَا وَلَيس مَعَهَا مَحْرَمٌ ولا تَجِدْهُ يَبِيْعُ صُوَرَ ذواتِ الأَرْوَاحِ ، ولا يُصَوِّرُهَا ، ولا يَبِيْعُ البِدَعَ المُنْكَرَاتِ ، ولا يَجْلِسُ عِنْدَها ، وهِيَ البِدَعُ المُحَرَّمَةُ ، التي حَدَثَتْ في زَمَنِنَا مِثْلَ التَّلَفْزِيُون والسِّيْنَماء والمِذْيَاعِ ، والكُرةِ ، والوَرَقِ ، والبَكَمِ والدُّخَانِ والفِدْيُو ونحو المنكراتِ التي قَضَتْ على الغَيْرَةِ والمُروْءَةِ والشِّيْمةِ والرُجُولَةِ.

ولا يَغُشُّ المُسْلِمِيْنَ ، ولا يَكُونُ ذَا وَجْهَينِ يَتكَلَّمُ عِنْدَ هَؤلآءِ بِوَجْهٍ

وعندَ الآخِرِيْنَ بِوَجْهٍ ، ولا يُنَافِقُ ولا يُوْقِعُ بَرِيْئاً في مَازِقٍ ولا يَشْهَدُ بالزُوْرِ ، ولا يَحْظُر عِندَ المُنكَراتِ ، بَل تَراهُمْ في مَجَالِسِ الذِكْرِ يَدُوْرُوْنَ حَوْلَ مَا يُقَرِبُهُم إلى اللهِ .

وَلَا تَراهُمْ يَرْكَنُونَ إلى أَعْدَاءِ اللهِ ، ولا الفَسَقَةِ ولا يُعَظِّمُونَهُم ولا يَتَمَلَقُونَ لَهُم ، وَيَضْحَكُونَ مَعَهُم ، كَمَا يَفْعَلُهُ السُّذَّجُ، الذِيْنَ لا يَعْرِفُونَ الوَلَآءَ والبَرَاءَ ، ولا تَنْشَرِحُ صُدُوْرُهُم ، ولا تَهْتَزُ عَوَاطِفُهُم ولا تَسْتَرِيْحُ قُلُوبُهُمْ ، ولا يَهْدَؤُ بـألِهم ، ولا يَسْكُنُ قَلَقُهُم ، إلا إذا زَاحَمُوهُم وجَالَسُوهُمْ ، ومازَحُوهُم وَعَظَّمُوهُم ، مِمَّنَ نَسُوا اللهَ فأنْسَاهُم أَنْفُسَهُم والتَهَوا عَمَّا هُم إليه صَائِرُوْنَ ، فَلَمْ يَحْسِبُوا لَهُ حِسَاباً قال تعالى ﴿ ولا تُطِعْ مَن أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكان أَمْرُهُ فُرطا ﴾ .

وقال تعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الحَيَاةَ الدُنيا ، ذلكَ مَبْلَغُهُم مِن العِلْمِ ﴾ وقال تعالى ﴿ أفرَأيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ وأَضَلَهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ ﴾ الآية .

فالذي يَنْبَغِي أَنْ يُتَّبَعَ وَيُقْتَدَى بِهِ مَن تَمَسَّكَ بِكِتَابِ اللهِ ، وامْتَلأَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةِ اللهِ ، وَفَاضَ ذَلِكَ عَلى لِسَانِهِ ، فَلَهَجَ بِذِكْرِ اللهِ ، ودَعَا إلى اللهِ واتَّبَعَ مرَاضِيْهِ ، فقدَّمهَا على هَوَاهُ وحَفِظَ وَقْتَهُ في طاعَةِ اللهِ بَعِيْدَاً عن أَذِيّةِ المُسْلِمينَ لا يُقَابِلُ الإِسَاءَةَ بِمِثْلِهَا بَلْ يَدْفَعُ بالتِي هِيَ أَحْسَنُ وَهَذَا حَقاً هُوَ المَهذَبُ المُتَنَوِّرُ :

قال بعضهم :

وأُحِـبُّ كُـلَّ مُـهَـذَّبٍ لَـوْ أَنَّـهُ
خَـصْمِيْ وَأَرْحَـمُ كُـلَّ غَـيْـرِ مُـهَـذَّبِ

يَـأْبَى فُـؤَادِي أَنْ يَـمِيْـلَ إِلَـى الأَذَى
حُبُّ الأذيـةِ مِن طِـبَـاعِ الـعَـقْـرَبِ
لِـيْ إِنْ أَرَدْتُ مَـسَـاءَةً بِـمَـسَـاءَةٍ
لَـوْ أَنَـنِـي أَرْضَـى بِـبَـرْقٍ خُـلَّبَ
حَـسْـبُ الـمُـسْـيءِ شُـعُـوْرُهُ وَمَـقَـالُـهُ
فِـي سِـرِّهِ يَـا لَـيْـتَـنِـي لَـمْ أُذْنِـبِ

اللهم خَفِّفْ عَنَّا الأَوْزَارَ وأرْزُقْنَا عِيْشَةَ الأَبْرَارِ واصْرِفْ عَنَّا شَرَّ الأشْرَارِ وأَعْتِقْ رِقَابَنا ورِقَابَ آبائِنَا وأُمَّهَاتِنَا مِن النَّارِ يا عَزِيْزُ يا غَفَّارُ ويا كَرِيْمُ ويَا سَتَّارُ ويا حَلِيْمُ ويا جَبَّارُ واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْــلٌ)

وَجَاءَ في تَفْسِيْر قَولِهِ تَعالَى ﴿ لَا تَجِدُ قَوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوَادُوْنَ مَن حَادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كانُوا آبَاءَهُم أَوْ أَبناءَهُم أو إخْوانَهُم أو عَشِيْرَتَهُم أولَئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِم الايمانَ وأَيَّدَهُم بِرُوْحٍ منه﴾ الآية أَنَّها نَزَلَتْ في أَبِيْ عُبَيْدَةَ .

وإليكَ القِصَّةَ مَسُوْقَةً بِأَكْمَلِهَا ، أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ رضي الله عنـه ، كانَ صَحَـابِياً جَلِيـلاً وَبَطَلاً عَـظِيْماً مِن أبـطال الإسـلام مِن المُجَاهِدِيْنَ ، حَرِصَ أَبُوهُ عبدُ اللهِ على قَتْلِهِ في أَوَّلِ لِقَاءٍ ، لأَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ رَضِي اللهُ عَنهُ تَرَكَ دِيْنَ أَبِيْهِ ، واعْتَنَقَ الإسلامَ ، وتَخَلَّفَ عن قافِلَةِ

قُرَيْش ، والتَحَقَ بقافَلةِ مُحَّمدٍ بن عبدِ اللهِ عليه الصلاةُ والسلامُ مُؤمناً بدِيْنِهِ مُصَدِّقاً بِرِسَالتِهِ .

تَصَدَّى عَبْدُ اللهِ لابْنِهِ مُحَاوِلاً قَتْلَهُ ، في غَزْوَةِ بَدْرٍ ، ولكنْ الابنُ أبْعَدَ عَنه ، وَحَوَّلَ سَيْفَهُ عن أَبِيْهِ وانْطَلَقَ إلى فِئَةٍ أُخْرى غيْرَ التي فِيهَا أَبُوهُ ، يُقَاتِلُهَا وَيُجَاهِدُهَا وافْتَرَقَ الرَّجُلانِ وَلَكِنْ الأبُ بَحَثَ عن ابنِهِ حَتَّى التَّقى بِهِ مرةً ثانِيَةً ، وَرفَعَ سَيْفَهُ عَليه وَوَجَّهَ إليه ضَرْبَةً قَاضِيَةً اسْتَقْبَلَهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بحَرَكَةٍ خَفِيْفَةٍ ، جَعَلتْهَا تَهْوِيْ في الفَضَاءِ .

ولَكِنْ الأَبُ مُصَمِّمٌ على أَنْ لَا يُفْلِتَ الابنَ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ مِن غَالِي الثَّمَنِ فَبَحَث عن ابنِهِ هُنَا وَهُناكَ ، وَنَقَبَ عَنه في كُلِّ مكَانٍ حتى التَقَى بِهِ مَرَةً ثَالِثةً ، وَرفَعَ الرَّجُلُ سَيْفَهُ لِيُوجِّهْ إلى ابْنِهِ ضَرْبَةً قَاضِيَةً مُمَيْتَةً يَشْفِي كُلُومَ قَلْبِهِ ، وَتَهْدَؤُ بِهَا نَفْسُهُ الثائِرَةُ على ابنِهِ الصَّابِىءِ .

وَهُنَا نَظَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّ أَبَاهُ يَعْتَرِضُ وَيَتَصَدَّى لَهُ وفي اعْتِرَاضِهِ هَذَا اعْتِرَاضٌ لِلإسْلامِ ، فَمَا أَبُو عُبَيْدَةَ إلا جُنْدِيْ مِن الجُنُودِ القَائِمِينَ بنَصْرِ الإسلامِ ، وأَنَّ في تَصَدِيْهِ لَهُ سَداً بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِقَامَةِ دِيْنِ الرحمنِ ، وانْتِشَارِ كَلِمَةِ اللهِ في الأَرضِ فَهَلْ يَصْمُتُ أَبُو عُبَيْدَةَ عَلَى هَذَا ، وَهَلْ يَسْكُتُ على مَنْ يَحُولُ بَيْنَ دَعْوَةِ اللهِ ، أَنْ تَقُومَ في الأَرْضِ وأَنْ تُنْشَرُ بَيْنَ الناسِ كَلا لَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيهِ نَحوَ أَبِيْهِ وَأَعْرَضَ عنه مَرَّتَين .

وَلَكِنْ مَا دَامَ أَبُوهُ يَحْرِصُ على هَذِهِ الصُوْرَةِ ، فَلْيَكُنْ هُوَ أَسْبَقُ مِن أَبِيْهِ في حِرْصِهِ عَلَى قَتْلِهِ ، كَذَلِكَ والتقى السَّيْفَانِ وتَقَابَلَ الرَّجُلانِ وَوَقَفَ الخَصْمَانِ ، وفي لَمْحَةٍ خَاطِفَةٍ رَفَعَ الرجُلانِ سَيْفَيْهِمَا كُلٌّ يَحْرِصُ عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ ، والانْتصَارِ لِدِيْنِهِ .

وَرَفَعَ أَبُو عُبَيْدَة يَدَهُ عَالِيَةً خفَّاقَةً ، وفي سُرْعَةٍ وَمِضَاءٍ أَهْوَى بِسَيْفِهِ البَتَّارِ عَلَى قَلْبِ وَالِدِهِ المُمْتَلِىء حِقْداً وَغَضَباً ، على الإسلام وَدَعْوَةِ الاسلام وَمَزَّقَ السَّيْفُ قَلْبَهُ ، وانْفَجَرَ الدَّمُ منه بكَثْرَةٍ وكانَتْ هَذِه السَّاعَةُ مِن سَاعَاتِ التاريخ الفَاصِلةِ .

هَذَا مِن آثَارِ الحُبِ في اللهِ ، والبُغْض في اللهِ ، وهَذَا الوَاجِبُ على كُلِّ مُسْلمٍ أن تَكُونَ أَعْمَالُهُ كُلُهَا مُنْطَبِقَةً على مَا تَأْمُرُ به الشرِيْعَةُ المُطَهَّرَةُ فَيُحِبُ مِن الناس مَن نَهَجَ الطَرِيْقَ المُسْتَقِيْمَ وَيَبْتَعِدُ عَن مَن حَادَ عَن الطَّرِيْقِ المُسْتَقِيْم ، ولو كانَ أَقْرَبَ قَرِيْب.

وَمَن اتَّبَعَ هَذِهِ الطَّرِيْقَةَ انْطَبَعَ في قَلْبِهِ حُبُّ الكَمَال والإيمانِ فيكُونُ عَدوُ اللهِ في نَظَرِهِ عَدُواً ، وَحَيْنَئِذٍ يَرَى أَنَّ أَعْظَم الناس قِيْمَةً أَهْلُ الاخلاص والطاعةِ وَأَحَطهُم مَنْزِلَةً أَهْلُ المَعَاصِي والشَّنَاعَةِ والفَسَادِ في الأرض .

وكذلكَ كانَ شَأنُ المُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم وشَأْنُ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عنهم يُحِبُونَ في اللهِ ، وَيُبْغِضُوْنَ في اللهِ يُوَادُّوْنَ الطائِعينَ وإنْ كَانُوا بُعَدَاءَ وَيُعَادُوْنَ العَاصِين وانْ كانُوا أَقرِبَاءَ فَرَابِطَةُ التَّقْوَى عِنْدَهُم أَشَدُّ وَأَقْوَى مِن رَابِطَةِ النَّسَبِ والقَرَابَةِ .

وعن البَراءِ بنِ عَازِبٍ أَوْثَقُ عُرَى الإيمانِ الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ في اللهِ .

وفي حديث مَرْفُوع اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عِنْدِيْ يَداً وَلاَ نِعْمَةً فَيَوَدُّهُ قَلْبِي فإني وَجَدْتُ فِيْمَا أُوْحِيَ إلي ﴿لا تَجِدُ قوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ واليوم

الآخِرِ يُوَادُّوْنَ مَن حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ رواه بن مردويه وغيره .

المَعْنَى الآيةُ بِلَفْظِ الخَبَرِ والمُرَادُ بِهَا الإِنْشَاء أَي لَا تَجِدُ قَوماً يَجْمَعُونَ بَيْنَ الإِيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، والمحبةِ والمُوَالاَةِ لِأَعْدَاءِ اللهِ ورسولِهِ .

فلا يَكُونُ المؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ حَقِيْقَةً إلا كَانَ عَامِلاً عَلى مُقْتَضَى إيمانِهِ ، ولَوَازِمِهِ مِن مَحَبَّةِ مَن قَامَ بالإِيمانِ وَبُغْضِ مَن لَمْ يَقُمْ بِهِ وَمُعَادَاتِهِ .

وَلَوْ كَان أَقْرَبَ الناسِ إليهِ ، وَهَذَا هُوَ الإيمانُ عَلَى الحَقِيْقَةِ الذي وُجِدَتْ ثَمَرَتُهُ وَمقْصُوْدُهُ فَمَنْ أَحَبَّ أَحَداً امْتَنَعَ أنْ يُوَالِيْ عَدُوَّهُ .

وَلَقَد أَصَابَ المُسْلِمُونَ اليومَ مِن المُوالاَةِ لِأَعْداءِ اللهِ بَلاَءٌ شَدِيْدٌ فَتَجِد كَثِيراً مِن الناسِ الذيْنَ يَدَّعُونَ الإيمانَ يُوَالُونَ أعداءَ الشَّرائِعِ الدِيْنِيَّةِ وَيُعَظِّمُونَهُم وَيُقَدِّرُوْنَهُم وَيَنْصُرُوْنَهُمْ على أَبْنَاءِ جِنْسِهِم وَلَوْ كَانَ في هذا ذِلٌ لَهُم ولِأُمَّتِهِم ولِدِيْنِهِم فإنا للهِ وإنا إليه رَاجِعُون)

قال في النُونِيَّةِ :

أَتُحِبُ أَعْدَاءَ الحَبِيْبِ وَتَدَّعِيْ
حُباً لَهُ مَاذاكَ في إمْكَانِ

وكَذَا تُعَادِيْ جَاهِداً أَحْبَابَهُ
أيْنَ المَحَبَّةُ يَا أَخَا الشَّيْطَانِ

لَيْسَ العِبَادَةُ غَيْرَ تَوْحِيْدِ المَحَبْ
بَةِ مَعَ خُضُوْعِ القَلْبِ والأَرْكَانِ

والـحُـبُ نَـفْسُ وِفَـاقِـهِ فِـيْـمَـا يُـحِـبْـ
ـبُ وَبُـغْـضُ مَـالا يَـرْتَـضِـي بِـجَـنَـانِ

اللهم طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِن النِفاق وعَمَلَنا مِن الرِياء وَأَلْسِنَتَنا مِن الكَذِبِ وَأَعْيُنَنَا مِن الخِيانَةِ وآذانَنا عَن الاستماعِ إلى مَا لا يُرْضِيْكَ وَتوَفَّنَا مُسْلِمينَ وَأَلْحِقْنَا بالصَّالِحِيْنَ واغفر لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

وعن أبي ذَرٍ مَرْفُوعاً ، أَفضَلُ الأَعْمالِ الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ في الله رواه أبو داود .

وفي الصحيحين المَرْءُ مَعَ مَن أَحَبَّ وعن علي مرفوعاً لا يُحِبُ رَجُلٌ قوماً إلاّ حُشِرَ مَعَهُم رواه الطبراني باسناد جيد .

وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ مَعْنَاهُ عن عائِشة باسناد جيد أيضاً عنها مرفوعاً الشِرْكُ أَخفَى مِن دَبِيْبِ الذَّرِ على الصَّفاءِ في اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ ، وأَدْنَاهُ أَنْ تُحِبَّ عَلى شَيءٍ مِن الجَوْرِ ، أَوْ تُبْغِضَ على شيءٍ مِن العَدْلِ وَهَلِ الدِّيْنُ إلا الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ في اللهِ .

يَفْتَخِرْ بَعْضُ المُتَحَذْلِقِيْنَ أَنَّه لَا يَكْره أيَّ انْسانٍ ، ولا يُبْغِضُ أَحداً ، وأَنهُ يَسْلُكُ مَعَ الفَجَرَةِ والفَسَقَةِ ، وَمَعَ أَهْلِ الدِّيْنِ والصَّلاحِ بَلْ وَمَعَ الكَفَرَةِ والمُنَافِقِيْنَ ، وَيُلَقِبُ نَفْسَهُ وَمَن سَلَكَ مَذْهَبَهُ بأنه دُبْلُمَاسِي ، ويَظُنُّ هَذَا فَخراً وَكَرماً في الأَخْلاَقِ وَنُبْلاً وَطِيْباً .

وَلَكِنْ مَنْ لَا يعرف البُغْضَ ، فَلَنْ يَعْرِفَ الحُبَّ وَمَن لَا يَكْرَهُ انساناً عَاصِياً هَيْهَاتَ أن يُحِبَّ عَبْداً مُطِيْعاً إِنْ تُحِبَّ مُؤْمِناً بِسَبَبِ اخلاَصِهِ وَتَقْوَاهُ فَكَيْفَ لَا تُبْغِضُهُ إِذَا زَالَ عَنهُ سَبَبُ الحُبِّ فانْقَلَبَ فَاجِراً مُتَهَتِّكاً ، تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ ولَكِنْ مَا رَأْيُكَ فِيْمَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَظَلَمَ عِبَادَ اللهِ ، مَا رَأْيُكَ في الزّناةِ هَاتِكِيْ الأَعْرَاضِ ، وَمُدْمِنِي الخَمْرَ وَشَارِبي الدُّخَان وحَالِقِي لِحَاهُم ، وأهْلِ الخَنَافِسِ والتَّشَبُّهِ بأَعْدَاءِ اللهِ أَعْـدَاءِ الإِسلامِ وَمَن يَشْهَدُوْنَ الزُوْرَ ولا يَشْهَدُوْنَ صَلاةَ الجَمَاعَةِ ، وَيَغْتَصِبُونَ الحُقُوقَ وَيُؤْذُوْنَ العِبَاد وَيَخُوْنُونَ الدِيْنَ والبِلَادَ هَلْ تُحِبُّهُمْ أَوْ تُبْغِضُهُم لِله فتِشْ عَن قَلْبِكَ وَحَاسِبْ نَفْسَكَ هَلْ تُحِبُّهُمْ فَتُعِيْنُهُم على الظُلْمِ أَمْ تُبْغِضُهُم وَتَحْقِرُهُم وَتُنَابِذُهُم وَتَبْتَعِدُ عَنهُم عَسَى أَنْ يَرْجِعُوا عن غيْهِم وَبَغْيِهِم لا مَفَرَّ مِن أَنْ يَكُونَ لَنَا أَعْدَاءُ نُبْغِضُهُمْ في اللهِ كَمَا يَكُونُ لنا أَصْدِقَاءُ نُحِبُّهُم في اللهِ .

فَيا عِبَادَ اللهِ تَقَرَّبُوا إِلى اللهِ بِبُغْضِ أَهْـلِ المَعَاصِيْ والـظَّلَمَةِ والمُنَـافِقِينَ كَمَا تَتَقـرَّبُونَ إِليـهِ بِحُبِّ الصَّالِحِيْنَ ، أَشْعِـرُوْهُمْ بِمَقْتِكُم لِآثَامِهِم ، وسَخَطِكُم عَلَى إِجْرَامِهِم ، ولا تَتَسَامَحُوْا فِيْمَا يَمَسُّ الدِّيْنَ وَلَا تَصْفَحُونَ عَمَّنْ يُحَارِبُ رَبَّ العَالَمِيْنَ ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيْبٍ .

قال اللهُ جَلَّ وعَلَا لِأَشْرَفِ الخَلْقِ ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَلِيْلا إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾ ، أَيْ لَوْ مِلْتَ إِلَيْهِمْ لَأَذَقنَاكَ ضِعْفَ عَذَابِ الحياةِ وَضِعْفَ عَذَابِ المَمات أَيْ ضَاعَفْنَا عَلَيْكَ العَذَابَ في الدنيا والآخِرةِ ، لِأَنَّ الذَّنْبَ مِن العَظِيْم يَكُونَ عِقَابُهُ أَشَدَّ مِن غيرِهِ .

وَمِن ثَمَّ يكون عِقَابُ العُلَمَاءِ عَلَى زَلَّاتِهم أَشَدَّ مِن عِقَابِ غَيرِهِم

مِن العَامَّةِ ، لأَنَّهُم يَقْتَدُوْنَ بالعُلَماءِ ، رُوِيَ عَن قَتَادَةَ أنهُ قال لما نَزَلَ قُولُه تعالى ﴿ وإنْ كَادُوْا لَيَفْتِنُونكَ عن الذي أَوْحَيْنَا إليْكَ﴾ الخ قال صلى اللهُ عليه وسلم « اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِيْ إلى نَفْسِيْ طَرْفَةَ عَيْن » .

فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِن أنْ يَتَدَبَّرَ هَذِه الآيةَ وَيَسْتَشْعِرَ الخَشْيَةَ وَيَسْأَلَ الله أَنْ يُثَبِّتَهُ ، وَيَسْتَمْسِكْ بِأَهْدَابِ دِيْنِهِ ، وَيُكْثِرَ مِن قَولِ يا مُقَلِّبَ القُلُوبَ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ وَيَقُولَ كَمَا قالَ صَلى اللهُ عليهِ وسلم«اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِي إلى نَفْسِيْ طَرْفَةَ عَيْنٍ » فإذا كانَ هَذَا الخِطَابُ لِأَشرَفِ الخَلْقِ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِ .

وقال تعالى آمِراً رسولَهُ صلى اللهُ عليه وسلم بالإعْرَاضِ عَمَّنْ تَوَلَّى وَأَعْرَضَ عن الذِكْرِ الحَكِيْمِ والقُرآنِ العَظِيم ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَولَّى عن ذِكْرِنَا ولَمْ يُرِدْ إلَّا الحياةَ الدُنيا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِن العِلم﴾ وعلى العَكْسِ مَن أَقبلَ على كِتَابِ اللهِ وَوَقَّرَهُ وَقَدَّرَهُ وأَحَبَّهُ واتَّبعَهُ وَدَعَى إليه نَسْأَلُ اللهَ العظيمَ أنْ يَغْرِسَ مَحَبَّتَهُ في قُلُوبِنَا وَيَرْزُقَنَا تِلَاوَتَهُ والعَمَل بِهِ .

وقال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « مَنْ أَحَبَّ في اللهِ وعَادَى في اللهِ وَأَبْغَضَ في اللهِ وَوَالَى في اللهِ فإنَّمَا تُنَال وِلَايَةُ اللهِ بِذلِكَ » ، رواه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم .

وفي حديث رواه أبو نعيم وغيره عن ابن مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَوْحَى اللهُ إلى نَبِيٍ مِن الأَنْبِيَاءِ أَنْ قُلْ لِفُلَانٍ العَابِدَ أَمَّا زُهْدُكَ في الدُنيا فَتَعَجَّلْتَ رَاحة نَفْسِكَ وأما انْقِطَاعُكَ إليَّ فَتَعَزَّزْتَ بِهِ ، فَمَا عَمِلْتَ لِيْ عَلَيْكَ ، قَالَ يَا ربُّ وَمَالَكَ عَليَّ ، قالَ هَلْ وَالَيْتَ لِيْ وَلِياً ، أَوْ عَادَيْتَ لِيْ عَدُواً .

وقال تعالى ﴿ والذينَ كَفروا بعضُهم أولياءُ بَعضٍ إلَّا تَفْعَلُوهُ تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير ﴾ فَعَقَدَ تَعالى المُوالاةَ بيْنَ المُؤْمِنِيْنَ ، وَقَطَعَهُم مِن وِلايَةِ الكَافِرِيْنَ وَأَخْبَرَ أَنَّ الكُفَّارَ بَعْضُهُم أولياءُ بَعْض ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَقعَ فِتْنَةٌ وَفَسَادٌ كَبِيْر ، وكَذَا يَقَعُ فَهَلْ يَتِمُّ الدِّيْنُ أَوْ يُقَامُ عَلَمُ الجِهَادِ وعَلَمُ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ إلا بالحُبِ في اللهِ والبُغْضِ في الله والمُعَادَاةِ في الله والمُوَالاَةِ في اللهِ .

وأَحْبِبْ لِحُبِّ اللهِ مَنْ كَانَ مُؤْمِناً
وَأَبْغِضْ لِبُغْضِ اللهِ أَهْلَ التَّمَرُّدِ
وما الدِّيْنُ إلَّا الحُبُّ والبُغْضُ والوَلاَ
كَذَاكَ البَرَا مِن كُلِّ غاوٍ وَمُعْتَدِ

ولو كَانَ الناسُ مُتَّفِقِيْنَ على طَرِيْقَةٍ وَاحِدةٍ وَمَحَبَّةٍ مِن غَيْرِ عَداوَةٍ ولا بَغْضَاءَ لَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ ولا بَيْنَ المُؤْمِنِينَ والكُفَارِ ولا بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرحمنِ وَأَوْلِياءِ الشيطانِ .

وَمِن مُوَالاةِ الأَعْدَاءِ وَمُصَادَقَتِهم ما يَفْعَلُه كَثِيْرٌ مِن ضُعَفَاءِ الإيمانِ مِن الذهابِ إلى أَعْدَاءِ الله في أَيَّامِ أَعْيَادِهِم فَيَدْخُلُونَ في كَنَائِسِهم وَبُيُوتِهم وَأَنْدِيَتِهم وَيُهَنُّونَهُم بِأَعْيَادِهِم ، والعِيَاذُ باللهِ .

وقَد قِيْلَ في تَفْسِيْرِ قولِهِ تعالى والذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُوْرَ أَنَّ المُرَادَ أَعْيَادُ المُشْرَكِيْنَ وقال عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه إيَّاكُمْ وَرَطَانَةُ الأَعَاجِمِ وأَنْ تَدْخُلُوا على المُشْرِكِين يَوْمَ عِيْدِهِم في كَنَائِسِهِم .

وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اجْتَنِبُوا أَعْدَاءَ اللهِ في عِيْدِهِم ، ومِن الأَعْيَادِ

المُحْدَثَةِ التي لا يَجوزُ لِلْمُسْلِم حُضورُهَا لأَنَّها أَعْيادٌ بَاطِلَةٌ ما يُسَمَّى بِعِيْدِ الاسْتِقْلاَلِ ، وعِيْدِ الجَلاءِ وَعِيْدِ الجُلُوسِ وَعِيْدِ الثَّوْرَةِ ، وَنَحْوِ ذلكَ مِن أَعْيادِ الكَفرَةِ والمُنَافِقِين وَأَتْبَاعِهم .

وقال الشيخُ حَمَدُ بنُ عَتِيْقٍ رَحِمَهُ اللهُ ، ومِن أَعْظَم الوَاجِبَاتِ على المؤمِنِ مَحَبَّةُ اللهِ وَمَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ مِنْ الأَقْوالِ والأعمالِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ وكذا مَا يُحِبُّهُ مِن الأَشْخَاصِ كالملائكةِ ، وصَالِحِ بَنِي آدَمَ ، ومُوَالاتِهِمْ وَبُغْضِ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ ، مِن الأَقْوالِ والأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ ، وَبُغْضِ مَن فَعَلَ ذَلكَ فاذا رَسَخَ هَذَا الأصلُ في قَلْبِ المُؤْمِنِ لم يَطْمَئِنَّ إلى عدُوِّ اللهِ ، ولم يُجَالِسْهُ وَلَمْ يُسَاكِنْهُ وَسَاءَ نَظَرُهُ إليهِ .

فَلَمَّا ضَعُفَ هَذَا الأَصْلُ في قُلُوبِ كَثِيْرٍ مِن الناسِ واضْمَحَّلَ صَارَ كَثِيْرٌ مِنهم مَعَ أَوْلِيَآءِ اللهِ كَحَالِهِ مَعَ أَعْدَاءِ اللهِ ، يَلْقَى كُلاً مِنْهُم بِوَجْهٍ طَلِقٍ ، وَصَارَت بِلاَدُ الحَرْبِ كَبِلاَدِ الإسلامِ ، وَلَمْ يُخْشَ غَضَبُ اللهِ الذي لاَ تُطِيْقُ غَضَبَهُ السَّمواتُ والأَرْضُ والجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ قُلْتُ فَكَيْفَ لو رَأى تدفقَ الكفرَة على المسلمين وتدفق الشبابِ على بلادِ الكُفْرِ .

وَلَمَّا عَظُمَتِ الفِتْنَةُ فِتْنَةُ الدُنْيَا ، وَصَارَتْ أَكْبَرَ هَمِّهِمْ ، وَمَبْلَغَ عِلْمِهِم حَمَلَهُم ذَلِكَ عَلى التِمَاسِهَا وَطَلَبِهَا وَلَو بمَا يُسْخِطُ اللهَ ، فَسَافَرُوْا إلى أَعْدَاءِ اللهِ في بِلاَدِهِم ، وَخَالَطُوهُمْ في أَوْطَانِهِم وَلَبَّسَ عَلَيْهِم الشَيطانُ أَمْرَ دِيْنِهِم فَنَسُوا عَهْدِ اللهِ وَمِيْثَاقَهُ الذي أَخَذَ عَلَيهم ، في مِثْلِ قَولِهِ وما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوْهُ ، وما نَهاكُم عَنه فَانْتَهُوْا .

وقال تَعَالى لَمَّا ذَكَر حَالَ المُنَافِقِيْنَ ﴿ أُولئكَ الذينَ يَعْلَمُ اللهُ ما في

قُلُوبِهِم ، فَأَعْرِضْ عَنْهُم وعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُم في أَنْفُسِهِم قَولاً بَلِيْغاً ﴾ قال بعضُ المُفَسِرِيْنَ ، أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صلى اللهُ عليهِ وسلم بالإعْرَاضِ عَن المُنَافِقِينَ واغْلَاظِ القَولِ عَلَيْهِم وأَنْ لَا يَلْقَاهُم بوجْهِ طَلِقٍ ، بَلْ يَكُونُ وَجْهُهُ مُكْفَهِراً عَابِساً مُتَغَيِّراً مِن الغَيْظِ فاذا كَانَ هَذَا مَعَ المنافقين ، الذينَ بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ ، يُصَلُونَ مَعَهُم وَيُجاهِدُوْنَ مَعَهُم وَيَحُجُّون فَكَيْفَ بِمَنْ يُسَافِرُ إلى المُشْرِكِينَ وَأَقامَ بَيْنَ أظهُرِهِمْ أَيَّاماً وَلَيَالِياً واسْتَأْذَنَ عَلَيهِم في بُيُوتِهِم وَبَدَأَهُم بالسَّلامِ وَأَكْثَرَ لَهُم التَّحِيَّةَ وَأَلآن لَهُمْ الكَلامَ وَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ إلا طلبُ العَاجِلَةِ ولم يَجْعَلِ اللهُ الدُنْيا عُذْراً لِمَن اعْتَذَرَ بِهَا قال تعالى ﴿ قل إنْ كَانَ آباؤكُم ﴾ الآية .

وقال في آخِرِ كَلَامِهِ : فالوَاجِب على العاقلِ الناصحِ لِنفسهِ النَّظَرُ في أَمْرِهِ والفِكْرُ في ذُنُوبِهِ وَمُجَاهَدَةُ نَفْسِهِ على التَّوبَةِ النَّصُوحِ ، والنَّدَمُ على مَا فَاتَ ، والعَزِيْمَةُ عَلى أن لا يَعُودَ ، والتَّبديلُ بالعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَقْدِيمُ مَحَبَّةِ الله على جَمِيْعِ المَحَابّ وايثَارُ مَرْضَاتِهِ على حُظُوظِ النَّفسِ ، فَانَّ كُلَّ شَيءٍ ضَيَّعَهُ ابْنُ آدمَ رُبَّمَا يَكُونُ لَهُ مِنه عَوَضٌ ، فإن ضَيَّعَ حَظَّهُ مِن اللهِ لم يَكُنْ له عِوَضٌ ، قُلْتُ وقد أَحْسَنَ مَن قَال :

« مِنْ كُلِّ شَيءٍ إذا ضَيَّعْتَهُ عَوَضٌ
وَمَا مِن اللهِ أنْ ضَيَّعْتَه عَوَضٌ »

وقَدْ خَابَ مَن كَانَ حَظُّهُ مِن اللهِ دُنْيَا يَحْتَلِبُ دَرَّهَا ، والخَاسِرُ مَن خَسِر دِيْنَهُ ، وانْ أَفَادَ في دُنْيَاهُ نسأل اللهَ بأسْمائِه الحُسْنَى أن يَأْخُذَ بِنَواصِيْنَا إليه وأن يُلْزِمَنَا كَلِمَةَ التَّقْوَى وأَنْ يَجْعَلَنَا مِن أَهْلِهَا وصلى الله عَلى محمدٍ وآله وسلم .

شـعراً :

بَكَيْتَ فَمَـا تَبْكِيْ شَبَـابَ صَبَـاكَـا
كَفَـاكَ نَـذِيْـرُ الشَّيْبِ فِيْـكَ كَفَـاكَـا
أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الشَيْبَ قَـدْ قَـامَ نَـاعِيـاً
مَكَـانَ الشَّبَـابِ الغَضّ ِ ثُمَّ نَعَـاكَـا
أَلَـمْ تَـرَ يَـوْمـاً مَـرَّ إلا كَـأَنَّـهُ
بـاهـلاكـه لِلْهَـالِكِيْـنَ عَـنَـاكَـا
أَلاَ أَيُّهَـا الفَانِي وقَـدْ حَـانَ حَيْنُـهُ
أَتَــطْمَـعُ أَنْ تَـبْقَى فَلَسْـتَ هُنَـاكَـا
سَتَمْضِيْ وَيَبْقَى مَـا تَـرَاهُ كَمَـا تَـرَى
فَـيَنْسَـاكَ مَـنْ خَـلَّفْتَـهُ هُـوَ ذَاكَـا
تَمُـوتُ كَمَـا مَـات الَّـذينَ نَسِيْتَهُمْ
وَتُنْسَى وَيَهْـوى الحَيُ بَعْدَ هَـوَاكَـا
كَـأَنَّـكَ قَـدْ أُقْصِيْتَ بَعْـدَ تَـقَـرُّبٍ
إِلـيْـكَ وَإِنْ بَـاكٍ عَـلَيْـكَ بَـكَـاكَـا
كَـأَنَّ الـذيْ يَحْثُـوْ عَلَيْـكَ مِن الثَّـرَى
يُـرِيْـدُ بِمَـا يَحْثُـو عَلَيْـكَ رِضَـاكَـا
كَـأَنَّ خُطُوْبَ الـدَّهْرِ لَمْ تَجْـرِ سَـاعَـةً
عَلَيْـكَ اذا الخَـطْبُ الجَلِيْـلُ دَهَـاكَـا
تَـرَى الأَرْضَ كَمْ فِيْهَـا رُهُـونٌ كَثِيْـرَةٌ
غَـلِقْنَ فَـلَمْ يَحْـصُـلْ لَهُـنَّ فِكَـاكَـا

اللهم انا نسألك التوفيقَ لِلْهدايةِ والبُعدَ عن أسبابِ الجهالةِ والغِوَايَةِ ونسألك الثباتَ على الاسلامِ والسنةِ ، وأن لا تَزِيْغَ قُلُوبَنَا بَعدَ اذ هَدَيْتَنَا ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن مُضِلاَتِ الفِتَنِ ، مَا ظَهَرَ منها ومَا بَطَنَ ونسألكَ أَنْ تَنْصُرَ دِيْنَكَ ، وَكِتَابَكَ ورسولكَ وعبادَكَ المؤمنين وأن تُظْهِرَ دِيْنَكَ على الدين كلِهِ ولو كره الكافِرون والله أعلم وصلى الله على محمد .

(فَصْــلٌ)

وقال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ الله تعالى :

ومِن تمامِ مَحَبَّةِ اللهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئاً مِمَّا كَرِهَهُ اللهُ ، أَوْ كَرِهَ شَيْئاً مِمَّا يُحِبُهُ اللهُ ، لم يَكْمُلْ تَوْحِيْدُهُ وصِدْقُهُ في قَولِهِ لَا إِلهَ إلا اللهُ ، وكانَ فِيه مِن الشِرْكِ الخَفي بحَسَبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا أَحَبَّه اللهُ ، وَمَا أَحَبَّه مِمَّا يَكْرَهُهُ الله .

قال اللهُ تعالى ﴿ ذلكَ بأنَّهم اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فأحْبطَ أَعْمالَهُم﴾وقال الحسنُ إعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُحِبَّ اللهَ حَتَّى تُحِبَّ طَاعَتَهُ وقال بَعْضُهم كُلُّ مَن ادَّعى مَحَبَّةَ اللهِ ولم يُوافِقِ اللهَ في أَمْرِهِ فَدَعْوَاهُ بَاطِلَةٌ .

وقال يَحْيَى بنُ مُعَاذٍ لَيْسَ بِصَادِقٍ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللهِ ولم يَحْفَظْ حُدُوْدَه ، وقال رُوَيْمُ المَحَبَّةُ الموافقَةُ في جَمِيْعِ الأحوالِ وانشد يقول :

« وَلَـوْ قُلْتَ لِيْ مُتْ مُتُّ سَمْعـاً وَطَـاعَـةً
وَقُلْتُ لِـدَاعِيْ المَـوْتِ أَهْــلًا وَمَـرْحَبَـا »

وَيَشْهَدُ لِهَذَا المَعْنَى قولُه تعالى ﴿ قُلِ إن كُنْتُم تُحِبُونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي يُحِبْبْكُم اللهُ ﴾ وقالَ الحَسَنُ قالَ أَصْحَابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : إنَّا نُحِبُ رَبَّنَا حُباً شَدِيْداً ، فَأَحَبَّ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لِحُبِّهِ عَلَامَةً فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآية .

ومِنْ هُنَا يُعْلَمُ أَنَّه لا تَتِمُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ إلَّا بِشَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ ، فإذا عُلِمَ أَنَّهُ لَا تَتِمُ مَحَبَّةُ اللهِ إلا بِمَحَبَّةِ ما يُحِبُّهُ وَكَرَاهَةِ مَا يَكْرَهُهُ ، فَلَا طَرِيْقَ إِلى مَعْرِفَةِ مَا يُحِبُّهُ وَيَكْرَهه إلَّا باتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ واجْتِنَابِ ما نَهَى عَنْهُ ، فَصَارَتْ مَحبَّتُهُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِمَحَبَّةِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم وَتَصْدِيْقِهِ وَمُتَابَعَتِهِ .

وَلِهَذَا قَرَنَ اللهُ مَحَبَّتَهُ وَمَحبَّةَ رَسُولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ قُلِ انْ كَانَ آباؤُكُم وأَبْنَاؤُكُم وإخْوانُكُم ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِن اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ كَمَا قَرَنَ طَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ في مَوَاضِعَ كَثِيْرَةٍ .

وقال صَلَّى اللهُ عليه وسلم ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمانِ ، أنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إِليهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وأَنْ يُحِبَّ المرءَ لَا يُحِبُهُ إلا لِلهِ ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرْجِعَ إِلى الكُفْرِ بَعْد إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى في النارِ ، وَهَذِهِ حَالَةُ السَّحَرَةِ لَمَّا سَكَنَتْ المَحَبَّةُ في قُلُوبِهِم سَمَحُوا بِبَذْلِ نُفُوسِهِم ، وقالُوا لِفِرْعَونَ اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ .
وَمَتى تَمَكَّنَتِ المَحَبَّةُ مِن القَلْبِ لَمْ تَنْبعِثِ الجَوَارِحُ إلَّا إلى طاعةِ الربِ ، وَهَذا مَعْنَى الحَدِيْثِ الإلهي « ولا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ

وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ التي يَمْشِيْ بها » وفي بَعْضِ الرِوَايَاتِ فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ .

والمَعْنَى أَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ إِذَا اسْتَغْرَقَ بِهَا القَلْبُ واسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ لَمْ تَنْبَعِث الجَوَارِحُ إِلَّا إِلى رِضَا الرَّبِ ، وَصَارَتِ النَّفْسُ مُطْمَئِنَةً حِيْنَئِذٍ بإِرادَةِ مَوْلَاهَا عَن مرادِهَا وَهَواهَا ، وفي بعض الكتب السابقة مَن أحَب الله لم يكن شيء عِنْدَهُ آثر من رضاه .

وقال : لا يَنْجُو غداً إِلَّا مَن أَتَى اللَّهَ بقَلْبٍ سَلِيْم ، لَيْسَ فِيْهِ سِواهُ ، قال تعالى ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ إِلَّا مَن أَتَى اللهَ بقَلْبٍ سَلِيْم ﴾ وهُوَ الطَّاهِرُ مِن أَدْنَاسِ المُخَالَفَاتِ .

فأَمَّا المُتَلَطِّخُ بِشَيءٍ مِن المُكْرُوْهَاتِ ، فَلَا يَصْلَحُ لِمُجَاوَرَةِ حَضْرةِ القُدُّوْسِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُطَهَّرَ بِكِيْرِ العَذَابِ فإِذَا أَزَالَ عَنْهُ الخَبَثَ صَلَحَ حِيْنَئِذٍ لِلْمُجَاوَرَةِ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا ، فأَمَّا القُلُوبُ الطَّيبَةُ فَتَصْلُحُ لِلْمُجَاوَرَةِ مِن أَوَّلِ الأَمْرِ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكم بما صَبَرْتُم فَنِعْمَ عُقْبَي الدَّارِ﴾ ﴿سلامٌ عَلَيْكُم فادْخُلُوْهَا خالدْين﴾ ﴿ الذينَ تَتوفاهُم الملائكةُ طَيِّبِيْنَ يقولون سَلام عليكم ادخُلُوا الجنةَ بما كنتم تعملون ﴾ .

مَنْ لَمْ يُحرِّقْ نَفْسَهُ اليومَ بِنَارِ الأَسَفِ عَلى مَا سَلَفَ أَوْ بِنَارِ الشَّوْقِ إِلى لِقَاءِ الحَبِيْبِ ، فَنارُ جهنَّم أَشَدُّ حراً ما يَحْتَاجُ إِلى تَطْهِيرٍ بِنَارِ جَهَنَّمَ إِلا مَنْ لَمْ يُكَمِّلِ التَّوْحِيْدَ والقِيَامَ بحُقُوقِهِ .

أَوَّلُ مَن تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ مِن المُوَحِّدِيْنَ المُرَاؤُوْنَ بأَعْمَالِهِم وَأَوَّلُهُم العَالِمُ والمُتَصَدِّقُ والمُجَاهِدُ لِلرِّيَاءِ ، ولأَنَّ الرِيَاءَ شِرْكٌ ما تَظَاهَرَ المُرائِي

إلى الخَلْقِ بعَمَلِهِ إلا لِجَهْلِهِ بِعَظَمةِ الخَالِقِ ، المُرَائِي يُزَوِّرِ التَّوْقِيْعَ على اسْمِ المَلِكِ لِيَأخُذَ البَرَاطِيْلَ لِنَفْسِهِ ، وَيُوْهِمُهُمْ أَنَّهُ مِن خاصَّةِ المَلِكِ ، وَهُوَ مَا يَعْرِفُ المَلِكَ بالكُلِّيَةِ ، نَقَشَ المُرَائِي عَلى الدِّرْهَمِ الزَائِفِ اسْمَ المَلِكِ لِيُرَوِّجَ والبَهْرَجُ لا يَجُوْزُ إلاَّ على غَيْرِ النَّاقِدِ .

وقال ابنُ القِيَم رَحِمَهُ اللهُ مَن أَحَبَّ شَيْئاً سِوَى اللهِ ولم تَكُنْ مَحَبَّتُهُ لَهُ لِلهِ ولا لِكَوْنِهِ مُعِيْناً لَهُ على طاعةِ اللهِ ، عُذِّبَ بِهِ في الدنيا قَبْلَ اللِّقَا كما قِيْلَ :

أَنْتَ القَتِيْلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ
فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ في الهَوَى مَن تَصْطَفِي

فإذا كانَ يومُ القِيَامَةِ ، وَلَّى الحَكَمُ العَدل سُبْحَانَهُ كُلَّ مُحِبٍّ ما كَانَ يُحِبُّهُ في الدُّنْيَا فَكَانَ مَعَهُ إمَّا مُنَعماً وإمَّا مُعَذَّبَاً ، ولِهَذَا يُمَثَّلُ لِمُحِبِ المَالِ مَالُهُ شُجَاعاً أَقْرَع ، يَأْخُذُ بِلِهْزَمَتَيْهِ ، يَقُولُ أَنا مَالُكَ أنا كَنْزُكَ وَيُصَفَّحُ لَهُ صَفَائِحَ مِن نَارٍ يُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ ، وَجَبِيْنُهُ ، وَظَهْرُهُ .

وكذا عَاشِقُ الصُوَرِ إِذَا اجْتَمَعَ هُوَ وَمَعْشُوْقُهُ على غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ ، جُمِعَ بَيْنَهُمَا في النارِ وَعُذِّبَ كُل مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ ، قال تعالى ﴿ الأخلاءُ يومَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ إلا المُتقِيْنَ ﴾ وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الذينَ تَوادُوْا في الدُنْيَا عَلَى الشِرْكِ يَكْفُرُ بَعْضُهم بِبعْضٍ يوْمَ القِيامَةِ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُم بَعْضاً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَمَالَهُمْ مِن نَاصِرِين .

فالمُحِبُّ مَعَ مَحْبُوْبِهِ دُنْيَاً وأُخْرَى ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى يومَ القِيَامَةِ لِلْخَلْقِ أَلَيْسَ عَدْلاً مِنِّي أَنْ أُولِيَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُم ما كَانَ يَتَولَّى في دَارِ

الدُنْيَا قال صلى الله عليه وسلم المَرْءُ مَن أَحَبَّ .

وقال تعالى ﴿ ويومَ يَعَضُ الظَّالِمُ على يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيْلَا يا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لم أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيْلَا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وكان الشيطانُ لِلإنسانِ خذولا ﴾ .

وقال تعالى ﴿ أُحْشُرُوْا الذينَ ظَلَمُوا وأَزْوَاجَهُم ومَا كَانُوا يَعْبُدونَ مِن دون الله ﴾ إلى قوله ما لكم لا تناصرون ، قال عُمَرُ بـنُ الخطابِ رضي الله عنه أَزْوَاجَهُم أَشْبَاهمُ وَنُـظَرَاؤُهُم ، وقال تعـالى ﴿ وإذا النُفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .

فَقُرِنَ كُلُّ شَكْلٍ إلى شَكْلِهِ ، وَجُعِلَ مَعَه قَرِيْنَا وَزَوْجاً ، البَرُّ مَعَ البَرِ والفَاجِرُ مَعَ الفَاجِرِ .

والمَقْصُودُ أَن مَنْ أَحَبَ شَيْئاً سِوَى اللهِ فالضَّرَرُ حاصِلٌ لَهُ بِمَحْبُوبِهِ إِنْ وُجِدَ وَإِن فُقِدَ ، فإِنَّهُ إنْ فَقَدَهُ عُذِبَ بِفَوَاتِهِ ، وَتَأَلَّمَ على قَدْرِ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِهِ ، وانْ وَجَدَهُ كَانَ مَا يَحْصُلُ له مِنَ الألمِ قَبْلَ حُصُولِهِ ، ومِن النَّكَدِ في حَالِ حُصُوْلِهِ ، وَمِن الحَسْرَةِ عليهِ بَعْدَ فَوَاتِهِ ، أَضْعَافُ مَا فِي حُصُولِهِ لَهُ مِن اللَّذَةِ .

وَهَذَا الأَمْرُ مَعْلُومٌ بالاسْتِقْرَاءِ ، والاعْتِبَارِ ، والتَّجَارُبِ ولِهَذَا قَالَ النَّبِيُ صلَّى اللهُ عليه وسلم في الحديثِ الذي رواه الترمذي وَغَيْرُهُ الدنيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيها إِلَّا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاهُ .

فَذِكْرُهُ جَمِيْعُ أَنْوَاعِ طَاعَتِهِ فَكُلُ مَن كانَ في طَاعَتِهِ فَهُوَ في ذِكْرِهِ ، وانْ لَمْ يَتَحَرَّكْ لِسَانُهُ بالذِكْرِ ، وَكُلُّ مَن وَالاهُ اللهُ فقد أَحَبَّهُ وَقَرَّبَهُ فاللَّعْنَةُ لا تَنالُ ذلك بِوَجْهٍ وَهِيَ نَائِلَةُ كُلَّ ما عَداه .

مَــوعظَــة

عِبَادَ اللهِ إنَّ لِكَلِمَةِ التَّوْحِيْدِ فَضَائِلُ عَظِيْمَةٌ لا يُمْكِنُ اسْتِقْصَاؤُهَا مِنْهَا أَنَّها كَلِمَةُ الإِسلامَ وأَنَّهَا مِفْتَاحُ دَارِ السَّلامِ فَيا ذَوِيْ العُقُولِ الصِّحَاحِ وَيَا ذَوِيْ البَصَائِرِ والفَلَاحِ جَدِّدُوْا إِيْمَانَكُم في المَسَاءِ والصَّبَاحِ بِقولِ لَا إلهَ إلا اللهُ مِن أَعْمَاقِ قُلُوبِكُم مُتأَمِلِّيْنَ لِمعْنَاهَا عامِلِيْنَ بِمُقْتَضَاهَا .

عِبَادَ اللهِ مَا قَامَتِ السَّمَواتُ والأَرْضُ ولا صَحَّتِ السُّنَّةُ والفَرْضُ ولا نَجَا أَحَدٌ يَومَ العَرْضِ إلَّا بِلاَ إِلَه إلا اللهُ ولا جُرِّدَتْ سُيُوفُ الجِهَادِ ، ولا أُرْسِلَتِ الرُسُلُ إِلى العِبَادِ ، إلا لِيُعَلِّمُوهم العَمَلَ بِلاَإِلهَ إلا اللهُ .

تَاللهِ إِنَّها كَلِمَةُ الحَقِ ، وَدَعْوَةُ الحَقّ وَأَنَّهَا بَراءَةٌ مِن الشِرْكِ وَنَجاةُ هَذَا الأَمْرِ وَلأَجْلِهَا خَلقَ اللهُ الخَلْقَ ، كَمَا قال تعالى ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا أَنا فَأَعْبُدُوْن ﴾ وقال تعالى ﴿ يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بالرُوحِ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوْا أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلا أَنَا فاتَّقُوْنِ ﴾ .

قال ابنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ ما أَنْعَمَ اللهُ على عبدٍ مِن العِبَادِ نِعْمَةً أَفْضَلَ مِن أنْ عَرَّفَهُ لَا إِلهَ إِلا اللهُ ، وإِنَّ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ كَالمَاءِ البَارِدِ لِأَهْلِ الدُنْيَا وَلِأَجْلِهَا أُعِدَّتْ دَارُ الثَّوابِ ، وَدَارُ العِقَابِ وَلِأَجْلِهَا أَمِرَتِ الرُسُلُ بالجِهَادِ .

فَمَن قَالَهَا عَصَمَ مَالَهُ وَدَمَهُ ، وَمَن أَبَاهَا فَمَالُهُ وَدَمُهُ حَلَالٌ ، وَبِهَا كَلَّمَ اللهُ مُوْسَى كِفَاحاً وَهِيَ أَحْسَنُ الحَسَنَاتِ كَمَا في المُسْنَدِ عن شَدَّادِ

بنِ أَوْسٍ ، وَعُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنهما أَنَّ النَّبِيَ صلَّى اللهُ عليه وسلم قالَ لِأَصْحَابِه ، ارْفَعُوا أَيْدِيَكُم وَقُولُوا لَا إِلَه إلا اللهُ ، فَرَفَعْنَا أَيْدِينَا سَاعَةً فَوَضَعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم يَدَهُ وقَالَ الحَمْدُ لِلهِ اللَّهُم بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الكَلِمَةِ ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا وَوَعَـدْتَنِي الجَنَّةَ وإِنَّـكَ لا تُخْلِفُ المِيْعَاد .

ثُم قَالَ أَبْشِرُوْا ، فانَّ اللَّهَ قَد غَفَرَ لَكُمْ وَهِيَ أَحْسَنُ الحَسَنَات ، وَهِيَ تَمْحُو الذُّنُوبَ والخَطَايَا .

وفي سنن ابنِ مَاجَةَ عَن أُمِّ هَانِيءٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لَا إِلَهَ إِلا اللهُ لا تَتْرُكْ ذَنْباً ولا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ ، وَرُوِيَ بَعْضُ السَّلَفِ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي المَنَامِ فقَالَ مَا أَبْقَتْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ شَيْئاً وَهِيَ تُجَدِّدُ مَا دَرَسَ مِن الإِيمانِ في القَلْبِ .

وفي المسندِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال لِأَصْحَابِهِ جَدِّدُوْا إِيْمَانَكُم قَالُوا كَيْفَ نُجَدِدُ إِيْمَانَنَا قَالَ قُوْلُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وهيَ الَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيءٌ في الوَزْنِ ، فَلو وُزِنَتْ بالسمواتِ والأَرْضِ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ .

كَمَا فِي المسندِ عن عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ نُوحاً عليهِ السلامُ قالَ لِابْنِهِ عندَ مَوْتِهِ آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فانَّ السمواتِ السبعَ والأَرضِينَ السَّبْعَ لَو وُضِعْنَ في كفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ بِكَفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ وَلَوْ أَنَّ السَّمواتِ السبعَ والأَرضِينَ كُنَّ فِي حَلَقَةٍ مُبْهَمَةٍ فَصَمَتْهُنَّ لا إِلَهَ إِلا اللهُ .

وإِنَّهَا تَرْجَحُ بالسمواتِ والأَرْضِ كَمَا في حَدِيْثِ عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ

رَضِيَ اللهُ عنهُ أَنَّ مُوْسَى عليه السلامُ قالَ يَا رَبُّ عَلِّمْنِيْ شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوْكَ بِهِ ، قال يَا مُوْسَى قُلْ لَا إِلَـهَ إلا اللهُ قال مُوسى يا ربُّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا .

قال يَا مُوسَى قُلْ لَا إِلَهَ إلا اللهُ قال لا إِلَهَ إلا اللهُ إِنَّما أُرِيْدُ شيئاً تَخُصُّنِي بِهِ ، قَالَ يَا مُوْسَى لَوْ أَنَّ السمواتِ السبعَ والأَرضِيْنَ السَّبْعَ وَعامِرَهُنَّ غَيْرِي في كفَّةٍ ولا إِلـهَ إِلَّا اللهُ في كفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلـهَ إِلا اللهُ .

وكذلكَ تَرْجحُ في صَحَائِفِ الذُنُوْبِ ، كَمَا في حَدِيْثِ السِّجلاتِ ، والبِطَاقَةِ ، وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمـروٍ فِيْمَا أخرجه أحمدُ والنسائِيُّ والترمذيُّ عن النبي صلَّى الله عليه وسلم .

وهِيَ التي تَخرِقُ الحُجُبَ ، حَتَّى تَصِلَ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وإِنَّهَا لَيْسَ لَها دُوْنَ اللهِ حِجَابِ ، لِمَا تَقَدَّمَ وَلِمَا في التِرمِذِي عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو وعن النبي صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ لَا إِلـهَ إِلَّا اللَّهُ لَيْسَ لَها دُوْنَ اللَّه حِجَاب .

وَأَنَّهَا تُفْتَحُ لَهَا أَبْوابُ السَّمَاءِ كَمَا في حَدِيْثِ أَبِي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم أنه قَالَ مَا مِن عَبْدٍ قال لَا إِلـهَ إِلَّا اللهُ مُخلصاً إلا فُتِّحَتَ لهَا أَبْوابُ السماءِ حتى تُفْضِيْ إِلى العَرْشِ .

وَيُرْوَى عن ابن عباسٍ رضِيَ اللهُ عنهما مَرْفُوْعَاً مَا مِنْ شَيْءٍ إلا بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ ، إلا قولُ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ كَمَا أَنَّ شَفتيْكَ لا تَحْجِبُهَا كذَلِكَ لا يَحْجِبُهَا شَيْءٌ حَتَّى تَنْتَهِيْ إلى اللهِ عَزَّ وَجلَّ .

وَوَرَدَ عن النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ قال لَا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَه ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ وَهو على كُلِّ شيءٍ قَدِيْر مُخْلِصاً بِهَا قَلْبُهُ يُصَدِّقُ بِهَا لِسَانُهُ إلا فَتَقَ اللهُ لَهُ السَّمَاءَ فَتْقاً حَتَّى يَنْظُرَ إلى قَائِلِهَا مِن أَهْلِ الأَرْضِ ، وَحَقٌّ لِعَبْدٍ نَظَرَ اللهُ إِليهِ أَنْ يُعْطِيَهُ سُؤآلَهُ ، وهِيَ الكَلِمَةُ التِي يُصَدِّقُ اللهُ قَائِلَهَا .

كَمَا في حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلم قالَ إذا قَالَ العبدُ لا إلهَ إلَّا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ صَدَّقَهُ رَبُّهُ . وَقَال لَا إلـهَ إلا أَنَا ، وأَنا أَكْبَرُ ، وإِذَا قال لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ قَالَ اللهُ لَا إلـهَ إلَّا أَنَا وَحْدِيْ لَا شَرِيْكَ لِيْ ، وَإِذا قَالَ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريك لَه ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ، قال اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لِيْ المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ ، وإِذَا قَالَ العَبْدُ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ ولَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلا باللهِ قَالَ اللهُ لَا إِلَهَ إلَّا أَنا ولا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلا بِيْ وكَانَ يَقُولُ مَن قَالَهَا في مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَم تَطْعَمْهُ النارُ .

وهيَ أَفْضَلُ مَا قَالَهُ النَّبِيُونَ كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ في دُعَاءِ عَرَفَةَ وهِيَ أَفْضَلُ الذِكْرِ كَمَا في حَدِيْثِ جَابِرِ المَرْفُوعِ أَفْضَلُ الذِكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وعن ابن عباس رَضِيَ الله عنهما أَحَبُّ كَلِمَةٍ إلى اللهِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، لا يَقْبَلُ اللهُ عَمَلاً إلا بِهَا .

وهِيَ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ، وَأَكْثَرُهَا تَضْعِيْفاً وَتَعدِلُ عِتْقَ الرِّقَابِ وَتَكُونُ حِرْزاً مِن الشَّيْطَانِ ، كما في الصَّحِيْحَيْنِ عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم قالَ مَن قال لَا إلـهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ في يَومٍ مَائَة

مَرَّةٍ ، كَانَتْ لَهُ عِدْلُ عَشْرُ رِقَابٍ ، وكُتِبَ لَهُ مائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَ عَنه مائَةُ سَيِّئَةٍ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدُ بِأَفْضَلَ مِمَّا جاءَ بِهِ ، إلَّا وَاحِدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنَ ذَلِكَ .

وَوَرَدَ أَنَّ مَن قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنَ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِن وَلَدِ اسْمَاعِيلَ ، وفي الترمذي عن عُمَرَ مَرْفُوعَاً مَن قَالَهَا إذا دَخَلَ السُوقَ وَزادَ فِيهَا يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوْتُ بِيَدِهِ الخيرُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيْرٌ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلَفَ أَلَفِ حَسَنَةٍ وَمَحى عنه أَلْفَ سَيِّئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ أَلفَ ألفِ دَرَجَةٍ وفي روايةٍ يُبْنَي لَهُ بَيْتاً في الجَنَّةِ .

وَمِن فَضَائِلِهَا أَنَّهَا أَمَانٌ مِن وَحْشَةِ القَبْرِ وَهَوْلِ المَحْشَرِ كَمَا في المُسْنَدِ وَغيرِهِ عن النبي صلَّى الله عليه وسلم لَيس على أَهْلِ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْشَةٌ في قُبُوْرِهِم ولا في نُشُوْرِهِم ، وَكَأَنِّيْ بأهلِ لا إِلَهَ إلا اللهُ يَنْفُضُوْنَ التُرَابَ عن رُؤُوسِهِم وَيَقُوْلُونَ الحمـدُ لِلهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّـا الحَزَنَ .

وفي حديثٍ مُرْسَلٍ مَنْ قَالَ لَا إِلـهَ إِلَّا اللهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبِيْنُ كُلَّ يَوْمٍ مائَةَ مَرَّةٍ كانت أَمَاناً مِن الفَقْرِ ، وَأُنساً مِن وَحْشَةِ القَبْرِ ، واسْتُجْلِبَ بِهِ الغِنَى ، واسْتُقْرِعَ بِهِ بَابُ الجَنَّةِ وَهِيَ شِعَارُ المُؤْمِنِيْنَ إذا قَامُـوْا مِن قُبُورِهِم .

ومِن فَضَائِلِهَا أَنَّها تَفْتَحُ لِقَائِلِهَا أَبْوَابَ الجَنَّةِ الثَّمانِيَةَ ، يَدْخُلُ مِن أَيِّهَا شَاءَ وفي الصَّحِيْحَيْنِ عن عُبَادَةَ بنِ الصامِتِ رَضِيَ الله عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم قالَ مَن شَهِدَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُوَرَسُولُهُ ، وأَنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا

إلى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ ، وأنَّ الجَنَّةَ حَقٌ ، والنارَ حَقٌ وأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها ، وأنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ ، فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوابُ الجَنَّةِ الثَّمانِيَةَ يَدْخُلُ مِن أَيِّهَا شَاءَ .

وفي حديثِ عبدِ الرحمن بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلم في قِصَّةِ مَنَامِهِ الطَّوِيْلِ ، وفيه قال رَأَيْتُ رَجُلاً مِن أُمَّتِي انْتَهَى إلى أَبْوَابِ الجَنَّةِ فأُغْلِقَتْ دُوْنَهُ ، فَجَاءَتْهُ شَهادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا اللهُ فَفَتَحَتْ لَهُ الأَبْوَابَ وأَدْخَلَتْهُ الجَنَّةَ .

وَمِن فَضَائِلِهَا أَنَّ أَهْلَهَا وإِنْ دَخَلُوا النَّارَ بِتَقْصِيْرِهِم في حُقُوقِهِم ، فانَّهُم لَا بُدَّ أَنْ يَخْرُجُوا مِنها ، وفي الصحيحينِ عن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم يَقُولُ اللهُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخرِجَنَّ مِنْهَا مَن قالَ لَا إِله إِلَّا اللهُ أهـ .

اللهم عَلِّمْنَا ما يَنْفَعُنَا وانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا ولا تَجْعَلْ عِلْمَنَا وَبالاً عَلَيْنَا اللَّهُمَّ قَوِي مَعْرِفَتَنَا بِكَ وَبِأَسْمَائِكَ وَصِفَاتِكَ وَنَوِّرْ بَصَائِرَنَا وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّاتِنَا يا رَبَّ العالمين واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

قال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله :

رَسَائِلُ اخْوَانِ الصَّفَا والتَّوَدُدِ
إلى كُلِّ ذِيْ قَلْبٍ سَلِيْمٍ مُوَحِّدِ

وَمِن بَعْدِ حَمْدِ اللهِ والشُكْرِ والثَّنَا
صَلاةً وَتَسْلِيْماً عَلَى خَيْرِ مُرْشِدِ
وآلٍ وَصَحْبِ والسلامُ عَلَيْكُمُ
بِعَدِّ وَمِيْضِ البَرْقِ أَهْلَ التَّوَدُّدِ
وَبَعْدُ فَقَدْ طَمَّ البَلاءُ وَعَمَّنَا
مِن الجَهْلِ بالدِّيْنِ القَوِيْمِ المُحَمَّدِي
بِمَا لَيْسَ نَشْكُوْ كَشْفَهُ وَانْتِقَادَنَا
لِغَيْرِ الإلهِ الوَاحِدِ المُتَفَرِّدِ
ولم يَبْقَ إلاَّ النَزْرُ في كُلِّ بَلْدَةٍ
يُعَادِيْهُمُ مِن أَهْلِهَا كُلُّ مُعْتَدِ
فَهُبُّوْا عِبَادَ اللهِ مِن نَوْمَةِ الرَّدَى
إلى الفِقْهِ في أَصْلِ الهُدَى والتَّجَرُّدِ
وَقَدْ عَنَّ أَنْ نُهْدِيْ إلى كُلِّ صَاحِبِ
نَضِيْداً مِن الأَصْلِ الأَصِيْلِ المُؤَطَّدِ
فَدُوْنَكَ مَا نُهْدِي فَهَلْ أَنْتَ قَابِلٌ
لِذَلِكَ أَمْ قَدْ غِيْنَ قَلْبُكَ بالدَّدِ
تَرُوْقُ لَكَ الدُنْيَا وَلَذَّاتُ أَهْلِهَا
كَأَنْ لَمْ تَصِرْ يَوْماً إلى قَبْرِ مَلْحَدِ
فان رمت أَنْ تَنْجُوْ مِن النارِ سَالِماً
وَتُحْظَى بِجَنَّاتٍ وَخُلْدٍ مُؤَبَّدِ
وَرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَأَرْفَهِ حِبْرَةٍ
وَحُوْرٍ حِسَانٍ كَاليَوَاقِيْتِ خُرَّدِ

فَحَقِّقْ لِتَـوْحِـيْـدِ العِبَـادَةِ مُخْـلِصـاً
بِـأَنْـوَاعِـهَـا لِـلَّهِ قصـداً وَجَـرِّدِ
وَأَفْـرِدْهُ بـالتَّعْـظِيْمِ والخَوْفِ والـرَّجَا
وبـالـحُبِّ والـرُّغْبَى إِلـيْـهِ وَجَـرِّدِ
وبـالنَّذْرِ والـذَّبْحِ الـذي أَنْتَ نَـاسِـكٌ
ولا تَسْتَغِثْ إِلَّا بِـرَبِّـكَ تَـهْتَـدِ
وَلَا تَـسْتَـعِـنْ إِلَّا بِـهِ وَبِـحَـوْلِـهِ
لَـهُ خَـاشِيـاً بَلْ خَـاشِعـاً في التَّعَبُّـدِ
وَلَا تَـسْتَـعِـذْ إِلا بِـهِ لَا بِـغَـيْـرِهِ
وَكُنْ لَائِـذاً بـاللَّهِ في كُـلِّ مَقْصَـدِ
إِلَـيْـهِ مُـنِـيْـبـاً تَـائِـبـاً مُـتَـوَكِّـلاً
عَلَيْـهِ وَثِقْ باللهِ ذِيْ العَـرْشِ تَـرْشُـدِ
وَلَا تَـدْعُ إِلَّا الـلَّهَ لا شَـيْءَ غَـيْـرَهُ
فَـدَاعٍ لِـغَـيْـرِ الـلهِ غَـاوٍ وَمُـعْـتَـدِ
وفي صَرْفِهَا أَوْ بَعْضِهَا الشِّرْكُ قَدْ أَتَى
فَجَـانِبْـهُ واحْـذَرْ أَنْ تَجِيءَ بُمؤيِـدِ
وَهَـذَا الذي فِيْـهِ الخصومة قَـدْ جَـرَتْ
عَلَى عَهْـدٍ نُـوْحٍ والـنَّبِي مُحَـمَّـدِ
وَوَحِـدْهُ فـي أَفْـعَـالِـهِ جَـلَّ ذِكْـرُهُ
مُـقِـراً بِـأَنَّ الـلهَ أَكْـمَـلُ سَـيِّـدِ
هُـوَ الخَـالِقُ المُحْيِي المُمِيْتُ مُـدَبِّرٌ
هُـوَ المَالِـكُ الـرَّزَاقُ فـاسْأَلْـهُ واجْتَـدِ

إلى غَيْـرِ ذَا مِن كُلِّ أَفْعَـالِهِ التِي
أَقَـرَّ وَلَمْ يَجْحَـدْ بِهَـا كُـلُّ مُلْحِـدِ
وَوَحِّـدْهُ في أَسْمَـائِـهِ وصِفَـاتِـهِ
ولا تَـتَـاوَلْـهَـا كَـرَأْيِ الـمُـفَـنَّـدِ
فَـلَيْسَ كَمِـثْـلِ اللهِ شَـيْءٌ وَلاَ لَـهُ
سَمِيٌّ وَقُـلْ لاَ كُـفْـوَ للهِ تَـهْـتَـدِ
وَذَا كُـلُّهُ مَـعْـنَـى شَـهَـادَةِ أَنَّـهُ
إِلـٰهُ الـوَرَى حَـقـاً بِـغَـيْـرِ تَـرَدُّدِ
فَحَقِّـقْ لَهَـا لَـفْـظاً وَمَعْنىً فَـإِنَّـهَـا
لَنِعْمَ الـرَّجَا يَـوْمَ اللقَـا لِلْمُـوَحِّـدِ
هِيَ العُـرْوَةُ الـوُثْقَى فَكُنْ مُتَمَسِّكـاً
بِهَـا مُسْتَقِيْمـاً في الطَّرِيْقِ المُحَمَّـدِي
فـكُنْ وَاحِـداً في وَاحِـدٍ وَلِـوَاحِـدٍ
تَـعَـالَـى ولا تُـشْـرِكْ بِـهِ أَوْ تُـنَـدِّدِ
وَمَنْ لَمْ يُقَيِّـدْهَـا بِكُـلِّ شُـرُوْطِهَـا
كَمَـا قَـالَـهُ لأَعْـلاَمُ مِن كُـلِّ مُهْتَـدِ
فَلَيْسَ عَلَى نَهجِ الشَّـرِيْعَـةِ سَالِكـاً
وَلَـكِـنْ عَـلَى آراءِ كُـلِّ ملـدِّدِ
فَـأَوَّلُـهَـا العِـلْـمُ المُـنَـافِي لِضِـدِّهِ
مِن الجَهْـلِ إِنَّ الجَهْلَ لَيْسَ بِمُسْعِـدِ
فَلَوْ كَـانَ ذَا عِلْمٍ كَـثِيْـرٍ وَجَـاهِـلٌ
بِمَـدْلُـوْلِهَـا يَـومـاً فَـبِالجَهْـلِ مُـرْتَـدِ

وَمِن شَـرْطِهَـا وَهُـوَ القَبُـولُ وَضِـدُّهُ
هُـوَ الرَّدُ فـافْهَمْ ذَلِكَ القَيْـدَ تَـرْشُـدِ
كَحَالِ قُرَيْشٍ حِيْنَ لَمْ يَقْبَلُوا الهُـدَى
وَرَدُّوْهُ لَـمَّـا أنْ عَتَـوْا فـي الـتَّـمَـرُّدِ
وَقَـدْ عَلِمُـوْا مِنـهَـا الـمُـرَادَ وَأَنَّـهَـا
تَـدُلُ عَـلَى تَـوحِيْـدِهِ وَالـتَّـفَـرُّدِ
فَقَـالُـوا كَمَـا قَـدْ قَـالَـهُ اللَّهُ عَنْهُمُ
بِسُـوْرَةِ (صَ) فـاعْلَمَنْ ذَاكَ تَهْـتَـدِ
فَـصَـارَتْ بِـهِ أَمْـوَالُهُـمْ وَدِمَـاؤُهُـمْ
حَـلالاً وَأَغْـنَـامـاً لِـكُـلِّ مُـوَحِّـدِ
وَثَـالِثُهَـا الإِخْـلَاصُ فـأعْلَمْ وَضِـدُّهُ
هُـوَالشِّرْكُ بـالمَعْبُـودِ مِن كُـلِّ مُلْحِـدِ
كَـمَـا أَمَـرَ الـلهُ الـكَـرِيْـمُ نَـبِـيَّـهُ
بِسُـوْرَةِ تَـنْـزِيْـلِ الكتـابِ المُـمَـجَّـدِ
ورَابِعُهَـا شَـرْطُ الـمَحَـبَّـةِ فَلْتَكُـنْ
مُـحِبـاً لِـمَـا دَلَّـتْ عَـلَيْـهِ مِـن الـهُـدِ
واخْـلاصُ أَنْـوَاعِ الـعِـبَـادَةِ كُـلِّهَـا
كَـذَا النَّفْيُ لِلشِّـرْكِ المُفَنَّـدِ والـدَّدِ
وَمَـنْ كَـانَ ذَا حُـبٍ لِـمَـوْلَاهُ إِنَّـمَـا
يَـتِـمُّ بِـحُـبِّ الـدِّيْـنِ دِينِ مُحَمَّدِ
فَعَـادِ الـذِيْ عَـادَى لِـدِيْنِ مُحَمَّـدٍ
وَوَالِ الـذِي وَالَاهُ مِن كُـلِّ مُهْـتَـدِ

وَأَحْبَبْ رَسُـولَ اللهِ أَكْمَـلَ مَن دَعَى
إِلى اللهِ والتَّقْـوَى وأَكْمَـل مُـرْشِـدِ

أَحَبَّ مِن الأَوْلَادِ والنَّفْسِ بَـلْ وَمِنْ
جَمِيْعِ الوَرَى والمَالِ مِن كُـلِّ أَتْلَدِ

وَطَـارِفِـهِ والـوَالِـدَيْـنِ كِلَيْـهِـمَـا
بـآبَـائِـنَـا والأُمَّـهَـاتِ فَـنَـفْـتَـدِ

وأَحْبِبْ لِحُبِّ اللهِ مَن كَـانَ مُـؤْمِنـاً
وَأَبْغِضْ لِبُغْضِ اللهِ أَهْـلَ الـتَّمَـرُّدِ

وَمـا الدِّيْنُ إِلَّا الحُبُّ والبُغْضُ والـوَلاَ
كَـذَاكَ البَـرَا مِن كُـلِّ غَـاوٍ وَمُعْتَـدِ

وَخَـامِـسُـهَـا فَـالإِنْـقِيَـادُ وضِـدُّهُ
هُـوَ التَّـرْكُ لِلْمَـأْمُورِ أَوْ فِعْـلُ مُفْسِـدِ

فَتَنْقَـادُ حَقـاً بـالحُقُـوْقِ جَمِيْعِهَـا
وَتَعْمَـلُ بـالمَفْـرُوْضِ حَتْمـاً وَتَقْتَـدِ

وَتَتْـرُكُ مَـا قَـدْ حَـرَّمَ اللهُ طَـائِعـاً
وَمُسْتَسْلِمـاً لِلهِ بـالـقَلْبِ تَـرْشُـدِ

فَمَنْ لَمْ يَكُـنْ لِلهِ بـالـقَلْبِ مُسْلِمـاً
وَلَمْ يَـكُ طَوْعـاً بـالجَـوارِحِ يَنْقَـدِ

فَلَيْسَ على نَهْجِ الشَّـرِيْعَـةِ سَـالكـاً
وإِنْ خَـالَ رُشْـداً مَـا أَتَى مِن تَعَبُّـدِ

وَسَـادِسُـهَـا وَهُـوَ الـيَقِيْـنُ وَضِـدُّهُ
هُوَ الشَّكُ في الدِيْنِ القَوِيْمِ المُحَمَّدِي

وَمَنْ شَــكَّ فَلْيَبْكِي عَلَى رَفْضِ دِيْنِهِ
ويَعْلَمَ أَنْ قَــدْ جَـاءَ يَــوماً بِمَــوْئِـدِ
وَيَـعْلَمْ أَنَّ الـشَّــكَ يَنْفِيْ يَـقِيْنَـهَــا
فَــلا بُـدَّ فِيْهَــا بـالـيَقِيْنِ الـمُؤَكَّــدِ
بِـهَــا قَلْبُــهُ مُسْتَيْقِنــاً جَــاءَ ذِكْــرُهُ
عَنِ السَّيِـدِ المَعْصُـومِ أَكْمَـلَ مُـرْشِـدِ
وَلَا تَنْفَــعُ المَــرْءَ الشَهــادَةُ فــاعْلَمَنْ
إِذَا لَـمْ يَكُـنْ مُسْتَقِيْنــاً ذَا تَـجَــرُّدِ
وَسَــابِعُهَــا الصِّــدْقُ المُنَــافِي لِضِــدِّهِ
مِنَ الكَـذِبِ الدَّاعِي إِلَى كُـلِّ مُفْسِدِ
وَعَــارِفُ مَعْنَاهَــا إِذا كَــانَ قَــابِــلاً
لَهَــا عَــامِــلاً بـالمُقْتَضَى فَهْــوَ مُهْتَـدِ
وَطَــابَــقَ فِـيْــهَــا قَــلْبُــه لِــلسَــانِــهِ
وعَــن وَاجِبَــاتِ الــدِيْـنِ لَـم يَـتَبَـلَّدِ
وَمَنْ لَمْ تَقُمْ هَـذِهِ الشُـرُوْطُ جَمِيْعُهَــا
بَقَــائِلِهـا يَــوْمــاً فَلَيْسَ عَلَى الهُــدِي
اذا صَــحَّ هَــذَا واسْـتَـقَــرَّ فَــانَّــمَــا
حَقِيْقَتُــهُ الاســلامُ فَــاعْلَمْــهُ تَــرْشُــدِ
وإِن لَــهُ ـ فَـاحْـذَرْ هُـدِيْتَ ـ نَــوَاقِضاً
فَمَنْ جَــاءَ مِنهــا نَــاقِضــاً فَلْيُـجَــدِّدِ
فَقَــدْ نَقَضَ الإِسْـلامَ وارْتَــدَّ واعْتَـدَى
وزَاغَ عَـن الـسَّـمْـحَــاءِ فَلْيَـتَـشَـهَّـدِ

فَمِنْ ذَاكَ شِـرْكٌ في العِبَـادَةِ نَـاقِضٌ
وَذَبْـحٌ لِـغَيْـرِ الـوَاحِـدِ الـمُـتَـفَـرِّدِ
كَمَنْ كَـانَ يَغْـدُوْ لِلْقِبَـابِ بِـذَبْحِـهِ
ولِلْجِنِ فِـعْـلَ المُـشـرِكِ المُـتَـمَـرِّدِ
وجَـاعِـلٍ بَيْنَ اللهِ - بَغْيـاً - وَبَيْنَـهُ
وَسَـائِطَ يَـدْعُـوْهُـمْ فَلَيْسَ بِـمُهْـتَـدِ
وَيَـطْلُبُ مِنْهُم بـالخضُـوعِ شَفَـاعَـةً
إلى اللهِ والـزُلْفَى لَـدَيْـهِ وَيَجْـتَـدِ
وَثَـالِثُهَـا مَـن لَمْ يُكَفِّـرْ لِكَـافِـرٍ
وَمَـنْ كَـانَ في تَـكـفِيْـرِهِ ذَا تَـرَدُّدِ
وَصَحَّـحَ عَمْداً مَـذْهَبَ الكُفْرِ والـرَّدَى
وذَا كُلُّهُ كُفْـرٌ بـاجْمَـاعِ مَن هُـدِي
وَرابِـعُـهَـا فـالاعْـتِـقَـادُ بـأنَّـمَـا
سِوَى المُصْطَفَى الهَادِيْ وَأَكْمَلِ مُرْشِدِ
لأَحْسَنُ حُكْمـاً في الأُمُـورِ جَمِيْعِهَـا
وَأَكْمَـلُ مِنْ هَـدْيِ النبـيِ مُحَـمَّـدِ
كَحَـالَـةِ كَعْبٍ وابنِ أَخْـطَبَ والـذِي
عَلَى هَـدْيِهِم مِن كُـلِّ غَـاوٍ وَمُعْـتَـدِ
وَخَـامِسُهَا يَـا صَاحِ مَنْ كَـانَ مُبْغِضَـاً
لِشَيْءٍ أَتَى مِن هَـدْيِ أَكْـمَـلِ سَيِّـدِ
فَقَـدْ صَـارَ مُـرْتَـداً وانْ كَـانَ عَـامِـلاً
بِـمَـا هُـوَ ذَا بُغْضٍ لَـهُ فَلْيُجَـدِّدِ

وَذَلِـكَ بـالاجْمَـاعِ مِن كُـلِّ مُهْتَـدِ
وقـد جَـاءَ نَصٌ ذِكْـرُهُ في (مُحَمَّـدِ)

وَسَادِسُهَـا مَن كَـانَ بـالـدِّيْنِ هـازِئـاً
ولـو بـعِقَـابِ الـوَاحِـدِ الـمُـتَـفَـرِّدِ

وَحُـسْنُ ثَـوَابِ الـلهِ للعبـد فَلْتَـكُنْ
عَلى حَـذِرٍ مِن ذلـكَ القِيْـلِ تَـرْشُـدِ

وَقَـدْ جَـاءَ نَصٌ في (بَـرَاءَةَ) ذِكْـرُهُ
فَـرَاجِعْـهُ فِيهـا عِنـدَ ذِكْـرِ التَّهَـدُّدِ

وَسـابِعُهَـا مَنْ كَـانَ لِلَسِّحْـرِ فـاعِـلاً
كَـذَلـكَ رَاضٍ فِـعْـلَهُ لَـم يُـفَـنِّـدِ

وفي سُـوْرَةِ (الـزَّهْـرَاءِ) نَصٌ مُصَـرِّحٌ
بِتَكْـفِيْـرِهِ فـاطْـلُبْـه مِن ذاك تَـهْتَـدِ

وَمِنه لَعَمْرِي الصَّـرْفُ والعَطْفُ فاعْلَمَنْ
أخِيَّ حُكْـمَ هَـذَا المُعْتَـدِي المتمَـرِّدِ

وَثَـامِنُهَـا وهِـيَ الـمُـظَاهَـرَةُ الَّتِـي
يُعَـانُ بِهَـا الكفـارُ مِـن كُـلِّ ملحِدِ

على المُسْلِمِيْنَ الـطـائِعِيـنَ لِـرَبِهِـم
عِيـاذاً بِكَ اللَّهُمَّ مِن كُـلِّ مُفْسِـدِ

وَمَـن يَـتَـولَّـى كَـافِـراً فَهْـوَ مِثْلُهُ
وَمِـنْـهُ بـلا شَـكٍ بِـه أَوْ تَـرَدُّدِ

كَمَـا قَـالَـه الـرَّحْمٰن جَـلَّ جَـلاَلُـهُ
وَجَـاءَ عن الهـادِي النبـيِ مُحَمَّـدِ

وتَـاسِـعُهَـا وَهُـوَ اعْـتِـقَـادُ مـضَـلِّلٌ
وصَـاحِبُهُ لا شَـكَ بـالكُفْـرِ مُـرْتَـدِ
كَـمُعْـتَـقِـدِ أَنْ لَـيْسَ حَـقـاً وَوَاجِـبـاً
عَلَيه اتِّبَاعُ المُصْـطَفَى خَيْـرِ مُـرْشِـدِ
فَـمَنْ يَـعْـتَـقِـدْ هَـذَا الضَّـلاَلَ وأنَّـهُ
يَسَعْـهُ خُـرُوْجٌ عَن شَـرِيْعَـةِ أَحْمَـدِ
كَمَـا كَانَ هَـذَا في شَـرِيْعَـةِ مَن خَـلاَ
كَصَـاحِبِ مُـوْسَى حَيْثُ لَمْ يَـتَـقَـيَّـدِ
هُوَ الخَضِرُ المَقْصُوصُ في (الكهفِ) ذِكْرُهُ
وَمُـوْسَى كَلِيْم اللهِ فـافْهَمْ لِمَقْصَـدِ
وَهَـذَا اعْـتِقَـادٌ لِـلْمَـلاحِـدَةِ الأُولَى
مَشَـايِـخِ أَهْـلِ الإتِّحَـادِ الـمُفَـنَّـدِ
كَنَحْـوِ ابنِ سِيْنَـا وابنِ سَبْعِيْنَ والـذي
يُسَمَّى ابْنَ رُشْـدٍ والـحَفِـيْـدِ المُـلَدَّدِ
وَشَيْخِ كَبِيْرٍ في الضَـلاَلَةِ صَـاحِبُ الْـ
ـفُصُـوصِ وَمَن ضَاهَـاهُمُ في التَّمَـرُّدِ
وَعَـاشِـرُهَـا الإِعْـرَاضُ عن دِيْنِ رَبِّنَـا
فَـلاَ يَـتَـعَـلَّمْـهُ فَـلَيْسَ بِـمُـهْـتَـدِ
وَمَن لَمْ يَكُنْ يَـوماً مِن الـدَّهْرِ عَـامِلاً
بِـهِ فَهُـوَ في كُـفْـرَانِـهِ ذُوْ تَعَـمُّـدِ
وَلاَ فَـرْقَ في هَـذي النَـواقِضِ كُلِّهَـا
إِذا رُمْـتَ أَنْ تَنْـجُـوْ وَلِلْحَـقِّ تَهْـتَـدِ

هُنَـالِـكَ بَيْنَ الهَـزْلِ والجِـدِّ فـاعْلَمَنْ
ولا رَاهِـب منهم لِـخَـوْفِ الـتَّـهَـدُدِ
سِوَى المُكْرَهِ المَضْهُودِ إنْ كَانَ قَدَ أَتَى
هُنَـالِـكَ بـالشَّـرْطِ الأَطِيْـدِ المُؤَكَّـدِ
وَحَاذِرْ ، هَدَاكَ اللهُ ، مِن كُلِّ نَاقِضٍ
سِـوَاهَـا ، وَجَـانِبْهَـا جَمِيْعَـاً لِتَهْتَـدِ
وَكُنْ بَـاذِلاً لِلْجِـدِّ والجُهْـدِ طَـالِبـاً
وَسَـلْ رَبَّـكَ التَّثْبِيْـتَ أَيَّ مُـوَحِّـدِ
وإيَّـاهُ فـارْغَبْ في الهِـدَايَـةِ لِلْهُـدَى
لَعَلَّكَ أَنْ تَنْجُـوْ مِن النـارِ في غَـدِ
وَصَـلِّ الـهِـي مَـا تَـأَلَّـقَ بَـارِقٌ
ومـا وَخَـدَتْ قُـودٌ بِـمَـوْرٍ مُـعَبَّـدِ
تَؤُمُّ إِلى البَيْتِ العَـتِيْـقِ وَمَـا سَـرَى
نَسِيْمُ الصَّبَـا أَو شَـاقَ صَـوْتُ المُغَـرِّدِ
وَمَا لَاحَ نَجْمٌ في دُجَى اللَّيْلِ طَـافِحٌ
ومـا انْهَـلَّ صَـوْبُ في عَـوَالٍ وَوُهَّـدِ
على السَّيِدِ المَعْصُومِ أَفْضَـلَ مُرْسَـلٍ
وأَكَـرَمَ خَـلْقِ الـلهِ طُـراً وَأَجْـوَدِ
وآلٍ وَأَصْحَـابٍ وَمَن كَـانَ تَـابِعـاً
صَـلاةً دَوَامـاً في الـرَّوَاحِ وفي الغَـدِ

اللهم مَكِّنْ مَحبَّتَكَ في قُلُوبنَا وَقَوِّهَا وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا بنُوْرِ الإيمانِ وألْهِمْنَا

ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ بِحضُوْرِ قَلْبٍ واجْعَلَنا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وآتنَا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النارِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

فهرس الكتاب الجزء الأول

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
موعظة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب	١٣١ - ١٣٢
موعظة بليغة لبعض العلماء على قوله تعالى « ولا تكونوا كالذين نسوا الله الآية »	١٣٥
كتاب الحسن الى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا	١٣٥
نصيحة للشيخ الواسطي	١٣٦
تقسيم القلوب الى ثلاثة لابن القيم ويليها كتاب الصلاة	١٣٧
مكانة الصلاة وأهميتها والأدلة على ذلك	١٣٩
الصلاة تعين على مصالح الدنيا والآخرة وهي أحب العمل الى الله	١٤٠
الحث على الخشوع في الصلاة وما ينبغي أن يستحضره ويقوله	١٤٢
ما ينتظره من جواب ربه عند قراءته لآيات الفاتحة	١٤٣
ما يشهده عند ذكر اسمه تعالى الرحمن الرحيم ... الخ	١٤٣
ما اشتملت عليه كلمة اياك نعبد واياك نستعين	١٤٦
ما اشتمل عليه طلب الهداية من الأمور وبيان شدة فاقة	١٤٧
العبد الى الهداية	١٤٨
الحث على المحافظة على الصلاة وبيان معنى اقامتها	١٤٩
أسهم الاسلام ومنزلة من أدى الشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصام رمضان وقامه وبيان حكم تأخير الصلاة والأدلة على تحريم تأخيرها عن وقتها	١٥٠
لغير عذر................................	١٥١
أركان الاسلام الخمس	١٥١
حكم تأخير الصلاة وحكم ترك الصلاة تهاونا وكسلا	١٥٢
وماذا يعمل مع من تركها..........................	١٥٢
الأدلة على كفر تارك الصلاة ويليها موعظة وقصيدة زهدية	١٥٣ - ١٥٨
الناس في الصلاة على مراتب خمس موضحة لابن القيم	١٥٩
رحمه الله	١٦٠

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم
(وقف لله تعالى)

يوزع مجاناً

موارد الظمآن لدروس الزمان

خطب وحكم واحكام وقواعد ومواعظ وآداب واخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه
عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض

الجزء الثاني

الطبعة الحادية عشر

١٤٠٢ هـ　　　١٩٨٢ م

(فَصْــلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنا اللهُ وايَّاكَ وجَمِيْعَ المُسلمينَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أنَّ السَلامَ تَحِيَّةُ المؤمنين ، وشِعارُ المُوَحِّدِيْنَ ، وَدَاعِيَةٌ للإخَاءِ والإلْفَةِ والمَحبَّةِ بَيْنَ إخْوَانِهم المُسلِمِين ، والسلامُ تَحِيَّةٌ مُبارَكَةٌ ، وَصِيْغَةٌ طَيِّبَةٌ كَمَا ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ في كِتَابِهِ الكَرِيْمِ قال اللهُ تَعالى ﴿ فإذَا دَخَلْتُم بيوتاً فَسلِمُوا على أنْفسِكم تَحِيَةً مِن عندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ .

وقال تعالى ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُم حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا على أَهْلِهَا ﴾ والسلامُ كما أَخْبَرَ اللهُ تحيةَ أَهْلِ الجنةِ في دارِ النَعيمِ قال تعالى ﴿ تَحِيَّتُهُم فِيْهَا سَلَام ﴾ .

وابْتِدَاءُ السَّلامِ سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ ، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ ، وَهُوَ سُنَّةُ كِفَايَةٍ فإنْ كَانَ المُسَلِّمُ جَمَاعَةً كَفَى عَنهم واحدٌ يُسَلِّمُ ولو سَلَّمُوا كُلُّهُم كَانَ أَفْضَلُ وَرَفْعُ الصَّوتِ بابْتِدَاءِ السَّلامِ سُنَّةٌ ، لِيَسْمَعَهُ المُسَلَّمُ عَلَيْهِم كُلُّهُم سَمَاعاً مُحَقَّقَاً لِحَدِيْثِ افْشُوْا السَّلامَ بَينكُم .

وإن سَلَّمَ عَلَى أَيْقَاظٍ وَنِيَامٍ أَوْ سَلَّمَ عَلَى مَنْ لَا يَعْلَمُ هَلْ هُمْ أَيْقَاظُ أَوْ نِيَامٌ خَفضَ صَوْتَهُ ، بِحَيْثُ يُسْمِعُ الأَيْقَاظَ ولا يُوْقِظُ النِّيَامَ ، وَلَو سَلَّمَ عَلَى إنْسَانٍ ثُمَّ لَقِيَهُ عَلى قُرْبٍ سُنَّ أَنْ يُسَلِّمَ عليه ثانِياً وَثَالثاً وأكثر .

وَيُسَنُّ أَنْ يَبْدَأَ بالسلام قَبْلَ الكَلامِ ، لِحَدِيْثِ مَنْ بَدَأَ بالكلامِ قَبْلَ السلامِ فَلَا تُجِيْبُوْهُ ولا يَتْرُكِ السَّلامَ إذَا كَانَ يَغْلِبُ على ظَنِّهِ أَنَّهُ لا يَرُدُّ عَلَيْهِ .

وإنْ دَخَلَ عَلَى جَماعَةٍ فِيْهِمِ عُلَمَآءُ سَلَّمَ أَوَّلاً على الجَمِيْعِ ، ثُمَّ سَلَّمَ على العُلَمَاءِ سَلاماً ثَانياً تَمْيِيْزاً لِمَرْتَبَتِهِمْ وَكَذا لَوْ كَانَ فِيْهِمْ عَالِمٌ وَاحِدٌ . خَصَّه بالسلام ثَانياً .

ولا يُسَلِّمُ عَلَى امْرَأَةٍ أَجْنَبِيَةٍ غَيْرِ زَوْجَةٍ لَهُ ، أَوْ ذَاتِ مَحْرَمٍ ، إلَّا أَنْ تَكُونَ عَجُوزاً غَيْرَ حَسْنَاء أَوْ تَكُونَ بَرزَةً ، والمُرَادُ أَنَّها لا تُشْتَهَى لأَمْنِ الفِتْنَةِ وَيُكْرَهُ السَّلَامُ في الحِمَامِ وَيُكْرَهُ السَّلامُ عَلَى مَنْ يَأْكُلُ وَعَلى مَنْ يُقَاتِلُ لاشْتِغَالِهِ .

وَيُكْرَهُ السَّلامُ عَلَى مَنْ يَبْحَثُونَ في العِلْمِ ، وَعَلى مَنْ يُؤَذِّنُ ، وَعَلى مَنْ يُقِيْمُ وَمُحَدِّثٍ بِتَشْدِيْد الدَّالَ وَخَطِيْبٍ وَوَاعِظٍ وَمُسْتَمِعٍ .

وَيُكْرَهُ السلامُ عَلَى مُكَرِّرِ فِقْهٍ ، وَمُدَرِّس في عِلْمٍ مَشْرُوْعٍ ، أَوْ مُباحٍ وَيُكْرَهُ السلامُ على مَنْ يَبْحَثُونَ في العِلْمِ .

وَيُكْرَهُ السلامُ على مَنْ يَقْضِي حَاجَتَهُ ، وَيُكْرَهُ على مَنْ يَتَمَتَّعُ بِأَهْلِهِ وَعَلَى مُشْتَغِلٍ بالقَضَاءِ ، وَنَحْوِهِمْ مِن كُلِّ مَنْ لَهُ شُغْلٌ عَن رَدِّ السَّلامِ وَيُكْرَهُ أَنْ يَخُصَّ بَعْضَ طَائِفَةٍ لَقِيَهُمْ ، إلَّا أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ مِمَّنْ يَجِبُ هَجْرُهُ ، أَوْ يُسْتَحَبُ .

وَإِنْ بَدَأَ بالسلامِ جَمِيْعاً ، وَجَبَ عَلَى كُلٍ مِنْهُمَا الرَّدُ ، وَلَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِ مَنْ يُصَافِحُه ، حَتَّى يَنْزِعَ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ ، إلَّا لِحَاجَةٍ كَحَيائِهِ مِنْهُ وَنَحْوِهِ وَقَدْ نَظَمَ بَعْضُهُمْ المَوَاضِعَ التي يُكْرَهُ فِيهِ السَّلامُ فَقَالَ :

سَلامُك مَكْرُوْهٌ عَلَى مَنْ سَتَسْمَعُ
وَمِنْ بَعْدِ مَا أُبْدِيْ يُسَنُّ وَيُشْرَعُ

مُـصَـلٍّ وَتَـالٍ ذَاكِـرٍ وَمُـحَـدِّثٌ
خَـطِيْبٍ وَمَن يُصْغِيْ إلِيْهِم وَيَسْمَـعُ
مُكَـرِّرٌ فِقْـهٍ جَـالِسٌ لِـقَـضَـائِـهِ
وَمَنْ بَحَثُوا في الفِقْـهِ دَعْهُمْ لِيَنْفَعُـوا
مُؤذِّنٌ أَيْضـاً مَـعْ مُقِيْمٍ مُـدَرِّسٍ
كَـذَا الأَجْـنَبِيَّـاتِ الفَـتِيَّـاتُ أَمْـنَـعُ
وَلَعَّـابُ شِـطْرَنْـجٍ وَشِبْـهٍ بِخَلْقِـهِمْ
وَمَـن هُـوَ مَـعْ أَهْـلٍ لَـهُ يَتَـمَتَّـعُ
وَدَعْ كَـافِـراً أَيْضَـاً وَكَـاشِفَ عَـوْرَةٍ
وَمَنْ هُـوَ في حَـالِ التَّغَـوُّطِ أَشْنَـعُ
وَدَعْ آكِـلاً إِلَّا إِذَا كُـنْـتَ جَـائِـعـاً
وَتَـعْلَمُ مِـنْـهُ أَنَّـهُ لَيْسَ يَـمْـنَـعُ
كَـذَلِـكَ أُسْـتَـاذٌ مُـغَـنٍ مُـطَيِّـرٌ
فَـهَـذَا خِتَـامٌ والـزِّيَـادَةُ تَـنْـفَـعُ
« وَزِدْتُ عَـلَى هَـذَا فَقُلْتُ مُتَـمِّـمـاً
بِمَـا هُـوَ مِثْـلٌ أَوْ أَشَـدُّ فَـيُتْـبَـعُ »
« وَمَنْ عِنْـدَ تِلْفِـزْيُـوْنِهِمْ سِيْنَمَـائِهِمْ
وَمَنْ لِمُـذِيْعِ المُنْكَـرَاتِ تَسَمَّعُـوْا »
مصـوِّرٍ ذِي رُوْحٍ وَحَـالِـق لِـحْيَـةٍ
وَمَحْـلُوْقِهَـا مَعْ ذِي الخَنَـافِسِ يَتْبَـعُ
« وشَـارِبُ دُخَّـانٍ وَشَـارِبُ شِيْشَـةٍ
مُتَـوْلِـةِ رَاسٍ وَالمُجَـاهِـرُ أَفْـظَعُ »

«وَشَـارِبُ ذِي سُكْـرٍ ولاعِبُ كُـوْرَةٍ
وَمُـصْـلِحُ الآتٍ لِـلْهَـوٍ فَـيُـمَـنْـعُ»
«وبَـائِـعُ آلاتٍ لِـلَهْـوٍ وَمُـطْربٍ
وَمَنْ هُـوَ في سَبِّ الغَوَافِـلِ يُقْذِعُ»
«وَبَـائِعُ مَـا قَد سِيْقَ فِيْمَـا سَطَرْتُـهُ
مُسَـاعِـدُهُمْ أَوْ مَن لِـذَاكَ يُشَجِّـعُ»

(فَصْــلٌ)

وَأَمَّا رَدُّ السَّلامِ ، فإِنْ كَانَ المُسَلَّمُ عَلَيْهِ وَاحِداً ، تَعَيَّنَ عَلَيْهِ الرَّدُّ لِلسَّلامِ ، وإِنْ كَانُوْا جَمَاعَةً رَدُّ السَّلامِ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَيْهِم ، فَإِنْ رَدَّ وَاحِدٌ مِنهم سَقَطَ الفَرْضُ عَن البَاقِينَ ، وإِنْ تَرَكُوْهُ كُلُّهُمْ أَثِمُوْا كُلُّهُمْ ، وإِنْ رَدَّ كُلُّهُم فَهُوَ النِّهَايَةُ في الكَمَالِ ، قَالَ اللهُ تَعَالى ﴿ وإذا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا ﴾ .

والسَّلامُ تَحِيَّةُ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِن الأَنْبِيَاءِ ، وَأَتْبَاعِهِمْ المُؤْمِنِيْنَ وَتَحِيَّةُ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيْمُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَضَيْفِهِ المُكْرَمِيْنَ ، فِيْمَا قَصَّهُ اللهُ عَلَيْنَا في القُرآنِ الكريم ، بقوله ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيْثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيْمَ المُكْرَمِيْنَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوْا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَومٌ مُنْكَرُوْن ﴾ .

وَمِنْ السُّنَّةِ المَحْبُوْبَةِ ، البَدَاءَةُ بالسلامِ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ باللَّهِ ، مَنْ بَدَأَهُم بِالسَّلَامِ رَوَاهُ أَبُوْ دَاوْد وَفي الحَدِيْثِ الآخَرِ وَخَيْرُهُمَا الَّذِيْ يَبْدَأُ بِالسَّلامِ .

وَيُسْتَحَبُ أَنْ يُسَلِّمَ عِنْدَ الانْصِرَافِ مِنَ المَجْلِسِ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلى المَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُوْمَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الأُوْلَى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ .

وَيُسْتَحَبُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَىٰ الصِبْيَان ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ كَانَ رَسُوْلُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُهُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

مـــوعظـــة

إخوانِي لَيْسَ الأَسَفُ عَلَى دُنْيَا آخِرُهَا الفَوْتُ والخَرَابُ وَلَا عَلى أَحْوَالٍ نِهَايَتُهَا التَّحَوُّلُ والإِنْقِلَابُ ، وَلَا عَلَى حُطَامٍ حَلَالُهُ حِسَابٌ وَحَرَامُهُ عِقَابٌ ، ولَا عَلى أَعْمَارٍ يَتمَنَّى المَرْءُ طُوْلَهَا فإِذَا طَالَتْ مُلَّتْ ، ولَا عَلى أَمَاكِنَ كُلَّمَا امْتَلأَتْ بِأَهْلِهَا وَازْدَهَرَتْ بِهِمْ أَدْبَرَتْ عَنْهُم وَخَلَتْ مِنْهُمْ .

وإِنَّمَا الأَسَفُ الذِي لَا يُرْجَى لَهُ خَلَفٌ وَقْتٌ قُتِلَ عَلَى فِرَاشِ السَّهْوِ والغَفَلَاتِ ، وَعَلى لَيَالٍ وَأَيَّامٍ تَمْضِيْ في اتِّبَاعِ المَلَذَّاتِ الفَانِيَةِ والشَّهَوَاتِ وَعَلى صُحُفٍ تُطْوَى عَلى عَثَرَاتٍ وَهَفَوَاتٍ وَخَطِيْئَاتٍ ، وعلى أَنْفَاسٍ لا قِيْمَةَ لَهَا تَذْهَبُ ثُمَّ لَا تَرْجِعُ فَيُسْتَدْرَكُ مَا فَاتَ وَعَلى نُفُوسٍ .

يُنَادِيْهَا لِسَانُ الشَّتَاتِ وَهِيَ لَا تُقْلِعُ عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الهَفَوَاتِ . وَعَلَى ذُنُوبٍ مُحْصَىً صَغِيْرُهَا وَكَبِيْرُهَا لَا تُقَابَلُ بِالحَسَنَاتِ وَعَلى قُلُوبٍ غَافِلَةٍ في الغَمَرَاتِ ، وَعَلَى أَعْوَامٍ سَرِيْعٍ مُرُوْرُهَا كَلَمْعِ الجَمَرَاتِ وعلى أَلْسِنَةٍ أَكْثَرُ اشْتِغَالِهَا بالكَذِبِ والغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ وَسَائِرِ الذُنُوبِ المُحَرَّمَاتِ

وعلى ألسنةِ لا تَشْتَغِلُ وَتَتَلَذَذُ بِذِكْرِ فَاطِرِ السمواتِ .

أَلَا تَرَوْنَ شَهْرَكُم كَيْفَ يُسْرِعُ فيه البِدَارُ ثُمَّ يَعْقِبُهُ الامّحَاقُ فَيَا خَيْبَةَ مَنْ ضَاعَتْ مِنه اللَّيَالِي والأَيَّامُ وَغُبِنَ في مَيْدَانِ السِّبَاقِ وَيَا خَيْبَةَ مَن ضَيَّعَ عُمُرَهُ بالقَبَائِحِ العِظَامِ وَيَا خَسَارَةَ مَنْ كَانَتْ تِجَارَتُهُ الذُنُوبُ والمَعَاصِي والآثام .

شـعراً :

أَيَـا لِلْمَنَـايَـا وَيْحَهَـا مَـا أَجَـدَّهَـا
كَـأَنَّـكَ يَـوْمـاً قَـدْ تَـوَرَدْتَ وِرْدَهَـا
وَيَـا لِلْمَنَـايَـا مَـالَـهَـا مِن إِقَـالَـةٍ
إِذَا بَلَغَتْ مِن مُـدَّةِ الحَيِ حَـدَّهَـا
أَلَا يَـا أَخَـانَـا إِنَّ لِلْمَـوْتِ طَلْعَـةً
وَإِنَّـكَ مُـذْ صُـوِّرْتَ تَقْصُـدُ قَصْـدَهَـا
وَلِلْمَـرْءِ عِنْـدَ المَـوْتِ كَـرْبٌ وَغُصَّـةٌ
إِذا مَـرَّتِ السَّـاعَـاتُ قَـرِبْنَ بُعْـدَهَـا
سَتُسْلِمُـك السَّـاعـاتُ في بَعْضِ مَرِّهَـا
إِلى سَـاعَـةٍ لا سَـاعَـةٌ لَك بَعْـدَهَـا
وَتَحْتَ الـثَّـرَى مِنِّيْ وَمِنْـكَ وَدَائِـعٌ
قَـرِيْبَـةُ عَهْـدٍ إِنْ تَـذَكَّـرْتَ عَهْـدَهَـا
مَدَدْتَ المُنَى طُـوْلاً وَعَـرْضـاً وإِنَّهَـا
لَتَـدْعُـوكَ أَنْ تَهْـدَا وَأَنْ لَا تَمُـدَّهَـا

وَمَـالَتْ بِكَ الـدُنْيَا إلى اللَّهْـوِ والصِّبَـا
وَمَنْ مَـالَتِ الـدُنْيَـا بِـهِ كَـانَ عَبْـدَهَـا
إذَا مَـا صَـدَقْتَ النَّفْسَ أَكْثَـرْتَ ذَمَّهَـا
وَأَكْثَـرْتَ شَكْـوَاهَـا وَأَقْلَلْتَ حَمْـدَهَـا
بِنَفْسِـكَ قَبْلَ النَّـاسِ فَاعْنَ فَـإِنَّهَـا
تَمُـوتُ إِذَا مَـاتَتْ وَتُبْعَثُ وَحْـدَهَـا
وَمَـا كُـلُ مَـا خُـوِّلْتَ إِلَّا وَدِيْعَـةٌ
وَلَـنْ تَـذْهَبِ الأَيَّـامُ حَتَّى تَـرُدَّهَـا
إِذَا أَذْكَـرَتْـكَ الـنَّفْسُ دُنْيَـاً دَنِيَـةً
فَـلَا تَنْسَ رَوْضَـاتِ الجِنَـانِ وَخُلْدَهَـا
أَلَسْتَ تَـرَى الـدُنْيَـا وَتَنْغِيْصَ عَيْشِهَـا
وَاتْـعَـابَـهَـا لِلْمُـكْـثِـرِيْـنَ وَكَـدَّهَـا
وَأَدْنَى بَنِيْ الـدُنْيَـا إِلى الغَيِّ والعَمَى
لَمَنْ يَبْتَغِي مِنْهَـا سَنَـاهَـا وَمَجْـدَهَـا
هَوَى النَّفسِ في الدُّنْيَا إلى أَنْ تَغُوْلُهَا
كَمَـا غَـالَتِ الـدُنْيَـا أَبَـاهَـا وَجَـدَّهَـا

اللهم وَفِقْنَا لِلزُوْمِ الطَّرِيْقِ الذِيْ يُقَرِّبُنَا إِلَيْكَ وَهَبْ لَنَا نُوْراً نَهْتَدِي بِهِ إِلَيْكَ وَيَسِّرْ لَنَا مَا يَسَّرْتَهُ لأَهْلِ مَحَبَّتِكَ وَأَيْقِضْنَا مِنْ غَفَلاَتِنَا وَأَلْهِمْنَا رُشْدَنَا واسْتُرْنَا في الدُنْيَا والآخِرَةِ واحْشُرْنَا في زُمْرَةِ عِبَادِكَ المُتَّقِيْنَ والْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ واغفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والمَيِتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

والأَحَقُ بِالبَدَاءَةِ بِالسَّلامِ أَنْ يُسَلِّمَ الصَّغِيْرُ عَلَى الكَبِيْرِ والقَلِيْلُ عَلَى الكَثِيْرِ والرَّاكِبُ عَلى المَاشِيْ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لِيُسَلِمَ الصغيرُ عَلَى الكَبِيْرِ ، والمَارُ علىَ القاعِدِ ، والقَلِيْـلُ عَلَى الكَثِيْرِ ، مُتَّفَقٌ علَيْـهِ وفي رِوَايَة لِمُسْلِم والرَّاكِبُ عَلى المَاشِيْ .

وَقَدْ وَرَدَ في إفْشَاءِ السَّلامِ وَفَضْلِهِ أَحادِيْثُ كَثِيْرَةٌ ، مِنْهَا ما رَوَاهُ البُخَارِيُ ومُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُد وابن ماجة عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الإِسلام خَيْرٌ ، قالَ تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ .

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُـو دَاودَ والترمذيُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال قالَ رَسُوْلُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحابُوا أَلاَ أَدُلُكُم عَلَى شَيءٍ إذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُم أَفْشُوْا السَّلامَ بَيْنَكُم .

وَرَوَى ابنُ حِبانَ في صَحِيْحِهِ عن البَرَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم أَفْشُوْا السَّلامَ تَسْلَمُوا ، وَأَخْرَجَ الترمذيُ وقالَ حسنٌ صحيحٌ عن أَبِي يُوْسُفَ عَبْدِ اللهِ ابنِ سَلامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم يَقُول ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعامَ وَصَلُوا بالليلِ والناسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ .

وأَخْرَجَ الطبرانيُ بِاسْنَادِ حسنٍ ، عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا

إِذَا كُنَّا مَعَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ ، فَتُفَرِّقُ بَيْنَنَا شَجَرةٌ فإِذا التَقَيْنَا يُسَلِّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ وَأَخْرَجَ الطبرانيُ في الأَوسط باسنادٍ جَيّدٍ ، وقال لا يُرْوَى إلا بِهَذا الإِسنادِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهْ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم أَعْجَزُ الناسِ ، مَنْ عَجَزَ في الدُعَاءِ وَأَبْخَلُ الناسِ مَن بَخِلَ بالسلامِ .

وَرُوِيَ أَيْضاً عن عَبْدِ اللهِ بنِ مَعْقِلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في مَعَاجِمِهِ الثَلاثَةِ باسْنَادٍ جَيْدٍ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَقُ النَّاسِ الذِيْ يَسْرِقُ صَلاَتَهُ قِيْلَ يَا رَسُوْلَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْرِقُ صَلاَتَهُ قَالَ لاَ يَتِمُ رُكُوْعَهَا وَلاَ سُجُودَهَا وَأَبْخَلُ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بالسَّلامِ » .

وَأَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ والبزارُ واسنادُ الإمامِ أحمدَ لاَ بَأْسَ بِهِ عن جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه أن رَجُلاً أَتَى النَّبِيَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فقال إِنَ لِفُلانٍ في حَائِطِيْ عِذْقاً،وَإِنَّهُ قَدْ آذَانِيْ وَشَقَّ عَلَيَّ مَكَانُ عِذْقِهِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، فَقَالَ بِعْنِيْ عِذْقَكَ الذِي في حَائِطِ فُلاَنٍ ، قَالَ لاَ ، قَالَ فَهَبْهُ لِيْ ، قَالَ لاَ قَالَ فَبِعْنِيْهِ بِعذْقٍ في الجَنَّةِ ، قَالَ لاَ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم ما رَأَيْتَ الذي هُوَ أَبْخَلُ مِنْكَ إِلَّا الذِيْ يَبْخَلُ في السَّلامِ .

وعن أبي الخَطَّابِ قَتَادَةُ قَالَ قُلْتُ لِأَنَسٍ أَكَانَتِ المُصَافَحَةُ في أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَعَمْ مُتفق عليه وعن البَرَاءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا رواه أبو داود .

وَعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رَجُلٌ يا رسولَ اللهِ الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيْقَهُ أَيَنْحَنِي لَهُ قَالَ لَا قَالَ أَفيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ قال لَا قال فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ قَالَ نَعَمْ رواه الترمذي وقالَ حَدِيْثٌ حَسَن إذا فَهِمْتَ ذَلِكَ ، فاعْلَمْ أَنَّ لِلسَّلامِ فَوَائِدُ عَدِيْدَةٌ ، مِنْهَا امْتِثَالُ سُنَّةِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وَقَدْ قَالَ مَنْ كَانَ مِن أُمَّتِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي .

وَمِنْهَا الْخُرُوْجُ مِن الْحُرْمَةِ عَلَى الْقَوْلِ بِوُجُوْبِ ابْتِدَائِهِ وإنْ كَانَ الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُسْتَحَبٌ .

وَمِنْهَا الْخُرُوْجُ مِنَ الْبُخْلِ ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّه لَا يَدْخُلُ جَنَّةَ عَدْنٍ بَخِيْلٌ ، وقال صلى الله عَلَيْهِ وسلم أَيُ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ ، والبَخِيْلُ بَغِيْضٌ إِلَى اللهِ ، بَغِيْضٌ إلى الناسِ ، بَعِيْدٌ مِن الجَنَّةِ حَبِيْبٌ إِلى الشَّيْطَانِ ، قَرِيْبٌ إلى النِّيْرَانِ .

وَمِنها أَنَّ السَّلامَ يَكُونُ مِن الأَسْبَابِ التي تُدْخِلُ صَاحِبَهَا في الجَنَّةِ كَمَا مَرَّ في حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ وَأَنَّهُ يُوْجِبُ دُخُوْلَهَا ، كَما في حدِيثِ أَبِي سَرْحٍ ، رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِشَيءٍ يُوْجِبُ الجَنَّةَ ، قَال طِيْبُ الكَلَامِ ، وَبَذْلُ السَّلامِ ، وَاطعامُ الطعامِ ، رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه .

ومنها أن بَذْلَهُ مِن مُوْجِبَاتِ المَغْفِرَةِ فَقَد رَوَى الطبرانيُ عن أَبِي سَرْحٍ باسنادٍ جَيدٍ قالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِي على عَمَلٍ يَدخُلني الجَنَّةَ قَالَ إن مِن مُوْجِبَاتِ المَغْفِرَةِ بَذْلَ السَّلامِ وَحُسْنَ الكَلَامِ .

اللهم الْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لِلْقِيَامِ بِحَقِّكَ وَبَارِكْ لَنَا في

الحَلاَلِ مِن رِزْقِكَ واسْتُرْ عَلَيْنا وَلاَ تَفْضَحْنا بَيْنَ خَلْقِكَ يا خَيرَ مَن دَعَاهُ دَاعٍ وَأَفْضَلُ مَن رَجَاهُ رَاجٍ يَا قَاضِيَ الحَاجاتِ وَمُجِيْبَ الدَّعَواتِ هَبْ لَنَا مَا سَأَلْنَاهُ وَحَقِّقْ رَجاءَنَا فِيْمَا تَمَنَّيْنَاهُ يا مَنْ يَمْلِكُ حَوائِجَ السَّائِلِيْنَ وَيَعْلَمُ مَا في ضَمَائِرِ الصَّامِتِيْنَ أَذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وَحَلاَوَةَ مَغْفِرَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

وَمِنْ ذَلِكَ إِنَّ افْشَاءَ السَّلامِ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ يُوْجِبُ المَحَبَّةَ والإِلْفَةَ وَالعَطْفَ والمَحَبَّةُ شَأْنُهَا عَظِيْمٌ وَقَدْرُهَا جَسِيْمٌ .

وَمِنْ فَوَائِدِ السَّلامِ أَدَاءُ حَقِ أَخِيْهِ المُسْلِم ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنهُ أَنْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم قال حَقُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ سِتٌ ، قِيْلَ وَمَا هُنَّ يا رسولَ اللهِ ، قال إذا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ الحديث .

ومنها أَوْلَوِيَّتُهُ بِاللهِ ، لِمَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ والترمذيُ أَنَّ أَوْلَى الناسِ باللهِ مَنْ بَدَأَهُم بالسَّلامِ .

ومنها حَوْزُ الفَضِيْلةِ لِمَا أَخرَجَ البَزَّارُ وَابنُ حِبَانَ في صَحِيْحِهِ عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُسَلِّمُ الراكِبُ على الماشِي ، والماشِي علَى القَاعِدِ ، والماشِيَانِ أَيُّهُمَا بَدَأَ فَهُوَ أَفْضَلُ .

وَأخرجَ الطبرانيُ في الكبيرِ والأَوسطِ وَأَحَدُ إسنادي الكبير مُحْتَجٌّ بِهِم في الصحيح ، عن الأغرِّ أَغرِّ مُزَيْنَةَ رَضِيَ اللهُ عنه ، قال كان رسولُ

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم أَمَرَ لِيْ بِجَرِيْبٍ مِن تَمْرٍ عِنْدَ رَجُلٍ مِن الأنصارِ ، فَمَطَلَنِي بِهِ ، فَكَلَمْتُ فِيْهِ رَسُوْلَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم .

فقال أُغْدُ يا أَبَا بَكْرٍ فَخُذْ لَهُ مِن تَمْرِهِ ، فَوَعَدَنِي أَبُو بَكْرٍ المَسْجِدَ إذا صَلَّيْنَا الصُبْحَ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ وَعَدَنِي ، فانطلَقْنا فَكُلَّمَا رَأى أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ مِن بَعِيْدٍ سَلَمَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَمَا تَرى مَا يُصِيْبُ القومَ عَلَيْكَ مِن الفَضْلِ ، لاَ يَسْبِقُكَ إلى السَّلامِ أَحَدٌ فَكَانَ إِذَا طَلَعَ الرَّجُلُ مِن بَعِيْدٍ بَادَرْنَاهُ بالسلامِ ، قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْنَا .

وَمِنْهَا ادْرَاكُ الفَضِيْلَةِ في إِفْشَاءِ السَّلامِ ، الذي هُوَ اسْم اللهِ ، وَفَضْلُ الدَّرَجَةِ بِنَشْرِهَا ، لِمَا أَخْرَجَ البَزَارُ بِسَنَدٍ جيدٍ قَوِيٍ والطبراني عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ السلامُ اسْمٌ مِن أَسْمَاءِ الله تعالى ، وَضَعَهُ في الأَرضِ فَأَفْشُوْهُ ، بَيْنَكُم ، فإِنَّ الرَّجُلَ المُسْلِمَ إذا مَرَّ بِقَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوْا عَلَيْهِ كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ بِتَذْكِيْرِهِ إِيَّاهُم السَّلاَمَ فإِنْ لَمْ يَرِدُّوا عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُم .

وَمِنْ فَوَائِدِ السلام حُصُولُ الحَسَناتِ التي صَحَّتْ بِهَا الرِّوَايَاتُ. فَأَخْرَجَ أَبُوْ دَاوُدَ والترمذيُّ وَحَسَّنَهُ والنسائيُ والبيهقيُ وَحَسَّنَهُ أيضاً عن عِمرانَ بن حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عنه ، قال جَاءَ رَجُلٌ إلى النبي صلى اللهُ عليه وسلم فقالَ السلامُ عَلَيْكُم فَرَدَّ عَلَيْهِ ، ثُمَّ جلَسَ ، فَقال النبي صَلَّى الله عليه وسلم عَشْرٌ .

ثم جَاءَ آخَرُ فقال السلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ ، فَرَدَّ فَجَلَسَ فقال عِشْرُوْنَ ، ثم جَاءَ آخرُ فقال السلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، فَرَدَّ

فَجلَسَ، فقال ثلاثُون، ورَواهُ أَبُوْ دَاوُدَ عَنْ مُعاذٍ مَرْفُوْعَاً بِنَحْوِهِ، وَزَادَ ثُمَّ أَتى آخَرُ فقَالَ السلامُ عليكُم ورَحْمَةُ اللهِ وَبَركاتُهُ وَمَغْفِرَته ، فقال أَرْبعُون هَكَذَا تَكُونُ الفَضَائِلُ .

ومِن فَوَائِدِ السَّلام حُصُولُ السَّلامَةِ ، كَمـا في حَدِيْثِ البَـرَاءِ المُتَقَدِّمِ وَيَحْتَمِلُ قَولُه صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم أَفْشُوْا السلامَ تَسْلَمُوا يَعْنِي في الدُّنْيَا مِن الإِثْمِ ، والبُخْلِ ، أَوْ مِن أَعَمَّ مِن ذَلِكَ مِنْ نَكَبَاتِ الدُّنْيَا وَمِن أَهْوَالِ الآخِرَةِ وَفَضْلُ اللهِ وَاسِعٌ .

ومنها تَصْفِيَته وِدّ أَخِيْكَ المُسْلِم ، فَقَدْ رَوَى الطبرانيُ في الأَوْسَطِ عَن شَيْبَةَ الحجَبِي عن عَمِّهِ مَرْفُوْعَاً ثَلاثٌ يُصَفِّيْنَ لَكَ وِدَّ أَخِيْكَ ، تُسَلِّمْ عَلَيْهِ إذا لَقِيْتَهُ وَتُوَسِّعْ لَهُ في المَجْلِسِ ، وَتَدْعُوْهُ بِأَحَبِّ الأَسْمَاءِ إِليهِ .

ومنها حُصُولُ فَضِيْلَةِ الإِسْلَام ، وَخِيْرَتِهِ ، كَمَا في حديث عبدِ اللهِ بنِ عَمْرو بنِ العاصِ المتقَدمِ وَأيضاً مِن فَوائِدِهِ إِحْياءُ سُنَّةِ أَبِيْنَا آدمُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَدْ رَوَى البُخَارِيُ وَمُسْلمُ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ لَمَّا خَلَقَ اللهِ آدَمَ ، قَالَ اذْهَبْ فَسَلِمْ عَلَى أُولَئِكَ نفَرٌ مِن المَلاَئِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحِيُّوْنَكَ ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ ، وَتَحِيَةُ ذُرِيَّتِكَ ، فَقالَ السلام عليكُم ، فقالُوا السلامُ عليكَ وَرَحْمَةُ اللهِ فَزَادُوْا وَرَحْمَةُ اللهِ .

وقال مُجَاهِدُ كَانَ عَبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَأْخُذُ بِيَدِي فَيَخْرُجُ إلى السُوقِ يَقُولُ إِنّي لأَخْرُجُ وَمَالِي حَاجَةٌ إِلَّا لأُسَلِّمَ وَيُسَلّمَ عَلَيَّ فَأَعْطِي وَاحِدَةً وَاحِدَةً وآخُذُ عَشْراً ، يَا مُجَاهِدُ إِن السَّلامَ مِن أَسْمَاءِ اللهِ

تعالى ، فَمَنْ أَكْثَرَ السَّلامَ أَكْثَرَ ذِكْرَ الله ، ومنها مُوَافَقَةُ تَحِيَّةِ أَهْلِ الجَنَّةِ فإنَّ تَحِيَّةَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيْهَا سلامٌ ، كَمَا قال جَلَّ شَأْنُهُ ﴿ تَحِيَّتُهُم فيها سلام ﴾ .

والسلامُ كما تَقَدَّمَ تَحِيَّةُ المُؤْمِنِيْنَ ، وشِعَارُهُم ، فَلاَ نَبْدَأُ أَهْلَ الكِتَابِ أَوِ الذِمَّةِ بِهِ فَفِي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةِ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال لا تَبْدَؤُا اليَهُودَ ولا النصارَى بالسلامِ فإذا لَقِيْتُم أَحَدَهُم في طريقٍ فاضْطَرُوْهُ إلى أَضْيَقِهَا رواه أحمد ومسلم .

وَلِمَا رَوَى أَبُو نَضْرَةَ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إنا غادُوْنَ عَلَى يَهُوْدَ فَلاَ تَبْدَؤُهُمْ بِالسَّلامِ وانْ سَلَّمُوا عَلَيْكُم فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ وَيَحْرُمُ بَدَاءَتُهُم بِكَيْفَ أَصْبَحْتَ أَوْ كَيْفَ أَمْسَيْتَ أَوْ كَيْفَ أَنْتَ أَوْ كَيْفَ حَالُكَ أَوْ كَمَا يَفْعَلُهُ ضِعَافُ العُقُولِ والدِيْن بِقَولِهِم لَهُم صَبَاحَ النُّور أَوْ مَسَاء الخَيْرِ مَعَ رَفْعِ أَيْدِيْهُم نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ أَوْ يَقُولُونَ لَهُم والعِيَاذُ باللهِ أَهْلاً وَمَرْحَباً .

وَلَو كَتَبَ إلى كَافِرٍ وَأَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ سَلَاماً كَتَبَ سَلامٌ على مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى لِمَا رَوَى البُخَارِيُ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قال ذَلِكَ في كِتَابِهِ إلى هِرقل عَظِيْمِ الرُّوْمِ ولأنَّ ذَلِكَ مَعْنىً جَامِعٌ وَإنْ سَلَّم على مَن ظَنَّه مُسْلِماً ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ ذِمِّيٌ اسْتُحِبَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقُوْلَ لِلذِّمِي رُدَّ عَلَيَّ سَلَامِي .

لِمَا رُوِيَ عن ابنِ عُمَرَ أَنَّه مَرَّ عَلَى رَجُلٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقِيْلَ إِنَّهُ كَافِرٌ فَقَالَ رُدَّ عَلَيَّ مَا سَلَّمْتُ عَلَيْكَ فَرَدَّ عَلَيْهِ فقَالَ أَكْثَرَ اللهُ مَالَكَ وَوَلَدَكَ ثُمَّ التَفَتَ إلى أَصْحَابِهِ فقَالَ أَكْثَرُ لِلْجِزْيَةِ . وإنْ سَلَّمَ أَحَدُ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَزِمَ رَدُّهُ فَيُقَالُ وَعَلَيْكُم أَوْ يُقَالُ عَلَيْكُم بِلاَ وَاوٍ .

وفي الصحيحينَ عن عبدِ الله بن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم قال إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُم اليَهُوْدُ فَانَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُم السَّامُ عَلَيْكَ ، فَقُلْ لَهُ وَعَلَيْكَ هَكَذا بالوَاوِ وفي لَفْظٍ عَلَيْكَ بِلاَ وَاوٍ وعن أنس بنِ مالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ إِذا سَلَّمَ عَلَيْكُم أَهْلُ الكِتَابِ فَقُولُوا وَعَلَيْكُم رواه أحمد وفي لَفْظٍ لِلإِمَامِ أحمدَ فَقُولُوا عَلَيْكُم بلا وَاوٍ .

وعن عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالَتْ دَخلَ رَهْطٌ مِن اليَهُودِ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالُوا السَّامُ عَلَيْكُم فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ عَلَيْكُم السامُ واللَّعْنَةُ فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَهْلاً يا عَائِشَةُ فإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّهِ فَقُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ أَوَ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكم متفق عليه وفي لفظٍ قَدْ قُلْتُ عَلَيْكُم لَمْ يَذْكُرْ مُسْلِمٌ الوَاوَ وعندَ الشيخِ تَقِي الدِين يَرُدُّ مِثْلَ تَحِيَّتِهِ فَيَقُولُ وَعَلَيْكَ مِثْلَ تَحِيَّتِكَ انتهى .

وَمِمَّا يَحْرُمُ وَيَجِبُ النَّهيُ عنه ما يَفْعَلُه كَثِيرٌ مِن الناسِ مِن السلامِ عَلَيْهِم باليَدِ بالاشارَةِ وَجَعْلِهَا حِذَاءَ الرأس أَوْ وَضْعِهَا على صَدْرِهِ احْتِرَاماً لأَعْدَاءِ اللهِ وإشْعَاراً بِأَنَّهُ يُحِبُّهُم نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ ، قالَ أَبُو دَاوُدَ سَمِعْتُ أَحْمَدَ بنَ حَنبَلٍ سُئِلَ أَيُبْتَدَأُ الذِمِيُ بالسلامِ إذا كانَتْ لَهُ إليهِ حَاجَةٌ قَالَ لَا يُعْجِبُنِي .

قال صلى اللهُ عليه وسلم لَيْسَ مِنَّا مَن تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا لا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ وَلَا بالنَّصَارَى فإِن تَسْلِيْمَ اليَهُودِ الاشارَةُ بالأَصَابعِ وَتَسْلِيْمَ النَّصَارَى الاشَارَةُ بِالأَكُفِ رواه الترمذي عن عبد اللهِ بنِ عَمْرو بن العاصِ وَرُوِيَ لا

تُسَلِّمُوا تَسْلِيْمَ اليَهُودِ والنصارَى فإِنَّ تَسْلِيْمَهُمْ إِشَارَةً بالكُفُوْفِ والحَواجِب تأَمَّلْ يَا أَخِيْ سَلاَمَ كَثِيْرٍ مِنَ الناسِ تَجِدْهُ بالكفُوْفِ والحواجِبِ فَقط نَسأَلُ اللهَ العافية واللَّهُ أَعْلَمْ .

(فَصْــلٌ)

وَيَجِبُ هَجْرُ مَنْ كَفَرَ أَوْ فَسَقَ بِبِدْعَةٍ ، أَوْ دَعَا إِلى بِدْعَةٍ مُظَلِّلةٍ أَوْ مُفَسِّقَةٍ ، وَهَؤلآءِ هُمْ أَهْلُ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ .

وَأَمَّا هِجْرَ ان مَن أَظْهَرَ المَعَاصِي وَأَعْلَنَهَا فَقِيْلَ يُسَنُّ وَقِيْلَ يَجِبُ قال الامامُ أحمدُ رَضِيَ اللهُ عنه إذا عَلِمَ أَنَّهُ مُقِيْمٌ على مَعْصِيَةٍ وهو يَعْلَمُ بِذَلِكَ لَم يَأْثَمْ إِنْ جَفاهُ حَتَّى يَرْجِعَ ، وإِلا كَيْفَ يَتَبَيَّنُ لِلنَّاسِ مَا هُوَ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يَرَ مُنْكِراً ولا جَفْوَةً مِن صَدِيْقٍ .

وَقَدْ هَجَر صلى اللهُ عليه وسلم كَعْباً وَصَاحِبَيْهِ وَأَمَـرَ أَصْحَابَـهُ بِهِجْرِهِمْ خَمْسِيْنَ يَوْماً وَهَجَرَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم زَوْجَاتِهِ شَهْراً .

وَهَجَرَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ابْنَ أُخْتِهَا عَبْدَ اللهِ بنَ الزُبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مُدَّةً وَهَجَرَ جَمَاعَةٌ مِن الصَّحَابَةِ ، وَمَاتُوا مُتَهاجِرِيْنَ ، رِضْوَانُ اللهِ عليهم أجمعين .

قال أَبُـو دَاوُدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِذَا كَانَتِ الهِجْرَةُ لِلّهِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا يَعْنِي مِن أَحَادِيْثِ الوَعِيْدِ بالهِجْرَانِ بِشَيْءٍ .

فإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ هَجر بَعْضَ نِسَائِهِ أَرْبَعِيْنَ يَوْماً وابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا هَجَرَ ابْناً لَهُ إِلى أَنْ مَاتَ .

والامامُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هَجرَ جَماعَةً ، مِمَّنْ أَجَابُوا في المِحْنَةِ ، مِثْلُ يَحْيَ بْنِ مَعِيْنٍ ، وَعَلِيِّ بْنِ المَدِيْنِي ، وَغَيْرِهِمَا ، مَعَ فَخَامَةِ شَأْنِهِمْ .

وَكَمْ إمامٍ هَجَر صَدِيْقاً لَهُ كَانَ عَزِيْزاً عَلَيْهِ لَوْلاَ انْتِهَاكَهُ لِمَحَارِمِ اللهِ ، فَصَارَ بِذَلِكَ كَالجَمَادِ ، بَلْ أَدْنَى وَيَكْفِي مِن ذَلِك قِصَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ كَعْبٍ وَصَاحِبَيْهِ .

مـوعظـة

عِبَادَ اللهِ لَقَدْ تَغَيَّرَ أَكْثَرُ أَهْلِ هَذَا الزَّمَنِ في أَحْوَالِهِم الدِّيْنِيَّةِ تَغَيُّراً يُدْهِشُ ذَوِيْ العُقُولِ تَغَيُّراً مَنْ أَمْعَنَ النَّظَرَ فِيْهِم ظَنَّ أَنَهُمْ لَيْسُوْا مِن فَرِيْقِ المُؤْمِنِيْنَ .

هَذِهِ الصَّلاةُ وهِيَ عَمُودُ الإِسْلَام آكَدُ أَرْكَانِهِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ ، أَعْرَضُوا عَنْهَا ، وَلَمْ يُبَالُوا فِيْهَا جَهِلُوا مَا هِيَ الصَّلاةُ ، وَأَيُ قِيْمَةٍ قِيمتُهَا وَمَا مَنْزِلَتُهَا بَيْنَ سَائِرِ الطَّاعَات .

أَمَا عَلِمُوا أَنَهَا أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِيْهِ مِن عَمَلِ العَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَإِنْ وُجِدَتْ تَامَّةً صَالِحَةً قُبِلَتْ مِنْهُ ، وَسَائِرُ عَمَلِهِ ، وانْ وُجِدَتْ نَاقِصَةً رُدَّتْ إِلَيْهِ وَسَائِرُ عَمَلِهِ ، ثُمَّ تَكُونُ كالثَّوبِ الخَلَقِ فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا .

عِبَادَ اللهِ إِنَّ الصَلاَةَ عِبَادَةٌ ، وَمُنَاجَاةٌ ، وَقُرْبَى ، نِظَامُهَا الرُكُوعُ والسُجُودُ ، مَعَ التَّذَلُّلِ ، والخُضُوعِ ، وَأَقْوالُهَا القِرَاءَةُ ، والتَّسْبِيْحُ ، والابْتِهَالُ ، إلى اللهِ ، وَتَحْرِيْمُهَا التَّكْبِيْرُ وَتَحْلِيْلُهَا التَّسْلِيْمُ وَرُوْحُهَا الإِخْلَاصُ لِلهِ ، وَسِرُّهَا اظْهَارُ العُبُوْدِيَّةِ ، والاسْتِكَانَةِ ، لِعَظَمَةِ الرَّبِ جَلَّ وَعَلا .

إِنَّهَا خَمْسُ صَلَواتٍ في اليَومِ واللَّيْلَةِ ، خَمْسُ وَقْفَاتٍ يَقِفُهَا العَبْدُ أَمَامَ سَيِّدِهِ وَمَوْلاهُ ، خَالِقِهِ ، وَمُدَّبرِ أَمْرِهِ ، وَلَهَا عِنْدَ اللهِ ثَوَابُ خَمْسِيْنَ صَلاة .

شُرِعَتْ لَهَا الجَمَاعَةُ ، وَأُمِرَ بِبِنَاءِ المَسَاجِدِ لأَجْلِهَا ، وَشُرِعَ لَهَا الاذَانُ ، لِيَنْتَبِهِ الغَافِلُ ، وَيَتَذكَرَ النَّاسِيْ ، والجَاهِلُ ، إِعْلاماً لِوَقْتِهَا لِيَجْتَمِعَ المُسْلِمُوْنَ إِلَيْهَا ، وَيُؤَدُّوْهَا في جَوٍ يَسُوْدُهُ الإِخَاءُ والمَحَبَّةُ والإِلْفَةُ .

وَهِيَ خَيْرُ العِبَادَاتِ ، وَكَانَتْ قُرَّةَ عَيْنِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، كَمَا في الحديثِ « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصلاةِ » ، وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَرِحْنَا يَا بِلَالُ بالصلاةِ .

عِبَادَ اللهِ إِنَّ الصَّلاةَ كَمَا عَلِمْتُم عِمَادُ الدِّيْنِ ، وَنُوْرُ اليَقِيْنِ وَمَصْدَرُ البِرّ ، وَمَبْعَثُ الخَيْرِ ، العَمِيْمِ ، وَعِصْمَةٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ، وَنَجَاةٌ مِن خِزيِ الدُنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ .

وقَدْ جَاءَ في الحَديْثِ الصلاةُ نُوْرٌ والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ والصَّبْرُ ضِيَاءٌ وذَكَرَهَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلام يوماً فَقَالَ مَن حَافظَ عَلَيها كانَتْ لَهُ نُوْرَاً وبُرْهاناً ونجاةً يومَ القِيَامَةِ .

عِبَادَ اللهِ إِنَّ الصلاةَ مِن أَجَلِّ الشَّعَائِرِ الدِّيْنِيَّةَ وأَعْظَمِ المَظَاهِرِ الاسْلامِيَّةِ ومِن أَشْرَفِ العِبَادَاتِ وهِيَ خَيْرُ ما يَتَقَرَّبُ بِهِ العَبْدُ إِلى اللهِ وقَدْ كَانَ صَلى اللهُ عليه وسلم يُصَلِّي حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ .

عِبَادَ اللهِ إذا فَهِمْتُم مَا سَبَقَ مِن عِظَمِ شَأْنِ الصَّلاةِ فَمَا بَالُ قَوْمٍ

يُهْمِلُونَهَا ويَتَهَاوَنُونَ بِهَا وَيَتَكَاسَلُونَ عَنْهَا عندَ حُلُولِ وَقْتِهَا وَمَا بَالُ أقْوَامٍ يُؤَدُّوْنَهَا عَلَى عَجَلٍ وَعَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا وَيَنْقُرُوْنَهَا نَقْرَ الغُرَابِ كَأَنَّهُم مُكْرَهُونَ عَلَيْهَا وَيَنْسَوْنَ أنَّهَا وَقْفَةٌ أمامَ بَديْعِ السمواتِ والأَرْضِ فَمِنَ الخَيْرِ أنْ تَطُوْلَ هَذِهِ الوَقْفَةِ قال صَلى الله عليه وسلم إنَّ طُوْلَ صَلاةِ الرَّجِلُ وقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مَن فِقْهِهِ فأطيْلُوا الصلاةَ واقْصُرُوْا الخُطْبَةَ .

ومِن المُؤْسِفِ أنَّ أكْثَرَ الخُطَبَاءِ اليَوْمَ عَمِلُوْا بِخَلافِ ذَلِكَ فَأَطَالُوا الخُطْبَةِ وَقَصَّرُوْا الصلاةَ فلا حَوْلَ ولا قَوةَ إلا باللهِ .

عِبَادَ اللهِ إن بَعْضَ الناسِ يُؤَدِيْ الصلاةَ تَعُوداً لا تَعَبُّداً وهَذَا مَا جَعَلَهَا لا تَنْهَاهُ عَن فَحْشَاءٍ ولا مُنْكَرٍ لِسَانُ حَالِهِمْ يَقُولَ يا إِمَامُ ارِحْنَا مِن الصلاةِ .

عِبَادَ اللهِ إن اللهَ جَلَّ وَعَلاَ أنْعَمَ عَلَيْنَا بِنِعَمٍ عَظيْمَةٍ لا تَعُدُّ ولا تُحْصَى جَعَلَنَا مِن بَنِيْ آدمَ وجَعَلَ لَنَا سَمْعَاً وأبْصاراً وأَفْئِدَةً ومَنَحَنَا النَّشَاطَ والقُوَّةَ وشَدَّ أسْرَنَا . وَوَهَبَنَا الصِّحَةَ والعَافِيَةَ والرِّزْقَ وسَهَّلَ عَلَيْنَا الحَرَكَةَ والسَّعْيَ .

هَذَا البَعْضُ اليَسِيرُ مِن نِعَمِهِ كُلُّهُ كَرماً مِنْهُ وتَفَضُلاً ولم يَطْلُبْ مِنَّا إلا دَقَائِقَ مِن يَوْمٍ طَوِيْلٍ نَشْكُرُهُ فِيْهَا وَنَحْمَدُهُ ونَسْأَلُهُ أن يَعْفُو عَنَّا ويَرْزُقَنَا ويَرْحَمَنَا وَيَحْفَظَنَا وأوْلادَنَا وأهَلَنَا وَهَذِهَ لا تَخْرُجُ عن كَوْنِهَا لِخَيرِنَا في الدنْيَا والآخِرَةِ .

فَمَالَنَا لا نَقُومُ بِهَذِهَ الدَّقَائِقَ بِجِدٍّ واجْتِهَادٍ واخْلاصٍ ورَغْبَةً ونَشَاطٍ ونَسْعَى إلَىَ مُنَاجَاةِ مَوْلانا وسَيِّدِنا رَاغِبْينَ ونُحَافِظْ عَلَى أوْقَاتِ الصَّلاةِ

ونُقِيْمُهَا على الوَجْهِ الأكْمَلِ لاَ شَكَّ أنَّ العَبْدَ عِنْدَمَا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ يَخْجَلُ وَيَسْتَحِيْ جِدَا وَيَتَذَكَّرُ أَنَّ الصلاةَ التي هِيَ صِلَةٌ بَيْنَه وبَيْنَ مَوْلاَهُ لا تَأْخُذُ مِن يوْمِهِ إلا دَقَائِقَ بَيْنَمَا لَهُ بَاقِي اليَومِ كُلِّهِ .

اللَّهُم أرْزُقْنَا المَعْرِفَةَ على بَصِيْرةٍ بِكَ وبأَسْمَائِكَ وصِفَاتِكَ وَوَفِّقْنَا لِما تُحِبُّهُ وتَرْضَاهُ مِن الأَعمَالِ وجَنِّبْنَا مَا تكْرَهُهُ ولا تَرْضَاهُ مِن الأَقْوالِ والأَعْمَالِ وآتِنَا في الدنيا حَسَنَة وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذابَ النَّارِ يا عَزِيْزُ ويَا غَفَّارُ واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

« فِيمَا وَرَدَ فِي الأُخُوَّةِ والألفةِ والصَّدَاقَةِ »
« في الله »

عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمانِ مَنْ كَانَ اللهُ ورَسُولُه أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، ومَنْ أَحَبَّ عَبْداً لاَ يُحِبُّهُ إلا لِلهِ الحديثَ رواه البخاري ومسلم والترمذيُ والنسائي .

وفي روايةٍ ثَلاثٌ مَن كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الايمانِ وَطَعْمَهُ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إِليهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ فِي اللهِ ويُبْغِضَ فِي اللهِ الحديث رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رَضيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه

وسلم إِنَّ الله تعالى يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، أيْنَ المُتَحابُونَ بِجَلالِي ، اليَوْمَ أظِلهُم في ظِلِّي يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلِّي رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظِلُّهُ الإمَامُ العَادِلُ ، وشَابٌ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللهِ ، ورَجُلٌ مُعَلَّقٌ قَلْبُهُ في المَسَاجِدِ ، ورَجُلانِ تَحَابَا في اللهِ اجْتَمعَا عليهِ وتَفَرَّقَا عَلَيهِ .

وَرَجُلٌ دَعَتْه امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فَقَالَ إنِّي أَخَافُ اللهَ ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقةٍ فأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ . رَواهُ البُخَارِي ومُسْلِمٌ وغَيْرُهُمَا .

وعن أبي هريرة رضي اللهُ عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رَجُلاً زَارَ أخاً لَهُ في قَرْيَةٍ أخرَى،فارْصَدَ اللهُ على مَدْرَجته مَلكاً فَلَمَّا أتى عَلَيهِ ، قال أيْنَ تُرِيْدُ قال أخاً لِيْ في هَذِهِ القَرْيَةِ ، قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ لَا غَيْرَ أنِّي أُحِبُّهُ لِلهِ ، قال فإنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكَ أنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيْهِ رواه مسلم .

وعن أَبِيْ مُسْلِمٍ قَالَ قُلْتُ لِمُعَاذٍ وَاللهِ إنِّيْ لَأُحُبُّكَ لِغَيرِ دُنْياً أَرْجُوْ أنْ أَصِيْبَهَا مِنْكَ ولا قَرَابَةٍ بَيْنِي وبَيْنَكَ قال فَلإيِّ شَيْءً قُلْتُ لِلهِ قال فَجَذَبَ حَبْوَتِيْ ثُمَّ قَالَ أَبْشِرْ إنْ كُنْتَ صَادِقاً فَإنِّيْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ المُتَحابُوْنَ فِي اللهِ في ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِم النَّبِيُونْ والشُهَدَاءُ ، قالَ وَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَحدَّثْتُهُ بحَدِيْثِ مُعَاذٍ .

فقَالَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يَقُولُ عن رَبِّهِ تبَارَكَ وتَعَـالَى ، حَقَّتْ مَحَبَّتِيْ عَلَى المُتَحـابْينَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحبَّتِي على المُتَنَاصِحِيْنَ فِيَّ وحَقَّتْ مَحبَّتِي على المُتَبَاذِلِيْنَ فِيَّ ، هُمْ عَلى مَنَابِرَ مِن نُـوْرٍ ، يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُـونْ والشُهَدَاءُ ، والصِّدِّيقُوْنَ رواه ابن حبـان في صحيحه .

وعن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه قال سَمِعْتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم يَأثِرُ عن رَبِّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى يَقُولُ ، حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَـابِيْنَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِيْ لِلْمُتَــوَاصِلْينَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحبّتِيْ لِلْمُتَزَاوِرِيْنَ فِيَّ ، وحَقَّتْ مَحَبَّتِيْ لِلْمُتَبَاذِلِينِ فِيَّ ، رواه أحمد باسنـاد صحيح .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم إن مِن عِبادِ اللهِ عِباداً لَيْسُوا بأَنْبِيَاءَ يَغْبِطُهُمْ الأَنْبِيَاءُ والشُهَدَاءُ قِيْلَ مَن هُمْ لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ ، قَالَ هُمْ قومٌ تَحَابُّوْا بنُوْرِ اللهِ ، مِن غَيرِ أرْحَامٍ وَلَا أَنْسَابٍ ، وَجُوْهُهُمْ نُوْرٌ عَلى مَنَابِرَ مِن نُورٍ ، لا يَخافُونَ إذا خَافَ النَاسُ ولا يَحْزَنُونَ إذا حَزِنَ الناسُ ، ثـم قَرأَ : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ رواه النسائي في صحيحه واللفظ له وهو أتم .

وعن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قال رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إنَّ مِن عِبادِ اللهِ لأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ ولا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الأَنَبِيَاءُ والشُهَدَاءُ يَوْمَ القِيامَةِ بمكَانِهِم مِنَ اللهِ ، قالوُا يا رسولَ اللهِ فَخَبِرْنَا مَنْ هُمْ .

قال هُمْ قَومُ تَحَابُوا بِرَوحِ اللهِ ، عَلَى غَيرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُم ، ولا أَمْوَالٍ يَتَعاطَوْنَهَا ، فَوَاللهِ إنَّ وُجُوْهَهُم لَنُورِ ، وإِنَّهُمْ لَعَلى نُوْرٍ ، ولا يَخافُونَ إذا

خَافَ الناسُ ، ولا يَحْزَنُونَ إذا حَزِنَ الناسُ ، وقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ : ﴿ اَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ رواه أبو داود .

وعن عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ أَنَّ أَصْحَابَهُ كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ ، فَلمَّا خَرَجَ قالُوا مَا أَبْطَأَكَ عَنَّا ، أَيُّهَا الأَمِيْرُ قال اَمَا إِنِّي سَوْقَ أُحَدِثُكُم أَنَّ أخاً لَكُم مِمَّن كَانَ قَبْلَكُم وهُوَ مُوْسَى صلَّى اللهُ عليه وسلمَ قال يَا رَبُّ حَدِثْنِي بأَحَبِ الناسِ إِلَيْكَ ، قَالَ ولِمَ قَالَ لأُحِبَّهُ بِحُبّكَ إِيَّاهُ .

قَالَ عَبْدٌ في أَقْصَى الأَرْضِ أَوْ طَرَفِ الأَرْضِ سَمِعَ بِهِ عَبْدٌ آخَرُ في أَقْصَى أَوْ طَرَفِ الأَرْضِ لا يَعْرِفُهُ فإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيْبَةٌ فكَأَنَّمَا أصَابَتْهُ ، وانْ شَاكَتْهُ شَوْكَةٌ فكَأَنَّمَا شَاكَتْهُ ، لَا يُحِبُّهُ إلا لِيْ فَذَلِكَ أَحبُّ خَلْقِي إليَّ .

قال يَا رَبُّ خَلَقْتَ خَلْقاً تُدْخِلُهُم النَّارَ أَوْ تُعَذِبُهُمْ ، فَأَوْحَى اللهُ إليهِ كُلُهُم خَلْقِي ، ثُمَّ قَالَ ازْرَعْ زَرْعاً فَزَرَعَهُ ، فقال اسْقِهِ فَسَقَاهُ ، ثم قالَ قُمْ عَلَيْهِ ، فَقَامَ عَلَيهِ ما شَاءَ اللهُ مِن ذَلِكَ ، فَحَصَدَهُ وَرَفَعَهُ .

فقال : مَا فَعَل زَرْعُكَ يَا مُوْسَى قَالَ فَرَغْتُ مِنْهُ ، ورَفَعْتُهُ ، قال مَا تَرَكْتَ مِنْه شَيْئاً قَالَ مَالاَ خيْرَ فِيْهِ ، أَوْ مَا لَا حَاجَةَ لِيْ فِيه قالَ فَكَذَلِكَ أَنَا لا أُعذِّبُ إلَّا مَن لَا خَيْرَ فِيْهِ .

قَالَ ولَو لَمَ يَكُنْ فِي مَحَبَّةِ اللهِ إلا أَنَّها تُنْجِي مُحِبَّهُ مِن عَذَابِهِ ، لَكَانَ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أنْ لا يُتعَوَّضَ عَنْهَا بِشَيْءٍ أبدَا ، وسُئِلَ بَعْضُ العُلمَآءِ أيْنَ تَجِدُ فِي القُرْآنِ أنَّ الحَبِيْبِ لا يُعَذِبُ حَبِيْبَهُ فقال في قولِهِ تَعالى ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ والنصارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبآؤُهُ قُلْ فِلمَ يُعَـذِبُكُمْ بِذُنُوبِكُم ﴾ الآية .

« مَوْعِظَةٌ »

عِبَادَ اللهِ لَقَدْ غفلَتِ الأَلْسِنَةُ اليَوْمَ عَن ذِكْرِ اللهِ ، غَفْلَةً تَسُرُّ ابْلِيْسَ وَجَنُوْدَهُ ، ولَمَّا غفلَتِ الأَلسْنَةُ غفلَتِ القُلُوْب ، عن مُرَاقَبَةِ اللهِ في السّرِ والعَلاَنِيَةِ ، ولَمَّا غَفلَتِ القُلوبُ والأَلْسِنَةُ عن ذِكْرِ اللهِ ، انْدَفعَتِ الجَوَارِحُ في مَيْدَانِ المَعَاصِي ، انْدِفَاعاً لا يُصَدِقُ بِهِ إلا مَنْ تَأمَّلَ الناسَ في تَفَنُّنِهِمْ في الشُرُوْرِ ، وتَسَابُقِهِم إِليْهَا .

مِنْ تَقْلِيْدِ للأَجَانِبِ ، وشُرْبِ لِدُخَانٍ ، ومُعَامَلاَتٍ لا تَجُوزُ ، ونِفَاقٍ ، وغِشّ ٍ ، ونَهْشٍ لإِعْرَاضِ الغَافِلِيْنَ ، وخِدَاعٍ ، ومَكْرٍ ، ورِيَاءٍ ورِباً وكِبْرٍ وحَسَدٍ وسَمَاعٍ لِلْمَلاهِي ، وحُضورٍ لَهَا ، وعقوقٍ ، وشَهَادَةِ زُوْرٍ ورُشَاء ، ومُدَاهَناتٍ ونَمٍ وَكَذِبٍ ونَحوِ ذلك .

ولو تَحركَتَ الأَلْسِنَةُ بِذِكْرِ اللهِ لا اسْتَيْقَظَتِ القُلُوبُ مِن غَفلاَتِهَا القَاتِلاتِ ، ولو اسْتَيْقَظَتْ القُلُوبُ والتَفَتَتْ إلى ذِكْرِ عَلام الغُيُوبِ ما رَأيْتَ جَارِحَةً مِن الجَوارِحِ تَلْتَفِتُ لِشَيءٍ مِن المَحْظُورَاتِ ، فَإِنَّ الغَفْلَةَ عن ذِكْرِ اللهِ هِيَ أصْلُ الشُرورِ واليَقَضَةَ هِيَ أَصْلُ الْخَيرِ والسَّعَادَةِ في الدنيا والآخرةِ بإذنِ اللهِ تعالى .

وإليك نَمَاذِجُ مِن كُنُوزِ ذِكْرِ اللهِ ، تَعَالَى أَوَّلُهَا كَلِمَةُ الاخلاصِ ، لا إله إِلَّا اللهُ ، فَإنها تَرْجَحُ بِكُلِّ مَا سِوَاهَا ، حَتَّىَ على الأَرْضِ والسمواتِ وسُبْحَانَ اللهِ ، والحَمْدُ لِلهِ ، واللهُ أَكْبَرُ ، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأَنْ أقوْلَ سُبْحَانَ اللهِ ، والحَمْدُ لِلهِ ، ولاَ إِلَه إلا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَليه الشمسُ رواه مسلم والترمذي .

وعن أُمِّ هَانِيءٍ قَالَتْ مَرَّ بِي رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ذاتَ يومٍ ، فَقُلْتُ يا رسولَ اللهِ قَدْ كَبُرَتْ سِنِّيْ ، وضَعُفْتُ أو كما قالَتْ فَمُرْنِي بِعَمَلٍ أعْمَلُهُ وأنا جَالِسَةٌ .

قال : سَبِحِيْ اللهَ مِائَةَ مَرَةٍ ، فانَّها تَعْدِلُ مِائَةَ رَقَبَةٍ ، تُعْتِقِيْنَهَا مِن وَلَدِ اسْمَاعِيْلَ ، واحْمَدِيْ اللهَ مِائَةَ تَحْمِيْدَةٍ ، فإنها تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةً مُلْجَمَةً تَحْمِلِيْنَ عَلَيْهَا في سَبْيِلَ اللهِ ، وكَبِّري اللهَ مِائَةَ تَكْبِيْرَةٍ فإنها تَعْدِلُ لك مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةً مُتَقَبَّلَةً وهَلِلِيْ اللهَ مِائَةَ تَهْلِيْلَةٍ .

قال أبُو خَلَفٍ أحْسبُهُ قَالَ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ولا يُرْفَعُ يَوْمَئِذٍ لِإحَدٍ عَمَلٌ أفْضَلَ مِمَّا يُرْفَعُ لَكِ إلا أنْ يَأتِي بِمْثلٍ ما أتَيْتِ ، رواه أحمد باسناد حسن واللفظ له والنسائي ولم يَقُلْ ولا يُرْفَعُ إلى آخِرِه ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ ، دَوَاءٌ مِن تِسْعَةٍ وتِسْعِينَ دَاءٍ ، أيَسْرُهَا الْهَمُّ كَمَا في الحديثِ الذي رواه الطبراني .

ولا حَوْلَ ولا قوةَ الا باللهِ كَنْزٌ مِن كُنُوزِ الجَنَّةِ ، وقَوْلُ أعوُذُ بكلماتِ اللهِ التاماتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ حِفْظٌ لِقَائِلِهَا مِن العَقْرَبِ ، ونَحْوِهَا ومَن قَالَ رَضِيْتُ باللهِ رَباً وبالاسلامِ دِيْناً وبِمُحَمَّدٍ رَسُوْلاً فَلْيَبْشِرْ بإن النبيَ صلى اللهُ عليهِ وسلم زَعِيْمٌ لِمَنْ قَالَهَا إذا أصْبَحَ أنْ يَدْخُلَ الجَنَّةِ .

وقُلْ إذا أَصْبَحْتَ اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِن نِعْمَةٍ أَوْ بأَحَدٍ مِن خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لا شَرِيْكَ لَكَ فَلَكَ الحَمْدُ ولكَ الشُكْرُ ، لِتُؤَدِيْ شُكْرَ يَوْمِكَ وَقُلْ مِثْلَهَا إذا أمْسَيْتَ لِتُؤَدِّي شُكْرَ لَيْلتِكَ » ولله در القائل :

شعرا :

وَلَـوْلَا ثَـلاثٍ هُنَّ مِنْ لَـذَّةِ الفَتَـى
وَرَبِّـكَ لَمْ أَحْفِـلْ مَتَى قَـامَ عُـوَّدِي
سِيَـاحَـةُ قَلْبِي فِي رِيَـاضٍ أرِيْضَـةً
مِن العِلْمِ مُجْتَـازاً عَلَى كُلِّ مَـوْرِدِ
وَتَـسْـبِيْـحُـنَـا لِلّهِ جَـلَّ جَـلالُـهُ
عَشِياً وبـالابْكَـارِ فِي كُـلِّ مَسْجِـدِ
وَتَـرْتِيْـلُ آيـاتِ الكِتَـاب مُنَـوِّراً
بِهَـا جَوْفَ لَيْـلٍ فِي قِيَـامِ التَّهَجُّـدِ

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِن كُنُوزِ الذِكْرِ وَفَّقَنَا اللهُ وايَّاكَ وجميعَ المسلمينَ لِلْعَمَلِ بِهَا وأَلْهَمَنا وايَّاكَ وجميعَ المسلمين شُكْرَهَا وغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

وعن أبي مَالِكٍ الأَشْعَرِي رضِي اللهُ عنه عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال : يَا أَيُّهَا الناسُ اسْمَعُوا وَاعْقِلُوا ، واعلمُوا أنَّ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ عِبَاداً لَيْسُوا بأَنْبيَاءَ ، وَلا شُهَـدَاءَ ، يَغْبِطُهُم النَّبِيُّـونَ ، والشُهَداءُ على مَنَازِلِهِم وقُرْبِهم مِن اللهِ .

فَجَثَى رَجُلٌ مِن الأَعْرَابِ ، مِن قَاصِيَةِ الناسِ وأَلْوَى بِيَدِهِ ، إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالَ يَا رَسُولَ الله نَاسٌ مِن الناسِ لَيْسَوا بأَنْبِيَاءَ ولا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُم الأَنْبِيَاءُ والشُّهَداءُ ، عَلَى مَجَالِسِهم وقُرْبِهِمْ مِن

اللهِ انْعَتْهُم لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا ، يَعْنِي صِفْهُمْ لَنَا ، فَسُرَّ وَجْهُ النبيِ صلَّى اللَّهُ عليَه وسلم بسُؤالِ الأَعْرَابِي .

فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هُمْ نَاسٌ مِن أَفْنَاءِ الناسِ ، ونَوَازِعِ القَبَائِلِ ، لم تَصِلْ بيْنَهُم أَرْحَامٌ ، مُتقَارِبَةٌ تَحابُوا في اللهِ ، وتَصَافَوْا ، يَضَعُ اللهُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنابِرَ مِن نُورٍ ، فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا فَيَجْعَلْ وُجُوهَهُمْ نُوراً ، وثِيَابَهُم نُوْرَاً ، يَفْزَعُ الناسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ولا يَفْزَعُونَ ، وهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ، رواه أحمد وأبو يعلى باسناد حسن والحاكم وقال صحيح الاسناد .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن في الجَنَّةِ لَعُمُدًا مِن يَاقُوْتٍ عَلَيْهَا غُرَفٌ مِن زَبَرْجَدٍ لَهَا أَبْوَابٌ مفَتَّحةٌ تُضِيءُ كَمَا يُضِيءُ الكوكَبُ الدُرِيُّ ، قال قُلْنَا يا رسولَ اللهِ مَن يَسْكُنُهَا ، قالَ المُتَحَابُونَ فِي اللهِ ، والمُتَبَاذِلُونَ فِي اللهِ ، والمُتَلاَقُونَ فِي اللهِ ، رواه البزار .

وعن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عنه عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، قال إنَّ في الجنةِ غُرَفاً تُرَى ظَواهِرُهَا مِن بَوَاطِنِها، وبَوَاطِنُهَا مِن ظَوَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُتَحَابِيْنَ فِيهِ والمُتَزَاوِرِيْنَ فِيه والمُتَبَاذِلِينَ فِيه ، رواه الطبراني في الاوسط .

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَجُلاً سَأَلَ رسولَ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلم مَتَى السّاعَةُ ، قَالَ ومَا أعْدَدْتَ لَهَا ، قالَ لا شَيءَ إلَّا أنِيْ أُحِبُّ اللهَ ورسولَه ، قالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ ، قال أنسُ فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنا

بقولِ النبي صلَى اللهُ عليهِ وسلم أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ قال أنسُ فأنا أحِبُّ النبيَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، وأبَا بَكْرٍ ، وعَمُرَ ، وأَرْجُو أَنْ أكُونَ مَعَهُم ، بحُبِّيْ إِيَّاهُمْ ، رواه مسلم .

فَفِيْ هَذَا الحَدِيثِ بَشَارَةٌ عَظِيْمَةٌ سَارَّةٌ ، لِمَنْ أَحبَّ اللهَ وَرَسولهُ ، وأَصحَابَهُ ، ومَن اتَّبَعَهُمْ واقْتَدَى بِهِم ، ولِهَذا فَرِحَ أَصْحَابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بِهَذَا النَبَأِ الحَسَنِ ، واغْتَبَطُوا لَهُ اغْتِبَاطاً ، فَائِقاً وإِنَّمَا سُرُّوْا بِهِ وفَرِحُوا لِأَنَّهُم كانوا يَقِيْسُوْنَ أَنْفُسَهُم على شَخْصِ النبي صلى الله عليه وسلم ، في العِبَادَةِ ، وكانَ صلى اللهُ عليه وسلم يأمُرُ بالقَصْدِ فِيها والرِفْقِ بأنْفُسِهِم .

فَفِي حديثِ البُخَارِي عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالَتْ كَانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا أَمَرهُم ، أَمَرهُم مِن الأعْمَالِ مَا يَطِيْقُونَ ، ويَقُولُونْ إنا لَسْنَا مِثْلَكَ يا رسولَ اللهِ انَّ اللهَ قَدْ غفَرَ لكَ ما تَقَدَم مِن ذَنْبِك ومَا تَأَخَّرَ ، فَيَغْضَبَ حَتَّى يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ .

ثم يقولُ أَمَا وَاللهِ إنّي لَأخشَاكُمْ لِلِهِ ، وأَتْقَاكُم لَهُ وكَأَنَّهُم يَقُولُونَ أنْتَ مَغْفُورٌ لَكَ ، فلا تَحْتَاجُ إلى كَثْرَةِ أعْمَالٍ ، بِخِلَافِنَا فَرَدَّ عَلَيْهِم صلى اللهُ عليه وسلم بقولِهِ أَنا أَوْلَاكُم بِذلك لأنِيّ أَتْقَاكُمْ وأعلمكم بِاللهِ .

ومَنْ كَانَ كَذَلِكَ يَكْثُرُ أَعْمَالُهُ ، وتَعْظُمُ عِبَادَتُهُ لِشِدَّةِ خَوْفِهِ مِن رَبّهِ وَتَمَامِ مَعْرِفَتِهِ بِمَا يَلِيْقُ بِجَلَالِ اللهِ وعَظَمَتِهِ ، ولأنَّ نِعَمَ اللهِ عليهِ أَكْثَرُ مِن غَيْرِهِ ، قال اللهُ تعالى ﴿وكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيْمَا﴾ ولهَـذا سُرَّ الصَّحَابَةُ بِمَا قالَهُ النبيُ صلى الله عليه وسلم لِهذا الرَّجُلِ السَّائِلِ .

وقالوُا فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بقَوْلِ النبيِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَم أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ لِمَا وَفَّقَكَ اللهُ لَهُ مِن حُسْنِ النِيَّةِ والقَصْدِ مِن غَيرِ إجْهَادٍ في العَمَلِ ، وزِيَادَةٍ في العِبَادَةِ .

والحَقُّ أَنَّهُ لا يَتِمُ ولا يَكْمُلُ إيْمَانُ الانسانِ إلَّا بإيْثَارِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم بالمَحَبَّةِ والتَّعْظِيْمِ على سَائِرِ خَلْقِ اللهِ ، ففي الحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ قال والذي نَفْسِي بيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أكُوْنَ أَحَبَّ إليهِ مِن وَالِدِهِ ، ووَلَدِهِ ، وفي رواية والناسِ أجمعين .

ومِن عَلاَمَاتِ مَحَبَّتِهِ إِيْثَارُ رِضَاهُ والعَمَلُ بِشَرِيْعَتِه ونَصْرُ سُنَّتِهِ ، والتأسِيْ بِهِ في شَمَائِلِهِ وسِيْرَتِهِ الكَرِيْمَةِ ، المُبارَكَةِ أَمَّا مَن ادَّعَى مَحَبَّتَهُ ولَمْ يُؤْثِرْ بالعَمَلِ شَرِيْعَتَهُ ، فَتِلْكَ دَعْوَى باطِلَةٌ ، وتَبَجُّحُ كَاذِبٌ ، لِأَنَّ صَاحِبَها لَمْ يُقِم حُجَّةً على صِحَّةِ دَعْوَاهُ ، وأَحَقِيَّةِ مَا ادَّعَاهُ .

اللَّهم وَفِّقْنا لِمَحَبَّتِك وَمَحَبَّةِ رُسُلِكَ وَأَوْلِيَائِكَ وعِبَادِكَ الصالحين واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

عن الوليدِ بنِ أَبِيْ مُغِيْثٍ عن مُجاهِدٍ ، قَالَ إذا التَقَى المُسْلِمَانِ فَتَصَافَحا غُفِرَ لهُمَا ، قال قُلْتُ لِمُجَاهِدٍ بِمُصَافَحَةٍ لَهُمَا قَالَ مُجَاهِدُ أَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ ﴿لَو أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيْعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم ، ولكنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ فَقالَ الوَلِيْدَ لِمُجاهِدٍ أَنْتَ أَعْلَمُ مِنّيِ .

وعن سلمانَ الفَارسِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال « إنَّ المُسْلِمَ إذَا لَقِيَ أخاهُ المُسْلِمَ فَأَخَذ بيَدِهِ تَحاتَتْ عَنْهُمَا ذُنُوْبُهمَا كَما تَحَاتُ الوَرَقُ عن الشَّجَرَةِ اليَابِسَةِ فِي يَوْمٍ رِيْحٍ عَاصِفٍ وإلا غُفِرَ لَهُمَا ذُنُوبُهما ولو كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البِحَارِ .

وقال أبو عَمْرٍو الأَوْزَاعِي حَدَّثَنِي عَبْدَةُ بنُ لُبَابَةَ عن مجاهدٍ ولَقِيْتُهُ فَأَخَذَ بيَدِي فقال إذا التقَا المُتَحَابَانِ في اللهِ فأَخَذَ أَحَدُهُمَا بيَدِ صَاحِبِه وضَحِكَ إليه تَحاتَتْ خَطَايَاهُمَا كَمَا تَحَاتُ وَرَقُ الشَّجَرِ ، قال عَبْدَةُ فَقَلْتُ لَهُ هَذَا يَسِيْرٌ فقال لا تَقُلْ ذَلِكَ فإنَّ اللهَ يقولُ لَو أَنْفَقْتَ ما في الأَرْضِ جَمِيْعاً ما أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم قَال عَبْدَةُ فَعَرَفْتُ أنَّه أَفْقَهُ مِنّي .

« مَوْعِظَةٌ مِن كلامِ »
« ابنِ الجَوْزِيْ رَحِمَهُ اللهُ »

يا مَن يُرَجّي الثَّوَابَ بِغَيرِ عَمَلٍ ، ويُرَجّى التَّوْبَةَ بطُوْلِ الأَمَلِ تَقُولُ في الدُنيا قَولَ الزَّاهِدِيْنَ ، وتَعْملُ فيها عَمَلَ الرَّاغِبِيْنَ ، لا بِقَلِيْلٍ منها تَقْنَعْ ، ولا بِكَثِيْرٍ منها تَشْبَعُ ، تَكْرَهُ الموتَ لِأَجْلِ ذُنوبِكَ ، وتُقِيْمُ على مَا تَكْرَهُ المَوْتَ لَهُ مِن عُيُوْبِكَ .

تَغْلِبُكَ نَفْسُكَ على مَا تَظُنُ ، ولا تَغْلِبُهَا على مَا تَسْتَيْقِنْ ، ما تَثِقُ مِن الرِّزْقِ بِمَا ضُمِنَ لكَ ، ولا تَعْمَلُ مِن العَمَل ما فُرِضَ عَلَيْكَ ، وتَسْتَكْثِرُ مِن مَعْصِيَةِ غَيْرِكَ مَا تَحْتَقِرُهُ مِن نَفْسِكَ .

أَمَا تَعْلَم أَنَّ الدُنْيَا كَالحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا والسُّم النَاقِعُ في جَوْفِهَا يَهْوِي إلبْهَا الصَّبِيُ الجَاهِلُ ويَحْذَرُهَا اللَّبِيْبُ العاقِلُ كَيْفَ تَقَرُّعَيْنُ من عَرَفَها ومَا

أَبْعَدَ أَنْ يُفْطَمَ عَنْها مَن الفَهَا ، فَتَفَكَّرُوْا إِخْوَانِي في أَهْلِ الصلاحِ ، والفَسَادِ ، ومَيِّزُوا بَيْنَ أَهْلِ الخُسْرانِ وأَهْلِ الأَرْبَاحِ ، فيا سَرعانَ عُمْرٍ يُفْنِيْهِ المَسَاءُ والصَّبَاحْ .

« شِعرُ لِبَعْضِ الصَّالِحِيْنَ في مَدْحِ »
« رَبِّ العِزَّةِ تبارَكَ وتَعالَى »

يـا فَـاطِـرَ الخَلْقِ البَـدِيْـعِ وكَـافِـلاً
رِزْقَ الجَمِيْعِ سَحَابُ جُوْدِكَ هَاطِلُ
يا مُسْبِغَ البِرِّ الجَزِيْـلِ ومُسْبِلَ السِّـ
ـتْرِ الجَمِيْلِ عَمِيْمُ طَوْلِـكَ طَـائِـلُ
يـا عَـالِمَ السِّـرِ الخَفِيِّ ومُنْجِزَ الْـ
ـوَعْـدِ الـوَفِيِّ قَضَاءُ حُكْمِـكَ عَـادِلُ
عَظُمَتْ صِفَاتُكَ يا عَـظِيْمُ فَجَلَّ أَنْ
يُحْصِيْ الثَّنَـاءَ عَلَيْكَ فِيهَـا قَـائِـلُ
الـذَّنْبُ أَنْتَ لَـهُ بِـمَنِّـكَ غَـافِـرٌ
ولِتَـوْبَـةِ العَـاصِيْ بِحِلْمِكَ قَـابِـلُ
رَبٌّ يُـرَبِـيْ العَـالَـمِيْـنَ بِـبِـرِّهِ
وَنَـوَالُـهُ أَبَـداً إِلَـيْـهِـمْ وَاصِـلُ
تَعْصِيْـهِ وهْـوَ يَسُـوقُ نَحْـوَكَ دَائِمـاً
مَـالا تَـكُـونُ لِبَـعْضِـهِ تَسْتَـاهِـلُ
مُـتَـفَـضِّـلٌ أَبَـداً وأَنْـتَ لِـجُـوْدِهِ
بِقَبَـائِـحِ العِصْيَـانِ مِنْـكَ تُقَـابِـلُ

وإذَا دَجَى لَيْلُ الخُطُوبِ وَأظْلَمَتْ
سُبْلُ الخَلاَصِ وخَابَ فِيْهَا الآمِلُ
وأيسْتَ مِن وَجْهِ النَّجَاةِ فَمَالَهَا
سَبَبٌ ولاَ يَدْنُولَهَا مُتَنَاوِلُ
يَأْتِيْكَ مِن الْطَافِهِ الفَرَجُ الذِيْ
لَمَ تَحْتَسِبْهُ وأنْتَ عَنْهُ غَافِلُ
يا مُوْجِدُ الأَشْيَاءِ مَن الْقِى إلَى
أبْوَابِ غَيرِكَ فَهُو غِرٌ جَاهِلُ
ومَن اسْتَرَاحَ بِغَيرِ ذِكْرِكَ أوْ رَجَا
أَحَداً سِوَاكَ فَذَاكَ ظِلٌ زَائِلُ
عَمَلٌ أرِيْدَ بِهِ سِوَاكَ فَإنَّهُ
عَمَلٌ وإنْ زَعَمَ المُرَائِيْ بَاطِلُ
وإذا رَضِيْتَ فَكُلُ شَيْءٍ هَيِنٌ
وإذَا حَصَلْتَ فكُلُ شَيْءٍ حَاصِلُ
أنَا عَبْدُ سُوءٍ آبِقٌ كَلٌ عَلَى
مَوْلاَهُ أوْزَارُ الكَبَائِرِ حَامِلُ
قَدْ أثقَلَتْ ظَهْرِيْ الذُنُوبُ وَسَوَّدَتْ
صُحْفِي العُيُوبُ وسِتْرُ عَفْوِكَ شَامِلُ
هَا قَدْ أَتَيْتُ وَحُسْنُ ظَنِّيْ شَافِعِيْ
وَوَسَائِلِيْ نَدَمٌ ودَمْعٌ سَائِلُ
فَاغِفْرْ لِعَبْدِكَ مَا مَضَى وَارْزُقْهُ تَوْ
فِيْقاً لِمَا تَرْضَى فَفَضْلُكَ كَامِلُ

وافْعَلْ بِهِ مَا أنْتَ أهْلُ جَمِيْلِهِ
والظَّنُّ كُلَ الظَّنِّ أنَّكَ فَاعِلُ

اللهم إنا ظَلَمْنَا أنْفُسَنَا فاغفر لنا ذُنُوبَنَا وهَبْ لَنَا تَقْوَاكْ واهدِنَا بهُدَاكْ ، ولا تَكِلْنَا إلى أحَدِ سِوَاكْ ، واجْعَلْ لَنَا مِن كُلِّ هَمٍ فَرَجَا ، ومِن كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجَا .

اللهم أعِذْنَا بمُعَافَاتِكَ مِن عُقُوبَتِكْ ، وبرِضَاكَ مِن سَخَطِكْ ، واحْفَظْ جَوَارِحَنَا مِن مُخَالَفَةِ أمْرِكْ ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصل)

قال ابنُ القَيم رَحِمَهُ الله :

لَذَّةُ كُلِّ أحَدٍ عَلَىٰ حَسَبِ قَدْرِهِ وَهِمَّتِهِ وَشَرَفِ نَفْسِهِ ، فَأشْرَفُ النَاسِ نَفْسَاً وَأعْلاَهُمْ هِمَّةً وَأرْفَعُهُمْ قَدْراً ، مَنْ لَذَّتُهُ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ ، وَمَحَبَّتِهِ وَالشَّوْقِ إلى لِقَائِهِ ، وَالتَّوَدُدِ إليهِ بِمَا يُحِبُهُ وَيَرْضَاهُ ، فَلِذَتُهُ في إقْبَالِهِ عَلَيْهِ وَعُكُوْفِ هِمَّتِهِ عَلَيْهِ .

وَدُوْنَ ذَلِكَ مَرَاتِبُ لاَ يُحْصِيْهَا إلاَّ اللهُ ، حَتَّى تَنْتَهِي إلى مَنْ لَذَّتُهُ فِي أخَسِّ الأشْيَاءِ ، مِن القَاذُوْرَاتِ والفَوَاحِشِ ، فِي كُلِّ شَيْءٍ مِن الكَلاَمِ والأفْعَالِ والأشْغالِ فلَوْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَا يَلْتَذُ بِهِ الأوَّلُ لم تَسْمَحْ نَفْسُهُ بقَبُوْلِهِ وَلاَ الألتِفَاتِ إليه ، ورُبَّمَا تَألَمَتْ مِن ذَلِكَ كَمَا أنَّ الأوَّلَ إذا

عُرِضَ عَلَيْهِ مَا يَلْتَذُّ بِهِ هَذَا لَمْ تَسْمَحْ نَفْسُهُ بِهِ ولم تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ ، وَنفَرتْ نَفْسُهُ منه .

وَأَكْمَلُ الناسِ لَذَّةً مَن جُمِعَ لَهُ بَيْنَ لَذَّةِ القَلْبِ والـرُوْحِ ولَذَّةِ البَدَنِ ، فَهُوَ يَتَنَاوَلُ لَذَّاتِهِ المُبَاحَةِ عَلَى وَجْهٍ لاَ يُنَقِصُّ حَظَّهُ مِن الدَّارِ الآخِرَةِ ، ولا يَقْطَعُ عَلَيْهِ لَذَّةَ المَعْرِفَةِ والمَحبَّةِ والأنْسِ بِرَبِّهِ ، فَهَذَا مِمَّنْ قَالَ تَعالَى فِيه : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطيباتِ مِن الرزقِ ، قل هِيَ للذينَ آمَنُوا في الحَيَاةِ الدنيا خالِصَةً يَومَ القِيَامَةِ » .

وَأَبْخَسَهُم حَظاً مِن اللَّذَةِ ، مَنْ تَنَاوَلَهَا على وَجْهٍ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ لَذَاتِ الآخِرَةِ فيكونُ مِمَّنْ يُقَالَ لَهُمْ يومَ اسْتِيْفَاءِ اللَّذَاتِ « أَذْهَبْتُم طَيبَاتِكُمْ في حَيَاتِكم الدُنْيَا واسْتَمْتَعْتُمْ بِها » .

فَهَؤلآءِ تَمَتَعُوا بِالطَيباتِ ، وَأولَئِكَ تَمتَعُوا وافْتَرقُوا في وَجْهِ التَّمَتُعِ فأُلئِكَ تَمتَعُوا بها على الوَجْهِ الذي أُذِنَ فِيه فَجُمِعَ لَهُمْ بَيْنَ لَذَّةِ الدُنْيَا والآخِرَةِ .

وَهَؤلآءِ تَمَتَّعُوا بِها على الوَجْهِ الذِيْ دَعَاهُمْ إليهِ الهَوَى والشَّهْوَةُ وَسَواءٌ أذِنَ لَهُمْ فِيْهِ أمْ لا فانْقطَعَت عَنْهُم لَذَّةُ الدُنْيَا وفَاتَهُم لَذَةُ الآخِرَةِ فَلَا لَذَةَ الدُنْيا دَامَتْ ولا لَذَةُ الآخِرَةِ حَصَلَتْ لَهُمْ .

فَمَنْ أَحبَّ اللَّذَةَ وَدوامَهَا والعَيْشَ الطَّيِّب فَلْيَجعَلْ لَذَّةَ الدُّنْيَامُوْصِلَةً إلى لَذَّةِ الآخِرَةِ بأن يَسْتَعِينَ على فَرَاغِ قَلْبِهِ لِلهِ إرادَتِهِ وعِبَادَتِهِ فَيَتَنَاوَلُهَا بِحُكْمِ الأَسْتِعَانَةِ والقوةِ عَلَى طَلَبِهِ لاَ بِحُكْمِ مُجَرَّدِ الشَّهْوَةِ والهَوَى .

وَانْ كَانَ مِمَّنْ زُوِيَتْ عَنْهُ لَذَّاتُ الدُّنْيا وطَيِّبَاتُهَا فَلْيَجْعَلْ ما نقصَ مِنْهَا

زِيَادَةً في لَذَّةِ الآخِرَةِ . ويُجِمُّ نَفْسَهُ هَهُنَا . بالتَّرْكِ لِيَسْتوْفِيَهَا كَامِلَةً هُنَاكَ .

فَطيِّبَاتُ الدُّنْيَا ولَذَّاتُها نِعْمَ العَوْنُ لِمَنْ صَحَّ طَلَبُهُ للـهِ والدَّارِ الآخِرَةِ وَكَانَتْ هِمَّتُهُ لِمَا هُنَاكَ ، وبِئْسَ القَاطِعُ لِمَنْ كَانَتْ هِيَ مَقْصُوْدَهُ وَهِمَّتُهُ وَحَوْلَهَا يُدَنْدِنُ وَفَوَاتُهَا في الدُّنْيا نِعْمَ العَوْنُ لِطَالِبِ اللهِ والدارِ الآخِرَةِ وبِئْسَ القَاطِعُ النَازِعُ مِن اللهِ والدار الآخِرَةَ فَمَنْ أَخَذَ مَنَافِعَ الدنيا على وَجْهٍ لا يَنْقُصُ حَظَّهُ مِن الآخِرَةِ ظَفِرَ بهِمَا جَمِيْعَاً وإلا خَسِرَهُمَا جَمِيْعَاً .

وقال رحمه الله :

سبحانَ اللهِ ربِّ العَالَمِين ، لَوْ لَمْ يَكُنْ في تَرْكِ الذُّنُوبِ والمَعَاصِيْ إلا إقَامَةُ المُرُوْءَةِ ، وصَوْنُ العِرْضِ ، وحِفْظُ الجَاهِ ، وصِيَانَةُ المَالِ ، الذِي جَعَلَهُ اللهُ قِوَاماً لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ ، ومَحَبَّةُ الخَلْقِ وَجَوَازُ القَوْلِ بَيْنَهُم .

وَصَلاَحِ المَعَاشِ وَرَاحَةُ البَدَنِ وَقُوَّةُ القَلْبِ وطِيْبُ النَّفْسِ ونَعِيْمُ القَلْبِ وانْشِرَاحُ الصَّدْرِ والأَمْنُ مِن مَخَاوِفِ الفُسَاقِ والفُجَّارِ ، وَقِلَّةُ الهَمِّ والغَمِّ والحَزَنِ وعِزُ النَّفْسِ عن احْتِمَالِ الذُلِ ، وصَوْنُ نُوْرِ القَلْبِ أنْ تُطْفِئَهُ ظُلْمَةُ المَعْصِيَةِ ، وحُصُولُ المَخرَجِ لَهُ مِمَّا ضَاقَ على الفُسَاقِ والفُجَارِ .

وَتَيْسِيْرُ الرِزْقِ عَلَيْهِ مِن حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وَتَيْسِيْرُ ما عَسُرَ على أربابِ الفُسُوقِ والمعاصِي ، وتَسْهِيْلُ الطاعاتِ عَلَيْـهِ ، وتَيْسِيْرُ العِلْمِ والثَنَاءِ الحَسَنِ في الناسِ ، وَكَثْرَةُ الدُعَاءِ لَهُ ، والحَلاَوَةُ التِي يَكْتَسِبُهَا وَجْهُهُ ، والمَهَابَةُ التي تُلْقَى لَهُ في قُلُوبِ الناسِ .

وَانْتِصَارُهُم لَهُ وَحَمِيَّتُهُم لَهُ إذَا أُوْذِي أَوْ ظُلِمَ وَذَبِّهِم عَنْ عِرْضِهِ إذَا اغْتَابَه مُغْتَابٌ وَسُرْعَةُ إجَابَةِ دُعَائِهِ وَزَوَالُ الوَحْشَةِ التِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ وَقُرْبُ المَلائكَةِ مِنه . وبُعْدُ شَيَاطِينِ الإنْسِ والجِنِ منه . وتَنَافُسُ النَاسِ على خِدْمَتِهِ .

وَخِطْبَتُهُم لِمَودَّتِهِ وَصُحْبَتِهِ ، وَعَدَمُ خَوْفِهِ مِن المَوتِ ، بَلْ يَفْرَحُ بِهِ لِقُدُومِهِ عَلى رَبِّهِ ، وَلِقَائِهِ لَهُ وَمَصِيْرِهِ إليهِ ، وصِغَرُ الدنيا في قَلْبِهِ وكِبَرُ الآخِرَةِ عِنْدَهُ وَحِرْصُه عَلَى المُلْكِ الكَبِيْرِ والفَوْزِ العَظِيْمِ فِيْها . وَذَوْقُ حَلَاوَةِ الطَّاعَةِ وَوِجْدُ حَلَاوَةِ الأيمانِ ودُعَاءُ حَمَلَةِ العَرْشِ وَمَن حَوْلَهُ مِن المَلَائِكَةِ لَهُ . وفَرَحُ الكِرَامُ الكاتِبِيْنَ بِهِ ، وَدُعَاءُهُم لَهُ كُلَّ وَقْتٍ ، وَالزِّيَادَةُ في عَقْلِهِ وَفَهْمِهِ وإيمَانِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وحُصُولُ مَحَبَّةِ اللهِ لَهُ واقْبَالُهُ عَلَيْهِ وَفَرَحُهُ بِتَوْبَتِهِ .

فَهَذَا بَعْضُ آثارِ تَرْكِ المَعَاصِيْ في الدُنْيَا فإذَا مَاتَ تَلَقَتْهُ الملائِكَةُ بالبُشْرَى مِن رِبِّهِ بالجَنَّةِ وبأَنَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِ ولا حَزَنٌ وَيَنْتَقِلُ مِن سِجْنِ الدنيا وضِيْقِهَا إلى رَوْضَةِ مِن رِيَاضِ الجنةِ يَنْعَمُ فِيها إلى يومِ القِيَامَةِ .

فَإذَا كَانَ يومُ القِيَامَةِ كَانَ النَاسُ في الحَرِّ والعَرَقِ وهُوَ في ظِلِّ العَرْشِ فاذا انْصَرَفُوا بَيْنَ يَدَي اللهِ أَخَذَ بِهِ ذَاتَ اليَمِيْنِ مَعَ أولِيَائِهِ المتقين وحِزْبِهِ المُفْلِحِين وذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَن يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيْم » .

شعرا :

أَتَــأمَــلُ في الــدُنْيَـا تُجِــدُ وَتَعْمُــرُ
وأنْتَ غَــداً فِيْهَــا تَمُــوتُ وتُقْبَــرُ

تُلَقِّـحُ آمَـالاً وتَـرْجُـوْ نِتَـاجَـهَـا
وَعُمْـرُكَ مِمَّـا قَـدْ تُـرَجِّيْـهِ أَقْصَـرُ

تَحُـومُ عَلَى إدْرَاكِ مَـا قَـدْ كُفِيْتَهُ
وتُقْبِـلُ في الآمَـالِ فِيهَـا وتُـدْبِـرُ

وَهَـذَا صَبَاحُ اليَـومِ يَنْعَـاكَ ضَوْءُهُ
وَلَـيْلَتُـهُ تَـنْعَـاكَ إِنْ كُـنْـتَ تَشْعُرُ

ورِزْقُـكَ لا يَعْـدُوْكَ إِمَّـا مُعَجَّـلٌ
على حَـالَـةٍ يَـومـاً وإِمَّـا مُؤَخَّـرُ

فَـلاَ تَـأْمَنَ الـدُّنْيَا وإنْ هِيَ أَقْبَلَتْ
عَلَيْـكَ فَمَـا زَالَتْ تَخُـونُ وَتَغْـدِرُ

فَمَـا تَمَّ فِيهـا الصَّفْـوُ يَـوْمَـاً لِأَهْلِهِ
ولا الـرَّنْـقُ إِلَّا رَيْـثَمَـا يَـتَـغَـيَّـرُ

وَمَـا لاَحَ نَـجْمٌ لاَ وَلاَ ذَرَّ شَـارِقٌ
عَلَى الخَلْقِ إلَّا حَبْلُ عُمْرِكَ يَقْصُـرُ

تَـطَهَّـرْ وأَلْحِقْ ذَنْبَـكَ اليَـوْمَ تَـوْبَـةً
لَعَلَّكَ مِنْهَـا إِنْ تَـطَهَّـرْتَ تَـطْهَـرُ

وَشَمِّرْ فَقَدْ أَبْدَى لَكَ المَـوْتُ وَجْهَهُ
وَلَيْسَ يَنَـالُ الـفَـوْزَ إِلَّا المُـشَمِّـرُ

فَهَـذِيْ اللَّيَـالِي مُؤْذِنَـاتُـكَ بِـالبِلَى
تَـرُوْحُ وأَيَّـامٌ كَـذَلِـكَ تُـبْـكِـرُ

وأَخْلِصْ لِـدِيْنِ اللهِ صَـدْراً ونِيَّـةً
فَـإِنَّ الَّـذِيْ تُخْفِيْـهِ يَـوْمَـاً سَـيَظْهَـرُ

تَــذَكَّرْ وَفَكِّــرْ بِالَّذِي أَنْتَ صَــائِرٌ
إِلَيْــهِ غَــدَاً إِنْ كُنْتَ مِمَّــنْ يُفَـكِّــرُ
فَــلاَ بُـدَّ يَــوماً أَنْ تَصِيْــرَ لِحُفْـرَةٍ
بِـأَثْنَـائِهَــا تُـطْوَى إلى يَــومِ تُنْشَـرُ

اللهم اسْلُكْ بِنَا سَبِيْلَ عِبَادِكَ الأَبْرَارِ واجْعَلْنَا مِن عِبَادِكَ المُصْطَفِيْنَ الأَخْيَارَ وامْنُنْ عَلَيْنَا بالعَفْوِ والعِتْقِ مِن النارِ واحْفَظْنَا مِن المعَاصِي فِيْمَا بَقِي مِن الأَعْمَارِ واغفر لَنَا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله علي محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصل)

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وإِيَّاكَ وجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ اللهُ ويَرْضَاهُ أَنَّ الصَّبْرَ مِن أَجَلِّ صِفَاتِ النَّفْسِ وأَعْلاَهَا قَدْراً ، وهُوَ لُغَةً حَبْسُ النَّفْسِ عن الجَزَعِ أَيْ مَنْعُهَا مِن الأَسْتِسْلاَمِ لِلْجَزِعِ كَيْ لا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فِعْلُ مَا لا يَنْبَغِي فِعْلُهُ وبِعِبَارَةٍ أُخْرَى الصَّبْرُ ثَبَاتُ القُوةِ المُضَادَّةِ لِلْشَّهْوَةِ في مُقَاوَمَتِها .

وأَمَّا شَرْعاً فَهُوَ أَعَمُّ مِن ذَلِكَ لأَنَّهُ حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الجَزَعِ ، وَمَنْعُهَا عَن مَحَارِمِ اللهِ ، والزَامُهَا بأَدَاءِ فَرَائِضِ اللهِ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ ما رُوِيَ عن ابنِ عَبَاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُمَا أنه قَالَ الصَّبْرُ في القُرآنِ عَلَى ثَلاثَةِ أَوْجُهٍ صَبْرٌ عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِ اللهِ وصَبْرٌ عن مَحارِمِ اللهِ ، وصَبْرٌ عَلَى المُصِيْبَةِ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُوْلَى .

وقالَ ابنُ القَيِّمِ الصَّبْرُ حَبْسُ النَّفْسِ عن التَّسَخُطِ بالمَقْدُوْرِ وحَبْسُ اللِّسَانِ عَن الشَّكْوَى ، وَحَبْسُ الجَوَارِحِ عن المَعْصِيَةِ ، فَمَدارُ الصَّبْرِ على هذه الأرْكَانِ الثلاثةِ فإذَا قَامَ بِهَا العَبْدُ كَمَا يَنْبَغِي انْقَلَبَتِ المِحْنَةُ في حَقِّهِ مِنْحَةً ، واسْتِحَالَةِ البَلِيَّةِ عَطِيَّةً ، وصَارَ المَكْرُوْهُ مَحْبُوْباً .

فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَبْتَلِهِ لِيُهْلِكَهُ ، وإنَّمَا ابْتَلاَهُ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ وَعُبُوْدِيَتَهُ ، فَأنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى العَبْدِ عُبُوْدِيَّةً في الضَّرَاءِ كَمَا لَهُ عَلَيْهِ عُبُوْدِيَّةٌ في السَّرَاءِ ، وَلَهُ عُبُوْدِيَّةٌ عَلَيْهِ فِيْمَا يَكْرَهُ كَمَا لَهُ عَلَيْه عُبُوْدِيَّةٌ فِيْمَا يُحِبُّ أ هـ .

وعَرَّفَ الصَّبْرَ بَعْضُهُمْ بأنَّهُ بَاعِثُ الدِّيْنِ ، أَمَامَ بَاعِثِ الهَوَى فأمَّا بَاعِثُ الدِّيْنِ فهُـوَ قُدْرَةُ العَقْـلِ عَلَى قَهْرِ الشَّهْـوَةِ والغَضَبِ ، لأنَّهُمَا بِطُغْيَانِهِمَا يَقُوْدَانِ المَرْءَ إلى مَا لا يُقِرُّهُ الدِّيْنُ ، ولا يَرْضَاهُ العَقْلُ ، فاذَا ثَبَتَ العَقْلُ أمَامَ الشَّهْوَةِ والغَضَبِ وقامَ بوَظِيْفَتِهِ عَلَى الوَجْهِ المَطْلُوبِ فلا يَجْعَلُ لهُمَا عَلَيهِ سُلْطَاناً .

ولا يَسْمَحُ لَهُمَا بالطُّغْيَانِ ، فَيَنْقَادُ لَهُمَا صَاغِراً بَلْ يَكُونُ هُوَ الآمِرُ النَّاهِيْ فَيَسْلُكَ بِهِمَا سَبِيْلَ الاعْتِدَالِ ، بلا افْرَاطٍ ولاَ تَفْرِيْطٍ ، فإنَّهُ بذلِكَ يَسْتَطِيْعُ بإذنِ اللهِ أنْ يَظْفِرَ بالصَّبْرِ ، عن ما حَرَّمَ اللهُ والصَّبرِ عَلى طَاعَتِهِ ، وأنْ يَحْبِسَ نَفْسَهُ عن الجَزَعِ عِنْدَ المُصِيْبَةِ ، فلا يَسْتَفِزُّهُ الجَزَعُ إلى قَوْلٍ ، أَوْ عَمَلٍ ، مَا لا يَرْضَاهُ اللهُ مَهْمَا كَانَ لِنَفْسِهِ فِيه لَذَّةٌ .

ومِن ذَلِكَ الصَّبْرُ على إيْذَاءِ النَّاسِ إيَّاهُ ، فإنَّهُ إذَا أَغْضَبَهُ أَحَدٌ بِقَولٍ أَوْ عَمَلٍ ، فإنَّ غَضَبَهُ لا يطغى عليه ، فيحمله على تعدي حدود الله بل

يَكْفِيْكَهمُ غضبه حَتَّى يَجْرِيْ عَلَى سُنَنِ الدِّيْنِ مِن القِصَاصِ العَادِلِ ، أوِ العَفْوِ إنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةَ .

وقِيْلَ في تَعْرِيْفِهِ هُوَ الثَّبَاتُ على الكِتَابِ والسُّنَّةِ ، والتَمشِّيْ مَعَ ارْشَادَاتِهِما ، لِأَنَّ مَنْ ثَبَتَ عَلَيْهِمَا فَقَدْ صَبَرَ عَلى المَصَائِبِ ، وعلى أدَاءِ العِبَادَاتِ ، وعَلَى اجْتِنَابِ المُحَرَمَاتِ .

ثُمَّ إنَّ الصَّبرَ يُسَمَّى بأَسْمَاءَ مُخْتَلِفَةٍ ، فَمَثَلاً الصَّبْرُ عَنِ شَهْوَةِ الفَرْجِ والبَطْنِ أو المَالِ الحَرَامِ يُسَمَّى عِفَّةً وَورعاً ومَنْعُهَا عَن الجزَعِ والفِرَارِ عِنْدَ لِقَاءِ العَدُوِّ يُسَمَّى شَجَاعَةً ، ويُقَابِلُهُ الجُبْنُ ، ومَنْعُهَا عن التَّعَدِيْ عَلى الغَيْرِ عِنْدَ ثَوْرَةِ الغَضَبِ يُسَمَّى حِلْماً ، وشَجَاعَةً ، ويُقَابِلُهُ التَّذَمُّرُ والطَّيْشُ .

وعَنِ إفْشَاءِ السِّر يُسَمَّى كِتْمَانَ السِّرَ ، وعَنِ الاسْرَافِ في المآكِلِ وَالمشَارِبِ يُسَمَّى زُهْداً ، وعَنِ الغُرُوْرِ بالثَّرْوَةِ والمَالِ يُسَمَّى ضَبْطَ النَّفسِ ، ويُقابِلُهُ البَطَرُ والخُلاَصَةُ أنَّ الصَّبْرَ فَضِيْلَةٌ يَحْتَاجُهَا المُسْلِمُ في دِيْنِهِ ودُنْيَاهُ .

فَيَجِبُ على الإنْسَانِ أنْ يُوَطِنَ نَفْسَهُ على احْتِمَالِ الشَّدَائِدِ والمَكارِهِ دُوْنَ ضَجَرٍ ،وانْتِظَارُ النَّتَائِجِ مَهْمَا بَعُدَتْ فكُلُ مَا هُوَ آتٍ قَرِيْبٌ ، وعَلَيْهِ أنْ يُوَطِنَهَا عَلَى مُوَاجَهَةِ الأعْبَاءِ مَهْمَا ثَقُلَتْ بقَلْبٍ لَمْ تَعْلُقْ بِهِ رِيْبَةٌ وعَقْلٍ لا تَطِيْشُ بِهِ كُرْبَةٌ .

وقَدْ أكَّدَ اللهُ جَلَّ وعَلاَ أنَّ ابْتِلاَءَ النَّاسِ أَمْرٌ لاَ مَحِيْصَ عَنْهُ حَتَّى يَأخُذُوا الأَهْبَةَ ، والاسْتِعْدَادَ لِلنوازِلِ ، فلا تُذْهِلُهُمْ المُفَاجَاءَةُ قال اللهُ تَعَالى﴿ولنَبْلُونَّكُم حَتَّى نَعْلَمَ المجاهِدِينَ منكم والصابرينَ ونَبْلُو أَخْبَارَكُمْ﴾

وقال﴿ولَنَبْلُونَّكُم بِشَيْءٍ مِن الخَوْفِ والجُوْعِ ونَقْصٍ مِن الأَمْوَالِ والأنْفُسِ والثمراتِ وبَشِّرِ الصابِرِيْن ،﴾وقـال﴿ونَبْلُوكمُ بالشَّـرِ والخَيْرِ فِتْنَـةً وإلَيْنا تُرْجَعُون ﴾

وقال تعالى إخْبَاراً عَمَّا قَالَهُ سُلَيْمَانُ عليهِ السَّلاَمْ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبي لِيَبْلُونِي أأَشْكُرُ أَمْ أكْفُر﴾وقال تعالى﴿ آلم أَحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا أنْ يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُون ولقد فَتَنَا الذينَ مِن قبلهم ﴾ الآية :

اصْبِرْ عَلَى مِضَضِ الأَدْلاجِ فِي السَّحَرِ
وفي الـرَّوَاحِ إلى الطَّاعَـاتِ والبِكَـرِ
إنِّـي رَأَيْتُ وفِـي الأيَّـامِ تَجْـرِبَـةٌ
لِلصَّبْـرِ عَـاقِبَـةً مَحْـمُـوْدَةَ الأَثَـرِ

وقَــلَّ مَن جَــدَّ في أَمْــرٍ تَــطلَّبَــهُ
واسْتَصْحَبَ الصَّبْـرَ إلا فَازَ بـالـظَّفَرِ

ويَقُول الآخرُ :

والصَّبْــرُ مِثْلُ اسْمِــهِ مُرٌ مَــذَاقَتُهُ
لكنْ عَــوَاقِبُــه أَحْلَى مِن العَسَـلِ

ويقول الآخرُ :

بَنَى اللهُ لِــلأَخْيَــارِ بَيْتــاً سَمَــاؤُهُ
هُمُــومٌ وأَحْـزَانٌ وجُــدْرَانُــهُ الضُّــرُ
وأَدْخَــلَهُــم فِـيــهِ وأغْــلَقَ بَــابَــهُ
وقــالَ لَهُمْ مِفْتَــاحُ بَــابِكُمْ الصَّبْــرُ

آخر :

دَبُّوا إلى المَجْدِ والسَّاعُونَ قَد بَلَغُوا
جُهْـدَ النّفُوسِ وشَـدُّوا نَحْوَهُ الأُزُرَا
وسَـاوَرُوْا المجْدَ حَتَّى مَـلَّ أكْثَـرُهُمْ
وعانَقَ المَجْدَ مَن وَافَى ومَنْ صَبَـرا
لا تَحْسبِ الْمَـجدَ تَمـراً أنْتَ آكِلُهُ
لَنْ تَبْلَغُ المَجْـدَ حتى تَلْعَقَ الصَّبِرا

وقَالَ تَعالى ﴿لَتُبْلَونَّ في أمْوالِكُم وأنْفُسِكُمْ ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِيْنَ أوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ومِن الذين أشْرَكُوا أذىً كثيراً وانْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوْا فإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورْ﴾ وقالَ تَعالى ﴿أمْ حَسِبْتُم أن تَدْخُلوا الجنَّةَ ولَمَّا يأتِكُم مَثَلُ الذينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّهُمْ البَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلوا حَتَّى يقولَ الرَّسُول والذينَ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ألا إنَّ نَصْرَ اللهِ قريب﴾ .

فَمَن ابْتَلاهُ اللّهُ بِنَقْصٍ في مالِهِ أوْ مَنَعَهُ شَيْئاً مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنيا ولَذَّاتِها الْفَانِيةِ وعَجزَ عن تَحْصِيْلِهِ بالْوسَائِل المشْرُوعةِ أوْ قَبَضَ لَهُ نَفْساً أباً أوْ أخاً أو أُمّا أوْ وَلَداً أو نَحْوَ ذَلِكَ أو خَافَ مِن عَدُوٍ فإنَّهُ لا دَواءَ لَهُ إلا الصَّبْرُ على مَا أصَابَهُ .

فاذا صَبَرَ المُبْتَلَى وعَمِلَ بقولِ رَبّهِ عزَّ وجلْ ، فَقَدْ هَانَتْ عليهِ البَلْوى وضاعَ أثرُها فاسْتَرَاحَ مِن عَذَابِها في الدّنْيا وفازَ بالآخِرَةِ بالجَزاءِ الحَسَنْ ، فالْفَقِيرُ الذي لا يَذْهَبُ بِلُبِّهِ مَتاعُ الحياةِ وزِيْنَتُها ولا يُحْزِنُهُ مالا يَسْتَطِيعُ الوُصُولَ إليهِ مِنْ المتاع الفَانِي سَائِرٌ على ضَوْءِ ارْشَادَاتِ القرآنِ

الكريمْ ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعالى ﴿ولاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزْواجاً مِنْهُم زَهْرَةَ الحياةِ الدّنْيا لِنَفْتِنَهم فيهِ ورِزْقُ رَبِّكَ خيرٌ وأبْقى﴾ .

وَقَوْلُهُ ﴿قُلْ متاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ بَلْ مُطْمَئِنٌّ قَلْبُهُ إلى ما قَدَّرَهُ اللهُ له في هَذِهِ الحياة مِنْ تَعَب ونَصَب ويَرضَى بِمَا قَسَمَ لَهُ فلا يَسْخَطْ ، وَلاَ يَفْعَلُ مُحرَّمَاً ، فإنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ أمْرِهِ فَرَجاً في حَياتِه الدُّنْيَا كَما قالَ تَعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعلْ له مَخْرَجا ويَرْزُقْه مِن حيثُ لا يَحْتَسِبْ ﴾

وإذَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ شَيْئاً وَعَدَها بالخيرِ وصَبَّرَها ومَشَّى أُمُورَهُ على قَدْرِ حَالِهِ ولا يُكَلِّفُ نَفْسَهُ بالدَّيْنِ والقَرْضِ قالَ اللهُ تعالى ﴿إن مَعَ العُسْرِ يُسْراً إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَا﴾ وقال بَعْضُهُمْ :

إذَا رُمْتَ أنْ تَسْتَقْرِضَ المالَ مُنْفِقاً
على شَهَواتِ النَّفْسِ في زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلْ نَفْسَكَ الانْفَاقَ مِن كَنْزِ صَبْرِهَا
عَلَيْـكَ وانصَـاراً إلى زَمَنِ اليُسْـرِ
فَـإنْ فَعَلْتَ كُنْتَ الـغَنِـيَّ وإنْ أَبتْ
فَكُـلُ مَنُـوعٍ بعـدَهَـا واسـعُ العُـذْرِ

أمَّا الفَقِيرُ الَّذي يُزَيِّنُ لَهُ الشَّيْطَانُ والْهوى والنَّفْسُ الامَّارَةُ بالسُّوءِ ما في أيْدِي النَّاس ، فيُفْسِدُ عليهِ قَلْبَهُ بالـوَسَاوِسِ الضَّـارَةِ ، والاماني الكَاذِبَةِ ، والاحْلاَمِ الباطِلَةْ ، فَيَحْسُدُ الناسَ على مـا آتَاهُم اللهُ مِن فَضْلِهِ ، مُبْعداً عن الصَّبْرِ على الحالةِ المُرْضِيَةِ لا يُبَالِي بأيِّ وَسِيْلَةٍ

يَتَمَسّكُ بِها مِنَ الوَسائِلِ المُحَرمَّةِ ، في الوُصولِ إلى لَذّةِ مُحرَّمَةٍ لا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئاً ولا تَسُدّ فَقْرَه فَهُو مِنْ أشْقَى خلقِ اللهِ لأَنَّهُ بِعَمَلِهِ هذا يَكُونُ قَدْ خَسِرَ دُنْيَاهُ وآخِرَتَهُ ، وذَلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ المبينْ .

وكذلكَ الْغَنِيُّ يَحْتَاجُ إلى الصَّبْرِ على غِنَاهُ لأَنَّهُ مُكَلَّفٌ بِحُقوقٍ وَوَاجِبَاتٍ لا يَسْهُل على النَّفْسِ فِعْلُها مِنْ زَكَاةِ مالٍ وإنَفَاقٍ على مَنْ يُمُونُه وإغَاثَةِ مَلْهُوفٍ الخ .

ثُمَّ اعْلَمْ انَّ إظْهَارَ الْبَلْوى سَواءً كَانَتْ مَرضاً أوْ فقْراً أوْ غَيْرِهِما إمَّا أنْ يَكُونَ لِلَّهِ تعالى كما قالَ أيّوبُ عليهِ السَّلام﴿أنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمين﴾وكَمَا قالَ يَعْقُوبُ﴿إنَّما أشْكُو بَثّي وحُزْنِي إلى اللهِ﴾فهذا لا يُنافِي الصَّبْر .

وَامَّا أنْ يَكُونَ لِغَيْرِ اللَّهْ فإنْ كَانَ لِحَاجَةٍ كَشَرْحِ الْعلَّةِ لِلطَّبيب أوْ بَيَانِ الْمظَلَمَةِ لِمَنْ يَقْدِرُ على رَفْعِهَا فانَّهُ لا يُنَافِي الصَّبْرِ أيْضاً ما دَامَ رَاضِياً بِقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِهْ ، فَلاَ يَضْجَرُ ولاَ يَتَبَّرمُ مِمَّا يَنْزِلُ بِهِ مِن البَلاَءِ فَإنْ اشْتَكَى لِغْيرِ اللّهِ مِنْ دُونِ فَائِدَةٍ تَبرُّماً وَتَضجُّراً لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّابِرِيْنْ ، وَلَمْ يَسْتَفِدْ مِنْ مُصِيْبَتِهَ سِوىَ عَذابِ الدّنْيا .

وسَيُسْأَلُ عَنْ ضَجَرِهِ يَومَ الْقِيامَةِ خُصُوصَاً إذَا كَانَتْ شَكْواهُ مَصْحُوبَةً بِبَعْضِ الْعِبارَاتِ التي فِيْهَا جَراءَةٌ على اللّهِ ، لانَّهُ يَشْكُو الإلَهَ القادِرَ على المِسْكِينِ الضّعيفِ العاجِزْ ، الّذِي لاَ يُغْنِي عَنْهُ شَيْئاً ، كَمَا قِيْل :

« وإذَا شَكَـوتَ إلى ابْنِ آدمَ انَّمـا
تَشْكُو الرَّحِيْمَ الى الّذِي لاَ يَرْحَمُ »

فَتَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ كَثِيرُ التَّشَكِّي إلى النَّاسِ يَسْتَأْنِسُ بالشَّكوىَ ويَتَلَذّذُ بِها كَما قِيل :

تَلَذُّ لَـهُ الشَّكْوى وإنْ لَمْ يَجِـدْ بِهَا
صَـلَاحاً كَمَـا يَلْتَذُّ بـالْحَـكِّ أجْـرَبُ

فالْجَاهِلُ يَشْكُو اللَّهَ إلى النَاسِ وهَذَا غَـايَةُ الجَهَـلْ بالْمَشْكُـو والْمَشْكُو إليه فإنَّهُ لَوْ عَرَفَ رَبهُ لما شَكَاهُ وَلَوْ عَرَفَ النَّاسَ لَمَا شَكَا إليهم لأنَّهُم مَسَاكِين عَاجِزُونْ .

وَرَأى بَعْضُ السَّلَفِ رَجُلَاً يَشْكُو إلى رَجُلٍ فَاقَتَهُ وضَرُورتَهُ ، فَقَالَ يا هَذَا واللّهِ ما زَدْتَّ على أنْ شَكَوْتَ مَن يَرْحَمُكَ إلى مَنْ لاَّ يَرْحَمُكْ ، والعارِفُ إنَّما يشْكوُ إلى اللّه وَحْدَهْ .

وَأَعْرَفُ الْعَارِفِينَ مَنْ جعَلَ شَكْوَاهُ إلى اللّهِ مِنْ نَفْسِهْ ، لَا مِنَ الناسِ فَهُوَ يَشْكُو مِنْ مُوجِبَاتِ تَسْلِيط الناسِ عليه ، فَهْوَ نَاظِرٌ إلىَ قَوْلِهِ تَعالى ﴿وما أَصَابَكُم مِن مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وقوله ، ﴿وما أَصَابَك من سَيِّئةٍ فَمنْ نَفْسِكْ﴾ وقوله ﴿أَوَ لَمَّا اصَابَتْكُمْ مُصِيْبَةُ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أنَّى هَذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أنْفُسِكُمْ﴾ .

فالْمَرَاتِبُ ثَلاثٌ أَخَسُّهَا أنْ تَشْكُو اللَّهَ إلى خَلْقِهِ وأعْلَاهَا أنْ تَشْكُو نَفْسَك إليهِ وأَوْسَطُها أنْ تَشْكَو خَلْقَهُ إليهِ انْتَهى قَالَ بَعْضُهمْ :

وَيَمْنَعُنِـي شَكْـوَايَ لِلْنَـاسِ اَنَّنِـي
عَليـلٌ ومَنْ أشْكُـو إليـهِ عَـلِيـلُ

وَيَمْنعُنِي شَكْوايَ لِلَّهِ إنَّهُ
عَلِيمٌ بِمَا أشْكُوهُ قَبْلَ أَقُولُ

وَقَدْ أَمرَ اللَّهُ بالصَّبْرِ فقَالَ جَلَّ وعَلاَ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِيْنُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ﴾ وقالَ ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اصْبرُوا وصَابِرُوا﴾ وقالَ ﴿واسْتَعيْنُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةْ﴾ وأثْنَى اللهُ على الصَّابِرينَ فَقَالَ ﴿والصَّابِرينَ في البَأْسَاءَ والضَرَّاءِ وَحِينَ البأسْ ، أُولئكَ الذين صَدَقُوا وأوُلَئِكَ هُمُ المُتَّقونْ﴾

وأخْبَرَ تَعالى أنَّـه مَعَ الصَّابِرينَ فقـالْ ،﴿واصْبِرُوا انَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِيْنَ﴾ وهذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصةٌ تَقْتَضِي الحِفْظَ والنَّصْرَ والتَّأْيِيدْ ، وأخْبرَ جَلَّ وعَلاَ أنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ لأَصْحَابِهْ ، قَال تَعَالى وانْ تَصْبِرُوا خيرٌ لَكم وقالَ ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهْوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرينْ﴾ وإيجابُ الجَزاءِ لَهُم بأَحْسنِ أَعْمَالِهِمْ ، فقال ﴿ولَنَجْزِينَّ الذينَ صَبَروا أجْرهم بأحْسنِ ما كانوا يَعْمَلُون﴾ وأخْبَر جَلَّ وعَلا أنَّ جَزَاءُهُم بغيرِ حِسَابْ ، فقالْ ﴿إنّما يُوَفى الصَّابِرُون أجْرهم بغيرِ حسابْ﴾ .

وَأخْبَرَ جَلَّ وعَلاَ أنَّهُ ما يُلَقَّى الأَعْمَالَ الصَّالِحَة وجَزاءَهَا والْحُظوظَ عَلَيها إلا الصَّابرون ، فقالَ عن ما قالَهُ أهلُ العلم والإيمان ﴿ويْلَكم ثوابُ اللهِ خيرٌ لِمَنْ آمنَ وعَمِلَ صالحاً ولا يُلَقّاهَا إلا الصَّابرونَ﴾ .

وأَخْبَر جَلَّ وعلاَ أنهُ ما يُلَقَّى الْخَصْلَةَ الطَّيبةَ التي هِيَ دَفْعُ السَّيئةِ بالحَسَنة إلاّ الذينَ صَبَروا ، فَقَالَ ﴿وَمَا يُلَقَّاها إلاَّ الذينَ صَبَروا﴾ ، الآية .

والصَّبْرُ أنْواعٌ صَبْرٌ على طاعـةِ اللهْ ، بالمُحـافَظَة عَلَيْهَـا دَواماً وبِرِعَايتها إخْلاصاً وَمِنَ الصَّبْرِ على طاعةِ الله بِرُّ الوالدِينِ مَا دَامَا مَوْجُودَيْنِ

وَعَدَمُ التَّضَجُّرِ والتَّأفُفِ مِنْهُمَا واحْتِمَالُ الَأذى من القَريبِ والجارِ والصَدِيْقِ والزمِيْلِ ومِنْهُ صَبْرُ الأساتذِةِ على الطَّلَبةِ واحتَمالِ التَّعبِ في ذلك وكذلكَ الأَطِبّاءُ المُسْتَقِيْمِينَ المُخلِصِين في مُعالَجَة الْمَرْضَى .

وَصَبْرُ الْغَنِي عَلى اخْرَاجِ زَكَاتِه بِدِقَّةٍ وَصَبْرُ المريضِ والمسافرِ على الصلاةِ والطهارةِ لها وصَبْرُ الْمُجَاهِدِ والمتَعَلِّمَ الصادقِ في طَلبِهِ لِلْعِلِمِ والحاجِّ والسَّاعِي على الأرامِلِ والمساكينْ .

ومِنْ مَشَقَّةِ السَّفرِ وَعَنَاءِ الطَّلَبِ ومُكَافَحَةِ الأعداءِ والصَّبْرُ على الأمَر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ وقولِ الحقِ وإن كانَ مُرًّا ومُسَاعَدةِ الضَّعِيفِ والعَاجِزِ والعَـدْلِ في الحُكْمِ وحِفْظِ الأمَانَـةِ والانْصَافِ مِن النفَس والاقارِبِ ومُواصلَةِ السَّعي في ما يُرْضِي اللّهَ عَزَّ وَجلّ وحُسْنِ الْخُلِق وايْنَاسِ المُسْلِمِ الغَريبِ والصَّمْتِ عن الكلامِ إلا فِيمَا يعَودُ اليكَ نَفْعه ومَرَاقَبَةِ اللهِ فِيمَا يَقُولُهُ ويَفْعَلُه .

ودَوامِ الشُّكْر للّهِ وصَرْفِ نِعَمِهِ في طَاعَتِهْ ، واحْتِرَامِ أهْلِ الدِين وتقدِيرِهِمْ والـذَّبِّ عن أعْراضِهِمْ إذا انْتُهكَتْ ، والصَّبْـرِ على الأولادِ والأهلِ وحَثِّهمْ عَلى الصَّلاةِ والزكاةِ وسائرِ الطاعاتْ .

النَّوعُ الثَّاني : الصَّبْرُ عَنْ مَعْصِيَةِ اللّهِ خَوْفاً مِن اللهِ ورَجَاءَ ثَوَابِه وحَيَاءً مِن الرَّبِّ جَلَّ وعَلاَ أَن يُسْتَعانَ بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيْهِ فَالصَبْرُ عن المَعَاصِي لازمٌ لِسَعَادَةٍ الأنسانِ في دنْيَاهُ وآخِرَتِهِ فإنَّ اللهَ نَهَى عِبادَهُ عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ لِيَعِيْشُوا في هَذِهِ الحياةِ الدُّنْيَا مُطْمَئِنين، لا يَنالُ أحدُهُمْ مِنْ عِرْضِ أخِيْهِ بِالقَولِ والْفِعْلِ ولا يَعْتَدِي أحدُهُم على غَيْرِهِ ، في مالِهِ

وَبدَنِهِ ، ولا تَغُرُّهُمْ الحياةُ الدُنيا وَزِيْنَتُها ، فَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فَسَادًا ، مِن أجْلِ الحُصُولِ على لَذَّاتِهَا المُضْمَحِلَّةِ الفانِيَةْ ، وشَهَواتِها الخدَّاعةِ الفاسِدَة .

فَمَنْ يَصْبِرْ عَلَى ضَبْطِ لِسَانِهِ عَنِ الكَلاَمِ المُحَرَّمْ ، فلا يَغْتَابُ ولا يَنِمُّ ولا يُنَافق بالقول ، ولا يكذبَ ، ولا يُساعِدُ بقَوْلِهِ ظَالِمَا ، ولا يُجَادِلُ بالباطِلِ ولا يَسْخَرُ بالمسلمين ، ولا يَحْلِفُ إلا باللهِ صادقاً ، ولا يَقْذِفُ مُسْلِمَاً ولا يُخَاصِمُ لِيقْطَعَ حَقَّ مُسْلِم ولا يَشْهَدُ بالزُوْرِ ولا يُؤْذِي مُسْلِمَاً بالفُحْشِ والبَذَاءِ فإنهُ بذلِكَ يَتَّقِي آفاتِ لِسَانِهِ التي تُفْضِي بالمرءِ إلى الهَلاَكْ .

وَمَنْ يَصْبِرْ على حِفْظِ فَرْجِهِ فلا يَسْتَعْمِلُهُ إلَّا فِيمَا أحَلَّهُ اللهُ عَمَلاً بقولِهِ تعالى ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلَّا على أزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ فإنهم غيرُ ملومينَ ﴾ ، فإنهُ بِذَلِكَ يَنْجُو من شَرِّ غوائِلِ الزِّنَا واللِّوَاطِ ، وكان أميْناً على سلامَةِ عِرْضِهِ ، وحِفْظِهِ مِنَ الضَّياعِ .

وَمَنْ صَبَرَ وَرَبَطَ عَقْلَهُ عِنْدَ غضَبِهِ فَلاَ يَبْطِشُ بِيَدِهِ وَلاَ يَحْقِدُ بِقَلْبِهِ وَقَدْ ضَبَطَ لِسَانَهُ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ مَظَالِمِ خَلْقِ اللهِ ، وكَانَ مُسْلِمَا حقاً كما قال صلى اللهُ عليه وسلم ﴿ المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُوْنَ مِن لِسَانِهِ وَيَدِهِ ﴾

وَمَنْ صَبَرَ عَن مالا يَمْلِكُهُ مِنَ الشَّهوَاتِ واللَّذاتِ فَقَدْ نَجا مِن أَلَمِ الحَسَدِ والحِقْدِ وَظَفِرَ بِسُكُونِ النَّفسِ وَطُمَأْنِينتِهَا وَرَاحَتِها ، وهكذا في كُلِّ ما نهَى اللهُ عنه سواءً كانَ مُتعَلِّقاً بحقوقِ الله أَوْ حُقُوقِ خَلْقِهْ .

شِعْرا :

أَيَا صَاحِبِيْ أَنْ رُمْتَ انْ تَكْسِبَ الْعُلا
وَتَـرْقَى إلى العَلْيَـاءِ غَيْـرَ مُـزَاحَمِ
عَلَيْكَ بِحُسْنِ الصَّبْرِ في كـلِّ حَالـةٍ
فَمَـا صَابِـرٌ فِيمـا يَـرُومُ بِنَـادِمِ

النوعُ الثَّالِثُ الصَّبْرُ على أقْدَارِ اللهِ المؤلِمَةِ رَجَاءِ ثَوَابِهْ قَالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ الصَّبْرُ على طاعةِ اللهِ والصَّبْرُ عن مَعْصِيَةِ الله ، صَبْرٌ على ما يتعَلَّقُ بالْكَسْبِ والصَّبْرُ على امتِحَانِ اللهِ ، صَبْرٌ على ما لا كَسْبَ لِلْعَبْدِ فِيْهِ .

قَال: وَسَمِعْتُ شَيْخَ الأسْلَامِ ابنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ يقول. كَانَ صَبْرُ يوسَفُ عَنْ مُطَاوَعَةِ امْرَأةِ العزيزِ على شَأْنِهَا ، أكْمَلُ مِنْ صَبْرِهِ على إلْقَاءِ أخْوَتِهِ لَهُ في الجُبْ، وبَيعِهِ وَتَفْرِيْقِهِمْ بَيْنَهُ وَبَينَ أبِيْهِ ، فإنَّ هَذِهِ الأمورَ جَرَتْ عليه بغيرِ اختيارِهِ لا كَسْبَ لَهُ فِيها ، لَيْسَ لِلْعَبْدِ فيها حِيْلَةٌ غَيْرُ الصَّبْرِ .

وأمَّا صَبْرُهُ عن المَعْصِيَةْ ، فَصَبْرُ اخْتِيَـارٍ ، وَرِضى ، ومحاربـةٍ للنَّفْسِ ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ الأسْبَابِ التي تَقْوَى مَعَهَا دَواعي المُوافَقَةْ ، فإنَّهُ كانَ شَابَاً وَداعِيَةُ الشَّبَابِ إليها قَوِيَّةٌ وَعَزَباً لَيْس لَهُ ما يُعَوِّضُهُ وَيَرُدُّ شَهْوَتَهُ وغَرِيْباً والغَرِيْبُ لا يَسْتَحي في بَلَدِ غُرْبَتِهِ مِمَّا يَسْتَحِي مِنْهُ مَنْ بَيْن أصْحَابِهِ ومَعَارِفِهِ وأهْلِهِ .

ومَمْلُوكاً والمَمْلُوكُ أيضاً لَيْسَ وازِعَهُ كَوَازِعِ الحُرِّ والمرأةُ جَمِيلَةٌ ، وذاتُ مُنْصِبٍ وَهْيَ سَيِّدَتُهُ وَقَدْ غَابَ الرَّقِيْبُ ، وهي الدَّاعِيَةُ إلى نَفْسِها ،

والْحَرِيْصَةُ على ذَلِكَ أَشَد الْحِرْصِ وَمَعَ ذَلِكَ تَوَعَّدَتْهُ بالسِّجْنِ انْ لَمْ يَفْعَلْ ، والصَّغارِ وَمَعَ هَذِهِ الدَّوَاعِي كُلِّها صَبرَ اخْتِيَاراً وإِيْثَارَاً لِمَا عِنْدَ اللهِ ، وأيْنَ هَذَا مِن صَبْرِهْ في الجُبِ على ما لَيْسَ مِنْ كَسْبِهْ ، وكانَ يَقُولُ الصَّبْرُ على أدَاءِ الطَّاعَاتِ أكْمَلُ مِن الصَّبرِ على اجْتِنَابِ المُحَرَّماتِ ، وأفْضَلْ فإنَّ مَصْلَحَةَ فِعْلِ الطَّاعَةِ أحَبُّ إلى الشَّارِع مِن مَصْلَحَةِ تَرْكِ المَعْصِيَةِ ومَفْسَدَةُ عَدَمِ الطاعَةِ أبْغَضُ إليهِ وأكْرَهُ مِنْ مَفْسَدَةِ وُجُودِ المَعْصِيَةِ انتهى :

شِعرا :

أَرَى الصَّبْـرَ مَحْمُوداً وَعَنْـهُ مُـذَاهِبٌ
فكيفَ إذَا مَـا لَم يكُنْ عَنْهُ مَـذْهَبُ
هُنَـاكَ يَحِقُّ الصَّبْـرُ والصَّبْـرُ واجبٌ
ومـا كـانَ مِنْـهُ لِلضَّـرُورَةِ أَوْجَبُ
هُوَ الْمَهْرَبُ المُنْجِي لِمَنْ أَحْدَقَتْ بِهِ
مَكَـارِهُ دَهْـرٍ لَيْسَ مِنْهُـنَّ مَهْـرَبُ
أَعُـدُ خِـلالاً فِيـهِ لَيْسَ لِعَـاقِـلِ
مِن الناسِ إنْ أُنْصِفْنَ عَنْهُنَّ مَرْغَبَ
لَبُـوسُ جَمَـالٍ جُنَّـةٌ مِن شَمَـاتَـةٍ
شِـفَـاءُ أسىً يُـثْـنَى بِـهِ ويُـثَـوَّبُ
فَيَـا عَجَبـاً لِلشَّيْءِ هَـذِي خِـلاَلُـهُ
وَتَـارِكُ مـا فيـهِ مِن الحَظِّ أَعْجَبُ

آخر :

اصْبِرْ فَفِي الصَّبْرِ خيْرٌ لَوْ عَلِمْتَ بِهِ
لَكُنْتَ بارَكْتَ شُكراً صَاحِبَ النِّعِمِ
واعلمْ بأنَّكَ إنْ لَمْ تَصْطَبِرْ كَرَماً
صَبَرْتَ قَهْرَاً على ما خُطَّ في الْقَلَمِ

آخر :

صَبَرْتُ على بَعْضِ الأَذَىَ خوفَ كُلِّه
والْزَمْتُ نَفسِي صَبْرَهَا فاسْتَقَرَّتِ
وَجَرَّعْتُهَا المَكْرُوهَ حَتَّى تَدَرَّبَتْ ،
وَلَوْ حُمِّلَتْهُ جُمْلَةً لاَشْمَأَزَّتِ
فَيَا رُبَّ عِزٍ جَرَّ لِلنَّفْسِ ذِلَّةً
وَيَا رُبَّ نَفْسٍ بالتَّذَلُلِ عَزَّتِ
ومَا العِزُّ إلَّا ضِيْفَةُ وَحْدَهُ
وَمَنْ خَافَ مِنْهُ خَافَهُ مَا أَقَلَّتِ
وما صِدْقَ نَفْسِي إنَّ في الصِّدْقِ حَاجَتِيْ
فأرْضَى بِدُنْيَايَ وَإنْ هِيَ قَلَّتِ
وأَهْجُرُ أَبْوَابَ المُلُوكِ فَإنَّنِي
أَرَى الحِرْصَ جَلَاباً لِكُلِّ مَذَلَّةِ
إذَا مَا مَدَدْتُ الكَفَّ التَمِسُ الغِنَى
إلى غَيْرِ مَن قَالَ اسْألُونِيْ فَشُلَّتِ
إذَا طَرَقَتْنِيْ الحَادِثَاتُ بِنَكْبَةٍ
تَذَكَّرْتُ مَا عُوفِيْتُ مِنْهُ فَقَلَّتِ

وَمَـا نَـكْـبَـةٌ إلا ولِـلـهِ مِـنَّـةٌ
إِذَا قَـابَلْتَهَـا أَدْبَـرَتْ واضْـمَحَـلَّتِ

اللهم باعِدْ بَيْنَنا وبَيْنَ خطَايَانَا كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ونَقِّنَا مِن الذُنوبِ والخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِن الدَّنَسِ .

واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فصل)

وَكَمَا وَرَدَ في مَدْحِ الصَّبْرِ والحَثِّ عَلَيْهِ آياتٌ ، ذَكَرْنَا طَرَفاً مِنها فَكَذَلِكَ وَرَدَتْ أَحَادِيْثُ نَذْكُرُ إنشَاءَ اللهُ طَرَفَاً مِنها مِن ذِلك مَا وَرَدَ عَن صُهَيْبِ بنِ سِنَانِ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَمَ عَجَبَاً لأِمْرِ الْمُؤْمِنِ إن أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ ولَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ الا لِلمُؤْمِن أنْ أصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ ، وانْ أصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرَاً لَهُ رواه مسلم .

وعن أبِي سعيدٍ الخُدْرِي رضي اللهُ عنه ، قال قال رسول اللهُ صلى اللهُ عليه وسلَمَ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرُ يُصَبِرْهُ اللهُ ، وما أُعْطِيَ أحَدٌ عَطَاءً خَيْرَاً وأَوْسَعَ مِن الصَّبْرِ متفق عليه .

وعن أبي مَالِكٍ الحَارِثِ بنِ عاصمٍ الأَشْعَرِي قال قال رسول اللهُ صلى اللهُ عليه وسلَّم الطُّهُوْرُ شَطْرُ الايمانِ ، والحَمْدُ للهِ تَمْلأ المِيْزَانَ وسُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ تَمْلآن أو تَمْلآ ما بَيْنَ السموات والأرْضِ ، والصلاةُ نُورٌ ، والصدقةُ بُرْهَانٌ ، والصبرُ ضِيَاءٌ ، والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُ الناسِ يغدُو فَبَائِعٌ نَفسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا رواه مسلم .

وعن أبي هريرةَ وأَبِي سعيدٍ رضيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، قالَ مَا يُصِيْبُ المُؤْمِنَ مِن نصبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍ ولا حَزَنٍ ولا أذَى ولاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا كَفَّر اللهُ بِهَا مِن خَطَايَاهُ متفق عليه .

وعن أنسٍ رضي الله عَنْهُ قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيهِ وسلم إذا أرادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْر عجَل لهُ العُقُوبَةَ في الدنيا واذا أرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أمْسَكَ عنه بذَنْبِهِ حتى يُوافِي بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وقال النبِيُ صلى اللهُ عليهِ وسلم إنَّ عِظَمَ الجزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِوإن اللهَ اذا أَحَبَّ قوْماً أبْتَلاَهُم ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَن سَخِطَ فَله السَّخْطَ ، رواه الترمذي وقال حديث حسن .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ لَيْسَ الشَّدِيْدُ بالصُرعَةِ ، إنَّمَا الشَّدِيْدُ الذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغضَبِ متفق عليه . وعن أبي هريرةَ رَضِي اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ما يَزَالُ البَلاَءُ بالمؤمِنِ والمؤمنةِ في نَفْسِهِ وَوَلدِهِ وَمالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيه خَطِيْئَةٌ رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وعن مِصْعَبِ بنِ سَعْدٍ عن أبيهِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُ الناسِ أَشَدُّ بَلاءً قال الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرجلُ على حَسَب دِيْنِهِ فإِنْ كَانَ في دِيْنِهِ صَلْباً اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، وإِنْ كَانَ في دِيْنِهِ رِقَّةٌ ابْتَلاَهُ اللهُ على حَسَبِ دِيْنِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ البَلاَءُ في العَبْدِ حَتَّى يَمْشِيْ على الأَرْضِ وَمَا عَلَيهِ خَطِيْئَةٌ ، رَوَاهُ ابنُ مَاجةَ وابنُ أَبِي الدنيَا والترمذيُ وقال حديثٌ حسَنٌ صَحِيْح .

ولابن حِبانَ في صَحِيْحِهِ مِن رِوَايةِ العَلاءِ بنِ المُسَيَّبِ عن أبِيْهِ عن سَعْدٍ قال سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلم أيُّ الناسِ أَشَدُّ بَلاءً قال الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الناسُ على حَسَبِ دِيْنِهِم ، فَمَنْ ثَخُنَ دِيْنُهُ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، ومَنْ ضَعُفَ دِيْنَهُ ضَعَفَ بلاؤُهُ ، وانَّ الرَّجُلَ لَيُصِيْبُهُ البَلاءُ حَتَّى يَمْشِيْ في الناسِ وما عَليهِ خَطِيْئَةٌ .

وعن أبي سعيدٍ أَنَّه دَخَل عَلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وهُوَ مَوْعُوكٌ عَلَيهِ قَطِيْفَةٌ فَوَضَعَ يَدَهُ فَوْقَ القَطِيْفَةِ ، فَقَالَ ما أَشَدَّ حُمَّاكَ يَا رسولَ اللهِ ، قال إِنَّا كَذَلِكَ يُشَدَّدُ عَلَيْنَا البَلاَءُ ويُضَاعَفُ لَنَا الأَجْرُ .

ثُم قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَشَدُّ الناسِ بَلاءً قَال الأَنْبِيَاءُ، قَالَ ثُمَّ مَنْ قال العُلَمَآءُ ، قال ثُمَّ مَنْ قالَ الصَّالِحُونَ كَانَ أَحَدُهُمْ يُبْتَلَى بالقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهَ ويُبْتَلَى أحَدُهُمْ بالفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ إلَّا العَبَاءَةَ يَلْبَسُهَا ، ولَا أَحَدَهُمْ كَانَ أَشَدُّ فَرَحاً بالبَلَاءِ مِن أَحَدَكُم بالعَطَاءِ رواه ابن ماجة وابن أبي الدنيا والحاكم واللفظ له وقال صحيح على شرط مسلم .

وعن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إنَّ الرجلَ ليَكونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ المَنْزِلَةُ فَما يَبْلُغُهَا بعَمَلٍ فَمَا يَزَالُ يَبْتَلِيَهُ بما يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إياها رواه أبو يعلى وابن حبان في صحيحه من طريقة وغيرهما .

وعن مُحَمَّدِ بنِ خالدٍ عن أبيهِ عن جَدِّهِ وكانَتَ لَهُ صُحْبَةٌ مِن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ ، إِنَّ العَبْدَ اذا سَبَقَتْ له مِن اللهِ مَنْزِلَةٌ فلَمْ يَبْلُغْهَا بعَمَلٍ ابْتَلَاهُ اللهُ في جَسَدِهِ ، أَوْ مَالِهِ ، أَوْ فِي وَلَدِهِ ، ثم صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُبَلِّغَهُ المَنْزِلَةَ

التي سَبَقَتْ لَهُ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، رواه أحمد أبـو داود وأبو يعلى والطبراني في الكبير والاوسط .

ورُوِيَ فيه أَيْضا عنه قال قال رسولُ اللَّهِ صلى اللهُ عليه وسلم إن اللهَ لَيُجَرِّبَ أَحَدَكُم بالبَلاءِ كَمَا يُجَرِبُ أَحَدُكُم ذَهَبَهُ بالنارِ ، فَمِنْهُ مَا يَخَرُجُ كَالذَّهَبِ الإِبْرِيز فذاكَ الذِي حَمَاهُ اللهُ مِن الشُّبُهَاتِ ومنه ما يَخْرُجُ دُوْنَ ذَلْك فَذَالِكَ الذِيْ يَشُكُ بَعْضَ الشّكِ ومنه ما يَخْرُجُ كالذهَبِ الأَسْوَدِ فَذَالكَ الذي افتُتِنَ .

« موعظة »

عِبَادَ اللهِ كُلُّنَا وَلِلهِ الحَمْدُ قَد رَضِي باللهِ رَباً وَبالاسلام دِيْناً ، وبمُحَمَّدٍ نَبياً وَرَسولاً ، وبالقُرآن إِمَاماً ، وبالكَعْبَةِ قِبْلَةً وبالمؤمنينَ إخواناً وتَبرأنَا مِن كُلِ دِيْنٍ يُخَالِفُ دِيْنَ الاسلامِ ، وآمَنَّا بكُلِ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ ، وبكُلِ رسولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ ، وبملائكةِ اللهِ ، وبالقدرِ خيرِهِ وشرِهِ وباليومِ الآخِرِ وبكلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلم عن اللهِ ، عَلَى ذَلِكَ نَحْيَا ، وعليه نَمُوتُ ، وعليه نُبْعَثُ إِنْشَاءَ اللهُ مِن الآمِنِيْنَ الذينَ لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُونَ بفَضْلِهِ وكرمِهِ .

ثم اعْلَمُوا مَعَاشِرَ الاخْوَانِ إِنَّه مَن رَضِيَ باللهِ رَباً لَزِمَه أَنْ يَرْضَى بتَدْبِيْرِهِ ، واخْتِيَارِهِ لَهُ ، وبِمُرِّقَضَائِهِ ، وَأَنْ يَقْنَعِ بِما قَسَمَ لَهُ مِنَ الرِّزق ، وأَنْ يُدَاوِمَ عَلَى طَاعَتِهِ ، ويُحَافِظَ على فَرَائِضِهِ ، ويَجْتَنِبْ مَحارِمَهُ ، ويَكُوْنُ صَابِراً عِنْدَ بَلائِهِ ، مُوَطِّناً نَفْسَهُ على ما يُصِيْبُهُ مِن الشَّدائِدِ ، بَعِيْداً كُلَّ البُعْدِ عَن نارِ الجزَعِ ، التي تَتَأَجَّجُ في قَلْبِ كُلِ امْرِىءٍ يَجْهَلُ بَارِئَهُ وَمَوْلاَهُ .

فإنْ رَأَيْتَ نَفْسَكَ أَيُّهَا الأَخُ تُرِيْدُ أَنْ تَجْزَعَ عِندَ مُلِمَّةٍ ، فَقِفْ أَمَامَهَا مَوْقِفَ النَّاصِحِ القَدِيْرَ ، أَفْهِمْهَا أَنَّهَا هِيَ السَّبَبُ فِيْمَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن بَلاءٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبْير .

وإنْ لَمْ تُصَدِّقْكَ فاقْرَأْ عَلَيْهَا قَولَ اللهِ تعالى ﴿ وما أَصَابَكُم مِن مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أيديْكُمُ وَيعْفُو عن كَثِير﴾ فإِنَّهَا إذا سَمِعَتْ ذَلِكَ وَجَّهَتِ اللَّومَ إلى نَفْسِهَا على مَعَاصِيْهَا ، وهَدأَتْ منها الثَّوْرَةُ الثَّقِيْلَةُ .

وأفِهْمْهَا أَنْ لَيْسَ بَيْنَها ولا بَيْنَ رَبِها عَدَاوَةٌ ، فإِنَّهُ بِعَبادِهِ الرَّءُوْفُ الرَّحِيْمُ ، وأفْهِمْهَا أنَّ البَلايَا قَدْ تَلْزَمُ العَبْدَ حتى يُصْبِحَ مَغْفُورَةً ذُنُوْبُه كُلُّها ، صَغِيرُهَا ، والكَبْير ، وأفِهْمْهَا أنْ نَتِيْجَةُ ذلكَ أنَّ صَاحِبَ البَلايَا يَأْتِي يَومَ القِيَامَةُ في أَمْنِ مَوْلاهُ الكَرِيْم .

فَعَنْ أَبِي هريرة رَضِي اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَن يُرِدِ اللهُ بهِ خَيْراً يُصِبْ مِنه ، رواه البخارِي وفي حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا أَرادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ في الدُّنْيَا .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم أنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَا وإنَّ الله إِذَا أحبَّ قَوماً ابْتَلاهَمُ الحديث .

وفي حديث أبي هريرةَ قال قال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَا يَزَلُ البَلَا بالمؤمِن والمُؤْمِنَةِ في نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تعالى وما عليه خَطِيْئَةٌ رواه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح ، أَفَهْمْ نَفْسَكَ كُلَّ ذَلِكَ فإِنَّهُ يُخَفِفْ عَنْهَا آلامَ البَلاَيَا ، وَرُبَّمَا جَعَلَهَا مِن المَحْبُوْبَاتِ .

وأفهِمْهَا أنَّ اللهَ وَعد الصَّابِرِيْنَ أَنَّ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَاب وأفهِمْهَا أنَّ اللهَ حَكِيْمٌ في كُلِ تَصرفَاتِهِ ، وقُلْ لَهَا إنَّ الجزَعَ لا يَرُدُّ مَا نَزَل مِن البَلاءِ أبَدًا ، بَلْ مَا دَبَّرَهُ الحَكِيْمُ العَلِيْمُ لاَ بُدَّ مِن وُقوُعِهِ فَلا فائِدَة في الجَزَعِ والحُزْنِ ، وقُلْ إنَّ عَاقِبَةَ الجَزَعِ والتَّسَخْطَ النَّارُ ، وعاقِبَةُ الصَّبْرِ والرِّضَا بَما قَضَاهُ اللهُ الجنة .

وقلْ إن شَمَاتَةَ الأَعْدَاءِ في الجَزَعِ ، وغَيْظُهُمْ في الصَّبْرِ ، الذي يَتَأكَدُ لُزُوْمُهُ عَلى الرِّجَالِ والنِّسَاءِ .

وتَأَكَّدْ واطْمَئِنَّ أَنَّها إذا سَمِعَتْ مِنْكَ كُلَّ ذْلِكَ رَضِيَتْ بإذنِ الله كُلَّ الرِّضَا ، ولَزِمَتِ الآدَابَ ، فَتَعِيْشُ كُلَّ حَيَاتِهَا تَرُوْحُ وتَغْتَدِيْ في جَنَّةِ رِضَاهَا ، مَهْمَا بَرِحَتْ بِهَا البَلايَا والأَوْصَابُ ، وبذلِكَ مَعَ تَوْفِيْقِ اللهِ تعالى تَجْمَعُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدنيا والآخِرَةِ وهكذا تكونُ عَوَاقِبُ الصَّابِرِيْنَ الأَبْطال .

شعرا :

مَــا أَحْسَنَ الصَّبْرَ في الــدُنْيَــا وأَجْمَلَهُ
عِــنْـدَ الألــهِ وأنْجَــاهُ مِــن الــجَـزَعِ
مَنْ شَــدَّ بــالصبَّــرْ كفَــاً عِنْــدَ مُـؤْلِمَةٍ
أَلْــوَتْ يَــدَاهُ بِـحَبْــلٍ غَيْــرِ مُـنْـقَـطِعِ

اللهم نَوِّر قُلُوبَنَا واشْرَحْ صُدُوْرَنَا ويَسِّرْ أُمُوْرَنَا وأحْسِنْ مَنْقَلَبنَا وأيِّدْنَا بِرَوْحٍ مِنْكَ ووفقنا لِمَا تُحِبُهُ وترَضَاهُ وثَبِّتْنَا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة واغفر لنا ذنوبنا واستر عُيُوبَنَا واكْشِفْ كُرُوْبَنَا وأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وأَلِّفْ في طَاعَتِكَ وطاعةِ رَسُولِكِ بَيْنَ قُلُوبِنَا واغفر لَنَا ولِوَالِدِيْنَا ولِجَميعِ

المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

ويَكْفِيْ فِي مَدْحِ الصَّبْر وشَرَفِهِ وَعُلوِّ مَكَانَتِهِ وأنَّهُ لَا يَنَالُهُ إلا مَنْ وَفقهُ اللهُ ، أنَّ الصَّبْرَ طَرِيْقَةُ الرُسُلِ عليهم أَفْضَلُ الصلاةِ والسلام ، فقد قال اللهُ تعالى لِنَبِّيهِ صلى اللهُ عليه وسلم وصفوةِ خَلْقِهِ .

﴿ ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوْا على مَا كَذِبُوْا وأُوْذُوا حَتَّى أتاهُم نَصْرُنا ولا مُبَدِلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ وقَالَ ﴿ فاصْبِرْ إنَّ العاقبةَ لِلْمُتَقِين ﴾

فَبَيَّنَ تَعالى أَنَّ كُلَّ رسولٍ أَرْسَلَهُ إلى أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ لاَقَى أذىً وأَلَماً مِن قَوْمِهِ وتَكْذِيْباً ، وقال لِرسولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم آمِراً ومُسَلِّياً ﴿ فاصْبرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِن الرسل ﴾ الآيةَ .

أَلَا وإنَّ مِن حِكْمَةِ اللهِ في تَعْرِيْضِ صَفْوَةِ خَلْقِه لِهَذِهِ المَكَارِهِ والأَذايَا ، وفي أمْرِهِمْ بالصَّبْرِ عَلَيْهَا إِفْهاماً لِخَلْقِهِ أَنَّ الدُنْيَا دَارُ بَلاءٍ واخْتِبَارٍ ، لَا دَارُ مَقامٍ ولَذَّةٍ ، واسْتِقْرَارٍ ، وأَنَّهَا مَحْدُوْدَةَ الأَجَلِ ، مَقْصُوْدٌ مِنْهَا صَالِحُ العَمَلِ .

فانْظُر إلى آدَمَ عَليهِ السلامُ وما نَزِلَ بِهِ مِن الآلامِ والأَحْزَانِ أَخْرَجَهِ اللهُ بِفْتنَةِ إبْلِيْسَ مِن جَنَّتِهِ ، وأَهْبطَهُ إلى الأَرْضِ لِيَعْمُرَهَا هُوَ وأَبْنَاؤُهُ ، وهِيَ دَارُ العَنَاءِ والفَنَاءِ وذَاقَ ثُكْلَ وَلَدِهِ هَابِيْلَ باعْتداءِ أَخِيْهِ عَليهِ قَابِيْلَ .

وانْظُر أوَّلَ رَسُولٍ أُرْسِلَ إلى أَهْلِ الأَرْضِ نُوحٍ عَليَه وعلى نَبِّينا

أَفْضَلُ الصلاةِ والسلامِ وَقَدْ مَكَثَ يَدْعُو قومَهَ ألفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِين عَاماً (٩٥٠) وهم يَهْزَؤُنَ ويَسْخَرُوْنَ مِنْهُ يَدْعُوْهُم لَيْلًا ونهاراً سِراً وجِهَاراً ولم يَتوانَا ولمْ يَضْجَرْ ولَمْ يَملَّ بَلْ واصَلَ الجُهُودَ النَبِيْلَةَ الخَالِصَة الكَرِيْمَةَ بلا مَصْلَحةٍ لَهُ وَلا مَنْفَعةً مِنْهُمْ .

ويَحْتَمِلُ في سَبيلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الاسْتكبارَ والإعْرَاضَ ، هذَهَ المُدَّةَ الطَّوِيْلَةِ والمْسْتَجِيْبُونَ لا يَزِيْدُونَ ، والمُعْرِضُونَ في زِيَادَةٍ ، ولَمَّا أَيِسَ مِن إِيْمَانِهِم أُمِرَ أَنْ يَصْنَع الفُلْكَ فَكَانُوا إذا مَرُّوْا عَليهِ ضَحِكُوا مِنْه وسَخِرُوْا وقَالُوا كانَ بالأَمْسِ نَبياً واليَوْمَ نَجاراً ولا يَزِيْدُ مِن جَوابِهِ عَلَى أنْ يَقُولَ ﴿ إنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فإنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمِ كَما تَسْخَرُوْنَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأتِيْهِ عَذابٌ يُخْزِيْهِ ويَحِلُ عَليه عَذَابٌ مُقِيْمٌ ﴾ .

وزَادَ بَلاَؤُهُ أنْ أُغْرِقَ ابْنُهُ وهُوَ يَنْظُرُ إليهِ ولا يَسْتَطِيْعُ لَهُ إنْقَاذَاً إذْ قَدْ غَلَبَ عَلَى الابنِ الشَّقَاءُ فَنَاجَى رَبَّهُ نوحٌ فقال له رَبُّهُ يا نُوْحُ إنه لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .

ثم انْظُر إلى شَيْخِ المُرْسَلْين وَجَدِّ المُسْلِمْين خَلِيْلِ الرحمنِ عليه السلامُ ومَا تَجرَّعَ مِن الغُصَص والآلام فقَدْ جَدَّ في دَعْوَةِ أَبِيْهِ إلى التَّوْحِيْدِ حَتَّى هَدَّدَهُ أَبُوْهُ بالرجْمِ والتَّعْذِيْبِ وقَوْمُهُ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ثُمَّ مَا جَرى عَليهِ حينَ أمِرَ بذَبْحِ ابْنِهِ فأَقْدَمَ عَلَى ذَلِكَ .

ثم انْظُر إلى مُوْسَى ومَا جَرَى عليه وما لاَقَى فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وآخِرِهِ مَعَ فِرْعَونَ لَعَنَهُ اللهُ وقَوْمِه ثُمَّ انْظُرْ إلى عِيْسَى عليه السلامُ وما لَقِيَهُ مِن قَذْفِ أمِّهِ وَقَذْفِهِ رَضَي اللهُ عنهما واضْطِهَادِ بَنِي اسْرَائِيلَ قَوْمَهُ حتَّى ائتمَروْا عَلَى صَلْبِهِ .

ثُمَّ انْظُرْ إلى لُوْطٍ عَلَيهِ السَّلامُ وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ قَومِهِ المُنْحَرِفِينَ الشَّاذِيْن المُسْتَهْتِرِيْنَ بالنُّذُرِ قال تعالى﴿فمَا كَانَ جَوابَ قومِهِ إلا أنْ قَالُوا ائتِنا بعذَابِ اللهِ﴾الآيةَ فَصَبَرَ إلى أن نَصَرَهُ اللهُ وأَرسْلَ عَلى قَومِهِ حَاصِباً وجَعَل عَالِيَهَا سَافِلَها واللهُ على كلِ شَيْءً قَدِيْر وهو نِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النّصِيْر .

شِعْراً :

إنَّ الحَيَاةَ مَنَامٌ والمَآلُ بِنَا
إلى انْتِبَاهٍ وَآتٍ مِثْلُ مُنْعَدِمِ
وَنَحْنُ في سَفَرٍ نَمْضِيْ إلى حُفَرٍ
فَكُلُّ آنٍ لَنَا قُرْبٌ مِنْ العَدَمِ
وَالمَوْتُ يَشْمَلُنَا وَالحَشْرُ يَجْمَعُنَا
وَبالتُّقَى الفَخْرُ لاَ بِالمَالِ وَالحَشَمِ
صُنْ بِالتَّعَفُّفِ عِزَّ النَّفْسِ مُجْتَهِداً
فالنَّفْسُ أَعْلَى مِنْ الدُّنْيَا لِذِي الهِمَمِ
وَاغْضُضْ عُيُونَكَ عَنْ عَيْبِ الانَامِ وَكُنْ
بِعَيْبِ نَفْسِكَ مَشْغُولاً عَنْ الأُمَمِ
فَإنَّ عَيْبَكَ تَبْدُوْ فِيْكَ وَصْمَتُهُ
وَأَنْتَ مِنْ عَيْبِهِمْ خَالٍ مِنْ الوَصَمِ

جَـازِيْ المُسِيءَ بِـأَحْسَـانٍ لِتَمْلِكَـهُ
وكُنْ كَعُودٍ يَفُوحُ الطِّيْبُ في الضُّرَمِ
وَمَنْ تَـطَلَّبَ خِـلاً غَيْـرَ ذِيْ عِـوَجٍ
يَكُنْ كَـطَالِبِ مَاءٍ مِنْ لَـظَى الفَحَمِ
وَقَـدْ سَمِعْنَا حِكَـايَاتِ الصِّـدِيْقِ وَلَمْ
نَخُلْهُ إِلَّا خَيَـالاً كَـانَ فِيْ الـحُلُمِ
إِنَّ الإِقَـامَةَ فِيْ أَرْضٍ تُـظَامُ بِهَـا ،
وَالأَرْضُ وَاسِـعَـةٌ ذُلٌّ فَـلاَ تُـقِـمِ
وَلاَ كَـمَـالَ بِـدَارٍ لاَ بَـقَـاءَ لَـهَـا
فَيَـالَهَـا قِسْمَـةٌ مِنْ أَعْـظَمِ القِسَمِ
دَارٌ حَـلاَوَتُـهَـا لِلْجَـاهِلْيـنَ بِـهَـا
وَمُـرُّهَـا لِـذَوِيْ الأَلْبَـابِ وَالهِمَمِ
أَبْغِيْ الخَلاَصَ وَمَا أَخْلَصْتُ في عَمَلٍ
أَرْجُو النَّجَاةَ وَمَا نَاجَيْتُ فِيْ الـظُّلَمِ
لَكِنَّ لِيْ أَمَـلاً فِيْ الـلَّهِ يُؤْنِـسُنِـيْ
وَحُسْنُ ظَنٍّ بِـهِ ذَا الجُـوْدِ والْكَـرَمِ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوْبنا وَقَوِّهَا ، اللَّهُمَّ الْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَأَرْزُقْنَا مَحَبَّة أَوْلِيَائِك وَبُغْض أَعْدَائِكَ وَهِجْرانِهم وَالابْتِعَادِ عَنْهُمْ وَاغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعَ المسْلِمْينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

ثُمَّ انْظُرْ الى خَطِيْبِ الأنْبِيَاءِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَا لَاقَى مِنْ قَوْمِهِ المتَمَرِّدِيْنَ عَلَى الحَقِّ والعَدْلِ ، المفْسِدِيْنَ فِيْ الأرْضِ ، قُطَّاعِ الطُّرُقِ ، الظَلَمَةُ الذِينَ يَفْتِنُوْنَ النَّاسَ عَنْ دِيْنِهِمْ ، وَيَصُدُّوْنَهُم ، المقَاتِلِيْنَ لِمَنْ يَدْعُوْهُمْ إلَى الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ والأخْلَاقِ الفَاضِلَةِ بِالقَسْوَةِ وَالغِلْظَةِ ، حَيْثُ يَقُولُونَ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالذِينَ آمَنُوا مَعَكَ الآيَةِ .

ثُمَّ انْظُرْ الَى صَالِحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حِيْنَ دَعَا قَوْمَهُ ، وَمَا قَابَلُوْهُ بِهِ حِيْنَ جَاءَ بِالبَيِّنَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ ، فَيَعْتَدُوْنَ عَلَيْهَا وَيَتَحَدَّوْنَهُ بِاسْتِعْجَالِ العَذَابِ .

ثُمَّ انْظُرْ الى هُوْدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاتِّهَامِ قَوْمِهِ لَهُ بِالسَّفَاهَةِ وَالكَذِبِ بِلَا تَرَوٍّ مِنْهُمْ وَلَا تَدَبُّرٍ وَلَا دَلِيْلٍ ، وَأخيراً يَتَحَدَّونَهُ بِالعَذَابِ .

وَانْظُرْ إلى يُونُسَ ، وَمَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ ، حَتَّى ضَاقَ صَدْرُهُ بِتَكْذِيْبِ قَوْمِهِ ، فَأنْذَرَهُمْ بِعَذَابٍ قَرِيْبٍ ، وَغَادَرَهُمْ مُغْضَباً آبِقاً فَقَادَهُ الغَضَبُ إلى شَاطِيءِ البَحْرِ ، حَيْثُ رَكِبَ سَفِينَةً مَشْحُونَةً وَفِيْ وَسَطِ لُجَّةِ البَحْرِ نَاوَأتْهَا الرِّيَاحُ وَالأمواجُ وَأشْرَفَتْ عَلَى الغَرَقِ ، فَسَاهَمُوا عَلَى أن مَنْ تَقَعْ القُرْعَةُ عَلَيْهِ يُلْقَى فِي البَحْرِ لِتَخِفَّ السَّفِيْنَةُ فَوَقَعَتْ القُرْعَةُ عَلَى يـونُسَ نَبِيِّ اللهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُمْ يَبْخَلُوْنَ بِهِ أَنْ يُلْقَى مِنْ بَيْنِهِمْ .

فَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ لِيُلْقِيَ نَفْسَهُ وَهُمْ يَأْبَوْنَ عَلَيْهِ ذَلِكَ ، وَأمَرَ اللهُ تَعَالَى حُوْتاً مِنْ البَحْرِ الأخْضَرِ أَنْ يَشُقَّ البِحَارَ وَأنْ يَلْتَقِمَ يـونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَا يَهْشِمَ لَهُ لَحْمَا وَلَا يَكْسِرَ لَهُ عَظْمَا فَجَاءَ ذَلِكَ الحُوْتُ وَالْقَى يُونُسُ نَفْسَهُ ،

فَالْتَقَمَهُ الحُوْتُ وَذَهَبَ بِهِ .

وَلَمَا اسْتَقَرَّ يُونُسُ في بَطْنِ الحُوْتِ حَسِبَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ، ثُمَّ حَرَّكَ رَأْسَهُ وَرِجْلَيْهِ ، وَأَطْرَافَهُ ، فَإِذَا هُوَ حَيٌّ فَقَامَ فَصَلَّى في بَطْنِ الحُوْتِ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ دُعَائِهِ يَا رَبِّ اتَّخَذْتُ لَكَ مَسْجِدَاً في مَوْضِعٍ لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ ، فَهَذَا مِمَّا لَقِيَهُ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، ذَكَرَ ذَلِكَ بَعْضُ العُلَمَاءِ رحمهم الله.

ثُمَّ إلى مَا لَقِيَهُ صَفْوَةُ الخَلْقِ مُحَمَّدٌ صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْمِهِ ، مِنْ التَّكْذِيْبِ وَالأَسْتِهْزَاءِ ، وَالإِيْذَاءِ في نَفْسِهِ ، وَفِيْمَنْ يَتْبَعُهُ مِنْ المُسْتَضْعَفِيْنَ ، حَتَّى ائْتَمَرُوا عَلَى قَتلِهِ ، فَهَاجَرَ إلى المدِينَةِ تَارِكَاً وَطَنَهُ وَعشِيْرَتَهُ ، وَانْظُرْ مَا لَقِيَهُ في حُرُوبِهِمْ ، وَقَدْ جَرَحُوْهُ ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ حَتَّى سَالَ دَمُهُ .

إذَا نَظَرْتَ إلى ذَلِكَ وإلى غَيْرِهِ عَلِمْتَ أَنَّ الدُّنْيَا مَشْحُونَةٌ بِالمَصَائِبِ وَالأَنْكَادِ ، وَأَنَّها دَارُ مَمرٍ لاَ دَارُ مَقَرٍّ ، وَلَوْ كَانَتْ دَارَ مَقَرٍّ واطْمِئْنَانٍ ، لَكَانَ أَوْلَى بِذَلِكَ رُسُلُ اللهِ ، وَأَنْبِيَاؤُهُ ، وَأَصْفِيَاؤُهُ فَالعَاقِلُ مَنْ يَحْرِصُ عَلَى عَقِيْدَتِهِ الدِّينِيَّةِ ، كَمَا يَحْرِصُ عَلَى رُوْحِهِ فَيُحصِّنْهَا مِنْ الزَّيْغِ وَالضَّلاَلِ ، وَيَقُومَ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَيَتَجَنَّبَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ صَابِراً عَلَى مَا قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، أَنَّ لِتَسْهِيْلِ المَصَائِبِ والشَّدَائِدِ البَدَنيةِ وَالمَالِيَةِ أَسْبَابٌ إِذَا قَارَنَتْ حزماً

وَصَادَفَتْ عَزْماً هَانَ وَقْعُهَا ، وَقَلَّ تَأْثِيْرُهَا ، وَضَرَرُهَا على الدِّيْنِ وَالقَلْبِ وَالبَدَنِ ، بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى .

فَأَوَّلاً الآيَاتُ وَالأَحَادِيْثُ المُتَقَدِّمَةُ التِي فِيْهَا مَدْحُ الصَّابِرِيْنَ وَبِشَارَتُهم وَوَعْدُهم بالجَزَاءِ الحَسَنِ وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَ مَرَارَةَ الدُّنْيَا هِيَ بِعَيْنِهَا حَلَاوَةٌ في الآخِرَةِ وَحَلَاوَةُ الدُّنْيَا هِيَ بِعَيْنِهَا مَرَارَةٌ في الآخِرَةِ ، وَلأَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَرَارَةٍ مُنْقَطِعَةٍ إلى حَلَاوةٍ دَائِمَةٍ خَيْرٌ مِنْ عَكْسِ ذَلِكَ .

وَقَالَ صَلَى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ في الصَّحِيْحِ يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةَ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ يا ابْنَ آدمَ هَل رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيْمٌ قَطُّ فَيَقُوْلُ لَا وَاللهِ يَا رَبُّ .

وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً في الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُصْبَغُ في الجَنَّةِ صَبْغَةً فَيُقَالُ لَهُ يَا بْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّة قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللهِ يَا رَبُّ الحَدِيْثُ .

وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِشْعَارُ النَّفْسِ بِمَا تَعْلَمُهُ مِنْ نُزُوْلِ الفَنَاءِ وَتَقَضِّي المَسَارِّ ، وَأَنَّ لها آجَالاً مُنْصَرِمَةً وَمُدَداً منْقَضِيَةً ، اذْ لَيْسَ لِلدُّنْيَا حَالٌ تَدُومُ ولا لِمَخْلُوقٍ عَلَيْهَا بَقَاءٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ وقال ﴿ إنكَ مَيِّتٌ وإنَّهم مَيِّتُون ﴾ .

وَرَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إلَّا كَمَثَلِ رَاكِبٍ مَالَ إلى ظِلِّ شَجَرةٍ في يَوْمٍ صَائِفٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا .

وَمِنْهَا أَنْ يَتَصَوَّرَ انْحِلَالَ الشَّدَائِدِ وَانْكِشَافَ الهُمُوْمِ وَأَنَّ اللهَ قَدَّرَهَا بِأَوْقَاتٍ لَا تَنْصَرِمُ قَبْلَهَا وَلَا تَسْتَدِيْمَ بَعْدَهَا فَلَا تَقْصُرُ تِلْكَ الأَوْقَاتِ بِجَزَعٍ وَلَا تَطُوْلُ بِصَبْرٍ ، وَأَنَّ كلَّ يَوْمٍ يَمُرُّ بِهَا يَذْهَبُ مِنْهَا بِشَطْرٍ وَيَأْخُذُ مِنْهَا بِنَصِيْبٍ حَتَّى تَنْجَلِي وَتَنْفَرِجَ وَيَزُولَ مَا كَانَ مِنْ المَكَارِهِ وَالخُطُوبِ .

وَقَدْ قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا في كِتَابِهِ قِصَصاً تَتَضَمَّنُ وُقُوْعَ الفَرَجِ بَعْدَ الكَرْبِ والشِّدَّة كَمَا قَصَّ نَجَاةَ نُوْحٍ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ مِنَ الكَرْبِ العَظِيْمِ مَعَ اغرَاقِ سَائِرِ أَهْلِ الأَرْضِ .

وَكَمَا قَصَّ نَجَاةَ ابْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ النَّارِ حِيْنَ أَلْقَاهُ المُشْرِكُونَ في النَّارِ ، وَأَنَّهُ جعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْداً وَسَلاماً ، وَكَمَا قَصَّ قِصَّةَ ابْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ وَلَدِهِ الذِي أُمِرَ بِذَبْحِهِ ، ثُمَّ فَدَاهُ اللهُ بِذبْحٍ عَظِيْمٍ .

وَكَمَا قَصَّ قِصَّةَ مُوْسَى عَلَيْهِ السَّلامُ مَعَ أُمِّهِ لَمَّا أَلْقَتْهُ في اليَمِّ حَتَّى الْتَقطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ، وَقِصَّتَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ لَمَّا نَجَّى اللهُ سُبْحَانَهُ مُوْسَى وَأَغرَقَ عَدُوَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ .

وَكَمَا قَصَّ قِصَّةَ أَيُّوبَ وَيُوْنُسَ وَيَعْقُوْبَ ، وَيُوْسُفَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَقِصَّةَ قَوْمِ يُوْنُسَ لما آمنُوا ، وَكَمَا قَصَّ قِصَصَ مُحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَصْرِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ بانْجَائِهِ مِنْهُم في عِدَّةِ مَوَاطِنَ ، مِثْلِ قِصَّتِهِ في الغَارِ ، وَقِصَّةِ يومِ بَدْرٍ ، وَيَوْمِ أُحُدٍ ، وَيَوْمِ حُنَيْنٍ .

وَكَمَا قَصَّ اللهُ قِصَّةَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا في حَدِيْثِ الافْكِ وَبَرَّأَهَا مِمَّا رُمِيَتْ بِهِ ، وَقِصَّةَ الثَّلاثَةِ الذِيْنَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيهُم الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأ

مِنْ اللهِ إلا الَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .

وَفي السُّنَّةِ منْ هَذَا المَعْنَى شَيءٌ كَثِيْرٌ مِثْلُ قِصَّةِ الثَّلاثَةِ الذِيْنَ دَخَلُوا الغَارَ ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ الصَّخْرَةُ ، فَدَعَوا اللهَ بِأَعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ ، فَفَرَّجَ اللهُ عَنْهُم ، وَمِثْلُ قِصَّةِ ابْرَاهِيْمَ وَسَارة معَ الجَبَّارِ الذي طَلَبَهَا مِنْ ابْرَاهِيْمَ وَرَدَّ اللهُ كَيْدَ الفَاجِرِ .

وَإِذَا اشْتَدَّ الكَرْبُ وَعَظُمَ الخَطْبُ كَانَ الفَرَجُ قَرِيْباً في الغَالِبِ بِإِذْنِ اللهِ قَالَ تَعالَى ﴿ حَتَّى إذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ وقَالَ تَعالَى ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُول وَالذِيْنَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيْبٌ ﴾ .

وَأَخْبَرَ عَنْ يَعْقُوْبَ أَنَّهُ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ لِقَاءِ يُوْسُفَ وَقَالَ لإِخْوَاتِهِ اذهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيْهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ، وَقَالَ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيْعاً ، وَمِنْ لَطَائِفِ اقْتِرَانِ الفَرَجِ بِاشْتِدَادِ الكُرَبِ ، أَن الكَرْبَ إذا اشْتَدَّ ، وَعَظُمَ وَتَنَاهَى ، وُجِدَ الإِيَاسُ مِنْ كَشْفِهِ مِنْ جِهَةِ المَخْلُوقِ ، وَوَقَعَ التَّعَلُّقُ بِالخَالِقِ .

كَمَا قَالَ الامَامُ أَحْمَدُ وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ ابْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لما عَرَضَ لَهُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ في الهَوَاءِ ، وَقَالَ ألكَ حَاجَةٌ ، فَقَالَ أَمَّا إِلَيْكَ فَلاَ وَأَمَّا إلى اللهِ فَبَلَى والتَّوَكُّلُ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ التي تُطْلَبُ بِهَا الحَوَائِجَ .

فَإِنَّ اللهَ يَكْفِي مَنْ تَوكَّلَ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يَتوكَّلْ عَلى اللَّهِ فَهُوَ حسْبُه ﴾ وَمِنْهَا أَنَّ العَبْدَ إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الكَرْبُ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ حِيْنَئِذٍ إلى

مُجَاهَدَةِ الشيْطَانِ لِإنَّهُ يَأْتِيْهِ فيُقْنِطُه وَيُسْخِطُهُ وَمِنْهَا أَنَّ المُؤْمِنَ إِذَا اسْتَبْطَأَ الفَرَجَ وَأَيِسَ مِنْهُ وَلاَ سِيَّمَا بَعْدَ كَثْرَةِ دُعَائِهِ وَتَضَرُّعِهِ وَلَمْ يَظْهَرْ لَه أَثَرُ الاجَابَةِ رَجَعَ عَلى نَفْسِهِ باللاَّئِمَةِ وَيَقُوْلُ لَهَا إِنَّمَا أُتِيْتُ مِنْ قِبَلِكِ وَلَوْ كَانَ فِيْكِ خَيْراً لأُجِبْتِ وَهَذا اللَّومُ أَحَبُّ إِلى اللهِ مِن كَثِيرٍ مِنْ الطَّاعَاتِ أ هـ .

شِـعْراً :

اذا اشْتَمَلَتْ عَلى اليَـأْسِ القُلُوْبُ
وَضَـاقَ بِمَـا بِـهِ الصَّـدْرُ الـرَّحِيْبُ
وَأَوْطَـأَتْ الـمَـكَـارِهُ وَاطْـمَـأَنَّـتْ
وَأَرْسَـتْ فـي أَمَـاكِـنِهَـا الـخُـطُوْبُ
وَلَـمْ تَـرَ لانْكِشَـافِ الضُّـرِّ وَجْـهـاً
وَلاَ أَغْـنَـى بِـحِـيْـلَتِـهِ الأَرِيْـبُ
أَتَـاكَ عَـلَى قُـنُـوطٍ مِـنْـكَ غَـوْثٌ
يَـمُـنُّ بِـهِ الـلطِيْـفُ الـمُـسْـتَجِـيْـبُ
وَكُـلُّ الـحَـادِثَـاتِ إِذَا تَـنَـاهَـتْ
فَـمَـوْصُـولٌ بِـهَـا فَـرَجٌ قَـرِيْـبُ

آخَـرُ :

وَكَـمْ لِـلَّهِ مِـنْ لُـطْفٍ خَـفِـيٍّ
يَـدِقُّ خَـفَـاهُ عَـنْ فَـهْـمِ الـذَّكِـيِّ
وَكَـمْ يُـسْـرٍ أَتَـى مِـنْ بَـعْـدِ عُـسْـرٍ
وَفَـرَّجَ لَـوْعَـةَ الـقَـلْبِ الـشَّـجِـيِّ

وَكَـمْ هَـمٍّ تُـسَـاءُ بِـهِ صَـبَـاحـاً
فَـتَـعْـقُـبُـهُ الـمَـسَـرَّةُ بِـالـعَـشِـيِّ

إِذَا ضَـاقَـتْ بِـكَ الاسْبَـابُ يَـوْمـاً
فَـثِـقْ بِـالـوَاحِـدِ الأَحَـدِ الـعَـلِيِّ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْــلٌ)

وَمِنْهَا أَنْ يَتَسَلَّى بِذَوِيْ الغِيَرِ ، وَيَتَسَلَّى بِأُوْلِي العِبَرِ ، وَيَعْلَمَ أَنَّهُمْ الأَكْثَرُونَ عَدَداً وَالأَسْرَعُونَ مَدَدَا فَيَسْتَجِدُّ مِنْ سَلْوَةِ الأَسَى وَحُسْنِ العَزَاءِ إِلَى مَا يُخَفِّفُ حُزْنَهُ وَيُقَلِّلُ هَلَعَهُ وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْصَقُوْا بِذَوِي الغِيَرِ تَتَّسِعْ قُلُوْبُكُم أَيْ الذِيْنَ تَنْتَقِلُ أَحْوَالُهُمْ إِذْ يَتَسَلَّى مُرَقَّعُ الخُفِّ بِالذِيْ مُخَرَّقٌ خُفُّهُ وَيَتَسَلَّى مُخَرَّقُ الخُفِّ بِالحَاسِرِ الذِيْ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيءٌ وَيَتَسَلَّى الذِيْ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيءٌ بِالأَعْرَجِ ، وَالأَعْرَجُ بِالأَقْطَعِ ، وَهَكَذَا كُلٌّ يَتَسَلَّى بِمَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فِي المصِيْبَةِ .

وَالدُّنْيَا إِذَا تَأَمَّلَهَا اللَّبِيْبُ وَجَدَهَا كُلَّهَا مَتَاعِبَ وَبَلَايَا وَمَصَائِبَ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِالنَاسِ مِنْ رُؤُسِهِمْ إِلَى أَقْدَامِهِمْ ، فَتَرَى هَذَا مُصَاباً بِالعِلَلِ وَالأَسْقَامِ كُلمَا بَرِىءَ مِنْ عِلةٍ أَصَابَتْهُ عِلَّةٌ أُخْرَى ، وَكُلَّمَا شَفَاهُ اللهُ مِنْ مَرَضٍ جَاءَهُ مَرَضٌ آخَرُ ، وَتَجِدُ هَذَا مُصَاباً بِعُقُوقِ الأَبْنَاءِ لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ وَسَلَكُوا طَرِيْقَ الشَّيْطَانِ ، وَتَجِدُ الآخَرَ مُصَاباً بِسُوْءِ خُلُقِ زَوْجَتِهِ فَهُوَ مَعَهَا دَائِماً فِي شِقَاقٍ وَعَنَاءٍ وَنشُوزٍ ولِجَاجٍ .

وَتَجِدُ هَذَا مُصَاباً بِالفَقْرِ المُدْقِعِ وَهَذَا تَجِدُهُ مُصَاباً بالعُقْمِ ، وَهَذَا تَجِدُهُ مُصَاباً بِكَسَادِ تِجَارَتِهِ ، وَهَذَا مُصَاباً فِي بِبَوَارِ زِرَاعَتِهِ ، أَوْ صِنَاعَتِهِ ،

وَهذَا مُصَاباً بِجِيْرَانِ سُوءٍ يُذِيْعُوْنَ مَا يَسُوءُ وَيَكْتُمُوْنَ الخَيْرَ ، وَتَجِدُهُ مَعَهُم دَائِماً في لِجَاجٍ ، وَهَذَا تَجِدُهُ مَعَ أَقْرِبَائِهِ في شِقَاقٍ وَقَطِيْعَةٍ ، وَشَكَاوَى وَتَرَدُّدٍ بَيْنَ المَحَاكِمِ وَالمَنَاطِقِ . وَهَذَا تَجِدُهُ مَعَ شُرَكَائِهِ أَوْ مَعَ أَرْحَامِهِ كَذَلِكَ فِيْ نَكَدٍ .

وَتَرَى هَذَا لاَ حَظَّ لَهُ في الحَيَاةِ يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ وَلاَ يَنَالُ مُنَاهُ وَيَشْقَى وَيَتْعَبُ وَلاَ يَحْصُلُ على مُبْتَغَاهُ وَهَذَا تَجِدُهُ مُسَلَّطِيْنَ عَلَيْهِ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدُهُمَا وَهَذَا تَجِدُهُ مَظْلُوماً وَهَذا مَسْجُوْناً وَهَكَذَا إلى نِهَايَةِ سِلْسِلَةِ الآلاَمِ التي لاَ تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ وَلاَ يُحْصِيْهَا عَدّ وَلَقَدْ صَدَقَ مَن قالَ :

كلُّ مَنْ لاَقَيْتُ يَشْكُو دَهْرَهُ
لَيْتَ شِعْرِيْ هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنْ

وَقَالَ آخَرُ :

وَلَما رَأَيْتُ الدَّهْرَ يُؤْذِنُ صَرْفُهُ
بِتَفْرِيْقِ مَا بَيْنِيْ وَبَيْنَ الحَبَائِبِ
رَجَعْتُ إلى نَفْسِيْ فَوَطَّنْتُهَا عَلَى
رُكُوْبِ جَمِيْلِ الصَّبْرِ عِنْدَ النَّوَائِبِ
وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا عَلى سُوءِ فِعْلِهَا
فَأَيَّامُهُ مَحْفُوفَةٌ بِالمَصَائِبِ
فَخُذْ خِلْسَةً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ تَعِيْشُهُ
وَكُنْ حَذِراً مِنْ كَامِنَاتِ العَوَاقِبِ

وقال آخر :

وما خَيْرُ عَيْشٍ نِصْفُهُ سِنَةُ الكَرَى
وَنِصْفٌ بِهِ نَعْتَلُ أَوْ نَتَوَجَّعُ
مَعَ الوَقْتِ يَمْضِي بُؤْسُهُ وَنَعِيمُهُ
كَأنْ لَمْ يَكُنْ والوَقْتُ عُمْرُكَ أَجْمَعُ

ويقول الآخر :

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وَأَنْتَ تَرُوْمُهَا
صَفواً مِن الأقْذَارِ والأَكْدَارِ
وَمُكَلفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا
مُتَطَّلِبٌ في النارِ جَذْوَةَ نَارِ
واذا رَجَوْتَ المُسْتَحِيْلَ فَإنَّمَا
تَبْنِي الرَّجَاءَ عَلَى شَفِيْرٍ هَارِ

قال ابنُ الجَوْزِي وَلولاَ أَنَّ الدُنْيَا دَارُ ابْتِلاَءٍ لَمْ تَعْتَورْ فِيْهَا الأَمْرَاضُ والأَكْدَارُ وَلَمْ يَضِقْ العَيْشُ فِيها على الأَنْبِيَاءِ والأَخْيَارِ فآدَمُ يُعَانِي المِحَنَ إلى أَنْ خَرَجَ مِن الدُنْيَا ، وَنُوْحُ بَكَى ثَلاَثِمائَةِ عامٍ ، وابْرَاهِيْمُ يُكابِدُ النَّارَ وَذَبْحَ الوَلَد ، وَيَعْقُوبُ بَكَى حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهُ ، وَمُوْسَى يُقَاسِي فِرْعَونَ وَيَلْقَى مِن قَوْمِهِ المِحَنَ .

وَعِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ لاَ مَأْوَى لَهُ إِلاَّ البَرَارِي في العَيْشِ الضَّنْكِ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم يُصَابِرُ الفَقْرَ وَقَتْلَ عَمِّهِ حَمْزَةَ ، وَهُوَ مِن

أَحبِ أَقَارِبِهِ إِليهِ ، وَنُفُوْرَ قَومِهِ عَنْهُ ، وَقَد قَالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم الدنيا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ ، فإِذا بَانَ بِأَنَّها دَارُ ابْتِلَاءٍ وَسِجْنٍ وَمِحَنٍ فلا يَنْبَغِيْ إِنْكَارُ وقُوعِ المَصَائِبِ فِيها .

وقال رَأَيْتُ جُمُهُورَ الناسِ إِذا طَرَقَهُم المَرَضُ أَوْ غَيْرُهُ مِن المَصَائِبِ اشْتَغَلُوا تَارَةً بالجَزَعِ والشَّكْوَى ، وَتَارَةً بالتَّدَاوِي ، إِلى أَنْ يَشْتَدَّ عَلَيْهِمُ فَيَشْغَلَهُم اشْتِدَادُهُ عن الالتِفَاتِ إِلى المَصَالِحِ ، مِن وَصِيَّةٍ ، أَوْ فِعْلِ خَيرٍ أَوْ تَأَهُّبٍ لِلْمَوْتِ .

فَكَمْ مِمَّنْ لَهُ ذُنُوبٌ لَا يَتُوْبُ مِنْهَا أَوْ عِنْدَهُ وَدَائِعُ لا يَرُدُّهَا ، أَوْ عَلَيْهِ دَيْنٌ أَوْ زَكَاةٌ ، أَوْ في ذِمَّتِهِ ظَلَامَةٌ لا يَخْطُرُ لَهُ تَدارُكُهَا وانَّمَا حَزَنُه على فِرَاقِ الدُنْيَا إِذ لَا هَمَّ لَهُ سِوَاهَا وَرُبَّمَا أَفَاقَ وَأَوْصَى بِجَوْرٍ انتهى كلامه .

وقال بَعْضُهُم إِن المَرْءَ إِذا طَرَقَهُ مَا يَتَحَيَّفُ صَبْرَهُ وَيُضَيِّقُ صَدْرَهُ يَعُودُ إِلى عِلْمِهِ بالدنيا كَيْفَ نُصِبَتْ عَلَى النُقْلَةِ وَجُنِّبَتْ طَوْلَ المُهْلَةِ وابْتُدِأَتْ لِلنَّفَادِ وَشُفِعَ كَوْنُهَا لِلْخَرَابِ ، وأَنَّ الثَّاوِيْ فيها رَاحِلٌ ، والأَيَّامُ فِيها مَرَاحِلُ مَوْهُوْبُهَا مَسْلُوبٌ وإِن أُرْخِيَ إِلى مَهَلٍ ، وَمَمْنُوْحُهَا مَحْرُوْبٌ وإِنْ أُرخِيَ إِلى أَجَلٍ وَلَوْ خُلِّدَ مَن سَبَقَ لما وَسِعَتِ الأَرْضُ وَلِذَلِكَ جُعِلَتِ الدنيا دَارَ قَلْعَةٍ وَمَحَلَّ نَجْعَة .

شعراً :

أَطِلْ جَفْوَةَ الدُنْيَا وَدَعْ عَنْكَ شَأْنَهَا
فَمَا الغَافِلُ المَغْرُوْرُ فِيهَا بِعَاقِلِ

وَلَـيْسَ الأَمَـانِـيْ لِـلْبَقَـاءِ وإن جَـرَتْ
بِـهَـا عَـادَةٌ إلا تَـعَـالِـيْـلُ بَـاطِـلِ
يُـسَـارُ بِـنَـا نَـحْـوَ الـمَـنُـونِ وَإِنَّـنَـا
لَنُسْعَفُ في الـدُنْيَا بـطَـيِ الـمَـرَاحِـلِ
غَـفَـلْنَـا عَـن الأَيَّـامِ أَطْـوَلَ غَـفْـلَةٍ
ومَـا حُـوْبُـهَـا المَجْنِيُّ مِنْهَـا بِغَـافِـلِ

آخــر :

قِفْ بـالمَقَـابِـرِ واذْكُـرْ إِنْ وَقَفْتَ بِهَـا
لِـلّـهِ دَرُّكَ مَـاذَا تَـسْـتُـرُ الـحُـفَـرُ
فَـفِـيْـهِـمُ لَـكَ يَـا مَـغْـرُوْرُ مَـوْعِـظَةٌ
وَفِـيْـهِـمُ لَـكَ يَـا مَغْـرُوْرُ مُـعْـتَـبَـرُ
كَـانُـوْا مُلُوْكـاً تُـوَارِيْهِـمْ قُـصُـوْرُهُـم
دَهْـراً فَـوَارَتْهُمُ مِن بَعْـدِهَـا الـحُفَـرُ

اللهم أَيْقِضْنَا مِن سِنَةِ الغَفْلَةِ وَوَفِّقْنَا لاِغْتِنَامِ أَيَّامِ المُهْلَةِ وارْزُقْنَا الاسْتعدادَ لِلنُّقْلَة واغفر لَنَا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْلٌ)

وَمِمَّا يُسَلِيْ وَيُسَهِّلُ المَصَائِبَ أَنْ يَعْلَمَ العَبْدُ أَنَّهُ لَوْلاَ ما قَدَّرَهُ الحَكِيْمُ العَلِيْمُ على عِبَادِهِ مِن مِحَنِ الدُنْيَا وَمَصَائِبِهَا لأَصَابَ الانسانَ مِن

أَدْوَاءِ الكِبَرِ والعُجْبِ والفَرْعَنَةِ وَقَسْوَةِ القَلْبِ مَا هُوَ سَبَبُ هَلاَكِهِ عَاجِلاً وآجِلاَ ، فَمِنْ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الراحِمين أنْ يَتَفَقَّدَهُ في الأَحْيَانِ بِأَنْوَاعٍ مِن أَدْوِيَةِ المَصَائِبِ تكونُ حُمْيَةً لَهُ مِن هَذِهِ الأَدْوَاءِ ، وتكونُ حِفْظاً لِصِحَّةِ عُبُوْدِيَتِهِ ، فَسُبْحَانَ مَن يَرْحَمُ بِبلاَئِهِ وَيَبْتَلِي بِنَعْمَائِهِ كما قيل :

(قَــدْ يُنْعِمُ اللهُ بــالبَلْوَى وإنْ عَــظُمَتْ
وَيَــبْتَــلِي اللهُ بَــعْضَ القَــومِ بــالنِّعَــمِ)

آخــر :

اذا اشْتَــدَّتِ البَلْوَى تُخَــفَّفُ بــالــرِّضَــا
عن اللهِ قَــدْ فَــازَ الــرَّضِيُّ المُــرَاقِــبُ
وَكَــمْ نِــعْــمَــةٍ مَــقْــرُوْنَــةٍ بِــبَــلِيَّــةٍ
على النــاسِ تَخْفَى والبَــلاَيَــا مَــوَاهِبُ

فَلَوْلاَ أَنَّه سُبْحَانَه يُدَاوِي عِبادَهُ بِأَدْوِيَةِ المِحَنِ والابْتِلاَءِ لَطَغَوْا وَبغَوْا وَعَتَوْا وَتَجَبَّرُوا في الأرضِ . قال الله تعالى﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوا في الأَرضِ﴾ فإِنَّ مِن شِيَمِ النُفُوسِ إذا حَصَلَ لَهَا صِحَّةٌ وَفَرَاغٌ وأَمْرٌ وَنَهْيٌ وَكَلِمَةٌ نافذَةٌ مِنْ غَيْرِ زَاجِرٍ شَرْعِيٍ يَزْجُرُهَا تَمَرَّدَتْ وَظَلَمَتْ وَسَعَتْ في الأَرْضِ فَسَاداً كَمَا قِيْلَ :

(والــظُلْمُ مِن شِيَمِ النُفُــوسِ فَــإنْ تَجِــدْ
ذَا عِــفَّــةٍ فَــلِعِــلَّةٍ لا يَــظْلِمُ)

وَمِمَّا يُسَلِّيْ وَيُسَهِّلُ المَصَائِبَ وَيَكُونُ سَبَباً لِلصَّبْرِ على المُصِيْبَةِ أَنْ يَعْلَم الانسانُ أنَّ الجزَعَ لا يَرُدُ المُصِيْبَةَ ، بَلْ يُضَاعِفُها ، فَتَزِيْدُ المُصِيْبَةُ

وأَن الجزَع يُشْمتُ العَدُوَ وَيسِؤُ الصَّدِيْقَ ، وَيُنْهِكُ الجِسْمَ ، وَيَسُرُّ شَيْطَانَهُ وَيُضْعِفُ النَّفْسَ ، وَقَدْ يُحْبِطُ العَمَلَ ، وإِذا صَبرَ واحْتَسَبَ أخْزَى الشيطانَ وَأَرْضَى الرَّبَّ ، وَسَرَّ الصديقَ ، وَسَاءَ العَدُّوَ ، وَهَذا مِن الثَّبَاتِ في الأَمْرِ الدِيْنِي .

وَممَّا يُسَلِي وَيُسَهِّلُ المَصَائِبَ أَنْ يُوطِنَ الانسانُ نَفْسَهُ أَنَّ كُلَّ مُصِيْبَةٍ تَأْتِيْهِ هِيَ مِن عِندِ اللهِ وَأَنَّها بقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَأَنَّهُ سُبْحَانَه لَم يُقَدِّرْهَا عليهِ لِيُهْلكَهُ بِهَا ولا لِيُعَذِّبَهُ وإِنَّما ابْتَلاَهُ لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ ورِضَاهُ وَشَكْوَاهُ إِلَيْهِ وابْتهَالَهُ وَدُعَاءَهُ .

فان وُفِّقَ لِلرَّضَاءِ والشُكْرِ فَقَدْ أَفْلَحَ ، وانْ تَسَخَّطَ وَلَمْ يَرْضَ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ، قالَ أَبُو الفَرَجِ بنُ الجَوْزِي عِلاجُ المَصَائِبِ بِسَبْعَةِ أَشْيَاءَ الأَوْلُ أَنْ يَعْلَمَ بِأَنَّ الدُنْيَا دَارُ ابْتِلاَءٍ وَكَرْبٍ لَا يُرْجَى مِنْهُ رَاحَةٌ .

في الدُنْيَا مَهْمَا طَالَ العُمُرُ وَمَهْمَا اجْتَمَعَ لِلإِنْسَانِ فِيْهَا مِن أَسْبَابِ الغِنَى والثَّرْوَةِ وَسَواءٌ في ذلكَ الصَّعَالِيْكِ والمَمَالِيْكِ والْمُلُوكِ فَلَقَدْ أَوْدَعَ اللهُ في كُلِ نَفسٍ ما شَغَلَهَا .

وَلَوْ أَنّ الانْسَانَ عَرَفَ قَدْرَ الدُنْيَا وَمَا طُبِعَتْ عَلَيهِ مِن الكَدَرِ والأَنكادِ والمَصَائِبِ والأَحْزَانِ وَعَرَفَ أَنَّ مَا فِيْهَا مَحْضُ خِدَاعٍ وَسَرَابٌ ، بِقِيْعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّى إذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيئاً واسْتَعَانَ بِمَا وَهَبَه اللهُ مِن نُوْرِ الدِيْنِ وَقَصَّرَ أَمَلَهُ لَمَا آثَّرتْ فِيْهِ المَصَائِبُ بإِذْنِ اللهِ لأَنَّ قُوَّةَ الإِيمانِ باللهِ وَقَضَائِهِ وَقَدرِهِ يُثْمِرَانِ الهُدَى والطُمَأْنِيْنَةَ والرِّضَى بِمَا قَسَمَ وَقَدَرَ .

الثانِي أن يَعْلَمَ أَنَّ المُصِيْبَةَ ثَابِتَةٌ .

الثالثُ أَنْ يُقَدِرْ وُجُودَ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِن تِلْكَ المُصِيْبَةِ .

الرابعُ النَّظَرُ في حَالِ من ابْتُلِي بِمِثْلِ هَذَا البَلَاءِ فانَّ التَّأَسِي رَاحَةٌ عَظِيْمَةٌ .

قَالتِ الخَنْسَاءُ :

وَلَـوْلَا كَـثْرَةُ الـبَـاكِـيْـنَ حَـوْلِـي
عَـلى إِخْـوَانِـهِـم لَقَـتَـلْتُ نَـفْسِـيْ
وَمَـا يَـبْكُـونَ مِـثْـلَ أَخِـيْ وَلَـكِـنْ
أُعَـزِيْ الـنَّـفْسَ عَـنْـهُ بـالـتَّـأسِـيْ

آخَـرُ :

حَـاسِبْ زَمَـانَـكَ فِي حَـالِيْ تَصَـرُّفِـهِ
تَجِـدْهُ أَعْـطَاكَ أَضْعَـافَ الـذِي سَلَبَـا
نَـفْسِـيْ التِـي تَـمْلِكُ الأَشْيَـاءَ ذَاهِبَـةٌ
فَـكَيْـفَ أَبْـكِـيْ عَـلَى شَـيءٍ إِذَا ذَهَـبَـا

آخَـرُ :

لا تَعْتِبِ الـدَّهْـرَ في خَـطْبٍ رَمَـاكَ بِـهِ
إِذا اسْـتَـرَدَّ فَـقِـدْمـاً طَـالَـمَـا وَهَـبَـا
وَرَأْسُ مَـالِـكَ وَهِيَ الـرُّوْحُ إِنْ سَلِمَتْ
لَا تَـأْسَفَـنَّ لِـشَـيءٍ بَـعْـدَهَـا ذَهَـبَـا

آخــرُ :

وَلَوْلاَ الأَسَى مَا عِشْتُ في الناسِ سَاعَةً
وَلَـكِنْ مَتَى نَـادَيْـتُ جَـاوَبَـنِـي مِـثْـلِيْ

الخَامِسُ مِمَّا يُهَوِّنُ المَصَائِبَ وَيُخَفِّفُهَا وَيَبْعَثُ الإِنسانَ على حمدِ اللهِ وشكرِهِ وَيَنْفِيْ هُمُوْمَ الدنيا وَغُمُوْمَهَا النَظَرُ والتَّفَكُرُ والاعْتِبَارُ فِيْمَنْ هُمْ أَعْظَمُ مُصِيْبَةً مِنْكَ وانْظُرْ حالَتَكَ بَعْدَ زِيَارَتِكَ لِلْمَقبَرَةِ ، وَنَظَرِكَ فِيْمَنْ قُبِرَ وَمَنْ سَيُقْبَرُ وَحَالَتَكَ بَعْدَ مَا تَمُرُ بالسِّجْنِ وَتَرى المُعَذَّبِيْنَ فيه بأَنْوَاعِ العَذَابِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُم وَاصِفاً لِلسِّجنِ بِبَغْدَاد :

مَحَـلٌ بِـهِ تَهْـفُـوْ القُـلُوبُ مِن الأَسَـى
فَـإِنْ زُرْتَـهُ فَـارْبُطْ عَلى القَلْبِ بـاليَـدِ

وانْظُر حَالَتَكَ إِذَا دَخلْتَ المُسْتَشْفَيَاتَ وَرَأَيْتَ البَاكِيْنَ والذي يَئِنْ والذِيْ تَحْتَ العَمَلِيَّةِ لِقَطْعِ عُضْوٍ أَوْ نَحوِهِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ البَلاَيَا تَجِدُكَ إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ وَفَّقَهُ اللهُ مُكثِراً لِحَمْدِ اللهِ وشكرِهِ حَيْثُ عَافَاكَ مِمَّا تَرى وَتَسْمَعُ .

وَكَمْ مِن انْسَانٍ أَتَى لِعِلاَجٍ بَسِيْطٍ فَلَمَّا رَأَى مَا في الاسْعَافِ ، وَمَنْ تَحْتَ العَمَلِيَّاتِ وَمَن يَئِنُ وَمَنْ يَجَرُّ لِيُغَسَّلَ وَمَنْ قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ يُعْمَلُ لِكُسُوْرِهِ الجُبْصُ ، خَرَجَ يَحْمَدُ اللهَ وَرَأَى أَنَّهُ مَا فِيْهِ شَيْءٌ يُوْجِبُ العِلاَجَ .

السادِسُ رَجَاءَ الخَلَفِ إِنْ كَانَ مَن مَضَى يَصِحُّ عَنْهُ الخَلَفُ كالوَلَدِ

والزَّوْجَةِ قِيْلَ لِلْقُمَانَ مَاتَتَ زَوْجَتُكَ قَالَ تَجدَّدَ فِرَاشِيْ وقال الشاعر :

هَـلْ وَصْـلُ عَـزَّةَ إلا وَصْـلُ غَـانِيَـةٍ
في وَصْـلِ غَـانِيَـةٍ مِن وَصْلِهَـا خَلَفُ

السَّابِعُ طَلْبُ الأَجْرِ بالصَّبْرِ في فَضَائِلِهِ وَثَوَابِ الصَّابِرِيْنَ وَسُرُوْرُهُم في صَبْرِهِم فَإِن تَرَقَّى إِلى مَقَامِ الرِّضَا فَهُو الغَايَةُ انتهى كلامه بتصرف.

وَمِمَّا يُسَلِّيْ وَيُسَهِّلُ المَصَائِبَ وَيَجْلِبُ الصَّبْرَ بِإِذْنِ اللهِ أَنْ يَعْلَم أَنَّ تَشْدِيْدَ البَلاَءِ يَخُصُّ الأخيارَ ، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، أَيُّ الناسِ أَشَدُّ بَلاَءً قَالَ الأنْبِيَاءُ ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ يُبْتَلى الناسُ على قدرِ دِيْنِهم فَمَنْ ثَخُنَ دِيْنُهُ اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ .

ومَن ضَعُفَ دِيْنُهُ ضَعَفُ بَلاَؤُهُ ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيْبُهُ البَلاَءُ حَتَّى يَمْشِيْ عَلى الأَرْضِ مَا عَلَيهِ خَطِيْئَةٌ ، رواه ابنُ حِبَّانَ ، ومنها أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مَمْلُوكٌ لِلهِ وَلَيْسَ لِلْملوْكِ في نَفْسِهِ شَيْءٌ ، ومنها أَنْ يَعْلَم أَنَّ هَذَا الوَاقِعَ وَقَعَ بِرِضَى السَّيِدِ ، فَيَرْضَى بِمَا رَضِيَ بِهِ سَيِّدُهُ وَمَوْلاَهُ وَهُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ رَضِيْنَا بِهِ رَباً وبالاسلامِ دِيْناً وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً .

قال بعضُهم :

اصْـبِـرْ لِـكُـلِّ مُـصِـيْـبَـةٍ وَتَـجـلَّدِ
واعْـلَـمْ بِـأَنَّ الـمَـرْءَ غَـيْـرَ مُـخَـلَّدِ
فَـإِذَا ذَكَـرْتَ مُـصِـيْـبَـةً تَـسْـلُو بِـهَـا
فَـاذْكُـرْ مُـصَـابَـكَ بـالـنـبيِ مُـحَـمَّـدِ

وَمِن فَوائِدِ المَصَائِبِ والصّبرِ على مَا أَجْرَاهُ اللهُ على الإنسانِ مِمَّا يَكْرَهُهُ مَا يَعْتَاضُهُ مِن الارْتِيَاضِ بِنوائِبِ عَصْرِهِ وَيَسْتَفِيْدُهُ مِن اسْتِحْكَامِ الرَّأْيِ والعَقْلِ بالتَّجَارُبِ بِبَلاَءِ دَهْرِهِ فَيقْوَى عَقْلُه وَيَحْصُفُ رَأْيُهُ بإِذْنِ اللهِ وَيَكْمُلُ بأَدْنَى شِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ وَيَتَّعِظُ بحَالَتَيْ عَفْوِهِ وَبَلاَئِهِ .

وَأَقَلُّ مَا يُؤْتَاهُ المُؤْمِنُ في المَصَائِبِ الصَّبْرُ الذي يُخَفِّفُ وَقْعَهَا عَلَى النَّفْسِ وَأَكْثَرُهُ رَحْمَةُ اللهِ التي بِهَا تَتَحَوَّلُ النِقْمَةُ إلى نِعْمَةٍ بما يَستفِيْدُ مِنه الاختبارَ والتَّمْحِيْصَ وكَمَالَ العِبْرَةِ والتَّهذِيْبِ .

وَقَدْ يَبْتَلِي اللهُ المُؤْمِنَ وَيَمْتَحِنَ صَبْرَهُ فَتُعْطِيْهِ قُوَّةُ إِيْمَانِهِ مِن الرَّجَاءِ بِهِ مَا تُخَالِطُ حَلاَوَتُهُ مَرَارَةَ المُصِيْبَةِ حَتَّى تَغْلِبَهَا وَقَدْ يَأْنَسُ بالمُصِيْبَةِ لِعِظَمِ رَجَائِهِ وَصَبْرِهِ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ نَادِراً فَهُوَ وَاقِعٌ حَاصِلٌ .

وَمِنْهَا أَنْ يَخْتَبِرَ أُمُورَ زَمَانِهِ وَيَتَنَبَّهَ عَلَى إِصْلاحِ شَأْنِهِ فَلاَ يَغْتَرَّ بِرَخَاءٍ ولا يَطْمَعَ في اسْتِوَاءٍ ولا يُؤَمِّلَ بَقَاءَ الدُّنْيَا على حالةٍ ، فإِنَّ مَن عَرَفَ الدُّنْيَا وَخَبَرَ أَحْوَالَهَا هَانَ عَلَيْهِ بُؤْسُهَا وَنَعِيْمُهَا ، ولو لاَ مَا قَدَّرَهُ اللهُ مِن الحَوادِثِ والنَّوائِبِ لم يُعْرَفْ صَبْرُ الكِرامِ ولا جَزَعُ لِلِّئَامِ .

فإِذَا ظَفِرَ المُصَابُ بِأَحَدِ هَذِهِ الأَسْبَابِ تَخَفَّفَتْ بإِذنِ اللهِ عنه أَحْزَانُه ، وَتَسَهَّلَتْ عليهِ أَشْجَانُه فَصَارَ سَرِيْعَ النِسْيَانِ لِلْمَصَائِبِ ، قَلِيْلَ الجَزَعِ حَسَنَ الصَّبْرِ والتَّجَمُلِ عندَ المَصَائِبِ .

شعراً :

سَلامٌ عَلَى دَارِ الغُرُوْرِ فَإِنَّهَا
مُنَغَصَّةٌ لَذَّاتُهَا بالفَجَائِعِ

فـانْ جَـمَعَـتْ بَيْـنَ المُـحِبِيْـنَ سَـاعـةً
فَـعَـمَّـا قَـلِيْـلٍ أَرْدَفَـتْ بـالـمَـوَانِـعِ

ويقولُ الآخرُ :

وَكُـلِّ أَبِ وابْـنٍ وَإِنْ مُـتِّـعَـا مَـعَـاً
مُـقِيْـمِيْـن مَـفْـقُـوْدٌ لِـوَقْـتٍ وَفَـاقِـدُ

وَيَقُول الآخرُ :

فَـلا تَجْـزَ عَنْ لِلْبَيْـنِ كُـلُّ جَمَـاعَـةٍ
وَرَبِّـكَ مَـكْـتُـوْبٌ عَـلَـيْـهَـا الـتَّـفَـرُّقُ
وَخُـذْ بـالتَّعَـزِّيْ كُـلَّ مَـا أَنْتَ لاَبِسُ
جَـدِيْـداً عَلَى الأَيَّـامِ يَـبْـلَى وَيَـخْـلَقُ
فَـصَبْـرُ الـفَتَـى عَـمَّـا تَـوَلَّـى فَـفَـاتَـهُ
مِـنْ الأَمْـرِ أَوْلَـى بـالـسَّـدَادِ وَأَوْفَـقُ
وَإِنَّـكَ بـالاشْفَـاقِ لا تَـدْفَـعُ الـرَّدَى
وَلاَ الخَيْـرُ مَـجْلُوبٌ فَـمَـا لَـكَ تُشْـفِقُ
كَـأَنْ لَمْ يَـرُعْـكَ الـدَّهْـرُ أَوْ أَنْتَ آمِنٌ
لأَحْـدَاثِـهِ فِـيْـمَـا يُـغَـادِيْ وَيَـطْرُقُ

إِخْوَانِيْ أَيْنَ الأُمَمُ الماضِيَةِ أَيْنَ القُرُوْنُ الخَالِيَةِ أَيْن مَنْ نُصِبَتْ على مَفَارِقِهِم التِّيْجَانُ ، أَيْنَ الذينَ قَهَرُوا الأَبْطَالَ وَالشُّجْعَانِ أَيْنَ الذين دَانَتْ لهم المَشَارِقُ والمَغَارِبُ ، أَيْنَ الـذين تَمَتَّعُوا بـاللذَاتِ مِن المَطَاعِمِ وَالمَشَارِبِ ، أَيْنَ الذِيْنَ اغْتَرُّوا بالأَجْنَادِ والسُّلْطَانِ .

أَيْنَ أَصْحَابُ السَّطْوَةِ والأَعْوَانِ ، أَيْنَ أَصْحَابُ الأَسِرَّةِ وَالوِلاَيَاتِ أَيْنَ

الذين خَفقَتْ عَلى رُؤُوسِهم الألْوِيَةُ وَالرَّايَاتِ ، أَيْنَ الذين قَادُوا العَسَاكِرَ أين الذي عَمَرُوا القُصُوْرِ الشَّامِخَاتِ والفُللَ الفَسِيْحَاتِ أَيْنَ الذينَ غَرَسُوْا النخِيْلَ والأشجَارَ المثمِرَات .

أَيْنَ الذين مَلَؤُا مَا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ فَخْرَاً وَعِزًّا ، أَيْنَ الذين فَرَشُوْا القُصُوْرَ خَزًّا وَقَزّاً ، أَفْنَاهُم واللهِ مُفْنِي الأُمَمِ ، وَأَبَادَهُم مُبِيْدُ الرِّمَم ، وَأَخْرَجَهُم مِن سَعَةِ المَسَاكِن ، والقُصُورِ ، وَأَسْكَنَهُم في ضِيْقِ اللُّحُودِ والقُبُورِ تَحْتَ الجَنَادِلِ وَالصُّخُوْرِ .

قَدْ خَلَتْ مِن كَثْرَتِهم أَمَا كِنُهم ولم يَنْفَعْهُم مَا جَمَعُوا مِن الحُطَام ، وَلَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَسَبُوا مِن حَلالٍ أَوْ حَرَامٍ أَسْلَمَهُمْ الأَحِبَّةُ والأَوْلِيَاءُ ، وَهَجَرَهُمْ الإِخْوَانُ وَالأَصْفِيَاءُ وَنَسِيَهُمْ الأَقْرِبَاءُ وَالبُعَدَاءُ .

شــعراً :

مَنْ ذَا الـذِيْ قَـدْ نَــالَ رَاحَـةَ فِكْــرِهِ
فـي عُسْــرِهِ مـن عُـمْــرِهِ أَوْ يُـسْــرِهِ
يَلْقَى الغَنِيُّ لِحفْـظِهِ مَـا قَــدْ حَــوَى
أَضْعَــافَ مَــا يَلْقَى الفَـقِيْــرُ لِفَقْــرِهِ
فَــيَــظَلُّ هَــذَا سَــاخِــطاً فــي قِــلِّهِ
وَيَــظَلُّ هَــذَا تَــاعِــبــاً فــي كُــثْــرِهِ
عَــمَّ البَــلاءُ لِكُــلِّ شَــمْــلٍ فُــرْقَــةٌ
يُــرْمَــى بِهَــا فــي يَــوْمِــهِ أَوْ شَهْــرِهِ
وَالجِنُّ مِثْــلُ الانْسِ يَجْــرِيْ فِيْهِمُــوْا
حُـكْـمُ الـقَـضَــاءِ بِــحُلْوِهِ وَبِــمُــرِّهِ

فَـإِذَا المَـرِيْـدُ أَتَى لِيَخْـطِفَ خَـطْفَةً
جَـاءَ الشِّهَـابُ بِحَـرْقِـهِ وَبِـزَجْـرِهِ
وَنَـبِـيُّ صِـدْقٍ لَا يَـزَالُ مُـكَـذَّبـاً
يُـرْمَى بِبَـاطِـلِ قَـوْلِـهِمْ وَبِـسِحْـرِهِ
وَمُـحَقِّـقٌ فِي دِيْـنِـهِ لَـمْ يَـخْـلُ مِـنْ
ضِـدٍّ يُـوَاجِـهُـهُ بِـتُـهْـمَـةِ كُـفْـرِهِ
والـعَـالِـمُ الـمُفْـتِـي يَـظَلُّ مُـنَـازِعَـاً
بِـالمُشْكِـلَاتِ لَـدَى مَجَالِسِ ذِكْـرِهِ
وَالْـوَيْـلُ إِنْ زَلَّ اللسَـانُ فَـلَا يَـرَى
أَحَـداً يُسَـاعِـدُ فِي إِقَـامَـةِ عُـذْرِهِ
وَأَخُـو الـدِّيَـانَـةِ دَهْـرُهُ مُـتَـنَـغِّصٌ
يَبْغِي التَّـخَلُّصَ مِـنْ مَخَـاوِفِ قَـبْـرِهِ
أَوَ مَـا تَـرَى المَلِكَ العَـزِيْـزَ بِجُنْـدِهِ
رَهْنَ الهُمُـومِ عَلَى جَـلَالَـةِ قَـدْرِهِ
فَـيَـسُـرُّهُ خَـبَـرٌ وَفِـي أَعْـقَـابِـهِ
هَـمٌّ تَـضِـيْـقُ بِـهِ جَـوَانِـبُ قَـصْـرِهِ
وَأَخُـو التِّـجَـارَةِ حَـائِـرٌ مُـتَـفِـكِّـرٌ
مِـمَّـا يُـلَاقِي مِـنْ خَسَـارَةِ سِعْـرِهِ
وَأَبُو العِيَالِ أَبُـو الهُمُومِ وَحَسْـرَةُ الرَّ
جُـلِ العَقِـيْمِ كَـمِيْـنَـةٌ فِي صَـدْرِهِ
وَتَـرَى الـقَـرِيْن مُـضْمِـراً لِـقَـرِيْـنِـهِ
حَـسَـداً وَحِقْـدَاً فِـي غِـنَـاهُ وَفَـقْـرِهِ

وَلَـرُبَّ طَـالِبُ راحَـةٍ فـي نَـوْمِـهِ
جَـاءَتْـهُ أحْـلامٌ فَـهَـامَ بـأَمْـرِهِ
وَالـطِّفْـلُ مِنْ بَـطْنْ أُمِّـه يَخْـرُجْ إلى
غُصَصِ الفِطَامِ تَـرُوعُـهُ في صِغْـرِهِ
وَلَقَـدْ حَسَـدْتُ الـطَّيْـرَ في أَوْكَـارِهَـا
فَـوَجَـدْتُ مِنْهَـا مَـا يُصَـادُ بِـوَكْـرِهِ
وَالـوَحْشُ يَـأْتِيْـهِ الـرَّدَى في بَـرِّهِ
وَالحُـوْتُ يَـأْتِيْ حَـتْفُـهُ في بَحْـرِهِ
وَلَـرُبَّـمَـا تَـأْتِيْ السِّبَـاعُ لِـميِّتٍ
فَـاسْتَخْـرَجَتْـهُ مِـنْ قَـرَارَةِ قَـبْـرِهِ
كَيْفَ الْتِـذَاذُ أَخِيْ الـحَيَـاةِ بِـعَيْشِـهِ
مَـا زَالَ وَهُـوَ مُـرَوَّعٌ فـي أَمْـرِهِ
تَـاللّهِ لَـوْ عَـاشَ الفَتَى فـي أَهْـلِهِ
أَلْـفـاً مِـن الأَعْـوَامِ مَـالِـكَ أَمْـرِهِ
مُـتَـلَذِّذاً مَـعَـهُـم بِـكُـلِّ لَـذِيْـذَةٍ
مُتَنَـعـمِّـاً بـالـعَيْشِ مُـدَّةَ عُـمْـرِهِ
لاَ يَـعْتَـرِيْـهِ الـنَّقْصُ في أَحْـوَالِـهِ
كَـلَّا وَلا تَجْـرِي الهُـمُـومُ بِفِـكْـرِهِ
مَـا كَـانَ ذَلِـكَ كُلُّهُ مِـمَّـا يَـفِيْ
بِـنُـزُوْلِ أَوَّلِ لَـيْـلَةٍ فـيْ قَـبْـرِهِ
كَيْفَ التَّخَلُّصُ يَـا أَخِيْ مِمَّـا تَـرى
صَبْـراً عـلى حُـلْوِ الـقَضَـاءِ وَمُـرِّهِ

ثُـم الـصَّـلاَةُ عَــلى الـنَّـبي وَآلِــهِ
مَــعْ صَحْبِــهِ والتَّــابِعِيْـنَ لِأَمْــرِهِ

اللَّهُمَّ امْنُنْ عَلَيْنَا باصْلاَحِ عُيُوبِنَا وَسَتْرِ زَلاَّتِنَا وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ المُهْتَدِيْنَ واغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)
في الخَــوْفِ

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وايَّاكَ لما يُحِبُّهِ وَيَرْضَاه أَنَّ الخَوْفَ عِبَارَةٌ عن تَأَلُّم القَلْبِ واحْتِرَاقِهِ بِسَبَبِ تَوَقّعِ مَكْرُوهٍ في المُسْتَقْبَل وَقِيْلَ الخَوْفُ قُوَّةُ العِلْم بِمَجَارِيْ الاحْكَامِ وَقِيْلَ هَرَبُ القَلْبِ من حُلُولِ المَكْرُوهِ عنْدَ اسْتِشْعَارِهِ .

فَالخَوفُ لِعَامَّةِ المؤمنينَ وَالخَشْيَة لِلعُلَمَاءِ العَارِفِيْنَ والهَيْبَةُ لِلمُحِبِّينَ والاجْلالُ لِلْمُقَرَّبِيْنَ ، وَعلى قَدْرِ العِلْمِ باللهِ وَمَعْرِفَةِ العَبْدِ بِنَفْسِه يَكُونُ الخَوْفُ والخَشْيَةُ كَمَا قالَ النَّبيّ صَلى اللهُ عليه وَسَلم إِنّي لاعْلَمُكم باللهِ وَأشَدُّكُم له خَشْيَةً وفي رِوَايَةٍ خَوفاً .

وَإِذَا كَمُلَتْ المَعْرِفَةُ أَثَّرتْ الخَوْفَ فَفَاضَ أَثَرُهُ عَلَى القَلْبِ ، ثُمَّ ظَهَرَ على الجَوَارِحِ ، والصِّفَاتِ بالنُّحُولِ وَالاصْفِرَارِ وَالبُكاءِ وَالغُشِيْ ، وَقَدْ يُفْضِيْ إلى الموتِ .

وَأَمَّا ظُهُورُ أَثَرِه على الجَوَارِح فَبكَفِّها عن المعَاصِي ، والْزَامِهَا الطَّاعَاتِ تَلافِياً ، واسْتِدْرَاكاً لِمَا فَرطَ ، واسْتِعْدَاداً لِلمُسْتَقْبَلِ .

وَمِنْ ثَمراتِ الخَوْفِ أَنَّه يَقْمَعُ الشَّهواتِ ، وَيُكَدِّرُ اللَّذَّاتِ ، فَتَصِيْرُ المَعَاصِيْ المَحْبُوبَةِ عِنْدَهُ مَكْرُوهَةً ، كَمَا يَصِيْرُ العَسَلُ وَاللبَنُ مَكْرُوهاً إِذَا عَلِمَ أَنَّ فِيْهِ سُمّاً ، فَتَحْتَرِقُ الشَّهَوَاتُ بالخَوْفِ ، وتَتَأَدَّبُ الجَوارِحُ، وَيَذِلُّ القَلْبُ ، وَيَسْتَكِيْنُ وَيُفَارِقُهُ الكِبْرُ وَالحَسَدُ وَالحِقْدُ ، وَيَصِيْرُ مُسْتَوْعِباً الهَمَّ لِخَوْفِهِ وَالنَّظَرِ في خَطرِ عَاقِبَتِهِ .

فَلاَ يَتفَرَّغُ لِغَيْرِهِ ، وَلاَ يَكُوْنُ له شُغْلٌ إلا المُرَاقَبَةَ ، وَالمُحَاسَبَةَ وَالمُجَاهَدَةَ ، وَالبُخلَ في الأنْفَاسِ ، وَاللّحظاتِ ، أَنْ يَصْرِفَهَا فِيْمَا لا فَائِدَةَ فِيْهِ ، وَمُؤَآخَذَةَ النّفْسِ في الخَطَرَاتِ ، وَالخَطَوَاتِ ، والكَلِمَاتِ ، وَقُوَّةُ الخَوْفِ بِحَسَبِ قوّةِ المَعْرِفَةِ بِجَلاَلِ اللّهِ تَعَالَى ، وَصِفَاتِهِ وَبِعُيُوبِ النَّفْسِ وَمَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ الاخْطَارِ وَالأهْوَالِ .

وَمُقَدِّمَاتُ الخَوْفِ ، أَرْبَعٌ ، الأوْلَى ذِكْرُ الذُّنُوبِ الكَثِيْرَةِ العَظِيْمَةِ التي سَلَفَتْ فِيْمَا مَضَى وَكَثْرَةِ ذكرِ الخُصُوم الذين مَضوا وَأَنْتَ مُرْتَهِنٌ لم يَتبَيَّنْ لكَ الخَلاصُ حَتَّى الآن ، والثَّانِيَة ذِكْرُ شِدَّةِ العُقوبَةِ ، وَالثَّالِثَةِ ذِكْرُ قُدْرَةِ اللهِ عَلَيْكَ مَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ ، وَالرَّابِعَةُ ذِكْرُ ضَعْفِكَ عَنْ احْتِمَالِ العُقُوْبَةِ .

شِـعْراً :

وَمَـا مَنْ يَخَـافُ المَـوْتَ وَالنـارَ آمِـنٌ
وَلكِنْ حَـزِيْـنٌ مُـوجَـعُ القَـلْبِ خَـائِفُ
إِذَا عَـنَّ ذِكْـرُ الـمـوتِ أَوْجَـعَ قـلبَـهُ
وَهَـيَّـجَ أَحْـزَانـاً ذُنُـوْبٌ سَـوالِـفُ

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الخَوْفَ يَحُثّ على العِلْمِ ، والعَمَل ، قَالَ أَبُو حَفْصٍ الخَوْفُ سَوْطُ اللهِ ، يُقَوِّمُ به الشَّارِدِيْنَ عَنْ بَابِهِ ، وَقَال الخَوْفُ سِرَاجٌ في القَلْبِ ، به يُبْصِرُ مَا فِيْهِ من الخَيْرِ والشَّرِ ، وَكُلُّ أَحَدٍ إِذا خِفتَهُ هَرَبْتَ مِنْهُ إلا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّكَ إِذا خِفْتَهُ هَرَبْتَ إِلَيْهِ فالخَائِفُ هَارِبٌ مِنْ رَبِّهِ إِلى رَبِّهِ .

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ : مَا فَارَقَ الخَوْفُ قَلْباً إلا خَرِبَ وَقَالَ ابْرَاهِيْمُ بْنُ سُفْيَانَ إِذَا سَكَنَ الخَوْفُ القُلُوبَ أَحْرَقَ مَواضِعَ الشَّهَواتِ مِنْهَا وَطَرَدَ الدُّنْيَا عَنْهَا قال في مُخْتَصَر مِنْهَاج القَاصِدِيْنَ وَالخَوْفُ لَهُ إِفْرَاطٌ وَلَهُ اعْتِدَالٌ ، وَلَهُ قصُورٌ والمَحْمُودُ مِن ذَلِكَ الاعْتِدَالِ .

وَهُوَ بمَنْزِلَةِ السَّوْطِ لِلْبَهِيمة ، فَإِنَّ الأصْلَحَ للبَهِيْمَةِ أَنْ لا تَخْلُو عن سَوْطٍ ، وَلَيْسَ المبَالغَةُ في الضَّرْبِ مَحْمُودَةٌ ، ولا المتَقَاصِرُ عن الخوفِ أَيْضاً مَحْمُودا ، وَهُوَ كالذي يَخْطُرُ بالبَالِ عِنْدَ سَمَاع آيَةٍ ، أو سَبَبٍ هَائِل فيُورِثِ البُكَاءَ ، فإذا غَابَ ذلك السَّبَبُ عن الحِسِّ رَجَعَ القلبُ إلى الغَفلةِ ، فهو خَوْفٌ قَاصِرٌ قَليلُ الجَدْوَى ضَعيفُ النَّفْعِ ، وهو كالقَضِيْبِ الضَّعِيْفِ ، الذي يُضْرَبُ به دَابَّةٌ قَويّةٌ فلا يُؤلِمُهَا أَلَماً مُبَرِّحاً ، فلا يَسُوقُهَا إلى المقصَدِ ولا يَصْلُحُ لِرِيَاضَتِهَا .

وَهَذا هُوَ الغَالِبُ على الناسِ كُلِّهم إلَّا العَارِفِيْنَ والعُلَمَاءِ أَعْنِي العُلَمَاءَ باللهِ وَبآيَاتِه وقد عَزَّ وُجُوْدُهُم ، وَأَمَّا المُرتَسِمُوْنَ برُسومِ العِلْمِ فَإِنَّهم أَبْعَدُ النَّاسِ عن الخَوْفِ .

وَأَمَّا القِسْمُ الأَوَّلُ وهو الخَوْفُ المُفْرِطُ فهو كَالذِيْ يَقوَى وَيُجَاوِزُ

حَدَّ الاعْتِدَالِ ، حَتَّى يَخْرُجَ إِلى اليأسِ والقُنُوطِ ، فَهُوَ أَيْضاً مَذْمُومٌ لأَنَّهُ يَمْنَعُ مِن العَمَلِ ، وقد يَخْرُجُ إلى المرَضِ والوَلَهِ وَالمَوْتِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَحْمُوداً .

وَكُلّ مَا يُرَادُ لأَمْرٍ فالمَحْمُودُ مِنْهُ ما يُفْضِي إلى المُرادِ الْمقْصُودِ مِنْهُ ، وَمَا يَقْصُرُ عنه أو يُجَاوِزُهُ فهُوَ مذمُوم وَفَائِدَةُ الخَوْفِ الحَذَرُ والوَرَعُ والتَّقْوَى وَالمجَاهَدَة وَالفِكْرِ وَالذِّكْرِ وَالتَّعبُّدِ وَسَائِرِ الأَسْبَابِ التي تُوصِلُ إلى اللهِ تَعَالَى وَكُلُّ ذلك يَسْتَدْعِي الحَيَاة مَع صِحَّةِ البَدَنِ وَسَلَامَةِ العَقْلِ فَإِذَا قَدَحَ في ذَلِكَ شَيءٌ كَانَ مَذْمُوماً أ هـ .

وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ : وَالقَدْرُ الوَاجِبُ مِنْ الخَوْفِ مَا حَمَلَ عَلى أَدَاءِ الفَرَائِضِ واجْتِنَابِ المَحَارِمِ فَإِن زَادَ على ذَلِكَ بِحَيْثُ صَارَ بَاعِثاً لِلنّفُوسِ على التَّشْمِيْرِ في نَوَافِلِ الطَّاعَاتِ ، والانْكِفَافِ عَنْ دَقَائِقِ المَكْرُوهَاتِ ، وَالتَّبَسُّطِ في فُضُوْلِ المُبَاحَاتِ ، كَانَ ذَلِكَ فَضْلاً مَحْمُوداً .

فَإِنْ تَزَايَدَ عَلى ذَلِكَ بِأَنْ أَوْرَثَ مَرَضاً أَوْ مَوْتاً أَوْ هَمّاً لَازِماً بِحَيْثُ يَقْطَعُ عن السَّعي في اكْتِسَابِ الفَضَائِلِ المَطْلُوبَةِ المَحْبُوبَةِ لِلّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَحْمُوداً .

وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يَخافُوْنَ على عَطَاءِ السُّلَمِيّ من شِدَّةِ خَوْفِهِ الذِي أَنْسَاهُ القُرْآنَ وَصَارَ صَاحِبَ فِرَاشٍ ، وَهَذَا لأَنَّ خَوْفَ العِقَابِ لَيْسَ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ سَوْطٌ يُسَاقُ بِهِ المُتَوَانِيَ عَنْ الطَّاعَةِ إليها ومن هُنا كَانَتْ النَّارُ مِن جُمْلَةِ نِعَمِ اللهِ على عِبَاده الذين خَافُوْهُ واتَّقَوْه .

وَلِهَذَا المَعْنَى عَدَّهَا اللهُ سُبْحَانَهُ مِن جُمْلَةِ آلَائِهِ عَلى الثَّقَلَيْنِ في سُوْرَةِ الرَّحمَانِ ، وَقَال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَة : خَلَقَ اللهُ النَّارَ رَحْمَةً يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ لِيَنْتَهُوا أَخْرَجَهُ أبو نُعَيْم .

وَالمَقْصُودُ الأَصْلِيُّ هُوَ طَاعَةُ اللهِ عز وَجل وَفِعْلُ مَرَاضِيْهِ وَمَحْبُوبَاتِهِ وَتَرْكُ مَنَاهِيْهِ وَمَكْرُوهَاتِهِ ، وَلا نُنْكِرُ أَنَّ خَشْيَةَ اللهِ وَهَيْبَتَهُ وَعَظَمَتَهُ في الصُّدُورِ واجْلاَلَهُ مَقْصُودٌ أَيْضَا ، وَلَكِنْ القَدْرُ النَّافِعُ مِنْ ذَلِك مَا كَانَ عَوْناً عَلى التَّقَرُّبِ إلى اللّهِ ، بِفعْلِ ما يُحِبُّهُ وَتَرْكِ مَا يَكْرَهُهُ .

وَمَتى صَارَ الخَوْفُ مَانِعاً من ذَلِكَ وَقَاطِعاً عَنْهُ فقد انْعَكَسَ المَقْصُوْدُ منه ، وَلَكن إِذَا حَصَلَ ذَلِكَ عن غَلَبَةٍ كانَ صَاحِبُهُ مَعْذُوْراً ، وَقَدْ كان في السَّلَفِ مَن حَصَلَ لَهُ مِن خوفِ النَّارِ أَهْوَالٌ شَتَّى لِغَلَبَةِ حَالِ شَهَادَةِ قُلُوْبِهِمْ لِلنَّارِ ، فَمِنْهُمْ مَن كَانَ يُلاَزِمُهُ القَلَقُ وَالبُكَاءُ وَرُبَّمَا اضْطَرَبَ أَوْ غُشِيَ عَلَيْهِ إِذَا سَمِعَ ذِكْرَ النَّارِ .

شِــعْراً :

فَبَــادِرْ إلى الـخَيْـرَاتِ قَبْـلَ فَـوَاتِهَــا
وَخَــالِفْ مُــرَادَ النَّفْسِ قَبْـلَ مَـمَــاتِهَــا
سَتَبْكِيْ نُـفُــوسٌ في الـقِيَــامَــةِ حَسْـرَةً
عَـلى فَـوْتِ أَوْقَــاتٍ زَمَــانَ حَـيَــاتِـهَــا
فَــلاَ تَغْتَــرِرْ بِــالعِـزِّ وَالمَــالِ والـمُنَى
فَكَم قَــدْ بُلِيْنَــا بِــانْقِــلاَبِ صِفَــاتِـهَــا

وَمِمَّا وَرَدَ في الخَوْفِ مِنْ الآيَاتِ والأَحَادِيْثِ مَا يَلِي قَالَ اللّهُ تَعالَى

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيْدٌ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخذُ رَبِّكَ إِذَا أَخذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيْمٌ شَدِيْدٌ.إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُوْدٌ.وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُوْدٍ.يَوْمَ يَأْتِي لَا تكلَّمُ نفسٌ إلا بِاذنِهِ فمنْهُم شَقِيٌّ وَسَعِيْدٌ.فَأَمَّا الذِيْنَ شَقُوا فَفِيْ النارِ لهُم زَفِيْرٌ وَشَهِيْقٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخْسَرِيْنَ أَعْمَالاً الذِيْنَ ضَلَّ سَعْيُهم في الحَيَوْةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ انَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ وَجيءَ يَوْمَئِذٍ بِجهنم يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ وَقَالَ ﴿ فَإِذَا جَـآتْ الطَامَّةُ الكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى.وَبُرِّزَتْ الجَحِيْمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ الآيَاتِ وَقَال ﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلَيْنَا لا تُرْجَعُوْنَ ﴾ .

وَقَالَ ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى ﴾ وَقَالَ ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيْهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيْهِ وَصَاحِبَتِه وَبَنِيْهِ لِكُلِّ امْرِءٍ مِنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيْه ﴾ وَقَالَ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيْمٌ يوم تَرَوْنَها تَذْهَلُ كل مُرْضِعَةٍ عما أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيْد ﴾ .

وَقَال ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكالاً وَجَحِيْماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيْماً يَوْمَ تَـرْجُفُ الأَرْضُ وَالجِبَالُ وَكَـانَتْ الجِبَالُ كَثِيْبـاً مَهِيْلاَ ﴾ الآيَـاتِ وَقَالَ ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ اذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُم فِيْ غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَبَدَالَهُم مِنْ اللَّهِ ما لَمْ يَكُوْنُوا يَحْتَسِبُوْنَ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الذِيْنَ

يَخافُوْنَ أَنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُوْنِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيْعٌ لَعلَّهُم يَتَّقُوْنَ ﴾ .

وَقَالَ ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوْا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوْرا ﴾ وَقَالَ ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيّ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ يَعْمَلْ سُوْءً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيْراً ﴾ .

وَقَالَ جَلَّ وَعَلا ﴿ وانِّيْ لَغَفَّارٌ لِمنَ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا هَذِهِ الآيَةُ لَكَانَتْ كَافِيَةً لِلتَّخْوِيْفِ ، إِذْ شَرَطَ لِلمُبَالَغةِ فِي مَغْفِرَتِهِ أَرْبَعَةَ أُمُوْرٍ ، يَعْجَزُ العَبْدُ عَنْ الوَاحِدِ مِنْهَا ان لَمْ يُعِنْهُ اللّهُ فَأَوَّلاً التَّوْبَةُ ، والثَّانِيْ الايْمَانُ ، وَالثَّالِثُ العَمَلُ الصَّالِحُ ، وَالرَّابعُ سُلُوْكُ سَبِيْلِ المهْتَدِيْنَ .

وَقَالَ تَعالَى﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً فَعَسَى أَنْ يَكُوْنَ مِنَ المُفْلِحِيْنَ ﴾وَقَالَ﴿ وَانْ مِنْكُمْ الا وَارِدُهَا كان عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّيْ الذِيْنَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظالِمِيْنَ فِيْهَا جِثيًّا ﴾وَقَالَ ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ الآية ، وَمِنْ المُخَوِّفَاتِ قَوْلُهُ تَعالَى ﴿ والعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَرْبَعَةَ شُرُوْطٍ بِهَا يَقَعُ الخَلاَصُ مِنْ الخُسْرَانِ .

وَهَذِهِ الآيَاتُ وَنَحْوُهَا هِيَ التِيْ أَقَضَّتْ مَضَاجِعَ السَّلَفِ ، فَلَمْ يَهْنَئُوْا بنَوْمٍ وَلَمْ يَسْتَلِذوا طَعَاماً وَأَنْحلَتْ أَجْسَامَهُمْ ، وَأَضَرَّتْ بِعُيُونِهم مِن كَثْرَةِ البُكاءِ عَلى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ تَتَجَافَى جُنُوْبُهُم عَنْ المَضَاجِعِ يَدْعُوْنَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ ﴾ . وقَوْله ﴿ والذين يُؤتُوْنَ ما آتَوْا وَقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِهِمْ رَاجِعُوْن ﴾ .

شـــعراً :

إِذَا مَـــا الـــلَّيْـــلُ أَظْـــلَمَ كَـــابَـــدُوْهُ
فَـيُسْـفِـرُ عَـنْـهُـمُـوْا وَهُـمُـوْا رُكُـوْعُ
أَطَـارَ الـخَـوْفُ نَـوْمَهُمُـوْا فَـقَـامُـوْا
وَأَهْـلُ الأَمْـنِ فِي الـدُّنْـيَـا هُجُـوْعُ
لَـهُـمْ تَـحْـتَ الـظَّلَامِ وَهُـمْ سُجُـوْدٌ
أَنِـيْـنٌ مِـنْـهُ تَـنْـفَـرِجُ الـضُّلُوْعُ
وَخُـرْسٌ فِي الـنَّـهَـارِ لِـطُوْلِ صَمْتٍ
عَـلَيْـهِـمْ مِـنْ سَكِـيْـنَـتِـهِـمْ خُـشُـوْعُ

وَالآيَاتُ فِي بَابِ الخَوْفِ كَثِيْرَةٌ جِدّاً مِنْهَا مَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوْقُ (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِيْنَ يَوماً نُطْفَةً ثُمَّ يَكُوْنُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُوْنُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمّ يُرْسَلَ اَلَيْهِ اَلمَلَكُ فَيُؤمَرُ بِأَرْبَعٍ كَلِمَاتٍ بكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيْدٍ) .

فَوَالذِي لَا إِلَهَ غَيْرُه إِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَه وَبَيْنَها الا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عليهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَها ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يكونُ بَينهُ وَبَيْنَها إلا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنةِ فَيَدْخُلَها) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْهُ قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ (يُؤْتَى يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُوْنَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرّونَها) رَوَاهُ

مُسْلِم وَعَن النعْمَانِ بن بشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ يُوْضَعُ فِي أَخْمُصِ قدمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِيْ مِنْهُما دِمَاغُه مَا يَرى أَنَّ أَحَداً أَشَدَّ مِنْهُ عَذَاباً وَإِنَّهُ لأهْوَنُهم عَذَاباً) مُتَّفقٌ عَلَيْهِ .

مَــوْعِظَــةٌ

عِبَادَ اللّهِ سَيَجِيُء يَوْمٌ يَتَغَيَّرُ فِيْهِ هَذَا العَالَمُ تَنْفَطِرُ فِيْهِ السَّمَاءُ وَتَنْتَثِرُ فِيْهِ الكَوَاكِبُ وَتُطْوَى السَّمَاءُ كَطَيِّ الصَّحِيْفَةِ يُزِيْلُهَا اللهُ وَيَطْوِيْهَا جَلَّ وَعَلا وَتُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأرْضِ وَيُنْفَخُ في الصُّوْرِ فَيَقُوْمُ النَّاسُ مِنْ قُبُوْرِهِمْ أَحَيَاءً كَمَا كَانُوا في هَذِهِ الدُّنْيَا حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً .

وحِيْنَئِذٍ يُحْشَرُ الكَافِرُ أَعْمَى لَا يَرَىٰ أَصَمَّ لَا يَسْمَعُ أَخْرَسَ لَا يَتَكَّلَمُ يَمْشِيْ عَلى وَجْهِهِ لِيَعْلَمَ مَنْ أَوَّلَ أَنَّهُ أَهْلٌ لِلإِهَانَةِ وَيَكُوْنُ أَسْوَدَ الوَجْهِ أَزْرَقَ العَيْنَيْنِ في مُنْتَهى العَطَشِ في يَوْمٍ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ أَلفَ سَنَةٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّمْسِ إِلَّا مِقْدَارُ مِيْلٍ إِذْ ذَاكَ يَقِفُ ذَاهِلَ العَقْلِ شَاخِصَ البَصَرِ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِ طَرْفَه وَفُؤَادُهُ هَوَاء وَيُعْطَى كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ فَيَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يُعْطَهُ .

ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إِلى النَّارِ وَيُسْلَكُ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُوْنَ ذِرَاعاً وَبَعْدَ دُخُولِهَا لا يَخْرُجُ أَبَداً وَلا يَزِيْدُهُ إِلا عَذَاباً إِذَا اسْتَغَاثَ مِنْ العَطَشِ يُغَاثُ بِمَاءٍ كالمُهْلِ يَشْوِيْ الوُجُوْهَ وَيُذِيْبُ الأَمْعَاءَ والجُلُودَ تُحِيْطُ بِهِ جَهَنَّم مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَكُلّمَا نَضِجَ جِلْدُهُ بُدّلَ غَيْرَهُ .

وَلَهُ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيْدٍ ، كُلُّ هَذَا العَذَابِ يُعَانِيْهُ وَلَا يَمُوْتُ وَيَأْتِيْهُ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ومِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيْظٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ لايَمُوْتُ فِيْهَا وَلَايَحْيَا ﴾وَسَواءٌ صَبَرَ أَوْ لَمْ يَصْبِرْ هُوَ خَالِدٌ في هَذَا العَذَابِ خُلُوْداً لا نِهَايَةَ لَهُ هَذَا أَقْصَى عَذَابٍ يُتَصَوَّرُ لأَنهُ جَزَاءُ أَقْصَى جَرِيْمَةٍ هِيَ الكُفْرُ باللهِ هَذَا عَذابٌ مُجَرَّدُ تَصوُّرِهِ يُطِيْشُ العُقُوْلَ وَيُذْهِلُ النُّفُوْسَ وَيُفَتِّتُ الأَكْبَادَ فَاسْتَعِذْ باللهِ مِنهُ أَيُّهَا المُؤْمِنُ وَاسْأَلِ اللهَ التَّثْبِيْتَ عَلى الاسْلَامِ وَحُسْنِ الاعْتِقَادِ .

شِــعْراً :

اذَا مَـا خَلَوْتَ الـدَّهْـرَ يَـوْمـاً فَـلا تَقُـلْ
خَـلَوْتُ وَلَـكِـنْ قُـلْ عَـلَيَّ رَقِـيْـبُ
وَلَا تَـحْـسَـبَـنَّ الـلهَ يَـغْـفَـلُ سَـاعَـةً
وَلَا أَنَّ مَـا يَـخْـفَـى عَـلَيْـهِ يَـغِـيْـبُ
لَـهَـوْنَـا لَعَـمْـرُ اللهِ حَـتَّـى تَـتَـابَـعَـتْ
ذُنُـوْبٌ عَـلى آثَـارِهِـنَّ ذُنُـوْبُ
فَـيَـالَيْـتَ أَنَّ الـلَّهَ يَـغْـفِـرُ مَـا مَـضَـى
وَيَـأْذَنَ فـي تَـوْبَـاتِـنَـا فَـنَـتُـوْبُ
أَقُـوْلُ إِذَا ضَـاقَـتْ عَـلَيَّ مَـذَاهِـبِـيْ
وَحَـلَّ بِـقَـلْبِـيْ لِـلْهُـمُـوْمِ نُـدُوْبُ
لِـطُوْلِ جِـنَـايَـاتِيْ وَعُـظْمِ خَـطِيْئَتِيْ
هَـلكْتُ وَمَـالِيْ في الـمَتَـابِ نَـصِيْبُ
وَيُـذْكِـرُنِيْ عَفْـوُ الكَـرِيْمِ عَنْ الـوَرَى
فَـأَحْـيَـا وَأَرْجُـوْ عَـفْـوَهُ وَأُنِـيْـبُ

فَـاخْضَـعُ فِي قَـوْلِـيْ وَأَرْغَبُ سَـائِـلاً
عَـسَى كَـاشِـفُ الـبَـلْوَىٰ عَـلَيَّ يَـتُـوْبُ

اللَّهُمَّ اهْدِنَا لِصَالِحِ الأَعْمَالِ وَالأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا الاّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنَّا سَيِّءَ الأَعْمَالِ وَالاخْلَاقِ لَا يَصْرِفُ عَنَّا سَيِئَهَا إِلَّا أَنْتَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُوْلَ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَمَ قالَ (يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ في الارْضِ سَبْعِيْنَ ذِرَاعاً وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذانَهُم) مُتَّفَقٌ عليه وَعَنْه قالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ (هَلْ تَدْرُوْنَ مَا هَذَا قُلْنَا اللّهُ ورَسُوْلُهُ أَعْلَمُ قَالَ هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِيْنَ خَرِيْفاً فَهُوَ يَهْوِي في النَّارِ الآنَ انْتَهَى إلى قَعْرِهَا فَسَمِعْتُمْ وَجْبَتَهَا) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلم يَقُوْلُ (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيْعاً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قَالَ يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهُمَّهُمْ ذَلِكَ) وَقَدْ مَدَحَ اللهُ الخَائِفِيْنَ مِنْهُ وَاثْنَى عَلَيْهِم في كِتَابِهِ فَقَالَ ﴿إِنَّ الذِيْنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ الى قولِهِ ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُوْنَ في الخَيْراتِ وهُمْ لَها سَابِقُوْنَ﴾ .

وَفي المُسْنَدِ وَالتِّرْمِذِيّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيِ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قُلْتُ يَا

رَسُوْلَ اللهِ قَوْلُ الله ﴿وَالذِيْنَ يُؤْتُوْنَ مَا آتَوْا وقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُوْنَ﴾ أَهُوَ الذِي يَزْنِي وَيَشْرَبُ الخَمْرَ وَيَسْرِقُ قَالَ لا يَا بْنَةَ الصِّدِّيْقِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُوْمُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُ قَالَ الحَسَنُ عَمِلُوْا وَاللهِ بالطَّاعَاتِ وَاجْتَهَدُوْا فِيْهَا وَخَافُوْا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ إنَّ المُؤْمِنَ جَمَعَ إحْسَاناً وَخَشْيَةً والمنَافِقَ جَمَعَ اسَاءَةً وَأَمْناً .

وَمِمَّا وَرَدَ في فَضَائِلِ الخَوْفِ مَا في الصَّحِيْحَيْنِ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَة رضي اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُوْلُ ﴿سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ الا ظِلُّهُ الامَامُ العَادِلُ وشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ورجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمسَاجِدِ وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا في اللهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتفرَّقَا عَلَيْهِ ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَال إنِّيْ أَخَافُ اللّهَ ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُه ورَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ﴾

وَمِمَّا وَرَدَ في فَضِيْلَةِ الخَوْفِ مَا في الحَدِيْثِ الآخَرِ عَنْ النَّبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ أنهُ قَالَ إذَا اقْشعَرَّ جِلْدُ العَبْدِ مِنْ مَخَافَةِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَحَاتُّ ذُنُوْبُهُ كَمَا يَتَحَاتُ عنْ الشَّجَرَةِ اليَابِسَةِ ورَقُهَا وَقَالَ صَلى اللهُ عليه وسَلم لا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُوْدَ اللبَنُ في الضَّرْعِ ولا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ في سَبِيْلِ اللهِ ودُخَانُ جهنمَ في مِنْخَرَيْ مُسْلِمٍ رَوَاهُ التّرْمِذِيّ .

وَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ وَالبَيْهَقِيّ في الشُّعَبِ منْ حَدِيْثِ أَبي هُرَيْرَة أن النبي صَلى اللهُ عليهِ وسَلم قالَ فِيمَا يَرْوِيْهِ عَنْ رَبِّهِ قَالَ اللهُ سُبْحَانه وَتَعالى وَعِزَّتِيْ وَجلاَلِيْ لاَ أجمَعُ عَلى عَبْدِيْ خَوْفَيْنِ ، وَلاَ أُجْمَعُ

لَهُ أَمْنَيْنِ انْ أَمِنَنِيْ في الدنْيَا أَخُفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَانْ خَافَنِيْ في الدُّنْيَا أَمَّنْته يَوْمَ القِيَامَةِ .

وَمَقَامَاتُ الخَوْفِ تَخْتَلِفُ فَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلى قَلْبِهِ خَوْفُ المَوْتِ قَبلَ التَّوبَةِ وَالخُرُوْجِ مِنْ المظَالِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ خَوْفُ الاسْتِدْرَاجِ بالنِّعَمِ أَوْ خَوْفُ المَيْلِ عَنْ الاسْتِقَامَةِ عَلى مَا يُرْضِيْ اللّهِ ، وَقِسْمٌ يَغْلُبُ عَلَيْهِ خَوْفُ خَاتِمَةِ السُّوْءِ وَالعِيَاذُ باللّهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَعْلَى مِنْ هَذَا خَوْفُ السَّابِقَةِ لأَنَّ الخَاتِمَة فَرْعُ السَّابِقَةِ ، وَقَدْ قَالَ هؤلاءِ في الجَنَّةِ وَلاَ أُبَالِيْ وَهَؤُلاَءِ في النَّارِ وَلاَ أُبَالِيْ .

وَمِنْ أَقْسَامِ الخَائِفِيْنَ مَنْ يَخَافُ سَكرَاتِ المَوْتِ ، وشِدَّتِهِ لَا سِيَّمَا اذَا كَانَ قَدْ عَايَنَ مَنْ يُعَانِيْ سَكَرَاتِ المَوْتِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخَافُ عَذَابَ القَبْرِ ، وسُؤَالَ مُنْكرٍ وَنكِيْرٍ ، وَمِنْهُمْ مِنْ يَخُافُ هَيْبَةَ الوُقُوْفِ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ عَزَّ وَجلَّ ، وَالخَوْفُ مِنْ مُنَاقَشَةِ الحِسَابِ ، وَالعُبُوْرِ على الصِّرَاطِ وَالخَوْفِ مِنْ النَّارِ وَأَنْكَالِهَا وَأَهْوَالِهَا أَوْ حِرْمَانِ الجَنَّةِ أَوْ الحِجَابِ عَنْ اللهِ تَعالى وهُوَ خَوْفُ العَارِفِيْنَ .

وما قَبْلَ ذَلِكَ هُوَ خَوْفُ الزَّاهِدِيْنَ والعَابِدِيْنَ ، وخَوْفُ عُمُومِ الخلقِ يَحْصُلُ بِأَصْلِ الايْمَانِ بالجَنّةِ وَالنّارِ وَكَوْنِهِمَا دَارَيْ جَزَاءٍ عَلَى الطَّاعَةِ والمَعْصِيَةِ وَضَعْفُ هَذَا الخَوْفِ بِسَبَبِ الغَفْلَةِ والرُّكُوْنِ إلى الدُّنْيَا ، والانْهِمَاكِ فِيْهَا ، وَضَعْفِ الايْمَانِ ، وَتَزُوْلُ تِلْكَ الغَفْلَةُ بِالتَّذكُّرِ وَالوَعْظِ وَالارْشَادِ وَمُلاَزَمَةِ الفِكْرِ في أَهْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَشَدَائِدِهَا ، وَالعَذَابِ في الآخِرَةِ وَبالنَّظَرِ إلى الخَائِفِيْنَ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَمُشَاهَدَةِ أَحْوالِهِمْ فَانْ فَاتَتْ المُشَاهَدَةُ فَالنَّظَرُ في سِيْرَةِ الصَّالِحِيْنَ الذِيْنَ غَلَبَ عَلَيهِمْ الخوْفُ قَالَ اللّهُ تَعالى ﴿ الذِيْنَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجلَتْ قُلُوْبِهِمْ ﴾

وَقَالَ ﴿اللهُ الذِي نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيْثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُوْدُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهم ثم تَلِيْنُ جُلُوْدُهُم وَقُلُوْبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ﴾ وقَالَ ﴿الذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ وَأَخْبَرَ عَمَّا يَقُولُونَهُ بَعْدَ دُخُوْلِهِمْ الجَنَّة ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِيْنَ﴾

شِعْراً :

يَا مَنْ يُجِيْبُ دُعَا المُضْطَرِّ في الظُّلَمِ
يَا كَاشِفَ الضُّرِّ وَالبَلْوَى مَعَ السِّقَمِ
قَدْ نَامَ وَفْدُكَ حَوْلَ البَيْتِ وَانْتَبَهُوا
وَأَنْتَ عَيْنُكَ يَا قَيُّومُ لَمْ تَنَمِ
هَبْ لِيْ بِجُوْدِكَ فَضْلَ العَفْوِ عَنْ جُرَمِيْ
يَا مَنْ إليه أَشَارَ الخلْقُ في الحَرَمِ
إنْ كَانَ عَفْوُكَ لاَ يُدْرِكْهُ ذُوْ سَرَفٍ
فَمَنْ يَجُوْدُ على العَاصِيْنَ بالكَرَمِ

اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا كِتَابَكَ وَارْزُقْنَا العَمَلَ بِمَا أَوْدَعْتَهُ فِيْهِ وَاجْعَلْهُ لِقلُوبِنَا ضِيَاءً وَلأَسْقَامِنَا دَوَاءً ولأَبْصَارِنَا جَلاءً وَلِذنُوْبِنَا مُمَحِّصاً وَعَنَ النَّارِ مُخَلِّصاً وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللّهُ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَعَلى العَاقِلِ النَّاصِحِ لِنَفْسِهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ مُجالَسَةِ الظَّلَمَةِ الأَطْغِيَاءِ وَالجَهلَةِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ الأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللّهِ حَتَّى كَأَنَّهم حُوْسِبُوا وَفُرِغَ

مِنْهُم ، فَلَمْ يَخْشَوْا بَطْشَ اللّهِ ، وَسَطْوَتَهُ وَلا نَارَ العَذابِ وَلاَ بُعْدَ الحِجَابِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَلاَ تَكُوْنُوا كَالذِيْنَ نَسُو اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الفَاسِقُوْنَ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطَا﴾فهذا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم سَيِّدُ الأَوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ خَوْفاً فَفِيْ الصَّحِيْحِ أَنَا أَعْلَمُكُم باللهِ وَأَشَدُّكُم لَهُ خَشْيَةً .

وَفي صَحِيْحِ البُخَارِيْ عَنْ أُمِّ العَلاَءِ امْرَأَةٌ مِنْ الانْصَارِ أَنَّهُمْ اقْتَسَمُوا المهَاجِرِيْنَ أَوَّلَ مَا قَدِمُوا عَلَيْهِمْ بِالقُرْعَةِ ، قَالَتْ فَطَارَ لَنَا ـ أَيْ وَقَعَ ـ فِي سَهْمِنَا عُثْمَانُ بنُ مَظعُونٍ مِنْ أَفْضَلِ المهَاجِرِيْنَ وَأَكَابِرِهِمْ ، وَمُتَعَبِّدِيْهِمْ وَمِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً .

فَاشْتَكى فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّى إذَا تُوفِّي وَجَعَلْنَاهُ في ثِيَابِهِ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقُلْتُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ تَعَالى ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم وَمَا يُدْرِيْكِ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ فَقُلْتُ لا أَدْرِيْ بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِيْنُ ، وَاللهِ اِنِّي لأَرْجُوْ لَهُ الخَيْرَ ، أَيْ فَالانْكَارُ عَلَيْهَا مِنْ حَيْثُ جَزْمِهَا بِتِلْكَ الشَّهَادَةِ مِنْ غَيْرِ مُسْتَنَدٍ قَطْعِيّ ، فَكَانَ اللائِقُ بهَا أن تَأتِي بهَا في صِيْغَةِ الرَّجَاءِ لا الجَزْمِ كمَا فعلَ صَلى الله عليه وسلم .

قُلْتُ وَكَثِيْراً مَا أَسْمَعُ وَأَرَى في الكُتُبِ قَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ « المَرْحُوْمَ » أو « المَغْفُوْرُ لَهُ » وَلاَ أَدرِيْ مَا هُوَ مُسْتَنَدُهُمْ بايْرَادِهَا بِصِيْغَةِ الجزْمِ وَالأَوْلَى أَنْ يُقَالَ المرْجُو لَهُ الرَّحْمَةُ وَالغُفْرَانُ ا هـ .

ثُمَّ قَالَ صَلى اللهُ علَيه وسَلم مَا أَدْرِي ، وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يَفْعَلُ بِيْ قَالَتْ فَوَاللّهِ لاَ أُزَكِّيْ أَحداً بَعْدَهُ ، أَيْ عَلَى جِهَةِ الجَزْمِ وأَمَّا عَلى جِهَةِ الرَّجَاءِ وحُسْنِ الظَّنّ باللهِ فَجَائِزٌ ، قَالَتْ وَأَحْزَنَنِيْ ذلك فَنِمْتُ فَرَأَيْتُ لِعُثْمَانَ عَيْنَا تَجْرِي فَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم فَقَالَ ذَلِكَ عَمَلُهُ » .

ولَمَّا تُوْفِيَ عِثْمَانُ هَذَا قَبَّلَ النَّبيّ صلى اللهُ عليه وسلم خَدَّهُ ، وبَكَى حَتَّى سَالَتْ دُمُوْعُهُ الكَرِيْمَةُ عَلى خَدِّ عُثْمَانَ ، وبَكَى القَوْمُ فَقَال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم اذْهَبْ عَنْهَا أَيْ الدُنْيَا أَبَا السَّائِبِ لَقَدْ خَرَجْتَ عَنْهَا وَلَم تَلَبَّسْ بِشَيءٍ وَسَمَّاهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم السَّلَفَ الصَّالِحَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قُبِرَ بالبَقِيْعِ رَضِيَ اللهُ عنه .

فَتَأَمَّلْ زَجْرَهُ صلى اللهُ عليه وسلم عَنْ الجَزْمِ بالشَّهَادَةِ على عَثْمَانَ هَذا مَعَ كَوْنِه شَهِدَ بَدْرَاً وَقولِهِ وَما يُدْرِيْكَ لَعَلَّ الله أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقدْ غَفرْتُ لَكُمْ ، وكَوْنِهِ قَبَّلَهُ وَبَكَى وَوَصْفِهُ لَهُ بأَعْظَم الأَوْصَافِ وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَتَلَبَّسْ مِنَ الدُنْيَا بِشَيءٍ وبأَنَّهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ ، تَعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِيْ لِلْعَبْدِ وَإِنْ عَمِلَ مِن الطَّاعَاتِ مَا عَمِلَ أَنْ يَكُونَ عَلى حَيِّزِ الخَوْفِ والخَشْيَةِ مِن اللهِ تعالى .

وَرَوَى شَدَّادُ بنُ أَوْسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم الكَيِّسُ مَن دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ ، والعَاجِزُ مَنْ أَتبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وتَمَنَّى عَلى اللهِ الأَمَانِي.

وَقَالَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ وقَدْ سَلَّمَ مِن صَلاةِ الفَجْرِ وقَدْ عَلَتْهُ كَآبَةٌ

وهُوَ يُقَلِبُ يَدَهُ ، لَقَدْ رَأيْتُ أصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلى اللهُ عليه وسَلَّمَ ، فَلَمْ أَرَى شَيْئاً يُشْبِهُمُ اليَوْمَ ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً صُفراً غُبْراً ، بَيْنَ أعْيُنِهِم أَمْثَالَ رُكَبِ المِعْزَى ، قَدْ بَاتُوا لِلهِ سُجَّداً ، وقِيَاماً يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ يُرَاوِحُوْنَ بَيْنَ جِبَاهِهِم وأقْدَامِهِمْ .

فإذَا أَصْبَحُوْا ذَكَرُوْا اللهَ ، فَمَا دُوْا كَمَا يَمِيْدُ الشَّجَرُ فِي يَوْمِ الرِّيْحِ وهَمَلَتْ أعَيْنُهُمْ بالدُمُوْعِ حَتَّى تَبُلَّ ثِيَابَهُم ، واللهِ كأنِيْ بالقَوْمِ غَافِلِيْنَ .

ثم قَامَ فَمَا رُؤْيَ بَعْدَ ذَلِكَ ضَاحِكَا حَتَّى مَاتَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ .

وقَالَ مُعَاوِيَةُ لِضِرَارِ بْنِ حَمْزَةَ الصُدَائِيْ ، صِفْ عَلِياً ، قَالَ الاَ تُعْفِيْنِي ، قَالَ بَلْ صِفْهُ ، قَالَ أَلَا تُعْفِيْنِيْ ، قَالَ لَا أُعْفِيْكَ ، قَالَ أمَا إنه لَا بُدَّ .

فَإِنَّهُ كَانَ بَعِيْدَ المَدَى ، واسِعَ العُلُومِ والمَعَارِفِ ، لا تُدْرَكُ غَايَتُهُ فِيْهِمَا شَدِيْدُ القُوَى في ذَاتِ اللهِ ، ونَصْرَةِ دِيْنِهِ ، يَقُولُ فَصْلاً ، ويَحْكُمُ عَدْلاً ، يَنْفَجِرُ العِلْمُ مِن جَوَانِبِه ، وتنْطِقُ الحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيْهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِن الدُنْيا ، وزَهْرَتِهَا ، ويَسْتَأنِسُ باللَّيْلِ وظُلْمَتِهِ .

كَانَ وَاللهِ غزِيْرَ الدَّمْعَةِ ، طَوِيْلَ الفِكْرِ ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ ، تأَسُفاً وَحَزَناً ، إذْ هَذا .

فِعْلُ المُتَأسِفِ الحَزِيْنِ ، ويُخَاطِبُ نَفْسَهُ ، بالمُزْعِجَاتِ ، والمَقْلِقَاتِ ، يُعْجِبُهُ مِن اللِّبَاسِ مَا خَشُنَ ، ومِن الطَّعَامِ مَا حَضَرَ .

كانَ واللهِ كَأَحدِنَا ، إذَا سَأَلْنَاهُ ، ويَأْتِيْنَا إذا دَعَوْنَاهُ ، ونَحْنُ واللهِ مَعَ تَقَرُّبِهِ لَنَا وقُرْبِهِ مِنَّا لا نُكَلِّمُهُ هَيْبَةً لَهُ ، فإنْ تبَسَّمَ فَعَنْ مِثْلِ اللُؤْلُؤِ

المَنْظُوْمِ ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّيْنِ ويُحِبُّ المَسَاكِيْنَ ، ولَا يَطْمَعُ القَوِيُّ في بَاطِلِهِ ولا يَيْأَسُ الضَّعِيْفُ مِن عَدْلِهِ .

وَاشْهَدُ باللهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ في بَعْضِ مَواقِفِهِ ، وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُتُوْرَهُ ، وغَارَتْ نُجُوْمُهُ ، وقَدْ تَمَثَّلَ في مِحْرَابِهِ ، قَابِضاً على لِحْيَتِهِ ، يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ اللَّدِيْغِ ، ويَبْكِي بُكَاءَ الحَزِيْنِ ، وكَأَنِّي سَمِعْتُه يَقُولُ يَا رَبَّنَا يا ربّنا يَضْرَعُ إليهِ .

ثم يقُولُ يا دُنْيَا يا دنيا إِلَيَّ تَعَرَّضْتِ أَمْ تَشَوَّقْتِي هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي ، وَقَدْ بَتَتُّكِ ثَلاثَاً لَا رَجْعَةَ لِي فِيْكِ فَعُمْرُكِ قَصِيرٌ ، وَعَيْشُكِ حَقِيْرٌ وَخَطَرُكِ كَبِيْرٌ ، آهٍ مِن قِلَّةِ الزَّادِ ، وبُعْدِ السَّفرِ ، وَوَحْشَةِ الطَّرِيْقِ ، فَذَرَفتْ عَيْنُ مُعَاوِيَةَ عَلَى لِحْيَتِهِ ، فَمَا مَلَكَهَا وَهو يُنَشِفُهَا بِكُمِّهِ ، وَقَدْ اخْتَنَقَ القَوْمُ بِالبُكَاءِ .

قال مُعَاوِيَةُ رَحِمَ اللهُ أَبَا الحَسَنِ كانَ واللهِ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ حَزَنُكَ عَلَيْهِ يا ضِرَارُ قال حُزْنُ مَن وَاحِدُهَا في حَجْرِهَا فلا تَرقا عَبْرَتُهَا ولا يَسْكُنُ حُزْنُهَا .

وقال أَبُو ذَرٍ وَدِدْتُ لَوْ أَنِّيْ شَجَرَةٌ تُعْضَدُ وَكَذَا قَالَ طَلْحَةُ ابنُ عُبَيْدِ اللهِ أَحَدُ العَشَرَةِ.

وَقَالَ عِمْرانُ بنُ حُصَيْنٍ وَدِدْتُ أَنْ أَكُونَ رَماداً تَنسفُهُ الرّياح .

وكان علِيُ بنُ الحُسَيْنِ إذَا تَوَضَأَ اصْفَرَّ لَوْنُهُ ، فَيَقُولُ لَهُ أَهْلُهُ مَا هَذَا الذيْ يَعْتَادُكَ عنْدَ الوُضُوءِ ، فيقولُ أَتَدْرُوْنَ بَيْنَ يَدَيْ مَن أُرِيْدُ أنْ أَقُومَ ، وسُئِلَ ابنُ عَبَاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن الخَائِفِينَ ، فقَالَ قُلُوبُهُم،

بِالخَوْفِ قَـرِحَةٌ ، وأعيُنُهُم بَـاكِيَةٌ ، يقـولُونَ كَيْفَ نَفْـرَحُ والموتُ مِن ورائنا ـ ، والقبرُ أَمامنَا والقيامةُ موعدُنا ، وعلى جهنَّمَ طَرِيْقُنَا وَبَيْنَ يَدَي اللهِ مَوْقِفُنَا ، وهَذَا مِنْهُ بَيَانٌ عَنْ الخَائِفِيْنَ بِحَسَبِ حَالِهِ رَحِمَهُ اللهُ .

وَمَرَّ الحسَنَ البَصْرِيُ رَحِمَهُ اللهُ بِشَابٍ وَهُوْ مُسْتَغرِقٌ في ضِحْكِهِ جَالِسٌ مَعَ قومٍ ، فَقَالَ لَهُ الحَسَنُ يَا فَتَى هَلْ مَررتَ بِالصِّرَاطِ ، قَالَ لاَ ، فقالَ فَهَلْ تَدْرِيْ إلى الجنةِ تَصِيْرُ أَمْ إلى النَّارِ ، قال لاَ ، قَالَ فَمَا هَذَا الضَّحِكُ ، قَالَ فَمَا رُؤِيَ ذَلِكَ الفَتَىٰ بَعْدَهَا ضاحكا .

وَرُوِيَ عَن مَيْسَرَةَ ابنِ أَبِيْ مَيْسَرَةَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَوَى إلى فِرَاشِهِ يقولُ يا لَيْتَنِيْ لم تَلدنِي أُمِّي ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ حِيْنَ سَمِعَتْهُ يَا مَيْسَرَةُ إن اللهَ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ ، هَدَاكَ لِلإِسْلاَمِ ، قَالَ أَجَلْ ولكنَّ اللهَ قد بَيَّنَ لَنَا أنا وَارِدُوْنَ على النارِ ، ولَمْ يُبَيِنْ لَنَا أنا صَادِرُوْنَ عَنْهَا أي لاَ جَزَمَ عِنْدَهُ أنه مِن المُتقِينَ النَاجِيْنَ فَلِذَا اشْتَدَّ خَوْفُهُ مِنْهَا .

وكان عَطَاءُ السُلَمِي مِنَ الخَائِفِيْنَ ، وقِيْلَ لَهُ في مَرَضِهِ أَلاَ تَشْتَهِيْ شَيْئاً ، فَقَالَ إِنْ خَوْفَ جَهَنَّمَ لَمْ يَدَعْ فِي قَلْبِي مَوْضِعَاً لِلشَّهْوَةِ .

وقِيْـلَ لِبَعْضِهِمْ لِمَاذَا إذَا وَعَظَ بَعْضُ النـاسِ خَـوَّفَ وأَبْكَى ، وبَعْضُهُم يَتَكَلَّمُ وَيَبْكِي وَيُخَوِّفْ ولا يَبْكُوْنَ ، فَقَالَ لَيْسَتِ النائِحَةُ الثُكْلَى كالنَائِحَةِ المُسْتَأجَرَةِ .

وَحكَى أَنَّ قَوْماً وَقَفُوْا بِعَابِدٍ وَهُوَ يَبْكِي فَقَالُوا مَا الذِي يُبْكِيْـكَ يَرْحَمُكَ اللهُ قَالَ قَرْحَةٌ يَجِدُهَا الخَائِفون في قُلُوبِهِم قالُوا وَمَا هِيَ ، قال رَوْعَةُ النِّدَاءِ بالعَرْضِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجلَّ .

وقال مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه ، إنَّ المُؤْمِنَ لا يَسْكُنُ رَوْعُهُ ، حَتَّى يَتْرِكَ جَسْرَ جَهَنَّمَ وَرَاءَهُ ، هَذِهِ نَمَاذِجُ مِن مَخَاوِفِ السَّلَفِ ، ونحنُ أَجْدَرُ بالخَوْفِ مِنْهُم ، لَكِنْ لَيْسَ بكَثْرَةِ الذُنُوبِ بل بِصَفَاءِ القُلُوبِ وَكَمَالِ المَعْرِفَةِ .

وإلَّا فَلَيْسَ أَمْنُنَا وَعَدَمُ خُشُوعِنَا لِقِلَّةِ ذُنُوبِنَا ، وَكَثْرَةِ طَاعَاتِنَا ، بَلْ قَادَتْنَا شَهَوَاتُنَا وَغَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وإنهما كُنَا في الدُّنْيَا وزِيْنَتِها وَصَدَّتْنَا عَن مُلاحَظَةِ أحْوَالِنَا غَفَلَتُنَا وَقَسْوَتُنَا فلا بِقُرْبِ الرَّحِيْلِ نَنْتَبِهْ ، ولا بِكَثْرَةِ الذُنُوْبَ نَتَحَرَّكْ، ولا بِمُشَاهَدَةِ أحْوالِ الخائِفِيْنَ تَخَوَّفْنَا وَلَا بِخَطَرِ الخَاتِمَةِ انْزَعَجْنَا ، فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَتَدَارَكَنَا بِلُطْفِهِ وإحْسَانِهِ وأَنْ يَجُودَ عَلَيْنَا بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْر .

أَجَلُ ذُنُوبِي عِنْدَ عَفْوِكَ سَيِّدِيْ
حَقِيْرٌ وإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي عَظَائِمَا
وما زِلْتَ غَفَّاراً وَمَا زِلْتَ رَاحِمَاً
وما زِلْتَ سَتَّاراً عَلَيَّ الجَرَائِمَا
لَئِنْ كُنْتُ قَدْ تَابَعْتُ جَهْلِيَ في الهَوَى
وَقَضَيْتُ أَوْطَارَ البَطَالَةِ هَائِمَا
فَهَا أَنَا قَدْ أَقْرَرْتُ يَا رَبُّ بالذِي
جَنَيْتُ وَقَدْ أَصْبَحْتُ حَيْرَانَ نَادِمَا

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

« فائدةٌ جليلةٌ مِن كلامِ »

« ابنِ القيم وشيخِ الاسلامِ رحمهما اللهُ »

قَوْلُهُ تَعالَى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوْا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوْا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وأنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ وقولُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَانْ كَرِهْتُموْهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيْهِ خَيْراً كَثِيْراً . ﴾

فالآيَةُ الأُوْلَى في الجِهَادِ الذيْ هُوَ كَمَالُ القُوَّةِ الغَضَبِيَّةِ ، والثَّانِيَةُ في النِكاحِ الذي هُوَ كَمالُ القُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ فالعَبْدُ يَكْرَهُ مُواجَهَةَ عَدُوِّهِ بِقُوَّتِهِ الغَضَبِيَّةِ خَشْيَةً عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُ ، وَهَذَا المَكْرُوْهُ خَيْرٌ لَهُ في مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ ، ويُحِبُّ المُوَادَعَةَ والمُتارَكَةَ وَهَذَا المَحْبُوبُ شَرٌ لَهُ في مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ .

وَكَذَا يَكْرَهُ المَرْأَةَ لِوَصْفِ مِن أَوْصَافِهَا وَلَهُ في إمْسَاكِهَا خيرٌ كَثِيْرٌ لَا يَعْرِفُهُ وَيُحِبُّ المَرْأَةَ لِوَصْفٍ مِن أَوْصَافِهَا وَلَهُ في إمْسَاكِهَا شَرٌ كَثِيْرٌ لَا يَعْرِفُهُ فالأنسانُ كَمَا وَصَفَهُ بِهِ خَالِقُهُ ظَلُومٌ جَهُولٌ .

فلا يَنْبَغِي أَنْ يُجعَلَ المِعْيَارُ عَلَى مَا يَضُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ مَيْلَهُ وَحُبَّهُ وَنُفْرَتَهُ وبُغْضُهُ ، بَلِ المِعْيَارُ عَلَى ذَلِكَ مَا اخْتَارَهُ اللهُ لَهُ بأمرِهِ ونَهْيِهِ ، فَانْفَعُ الأَشيَاءِ لَهُ عَلَى الاطلاقِ طَاعَةُ رَبِّهِ بظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ .

وأَضَرُّ الأَشْيَاءِ عَلَيْهِ عَلَى الإِطْلَاقِ مَعْصِيَتُهُ بِظَاهِرِهِ وباطِنِهِ فَإِذَا قَامَ بِطَاعَتِهِ وَعُبُوْدِيَّتِهِ مُخْلِصاً لَهُ ، فَكُلُ مَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِمَّا يَكْرَهُهُ يَكُونُ خَيْراً لَهُ وإِذا تَخَلَّى عَنْ طَاعَتِهِ وعُبُودِيَّتِهِ فَكُلُّ مَا هُوَ فِيْهِ مَحْبُوبٌ هُوَ شَرٌ لَهُ .

فَمَنْ صَحَّتْ لَهُ مَعْرِفَةُ رَبِّهِ والفِقْهِ فِي أَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ عَلِمَ يَقِيْناً أَنَّ المَكْرُوْهَاتِ التِي تُصِيْبُهُ والمِحَنَ التِيْ تَنْزِلُ بِهِ فِيْهَا ضُرُوْبٌ مِن المَصَالِحِ والمَنَافِعِ التِي لا يُحْصِيْهَا عِلْمُهُ ولا فِكْرَتُهُ بَلْ مَصْلَحَةُ العَبْدِ فِيْمَا يَكْرَهُ أَعْظَمُ مِنْهَا فِيْمَا يُحِبُ .

فَعَامَّةُ مَصَالِحِ النُفُوْسِ فِي مَكْرُوْهَاتِهَا ، كَمَا أَنَّ عامَّةَ مَضَارِّهَا وَأَسْبَابَ هَلَكَتِهَا فِي مَحْبُوْبَاتِهَا ، انْظُرْ إلى غَارِسِ جَنَّةٍ مِنَ الجَنَّاتِ خَبِيْرٍ بالفِلاَحَةِ غَرَسَ جَنَّةً وَتَعَاهَدَهَا بِالسَّقْيِ والإِصْلاَحِ حَتَّى أَثْمَرَتْ أَشْجَارُهَا فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا يُفَصِّلُ أَوْصَالَهَا وَيَقْطَعُ أَغْصَانَهَا لِعِلْمِهِ أَنَّهَا لَوْ خُلِّيَتْ عَلَى حَالِهَا لَمْ تَطِبْ ثَمرَتُها ، فَيُطْعِمُهُمَا من شَجَرَةٍ طَيِّبَةِ الثَّمَرَةِ .

حَتَّى إذَا التَحَمَتْ بِهَا وَاتَّحَدَتْ وَأَعْطَتْ ثَمرَتَهَا ، أَقْبَلَ يُقَلِّمُهَا ويَقْطَعُ أَغْصَانَهَا الضَّعِيْفَةَ التِيْ تُذْهِبُ قُوَّتَهَا ويُذِيْقُهَا أَلمَ القَطْعِ والحَدِيْدِ لِمَصْلَحَتِهَا وكَمَالِهَا ، لِتَصْلَحَ ثَمرَتُهَا أَنْ تَكُونَ بِحَضْرَةِ المُلُوكِ ، ثُمَّ لا يَدَعُهَا وَدَوَاعِيْ طَبْعِهَا مِن الشُرْبِ كُلَّ وَقْتٍ ، بَلْ يُعَطِّشُهَا وَقْتاً وَيَسْقِيْهَا وَقْتاً ، ولا يَتْرُكُ عَلَيْهَا دَائِماً وإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَنْضَرُ لِوَرَقِهَا وأَسْرَعُ لِنَبَاتِهَا .

ثُمَّ يَعْدُ إلى تِلْكَ الزِيْنَةِ التِي تَحُوْلُ بَيْنَ ثَمرَتِهَا وَبَيْنَ كَمَالِ نَضْجِهَا واسْتَوائِهَا ، كَمَا فِي شَجَرِ العِنَبِ وَنَحْوِهِ ، فَهُوَ يَقْطَعُ أَعْضَاءَهَا ، بالحَدِيْدِ ، ويُلْقِي عَنْهَا كَثِيْراً مِن زِيْنَتِهَا وَذَلِكَ عَيْنُ مَصْلَحَتِهَا فَلَوْ أَنَّهَا ذَاتَ تَمْيِيْزٍ وإِدْرَاكٍ كَالحَيَوانِ لَتَوَهَّمَتْ أَنَّ ذَلِكَ إِفْسَادٌ لَهَا واضْرَارٌ بِهَا ، وإِنَّمَا هُوَ عَيْنُ مَصْلَحَتِهَا .

وَكَذَلِكَ الأَبُ الشَّفِيْقُ عَلَى وَلَدِهِ العَالِمِ بِمَصْلَحَتِهِ ، إِذَا رَأَى مَصْلَحَتَهُ في أَنْ يُمْسِكَ عَنْهُ العَطَاءَ لَمْ يُعْطِهِ وَلَمْ يُوسِعْ عَلَيْهِ ، لِعِلْمِهِ أَنَّ

ذَلِكَ أَكْبَرُ الأَسْبَابِ إلى فَسَادِهِ وهَلاَكِهِ .

وَكَذَلِكَ يَمْنَعُهُ كَثِيْرَاً مِن شَهَوَاتِهِ حُمْيَةً لَهُ وَمَصْلِحَةً لا بُخْلاً عَلَيْهِ ، فَأَحْكَمُ الحَاكِمِيْنَ وأرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ ، وأعْلَمُ العَالَمِين الذِيْ هُوَ أرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْهُم بأنْفُسِهِم ومِن آبَائِهِم وأُمَّهَاتِهِم ، إذا أَنْزَلَ بِهِمْ ما يَكْرَهُونَ كَانَ خَيْرَاً لَهُمْ مِن أنْ لاَ يُنْزِلَهُ بِهِم ، نَظَراً منه لَهُم واحْسَانَاً إلَيْهِم ولُطْفَاً بِهِم .

وَلَوْ مُكِنُوْا مِنَ الأخْتِيَارِ لأَنْفُسِهِمْ لَعَجِزُوْا عَنِ القِيَامِ بِمَصَالِحِهِم عِلْمَاً وارَادَةً وَعَمَلاً ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ تَوَلَّى تَدْبِيْرَ أُمُورِهِم بمُوجِبِ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ أَحَبُّوْا أَمْ كَرِهُوْا ، فَعَرَفَ ذَلِكَ المُوقِنُونَ بأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ فَلَمْ يَتَّهِموْهُ في شَيْءٍ مِن أَحْكَامِهِ وَخَفِيَ ذَلِكَ عَلَى الجُهَالِ بِهِ وبِأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ ، فَنَازَعُوهُ تَدْبِيْرَهُ وَقَدَ حُوْا في حِكْمَتِهِ ، وَلَمْ يَنْقَادُوْا لِحُكْمِهِ ، وَعَارَضُوْا حُكْمَهُ بعُقُولِهِم الفَاسِدَةِ وآرَائِهِمْ البَاطِلَةِ وسِيَاسَاتِهِم الجَائِرَةِ فَلاَ لِرَبِّهِمْ عَرَفُوْا وَلاَ لِمَصَالِحِهِمْ حَصَّلُوا ، واللهُ الموفق .

وقال الشيـخُ تَقِيُ الدِيْنِ مِن تَمَامِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ المُؤْمِنِيْنَ أنْ يُنزِلَ بِهِم مِن الضُرِّ والشِّدَّةِ ما يُلْجِئُهُمْ إلى تَوْحِيْدِهِ فَيَدْعُوْنَهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِيْنَ وَيَرْجُوْنَهُ ولا يَرْجُوْنَ أحداً سِوَاهُ فَتَتَعَلَّقُ قُلُوبُهُم بِهِ لا بِغَيْرِهِ فَيَحْصُلُ لَهُمْ مِن التَّوكُلِ عَلَيْهِ والأنَابَةِ وَحَلاَوَةِ الأيمانِ وَذَوْقِ طَعْمِهِ .

والبَرَاءَةِ مِن الشِرْكِ مَا هُوَ أَعْظَمُ نِعْمَةً عَلَيْهِم مِن زَوَالِ المَرَضِ والخَوْفِ أوِ الجُدْبِ والضُرِّ ومَاَ يَحْصُلُ لأَهْلِ التَّوْحِيْدِ المُخْلِصِيْنَ للهِ فأعْظَمُ مِن أنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ مَقَالٌ وَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِن ذَلِكَ نَصِيبٌ بِقَدَرِ إيْمَانِهِ ولِهَذَا قِيْلَ يَا بْنَ آدَمَ لَقَدْ بُوْرِكَ لَكَ في حَاجَةٍ أَكْثَرْتَ فِيْهَا مَن قَرْعِ بَابِ سَيِّدِكَ .

وَطَوْراً تَكُونُ المَصَائِبُ إنْتِقَاماً مِن اللهِ تَعَالَى لِمُخَالَفَةِ العَبْدِ أَمْرَ رَبِهِ كَمَعْصِيَةِ آدَمَ مِن أَكْلِ الشَّجَرَةِ التِي نَهَاهُ اللهُ عن الأكْلِ مِنها فأكْلُهُ مِن الشَّجَرَةِ مَعْصِيَةٌ جَزَاءَ عِصْيَانِهِ كَمَا أَنَّهَا تكونُ لِمَحْوِ الذُنُوبِ وتَطْهِيْرِ القُلُوبِ مِن رِجْسِ المَعَاصِي .

وَقَدْ جَاءَ في الصَّحِيْحِ عن أبي هريرة أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قال ما يُصِيْبُ المؤمن مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أَذَىً ولا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِن خَطَايَاهُ أ هـ .

والحكمةُ واللهُ أعلَمُ في ذَلِكَ أَنَّهَا مُرَبِيَـة لِلنُّفُوسِ وُتَمَرِّنُهَا على احْتِمَالِ الشَّدَائِدِ والصَّبْرِ الجَمِيْلُ عَلَى الإنَاءَاتِ والرَّزَانَةِوالصَّبْـرِ على المَكَارِهِ فَتَبْلُغُ بِصَاحِبِهَا إلى أَعْلَى دَرَجَاتِ الكمالِ وبُلُوغِ الغايَاتِ لِذَلِكَ تَجِدُ الرِّجَالَ الأمْجَادَ الذينَ هُمْ أَشَدُّ مُعَانَاةً لِلشَّدَائِدِ في حَيَاتِهِم وصَبَرُوا عَلَى المَصَائِبِ والآلامِ التي تَنَالُهُم عندَ قِيَامِهِم بالدَّعْوَةِ الإسْلامِيَّةِ ذِكْرُهُم باقٍ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وأَجْرُهُم عِنْدَ اللهِ نَامٍ .

واللهُ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي مَن شَاءَ مِن عِبَادِهِ لِيُبَلِّغُهُ مَا قُدِّرَ لَهُ مِن المَنْزِلَةِ قال الله تَعالى ﴿ أمْ حَسِبْتُم أنْ تَدْخُلُوا الجنةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الذين خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ والضَّرَاءُ وزُلْزِلُوْا حَتَى يَقُولَ الرسولُ والذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ألاَ إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيْب ﴾ .

وَقَد وَرَدَتْ أَحَادِيْثُ مُطَمنَةٌ لِقُلُوبِ المُؤْمِنِيْنَ ، الـذينَ تُصِيْبُهُم المَصَائِبُ في الدُنْيَا مِن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن كَعْبِ بنِ مالكٍ قال قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « مَثَلُ المؤمنِ كَمَثَلِ الخَامَةِ مِن الزَّرْعِ تَفْيئُهَا الرِّيْحُ مَرَّةً وَتَعْدِلُها أخرَى حَتَّى تَهِيْجَ وَمَثَلُ الكَافِرِ كَمَثَلِ الأرْزَةِ المُجَذَّبَة

على أصلِهَا لا يَفْيئُهَا شَيْءٌ يكُونُ انْجعَافُها مَرَّةً وَاحِدَةً » .

وَعَن أبي هريرة رضي اللهُ عنهُ قَال قَال رسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم مَن يُرِدِ اللهُ بهِ خَيْرَاً يُصِبْ مِنْهُ رَوَاهُ البُخارِيّ وَعَنْ أنِسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّم اذَا أرادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ في الدُّنْيا واذَا أرادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أمْسَكَ عنهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيْهِ به يَوْمَ القِيَامَةِ .

وَقَالَ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسلم انَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ وانَّ اللهَ تعالى اذَا أَحَبَّ قَوْمَاً ابْتَلاهُم فَمَنْ رَضْيَ فلهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخْطُ رَواهُ التِّرْمِذيّ وَقالَ حدِيْثٌ حَسَنٌ .

وَعَنْ جَابِر مَرْفُوعَاً يَوَدُّ نَاسٌ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّ جُلُودَهُمْ كانَتْ تُقْرَضُ بالمَقَارِيْضِ في الدُّنْيَا لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ البَلاَءِ .

وعَنْ سَعْدِ بنِ أبي وقّاصٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بلاءً قَالَ الأنْبيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ مِنْ النَّاسِ يُبْتَلِيَ الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِيْنِهِ فَإنْ كَانَ في دِيْنِهِ صَلاَبَةٌ ، زِيْدَ في بلاَئِهِ وإنْ كَانَ في دِيْنِهِ رِقَةً خُفِّفَ عَنْهُ وَمَا يَزَالُ البَلاءُ بالعَبْدِ حَتى يَمْشِي عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ ولَيْسَ عليه خَطِيْئَة .

وعن أبي هُرَيْرَة يُبْتَلى المؤمنُ أو المُؤْمِنَةُ في جَسَدِهِ وفي مالِهِ وفي وَلَدِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ ومَا عَلَيْهِ خَطِيْئَةٌ صَحَّحَهُما التِّرمِذِيّ وَرَوى الثَّاني مَالِكٌ وَأحْمَدُ .

وَوَرَدَ مَرْفُوعَاً إنَّ المؤْمِنَ اذا أَصَابَهُ سقَمٌ ثُمَّ أَعْفَاهُ اللهُ مِنْهُ كَانَ

كَفَارَةً لما مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ وَمَوْعِظَة لَهُ فِيْمَا يَسْتَقْبِلُ وَإِنَّ المُنَافِقَ اذا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِي كَانَ كَالبَعِيْرِ عَلَقَهُ أَهْلُهُ ثُمَّ أَرْسَلُوهُ فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ وَلِمَ أَرْسَلُوهُ رَواهُ أبو دَاوُدَ .

اللَّهُمَّ يَا مُنَوِّرَ قُلُوْبَ العَارِفِينَ يَا قَاضِيْ حَوَائِجَ السَّائِلِيْنَ يَا قَابِلَ توبةِ التّائِبِيْنَ تُبْ عَلَيْنَا وَعافِنَا وَاعفُ عنا واغْفِرْ لنا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْيَاءِ منهم والميِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

فَائِدة ـ قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ :

لِشَهَادَةِ أَنْ لا الَهَ الا الله عِنْدَ المَوْتِ تَأْثِيْرٌ عَظِيْمٌ في تَكْفِيْرِ السَّيِّئَاتِ وَاحْبَاطِهَا لأَنَّهَا شَهَادَةٌ مِن عَبْدٍ مُوقِنٍ بها عَارِفٍ بِمَضْمُونِهَا قَدْ مَاتَتْ مِنْهُ الشَّهَوَاتِ ولاَنَتْ نَفْسُهُ المُتَمَرِّدَةِ وَانْقَادَتْ بَعْدَ إِبَائِهَا ، وَأَقْبَلَتْ بَعدَ اعْرَاضِهَا .

وَذَلَّتْ بَعْدَ عِزِّهَا وَخَرَجَ منها حِرْصُهَا على الدُّنْيَا وَفُضُولُهَا وَاسْتَخْذَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا وَفَاطِرَهَا وَمَوْلاَهَا الحَقِّ أذَلَّ مَا كَانَتْ لَهُ وَأرْجَى ما كَانَتْ لِعَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَتَجَرَّدَ مِنْهَا التَّوْحِيْدُ بانْقِطَاعِ أسْبَابِ الشِّرْكِ وَتَحَقُّقِ بُطْلانِهِ .

فَزَالَتْ منها تِلْكَ المُنَازَعَاتِ التي كَانَتْ مَشْغُولَةً بها ، واجْتَمَعَ هَمُّهَا عَلى مَنْ أيْقَنَتْ بالقُدومِ عَلَيْهِ وَالمَصِيْرِ إِلَيْهِ، فَوَجَّهَ العَبْدُ وَجْهَهُ بِكُلِّيتهِ إليه ، وَأقْبَلَ بقَلْبِه وَرُوحِهِ وَهَمِّه عَلَيْه ، فَاسْتَسْلَمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ظَاهِراً وَبَاطِنا

واسْتَوى سِرُّهُ وَعَلانِيَّتُهُ .

فَقَالَ لا إِلَه الاَّ اللهُ مُخْلِصاً مِن قَلْبِهِ ، وقد تَخَلَّصَ مِنَ التَّعَلُّقِ بغَيْرِه والالْتِفَاتِ إِلى مَا سِوَاه ، قَدْ خَرَجَتْ الدُّنْيا كُلُّها مِنْ قَلْبِهِ وَشَارَفَ القُدُومَ على رَبِّهِ ، وَخَمَدَتْ نِيْرانُ شَهْوَتِهِ ، وَامْتَلأَ قَلْبُهُ مِنْ الآخِرَةِ ، فصَارَتْ نُصْبَ عَيْنَيْهِ ، وصَارَتْ الدنيا وَرَاءَ ظَهْرِهِ .

فَكَانَتْ تِلْكَ الشَّهَادَةُ الخَالِصَةُ خَاتِمَةَ عَمَلِهِ فَطَهرَّتَـهْ مِنْ ذُنُوبـهِ وَأَدْخَلَتْهُ على رَبِّهِ لأنَهُ لَقِيَ رَبَّهُ بِشَهَادَةٍ صَادِقَةٍ خَالِصَةٍ وَافَقَ ظاهِرُهَا بَاطِنَهَا وَسِرُّهَا عَلاَنِيَتَها فَلَو حَصَلَتْ لَهُ الشَّهَادَةُ عَلَى هَذَا الوَجْهِ في أَيَّامِ الصِّحَّةِ لاسْتَوْحَشَ مِن الدُّنْيا ، وَأَهْلِهَا وَفرَّ إِلى اللَّهِ مِنْ النَّاسِ وَأَنِسَ بهِ دُوْنَ مَنْ سِوَاهُ .لَكِنَّهُ شَهَدَ بِهَا بِقَلْب مَشْحَونٍ بالشَّهَوَاتِ وحُبِّ الحَيَاةِ وَأُنسٍ بها وَنَفْسٍ مَمْلُوْءَةٍ بَطَلَبِ الحُظُوظِ وَالالْتِفَاتِ الى غَيْرِ اللّهِ فَلَو تَجـرَّدَتْ كَتَجَرُّدِهَا عِنْدَ المَوْتِ لكانَ لهَا نَبَأٌ آخَرُ وَعَيْشٌ آخَرُ سِوَى عَيْشِهَا البَهِيْمِّي ٍ وَاللهُ المُسْتَعَانُ .

شِعْراً :

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ المَـرْأَ يَـحْبِسُ مَـالَـهُ
وَوَارِثُـهُ فِـيْـهِ غَـداً يَـتَـمَـتَّـعُ
كَـأَنَّ الحُمَـاةَ المُشْفِقْينَ عَلَيْكَ قَـدْ
غَدَوا بكَ أَوْ رَاحُوا رَوَاحاً فَأَسْرَعُـوا
ومـا هُوَ إِلاَّ النَّعْشُ لَـوْ قَدْ أَتَـوَا بِه
تَـقـلُّ فتَلَقَى فـوْقَـهُ ثُـم تُـرْفَـعُ

وَمَا هُوَ إلا حَادِثٌ بعْدَ حَادِثٍ
عَلَيْكَ فَمِنْ أيِّ الحَوَادِثِ تَجْزِعُ
وَمَا هُوَ إلَّا المَوْتُ يَأْتِيْ لِوَقْتِهِ
فمَالكَ في تَأْخِيْرِهِ عَنْكَ مَدْفَعُ
أَلَا واذا وُدِّعْتَ تَوْدِيْعَ هَالِكٍ
فَآخِرُ يَوْمٍ مِنْكَ يَوْمُ تُوَدَّعُ
ألا وَكَمَا شَيَّعْتَ يَوماً جَنَائزاً
فَأنْتَ كَمَا شَيَّعْتَهُم سَتُشَيَّعُ
رَأَيْتُكَ في الدُّنْيَا على ثِقَةٍ بهَا
وَإِنَّكَ في الدّنْيَا لَأَنْتَ المُرَوَّعُ
وَصَفْتَ التُّقَى وَصْفاً كَأنَّكَ ذُوْ تُقى
وَرِيْحُ الخَطَايَا مِنْ ثِيَابِكَ تَسْطَعُ
وَلَم تُعْنَ بالأمرِ الذي هُوَ وَاقِعُ
وَكُلّ امْرِئٍ يَعْنَى بمَا يَتَوَقَّعُ
وَإِنَّكَ لَلْمَنْقُوْصِ في كُلِّ حَالَةٍ
وَكلُّ بَنِيْ الدُّنْيَا على النَّقْصِ يُطْبَعُ
وَمَا زلْتُ أَرْمِيْ كُلَّ يَوْمٍ بِعِبْرَةٍ
تَكَادُ لهَا صُمُّ الجِبَالِ تَصَدَّعُ
فَمَا بَالُ عَيْنِيْ لَا تَجُوْدُ بِمَائِهَا
وَمَا بَالُ قَلْبِيْ لَا يَرِقُّ وَيَخْشَعُ
تَبَارَكَ مَنْ لَا يَمْلِكُ المُلْكَ غَيْرُهُ
مَتَى تَنْقَضي حَاجَاتُ مَنْ لَيسَ يَقْنَعُ

وَأيُّ امْـرِءٍ في غَـايَـةٍ لَيْس نَفْسُهُ
إِلى غَـايَـةٍ أُخْـرَى سِـوَاهَـا تَـطَلَّعُ
وَبَعْضُ بَنِي الـدُّنْيَـا لِبَعْضٍ ذَرِيْعَـةٌ
وَكُـلٌّ بِـكُـلٍ قَـلمَّـا يَـتَـمَـتَّـعُ
يُحِبُّ السَّعِيْدُ العَدْلَ عِنْدَ احْتِجَاجِهِ
وَيَبْغِيْ الشَّقِيُّ البَغْيَ والبَغْي يَصْـرَعُ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلى نَهْجِ الاسْتِقَامَةِ وَأَعِذْنَا مِنْ مُـوْجبَاتِ الحَسْـرةِ وَالنَّدَامَةِ يَوْمَ القِيَامةِ وَخفِّفْ عَنَّا ثُقْلَ الأَوْزَارِ ، وَارْزُقَنا عِيْشَةَ الابْرَارِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْع المُسْلِمْين برَحْمتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِين .

مَوْعِظَة

عِبَادَ اللَّهِ كُلُّنَا نَعْلُمُ أَنَّ حَيَاتَنَا مَهْمَـا امْتَدَّتْ وَصَفَتْ لِلزَّوالِ ، وَكَذلِك كُلّ وَاحِدٍ منّا يَعْلَمُ أنه أتى للدنْيَا للاختِبَارِ بِمَا كُلِّفْنا به مِنْ العِبَادَاتِ وَالمعَامَلاتِ ، وَسَيُصْبِحُ الوَاحِدُ مِنَّا عَمّا قَرِيْبٍ في حُفْرَةٍ وَحْيداً لَيْسَ مَعَهُ أَوْلَادٌ وَلا أَمْوَالٌ ، وَحِيْنئِذٍ تَكُوْنُ أَيُّها الأخُ كأنكَ مَا رأَيْت الدُّنْيَا وَلا هِيَ رَأَتْك لَحْظَةً مِنْ اللّحَظَاتِ .

وَيَالَيْتَك إذَا زَالَتْ الحَيَاةُ تَزُوْلُ دُوْنَ أَنْ يَتَرَتَّب عَلَيْهَا آثَارٌ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لأَحبَّ بَعْضُنَا المَوْتَ ، لأنَّهُ يَكُونُ بَشِيْراً بِانْتِهَاءِ الأَمْرَاضِ وَالمَصَائِبِ وِالآلامِ ، لكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّه يَعْقُبُ ذَلِكَ المَوْتَ أهْوالٌ ، وَأُمُورٌ مُزْعِجَاتٌ ، تُلَاقِيْ جَزَاءَ مَا كَانَ مِنْكَ قَبْلَ المَوْتِ في الاخْتِبَار .

فَانْ كُنْتَ قَدْ أَحْسَنْتَ ، رَأيْتَ قَبْرَكَ رَوْضَةَ نَعِيمٍ ، وَانْ كُنْتَ مُسِيْئاً رَأَيْتَهُ نِيْرَاناً مُحْرِقَاتٍ .

عَنِ البَرَاءِ بن عَازِبٍ قَالَ كُنَّا في جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الانْصَارِ وَمَعَنَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم فانْتَهينا إلى القَبْر ولم يُلْحَدْ ، وَوُضِعَتْ الجَنَازَةُ ، وَجَلَسَ رسولُ اللهِ صلى الله عَليه وسلم ، فَقَالَ إنَّ المؤمِنَ إذا احْتُضِرَ ، أتاه مَلَكُ الموتِ في أَحْسَنِ صُوْرَةٍ ، وأَطْيَبَ رِيْحاً ، فَجَلَسَ عِنْدَه ، لِقَبْضِ رُوْحِهِ ، وَأَتَاه مَلَكَانِ بحَنُوطٍ مِن الجَنَّةِ وَكَانَا منه على بَعِيْدٍ فَاسْتَخْرَجَ مَلَكُ المَوْتِ رُوْحَهُ مِن جَسَدِهِ رَشْحاً .

فَإذَا صَارَتْ إلى مَلَكِ المَوْتِ ابْتَدَرَهَا الملكَانِ فَأخَذَاهَا مِنْهُ فَحَنَّطَاهَا بحَنُوْطٍ من الجَنّةِ وكَفَّنَاهَا بكَفَنٍ من الجَنة ثم عَرَجا بهَا إلى الجَنة ، فتُفْتَحُ له أَبْوابُ السَّمَاءِ ، وتَسْتَبْشِرُ الملائِكةُ بها وَيَقُولُوْنَ لمن هَذِه الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ التي فُتِحَتْ لها أَبْوَابُ السَّمَاءِ .

وَيُسَمَّى بأَحْسَنِ الأَسْمَاءِ التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا ، فَيُقَال هذه رُوْحُ فُلانٍ فإذا صَعَدَا بها إلى السَّمَاءِ شَيَّعَها مُقَرَّبُوا كُلِّ سَمَاءٍ ، حتى تُوْضَعَ بين يَدِيْ اللهِ عندَ العَرْشِ ، فيُخْرَجُ عَمَلُهَا مِن عِلِّيِّيْنَ فيَقُولُ الله عَز وجَلّ للمُقَرَّبين اشْهَدوا أنّي قد غَفَرْتُ لصَاحِبِ هذا العَمَل ، وَيُخْتَمُ كِتَابُه فيُرَدُّ في عِلِّيِّيْنَ .

فيَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رُدُّوا رُوْحَ عَبْدِي إلى الارْضِ ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُم أَنِّي أُرُدُّهُم فِيْها .

ثُمَّ قَرَأَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم « مِنْهَا خَلَقْنَاكُم وَفيها نُعِيْدُكم ومنها نُخْرِجُكم تَارَةً أُخْرَى » فإِذَا وُضِعَ المؤْمِنُ في لَحْدِهِ تَقُولُ لَهُ

الأَرْضُ إنْ كُنْتَ لَحَبِيْباً إليَّ وَأَنْتَ عَلى ظَهْرِيْ ، فَكَيَفَ إِذْ صِرْتَ اليَوْمَ في بَطْنِي سَأُرِيْكَ مَا أَصْنَعُ بِكَ ، فَيُفَسْحُ لهُ في قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ .

وَقَالَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا وُضِعَ الكَافِرُ في قَبْرِهِ أَتَاهُ مُنْكَرٌ وَنكِير فَيُجْلِسَانِهِ فيَقُولاَنِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ ، فَيَقُولَ لا أدْرِيْ فَيَقُولاَنِ لَهُ لادَرَيْتَ ، فَيَضْرِبَانِه ضَرْبَةً فَيَصُيْرُ رَماداً ، ثمَّ يُعَادُ فَيَجْلَسُ فَيُقَالُ لَهُ مَا قَوْلُكَ في هَذا الرَّجُلِ ، فيَقُولُ أَيَّ رَجُلٍ فَيَقُولاَنِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ قَالَ النَّاسُ إنَّهُ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلم فَيَضْرِبَانَه ضَرْبَةً فَيَصِيْرُ رَماداً .

وَيَا لَيْتَ الأَمْرُ يَنْتَهِي ، وَيَقِفُ عند هَذَا الحَدِّ ،فَتَبْقَى في قَبْرِكَ عَلى الدَّوَامِ ، فَإِنَّه أخَفُّ مِمَا بَعْدَهُ ، فَتَكُونُ آلامُكَ فِيْهِ أخفُّ إنْ كُنْتَ مِن أهْلِ الشَّقَاءِ وَالآثامِ ، وَلَكِن تَعْلَمُ أنَّ مَا أَخْبَرَ بهِ اللّهُ سَيَقَعُ ، وَهُو القِيَامُ مِن القُبورِ ، قَالَ اللهُ تَعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِربِّ العَالِمْيَنِ ﴾ .

وَحِيْنَئِذٍ تَسُوقُكَ نَتيجَةُ اختِبَارِكَ إمَّا إلى الجَنَّةِ وإمَّا إلى السَّعِيْر ، مَنْ كَانَ مكذبا بهَذا والعَياذُ باللهِ فلا كَلامَ لَنَا مَعَهُ ، لإنَّ مَآلَهُ إلى جَهَنَّمَ وَبئْسَ المِهَادِ لإِنَّهُ مِن الكافِرينَ ، وَإنْ كَانَ مُؤْمِناً بِذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ وَرَسُولَهُ فهُوَ الذِي تُفِيْدُ فِيْهِ المَواعِظُ وَضَرْبِ الأمْثَالِ وَيُقَالُ لِمَاذا نَراكَ مُتَّصِفاً بمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَمُنْتَظِرٍ لِلْمَوْتِ في كُلِّ سَاعَةٍ
يَشِيْدُ وَيَبْنِي دَائِماً وَيُحَصِّنُ
لَهُ حِيْنَ تَبْلُوْهُ حَقِيْقَة مُوْقِنٍ
وَأَفْعَالُهُ أَفْعَالُ مَنْ لَيْس يُوْقِنُ

عِيَـانٌ كَـإنْكَـارٍ وَكَـالْجَهْـلِ عِلْمُـهُ

بِـمَـذْهَبِـهِ فـي كُـلِّ مَـا يَتيـقَّنُ

نَرَاكَ في لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ في مَا يُغْضِبُ مَوْلَاكَ فلِسَانُكَ في مَيْدَانِ الفُحْشِ ، وَمُنْكَرِ القَوْلِ جَوادٌ عَظِيْمٌ وَعَيْنُكَ في أَوْدِيَةِ النَّظَرَاتِ الخَائِنَةِ دَائِما تَجُولُ وَتَهِيْمُ ، وَفَرْجُكَ لا يَتهَيَّبُ أنْ يَتَجَاوَزَ أَرْضَهُ الطَّيِّبَةِ الى الارْضِ الوَبِيْئَةِ الخَبْيثَةِ وأمَّا بَطْنُكَ فَلا يَعِفُّ عَنْ أَخْبَثِ المأكُولاتِ ، وَأَمَّا أذنُكَ فَمُصَغِيَةٌ وَسَامِعَةٌ الى مَالا يَحِلُّ من الكَلَام .

وَأمّا رِجْلُكَ فَسَاعِيَةٌ الى المعَاصِيْ وَالآثَامِ ، وَأمَّا يَدُكَ فَبَاطِشَة بالضَّعِيْفِ دُوْنَ تَوَقُّعٍ ، فَيَا مِسْكِيْنُ انَّ المَعَاصِيْ عَدُوٌّ مُبِيْنٌ ، يَعْلَمُ ذَلِكَ كلُّ مُؤْمِنٍ عَاقِلٍ لَبِيْبٍ ، وَانَّ مَآلَ الْمُصِرِّ عَلَيْها انْ لَمْ يَتَجَاوزْ عَنْهُ مَوْلَاهُ النارُ فَهَلْ العَاقِلُ فَضلاً عَنْ المؤمِن يُلْقِى نَفْسَهُ فِيْهَا ، فَاتَّعِظْ وتَنَبَّه أيُّهَا الأَخُ وَبَرْهِنْ عَلى أنكَ تُميِّزُ بَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِ .

شِعْرًا :

يَـا طَـالِبـاً رَاحَـةً مِنْ دَهْـرِهِ عَبَثاً

أقْصر فَمَا الـدَّهْرُ إلَّا بـالهُمُوْمِ مُلِي

كَمْ مَنْـظَرٍ رَائِقٍ أفْنَتْ جَمَـالَتُـه

يَـدُ المَنُـوْنِ وَأَعْيَتْـهُ عَنْ الحِيَـلِ

وَكَمْ هُمَـامٍ وَكَم قَـرْمٍ وَكَمْ مَلِكٍ

تَحْتَ التُرَابِ وَكَم شَهْمٍ وَكَمْ بَطَلِ

وَكَـمْ إمَـامٍ إلَـيْـهِ تَـنْـتَـهِي دُوَلٌ

قَدْ صَارَ بالموتِ مَعْزُولاً عَنْ الدُّوَلِ

وَكَمْ عَـزِيْـزٍ أذَلَّتْـهُ المَنُـونُ وَمَـا
أنْ صَدَّهَا عَنْـهُ مِنْ مَالٍ وَلاَ خـوَلَ
يَـا عَـارِفـاً دَهْـرَهُ يَكْفِيـكَ مَعْـرِفَـةً
وَإنْ جَهِلْتَ تَصَـارِيْفَ الزَّمَـانِ سَـلِ
هَلْ في زَمَانِكَ أَوْ مَنْ قَبْلَهُ سَمِعتْ
أُذْنَـاكَ أنَّ ابْنَ أُنْثَى غَيْـرُ مُنْتَقِـلِ
وَهَـلْ رَأَيْتَ أُنَـاسـاً قَـدْ عَلوا وَغَلَوا
في الفَضْلِ زَادُوا بمَا نَالُوا عَنْ الأَجَلِ
أَوْ هَلْ نَسِيْتَ «لِدُوْا لِلْمَوْتِ» أَوْ عَمِيَتْ
عَيْنَـاكَ عَنْ وَاضِحٍ نَعْشـاً وَمُحْتَمِـلِ
وَهَـلْ رَعَى المَـوْتُ ذَا عِـزٍّ لِعِّـزِتِـهِ
أَوْ هَـلْ خَلا أَحَـدٌ دَهْراً بِـلا خَلَلِ
المَـوْتُ بَـابٌ وَكُـلُّ النَّـاسِ دَاخِلُهُ
لَكِنَّ ذا الفَضْلِ مَحْمُولٌ على عَجَلِ
وَلَـيْسَ فَـقْـدُ إمَـامٍ عَـالِـمٍ عَـلَمٍ
كَفقـدِ مَنْ لَيْسَ ذا عِلْمٍ وَلا عَمَلِ
وَلَيْسَ مَـوْتُ الـذِيْ مَـاتَتْ لَـهُ أُمَمٌ
كمَوْتُ شَخْصٍ مِنْ الأَوْغَادِ وَالسَّفَلِ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ وَقَوِّى إيْمَانَنَا بِكَ وَمَلاِئِكَتِكَ وَكُتَبِكَ وَرُسُلِكَ وَاليومِ الآخرْ والقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لامتِثَالِ أمْرِكَ واغفِرْ لَنَا وَلِوالِدَيْنَا وَلجَمْيعِ المُسْلِمِيْنَ بَرحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبَهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

في الرَّجَــــاءِ

الرَّجَاءُ قِيْلَ في تَعْرِيْفِه هُوَ ارْتِيَاحُ لِانْتِظَارِ مَا هُوَ مَحْبُوبٌ عِنْدَ الانْسَانِ وَلَكِنَّ ذَلِكَ المتَوَقَّع لا بُدَّ لهُ من سَبَبٍ حَاصِلٍ ، فانْ لمْ يَكُنْ السَّبَبُ مَعْلُومَ الوُجُوْدِ وَلا مَعْلُوْمَ الانْتِفَاءِ سُمِّيَ تَمنِّياً لأنه انْتِظَارٌ من غَيْرِ سَبَبٍ ولا يُطْلَقُ اسْمُ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ إلاَّ عَلَى مَا يُتَرَدَّدُ فِيْهِ .

فَأمَّا مَا لا يُتَرَدَّدُ فيهِ وَيُقْطَعُ بهِ فَلا إِذْ لَا يُقَالُ أَرْجُوْ طُلُوْعَ الشَّمْسِ ولكن يُقَالُ أَرْجُو نُزُوْلَ الْمَطَر ، وَأَخَافُ انْقِطَاعَهُ وَضِدُّ الرَّجَاءِ اليَأْسُ وَهُو تَذَكّرُ فَوْتِ رَحْمَةِ اللّهِ ، وَقَطْعُ القَلْبِ عن ذَلِكَ ، واليَأْسُ مَعْصِيَةٌ قالَ تعَالَى إِخْبَاراً عَمَّا قَالَهُ يَعْقُوْبُ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللّهِ إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُوْنَ .

وَمُقَدِّمَاتُ الرَّجَاءِ أَرْبَعٌ ، الأُوْلَى ذِكْرُ سَوَابِقِ فَضْلِ اللّهِ إلى العَبْدِ وَالثَّانِيَة ذِكْرُ مَا وَعَدَ اللهُ مِن جَزِيْلِ ثَوَابِهِ وَعَظِيْمِ كَرَمِهِ وَجُوْدِه دُوْنَ اسْتِحْقَاقٍ أَوْ سُؤَالٍ ، الثَّالِثَة : ذِكْرُ كَثْرَةِ نِعَمِ اللّهِ عَلَيْكَ في أَمْرِ دِيْنِك وَبدَنِكَ وَدُنْيَاكَ في الحَالِ مِنْ أَنْوَاعِ الأَمْدَادِ والأَلْطَافِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ أَوْ سُؤَالٍ ، وَالرَّابِعَةُ ذِكْرُ سَعَةِ رَحْمَةِ اللّهِ تَعَالَى وَسَبْقِهَا غَضَبَهُ وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيْمُ الغَنِيّ الكَرِيْمُ الرَّؤُفُ بِعِبَادِهِ المُؤْمِنِيْنَ ، وَقُوَّةُ الرَّجَاءِ على حَسَبِ قُوَّةِ المعْرِفَةِ باللّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَغَلَبَةِ رَحْمَتِهِ غَضَبِهِ .

قالَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ فَالرَّجَاءُ ضَرُوْرِيٌّ لِلْمُرِيْدِ السَّالِكِ والعَارِفِ لَوْ فَارَقَهُ لَحْظَةً لَتلِفَ أَوْ كَادَ فَإِنهُ دَائِرٌ بَيْنَ ذَنْبٍ يرجُو غُفْرَانَهُ وَعَيْبٍ يَرْجُو إِصْلاحَهُ وَعَملٍ صَالِحٍ يَرْجُو قبوْلَهُ وَاسْتِقَامةٍ يَرْجُو حُصُوْلَها وَدَوامَها .

وَقُرْبٍ مِن اللّهِ وَمَنْزِلَةٍ عِنْدَهُ يرجُو وُصُوْلَهُ إِلَيْهَا وَالرَّجَاءُ مِن الأَسْبَابِ التي يَنَالُ بهَا العَبْدُ مَا يَرْجُوهُ مِن رَبِّهِ بل هُوَ مِن أَقْوَى الاسْبَابِ أهـ .

وَقَالَ في مُخْتَصَرِ مِنْهَاجِ القَاصِدِيْنَ : وَقَدْ عَلِمَ أَرْبَابُ القُلُوْبِ أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ وَالقَلْبُ كالأَرْضِ وَالايْمَانُ كالْبَذْرِ فِيْهَا وَالطَّاعَاتُ جَارِيةٌ مَجْرَى تَنْقِيَةِ الأَرْضِ وَتَطْهِيْرِهَا ، وَمَجْرَى حَفْرِ الأَنْهَارِ وَسِيَاقَةِ الماءِ اليْهَا .

وأنَّ القَلْبَ المُسْتَغْرِقَ بالدُّنْيَا كالأَرْضِ السَّبِخَةِ التِي لَا يَنْمُو فِيْهَا البَذْرُ وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُوَ يَوْمُ الحَصَادِ ، وَلا يَحْصُدُ أَحَدٌ الَّا مَا زَرَعَ وَلَا يَنْمُو زَرْعٌ إِلَّا مَنْ بَذَرَ الايْمَانَ ، وَقَلَّ أنْ يَنْفَعَ إِيْمَانٌ مَعَ خُبْثِ القَلْبِ وَسُوْءِ أَخْلَاقِهِ ، كَمَا لا يَنْمُو البَذْرُ في الأَرْضِ السَّبِخَةِ .

فَيَنْبَغِي أنْ يُقَاسَ رَجَاءُ العَبْدِ المغْفِرَةَ بِرَجَاءِ صَاحِبِ الزَّرْعِ ، فَكُلُّ مَنْ طَلَبَ أَرْضاً طَيِّبَةً وَأَلْقَى فِيْهَا بَراً جَيِّداً غَيْرَ مُسَوَّسٍ وَ عَفِنٍ ، ثُمَّ سَاقَ إِليها الماءَ في أَوْقَاتِ الحَاجَةِ ونَقَّى الأَرْضَ مِنْ الشَّوْكِ والحَشِيْشِ وَمَا يُفْسِدُ الزَّرْعَ .

ثُم جَلَسَ يَنْتَظِرُ مِن فَضْلِ اللهِ تَعَالى دَفْعَ الصَّوَاعِقِ والآفَاتِ المُفْسِدَةِ إلى أنْ يَتِمَّ الزَّرْعُ وَيَبْلُغَ غَايَتَهُ ، فَهذا يُسَمّى انْتِظَارُه رجَاءً فأمَّا إِنْ بَذَرَ في أَرْضٍ سَبِخَةٍ صَلْبَةٍ مُرْتَفِعَةٍ لا يَصِلُ إِلَيْهَا الماءُ وَلَمْ يَتَعَاهَدْهَا أَصْلاً ثم انْتَظَرَ الحَصَادَ فهذَا يُسَمَّى انْتِظَارُه حُمْقاً وَغُرُوْراً لَا رَجَاءً .

وَإِنْ بَثَّ البَذْرَ في أَرْضٍ طَيِّبَةٍ ، وَلَكِنْ لا مَاءَ لَهَا وَأَخذ يَنْتَظِرُ مِياه الامْطَارِ سُمِّيَ انْتِظَارُهُ تَمنِّياً لا رَجَاءً ، فإِنَّ اسْمَ الرَّجَاءِ إِنْما يَصْدُقُ على

انْتِظَارِ مَحْبُوبٍ ، تَمَهَّدَتْ أَسْبَابُه الدَّاخِلَة تَحْتَ اخْتِيَارِ العَبْدِ ، وَلَم يَبْقَ إلا مَا لَيْسَ إلى اخْتِيَارِهِ ، وَهُوَ فَضْلُ اللهِ سُبْحَانَهُ بِصَرْفِ المَوانِعِ المُفْسِدَاتِ .

فَالعَبْدُ إِذَا بَثَّ بَذْرَ الايْمَانِ وَسَقَاهُ مَاءَالطَّاعات ، وَطَهَّرَ القُلُوْبَ مِن شَوْكِ الأَخْلاَقِ الرَّدِيْئَةِ وَانْتَظَرَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تعالى ثَبَاتَهُ على ذَلِكَ إلى المَوْتِ ، وَحُسْنَ الخَاتِمَةِ المُفْضِيَةِ إلى المَغْفِرَةِ كَانَ انْتِظَارُهُ لِذَلِكَ رَجَاءً مَحْمُوداً بَاعِثاً عَلى المُوَاظَبَةِ عَلى الطَّاعَاتِ وَالقِيَامِ بِمُقْتَضَى الإِيْمَانِ إلى المَوْتِ .

وَإِنْ قَطَعَ بَذْرَ الايْمَانِ عَنْ تَعَهُّدِهِ بِمَاءِ الطَّاعَاتِ أَوْ تَرْكِ القَلْبِ مَشْحُوْناً بِرَذَائِلِ الأَخْلاَقِ وَانْهَمَكَ في طَلَبِ لَذَّاتِ الدُّنْيَا .

ثُمَّ انْتَظَرَ المَغْفِرَةَ كَانَ ذَلِكَ حُمْقاً وَغُرُوْرا قَالَ اللهُ تَعالَى «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُوْنَ عَرَضَ هَذا الأَدْنَى وَيَقُوْلُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَإِنْ يَأْتِهم عَرَضٌ مِثْلُه يَأْخُذُوْه» وَذَمَّ القَائِلَ ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ .

مـوعظـة

عِبَادَ اللهِ يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلا وَتَقَدَّسَ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمِنُون الذين هُمْ في صَلاتِهم خَاشِعُوْنَ ﴾ عِبَادَ اللهِ انَّ الصَّلاَةَ عِمَادُ الدِّيْنِ وَأَعْظَمُ أَرْكَانِ الإِسْلاَمِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَهِيَ قُرَّةُ عَيْنِ المُؤْمِن وَطُمَأْنِيْنَةُ قَلْبِهِ تَبْدُو وَاضِحَةً في وُقُوْفِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ ، وَخُشُوْعِه وَانكِسَارِهِ ، عِنْدَمَا يَتَّجِهُ إِلَيْهِ في عِبَادَتِهِ ، وَيَقِفُ خَاضِعاً ذَلِيْلاً بَيْنَ يَدَيْ العَزِيْزِ الحَكِيْمِ .

عِبَادَ اللهِ مَنْ حَافَظَ عَلى الصَّلاَةِ فَهُوَ السَّعِيْدُ الرَّابِحُ ، وَمَنْ أَضَاعَهَا فَهُوَ الشَّقِيُّ الخَاسِرُ ، وَإِنَّ اللبِيْبَ العَاقِلَ مَنْ إذا حَضَرَ لِلصَّلاَةِ أَقْبَلَ بِقَلْبِهِ وَقَالبِهِ ، طَرَحَ الدُّنْيَا وَشُؤُنَها وَمُتَعَلِّقَاتِهَا جَانِباً وَتَدَبَّرَ مَا يَتْلُوهُ إنْ كانَ وَحْدَهُ أَوْ إِمَاماً . وَأَنْصتَ وَأَحْضَر قَلْبَهُ إنْ كَانَ مَأْموماً وَتَفَهَّم مَا يَسْمَعُ وَابْتَهَلَ وَتَضَرَّعَ إلى مَوْلَاهُ .

عِبَادَ اللّهِ إنَّ الخُشُوْعَ في الصَّلاَةِ هُوَ رُوْحُهَا ، وَالمِحْوَرَ الذِيْ تَدُوْرُ عَلَيْهِ سَائِرُ أَفْعَالِهَا ، وَالخُشُوْعُ فِيْهَا مَعَ الإخْلَاصِ للهِ آيَةُ الإِيْمَانِ وَسَبَبُ الفَلَاحِ وَأَمَانٌ مِن وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ . أَلاَ وَإِنَّ الصَّلَاة بلا خُشُوْعٍ كَجَسَدٍ بلا رُوْحٍ ، قالَ ابْنُ عَباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلاَتِكَ إلَّا مَا عَقَلْتَ مِنْهَا » .

وَفِي المُسْنَدِ مَرْفُوعاً إِنَّ العَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ إلَّا نِصْفَهَا أَوْ ثُلُثَهَا أَوْ رُبْعَهَا ، حَتَّى بَلَغَ عُشْرَهَا ، وَقَدْ عَلَّقَ اللهُ فَلاَحَ المصَلِّيْنَ بالخُشُوْعِ فِي صَلاَتِهِم ، فَدَلَّ عَلى أَنَّ مَنْ لم يَخْشَعْ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الفَلاَحِ وَلَوْ اعْتُدَّ لَهُ بِهَا ثَوَاباً لَكَانَ مِنْ المفْلِحِيْنَ هَكَذَا قالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ .

قالُوا وامَّا الاعْتِدَادُ بِهَا في أَحْكَامِ الدُّنْيَا وَسُقُوْطِ القَضَاءِ فَإِنْ غَلَبَ الخُشُوْعُ وَتَعَقُّلُها اعْتُدَّ بِهَا اجْمَاعاً ، وَكَانَتْ السُّنَنُ والاذْكَارُ عقِبَهَا جَوابِرَ وَمُكَمِّلاتٍ لِنَقْصِهَا ، وَانْ غَلَبَ عَلَيْهِ عَدَمُ الخُشُوعِ فِيْهَا وَعدِمَ تعقّلُها .

فقد اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ في وُجُوْبِ اعادَتِهَا وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهَا صَلَاةٌ لَا يُثَابُ عليها ، ولم يُضْمَنْ له فيها الفَلاَحُ فلم تَبْرَأْ ذِمَّتُهُ منها ، وَيَسْقُطُ القَضَاءُ

عنهُ كصلاةِ المرائِي قَالُوا وَلأَنَّ الخُشُوْعَ وَالعقْلَ رُوْحُ الصَّلاَةِ ، وَمَقْصُوْدُهَا وَلُبُّهَا ، فَكَيْفَ يُعْتَدُّ بصَلاةٍ فُقِدَتْ رُوْحهَا ، وَلُبُّهَا وَبقِيَتْ صُوْرَتُهَا وَظَاهِرُهَا .

قَالُوا وَلَوْ تَرَكَ العَبْدُ وَاجباً من وَاجِبَاتِهَا عَمْداً لأَبْطَلَهَا تَرْكُهُ وَغَايَتُه أَنْ يَكُوْنَ بَعْضاً مِنْ أَبْعَاضِهَا بِمَنْزِلَةِ فَواتِ عُضْوٍ من أَعْضَاءِ العَبْدِ المُعْتَقِ في الكَفَّارَةِ ، فَكَيْفَ إذَا عُدِمَتْ رُوْحُهَا وَمقْصُوْدُهَا ، وَصَارَتْ بمَنزلَةِ العَبْدِ الميِّتِ فإذَا لَم يُعْتَدّ بالعَبْدِ المقْطُوْعِ اليَدِ يُعْتِقُه تَقَرُّباً إلى اللهِ تَعَالَى في كَفَّارَةٍ وَاجِبَةٍ فَكَيْفَ يُعْتَدُّ بالعَبْدِ الميِّتِ .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّلاَةُ كَجَارِيَةٍ تُهْدَى إلى مَلِكٍ مِن المُلُوْكِ فَمَا الظَّنُ بمَنْ يُهْدِي إلَيْهِ جَارِيَةً شَلاَّءَ أَوْ عَوْرَاءَ أَوْ عَمْيَاءَ أَوْ مَقْطُوْعَةَ اليَدِ أَوْ الرِّجْلِ أَوْ مَرِيْضَةً أَوْ دَمِيْمَةً أَوْ قَبِيْحَةً حَتَّى يُهْدِي إليهِ جَارِيَةً مَيِّتَةً بلاَ رُوْحٍ وَجَارِيَةً قَبِيْحَةً فَكَيْفَ بالصَّلاةِ التي يُهْدِيْهَا العَبْدُ وَيَتَقَرَّبُ بِهَا إلى رَبِّهِ تَعَالَى وَاللّهُ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّباً وَلَيْسَ مِن العَمَلِ الطَّيِّبِ صَلاَةٌ لا رُوْحَ فِيْهَا كَمَا أنه لَيْسَ مِن العِتْقِ الطَّيِّبِ عِتْقُ عَبْدٍ بلا رُوْحٍ .

قَالُوا وَتَعْطِيْلُ القَلْبِ عن عُبُوْدِيَّةِ الحُضُوْرِ وَالخُشُوْعِ تَعْطِيْلٌ لِمَلِكِ الأَعْضَاءِ عن عُبُودِيَّتِهِ وَعَزْلٌ له عَنْهَا فمَاذَا تُغْنِي طَاعَةُ الرَّعِيَّةِ وَعُبُودِيَّتُها وَقَدْ عُزِلَ مَلِكُهَا وَتَعَطَّلَ .

قَالُوا وَالأَعْضَاءُ تَابِعَةٌ لِلْقَلْبِ تَصْلُحُ بِصَلاَحِهِ وَتَفْسُدُ بفَسَادِهِ فإذا لم يكن قائماً بِعُبُودِيَّتِهِ فَالأَعْضَاءُ أَوْلَى أَنْ لا يُعْتَدَّ بِعُبُودِيَّتِهَا وَإذَا فَسَدَتْ عُبُودِيَّتُه بالغَفْلَةِ وَالوَسْوَاسِ فَأَنَّى تَصِحُّ عُبُودِيَّةُ رَعِيَّتِهِ وَجُنْدِهِ وَمَادَّتُهم مِنْهُ

وَعَنْ أَمْرِهِ يَصْدُرُوْنَ وَبِهِ يَأْتَمِرُوْنَ .

قَالُوا وَلأَنَّ عُبُودِيَّةَ مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الغَفْلَةُ وَالسَّهْوُ في الغَالِب لَا تَكُوْنُ مُصَاحِبَةً للإِخْلَاص فَإِنَّ الإِخْلَاصَ قَصْدُ المَعْبُودِ وَحْدَهُ بِالتَّعَبُّدِ وَالغَافِلُ لَا قَصْدَ لَهُ فَلَا عُبُوْدِيَّةَ لَهُ .

قَالُوا وَقَدْ قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّيْنَ الذِيْنَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُوْنَ ﴾ وَلَيْسَ السَّهْوُ عَنْهَا تَرْكُهَا وَإِلَّا لَمْ يَكُونُوا مُصَلِّيْنَ وإِنَّمَا السَّهْوُ عَنْ وَاجبَها إِمَّا عَن الحُضُوْرِ أَوِ الخُشُوْعِ .

وَالصَّوَابُ أنَّه يَعُمُّ النَّوْعَيْنِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَثْبَتَ لَهُم صَلَاةً وَوَصَفَهَا بالسَّهْوِ عَنْهَا ، فَهُوَ السَّهْوُ عن وَقْتِهَا الوَاجِبِ أو عَنْ اخْلَاصِهَا وَحُضُوْرِهَا الوَاجِبَ ، وَلِذَلِكَ وَصَفَهُم بالرِّيَاءِ ، ولو كَانَ السَّهْوُ سَهْوَ تَرْكٍ لما كَانَ هُنَاكَ رِيَاءً أهـ .

وَبالتَّالِي فَانَّ العَبْدَ إِذَا مَرَّنَ نَفْسَهُ وَقَلْبَهُ على التَّفَهُّمِ وَالتَّدَبُّرِ وَالخُشُوْعِ وَالخُضُوْعِ في الصَّلَاةِ انْغَرَسَتْ في قَلْبِهِ خَشْيَةُ اللّٰهِ وَمَحَبَّتِه وَالرَّغْبَةِ فِيْمَا لَدَيْهِ ، وَحَضَرَتْهُ هَيْبَةُ خَالِقِهِ في جَمِيْعِ أَحْوَالِهِ وفي جَمِيْعِ أَعْمَالِهِ .

فَإِذَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَمْراً أَوْ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ سُوْءاً تَبَرَّأَ مِنْهُمَا قَائِلاً إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالمين فكُنْ في صَلاتِكَ خَاشِعاً خَاضِعاً مُخْبِتَا .

فَإِذَا قُلْتَ اللهُ أَكْبَرُ فَاسْتَحْضِرْ عَظمَةَ اللّٰهِ وَأَنَّه لا شَيْءَ أَكْبَرَ مِنْهُ وَلَا شَيْءَ أَعْظَمَ مِنْه وَأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لأَنْ يُعَظَّمَ وَيُجَلَّ وَيُقَدَّرْ وَأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُسَاوِيْهِ أَوْ يُدَانِيْهِ في عَظَمَتِهِ .

وَإذَا قُلْتَ الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالمين فاسْتَحْضِرْ أنَّهُ المُسْتَحِقُّ لِلثَّناءِ وَانَّهُ المرَبِّي لِجَمِيْعِ الخَلْقِ التَّرْبِيَةَ العَامَّةَ والمُرَبِّي لِخَواصِّ خَلْقِهِ التَّرْبِيَةَ الخَاصَّةَ ، وَهِيَ تَرْبِيَةُ القُلُوبِ على العَقَائِدِ النَّافِعَةِ ، وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَالأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ .

وَإذَا قُلْتَ الرَّحْمنُ الرَّحِيْم اسْتَحْضَرْتَ لِرَحْمَتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ رَاجِياً مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ كَتَبَهَا لَهُمْ فَإذَا قُلْتُ مَلِكِ يَوْمِ الْدِّيْنِ مَجَّدَّتْهُ وَاسْتَحْضَرْتَ لِوُقُوفِكَ بَيْنَ يَدَيْه وَهُوَ أَحْكَمُ الحَاكِمِيْنَ .

فَإذَا قُلْتَ إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِين اسْتَحْضَرْتَ أَنَّكَ تَخُصُّهُ وَحْدَهُ بالعِبَادَةِ والاسْتِعَانَةِ ، المَعْنَى نَعْبُدكَ وَلا نَعْبُدُ غَيْرَكَ وَنَسْتَعِيْنُ بِكَ وَلاَ نَسْتَعِيْنُ بِغَيْرِكَ .

فَإذَا قُلْتَ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ اسْتَحْضَرْتَ أَنَّكَ تَتَضَرَّعُ إليه وَتَسْأَلُه أن يَدُلَّكَ وَيُرْشِدَكَ وَيُوَفِّقَكَ إِلى سُلُوْكِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ وَأَنْ يُثَبِّتَكَ عَليه فَهذا الدُّعَاءُ مِن أَجْمَعِ الأَدْعِيَةِ وَأَنْفَعِهَا لِلْعَبْدِ وَلِهَذَا وَجبَ عَلى العَبْدِ أَنْ يَدْعُوَ به فِيْ كُلِّ رَكْعَةٍ من صَلاَتِهِ لِضَرُوْرَتِهِ إلى ذَلِكَ وَهَذا الصِّرَاطُ هُوَ صِرَاطُ المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِن النَّبِيِّيْنَ .

وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيْقًا ، وَافْعَل في بَاقِي صَلاَتِكَ كَمَا فَعَلْتَ في أَوَّلِهَا مِنْ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ مُحْضِراً قَلْبَكَ لِمَعَانِيْ مَا تَقُولُهُ وَمَا تَسْمَعُهُ حَتَّى تُكْتَبْ لَكَ كَامِلَةً .

عِبَادَ اللّهِ إنَّ مَنْ حَافَظَ عَلى الصَّلَوَاتِ في أَوْقَاتِهَا وَوَاظَبَ عَلى الجُمُعَةِ وَالجَمَاعَاتِ وَأَدَّاهَا تَأْدِيَةً تَامَّةً بِخُشُوْعٍ وَخُضُوْعٍ ، اسْتَنَارَ قَلْبُهُ

وَقَوِيَتْ الصِّلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ ، وتهَذَّبَتْ نَفْسُهُ وَحَسُنَتْ مَعَ اللّهِ والنَّاسِ مُعَامَلَتُه ، وَحِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المُحَرَّمَاتِ وَكَانَ على البُؤسَاءِ عَطُوْفاً وَبالضُّعَفَاءِ رَحِيْماً ، وَأَفْلَحَ في دِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ وَكَانَ مِنْ المحْبُوبِيْنَ عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ .

عِبَادَ اللّهِ النَّفْسُ النَّفْسُ آمِرَةٌ بالسُّوْءِ ، وَالشَّيْطَانُ يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالسَّيْفُ القَاطِعُ والدَّوَاءُ النَّافِعُ الذِي جَعَلَهُ اللهُ وِقَايَةً لِلإِنْسَانِ مِن شَرِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ ، إِنَّما هُوَ الصَّلاَةُ قالَ اللّهُ تَعالَى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكرِ وَلَذِكرُ اللّهِ أَكْبَرُ ﴾ .

عِبَادَ اللّهِ احْذَرُوا أن تَسْتَهِيْنُوا بالصَّلاةِ وأن لا تَهْتَمُّوْا لَهَا ، فَإِنَّ هَذِهِ صِفَةُ الذِيْنَ خَلَتْ صَلاَتُهُم مِن التَّذَللِ وَالخُشُوْعِ كَمَا تَرَوْنَهُم يُسْرِعُوْنَ في أَدائِهَا وَهُمْ عَنْهَا غَافِلُوْنَ لا يَعْرِفُوْنَ لَهَا مَعْنَى وَلا يَعْقِلُونَ لها سِرّاً وَلَمْ تَشْعُرْ قُلُوبهُم بحَلاوَتِهَا وَلاَ بِلَذَّةِ المُنَاجَاتِ قَدْ مَلَكَتْهُم الوَسَاوِسُ، وامْتَلأَتْ قُلُوبُهُم بشَوَاغِلِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِم الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللّهِ .

قَالَ تَعالَى ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ ﴾ وَمِنْ النَّاسِ مَن عَمِيَتْ بَصَائِرُهم ، وَتَحَجَّرَتْ ضَمَائِرُهُمْ ، فَأَضَاعُوا الصَّلاَةَ واتَّبَعُوا الشَّهواتِ ، وَأَهْمَلُوا أَوَامِرَ بَدِيْعِ السَّمَوَاتِ وَغَفَلُوا عَنْ وَاجِبِ شُكْرِهِ وَلَمْ يَخافُوا سَطْوَةَ جَبَرُوتِهِ وَبَطْشِهِ ، وَلاَ سُوْءَ الحِسَابِ ، وَلاَ نَارَ العَذَابِ ﴿ نَسُوا اللّهَ فَأَنْسَاهُم أَنْفُسَهُمْ ﴾ ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الخَاسِرُوْنَ ﴾ .

فَيَا أَيُّها المُسْلِمُونَ اتَّقُوا اللّهَ رَبَّكُم وَحَافِظُوا عَلى صَلاتِكُم وَقُومُوا

لِلّهِ خَاضِعِيْنَ خَاشِعِيْنَ لِتَفُوزُوا بِرِضْوَانِ اللهِ وَتَكُونُوا مِن المُفْلِحِيْنَ .

اللهُمَّ قَوِّى إِيْمَانَنَا بِكَ وَبِمَلاَئِكَتِكَ وَبِكُتُبِكَ وَبُرُسُلِكَ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ .

اللّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ فِي قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَأَرْزُقْنَا صِيَانَةَ أَوْقَاتِنَا وَحِفْظَهَا عَنْ المَعَاصِيْ وَوَفِّقْنَا لِشَغْلِهَا بِالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

رَوَى شَدَّادُ بنُ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلم الكَيِّسُ مَن دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعدَ المَوْتِ وَالعَاجِزُ مَن أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلى اللّهِ الأماني .

وَمِمَّا وَرَدَ فِي الحَثّ على الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعالَى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيْ الذِيْنَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذّنُوْبَ جَمِيْعاً انَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيْمُ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿ والمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُوْنَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُوْنَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ الذِيْنَ يَحْمِلُوْنَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُوْنَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُوْنَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُوْنَ للذِيْنَ آمَنُوْا ﴾ الآية .

وَقَالَ ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوْبَ إِلاَّ الله ﴾ وقالَ ﴿ وهُوَ الذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عن عِبَادِهِ ، وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ ﴾ وَقَالَ ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ﴾ .

وَقَال ﴿ انَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرؤُفٌ رَحِيْمٌ ﴾ وَقَالَ ﴿ والذينَ لاَ يَدْعُوْنَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخرَ ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلْذِيْنَ يَتَّقُوْن ﴾ .

وَقَال ﴿ وكَانَ بالمُؤْمِنِيْنَ رَحِيْما ﴾ وَقَالَ ﴿ ولا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولي القُرْبَى وَالمَسَاكِيْنَ وَالمُهَاجِرِيْنَ في سَبِيْلِ اللّهِ وَلْيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا ألا تُحِبُّوْنَ أنْ يَغفر الله لكم واللّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ ﴾ وَوَجْهُ الدَّلالَةِ مِنْهَا حَيْثُ أَوْصَى اللهُ بالاحْسَانِ إلى القَاذِفِ .

وَمِنْ جَانِبِ الرَّجَاءِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ السَّحَرَةِ المُبَارِزِيْنَ لِمُوْسَى عَلَيْهِ السَّلاَم فَمَا كَانَ إلاَّ أَنْ رَأَوْا آيَةَ مُوْسَى فَعرفُوْا الحَقَّ وَوَقَعُوا سُجَّداً ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِيْنَ رَبِّ مُوْسَى وَهَارُونَ ﴾ أَصْبَحُوا سَحرةً وَأَمْسَوا شُهَدَاءَ بَرَرَةً ، فَهَذَا حَالُ مَنْ عَرفَ اللهَ وَوَحَّدَهُ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ السِّحْرِ وَالكُفْرِ وَالضَّلالِ وَالفَسَادِ فَكَيْفَ حَالُ مَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ في تَوْحِيْدِ اللهِ .

وَكَذَا قِصَّةُ أَصْحَابِ الكَهْفِ إذْ آمَنُوْا بـاللهِ كَيْفَ لَطُفَ بِهِمْ ، وَأَكْرَمَهُم وَأَلْبَسَهُمْ المَهَابَةَ حَتَّى إِنَّ بَرَكَتَهُم شَمَلَتْ كَلْبَهُم فَأَصَابَـهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ النَّوْمِ عَلى تِلْكَ الحَالَةِ وَصَارَ لَهُ ذِكْرٌ وَشَأْنٌ وَخَبَرٌ يُتْلَى وَهَذِهِ فَائِدَةُ صُحْبَةِ الاخْيَارِ فَمَا ظَنُّكَ بِالمُؤْمِنِ الذي عَبَدَ اللهَ وَوَحَّدَهُ وَلَهِجَ بِذِكْرِه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ ، وَعَادى فِيْهِ وَوَالَى فيه سِنِيْنَ عَدِيْدَةَ وَبِوُدِّهِ لَوْ عُمِّرَ زِيَادَةً تَابَعَ فِيْهَا خِدْمَةَ سَيِّدِهِ وَمَوْلاَهُ جَلَّ وَعَلاَ .

وَمِنْ جَانِبِ الرَّجَاءِ قَوْلُه تَعَالَى ﴿ إِنَّ الذِيْنَ فَتَنُوا المُؤْمِنِيْنَ والمُؤْمِنَاتِ ثم لَمْ يَتُوبُوْا فلهُمْ عذابُ جهنَّمَ ولَهُم عَذَابُ الحَرِيْقِ ﴾ .

شِـعْراً :

تَفِيْضُ عُيُوْنِي بِالـدُّمُوعِ السَّـوَاكِبِ
وَمَـالِيَ لا أَبكِـي على خَيْـرِ ذَاهِبِ
عَلى العُمْـرِ إِذْ وَلَّى وَحَانَ انْقِضَـاؤُهُ
بِـآمَـالِ مَغْـرُوْرٍ وَأَعْمَـالِ نَـاكِبِ
عَـلى غُـرَرِ الأَيَّـامِ لَمَّـا تَـصَـرَّمَتْ
وَأَصْبَحْتُ مِنْهَا رَهْنَ شُؤْمِ المَكَاسِبِ
عَلى زَهَـرَاتِ العَيْشِ لَمَّا تَسَـاقَطَتْ
بِـرِيْـحِ الأَمـانِيْ وَالـظُّنُـوْنِ الكَـوَاذِبِ
عَلى أَشْـرَافِ الأَوْقاتِ لَمَّا غُبِنْتُهَـا
بِـأَسْـوَاقِ غَبْـنٍ بَـيْـنَ لاهٍ وَلاَعِـبِ
عَلى أَنْفَسِ السَّـاعَـاتِ لَمَّـا أَضَعْتُهَا
وَقَـضَّـيْـتُـهَـا فـي غَـفْـلَةٍ وَمَعَـاطِبِ
عَلى صَـرْفِيَ الأَيَّـامَ في غَيْـرِ طَائِلٍ
وَلاَ نَـافِـعٍ مِنْ فِعْـلِ فَضْـلٍ وَوَاجِبِ
عَلى مَـا تَـوَلَّى مِنْ زَمَـانٍ قَضَيْتُـهُ
وَرَجَّـيْـتُـهُ فـي غَيْـرِ حَـقٍّ وَصَـائِبِ
عَلى فُـرَصٍ كَانَتْ لَـوْ أَنِّيْ انْتَهَـزْتُهَا
لَقَدْ نِلْتُ فِيْهَا مِنْ شَرِيْفِ المَطَالِبِ
وَأَحْيَـانَ آنَـاءٍ مِنْ الـدَّهْـرِ قَـدْ مَضَتْ
ضَيَـاعـاً وَكَـانَتْ مَـوْسِمـاً لِلرَّغَـائِبِ

عَلى صُحُفٍ مَشْحُونَةٍ بِمَآثِمٍ
وَجُرْمٍ وَأَوْزَارٍ وَكَمْ مِنْ مَثَالِبِ

عَلى كَمْ ذُنُوبٍ كَمْ عُيُوْبٍ وَزَلَّةٍ
وَسَيِّئَةٍ مَخْشِيَّةٍ فِيْ العَوَاقِبِ

عَلى شَهَواتٍ كَانَتْ النَّفْسُ أَقْدَمَتْ
عَلَيْهَا بِطَبْعٍ مُسْتَحَثٍّ وَغَالِبِ

عَلى أَنَّنِيْ آثَرْتُ دُنْيَا دَنِيَّةً
مُنَغَّصَةً مَشْحُوْنَةً بِالمَعَائِبِ

عَلى عَمَلٍ لِلْعِلْمِ غَيْرِ مُوَافِقٍ
وَمَا فَضْلُ عِلْمٍ دُوْنَ فِعْلٍ مُنَاسِبِ

عَلى فِعْلِ طَاعَاتٍ بِسَهْوٍ وَغَفْلَةٍ
وَمِنْ غَيْرِ إحْضَارٍ وَقَلْبٍ مُرَاقِبِ

أُصَلِّي الصَّلاَةَ الخَمْسَ وَالقَلْبُ جَائِلٌ
بِأَوْدِيَةِ الأفْكَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

عَلى أَنَّنِيْ أَتْلُوْ القُرْآنَ كِتَابَهُ
تَعَالَى بِقَلْبٍ ذَاهِلٍ غَيْرِ رَاهِبِ

عَلى طُوْلِ آمَالٍ كَثِيْرٍ غُرُوْرُهَا
وَنِسْيَانِ مَوْتٍ وَهُوَ أَقْرَبُ غَائِبِ

عَلى أَنَّنِيْ قَدْ أَذْكُرُ اللَّهَ خَالِقِيْ
بِغَيْرِ حُضُورٍ لاَزِمٍ وَمُصَاحِبِ

عَلى أَنَّنِيْ لاَ أَذْكُرُ القَبْرَ وَالبِلَى
كَثِيْراً وَسَفْراً ذَاهِباً غَيْرَ آيِبِ

عَلى أَنَّنِيْ عَنْ يَـوْمِ بَعْثِي وَمَحْشَـرِيْ
وَعَــرْضِي وَمِيْـزَانِيْ وَتِلْكَ المَصَـاعِبِ

مَـوَاقِـفُ مِنْ أَهْـوَالِـهَـا وَخُــطُوْبِهَـا
يَشِيْبُ مِنَ الـوِلْـدَانِ شَعْـرُ الـذَّوَائِبِ

تَغَـافَلْتُ حَتَّى صِرْتُ مِنْ فَـرْطِ غَفلَتِيْ
كَـأَنِـيَ لا أَدْرِيْ بِتِـلْكَ الْـمَـرَاهِـبِ

عَلى النَّــارِ أَنِّي مَـا هَجَـرْتُ سَبِيْلَهَـا
وَلَا خِفْتُ مِنْ حَيَّـاتِـهَـا وَالعَـقَـارِبِ

عَلى السَّعْيِ لِلْجَنَّاتِ دَارِ النَّعِيْمِ وَالْـ
كَـرَامَــةِ والــزُّلفَى وَنَيْـلِ المَـآرِبِ

مِنْ العِــزِّ وَالـمُلْكِ الـمُخَلَّدِ وَالبَـقَـا
وَمَـا تَشْتَهِيْهُ النَّفْسُ مِنْ كُـلِّ طَالِبِ

وَأَكْبَـرُ مِنْ هَـذا رِضَـا الـرَّبِّ عَنْهُم
وَرُؤْيَـتُهُـمْ إِيَّـاهُ مِنْ غَيْـرِ حَـاجِـبِ

فَـآهـاً على عَيْشِ الأَحِبَّـةِ نَـاعِمـاً
هَنِيْئـاً مُصَفًّى مِنْ جَمِيْـعِ الشَّـوَائِبِ

وَآهَــاً عَـلَيْـنَـا فِـيْ غُـرُوْرٍ وَغَـفْـلَةٍ
عَنْ المَـلَاءِ الأَعْلَى وَقُـرْبِ الحَبَـائِبِ

وَآهــاً عَلى مَـا فَـاتَ مِنْ هَـذْي سَـادَةٍ
وَمِـنْ سِـيْـرَةٍ مَـحْـمُـوْدَةٍ وَمَـذَاهِـبِ

عَــلَى مَــالَـهُـمْ مِـنْ هِـمَّـةٍ وَعَـزِيْـمَـةٍ
وَجِـدٍّ وَتَـشْـمِـيْـرٍ لِـنَـيْـلِ الـمَـرَاتِـبِ

عَلى مَالَهُمْ مِنْ عِفَّةٍ وَفُتُوَّةٍ
وَزُهْدٍ وَتَجْرِيْدٍ وَقَطْعِ الجَوَاذِبِ
عَلى مَالَهُمْ مِنْ صَوْمٍ كُلِّ هَجِيْرَةٍ
وَمِنْ خَلْوةٍ بِاللهِ تَحْتَ الغَيَاهِبِ
عَلى الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ اللذَيْنَ تَحَقَّقَا
وَصِدْقٍ وَاخْلَاصٍ وَكَمْ مِنْ مَنَاقِبِ
عَلى مَاصَفَا مِنْ قُرْبِهِمْ وَشُهُوْدِهِمْ
وَمَا طَابَ مِنْ أَذْوَاقِهِمْ وَالمَشَارِبِ
وَأَسْتَغْفِرُ اللّهَ العَظِيْمَ جَلَالُهُ
وَقُدْرَتُهُ في شَرْقِهَا وَالمَغَارِبِ
إِلَيْهِ مَآبِيْ وَهُوَ حَسْبِيْ وَمَلْجَئِيْ
وَلِيْ أَمَلٌ في عَطفِهِ غَيْرُ خَائِبِ
وَأَسْأَلُهُ التَّوْفِيْقَ فِيْمَا بَقِيْ لِمَا
يُحِبُّ وَيَرْضَى فَهُوَ أَسْنَى المَطَالِبِ
وَأَنْ يَتَغَشَّانَا بِعَفْوٍ وَرَحْمَةٍ
وَفَضلٍ وَاحْسَانٍ وَسَتْرِ المَعَائِبِ
وَأَنْ يَتَوَلَّانَا بِلُطْفٍ وَرَأْفَةٍ
وَحِفْظٍ يَقِيْنَا شَرَّ كُلِّ المَعَاطِبِ
وَأَنْ يَتَوَفَّانَا عَلى خَيْرِ مِلَّةٍ
عَلى مِلَّةِ الاسْلَامِ خَيْرِ المَوَاهِبِ
مُقِيْمِيْنَ لِلْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ التِي
أَتَانَا بِهَا عَالِي الذُّرَى وَالمَرَاتِبِ

مُحَمَّدٌ الهَادِي البَشِيرُ نَبِيُّنَا
وَسَيِّدُنَا بَحْرُ الهُدَى وَالمَنَاقِبِ
عَلَيْهِ صَلاَةُ اللّهِ ثُمَّ سَلاَمُهُ
وَآلٍ وَأَصْحَابٍ لَهُ كَالكَوَاكِبِ

عِبَادَ اللهِ لَا شَيْءَ أَفْسَدَ لِلقَلْبِ مِنْ التَّعَلُّقِ بالدُّنْيَا وَالرُّكُوْنِ إليها فإنَّ مَتَاعَهَا قَلِيْلٌ وَلَا تَطْمَعُوا بالاقامَةِ فيها فَإِنَّ البَقَاءَ فِيْهَا مُسْتَحِيْلٌ كَيْفَ لَا وَالمُنَادِيْ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ يَا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيْلَ ، هُوَ الموتُ ما مِنْهُ فَوْتٌ وَلا تَعْجِيْلٌ وَلا يَقْبَلُ الفِدَاءَ فَاسْتَعِدُّوا لهُ فانهُ سَيَأتِيْكُمْ عَنْ قَرِيْبٍ .

عِبَادَ اللهِ لا شَيْءَ أَفسَدَ لِلْقَلْبِ مِن التَّعَلُّقِ بالدُّنْيَا والرُّكُوْنِ إِليها وَايْثَارِها عَلى الآخِرَةِ فإِنَّ هَذا الفَسَادُ يَقْعُدُ بالمُسْلِمِ عَن التَّطلُّعِ إِلى الآخِرَةِ وَالعَمَلِ لها واتْعَابِ الجَسَدِ في سَبِيْلِ اللّهِ والدَّعْوَةِ اليهِ وَهَيْهَاتَ لِقَلْبٍ فَاسِدٍ مَرِيْضٍ أَنْ يَقْوَى على مَهامِّ الدَّعْوَةِ إلى الله ، إِنَّ الدُّنْيَا فِيْهَا قَابِلِيَّةُ الاغْرَاءِ لِلتَّعلّقِ بِهَا وَحُبِّهَا .

وَلِهَذَا وَصفَهَا النبي صلى الله عليه وسلم بقَوْلِهِ « إِن الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِن اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيْهَا فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ »وَقَدْ حَذَّرنا ربُّنا مِن الوُقُوعِ في شِبَاكِهَا والتَّعَلُقِ بِهَا فقالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الحَيَاةُ الدنيا ولا يَغُرنَّكم بِاللّهِ الغَرُوْرُ ﴾ .

وَوَجْهُ الاغْتِرَارِ بالدُّنْيَا أَنَّ فِيْهَا مَبَاهِجُ وَمَنَاظِرٌ وَمَلَذَّاتٌ لِلأَنْفُسِ وَالأَعْيُنِ وَالاسْمَاعِ تَهْوَاهَا نَفْسُه بَطبِيْعَتِهَا وَتُؤْثِرُهَا عَلى مَا سِوَاهَا قَالَ اللهُ

تَعَالَى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ كَلّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ .

فَاذَا تُرِكَتْ النَّفْسُ وَشَأْنَهَا زَادَ تَعَلُّقُهَا بالدُّنْيَا وَزَادَ التِصَاقُهَا بها حَتى تُصْبحَ هِيَ كُلُّ غَايَتِهَا وَمُنْتَهَى أمَلِها وَمَبْلَغَ عِلْمِهَا ، قَال اللهُ جَل وَعلا ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَولَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ الا الحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنْ العِلْمِ ﴾ .

وَاذَا مَا وَصَلَتْ النَّفْسُ إلى هَذَا الحَدِّ فَقَدَتْ حَاسَّةَ القَبُوْلِ وَالاعْتِبَارِ وَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يُجْدِيْ مَعَهَا وَعْظٌ وَلا تَذْكِيْرٌ مَهْمَا بَالَغْتَ فِيْهِ .

فَمَا هُوَ العِلَاجُ لِمَنْ وَصَلَ الى هذهِ الدَّرَجَةُ العِلَاجُ باذْنِ اللّهِ هُوَ تَخْلِيْصُ القَلْبِ مِنْ أَسْرَارِهَا وَتَعَلُّقِهِ بِهَا وَذَلِكَ بأَنْ يَجْعَلَ زَوَالَ الدُّنْيَا نُصْبَ عَيْنَيْهِ وَيَتَيَقَّنَ لِقَاءَ الآخِرَةِ وَبَقَاءَهَا وَمَا فِيْهَا مِنْ النَّعِيْمِ المُقِيْمِ .

وَيَتَدَبَّرَ الآيَاتِ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لهُ فِيْهَا مَا نَشَاءُ لمنْ نُرِيْدُ ثُمَّ جعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوْماً مَدْحُوْرَا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَاؤلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُوْرَا ﴾ .

وَقَوْلِهِ تَعَالى ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيْلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لمن اتَّقَى﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلا قَلِيْلٌ ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا له في الآخِرَةِ مِنْ نَصِيْبٍ ﴾ .

وَقَوْلِهِ ﴿ إنَّ الذيْنَ لا يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا وَرَضُوْا بالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأنّوا بِهَا وَالذينَ هُمْ عَن آيَاتِنَا غَافِلُونَ أولئكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ ﴾ الآيَةُ ، وَيَتَدَبَّرُ

الاحَادِيْث مِثْل قَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ عُمَرَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ الحَدِيْثُ ، وَقَوْلُهُ مَا لِي وَلِلدُّنْياوَنَحْو ذَلِكَ مِنْ الآيَاتِ وَالأَحَادِيْثِ التِي مَرَّتْ سَابِقا حَوْلَ أَمْثِلَةِ الدُّنْيَا .

وَيُقَارِنُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ فإن كان ذَا عَقْلٍ رَاجِحٍ آثَرَ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَأَيْضًا لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ قَطْعِ التَّسْوِيْفِ وَطُوْلِ الأَمَلِ حَتَّى يُحِسَّ أَنَّهُ فِي غُرْبَةٍ وَأَنَّهُ مُسَافِرٌ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ وَأَنهُ سَيَرْحَلُ عَنْهَا فِيْ أَيَّةِ سَاعَةٍ رَغْمَ أَنْفِهِ شَاءَ أَمْ أَبَى .

وَإِنْ وَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطَانُ وَأَلْقَى فِي رَوْعِهِ أَنَّكَ شَابٌّ قَوِيٌّ مَوْفُوْرَ الصِّحَّةِ مَشْدُوْدُ أَسْرُكَ وَفي إِمْكَانِكَ الرُّجُوعُ إِلى الطَّاعَةِ وَالاقْبَالِ على الآخِرَةِ فَلْيَطْرُدْ وَسَاوِسَهُ باسْتِحْضَارِ الذِيْنَ رَحَلُوا شُبَّاناً وَكُهُوْلاً وَهُمْ الآنَ تَحتَ الثَّرَىٰ .

وَيَخْرُجُ إلى المَقَابِرِ وَيَتفكَّرُ فِيْمَنْ جمعُوا الأَمْوَالَ وَقَتلُوا أَوْقَاتَهُمْ في طَلَبِهَا وَاتعَبُوا أَبْدَانَهُم وَأَنَّهُم سَيُحَاسَبُون عَلَيْهَا ، وَيُفكِّرُ فِيْمَنْ تَعُودُ عَلَيهم بَعْدَهُ رُبَّمَا أَنَّهَمَ لاَ يَذْكُرُوْنَهُ بِخَيْرٍ وَيَتَمَنَّونَ مَوْتَهُ فلِمَاذَا يُحْرِقُ نَفْسَه في جَمْعِهَا لهم.

فَـقُـلْ لِلْذِيْ قَـدْ غَـرَّهُ طَـولُ عُـمْـرِهِ
وَمـا قـد حَـوَاهُ مَـن زَخَـارِفَ تَخْـدَعُ
أَفِـقْ وَانْـظُرْ الـدُّنيَـا بـعَـيْـنٍ بَـصِـيْـرَةٍ
تـرَى كُلَّ مَا فِـيْـهَـا وَدَائِـعَ تُـرْجَـعُ

فَاذَا قَصَّرَ أَمَلَهُ في الحَيَاةِ انْبَعَثَ إِلَى التَّجَهُّزِ للآخِرَةِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ

اذْ لاَ يَدْرِي مَتى يُنَادَى عليه بالرَّحِيْلُ فاذَا تَخلَّصَ مِنْ التَّعلُّقِ بالدنَيا وَأفرَغ ما في قَلبِهِ مِن سُمُومِهَا وَأقْبلَ عَلى الآخِرَةِ أَحَسَّ بغُرْبَةٍ شَدِيْدَةٍ في الدنيَا ولكنْ مَعَ خِفَّةٍ في رُوحِهِ واقْبَالٍ شَدِيْدٍ عَلى مَرَاضِي اللهِ وَعَلى رَأسْهاَ الدَّعوَةُ إليهِ وهِدَايَةِ الحَيَارَى مِنْ عِباد اللّهِ .

لاَ يَعُوقُه عَنْ ذَلِكَ عَائِقٌ مِنْ تَعَبٍ وَلاَ نَصَبٍ وَلا سَفَرٍ وَلاَ سَهَرٍ وَلا بَذْلٍ وَلا تَضْحِيَةٍ لِأنَّ ذلكَ كُلَّهُ مِنْ الزَّادِ المُؤَكَّدِ نَفَعُهُ وَفَائِدتهٌ في سَفَرِهِ الطَّوِيلِ البَعِيْدِ إلى الآخِرَةِ بَلْ إنَّهُ سَيَعْقُبُ تَعبَهُ رَاحَةٌ وَأَلَمهُ لَذَّة وفي بَذْلِهِ رِبْحاً وفي تَضْحِيَتِهِ عِوَضاً مَضْمُوْنَا .

وَفي وَصِيَّةِ الامَامِ عَليّ بن أَبي طَالِب لابْنِهِ الحَسَنِ أَحْيِ قَلْبَكَ بالمَوْعِظَةِ وَأمِتْهُ بالزّهَادَة وَقَوِّة باليَقِينِ وَنوِّرهُ بالحِكمَةِ وَذَلِلّهُ بذِكْرِ المَوْتِ وَقرِّرْهُ بالفَنَاءِ وَبَصّرْهُ بفَجَائِعِ الدّنيا وَحَذْرهُ صَوْلَةَ الدّهرِ وَفُحْش تَقلُّبِ الليالي وَالأيّامِ وَاعْرِضْ عليهِ أَخْبَارَ الماضِيْنَ وَذَكِّرْهُ بمَا أصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِن الأَوَلِيْنَ وَسِرْ في دِيَارِهِمْ وآثارِهِم وَانْظُرْ فِيما فَعلُوا وعمَّا انْتَقلُوا وَأينَ حَلّوا وَنزلَوُا فانَّكَ تَجِدْهُمْ قَدْ انتقلُوا عَنْ الأَحِبَّةِ وَحَلُّوا في دَارِ غُرْبَةٍ وَكَأنَّكَ عَنْ قَلِيْلٍ قدْ صِرْتَ كَأحَدِهِمْ فَأصْلِحْ مَثْوَاكَ ولا تَبعْ آخِرَتِكَ بدُنْياكَ إلى أنْ قالَ ـ يَا بُنَيَّ ، أَكْثِرْ مِن ذِكْر المَوْتِ وَذِكْرِ مَا تَهْجمُ عَليه وَتُفْضِي بَعْدَ الموتِ إلَيهِ حَتَّى يَأتِيكَ وقَدْ أخَذْتَ حِذْرَك وشَدَدْتَ لَهُ أزْرَكَ وَلا يَأتِيْكَ بَغْتَة فَيَبهُرَكَ وَإيَّاكَ أنْ تَغْتَرَّ بمَا تَرى مِن إخلاَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا إلَيها وَتَكالُبِهُم عَليهَا فقَدْ نَبّأكَ اللهُ عَنها وَنعَتَتْ لكَ نَفْسَها وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيْهَا فَإِنَّ أهْلَها كِلاَبٌ عَاوِيَةٌ وَسِباعٌ ضَارِيَةٌ يُهِرُّ بَعْضُهَا بَعْضَا أيْ يَنْبَحُ بَعْضُهَا عَلى بَعْضٍ وَيأكُلُ عَزِيْزُهَا ذَلِيْلَها وَيقْهَر كَبِيْرُها صَغِيْرَهَا نَعمٌ مُعقَّلة

وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ قَد أَضَلَّت عُقُوْلَهَا وَرَكِبَتْ مَجْهُوْلَهَا سُرُوْحُ عَاهَةٍ لَيْسَ رَاعٍ يُقِيْمُهَا وَلا مُقِيْمٌ يَسِيْسُهَا سَلَكَتْ بِهِمْ الدُّنْيَا طَرِيْقَ العَمَى وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَادِّ الهُدَى فَتَاهُوا في خَيَراتِهَا وَغَرِقُوا في نِعْمَتِهَا وَاتَّخَذُوْهَا رَبّاً فَلَعِبَتْ بهم وَلَعِبُوا بهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَها ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ كَانَ مَطِيَّتُهُ الليلُ والنَّهَارُ فَإِنَّهُ يُسَارُ بهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفا وَيَقْطَعُ المَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيْما .

اللَّهمُ قَنِّعْنَا مِنْ الدُّنْيَا باليَسِيْر وَسَهِّلْ عَلَيْنَا كُلَّ أَمْرٍ عَسِيْرٍ وَوَفِّقْنَا لِمَا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ إنَّكَ عَلَى كلِّ شَيءٍ قَدِيْر وَأَسْكِنَّا دَار كَرَامَتِكَ يَا مَنْ هُوَ مَلْجَؤُنَا وَمَلاذُنَا وإِلَيْهِ المَصِيْرُ وَاجْعَلْ لَنا مِن كُلِّ هَمّ فَرَجا وَمِن كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجا وَاغْفِرْ لنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ اخْوَانِنَا المُسْلِمْينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ على محمدٍ وَعَلى آلهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَمِمَّا وَرَدَ فِي فَضِيْلَةِ الرَّجَاءِ مِنْ الاحَادِيث مَا في الصَّحِيْحَيْنِ عَن أَبِي سَعِيْدٍ رَضِىَ اللهُ عنهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنَّ رَجُلا قَتَل تِسْعَةً وَتِسْعِيْنَ نَفْساً ، ثُمَّ نَدِمَ وَسَأَلَ عَابِداً مِن عُبَّادِ بني إِسرائيلَ هَلْ لهُ مِن تَوْبَةٍ فقالَ لا فقَتَلَهُ وأَكْمَلَ بهِ مِائةً ، ثمَّ سَأَلَ عَالماً مِن عُلَمائِهم هَلْ لَهُ مِنْ توبَةٍ فَقَالَ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ التَّوْبَةِ .

ثُمَّ أَمَرهُ بالذَّهابِ إلى قَرْيَةٍ يَعْبُدُ اللهَ فِيهَا فَقَصَدَهَا فَأَتَاهُ الموتُ في أثْنَاءِ الطَّرِيْقِ فاخْتَصَمَتْ فيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، وَمَلائِكَةُ العَذَابِ ، فأَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أنْ يَقِيْسُوا مَا بَيْنَ الأَرضَيْنِ ، فَإِلَى أَيِّهمَا كانَ أَقْرَبَ فَهُوَ مِنْهَا فوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إلى الأَرضِ التي هَاجَرَ إليها بِشِبْرٍ فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ،

وَذُكِرَ أنه نأىَ بصَدْرِهِ عِنْدَ الموتِ ، وأنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى أمَرَ البَلدةَ الخَيِّرةَ أنْ تَقْتَرِبَ وَأمَر تلك البَلَدَ أنْ تَتباعَدَ ، هَذَا مَعْنَى الحَدِيْثِ .

وَعَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِتِ رَضْى اللهُ عَنْهُ قَال: قَالَ رسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلمَ مَنْ شَهِدَ أنْ لا الهَ الا الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ له ، وأنَّ محمداً عَبْدُه ورسُولُه ، وأنَّ عِيْسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُوله وكَلِمَتُه ألقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ ، وأنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ ، والنَّارَ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلى مَا كَانَ مِنْ العَمَلِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، وَفي رِوَايةٍ لمسْلمٍ مَنْ شَهِدَ أنْ لا الهَ الا اللهَ ، وأن محَمَّداً رَسُوْلُ اللهِ حَرَّمَ اللهُ عليهِ النَّارَ .

وَعَنْ أَبِيْ ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ « مَنْ جَاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثالِهَا ، أوْ أَزِيْدُ ومَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ فَجزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا أوْ أَغْفِرُ ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِني شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّى ذِراعاً تَقرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً ، وَمَنْ أتَانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ، ومَن لَقِيَنِيْ بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيْئَةً لا يُشْرِكُ بي شَيْئاً لَقِيْتُه بمِثْلِهَا مَغْفِرَةً رَوَاهُ مُسْلِم .

وَعَنْ جَابرٍ رَضْىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ أعْرَابِيٌّ الى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقالَ يَا رسولَ اللهِ مَا المُوجِبَتَانِ قَالَ مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ باللهِ شَيْئاً دَخَلَ الجَنَةَ ، ومَنْ مَاتَ يُشْرِكُ به شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ

وَفي حَدِيْثِ مُعاذٍ مَا من عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا الهَ الاّ اللَّهِ وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوْلهُ صِدْقاً مِن قلْبِهِ إلَّا حَرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ .

وَفي حَدِيْثِ أبي هُرَيْرَة وأَبي سَعْيدٍ أَنَّ النَّبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال أشْهَدُ أنْ لا إلَه إلا الله وأنِّي رَسُوْلُ اللهِ لا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍ فَيُحْجَبُ عَنْ الجَنَّةِ رَواهُ مُسْلِمٌ .

وَفي حَدِيْثِ عَتْبَانَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ ، فَانَّ اللهَ قد حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قَالَ لا الهَ الا الله يَبْتَغِيْ بذَلِكَ وَجْهَ اللهِ مَتَّــفقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قال قَدِمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بسَبْي فاذا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْي تَسْعَى اذْ وَجَدَتْ صَبِيّاً في السَّبْي أخَذتُه فَالْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعْتُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم أَتَرَوْنَ هَذِهِ المْرَأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ قُلْنَا لا وَاللهِ فقَالَ لَلّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوِلَدِهَا متَّفقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَة رَضْيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسلم أنهُ قالَ : قالَ اللهُ عزَّ وَجلَّ أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِيْ وَأنا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي واللهِ لَلّهُ أَفْرَحُ بتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُم يَجِدُ ضَـالَّتَهُ بـالفَلاةِ وَالحَدِيْثِ مُتَّفَقٌ عليهِ .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللّهُ عَليهِ وَسَلَّمَ يَقولُ ، قَالَ اللّهُ يا ابْنَ آدَمَ انَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِيْ ، غَفَرْتُ لَكَ عَلى مَا كَانَ مِنْكَ وَلا أُبَالِي ، يا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغْتَ ذُنُوبَكَ عَنانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفرتَنِيْ غفَرْتُ لك .

يَا ابْنَ آدَمَ انَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيْتَنِيْ لاَ

تُشْرِكُ بي شَيْئاً ، لاتَيْتُكَ بقُرابِهَا مَغْفِرَةٍ ، رَواهُ التِّرْمِذي .

وَعَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى الله عليه وسلم ، قَال انَّ الكَافِرَ إذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بَهَا طُعْمَةً مِنْ الدُّنْيَا ، وَأمّا المْؤْمِنُ فانَّ اللهَ تَعالَى يَدَّخِرُ لهُ حَسَنَاتِهِ في الآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقاً في الدُّنْيَا عَلى طَاعَتِهِ .

وَفي رِوايَةٍ انَّ اللّهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِناً حَسَنَةً يُعْطَى بها في الدُّنْيا وَيُجْزى بهَا في الآخِرَةِ وَأَمَّا الكافِرُ فيُطْعَمُ بحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ لِلّهِ تَعالى في الدُّنْيا ، حَتَّى إذَا أَفْضَى إلى الآخِرَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةً يُجْزَى بها رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَفي حَدِيْثِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أنْتُم في أهْلِ الشِّرْكِ إلا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الاسْوَدِ أوْ كالشَعْرَةِ السَّوْدَاءِ في جِلْدَ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ مُتفقٌ عَلَيْهِ .

وَفي حَدِيْثِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ سَمِعْتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ ما مِنْ رجلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فيَقُومُ على جِنَازَتِهِ أَرْبَعُوْنَ رَجُلاً لا يُشْرِكونَ باللهِ شَيْئاً الاّ شَفَّعَهُم اللهُ فيهِ رَواهُ مُسْلِم .

وَفي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم اذْهَبْ فَمنْ لقْيتَ وَرَاءَ هَذَا الحائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا الله مُسْتَيْقِناً بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بالجَنّةِ رَواهُ مُسْلِم .

وَعَنَ أَبِي مُوْسَى رَضِى اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيّ صَلى اللهُ عليه وسلم قالَ انَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللّيلِ لِيَتُوْبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهارِ لِيَتُوْبَ مُسِيءُ الليلِ حَتَّى تَطْلَعُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا رَواهُ مُسْلِم .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللّهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُوْلُ يُدْنَى المؤْمِنُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فيقُوْلُ أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيقُولُ رَبِّي أَعْرِفُ قَالَ فَانِّيْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ في الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لكَ اليَوْمَ فَيُعْطَى صَحِيْفَةَ حَسَنَاتِهِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَيَنْبَغِيْ لِمَنْ قَرُبَتْ مُفَارَقَتُهُ الدُّنْيَا أَنْ يَكُوْنَ عَلَى بَالِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ آيَاتِ الرَّجَاءِ وَأَحَادِيْثِ الرَّجَاءِ وَاللّهُ أَعْلَمُ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

اذَا فَهِمْتَ مَا تَقَدَّمَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ لَا بُدَّ انْ يَجْمَعَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ ، وَهَذَا الطَّرِيْقُ هُوَ طَرِيْقُ الاعْتِدَالِ ، لانَّهُ أنْ غَلَبَ عَلَيْكَ الرَّجَاءُ حَتَّى فَقَدْتَ الخَوْفَ البَتَّةَ وَقَعتَ في طَرِيْقِ الأمْنِ مِنْ مَكْرِ اللّهِ ، وَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُوْنَ .

وَانْ غَلَبَ عَلَيْكَ الخَوْفُ حَتَّى فَقَدْتَ رَجَاءَ اللهِ وَقَعْتَ في طَرِيْقِ اليَأْسِ ، وَلا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُوْنَ ، وَلا يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ ربِّه إلَّا الضَّالّون ، وَإِنْ جَمَعْتَ بَينَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ طَرِيْقُ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَصْفِيَآئِهِ .

قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ : وَجُمْلَةُ الامرِ أَنَّكَ اذا تَذَكَّرْتَ سَعَةَ رَحْمَةِ اللّهِ تَعَالى التي سَبَقَتْ غَضَبَهُ وَوَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ ثمّ أَنْ كُنْتَ مِنْ هَذِه الأمةِ المرْحُوْمَةِ الكَرِيْمَةِ على اللهِ تَعَالَى ثَمَّ غَايَةَ فَضْلِهِ العَظِيْمِ وَكَمالَ جُوْدِهِ

الكَرِيْم ِ وَجَعْلَ عُنْوَانِ كِتَابِهِ إِلَيْكَ بِسْمِ ِ اللهِ الرَّحمن الرحيم ثمّ كثْرَةَ أيَادِيْه إِلَيْكَ وَنِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً مِن غَيْرِ شَفِيْعٍ أَوْ قِدَم ِ سَابِقَةٍ لَكَ .

وَتَذَكَّرْتَ مِن جَانِبٍ آخَر كَمَالَ جَلالِهِ وَعَظَمَتِه وَعِظَمَ سُلْطَانِهِ وَهَيْبَتِهِ ثم شِدَّةَ غَضَبِهِ الذي لاَ تَقُوْمُ له السَّمواتُ والارْضُ ، ثم غَايَةَ غفلَتِك وَكَثْرَة ذُنُوْبِكَ وَجفْوتِكَ مَعَ دِقَّةِ أمْرِهِ ، وَخطَرِ مُعَامَلَتِه في إِحَاطَةِ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ بالعُيُوْبِ وَالغُيُوْبِ ، ثم حُسْنَ وَعْدِه وَثوابِهِ الذي لا يَبْلُغُ كُنْهَهُ الاوْهَامُ وَشِدَّةَ وَعِيْدِه وَأَلِيْمَ عِقَابِهِ الذي لا يَحْتَمِلُ ذِكْرَهُ القُلُوْبُ .

تَارَةً تَنْظُرُ إلى عَذَابِهِ وَتَارَةً تَنْظُرُ إلى رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَتَارَةً تَنْظُرُ إلى نَفْسِكَ في جَفَوَاتِهَا وَجِنَايَاتِها فاذا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَدَّى بِكَ جَمِيْعُ ذلكَ إلى الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَكُنْتَ قَدْ سَلَكْتَ سَبِيْلَ الشَّارِعِ القَصْدَ وَعَدَلْتَ مِنْ الجَانِبَيْنِ المُهْلِكَيْنِ ، الأَمْنِ وَاليأسِ وَلا تَتِيْهُ فِيْهما مَعَ التَّائِهِيْنَ ، وَلَا تَهْلَكْ مَعَ الهَالِكِيْنَ وَشَربْتَ الشَّرَابَ المَمْزُوْجَ العَدْلَ فلاَ تَهْلَكْ بِبُرُوْدَةِ الرَّجَاءِ الصِّرْفِ ، وَلا بحَرَارَةِ الخَوْفِ الصِّرْفِ .

وَكَأَنِّيْ بِكَ قَدْ وَصَلْتَ إلى المَقْصُوْدِ غانِماً وَشُفِيْتَ مِن العِلَّتَيْنِ سَالِمَاً وَوَجَدْتَ النَّفْسَ قَدْ انْبَعَثَتْ لِلطَّاعَةِ وَدَانَتْ في الخِدْمَةِ لَيْلاً وَنَهاراً مِنْ غَيْرِ فَتْرَةٍ وَلا غَفْلَةٍ ، وَاجْتَنَبْتَ المَعَاصِيْ وَالمَخَازِيْ وَهَجَرْتَهَا وَصِرْتَ حِيْنَئِذٍ مِنْ الأَصْفِيَاءِ الخَوَاصِّ ِ العَابِدِيْنَ ، الذِيْنَ وَصَفَهُمْ اللّهُ تَعَالَى بقَوْلِه ﴿ إِنَّهُم كَانُوا يُسَارِعُوْنَ في الخَيْرَاتِ وَيَدْعُوْنَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خَاشِعِيْنَ﴾.

وَاللّهُ سُبْحَانَهُ المَسْئُولُ أَنْ يُمِدَّكَ وَإِيَّانَا بِحُسْنِ تَوْفِيْقِهِ وَتَسْدِيْدِه إِنَّهُ

أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ وَأَجْوَدُ الأَجْـوَدِيْنَ وَلا حَوْلَ وَلا قُـوَّةَ الا بِاللّهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ .

قَال ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ القَلْبُ في سَيْرِهِ الى اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَنْزِلَةِ الطَّائِرِ فـالمحَبَّةُ رَأْسُـهُ وَالخَوفُ والـرَّجَاءُ جَنَـاحَاهُ فَمَتى سَلِمَ الـرَّأْسُ وَالجَنَاحَانِ فَالطَّائِرُ جَيِّدُ الطَّيرَان وَمَتى قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ وَمَتىَ فَقَدَ الجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرْضَةٌ لِكُلِّ صَائِدٍ وَكَاسِرٍ .

وَقِيْلَ أَكْمَلُ الاحَوْالِ الاعْتِدَالُ أ هـ قَالَ اللّهُ تَعَالَى مُخْبِراً عَنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ ﴿ إنهُمْ كَانُوا يُسَارِعُوْنَ في الخَيْراتِ وَيَدْعُوْنَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنا خَاشِعِيْنَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ يَدْعُوْنَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعـاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُوْنَ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ ﴾ .

وَقِيْلَ إنْ كَانَ الغَالِبُ عَلى القَلْبِ الأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللّهِ فَالخَوْفُ أفضَلُ وَكَذَا انْ كَانَ الغَالِبُ على العَبْدِ المعْصِيَةِ ، وَإنْ كَانَ الغَالِبُ عَلَيْهِ اليَأْسُ وَالقُنُوْطُ فَالرَّجَاءُ أَفْضَلُ .

وَالذِيْ تَطْمَئِنُّ اليْهِ النَّفْسُ سُلُوكُ الاعْتِدَالِ إلاَّ عِنْدَ فِرَاقِ الدُّنْيا فَيغَلِّبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ .

لِما وَرَدَ عَنْ جَابِرٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهَ سَمِعَ النَّبيّ صَلى اللهُ عَليه وسَلم قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلاثَةِ أَيّامٍ يَقُولُ لا يَمُوْتَنَّ أَحَدُكُم إلاَّ وَهُوَ يُحَسِّنُ الظَّنَّ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ رواهُ مُسْلِم .

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِيْ

وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ ذَكَرَنِيْ الحَدِيْثُ رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيْثِ أبي هُرَيْرَة وَقَدْ رُئِيَ بَعْضُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِ فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ فانشَدَ :

نُقِلْتُ إِلى رِمْسِ القُبُـوْرِ وَضِيْقِهَـا
وَخَـوفي ذُنُـوبِي أَنَّـهَـا بِيْ تَـعْثُـرُ
فَصَـادَفْتُ رَحْمَـانـاً رَؤُفـاً وَأَنْعُمـاً
حَبَانِي بهَـا سَقْيـاً لِمَـا كُنْتُ أَحْـذَرُ
وَمَن كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ في حَالِ مَوْتِهِ
جَمِيْـلاً بعِفْـوِ اللّهِ فَـالعَفْـوُ أَجْـدَرُ

آخرُ

يَـا مَنْ إِلَيْـهِ جَمِيْـعُ الخَلْقِ يَبْتَهِلُوا
وَكُـلُّ حَـيّ عَلى رُحْـمَـاهُ يَتَّـكِـلُ
يَا مَنْ نَأَى فَرَأَى مَا في القلوبُ ومَا
تَحْتَ الثَّرَى وَحِجَابُ اللَّيْلِ مُنْسَدِلُ
يَا مَنْ دَنَا فَنَأَى عَنْ أَنْ يُحِيْطَ بِهِ الْ
أفْكَـارُ طُـرّاً أوْ الأَوْهَـامُ وَالعِلَلُ
أَنْتَ المَـلاَذُ إِذَا مَـا أَزْمَتٌ شَمِلَتْ
وَأَنْتَ مَلْجـأُ مَنْ ضَاقَتْ بِـهِ الحِيَـلُ
أَنْتَ المُنَـادَى بـهِ في كُـلِّ حَـادِثَـةٍ
أنْتَ الأَلهُ وَأَنْتَ الـذُّخْـرُ وَالأَمَـلُ
أَنْتَ الغِيَـاثُ لِمَنْ سُـدَّتْ مَـذَاهِبُـهُ
أَنْتَ الـدَّلِيْلُ لِمَنْ ضَلَّتْ بِـهِ السُّبُلُ

إِنَّـا قَـصَـدْنَـاكَ وَالآمَـالُ وَاقِـعَـةٌ
عَلَيْـكَ والكُـلُّ مَلْهُـوْفٌ وَمُبْتَهِـلُ
فَـإنْ غَفَرْتَ فَعَنْ طَـوْلٍ وَعَنْ كَرَم
وَانْ سَـطَوْتَ فَأَنْتَ الحَـاكِمُ الْعَـدِلُ

وَأَخْرَجَ الامَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ وَالبَيْهَقِيّ عَنْ حَيَّانِ أَبِيْ النَّضرْ قالَ خَرَجْتُ عَائِداً لِيَزِيْدَ بنِ الاسْوَدِ ، فلقِيْتُ وَاثِلَة بْنَ الاسْقَعِ وَهُوَ يُرِيْدُ عِيادَتَهُ ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَلَمَّا رَأى وَاثِلَة بسَطَ يَدَهَ وَجعَلَ يُشِيْرُ الَيْهِ ، فَأَقْبَلَ وَاثِلَةُ حَتَّى جَلَسَ فَأخَذَ يَزِيْدُ بِكَفَّيْ وَاثِلَةَ فَجَعَلَهُما على وَجْهِهِ ، فقَالَ لَهُ وَاثِلَةُ كَيْفَ ظَنُّكَ باللهِ قَالَ ظَنِّي بِاللّهِ حَسَنٌ قالَ فَأَبْشِرْ فَانِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى الله عَليه وسلم يَقُوْلُ قالَ اللهُ عَزَّ وَجلْ أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيْ بي ، إِنْ ظَنَّ خَيْراً فَلَهُ ، وَانْ ظَنَّ شَرّاً فَلَهُ .

وَرَوَى الطَّبَرانِي عَنْ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ وَالذِيْ لَا إِلَه غَيْرُهُ لا يُحَسِّنُ عَبْدٌ باللهِ الظَّنَّ إلا أعْطَاهُ ظَنَّهُ ، وَذلِكَ بِأَنَّ الخَيْرَ في يَدِهِ .

وَرَوَى البَيْهَقِيّ عَنْ أَبي هُرَيْرَة رَضِى اللهُ عَنْهُ مَرْفُوْعَاً أَمَرَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبدٍ الى النّارِ فَلَمّا وَقَفَ على شَفَتِهَا الْتَفَتَ فقَالَ أَمَا وَاللّهِ يَا رَبِّ ان كَانَ ظَنِّيْ بكَ لَحَسَنٌ فقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رُدُّوْهُ أنا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِيْ بِيْ .

وَلَمَّا حَضَرَتْ الامَامَ أَحْمَدَ الوَفَاةُ قَالَ لِوَلَدِهِ عَبْدِ اللّهِ أُذْكُرْ لِيْ أَحَادِيْثَ الرَّجَاءِ ، وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ يُوَبِّخُ نَفْسَهُ :

أَرَانِيْ إِذَا حَـدَّثْتُ نَـفْسِـي بِتَـوْبَـةٍ
تَعَـرَّضَ لِيْ مِنْ دُوْنِ ذَلِـكَ عَـائِقُ
تَقَضَّتْ حَيَـاتِيْ فِي اشْتِغَـالٍ وَغَفْلَةٍ
وَأَعْمَـالِ سُـوْءٍ كُلُّهـا لاَ تُـوَافِـقُ
طُـرِدْتُ وَغَيْـرِيْ بـالصَّـلاحِ مُقَـرَّبٌ
وَدُوْنَ بُـلُوْغِـيْ مَـسْـلَكٌ مُـتَضَـايِـقُ
وَكَـيْـفَ وَزَلاَّتُ الـمُـسِـيْءِ كَـثِـيْـرَةٌ
أَيَـقْـرُبُ عَبْـدٌ عَـنْ مَـوَالِيْـهِ آبِـقُ
إِلى اللّهِ أَشْكُو قَلْبَ سُوْءٍ قَدْ احْتَوى
عَليْـهِ الهَـوَى وَاسْتَـأْصَلَتْهُ العَـلائِقُ
وَلِيْ حَـزَنٌ يَـزْدَادُ فِي كُـلِّ لَحْظَةٍ
وَدَمْـعُ جُـفُـونِي لِـلْبُكَـاءِ يُـسَـابِقُ
فَـإِنْ يَغْفِرِ المَـوْلَى الـذي قَـدْ أَتَيْتُـه
فَـذَاكَ الـرَّجَـا وَالـظَّنُّ حِيْنـاً يُـوَافِقُ
«عَلاَمَةُ ما يُولِيْ مِن الفَضْل إنْ أَنَا
هَجَرْتُ الدُنَـا أَوْ قُلْتُ إِنَّكِ طَـالِقُ»
«وَأَقْبَلْتُ فِي تَصْلِيْحِ أُخْرَايَ مُدْلِجاً
أَحَـاسِبُ نَفْسِيْ كُلَّ مَـا ذَرَّ شَارِقُ»

قَال ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ وَلا رَيْبَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ باللّهِ إِنَّما يَكُوْنُ مَعَ الاحْسَانِ فَانَّ المُحْسِنَ حَسَنُ الظَّنِّ بربِّه أنه يُجَازِيْهِ على إِحْسَانِه ولا يُخْلِفُ وَعْدَه وَيَقْبَلُ تَوْبَتَه وَأَمَّا المُسِيْءُ المُصِرُّ على الكَبَائِرِ وَالـظُّلْمِ

وَالمُخالَفاتِ فَانَّ وَحْشَةَ المعَاصِي وَالظُّلْمِ وَالحَرَامِ تَمْنَعُه مِن حُسْنِ الظَّنِّ برَبِّهِ وَهَذا مَوْجُودٌ في الشَّاهِدِ فَانَّ العَبْدَ الآبِقَ المُسِيءَ الخَارِجَ عن طَاعَةِ سَيِّدِه لا يُحَسِّنُ الظنَّ بِهِ ، وَلا يُجَامِعُ وَحْشَةَ الاسَاءَةِ إحْسَانُ الظَّنِّ أبَداً ، فَإِنَّ المُسِيءَ مُسْتَوْحِشٌ بِقَدْرِ إسَاءَتِه ، وَأَحْسَنُ النَّاسِ ظَنّاً بِرَبِّه أَطْوَعُهم لَهُ . كَمَا قالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ : إنَّ المؤمِنَ أحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فأَحْسَنَ العَمَلَ ، وَانَّ الفَاجِرَ أَسَاءَ الظَّنِّ بَرَبِّهِ فَأَسَاءَ العَمَلَ .

وَكَيْفَ يَكُوْنُ مُحْسِنُ الظَّنِّ بِرَبِّهِ مَنْ هُوَ شَارِدٌ عَنْهُ ، حَالٌ مُرْتَحِلٌ في مَسَاخِطِه وَمَا يُغْضِبُه ، مُتعَرِّضٌ لِلَعْنَتِهِ ، قَدْ هَانَ حَقُّهُ وَأَمْرُهُ عَلَيْهِ فَأَضَاعَهُ، وَهَانَ نَهْيُهُ عَلَيْهِ فَارْتكبَه وَأَصرَّ عَلَيْهِ وَكَيْفَ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ مَنْ بَارَزَهُ بِالمُحَارَبَةِ ، وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ ، وَوَالَى أَعْدَاءَهُ ، وَجَحَدَ صِفَاتٍ لَهُ وَأَسَاءَ الظَّنَّ بِمَا وَصَفَ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ به رَسُولُه صَلى الله عليه وَسَلم وَظَنَّ بِجَهْلِهِ أنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ ضَلالٌ وَكُفْرٌ .

وَكَيْفَ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بمَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ وَلا يَأْمُرُ وَلا يَنْهَى وَلا يَرْضَى وَلا يَغْضَبُ وَقد قالَ اللّهُ تَعَالَى في حَقِّ مَنْ شَكَّ في تَعَلُّقِ سَمْعِهِ بِبَعْضِ الجُزْئِيَّاتِ، وَهُوَ السِّرُّ مِنْ القَوْلِ ﴿ ٤١ : ٢٣ وَذلكُم ظَنُّكُمُ الذِيْ ظَنَنتُم بِرَبِّكُم أَرْدَاكُم فَأَصْبَحْتُم مِنْ الخَاسِرِيْنَ ﴾ .

فَهؤُلاءِ لما ظَنُّوْا أَنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ لا يَعْلَمُ كَثِيْراً مِمَّا يَعْمَلُوْنَ كَانَ هَذا إِسَاءَةً لِظَنِّهِمْ بِرَبِّهِم ، فَأَرْدَاهُم ذلكَ الظَنُّ . وَهَذا شَأْنُ كُلِّ مَنْ جَحَدَ صِفاتِ كمَالِه وَنُعُوتَ جَلالِه ، وَوَصَفَهُ بمَا لا يَلِيْقُ بِهِ ، فَاذا ظَنَّ هَذا أَنَّهُ يُدْخِلُهُ الجَنَّةَ كَانَ هَذَا غُرُوراً وَخِداعاً مِنْ نِفْسِه ، وَتَسْوِيْلاً مِنَ الشَّيْطَانِ ، لا إحْسَانُ ظَنٍّ بِرَبِّهِ .

فَتَأَمَّلْ هَذَا المَوْضِعَ ، وَتَأَمَّلْ شِدَّةَ الحَاجَةِ اِلَيْهِ ، وَكَيْفَ يَجْتَمِعُ فِي قَلْبِ العَبْدِ تَيَقُّنُهُ بِأَنهُ مُلاقٍ اللّهِ ، وَأنَّ اللّهَ يَسْمَعُ كلامَهُ وَيَرى مَكانَهُ ، وَيَعْلَمُ سِرَّهُ وَعلانِيَتَهُ ، وَلا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أمْرِهِ ، وَأنَّهُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدِيْهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ كُلِّ مَا عَمِلَ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلى مَسَاخِطِهِ مُضَيِّعٌ لِأوَامِرِهِ ، مُعَطِّلٌ لِحُقُوقِهِ ، وَهُوَ مَعَ هَذا يُحَسِّنُ الظَّنَّ بِهِ .

وَهَلْ هَذَا إلَّا مِنْ خُدَعِ النُّفُوسِ وَغُرُوْرِ الأمَانِيْ . وَقَدْ قَالَ أَبُو سَهْلُ ابْنُ حُنَيْفٍ « دَخلْتُ أنَا وَعُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ على عَائِشَةُ رَضِىَ اللّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ : لَوْ رَأَيْتُمَا رَسُولَ اللّه صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضٍ لَهُ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ سِتَّةُ دنانِيْرَ ، أوْ سَبْعَةُ دَنَانِيْرَ .

فَأَمَرنِي رَسُولُ اللّهِ صَلى الله عليه وسلم أَنْ أُفَرِّقَهَا ، فَشَغَلَنِي وَجَعُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم حَتَّى عَافاهُ اللهُ ، ثُمَّ سَألَنِيْ عَنْهَا فَقَال مَا فَعلْتِ أكُنْتِ فَرَّقْتِ السِّتَّةَ الدَّنَانِيْرَ ، فَقُلْتُ : لا وَاللّهِ ، لَقَدْ كَانَ شَغَلَنِيْ وَجَعُكَ ، قَالَتْ : فَدَعَا بِهَا فَوَضَعَهَا فِي كَفِّهِ ، فقَالَ: مَا ظَنّ نَبِيِّ اللهِ لَوْ لَقِيَ اللّهَ وَهَذِه عِنْدَهُ ، وفِي لَفْظٍ « مَا ظَنُّ مَحَمّدٍ بِربِّهِ لَو لَقِيَ اللهَ وهَذِه عِنْدَه » .

فيَالَلهِ مَا ظَنُّ أَصْحَابِ الكَبَائِرِ وَالظَّلَمَةِ باللهِ إذَا لَقُوهُ وَمَظَالِمُ العِبَادِ عِنْدَهُم ، فانْ كَانَ يَنْفَعُهم قَوْلُهُم : حَسَّنَّا ظُنُونَنَا بِكَ إنَّكَ لَمْ تُعذبْ ظَالماً وَلا فَاسِقاً ، فَلْيَصْنَعِ العَبْدُ مَا شَاءَ ، وَلْيَرْتَكِبْ كُلَّ مَا نَهَاهُ اللهُ عنه ، وَلْيُحَسِّنْ ظَنَّهُ باللهِ ، فانَّ النَّارَ لا تَمَسُّهُ ، فسُبْحَانَ اللهِ ، مَا يَبْلُغُ الغُرورُ بالعَبْدِ ، وَقَدْ قَالَ إبْرَاهِيْمُ لِقَومِه ﴿ ٣٧ : ٨٦ أإفكاً آلِهَةً دُوْنَ اللّهِ تُرِيْدُوْنَ

فَمَا ظَنكُم بربِّ العَالمين ﴾ أَيْ مَا ظَنكُم بهِ أنْ يَفْعَلَ بكم إِذَا لَقِيْتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُم غَيْرَهُ .

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا المَوْضِعَ حَقَّ التَّأَمُّلِ عَلِمَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ باللّهِ هُوَ حُسْنُ العَمَلِ نَفْسُهُ ، فإِنَّ العَبْدَ إِنما يَحْمِلُه عَلى حُسْنِ العَمَلِ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ أَنْ يُجازِيْهِ عَلى أَعْمَالِهِ وَيُثِيْبَهُ عَلَيْهَا وَيَتَقَبَّلَهَا مِنْهُ ، فالذِي حَمَلَهُ على حُسْنِ العَمَلِ حُسْنُ الظَّنِّ ، فَكُلَّمَا حَسُنَ ظَنُّهُ بربِّهِ حَسُن عَمَلُه .

وَإِلا فَحُسْنُ الظَّنِّ مَعَ اتِّبَاعِ الهَوَى عَجْزٌ ، كَمَا في التِّـرْمِذِيّ وَالمُسْنَدِ من حَدِيْثِ شَدَّادِ ابنِ أَوْسٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الكَيِّسُ من دَانَ نفسَه وعَمِلَ لما بَعْدَ المَوْتِ ، والعَاجِزُ مَنِ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وتَمَّنى عَلى اللهِ الأَمَانِيْ».

وَبالجُمْلَةِ فَحُسْنُ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ انْعِقَادِ أَسْبَابِ النَّجَاةِ وَأَمَّا مَع إِنْعِقَادِ أَسْبَابِ الهَلاكِ فَلا يَتأَتَّى إِحْسَانُ الظَّنِّ .

فإِنْ قِيْلَ : بَلْ يَتَأَتَّى ذَلِكَ ، وَيَكُونُ مُسْتَنَدُ حُسْنِ الظَّنِّ عَلى سَعَةِ مَغْفِرَةِ اللّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَعَفوِهِ ، وَجُوْدِهِ ، وَأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ ، وَأَنهُ لا تَنْفَعُه العُقُوبَة ، وَلا يَضُرُّه العَفْوُ .

قِيْلَ : الأَمْرُ هَكَذَا ، وَاللّهُ فَوقَ ذَلِكَ وَأَجَلُّ وَأَكْرَمُ وَأَجْوَدُ وَأَرْحَمُ ، وَلَكِنْ إِنَّما يَضَعُ ذَلِكَ في مَحَلِّهِ اللائِقِ بِهِ ، فَانَّهُ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بالحِكْمَةِ وَالعِزَّةِ وَالانْتِقَامِ وَشِدَّةِ البَطْشِ ، وَعُقُوبَةُ مَنْ يَسْتَحِقُّ العُقُوبَةَ ، فلو كَانَ مُعَوّلُ حُسْنِ الظنِّ عَلى مُجَرَّدِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ لاشْتَرَكَ في ذَلِكَ البَرُّ وَالفاجِرُ ، وَالمُؤْمِنُ وَالكافِرُ ، وَوَلِيُّهُ وَعَـدُوُّهُ .

فَمَا يَنْفَعُ المُجْرِمَ أَسْمَاؤُه وَصِفَاتُه وَقَدْ بَاءَ بِسَخَطِهِ وَغَضَبِهِ وَتَعَرَّضَ لِلَعْنَتِه ، وَوَقَعَ في مَحَارِمِهِ وَانْتَهكَ حُرُمَاتِه ، بَلْ حُسْنُ الظَّنِّ يَنْفَعُ مَنْ تَابَ وَنَدِمَ وَأَقْلَعَ ، وَبدَّلَ السَّيِّئَةَ بِالحَسَنَةِ ، وَاسْتَقْبَلَ بَقِيَّةَ عُمْرِه بِالخَيْرِ وَالطَّاعَةِ . ثُمَّ أَحْسَنَ الظَّنَّ بَعْدَها فَهٰذا هُوَ حُسْنُ ظَنٍّ ، وَالأَوَّلُ غُرُوْرٍ وَاللهُ المسْتَعَانُ .

يُفَرَّقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ باللّهِ وَبَيْنَ الغُرُوْرِ بِهِ قَالَ اللّهُ تَعَالَى ﴿ ٢ : ٢١٨ انَّ الذِيْنَ آمَنُوا والذين هَاجَرُوا وجَاهَدُوا في سَبِيْلِ اللّهِ أولئك يَرْجُون رَحْمَةَ اللهِ ﴾ فَجعَلَ هَؤلآء أهْلَ الرَّجَاءِ ، لا البَطَّالِيْنَ وَالفَاسِقِيْنَ ، وَقَالَ تَعَالى ﴿ ١٦ : ١١٩ ثم انَّ رَبَّكَ للذين هَاجَرُوا من بعد مَا فُتِنُوا ثم جَاهَدُوا وصَبَرُوا ، إنَّ رَبَّكَ من بَعْدِهَا لغَفُورٌ رَحِيْم ﴾ فَأخْبَر سُبْحَانَهُ أنه بَعْدَ هَذه الاشْيَاءِ غَفُورٌ رَحِيْمٌ لِمَنْ فَعَلها ، فالعَالِمُ يَضَعُ الرَّجَاءَ مَوَاضِعَهُ ، وَالجاهِلُ المغْتَرُّ يَضَعُهُ في غَيْرِ مَوَاضِعِهْ .

(فَصْلٌ)

في نَمَاذِجَ مِنْ أَخْلاَقِ السَّلَفِ رَحِمَهُم اللّهُ

مِنْ ذَلِكَ تَوْصِيَةُ بَعْضِهم بَعْضاً وَقُبُولهم لَهَا وَشُكْرُهُمْ لِلْواعِظِ لَهُم ، وَمِنْ وَصِيَّةِ الامَامِ عَليّ بنِ أَبِيْ طَالِبٍ لابْنِهِ الحَسَنِ قَالَ فِيْهَا :

أيْ بُنَيَّ . . إنِّي لَمَّا رَأيْتنُي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً ، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً ، بَادَرْتُ بوَصِيَّتِيْ إليكَ ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قبلَ أَنْ يُعَجلَ بي أَجَلِيْ دُوْنَ أَنْ أُفْضِيْ إِلَيْكَ بمَا في نَفْسِي ، وَأَنْ أَنْقُصَ في رَأيِيْ كما نَقصْتُ في

جِسْمِي ، أَوْ يَسْبِقَنِيْ إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الهَوى وَفِتَنِ الدُّنْيَا ، فَتكُونُ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ .

وَإِنَّمَا قَلْبُ الحَدَثِ كَالأَرْضِ الخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيْهَا مِنْ شَيءٍ قَبِلَتْهُ ، فَبَادَرْتُكَ بالأَدَبِ قَبْلَ أنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنْ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارُبِ بُغْيَتَهُ وَتَجرِبَتَهُ ، فَتَكُونُ قَدْ كُفِيْتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعُوفِيْتَ مِنْ عِلاجِ التَّجْرُبَةِ ، فأتَاكَ مِن ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيْهِ ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ .

أَيْ بُنَيَّ . . . إِنِّيْ وَانْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمْرَ مَنْ كَانَ قَبْلِيْ ، فَقَدْ نَظَرْتُ في أَعْمَالِهِم ، وَفَكَّرْتُ في أَخبَارِهِم ، وَسِرْتُ في آثَارِهِم حَتَّى عُدْتُ كَأحَدِهِم ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهي إلَيَّ مِن أُمُورِهِم قَدْ عُمِّرتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إلى آخِرِهِمْ ، فعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدرِهِ ، وَنَفْعَه مِن ضَرَرِهِ .

فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيْلَهُ وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيْلَهُ ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ ، وَرَأيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِن أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الوَالِدُ الشَّفِيْقُ ، وَأجْمَعْتُ عَليه مِنْ أدبكَ أنْ يَكُونَ ذَلِكَ وأنْتَ مُقْبِلُ العُمْرِ وَمُقْتَبِلِ الدَّهْرِ ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيْمَةٍ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ .

وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بتَعْلِيْمِ كِتَابِ اللهِ وَتَأْوِيْلِه ، وَشَرَائِعِ الاسْلاَمِ وَأَحْكَامِه ، وَحَلاَلِه وَحَرَامِه ، لا أُجَاوِزُ ذلكَ بِكَ إلى غَيْرِهِ ، ثم أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فيهِ مِن أَهْوَائِهِم وَآرَائِهِم مِثْلُ الذي التَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ احْكَامُ ذَلِكَ عَلى مَا كَرِهْتَ مِن تَنْبِيْهِكَ به الهَلكَةَ ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيْهِ لِرُشْدِكَ ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ

وَصِيَّتِي هَذِهِ .

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ ، أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ به إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللّهِ والاقْتِصارِ عَلى ما فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، وَالأخذِ بِمَا مَضى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فَإِنَّهُم لَمْ يَدَعُوا أنْ نَظَروا لأَنْفُسِهِم كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ .

وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدَّهُم آخِرُ ذَلِكَ إِلى الأَخْذِ بمَا عَرَفُوا ، وَالامْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا ، فَانْ أبَتْ نَفْسُكَ أنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا ، فَلْيَكُنْ طَلبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعلُّمٍ ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ وَعُلُوِّ الخُصُومَاتِ .

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بالاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيْقِكَ ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلى ضَلالَةٍ ، فَاذَا أَيْقَنْتَ أنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ ، وتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعْ ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً ، فَانْظُرْ فِيْمَا فَسَّرْتُ لَكَ .

وَانْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ ، وَفَراغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَكَ إِنَّمَا تَخبِطُ العَشْوَاءَ وَتَتورَّطُ الظَّلْمَاءَ ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّيْنِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلطَ ، وَالإِمْسَاكُ عَن ذَلِكَ أَمْثَلُ .

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِيْ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الحَيَاةِ ، وَأَنَّ الخَالِقَ هُوَ المُمِيْتُ ، وَأَنّ المُفْنِي هُوَ المُعِيْدُ ، وَأَنَّ المُبتَلِيْ هُوَ المعَافِي ، وَأَنَّ الدنيا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إلا عَلى مَا جَعلَهَا اللهُ عَليهِ مِنَ النَّعْمَاءِ والابْتِلاءِ ، وَالجَزَاءُ في المعَادِ أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لا نَعْلَمُ .

فَانْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلى جَهَالَتِكَ بِهِ ، فَانَّكَ أَوَّلُ مَا خُلُقْتَ جَاهِلا ثُمَّ عَلِمْتَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ من الأَمْرِ ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأيُكَ ، وَيَضِلُّ فِيْهِ بَصَرُكَ ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلكَ ، فَاعْتَصِمْ بالذِي خَلقَكَ وَرزَقَكَ وَسَوَّاكَ ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ .

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنبِئْ عَنْ اللهِ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَارْضَ به رَائِداً ، وَالى النَّجَاةِ قَائِداً ، فانِّي لَمْ آلُكَ نَصِيْحَةً وانَّكَ لَنْ تَبْلُغَ في النَّظَرَ لِنَفسِكَ ـ وَانْ اجْتَهَدْتَ ـ مَبْلَغَ نَظَرِيْ لَكَ .

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أنه لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيْكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهِ ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلكِهِ وَسُلْطَانِه ، وَلَعَرَفْتَ أفعَالَهُ وصِفَاتَهُ ، وَلكنَّه الهٌ وَاحِدٌ كما وَصَفَ نَفْسَهُ ، لا يُضَادّه في مُلْكِه أحَدٌ ، وَلا يَزُولُ أَبَداً ، وَلَمْ يَزَلْ أَوَّلٌ قَبْلَ الأَشْيَاءِ بلا أوّلِيَّة ، وَآخِرٌ بَعْدَ الأشْيَاءِ بلا نِهَايَةِ ، عَظُمَ عنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتَهُ باحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصرٍ ، فَاذَا عَرفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ في صِغَرَ خَطَرِهِ ، وَقِلَّةِ مَقْدرَتِهِ ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ ، وَعَظِيْمِ حَاجَتِهِ إلى رَبِّهِ ، في طَلَبَ طَاعَتِه ، وَالرَّهْبَةِ من عُقُوبَتِه ، والشَّفَقَةِ من سَخَطِهِ ، فانَّهُ لَمْ يَأْمُركَ إِلا بِحُسَنٍ ، وَلَمْ يَنْهكَ إِلاّ عَنْ قَبِيْحٍ .

يَا بُنَيّ . . . انّي قَدْ أَنبَأْتُكَ عَنْ الدُّنيا وحَالِهَا وَزوالِهَا وَانْتِقَالِهَا ، وَأَنْبَأْتُكَ عن الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لاهْلِهَا فِيْهَا ، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيْهِما الأَمْثَالَ لِتعْتَبِرَ بهَا وَتَحْذَو عَلَيْها .

إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفرٍ نَبَا بهم مَنْزِلٌ جَدِيْبٌ فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيْباً وَجَناباً مُرِيْعاً فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيْقِ وَفِرَاقَ الصَّدِيْقِ، وَخُشُونَةِ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ المَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِم، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِم، فَلَيْسَ يَجِدُوْنَ لِشَيءٍ مِن ذَلِكَ أَلَماً، وَلا يَرَوْنَ في نَفَقَةٍ مَغْرَمَا، ولا شَيءَ أَحَبَّ إِليهم مِمَّا قَرَّبَهُم مِنْ مَنْزِلِهم، وَأَدْنَاهُم مِن مَحَلِّهِمْ.

وَمَثَلُ مَنْ أَغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيْبٍ، فَنَبَا بهم إلى مَنْزِلٍ جَدِيْبٍ، فَلَيْسَ شَيء أَكْرَهَ إِلَيْهِم ولا أَفْظَعَ عِنْدَهُم مِن مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيْهِ إلى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ وَيَصِيْرونَ إِلَيْهِ.

يَا بُنَيَّ.. اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيْزَاناً فِيْمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَه لهُ مَا تَكْرَهُ لهَا، وَلا تَظْلِمْ كما لا تُحِبُّ أنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كما تُحِبُّ أنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِن نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحْ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لهُم مِنْ نَفْسِكَ، وَلا تقُلْ مَالا تَعْلَمُ وَانْ قلَّ مَا تَعْلم، وَلا تَقُلْ مَا لا تُحِبُّ أنْ يُقَالَ لَكْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الاعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وآفَةُ الأَلْبَابِ، فَاسْعَ في كَدْحِكَ وَلا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ، وَاذا أنتْ هُدِيْتَ لِقَصْدِكَ، فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمامَكَ طَرِيْقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيْدَةٍ وَمَشَقَّةٍ شَدِيْدَةٍ، وَأَنَّهُ لا غِنَى لكَ فِيْهِ عَن حُسْنِ الارْتِيَادِ، قَدْرَ بَلاغِكَ مِنْ الزَّادِ مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلا تَحْمِلَنَّ على ظَهرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ فَيَكونُ ثِقَلُ ذَلِكَ وَبالاً عَلَيْكَ.

وَاذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ،

فَيُوَافِيْكَ بِهِ غَدَاً حَيْثُ تَحْتَاجُ الَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وحَمِّلْهُ ايَّاهُ ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيْدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُه فَلا تَجِدُهْ ، وَاغتَنِم مَنْ اسْتَقْرَضَكَ في حَالِ غِنَاكَ ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ في يَوْمِ عُسْرَتِكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً ، المُخِفُّ فِيْهَا أَحْسَنُ حَالاً مِن المُثْقِلُ ، وَالمُبْطِي عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِن المُسْرِعِ ، وَأَنَّ مَهْبَطَكَ بهَا لَا مَحَالَةَ عَلى جَنَّةٍ أَوْ عَلى نَارٍ ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ ، وَوَطِّىءْ المَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَليس بَعْدَ الموتِ مُسْتَعْتَبٌ ، وَلا إِلى الدنيا مُنْصَرَفٌ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الذِيّ بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، قَدْ أَذِنَ لَكَ في الدُّعَاءِ ، وَتَكفَّلَ لكَ بالاجابَةِ ، وَأمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ وَتَسْتَرحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ ، وَلَمْ يَجْعَلِ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَن يَحْجُبُهُ عَنْكَ ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إلى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إلَيْهِ ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إنْ أَسَأْتَ مِنْ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يَعَاجِلْكَ بالنقْمَةِ ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بالانابَةِ وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الفَضِيْحَةُ بَكَ أَوْلَى ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ في قَبُولِ الانَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالجَرِيْمَةِ ، وَلَمْ يُؤَيِّسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ .

بَلْ جَعَلَ نُزُوْعَكَ عَنْ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً ، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرَا ، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ المتابِ ، فَإذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاءَكَ ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ، فأفْضَيْتَ إِلَيْهِ بحاجَتِكَ ، وَأبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلى أُمُورِكَ ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِه مَالا يَقْدِرُ عَلى إِعْطائِهِ غَيْرُهُ من زِيَادَةِ الأَعْمَارِ ، وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ .

ثُمَّ جعلَ في يَدَيْكَ مَفَاتِيْحَ خَزائِنِه بمَا أَذِنَ لَكَ مِنْ مَسْأَلَتِهِ ، فَمَتَى شِئتَ اسْتَفْتَحْتَ بالدّعاءِ أبْوابَ نِعْمَتِه ، وَاسْتَمْطَرْتَ شآبِيْبَ رَحْمَتِه فَلا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ اجَابَتِه ، فإِنَّ العَطِيَّةَ عَلى قَدْرِ النِّيةِ ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الاجَابَةُ لِيَكُوْنَ ذَلِكَ أعْظَمُ لأَجْرِ السَّائِلْ ، وَأَجْزَلُ لِعطاءِ الآمِلْ .

وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيءَ فَلا تُؤْتَاهُ وَأُوتِيْتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجلاً أو آجلاً ، أوْ صُرِفَ عَنْكَ لِما هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فلرُبَّ أَمْرٍ قدْ طلَبْتَهُ فِيهِ هَلاَكُ دِيْنِكَ لَوْ أُوْتِيْتَهُ ، فلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيْمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبالُهُ . فَالمَالُ لا يَبْقَى لَكَ وَلا تَبْقَى له .

وَاعْلَم أَنَّكَ انَّما خُلِقْتَ للآخِرَةِ لَا للدُّنيا ، وَلِلْفَناءِ لا لِلبَقَاءِ ، وَلِلْمَوتِ لا للحَيَاةِ ، وَأنكَ في مَنْزِلِ قَلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ ، وَطَـرِيْقٍ إِلى الآخِرةِ .

وَأَنَّكَ طَرِيْدُ المَوْتِ الذيْ لا يَنْجوُ مِنْهُ هَارِبُه ، وَلاَ بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُه ، فَكُنْ مِنْهُ عَلى حَذرٍ أنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قد كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بالتَّوْبَةِ ، فَيَحُولُ بَيْنَك وَبَيْنَ ذَلِكَ ، فاذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ .

يَا بُنَيَّ ، أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ ، وَتُفْضِيْ بَعْدَ المَوْتِ الَيْهِ ، حَتَّى يَأْتِيْكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ ، وَلاَ يَأتِيْكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ اخْلاَدِ أَهْلِ الدّنْيَا إِلَيْهَا ، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا .

فَقَدْ نَبَّأَكَ اللّهُ عَنْهـا ونعَتَتْ لَكَ نَفْسَهـا ، وَتَكَشَّفَتْ لَـكَ عَنْ

مَسَاوِيْهَا ، فَانَّ أَهْلَهَا كِلَابُ عَاوِيَةٌ ، وَسِبَاعُ ضَارِيَةٌ ، يَهِرُّ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَيَأْكُلُ عَزِيْزُهَا ذَلِيْلَهَا ، وَيَقْهَرُ كَبِيْرهَا صَغِيْرَهَا .

نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا ، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا ، سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ . لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيْمُهَا ، وَلا مُقِيْمٌ يَسِيْمُهَا ، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيْقَ العَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الهُدَى ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً ، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا ، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا .

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلَامُ ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتْ الأَظْعَانُ ، يُوْشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، فَانَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً ، وَيَقْطَعُ المَسَافَةَ وَانْ كَانَ مُقِيْماً وَادِعاً .

وَاعْلَمْ يَقِيْناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيْلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ ، فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي المُكْتَسَبِ فَانَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ ، فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوْقٍ ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ ، وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبْ ، فَانَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلْ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً ، وَلا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللّهُ حُرّاً ، وَمَا خَيْرٌ ، لا يُنَالُ إِلا بِشَرٍّ ، وَيُسْرٍ لا يُنَالُ إِلا بِعُسْرٍ .

وَأَيَّاكَ أَنْ تُوجِفْ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ ، فَتُورِدُكَ مَنَاهِلَ الهَلَكَةِ ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ ، فَانَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ ، وَانَّ اليَسِيْرَ مِنَ اللّهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنْ

الكَثِيْرِ مِنْ خَلْقِهِ ، وَانْ كانَ كلٌّ مِنْهُ .

اللَّهُم اليْكَ بِدُعائِنا تَوَجَّهْنَا وَبفِنائِكَ أَنَخْنَا وَإِيَّاكَ أَمَّلْنَا وَلِمَا عِنْدَكَ مِن الكَرَمِ وَالجُودِ وَالاحْسَانِ طَلَبْنَا وَمِنْ عَذابِكَ أَشْفَقْنَا وَلِغُفرانِكَ تعَرَّضْنَا فاغْفِرْ لَنا ولِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمْينَ برَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وَصِيَّةُ أبِيْ حَازِمٍ الأَعْرَجِ لِلزُّهْرِيِّ

عَافَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَبَا بَكْرٍ مِنْ الفِتَنِ ، وَرَحِمَكَ مِنْ النَّارِ ، فَقَدْ أَصْبَحْتَ بحَالٍ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرفَكَ بِهَا أَنْ يَرْحَمَكَ مِنْهَا ، أَصْبَحْتَ شَيْخاً كَبْيراً قَدْ أثْقَلَتْكَ نِعَمُ اللهِ عليك ، بمَا أصحَّ مِن بَدَنِكَ ، وَأطَالَ مَن عُمْرِكَ ، وَعَلِمْتَ حُجَجِ اللهِ تَعالى مِمَّا حَمَّلَكَ مِن كِتَابِه ، وَفَقَّهَكَ فِيْهِ مِن دِيْنِهَ ، وَفَهَّمَكَ مِن سُنَّةَ نَبِيَّكَ - صَلى اللهُ عليهِ وسلَم - فرَمَى بِكَ في كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا عَلَيْكَ وَكُلِّ حُجَّةٍ يَحْتَجُّ بها عَليك . وَقد قَالَ تَعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُم لأَزِيْدَنَّكَم ، وَلَئِنْ كَفرْتُم إنَّ عَذَابِيْ لَشَدِيْدٌ ﴾ .

انْظُرْ . . أَيَّ رَجُلٍ تَكُونُ إذَا وَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيْ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَسَأَلَكَ عَنْ نِعَمِهِ عَلَيْكَ كَيْفَ رَعَيْتَها ، وَعَنْ حُجَجِهِ عَلَيْكَ كَيْفَ قَضَيْتَهَا ، وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهِ رَاضِياً مِنْكَ بالتَّغْرِيْرِ ، وَلا قَابِلاً مِنْكَ التَّقْصِيْرَ ، هَيْهَاتَ لَيْسَ كذلِكَ .

أَخَذَ عَلى العُلَمَاءِ في كِتَابِه إذْ قال: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ . . الآيَة .

إنَّكَ تَقُولُ إنَّكَ جَدلٌ ، مَاهِرٌ عَالِمٌ ، قَدْ جَادَلْتَ النَّاسَ فَجدْلَتُهم ، وَخاصَمْتَهُم فَخصَمْتَهُم ، إدْلالاً مِنْكَ بِفَهْمِكَ ، واقْتِدَاراً مِنْكَ برأْيِكَ ، فَأَيْنَ تَذْهَبُ مِنْ قَوْلِ اللّهِ عَزَّ وَجلَّ : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلآءِ جَادَلْتُم عَنْهُم في الحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّه عَنْهُم يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ . . الآيَة .

إعْلَمْ أَنَّ أَدْنَى مَا ارْتَكَبْتَ ، وَأَعْظَمَ مَا احْتَقَّيْتَ ، أَنْ آنَسْتَ الظَّالِمَ ، وَسَهَّلْتَ لهُ طَرِيْقَ الغَيِّ بِدُنُوِّكَ حِيْنَ أُدْنِيْتَ ، وَأَجابَتِكَ حِيْنَ دُعِيْتَ ، فمَا أَخلَقَكَ أَنْ تَبوُءَ باثْمِكَ غداً مَعَ الجَمْعَةِ ، وأنْ تُسْأَلَ عَمَّا أَرَدْتَ باغْضَائِكَ عَنْ ظُلْمِ الظَّلَمَةِ .

إنَّكَ أَخَذْتَ مَا لَيْسَ لِمَنْ أَعْطَاكَ ، وَدَنَوتَ مِمَّنْ لا يَرُدُّ عَلى أَحَدٍ حَقًّا ، وَلا تَرَكَ بَاطِلا حِيْنَ أَدْنَاكَ ، وَأَجَبْتَ مَنْ أَرادَ التَّدْلِيْسَ بدُعَائِهِ إيَّاكَ حِيْنَ دَعَاكَ .

جَعَلُوكَ قُطْباً تَدُورُ رَحَى بَاطِلِهِم عَلَيْكَ ، وَجَسْراً يَعْبرُونَ بِكَ إلى بَلائِهِم ، وَسُلَّماً إلى ضَلاَلَتِهِم ، وَدَاعِياً إلى غَيِّهِم ، سَالِكاً سَبِيْلَهُم ، يُدْخِلُونَ بكَ الشَّكَّ على العُلَمَاءِ ، وَيقْتَادُونَ بكَ قُلُوْبَ الجُهَّالِ إلَيْهِم ، فَلَمْ تَبْلُغْ أَخصُّ وُزَرائِهِمْ ، وَلا أَقْوَى أَعْوانِهِمْ لَهُمْ إلَّا دُوْنَ مَا بَلَغْتَ مِنْ إصْلاَحِ فَسَادِهِمْ ، وَاخْتِلاَفِ الخَاصَّةِ والعَامَّةِ إلَيْهِم ، فَمَا أَيْسرَ مَا عَمَّرُوا لَكَ في جَنْبِ مَا خَرَّبُوا عَلَيْكَ وَمَا أَقَلَّ مَا أَعْطَوْكَ في كَثِيْرِ مَا أَخَذُوا مِنْكَ ، فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ فَإنَّهُ لاَ يَنْظُرُ لَها غَيْرُكَ ، وَحَاسِبْهَا حِسَابَ رَجُلٍ مَسْؤُولٍ .

وَانْظُرْ كَيْفَ شُكْرُكَ لِمَنْ غَذاكَ بنعمِهِ صَغِيْراً وَكَبِيْراً ، وَانْظُرْ كَيْفَ إعْظَامُكَ أمرَ مَنْ جَعَلَكَ بدِيْنِهِ في النَّاسِ بَخِيْلا ، وَكَيْفَ صِيَانَتُكَ لِكِسْوَةِ

مَنْ جعَلَكَ لِكِسْوَتِهِ سَتِيْرَا ، وَكَيْفَ قُرْبُكَ وَبُعْدُكَ مِمَّنْ أَمَرَكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ قَرِيْبَا .

مَا لَكْ لاَ تَنْتَبِهْ مِنْ نَفْسِكَ ، وَتَسْتَقِيْلَ مِنْ عَثْرَتِكَ ، فَتَقُولُ : وَاللّهِ مَا قُمْتُ لِلّهِ مَقَاماً وَاحِداً أُحْيِي لهُ فيه دِيْناً ، وَلا أُمِيْتُ له فِيْهِ بَاطِلاً ، إِنَّمَا شُكْرُكَ لِمَنْ اسْتَحْمَلَكَ كِتَابَهُ ، وَاسْتَوْدَعَكَ عِلْمَهْ .

مَا يُؤَمِّنْكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الذِيْنَ قَالَ اللّهُ تَعالَى فِيْهِم :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهْم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى . . ﴾الآية .

انَّكَ لَسْتَ في دَارِ مُقَامٍ ، قَدْ آذَنَتْ بِالرَّحِيْلِ ، مَا بَقَاءُ المَرْءِ بَعْدَ أَقْرَانِه ، طُوْبي لِمَنْ كَانَ مَعَ الدُّنْيَا على وَجَلٍ ، وَيَا بُؤْس مَنْ يَمُوْتُ وَتَبْقَى ذُنُوبُهُ مِنْ بَعْدِهِ .

إِنَّكَ لَمْ تُؤْمَرْ بالنَّظَرِ لِوَارِثِكَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَلَيْسَ أَحَدُ أَهْلاً أَنْ تُرْدِفَهُ على ظَهْرِكَ . ذَهَبَتْ اللذَّةُ وَبَقِيتْ التَّبعَةُ ، مَا أَشْقَى مَنْ سَعُدَ بِكَسْبِهِ غَيْرُهُ ، إِحْذَرْ فَقَدْ أُتِيتَ ، وَتَخَلّصْ فَقَدْ أُدْهِيتَ انَّكَ تُعَامِلْ مَنْ لا يَجْهَلْ ، وَالذِيْ يَحْفَظُ عَلَيْكَ لاَ يَغْفَلُ .

تَجَهَّزْ ، فَقَدْ دَنَا مِنْكَ سَفَرٌ ، وَدَاوِ دِيْنَكَ فَقَدْ دَخَلَهُ سَقَمٌ شَدِيْدٌ ، وَلا تَحْسَبَنَّ أَنِّي أَرَدْتُ تَوْبِيْخَكَ أو تَعْيِيْرَكَ وَتَعْنِيْفَكَ ، وَلكِنّي أَرَدْتُ أَنْ تَنْبُشَ مَا فَاتَ مِن رَأْيِكَ ، وَتَرُدَّ عَلَيْكَ مَا عَزبَ عَنْكَ مِنْ حِلْمِكَ ، وَذَكَرتُ قَوْلَهُ تَعَالَى :

﴿ وَذَكِّرْ فَانَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ المُؤْمِنِيْنَ ﴾ .

أَغفَلْتَ ذِكْرَ مَنْ مَضَى مِنْ أَسْلافِكَ وَأَقْرانِكَ ، وَبَقِيْتَ بَعْدَهُم كَقَرْنٍ أَعْضَبٍ ، فَانْظُرْ هَلْ ابْتُلوْا بِمِثْلِ مَا ابْتُلِيْتَ بِهِ ، أو دَخَلُوا في مِثْلِ مَا دَخَلْتَ فِيْهِ ، وَهَل تَراهُ إدخَرَ لَكَ خَيْراً مُنِعُوْهُ أَوْ عَلَّمَكَ عِلْماً جَهِلُوْه ، بَلْ جَهِلْتَ مَا ابْتُلِيْتَ بِهِ مِنْ حَالِكَ في صُدُوْرِ العَامَّةِ ، وَكَلَّفَهُم بِكَ أَنْ صَارُوا يَقْتَدُوْنَ بِرَأْيِكَ وَيَعْمَلُوْنَ بِأَمْرِكَ ، إنْ أحْلَلْتَ أحَلُّوا ، وَانْ حَرَّمْتَ حَرَّمُوا ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَكَ ، وَلَكِنْ إكْبَابُهم عَلَيْكَ ، وَرَغْبَتُهم فِيْمَا في يَدَيْكَ ، ذَهَابُ عَمَلِهم ، وَغَلَبَةُ الجَهْلِ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِم، وَطَلَبُ حُبِّ الرِّيَاسَةِ وَطَلَبُ الدُّنْيَا مِنْكَ وَمِنْهُم .

أَمَا تَرَى مَا أَنْتَ فِيْهِ من الجَهْلِ والغِرَّةِ ، ومَا النَّاسُ فيه من البَلاءِ والفِتْنَةِ ، وَابْتَلَيْتَهُم بالشُّغْلِ عن مَكاسِبِهِم وَفَتَنْتَهُم ، بما رَأَوْا مِنْ أَثَرِ العِلْمِ عَلَيْكَ ، وتَاقَتْ أَنْفُسُهُم إلى أَن يُدْرِكُوا بالعِلْمِ مَا أَدْرَكْتَ ، وَيَبْلغُوا مِنْهُ مِثْلَ الذي بَلَغْتَ ، فوَقَعُوا بكَ في بَحْرٍ لا يُدْرَكُ قَعْرُه، وفي بَلاءٍ لا يُقْدَرُ قَدْرُه ، فَاللّهُ لنا وَلَك وَلهُم المسْتَعَانُ .

وَاعْلَم أنَّ الجَاهَ جَاهَان : جَاهٌ يُجرِيْهِ اللهُ تَعالى عَلى يَدَيْ أَوْلِيَائِه لأَوْلِيَائِه ، الخَامِلِ ذِكْرُهم ، الخافِيَةِ شُخُوْصُهم ، ولقد جَاءَ نَعْتُهم على لِسَانِ رَسُولِ اللهِ صَلى الله عليه وسلم :

« انَّ اللّهَ يُحِبُّ الأَخْفِيَاءِ الأَتْقِيَاءِ الأَبْرِيَاءِ الذين إذا غَابُوا لم يُفْتَقُدوا ، وَإذا شَهِدُوا لم يُعْرَفوا ، قُلوبهُم مَصابِيْحُ الهُدَى ، يَخْرُجونُ مِن كُلِّ فِتْنَةٍ سَوَدَاءَ مُظْلِمَة » .

فَهَؤُلاءِ أَوْلِيَاءِ اللّهِ الذين قَالَ تَعالى فيهم : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ ،

ألا إن حزبَ اللهِ هُمْ المُفْلِحُوْنَ ﴾ .

وَجاهٌ يُجْرِيْهِ اللهُ تعالى على يَدَيْ أَعْدَائِه لِأَوْلَيَائِه ، وَمِقَةٌ يَقْذِفُهَا اللّهُ في قُلُوبِهِمْ لَهُم ، فَيُعَظِّمُهُم النَّاسُ بتَعْظِيْمِ أُوْلَئِكَ لَهُم وَيَرْغَبُ النَّاسُ فِيْمَا في أَيْدِيهم لِرَغْبَةِ أولئك فيه إليهم ﴿ أولَئكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ألا إنَّ حِزْبَ الشيطَانِ هُم الخَاسِرُونَ ﴾ .

وَمَا أَخْوَفَنِيْ أَنْ تَكُوْنَ مِمَّن يَنْظُرُ لِمَنْ عَاشَ مَسْتُوراً عَلَيْهِ في دِيْنِه ، مَقْتُوراً عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ ، مَعْزُولة عَنْهُ البَلايَا ، مَصْرُوفَةٌ عَنه الفِتَنُ في عُنْفُوانِ شَبابِهِ وظُهُورِ جَلَدِه ، وَكَمالِ شَهْوَتِهِ ، فَعُنِيَ بذلِكَ دَهْرَهُ ، حَتَّى إذا كَبِرَ سِنُّهُ ، وَرَقَّ عَظْمُهُ ، وَضَعُفتْ قُوَّتُهُ ، وَانْقَطَعَتْ شَهْوَتُه وَلَذَّتُهُ ، فُتِحَتْ عَليه الدّنيا شَرَّ فُتُوحٍ فَلزمَتْهُ تَبِعَتُهْا وعَلِقَتْهُ فِتْنَتُها ، وَأعْشَتْ عَيْنَيْه زَهْرَتُها ، وَصَفَتْ لِغَيْرِهِ مَنْفَعَتُها ، فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَبْيَنَ هَذَا الغَبْنَ ، وَأخْسَرَ هَذا الأَمْرَ ، فهَلاّ إذَا عَرَضَتْ لَكَ فِتَنُتُها ذَكَرْتَ أَمِيْرَ المؤمِنيْنَ عُمَرُ رَضَى اللهُ تَعالى عنهُ في كِتَابِه إلى سَعْدٍ . . حِيْنَ خَافَ عَلَيْهِ مِثْلَ الذي وَقَعْتَ فِيْهِ عِنْدَمَا فَتَحَ اللهُ على سَعْدٍ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَأعْرِضْ عَنْ زَهْرَةِ مَا أَنْتَ فِيْهِ حَتَّى تَلْقَى المَاضِيْنَ الذِيْنَ دُفِنُوا في أَسْمَالِهِمْ ، لاَصِقَةً بُطُونُهُمْ بِظُهُوْرِهِمْ ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ ، لَمْ تَفْتِنْهُم الدُّنْيَا وَلَمْ يُفْتَنُوا بِهَا ، رَغِبُوا فَطَلَبُوا فَمَا لَبِثُوا أَنْ لَحِقُوا ، فَإِذَا كَانَتْ الدُّنْيَا تبلُغُ مِنْ مِثْلِكَ هَذا في كِبَرِ سِنِّكَ ، وَرُسُوخِ عِلْمِكَ ، وَحُضُورِ أَجَلِكَ ، فَمَنْ يَلُوْمُ الحَدَثَ في سِنِّهِ ، وَالجَاهِلَ في عِلْمِهِ ، وَالمَأْفُونَ في رَأْيِهِ المَدْخُولَ في عَقْلِهِ ، إنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون ، عَلَى مَنْ المُعَوَّلُ ، وَعِنْدَ مَنْ المُسْتَعْتَبُ .

نَحْتَسِبُ عِنْدَ اللهِ مُصِيْبَتَنا . . وَمَا نَرَى مِنْكَ ، وَنَحْمَدُ اللّهَ الذِيْ عَافَانا مِمَّا ابْتَلاكَ بِهِ . والسَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ . . .

شِــعْراً :

لَعَمْـرِيْ لَقَدْ نُـودِيْتَ لَـوْ كُنْتَ تَسْمَـعُ
أَلَمْ تَـرَ أَنَّ المَـوْتَ مَــا لَيْسَ يُـدْفَــعُ
أَلَــمْ تَــرَ أَنَّ النَّــاسَ فـي غَفَــلاَتِـهِمْ
وَأَنَّ الـمَـنَــايَــا بَـيْـنَـهُـمْ تَـتَـقَـعْـقَــعُ
أَلَمْ تَــرَ لَـذَّاتِ الجَـدِيْــدِ إلى البِلَى
أَلَــمْ تَــرَ أَسْبَــابَ الأُمُــوْرِ تَــقَـطَّعُ
أَلَـمْ تَــرَ أَنَّ المَــوْتَ يَهْتَــزُّ سَيْفُــهُ
وَأَنَّ رِمَــاحَ الـمَـوْتِ نَحْــوَكَ شُــرَّعُ
أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الـدَّهْـرَ في كُلِّ سَـاعَـةٍ
لَـهُ عَــارِضٌ فِيْـهِ المَنِـيَّـةُ تَـلْمَـعُ
أَيَــا بَــانِيَ الــدُّنْيَــا لِغَيْـرِكَ تَبْتَنِي
وَيَــا جَـامِـعَ الـدُّنيــا لِغَيْـرِكَ تَجْمَـعُ

وَاللّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٌ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

قَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ اللّهِ بنِ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللّهُ أَوْصِنِيْ فقَالَ اتْرُكْ فضُولَ النَّظَرِ تُوفقْ لِلخُشُوعِ ، وَاتْرُكْ فُضُولَ الكلامِ تُوَفَّقْ لِلْحِكْمَةِ ، وَاتْرُكْ فُضُولَ الطَّعَامِ توفَّقْ للعِبَادَةِ ، وَاتْرُكْ التَّجسُّسَ على عُيُوبِ النَّاسِ تُوَفَّقْ لِلاطِّلاعِ عَلى عُيُوبِ نَفْسِكَ .

وَقَالَ رَجُلٌ لِمحَمَّدِ بن سِيْرِيْنَ أَوْصِنِيْ فقَالَ لا تَحْسُدْ أَحداً ، فإنَّهُ انْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَكَيْفَ تَحْسُدُهُ على دُنْيا فَانِيَةٍ مَصِيْرُهُ بَعْدَهَا إلى النَّارِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَاتَّبِعْهُ في أَعْمَالِهَا وَاغْبِطْهُ عَلَيْهَا فإنَّ ذَلِكَ أَوْلَى مِنْ حَسَدِكَ لهُ على الدُّنْيا .

وَقَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ البَصْرِيّ أَوْصِنِيْ فقَالَ لَا تُذْنِبْ فَتُلْقِيْ نَفْسَكَ في النّارِ مَعَ أَنَّكَ لو رَأَيْتَ أَحداً يُلْقِي بُرْغُوثاً في النَّارِ لأنْكَرْتَ عليهِ ، وَأَنْتَ تُلْقِيْ نَفْسَكَ في النَّارِ كلَّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ ، وَلا تُنْكِرُ عَلَيْهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ حُسْنُ أَدَبِهِمْ مَعَ الصَّغِيْرِ وَالكَبِيْرِ وَمَعَ البَعِيْدِ فَضْلاً عَن القَرِيْبِ .

وَالأَصْلُ في الأَدَبِ شُهُوْدُ النَّقْصِ في النَّفْسِ وَالكَمَالِ في الغَيْرِ عَكْسُ مَنْ كانَ قَلِيْلَ أَدَبٍ مُتَكَبِّرٍ ، وَكَانَ مَيْمُونُ بنُ مِهْرَانَ إذا دُعِي إلى وَلِيْمَةٍ جلَسَ مَعَ الصِّبْيَانِ وَالمَسَاكِيْنِ مِنْ الرِّجَالِ وَتَرَكَ الأغنِيَاءِ ، وَكَانَ بَكْرُ ابن عَبْدِ اللهِ المُزَنِيّ يَقُولُ إذا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْكَ فعَظِّمْهُ وَقُلْ انَّهُ سَبَقَنِيْ إلى الإسْلَامِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ وَإذا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَصْغَرُ مِنْكَ فَعَظِّمْهُ وَقُلْ في نَفْسِكَ إنِّيْ سَبَقْتُهُ إلى الذُّنُوبِ ، وَإِذَا أَكْرَمَكَ النَّاسُ فَقُلْ هَذا مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيَّ لا أَسْتَحِقّهُ وإِذَا أَهَانُوْكَ فَقُلْ هَذَا بِذَنْبٍ أَحْدَثْتُهُ .

وَمِنْ أَخْلَاقِهم إنْخِلَاعُ قُلُوبِهِمْ مِنْ خَوْفِ اللّهِ مِنْ ذَلِكَ مَا ذُكِرَ أَنَّهُ لمّا حَضَرَتْ الوَفَاةُ سَلْمَانَ الفَارِسِيّ بَكى ، وَقَالَ انَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم قَدْ عَهِدَ إلَيْنَا وقالَ لِيَكُنْ بُلْغَةُ أَحدِكُمْ مِنْ الدّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ ، وَهَا أَنَا قَدْ جَمَعْتُ هَذِهِ الأَمْتِعَةَ وَأَشَارَ إلَيْهَا وَهِيَ إجَانَة وَجَفْنَة وَمِطْهَرَةٌ فَلَمَّا مَاتَ قَوَّمُوهَا بِخَمْسَةَ عَشَرَ دِرْهَمَا .

شِعْراً :

مَا ضَرَّ مَنْ كَانَتْ الفِرْدَوْسُ مَسْكَنَهُ
مَاذا تَحَمَّلَ مِن بُؤْسٍ وَإقْتَارِ
تَرَاهُ يَمْشِي كَئِيباً خَائِفاً وَجِلاً
إلَى المَسَاجِدِ يَسْعَى بَيْنَ أَطْمَارِ

وَمِمَّا يُنْسَبُ إلى الشَّافِعِيّ :

يَا لَهْفَ قَلْبِيْ على شَيْئَيْنِ لَوْ جُمِعَا
عِنْدِيْ لَكُنْتَ إذاً مِنْ أَسْعَدِ البَشَرِ
كَفَافِ عَيْشٍ يَقِيْنِيْ شَرَّ مَسْأَلَةٍ
وَخِدْمَةِ العِلْمِ حَتَّى يَنْتَهِيْ عُمُرِيْ

وَلَمَّا حَضَرَتْ ابْرَاهِيْمَ النَّخَعِيّ الوَفَاةُ بَكَى فَقِيْلَ لَهُ في ذَلِكَ فَقَالَ : إنِّيْ أَنْتَظِرُ رَسُولاً يَأْتِيْنِي مِنْ رَبِّيْ لَا أَدْرِيْ هَلْ يُبَشِّرُنِيْ بالجَنَّةِ أَوْ بالنَّارِ ، وَلَمَّا حَضَرَتْ عُمَرَ بنَ عبدِ العزيزِ الوَفَاةُ ، قالَ اللّهُمّ إنِّي أَذْنَبْتُ فَإنْ غَفَرْتَ لِيْ فَقَدْ مَنَنْتَ وَإنْ عَذَّبْتَنِيْ فَقَدْ عدَلْتَ ، وَمَا ظَلَمْتَ لكِنْ أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللّهُ وأنّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ثُمَّ قَضَى نَحْبَهُ .

وَكَانَ يَتَمَثَّلُ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ :

تَرَاهُ مَكِيْناً وَهُوَ لِلَّهْوِ مَاقِتٌ
بِهِ عَنْ حَدِيْثِ القَومِ مَا هُوَ شَاغِلُهْ
وَأَزْعَجَهُ عِلْمٌ عَنِ الجَهْلِ كُلِّهِ
وَمَا عَالِمٌ شَيْئاً كَمَنْ هُوَ جَاهِلُهْ

عَبُـوسٌ عَنْ الجُهَّـالِ حِيْنَ يَـرَاهُـمُـوْا
فَـلَيْسَ لَـهُ مِنْهُـم خَـدِيْـنٌ يُـهَـازِلُـهْ
تَـذَكَّـرَ مَـا يَلْقَى مِـنْ العَيْشِ آجـلاً
فـاشْغَلهُ عَـنْ عَـاجِـلِ العَـيْشِ آجِـلُهْ

وَلَمَّا حَضَرَتْ عَامِرَ بْنَ قَيْسٍ الوَفَاةُ بَكَى وَقَالَ إِنِّي لَمْ أَبْكِ جَزَعاً مِنْ المَوْتِ وَلاَ حِرْصاً عَلى الدُّنْيَا .

وَلَكِنْ أَبْكِيْ عَلى عَدَمِ قَضَاءِ وَطَرِيْ مِنْ طَاعَةِ رَبِّي وَقِيَامِ اللَّيْلِ في أَيَّامِ الشِّتَاءِ .

شِـعْراً :

وَمَـا فُـرْشُـهُـمْ إلا أَيَـامِـنُ أُزْرِهِـمْ
وَمَـا وُسْـدُهـم إِلَّا مِـلاَءٌ وَأَذْرُعٌ
وَمَـا لَـيْلُهـم فِـيْـهِـنَّ إلا تَـخَـوُّفٌ
وَمَـا نَـوْمُـهُـم إلا عِـشَـاشٌ مُـرَوَّعُ
وَأَلْـوَانُـهُـم صُـفْـرٌ كَـأَنَّ وُجُـوْهَهُـمْ
عَلَيْهَـا جِسَـامـاً مَـا بِـهِ الـوَرْسُ مُشْبَـعُ
نَـوَاحِـلُ قَـدْ أَزْرَى بِهَـا الجُهْدُ والسُّرَى
إلى اللهِ في الـظَّلْمَـاءِ والنَّـاسُ هُجَّـعُ
وَيَبْكُـونَ أَحْيَـانـاً كـأَنَّ عَـجِيْجَهُـمْ
إِذَا نَـوَّمَ الـنَّـاسُ الحَنِيْـنُ الـمُـرَجَّـعُ
وَمَـجْلِسِ ذِكْـرٍ فِيْـهِـم قَـدْ شَـهِـدْتُـهُ
وَأَعْـيُـنُـهُـمْ مِـنْ رَهْبَـةِ الـلهِ تَـدْمَـعُ

آخَــرُ :

وَمَــا النَّـاسُ إلَّا رَاحِـلُوْنَ وَبَـيْـنَـهُـمْ
رِجَـالٌ ثَــوَتْ آثَـارُهُمْ كَـالـمَـعَـالِمِ
بِـعِــزَّةِ بَــأْسٍ وَاطِّـلاَعِ بَـصِــيْــرَةٍ
وَهَــزَّةِ نَـفْسٍ واتِّـسَـاعِ مَـرَاحِـمِ
حُـظُوْظُ كَمَالٍ أَظْهَـرَتْ مِنْ عَجَـائِبٍ
بِمِرْآةِ شَخْصٍ مَا اخْتَفَى في العَـوَالِمِ
وَمَــا يَسْتَـطِيْـعُ الْمَـرْءُ يَخْتَصُّ نَفْسَـهُ
ألَا إنَّمَــا التَّخْصِـيْصُ قِسْـمَــةُ رَاحِمِ
وَقَــدْ يُفْسِـدُ الحُـرَّ الكَـرِيْمَ جَلِيْسُـهُ
وَتَـضْـعُـفُ بِــالإيْـهَـامِ قُــوَّةُ حَـازِمِ
وَلَيْسَ بِحَيٍّ سَــالِــكٌ في خَـسَـائِسٍ
وَلَـيْسَ بِمَيْتٍ هَــالِـكٌ فِـيْ مَكَـارِمِ
إذَا لَــجَّ لُـؤْمٌ مِنْ سَـفِـيْـهٍ لِـرَاشِـدٍ
تَــوَهَّـمَ رُشْـداً في سَـفَـاهَـةِ لاَئِـمِ
عَجِبْتُ مِنْ الانْسَانِ يَعْجَبُ وَهُـوَ فِيْ
نَـقَـائِصَ أَحْــوَالٍ قَسِـيْمَ الـسَّــوَائِـمِ
يَـرْى جَوْهَـرَ النَّفْسِ الـطَّلِيْقَ فَـيَـزْدَهِيْ
وَيَـذْهَـلُ عَنْ أَعْـرَاضِ جِسْمٍ لَـوَازِمِ
دُيُـونُ اضْـطِرَارٍ تُقْتَضَى كُـلَّ سَـاعَـةٍ
فَـتُـفْـتَــرَضُ الأَعْـمَــارُ بَـيْنَ الـمَـغَـارِمِ

وَكُـلٌّ فَـمَغْـرُوْرٌ بِـحُـبِّ حَـيَـاتِـهُ
وَيُغْـرِيْـهِ بِـالأَدْنى خَفَـاءُ الخَـوَاتِمِ
وَجَمَّـاعُ مَـالٍ لاَ انْتِفَـاعَ لَـهُ بِـهِ
كَمَـا مَصَّ مَشْرُوْطاً زُجَاجُ الْمَحَـاجِمِ
وَمَـنْ عَـرَفَ الـدُّنْيَـا تَـيَقَّـنَ أَنَّـهَـا
مَـطِيَّـةُ يَقْـظَانٍ وَطَـيْـفَـةُ حَـالِـمِ
فَـلِلّهِ سَـاعٍ في مَـنَـاهِـجِ طَـاعَـةٍ
لإِيْـلاَفِ عَـدْلٍ أَوْ لإِتْـلاَفِ ظَـالِمِ

وَلَمَّا حَضَرَتْ عَبْدَ اللهِ بْنِ المُبَارَكِ الوَفَاةُ قَالَ لِغُلاَمِهِ اجْعَلْ رَأْسِيْ عَلَى الأَرْضِ فَبَكَى غُلاَمُهُ قَالَ مَا يُبْكِيْكَ قَالَ ذَكَرْتُ مَا كُنْتَ فِيْهِ مِنْ النَّعِيْمِ وَأَنْتَ هُوَ ذَا تَمُوْتُ على هَذِهِ الحَالِ فَقَالَ إِنِّيْ سَأَلْتُ رَبِّيْ أَنْ أَمُوْتَ على هَذِهِ الحَالِ .

ثُمَّ قَالَ لَقِنِّيْ يَا أَخِيْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهْ إِذَا الحَالُ تَغَيَّرَ ، وَلاَ تُعِدْ عَلَيَّ إِلا إِنْ تَكَلمْتُ بَعْدُ بِكَلاَمٍ ، وَدَخلَ الحَسَنُ البَصْرِيْ على رَجُلٍ وَهُوَ فِيْ سِيَاقِ المَوْتِ يَجُوْدُ بِنَفْسِهِ فَقَالَ إِنَّ أَمْراً هَذَا آخِرُهُ لَحَقِيْقٌ أَنْ يُزْهَدَ في أَوَّلِهِ وَلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا ذَرٍّ الوَفَاةُ قَالَ : يَا مَوْتُ اخْنُقْ وَعَجِّلْ فَإِنِّيْ أُحِبُّ لِقَاءَ اللّهِ .

وَدَخَلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى رَجُلٍ مُحْتَضَرٍ يَجُوْدُ بِنَفْسِهِ فَوَجَدَهُ يَقُوْلُ : الحَمْدُ لِلّهِ فَقَالَ لَهُ أَصَبْتَ يَا أَخِيْ إِنَّ اللّهَ إِذَا قَضَى أَمْراً أَحَبَّ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَحْمَدَهُ عَلَيْهِ وَدَخَلَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيْ عَلَى وَلَدٍ يَجُوْدُ بِنَفْسِهِ

وَأَبواهُ يَبْكِيَانِ عِنْدَهُ فقَالَ لَهُمَا لاَ تَبْكِيَا فَإِنِّي قادِمٌ عَلى مَنْ هُوَ أَرْحَمُ بِي مِنْكُمَا .

وَلَمَّا حضَرتْ أَبَا هُرَيْرَةَ الوَفَاةُ بَكَى قَالُوا مَا يُبْكِيكَ قَالَ بُعْدُ السَّفرِ وَقِلَّةُ الزَّادِ وَضَعْفُ اليَقِيْنِ وَخَوفُ الوُقُوْعِ مِنْ الصِّرَاطِ في النَّارِ ، وَرُوِيَ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا حَضَرَتهُ الوَفَاةُ قَالَ أَعُوْذُ بِاللّهِ مِنْ لَيْلَةٍ صَبَاحُهَا إِلَى النَّارِ .

ثُمَّ قَالَ مَرْحَباً بِالمَوْتِ زَائِرٌ مُغِيْبٌ وَحَبِيْبٌ جَاءَ عَلى فَاقَةٍ اللَّهُمَّ إِنِّيْ كُنْتُ أَخَافُكَ وَأَنَا اليَوْمَ أَرْجُوْكَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّيْ لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ الدُّنْيَا وَطُوْلَ البَقَاءِ فِيْهَا لِكَرْيِ الأَنْهَارِ وَلاَ لِغَرْسِ الأَشْجَارِ وَلَكِنْ لِطُوْلِ ظَمَأ الهَوَاجِرِ وَقِيَامِ لَيْلِ الشِّتَاءِ وَمُكَابَدَةِ السَّاعَاتِ وَمُزَاحَمَةِ العُلَمَاءِ بالرُّكبِ عِنْدَ حِلَقِ الذِّكْرِ .

وَلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا الدَّرْدَاءِ الوَفَاةُ وَجَعَلَ يَجُوْدُ بِنَفْسِهِ وَيَقُولُ أَلاَ رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ مَصْرَعِي هَذَا أَلاَ رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ يَوْمِيْ هَذَا أَلاَ رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ سَاعَتِيْ هَذِهِ ثُمَّ قُبِضَ رَحِمَهُ اللهُ .

فَيَا أَيُّهَا الغَافِلُ المُهْمِلُ وَكُلُّنَا كَذَلِكَ انْتَبِهْ وَاغْتَنِمْ أَوْقَاتَ الصِّحَّةِ وَالسَّلامَةِ وَامْلأْ أَوْقَاتَكَ بِالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكَ هَاذِمُ اللَّذَّاتِ وَيُحَالُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ وَتَنْدَمَ وَلاَتَ سَاعَةَ مَنْدَمِ .

شِعْراً :

تَغَنَّمْ سُكُوْنَ الحَادِثَاتِ فَإِنَّهَا
وَإِنْ سَكَنَتْ عَمَّا قَلِيْلٌ تَحَرَّكُ

وَبَـادِرْ بِـأَيَّـامِ الـسَّـلاَمَـةِ إِنَّـهَـا
رِهَـانٌ وَهَـلْ لِلرَّهْنِ عِـنْـدَكَ مَـتْـرَكُ

آخَـرُ :

وَعَـظَتْـكَ أَجْـدَاثٌ وَهُـنَّ صُـمُـوْتُ
وَسُكَّـانُـهَـا تَـحْـتَ التُّرَابِ خُـفُـوْتُ
أَيَـا جَـامِـعَ الـدُّنْيَـا لِغَـيْـرِ بَـلاَغِـهِ
لِمَنْ تَـجْمَـعِ الـدُّنْيَـا وَأَنْتَ تَـمُـوْتُ

وَرَوَى المُزَنِّي قَالَ دَخَلْتُ عَلى الشَّافِعِيّ في مَرَضِهِ الذِيْ مَاتَ فِيْهِ فَقُلْتُ لَهُ كيفَ أَصْبَحْتَ فَقَالَ أَصْبَحتُ مِنْ الدُّنيا رَاحِلاً وللإِخْوانِ مُفَارِقاً وَلِسُوْءِ عَمَلِيْ مُلاَقِياً وَلِكَأْسِ المِنيَّةِ شَارِباً وَعَلى اللهِ وَارِداً فَلاَ أَدْرِيْ أَرُوْحِي تَصِيْرُ إلى الجَنَّةِ فَأُهَنِّؤُها أَوْ إلى النَّارِ فَأُعَزِّيْها ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُوْلُ :

وَلَـمَّـا قَسَـى قَلْبِيْ وَضَـاقَتْ مَـذَاهِبِيْ
جَـعَلْتُ الـرَّجَـا مِنِّيْ لِـعَفْـوِكَ سُـلَّمَـا
تَـعَـاظَـمَـنِـيْ ذَنْـبِيْ فَـلَمَّـا قَـرَنْـتُـهُ
بِعَفْـوِكَ رَبِّي كَـانَ عَـفْـوُكَ أَعْـظَمَـا
وَمَـا زِلْتَ ذَا عَفْـوٍ عَنِ الـذَّنْبِ لَمْ تَـزَلْ
تَـجُـوْدُ وَتَـعْـفُـو مِـنَّـةً وَتَـكَـرُّمَـا

آخَـرُ :

أَجَـاعَتْهُمْ الـدُّنْيَـا فَخَـافُـوا وَلَمْ يَـزَلْ
كَـذَلِـكَ ذُو التَّقْـوىَ عَنْ العَيْشِ مُلْجَمَـا

أَخُـو طَـيءٍ دَاوُدُ مِنْـهُـمْ وَمِـسْـعَـرٌ
وَمِنْهُم وهَيْـبٌ وَالْعَـرِيْـبُ بْـنُ أَدْهَـمَـا
وَفي ابْنِ سَعِيْـدٍ قُـدْوَةُ الـبِـرِّ وَالنُّـهَى
وفي الـوَارِثِ الفَـارُوْقِ صِـدْقاً مُقَـدَّمَا
وَحَسْبُـكَ مِنْهُمْ بـالفُضَيْـلِ مَـعَ ابْنِـهِ
وَيُـوسُفَ إنْ لَـمْ يَـألُ أَنْ يَـتَسَـلَّمَـا
أُوْلَئِـكَ أَصْـحَـابِي وَأَهْـلُ مَـوَدَّتِـيْ
فَصَلَّى عَـلَيْـهِم ذُو الـجَـلاَلِ وَسَـلَّمَـا
فَمَـا ضَـرَّ ذَا التَّـقْـوَى نِصَـالُ أَسِـنَّـةٍ
وَمَـا زَالَ ذُو الـتَّـقْـوَى أَعَـزَّ وَأَكْـرَمَـا
وَمَـا زَالَتْ التَّقْوَى تُـرِيْـكَ عَلى الفَتَى
إذَا مَحَّضَ التَّقْـوَى مِنْ الـعِـزِّ مِيْسَمَـا

آخَـرُ :

وَرَبِّـكَ لَـوْ أَبْصَـرْتَ يَـوْمَـاً تَتَـابَعَتْ
عَـزَائِـهُمْ حَـتَّى لَـقَـدْ بَلَغُـوا الـجَهْـدَا
لأبْصَـرْتَ قَـوْماً جَـانَبُـوا النَّـوْمَ وَارْتَـدَوْا
بِـأَرْدِيَـةِ التَّسْهَـادِ واسْتَقْـرَبُـوا البُعْـدَا
وَصَـامُـوا نَـهَـاراً دَائِـمَـاً ثُـمَّ أَفْـطَرُوا
عَلى بُلَغِ الأَقْـوَاتِ وَاسْتَعْـمَلُوا الـكَـدَّا
أُوْلَئِـكَ قَـوْمٌ حَـسَّـنَ الـلهُ فِـعْـلَهُـمْ
وَأَوْرَثَـهُم مِـنْ حُـسْنِ فِـعْلِهِـمْ الْـخُـلْدَا

وَلَمَّا نَزَلَ المَوْتُ بِالحَسَنِ بْنِ علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ أَخْرِجُوْا فِرَاشِي إلى صَحْنِ الدَّارِ فَأُخْرِجَ فَقالَ اللَّهُمَّ إنِّي احْتَسِبُ نَفْسِي عِنْدَكَ فإنِّي لَمْ أُصَبْ بِمِثْلِهَا . وَمِنْ أَخْلاَقِهِمْ قِلَّةُ الضَّحِكِ وَعَدَمُ الفَرَحِ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا بَلْ كَانُوا يَنْقَبِضُوْنَ بِكُلِّ شَيْءٍ حَصَلَ لَهُمْ مِن مَلاَبِسِهَا وَمَرَاكِبِهَا وَمَنَاكِحِهَا وَمَنَاصِبِهَا عَكْسُ مَا عَلَيْهِ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا العَاشِقُوْنَ لَهَا كُلُّ ذلِكَ خَوْفاً أَنْ يَكُوْنُوا مِمَّنْ عُجِّلَ لَهُم الطَّيِّبَاتُ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَيْفَ يَفْرَحُ بِشَيْءٍ سِوَى فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ مَنْ هُوَ في السِّجْنِ مَحْبُوسٌ عَنْ لِقَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَفي الحَدِيْثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُوْنَ مَا أَعلمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيْلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيْراً وَلما تَلَذذْتُم بِالنِّسَاءِ عَلى الفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إلى الصَّعْدَاتِ تَجْأَرُوْنَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ عَجِبْتُ مِنْ ضَاحِكٍ وَمِنْ وَرَائِهِ النَّارُ وَمِنْ مَسْرُوْرٍ وَمِنْ وَرَائِهِ المَوْتُ .

وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ سَعْدِ بْنِ ابْرَاهِيْمَ قَالَ أُتَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَوْفٍ بِعَشَائِهِ وَهُوَ صَائِمٌ فقَرَأَ ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا انْكالاً وَجَحِيْماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيْما ﴾ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِيْ حَتَّى رُفِعَ طَعَامُهُ وَمَا تَعَشَّى وَإِنَّهُ لصَائِمٌ خَرَّجَهُ الجُوْزجَانِيّ .

وَرُوِيَ أَنَّ الحَسَنَ أَمْسَى صَائِماً فَأُتِى بِعَشَاه فَعَرَضَتْ لَهُ هَذِهِ الايَةُ ﴿ انَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيْماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيْماً ﴾ فَقَلَصَتْ يَدُهُ وَقَالَ ارْفَعُوهُ فَأَصْبَحَ صَائِماً فَلَمَّا أَمْسَى أُتِيَ بافْطَارِهِ عَرَضَتْ لَهُ الآيَةُ فَقَالَ ارْفَعُوْهُ فَقُلْنَا يَا أَبَا سَعِيْدٍ تَهْلِكُ وَتَضْعُفُ فَأَصْبَحَ اليَوْمَ الثَّالِثَ صَائِماً فَذَهَبَ

ابْنُهُ إلى يَحْيَ البَكّاءِ وَثَابِتِ البُنَانِيْ وَيَزِيْدِ الضَّبِّيْ .

فَقَالَ أَدْرِكُوا أَبِيْ فَإِنَّهُ هَالِكٌ فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى سَقَوْهُ شَرْبَةَ مَاءٍ مِنْ سَوِيْق . وَكَانَ كَثِيْرٌ مِنْ السَّلَفِ مِثْلُ هَؤلآءِ يُنَغِّصُ عَلَيْهِمْ ذِكْرُ طَعَامِ أَهْلِ النَّارِ وَشَرَابِهِمْ طَعَامَ الدّنْيَا فَيَمْتَنِعُوْا مِنْ تَنَاوُلِهِ أَحْيَاناً لِذَلِكَ .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ حَدَّثَنِيْ مَنْ شَهِدَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيْزِ وَهُوَ أَمِيْرُ المَدِيْنَةِ وَقَرَأَ عِنْدَهُ رَجُلٌ ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِيْنَ دَعَوا هُنَالِكَ ثُبُوْرا ﴾ فَبَكَى عُمَرُ حَتَّى غَلَبَهُ البُكَاءُ وَعَلاَ نَشِيْجُهُ فقَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَدَخَلَ بَيْتَهُ وَتَفَرّقَ النَّاسُ .

وَقَالَ سِرَارُ أَبُوْ عَبْدِ اللَّهِ : عَاتَبْتُ عَطَاءَ السُّلَمِيْ فِي كَثْرَةِ بُكَائِهِ فَقَالَ لِيْ يَا سِرَارُ كَيْفَ تُعَاتِبُنِيْ فِي شَيْءٍ لَيْسَ هُوَ إِلَيَّ إِنِّيْ إِذَا ذَكَرْتُ أَهْلَ النَّارِ وَمَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعِقَابِهِ تَمَثَّلَتْ لِيْ نَفْسِي بِهِمْ فَكَيْفَ لِنَفْسٍ تُغَلُّ يَدَاهَا إِلَى عُنُقِهَا وَتُسْحَبُ إلى النَّارِ أَنْ لاَ تَبْكِيْ وَلاَ تَصِيْحُ وَكَيْفَ لِنَفْسٍ تُعَذَّبُ أَنْ لا تَبْكِيْ .

وَقَالَ العَلاَء بْنُ زِيَادِ كَانَ إِخْوَانُ مُطَرِّفٍ عِنْدَهُ فَخَاضُوْا فِيْ ذِكْرِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ فقالَ مُطَرِّفُ لاَ أَدْرِيْ مَا تَقُوْلُونَ حَالَ ذِكْرُ النَّارِ بَيْنِي وَبَيْنَ الجَنَّةِ .

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِيْ الهُذَيْلِ لَقَدْ شَغَلَتِ النَّارُ مَنْ يَعْقِلُ عَنْ ذِكْرِ الجَنَّةِ وَعُوْتِبَ يَزِيْدُ الرَّقَاشِي عَلى كَثْرَةِ بُكَائِهِ وَقِيْلَ لَهُ لَوْ كَانَتْ النَّارُ خُلِقَتْ لَكَ مَا زِدْتَ عَلَى هَذَا فَقَالَ وَهَلْ خُلِقَتْ إِلاَّ لِيْ وَلأَصْحَابِيْ وَلاخْوَانِنَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَمَا تَقْرَأُ (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ) أَمَا تَقْرَأُ (يُرْسَلُ عَلَيْهِمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ) فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿ يَطُوْفُوْنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ

حَمِيْمٍ آنٍ ﴾ وَجَعَلَ يَجُولُ في الدَّارِ وَيَبْكِي حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ .

شِعراً :

يَا رَبِّ جُدْ لِيْ إِذَا مَا ضَمَّنِيْ جَدَثِيْ
بِرَحْمَةٍ مِنْكَ تُنْجِيْنِي مِنَ النَّارِ
أَحْسِنْ جِوَارِيْ إذا أَمْسَيْتُ جَارَكَ في
لَحْدٍ فَإِنَّكَ قَدْ أَوْصَيْتَ بِالجَارِ

وَمِنْ أَخْلَاقِهِمْ مَقْتُ أَنْفُسِهِمْ قَالَ مُطَرِّفُ بِدُعَائِهِ في عَرَفَةَ اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّهُمْ لِأَجْلِي وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ المَزَنِيّ لَمَّا نَظَرْتُ إِلى أَهْلِ عَرَفَاتٍ ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَدْ غُفِرَ لَهُمْ لَوْلَا أَنِّي كُنْتُ فِيهِمْ وَقَالَ أَيُّوبُ السِّختِيَانِي إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُوْنَ كُنْتُ عَنْهُمْ بِمَعْزِلٍ .

وَلَمَّا احْتُضِرَ سُفْيَانُ الثَّوْرِي دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو الأَشْهَبِ وَحَمَّادُ ابْنُ سَلَمَة فَقَالَ لَهُ حَمَّادُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَلَيْسَ قَدْ أَمِنْتَ مِمَّنْ كُنْتَ تَخَافُهُ وَتَقْدُمُ على مَنْ تَرْجُوْهِ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ فَقَالَ يَا أَبَا سَلَمَةَ أَيُطْمَعُ لِمِثْلِيْ أَنْ يَنْجُوَ مِنَ النَّارِ فَقَالَ أَيْ وَاللّهِ إِنِّيْ لأَرْجُوْ ذَلِكَ .

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيّ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ كَثِيْراً مَا يَتَمَثَّلُ :

أَظَرِيْفُ إِنَّ العَيْشَ كَدَّرَ صَفْوَهُ
ذِكْرُ المَنِيَّةِ وَالقُبُورِ الهُوَّل
دُنْياً تَدَاوَلَهَا العِبَادُ ذَمِيْمَةً
شِيْبَتْ بِأَكْرَهَ مِنْ نَقِيْعِ الحَنْظَلِ

وَبَنَاتُ دَهْرٍ لا تَزَالُ مُلِمَّةً
وَلَهَا فَجَائِعُ مِثْلُ وَقْعِ الجَنْدَلِ

وَجاعَ مَرَّةً جُوْعاً شَدِيْدَاً فَمَرَّ بِدَارٍ فِيْهَا عُرْسٌ فَدَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلى أَنْ يَدْخُلَ فَلَمْ يُطَاوِعْهَا وَمَضَى إِلى بَيْتِهِ وَقَدَّمَتْ لَهُ بِنْتُهُ قُرْصاً فَأَكَلَهُ وَشَرِبَ مَاءً فَتَجَشَّى ثُمَّ قَالَ :

سَيَكْفِيْكَ عَمَّا أُغْلِقَ البَابُ دُوْنَهُ
وَظَنَّ بِهِ الأَقْوَامُ مِلْحٌ بِجُرْدَقِ
وَتَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فُرَاتٍ وَتَغْتَدِي
تُعَارِضُ أَصْحَابَ الثَّرِيْدِ المُلَبَّقِ
تَجَشَّى إِذَا مَا هُمْ تَجَشُّوا كَأَنَّمَا
ظَلَلْتَ بِأَنْوَاعِ الخَبِيْصِ المُفَتَّقِ

وَقَالَ يُوْنُسُ بنُ عُبَيْدٍ إِنِّي لأَجِدُ مائَةَ خَصْلَةٍ منْ خِصَالِ الخَيْرِ مَا أَعْلَمُ أَنَّ في نَفْسِي مِنْهَا وَاحِدَةً وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ وَاسِعٍ لَوْ كَانَ لِلذُّنُوْبِ رِيْحٌ مَا قَدِرَ أَحَدٌ أَنْ يَجْلِسَ إِلَيَّ وَذُكِرَ دَاوُدُ الطَّائِيّ عِنْدَ بَعْضِ الأُمَرَاءِ فأَثْنَوْا عَلَيْهِ فَقَالَ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ بَعْضَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مَا ذَلَّ لَنَا لِسَانٌ بِذِكْرِ خَيْرٍ أَبَدًا .

وَقَالَ أَبُوْ حَفْصٍ مَنْ لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ على دَوَامِ الأَوْقَاتِ وَلَمْ يُخَالِفْهَا في جَمِيْعِ الأَحْوَالِ وَلَمْ يَجُرَّهَا إِلى مَكْرُوْهِهَا في سَائِرِ أَوْقَاتِهِ كَانَ مَغْرُوْراً وَمَنْ نَظَرَ إِليها بِاسْتِحْسَانِ شَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ أَهْلَكَهَا .

وَلَمَّا سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الذِيْنَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا الآيَة قَالَتْ يَا بَنِيَّ هَؤُلآءِ في الجَنَّةِ أَمَّا السَّابِقُ

بالخَيْرَاتِ فَمَنْ مَضَى على عَهْدِ رَسُوْلِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلم شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالجَنّةِ وَالرِّزْقِ وَأَمَّا المقْتَصِدُ فَمَنْ تَبعَ أَثَرهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ حَتَّى لَحِقَ بِهِ وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفسِهِ فَمِثْلِيْ وَمِثْلِكُمْ فَجعَلَتْ نَفْسَهَا مَعَهُمْ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا .

شِعْراً :

قَوْمٌ مَضَوْا كَانَتِ الدُّنْيَا بهم نُزَهاً
والدَّهْرُ كالعِيدِ وَالأوْقَاتُ أوْقَاتُ
عَدْلٌ وَأَمْنٌ وإِحْسَانٌ وَبَذْلُ نَدَى
وَخَفْضُ عَيشٍ نُقَضِّيْهِ وَأَوقَاتُ
مَاتُوا وَعِشْنَا فهُم عَاشُوا بِمَوْتِهِمُ
وَنَحْنُ في صُوَرِ الأحْيَاءِ أَمْوَاتُ
لِلَّهِ دَرُّ زَمَانٍ نَحنُ فيهِ فَقَدْ
أَوْدَى بِنَا وَعَرَتْنَا فِيْهِ نَكْبَاتُ
جَوْرٌ وَخَوْفٌ وَذُلٌ مَالَهُ أَمَدٌ
وَعِيْشَةٌ كُلُّهَا هَمٌّ وَآفَاتُ
وَقَدْ بُلِيْنَا بِقَوْمٍ لا خَلاَقَ لَهُمْ
إلى مُدَارَاتِهِم تَدْعُو الضَّرُوْرَاتُ
مَا فِيْهِمُ مِنْ كَرِيْمٍ يُرْتَجَى لِنَدىً
كَلَّا وَلا لَهُم ذِكْرٌ إذَا مَاتُوا
لا الدِّيْنُ يُوْجَدُ فِيْهم لَا وَلَا لَهُموا
مِن المُرُوْءَةِ مَا تَسْمُوْ بِهِ الذَّاتُ

وَالصَّبْـرُ قَـدْ عَـزَّ وَالآمَـالُ تُـطْمِعُنَـا
وَالـعُمْـرُ يَـمْضِـي فَـتَـارَاتٌ وَتَـارَاتُ
وَالمَـوْتُ أَهْـوَنُ مِمَّـا نَحْنُ فِيْـهِ فقَـدْ
زَالَـتْ مِنْ الـنَّـاسِ وَاللّهِ الـمُـرُوآتُ

اللَّهُمَّ اشْفِ قُلُوْبَنا مِنْ أَمْرَاضِ المَعَاصِيْ وَالآثَامِ وَامْـلأْهَا مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَقْبِلْ بِهَا إلى طَاعَتِكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـلٌ)

وَمِنْ أَخْلاَقِهِم رَضِيَ اللّهُ عَنْهُم كَثْرَةُ الحُزْنِ وَالهَمِّ كُلَّما تَذَكَّرُوا المَوْتَ وَسَكَرَاتِهِ وَخَوْفُ سُوْءِ الخَاتِمَةِ الذي من أَسْبَابِهِ اسْتِيْلاَءُ حُبِّ الدُّنْيَا على القَلْبِ وَضَعْفِ الإِيْمَانِ وَالإِنْهِمَاكِ في المَعَاصِيْ .

لِأَنَّهُ مَتى ضَعُفَ الإِيْمَانُ ضَعُفَ حُبُّ اللهِ تَعَالَى وَقَوِيَ حُبُّ الدنيا حَتَّى لاَ يَبْقَى في القَلْبِ مَوْضِعٌ لِحُبِّ اللهِ تَعالى إلا مِنْ حَيْثِ حَدِيْثِ النّفْسِ وَلا أَثَرَ لَهُ في كَفِهَا عنْ السَّيِّئَاتِ .

وَذَلِكَ يُوْرِثُ الاكْثَارَ مِنْ المَعَاصِيْ وَالاسْتِمْرَارَ فِيْهَا حَتَّى يُظْلِمَ القَلْبُ وَتَتراكَمَ عَلَيْهِ ظُلمَاتُ الذّنوبِ فَلا تَزَالُ تُطْفِيءُ مَا فيهِ مِنْ نُوْرِ الإِيمَانِ عَلى ضَعْفِهِ حَتَّى تَصِيْرَ طَبْعاً وَرَيْنا .

فَإِذَا جَاءَتْ سَكَرَاتُ المَوْتِ ازدَادَ ضَعْفُ حُبِّهِ لِلّهِ لِشُعُوْرِهِ بِفِرَاقِ الدّنْيَا إِذْ هِيَ المَحْبُوبُ الغَالبُ عَلى القلْبِ فَيَتَأَلّمُ بِاسْتِشعَارِ فِرَاقِها وَيرى

ذلكَ مِنْ اللهِ فَيَخْتَلِجُ ضَمِيرُه بانْكَارِ مَا قُدّرَ عليهِ مِن الموتِ وَكَراهِيَتِهِ مِن حَيْثِ أَنهُ مِنْ اللهِ فَيُخْشَى أَنْ يَفْرُطَ مِنْ لِسَانِهِ أَوْ يَثُورَ مِنْ قَلبهِ شَيءٌ يُسْخِطُ اللهَ عَلَيْهِ .

وَالذِيْ يُفْضِيْ إلى مِثْلِ هَذِهِ الخَاتِمَةِ غَلَبَةُ حُبِّ الدُّنْيَا وَالرُّكُونُ إِلَيْهَا وَالفَرحِ بأَسْبَابِهَا مَعَ ضَعْفِ الإِيْمَانِ المُوْجِبُ لِضَعْفِ حُبِّ اللهِ تَعَالى أَمَّا مَنْ كَانَ حُبُّ اللهِ تَعَالى أَغْلَبُ على قَلْبِهِ مِنْ حُبِّ المالِ والدُّنْيَا فَهُو أَبْعَدُ عَنْ هَذَا الخَطَرِ العَظِيْمِ فَحُبُّ الدنيَا رَأْسُ كلِّ خَطِيْئَةٍ وَهُوَ الدَّاءُ العُضَالُ .

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم أَجْمَعِيْنَ مُتَأَثِّرِيْنَ بِأَخْلاقِ النَّبي صَلَّى الله عليه وسلم لا تَزِنُ عِنْدَهُمْ الدنْيَا شَيْئاً وَلَا يَعْبَؤُ نَ بهَا واذا حَصَلَ لهُمْ شَيءٌ مِنْهَا خَرَجَ فَوْراً وَمِنْ أَخْلَاقِهِم القَنَاعَةُ وَحُسْنُ الالتِجَاءِ إلى اللّهِ وَالثقَةِ بهِ وَالتَّوكَّلُ عَلَيْهِ في الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْل قَالَ بَعْضُهم :

يَـا مَنْ لَـهُ الفَضْـلُ مَحْضاً في بَـرِيَّتِهِ
وَهُـوَ المُؤَمَّـلُ في الضَّـرَّاءِ وَالبَـاسِ
عَـوَّدْتَنِيْ عَـادَةً أَنْتَ الكَفِيْـلُ بِـهَـا
فَـلَا تَكِلنِيْ إِلى خَلْقٍ مِنْ النَّـاسِ
وَلَا تُـذِلَّ لَـهُـمْ مِـنْ بَـعْـدِ عِـزَّتِـهِ
وَجْهِيْ المَصُـوْنَ وَلا تَخْفِضْ لَهُمْ رَاسِيْ
وَابْعَثْ عَلَى يَـدِ مَنْ تَـرْضَـاهُ مِنْ بَشَرٍ
رِزْقِيْ وَصُنْهُـوَ عَمَّـنْ قَلْبُـهُ قَـاسِيْ
فَـإِنَّ حَبْـلَ رَجَـائِيْ فِيْـكَ مُتَّصِـلٌ
بِحُسْنِ صُنْعِـكَ مَقْـطُوْعـاً عَنْ النَّـاسِ

آخَــرُ :

إنَّ الـقَنـاعَـةَ كَـنْـزٌ لَـيْسَ بـالـفَـانِـيْ
فَـاغْنَمْ أَخـيَّ هُـدِيْتَ عَـيْشَـهَـا الفَـانِ
وَعِشْ قَنُوعـاً بـلا حِـرْصٍ وَلاَ طَمَـعٍ
تَـعِشْ حَمِـيْـداً رَفِيْـعَ الـقَـدْرِ وَالشَّـأنِ
لَـيْسَ الغَـنِيُّ كَـثِيْـرَ المَـالِ يَـخْـزُنَـهُ
لِـحَـادِثِ الـدَّهْـرِ أَوْ لِلْوَارِثِ الـشَّـانِيْ
يُـجَمِّـعُ الـمَـالَ مِنْ حِـلٍّ وَمِـنْ شُبَـهٍ
وَلَـيْس يُـنْـفِـقُ فـي بِـرٍّ وَإِحْـسَـانِ
يَشْقَى بِـأَمْـوَالِـهِ قَبْـلَ المَـمَـاتِ كَمَـا
يَشْقَى بِهَـا بَعْـدَه في عُـمْـرِهِ الثَّـانِـيْ
إنَّ الـغَـنِّي غَـنِيُّ الـنَّـفْسِ قَـانِـعُـهَـا
مُـوَفَّـرُ الـحَظِّ مِـنْ زُهْـدٍ وَإِيْـمَـانِ
بَـرٌّ كَـرِيْـمٌ سَخِـيُّ النَّـفْسِ يُنْفِقُ مَـا
حَـوَتْ يَـدَاهُ مِـن الـدُّنْـيَـا بِـإِيْـقَـانِ
مُـنَـوَّرُ الـقَـلْبِ يَـخْـشَـى الـلَّهَ يَـعْـبُـدُهُ
وَيَـتَّـقِـيْـهِ بِـإسْـرَارٍ وَاعْـلاَنِ
مُـوَفَّـقٌ رَاسِـخٌ فـي الـعِـلْمِ مُـتَّـبِـعٌ
إِثَـرَ الـرَّسُـوْلِ بِـإِخْـلاَصٍ وَاحْسَـانِ

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا ذَا الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوْبنَا وَقوِّهَا وَأَلْهِمْنَا يَا مَوْلاَنَا ذِكْرَكَ وَشُكركَ وَآمِنَّا مِن عَذَابِكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ

واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَحَسْبُكَ مِنْ آثَارِ تَرْبِيَةِ النبي صلى الله عليه وسلم لِأَصْحَابِهِ على قوَّةِ الثقةِ باللهِ وَحُسْنِ الظن بهِ والتَّوكلِ عَلَيْهِ وَالزُّهْدِ في الدّنيَا مَا يَتجَلَّى بأكْمَلِ مَعَانِيْهِ في أَبِيْ بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وعَلي وَغَيْرِهِمْ مِنْ الصَّحَابَةِ. أَمَّا أبو بَكرٍ فجَاءَ بمَالِهِ كُلِّهِ يَكَادُ أنْ يُخْفِيَهُ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى دَفَعَهُ إلى النبي صَلى اللهُ عَليهِ وسَلم فقال له : مَا خَلّفْتَ وَرَاءَكَ لِأَهْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ .

فَقَالَ عِدَةَ اللّهِ وَعِدَةَ رَسُولِهِ فَبَكَىٰ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأمّيْ يَا أَبَا بكرٍ وَاللهِ مَا اسْتَبَقْنَا إلى بَابِ خَيْرٍ إلا كُنْتَ سَابقاً ، وَجَاءَ عُمَرُ بِنِصْفِ مَالِهِ حَتّى دَفَعَهُ إلى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلامُ فقالَ : ما خَلَّفْتَ وَرَاءَكَ لِأَهْلِكَ يَا عُمَرُ .

قَالَ : خَلَّفْتُ نِصْفَ مَالِي لَهُمْ رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتَمٍ منْ حَديْثِ عَامِرِ الشَّعْبِيّ وَعَنْ عَبْدِ الرحمَن بن خَبَّابٍ قال : شَهِدْتُ النبي صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَحُثُّ على جَيْشِ العُسْرَةِ .

فَقَالَ عُثْمَانُ بن عَفَّان يَا رَسُوْلَ اللهِ : عَلَيَّ مائَةُ بَعِيْرٍ بِأَحْلاَسِهَا وَأَقْتَابِهَا في سَبِيْلِ اللّهِ ثمَّ حَضَّ عَلى الجَيْشِ فَقَالَ عُثمَانُ عَلَيّ ثلاثُمائَةِ بَعِيْرٍ بأَحْلاسِهَا وَأَقْتَابِهَا في سَبِيْلِ اللّهِ فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقُوْلُ مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا أَخْرَجَه التّرْمِذِيّ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : كُنْتُ مَعَ أبي ذَرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

فَخَرَجَ عَطَاؤُه وَمَعَهُ جَارِيَة له قال : فجَعلتْ تقضِيْ حَوائِجَهُ ففَضَل مَعَها سَبْعَةٌ فأَمرَهَا أَن تَشْتَرِيَ بِهَا فُلُوساً قال قُلْتُ لَوْ أَخَّرْتَهُ لِلحَاجَةِ تَنُوبُكَ أوْ لِلضَّيْفِ يَنْزِلُ بِكَ قالَ إنَّ خَلِيْلِيْ عَهِدَ لِيْ أَنْ أَيَّمَا ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أُوْكِيَ عَلَيْهِ فَهُوَ جَمْرٌ عَلى صَاحِبِهِ حَتَّى يُفرِغَهُ في سَبِيْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ رواهُ أَحْمَدُ وَرِجَالِه رِجَالُ الصَّحِيْحِ .

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم كانَ يَقُولُ إني لَأَلِجُ هذه الغُرْفَةَ مَا أَلِجُهَا إلا خَشْيَةَ أنْ يَكُوْنَ فِيْهَا مَالٌ فأَتوفى وَلَمْ أُنْفِقْهُ رَوَاهُ الطَبَرَانِي في الكَبِيْرِ .

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَرْسَلَ إلى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِعَطَائِهَا فقالتْ مَا هَذَا قالوا أَرْسَلَ إليكِ عُمَرُ بنُ الخَطابِ قَالَتْ غَفرَ اللهُ لَهُ ثم سَلَّتْ سِتْراً لهَا فَقَطعَتْهُ وَجعَلَتْ العَطَاءَ صُرَراً وَقَسَّمَتْهُ في أَهْلِ بَيْتِهَا وَرَحِمِهَا وَأَيْتَامِهَا ثم رَفعَتْ يَدَيْهَا وَقَالَتْ اللهُمَّ لا يُدْرِكْنِي عَطَاءُ عُمَرَ بَعْدَ عَامِيْ هَذَا فكَانَتْ أَوَّلَ نِسَاءِ رَسُوْلِ اللهِ صَلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لُحُوقاً بهِ .

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ عن سَعِيْدِ بن عَبْدِ العَزِيْزِ قَالَ كَانَ لِلزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَلفَ مَمْلُوكٍ يُؤَدُّوْنَ إِلَيْهِ الخَرَاجَ فَكَانَ يَقْسِمُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ ثم يَقُوْمُ إلى مَنْزِلِهِ وَلَيْس مَعَهُ شَيءٌ .

وَأَخْرَجَ الحَاكِمُ عَنْ أُمِّ بَكْرٍ بنْتِ المِسْوَرِ أَنّ عَبْدَ الرَّحْمَن بن عَوْف رَضِيَ الله عنه بَاعَ أَرْضاً له بأربَعِيْنَ ألفَ دِيْنَارٍ فَقَسَّمَهَا في بَنِيْ زُهْرَةَ وَفُقَرَاءَ المسلمين والمهاجرين وَأَزْوَاجِ النبي صلى الله عليه وسلم فَبعَثَ إلى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِمَالٍ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ مَنْ بَعَثَ هَذَا المالَ قلتُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ .

قَالَ وَقَصَّ القِصَّةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لا يَحْنُو عَلَيْكُنَّ مِنْ بَعْدِي إلا الصَّابِرُوْنَ سَقَى اللّهُ ابنَ عَوْفٍ مِن سَلْسَبِيْلِ الجَنَّةِ قالَ الحَاكِمُ هَذَا حَدِيْثٌ صَحِيحُ الاسْنَادِ وَلم يُخْرِجَاه .

وَعَنْ نَافِعٍ أنّ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه بَعَثَ إلى ابنِ عُمَرَ مائَةُ أَلْفٍ فَمَا حَالَ الحَوْلُ وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيءٌ وَعَنْ أَيّوْبِ بن وَائِلٍ الرَّاسِبيّ قال قَدِمْتُ المدِيْنَةَ فأخبَرَنِي رَجُلٌ جارٌ لابن عُمَرَ أنه أَتَىٰ ابْنَ عُمَرَ أَرْبَعَةُ آلَافٍ مِن قِبَلِ مُعَاوِيَة وأَرْبَعَة آلَافٍ مِنْ قِبَلِ إنسَانٍ آخَرَ وَأَلْفَانِ مِنْ قِبَلِ آخَرَ وَقَطِيْفَةٌ .

فَجَاءَ إلى السُّوْقِ يريد عَلَفاً لِرَاحِلَتِهِ بدِرْهَمٍ نَسِيْئَةً فَقَدْ عَرَفْتُ الذي جَاءَه فأَتَيتُ سُرِّيَّتَهُ فقلْتُ إني أرِيْدُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ شَيءٍ وَأُحِبُّ أَنْ تَصْدُقِيْنِيْ قُلْتُ أَلَيْس قَدْ أَتَى أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَرْبَعَةُ آلافٍ مِنْ قِبَلِ مُعَاوِيَه وَأَرْبَعَةُ آلافٍ مِنْ قِبَلِ إنْسَانٍ آخرَ وَأَلْفَانِ مِنْ آخرَ وَقَطِيْفَة .

قَالَتْ بَلَى قُلْتُ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَطْلُبُ عَلَفاً بِدِرْهَمٍ نَسِيْئَةً قَالَتْ مَا بَاتَ حَتَّى فَرَّقَهَا فَأَخذ القَطِيْفَةَ فَألقَاهَا على ظَهْرِهِ ثم ذَهَبَ فَوجَّهَها ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ مَا تَصْنَعُونَ بالدّنْيَا وَابْنُ عُمَرَ أَتَتْهُ البَارِحَةَ عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ وُضَحٌ فَأَصْبَحَ اليَوْمَ يَطْلُبُ لِرَاحِلَتِهِ عَلَفاً نَسِيْئَةً بِدِرْهَم .

وَكَانَتْ زَوْجَاتُهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُم زَوْجَاتٌ صَالِحَاتٌ تُعِيْنُهُمْ عَلَى تَنْفِيْذِ المَشَارِيْعِ الخَيْرِيَّةِ فَهَذَا أَبُو الدَّحْدَاحِ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعالى ﴿ مَنْ ذَا الذِيْ يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فيضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ .

قَالَ أَبُو الدَّحْدَاح الأنصَارِيّ يَا رَسُولَ اللهِ وإنَّ اللهَ لَيُرِيْدُ مِنَّا

القَرْضَ قالَ نَعَمْ يا أبا الدَّحْدَاحِ قَالَ أَرِنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَنَاوَلَهُ صلَّى الله عليه وسلم يَدهُ الكَرِيْمَةَ فقالَ أشْهَدْ يَا رَسُولَ اللهِ أنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي أَيْ البُسْتَان وَكَانَ لَهُ بُسْتَانٌ فيه سِتّمائَةِ نَخْلَةٍ وفي البُسْتَانِ زَوْجَتُهُ أمُّ الدَّحْدَاحِ وَأَوْلاَدُهُ يَسْكُنُونَهُ .

ثُمَّ جَاءَ إلى البُسْتَانِ فَنَادَى زَوْجَتَهُ يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ قَالَتْ لَبَّيْكَ قالَ اخْرُجِيْ أَنْتِ وَأَولاَدُكِ فَقَدْ أَقْرضْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ حَائِطِي فَشَجَّعَتْهُ وَنَشَّطَتْهُ وقالتْ رَبِحَ بَيْعُكَ ثم نقلَتْ مَتَاعَهَا وَأَوْلاَدهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . فَتَأَمَّلْ قوَّةَ اليَقِيْنِ فِيْمَا عِنْدَ اللَّهِ كَيْفَ تَعْمَلُ وَتَأَمَّلْ مَوْقِفَ زَوْجَتِهِ مِنْ عَمَلِهِ هَذَا .

وَلَو كانتْ مِن نِسَاءِ هَذا الزمَان لَقالَتْ أَنْتَ مَجْنُوْنٌ وَأَقْلَقَتْ رَاحَتَهُ وَأَلْبَتْ عليه أَوْلاَدَهُ وأمَّهُ وَأَبَاهُ وَقَالَتْ خُذُوا على يَدَيْهِ .

وَهَذَا عثمَانُ بن عَفَّان تَرِدُ عَليهِ عِيْرٌ لَهُ مِنْ الشَّامِ في وَقْتٍ نَزَلَ فيهِ البُرَحُ بالمسلمين مِن الجَدْبِ والقَحْطِ فَإذَا هِيَ ألفُ بَعِيْرٍ مَسُوقةً تَحمِلُ بُرّاً وَزيْتاً وَزَبِيْباً .

فجَاءَهُ التُّجارُ وَقالوا بِعْنَا مِن هَذَا الذي وَصَلَ إليكَ فَإنَّك تَعْلَمُ ضَرُوْرَةَ الناسِ فَيَقُولُ حُبّاً وَكَرامَةً كَمْ تُرْبِحُوني على شِرَائِيْ فَيُجِيْبُون قَائِلينَ الدِّرْهَمَ دِرْهَمين فَيَقُولُ أُعْطِيْتُ أكثرَ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ يَا أَبَا عُمَرْ ، وَمَا بقَى في المدينَةِ تُجَّارٌ غَيْرُنَا وَمَا سَبَقَنا إليكَ أَحَدٌ فمَنْ الذي أَعْطَاكَ .

فَيُجِيْبُ إنَّ اللهَ أَعْطَاني بِكُلِّ دِرْهَمٍ عَشَرَةٌ أَعِنْدَكُم زِيَادَةٌ فَيَقُولُونَ لا ، فَيُشْهِدُ اللهَ على أَنَّ هَذِه وَمَا حَمَلَتْ صَدقَةٌ لِلهِ على المَسَاكِين وَالفُقَرَاءِ مِنْ المُسْلِمينَ ، فَيَا لَيْتَ أَغْنِيَاءَ هَذا الزَّمنِ تَنَسَّخُوا مِنَ الزَّكَاةِ

فقَطْ ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَتَغَلَّبُوا على النَّفْسِ والشيطانِ ، واللهُ أعلمُ وصلى على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وسلم .

(فَصْـــلٌ)

وَهَذا أَمِيْرُ المؤمِنينَ عُمَرُ بنُ الخَطابِ لَمَّا أَصَابَ أَرْضاً بخَيْبَرَ أتى النبي صلى الله عليه وسلم يَسْتَأمِرُهُ فيها فقَالَ يَا رَسُولَ الله إني أصَبْتُ أَرْضاً بخَيْبَر لم أُصِبْ مَالاً قَطُّ هُوَ أنفسُ عِنْدِيْ منه فمَا تأمُرنِي قَالَ انْ شِئْتَ حَبَّسْتَ أَصْلَها وَتَصَدَّقْتَ بهَا .

قالَ فَتَصَدّقَ بهَا عُمَرُ غيرَ أنّهُ لا يُبَاعُ أصْلُها وَلا يُوْرَثُ وَلا يُوهَبُ قالَ فَتَصَدّقَ بِهَا عُمَرُ في الفُقَرَاءِ وفي القُرْبَى وفي الرِّقَابِ وَفي سَبِيْلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيْلِ وَلضَيْفٍ لا جُناحَ على مَنْ وَلِيَهَا أنْ يَأكلَ مِنهَا بالمعْرُوفِ أو يُطْعِمَ صَدِيْقاً غير مُتَحَوِّلٍ فيه مُتَّفقٌ عَلَيْهِ .

وَهَذَا أبُو بَكْرِ الصِّدِّيْق رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ كانَ لَهُ يَوْمَ أَسْلَمَ أَرْبَعُونَ أَلْفِ دِرْهَم مُدَّخَرَةٍ من رِبْحِ تِجَارَتِه وَقَدْ رَبحَ الكثِيْرَ مِن التِّجَارَةِ بَعْدَ الإِسْلامِ فَلمَّا هَاجَرَ مَعَ النَّبيِ صَلى اللّهُ عليه وسلم لَمْ يَكُنْ قَدْ بَقِيَ لَهُ مِنْ كُلِّ مُدَّخرهِ سِوَى خَمْسَةِ آلافِ دِرْهَمٍ .

لَقَدْ أَنْفَقَ مَالَهُ المدّخَرَ في افْتِدَاءِ الضُّعفـاءِ مِن المَوالى المُسْلِمينَ الذِيْنَ كَانُوا يَذُوقُونَ العَذابَ أَلْوَاناً مِنْ سَادَاتِهم الكُفَّارِ كَما أَنْفَقَهُ في بِرِّ الفقَراءِ وَالمعوزِيْنَ ، فلْيَعْتَبِرْ بذلكَ مَعْشَرَ الحُرَّاسِ لِلأَمْوالِ .

وَقَد حَدَثَ أَنْ جَاءَ عَامِلُ عُمَرُ بالبَحْرَيْنِ أبو هُريرةَ بمَالٍ كَثِيْر وَروَايَتُه : قَدِمتُ مِنَ البَحْرَين بخَمْسِمائةِ أَلْفِ دِرْهَم فَأَتَيْتُ عُمَـرَ بن

الخَطابِ مَساءً فَقُلْتُ يَا أميرَ المؤمنينَ اقْبِضْ هَذا المالَ قَالَ وَكَمْ هُوَ قُلْتُ خَمْسُمائةِ ألفِ دِرْهَمٍ قالَ وَتَدْرِيْ كَمْ خَمْسُمائة ألفِ دِرْهَم قلتُ نَعَمْ مائةُ ألفٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ قالَ أنْتَ ناعِسٌ اذْهَبْ اللَّيْلَةَ فَبِتْ حَتى تُصْبِحَ .

فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُه فَقُلْتُ اقْبِضْ مِنِّيْ هَذَا المَالِ قَالَ وَكَمْ هُوَ قُلْتُ خَمْسُمائَةِ أَلفِ دِرْهَم قَالَ أَمِنْ طَيِّبٍ هُوَ قُلْتُ لا أَعْلَمُ إلَّا ذَاكَ فقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللّهُ عنهُ أَيُّهَا النَّاسُ إنه قَدْ جَاءَنَا مَالٌ كَثِيْرٌ فَإنْ شِئْتُم أنْ نَكِيْلَ لكُمْ كِلْنَا وَإنْ شِئْتُم أَنْ نَعُدَّ لكُم عَدَدْنَا وَإنْ شِئْتُم أَنْ نَزِنَ لَكُمْ وَزَنَّا .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ القَوْمِ يَا أَمِيْرَ المؤمِنين دَوِّنْ الدَّوَاوِيْنَ يُعْطَوْنَ عَليها فَاشْتَهى عُمَرُ ذَلِكَ وَوَزَّعَها عَلى المُسْلِمِيْنَ كُلِّهَا .

وَذَكَرَ بَعْضُ المفَسِّرينَ أَنَّ سُليمانَ عَليهِ السَّلامُ غَزا أَهْلَ دِمَشْقَ وَنصِيبَيْنَ فَأصَابَ مِنْهُم ألفَ فَرَسٍ فصَلَّى الظُّهْرَ وَقعَدَ على كُرْسِيِّهِ وهي تُعْرَضُ عليه فعُرِضَ عليهِ مِنْهَا تِسْعُمائةِ فَرَسٍ فَتَنَبَّهَ لِصَلاَةِ العَصْرِ فإذَا الشَمْسُ قَدْ غرَبَتْ وَفَاتَ وَقْتُ الصَّلاةِ وَلَمْ يُخْبِرُوهُ بِذَلِكَ هَيْبَةً لهُ فَاغْتَمَّ لِذَلكَ وَقالَ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَأَقْبَلَ عليها فضَرَبَ سُوقَها وَأَعْنَاقَهَا بالسَّيْفِ تَقَرُّباً إلى اللهِ وَطَلَباً لِمَرضَاتِه حَيْثُ اشْتَغَلَ بِهَا عَنْ طَاعَةِ اللّهِ .

وَكَانَ ذَلِكَ مُباحاً له وَبَقِي مِنْهَا مَائَةُ فَرَسٍ فلمَّا عقَرَهَا لِلهِ تَعالى أَبْدَلَهُ اللهُ تَعالى خَيراً مِنها وَأَسْرَعَ وَهِيَ الرِّيْحُ تَجْرِيْ بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ تَجْرِيْ بأَمْرِهِ كَيْفَ شَاءَ وَإلَيْهِ يُشِيْرُ قَوْلُهُ تَعالَى ﴿ إِذْ عُرِضَ عَليهِ بالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجياد، فقالَ انِّي أحْبَبْتُ حُبَّ الخَيرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بالحِجابِ، رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوقِ وَالاعْنَاقِ ﴾

وَرُوِيَ أنَّ عُمَرُ أَرْسَلَ مَعَ غُلاَمِهِ بِأَرْبعمائـةِ دِيْنَارٍ إلى أَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ وَأَمَرَ الغُلاَمَ بالتَأَنِّي لِيَرَى مَا يَصْنَعُ فِيْهَا فَذَهَبَ بِهَا الغُلاَمُ إليهِ وَأَعْطَاهَا لَهُ وَتأنَّى يَسِيْراً ففرَّقها أَبُوْا عُبَيْدَةُ كُلَّها فَرجَعَ الغُلامُ لِعُمَرَ فَخَبَّره فَوَجَدَهُ قد أَعَدَّ مِثْلَهَا لِمَعَاذِ ابنِ جَبَل فَأَرْسَلها مَعَه إليهِ وَأَمرهُ بالتَّأَني كَذَلِكَ فَفَعَل فَفَرَّقَهَا فاطَّلَعَتْ زَوْجَته وَقَالَتْ : نَحْنُ وَاللهِ مَسَاكِين فَأَعْطِنا فَلَمْ يُبْقِ في الخِرْقَةِ إلا دِيْنَارَان فَأَعْطَاهُمَا إيَّاهَا فَرجَعَ الغُلاَمُ لِعُمَرَ وَأَخْبَرَه فَسُرَّ بذلكَ وَقَال إخْوَةٌ بَعْضُهم مِن بَعْضٍ .

وَرُوِيَ أَنَّ زَوْجَةَ طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللّهِ رَأَتْ مِنْهُ ثِقْلاً فَقَالَتْ له مَالَكَ لَعَلَّهُ رَابَك مِنّا شَيءٌ فَنُعْتِبُكَ قال لا وَلَنِعْمَ الحَلِيْلَةُ لِلمُسْلم أَنْتِ وَلَكِنْ اجْتَمع عِنْدِيْ مَالِي وَلاَ أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ قَالَتْ وَمَا يَغُمُّكَ مِنْهُ أُدْعُ قَوْمَكَ فَاقْسِمْهُ بَيْنَهم فقَالَ يَا غُلاَمُ عَلَيّ بقَومِي فكان جُمْلَةُ مَا قَسَمَ أَرْبَعُمائةِ ألفٍ ٤٠٠٠٠٠ .

وَبَاعَ أَرْضاً من عُثْمَانَ بِسَبْعُمائةٍ فحمَلَها إليه فَلَمَّا جاءَ بِهَا قَالَ انَّ رجُلا يَبِيْتُ عِنْدَهُ هذِه في بَيْتِه لا يَدْرِي مَا يَطْرُقُه مِن أَمْرِ اللهِ فَبَاتَ وَرُسُلهُ تَخْتَلِفُ في السِّكك سِكَكِ المدِيْنَةِ حَتَّى أَسْحَرُو مَا عِنْدَهُ مِنْهَا دِرْهَمٌ فرقوها على الفُقرآءِ والمَسَاكِين .

وَبعَثَ عَبْدُ اللّهِ بن الزُّبَيْرِ إلى أُمِّ المؤمِنينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا بِمَالٍ في غِرَارَتَينِ ثَمَانون ألفَ وَمائةِ ألفِ دِرْهَم وَهِيَ صَائِمَة فَجَعَلتْ تَقْسِمُ بَيْنَ النَّاسِ فَأَمْسَت وَما عِنْدَهَا مِن ذَلِكَ دِرْهَم فَقَالَتْ لِجَارِيَتِها هَلُمِّي فَطُورِي فَجاءَتْ بِخُبْزٍ وَزَيتٍ فقالَتْ لَهَا الجَارِيَة فما اسْتَطَعْتِ فِيْمَا قسَمْتِ في هَذا اليوم أنْ تَشْتَرِيْ لَنَا لَحْماً بِدِرْهَم قَالَتْ لاَ تُعَنِّفِيْنِي لو كنْتِ ذَكَّرْتِني

لَفعَلْتُ . هَكَذا يُؤَثِرُ الإِيْمَانُ العَمِيْقُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولِهِ .

شِـعْرَاً :

قُـلْ لِي بِـرَبِّـكَ مَـاذَا يَنْفَـعُ المَـالُ
إِنْ لـم يُـزَيِّنْـهُ إِحْسَـانٌ وَإِفْـضَـالُ
المـالُ كَـالمَـاءِ إِنْ تُـحْبَسْ سَـوَاقِيَـهُ
يَـأْسَنْ وانْ يَجْرِ يَعْـذُبْ مِنْهُ سِلْسَـالُ
تَحْيَـا على الْمَاءِ أغْـرَاسُ الرِّيَـاضِ كَمَـا
تَـحْيَـا عـلى الـمَـالِ أَرْوَاحٌ وَآمَـالُ
إِنَّ الـثَّـرَاءَ إِذَا حِـيْـلَتْ مَـوَارِدُهُ
دُوْنَ الـفَـقِـيْـرِ فَـخَـيـرٌ منـهُ إِقْـلَالُ
الـلَّـهُ أَعْـطَاكَ فَـابْـذُلْ مِن عَـطِيَّـتِـهِ
فَـالـمَـالُ عَـارِيَـةٌ وَالـعُـمْـرُ رَحَّـالُ

آخَـرُ :

لَقَـدْ دَرجَ الاسْـلَافُ مِن قَبْـلِ هَؤُلاءِ
وَهِـمَّتُـهم نَـيْـلُ المـكَـارِمِ وَالـفَـضْـلِ
وَقَـدْ رَفَضُـوا الـدُّنْيـا الغَـرُورَ وَمَـاسَعَـوا
لـهَـا وَالـذِيْ يَـأْتي يُـبَـادَرُ بِـالبَـذْلِ
فَـقِـيْـرُهُـمْ حُـرٌ وَذُوْ الـمَـالِ مُـنْـفِـقٌ
رَجَاءَ ثَـوَابِ اللهِ في صَـالِـحِ السُّبْـلِ
لِـبَـاسُهُـم التَّـقْـوَى وَسِيْـمَـاهُـم الـحَيَـا
وَقَـصْـدُهُـمُ الـرَّحْمَنُ في القَـوْلِ وَالفِعْـلِ

مَقَالُهُم صِدْقٌ وَأَفْعَالُهُم هُدىً
وَأَسْرَارُهُم مَنْزُوعَةُ الغِشِّ وَالغِلِّ
خُضُوْعٌ لِمَوْلاَهُمْ مُثُوْلٌ لِوَجْهِهِ
قُنُوتٌ لَهُ سُبْحَانَهُ جَلَّ عَنْ مِثْلِ

وَاللّهُ أَعْلَمُ وَصَلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

وَمِنْ أَخْلاَقِهِم تَوْصِيَةُ بَعْضِهِم بَعْضاً بِمَا يُحِبُّه اللّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ : وَدَّعَ ابْنُ عَوْنٍ رَجُلاً فَقَال له : عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّ المتَّقِيْ لَيْسَتْ عَليهِ وَحْشَةٌ .

وَقَالَ زَيْدُ بنُ أَسْلَمَ : كَانَ يُقَالُ مَنْ اتَّقَى اللهَ أَحَبَّهُ النَّاسُ وَإِنْ كَرِهُوا وَقَالَ الثَّوْرِيّ لابن أبي ذِئْبٍ إنْ اتَّقَيْتَ اللهَ كَفَاكَ النَّاسَ وَإِن اتَّقَيْتَ النَّاسَ لَنْ يُغْنُوا عنك مِنْ اللهِ شَيْئًا .

وكَانَتْ أَعْمَالُهم بَعِيْدَةً عن الرِّيَاءِ عَمَلا بقوله تَعَالَى في الصَّدَقَاتِ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لكم وَقَولُه صلى الله عليه وسلم وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُه ، كَانَ الرَّبِيْعُ بنُ خَيْثَمٍ لا يَطَّلِعُ على عَمَلِهِ إلَّا أَهْلُ بَيْتِه وَدَخَلَ عليهِ رَجُلٌ وَهُوَ يَقْرَأُ في المصْحَفِ فَغَطَّاهُ بكُمِّهِ .

وَكَانَ مَيْمُونُ بنُ مِهْرَانَ يَقُوْلُ لأَصْحَابِهِ قُوْلُوا مَا أَكْرَهُ فِي وَجْهِيْ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَنْصَحُ أَخَاهُ حَتَّى يَقُوْلَ لَهُ في وَجْهِهِ مَا يَكْرَهُ وَكَانَ يَقُولُ يَا أَهْلَ القُرْآنِ لا تَتَّخِذُوا القُرْآنَ بِضَاعَةً تَلْتَمِسُوْنَ بِهِ الرِّبْحَ في الدُّنْيَا اطْلُبُوا الدُّنْيَا

بالدّنْيَا وَالآخِرَةَ بالآخِرَةِ .

وَبالتّالِيْ فَإنَّ الانْهِمَاكَ في الدّنْيَا قَدْ شَمَلَ أَصْنَافَ الخَلْقِ لِقِلَّةِ مَعْرِفَتِهم باللّهِ تَعَالى إذْ لَا يُحِبُّ اللّهَ إلا مَنْ عَرَفَهُ فَكُلَّمَا ازدادتْ مَعْرِفةُ العَبْدِ بِرَبِّهِ ازْدَادَ حُبُّه لَهُ . وَكُلَّمَا فكَّرَ في نِعَمِ اللّهِ عَلَيْهِ قوِيَ حُبُّهُ لِرَبِّهِ ، لِأَنَّ النُّفُوْسَ مَجْبُولَةٌ عَلى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ الَيْهَا .

وَلِهَذَا قَالَ اللّهُ تَعَالَى ﴿ قُلْ انْ كَانَ آبَاؤُكُم وَأَبْنَاؤُكُم وَاخْوَانكم وَأَزْوَاجُكم وَعَشِيْرَتُكم وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ الَيْكُمْ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِه وَجِهَادٍ في سَبِيْلِهِ فَتَرَبَّصُوا حتى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِيْنَ ﴾ أَيْ إنْ كَانَتْ رِعَايَةُ هَذِهِ المَصَالِحِ الدُّنْيَوِيّةِ عِنْدَكُم أَوْلى مِن طَاعَةِ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَمِن المُجَاهَدَةِ لِإعْلاَءِ كَلِمَةِ اللّهِ فَانْتَظِرُوا مَاذَا يَحِلُّ بكُم مِنْ عِقَابِهِ وَنَكَالِهِ .

وَلِهَذَا قَالَ حتى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَهَذَا وَعِيْدٌ شَدِيْدٌ وَتَهْدِيْدٌ شَنِيْعٌ لِلْمُنْهَمِكِيْنَ في طَلبِ الدُّنْيَا المُؤْثِرِيْنَ لهَا وَلأَهْلِهم وَقَرَابَتِهم وَعَشِيْرَتِهم عَلى اللهِ وَرَسُولِه وَالجِهَادِ في سَبيلِهِ أَفلا يَعْتَبِرُ اللّبِيْبُ وَيَنْظُرَ كَمْ خَرمَتْ أَيْدِي المنوْنِ مِن قُرُونٍ بَعْدَ قُرُونٍ وَكَمْ غَيّرتِ الأَرْضُ بِبَلائِهَا وَكم غَيَّبَتْ في تُرَابِهَا مِمَّنْ عَاشَرْتَ مِنْ صُنُوفِ المخْلُوقِيْنَ .

وَمَا أَكْثَرَ مَنْ أَخذَتْ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَقَالَبِهِ وَصَارَ عَبْداً لَهَا في لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ضَاعَتْ أَوْ قَاتَهُ النَّفِيْسَةُ في الرَّكضِ خَلْفَها يَجْمَعُهَا لِمَنْ يَخْلُفه عَلَيْهَا وَصَار هُوَ بالحَقِيْقَةِ حَارساً خادِماً مُحَامِياً بجَارَتِهِ وَكِسْوَتِهِ وَسُكْنَاهُ فقطْ وَلا شُكْرَ وَلَا ثَناءَ ولا مُرُوْأة وتَأَمُّله وَصْفاً مُطَابِقاً لِأَغْنِيَاءِ أَهْلِ هَذا الزَّمنِ تَكُونُ بِذَلِكَ

مُصَدِّقاً مُتَعَجِّباً وَانْ كُنْتَ مُوَفَّقاً قُلْتَ الحَمْدُ لِلّهِ الذِي عَافَانَا مِمَّا ابْتَلاهُم اللّهُمَّ عَافِهِم وَلا تَبْتَلِيْنَا وَاسْتَعْمَلْتَ مَا عِنْدَكَ فِيْمَا يُقَرِّبُ إلى اللّهِ وَالدّارَ الآخِرَة وَسَأَلْتُ اللهَ أنْ يُثَبِّتَكَ على الإِيْمَانِ وَأَنْ لا يُزِيْغَ قَلْبَكَ بَعْدَ إذ هَدَاكَ وَأَنْ يَهَبَ لَكَ مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً وَأَنْ يُهَيِّىءَ لَكَ مِنْ أَمْرِكَ رَشَدا . وَاللهُ أعلم وصلى اللهُ عَلى محمدٍ وعَلى آلِهِ وَصَحبه وسَلم .

مَــوْعِظَــةٌ

عِبَادَ اللّهِ نَحْنُ في زَمَنٍ لا نُسِيءُ إذا عَدَدْنَـا أَهْلَهُ من ضُعَفَاءِ المُتَدَيِّنِيْنَ الذين غَلَبَتْ عليهم المدَاهَنةُ ، والتَّمَلُّقُ ، وَالكَذِبُ ، رَاجِعْ حَالَ السَّلَفِ المؤمنين حَقّاً وَانْظُرْ حَالَنا اليَوْمَ ، تَعْجَبُ مِن الفَرْقِ المُبِيْنِ .

كانَ هَذا المالُ بِأَيْدِيْهِمْ بِكَثْرَةٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَدُورُ عَلَيْهِ الحَوْلُ ، لأَنَّهُم نَصْبَ أعيُنِهم قَولُهُ تَعالَى ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِنْ قَبلِ أَنْ يَأتِي أَحَدَكُم الموتُ فَيَقُول ربِّ لولَا أخَّرْتَنِيْ إلى أَجَلٍ قَرِيْبٍ فَأصَّدَّقَ وَاكُنْ من الصَّالِحين ﴾ وقولُه تَعالى ﴿ الذِيْنَ يُنفِقُونَ أَمْوَالهم بالليلِ والنَّهارِ سِرّاً وَعَلانيةً فلهم أَجْرُهُم عند رَبِّهم وَلا خَوْفٌ عليهم ولاَ هُم يَحْزَنُونَ ﴾ .

مُطْمَئِنِّينَ إلى قولِه تعالى ﴿ ومَا أنفَقْتُم مِن شَيءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيرُ الرَّازِقِيْنَ ﴾ كَانُوا إِذَا وَصَل إليهم المالُ يُصِيْبُهم قَلَقٌ حَتَّى يَتَصَدَّقُوا به عَلى حَدِّ قَولِ الشَّاعِرِ :

كَــأَنَّــكَ فـي الأنْفَــاقِ لـلمَــالِ مُبْغِضٌ
وَفـي كُـلِّ حَـرْبٍ لِلْمَنِيَّـةِ عَـاشِـقُ

وَقَوْلِ الآخر :

قَالَتْ طُرَيْفَةُ لَا تَبْقَى دَرَاهِمُنَا
وَمَا بِنَا صَلَفٌ فِيْهَا وَلَا خَرَقُ

لَكِنْ إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْماً دَرَاهِمُنَا
ظَلَّتْ إِلى طُرُقِ المَعْرُوفِ تَسْتَبِقُ

لَا يَأْلَفُ الدِّرْهَمُ المَضْرُوبُ صُرَّتَنَا
لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقُ

وَكَانُوا إذَا عَرضَ لَهُمْ أَحَدٌ وَأَبْدَى لَهُم احْتِيَاجَهُ يَرَوْنَ غَفْلَتُهم عَنْهُ مِنْ النَّقَائِصِ وَالعُيُوبِ الفَاحِشَاتِ أَيْنَ هَذَا وَأَيْنَ حَالُنَا اليَوْمَ وَقَدْ بَخِلْنَا بحَقِّ المَالِ الزَّكَاة وَهِيَ حَقُّ الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِيْنِ . . . الخ .

وَكَانُوا إذَا فَاتَتْهُم تَكْبِيْرَةُ الاحْرَامِ مَعَ الإِمَامِ رُبَّمَا غُشِى عَلَيْهِم مِنْ أَلَمِ هَذَا المصَابِ العَظِيْمِ وَكَانُوا يُعَزُّوْنَ مَنْ فَاتَتْهُ تَكْبِيْرَةِ الاحْرَامِ وَمِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى مَنْ فَاتَتْهُ الجَماعَةُ أَو الجُمُعَةُ .

أَيْنَ هَذَا مِن حَالِ مُجْتَمَعِنَا اليَوْمَ الذي تَرَى الكَثِيْرَ مِنْهُم يُجَافِي عَلَيْهِ البَابَ وَيَشْرَبُ الشَّايَ والدُّخَانَ أبا الخَبَائِثِ وَالنَّاسُ يُصَلوْنَ .

وَكَثِيْرٌ مِنْ الذِيْنَ يُصَلُّوْنَ مَعَ الجَمَاعَةِ تَجِدُهُم يَحْرِصُوْنَ عَلى الاتْيَانِ إذا ظَنُّوا أَنهَا أقِيمَتِ الصَّلاةُ وَيَقْصِدُوْنَ النَّقَّارِيْنَ الذِين لا يَتَركَدُون في الصَّلاةِ ولا يَطْمَئِنُّونَ فيها ولَا يَتمَكَّنُ المَأْمُومُ من قِرَاءةِ الفَاتِحَةِ التي لا صَلَاةَ لِمَنْ لَم يَقْرَأْ بِهَا وَلا يَتمَكَّنُ مِنْ الاتيَانِ بالتَّشَهُّدِ كَامِلا .

فَإِنْ دَلَّ هَذا على شَيءٍ فَانَّمَا يَدُلُّ عَلى أَنَّهُم لا يَفْهَمُونَ الصَّلَاةَ وَلَا

الْمقصُودَ مِنْهَا وَلو فهِمُوهَا تماماً لصَارَتْ قرَّةَ أَعْيُنِهم وَلا اسْتَراحُوا بهَا وَاسْتَعَانُوا بهَا عَلى الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا .

وَكَانُوا أَيْ السَّلَف مِمَّنْ يَحِنّ إلى بَيْتِ اللّهِ يَتَمَتَّعُونَ به في كُلِّ عَامٍ ، وَلِذَلِكَ تُعَدُّ لاحَدِهِم أَرْبَعِيْنَ حِجَّةً ، وَأَزيَـدُ ، أَيْنَ هَذا مِمن يُسَافِرُونَ إلى بِلادِ الكَفَرةِ بلادِ الحُرِّيَّةِ مُحَكّمَةِ القَوانِيْنِ أَعْدَاءُ الإِسْلامِ وَأَهْلِهِ .

وَمَعَ ذَلِكَ يُبَعْثِرُونَ الفُلُوسَ العَظِيْمَةَ ، التِي سَيُنَاقَشُوْنَ عَنْهَا دَاخِلة وَخارجَة ضِدَّ مَا عَلَيْهِ أَبَاؤُهُم من هِجرَ ان مَنْ جَاءَ مِنْ بلادِ الكُفْر غَيْرَ مُهَاجرٍ قَال صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم أَنا بَرِيءُ مِن مُسْلِم بَيْنَ أَظْهُرِ المُشْرِكِين وَقَال مَن جَامَع المشركِين وَسَكنَ مَعَهُم فَإنَّه مِثْلُهم .

وَكَانَ السَّلَفُ يَشْتَاقُونَ إلى الصِّيَامِ ، وَبَعْضُهُم يَصُومُونَ سِتَّةَ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّال ، وَثَلاثةً مِن كُلِّ شَهْرٍ ، وَيَوْمَ الإِثْنَيْنِ ، وَالخَمِيْسِ ، وَبَعْضُهم يَصُوْمُ كَصِيَامِ دَاوُدَ عَليهِ السَّلامُ ، يَوْمٌ يَصُوْمُ ، وَيَوْمٌ يُفْطِرُ ، أَمَّا نَحْنُ فَيَالَيْتَهُ يَسْلَمُ لَنا رَمَضَانُ من المُفْسِدَاتِ وَالمنقصَاتِ وَهَيْهَاتَ .

كَانُوا إذَا سَمِعُوا الموعِظَةَ ، أَوْ مَرُّوا بحَدَّادٍ يُوقِدُ نَاراً ، صَعِقُوا وَرُبَّما مَكَثُوا بلا وَعْي ، أَيَاماً ، أَوْ أَشْهُراً مُتَتَالِيَاتٍ ، وَقَد سَمِعْتَ بأُنَاسٍ قَتَلَتْهُم المواعِظُ أَمَّا نَحنُ فَتُتْلَى عَلَيْنَا الآيَاتُ مِنْ كِتَاب اللّهِ وَلا كَأَنَّها مَرَّتْ قُلُوبَنَا مِنْ الانْهِمَاكِ بالدُّنْيَا وَالغَفْلةِ أَصْبَحَتْ لا تُؤَثِّرُ فِيْهَا العِظَاتُ .

كَانُوا يَتَعَاوَنُونَ عَلى الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَرِ وَيَلْتَفُّون كُتْلَةً وَاحِدةً وَيَأْخُذُوا عَلى يَدِ السَّفِيْهِ أَمَّا نحنُ فَنُثَبِّطُ وَنَقُولُ لِمَنْ يُرِيْدُ

المسَاعَدَةَ مَا أَنْتَ بِمُلزَمٍ اترُكهم .

كَانُوا يَنْصَحُونَ أَهْلَ المَعَاصِيْ ، وَيَهْجُرُونَهم ، إِذَا أَصَرُّوا على المَعَاصِيْ وَلَو كانُوا مِمَّنْ لهُم مَنْزِلَةٌ وَمَكانَةٌ في قُلُوبِ كَثِيْرٍ مِن أَهْلِ الدُّنْيَا وَكَانُوا لا تأخُذُهُم في اللهِ لَوْمَةُ لائِم وَهِمَمُهم عالِيَةٌ وَأَنْفُسهم رَفِيْعَةٌ لا يَخْشَوْنَ إلَّا اللهَ لا يَتمَلَّقُونَ وَلَا يُدَاهِنُونَ وَلَا يَخْضَعُونَ إلا لِلّهِ قَالَ بَعْضُهم :

قَالُوا نَرَى نَفَراً عِنْدَ المُلُوكِ سَمَوْا
وَمَالَهُمْ هِمَّةٌ تَسْمُو وَلَا وَرَعُ
وَأَنْتَ ذُو هِمَّةٍ في الفَضْلِ عَالِيَةٍ
فَلِمْ ظَمِئتَ وَهُم في الجَاهِ قَدْ كَرَعُوْا
فَقُلْتُ بَاعُوا نُفُوساً وَاشْتَرَوا ثَمَناً
وَصُنْتُ نَفْسِي فَلَمْ أَخْضَعْ كَمَا خَضَعُوْا
قَدْ يُكْرَمُ القِرْدُ إِعْجَاباً بِخِسَّتِهِ
وَقَدْ يُهَانُ لِفَرْطِ النَّخْوَةِ السَّبُعُ

هَذَا الذِيْ كَانَ مِنْ سَلَفِنَا الكِرَامِ نَحْوَ أَهْلِ المَعَاصِيْ وَالْمُنكَرَاتِ .

أَمَّا نَحْنُ فَنَتْرُكُهُمْ وَنَقُوْلُ ذُنُوْبُهُمْ عَلَى جُنُوْبِهِمْ ، وَرُبَّمَا جَالَسْنَاهُمْ ، وَوَاكلْنَاهُمْ ، وَعَظَّمْنَاهُم ، كَمَا تَسْمَعُ الكَثِيْرَ يَقُوْلُوْنَ لِلْمُجَاهِرِ بِالمَعَاصِيْ كَشَارِبِ الدُّخَانِ ، وَحَالِقِ اللِّحْيَةِ ، وَمُسْتَعْمِلِ آلَاتِ اللَّهْوِ ، يَا مُعَلِّمُ يَا أَسْتَاذُ يَا سَيِّدُ وَالواجِبُ هَجْرُهُ لِيَرتَدِعَ فَإِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ .

اللَّهُمَّ أَرِنَا الحَقَّ حَقّاً وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ وَأَرِنَا البَاطِلَ بَاطِلاً وَجَنِّبْنَا اتباعه

وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَغْلُبُ عَلَى قَلْبِهِ عِنْدَ الْمَوْتِ حُبُّ شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَيَكُوْنُ اسْتِغْرَاقُ قَلْبِهِ صَارِفاً وَجْهَهُ إلى الدُّنْيَا .

فَإِنْ اتَّفَقَ قَبْضُ الرُّوْحِ حَالَةَ غَلَبَةِ الدُّنْيَا فَالأَمْرُ خَطِيْرٌ لِأَنَّ الْمَرْءَ يَمُوْتُ على مَا عَاشَ عَلَيْهِ كَمَا أَنَّهُ يُبْعَثُ على مَا عَاشَ عَلَيْهِ وَلَا يُمْكِنُ اكْتِسَابُ صِفَةٍ أُخْرَى لِلْقَلْبِ تُضَادُّ الصِّفَةَ التِي غَلَبَتْ عَلَيْهِ لِأَنَّ ذَلِكَ بالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ وَقَدْ انْقَطَعَ بالمَوْتِ وَلَا أَمَلَ بِالرُّجُوْعِ إلى الدُّنْيَا لِيَتَدَارَكَ ذَلِكَ وَعِنْدَ ذَلِكَ تَعْظُمُ الحَسْرَةُ .

وَيَشْتَدُّ النَّدَمُ وَكَمْ غَرَّتْ الدُّنْيَا مِنْ مُخْلِدٍ إِلَيْهَا وَصَرَعَتْ مِنْ مُكِبٍّ عَلَيْهَا فَلَمْ تُنْعِشْهُ مِنْ عَثْرَتِهِ وَلَمْ تُنْقِذْهُ مِنْ صَرْعَتِهِ وَلَمْ تَشْفِهِ مِنْ أَلَمِهِ وَلَمْ تُبْرِئْهُ مِنْ سَقَمِهِ .

شِـــعْرَاً :

بَــلَى أَوْرَدَتْــهُ بَــعْـدَ عِــزٍّ وَمِـنْـعَــةٍ
مَــوَارِدَ سُــوْءٍ مَــا لَــهُــنَّ مَــصَــادِرُ
فَــلَـمَّــا رَأَى أَنْ لا نَــجَــاةَ وَأَنَّــهُ
هُــوَ المــوتُ لا يُنْجِيْــهِ مِنْــهُ التَّحَــاذُرُ
تَــنَــدَّمَ إِذْ لَــمْ تُــغْــنِ عَــنْــهُ نَــدَامَــةٌ
عَــلَيْــهِ وَأَبْكَتْــهُ الــذُّنُــوبُ الــكَـبَـائِــرُ

أَحَـاطَـتْ بِـهِ أَحْـزَانُـهُ وَهُـمُـومُـهُ
وَأَبْـلَسَ لَـمَّـا أَعْـجَـزَتْـهُ الـمَـقَـادِرُ
فَلَيْسَ لَـهُ مِنْ كُـرْبَـةِ الـمَـوْتِ فَـارِجُ
وَلَـيْسَ لَـهُ مِـمَّـا يُـحَـاذِرُ نَـاصِـرُ
وَقَـدْ جَشَـأَتْ خَـوْفَ المنِيَّـةِ نَـفْسُـهُ
تُـرَدِّدُهَـا مِـنْـهُ اللَّهَـا وَالـحَـنَـاجِـرُ

وَلِهَذَا سَبَبَانِ أَحَدُهُمَا كَثْرَةُ المَعَاصِيْ وَالآخَرُ ضَعْفُ الإِيْمَانِ وَذَلِكَ أَنَّ مُقَارَفَةَ المَعَاصِيْ مِنْ غَلَبَةِ الشَّهَوَاتِ وَرُسُوْخِهَا فِيْ القَلْبِ بِكَثْرَةِ الإِلْفِ وَالعَادَةِ ، وَكُلُّ مَا أَلِفَهُ الانْسَانُ في عُمْرِهِ يَعُودُ ذِكْرُهُ إلى قَلْبِهِ غَالِباً عِنْدَ المَوْتِ .

فَإِنْ كَانَ مَيْلُهُ إلى الطَّاعَاتِ أَكْثَرَ كَانَ أَكْثَرَ مَا يَحْضُرُهُ غالِباً ذِكْرُ اللَّهِ وَطَاعَته وَإِنْ كَانَ إِلى المَعَاصِيْ أَكْثَرَ غَلَبَ ذِكْرُهَا عَلَى قَلْبِهِ عند الموتِ فَرُبَّمَا تَفِيْضُ رُوْحُهُ عِنْدَ غَلَبَةِ مَعْصِيَةٍ مِنْ المَعَاصِيْ فَيَتَقَيَّدُ بها قَلْبُهُ وَيَذْهَلُ عَن اللَّهِ وَحُسْنِ الظَنِّ بِهِ لِاشْتِغَالِهِ بِمَا تَقَيَّدَ بِهِ نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ .

فَالذِيْ غَلَبَتْ طَاعَتُهُ على مَعَاصِيْهِ بَعِيْدٌ عَنْ هَذَا الخَطَرِ بِاذْنِ اللَّهِ ، وَالذِيْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ المَعَاصِيْ وَكَانَ قَلْبُهُ بِهَا أَفْرَحَ مِنْ الطَّاعَاتِ يُخْشَى عَلَيْهِ وَخَطَرُهُ عَظِيْمٌ جِدَّاً .

وَمَنْ أَرَادَ السَّلَامَةَ مِنْ ذَلِكَ فلا سَبِيْلَ لَهُ إلاَّ المُجَاهَدَةُ والصَّبْرُ طُوْلَ العُمْرِ في فِطَامِ نَفْسِهِ عَنْ الشَّهَوَاتِ مُحَافَظَةً عَلَى القَلْبِ مِنْهَا وَيَكُوْنُ طُوْلَ عُمْرِهِ مُوَاظِباً عَلَى الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مُكْثِراً لِذِكْرِ اللَّهِ قَائِماً وَقَاعِداً

وَمُضْطَجِعاً وَمَاشِياً .

وَتَخْلِيَةُ الفِكْرِ عَنْ الشَّرِّ عُدَّةٌ وَذَخِيْرَةٌ لِحَالَةِ سَكَرَاتِ المَوْتِ وَشَدَائِدِهِ فَإِنَّ المَرْءَ يَمُوْتُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ وَيُحْشَرُ عَلى مَا مَاتَ عَلَيْهِ .

وَيُعْرَفُ ذَلِكَ أَيْ أَنَّ مَا أَلِفَهُ طُوْلَ عُمْرِهِ يَعُوْدُ ذِكْرُهُ عِنْدَ المَوْتِ بِمِثَالٍ ، وَهُوَ أَنَّ الإِنْسَانَ لا شَكَّ أَنْه يَرَى فِي مَنَامِهِ مِنْ الأَحْوَالِ التِي أَلِفَها طُوْلَ عُمْرِهِ فَالذِي قَضَى عُمْرَهُ في طَلَبِ العِلْمِ يَرَى مِنْ الأَحْوَالِ المتَعَلَقَةِ بالعِلْمِ وَالعُلَمَاء وَرُؤيَةِ بَعْضِهم وَبَعْضِ كُتُبِ العِلْمِ وَالذِيْ قَضَى عُمْرَهُ في النِّجَارَةِ يَرَى مِنْ الأَحْوَالِ المتَعَلقَةِ بِهَا .

وَالذِيْ قَضَى عُمْرَه في الخِيَاطَةِ يَرَى مِنْ الأَحْوَالِ المُتَعَلِّقَةِ بالخِيَاطَةِ وَالخَياط وَالذِي قَضَى حَيَاتَهُ في الفِلاَحَةِ يَرَى الأَحْوَالَ المتَعَلقةَ بالفِلاَحَةِ وَالفَلاَّحِيْنَ .

وَالذي قَضَى عُمْرَه في الفَسَادِ والفُجُوْرِ يَرَى في مَنَامِهِ الأَحْوَالَ المتعَلّقةَ بالفُجُوْرِ وَيَرى الفَسقَةَ مِثْلَهُ وَأَعْمَالَهُمْ مِنْ لِوَاطٍ أَوْ زِنا أَوْ سَرِقَةٍ أَو مُسْكِرٍ أَوْ دُخَانٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ المحَرَّمَاتِ وَقِسْ على ذَلِكَ بَاقِيْ الأَعْمَالِ .

وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَظْهَرُ في حَالَةِ النَّوْمِ مَا حَصَلَ لَهُ مُنَاسَبَةٌ مَع القَلْبِ بِطُوْلِ الإِلْفِ أَو بِسَبَبٍ آخرَ مِنْ الاسْبَابِ وَاللهُ أَعْلَمُ وَالمَوْتُ شَبِيْهٌ بالنَّوْمِ وَلَكِنَّهُ فَوْقَهُ وَلَكِنْ سَكَرَاتُ المَوْتِ وَمَا يَتَقَدَّمُهُ مِن الغَشْيَةِ قَرِيْبٌ مِنْ النَّوْمِ فَرُبَّمَا اقْتَضَى ذَلِكَ تَذَكُّرُ مَأْلُوفِهِ وَعَوْدَه إِلى القَلْبِ وَأَحدُ الاسْبَابِ المُرَجِّحَةِ لذلك أَي ذِكْرُهُ في القَلْبِ طُولُ الأَلْفِ لِذَلِكَ .

إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاحْذَرْ كُلَّ الحَذَرِ أَنْ تَكُوْنَ مِمَّنْ قَتَلُوا أَوْقَاتَهُم في مُقَابَلةِ التّلَفِزْيُوْنِ وَالسِّيْنَمَا وَالمِذْيَاعِ وَالبَكَمَاتِ وَالصُّوَرِ وَنَحْوِ المنْكَرَاتِ المحَرَّمَاتِ وَاحْذَرْ تَعَاطِيْهَا بَيْعاً أَوْ شِرَاءً فَتَخْسَرْ وَقْتَكَ وَنَفْسَكَ وَمَا لَكَ نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ مِنْهَا وَمِنْ جَمِيْعِ المحَرَّمَاتِ .

وَلِذَا نُقِلَ عَنْ بَقَّالٍ أَنَّهُ كَانَ يُلَقَّنُ عِنْدَ المَوْتِ كَلِمَتَيْ الشَّهَادَةِ فَيَقُوْلُ خَمْسَةٌ سِتَّةٌ أَرْبَعَةٌ فَكَانَ مَشْغُوْلاً بالحِسَابِ الذِيْ طَالَ إِلْفُهُ لَهُ فَغَلَبَ عَلى لِسَانِهِ وَلَمْ يُوَفَّقْ لِلشَّهَادَتيْنِ وَيُخْشَى عَلَى صَاحِبِ المَعَاصِيْ وَالمُنْكَرَاتِ وَمُتَّخِذِيْ آلَاتِ اللَّهْوِ مِنْ شِطْرَنْجٍ وَأَعْوَادٍ وَأَوْرَاقِ لَعِبٍ وَبَكَمَاتٍ وَاصْطُوَانَاتٍ وَكُرَةٍ وَمِذْيَاعٍ وَتِلِفِزْيُوْن وَسِيْنَمَا وَصُوَرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَنْ يَكُوْنَ مَشْغُولاً بِهَا في آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ فَيَكُوْنُ خِتَامُ صَحِيْفَةِ مَا نَطَقَ بِهِ لِسَانُهُ مِمَّا يَأْتِيْ فِيْهَا مِنْ أَغَانِيْ وَتَمْثِيْلِيَّاتٍ وَصُوَرٍ وَفِدْيُو ونحوهِ مِنْ المُنْكَرَاتِ والمُحَرَّمَاتِ نَعُوْذُ باللهِ مِنْ سُوْءِ الخَاتِمَةِ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ كَانَ سَلَفُنَا يَزُوْرُ بَعْضُهُم بَعْضاً لِلْمُذَاكَرَةِ لِلْعِلْمِ وَتَذَكُّرِ المُلِمَّاتِ يَتَسَاءلُونَ عَنْ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مَعْنَاهُ مِنْ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُوْلِهِ صَلَّى الله عَليه وسَلم وَعَنْ أَوْرَادِهِمْ وَمِقْدَارِهَا في الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالأذْكَارِ وَالصَّدَقَاتِ وَعَنْ الكُتُبِ النَّافِعَةِ لِيَقْتَنُوْهَا وَالكُتُبِ الضَّارَّةِ لِيَجْتَنِبُوْهَا .

هَذَا مَدَارُ مَجَالِسِهِمْ لَا يُخْطِؤنَهُ وَلَا يَدُوْرُ لَهُمْ غَيْرُهُ عَلَى بَالٍ أَيْنَ هَذَا مِنْ مَجَالِسِنَا وَهِيَ مَوَارِدُ غَضَبٍ وَمَقْتٍ وَغِيْبَةٍ وَنَمِيْمَةٍ وَبُهْتٍ وَمُدَاهَنَةٍ

وَمُصَانَعَةٍ وَقَذْفٍ وَتَساؤ لٍ كَمْ مُرَتَّبُ فُلاَنٍ ، وَفي أيِّ مَرْتَبَةٍ زَيْدٌ ، وَكَمْ فلَّةٌ وَعِمَارَةٌ لِعُمَر ، وَكَمْ دُكَّانٍ لِبَكْرٍ وَبِكَمْ بَاعَ فُلانٌ بَيْتَهُ ، وَمَا الذِيْ أُذِيْعَ في المَلاَهِيْ ، وَانْكِبَابٍ عَلى المَجَلاَّتِ وَالجَرَائِدِ حَمَّالاَتِ الكَذِبَ قَتّالاَتِ الأَوْقاتِ في اللهْوِ وَمَالا فَائِدَةَ فِيْهِ وَأَيْنَ قَضَيْتَ العُطْلةِ في لُبْنَانَ أَوْ في أوْرُبا أَوْ في مِصْرَ .

كَانَتْ أَسْفَارُ السَّلَفِ لِلِقَاءِ أَخْبَارِ الأمَّةِ أَوْعِيَةِ العِلْم مَهْمَا كَانُـوا بَعِيْدِيْنَ يَتَلَقَّوْنَ عَنْهم عِلْمَ الكِتابِ والسُّنةِ وَيَتَفَقَّهُوْنَ عَلَيْهِم في الدِّيْنِ أَلَيْسَ مِنْ المُؤْسِفِ أَنْ يَكُوْنَ أُولَئِكَ النَّاسُ سَلفَنا وَبَيْننَا وَبَيْنَهُم هَذا الانْفِصَالُ .

كَانَ حُبِّ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وَتَوادُدِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ فَوْقَ مَا يُتَصَوَّرُ كانَ يَمُرُّ المَارُّ في بُيُوتِهِمْ فَلاَ يَسْمَعُ إلا دَوِيَّ أَصْوَاتِهِمْ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلاَوَةِ كِتَابِهِ وَالآنَ مَا تَسْمَعُ مِنْ بُيُوْتِنَا إلا مَا يُحَرِّضُ عَلى الفِسْقِ والفُجُوْرِ وَالعِصْيَانِ وَالنُّشُوْزِ وَالمخَاصَمَاتِ وَالطَّلاَقِ وَالتَّفرُّقِ وَالقَطِيْعَةِ وَالعُقُوْقِ مِنْ أَغَـانٍ وَأَلْحَانٍ مِنْ مِذْيَاعٍ وَتِلْفِزْيُون وَفِدْيُو وَنحوِهِ مِنْ آلاتِ اللّهْوِ التِيْ عَمَّتْ وَطَمَّتْ وابْتُلى بِهَا الخَلْقُ وَحَطَّمَتْ الأدْيَانَ وَالأخْلاقَ وَقَضَتْ عَلى الغَيْرَةِ الدِّيْنِيَّةِ .

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ الله :

وَالِيْ أُوْلى العِـرْفَـانِ مِنْ أَهْـلِ الحديْـ
ثِ خُـلاَصَـةُ الانْسَـانِ وَالأَكْـوَانِ
قَـوْمٌ أقامهموا الإلَـه لِـحِـفْظِ هَـ
ذا الـدِّيْنِ مِنْ ذِيْ بِـدْعَـةٍ شَيْـطَانِ

وَأَقَـامَهُمْ حَـرَسـاً مِنْ التَّبْـدِيْـلِ وَالتَّـ
ـتَحْـرِيْفِ والـتَّـتْـمِـيْـمِ وَالـنُّـقْـصَـانِ

يَـزَكٌ عَلى الإِسْـلامِ بَـلْ حِصْنٌ له
يَـأْوِي إِلَـيْـهِ عَـسَـاكِـرُ الـفُـرْقَـانِ

فَهُمُ المحَـكُّ فَـمَنْ يُـرَى مُـتَنَقِصَـاً
لَـهُمُـوْا فَـزِنْـدِيْـقٌ خَـبِـيْـثُ جَـنَـانِ

قَـوْمٌ هُـمُـوْا بِـالـلهِ ثُـمَّ رَسُـولِـهِ
أَوْلَـى وَأَقْـرَبُ مِـنْـكَ لِـلإِيْـمَـانِ

شَتَّـانَ بَيْـنَ التَّـارِكِـيـنَ نُـصَـوْصَـهُ
حَـقّـاً لأَجْـلِ زُبَـالَـةِ الأَذْهَـانِ

وَالـتَّـارِكِـيْـنَ لأَجْـلِهَـا آرَاءَ مَـنْ
آرَاؤُهُـمْ ضَـرْبٌ مِـنْ الـهَـذَيَـانِ

لَـمَّـا فَسَـا الـشَّـيْـطَانُ فـي آذَانِـهِمْ
ثَـقُـلَتْ رؤسُـهُـمُـوْا عَـنْ الـقُـرْآنِ

فَلِذَاكَ نَـامُـوْا عَنْـهُ حَتَّى أَصْبَحُـوْا
يَـتَـلاَعَبُـوْنَ تَـلاَعُـبَ الصِّـبْـيَـانِ

والـرَّكْبُ قَـدْ وَصَلُوا الـعُـلاَ وَتَيَـمَّمُـوْا
مِـنْ أَرْضِ طَيْبَةَ مَـطْلَعِ الأَيْمانِ

وَأَتَـوا إلى رَوْضَـاتِـهَـا وَتَـيَـمَّـمُـوْا
مِنْ أَرْضِ مَـكَّـةَ مَـطْلَعِ الـقُـرْآنِ

قَـوْمٌ إذَا مَـا نَـاجِـذُ الـنَّصِّ بَـدَا
طَـارُوْا لَـهُ بِـالجَمْـعِ وَالـوِحْـدَانِ

وَإِذَا هُمُــوْا سَمِعُـوا بِمُبْتَــدِعٍ هَــذَى
صَــاحُــوا بِــهِ طُــرّاً بِكُــلِّ مَكَــانِ
وَرِثُــوْا رَسُــولَ الـلهِ لَكِـنْ غَـيْــرُهُـمْ
قَــدْ رَاحَ بِــالنُّقْصَــانِ وَالـحِـرْمَــانِ
وَإِذَا اسْتَهَــانَ سِــوَاهُــمُ بِــالنَّصِّ لَـمْ
يَــرْفَــعْ بِــهِ رَأْســاً مِنْ الـخُـسْـرَانِ
عَـضُّــوْا عَلَيْــهِ بِــالنَّــوَاجِــذِ رَغْبَــةً
فِــيْــهِ وَلَـيْسَ لَــدَيْــهِـمُ بِــمُـهَــانِ
لَيْسُــوْا كَمَنْ نَبَــذَ الكِتَــابَ حَقِيْقَــةً
وَتِــلَاوَةً قَــصْــداً لِــتَــرْكِ فُــلَانِ
عَــزَلُــوْهُ فـي المَـعْنَـى وَوَلَّــوْا غَيْــرَهُ
كَــأَبِيْ الــرَّبِيْــعِ خَلِيْفَــةِ السُّــلْطَانِ
ذَكَــرُوْهُ فَــوْقَ مَــنَــابِــرٍ وَبِــسِــكَّــةٍ
رَقَمُــوْا اسْمَــهُ فِي ظَــاهِــرِ الأَثْمَــانِ
وَالأَمْــرُ وَالـنَّـهْـيُ الـمـطَاعُ لِـغَـيْــرِهِ
وَلِـمُـهْـتَـدٍ ضُــرِبَــتْ بِــذَا مَــثَــلَانِ
يَــا لَلْعُقُــوْلِ أَيَسْتَــوِيْ مَنْ قَــالَ بَــالْـ
ـقُــرْآنِ وَالآثَــارِ وَالــبُــرْهَــانِ
وَمُـخَــالِـفٌ هَــذَا وَفِـطْرَةَ رَبِّـهِ
الــلهُ أَكْـبَـرُ كَـيْـفَ يَـسْـتَـوِيَـانِ
بَــلْ فِــطْرَةُ الــلهِ الـتِـيْ فُـطِروا عَـلى
مَـضْـمُـونِـهَـا وَالـعَـقْـلُ مَـقْـبُـوْلَانِ

وَالـوَحْيُ جَاءَ مُصَـدِّقاً لَهُمَـا فَـلَا
تَـلْقَى الـعَـدَاوَةَ مَـا هُمَـا حَـرْبَـانِ
سِـلْمَـانِ عِـنْـدَ مُـوَفَّـقٍ وَمُـصَـدِّقٍ
وَالـلهُ يَـشْـهَـدُ إِنْ هُـمَـا سِـلْمَـانِ
فَـإِذَا تَـعَـارَضَ نَصُّ لَـفْظٍ وَارِدٍ
وَالـعَـقْـلُ حَـتَّـى لَـيْسَ يَـلْتَـقِـيَـانِ
فَـالعَقْـلُ إِمَّـا فَـاسِـدٌ وَيَـظُـنُّـهُ الـر
رَأْيُ صَـحِـيْـحَـاً وَهُـوَ ذُوْ بُـطْلَانِ
أَوْ أَنَّ ذَاكَ الـنَّصُّ لَـيْسَ بِـثَـابِـتٍ
مَـا قَـالَـهُ المَعْـصُـوْمُ بِـالبُـرْهَـانِ
وَنُصُـوْصُـهُ لَيْسَتْ يُعَـارِضُ بَعْضُهَـا
بَـعْضَـاً فَـسَـلْ عَنْـهَـا عَلِيْـمَ زَمَـانِ
وَإِذَا ظَـنَـنْـتَ تَعَـارُضَـاً فِـيْـهَـا فَـذَا
مِـنْ آفَـةِ الأَفْـهَـامِ وَالأَذْهَـانِ
أَوْ أَنْ يَـكُـوْنَ الـبَـعْضُ لَيْسَ بِـثَـابِـتٍ
مَـا قَـالَـهُ الـمَـبْـعُـوْثُ بِـالـقُـرْآنِ

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَارْزُقْنَا حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنَا حُبُّهُ عِنْدَكَ اللهُمَّ وَمَا رَزَقْتَنَا مِمَّا نُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لَنَا فِيْمَا تُحِبُّ اللهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنَّا مِمَّا نُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لَنَا فِيمَا تُحِبُّ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

مَــوْعِظَــةٌ

عِبَادَ اللهِ طَاعَةُ اللهِ صَلاَحٌ في الأَرْضِ لِهَذا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالطَّاعَاتِ وَهَذِهِ الطَّاعَاتُ تُرْضِيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأَنَّهُ شَكُورٌ غَفُوْرٌ وَهَذِهِ الطَّاعَاتُ هِيَ السَّبَبُ الذِيْ بِهِ يَكُوْنُ يُسْرُ العِبَادِ فَيَكُونُونَ في حَيَاتِهِم هَذِهِ في سَعَاذَاتٍ وَهِي التِيْ إذَا بُعِثُوا أَدْخَلَهُم بِهَا اللهُ الجَنَّاتِ . فالنَّاسُ إذا لَزِمُوا طَاعَةَ اللهِ نالُوا الخَيْرَ وَالسَّعَادَةَ بَعْدَ المَمَاتِ وَخَيْرُ مَا تَزَوَّدَهُ المَرْءُ تَقْوَى اللهِ .

عَنْ أَبِيْ ذَرٍّ الغِفَارِيْ وَمُعَاذِ بن جَبَل رَضِيَ اللهُ عنهُمَا عَن رسولِ اللهِ صَلى الله عليه وسلم قالَ اتّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبعْ السَّيِّئَةَ الحَسَنةَ تَمْحُهَا وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِي .

هَذَا حَدِيْثٌ عَظِيْمٌ خَاطَبَ فِيْهِ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلم الصَحَابِيّ الجَلِيْلَ أَبَا ذَرٍّ أَحَدَ السَّابِقِيْنَ فِي الإِسْلاَمِ وَتَلْبِيَةِ دَعْوَةِ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَسْلَمَ وَالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ بمَكة وَرَأى مِنْ حِرْصِهِ عَلَى المَقَامِ مَعَهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ على ذَلِكَ قَالَ لَهُ هَذِهِ المقَالَةَ .

وَاشْتَمَلَتْ هَذِهِ المَقَالَةُ عَلَى أُمُوْرٍ ثَلاَثَةٍ جَمَعَ فِيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ حَقِّ اللَّهِ وَحُقُوْقِ العِبَادِ فَحَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِهِ وَالتَّقْوَى كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِلْفَضَائِلِ وَالكَمَالاَتِ مَانِعَةٌ مِنْ النَّقَائِصِ والرَّذَالاتِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَىَ هِيَ امْتِثَالُ الأَمْرِ وَاجْتِنَابُ النَّهْي والوُقُوْفُ عِنْدَ الحَدِّ الشَّرْعِيّ الذِيْ حَدَّهُ اللهُ وَرَسُوْلُهُ .

وَهَذِهِ الوَصِيَّةُ هِيَ وَصِيَّةُ اللهِ لِلأَوَّلِيْنَ وَالآخرِيْنَ ووَصِيَّةُ كُلِّ رَسُولٍ لِقَوْمِهِ أَنْ يَقُولُوا اعْبُدُوْا اللهَ وَاتَّقُوْهُ وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ التَّقْوى في الدَّارَيْنِ بَابٌ وَاسِعٌ لِلتَّقي المُلاَزِمِ لِلأَدَبِ يَنْفُذُ مِنْهُ ان نَزَلَتْ بالنَّاسِ شَدَائِدٌ أَوْ نَزَلَ بِهِ شِدَّة لا مَفَرَّ مِنْهَا وَإِنْ شِئْتَ فَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبْ .

إِنَّ رَبَّنَا الذِيْ بِيَدِهِ أَزِمَّةُ الأُمُوْرِ: بِيَدِهِ الأَمْرُ كُلُّهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ هُوَ الذِيْ يَقُولُ ذَلِكَ لا زَيْدٌ وَلا عَمْرو وَلاَ خَالِدٌ وَلاَ بَكْرٌ والتَّقْوَى جَمَالٌ لِلمَرْءِ لا يُمَاثِلُهُ جَمَالٌ في نَظَرِ الأَفَاضِلِ المتَّقِيْنَ وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ :

فَعَلَيْكَ تَقْوَى اللهِ فَالْزَمْهَا تَفُزْ
إِنَّ التَّقِيَّ هُوَ البَهِيُّ الأَهْيَبُ
وَاعْمَلْ بِطَاعَتِهِ تَنَلْ مِنْهُ الرِّضَا
إِنَّ المُطِيْعَ لَهُ لَدَيْهِ مُقَرَّبُ

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذَرٍّ اتَّقِ اللّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ أَيْ بِأَيِّ زَمَانٍ وُجِدْتَ وَأَيِّ مَكَانٍ أَقَمْتَ فَإِنَّ التَّقْوَى لَا تَتَقَيَّدُ بِزَمَانٍ وَلاَ مَكَانٍ وَإِنَّمَا هِيَ عِبَادَةٌ وَإِخْلَاصٌ لِلرَّحْمنِ وَكَفٌّ عَنْ مَحَارِمه وَمُكَافَحَةٍ لِهَوى النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ وَمَوْضِعُهَا القَلْبُ مِن كُلِّ انْسَانٍ عَلَى حَد قولِهِ صَلَّى الله عليه وسلم « التَّقْوَى هَا هُنَا وَيُشِيْرُ إلى صَدْرِهِ » وَتَظْهَرُ آثارُهَا على الجَوَارِحِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ وَالانْكِفَافِ عَنْ المُحَرَّمَاتِ .

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم إنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى أَجْسَادِكُمْ ولا إلى صُوَرِكُم ولكن يَنْظُرُ إلى قُلوبكُم فَعَلى الانسَانِ أن يَبْذُلَ جِدَّهُ وَاجْتِهَادَهُ في

تَحْسِيْنِ مَوْضِعِ نَظَرِ اللهِ منه لِيَكُون نَقِيّاً طَاهِراً خَالِياً مِنْ الغِشِّ وَالحَسَدِ وَالحِقْدِ وَالظُّنُونِ السَّيِّئَةِ بالمُسْلِمين خَالِياً مِن جَمِيْعِ الأمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ وَالخُلُقِيَّةِ فَلَعَلَّ اللهَ يَنْظُرُ لَهُ نَظْرَةَ قَبُولٍ وَرَحْمَةٍ وَعَطْفٍ وَاحْسَانٍ وَامْتِنَانٍ .

يَا أَبَا ذَرّ أَمَرْتُكَ بِالتَّقْوَى المُشْتَمِلَةُ عَلى امْتِثَالِ أَمْرِ اللّهِ وَالابْتِعَادِ عَنْ مَحَارِمِه .

وَكَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أَمِيْرِ جَيْشِهِ سَعْدِ بْنِ أَبِيْ وَقَّاصٍ يَحُضُّهُ فِيْهِ عَلى تَقْوَى اللهِ وَيُحَذِّرُهُ المَعَاصِي فَقَالَ وَبَعْدُ فَإِنِّي آمُرُكَ وَمَنْ مَعَكَ مِنْ الأَجْنَادِ بِتَقْوَى اللّهِ عَلى كلِّ حَالٍ فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ أفضَلُ العُدَّةِ عَلى العَدُوِ وَأَقْوَى المَكِيْدَةِ في الحَرْبِ وَآمُرُكَ وَمَنْ مَعَكَ أَنْ تَكُونُوا أَشَدَّ احْتِرَاساً مِن المَعَاصِي منكم مِن عَدُوِّكُم فإِنَّ ذُنُوبَ الجَيْشِ أَخْوَفُ عَلَيْهِم مِنْ عَدُوِّهِم وإِنَّمَا يُنْصَرُ المُسْلِمُونَ بمَعْصِيَةِ عُدُوِّهِمْ لِلّهِ .

وَلَوْلَا ذَاكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا بِهِمْ قُوَّةٌ لأنَّ عَدَدَنَا لَيْسَ كَعَدَدِهِم وَلا عُدَّتُنا كَعُدَّتِهِمْ فَإِنْ اسْتَوَيْنَا في المَعْصِيَةِ كَانَ لَهُم الفَضْلُ عَلَيْنَا في القُوَّةِ وَإِلَّا نُنْصَرْ عَلَيْهِم بِفَضْلِنَا لم نَغْلِبْهُم بِقُوَّتِنَا فَاعْلَمُوا أنَّ عَلَيْكُم في سَيْرِكُمْ حَفظَةً مِن اللّهِ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ فَاسْتَحْيُوا مِنْهُم وَلَا تَعْمَلوا بِمَعَاصِيْ اللّهِ وَأَنْتُم في سَبِيْلِ اللّهِ .

وَلَا تَقُولُوا أنَّ عَدُوَّنَا شَرٌّ مِنَّا فَلَنْ يُسَلَّطَ عَلَيْنَا فَرُبَّ قَوْمٍ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ شَرٌّ مِنْهُم كَمَا سُلِّطَ عَلى بَنِي اسْرَائِيْلَ لَمَّا عَمِلُوا بِالمَعَاصِيْ كُفَّارُ المَجُوسِ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدُ اللّهِ مَفْعُولاً . وَاسْأَلُوا الله

العَوْنَ عَلى أَنْفُسِكُم كَمَا تَسْأَلُوْنَهُ النَّصْرَ على عَدُوِّكُم أَسْأَلُ اللهَ تَعَالى ذلكَ لِيْ وَلكُم أهـ .

فتَأَمَّلْ مَا كَتَبَهُ أَمِيْرُ المؤمِنِيْنَ إلى قَائِدِ جَيْشِهِ يَأْمُره بالتَّقْوى وَيُحَذِّرُه من المَعَاصِي بأشَدِّ المَوَاقِفِ وَأَحْرَجِهَا عِنْدَ مُقَابَلةِ المُسْلِمِيْنَ لِجَيْشِ العَدُوْ مِنْ الكَفَرَةِ المعَانِدين لِعِلْمِهِ أنَّ تَقْوى اللّهِ أَفْضَلُ العُدَّةِ وَالذَّخِيْرَةِ وَأَقْوى عَامِلٍ لِنُصْرَةِ المُسْلِمِيْنَ على أَعْدَائِهم وَالغَلَبَةِ عليهم وَالظَّفرِ بِهم .

فَتَمَسَّكَ المُسْلِمُونَ بِوَصِيَّةِ عُمَرَ وَكَانُوا كَمَا وَصفَ رَجُلٌ مِنْ الرُّوْمِ المُسْلِمِيْنَ لِرَجُلٍ مِنْ الرُّوْمِ أَمِيْرٌ فَقَالَ جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ رِجَالٍ دِقَاقٍ يَرْكَبُونَ خُيُولاً عِتَاقاً أَمَّا الليْلُ فرُهْبَانٌ وَأَمَّا النَّهارُ ففُرْسَانٌ لَوْ حَدَّثْتَ جَلِيْسَكَ حَدِيْثاً مَا فَهِمَهُ عَنْكَ لِمَا عَلا مِن أَصْوَاتِهم بالقُرْآنِ وَالذِّكْرِ فَالْتَفَتَ إلى أَصْحَابِهِ وَقَالَ أَتَاكُمْ مِنْهُم مَا لا طَاقة لكُمْ بِهِ ،

هُمُ الرِّجَالُ وَغَبْنٌ أنْ يُقال لمَنْ ... لَم يَتَّصِفْ بِمَعَالِي وَصْفِهم رَجلُ

وَقَوْلُهُ صَلى اللهُ عليه وسلم وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا لما كَانَ العَبْدُ لا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ منه تَقْصِيْرٌ في التَّقْوى وَلَوَازِمِهَا أَمرهُ صَلى اللهُ عليه وسلم بمَا يَدْفَعُ ذَلِكَ وَيَمْحُوهُ فكأَنَّهُ عَلَيْهِ الصلاةُ وَالسَّلامُ قالَ :

وَحَيْثُ أَنَّ المرءَ لَا يَأمَنُ على نَفْسِهِ من الزَّلَلِ وَالخَطا . فإذَا مَا وَقَعَتْ مِنْكَ زَلةٌ أو خَطِيْئَةٌ فاتْبِعْهَا بالحَسَنَةِ فَهِيَ مَاحِيَةٌ لَهَا مُخَلِّصَةٌ لَكَ مِنْ شَرِّهَا وَاثمِهَا نَظِيْرَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ وَمَنْ أَسَاءَ إلَيْكَ فَقَابلْهُ بالإحْسَانِ عَلى حدِّ قَوْلِهِ تَعَالى ﴿ ادْفَعْ بالتِيْ هِيَ أَحْسَنُ فَإذَا الذِيْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيْمٌ ﴾ .

وَهَذَا مِنْ أَكْرَمِ أَخْلاَقِ المَرْءِ وَأَجَلِّ صِفَاتِهِ فَإِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ مُسِيءٌ مِنْ الخَلْقِ خُصُوصاً مَنْ لَهُ حَقّ عَلَيْكَ كَالأَقارِبِ وَالأَصْحَابِ وَنَحْوِهِم فَقَابِلْ اسَاءَتَهُ بالاحْسَانِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ إِسَاءَةً قَوْلِيَّةً أَوْ فِعْلِيّة فَإِنْ قَطَعَكَ فَصِلْهُ وَإِنْ ظَلَمَكَ فَاعْفُ عَنْهُ وَإِنْ تَكَلَّمَ فِيْكَ غائِباً أَوْ حَاضِراً فَلا تُقَابِلْهُ بالاسَاءَةِ بَلْ اعْفُ عَنْهُ وَعَامِلْهُ بالقَوْلِ اللّيِّنِ وَإِنْ هَجَرَكَ وَتَرَكَ خِطَابَكَ فَطَيِّبْ لَهُ الكَلاَمَ وَابْذُلْ لَهُ السَّلامَ كَمَا قِيْلَ :

وَإِنْ أَسَاءَ مُسِيءٌ فَلْيَكُنْ لَكَ في
عُرُوْضِ زَلَّتِهِ عَفْوٌ وَغُفْرَانُ

فَإِذَا قَابَلْتَ الاسَاءَةَ بالإِحْسَانِ حَصَل فَائِدَةٌ عَظِيْمَةٌ ﴿ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيْمٌ ﴾ كَأَنَّهُ قَرِيْبٌ شَفِيْقٌ وَهذا فِيْمَا إِذَا كانَ المتَعَدِّي مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَأَهْلاً لِلْعَفْوِ وَالمسَامَحَةِ وَالمقَابَلَةِ بالتِيْ هِيَ أَحْسَنُ .

وَأَمَّا انْ كَانَ مِنْ المتَغَطْرِسِيْنَ المُتَكَبِّرِيْنَ الذِيْنَ يَزِيْدُهُمْ العَفْو عُتُوّاً وَطُغْيَاناً وَتَمَادِياً في ظُلْمِهم وَشَرِّهِم وَبَغْيِهم فاسْتِعْمَالُ الشِّدَّةِ وَالحَزْمِ وَالقَسْوَةِ أَوْلَى لِيَرْتَدِعُوْا لِأَنَّ اللَّئِيْمَ إِذَا أَكْرَمْتَهُ تَمَرَّدَ وَإِذَا أَهَنْتَهُ رُبَّمَا تَأَدَّبَ وَاعْتَدَلَ . وَقَدِيْماً قِيْلَ :

إِنَّ الصَّنِيْعَةَ لِلأَنْذَالِ تُفْسِدُهُم
كَمَا تُضِرُّ رِيَاحُ الوَرْدِ بالجُعَلِ

قَالَ اللّهُ تَعَالى ﴿ والذِيْنَ إِذَا أَصَابَهم البَغْيُ هُم يَنْتَصِرُونَ ﴾ مَدَحَهُم

جَلَّ وَعَلا لِانْتِصَارِهِم لِأَنْفُسِهم مِمَّنْ بَغَى عَلَيهم وَأَرْدَفَ جَلَّ وَعَلا ذَلِكَ بِمَا يَدُلُّ على أَنَّ الانْتِصَارَ مُقيَّدٌ بالمِثْلِ لِأَنَّ النُّقْصَانَ حَيْفٌ وَالزِّيَادَةُ ظُلْمٌ وَالتَّسَاوِيْ هُوَ العَدْلُ الذي قَامَتْ بِهِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ فَقَالَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيئةٌ مِثلُها .

وَنَعُودُ إِلى الكَلامِ عَلى آخِرِ جُمْلَةٍ في الحَدِيْثِ وَهِيَ قَوْلُه صَلَّى الله عليه وسلم « وَخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَن » أَيْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ ، وَالخُلُقُ صُوْرَةُ الانْسَانِ البَاطِنَةِ . وَالخُلُقُ الحَسَنُ في الأفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ وَالشُّعُوبِ وَالأَمَمِ هُوَ أُسُّ الفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ المَكَارِمِ وَعَيْنُ الكَمَالِ .

وَفي حَدِيْثِ مُسْلم عَنْهُ عليهِ السَّلامُ قَالَ « البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ » المَعْنَى أَنَّ خَيْرَ خِصَالِ البِرِّ وَأَعْظَمَهَا حُسْنُ الخُلُقِ نَظِيْرَ قَوْلِهِ عَليهِ السَّلامُ « الحَجُّ عَرَفَة » وَنَاهِيْكَ به أَنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ امْتَدَحَ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم بهِ لِبَيَانِ فَضْلِهِ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ وَشَرفِهِ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ وَانَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيْمٍ ﴾ .

وَالنَّبيّ صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يَذْكُرُ مُهِمَّتَهُ التي لِأَجْلِهَا بُعِثَ وَبِهَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الاخْلَاقِ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذِيْنَ يمشون على الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامَا ﴾ إلى آخِرِ مَا جَاءَ في هَذِهِ الآيَاتِ وَمَا شَاكَلَها مِنْ الآيَاتِ وَلَنَا الاسْوَةُ الحَسَنَةِ في قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَقَدْ ذَكَرْنَا نَمَاذجَ مِنْ حِلْمِهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلم .

وَقَدْ وَرَدَ في الحَثِّ عَلى حُسْنِ الخُلُقِ أَحَادِيْثُ كَثِيْرَةٌ وَمِنْ حُسْنِ

الخُلُقِ لِيْنُ الجَانِبِ وَالتَّوَاضُعُ وَعَدَمُ الغَضَبِ وَكَفُ الأذَىٰ عَنْهُم وَالعَفْوُ عَنْ مَسَاوِيْهِم وَأَذِيَّتِهم وَمُعَامَلَتُهم بالاحْسَانِ القَوْلِيّ وَالاحْسَانِ الفِعْلِيّ وَبَشَاشَةِ الوَجْهِ وَلُطْفِ الكَلاَمِ وَالقَوْلِ الجَمِيْلِ المُؤْنِسِ لِلْجَلِيْسِ المُدْخِلِ عَلَيْهِ السُّرُورَ المُزِيْلِ عنه الوَحْشَةَ.

وَمِنْ الخُلُقِ الحَسَنِ أَنْ تُعَامِلَ كُلَّ أَحَدٍ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ وَمِمَّا يُثْمِرُهُ حُسْنُ الخُلقِ، تَيْسِيْرُ الأمُورِ لِصَاحِبِهِ وَحُبُّ الخَلْقِ لَهُ وَمَعُونَتُهم وَالابْتِعَادُ عَنْ أذاه وَقِلّةُ مَشَاكِلِه في الحَيَاةِ مَعَ النَّاسِ وَالمُجَالِسِيْنَ لهُ وَاطْمِئْنَانُ نَفْسِهِ وَطِيْبُ عَيْشِهِ ورِضَاؤُهُ بهِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الأخْلاَقِ الصِّدْقُ وَالوَفَاءُ وَالشَّهَامَةُ وَالنُّجْدَةُ وَعِـزَّةُ النَّفْسِ وَالتَّوَاضُعُ وَعُلُوُّ الهِمَّةِ وَالتَّثَبُّتُ وَالعَفْوُ وَالبِشْرُ وَالرَّحْمَةُ وَالشَّجَاعَةُ وَالوَقَارُ وَالوَرَعُ والصِّيَانَةُ وَالصَّبْرُ وَالحَيَاءُ وَالسَّخَاءُ وَالنَّزَاهَةُ والقَنَاعَةُ وَحِفْظُ السِّرِّ وَالعِفَّةُ وَالايْثَارُ . وَاللّهُ أَعْلَمُ وَصَلى اللهُ على مُحَمّدٍ وآلهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْــلٌ)
في ذَمِّ طُوْلِ الأمَلِ وَالحَثِّ على تَقْصِيْرِهِ

اعْلَمُوا مَعْشَرَ الاخْوَانِ وَفَّقَنَا اللّهُ وَايَّاكُمْ وَأَيْقَظَ قُلُوْبَنَا وَقُلُوْبَكُم مِنْ الغَفْلَةِ وَرزَقَنَا وَايَّاكُم الاسْتِعْدَادَ لِلنُّقْلَةِ مِنْ الدَّارِ الفَانِيَةِ إلى الدَّارِ البَاقِيَةِ أَنَّ مِنْ أَضَرِّ الأشْيَاءِ عَلى الانْسَانِ طُولُ الأمَلِ وَمَعْنَى ذَلِكَ اسْتِشْعَارُ طُوْلِ البَقَاءِ في الدُّنْيَا حَتَّى يَغْلِبَ على القَلْبِ فَيَأْخُذُ في العَمَلِ بِمُقْتَضَاه .

وَيَنْسَى أَنَّه مُهَدَّدٌ بالمَوْتِ في كُلِّ لَحظَةٍ وَلاَ بُدَّ مِنْ ذَلِكَ ، كُلُّ مَا هُوَ

آتٍ قَرِيْبٍ ، فَتَأَهَّبْ لِسَاعَةِ وَدَاعِكَ مِن الدُّنْيَا وَخُرُوجِكَ مِنْهَا .

شِعْرَاً :

« أُؤَمِّلُ أَنْ أَحْيَا وَفي كُلِّ سَاعَةٍ
تَمُرُّ بِيَ المَوْتَى تَهُزُّ نُعُوشُهَا »
« وهَلْ أَنَا إلاَّ مِثْلَهم غَيْرَ أَنَّ لِيْ
بَقَايَا لَيَالٍ في الزمَانِ أَعِيْشُهَا »

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ مَنْ طَالَ أَمَلُهُ سَاءَ عَمَلُه وَذلِكَ أَنَّ طُوْلَ الأَمَلِ يَحْمِلُ الانْسَانَ عَلى الحِرْصِ على الدُّنْيَا وَالتَّشْمِيْرِ لَهَا لِعِمَارَتِهَا وَطَلَبِهَا حَتَّى يَقْطَعَ وَقْتَهُ لَيْلَهُ وَنَهارَهُ في التَّفكِيْرِ في جَمْعِهَا وَإصْلاَحِهَا وَالسَّعْيِ لَهَا مَرَّةً بِقَلْبِهِ وَمَرَّةً بالعَمَلِ فَيصِيْرُ قَلْبُه وَجِسْمُه مُسْتَغْرِقَيْنِ في طَلَبِهَا .

وَحِيْنَئِذٍ يَنْسَى نَفْسَهُ وَالسَّعْيَ لَهَا بِمَا يَعُودُ إلى صَلاَحِهَا وَكَانَ يَنْبَغِيْ لَهُ المُبَادَرَةُ وَالاجْتِهَادُ وَالتَّشْمِيْرُ في طَلَبِهِ الآخِرَةَ التِي هِيَ دَارُ الإقَامَةِ وَالبَقَاءِ وَأَمَّا الدنيا فهي دَارُ الزَّوالِ والانْتِقالِ وَعَنْ قَرِيْبٍ يَرْتَحِلُ مِنْهَا إلى الآخِرَةِ وَيُخَلِّفُ الدُّنْيَا وَرَاءَهُ. فَهَلْ منَ العَقْلِ أَنْ يَعْتَنِي الانسانُ بالمنزل الذي سَيَنْتَقِلُ منهُ قَرِيْباً ويُهْمِلَ المنزلَ الذي سَيَرْتَحل إليهِ قريباً وَيَمْكثُ فيه طَوِيْلاً.

أَتَبْنِي بِنَاءَ الخَالِدين وَإنَّمَا
مَقَامُكَ فيها لَوْ عَرَفْتَ قَلِيْلُ
لَقَدْ كَانَ في ظِلِّ الأَرَاكِ كِفَايَةٌ
لِمَنْ كَانَ يَوْمَاً يَقْتَفِيْهِ رَحِيْلُ

وَلَكِنْ لما طَالَ عَلَيْهِ الأمَلُ حَمَلَهُ على الحِرْصِ على الدُّنْيَا وَنَسِيَ حَقَارَتَها .

وَقَدْ ذَكَرَ العُلَمَاءُ أَنَّ طُوْلَ الأَمَلِ لَهُ سَبَبَانِ أَحَدُهُمَا الجَهْلُ وَالآخَرُ حُبُّ الدُّنْيَا أَمَّا حُبُّ الدُّنْيَا فَهُوَ إِنَّه إِذَا أَنِسَ بهَا وَبِشَهَوَاتِهَا وَعَلائِقِهَا ثَقُلَ على قَلْبِهِ مُفَارَقَتُها فَامْتَنَعَ قَلْبُهُ مِنَ الفِكْرِ في المَوْتِ الذِي هُوَ سَبَبُ مُفَارَقَتِهَا وَكُلُّ مَن كَرِهَ شَيْئاً دَفعَه عن نَفْسِهِ وَالانسَانُ مَشْغُولٌ بالامَانِيِّ البَاطِلَةِ التِي تُوَافِقُ مُرَادَهُ .

وَانَّمَا يُوَافِقُ مُرَادَهُ البَقَاءُ في الدُّنْيَا فَلَا يَزَالُ يَتَوَهَّمُهُ وَيُقَدِّرُهُ في نَفْسِهِ وَيُقَدِّرُ تَوَابِعَهُ وَمَا يَحْتَاجُ اليهِ من مَالٍ وَأَهْلٍ وَدَارٍ وَأَصْدِقَاءَ وَدوابٍّ وَمَرْكُوبٍ وَسَائِرِ أَسْبَابِ الدُّنْيَا فَيَصِيْرُ قَلْبُه عَاكِفاً على هَذَا الفِكْرِ فَيَلْهُو عن ذكر هاذِمِ اللذاتِ المَوْتِ .

فَإِنْ خَطَرَ في بَعْضِ الأَحْوَالِ ذِكْرُ المَوْتِ وَالضَّرُوْرَةِ إلى الاسْتِعْدَادِ وَالتَّهَيُّؤِ لَهُ سَوَّفَ وَوَعَدَ نَفْسَهُ وَقَالَ مَا مَضَى إلا القَلِيْلُ إلى أَنْ تَكْبُرَ ثُمَّ تَتُوبُ وَتُقْبِلُ على الطَّاعَةِ فَلَا يَزَالُ يُمَنِّي وَيُسَوِّفُ مِن الشَّبَابِ إلى الكُهولَةِ إلى الشَّيْخُوْخَةِ أَوْ إلى رُجُوعٍ مِن السَّفَرِ أو إلى فَرَاغِهِ من تَدْبِيْرِ شُؤُنِهِ أَو شُئُونِ أَوْلَادِهِ أو بَنَاتِه أَو زَواجهم أو انْتِهَاءِ شُغْلِهِ في عِمَارَاتِهِ أو فِلَلِهِ أو دَكَاكِيْنِهِ أَوْ بُسْتَانِه أو تَكْمِيْل دِراسَتِه أَوْ نَحو ذَلِكَ مِنَ الامَانِيِّ البَاطِلَةِ التِي يَتَلذذُ بِذِكْرِهَا وَلَا تُجْدِيْ شَيْئاً لكِنَّهُ يَرْتاحُ لهَا .

فَلَا يَزَالُ يُمَنِّي نَفْسَهُ بِمَا يُوَافِقُ هَوَاهَا وَلَا يَزَالُ يُغَالِطُ نَفْسَهُ في الحَقَائِقِ وَيَتَوَهَّمُ البَقَاءَ في الدُّنْيَا إلى أَنْ يَتَقَرَّرَ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَيَظُنُّ أَنَّ الحيَاةَ قَدْ صَفَتْ لَهُ وَيَنْسَى قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿حَتَّى إذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيْداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ﴾

شِعْراً :

تَصْفُو الحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ
عَمَّا مَضَى مِنْهَا وَمَا يُتَوَقَّعُ
وَلِمَنْ يُغَالِطُ في الحَقَائِقِ نَفْسَهُ
وَيَسُومُهَا طَلَبُ المُحَالِ فَتَطْمَعُ

وَأَصْلُ هَذِهِ الأَمَانِيِّ كُلِّهَا حُبُّ الدُّنْيَا وَالأُنْسُ بِهَا وَالغَفْلَةُ عَنْ الآخِرَةِ الثَّانِي الجَهْلُ حَيْثُ يَسْتَبْعِدُ المَوْتَ مَعَ الصِّحَّة وَالشَّبَابِ وَلاَ يَدْرِي المِسْكِيْنُ أنَّ الشُّيُوخَ في البُلْدَانِ أَقَلَّ بِكَثِيْرٍ مِنْ الشَّبَابِ وَلَيْسَ ذَلِكَ إلاَّ لِكَثْرَةِ المَوْتِ في الشُّبَّانِ وَالصِّبْيَانِ أكثر وَلَوْ سَأَلْتَ أحَدَ الشُّيُوخِ الطَّاعِنِينَ في السِّنِّ عَنْ مَنْ مَاتَ مِنْ الشُّبَّانِ الذين يَعْرِفُهُم لَعَدَّلَكَ مِئَاتٍ .

وَقَدِيْماً قِيْلَ شِعْرَاً :

لَا تَغْتَرَّ بِشَبَابٍ نَاعِمٍ خَضِلٍ
فكمْ تَقَدَّمَ قَبْلَ الشَّيْبِ شُبَّانُ

وَأيْضَاً لَا يَدْرِي أَنَّ المَوْتَ وإنْ لَمْ يَكُنْ يَأْتِي فَجْأَةً غَالِبَاً لَكِنْ المَرَضُ لا يُسْتَبْعَدُ إتْيَانُهُ فَجْأَةً لأَنَّ الْوَهْمَ لا يَعْرِفُ إلَّا مَا يَألَفُه فَالانْسَانُ ألِفَ مَوْتَ غَيْرِهِ وَلَمْ يَرَى مَوْتَ نفسِهِ أصْلاً فَلِذَالِكَ يَسْتَبْعِدُ إلا أنَّ العَاقِلَ يَعْرِفُ أنَّ الأجَلَ مَحْدُودٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ وَالأنْسَانُ يَسِيرُ إلَيْهِ في كُلِّ لَحْظَةٍ كَمَا قِيْلَ :

نَسِيْرُ إلى الآجَالِ في كُلِّ لَحْظَةٍ
وَأيامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ

وَقَال الآخَرُ :

وَمَـا نَـفْسٌ إِلَّا يُـبَـاعِـدُ مَـوْلِـدَاً
وَيُـدْنَى المَنَـايَـا لِلنُّفُوسِ فَتَقْـرُبُ

إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَعِلَاجُ الجَهْلِ الفِكْرُ الصَّافِيْ مِنْ القَلْبِ الحَاضِرِ وَسَمَاعُ الحِكْمَةِ البَالِغَةِ مِن الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالقُلُوبُ الطَّاهِرَةُ وَأَمَّا حُبُّ الدنيا فالعِلَاجُ في إِخْرَاجِهِ مِن القَلْبِ شَدِيْدٌ في غَايَةِ الصُّعُوبَةِ وَالمَشَقَّةِ وَهَذَا هُوَ الدَّاءُ العُضَالُ الذِي أَعْجَزَ الأَوَّلِينَ والآخِرِيْنَ .

وَلِهَذَا مِنْ مَدَاخِلْ الشَّيْطَانِ إِلى قَلْبِ ابْنِ آدم حُبُّ التَّزْيِينِ مِن الأَثَاثِ والثياب وَالمَسْكَنِ وَالمرْكُوبِ فإن الشَيْطَانَ إذا رأى ذَلِكَ الذي هُوَ بِالحَقِيْقَةِ حُبُّ الدنيا غَالباً عَلَى قَلْبِ الإِنسان بَاضَ فِيه وَفَرَّخَ فلا يَزَالُ الخَبِيْثُ يُزَيِّنُ لَهُ وَيَدْعُوهُ إِلى عِمَارَةِ المَسْكَنِ وَتَزْوِيْقِهِ وَتوسِيْعِهِ وَتَنْظِيْمِهِ وَيَدْعُوْهُ إِلى التَّزْيِينِ بالثِّيَابِ وَالمَرْكُوبِ وَيَسْتَسْخِرُهُ وَيَسْتَعْمِرُهُ طُوْلَ عُمْرِهِ فإذا أَوْقَعَهُ وَوَرَّطَهُ في ذلك فَقَدْ اسْتَغْنَى أَنْ يَعُودَ إليهِ .

ثَانياً : أَنَّ بَعْضَ ذَلِكَ يَجُرُّهُ إِلى البَعْضِ الآخَرِ بالقُوَّةِ فَلَا يَزَالُ يَؤَدِّيهِ مِن شَيءٍ إِلى آخَرَ بالتَّدْرِيْجِ إِلى أَنْ يَذْهَبَ عُمْرُهُ فُرُطَا وَيُسَاقَ إِلى أَجَلِهِ فَيَمُوتُ وَهُوُ في سَبِيْلِ الشَّيْطَانِ وَاتِّبَاعِ الهَوَى وَالنَّفسِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ وَيُخْشَى مِن سُوءِ العَاقِبَةِ بِالكفرِ نَعُوذُ باللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

شِعْرَاً :

أَلا أَيُّهَـا اللاَّهِيْ وَقَـدْ شَـابَ رَأْسُـهُ
أَلَمَّـا يَـزِعْـكَ الشَّيْبُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ

أَتَصْبُ وَقَدْ نَاهَزْتَ خَمْسِيْنَ حِجَّةً
كَأَنَّكَ غِرٌّ أَوْ كَأَنَّكَ يَافِعُ
حَذَارِ مِنَ الأَيَّامِ لا تَأْمَنَنَّهَا
فَتَخْدَعُكَ الأَيَّامُ وهْيَ خَوَادِعُ
أَتَأْمَنُ خَيْلاً لَا تَزَالُ مُغِيْرَةً
لَهَا كُلَّ يَوْمٍ في أُنَاسٍ وَقَائِعُ
وَتَأْمَلُ طُوْلَ العُمْرِ عِنْدَ نَفَادِهِ
وَبِالرّأْسِ وَسْمٌ لِلْمَنِيَّةِ لَامِعُ
يُرَجّي الْفَتَى وَالموتُ دُوْنَ رَجَائِهِ
وَيَسْرِيْ لَهُ سَارِيْ الرَّدَى وَهُوَ هَاجِعُ
تَرَحَّلْ مِنْ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنْ التُّقَى
فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِمَا أَنْتَ صَانِعُ

ولَا عِلَاجَ لِحُبِّ الدُّنْيَا إلَّا الأيْمَانُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ وَبِمَا فِيْهِ مِن عَظِيْمِ العِقَابِ وَجَزِيلِ الثَّوَابِ وَمَهْمَا حَصَلَ لَهُ اليَقِينُ بِذَلِكَ ارْتَحلَ عَن قَلْبِهِ حُبُّ الدنيا فَرأَى حَقارَتَها وَنَفاسَةَ الآخِرَةِ وَرَأَى أَنَّ الدنيا لَيْستْ بِأَهْلٍ أَنْ يُلْتَفتَ إِلَيْهَا أَو تُرْمَقَ بِعَيْنِ المَحبَةِ خِلافاً لِلسَّوادِ الأَعْظَمِ المُنْهَمِكِيْنَ فِيْها .

فَعَنْ الحَارِثْ بِنِ مَالِكٍ الأنصَارِي أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فَقَالَ لَهُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ قالَ أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً قَالَ : « انْظُرْ مَا تَقُولُ فَانَّ لِكُلِّ شَيءٍ حَقِيْقَةً فَمَا حَقِيْقَةُ إِيمَانِكَ فَقَالَ عَزَفْتْ نَفْسِي عَنْ الدُّنْيَا فَأَسْهَرْتُ لَيْلِيْ وَأَظْمَأْتُ نَهارِيْ وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى عَرْشِ

رَبِّيْ بَارِزاً وَكَأنّي أَنْظُرُ إلى أهْلِ الجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيْهَا وَكَأَنِّيْ أنظُرُ إلى أهْلِ النارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيْهَا فقَالَ « يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ » ثَلاثَاً » .

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُرِيْنَا الدُّنْيَا كَمَا أَرَاهَا الصَّالِحِيْنَ قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا امْتَحَنَ الـدُّنْيَـا لَبِيْبٌ تَكَشَّفَـتْ
لَـهُ عَنْ عَـدُوٍّ في ثِيَـابِ صَـدِيْقِ

وقَالَ الآخَرُ :

يُسِيءُ امْـرُءٌ مِنَّـا فَيُبْغَضُ دَائِـمَـاً
وَدُنْيَـاكَ مَـا زَالَتْ تُـسِيءُ وَتُـوْمَـقُ
أَسَـرَّ هَوَاهـاَ الشَّيْخُ وَالكَهْـلُ وَالفَتَى
بِجَهْـلٍ فَمِنْ كُـلِّ النَّـوَاظِـرِ تُـرْمَقُ
وَمَـا هِيَ أَهْـلٌ أنْ يُؤَهَّـلَ مِثْلُهَـا
لِـوُدٍّ وَلَـكِـنَّ ابْـنَ آدَمَ أَحْـمَـقُ

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِنَا مَنَاهِجَ السَّلاَمَةِ وَعَافِنَا مِنْ مُوْجِبَاتِ الحَسْرَةِ والنَّدَامَةِ وَوَفِّقْنَا لِلاسْتِعْدَادِ لِما وَعَدْتَنَا وَأَدِمْ لَنَا احْسَانَكَ وَلُطْفَكَ كَمَا عَوَّدْتَنَا وَاتْمِمْ عَلَيْنَا مَا بِهِ اكْرَمْتَنَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصحْبِهِ أجْمَعِين .

(فَصْلٌ)

أعلمْ وَفَّقَنا اللَّهُ وَاِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المسلمينَ لِطَاعَتِهِ . . .

أَنَّ النَّاسَ مُتَفَاوِتُوْنَ في طُوْلِ الأمَلِ تَفَاوُتَاً كَثِيْرَاً فَمِنْهُم مَنْ يَأْمَلُ

البَقاءَ إلى زَمَانِ الهَرَمِ ومِنْهُم مَن لا يَنْقَطِعُ أَمَلهُ بِحَالٍ ومنهم مَن هُو قَصِيرُ الأَمَلِ وكُلَّمَا قصُرَ الأَمَلُ جادَ العَمَلُ لِأَنَّهُ يُقَدِّرُ قُرْبَ الموتِ فَيَسْتَعِدُّ اسْتِعْدَادَ مَيِّتٍ فرُوِيَ عن عَليّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أنهُ قَالَ إنَّمَا يُهْلِكُ اثنَتَانِ الهَوَى وَطولُ الأَمَلِ فأَمَّا الهَوَى فَيَصُـدُّ عن الحَقِّ .

وَأمَّا طُوْلُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ ورُوِيَ عَنْهُ أَيْضاً أَنَّهُ قَالَ مَن ارْتَقَبَ الْموتَ سَارَعَ إلى الخَيْرَاتِ وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللهُ فَلَوْ أَنَّ غَائِبَيْنِ عَنْـكَ تَعْتَقِدُ أنَّ أَحَدَهُمَا لِمَجِيْئِهِ احْتِمَالٌ قَوِيٌّ فِيْ لَيْلَتِكَ أَو في يَوْمِكَ وَالآخِرُ يَتَأَخَّرُ بَعْدَهُ بِشَهْرٍ أَوْ بِشَهْرَيْنِ إسْتَعْدَدَتَ لِلَّذِي تَخْشَى أنْ يُفَاجِئَكَ قُدُومُه سَرِيعاً ولا سِيَّما إنْ كَانَ قَدْ أَوْصَاكَ بِوَصِيَّةٍ نَفَّذْتُها قَبْلَ أَنْ يَصِلَ فَيَلْحَقُكَ مَلامَةٌ أَوْ عُقُوبَةٌ وَتُهَيِّءُ لهُ مَعَ ذَلِكَ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِن تُحَفٍ وَمَا تَرَى أَنَّهُ يُنَاسِبُ وَيَهْوَاهُ .

ثُمَّ إنَّ قِصَرَ الأَمَلِ دَيْـدَنُ العُلَماءِ العَـامِلُونَ المتَّقُونَ الـوَرِعُوْنَ المُبْدِعُوْنَ عَنْ التَّكَالُبِ عَلَى الدُّنْيَا الزَّاهِدُوْنَ في حُطَامِهَا الفَانِيْ وَكَذَلِكَ أَرْبَابُ القُلُوبِ الوَاعِيَةِ وانْ لَمْ يَكُونوا عُلَمَاءَ يُقَصِّرُوْنَ أَمَلَهُم وَيَحْتَقِرُوْنَ الدّنْيَا وَيَعْلَمُوْنَ أنّها زائِلَةٌ. عكسُ مَا عَليهِ أكْثَرُ أَهْلِ هَذا الزّمانِ عَبِيْدُ الدُّنْيا لِلْبُطُونِ والفُروْجِ.

شِعْرا :

يُحِبُّ الفتَى طُـوْلَ البَقَـاءِ كَـأَنَّـهُ
عَـلَى ثِقَـةٍ أَنَّ الـبَقَـاءَ بَـقَـاءُ
إذَا مَا طَوَى يَوْمَاً طَوِيَ اليَوْمُ بَعْضَهُ
وَيَـطْوِيْـهِ إنْ جَنَّ المَسَـاءُ مَسَـاءُ

زِيَـادَتُـهُ فِي الجِسْمِ نَقْصُ حَيَــاتِـهِ
وَأَنَّـىْ عَلَى نَـقْصِ الحَـيَــاةِ نَمَــاءُ

قَالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَا الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدَكُم أَصْبُعَه في اليَمّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعْ رَوَاهُ مُسْلِم .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عنهُما قالَ أخَذَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِمَنْكِبِي فَقَالَ كُنْ في الدُّنْيَا كأَنَّكَ غَرِيْبٌ أو عَابِرُ سَبِيْل وكَانَ ابنُ عُمَرَ رضْيَ اللهُ عنهما يَقُولُ إذَا أمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإذَا أصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرْ المَسَاءَ وَخُذْ مِن صِحَّتِكَ لِمَـرَضِكَ وَمِنْ حَيَـاتِكَ لِمَـوْتِكَ رَوَاهُ البُخَاريّ .

قَالُوا في شَرْحِ هَذَا الحَدِيْثِ مَعْنَاهُ لاَ تَركَنْ إلى الدُّنْيَا وَلاَ تَتَخِذْهَا وَطَناً وَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِطُوْلِ البَقَاءِ فيها ولا تَشْتَغِلْ فِيْهَا إلاَّ بِمَا يَشْتَغِلُ به الغَرِيْبُ فَقَطْ الَذِيْ يُرِيْدُ الذَّهَابَ إلَى أَهْلِهِ وَأَحْوَالُ الأنْسَانِ ثَلاَثٌ حَالٌ لَمْ يَكُنْ فِيْهَا شَيْئاً وهِيْ قَبْلَ أَنْ يُوْجَدْ .

وَحَالٌ أُخْرَى وَهِيَ مِنْ سَاعَةِ مَوْتِهِ إلى مَا لا نِهَايَةَ لَهُ في البَقَاءِ السَّرْمَدِيّ فَأَنَّ لِنَفْسِكَ وُجُودٌ بَعْدَ خُرُوْجِ الرُّوْحِ مِن البَدَنِ إمَّا في الجَنَّةِ وَإمَّا في النَّارِ وَهُوَ الخُلُودُ الدَّائِمُ وبين هَاتَيْنِ الحَالتَين حَالةٌ مُتوسِّطَة وَهِيَ أَيّامُ حَيَاتِهِ في الدُّنْيَا فَانْظُرْ إلى مِقْدَارِ ذلِكَ بالنِّسْبَةِ إلى الحَالَتَيْنِ يَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّهُ أقَلُّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ في مِقْدَارِ عُمْرِ الدُّنْيَا .

وَمَنْ رَأَى الدُّنْيَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ وَبِهَذَا التَّفْكِيرِ السَّلِيْمِ لَمْ يَلْتَفِتْ إليها وَلَمْ يُبَالِيْ كَيْفَ انْقَضَتْ أَيَّامُهُ بِهَا في ضَرَرٍ وضِيْقٍ أو سَعَةٍ وَرَخَاءٍ وَرفَاهِيَةٍ

ولِهَذَا لَمْ يَضَعِ النبي صلى الله عليه وسلم لَبِنَةً على لبِنَةٍ ولا قَصَبَةٍ عَلَى قَصَبَةٍ.

وَقَالَ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فَاعْبُرُوهَا ولا تَعْمُرُوهَا هَذا مَثَلٌ واضِحٌ فَإِنَّ الدنيا مَعْبَرٌ إلى الآخِرَةِ وَالمَهْد هُوَ الرُّكْنُ الأوَّلُ على أوَّلِ القَنْطَرَةِ وَاللّحْدُ هُو الرُّكْنُ الثَّانِيْ عَلَى آخِرِ القَنْطَرَةِ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ قَطَعَ نِصْفَ القَنْطَرَةِ وَمِنْهُم مَنْ قَطَعَ ثُلُثَهَا وَمِن النَّاسِ مَن قَطَعَ الثُّلُثَيْنِ ومنهم مَن قطعَ ثَلاثَةَ أرْبَاعِ المَسَافَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَبْقَ له إلاَّ ثُمُنُ المَسَافَةِ ومنهم مَنْ لَمْ يَبْقَ لَهُ إلاَّ خُطْوَةٌ وَاحِدة وَهُو غَافِلٌ عَنْهَا وَكَيْفَ مَا كَانَ فَلاَ بُدَّ مِن العُبُوْرِ فَمَنْ وَقَفَ يَبْنِي على القَنْطَرَةِ وَيُزَيِّنُها وَهُوَ يُسْتَحَثُّ عَلَى العُبُورِ عَلَيْهَا فَهُوَ في غَايَةِ الجَهْلِ والحُمْقِ والسَّفَهِ .

وَرُوِيَ عَنْ الحَسَنِ قَالَ بَلَغَنِيْ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قالَ إِنَّمَا مَثَلِيْ وَمَثَلُكُم وَمَثَلُ الدّنيا كَمَثَلِ قَوْم سَلَكُوا مَفَازَةً غَبْرَاءَ حَتَّى إذَا لَمْ يَدْرُوا مَا سَلَكُوا مِنْهَا أَكْثَرُ أَوْ مَا بَقِيَ أَنْفَذُوا الزَّادَ وَخَسِرُوا الظَّهْرَ وَبَقُوا بَينَ ظَهْرَانَيْ المَفَازَةِ لاَ زادَ وَلا حَمُولَةَ فَأَيْقَنُوا بالهَلَكَةِ .

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ في حُلَّةٍ يَقْطُرُ رَأْسُهُ فَقَالُوا انَّ هَذَا قَرِيْبُ عَهْدٍ بِرِيْفٍ وَمَا جَاءَ هَذَا إلاَّ مِنْ قَرِيْبٍ فَلَمَّا انْتَهَى إلَيْهِمْ قَالَ يَا هَؤُلاءِ عَلامَ أنتُم قَالُوا عَلَى مَا تَرَى قَالَ أرَأيْتَكُم إنْ هَدَيْتُكُم إلى مَاءٍ رُوَاءٍ وَرِيَاضٍ خُضْرٍ مَا تعمَلُوا قَالُوا لا نَعْصِيْكَ شَيْئاً .

قَالَ عُهُوْدَكُم وَمَوَاثِقَكُمْ باللّهِ قَالَ فَأَعْطُوْهُ عُهُوْدَهُمْ وَمَوَاثِيْقَهُمْ باللهِ لاَ لاَ يَعْصُوْنَهُ شَيْئاً قَالَ فأَوْرَدَهُم مَاءً وَرِيَاضاً خَضْرَاء فَمَكَثَ فيهم مَا شَاءَ اللّهُ ثم قَالَ يَا هَؤُلاَءِ الرَّحِيْلِ قَالوا إلى أَيْنَ قَالَ إلى مَاءٍ لَيْسَ كَمَائِكُم وَإِلى

رِيَاضٍ لَيْسَتْ كَرِيَاضِكُمْ فَقَالَ أَكْثَرُ القَوْمِ واللهِ مَا وَجْدنَاَ هَذا حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَجِدَهُ وَمَا نَصْنَعُ بعَيْشٍ خَيْرٍ مِنْ هَذا .

وقالت طائفةٌ قليلةٌ ألم تُعطُوا هذا الرجلَ عُهودَكُم ومَواثِيقَكُم بالله لا تَعْصُوْهُ وَقَدْ صَدَقَكُم في أوّلِ حَدِيثِهِ فَوَاللَّهِ لَيَصْدُقَنَّكُم في آخِرِهِ قَالَ فراحَ فِيْمَنْ اتَّبَعَهُ وَتَخَلَّفَ بقِيَّتُهُم فنَزَلَ بِهِمْ عَدُوٌّ فَأَصْبَحُوا مِنْ بَيْنِ أسِيْرٍ وَقتِيْلٍ .

وَعَنْ ابن عُمَرَ أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَال مَا حَقُّ امْرِءٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوْصِي فِيْهِ يَبِيْتُ لَيْلَتين إلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ متفق عليه .

وَعَنْ أنَسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ خَطَّ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسلَّم خَطّاً مُرَبَّعاً وخَطَّ خَطّاً في الوسَطِ خَارِجَاً مِنْهُ وَخَطَّ خُطَطَاً صِغَاراً إلى هَذَا الذِي في الوَسَطِ مِن جَانِبِهِ فقَالَ هَذا الإِنْسَانُ وَهَذَا أجَلُهُ مُحِيْطٌ به ـ أو قَدْ أحَاطَ به . وَهَذَا الذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارِ الأعْرَاضِ فَأَنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهشَهُ هَذا وَانْ أخْطَأَهُ هَذَا نَهشَهُ هَذا رَوَاهُ البُخَارِيّ .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيّ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ رَوَاهُ الترمذي وقالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ .

وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَالِيْ وَلِلدُّنْيَا انَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ في ظِلِّ شَجَرَةٍ في يومٍ صَائِفٍ ثمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا وفي صَحِيْحِ مُسْلِم مِن حَدِيْثِ المُسْتَوْرِدِ بن شَدَّادٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم مَا الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أحدكُم أَصْبُعَهُ في أَلْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعْ وَأشَارَ بالسَّبَّابَةِ .

وَفِي التِّرمِذيّ مِن حَدِيْثِهِ قَالَ كُنْتُ مَعَ الرَّكْبِ الذِيْنَ وَقَفُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّم عَلَى السَّخْلَةِ المَيِّتَةِ فقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّم أتَرَوْنَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا حَتَّى أَلْقَوْهَا قالوا وَمِنْ هَوَانِهَا أَلْقَوْهَا يَا رَسُولَ اللهِ قَال فَالدنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا وَفي التِّرْمِذِي أَيْضاً مِنْ حَدِيْثِ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قال رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلَّم الدُّنْيَا مَلْعُونَة مَلْعُونٌ مَا فِيْها إلاَّ ذِكْرَ اللّهِ وَمَا وَالاَهُ وَعالِماً وَمُتَعَلِّماً قَالَ الثَّعَالِبِيّ في وَصْفِ الدُّنْيَا :

تَسَـلَّ عَنْ الـدُّنْيَـا وَلاَ تَخْـطُبَنَّهَـا
وَلاَ تَخْـطُبَنْ قَتَّـالَـةً مَنْ تُنَـاكِـحُ

فَلَيْسَ يَفِي مَـرْجُـوُّهَـا بِمَخُـوفِهَـا
وَمَكْـرُوهُهَـا لَمَّـا تَـدَبَّـرْتُ رَاجِـحُ

لَقَـدْ قَالَ فِيْهَـا الوَاصِفُـوْنَ فَـأَكْثَرُوا
وَعِنْـدِيْ لَهَا وَصْفٌ لَعَمْـرِيَ صَالِـحُ

سُـلاَفٌ قُصَـارَاهُ زُعَـافٌ وَمَـرْكَبٌ
شَهِيٌّ إِذَا اسْتَلْذَذْتَـهُ فَهْـوَ جَامِـحُ

وَشَخْصٌ جَمِيْـلٌ يُوْنِقُ النَّـاسَ حُسْنُهُ
وَلَكِنْ لَـهُ أَفْعَـالُ سُـوْءٍ قَبَـائِـحُ

وَلَيْسَ العَجَبُ مِنْ انْهِمَاكِ الكَفَرَةِ في حُبِّ الدُّنْيَا وَالمَالِ فَأَنَّ الدنيا جَنَّتُهُم وإنَّمَا العَجَبُ أن يَكُونَ المُسْلِمُوْنَ يَصِلُ حُبُّ المَالِ وَالدّنْيَا في قُلُوبِهِمْ إلى حَدِّ أنْ تَذْهَلَ عُقُوْلُهُم وَأنْ تَكُونَ الدّنْيَا هِيَ شُغْلُهُمُ الشَّاغِلُ لَيْلاً وَنَهاراً وَهُمْ يَعرِفُوْنَ قَدْرَ الدُّنْيَا مِن كِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ صَلى اللهُ

عليهِ وسلَّم أَلَيْسَ كِتَابُ الله هُوَ الذِي فِيْهِ مَنْ كانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ له في حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَالَهُ في الآخرَةِ مِنْ نَصِيْب .

وَيَقُوْلُ ﴿ مَنْ كَانَ يرِيْدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيْهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيْدُ ثمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوْراً وَمَنْ أرادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولَئك كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورَا ﴾ .

وَتَقَدَّمَتْ الأحَادِيْثُ عَنْ النَّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ المُبَيِّنَةِ لِحَقَارَةِ الدنيا وَلَيْسَ المَعْنَى أَنْ نَتْرُكَ الدنيا وَنَبْقَى جِيَاعاً عَارِيْنَ مُحْتَاجِيْنَ بَلْ مَعْنَاهُ أن لا نَجْعَلَهَا مَقْصَداً كَمَا جَعَلَهَا الكُفَّارُ بَلْ نَجْعَلِ الدُّنْيَا وَمَا فيهَا وَسِيْلَةً إلى تِلْكَ الحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ فَنَكُونُ مِنْ الفَرِيْقِ الذِي يُحِبُّ المالَ لِأَجْلِ الآخِرَةِ .

وَقَدْ كَانَ عَلَى هَذَا المَبْدَءِ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْن وَكَذَلِكَ التَّابِعُوْنَ لَهُمْ اتَّخَذُوا الدُّنْيَا مَطِيَّةً لِلآخِرَةِ فَسَادُوا بِهَا أَهْلَ الدُّنْيَا وَلَمَّا تَخَلَّفْنَا عَنْهُم في هَذَا المَبْدَءِ وَجَعَلْنَا المالَ هُوَ المقْصَدُ سَكَنَّا إلى الدُّنْيَا وَأَحْبَبْنَا الْحَيَاةَ وَلَذَائِذَهَا وَالدَّاهِيَةُ العَظِيْمَةُ هِيَ أَنَّا ضُرِبْنَا بِالذِّلِّ .

وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسلَّمَ « انَّ أَكثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخرِجُ اللّهُ لكُم مِنْ بَرَكَاتِ الأَرْضِ رواهُ البُخَاريّ وَمُسْلِم وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فواللّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى أَن تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُم فَتَنَافَسُوْهَا كَمَا تَنَافَسُوْهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

شِعراً :

أَسِيْـرُ الخَـطَايَـا عِـنْـدَ بَـابِـكَ وَاقِفُ
بِـهِ وَجَـلُ مِمَّـا بِـهِ أَنْتَ عَـارِفُ
يَخَـافُ ذُنُوباً لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَـا
وَيَـرْجُـوْكَ فِيْهَـا فَهْـوَ رَاجٍ وَخَـائِفُ
فَمَنْ ذَا الـذِيْ يُرْجَى سِـوَاكَ وَيُتَّقَى
وَمَا لَكَ فِي فَصْلِ القَضَاءِ مُخَـالِفُ
فَيَا سَيِّدِيْ لا تُخْـزِنِيْ فِي صَحِيفَتِي
إِذَا نُشِرَتْ يَوْمَ الحِسَـابِ الصَّحَائِفُ
وَكُنْ مُؤْنِسِيْ فِي ظُلْمَةِ القَبْرِ عِنْدَمَا
يُصَـدِّدُ ذُو القُرْبَى وَيجْفُـو المُؤَآلِفُ
لَئِنْ ضَاقَ عَنِّيْ عَفْوُكَ الوَاسِعُ الذِي
أُرَجِـيّ لإِسْـرَافِيْ فَـإِنِّـي لَـتَـالِـفُ

عَصَمَنَا اللّهُ وإيَّاكُمْ مِنْ الزَّلَلِ وَوَفَّقَنَا لِصَالِحِ العَمَلِ وَهَدَانَا بِفَضْلِهِ سَبِيْلَ الرَّشَادِ وَطَرِيْقَ السَّدَادِ إِنَّهُ جَلَّ شَأنُهُ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيْرِ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَقَال ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ لا يَتِمُّ الرَّغْبَةُ في الآخِرَةِ إلاَّ بِالزُّهْدِ في الدُّنْيَا وَلاَ يَسْتَقِيْمُ الزُّهْدُ في الدنيا إلاَّ بَعْدَ نَظَرَيْنِ صَحِيْحَيْنِ : نَظَرٌ في الدُّنْيَا وَسُرْعَةِ زَوَالِهَا وَفَنَائِهَا وَاضْمِحْلاَلِهَا وَنَقْصِهَا وَخِسَّتِهَا وَأَلَمِ المُزَاحَمَةَ عَلَيْهَا وَالحِرْصِ عَلَيْهَا وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الغُصَصِ وَالنَّغَصِ وَالأَنْكَادِ .

وَآخِرُ ذَلِكَ الزَّوَالُ وَالأنْقِطَاعِ مَعَ مَا يُعْقِبُ ذَلِكَ مِن الحَسْرَةِ وَالأَسَفِ فَطَالِبُهَا لَا يَنْفَكُّ مِنْ هَمٍّ قَبْلَ حُصُوْلِهَا وَهَمٍّ فِي حَالِ الظَّفَرِ بِهَا وَغَمٍّ بَعْدَ فَوَاتِهَا فَهَذَا أحَدُ النَّظَرَيْنِ .

(النَّظَرُ الثَّانِيْ) النَّظَرُ فِي الآخِرَةِ وَاقْبَالِهَا وَمَجِيْئِهَا وَلَا بُدَّ وَدَوَامِهَا وَبَقَائِهَا وَشَرَفِ مَا فِيْهَا مِن الخَيْرَاتِ وَالمَسَرَّاتِ وَالتَّفَاوتِ الذي بَيْنَهُ وَبينَ مَا هَهُنَا فهي كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ فَهِي خَيْرَاتٌ كَامِلَةٌ دَائِمَةٌ ، وَهَذِهِ خَيَالَاتٌ نَاقِصَةٌ ، مُنْقَطِعَةٌ مُضْمَحِلَّةٌ .

فَإِذَا تَمَّ لَهُ هَذَانِ النَّظَرَانِ آثَرَ مَا يَقْتَضِي العَقْلُ إِيْثَارَهُ وَزَهِدَ فِيْمَا يَقْتَضِي الزُّهْدَ فِيْهِ فَكُلُّ أَحَدٍ مَطْبُوْعٌ على أَنْ لَا يَتْرُكَ النَّفْعَ العَاجِلَ وَاللذَةِ الحَاضِرَةِ إلى النَّفْعِ الآجِلِ وَاللَّذَّةِ الغَائِبَةِ المُنْتَظَرَةِ إلَّا إِذَا تَبَيَّنَ لَهُ فَضْلُ الآجِلِ عَلَى العَاجِلِ وَقَوِيَتْ رَغْبَتُهُ في الأَعْلَى الأفضل فإذا آثَرَ الفَانِيَ الناقِصَ ، كان ذلك إما لِعَدَمِ تَبيُّنِ الفضْلِ لَهُ وإمَّا لِعَدَمِ رَغْبَتِهِ في الأفْضَلِ .

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الأَمْرَيْنِ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ الأيْمَانِ وَضَعْفِ العَقْلِ وَالبَصِيْرَةِ فأنَّ الرَّاغِبَ في الدُّنْيَا الحَرِيْصَ عَلَيْهَا المُؤْثِرَ لَهَا إِمَّا أنْ يُصَدِّقَ أَنَّ مَا هُنَاكَ أَشْرَفُ وَأفْضَلُ وَأبْقَى وَأمَّا أنْ لَا يُصَدِّقَ فَإِنْ لَمْ يُصَدِّقْ بِذَلِك وَلَمْ يُؤْثِرْهُ كَانَ فَاسِدَ العَقْلِ سَيِّءَ الأخْتِيَارِ لِنَفْسِهِ .

وَهَذَا تَقْسِيْمٌ حَاضِرٌ ضَرُوْرِيٌّ لَا يَنْفَكُّ العَبْدَ مِن أَحَدِ القِسْمَيْنِ مِنْهُ فَإِيْثَارُ الدنْيَا عَلَى الآخِرَةِ إمَّا مِنْ فَسَادٍ فِي الأيْمَانِ وَإمَّا مِنْ فَسَادٍ فِي العَقْلِ وَمَا أَكْثَرَ مَا يَكُونُ مِنْهُمَا وَلِهَذَا نَبَذَهَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلَّم وَرَاءَ

ظَهْرِهِ هُوَ وَأصْحَابُهُ ، وَصَرفُوا عَنْهَـا قُلُوْبَهُم واطَّرَحُـوْهَا وَلَمْ يَـأْلَفُوْهَـا وَهَجَرُوْهَا وَلَمْ يَمِيْلُوا إليها وَعَدُّوْهَا سِجْناً لا جَنَّةً فَزَهِدُوا فيها حَقِيْقَةَ الزُّهْدِ وَلَو أَرَادُوْهَا لَنالُوا مِنْهَا كُلَّ مَحْبُوبٍ وَلَوصَلُوا مِنْهَا إلى كُلِّ مَرْغُوبٍ .

فَقَدْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ مَفَاتِيْحُ كُنُوزِهَا فَرَدَّهَا وَفَاضَتْ عَلَى أَصْحَابِهِ فَأثْرَوْا بِهَا وَلَم يَبِيْعُوا بِهَـا حَظَّهُم مِن الآخِـرَةِ بِهَا وَعَلِمُـوا أَنَّهَا مَعْبَـرٌ وَمَمَرٌّ لَا دَارُ مَقَامٍ وَمُسْتَقَرّ وأَنَّهَا دَارُ عُبُورٍ لَا دارُ سُرُوْرٍ وَأنها سَحَابَةُ صَيْفٍ تَنْقَشِعُ عن قليلٍ وَخَيَالُ طَيْفٍ مَا اسْتَتَمَّ الزِّيَارَةَ حتى آذَنَ بالرَّحِيْلِ .

قَالَ النبي صَلى اللهُ عليه وسلم « مَا لِي وَللدُّنْيَا إِنَّمَا أَنَا كَرَاكِبٍ مَالَ في ظِلِّ شَجَرةٍ ثم رَاحَ وَتَرَكَهَا » وقال « ما الدنيا في الآخرةِ إلا كَمَا يُدخل أَحَدُكُم أَصْبُعَهُ في أَلْيَمِّ فَلْيَنْظر بِمَ تَرْجِع » .

وقَالَ خَالِقُهَا سُبحانه « إنَّما مَثَلُ الحَيَاةِ الدنيا كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِن السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأنْعَامُ حَتَّى إذا أخَذَتِ الأرْضُ زُخْرفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرُوْنَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أمْرُنا لَيْلاً أوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيْداً كَأنْ لَمْ تَغْنَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَتفَكَّرُوْنَ • وَاللّهُ يَدْعُو إلى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ » .

فَأَخْبَرَ عَن خِسَّةِ الدنيا وَزَهَّدَ فيها وأخبرَ عن دَارِ السَّلَامِ وَدعَا إليها وقَال تعالى ﴿ وَاضْرِبْ لهم مَثَلُ الحَيَاةِ الدنيا كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِن السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرضِ فَأَصْبَحَ هَشِيْمَاً تَذْرُوْهُ الرياحُ وَكانَ اللهُ على كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدرا • المالُ والبنُونَ زِيْنَةُ الحَيَاةِ الدنيا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخيْرٌ أَملا ﴾ .

وَقالَ تَعالَى ﴿ إعْلَمُوا أَنَّما الحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِيْنَةٌ وَتَفاخُر بَيْنَكُم وَتَكاثُر في الأمْوالِ وَالأوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أعجَبَ الكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً ثم يَكُونُ حُطاماً وفي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيْدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللهِ ورِضْوانٌ ومَا الحَياةُ الدنْيا إلَّا مَتاعُ الغُرُوْرِ﴾ .

وَقالَ ﴿ زيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَهَواتِ مِن النِّسَاءِ وَالبَنِيْنَ وَالقَناطِير المقَنْطَرَةِ مِن الذهبِ والفِضَّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الحَيَاةِ الدنيا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ ﴿قُل أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذِلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوا عِنْدَ رَبِّهِم جَنَّاتٌ تَجْرِي مَنْ تَحْتِهَا الأنْهار خَالِدِيْنَ فِيْهَا وَازْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللّهِ وَاللهُ بَصِيْرٌ بالعِبَادِ ﴾

وَقالَ تَعالَى ﴿ وَفَرِحُوا بِالحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الحَياةُ الدُّنْيا في الآخِرَةِ إلّا مَتاعٌ ﴾ وَقَدَ تَوعَّدَ سُبْحَانَهُ أعْظَمَ الوَعِيْدِ لِمَنُ رَضِيَ بالحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنَّ بِهَا وَغَفَلَ عَنْ آيَاتِهِ وَلَمْ يَرْجُ لِقاءَهُ فَقَالَ ﴿ إنَّ الذِيْنَ لا يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بالحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا - وَالذِيْنَ هُمْ عَنْ آياتِنْا غَافِلُونَ•أُولئِكَ مَأوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وَعَيَّرَ سُبْحَانَهُ مَنْ رَضِيَ بالدُّنْيا مِن المؤمِنِينَ فَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا مَالَكُمْ إذَا قِيْلَ لَكُم انْفِرُوا في سَبِيلْ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرْضِ ، أَرَضِيْتُم بِالحَيَاةِ الدّنْيا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدّنْيا في الآخِرَةِ إلَّا قَلِيْل ﴾ .

وَعَلَى قَدْرِ رَغْبَةِ العَبْدِ في الدُّنْيا وَرِضَاهُ بها يكونُ تَثاقُلُهُ عَنْ طَاعَةِ اللّهِ وَطَلَبِ الآخِرَةِ وَيَكْفِي في الزُّهْدِ في الدُّنْيا قولُـهُ تَعالَى ﴿ أَفَرأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُم سِنِيْنَ.ثمَّ جاءَهُم مَا كانوا يُوْعَدُوْنَ . مَا أَغْنَى عَنْهُم ما كَانُوا يُمَتَّعُوْنَ ﴾ وَقَوْلُهُ .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُوْنَ بَيْنَهُمْ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوْعَدُوْنَ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَة مِن نَهارٍ بَلاَغٌ فَهل يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الفاسِقُوْنَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ يَسْأَلُوْنَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاها • فِيْمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا • إلى رَبِّكَ مُنْتهاهَا • إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا • كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلاّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاها ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﴿ وَيومَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُوْنَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ وَقَوْلُه ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُم فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِيْنَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوبَعْضَ يَوم فَاسْأَلِ العَادّيْنَ . قَالَ إنْ لَبِثْتُم إلاَّ قَليلاً لَوْ أَنَّكُم كُنتُم تَعْلَمُون ﴾ وَقَولَهُ ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصورِ وَنَحشُرُ المُجْرِمِيْنَ يَوْمَئِذٍ زُرْقا . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إنْ لَبِثْتُم إلاَّ عَشْرا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقولُونَ إذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُم طَرِيْقَة إنْ لَبِثْتم إلاَّ يَوْمَاً ﴾ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللّهِ انَّ النَّاسَ في هَذِهِ الحَيَاةَ انْقَسَمُوا قِسْمَيْنِ قِسْمٌ جَعَلُوا غَايَتَهُم الأكْلُ والشُّرْبُ وَالتَّمتع بِمِلاذِّ الدنيَا مِنْ مَسَاكِنَ وَمَلابِسَ وَقَضَاءِ وَطَر وَلَيْسَ وَرَاءَ هَذِهِ الغَايَةِ عِنْدَهُمْ غَايَةٌ أُخْرَى فَهُمْ يَقْضُوْنَ أَوْقَاتَهُمْ يَصْرِمُوْنَ أَعْمَارَهُمْ لِيَتَمَتَّعُوا مَا وَسِعَهُم التَّمَتّعُ فَمَا بَعْدَ نَظَرِهِمْ الكَلِيْلِ الحَسِيْرِ وَقلُوبِهِم المَيِّتَةِ إلاّ العَدَمَ وَالفَنَاءُ .

وَهَؤُلاءِ هُمْ جُنْدُ الشَّيْطَانِ شَرُّ خَلْقِ اللّهِ وَأَشْقَاهُمْ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَذَرْنِي وَالمكذبِيْنَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُم قَلِيْلا ﴾ وَقَال ﴿ وَالذِيْنَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُون وَيَأْكُلُوْنَ كَمَا تَأكُلُ الأنعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ﴾ فَهُمْ صَارُوا كَالأنْعَامِ لا

يَخْتَلِفُوْنَ عَنْهَا إلاَّ في الصُّورَةِ وَالشَّكلِ وَإلاَّ في دُخُولِهِم النَّارَ وَلِذَلِكَ قَالَ اللّهُ جلَّ وَعَلاَ ﴿ إنْ هُمْ إلاَ كالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيْلاَ ﴾ .

تِلْكَ هِيَ غَايَةُ هَذَا الصِّنْفِ أَمَّا مَرْكَزُهُم بَيْنَ النَّاسِ فَهُوَ مَرْكَزُ الأفْسَادِ والأضْلالِ ومآلُهُمْ جَمِيْعَاً دُخُوْلُ النَّارِ ، قالَ تَعالَى ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذِيْنَ كَفرُوا في البِلَادِ مَتاعٌ قَلِيْلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادِ ﴾ وَقَالَ ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإنَّ مَصِيْرَكُمْ إلى النَّارِ ﴾ .

الصِّنْفُ الثَّانِي الذِينَ عَرَفُوا الحَقِيْقَةَ وَالغَايَةَ التيْ خُلِقُوا لَهَا عَرَفُوا أَنَّ اللَّه خَلَقَهُم لِعِبَادَتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والأنْسَ الاَّ لِيَعْبُدُوْن ﴾ أَيْقَنُوا بِقَوْلِهِ تَعالى ﴾ يَا أَيُّها الأنْسَانُ إنَّكَ كَادِحُ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيْهِ ﴾ فَغَايَتُهم كَمَا تَقَدَّمَ عِبَادَةُ اللهِ .

وَمِنْهَا الجِهَادُ في سَبِيْلِ اللهِ وَالدَّعْوَةُ إلَيْهِ وَعِمَارَةُ الأَرْضِ بِفِعْلِ الخَيْرِ وَهِدَايَةُ الحَيارَى إلى الحَقِّ وَقِيَادَتُهِمْ في دُرُوْبِ الحَيَاةِ الـدنيَا وَوَرَاءَهَا الغَايَةُ العُظْمَى وَالعُليا وَهِيَ ابْتِغَاءُ مَرْضَاةِ اللّهِ وَحْدَهُ جَلَّ جَلالُهُ .

قَالَ اللّهُ تَعالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوْا وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُوْنَ.وَجَاهِدُوْا في اللّهِ حقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُم وَمَا جعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّيْنِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيْكُمْ إبْرَاهِيْم هُوَ سَمَّاكُمْ المُسْلِمِيْنِ من قبلُ وفي هَذَا ليَكُونَ الرَّسُوْلُ شَهِيْدَاً عَلَيْكُم وَتَكُونوا شُهَدَاءَ على الناس فَأقِيْمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الـزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُـوا باللّهِ هُـوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ المَـوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيْر ﴾ .

وَقَالَ تَعالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُم على تِجارَةٍ تُنْجِيْكُم مِن

عَذَابٍ أَلِيْم ، تُؤْمِنُوْنَ باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُوْنَ بِأَمْوَالِكُم وأَنْفُسِكُم ذلِكَ خَيْرٌ لكُم ان كُنتُم تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لكُم ذُنُوْبَكُم ويُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنُ طَيِّبَةٍ في جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْز العَظِيْم ﴾ .

هَذِهِ مُهِمَّةُ المُسْلِم وَغَايَتُهُ فيها عِبَادَةُ اللّهِ وَحْدَهُ وَجِهَادُهُ في سَبِيلِهِ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ حَتَّى يَحْمِلَهَا عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَيُبْعِدَهَا عَنْ المَعْصِيَةِ جُهْدَهُ وَيُجَاهِدُ بِقَلَمِهِ وَلِسَانِهِ وَمَالِهِ وَيَدِهِ في سَبِيْلِ اللّهِ حَتَّى تَعْلُو كَلِمَةُ اللّهِ ويَسْتَنِيْرَ البَشَرُ بِنُوْرِ الإِسْلَامِ .

وَقَدْ اخْتَارَ اللّهُ المُسْلِمِيْنَ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ الخَطِيرةِ مُهِمَّةُ دَلَالَةِ النَاسِ وَقِيَادَتِهم وَإِخْرَاجِهِم مِنْ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ فَلَا مَجَالَ لِلتَّخَلِّيْ عَنْ هَذِهِ المُهِمَّةِ الشَّرِيْفَةِ هَذِهِ طَرِيْقَةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِم أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ قَالَ اللّهُ تَعَالَى «لَقَدْ كَانَ لَكُم في رَسُوْلِ اللهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ».

وَقَالَ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ المُسْلِمِيْنَ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ وَلَا يُعْذَرُ وَقَالَ اللّهُ تَعَالَى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُم أمةً وَسَطاً لِتَكُونوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُوْنَ الرَّسُوْلُ شَهِيْداً عَلَيْكُم ﴾ .

فَالذي يَقُولُ إِنَّهُ مُسْلِمٌ عليه أَنْ يُبَلِّغَ وَيَدْعُو وَيُؤَدِّي هَذِهِ الشَّهَادَةِ لِهَذَا الدِّيْنِ شَهَادَةً تُؤَيِّدُ حَقَّ هَذَا الدِّيْنِ في البَقَاءِ وَيُؤَيِّدُ الخَيْرَ الذِي يَحْمِلَهَ هَذَا الدِّيْنُ لِلْبَشَر .

وَهُوَ لا يُؤَدِّي هَذِهِ الشَّهَادَةُ تَمَاماً حَتَّى يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ خُلُقِهِ وَمِنْ سُلُوْكِهِ وَمِنْ حَيَاتِهِ صُوْرَةً لِهَذا الدِّيْنِ صُوْرَةً يَرَاهَا النَّاسُ فَيَرَوْنَ فِيهَا

مَثلًا رَفِيْعَاً يَشْهَدُ لِهَذَا الدِّيْنِ الأَسْلَامِيّ بالأَحَقِيّةِ في الوُجُودِ بالخَيْرِيَّةِ وَبالأَفْضَلِيَّةِ عَلَى سَائِرِ مَا فِيْ الأَرْضِ .

فَالشَّهَادَةُ في النَّفْسِ أَوَّلَاً بِمُجَاهَدَتِهَا حَتَّى تَكُونَ تَرْجَمَةً لَهُ تَرْجَمَةً حَيَّة في شُعُورِهَا وَسُلُوكِهَا حَتَّى صُوْرَةُ الأيْمَانِ في هَذِهِ النَّفْسِ فَيَقُولُوْا ما أَطْيَبَ هَذَا الأَيْمَانِ وَماَ أَحْسَنُهُ وَمَا أَزْكَاهُ .

وَهُوَ يَصُوْغُ أَصْحَابَهُ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ مِنَ الخُلُقِ وَالكَمَالِ فَتَكُونُ هَذِهِ شَهَادَةٌ لِهَذَا الدِّيْنِ في النَّفْسِ يَتَأَثَّرُ بِها الآخَرُوْنَ وَالشَّهَادَةُ لَهُ بِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ وَبيَانِ فَضْلِهِ وَمَحَاسِنِهِ وَمَزَيَّتِهِ بَعْدَ تَمَثُّلِ هَذَا الفَضْلِ .

وَهَذِهِ المَزِيَّةُ في نَفْسِ الدَّاعِيَةِ فَما يَكْفِي أَنْ يُؤَدِّيْ المُؤْمِنَ الشَّهَادَةَ لِلايْمَانِ في ذَاتِ نَفْسِهِ إذَا هُوَ لَمْ يَدْعُ إِلَيْهَا النَّاسَ وَمَا يَكُوْنُ قد أَدَّى الدَّعْوَةَ والتَّبْلِيْغَ وَالبَيَانَ قَال تعالى ﴿ ادْعُ الى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بالتِيْ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وَقَال ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيْلِيْ أَدْعُو إلى اللّهِ عَلَى بَصِيْرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِيْ ﴾ الآية .

ثُمَّ الشَّهَادَةُ لِهَذَا الدِّيْنِ بِمُحَاوَلَةِ إِقْرَارِهِ فِي الأَرْضِ مَنْهَجاً لِلْجَماعَةِ المُؤْمِنَةِ وَمَنْهجاً لِلْبَشرِيَّةِ جَمِيْعا والمُحَاوَلَةِ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ الفَرْدُ مِنْ وَسِيْلَةٍ وَبِكُلِّ مَا تَمْلِكُ الجَماعَةُ مِنْ وَسِيْلَةٍ .

فَإِقْرَارُ هَذَا المَنْهَجِ في حَيَاةِ البَشرِ هُوَ كُبْرَى الأَمَانَاتِ بَعْدَ الأَيْمَانِ الذَّاتِيّ وَلَا يُعْفَى مِنْ هَذِهِ الأَمَانَةِ الأَخِيْرَةِ فَرْدٌ وَلَا جَماعَةٌ وَمِنْ ثَمَّ فَالجِهَادُ مَاضٍ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ أ هـ .

اللَّهُمَّ خَفِّفْ عَنَّا الأَوْزَارَ وَأَرْزُقْنَا عِيْشَةَ الأَبْرَارِ وَاصْرِفْ عَنَّا شَرَّ الأَشْرَارِ وَاعْتِقْ رِقَابَنَا وَرِقَابَ آبائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا مِنْ النَّارِ يَا عَزِيْزُ يَا غَفَّارُ يَا كَرِيْمُ يَا سَتَّارُ وَيَا حَلِيْمُ يَا جَبَّارُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

شِعْرَاً :

لَقَـدْ عَفَتْ مِنْ دِيَـارِ العِلْمِ آثَـارُ
فَـأَصْبَـحَ العِـلْمُ لا أَهْـلٌ وَلَا دَارُ
يَـا زَائِـرِيْنَ دِيَـارَ العِلْمِ لَا تَفِـدُوا
فَمَـا بِـذَاكَ الحِمَى وَالـدَّارِ دَيَّـارُ
تَـرَحَّـلَ القَـوْمُ عَنْهَـا وَاسْتَمَـرَّ بِهِم
مُشَمِّـرٌ مِـنْ حُـدَاةِ البَيْنِ سَيَّـارُ
قَدْ أَوْرَدَ القَوْمَ حَادِيْهِم حِيَاضَ رَدَى
فَمَـا لَهُم بَعْـدَ ذَاكَ الـوِرْدِ اصْـدَارُ
لَهَفِيْ عَلَى سُرُجِ الدّنْيَا التِي طَفِئَتْ
وَلَا يَـزَالُ لَهَـا فِي النَّـاسِ أَنْـوَارُ
لَهَفِيْ عَلَيْهِمْ رِجَـالاً طَـالَمَـا صَبَـرُوا
وَهَـكَـذَا طَـالِبُ الـعَلْيَـاءِ صَيَّـارْ
لَهَفِيْ عَلَيْهِم رِجَـالاً طَـالَمـا عَـدَلُـوا
بَيْنَ الأَنَـامِ وَمَـا حَـابُـوْا وَلَا جَـارُوْا
مَـالُـوا يَمِيْنَـاً عَنْ الـدُّنْيَـا وَزَهْـرَتِهَـا
لِأَنَّهَـا فِي عُـيُـوْنِ القَـوْمِ أَقْـذَارُ

وَصَاحَبُوْهَا بِأَجْسَادٍ قُلُوْبُهُم
طَيْرٌ لَهَا في ظِلاَلِ العَرْشِ أَوْكَارُ
هُم الذِيْنَ رَعَوا لِلْعِلْمِ حُرْمَتَهُ
لِلعِلْمِ بَيْنَهُم شَانٌ ومِقْدَارُ
صَانُوْهُ طَاقَتَهُم عَنْ مَا يُدَنِّسُهُ
كَمَا يَصُونُ نَفِيْسَ المَالِ تُجَّارُ
وَأَحْسَنُوا فيه تَصْرِيْفاً لأَنَّهُمُ
لَهُمْ مِن اللهِ تَوْفِيْقٌ وإِقْدَارُ
رَأَوْهُ كَالنَّجْمِ بُعْدَاً لَيْسَ يُدْرِكُهُ
بَاعٌ قَصِيْرٌ وفَهْمٍ فيْهِ إِقْصَارُ
فَدَوَّنُوْهَا فُرُوْعاً منه دَانِيَةً
لِكُلِّ جَانٍ تَدَلَّتْ مِنْهُ أَثْمَارُ
يَا صَاحِ فَالْزَمْ طَرِيْقَ القَوْمِ مُتَّبِعاً
فَرِيْقَهُم لَيْسَ بعدَ اليَوْمِ إِنْظَارُ
وَوَاجِبٌ قَصْرُكَ المَمْدُوْدَ مِن أَمَلٍ
مَسَافَةَ العُمْرِ في دُنْيَاكَ أَشْبَارُ

(فَصْلٌ)

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في التَّحْذِيْرِ مِن ابْلِيْسَ وَجُنُودِهِ وَبَيَانِ شَيءٍ مِنْ حِيَلِهِ ومَكْرِهِ وَكَيْدِهِ لِبَنِيْ آدَمَ وَوَصَايَاهُ لِجُنُودِهِ كَيْفَ يُوقِعُونَ بَنِي آدَمَ في المَعَاصِي مِنْ حَيْثُ يَشْعُرُوْنَ وَمِن حَيْثُ لا يَشْعُرُوْنَ وتَوْجِيْهِ جُنُودِهِ إلى المَدَاخِلِ إلى قُلُوْبِ بَنِيْ آدَمَ لِيُدَمِّرَهُم وَيُهْلِكَهم وَيَزُجَّهم مَعَهُ في

السَّعِيرِ ، وقَالَ رَحِمَةُ اللهُ .

وَلَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ أَنَّ آدَمَ ، وَبَنِيْهِ قَدْ بُلُوا بِهَذَا العَدُوّ ، وَأَنَّهُ قَدْ سُلِّطَ عَلَيْهِم أَمَدَّهُم بِعَسَاكِرَ ، وَجُنْدٍ يَلْقَوْنَهُ بِهَا ، وَأمدَّ عَدُوَّهُم أيضاً بِجُنْدٍ وَعَسَاكِرَ يَلْقَاهُم بِهَا وأقَامَ سُوقَ الجِهَادِ في هِذِهِ الدَّارِ في مُدَّةِ العُمْرِ التِيْ هِيَ بالأضافة إلى الآخِرَةِ كَنَفَسٍ وَاحِدٍ مِن أنفَاسِها .

وَاشْتَرَى مِن المؤْمِنِيْنَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأنَّ لَهُمْ الجَنَّةَ يُقَاتِلُوْنَ في سَبِيْلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ وَعْدٌ مُؤَكَّدٌ في أشْرَفِ كُتُبِهِ وَهِيَ التَّوْرَاةُ ، والأنْجِيْلُ ، وَالقُرْآنُ ، وَأخْبَرَ أنـهُ لا أَوْفَى بعْهدِه منه سُبْحَانَهُ .

ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَبْشِرُوْا بِهَذِهِ الصَّفْقَةِ التِيْ مَنْ أَرَادْ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَهَا فَلْيَنْظُرْ إلى المُشْتَرِيْ مَنْ هُوَ ، وَإلى الثَّمَنِ المَبْذُوْلِ فِيْ هَذِهِ السِّلْعَةِ ، وَإلى مَنْ جَرَى عَلَى يَدَيْهِ هَذَا العَقْدِ ، فَأيُّ فَوْزٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ، وَأيّ تِجَارَةٍ أَرْبَحُ مِنْهُ .

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ هَذَا بِقَوْلِهِ ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيْمٍ ، تُؤْمِنُوْنَ باللّهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُوْنَ في سَبِيْلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُم إنْ كُنْتُم تَعْلَمُوْنَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنُ طَيِّبَةٍ في جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيْمُ ﴾

وَلَمْ يُسَلِّط هَذَا العَدُوَّ عَلَى عَبْدِهِ المُؤْمِنَ الذِيْ هُوَ أَحَبُّ أَنْوَاعِ المَخْلُوْقَاتِ إلَيْهِ ، إلَّا لأَنَّ الجِهَادَ أَحَبُّ شَيْءٍ إلَيْهِ ، وَأَهْلُهُ أَرْفَعُ الخَلْقِ

عِنْدَهُ دَرَجَاتٍ وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ وَسِيْلَةً .

فَعَقَدَ سُبْحَانَهُ لِوَاءَ هَذَا الحَرْبِ لِخُلَاصَةِ مَخْلُوْقَاتِهِ ، وَهُوَ القَلْبُ الذيْ هُوَ مَحَلُّ مَعْرِفَتِهِ ، وَمَحَبَّتُهِ ، وَعُبُوْدِيَّتِهِ ، وَالأخْلَاصِ لَهُ والتَّوكُلِ عَلَيْهِ ، وَالأنَابَةِ إِلَيْهِ ، فَوَلَّاهُ أَمْرَ هَذَا الحَرْبِ .

وَأَيَّدَهُ بِجُنْدِهِ مِنْ المَلائِكَةِ لَا يُفَارِقُوْنَهُ ، قَالَ تَعالَى ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوْنَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ يُثَبِّتُونَهُ وَيَحْفَظُونَهُ ، وَيَأْمُرُونَهُ بِالخَيْرِ ، وَيَحُضُّوْنَهُ عَلَيْهِ ، وَيَعِدُوْنَهُ بِكَرَامِةِ اللَّهِ ، وَيُصَبِّرُونَهُ ، وَيَقُوْلُوْنَ إِنَّمَا هُوَ صَبْرُ سَاعَةٍ وَقَدْ اسْتَرَحْتُ رَاحَةَ الأبَدِ .

ثُمَّ أَمَدَّهُ بِجُنْدٍ آخرَ مِنْ وَحْيِهِ ، وَكَلَامِهِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُوْلَهُ صلى اللهُ عليه وسلَّم ، وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ كِتَابَهُ ، فَازْدَادَ قُوَّةً إلى قُوَّتِهِ ، وَمَدَداً إلى مَدَدِهِ وَعُدَّةً إِلَى عُدَّتِهِ .

وأَيَّدَهُ مَعَ ذَلِكَ بِالعَقْلِ وَزِيْرَاً لَهُ وَمُدَبِّراً ، وَبِالمَعْرِفَةِ مُشِيْرَةً عَلَيْهِ وَنَاصِحَةً لَهُ ، وَبِالإِيمَانِ مُثَبِّتاً لَهُ ، وَمُؤَيِّداً ، وَنَاصِراً ، وَبِاليَقِيْنِ كَاشِفاً لَهُ عَنْ حَقِيْقَةِ الأَمْرِ كَأَنَّهُ يُعَايِنُ مَا وَعَدَ اللهُ تَعالَى بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَحِزْبَهُ عَلَى جِهَادِ أَعْدَائِهِ .

فَالعَقْلُ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَيْشِهِ ، وَالمَعْرِفَةُ تَصْنَعُ لَهُ أُمُوْرَ الحَرْبِ وَأَسْبَابَها وَمَوَاضِعَهَا اللاحِقَةِ بِهَا ، وَالأيْمَانُ يثَبِّتُهُ وَيُقَوِّيهِ وَيُصَبِّرُهُ ، وَاليَقِيْنُ يُقدِمُ بِهِ وَيَحْمِلُ بِهِ الحَمَلَاتِ الصَّادِقَةِ .

ثُمَّ أَمَدَّ سُبْحَانَهُ القَائِمَ بِهَذِهِ الحَرْبِ بالقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ ، فَجَعَلَ العَيْنَ طَلَيْعَتَه وَالأُذُنَ صَاحِبَ خَبَرِهِ ، وَاللسَانَ تَرْجُمَان ، وَاليَدَيْنِ

وَالرِّجْلَيْنِ أَعْوَانَهُ .

وَأَقَامَ مَلائِكَتَهُ وَحَمَلَةَ عَرْشِهُ يَسْتَغْفِرُوْنَ لَهُ ، وَيَسْأَلُوْنَ لَهُ أَنْ يَقِيْهِ السَّيِّآتِ ، وَيُدْخِلَهُ الجَنَّاتِ ، وتَوَلَّى سُبْحَانَهُ الدَّفْعَ عَنْهُ والدِّفَاعَ عَنْهُ بِنَفْسِهِ .

وَقَالَ هَؤُلآءِ حِزْبِيْ وحِزْبُ اللّهِ المُفْلِحُوْن، قَالَ تَعَالَى ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمْ المُفْلِحون﴾ وَهَؤُلَاءِ جُنْـدِيْ وَجُنْدُ اللهِ هُمْ الغَالِبُوْنَ .

وَعَلَّمَ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ كَيْفَ هَذَا الحَرْبُ والجِهَادُ فَجَمَعَهَا لَهُمْ في أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، فَقَال ، ﴿ يَا أَيُّها الذِيْنَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، واتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وَلَا يَتِمُّ أَمْرُ هَذَا الجِهَادِ إِلا بِهَذِهِ الأمُورِ الأَرْبَعَةِ ، فَلَا يَتِمُّ لَهُ الصَّبْرُ إلا بِمُصَابَرَةِ العَدُوِّ ، وَهِيَ مُقَاوَمَتُهُ ، وَمُنَازَلَتُهُ ، فِإذا صَابَرَ عَدُوَّهُ احْتَاجَ إلى أَمْرٍ آخَرَ وَهُوَ المُرَابِطَةُ وَهِيَ لُزُوْمُ ثَغْرِ القَلْبِ وَحِرَاسَتِهِ لِئَلَّا يَدْخُلَ مَعَهُ العَدُوّ وَلُزُوْمُ ثَغْرِ العَيْنِ ، والأذُنِ وَاللِّسَانِ ، وَالبَطْنِ ،وَاليَدِ ، وَالرِّجْلِ .

فَهَذِهِ الثُّغُورُ مِنْهَا يَدْخُلُ العَدُوُّ ، فَيَجُوْسُ خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَيُفْسِدُ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ ، فَالمُرَابَطَةِ لزُوْمُ هَذِهِ الثُّغُورِ ، ولَا يُخْلَى مَكانَها فَيُصَادِفُ العَدُوّ الثَّغْرَ خالِيَاً فَيَدْخُلُ مِنْهُ .

فَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، خَيْرُ الخَلْقِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِيْنَ ، وَأَعْظَمُهُم حِمَايَةً ، وَحِرَاسَةً مِنْ الشَّيْطَانِ ، وَقَدْ أَخْلَوْا المَكَانَ الذي أُمِرُوْا بِلُزُوْمِهِ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَدَخَلَ مِنْهُ العَدُوّ فَكَانَ مَا كَانَ .

وَجَمَاعُ هَذِهِ الثَّلاَثَةِ وَعَمُوْدُهَا الذِي تَقُوْمُ بِهِ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فَلاَ يَنْفَعُ الصَّبْرُ وَلاَ المُصَابَرَةُ ، وَلاَ المُرَابَطَةُ ، إلاَّ بالتَّقْوَى وَلاَ تَقُوْمُ التَّقْوَى الا عَلَى سَاقِ الصَّبْرِ ، فَانْظُرْ الآن فِيْكَ إلى التِقَاءِ الجَيْشَيْنِ وَاصْطِدَامِ العَسْكَرِيَّيْنَ ، وَكَيْفَ تُدَالُ مَرَّةً ، وَيُدَالُ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى .

أَقْبَلَ مَلِكُ الكَفَرَةِ بِجُنُردِهِ وَعَسَاكِرِهِ ، فَوَجَدَ القَلْبَ في حِصْنِهِ جَالِسَاً عَلَى كُرْسِيّ مَمْلَكَتِهِ ، أَمْرُه نَافِذٌ في اَعْوَانِهِ ، وَجُنْدِهِ قَدْ حَفُّوا بِهِ يُقَاتِلُونَ عَنْهُ ، وَيُدَافِعُوْنَ عَنْ حَوْزَتِهِ ، فَلَمْ يُمْكِنْهُ الهُجُومُ عَلَيْهِ إلا بِمُخَامَرَةِ بَعْضِ أمَرَائِهِ وَجُنْدِهِ عَلَيْهِ .

فَسَأَلَ عَنْ أَخَصِّ الجُنْدِ بِهِ ، وَأَقْرَبِهِمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً ، فَقِيْلَ لَهُ هِيَ النَّفْسُ ، فَقَالَ لِأعْوَانِهِ أدْخُلُوا عَلَيْهَا مِنْ مُرَادِهَا ، وَانْظُرُوْا مَوَاقِعَ مَحَبَّتِهَا ، وَمَا هُوَ مَحْبُوبُهَا ، فَعِدُوْهَا بِهِ ، وَمَنُّوْهَا ايَّاهُ ، وانْقُشُوْا صُوْرَةَ المَحْبُوْبِ فِيْهَا في يَقَظَتِهَا وَمَنَامِهَا .

فَإِذَا اطْمَأَنَّتْ إلَيْهِ وَسَكَنَتْ عِنْدَهُ فَاطْرَحُوا عَلَيْها كَلاَلِيْبَ الشَّهْوَةِ وَخَطَاطِيْفَهَا ، ثُمَّ جُرُّوْهَا بِهَا إِلَيْكُمْ .

فَإِذَا خَامَرَتْ عَلَى القَلْبِ وَصَارَتْ مَعَكُمْ عَلَيْهِ مَلَكْتُمْ ثُغُوْرَ العَيْنِ ، وَالأُذُنِ واللّسانِ ، وَالفَمِ وَاليَدِ ، وَالرِّجْلِ ، فَرَابِطُوْا عَلَى هَذِهِ الثُّغُوْرِ كُلَّ المُرَابَطَةِ فَمَتَى دَخَلْتُمْ مِنْهَا إلى القَلْبِ فَهُوَ قَتِيْلٌ أَوْ أَسِيْرٌ أَو جَرِيْحٌ مُثْخَنُ الجِرَاحَاتِ .

وَلاَ تُخْلُوا هَذِهِ الثُّغُوْرَ ، وَلاَ تُمَكِّنُوا سَرِيَّةً تَدْخُلُ فِيْهِ إلى القَبْبِ فَتُخْرِجَكُمْ مِنْهَا ، وَانْ غُلِبْتِمْ فَاجْتَهِدُوْا في اضْعَافِ السَّرِيَّةِ وَوَهْنِهَا ، حَتَّى

لَا تَصِلَ إلى القَلْبِ وَإنْ وَصَلَتْ ضَعِيْفَة لا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئاً .

فإذَا اسْتَوْلَيْتُم عَلَى هَذِهِ الثُّغُورِ ، فَامْنَعُوا ثَغْرَ العَيْنِ أَنْ يَكُوْنَ نَظَرُهُ اعْتِبَاراً بَلْ اجْعَلُوا نَظَرُهُ تَفرُّجَاً ، وَاسْتِحْسَاناً ، وَتَلهِّيا ، فانْ اسْتَرَقَ نَظَرُهُ عِبْرَةً ، فَافسِدُوْهَا عَلَيْهِ بِنَظْرَةِ الغَفْلَةِ ، وَالأَسْتِحْسَانِ وَالشَّهْوَةِ ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ، وَأَعْلَقُ بِنَفْسِهِ ، وَأَخَفُّ عَلَيْهِ .

وَدُوْنَكُمْ ثَغرُ العَيْنِ فَإنَّ مِنْهُ تَنَالُوْنَ بُغْيَتَكُمْ ، فَإِنِّيْ مَا أَفْسَدْتُ بَنِيْ آدَمَ بِشَيْءٍ مِثْلَ النَّظَرِ ، فَإِنِّيْ أَبْذُرُ بِهِ فِي القَلْبِ بَذْرَ الشَّهْوَةِ ، ثُمَّ اسْقِيْهِ بِمَاءِ الأَمْنِيَةِ ، ثُمَّ لا أَزَالُ أَعِدُهُ وَأُمَنِّيْهِ حَتَّى أُقَوِّيْ عَزِيْمَتَهُ وَأَقُودُهُ بِزِمَامِ الشَّهْوَةِ ، إلى الإِنْخِلَاعِ مِنْ العِصْمَةِ .

فَلَا تُهْمِلُوا أَمْرَ هَذَا الثَّغْرِ وَأَفْسِدُوْهُ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ وَهَوِّنُوا عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَقُوْلُوا لَهُ مِقْدَارَ نَظْرَةٍ تَدْعُوْكَ إلى تَسْبِيْحِ الخالق وَالتَّأمُّلِ لِبَدِيْعِ صُنْعِهِ وَحُسْنِ هَذِهِ الصُّورَةِ التِيْ إنَّمَا خُلِقَتْ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا النَّاظِرُ عَلَيْهِ وَما خَلَقَ اللهُ لَكَ العَيْنَيْنَ سُدىً وَمَا خَلَقَ هَذِهِ الصُّوْرَةَ لِيَحْجِبَهَا عَنْ النَّظَرِ .

ثُمَّ امْنَعُوْا ثَغْرَ الأُذُنِ أَنْ يَدْخُلَ مِنْهُ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمْ الأَمْرَ فَاجْتَهِدُوْا أَنْ لَا تُدْخِلُوا مِنْهُ إلا البَاطِلَ فَإِنَّهُ خَفِيْفٌ عَلَى النَّفْسِ تَسْتَحْلِيْهِ وَتَسْتَحْسِنُهُ وَتَخَيَّرُوا لَهُ أَعْذَبَ الأَلْفَاظِ وَأَسْحَرَهَا لِلأَلْبَابِ وَامْزُجُوْهُ بِمَا تَهْوى النَّفْسُ مَزْجاً وَأَلْقُوا الكَلِمَةَ فَانْ رَأَيْتُم مِنْهُ إِصْغَاءً إِلَيْهَا فَزُجُّوْهُ بِأَخَوَاتِهَا وَكُلَّمَا صَادَفْتُمْ مِنْهُ اسْتِحْسَانَ شَيءٍ فَالْهَجُوْا لَهُ بِذِكْرِهِ.

وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَدْخُلَ هَذَا الثَّغْرُ شَيءٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ كَلَامِ رَسُوْلِهِ صَلى اللهُ عليه وسلَّم أَوْ كَلَامَ النُّصَحَاءِ فَإِنْ غُلِبْتُمْ عَلَى ذَلِكَ وَدَخَلَ مِنْ

ذَلِكَ شَيْءٌ فَحُولُوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ والتَّفَكُّرِ فِيْهِ وَالعِظَةِ بِهِ إمَّا بِإدْخَالِ ضِدِّهِ عَلَيْهِ وامَّا بِتَهْوِيْلِ ذَلِكَ وَتَعْظِيْمِهِ وَانَّ هَذَا الأمْرَ قَدْ حِيْلَ بَيْنَ النُّفُوْسِ وَبَيْنَهُ فَلاَ سَبِيْلَ لَهَا إلَيْهِ وَهُوَ حِمْلٌ يَثْقُلُ عَلَيْهَا لا تَسْتَقِلُّ بِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَأمَّا بِارْخَاصِهِ عَلَى النُّفُوسِ وَأنَّ الإشتِغَالَ يَنْبَغِي أنْ يَكُوْنَ بِمَا هُوَ أعْلَى عِنْدَ النَّاسِ وَأعَزُّ عَلَيْهِمْ وَأغْرَبُ عِنْدَهُمْ وَالقَابِلُونَ لَهُ أكْثَرُ وَأمَّا الحَقُّ فَهُوَ مَهْجُوْرٌ وَقَائِلُهُ مُعَرِضٌ نَفْسَهُ لِلْعَدَاوَةِ . وَالرَّائِجُ بَيْنَ النَّاسِ أوْلَى بِالأيْثَارِ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَيُدْخِلُوْنَ البَاطِلَ عَلَيْهِ فِي كُـلِّ قَالَبٍ يَقْبَلُهُ وَيَخِفُّ عليه وَتُخْرِجُوْنَ لَهُ الحَقَّ في قَالَبٍ يَكْرَهُهُ وَيَثْقُلُ عَلَيْهِ .

وَإذَا شِئْتَ أنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ انْظُرْ إلى إخْوَانِهِمْ مِنْ شَيَاطِيْنِ الأنْسِ كَيْفَ يُخْرِجُوْنَ الأمْرَ بِالمَعْرُوْفِ وَالنَّهْيَ عَنْ المُنْكَرِ في قَالَبِ كَثْرَةِ الفُضُوْلِ وَتَتَبُّعِ عَثَرَاتِ النَّاسِ وَالتَّعَرُّضِ مِنْ البَلاَ لِمَا لاَ يُطِيْقُ وَإلقَاءِ الفِتَنِ بَيْنَ النَّاسِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَالمَقْصُوْدُ أنَّ الشَيْطَانَ لَزِمَ ثَغْرَ الأُذُنِ أنْ يَدْخُلِ فِيْهَا مَا يَضُرُّ العَبْدَ وَلاَ يَنْفَعُهُ وَيَمْنَعُ أنْ يَدْخُلَ إلَيْهَا مَا يَنْفَعُهُ وَإنْ دَخَلَ بِغَيْرِ اخْتِيَارٍ أفْسَدَهُ عَلَيْهِ .

ثُمَّ يَقُولُ : : قُوْمُوا عَلَى ثَغْرِ اللِّسَانِ ، فَإنَّهُ الثَّغْرُ الأعْظَمُ ، وَهُوَ قُبَالَةُ المَلِكِ، فَأجْرُوْا عليهِ من الكَلامِ مَا يَضُرُّهُ ولا يَنْفَعُهُ وامْنَعُوْهُ أن يَجْرِيْ عَلَيْهِ شَيءٌ مِمَّا يَنْفَعُهُ، مِنْ ذِكْرِ اللّهِ تَعَالَى، وَاسْتِغْفَارِهِ ، وَتِلاَوَةِ كِتَابِهِ وَنَصِيْحَةِ عِبَادِهِ ، والتَّكَلُّمِ بالعِلْمِ النَّافِعِ ، وَيكُونُ في هَذَا الثَّغْرِ أمْرَانِ عَظِيْمَانِ ، لاَ تُبَالُوْنَ بِأيِّهِمَا ظَفِرْتُمْ .

أحَدُهُمَا : التَّكَلُّمُ بِالبَاطِلِ ، فَإنَّ المُتَكلمَ بالبَاطِلِ أخٌ مِنْ إخْوَانِكُمْ

وَمِنْ أَكْبَرِ جُنْدِكُمْ وَأَعْوَانِكُمْ .

وَالثَّانِيْ : السُّكُوْتُ عَنِ الحَقِّ ، فَإِنَّ السَّاكِتَ عَنْ الحَقِّ أَخٌ لَكُم أَخْرَسٌ ، كَمَا أَنَّ الأَوَّلَ أَخٌ ناطِقٌ ، وَرُبَّمَا كَانَ الأَخُ الثَّانِيْ أَنْفَعَ أَخَوَيْكُمْ لَكُمْ ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ النَّاصِحِ « المُتَكَلِّمُ بِالبَاطِلِ شَيْطَانٌ نـاطِقٌ ، وَالسَّاكِتُ عَنْ الحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسٌ » .

فَالرِّبَاطُ عَلَى هَذَا الثَّغرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقٍّ أَوْ يُمْسِكَ عَنْ بَاطِلٍ وَزَيِّنُوا لَهُ التَّكَلُّمَ بالبَاطِلِ بِكُلِّ طَرِيْقٍ ، وَخَوِّفُوْهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بالحَقِّ بِكُلِّ طَرِيْقٍ . وَاعْلَمُوا يا بَنِيَّ أَنَّ ثَغْرَ اللِّسَانِ هُوَ الذِي أُهْلِكُ مِنْهُ بَنِيْ آدَمَ وَأُكُبُّهُمْ مِنْهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ في النَّارِ فَكَمْ لِيْ مِنْ قَتِيْلٍ وَأَسِيْرٍ وَجَرِيْحٍ أَخَذْتُهُ مِنْ هَذَا الثغرِ .

وَأُوْصِيْكُمْ بوَصِيَّةٍ فاحْفَظُوْهَا ، لِيَنْطِقْ أَحَدُكُمْ على لِسَانِ أَخِيْهِ مِنْ الانْسِ بالكَلِمَةِ ، وَيَكُونُ الآخَرُ على لِسَانِ السَّامِعِ ، فَيَنْطِقُ باسْتِحْسَانِهَا وَتَعْظِيْمِهَا وَالتَّعَجُّبِ مِنْهَا ، وَيَطْلُبُ مِنْ أَخِيْهِ إِعَادَتَهَا ، وَكُوْنُوْا أَعْوَاناً على الإِنْسِ بِكلِّ طَرِيْقٍ ، وادْخُلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ .

أَمَا سَمِعْتُمْ قَسَمِيْ الذِيْ أَقْسَمْتُ بِهِ لِرَبِّهِمْ حَيْثُ قُلْتُ ﴿ ٧ : ١٦ - ١٧ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِيْ لاقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِيْنَ ﴾ أَوَ مَا تَرَوْنِي قَدْ قَعَدْتُ لابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ كلِّهَا ، فَلا يَفُوْتُنِيْ مِنْ طَرِيْقٍ إِلَّا قَعَدْتُ لَهُ بِطَرِيْقٍ غيرِهِ ، حَتَّى أُصِيْبَ مِنْهُ حاجَتِيْ أَوْ بَعْضَهَا .

وَقَدْ حَذَّرَهُمْ ذَلِكَ رَسُولُهُمْ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُمْ « انَّ الشَّيْطَانَ قَدْ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بطُرُقِهِ كُلِّهَا ، وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيْقِ الإِسْلاَمِ ، فَقَالَ أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِيْنَك وَدِيْنَ آبائِكَ ، فَخَالَفَهُ وَأَسْلَمَ ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيْقِ الهِجْرَةِ ، فَقَالَ : أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ، فَخَالَفَهُ وَهَاجر ، فَقعَدَ لَهُ بِطَرِيْقِ الجِهَادِ ، فَقَالَ : أَتُجَاهِدُ فَتُقْتَلُ فَيُقْسَمُ المالُ وَتُنْكَحُ الزَّوْجَةُ .

فَهكَذَا فَاقْعُدُوا لَهُمْ بكُلِّ طُرُقِ الخَيْرِ ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَتَصَدَّقَ فَاقْعُدُوا لَهُ عَلى طَرِيْقِ الصَّدَقَةِ ، وَقُوْلُوا لَهُ في نَفْسِهِ : أَتُخرِجُ المَالَ فَتَبْقَى مِثْلَ هَذَا السَّائِلِ ، وَتَصِيْرُ بِمَنْزِلَتِهِ أَنْتَ وَهُوَ سَوَاءٌ ، أَوَمَا سَمِعْتُمْ مَا أَلْقَيْتُ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ سَأَلَهُ آخرُ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : هِيَ أَمْوَالُنَا إِنْ أَعْطَيْنَا كُمُوْهَا صِرْنَا مِثْلَكُم .

وَاقْعُدُوا لَهُ بِطَرِيْقِ الحَجِّ ، فَقُولُوا : طَرِيْقُهُ مَخُوْفَةٌ مُشِقَّةٌ ، يَتَعَرَّضُ سَالِكُهَا لِتَلفِ النَّفْسِ وَالمَالِ ، وَهَكَذَا فَاقْعُدُوا عَلَى سَائِرِ طُرقِ الخَيْرِ بالتَّنْفِيْرِ عَنْهَا وَذِكْرِ صُعُوْبَتِهَا وَآفَاتِهَا ، ثُمَّ اقْعُدُوا لَهُمْ عَلى طُرُقِ المَعَاصِيْ فَحَسِّنُوهَا في أَعْيُنِ بَنِيْ آدَمَ ، وَزَيِّنُوهَا في قُلُوبِهِمْ، وَاجْعَلوا أَكْثَر أَعْوَانِكُمْ عَلى ذَلِكَ النِّسَاءُ ، فَمِنْ أَبْوَابِهِنَّ فَادْخلُوا عَلَيْهِمْ فَنِعْمَ العَوْنُ هُنَّ لَكُمْ .

ثُمَّ الزَمُوْا ثَغْرَ اليَدَيْنِ والرِّجْلَيْنِ ، فَامْنَعُوْهَا أَنْ تَبْطِشَ بِمَا يَضُرُّكُمْ وَتَمْشِيْ فِيْهِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ أَكْبَرَ أَعْوَانِكُمْ عَلَى لُزُوْمِ هَذِهِ الثُّغُورِ مُصَالَحَةُ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ فَأَعِيْنُوهَا وَاسْتَعِيْنُوا بِهَا ، وَأَمِدُّوْهَا وَاسْتَمِدُّوْا مِنْهَا ، وَكُوْنُوا مَعَهَا عَلَى حَرْبِ النَّفْسِ المُطْمَئِنَّةُ فَاجْتَهِدوا فِيْ كَسْرِهَا وَابْطَالِ قُوَاهَا وَلاَ سَبِيْلَ إلى ذَلِكَ إلَّا بِقَطْعِ مَوادِّهَا عَنْهَا .

فَإِذَا انْقَطَعَتْ مَوَادُّهَا وَقَوِيَتْ مَوَادُّ النَّفسِ الأَمَّارَةِ ، وَانْطَاعَتْ لَكُمْ أَعْوَانُهَا فَاسْتَنْزِلُوا القَلْبَ مِنْ حِصْنِهِ ، وَاعْزِلُوهُ عَنْ مَمْلَكَتِهِ ، وَوَلُّوْا مَكَانَهُ النَّفْسَ الأَمَّارَةَ ، فَإِنَّهَا لَا تَأْمُرُ إِلَّا بِمَا تَرَوْنَهُ وَتُحِبُّوْنَهُ ، وَلَا تَجِيْئُكُمْ بِمَا تَكْرَهُوْنَهُ البَتَّةَ ، مَعَ أَنَّهَا لَا تُخَالِفُكُم في شَيءٍ تُشِيْرُوْنَ بِهِ عَلَيْهَا ، بَلْ إِذَا أَشَرْتُمْ عَلَيْهَا بِشَيءٍ بَادَرَتْ إِلى فِعْلِهِ .

فَانْ أَحْسَسْتُمْ مِنْ القَلْبِ مُنَازَعَةً إِلَى مَمْلَكَتِهِ ، وَأَرَدْتُم الأَمْنَ مِنْ ذَلِكَ فَاعْقِدُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّفْسِ عَقْدَ النِّكَاحِ ، فَزَيِّنُوهَا وَجَمِّلُوهَا وَأَرُوْهَا إِيَّاهُ في أَحْسَنِ صُوْرَةِ عَرُوْسٍ تُوْجَدُ ، وَقُوْلُوا لَهُ : ذُقْ طَعْمَ هَذَا الوِصَالِ وَتَمَتَّعْ بِهَذِهِ العَرُوْسِ ، كَمَا ذُقْتَ طَعْمَ الحَرْبِ وَبَاشَرْتَ مَرَارَةَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ .

ثُمَّ وَازِنْ بَيْنَ لَذَّةِ هَذِهِ المَسْأَلَةِ وَمَرَارَةِ تِلْكَ المُحَارَبَةِ ، فَدَعْ الحَرْبَ تَضَعُ أَوْزَارَهَا ، فَلَيْسَتْ بِيَوْمٍ وَتَنْقَضِي ، وَإِنَّمَا هُوَ حَرْبٌ مُتَّصِلٌ بِالمَوْتِ ، وَقُوَاكَ تَضْعُفُ عَنْ حَرْبٍ دَائِمٍ .

وَاسْتَعِيْنُوا يَا بَنِيَّ بِجُنْدَيْنِ عَظِيْمَيْنِ لَنْ تُغْلَبُوْا مَعَهُمَا :

أَحَدُهُمَا : جُنْدُ الغَفْلَةِ ، فَأَغْفِلُوا قُلُوْبَ بَنِي آدَمَ عَن اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارِ الآخِرَةِ بِكُلِّ طَرِيْقٍ ، فَلَيْسَ لَكُمْ شَيءٌ أَبْلَغُ في تَحْصِيْلِ غَرَضِكُمْ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ القَلْبَ إِذَا غَفَلَ عَن اللّهِ تَعَالَى تَمَكَّنْتُمْ مِنْهُ وَمِنْ إِغْوَائِهِ .

وَالثَّانِي : جُنْدُ الشَّهَوَاتِ ، فَزَيِّنُوْهَا في قُلُوْبِهِمْ ، وَحَسِّنُوْهَا في أَعْيُنِهِمْ وَصُولُوْا عَلَيْهِمْ بِهَذَيْنِ العَسْكَرَيْنِ ، فَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ أَبْلَغَ مِنْهُمَا ، وَاسْتَعِيْنُوا عَلى الغَفْلَةِ بالشَّهَوَاتِ ، وَعَلَى الشَّهَوَاتِ بالغَفْلَةِ ،

وَاقْرِنُوْا بَيْنَ الغَافِلِيْنَ .

ثُمَّ اسْتَعِيْنُوا بِهِمَا عَلى الذَّاكِرِ، وَلَا يَغْلِبْ وَاحِدٌ خَمْسَةً، فإِنَّ مَعْ كل واحد من الغَافِلِين شَيْطَانَيْنِ صَارُوا أَرْبَعَةً ، وَشَيْطَانُ الذَّاكِـرِ مَعَهُمْ ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ جَمَاعَةً مُجْتَمِعِيْنَ عَلَى مَا يَضُرُّكُمْ ـ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أَوْ مُذَاكَرَةِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَدِيْنِهِ ، وَلَمْ تَقْدِرُوْا عَلى تَفْرِيْقِهِمْ ـ فَاسْتَعِيْنُوا عَلَيْهِمْ بِبَنِيْ جَنْسِهِمْ مِنْ الانْسِ البَطَّالِيْنَ ، فَقَرِّبُوهُمْ مِنْهُمْ ، وَشَوِّشُوْا عَلَيْهِمْ بِهِمْ .

وَبالجُمْلَةِ فَأَعِدُّوا لِلأُمُورِ أَقْرَانَهَا ، وَادْخُلوا على كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِيْ آدَمَ مِنْ بَابِ إِرَادَتِهِ وَشَهْوَتِهِ ، فَساعدُوْهُ عَلَيْهَا، وَكُوْنُوا أَعْوَانا لَهُ على تَحْصِيْلِهَا ، وَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَصْبِرُوْا لَكُمْ وَيُصَابِرُوْكُمْ وَيُرَابِطُوْا عَلَيْكُمْ الثُّغُورَ فَاصْبِرُوا أَنْتُمْ وَصَابِرُوا وَرَابِطُوْا عَلَيْهِمْ بالثغُوْرِ ، وَانْتَهِزُوا فُرَصَكُمْ فِيْهِمْ عِنْدَ الشَّهْوَةِ وَالغَضَبِ ، فَلَا تَصْطَادُونَ بَنِيْ آدَمَ في أَعْظَمَ مِنْ هَذَيْنِ المَوْطِنَيْنِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مِنْهُم مَنْ يَكُوْنُ سُلْطَانُ الشَّهْوَةِ عَلَيْهِ أَغْلَبُ وَسُلْطَانُ غَضَبِـهِ ضَعِيْفٌ مَقْهُورٌ ، فَخُـذُوا عَلَيْهِ طَـرِيْقَ الشَّهْوَةِ ، وَدَعُـوا طَرِيْقَ الغَضَبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ الغَضَبِ عَلَيْهِ أَغْلَبُ ، فَلَا تُخْلُوا طَرِيْقَ الشَّهْوَةِ قَلْبَـهُ ، وَلَا تُعَطِّلُوا ثَغْرَهَا ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ فَإِنَّهُ بِالحَرِيّ أَنْ لَا يَمْلِكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّهْوَةِ ، فَزَوِّجُوا بَيْنَ غَضَبِهِ وَشَهْوَتِهِ وَامْزِجُوا أَحَدَهُمَا بِالآخَرِ ، وَادْعُوْهُ إِلى الشَّهْوَةِ مِنْ بَابِ الغَضَبِ ، والى الغَضَبِ مِنْ طَرِيْقِ الشَّهْوَةِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ في بَنِيْ آدَمَ سِلَاحٌ أَبْلَغَ مِنْ هَذَيْنِ السِّلَاحَيْنِ

وَإِنَّمَا أَخرَجْتُ أَبَوَيْهِمْ مِنْ الجَنَّةِ بالشَّهْوَةِ وَإِنَّمَا القَيْتُ العَدَاوَةَ بَيْنَ أَوْلاَدِهِمْ بالغَضَبِ فبِهِ قُطِّعَتْ أَرْحَامُهُمْ وَسُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَبِهِ قَتَلَ أَحَدُ ابْنَيْ آدم أَخَاهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ في قَلْبِ ابْنِ آدَمَ وَالشَّهْوَةُ نَارٌ تَثُوْرُ مِنْ قَلْبِهِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالمَاءِ وَالصَّلاَةُ وَالذِّكْرُ وَالتَّكْبِيْرُ .

فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُمَكِّنُوا ابْنَ آدَمَ عِنْدَ غَضَبِهِ وَشَهْوَتِهِ مِنْ قُرْبَانِ الوُضُوْءِ وَالصَّلاَةِ فَانَّ ذَلِكَ يُطْفِيءُ عَنْهُمْ نَارُ الغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ وَقَدْ أَمَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ بِذَلِكَ فَقَالَ إِنَّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ في قَلْبِ ابْنِ آدم أَمَا رَأَيْتُمْ مِنْ احْمِرَارِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ فَمَنْ أَحسَّ بِذَلِكَ فَلْيَتَوَضَّأْ وَقَالَ لَهُمْ إِنما تُطْفَأُ النَّارُ بالمَاءِ وَقَدْ أَوْصَاهُمْ أَنْ يَسْتَعِيْنُوا عَلَيْكُمْ بالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ .

فَحُوْلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَأَنْسُوْهُمْ إِيَّاهُ وَاسْتَعِيْنُوا عَلَيْهِمْ بالشَّهْوَةِ وَالغَضَبِ وَأَبْلَغُ أَسْلِحَتِكُمْ فِيهِمْ وَأَنْكَاهَا الغَفْلَةُ وَاتِّبَاعُ الهَوَى وَأَعْظَمُ أَسْلِحَتِهِمْ فِيْكُمْ وَأَمْنَعُ حُصُوْنِهِمْ ذِكْرُ اللَّهِ وَمُخَالَفَةِ الهَوَى فَإِذَا رَأَيْتُم الرَّجُلَ مُخَالِفاً لِهَوَاهُ فاهْرَبُوْا مِن ظِلِّهِ ولا تَدْنُوْا مِنْهُ .

وَالمَقْصُوْدُ أَنَّ الذُّنُوْبَ وَالمَعَاصِيْ سِلاَحٌ وَمَدَدٌ يُمِدُّ بِهَا العَبْدُ أَعْدَاءَهُ وَيُعِيْنُهُمْ بِهَا عَلى نَفْسِهِ فَيُقَاتِلُونَهُ بِسِلاَحِهِ وَيَكُوْنُ مَعَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَهَذَا غَايَةُ الجَهْلِ .

مَا يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ
مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

انْتَهَى كَلاَمُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِتَصَرُّفٍ يَسِيْرٍ .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَصِفُ الدُّنْيَا :

لَـكِـنَّ ذَا الايْـمَـانِ يَـعْـلَـمُ أَنَّ هـا
ذَا كَـالـضَّـلالِ وَكُـلُّ هَـذَا فَـانِ
كَـخَيَـالِ طَـيْفٍ مَـا اسْتَتَمَّ زِيَـارَةً
إِلَّا وَصُـبْـحُ رَحِـيْـلِهِ بِـأَذَانِ
وَسَـحَـابَـةٍ طَلَعَـتْ بِـيَـوْم صَـائِـفٍ
فَـالـظِّلُّ مَـنْـسُـوخٌ بِـقُـرْبِ زَمَـانِ
وَكَـزَهْـرَةٍ وَافَى الـرَّبِيْـعُ بِحُسْنِهَـا
أَوْ لَامِـعَـاً فَـكِـلَاهُـمَـا أَخَـوَانِ
أَوْ كَـالـسَّـرَابِ يَلُوْحُ لِـلظَّمْـآنِ فـي
وَسَطَ الهَجِـيْـرِ بِمُسْتَـوَى الـقِيْـعَـانِ
أَوْ كَـالأَمَـانِيْ طَـابَ مِنْهَـا ذِكْـرُهَـا
بِـالـقَـوْلِ وَاسْتِـحْـضَـارُهَـا بِـجنَـانِ
وَهِـيَ الـغَـرُوْرُ رُؤُسُ أَمْـوَالِ الـمَفَـا
لِـيْسِ الأُولَى اتَّـجَـرُوا بِـلَا أَثْـمَـانِ
أَوْ كَـالـطَّعَـامِ يَلَذُّ عِنْـدَ مَسَـاغِـهِ
لَـكِـنَّ عُـقْـبَـاهُ كَـمَـا تَـجِـدَانِ
هَـذَا هُوَ المَثَـلُ الذِيْ ضَـرَبَ الـرَّسُـو
لُ لَـهَـا وَذَا فـي غَـايَـةِ الـتِّبْـيَـانِ
وَإِذَا أَرَدْتَ تَـرَى حَـقِيْـقَتَـهَـا فَـخُـذْ
مِـنْـهُ مِـثَـالاً وَاحِـدَاً ذَا شَـانِ

أَدْخِلْ بِجَهْدِكَ أَصْبُعاً فِيْ الْيَمِّ وانْـ
ظُرْ مَا تَعَلَّقَهُ إذاً بِعَيَانِ
هَذَا هُوَ الدُّنْيَا كَذَا قَالَ الرَّسُو
لُ مُمَثِّلاً وَالحَقّ ذُوْ تِبْيَانِ
وَكَذَاكَ مَثَّلَهَا بِظِلِّ الدَّوْحِ في
وَقْتِ الحَرُوْرِ لِقَائِلِ الرُّكْبَانِ
هَذَا وَلَوْ عَدَلَتْ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ
عِنْدَ الإِلَهِ الحَقِّ في المِيْزَانِ
لَمْ يَسْقِ مِنْهَا كَافِراً مِنْ شَرْبَةٍ
مَاءً وَكَانَ الحَقُّ بِالحِرْمَانِ
تَا للَّهِ مَا عَقَل امْرُؤٌ قَدْ بَاعَ مَا
يَبْقَى بِمَا هُوَ مُضْمَحِلٌّ فَانِ
هَذَا وَيُفْتِي ثُمَّ يَقْضِيْ حَاكِماً
بِالحَجْرِ مِنْ سَفَهٍ لِذَا الإِنْسَانِ
إِذْ بَاعَ شَيْئاً قَدْرُهُ فَوْقَ الذِيْ
يَعْتَاضُهُ مِنْ هَذِهِ الأَثْمَانِ
فَمَنِ السَّفِيْهُ حَقِيْقَةً إِنْ كُنْتَ ذَا
عَقْلٍ وَأَيْنَ العَقْلَ لِسَّكْرَانِ
وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ القُلُوْبَ شَهِدْنَ مِنْ مِـ
ـنَا كَانَ شَأْنٌ غَيْرَ هَذَا الشَّانِ
نَفَسٌ مِنَ الأَنْفَاسِ هَذَا العَيْش إِنْ
قِسْنَاهُ بِالعَيْشِ الطَّوِيْلِ الثَّانِيْ

يَـا خِسَّةَ الشُّـرَكَـاءِ مَـعْ عَـدَمِ الـوَفَا
ءِ وَطُـوْلَ جَـفْـوَتِـهَـا مِـنْ الـهِـجْـرَانِ
هَـلْ فِيْـكِ مُعْـتَبَـرٌ فَـيَسْـلُو عَـاشِقٌ
بِـمَـصَـارِعِ الـعُـشَّـاقِ كُـلَّ زَمَـانِ
لَـكِنْ عَـلى تِـلْكَ الـعُـيُـونِ غِـشَـاوَةٌ
وَعَـلى الـقُـلُوْبِ أَكِـنَّـةُ الـنِّـسْـيَـانِ
وَأَخُـوْ البَـصَـائِـرِ حَـاضِـرٌ مُـتَيَـقِّظٌ
مُـتَـفَـرِّدٌ عَـنْ زُمْـرَةِ الـعُـمْـيَـانِ
يَسْمُـوا إِلى ذَاكَ الـرَّفِيْقِ الأَرْفَـعِ أَلْ
أَعْـلَى وَخَـلَّى الـلِّعْـبَ لِـلْصِّـبْـيَـانِ
وَالـنَّـاسُ كُـلُّهُـم فَـصِـبْـيَـانٌ وَانْ
بَـلَغُـوا سِـوَى الافْـرَادِ وَالـوِحْـدَانِ
وَإِذَا رَأَى مَـا يَـشْـتَـهِـيْـهُ يَقُولُ مَـوْ
عِـدُكِ الجِنَـانُ وَجَـدَّ فـي الأَثْمَـانِ
وإِذَا أَبَـتْ إِلاَّ الـجِـمَـاحَ أَعَـاضَـهَـا
بِـالـعِلْمِ بَـعْـدَ حَـقَـائِقِ الإِيْـمَـانِ
ويَـرَى مِنَ الخُسـرانِ بَيْـعَ الـدَّائِمِ الْـ
بَـاقِـي بِـهِ يَـا ذِلَّـةَ الـخُـسْـرَانِ
وَيَـرَى مَصَـارِعَ أَهْلِهَـا مِنْ حَـوْلِـهِ
وَقُـلُوْبُـهُـمْ كَـمَـراجِـلِ الـنِّـيْـرَانِ
حَسَـرَاتُهَـا هُنَّ الـوُقُـوْدُ فَـإِنْ خَبَتْ
زَادَتْ سَـعِيْـراً بِـالـوُقُـوْدِ الـثَّـانِـي

جَــاؤُا فُـرَادَى مِثْـلَ مَـا خُلِقُـوْا بِـلَا
مَــالٍ وَلَا أَهْـلٍ وَلَا إِخْـوَانِ
مَـا مَعْهُمُوْا شَيءٌ سِـوَى الأَعْمَالِ فَهْـ
ـيَ مَـتَـاجِـرٌ لِلنَّـارِ أَوْ لِـجِـنَـانِ
تَسْعَى بِهِمْ أَعْمَـالُهُمْ شَوْقاً إِلى الدَّ
ارَيْـنِ سَـوْقَ الخَيْـلِ بِـالـرُّكْبَـانِ
صَبَـرُوا قَلِيْـلاً فَـاسْتَـرَاحُـوا دَائِمـاً
يَـا عِـزَّةَ الـتَّـوْفِـيْـقِ لِـلانْـسَـانِ
حَمَدُوا التُّقَى عِنْدَ المَمَاتِ كَذَا السُّرَى
عِنْـدَ الصَّبَـاحِ فَحَبَّـذَا الحَمْـدانِ
وَخَـدَتْ بِهِمْ عَـزَمَـاتُهُمْ نَحْـوَ العُلَى
وَسَـرَوْا فَـمَـا نَـزَلُـوا إِلَى نُـعْـمَـانِ
بَاعُوا الـذِيْ يَفْنَى مِنْ الخَزَفِ الخَسِيْـ
ـسِ بِـدَائِمٍ مِنْ خَـالِصِ العِقْـيَـانِ
رُفِعَتْ لَهُمْ في السَّيْرِ أَعْـلَامُ السَّعَـا
دَةِ وَالـهُـدَى يَـا زَلَّـةَ الـحَـيْـرَانِ
فَـتَـسَـابَـقَ الأَقْـوَامُ وَابْـتَـدَرُوْا لَـهَـا
كَـتَـسَـابُـقِ الـفُـرْسَـانِ يَـوْمَ رِهَـانِ
وَأَخُـوْ الهُـوَيْنَـا فِيْ الـدِّيَـارِ مُخَلَّفٌ
مَـعْ شَـكْلِهِ يَـا خَيْـبَـةَ الـكَسْـلَانِ

اللَّهُمَّ الْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَارْزُقْنَا حُبَّكَ وَسَهِّلْ عَلَيْنَا طَاعَتَكَ وَفَرِّغْنَا

لِلتَّفَكُّرِ فِي مَخْلُوْقَاتِكَ وَاجْعَلْ لَنَا رِضَاكَ مَوْئِلاً وَعَاقِبَةً وَاغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

فِي ذِكْرِ المَوْتِ وَالاسْتِعْدَادِ لَهُ

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وَايَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ أَنَّ مِمَّا يَتَأَكَّدُ الاسْتِعْدَادُ لَهُ وَاسْتِشْعَارُ قُرْبِهِ المَوْتُ فإنه أَقْرَبُ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ وَمَا يَدْرِي الانْسَانُ لَعَلَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَجَلِهِ إِلاَّ اليَسِيْرُ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى دُنْيَاهُ وَمُعْرِضٌ عَنْ آخِرَتِهِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَرْبٌ وَلاَ هَوْلٌ وَلاَ عَذَابٌ سِوَى سَكَرَاتِ المَوْتِ لَكَانَ جَدِيْراً بِأَنْ يَتَنَكَّدَ وَيَتَنَغَّصَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ وَيَتَكَدَّرَ عَلَيْهِ سُرُوْرُهُ وَيُفَارِقَهُ سَهْوُهُ وَغَفْلَتُهُ .

وَحَقِيْقٌ بِأَنْ يَطُوْلَ فِيْهِ فِكْرُهُ وَيَعْظُمَ لَهُ اسْتِعْدَادُهُ وَهُوَ مُحْتَمِلٌ أَنْ يَقَعَ عَلَى الانْسَانِ بَغْتَةً كَمَا قِيْلَ سَهْمٌ بِيَدِ سِوَاكَ لَا تَدْرِيْ مَتَى يَغْشَاكَ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ يَا بُنَيَّ أَمْرٌ لَا تَدْرِيْ مَتَى يَلْقَاكَ اسْتَعِدَّ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْجَاكَ .

تُؤَمِّــلُ فِي الــدُّنْيَــا طَــوِيْــلاً وَلاَ تَــدْرِيْ
إِذَا جَنَّ لَيْــلٌ هَــلْ تَعِيْشُ إِلى الفَــجْــرِ
فَكَمْ مِنْ صَحِيْــحٍ مَاتَ مِنْ غَيْــرِ عِلَّةٍ
وَكَمْ مِنْ مَــرِيْضٍ عَاشَ دَهْــراً إِلى دَهْــرِ

وقالَ الآخَـرُ :

قَـصِّـرِ الآمَـالَ فـي الـدُّنْـيَـا تَـفُـزْ
فَـدَلِيْـلُ العَـقْـلِ تَـقْـصِيْـرُ الأَمَـلِ
إنَّ مَـنْ يَـطْلُبُـهُ الـمَـوْتُ عَـلى
غِـرَّةٍ مِـنْـهُ جَـدِيْـرٌ بِـالـوَجَـلْ

وَالعَجَبُ أَنَّ الإنْسَانَ لَوْ كَانَ في أَعْظَم اللَّذَّاتِ وَأَطْيَبِ المَجَالِسِ التِيْ تَلِذُّ لَهُ وَيَأْنَسُ بِهَا مَعَ أَوْلَادِهِ وَأَصْدِقَائِهِ وَأَقْرِبَائِهِ وَأُخْبِرَ أَنَّ جُنْدِيًّا أَتَى لِيُحْضِرَهُ وَيَدْعُوهُ إِلى أَمْرٍ مِنْ الأُمُوْرِ لتنكَّدَ وَتَكَدَرَتْ عَلَيْهِ لذَّته وَفَسَدَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ وَهُوَ في كُلِّ لَحْظَةٍ بِصَدَدِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ مَلَكُ المَوْتِ بسَكَرَاتِ النَّزْعِ وَهُوَ عَنْهُ في سَهْوٍ وَغَفْلَةٍ وَمَا لِذَلِك سَبَبٌ إِلَّا الجَهْلُ وَالغُرُوْرُ واشتِغَالُ القَلْبِ بالدُّنْيَا .

وَقِيْلَ في الاسْتِعْدَادِ لِلْمَوْتِ هُوَ أَنْ يَتُوبَ الإنْسَانُ تَوْبَةً طَاهِرَةً عَنْ الذُّنُوْبِ وَالخَطَايَا بِأَنْ لَوْ قِيلَ لَهُ إِنَّكَ تَمُوْتُ السَّاعَةَ مَا وَجَدَ عِنْدَهُ ذَنْباً يَحْتَاجُ إلى تَوْبَةٍ مِنْهُ فَيَسْأَلُ النُّظْرَةَ مِنْ أَجْلِهِ فَإِنْ كَانَ يَجِدُ ذَنْباً يَحْتَاجُ إلى تَوْبَةٍ مِنْهُ فَيَسْأَلُ النُّظْرَةَ مِنْ أَجْلِهِ . كَسَرِقَةٍ وَغَصْبِ مَالٍ أَوْ أَرْضٍ أَوْ غِيْبَةٍ أَوْ مُعَامَلَةٍ لا تَجُوزُ أو يَأْكُل مِنْ حَرَامٍ أو مُشْتَبِهٍ أو مُصِرّاً على زَكَاةٍ أَوْ عَلى بَعْضِهَا أَوْ كاتِماً لأمَانَةٍ أَوْ لَا يَشْهَدُ الجُمُعَةَ وَالجَماعَةَ أَوْ عِنْدَهُ مِنْ آلاتِ اللَّهْو شَيءٌ في بَيْتِهِ أَوْ دُكَّانِهِ كَتِلِيْفِزْيُوْن أَوْ سِيْنَما أَوْ مِذْيَاعٍ أَوْ فِدْيُو .

أَوْ يَبِيْع وَيَشْتَرِيْ بِهَا أَوْ لَهُ أَسْهُمٌ فِيْمَا يَسْتَمِدُّ مِنْهُ أَهْلُ المَعَاصِي تَنْوِيْراً أَو لِتَصْلِيْحِ آلَاتِ اللَّهْو أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ أَوْ مُصِرّاً على التشَبُّهِ بالكَفَرَةِ كَحَلَقِ لِحْيَةٍ أَوْ جَعْلِ خَنَافِسَ أَو مُصِرّاً عَلَى شُرْبِ خَمْرٍ أَوْ دُخَانٍ أَوْ يُصَوِّرُ

أَوْ يَبِيْعُ وَيَشْتَرِيْ بِهَا أَوْ مُجَالِسٌ لِلْفَسَقةِ أَوِ الكَفَرَةِ أوْ سَاكِناً مَعَهُم أَو فِيْ بِلَادِهِمْ. أو عِنْده كُفَّارٌ كَخَدَّامِيْن وسَوَّاقِين وَمُرَبِّين وخَيَّاطِين.

فَإِنَّهُ لَمْ يَسْتَعِدَّ لِلِقَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لأَنَّهُ لَا يُسْتَشَارُ وَلَا يُؤْخَذُ رَأْيُهُ في إِخْرَاجِ رُوْحِهِ وَالمَوْتُ يَأْتِيْهِ فُجْأَةً فَإِنْ جَاءَهُ المَوْتُ وَذَلِكَ الذَّنْبُ عِنْدَهُ لَمْ يَأْمَنُ مِنْ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَيْفَ يَكُوْنُ مُسْتَعِدّاً لِلِقَاءِ اللهِ مَنْ هُوَ مُقِيْمٌ عَلى مَا يُغْضِبُ اللهَ مِنَ المَعَاصِيْ وَلَا يَأْمَنُ أَنْ يَأْتِيَهُ المَوْتُ أَغْفَلَ مَا كَانَ وَالمَوْتُ آتِيْهِ لَا مَحَالَةَ صَدَقَ اللهُ ﴿ قُلْ إِنَّ المَوْتَ الذِيْ تَفِرُّوْنَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيْكُمْ ﴾ .

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ إِلَّا إِنَّهُ لَيْسَ لِلْمَوتِ وَقْتٌ مَعْلُوْمٌ عِنْدَ النَّاسِ فَيُخَافُ فِيْ ذَلِكَ الوقْتِ وَيُؤْمَن مِنْهُ في سَائِرِ الأَوْقَاتِ فَلَيْسَ يَأْتِي في الشِّتَاءِ دُوْنَ الصِّيْفِ فَيُخَافَ مِنْ الشِّتَاءِ وَيُؤمَنَ في الصَّيْفِ وَلَا بِالعَكْسِ وَلَا يَأْتِي في النَّهَارِ فَيُؤْمَنُ في اللَّيْلِ وَلَا بِالعَكْسِ .

وَلَيْسَ وَقْتٌ مِنْ العُمْرِ مَعْلُوْمٌ عِنْدَ النَّاسِ فَيَأْخُذَ أَبْنَاءَ الخَمْسِيْنَ فَيَأْمَنَهُ مَنْ دُوْنَ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ عِلَّة دُوْنَ عِلَّةٍ كَالحُمَّى وَالسِّلِّ فَيَأْمَنَهُ مَنْ لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ فَحَقٌّ عَلَى العَالِم بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ وَأَنَّهُ الذِيْ انْفَرَدَ بِعِلْمِ ذَلِكَ الوَقْتِ أَنْ لَا يَأمَنَهُ في وَقْتٍ مِنْ الأَوْقَاتِ وأَنْ يكونَ مُستعِداً لَهُ أَتَمَّ الاسْتِعْداد

فَمَنْ ذَكَرَ المَوْتَ بِفَرَاغِ قَلْبٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَع ذِكْرِهِ عَظِيْمَ مَا يَأْتِي البَشَرَ مِنْ العَذَابِ أَوْ بِالرَّحمَةِ مَعَ الاعْتِبَارِ بالذِيْنَ مَضَوْا قَبْلَهُ مِمَّنْ فَوْقَهُ وَدُوْنَهُ وَأَشْكَالَهُ وَأَمْثَالَهُ مِنْ أَقَارِبَ وَأَصْدِقَاءٍ وَزُمَلاءٍ وَأَقْرَانٍ وَجِيْرَانٍ وَمَشَايخ

وَمُلُوْكٍ وَأَسَاتِذَةٍ وَاخْوَانٍ قَالَ بَعْضُهُمْ يَرْثِي أَخاً لَهُ :

يَا صَاحِبِيْ إِنَّ دَمْعِي اليَوْمَ مُنْهَمِلٌ
عَلَى الخُدُوْدِ حَكَاهُ العَارِضُ الهَطِلُ
وَفي الفُؤادِ وَفي الأَحْشَاءِ نَارُ أَسىً
إِذَا أَلَمَّ بِهَا التِّذْكَارُ تَشْتَعِلُ
عَلَى الأَحِبَّةِ والإِخْوَانِ إِذْ رَحَلُوْا
إِلَى المقَابِرِ والأَلْحَادِ وانْتَقَلُوْا
كُنَّا وَكَانُوْا وَكَانَ الشَّمْلُ مُجْتَمِعاً
وَالدَّارُ آهِلَةٌ وَالحَبْلُ مُتَّصِلُ
حَدَابِهِمْ هَادِمُ اللَّذَّاتِ في عَجَلٍ
فَلَمْ يُقِيْمُوا وَعَنْ أَحْبَابِهِمْ شُغِلُوا
وَلَمْ يَعُوْجُوا على أَهْلٍ وَلاَ وَلَدٍ
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُوْنُوا بَيْنَهُمْ نَزَلُوْا
إِنِّي لأَعْجَبُ لِلدُّنْيَا وَطَالِبِهَا
وَلِلْحَرِيْصِ عَلَيْهَا عَقْلُهُ هَبَلُ
وَغَافِلٍ لَيْسَ بِالمَغْفُولِ عَنْهُ وَإِنْ
طَالَ المَدَى غَرَّهُ الامْهَالُ وَالأَمَلُ
نَاسٍ لِرِحْلَتِهِ نَاسٍ لِنُقْلَتِهِ
إِلَى القُبُوْرِ التِيْ تَعْيَا بِهَا الحِيَلُ
فِيْهَا السؤال وَكَمْ هَوْلٍ وَكَمْ فِتَنٍ
لِلْمُجْرِمِيْنَ الأُلَى عَنْ رَبِّهِمْ غَفَلُوا

وَفِي القُبُـوْرِ نَعِيْمٌ لِلتَّقِيّ كَمَـا
فِيْهَـا العَـذَابُ لِمَنْ فِي دِيْنِـهِ دَخَـلُ

قُـلْ لِلْحَـزِيْنِ الـذِيْ يَبْكِيْ أَحِبَّتَـهُ
إِبْـكِ لِنَفْسِـكَ إِنَّ الأَمْـرَ مُقْتَبِـلُ

فَسَوْفَ تَشْرَبُ بـالكَأْسِ الـذِيْ شَرِبُـوا
بِهَـا إِنْ يَكُنْ نَهـلٌ مِنْهَـا وَإِنْ عَـلَلُ

فَـاغْـنَمْ بَقِيَّـةَ عُـمْـرٍ مَـرَّ أَكْثَـرُهُ
فِي غَيْـرِ شَيْءٍ فَمَهْـلاً أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ

ثُمَّ اعْلَمْ أَلْهَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ الرِّضَا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَرزَقَنَا وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ الاسْتِعْدَادَ لِمَا أَمَامَنَا أَنَّهُ مَا مِن مَخْلُوقٍ مَهْمَا امْتَدَّ أَجَلُه وَطَالَ عُمْرُهُ إِلَّا وَالموتُ نَازِلٌ بِهِ وَخَاضِعٌ لِسُلْطَانِهِ وَلَوْ جَعَلَ اللّهُ الخُلُودَ لأَحَدٍ مِن الخَلْقِ لَكَانَ الأَوْلَى بِذَلِكَ الأَنْبِيَآءَ وَالرُّسُلَ المُطَهَّرِيْنَ المُقَـرَّبِينَ وَكَانَ أَوْلَاهُم بِذَلِكَ صَفْوَةَ أَصْفِيَائِهِ وَخِيْرَتِهِ مِن خَلْقِهِ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ على الاطْلَاقِ مُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِم أَجْمَعِيْنَ .

قَالَ اللّهُ تَعَالَى ﴿ ومَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الخَالِدُونْ﴾ وَقَالَ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُوْنَ ﴾ فَالمَوْتُ حَتْمٌ لا مَحِيْصَ وَلَا مَفَرَّ مِنْهُ يَصِلُ إِلَيْنَا في أَيِّ مَكَانٍ كُنَّا قَالَ اللّهُ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمْ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُم فِي بُرُوْجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ .

وَلَوْ نَجَا أَحَدٌ مِن المَوْتِ لِبَسْطَةٍ فِي جِسْمِهِ أَوْ قُوَّةٍ فِي بَدَنِهِ أَوْ وَفْرَةٍ فِي مَالِهِ أَو سَعَةٍ فِي سُلْطَانِهِ وَمُلْكِهِ لَنَجَا مِنَ المَوْتِ كَثِيْرٌ مِن النَّاسِ ، وَإِلَّا فَأَيْنَ عَادٌ وَثَمُودُ وَفِرْعَوْنُ ذُوْ الأَوْتَادِ أَيْنَ الاكَاسِرَةُ وَأَيْنَ القَيَاصِرَةُ وَالصَّنَادِيْدُ

الأَبْطَالُ ذَهَبُوْا في خَبَرِ كَانَ .

شِعْرَاً :

نَبْكِيْ على الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ
جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوْا
أَيْنَ الأَكَاسِرَةُ الجَبَابِرَةُ الأُلَى
كَنَزُوا الكُنُوزَ فمَا بَقَيْنَ وَلاَ بَقُوْا
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الفَضَاءُ بِجَيْشِهِ
حَتَّى ثَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
فَالمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفَائِسٌ
وَالمُسْتَغِرُّ بِمَا لَدَيْهِ الأَحْمَقُ

فالموتُ لا يَخْشَى أحداً مِن الخَلْقِ ولا يُبْقِي عَلَى أَحَدٍ مِنهُم وَيَهْجِمُ على الكَبِيرِ والصغيرِ والقوي والضَّعِيفِ والمُعَالِجِ والمُعَالَجِ والغَنِي والفقيرِ والرَّئِيْسِ والمَرْؤُوْسِ وكُلّ عندَهُ على السَّوَى كما قِيل :

هُوَ الموتُ مُثْرٍ عِنْدَهُ مِثْلُ مُعْدِمٍ
وَقَاصِدُ نَهْجٍ مِثْلُ آخَرَ نَاكِبِ
وَدِرْعُ الفَتَى في حُكْمِهِ دِرْعُ غَادَةٍ
وَأَبْيَاتُ كِسْرَى مِن بُيُوتِ العَنَاكِبِ

فَمَتَى لَزِمَ ذَلِكَ وَدَوَامَ عَلَيهِ بِتَدَبُّرٍ وَتَفَكُرٍ بِقَلْبٍ حَاظِرٍ في كُلِ وَقْتٍ عَظُمَتْ مَعْرِفَتُهُ بالمَوْتِ وَفَجْأَتِهِ وَأَنَّهُ نَازِلٌ بِهِ كَمَا نَزَلَ بِمَنْ مَضَى قَبْلَهُ لاَ مَحَالَةَ فَإِذَا عَظُمَتْ مَعْرِفَتُهُ بِذَلِك قَصُرَ أَمَلُهُ فَإِذَا قَصُرَ أَمَلُهُ حَذِرَ قَلْبُهُ مِن

المَوْتِ ارْتَقَبَ الموتَ فإذَا كَانَ مُرْتَقِباً لَهُ سَارَعَ إلى الأَسْتِعْدَادِ لَهُ والأَسْتِبَاقِ إلى الخَيْرَاتِ قَبْلَ الفَوَاتِ .

ولا بأسَ بالتَّدَاوِي إذَا وَقَعَ بِهِ مَرَضٌ أَوْ وَجَعٌ بِمَا هُوَ مُبَاحٌ فإنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً وفي الحَدِيْثِ عن ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ « أنَّ اللهَ تَعالَى لَمْ يُنْزِلْ دَاءَ إلا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً إلَّا الهَرَمَ فَعَلَيْكُم بالْبَانِ الْبَقرِ فَإنَّها تَرُمُّ مِن كُلِّ شَجَر » .

وفي الحديثِ الآخر عن أبي سَعِيْدٍ أنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إلا أَنْزَلَ لَهْ دَواءً عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ إلا السَّامُ وَهُوَ المَوْتُ » فإذَا أَرادَ اللهُ الشِّفَاءَ يَسر ذَلِكَ لِلْعَبْدِ وَوَفَّقَهُ لإسْتِعْمَالِ الدَّوَاءِ عَلَى وَجْهِهِ وفي وَقْتِهِ فَيَبْرَأُ بإذْنِ اللهِ .

قال القُرْطُبي عَلَى قولِهِ لَمْ يَضَعْ دَاءً إلا وَضَعَ لَهُ شِفاءً هَذِهِ الكَلِمَةُ صَادِقَةُ العُمُومِ لأنَّهَا خبرٌ عن الصَّادِقِ المَصْدُوْقِ عن الخالِقِ القَدِيْرِ أَلَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الخَبِيْرِ فالدَّاءُ والدواءُ خَلْقَهُ والشِّفَاءُ والهلاكُ فِعْلُهُ وَرَبط الأسْبَاب بالمُسَبباتِ حِكْمَتُهُ وَحُكْمُهُ فَكُل ذَلِكَ بقَدَرٍ لَا مَعْدِلَ عَنْهُ .

وقال ابنُ حَجَرٍ على قَولِهِ جَهِلَهُ مَن جَهِلَهُ وَمِمَّا يَدْخُلُ فِيْهَا ما يَقَعُ لِبَعْضِهِم أنه يُدَاوِي مِن دَاءٍ بِدَوَاءٍ فَيَبْرَأُ ثُمَّ يَعْتَرِيْهِ ذلكَ الداءُ بِعَيْنِهِ فَلا يَنْجَحُ وَسَبَبُهُ الجَهْلِ بِصِفَةٍ مِن صِفاتِ الدَّوَاءِ فَرُبَّ مَرِيْضَيْنِ تَشابَهَا وَيَكُونُ أَحَدُهُمَا مُرَكَّباً لا يَنْجَعُ فيه مَا يَنْجَعُ في غَيرِ المُرَكَّبِ فَيَقَعُ الخَطَأُ وَقَدْ يَكُونُ مُتَّحِداً لكن يُرِيْدُ اللهُ أن يَنْجَحَ وَهُنَا تَخضَعُ رِقَابُ الأَطِبَاءِ وَلِهَذَا قَالَ بعضهم .

إن الـطَّبِيْبَ لَـذُوْ عَـقْـلٍ وَمَعْـرِفَـةٍ
مَـا دَامَ في أَجَـلِ الإِنْسَـانِ تَـأْخِيْـرُ
حَتَّى إِذَا مَـا انْقَضَـتْ أَيَّـامُ مُـدَّتِـهِ
حَـارَ الـطَّبِيْبُ وَخَـانَتْـهُ العَـقَـاقِيْـرُ

وَمِمَّا وَرَدَ في الحَثِ على الاستعدادِ للموتِ ما يلي :

يـا رَاقِـدَ الليـلِ مَسْـرُوْرَاً بـأَوَّلِـه
إِنَّ الحَـوَادِثَ قَـدْ يَـطْرُقنَ أَسْحَـارَا
كَمْ قَدْ أَبَادَتْ صُرُوْفُ الدَّهْرِ مِن مَلِكٍ
قَـدْ كَـانَ في الـدهـرِ نَفَّـاعـاً وَضَرَّارَا
يَـا مَن يُعَـانِقُ دُنْيَـا لا بَـقَـاءَ لَهَـا
يُمْسِـيْ وَيُصْبِـحُ في دُنْيَـاهُ سَفَّـارَا
هَـلاَّ تَـرَكْتَ مِن الـدُّنْيَـا مُعَـانَقَـةً
حَتَّى تُعَـانِقَ في الفِـرْدَوْسِ أَبْـكَـارَا
إِنْ كُنْتَ تَبْغِيْ جِنَـانَ الخُلْدِ تَسْكُنُهَـا
فَـيَنْبَغِـيْ لَـكَ أَنْ لَا تَـأْمَـنِ الـدَّارَا

اللهم يا مُصْلِحَ الصَّالِحينَ أَصْلِحْ فَسَادَ قُلُوبِنَا واسْتُرْ في الدنيا والآخِرَةِ عُيُوْبَنَا واغفرْ بعَفْوِكَ ورحمتِكَ ذنوبَنَا وَهَبْ لَنا مُوْبِقاتِ الجَرَائِرِ واسترْ علينا فَاضِحَاتِ السَّرَائِرِ ولا تُخْلِنَا في مَوْقَفِ القِيَامَةِ مِن بَرْدِ عَفْوِكَ وَغُفْرانِكَ ولا تَتْرُكْنَا مِن جَمِيْلِ صَفْحِكَ وَاحْسَانِكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدينا وَلِجَميعِ المسلمين برحمتكَ يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين .

(فَصْــلٌ)

ثم اعْلَمْ أَنَّ الاكْثَارِ مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ مُسْتَحَبٌّ مُرَغَّبٌ فِيه ولَهُ مَنَافِعُ وَفَوَائِدُ جَلِيْلَةٌ منها قِصَرُ الأَمَلِ ٢ الزُهْدُ في الدُنْيا ٣ القَنَاعَةُ مِنها باليَسِيْر ٤ الرغْبَةُ في الآخِرَةِ ٥ التَزَوُدُ لِلآخِرَةِ بالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ٦ الإعْتِنَاءُ بالوَصِيَّةِ وَالمُبَادَرَةِ فِيها ٧ الابتعادُ عن المَعَاصِي .

وَوَرَدَ عنه صلى اللهُ عليه وسلم أنَّهُ قَالَ أَكْثِرُوا ذكْرَها ذِمِ اللذاتِ المَوتَ وكانَ صلى اللهُ عليه وسلم إذَا ذَهَبَ ثُلُثُ الليلِ قَامَ فقالَ أَيُّها الناسُ اذكُرُوْا اللهَ جاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ المَوتُ بِمَا فِيهِ .

وَلَما سُئِلَ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّم عَن الأَكْيَاسِ مِن الناسِ مَنْ هُمْ قال أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وأَحْسَنُهُم لَهُ اسْتِعْدَاداً أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُنْيا ونَعِيْمِ الآخِرَةِ وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَكْثِرُوْا ذِكْرَهَا ذِمِ اللَّذَاتِ يَعْنِيْ المَوتَ فَإِنَّهُ مَا كَانَ في كَثِيْرٍ إلَّا قَلَّلَهُ ولا قَلِيْلٍ إلَّا جَزَّأَهُ رَواهُ الطبرانيُّ باسناد حسن .

وعن أنسٍ رضي اللهُ عنه أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَرَّ بمَجْلِسِ قَومٍ وَهُمْ يَضْحَكُونَ فَقَالَ أَكْثِرُوْا مِن ذِكْرِهَا ذِمِ اللَّذاتِ أَحْسِبُهُ قال : فإنَّه مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ في ضِيْقٍ مِن العَيْشِ إلَّا وَسَّعَهُ ولا في سَعَةٍ إلَّا ضَيقَهُ عَلَيهِ رواه البزار باسناد حسن والبيهقي باختصار .

وفي حديث أبي ذَرٍ قُلْتُ يا رسولَ اللهِ فَمَا كَانَتْ صُحُفُ إبراهيمَ عَلَيهِ السَّلامُ قال كانَتْ عِبَراً كُلُهَا : عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بالمَوتِ ثُمَّ هُوَ يَفْرَحُ

عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بالقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ عَجِبْتُ لِمَنْ رَأَى الدُّنْيَا وَتقَلُّبَهَا بأَهْلِهَا ثُمَّ اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بالحِسَابِ غداً ثُمَّ لا يَعْمَل رواه ابن حبان في صحيحه وغيره .

شِـعْراً :

قِفْ بـالقُبُـورِ وَقُـلْ عَلَى سَـاحَـاتِهَـا
مَنْ مِنكُمُ الـمَغْمُـوْرُ في ظُـلُمَـاتِـهَـا
وَمَـنِ الـمُـكَـرَّمُ مِـنكـمُ فـي قَـعْـرِهَـا
قَـدْ ذَاقَ بَـرْدَ الأَمْنِ مِـن رَوْعَـاتِـهَـا
أَمَّـا السُّكُـونُ لِـذِي العُيُـونِ فَـوَاحِـدٌ
لَا يَـسْتَبِيْـنُ الـفَضْـلُ فـي دَرَجَـاتِـهَـا
لَـوْ جَـاوَبُـوْكَ لأَخْـبَـرُوْكَ بِـأَلْـسُـنٍ
تَصِفُ الـحَقَـائِقَ بَعْـدُ مِـن حَـالاَتِهَـا
أَمَّـا الـمُـطِيْـعُ فَنَـازِلٌ فـي رَوْضَـةٍ
يُـفْضِيْ إِلى مَـا شَـاءَ مِن دَوْحَـاتِهَـا
والـمُجْـرِمُ الـطَّاغِـيْ بِـهَـا مُـتَـقَـلِّبٌ
فـي حُـفْـرَةٍ يـأْوِيْ إِلـى حَيَّـاتِـهَـا
وَعَـقَـارِبٌ تَـسْـعَـى إِلَـيْـهِ فَـرُوْحُـهُ
فِـي شِـدَّةِ التَّـعْـذِيْبِ مِن لَـدَغَـاتِهَـا

آخـر :

تَـرَى الـذي اتَّخَـذَ الـدُّنْيَـا لَـهُ وَطَنـاً
لم يَـدْرِيْ أَنَّ المَنَايَـا عَنـه تُـزْعِجُـهُ

مَن كَانَ يَعْلَمُ أنَّ المَوْتَ مَدْرَجُهُ
والقَبْرَ مَنْزِلُهُ والبَعْثَ مَخْرَجُهُ
وَأَنَّهُ بَيْنَ جَنَّاتٍ سَتَبْهَجُهُ
يَوْمَ القِيَامَةِ أَوْ نَارٍ سَتنْضِجُهُ
فَكُلُ شَيْءٍ سِوَى التَّقْوَى بِهِ سَمَجٌ
وَمَا أَقَامَ عَلَيْهِ فَهُوَ أَسْمَجُهُ

وعن أبي هريرةَ قال خَرَجْنَا مَعَ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في جَنَازَةٍ فَجلَسَ إلى قَبْرٍ مِنها فقَالَ مَا يَأْتِيْ عَلى هَذا القَبْرِ يَوْمٌ إلا وَهُوَ يُنَادِيْ بِصَوْتٍ ذَلِقٍ طَلِقٍ يَا ابْنَ آدمَ نَسِيْتَنِي أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّيْ بَيْتُ الوَحْدَةِ وَبَيْتُ الغُرْبَةِ وَبَيْتُ الوَحْشَةِ وَبَيْتُ الدُوْدِ وَبَيْتُ الضِّيْقِ إلَّا مَنْ وسَّعَنِيْ اللهُ عليهِ ثُمَّ قالَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم القَبْرُ إمَّا رَوْضَةٌ مِن رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النارِ رواه الطبراني في الأوسط .

ثُمَّ إنَّ الناسَ في هذا المَقَام على أَقْسَامٍ مِنْهُمُ المُنْهَمِكُ في الدُنْيَا المُحِبُ لِشَهَوَاتِهَا فَهَذَا يَغْفُلُ قَلْبُهُ لا مَحَالَةَ عن ذِكْرِ المَوْتِ وَإِنْ ذُكِّرَ بِهِ كَرِهَهُ وَنفَرَ واشْمَأَزَّ مِنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَرُبَّمَا كَرِهَ الذيْ ذَكَرَ المَوْتَ وَتَبَاعَدَ عَنْهُ ، وقِسْمٌ مُنْهَمِكٌ أيضاً وغَارِقٌ في بُحُوْرِ الدُنْيَا ولا يَذكُرُ المَوْتَ وإن ذَكَرَهُ فَذِكْرُهُ لَهُ تأسفاً على دُنْيَاهُ وَمُفَارَقَتِهَا .

وَأَقْرَبُ عِلَاجٍ لِهَذَا القِسْمِ أَنْ يُطِيْلُوا التَّفَكُّرَ لَيْلَهُمْ وَنَهَارَهُمْ في أَجَلِ هَذِهِ الحَيَاةِ وَهُمْ إِذَا فَكَّرُوْا في ذلكَ عَرَفُوا قَطْعاً أَنَّهُم تارِكُوْهَا ولا بُدَّ وَلَيْسَ ذَلِكَ بَعْدَ مائةِ سَنَةٍ بَلْ هُمْ في كُلِّ لَحْظَةٍ مُهَدَّدِيْنَ بِفِرَاقِ الدُنْيَا مُرْغَمِيْنَ لا مُخْتَارِيْنَ وَيَتْرُكُونَ كُلَّ شَيْءٍ وَحِيْنَئِذٍ يَسْتَوِيْ مَنْ يَمْلِكُ المَلَايِيْنَ

والعَمَارَاتِ والقَنَاطِيرِ المقنْطَرَةِ مِن الذهَبِ والفِضَّةِ والأَرَاضِي والملايِيْنَ وَالبَلاَيِيْن مِمَّا ذُكِرَ .

وَمَنْ لاَ يَمْلِكُ مِنْهَا إلاَّ ثَوْبَهُ فَقَطْ يَسْتَوِيَانِ في أنَّ كُلًّا مِنْهُمَا كَأَنَّهُ لم يَرَ هَذَا الوُجُود وَلَكِنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ اخْتلافاً عَظِيْماً في بَرْزَخِهِمَا وفي آخِرَتِهِمَا ، وَمِن الدَّوَاءِ النافِع لِمَنْ أُصِيْبَ بِمَرَض حُبِّ الدُّنْيَا أنْ يَنْظُرَ بِعَيْنِهِ إلى مَنْ في المُسْتَشْفَيَاتِ مِن المَرْضَى الذينَ تَنَوعَتْ أَمْرَاضُهُم وبودِّ أَحَدِهِم لَوْ مَلَكَ الدُّنْيَا وَبَذَلَهَا لِمَنْ يَشْفِيْهِ مِن مَرَضِهِ أَو يُخَفِّفُهُ عنه .

وكذلكَ يَنْظُرُ إلى المَوْتَى الذِيْنَ يَمُوتُونَ كُلَّ يَوْمٍ في المُسْتَشْفَيَاتِ وَغَيْرِهَا مِن مِثْلِهِ في السِّنِّ وَأَقَلَّ وَأَكْبَر وَيَنْظُرُ إلى الَّذِيْنَ يَمُوتُونَ حَولَهُ مِن أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ وَأَحْبَابِهِ وَجِيْرَانِهِ وَمَنْ تَقَعُ عَلَيْهِم عَيْنُهُ قائلًا لِنفْسِهِ أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَك وَبَيْنَ هَؤلآءِ فإذا أَذْعَنَتْ واعْتَرَفَتْ أَنَّهُ لا فَرْقَ بادرَهَا بِقَولِهِ إذاً سَتَكُونِيْنَ مِثْلَهُم .

فَمَعَ تَكْرَارِ هَذَا تَتَبَدَّلُ حالُه بإذْنِ اللهِ وَتَهُونُ عَلَيهِ الدُّنْيَا وَيَسْهلُ عليهِ إخْرَاجَ الأَعْمَالِ الخَيْرِيَّةِ مَهْمَا كَثُرَتْ إنَّ هَذَا المَنْظِرُ تَنْصَدِعُ لَهُ القُلُوبُ إنْصِدَاعاً لاَ تَهُونُ بِهَا الدُّنْيَا فَقَطْ ولِذَلِكَ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ إذا شَيَّعَ جَنَازَةً رَجَعَ لا يَعِي وَرُبَّمَا مَكَثَ أَيَّاماً مَرِيضاً مِنْ هَذَا الهَوْلِ الذِيْ نَزَلَ بِهِ وَأَذْهَلَهُ حَتَّى عَنْ نَفْسِهِ قال الشاعر :

وَلَمْ أَرَى كَالأَمْوَاتِ أَفْجَعَ مَنْظِراً
وَلاَ وَاعِظِيْ جُلاَّسِهِمْ كَالمَقَابِرِ

وَكَيْفَ لاَ يَكُونُ هَكَذَا وَهُوَ يَرَى أَحَدَ إخْوَانِهِ جُثَّةً هَامِدَةً في مُنْتَهَى

الخُضُوعِ لِمَنْ يُودِعُونَهُ تِلْكَ الحُفْرَةَ المُظْلِمَةَ لا يُنَازِعُهُم عِنْدَ ادْخَالِهِم لهُ في أَيِّ تَصَرُفٍ يَتَصَرَّفُونَهُ فِيهِ وَقَدْ كَانَ قَبلَ ذَلِكَ تَضِيْقُ عَنْهُ الدُّنْيا على سَعَتِهَا قال بعضُ المُحْتَضَرِيْن :

خَلِيْلَيَّ جُرَّانِي بِبُرْدِيْ إِلَيْكُمَا
فَقَدْ كَانَ قَبْلَ اليَوْمِ صَعْباً قِيَادِيَا

وقال آخَرُ :

لَعَمْرِكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عن الفَتَى
إذا حَشْرَجَتْ يوماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

وَقِسْمٌ تَائِبٌ يُكْثِرُ ذِكْرَ المَوْتِ لِيَنْبَعِثَ مِن قَلْبِهِ الخَوفُ فَيَفِي بِتَمَامِ التَّوْبَةِ وَرُبَّمَا يَكْرَهُ المَوتَ خَشْيَةَ أَنْ يَخْتَطِفَهُ قَبْلَ تَمَامَ تَوْبَتِهِ وَقَبْلَ إِصْلَاحِ الزَّادِ ولا يَدْخُلُ هَذَا تَحْتَ قَولِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ لِأَنَّ هَذَا لَا يَكْرَهُ لِقَاءَ اللهِ بَلْ يَكْرَهُ فَوْتَ لِقَائِهِ .

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالَتْ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةً لِلمَوْتِ فَكُلُّنَا يَكْرَهُ الموتَ قال لَيس كَذَلِكَ وَلَكِنْ المُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وإِنَّ الكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ .

وفي رِوَايَةِ شُرَيْحِ بنِ هَانِىءٍ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّه

صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مَن أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ قالَ فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا أُمَّ المُؤْمِنِيْنَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيرةَ يَذْكُرُ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حَدِيْثاً إنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ هَلَكْنَا .

فَقَالَتْ إنَّ الْهَالِكَ مَنْ هَلَكَ بقولِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ومَا ذَاكَ ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ ولَيْسَ مِنَّا أَحداً إلَّا وَهُوَ يَكْرَهُ المَوْتَ .

فَقَالَتْ قَدْ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَلَيْسَ بالذي نَذْهَبُ إِلَيْهِ وَلَكِنْ إِذَا شَخصَ البَصَرُ وَحَشْرَجَ الصَّدْرُ واقْشَعَرَّ الجِلْدُ وَتَشَنَّجَتِ الأَصابعُ فَعِنْدَ ذَلِكَ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ لِقَاءَهُ رواه مسلم .

(فَصْــلٌ)

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ ذِكْرُ المَوْتِ النَّافِعِ هُوَ أَنْ يَقُولَ المَوْتَ فَقَطْ فإِنَّ هَذَا قَلِيْلُ الفَائِدَةِ بَلْ لَا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ مِن تَفَكُّرٍ بِقَلْبٍ فَارِغٍ عَنِ الشَّهَواتِ وَاسْتِحْضَارِ لِحَالِهِ عِنْدَ المَوْتِ وأَهْوَالِهِ وَشِدَائِدِهِ وَسَكَرَاتِهِ وَيَتَفَكَّرُ في شِدَّةِ النَّزْعِ وَالأَلَم الذِيْ يُعَانِيْهِ عِنْدَ خُرُوْجِ الرُوْحِ مِن البَدَنِ أَعَانَنَا اللهُ على ذَلِكَ وَجَمِيْعِ المسلمين .

حَتَّى قَالُوا إنَّهُ أَشَدُّ مِن الضَّرْبِ بالسَّيْفِ وَنَشْرِ المَنَاشِيْرِ وَقَرْضِ المَقَارِيْضِ لِأَنَّهُ يَهْجُمُ عَلَى الإِنْسَانِ وَيَسْتَغْرِقُ جَمِيْعَ أَجْزَائِهِ مِن كُلِّ عِرْقٍ

مِنَ العُرُوْقِ وَعَصَبٍ مِنَ الأَعْصَابِ وَجُزْءٍ مِنَ الأَجْزَاءِ وَمَفْصِلٍ مِن المَفَاصِلِ وَمِن أَصْلِ كُلِّ شَعْرَةٍ وَبَشَرَةٍ مِن المَفْرِقِ إلى القَدَمِ لِيَسْتَلَّ الرُوْحَ مِنْهَا .

فَلَا تَسْأَلْ عَنْ كَرْبِهِ وَأَلمِهِ وَلِذَلِكَ لا يَقْدِرُ على الصِّيَاحِ مَعَ شِدَّةِ الأَلَمِ لِزِيَادَةِ الكَرْبِ حَيْثُ قَهَرَ كُلَّ قُوَّةٍ وَضَعَّفَ كُلَّ جارِحَةٍ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ قوَّةُ الاستِغَاثَةَ أَمَّا العَقْلُ فَقَدْ غَشِيَهُ وَشَوَّشَهُ .

وَأَمَّا اللسَانُ فَقَدْ حَجَزَهُ وَأَبْكَمَهُ وَالأَطْرَافُ فَقَدْ ضَعَّفَهَا وَوَهَّنَهَا وَخَدَّرَهَا فَإِنْ بَقِيَتْ فِيْهِ قُوَّةٌ سَمِعْتَ لَهُ عِنْدَ نَزْعِ الرُّوْحِ وجَذْبِهَا خُوَاراً وَغَرْغَرَةً مِنْ حَلقِهِ وَصَدْرِهِ وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَارْبَدَّ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ ظَهَرَ مِنَ التُّرَابِ الذِيْ هُوَ أَصْلُهُ .

وَقَدْ جَذَبَ مِنْهُ كُلَّ عِرْقٍ على حِدَّتِهِ فَالأَلَمُ مُنْتَشِرٌ في دَاخِلِهِ وَخَارِجِهِ حَتَّى تَرْتَفِعَ الحَدَقَتَانِ إلى أَعَالِيْ أَجْفَانِهِ . وَتَتَقَلَّصُ الشَّفَتَانِ وَيَتَقَلَّصُ اللِّسَانُ وَتَخْضَرُّ أَنَامِلُه فلا تَسْأَلْ عَنْ بَدَنٍ يُجْذَبُ مِنْهُ كُلُّ عِرْقٍ مِنْ عُرُوْقِهِ .

ثُمَّ يَمُوْتُ كُلُّ عُضْوٍ مِن أَعْضَائِهِ تَدْرِيْجاً فَتَبْرُدُ أَوَّلاً قَدَمَاهُ ثُمَّ سَاقَاهُ ثم فَخِذَاهُ وَلِكُلِّ عُضْوٍ سَكْرَةٌ بَعْدَ سَكْرَةٍ وَكَرْبَةٌ بَعْدَ كَرْبَةٍ حَتَّى يَبْلُغَ بِهَا إلى الحُلْقُومِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْقَطِعُ عَنْ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا وَتَعْظُمُ حَسْرَةُ المَفَرِّطِ وَيَنْدَمُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ .

شِـــعْراً :

دَعْ عَنْكَ مَا قَـدْ كَانَ فِي زَمَنِ الصِّبَـا

وَاذْكُـرْ ذُنُـوْبَـكَ وَابْكِهَـا يَـا مُـذْنِبُ

وَاذْكُـرْ مُنَـاقَشَـةَ الحِسَـابِ فَـإِنَّـهُ
لاَ بُـدَّ يُحْصَى مَـا جَنَيْتَ وَيُكْتَبُ
لَمْ يَنْسَـهُ المَلَكَـانِ حِيْنَ نَسِيْتَـهُ
بَـلْ أَثْبَـتَـاهُ وَأَنْـتَ لاَهٍ تَـلْعَـبُ
وَالـرُّوْحُ فِيْـكَ وَدِيْعَـةٌ أُوْدِعْـتَـهَـا
سَتَـرُدُّهَـا بِـالـرَّغْمِ مِنْـكَ وَتُسْلَبُ
وَغُـرُوْرُ دُنْـيَـاكَ التِي تَسْعَى لَـهَـا
دَارٌ حَـقِيْـقَـتُـهَـا مَتَـاعٌ يَـذْهَـبُ
وَاللَّيْـلَ فَـاعْلَمْ وَالنَّهَـارَ كِـلاَهُـمَـا
أَنْفَـاسُنَـا فِيْـهَـا تُـعَـدُّ وَتُـحْـسَـبُ
وَجَـمِيْـعُ مَـا خَـلَّفْـتَـهُ وَجَـمَـعْـتَـهُ
حَقـاً يَقِيْنـاً بَـعْـدَ مَـوْتِـكَ يُنْـهَبُ
تَـبـاً لِـدَارٍ لاَ يَـدُوْمُ نَعِـيْـمُـهَـا
وَمَشِيْـدُهَـا عَـمَّـا قَلِيْـلٍ يَـخْـرَبُ
وَعَـوَاقِبُ الأَيَّـامِ فِي غُـصَّـاتِـهَـا
مَـضَضٌ يَـذِلُّ لَهَـا الأَعَـزُّ الأَنْجَبُ
فَعَلَيْـكَ تَقْـوَى اللهِ فَـالْـزَمْهَـا تَفُـزْ
إِنَّ الـتَّقِـيَّ هُـوَ البَـهِـيُّ الأَهْـيَبُ
وَاعْمَـلْ بِطَاعَتِـهِ تَنَلْ مِنْـهُ الرِّضَـا
إِنَّ الـمُـطِيْـعَ لَـهُ لَـدَيْـهِ مُـقَـرَّبُ
وَاقْنَـعْ فَفِي بَعْضِ القَنَـاعَـةِ رَاحَـةٌ
وَاليَـأْسُ مِمَّـا فَـاتَ فَهُـوَ المَـطْلَبُ

وَاخْتَرْ قَرِيْنَكَ واصْطَفِيْهِ تَفَاخُراً
إنَّ القَرِيْنَ إلى المُقَارِنِ يُنْسَبُ
وَدَعِ الكَذُوْبَ فَلا يَكُنْ لَكَ صَاحِباً
إنَّ الكَذُوْبَ لَبِئْسَ خِلًّا يُصْحَبُ
واحْفَظْ لِسَانَكَ واحْتَرِزْ من لَفْظِهِ
فالمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيَعْطَبُ
وزِنِ الكَلامَ إذا نَطَقْتَ ولا تَكُنْ
ثَرْثَارَةً في كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ
وارْعَ الأَمَانَةَ والخِيَانَةَ فاجْتَنِبْ
واعْدِلْ ولا تَظْلِمْ يَطِيْبُ المَكْسَبُ
واحْذَرْ مُصَاحَبَةَ اللئِيْمِ فإنَّهُ
يُعْدِيْ كَمَا يُعْدِيْ الصَّحِيْحَ الأَجْرَبُ
واحْذَرْ مِن المَظْلُومِ سَهْماً صَائِباً
واعْلَمْ بأنَّ دُعَاءَهُ لَا يُحْجَبُ
فَاحْفَظْ هُدِيْتَ نَصِيْحَةً أَوْلاكَهَا
بَرٌّ نَصُوحٌ لِلأَنَامِ مُجَرِّبُ
صَحِبَ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ مُسْتَبْصِراً
وَرَأى الأُمُورَ وَمَا تَؤُبُ وَتُعْقِبُ

اللَّهُمَّ اخْتِمْ لَنَا بِخَاتِمَةِ السَّعَادَةِ وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ كُتِبَتْ لَهُم الحُسْنَى وزِيَادَة وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَمِمَّا يُعِيْنُ على الاسْتِعْدَادِ لِلْمَوْتِ ذِكْرُ مَرارَتِه كَمَا فَهِمْتَه مِمَّا سَبَقَ وَمِمَّا يَأْتِي وَقَدْ سَمَّاهُ صَلى اللهُ عليه وسلم هَاذِمُ اللَّذَاتِ وَتَفَكَّرْ في المَوتى الذين حُبِسُوا على أَعْمَالِهم لِيُجَازَوا بهَا فَلَيْسَ فِيْهم مَن يَقْدِرُ على مَحْو خَطِيْئَةٍ ولا عَلى زِيَادَةِ حَسَنةٍ وَلو قُلْتَ لَهُمْ تَمَنَّوا وَأَنْطَقَهُم اللهُ لَقَالُوا نُرَدُّ إلى الدّنيَا لِنَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ لاَ يُرِيْدُونَ ذَهَباً ولا فِضَّةً ولا بُسْتاناً ولا فُلَّةً ولا عَمَارة. ولَتَعَجَّبَ مِنَّا ومِن حَالِنا وتَفْرِيطنا وانْهِمَاكِنَا في الدنيا.

وَمِمَّا يُعِينُ عَلى الاسْتِعْدَادِ لِلْمَوْتِ أَيْضاً مَا بَعْدَ المَوْتِ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ وَعَذَابِهِ أَوْ نَعِيْمِهِ وَالبَعْثِ وَالحَشْرِ وَالحِسَابِ وَالصِّرَاطِ وَالمِيْزَانِ وَالحَوْضِ وَالشَّفَاعَةِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَمَا أَعَدَّ اللهُ لأَهْلِهِمَا اجْمَالاً وَتَفْصِيْلاً .

شِــعْراً :

خَلَتْ دُوْرُهُمْ مِنْهُـمْ وَأَقْـوَتْ عِـرَاصُهُـمْ
وَسَـاقَهُمْ نَـحْـوَ الْـمَـنَـايَـا الـمَقَـادِرُ
وَخَلَّوْا عَنْ الـدُّنْيَـا وَمَـا جَمَعُـوْا لَهَـا
وَضَـمَّـهُـم تَـحْـتَ التُّرَابِ الـحَـفَـائِـرُ

آخــرُ :

وَفِي ذِكْـرِ هَـوْلِ المَـوْتِ وَالقَبْـرِ وَالبِلَى
عَــنْ الـلَّهْـوِ وَالـلَّذَاتِ لِلْمَـرْءِ زَاجِـرُ
أَبَـعْـدَ اقْـتِـرَابِ الأَرْبَـعِـيْـنَ تَـرَبُّصٌ
وَشَـيْـبٌ قَـذالٍ مُـنْـذِرٌ لـلأَكَـابِـرِ

كَـأَنَّـكَ مَـغْـنِـيٌّ بِـمَـا هُـوَ ضَـائِـرُ
لِنَفْسِـكَ عَمْداً أَوْ عَنْ الـرُّشْـدِ حَـائِـرُ

آخَــرُ :

إِنَّ الـلَّيَـالِـيْ مِـنْ أَخْـلاَقِـهَـا الـكَـدَرُ
وَإِنْ بَـدَا لَـكَ مِـنْـهَـا مَـنْـظَرٌ نَـظِرُ
فَـكُـنْ عَـلى حَـذَرٍ مِـمَّـا تَـغُـرُّ بِـهِ
انْ كَـانَ يَنْفَـعُ مِنْ غِـرَّاتِهَـا الـحَـذَرُ
قَـدْ أَسْمَعَتْـكَ اللَّيَـالِيْ مِن حَـوَادِثِهَـا
مَـا فِـيـهِ رُشْـدُكَ لَكِـنْ لَسْـتَ تَعْـتَبِـرُ
يَـا مَــنْ يُـغَـرُّ بِـدُنْـيَـاهُ وَزُخْـرُفِـهَـا
تَـاللَّهِ يُـوْشِـكُ أنْ يُـودِيْ بِـكَ الغَـرَرُ
وَيَـا مُـدِلاًّ بِـحُـسْـنٍ رَاقَ مَـنْـظَرُهِ
لِلْقَبْـرِ وَيْـحَـكَ هَـذَا الـدَّلُّ وَالفَـخَـرُ
تَهْـوَى الحَـيَـاةَ وَلاَ تَـرْضَى تُـفَـارِقُهَـا
كَـمَـنْ يُـحَـاوِلُ وِرْداً مَـالَـهُ صَـدَرُ
كُـلُّ امْـرِىءٍ صَـائِرٌ حَتْمـاً إِلى جَـدَثٍ
وَإِنْ أَطَـالَ مَـدى آمَـالِـهِ الـعُـمُـرُ

أَخْرَجَ الطَّيَالِسِيّ وَابْنُ أبي شَيْبَةَ في المُصَنَّفِ وَأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ وَهَنادُ بنُ السِّرى في الزّهْدِ وعبدُ بنُ حُمَيدٍ وأبو دَاودَ وابنُ جرِيرٍ وَابنُ أَبي حَاتم وصَحَّحهُ والحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ والبَيْهَقِيّ في كِتَابِ عَذابِ القَبْرِ عن البَرَاءِ بن عَازِب رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ خَرَجْنا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه

وسلم في جَنَازةِ رَجُلٍ مِن الأنْصَارِ فانْتَهَيْنَا إلى القَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَلَسْنا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ على رُؤسِنَا الطَّيْرُ وفي يَدِه عُودٌ يَنْكُتُ بهِ في الأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فقالَ اسْتَعِيْذُوا باللهِ من عَذَابِ القَبْرِ مَرَّتَيْنِ أو ثلاثاً .

ثُمَّ قَالَ انَّ العَبْدَ المؤمِنَ اذا كَانَ في انْقِطاعٍ من الدُّنْيا وَإقْبالٍ من الآخِرَةِ نزلَ اليهِ مَلائكةٌ من السَّمَاءِ بِيْضُ الوُجُوهِ كأنَّ وُجُوهَهُم الشَّمْسُ معهم كَفَنٌ مِنْ أَكْفانُ الجنّةِ وَحَنُوطِ الجَنَّةِ حتى يَجْلِسُوا منه مَدَّ البَصَرِ.

وَيَجِيءُ مَلَكُ الموتِ حتى يَجْلِسَ عند رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ اخْرُجي إلى مَغْفِرَةٍ مِن اللهِ وَرِضْوَانٍ قال فَتَخْرُجُ تَسِيْلُ كما تَسِيْلُ القَطْرَةُ مِن فِيِّ السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا فإذا أَخَذَهَا لم يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حتى يأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا في ذلك الكَفَنِ وفي ذَلِكَ الحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأرْضِ .

فَيَصْعَدُونَ بها فلا يَمُرُّونَ على مَلأٍ مِن الملائِكَةِ إلَّا قَالُوا ما هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فَيَقُولُونَ فلانُ بنُ فلانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ التِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بها في الدنيا حتى يَنْتَهُوا بها إلى السَّماءِ فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ له فَيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إلى السَّمَاءِ التي تَلِيْهَا إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي في عِلِّيِّيْنَ وَأَعِيْدُوهُ إلى الأرْضِ فَانِّيْ مِنْهَا خَلَقْتُهم وفيها أُعِيْدُهم ومنهَا أُخْرِجُهم تَارَةً أُخْرَى .

قَالَ فَتُعَادُ رُوْحُه فَيَأْتِيْهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانه فيَقُولانِ له مَا هَذا الرَّجُلِ الذي بُعِثَ فِيْكُم فَيَقُولُ هُوَ رسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلم فَيَقُولَانِ له

وَمَا عِلْمُكَ فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ به وَصَدَّقْتُ فَيُنَادِي مُنَادٍ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوه مِن الجَنَّةِ وَأَلْبِسُوه مِن الجَنة وافتَحُوا له بَاباً إلى الجَنَّةِ فَيَأْتِيْهِ مِن رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ له في قَبْرِهِ مَدَّ البَصَرِ .

قَالَ وَيَأْتِيْهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بالذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوْعَدُ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ الذِيْ يَجِيءُ بالخَيْرِ فيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتى أَرْجِعَ إلى أَهْلِيْ وَمَالِيْ .

قَالَ وَانَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ في انْقِطَاعٍ مِن الدُّنْيَا وَاقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُوْدُ الوُجُوهِ مَعَهُمْ المُسُوْحُ فَيَجْلِسُوْنَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الموتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيْثَةُ أُخْرُجِيْ إلى سَخطٍ مِن اللّهِ وَغَضَبٍ قال فَتَفَرَّقُ في جَسَدِهِ فَيَنْزِعُهَا كَمَا يُنْتزَعُ السَّفُّودُ مِن الصُّوفِ المَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فإذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدعُوْهَا في يَدِهِ طَرْفَة عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا في تِلْكَ المُسُوحِ .

وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيْحِ جِيْفَةٍ وُجِدَتْ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بهَا فلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلى ملأٍ مِن المَلائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذِهِ الرُّوحُ الخَبِيْثَةُ فَيَقُولُون فلانُ بنُ فلانٍ بأَقْبَحِ أَسْمَائِه التِيْ كَانَ يُسَمَّي بِهَا في الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهِيْ بِهَا إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُ فَلا يُفتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لا تُفَتَّحُ لَهُم أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ) .

فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَهُ في سِجِّيْن في الأَرضِ السُّفْلَى

فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً ثم قَرَأَ ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَكأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُه الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيْحُ في مَكَانٍ سَحِيْقٍ ﴾ فَتُعَادُ رُوْحُه في جَسَدِه وَيَأْتِيْهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِه فَيَقُولانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِيْ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا دِيْنُكَ فَيَقُولُ هَاه هَاه لاَ أَدْرِيْ .

فَيَقُولاَن لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الذِي بُعِثَ فِيْكُم فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِيْ فَيُنَادِي مُنَادٍ مِن السَّمَاءِ أَنْ كذبَ عَبْدِيْ فأفرشُوه مِن النَّارِ وَافْتَحُوا له بَابَا إلى النَّارِ فَيَأْتِيْهِ مِن حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فيه أَضْلاعُه وَيَأْتِيْهِ رَجُلٌ قَبِيْحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيْحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بالذِيْ يَسُوْءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوْعَدُ فيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ الذِيْ يَجِيءُ بالشَّرِّ فَيَقُولُ أنا عَمَلُكَ الخَبِيْثُ فَيَقُولُ رَبِّ لا تُقِمْ السَّاعَةَ » .

شِـعْراً :

وَإِنِّيْ وَأَهْلِيْ وَالـذِيْ قَـدَّمَـتْ يَـدِيْ
كَـدَاعٍ إِلَيْـهِ صَحْبَـهُ ثُـمَّ قَـائِـلِ
لأَِصْحَـابِـهِ إِذْ هُـمْ ثَـلاَثَـةُ إِخْـوَةٍ
أَعِيْنُـوْا عَلى أَمْـرٍ بِيَ الـيَـوْمَ نَـازِل
فِـرَاقٌ طَـوِيْـلٌ غَيْـرَ ذِي مَثْنَـوِيَّـةٍ
فَمَـاذَا لَـدَيْكُم بـالـذِي هُـوَ غَـائِـلِ
فَقَـالَ امْرُؤٌ مِنْهُم أَنَـا الصَّاحِبُ الـذِيْ
أَطَعْتُـكَ فِيْمَـا شِئْتَ قَبْـلَ التَّزَايُـلِ
فَـأَمَّـا إِذَا جَـدَّ الـفِـرَاقُ فَـإِنَّنِـيْ
لِمَـا بَيْنَنَـا مِـنْ خُلَّةٍ غَيْـرُ وَاصِلِ

أَمُــدُّكَ أَحْيَــانــاً فَــلاَ تَسْتَــطِيْعُنِي
كَــذَلِـكَ أَحْيَــانـا صُــرُوفُ التَّــدَاوُلِ
فَخُــذْ مَــا أَرَدْتَ الآنَ مِنِّي فَــإنَّنِيْ
سَيُسْلكُ بي مِنْ مَهْيَلٍ مِنْ مَهَـايِـلِ
وَإنْ تُبْقِنِيْ لاَ تبْقَ فَـافْـهَم مَـقَــالَتِـيْ
وَعَجِّـلْ صَلاَحـاً قَبْـلَ حَتْفٍ مُعَـاجِـلِ
وَقَــالَ امْرُؤٌ قَــدْ كُنْتُ جِـدّاً أُحِبُّــهُ
فَــأُوْثِـرُهُ مِنْ بَيْـنِهِـم بِــالتَّـفَـاضُــلِ
غِنَــائِيَ أَنِّي جَـاهِـدٌ لَــكَ نَــاصِــحٌ
إِذَا جَدَّ جِدُّ الْكَـرْبِ غَيْرُ مُقَــاتِـلِ
وَلَــكِـنَّــنِـي بَــاكٍ عَــلَيْــكَ وَمُعْــوِلٌ
وَمُثْنٍ بِخَيْــرٍ عِنْدَ مَنْ هُــوَ سَــائِـلِ
وَمُتَّبِــعُ الْمَــاشِيْـنَ أَمْشِـيْ مُشَيِّـعــاً
أُعِيْنُ بِــرِفْـقٍ عُقْبَــةً كُــلَّ حَــامِــلِ
إلى بَيْتِ مَثْـوَاكَ الـذي أَنْتَ مُــدْخَـلٌ
وَحِيْنَئِــذٍ أَرْجِـعْ بِمَــا هُــوَ شَــاغِـلِ
كَــأَنْ لَـمْ يَكُـن بَيْـنِي وَبَـيْنَــكَ خُـلَّةٌ
وَلاَ حُـسْـنُ وُدٍّ مَــرَّةً فــي الـتَّـبَـاذُلِ
وَذَلِــكَ أَهْــلُ المَــرْءِ ذَاكَ غِنَــاؤُهُــم
وَلَيْسُــوا وَإنْ كَـانُـوا حِـرَاصـاً بِـطَائِـلِ
وَقَــالَ امْرُؤٌ مِنْهُم أَنَــا الأَخُ لاَ تَــرَى
أخـاً لَـكَ مِثْلِيْ عِنْدَ جَهْـدِ الـزَّلاَزِلِ

لَـدَى القَبْـرِ تَلْقَـانِي هُنَـالِــكَ قَـاعِــداً
أُجَــادِلُ عَنْـكَ فِي رِجَــاعِ التَّجَــادُلِ
وَأَقْعُــدُ يَـوْمَ الـوَزْنِ فِي الكِفَّـةِ الَّتِيْ
تَكُـونُ عَلَيْهَـا جَـاهِـداً فِي التَّثَـاقُـلِ
فَـلاَ تَنْسَنِيْ وَاعْـلَمْ مَكَـانِـيْ فَـإِنَّنِيْ
عَلَيْـكَ شَفِيْقٌ نَـاصِـحٌ غَيْـرُ خَـاذِلِ
وَذَلِـكَ مَـا قَـدَّمْتَ مِنْ صَـالِـحٍ غَـداً
تُـلاقِيْـهِ إِنْ أَحْسَنْتَ يَـوْمَ التَّفَـاضُــلِ

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا بِتَذْكِيْرِكَ مُنْتَفِعِيْنَ وَلِكِتَابِكَ وَرَسُولِك مُتَّبِعِيْنَ وَعَلى طَاعَتِكَ مُجْتَمِعِيْنَ وَتَوَفَّنا يَا رَبَّنَا مُسْلِمِيْنَ وَأَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِين وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلَّى اللّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

في صَحِيْحِ أَبِي حَاتِم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إِذا قُبِرَ أَحَدُكُمْ أو الإِنْسَانُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا المُنْكَرُ ، وَلِلآخَرِ النَّكِيْرُ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهُوَ قَائِلٌ مَا كَانَ يَقُولُ .

فإن كَانَ مُؤْمِناً قَالَ هُوَ عَبْدُ اللهِ ورسولُه أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ فَيَقُولاَنِ لَهُ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذلكَ ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُوْنَ ذِرَاعاً ، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيه .

وَيُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَقُولُ أَرْجِعُ إِلى أَهْلِيْ وَمَالِيْ فَأُخْبِرُهُمْ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوْسِ الذي لاَ يُوْقِظُهُ إلا أَحَبُّ أَهْلِهِ إليهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذلك .

وإنْ كَانَ مُنَافِقاً قَالَ لاَ أَدْرِيْ كُنْتُ ، أَسْمَعُ الناسَ يَقُولُونَ شَيْئاً فكُنْتُ أَقُولُهُ ، فيَقُولاَنِ لَهُ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ، ثم يُقَالُ لِلأَرْضِ التَئِمِيْ عَلَيْهِ ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيْهَا أَضْلاَعُهُ ، فلا يَزَالُ مُعَذَّباً حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِن مَضْجَعِهِ ذلك .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَ صلى اللهُ عليه وسلَّم قال إذا احْتُضِرَ المُؤْمِنُ أَتَتْهُ الملائكةُ بِحَرِيْرَةٍ بَيْضَاءَ ، فَيَقُولُون أخْرُجِيْ أَيَّتُهَا الرُّوْحُ الطَّيبَةُ رَاضِيَةً مَرْضِياً عَنْكِ ، إلى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ ، وَرَبٍ غَيْـرِ غَضبَانٍ .

فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ مِن رِيْحِ المِسْكِ ، حَتَّى إِنَّهُ لِيُنَاوِلُه بَعْضُهُم بَعْضَاً حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّماءِ ، فَيَقُولُونَ مَا أَطيَبَ هَذِهِ الرِّيْحَ التِي جاءَتْكُم مِن الأَرْضِ .

فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ المؤمِنِيْنَ ، فَهُمْ أَشَدُّ فَرَحاً بِهِ مِن أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ ، يَقْدُمُ عَلَيْهِ ، فَيَسْأَلُونَهُ مَاذَا فَعَلَ فُلانٌ قالَ فيقولُون دَعُوْهُ يَسْتَرِيْحُ فإنَّهُ كَانَ في غَمِّ الدُّنْيَا فإذا قَالَ أَمَا أَتَاكُم قَالُوا ذُهِبَ بِهِ إلى أمِّهِ الهَاوِيَةِ وإنَّ الكَافِرَ إذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلاَئِكَةُ العَذَابِ بِمُسْحٍ فَيقُولُون أُخْرُجِيْ سَاخِطَةً مَسْخُوْطاً عَلَيْكِ إلى عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَخْرُجُ كَانْتَنِ رِيْحِ جِيْفَةٍ حَتَّى يَأْتُونَ بِهَا بابَ الأَرْضِ فَيَقُولُونَ فما أَنْتَنَ هَذِهِ الرِيح حَتَّى يَأْتُون بِها أَرْوَاحَ الكُفَّارِ .

وَأَخْرَجَهُ أَبُو حَاتِمٍ في صَحِيحِهِ وقال إنَّ المُؤْمِنَ إذا حَضَرَه الموتُ حَظَرَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ ، فَإِذَا قُبِضَ جَعلَتْ رُوْحَهُ في حَرِيْرَةٍ بَيْضَاءَ ، فَيُنْطَلَقُ بِهَا إِلى بَابِ السَّمَاءِ ، فَيَقُولُونَ ما وَجدنَا رِيحاً أَطْيَبَ مِن هَذِهِ فَيُقالُ مَا فعَلَ فُلاَنٌ مَا فَعَلْتْ فُلاَنَةٌ ، فَيُقَالُ دَعُوْهُ يَسْتَرِيْحُ ، فَإِنَّهُ كَانَ في غَمِ الدُنْيَا .

وَأَمَّا الكافِرُ إِذَا قُبِضَتْ نَفْسُهُ ، ذُهِبَ بِهَا إلى الأَرْضِ ، فَتَقُولُ خَزَنَةُ الأَرْضِ مَا وَجَدْنَا رِيْحَاً أَنْتَنَ مِنْ هَذِهِ ، فَيَبْلُغُ بِهِ إِلى الأَرْضِ السُّفْلَى .

وَرَوَى النَّسَائِي في سُنَنِهِ مِن حَدِيْثِ عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال هَذَا الذِي تَحرَّكَ لَهُ العَرْشُ ، وَفُتِّحَتْ لَهُ أَبْوابُ السَّمَاءِ وَشَهِدَ لَهُ سَبْعُونَ ألفاً مِنَ الملائكةِ لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ ، قال النَسائِي يَعْنِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ .

وقال هَنَّادُ بنُ السَّرِي حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ فُضَيْلٍ عن أبيهِ عن ابن أبي مُلَيْكَةَ ، قال مَا أجيرَ أحَدُ مِن ضَغْطَةَ القَبْرِ ، ولا سَعْدَ ابْنَ مُعَاذٍ الذي مِنْدِيْلٌ مِن مَنَادِيْلِهِ خَيْرٌ مِن الدُنْيَا وَمَا فِيْهَا .

قال وحدثنا عبدةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ بنُ عُمَرَ عن نافعٍ قَالَ لَقدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ شَهِدَ جَنَازَةَ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ سَبْعُوْنَ ألفَ مَلَكٍ ، لم يَنْزِلُوا إِلى الأَرْضِ قَطْ ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم قال لَقَدْ ضُمَّ صاحِبُكُم في القَبْرِ ضَمَّة ، وقِيْلَ فِيه رضي الله عنه شعراً :

وما اهْتَزَّ عَرْشُ اللهِ مِن أَجْلِ هَالِكٍ
سَمِعْنَا بِهِ إِلَّا لِسَعْدِ أَبِي عَمْرِو

وَوَرَدَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لَمَّا دَفَنَ ابْنَتَهُ جَلَسَ عِنْدَ القَبْرِ فَتَربَّدَ وَجْهُهُ .

ثُمَّ سُرِيَ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ رَأَيْنَا وَجْهَكَ آنِفاً ثُمَّ سُرِيَ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم ذَكَرْتُ ابْنَتِيْ وَضَعْفَهَا وَعَذاب القَبْرِ فَدَعَوْتُ اللهَ فَفَرَّجَ عَنْهَا وَيْمُ اللهِ لقَدْ ضُمَّتْ ضَمَّةً سَمِعَهَا مَنْ بَيْنَ الخَافِقَيْنِ .

وَرُوِيَ عن ابْرَاهِيْمَ الغَنِوِي عن رَجُلٍ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَمَرَّتْ جَنَازَةُ صَبي فَبَكَتْ فَقُلْتُ لَهَا مَا يُبْكِيْكِ يَا أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ فَقَالَتْ هَذا الصَّبِيُ بَكَيْتُ لَهُ شَفَقَةً عليهِ مِن ضَمَّةِ القَبْرِ .

« مَــوْعِظَــةٌ »

عِبَادَ اللهِ اغْتَنمُوا مَوَاسِمَ الطَّاعَاتِ فَأَيَّامُ المَوَاسِمِ مَعْدُوْدَةٌ وَانْتَهِزُوْا فُرَصَ الأَوقاتِ فَسَاعاتُ الإِسْعَادِ مَحْدُوْدَةٌ وَجُـدُّوْا في طَلَبِ الخَيْرَاتِ فَمَنَاهِلُ الرِّضْوَانِ مَوْرُوْدَةٌ وَقُوْمُوْا عَلَى قَدَمِ السَّدَادِ واتقوا اللهَ الذي إليهِ تُحْشَرُوْن .

وكُونُوا مِن الذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم خوفاً وطمعاً وَمِمَّا رَزَقَهُم يُنْفِقُون قال تعالى ﴿ فلا تَعْلَم نفسٌ ما أخفيَ لهم مِن قرة أعينٍ جزاءً بما كانوا يَعْمَلُون• أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوون• أَمَّا الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فلهُم جَنَّاتُ المَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ .

فَيَا سَعَادَةَ أُولى الطاعاتِ الذينَ اجْتَبَاهُم مَوْلَاهُم لِدَارِ السلامِ واصْطَفاهُم لِحَضِيْرةِ قُدْسِهِ وَأَوْرَدَهُم مَنَاهِلَ الإِنعامِ وَأَوْلَاهُم حَلَاوَةَ الأُنْسِ وَوَالَاهُمْ بِمَواهِبِ الإِكرامِ وَسَقَاهُم مِن رَحِيْقٍ مَختومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وفي

ذَلِك فَلْيَتَنَافسِ الْمُتَنَافِسُون .

ويا مَسَرَةَ مَن شَاهَدَ مَعَالِم الرُّشْدِ فَسَلَكَ مَسَالِكَهُ وَكَانَ مِنْ الْمُسْتَبْشِرِيْنَ الذينَ يومَ القِيامَةِ وُجوهُمُ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ لا يَحْزُنُهم الفزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتلَقَاهُم الملائكةُ هَذَا يَوْمُكم الذي كُنتُم تُوعَدُون .

فَتَدَبَّرُوْا عِبَادَ اللهِ الأَمْرَ وانْظُرُوْا بعَيْنِ النَّاقِدِ البَصِيْرِ وَتَذَكَّرُوْا العَرْضَ يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العَالَمِين العَلِيْمِ الخَبِيْرِ وَاعْلَمُوا أَنَّ الظَالِمِيْنَ مَا لَهُم مِن وَلِيٍّ ولا نَصِيْرٍ « يَوْمَ يُقَالُ » ﴿ هَذا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾ .

اللَّهُم ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ واشْرَحْ صُدُوْرَنا وَيَسِّرْ أُمُورَنَا وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ واغفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى اللهُ على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْــلٌ)

إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فاعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ أيسَ مِن حَيَاتِهِ بَلْ يُسْتَحَبُّ لَهُ بِتَأَكُدٍ أَنْ يُكْثِرَ مِن قِرَاءةِ القُرآنِ والأَذْكَارِ وَيُكْرَهُ لَهُ الجَزَعُ وَسُوءُ الخُلُقِ وَالشَّتْمِ والمُخَاصَمَةِ والمُنَازَعَةِ في غَيرِ الأُمُورِ الدِّيْنِيَّةِ في الدِّفَاعِ عَنْهَا وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ شَاكِراً لِلهِ تعالى بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَيَسْتَحْضِرَ في ذِهْنِهِ أَنَّ هَذَا آخِرُ أَوْقَاتِهِ مِن الدنيا فَيَجْتَهِدُ على خَتْمِهَا بخَيرٍ وَيُكْثِرُ مِن قَولِ لَاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

وَيُبَادِرَ إِلى أَدَاءِ الحُقُوقِ إِلى أَهْلِهَا مِنْ رَدّ المَظَالِمِ والعَوَارِي

وَالوَدَائِعِ والغُصُوبِ وَيَسْتَحِلَّ أَهْلَهُ وَزَوْجَتَهُ وَوَالِدَيْهِ وَأَوْلَاده وَغِلْمَانَهُ وَجِيْرَانَهُ وَأَصْدِقَائَهُ وَزُمَلاءَهُ وَكُلَ مَنْ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مُعَامِلةٌ أَو مصاحَبَةٌ في سَفَرٍ أَوْ غيرِهِ أَوْ لَهُ تَعَلُقٌ بِشَيْءٍ .

وَأَخْرَجَ البَيْهَقِيُ وابنُ عَسَاكِرَ عَنْ عُبَادَةَ بن مُحَمَّدٍ بنِ عُبَادَةَ ابن الصامِتِ قال لَمَّا حَضَرَتْ عُبَادَةَ رَضِيَ اللهُ عنه الوَفَاةُ قَالَ أَخْرَجُوْا إِليَّ مَوالِيَّ وَخَدَمِيْ وَجِيْرَانِي وَمَن كانَ يَدْخُلُ عليَّ فَجُمِعُوْا له فقال إِنَّ يَوْمِيْ هَذَا لَا أَرَاهُ الَّا آخرَ يَوْمٍ يأتِي عَليَّ مِن الدنيا وَأَوَّلَ لَيْلَةٍ مِن الآخِرَةِ .

وإِنِيْ لَا أَدْرِيْ لَعَلَّهُ قَدْ فَرطَ مِنِّي إِليكم بِيَدِيْ أَوْ بِلِسَانِي شَيْءٌ وَهوَ والذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ القِصَاصُ يَوْمَ القِيامَةِ وَأُحَرِّجُ إِلى أَحَدٍ مِنكُم في نَفْسِهِ شَيْءٌ مِن ذَلِكَ إِلَّا اقْتَصَّ مِنِّيْ مِن قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ نَفْسِيْ فَقالُوا بَلْ كُنْتَ وَالِداً وَكُنْتَ مُؤَدِّباً قالَ وَمَا قَالَ لِخَادِمٍ سُوْءاً قَطْ فقالَ اعفَوْتُمْ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا نَعَمْ قال اللَّهم أَشْهَدْ . . . الخ .

وَوَرَدَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرٍو لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قَالَ انْظُرُوْا فُلاناً فإِنِّي كُنْتُ قُلْتُ لَهُ في ابْنَتِيْ قَوْلاً كَشِبْهِ العِدَةِ فَمَا أُحِبُّ أَن أَلْقَى اللهَ بثُلُثِ النِّفَاقِ فَأَشْهِدُكُم أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُهُ .

وَيَنْبَغِي أَنْ يُوْصِيَ بِأُمُورِ أَوْلَادِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ جَدٌ يَصْلَحُ لِلْوِلَايَةِ وَيُوصِيْ بمَا لا يَتَمَكَّنُ مِن فِعْلِهِ في الحَالِ مِن قَضَاءِ الدُيُونِ ونَحْوِ ذلِكَ وأَنْ يَكُونَ حَسَنُ الظَّنِ باللهِ تَعَالَى رَاجِياً عَفْوَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَرَحْمَتَهُ وإِحْسَانَهُ .

وَيَسْتَحْضِرَ في ذِهْنِهِ أَنَّهُ حَقِيْرٌ في مَخْلُوقَاتِ اللهِ تَعَالى وَأَنَّ اللهَ تعالى غَنِيٌ عن عَذَابِهِ وَعَنِ طَاعَتِهِ وأَنَّهُ عَبْدُهُ ولا يَطْلُبُ العَفْوَ والإِحْسَانَ

والصَّفْحَ والامْتِنَانَ إلَّا مِنْهُ جَلَّ وَعَلا وَتَقَدَس .

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ مُتَعَاهِداً نَفْسَهُ بِقِرَاءَةِ آياتٍ مِن القُرْآن العَزِيْزِ في الرَّجَاءِ وَكَذَلِكَ أَحَادِيْث الرَّجَاءِ يَقْرَؤُهَا أَوْ يَجْعَلُ مَنْ يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ خَيْرُهُ مُتَزَايِداً وَيُحَافِظَ عَلى الصَّلواتِ الخمسِ في أوقاتِها .

وَيَجْتَنِب النَّجاسَاتِ وَيَحْرِصَ عَلَى التَّطَهُرَ وَيَصْبِرَ عَلى مَشَقَّةِ ذَلِكَ وكذَا بَاقِي وَظَائِفَ الدِيْنَ يَحْرِصُ على أدائِها كَامِلَةً مُكَمَّلَةً وَلْيَحْذَرْ مِن التَّسَاهُلِ في ذَلِكَ فَإِنَّهُ أَقْبَحُ القَبَائِحِ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ مِن الدُنْيَا التي هِيَ مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ التَّفرِيْطَ فِيْمَا وَجَبَ عَلَيهِ أَو نُدِبَ إِلَيْهِ .

وَلِيَجْتَهِدْ في خَتْمِ عُمُرِهِ بِأَكْمَلِ الأَحْوَالِ وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُوْصِيَ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ بالصَّبْرِ عَلَيْهِ في مَرَضِهِ وَاحْتِمَالِ مَا يَصْدُرُ مِنه وَيُوْصِيْهِم أَيْضاً بالصَّبْرِ عَلَى مُصِيْبَتِهِمْ بِهِ وَيُوْصِيْهِم بالرِّفْقِ بِمَنْ يَخْلُفَه مِن طِفْلٍ وَغُلَامٍ وَجَارِيَةٍ وَيُوْصِيْهِم بالاحْسَانِ إلى أَصْدقَائِهِ وَيُعَلِمُهُم أن النبيَ صلى اللهُ عليه وسلم قال إِنَّ مِن أَبَرِ البِرّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّأَبِيْهِ .

وَقَدْ صَحَّ أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كَانَ يُكْرِمُ صَوَاحِبَاتِ خَدِيْجَةَ رَضِيَ اللهُ عنها بَعْدَ وَفَاتِهَا :

وَيُوْصِيْهِم بِتَعَاهُدِهِ بالدُّعَاءِ وَفِعْلِ مَا يُقَرِّبُ إلى اللهِ وَيَنْوِيْ الثواب لَهُ وَذَلِكَ كَالحَجِ والصَّدَقَةِ والأَضْحِيَةِ وَطَبْعِ المَصَاحِفِ والكُتُبِ الدِيْنِيَّةِ المُقَوِّيَةِ لِلشَّرِيْعَةِ المُحَمَّدِيَةِ والإِعَانَةِ على بناءِ المَسَاجِدِ.

وكالعَينِ الجَارِيَة وَنَحْوِ ذَلِكَ وَيُوصِيْهِم بأَنْ لا يَنْسَوْهُ بَلْ يَتَعَاهَدُوْه بالدُّعَاءِ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ .

وَيُسْتَحَبُ أنْ يَقُولَ لَهُم في وَقْتٍ بَعْدَ وَقْتٍ مَتى رَأَيْتُم مِنِّيْ تَقْصِيْراً في شَيْءٍ انْهَوْنِي عَنْهُ بِرِفْقٍ وَلُطْفٍ لِأَنَّ النَّفْسَ تَضْعُفُ في ذَلِكَ الوَقْتِ وَأَدُّوا إِليَّ النَّصِيْحَةَ في ذلكَ فإِنِي مُعَرَّضٌ لِلْغَفْلَةِ والسَّهْوِ والكَسَلِ والإِهْمَالِ فإِذَا قَصَّرْتُ فَنَشِّطُوْنِي وَعَاوِنُونِيْ عَلى التَّأَهبِ لِهَذَا السَّفرِ البَعِيْدِ والتَّغرُّبِ المُخِيْفِ .

شِعْراً :

وَلَم تَتَزَوَّدْ لِلرَّحِيْلِ وَقَدْدَنَا
وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ وَشِيْكٍ مُسَافِرُ
فَيَا لَهْفَ نَفْسِيْ كَمْ أُسَوِّفُ تَوْبَتِي
وَعُمْرِي فَانٍ والرَّدَى لِيَ نَاظِرُ
وَكُلُ الذي أَسْلَفْتُ في الصُحْفِ مُثْبَتٌ
يُجَازِيْ عَلَيْهِ عَادِلُ الحُكْمِ قَادِرُ

آخرُ :

تُخَرِّبُ مَعْمُوْراً وَتَعْمُرُ فَانِياً
فَلا ذاكَ مَوْفُوْرٌ ولا ذَاكَ عَامِرُ
وَهَلْ لَكَ إِنْ وَافَاكَ حَتْفُكَ بَغْتَةً
وَلَم تَكْتَسِبْ خَيْراً لَدَى اللهِ عَاذِرُ
أَتَرْضَى بِأَنْ تَفْنَى الحَيَاةُ وَتَنْقَضِيْ
وَدِيْنُكَ مَنْقُوصٌ وَمَالُكَ وَافِرُ

آخـــرُ :

كم ضَـاحِـكٍ والمَنَـايَا فَـوْقَ هَـامَتِـهِ
لَـوْ كَـانَ يَعْلَمِ غَيْبـاً مَـاتَ مِنْ كَمَـدِ
مَنْ كَـانَ لَمْ يُؤْتَ عِلْمـاً فِي بَقَـاءِ غَـدٍ
مَـاذَا تَـفَـكُـرُهُ فَـي رِزْقِ بَـعْـدَ غَـدِ

وإذا حَضَرَهُ النَّزْعُ فَلْيُكْثِرْ مِن قَوْلِ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ لِتَكُون آخِرَ كَلَامِهِ فَيَالَهُ مِن خِتَامٍ وَيَا لَهُ مِنْ طَابَعٍ ، فَعَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَقِنُوْا مَوْتَاكُم لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ .

وَيَسْتَحْضِرْ أَحَادِيْثَ الرَّجَا مِثْلُ حَدِيْثِ أَبِي ذَرٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَ صلى اللهُ عليه وسلم وعليه ثَوْبٌ أَبيضُ وَهو نَائِمٌ ثم أَتَيْتُهُ وقد اسْتَيْقَظَ فقال ما مِنْ عَبْدٍ قال لَا إِلهَ إِلا اللهُ ثم مَاتَ عَلى ذَلِكَ إِلا دَخَلَ الجَنَّةَ قُلْتُ وانْ زَنَى وإِنْ سَرَقَ قال وإِن زَنَى وَإِنْ سَرَقَ الحديثَ متفق عليه .

وَحَدِيث ابن عباس أَنَّ نَاساً مِن أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوْا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوْا وَزَنَوا وأَكْثَرُوْا فَأَتَوْا مُحُمَّداً صَلى اللهُ عليه وسلم فقالُوا إِنَّ الذي تَدْعُو إِليهِ لَحَسَنٌ لو تُخْبِرْنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَارةً فَنَزَلَ ﴿ والذينَ لا يَدْعُونَ مع اللهِ إلهاً آخرَ ولا يقتلونَ النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحقِ ولا يَزْنُون ﴾ الآيتين ـ ونَزَلَ ﴿ قل يَا عِبَادِي الذينَ أسرفُوا على أنفسِهم لا تَقْنَطُوا مِن رحمةِ اللهِ ﴾ الآية ونحو هذه الآية والأحاديثِ التي سَبَقَتْ .

اللهم ثَبِتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَأَلْهِمْنَا ذكرَكَ وشكرَكَ وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُوْرِ الإيمانِ واجْعَلنا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ واغفر لَنَا وَلوالِدينا وجميعِ

المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْــلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وإيَّاكَ وَجَمِيْعَ المسلمينَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أَنَّ في الجَنَائِزِ عِبَرٌ لِلْبَصِيْرِ ، وَفِيْهَا تَنْبِيْهٌ ، وَتَذْكِيْرٌ لأَهْلِ الغَفْلَةِ ، وَأَكْثَرُهُم لاَ تَزِيْدُهُ مُشَاهَدَتُهَا إلا قَسْوَةً ، لأَنَّهُم يَظُنُونَ أَنَّهُم أَبَداً إلى جَنَائِزِهِم يَنْظُرُوْنَ ولا يَحْسَبُوْنَ أَنَّهم لا مَحَالَةَ على الجَنَائِزِ يُحْمَلُونَ أَوْ يَحْسَبُونَ ولكنَّهُم عَلى القُربِ لا يُقَدِرُوْنَ ولا يَتَفَكَّرُوْنَ أَنَّ المَحْمُولِيْنَ على الجَنَائِزِ هَكَذَا كانُوا مِثْلَهُم يَحْسَبُونَ فَبَطَل حُسْبانُهُم وانْقَرَضَ عَلَى القُرْبِ زَمَانُهُم .

والبَصِيْرُ لاَ يَنْظُرُ إلى الجَنَائِزِ إلاَّ وَيُقَدِّرُ نَفْسَهُ مَحْمُولاً عَلَيْها فإنَّه مَحْمُولٌ عَلَيْهَا عَلَى القُرْبِ .

شِــعْراً :

(كُــلُ ابنِ أنْثَى وإنْ طَــالَتْ سَــلاَمَتُــهُ
يَــوْمــاً عَلى آلــةٍ حَــدْبَــآءَ مَحْمُــوْلُ)

خَــرُ :

(الاَ وَكَمَــا شَيَّعْتَ يَــوْمــاً جَــنَــازَةً
فَــأنْــتَ كَمَــا شَيَّعْتَهُم سَتُشَيَّــعُ)

وَكَانَ بَعْضُهم إذا رَأى جَنَازَةً قال : اغْدُوْا فإنَّا رَائِحُونَ مَوْعِظَةٌ بَلِيْغَةٌ وَغَفْلَةٌ سَرِيْعَةٌ يَذْهَبُ الأَوَّلُ ، والآخِرُ لاَ عَقْلَ لَهُ ، وقال آخَرُ ما شَهِدْتُ جَنَازَةً فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِي بِشَيْءٍ سِوَى مَا هُوَ مَفْعُولٌ بِهِ وما هُوَ صَائِرٌ إليهِ .

وَقَالَ الأَعْمَشْ كُنَّا نَشْهَدُ الْجَنائِزَ فَلاَ نَدْرِي مَنْ نُعَزِّي لِحُزْنِ الْجَمِيْع .

وَقَالَ ثَابِتُ الْبُنَانِي كُنَّا نَشْهَدُ الْجَنائِزَ فَلاَ نَرَى إلَّا مُقَنَّعاً بَاكِيَاً .

هَذَا حَالُ السَّلَفْ وَالآنْ انْظُرْ إلى مْشَيِّعِي الْجَنائِزْ بَعْضُهُمْ يَبْحَثُ بالْعَقَارْ وَبَعْضُهُمْ يَتَكَلَّمُ وَيَضْحكْ وَبَعْضُهُمْ يُعَدِّدُ مُخلَّفَاتِهْ وَيَنْدُرْ أَنْ تَرى الْمُتفَكِّرُ في جَنَازَتِه إذَا وَصَلَهُ الدَّوْر وَحُمِلَ إلى الْقَبْر الْمُظْلِمْ بَيْتِ الْوِحْدَة بَيْتِ الدّوْدِ والصَّدِيْدِ والْهَوَامْ .

قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدَ الْعَزِيْزِ لِبَعْضِ جلَسَائِه يَا فُلَانُ لَقَدَ أَرِقْتُ اللَّيْلَةَ أَتَفَكَّرُ في الْقَبْرِ وَسَاكِنِه إنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ الْمَيّتَ بَعْدَ ثَلاثَةٍ في قَبْرِهِ لَا اسْتَوْحَشْتَ مِنْ قُرْبِهِ بَعْدَ طُولِ الأنسِ مِنْكَ بِهِ وَلَرَأَيْت بَيْتَاً تَجُولُ فِيْهِ الْهَوَامُ وَيَجْرِي فِيْهِ الصَّدِيْدُ وَتَخْتَرِقُهُ الدِّيْدَانُ مَعَ تَغيرالرِّيْحِ وَبَلَى الاكْفَانُ بَعْدَ حُسْنِ الْهَيْئَةِ وَطِيْبِ الرِّيْحِ وَنَقَاءِ الثِّيَاب ثُمّ شَهِقَ شَهْقَةً خرَّ مَغْشِياً عَلَيْهِ .

وَكَانَ يَزِيْدُ الرَّقَاشِي يَقُولْ أَيُّها الْمَقْبُورُ في حُفْرَتِهْ وَالْمُتَخَلِّي في الْقَبْرِ بوُحَدَتِه الْمُسْتَأنِسِ فِي بَطْنِ الأَرْضِ بِأَعْمَالِهِ لَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ أعْمالِك اسْتَبْشَرْتَ ، وَبِأَيْ إِخْوانِكَ اغْتَبَطتْ ، ثُمَّ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ عِمَامَتَهْ .

ثُمَّ يَقُوْلُ اسْتَبْشِرَ واللّهِ بِأَعْمَالِـهِ الصَّالِحَةِ ، واغْتبطَ باخْـوانِـهِ الْمُتَعَاوِنِيْنَ على طَاعَةِ اللّهِ تَعَالَى وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحِ إِذَا أَشْرَفَ عَلَى المَقَابِرِ يَقُولْ مَا أَحْسَنَ ظَوَاهِرَكَ إنَّما الدَّواهِي في بَواطِنِكَ .

وَكَانَ عَطَاءُ السُّلَمِي إِذَا جَنَّ عَلَيْهِ اللّيْلِ خَرَجَ إلى الْمَقْبَرَة ثُمَّ يَقُولْ

غَداً عَطَاءٌ في الْقُبُور فَلا يَزَالُ عَطاءُ ذَلِكَ دَأْبُهُ حَتَّى يُصْبِحَ وَيُرْوَى أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ نَظَرَتْ إلى جَنازَةٍ زَوْجِها الْحَسَنِ ابْنِ الْحَسَنْ فَغَطَّتْ وَجْهَهَا وَقالَتْ :

وَكَـانُـوا رَجَـاءً ثُـمَّ أَمْـسَـوا رَزِيَّـةً
لَقَـدْ عَـظُمَتْ تِـلْكَ الـرَّزَايَـا وَجلَّتِ

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مَهْرانْ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ إلى الْمَقْبَرَة فَلَمَّا نَظَر إلى القُبُورِ بَكَى ثُمَّ أقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالْ يَا مَيْمُون ، هَذِهِ قُبُورِ أَبَائِي بَنِي أُمَيَّة كَأَنَّهُمْ لَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدّنْيَا في لَذّتِهِمْ وَعَيْشِهِمْ أَمَا تَرَاهُمْ صَرْعَى قَدْ حَلَّتْ بِهِمْ الْمَثُلاتْ واسْتَحْكَمَ فِيْهِم الْبِلَى وَأَصَابَتْهُم الْهَوَامُ مقِيْلاً في أَبْدَانِهِمْ ثُمَّ بَكَى وَقَالْ واللّهِ مَا أَعْلَمُ أحداً أَنْعَمَ مِمَّنْ صار إلى هَذِهِ القُبُورِ وَقَدْ أَمِنَ مِنَ عَذَابِ اللّهْ ، وَوُجِدَ مَكْتُوبٌ عَلى قَبْر :

وَقَـفْـتُ عَـلَى الأَحِـبَّـةِ حِـيْـنَ صُـفَّـتْ
قُـبُـورُهُـمْ كَـأَفْـرَاسِ الـرِّهَـانِ
فَـلَـمَّـا أَنْ بَـكَـيْـتُ وَفَـاضَ دَمْـعِـي
رَأَتْ عَـيْـنَـايَ بَـيْـنَـهُـمْ مَـكَـانِـي

آخَرُ :

أَبَـا غَـانِـمٍ أَمَـا ذُرَاكَ فَـوَاسِـعٌ
وَقَـبْـرُكَ مَعْـمُـورُ الـجَـوانِـبُ مُـحْـكَـمُ
وَمَـا يَـنْفَـعُ الْمَقْـبُـور عُـمْـرَانُ قَـبْـرِهِ
إِذا كَـانَ فِـيْـهِ جِـسْـمُـهُ يَـتَـهَـدَّمُ

شِعْرَاً : قَصِيْدَةٌ زُهْدِيَّةٌ وَعْظِيَّةٌ سَقَطَ بعْضُها وَعوضْناها عَنْهُ مَا بَيْنَ الأَقْوَاسْ :

لَا تَأْسَفَنَّ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا
فَالْمَوْتُ لَا شَكَّ يُفْنِيْنَا وَيُفْنِيْهَا

وَمَنْ يَكُنْ هَمُّهُ الدُّنْيَا لِيَجْمَعَهَا
فَسَوْفَ يَوْماً عَلَى رَغْمٍ يُخَلِّيْهَا

لَا تَشْبَعُ النَّفْسُ مِنْ دُنْيَا تُجَمِّعُهَا
وَبُلَغَةٌ مِنْ قِوَامِ الْعَيْشِ تَكْفِيْهَا

إِعْمَلْ لِدَارِ الْبَقَا رِضْوَانُ خَازِنُهَا
الْجَارُ أحْمَدُ وَالرَّحْمَنُ بَانِيْهَا

أَرْضٌ لَهَا ذَهَبٌ والمِسْكُ طِيْنَتُهَا
والزَّعْفَرانُ حَشِيْشٌ نَابِتٌ فِيْهَا

أَنْهَارُهَا لَبَنٌ مَّحْضٌ وَمِنْ عَسَلٍ
والخَمْرُ يَجْرِي رَحِيْقاً في مَجَارِيْهَا

وَالطَّيْرُ تَجْرِي عَلى الأَغْصَانِ عَاكِفَةً
تُسَبِّحُ اللَّهَ جَهْراً في مَغَانِيْهَا

مَنْ يَشْتَرِي قُبَّةً في العَدْنِ عَالِيَةً
في ظِلِّ طُوْبَى رَفِيْعَاتٍ مَبَانِيْهَا

دَلَّالُهَا المُصْطَفَى واللّهُ بَائِعُهَا
وَجُبْرَئِيْلُ يُنَادِي في نَوَاحِيْهَا

مَنْ يَشْتَرِيْ الدّارَ في الفِرْدَوْسِ يَعْمُرها
بِـرَكْعَةٍ في ظَـلَامِ اللّيْـلِ يُخْفِيْهَـا
أَوْ سَـدِّ جَـوْعَـةِ مِسْكِينٍ بِشِبْعَتِـهِ
في يَـوْمِ مَسْغَبَـةٍ عَـمَّ الغَـلَا فِـيْهَـا
النَّفْسُ تَـطْمَعُ في الـدُّنْيا وَقَـدْ عَلِمَتْ
أَنَّ السَّـلَامَـةَ مِنْهَـا تَـرْكُ مَـا فِيْهَـا
وَاللَّهُ لَـو قَنِعَتْ نَـفْسِـي بِمَـا رُزِقَـتْ
مِـنَ المَـعِيْشَـةِ إلَّا كَـانَ يَكْـفِـيْهَـا
وَالـلَّهِ وَالـلَّهِ أَيْـمَـانٌ مُـكَـرَّرَةٌ
ثَـلَاثَـةٌ عَـنْ يَمِيْنٍ بَـعْـدَ ثَـانِيْهَـا
لَـوْ أَنَّ فـي صَـخْـرَةٍ صَـمَّـا مُلَمْلَمَةٍ
في البَحْـرِ رَاسِيَـةٌ مِلْسٌ نَـوَاحِيْهَـا
رِزْقَـاً لِعَبْـدٍ بَـرَاهَـا الـلَّهُ لَانْفَـلَقَتْ
حَتَّى تُـؤَدِّي إِلَيْـهِ كُـلَّ مَـا فِيْهَـا
أَوْ كَـانَ فَوْقَ طِبَـاقِ السَّبْـعِ مَسْلَكُهَـا
لَسَهَّـلَ اللَّهُ في المَـرْقَى مَـرَاقِـيْهَـا
حَتَّى يَنـال الّـذِيْ في اللوْحِ خُطّ لَـهُ
فَـإِنْ أَتَـتْـهُ وإلَّا سَـوْفَ يَـأْتِـيْهَـا
أَمْـوَالُنَـا لِـذَوِيْ المِيْـرَاثِ نَجْمَعُهَـا
وَدَارُنَـا لِـخَـرَابِ الـبُـومِ نَـبْـنِـيْهَـا
لَا دَارَ لِلْمَـرْءِ بَعْـدَ المَـوتِ يَسْكُنُهَـا
إِلَّا التي كَـانَ قَبْـلَ المَـوْتِ يَبْنِيْهَـا

فَمَنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ
وَمَنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيْهَا
والنَّاسُ كالْحَبِّ والدّنْيا رَحىً نّصُبِتْ
لِلْعَالَمِيْنَ وَكَفُّ المَوْتِ يُلْهِيْهَا
فَلاَ الاقَامَةُ تُنْجِي النّفسَ مِنْ تَلَفٍ
وَلاَ الفِرَارُ مِنَ الأحْدَاثِ يُنْجِيْهَا
وَكُلُّ نَفْسٍ لَهَا زَوْرٌ يُصَبِّحُهَا
مِنَ المَنِيَّةِ يَوْماً أَوْ يُمَسِّيْهَا
تِلْكَ المَنَازِلُ في الآفَاقِ خَاوِيَةٌ
أَضْحَتْ خَرَاباً وَذَاقَ المَوْتَ بَانِيْهَا
أَيْنَ المُلوكُ الَّتِي عَنْ حَظِّهَا غَفَلَتْ
حَتَّى سَقَاهَا بِكَأْسِ المَوْتِ سَاقِيْهَا
أَفْنَى القُرُونَ وأَفْنَى كُلَّ ذِي عُمُرٍ
كَذَلِكَ المَوْتُ يُفْنِي كُلَّ مَا فِيْهَا
فَالمَوْتُ أَحْدَقَ بالدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا
والنَّاسُ في غَفْلَةٍ عَنْ تَرْكِ مَا فِيْهَا
لَوْ أَنَّهَا عَقَلَتْ مَاذَا يُرَادُ بِهَا
مَا طَابَ عَيْشٌ لَّهَا يَوماً وَيُلْهِيْهَا
نَلْهُوا وَنَأْمَلُ آمالاً نُسَرُّ بِهَا
شَرِيْعَةُ المَوْتِ تَطْوِيْنَا وَتَطْوِيْهَا
فَاغْرِسْ أُصُولَ التُّقى مَا دُمْتَ مُقْتَدِراً
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ المَوْتِ لاَقِيْهَا

« تَجْنِي الثِّمَارَ غَداً في دَارِ مَكْرُمَةٍ
لاَ مَنَّ فِيْهَا وَلاَ التَّكْدِيْرُ يَأْتِيْهَا »
« فِيْهَا نَعِيْمٌ مُقِيْمٌ دَائِماً أَبَداً
بِلاَ انْقِطَاعٍ وَلاَ مَنٍّ يُدَانِيْهَا »
« الأُذْنُ وَالعَيْنُ لَمْ تَسْمَعْ وَلَمْ تَرَهُ
وَلَمْ يَدُرْ في قُلُوبِ الخَلْقِ مَا فِيْهَا »
« فَيَا لَهَا مِنْ كَرَامَاتٍ إِذا حَصَلَتْ
وَيَا لَهَا مِنْ نُفُوسٍ سَوْفَ تَحْوِيْهَا »
« وَهَذِهِ الدَّارُ لاَ تَغْرُرْكَ زَهْرَتُهَا
فَعَنْ قَرِيْبٍ تَرَى مُعْجِبُكَ ذَاوِيْهَا »
« فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ لاَ يَخْدَعُكَ لاَمِعُهَا
مِنَ الزَّخَارِفِ وَاحْذَرْ مِنْ دَوَاهِيْهَا »
« خَدَّاعَةٌ لَمْ تَدُمْ يَوْماً عَلَى أَحَدٍ
وَلاَ اسْتَقَرَّتْ عَلى حَالٍ لَيَالِيْهَا »
« فَانْظُرْ وَفَكِّرْ فَكَمْ غَرَّتْ ذَوِي طَيْشٍ
وَكَمْ أَصَابَتْ بِسَهْمِ المَوْتِ أَهْلِيْهَا »
اعْتَزَّ قَارُون في دُنْيَاهُ مِنْ سَفَهٍ
وَكَانَ مِنْ خَمْرِهَا يَا قَوْمُ ذَاتِيْها
يَبِيْتُ لَيْلَتَهُ سَهْرَانَ مُنْشَغِلاً
في أَمْرِ أَمْوَالِهِ في الهَمِّ يَفْدِيْهَا
وفي النَّهَارِ لَقَدْ كَانَتْ مُصِيْبَتُهُ
تَحُزُّ في قَلْبِهِ حَزّاً فَيُخْفِيْهَا

فَمَا اسْتَقَامَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَلاَ قَبِلَتْ
مِنْهُ الوِدَادَ وَلَمْ تَرْحَمْ مُحِبِّيْهَا
« ثُمَّ الصَّلاَةُ عَلَى المَعْصُومِ سَيِّدِنَا
أَزْكَى البَرِيَّةِ دَانِيْهَا وَقَاصِيْهَا »

اللَّهُمَّ قَنِّعْنَا مِنَ الدُّنْيَا بالْيَسِيْرِ وَوَفِّقْنَا لِلتَّقْوَى وَاجْعَلْهَا زَادَنَا وَسَهِّلْ عَلَيْنَا كُلَّ أمْرٍ عَسِيْرٍ وَاجْعَلْ حِسَابنا يَسِيْراً كُلَّ التَيْسِيْرِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَيُسَنُّ تَوْجِيْهُ الْمَيِّتِ وَمَنْ فِي النَّزْعِ إلى الْقِبْلَةَ عَلَى جَنْبِهِ الأيْمَنْ لِأَنّ حُذَيْفَةَ قَالْ « وَجِّهُوْنِي إلى القِبْلَةْ وَاسْتَحَبَّهُ مَالِكٌ وأهْلُ الْمَدِيْنَةِ وَالأَوْزَاعِيُ وَأَهْلُ الشّامِ وَقالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسّلَّمْ عَنِ البَيْتِ الْحَرامِ قِبْلَتُكُمْ أحْيَاء وَأَمْوَاتَاً رَوَاهُ أَبو دَاوُدُ .

وَقَوْلُ بِاسْمِ اللّهِ وَعَلى وفاة رَسُولِ اللّهْ لِمَا رَوى الْبَيْهَقِي عَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزنِي وَلَفْظُه وَعَلى مِلَّةِ رَسُولِ اللّهْ وَلا بَأْس بِتَقْبِيْلِ الْمَيّتِ وَالنّظَرِ الَيْهِ لِحَدِيْثِ عَائِشَةَ وابْنِ عَبّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَبَّلَ النْبِيَّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم بَعْدَ مَوْتِهْ رَوَاهُ البُخَارِي والنَسّائِي .
وَقَالَتْ عَائِشَةُ قَبَّل النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونْ وَهْوَ مَيِّتٌ حَتَّى رَأَيْتُ الدُّمُوْعَ تَسِيْلُ عَلى وَجْهِهْ رَوَاهْ أَحْمَدْ والتِّرْمِذِي وَصَحّحَهْ .

وَغَسْلُ الْمَيِّتِ فَرْضُ كِفَايَةْ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فِي الَّذي وَقَصَتْهُ رَاحِلَتُهُ اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ وَكَفِّنُوهُ في ثَوْبَيْه مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَشُرِطَ في الْمَاءِ الَّذِي يُغْسَلُ فِيهِ الْمَيِّتُ الطَّهُوْرِيَّةُ والْإِبَاحَة كَبَاقِي الاغْسَالْ .

وَشُرِطَ فِي الْمُغسِّلِ لِلْمَيِّتِ الْاسْلَامُ وَالْعَقْلُ والتَّمْييز لأَنَّ هَذِهِ شُرُوطٌ لِكُلِّ عِبَادَةٍ شَرْعِيَّةٍ إِلَّا التَّمْييْزَ في الحَجْ وَالْأكْمَلُ أنَ يَكُوْنَ الْغَاسِلُ لِلْمَيِّتِ ثِقَةً يَعْرِفُ أَحْكَامَ الْغَسْلِ لِيَحْتَاطَ فِيْه وَلِقَوْلِ ابْنِ عُمَرْ لَا يُغَسِّلُ مَوْتَاكُمْ إلاَّ الْمَأْمُونُونْ .

وَالْأَوْلَى بغَسْل الْمَيِّتِ وَصِيّهُ الْعَدْل لأَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدّيْقِ أَوْصَى أَنْ تُغَسِّلُهُ امْرَأَتُهُ أَسْمَاءَ بِنْتُ عُمَيْس فَقُدِّمَتْ بِذَلِك وَأَوْصَى أَنسُ أَنْ يَغْسِلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ سِيْرِيْنَ فَفَعَلْ .

واذَا شَرَعَ في غَسْلِهِ سَتَرَ عَوْرَتَهُ وُجُوباً لِحَدِيْث لاَ تُبْرِزْ فَخذكَ وَلاَ تَنْظرْ إلى فَخِذَ حَيٍّ ولاَ مَيِّتٍ رَوَاهُ أَبُوا دَاوُدْ .

وَيَحْرُمُ مَسَّ عَوْرَةِ مَنْ بَلَغَ سَبْعَ سِنْين وَيُسْتَحَبُّ أَنْ لَا يَمسَّ سَائِرُهُ إلّا بِحَائِل، أَدْسُوْس يَدَيْن أوْ نَحْوِها لِمَا رُوِى أَنْ عَلِيًّا غَسَّلَ النَّبيِّ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم وَبِيَدِهِ خِرْقَةٌ يَمْسَحُ بِهَا مَا تَحتْ القَمِيْصِ ذَكَرَهُ الْمَرْوزي عَنْ أحْمَدْ .

وَلِلرَّجُلِ أَنْ يُغَسِّل زَوْجَتَهُ وَأَمَتَه لِقَوْلِه صَلّى الله عَلَيْـه وَسلَّمْ لِعَائِشَةْ لَوْ مُتِّ قَبْلِي لَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُك رَوَاهُ ابْنُ مَاجه وَغَسَّلَ عَلِيٌّ فاطِمَة رَضْي اللهُ عَنْهُما وَلَمْ يُنْكِرُهُ مُنْكِرٌ فَكانَ إِجْمَاعا .

وَلِلْمَرْأةِ تَغْسِيلُ زَوْجِهَا وَسَيِّدِهَا وابْنِ دُوْنَ سَبْعِ سِنْيِنَ قالَهُ ابْنُ

الْمُنذِرِ اجْمَاعَا لِحَدِيْثَ أَبِي بَكرٍ السَّابِقْ وقَالَتْ عَائِشَةَ رَضْيَ اللّهُ عَنْهَا لَوْ اسْتَقْبَلْنا مِنْ أمْرِنَا مَا اسْتَدْبَرْنا مَا غَسَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلا نِسَاؤُهْ رواهُ أحْمَد . وأبو داوْد .

وَلَمَّا مَاتَ اِبْرَاهِيْم بْنُ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم غَسَّلَهُ النِسَّاء وَحُكْم غَسْلِ الْميتِ كَغسْلِ الْجَنابَةِ لِقَوْلِهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ لِلنّسَاء اللاّتِي غَسَّلْنَ اِبْنَتَهْ إبْدَ أنَ بميامنها ومَوَاضِعِ الْوَضُوءِ مِنْهَا وَلاَ يُدْخِلُ في فَمِ الْميّتِ الْمَاءَ وَلاَ فِي أنْفِهِ بَلْ يَأخُذَ خِرْقَةً مَبْلُولَةً فَيَمْسَحُ بِهَا أَسْنَانَهُ ومَنْخِرْيه لِيَقُومَ مَقَامَ المَضْمَضَةِ والاسْتِنْشَاقِ قَالَ اللَّهُ تَعالى ﴿ فاتَّقوا اللّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ .

وقال صَلّى اللّه عَلَيْه وَسَلّمْ « اِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُم » وَيُكْرَهُ الاقْتِصَارُ عَلى غَسْلةٍ واحدة. لِقَوْلِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّم حِيْنَ تُوُفِّيَتْ ابْنَتُه اغْسِلْنَها ثَلاثاً أَوْ خَمْساً أَوْ اكْثرْ مِنْ ذَلِك إنْ رَأَيْتُنَّ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ .

فإنْ خَرجَ مِنَ الْمَيّتِ الْمُغسَّلِ شَيْءُ زِيْدَ في الْغَسَلاتِ وُجُوباً إلى السَّبْعِ فَإنْ خَرَجَ بَعْدَ السَّبْعَ حُشِيَ الْمَحلُّ بِقُطْنٍ فَإنْ لَمْ يَسْتَمْسِك فَبِطِينٍ حُرٍ ثُمَّ يُغَسَّلُ الْمَحلُ ويُوَضَّأ وُجُوبا .

وَإنْ خَرجَ بَعْدَ التَّكْفِين لَمْ يُعِدِ الْغَسْلُ وَلاَ الْوُضُوءُ لِمَا فِيْهِ مِنَ الْحَرَجِ وَالْمَشقّةِ وَلاَ يُغسّلُ شَهِيْدُ المَعْرَكَةِ وَلاَ يُكَفَّنُ وَلاَ يُصلىَّ عَلَيْه لِحَدِيْثَ جَابِرْ أَنّ النِّبي صَلَّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّم أَمَرَ بِدَفْنِ شُهَداءِ أحُدٍ في دِمَائِهِم وَلَمْ يغسّلواوَلَمْ يُصَلّى عَلَيْهِم رَواهُ البُخَاري .

وَكَذَا لاَ يُغَسّلُ وَلاَ يُكَفّنُ وَلاَ يُصَلّى على المقْتَولِ ظُلْمَا لِحدِيْث

سعْيدِ بْن زَيْدٍ مرْفُوعا مَنْ قُتلَ دُون دِيْنِه فَهْوَ شَهِيْدٌ ومَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهْو شَهِيْدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُون مالِهِ فَهْو شَهِيْدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُوْنَ أهْلِهِ فَهْوَ شَهِيْد رَواه أبُـو دَاوْدَ والتّرمِذي وصَحَّحَهُ .

وَقِيْلَ يُغَسَّلُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ لِأَنّ ابْنَ الزّبُيَرْ غُسّلَ وَصلِّى عَلَيْه وهَذا القَوْل يَترجَّحُ عِنْدَي لِأَنّهُ أحْوَط واللّهُ سبْحَانه وَتعالى أعْلَمْ .

فَانْ قُتِلَ وَعَلَيْه مَا يوجـب الْغُسْلِ مِنْ نَحْو جَنَابةٍ فَهْو كَغيْرِهِ يَجِبُ أنْ يُغسّلْ لِأنّ النّبي صلّى اللّهُ عليْه وَسَلّمْ قَالَ يَوْمَ أحُدٍ ما بَالُ حَنْظَلةِ بْنَ الرّاهِبْ إنّي رَأَيْتُ الْملائِكَةَ تُغَسّلهُ قَالُوا إنّهُ سَمِعَ الْهَائِعَةَ وَهْوَ جُنُبٌ ولم يَغْتَسِلْ رَوَاه الطّيالِسِي .

وَانْ سَقَط مِنْ دَابتِهِ أَوْ وُجِد مَيّتاً وَلاَ أَثَرَ بِه أوْ تَردَّى مِنْ مَحلٍ رَفيعٍ أوْ حُمِلَ فأكَلَ أوْ شَرِبْ أوْ طَالَ بَقاؤهُ عُرْفاً غُسّلَ وَصُلِى عَلَيْهِ وَكَذا ـ لَوْ تَكَلّمَ أوْ بَالَ أوْ عَطَسْ لِأَنَّ النّبِيَ صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمْ غَسَّلَ سَعْدَ بْنَ مُعاذ وَصَلّى عَلَيْهِ وَكانَ شَهيْدا وَصَلَّى الْمُسْلِمُون عَلى عُمرَ وَعَلِيٍ وَهُمَا شَهِيْدانِ والسِّقْطُ لِأَرْبعَةِ أشْهرٍ كالْمُولُودِ حَيًا يُغسّلُ ويُصَلّى عَلَيْهِ لِحَدِيْثِ الْمغِيْرَةِ مَرْفوعا ، والسِّقْطُ يُصَلّى عَلَيْه رَوَاهُ أبُوا دَاوْدَ والترْمِذِي وَصَحّحَهُ .

وَلاَ يُغسِّلُ مُسْلِمٌ كَافِراً وَلَوْ ذِمِّيّاً وَلاَ يُكفِّنُهُ وَلاَ يُصلِّي عَلَيْهِ وَلاَ يتبّعُ جنَازَتَهْ لِأنَّ في ذَلِكَ تَعْظِيْماً لَهُ وَقَدْ قَالَ تعالى ﴿ لَا تَتوَلّوْا قَوْماً غَضِبَ اللّهْ عَلَيْهِـمْ ﴾ بَلْ يُدْفَنُ اِنْ لَمْ يَدْفِنُه الْكُفار كَمَا فُعلَ بِأَهْلِ الْقَلِيْبِ يَوْم بَدْرَ وَعَنْ عَليٍّ رَضْيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ لِلنّبِيِّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ اِنْ عَمَّكَ الشّيْخَ الضّالَ قَدْ مَاتْ قَالَ إذْهَبْ فَوارِهِ رَوَاهُ أبو دَاوُدْ .

شِعْرا

كَيْفَ اِحْتِيَالِي إِذَا جاءَ الْحِسَابُ غَدَاً
وَقَدْ حُشِرْتُ بِأَثْقَالِي وَأَوْزَارِي
وَقَدْ نَظَرْتُ إِلى صُحْفي مُسَوَّدَةٍ
مِنْ شؤْ مِ ذَنْبٍ قَدِيم العَهْدِ أوْ طَارِي
وَقَدْ تَجلَّى لِبَسْطِ الْعَدْلِ خَالِقُنَا
يَوْمَ الْمَعادَ وَيَوْم الذُّلِّ والعَارِ
يَفُوزُ كُلُّ مُطِيْع لِلْعَزِيْزِ غَدَاً
بِدَارِ عَدْنٍ وأشْجَارٍ وَأَنْهَارِ
لهُمْ نَعْيمُ خُلُودٌ لا نَفَادَ لَهُ
يُخَلَّدُوَنَ بِدَارِ الْواحِدِ الْبَارِي
وَمَنْ عَصَى فِي قَرَارِ النّارِ مَسْكَنُهُ
لاَ يَسْتَرِيْحُ مِنَ التَّعْذَيْبِ في النّارِ
فَابْكُوا كَثِيْراً فَقَدْ حُقَّ الْبُكَاءُ لَكُمْ
خَوْفَ الْعَذَابِ بِدَمْع وَاكِفٍ جَارِي

اللّهُمَّ قَوِّى ايْمَانَنا بِكَ وَبِمَلائِكَتِكْ وَبِكُتُبِكْ وَبِرُسُلِكَ وبالْيَوْمِ الآْخِرْ وبالقْدَرِ خَيْرِه وَشَرّهْ اللّهُمَّ وَوفقْنَا لإمْتِثال أوامِرك ، واجْتَنابِ نَوَاهِيْكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجميْع المسْلِمين الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والْميتين بِرحْمتِكَ يا أرْحَمَ الرّاحِيْنَ وَصَلىّ اللّه عَلى مُحمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحبْهِ أجْمَعْين .

(فَصْلٌ)

وَتَكْفِينُ الْمَيْتِ فَرْضُ كِفَايَة لِقَوْلِهِ صَلى اللّهِ عَلَيْهَ وَسَلَّمَ في الْمُحْرِمِ الْذي مَاتْ اِغْسِلُوهُ بِمَاءِ وَسِدْرٍ وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْهِ والْواجِبُ ثَوْبٌ يَسْتُر جَمِيعَ الميّــت لِقَوْل أُمِّ عَطِيَّة فَلَمَّا فَرَغْنَا أَلْقَى إِلَيْنَا حِقْوَهُ فقَال أَشْعِرنَهَا وَلَمْ يزِدُ على ذَلِكَ رَواهُ الْبخارِي .

وَلَا يُسْتَرُ رَأْسُ المُحْرِمِ وَلَا وَجْهُ الْمُحْرِمَةِ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المُحْرِمِ الّذِي مَاتْ «وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ والسُّــنَّة تَكْفِيْنُ الرَّجُلِ في ثَلَاثِ لَفَائِف بِيْضٍ مِنْ قُطْن لِحَدِيْثِ عَائِشَةَ كُفِّنَ رَسُوْلُ اللّهِ صَلَّى اللهُ عِلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بِيْضٍ سَحَوْلِيّةٍ جُدَدٍ يَمَانِيَّةٍ لَيْسَ بِهَا قَمِيْصٌ وَلَا عِمَامَةٌ أُدْرِجَ فِيْهَا إِدْرَاجًا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَالْمَسْنُــونُ فِي حَقِّ الْأُنْثَى خَمْسَةُ أَثْــوَابٍ إِزَارٌ وَخِمَارٌ وَقَمِيْصٌ وَلِفَافَتَيْنِ لِحَدِيْثِ لَيْلَى بِنْتِ قَائِفٍ الثَّقَفِيّةِ قَالَتْ كُنْتُ فِيْمَنْ غَسّلَ أُمَّ كُلْثُومٍ ابْنَةَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّم عِنْدَ وَفَاتِهَا فَكَانَ أَوَّلَ مَا أعْطَانَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليْهِ وَسَلَّمْ الْحِقَا ثُمَّ الدِّرْعَ ثُمَّ الْخِمَارَ ثُمَّ الْمِلْحَفَةَ ثُمَّ أُدْرِجَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الثَّوْبِ الآخَرْ رواهُ أبو دَاوُدْ .

والصَّبِيُّ فِي ثَوْبٍ وَاحِدِ لِأَنَّهُ دُوْنَ الرَّجُلْ وَيُبَاحُ فِي ثَلَاثَةٍ ، مَا لَمْ يَرِثْهُ غَيْرُ مُكَلَّفْ ، ولِصَغِيْرٍ قَمِيْصٌ وَلِفَافَتَان ، والْخُنْثَى كَالْأُنْثَى فِي خَمْسَةِ أَثْوَاب ، وأمَّا صِفَةُ تَهْيِئَةِ اللّفَائِفْ وَوَضْعِ الْمَيِّتِ عَلَيْهَا فَإِنَّها تُبْسَطُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَتُجْعَلُ اللِّفَافَةُ الظَّاهِرَةُ وَهِيَ السُّفْلَى مِنَ الثَّلَاثِ أَحْسَنَهَا وَذَلِك

بَعْدَ تَبْخِيْرِهَا بِعُوْدٍ وَنَحْوِهِ بَعْدَ رَشِّهَا بِمَاءِ وَرْدٍ لَتَعْلَقَ رَائِحَةُ البَخُوْرِ بِهَا مَا لَمْ يَكُنْ مُحْرِمَا

وَيُجْعَلُ الْحَنُوطُ وَهُوَ أَخْلَاطٌ مِنْ طِيْبٍ فِيْمَا بَيْنَ اللَّفَائِفِ وَذَلِكَ بِأَنْ يُذَرَّ بَيْنَ اللَّفَائِفِ ثُمَّ يُوْضَعَ الْمَيِّتُ عَلَى اللَّفَائِفِ مُسْتَلْقِيَاً وَيُجْعَلُ مِنْهُ فِي قُطْنٍ بَيْنَ إِلْيَتَيْهِ وَمَثَانَته .

وَيُجْعَلُ الْبَاقِي مِنَ الْقُطْنِ الْمُحَنَّطِ عَلَى مَنَافِذِ وَجْهِهِ وَمَوَاضِعِ سُجُوْدِهْ جَبْهَتِهِ وَيَدَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ وَتَحْتَ إِبْطِهِ وَسُرَّتِهِ لأَنَّ ابْنَ عُمَرْ كَانَ يَتَتَبَّعُ مَغابِنَ الْمَيِّتِ وَمَرَافِقَهُ بِالْمِسْكِ وإِنْ طُيِّبَ كُلُّهُ فَحَسَنْ لِأَنَّ أَنَساً طُلِيَ بِالْمِسْكِ وَطَلَى ابْنُ عُمَرَ مَيِّتَاً بِالْمِسْكِ .

ثُمَّ يُرَدُّ طَرَفَ اللِّفَافَةِ الْعُلْيَا مِن الْجَانِبِ الأَيْسَرِ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنْ ثُمَّ يُرَدُّ طَرَفَهَا الأَيْمَنَ عَلَى الأَيْسَرَ ثُمَّ الثَّانِيَةَ كَذَلِكَ ثُمَّ الثَّالِثَةَ كَذَلِكْ وَيُجْعَلُ أَكْثَرُ الْفَاضِلِ عِنْدَ رَأْسِهِ ثُمَّ يَعْقِدُها وَتُحَلُّ فِي الْقَبْر ، لِقَوْلِ ابْنُ مَسْعُوْدٍ إِذَا أَدْخَلْتُم الْمَيِّتَ الْقَبْرَ فَحُلُّوا الْعُقَدْ رواهُ الأَثْرَم .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللّهِ مَاهَذَا التَّكَاسُلُ عَن الطَّاعَاتِ وَزَرْعُ الأَعْمَارِ قَدْ دَنَا لِلْحَصَادِ وَمَا هَذَا التَّبَاعُدُ وَمُدَدُ الأَيَّامِ قَدْ قَارَبَتْ لِلنَّفَادَ ، وَمَا هَذَا التغافلُ والتَّكَاسُلُ عَنْ إِعْدَادِ الزَّادِ لِيَوْمِ المَعَادِ .

تَزَوَّدْ لِلَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ
فَإِنَّ المَوْتَ مِيْقَاتُ الْعِبَادِ

يَسُـرُّكَ أَنْ تَكُـونَ رَفِيْقَ قَـوْمٍ
لَـهُـمْ زَادٌ وأنْـتَ بِـغَـيْـرِ زَادِ

عِبَادَ اللَّهِ أَيْنَ الْحَسَرَاتُ عَلَى فَوْتِ أَمْسِ أَيْنَ الْعَبَرَاتُ عَلى مُقَاسَاتِ الرَّمْسِ أيْنَ الأسْتِعْدَادُ لِيَوْمٍ تَدْنُو فِيْهِ مِنْكُمُ الشَّمْسُ ، « وأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ في غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ » .

يَا مَنْ مَشِيْبُهُ أَتَى وَشَبَابه إِضْمَحَلْ وَخَبَى، مَتَى تَتَضرَّعَ إلى مَوْلَاكَ وَتَقِفُ بِالْبَابِ ، أمَا اعْتَبَرْتَ بِالرَّاحِلِيْنَ مِنَ الأقَارِبِ وَالْجِيْرَانِ والزُّمَلاءِ وَالأحْبَابِ ؛ أمَا قَرَعَ سَمْعَكَ ﴿ إعْلَمُوا أنَّما الْحَيَاةُ الدّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْو وَزِيْنَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ ﴾ الآيَةْ .

كَيْفَ حَالُكَ إذَا بَلَغَتِ الرّوحُ التَّرَاقِ وَقَطَّعَتِ الْحَسَرَاتُ وَالنَّدَمُ عَلاَئِقَ الأكْبَادِ وَوُضِعْتَ فِي بَيْتِ الظُّلْمَةِ والدُّودِ وَالْوَحْدَةِ وَلَا وَلِيَّ لَكَ مِنَ اللّهِ وَلَا نَاصِرْ وَضُوْعِفَ الْعَذَابُ وَقِيْلَ لِلظَالِمِيْنَ ذُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُون .

كَيْفَ أَنْتَ إذا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُوْرِ وَكُل إنْسَانٍ أُلْزِمَ طَائِرَهُ فِي عُنقِهْ يَوْمَ النّشُوْرِ وَحُرِّرَ الْحِسَابُ بَيْنَ يَدَي سَرِيْعِ الْحِسَابِ عَالِمْ السِّرِّ والْخَفِيَّاتِ وَالْجَلِيَاتِ وَنُصِبَ المِيْزَانُ ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِيْنُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ.وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِيْنُهُ فأولئِكَ الّذِينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بآياتنا يَظْلِمُونْ ﴾ .

شِــعْرَاً :

وَلَا بَـأْسَ شَـرْعَـاً أَنْ يُـطِبَّـكَ مُسْلِمٌ
وَشَكْـوى الَّذِيْ تَلْقَى وَبِـالْحَمْدِ فَـابْتَـدِ
وَتَــرْكُ الــدَّوَا أَوْلَـى وَفِعْـلُكَ جَـائِــزٌ
بِمَــا لَمْ تَيَقَّنْ فِيْــهِ حُــرْمَــةَ مُـفْــرَدِ
وَرَجِّحْ عَلَى الْخَوْفِ الرَّجَا عِنْدَ يَأْسِـهِ
وَلَاقِ بِـحُسْـنِ الـظَّنِّ رَبَّــكَ تَسْـعَـدِ
وَيُشْــرَعُ لِلْمَــرْضَى الْعِيَــادَةُ فَــأْتِهِـمْ
تَخُضْ رَحْـمَــةً تَغْمُـرْ مَجَــالِسَ عُــوَّدِ
فَسَبْعُــونَ أَلْفَـاً مِنْ مَـلَائِكَـةِ الــرِّضَـا
تُصَلِّي عَلَى مَنْ عَادَ مُمْسىً إِلَى الْغَدِ
وَإِنْ عَــادَهُ فِي أَوَّلَ الْيَــوْمِ وَاصَلَـتْ
عَلَيْــهِ إِلَى اللَّيْـلِ الصَّــلَاةَ فَــاسْنِـدِ
فَمِنْهُمْ مُغِباً عُــدْ وَخَـفِّفْ وَمِنْهُـم الْـ
ـلَـذِيْ يُؤْثِــرُ التَّـطْوِيْــلَ مِنْ مُتَـوَدِّدِ
فَفَكِّــرْ وَرَاعِ فِي الْعِـيَــادَةِ حَــالَ مَنْ
تَـعُــودُ وَلَا تُـكْـثِــرْ سُـؤَالًا تُـنَـكِّــدِ
وَذَكِّــرْ لِـمَــنْ تَــأْتِــي وَقَــوِّ فُــؤَادَهُ
وَمُـرْهُ بِـأَنْ يُــوْصِي إِذَا خِفْتَ وَارْشُـدِ
وَنَــدِّ بِـمَــاءٍ أَوْ شَــرَابٍ لِـسَــانَــهُ
وَلَقِّنْــهُ عِنْـدَ الْمَــوْتِ قَـوْلَ الْمُــوَحِّـدِ

وَلاَ تُضْجِـرَنْ بَـلْ إِنْ تَـكَلَّمَ بَـعْـدَهُ
فَعَـاوِدْ بِلَفْظٍ وَاسْـأَلْ اللُّطْفَ وَاجْهَـدِ
وَيَس إِنْ تُـتْـلَى يُـخَـفِّـفُ مَـوْتُـهُ
وَيُـرْفَعُ عَنْـهُ الاصْـرَ عِنْـدَ التَّلَحُّـدِ
وَوَجِّهْـهُ عِنْـدَ الْـمَـوْتِ تِلْقَـاءَ قِبْلَةٍ
فَـإِنْ مَـاتَ غَمِّضْـهُ وَلَحْيَيْـهِ فَـاشْدُدِ
وَمَلْبُـوْسَـهُ فَـاخْلَعْ وَلَيِّنْ مَـفَـاصِـلاً
وَضَـعْ فَوْقَ بَـطْنِ الْمَيِّتِ مَانِـعَ مُصْعِدِ
وَوَفِّ دُيُـونَ الْمَيْتِ شَـرْعَـاً وَفَـرِّقَنْ
وَصِيَّـةَ عَـدْلٍ ثُمَّ تَـجْهِـيْـزَهُ أُقْصُـدِ
إِذَا بِـانْخِسَـافِ الصُّدْغِ أَيْقَنْتَ مَـوْتَـهُ
وَمَيْـلَ أَنْفِهِ مَـعْ فَصْـلِ رِجْلَيْـهِ وَالْيَـدِ
وَلاَ بَـأْسَ في إِعْلاَمِ خِـلٍ وَصَاحِبٍ
وَأَنْـسَـابِـهِ وَاكْـرَهْ نِـدَاءً وَشَـدِّدِ
وَسَـارِعْ إِلى التَّجْهِيْزِ فَـرْضَ كِفَـايَـةٍ
فَقَـدِّمْ وَصِيَّـاً بَعْـدَهُ الأَبَ فَـاعْـدُدِ
فَـجَـدٌّ فَـأَدْنَى ثُـمَّ أَدْنَـى مُـنَـاسِبٍ
فَمَـوْلَى فَـأَدْنَى أَقْـرَبِيْـهِ كَمَـا ابْتَـدِي
وَمُسْتَتِـراً لِلْغَسْـلِ ضَعْـهُ مُـوَجَّـهَـاً
وَمُنْحَـدِراً تِـلْقَـاءَ رِجْلَيْـهِ فَـاعْـمِـدِ
وَصُبَّ عَلَيْـهِ الْمَـاءَ فَـوْقَ قَمِيْصِـهِ
بِـالاخْـرَى بِـلاَمَسٍّ وَحَيْـزٍ بِـأَبْعَـدِ

وَيَخْتَارُ مَجْدُ الدِّيْنَ لَفَّةَ غَاسِلٍ
عَلَى يَدِهِ ثَوْبَاً لِغُسْلِ مُعَوَّدِ
وَيُشْرَعُ سَتْرُ الْمَيتِ عَنْ أَعْيُنِ الْوَرَى
وَغَسْلُكَ تَحْتَ السَّقْفِ أَوْ سِتْراً اشْهَدِ
وَقَرِّبْهُ مِنْ حَالِ الْجُلُوسِ بِرَفْعِهِ
وَلِلْبَطْنِ فَاعْصِرْ وَارْفقنْ لاَ تُشَدِّدِ
وَكَثِّرْ لِصَبِّ الْمَاءِ لِيَذْهَبَ بِالأذَى
وَفِي وَاسِعِ الكُمَّيْنِ غَسِّلْ بِأَبْعَدِ
وَلُفَّ لِتَنْضِيْفِ النَّجَاسَةِ خِرْقَةً
بِكَفٍّ وَنَجِّيْهِ وَعَنْ عَوْرَةٍ حُدِ
وَتَعْمِيْمُهُ بِالمَا اشْتَرِط وَبِخِرْقَةٍ
بِيُمْنَ وَسَمِّ وانْوِ شَرْطاً بِأَجْوَدِ
وَلَا تُدْخِلَنَّ الْمَاءَ فَاهُ وَأَنْفَهُ
وَنَظِّفْهُمَا وَاتِمْ وُضُوءَ التَّعَبُّدِ
وَمِنْ رُغْوَةِ السِّدْرِ اغْسِلَنْهُ جَمِيْعَهُ
وَبِالأَيْمَنِ ابْدَأْ ثُمَّ لِلأَيْسَرِ أُقْصِدِ
ثَلاَثَاً فَإِنْ لَمْ يُنْقِ أَوْ بَانَ خَارِجٌ
فَغَسِّلْ إِلَى الانْقَى وَبِالْوِتْرِ جَدِّدِ
إِلَى مُنْتَهَى سَبْعٍ وفِي كُلِّ غَسْلَةٍ
فَقَلِّبْهُ وَارْفِقْ وَامْسَحِ الْبَطْنَ بِالْيَدِ
وَفِي الآخِرِ الْكَافُورَ ضَعْهُ فَإِنْ بَدَا
إِذاً بَعْدَ سَبْعٍ مَخْرَجَ الْمَيِّتِ فَاسْدُدِ

بِقُطْنٍ فَإِنْ يَخْرُجِ فَطِيْنٍ وَقِيْلَ لَا
تُغَسِّلْ وَوَضِّ بَعْدَ غَسْلِ الْأَذَى قَدِ

وَيُكْرَهُ تَسْرِيْحُ الشُّعُورِ بِأَوْطَدٍ
وَشَارِبَهُ والظُّفْرَ وَالأَبْطَ فَاجْدُدِ

وَغَسِّلْ وَكَفِّنْ بَعْضَ مَيِّتٍ مُغَيَّبٍ
وَصَلِّ عَلَيْهِ مِثْلَ رِجْلٍ بِأَوْكَدِ

وَيُخْتَارُ لِلْغَسْلِ الْأَمِيْنُ وَعَالِمٌ
بِأَحْكَامِ تَغْسِيْلٍ وَلَوْ بِتَقَلُّدِ

وَلَا تُفْشِ سِرّاً يُؤْثِرُ الْمَيْتُ كَتْمَهُ
سِوَى ذِي فُجُورٍ وَابْتِدَاعٍ مُعَوَّدِ

وَتَجْهِيْزُ مَيِّتٍ خُذْهُ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ
وَقَدِّمْ عَلَى كُلِّ الْحُقُوقِ وَأَكِّدِ

وَوَاجِبُهُ ثَوْبٌ يَلُفُّ جَمِيْعَهُ
وَقِيْلِ ثَلَاثٌ بَلْ مَعَ الدَّيْنِ أَفْرِدِ

وَيُشْرَعَ فِي بِيْضٍ ثَلَاثٍ بَسَطَّتَهَا
طِبَاقاً بِطِيْبٍ والدِّثَارَ فَجَوِّدِ

وَحَنِّطْهُ فِيْمَا بَيْنَهَا وَاجْعَلَنْ عَلَى
مُلَفَّفِ قُطْنٍ بَيْنَ أَلْيَيْهِ وَاشْدُدِ

وَكَفِّنْهُ وَابْدَأْ بِالْيَسَارِ وَفَوْقَهَا الْ
يَمِيْنُ كَذَا الاطْرَافُ مِنْهَا فَعَقِّدِ

وَمَا عِنْدَ رَأْسِ الْمَيْتِ وَفِّرْوَ حُلَّهَا
بِلَحْدٍ وَدَعْ أَكْفَانَهُ لَا تُقَدِّدِ

وَيَكْفِي لِفَـافُ مَـعَ قَـمِيْصٍ وَمِئْـزَرٍ
والأُنْثَى خِـمَـارٌ مَـعَ لِـفَـافَـةٍ ازْدَدِ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ فِي قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَأَلْهِمْنَا ذِكْرِكَ وَشُكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لِلْقِيَامِ بِأَمْرِكَ وَاعِذْنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَعَدُوِّكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـلٌ)

والصَّلاَةُ عَلَى الْمَيِّتِ فَرْضُ كِفَايَةٍ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَالِّ صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ وَقَوْلِهِ صَلى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمْ صَلُّوا على أَطْفَالِكُمْ فَإِنَّهُمْ أفرَاطُكُمْ وَقَوْلُهُ إِنَّ صَاحِبَكُمْ النَّجَاشِي قَدْ مَاتَ فَقُوْمُوا فَصَلُّوا عَلَيْهِ وَقَوْلُهُ صَلُّوا عَلى مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وَتَسْقُطُ الصَّلاَةُ عَلَيْهِ بِمُكَلَّفٍ ، لأنها صَلاَةٌ لَيْسَ مِنْ شُرُوْطِهَا الْجَمَاعَة ، فَلَمْ يُشْتَرَطْ لَهَا الْعَدَد ، وَشُرُوْطُ الصَّلاَةِ عَلَى الْمَيِّتِ ثَمَانِيَةٌ النِّيَّةُ والتَّكْلِيْفُ وَاسْتِقْبَالُ القِبْلَة وَسَتْرُ الْعَوْرَة واجْتِنَابُ النَّجاسَة واسْلامُ الْمُصَلِّي وَالْمُصَلَّى عَلَيْهِ وَطَهَارَتُهُما وَلَوْ بِتُرَاب وَحُضُورُ الْمَيِّتِ إِنْ كَانَ فِي الْبَلَدِ .

وَأَرْكَانُ الصَّلاَةِ عَلَى الْمَيِّتِ سَبْعَةٌ ، الْقِيَامُ فِي فَرْضِهَا والتَّكْبِيْرَاتُ الأَرْبَعُ لأَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ كَبَّرَ عَلَى النَّجَاشِي أَرْبَعًا مُتفقٌ عَلَيْهِ، وَقِرَاءَةُ الْفَاتِحَة، لِعُمومِ حَدِيْثِ لَا صَلاَةَ لِمَنْ يَقْرَأْ لَمْ بِفَاتِحَة

الكِتَاب ، وَصَلَّى ابْنُ عَبَّاس عَلى جَنازَةٍ فقرَأَ بِأُمِّ القُرْآنْ وَقَالَ لِتَعْلَمُوا أَنَّها سُنَّة ، أَوْ قَالْ مِن تمام السُّنَّةِ رَوَاهُ البُخَارِي .

والصَّلاةُ على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، والدُّعَاءُ لِلْمَيِّتْ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إذا صَلَّيْتُمْ عَلَى المَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاء رَوَاهُ أَبُو دَاودْ، والتَّرْتِيبُ ، والسَّـلَامُ، لِعُمُومِ حَدِيْث تحْلِيْلُهـا التَّسْلِيْم ، وَصِفَةُ الصَّلَاةِ على المَيِّتْ أَنْ يَنْوِيَ .

ثُمَّ يُكَبِّرَ أَرْبَعا يَرْفَعُ يَدَيْهِ مَعَ كُلِّ تَكْبِيْرَةٍ يُحْرِمُ بالتَّكْبِيْرَةِ الأُوْلى وَيَتَعَوَّذُ وَيُسَمِّي وَيقْرَأ الفَاتِحَةُ وَلَا يَسْتَفْتِحْ لِأَنَّ مَبْنَاهَا عَلى التَّخْفِيف ، وَيُكَبِّرُ التَّكْبِيْرَةِ الثَّانِيَة ، وَيُصَلِّي عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَمَا يُصَلِّي عَلَيْهِ في التَّشَهُّدِ ، وَيُكَبِّرُ في الثَّالِثَةِ وَيَدْعُو لِلْمَيّتِ بِأَحْسَنِ مَا يَحْضُرْ .

وَسُنَّ بِمَا وَرَد ، وَمِنْه : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا وَصَغِيْرِنَا وَكَبِيْرِنَا وَذَكَرِنَا وَانْثَانَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مُنْقَلَبَنَا وَمَثْوَانَا وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْر اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلَامِ والسُّنَّة وَمَنْ تَوَفيتَهُ مِنا فتَوَفَّهُ عَلَيْهِمَا .

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وارْحَمْهُ ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ ، وَاكْرِمْ نُزُلَهُ، وَأَوْسِعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ والثَّلْجِ وَالْبَرْدْ، وَنَقِّهِ مِنَ الذُّنُوبِ والْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسْ، وَأَبْدِلْهُ داراً خَيْراً مِنْ دَارِهِ وَزَوْجَاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهِ وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ وَأَعِذْهُ مِنْ عَذابِ النَّارِ وَعَذَابِ القبْر وَافْسَحْ لَهُ في قَبْرِهِ وَنَوِّرْ لَهُ فِيْهِ .

وَإِنْ كَانَ الْمَيِّتُ الْمُصَلَّى عَلَيْهِ صَغِيْراً أَوْ مَجْنُوناً وَاسْتَمَرَّ قَالَ اللَّهُمَّ

اجْعَلْهُ ذُخْراً لِوَالِدَيْهِ وَفَرَطاً وَشَفِيْعاً مُجابَا اللَّهُمَّ ثَقِّلْ بِهِ مَوَازِيْنَهُمَا وَأَعْظِمْ بِهِ أُجُورَهُمَا وَأَلْحِقْهُ بِصَالِحِ سَلَفِ الْمُؤْمِنِيْنَ واجْعَلْهُ فِي كَفَالَةِ ابْرَاهِيْمِ وَقِهِ بِرَحْمَتِكَ عَذَابَ الْجَحِيْمِ وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ إِسْلَامُ والِدَيْه دَعَا لِمَوَالِيْهِ .

وَيُؤَنَّثُ الضَّمِيْرُ عَلَى أُنْثَى فَيَقُولُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهَا إِلى آخِرِ الدُّعَاءِ وَيُشِيرُ بِمَا يَصْلُحُ لَهُمَا عَلَى خُنْثَى ، وَمَا جُهِلَ هَلْ هُوَ ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى فَيَقُولُ فِي دُعَائِهْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِهَذَا المَيِّتْ وَنَحْوِهِ كَهَذِهِ الجَنَازَةْ لِأَنَّهُ يَصْلُحُ لَهُمَا .

وَيُكَبِّرُ التَّكْبِيْرَةَ الرَّابِعَةَ وَيَقِفُ بَعْدَهَا قَلِيْلاً وَلَا يَدْعُو وَيُسَلِّمُ تَسْلِيْمَةً وَاحِدَةً عَنْ يَمِيْنِهِ وَيَجُوزُ أَنْ يُسَلِّمَهَا تِلْقَاءَ وَجْهِهْ وَيَجُوزُ أَنْ يُسَلِّمَ ثَانِيَةً .

وَتُسَنُّ الصَّلَاةَ عَلَى الْمَيِّتِ جَمَاعَةً كَفِعْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامْ وَأَصْحَابِهْ واسْتَمَرَّ عَلَيْهِ النَّاسْ وَسُنَّ أَنْ لَا تَنْقُصَ الصُّفُوفُ عَنْ ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ ثُمَّ قالَ قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ صُفُوفٍ مِنَ النَّاسِ فَقَدْ أَوْجَبْ) رَوَاهُ التِّرمِذِيْ وَحَسَّنَه والْحَاكِمْ وَقَالَ صَحِيْحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمْ .

وَيَجُوزُ أَنْ يُصَلَّى عَلَى الْمَيِّتِ مِنْ دَفْنِه إِلى شَهْرٍ وَشَيءٍ قَلِيْلٌ كَيَوْمٍ وَيَوْمَيْن يُرْوَى عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم مِنْ سِتَّةِ وُجُوهٍ كُلِّها حِسَانٌ قَالَهُ أَحْمَدْ وَقَالْ وَمَنْ يَشُكُّ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْقَبرِ وَقَالْ أَكْثَرُ مَا سَمِعْتُ أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم صَلَّى عَلى أُمِّ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ بَعْدَ شَهْرٍ .

وَيُصَلَّى عَلَى الْغَائِبِ بالنِّيَّة لِصَلَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام على النَّجَاشِي وَالأَوْلَى بالصَّلَاةِ عَلَى المَيِّتِ وَصِيُّهُ العَدْلُ فَسَيِّدٌ بِرَقِيْقِه فالسُّلْطَانُ فَنَائِبُهُ الأَمِيْرُ فالْحَاكِمُ فالأَوْلَى بِغَسْلِ رَجُلٍ فَزَوْجٌ بَعْدَ ذَوِي الأَرْحَامِ .

وَمَعَ تَسَاوٍ يُقْرَعُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ قَدَّمَهُ وَلِيٌّ لَا وَصِيٌّ بِمَنْزِلَتِهِ وَالسُّنة أَنْ يَقِفَ الإِمَامُ وَالمُنفردُ عِنْدَ رَأْسِ الرَّجُلِ الْمَيِّتِ المُصَلَّى عَلَيْهِ وَعِنْدَ وَسَطِ الأُنْثَى لِمَا وَرَدَ عَنْ أَنسٍ أَنَّهُ صَلَّى عَلَى رَجُلٍ فَقَامَ عِنْدَ رَأْسِهِ ثُمَّ صَلَّى عَلَى امْرَأَةٍ فَقَامَ وَسْطَهَا فَقَالَ العَلَاءُ بْنُ زِيَادْ هَكَذَا رَأَيْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومْ قَالَ نَعَمْ وَعَنْ سَمُرَةَ بْنُ جُنْدُبْ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِي صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى امْرَأَةٍ فَقَامَ وَسْطَها مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

وَيُسَنّ أَنْ يَلِيَ الامَامَ مِنْ كُلّ نَوْعٍ أَفْضَلُهُمْ فَأَسَنُّ فَأَسْبَقُ ثُمَّ يُقْرَعْ فَإِنْ كَانَ رَجُلاً وَصَبِيّاً وامْرَأَةً وَخُنْثَى قُدِّمَ إِلَى الامَامِ الرَّجُل ثُمَّ الصَّبِي ثُمَّ الخُنْثَى ثُمَّ الْمرْأَةْ لِمَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى عَلَى تِسْعِ جَنَائِزَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ فَجَعَلَ الرِّجَالَ مِمَّا يَلِي الامَامْ وَالنِّسَاءَ مِمَّا يَلِي الْقِبْلَة .

وَيَقْضِي الْمَسْبُوقُ مَا فَاتَه مِنَ التَّكْبِيْرَاتِ إِذَا سَلَّمَ إِمَامُه عَلَى صِفَتِهَا فَإِنْ خَشِيَ رَفْعَ الجَنَازَةِ تَابَعَ التَّكْبِيرَ رُفِعَتْ أَوْ لَمْ تُرْفَعْ وَإِذَا سَلَّمَ وَلَمْ يَقْضِ شَيْئًا صَحَّتْ وَيَجُوزُ دُخُولُه بَعْدَ التَّكْبِيْرَةِ الرَّابِعَةِ وَيَقْضِي الثَّلاثَ التَّكْبِيْراتِ اسْتِحْبَاباً لِيَنَالَ الأَجْرَ .

وانْ وُجِدَ بَعْضُ مَيِّتٍ كَرِجْلٍ أَوْ يَدٍ فَحُكْمُهُ كَكُلِّهِ فَيُغْسَلُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ بَعْدَ مَا يُكَفَّنْ وُجوباً لِأَنّ أَبَا أَيُّوبَ صَلَّى عَلَى رِجْلِ انْسَانٍ قَالَهُ أَحْمَدْ وَصَلَّى عُمَرُ على عِظَامٍ بالشَّامِ وَصَلَّى أَبُو عُبَيْدَةَ عَلَى رُؤُوسٍ رَوَاهُمَا عَبْدُ اللَّه بْنُ أَحْمَد بِاسْنَادِه .

قَالَ الشَّافِعِي أَلْقَى طَائِرٌ يَداً مِنْ وَقْعَةِ الجَمَلْ عُرِفَتْ بالْخَاتَمْ وَكَانَتْ يَدَ عَتَّابِ بْنِ أُسَيْدٍ وَصَلَّى عَلَيْها أهْلُ مَكّةْ فَإِنْ كَانَ الْمَيّتُ قَدْ صَلَّى عَلَيْه غُسِلَ ذَلِكَ الْبَعْضُ وَكُفِّنَ وُجوباً وَصُلِي عليهِ اسْتِحْبَاباً لِأَنَّ الفَرْضَ سَقَط بالصَّلاَة على أَكْثَر الْمَيْتِ .

وَكَذَا إِنْ وُجِدَ الْبَاقِي مِنَ الْميتْ فَيُغْسَلُ وَيُكَفَّنُ وَيُصَلَّى عَلَيْه وَيُدْفَنُ بِجَنْبِهِ وَلاَ يُصَلى عَلَى مَا بَانَ وَانْفَصَلَ مِنْ حَيٍ كَيَدِ سَارِقٍ وَقَاطِعِ طَرِيقٍ مَا دَامَ الإِنْسَانُ حَيّاً .

وَلاَ يُصَلَّى عَلَى مَنْ فِي أَحَدِ جَانِبَي الْبَلَدِ وَانْ كَانَ الْبَلَدُ كبِيْراً وَلَوْ لِمَشَقَّةِ مَطَرٍ أَوْ مَرَضٍ لِأَنَّه يُمْكِنُ حُضُورَ الْمَيّتِ لِلصَّلاَةِ عَلَيْهِ في الْبَلَدْ وَيُعْتَبَرُ انْفِصَالُه عَنِ الْبَلَد بِمَا يُعَدُّ الذّهَابُ إِلَيْهِ نَوْعُ سَفَرْ .

قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُ الدِّيْنِ وَأَقْرَبُ الْحُدودُ ما تَجِبُ فِيْهِ الْجُمْعَةُ وَلاَ يُصَلِّي عَلى كُلِّ غَائِبٍ قَالَهُ الشّيْخ تَقِيُّ الدِّيْن لِأَنَّه لَمْ يُنْقَلْ وَمَنْ صَلَّى عَلى مَيِّتٍ كُرِه لَهُ إِعَادَةُ الصَّلاَةِ كَالْعِيْد إِلَّا مَنْ صُلِيَّ عَلَيْهِ بالنِّيَّةِ إذا حَضَرْ .

وَكَذَا إِذَا وُجِدَ بَعْضُ مَيِّتٍ صُلِّي عَلَى جُمْلَتِهِ فَتُسَنُّ الصَّلاَةُ عَلَى ذَلِكَ البَعْضِ .

شِـعْرَاً :

يَـا غَـافِلِيْنَ أَفِيْقُـوا قَـبْـلَ مَـوْتِكُـمُ
وَقَـبْـلَ يُـؤْخَـذُ بـالأَقْـدَامِ والـلَّمَمِ
والنَّـاسُ أَجْمَـعُ طُراً شاخِصُوْنَ غَـداً
لاَ يَـنْـطِقُـونَ بِـلاَ بَكْمٍ وَلاَ صَمَـمِ

والْخَلْقُ قَـدْ شُغِلُوا والْحَشْـرُ جَـامِعُهُمْ
والـلّهُ طَـالِبُهُـم بـالْـحِـلّ والْـحَـرَمِ
وَقَـدْ تَـبَـدَّىٰ لِأَهْـلِ الْجَمْـعِ كُـلِّهِـم
وَعْـدُ الإِلَـهِ مِـنَ التّـعْـذِيـبِ والـنَّـقَـمِ
وَكُـلُّ نَفْسٍ لَـدَى الْجَبّـارِ شَـاخِصَـةٌ
لَا يَـنْـطِقُـونَ بِـلَا رُوحٍ مِنَ الـزَّحَـمِ

اللّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلَكَ أَنْ تَرْفَعَ ذِكْرنا وَأَنْ تَضعَ وِزْرَنَا وَتُصْلِحَ أَمْرَنَا وَتُطَهِّرَ قُلُوبَنَا وَتُنَوِّرَ قُبُورَنَا وَتَغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

ولا يُصَلِّي الامَامُ عَلى الْغَالِ وَلَا عَلَى قَاتِلِ نَفْسِهِ أَمَّا الْغَالُ وَهُوَ مَنْ كَتَمَ شَيْئا مِمَّا غَنِمَهُ المُسْلِمُون مِن الكُفَّارْ لِيَخْتَصَّ بِهِ فَلأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلَام امْتَنَعَ عن الصَّلَاةِ عَلى رَجُلٍ مِنْ جُهَيْنَة غَلَّ يَوْمَ خَيْبَرْ وَقَالْ صَلُّوا عَلَى صَاحِبُكُمْ رَوَاهُ الخَمْسَة إِلَّا التِّرْمِذِي احْتَجّ بِهِ أَحْمَد وَأَمَّا قَاتِلُ نَفْسِهْ فَلِحَدِيْثِ جَابِرْ بْنِ سَمرَة أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ جَاؤهُ بِرَجُلٍ قَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِمَشَاقِصَ فَلَمْ يُصَلِّى عليه رواهُ مسلم وغيرُه .

وَلِلْمُصَلِّي عَلَى الْجَنَازَةِ قِيْرَاطُ مِنَ الأُجْر وَهُوَ أَمْرٌ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللّه تعالى وَلَهُ بِتَمَامِ دَفْنِهَا قِيْرَاطُ آخَرْ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَنْ شَهِدَ جَنَازَةً حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيْرَاطٌ وَمَنْ شَهد حَتَّى تُدْفَنْ فَلَهُ قِيْرَاطَانِ قِيْلَ وَمَا القِيْرَاطَانِ قَال مِثْلُ الجَبلَيْنِ العَظِيْمَيْنِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَلِمُسْلِم حَتَّى تُوْضَعَ في اللّحْد وَلِلْبُخَارِي مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَة مَنْ تَبعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيْمَاناً وَاحْتِسَاباً وَكَانَ مَعَهَا حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقَرَاطَيْنِ كُلُّ قِيْرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ وَحَمْلُ الْمَيِّتِ لِمَحَلِّ دَفْنِه فَرْضُ كِفَايَةٍ .

وَيُسَنُّ التَّرْبِيْعُ في حَمْلِ الجَنَازَة لِمَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ مَنْ اتَّبَعَ جَنَازَةً فَلْيَحْمِلْ بِجَوانِبِ السَّرِيْرِ كُلِّها فَإِنَّهُ مِنَ السُّنةِ ثُمَّ إِنْ شَاءَ فَلْيَتَطَوَّعْ وَإِنْ شَاءَ فَلْيَدَعْ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَصِفَتُهُ أَنْ يَضَعَ قَائِمَةَ السَّرِيْرِ اليُسْرى المُقَدّمَة على كَتِفِهِ الْيُمْنَى .

ثُمَّ يَنْتَقِل إلى المُؤَخَّرَة ثُمَّ اليُمْنَى المُقَدّمَةِ عَلَى كَتِفِهِ الْيُسْرَى ثُمَّ يَنْتَقِلُ إلى المُؤَخَّرَةِ ولاَ يُكْرَهُ الحَمْلُ بَيْنَ العَمُودَيْن وَهُوَ مَا بين القَائِمَتَيْنِ المُقَدّمَتَيْنِ أَوْ المُؤخَّرَتَيْنِ أَوْ يَجْعَلُ كُلَّ عَمُودٍ على عَاتِقٍ .

لِمَا رُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمْ حَمَلَ جَنَازَةً سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ بَيْنَ العَمُودَيْن وَيُسَنّ الاسْرَاعُ بِالجَنَازَةْ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْه قَالَ قَالَ رَسُول اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ أَسْرِعُوا بالجَنَازَة فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَرَبْتُمُوهَا إِلى خَيْر وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ ذَلِك فَشَرٌّ تَضَعُوْنَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ رَواهُ الجَمَاعَة .

وَلاَ يُكْرَه الحَمْلُ عَلَى دَابّةٍ لِغَرَضٍ صَحِيْحٍ كَبُعْدِ المَقْبَرة وَمِثْلُ البَعِيْر السَّيَارَةُ وَنَحْوُهَا وَيُسْتَحَبُّ كَوْنُ المَاشِي قُدَّامَ الجَنَازَةِ قَالَ ابْنُ المُنْذِرْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَر كَانُوا يَمْشُونَ أَمَامَ الجَنَازَة ، رَوَاهُ أَحْمَد عَنْ ابنِ عُمَرَ وَلِأَنَّهُمْ شُفَعَاءُ والشَّفِيْعُ يَتَقَّدمُ المَشْفُوعَ له .

وَسُنَّ كَوْنُ رَاكِبٍ خَلْفَ الْجَنَازَةِ لِحَدِيْثِ المُغيْرَةِ بْنِ شُعْبَةَ مَرْفُوعاً الرَّاكِبُ خَلفَ الجَنَازَةِ والمَاشِي حَيْثُ شَاءَ مِنْها رواهُ التّرْمِذِي وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيْح وَلأَنَّهُ إِذَا سَارَ أَمَامَها الرّاكِبُ أَذَى المُشَاةَ والقُرْبُ مِنَ الجَنَازَةِ أَفْضَلُ كالإِمَامِ فِي الصَّلَاةِ .

وَيُكْرَهُ جُلُوسُ تَابِعِها حَتَّى تُوْضَعَ بالأَرْض لِحَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ فِيْهِ حَتَّى تُوْضَعْ بالأَرْض وَرَفْعُ الصَّوْتِ مَعَ الجَنَازَةِ مَكْرُوهٌ لِحَدِيْثِ لا تُتْبَعُ الجَنَازَةُ بِصَوْتٍ وَلَا نَارٍ رَواهُ أَبُو دَاودْ وَقَوْلُ القَائِلِ مَعَ الجَنَازَةِ اسْتَغْفِرُوا بِدْعَةٌ وَرَوَى سَعِيْدٌ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ وَسَعِيْدَ بْنَ جُبَيْرٍ قَالَا لِقَائِلِ ذَلِكَ لَا غَفرَ اللَّهُ لَكَ .

وَكُرِهَ أَنْ يَتْبَعَ الْجَنَازَةَ امْرَأَةٌ لِحَدِيْثِ أُمِّ عَطِيَّةَ « نُهِيْنَا عَن اتِّبَاعِ الجَنَائِزْ وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا وَحَرُمَ أَنْ يَتْبَعُها مَعَ مُنْكَرٍ يَعْجِزُ عَنْ إِزَالَتِه وَيَلْزَمُ القَادِرُ عَلَى إِزَالَتِهِ أنْ يُزِيْلَهُ وَلَا يَتْرُكَ اتِّبَاعَها .

وَيُسْتَحَبُّ القِيَامُ لِلْجَنَازَةِ لِمَا وَرَدَ عَن ابْنِ عُمَرْ عَنْ عَامِرٍ بْنِ رَبِيْعَة عَن النَّبِيِّ صَلى اللّهُ عَلَيْه وَسَلَّمْ قَال إِذا رَأَيْتُم الجَنَازَةَ فَقُومُوْا لَها حَتَّى تُخَلِّفَكُم أَوْ تُوْضَعَ رَواهُ الجَماعَة وَلِأَحْمَدْ .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرْ إذَا رَأَى جَنَازَةً قَامَ حَتَّى تُجَاوِزَهُ وَلَهُ أَيْضاً عَنْهُ أَنّهُ رُبمَّا تَقَدَّمَ الجَنَازَةَ فَقَعَدَ حَتَّى إذا رَآهَا قَدْ أَشْرَفَتْ قَامَ حَتَّى تُوْضَعْ وَاخْتَارَ هَذا الْقَوْلَ الشَّيْخُ تَقِيُ الدِّيْنَ وَعَنْ جابِرٍ قَالْ مَرَّتْ بِنَا جَنَازَةٌ فَقَام لَها النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ وَقُمْنَا مَعَهُ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللّهِ إِنّها جَنازَةُ يَهُودِي قَالَ إِذَا رَأَيْتُمْ الجَنازَةَ فَقُومُوْا لَها .

وَعَنْ سَهْلِ بْنَ حُنَيْفٍ وَقَيْسِ بْنِ سَعْد أَنَّهُما كَانَا قَاعِدَيْنِ بالقَادِسِيَّةِ فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجنازَةٍ فقَامَا فقِيْلَ لَهُمَا إِنَّها مِنْ أَهْلِ الأَرْض أَيْ مِنْ أَهْلِ الذمَّةِ فقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ مَرَّتْ بِهِ جَنازَةٌ فقَامَ فَقِيْلَ لَهُ انَّها جَنَازَةٌ يَهُودِي فقَالَ أَلَيْسَتْ نَفْساً مُتَّفَقٌ عَلَيْهُما .

اللَّهُمَّ وَفِّقْنا تَوْفِيْقَاً يَقِيْنَاً عَنْ مَعَاصِيْكَ وَوَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيْكَ وَأَرْزُقْنَا مَحبَّتَكَ وَمَحَبَّةَ مَنْ يُحِبُّكْ وَبُغْضَ مَنْ يُعَادِيْك واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيع المُسْلِمِيْن بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وَصَلَّى اللَّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعين .

شِـعْرَاً :

هَذِهِ قَصِيْدَةٌ بَلِيْغَةٌ جِدَّاً وَهِيَ زُهْدِيَّةٌ وَعَظِيَّةٌ أَلْق لَهَا سَمعَك

سِهَامَ الْمَنَايَا فِي الـوَرَى لَيْس تُمْنَعُ
فَكُـلُّ لَـهُ يَـومـاً وَانْ عَـاشَ مَصْرَعُ
وَكُـلُّ وِانْ طَـالَ المَـدَى سَـوْفَ يَنْتَهِيْ
إِلى قَعْـر لَحْـدٍ في ثَـرَىً مِنْـهُ يُـوْدَعُ
فَقُـلْ لِلَّذِي قَـدْ عَـاشَ بَعْـدَ قَـرِيْنِهِ
إلى مِثْلِهَـا عَمَّـا قَلِيْـلٍ سَتُـدْفَـعُ
فَكُلُّ ابْنِ أُنْثَى سَوفَ يُفْضِيْ إِلى الرَّدَى
وَيَـرْفَـعُـهُ بَعْـدَ الأرائِـكِ شَـرْجَـعُ
وَيُـدْرِكُـهُ يَـوْمـاً وَانْ عَـاشَ بُـرْهَـةً
قَضَـاءٌ تَسَاوَى فِيْـهِ عَـوْدٌ وَمُـرْضَـعُ

فَـلاَ يَفْـرَحَنْ يَـوْمـاً بُـطُولِ حَيَاتِـهِ
لَبِيْبٌ فَمَـا فِي عَيْشِـهِ الْمَرْءُ مَـطْمَـعُ
فَمَـا الْعَيْشُ إلاَّ مِثْلُ لَمْحَـةِ بَـارِقٍ
وَمَـا الْمَوْتُ إلاَّ مِثْلٌ مَا الْعَيْن تَهْجَـعُ
وَمَـا النَّـاسُ إلاَّ كَـالنَّبَـاتِ فَيَـابِسٌ
هَـشِيْـمٌ وَغَضٌّ إثْـرَ مَـا بَـادَ يَـطْلَعُ
فَـتَـبـاً لِـدَارٍ مَـا تَـزَالُ تُـعُـلُّنَـا
أفَـاوِيْـقَ كَـأْسٍ مُـرَّةً لَيْس تُـقْنِـعُ
سَحَـابُ أَمَـانِيْهَـا جَهَـامٌ وَبَـرْقُـهَـا
إذا شِيْمَ بَـرْقٌ خُـلَّبٌ لَيْس يَـهْـمَـعُ
تَـغُـرُّ بَنِيْهَـا بِـالمُنَـى فَـتَـقُـودُهُمْ
إلى قَعْـرِ مَهْـوَاةٍ بِهَـا المَرْءُ يُـوْضَـعُ
فَكَمْ أَهْلَكَتْ فـي حُبِّهَـا مِنْ مُتَيَّمٍ
وَلَم يَحْـظَ مِنْهَـا بِـالمُنَـى فَيُـمَتَّـعُ
تُمَنِّيْـهِ بِـالآمَـالِ فِي نَيْـلِ وَصْلِهَـا
وَعَنْ غَيِّـهِ فـي حُبِّهَـا لَيْس يَـنْـزِعُ
أَضَـاعَ بِهَـا عُمْـراً لَـهُ لَيْسَ رَاجِعَـاً
وَلَـمْ يَـنَـلِ الأَمْـرَ الّـذِي يُـتَـوَقَّـعُ
فَصَـارَ لَهَـا عَبْـداً لِجَمْـعِ حُـطَامِهَا
وَلَمْ يَهْنَ فِيهـا بـالّـذِي كَـانَ يَجْمَـعُ
وَلَـوْ كَـانَ ذَا عَقْـلٍ لأغْنَتْـهُ بُلْغَـةٌ
مِنَ العَيْشِ في الدّنْيَا وَلَمْ يَكُ يَجْشَعُ

إلى أَنْ تُـوَافِيْـهِ المَنِيّـةُ وَهُـوَ بَـالْ
قَـنَـاعَـةِ فِـيْـهَـا آمِـنـاً لا يُـرَوَّعُ
مَـصَـائِبُـهَـا عَمَّتْ فَلَيْسَ بِمُفْلَتٍ
شُـجَـاعٌ وَلاَ ذُو ذِلَّـةٌ لَـيْس يَـدْفَـعُ
وَلاَ سَـابِـحٌ في قَعْـرِ بَحْرٍ وَطَـائِـرٌ
يُـدَوِّمُ فـي بُـوْحِ الفَـضَـاءِ وَيَـنْـزِعُ
وَلاَذُوْ امْتِنَـاعٍ فـي بُـرُوجٍ مُشَيْـدَةٍ
لَهَـا في ذُرَى جَـوِّ السَّمَـاءِ تَـرَفُّـعُ
أَصَـارَتْـهُ مِنْ بَعْـدِ الحَيَاةِ بِـوَهْـدَةٍ
لَـهُ مِنْ ثَـرَاهَـا آخِـرَ الـدَّهْـرِ مَضْجَـعُ
تَسَاوَى بِهَـا مَنْ حَلَّ تَحْتَ صَعِيْدِهَا
عَلى قُـرْبِ عَهْـدٍ بِـالمَمَـاتِ وَتُبَّـعُ
فَسِيَّـانِ ذُو فَـقْـرٍ بِهَـا وَذُوُوْا الـغِنَـى
وَذُوْ لَكَنْ عِـنْـدَ المَـقَـالِ وَمِصْـقَـعُ
وَمَنْ لَمْ يَخَفْ عِنْـدَ النَّـوَائِب حَتْفَـهُ
وَذُوْ جُبُنٍ خَـوْفاً مِنَ المَـوتِ يُسْـرِعُ
وَذُوْ جَشَـعٍ يَسْـطُو بِنَـابٍ وَمِخْـلِبِ
وَكُـلُّ بُـغَـاثٍ ذِلَّـةً لَـيْسَ يَـمْـنَـعُ
وَمَـنْ مَـلَكَ الآفَـاقَ بَـأْسـاً وَشِـدَّةً
وَمَنْ كَـانَ مِنْهَـا بِـالضَّـرُوْرَةِ يَقْنَـعُ
وَلَـوْ كَشَفَ الأَجْـدَاثَ مُعْتَبِـراً لَهُـمْ
لِـيَنْـظُرَ آثَـارَ البِلَى كَـيْفَ يَصْـنَـعُ

لَشَاهَدَ أَحْدَاقاً تَسِيْلُ وَأَوْجُهاً
مُعَفَّرَةً في التُّرْبِ شُوْهاً تُفَزِّعُ
غَدَتْ تحتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى مُكْفَهِرَّةً
عَبُوْساً وَقَدْ كَانَتْ مِنَ البِشْرِ تَلْمَعُ
فَلَمْ يُعْرَفِ المَوْلَى مِنَ العَبْدِ فِيْهِم
وَلاَ خَامِلاً مِنَ نَابِهٍ يَتَرَفَّعُ
وَأَنَّى لَهُ عِلْمٌ بِذَلِكَ بَعْدَمَا
تَبَيَّنَ مِنْهُمْ مَا لَهُ العَيْنُ تَدْمَعُ
رَأَى مَا يَسُوءُ الطَّرْفَ مِنْهُمْ وَطَالَمَا
رَأَى مَا يَسُرُّ النَّاظِرِيْنَ وَيُمْتِعُ
رَأَى أَعْظُماً لاَ تَسْتَطِيْعُ تَمَاسُكاً
تَهَافَتَ مِنْ أَوْصَالِهَا وَتَقَطَّعُ
مُجَرَّدَةً مِنْ لَحْمِهَا فَهِيَ عِبْرَةٌ
لِذِيْ فِكْرَةٍ فِيْمَا لَهُ يَتَوَقَّعُ
تَخَوَّنَهَا مَرُّ اللَّيَالِي فَأَصْبَحَتْ
أَنَابِيْبَ مِنْ أَجْوَافِهَا الرِّيْحُ تُسْمَعُ
إِلَى حَالَةٍ مُسْوَدَّةٍ وَجَمَاجِمٍ
مُطَأْطَأَةٍ مِنْ ذِلَّةٍ لَيْس تُرْفَعُ
أُزِيْلَتْ عَنِ الاعْنَاقِ فَهِيَ نَوَاكِسٌ
عَلى التُّرْبِ مِنْ بَعدْ الوَسَائِدِ تُوْضَعُ
عَلاَهَا ظَلاَمٌ لِلْبِلَى وَلَطَالَمَا
غَدَا نُورُهَا في حِنْدِسِ الظُّلْمِ يَلْمَعُ

كَـأن لَمْ يَكُنْ يَوْمـاً عَـلاَ مَفْـرِقـاً لَهَـا
نـفَـائِسُ تِـيْـجَـانٍ وُدُرٍ مُـرَصَّـعُ
تَـبَـاعَـدَ عَنْـهُمْ وَحْشَـةً كُـلُّ وَامِقٍ
وَعَـافَـهُمُ الْأَهْلُّونَ والنَّـاسُ أَجْمَـعُ
وَقَـاطَعَهُمْ مَنْ كَـانَ حَـالَ حَيَـاتِـهِ
بِـوَصْلِهِمُ وِجْـداً بِهِمْ لَيْسَ يَـطْمَـعُ
يُبَكِّيْهِـمْ الأَعْـدَاءُ مِنْ سُـوءِ حَـالِهِمْ
وَيَـرْحَمَهُمْ مَنْ كَـانَ ضِـداً وَيَجْـزَعُ
فَقُـلْ لِلّذِي قَـدْ غَـرَّهُ طُـوْلُ عُمْـرِهِ
وَمَـا قَـدْ حَـوَاهُ مِنْ زَخَـارِفَ تَخْـدَعُ
أَفِقْ وَانْـظُرِ الـدُّنْيَـا بِـعَيْـنِ بَصِيْـرَةٍ
تَجِـدْ كُـلَّ مَـا فِيْهَـا وَدَائِـعَ تَـرجِـعُ
فَأَيْنَ الْمُلُوكُ الصَّيْدُ قِـدْماً وَمَنْ حَـوَى
مِنَ الأَرْضِ مَا كَانَتْ بِهِ الشَّمْسُ تَطْلَعُ
حَـوَاهُ ضَـرِيـحٌ مِنْ فَضَـاءِ بِسِيْـطِهَـا
يُقَصِّـرُ عَنْ جُثْمَـانِـهِ حِيْنَ يُـذْرَعُ
فَـكَمْ مَـلِكٍ أَضْـحَى بِهَـاذَا مَـذَلَّـةٍ
وَقَـدْ كَـانَ حَيَّـاً لِلْمَهَـابَـةِ يُتْبَـعُ
يَقُودُ عَلى الخَيْـلِ العِتَـاقِ فَـوَارِسَـاً
يَسُـدُّ بِهَـا رَحْبَ الفَـيَـافِي وَيُـتْـرِعُ
فَـأَصْبَحَ مِنْ بَعْـدِ التَّنَعُّمِ فِي ثَـرَى
تُـوارِي عِـظَامـاً مِنْـهُ بَهْمَـاءُ بَلْقَـعُ

بَعِيْـداً عَـلى قُـرْبِ المَـزَارِ إِيـابُـهُ
فَلَيْسَ لَـهُ حَتَّى القِيَـامَـةَ مَـرْجِـعُ

غَـرِيْبـاً عَنِ الأحْبَـابِ والأَهْـلِ ثَـاوِيـاً
بـأقْصَى فَـلاَةٍ خَـرْقُـهُ لَيْس يُـرْقَـعُ

تُـلِحُّ عَلَيْـهِ الـسّـافِيَـاتُ بِـمَـنْـزِلٍ
جَـدِيْبٍ وَقَدْ كَـانَتْ بِـهِ الأرْضُ تُمْـرِعُ

رَهِيْنـاً بِـهِ لاَ يَمْلِـكُ الـدّهْـرَ رَجْعَـةً
وَلاَ يَـسْتَـطِيْعَنَّ الـكَـلاَمَ فَـيُـسْـمَـعُ

تَوَسَّدَ فِيْـهِ التُّرْبَ مِنْ بَعْـدِ مَا اغْتَـدَى
زَمَـانـاً عَلَى فُـرُشٍ مِنَ الخَـزِّ يُـرْفَـعُ

كذَلِكَ حُكْمُ اللّهِ في الخَلْقِ لَنْ تَـرَى
مِنَ النّـاسِ حَيّـاً شَمْلَهُ لَيْس يُصْـدَعُ

اللَّهُمَّ انْهَجْ بِنَا مَنَاهِجَ المُفْلِحين وأَلْبِسْنَـا خِلَعَ الايْمَانِ واليَقَيْن وَخُصَّنَا مِنْكَ بالتَّوْفِيْقِ المُبين وَوَفّقْنَا لِقَوْلِ الحَقِ واتْبَاعِهِ وَخلّصْنَا مِنَ البَاطِلِ وابْتِدَاعِهِ وَكُنْ لَنَا مُؤَيِّدا وَلاَ تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيْنا يَدا وَاجْعَلْ لَنَا عَيْشاً رَغدَا وَلاَ تُشْمِتْ بِنَا عدوًّا وَلاَ حَاسِدَاً وارْزُقْنَا عِلْمَاً نافِعاً وَعَمَلاً مُتَقَبَّلا وَفَهْمَاً ذَكِيّاً وَطَبْعاً صَفِيّا وَشِفَاً مِنْ كُلِّ دَاء واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَميع المُسْلِمين بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين وصَلَّى اللَّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْن .

(فَصْـــلٌ)

ثُمَّ اعْلَمْ أَيُّها الأخُ الكريمُ وَفَّقَنا اللّهُ وإيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِحُسْنِ الخَاتِمَةِ أَنَّهُ إذا حَلَّ بالانْسَانِ الأجَلُ المَحْتُوم وَوَافَتْهُ المنيّةُ وَفاضَتْ رُوحُهُ وَخَرَجَتْ مِنَ الجَسَدِ الَّذي كانَتْ تَعْمُرُهُ في الدّنْيَا .

فَإنْ رَأَيْتَ النَّاسَ عَامَّةً وَمَنْ يَلُوذُوْنَ بِهِ خَاصَّةً كأقْربَائِهِ وَجِيْرانِهِ وأنْسِبائِهِ وَاخْوَانِهِ وَزُمَلائِه وَمُعَامِليْهِ مَا بَيْن شَاكٍ وَبَاكٍ وَمُثْنٍ عَلَيْهِ بخَيْرٍ وَدَاعٍ لَهُ وَسَائِلٍ لَهُ النّجاةَ مِنَ المَخاوِفِ وَسَائِلٍ اللَّهَ لَهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنة .

وَقَدْ أَجْمَعُوا يَطْلُبُونَ له المُسَامَحَةَ والمَغْفِرَةَ مِنَ اللَّهِ لِمَا كَانَ يَتَجَلَّى لَهُمْ مِنْ خُـلُقٍ وَدِيْنٍ وَمُعَامَلَةٍ واحْسَانٍ وَمَعْرُوفٍ وَسِيْرَةٍ حَسَنَةٍ وكانَ المُثْنُونَ عليهِ مِنْ أَهْـلِ الصَّلاحِ والعَـدَالةِ والـوَرَعِ والتُّقَى والصِّدْقِ والفَضْل .

فاعْلَمْ أنَّ ثَنَاءَهُمْ دَلِيْلٌ قَوِيٌ وَبُرْهَانٌ جَليٌ عَلى حُسْنِ حَالِ المَيتِ الرّاحِلِ عَنِ الدّنْيَا إلى الآخِرَة وإنْ رَأَيْتَهُمْ بالعَكْسِ خِلَافَ مَا ذَكَرْنا فَبدَلُ الثّنَاءِ والمَدْحِ قَدْحٌ وَمَكانَ التّرَحُّمِ والدُّعاءِ لَهُ الطّعْنُ والسّبُّ والشّتْمُ والاسْتِيَاءُ فَتَجِدُ جِيْرَانَه مِنْ أَهْلِ الصّلاح فَرِحِينَ لِانْقِطَاعِ شَرِّهِ وَكَذَلِكَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ بِمُعَامَلَةٍ أَوْ نَمِيْمَةٍ أَوْ كَذِبٍ أَوْ أَكْلِ حُقُوقِهِمْ أَوْ لِمَا يَعْلَمُونَ عَنْهُ مِنَ الفِسْقِ والفُجُورِ والاعْتِدَاءِ والاسْتِطَالةِ على عِبَادِ اللَّهِ بغير حَقّ .

فَهَذَا أَيْضَا بُرْهَانٌ سَاطِعٌ وَدَلِيْلٌ واضِحٌ عَلى سُوءِ حَالِهِ وَخُبْثِ أَعْمالِهِ وَفي الحَدِيْثِ الذي أَخْرَجَهُ البُخارِيُ في صَحِيْحِهِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالْ مَرُّوا بِجَنازَةٍ فأثْنوا عَلَيْها خَيْراً فَقالَ النبي صلى اللّهُ عليهِ وسَلّمْ

وَجبَتْ ثُمَّ مُرَّ بِأُخرى فأثْنوا عَلَيْهَا شَرّا فقالَ وَجَبَتْ .

فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا وَجَبَتْ قَالَ هَذِهِ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرَاً فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنّةْ وَهَذِهِ أَثْنيتُمْ عَلَيْهِ شَرّاً فَوَجَبَتْ لَهُ النَارْ أَنْتُم شُهَدَاءَ اللّهِ في الأرضْ وفي الحديثِ الآخَرِ عِنْدَ الحَاكِمْ « انّ لِلّهِ مَلاَئِكَةً تَنْطِقُ على أَلْسِنَةِ بَنِي آدَمْ بِمَا في المؤْمِنِ مِنْ الخَيْرِ والشّر ، قُلْتُ ولا يَبْعُدُ أَنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْطِقُ على أَلْسِنَةِ الذيْنَ يَكْتُبُونَ لِلْفَسَقَةِ والمُجْرِمينَ حُسْنَ سَيْرٍ وَسُلُوكْ .

وفي الحديثِ الذي في المُسْنَدِ يُوْشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الجَنّةِ مِنْ أَهْلِ النَّار قَالُوا بِمَاذا رَسول الله قَالَ بالثّناءِ الحَسَنِ والثّناءِ السّيّء .

وقالَ النَّوَوي عَلى حَدِيْثِ أَنَسْ أَنَّهُ مُرَّ عَلَى النّبِي صَلّى اللَّهُ عليهِ وَسَلَّمَ بِجَنَازَةٍ فأثْنَوا عليهِ خَيْراً فقالَ النّبِيُّ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وَجَبتْ ثُمَّ مُرَّ بِأُخْرَى فَأَثْنوا عَلَيْهِ شَرّاً فقَالَ وَجَبْتَ الحَدِيْث قَالَ الصّحِيْحُ أَنَّهُ عَلَى عُمُومِهِ وَأَنَّ مَنْ مَاتَ فَأَلْهَم اللّهُ النَّاسَ الثّنَاءَ عَلَيْهِ بِخَيْرٍ كَانَ دَلِيْلاً عَلَى أَنّه مِنْ أَهْلِ الجَنّةِ .

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا قَالَهُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللّه حَدِيْثُ أَنَس عِنْدَ أَحْمَدٍ وَابْنُ حِبّان والحَاكِمَ مَرْفُوْعاً « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَشْهَدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ مِنْ جِيْرَانِهِ الأَدْنَينِ أَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُوا مِنْهُ إلاَّ خَيْرَا إِلاَّ قَالَ اللَّهُ تَعالى قَدْ قَبِلْتُ قَوْلَكُمْ وَغَفَرْتُ لَهُ مَا لاَ تَعْلَمُونْ » .

وَفي حَدِيْثِ البُخَارِي عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّه عليهِ وَسَلّمْ أَيُّما مُسْلِمٌ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللّهُ الجَنَّةَ فَقُلْنَا وَثَلاَثَةٌ قَالْ : وَثلاثَةٌ فَقُلْنَا وَاثْنَانِ قَالَ وَاثْنَانِ ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الوَاحِد .

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ بْنُ يَتْمِيّةَ رَحِمَهُ اللّه وَلَا يُشْهَدُ لِأَحدٍ بالجَنّةِ إِلَّا مَنْ شَهِدَ لَهُ الرّسُولُ صَلّى اللَّه عليهِ وَسَلَّم أَوْ اتَّفَقَتْ الأُمَّةُ على الثّناءِ عَلَيْه .

وَقِيْلَ يُشْهَدُ بِهِ لِمَنْ اسْتَفَاضَ عِنْدَ الأُمَّةِ أَنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ كَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزيزِ والحَسَن البَصْرِيّ وَغَيْرِهِمْ .

وَكَانَ أَبُو ثَوْرٍ يَشْهَدُ لأَحْمَدَ بنُ حَنْبَلٍ بالجَنَّةِ وَبِالتَّالِي فَإِذَا شَهِدَ عَامّةُ المُؤْمِنِيْنَ مِمَّنْ تُقْبَلُ شَهَادَتُهمْ وَيُوْثَقُ بِدِيْنِهم وَأَمَانَتِهِمْ وَكَلَامِهِم مِنْ أَهْلِ الصّدْقِ والفَضْلِ والوَرَعِ لِرَجُلٍ بِالخَيْرِ فَهُوَ بُرْهَانٌ وَدَلِيْلٌ عَلَى حُسْنِ حَالِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمْ وَلَا عِبْرَةَ بِثَنَاءِ الفَسَقَةِ والفَجَرَةِ لأَنَّهُمْ قَدْ يُثْنُونَ عَلَى مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ وَلَا مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المَيّتِ عَدَاوَةْ .

لأَنَّ شَهَادَةَ العَدُوّ لا تُقْبَلُ عَلَى عَدُوّهْ ، اللّهُمَّ اخْتِمْ لَنَا بِخَاتِمَةِ السّعَادَة واجْعَلْنا مِمَّنْ كَتَبْتَ لَهُمُ الحُسْنى وَزِيادَة واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِـدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِيْن بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين وَصَلّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين .

(فَصْــلٌ)

وَسُنَّ أَنْ يُعَمّقَ القَبْر بأَنْ يُنَزّلَ لِلأَرْضِ لِقَوْلِهِ صَلّى اللَّهُ عليهِ وَسَلَّم في قَتْلَى أُحُدْ احْفِرُوا وَأَوْسِعُوا وَأَعْمِقُوا رَواهُ أَبو دَاوُدَ والتّرمِذِي وَصَحّحَه وَقَوْلُه لِلْحافِرِ أَوْسِعْ مِنْ قِبَلِ الرّأْسِ وَأَوْسِعْ مِنْ قِبَلِ الرِّجْلَيْنِ رَواهُ أَحْمد وَأَبُوا دَاوُدْ .

قَالَ أَحْمَد يُعَمَّقُ إلى الصَّدْرِ لِأَنَّ الحَسَنَ وابْنَ سِيْرِيْنَ كَانَا يَسْتَحِبّانِ ذَلِكَ وَيَكْفِي مَا يَمْنَعُ السِّبَاعَ والرّائِحَةَ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ المَقْصُودُ وَسُنَّ أَنْ يُسَجَّى قَبْرٌ لِأُنْثَى وَخُنْثَى وَكُرِهَ لِرَجُلٍ إِلَّا لِعُذْرٍ .

وَسُنّ أَنْ يُدْخِلَهُ قَبْرَهُ مِنْ عِنْدِ رِجْلَيْهِ إِنْ سَهُلَ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سُلَّ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ أَدْخَلَ الحَارِثَ مِنْ قِبَلِ رِجْلِي القَبْرِ وَقَال هَذَا مِنَ السُّنّة رواهُ أَحْمَد وَيُسَنّ قَوْلُ مُدْخِلِهِ القَبْرَ بِسْمِ اللّه وَعَلى مِلَّةِ رَسُولِ اللّه .

وَيَجِبُ أَنْ يُسْتَقْبَلَ بِهِ القِبْلَةَ إِذَا وُضِعَ فِي القَبْرِ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّه عَلَيهِ وَسَلَّم في الكَعْبَةِ قِبْلَتِكُمْ أَحْيَاءً وأَمْوَاتاً وَلِأَنَّهُ طَرِيقُ المُسْلِمِيْنَ بِنَقْلِ الخَلَفِ عَنِ السَّلَفْ .

وَيَحْرُمُ دَفْنُ غَيْرِهِ مَعَهُ إِلَّا لِضَرُوْرَةْ لِأَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم كانَ يَدْفِنُ كُلَّ مَيِّتٍ في قَبْرٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا عِنْدَ الضَّرُوْرَةِ فَيَجُوْز لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيهِ وَسَلَّم لَمّا كَثُرَ القَتْلَى يَوْمَ أُحُدْ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ في القَبْرِ الوَاحِدِ ثُمّ يَسْأَلُ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخذاً لِلْقرآن فَيُقَدِّمُهُ في اللحْد حَدِيْثٌ صَحِيْح .

وَسُنّ حَثْوُ التُرَابِ عَلَيْهِ ثَلاثاً ثُمَّ يُهَالُ عَلَيهِ التُّرَاب لِحَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَة قالَ فِيْه فَحَثَى عَلَيْهِ منْ قِبَلِ رَأْسِهْ ثَلاثاً رواهُ ابْنُ مَاجَهْ وَيُسْتَحَبّ الدُّعاء لِلْمَيْت بَعْد الدَّفْن لِمَا وَرَدَ عَنْ عُثْمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالْ كانَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إذا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ المَيْتِ وَقَفَ عَلَيْهِ وَقَالَ اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيْكُم واسْأَلُوا لَهُ التَّثْبيتَ فَإِنَّه الآنَ يُسْأَلْ رَواهُ أَبو دَاوُدْ .

وَسُنّ رَفْعُ القَبْرِ عَنِ الأرْضِ قَدْرَ شبْرٍ مُسَنَّماً لِقَوْلِ جَابِرٍ أَنّ النبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم رُفِعَ قَبْرُهُ عَنِ الأرْضِ قَدْرَ شِبْر رَواهُ الشّافِعِي وَيُكْرَهُ رَفْعُهُ أَكْثَرَ لِقَوْلِه لِعَلِي لاَ تَدَعْ تِمْثَالاً إلاّ طَمَسْتَهُ وَلاَ قَبْراً مِشْرِفاً إلاّ سَوَّيْتَه رَواهُ مُسْلِم .

وَسُنَّ رَشُّ القَبْرِ بِمَاء لمَا وَرَدَ عَنْ جعْفَرَ بْنِ مُحَمّدِ عَنْ أَبِيْهِ أَنَّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمْ رَشّ على قَبْر ابْنِه ابْرَاهِيمَ مَاءً وَوَضَع الحَصْبَاءَ رَواهُ الشّافِعي .

قَالَ بَعْضُ العُلَمَاء وَيُسْتَحَبُّ الدّفْنُ فِيْما كَثُرَ فِيْهِ أَهْلُ الخَيْرِ والصّلاَح فَيَدْفِنُهُ مَعَهُمْ وَيُنْزِلُهُ بِإزَائِهِمْ وَيُسْكِنَهُ بِجوَارِهِم وَأَنْ يُجَنِّبَهُ قُبُورَ مَنْ يَخَافُ التّأَذّيْ بِهِمْ كَمَا جاءَ في أَثَرْ أَنَّ امْرَأَةً دُفِنَتْ في قَبْر فَأَتَتْ أَهْلَها لَيْلاً أَيْ في النّوْمْ فَجَعَلَتْ تُعْتِبُهُمْ وَتَقُولُ مَا وَجَدّتمْ أَنْ تَدْفِنُوني إلاّ إلى فُرْنِ الخُبْز .

فَلَمّا أَصْبَحُوا لَمْ يَجدُوا بِقُرْبِ القَبْر فُرْنَ خُبْزٍ لَكِنْ وَجَدُوا رَجُلاً سَيَّافاً لِابْن عامِرٍ دُفِنَ بقُرْبِهَا وَرَأى بَعْضُهُم وَلَدَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ فَقَالَ مَا فَعَلَ اللّهُ بِكْ قَال مَا ضَرّنِي إلاّ أَنّي دُفِنْتُ بازَاءِ فُلاَنٍ وَكَانَ فَاسِقا فَرَوّعَني مَا يُعَذّبُ بِه أهـ قَصِيْدَةُ تَحْتَوِي عَلى الثّناء والشُّكْرِ والحَمْدِ والتّضَرُّعِ إلى اللّه عَزّ وَجّل .

يَـا مُلَبِّسِي بـالنُّطْقِ ثَـوْبَ كَـرَمِـه
وَمُـكَـمِّـلِي جُـوْداً بِـهِ وَمُـقَـوِّمِـي
خُذْنِيْ إذَا أَجَلِي تَنَـاهَـى وانْقَضَـى
عُـمْـرِي عَلَى خَطٍ إلَيْـكَ مُقَـوِّمِـي

وَاكْشِفْ بِلُطْفِكَ يَا إِلَهِيَ غُمَّتِيْ
وَاجْلِ الصَّدَا عَنْ نَفْسِ عَبْدِكَ وَارْحَمِ
فَعَسَايَ مِنْ بَعْدِ المَهَانَةِ اكْتَسِي
حُلَلَ المَهَابَةِ فِي المَحَلِّ الأَكْرَمِ
وَأَبُوءُ بِالفِرْدَوْسِ بَعْدَ إِقَامَتِي
فِي مَنْزِلٍ بَادِ السَّمَاجَةِ مُظْلِمِ
فَقَدْ اجْتَوَيتُ ثَوايَ فِيْهِ وَمَنْ تَكُنْ
دَارُ الغُرُورِ لَهُ مَحَلاً يَسْأَمِ
دَارٌ يُغَادِرُ بُؤْسَهَا وَشَقَاءَهَا
مَنْ حَلَّهَا وَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْعَمِ
وَيَعُودُ صَافِي عَيْشِهِ وَحَيَاتِهِ
كَدَراً فَلاَ تَجْنَحْ إِلَيْهَا تَسْلَمِ
فَبِكَ المَعَاذُ إِلَهَنَا مِنْ شَرِّهَا
وَبِكَ المَلاَذُ مِنَ الغِوَايَةِ فَاعْصِمِ
وَعَلَيْكَ مُتَّكَلِي وَعَفُوْكَ لَمْ يَزَلْ
قَصْدِي فَوَاخَسَرَاهُ إنْ لَمْ تَرْحَمِ
يَا نَفْسُ جُدِّيْ وَادْأَبِي وَتَمَسَّكِي
بِعُرَى الهُدَى وَعُرَى المَوَانِعِ فَافْصِمِ
لاَ تُهْمِلِي يَا نَفْسُ ذَاتَكِ إنّ فِي
نِسْيَانِهَا نِسْيَانُ رَبِّكِ فَاعْلَمِي
وَعَلَيْكِ بِالتَّفْكِيْرِ فِي الآئِهِ
لِتَبَوئِي جَنَّاتِهِ وَتَنْعَمِيْ

وَتَيَمَّمِي نَهْجَ الهِدَايَةِ إِنَّهُ
مُنْجٍ وَعَنْ طُرْقِ الضَّلَالَةِ أَحْجِمِيْ
لَا تَرْتَضِي الدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ مَوْطِناً
تُعْلَيْ عَلَى رُتَبِ السَّوارِي الأَنْجُمِ
وَتُعَايِنِي مَا لَا رَأَتْ عَيْنٌ وَلَا
أُذُنٌ إِلَيْهِ وَعَتْ فَجِدِّي تَغْنَمِي
وَتُشَاهِدِي مَا لَيْسَ يُدْرَكُ كُنْهُهُ
بِالفِكْرِ أَوْ بِتَوَهُّمِ المُتَوِهِّمِ
قُدْسٌ يَجُل بِأَنْ يَحُلَّ جَنابَهُ
يَا نَفْسُ الّا كُلُّ شَهْمٍ أَيْهَمِ
وَتُجَاوِرِ الأَبْرَارَ فِي مُسْتَوْطَنٍ
لَا دَاثِرٍ أَبَداً وَلَا مُتَهَدِّمِ
يَا أَيُّهَا المَغْرُورُ شِبْتَ وَلَمْ تَعُدْ
عَمَّا لَهَجْتَ بِهِ وَلَمْ تَتَنَدَّمِ
وَاعْكِفْ عَلَى تَمْجِيْدِ مُوْجِدِكَ الّذِي
غَمَرَ الوُجُودَ الجُودُ مِنْهُ وَعَظِّمِ
فَبِذِكْرِهِ تُشْفَى النُّفُوسُ مِنَ الجَوَى
فَعَلَيْهِ إِنْ آثَرْتَ بُرْؤَكَ صَمِّمِ
اكْرِمْ بِنَفْسِ فَتىً رَأى سُبَلَ الهُدَى
تَهْوِي فَمَالَ إِلى الصِّرَاطِ الأَقْوَمِ
ذَاكَ الّذِي يُحْظَى بِيَومِ مَعَادِهِ
مُلْكاً سَجِيْسَ الدَّهْرِ لَمْ يَتَصَرَّمِ

يَا جَابِرَ العَظْمِ الكَسِيْرِ وَغَافِرَ الْـ
جُرْمَ الكَبِيْرِ لِكُلِّ عَبْدٍ مُجْرِمِ
مَالِي إِلَيْكَ وَسَيْلَةٌ وَذَرِيْعَةٌ
أَنْجُو بِهَا إِلَّا اعْتِقَادُ المُسْلِمِ
فَاقْبَلْ بِمَنِّكَ تَوْبَتِي مِنْ حَوْبَتِي
فَعَسَى سَعَادَةُ أَوْبَتِي لَمْ أُجْرِمِ
حَمْداً لَكَ اللَّهُمَّ يُنْمَى مَاجَلاَ
وَضْحُ الصَّبَاحِ سَوَادَ لَيْلٍ أَسْحَمِ
وَعَلى نَبِيِّكَ ذِي الثَّنَاءِ وآلِهِ
السَّادَةِ الأُمَنَاءِ صَلِّ وَسَلِّمِ
وعَلى صَحَابَتِهِ الذِيْنَ بِنَصْرِهِ
قَامُوا ونَارُ الكُفْرِ لَمْ تَتَضَرَّمِ

(فصل)

وَيَحْرُمُ إِسْرَاجُ الْقَبرِ وَاتِّخَاذُ مَسْجِدٍ عَلَيْهِ وَتَجْصِيْصُهُ وتَزْوِيْقُهُ والْبِنَاءُ عَلَيْهِ والإِسْتِشْفَاءُ بِتُرَابِهِ وَتَخْلِيْقُهُ وَتَبْخِيْرُهُ وتَقْبيلُهُ والجلوسَ عليه والوَطْءُ عَلَيه والكِتَابَةُ عليه والتخلي عَلَيْهِ والطَّوافُ بِهِ والتَّمَسُّحُ به والتَّخَلّي بَيْنَ الْقُبُورِ والصَّلاَةُ عِنْدَهُ وَقَصْدُهُ لأَجْلِ الدُّعَاءِ وَالإِتِّكَاءُ إِلَيْهِ .

وَيُكْرَهُ الْمَشْيُ بِالنَّعْلِ إِلاّ لِخَوْفِ شَوْكٍ وَنَحْوِهْ وَإِلَيْكَ أَدِلَّةُ مَا سَبَقْ مِنْهَا حَدِيْثُ ابْنُ عَبّاس قالْ لَعَنَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم زَائِرَاتِ الْقُبورِ وَالْمُتَّخِذِيْنَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ والسُّرُجَ رواهُ الْخَمْسَةَ إلاّ ابْنُ مَاجَة وعَنْ

أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ قَاتَلَ اللّهُ الْيَهُودَ اِتَّخَذُوا قُبُورَ أنبِيَائِهِمْ مَسَاجدَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ جَابِرٍ قَالْ نَهَى رَسولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ وأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ رَواهُ أحْمَدُ وَمُسْلِمُ والنّسَائِي وَأَبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذيُّ وَلَفْظُهُ نَهَى أَنْ تُجَصَّصَ الْقُبور أَوْ يُزَادَ عَلَيْهِ أَوْ يُجَصّصَ أَوْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ قَالَ رَسُولُ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقُ ثِيَابَهُ فَتَخْلَصُ إلى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلى قَبْرٍ رَوَاهُ الْجَمَاعَة إلَّا الْبُخَارِي والتِّرْمِذِي وَعَنْ عَمرو بْنِ حَزْمٍ قَالْ رَآنِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَليْهِ وَسَلّمْ مُتّكِئاً عَلى قَبْرٍ فَقَالْ لَا تُؤْذِ صَاحِبَ هَذَا الْقَبْر أَوْ لَا تُؤْذِهِ رواهُ أحْمَدْ .

وَعَنْ بَشِيرِ بْنُ الْخَصَاصِيَة أَنّ رَسولَ اللّهِ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قالْ لَا تَجْلِسُوا عَلى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إلَيْها رَواهُ مُسْلِم وَعَنْ عُقْبَةَ ابْنِ عَامِرٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ لأَنْ أَطأَ عَلَى جَمْرَةٍ أَوْ سَيْفٍ أَحَبُّ إليَّ من أَنْ أَطأَ عَلَى قَبْرِ مُسْلِم رَواهُ الْخَلَّالُ وابْنُ مَاجَهْ .

وَيَحْرُمُ دَفْنٌ فِي مُلْكِ الْغَيْرِ وَيُنْبَشُ مَا لَمْ يَأْذَنْ لَهُ الْمَالِكْ لِلأَرْض .

وَيَحْرُمُ نَبْشُ مَيِّتٍ بَاقٍ لِمَيّتٍ آخَرَ لِمَا فِي النَّبْشِ مِنْ هَتْكِ حُرْمَةِ الْمَيِتِ وَمَتَى عُلِمَ أنّ الْمَيّتَ بَليَ وَصَارَ رَمِيْماً جَازَ نَبْشُهُ وَدفِنَ غَيْرُه فِيْه .

وَإنْ شُكَّ فِي أَنّهُ بَلِيَ وَصَارَ رَمِيْمَا رُجِعَ إلى قَوْلِ أَهْلِ الْخِبْرَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِذَلِكْ فَإِنْ حفرَ فَوُجِدَ في الأَرْضِ عِظاماً دَفَنَهَا مَوْضِعَها وَأَبْقَاهَا

في مَكانِها وأعادَ التُّرابَ عليْها كَما كَانَ أوّلاً وَلَمْ يَجُزْ دَفْنُ مَيِّتٍ آخرَ علَيْهِ وَحَفَرَ فِي مَكَانٍ آخرَ. واللّهُ أعْلَمْ وَصَلّى اللّهُ على مُحَمّدٍ وعلى آلِهِ وَسَلّمْ.

(فَصْلٌ)

تُسَنُّ زِيَارَةُ قَبْرِ مُسْلِمٍ لِرَجُلٍ وأَنْ يَقِفَ الزّائِرُ أَمَامَهُ قَرْيباً مِنه لِمَا وَردَ عَنْ بُرَيْدَةَ بْنُ الخُصِيْب الأَسْلَمِيِّ رَضْي اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُوْرُهَا رَواهُ مُسْلِم زَادَ التِّرْمِذِيُّ فإنّها تُذَكِّرُ الآخِرَةْ زادَ بْنُ مَاجَة مِنْ حَدِيْثِ ابْنُ مَسْعُودِ وَتُزَهِّدُ في الدُّنْيا.

وَيقُولُ الزّائِرُ لِلْقُبُورِ والْمَارُ بِهَا السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنين وَإنّا إنْ شَاءَ اللّهُ بِكُمْ لَلاَحِقُونْ يَرْحَمُ اللّهُ الْمُسْتَقْدِمِيْنَ مِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِيْنَ نَسْأَلُ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ اللّهُمَّ لاَ تَحرِمْنَا أجْرَهُمْ وَلا تَفْتِنّا بَعْدَهُمْ واغْفِرْ لَنَا وَلَهُمْ.

لِمَا وَرَدَ عَنْ سُلَيْمَانُ بْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضَى اللّهُ عَنْهُمَا قَالْ كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهِ عَلَيْهِ وَسَلّمْ يُعَلِّمهُمْ إذَا خَرَجُوا إلىَ المَقَابِرْ أَنْ يَقُولُوا السّلاَمُ عَلَيْكُمْ أهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ والْمُسْلِمِيْنَ وَإنّا إنْ شَاءَ اللّهُ بِكُم لاَحِقُون نَسْأَلُ اللّهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِية رَواهُ مُسْلِمْ.

وَعَنْ ابْنُ عَبّاسٍ رَضْي اللّهُ عَنْهُمَا قَالْ مَرّ النَّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بقُبُورِ الْمدَيْنَةِ فأقْبَلَ عَلَيْهِم بِوَجْهِهِ فَقالْ السّلاَمُ عَلَيْكُم يا أَهْلَ الْقُبُورِ يَغْفِرُ اللّهُ لَنا وَلَكُمْ أنْتُمْ سَلفُنَا وَنَحْنُ بِالأَثَرْ رَواهُ التِّرْمِذي.

شِعْرًا :

قِفْ بِـالْقُبُـورِ بِـأَكْبَـادٍ مُصَـدَّعَـةٍ
وَدَمْعَـةٍ مِنْ سُـوَيْـدَا الْقَلْبِ تَنْبَعِثُ
وَسَلْ بِهَا عَنْ رِجَالٍ طَالَ مَارَشَفُوا
ثَغْـرَ النَّعِيمِ وَمَـافِي ظِـلِّهِ مَكَـثُـوْا
مَـاذَا لَقُوا فِي خَبَـايَاهَـا وَمَا قَـدِمُـوْا
عَلَيْـهِ فِيْهَـا وَمَـا مِنْ أَجْلِهِ اِرْتَبَثُـوْا
وَعَنْ مَحَـاسِنِهِمْ اِنْ كَـانَ غَيَّـرَهَـا
طُوْلُ الْمَقَامِ بِبَطْنِ الأَرْضِ واللَّبَثُ
وَمَـالُهِمْ حَشَـراتُ الاَرْضِ تَنْهَشُهُمْ
نَهْشـاً تَـزُوْلُ بِـهِ الأَعْضَـاءُ والْجُثَثُ
وَإِنْ يُجِبْـكَ بِـمَـا لاَقَـا مُجِيْبُهُمُ
وَلَنْ يُجِيْبَ وأَنَّى يَنْـطِقُ الْـجَـدَثُ
فَـانْظُرْ مَكَـانَـكَ فِي أَفْنَـاءِ سَـاحَتِهِمْ
فَـإِنَّـهُ الْجِـدُّ لاَ هَـزْلٌ وَلاَ عَبَثُ

وَتَحْرُمُ زِيَارَةُ الْقُبُورِ لِلنِّسَاءِ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَعَنَ زَوَّاراتِ الْقُبورِ رَوَاهُ أَحْمَدْ وَابْنُ مَاجَه وَالتِّرمِذِي وَصَحَّحَهُ وَاحْتَجَّ شَيْخُ الإِسْلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ على تَحْرِيْمِهِ بِلَعْنِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمْ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ وَصَحَّحَ الْحَدِيْثْ .

وَسُئِلَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ أَبَابُطَيْن إِذَا كَانَ طَرِيْقٌ عَلَى حَدِّ الْمَقْبَرَةِ هَلْ يُكْرَهُ لِلنِّسَاءِ الْمرُوْرِ مَعَهُ فأَجَاب إِذَا كَانَ لِلنّاسِ طَرِيقٌ عَلَى حَدِّ الْمَقْبَرَةِ

وَمرَّتْ مَعَهُ إمْرَأَةٌ وَسَلَّمَتْ فَلاَ بَأْس لِأَنَّها لاَ تُسَمَّى زَائِرَةً واللّهُ أعْلَمْ وَصَلّى اللّهُ عَلى مُحَمّدٍ وآلِه وَسَلّم .

(فَصْلٌ)

تُسَنُّ تَعْزِيَةُ الْمُسْلِمُ الْمُصابُ بِالْمَيّتْ لِمَا وَرَدَ عَنْ الأَسْودِ عَنْ عَبْدِ اللّهِ عَنِ النّبِي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ قَالْ مَنْ عَزّىَ مُصَاباً فَلَهُ مِثْلُ أجْرِهْ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ والتّرْمِذِي وَحَدِيْث عَمْرُو بْنِ حَزْمٍ مَرْفُوعا مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزّى أَخَاهُ بِمُصِيْبَةٍ إلاّ كَسَاهُ اللّهُ عَزّ وَجلّ مِنْ حُلَلِ الْجَنّةِ رَواهُ ابْنُ مَاجَهْ .

وَاعْلَمْ أَنَّ التّعْزِيَةَ هِيَ التَّصْبِيْرُ وذِكْرُ مَا يُسَلِّي صَاحِبَ الْمُصِيْبَة وَيُخَفّفُ حُزْنَهُ وَيُهَوّنُ مُصِيْبَتَهْ .

وَهْيَ مُسْتَحَبَّةٌ لِأَنَّها مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عن الْمُنْكَرْ وَهْيَ دَاخِلَةٌ في قَوْلِهِ تَعالى ﴿ وَتَعاوَنُوا عَلى البِرِ والتَّقْوى ﴾ .

وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ مَا يُسْتَدلُّ بِهِ في التَّعْزِيَةِ ثُمَّ إنّ التَّعْزِيَةَ الَّتِي هِيَ الأمْرُ بالصَّبْرِ والرِّضا بِمَا قَدّرَ اللّهَ مُسْتَحَبَّةٌ قَبْلَ دَفْنِ الْمَيّتِ وَبَعْدَهْ وَهْوَ أفْضَلُ لِأَنَّ أهْلَ الْمَيّتِ مَشْغُولُونَ قَبْلَ دَفْنِهِ بِتَجْهِيْزِهِ وَلِأَنَّ وَحْشَتِهُمْ بَعْدَ دَفْنِهِ لِفِرَاقِهِ أكْثَرْ هَذَا إذَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ جَزَعٌ فَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ مِنْهُمْ جَزَعٌ قدَّمَ التَّعْزِيَة لِيُسَكّنَهُمْ .

قَالَ الْعُلَمَاء وَيُكْرَهُ الْجُلُوسُ لِلتَّعْزِيَةِ وَذَلِكَ بِأَنْ يَجْتَمِعَ أَهْلُ الْمَيّتِ في بَيْتِ لِيَقْصِدَهُمْ مَنْ أرادَ التّعْزِيَةَ لِمَا في ذَلِكَ مِنْ إسْتِدَامَةِ الْحُزْنَ وَقَدْ حَدَثَ فِي زَمَنِنَا هَذَا أُنَاسٌ يُقَبّلُونَ الْمُصَابَ بِالْمَيّتِ مَعَ تَعْزِيَتِهِمْ لَهْ وَلاَ

أدْرِي مَا مُسْتَنَدَهُمْ وَلاَ أعْلَمُ أنّ أحداً مِنَ الصّحَابَة أوِ التّابِعْينَ فَعلَ ذَلِكْ وَلاَ الّذِيْنَ بَعْدَهُمْ إلى مُنْتَصَفِ هَذَا الْقَرْن الرّابعَ عَشَرْ .

اللّهُمّ اعْصِمْنَا عَنْ الْبِدَعْ وأَحْسَنُ مَا يُعَزّى بِهِ مَا رُوِيَ فِي الصَّحِيْحَيْنِ عَنْ أُسَامَةَ بْنُ زَيْدٍ رَضِي اللّهُ عَنْهُ ، قَال أرْسَلَتْ إِحْدَى بَنَاتِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَسُولِ الله تدعوه وتخبره أن إبناً لها في الموت فقال عليه الصلاة والسّلام لِلرَّسُوْل ارْجِعْ إلَيْها فَأَخْبِرْهَا أَنّ لِلّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَىٰ وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمّى فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ وَذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيْثْ .

وَمَعنَى قَوْلُهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسلّم أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ مُلْكٌ لِلّه وَلَمْ يَأْخُذْ مَا هُوَ لَكُمْ بَلْ هُوَ آخِذٌ مَا هُوَ لَهُ عِنْدَكُمْ فِي مَعْنَى الْعَارِيَّة وَقَوْلُهُ وَلَهُ مَا أعْطَىٰ أَيْ مَا وَهَبَهُ لَكُمْ لَيْسَ خَارجاً عَنْ مُلْكِهْ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ فِيْهِ مَا يَشَاءُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأجَلٍ مُسَمّى .

فَلاَ تَجْزَعُوا فِانَّ مَنْ قَبضَهُ فَقَدْ انْقَضَىٰ أَجَلُهُ الْمُسَمّى فَمُحَالٌ تَأْخِيْرُهُ أوْ تَقْدِيْمُهُ قَالَ تَعالى ﴿إذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونْ فَاذَا عَلِمْتُمْ ذَلِكَ فاصْبِرُوا واحْتَسِبُوا مَا نَزَلَ بِكُمْ واللَّهُ أَعْلَمْ .

(فَصْلٌ)

وَيُقَالُ لِلْمُصَابِ بِمُسْلِم أَعْظَمَ اللّهُ أجْرَكْ وَأَحْسَنَ عَزَاءَكْ أوْ يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكْ قَالَ الْمُوَفّقْ لاَ أعْلَمُ فِي التَّعْزِيَة شَيْئاً مَحْدُوداً إلاّ أنّهُ يُرْوَى أنَّ النَّبيَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم عَزَّىٰ رَجُلاً فَقَالَ رَحِمَكَ اللّهْ وَأَجَرَكْ رواهُ أحْمَد وَيَقُولُ الْمُعَزَّىٰ اِسْتَجَابَ اللّهُ دُعَاكَ وَرحِمَنَا وَإِيّاكْ وَتَحْرُمُ تَعْزِيَةُ

الْكَافِرِ سَواءٌ كانَ الْمَيّتُ مُسْلِماً أوْ كَافِراً لِأنَّ فِيْها تَعْظِيْماً لِلكافِرْ .

وَعَزّىَ بَعْضُهُمْ أَخاً لَّهُ في ابْنِه فَقَالْ أَحْسن عَزاهُمْ فِيْه وَأَعْظِمْ لَهُم الأُجُورْ والْهَمْهُمْ التّسْلِيْمُ لِلْمَقْدُور نَقُولُ جَمْيعاً كَمَا قَالَ الصّابِرُونْ ﴿إنّا لِلّهِ وَإِنّا اليهِ رَاجِعُونْ﴾ فَاللَّهَ اللَّهَ أوْصِيْكَ أخِي أَنْ تَتَدرَّعَ بالرِّضَا وَتُسَلِّمَ لِلْقَضَاء فالْمُصَابُ مَنْ حُرِمَ الثّوابْ .

وَأَذْكُرُ آيَةً في كِتَابِ اللّه تَشْرَحُ لِلْمُؤْمِن صَدْرَهُ وَتَجْلِبُ لَهُ صَبْرَهُ وَتُهَوّنُ خَطْبَهُ وَتُذَكِّرُهُ رَبَّهِ قالَ تَعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ والأنْفُسِ والثَّمراتِ وَبَشِّرِ الصّابِرِيْنَ ﴾ إلى قَوْله ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونْ ﴾ .

وَقَالْ اِنَّما يُوَفَّي الصَّابرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابْ وفي الصَّحِيْحِ عَنْ صُهَيْبٍ مَرْفُوعا عَجَباً لأمرِ الْمُؤْمِنْ اِنّ أمْرُهُ كُلَّهُ خيرٌ إن أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرْ فَكَانَ خَيْراً وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرْ فَكَانَ خَيْراً له .

وَقَالَ آخَرْ يُعَزّى بَعْضَ اِخْوَانِهْ الْمَأْمُولُ فِيْكُمُ الصَّبْرُ والاحْتِسَاب وَالتّعَزّي بِعَزَاءِ اللَّهَ فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاء إِنَّكَ لَنْ تَجِدْ أَهْلَ الْعِلْم وَالايْمَانِ اِلاَّ وَهُمْ أَقَلُّ النّاسِ انْزِعَاجاً عِنْدَ الْمَصائِبِ وأحْسَنُهُمْ طُمَأْنِيْنَةَ وأَقَلّهُمْ قَلَقاً عِنْدَ النَّوازِلْ وَمَا ذَاكَ اِلاّ لِمَا أُوتُوا مِمَّا حُرِمَهُ الْجَاهِلُونْ .

قَالَ اللّهُ تَعالى ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الذَّيْنَ اِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيْبَةٌ قَالُوا اِنّا لِلّهِ وَاِنّا اِلَيه رَاجعُونْ۔أُوْلَئِكَ عَلَيْهِم صَلَواتٌ مِنْ رَبّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ المُهتَدُونْ ﴾ .

فَهذِهِ الْكَلِمَةْ مِنْ أَبْلَغ عِلاَج الْمُصَابِ وَأَنْفعِهِ لَهُ فِي الْعَاجِلَةِ والآجِلَةْ فَانَّهَا تَتَظَمَّنُ أَصْلَيْنِ عَظِيْمَيْنِ إِذَا تَحَققَ الْعَبْدُ بِمعْرِفَتِهَا تَسَلَّى عَنْ مُصِيْبَتِهْ لِأَنَّ الْعَبْدَ وأَهْلهُ ومَالَهُ مُلْكٌ لِلَّهِ يَتَصَرَّفُ فِيْهِ حَيْثُ جَعلَهُ عِنْدَ عَبْدِهِ عَارِيَّةً .

وَالْمُعِيْرُ مَالِكٌ قَاهِرٌ قَادِرٌ وَالْعَبْدُ مَحْفُوفٌ بَعدَمَيْنِ عَدَمٌ قَبلَهُ وَعدَمٌ بَعْدَهْ وَمُلْكُ الْعَبْدِ مِتْعَةٌ مُعَارَةْ الثَّاني أنّ مَصِيْرَ الْعَبْدِ وَمَرْجِعَهُ وَمَرَدَّهُ اِلى مَوْلاَهُ الْحَق الّذِي لَهُ الْحُكْمُ وَالْأمْرُ وَلاَ بُدَّ أَنْ يُخَلِّفَ مَا خَوَّلَهُ في هَذِهِ الدَّارُ وَرَاءَ ظَهْرِه وَيَأْتِى فَرْداً بِلاَ أهْلٍ وَلاَ مَالٍ وَلاَ عَشِيْرةٍ وَلَكِنْ بالحْسَنَاتِ والسَّيِّئَاتْ .

وَمَنْ هَذِهِ حَالُهُ لاَ يَفْرَحُ بِمَوْجُودٍ وَلاَ يَأْسَفُ عَلى مَفقودٍ وَإِذَا عَلِمَ الْمؤْمِنُ عِلْمَ الْيَقِينْ أَنَّ مَا أصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخطِئَهْ وَمَا أَخْطَأهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيْبُه هانَتْ عَلَيْهِ الْمصِيْبَة وَاطْمَأَنَّ بِإِذْنِ اللَّه وَقَدْ قِيْل :

مَـا قَـدْ قُضِي يَـا نَفْسُ فَـاصْـطَبِـرِيْ لَـهُ
وَلَـكِ الْأَمَـانُ مِـنَ الّـذِي لَـمْ يُـقْـدَرِ
وَتَـعَـلَّمِـي أَنَّ الْـمُـقَـدَّرَ كَـائِـنُ
يَجْـرِي عَلَيْـكِ عَـذَرْتِ أَمْ لَـمْ تَعْـذُرِ

وَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنْ أَنَّهُ عِنْدَ الزِّلاَزِل وَقُورٌ وَفي الرَّخاءِ شَكُورْ ومِمَّا يُخَفِّفُ الْمصَائِبْ بُرْدُ التَّأَسِّيْ فانْظُروا يَميناً وَشِمَالاً وأَمَامَ وَورَاءَ فَإِنّكُمْ لاَ تَجدُونَ اِلاّ مَنْ قَدْ وَقَعَ بِه مَا هُوَ أَعْظَمْ مِنْ مُصِيْبَتُكُمْ أَوْ مِثْلها أَوْ قَرِيْبٌ مِنْهَا وَلَمْ يَبْقَ اِلاّ التّفَاوُتِ في عِوَضِ الْفَائِتْ أعوذُ باللّهِ مِنَ الْخُسْرَانْ .

وَلَوْ أَمْعَنَ الْبَصِيْرُ فِي هَذَا الْعَالَمِ جَمِيْعَهِ لَمْ يَرَى اِلاّ مُبْتَلى اِمَّا لَفوْتِ

مَحْبُوبٍ أوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ وَأَنَّ سُرُورَ الدّنْيا أحْلاَمُ لَيْلٍ أوْ كَظِلٍ زَائِلٍ إنْ أَضْحَكْتَ قلِيْلاً أبْكَتْ كَثِيْراً وَإنْ سَرَّتْ يَوْماً أَسَاءَتْ دَهْراً جَمْعُها إلَى انْصِدَاعْ وَوَصْلُها إلى انْقِطَاعْ .

إقْبَالُها خدِيْعَةٌ وَإِدْبَارُهَا فَجِيْعَةٌ لاَ تَدُوْمُ أحْوَالُها وَلاَ يَسْلَمُ نُزَّالُها حَالُها انْتِقَالٌ وَسُكُونُها زَوَالٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ مُعْطِيَةٌ مَنوُعٌ مُلَبِّسَةٌ نَزُوعٌ وَيَكْفِي في هَوانِهَا عَلَى اللّهِ أنْ لاَ يُعْصَى إلاَّ فِيْهَا وَلا يُنَالُ مَا عِنْدهُ إلاَّ بِتَرْكِهَا .

مَعْ أَنَّ الْمَصَائِبَ مِنْ حَيْثُ هِيَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وزِيَادَةٌ في دَرَجَاتِهِ كَمَا قَالَ بَعْضُ السّلَفْ لَوْلاَ مَصَائِبُ الدُّنْيَا لَورَدْنَا ٱلآخِرَةَ مَفَالِيْس وَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ لَمْ يُرْسِلِ الْبَلاَ اِلى الْعَبْد لِيُهْلِكهُ وَلاَ لِيُعَذِّبَهُ وَلكِنْ اِمْتِحَاناً لِصَبْرِهِ وَرِضَاهُ عَنْهُ وَاخْتِبَاراً لإيْمانِه وَلِيَرَاهُ طَرْيحاً بِبابِه لائذاً بِجَنَابِهِ مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَهَذَا مِنْ حَيْثُ الْمَصَائِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَأمّامَا جَرَى عَلَيْكُمْ فَأنْتُمْ بِهِ بالتَّهْنِئَةِ أجْدَرُ مِنَ التّعْزِيَةْ .

وَلَعَمْرُ اللّهْ إنّ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِيْنُهْ فَالمِحَنُ فِي حَقّهِ مِنَحٌ والْبَلاَيَا عَطَايَا وَالْمَكْرُوهَاتَ لَهُ مَحْبُوبَاتْ وَأمّا الْمُصِيْبَةِ الْعُظْمَى والْخَطْبُ الاكْبَرْ وَالكَسْرُ الّذِي لا يُجْبَر والْعِثَارُ الَّتِي لاَ تُقَالْ فَهْيَ الْمُصِيْبَةُ في الدِّيْن كَمَا قِيْل :

«وَكُــلُّ كَــسْــرٍ فَــإنَّ الــلَّهَ يَــجْــبُــرُهُ
وَمَــا لِكَسْــرِ قَنَــاةِ الــدِّيْنِ جُبْــرَانُ»

آخَرْ :

«مِــنْ كُــلِّ شَيءٍ إذَا ضَــيَّعْتَــهُ عِــوَضٌ
وَمــا مِــن الــلهِ إن ضَــيَّعْتَــهُ عَــوَضُ»

وَقَدْ مَضتْ عَادَةُ أَحْكَمِ الحَاكِمْينَ لِمَنْ أرادَ بِهِ خَيْرا أنْ يُقَدِّمَ الإِبْتِلاءَ بَيْنَ يَدَيْه وَمِنْ أَسْبَابِ السُّلُوِّ عَنِ الْمَصَائِب وأقْوَى الأدْويةَ باذْنِ اللّهِ تَعالى لِفَاقِدِ الْحَبِيْب الْعِلْمُ بِأنَّ الدُّنْيا فَانِيةٌ وزَائِلةٌ وأنَّها مَخْلُوقَةٌ لِلذّهَابِ والأفول وأنّ كُلَّ مَا فِيْها يَتَغيّرُ وَيَتَحوَّلُ وَيَضْمَحِلُ وَيَفْنَى لِأنّها إلى الآخِرَةِ طَرِيْقَ وَهْيِ مَزْرَعَةٌ لِلآخِرَةْ .

رُوِيَ عَنْ أبِي الدَرْدَاءِ رَضْى اللّهُ عَنْهُ قَالَ كان لِسُلَيْمَانَ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السّلامْ اِبْنٌ يَجدُبِهِ وُجْدَاً شَدِيْداً فَمَاتَ الغُلاَمُ فَحَزِنَ عَليْهِ حَزَناً شَدِيْداً وَرُوِيَ ذَلِكَ فِي قَضَائِه وَمْجلِسِه فَبَعَثَ اللَّهُ إلَيْهِ مَلَكَيْنِ في هَيْئَةِ الْبَشَرْ فَقَال مَا أنْتُما فَقَالا خَصْمَانِ قَالَ اِجْلِسَا بِمَجْلِسِ الْخُصُوْمِ فَقَالَ أحدهُمَا إنّي زَرَعْتُ زَرْعاً فأتَى هَذا فَأفْسَدَهْ .

قال سُلَيْمَان عَلَيْهِ السلامُ ما يَقُولُ هَذَا قَالَ أصْلَحكَ اللهُ إنَّهُ زَرَعَ في الطَّرِيق وإنّي مَرَرْتُ به فَنَظرْتُ يَميْناً فاذا الزَّرْع ونَظَرْتُ شِمَالاً فإذا الزَّرْعُ وَنَظَرْتُ قَارِعَةَ الطَّرَيْقِ فإذا الزَّرْعُ فَرَكِبْتُ قَارِعَةَ الطَرِيْقِ فَكَانَ في ذلكَ فَسَادُ زَرْعِهِ .

فقال سُلَيْمَانُ عليهِ السلامُ مَا حَمَلَكَ عَلَى أنْ تَزْرَعَ بالطريق أَمَا عَلِمْتَ أنَّ الطَّرِيقَ سَبِيْلُ الناسِ ولا بُدَّ للنَّاسِ أنْ يَسْلُكُوا سَبِيْلَهُم فَقالَ لَهُ أحدُ المَلَكِيْنِ أو مَا عَلِمْتَ يا سُلَيْمَانُ أنَّ المَوْتَ سَبيلُ الناسِ ولا بُدَّ لِلنَّاسِ مِن أنْ يَسْلكُوا سَبيْلَهُم .

قالَ فَكأَنَّما كُشِفَ عَن سُلَيْمَانَ الغِطَاءُ وهَذَا مِن لَطِيْفِ التَّعْزِيَةِ لِمَنْ حَلَّتْ به رَزِيَّةٌ .

وَكتَبَ ابنُ السّمَاكِ إلى هَارُوْنَ الرَّشِيْدِ يُعَزّيْهِ بولَدِهَ فَقَالَ أما بَعْدُ فإنْ اسْتَطَعْتَ أن يَكُونَ شُكْرُكَ لِله عَزَّ وَجَلَّ حَيْثُ قَبضَهُ كشُكْرِكَ لَهُ حَيْثُ وَهَبَهُ لَكَ فافْعَلْ فانه حَيْثُ قَبَضَهُ أحْرَزَ لَكَ هِبَتُه .

ولو بَقِيَ لَمْ تَسْلَمْ مِن فِتْنَةٍ أرَأيْتَ جَزَعَكَ عَلى ذَهَابِهِ وَتَلَهُفَكَ على فِرَاقِهِ أرَضْيتَ الدَّارَ لِنَفْسِكَ فَتَرْضَاهَا لاِبْنِكَ أمَّا هُوَ فَقَدْ خَلَصَ مِن الكَدَرِ وَبَقِيْتَ مُتَعَلِّقاً بالخَطَرِ والسلام .

وانْ شَاءَ قَالَ إذَا كَانَ صَغيراً عَظَّمَ الله أَجْرَكَ وجَبَرَ مُصْيبَتَكَ وأَذْهَبَ عَنْكَ الحَزَنَ وَجَعَلَهُ لَكَ فَرطاً وذُخْراً وَوَسِيْلَةً لاكْتِسَابِ الأجْرِ في الأُخْرَى وَأَنْتَ خَبِيْرٌ بأنَّ المَوْتَ مَصِيْرُ كُلِّ العِبادِ قال الله جل وعلا وَتَقدّس لرسولِ الله صلى اللهُ عَليه وسلم ﴿ وما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قبلكَ الخلدَ أَفَأَنْ مِتَّ فَهُمَ الخَالِدُونَ كُلُ نَفْسٍ ذَائقةُ الموت ﴾ .

ومثلك ولله الحمدُ لا يحتاج إلى التَّسْلِيَةِ والنَّصِيْحَةِ لأَنَّهُ لَيْسَ بخافٍ عَلَيْكَ أنَّ الصَّبْرَ قَدَ حَثَ اللهُ عليهِ وَوَعَدَ بِكَثْرةِ الأجر وَأَنَّهُ أَوْلَى مَا تَمَسَّكَ بِهِ مُؤْمِنٌ واعْتَصَمَ بِهِ مُحْتَسِبٌ فالتَّسْلِيْمُ لأَمْرِ اللهِ بما قَدَّرَهُ وَقضَاه في سَابقِ عِلْمِهِ يَسْتَوْجِبُ الثَّوابَ الجَزِيْلَ وَحَسْبُنَا اللهُ ونعمَ الوَكِيْل .

شعرا :

وما هَـذِهِ الأَيّامُ إلاَّ مَـرَاحِـلٌ
يَحُثُ بهَـا حَـادٍ مِن المـوتِ قـاصِـدُ
وأعْـجَـبُ شَـيْءٍ لَـوْ تَـأَمَّـلْتَ أنَّـهَـا
مَـنَـازِلُ تُـطْوَى وابْـنُ آدَمَ قَـاعِـدُ

أَوْ تَقُولُ : بَلَغَنِي وفاةُ الأَخِ العَزِيْزِ تَغَمَّدَهُ اللهُ في رَحْمَتِهِ الَّتِي وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ وَوَفَّقَنَا وإيَّاكُمْ لِلصّبْر والاحتسابِ .

وعَلَى كُلّ حَالٍ فالأَخُ أَوْلَى مَنْ يَتَلَقَّى أَمْرَ اللهِ بالقَبُولِ والتَّسْلِيمِ ويَلْقَى الخُطُوبَ الصَّادِعَة بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ وهُوَ أَدْرَى بأَنَّ هذِهِ الدارَ لَيْسَتْ بِدَارِ قَرارٍ وأنَّ المَفْقُوْدَ نَزَلَ في جِوَارِ الكَرِيمِ وشَتَانَ بَيْنَ ذَاكَ الجِوَارِ وهَذا الجِوَارِ .

ولَيْسَ إلا الصَّبْرُ واحْتِسَابُ الأَجْرِ مِن المَوْلَى الأَجَلّ هَذا وَكُلٌّ مِنَّا يَعْلَمُ أَنَّ الموتَ مَنْهَلٌ لا بُدَّ مِن وُرُوْدِهِ ومَحْضَرٌ لا بُدَّ مِن شُهُوْدِهِ ورَسُوْلٌ لا بُدَّ مِنْهُ وأَمْرٌ لا مَحِيْصَ ولا مَفَرَّ عَنْهُ ومَا مَاتَ أَحَدٌ قَبْلَ أجَلِهِ الذي قُدِّرَ لَهُ ولا تَقَدَّمَ عَنْهُ ولا تَأَخَّرَ قال تعالى ﴿ فاذا جَاءَ أجَلُهُم لا يَسْتَأْخِرُوْنَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُوْنَ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم إنَّ رُوْحَ القُدُس نَفَثَ في رَوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وأَجَلَهَا فاتّقوا اللهَ وأَجْمِلُوا في الطلب .

وعن مُعَاوِيَةَ بن إِيَاسٍ عن أبيهِ رضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صلى اللهُ عليه وسلَم أَنَّهُ فَقَدَ رَجُلاً مِن أَصْحَابِهِ فسأَلَ عَنْهُ فقالُوا يا رَسُولَ اللهِ ابْنَهَ الذي رأيتَهُ هَلَكَ .

فَلَقِيَهُ النبيُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم فسَأَلَهُ عن ابنِهِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ هَلَكَ فعزَّاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ يَا فُلاَنُ أَيُّمَا أَحَبُّ إليكَ أَنْ تَتَمَتَّعَ بِهِ عُمرَكَ أَوْلاَ تَأْتِي غَدَاً باباً مِن أَبْوَابِ الجَنَّةِ إلاّ وَجدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ فَقَال يا نَبِيَّ اللهِ يَسْبِقُنِيْ إلى الجَنةِ يَفْتَحُها لِي هُوَ أَحَبُ إليَّ قَالَ فَذَلِكَ لَكَ .

فَقِيْلَ يَا نَبِيَّ اللهِ هَذَا لَهُ خاصةً أَمْ لِلْمُسْلِمِيْنَ عَامَّةً قَالَ بَلْ لِلْمُسْلِمِيْنَ عَامَّةً وَبَلَغَ الشَّافِعِيَّ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ مَهْدِي مَاتَ لَهُ إبْنٌ فَجَزِعَ عَلَيْهِ جَزَعاً شَدِيْدَاً فَبَعَثَ إليهِ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ يَا أَخِي عَزِّ نَفْسَكَ بِمَا تُعَزِّي بِهِ غَيْرَهَا واسْتَقْبِحْ مِن فِعْلِكَ ما تَسْتَقْبِحُهُ مِن فِعْلِ غَيْرِكَ .

واعْلَمْ أنَّ أَمْضى المَصَائِبِ فَقْدُ سُرُوْرٍ وحِرْمَانُ أَجْرٍ فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَا مَعَ اكْتِسَابِ وِزْر فتَنَاوَلْ حَظَّكَ يا أخِي إذا قَرُبَ مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُبَهُ وَقَدْ نَأَى عنكَ أَلْهَمَكَ اللهُ عِندَ المَصَائِبِ صَبْرًا وأَحْرَزَ لَنَا وَلَكَ بِالصَّبْرِ أَجْرَا وَكَتَبَ إليه يَقُولُ :

إِنِّي مُعَزِّيْكَ لَا أَنِّيْ عَلَى ثِقَةٍ
مِن الحَيَاةِ وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّيْنِ
لَيْسَ المُعَزَّى بِبَاقٍ بَعْدَ مَيِّتهِ
ولا المُعَزِّيْ وَإنْ عَاشَا إلى حِيْنِ

وَكَتَبَ رَجُلٌ إلى بَعْضِ إِخْوَانِهِ يُعَزِيْهِ بِابْنِهِ : أَمَّا بَعْدُ فإنَّ الوَلَدَ عَلَى وَالِدِهِ مَا عَاشَ حُزْنٌ وَفِتْنَةٌ فإذَا قَدَّمَهُ فَصَلاَةٌ وَرَحْمَةٌ فلا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَكَ مِن حُزْنِهِ وَفِتْنَتِهِ ولا تُضَيِّعْ مَا عَوَّضَكَ اللهُ تعالى مِن صَلَاتِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ المُهْدِي لابْرَاهِيْم بنِ سَلَمَةِ وَعَزَّاهُ بابْنِهِ أَسَرَّكَ وَهُوَ بَلِيَّةٌ وَفِتْنَةٌ وَأحْزَنَكَ وَهُوَ صَلاَةٌ وَرَحْمَةٌ واعْلَمْ يا أخ أنَّ كُلَّ المَصَائِبَ التِّي تَمُرُّ على الانسانِ تَهُوْنُ إلا مُصِيبَةُ الدِّيْنِ لَا يَنْجَبِرُ كَسْرَهَا كما قِيْلْ :

وَكُلُّ كَسْرٍ فَإنَّ اللهَ يَجْبُرُهُ
وما لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

وَفقَنا اللهُ وإيَّاكَ لِمَا يُحِبُهُ وَيَرْضاهُ وَأَلْهَمَنا وإيَّاكَ الرِّضَا بِقَضائِهِ وقَدَرِهِ ، وَيَحْرُمُ النَّدْبُ وهو تَعْدَادُ مَحاسِنَ المَيْتِ بِلَفْظِ النِّداءِ مَعَ زِيَادَةَ أَلِفٍ وهَا في آخِرِهِ واسَيِّدَاهْ واجَبَلَاهْ وانْقِطَاعِ ظَهْرَاهْ والنِّيَاحَةُ هِيَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِذَلِكَ بِرَنَّةٍ وَهْيَ مُحَرَّمَةٌ أَيْضاً قالَتْ أمُ عَطِيَّةَ أَخَذَ عَلَيْنَا النبيُ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم في البَيْعَةِ أَنْ لا نَنُوحَ متفق عليه .

وفي صحيح مُسْلِم أن النَّبيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلم لَعَنَ النَّائِحَةَ والمُسْتَمِعَةَ ويَحْرُمُ شَقُ الثَّوْبِ ونَحْوِهِ ويَحْرُمُ لَطْمُ الخَدِّ والصُّرَاخِ وَنَتْفُ الشَّعْرِ وَنَشْرُهُ لِمَا وَرَدَ عن ابنِ مَسْعُوْدٍ أنَّ النَبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم قال لَيْسَ مِنَّا مَن ضَرَبَ الخُدُوْدَ وَشَقَ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ .

وعن أبي بُرْدَةَ قَالَ وَجِعَ أَبُو مُوْسَى وَجَعاً فَغشِيَ عَلَيْهِ وَرَأْسُهُ في حَجْرِ امْرَأةٍ مِن أَهْلِهِ فَصَاحَتْ إمْرَأةٌ مِن أهْلِهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْئاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ أنا بَرِيءَ مِمَّنْ بَرِيءَ منه رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَإنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيءَ مِنَ الصَّالِقَةِ والحَالِقِةِ والشَّاقَةِ

وَعَنْ المُغِيْرَةِ بنِ شُعْبَةَ قَال سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ إنَّهُ مَن يُنَحْ عَلَيْهِ يُعَذَّبُ بِمَا نِيْحَ عَلَيْهِ وفي صَحِيْحِ البُخَارِي عن النُعمَانِ بن بَشِيْرٍ قال أغْمِيَ على عَبْدِ اللهِ ابنِ رَوَاحَةَ فَجَعَلَتْ أخْتُهُ عَمْرَةُ تَبْكِيْ واجَبَلَاهْ واكذا وا كَذَا تُعَدِّدُ عليْهِ فقالَ حِيْنَ أَفَاقَ مَا قُلْتِ شَيْئاً إلا قِيْلَ أَنْتَ كَذَلِكَ فَلَمَّا ماتَ لَمْ تَبْكِ عليه .

وعن أَبِي مُوْسَى أَنَّ النبيَّ صَلى اللهُ عليه وسلم قَالَ المَيِّتُ يُعَذَّبُ بِبُكاءِ الحَيِ إذا قَالَتْ النائحَةُ واعَضُدَاهْ وانَا صِرَاهْ واكاسِيَاهُ جُبِذَ المَيْتُ

وقِيْلَ لَهُ أَنْتَ عَضُدَهَا أَنْتَ ناصِرُها أَنْتَ كاسِيْهَا رواه أحمد .

وَسُنَّ أَنْ يُصْلَحَ لِأَهْلِ المَيْتِ طَعَامَاً يُبْعَثُ به إِلَيْهِمْ وَيُكْرَهُ لَهُمْ فِعْلُهُ لِلنَّاسِ لِمَا وَرَدَ عَن عبدِ اللهِ بنِ جَعْفَرٍ قَالَ لمَّا جَاءَ نَعْيُ أَبَيْ حَيْنَ قُتِلَ قال النبيُ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّم اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَاماً فَقَدْ أتاهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ رواهُ الخمسةُ إلَّا النَّسَائِي قال الزبَيْرُ فَعَمَدَتْ سَلْمَى مَوْلَاةُ النبي صلى اللهُ عليهِ وسَلَّم إلى شَعِيْرٍ وأَدَّمَتْهُ بِزَيْتٍ جُعِلَ عَلَيْهِ وَبَعَثَتْ بِهِ إليهم .

ويُرْوَى عن عبدِ اللهِ بنِ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ قال فما زالَتْ السُّنَّةُ فِيْنَا حَتَّى تَرَكَهَا مَن تركَهَا وَسَوَاءٌ كَانَ المَيِّتُ حاضراً أَوْ غَائِباً وَأَتَاهُمْ نَعْيُهُ ويُنْوَى فِعْلُ ذلِكَ لِأَهْلِ المَيْتِ لا لِمَنْ يَجْتَمِعُ عندَهُم فَيُكْرَهُ لِأَنَّهُ إعانَةٌ عَلَى مَكْرُوْهٍ وَهُوَ اجْتِمَاعُ الناسِ عندَ أهلِ الميتِ نَقَلَ المَرْوَزِي عن أَحْمَدَ هُوَ مِن أفعالِ الجاهليةِ .

اللهم نَوِرْ قُلُوْبَنَا بِنُوْرِ الايمانِ ووفقنا لِمَحَبَّتِكَ وَمَحَبَّةِ مَن يُحِبُّكَ وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ واجْعَلْنَا مِن عبادِكَ الصالحين واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجْمعين .

(فصل)

وَيَجُوزُ البُكَاءُ عَلَى المَيْتِ لِمَا وَرَدَ عَنْ أَنَسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ شَهِدْتُ بنتاً لِلنَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُدْفَنُ وَرَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم جالِسٌ عِندَ القَبْرِ فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَدْمَعَانِ رواه البخاري .

وعن ابنِ عمرَ قال اشْتَكَى سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ فَأَتَاهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّم يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرحمنِ بنِ عَوفٍ وسَعْدِ بنِ أبِي وقَّاصٍ وعبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ .

فلَمَّا دَخلَ عَلَيْهِ وَجدَهُ في غَشْيَةٍ فقَالَ قَدْ قُضِيَ فَقَالُوا لاَ يا رسولُ اللهِ فَبَكَى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَلَمَّا رَأى القومُ بكاءَهُ بَكَوا فقال أَلاَ تَسْمَعُوْنَ إنَّ اللهَ لا يُعَذِبُ بِدَمْعِ العَيْنِ ولا بحُزْنِ القَلْبِ ولكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا أوْ يَرْحَمُ وأشارَ إلى لِسَانِهِ متفق عليه .

وَأَخْبَارُ النَّهْي مَحْمُولَةٌ على بُكَاءٍ مَعَهُ نَدْبٌ أَوْ نِيَاحَةٌ وعن أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ قالَ كُنَّا عندَ النبي صلى اللهُ عليه وسلم فأرْسَلَتْ إليهِ إحْدَى بَنَاتِهِ تَدْعُوْهُ وتخبره أنَّ صَبِياً لها في المَوْتِ .

فَقالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْجِعْ إلَيْهَا فأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلهِ ما أخذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وكُلُ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمَّى فَمُرْهَا فلْتَصْبِرْ و لتَحْتَسِبْ فَعَادَ الرسُولُ فقالَ إنَّهَا اقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا .

قال فقامَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقامَ سَعْدُ بنُ عُبادَةَ وَمعَاذُ بنُ جَبَلٍ قَالَ فانطلقتُ مَعهُم فَرُفِعَ إلَيْهِ الصَّبِيُ وَنَفْسَهُ تَقَعْقَعُ كأنَّهَا في شَنَّةٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ فَقال سَعْدٌ ما هَذَا يا رَسُوْلَ اللهِ قال هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعلَهَا اللهُ في قُلُوْبِ عِبَادِهِ وإنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِن عِبَادِهِ الرُحَمَاءُ متفق عليه .

وَلَمَّا ثَقُلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الكَرْبُ فقالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عنها واكَرْبَ أَبَتَاهُ فقال لَيْسَ على أَبِيْكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ فَلَمَّا مَاتَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَتْ يا أبتاهْ أَجَابَ رَباً دَعَاهُ يَا أَبَتَاه جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ يَا أَبَتَاهُ إلى جِبْرِيْلَ نَنْعَاهُ .

فَلَمَّا دُفِنَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ الله عنها يا أنسُ أطابَتْ أَنْفُسُكُم أَنْ تَحْثُوا على رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم التُرَابَ .

وَلَمَّا بَلَغَتْ أَبَا بَكْرٍ وَفَاةُ رَسُوْلِ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيهِ وسلم وكانَ نَائِمَا عندَ إبْنِهِ خـارِجَـةَ بالسُّنْحِ جَاءَ حَتَّى دَخَلَ على رسول اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم فَكَشَفَ عَن وجْهِهِ وَوَضَعَ فَمَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى صُدْغَيْهِ وَقَالَ وانَبِيَّاهْ واخَلِيْلَاهْ واصَفِيَّاهْ وَخَنَقَهُ البُكَاءُ ثم خَرَجَ لِلناسِ وَعُمَرُ يُكلمهُم فقال اجْلِسْ يَا عُمَرُ قال أبُو بكر أما بَعْدُ :

مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدَاً فَإنَّ مُحَمَّدَاً قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ قال اللهُ تعالى ﴿ وما مُحَمَّدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُسُلُ أَفَائِنْ ماتَ أو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ على أعقابِكُم وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً وسيجزي اللهُ الشاكرينَ ﴾ .

قال : فَوَاللهِ لَكَأَنَّ النَاسَ لم يَعْلَمُوا أنَّ اللهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ فَتَلَاهَا منهُ الناسُ كُلُّهُم فَمَا أَسْمَعُ بَشَرَاً مِن الناس إلا يَتْلُوها وَيَقُولُ حَافِظُ إبراهيم في عُمَرَ حَوْلَ هذِهِ الآيَةِ وَبَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ واسْرَاعِ عُمَرَ

رضيَ اللهُ عنه في مُبَايَعَةِ أبِي بكرٍ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ وَلَمِّهِ شَعَثَ المُسْلِمينَ عندَ الاختلاف .

وَمَوْقِفٍ لَكَ بَعْدَ المُصْطَفى افْتَـرَقَتْ
فِيـهِ الصَّحَـابَـةُ لَمَّـا غَـابَ هَـادِيْهَـا
بَـايَعْتَ فِيْـهِ أَبَـا بَكْـرٍ فَبَـايَعَـهُ
عَلَى الخِـلاَفَـةِ قَـاصِيْهَـا وَدَانِيْهَـا
« وأَطْفِئَتْ فِتْنَــةٌ لَـوْلاَ إلْـهُ غشَتْ »
بَيْنَ القَبَـائِـلِ وانْسَــابَتْ أفَـاعِيْهَـا
بَـاتَ النَّبِيُّ مُسَجَّى في حَـظِيْـرَتِـهِ
وأَنْتَ مُسْتَعِـرُ الاحْـشَـاءِ دَامِيْـهَـا
تَهِيْمُ بَيْنَ عَجِيْجِ الناسِ في دَهَشٍ
مِن نَبْأَةٍ قَدْ سَرَى في الأَرْضِ سَارِيْهَا
تَصِيْحُ مَن قَالَ نَفْسُ المُصْطَفى قُبِضَتْ
عَلَوْتُ هَـامَتَـهُ بِـالسَّيْفِ أَبْـرِيْهَـا
أَنْـسَــاكَ حُبُّـكَ طَـهَ أَنَّـهُ بَشَـرٌ
يُجْرِيْ عليهِ شُؤُونَ الكَـوْنِ مُجْرِيْهَـا
وأَنَّـــهُ وَارِدٌ لا بُـــدَّ مَـوْرِدَهُ
مِنَ المَنِيَّـةِ لَا يُـعْفِيْـهِ سَـاقِيْهَـا
نَسِيْـتَ في حِـقِّ طَـه آيَـةً نَـزَلَتْ
وَقَـدْ يُـذَكَّـرُ بـالآيَـاتِ نَـاسِيْهَـا

ذَهِلْتَ يَـوْمَـاً فَكَـانَتْ فِتْنَـةٌ عَمَمٌ
وثَـابَ رُشْـدُكَ فـانْجَـابَتْ دَيَاجِيْهَـا
فَلِسَّقِيْفَـةِ يَـوْمَـاً أَنْـتَ صَـاحِبُـهُ
فِيـهِ الخِـلاَفَـةُ قَـدْ شِيْـدَتْ أَوَاسِيْهَـا
مَـدَّتْ لَهَا الأَوْسُ كَفـاً كَيْ تَنَاوَلَهَـا
فَمَـدَّتِ الخَـزْرَجُ الأَيْـدِيْ تُبَـارِيْهَـا
وَظَـنَّ كُـلُ فَـرِيْقٍ أَنَّ صَـاحِبَهُـمْ
أَوْلَى بِهَـا وَأَتَى الشَّـحْنَـاءَ آتِـيْهَـا
حَتَّى انْبَـرَيْتَ لَهُمْ فَـارْتَـدَّ طَـامِعُهُمْ
عَنْهَـا وآخَى أَبُـو بَكْـرٍ أَوَاخِـيْهَـا
وَقَـوْلَـةٌ لِـعَلِيٍّ قَـالَـهـا عُـمَـرٌ
أَكْـرِمْ بِسَـامِعِهَـا أَعْـظِمْ بِمُلْقِيْهَـا
حَـرَّقْتُ دَارَكَ لَا أُبْقِيْ عَلَيْـكَ بِهَـا
إِنْ لَمْ تُبَـايِعْ وَبِنْتُ المُصْـطَفَى فِيْهَا
مـا كانَ غَيْـرُ أَبِي حَفْصٍ يَفُوْهُ بِهَـا
أَمَـامَ فَـارِسِ عَـدْنَـانٍ وَحَـامِيْهَـا
كِـلاَهُمَـا في سَبِيْـلِ الحَقِّ عَـزْمَتُـهُ
لَا تَنْثَنِي أَوْ يَكُـونُ الحَقُّ ثَـانِيْهَـا

والله أعلم وصلى اللهُ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(فَصْلٌ)

وَقَالَ فِي مُخْتَصَرِ صَفْوةِ الصَّفْوَة في مَناقِبِ أَبِي بَكْرْ وَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إلَى مُعاذَ بْنُ جَبَل بِالْيَمَنْ يُعْلِمُهُ بِمُوْتِ رَسُولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ وَبعَثَ الكِتَابَ مَعَ عَمّارِ بْنُ يَاسِرْ .

وَقَدْ كَانَ مُعَاذ رَأَى لَيْلَةً في الْمَنَامْ كَأَنَّ هَاتِفاً يَهْتِفُ بِهِ وَيَقُولْ يَا مُعَاذُ كَيْفَ يَهْنَؤُكَ الْعَيْشُ وَمُحَمَّدٌ في سَكَراتِ الْموتِ ؟ فَوَثَبَ فَزِعَاً ثُمَّ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ .

ثُمَّ نُودِيَ في اللّيْلَةِ الثَّانِيْةِ يَا مُعَاذُ كَيْفَ يَهْنَؤُكَ الْعَيْشُ وَمُحَمَّدٌ بَيْنَ أطْبَاقِ التُّرَابْ فَجَعَل مُعَاذ يَدَهُ عَلى رَأْسِهِ وَجَعلَ يَتَرَدَّدُ بِصَنْعَاءَ وَيُنَادِي بأعْلَى صَوْتِهْ يَا أَهْلَ الْيَمَنْ رُدُّوْنِي فَلاَ حَاجَةَ لِي فِي جِوارِكُمْ فَشَرُّ الأيَّامِ يَوْمٌ جَاوَرْتُكُم فيهِ وفارقْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجَّ النَّاسُ النِّساءَ والرِّجَالَ والصِّبْيَانَ فقَالوا مَا الّذِي جَاءَكْ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إلَيْهِمْ وَأتَى مَنْزِلَهُ وَشَدَّ عَلى رَاحلَتِهْ .

وَأَخَذَ جِرَاباً فِيْهِ سَوِيقٌ وَإِدَاوَةٍ مِنَّ مَاء ثُمَّ قَالْ لاَ أَنْزِلُ إلاَّ إلى الصَّلاَةْ حَتَّى أتَى الْمدَيْنَة فبَيْنَما هُوَ على ثَلاَثِةِ أمْيَالِ مِن الْمدَيْنَة لَقَيَهُ عَمّارُ بْنُ يَاسِرْ فأخْبَرَهُ وَرجَعَ مَعَهُ وَجَعَل يَقُولُ لِعَمَّارٍ نَشَدْتُكَ اللّهْ كَيْفَ أصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ قَالْ تركْتُهمْ يا مُعَاذ كَغَنَم بِلاَ رَاعِي .

قَالَ كَيْفَ تَركْتَ الْمَدْيْنَةَ قَالْ تَركْتُها وَهِي أَضْيَقَ عَلَى أَهْلَها مِنَ الْخاتَمْ قالُوا فلَمَّا قَدِمَ دَخلَ عَلَى فَاطِمَةَ فعَزّاهَا وَسَألَها مُعَاذُ عَنْ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ قائلاً كَيْفَ رَأيْتِي رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ

فِي وَجَعِهْ فَقَالَتْ يَا مُعَاذُ لَوْ رَأَيْتَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّم يَصْفَرُّ مَرّةً وَيَحْمَرُّ أُخْرىٰ وَيَرْفَعُ يَداً وَيَضَعُ أُخْرى لَمَا هَنَاكَ الْعَيْشَ طُولَ أَيَّامِ الدُّنْيَا فَبَكَى مُعَاذُ رَضِي اللّهُ عَنْهُ حَتّى خَشِيَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْطَانُ قَدْ اِسْتَفَزَّهُ ثُمَّ اسْتَعَاذَ باللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمْ وَخَرَجَ إلى أَصْحَابِ النّبِيِّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ .

شِعْرا :

لَعَمْـرُكَ مَا الـرَّزِيَّـةُ فَقْـدُ مَـالٍ
وَلَا فَـرَسٌ يَـمُـوتُ وَلَا بَـعِـيْـرُ
وَلَـكِـنَّ الـرَّزِيَّـةَ فَـقْـدُ شَخْصٍ
يَـمُـوتُ لِمَـوْتِـهِ خَـلْقٌ كَـثِـيْـرُ

آخَرْ :

تَـذَكَّـرْتُ لَمَّـا فَـرَّقَ الـدَّهْـرُ بَيْنَنَـا
فَعَـزَّيْتُ نَـفْسِي بـالنَّبِيِّ مُـحَمَّـدِ
وَقُلْتُ لَهَـا إِنَّ الْمَنَـايَـا سَـبِيْلُنَـا
فَمَنْ لَمْ يَمُتْ في يَوْمِهِ مَاتَ فِي غَدِ

آخَرٌ :

اِصْـبِـرْ لِكُـلِّ مُصِيْبَةٍ وَتَـجَـلَّدِ
وَاعْـلَمْ بِـأَنَّ الْمَـرءَ غَـيْـرُ مُـخَـلَّدِ
وَإِذَا أَتَـتْـكَ مُصِيْبَـةٌ تَـسْلُو بِـهَـا
فَـاذْكُـرْ مُصَـابَـكَ بِـالنَّبِيِّ مُحَمَّـدِ

مَوْعِظَة

عِبَادَ اللّه إنَّ الْقُلُوبَ إذَا قستْ واسْتَوْلَى عَلَيْها حُبُّ الدُّنْيَا دَوَاؤُهَا النَّافِعُ بِإذْنِ اللّهْ ذكْرُ اللّهْ جَلَّ وَعَلا وَتِلاوَةِ كِتَابهِ الْعزيْزِ وَزِيَارَةُ الْمقَابِرِ لِترَى فِيْها بِعَيْنِكَ مَا صَارَ إلَيْهِ الأكَابِرْ والاَصَاغِرْ تَرَى فِيْهَا الْمُلوكَ والْوُزَرَاءَ وَالْوُجَهاءَ والْجَبَابِرةَ والظَّلَمَةَ والْمُتكَبِّرِيْنَ والفَسَقةَ صَرْعَىٰ فِي ضِيْقِ تِلْكَ الْحَفائِرْ وَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا عَلَى سَعَتِها تَضِيْقُ عَمَّالَهُمْ مِنْ آمالٍ وَأَمَانِي .

وَتَرَى هُنَاكَ أَحِبَّاءَ اللّهِ وَأَوْلِيَاءَهُ وَعِبَادَه الصَّالِحِين الْكُلُّ حَكَمَ عَلَيْهِ الْعَزِيزُ الْحَكِيْمُ الْقَهَّار بالمَوْتَ فَلَبُّوا طَائِعِيْنَ أوْ مُكْرَهِيْن وأصْبَحَ الْكُلُّ مُنْفَرداً لا أَنِيْسَ لَهُ إلا ما قَدَّمَهُ مِن الأعمالِ فالمُطِيعُ لِلهِ الّذِيْ امْتَثَلَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ وانْتَهَى عَمَّا نَهَى اللّهُ عَنْهُ في رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةْ وَعِنْدَهُ عَمَلُهُ الصَّالِحْ .

وَأَمَّا الآخرْ فَلَوْ أنْطقَهُ اللّهُ لَقَالَ لَكَ كَلاماً تَقَطَّعُ لَهُ الْقُلُوبُ حَسَرَات يَقُولْ إنَّ الْحَكَمُ الْعَدْلُ جَازَانِي بِمَا اسْتَحِق وَإنِّي بِعَذَابٍ لَا تَحْتَمِلُهُ الْجِبَال الرَّاسِيَات وَإنِّي مُسْتَحِقٌّ لِذَلِك لأَنِّي اغْتَرَرْتُ بالدُّنْيا وَزَخَارِفِها فَلَمْ أعْبَأْ بِأوَامِرِ رَبِّي وَلاَ نَواهِيْهِ واقْتَحَمْتُ الْمُوبِقَاتِ لِذَا صِرْتُ إلَى مَا لَوْ رَأَيْتَهُ لِصَعِقْتَ وَذَهِلْتَ وَغُشِيَ عَلَيْكَ ، وَمُلِئْتَ رُعْبا وَاشْتَعَلَ شَعْرُكَ شَيْبا وَلَمْ تَنْتَفِعْ بَعْدَ قَوْلِهِ بِأكْلٍ وَشُرْبٍ وَرَأَيْت أَحْدَاقاً عَلى الخُدُودِ سَائِلَةً ، وَرَأَيْت أَعْظُماً غَيْرَ مُتَمَاسِكَةٍ وَأَوْصَالاً مُتَقَطِّعةً وَرَأَيْت جَمَاجِماً قَدْ عَلاهَا الدُّوْدُ والْخَشَاشُ كأَنَّها الأنَابِيْبُ وَرَأَيْت مَا كَانَ مُجْتَمِعاً مُتَفَرّقاً رَمِيْما وَرَأَيْت الصَّدِيْدَ وَالْقَيْح يَجْرِي فَيالَهُ مِنْ مَنْظِرٍ مَا أفْزَعَهُ وَيَالَهُ مِنْ سَفَرٍ مَا أَطْوَلَهْ .

وَالْعَجبْ مِمَّنْ يَزُوْرُ الْقُبورَ وَيَسْمَعُ ذَلِكَ وَيُصَدِّقُ بِهُ وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَنَامُ مُطْمَئِنّاً مَا كَأَنَّهُ سَيَسَاكِنهُمْ عَنْ قَرِيْبِ ، مَاتَتِ الْقُلُوبُ فأصْبَحَتْ لَا تَنْتَفِعُ بالْوَعْظِ والتّذْكِيرْ وَلَا بِزَاجِرِ الْمَوْتِ وَهْوَ أبْلَغُ زَاجِرٍ لِلأَحْيَاءِ فَزُرْ يَا أخِي الْقُبُورَ مُعْتَبِرًا وانْتَبِه مِنْ هَذِهْ الْغَفْلَةِ فالْمَوْتُ مَهْمَا مُدَّ فِي عُمْرِكْ لَابُدَّ أنْ يَأْتِيْكَ فَكُنْ مِنْهُ عَلى حَذَرٍ فَإِنّهُ لَا يُؤْمَنُ أنْ يَفْجَأكَ وَأَنْتَ سَارِحٌ فِي أوْدِيَةِ الدّنْيَا . وَمَا أكْثَرَ مَوْتِ الْفُجْأةْ فِي زَمَنِنَا بوَاسِطَةِ السّيَّارَاتِ وَالْقِزْ والكَهْرَبَاء والطّائِرَاتِ وَنَحْو ذَلِكْ .

شعرا :

هُوَ الْمَوْتُ فَـاحْذَرْ أَنْ يَجِيْئَـكَ بَغْتَةً
وأنْتَ عَلى سُوءٍ مِنَ الْفِعْلِ عَـاكِفُ
وَإِيَّـاكَ أَنْ تَتْرُكَ مِنَ الـدّهْرِ سَاعَـةً
وَلَا لَـحْـظَةً إلّا وَقَـلْبُـكَ وَاجِـفُ
وَبَـادِرْ بِـأَعْمَـالٍ يَسُـرُّكَ أنْ تُـرى
إِذا نُشِرَتْ يَوْمُ الْحِسَـابِ الصَّحَائِفُ

اللَّهُمَّ أَيْقِضْ قُلُوبَنَا وَنَوِّرْهَا بِنُورِ الايْمَان وَثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ فِي قُلوبِنَا وَقَوِّهَا وَارْزُقْنَا الْمَعْرِفَةَ بِكَ عَنْ بَصِيْرَةٍ وَأَلْهِمْنَا ذِكْـرَكَ وَشُكْرَكَ وَوَفّقْنَـا لِطَاعَتِكَ وَامْتِثَالِ أَمْرِكْ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمينَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيّتِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمْينَ وَصَلّى اللّهُ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فَصْلٌ)

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا قُبِضَ أَبو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَسُجّي عَلَيْهِ إِرْتَجَّتِ الْمَدِيْنَةُ بالْبُكَاء فَجَاءَ عَلِيّ بْنُ أَبِيَ طَالِبٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ مُسْتَعْجِلاً مُسْتَرْجِعاً حَتَّى وَقَفَ عَلى الْبَيْتِ الّذِي فِيْهِ أبوُ بَكْر .

فَقَالَ رَحِمَكَ اللّهُ يَا أَبَا بَكْر فَلَقَدْ كُنْتَ اِلْفَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهَ عَلَيْهِ وَسلّمْ وَأَنِيْسهُ وَمُسْتَرَاحَهْ وَثِقَتَهُ وَمَوْضِعَ سِرِّهْ وَكُنْتَ أَوَّلَ الْقَوْمِ إِسْلاَمَا وَأَخْلَصَهُمْ إِيْمَانَا وَأَشَدَّهُمْ لِلّهِ يَقِيْنَا وَأَخوفَهُم لِلّه وَأَعْظَمَهُمْ غِنَاءٍ فِي دِيْنِ اللّهِ عَزَّ وَجَلْ وَأَحْوَطَهُمْ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ .

وَأَحْسَنَهُمْ صُحْبَةً وَأَكْثَرَهُمْ مَنَاقِبْ وَأَفضَلَهُمْ سَوابِقَا وَأَرْفَعَهُمْ دَرجَة وَأَشْبَهَهُمْ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ خُلُقاً وَفَضْلاً وَهَدْياً وَسَمْتاً وَأَكْرَمَهُمْ عَلَيْهِ فَجَزاكَ اللّهُ عَنِ رَسُولِهِ وَعَنِ الاسْلاَمِ والْمُسْلِمِيْن خَيْراً .

صَدَّقْتَ رَسُولَ اللّهِ حِيْنَ كَذَّبَهُ النَّاسْ وَوَاسِيْتَهُ حِيْنَ بَخِلُوا وَقُمْتَ مَعَهُ حِيْنَ قَعَدُوا وَكُنْتَ عِنْدَهُ بِمَنْزِلِهِ السَّمْعِ وَالْبَصَر وَسَمَّاكَ اللّه فِي كِتَابِهِ صِدِّيْقاً فَقَال وَالَّذِي جَاءَ بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهْ .

وَصَحِبْتَهُ فِي الشِّدَةِ أَكْرَمَ صُحْبَةٍ ثانِي اِثْنَيْنِ وصَاحِبَهُ فِي الْغَارِ وَالْمُنَزلُ عَلَيْهِ السَّكِيْنَةَ وَرَفِيْقَه فِي الْهِجْرَةْ .

وَخَلَفْتَهُ فِي دِيْنِ اللّهِ وَأُمَّتِهِ أَحْسَنَ الْخِلاَفَةْ حِيْنَ اَرْتَدُّوا فَقُمْتَ بِالأَمْر مَا لَمْ يَقُمْ بِهِ خَلِيْفَةُ نَبِيْ نَهَضْتَ حِيْنَ وَهَنَ أَصْحَابُهُ وَبَرَزْتَ حِيْنَ اسْتَكَانُوا وَقَوِيتَ حِيْنَ ضَعُفُوا .

وَلَزِمْت مِنْهَاجَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كُنْتَ خَلِيْفَةَ رَسُولِ اللّهِ حَقًّا لَنْ تُنَازَعَ وَلَنْ تُضَارَعَ بِرَغْمِ الْمُنَافِقِيْنَ وَكَبْتِ الْحَاسِدِيْنَ قُمْتَ بِالأَمْرِ حِيْنَ فَشِلُوا واتَّبَعُوكَ فَهُدُوا كُنْتَ أَخْفَضَهُمْ صَوْتَا وَأَقَلَّهُمْ كَلامًا وأَصْدَقَهُمْ مَنْطِقا وأبْلَغَهُمْ قَوْلاَ وأَشْجَعَهُمْ نَفْسَا وأشْرَفَهُمْ عَمَلاَ .

كُنْتَ لِلْمُؤْمِنِينَ رَحِيْمَا حِيْنَ صَارُوا عَلَيْكَ عِيَالاَ حَمَلْتَ أَثْقَالَ مَا عَنْهُ ضَعُفُوا وَرَعَيْتَ مَا أَهْمَلُوا وَعَلِمْتَ مَا جَهِلُوا وَصَبَرْتَ إِذْ جَزِعُوا وَرَاجَعُوا بِرَأْيِكَ رُشْدَهُمْ فَظَفِرُوا ونَالُوا بِرَأْيِكَ مَا لَمْ يَحْتَسِبُوا .

كُنْتَ كَمَا قَالَ رَسولُ اللّهِ صَلَّي اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّم أَمَنَّ النَاسِ عليه فِي صُحْبَتِكْ وَذَاتِ يَدِكْ وَكُنْتَ كَمَا قَال ضَعِيْفاً فِي بَدَنِكَ قَوّياً في أَمْرِ اللّهِ عَزَّ وَجلْ مُتَوَاضِعاً فِي نَفْسِكْ عَظِيْماً عِنْدَ اللّهِ عَزَّ وَجَلْ جَليْلاً فِي أَعْيُنِ النّاسْ كَبِيْراً في أَنْفُسِهِمْ ، لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ فِيْكَ مَغْمَزٌ وَلاَ لِقَائِلٍ فِيْكِ مَهْمَزٌ الضَّعِيْفُ الذّلِيْلُ عِنْدَكَ قَوِيٌ عَزِيْزٌ حَتّى تَأْخُذَ بِحَقِّهْ الْقَرِيْبُ والْبَعِيْدُ عِنْدَكَ سَوَاء .

وَأَقْرَبُ النَّاسِ عِنْدَكَ أَطْوَعَهُمْ لِلّهْ وَأَتْقَاهُمْ ، شَأْنُكَ الْحَقُ والصّدْقُ والرِّفْقُ إِعْتَدَلَ بِكَ الدِّيْن وَقَوِيَ بِكَ الإِيمَانْ فَسَبَقْتَ وَاللّهِ سَبْقاً بَعِيْدا وَاتْعَبْتَ مَنْ بَعْدَكَ إِتْعاباً شَدِيْدا رَضِيْنَا عِنِ اللّهِ قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ وَسَلَّمْنا لَهُ أَمْرَهْ .

وَاللّهِ لَنْ يُصَابَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ بِمِثْلِكَ أَبَدَا ، كُنْتَ لِلدِّيْنِ عِزًّا وَحِرْزًا وَكَهْفَا فَالْحَقَكَ اللّهُ بَنَبِيِّكِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ وَلاَ حَرَمَنَا أَجْرَكَ وَلاَ أَضَلَّنَا بَعْدَكَ فَسَكَتَ النّاسُ حَتّى قَضَى

كَلامَهُ ثُمّ بَكَوا حَتّى عَلَتْ أصْوَاتُهُمْ .

وَقَالُوا صَدَقْتَ يَا خَتَنَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسَلّم وَلَمَّا مَرِضَ أبُو بَكْرٍ رَضْي اللّهُ عَنْهُ تَرَكَ التَّطَبُّبَ تَسَلُّماً لِأمْرِ اللّهِ تَعالى فَعادَهُ الصَّحابَةَ رَضْي اللّهُ عَنْهُمْ فقَالُوا ألاَ نَدْعُوا لَكَ طَبِيْبَا يَنْظُرُ إلَيْكَ فَقَالْ نَظَرَ إليَّ قالُوا وَمَا قَالَ قَالَ إنِّي فعَّالٌ لِمَا أُرِيْد واسْتَخْلَفَ فِي مَرَضِهِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِمُشَاوَرَةِ جَمَاعةٍ مِنَ الصَّحَابَةْ .

شِعْرا :

لِلْمَـوْتِ فَاعْمَـلْ بِجِدٍ أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ
واعْلَمْ بِـأنَّـكَ مِنْ دُنْيَـاكَ مُـرْتَحِـلُ
إلَى مَتَى أنْتَ فِي لَهْـوٍ وَفِي لَعِبٍ
تُمْسِي وَتُصْبِـحُ في اللَّذَّاتِ مُشْتَغِـلُ
كَـأنَّنِي بِـكَ يَـاذَا الشَّيْبِ فِي كُـرَبٍ
بَيْنَ الأحِبَّـةِ قَـدْ أوْدَى بِـكَ الأَجَـلُ
لَمَّـا رَأُوكَ صَـرِيْعـاً بَيْنَهُمْ جَـزِعُـوا
وَوَدَّعُـوكَ وقَالُـوا قَـدْ مَضَى الـرَّجُـلُ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ يَا مِسْكِيْنُ فِي مَهَلٍ
مَـا دَامَ يَنْفَعُـكَ التِّـذْكَـارُ وَالْعَمَـلُ
إنَّ التَّقِيَّ جِنَـانُ الْـخُلْدُ مَـسْكَـنُـهُ
يَنَـالُ حُـوْراً عَلَيْهَـا التَّـاجُ وَالْحُلَلُ
وَالْمُجْـرِمِيْنَ بِنَـارٍ لا خُمُـودَ لَهَـا
فِي كُـلّ وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ تَشْتَعِـلُ

واللّهُ أعْلَمْ وَصَلّى اللّهُ على مُحَمّدٍ وآلِهِ وسلَّمْ .

(فَصْلٌ)

وَقَالَ أبُو بَكْرٍ رَضْي اللّهُ عَنْهُ نِعْمَ الْوَلِيُ عُمَرُ أَمَا أَنَّهُ لا يَقْوَى عَلَيْهِمْ غَيْرُه وَمَا هُوَ بِخَيْرٍ لَهُ أنْ يَلِيَ أمْرَ أُمّةِ مُحَمّدٍ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسلم إنَّ عُمَرَ رآى لِيْناً فاشتَدَّ وَلَوْ كَانَ وَالِياً لَلانَ لِأهْلِ اللّيْن ثُمَّ دَعَا بِعُثْمَانَ بْنِ عفّانَ رَضْيَ اللّه عَنْهُ .

فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ هَذَا مَا عَهِدَ بِهِ أبُو بَكْرِ بْنُ أبِي قُحَافَةَ اِلى الْمُسْلِمِيْن أمّا بَعْد فَانِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْكُمْ ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْه فَكَتَبَ عُثْمَان عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابْ لِمَا سَمِعَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ثُمَّ أفَاقَ أبُو بَكْرٍ فَقَالَ اقْرَأ عَلَيَّ مَا كَتَبْت فَقَرأ عَلِيْهَ ذِكْرَ عُمَرَ فَقَالْ جزَاكَ اللّهُ عَنِ الإسْلامِ وأهْلِه خَيْرًا .

ثُمَّ رَفَعَ أبُو بَكْرٍ يَدَيْه فَقَالْ اللّهُمَّ إنِّي وَلَّيْتُ خَيْرَهُمْ وَلَمْ اُرِدْ بِذَلِكَ إلّا صَلاَحَهُمْ وَخِفْتُ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَة وَفَعلْتُ فِيهِمْ مَا أنْتَ أعْلَم وَقَدْ حَضَرَنِي فِي أمْرِي مَا قَدْ حَضَرُ فاجْتَهَدْتُ لَهُمْ الرَّأْي وَوَلَّيتُ عَلَيهِمْ خَيْرَهُمْ هُوَ أقْوَاهُمْ عَلَيْهِمْ وَأحْرَصُهَم عَلى رُشْدِهِمَ وَلَمْ أُرِدْ مَحُابَاةَ عُمْرَ وَأنَا خَارِجُ مِنَ الدّنْيا وَداخِلُ في الآخِرَةَ فاخْلُفْنِي فِيهِمْ فَهُمْ عِبَادُكَ وَنَواصِيْهِمْ بِيَدِك .

أَصْلِحْ لَهُمْ وَالِيهِمْ عُمَرْ ، واجْعَلْهُ مِنْ خُلَفَائِكَ الرَّاشِدين يَتْبَعُ هَدْيَ نَبِّيهِ نَبيَّ الرَّحْمَةِ وَهُدَى الصَّالِحْين بَعْدَهْ وأصْلِحْ لَهُ أمْرَ رَعِيَّتِه ، وَكَتَب بِهَذا الْعَهْدُ إلِى أُمَراءِ الأَجْنَادِ إنِّي قَدْ وَلَّيتُ عَلَيْكُمْ خَيْرَكُم ولَمْ آلُ نِفسِيْ وَلا المسلِمينَ خَيْرًا .

ثُمَّ دَعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضْىَ اللّهُ عَنْهُ فَقَالْ إنِّي مُسْتَخْلِفُكَ على

أصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ يَا عُمَرُ إنَّ لِلّهِ حَقّاً في اللّيْل لا يَقْبَلُهُ في النَّهَار وَحَقّاً في النّهَارِ لَا يَقْبَلُهُ في اللّيْل وَانَّها لَا تُقْبَلُ نَافِلَةً حَتَّى تُؤَدَّى فَرِيْضَة وَانّما ثقُلَتْ مَوَازِيْنُ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ باتِّباعِهِمُ الْحَقَ وَثِقْلُه عَلَيْهِمْ وَحَقٌّ لِمِيْزَانٍ لَا يُوضَعُ فِيْهِ اِلاّ الْحَقُ غَدَاً أنْ يَكُون ثَقِيْلَا .

وَإِنَّما خَفَّتْ مَوازِيْنُ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِيْنُه يَوْمَ الْقِيَامَةْ بِاتِّبَاعهْم الْبَاطِلَ في الدّنْيَا وَخِفَّتِهِ عَلَيْهِم وَحَقٌ لِمِيْزَانٍ لا يُوْضَعُ فِيْهِ إلاّ الْبَاطِلَ أنْ يَكُونَ خَفِيْفَاً يَا عُمرُ إنّما نَزلت آيةُ الرَّخاءِ مَعَ آيةِ الشّدَّةِ وَآيَةُ الشِّدَّةِ مَع آيَةِ الرَّخاءِ لِيَكُونَ الْمؤمِنُ رَاغِباً رَاهِباً فَلَا تَرْغَبْ فَتَتَمَنَّى عَلى اللّهِ فِيْها مَا لَيْسَ لَكْ وَلَا تَرْهَبْ رَهْبَةً تُلْقِي فِيْهَا مَا بِيَدِكَ.

يَا عُمَرُ إِنَّما ذَكَرَ اللّهُ أَهْلَ النَّارِ بِأَسْوَءِ أعْمَالِهِمْ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ مِنْ حُسْنٍ فاذَا ذَكَرْتُهُمْ قُلْتُ إِنّي لَارْجُو أن لا أكُونَ مِنْ هَؤُلآءْ .

وَإِنَّما ذَكَرَ اللّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِأَحْسِنِ أعْمَالِهِمْ لِأَنَّه تَجاوَزَ لهُمْ مَا كَانَ مِنْ سَيٍّءٍ فَاذا ذَكرْتُهُمْ قُلْتُ أَيُّ عَمَلٍ مِنْ أعْمَالِهِمْ أعْمَلْ فَإنْ حَفِظْتَ وَصِيَّتِي فَلَا يَكُنْ غَائِبٌ أحَبَّ اِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتَ وَهْوَ نَازِلٌ بِكْ وَإِنْ ضَيَّعَت وَصِيَّتِي فَلا يَكُنْ غَائِبٌ أكْرَه إِلَيْكَ مِنْ الْموت وَلَسْتَ تُعْجِزُهْ .

وَكَانَ رَضى اللّهُ عَلَيْهِ يَقُول اِعْلَمُوا عِبادَ اللّه أَنَّ اللّهَ قَدِ اِرْتَهَنَ بِحَقِّهِ أنْفُسَكُمْ وَأخَذَ على ذَلِكَ مَوَاثِيْقَكُمْ واشْتَرَى مِنْكُمْ الْقَلِيْلَ الْفَانِي بالْكَثِير الْبَاقِي وَهَذا كِتَابُ اللّهِ فِيْكُمْ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهْ وَلاَ يَطْفَى نُوْرُهْ فَصَدِّقُوا قَوْلَهْ وَاسْتَنْصِحُوا كِتَابَهُ واسْتَضِيْئُوا مِنْه لِيَومِ الظُّلْمَة .

وَقَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَرَضِيَ اللّهُعَنْهَا لَمَّا مَرِضَ أَبُو بَكْرٍ مَرَضَهُ

الّذِي مَاتَ فِيْه قَالْ انْظُرُوا مَا زَادَ في مَالِي مِنْذُ دَخَلْتُ الاْمِارَةَ فابْعَثُوا بِه إلى الْخَلِيْفَةِ مِنْ بَعْدِي فَنَظَرْنَا فَإذا عَبْدُ نُوْبِي يَحْمِلُ صِبْيانَه وإذَا نَاضِحٌ كَانَ يَسْقِي بُسْتَاناً لَهْ فَبَعْثنَاهُمَا إلى عُمَر فَبَكَى عُمْر .

وقَال رَحمَةُ اللّه على أبي بَكْر الصِّدِّيْق رَضى اللّه عَنْه وَخَطَبَ النّاسَ فَحَمدِ اللّهِ وأثْنى عَلَيْه ثُمَّ قَال إن أكْيَسَ الْكَيْسِ التَّقْوىٰ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيْه فَلَمَّا أصْبَحَ غَدَا إلى السُّوق فَقَالَ لَهُ عُمَر رَضى اللّهُ عَنه أيْنَ تُرِيْدُ قَال السُّوْقَ قَال قَدْ جَاءكَ مَا يُشْغِلْك عَنِ السّوْق .

قــال سُــبْحَـانَ اللّهِ يُشْـغِلُـني عَنْ عِيَالِي قَالْ نَفْرِضُ بَالْمَعْرُوف قَالَ وَيْح عُمَر إني أخافُ أنْ لا يَسعُنِي أنْ آكُلَ مِنْ هَذا الْمَالِ شَيْئا قَال فانْفق فِي سَنتَيْنِ وَبَعْضِ أخْرى ثَمَانِيَة آلافِ دِرْهَم .

فَلَمَّا حَضرَهُ الموتُ قَالْ قَدْ كُنْتُ قُلْتُ لِعُمَرَ إنِّي أَخَافُ أنْ لَّا يَسعُنِي أنْ آكُلَ مِنْ هَذا الْمَال شَيْئا فَغلَبَنِي فاذَا أنا مِتُّ فَخُذُوا مِنْ مَّالِي ثَمَانِيَة آلافِ دِرْهَم وَرُدُّوْهَا في بَيْتِ المالِ قَالَ فَلَمَّا أَتَىٰ عُمَر قال: رَحِمَ اللّهُ أبَا بَكْرٍ لَقَدْ أتْعَبَ مَنْ بَعْدَه تَعباً شَدِيْدا .

وَأَخْرَجَ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أبي بَكْرٍ بْنِ حَفْصَ بْنِ عُمَرَ قَالَ جَاءَت عَائِشَةُ رَضى اللّهُ عَنْها إلى أبي بَكرٍ رَضْى اللّهُ عَنْه وَهْوَ يُعَالِجُ مَا يُعَالِجُ الْمَيِّتُ وَنَفَسُه في صَدْرِهِ فَتَمَثَّلَتْ بِهَذَا الْبَيْت :

لَعَمْــرُكَ مَــا يُـغْنِـي الثّـراءُ عَـنِ الْفَـتَى
إذا حَشْـرَجَتْ يَـوْمَـاً وضَـاق بِهَـا الصَّـدْرُ

فَنَظَر إلَيْهَا كالْغَضْبَانِ ثُمّ قَالَ لَيْسَ كَذِلكَ يَا أُمَّ الْمؤْمِنِين وَلِكَن:

« وَجَاءَتْ سَـكْرَةُ الْمَوتِ بالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنه تَحِيْد » اِنِّي كُنْتَ نَحَلْتُكِ حَائِطاً وَاِنَّ في نَفْسي مِنْهُ شَيْئا فَرُدِّيْهِ إلى الْمِيراثِ قَالْت نَعَمْ فَرَدَدْتُه فَقَالَ إِنَّا مُنْذُ وَلِيْنا أمْرَ الْمُسْلِمين لَمْ نَأكُلْ لَهُمْ دِيْنَاراً وَلاَ دِرْهَمَا وَلَكِنَّاَ قَدْ أكَلْنا مِنْ جَرِيْشِ طَعَامِهِمْ فِي بُطُونِنا وَلَبِسْنَا مِنْ خَشْنِ ثِيَابِهْم عَلَى ظُهُورِنَا وَلَيْسَ عَنْدي مِنْ فيءْ المُسْلِمين قَلِيْلٌ وَلاَ كَثِيرٌ اِلاّ هَذَا الْعَبْدُ الْحَبَشِي وَهَذا البْعِيْرُ النّاضِحْ وَجُرْدُ هذِهِ القَطِيفَةِ فاِذَا مِتُّ فابْعِثي بهِنَّ إِلى عُمَر وابْرَئِي مِنْهُنَّ فَفَعَلْتُ .

فَلَمَّا جَاءَ الرّسُولُ عُمَرَ بَكَى حَتَّى جَعَلُتْ دُمُوعُهُ تَسِيْل في الأَرْض وَيَقُول : رَحِمَ اللّهُ أبَا بَكْر لَقَدْ أتْعبَ مَنْ بَعْده رَحِمَ اللّهُ أبَا بَكْرِ لَقَدْ أتَعْبَ مَنْ بَعْدَهْ يَا غُلاَمُ ارْفَعْهُن فَقَال عَبْدُ الرّحَمَنِ ابْنُ عَوْف رَضى اللّهُ عَنْه سُبْحَانَ اللّهْ تَسْلُبُ عِيَالَ أَبِي بَكْر عَبْداً حَبَشّياً وَبَعِيراً نَاضِحَاً وَجَرْدَ قَطِيفةٍ ثَمَنُ خَمْسَةِ دَرَاهِمْ .

قَالَ فَمَا تَأْمُر قَالَ تَرُدُّهُنَّ عَلَى عِيَالِه فَقَالَ لَا والَّذي بَعَثَ مَحُمَّداً صَلّى اللّهُ عَليهِ وَسَلّمَ بالْحَق : ـ أوْ كَمَا حَلَف ـ لا يَكُوُن هَذَا في وِلاَيَتِي أَبَدَا وَلَا خَرَجَ أبُو بَكْر مِنْهُنَّ عِنْدَ الْموت وَأرُدُّهُنَّ أنا على عِيَالِهْ ، الْمَوتُ أقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ . واللَّهُ أعْلَمْ وَصلّى اللّهُ عَلى نَبِّينامُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصحبه وَسَلّمْ .

مَوْعِظَةْ

اْبنَ آدمَ كَأَنَّك بالمْوتِ وَقَدْ فَجَأكَ وَأَلْحَقكَ بِمَنْ قَدْ سَبَقَكَ مِنَ الأُمَمِ وَنَقَلَكَ مِنَ الْقُلَلِ والْعَمَائِرِ اِلَى بَيْتِ الْوِحدَة وَالْوحْشَةِ والظُّلَمِ وَمِنْ ذَلِكَ

إلى عَسْكَرِ الْمَوْتى مُخَيِّمَةً بَيْنَ الْخِيَمِ مُفَرّقاً مِن مَّالِكَ مَا اجْتَمَعَ وَمِنْ شَمْلِكَ مَا انْتَظَمَ وَلَيْسَ لَكَ قُدْرَةٌ فَتَدْفَعَهُ بِكَثْرَةِ الأمْوالِ وَلا بِقُوةِ الْخَدَمِ وندِمْتَ عَلى التّفْرِيْطِ وَلَاتَ سَاعَةَ نَدَمْ .

فَيَا عَجَباً لِعَيْنٍ تَنامُ وَطَالِبُهَا مُجِدٌّ في طَلَبِهَا لَمْ يَنَمْ،مَتَى تَحْذَرُ مِمَّا تُوعَدُ وَتُهَدّدْ،وَمَتى تَضَرَّمُ نارُ الْخَوْفِ في قَلْبِكَ وتتوقّد،إلَى مَتى حَسَناتُكَ تَضْمَحِلُ وَسيئاتُكَ تَتجدَّد،وإلى مَتَى لا يَهُوْ لُكَ زَجْرُ الْوَاعِظِ وَانْ شَدَّدْ وَإلى مَتى وَأَنْتَ بَيْنَ الْفُتُورِ وَالتَّوانِي تَرَدَّدْ مَتى تَحْذَرُ يَوماً تَنطِقُ فِيْهِ الْجُلُودُ وَتَشْهَدُ وَمَتَى تُقْبِلُ عَلى مَا يَبْقى وَتَتْرُكُ مَا يَفْنَىٰ وينفَدْ .

مُتَى تَهُبُّ بِكَ في بَحْرِ الْوُجْدِ رَيْحُ الْخَوْفِ والرَّجا مَتَى تَكُونُ في اللّيْلِ قَائِماً إذَا سَجى أيْنَ الّذِينَ عَامَلُوا مَوْلاهُم بالاْخِلاص وانْفَرَدُوا وَقامُوا في الدُّجَى فَركَعُوا وَسَجَدُوا وَقَدِمُوا إلى بَابِه في الأسْحَارِ وَوَفَدُوا وَصَامُوا هَواجِرَ النَّهارِ فَصبَرُوا واجْتَهدُوا ، لَقَدْ سَارُوا وَتَخلفْتَ وَفَاتَكَ مَا وَجَدُوا وَبَقِيْتَ في أعْقَابِهِمْ وإنْ لَمْ تُسْرِعْ وَتَجْتَهِدْ بَعُدُوا .

فَتَنَبّهْ وَتَيَقّظ يَا مِسْكِينُ قَبْلَ أَنْ يُفاجِئَكَ هَادِمُ اللَّذَّات فَلَا تَقْدِرُ عَلى اسْتِدْرَاكٍ لِمَا فَاتَ ، قَالَ اللّهُ جَلاّ وَعَلاَ ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّي لَوْلاَ أخّرْتَنِي إلى أجَلٍ قَرِيْبٍ فَأَصَّدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِيْنَ٭وَلَن يُؤخِّرَ اللّهُ نَفْساً إذا جَاءَ أجَلُها واللّهُ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلوْن ﴾ .

اللهُمَّ إنَّا نَسْأَلكَ الثَّبَاتَ فِي الأمْرِ والعَزِيْمَةَ عَلَى الرُّشْدِ وَنَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ وَنَسْأَلُكَ قَلْباً سَلِيْماً وَلِسَاناً صَادِقاً وَنَسْأَلُكَ مِنْ

خَيْرِ مَا تَعْلَمُ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمْ أَعْظَمُ أَسْبَابِ شَرَحِ الصَّدْرِ التَّوْحِيْدُ ، وَعَلَى حَسْبِ كَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ انْشِرَاحُ صَدْرِ صَاحِبِهِ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى (٣٩ : ٢٢) ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ .

وَقَالَ ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ، كَأَنَّمَا يَصَّعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ .

فالهُدَى وَالتَّوحِيْدُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ والشِّرْكُ والضلال من أعظم أسباب ضِيْقِ الصَّدْرِ.

وَمِنْهَا النُّورُ الَّذِي يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ ، وَهُوَ نُورُ الايمَانِ ، فَإِنَّهُ يَشْرَحُ الصَّدْرَ وَيُوَسِّعَهُ ، وَيُفَرِّحُ القَلْبَ ، فَإِذَا فَقَدَ هَذَا النُّورَ مِنَ القَلْبِ ضَاقَ وَحَرَجَ وَصَارَ فِي أَضْيَقِ سِجْنٍ وَأَصْعَبِهِ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيْ فِي جَامِعِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قالَ إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ إِنْفَسَحَ وَانْشَرَحَ ، قَالُوا وَمَا عَلاَمَةُ ذَلِكَ يَا رَسُوْلَ اللّهِ ، قَالَ الْأَنَابَةِ إِلَى دَارِ الخُلُوْدِ ، وَالتَّجَافي عَنْ دَارِ الْغُرُوْرِ ، وَالْاسْتِعَدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزُولِهِ .

فَنَصِيْبُ الْعَبْدِ مِنْ انْشِرَاحِ صَدْرِهِ بِحَسْبِ نَصِيْبِهِ مِنْ هَذَا النُّوْرِ ، وكذَلِكَ النَّوْرُ الْحِسِّي وَالظُّلْمَةُ الْحِسِّيَّةُ ، هَذِهِ تَشْرَحُ الصّدْرَ وَهَذِهِ تُضَيِّقُهُ .

وَمِنْهَا الْعِلْمُ فَإِنَّهُ يَشْرَحُ الصَّدْرَ وَيوسِعُهُ ، حَتَّى يَكُونَ أَوْسَعَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَالْجَهْلُ يُورِثُهُ الضِّيْقَ والحَصْرَ والحَبْسَ ، فَكُلَّمَا اتَّسَعَ عِلْمُ الْعَبْدِ إنْشَرَحَ صَدْرُهُ وَاتَّسَعَ .

وَلَيْسَ هَذَا لِكُلِّ عِلْمٍ بَلْ لِلْعِلْمِ الْمُوْرُوْثِ عَنِ الرَّسُولِ صلى اللهُ عليه وسلَّم وَهُوَ العلْمُ النَّافِعُ ، فَأَهْلُهُ أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْراً ، وَأَوْسَعَهُمْ قُلُوباً ، وأَحْسَنُهمْ وَأَطْيَبُهُمْ عَيْشاً .

وَمِنْهَا الأنَابَةُ إلَى اللّهِ تَعَالَى ، وَمَحَبَّتُهُ بِكُلِّ الْقَلْبِ ، وَالأقْبَالُ عَلَيْهِ ، وَالتَّنَعُّمُ بِعِبَادَتِهِ فَلاَ شَيْءَ أَشْرَحَ لِصَدْرِ العَبْدِ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَيَقُولَ أَحْيَانَاً إن كُنْتُ فِي الجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ فَإِنِّي إذَاً فِي عَيْشٍ طَيِّبٍ .

وَلِلْمَحَبَّةِ تَأْثِيْرٌ عَجِيْبٌ فِي انْشِرَاحِ الصَّدْرِ ، وَطِيْبِ النَّفْسِ ، وَنَعِيمٌ لاَ يَعْرِفَهُ إلاّ مَنْ لَهُ حِسٌّ بِهِ .

وَكُلَّمَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ أَقْوَى وَأشَدَّ ، كَانَ الصَّدْرُ أَفْسَحَ وَأَشْرَحَ ، وَلاَ يَضِيْقُ إلاّ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْبَطَالِينَ الْفَارِغِيْنَ مِنْ هَذَا الشَّأْنِ فَرؤْيَتُهُمْ قَذَى عَيْنِهِ ، وَمُخَالَطَتُهِمْ حُمَّى رُوحِهِ .

وَمِنْ أَعْظَمَ أَسْبَابِ ضِيْقِ الصَّدْرِ ، الأعْرَاضُ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ ، وَالْغَفْلَةُ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَمَحَبَّةُ سِوَاهُ ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً غَيْرَ اللّهِ عُذِّبَ بِهِ ، وَسُجِنَ قَلْبُهُ في مَحَبّةِ ذَلِكَ الْغَيْرِ .

فَمَا في الأَرْضِ أَشْقَى مِنْهَ ، وَلاَ أكْسَفُ بَالا ، وَلاَ أَنْكَدُ عَيْشَا وَلاَ أتْعَبُ قَلْبَا .

فَهُمَا مَحبَّتَانْ مَحبَّةُ هِي جَنّةُ الدّنْيَا ، وَسُرُورُ النَّفْسِ ، وَنَعِيْمُ الرُّوْحِ وغذاؤها ، وَدَوَاؤُهَا ، بَلْ هِيَ حَيَاتُها ، وَقرَّةُ عَيْنِهَا ، وَهِيَ مَحَبَّةُ اللّهِ وَحْدَه ، بِكُلِّ القَلْب ، وَانْجِذَابُ قُوى المَيْلِ ، وَالإرَادَةْ ، وَالمَحَبَّةِ كُلُّهَا إِلَيْهِ .

وَمَحَبّةٌ هِيَ عَذابُ الرُّوحِ وَغَمُّ النّفْسِ وَسِجْنُ الْقَلْبِ وَضِيْقُ الصّدْر وَهِيَ سَبَبُ الْألَمِ والنَّكَدِ وَالْعَنَاءِ ، وَهِيَ مَحَبَّةُ ما سِوَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ دَوَامِ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وفي كِلِّ مَوْطِنٍ فَلِلذِّكْر تَأْثِيْرٌ عَجِيْبٌ في إِنْشِرَاحِ الصَّدْرِ ، وَنَعِيْمِ الْقَلْبِ ، وَلِلْغَفْلَةِ تَأْثِيْرٌ عَجِيْبٌ في ضِيْقِه ، وَحَبْسِهِ ، وَعَذَابِه .

وَمِنْها الإِحْسَانُ إلى الخَلْقِ وَنَفعِهم، بِمَا يُمْكِنُهُ مِنَ المَالِ والجَاه ، والنّفْعِ بالبَدن ، وَأَنْواعِ الإِحْسَان ، فَإِنَّ الكَرِيْمَ المُحْسِنَ أشْرَحُ النَّاسِ صَدْرا ، وَأَطْيَبُهُمْ نَفْسَا ، وَأَنْعَمُهُمْ قَلْبَا ، والْبَخِيْلَ الّذِي لَيْس فِيْه إِحْسَان أَضْيَقُ النّاسِ صَدْراً وَأَنْكَدُهُمْ عَيْشَاً وَأَعْظَمُهُمْ هَمَّاً وَغَمَّا .

وقَدْ ضَرَبَ رَسولُ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم في الصّحِيْحِ مَثَلاً لِلْبَخِيل وَالمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلين عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيْد ، كُلَّمَاهَمَّ ، المُتَصَدِّق بِصَدَقَةٍ اتَّسعَتْ عَلَيْهِ وانبَسطَتْ ، حَتّى يَجُرَّ ثِيَابَهُ وَيَعْفِي أَثَرُهْ وَكُلَّمَا هَمَّ البَخِيْلُ بالصّدَقَةِ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْه .

فَهَذَا مَثَلُ انْشِرَاحِ صَدْرِ المُؤْمِنِ المُتَصّدق ، وَانْفِسَاحُ قَلْبِهِ ، وَمَثَلُ ضِيْقِ صَدْرِ البَخِيْل ، وانْحِصَارِ قَلْبِه .

وَمِنْها الشَّجَاعَة ، فَإِنَّ الشُّجَاع مُنْشَرِحُ الصَّدْر ، وَاسِعُ البطَان ، مُتَّسِعُ القَلْبِ ، والجَبَانُ ، أَضْيَقُ النّاسِ صَدْراً واحْصَرُهَم قَلْباً ، لاَ فَرْحَةَ وَلاَ سُرُورْ ، وَلاَ لَذّةَ ، وَلاَ نَعِيْمَ ، إلاّ مِنْ جِنْسِ الحَيَوَانِ البَهِيْم .

وَمِنْهَا اخْرَاجُ دَغَلِ القَلْبِ مِنَ الصِّفَاتِ المَذْمُومَة ، الّتِي تُوجِبُ ضِيْقه ، وَعَذَابَهُ ، وَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ البُرْء .

وَمِنْهَا تَرْكُ فُضُولِ النّظَرِ ، والْكَلامِ ، وَالاسْتِمَاعِ والمُخَالَطَةِ والأكْل والنّوْم ، فَانّ هَذِهِ الفُضُولَ تَسْتَحِيْلُ آلاماً وغُمُوماً وَهُمُوماً في القلبِ تَحْصُرُه ، وَتَحْبِسُه ، وَتُضَيِّقُه ، وَيَتَعَذّبُ بِها ، بَلْ غَالِبُ عَذَابِ الدّنْيا والآخِرةِ مِنْهَا .

فَلاَ إلَهَ إلاَّ اللّه ، مَا أَضْيَقَ صَدْرَ مَنْ ضَرِبَ في كُلِّ آفَةْ مِنْ هَذهِ الآفاتِ بِسَهْم ، وَمَا أَنْكَدَ عَيْشَه ، وَمَا أَسْوَءَ حَالَه ، وَمَا أَشَدَّ حَصْرَ قَلْبِهِ ، وَلاَ إلَهِ إلاّ اللّه مَا أَنْعَمَ عَيْشَ مَنْ ضَرِبَ في كُلِّ خَصْلَةٍ مِنْ تِلْكَ المَحْمُودَةُ بِسَهْم ، وَكَانَتْ هِمَّتُهُ دَائِرَة عَلَيْها حَائِمةً حَوْلَها .

فَلِهَذَا نَصِيْبٌ وَافِرٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالى (٨٢ : ١٣) ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيْم ﴾ وَلِذَلِكَ نَصْيبٌ وافِرٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ وإِنَّ الفُجّارَ لَفِي جَحِيْم ﴾ وَبَيْنَهُمَا مَرَاتِبُ مُتَفَاوِتَةٌ ، وَلاَ يُحْصِيْهَا إلاَّ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَى

والمَقْصُودُ انَّ النّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وسَلَّمْ أَكْمَلُ الخَلْقِ في كُلِّ صِفَةٍ يَحْصُل بِهَا انْشِرَاحُ الصّدْرِ ، واتّسِاعُ القَلْب وَقُرّةُ العَيْن ، وَحَياةُ الرُّوح فَهُو أَكْمَلُ الخَلْق في هَذا الشَّرْحِ والحَياةِ وَقُرَّةِ العَيْن .

شِـعْراً :

وَفي السُّقمِ وَالآفَاتِ أَعْظَمُ حِكْمَـةٍ
مُـيَـقِّـظَةٍ ذَا الـلُّبِّ عِـنْـدَ الـتَّـفَـقُّـدِ
يُنَادِي لِسَـانُ الحَـالِ جِـدُّوا لِتَـرْحَلُوا
عَنِ المَنْـزِلِ الغَثِّ الكَثِيْـرِ التَّنَـكُّـدِ
أَتَـاكَ نَـذِيْـرُ الشَّيْبِ بِالسُّقْمِ مُخْبِـراً
بِأَنَّـكَ تَتْلُو القَـومَ في اليَـومِ أَوْ غَـدِ
فَخُـذْ أُهْبَةً في الـزَّادِ فَالمَـوْتُ كَـائِنٌ
فَمَـا مِنْـهُ مِنْ مَنْجَـا وَلاَ عَنْـهُ مُنْـدَدِ
فَـمَـا دَارُكُـمْ هَـذِهِ بِـدَارِ اقَـامَـةٍ
وَلَـكِـنَّـهَـا دَارُ ابْـتِـلاً وَتَـزَوُّدِ
أَمَـا جَـاءَكُـمْ مِـنْ رَبِّـكـمْ وَتَـزَوَّدُوا
فَمَـا عُـذْرُ مَنْ وَافَـاهُ غَـيْـرَ مُـزَوَّدِ
وَمَـا هَـذِهِ الأَيَّـامُ الَّا مَـرَاحِـلٌ
تُقَـرِّبُ مِنْ دَارِ الـلِقَـا كُـلَّ مُبْـعَـدِ
وَمَنْ سَـارَ نَحْـوَ الـدَّارِ سِتِّيْنَ حِجَّـةً
فَقَـدْ حَـانَ مِنْـهُ المُلْتَقَىٰ وَكَـأَنْ قَـدِ
وَمَـا النَّـاسُ إِلَّا مِثْـلَ سَفْرٍ تَتَـابَعُوا
مُقِيْـمٌ لِتَـهْـوِيْمٍ عَـلى إِثْـرَ مُغْتَـدِي
وَمَنْ يَـكُ عِـزْرَائِيـلُ كَـافِـلَ رُوحِـهِ
فَـإِنْ فَاتَـهُ في اليَوْمِ لَمْ يَنْـجُ مِنْ غَدِ

وَمَنْ رُوحُـهُ في الجِسْم مِنْهُ وَدِيْعَـةٌ
فَهَيْهَـاتَ أَمْنٌ يُـرْتَـجَى مِـن مُـرَدَّدِ
فَمَـا حَقُّ ذِي لُـبٍّ يَبِيْتُ بِـلَيْـلَةٍ
بِـلا كَـتْبِ إِيْصَـاءٍ وَإِشْهَـادِ شُـهَّـدِ
وَوَاجِبٌ الإِيْصَـا عَلَى المَـرْءِ إِنْ يَكُنْ
عَـلَيْـهِ حُـقُـوقٌ واجِـبَـاتُ الـتَّـرَدُّدِ
وَلَا بَـأْسَ أَنْ يَخْبَا الفَتَى كَفَنـاً لَـهُ
لِـحِـلٍّ وَآثَـارِ الـرِّضَـى والـتَّـعَـبُّـدِ
فَبَادِرْ هُجُومَ المَـوْتِ في كَسْبِ مَا بِهِ
تَـفُـوزُ بِـهِ يَـوْمَ القِـيَـامَـةِ وَاجْهَـدِ
فَكَمْ غَـبْنُ مَـغْبُـونٍ بِنَعْـمَـةِ صِحَّـةٍ
وَنِعْـمَـةِ إِمْـكَـانِ اكْـتِـسَـابُ الـتَّـعَـبُّـدِ
فَنَفْسَـكَ فـاجْعَلْهَـا وَصِيَّـكَ مُكْثِـراً
لِسَفْـرَةِ يَـوْمِ الحَشْـرِ طِيْبَ الـتَّـزَوُّدِ
وَمِـثْـلُ وُرُودِ القَـبْـرِ مَهْـمَـا رَأَيْـتَـهُ
لِنَفْسِـكَ نَفَّـاعـاً فَـقَـدِّمْـهُ تَـسْـعَـدِ
فَمَـا نَفَـعَ الإِنْسَـانَ مِثْلُ اكْتِسَـابِـهِ
بِيَـومٍ يَفِـرُّ المَـرْءُ مِنْ كُـلِّ مَحْتَـدِ
كَـفَى زَاجِـراً لِـلْمَـرْءِ مَـوْتٌ مُحَـتَّمٌ
وَقَـبْـرٌ وَأَهْـوَالٌ تُشَـاهَـدُ فـي غَـدِ
وَنَـارٌ تَـلَظَّى أَوْعَـدَ اللَّهُ مَـنْ عَصَـى
فَمِنْ خَـارِجٍ بَـعْـدَ الشَّـقَـا وَمُخَلَّدِ

وَيُسْـأَلُ في القَبْـرِ الفَتى عَنْ نَبِيِّـهِ
وَعَـنْ رَبِّـهِ والـدِّيْنِ فِعْـلَ مُـهَـدِّدِ
فَمَنْ ثَبَّتَ اللّهُ اسْتَجَـابَ مُـوَحِّـداً
ومَنْ لم يُثَبَّتْ فَـهُـوَ غَـيْـرَ مُـوَحِّـدِ
وَتِلْكَ لَعَمْـرِي آخِـرُ الفِتَنِ الّتِي
مَتَى تَنْجُـو مِنْهَا فُـزْتَ فَـوْزَ مُخَلَّدِ
فَنَسْـأَلُـهُ التَّثْبِيْتَ دُنْيـاً وآخِـرَاً
وَخَـاتِـمَـةً تَقْضِي بِـفَـوْزٍ مُؤَبَّـدِ

اللَّهُمَّ الْهِمْنا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكْ وَوَفِّقْنَا لِطَاعَتِكَ وامْتِثَالِ أَمْرِكْ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين .

(فَصْـلٌ)
في الـحَـيَـاءُ

الْحَيَاءُ هُوَ انْقِبَاضُ النّفْسِ عَن القَبَائِح وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ النّفْسِ المَمدُوحَة لِأَنَّ اشْمِئْزَازَ النّفْسِ عَن القَبَائِح يَسْتلزِمُ تَرْكَها والإِنْصِرَاف عَنْهَا وَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ صِفَاتِ النّفْسِ وَأَجْلِها قَدْرا .

وَسُئِلَ بَعْضُهمْ عَنِ الحَيَاءِ فَقَال شَيءٌ يَتَوَلَّدُ بَيْنَ رُؤْيَةِ النَّعْمَآءِ وَرُؤْيَةِ التّقْصِيْرِ .

وَقَالَ الفُضَيْل : عَـلامَةُ الشَّقَـاوَةِ خَمْسَةٌ ، قِلّةُ الحَيَـاءِ ، وَقَسْوَةُ

القَلْب ، وَجُمُودُ العَيْن ، وَالرَّغْبَةُ في الدُّنْيَا ، وَطُولُ الأَمَل أهـ .

فالْحَيَاءُ خُلُقُ الكِرَامُ وَسِمَةُ أَهْلِ المُرُوْءَةِ والشَّرَفِ ، وَعُنْوَانُ الفَضْلِ والنُّبْلِ ، وَلَقَدْ صَدَقَ أَهْلُ اللُّغَة حَيْثُ قَالُوا الاسْتِحْيَاءُ مِنَ الحَيَاةِ ، واسْتِحْيَاءُ الرَّجُلِ مِنْ قُوَّةِ الحَيَاةِ فِيْه لِشِدَّةِ عِلْمِهِ بِمَوَاقِعِ العَيْبِ وَالذَّم .

والحَيَاءُ بَاعِثُهُ إِحْسَاسٌ رَقِيْقٌ ، وَشُعُورٌ دَقِيْقٌ ، يَبْدُو في العَيْن مَظْهَره وَعلى الوَجْهِ أَثَره ، وَمَنْ حُرِمَهُ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّه ، وَمَنْ تَحلَّى بِهِ ظَفِرَ بالْعِزَّةِ وَالكَرَامَةِ ، ونَالَ الخَيْرَ أَجْمَعْ وَهُوَ زِيْنَةُ النُّفُوسِ يَصُدُّهَا عَنْ فِعْلِ مَا يَشِيْنُها وَيَحْمِلُها عَلى التَّحَلِّي بِجَمِيْلِ الْخِصَالِ فَهُوَ أَبَداً لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ ، وَكَفَى خَيْراً أَنْ يَكُونَ عَلى الخَيْرِ دَلِيْلاً وَكَفَى بِضِدِّهِ البَذَاءِ أَنْ يَكُونَ عَلَى الشَّرِ دَلِيْلَا وَإِلَيْهِ سَبِيْلاً وَمِن الحِكَمِ قَوْلُهُمْ مَنْ كَسَاهُ الحَيَاءُ ثَوْبَه لَمْ يَرَى النَّاسُ عَيْبَه :

وَرُبَّ قَبِيْحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي
وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلَّا الحَيَاء

وَيقُولُ الآخَرُ :

وَعَقْلُ المَرْءِ أَحْسَنُ حِلْيَتَيْهِ
وَزِيْنُ المَرْءِ في الدُّنْيَا الحَيَاءُ

أَمَّا انْقِبَاضُ النَّفْسُ عَنِ الفَضَائِلِ فَلَا يُسَمَّى حَيَاءً بَلْ هُوَ خَورٌ وَجُبْنٌ فَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ عِنْدَ أَحَدِ العُظَمَاءِ مِنَ النَّاسِ الَّذِيْن يَتْرُكُونَ الصَّلَاةَ وَيَأْتُونَ المُنْكَرَاتِ ، أَوْ عِنْدَ مَنْ يَتْرُكُونَ صَلَاةَ الجَمَاعَةِ وَانْقَبَضَتْ نَفْسُهُ عَن فِعْلِ الْخَيْرِ وانبَسطَ مَعَهُمْ لِفِعْلِ الشَّرِ مُجَارَاةً وَمُطَايَبَةً لَهُمْ كَانَ فِعْله جُبْناً وَخَوراً وَمُدَاهَنةً وَنِفَاقَاً لا حَيَاءً وَمِثْلُ ذَلِك مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ

مِنْ مُجامَلَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً في سَماعِ المُنْكَراتِ وَرُؤْيَتِها وَسَماعِ الغِيْبَةِ وَنَحْوِها فَهَذا جُبْنٌ مذْمُومٌ كُلَّ الذَّمِ وَصاحِبُهُ شَرِيْكٌ في الإِثْمِ إِنْ لَمْ يُنكِرْ أَوْ يُفارِقْهُمْ .

وَالحَياءُ أَمارَةٌ صادِقَةٌ عَلَى طَبِيْعَةِ الإِنْسانِ فَهُوَ يَكْشِفُ عَنْ قِيْمَةِ إِيْمانِه وَمِقْدارِ أَدَبِهِ فَعِنْدَما تَرى الإِنْسانَ يَشْمَئِزُّ وَيَتَحَرّجُ مِنْ فِعْلِ ما لا يَنْبَغِي أَوْ تَرَى حُمْرَةَ الخَجَلِ في وَجْهِهِ صابِغَةً إِذا بَدَرَ مِنْهُ مالاَ يَلِيْق فَاعْلَمْ أَنَّهُ حَيُّ الضَّمِيْرِ نَقِيُّ المَعْدِنِ زَكِيُّ العُنْصُرِ وَإِذا رَأَيْتَ الرَّجُلَ لاَ يَكْتَرِثْ وَلاَ يُبالِي فِيْما يَبْدُرُ مِنْهُ فَهُوَ امْرُؤٌ لا خَيْرَ فِيْهِ وَلَيْسَ وَازِعٌ يَمْنَعُهُ مِنْ ارْتِكابِ الجَرائِمِ ، وَاقْتِرافِ الآثامِ الدَّنايا .

وَيَنْقَسِمُ الحَياءُ إِلى قِسْمَيْنِ حَياءٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَل لِما رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لأَصْحابِهِ « اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَياء قَالُوا إِنَّا نَسْتَحِي يا نَبِيَّ اللّهَ والْحَمْدُ لِلَّه .

قَالَ لَيْسَ كَذَلِكْ وَلَكِنْ مَن اسْتَحْيا مِنَ اللّهِ حَقَّ الحَياءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَما حَوى وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَما وَعَى ولْيَذْكُرِ المَوْتَ وَالْبِلَى وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِيْنَةَ الدُّنْيا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيا مِنَ اللّهِ حَقَّ الحَياء ، رَوَاهُ أَحْمَد والتِّرْمِذِي وَقالَ هَذا حَدِيْثٌ غَرِيْب .

وَالقِسْمُ الثَّانِي : الحَياءُ مِنَ النَّاسْ وَهُوَ بِقِسْمَيْهِ رَأْسُ الفَضائِلِ وَأَساسُ مَكارِمِ الأَخْلاَق لأَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ ما يَتَرَتَّبُ عَلَى العَدْلِ وَالعِفَّةِ وَلِذَا وَرَدَ عَنْ عِمْرانَ بْنِ حُصِيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ الحَياءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ مُتَّفَقٌ عَلَيْه وَفي رِوَايَةٍ لِمُسْلِم الحَياءُ خَيْرٌ

كُلُّهُ أَوْ قَال الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ .

وَعَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ مَرَّ عَلى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَار وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ في الحَيَاءِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دَعْهُ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيْمَانِ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَفي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالْ الإِيْمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهَ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذى عَنِ الطَّرِيْقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيْمَان مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَرَقَّ النَّاسِ طَبْعاً وَأَنْبَلَهُمْ سِيرَةً وَأَعْمَقَهُمْ شُعُوراً بالوَاجِبِ وَنُفُوراً عَن المَحَارِمْ .

فَعَنْ أَبِي سَعَيْدٍ الخُدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَشَدُّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ في خِدْرِهَا فَإِذَا رَأَى شَيْئاً يَكْرَهُهُ عَرِفْنَاهُ في وَجْهِهِ مُتَّفَقٌ عَلَيْه وَعَنْ زَيْد بْن طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِنَّ لِكُلِّ دِيْنٍ خُلُقًا وَخُلُقِ الإِسْلَامِ الحَيَاءُ رَوَاهُ مَالِكُ مُرْسَلاَ وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَة وَالبَيْهَقِيُ في شُعبِ الإِيْمَانِ عَنْ أَنَسٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ .

وَعَن ابْنِ عُمَرْ أَنّ النّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَال الحَيَاءُ والإِيْمانُ قُرَنَاءُ جَمِيْعاً فَاذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الآخَر وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسْ فَاذَا سُلِبَ أَحَدُهُمَا تَبعَهُ الآخَرُ رَوَاهُ البَيْهَقِي في شُعَبِ الإِيْمَان وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ قَال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِنَّا مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأَوْلَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِي فاصْنَعْ مَا شِئْتَ رَوَاهُ البُخَارِي .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنّ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قَالْ « الحَيَاءُ مِنَ الإِيْمَــانِ وَالإِيْمَانُ في الجَنَّة وَالبَذَاءُ مِنَ الجفَاء وَالجَفَاءُ في النّارِ ، رَوَاهُ أَحْمَد والتِّرمِذِي وَقَالَ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ الحَياءُ والعِيُّ مِنَ الإِيْمَانْ وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاق رَوَاهُ أَحْمَد وَالتِّرمِذي وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ الحَيَاءُ نِظَامُ الإِيْمَان .

هَذَا بَعْضُ مَا قَالَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في الحَيَاءِ وَهُوَ كَمَا تَرَى يَتَضَمَّنُ وَعْدَ مَنْ اتَّصَفَ بالحَيَاءِ بِالجَنَّةِ وَوَعِيْدَ مَن اتَّصَفَ بِضِدِّهِ مِنَ البَذَاءِ والجَفَاءِ بِالنَّارْ وَلاَ شَكَ في أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَجل الحِكَم وَأَفْضَلِ المَوَاعِظ فَمَا مِنْ أَحَدٍ يَسْتَمْسِكُ بالحَيَاءِ وَلاَ يَحِيْدُ عَنْه إلاَّ عَاشَ في دُنْيَاهُ عِيْشَةً سَعِيْدَةً حَمِيْدَةً رَاضِيَةً مَرْضِيّةً وَظَفِرَ في آخِرَتِهِ بالسَّعَادَةِ الدَّائِمَة إِذَا وَفَّقَهُ اللّهُ لِذَلِك .

وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الحَيَاءَ يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْن حَيَاء مِنَ النَّاسِ فَأَمَّا الحَيَاءُ مِنَ اللّه فَإِنّه يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ كُلَّ الفَضَائِلِ ، الَّتِي يَسْعَد بِهَا النَّاسُ في دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ فَإِنَّ الذي يَسْتَحِي مِنَ الله لاَ يَفْعَلُ المَعَاصِي بَلْ يَحْفَظَ جَوَارِحَهُ كُلَّهَا عَنْهَا وَلاَ يَتْرُكُ وَاجِباً مَا دَامَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ اللّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْه لاَ تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنَ أَمْرِه .

وَأَنّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَجْزِي المُحْسِنَ باحْسَانِه وَالمُسِيء بِاسَاءَتَه كَمَا قَالَ تَعَالى ﴿ لِيَجْزِيَ الْذِيْنَ أَسَاؤا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِيْنَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ وَأَنّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الّذِي خلَقَ الانْسَانَ وَسَوّاهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَأَنّهُ الّذِي أَمَدَّهُ بِنِعَمِه كَمَا قَالَ﴿ تَعَالى وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً

وَبَاطِنَة ﴾ وَقَالَ ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّه ﴾ وَقَال ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوها ﴾ .

وَأَنَّهُ الّذِي فَضَّلَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِه كَمَا قَالَ تَعَالى وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ في البرِّ وَالْبَحْرِ وَرزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَات وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيْرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيْلا وَأَنّهُ مَدِيْنٌ لِلّه في وُجُوْدِهِ وَبَقَائِه وَفَنَائِهِ وَبَعْثِهِ وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إلى اللَّهِ في جَمِيْعِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِه بَلْ مضطرٌ إليهِ ضَـرُوْرَةً مُسْتَمِرَّةً .

وَأَنَّهُ إِذَا فَكَّرَ في نَفْسِه وَأَدْرَكَ مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ دَقِيْقِ الصُّنْعِ وَبَدِيْعِ التّرْكِيْب كَمَا أَشَارَ إِلَيْـهِ قَوْلُهُ تَعَالَى وَفي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُون وَعَلِمَ أَنَّهُ لاَ يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً فَلاَ بُدَّ أَنْ يَسْتَحِي مِنْ عِصْيَانِ ذَلِكَ الخَالِقِ العَظِيْم الحَكِيْم وَلاَ بُدَّ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِه وَيَنْتَهِي عَمَّا نَهَاهُ عَنْهُ وَذَلِكَ هُوَ الخَيْرُ كُلُّهُ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في الحَدِيْثِ السّابِق .

وَهَذَا وَاضِح لأَنَّ الَّذِي يُطِيْعُ اللَّهَ فِيْمَا أَمَرَ يَقُومُ بِالْوَاجِبَاتِ ، وَيَمْتَنِعُ عَنِ المحَرَّمَاتِ فَلاَ يَظْلِمُ وَلاَ يَتَكَبَّرُ وَلاَ يُنَافِقُ وَلاَ يَكْذِبْ وَلاَ يُرَابِي وَلاَ يُرَائِي وَلاَ يَخُونْ وَيَتَجَنبُ جَمِيْعَ سَفْسَافِ الأُمُورِ ، وَيَعْمَلُ بِمَعَالِيَ الأَخْلاَقِ مِنَ العَدْلِ وَالتّوَاضُعِ وَالحِلْمِ والصِّدْقِ والصَّبْرِ وَالعِفّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهُوَ ذُو فَضْلٍ عَظِيْمٍ وَخَيْرٍ كَثِيْرٍ على نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهْ يَعِيْشُ في هَذِهِ الدُّنْيَا عِيْشَةً رَاضِيَةً وَيَحْيَا حَيَاةً هَنِيْئَةً طَيِّبَةً في الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيْم ﴾.

وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدُوسْ :

إِذَا قَـلَّ مَـاءُ الْـوَجْـهِ قَـلَّ حَـيَـاؤُهُ
وَلاَ خَـيْـرَ فـي وَجْـهٍ إِذَا قَـلَّ مَـاؤُهُ
حَـيَـاؤُكَ فَـاحْـفَظْ عَـلَيْـكَ فَـإِنَّـمَـا
يَـدُلُّ عَـلَى فِـعْـلِ الـكَـرِيْـمِ حَـيَـاؤُهُ

اللَّهُمَّ يَا جَامِعَ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيْهِ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الصِّدْقِ والنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ وَالإِخْلاَصِ والخُشُوْعِ وَالمُرَاقَبَةِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فَصْــلٌ)

وَأَمَّا الحَيَاءُ مِنَ النَّاسْ فَهُوَ قِسْمَانْ الأَوَّلِ أَنْ يَسْتَحي المرْءُ مِنَ النَّاسِ وَهُوَ جَازِمٌ بِأَنَّهُ لَا يَأْتِي هَذَا المُنْكَرَ وَلاَ يَفْعَلُ هَذِهِ الرَّذِيْلَةَ خَوْفاً مِنَ اللَّهِ تَعالَى وَحَياءً مِنْهُ أَيْضا وَلَوْ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَهَذَا هُوَ الحَازِمُ الَّذِي عَرفَ كَيْفَ يَسْتَفِيْدُ مِنْ صِفَةِ الحَيَاءِ ، وَيَأْخُذَ أَجْرَهَا كامِلاً لِأَنَّ الحَيَاءَ إِنَّمَا يُمْدَحُ مِنْ جَمِيْع جِهَاتِهِ إِذَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْكَفُّ عَن القَبَائِحِ الَّتِي لَا يَرْضَاهَا الدِّينُ الإِسْلَامِيّ في جَمِيْعِ الأَحْوَال .

وَرُوِيَ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِي أَتَى الجُمُعَةَ فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ انْصَرَفُوا فَتَنَكَّبَ الطَّرِيْقَ عَن النَّاسِ وَقَالْ لَا خَيْرَ فِيْمَنْ لَا يَسْتَحِي مِنَ النَّاسْ .

إِذَا لَمْ تَصُنْ عِـرْضَـاً وَلَمْ تَخْشَ خَـالِقَـا
وَتَسْتَحِي مَخْلُوقـاً فَمَـا شِئْتَ فَـاصْنَـعِ

وَيقَالُ خَمْسَةُ أَشْيَاءْ تَقْبُحُ في خَمْسَةِ أَصْنَافِ قِلَّةُ الحَيَاءِ في ذَوِي الاحْسَاب وَالْحِدَّةُ في السُّلْطانِ ، وَالبُخْلُ في ذَوِي الأَمْوَالِ ، وَالفُتُوَّة في الشّيُوخِ ، والْحِرْصُ في العُلَماءِ ، وَالقُرَّاءِ .

الثَّانِي : أَنْ يَتْرُكَ القَبِيْحَ حَياءً مِنَ النَّاسِ بَحِيْثُ لَوْ لَمْ يَطَّلِع عَلَيْهِ أَحَدُ لَفَعلهُ وهَذَا يَحْتَاجُ إلى عِلاَجٍ لأَنّه ما دَامَ عِنْدَهُ شَيءٌ مِنَ الحَيَاء وَهُوَ حَيَاؤُهُ مِنَ النّاسِ فَقَطْ فمَا دَامَ لاَ يَفْعَلُ القَبَائِحَ بَيْنَهُمْ فَإِنَّهُ يَسْهُلُ تَذْكِيْرُهُ بِعَظَمَةِ رَبّه وَجَلالِه وَأَنّه أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْه لأَنَّهُ القَادِرُ المطلِعُ الّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءِ وَيُبَيّنُ لَهُ أَنّهُ لاَ يَلِيْقُ بالمُؤْمِن أَنْ يَسْتَحِي مِنَ النَّاس وَلاَ يَسْتَحِي مِنَ اللّهْ وَلَيْسَ مِنَ العَقْلِ وَلاَ مِنَ المرُوْءَةِ أنْ يُضِيْعَ ثَواب تَرْكِ القَبِيْحِ بِانْصِرَافِهِ عَنْ مُلاَحَظَةِ خالِقِهِ وَمُرَاقَبَةِ رَبّهِ .

أَمَّا الَّذِي يُجَاهِرُ بالمَعَاصِي وَلاَ يَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ وَلاَ مِنَ النّاسِ فَهُوَ مِنْ شَرٍّ مَا مُنِيَتْ بِهِ الفَضِيْلَة لأَنّ المَعَاصِي دَاءٌ سَرِيْعُ الإنْتِقَالِ لاَ تَلْبَثُ أَنْ تَسْرِي إلى النُّفوسِ الضَّعِيْفَةِ فَيَعُمُّ شَرُّ مَعْصِيَةِ المُجَاهِرِ وَيَتَفَاقَمُ خَطْبُها وَيَصْعُبَ عِلاَجُها فَضْلاً عَمَّا في المُجَاهِرَةِ مِنْ إنْتِهَاكِ حُرْمَةِ الفَضِيْلَةِ وَالقَضَاءِ عَلَيْهَا فَشَرُّهُ عَلَى نَفْسِه وَعَلى النّاسِ عَظِيْمٌ وَخَطَرُهُ عَلى الفَضَائِلِ كَبِيْرٌ .

شِـعْراً :

إِذَا لَـمْ تَـخْشَ عَـاقِـبَـةَ الـلَّيَـالِـي
وَلَـمْ تَسْتَحِيي فَـاصْنَـعْ مَـا تَـشَـاءُ
فَـلاَ وَالـلَّهِ مَـا فـي الـعَـيْشِ خَـيْـرٌ
وَلاَ الـدُّنْـيَـا إِذَا ذَهَـبَ الْـحَـيَـاءُ

يَعِيْشُ الـمَــرْءُ مَــا اسْـتَـحْـيَــا بِـخَـيْــرٍ
وَيَـبْـقَـى الـعُــوْدُ مَــا بَــقِـيَ الْـحَـيَــاءُ

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَلَذَّذُونَ بِذِكْرِ فُسُوقِهِمْ وَمَعَـاصِيْهِمْ وَيَتَبَجَّحُونَ بِتَعْدادِ جَرائِمهِمْ وَجِنَايَاتِهِمْ فَيُذِيْعُونَ لِجُلَسَـائِهِمْ مَا سَتَـرَهُ اللّهُ عَلَيْهِمْ فَيُعرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعُقُوبَةِ الدُّنْيَا وَلِلْحِرْمَانِ مِنْ عَفْوِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَفِي هَؤُلاَءِ وَأَمْثَـالِهِمْ يَقُولُ صَلَّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمْ كُـلُّ أُمَّتِي مُعَـافِي إِلاَّ المُجَاهِرُون فَيَجِبُ أَنَّ لا يَتْرَكُوا أُولَئِكَ الّذِيْنَ يُجَاهِرُونَ بِارْتِكَابِ المُوبِقَات يَعِيْشُونَ بَيْنَهُمْ بَلْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَبْذِلَ مَجْهُوداً فِي رَدِّهِمْ عَنْ غَيِّهِمْ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيْعُ مِنَ النّصِيْحَةِ وَالإِرْشَادِ وَغَيْرِهَا .

وَخَيْرُ عِلاَجٍ لِلْقَضَاءِ عَلَى هَؤُلاَء مُقَاطَعَتُهِمْ وَعَدَمُ مُخَالَطَتِهِمْ وَعَدَمُ اجَابَةِ دَعْوَتِهِمْ والابْتِعَادُ عَنْهُمْ وَاحْتِقَارُهمْ فِي مَجَالِسِهِمْ والانْصِرَافُ عَنْ حَدِيْثِهِمْ إِنِ ابْتُلَى بِهِمْ حَتَّى يَرْجِعُوا عَنْ غَيِّهِمْ وَيَكُفُّوا عَن المُجَاهَرَةِ بِجَرَائِمِهِمْ .

وَمِنَ الأَسَفِ أَنَّ المُجَاهَرَةَ بِالمَعَاصِي قَدْ فَشَتْ فِي زَمَنِنَا بِدُونِ حَيَاءٍ مِنَ اللَّهِ وَلاَ مِنَ النَّاسِ فَلاَ شَابٌّ يَنْزَجِر وَلاَ شَيْخٌ يرْعَوِي وَلاَ رَجُلٌ تُدْرِكُهُ الغَيْرَةْ وَلاَ امْرَأَةٌ يَغْلِبُ عَلَيْهَا الْحَيَاءُ فَتَتَحفَّظُ وَتَتَسَتّر ، وَهَذَا مُؤَذِّنٌ بِعُقُوبَةٍ واللَّهُ أَعْلَمْ لِأَنَّ الأُمَمَ تَحْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً بالتَّمسُّكِ بالفَضَائِلِ ، وَتَعِيْشُ عِيْشَةً سَعِيْدَةً بِاجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ فَإِذَا انْتُهِكَتِ المَحَارِمُ ، وَغَلَبَتِ الشَّهَوَات ، وَضَاعَ الحَيَاءُفَمَاذَا يُرْتَجى بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ عَيْشٍ وَرَاءَهُ سَخَطُ اللّه وَعِقَابِه وَمَقْتِه وَعَذَابِهِ فَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ الاَّ باللّهِ العَلِيِّ العَظِيْم .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ الله إِنَّ الحَيَاءَ كَمَا عَلِمْتُمْ مِنَ الإِيْمَان وَإِنَّهُ لَا يَأْتِي إِلَّا بخَيْرٍ وَأَنَّهُ خُلق الإِسْلَام وَذَلِكَ أَنَّهُ يَجُرُّ إلى الكَمَالَات وَإِلى الفَضَائِل فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الحَيَاءِ حَقِيْقَةً فَليقتدِي بِهِمْ وَاليَتَشَبَّه بِهِمْ لأَنهُمْ خَاصَّةُ الفُضَلَاءُ .

فَذُو الحَيَاءِ الخُلُقِي يَمْنَعُهُ حَيَاؤُهُ مِنَ العُدْوَانِ عَلَى المَخْلُوقَاتِ ذُو الحَيَاءِ لَا تَبْدُرُ مِنْهُ بَادِرَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الفَضَائِلْ تَنَافي ذُو الحَيَاءِ لَا يُقْدِمُ عَلَى الزِّنَا بَلْ وَلَا عَلَى مُغَازَلَةِ النِّسَاءِ الَّتِي هِيَ مِفْتَاحُ الفُسُوق وَلَا يُقْدِمُ عَلَى مُعَامَلةٍ في الرِّبَا لِعِلْمِهِ أَنَّ مُتَعَاطِي الرِّبَى العَالِمَ بِتَحْرِيْمِهِ مُحَارِبٌ لِلّهِ وَرَسُولِه .

ذُو الحَيَاءِ لَا يَغُشُّ أَخَاهُ المُؤْمِنْ لِعِلْمِهِ بِتَحْرِيْم الغشِ وَأَنَّ مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا ذُو الحَيَاءِ لَا يَعْثُو في لُحُومِ الغَوَافِلِ ، ذُو الحَيَاءِ لَا يَنْقُلُ كَلَامَ مُؤْمِنٍ إلى أَخِيْهِ لِقَصْدِ الإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ ذُو الحَيَاءِ لَا يَعِقُّ وَالِدَيْهِ وَلَا يَقْطَعُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَلَا يَشْهَدُ بالـزُّوْرِ وَلَا يُؤْذِ جِيْرَانَهُ .

صَاحِبُ الحَيَاءِ يَبْتَعِدُ عَنْ أَكْلِ الحَرَامْ وَعَنْ المُجَاهَرَةِ بِالمَعَاصِي فَلَا يَحْلِقُ لِحْيَتَه لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنّهُ بِذَلِكَ عَاصٍ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهْ وَلَا يُخَنفِس وَلَا يَجْعَلُ تَوَالِيت لِعِلْمِهِ أَنْ ذَلِكَ تَشَبُّه بِالافْرَنْج وَلَا يَسْتَعْمِلْ المَلَاهِيَ بِأَنْوَاعِهَا مِنْ تَلِفِزْيُونٍ أَوْ سينَمَاءٍ أَوْ مِذْيَاع أَوْ كُرَةٍ أَوْ بكمٍ أَوْ عُودٍ أَوْ فِدْيُو أَو نحوِ ذَلِكَ مِنَ البِدَعِ المُحَرَّمَاتِ التِي حَدَثَتْ في زَمَنِنَا كالمذكورات.

صَاحِبُ الحَيَاءِ لَا يَشْرَبُ الدُّخَانَ أَوْ إِنْ بُلِيَ بِهِ فَلا يَشْرَبُهُ في

الأَسْوَاقِ وَمَجَامِعِ النّاسِ لِعِلْمِهِ أَنّهُ إذَا جَاهَرَ بِهِ في ذَلِكَ إزدَادَ إِثْمُهُ وَعَظُمَ جُرْمُهُ ذُوْ الحَيَاءِ لَا يَخْلُو بامْرَأةٍ لا مَحرَم مَعَهَا لَا في بَيْتٍ ولا في سَيَّارَةٍ ولا في أيِّ مَحلٍ لِعِلْمِهِ أنَّ خَلْوَةً بالأَجْنَبِيَّةِ مُحَرَّمٌ لِلأَحَادِيْثِ الواردةِ في ذَلِكَ .

صَاحِبُ الحَيَاءِ لا يَبِيْعُ وَيَشْتَرِي في صُوَرِ ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ مُجَسَّدَةً أَو غَيْرَ مُجَسَّدَةٍ ولا يَبِيْعُ آلاتِ اللَّهْوِ كَالتّلفِزْيُونِ والسيْنَما وَالمِذْيَاعْ لِعِلْمِهِ أَنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ وَأَنَّهُ بتَعَاطِيْهِ ذَلِك يَكُونُ مُعِيْناً عَلَى نَشْر المَعَاصِي في أَرْضِ اللَّهِ بَلْ وَلَا يُصلِّحُها لِأَنَّ ذَلِكَ مُسَاعَدَةٌ عَلى المَعَاصِي .

وَالأُجْرَةُ حَرَام الّتِي تَأْتِي مُقَابِلَ تَصْلِيْحِ آلَاتِ اللَّهْوِ وَالفُسُوقْ وَقِسْ عَلى ذَلِكَ بَاقِي المُحَرَّمَات فَصَاحِبُ الحَيَاءِ الخُلُقِيَ يَسْتَحِي مِنَ اللّهْ وَمن اسْتَحْيَا مِنَ اللّهْ لَمْ يُغْضِبْهُ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إذَا أَرَادَ اللّهُ أَنْ يُهلِكَ عَبْداً نَزَعَ مِنْهُ الحَيَاء فَإذا نَزَعَ مِنْهُ الحَيَاءَ لَمْ تُلْفِهِ إلَّا مَقِيْتاً مُمقّتاً فَإِذَا لَمْ تُلْفِهِ إلَّا مَقِيْتاً مُمَقَّتاً نُزِعَتْ مِنْهُ الأَمَانَةُ فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الأمانَة لَمْ تُلْفِهِ إلَّا خَائِناً مُخوَّناً فَإِذَا لَمْ تُلْفِهِ إلَّا خَائِناً مُخوَّناً نُزِعَتْ مِنْهُ الرّحمة فإذا نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَة لَمْ تُلْفِهِ إلَّا رَجِيْماً مُلَعَّناً نُزِعَتْ مِنْهُ رَبْقَةُ الإِسْلَام رواه ابْنُ مَاجه .

قَالَ العُلَمَاءُ عَلَى هَذَا الحَدِيْث ، وَهَذَا تَرْتِيْبٌ دَقِيْقٌ في وَصْفِهِ لأَمْرَاضِ النُّفُوسْ وَتَتَبُّعِهِ لِأَطْوَارِها وَكَيْفَ تُسَلّمُ كُلُّ مَرْحَلَةٍ خَبِيْثَةٍ إلى أخْرَى أَشَدَّ نَكْراً فَإِنَّ الرَّجُلِ إذَا مَزَّقَ جِلْبَابَ الحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ وَلَمْ يَتَهَيَّبْ عَلَى عَملِهِ حِسَابَا وَلَمْ يَخْشَ في سُلُوكِهِ لَوْمَةَ لَائِم مَدَّ يَدَ الأَذى لِلنَّاس

وَطَغَى عَلَى كُلِّ مَنْ يَقَعُ في سُلْطَانِهِ .

وَمِثْلُ هَذَا الشَّخْص الشَّرِسْ لَنْ تَجِدَ لَهُ قَلْباً يَعْطِفُ عَلَيْهِ بَلْ يَغْرِسُ الضَّغَائِنَ في القُلُوبِ وَيُنَمِّيْها وَأَيُّ شَخْص جَرِيءٌ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى النَّاسِ وَلَا يَرُدُّهُ عَنِ الآثام حَيَاءٌ فَاذَا صَارَ الشَّخْصُ بِهَذِهِ المثابَةِ لَمْ يُؤْتَمَنْ عَلَى شَيْءٍ قَطْ إِذْ كَيْفَ يُؤْتَمن عَلَى أَمْوَالٍ لَا يَخْجَلُ مِنْ أَكْلِهَا أَوْ عَلى أَعْرَاضٍ لَا يَسْتَحِي مِنْ فَضْحِها أَوْ عَلَى مَوْعِدٍ لَا يَهُمُّهُ أَنْ يُخْلِفَهْ أَوْ عَلَى وَاجِبٍ لَا يُبَالِي أَنْ يُفَرِّطَ فِيْهِ أَوْ عَلى بِضَاعَةٍ لَا يَتَنَزَّهُ عَنِ الغِشِّ فِيْها .

فَإِذَا فَقَدَ الشَّخْصُ حَيَاءَهُ وَفَقَدَ أَمَانَتَهُ أَصْبَحَ وَحْشِيَّاً كَاسِراً يَنْطَلِقُ مُعَرْبِداً وَرَاءَ شَهْوَاتِهِ وَيَدُوسُ في سَبِيْلِها أَزْكى العَواطِفْ فَهُوَ يَغْتَالُ أَمْوَالَ الفُقَراء غَيْرَ شَاعِرٍ نَحْوَهُمْ برِقَّةٍ وَيَنْظُرُ إِلى المَنْكُوبِيْنَ والمُسْتَضْعَفِينَ فَلا يَهْتَزُّ فُؤَادُهُ بِشَفقَةٍ فَهُوَ لا يَعْرِفُ إِلَّا مَا يُغوِيْهِ وَيُغْرِيْهِ بِالمَزِيْد .

وَيَوْمَ يَبْلُغُ امرُؤٌ هَذَا الحَضِيْضَ فَقَدْ أُفْلِتَ مِنْ قُيُودِ الدِّيْن وَانْخَلَعَ مِنْ رَبْقَةِ الإِسْلَام ، وَلِلْحَيَاءِ مَوَاضِعُ يُسْتَحَبُّ فِيْهَا فالحَيَاءُ في الكلام يَتَطَلَّبُ مِنَ المُسْلِمِ أَنْ يُطَهِّرَ فَمَهُ مِنَ الفُحْشِ وَأَنْ يُنَزِّهَ لِسَانَه عَنِ العَيْب وَأَنْ يَخْجَلَ مِنْ ذِكْرِ العَوْرَاتِ فَإِنَّ مِنْ سُوءِ الأَدَبِ أَنْ تُفْلِتَ الأَلْفَاظُ البَذِيْئَةُ مِنَ المَرء غَيْرَ عَابِىءٍ بِمَواقِعِهَا وَآثَارِهَا وَمِنَ الحَيَاء أَنْ يَقْتَصِدَ المُسْلِمُ في الكَلَامِ في تَحَدُّثِهِ في المَجَالِس انْتَهَى .

شِعْراً : هَذِهِ قَصِيْدَةٌ مَمْلُوءَةٌ حِكَماً رَائِعَةً لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا اللَّبِيْبُ :

أَحْسِنْ جَنَى الحَمْدِ تَغْنَمْ لَذَّةَ العُمُرِ
وَذَاكَ في بَاهِرِ الأَخْلَاقِ والسِّيَرِ

هَمُّ الفتَى المَاجِدِ الغِطْرِيْفِ مَكْرُمَةٌ
يَضُوْعُ نادِيْ المَلاَ مِنْ نَشْرِهَا العَطِرِ
وَحِلْيَةُ المَرْءِ في كَسْبِ المَحَامِدِ لاَ
في نَظْمِ عِقْدٍ مِنَ العِقْيَانِ والدُّرَرِ
تَكْسُوْ المَحَامِدُ وَجْهَ المَرْءِ بَهْجَتَهَا
كَمَا اكْتَسَى الزّهْرُ زَهْرَ الرَّوْضِ بالمَطَرِ
يُخَلِّدُ الذِّكْرُ حَمْداً طَابَ مَنْشَؤُهُ
وَلَيْسَ يَمْحُو المَزَايَا سَالِفُ العُصُرِ
تَمَيَّزَ النَّاسُ بالفَضْلِ المُبِيْنِ كَمَا
تَمَيَّزَوْا بَيْنَهُمْ في خِلْقَةِ الصُّوَرِ
بِقَدْرِ مَعْرِفَةِ الإِنْسَانِ قِيْمَتُهُ
وبالفَضَائِلِ كَانَ الفَرْقُ في البَشَرِ
ما الفَضْلُ في بَزَّةٍ تَزْهُو بِرَوْنَقِهَا
وَأَيُّ فَضْلٍ لاَ بْرِيْزٍ عَلَى مَدَرِ
وَإِنَّما الفَضْلُ في عِلْمٍ وَفي أَدَبٍ
وفي مَكَارِمَ تَجْلُو صِدْقَ مُفْتَخِرِ
فَلاَ تُسَاوِ بِأَخْلاَقٍ مُهَذَّبَةٍ
أَخْلاَقَ سُوءٍ أَتَتْ مِنْ سَارِحِ البَقَرِ
وَخُذْ بِمَنْهَجِ مَنْ يَعْصِي هَوَاهُ وَقَدْ
أَطَاعَ أَهْلَ الحِجَا في كُلِّ مُؤْتَمَرِ
إِنَّ الْهَوَى يُفْسِدُ العَقْلَ السَّلِيْمَ وَمَنْ
يَعْصِي الهَوَى عَاشَ في أَمْنٍ مِنَ الضَّرَرِ

وَجَاهِدِ النَّفْسَ في غَيٍّ يُلِمُّ بِها
كَيْلا تُماثِلَ نَذْلاً غَيْرَ مُعْتَبَرِ
وَفي مُعَاشَرَةِ الأَنْذَالِ مَنْقَصَةٌ
بِهَا يَعُمُّ الصَّدَا مِرْآةَ ذِي فِكَرِ
وَلَيْسَ يَبْلُغُ كُنْهَ المَجْدِ غَيْرُ فتىً
يَرَى اكْتِسَابَ المَعَالِيْ خَيْرَ مُتَّجَرِ
إِنَّ الكَرِيْمَ يَرَى حَمْلَ المَشَقَّةِ في
نَيْلِ العُلَى مِنْ لَذِيْذِ العَيْشِ فَاصْطَبِرِ
فَالصَّبْرُ عَوْنُ الفَتَى فِيْمَا تَجَشَّمَهُ
إِنَّ السِّيَادَةَ نَهْجٌ وَاضِحُ الوَعَرِ
وَأَفْضَلُ الصَّبْرِ صَبْرٌ عن مُهَيَّأَةٍ
مِنَ المَعَاصِي لِخَوْفِ اللّهِ فَازْدَجِرِ
وَاصْبِرْ عَلَى نَصَبِ الطَّاعَاتِ تُحْظَ بِمَا
أَمَّلْتَهُ مِنْ عَظِيْمِ الصَّفْحِ مُغْتَفَرِ
نَيْفٌ وَسَبْعُونَ مِنْ آيِ الكِتَابِ أَتَتْ
في الصَّبْرِ فاعْمَلْ بِهَا طُوْبَى لِمُصْطَبِرِ
وَعِشْ مُحَلًّا بِأَخْلَاقٍ مَحَاسِنُهَا
تُجْلَيْ عَلَى أَوْجُهِ الأَيَّامِ كَالْغُرَرِ
دِيْنٍ بِهِ عِصْمَةٌ مِنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ
وَكُلِّ مَا اسْطَعْتَ مِنْ بِرٍّ فَلَا تَذَرِ
إِنَّ العَفَافَ حِمىً لِلنَّسْلِ صُنْهُ بِهِ
إِذَا أَضَعْتَ الحِمَى يَرْعَاهُ كُلُّ جَرِي

قَـدْ قِيْـلَ عِفُّـوْا تَعُفَنَّ النِسَـاءُ وفي
مِثْقَـالِ خَيْـرٍ فَشَـرٌ أَوْضَـحُ الـنُـذُرِ
وَمِنْ جَمَالِ الفَتَى صِدْقُ العَفَافِ فَكُنْ
بِـهِ مُحَلَّىً خَـلِيْقـاً مُـنْتَهَى الـعُمُـرِ
وَالْـزَمْ فَـوَائِـدَ تَقْـوَى اللّهِ تَعْـلُ بِهَـا
إنِيّ سَـأُوْرِدُهَـا عَنْ مُحْكَمِ الـزُّبُـرِ
فَبِـالتُّقَى مَخْـرَجٌ مِنْ كُـلِّ حَـادِثَـةٍ
والحِفْظُ مِنْ صَوْلَةِ الأَعْـدَا مَعَ الـظَّفَرِ
وَالـرِّزْقُ في دَعَـةٍ بِـالْحِـلِّ مُقْتَـرِنٌ
وَحُسْنُ عَـاقِبَـةٍ في خَـيْـرِ مُـدَّخَـرِ
وَجَـاءَ نُـورٌ بِـهِ تَـمْشِي وَمَـغْـفِـرَةٌ
مِنَ الـذُّنُـوبِ وَمَنْجَـاةٌ مِنَ الـحَـذَرِ
بِـهِ البَشَـارَةُ في الـدُّنْيَـا وَضَـرَّتِهَـا
بِـهِ النَّجَـاةُ مِـنَ الأَهْـوالِ والشَّـرَرِ
وَرَحْـمَـةُ اللّهِ تَـغْشَـى المُـتّقِي وَلَـهُ
قَـبُـولُـه وَلَـهُ الإكْـرَامُ فـاعْـتَـبِـرِ
وَبِـالتُّقَى تَغْنَمِ الإصْـلاَحَ في عَمَـلٍ
وَتَـسْتَـفِيـدُ بِـهِ عِـلْمَـاً بِـلاَ سَـهَـرِ
وَنَـفْـعُ ذَلِـكَ لاَ يُحْـصَى لَـهُ عَـدَدٌ
وَنَصُّ ذَلِـكَ في آيِ الكِتَـابِ قُـرِي
وَخَيْـرُ مَـا يَقْتَنِي الإنْسَـانُ إنْ كَـرُمَتْ
أَخْـلاَقُـهُ واسْتَفَـادَتْ رِقَّـةُ السَّحَـرِ

وَمِنْ مَكَـارِمِهَـا عَشْـرٌ عَلَيْـكَ بِهَـا
فَـإِنّـهـا حِـكَـمٌ تُـرْوَى عَـنِ الأَثَـرِ
صِـدْقُ الحَدِيْثِ فَـلاَ تَعْـدِل بِـهِ خُلُقاً
تَبْلُغْ مِنَ المَجْـدِ أَبْهَى بَـاذِخِ السُّرُرِ
وَكُنْ خَلِيْقـاً بِصِدْقِ الْبَـأْسِ يَـوْمَ وَغًى
فَشَـرٌّ عَيْبِ الفَتَى بـالجُبْـنِ والْخَـوَرِ
أَجِبْ مُنَادِي العُلَى في خَوْضِ غَمْرَتِهَا
فـالعِزُّ تَحْتَ ظِـلاَلِ البِيْضِ والسُّمُرِ
بِـالصَّبْرِ يَكْتَسِبُ المِقْـدَامُ نُصْـرَتَـهُ
وَيُلْبِسُ الضِّـدَّ مِنْـهُ ثَـوْبَ مُنْـذَعِـرِ
وَلاَ يُـدَنّـِيْ لَـهُ الإِقْـدَامُ مِنْ أَجَـلٍ
يَكْفِي حِـرَاسَتَـهُ مُـسْتَـأْخِـرُ القَـدَرِ
واحْرِصْ عَلَى عَمَلِ المَعْرُوفِ مُجْتَهِداً
فَـإِنَّ ذَلِـكَ أَرْجَـى كُـلِّ مُـنْـتَـظَرِ
وَلَيْسَ مِنْ حَـالَـةٍ تَبْقَـى كَهَـيْئَتِـهَـا
فَـاغْنَمْ زَمَانَ الصَّفَـاءِ خَوْفـاً مِنَ الكَدَرِ
وَلاَ يَضِيْـعُ وإِنْ طَـالَ الـزَّمَـانُ بِـهِ
مَعْـرُوفُ مُسْتَبْصِـرٍ أُنْثَى أَوِ الـذَّكَـرِ
إِنْ لَمْ تُصَـادِفْ لَـهُ أَهْـلاً فَـأَنْتَ إِذا
كُنْ أَهْلَهُ واصْـطَنْعْـهُ غَيْـرَ مُقْتَصِـرِ
أَغِثْ بِـامْكَـانِـكَ المَلْهُـوفَ حَيْثُ أَتَى
بِـالكَسْرِ فَـاللَّهُ يَـرْعَى حَـالَ مُنْكَسِـرِ

وَكَـافِئَنَّ ذَوِي المَعْرُوفِ مَـا صَنَعُوا
إِنَّ الصَّنَـائِـعَ بِـالأَحْـرَارِ كَـالْمَـطَرِ
وَلَا تَكُنْ سَبِخَـاً لَـمْ يُجْـدِ مَـاطِـرُهُ
وَكُنْ كَـرَوْضٍ أَتَى بِـالـزُّهْـرِ وَالثَّمَـرِ
واذْكُـرْ صَنِيْعَةَ حُرٍ حَـازَ عَنْـكَ غِنَى
وَقَـدْ تَـقَـاضَيْتَـهُ في زِيِّ مُفْـتَـقِـرِ
وَاحْفَظْ ذِمَـام صَـدِيْقٍ كُنْتَ تَـأْلَـفُـهُ
وَذِمَـةَ الجَـارِ صُنَّهـا عَنِ يَـدِ الغِيْـرِ
وَصِـلْ أَخَـا رَحِمٍ تَكْسَبْ مَـوَدَّتَـهُ
وَفي الْخُـطُوبِ تَـرَاهُ خَيْـرَ مُنْتَصِـرِ
وَوَصْلُهُ قَـدْ يَجُـرُّ الْـوَصْلَ فِي عَقِبٍ
وَقَـدْ يُـزَادُ بِـهِ فِـي مُـدَّةِ الْـعُـمُـرِ
وَجُـدْ عَلَى سَـائِـلٍ وَافى بِـذِلَّتِـهِ
وَلَـوْ بِشَيءٍ قَلِيْـلِ النَّفْـعِ مُحْـتَقَـرِ
وَاحْفَظْ أَمَـانَـةَ مَنْ أَبْـدَى سَرِيْـرَتَـهُ
مَـالاً وَحَـالاً لِحُسْنِ الـظَّنِّ وَالنَّـظَرِ
وَاقِرِ الضُّيُوفَ وَكُـنْ عَبْـدَاً لِـخِـدْمَتِـهِمْ
وَهُشَّ بِشَّ وَلَا تَـسْـأَلْ عَن الـسَـفَـرِ
وَبَـادِرَنَّ إِلَـيْهِـمْ بِـالَّـذِي اقْتَـرَحُـوا
عَنْ طِيْبِ نَفْسٍ بِـلَا مَنٍّ وَلَا كَـدَرِ
وَخُضْ بِهِمْ في فُنُـونٍ يَـأْنَسُـون بِهـا
مِنْ كلِّ مَا طَابَ لِلْأَسْمَاعِ فِي السَّمَرِ

لِكُـلِّ قَـوْمٍ مَقَـامٌ في الخِـطَابِ فَـلاَ
تَجْعَـلْ مُحَـادَثَـةَ الأَعْـرَابِ كـالحَضَـرِ
وَاعْرِفْ حُقُوقَ ذَوِي الهَيْئَاتِ إِذْ وَرَدُوا
وَلِلصَّعَـالِيْـكِ فـاحْـذَرْ حَـالَـةَ الضَّجَـرِ
والْـزَمْ لَـدَى الأَكْـلِ آدَاباً سَـأُوْرِدُهَـا
تَعِشْ حَمِيْدَ المَسَاعِي عِنْدَ كُـلِّ سَـرِي
كُنْ أَنْتَ أَوَّلَ بَـادٍ بِـامْـتِـدَادِ يَـدٍ
إِلـى الـطَّعَـامِ وَسَـمِّ الـلَّهَ وَابْـتَـدِرِ
وَاشْـرَعْ بـأَصْفَى حَـدِيْثٍ في مُنَـاسَبَةٍ
بـالـزَّادِ أُنْسَـاً وَتَـرْغِيْبـاً بِـلاَ هَـذَرِ
لاَ تُـؤْثِـرَنَّ بِشَـيءٍ لَـذَّ مَـطْعَـمُـهُ
نَفْسَـاً وَلاَ وَلَـداً فـالضَّيْفُ فِيْـهِ حَـرِي
وَكُنْ إِذَا قـامَ كُـلُّ القَـوْمِ آخِـرَهُمْ
وَغُضَّ عَنْ مَـدِّ أَيْدِي القَـوْمِ بـالْبَصَرِ
وَمَنْ أَقَـامَـكَ أَهْـلاً لِلضِّيَـافَـةِ قُمْ
بِشُـكْـرِهِ واسْتَـزِدْ انْعَـامَ مُـقْـتَـدِرِ
وَرَأْسُ مَـا قَـدْ ذَكَـرْنَـاهُ الحَيَـاءُ فَكُنْ
مِنَ الحَيَـاءِ بِـأَوْفَى بَـاهِـرِ الـحِبَـرِ
لاَ دِيْنَ إِلاَّ لِمَـنْ كَـانَ الحَيَـاءُ لَـهُ
إِلْفَـاً قَـرِيْنـاً فَيَسْمُـوْ كُـلَّ مُسْتَتِـرِ
فاسْتَحْيِي مِنْ خَالِقٍ يَـرْعَاكَ في مَـلأٍ
وَفـي خَـلاَءٍ وَكُنْ مِـنْـهُ عَلَى حَـذَرِ

وَالعَـاقِلُ الشَّهْمُ مَنْ يَـأْبَى الرَّذَائِـلَ بلْ
يَخْتَـارُ مِنْ كُـلِّ شَيْءٍ أَطْيَبَ الْخَبَـرِ

بـالْعَقْلِ تُـدْرِكُ غَايَـاتِ الْكَمَـالِ كَمَا
بِـهِ تُـمَيِّـزُ بَيْـنَ الـنَّـفْـعِ والـضَّـررِ

لَـوْلاَهُ لَمْ نَعْـرِفَ اللَّهَ الكَـرِيْـمَ وَلاَ
نَمْتَـازُ يـومـاً عَنِ الأَنْعَـامِ فـي الفِـطَرِ

فــاسْتَعْمِـلِ العَقْـلَ في كُـلِّ الأُمُـوْرِ وَلاَ
تكُنْ كَحَـاطِبِ لَيْـلٍ أَعْمَشَ الْبَصَـرِ

دَلِيْـلُ عَقْـلِ الفَتَى بَـادِي مُـرُوْءَتِـهِ
فَمَنْ تَجَنَّبَهَـا فَـالْعَقْـلُ مِنْـهُ بـرِي

عَـارِي المُـرُوْءَةِ نِكْسٌ لاَ خَـلاَقَ لَـهُ
وَذُو المُـرُوْءَةِ مَحْبُـوبٌ لَـدَى البَشَـرِ

أَخُو المُرُوْءَةِ يَـأْبَى أَنْ يَرُدَّ ذَوِي الْ
آمَالِ مِنْ فَضْـلِهِ في حَـالِ مُنْكَسِـرِ

وَالْجُـودُ أَشْرَفُ مَـا تَسْمُوْ الـرِّجَالُ بِـهِ
وَقَــدْ يُنَـالُ بِـهِ مُسْتَجْـمَـعُ الفَخْـرِ

وبـالسِّخَـاءِ لِحِفْظِ النِّعْمَـةِ اعْتَمِـدُوا
يَـا حَبَّذَا عَمَـلٍ بـالْحِفْظِ صَارَ حَرِي

لاَ يَصْلُحُ الـدِّيْنُ إلاَّ بـالسَّخَـاءِ أَتَى
إِنَّ السَّخَـاءَ مِـنَ الإِيْمَـانُ فَـاعْتَبِـرِ

والْجُـوْدُ مِنْ شَجَرِ الجَنَّـاتِ فَاحْظَ بِـهِ
وَخُـذْ بِغُصْنٍ أَتَى مِنْ ذَلِكَ الشَّجَـرِ

يُحِبُّ مَـوْلَاكَ حُسْنَ الخُلُقِ مُقْتَـرِنـاً
بـالجُـودِ لَمْ يُبْقِيَـا لِلذَّنْبِ مِنْ أَثَـرِ
إِنَّ الـسَّخِيَّ حَبِـيْبٌ لِـلإِلَـهِ لَـهُ
قُـرْبٌ مِنَ اللَّهِ هَـذَا جَـاءَ في الخَبَرِ
ولا تَـرُحْ بِلَئِيْمٍ سَـرْحَ عَـارِضَـةٍ
تَـرِدْ بِـهِ في ظَمَـا مِنْ حَـافَـةِ النَّهَـرِ
وَلَا تَـغُـرَّنْـكَ مِنْـهُ طُـوْلُ مِكْنَتِـهِ
حَـلْفَـاءَ عَـارٍ بِـلَا ظِـلٍّ وَلَا ثَمَـرِ
بَذْلُ النَّفِيْسِ عَلَى نَفْسِ الخَسِيْسِ عَناً
فِعْلُ الْجَمِيْلِ لَـدَيْـهِ مُوْجِبَ الضَّـرَرِ
وَمَـنْ يَؤُمُّ لَئِيْمـاً عِـنْـدَ حَـاجَتِـهِ
يَعُضُّ كَفَّيْـهِ كَـالكُسْعِيِ وَسْطَ قَـرِي
وَاسْلُكْ سَبِيْـلَ كِـرَامٍ أَصْفِيَـاءَ مَضَـوا
بِكُـلِّ حَمْـدٍ عَلَى الآفَـاقِ مُنْتَشِـرِ
وَاحْـذَرْ طَبَـائِعَ أَهْـلِ اللُّؤْمِ إِنَّ لَهُمْ
ذَمّـاً يَـدُومُ عَلى الآصَـالِ وَالْبُكَـرِ
وَاغْـنَـمْ مَكَـارِمَ تُبْقِيْهَـا مُخَـلَّدَةً
في أَلْسُنِ النَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَـرِ
فَخَيْـرُ فِـعْـلِ الفَتَى فِـعْـلٌ يُبَـلِّغُـهُ
مِنَ المَحَـامِـدِ مَـا يَبْقَى عَلَى الأَثَـرِ
فـالمَرْءُ يَفْنَى وَيَبْقَى الـذِّكْـرُ مِنْ حَسَنٍ
وَمِنْ قَبِيْـحٍ فَخُـذْ مَـا شِئْتَـهُ وَذرِ

وَهَــذِهِ حِكَمٌ بِـالنُّصْـحِ كَـافِـلَةٌ
بـالنّقْلِ جَـاءَتْ وَعَنْ مَصْقُـولَـةِ الفِكَـرِ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فَصْــلٌ)

قالَ في مُخْتَصر مِنْهَاج القَاصِدِيْن : وَاعْلَمْ أَنَّا قَدْ ذَكَرْنَا جُمْلَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ على خَلقِهِ وَنِعْمَةُ الْبَدَنِ وَاحِدَةٌ مِنَ النّعِمِ الوَاقِعَةِ في الرُّتْبَةِ الثَّانِيَةِ فَلَو أَرْدنا أَنْ نَسْتَقْصِي الأَسْبَابَ التي بِهَا تَمَّتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ لَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا وَلَكِنْ الأكْلُ أَحَدُ أَسْبَابِ الصِّحَّةِ ، فَلْنَذْكُرْ شَيْئاً مِنَ الأَسْبَابِ الّتِي يَتِمُّ بِهَا الأَكْلُ عَلَى سَبِيْلِ التَّدْرِيْجِ لاَ عَلَى سَبِيْلِ الاسْتِقْصَاءِ .

فَنَقُولُ : مِنْ جُمْلَةِ نِعَمِ اللّهِ عَلَيْكَ أَنْ خَلَقَ لَكَ آلَةَ الإِحْسَاسِ وَآلَةَ الحَرَكَةِ في طَلبِ الغِذَاء فَانْظُرْ إِلى تَرْتِيْبِ حِكْمَةِ اللّهِ تَعَالى في الحَوَاسِ الخَمْسِ الّتِي هِيَ آلَةٌ لِلإِدْرَاكِ .

فَأَوَّلُها حَاسَةُ اللَّمْسِ وَهُوَ أَوَّلُ حِسٌّ يُخْلَــقُ لِلْحَيَوانِ وَأَنْقَصُ دَرَاجَاتِ الحِسِ أَنْ يُحِسَّ بِمَا يُلاَصِقُهُ فَإِنَّ الإِحْسَاسَ بِمَا يَبْعُدُ مِنْهُ أَتَمُّ لاَ مَحَالَةَ فَافْتَقَرْتَ إِلى حِسٍّ تُدْرِكُ بِهِ مَا بَعُدَ عَنْك فَخَلَقَ لَكَ الشَّمَ تُدْرِكُ بِهِ الرَّائِحَةَ مِنْ بُعْدٍ وَلَكِنْ لاَ تَدْرِي مِنْ أَيّ نَاحِيَةٍ جَاءَتِ الرَّائِحَةُ فَتَحْتَاجُ أَنْ تَطُوفَ أَيْ تَدُورَ كَثِيْراً ، حَتَّى تَعْثُرَ على الَّـذي شَمَمْتَ رَائِحَته وَرُبَّما لَمْ تَعْثُرْ عَلَيْهِ .

فَخَلَقَ لَكَ الْبَصَرْ لِتَدْرِكَ بِهِ مَا بَعُدَ عَنْكَ وَتُدْرِكَ جِهَتَهُ فَتَقْصُدُها

بِعَيْنِهَا إِلَّا أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَخْلُقْ لَكَ إِلَّا هَذَا لَكُنْتَ نَاقِصاً إِذ لَا تُدْرِك بِذَلِكَ مَا وَرَاءِ الجِدَارِ وَالحِجَابِ فَرُبَّمَا قَصدَكَ عَدُوٌّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَقَرُبَ مِنْكَ قَبْلَ أَنْ يَنْكَشِفَ الحِجَابُ فَتَعْجَزَ عَنِ الهَرَبِ فَخَلَق لَكَ السَّمْعَ حَتَّى تُدْرِك بِهِ الأَصْوَاتَ مِنَ الحُجُراتِ عِنْدَ جَرَيَاتِ الحَرَكَاتِ وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ حُسْنُ ذَوْق اذْ بِهِ تَعْلَمُ مَا يُوَافِقُكَ وَمَا يَضُرُّكَ بِخِلَاف الشَّجَرَةِ فَانَّهُ يُصَبُّ في أَصْلِها كُلُّ مَائِعٍ وَلَا ذَوْقَ لَهَا فَتَجْذِبُهُ وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ سَبَبِ جَفَافِهَا وَتَلافِهَا .

ثُمَّ أَكْرَمَكَ تَعَالى بِصِفَةٍ أُخْرَى هِيَ أَشْرَفُ مِنَ الكُلِ وَهُوَ العَقْلُ فَبِهِ تُدْرِكُ الأَطْعِمَةَ وَمَنْفَعَتَهَا وَمَا يَضُرُّ فِي المَالِ وَبِهِ تُدْرِكُ طَبْخَ الأَطْعِمَةِ وَتَأْلِيْفِهَا وَاعْدَادَ أَسْبَابِها فَتَنْتَفِعُ بِهِ في الأَكْلِ الّذِي هُوَ سَبَبُ صِحَّتِكَ وَهِيَ أَدْنى فَوَائِدِ العَقْلِ والحِكْمَةُ الكُبْرى فِيْهِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى .

وَمَا ذَكَرنا مِنَ الحَواسِّ الخَمْسِ الظَّاهِرَةِ فَهِيَ بَعْضُ الإِدْرَاكَات وَلَا تَظُنُّ أَنَّنَا اسْتَوْفَيْنَا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَإِنّ البَصَرَوَاحِدٌ مِنَ الحَوَاسِ والعَيْنُ آلَةٌ لَّهُ وَقَدْ رُكِّبَتْ العَيْنُ مِنْ عَشْرِ طَبَقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ بَعْضُهَا رُطُوبَاتٌ وَبَعْضُها أَغْشِيَةٌ مُخْتَلِفَةٌ .

وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّبَقَاتِ العَشْرِ صِفَةٌ وَصُورَةٌ وَشَكْلٌ وَهَيئَةٌ وَتَدْبِيْرٌ وَتَرْكِيْبٌ لَوْ اخْتَلَفتْ طَبَقَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْهَا أَوْ صِفَةٌ وَاحِدَةٌ لَا اخْتَلَّ البَصَرُ ، وَعَجِزَ عَنْهُ الأَطِبَّاءُ كُلُّهمْ فَهَذَا في حِسٍ وَاحِدٍ وَقِسْ حَاسَّةَ السَّمع وَسَائِرَ الحَوَاس وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَوْفى ذَلِكَ في مَجَلَّدات فكيف بجميع البدن .

ثـم انْظُرْ بعـد ذلـك في خَلْقِ الإِرَادَةِ والـقُـدْرَةَ وآلاتِ الحَرَكَة مِنْ أَصْنَافِ النِّعَمْ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ خَلَقَ لَكَ البَصَرَ حَتَّى تُدْرِكَ بِهِ

الطَّعَام وَلَمْ يَخْلُقْ لَكَ في الطَّبْع شَوْقاً إِلَيْه وَشَهْوَةً لَهُ تَسْتَحِثُّكَ على الحَرَكَة لَكَانَ البَصَرُ مُعَطَّلا فَكَمْ مِنْ مَرِيْضٍ يَرَى الطَّعَام وَهُوَ أَنْفَعُ الأَشْيَاءِ لَهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى تَنَاوُلَهُ لِعَدَمِ الشَّهْوَةِ لَهُ فَخَلَقَ اللَّهُ لَكَ شَهْوَةَ الطَّعامِ وَسَلَّطَهَا عَلَيْكَ كَالمتقَاضِي الذي يُضطَّرُ إِلى تَنَاوُلِ الغِذَاء .

ثُمَّ هَذِه الشَّهْوَةُ لَوْ لَمْ تَكُنْ عِنْد أَخْذِ مِقْدَارِ الحَـاجَةِ مِنَ الطَّعَامِ لأَسْرَفْتَ وَأَهْلَكْتَ نَفْسَكَ فَخَلَق لَكَ الكَرَاهة عِنْدَ الشِّبع لِتَتْرُكَ الأَكْل بِهَا ، وَكَذَلِكَ القُوَّةُ في الشَّهْوَة لِلْوَقاع لِحِكْمَةِ بَقَاءِ النَّسْلِ .

ثُمَّ خلَقَ لَكَ الأَعْضَاءَ التِي هِيَ آلَاتُ الحَرَكَةِ في تَناوُلِ الغِذَاء وَغَيْرِهِ مِنْهَا اليَدَان وَهُمَا مُشْتَمِلَتَانِ عَلَى مَفَاصِل كَثِيْرَةٍ لِتتحرَّكَ في الجِهَاتِ وَتَمْتَدَّ وَتَنْثَنِي وَلَا تَكُونُ كَخَشَبَةٍ مَنْصُوبَةٍ .

ثُمَّ جَعَلَ رَأْسَ اليَدِ عَرِيْضاً وَهُوَ الكَف وَقَسَّمَهُ خَمْسَةَ أَقْسَامٍ وَهِيَ الأَصَابعُ وَتُمدُّ الأَصَابعُ وَجعَلَهَا مُخْتَلِفَةً في الطُّولِ وَالقِصَرِ وَوَضَعَهَا في صَفَّيْنِ بِحَيْثُ يَكُونُ الإِبْهَامُ في جَانِبْ وَيَدُورُ عَلَى الأَصَابعِ البَوَاقِي وَلَوْ كَانَتْ مُجتَمِعَةً مُتَراكِمَةً لَمْ يَحْصُلْ تَمَامُ الغَرَضِ .

ثُمَّ خلَقَ لَهَا أَظْفَاراً وَأَسْنَدَ إِلَيْهَا رُؤُوسَ الأَصَابع لِتَقْوَى بِهَا وَلِتَلْتَقِطَ بِهَا الأَشْيَاءِ الدَّقِيْقَةِ التِيْ لَا تَحْوِيْهَا إِلَّا الأَصَابعُ ثُمَّ هَبْ انَّكَ أَخَذْتَ الطَّعَامَ بِالْيَدِ فَلَا يَكْفِيْكَ حَتَّى يَصِلَ إِلى بَاطِنَكَ فَجعَلَ لَكَ الفَمُ واللَّحْيَيْنِ خَلَقَهُمَا مِنْ عظْمَيْنِ وَرَكَّبَ فِيهِما الأَسْنَانَ وَقَسَّمَها بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيهِ الطَّعَامُ فَبَعْضُهَا قَوَاطِعُ كالرُّبَاعِيَّاتِ وَبَعْضُهَا يَصْلُحُ لِلْكَسْرِ كَأَنْيَابٍ وَبَعْضُهَا طَوَاحِنُ كَالأَضْرَاسِ .

وَجعَلَ اللِّحْيَ الأَسْفَلَ مُتحَرِّكاً حَرَكَةً دَوْرِيَّةً وَاللِّحْيَ الأَعْلَى ثَابِتاً لاَ يَتحَرَّكُ فَانْظُرْ إلى عَجِيْبِ صُنْعِ اللَّهِ تَعالَى الّذِيْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ وَأَنَّ كُلَّ رَحَىً صَنَعَهَا الخَلْقُ يَثْبُتُ مِنهَا الحَجَرُ الأَسْفَلُ وَيَدُورُ الأَعْلَى إِلَّا هذِهِ الرُّحَى الَّتِي هِيَ صُنْعُ اللهِ سبحانه وتعالى فإِنَّه يَدُوْرُ مِنْهَا الأَسْفَلُ عَلَى الأَعْلى إِذْ لَوْ دَارَ الأعْلَى خُوْطِرَ بِالأَعضَاءِ الشَّرِيْفَةِ الّتِيْ يَحْتَوِي عَلَيْهَا .

ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِخَلْقِ اللِّسَانْ فإِنَه يَطوفُ في جَوانِبِ الفَمِ وَيرُدُّ الطَّعَامَ مِنَ الْوَسَطْ إلى الأَسْنَانِ بِحَسَبِ الحَاجَةِ كَالْمِجْرَفَةِ الَّتِي تَرُدُّ الطَّعَامَ إِلى الرَّحَى هَذَا مَعَ مَا فِيْهِ مِنْ عَجَائِبِ قُوَّةِ النُّطْقِ ثُمَّ هَبْ أَنَّكَ قَطَعْتَ الطَّعَامَ وَعَجَنْتَهْ فَمَا تَقْدِرُ عَلَى الإِبْتِلاَعْ إِلَّا بِأَنْ يَتَزَلَّقَ إِلى الحَلْقِ بِنَوْعِ رُطُوْبَةٍ فَانْظُرْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى تَحْتَ اللِّسَانِ عَيْناً يَفِيْضُ مِنْهَا اللُّعابُ وَيَنْصَبُّ بِقَدْرِ الحَاجَةِ حَتَّى يَنْعَجِنَ بِهِ الطَّعَامُ .

ثُمَّ هَذَا الطَّعَامُ المَطْحُونُ المَعْجُونُ مَنْ يُوْصِلُهُ إِلى المَعِدَةَ وَهُوَ في الفَمِ فَإِنَّهُ لاَ يُمْكِنُ ايْصَالُه بِاليدِ فَهَيَّأَ لَكَ المَرِي والحُنْجرَةَ وَجعَلَ رَأْسَهَا طَبقَاتٍ يَنْفَتِحُ لِأَخْذِ الطَّعَامِ ثُمَّ يَنْطَبِقُ وَيَنْضَغِطُ حَتَّى يَقْلِبَ الطَّعَامَ فَيَهْوِي في دِهْلِيْزِ المَرِيءِ إلى المَعِدَةِ فَإِذَا وَرَدَ الطَّعَامُ إِلى المَعِدَةِ وَهُوَ خُبْزٌ وَفَاكِهَةٌ مُقَطَّعَةٌ فَلاَ يَصْلُح أَنْ يَصِيْرَ لَحْماً وَعَظْماً وَدَماً عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ حَتَّىْ يُطْبَخَ طَبْخاً تَمَاماً فَجعَلَ اللَّهُ المَعِدَةَ عَلَى هَيْئَةِ قِدْرٍ يَقَعُ فِيْهِ الطَّعَامِ فَتَحْتَوِي عَلَيْهِ وَتُغْلِقُ عَلَيْهِ الأَبْوَابُ وَيَنْضِجُ بِالحَرَارَةِ الّتِي تَتَعَدَّى إِلَيْهَا مِنَ الأَعْضَاءِ الأَرْبَعَةِ .

وَهِيَ الكَبِدُ مِنْ جَانِبِهَا الأَيْمَنِ وَالطِّحَالُ مِنْ جَانِبِهَا الأَيْسَرِ والثَّرْبُ مِنْ أَمَامِهَا وَلَحْمُ الصُّلْبِ مِنْ خَلْفِهَا فَيَنْضِجُ الطَّعَامُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَصِيْرُ مَائِعاً مُتَشَابِهاً يَصْلُحُ لِلنُّفُوذِ في تَجَاوِيْفِ العُرُوقِ ثُمَّ يَنْصَبُّ الطَّعَامُ مِنَ العُرُوقِ

إلى الكَبِدِ فَيَسْتَقِرُّ فِيهَا رَيْثَمَا يَصْلُحُ لَهُ نُضجُ آخرُ ثُمَّ يَتفَرَّقُ في الأَعْضَاءِ وَيَبْقَى مِنْهُ ثَفَلٌ ثُمَّ يَنْدَفِعِ .

فَانْظُرْ إلى نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْك لِتقْوى عَلى الشُّكْرِ فَإِنَّكَ لَا تَعْرِفُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالى إلاَّ نِعْمَةَ الأَكْلِ وَهِيَ أَبْسطُهَا ثُمَّ لَا تَعْرِفُهُ مِنهَا إلاَّ أَنَّكَ تَجُوعُ فَتأْكُلُ وَالبَهِيْمَةُ أَيْضاً تعرِفُ أَنَّها تَجُوعُ وَتأْكُلُ وَتَتْعَبُ فَتَنَامُ وَتَشْتَهِي فَتُجَامِعُ وَإِذَا لَمْ تَعْرِفْ أَنْتَ مِنْ نَفْسِك إلاَّ مَا يَعْرِفُ الحِمَارُ فَكَيْفَ تَقُومُ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى .

قال وَاعْلَمْ أَنَّ الأَطْعِمَةَ كَثِيْرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ وَلِلَّهِ تَعَالَى في خَلْقِهَا عَجَائِبُ لَا تُحْصَى وَهِيَ تَنْقسِمُ إلى أَغْذِيَةٍ وَأَدْوِيَةٍ وَفَوَاكِهَ وَغَيْرِهَا فَنَتَكَلَّمُ عَلى بَعْضِ الأَغْذِيَةِ فَنَقُولُ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ شَيءٌ مِنَ الحِنْطَةِ فَلَوْ أَكَلْتَهَا لَفَنِيَتْ وَبَقِيْتَ جَائِعاً فَمَا أَحْوجَكَ إلى عَمَلٍ يَنْمُو بِهِ حَبُّ الحِنْطَةِ وَيَتَضَاعَفُ حَتَّى يَفِي بِتَمَامِ حَاجَتِكَ وَهُوَ زَرْعُهَا وَهُوَ أَنْ تُجْعَلَ في أَرْضٍ فِيْهَا مَاءٌ يَمْتَزِجُ مَاؤُهَا فَيَصِيْرُ طِيْنَا .

ثُمَّ لَا يَكْفِي المَاءُ والتُّرَابُ إِذْ لَوْ تُرِكَتْ في أَرْضٍ نَدِيَّةٍ صَلْبَةٍ لَمْ تُنْبِتُ لِفَقْدِ الهَوَاءِ فَيَحْتَاجُ إلى تَرْكِهَا في أَرْضٍ مُتَخَلْخِلَةٍ يَتغَلْغَلُ الهَوَاءُ فِيْهَا ثُمَّ الهَوَاءُ لَا يَتحَرَّكُ إِلَيهَا بِنَفْسِهِ فَيَحْتَاجُ إِلى رِيْحٍ يُحَرِّكُ الهَوَاءَ وَيَصْرِفُهُ بِقَهْرٍ عَلَى الأَرْضِ حَتَّى يَنْفُذَ فِيْهَا ثُمَّ كُلُّ ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا يُغْنِي فَيَحْتَاجُ إلى حَرَارَةِ الرَّبِيْعِ والصَّيْفِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ في البَرْدِ المفْرِطِ لَمْ يَنْبُتْ .

ثُمَّ انْظُر إلى المَاءِ الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ هَذِهِ الزِّرَاعَةُ كَيْفَ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالى فَجَّرَ العُيونَ وَأَجْرَى مِنْهَا الأَنْهَارَ وَلَمَّا كَانَ بَعْضُ الأَرْضِ مُرْتَفِعًا لَا يَنالُهُ

المَاءُ أَرْسَل إِلَيْهِ الغُيومَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا الرِّيَاحَ لِتَسُوقَها بِإِذْنِهِ إلى أَقْطَارَ العَالَمِ وَهِيَ سُحُبٌ ثِقَالٌ ثُمَّ يَرْسِلُهُ عَلَى الأَرْضِ مِدرَاراً في وَقْتِ الحَاجَةِ .

وانْظُرْ كَيْفَ خلقَ اللّهُ الجِبَالَ حَافِظَةً لِلْمَاءِ تَتفَجَّرُ مِنْهَا العُيُونُ تَدْرِيْجَا ، فَلَوْ خرجَتْ دُفْعَةً وَاحِدَةً لَغرقَتِ البِلاَدَ وَهَلَكَ الزَّرْعُ وَغَيْرُهُ ، وَانْظُرْ كَيْفَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَخلقَهَا مَع بُعْدِها عَنِ الأَرْضِ مُسَخِّنَةً لَهَا في وَقْتٍ دُوْنَ وَقْتٍ ، لِيَحْصُلَ البَرْدُ عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالحَرُّ عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَخلَقَ الْقَمرَ وَجَعَلَ مِنْ خَاصِيَّتِهِ التَّرْطِيْبَ ، فَهُوَ يُنْضِجُ الفَوَاكِهَ بِتَقْدِيْرِ الحَكِيْمِ الخَبِيْرِ ، وَكُلُّ كَوْكَبٍ خُلِقَ فِي السَّمَاءِ فَهُوَ لِنَوْعٍ فَائِدَةٍ .

وَلَمَّا كَانَتْ كُلُّ الأَطْعِمَة لاَ تُوْجَدُ في كُلِّ مَكَانٍ ، سَخَّرَ اللّهُ تَعَالَى التُّجَّار وَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الحِرْصَ على جَمْعِ المَالِ مَعَ أَنَّهُ لاَ يُغْنِيْهِمْ في غَالِب الأَمْرِ شَيْءٌ بَلْ يَجْمَعُونَ الأَمْوَالَ فَإِمَّا أَنْ تَغْرِقَ بِهَا السُّفُنُ أَوْ تَنْتَهِبُهَا قُطَّاعُ الطَّرِيْقِ أَوْ يَمُوتُونَ في بَعْضِ البِلاَدِ فَتَأْخُذُهَا السَّلاَطِينُ وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِمْ أَنْ يَأْخُذُهَا وَرَثَتُهُمْ وَهُمْ أَشَدُّ أَعْدَائِهِمْ لَوْ عَرَفُوا .

فانْظُرْ كَيْفَ سَلَّطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ الأَمَلَ والغَفْلَةَ حَتَّى يُقَاسُوا الشَّدَائِدَ في طَلَبِ الرِّبْحِ في رُكُوبِ البِحَارِ وَرُكُوبِ الأَخْطَارِ فَيَحْمِلُونَ الأَطْعِمَةَ وَأَنْوَاعِ الحَوائِجِ مِنْ أَقْصَى الشَّرقِ الغَرْبِ إِلَيْكَ وَاللّهُ أَعْلَمْ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدْ .

(فَصْـــلٌ)

وَاعْلَمْ أَنَّ الخَلْقَ لَمْ يَقْصُرُوا عَنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ إِلَّا لِلْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ فَإِنَّهُمْ مُنِعُوا بِذَلِكَ عَنْ مَعْرِفَةِ النِّعَمِ وَلَا يُتَصَوَّرُ شُكْرُ النِّعْمَةِ بِدُونِ مَعْرِفَتِهَا ثُمَّ إِنْ عَرَفُوا نِعْمَةً ظَنُّوا أَنَّ الشُّكْرَ عَلَيْهَا أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ بِلِسَانِهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ لِلَّهِ وَلَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ مَعْنَى الشُّكْرِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ النِّعْمَةَ فِي اتْمَامِ الحِكَمِ الَّتِي أُرِيْدَتْ بِهَا وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعة رسولِهِ صلى الله عليه وسلم .

أَمَّا الغَفْلَةُ عَنِ النِّعَمِ فَلَها أَسْبَابٌ · أَحَدُها أَنَّ النَّاسَ لِجَهْلِهِمْ لَا يَعُدُّونَ ما يَعُمُّ الخَلْقَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ نِعْمَةً فَلِذَلِكَ لَا يَشْكُرُونَ عَلى جُمْلَةِ مَا ذُكِرَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي تَفْضَّلَ بِهَا عَلَى خَلْقِه لأَنَّهَا عَامَّةٌ لِلْخَلْقِ مَبْذُولَةٌ لَهُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوالِهِمْ فَلَا يَرَى مِنْهُمْ اخْتِصَاصاً بِهِ فَلَا يَعُدَّهُ نِعْمَة .

وَلِذَلِكَ لَا تَجِدُهُمْ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى رَوْحِ الْهَوا وَلَوْ أَخذَ بِمَخْنَقِهِمْ لَحْظَةً حَتَّى أَنْقَطَعَ الهَوَاءُ عَنْهُمْ مَاتُوا وَلَو حُبِسُوا فِي بِئْرٍ أَوْ حَمَّامٍ مَاتُوا غَمَّاً فَإِنْ أُبْتَلى أَحَدُهُمْ بِشَيءٍ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ نَجا قَدَّر ذَلِكَ نِعْمَةً يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَيْهَا .

وَهَذَا غَايَةُ الجَهْلِ إِذْ صَارَ شُكْرُهُمْ مَوْقُوفاً على أَنْ تُسْلَب عَنْهُمُ النِّعْمَةُ ثُمَّ تُرَدُّ إِلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الأَحْوال فَالنِّعَمُ فِي جَمِيعِ الأَحْوَال أَوْلَى بالشُّكْرِ فَلَا تَرى البَصِيْرَ يَشْكُرُ نِعْمَةَ البَصَرِ وَصِحَّته إِلَّا أَنْ يَعْمَى فَإِذَا أُعِيْدَ بَصَرُهُ أَحسَّ بالنِّعْمَةِ وشَكَرَهَا وَعدَّهَا نِعْمَةً وَهُوَ مِثْلُ عَبْدِ السُّوءِ يُضْرَبُ دَائِماً

فَإِذَا تُرِكَ ضَرْبُهُ سَاعَةً شَكَرَ وَتَقَلَّدَ ذَلِكَ مِنْه وَإِنْ تُرِكَ ضَرْبُهُ أَصْلا غَلَبَهُ البَطَرْ وَتَرَكَ الشُّكْرَ فَصَارَ النَاسُ لا يَشْكُرُوْنَ إِلَّا المَالَ الذِيْ يَتَطَرَّقُ الاخْتِصَاصُ إِلَيهِ مِن حيْثُ الكَثْرَةِ والقِلَّةِ وَيَنْسَوْنَ جَمِيْعَ نِعَمِ اللهِ عَليهم .

كَمَا رُوِيَ أَنَّ بَعْضَهُم شَكَا فَقْرَهُ إِلى بَعْضِ أَرْبَابِ البَصِيْرَةِ وَأَظْهَرَ شِدَّةَ اغْتِمَامِهِ بِذَلِكَ فَقَالَ لَهُ أَيَسُرُّكَ أَنَكَ أَعْمَى وَلَكَ عَشْرَةَ آلافِ دِرْهَمٍ قال لَا قَالَ أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ أَخْرَسَ وَلَكَ عَشَرَةُ آلافٍ قَالَ لا قَالَ أَيَسُرُّكَ أنكَ أَقْطَعَ اليَدَيْنِ والرِّجْلَيْنِ وَلَكَ عِشْرُوْنَ ألفاً قَالَ لَا قَالَ أَيَسُرَّكَ أَنَّكَ مَجْنُوْنٌ وَلَكَ عَشَرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ قَالَ لَا قَالَ أَمَا تَسْتَحِيْ أَنْ تَشْكُوْ مَوْلَاكَ وَلَهُ عِنْدَكَ عُرُوْضٌ بِخَمْسِيْنَ أَلْفَا .

وَدَخَلَ ابنُ السِمَاكِ عَلَى الرَّشِيْدِ فِي عِظَةٍ فَبَكَى وَدَعَا بِمَاءٍ فِي قَدَحٍ فَقَالَ يَا أَميرَ المُؤْمِنِيْنَ لو مُنِعْتَ هَذِهِ الشَّرْبَةَ إِلَّا بالدُنْيَا وما فَيْهَا أَكُنْتَ تَفْدِيْهَا قَالَ نَعَمْ قَالَ فاشْرَبْ رَياً بَارَكَ اللهُ فِيْكَ فَلَمَا شَرِبَ قَالَ لَهُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ .

أَرَأَيْتَ لَوْ مُنِعْتَ اخْرَاجَ هَذِهِ الشُّرْبَةَ مِنْكَ إلا بالدُنْيَا وَمَا فِيْهَا أَكُنْتَ تَفْتَدِيْ ذَلِكَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَمَا تَصْنَعُ بِشَيْءٍ شَرْبَةُ مَاءٍ خَيْرٌ مِنْهُ وَهَذَا يُبينُ أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ تَعَالَى عَلَى العَبْدِ فِي شَرْبَةٍ عِنْدَ العَطَشِ أَعْظَمُ مِن مُلْكِ الأَرْضِ ثُمَّ تَسْهِيْلُ خُرُوْجِ الحَدَثِ مِن أَعْظَم النِّعَمِ ، وَهَذِهِ إِشَارَةٌ وَجِيْزَةٌ إِلَى النِعَمِ الخَاصة.

ثم اعْلَمْ أَنَّه مَا مِن عَبْدٍ إِلا إِذا أَمْعَنَ النَّظَرَ رَأَى عَلَيْهِ مِن نِعَمِ اللهِ نِعَماً كَثِيْرَةً لا يُشَارِكُهُ فِيْهَا عُمُومُ الناسِ بَلْ قَدْ يُشارِكُهُ فِي ذَلِكَ يَسِيْرٌ مِنهم

مِن ذَلِكَ العَقْلُ فَمَا مِن عَبْدٍ إلا وَهُوَ رَاضٍ عن اللهِ سُبْحَانَهُ في عَقْلِهِ يَعْتَقِدُ أنَّهُ أَعْقَلَ الناسِ وَقَلَّمَا يَسْأَلَ اللهَ العقلَ وإذا كانَ ذلكَ اعْتِقَادُهُ فَيَجِبُ عليهِ أن يَشْكُرَ اللهَ تعالى على ذلكَ .

وَمِن ذَلِكَ الخَلْقُ فإنَّهُ مَا مِن عَبْدٍ إلا وَيَرَى مِن غَيْرِهِ عُيُوْبَاً يَكْرَهُهَا وَأَخْلاَقَاً يَذُمُّهَا وَيَرَى نَفْسَهُ بَرِيْئاً مِنْهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يَشْكرُ اللّهَ عَلَى ذَلِك حَيْثُ أحْسَنَ خُلُقَهُ وابْتَلَى غَيْرَهُ .

شِعْرَاً :

إِلَهِي لَـكَ الْحَمْدُ الَّـذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
عَلَى نِعَمٍ مِنْهَــا الْهِـدَايَــةُ لِلْحَمْـدِ
صَحِيْحَـاً خَلَقْتَ الْجِسْمَ مِنِّي مُسَلَّمَا
وَلُطْفُكَ بِي مَا زَالَ مُـذْ كُنْتُ في الْمَهْدِ
وَكُنْتُ يَتِيْمَـاً قَـدْ أَحَـاطَ بِيَ الـرَّدَى
فَأَوَيْتَ وَاسْتَنْقَذْتَ مِنْ كُـلِّ مَا يُرْدِي
وَهَبْتَ لِيَ الْعَقْــلَ الّـذِي بِضِيَـائِـهِ
إلى كُلِّ خَيْرٍ يَهْتَـدِي طَالِبُ الـرُّشْدِ
وَوَفَّقْتَ لِــلْاسْــلَامِ قَلْبِي وَمَنْــطِقِي
فَيَـا نِعْمَةً قَـدْ جَلَّ مَـوْقِعُهَـا عِنْـدِي
وَلَو رُمْتُ جُهْدِي أَنْ أُجَازِي فَضِيلَةً
فَضَلْتَ بِهَا لَمْ يَجُزْ أَطْرَافَها جُهْدِي
أَلَسْتَ الَّـذِي أَرْجُو حَنَـانَك عِنْـدَمـا
يُخَلِّفونِ الأَهْلُونَ وَحْدِي فِي لَحْدِي

فَجُدْ لِي بِلُطْفٍ مِنْكَ يَهْدِي سَرِيْرَتِي
وَقَلْبِي وَيُـدْنِيْنِي إِلَيْـكَ بِـلاَ بُعْـدِ

وَمِنْ ذِلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَهُوَ يَعْرِفُ مِنْ بَوَاطِنِ أُمُورِ نَفْسِهِ وَخَفَايَا أَرْكَانِهَا مَا هُوَ مُنْفردٌ بِهِ وَلَوْ كَشَفَ الغِطَاءَ عَنْهُ حَتَّى اطْلَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ لاَ افْتَضَحَ فَكَيْفَ لَوْ اطْلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ كَافَّةً فَلِمَ لاَ يَشْكُرِ اللَّهَ عَلَى سِتْرِ مَسَاوِيْهِ حَيْثُ أَظْهَرَ الجَمِيْلَ وَسَتَرَ الْقَبِيْح .

وَأَيْضاً مَا مِنْ عَبْدٍ إِلاَّ وَقَدْ رَزَقَهُ اللَّهُ فِي صُوْرَتِهِ وَأَخْلاَقِهِ أَوْ صِفَاتِهِ أَو جَاهِهِ أَوْ أَهْلِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَو مَسْكَنِهِ أَو بَلَدِهِ أَو سَائِرِ مَحَابِّهِ أُمُوراً لَوْ سُلِبَ ذَلِكَ مِنْهُ وَأَعْطَى مَا خُصِّصَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ غَيْرَهُ لَكَانَ لاَ يَرْضَى وَذَلِكَ مِثْلُ أَنَّ اللهَ جَعَلَهُ مُؤْمِناً لاَ كَافِراً وَحَيًّا لاَ مَيِّتاً وَإِنْسَاناً لاَ بَهِيْمَةً وَذَكَراً لاَ أُنْثَى وَصَحِيْحاً لاَ مَرِيْضاً وَعاقِلاً لاَ مَجْنُوناً وَسَلِيْماً لاَ مَعِيْباً فَإِنَّ هَذِهِ خَصَائِصُ فَعَلَيْهِ أَنْ يُشْكَرَ اللهَ جَلَّ وَعلاَ في كُلِ سَاعَةٍ وَلاَ يَغْفَلْ .

شِعْراً :

تَبَـارَكَ مَنْ لاَ يَعْلَمُ الْغَيْـبَ غَيْـرُهُ
وَمَنْ لَمْ يَـزَلْ يُثْنَى عَلَيْـهِ وَيُـذْكَـرُ
عَلاَ فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَى فَوْقَ عَرْشِهِ
إِلى خَلْقِـهِ في البَـرِّ وَالْبَحْـرِ يَنْظُرُ
سَمِيْـعٌ بَـصِيْـرٌ قَـادِرٌ وَمُـدَبِّـرٌ
وَمَـنْ دُوْنَـهُ عَبْـدٌ ذَلِـيْـلٌ مُـدَبَّـرُ
يَـدَاهُ لَنَـا مَبْسُـوطَتَـانِ كِـلاَهُمَـا
يَسِحَّـانِ وَالأَيْـدِي مِنَ الْخَلْقِ تَقْتُـرُ

وَإِنْ فِيْـهِ فَكَّرْنَـا اسْتَحَـالَتْ عُقُـولُنَـا
وَأُبْنَا حَيَـارَى واضْمَحَـلَّ التَّفَكُّـرُ
وَإِنْ نَقَّـرَ الْمَخْلُوْقُ عَنْ عِلْمَ ذَاتِـهِ
وَعَنْ كَيْفَ كَـانَ الأَمْـرُ تَـاهَ الْمُنَقِّرُ
وَلَوْ وَصَفَ النَّاسُ الْبَعُـوْضَةَ وَحْـدَهَا
بِعِلْمِهِمُـوْا لَمْ يُحْكِمُـوْهَـا وَقَصَّـرُوْا
فَكَيْفَ بِمَنْ لاَ يَقْـدِرُ الخَلْقُ قَـدْرَهُ
وَمَـنْ هُـوَ لاَ يَفْـنَـى وَلاَ يَـتَـغَـيَّـرُ

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِنَا سَبِيْلَ عِبَادِكَ الأَبْرَارِ وَوَفِّقْنَا لِلتَّوْبَـةِ والأَسْتِغْفَارِ وَاحْطُطْ عَنَّا ثِقَلَ الأَوْزَارِ وآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النّارِ يَا عَزِيْزُ يَا غَفَّارُ واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فصل)

وَقَالَ في كِتَابِ التَّوْحِيْدِ المُسَمَّى الأدِلَّةُ على الحِكْمَةِ والتَّدْبِيْرِ : تَأَمَّلْ هَذِهِ القُوَى التِيْ في النَّفْسِ وَمَوْقِعَهَا في الأنْسَانِ أَعْنِي الفِكْرَ والوَهْمَ والعَقْلَ والحِفْظَ وغَيْرَ ذَلِكَ أفرَأَيْتَ لَوْ نُقِصَ الإِنْسَانُ مِن هَذِهِ الحِفظَ وَحْدَهُ كَيْفَ تَكونُ حَالُهُ وَكَمْ مِن خَلَلٍ يَدْخُلُ عَلَيْهِ في أُمُورِهِ وَمَعَاشِهِ وتِجَارَتِهِ إِذَا لَمْ يَحفَظْ مَالَهُ وما عَلَيْهِ وَمَا أَخَذَهُ وَمَا أَعْطَى وَمَا رَأى وَمَا سَمِعَ وَمَا قَالَ وَمَا قِيْلَ لَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ مِمَّنْ أَسَاءَ بِهِ وما نَفَعَهُ مِمَّا ضَرَّهُ ثُمَّ كَانَ لاَ يَهْتَدِي لِطَرِيْقٍ لَوْ سَلَكَهُ مَالاَ يُحْصَى وَلاَ يَحفَظُ عِلْماً وَلَوْ

دَرَسَهُ عُمُرَهُ ولا يَعْتَقِدُ دِيْناً ولا يَنْتَفِعُ بِتَجْرِبَةٍ ولا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَعْتَبِرَ شَيْئاً عَلَى مَا مَضَى بَلْ كَانَ حَقِيْقاً خَلِيْقاً أَنْ يَنْسَلِخَ مِن الأنسانيَّةِ فانْظُرْ إِلَى الأنسانِ في هَذِهِ الخِلاَلِ وكَيْفَ مَوْقِعَ الوَاحِدَةِ مِنْهَا دُوْنَ الجَمِيْعِ .

وَأَعْظَمُ مِن النِّعْمَةِ عَلَى الأنسَانِ في الحِفْظِ النِّعْمَةِ في النِسْيَانِ فَلَوْلاَهُ لَمَا سَلاَ أَحَدٌ عَنْ مُصِيْبَةٍ وَلاَ تَقَضَّتْ لَهُ حَسْرَةٌ وَلاَ مَاتَ لَهُ حِقْدٌ ولاَ اسْتَمتَعَ بِشَيْءٍ مِن مَتَاعِ الدُنْيَا مَعَ تَذَكُّرِ الآفاتِ وَلاَ رَجَا غَفْلَةً مِنْ سُلْطَانٍ وَلاَ فَتْرَةً مِن حَاسِدٍ أَفَلاَ تَرَى كَيْفَ جُعِلَ في الأنسانِ الحِفْظُ والنِسْيَانُ وهُمَا مُخْتَلِفَانِ مَتضادَّانِ وَجُعِلَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا قِسْماً مِنَ المَصْلَحَةِ .

ثمَّ انْظُرْ إلى مَا خُصَّ بِهِ الأنْسَانُ دُوْنَ جَمِيْعِ الحيـوانِ مِن هَذَا الخُلُقِ الجَلِيْلِ قَدْرُهُ العَظِيْمِ غِنَاؤُهُ أعْنى الحَيَاءَ فَلَوْلاَ هَذَا الحَيَاءُ الذي خَصَّ اللهُ بِهِ الأنْسَانَ لَمْ يَقرِ ضَيْفاً وَلَمْ يُوْفِ بالعِدَّةِ وَلَمْ تُقْضَ الحَوائِجُ وَلَمْ يُنْجزِ الجمِيْلُ وَلَمْ يُنْكَبِ القَبِيْحُ في شَيْءٍ مِنْ الأشْيَاءِ حَتَّى إِنَّ كَثِيْراً مِنْ الأمورِ المَفرُوْضَةِ أَيْضاً إِنَّمَا تُفْعَلُ لِلْحَيَاءِ فَإِنَّ مِنَ الناسِ مَنْ لَولاَ الحَيَاءُ لَمْ يَرْعَ حَقَّ وَالِدَيْهِ وَلَمْ يَصِلْ ذَا رَحِمٍ وَلَمْ يُؤَدِّ أَمَانَةً وَلَمْ يَعِفَّ عَنْ فَاحِشَةٍ أَفَلاَ تَرَى كَيْفَ وُفِيَ الأنْسَانُ جَمِيْعَ الخِلاَلِ الَّتِي فِيْهَا صَلاَحُهُ وَتَمامُ أَمْرِهِ .

وَتَأَمَّلْ مَا أَنْعَمَ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ عَلَى الأنسَانِ بِهِ مِن هَذَا المَنْطِقِ الذي يُعَبِرُ بِهِ عَمَّا فِي ضَمِيْرِهِ وَمَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ وَفِي قَلْبِهِ وَيُنْتِجُهُ فِكْرُهُ بِهِ يَفْهَمُ عَن غَيْرِهِ مَا فِي نَفْسِهِ وَلَوْلاَ ذَلِكَ كَانَ بِمَنْزِلَةِ البَهَائِمِ المُهْمَلَةِ التِيْ لا تُخْبِرُ عن نَفْسِهَا بِشَيْءٍ وَلَا تَفْهَمُ عَنْ مُخْبِرٍ شَيْئاً.

وَكَذَلِكَ الكِتَابَةُ التي بِهَا تُعِيْدُ أَخْبَارَ المَاضِيْنَ لِلْبَاقِيْنَ وأَخْبَارَ البَاقِيْنَ لِلآتِيْنَ وَبِهَا تَخْلُدُ الكُتُبُ في العُلُومِ والآدَابِ وبِهَا يَحْفَظُ الأنسَانُ ذِكْرَ مَا يَجْرِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِن المُعَامَلاَتِ وَلَوْلاَهَا لاَ انْقَطَعَ بَعْضُ الأزمِنَةِ عَن بَعْضٍ وَأَخْبَارُ الغَائِبِيْنَ عَن أوْطَانِهِمْ وَدَرَسَتِ العُلُومُ وَضَاعَتْ الآدابُ وَعظُمَ مَا يَدْخُلُ على الناسِ مِن الخَلَلِ في أُمُوْرِهِمْ ومُعَامَلاَتِهِمْ وَمَا يَحْتَاجُوْنَ إلى النَّظَرِ فِيْهِ مِنْ أَمْرِ دِيْنِهِمْ وَمَا رُوِيَ لَهُمْ مِمَّا لاَ يَسَعُهُمْ جَهْلُهُ .

وانْظُرْ لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلإِنْسَانِ لِسَانٌ مُهَيَأٌ لِلْكَلاَمِ وَذِهْنٌ يُهْتَدَى بِهِ لِلأُمُوْرِ لَمْ يَكُنْ لِيَتكَلَّمَ أبَدَاً وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ كَفٌ مُهَيَأَةٌ وَأَصَابِعُ لِلْكِتَابَةِ لَمْ يَكُنْ لِيَكْتُبَ أبَدَا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِن البَهَائِمِ التي لا كَلاَمَ لَهَا وَلاَ كِتَابَةَ فَأَصْلُ ذَلِكَ فِطْرَةُ البَارِيْ جَلَّ وَعَلاَ وَمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ فَمَنْ شَكَرَ أُثِيْبَ وَمَنْ كَفَرَ إنَ اللهَ غَنِيٌّ عن العَالَمِيْنَ .

وَفَكّرْ فِيما أُعطِيَ الأنْسَانُ عِلْمَهُ وما مُنِعَ مِنْهُ فـإنه أعْطى عِلْمَ مَا فِيْهِ صَلاَحُ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ فَأمَّا صَلاَحُ دِيْنِهِ فَهُوَ مَعْرِفَةُ الخَالِقِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالدَّلاَئِلِ والشَّواهِدِ القَائِمَةِ وزَكَاةٍ وصِيَامٍ وحَجٍ ومِن العَدْلِ بَيْنَ النَاسِ كَافَّةً وبرِ الوَالِدَيْنِ وَصِلَةِ الأرْحَامِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَمُواسَاةِ أَهْلِ الخَلَّةِ وأَشْبَاهِ ذَلِكَ .

وكَذَلِكَ أُعْطِيَ مَا فِيـهِ صَلاحُ دُنْيَـاهُ كَالـزِرَاعَةِ والغِـرَاسَةِ واسْتِخْرَاجِ ما في الأَرْضِينَ واقْتِنَاء الأَغْنَامِ والأنْعَامِ واسْتِنْبَاطِ المَاءِ ومَعْرِفَةِ العَقَاقِيْرِ الَتِي يَسْتَشْفِيْ بِهَا بإذْنِ اللهِ مِن ضُرُوبِ الأسْقَامِ والمَعَادِنِ التِي يَسْتَخْرِجُ مِنها أَنْواعِ الجَوَاهِر وَرُكُوبِ السُّفُنِ والغَوْصِ في البَحْرِ وضُرُوبِ الحِيَلِ في صَيْدِ الوَحْشِ والطَّيْرِ والحِيْتانِ والتَّصرُّفِ في الصّناعاتِ وَوُجُوْهِ

المَتَاجِرِ والمكاسِبِ وغيرِ ذلكَ مِمَّا يَطُوْلُ شَرْحُهُ وَيَكْثُرُ تَعْدَادُهُ مِمَّا فِيْهِ صلاحُ أَمْرِهِ في هذِه الدارِ.

فأُعْطِيَ عِلْمَ مَا يَصْلُحُ بِهِ دِيْنُهُ وَدُنْيَاهُ وَمُنِعَ مَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ في شَأْنِهِ وَلا طَاقَتِهِ أَنْ يَعْلَمَ كَعِلْمِ الغَيْبِ وعِلْمِ مَا فِي السَّماءِ وما تَحْتَ البِحَارِ وأقطارِ العَالَمِ ومَا فِي قُلُوبِ الناسِ وما فِي الأَرْحَامِ وأَشْبَاهِ هَذا مِمَّا حُجِبَ عَلَى الناسِ عِلْمُهُ فانْظُرْ كَيْفَ أُعْطِيَ عِلْمَ جَمِيْعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِدِينِه ودُنْيَاهُ وَحُجِبَ عَنْهُ ما سِوَى ذلكَ لِيَعْرِفَ قَدْرَهُ وَنَقْصَهُ وكِلاَ الأَمْرَيْنِ فِيْهِ صَلاحُهُ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ مَا سُتِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ مِن مُدَّةِ حَيَاتِهِ فَانَّهُ لَوْ عَرَفَ مِقْدَارَ عُمْرِهِ وكَانَ قَصِيْرَ العُمُرِ لَمْ يَتَهَنأَ بالعَيْشِ مَعَ رَقَبِ الموتِ وتَوَقُّعِهِ لِوَقْتٍ قَدْ عَرَفَهُ وأَيْقَنَ به وَإِنْ كَان طَوِيْلَ العُمُرِ وعَرَفَ ذلكَ وَثِقَ بالبقاء وانْهَمَكَ في اللذاتِ والمَعاصِي وعَمِدَ أَنْ يَبْلُغَ مِنْ شَهْوَتِهِ ثُمَّ يَتُوبُ في آخِرِ عُمُرِهِ وهَذا مَذْهَبٌ لا يَرْضَاهُ اللهُ مِنْ عِبادِهِ ولا يَقْبَلُهُ.

قُلْتُ ومِمَّا يُسْتعانُ بِهِ عَلَى مَعْرِفَةِ قَدْرِ نِعَم الله عَلى العَبْد التَّفَكُرُ فِيْهَا وبالتَّفَكُرِ في حَالِ نَفْسِه قَبْلَ وُجُودِهَا فَيَنْظُرُ إذا كان غَنِياً إلى حالِ فَقْرِهِ المُتَقَدِّمِ حِساً أَوْ مَعْنَى ويَنْظُرُ إذا كَانَ صَحِيْحاً إلى حالِهِ حِيْنَمَا كَانَ مَرِيْضاً وَيَنْظُرُ إذا كَانَ مُطِيْعاً لِلهِ وَقْتَ عِصْيَانِهِ لِله حَيْثُ مَنَّ اللهُ عَلَيهِ بِضدِّ تِلْكَ الحَالِةِ.

وَينْظُرُ إذا كانَ ذَاكِراً لِله عَلَى الدَّوامَ أَيَّامَ كَانَ غَافِلاً لاَهِياً وَيَنْظُرُ إذا كانَ قَارِئاً أَيَّامَ أَنْ كَانَ لَا يَقْرَأُ ولْيَنْظُرْ إذا كانَ عَالِماً إلى وَقْتِ جَهْلِهِ ويَنْظُرُ

إذَا كَانَ لَهُ أَوْلَادٌ صَالِحِينَ أَيَّامَ أَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أولادٌ وينْظُرُ إذا كانَ في مَسْكَنٍ واسِعٍ مُناسِبٍ أيَّامَ أنْ كَانَ يَسْتَأجِرُ أو في بَيْتٍ ضَيِّقٍ لا يَرْتَضِيه .

وهَكَذَا كُلُّ نِعْمَةٍ يَنْظُرُ إلى وُجُوْدِ ضِدِّهَا الذِي كَانَ مَوْجُوْداً قَبْلَ ذَلِكَ فَلَا شَكَ أنَّ مَن عَمِلَ بِهَذا يَعْرِفُ قَدْرَهَا فَيَشْكُرُهَا فَتَدُوْمُ عَلَيْهِ بإذْنِ الله تَعَالَى لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وعَلَا يَقُوْلُ وهُـوَ أَصْدَقُ قَـائِلٍ ﴿ لَئِنْ شَكَـرْتُمْ لأَزِيْدَنَّكُمْ ﴾ فَمَـنْ شَكَرَ نعْمَةَ اللهِ زَادَهُ اللهُ مِنها وقِيْلَ الشُكْرُ قَيْدُ المَوْجودِ وصَيْدُ المَفْقُودِ .

وفي أَثَرٍ إلهيْ : يَقُولُ اللهُ عَزَّ وجَل أَهْلُ ذِكْرِيْ أَهْلُ مَجَالِسِيْ وأَهْلُ شُكْرِيْ أهلُ زِيَادتِي وأَهْلُ طَاعَتِي أَهْلُ كَرَامَتِيْ وأَهْلُ مَعْصِيَتِي لا أُقَنِّطُهُمْ مِن رَحْمَتِي إنْ تَابُوْا فأَنَا حَبِيْبُهُمْ وإنْ لَمْ يَتُوْبُوا فـأنَا طَبِيْبُهُمْ ابْتَلِيْهِمْ بالمَصَائِب لِأُطَهِرَهُمْ مِن المَعَائِبِ وقِيْلَ مَنْ كَتَمَ نِعْمَةً فَقَدْ كَفَرَهَا ومَنْ أَظْهَرَهَا ونَشَرَهَا فَقَدْ شَكَرَهَا وهَذَا مَأْخُوْذٌ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم إنَّ اللَّهَ إذَا أنْعَمَ على عَبْدٍ نِعْمَةً أَحَبَّ أنْ يَرَى أثَرَ نِعْمتِهِ عَلَى عَبْدِهِ قُلْتُ .

وقَدْ وَرَدَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ إنَّ اللهَ يُحِبُّ النَّاسِكَ النَّظِيْفَ فاللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى يُحِبُّ أنْ يَرَى عَلَى عَبْدِهِ الجَمَالَ الظَّاهِرَ كَمَا يُحِبُّ أنْ يَرَى عَلَيهِ الجَمَالَ البَاطِنَ بالتَّقْوى ونَظَافَةُ الظاهِرِ مَعَ نَظَافَةِ البَاطِنِ نُوْرٌ عَلى نُوْرٍ قال بَعْضُهُم لِمَنْ انْتَقَدَهُ في تحْسِيْنِ ثِيَابِهِ :

حَسِّنْ ثِيَـابَـكَ مَـا اسْـتَـطَعْتَ فـإنَّهَـا
زَيْنُ الـرِّجَـالِ بِهَـا تُعَـزُّ وتُكْـرَمُ

فَـرَثَـاثُ ثَـوْبِـكَ لَا يَـزِيْـدكَ رِفْعَـةً
عِـنْـدَ الإلـهِ وأنْتَ عَـبْـدٌ مُجْـرِمُ
وَجَـدِيْدُ ثَـوْبِـكَ لَا يَضُـرُّكَ بَعْـدَ أَنْ
تَخْشَـى الإلَـه وتَـتَّقِيْ مَـا يَحْـرُمُ

آخر :

تَجَمَّـلْ بـالثِّيَـابِ تَعِشْ حَمِيْـدَا
فـإنَّ الـعَـيْـنَ قَبْـلَ الاخْـتِـبَـارِ
فَـلَوْ لَـبِسَ الـحِـمَـارُ ثِيَـابَ خَـزٍ
لَقَـالَ النـاسُ يـا لَـكَ مِن حِمَـارِ

وتَأَمَّلْ حِكْمَةَ عَدَمِ تَشَابُهِ النَّاسِ بخِلَافِ سَائِرِ الحَيوانِ فانَّكَ تَرَى السِّرْبَ مِن الظِّبَاءِ والقَطَا يَتَشَابَهُ حَتَّى لَا يُفَرَّقُ بَيْنَ وَاحِدٍ مِنْهَا وَبَيْنَ الآخِرَ وتَرَى الناسَ مُخْتَلِفَةً صُوَرُهُمْ وخَلْقُهُمْ حَتَّى لا يَكادُ اثْنَانِ مِنْهُمْ يَجْتَمِعَانِ في صُوْرَةٍ وَاحِدةٍ والعِلَّةُ في ذَلِكَ أنَّ الناسَ مُحْتَاجُوْنَ إلى أنْ يَتعارَفُوْا بأعْيَانِهِم وحُلاَهُمْ لِمَا يَجْرِيْ بَيْنَهُمْ مِن المُعَامَلاَتِ ولَيْس يَجْرِي بَيْنَ البَهَائِمِ مِثْلُ ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ إلى مَعْرِفَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِعَيْنِهِ .

ألا تَرَى أنَّ التَشَابُهَ في الطَّيْرِ والوَحْشِ لا يَضُرُّها شَيْئاً ولَيْسَ كذلِكَ الانسانُ فإنَّهُ رُبَّما تَشَابَهَ التَّوْأمَانِ تَشابُهاً شَدْيداً فَتَعْظُمُ المُؤْنَةُ عَلَى النَّاسِ في مُعَامَلَتِهَا حَتَّى يُؤْخَـذَ أحَدُهُمَـا بذنبِ الآخَـرِ فَتَبَارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالِقِيْنَ .

وَتَأَمَّلْ لَوْ كَانَ الانْسَانُ لَا يُصِيْبُه أَلَمٌ وَلَا وَجَعٌ بِمَ كَانَ يَرْتَدِعُ عَنِ الفَوَاحِشِ ويَتَواضَعُ لِلِه ويَتَعطَّفُ عَلَى الناسِ أَمَا تَرَى الانسانَ إذا عَرَضَ

لَهُ وَجَعٌ خَضَعَ واسْتَكَانَ وَرَغِبَ إلى رَبِّهِ في العَافِيَةِ وبَسَطَ يَدَهُ في الصَّدقَةِ انتهى وبهذا كِفَايَةٌ .

موعظة

عِبَادَ اللهِ لَقَدْ أنْعَمَ اللهُ عَلَيْنَا بِنِعَمٍ كَثْيرَةٍ ، وجَادَ عَلَيْنَا بِخَيْراتٍ وَفِيْرَةٍ غَفَلْنَا عَنْهَا ، وعَن ضِدِّهَا ، وجهلْنَا حِكْمَتَهَا ، أعطَانَا جلَّ وعَلاَ العَقْلَ ، ومَيَّزَنا بِهِ عن الحَيَوانَاتِ ، وأرْسَلَ إليْنَا الرُّسُلَ ، يُرْشِدُونَنَا لِلْحَقِّ وخَالِصِ الإِيمانِ ، مَنَحَنَا القُوَّة والعَافِيَةِ ، وصَحَّةَ البَدَنِ ، وسَلاَمَةَ الأعْضَاءِ .

وجَعَلَ لَنَا السَّمْعَ ، والبَصَرَ ، واللّسِانَ ، والشَّفَتَيْنِ ، وعَلَّمَنَا البَيَانَ والإفْصَاحَ ، عَنْ مَا نَقْصُدُ بالكلام ، خَلَقَنَا في أحْسَنِ تَقْويْم ، وجَعَلَ لنَا الأرْضَ فِرَاشاً ، والسماءَ بِنَاءً ، وأنْبَتَ لَنَا في الأرْضْ النَّخِيْلَ ، والأعْنَابَ والزَّرْعَ وسائِرَ ما نَحْتَاجُ إليْهِ مِن الثِّمارِ ، ونَسْتَخْرِجُ مِنْهَا المَعَادِنَ ، والخَامَاتِ .

وأَجْرَى لَنَا فِيْهَا الأَنْهَارَ ، وأنْبَعَ لَنَا الماءَ الزِلاَلَ ، وخَلَقَ الشّمَس والقَمَر ، والنُّجُومَ ، مُسَخِّرَاتٍ بأمْرِهِ تَمُدُّنَا بالأنْوارِ ، والمَنَافِعِ ، للأبْدَانِ والثِمارِ ، والنَّباتَاتِ ، وفِيْهَا مِن الاتْقَانِ ، والجَمَالِ ، والاتّزَانِ في سَيْرِهَا مَدَى الليالِي والأيَّام ، ما يَشْهَدُ لِلِه بالوَحْدَانِيَّةِ ، والحِكْمَةِ ، والْقُدْرَةِ البَاهِرَة ، والعِلْمِ ، وسَائِرِ صِفاتِ الكمَالِ .

ولِلِهِ نِعَمٌ أُخْرَى لَا تُعَدُّ ، ولا تُحْصَى ، كَمَا قَالَ تَعالَى ﴿ وإنْ تَعُدُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا ان الانسانَ لَظَلُومٌ كَفَّار﴾ إذاً يَجِبُ عَلَيْنا

شُكْرُهُ تعالى على نِعَمِهِ ، وهُوَ الغِنِيُّ الحَمِيْدُ ، غَنِيٌّ عَن العَالِمين ، والخَلْقُ هُمُ الفُقَرَاءُ إليْهِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ وعَلاَ ﴿ يَا أَيُّهَا النَاسُ أَنْتُم الفُقراءُ إلى اللهِ واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمْيدُ﴾ ، ولَيْسَ لِلِه في شُكْرِنَا مَنْفَعَةٌ تُعُوْدُ إليْهِ ، ولَيْسَ في كُفْرِ نِعَمِهِ ضَررٌ عَلَيهِ ، إنَّمَا تعُوْدُ مَنْفَعَةُ الشُكْرِ إلى الشَّاكِرِ كَمَا قَالَ تَعالَى﴿ومَنْ شَكَرَ فإنَّمَا يَشْكُر لِنَفْسِهِ ومَن كَفَرَ فانَّ رَبِي غَنِيٌّ كَرِيْم﴾ .

إنَّمَا الذي يَنْتَظِرُ الشُكْرَ مَخْلُوقٌ مَثْلَنَا وأَنْتَ إذَا شَكَرْتَ اللهَ إنَّمَا تُبَرْهِنُ عَلَى فَهْمِكَ لِنِعْمَةِ الله ، وتَقْدِيْرِكَ لَهُ إنْ شَكَرْتَ فَقَدْ وَجَّهْتَ النِعْمَةَ وَجْهَةَ الخَيْرِ ، والنَّفْعِ ، واسْتَعْمَلْتَهَا فِيْمَا يُسْعِدُكَ في الدُنْيَا والآخِرَةِ ، وانْ كَفَرْتَ فَقَدْ بَرْهَنْتَ عَلى سُوْءِ فَهْمِكَ ، وعَدَمِ تَقْدِيْرِكَ لِربِكَ ، وعَلَى تَعَمُّقِكَ في اللُؤْمِ والرَّدَاءَةِ .

واذَا تَأَمَّلْتَ الكَثِيْرُ مِن الناسِ وَجَدْتَهُ مُهْمِلاً لِلشُّكْرِ الذِي هُوَ صَرْفُ النِّعَمِ فِيْمَا خُلِقَتْ لَهُ ، واسْتِعْمَالُهَا فِيْمَا شُرِعَتْ لأَجْلِهِ ، لِتَظْهَرَ فَائِدَتُهَا وتَتِمَّ حِكْمَتُهَا ، ويَجْنِي العِبَادُ مَنَافِعَهَا ، ، فالشاكِرُ بِلسَانِهِ وقَلْبِهِ ، وعَمَلِهِ مِن الفَائِزِيْنَ ، ولَكِنَّهُ قليْلٌ ، كَمَا قال تَعالى ﴿وقَليْلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُورَ﴾ الأَكْثَرُ كَمَا تَقدم صَرَفُوْهَا فِيْمَا يَعُوْدُ عَلَيْهِم ، وعَلى أوْلَادِهِم ، وأَهْلِهِم ، وأُمَّتِهِمْ بالضَّرَرِ .

أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بالمَالِ فَقِسْمٌ خَزَنُوْهُ وَمَنَعُوْا حُقُوْقَهُ فَلَمْ يَخْرِجُوا زَكَاتَهُ ، ولَمْ يُسَاهِمُوا في مَشَارِيْعَ دِيْنِيَّةٍ ، كَبِنَاءِ مَسَاجَدَ ، وقَضَاءِ دَيْنٍ عَنْ مَدِيْنٍ ومُسَاعَدَةِ فَقِيرٍ ، وإجْرَاءِ مِيَاهٍ لِلْمُسْلِمِينَ ، والمُسَاعَدِة عَلَى نَشْرِ الاسْلامِ وطِبَاعَةِ مَصَاحِفَ طِبَاعَةَ جَيِّدَةً وتَوْزِيْعَهَا عَلَى التَّالِيْنَ لِكِتَابِ اللهِ ، وطِبَاعَةِ الكُتُبِ الدِّيْنِيِّةِ المُقَوِّيَةِ لِلشَّرِيْعَةِ المُحَمَّدِيَّةِ ، وبِنَاءِ بُيُوْتٍ لِمَنْ لَا مَسَاكِنَ

لَهُمْ ، ونَحوْ ذَلِكَ .

وقِسْمٌ أنْفَقُوا المالَ في المـلاذِ والمَلاَهِيْ ، والمُنْكَراتِ،وسَائِرِ المُحَرَّمَاتَ ، أذْهَبُوهَا فِي الحَيَاة الدُنْيَا ، واسْتَمْتَعُوَا بِهَا ، ولَم يُرَاقِبُوَا اللهَ فِيْهَا ، أنْعَمَ عَلَيْهِمْ في الصِّحَةِ والفَرَاغِ المَفْرُوْضُ أن تُغْتَنَمَ في طَاعَةِ اللهِ .

وَلَكِنْ يَا لِلاسفِ صُرِفَتْ في السَّهَرِ، وفِي الفَسَادِ ، وفِي المُجُونِ والكَسَلِ والتَّكَسُّعِ ، والخُمُولِ أو التَّطَاوُلِ بـالقُوَّة عَلَى الضُعَفَـآءِ ، والمساكِيْن ، وإعانَةِ الظَّلمَةِ والفاسِقِيْنَ ، ونَحْـوِ ذَلكَ ، مِنَ المَفَـاسِدِ والشَّرُوْرِ .

وقِسْ عَلَى ذَلِكَ بَاقِي النِّعَمِ مِن السَّمْعِ والبَصَرِ واللِّسَانِ والرِّجلْ فَلَمْ يَبْقَ نِعْمَة إلا وَقَلَبُوْهَا ، ولا هِبَةٌ مِن اللهِ إلَّا وَجَحَدُوْهَا فَنَزَلُوا بَعْدَ الرِّفْعَةِ وذَلُّوْا بَعْدَ العِزَّةِ فإنَا لِله وإنا إليهِ رَاجِعُوْن .

وقالَ بَعْضُهُمْ في مَدْحِ اللَّطِيْفِ الخَبِيْرِ جَلَّ وَعَـلاَ وذَكَرَ بَعْضَ أَلْطَافِهِ :

أَحَـاطَ بِتَفْصِيلِ الـدَّقَـائِقِ عِلْمُـهُ
فَـأتْقَنَهـا صُنْعَـاً وَأحْكَمَهـا فِعْـلاَ

فَمِنْ لُـطْفِـهِ حِفْظَ الْجَنِيْنِ وَصَـوْنُـهُ
بمُسْتَـوْدَعٍ قَـدْ مَرَّ فِيْـهِ وَقَـدْ حَـلاَّ

تَـكَنَّـفَـهُ بِـاللُّطْفِ فـي ظُـلُمَـاتِـهِ
وَلا مَـالَ يُغْنِيـهِ هُنـاكَ وَلاَ أهْـلاَ

وَيَـأْتِيـه رِزْقٌ سَـابِـغٌ مِنْـهُ سَـائِـغٌ

يَـرُوحُ لَـهُ طَـوْلاً وَيَغْـدُو لَـهُ فَضْـلاَ

وَمَـا هُـوَ يَسْتَدْعِي غِـذاءً بِقِيْمَـةٍ

ولا هُوَ مِمَّنْ يُحْسِنُ الشُّرْبَ وَالأَكْلاَ

جَرَى في مَجَـارِيْ عِـرْقِـهِ بتَلَطُّفٍ

بِـلاَ طَلَبٍ جَرْيـاً عَلى قَـدْرِهِ سَهْـلاَ

وَأَجْرَىٰ لَهُ في الثَّـدْيِ لُطْفَ غِذَائِهِ

شَـرابـاً هَنِيْئـاً مَـا أَلَـذَّ وَمَـا أَحْـلاَ

وَأَلْهَمَـهُ مَصًّـاً بِحِكْمَـةٍ فَـاطِـرٍ

لهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ الْجَزِيْـلُ بِمَا أَوْلاَ

وَأَخَّـرَ خَلْقَ السِّنَّ عَنْـهِ لِـوَقْتِهَـا

فـأَبْـرَزَهَـا عَـوْنـاً وَجَـاءَ بِهَـا طَـوْلاَ

وَقَسَّمَهـا لِلْقَـطْعِ وَالْكَسْـرِ قِسْمَـةً

وَلِلطَّحْنِ أعْطَى كُلَّ قِسْمٍ لَهَا شَكْلاَ

وَصَـرَّفَ فِي لَـوْكِ الـطَّعَـامِ لِسَـانَـهُ

يُصَـرِّفُـهُ عُلْوًا إِذَا شَـاءَ أَوْ سُفلا

وَلَـوْ رَامَ حَصْراً في تَيَسُّـرِ لُقْمَـةٍ

وأَلْـطَافِـهِ فِيْمَـا تَكَنَّـفَهـا كَـلاَّ

فَكَمْ خَـادِمٍ فِيْهـا وَكَمْ صانِـعٍ لَّهَـا

كَـذلِـكَ مَشْـرُوبٌ وَمَلْبَسُـهُ كَـلاَّ

وَكَمْ لُطَفٍ مِن حَيْثُ تَحْذَرُ أكـرَمَتْ

ومَا كُنْتَ تَدِرْي الفَرْعَ مِنها وَلاَ الأَصْلاَ

وَمِنْ لُطْفِهِ تَكْلِيْفُهُ لِعَبادِهِ
يَسِيْراً وأعْطَاهُمْ مِن النِّعِمِ الْجَزْلَا
وَمِنْ لُطْفِهِ تَوْفِيْقُهُمْ لإنابَةٍ
تُوَصِّلُ لِلْخَيْراتِ مِن حَبْلِهِم حَبْلا
وَمِنْ لُطْفِهِ بَعْثُ النَّبي مُحَمَّداً
لِيَشْفِعَ في قَوْمٍ وَلَيْسُوا لَها أهْلا
وَمِنْ لُطْفِهِ حِفْظُ الْعَقائِدِ مِنْهُمُوا
وَلَوْ خالَفَ الْعاصِي الْمُسِيءُ وَإنْ زَلَّا
ومِنْ لُطْفِهِ إخْراجُهُ عَسَلاً كَما
تُشاهِدُ مِمَّا كَان أَوْدَعَهُ النَّحْلَا
وَإخْرَاجُهُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ مُجَاوِرٍ
دَماً لَبَناً صِرْفاً بلَا شَائِبٍ رِسْلَا
وَإخْرَاجُهُ مِنْ دُوْدَةٍ مَلْبَساً لَّهُ
رُوَاقاً عَجِيْباً أحْكَمَتْهُ لَنا غَزْلَا
وَأعْجَبُ مِنْ ذَا خَلْقُهُ الْقَلْبَ عَارِفَاً
بِهِ شَاهِدَاً أنْ لَّا شَبِيْهَ وَلَا مِثْلَا
وَألْطَافُ في الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَخُذْ بِمَا
بَدَا لَكَ واشْهَدْهَا وَإياكَ وَالْجَهْلَا
وَصَلِّ عَلى الْمُخْتَارِ أفْضَلَ مُرْسَلٍ
عَلَى خَالِصِ الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ قَدْ دَلَّا

اللَّهُمَّ اخْتِم لَنَا بخَاتِمِةِ السّعادَة واجْعَلْنَا مِمَّنْ كَتَبْتَ لَهُمُ الْحُسْنَى

وزِيَادَةَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرحَمَ الرّاحِمِينَ وَصلّى اللّهُ عَلى مُحَمّدٍ وآلِهِ وصَحَبْهِ أجْمَعِيْن .

(فَصْلٌ)
في المرُوْءَة

الْمَرُوْءَةُ بِمَعْنَى الانْسَانِيَّةِ لِأنَّها مَأْخُوْذَةٌ مِنَ الْمَرءَ وَهْيَ تَعَاطِيَ مَا يُسْتَحْسَنُ وَتَجنُّبُ مَا يُسْتَرْذَلْ قَالَ بَعْضُهُمْ حَدُّ الْمُرُوءَةِ رَعْيُ مَسَاعِي الْبِرِّ ، وَرَفْعُ دَوَاعِي الضُّرِّ والطَّهَارَةُ مِنْ جَمِيْعِ الأدْنَاسِ ، والتَّخَلّصَ مِنْ عَوَارِضِ الإلْتِبَاسْ ، حَتَّى لَا يَتَعَلَّقُ بِحامِلِها لَوْمٌ ، وَلَا يَلْحَقُ بِهِ ذَمٌّ .

وَقِيْلَ هِيَ آدَابٌ نَفْسِيَّةٌ تَحْمِلُ مُرَاعَاتُها الإنْسَانَ عَلَى الوُقُوفِ عِنْدَ مَحَاسِنِ الاخْلاقِ وَجَمِيْلِ الْعَادَاتْ وَقِيل هِي قُوَّةٌ لِلنّفْسَ مَبْدَأٌ لِصُدُورِ الأَفْعالِ الْجَمِيْلَةِ عَنْهَا الْمُسْتَتْبِعَةِ لِلْمَدْحِ شَرْعاً وَعَقْلاً وَفَرْعا وَكُلُّها قَرِيْبَةُ الْمَعْنَى .

وَقَال بَعْضُهُمْ الْمرُؤةُ كَلِمَةَ لَفظُهَا كَمعْنَاهَا حُلْوٌ جَمِيْلٌ اِنْ قَرعَتِ السَّمْعَ فَعظَمَةٌ وَجَلال وَانْ نَفَذتْ إلَى الْقَلْب فَنُبْلٌ وَسُمُوٌ وَشُعُورٌ بالْكَرَامَةِ والْكَمَالِ وَلَسْتُ أعْدِلُ عَنِ الْحَق اِنْ قُلْتُ اِنَّ الْمرُؤَةَ هِيَ جِمَاعُ الْفضَائِلِ وَرأْسُ الْمَكَارِمِ وَعُنْوَانُ الشّرَفِ بِهَا يَسْمُو الْمَرْءُ وَيَرْتَفِعَ ذِكْرُهْ وَبِفِقْدِهَا يَفْقِدُ كُلَّ كَرَامَةٍ وَفَضْلٍ .

فَهْيَ مِيْزَانُ الرِّجَالِ وَأَصْلُ الْجَمَالِ وَحَدُّ الْمُرؤَةِ تَجمُّلُ النَّفس بِمَا يَزِيْنهَا وَتَحْصِيْنُها مِمَّا يَشِيْنُها بِحَيْثُ تكُونُ لِلْمَحَامِدِ أهْلا وَعِنِ الْمَذَامِ بِمَنْأى وَلَا يكُونُ ذلِكَ إلاّ لِمَنْ رَاضَ نَفْسَه عَلَى التَّخلُّقِ بالخُلُقِ الْحَسَنِ

مِنَ الصِّفَاتِ وَالتَّجَمُّلِ بِجَمِيْلِ الْعَادَاتِ حَتَّى يُصْبحَ التَّطَبُّعُ جِبِلَّةً والتَّعَوُّدُ غَرِيْزَةً وَلَيْسَ يَسْتَطِيْعُ ذَلكَ إلاَّ مَنْ جَاهَد نَفْسَهُ وَنازَعَ هَوَاهُ رَغْبَةً فِي حُسْنِ الأُحْدُوثَةِ والذِّكْرَى الْجَمِيْلَةِ .

وَقَدْ وَرَدَ عَن النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلّم أَنَّهُ قَال « مَنْ عَامَل النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمهُمْ ، وَحَدّثَهَمْ فَلَمْ يَكْذِبُهُمْ ، وَوَعَدَهُـمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ ، فَهْوَ مِمَّنْ كَمُلَتْ مُرُؤَتُهُ ، وَظَهرَتْ عَدَالَتُهُ ، وَوَجَبْت أُخُوَّتُهُ » وَقالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهْ : وَحَقِيْقَةُ الْمُرؤَةِ تَجنُّبُ الدَّنَايَا والرَّذَائِلِ مِنَ الأَقْوالِ والأَخْلاقِ وَالأَعْمَالِ .

فَمرُؤَةُ اللِّسَانِ حَلاَوَتُه وَطِيْبُهُ وَلِيْنُهْ ، وَاجْتِنَاءُ الثِّمَارِ مِنْهُ بِسُهولَةٍ وَيُسْرٍ ، وَمُرُؤَةُ الخُلُقِ سَعَتُهُ وَبَسْطُه لِلْحَبِيْبِ وَالبَغِيْضِ .

وَمُرُؤَةُ الْمَالِ الاْصَابَةُ بِبَذْلِهِ مَوَاقِعَهُ الْمَحْمُودَة عَقْلاً وَعُرْفاً وَشَرْعا .

وَمُرُؤَةُ الْجَاهِ بَذْلُهُ لِلْمُحْتَاجِ الَيْه ، وَمُرُؤَةُ الاْحْسَانِ تَعْجِيْلُهُ وَتَيْسِيْرُه وَتَوْفِيْرُهُ وَعَدَمُ رُؤْيَتِهِ حَالَ وُقُوعِهِ ونِسْيَانُهُ بَعْدَ وُقُوعِه ، فَهَذِهِ مُرؤَةُ الْبَذْلِ .

وَأَمَّا مُرُؤَةُ التَّرْك ، فَتَرْكُ الْخِصَامِ وَالْمُعَاتَبَةِ والْمُمَارَاتِ ، وَالاْغْضَاءُ عَنْ عَيْبِ مَا يَأْخُذُهُ مِنْ حَقِّكْ وتَرْكُ الاْسْتِقْصَاءِ فِي طَلَبِهِ والتَّغَاقُلِ عَنْ عَثَرَاتِ النَّاسْ ، وَإشْعَارُهُمْ أنّكَ لاَ تَعْلَمُ لأَحدٍ مِنْهُمْ عَثْرَةً ، وَالتَّوْقِيْرُ لِلْكَبِيْر ، وَحِفْظُ حُرْمَةِ النَّظِيْر ، وَرِعَايَةُ أَدَبِ الصَّغِيْرِ قَالَ وَهِيَ عَلَى ثَلاث دَرجَاتْ الدَّرَجَةُ الاْوْلَى مُرُؤَةُ الإنْسَانُ مَعَ نفْسِهِ ، وَهْيَ أنْ يَحْمِلَها قَسْراً عَلَى مَا يُجمِّلُ وَيزَيْنُ وتَرْكُ مَا يُدَنِّسُ وَيَشِيْنُ، لِيَصْيرَ لَهَا مَلَكَة فِي جَهْرِهِ وعَلاَنِيَتِهِ .

فَلَا يَكْشِفُ عَوْرَتَهُ في الْخَلْوَة ، وَلَا يَتَجَشَّأُ بَصَوْتٍ مُزْعِجٍ مَّا وَجَدَ إلى خِلَافِهِ سَبِيْلا ، وَلَا يُخْرِجُ الرِّيْحَ بِصَوْتٍ وَلَا يَجْشَعُ وَيَنْهَمُ عِنْدَ أكْلِهِ وَحْدَهُ وَبالجُمْلَةِ فَلا يَفْعَل خَالِياً مَا يَسْتِحي مِنْ فِعْلُهُ في الْمَلإِ إلَّا مَا يَحْظُرُهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ اِنْ وَافَقَ الشَّرْع وَلَا يَكُوْن إلَّا في الْخَلْوَةِ كالْجِمَاعِ والتَّخَلِّي وَنَحْو ذَلِكَ .

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ الْمُرُوءَةُ مَعَ الخَلْق بِأَنْ يَسْتَعْمِلَ مَعَهُمْ شُرُوطَ الأَدَبِ والْحَيَاءِ وَالْخُلُقَ الْجمِيْلَ وَلا يُظْهِرُ لَهُم مَا يَكْرَهُهُ هُوَ مِنْ غِيْرِهِ لِنَفْسِهْ وَلِيَتَّخِذَ النَّاسَ الْمُتَمَشِّيْنَ مَعَ الشَّرِيْعَةِ الْمُطَهَّرَةِ في أَقْوَالِهِمْ وأفْعَالِهِمْ مِرْآةٍ لِنَفْسِهْ فَكُلُّ مَا كَرِهَهُ ونَفرَ عَنْهُ مِنْ قَولٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ خُلُقٍ فَلْيَجْتَنِبَهُ وَمَا أَحَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ واسْتَحْسَنَهُ فَلُيَفْعَلَهُ .

وَصَاحِبُ هَذِهِ الْبَصِيْرَةِ يَنْتَفِعُ بِكُلِّ مَنْ خَالَطَهُ وَصَاحَبَهُ مِنْ كامِلٍ وناقِصٍ وَسَيِّءِ الخُلُقِ وَحَسَنِهِ، وَعَدِيْمِ الْمُروْءَةِ وَغَزِيْرِهَا ، وَكَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَعَلَّمُ المَروْءَةَ وَمَكَارِمَ الأَخْلاَقِ مِنَ المَوْصُوْفِيْنَ بِأَضْدَادِهَا كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الاْكَابِرِ أنَّهُ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ سَيِّءُ الْخُلُقْ فَظٌّ غَلِيْظٌ لَا يُنَاسِبُهُ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالْ أدْرُسُ عَلَيْهِ مَكَارِمَ الأَخْلَاقْ .

وَكَانَ لِآخَرْ زَوْجَةٌ حَمْقَاءَ بَذِيْئَةُ اللِّسَانِ تَشْتِمُهُ بَلْ وَتَلْعَنُهُ بِاسْتِمْرَارِ وَتَدْعُو عَلَيْهِ مِنْ دُونِ دَاعٍ فَقِيْلَ لَهُ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيْهَا وَهَذِهِ سَيْرَتُهَا مَعَكَ غَفَرَ اللَّهُ لَكْ .

فَقَالَ أُدْرُسُ عَلَيْهَا مَكَارِمَ الأَخلَاقِ وبالأَخصِّ الْحِلْمُ والصَّبْر وَأُرِيْدُ أَنْ تُبرِزَ زَلَّاتِي فَأَتَجَنَّبُها وَكانَ كَثِيْراً مَا يَتَمَثَّلَ بِهَاذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

عُـدَاتِـي لَهُـمْ فَضْــلٌ عَـلَيَّ وَمِنَّــةٌ
فَـلاَ أذْهَبَ الـرَّحْمَنُ عَنِّي الْأعَـادِيَـا
هَمُــوا بَحَثُـوا عَنْ زَلَّتِي فَــاْجْتَنَبْتُهـا
وَهُمْ نَـافَسُـونِي فـاكتَسَبْتُ الْمَعَـالِيَـا

وَهذَا يَكُونُ بِمَعْرِفَةِ مَكَارِمِ الأخْلاَقِ في ضِدِّ أَخْلاَقِهِ وَيَكُونُ بِتَمْرِيْنِ النَّفْسِ عَلَى مُصَاحَبَتِهِ وَمُعَاشَرَتِهِ والصَّبْرِ عَلَيْهِ وَلَكِنْ مَا يَفْعَلُ ذلِكَ إلاّ القَلِيْلِ الّذِينَ قَدْ وَطَّنُوا أَنْفُسَهُم .

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ الْمُرؤْةُ مَعَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ بِالْأسْتِحْيَاءِ مِنْ نَظَرِهِ إِلَيْكْ وَإِطّلاَعِهِ عَلَيْكَ فِي كُلِّ لَحْظَةِ وَنَفَسٍ واصْلاَحِ عُيُوْبِ نَفْسِكَ جَهْدَ الإِمْكَانِ إنَّهُ قَدْ اشْتَرَاهَا مِنْكَ وأنْتَ سَاعٍ فِي تَسْلِيْمِ المَبِيعِ وَتَقَاضِي الثَّمَنْ وَلَيْسَ مِنَ المُرْؤَةِ تَسْلِيْمُه عَلَى مَا فِيْهِ مِنْ عُيُوبٍ وَتَقَاضِيَ الثَّمَنَ كامِلاً أوْ رُؤْيَةِ مِنّتِهِ فِي هَذَا الأصْلاَحِ وأنَّهُ هُوَ المُتولِّي لَهُ لاَ أنْتَ .

وَالْاشْتِغَالِ بِاصْلاَحِ عُيُوْبِكَ نَفْسَكَ عَنِ الْتِفَاتِكَ إلى عَيْبِ غَيْرِكَ وَشُهُودِ الْحَقِيْقَةِ عَنْ رُؤْيَةِ فِعْلِكَ وَصَلاَحِهْ أ هـ .

عَلَيْــكَ نَفْسَـكَ فَتِّشْ عَنْ مَعَــايِبِهَـا
وَخَلِّي مِنْ عَثَـرَاتِ النّـاسِ لِلنَّـاسِ

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ لَنا أَنَّ مُرَاعَاةَ النَّفْسِ عَلَى أَكْمَلِ الأَحْوَالِ وَأَفْضَلِهَا هِيَ المُرْؤَةُ وإذَا كَانَتْ كَذلِكَ فَلَيْسَ يَنْقَادُ لَهَا مَعَ ثِقَلِ كُلَفِهَا إلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللّهُ وَسَهَّلَ عَلَيْهِ الْمَشَاقَ وَيَوَدُّ كُلُّ أَحَدٍ لَوْ حَصَلَتْ لَهُ الْمُرؤةُ وَلَكِنْ كَما قِيْلَ :

وَكُـلٌّ يَرَىٰ طُـرُقَ الشَّجَاعَـةِ والنَّـدَىٰ
وَلَكِنْ طَبْـعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَـائِـدُ

قَالَ الْعُلَمَاءُ وَالدَّاعِيَ إلى اسْتِسْهَالِ الْمَشَاق شَيْئَانْ عُلُوُّ الْهِمَّـةِ وَشَرَفُ النَّفْسِ فَأَمَّا عُلُوُّ الْهِمَّةِ فَيَدْعُو إلى التَّقَدُّمُ وَقَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قَالْ « إنَّ اللّهَ يُحِبَّ مَعَالِيَ الْأُمُوْرِ وأشْرَافَهَا وَيَكْرَهُ دَنِيَّها وَسَفْسَافَهَا » قَالَ الْمَنَاوي مَعَالِيَ الْأمُورِ وأشْرَافُها هِيَ الأخْلاقُ الشَّرْعِيَّةُ والْخِصَالُ الدِّيْنِيَّةُ أ هـ .

وأمَّا سَفْسَافُ الْأمُورِ فَهْوَ حَقِيْرُها وَرَدِيْؤُهَا ، وَرُوِيَ عَنْ عُمَر بنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أنَّهُ قَالْ لَا تَصْغُرَنَّ هِمَمُكُمْ فَإنِّي لَمْ أرَ أقْعَدَ عَنْ المَكْرُمَاتِ مِنْ صُغْرِ الْهِمَمْ :

حَـاوِلْ جَسِيْمَـاتِ الأمُـوْرِ وَلَا تَقُـلْ
إنَّ الْـمَحَـامِـدَ وَالْـعُـلَى أرْزَاقُ

وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبْ :

وَلَمْ أرَىٰ فِي عُيُـوْبٍ النَّـاسِ شَيْئاً
كَـنَقْصِ الْـقَـادِرِيْنَ عَـلَى التَّـمَـامِ

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إذَا طَلَبَ رَجُلَانِ أمْرَاً ظَفِرَ بِهِ أعْظَمَهُمَا مُرُؤةً لِكَثْرَةِ وُجَاهَتِهِ وَوَسَائِطِهِ عِنْدَ ذَوِي الْأمْرِ ، وَأمَّا شَرَفُ النَّفْسِ فَيَدْعُوْ إلى الشَّهَامَةِ وَهْيَ الْحِرْصُ عَلَى مَا يُوْجِبَ الذِّكْرَ الجَمِيْلَ ، وَالْإحْتِمَال وَهْوَ إتْعَابُ النَّفْسِ فِي الحَسَنَاتِ كَمَا قِيْلَ :

وَإنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا
فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيْلُ

فَبِاتْبَاعِهَا يَكُونُ قَبُولُ التَّأْدِيْبِ واسْتِقْرَارُ التَّقْوِيْمِ والتَّهْذِيْبِ لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَرَكَتِ الْأَفْضَلَ وَهْيَ بِهِ عَارِفَةٌ ، وَنَفرَتْ عَنِ التَّأْنِيْبِ وَهْيَ لَهُ مُسْتَحْسِنَةٌ ، لِأَنَّهَا عَلَيْهِ غَيْرَ مَطْبُوعَةٍ وَلَهُ غَيْرُ مُلاَئِمَةٍ ، وقَدْ قِيْل : مَا أكثَرُ مَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ وَلاَ يُطِيْعُه ، وَإذَا شَرُفَتِ النَّفْسِ كانَتْ لِلْآدَابِ طَالِبَةً ، وَفِي الْفَضَائِلِ رَاغِبَةً فَإذَا خَالَطَ شَرَفُ النَّفْسِ الْآدَابَ صَادَفَ طَبْعاً مُلاَئِماً فَنَما وَاسْتَقَرَّ بِإذْنِ اللّهِ تَعَالَى .

اللَّهُمَّ احْمِنَا عَنِ الْمَيْلِ وَالرُّكُوْنِ إلى أَعْدَائِكْ وَارْزُقْنَا بُغْضَهُمْ وَأَعْوَانَهُمْ والمُؤَيِّدِيْنَ لَهُمْ اللَّهُمَّ شَتِّتْ شَمْلَهُمْ وَدَمِّرْهُمْ أجْمَعِيْنْ وانْصُرْ مَنْ نَصَرَ الإِسْلاَمَ والْمُسْلِمِيْنَ وأَحَبَّ فِيْكَ وأَبْغَضَ فِيْكَ يَا رَبَّ العَالَمين واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدينا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

قَالَ الْعُلَمَاء وَلِلْمُرُوءَةِ شُرُوطٌ فِي نَفْسِ المَرْءِ وَشُرُوطٌ في حَقِّ غَيْرِهِ فَأَمَّا شُرُوطُهَا فِي حَقِّ نَفْسِهِ بَعْدَ الْتِزَامِ مَا أَوْجَبَهُ الشَّرْعُ مِنْ أحْكَامِهِ فَيَكُونُ بِثَلاَثَةِ أُمُورْ وَهْيَ الْعِفَّةُ وَالنَّزَاهَةُ والصِّيَانَةُ .

فَأَمَّا الْعِفَّةُ فَنَوْعَانِ أَحَدُهُمَا الْعِفَّةُ عَنِ الْمَحَارِمْ ، والثَّانِي الْعِفَّةُ عَنِ المآثِمِ .

فأمَّا الْعِفَّةُ عَن الْمَحارِمْ فنَوْعانِ ، أَحَدُهُما ضَبْطُ الْفَرْجِ عَنِ الْحَرامِ كالزِّنَا واللِوَّاط .

والثَّانِي : كَفُّ اللِّسانِ عَنِ الْأعْرَاضِ كَالْقَذْفِ وَالسِّعَايَةِ والنَّمِيْمَةِ والغِيْبَةِ وَالْكَذِبِ وَالاِسْتِهْزَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

فَأمَّا ضَبْطُ الْفَرْجِ عَنِ الْحَرَامِ فَلِأَنَّ عَدَمَهُ مَعَ وَعيْدِ الشَّرْعِ وَزَاجِرِ الْعَقْلِ مَعَرَّةٌ فَاضِحَةٌ وإِثْمٌ واضِحٌ ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ وُقِيَ شَرَّ ذَبْذَبِهِ وَلَقْلَقِهِ وَقَبْقَبِهِ فَقَدْ وُقِيَ » وَفَي رِوَايَةْ « فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » والْمُرَادُ بالذَّبْذَبِ الْفَرْجِ وَبِلَقْلَقِهِ لَسَانُه ، وبِقَبْقَبِهِ بَطْنُهُ .
والدَّاعي إلى الْوُقُوعِ في الْحَرَامِ شَيْئَان إِرْسَالُ الطَّرْفِ والثَّانِي اتِّبَاعُ الشَّهْوَةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ الكلامُ عَلَى النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ في ص ٢٠٩ .

شِعْرَاً :

لَيْسَ الظَّرِيْفُ بِكَامِلٍ في ظَرْفِهِ
حَتَّى يَكُونَ عَنِ الْحَرَامِ عَفِيْفَا
فَإذَا تَوَرَّعَ عَنِ مَحَارِمِ رَبِّهِ
فَهُنَاكَ يُدْعَى في الْأَنَامِ ظَرِيْفَا

وَمِنْ ذَلِكَ تَرْغِيبُ النَّفْسِ في الْحَلالِ عِوَضَاً عَنِ الْحَرَامِ وَاقْنَاعُهَا بِالْمُبَاحِ بَدَلاً مِنَ الْمُحَرَمِ فإِنَّ اللّهَ مَا حَرَّمَ شَيْئاً إلاّ وَأَغْنَى عنه بِمُبَاحٍ لِيَكُونَ ذِلِكَ الْإِغْنَاءُ عَوْنَاً على الطَّاعَةِ ، وَحَاجِزَاً عَنِ الْمُخَالَفَةِ ، قَالَ عُمَرُ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ مَا أَمَرَ بِشَيءٍ إلاّ وأَعَانَ عَلَيْهِ ، وَلَا نَهى عَنْ شَيءٍ إلاّ وَأَغْنَى عَنْهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ إشْعَارَ النَّفْسِ تَقْوَىٰ اللّهِ في أَوامِرِهْ ، وَاتِّقَاؤُهُ في زَوَاجِرِهِ وإلْزَامُهَا مَا أَلْزَمَ مِنْ طَاعَتِهِ ، وَتَحْذِيْرُهَا مَا حَذَّرَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَإعْلاَمُها أنَّه لا يَخْفَى عَلَيْهِ خافيةٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ بَيْنَهُمَا كَمَا قَالَ تعالَىٰ ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولاَ فِي الْأَرْضِ ولاَ أصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إلاّ في كِتَابٍ مُبِيْنٍ ﴾ .

وأنَّهُ يُجَازِي الْمُحْسِنَ بِإحْسَانِهِ كَمَا قَالَ تَعالَى ﴿ إنَّا لاَ نُضِيْعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ وأنَّهُ يُجَازِي الْمُسِيءَ بِمَا عَمِلَ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿ وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ الَّذِيْنَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إلاّ مَا كانُوا يَعْمَلُوْنَ ﴾ وَبِذَلِكَ نَزَلَتْ الكُتُبُ وَبلَّغَتْ الرُّسُلُ .

وَقَدْ وَرَدَ أنَّ آخرَ مَا نَزَلَ قَوْلُه تَعالى ﴿ واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُوْنَ فِيْهِ إلى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وهم لا يُظلَمُونَ ﴾ قَالَ في مِنْهَاجِ اليَقِيْنِ شَرحِ أدَبِ الدنيا وَالدين فَاذا أَشْعَرَ صَاحِبُ الشَّهوةِ مَا وصَفتُ مِنَ الأمُوْرِ انْقَادَتْ أيْ النَّفْسُ إلى الكفِّ وَأذْعَنَتْ بالاتِّقاءِ فَسَلِمَ دِيْنُهُ مِن دَنَسِ الرِّيْبَةِ وَظَهرَتْ مُرُوْتُهُ .

وأمَّا كفُّ اللِّسَانِ عن الوُقُوعِ في الأعْرَاضِ ،فَالْوُقُوعُ فيهَا مَلاذُّ السُّفَهاءِ ، وَانْتِقَامُ أهْلِ الغوغَاءِ وَالسَّفَلَة ، قُلتُ وَإلى هَذا أشَارَ أبُو الطيِّبِ في قولِهِ :

وَأكْبِــرَ نـفْسِيْ عــنِ جَــزاءٍ بِغِــيْبَــةٍ
وَكِــلُّ اغْتِيَـابٍ جُهْــدُ مَنْ لاَ لَــهُ جَهْــدُ

وَهُوَ مُسْتَسْهَلُ الكُلَف إذا لَمْ يَقْهَرْ نَفْسَهُ عنه برادِعٍ كَافٍ وَزَاجر سَادٍّ

تَلبّطَ بمَعَارِّةِ وَتَخّبَط بمَضَارِّهْ فَهلَكَ وَأَهْلَكَ ولذلك يَقُولُ النبي صلى الله عليه وسلم « إنَّ دِمَاءَكُم وأمْوَالَكُم وأعْرَاضَكم عَلَيْكُمْ حَرَامٌ » فَجَمَع النبي صلى الله عليه وسلم في الحُرْمَةِ بَيْنَ سَفكِ الدّمِ ، وَهَتْكِ العِرْضِ ، لِما فِيْهِ مِنْ إيْغَارِ الصُّدُورِ بالحِقْدِ وإبْدَاءِ الشُّرورِ وإظْهارِ البَذاءِ .

قَالَ بعْضُ الحُكَمَاءِ : إنَّما هلَكَ الناسُ بفُضُولِ الكَلامِ وَفُضُولِ المالِ .

وَأمَّا العِفّة عن المَأْثَمِ فَنَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا الكَفُّ عن المُجَاهَرَةِ بالظُّلْمِ وَالثَّانِيْ زَجْرُ النَّفْسِ عن الاسْرَارِ بالخِيَانَةِ فَامَّا المُجَاهَرَةُ بالظُّلْمِ فَعُتُوٌّ مُهْلِكٌ ، وَطُغْيَانٌ مُتْلِفٌ لِلمُجاهِرْ .

قالَ اللهُ تَعالى ﴿ وَلا يَحِيْقُ المكرُ السَّيّء إلا بأهْلِه ﴾ رُوِيَ عَنْ النَّبي صَلّى اللهُ عَليهِ وسَلمِ أنهُ قَالَ لا تَمْكُرُوْا وَلا تُعِيْنُوا مَاكِراً فَانّ الله تَعالى يَقُول ﴿ وَلا يَحِيْقُ الْمكرُ السَّيءُ إلاّ بأهلِهِ ﴾ وَلا تَبْغُوا وَلا تُعِيْنُوا بَاغِياً فإنّ اللهَ يَقُول ﴿ انَّمَا بَغْيُكُم على أنفسِكُم ﴾ .

وَالبَاعِثُ عَلى المجاهَرَةِ بالظّلْمِ الجُرْاةُ والقَسْوَةُ ، وَالصَّادُّ عَنْ ذلك رُؤ يَةُ آثارِ غَضَبِ اللّهِ تَعالى في الظَّالِمين ، وَأنْ يتَصَوَّرَ عَوَاقِبَ ظُلمِهم وأما الاسْتِسْرَارُ بالخِيَانَةِ فدَنَاءةٌ ولآمَةٌ .

وأمَّا النَزَاهَةُ فَنوْعَانِ أَحدُهُمَا النَّزَاهَةُ عن المطَامِعِ الدَّنِيَّةِ ، وَالثَّانِيْ زَجْرُ النَّفِسْ عَن الإسَرارِ بالخِيَانَةِ فأما المُجَاهَرَةُ بالظُّلمِ فَعُتُوٌّ .

شِعَرًا :

عَـلَيْـكَ بِبِـرِّ الـوَالِـدَيْـنِ كِلَيْـهِـمَـا
وَبِـرِّ ذَوِيْ الـقُـرْبَى وَبِـرِّ الأَبَـاعِـدِ

وَلَا تَـصْـحَـبَـنْ إِلَّا تَـقِـيًّـا مُـهَـذَّبـاً
عَـفِيْـفَـاً زَكِّـيـاً مُـنْـجِـزَاً لِـلْمَـوَاعِـدِ

وَقَـارِنْ إِذَا قَـارَنْـتَ حُـرّاً مُـؤَدَّبـاً
فَتىً من بَنِي الأَحْـرَارِ زَيْنِ المَشَـاهِـدِ

وَكُـفَّ الأَذَى وَاحْفَظْ لِسَـانَـكَ واتَّقِـي
فَـدَيْتُـكَ في وُدِّ الخلِيْـلِ المُسَـاعِـدِ

وَغُضَّ عَنْ المَكْـرُوهِ طَـرْفَـكَ وَاجْتَنِبْ
أَذَى الجَارِ وَاسْتَمْسِكْ بِحَبْلِ المَحَامِـدِ

وَكُنْ وَاثِقـاً بـاللهِ في كُـلِّ حَـادِثٍ
يَصُنْـكَ مَدَى الأَيـامِ مِنْ شَرِّ حَـاسِـدِ

وَبِـالـلّهِ فَاسْتَـعْـصِـمْ وَلَا تَـرْجُ غَيْـرَهُ
وَلَا تَـكُ لِلنَّعْـمَـاءِ عَنْـهُ بِـجَـاحِـدِ

وَنَافِسْ بِبَذْلِ الْمَـالِ في طَلَبِ العُلَى
بِهِمَّـةِ مَحْـمُـودِ الـخَـلَائِقِ مَـاجِـدِ

وَلَا تَبْنِ في الـدُّنْيَـا بِـنَـاءَ مُؤَمِّـلٍ
خُـلُودَاً فَـمَـا حَـيٌّ عَلَيْـهَـا بِـخَـالِـدِ

وَكُـلُّ صَـدِيْـقٍ لَـيْسَ لِـلَّهِ وُدُّهُ
فَنَـادِ عَلَيْـهِ هَـلْ بِـهِ مـن مُـزَايِـدِ

اللَّهُمَّ اسْتُرْ مَا بَدَا مِنَّا مِنْ العُيُوبِ وَأَمِّنَّا يَوْمَ الشَدَائِدِ والكُرُوبِ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمين الأحْيَاءِ منهم والميتين ، بِرَحْمَتِك يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمين وصلى اللهُ على مُحَمّدٍ وعلى آلهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

(فَصْــلٌ)

في بر الوالدين وتحريم عقوقهما

البرُّ : الصِّلةُ والحَسَنة وَالخَيْرُ ، وفي المطالِع في قَوْلِه صَلى الله عليه وسلم « وانَّ الصِّدْقَ يَهْدِيْ الى البِرِّ » البِرُّ اسْمٌ جَامِعٌ لِلْخير ، وَعَقَّ الوَلَدُ أَباهُ اذَا آذَاهُ وَعَصَاهُ وَخَرَجَ عليهِ : برُّ الوَالِدِين فَرِيْضَةٌ لاَزِمَة وَعُقُوقُهما حَرَامٌ ، وَلاَ يُنْكَرُ فَضْلَ الوَالِدين إلا المتوَغِّلُ في النَّذَالةِ وَاللآمَةِ .

وَلَنْ يَسْتَطِيْعَ الأَبْنَاءُ وَالبَنَاتُ مُجازَاةَ الآبَاءِ والأُمَّهاتِ على مَا قَامُوا به نَحْوَهُم من الطُّفُولَةِ إلى الرُّجُولَةِ من عَطْفٍ وَرِعَايَةٍ وَتَرْبِيَةٍ وَعِنَايَةٍ إلا أنْ يَجِدَ الوَلَدُ الوَالِدَ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ كما في حَدِيْثِ أبي هريرة قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « لا يَجْزيْ وَلَدٌ وَالِدَهُ إلا أنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ » رَواهُ مُسْلِمٌ .

فَشُكْرُ المُنْعِمِ وَاجِبٌ ، وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ على العِبَادِ نِعَمٌ ، لا تُحْصَى كَمَا قالَ تَعَالى ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ من ذَلِكَ نِعْمَةُ الخَلْقِ وَالإِيْجَادِ ، وَجَعَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلوَالِدَيْنَ نِعْمَةَ الايْلاَدِ وَالتَّرْبِيَةِ الصَّالِحَةِ ، وَالعِنَايَةِ التَّامَّةِ بالأَوْلاَدِ ، وَأَكْبَرُ الخَلْقِ وَأَعْظَمُهم نِعْمَةً على الانْسَانِ بَعْدَ رُسُلِ اللّهِ وَالِدَاهُ اللذانِ جَعَلَهُما اللهُ سَبَباً لِوُجُودِهِ وَاعْتَنَيا بِهِ مُنْذُ كَانَ حَمْلاً إلى أَنْ كَبِرَ .

فَأُمُّهُ حَمِلَتْهُ شُهُوْراً تِسْعاً في الغَالِبِ تُعَانِي بِهِ في تلك الأَشْهُرِ مَا تُعَانِيْ من آلامٍ من مَرَضٍ وَوَحَمٍ وَثِقَلٍ فإذا آنَ وَقْتُ الوَضْعِ وَأَجَاءَها المخَاضُ ، شَاهَدَتْ المَوْتَ ، وَقَاسَتْ مِنْ الآلامِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيْمٌ فَتَارَةً تَمُوْتُ ، وَتَارَةً تَنْجُو وَيَا لَيْتَ الألم وَالتَّعَبَ يَنْتَهِيْ بالوَضْعِ كانَ الأَمرُ سَهْلاً وَلَكِنْ يَكْثُرُ النَّصَبُ وَيَشْتَدُّ بَعْدَهُ قالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهَا ﴾ ثُمَّ تُرْضِعُهُ حَوْلَينِ كَامِلَيْنِ غَالِباً فَتَقُومُ بِهِ مُثْقَلَةً وَتَقْعُدُ بِهِ مُثْقَلَةً ، تَضِيْقُ أَحشَاؤُهَا وَقْتَ حَمْلِهِ بالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ . وَتَضْعُفُ عِنْدَ الوَضْعِ أَعْضَاؤُها .

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ صِيَاحٌ باللَّيْلِ يَحْرِمُ الوَالِدَيْنِ النَّوْمَ ، وَكَذَلِكَ بِالنَّهَارِ يُقْلِقُ به رَاحَتَهُما ، وَيُتْعِبُ قَلْبَيْهِمَا ، وَيَذْرِفُ دُمُوعَهُما ، وَمَرَضٌ يَعْتَرِي الوَلَدَ مِن وَقْتٍ لآخَرَ ، تَنْخَلِعُ لَهُ قُلُوبُهُمَا إنْخِلاَعاً وَتَنْهَدُّ بِهِ أَبْدَانُهُمَا هَدّاً .

وَتَعَهُّدٌ مِنَ الأُ لِجِسْمِهِ بالغَسْلِ ، وَلِثِيَابِهِ بالتَّنْظِيْفِ ، وَلافْرَازَاتِهِ بالازالةِ ، لا يَوْماً وَلاَ يَوْمَيْنِ ، وَلاَ شَهْراً ولا شَهْرَيْنِ وَلاَ سَنَةً وَلاَ سَنَتَيْنِ هِيَ بِهِ لَيْلُهَا وَنَهارُهَا في مَتَاعِبَ وَمَشَاقٍ ، تَصْغُرُ بِجَانِبِهَا مَتَاعِبُ المُؤَبَّدِيْنَ في الأَعْمَالِ الشَّاقةِ .

يُضَافُ إلى ذَلِكَ امْتِصَاصُهُ دَمَها الذِي هُوَ اللَّبَنُ مُدَّةَ الرَّضَاعِ ، وَلَوْ لم يَكُنْ مِنْهُ لِهَدْمِ بَدَنِهَا وَإِضْعَافِهِ وَاذْهَابِ قُوَّتِهَا إِلَّا هَذَا الإِمْتِصَاصُ لَكَفَى .

فَإِذَا شَبَّ وَبَرَزَتْ أَسْنَانُه ، وَقَوِيَتْ مِعدَتُـه على قَبُولِ الطَّعَامِ وَهَضْمِهِ وَانْفَتَحَتْ شَهَوَاتُه لَهُ ، انْفَتَحَ لِوَالِدَيهِ بَابُ الفِكر والكَدِّ لِجَلْبِ

طَعَامِهِ وَشَرابِهِ وَسَائِر شُؤونِهِ ، وَرُبَّما احْتَملا أَلَم الغُرْبَةِ والسَّفرِ إلى بَلَدٍ بَعِيْدٍ لِطَلَبِ المَعِيْشَةِ لِلأَوْلَادِ .

وَكَثِيْراً مَا يُضَحّي الوَالِدَانِ بِرَاحَتِهِمَا في سَبِيْلِ رَاحَةِ الأَبْنَاءِ وَالبَنَاتِ . وَالطِّفْلُ يَعْرِفُ أمَّهُ وَيُحِبُّها قبلَ كُلِّ أَحَدٍ فَإِذَا غَابَتْ صَاحَ حَتَّى تَأْتِيَهُ وإذا أعْرَضَتْ عنه دَعَاهَا وَنَاجَاهَا بمَا يَقْدِرُ عَلَيهِ من كَلَامٍ أو غَيْرِهِ وَإِذَا أَصَابَهُ شَيءٌ يُؤْلِمُهُ اسْتَغَاثَ وَنَادَاهَا ، يَظُنُّ أَنَّ الخَير كُلَّهُ عِندَهَا وأَنَّ الشَّرَّ لا يَخلُصُ إليه مَا دَامَتْ تَضُمُّه على صَدْرِهَا وَتَرْعَاهُ بِعَيْنِهَا وَتَذُبُّ دُوْنَهُ بِيَدَيْهَا .

وَلذَلِكَ هِيَ مُقَدَّمَةٌ فِي الحَضَانَةِ إذَا فَارَقَهَا زَوْجُهَا وَلَمْ تَتَزَوَّجْ حتى يُمَيِّزَ وَيَخْتَارَ مَنْ شَاءَ مِنْهمَا كَمَا في حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ أَنَّ امْرَأَة قَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ انَّ ابْنِيْ هَذَا كانَ بَطْنِي له وِعَاءٌ ، وَحَجْرِيْ لَهُ حِواءٌ ، وَثَدْيِي له سِقَاءٌ ، وزَعَمَ أَبُوهُ أنه يَنْتَزِعُهُ مِنِّيْ فقَالَ « أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكحِيْ » رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبو دَاوُدَ .

ثُمَّ الوَلَدُ لا يُحِبُّ بَعْدَ أُمِّه إلا أَبَاهُ الذِي إذَا دَخَل هَشَّ وَبَشَّ به وَإِنْ خَرجَ تَعَلَّقَ بِهِ وإذَا حَضر قَعَدَ على حَجْرِهِ ، مُسْتَنِداً على صدرِهِ ، وإذا غَابَ سَأَلَ عنه وانْتَظَرَهُ ، يَرى أَنَهُ إذا رَضِيَ أعْطَاهُ ما يُرِيْدُ وإذَا غضِبَ ضَربَهُ وَأَدَّبَهُ ، يُخَوِّفُ مَنْ يُؤْذِيْهِ بِأَبِيْهِ ، وَأَيُّ حُبٍّ واحْتِرَامٍ بَعْدَ هَذا ، وَلَكِنْ يَا لِلأَسَفِ سَرْعَانَ مَا يَنْسَى الجَمِيْلَ وَيُنْكِرُ المَعْرُوفَ وَيَلْتَفِتُ إلى زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ .

وَلِذَلِكَ لَا يَحْتَاجُ الآبَاءُ إلى تَوْصِيَةٍ بالأَبْنَاءِ إنَّمَا يَحْتَاجُ الأَوْلَادُ إلى اسْتِجَاشَةِ وُجْدَانِهِم بِقُوَّةٍ لِيَذكُروا وَاجِبَ وَالِدَيْهِم نَحْوَهُم .

شـعراً :

قَضَى اللّهُ أَنْ لاَ تَعْبُدوا غَيْرَهُ حَتْماً
فَيَا وَيْحَ شَخْصٍ غَيْرَ خَالِقِهِ أَمَّا
وَأَوْصَاكُمُوْا بِالوَالِدَيْنِ فَبَالِغُوا
بِبِرِّهِمَا فَالأَجْرُ في ذَاكَ وَالرُّحْمَا
فَكَمْ بَذَلاَ مِن رَأْفَةٍ وَلَطَافَةٍ
وَكَمْ مَنَحَا وَقْتَ احْتِيَاجِكَ مِنْ نُعْمَا
وَأُمُّكَ كَمْ بَاتَتْ بِثِقْلِكَ تَشْتَكِيْ
تُوَاصِلُ مِمَّا شَقَّهَا البُؤْسَ وَالغَمَّا
وَفي الوَضْعِ كَمْ قَاسَتْ وَعِنْدَ وِلاَدِهَا
مُشِقّاً يُذِيْبُ الجِلْدَ وَاللَّحْمَ وَالعَظْمَا
وَكَمْ سَهِرَتْ وِجْداً عَلَيْكَ جُفُونُهَا
وَأَكْبَادُهَا لَهْفاً بِجَمْرِ الأَسَا تَحْمَى
وَكَمْ غَسَّلَتْ عَنْكَ الأذى بِيَمِيْنِهَا
حُنُوّاً وَاشْفَاقاً وَأَكْثَرَتِ الضَّمَّا
فَضَيَّعْتَهَا لمَّا أَسَنَّتْ جَهَالَةً
وَضِقْتَ بِهَا ذَرْعاً وَذَوَّقْتَهَا سُمَّا
وَبِتَّ قَرِيْرَ العَيْنِ رَيَّانَ نَاعِماً
مُكِبّاً على اللَّذَاتِ لا تَسْمَعُ اللَّوْمَا
وَأُمُّكَ في جُوْعٍ شَدِيْدٍ وَغُرْبَةٍ
تَلِيْنُ لها مِمَّا بِهَا الصَّخْرَةُ الصَّمَا
أَهَذَا جَزَاهَا بَعْدَ طُوْلِ عَنَائِهَا
لأَنْتَ لَذُو جَهْلٍ وَأَنْتَ إِذاً أَعْمَى

اخــر :

فــلا تُـطِعْ زَوْجَـةً في قَـطْعِ وَالِـدَةٍ
عليـكَ يَا ابْنَ أَخِيْ قَـدْ أَفْنَتِ العُمُـرَا

فَـكَيْـفَ تُنْـكِـرُ أُمَّـاً ثُقْـلُكَ احْتَـمَلَتْ
وَقَـدْ تَمَـرَّغْتَ في أَحْشَـائِهَـا شُهُـرَا

وَعَـالَجَتْ بـكَ أَوْجَـاعَ النِّفَاسِ وَكَمْ
سُـرَّتْ لمَّـا وَلَـدَتْ مَـوْلُـودَهَـا ذَكَـرَا

وَأَرْضَـعَتْـكَ إلـى حَـوْلَيْـنِ مُـكْـمَـلَةً
في حَجْرِهَا تَسْتَقِي من ثَـدْيِهَا الـدُّرَرَا

وَمِنْـكَ يُنْجِسُـهَـا مـا أَنْتَ رَاضِـعُـهُ
مِـنْهَـا وَلَا تَـشْتَـكِي نَـتْنـاً وَلَا قَـذَرَا

وَقُـلْ هُـوَ الـلهُ بـالآلَافِ تَقْـرَؤُهَـا
خَـوْفـاً عَلَيْـكَ وَتُـرْخِي دُوْنَـكَ السُّتُـرَا

وَعَـامَـلَتْـك بـإِحْـسَـانٍ وَتَـرْبِـيَـةٍ
حَتَّى اسْتَوَيْتَ وَحَتَّى صِرْتَ كَيْفَ تَرَى

فَـلَا تُـفَضِّـلْ عَـلَيْهَـا زَوْجَـةً أَبَـداً
وَلَا تَـدَعْ قَلْبَهَـا بـالقَهْـرِ مُنْكَسِـرَا

وَالـوَالِـدُ الأَصْـلُ لا تُنْكِرْ لِتَـرْبِيَـةٍ
وَاحْفَـظْهُ لا سِيَّمـا إِنْ أَدْرَكَ الكِـبَـرَا

فَمَـا تُؤَدِّي لَـهُ حَـقّـاً عَلَيْـكَ وَلَـوْ
عَلَى عُيُـونِـكَ حَـجَّ البَيْتَ وَاعْتَمَـرَا

اللهم وَفِّقْنَا لحُبِّكَ وَحُبِّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبِّ العَمَلِ الذي يُقَرِّبُنَا إلى

حُبِّكَ وَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَاعْمُرْ أَوْقَاتَنَا بطَاعَتِـكَ وَحُلْ بَيْنَنَـا وَبَيْنَ مَعَاصِيْكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَـا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِـرَحْمَتِكَ يَـا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَقَدْ أَمَرَ اللّهُ جَلَّ شَأْنُهُ بالأحْسَانِ إلى الوَالِدَيْنِ في آياتٍ مِن القُرْآنِ الكَريم قَالَ تَعَالَى ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أن لا تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ وبالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أو كِلاَهُمَا فلاَ تَقُلْ لهما أفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيْماً•وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ من الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيْرا ﴾ وقَالَ تَعالَى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إليَّ المَصِيْر ﴾ .

وَقَدْ فَصَّلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَجِبُ مِن الإحْسَانِ إلَى الوَالِدَيْنِ بِقَوْلِهِ ﴿ إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ ﴾ الآيَتَيْنِ المَعنَى إذَا وَصَلَ الوَالِدَانِ أَوْ أَحَدُهُمَا إلى الكِبَرِ حَالَ الضَّعْفِ وَالعَجْزِ وصَـارَا عِنْدَكَ في آخِرِ العُمُرِ كَمَا كُنْتَ عِنْدَهُمَا في أَوَّلِهِ وَجبَ عَلَيْكَ أَنْ تَحْنُو عَلَيْهِمَا وَتُشْفِقَ عَلَيْهِمَا وَتَلَطَفَ لَهُمَا وَتُعَامِلَهُمَا مُعَامَلَةَ الشَّاكِرِ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ على أنَّ الفَضْلَ لِلْمُتَقَدِّم .

وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ بِأَنْ تَتَّبِعَ مَعَهُمَا أُمُوْراً خَمْسَةً أَوَّلاً أَلاَّ تَتَأَفَّفَ مِنْ شَيءٍ تَرَاهُ أَوْ تَشُمُّه مِن أَحَدِهِمَا أَوْ مِنْهُمَا مِمَّا يَتَأَذَّى بِهِ النَّاسُ ، وَلَكِنْ اصْبِرْ عَلى ذَلِكَ مِنْهُمَا وَاحْتَسِبْ الأَجْرَ عَلَيْهِ مِنْ اللّهِ جَلَّ وَعَلا كَمَا صَبرَا عَلَيْكَ في صِغَرِكَ وَاحْذَرْ الضَّجَرَ وَالملَلَ القَلِيْلَ وَالكَثِيْرَ وَعَلَيكَ بالرِّفقِ واللِّيْنِ مَعَهُمَا واللهُ لا يُضِيْعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً .

ثانياً أن لا تُنَغِّصَ ولا تُكدّرَ عَليْهِمَا بِكَلَامٍ تَزْجُرُهُما بِهِ وفي هذا مَنْعٌ مِنْ اظْهَارِ المخَالَفَةِ لَهُمَا بالقَولِ عَلى سَبِيْلِ الرَّدِ عَلَيْهِمَا والتَّكْذِيْبِ لَهُما .

ثَالِثاً : أَنْ تَقُولَ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيْماً أَيْ حَسَناً طَيِّباً مَقْرُوْناً بالاحْتِرَامِ وَالتَّعْظِيْمِ مِمَّا يَقْتَضِيْهِ حُسْنُ الأَدَبِ وَتُرْشِدُ إِلَيْهِ المُرُوءة كَأَنْ تَقُولَ يا أَبَتَاه أو يَا وَالدِيْ ويَا أُمَّاهُ أَو يَا وَالِدَتيْ وَلاَ تَدْعُوهُمَا بأَسْمَائِهِمَا وَلاَ تَرْفَعْ صَوْتَكَ أَمَامَهُما وَلاَ تُحَدِّقْ فِيْهِمَا بِنَظَرِكَ بَلْ يَكُونُ نَظَرُكَ إِلَيْهِمَا نَظَرَ لُطْفٍ وَعَطْفٍ وَتَوَاضُعٍ .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « لَمْ يَتْلُ القُرْآنَ مَنْ لم يَعْمَلْ به ، وَلَم يَبَرَّ وَالِدَيْهِ مَنْ أَحَدَّ النَّظَرَ إِلَيْهِمَا في حَالِ العُقُوقِ أُولَئِكَ بُرَآءُ مِنِّيْ وَأَنَا مِنْهُم بَرِيْءٌ » رَواه الدار قُطنِيّ .

وَأَخْرَجَ ابنُ أَبِي حَاتِم عَنْ عُرْوَةَ في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ واخْفِضْ لَهُما جَنَاحَ الذُّلِّ مِن الرَّحْمَةِ ﴾ قَالَ إِنْ أَغْضَبَاكَ فَلا تَنْظُرْ إِلَيْهِمَا شَزَرًا ، فإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يُعْرَفُ بِهِ غَضَبُ المَرْءِ شِدَّةُ نَظَرِهِ إِلى مَنْ غَضِبَ عَلَيْهِ .

وَأَخْرَجَ ابنُ أبي شَيْبَةَ عن الحَسَنِ أَنَّهُ قِيْلَ لَهُ إِلى مَا يَنْتَهِيْ العُقُوقُ . قالَ أَنْ يَحْرِمَهُما وَيَهْجُرَهُمَا وَيُحِدَّ النَّظَرَ إِلَيْهِمَا . واعْلَمْ أَنَّ النَّظَرَ إليهما بِعَيْنِ الحُنُوِّ وَالعَطْفِ وَالشَّفَقَةِ وَالتَّفَقُدِ لما يَكْرَهَانِ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ كَمَا أَنَّ غَضَّ الطَّرفِ عَنْهُمَا كَرَاهَةَ عُقُوقٌ قَالَ الشَّاعِرُ في ابْنِهِ :

يَــوَدُّ الــرَّدَى لِـيْ مِـن سَـفَـاهَـةِ رَأْيِـهِ
وَلَــوْ مُــتُّ بَــانَـتْ لِــلعَـدُوِّ مَـقَـاتِـلُـهْ
إِذَا مَــا رَآنِــيْ مُـقْـبِــلاً غَضَّ طَــرْفَــهُ
كَــأَنَّ شُـعَــاعَ الشَّـمْسِ دُوْنِي يُـقَــابِـلُـهْ

رَابِعاً : أَنْ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَهُما بِرَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ كِفَاءَ رَحْمَتِهِمَا لَكَ وَجَمِيْلِ شَفَقَتِهِمَا عَلَيْكَ .

خَامِساً : أَنْ تَتَواضَعَ لَهُمَا وَتَتَذَلَّلَ وَتُطِيعَهُمَا فِيْمَا أَمَرَاكَ بِهِ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً لِلَّهِ وَتشْتَاقَ وَتَرْتَاحَ إلى بَذْلِ مَا يَطْلُبَانِ مِنْكَ مِن حُطَامِ الدُّنيَا الفانِيَةِ رَحْمَةً مِنْكَ بِهِمَا وَشَفَقَةً عَلَيْهِمَا إِذْ هُمَا قد احْتَاجَا إلى مَنْ كَانَ أَحْوَجَ الناسِ إليهِمَا أَيَّامَ كَانَ في غَايَةِ العَجْزِ عن أيِّ مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِه بِحَيْثُ لو غَفَلَ عَنْهُ وَالِدَاهُ قَلِيْلاَ مِن الزَّمَنِ لَهَلَكَ .

وَعَلى الجُمْلَةِ فَقَدْ أَكَّدَ جَلَّ وَعَلا التَّوْصِيَةَ بِهِمَا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيْرَة ، وَكَفاهُمَا أَنْ شَفَعَ الاحْسَانَ إِلَيْهِمَا بِتَوْحِيْدِهِ ، وَنَظَمَهُمَا في سِلْكِ القَضَاءِ بِهِمَا مَعاً ، وَقَدْ وَرَدَ في برِّ الوَالِدَيْنِ أَحَادِيْثُ كَثيرةٌ ، مِن ذَلِك أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم يَسْتَأْذِنُه في الجِهَادِ مَعَهُ فقالَ : أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ : فَفِيْهِمَا فَجَاهِدْ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مُسْلِم وَغَيْرُه لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَاهُ إلا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ ومن ذلك ما رُوِيَ عَن ابنِ مَسْعُودٍ قالَ سَأَلْتُ رَسُوْلَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ قال الصَّلاةُ على وَقْتِهَا قُلتُ : ثم أيٌ قَالَ برُّ الوَالِدَيْنِ قلتُ ثم أيٌّ قالَ الجِهَادُ في سَبِيْلِ اللهِ .

وَعَن أبي هُريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ « رَغمَ أنفُ ثم رَغِمَ أنفُ ثم رَغِمَ أنفُ مَن أدرَكَ أبَوَيْهِ عِنْدَ الكِبَرِ أحَدُهما أو كِلاَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَن عبدِ الله بن عَمْرو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما قَالَ أَقْبَلَ رَجُلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقَال أُبَايِعُكَ على الهِجْرَةِ وَالجِهَادِ ابْتغِيْ الأَجْرَ مِن اللهِ تَعَالَى فقَالَ « فهَلْ مِن وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ » ؟ قالَ نَعَمْ بَلْ كِلاَهُما ، قَالَ « فَتَبْتَغِيْ الأجْرَ مِن اللّهِ تَعَالَى » ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ « فَارْجِعْ إلى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهِمَا » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَأَخْرَجَ ابنُ مَاجَة عن أبي أُمَامَة رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَجلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا حَقُّ الوَالِدَيْنِ على وَلَدِهِمَا ؟ قالَ « هُمَا جَنَّتُكَ وَنارُكَ » .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « مَن سَرّهُ أنْ يُمَدَّ في عُمْرِهِ وَيُزَادَ في رِزْقِهِ فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْهِ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالبيهقي بِسَنَدٍ رجَالهُ رَجَالُ الصحيح ، وَأَصْلُه في الصَّحِيْحَيْنِ باخْتِصَارٍ .

وَعَنْ عَبْدِ اللّهُ بن عَمْرو رَضِيَ اللهُ عنهُما قالَ جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللهِ صَلى الله عليه وسلم فقالَ : جِئْتُ أُبَايِعُكَ على الهِجْرَةِ وَتَرَكْتُ أَبَويَّ يَبْكِيَانِ فَقَال إرْجِعْ اليْهِمَا فاضْحِكْهُما كَمَا أبكيتَهُما ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد .

قالَ النَّاظِمُ :

وَيَحْسُنُ تَحْسِيْنُ لِخُلْقٍ وَصُحْبَةٍ
وَلاَ سِيَّمَا لِلْوَالِدِ المُتَأَكِّدِ

وَلَـو كَـانَ ذَا كُفْـرٍ وَأَوْجَـبَ طَـوْعُـهُ
سِـوَى فـي حَـرَامٍ أَوْ لأَمْـرٍ مُـؤَكَّـدِ
كَـتِـطْلاَبِ عِـلْمٍ لا يَـضُـرُّهُـمَـا بـهِ
وَتَــطْلِيْـقِ زَوْجَـاتٍ بِـرَأْيٍ مُـجَـرَّدِ
وَأَحْسِنْ إلـى أَصْحَـابِـهِ بَـعْـدَ مَـوْتِـهِ
فَـهَـذَا بَـقَـايَـا بِـرِّهِ الـمُـتَـعَـوَّدِ

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : « ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لا شَكَّ فِيْهِنَّ دعْوَةُ المظلُوم ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ ، وَدَعوَةُ الوَالِدِ على وَلَدِهِ » وَعَن وَهْبِ ابنِ مُنَبِّه قالَ : إنَّ اللهَ تَعَالى أَوْحَى إلى مُوْسَى صَلواتُ اللهِ وسلامه عليه يَا مُوْسَى وَقِّرْ وَالِدَيْكَ ، فَإِنَّ مَنْ وَقَّرَ وَالِدَيْهِ مَدَدْتُ في عُمْرِهِ ، وَوَهَبْتُ له وَلَداً يُوَقِّرُهُ وَمَنْ عَقَّ وَالدَيْهِ قَصَّرْتُ في عُمْرِهِ وَوَهبتُ لَهُ وَلَدَاً يَعُقّهُ .

وَذَكَرَ في الآدَابِ الكُبْرَى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال إنَّما رَدَّ اللهُ عُقوبةَ سُليْمَانَ عن الهُدْهُدِ لِبرِّهِ كَانَ بأمِّهِ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ : إنَّمَا صَرَفَ سُلَيْمَان عن ذَبْحِ الهُدْهُدِ إنَّهُ كَانَ بَارّاً بِوَالِدَيْهِ يَنْقُلُ إلَيهِمَا الطَّعَامَ فَيَرْزُقُهمَا انتهى .

وَقِصَّةُ الهُدْهُدِ على مَا قِيْلَ عَنْهَا هِيَ أَنَّهُ لَمَّا تَوَعَّدَهُ سُلَيْمَانُ بِقَوْلِهِ : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيْداً أَوْ لأَذْبَحنَّه أَوْ لَيَأْتِيَنّي بِسُلطَانٍ مُبِيْنٍ ﴾ وَذلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَقدَهُ لأَجْلِ المَاءِ ، فَدَعَا سُلَيْمَانُ عَرِيْفَ الطَّيْرِ وَهُوَ النَّسْرُ فَلَمْ يَجِدْ عِندَهُ عِلمَهُ .

ثم قَال لِسَيِّدِ الطَّيْرِ وَهُوَ العُقَابُ عَلَيَّ بِهِ فَارْتَفَعتْ فَنَظَرتْ فَإِذَا هُوَ مُقْبِلٌ فَقَصَدَتْهُ فَنَاشَدَهَا الله ، وقالَ بِحَقِّ الذي قَوَّاكِ وَأَقْدَرَكِ عَلَيَّ إِلَّا رَحِمْتِيْنِيْ ، فَتَرَكَتْهُ وَقَالَتْ : ثَكِلَتْكَ أمكَ ، إِنَّ نَبِيَّ اللهِ حَلَفَ لَيُعَذبَنَّكَ قَالَ : وَمَا اسْتَثنَى ؟ قَالَتْ بَلى قال ﴿ أوليَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِيْنٍ ﴾ .

فَلَمَّا قَرُبَ مِن سُلَيْمَانَ أَرْخَى ذَنَبهُ وَجَنَاحَيْهِ يَجُرُّهُمَا عَلى الأَرْضِ تَوَاضُعاً فلمَّا دَنا مِنْهُ أَخَذَ رَأْسَهُ فَمَدَّهُ إليهِ، فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ اذْكُرْ وُقُوفَكَ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ ، فَارْتَعَدَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَعَفَا عنه انتهى .

واللهُ أَعْلَمُ وَصَلى الله على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْــلٌ)

وَبِرُّ الأُمِّ مُقَدَّمٌ على بِرِّ الأَبِ لِمَا سَيَأْتِيْ مِن الأَحَادِيْثِ ، وَذَلِكَ أَنْهَا تَنْفَرِدُ عن الأَبِ بِأَشْيَاءَ مِنْهَا مَشَقَّةُ الحَمْلِ وَصُعُوبَةُ الوَضْعِ ، وَصُعوبَةُ الرَّضَاعِ وَكَثْرَةُ الشَّفَقَةِ وَالخِدْمَةِ والحُنُوِّ .

فَعَن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِيْ ؟ قَالَ : « أُمُّكَ » قَالَ ثم مَنْ ؟ قَالَ « أُمُّكَ » قَالَ : ثم مَنْ ؟ قَالَ : « أُمُّكَ » قَالَ : ثم مَنْ ؟ قالَ « أبُوكَ » .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : إِنِّيْ اشْتَهِيْ الجِهَادَ ولا أَقْدِرُ عليه . قَالَ « هل بَقِيَ مِن وَالِدَيْكَ أَحَدٌ » قالَ : أمّي ، قَال « قابِل اللّهَ في بِرِّهَا ، فإذا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَأَنْتَ حَاجٌ وَمُعْتَمِرٌ وَمُجَاهِدٌ » رَوَاهُ أَبو يَعْلَى والطَبَرانِي في الصَّغِيْرِ

وَالأَوْسَطِ ، واسْنَادُهُمَا جَيِّدٌ .

وَعَنْ طَلْحَةَ بنِ مُعَاوِيَةَ السُّلَمِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : أَتَيْتُ النبي صلى الله عليه وسلم فقلتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّيْ أُرِيْدُ الجِهَادَ في سَبِيْلِ اللهِ قَالَ : « أُمُّكَ حَيَّةٌ » قَلْتُ : نَعَم قَال النبي صلى الله عليه وسلم : « الْزَمْ رِجْلَهَا فثَمَّ الجَنَّةُ » رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ .

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ جَاهِمَة أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالَ : يَا رَسُوْلَ اللهِ أَرَدْتُ أن أَغْزُو ، وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيْرُكَ ، فَقَالَ « هَلْ لَكَ مِن أُمّ » ؟ قَالَ : نَعَمْ قال : « فَالزَمْهَا فَإِنَّ الجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا » رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَالنَّسَائِي وَاللفْظُ لهُ وَالحَاكِمُ وقَالَ صَحِيْحُ الاسْنَادِ .

وَرَوَاهُ الطَّبرانِيّ باسْنَادٍ جَيِّدٍ وَلَفْظُه قَال : أَتَيْتُ النبي صلى الله عليه وسلم اسْتَشِيْرُهُ في الجِهَادِ فَقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم « أَلَكَ وَالِدَانِ » قُلْتُ : نَعَمْ قَالَ « الْزَمْهُمَا فإِنَّ الجَنَّةَ تَحتَ أَرْجُلِهِمَا » .

وَعَنْ أَبي الدَّرْدَاءِ أنَّ رَجُلاً أَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّ لِيْ امْرَأَةً وإن أُمِّيْ تَأْمُرِنِي بطَلاَقِهَا ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ « الوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوابِ الجَنَّةِ » فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ هَذَا البَابَ أَوِ احْفَظه رَوَاهُ ابنُ مَاجَه والتّرْمِذي وَاللفظُ له .

وَعَنْ ابن عُمَر رَضِيَ اللهُ عنْهُما قَالَ كانَ تَحْتِيْ امرأةٌ أُحِبُّهَا وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُها ، فقالَ لِيْ : طَلِّقْها فَأَبَيْتُ فأتَى عُمَرُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فذكرَ ذلكَ لهُ ، فقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « طَلِّقْهَا » رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ والتّرْمِذيّ والنسَائِيّ وَابْنُ ماجه ، وَابْنُ حِبَّانَ في

صَحِيْحِهِ ، وَقَالَ التّرمذيّ : حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بن عَمْرو رَضِي اللهُ عَنْهما قَال قَال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « رِضَا الله في رِضَا الوالِدِ وَسَخطُ اللهِ في سَخَطِ الوَالِدِ » رَوَاهُ الترمذي وَرَجَّح وَقْفَهُ وابنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِه والحَاكِمُ وَقَالاَ صَحِيْحٌ علىشَرْطِ الشَّيْخَيْنِ .

عَنْ أَسْمَاءَ بنتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّيْ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ في عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلى الله عليه وسلم فاسْتَفتَيْتُ رسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم ، قُلْتُ : قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ ، أَفَأصِلُ أمِّي ؟ قال « نَعَم صِلى أُمَّكِ » رَوَاهُ البُخاري وَمُسْلِم .

قَالَ بَعْضُهم :

لَئِنْ كَانَ بِرُّ الوَالِدَيْنِ مُقَدَّماً
فَمَا يَسْتَوِي في بِرِّهِ الأَبُ وَالأُمُّ
وَهَلْ يَسْتَوِي الوَضْعَانِ وَضْعُ مَشَقَةٍ
وَوَضْعُ التِذَاذٍ ذَاكَ بُرْءٌ وَذَا سُقْمُ
إِذَا الْتَفَتَتْ نَحْوَ السَّمَاءِ بِطَرْفِهَا
فَكُنْ حَذِراً مِن أَنْ يُصِبْ قَلْبَكَ السَّهْمُ
وفي آيَةِ التَّأْفِيْفِ لِلْحُرِّ مُقْنِعٌ
وَلَكِنّه مَا كُلُّ عَبْدٍ لَهُ فَهْمُ

وَرَوَى وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ في حَدِيْثٍ طَوِيْلٍ أَنَّ فَتى كَانَ بَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَكَانَ يَحْتَطِبُ على ظَهْرِهِ فَإِذَا بَاعَه تَصَدَّقَ بِثُلُثِهِ وَأَعْطَى أُمَّهُ ثلثَهُ ، وَأَبْقَى لِنَفْسِهِ

ثُلُثَه ، فَقالَتْ لَهُ أُمُّه يَوْماً إني وَرِثْتُ مِنْ أَبِيْكَ بَقَرَةً فَتَرَكْتُها في البَقَرِ على اسْم اللَّهِ ، فَإذا أَتَيْتَ البَقَرَ فَادْعُهَا بِاسْم إلهِ إبْرَاهِيْم .

فَذَهَبَ فَصَاحَ بِهَا ، فَاقْبَلَتْ فَانْطَقَهَا اللَّهُ ، فَقَالَتْ : ارْكَبْنِي يَا فَتَى فَقَالَ الفَتَى : انَّ أُمِّي لَمْ تَأْمُرْنِي بِهَذَا فَقَالَتْ : أَيُّها البَرُّ بأمِّهِ لَوْ رَكِبْتَنِيْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَيَّ فانْطَلِقْ فَلَو أَمَرتَ الجَبَلَ أَنْ يَنْقَلِعَ مِنْ أَصْلِهِ مَعَكَ لَانقلَعَ لِبرِّكَ بأمِّكَ .

فَلَمَّا جَاءَ بِهَا قَالَتْ أُمُّهُ : بِعْهَا بِثَلاَثَةِ دَنَانِيْرِ عَلى رِضىً مِنِّيْ فَبَعَثَ اللَّهُ مَلَكاً فَقَالَ : بِكَمْ هَذِهِ ؟ قالَ بِثَلاَثَةِ دَنَانِيْرَ على رِضىً مِنْ أُمِّيْ ، قَالَ : لَكَ سِتَّةٌ ولا تَسْتَأْمِرْهَا ، فأَبَى وَعَادَ إلى أمِّهِ فأخبرَهَا فَقالَتْ : بِعْهَا بِسِتَّةٍ عَلى رِضىً مِنِّي ، فَجَاءَ الملكُ فَقَالَ خُذْ اثنَيْ عَشَرَ ولا تَسْتَأْمِرْهَا فأَبَى وَعَادَ إلى أمِّهِ فَأَخْبَرَهَا فقَالَتْ يَا بُنَيَّ ذَاكَ مَلَكٌ فَقُلْ لَهُ بِكَمْ تَأْمُرُنِي أَنْ أَبِيْعَها ؟ فَجَاء إِلَيْهِ فَقَالَ : يَا فَتَى يَشْتَرِيْ بَقَرَتَكَ هَذِهِ مُوْسَى بْنُ عِمْرَانَ لِقَتِيْلٍ يُقْتَلُ في بَنِيْ إسرَائِيْلَ .

وفي رِوَايَةٍ فَقَالَ لَهُ المَلكُ اذْهَبْ إلى أُمِّكَ وَقُلْ لَهَا امْسِكِيْ هَذِهِ البقَرَةَ فإنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلَيهِ السَّلامُ يَشْتَرِيْهَا مِنْكَ لِقَتِيْلٍ يُقْتَلُ في بَنِيْ اسْرَائِيْلَ فلا تَبِعْهَا إلا بِمِلءِ مَسْكِهَا دَنَانِيْرَ فَأَمْسَكِهَا وَقَدَّرَ اللهُ عَلَى بَنِيْ اسْرَائِيْلَ ذَبحَ تِلْكَ البَقَرَةِ بعَيْنِهَا فَمَا زَالُوا يَسْتَوْصِفُونَهَا حَتَّى وُصِفَتْ لَهُمْ تِلْكَ البَقَرةُ مُكافأةً لَهُ عَلى برِّهِ بِوَالِدَتِهِ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةً .

وَعَنْ أَسِيْرِ بنِ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذَا أَتى عليهِ أُمَرَاءُ اليَمَنِ سَأَلَهُم أَفِيْكُم أُوَيْسُ بنُ عَامِرٍ ؟ حَتَّى أَتَى عَلَيْهِ

فَقَالَ : أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ ؟ قالَ نَعَمْ قَالَ مِنْ مُرَادٍ ثم مِنْ قَرْنٍ ؟ قالَ نَعَمْ قَالَ فكانَ بكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إلاَّ مَوْضِعُ دِرْهَمٍ ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ لَكَ وَالِدَةٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُوْلُ : يَأْتِي عَلَيْكُم أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ اليَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثم مِنْ قَرْنٍ ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرِىءَ مِنْهُ إلاَّ مَوْضِعُ دِرْهَمٍ ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلى اللّهِ لأَبَرَّهُ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ ، فَاسْتَغْفِرْ لِيْ ، فقالَ لهُ عُمَرُ : أَيْنَ تُرِيْدُ ؟ قَالَ الكُوفَةَ قَالَ ألا أَكْتُبَ لَكَ إلى عَامِلِهَا ؟ .

قَالَ أَكُونُ في غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إليَّ ، فَانْظُرْ المَنْزِلَةَ التِيْ بَلَغَهَا هَذَا البَارُّ بِأُمِّهِ حتى كان مِن شَأْنِهِ أَنْ يُخْبِرَ عنه المُصْطَفى صلى الله عليه وسلم وأن يَقُولَ لِعُمَرَ إنِاسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فافْعَلْ إذا أتى ثم حِرْصُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى السُّؤَالِ عن أُوَيْسٍ لِيَطْلُبَ منه الاسْتِغْفَارَ لَهُ .

رَأَى ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا رَجُلاً قَدْ حَمَلَ أُمَّهُ على رَقَبَتِهِ وَهُوَ يَطُوفُ بهَا حَوْلَ الكَعْبَةِ فقَالَ يا ابْنَ عُمَرَ أَتُرَانِي جَازَيْتُهَا ؟ قالَ ولا بطَلْقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ طَلَقَاتِهَا وَلَكِنْ أَحْسَنْتَ واللهُ يُثِيْبُكَ عَلَى القَلِيْلِ كَثِيْراً .

وَأَخْرَجَ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ عَنْ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقُولُ انْطَلقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُم حَتَّى آوَاهُم المَبِيْتُ إلى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرْت صَخْرَةٌ مِن الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَليهم الغَارَ فقَالُوا : إنهُ لاَ يُنَجِّيْكُم مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إلا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُم قَالَ رَجُلٌ مِنْهُم :

اللَّهُمَّ كَانَ لِيْ أَبوانِ شَيْخَانِ كَبِيْرَانِ وَكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُما أَهْلاً ولا مَالاً فَنَأَىٰ بِي طَلَبُ الشَّجرِ يَوْماً فَلَمْ أَرُحْ عَلَيْهِمَا حتى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُما فَوَجَدتُهما نائِمَيْنِ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوْقِظَهُما فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ على يَدِيْ أَنْتَظِرُ اسْتِيْقاظَهُما حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ فاسْتَيْقَظَا فشَرِبَا غَبُوقهما .

اللَّهُمَّ إِنْ كُنتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فيه مِن هَذِهِ الصَّخْرَةِ فانْفرَجَتْ شَيئاً لا يَسْتَطِيْعُونَ الخُرُوْجَ مَعَهُ قَالَ الآخَرُ : اللَّهُمَّ كَانَتْ لِيْ ابْنَةُ عَمٍّ كانَتْ أَحبَّ الناسِ إليَّ فأرَدْتهَا على نَفْسِهَا فامْتَنَعَتْ مِنّيْ حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِن السِّنِيْن ، فَجَاءَتْنِيْ فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِيْنَ ومائةَ دِيْنارٍ على أن تُخْلِي بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ، فَفَعَلَتْ حَتَّى إذا قدِرْتُ عليها قالَتْ لاَ أُحِلُّ أنْ تَفُضَّ الخَاتِمَ إلا بِحَقِّهِ فَتَحَرَّجْتُ مِن الوُقُوْعِ عَلَيْهَا ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إليَّ ، وَتركْتُ الذَهَبَ الذي أَعْطَيْتُها .

اللَّهُمَّ انْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فَأفْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ فانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غيْرَ أَنَّهُم لا يَسْتَطِيْعُونَ الخُرُوجَ منها ، قالَ النبي صلى الله عليه وسلم وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجَراءَ وَأَعْطِيْتُهم أَجْرَهُم غَيْرَ رَجُل وَاحِدٍ تَرَكَ الذي لَهُ وَذَهَبَ ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرت مِنْهُ الأَمْوالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِيْنٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إليَّ أجْرِيْ فَقُلْتُ كُلُّ مَا ترى مِن أَجْرِكَ مِن الابلِ وَالبَقَرِ والغَنَمِ والرَّقِيقِ فقالَ يَا عَبْدَ اللهِ لا تَسْتَهْزِئْ بي فَقُلتُ إِنِّيْ لا أَسْتَهْزِئُ بِكَ ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فلم يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئاً .

اللهم إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَأَفْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ فانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُوْنَ ، والشَّاهِدُ مِن الحَدِيْثِ لِمَا نَحْنُ فِيْهِ قِصَّةُ الأَوَّلِ الذِيْ هُوَ البَارُّ بِوالِدَيْهِ .

قَالَ بَعْضُهم :

لأُمِّكَ حَقٌّ لَوْ عَلِمْتَ كَبِيْرُ
كَثِيْرُكَ يَا هَذَا لَدَيْهِ يَسِيْرُ
فَكَمْ لَيْلَةٍ بَاتَتْ بِثُقْلِكَ تَشْتَكِيْ
لَهَا مِنْ جَوَاهَا أَنَّةٌ وَزَفِيْرُ
وَفي الوَضْعِ لَوْ تَدْرِيْ عَلَيْكَ مَشَقَّةٌ
فَكَمْ غُصَصٍ مِنْهَا الفُؤَادُ يَطِيْرُ
وَكَمْ غَسَلَتْ عَنْكَ الأذى بِيَمِيْنِهَا
وَمِنْ ثَدْيِهَا شُرْبٌ لَدَيْكَ نَمِيْرُ
وَكَمْ مَرّةٍ جَاعَتْ وَأَعْطَتْكَ قُوْتَهَا
حُنُوّاً وَإِشْفَاقاً وَأَنْتَ صَغِيْرُ
فَضَيَّعْتَهَا لَمَّا أَسَنَّتْ جَهَالَةً
وَطَالَ عَلَيْكَ الأَمْرُ وَهُوَ قَصِيْرُ
فَآهاً لِذِيْ عَقْلٍ وَيَتَّبِعُ الهَوَى
وَوَاهاً لأَعْمَى القَلْبِ وَهُوَ بَصِيْرُ
فَدُوْنَكَ فَارْغَبْ في عَمِيْمِ دُعَائِهَا
فَأَنْتَ لِمَا تَدْعُوْ إِلَيْهِ فَقِيْرُ

واللّٰهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ .

(فَصْـــلٌ)

وَلَيْسَ بِرُّ الوَالِدَيْنِ مَقْصُوْراً عَلى الحَيَاةِ فَقَطْ فَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَبِيْ أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيْعَةَ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلى الله عليه وسَلم إذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلمَة فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرّ أبويَّ شَيءٌ أَبُرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا .

قَالَ : نَعَمْ الصَّلاَةُ عَلَيْهِمَا ، والاسْتِغْفَارُ لَهُمَا ، وَانْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ التِي لاَ تُوْصَلُ إلاَّ بِهِمَا وَإكْرَامُ صَدِيْقِهِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وابنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ ، وَزَادَ في آخِرِهِ ، قَالَ الرَّجُلُ : مَا أَكْثَرَ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ وَأَطْيَبَهُ قَالَ « فَاعْمَل بِهِ » .

وَعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيْقِ مَكَةَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ وَحَمَلَهُ عَلى حِمَارٍ كانَ يَرْكَبُه وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلى رَأْسِهِ ، قَالَ ابْنُ دِيْنَارٍ : فَقُلْنَا لَهُ : أَصْلَحَكَ اللّهُ إِنَّهُمْ الأَعْرَابُ وَهُمْ يَرْضَوْنَ باليَسِيْرِ فَقَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وُدّاً لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُوْلُ « إِنَّ أَبَرَّ البِرِّ صِلَةُ الوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبيْهِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ قَدِمْتُ المَدِيْنَةَ فَأَتَانِيْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ فَقَالَ أَتَدْرِي لِمَ أَتَيْتُكَ ؟ قَالَ قُلْتُ لاَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى الله عليه وسلم يَقُولُ « مَنْ أَحبَّ أَنْ يَصِلَ أَبَاهُ فِي قَبْرِهِ فَلْيَصِلْ إخْوَانَ أَبيهِ بَعْدَهُ » وإنَّهُ كان بَيْنَ أَبِيْ عُمَرَ وَبَيْنَ أَبِيكَ إخَاءٌ وَوُدٌّ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَصِل ذَاكَ رَوَاهُ ابْنُ حِبّانَ في صَحِيْحِهِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم « دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ فِيْهَا قِرَاءةً فقُلْتُ مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ كَذَلكُم البِرُّ كذلكُم البِرُّ » وكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ رَوَاهُ في شَرْحَ السُّنةِ والبَيْهَقِيّ في الشُّعَبِ شُعَبِ الإيْمَانِ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَاسٍ قالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَصْبَحَ مُطِيْعَاً لِلّهِ في وَالِدَيْهِ أَصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ من الجَنَّةِ وَإِنْ كان وَاحِداً فَوَاحِدٌ وَمَنْ أَمْسَى عَاصِياً لِلهِ في وَالِدَيْهِ أَصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ مِن النَّارِ وَإِنْ كَانَ وَاحِداً فواحِدٌ قَالَ رَجُلٌ : وَإِنْ ظَلَمَاهُ ؟ قَالَ « وَإِنْ ظَلَمَاهُ وَإِنْ ظَلمَاهُ وَإِنْ ظَلَمَاهُ » .

وَعَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ مَا مِنْ وَلَدٍ بَارٍّ يَنْظُرُ إلى وَالِدَيْهِ نَظَرَ رَحْمَةٍ إلاَّ كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ نَظْرَةٍ حَجَّةٌ مَبْرُوْرَةٌ ، قالُوا وَإِنْ نَظَرَ كُلَّ يَوْمٍ مائَةَ مَرَّةٍ ؟ قَالَ « نِعَمُ اللّهِ أَكبَرُ وَأَطْيَبُ » رَوَاهُمَا البَيْهَقِيّ في شُعَبِ الإيْمَانِ (فَوَائِد) .

وَلَما مَاتَتْ أُمُّ إِيَاسٍ الذَّكيِّ القَاضِيْ المَشْهُورِ بَكَى عَلَيْهَا فَقِيْلَ لَهُ في ذَلِكَ فَقَالَ : كَانَ لِيْ بَابَانِ مَفْتُوْحَانِ إلى الجَنَّةِ فَغُلِّقَ أَحَدُهُمَا وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ المُتَعَبِّدِيْنَ يُقَبِّلُ كُلَّ يَوْمٍ قَدَمَ أمِّهِ فَأَبْطأَ يَوْماً على أَصْحَابِهِ فَسَأَلُوه فَقَالَ : كُنْتُ أَتَمَرَّغُ في رِيَاضِ الجَنَّةِ ، فقدْ بَلَغَنَا أَنَّ الجَنةَ تَحْتَ أَقْدَامِ الأُمَّهَاتِ .

وَقِيْلَ لِعَلِيِّ بْنِ الحُسَيْن إنَّكَ مِنْ أَبَرِّ النَّاسِ وَلاَ تَأْكُلُ مَعَ أُمِّكَ في صَحْفَةٍ فَقَالَ : أَخَافُ أَنْ تَسْبِقَ يَدِيْ يَدَهَا إلى مَا تَسْبِقُ إِلَيْهِ عَيْنَاهَا فَأَكُوْنُ

قَدْ عَقَقْتُهَا وَيَا للأَسَفِ نَحْنُ في جِيْلٍ أَكْثَرُ أَهْلِهِ لا يَرى لِلْوَالِدَيْنِ حَقّاً بَلْ يَسْتَهِيْنُ بِهِمَا وَيَنْتَقِصُهُما وَرُبَّما شَتَمَهُمَا أو مَا هُوَ أَعْظَمُ مِن ذلك فلذلك إذا رَأَيْتَ الوَالِدَيْنِ في هَذَا الوَقْتِ المُظْلِمِ وَرَأَيْتَ خِدْمَتَهُما لِوَلَدِهِمَا رَحِمْتَها وَرَبَّما ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ وَتَأَلَّمَ قَلْبُكَ .

وَتَجِدُ هَذَا المَخْدُومَ رُبَّمَا أَنَّهُ لاَ يُصَلِّي أَصْلاً أَوْ لاَ يَشْهَدُ الجَمَاعَةَ أَو مِنْ أَهْلِ الفسادِ والاسْكَارِ وَشُرْبِ الدُّخَانِ أو مِمَّنْ يَتَشَبَّهُ باليَهُودِ والنَّصَارَى والمَجُوسِ بِحَلْقِ لِحْيَتِه أو يَجْعَلُ خَنَافِس أو تَواليت أو مِمَّنْ يَعْكُفُ عِنْدَ المُحرَّمَاتِ وَالمَلاهِيْ وَسَائِرِ المُنْكِرَاتِ طَوالَ لَيْلِهِ عَبْدُ فَمٍ وفَرْجٍ .

شِعْرا :

هَـذَا الـزَّمَـانُ الـذِي كُنَّـا نُحَاذِرُهُ
في قَوْلِ كَعْبٍ وفي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودِ
دَهْـرٌ بِـهِ الحَقُّ مَـرْدُوْدٌ بِـأَجْمَعِـه
وَالـظُّلْمُ وَالبَغْيُ فيـهِ غَيْـرُ مَـرْدُوْدِ
إِنْ دَامَ هَـذَا وَلَمْ يَحْـدُثْ لَـهُ غِيَرٌ
لَمْ يُبْـكِ مَيْتٌ وَلَمْ يُفْـرَحْ بِمَـوْلُـوْدِ

قَالَ أَحْمَدُ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ : بِرُّ الوالدين كفّارة الكبائِرِ وَكَذَا ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ عَنْ مَكْحُوْلٍ ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا رَوَاهُ الترمذِي وَاللفظُ لَهُ وابنُ حِبَّانَ في صحيحه والحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عن ابنِ عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عَنهما قال : أَتى النَّبيَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فقَالَ إنّي اذْنَبْتُ ذَنْباً عَظِيْماً فَهَلْ لِي مِن تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ « هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ وفي رِوَايَةِ ابْنِ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ هَلْ لَكَ

وَالِدَانِ ؟ قَالَ : لَا قَالَ « فَهَلْ لَكَ مِن خَالَةٍ » قَالَ : نَعم ، قَالَ « فَبِرَّهَا » ومِنَ الفَوَائِدِ أَنَّ أَبَا هريرةِ رَأى رَجُلًا يَمْشِي خَلْفَ رَجُلٍ فَقَالَ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : ابِيْ قالَ : لَا تَدْعُهُ بِاسْمِهِ ، وَلَا تَجْلِسْ قَبْلَهُ ،وَلَا تمشـيْ أَمَامَهُ .

وَذَكَرَ فِي الحَدِيْثِ في تفسيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَصَاحِبْهُمَا في الدنيا مَعْرُوْفًا ﴾ عَنْهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « المُصَاحَبَةُ بالمَعْرُوْفِ أنْ يُطعِمَهُمَا إذَا جَاعَا وَيَكْسُوهُمَا إذَا عَرِيَا » .

وَمِنْ حُقَوْقِهِمَا خِدْمَتِهِمَا إذَا احْتَاجَا أو أَحدُهُمَا إلى خِدْمَةٍ وَإِجَابَةُ دَعْوَتِهِمَا ، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِمَا مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً للهِ فَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوْقٍ في مَعْصِيَةِ الخَالِقِ . ومِنْ حُقُوْقِهِمَا التَّكَلّمُ مَعَهُمَا بِاللّيِنْ وَاللُّطْفِ ، ومِنْ ذَلِكَ أَنْ لا يَدْعُوْهُمَا باسْمِهِمَا، وَأَنْ يَمْشِيْ خَلْفَهُمَا ، وَأَنْ يَـدْعُوَ اللهَ لَهُمَـا بِالمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ.

(مَوْعِظَةٌ)

عِبَادُ اللهِ أَحْسِنُوا إلى الوَالِدَيْنِ مَا أَمْكَنَ لَكُم الأحْسَانُ ، وَإنْ حَسِبْتُم أَنَّكُمْ كَافَأْتُمُوْهُمْ في ذَلِكَ الحُسْبَان ، وَكُونُوا مَعَهُما في غَـايَةِ الأَدبِ والأحْتِرَامِ ، وَاحْذَرُوْا سُوْءَ الأدَبِ عِنْدَهُما وَإلاّ هَوَيْتُمْ في هُوَّةِ شَقَاءٍ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ وَكُوْنُوا مَعهُمَا في إجْلَالٍ وَاحْتِرَامٍ ، وَتَقْدِيْرٍ تَامٍّ وإنْ حَصَلَ مِنْهُمَا لَكَ ظُلْمٌ .

لأَنَّهُمَا اللَّذَانِ لَوْلَا اللّهُ ثُمَّ لَوْلَاهُمَا لَمْ تَخْرُجْ عَلَى هَذَا الوُجُودِ وَلِأَنَّهُمَا اللذَانِ سَخَّرَهُمَا اللهُ لَكَ فَصَبَرا عَلَى مَا رَأيَا مِنْ الأَهْوَالِ ، وَسَخَّرَهُمَا لِتَرْبِيَتِكَ وَالعِنَايَةِ بِكَ في هَذِهِ الحَيَاةِ . تَذَكّرْ زَمَنَ حَمْلِ أُمِّكَ

بِكَ وأنتَ في بَطْنِهَا عِلَّةٌ مِنْ أكْبَرِ العِلَلِ ، وَتَذَكَّرْ وَقْتَ أن كانَتْ تَلِدُكَ وَهْيَ مِمَّا بِهَا لا مِن الأحْيَاءِ وَلَا مِنْ الأمْوَاتِ وتذكّر مَا خَرَجَ عَقِبَ وِلَادَتِكَ مِنَ النَّزِيْفِ الدَّمِ الذِيْ هُوَ نَفْسُها .

وَتذَكَّرْ أنَّكَ كُنْتَ تَمُصُّ دَمَهَا مُدَّةَ الرَّضَاعِ ، وَسُرُوْرُهَا بِكَ تَقْصُرُ عَنْ شَرْحِهِ العِبَارَاتُ . وَتذَكّرْ تَنْظِيْفَهَا لِبَدَنِكَ وَمَلَابِسِكَ مِنْ الأقذَارِ ، وَتَذَكَّرْ فَزَعَهَا عِنْدَمَا يَعْتَرِيْكَ خَوْفٌ أو مَرَضٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ ، وَتَذَكَّرْ دِفَاعَهَا عَنْكَ إذَا اعْتَدَى عَلَيْكَ مُعْتَدِيْ .

وَتَذَكَّرْ حِرْصَهَا الشَّدِيْدَ عَلَى أنْ تَعِيْشَ لَهَا وَلَوْ حُرِمَتْ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَتَذَكّرْ سَهَرَهَا عَلَيْكَ عِنْدَمَا يُؤْلِمُكَ شَيْءٌ مِنْ جَسَـدِكَ ، وَتَذَكَّرْ كَدَّ وَالِدِكَ عَلَيْكَ في تَحْصِيْلِ مَا بِهِ تَحْيَا بِإِذْنِ اللهِ ، لَا يَهْدَؤُ عَنْ ذَلِكَ وَالِدُكَ مَدَى اللّيَالِيْ وَالأيَّامِ ، وَكُلَّمَا خَشِيَ أَنْ تَجُوْعَ تَقَحَّمَ الشَّدَائِدَ وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ في الدنيا لَا يَرُدُّهُ إلا أنْ يَرَاكَ في يَسَارٍ .

وَتَذَكَّرْ عِنَايَتَهُ بِكَ في تَعْلِيْمِكَ وَتَوْجِيْهِكَ إلى مَا فِيهِ صَلَاحُ دِيْنِكَ ودُنْيَاكَ وتَذَكَّرْ حِيَاطَتَهُ ونُصْحَهُ لَكَ ومُقَاسَاتُ الشَّدَائِدَ لِرَاحَتِكَ ، وتذكرْ فَرَحَهُ وَاسْتِبْشَارَهُ بِمَحبَّتِكَ وَنَجَاحِكَ ، وَتَذَكَّرْ دِفَاعَهُ عَنْكَ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ ، وَتَذَكَّرْ دُعَاءَهُ لَكَ في مَظِنَّةِ أَوْقَاتِ الأجَابَةِ أنْ يُصْلِحَكَ اللّهُ وَيوفقكَ .

وَتذَكَّرْ قَلَقَهُمَا وَالأدْلَاجَ في البَحْثِ عَنْكَ إذَا تَأَخَّرْتَ عَنْ وَقْتِ المَجِيْءِ ، وَتَأَمَّلْ وَتَذَكَّرْ بَشَاشَتَهُمَا فِيْمَنْ يَعِزُّ عَلَيْكَ لِسُرُوْرِهِمَا بِمَا يَسُرُّكَ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَكَّدَ اللهُ وَشَدَّدَ عَلَيكَ بِالوَصِيَّةِ بِهِمَا .

وَأَخْبَرَ نَبِيُّنَا صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمَا جَنَّتُكَ وَنَارُكَ ، وَقَدَّمَ بِرَّهُمَا

عَلَى الجِهَادِ ، وَدَعَا أنْ يُرْغَمَ أنْفُ مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أو أحَدَهُمَا فلم يَدْخُل الجَنَّةَ ، وَأخبَرَ بِأَكْبَرَ الكَبَائِرِ فَذَكَرَ عُقُوقَهُما بَعْدَ الأشْرَاكِ باللّهِ .

شِعْرًا :

فَكَم وَلَدٍ لِلْوَالِدَيْنِ مُضَيَّعٌ
يُجَازِيْهِمَا بُخْلاً بِمَا نَحلاهُ
طَوَى عَنْهُمَا القُوْتَ الزَّهِيْدَ نَفَاسَةً
وَجَرَّاهُ سَارَا الحُزْنَ وَارْتَحَلاهُ
وَلاَمَهُمَا عَنْ فَرْطِ حُبِّهِمَا لَهُ
وَفِي بُغْضِهِ إيَّاهُمَاعذلاهُ
أَسَاءَ فَلَمْ يَعْدِلْهُمَا بِشِرَاكِهِ
وَكَانَا بِأَنْوَارِ الدُّجَى عَدَلاَهُ
يُعِيْرُهُمَا طَرْفاً مِن الغَيْظِ شافِناً
كأنَّهما فِيْمَا مَضَى تَبَلاَهُ
يَنَامُ إذا ما ادْنَفَا وَإذَا سَرَى
لَهُ الشُّكُوبَاتَ الغُمْضَ مَا اكْتَحَلاَهُ
إنْ ادَّعَيَا فِيْ وُدِّهِ الجُهْدَ صُدِّقَا
وَمَا اتُّهِمَا فِيْهِ فَيَنْتَحِلاَهُ
يَغُشُّهُمَا فِيْ الأَمْرِ هَانَ وَطَالَمَا
أَفَاءآ عليهِ النُّصْحَ وَانْتَحَلاَهُ
يَسُرُّهُمَا أَنْ يَهْجُرَ القَبْرَ دَهْرَهُ
وَأنَّهُمَا مِنْ قَبْلِهِ نَزَلاَهُ

وَلَـوْ بِمُشَارِ العَيْنِ يُـوْحِي إِلَيْهِمَـا
لَـو شَـكْ اعْتِـزَالِ العَيْشِ لاعْتَزَلَاهُ
يَوَدَّانِ إِكْرَامَاً لَـوْ انْتَعَلَ السُّهـا
وَإِنْ حَـذِيَـا الـسَّـلاَءَ وَانْـتَـعَـلاَهُ
يَـذُمُّ لِفَـرْطِ الغَيِّ مَـا فَعَـلاَ بِـهِ
وَأحْسِنْ وَأجْمِـلْ بـالَّـذِيْ فَعَـلاَهُ
يَعُدَّانِ كَالصَّارِمِ العَضْبِ فِي العِدَا
بِـظَنِّـهِمَـا وَالـذَّابِـلَ اعْـتَـقَـلاَهُ
وَيُؤْثِـرُ في السِّـرِّ الكَنِيْنِ سَـوَاءَهُ
فَـيَـنْـقُـلُـهُ عَـنْـهُ وَمَـا نَـقَـلاَهُ

واللهُ أَعْلَمُ وَصَلّـى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

فِي تَحْرِيْمِ العُقُوْقِ

إِعْلَمْ وَفَّقَنَا اللّهُ وإِيَّاكَ لِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاه ، وَجَنَّبنَا وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُهُ ولاَ يَرْضَاهُ ، أَنَّ العُقُوْقَ مِنْ كبائـر الذُّنُوبِ وَحَدَّهُ وَبعْضُهُم بأنَّهُ صُدُوْرِ مَا يَتَأذَّى بِهِ الوَالِدُ من قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ .

وَقَالَ بَعْضُهُم ضَابِطُ العُقُوْقِ هُوَ أنْ يَحصُلَ لِلْوَالِدَيْنِ أَوْ لِأَحدِهِمَا إِيْذَاءٌ لَيْسَ بالهَيِّنِ عُرْفَاً فَسَبُّهُما وَعِصْيَانُهُمَا وَالتَّلَكُّؤُ في قَضَاءِ شؤُونِهِمَـا ،

وَمَدُّ اليَدِ بِالسُّوْءِ إِلَيْهِمَا ، وَلَعْنُهُمَا وَغِيْبَتُهُمَا ، والكَذِبُ عَلَيْهِمَا .

كُلُّ ذَلِكَ عُقُوقٌ وَنُكْرَانٌ لِلْجَمِيْلِ ، وَكَذَلِكَ نَهْرُهُمَا وَقَهْرُهُمَا وتَوبيخهُما وَالتَّأَفُّفُ مِنْهُماَ وَالدُّعَاءُ عَلَيْهِما ، كَقَوْلِهِ أَرَاحَنَا اللهُ مِنْهُ ، أَوْ أَخذَهُ اللهُ أَوْ عَجَّلَ اللهُ بِزَوَالِكَ وَالتَّكَبُّرُ عَلَيْهِمَا

فَعَن ابْنِ عَبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عليه وسلَّم « شرُّ النَّاسِ ، ثَلاَثَةٌ مُتَكَبِّرٌ عَلَى وَالِدَيْهِ يَحْقُرهُمَا وَرَجُلٌ سَعَى بَيْنَ النّاسِ بالكذِبِ حَتَّى يَتَبَاغَضُوا وَيَتَبَاعَدُوا وَرَجُلٌ سَعَى بَيْنَ رجُلٍ وَامْرَأَتِهِ بِالكَذِبِ حَتَّى يُغَيِّرَهُ عَلَيْهَا بِغَيْرِ حَقٍّ حَتَّى فَرَّقَ بينَهُمَا ثَم يَخْلُفُهُ عليها مِنْ بَعْدُ » رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ .

وَأَخْرَجَ البُخَارِيّ في الأدبِ المُفْرَدِ قَالَ حَدَّثَنَا زِيَادُ بنُ مِخْرَاقٍ قَالَ حَدّثَنِي طَيْسَلَةُ بنُ مَيَّاسٍ قَالَ كُنْتُ مع النَّجَدَاتِ فَأَصَبْتُ ذُنُوْباً لاَ أَرَاهَا إلا مِنْ الكَبَائِرِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لابْنِ عُمَرَ قَال مَا هِيَ قُلْتُ كَذَاَ وكَذَا .

قَالَ : لَيْسَ هَذِهِ الكَبَائِرَ هُنَّ تِسْعٌ : الإِشْرَاكُ بِاللهِ ، وَقَتْلُ نَسَمِةٍ ، وَالفِرَارُ مِن الزَّحْفِ ، وَقَذْفِ المُحْصَنَةِ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وأكلُ مَالِ اليَتِيمِ ، وَالْحَادُ في المَسْجِدِ ، وَالذي يَسْتَسْخِرُ ، وَبُكَاءُ الوَالِدَيْنِ مِن العُقُوْقِ ، قَالَ لِيْ ابنُ عُمَر : أَتَفرُّ مِن النّارِ وَتُحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ الجَنَّةَ ؟ قُلْتُ أَيْ وَاللهِ قَالَ أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟ قُلتُ : عِنْدِيْ أُمِّي ، قَالَ فَوَاللهِ لَوْ أَلَنْتَ لَهَا الكَلاَمَ ، وَأَطْعَمْتَهَا الطَّعَامَ ، لَتَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ ما اجْتَنَبْتَ الكَبَائِرَ وَأَخْرَجَ فيهِ أَيْضا قال حَدَّثَنَا مُوْسَى حَدَّثَنَا حَمَّادُ بنُ سَلْمَةَ عَن زِيَادِ بنِ مخراقٍ عَنِ طَيْسَلَةَ : أنه سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ : بُكَاءُ الوَالِدَيْنِ مِن العُقُوْقِ والكَبَائِرِ .

وَبعْضُ النَّاسِ لاَ يَكْتَفِيْ بالتَّقْصِيْرِ في الوَاجِبِ في حِقٍّ أَبَوَيْهِ بَلْ يُسْمِعُ وَالِدَيْـهِ مَا يسوؤهما ، وَتَضِيْقُ به صُـدُوْرُهما ، وَيُنَكِّـدُ عَلَيْهِمَا مَعِيْشَتِهِمَا ، فَتجِدُ الوَالِدَ يَكْرَهُ مَعَهُ الحَيَاةَ ، وَيتَمَنَّى لِأَجْلِهِ أنه لم يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ ورُبَّمَا تَمَنَّى أَنَهُ كان عقِيْمَا .

فَكَلاَمُ الأبْنِ العَاقِّ تَئِنُّ لَهُ الفَضِيْلَةُ ، وَتَبْكِي لَهُ المُرُؤةُ ، وَتَأْبَاهُ الدِّيَانَةُ ، ولا يَرْضَى به العَاقِلُ فَضْلاً عن المُتَدَيِّنُ ، لأنَّ فِعْلَهُ مُنْكرٌ عَظِيْمٌ ، وقد لا يَسُبُّ العَاقُّ أبَاهُ مُبَاشَرَةً ، وَلَكِنْ يَسُبُّ أبَا هَذَا وأمَّ هَذَا ، فَيَسُبُّونَ أمَّهُ وَأبَاهُ ، ويَصُبُّونَ عَلَى وَالِدَيْهِ مِنَ اللّعَنَاتِ أَضْعَافَ مَا صَدَرَ مِنْهُ ، والبَادِيْ هُوَ الظَّالِمُ وَمَا أكثَرَ السَّبَّ والشَّتْمَ وَاللَّعْنَ في وَقْتِنَا هَذَا ، ومَا أَسْهَلَهُ عِنْدَهُمْ .

وَمَا أَكْثَرَ الأحْتِقَارَ لِلْآبَاءِ والأُمَّهَاتِ في البُيُوتِ وَالأَسْوَاقِ وَفي كُلِّ مَحَلٍّ ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ .

وَمِمَّا جَاءَ في العُقُوْقِ وَجُرْمِهِ وَقُبْحِهِ وَإِثْمِهِ مَا رَوَاهُ البُخَارِيّ وَغَيْرُهُ عَن المغِيْرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي اللهُ عنه عن النبي صلى اللهُ عليه وسلَّم أنهُ قالَ : « انَّ اللهَ حَرَّمَ عليكم عُقُوقَ الأمَّهاتِ ، وَوَأْدَ البَنـاتِ ، وَمَنْعَ وَهَاتِ ، وَكَرِهَ لكم قِيْلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَاضَاعَةَ المالِ » .

وَأَخْرَجَ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَال رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ « ألا أنَبِّئُكم بأكْبَرِ الكَبَائِرِ ؟ ثَلاَثاً قُلْنَا : بَلَى يَا رَسُولَ اللهُ قالَ « الإِشْرَاكُ باللهِ وَعُقُوْقُ الوَالِدَيْنِ وكان مُتَّكِئاً فَجَلَسَ فَقَالَ : ألاَ وَقَوْلُ الزُّوْرِ ألاَ وَشَهَادَةُ الزُّوْرِ » فَمَا زَالَ يُكرِّرُهَا حَتَّى قلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ .

وَلِلْبُخَارِيّ عن عبدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضَيَ اللّهُ عَنْهُمَا عن النبي صلى اللهُ عليه وسلَّم قالَ « الكَبَائِرُ الأشْرَاكُ باللهِ وَعُقُوق الوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ ، وَاليَمِينُ الغموسُ » وللبُخَارِيّ ومُسْلِم والتِرمِذِيّ عَنْ أنَسٍ رَضيَ اللهُ عَنهُ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الكَبَائِرَ فقَالَ الشِّرْكُ بِاللّهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

شعرا :

إِلى اللّهِ أُهْـدِي مِـدْحَتِيْ وَثَنَـائِيَـا
وَقَـوْلاً رَصِيْناً لا يَنِيْ الـدَّهْـرَ بَـاقِيَـا
إِلى المَلِكِ الأَعْلَى الذي لَيْسَ فَوْقَهُ
إِلَـهٌ ولا رَبٌ يَـكُـوْنُ مُـدَانِـيـا
أَلا أَيُّهَـا الإِنْسَـانُ إِيَّـاكَ والـرَّدَى
فَـإِنَّـكَ لَا تَخْفَى مِنْ اللّهِ خَـافِيَـا
وَإِيَّـاكَ لا تَجْعَـلْ مَـعَ اللهِ غَيْـرَهُ
فَـإِنَّ سَبِيْـلَ الـرُّشْـدِ أَصْبَحَ بَـادِيَـا

إِلى أَنْ قَالَ :

وَأَنْتَ الذِيْ مِنْ فَضْلٍ مَنٍّ وَرَحْمَـةٍ
بَعَثْتَ إِلى مـوسى رسُولا مُنَـادِيَـا
فَقُلْتَ لَـهُ فَاذْهَبْ وَهَـارُونَ فَـادْعُـوا
إِلى اللهِ فِـرْعَوْنَ الـذي كَانَ طَـاغِيَا
وَقُـوْلَا لَـهُ أَأَنْـتَ سَـوَّيْـتَ هَـذِهِ
بِـلَا وَتَـدٍ حَتَّى اطْمَـأَنَّتْ كَمَـا هِيَـا

وَقُـوْلَا لَـهُ أَأَنْـتَ رَفَـعْـتَ هَـذه
بِـلا عَمَـدٍ ارْفُقْ إذاً تَـكُ بَـانِيَـا
وَقُـوْلَا لَـهُ أَأَنتْ سَـوَّيْتَ وَسْطَهَـا
مُنِيْـراً إِذَا مَـا جَنَّـهُ اللَّيْـلُ هَـادِيَا
وَقُوْلَا لَهُ مَنْ يُـرْسِلُ الشَّمْسَ غُـدْوَةً
فَيصْبِحُ مَا مَسَّتْ مِنْ الأَرْضِ ضَاحِيَا
وَقُوْلَا لَهُ مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ في الثَّرَى
فَيُصْبِـحُ مِنْـهُ البَقْـلُ يَهْتَـزُّ رَابِيَـا
وَيُـخْـرِجُ مِنْـهُ حَبَّـهُ فَي رُؤُسِـه
فَفِيْ ذَاكَ آيَـاتٌ لِمنْ كَـانَ وَاعِيـا
وَأَنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ نَجَّيْتَ يُـوْنُسَا
وَقَـدْ بَاتَ في بَطْنٍ لِحُـوْتٍ لَيَالِيَا

اللهم انَّا نَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ في الأَمْرِ وَالعَزِيْمَةَ عَلَى الرُّشْدِ وَنَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ وَنَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَلَوَالِدَيْنَا وَلِجَمْيعِ المُسْلِمْينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمدٍ وعلى آلهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين .

(فَصْلٌ)

وَفي كِتَابِ النَّبي صلى الله عليه وسلم الذِيْ كَتَبَهُ إلى أَهْلِ اليَمَن وَبَعَث بِهِ مع عَمْروِ بْنِ حَزْم « وَأَنَّ أَكْبَرَ الكبَائِرِ عِنْدَ اللّهَ يَوْمَ القِيَامَةِ الاشْرَاكُ باللهِ وَقتلُ النَّفْسِ المُؤْمِنَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ والفِرَارُ في سَبْيلِ اللهِ يَوْمَ الزَّحْفِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ ، وَرَمْيُ المحصنَةِ وَتَعلُّمُ السِّحْر ، وَأَكْلُ الرِّبا ،

وَأكْلُ مَالِ اليَتِيْمِ » الحدِيْثُ رَوَاهُ ابنُ حِبَّان في صَحِيْحِهِ .

وَأَخْرَجَ النَّسائِي وَالبَزَّارُ وَاللفْظُ لَهُ باسْنَادَيْنِ جَيِّدَيْنِ وَالحَاكِمُ وَقالَ صَحِيْحُ الاسْنَادِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيْ اللهُ عَنهُما عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى الله عليه وسلم قالَ « ثَلاثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللّهُ إلَيْهم يَوْمَ القِيَامَةِ العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ وَمُدْمِنُ الخَمْرِ ، وَالمنّانُ عَطَاءَهُ وَثَلاثَـةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّـةَ العَاقُّ لِـوَالِـدَيْـهِ وَالدَّيُّوثُ وَالرَّجِلَةُ مِنْ النِّسَاءِ » .

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ واللفْظُ لَهُ وَالنَّسَائِيّ وَالبَزَّارُ وَالحَاكِمُ وقَالَ صَحِيْحُ الاسْنَادِ عَن عَبْدِ اللّهِ بنِ عَمْرِوُ بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ « ثَلاثَةٌ حَرَّمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعالى عليهم الجَنَّةَ مُدْمِنُ الخَمْرِ وَالعَاقُّ ، والدَّيُّوثُ الذي يُقِرُّ الخُبْثَ في أهْلِهِ » .

وَعَنْ أَبِيْ أُمَامَةِ رَضِي اللهُ عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى الله عليه وسلم « ثَلاَثَةٌ لا يَقْبَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُم صَرْفاً وَلا عَدْلاَ ، عَاقٌّ ومَنَّانٌ وَمُكَذِّبٌ بِقَدَرٍ » رَوَاهُ ابْنُ أبِيْ عَاصِمٍ فِيْ كِتاب السُّنَّةِ باسْنَادٍ حَسَنٍ ، وَعَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم « ثلاثَةٌ لا يَنْفَعُ مَعَهُنَّ عَمَلٌ الشِّرْكُ باللهِ وَعُقُوْقُ الوَالِدَيْنِ وَالفِرَارُ مِنْ الزَّحْفِ » رَوَاهُ الطَّبَرانِيّ في الكَبِيْرِ .

وَعَنْ عَمْروِ بن مُرَّةِ الجُهَنِيّ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللّهِ صَلى الله عليـه وسلم فقالَ : يَـا رَسُوْلَ اللهِ أَرأيْتَ إذا صَلَّيْتُ الصَّلواتِ الخَمْسِ وَصُمْتُ رَمَضَانَ ، وَأدَّيْتُ الزَّكاةَ ، وَحَجَجْتُ البَيْتَ ، فَماذَا لِيْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ فعَلَ ذَلِكَ كَانَ مع

النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ إلَّا أنْ يَعُقَّ وَالِدَيْهِ » رَوَاهُ أحْمَدُ وَالطَّبَرانِيّ باسْنَادَيْن أَحَدُهُمَا صَحِيْحٌ وَرَواهُ ابنُ خُزَيْمَةَ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِمَا .

وَعَنْ عَلِيّ عَلَيْهِ رِضْوَانُ اللهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ ثَمَّ تَولَّى غَيْرَ مَوْلَاهُ ، وَلَعَنَ اللهُ العَاقَّ لِوَالِدَيْهِ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ نَقَصَ مَنَارَ الأَرْضِ » رَوَاهُ الحَاكِمُ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عنهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « لَعَنَ اللهُ سَبْعَةً مَن فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتِهِ وَرَدَّدَ اللعْنَةَ على وَاحِدٍ مِنْهُم ثَلاثاً وَلَعَنَ كُلَّ وَاحِدٍ منهم لَعْنَةً تَكْفِيْهِ ، قَالَ : مَلْعُونٌ مَن عَمِلَ عَمَلَ قَوْم لُوْطٍ ، مَلعُونٌ مَن عَمِلَ عَمَلَ قوم لوطٍ ، مَلْعُونٌ مَن عَمِلَ عَمَلَ قَوَمَ لُوْطٍ ، مَلْعُونٌ مَن ذَبَحَ لِغَير اللهِ مَلْعُونٌ مَن عَقَّ وَالديهِ ، مَلعونٌ مَن أَتى شَيْئاً مِنَ البَهَائِمِ ، ملعُونٌ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ امْرَأةٍ وَابْنَتِهَا ، مَلْعُونٌ مَن غَيَّرَ حُدُوْدَ الأَرْضِ مَلْعُونٌ مَن ادَّعَى إلى غَيْر مَوَالِيْهِ » رَوَاهُ الطبراني في الأَوْسَطِ وَرِجالهُ رِجَالُ الصَّحِيْحِ الَا مُحرَّزٌ وَيُقَالُ مُحَرَّرٌ بالاهْمالِ ابْنُ هَارُوْنَ التَمِيْمِيّ فَوَاهٍ ، وَقَدْ حَسَّنَ لَه التِّرمِذي وَمَشَّاهُ بَعْضُهم وَرَوَاهُ الحاكِمُ من رِوَايةِ هَارُوْنَ أخِي مُحَرّرٍ ، وقَال صَحِيْحُ الاسْنَادِ .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيَرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم « لا تُقْبَلُ صَلاَةُ السَّاخِطِ عَلَيْهِ أبواهُ غير ظَالِمينِ لَهُ » رَوَاهُ أَبُو الحَسَنِ ابْنُ مَعْرُوفٍ في كِتَابِ فَضَائِل بَنِيْ هَاشِمْ .

وَعَنْ أَبي بَكْرٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قال رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَليه

وسلَمَ « كُلُّ الذنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ إلا عُقُوقَ الوَالِدَيْنِ ، فَـإِنَّ اللَّهَ يُعَجِّلُهُ لِصَاحِبِـهِ في الحَيَاةِ قَبْـلَ المَمَاتِ » رَوَاهُ البُخَارِيّ في الأدَبِ المفرَدِ والطَبَرانِيّ في الكَبِيْرِ وَالحَاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ وَالأَصْبَهَانِيّ فِي التَّرْغِيْبِ .

وَذُكِرَ أنَّ شَابّاً كَانَ مُكِبّاً عَلى اللّهْوِ وَاللَّعِبِ ، لاَ يُفِيْقُ عَنْهُ ، وَكَانَ لَهُ وَالِدٌ صَاحِبُ دِيْنٍ كثِيْراً مَا يَعِظُ هَذا الابْنَ وَيَقُوْلُ لَهُ يَا بُنَيَّ احْذَرْ هَفَواتِ الشباب وعثَراتِهِ فَإِنَّ لِلّهِ سَطَوَاتٌ وَنَقَمَاتٌ مَا هِيَ مِن الظَّالِمِينَ بِبَعِيْدٍ ، وَكَانَ إِذَا إِلَحَّ عَلَيْهِ زَادَ في العُقُوْقِ ، وجَارَ عَلى أَبِيْهِ ، وَلَما كَانَ يَوْمٌ مِن الأَيّامِ أَلَحَّ عَلى ابْنِهِ بالنُّصْحِ عَلَى عَادَتِهِ ، فَمَدَّ الوَلدُ يَدَهُ على أَبِيْهِ ، فَحَلَف الأَبُ باللهِ مُجْتَهِداً لَيـأتِيَنَّ بَيْتَ اللهِ الحَرامَ ، فَيَتعلقُ بـاسْتَارِ الكَعْبَةِ ، وَيَدْعُو عَلى وَلدِهِ فَخَرَجَ حَتَّى انْتَهَى إِلى البَيْتِ الحَرَامِ فَتَعَلَّقَ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ وَانَشَأَ يَقُولُ :

يَا مَنْ إِلَيْهِ أَتَى الحُجَّاجُ قَدْ قَطَعُوا
عَرْضَ المَهامِهِ مِنْ قُرْبٍ وَمِنْ بُعُدِ
إِنِّي أَتَيْتُـكَ يَـا مَنْ لاَ يُخَيِّبُ مَنْ
يَـدْعُـوهُ مُبْتَهِـلاً بـالـوَاحِـدِ الصَّمَـدِ
هَـذَا مُنَازِلُ لاَ يَـرْتَـدُّ مِنْ عَقَقِي
فَخُـذْ بِحَقِي يَـا رَحْمَنُ مِنْ وَلَـدِيْ
وَشُـلَّ مِنْـهُ بحَـوْلٍ مِنْك جَـانِبَـهُ
يَـا مَنْ تَقَـدَّسَ لَمْ يُـوْلَـدْ وَلَمْ يَلِدِ

فَقِيْلَ إِنَّهُ مَا اسْتَتَمَّ كَلاَمَهُ حَتَّى يَبِس شِقُّ وَلَدِهِ الأَيْمَنُ . نَعُوذُ باللهِ

مِنْ العُقُوقِ ، ومِنْ قَسَاوَةِ القُلُوبِ ، وَمِنْ جَمِيْعِ المَعَاصِيْ والذُّنُوبِ وَكَانَ يُقَالُ كَدَرُ العَيْشِ في ثَلاثٍ الوَلَدِ العَاقِّ وَالجَارِ السُّوْءِ وَالمَرْأَةِ السَّيِّئَةِ الخُلُقِ لأنكَ لا تَنْفَكُ في عَنَاءٍ وَشَغَبٍ وَتَعبٍ فَإِنْ سَكَنَ العَاقُّ بُرْهَةً مِن الزَّمَن مَا سَكَنَ الجَارُ السُّوْءُ وَأهْلُه وَأَوْلادُه وَإِنْ سَكَنا لم تَسْكُنِ العِلَةُ الدَّاخِلِيَّةُ المَرْأَةُ السُّوْءِ سَيِّئَةُ الخُلُق فَأَنْتَ في هَذِهِ الحَالِ غَرَضٌ لِثَلاثَةِ سِهَامٍ مُوَجَّهَةٌ إلَيْكَ في أَرْبَع وَعِشْرِيْنَ سَاعَة نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ مِنْهَا .

وَعَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِىَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ : أَوْصَانِيْ رَسُوْلُ اللّهِ صَلى اللهُ عَليه وسلم بِعَشْرِ كَلِمَاتٍ قَالَ : « لا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئاً وَإِنْ قُتِلتَ وَحُرِّقْتَ ، وَلا تَعُقَّنَّ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أمَرَاكَ أنْ تَخْرُجَ من أهْلِكَ وَمَالِكَ وَلا تَتْرُكَنَّ صَلاةً مَكتُوبَةً مُتَعَمِّداً فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صلاةً مَكْتُوبَةً مَتَعَمِّداً فقد بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ ، وَلا تَشْرَبَنَّ الخَمْرَ فَإِنَّهُ رَأسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ ،وَإِيَّاكَ وَالمعْصِيَةَ فَإِنَّ بالمعَصِيْةِ يَحِلُّ سَخَطُ الله ، وَإِيَّاكَ والفِرَار مِن الزَّحْفِ وَإِنْ هَلكَ النَّاسُ و إذا أَصَابَ النَّاسَ مَوْتٌ ، وَأَنْتَ فِيهْم فَاثْبُتْ .

وَأَنْفِقْ عَلَى عِيَالِكَ مِن طَوْلِكَ ، وَلا تَرْفَعْ عَنْهُم عَصَاكَ أَدَباً وَأَخِفْهُم في اللّهِ ، رَوَاهُ أَحْمَدُ والطَبَرَانِيّ في الكبيرِ وَاسْنَادُ أَحْمَدَ صَحِيْحٌ إلا أنَّ فِيْهِ انْقِطَاعاً لأنَهُ مِن رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن جُبَيْرٍ عَن مُعَاذٍ وَهُوَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ .

وَعَنْ عَمْرو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ رَأَىَ مُوْسَى عَليه السَّلامُ رَجُلاً عِنْدَ العَرْشِ فَغَبَطه بمَكانَهِ فَسَأَلَ عَنْهُ ، فقالُوا نُخْبِرُكَ بِعَمَلِهِ ، لَا يَحْسُدُ الناسَ على مَا آتَاهُم اللّهُ مِن فَضْلِهِ ، وَلا يَمْشِيْ بالنَّمِيْمَةِ ، وَلا يَعُقُّ وَالِدَيْهِ ، قَالَ أيْ رَبِّ وَمَنْ يَعُقُّ وَالِدَيْهِ ؟ قَالَ يَتَسَبَّبُ لهُما حَتَّى يُسَبَّا رَواهُ أحمدُ في الزُّهْدِ .

وَفيْمَا ذَكَرْنَا مِنَ الأدِلَّةِ على تَحْرِيمْ العُقوقِ كِفَايَةٌ وَلو لم يَكُنْ لِلْعَاقِّ مِن العُقُوبَةِ إلاَ مَا يُرى مِنَ سُوءِ حَالِهِ لَكَفَى فَإنَّكَ تَراهُ غَالِباً في أبْأَسِ الحَالَاتِ وَآلَامِها وَأشَدِّهَا وَتَراهُم بَعِيْدَينَ عَن عَطْفِ القُلُوبِ عِنْدَ مَن عَلِمُوا حَالَهُم لا يَحْنُوْ عَلَيْهِم صَدِيقٌ وَلَا شَفِيْقٌ وَلَا قَرِيْبٌ ، وَلا يأخُذُ بَيَدِهِمْ كَرِيْمٌ في كُرْبَةٍ ، وَلا يَرْغَبُوْنَ في مُصَاهَرَتِهِ خَشْيَةَ أنْ يَجْذِبُوا أَوْلَادَهُمْ فيَكونُوا مِثْلَهُم عَاقِّيْنَ .

بِخِلافِ البَارِّيْنَ فَإنَكَ تَراهُمْ وَنَرَاهُمُ مُحَبَّبِينَ إلى القُلُوْبِ يَتَمَنَّى كُلُّ مَنْ يَعْرِفُهُم وَيَفْهَمُ بِرَّهُمْ وَصِلَتُهُم أنْ يَتَقَدَّم إلَيْهِمْ بِمَا يُحِبُّوْنَ وَتَجِدُهُم إذا وَقَعُوا في شِدَّةٍ يَتَرحَّمُ النَّاسُ عَلَيْهِمْ ، وَيدْعُوْنَ لهُم بالخُرُوجِ مِنْهَا على أيْسَرِ الأحْوالِ وَأقْرَبِها ، هَذَا حَالُهُمْ في الدّنْيَا التِيْ لَيْسَتْ هِيَ دَارَ الجَزَاءِ فَكَيْفَ في الآخِرَة دَارِ الجَزاءِ ؟

وَمِنْ أقْبَحِ مَظَاهِرِ العُقُوْقِ أنْ يَتَبَرَّأَ الوَلَدُ مِنْ وَالِدَيْهِ حِيْنَ يَرْتَفِعُ مُسْتَوَاهُ الاجْتِمَاعِيُّ عَنْهُمَا كَأنْ يَكُونَا فَلاَّحِيْنِ أوْ نَجَّارِيْنِ أوْ صَنَّاعِيْنِ وَهُوَ يَعِيْشُ في تَرَفٍ وَيَتَسَنَّمُ بَعْضَ الوَظَائِفِ الكِبَارِ فَيَخْجلُ مِنْ وُجُوْدِهِمَا في بَيْتِهِ عِنْدَ زُمَلائِهِ بِرَثَاثَتِهِمَا وَزَيِّهِمَا القَدِيْمِ .

وَرُبَّمَا سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ أبِيهِ مَنْ هَذَا الذِيْ يُبَاشِرُ فَقَالَ هَذَا خَادِمٌ عِنْدَنَا مُسْتَأْجَرٌ لِشُئُوْنِ البَيْتِ لِأنَّهُ يَتَوَهَّمُ أنَّ هَذِهِ الهَيْئَةِ وَاللِّبَاسَ تَتَنَافَى مَعَ وَظِيْفَتِهِ أوْ مَقَامِهِ الاجْتِمَاعِيّ الكَبِيْرِ وَهَذَا بلا شَكٍ بُرْهَانٌ على سَخَافَةِ عَقْلِهِ وَقِلّةِ دِيْنِهِ وَالنفْسُ العَظِيْمَةُ الشَّرِيْفَةُ تَفْتَخِرُ وَتَعْتَزُّ بِمَنْبَتِها وَأَصْلِهَا أَبِيْهَا وَأُمِّهَا مَهْمَا كَانَتَ حَيَاتُهُما وَنَشْأتُهما وَبيْئَتُهمَا وَهَيْئتهمَا .

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُوْجَدَ مِنْ النِّسَاءِ اللاّتِيْ يُقالُ لَهُنَّ مُتَعَلِّمَاتٌ إذَا سُئِلَتْ

عن أُمِّهَا مَنْ هَذِهِ أنْ تَقُولَ هَذِهِ فرَّاشَةٌ عَنْدَنَا أَوْ طَبَّاخَةٌ أَوْ خَدَّامَة نَعُوذُ باللهِ مِنَ الانْتكَاسِ وَعَمَى البَصِيْرَةِ رَبَّنَا لا تُزغْ قلُوبَنَا بَعْدَ اذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ .

وَذَكَرَ بَعْضُهُم أنَّ رَجُلاً كَانَ مِن المَياسِيْرِ بالبَصْرَةِ يَتَمَنَّى أَنْ يُرْزَقَ وَلَداً ، وَيَنْذُرَ عَلَيْهِ النُّذُورَ حَتَّى وُلِدَ له فسُرَّ بهِ غَايَة السُّرُوْرِ وَأَحْسَنَ تَرْبِيَتَهُ حَتَّى ارْتَفَعَ عَن مَبْلَغِ الأَطْفَالِ إلى حَدِّ الرِّجَالِ ، وَلم يَهُمَّهُ شَيءٌ مِنْ أَمْرِ الدنيا سِوَى هَذا الوَلَدِ وَلَمْ يُؤَخِّرْ مُمْكِناً مِنَ الاحْسَانِ عَنْهُ ، فَلَمْ يَشْعُرُ الأَبُ ذَاتَ يَوْمٍ إلا بِخَنْجَرٍ خَالطَ جَوْفَهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ .

فَاسْتَغَاثَ بِابْنِهِ مَرَّتَيْنِ فَلَمْ يُجِبْهُ ، فَالْتَفَتَ فَاذَا هُوَ صَاحِبُ الضَّرْبَةِ فَقَالَ الشَيْخُ وَهُوَ يَضْطَرِبُ مِنَ الأَلْمِ لَا إلهَ إلا اللهُ مُحمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، أَسْتَغِفُر اللهَ ، صَدَقَ اللهُ أَرَادَ بالتَّهْلِيْلِ أنْ يَلْقَى اللّهَ بِالايْمَانِ .

وَأَرَادَ بالاسْتِغْفَارِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَذَّرَهُ فَلَمْ يَحْذَرْ مِنْ ابْنِهِ وَبِقَوْلِهِ : صَدَقَ اللهُ قَوْلُـه تَعَالى ﴿ انَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُم عَدُوٌّ لكمُ فاحْذَرُوْهُم ﴾ فَجَمَعَ في هَذِهِ الكَلِمَاتِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إليْهِ في هَذِهِ الحَالِ : وقال بَعْضُ الآبَاءِ الذِيْنَ ذَاقَوُا عُقُوْقَ الأوْلَادِ لابْنٍ لَهُ :

غَذَوْتُكَ مَوْلُوداً وَعِلْتُكَ يَافِعاً
تُعَلُّ بمَا أُدْنِيْ إلَيْكَ وَتُنْهَلُ
إذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بالسُّقْمِ لَمْ أَبِتْ
لِذِكْرِكِ إلَّا سَاهِراً أَتَمَلْمَلُ
كَأنِّي أنَا المَطْرُوقُ دُونَكَ بالذِي
طُرِقْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تُهْمِلُ

تَخافُ الرَّدَى نَفْسِيْ عَلَيْكَ وَإنَّهَا
لَتَعْلَمُ أنَّ المَوْتَ حَتْمٌ مُؤَجَّلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ وَالغَايَةَ الَّتي
إليَهَا مَدَى مَا كُنتُ فِيْكَ أُؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِيْ مِنْكَ جَبْهَاً وَغِلْظَةً
كَأنَكَ أنْتَ المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ
وَسَمَّيْتَنِيْ بِاسْمِ المُفَنَّدِ رَأْيُه
وَفي رَأْيِكَ التَّفْنِيْدُ لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ
تَراهُ مُعدّاً لِلْخَلافِ كَأنَّه
بِردٍّ عَلى أهْلِ الصَّوَابِ مُوكَّلُ
فَلَيْتَكَ إذْ لَمْ تَرْعَ حقَّ أُبُوَّتِي
فَعَلْتَ كَما الجارُ المُجَاوِرُ يَفْعَلُ
فَأَوَلَيْتَنِيْ حَقَّ الجِوَارِ وَلَمْ تَكُنْ
عَليَّ بِمَالِيْ دُونَ مَالِكَ تَبْخَلُ

وَقَالَ آخرُ مِمَّنْ ذَاقَ وَتَجرَّعَ أَلَمَ العُقُوقِ :

يَوَدُّ الرَّدَى لِيْ مِنْ سَفَاهَةِ رَأيِهِ
وَلَو مُتُّ بَانتْ لِلعُدُوِّ مَقَاتِلُه
إذَا مَا رَآنِيْ مُقْبِلاً غَضَّ طَرْفَهُ
كَأنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ دُوْنِي يَقَابِلُه

اللهُمَّ يَا مُنَوِّرَ قُلُوبَ العَارِفِينَ ، يَا قَاضِي حَوائِجَ السَّائِلِين يَا قَابِلَ تَوبَةِ التَّائبينَ ويَا مُفرِّجاً عن المَكْرُوبين والمغمُومِيْنَ ، تُبْ عَلَيْنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا

وَلجَميعِ المُسْلِمينَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصَلَى اللهُ على مُحمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِينَ .

(فَصْلٌ)

في صِلَةِ الرَّحِمِ

الرَّحِمُ القَرَابَةُ ، سُمِّيَتْ بذلِكَ لأنَّها دَاعِيَةُ التَّراحُمِ بين الأَقْرِبَاءِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ مُوْجِبَةٌ لِرِضَا الرَّبِّ عن العَبْدِ وَمُوْجَبَةٌ لِثَوابِ اللهِ لِلْعَبْدِ في الآخَرَةِ ، وقد وَرَدَ أنَها سَبَبٌ لَبسْطِ الرِّزْقِ وَتوسِيْعِهِ وسَبَبٌ لِطُولِ العُمْرِ ، وَهَذِه الأشْيَاءِ مِنَ الأمُوْرِ المَحبُوبةِ إلى العَبْدِ .

وَذلكَ حَقٌّ فَإِنَّ اللّهَ تَعَالى هُوَ الخَالِقُ لِلأسْبَابِ والمُسَبَّباتِ ، وَقَدْ جَعَلَ لِكُلِّ مَطْلُوبٍ سَبَباً وَطَرِيْقاً يُنَالُ بِهِ ، وهذا جَارٍ على الأصْلِ الكَبِيْرِ ، وَأنُه مِن حِكْمَتِه وَرَحْمَتِه جَعَلَ الجَزَاء مِن جِنْسِ العَمَل فكَما أنَّ الانْسَانَ وَصَلَ رَحِمَهُ بالبرِّ والاحْسَان ، وَأدْخلَ على قُلُوبِهِمُ السُّرُوْرَ ، وَصَل اللهُ عُمْرَهُ وَبَسَط في رِزْقِهِ وَوَسَّعَهُ وَفتَح له مِنْ أَبْوَابِ الرِّزْقِ مَا لَمْ يَكُن لهُ على بَالٍ وبَارَكَ لَهُ .

فَكَمْ مِن انْسَانٍ وَهَبَهُ اللّهُ قُوَّةً في جِسْمِهِ وَرَزَانَة في عَقْلِهِ وَمَضَاءً في عَزِيمَتِهِ وبَرَكَةً في عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ كَانَتْ حَيَاتُه حَافِلَةً بِالأعْمَالِ الطَّيِّبَةِ ، فَهَذا حَيَاتُهُ حياةٌ طَوَيْلَةٌ وإنْ كَانَتْ في الحِسَابِ قَصِيْرَةٌ ، لِأَنَّ المِقْيَاسَ الحَقِيْقِيّ لِلْحَيَاةِ المُبَارَكَةِ هِيَ جَلَائِلُ الاعْمَالِ ، وَكَثْرَةُ الآثَارِ لَيْسَ الشُّهُورِ وَالأعْوَامِ كَماَ قَالَ بَعْضُهُم :

فَتىً عَـاشَ أعْـمَـالاً جِسَـامـاً وَإنَّـمـا
تُـقَـدَّرُ أعْـمَـارُ الـرِّجَـالِ بـأعْـمَـالِ

وَانْظُرْ إلى مَنْ مَضى مِن العُلَمَاءِ وَالمُصْلِحِيْنَ الذِيْنَ عَاشُوا زَمَناً قَلِيْلاً كَأَنَّهُم لَبِثُوا قُروناً كَثِيْرَةً لِكَثْرَةِ مَا عَمِلُوا وَعِظَمِ مَا خَلَّفُوا بَيْنَمَا ترى آخَرِيْنَ يَعِيْشُونَ زمناً طَوِيْلاً وَيَذْهَبُونَ ولا يَبْقَى لَهُم أثرٌ ولا ذِكْرٌ كما قِيْلَ :

كَـأنَّهُم قَطُّ مَـا كَـانُـوا وَمَـا خُـلِقُـوا
ومَـاتَ ذِكْـرُهُـمُـوْا بَيْنَ الـوَرَى وَنُسُـوا

وَمِنْ أَسْبَابِ البَرَكَةِ في العُمْرِ وَاللّهُ أعْلَمُ التَّفَرُّغُ مِن الشَّوَاغِلَ وَالشَّوَاغِبِ فمَن كَثُرَتْ شَوَاغِلُهُ وَشَوَاغِبُهُ قلِيْلُ البَرَكَةِ في العُمْرِ أو مَعْدُومُهَا لأنَّهُ مُنِعَ مِنْ تَصْرِيْفِه في طَاعَةِ اللّهِ بِمُتَابَعَةِ شَهَوَاتِهِ وَمَلَذَّاتِهِ وَتَحْصِيْلِ مُنَاهُ مِنْ دُنْيَاه وَمَنْ تَفَرَّغَ مِن الشَّوَاغِلِ وَلَمْ يُقْبِلْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ فَهُوَ أيْضَاً مَخْذُولٌ وَمَصْرُوفٌ عَن طَرْيْقِ الاسْتِقَامَةِ وَالهُدَى وَلا بَرَكَةَ في عُمْرِهِ .

وَاذَا تَأَمَّلْتَ أكْثَرَ النَّاسِ وَجَدْتَ الذِي حَبَسَهُم عَنْ طَاعَـةِ اللّهِ وَالاقْبَالِ عَلَيْهِ وَتَصْرِيْفِ أعْمَارِهِم في التَّوَجُّهِ إلَيْهِ بأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ هُوَ كَثْرَةُ أشْغَالِهِم فَاشْتَغَلَتْ جَوارِحُهُمْ بِخِدْمَةِ الدُّنْيَا لَيْلاً ونَهاراً شُهُوراً وأعْوَاماً حَتَّى انْقَرَضَ العُمْرُ كُلُّهُ في اللَّهْوِ وَالبَطَالَةِ وَالتَّقْصِيْرِ .

وَمِن النَّاسِ مَنْ قَلَّتْ شَوَاغِلُهُم في الظَّاهِرِ لِوُجُوْدِ مَنْ قَامَ بَهَا عَنْهُم لِكَنْ كَثْرَة عَلائِقِهِم وَتَفَكُرَاتِهِم في البَاطِن لِكَثْرَةِ مَا تَعَلَّقَ بِهِم مِن الشَّوَاغِبِ فهمُ مُسْتَغْرِقُونَ دائماً في التَّفْكِيْرَ وَالتَّدْبِيرِ وَالاخْتِيَارِ والتَّقْدِيرَاتِ وَالاهْتِمَامِ بأمُوْرِ مَنْ تَعلَّقَ بِهِمْ مِن الأنَامِ .

لا سِيَّمَا مَنْ كَانَ لَهُ جَاهٌ وَرِيَاسَةٌ وخُطَّةٌ أو سِيَاسَةٌ فَهَذَا بَعِيْدٌ عَنْ تَصْرِيْفِ العُمْرِ وَاسْتِغْرَاقِهِ في أَنْوَاعِ طَاعَةِ الله والاقْبَالِ عليه بقَلْبِهِ وقالبِهِ وَالحاصِلُ أنَّ الخيْرَ يَكُوْنُ غَالِباً باذْنِ اللّهِ في التَّخْفِيْفِ مِن الشَّوَاغِلِ وَالعَوَائِقَ التِي تَجْذِبُه وتَخْطُفهُ عن الطَّاعَةِ إذَا هَمَّ بهَا وَيَكُوْن لا بَرَكَةَ في عُمْرِهِ أو قَلِيْلَ البَرَكَةِ فَيْهِ .

وَإنَّمَا رُتِّبَتْ البَرَكَةُ في العُمْرِ عَلى صِلةِ الرَّحِمِ لأنَّ المَرْءَ إذَا وَصَلَ رَحِمَهُ أرْضَى رَبَّهَ فَأجَلَّهُ أقْرِبَاؤُهُ وَاحْتَرَمُوه ، فَامْتَلأتْ نَفْسُه سُرُوراً وَشَعَرَ بِمَكانَةٍ عَالِيَةٍ مِنْ أَجْلِ مَا وَفَّقَهُ اللّهُ لَهُ مِنْ صَنِيْعِهِ الذِي صَنَعَ ، وَالسُّرُورُ مُنَشِّطٌ ، كَما أنَّ الحُزْنَ مُثَبِّطٌ ، وَالشُّعُورُ بالتَّعْظِيْمِ عَنْ أعْمَالٍ مَجِيْدَةٍ دَاعٍ لِلإكْثَارِ مِنْهَا ، وبَذْلِ الجُهْدِ في سَبِيْلِهَا .

وَكَما أنَّ الصِّحَّةَ وَطِيْبَ الهَوَاءِ وَطِيْبَ الغِذَاءِ وَاسْتِعْمَالَ الأُمُوْرِ المَقوِّيَةِ للأَبْدانِ وَالقُلُوبِ مِنْ أسْبَابِ طُوْلِ العُمْر ، فَكَذَلِكَ صِلَةُ الرَّحِمِ جَعَلَها اللّهُ سَبَباً رَبَّانِيًّا مِنْ أسْبَابِ طُوْلِ العُمْر .

قَالَ البَلْبَانِيّ وَالمرَادُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ مُوَالاَتُهم ومَحَبَّتُهم أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِم لأجْلِ قَرابَتِهم وَتأكِيْدِ المُبَادَرَةِ إلى صُلْحِهِم عِنْدَ عَدَاوَتِهم وَالاجْتِهَادُ في إيْصَالِ كِفَايَتِهم بِطِيبِ نَفْسٍ عِند فَقْرِهِم وَالاسْرَاعُ إلى مُسَاعَدَتِهم وَمُعَاوَنَتِهم عِنْدَ حَاجَتِهم .

وَمُرَاعَاةِ جَبْرِ قِلُوبِهم مَعَ التَّعَطُّفِ والتَّلَطُّفِ بهم وَتَقْدِيْمُهُم في إجَابَةِ دَعْوَتِهم وَالتَّوَاضُعُ مَعَهُم في غِنَاهُ وَفقْرِهِمْ وَقُوَّتِهِ وَضَعْفِهم وَمُدَاوَمَةُ مَوَدَّتِهم وَنُصْحُهُمْ في كُلِّ شُؤنِهم وَالبُدَاءَةُ بهم في الدَّعْوَةِ وَالضِّيَافَةِ قَبْلَ غَيْرِهم

وَإِيْثَارُهُم في الاحْسَانِ والصَّدقَةِ وَالهَدِيَّةِ عَلى مَنْ سِوَاهُم لِأَنَّ الصَّدَقَة عليهم صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ .

وَفي مَعْنَاهَا الهَدِيَّةُ وَنَحْوُهَا وَيَتَأَكَّدُ فِعْلُ ذَلِكَ مَعَ الرَّحِمِ الكَاشِحِ المُبْغِضِ عَسَاهُ أنْ يَعُوْدَ وَيَرْجِعَ عَنْ بُغْض إلى مَوَدَّةِ قَرِيْبِهِ وَمَحَبَّتِهِ انْتَهى .

وَفي النِّهَايَةِ : قَدْ تَكرَّرَ في الحَدِيْثِ صِلَةُ الرَّحِم وَهِيَ كِنَايَةٌ عَنِ الإِحْسَانِ إلى الأَقْرَبِينَ مِنْ ذَوِي النَّسَبِ وَالأَصْهَارِ ، وَالتَّعَطُّفِ عَلَيْهِم ، وَالرِّفْقِ بهم وَالرِّعَايَةِ لأَحْوَالِهم وَكَذَلِكَ إِنْ بَعُدُوا وَأَسَاؤُا ، وَقَطْعُ الرَّحِم ضِدُّ ذَلِكَ كُلِّهِ .

وَفي الفَتْح قَال القُرطُبيّ الرَّحِمُ التِي تُوْصَلُ عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ فَالعامَّة رَحِمُ الدِّينِ ، وَتَجِبُ مُوَاصَلتُهَا بالتَّوَادُدُ والتَّنَاصُحِ وَالعَدْلِ والانْصَافِ والقِيَام بالحُقُوقِ الوَاجِبَةِ والمُسْتَحبَّةِ ،وَأمَّا الرَّحِمُ الخَاصَّةُ فَتزِيدُ النفقَة عَلى القَرِيْبِ ، وَتفقُّدِ أَحْوَالِهم ، وَالتَّغَافُلِ عَنْ زَلَّاتِهم وَتَتَفَاوتُ مَرَاتِبُ اسْتِحَقاقِهم في ذَلِكَ كَما في الحَدِيْثِ الأقرَبُ فَالأقْرَبُ .

وَقَال ابنُ أبي جَمْرَةِ : تكُونُ صِلَةُ الرَّحِم بالمَالِ وَبالعَوْنِ على الحَاجَةِ ، وَبَدْفِع الضَّرَرِ وَبطلاقَةِ الوَجْـهِ ، وبالـدُّعَاءِ ، وَالمعْنَى الجامِعُ إِيْصالُ مَا أمْكَنَ مِنَ الخَيْرِ ، وَدَفْعُ مَا أَمْكَنَ مِنَ الشَّرِّ بحَسَبِ الطَّاقَةِ .

وَهَذَا إنَّمَا يَسْتَمِرُّ إذَا كَانَ أهْلُ الرَّحِمِ أَهْلَ اسْتِقَامَةٍ فَإِنْ كَانُوا كُفَّاراً أَوْ فُجَّاراً فَمُقَاطَعَتُهم في اللَّهِ هِيَ صِلَتُهم ، بِشَرْطِ بَذْلِ الجُهْدِ في وَعْظِهم ثُمَّ إِعْلَامُهم إذَا أصرُّوا بأنَّ ذَلِكَ بَسَبَبِ تَخَلُّفِهم عَنْ الحَقِّ ، وَلا يَسْقُطُ مع

ذَلِكَ صِلَتُهم بالدُّعَاءِ لَهُم بِظَهرِ الغَيْبِ أن يَعُودُوا إلى الطَّرِيْقِ المُثْلَى أ هـ .

وَمِن اللطَائِفِ أَنَّ ابْنَ المَقرِّيْ كَتَبَ لِوَالِدِهِ حِيْنَ امْتَنع عَنِ النَّفَقَةِ عليهِ :

لا تَقْطَعَنَّ عَادَةَ بِرٍّ ولا
تَجْعَلْ عِتَابَ المَرْءِ في رِزْقِهِ
فَإِنَّ أمْرَ الإفْكِ مِنْ مِسْطَحٍ
يَحُطُّ قَدْرَ النجمِ مِنْ أُفْقِهِ
وَقَدْ جَرَى مِنْهُ الذِي قَدْ جَرَى
وَعُوتِبَ الصِّدِّيْقُ في حَقِّهِ

فَأَجَابَهُ وَالِدُه مُبَيِّناً لَهُ السَّببَ لِذَلِكَ المَنْعِ :

قَدْ يُمْنَعُ المُضْطَرُّ مِنْ مَيْتَةٍ
إذَا عَصَى في السَّيْرِ في طُرْقِهِ
لأَنَّهُ يَقْوَى عَلى تَوْبَةٍ
تُوْجِبُ إيْصَالاً إلى رِزْقِهِ
لَوْ لَمْ يَتُبْ من ذَنْبِهِ مِسْطَحٌ
مَا عُوْتِبَ الصِّدِّيْقُ في حَقِّهِ

وَمِمَّا يَدْخُلُ في صِلَتِهم تَعَهُّدُهُمْ بالتَّربيَةِ وَالتَّوْجِيْهِ حِيْنَ يَكُونُونَ صِغَارا مُحْتَاجِيْنَ إلى تَوْجِيْهِهم إلى الدِّيْنِ الحَنِيْفِ وَالأخْلاَقِ الفَاضِلَةِ وَمِمَّا يَدْخُلُ المبَادَرَةُ في عِلاجِهم عِنْدَمَا يُمْرَضُونَ وَزِيَارَتُهم إذَا غَابُوا عَنْهُ ،

وَعِيَادَتُهم عِنْدَما يَمْرَضُون ، وَإشْعَارُهُم أنَّه مَعَهُمَ دَائِماً .

وَاللهُ أعلمُ وصلى اللهُ على مُحمدٍ وعَلى آلهِ وسَلم .

(فَصْلٌ)

وَقَدْ وَرَد في الحَثِّ على صَلَةِ الرَّحِمِ وَالتَّحْذِيْرِ عَنْ قَطِيْعَتِها آيَاتٌ وَأحَادِيْثُ كَثِيْرَةٌ ، نَذكُرُ طرَفاً مِنْهَا ، قَالَ اللهَ تَعالى ﴿وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ﴾ أيْ قَرَابَتَكَ مِنْ أَبِيْكَ وَأُمِّكَ وَالمُرَادُ بِحَقِّهِمْ بِرُّهُمْ وَصِلَتُهُم .

وَقَالَ تَعَالى ﴿ وَاتَّقُوا اللّهَ الذِيْ تَساَءَلُوْنَ بهِ وَالارَحامَ ﴾ أيْ اتَّقُوا الأَرْحَامَ أنْ تَقْطَعُوهَا ﴿ وَالذِيْنَ يَصِلُونَ مَا أمَر اللهُ بهِ أنْ يُوْصَلَ ﴾ المُرَادُ الرَّحِمُ وَالقَرَابَةُ .

وَأخْرَجَ البُخَارِيّ وَمُسْلِمُ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رَسُولَ اللهَ صَلى الله عليه وسلم قالَ « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَليَصلْ رَحِمَه ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللّه وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أوْ لِيَصْمُتْ » .

وَأَخْرَجَ أَبُو يَعْلَى باسْنَادٍ جَيِّدٍعَنْ رَجُلٍ مِنْ خَثْعَم قَالَ أَتَيْتُ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ في نَفرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقُلْتُ أنْتَ الذي تَزْعَمُ أنكَ رسُولُ اللهِ ؟ قال « نَعَمْ » قلتُ يَا رَسُولَ اللّهِ أيُّ الأعْمَالِ أحَبُّ إلَى اللهِ ؟ قَالَ « الأيْمَانُ باللّهِ » قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ ثُمَّ مَهْ .

قَالَ « ثُمَّ صِلَةُ الرَّحِم » قَالَ قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ أيُّ الأعْمَالِ أبْغَضُ إلى اللهِ ؟ قَالَ « الإشْرَاكُ بِاللهِ » قَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ ثُمَّ مَهَ ؟ قَالَ ثم قَطِيْعَةُ

الرَّحْمِ قَالَ قُلْتُ ثُمَّ مَهْ قَالَ الأَمْرُ بالمُنْكَرِ وَالنَّهْي عَنْ المَعْرُوْفِ .

وَأَخْرَجَ البُخَارِيّ وَمُسْلِم وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبي أَيُّوْبَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنَّ أَعْرَابِاً عَرَضَ لِرَسُوْلِ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ في سَفَرٍ فَأَخَذَ بِخطَامِ نَاقَتِهِ أو بِزِمَامِهَا ثُمَّ قَالَ يَا رَسُوْلَ اللهِ أو يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الجَنَّةِ وَيُبَاعِدُنِي مِن النَّارِ ، قَالَ فَكَفَّ النَبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثمَّ نَظَرَ في أصحَابِهِ ثُمَّ قَالَ « لَقَدْ وُفِّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ » قَالَ كَيْفَ قلت ؟ قَالَ فأعَادَهَا فَقَالَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم « تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَتُقِيْمُ الصَّلاَةَ وَتؤتِيْ الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ » .

وَفي رِوَايَةٍ وَتَصِلُ ذَا رَحِمِكَ فَلَمَّا أَدْبَرَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَى اللهُ عليه وسلم « إِنْ تَمَسَّكَ بِمَا أَمَرْتُهُ دَخَلَ الجَنَّةَ » وَأَخْرَجَا أَيْضاً عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَى اللعُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بالعَرْشِ تَقُوْلُ مَنْ وَصَلَنِيْ وَصَلَهُ اللّهُ ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ » .

وَأَخْرَجَا أَيْضاً عَنْ أَبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللّهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِنَّ اللّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقاً حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُم قَامَتِ الرَّحْمُ زَادَ رِوَايَةِ البَيْهَقِي فَأَخَذَتْ بِحِقْوَيْ الرَّحْمَنِ فقَالَ مَهْ ؟ فَقَالَتْ هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنْ القَطِيْعَةِ قَالَ نَعَمْ أمَا تَرْضَيْنَ أنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَاقطَعَ مَنْ قَطعَكِ ؟ قَالَتْ بَلَى قَالَ فَذَاكَ لَكِ » ثُمَّ قَالَ رسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إقْرَؤُا انْ شِئْتُم«فَهَلْ عَسَيْتُم إنْ تَوَلَّيْتُم أَنْ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أرْحَامَكُمْ أوْلَئِكَ الـذِيْنَ لَعَنَهُم اللهُ فَأَصَمَّهُم وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم » .

وَعَن أَبِي هُرَيْرَةَ أنَّ رجُلاً قَالَ يَا رَسُوْلُ اللهِ إنَّ لِيْ قَرَابَةً أَصْلُهُم وَيَقْطَعُوني وَأحْسِنُ إليهم وَيُسِيئُون إليَّ ، وَأحْلَمُ عَنْهُم ويَجْهَلُوْنَ عَلَيَّ فَقَالَ « لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّما تُسِفُّهُمْ المَلَّ وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيْراً عَلَيْهِم مَا دُمْتَ على ذِلِكَ ، رواهُ مُسْلِم .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ أَبو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأنصَارِ بالمدينةِ مَالاً مِنْ نَخْل وَكَانَ أحبَّ أمْوَالِهِ إليهِ بَيْرُحَاءَ ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم يَدْخُلُهَاوَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فيها طَيِّبٍ.

فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿ لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قَامَ أَبُو طَلحَةَ إلى رَسُولِ اللهِ صَلَى اللهُ عليهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا رَسُوْلُ اللهِ إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ ﴿ لَنْ تَنالُوا البرَّ حَتَّى تُنْفِقُوْا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وَإنْ أَحَبَّ أَمْوَالِيْ اليَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَة لِلَّهِ فقال رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وقَد سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وَإِنِّي أرَى أنْ تَجْعَلَهَا في الأَقْرَبين » فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ أفعَلُ يا رسول اللهِ ، فَقَسَمَها أَبُو طَلْحَةَ في أَقَارِبِهِ وَبَنِيْ عَمِّهِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ أُمِّ المؤمِنِينَ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الحَارِثِ رضي اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَعْتَقَتْ وَلِيْدَةً وَلَمْ تَسْتَأذِنْ النَّبِيّ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم فَلَمَّا كَانَ يَوْمُها الذي يَدُورُ عَلَيْهَا فِيْهِ قَالَتْ أَشَعَرْتَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنِّي أَعْتَقْتُ وَلِيْدِتي قَالَ : أَوَ فَعَلْتِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ قَالَ : « أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ كَانَ أَعْظَمَ لأَجْرِكِ » مُتَّفَقٌ عليه .

وَفي حَدِيْثِ أَبي سُفْيَانَ في قِصَّةِ هِرَقْلَ أَنَّهُ قَالَ لأبي سُفْيَانَ مَا

يَأْمُرُكُم بِهِ يَعْنِي النبي صلى اللهُ عليه وَسَلَّم قُلْتُ يَقُولُ « اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئاً ، وَاتْرُكُوا ما يَقُولُ آبَاؤُكُم وَيَأْمُرُنَا بالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ ، متفق عليه .

وَأَخْرَجَ الأَمَامُ أَحْمَدُ باسْنَادٍ جَيِّدٍ قَوِيّ وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عنهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الرَّحِمُ شَجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ تَقُولُ يَا رَبِّ إِنِّيْ قُطِعْتُ يَا رَبِّ إِنِّي أُسِيءَ إليَّ يَا رَبِّ إنّي ظُلِمْتُ يَا رَبِّ يَا رَبِّ فَيُجَيْبُهَا ألاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

وَأَخْرَجَ الأَمَامُ أَحْمَدُ أَيْضاً باسْنَادٍ رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ وَالبَزَّارُ عَنْ سَعِيْدِ بنِ زَيْدٍ رَضِيَ الله عنه عن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهُ قَالَ إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الاسْتَطَالَةُ في عِرْضِ المُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَإِنَّ هَذِهِ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِن الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجلّ فَمَنْ قَطَعَهَا حَرَّمَ اللهُ عليهِ الجَنَةَ .

وَأَخْرَجَ البَزَّارُ باسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ أَنَسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « الرَّحِمُ شَجْنَةٌ مُتَمَسِّكَةٌ بِالعَرْشِ تَكَلَّمَ بِلِسَانٍ ذَلِقٍ اللهُمَّ صِلْ مَنْ وَصَلَنِيْ وَاقْطَعْ مَنْ قَطَعَنِيْ فَيَقُوْلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيْمُ وَإِنِّيْ شَقَقْتُ الرَّحِمَ مِنْ اسْمِيْ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَن بَتَكَهَا بَتَكْتُهُ .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيّ وَابْنُ خَزَيْمَةَ في صَحِيْحِهِ وَالحَاكِمُ ، وقَالَ عَلَى

شَرْطِ مُسْلِم عَنْ أمِّ كُلْثُوْمَ بِنْتِ عُقْبَةَ رَضيَ اللهُ عَنهُمَا أَنَّ النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذِيْ الرَّحِمِ الكَاشِحِ » يَعْنِي أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذِيْ الرَّحِمِ المُضْمِرِ العَدَاوَةِ وَهُوَ في مَعْنَى قَوْلِهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَّـم « وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ » .

قَالَ النَّاظِمُ :

وَكُنْ وَاصِلَ الأَرْحَامِ حَتَّى لِكَـاشِحٍ
تُـوَفَّـرُ فـي عُمْـرٍ وَرِزْقٍ وَتَسْعَـدُ
وَلَا تَقْـطَعِ الأَرْحَـامَ إِنَّ قَـطِيْعَـةً
لِـذِي رَحِمٍ كُبْـرَى مِنْ اللّهِ تُبْعِـدُ
فَـلَا تَغْشَى قَـوْمـاً رَحْمَـةُ اللّهِ فِيْهِمُ
ثَـوَى قَـاطِـعٌ قَـدْ جَـاءَ ذَا بِتَـوَعُّـدِ

وَأَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَ بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ عن عُقْبَةَ بن عَامِرٍ رَضْيَ اللهُ عَنه قَالَ لَقِيْتُ رَسُولَ اللهِصَلى اللهُ عليه وسلم فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الأَعْمَالِ فَقَالَ « يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وَفِي لَفْظٍ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيّ عَنْ عَلِيّ رِضْوَانُ اللّهِ عَلَيْهِ قَالَ قَالَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلَّم « ألا أدُلكَ عَلَى أكْرَمِ أخْلاَقِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؟ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ وَأَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ورواه البزار عن عبادة بن الصامت مرفوعاً بلفظ ألا أدلكم عَلَى مَا يَرْفَعُ اللّهُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ قَالُوا نَعَمْ يَا رَسُوْلَ اللّهِ قَالَ « تَحْلَمُ عَلَى مَنْ جَهِلَ عَلَيْكَ ، وَتَعْفُوْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ » .

وَأَخْرَجَ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلى اللهُ عليه وسلم قَالَ « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ رِزْقِهِ وَيُنْسَأَلَهُ فِي أَثْرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » وَلِلْبُخَارِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَلَهُ فِي أَثَرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » .

وَرَوَاهُ التِّرْمِذيّ بِلَفْظ « تَعَلَّمُوْا مِنْ أَنْسَابِكَمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّة فِي الأَهْلِ ، مَثْرَاةٌ فِي المَالِ مَنْسَاةٌ فِي الأَثَرِ » وَمَعْنَى (مَثْرَاةٌ فِي المال) أيْ زِيَادَةٌ فيهِ وَمَعْنَى (مَنْسَاةٌ في الأثر) النَّسَأُ أَيْ زِيَادَةٌ فِي عُمُرِهِ أَيْ يُؤَخَّرُ لَهُ فِي أَثَرِهِ وَهُوَ الذِّكْرُ الحَسَنُ فِيهِ يَكْتَسِبُ صَاحِبُهُ حَسَنَاتٍ وَهُوَ في القَبْرِ بالدّعَاءِ الصَّالِحِ له أو الاقْتِدَاءِ بِهَ في صَالِحِ عَمَلِهِ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

دَقَّــاتُ قَـلْبِ المَـرْءِ قَـائِلَةٌ لَـهُ
إِنَّ الـحَـيَـاةَ دَقَـائِـقٌ وَثَـوَانِـيْ
فَـارْفَعْ لِنَفْسِـكَ بَعدْ مَـوْتِكَ ذِكْـرَهَـا
فَـالـذِّكْـرُ لِلإِنْسَـانِ عُمْـرٌ ثَـانِي

وَأَخْرَجَ عَبْدُ اللّهِ بنُ الأَمَامِ أَحْمَد فِي زَوَائِدِهِ وَالبَزَّارُ باسْنَادِ جَيِّدٍ وَالحَاكِمُ عَنْ عَليّ بنِ أَبِيْ طَالَبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ ، وَيُوَسَّعَ لَهُ في رِزْقِهِ ، وَيُدْفَعَ عَنْهُ مِيْتَةَ السُّوْءِ فَلْيَتّقِ اللّهَ وليَصِلْ رَحِمَهُ .

وَأَخْرَجَ البَزَّارُ بِإِسْنَادٍ لاَ بَأْسَ بِهَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ

رَضْيَ اللهُ عَنْهُما عَنِ النَّبيِّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسلمَ أنهُ قالَ « مَكْتُوبٌ في التَّوْرَاةِ مَنْ أحَبَّ أنْ يُزَادَ في عُمْرِهِ ، وَيُزَادَ في رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرانِيّ بإسْنَادٍ حَسَنٍ وَالحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهمَا قَال قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إنّ اللهَ لَيَعْمُرُ بالقَوْمِ الدّيَارَ ويُثْمِرُ لَهُمُ الأمْوالَ ، وَمَا نَظَرَ إليهم مُنْذُ خَلَقَهُم بُغْضاً لَهُم » قِيْلَ وَكَيْفَ ذَلَكَ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ قَال « بصِلَتِهِم لأَرْحَامِهِم » .

وَالله أعلمُ وَصَلّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَسَلَّم .

(فَصْلٌ)

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ لِصِلَةِ الرَّحِمِ فَوائِدُ جَمَّةٌ وَثَمَراتٌ مُحَقَّقَةٌ وَنَتَائِجُ حَسَنَةٌ في حَيَاةِ المُسْلِمِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ وَقَدْ رَتَّبَ النَّبيّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم عَلَى صِلَةِ الرَّحِمِ أمْرَيْنِ مُحَقَّقَيْنِ هُمَا بَسْطُ الرِّزْقِ وَسَعَتُهُ وَالانْسَاءُ في الأثرِ وَمُسَاعَدَةُ ذَوِيْ القُرْبَىٰ وَصِلَتُهِمْ وَاجِبٌ دِينِيّ نَدَبَ اللهُ إليـهِ وَجَاءَتْ الأَحَادِيْثُ مُبَيِّنَةً أَنَّهُ مِن آكَدِ وَاجِبَاتِ الْمَرْءِ فِي حَيَاتِهِ يَدْعُوْكَ لَهُ الشَّفَقَةُ وَالحَنَانَ والعَطْفُ والرَّحْمَةُ على ذَوِي قُرْبَاكَ .

وَلَيْسَ مِنْ البِرِّ مُسَاعَدَةُ الخَامِلِ الكَسْلَانِ وَتَشْجِيْعُهُ على البَطَالَةِ وَالكَسَلِ وإنَّما البِرُّ والصِّلَةُ في مُسَاعَدَةِ مَنْ فَقَدَ أَسْبَابَ العَمَلِ وَلَمْ تَتَهَيَّأْ لَهُ طُرُقُ المَكَاسِبِ وَعَلَيْكَ أنْ تُعامِلَهُمْ مُعَامَلَةَ الرِّفْقِ وَاللِيْنِ فَتَحْتَرِمَ كَبِيْرَهُم وَتُجِلَّهُ وَتُحْسِنَ إلى صَغِيْرِهِمْ وَتَتَجَاوَزَ عَنْ هَفَوَاتِهِمْ وَتَغُضَّ الطَّرْفَ عَنْ زَلَّاتِهِمْ وَتُقَابِلَ المُسِيءَ مِنْهُمْ بالاحْسَانِ لا بالاسْتِكْبَارِ وَالاسْتِنْقَاصِ لِأَنَّهُم أَقَارِبُكَ وَأَوْلَى النَّاسِ بِمَوَدَّتِكَ وَعَطْفِكَ وَرَحْمَتِكَ .

وَهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ بَعْدَ أُصُولِكَ وَفُرُوْعِكَ وَحَواشِيْكَ يَتَمَنَّوْنَ سَعَادَتَكَ هَنَاءَكَ وَيَرْجُوْنَ لَكَ الخَيْرَاتِ فَجَدِيْرٌ بِكَ أَنْ تُسَارِعَ إلى مُوَاسَاتِهِم وَعِيَادَتِهِم إذَا مَرِضُوا وَالسَّلاَم عَلَى مَنْ قَدِمَ مِنْهُم وَتَوْدِيْعِهِ إذا سَافَرَ وَمُشَارَكَتِهِم في أفْرَاحِهِمْ وَإظْهَارِ السُّرُورِ لَهُم وَمُشَاطَرَتِهِمْ في أتْرَاحِهِمْ وَتَخْفِيْفِ آلاَمِ الحُزْنِ عَنْهُمْ وَالاسْرَاعِ في قَضَاءِ حَوَائِجِهِم وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الأعْمَالِ الطَّيِّبَةِ وَالمَظَاهِرِ الشَّرِيْفَةِ فَبِذَلِكَ تُضِيْفُ قُوَّتَكَ إلى قُوَّتِهِمْ فَيُسْرِعُوْنَ إلى إجَابَتِكَ وَدَفْعِ الأذَى عَنْكَ فِي مُلِمَّاتِكَ أ هـ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَاجَه وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِه والحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيْحُ الاسْنَادِ عن ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ قَالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصِيْبُهُ وَلاَ يَرُدُّ القَدَرَ إلا الدُّعَاءَ ، وَلاَ يَزِيْدُ في العُمْرِ إلا البِرُّ » .

وَرَوَى الامَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوْعَا « صِلَةُ الرَّحِمِ ، وَحُسْنُ الجِوَارِ ، أَوْ حُسْن الخُلُقِ ، يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ ، وَيَزِيْدَانِ في الأَعْمَارِ » .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيّ وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ عن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ أَوْصَانِي خَلِيْلِيْ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ بِخِصَالٍ مِن الخَيْرِ أَوْصَانِيْ أن لا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي،وَأَنْ أَنْظُرَ إلى مَنْ هُوَ دُوْنِي ، وَأوْصَانِيْ بِحُبِّ المَسَاكِين والدّنُوِ منهم ، وَأوْصَانِي أَنْ أَصِلَ رَحِمِي وَإنْ أدْبَرَتْ ، وَأَوْصَانِيْ أنْ لا أخَافَ فِي اللّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ، وَأَوْصَانِي أَنْ أقولَ الحَقَّ وَإنْ كَانَ مُرًّا ، وَأَوْصَانِيْ أَنْ أُكْثِرَ مِن قَوْلِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلا باللّهِ فإنَّهَا كَنْزٌ مِن كُنُوْزِ الجَنَّةِ .

وَأخْرَجَ البُخَارِيّ وَأبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيّ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بن عَمْرٍو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « لَيْسَ الوَاصِلُ بالمَكَافِيْ ، وَلَكِنَّ الوَاصِلُ الذِي إذَا قطعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا » .

وَعَنْ أبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم « مَا مِنْ ذَنْبٍ أجْدَرُ أنْ يُعَجّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ في الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدَّخَرُ لَهُ في الآخِرَةِ مِن البَغْي وَقَطِيْعَةِ الرَّحِمِ » رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَالتِّرْمِذِيّ وَقَالَ حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ وَالحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيْحُ الاسْنَادِ .

وَعَنْ أَبِي مُوْسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « ثَلاَثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ مُدْمِنُ خَمْرٍ ، وَقَاطِعُ رَحِمٍ ، وَمُصَدِّقٌ بالسِّحْرِ » رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ .

وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « أَسْرَعُ الخَيرِ ثَوَاباً البِرُّ وَصِلَةُ الرَّحِم ، وَأَسْرَعُ الشَّرِّ عُقُوبَةً البَغْيُ وَقَطِيْعَةُ الرَّحِمِ » رَوَاهُ ابنُ مَاجَه .

وَعَنْ أَبْي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ علَيْهِ وَسَلَّم قَالَ « إنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَم تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيْسٍ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ فَلاَ يُقْبَلُ عَملُ قَاطِعِ رَحِمٍ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ .

وَرَوَى عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ خَرجَ عَلَيْنا رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ مُجْتَمِعُوْنَ فَقَالَ « يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِيْنَ اتقُوا اللّهَ وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ فإنَّهُ لَيس ثَوَابٌ أَسْرَعُ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ ، وَإيَّاكُم وَالبَغْيَ فَإنَّهُ لَيْسَ مِنْ عُقُوبَةٍ أَسْرَعُ مِن عُقُوبَةِ بَغْيٍ وَإيَّاكُم وَعُقُوق

الوَالِدَيْنِ ، فَإِنَّ رِيْحَ الجَنَّةِ يُوْجَدُ مِنْ مَسِيْرَةِ ألف عَامٍ ، وَاللّهِ لا يَجِدُهَا عَاقٌ وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ وَلَا شَيْخٌ زَانٍ وَلَا جَارٌّ ازاره خُيَلَاءَ ، إِنَّمَا الكِبْرِيَاءُ لِلّه رَبِّ العَالَمِيْنَ » .

شِعْرَاً :

خَفِّضْ هُمُومَكَ فَالحَيَاةُ غُرُوْرُ
وَرَحَى المَنُونِ على الأَنَامِ تَدُوْرُ
وَالمَرْءُ في دَارِ الفَنَاءِ مُكَلَّفٌ
«لَا مُهْمَلٌ فِيْهَا وَلَا مَعْذُوْرٌ»
وَالنَّاسُ في الدُّنْيَا كَظِلٍ زَائِلٍ
كُلٌّ إِلى حُكمِ الفَنَاءِ يَصِيْرُ
فَالنِّكْسُ وَالمَلِكُ المُتَوَّجُ وَاحِدٌ
لا آمِرٌ يَبْقَى وَلَا مَأْمُوْرُ
عَجَبَاً لِمَنْ تَرَكَ التَّذَكُّرَ وَانْثَنَى
في الأَمْرِ وَهُوَ بِعَيْشِهِ مَغْرُوْرُ
وَاذَا القَضَاءُ جَرَى بَأَمْرٍ نَافِذٍ
غَلِطَ الطَّبِيْبُ وَأَخْطَأَ التَّدْبِيْرُ
إِنْ لُمْتُ صَرْفَ الدَّهْرِ فيه أَجَابَنِيْ
أَبَتِ النُّهَى أَنْ يُعْتَبَ المَقْدُوْرُ
أَوْ قُلْتُ لَهْ أَيْنَ المُؤَيَّدُ قَالَ لِي
أَيْنَ المظَفَّرُ قَبْلُ وَالمَنْصُوْرُ

أَمْ أَيْنَ كِسْرَى أَزْدَ شِيْرُ وَقَيْصَرٌ
وَالهُرْمُزَانُ وَقَبْلَهُمْ سَابُوْرُ

أَيْنَ ابْنُ دَاوُدَ سُلَيْمَانُ الذِيْ
كَانَتْ بِجَحْفَلِهِ الجِبَالُ تَمُوْرُ

وَالرِّيْحُ تَجْرِي حَيْثُ شَاءَ بِأَمْرِهِ
مُنْقَادَةً وَبِهِ البِسَاطُ يَسِيْرُ

فَتَكَتْ بِهِمْ أَيْدِيْ المَنُونِ وَلَمْ تَزَلْ
خَيْلُ المَنُوْنِ على الأَنَامِ تُغِيْرُ

لَوْ كَانَ يَخْلُدُ بِالفَضَائِلِ مَاجِدٌ
مَا ضَمَّتِ الرُّسُلَ الكِرَامَ قُبُوْرُ

كُلٌّ يَصِيْرُ إلى البِلَى فَأَجَبْتُهُ
إِنِّي لأَعْلَمُ وَاللَّبِيْبُ خَبِيْرُ

أَنَّ الحَيَاة وَانْ حَرِصْتَ غرُوْرُ

وَرَأَيْتُ كُلاماً يُعَلِّلُ نَفْسَهُ
بِتَعِلَّةٍ وَإِلى الفَنَاءِ يَصِيْرُ

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللّهِ إِنَّ النَّصِيْحَةَ غَالِيَةٌ ذَاتُ أَهَمِيَّةٍ عَظِيْمَةٍ عِنْدَ ذَوِيْ الأَلْبَابِ وَالفُهومِ لأَنَّها إرْشَادٌ إلى الصَّوَابِ وَتوجِيْهٌ نَحوَ العَمَلِ الصَّالِح وَالأخْلاَقِ الفَاضِلَةِ وَالسِّيْرَةِ الحَسَنَةِ وَهِدَايَةٍ إلى مَا يَعُودُ نَفْعُه وَفائِدَتُه على المَنْصُوحِ بالسَّعَادَةِ وَالعِزِّ والنَّصِيْحَةُ تَبْصِيْرٌ بالمضَارِّ حَتَّى لا يَقَعَ فِيْهَا مَن لاَ يَعْرِفُهَا .

وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنَّ النَّاصِحَ ذَا رَأْيٍ ثَاقِبٍ وَعَقْلٍ رَاجحٍ قَدْ جَرَّبَ الأُمُورَ وَعَرَكَتْهُ الايَّامُ وَاللَيَالِي وَذاقَ حُلْوَهَا ومُرَّهَا وَانْتَفَعَ بِمَا رَآهُ فِيْهَا مِنْ عُسْرٍ وَيُسْرٍ وَفَرَحٍ وَسُرورٍ وَخَلَّصَ قَلْبَهُ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ لِيَسْلَمَ رَأيُه وَتَخْلُصَ نَصِيحَتُه مِنَ الشَّوَائِبِ المكدِّرَةِ .

فيَا عِبَادَ اللّهِ إنَّ الدِّيْنَ هُوَ النَّصِيْحَةُ يُسْدِيْهَا المُؤْمِنُ لإِخْوَانِهِ لا يَبْغِي عَلَيْهَا جزَاءً وَلا شُكُورا إلاّ مِنْ رَبِّهِ وَخَالِقِهِ يَبْذُلُها خَالِصَةً لِوَجْهِ اللّهِ قَاصِداً بهَا نَفْعَ عِبَادِ اللّهِ وَالأَخْذَ بِأيْدِيْهِم إلى طُرُقِ السَّدَادِ سَارَ عَلى ذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ وَالمُؤْمِنُوْنَ الاتقِيَاءِ .

قَالَ تَعَالَى اخْبَاراً عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُم ﴾ وَعَنَ هُوْدٍ ﴿ وَأنا لكمُ نَاصِحٌ أمِيْنٌ ﴾ وعَنْ صَالِحٍ ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ وَعَن شُعَيْبٍ ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُم ﴾ وَعَنْ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ يَنْصَحُ قَوْمَهُ ﴿ وَقَال الذِيْ آمَنَ يَا قَومِ اتَّبِعُونِي أهْدِكُمُ سَبِيْلَ الرَّشَادِ ﴾ الآياتِ فَالنَّصِيْحَةُ عَلاَمَةُ الحُبِّ وَالاخْلاَصِ وَالوَقَارِ .

فَاذَا عَلِمْتَ أَنَّ شَرّاً سَيَنْزِلُ بِمُؤْمِنٍ غَافِلٍ عَنْهُ فَوَاجِبٌ عَلَيْكَ أَنْ تُنَبِّهَهُ وَتُحَذِّرَهُ لِيَأخُذَ حِذرَهُ مِنْ الكائِدِيْنَ وَأسْرِعْ بأخْبَارِهِ كَمَا حَذَّرَ رَجُلٌ مُوْسَى عَلَيْهِ السَّلامُ قَالَ تَعَالى ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ من أَقْصَى المدِيْنَةِ يَسْعَى قالَ يَا مُوسَى إنَّ الْمَلأَ يَأتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فأخْرُجْ إنِّي لكَ مِنْ النَّاصِحِيْنَ فَخَرَج مِنْهَا خَائِفاً يَترَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِيْ مِنْ القَوْمِ الظَّالِمِيْنَ ﴾ .

وَإنْ رَأَيْتَ إنْسَاناً تَردَّى في المعَاصِيْ وَانْغَمَسَ في المُوْبِقَاتِ وَاتَّبَعَ شَيْطَانَهُ وَهَوَاهُ وَرَكِبَ رَأسَهُ وخالَفَ مَوْلاَهُ فَخُذْ بِيَدِهِ إلى طَرِيْقِ الرَّشَادِ

وَادْعُهُ بالتِي هِيَ أَحْسَنُ إلى المتابَ وَطَاعَةِ رَبِّ العِبَادِ وذَكِّرْهُ بالمَوْتِ وَسَكَراتِهِ وَالقَبْرِ وَظُلُمَاتِهِ وَالحِسَابَ وَمُنَاقَشَاتِهِ وَالصِّرَاطَ وَعَثَراتِهِ وَالنَّـارِ وَعَذابِهَا وَمَا أَعَدَّ اللّهُ لِاهْلِهَا مِنْ ألوَانِ العَذَابِ وَذَكِّرْهُ بالضَّرِيْعِ وَالزَّقُّومِ وَوَيْلٍ وَغَسَّاقٍ وَغِسْلِيْنَ .

وَذَكِّرْهُ بالجَنَّةِ وَنَعِيْمِهَا وَمَا أَعَدَّ اللّهُ لِأَهْلِهَا مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ فَلَعَلَّ اللّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ بِسَبَبِكَ .

وَانْ اسْتَنْصَحَكَ أَخُوْكَ المُسْلِمُ في زِوَاجٍ مَنْ كُنْتَ تَعْرِفُ فَوَضِّح لَهُ وَبَيِّنْ مَا تَعْرِفُ مِن العُيُوبِ فَإِنْ كَتَمْتَ العُيُوْبَ وَأَظْهَرْتَ المحَاسِنَ فأنتَ مِن الخائِنين وَانْ أَسْتَنْصَحَكَ في مُسَاهَمَةٍ أَو شِرَاءِ عَقَارٍ أو بَيْتٍ أو شِرَاءِ سِلْعَةٍ فَأَحِبَّ لَهُ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَشِرْ عَلَيْهِ بمَا تُحِبُّ أنْ يُشَارَ عَلَيْكَ بِهِ لَوْ كُنْتَ في مَكانِهِ .

فَانْ غَرَّرْتَ بهِ فَانْتَ مِن المُنَافِقِيْنَ . وَانْ طَلَبَ مِنْكَ مَشُوْرَةً في دِيْن أو دُنْيَا فَرَجِّحْ لَهُ مَا تَرى فِيْهِ الصَّلاحُ وَلا تَنْتَظِرْ حَتَّى يَطْلُبَ مِنْكَ النُّصْحُ فَإِذا رَأَيْتَهُ في خَطأٍ فَوَجِّهْهُ وابْذُلِ النَّصِيْحَةَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ .

إِبْذُلْهُ لِلأَبِ كَمَا فَعَلَ الخَلِيْلُ إِبْذُلْهُ لِابْنائِكَ وَكُنْ كَمَا كَانَ لُقْمَانُ الحَكِيْمُ لابْنِهِ وَقُلْ لَهُم مِثْلَ مَا قَالَ لَهُ ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأمُرْ بالمَعْرُوفِ وَانْهَ عن المنكرِ وَاصْبرْ عَلى مَا أَصَابَكَ إنَّ ذلكَ من عزمِ الأمورِ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ في الأَرضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ ﴾ .

انْصَحْهُم عَن قُرَنَاءِ السُّوْءِ وَعن مَجَالِسِ اللَّهْوِ وَالفُسُوقِ وَالعِصْيَانِ

كَمجالِس التِّلِفزْيُونِ وَالسِّينَماءِ وَالكُوْرَةِ وَمَجالِسِ الغِيْبَةِ وَالكذِبِ وَالسُّخْرَيَةِ وَالاسْتِماع إلى الغِناءِ مِن المِذْيَاعِ وَالبَكَماتِ وَالمطْرِبْيَنِ وَالمطرِبَاتِ وَانْصَحْهُم عَنْ تَعاطِيْهَا بَيْعا وَشِراءً وَأُجْرَةً واعارَةً وَحذِّرهُمْ مِن مُخالَطَةِ مُتَعاطِيْهَا وَمُقَارَبتِهِ وَمُجاوِرَتِهِ وَمُشَارَكتِه » .

واللّهُ أَعْلَمُ وَصَلّى اللّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

في الاحْسَانِ الى اليَتِيْمِ وَالأَرْمَلَةِ والمِسْكِينَ

اعْلَمْ وَفَّقنا اللّهُ وَايَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمين أنَّ في كَفالَةِ اليَتِيْمِ وَالاحْسَانِ اَلَيْهِ وَالسَّعْي عَلى الأَرْمَلةِ وَالمسْكِين فَضْلٌ عَظِيْمٌ يَجدُهُ مَنْ وَفقهُ اللّهُ لِلْقِيَام بِهِ ﴿يَوْمَ تَجدُ كلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضِرَا ﴾ ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلفتْ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَنْظرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾

وَاليَتِيْمُ هُو مَنْ مَاتَ أَبُوهُ وَلَمْ يَبْلُغْ ، وَالجَمْعُ أَيْتَامٌ وَهُمْ الذِيْنَ فقدوا أَبَاهُم الذِي كَانَ يَرْعَاهُم بنَفْسِه وَمَالِهِ وَيُحِبُّهُم مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ وَيُؤْثِرُ مَصْلَحَتَهُم على مَصْلَحَتِهِ .

وَانَّ مِمَّا يُذْرِفُ الدَّمْعَ مِنَ العَيْنِ سَاخِناً سَاعَةَ المَوْتِ صِبْيَةٌ صِغَاراً وَذُرِّيَةٌ ضُعَفَاءُ يُخلِّفُهُم المِيِّتُ وراءَهُ يَخْشَى عَلَيْهِمِ مِنْ مَصَائِبَ الدُّنْيَا وَصُرُوفِهَا وَيَتَمنَّى وَصِيّاً مُرْشِداً يَقُومُ مَقَامَهُ يَرْعَاهُم كَرِعَايتِهِ وَيَسُوسُهُم كَسِيَاسَتِهِ يُعَزِّيْهِمْ بِرُّهُ وَلُطْفُهُ عَنْ أَبِيهِم الرَّاحِل وَيَجِدون عِنْدَه مِنْ العِنَايَةِ وَالقيامَ بمَصَالِحِهم مَا يَكُونُ بإِذْنِ اللهِ سَبباً لإِخْرَاجِهِم رَجالاً في الحَيَاةِ

يَمْلَؤُوْنَ العُيُوْنَ وَيَشْرَحُونَ الصُّدُوْرَ .

فَالذِي يَكْفَلُ اليَتِيْمَ وَيَتعَهَّدُهُ وَيُلَاحِظُهُ وَيُودِّبُه وَيُهَذِّبُ نَفْسَهُ وَتَطمِئِنُّ قلوُبُ أقاربهِ إذا رَأَوْهُ وَكأنَّ وَالِدهُ حَيٌّ لا يَفْقِدُ من وَالِدِهِ إلا جِسْمَهُ ، فَلا غَرْوَ أنْ كَانَ مَكانُهُ عِنْدَ اللّهَ عَظِيْمَا ، وَكانَ حَرِيّا أنْ يَكُونَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ صَاحِباً في الجَنَّةِ يَتَمَتَّعُ بمَا فِيْهَا مِنَ النَّعِيْمِ المقِيْمِ ، كَما قَامَ بمَا وَفَّقَهُ اللهُ لَهُ مِنْ رِعَايةِ اليَتِيْمِ .

فَفَي هَذَا تَرْغِيْبٌ في كَفَالَةِ الأَيْتَامِ وَالعِنَايَةِ بأُمُورِهِمْ فَلَهُم حَقٌّ على المُسْلِمْينَ سَوَاءٌ كَانُوا أقَارِبَ أو غيْرَهُم ، وَيَكُوْنَ ذَلِكَ بكفَالِتِهم وبِرِّهِم وَجَبْرِ قُلُوبِهِم وَتأدِيْبِهِم أَحْسَن تَرْبَيَةٍ في مَصَالِح دِيْنِهم وَدُنْيَاهُمْ .

وَلِذَلِكَ أوْصَى جَلَّ وَعلا بالاحْسَانِ إليهم لِيَصِيْرُوا كَمَنْ لم يَفْقِدْ وَالِدَيْهِ ، قَالَ تَعالَى ﴿ يَسْأَلُونك عَنْ اليَتَامَى قُلْ إصْلَاحٌ لهُم خَيْرٌ ﴾ وَعن أبِي أُمامَة رَضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ « مَن مَسَحَ رَأْسَ يَتِيْمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إلا لِلّهِ كَانَ لَهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرُّ عليها يدُهُ حَسَنَاتٍ .

وَأمَّا الأَرْمَلَةُ فَهِيَ التِي مَاتَ زَوْجُهَا ، فَهِيَ في حَاجَةٍ إلى المُلَاحَظَةِ لأنَّها ضَعِيْفةِ وَحَاجَاتُ النِّسَاءِ كَثِيْرةٌ دَقِيْقَةٌ وَجَلِيْلَةٌ يَرفعُهَا المَسْكَنُ وَالمأكَلُ والمَلْبَسُ وَهُنَاكَ أشْيَاءُ كثِيرةٌ مِنْ ذلِكَ الدُّهْنُ وَالطِّيْبُ وَالمِشْطُ وَالمِكْحَلة وَأوَانِي لِشُؤُنِهَا في حَالِ طَبْخِهَا وَفي حَالِ الحُلِيِّ وَأُمُور أُخْرَى يَطُولُ ذِكْرهَا وتَعْدَادُهَا.

وَالمُهِمُّ أنَّ الذِي يَكْدَحُ وَيَنْصَبُ لِيَكْفِيْ تِلْكَ الأَرْمَلَةِ حَاجَاتِهَا أوْ بَعْضِهَا بَعْدَ أنْ فَقدَتْ زَوْجَهَا الذي كانَ يَرْعَاهَا وَيُؤْنِسُهَا وَيُنْفِقُ عَلَيْهَا

وَيُسْكِنُهَا مَعَهُ ، فهُوَ بِذلِكَ الإِحْسَانِ يُخَفِّفُ عَنْهَا مِنْ أَلَمِ المُصِيْبَةِ ، وَيُسَلِّيْهَا عن الفَجِيْعَةِ ، وَيَكفُّ يَدَهَا عن السُّؤَالِ والنَّظَرِ لِمَا في أيْدِيْ الناسِ ، وَيَصُونُ وَجْهَهَا ، فَهَذَا كَالمجَاهِدِ في سَبِيْلِ اللهِ ، لَه أجْرٌ عَظِيْمٌ عِنْدَ اللّهِ عَزَّ وَجلَّ .

وَكَذَلِكَ السَّاعِيْ عَلى المَساكِيْنِ ، وَهُمُ الذِيْنَ أَسْكَنَتْهُم الحَاجَة فَلا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيْهِم في قُوْتِهم وَكِسْوَتِهم وَسُكْنَاهُم ، إمَّا لِفَقْدِ المَالِ ، وإمَّا لِعَجْزٍ عن الكَسْبِ لمرَضٍ أوْ لِصِغَرٍ أوْ لِزَمَانَةٍ أوْ لِعَمىً ، أو الذي تَقَطَّعَتْ بهِ الاسْبَابُ ، وأظلَمَتْ عَلى عينِهِ الدنيا وَانْغَلَقْتِ في وَجْهِهِ الأبْوَابُ ، يَسْتَحِقُّ السَّعْيَ عَلَيْهِ مِمَّنْ وَفَّقَهُ اللّهُ لِذَلِكَ ، وَالأخذَ بِيَدِهِ .

وَيُعَانُ عَلى العَمَلِ بالقَرْضِ وَالايْجَارِ أَوْ مَا يَسْتَعِيْنُ بِهِ عَلى نَفَقَةِ نَفْسِهِ وَأهْلِهِ بأيّ عَمَلٍ يُحْسِنُهُ مِن تَعْلِيْمٍ أَوْ صَنْعَةٍ أو زِرَاعَةٍ أو تِجَارَةٍ أو وَظِيْفَةٍ يَكُفُّ بِهَا وَجْهَهَ ، وَقَدْ يَكُونُ المِسْكِيْنُ مِن الاقارِب أو ذَا رَحِمٍ يَجِبُ وَصْلُهَا فَيَعْظُم حَقُّهُ، وَيكُونُ السَّعْيُ عَليهِ بِرّاً وصِلةً يكتَبُ أَجْرُه عندَ الله أضْعَافاً مُضاعَفةً ، وهَذِهِ فُرْصَة ثَمِيْنَةٌ لِمَنْ وَفقَهُ اللهُ لِلْقِيَامِ بِهَا !
والخُلاَصَةُ :

أَنَّ الذي يَجْمَعُ المالَ بعَرَقِ جَبِيْنِهِ لا لِيُنْفِقَهُ في السَّرَفِ وَالبَذْخِ واللذةِ وَالسُّمعةِ ، وَلَكِنْ لِيَسُدَّ به جَوْعَةَ المِسْكِيْنِ وَاليَتِيْمِ وَيُغْنِيَهِ عَنْ السُّؤَالِ فَيَحْفَظُ عَلى وَجْهِهِ مَاءَ الحَيَا وَعَلى نفسِه خُلُقَ العَفَافِ يَكُونُ حَرِيّاً بمرْتَبَةِ المُجَاهِدِيْنَ وَمَنْزِلَةِ المقرَّبين ، فاخدِمْ بمالِكَ وَوقتِكَ وَقُوَّتِكَ وسَعْيِكَ وجَاهِكَ ذَوي الحَاجَاتِ وأَرْبَابَ العَاهَاتِ تَنَلْ باذْنِ اللهِ المَنْزِلَةَ العَالِيَة الخالِدَةِ .

قَالَ في الفَتْحَ قَال شَيْخُنَا في شَرْحِ التِّرمذي لَعَلَّ الحِكْمَةَ في كَوْنِ كافِلِ اليَتِيْمِ يُشْبِهُ في دُخُولِهِ الجَنَّةِ أو شُبِّهتْ مَنْزِلَته في دُخُولِ الجَنّةِ بالقُرْبِ من مَنْزِلَةَ النَّبي لِكَوْنِ النَّبي شَأْنه أن يُبْعَثَ إلى قَوْمٍ لا يَعْقِلُونَ أمْرَ دِيْنِهم ، فَيَكُونُ كافِلاً لَهُم وَمُعَلِّماً ومُرْشِدَا .

وَكَذَلِكَ كَافِلُ اليَتِيم يَقُومُ بكفَالَةِ مَن لا يَعْقِلُ أَمْرَ دِيْنِهِ بل وَلا دُنَياهُ ويُرْشِدُهُ وَيُعَلِّمُهُ وَيُحْسِنُ أدبه انْتَهَى ، قُلتُ وَكثيراً مَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ ذَلِكَ الاحْسَانَ زَمناً وَيتركُهُ وَلا يُتَمِّمُ إحْسَانَهُ وَبَعْضُهم يُرَحِّبُ بذِلَك أوَّلَ الأمْرِ وَلا يَثْبُتُ عَلى ذلِكَ وَقَلِيْلٌ مَنْ يُتمِّمُ كَلامه وَيَثْبُتُ عَلى جَمِيْلِه وَاحْسَانِهِ وَالتَّوْفِيْقُ بِيَدِ اللهِ وَقَدِيْماً قِيْلَ :

وَمَـا كُـلُّ هَـاوٍ لِلْجَمْيـلِ بفَـاعِـلٍ
وَمَـا كُـلُّ فَـعَّـالٍ لَـهُ بِـمُـتَـمِّـمِ

آخَـرُ :

وَفي النَّـاسِ مَنْ أَعْطى الجَمِيْـلَ بَـدِيْهَـةً
وَظَـنَّ بِفِـعْـلِ الـخَـيْـرِ لَـمَّـا تَـفَـكَّـرَا

عَنْ أبي هُريرة رضي الله عنه قالَ قَالَ النَّبي صلى الله عليه وسلم « السَّاعِيْ على الأرْمَلَةِ وَالمِسْكِين كَالمُجَاهِدِ في سَبِيْـلِ اللّهِ » رَواهُ البُخَارِيّ وَمَالِكُ وَغَيْرُهُما وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ « لَيْسَ المِسْكِيْنُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الذي تَرُدُّه اللّقْمَةُ وَاللقْمَتَانِ ، والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ المِسْكِينُ الـذي لا يَجِدُ غِنىً يُغْنِيْهِ ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ » متفق عليه .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم « مَنْ عَالَ ثَلاثَةً مِنْ الأَيْتَامِ كَانَ كَمَنْ قَامَ لَيْلَهُ وَصَامَ نَهَارَهُ وَغَدَا وَرَاحَ شَاهِراً سَيْفَهُ في سَبِيْلِ اللهِ ، وَكُنْتُ أَنَا وَهُوَ في الجَنَّةِ أَخَوَيْنِ كَمَا أَنَّ هَاتَيْنِ أُخْتَانِ » وَأَلْصَقَ أَصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةُ والوُسْطَى رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً شَكَا إلى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قَسْوَةَ قَلْبِهِ فَقَالَ « امْسَحْ رَأْسَ اليَتِيْمِ وَأَطْعِمْ المِسْكِيْن » رَوَاهُ أَحْمَدُ وَرِجَالُه رِجَالُ الصَّحِيْحِ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلم « كافِلُ الْيَتِيْمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ ، أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ في الجَنّةِ » وَأَشَارَ مَالكٌ بالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى رواهُ مُسْلِم ورواه مَالكٌ عن صَفْوَانَ بنَ مُسْلِمٍ مُرْسَلاً .

وَرَوَاهُ البَزَّارُ مُتَّصِلاً وَلَفظُه قال « مَن كَفَلَ يَتِيْماً لَهُ ذَا قَرَابَةٍ أَوْ لا قَرابَةَ لَهُ فَأَنَا وَهُوَ في الجَنَّةِ كَهَاتين » وَضَمَّ اصْبُعَيْهِ « وَمَنْ سَعَى عَلى ثَلاَثِ بَنَاتٍ فَهُوَ في الجَنَّةِ وَكَانَ لَهُ كَأَجْرِ المُجَاهِد في سَبِيْلِ اللهِ صَائِماً قَائِماً » .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللّهِ لَقَدْ تَفَضَّلَ اللّهُ عَلَيْنَا وَرزَقَنَا مِنْ الطَّيِّبَاتِ ، وَجَعَلَنا آمِنِيْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ ، وَأَغْنَانَا عَنْ الحَاجَةِ ، وَصَانَ وُجُوهَنَا عَنْ المَسْأَلَةِ التي وَقَعَ فيها الكَثِيْرُ مِنْ النَّاسِ ، فَالوَاجِبُ عَلَيْنَا إذاً إزَاءَ هَذِهِ النِّعَمِ العِظَامُ أَنْ نُكْثِرَ شُكْرَهُ وَحَمْدَه وَالثَنَاءَ عَلَيْهِ .

وَبِذَلِكَ يَحْفَظُ عَلَيْكُم نِعْمَتَهُ وَيَزِيدُكم مِنْهَا وَيُبَارِكُ لَكُم فِيْهَا قَالَ

تَعالى وَهُوَ أَصْدَقُ قَائِل وَأَوْفى وَاعِدٍ ﴿ وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيْدَنَّكُمْ ﴾ وَلَيْسَ الشُّكْرُ قَوْلُ اللسَانِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا الشُّكْرُ مَعَ ذَلِكَ امْتِثالُ أَوامِرِ اللّهِ بالطَّاعَةِ وَالاحْسَانُ في عِبادَةِ اللّهِ وَالى عِبادِ اللهِ البُؤسَاءِ مِن يَتِيمٍ وَمِسْكِيْنٍ وَأَرْمَلَةٍ مِمَّنْ أَصابَتْهُم الشِّدَةُ والفقرُ مِنْ أَرْبَابِ العِيالِ المُتَعَفِّفِيْنَ الذِيْنَ لا يَسْأَلُونَ ولا يُفْطنُ لهُم فَيُتَصَدَقُ عَلَيْهِم .

وفي الدَّرَجَةِ الأُوْلى مَنْ لَيْسَ لَهُمْ مَوارِدُ أَصْلاً لا أَوْلادَ يَدْرُسُونَ وَلاَ أَوْلادَ مُوظَّفِيْنَ يُدِرُّونَ عليهم ولا عَقارَ وَلاَ غَيْرَهُ ، وَانَّ مِنَ القَسْوَةِ أَنْ يَمْنَعَ الانْسَانُ رِفْدَهُ وَمَعُونَتَهُ عَنْ إِخْوَانِهِ المُحْتَاجِيْنَ .

أَمِنَ الرَّحْمَةِ والشَّفَقَةِ أَنْ يَكُونَ الانْسَانُ في رَغَدٍ مِنَ العَيْشِ وَرفَاهِيةٍ تَامَّةٍ وَسَعَةٍ مِن الرِّزْقِ وَاخْوَانُه مِنْ المُسْلِمِيْنَ في ضَنْكٍ وَبُؤْسٍ لاَ يَعْلَمُ بهِ إلَّا اللهُ أَوْ مَنْ أَعْلَمَهُ اللهُ بِحَالِهِ ، أَمِنْ المروءة أنْ يَتمَتَّعَ الإِنْسَانُ بأَصْنافِ المآكِلِ وَالمَشَارِبِ وَالملابِسِ وَأَخْوهُ المُسْلِمُ المدْقِعُ فَقْراً يتألَّم مِنْ الجُوْعِ وَيَتَأَلَّمُ مِنَ البَرْدِ .

فَالذي يَرى مِنْ هَذِهِ صِفَتُهم وَلاَ يَتَأَلَّمُ وَيَتَوَجَّعُ لَهُمْ وَيَعْمَلُ مَا في وُسْعِهِ لَهُم قَاسِيْ القَلْبِ خَالٍ مِن الشَّفقةِ وَالرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ نَسْأَلُ الله أن يَمُنَّ علينا باتّباعِ طَرِيقَةِ النبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ وَالسَّابِقِيْنَ الأَوَّلِينَ مِنَ المهاجِرِيْنَ والأَنْصارِ الذِيْنَ قَالَ اللهُ عَنْهُمْ ﴿ وَيُؤثِرُونَ على أَنْفُسِهم وَلَو كانَ بِهِم خَصاصَةٌ ﴾ وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِهِ انَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وعن سَهْلِ بنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم « أنا وكَافِلُ اليَتِيْم في الجَنَّةِ هَكَذا » وَأَشَارَ بالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى وَفَرَّجَ بيْنَهُمَا رَوَاهُ البُخَارِيّ وَأَبو دَاوُدَ وَالتّرْمِذِيّ .

وَعَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلم « مَنْ قَبَضَ يَتِيْماً مِنْ بَيْنِ المُسْلِمِيْنَ إلى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ أَدْخَلَهُ اللّهُ الجَنَّةَ إلَّا أَنْ يَعْمَلَ ذنباً لَا يُغْفَرُ » رَوَاهُ التّرمِذيّ وقَالَ حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ .

وَرَوَى عَن أبي هُريرة رَضِيَ الله عنه عن النَّبي صَلى اللهُ عليه وسلم قالَ « خَيْرُ بَيْتٍ في المُسْلِمِيْنَ بَيْتٌ فيهِ يتيمٌ يُحْسَنُ اليهِ وَشَرُّ بَيْتٍ في المسلمينَ بَيْتٌ فيهِ يَتِيْمٌ يُسَاءُ إِليهِ » رَواهُ ابنُ ماجَه .

وُرُوِى عَن عَوْفِ بن مَالِكٍ الأَشْجَعِيْ رَضِيَ الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ « أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ يَوْمَ القِيَامَةِ » وَأَوْمَأَ بِيدِهِ يَزِيْدُ بنُ زُرَيْعٍ الوُسْطَى وَالسَّبَّابَةُ « امْرَأَةٌ آمَتْ زَوْجَهَا ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ حَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى يَتَامَاهَا حَتَّى بَانُوا أَوْ مَاتُوا » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَفَعَهُ الى النَّبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلامُ مَا الذِي أَذْهَبَ بَصرَكَ وَحَنَى ظَهْرَكَ ؟ قَالَ أَمّا الذِي أَذْهَبَ بَصرِيْ فَالبُكَاءُ على يُوْسُفَ ، وَأَمَّا الذِي حَنَى ظَهْرِيْ فالحُزْنُ على أَخِيْهِ بنْيَامِيْنَ فآتاهُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فقالَ أَتَشْكُو اللّهَ عَزَّ

وَجلَّ ؟ قالَ ﴿ إنَّما أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِيْ إلى اللّهِ ﴾ قَالَ جِبْرِيْلُ عليهِ السَّلامُ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا قُلْتَ مِنْكَ .

قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ وَدَخَلَ يَعْقُوْبُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَيْتَه فقال أَيْ رَبِّ أَمَا تَرْحَمُ الشَّيْخَ الكَبِيْرَ أَذْهَبْتَ بَصَرِيْ وَحَنَيْتَ ظَهْرِيْ ، فَارْدُدْ عَليَّ رَيْحَانَتَيَّ فَاشُمُّهُمَا شَمَّةً وَاحِدَةً ثُمَّ اصْنَعْ بي بَعدُ مَا شِئْتَ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ فَقَالَ : يَا يَعْقُوبُ إنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يُقْرِئُكَ السَّلام وَيَقُولُ أَبْشِرْ فَإِنَّهُما لَو كانَا مَيِّتَيْنِ لَنَشَرْتُهُمَا لَكَ لأُقِرَّبِهِمَا عَيْنَكَ .

وَيَقُولُ لَكَ يَا يَعْقُوْبُ أَتَدْرِيْ لِمَ أَذْهَبْتُ بَصَرَكَ وَحَنَيْتُ ظَهْرَكَ ؟ وَلِمَ فَعَلَ إِخْوَةُ يُوْسُفَ بِيُوسُفَ مَا فَعَلُوهُ ؟ قَالَ لا قَالَ : إِنَّهُ أَتاكَ يَتِيمٌ ، مِسْكينٌ وَهُوَ صَائِمٌ جَائِعٌ وَذَبَحْتَ أَنْتَ وَأَهْلُكَ شَاةً فأَكَلْتُموهَا وَلَمْ تُطْعِمُوْهُ .

وَيَقُولُ إِنِّي لَمْ أُحِبَّ شَيْئاً مِن خَلْقِيْ حُبِّيَ اليَتَامَى وَالمَسَاكِيْن فَاصْنَعْ طَعَاماً وَادْعُ المَسَاكِيْنَ قَالَ أَنَسٌ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم « فكَانَ يَعْقوبُ كُلَّمَا أَمسَى نَادَى مُنَادِيْهِ مَنْ كَانَ صَائِماً فَلْيَحْضُرْ طَعَامَ يعْقُوْبَ وَإذا أصْبَحَ نَادَى مُنَادِيْهِ مَنْ كَانَ مُفْطِراً فَلْيُفْطِرْ على طَعَامِ يَعْقُوبَ » رَوَاهُ الحَاكِمُ وَالبَيْهَقِيُّ وَالاصْبهَانِيُّ وَاللفظُ لَهُ .

مَــوْعِظَــةٌ

عِبَادَ اللّهِ إنَّ الشَّفَقَةَ وَالرَّأْفَةَ عَلى خَلْقِ اللّهِ وَخُصُوصاً اليَتِيْم وَالمِسْكِيْنِ والأَرْمَلَةِ أَثَرٌ مِن آثَارِ الرَّحْمَةِ التي يَجْعَلُهَا اللهُ في قُلُوْبِ بَعْضِ عِبَادِه ، فَقُلْ لِيْ أَيها الأخُ مَا الذي عِنْدَك مِنْهَا فَإِنْ كُنْتَ رَحِيْماً بِعِبَادِ اللّهِ فَلَكَ البُشْرَى وَالهَنَاءُ بِهَذَا الخُلُقِ الكَرِيْمِ الذِي هُوَ سَبَبٌ لِسَعَادَتِكَ في

يَوْمِ الحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ ، ذَلِكَ أَنَّ الرَّحِيْمَ يُعَامِلُه المَوْلَى جَلَّ وَعَلا بِرَحْمَتِهِ قالَ تَعَالَى ﴿ هَلْ جَزاءُ الاحْسَانِ إلا الاحْسَانُ ﴾ فالرَّاحِمُوْنَ يَرْحَمُهم اللّهُ .

وَقَالَ صَلى اللّهُ عليه وسلم : « مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ لاَ يَرْحَمُهُ اللهُ » وقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ » وَإِنْ كُنْتَ قَاسِياً عُوْمِلْتَ بالقَسْوَةِ ﴿ جَزَاءً وِفَاقاً ﴾ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ ﴾ وَاللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاَ يَغْفُلُ عَنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ ، وَتَظْهَرُ دَلاَئِلُ رَحْمَتِكَ في مُعَامَلَتِكَ لِلْيَتِيْمِ وَالمِسْكِيْنِ وَالأَرْمَلَةِ ، وَفِي مُعَامَلتِكَ مَعَ أَهْلِكَ ، فَإِنهُم يَعِيْشُونَ طُوْلَ حَيَاتِهِم عِنْدَكَ إِنْ كُنْتَ رَحِيْماً أو قاسِياً .

وَتَظْهَرُ رَحْمَتُكَ أَيْضاً في مَعَامَلَتِكَ اخْوَانَكَ فَانَّهُم يَجِدُونَكَ انْ كُنْتَ رَحِيْماً لَيِّنَ الجَانِبِ سَهْلاً بَشُوشاً لِحَوائِجِهم وَتَظْهَرُ في مُعَامَلَتِك لِبَهائِمِكَ في عَدَمِ تَكْلِيْفِهَا فَوْقَ الطَّاقَةِ وفي مُلاحَظَتِهَا دَائِماً في طَعَامِهَا وَشَرَابِهَا وَمَكَانِهَا في الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ .

وَتَظْهَرُ رَحْمَتُكَ في مُعَامَلَتِكَ مَعَ الخَلقِ كُلِّهم في حُسْنِ الخُلُقِ والصِّدْقِ وَالحُنُوِّ عَلَيْهِمْ وَزِيَارَتِهم وَعِيَادَتِهم وَقَضَاءِ مَا سَهُلَ عَلَيْكَ مِنْ حَوَائِجِهم ، أَمَّا مَنْ قَسَا على الخَلْقِ وَعَامَلَهُم مُعَامَلَةً لَيْسَ فيها شَيءٌ من الحَنَانِ وَالشَّفَقَةِ فَهَذَا هُوَ الجَبَّارُ القَاسِيْ الذِي لا يُعَامِلُهُ مَوْلاَهُ إِلاَّ بِمَا يُنَاسِبُ مُعَامَلَتَهُ مِن الجَبَرُوتِ .

وَكَمْ في الدُّنْيَا مِنْ جَبَابِرَةٍ نُزِعَتْ الرَّحْمَةُ مِن صُدُوْرِهِم لاَ يَعْرِفُونَ مُعَامَلَةَ الخَلْقِ بالرَّحْمَةِ بَلْ بالقَسْوَةِ وَالشِّدَّةِ وَالغِلْظَةِ ، لاَ فَرْقَ عِنْدَهُم بَيْنَ

الآدَمِيْ والكلبِ العَقُورِ وَغَيْرِهِ.

وَمِثْلُ أُوْلَئِكَ لَوْ سَمِعُوا كَلِمَةً لَا تُعْجِبُهم رُبَّمَا أَعْدَمُوا القَائِلَ وَأَيْتَمُوا أَوْلَادَه وَأَيَّمُوا نِسَاءَهُ ، وَلَوْ رَأَوْا مَنْ في أَشَدِّ المصَائِبِ مَا بَالَوا وَلَا اهْتَمُّوا وَكَأَنَّهُ شَيءٌ عَادِيٌّ ، وَتَرى أَحدَهُم يَخْرُجُ مَعَ الجَنَائِزِ لِتَعْزِيَةِ رَفِيْقِهِ في مُصَابِهِ وَهُوَ يَضْحَكُ وَيَتَفَكَّهُ .

وَلَوْ رَأَى إِنْسَاناً مَصْدُوماً أو سَاقِطاً في مَحَلٍّ يُرِيْدُ إِنْقَاذَهُ تَرَكَهُ وَلا هِمَّةَ لَهُ إِلَّا فيْمَا يَتعلّقُ بِنَفسِهِ فَقَطْ وَمِثْلُ أُولَئكَ تَنْشَبُ بَيْنَهم وَبَيْنَ البَهَائِم كُلَّ يَوْمٍ حُرُوبٌ لأَنَّهَا عَمِلَتْ عَمَلاً في نَظَرِهِم أنهُ إِجْرَامٌ وَرُبَّما قَتَلُوْا االبَهَائِمَ أو قَرِيْباً مِنْ الهَلَاكِ .

فَأَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنْ الرَّحْمَةِ ، بَيْنَهُم وَبَيْنَها بَوْنٌ ، كَمَا بَيْنَ الحَرَكَةِ والسكُونِ ، وَمِنْ هَؤلَاءِ مَنْ لَيْسَ لَهُ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ وَهُوَ جَبَّارٌ عَلَيها كلَّ ما بينَ حِيْنٍ وحِيْنٍ يَجْلِدُهَا جَلْدَ الزَّانِيْ ، وَبَعْضُهم تَجِدُ أختَه أو بِنْتَه أو رَبِيْبَتَهُ كلَّ يَوْمٍ تَشْتَكِيْ مِن سُوْءِ مُعَامَلَتِهِ لَهَا . وَرُبَّمَا حَصَلَ مِنْهُ عَلَى أَبِيْهِ أو أمهِ أو كِلَاهُمَا أَذِيَّةٌ .

وفي الأَرْضِ كَثِيْرٌ مِنْ هَذِهِ البَلِيَّاتِ ، فَعَوِّدْ نَفْسَكَ الرَّحْمَةَ أَيُّها المؤمِنُ ، فإنك في حاجَةٍ شَدِيْدَةٍ إلى رَحْمَةِ اللّهِ ، وَعَالِجْ نَفْسَكَ في تَهْذِيبِهَا وَتَمْرِيْنِهَا عَلى الرَّحْمَةِ وَإِذْهَابِ القَسْوَةِ ، وَاحْرِصْ عَلى مُقارَنَةِ الرُّحمَاءِ لِتكْسَبَ مِنْهُم هَذِهِ الصِّفةَ وَتَسْلَمَ مِن ضِدِّهَا قالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم « لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيّ » .

الـرَّاحِمُـونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ يَـرْحَمُهُمْ
مَنْ فِي السَّمَـاءِ كَذَا عَنْ سَيِّدِ الرُّسُـلِ
فَـارْحَـمْ بِـقَـلْبِـكَ خَـلْقَ الـلّهِ وَارْعَـهُـمُ
بِــهِ تَنَــالُ الــرِّضَــا وَالعَفْــوَ عَنْ زَلَـلِ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَـا لِسُلُوكِ سَبِيْلِ أَهْـلِ الطَّاعَـةِ وَارْزُقْنَا الثَّبَـاتَ عَلَيْهِ والاسْتِقَامَة وعَافِنَا مِنْ مُوجِبَاتِ الحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ وَأَمِّنَّا مِنْ فَزَعِ يَوْمِ القِيَامَةِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لما يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ مِن الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالأَخْلاَقِ الفاضِلَةِ أَنَّ الرَّحْمَةَ بالنَّاسِ بَلْ وَبِالحَيَوانِ عَاطِفَةٌ نَبِيْلَةٌ وَخلُقٌ شَرِيْفٌ مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ وَأَزْكَاهَا وَأَرْفَعِها وَأَعْلاَهَا وَنَاهِيْكَ بِهَا أَنَّهَا خُلُقُ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِيْنَ وَعِبَادِ اللّهِ الصَّالِحِيْنَ .

وَلَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ بهَا رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلم فَقَالَ سُبْحَانَهُ في وَصْفِ رَسُولِهِ ﴿بالمؤمنينَ ، رَؤُوفٌ رَحِيْمٌ﴾ وَقَالَ﴿وَما أَرْسَلناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالمينَ﴾ وَضِدُّهَا القَسْوَةُ التِي عَاقَبَ اللهُ بِهَا اليَهُودَ لَمَّا نَقَضُوا العُهُوْدَ إِذْ يَقُولُ جَلَّ وَعَلاَ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيْثَاقَهُم لَعَنَّاهُم وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُم قاسِيَةً﴾ .

فَالرَّحْمَةُ فَضِيْلَةٌ وَالقَسْوَةُ رَذِيْلَةٌ ، فَكَانَ مَجِيءُ النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلم برِسَالَتِهِ مِن عِنْدِ اللّهِ رَحْمَةً لِنَاسٍ يَتَخَبَّطُونَ في بَحْرِ الأَوْهَامِ وَالجَهَالاتِ وَمَسَاوِىءِ الاخْلاَقِ وَسَيِّءِ العَادَاتِ وَقَبِيحِ الأَعْمَالِ يَعْبُدُونَ

الأَصْنَامَ وَالأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ وَالأَوْثَانَ وَالشمْسَ وَالقَمَرَ ، آلِهَتُهم شَتَّى وَأَرْبَابُهم مُتَفَرِّقَةٌ .

وَقَدْ فَشَى وَعَمَّ الفَسَادُ وَأَظْلَمَ الْجَوُّ وَشَمَلَ الظُّلْمُ العِبَادَ فَالقَوِيّ يَأْكُلُ الضَّعِيْفَ وَلاَ مُرَاقِبَ لَهُ وَلاَ مُخِيْف ، يَئِدُونَ البَنَاتِ وَيَقْتُلُوْنَ الأَوْلاَدَ ، جَاءَهُم النَّبي صلى الله عليه وسلم فَأَنْقَذَهُمْ اللهُ بهِ وَأَخْرَجَهُم بِهِ مِن الظّلمَاتِ إلى النُّورِ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَتَعْظِيْمِهَا إلى مَعْرِفَةِ اللّهِ وَتَوْحِيْدِهِ ، والتَّفْكِيْرِ في الآلِهِ وَتَمْجِيْدِهِ وَتَقْدِيْسِهِ .

وَانْتَشَلَهُم مِنْ أَوْهَامِهِم وَجهالاَتِهِم وَضَلاَلاَتِهِم وَمَسَاوِئِهِم إلى الاهْتِدَاءِ بِنُوْرِ القُرْآنِ وَتَعَالِيْمِه عليهِ الصَّلاَةُ والسَّلامُ فَبَعْدَ أَنْ كَانُوا قَابِعِيْنَ في عُقْرِ دَارِهِم قَانِعِيْنَ في جَزِيْرَتِهم إِذَا بِهِمْ يَحْمِلُونَ إلى العَالَمِ أَجْمَعَ رِسَالَةَ النُّوْرِ وَالأَمَانِ وَالحَقِّ والسَّلامِ فَيَفْتَحُوْنَ البِلاَدَ وَيسوسُونَ العِبَادَ بِفَضْلِ مَا وَهَبَهُم اللّهُ مِنْ مَا تَمَكّنَ في نفُوسِهم وَقَوِيَ في أَفْئِدَتِهم مِن حُبِّ الرَّحْمَةِ وَابْتِغَاءٍ لِلرَّأْفَةِ بِخَلقِ اللهِ وَرَغْبَةٍ في العَدْلِ .

فَكَانَ مَوْلِدُه صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِعْمَةً وَبِعْثَتُهُ رَحْمَةً لاَ تُدَانِيْهَا رَحْمَةٌ وَالرَّحْمَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللّهِ الذَّاتِيَّةِ الفِعْلِيَّةِ فَهُوَ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَحَدَّثَ جَلَّ وَعَلاَ عَنْ رَحْمَتِهِ في كِتَابِهِ فَقَالَ ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلذينَ يَتَّقُوْنَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالذِيْنَ هُمْ بآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية .

والنَّبيّ صَلى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُرَغِّبُنَا في الرَّحْمَةِ وَاللِّيْنِ وَالرِّفْقِ وَالمُسَامَحَةِ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ فَهُوَ يَقُولُ « مَنْ لاَ يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ وَهُوَ القَائِلُ لاَ

تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيّ » أَيْ وَلَا تَسْكُنُ إِلَّا في قَلْبِ تَقِيّ فَالرَّحْمَةُ فَضِيْلَةٌ وَالقَسْوَةُ وَالغِلْظَةُ رَذِيْلَةٌ وَعَمَلٌ مُنْكَرٌ وَالرَّحْمَةُ لَا تَخْتَصُّ بالانْسَانِ بَلْ تَعُمُّ الحَيَوانَ وَكُلَّ ذِي رُوحٍ وَاحْسَاسٍ .

فَمِنْ آثَارِهَا مَا يَجِدُهُ الوَالِدُ لِوَلِدِهِ وَأَثَرُهَا تَقْبِيْلُهُ وَمُعَانَقَتُهُ وَشَمُّهُ وَضَمُّهُ وَحُنُوُّهُ عَلَيْهِ كَمَا صَنَعَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم بالحُسَيْنِ وَالحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عنهما وَمِنْ أَثَرِهَا تَأْدِيْبُه وَتَرْبِيَته وَإِجَابَةُ رَغائِبِهِ مَا دَامَتْ في سَبِيْلِ المَصْلَحَةِ وَابْعَادُهُ مِن الشَّرِّ .

وَتَكُونُ الرَّحْمَةُ بالآبَاءِ والأُمَّهَاتِ وَأَثَرُهَا اللُّطْفُ بِهِمَا وَالعَطْفُ عَلَيْهِمَا وَالقَوْلُ الكَرِيْمُ لَهُمَا وَصُنْعُ الجَمِيْلِ فيهِمَا وَالذَّبُّ عَنْهُمَا وَالحُنُوُّ عليهما وَالشَّفَقَةُ عليهما وَإِظْهَارُ البِشْرِ لَهُمَا قالَ اللهُ تَعَالى ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيْرًا ﴾ .

وَمِنْ آثَارِهَا جَرَيَانُ الدَّمْعِ مَعَ العَيْنِ وَذَرْفُهَا عِنْدَ المُصِيْبَةِ كَمَا كَانَ صلى الله عليه وسلم حَالَ وَفَاةِ وَلَدِه ابْرَاهِيْمَ جَعَلَتْ عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ الدَّمْعَ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَن بن عَوْفٍ وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّها رَحْمَة وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءُ .

وَلِذَا أَجَابَ الأَعْرَابِيَّ الذِي قَالَ أَتقَبِّلوْنَ صِبْيَانَكُم فَمَا نُقَبِّلُهُم قالَ لَهُ أوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ وَمِنْ آثَارِ الرَّحْمَةِ بِالقَرِيْبِ وَالصَّدِيْقِ أَنْ تَخُصَّهُ بِمَزِيْدٍ مِن البِرِّ وَالاحْسَانِ فَتُنَفِّسُ كَرْبَهُ وَتُخَفِّفُ أَلَمَهُ وَتُفَرِّجُ هَمَّهُ وَتَسْعَى لإزَالَةِ الشَّحْنَآءِ وَرَفْعِ البَغْضَآءِ وَيُوَاسِي فَقْرَهُ وَيُرْشِدُهُ عِنْدَ الحَيْرَةِ وَيُنَبِّهُهُ عِنْدَ الغَفْلَةِ وَيَنْصَحُهُ إِذا اسْتَنْصَحَهُ وَيُعِيْنُ العَاجِزَ وَيَعُودُ

المَرِيْضَ وَيُنَفِّسُ لَهُ في أَجَلِهِ وَيُشَيِّعُ جَنَازَتَهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ النَّافِعَةِ وَالطَّرِيْقَةِ المُجْدِيَةِ .

وَتَكُونُ الرَّحْمَةُ بالأقرباءِ وَأَثَرُهَا بِرُّهُم وَصِلَتُهم وَزِيَارَتُهم وَمَوَدَّتُهم وَالسَّعْيُ في مصالحهم وَدفْعُ مَا يَضُرُّهُم وَتَكُونُ الرَّحْمَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَأَثَرُهَا المُعَاشرةُ بالمَعْرُوفِ وَالإِخْلاَصُ وَالوَفَاءُ المتبَادَلُ وَأَنْ لاَ تُرْهِقَهُ بالطَّلَبَاتِ وَلاَ يُكَلِّفُهَا بالمُرْهِقَاتِ بَلْ يُعَاوِنُ عَلى شُؤُونِ المَنْزِلِ وَتَرْبِيَةِ الأَوْلاَدِ بِنَفْسِهِ أَوْ مَالِه إِنْ كَانَ ذَا سَعَةٍ .

وَتَكُونُ الرَّحْمَةُ بِأَهْلِ دِيْنِكَ تُرْشِدُهُمْ إِلى الخَيْرِ وَتُعَلِّمُهُم مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِمَّا يَنْفَعُهم وَتَأخذُ بهم عَنِ اللَّمَمِ إِلى سَبِيْلِ الأَمَمِ وَتَعْمَلُ لِعِزِّهِم وَدَفْعِ المَذَلةِ عَنْهُم وَتَكُونُ رَحِيْماً بالمؤمِنِينَ جَمِيْعاً فَتُحِبُّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهُ لَهُم مَا تَكْرَهُ لَهَا .

وَمِنْ أَثَرِهَا بالحَيَوَانِ مَا جَاءَ في حَدِيْثِ مُسْلِم عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالَ انَّ اللهَ كتَبَ الاحْسَانَ عَلى كُلِّ شَيءٍ فَإِذَا قَتَلْتُم فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ وإِذَ ذَبَحْتُم فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدكُم شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيْحَتَهُ .

وَذَلِكَ بِأَنْ يَرْفُقَ بهَا وَلا يَصْرَعُها وَيُزْعِجُها بَغْتَةً وَلاَ يَجُرُّهَا مِن مَوْضِعٍ إِلى مَوْضِعٍ بِسُرْعَةٍ تُرْهِقُهَا وَتُرْهِبُهَا بَلْ بِلُطْفٍ وَلاَ يُسْرِعُ بقطعِ الرَّأسِ وَيُسْرِعُ بِقَطْعِ الحُلْقُومِ وَالمري وَالوَدجَيْنِ وَيَتْرُكُهَا إِلَى أَنْ تَبْرُدَ لِتَخْفِيْفِ أَلَمِهَا بِقَدْرِ الاسْتِطَاعَةِ .

وَمِنْ الرَّحْمَةِ مَا يُحَدِّثُنا بِهِ صلى الله عليه وسلم قال بَيْنَمَا رَجُلٌ

يَمْشِيْ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ فنَزَلَ بِئراً فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الذِيْ بَلَغَ بي فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بفيهِ ثُمَّ رَقَى فَسَقَى الكلبَ فَشَكَرَ اللهَ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالوا يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا في البَهَائِمِ أَجْرٌ قالَ في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ وَاللّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى الله على مُحَمَّدٍ .

(فَصْــلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللّهُ وَإيَّاكَ لما يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ أَنّ لِلجَارِ عَلى جَارِهِ حَقٌّ عَظِيمُ في الأدْيَانِ كُلِّها وَالشَّرَائِع وَالأوْضَاع كَافةً ، والعَرَبُ كَانُوا يُعظِّمُونَ حَقَّ الجَارِ وَيَحْتَرِمُونَ الجِوارَ في الجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الاسْلاَمِ ، وَيَعْتَزُّون بِثَنَاءِ الجَارِ عَلَيْهِم وَيفْخَرُونَ بِذَلِكَ ، والضَّعِيْفُ إذَا جَاوَرَ الأقْوِيَاءَ صَارَ قَوِيّاً بإذن اللهِ ، لَهُ مَا لَهُم وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِم ، وَحِيْنَ جَاءَ الاسْلاَمُ أَعزَّهُ اللّهُ وَأَكَّدَ حَقَّ الجِوَارِ وَحَثَّ عَلَيْهِ وَجعَلَهُ بَعْدَ القَرابَةِ وَكَادَ يُوَرِّثُه .

والجَارُ يُطْلَقُ وَيُرَادُ به الدَّاخِلُ في الجِوَارِ وَيُطْلَقُ عَلى المُجَاوِرِ في الدَّارِ ، وَعَلى السَّاكِن مَعَ الانْسَانِ في البَلَدِ ، وَعَلَى أرْبَعِيْنَ دَاراً مِن كُلِّ جَانِبٍ وَوَرَدَ عن النَّبي صلى اللهُ عليه وسلم « الجِيْرَانُ ثَلاَثَةٌ جَارٌ له حَقٌّ وَاحِدٌ وَهُوَ المُشْرِكُ لَهُ حَقُّ الجِوارِ ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ وَهُوَ المُسْلِمُ لَهُ حَقٌّ الجِوَارِ والإسْلاَمِ ، وَجَارٌ لَهُ ثَلاَثَةُ حُقُوقٍ وَهُوَ المُسْلِمُ القَرِيْبُ ، لَهُ حَقُّ الجِوَارِ وَحَقُّ الاسْلاَمِ وَحَقُّ الرَّحِم .

إِذَا عَرفْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ تَوْفِيْقِ الانْسَانِ وَسَعَادَتِه أَنْ يَكُوْنَ في بَيْتِهِ يَشْعُرُ بالعَطْفِ وَاللطْفِ عليهِ وَالتَّقْدِيْرِ لَهُ وَالمَحَبَّةِ له، وَمِنْ قِلةِ تَوْفِيْقِهِ

أَنْ يَكُونَ بَيْنَ جِيْرَانٍ يُضْمِرُونَ الشَّرَّ لَهُ وَالعَدَاوَةَ ، وَيُدَبِّرون لَهُ المكائِدَ ، وَيُذَمِّرُونَ عليهِ خُصُومَةُ .

فَالشَّخْصُ الذي بجَانِبِهِ جِيْرَانُ سُوءٍ يَعْمَلُونَ لِلاضْرَارِ بهِ في نَفْسِهِ أو مَالِهِ أو عِرْضِهِ ، وَيَحُوكُونَ لَهُ العَظَائِمَ والدَّوَاهِيْ ، مُنَغَّصٌ عَيْشُهُ ، لا يَهْنَأُ لَهُ بَالٌ ، غَيْرُ مُرْتَاحٍ ، تَجِدُهُ قَلِقاً مِنْهُم إنْ دَخَلَ أَوْ خَرَجَ ، وَلاَ يَنْعَمُ بِمَالٍ ، تَرَاهُ مُقَطِّبَ الوَجْهِ ، مَحْزُونَ النَّفْسِ مَكْلومَ الفُؤَادِ .

وَتَجِدُ أَهْلَهُ مَعَهُم في لِجَاجٍ ، كُلُّ ذَلِكَ من جَارِ السُّوْءِ ، إِمَّا مِنْ قِبَلِ التَّسَلُّطِ عَلى أَهْلِهِ أَوْ عَلى أَوْلَادِه ، وَإِمَّا بِوَضْعِ أَذِيَّةٍ في طَرِيْقِهِ أو في بَيْتِه ، أو بِتَعَدٍّ على مُلكِه أو بِتَجَسُّسٍ عَلَيْهِ بِدُوْنِ مُبَرِّرٍ وَإِمَّا بِنَظَرٍ وَتَطَلُّعٍ عليهم مِن نَافِذَةٍ أَوْ بَابٍ أَو سَطْحٍ أو رَمْي حَصًا وَنَحْوِهِ عليهم أو نحوِ ذَلِكَ مِن أَنْوَاعِ الأذايَا .

وَرُبَّمَا اضْطُرَّ إلى بَيْعِ مَنْزِلِهِ مِن أَجْلِ جَارِ السُّوْءِ ، كَمَا ذَكَرَ بَعْضُ مَنْ ابْتُلَى بِجَارِ سُوْءٍ اضْطَرَّهُ إلى بَيْعِ مُلكِهِ قال في ذَلِكَ .

يَلُومُــونَنِيْ إِنْ بِعْتُ بِـالــرُّخْصِ مَنْــزِلِيْ
وَلَـمْ يَـعْـلَمُــوا جَـاراً هُـنَـاكَ يُـنَـغِّصُ
فَقُلْتُ لَـهُـم كُـفُّـوا الـمَـلاَمَ فَـإِنَّـمَـا
بِـجِيْـرَانِـهَـا تَـغْـلُوا الـدِّيَـارُ وَتَـرْخُصُ

آخَــرُ :

اطْـلُبْ لِنَـفْسِـكَ جِيْـرَانـاً تُـسَـرُّ بِـهِمْ
لاَ تَـصْلُحُ الـدَّارُ حَـتَّى يَـصْلُحَ الـجَـارُ

وَيَقُولُ الآخَـرُ :

دَارِ جَـارَ الـسُّـوْءِ بـالـصَّـبْـرِ وَانْ
لَـمْ تَجِـدْ صَبْـراً فَمَـا أَحْلَى النُّـقَـلْ

وَعَنْ أَبي شُرَيْحٍ قَالَ قَالَ النَّبِيّ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم : « واللهِ لا يُؤمِنُ ، وَاللهِ لَا يُؤمِنُ ، واللهِ لَا يُؤْمِنُ » قِيْلَ مَنْ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ « الذِيْ لا يَأْمَنُ جَارُه بَـوَائِقَـهُ » رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِم فَبَيَّنَ صَلى اللهُ عليهِ وسلم أنَّ مَن هذا خُلقُه ، وَتِلْكَ دَخِيْلَتُه مَعَ جَارِه غَيْرُ مُؤْمِنٍ ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بالحَلِفِ وَالتَّكْرَارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

وَهَلْ المُؤْمِنُ الاَّ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلى دِمَائِهم وَأَمْوَالِهم وَأَعْرَاضِهم وَهَلْ الإِيْمَانُ إلا مِنَ الأَمْنِ ؟ فإِذَا كَانَ الجَارُ لِجَارِهِ حَرْباً وَعليهِ ضِدّاً فَكَيْفَ يَكُونُ مِن المؤمنين الذِيْنَ أَخْلَصُوا دِيْنَهُم لِلّهِ لَقَدْ كَانَ الوَاجِبُ عليهِ أَنْ يَتفَقَّد أُمُورَ جَارِه ، وَيُسَاعِدَه بكلِّ مَا اسْتَطَاعَ ، وَيَعْمَلَ على جَلْبِ الخَيْرِ لَهُ وَدَفْع مَا يَضُرُّهُ ، حَتَّى يَكُوْنَ في عِيْشَةٍ رَاضِيَةٍ وَحَيَاةٍ طَيِّبَةٍ ، كَمَا يَعْمَلُ بَعْضُ الجِيْرَانِ المُحْسِنِيْنَ الذِيْنَ يَألفُونَ وَيُؤْلَفُونَ .

فَقَدْ يَأْنَسُ الانْسَانُ بِجَارِهِ القَرِيْبِ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْنَس بِالنَّسِيْبِ فَيَحْسُنُ التَّعَاوُنُ بَيْنَهُما ، وَتَكونُ الرَّحْمَـةُ وَالاحْسَانُ بينهمـا ، فاذا لَمْ يُحْسِنْ أَحَدُهُما لِصَاحِبِه فلا خَيْرَ فِيْهِمَا لِسَائِرِ النَّاسِ .

فَيَنْبَغِي لِلْجَارِ أَنْ يَتَعَاهَدَ جَارَهُ باهْدَاءِ مَا تَيَسَّرَ وَالصَّدَقَةِ وَالدَّعْوَةِ وَاللطَافَةِ بِهِ وَبأَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ ، وَالصَّفْحِ عَنْ زَلَّتِهِمْ ، وَبُدَأتِه بالسَّلَامِ وَاظْهَارِ البِشْرِ لَهُ وَاعَانَتِهِ وَالتَّوْسِيْعِ عَلَيْهِ في مُعَامَلته وَاقْرَاضِهِ ، وَعِيَادَتِه وَتَعْزِيَتِه

عِنْدَ المُصِيْبَةِ وَتَهْنِئَتِه بِمَا يُفْرِحُه ، وَيَسْتُرُ مَا انْكَشَفَ لَهُ من عَوْرَةٍ ، وَيَغُضُّ بَصَرهُ عَنْ مَحَارِمِه وَيَمْنَعُ أَوْلَادَهُ وَأَهْلَه مِنْ أَذِيَّةِ أَوْلَادِ جَارِهِ وَأَهْلِهِم .

وَانْ بَدا لَهُم حَاجَةٌ قَامَ بِهَا ، وَلَا يَرْفَعُ عَلى المِذْيَاعِ أَوِ التِّلفِزْيُونِ إِنْ كَانَ يَضُرُّهُم ويُسْهِّرُهم وَهُوَ مِمَّنْ ابْتُلى بِهَذَا المُنْكَرِ المُحَرَّمِ ، وَيَعْمَلُ كُلَّ مَا فِيْهِ نَفْعٌ لَهُم وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَدْفَعَ عَنْهُم مَا يَضُرُّهم مَا اسْتَطَاعَ فَبِهَذِهِ الأَشْيَاءِ تَقَعُ باذْنِ اللّهِ الألفَةُ وَالمَحبَّةُ .

وَبِهَا تَحْصُلُ المَوَدَّةُ ، وَيُصْبِحُ المَرْءُ بَيْنَ جِيْرَانِهِ مَحْبُوْباً مُوَقَّراً يَتَفَقَدُونَهُ إِذا غَابَ وَيَسْأَلُونَ عنه وَيَعُدّوْنَهُ إِذَا حَضَرَ مَرْغُوباً مَرْمُوْقاً بالعِنَايَةِ مِنْهُم آمِناً مِنْهُم مُطْمَئِناً إِلَيْهِم يَتَبَادَلُونَ المَنَافِعَ .

رُوِيَ أَنَّ ابْرَاهِيْمَ بنَ حُذَيْفَةَ بَاعَ دَارَهُ فَلَمَّا أَرَادَ المُشْتَرِيْ أَنْ يُشْهِدَ عَلَيْهِ قالَ لَسْتُ أُشْهِدُ عَلَيَّ وَلَا أُسَلِّمُها حَتَّى يَشْتَرُوا مِنّيْ جِوارَ سَعِيْدِ بنِ العَاصِ وَتَزَايَدوا في الثَّمَنِ قَالُوا وَهَلْ رَأَيْتَ أَحَداً يَشْتَرِي جواراً أو يَبِيْعَه قالَ الا تَشْتَرُونَ جِوَارَ مَنْ إِنْ أَسَأْتُ إِليهِ أَحْسَن وَانْ جَهِلْتُ عَلَيْهِ حَلمَ وَإِنْ أَعْسَرْتُ وهَبَ لا حَاجَةَ لِيْ في بَيْعِكُم رُدُّوْا عَلَيَّ دارِيْ .

فَبَلَغَ ذَلِكَ سَعِيْدَ بنَ العَاصِ فَبَعَثَ اليهِ بمائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَرَوى المدائِنيّ أَنَّهُ باعَ جَارٌ لِفَيْرُوْز دَارَهُ بأَرْبَعَةِ آلافِ دِرْهَمٍ فَجِيءَ بِهَا فَقالَ البائع هَذَا ثَمنُ دَارِيْ فَأَيْنَ ثَمَنُ جَارِي قَالَ وَلِجَارِكَ ثَمَنٌ قَالَ لَا أَنقُصُهُ وَاللهِ عن أَرْبَعَةِ آلافِ دِرْهَمٍ .

فَبَلَغَ ذَلِكَ فَيْرُوزَ فَأَرْسَلَ إِليهِ بِثَمَانِيَةِ الافِ دِرْهَمٍ وقالَ هَذَا ثَمَنُ دَارِكَ وَجارِكَ وَالزَمْ دارِكَ لا تَبِعْهَا ، أَيْنَ هَؤُلَاءِ من أَكْثَرِ جِيْرَانِ زَمَنِنَا لا

تَكَادُ تَهْدأُ أذِيَّتُهم وَشَتَائِمُهُمْ وَسَبُّهُمْ وَهِجْرَانُهُمْ وَمُشَاجَراتُهُمْ وَتَقَاطُعُهمْ وَكَيدُ بَعْضِهم لِبَعْضٍ رِجَالاً وَنِسَاءً وَأَوْلَاداً كأَنهُم في مَعْزِلٍ عن الآياتِ والأحاديثِ الوَارِدَةِ في الجِوَارِ وَحُقُوقِه .

قالَ عَليُّ بنُ أَبي طَالِبِ لِلْعَبّاسِ مَا بَقِيَ مِنْ كَرم إِخْوَانِكَ قَالَ الافْضَالُ على الاخْوَانِ وَتَرْك أَذَى الجِيْرَانِ قالَ الشَّاعِرُ :

سَقْيـاً وَرَعْيـاً لِجِيْـرَانٍ نَـزَلْتُ بِـهِـمْ
كَـأَنَّ دَارَ اغْـتِـرَابي عِـنْـدَهُـم وَطَـنِـي
إِذَا تَـأَمَّـلْتُ مِـنْ أَخْـلاَقِـهـم خُـلُقـاً
عَـلِمْـتُ أَنَـهُـمـوا مِـنْ حِـلْيَـةِ الـزَّمَـنِ

وَقَالَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ : ثَلاثٌ إِذَا كُنَّ في الرَّجُلِ لَمْ يُشَكَّ في عَقْلِهِ وَفَضْلِهِ إِذَا حَمِدَهُ جَارُه وَقَرَابَتُه وَرَفِيْقُه . وَإِلَيْكَ طَرَفاً في الحَثِّ عَلى الاحْسَانِ إلى الجَارِ وَالبُعْدِ عَن أَذِيَّتِهِ .

وَقَدْ جَاءَ في الأَحَادِيْثِ النَّبَوِيَّةِ التَّحْذِيْرُ مِنْ إِيْذَاءِ الجَارِ ، والتَّرْغِيْبُ في الاحْسَانِ اليه ، فَعَنْ ابنِ عُمَر رضي الله عنهما قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « مَا زالَ جِبْرِيْلُ يُوْصِيْني بالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُه » مُتَّفَقٌ عليه .

وَعَن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم « يَا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ لا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسَنَ شَاةٍ » مُتفقٌ عَليهِ .

وَعَنْ أَبي ذَرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَال رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه

وسلم « يَا أَبَا ذرٍ اذا طَبَخْتَ مَرَقَةً فأكْثِرْ مَاءَها وَتَعَاهَدْ جِيْرَانَكَ » رَوَاهُ مُسْلِم .

وَفي رِوَايَةٍ له عن أبي ذَرّ قَالَ إنَّ خَلِيْلِي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أَوْصَانِيْ « إِذَا طَبَخْتَ مرقةً فَأَكْثِرْ مَاءَها ثمّ انْظرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِن جِيْرَانِكَ فَأَصِبْهُم مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ » .

وَعَن المِقْدَادِ بنِ الأَسْوَدِ رضي الله عنه قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لأَصْحَابِه « مَا تَقُولُونَ في الزِّنَا ؟ قَالُوا : حَرَامٌ ، حَرَّمَهُ اللّهُ وَرَسُولُهُ ، فَهُوَ حَرَامٌ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ، قالَ فقالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم « لأنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ منْ أَنْ يَزْنِيَ بامْرَأَةِ جَارِهِ » .

قالَ « مَا تَقُولُونَ في السَّرقِةِ ؟» قَالُوا: حَرَّمَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ فَهِيَ حَرَامٌ قَال « لأنْ يَسْرِقَ الرَّجُل مِن عَشَرةِ أبْيَاتٍ ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِن أَنْ يَسْرِقَ مِن جَارِه » رَوَاهُ أَحْمَدُ وَاللفْظُ لَـهُ ، وَرُوَاتُهُ ثِقَـاتٌ وَالطَّبَـرَانِيّ في الكبِيْرِ وَالأَوْسَطِ .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلى الله عليه وسلم « المؤمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ ، والمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُوْنَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِه ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوْءَ ، وَالذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَا يَدْخلُ الجَنَّةَ عَبْدٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى وَالبَزَّارُ وَاسْنَادُ أَحْمَدَ جَيِّدٌ .

مَــوْعِظَــةٌ

عِبَادَ اللّهِ لَقَدْ تَبَاعَدَتْ القُلُوبُ في هَذَا الزَّمَانِ تَبَاعُدَاً يَنْبَغِيْ أَنْ يُبْكِى لَهُ أَشَدَّ البُكَاءِ ، وَأَصْبَحْنا بِهذَا التَّبَاعُدِ لَا اخاءَ بَيْنَنَا ، وَالسَّبَبُ الوَحِيْدُ في ذَلِكَ أَنَّنا عَشِقْنَا الدُّنْيَا عِشْقاً قَضَى نِهَائِيّاً عَلَى كُلِّ مَحْبُوبٍ ، وَأَصْبَحَ الهَدَفُ الوَحِيْدُ هُوَ الحُصُوْلُ عليهَا مِنْ أَيِّ طَرِيْقٍ كَانَ ، فَالقَلْبُ وَاللّسَانُ وَالجَوَارِحُ مَشْغُولَةٌ لَيْلاً ونَهَاراً في طَلَبِ الدُّنْيَا ، فَهِيَ المُنْتَهَى وَالمُشْتَهَى عَلى حَدِّ قَوْلِ الشَّاعِرِ فيها :

أَبَى الـقَـلْبُ إِلَّا أُمَّ دَفْـرٍ كَـمَـا أَبَـى
سِـوَى أُمَّ عَمْـرو مُـوْجَـعُ القَلْبِ هَـائِمُ
هِيَ المُنْتَهَى وَالـمُشْتَهَى وَمَـعَ السُّهَى
أَمَـانِـيٌّ مِـنْـهَـا دُوْنَـهُـنَّ الـعَـظَائِـمُ
وَلَـمْ تَـلْقَـنَـا إِلَّا وَفِـيْـنَـا تَـحَـاسُـدٌ
عَـلَيْـهَـا وَإِلَّا فـي الـصُّـدُوْرِ سَـخَـائِـمُ

فَلِلدُّنْيَا يَعُقُّ الوَلَدُ أَبَاهُ وَيُقَاطِعُ أَخَاهُ ، وَهُوَ يَعْرِفُ تَمَامَاً أَنَّهُ شَقِيْقُهُ وَلِلدُّنْيَا تَرَى المُشَاغَبَاتُ بَيْنَ الجِيْرَانِ وَالمُتَعَامِلِيْنَ فَلِلدُنْيَا مَكَانَةٌ اليَوْمَ أَنْسَتْ الخَلْقَ خَالِقَهم وَرَازِقَهمْ فإِنْ حَضَرُوا لِلصَّلاةِ فَالابْدَانُ حَـاضِرَةٌ وَالقُلُوبُ مَعَ الدُنْيَا ، فَعَلَتْ الدُّنْيَا بالنَّاسِ اليَوْمَ أَفَاعِيْلَ مَا كَانَتْ تَخْطُرُ عَلَى البَالِ ، وَمِنْ أَجْلِ الدنيا تَرى الخَلْقَ في قَلَاقِلَ وَأَهْوَالٍ .

زُرْ المحَاكِمَ وانْظُرْ تَرَى العَجَبَ العُجَابَ ، كُلُّ ذَلِكَ وَأَعْظَمُ مِنْهُ سَبَبُهُ حُبُّ الدُّنْيَا والانْهِمَاكُ فِيْهَا فأيْنَ نَحْنُ مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ الذِيْنَ قَالَ اللّهُ تَعَالَى في وَصْفِهِم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم ﴾ فَانْظُرْ شَهَادَة

اللهِ لَهُم أَنَّهُمْ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم وَهَلْ تَقْتَضِي الرَّحْمَةُ إِلَّا عَطْفاً مِنْهُم على إِخْوَانِهِم وَإِحْسَاناً ، وَانْظُرْ إلى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يُحِبُّوْنَ مَنْ هَاجَرَ الَيْهِمْ وَلَا يَجِدُوْنَ في صُدُوْرِهِمْ حَاجَةً مِمّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُوْنَ على أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

هَكَذَا يَكُوْنُ المُؤْمِنُوْنَ ، لِذَلِكَ كَانَتْ هَيْبَتُهُم في نُفُوْسِ أَعْدَائِهِم تَرْتَعِدُ مِنْهَا فَرَائِصُ الشُّجْعَانِ وَكَانُوا سَادةَ الدُّنْيَا يَشْهَدُ بِذَلِكَ العَدُوْ قَبْلَ الصّدِيْقِ ، فَانْ كُنْتَ في شَكٍّ مِمَّا ذَكَرْنَا لَكَ فَانْظُرْ إلى مَا ذَكَرَهُ المحَقِّقُونَ مِنْ المُؤرِّخِيْنَ .

اللهُمّ اجْمَعْ قُلُوبَ المُؤمِنِينَ على مَحَبَّتِكَ وَطَاعَتِكَ ، وَأَزِلْ عَنْهُم مَا حَدَثَ مِنْ المنْكَراتِ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمين ، وَصَلى اللهُ على مُحمدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنْ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَسَمَ بَيْنَكُم أَخْلَاقَكم ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُم أَرْزَاقَكُم ، وَإِنّ اللهَ عزّ وَجَل يُعْطِيْ الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الدِّيْنَ إلا مَنْ أَحَبَّ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّيْنَ فَقَدْ أَحَبَّهُ ، وَالذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُه ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتّى يَأْمَن جَارُهُ بَوَائِقَهُ » .

قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا بَوَائِقُه ؟ قَالَ « غَشَمُه وَظُلْمُه » وَلَا يَكْسَبُ

مَالاً مِنْ حرام فَيُنْفِقُ منه فَيُبَارَكُ فِيْهِ ، وَلاَ يَتَصدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلُ مِنه ، وَلاَ يَتْرُكه خَلْفَ ظَهْرِهِ إلاَّ كَانَ زَادَه إلى النّارِ ، إنَّ اللهَ لاَ يَمْحُو السَّيّءَ بالسَّيّءِ وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيّءَ بالحَسَنِ ، انَّ الخَبِيْثَ لاَ يَمْحُـو الخَبِيْثَ » رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَعَنْ أَبي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَشْكُو جَارَهُ قَالَ « أَطرَحْ مَتَاعَكَ عَلى الطَّرِيْقِ » فَطَرَحَهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَيَلْعَنُوْنَه ، فَجَاءَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ لَقِيْتُ مِنْ الناسِ ، قالَ وَمَا لَقِيْتَ مِنْهُم ؟ قالَ : يَلْعَنُونَنِي .

قَالَ « قَدْ لَعَنَكَ اللهُ قَبْلَ النَّاسِ فَقَالَ : إنِّي لاَ أَعُودُ ، فَجَاءَ الذِيْ شَكَاهُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالَ « ارْفَعْ مَتَاعَكَ فَقَدْ كُفِيْتَ » رَوَاهُ الطَّبَرانِيّ ، وَالبَزَّارُ بِاسْنَادٍ حَسَن بِنَحْوِهِ إلاَّ أَنَّه قَالَ « ضَعْ مَتَاعَكَ عَلَى الطَّرِيْقِ » فَوَضَعَهُ ، فَكَانَ كلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ قَالَ : مَا شَأْنُكَ قَالَ : جَارِي يُؤْذِيْنِي ، قَالَ فَيَدْعُونَ عَلَيْهِ ، فَجَاءَ جَارُه فَقَالَ : رُدَّ مَتَاعَكَ فَإِنِّيْ لاَ أَؤْذِيْكَ أَبَدًا .

وَعَنْ أَبِي هُرَيرةَ رَضي الله عنه قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَشْكُو جَارَهُ فقالَ : « اذْهَبْ فَاصْبِرْ » فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً ، فَقَالَ « اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ في الطَّرِيْقِ » فَفَعَلَ فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُّونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ فَيُخبِرُهُمْ خَبَرَ جَارِهِ ، فَجَعَلُوا يَلْعَنُونَهُ ، فَعَلَ اللهُ بِهِ وَفَعَلَ ، وبَعْضُهم يَدْعُو عَلَيْهِ ، فَجَاءَ إليهِ جَارُهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَنْ تَرَىٰ مِنِّيْ شَيْئاً تَكْرَهُهُ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَاللفْظُ لَهُ وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ وَالحَاكِمُ وقَالَ

صَحِيْحٌ على شرطِ مُسلم وعن مُطَرفِ بنِ عبدِ اللهِ قال كان يبْلُغني عَنْكَ حَديث وكُنْتُ أَشْتَهِي لِقَائَكَ قال لِلَّهِ أَبُوكَ قد لَقِيْتَنِي فَهَاتِ . قلْتُ حَدِيْثٌ بَلَغَنِيْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَدَّثَكَ ، قَالَ « انَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ ثَلاَثَةً وَيُبْغِضُ ثَلاثَةً » قَالَ فَمَا إِخَالُنِيْ أَكْذِبُ عَلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ .

قَالَ : فَقُلْتُ فَمَنْ هَؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ الذين يُحِبُّهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : رَجُلٌ غَزَا في سَبيلِ اللهِ صَابِراً مُحْتَسِباً فقاتَلَ حَتَّى قُتِلَ وَأَنْتُم تَجِدُونَهُ عندَكُم في كِتَابِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ ثم تَلاَ ﴿ انَّ اللهَ يُحِبُّ الذِيْنَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيْلِهِ صَفّاً كأنهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوْصٌ ﴾ .

قُلْتُ : وَمَنْ ؟ قَالَ (وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارُ سُوْءٍ يُؤْذِيْهِ فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يَكْفِيْهِ اللهُ إِيَّاهُ بِحيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ) فذكرَ الحَدِيْثَ رَوَاهُ أَحْمَدَ وَالطَّبَرانِيّ وَاللفْظُ لَهُ وَاسْنَادُه واحـد اسْنَادَيْ أَحْمَدُ رِجالُهُما مُحْتَجٌّ بِهِمْ في الصَّحِيْحِ وَرَوَاهُ الحَاكِمُ وَغَيْرُه بِنَحْوِهِ وَقَالَ صَحِيْحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ .

وَعَنْ نَافِعِ بْنِ الحَارِثِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم (مِنْ سَعَادَةِ المَرْءِ الجَارُ الصَّالِحُ وَالمـرْكَبُ الهَنِيُّ وَالمَسْكَنُ الوَاسِعُ) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَرُوَاتُهُ رُوَاةُ الصَّحِيْحُ .

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِيْ وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « أَربَعٌ مِن السَّعَادَةِ : المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ وَالمَسْكَنُ الوَاسِعُ والجَارُ الصَّالِحُ والمركَبُ الهَنِيُّ وَأَرْبَعٌ مِنْ الشَّقَاءِ الجَارُ السُّوءُ وَالمَرْأَةُ السُّوْءِ وَالمرْكَبُ السُّوءُ وَالمَسْكَنُ الضَّيِّقُ » رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ فُلانَةَ تُكْثِرُ مِنْ صَلاتِهَا وَصَدقِتها وَصِيَامِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِيْ جِيْرَانَهَا بِلِسَانِهَا .

قَالَ « هِيَ فِي النَّارِ » قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَلاَتِهَا وَأَنَّهَا تَتَصَدَّقُ بالأثوارِ مِنْ الأَقِطِ وَلاَ تُؤْذِيْ جِيْرَانِهَا، قَالَ « هِيَ فِي الجَنَّةِ » رَوَاهُ أَحْمَدُ والبَزَّارُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيْحِهِ ، وَالحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيْحُ الاسْنَادِ .

وَرَوَاهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِيْ شَيْبَةَ باسْنَادٍ صَحِيْحٍ أَيْضاً وَلَفْظُهُ وَهُوَ لَفْظُ بَعْضِهِم قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ فلانَةُ تَصُوْمُ النَّهَارَ ، وَتَقُوْمُ اللَّيْلَ وَتُؤْذِيْ جِيْرَانَهَا ، قَالَ « هِيَ فِي النَّارِ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ فُلانة تَصَلِّيْ المَكْتُوبَاتِ وَتَصدقَ بالأَثْوَارِ مِنْ الأَقِطِ وَلاَ تُؤْذِيْ جِيْرَانَهَا ، قَالَ « هِيَ فِي الجَنَّةِ » .

وَعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم « ثَلاَثَةٌ مِنْ الفَوَاقِرِ ، إِمَامٌ إِنْ أَحْسَنْتَ لَمْ يَشْكُرْ وَانْ أَسَأْتَ لَمْ يَغْفِرْ وَجَارُ سُوءٍ إِنْ رَأَى خَيْراً دَفَنَهُ ، وانْ رَأى شَرّاً أَذَاعَهُ ، وَامْرَأَةٌ إِنْ حَضَرْتَ آذَتْكَ وَإِنْ غِبْتَ عَنْهَا خَانَتْكَ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ باسْنَادٍ لا بَأْسَ بِهِ .

وَفِي حَدِيْثِ أَنَسٍ إِثْنَانِ لَا يَنْظُرُ اللّهُ إِلَيْهِمَا يَوْمَ القِيَامَةِ قَاطِعُ رحِمٍ وَجَارُ سُوْءٍ .

« مَـوْعِظَـةٌ »

عِبَادَ اللّهِ لَقَدْ كَانَ سَلَفُنَا فِي مَحَبَّةِ بَعْضِهِم بَعْضاً آيَةٌ مِنْ الآيَاتِ وَكَانَ التَّراحُمُ بَيْنَهُم بَالِغاً مَبْلغاً يَعُدُّهُ أَهْلُ الانْصَافِ غَايَةَ الغَايَاتِ لِذَلِكَ

كَانُوا في مَحَبَّةِ الخَيْرِ لِبَعْضِهِم عَلَى أَرْقَى مَا يُتَصَوَّرُ في الدَّرجَاتِ .

وَهَلْ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُم في أَشَدِّ الجُوْعِ وَيُؤْثِرُ أَخَاهُ بِمَالَهُ مِنْ طَعَامٍ عَامِلِيْنَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَيُؤْثِرُوْنَ على أَنْفُسِهم وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ وَقَولِهِ ﴿ وَيُطْعِمُوْنَ الطَّعَامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيْناً وَيَتِيْماً وَأَسِيْراً ﴾ وَبِقَوْلِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ .

وَإِنَّ الخَجَلَ لَيَعْلُو وُجُوْهَنَا إِذَا نَحْنُ قَارَنَّا بَيْنَ هَؤُلآءِ وَبَيْنَ أَبْنَاءِ هَذَا الزَّمَانِ ، نَحْنُ في حَالَةٍ تَصَوُّرُ حَقِيْقَتِهَا فَقَطْ يُثِيْرُ في قُلُوبِ المؤمِنِيْنَ الآحْزَانَ .

كَيْفَ وَنَحْنُ إِذَا فَتَّشْنَا ثم فَتَّشْنَا لا نَجِدُ قَلْبَيْنِ مَعَ بَعْضِهِمَا مَعِيَّةَ الاخَاءِ التَّامِّ يَكُوْنُ الجَارُ في نِهَايَةِ الفَقْرِ وَلاَ يَلْتَفِتُ إِليهِ جَارُهُ المُثْرِي وَيَنْزِلُ بالأَخِ الشَّقِيْقِ أَوِ العَمِّ الشَّقِيْقِ أَو نَحْوِهِمَا مَا يَنْزِلُ مِن الكَوَارِثِ وَلاَ أَثَرَ لِنُزُوْلِهَا عِنْدَ أَخِيْهِ وَلاَ كَأَنَّهُ يَرَى تِلْكَ المَصَائِبَ الفَادِحَة وَلَعَلَّكَ مُنْتَظِرٌ الجَوَابَ مَا هُوَ السَّبَبُ في ذَلِكَ فَأَلْقِ سَمْعَكَ وَأَحْضِرْ قَلْبَكَ .

فَأَقُولُ لِكُلِّ النَّاسِ اليَوْمَ شُغْلٌ وَاحِدٌ هُوَ المالُ شَغَلَهُم عَمَّا عَدَاهُ وَأَنْسَاهُم كُلَّ مَا سِوَاهُ مَلأَ القُلُوبَ حُبُّ هَذَا المالِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ في القُلُوبِ مُتَّسَعٌ لِسِوَاهُ فَمِنْ أَجْلِهِ تُسْتَبَاحُ الاعْرَاضُ وَمِنْ أَجْلِهِ تُرَاقُ الدِّمَاءُ وَمِنْ أَجْلِهِ يَكُونُ الصَّفا والمُعَادَاةُ هُوَ القُطْبُ الذِي تَدُورُ حَوْلَهُ أَفْعَالُ العِبَادِ في هَذَا الزَّمَانِ .

فَالقُلُوبُ في سُرُوْرٍ مَا دَامَ المالُ سَالماً وإِن انهْارَ بناءُ الشَّرَفِ والدِّيْنِ

والنُّفُوسُ في هُدُوءٍ وَطُمَأْنِيْنَةٍ ما ابْتُعِدَ عَنَ المالِ فإذَا قُرِبَ حَوْلَهُ هَاجُوا هَيَجَانَ الجِمَالِ وَهُمْ في تَوَاصُلٍ مَا لَمْ يُتَعَرَّضْ لِلْمَالِ فَإِذَا تُعِرِّضَ لَهُ انْقَطَعَت الصِّلاتُ حَتَّى بَيْنَ الأَقْرَبِيْنَ مِنْ آبَاءٍ وَأُمَّهاتٍ وأوْلَادِ وَإِخْوَانٍ .

أَمَا عَلِمَ هَؤُلَاءِ أَنَّ المالَ الذِي كَانَ بِأَيْدِيْنَا كَانَ قَبْلَنَا بِيَدِ اخْوَانِنَا في الانْسَانِيَّةِ الذين سَبَقُونَا إلى الدنيا ثم انْتَقَلَ إلى مَنْ بَعْدَهُم ثم انْتَقَلَ مِن جِيْلٍ إلى جِيْلٍ إلى أنْ وَصَلَ الَيْنَا سَعِدَ بِهِ مَنْ صَرَفَهُ في مَرَاضِيْ اللهِ وَشَقِيَ بِهِ مَنْ صَرَفَهُ في مَا يُغْضِبُ اللهَ .

وَلَعَلَّكَ يَا أَخِيْ تَتَكَدَّرُ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّهُ سَيُنْقَلُ عَنْكَ في أَسْرَعِ وَقْتٍ فلا تَفْزَعْ وَلَا تَتَكَدَّرْ وَوَطِّنْ نَفْسَكَ وَاعْلَمْ انَّكَ وَاللهِ مَيِّتٌ وَمَوْرُوثٌ عَنْكَ مَا جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ رَغْمَ أَنْفِكَ يَتَمَتَّعُ بِهِ ذَلِكَ الوَارِثُ العَاقُّ أَوْ البار وَأَنْتَ تُسْأَلُ عَنْهُ هَلَلَةً وَقِرْشاً قِرْشاً .

وَتَكُوْنُ النَّتِيْجَةُ إِنْ كُنْتَ جَمُوعاً مَنُوعاً شَقَاءً تَسْتَغِيْثُ مِنْهُ فَلَا تُغَاثُ وَتَتَمَنَّى لَوْ كَانَت الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا بِيَدِكَ وَافْتَدَيْتَ نَفْسَكَ بِهَا تَكُونُ النَّتِيْجَةُ ذَلِكَ إِنْ كُنْتَ مِنْ المَغْرُورِيْنَ الغَافِلِيْنَ الذِيْنَ ظَنُّوا أَنَّ السَّعَادَةَ كُلَّهَا تَيْسِيْرُ جَمْعِ المالِ وَتَكْدِيْسُهُ عِنْدَكَ آلافاً وَمَلَايينَ وَعَمَائِرَ وَفِلَلٍ وَأَرَاضِيْ وَبُيوتٍ كَدَأْبِ أَهْلِ هَذَا العَصْرِ الغَافِلِ المُظْلِمِ بالمعَاصِيْ وَالبِدَعِ والمنْكَرَاتِ .

الذِيْ اعْتَاضَ أَهْلُهُ عَنْ كِتَابِ اللّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ العُكُوْفَ على الجَرَائِدِ حَمَّالَةِ الكَذِبِ والمَجلاتِ الخَلِيْعَاتِ وَالكُتُبِ الهَدَّامَاتِ والجُلُوسَ حَوْلَ المَلَاهِيْ وَالمُنْكَرَاتِ فَسَوْفَ تَنْدَمُ وَتَتَحسَّرُ حِيْنَمَا يَنْكَشِفُ عَنْكَ الغطا وَيَتَبَيَّنُ لَكَ ذَلِكَ الخَطَأَ وَتَتَمَنَّى أَنَّكَ أَمْضَيْتَ أَوْقَاتَكَ في طَاعَةِ مَوْلاكَ

وَهَيْهَاتَ أَنْ يَحْصُلَ لَكَ مُنَاكَ ذَهَبَ الآوَانُ وَبَقِيَ النَّدَمُ وَالحِرْمَانُ .

لَقَدْ أَنْسَى النَّاسَ حُبُّ هَذَا المالِ مَا لَهُم مِن شَرَفٍ وَمُرُءَةٍ وَدِيْنٍ وَجَعَلَهُم حَوْلَ حُطَامِ الدُّنْيَا كَمَا وَصَفَهُم الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ :

وَمَـا هِـيَ إِلَّا جِيْـفَـةٌ مُـسْـتَـحِـيْـلَـةٌ
عَـلَيْـهَـا كِـلَابٌ هَـمُّـهُـنَّ اجْـتِـذَابُـهَـا
فَـإِنْ تَـجْـتَـنِبْـهَـا كُنْتَ سِلْمـاً لِأَهْـلِهَـا
وَإِنْ تجتذبها نَـازَعَـتْـكَ كِـلَابُـهَـا

أَمَا عَلِمُوا أَنَّ المَالَ مِن خَدَمِ الدِّيْنِ فَاذَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ كَان نَكْبَةً عَلى أَصْحَابِهِ وكذاكَ الأولادُ إنْ كانُوا غَيْرَ صَالِحِيْنَ فَهُمْ ضَرَرٌ على أَبِيْهِم وَعَلى أَنْفُسِهِم وَكذَلِكَ الزَّوْجَةُ وَلِذلكَ وَرَدَ عَنْ دَاوُدَ عليهِ السلامُ أنهُ كانَ يَقُولُ « اللهُمّ إنّي أَعُوذُ بكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ وَمِنْ مَالٍ يَكُونُ عَليَّ عذاباً وَمِنْ وَلَدٍ يكُونُ وَبالاً ومِنْ زوجَةٍ تُشيبُنِي قَبْلَ المشِيْبِ وَمِنْ خَلِيْلٍ مَاكِرٍ عَيْنُهُ تَرْعَانِي وَقَلْبُهُ يَشْنَانِيْ إنْ رَأَى خَيراً أَخْفَاهُ وَإنْ رأَى شَراً أفْشَاهُ.

وَقِيْلَ إِنَّهُ سُئِلَ عِيْسَى عليه السَّلامُ عَن المالِ فقَالَ لا خَيْرَ فيْهِ قِيْلَ وَلِمَ يَا نَبِيَّ اللهِ قَالَ لأَنَّهُ يُجْمَعُ مِنْ غَيرِ حِلٍّ قيلَ فانْ جُمِعَ مِنْ حِلٍّ قال لا يُؤدَّى حَقُّهُ قِيْلَ فإنْ أدِّيَ حَقهُ قال لا يَسْلَمْ صَاحِبُهُ مِن الكِبْرِ وَالخُيَلاءِ قِيْلَ فانْ سَلِمَ قَالَ يُشْغِلُهُ عن ذِكْرِ اللهِ قِيْلَ فإنْ لم يَشغَلْهُ قالَ يُطِيْلُ عليهِ حِسَابَهُ يَوْمَ القِيَامةِ .

فتَأمَّلْ هَذِه العَقَباتِ الخَمْسَ وَقَلِيْلٌ منْ يَتَجاوَزُها سَالِماً وَوَردَ عَنْ عَطاءِ بنِ السّائِبِ عَن أبِيْ البخْتَري قالَ كانَ بَيْنَ عمّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلامٌ في المَسْجِدِ فَقَال عَمَّارُ أَسْأَلُ اللّهَ تَعالَى إنْ كُنْتَ كَاذِباً أَنْ لا يُمِيْتَك حَتَّى يُكْثِرَ

مَالَكَ وَوَلَدَكَ وَيُوطِّىءَ عَقِبَكَ وورد عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم «خِيَارُكُم في المائَتَيْنِ كُلُّ خَفِيْفِ الحاذّ قَالُوا يَا رَسُولَ اللّهِ وَمَا الخَفِيْفُ الحَاذّ قال : « الذِيْ لا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَد » .

شِعْرَا :

يَقُـولُ الذِيْ يَـرْجُو مِن اللّهِ عَفْـوَهُ
وَيَـرْجُوهُ نَصْـراً عَـاجِـلاً غَيْـرَ آجِـلِ
لِمَنْ يَتَّقِي المَـوْلَى وَيَـرْجُــو لِقَـاءَهُ
وَعَمَّـا يَقُـولُ النَّـاسُ لَيْسَ بِسَـائِـلِ
أَقُــولُ بِحَمْــدِ اللّهِ قَــوْلاً مُنَقَّحـاً
وَلَوْ أَنَّ فَهْمِيْ قَاصِـراً في المَسَائِـلِ
عَلَيْـهِ مِن النَّصِّ الصَّرِيْـحِ شَـوَاهِـدُ
أذا قُلتُــهُ يَهْوِى لَــهُ كُـلُّ عَــاقِـلِ
أُسِــرُّ بِمَــا بِيْ وَالـعُيُــوْنُ عَــوَابِـرُ
بِـدَمْعٍ عَلى الخَـدَّيْنِ ثَجّـاً بِـوَابِـلِ
وَفي مُـدَّعِيْ الإِسْـلَامِ قَلْبِيْ كَـأَنَّـهُ
عَلى الْمُهْلِ مِنْهُم لَيْسَ عَنْهُم بِذَاهِلِ
فَمَــا بَيْنَ دَهْـرِيٍّ وَمَــا بَيْنَ مُشْـرِكٍ
وَلَمْ يَعْـرِفِ الإِسْلَامَ غَيْـرُ القَـلائِـلِ
وَلَـوْ بَـذَلُــوْا الأَمْـوَالَ نَفْــلاً لِـرَبِّنَــا
إِذَا الفَـرْضُ ضَاعَ لَاغِنَى بِـالنَّوَافِـلِ

تَـرَكْنَـا الكِتَــابَ وَالحَـدِيْثَ وَرَاءَنَـا
لِأَجْـلِ مَجـلاتٍ أَتَتْ بِــالتَّهَــازُلِ
لَقَـدْ حَصَّـلَ المَقْصُـودَ مِنَّـا عَـدُوَّنَا
وَمَقْصُــودُنَـا مِنْهُم فَلَيْسَ بِحَــاصِـلِ
مَشَيْنَـا جَمِيْعـاً في فَسَـادِ صَـلاحِنَـا
وَرُمْنَـا مَرَامـاً خَـاسِـراً غَيْـرَ طَـائِـلِ
وَتَـسْتَـعْجِـبُ الأَعْــدَاءُ مِنَّــا لأَنَّـنَـا
كَمِثْـلِ القَطَا تَصْـطَادُنَـا بِـالحَبَـائِـلِ
أَحَاطَتْ بِنَا الأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
كَـأَنَّــا طَـعَــامٌ قَـدَّمُـوهُ لآكِـلِ
وَصَارُوْا بِحَاراً يُغْـرِقُ الفُلْكَ مَوْجُهَـا
وَنَحنُ لَهُمْ صِـرْنَا كَمِثْـلِ الجَدَاوِلِ
وَتَخْتَــرِعُ الأَعْــدَاءُ لِلْحَـرْبِ قُـوَّةً
وَقَـدْ هَدَّدَتْ مَنْ لَمْ يُـطِعْ بِالقَنَابِلِ
وَلَـيْسَ لَنَــا مِنَّــا زَعِـيْـمٌ مُـصَــادِمٌ
أَتَــتْ تَتمطَّى مَـا لهَا مِنْ مُقَـابِـلِ
وَنَحْنُ هَبَــطْنَـا لِلتُّـرَابِ تَــوَاضُعـاً
نُـرِيْدُ نَجـاحاً مِنْ خَفِيْفِ القَسَـاطِلِ
« فَتَبّــاً لِعُبَّــادِ الـدَّنَـانِيْـرِ كُلِّهِـمْ
وَتَبّــاً لِخَبٍّ جَــاهِـلٍ مُتَعَــاقِـلِ »
وَتَـبّــاً لِعَـبْـدٍ مُشْـرِكٍ خَـانَ رَبَّـهُ
وَضَيَّـعَ دِيْناً مَــا لَـهُ مِنْ مُمَــاثِـلِ

وَتَبّاً لِقَوْمٍ عَزَّ فِيهِمْ سَفِيْهُهُمْ
وَصَارَ ذَلِيْلاً عِنْدَهُمْ كُلُّ فَاضِلِ
وَمِنْ أَعْظَمِ الخُسْرَانِ عِزُّ عَدُوِّهِمْ
وَذُلّهُمْ مِنْ بَعْدِ عِزِّ الأَوَائِلِ
فَيَا لَيْتَ للإِسْلامِ في الحَالِ شَوْكَةً
ذوُوا نَجْدَةٍ يَخْشَاهُمُ كُلُّ جَاهِلِ
رِجَالٌ يَرَوْنَ المَوْتَ مَجْداً وَجُنَّةً
عَنِ الذُّلِّ مِنْ فِعْلِ الصُّقُوْرِ الحَلاَحِلِ
تَذُوْدُ عَنِ الدِّيْنِ القَوِيْمِ بِسَيْفِهَا
ومِنْ أَرْضِهَا تنفِي جَمِيْعَ الأَرَاذِلِ

اللهُم اخْتُمْ بالسَّعَادَة آجالَنا وَحقِّقْ بالزِّيَادَةِ أعْمالَنَا وَاقْرِنْ بالعَافِيَةِ غُدُوَّنا وَآصَالَنَا واجْعَلْ إلى رَحْمَتِكَ مَصِيْرَنَا وَمآلَنا وَاصْبُبْ سِجَالَ عَفْوِكَ على ذُنوبنا وَمُنَّ بإِصْلاحِ عُيُوبِنَا واجْعَل التقوى زَادَنا وفي دِيْنِك اجْتِهَادُنا وَعَلَيْكَ تَوَكّلُنا وَاعْتِمَادُنا إلهنا ثَبِّتْنَا على نَهْجِ الاسْتِقَامَةِ وَأَعِذْنَا مِن مُوْجبَاتِ النَّدامَةِ يومَ القيامة وَاغفرْ لنا ولوَالدَيْنا وجَميعِ المسلمين برَحمتِك يا أرحَمَ الرَّاحِمينَ وصَلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِينَ .

(فَصْلٌ)

وَمِمَّا حَثَّ الشَّارِعُ عليه وهو من سُنَنِ المرسَلين إكْرَامُ الضَّيْفِ قال الله تعالى عن الخَليلِ عليهِ السَّلامُ ﴿ هلْ أتاكَ حَدِيْثُ ضيفِ ابراهيم المُكْرَمِيْنَ إذْ دَخَلوا عليه فقالُوا سَلاماً قال سَلامٌ قومٌ مُنْكَرُوْنَ ، فَراغ إلى أهْلِهِ فَجاء بِعِجْلٍ سَمِيْنٍ فقَرَّبَهُ اليهم قال ألا تَأكلُونَ ﴾ .

وَيُذْكَرُ أنه كان لا يَأْكُل طَعَامَهُ إلاَّ مَعَ ضَيْفٍ وإنْ لَمْ يَأتِهِ أحدٌ خَرجَ يَلْتَمِسُ ضَيْفا وقال صلى الله عليه وسلم مَن كان يُؤْمِنُ باللهِ واليوم الآخِرِ فليُكْرِمْ ضَيْفَه ورَغَّبَ فيها صَلى الله عليه وسلم وقالَ مَن أقامَ الصَّلاةَ وآتى الزكاةَ وصَامَ رمضَانَ وقَرى الضَّيْفَ دَخَلَ الجَنَّةَ .

وقَالَ صلى الله عليه وسلم لِعَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما فَإنَّ لجَسَدِكَ عليك حَقّا وإن لعَيْنِكَ عليكَ حَقّا وإن لِزَوْرِكَ عليكَ حَقَا والحديثُ رواهُ البخاري ومسلِم .

وعَن أبي هُريرة رضي اللهُ عنه قال جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالَ إني مَجْهُودٌ فأرسَلَ إلى بَعْضِ نِسَائِهِ فقَالَتْ : لا والذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما عِنْدِي إلاَّ مَاءٌ ثم أَرْسَلَ إلى الأُخْرَى فقالَتْ مِثلَ ذلك حَتَّى قُلْنَ كلهُن مِثْلَ ذلكَ لا وَالذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما عِنْدِيْ إلاَّ مَاءٌ .

فقَالَ مَنْ يُضِيْفُ هَذا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فقَامَ رَجُلٌ مِن الانْصَارِ فقالَ أنا يا رسُولَ اللهِ فانْطَلَقَ به إلى رَحْلِهِ فقَالَ لامْرَأتِهِ هَلْ عندَكَ شَيءٌ قالَتْ لَا إلاَّ قُوْتُ صِبْيَانِيْ قالَ فَعلِّلِيْهِمْ بشيءٍ فاذا أرادُوا العَشَاء فَنَوِّمِيْهِمْ فإذا دَخلَ ضَيْفنَا فَأَطْفِئِيْ السِّرَاجَ وَأرِيْهِ أنَّا نَأْكُلُ .

وَفي رِوَايَةٍ فاذَا أهْوَى لِيَأْكُلَ فقُومِيْ إلى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيْهِ قالَ فقعَدُوا وَأكلَ الضَّيْفُ وبَاتَا طَاوِيَيْنِ فلَمَا أصْبَحَ غَدَا عَلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ قَدْ عَجِبَ اللهُ من صَنِيْعِكُما بضَيْفِكُما زادَ في رِوَايةٍ فنَزلَتْ هَذِه الآية ﴿وَيُؤْثِرُون على أنفسِهم وَلو كانَ بهم خصَاصَةٌ﴾ .

وَعَن أبي شُرَيحٍ خُوَيْلدِ بنِ عَمْرٍو رضي الله عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلى

الله عليه وسلم قالَ من كان يُؤمِنُ باللهِ واليـوْمِ الآخِرِ فَلْيُكرِمْ ضَيْفَهُ جائِزَتَهُ يَوْمٌ وَلَيْلَة وَالضِّيَافةُ ثلاثةُ أيّام فما كانَ بَعْدَ ذلك فهُوَ صَدَقةٌ ولا يَحِلُّ له أنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ رَوَاهُ مَالكٌ والبُخاريّ ومُسْلَم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قالَ أيُّمَا ضَيْفٍ نَزَلَ بقَوْمٍ فأصْبَحَ الضَّيْفُ مَحْرُوماً فَلَهُ أن يَأخُذَ بقَدْرِ قِرَاهُ ولا حَرَجَ عليهِ رَوَاه أحمدُ ورُوَاتُه ثِقَاتٌ وَالحَاكِم .

وعن شِهَابِ بن عَبَّادٍ أنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ وَفْدِ عَبْدِ القَيْسِ وهم يَقُولُون قدِمْنَا على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فاشْتَدَّ فَرَحُهم فلمَّا انْتَهَيْنَا إلى القَـوْمِ أوْسَعُوا لنَا فَقَعَدْنَا فَرَحَّبَ بنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ودَعَا لَنَا .

ثُمَّ نَظَرَ إلَيْنَا فقَالَ مَنْ سَيِّدُكُم وَزَعِيْمُكُم فَأَشْرنَا جَمِيْعٌ إلى المُنْذِرِ بن عَائِذ فقَالَ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم أهَذَا الأشَجُّ فكان أوَّلَ يَوْمٍ وُضِعَ عَليهِ الاسْمُ لِضَرْبَةٍ كَانَتْ في وَجْهِهِ بحَافِرِ حِمَارٍ قُلْنَا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ فَتَخَلَّفَ بَعْدَ القَوْمِ فعَقَلَ رَوَاحِلَهُم وَضَمَّ مَتَاعَهُم .

ثُمَّ أَخْرَجَ عَيْبَتَهُ فَأَلْقَى عَنْهُ ثِيَابَ السَّفَرِ وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ ثمَّ أَقْبَلَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقَدْ بَسَطَ النبي صلى الله عليه وسلم رِجْلَهُ وَاتَّكأ فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ الأَشَجُّ أوْسَعَ القَوْمُ لَهُ وَقَالوا هَاهُنا يا أشَجُّ فقالَ النبي صلى الله عليه وسلم وَاسْتَوى قَاعِداً وَقَبَضَ رِجْلَهُ هَهُنَا يَا أَشَجُّ فقعَدَ عن يَمِينِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فرَحَّبَ به وَأَلْطَفَهُ وسَأله عن بِلادِهِم وسَمَّى لهُم قَرْيَةَ الصَّفَا وَالمِشْقَرِ وَغير ذلك مِنْ قُرَى هَجَرٍ .

فقال بِأَبِيْ وَأُمِّي يا رسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَعْلَمُ بأَسْمَاءِ قُرَانَا مِنَّا فَقَالَ إنّيْ وَطِئتُ بلادَكُم وَفُسِحَ لِيْ فِيْهَا قالَ ثم أقبلَ عَلى الأَنصَارِ فقالَ يا مَعْشَرَ الأَنصَارِ

أكرِمُوا إخْوَانَكم فَإنّهُم أَشْبَاهَكُم فِي الاسْلام أَشْبَهُ شَيءٍ بكم أشْعَاراً وَأبْشَاراً أَسْلَمُوا طَائِعين غَيْرَ مُكْرَهِيْنَ ولا مَوْتُورِيْنَ إذْ أَبَى قَوْمٌ أنْ يُسْلِمُوا حَتَّى قُتِلُوا .

قَالَ فلمَّا أصْبَحُوْا قالَ كيفَ رَأيْتُم كَرَامَةَ إخْوَانِكُم لَكُم وضِيَافَتَهُمْ إيَّاكُم قَالوا خَيْرَ إخْوَانٍ أَلاَنُوْا فُرُشَنَا وَأطَابُوْا مَطْعَمَنَا وَباتُوْا وَأصْبَحُوْا يُعَلِّمُونَا كِتَابَ رَبِّنَا تبَارَكَ وَتَعَالى وسُنَّةَ نَبِيّنَا مُحَمَّدٍ صَلى الله عليه وسلم فَأُعْجِبَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم وَفَرِحَ رواه أحمدُ باسْنَادٍ صَحيح .

وَإكْرَامُ الضّيْفِ يَكُونُ بحُسْنِ اسْتِقْبَالِه وَيُقَابلُهُ بِوَجْهٍ طَلِقٍ وَيَهُشُّ بهِ ويَبُشُّ وَيُرَحِّبُ بهِ ويُؤَهِّلُ ويُظْهِرُ لهُ مِنَ السُّرُوْرِ مَا تَطِيْبُ به نَفْسُه وَيَطْمَئِنَّ بهِ قَلْبُه من حُسْنِ حَدِيْثٍ مما يُنَاسِبُ حَالَه وَمقامَه وابْتِسَامٍ وَمُداعَبةٍ في حِشْمَةٍ واحْتِرَامٍ وَقَدِيْماً قِيْلَ :

إِذَا المَـرْءُ وَافَى مَنْزِلاً لَـكَ قَـاصِـدًا
قِــرَاكَ وَأَرْمَتْـهُ لَـدَيْـكَ المَسَـالِـكُ
فَكُنْ بَـاسِمـاً في وَجْـهِـهِ مُتَـهَلِّلاً
وَقُـلْ مَـرْحَبـاً أهْـلاً ويَــوْمٌ مُبَـارَكُ
وَقَـدِّمْ لَـهُ مَـا تَسْتَطِيْـعُ مِن القِـرَا
عَجُـولاً ولا تَبْخلْ بمَـا هُـوَ هَـالِـكُ
فَقَـدْ قِيْـلَ بَيْتٌ سَـالِفٌ مُتَقَـدِّمٌ
تَـدَاوَلَـهُ زَيْـدٌ وعَمْـروٌ وَمَـالِـكُ
« بَشَاشَةُ وَجْـهِ المَرْءِ خَيْـرٌ مِن القِرَا
فكَيْـفَ بمَنْ يَأتِي بهِ وَهْـوَ ضَاحِـكُ»

آخَرُ :

أُضَاحِكُ ضَيْفِيْ قَبْلَ إنْزَالِ رَحْلِهِ
وَيُخْصِبُ عِنْدِيْ وَالمَحَلُّ جَدِيْبُ

وَمَا الخِصْبُ لِلأَضْيَافِ أنْ يَكْثُرَ القِرَى
وَلكِنَّمَا وَجْهُ الكَرِيْمِ خَصِيْبُ

ولاَ يُريْهِ مِن فَقْرِهِ وَسُوْءِ حَالِهِ وَقِلَّةِ ذَاتِ اليَدِ فَإنَّهُ رُبَّمَا ضَاقَ بذلكَ ذَرْعاً وَيَتنَكّدُ عَليهِ المقَامُ وَيَتَكَدَّرُ لِتِلْكَ الشّكَوىٰ ثم إنْ كانَ عَاقِلاً صَاحِبَ دِيْنٍ رَقَّ لَهُ وَرَحِمَهُ وَقَدَّمَ مَا عِنْدَهُ لَهُ وانْعَكَسَتْ المَسْأَلةُ فأصْبَحَ ضَيْفاً عليه صَاحِبُ المَنْزِلِ بَعْدَ أنْ كانَ ضَيْفاً لهُ .

وَإنْ كَانَ جَاهِلاً غيرَ دَيِّنٍ شَتَمَكَ وَذَمَّكَ وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ سَاخِطاً يَقُولُ مَالا يَنْبَغِيْ وَيَنْسِبُ إليكَ أشْيَاءَ رُبَّمَا أنكَ بَرِيءٌ مِنْهَا وَلا تَحْتَقِرْ مَا عِنْدَكَ بلْ قَدِّمْ له مَا تَيَسَّرَ مِن الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ كمَا هِيَ طَرِيْقَة السَّلَفِ الصَّالِحِ رَضِيَ اللهُ عنهم فَانهم كانوا يُقدِّمُونَ لِلضّيْفِ مَا يَجِدُوْنَهُ وَلَوْ كانَ شَيْئاً يَسِيْرًا وَيَقُولُونَ هُوَ أحْسَنُ مِن العَدَمِ .

وَقَدْ دَخَلَ ضَيْفٌ عَلى عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزيزِ رَضيَ اللهُ عَنه فَقَدَّمَ له نِصْفَ رَغِيْفٍ وَنِصْفَ خِيَارَة وقالَ لَهُ كُلْ فَإنَّ الحَلالَ في هَذَا الزَّمَانِ لا يَحْتَمِلُ السَّرَفَ وَأخْرَجَ سَلْمَانُ رَضى الله عنه إلى ضَيْفٍ خُبْزاً وَمِلْحاً وَقال لَولا أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَهَانَا عَن التَّكَلُّفِ لَتَكَلَّفْتُ لَكَ وقالَ ابرَاهِيْمُ النَّخعِيُّ رضى الله عنه كانَ يُعْجِبُهُم أنْ يَكُوْنَ في بُيُوتِهِم التَّمْرُ لِلْزّائِرِ وَالسَّائِلِ وَالْمُهِمُّ أنَّ الانسَانَ لا يَبْخَلُ بمَا تَيَسّرَ ظَانّاً أنَّهُ لا يَلِيْقُ بضَيْفِه وَأنها لا تَتِمُّ الضِّيَافَةُ به وأنَّهُ لا يُذْكَرُ مَعَهُ بِخَيْرٍ فَخيرٌ له أنْ ؟يقَال

جَادَ بمَا لَدَيْهِ مِن أن يُقَالَ فِيه أغْلَقَ بَابَهُ وَغيبَ وَجْهَهُ عن ضَيْفٍ نَزَل بهِ .

وَفي الحَدِيْثِ عن جَابرِ بْنِ عَبدِ الله رضى الله عنه دَخَلَ عليه نَفَرٌ من أصْحَابِ النبي صَلى الله عليه وسلم فقَدَّمَ إليْهِم خُبْزاً وَخَلًّا فقالَ كُلُوا فاني سَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ « نِعْمَ الإدَامُ الخَلُّ » إنهُ هَلاكٌ بالرَّجُلِ أن يَدْخُلِ إليه النَّفَرُ مِن اخْوَانِهِ فيَحْتَقِر ما فِي بيتِهِ أن يُقدِّمَهُ إليهم وهَلاكٌ بالقَوْمِ أن يَحْتَقِرُوا ما قُدِّمَ إلَيْهِم وفي روايَةٍ كَفَى بالمرْءِ شَرّاً أنْ يَحْتَقِرَ ما قَدَّمَ إلَيهِمْ وفي رِوَايَةٍ كفَى بالمرءِ شَرّاً أن يَحْتَقِرَ ما قُدِّمَ إليـه .

وَلا يَنْبَغِي أنْ يَسْتَأثِرَ بخَيْرِ مَا عِنْدَه مِن البُرِّ وَاللَّحْمِ وَالسَّمْنِ وَالعَسَلِ وَالفَاكِهَةِ وَنَحْوِ ذلِكَ ويُقَدِّمَ لِضَيْفِهِ الرَّدِيء وَالجَافَّ وَالنَّاشِفَ أو مَا يَكْرَهُهُ هُوَ وَأهْلُهُ مِن رَدِيءِ الطَعَامِ وَالشَّرَابِ وَلا يَجِبُ عليه إنْزَالُ الضَّيْفِ في بَيْتِه لِمَا فِيه من الحَرَجِ والمشَقّةِ إلَّا أنْ لا يَجِدِ الضَّيْفُ مَسْجداً ولا رِبَاطاً وَلَا مَحلًّا فيهِ ولا يَخَافُ منه ضَرَراً على نَفْسِهِ أو مَالِه أو أهْلِه فيَلْزَمُ إنزالُه في بَيْتِهِ لِلضَّرُورَةِ فإنْ خَافَ فلا يَلْزَمُه .

ويَجُوزُ لِلضَّيْفِ الشُّرْبُ مِن كُوْزِ صَاحِبِ البَيْتِ وَالاتِّكَاءِ على وِسَادَةٍ مَوْضُوْعَةٍ وَقَضاء حَاجَتِه في الصُّهْرُوْجِ أوْ الكَنِيفِ مِنْ غَير اسْتِئْذانٍ باللفْظِ لأَنَّه مَأذُونٌ فِيْهِ عُرْفا كقَرْعِ البَابِ عليهِ هَذَا إذ كانَ قَرِيْباً مِن مَحلِّ الضَيفِ وإلا فَلَا بُدَّ من تَنْبِيْه واللهُ أعلمُ وصلى الله على مُحمدٍ.

(فَصْلٌ)

وَيَنْبَغِي أنْ يَخْرُجَ مَعَ الضَّيْفِ إذَا خَرجَ وَيَدْخُلَ مَعَهُ إذَا دَخَلَ وَيَحْفَظَ لهُ دَابَّتَهُ وَمَتَاعَهُ وَيَقْضِيْ له حَاجَتَهُ ويَحْمِلَ مَعَهُ مَا يَشْرِيْهِ لِنَفْسِه ويَسْعَى فِي تَسْهِيْلِ الطَّرِيْقِ لهُ مَا أمْكَنَ مِن مُسَاعَدَتِهِ على رُخْصَةِ أمْتِعَتِه وجَوَازِ سَفرٍ وَنَحوِه.

وَيَنْبَغِي لِلضَّيْفِ أنْ يكونَ خَفِيْفَ النَّفْسِ لَطِيْفاً يَفْهَمُ بالاشَارَةِ ، يُبَاشِرُ أعْمَاله بِنَفْسِه وَلا يُكَلّفُ مُضِيْفَهُ وَيُشْغِلُهُ عَنْ شُئُونِهِ وَلا يُكَلِّفُه فوق طَاقَتِه ولا يَتأَفَّفُ وَيَتَكَرَّهُ مِن طَعَامٍ قُدِّمَ إليه وَلا يَترفَّعُ عن مَكَانٍ أُعِدَّ لَهُ وَأنْزِلَ فيه ولا يَعِيْبُ شَيْئاً مِمَّا يَرَاهُ ويَغُضُّ بصَرَهُ ويكُفُّ سَمْعَهُ وَلا يَتَجَسَّسُ أخبَارَ أهْلِ البَيْتِ وَلا يَتحكّمُ بالحَاشِيَةِ وَالأَطْفَالِ وَالخَدَمِ .

وَلا يُطِيْلُ الاقَامَةَ حتّى يُخْرِجَ صَاحِبَ المَنْزِلِ كَماَ يَفْعَلُه الثُّقَلاءُ ولا يَقُولُ إلا خَيْراً ولا يَفْعَلُ إلَّا فِعْلَ الكِرَامِ الذِيْنَ يَشْكُرُونَ الصَّنِيْعَ وَيُكافِئُونَ على الاحْسَانِ وعلى المُضِيْفَ أنْ يَحْتَسِبَ الأَجْرَ مِن اللهِ على فِعْلِه المعْرُوفَ ويَغْتَنِمَ مِثْلَ هَذه الاعْمَالِ وَلا يَأْلُ جُهْداً في اصْطَنَاعِ المَعْرُوفِ مَهْمَا أَمْكَنَهُ ذلكَ فَقَدْ قال صلى الله عليه وسلم صَنَائِعُ المعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ وقَالَ عَليّ رضي اللهُ عنه لا يُزْهِدَنَّكَ في المعرُوفِ كُفْرُ مَنْ كَفَرَهُ فقد يَشْكُرُ الشَّاكِرُ بأَضْعَافِ جُحُوْدِ الكَافِرِ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ
لا يَذْهَبُ العُرفُ بين اللهِ وَالنَّاسِ

قَالُوا وَيَنْبَغِي لمَنْ قَدَرَ على اسْدَائِهِ لِلْمَعْرُوفِ أَنْ يُعَجِّلَهُ حَذَراً من فَوَاتِهِ ويُبَادِرَ بِهِ خِيْفَةَ عَجْزِهِ وَيتَحَرَّى الأَخْيَارَ الكِرَامَ كَمَا يَتَحرّى لِزِرَاعَتِهِ الرِّيَاضَ الطَّيِّبة وَليَحذَرْ مِنْ بَذْرَ المعرُوف باللئَام الأنذالِ فَانَّهُم كَالأَرْضِ السَّبِخَةِ تُمَرِّرُ الماءَ العَذْبَ وَتُفْسدُ البَذْرَ ولا تَأْمَنُ مِنْهُم أنْ يَنالَكَ جزَاءَ احْسَانِكَ إِلَيْهِم سُوْءَا وَقدِيْماً قِيْلَ :

وَلا تَصْطَنِعْ إلَّا الكِرَامَ فَانَّهُم
يُجَازُونَ بالنَّعْمَاءِ مَنْ كَانَ مُنْعِمَا

وَمَنْ يَتَّخِـذْ عِنْـدَ اللئَـامِ صَنِيْعَـةً
يَـظَلُّ عَـلى آثـارِهَـا مُتَـنَـدِّمَـا

آخرُ :

وَاخْشَ الأَذَى عِنْدَ اكْرَامِ اللئِيْمِ كمَا
تَخْشَى الأذَى إنْ أهنْتَ الحُرَّ ذَا النُّبَلِ

وَلْيَغْتَنِمْ فَاعِلُ البرِّ وَالمَعْرُوفِ فِعْلَهُ وَيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ فُرَصِ زَمَانِهِ وَغنائِم أيَّامِهِ ، قَالَ بَعْضُهم :

النَّـاسُ بالنَّـاسِ مَا دَامَ الحَيَـاةُ بهم
وَالسَّعْـدُ لا شَـكَّ تَـارَاتٌ وَتَـارَاتُ
وَأَفْضَلُ النَّاسِ مَا بَيْنَ الوَرَى رَجُـلٌ
تُقْضَى عَلى يَـدِهِ لِلنّـاسِ حَـاجَـاتُ
لَا تَمْنَعَنَّ يَـدَ المعَـرْوفِ عنْ أحَـدٍ
مَـا دُمْتَ مُقْتَـدِراً فَـالسَّعْـدُ تَـارَاتُ
وَاشْكُرْ فَضَائِلَ صُنْعِ اللهِ إذْ جُعِلَتْ
إِلَيْكَ لَا لَكَ عِنْـدَ النَّاسِ حَـاجَاتُ
قَدْ مَاتَ قَـوْمٌ وَمَـا مَـاتَتْ مَكَـارِمُهُمْ
وَعَاشَ قَوْمٌ وَهُم في النَّـاسِ أَمْوَاتُ

وَلا يُهمِلُهُ ثِقَةً مِنْهُ بظَنِّ القُدْرَةِ عَلَيْهِ فَكَمْ مِنْ وَاثِقٍ بالقُدْرَةِ فَاتَتْ فأعْقَبت نَدماً وَكَمْ مِنْ مُعَوّلٍ على مُكنَةٍ فأوْرَثَتْ خَجَلاً كَمَا قِيْلَ :

مَـازِلْتُ أَسْمَـعُ كَـمْ مِنْ وَاثِـقٍ خَجَـلٍ
حَتّى ابْتُلِيْـتُ فكُنْتُ الـوَاثِـقَ الخَـجِـلا

وَلَوْ فطِنَ لِنَوائِبِ دَهْرِهِ وَتَحفَّظَ مِنْ عَوَاقِبِ أَمْرِهِ لَكَانَتْ مَغَانِمُهُ مَذْخورَةٌ وَمَغارِمُهُ مَحْبُورةٌ فَقَدْ رُوِيَ عَن النبيِ صلى اللهُ عليه وسلم أنهُ قَالَ مَنْ فُتِحَ عَلَيْهِ بَابٌ مِن الخَيْرِ فلْيَنتَهِزْهُ فَإِنَّهُ لا يَدْرِيْ مَتى يُغْلَقُ عَنْهُ ورُوِيَ عَنْهُ صَلى اللهُ عَليهِ وسَلم أَنّهُ قَالَ لِكُلِّ شَيءٍ ثَمَرَةٌ وثَمرةُ المعْرُوفِ السِّرَاحُ ، أيْ التَّعجِيْلُ وَقَـالَ بَعْضُهُم مَنْ أخَّرَ الفُرْصَةَ عَنْ وَقتِها فَليَكُنْ على ثِقَةٍ مِن فَوْتِهَا .

شِعْرًا :

إِذَا هَـبَّتْ رِيَـاحُـكَ فَـاغْـتَـنِـمْـهَـا
فَـإِنَّ لِـكُـلِّ خَـافِـقَـةٍ سُـكُـوْنُ
وَلا تَـغْـفُـلْ عَـنِ الاحْـسَـانِ فِـيْـهَـا
فَـمَـا تَـدْرِيْ السُّكُـونُ مَتَى يَـكُـوْنُ

آخرُ :

أَحْـسِـنْ إِذَا كَـانَ إِمْـكَـانٌ وَمـقْـدِرَةٌ
فَـلَنْ يَـدُوْمَ عَـلَى الاحْـسَـانِ إِمْـكَـانُ

وَلِيَحْرِصْ فَاعِلُ المَعْرُوفِ عَلى ضَيْفٍ أَوْ غَيْرِه عَلى مُجَانَبَةِ الامْتِنَانِ وَتَرْكِ الاعْجَابِ بِفعْلِهِ لِما في ذَلِكَ مِنْ اسْقَاطِ الشُّكْرِ وَاحْبَاطِ الأجْرِ فَانَّهُ قد رُوِي عن المُصْطَفى صلى الله عليه وسلم أنّهُ قَالَ إِيَّاكُمْ وَالامْتِنَانِ بِالمعْرُوفِ فَانّهُ يُبْطِلُ الشُّكْرَ وَيَمْحَقُ الأَجْرَ ثم تَلا صَلى الله عليه وسلم آيَةَ البَقرةِ ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بالمنِّ وَالأذَى ﴾ فالمَانُّ بِالمَعْرُوفِ

وَالاحْسَانِ غيرُ مَحْمُودٍ وفي ذلكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

إذَا الجُـوْدُ لَمْ يُرْزَقْ خَـلاصـاً مِن الأذَى
فـلا الحَمْـدُ مَكْسُـوبـاً وَلا المـالُ بَـاقِيَـا

وَقَالَ العَبَّاسُ لا يَتِمُّ المَعْرُوفُ إلاَّ بثَلاثِ خِصَالٍ تَعْجِيْلُهُ وَتَصْغِيْرُه وَسَتْرُه فَاذا عَجَّلْتَه هَنَّأْتَهُ واذَا صَغَّرْتَهُ عَظَّمْتَهُ وَاذا سَتَرْتَهُ تَمَّمْتَهُ على أَنَّ سَتْرَ المَعْرُوفِ من أَقْوَى أَسْبَابِ ظُهُورِهِ وَأَبْلغِ دَوَاعِيْ نَشْرِهِ لِمَا جُبلَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ مِنْ اظْهَارِ مَا خَفِيَ وَإِعْلاَنِ مَا كتِمَ قَالَ الشَّاعِرُ :

خِـلٌّ إذَا جِئْـتَـهُ يَـوْمَـاً لِـتَـسْـأَلَـهُ
أَعْـطَاكَ مَـا مَـلَكَـتْ كَـفَّـاهُ وَاعْـتَـذَرَا
يُـخْـفِـيْ صَـنَـائِـعَـهُ وَالـلّهُ يَـعْـلَمُـهَـا
إِنَّ الـجَـمِـيْـلَ إِذَا أَخْـفَـيْـتَـهُ ظَـهَـرا

وَيَقُولُ الآخَرُ :

وَمَهْمَـا تَكُنْ عِنْـدَ امْـرِىءٍ مِنْ خَلِيْقَـةٍ
وَإِنْ خَالَها تَخْفَى عَلى الـنَّـاسِ تُعْـلَمِ

(مَوْعِظَةٌ)

عِبَادَ اللّهِ إِنَّ الصَّلاَةَ مِنْ أَعْظَمِ الأَمَانَاتِ عِنْدَكُمْ ، مَطْلُوبٌ ، مِنْكُمْ أَنْ تُؤَدُّوهَا وَتُقِيْمُوهَا قَالَ تَعالَى : ﴿ حَافِظُوا عَلى الصَّلَوَاتِ وَالصّلاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لِلّهِ قَانِتِيْنَ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَالذِيْنَ هُمْ عَلى صلواتهم يحافظون ﴾ فاللهُ سبحانهُ أمَرَنَا بالمُحَافَظَةِ على الصلاةِ في أَوْقَاتِهَا والقيَامِ فِيْهَا خَاشِعِيْنَ

خَاضِعِيْنَ لِجَلالَتِهِ وَعَظَمَتِه ، وجَعَلَهَا طَرِيْقَ الفَوْزِ والسّعَادَةِ في العَاجِلِ والآجِلِ قالَ تعالى ﴿ قَد أَفْلَحَ المَؤمنون ، الذينَ هُمْ في صلاتِهم خَاشِعُونَ ﴾ .

ذَلِكَ أنَّ الصَّلاَةَ الكامِلَةَ تُنِيْرُ القَلْبَ وَتُهَذِّبُ النَّفْسَ وَتُعَلِّمُ العَبْدَ آدَابَ العُبُودِيَّةِ لِلّهِ وَوَاجِبَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ ، بِمَا تَغْرِسُهِ في قَلْبِ العَبْدِ المُؤْمِنِ مِنْ اجْلاَلِ اللهِ وَتَعْظِيْمِهِ وَتَقْدِيْرِهِ ، وَالتَّحَلِّي بِمَكارِمِ الأَخْلاَقِ كالصِّدْقِ وَالأَمَانَةِ وَالقَنَاعَةِ وَالوَفَاءِ وَالحِلمِ وَالحَياءِ والتَّواضُعِ وَالعَدْلِ وَالصَّبْرِ وَالاحْسَانِ .

وَتُوَجِّهُهُ إلى مَوْلاَهُ ، فَتَكْثُرُ لهُ مُراقَبَتُهُ وَخِدْمَتُهُ حَتَّى تَعْلُو بِذَلِكَ هِمَّتُه ، وَتَقْوَى عَزِيْمَتُه وَتَزْكُو نَفْسُهُ ، فَيَبْتَعِدَ عَنِ الكَذِبَ وَالخِيَانَةِ ، وَالأَيْمَانِ الكَاذِبَةِ ، وَالشَّرِّ وَالغَدْرِ وَالغضَبِ وَالكِبْرِ وَالرِّيَاءِ ، ويَتَرَفَّعُ عن البَغْي وَالعُدْوانِ ، وَدَنَاءَةِ الفُسُوْق وَالعِصْيَانِ وَالفَسْادِ قَالَ اللهُ تَعالى ﴿ انَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أكبَرُ واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُون ﴾ .

فَبِالمُحَافَظَةِ على الصَّلاةِ تَقْوَى النَّفْسُ على احْتِمَالِ الشَّدَائِدِ ، وَتَثْبُتُ عِنْدَ نُزُوْلِ البَلايَا وَالمِحَنِ ، وَيَسْهُلُ عليه البَذْلُ حَالَةَ الغِنَى وَاليَسَارِ ، قَال اللهُ تَعالى ﴿ انَّ الانْسَانَ خُلِقَ هَلُوعَا ، إذَا مَسّهُ الشَّرُّ جَزُوعَا ، وَإذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعَا ، إلا المُصَلِّيْنَ الذِيْنَ هُمْ على صَلاتِهم دَائِمُوْنَ ﴾ .

ثُمَّ انْظُروا يا عِبادَ اللهِ مَاذا كَانَ مِنْ آثَارِ تَرْكِ الصَّلاةِ ، كَانَ مِنْ آثارِهِ كثْرَةُ الشَّرِّ ووَسَائِلِ الشَّرِّ ، وَانْتِشَارِ الفَوَاحِشِ وَالمنْكَرَاتِ ، مِن سُفُورٍ وَآلاتِ لَهْوٍ وَحَلْقِ لِحى عَلَناً وَشُرْبِ دُخَانٍ عَلَنَا وصُوَرٍ مُجَسَّدةٍ وغير مُجَسّدَةٍ ، وَغِشّ وَتَدْلِيْس وَرِبَا وَعُقُوقِ وَالِدَيْنِ وقَطِيْعَةِ رَحِم وَشَهَادَةِ زُوْرٍ وَقَذْفٍ وَلَعْنٍ وَغِيْبَةٍ وَنَمِيْمَةٍ وأَغاني من مَذياعِ وفِدْيُو وتلفِزْيُوْن ونحو ذلِكَ من البِدَعِ المُحَرَّمَة.

وَتَشَبُّه بأَعْدَاءِ الاسْلام بجَعْل خَنافِسَ وَاسْبَال شَارِبٍ وجَعْل شَنَبَاتٍ مَعَ حَلْقِ لِحْيَةٍ ، وَتَشَبُّهٍ بِالنّسَاءِ وَمُغَازَلَةٍ لَهُنَّ وتَسْمِيَةٍ لأَعْدَاءِ الاسْلام بسَيِّدٍ ومُعَلِّمٍ وَأُسْتَاذٍ وَنَحْوِ ذَلكَ مِمّا يَقْشَعِرُّ مِنْهُ جِلْدُ المسْلِمِ وَتَفَتَّتُ لَهُ كِبَدُه فإنّا لِلّهِ وإنّا إليهِ رَاجِعُونَ وَلا حَوْلَ وَلا قُوّةَ إلا باللهِ العَليّ العَظِيْمِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيْلِ وَصَلَى اللهُ على مُحمدٍ وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

إعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيّاكَ وَجَمِيْعُ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أَنَّ الأَمَانَةَ مِن الأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ وَأَصْلٌ مِن أُصُولِ الدِّيَانَاتِ ، وهِيَ ضَرُوْرِيَّةٌ لِلْمُجْتَمَعِ الانْسَانِيّ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ حَاكِمٍ وَمُوَظَّفٍ وَصَانعٍ وَتَاجِرٍ وَزَارِعٍ وَلاَ بَيْنَ غَنِيّ وَكَبِيْرٍ وَصَغِيْرٍ ، فَهِيَ شَرَفُ الغَنِيّ وَفَخْرُ الفَقِيْرِ وَوَاجِبُ المُوَظَّفِ وَرَأْسُ مَالِ التَّاجِرِ وَسَبَبُ شُهْرَةِ الصَّانِعِ ، وَسِرُّ نَجاحِ العَامِلِ وَالزَّارِعِ ، وَمِفْتَاحُ كُلِّ تَقدّمٍ بإذْنِ اللهِ ، وَمَصْدَرُ كُلِّ سَعَادَةٍ وَنَجاحٍ بِإِذْنِ اللهِ .

وَلَيْسَت الأمَانَةُ مَقْصُوْرَةً عَلَى الوَدَائِعِ التِي تُؤَمَّنُ عِنْدَ النّاسِ من غَالٍ وَثَمِيْنٍ كالنّقْدَيْنِ وَمَا نَابَ عَنْهُمَا مِن أوْرَاقٍ ، وَكَالجَواهِرِ وَالحُلِيّ وَالأمْوالِ بَل الأمَانَةُ أوْسَعُ مِنْ هَذَا كُلّهِ ، فَهِيَ عَمَلٌ لِكُلِّ مَا لِلهِ فيهِ طَاعَةٌ ، وامتثال واجْتِنَابُ كُلُّ مَا لِلّهِ فِيهِ مُخَالَفَةٌ وَعِصْيَانٌ ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ فِي عِبَادَةِ اللهِ أو في مُعَامَلَةِ عِبَادِهِ .

فَالصَّلاَةُ أمَانَةٌ عِنْدَكَ مَطْلُوبٌ مِنكَ أَنْ تُؤَدِّيْهَا في وَقْتِها إنّ لَم يَكُنْ عُذْرٌ شَرْعِيٌّ كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ مُسْتَوْفِيَةً لِفَرَائِضِهَا وَأرْكَانِها وَشُرُوطِهَا وَسُنَنِهَا وَأَدائِهَا بِقَلْبٍ مَمْلُوْءٍ مِن الخُشُوْعِ وَالخُضُوْعِ ، وَجِسْمٍ مَمْلُوْءٍ مِن الطَمَأنِيْنَةِ وَالأَتّزَانِ .

وَالزَّكَاةُ أَمَانَةٌ عِنْدَكَ مَطْلُوْبٌ مِنْكَ أَنْ تُؤَدِّيْهَا في وَقْتِهَا كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوْصَةٍ إذا اجْتَمَعَتْ الشُّرُوطُ ، طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُكَ لِكَيْ تُطَهِّرَ مَالَكَ وَتُزَكِّيْ نَفْسَكَ وَتَبْرَأَ مِنْهَا ذِمَّتُكَ وَتَسْلَمَ مِنْ عُقُوبَتِهَا .

وَالصِّيَامُ أَمَانَةٌ ، مَطْلُوْبٌ أَنْ تَصُوْمَ وَأَنْ تَصُوْنَ صِيَامَكَ عَنْ مَا يُفْسِدُهُ ، وَأَنْ تَتَحَرَّى الحَلاَلَ لِلسَّحُوْرِ وَالفُطُوْرِ ، وَأَنْ لاَ يُفَكِّر عَقْلُكَ إلا في خَيْرٍ وَلاَ يَنْطِقَ لِسَانُكَ إلا حَسَناً ، ولا تَسْمَع أُذُنَيْكَ إلا طَيِّباً وَلاَ تَنْظر عَيْنُكَ إلا مُبَاحاً ولا تَمُدَّ يَدَكَ إلاّ إلى إصْلاَحٍ وَلاَ يَسْعَى قَدَمُكَ إلا إلى طَاعَةٍ وَمَعْرُوْفٍ .

وَالحَجُّ أَمَانَةٌ لله فِي عُنُقِكَ إنْ كُنْتَ مِمَّنْ تَوَفَّرَتْ لَدَيْهِ الشُّرُوطُ وهِيَ الإِسْلاَمُ والحُرِّيَّةُ وَالبُلُوْغُ والعَقْلُ والاسْتِطَاعَةِ ، وَتَزِيْدُ المَرْأَةُ شَرْطَاً سَادِساً وَهُوَ وُجُوْدُ مَحْرَمٍ لَهَا ، وَتُؤَدِّيْ مَا عَلَيْكَ مِنْ حُقُوقٍ للهِ وَ لعِبَاده .

وَتَنْظُرَ ذَلِكَ المالَ الذِي سَتَحُجُّ بِهِ أَهُوَ حَلالٌ أَمْ حَرَامٌ ، وَهَلْ جَمَعْتَهُ من عَرَقِ جَبِيْنِكَ أَوْ إرْثَاً أَوْ مِنْ دِمَاءِ النَّاسِ وَسَرِقَةِ مَا لهم بِغِشٍّ وَنَحوِهِ ، وَهَلْ تُرِيْدُ حَجَّ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ أوْ آبْتِغَاء وَجْهِ اللهِ ، وَالمُهِمُّ أنْ تُفَتِّشَ عَلَى نَفسِكَ قَبْلَ العَمَلِ لَئَلاّ تَخْسَرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .

وَبِقَدَرِ مَا يَكُونُ الانْسَانُ مُقَصِّراً في عِبَادَةٍ مِنْ هَذِهِ العِبَادَاتِ يَكُونُ غَيْرَ مُوَفٍّ لأمَانَتِهِ تَمَاماً ، فَيَنْبَغِي لِلانْسَانِ أنْ يَسْتَحْضِرَ في كُلِّ سَاعَةٍ وفي كُلِّ نَظْرَةٍ وَلَفْتَةٍ وفي كُلِّ اشَارَةٍ وَعِبَادَةٍ وفي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُوْنٍ أنَّهُ مُطَالَبٌ بالأَمَانَةِ فَلِسَانُكَ أمَانَةٌ عنْدَكَ إنْ حَفِظْتَهُ مِن الكَذِبِ وَالغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ وَالسُّخْرِيَةِ بِعِبَادِ اللهِ وَالقَذْفِ وَالفُحْشِ وَنَحو ذَلِكَ مِمَّا نَهى عَنْهُ الشَّرْعُ واسْتَعْمَلْتَهُ في تِلاَوَةِ كلامِ اللهِ وَالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ ، فَقَدْ حَفِظْتَ هَذِهِ الأمَانَةَ .

وَالأُذنُ أمَانَةٌ ، إنْ جَنَّبْتَها اسْتِمَاعَ المُحَرَّمَاتِ مِنْ الغِيْبَةِ وَالمَلاَهِيْ والغِنَاءِ وَكَلاَمِ مَنْ لاَ يَرْضَوْنَ باسْتَمَاعِكَ ويَكْرَهُوْنَ ذَلِكَ ، وَاسْتَعْمَلْتَهَا في اسْتِمَاعِ مَا يَعُودُ نَفْعُهُ إليكَ في الدّنْيَا وَالآخِرَةِ فَقَدْ حَفِظْتَ هَذِهِ الأمَانَةَ .

وَرِجْلُكَ أمَانَةٌ عِنْدَكَ إن اَسْتَعْمَلْتَهَا بالمَشْيِ إلى مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ ، وَحَجَزْتَها عَن السَّيْرِ إلى مَا نَهَى اللّهُ عنه فقد حَفِظْتَها .

وَكَذَلِكَ الفَرْجُ إنْ جَنَّبْتَه الزِّنَا وَاللِّوَاطَ وَالاسْتِمْنَاءِ بِاليَدِ وَكُلَّ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ ، وَاسْتَعْمَلتهُ فِيْمَا أبَاحَهُ لَكَ الشَّرْعُ فَقَدْ حَفِظْتَهُ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَالذِيْنَ هُمْ لِفُرُوْجِهِمْ حَافِظُوْنَ إلاّ عَلَى أزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكتْ أيْمَانُهُم فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَن ابْتَغَى وراءَ ذَلِكَ فَاولَئِكَ هُمْ العَادُوْنَ ﴾ .

وَكَذَلِكَ العَقْلُ إن اسْتَعْمَلْتَهُ فِيْمَا يَعُوْدُ عَلَيْكَ بالسَّعَادَةِ دُنْيَا وأُخْرَى وَلَم تَسْتَعْمِلْهُ في المَكْرِ وَالدّهَاءِ وخِدَاعِ المُسْلِمِيْنَ وَالكَيْدِ لَهُمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَقَدْ حَفِظْتَهُ .

وَمِنْ مَعَانِيْ الأمَانَةِ وَضْعُ كُل شيءٍ في مَكَانِهِ اللاّئِقِ بِهِ وَالجَدِيْرِ لَهُ فَلاَ يُسْنَدُ مَنْصِبٌ إلا لِمَنْ تَرْفَعُهُ كِفَايَتُهُ لَهُ ، أمّا مَنْ يَعْجزُ عَن القِيَامِ بِهِ فَلاَ يَجُوْزُ اسْنَادُهُ إليهِ ، فَعَنْ أَبِيْ ذَرّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ألاَ تَسْتَعْمِلْنِيْ ، قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِيْ ثمَّ قَالَ : « يَا أبَا ذَرّ إنَّكَ ضَعِيْفٌ ، وَإنَّها أمَانَةٌ وَإنَّهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ ، إلا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدّى الذِيْ عَلَيْهِ فِيْهَا » .

« مَوْعِظَةٌ »

عِبَادَ اللهِ تَمُرُّ الحَيَاةُ بِأَحَدِنا وهو مُنْهَمِكٌ في مَلَذَّاتِـهِ وَشَهَواتِـهِ

وَمَطَامِعِهِ ، لا يُفَكِّرُ في مَآلِهِ ولا في يَوْمِ حِسَابِهِ وَكأنّهُ خَالِدٌ في الدنيا لا يَمُوتُ أبَدًا ، أو كَأنَّ عِنْدَهُ يَقِيْنُ أنّهُ لَا يُحَاسَبُ عَلَى مَا جَنَاهُ .

وَمِن العَجِيْبِ أنّهُ لَا يَمُرُّ يَوْمٌ بل ولا سَاعَةٌ إلا وفي ذَلِكَ نَذِيْرٌ لابْنِ آدَم بالرَّحِيْلِ عن هَذهِ الدّارِ ، يُشَاهِدُ المَوْتَ يَتَخَطَّفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ فَلَا يَزْدَجِرُ ، وَتَقُومُ الحَوَادِثُ الجِسَامُ مِن حُرُوبٍ تُفْنِي آلافاً مِن البَشَرِ وَتُهَدِّدُ الأَحْيَاءَ بالالْتِحَاقِ بِمَنْ مَاتَ ، وَبِالمَجَاعَاتِ وَالخَرَابِ ، فلا يتَّعِظُ وَلَا يَعْتَبِرُ .

وَيَرَى الحَرَائِقَ مَا بينَ آوِنَةٍ وآوِنَةٍ تُتْلِفُ النُّفُوسَ وَالأَمْوَالَ وَالمَسَاكِنَ ، وَكَيْفَ تَكُونُ حَالَةُ النَّاسِ وَمَطَافِيْهِمْ ، فَلَا يَذْكُرُ جَهَنَّمَ وَأَهْوَالَهَا وَأَنْكَالَهَا وَمَا فِيْهَا مِنْ أنْوَاعِ العَذَابِ الّـذِيْ لَا تَصْمُدُ لَهُ الجِبَالُ الصُّمُّ الصِّلَابُ ، قَسَت القُلُوبُ ، وَتَحَجَّرَت الضَّمَائِرُ ، ﴿ وَظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْ النَّاسِ ﴾ ﴿ انَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغيروا مَا بِأَنْفسِهِم ﴾ .

أيُّهَا الغَافِلُوْنَ ، دُنْيَاكُمْ دَارُ غُرُورٍ وَهُمومٍ وَأَحْزَانٍ ، وَهِيَ بِلَا شَكٍّ فَانِيَةٌ ، وأُخْرَاكُم دَارُ قَرَارٍ بَاقِيَةٌ ، وَأَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ وَالتَّقْوى مِفْتَاحُ السَّعَادَتَيْنِ الدّنْيَوِيَّةِ وَالآخروِيَّةِ ، ضَمَانٌ ضَمِنَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ ، وَوَعْدٌ لا يَتَخَلّفُ ، قَالَ تَعَالَى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجزِيَنَّهُم أجْرَهُمْ بِأحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

أمَّا المَعَاصِيْ وَالغَفْلَةِ وَالنِّسْيَانِ وَالطُّغْيَانِ ، فَلَيْس مِنْ وَرَائِهَا إلّا ضَنْكُ المَعِيْشَةِ في الدنيا بالهُمُومِ المبرِّحَةِ وَالأحْزَانِ المجرِّحَةِ مَعَ العَذَابِ الأليْمِ في الآخِرَةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكرِيْ فَإنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكاً ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أعْمَى ﴾ الآياتِ .

أَيُّهَا العَاقِلُوْنَ كُلُّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الغَفْلَةَ تُنْسِيْ العَبْدَ رَبَّهُ وَآخِرَتَهُ، وَمَنْ نَسِيَ رَبَّهُ أنْسَاهُ اللهُ نَفْسَهُ ، فَلاَ تَتَعَرَّضُوا بِذَلِكَ لِسَخَطِهِ وَكُوْنُوْا دَائِمَاً ذَاكِرِيْنَ لِلآخِرَةِ ، فَإنَّ ذَلِكَ يَبْعَثُ عَلَى الخَوْفِ مِنَ اللهِ ، وَمَنْ خَافَ رَبَّهُ اسْتَقَامَ بِإذْنِ الله ، قَالَ اللهُ تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى ﴾ واللهُ أعلمُ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ .

شِعْراً :

وَصِيَّتِيْ لَكَ يَاذَا الفَضْلِ وَالأَدَبِ
إنْ شِئْتَ أنْ تَسْكُنَ العَالِيْ مِنَ الرُّتَبِ
وَتُدْرِكَ السَّبْقَ وَالغَايَاتِ تَبْلُغُهَا
مُهَنَّأً بِمَنَالِ القَصْدِ وَالأَدَبِ
تَقْوَى الإلَهِ الذِي تُرْجَى مَرَاحِمُهُ
الوَاحِدُ الأَحَدُ الكَشَّافُ لِلْكُرَب
الْزَمْ فَرَائِضَهُ وَاتْرُكْ مَحَارِمَهُ
وَاقْطَعْ لَيَالِيْكَ والأيَّامَ في القُرَبِ
وَأَشْعِرِ القَلْبَ خَوْفاً لا يُفَارِقُهُ
مِنْ رَبِّهِ مَعَهُ مِثْلُ مِنْ الرَّغَبِ
وَزَيِّنِ القَلْبَ بالأخْلاَصِ مُجْتَهِداً
وَاعْلَمْ بأنَّ الرِّبَا يُلْقِيْكَ في العَطَبِ
وَنَقِّ جَيْبَكَ مِنْ كُلِّ العُيُوبِ وَلاَ
تَدْخُلْ مَدَاخِلَ أهْلِ الفِسْقِ والرِّيَبِ

وَاحْفَظْ لِسَانَكَ مِنْ طَعْنٍ على أَحَـدٍ
مِن العِبَـادِ وَمِنْ نَقْـلٍ وَمِنْ كَـذِبِ
وَكُنْ وَقُـوْراً خَشُـوْعَـاً غَيْـرَ مُنْهَمِكٍ
في اللَّهْوِ وَالضِّحْكِ وَالأَفْرَاحِ وَاللَّعِبِ
وَنَـزِّهِ الصَّدْرَ مِنْ غِشٍّ وَمِنْ حَسَـدٍ
وَجَـانِبِ الكِبْـرَ يَـا مِسْكِيْنُ وَالعُجُبِ
وَارْضَ التَّوَاضُعَ خُلقَـاً إِنَّهُ خُلُقُ الْـ
أَخْيَارِ فَاقْتَـدْ بِهِم تَنْجُو مِنَ الـوَصَبِ
وَخَـالِفِ النَّفْسَ وَاسْتَشْعِـرْ عَـدَاوَتَهَـا
وَارْفُضْ هَـوَاهَا وَمَـا تَخْتَـارُهُ تُصِبِ
وَانْ دَعَتْـكَ إلى حَظٍّ بِشَهْـوَتِـهَـا
فَاشْرَحْ لَهَـا غِبَّ مَا فِيْـهِ مِنَ التَّعَبِ
وَازْهَـدْ بِقَلْبِكَ في الـدَّارِ الَّتِي فَتَنَتْ
طَـوَائِفـاً فَرَأَوْهـا غَـايَـةَ الـطَّلَبِ
تَنَـافَسُـوْهَـا وَأَعْـطَوْهَـا قَـوَالِبَهُم
مَـعَ القُلُوبِ فَيَـا لِلَّهِ مِـنْ عَجَـبِ
وَهْيَ التِيْ صَغُرَتْ قَدْراً وَمَـا وَزَنَتْ
عِنْـدَ الإِلَهِ جَنَـاحاً فَـالْحَرِيْصُ غَبِيْ
وَخُـذْ بَلاَغَـكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَاسْعَ بِـهِ
سَعْيَ المُجِـدِّ إلى مَـوْلاَكَ وَاحْتَسِبِ
وَاعْلَمْ بِـأَنَّ الـذِيْ يَبْتَـاعُ عَـاجِلَهُ
بِـآجِـلٍ مِـنْ نَعِيْمٍ دَائِمٍ يَخِبِ

وَإنْ وَجَدْتَ فَوَاسِ المُعْوِزِيْنَ تَفِضْ
عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الأَرْزَاقُ فَاسْتَجِبِ
وَإنْ بُلِيْتَ بِفَقْرٍ فَارْضَ مُكْتَفِياً
بِاللّهِ رَبِّكَ وَارْجُ الفَضْلَ وَارْتَقِبِ
وَاتْلُ القُرْآن بِقَلْبٍ حَاضِرٍ وَجِلٍ
عَلى الدَّوَامِ وَلاَ تَذْهَلْ وَلا تَغِبِ
وَاذْكُرْ إلَهَكَ ذِكْراً لا تُفَارِقُهُ
وَادْعُ الآلهَ وَقُلْ يَا فَارِجَ الكُرَبِ
يَا رِبِّ إنَّكَ مَقْصُوْدِيْ وَمُعْتَمَدِيْ
وَمُرْتَجَايَ بِدُنْيَايَ وَمُنْقَلَبِيْ
فَاغْفِرْ وَسَامِحْ عُبَيْداً مَا لَهُ عَمَلٌ
بِالصَّالِحَاتِ وَقَدْ أَوْعَى مِن الحُوبِ

اللَّهُمَّ قَوِّ إيْمَانَنَا بِكَ وَبِمَلاَئِكَتِكَ وَبِكُتُبِكَ وَبِرُسُلِكَ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَثَبِّتْنَا عَلَى قَوْلِكَ الثَّابِتِ في الحَياةِ الدنْيَا وفي الآخِرَةِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وصَلَى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

فَالْوِلَايَةُ شُرُوطُهَا الحِفْظُ وَالعِلْمُ وَالقُوَّةُ وَالامَانَةُ ، فَالوَاجِبُ أَنْ يُخْتَارَ لِلْعَمَلِ أحْسَنَ النَّاسِ قِيَاماً بِهِ ، فَإنْ عُدِلَ عَنْهُ إلى غيرِهِ لِهوىً أو رِشْوَةٍ أوْ قَرَابَةٍ فَهَذِهِ خِيَانَة مِمَّنْ وَلَّاهُ أَوْ تَسَبَّبَ في الوِلايَةِ ، قالَ صلى الله عليه وسلم مَنْ

اسْتَعْمَلَ رَجُلاً على عِصَابَةٍ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ والمؤمِنِيْنَ رَوَاهُ الحَاكِمُ .

وَعَنْ أَبِيْ يَعْلَى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيْهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوْتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌ لِرَعِيَّتِهِ إلاّ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وفي رِوَايَةٍ لِمُسْلِم « مَا مِنْ أَمِيْرٍ يَلِيْ أُمُوْرَ المُسْلِمِيْنَ ثُمَّ لا يَجْهَدُ لهُمْ وَيَنْصَحُ لهُمْ إلا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُم الجَنَّةَ » .

وَعَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قَال « مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِيْ أَمْرَ عَشَرَةٍ فمَا فَوْقَ ذَلِكَ إلاّ أَتَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةٌ يَدُه الى عُنُقِهِ فَفَكَّهُ بِرُّهُ أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ أَوَّ لُهَا مَلامَةٌ وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ وآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً « وَيْلٌ لِلأُمَناءِ وَيْلٌ لِلْعُرَفَاءِ لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّ ذَوَائِبَهُم كانَتْ مُعَلَّقَةً بِالثُّرَيَّا يَتَذَبْذَبُوْنَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلم يَكُونُوا عَمِلُوا عَلى شَيءٍ .

وَفي أَفْرَادِ مُسْلِم مِنْ حَدِيْثِ أَبِيْ ذر قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهَ أَلاَ تَسْتَعْمِلُنْي قالَ فضَرَبَ بِيَدِهِ على مَنْكِبِيْ ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنّها أَمَانَةٌ وإنّها يومَ القِيامَةِ خِزْيٌ وَنَدامَةٌ إلا مَنْ أَخَذَها بِحَقّهَا وَأَدّى الذِي عَلَيْهِ فِيْهَا وَفي لَفْظٍ آخَرَ يا أَبَا ذَرٍّ إِنّيْ أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي لا تَأَمَّرَنَّ عَلى اثْنَيْنَ وَلا تَوَلّيَنَّ مَالَ يَتِيْمٍ .

وَفي الحَدِيْثِ الآخر أيُّمَا رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً عَلَى عَشَرَةٍ أَنْفُسٍ عَلِمَ أَنَّ في العَشَرَةِ أَفْضَلَ مِمَّنْ اسْتَعْمَلَ فَقَدْ غَشَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَغَشَّ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ ، قُلْتُ وَفي وَقْتِنا وَزَمانِنَا المُظْلِمِ بالمُنكَرَاتِ وَالمعَاصِيْ كَثِيْرٌ مِنَ الأَعْمَالِ يَتولاّهَا أُنَاسٌ لا يُصَلُّوْنَ كَفَرَةً فَإنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَلا حَوْلَ وَلا

قُوَّةَ إلَّا باللهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيْـلُ .

وَعَنْ يَزِيْدَ بْنِ أَبِيْ سُفْيَانَ قَالَ قَالَ لِيْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِيْنَ بَعَثَنِي إلى الشَّامَ يا يَزِيْدُ ، إنّ لَكَ قرابَةً عَسِيْتَ أنْ تُؤْثِرَهُم بالامَارَةِ وَذَلِكَ ما أخافُ عليْكَ بَعْدَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ المُسْلِمِيْنَ شَيْئاً فَأَمَّرَ عليهم أحَداً مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لعنَةُ اللهِ لا يَقْبَلُ اللهُ مِنهُ صَرْفاً وَلا عَدْلاً حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ رَوَاهُ الحَاكِمُ .

وَالأُمَّةُ التِي لا أَمَانَةَ لَهَا هِيَ التِي تَنْتَشِرُ فِيْهَا الرِّشْوَةُ وتَعْمَلُ عَلى إهْمَالِ الأَكْفَاءِ وإبْعَادِهِم وَتَقْدِيْمِ الذين لَيْسُوا أَهْلاً لِلْمَنَاصِبِ ، وَهَذا مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ الذِي وَقَعَ . فقدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عليه وسلم أنّ رَجُلاً سَأَلَهُ مَتى تقوْمُ السَّاعَةُ فَقَالَ إذَا ضُيِّعَت الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ فقالَ وَكَيْفَ إضَاعَتُهَا قَالَ إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ لِغَيْرِ أَهْلِهِ فانْتَظِرْ السَّاعَةَ رَوَاهُ البُخَارِيّ .

وَمِنْ مَعَانِيْ الأَمَانَةِ أَنْ يَحْرِصَ الانْسَانُ عَلى أَدَاءِ وَاجِبِهِ كَامِلاً في العَمَلِ الذي يُنَاطُ به وَأنْ يَسْتَنْفِدَ جُهْدَهُ في تَكْمِيْلِهِ وَتَحْسِيْنِهِ وَأنْ يَفِيْ بِجَمِيْعِ مَا اتَّفَقَا عَلَيْهِ عَمَلاً ووَقْتا ، وَالخِيَانَةُ تَتَفَاوَتُ ، فَمَا أَصَابَ الدِّيْنَ وَجُمْهُوْرَ المُسْلِمِيْنَ وَتَعَرَّضَتْ البِلادُ لأَذاهُ أَشَدُّ إِثْماً وَنُكْراً وَشَنَاعَةً ، وَوَرَدَ عَن النبي صَلى اللهُ عليهِ وسلم أنهُ قَالَ « إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنٍ» رَوَاهُ البُخَارِيّ .

وفي رِوَايَةٍ « لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرَتِه أَلاَ وَلا غَادِرَ أَعْظَمُ مِنْ أَمِيْرِ عَامَّةٍ .

وَمِن الأَمَانَةِ أَنْ لاَ يَسْتَغِلَّ الإِنْسَانُ مَنْصِبَهُ الذِي عُيِّنَ فِيْهِ لِجَرِّ مَنْفَعَةٍ لَهُ أَوْ إِلى قَرِيْبِهِ فَأَخْذُ زِيَادَةٍ عَلى مَا رُتِّبَ لَهُ مِنْ بَيْتِ المالِ بِطُرُقٍ مُلْتَوِيَةٍ .

إِمَّا بِتَنَاوُلِ رِشْوَةٍ وَإِمَّا بِتَنَاوُلِ رِشْوَةٍ باسْمِ هَدِيَّةٍ أَوْ تُحْفَةٍ يَتَنَاوَلُها هَذَا الخَائِنُ بِتَأْوِيْلَاتٍ بَاطِلَةٍ أو بِمُحَابَاةِ قَرِيْبٍ أَوْ مُجَامَلَةِ صَدِيْقٍ أَوْ رَفِيْقٍ أَوْ جَارٍ بِمَا فيه ضَرَرٌ على عُمُومِ المُسْلِمِيْنَ أَوْ بِأَيَةِ ذَرِيْعَةٍ وَوَسِيْلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ الاسْتِغْلَالِ النُّفُوذِيّ ، فكلُّ ذَلِكَ غِشٌّ وَخِيَانَةٌ ، وَمَا أَخَذَ فَهُوَ سُحْتٌ ، لِأَنَّهُ ثَمْرَةُ خِيَانَةٍ وَغَدْرٍ وَخِدَاعٍ وَمَكْرٍ ، قَالَ تَعالَى ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ .

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ عُمَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلم يَقُولُ « مَن اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُم على عَمَلٍ فَكَتَمنا مِخْيطاً فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولاً يَأْتِيْ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مِنَ الأَنْصارِ كَأَنِّيْ أَنْظُر إليه ، فقالَ يَا رَسُولَ اللهِ اقْبَلْ عَنِّيْ عَملكَ قَالَ وَمَالَكَ قَالَ سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذا وَكَذا قَالَ وَأَنا أَقُولُ الآنَ مَن اسْتَعْمَلْنَاهُ على عَمَلٍ فَلْيَجِيْءْ بِقَلِيْلِهِ وَكَثِيْرِهِ فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهى رَواهُ مُسْلِم .

وَعَنْ أَبِيْ حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ اسْتَعْمَلَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً مِن الأَزْدِ يُقالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلى الصَّدَقَةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ هَذَا لَكُم وَهَذَا أُهْدِيَ لِيْ فَخَطَبَ النَّبِيّ صَلى اللهُ عليه وَسَلمَ فَحمِدَ اللهَ وَأَثْنى عَلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ رِجالاً مِنْكُمْ عَلى أُمُورٍ وَلَّانِيْ اللّهُ فَيَأْتِيْ أَحَدُكُم فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِيْ فَهَلَا جَلَسَ في بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ فَيَنْظُر أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لا وَالذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لا يَأْخُذُ منهُ شَيْئاً إلا جاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِه إِنْ كَانَ بَعِيْراً لَهُ رُغَا أو بَقراً لَهُ خُوارٌ أو شَاةٌ تَيْعَرُ .

ثُمَّ رَفَع يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنا عفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ ثم قَالَ اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ متفقٌ عليه ، قالَ الخَطَّابِيّ وفي قولِهِ هَلَّا جَلَسَ في بَيْتِ أَبِيْهِ أَوْ أُمِّهِ فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ

أَمْ لَا : دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ يُتَذَرَّعُ بِهِ إِلى مَحْظُورٍ فَهُوَ مَحْظُورٌ .

وَكُلُّ دَاخِلٍ فِي العُقُودِ يُنْظَرُ هَلْ يَكُونُ حُكْمُهُ عِنْدَ الانْفِرَادِ كَحُكْمِهِ عِنْدَ الاقْتِرَانِ أَمْ لَا .

أَمَّا الذِي يَلْتَزِمُ حُدُوْدَ اللهِ فِي وَظِيْفَتِهِ وَلَا يَخُوْنُ الوَاجِبَ الذِيْ طَوّقَهُ فَهُوَ مِن المجَاهِدِيْنَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « العَامِلُ إِذَا اسْتُعْمِلَ فَأَخَذَ الحَقَّ وَأَعْطَى الحَقَّ لَمْ يَزَلْ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيْلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ الى بَيْتِهِ .

شِعْرَاً :

فَلِلّهِ دَرُّ العَارِفِ النَّدْبِ إِنَّهُ
تَسِحُّ لِفَرْطِ الوَجْدِ أَجْفَانُهُ دَمَا

يُقِيْمُ إِذَا مَا اللّيْلُ مَدَّ ظَلَامَهُ
عَلَى نَفْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ مَأْتَمَا

فَصِيْحاً بِمَا قَدْ كَانَ مِنْ ذِكْرِ رَبِّهِ
وَفِيْمَا سِوَاهُ فِي الوَرَى كَانَ أَعْجَمَا

وَيَذْكُرُ أَيَّاماً مَضَتْ مِنْ شَبَابِهِ
وَمَا كَانَ فِيْهَا بِالجَهَالَةِ أَجْرَمَا

فَصَارَ قَرِيْنَ الهَمِّ طُوْلَ نَهَارِهِ
وَيَخْدِمُ مَوْلَاهُ إِذَا اللّيْلُ أَظْلَمَا

يَقُولُ إِلَهِيْ أَنْتَ سُؤْلِيْ وَبُغْيَتِيْ
كَفَى بِكَ لِلرَّاجِيْنَ سُؤْلاً وَمَغْنَمَا

عَسَى مَنْ لَهُ الاحْسَانُ يَغْفِرُ زَلَّتِيْ
وَيَسْتُرُ أَوْزَارِيْ وَمَا قَدْ تَقَدَّمَا

اللَّهُمَّ أَذِقْنَا عفْوكَ وَغُفْرَانَكَ وَأَسْلُكْ بِنَا طَرِيْقَ مَرْضَاتِكَ . وَعَامِلْنَا بِلُطْفِكَ وَاحْسَانِكَ وَاقْطَعْ عَنَّا مَا يُبْعِدُ عَن طَاعَتِكَ اللهم وَثَبِّتْ مَحبَّتَكَ في قُلوبِنَا وَقوّهَا وَيسِّرْ لَنَا مَا يَسَّرْتَهُ لأَوْلِيَائِكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَمِنْ مَعَانِيْ الأَمَانَةِ حِفْظُ الاسْرَارِ التِي لَا يَرْضَى أَهْلُهَا أَنْ تُذَاعَ فَكَمْ مِنْ أَضْرَارٍ عَلى الأَبْدَانِ وَالأَمْوَالِ وَالأَعْرَاضِ حَصَلَتْ بِافْشَاءِ الأَسْرَارِ إلَّا إذَا كَانَتْ الأَسْرَارُ فِيْهَا أَضْرَارٌ عَلى المُسْلِمِيْنَ فَلَيْسَ لَهَا حُرْمَةٌ ولا يَجُوْزُ كتْمُهَا وَعَلى كُلِّ مُسْلِمٍ شَهِدَ مَجْلِساً يَمْكُر فِيْهِ المُجْرِمُوْنَ بِغَيْرِهِمْ لِيُلْحِقُوا بِهِ الأَذَى أَنْ يُسَارِعَ إِلَى الحَيْلُولَةِ دُوْنَ الفَسَادِ جَهْدَ طَاقَتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ خَطَرٌ عَظِيْمٌ وَفَسَادٌ كَبِيْرٌ ، وَقَدْ قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « المَجْلِسُ بالأمَانَةِ إلَّا مَجْلِسَ سَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ أَوْ فَرْجٍ حَرَامٍ أَوْ اقْتِطَاعِ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَمِمَّا يَتَعَيَّنُ كَتْمُه وَسَتْرُهُ مَا يَجْرِيْ بَيْنَ الرَّجُلِ وَامْرَأتِهِ مِمَّا يُفْضِيْ بِهِ أَحَدُهُمَا إلى الآخرِ فَإِنَّ التَّحَدُّثَ بِهِ خِيَانَةٌ لِهَذِهِ الأَمَانَةِ » .

فَقَدْ قَالَ صَلى اللهُ عليه وسلم إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضِيْ إلى امْرَأتِهِ وَتُفْضِيْ إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا ، وَالثَّرْثَارُونَ مِنْ أَحْلَى وَأَلَذِّ مَا يَتَسَامَرُونَ بِهِ في مَجَالِسِهِمْ مُنْكَرٌ مِنْ أَقْبَحِ المُنْكَرَاتِ ، أَلَا وَهُوَ مَا يَقَعُ بَيْنَهُم وَبَيْنَ أَزْوَاجِهِم في الخَلوَاتِ الخاصَّةِ مِنْ كَلَامٍ وَأَفْعَالٍ ، وَمَا يَكُونُ مِنَ الرِّجَالِ قَلِيْلٌ مِنْ مَا يَكُونُ مِنَ النِّسَاءِ فَإِنَّ الكَلامَ في هَذَا المَوْضُوعِ عَادَتُهُنَّ

الوَحِيْدَةُ وَهَذِهِ مَعْصِيَةٌ مِنْ أَفْحَشِ المَعَاصِيْ وَوَقَاحَةٌ مُحَرَّمَةٌ .

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيْدَ أَنَّها كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم وَالرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ قُعُودٌ عِندَهْ،فَقَالَ لَعَلَّ رَجُلاً يَقُولُ مَا فَعَلَ بِأَهْلِهِ وَلَعَلَّ امْرَأَةً تُخْبِرُ بِمَا فَعَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا فَأَزَمَّ القَوْمُ ـ أيْ سَكَتُوا وَجِلِيْنَ ـ فَقُلْتُ أيْ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُم لَيَفْعَلُونَ وَإِنَّهُنَّ لَيَفْعَلْنَ قَالَ فَلا تَفْعَلُوا فَإِنَّمَا مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ شَيْطَانٍ لَقِيَ شَيْطَانَةً فَغَشِيَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُوْنَ رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَمِنَ الأَمَانَةِ الوُضُوءُ فَإِنْ أَدَّاهُ كَامِلاً بِدُوْنِ مُجَاوَزَةٍ لِلْحَدِّ فَقَدْ حَفِظَ هَذِهِ الأَمَانَةَ وَأَدَّاهَا وَإِنْ فَرَّطَ فِيْهَا وَأَهْمَلَ بَعْضَ الأَعْضَاءِ أَوْ بَعْضَ الجِسْمِ فِي الغُسْلِ أَوْ تَعَدى إلى الوَسْوَاسِ وَفَاتَتْ المُولاةُ فَقَدْ خَانَ أَمَانَتَهُ .

وَكَذَلِكَ الجَنَابَةُ أَمَانَةٌ إِذَا بَادَرَ بِهَا وَاغْتَسَلَ بِالنِّيَّةِ مُعَمِّماً جَمِيْعَ بَدنِهِ فَقَدْ حَفِظَهَا .

وَكَذَلِكَ الكَيْلُ وَالوَزْنُ أَمَانَةٌ إِنْ أَدَّاهُ عَلى الوَجْهِ المَطْلُوبِ بِلاَ بَخْسٍ وَلاَ غِشٍّ فَقَدْ حَفِظَهَا وَأَدَّاهَا ، وَإنْ بَخَسَ أَوْ غَشَّ أَوْ دَلَّسَ فَقَدْ خَانَ أَمَانَتَهُ .

وَكَذَلِكَ أَوْلَادُكَ أَمَانَةٌ عِنْدَكَ إِنْ أَحْسَنْتَ فِيْهِمْ وَرَبَّيْتَهم تَرْبِيَةً صَالِحَةً وَوَجَّهْتَهُم تَوْجِيْهاً حَسَناً فَقَدْ أَدَّيْتَ أَمَانَتَكَ وإِنْ أَهْمَلَهُم وَلَمْ يبالِ بِهِمْ فَقَدْ خَانَ أَمَانَتَهُ .

وَكَذَلِكَ الوَدَائِعُ التِي تُدْفَعُ إلى الإِنْسَانِ لِيَحْفَظَهَا حِيْناً ثُمَّ يَرُدُّهَا إِلى أَصْحَابِهَا حِيْنَ يَطْلُبُونَهَا أَوْ إِلى الحَاكِمِ إِنْ فُقِدُوا وَمَنْ يَخْلُفُهم وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ إِيْصَالُها إِلَيْهِمْ وَأَيِسَ مِنْ مَجيءِ صَاحِبِهَا ، فَهَذِهِ مِنَ الأَمَانَاتِ الَّتِي يُسْأَلُ

عنها ، وَقد اسْتَخْلَفَ صَلى اللهُ عليه وسلم عندَ هِجْرَتِهِ ابْنَ عَمِّهِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه لِيُسَلِّمَ المُشْرِكِيْنَ الوَدَائِعَ التي اسْتُحْفِظَهَا مَعَ أَنَّ هَؤُلَاءِ المُشْرِكِيْنَ كَانُوا بَعْضَ الأُمَّةِ التِي اسْتَفَزَّتْهُ مِن الأَرْضِ وَاضْطَرَّتْهُ إِلَى تَرْكِ وَطَنِه في سَبِيْلِ عَقِيْدَتِهِ ، قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ ثَلاثَةٌ مُؤَدَّيْنَ إِلى البَرِّ والفَاجِرِ الامَانَةُ وَالعَهْدُ وَصِلَةُ الرَّحِمِ .

وَكَذلِكَ التّلْمِيْذُ أَمَانَةٌ يَجِبُ على الاسْتَاذِ أَنْ يُوَجِّهَهُ إلى العُلُومِ النَّافِعَةِ وَالعَقَائِدِ السَّلِيْمَةِ وَيُحَذِّرَهُ مِن البِدَعِ وَمَا يَضُرُّهُ في دِيْنِهِ وَيُحَذِرَهُ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ وَيُبَيِّنَ مَا يَعْرِفُهُ مِن الكُتُبِ المُظِلِّ دِرَاسَتُهَا وَالعُلَمَاءِ المُنْحَرِفِيْنَ عَن الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ لِيَجْتَنِبَهُمْ وَكُتبَهُم ، وَيَذْكُرَ لَهُ العُلَمَاءَ المُحَقِّقِيْنَ المُسْتَقِيْمِيْنَ وَكُتُبَهُمْ لِيَقْتَنِيْهَا فَيَتَأَثَّرُ بِهَا بِإِذْنِ اللهِ وَتَحِلُّ العَقِيْدَةُ السَّلِيْمَةُ في قَلْبِهِ وَيَسْعَدُ في حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ بِإِذْنِ اللّهِ تَعَالَى .

وَيَكُونُ هَذَا المعَلّمُ المُخْلِصُ هُوَ السَّبَبُ الوَحِيْدُ لِاسْتِقَامَةِ هَذَا التّلْمِيْذِ وَهِدَايَتِهِ فَيَالَهَا مِنْ تِجَارَةٍ وَيَا لَهُ مِنْ رِبْحٍ ، وَيَا لَهَا مِنْ نَصِيْحَةٍ فَتَجِدُ التِّلْمِيْذُ إِنْ كَانَ وَافِياً شَكُوْراً يَدْعُو لِمُوَجِّهِهِ دَائِماً وَانْ لِمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَأَجْرُ المعَلّمِ وَالْمُوَجِّهِ المخْلِصِ لَا يَضِيْعُ عِنْدَ اللهِ، قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّا لَا نُضِيْعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُوْنَ فِيهِمْ رَوْضٌ وَسَبَخٌ .

قَالَ بَعْضُهُمْ :

لَعَمْرُكَ مَا المَعْرُوفُ في غَيْرِ أَهْلِهِ
وفي أَهْلِهِ إِلَّا كَبَعْضِ الوَدَائِعِ
فَمُسْتَودَعٌ ضَاعَ الذِيْ كَانَ عِنْدَهُ
وَمُسْتَوْدَعٌ مَا عِنْدَهُ غَيْرُ ضَائِعِ

وَمَـا النَّـاسُ فِي كُفْـرِ الأَيَـادِيْ وَشُكْـرِهَـا
إلـى أَهْـلِهَــا إِلَّا كَـبَـعْـضِ الـمَــزَارِعِ
فَـمَــزْرَعَــةٌ أَجْــدَتْ فَــأَضْعَـفَ زَرْعُهَــا
وَمَــزْرَعَــةٌ أَكْــدَتْ عَــلَـى كُـلِّ زَارِعِ

وَكَذَلِكَ العِلْمُ أَمَانَةٌ في عُنُقِ العَالم يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا لَمْ يَنْشُرْهُ بَيْنَ النَّاسِ وَيُنَوِّرَ بِهِ قُلُوبَهُم يَكُوْنُ خائِناً لِأَمَانَتِهِ وَغَاشّاً لإِخْوَانِهِ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّ الذيْنَ يَكْتُمونَ مَا أَنْزَلْنَا مِن البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أَوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللهُ وَيلعَنُهُمْ اللَّاعِنُوْنَ ﴾ .

قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِيْنَ عَلى هَذِهِ الآيَةِ : وَالتَّنْدِيْدُ بِكِتْمَانِ مَا أَنْزَلَ اللّهُ مِن الكِتَابِ المَقْصُودُ بِهِ أَوَّلاً أَهْلُ الكِتَابِ وَلَكِنّ مَدْلُولَ النَّصِّ العَامّ يَنْطَبِقُ عَلى أَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ يَكْتُمُونَ الحَقَّ الذِيْ يَعْلَمُونَهُ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيْلاً إِمَّا هُوَ النَّفْعُ الخَاصُّ الذِيْ يَحْرِصُونَ عَلَيْهِ بِكِتْمَانِهِمْ لِلْحَقِّ وَالمَصَالِحِ الخَاصّةِ الَّتِي يَتَحَرَّوْنَهَا بِهَذَا الكِتْمَانِ وَيَخْشَوْنَ عَلَيْهَا مِنَ البَيَانِ وَإِمَّا هُوَ الدّنْيَا كُلها وَهِيَ ثَمَنٌ قَلِيْلٌ حِيْنَ تُقَاسُ إلى مَا يَخْسَرُونَهُ مِنْ رِضَى اللهِ وَمِنْ ثَوابِ الآخِرَةِ انْتَهَى .

وَقَالَ آخرُ وَهَذِهِ الآيَةُ تُوْجِبُ اظْهَارَ عُلُومِ الدِّيْنِ مَنْصُوْصَةً كَانَتْ أَو مُسْتَنْبَطةً وَتَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ جَوَازِ أَخْذِ الأَجْرَةِ عَلى ذَلِكَ إِذْ غَيْرُ جَائِزٍ اسْتِحْقَاقُ الأجْرِ على مَا يَجِبُ فِعْلُهُ وَقَد رَوَى الأَعْرَجُ عَن أبي هريرة أنه قَالَ إِنَّكم تَقُولُون أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ عن النَّبِيّ صَلى الله عليه وسلم وَاللّهُ المَوْعِدُ ، وَأَيْمُ اللهِ لَوْلا آيَةٌ في كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ بشَيءٍ أَبَدَا ، ثُمَّ تَلا ﴿ إِنَّ الذِيْنَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِن البَيِّنَاتِ وَالهُدَى ﴾ الآيَةُ .

وَعَنْ أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ وَابنُ مَاجَهْ وَابْنُ حِبّانَ في صَحِيْحِهِ وَالبَيْهَقِيّ وَرَوَاهُ الحَاكِمُ بِنَحْوِهِ وَقَالَ صَحِيْحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ .

وَعَنْ أَبِيْ سَعِيْدٍ الخُدْرِيّ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَتَمَ عِلْماً مِمَّا يَنْفَعُ اللهُ بِهِ النَاسَ في أَمْرِ الدِّيْنِ أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نارٍ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ ، وَمِن الامَانَةِ في العِلْم إِنَّكَ إِذَا أَبْدَيْتَ رَأْيَاً ثُمَّ أَرَاكَ الدّلِيْلُ القَاطِعُ أَو الرَّاجِحُ أَنَّ الحَقَّ في غَيْرِ مَا أَبْدَيْتَ أَنْ تَصْدَعَ بِمَا اسْتَبَانَ لَكَ أَنّهُ الحَقُّ .

وَلاَ يَمْنَعُكَ مِن الجَهْرِ بِهِ أَنْ تُنْسَبَ إِلى سُوْءِ النَّظَرِ فِيْمَا رَأَيْتَهُ أَوَّلاً ، وَالأَمَانَةُ حَمَلتْ كثيراً مِن العُلَمَاءِ عَلى أَنْ يُظْهِرُوا رُجُوْعَهُم عَنْ كَثِيْرٍ مِنْ آرَاءَ عِلْمِيَّةٍ أو اجْتِهَادِيّةٍ دِيْنِيَّةٍ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُم غَيْرُ مُصِيْبِيْنَ فِيْهَا .

ولاَ يَكْتَرِثُوْنَ بِمَا يُقَالُ فِيْهِمْ مِن الإِعْتِرَاضَاتِ التِي في غَيْرِ مَحَلِّهَا لِعِلْمِهِمْ أَنْ النَّاسَ مَا مِنْهُم سَلاَمَةٌ أَبَدَا مَهْمَا اسْتَقَامُوْا وَلِهَذَا الرُّسُلُ لم يَسْلَمُوا مِنْهُم قَوْلاً وَفِعْلاً ، بَل اللهُ جَلَّ وَعَلا الذِيْ أَوْجَدَهُم وَرَبَّاهُم وَرَزَقَهُم وَفَضّلَهُم على كَثِيْرٍ مِمَّنْ خَلَقَ جَعَلُوا لَهُ وَلَدا وَقَالُوا لاَ يُعِيْدُنَا ، فَلاَ مَطْمَعَ في السّلاَمَةِ مِنْهُم ، وَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ مُعْرِباً عَنْ صِفَاتِهِمْ :

وَإِنْ تُبْدِي يَوْماً بِالنَّصِيْحَةِ لامْرِىءٍ
بِتُهْمَتِهِ إِيَّاكَ كَانَ مُجَازِيَا

وَإِنْ تَتَحلَّى بِـالسَّمَــاحَــةِ وَالسَّـخَـاء
يُقَـالُ سَفِيْـهٌ أَخْـرَقٌ لَيْسَ وَاعِـيَـا
وَإِنْ أَمْسَكْـت كَفَّـاكَ حَـالَ ضَـرُوْرَةٍ
يُقَـالُ شَحِيْـحٌ مُمْسِـكٌ لا مُسَـاوِيَـا
وَإِنْ ظَهَـرَتْ مِنْ فِيْـكَ يَنْبُـوعُ حِكْمَـةٍ
يَقُـولُـونَ مِهْـذَاراً بَـذِيّـاً مُـبَـاهِيَـا
وَعَنْ كُـلِّ مَا لاَ يَعْنِ إِنْ كُنْتَ تَـارِكَـاً
يَقُـولُونَ عَنْ عِيٍّ مِنَ العَجْزِ صَـاغِيَـا
وَإِنْ كُـنْتَ مِقْـدَامـاً لِكُـلِّ مُـلِمَّـةٍ
يُقَـالُ عَجُـولٌ طَـائِشُ العَقْـلِ وَاهِيَـا
وَإِنْ تَتَغَـاضَـى عَنْ جَهَـالَـةِ نَـاقِصٍ
يَـعُـدُّوكَ خَـوّاراً جَـبَـانـاً وَلاهِـيَـا
وَإِنْ تَتَقَـاضَـى بِـاعْتِـزَالِـكَ عَنْهُـمُـو
يَـخَـالُـوكَ مِنْ كِـبْـرٍ وَتِيْـهٍ مُـجَـافِيَـا
وَإِنْ تَـتَـدَانَـى مِـنْـهُـم لِـتَـأَلُّـفٍ
يَـظُنُّوكَ خَـدَّاعـاً كَـذُوْبَـاً مُـرَائِيَـا
تَـرى الظُّلْمَ مِنْهُم كَـامِنـاً في نُفُـوسِهم
كَـذَا غَـدْرُهُم في طَبْعِهِمْ مُتَـوَارِيَـا
فَفِيْ قُـوَّةِ الانْـسَـانِ يَـظْهَـرُ ظُلْمُـهُ
وَفي عَجْزِهِ يَبْقَى كَمَـا كَـانَ خَـافِيَـا
وَهَيْهَـاتَ تَنْجُـو مِنْ غَـوَائِـلِ فِعْلِهم
وَأَقْـوَالِهِمْ مَـهْمَـا تَـكُنْ مُـتَحَـاشِيَـا

فَمَنْ رَامَ إِرْضَاءَ الأَنَامِ بِقَوْلِهِ
وَفِعْلٍ غَدَا لِلْمُسْتَحِيْلِ مُعَانِيَا
وَمَنْ ذَا الذِيْ أَرْضَى الخَلاَئِقَ كُلَّهُم
رَسُولاً نَبِيًّا أَمْ وَلِيّاً وَقَاضِيَا
وَأَعْظَمُ مِنْ ذَا خَالِقُ الخَلْقِ هَلْ تَرَى
جَمِيْعَ الوَرَى فِي قِسْمَةٍ مِنْهُ رَاضِيَا
إِذَا كَانَ رَبُّ الخَلْقِ لَمْ يُرْضِ خَلْقَهُ
فَكَيْفَ بِمَخْلُوقٍ رِضَاهُمْ مُرَاجِيَا
فَلازِمْ رِضَى رَبِّ العِبَادِ إِذاً وَلاَ
تُبَالِ بِمَخْلُوقٍ إِذَا كُنْتَ زَاكِيَا
وَسَدِّدْ وَقَارِبْ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا
يُكَلَّفُ عَبْدٌ فِعْلَ مَا كَانَ قَاوِيَا

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ أَنْفُسِنَا وَشَرِّ الدُّنْيَا وَالهَوَى وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيْمِ وَنَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَمِن الأَمَانَةِ فِي العِلْمِ أَنَّكَ إِذَا سُئِلْتَ عَنْ مَسْأَلَةٍ خَافِياً عَلَيْكَ حُكْمُهَا أَنْ تَقُولَ لا أَدْرِيْ غَيْرَ مُسْتَنْكِفٍ وَلاَ مُبَالٍ بِمَا يَكُونُ لَهَا مِنْ أَثَرٍ عِنْدَ السَّائِلِيْنَ وَالمُسْتَمِعِيْنَ وَلأَنْ يُقَالَ سُئِلَ فَقَالَ لاَ أَدْرِيْ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُقَالَ سُئِلَ فَأَجَابَ خَطَأً أَوْ رَوَى مَا لَمْ يَكُنْ وَاقِعاً وَقَدِيْماً قِيْلَ :

وَمَـنْ كَـانَ يَهْـوَىٰ أَنْ يُـرَى مُـتَصَـدِّراً
وَيَـكْـرَهُ لاَ أَدْرِيْ أُصِيْـبَـتْ مَـقَـاتِـلُهُ

وَمِنْ الأَمَانَةِ في العِلْمِ أَنْ لا يُفْتِي بِمَا يَرَاهُ بَاطِلاً . إلاَّ إِنْ سَأَلَهُ عَنْ مَا يَرَاهُ فلانٌ بِأَنْ قَالَ مَا رَأْيُ الشَّافِعيّ أَوْ أَحْمَدُ فِيْهَا ، أَوْ مَا هُوَ اخْتِيَارُ شَيْخِ الإِسْلاَمِ فِيْهَا ، فَهَذَا إِنْ كُنْتَ عَالِمَاً بالحُكْمِ تَقُولُ لَهُ يَرَى كَذَا وَكَذَا وَلاَ بَأْسَ .

وَبِالتَّالِيْ فَمَا مِنْ انْسَانٍ مِنَّا إِلاَّ وَعَمَلُهُ أَمَانَةٌ لِلّهِ في عُنُقِهِ ، فَالشَّعْبُ أَمَانَةٌ في يَدِ الوُلاَةِ لِلأُمُوْرِ، وَالدِّيْنُ أَمَانَةَ في يَدِ العُلَمَاءِ وَطَلَبَةِ العِلْمِ وَالعَدْلُ أَمَانَةٌ في يَدِ القُضَاةِ وَالحَقُّ أَمَانَةٌ في يَدِ المُجَاهِدِيْن ، وَالصِّدْقُ أَمَانَةٌ في يَدِ الشُّهُودِ ، وَالمَرْضَى أَمَانَةٌ في يَدِ الأَطِبَّاءِ ، وَالمَصَالِحُ أَمَانَةٌ في يَدِ المُسْتَخْدَمِيْنَ ، وَالتِّلْمِيْذُ أَمَانَةٌ في يَدِ الأُسْتَاذِ ، وَالوَلَدُ أَمَانَةٌ في يَدِ أَبِيْهِ ، وَالوَطَنُ أَمَانَةٌ في يَدِ الجَمِيْعِ ، وَهَكَذَا بَاقِيْ الأَمَانَاتِ .

وَقَدْ وَرَدَتْ آيَاتٌ وَأَحَادِيْثُ في عِظَمِ شَأْنِ الأَمَانَةِ وَالأَمْرِ بِحِفْظِهَا وَأَدَائِهَا وَالتَّحْذِيْرِ مِنَ الخِيَانَةِ فِيْهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا ﴾ وَقَالَ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلى السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَالجُبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوْمَاً جَهُولاَ ﴾ .

وَعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ: القَتْلُ في سَبِيْلِ اللّهِ يُكَفِّرُ الذّنُوبَ كُلَّها إِلاَّ الأَمَانَةَ . قَالَ: يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَإِنْ قُتِلَ في سَبِيْلِ اللهِ فَيُقَالَ أَدِّ أَمَانَتكَ فَيَقُوْلَ أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ ذَهَبَت الدُّنْيَا، فَيُقَالُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الهَاوِيَةِ ، وَتُمَثَّلُ لَهُ أَمَانَتُه كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ دُفِعَتْ إِلَيْهِ فَيَرَاهَا

فَيَعْرِفُهَا فَيَهْوِيْ فِي أَثَرِهَا حَتَّى يُدْرِكُهَا فَيَحْمِلُها على مَنْكِبِهِ حَتّى إذَا ظَنَّ أَنَّهُ خَارِجٌ زَلَّتْ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَهُوَ يَهْوِيْ فِي أَثَرِهَا أبَدَ الآبِدِيْنَ .

ثُمَ قَالَ الصَّلاَةُ أَمَانَةٌ ، والوُضُوءُ أَمَانَةٌ وَالكَيْلُ أَمَانَةٌ وَأَشْيَاءُ عَدَّدَهَا وَأَشدُّ ذَلِكَ الوَدَائِعُ ، قَالَ رَاوِيْ الحَدِيْثِ فَأَتَيْتُ البَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ فَقُلْتُ أَلاَ ترى إِلَى مَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، قَالَ كَذَا وكَذَا قَالَ البَرَاءُ صَدَقَ أَمَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا﴾ .

وَفِي حَدِيْثِ حُذَيْفَةَ فِي وَصْفِهِ لِتَسَرُّبِ الأَمَانَةِ مِن القُلُوْبِ التِيْ تَخَلْخَلَ فِيْهَا اليَقِيْنُ ، قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيْثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ حَدَّثَنَا أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ .

وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الوَكْتِ ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلُ أَثَرِ المَجَلِّ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلى رِجْلِكَ فَنَفطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً ، وَلَيْسَ فِيْهِ شَيءٌ فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلا يَكَادُ أَحَدُهُمْ يُؤَدّي الأَمَانَةَ فَيُقَالُ إِنَّ فِي بَنِيْ فُلانٍ رَجلاً أَمِيْناً وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ ما أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ الحدِيْثُ رَوَاهُ البُخَارِيّ .

وَلِلأَمِيْرِ الصَّنْعَانِيِّ فِي الحَثِّ عَلى تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ والثَّنَاءِ عَلى اللهِ قَصِيْدَةٌ بَلِيْغَة .

الـــوَارِدَاتُ عَـــلَيْـنَـا كُـــلُّهَـــا مِـــنَـــنٌ
مِـنْ رَبِّنَـــا فَـلَهُ الاحْسَـــانُ وَالـحَـسَـنُ

إِنَّـــا لَنَـــا كُـــلَّ شَيءٍ مِنْ مَـــوَاهِبِـــهِ
مَـــا لا تُـــحِـيْطُ بِـــهِ عَـــيْـنٌ وَلَا أُذُنُ

فَشُكْـــرُ بَعْضِ أَيَـــادِيْـــهِ الَّتِي شَمَـلَتْ
عَنْ شُكْـرِهَـا يَعْجَـــزُ العَـلَّامَـــةُ اللَّسِنُ

يَـــا عَـــالِمَ الغَيْبِ لَا يَخْفَـــاهُ خَـــافِيَـــةٌ
وَعِـلْمُـــهُ يَـتَـسَـــاوَى الـسِّـــرُّ وَالـعَـلَنُ

أَهْـــلُ البَسِيْـــطَةِ طُـــرّاً تَحتَ قَبْضَتِـــهِ
وَكُـلُّهُـم بِـــالـــذِيْ يَـــأْتِـيْـــهِ مُـــرْتَـهَـنُ

بِـحِكْـمَـــةٍ وَبِـعِـلْمٍ كَـــانَ مُـبْـتَـــدِئـــاً
هَذَا الوُجُـوْدَ الذِي حَـارَتْ لَهُ الفِـطَنُ

دَحَى البَسِيْـطَةَ فَـرْشَـــاً لِـلأَنَـــامِ وَقَـدْ
عَلَتْ عَلَيْهَـــا الجِبَـــالُ الشُّـــمُّ وَالقُـنَنُ

كَـيْـــلَا تَمـيْـــدَ بِـــأَهْـلِيْـهَـــا وَأَوْدَعَـهَـــا
لَهُم مَنَـــافِعَ إِنْ سَـــارُوا وَإِنْ قَـطَنُـــوْا

بَنَى السَّمَـــاءَ بِأَيْـــدٍ فَـوْقَهَـــا وَحَـــوَتْ
عَجَـائِبـاً أَعْـرَضُـوا عَنْهَـا وَمَـا فَـطِنُـوْا

فَـفِيْ الـتَّـــأَمُّـــلِ فِي آيَـــاتِـهَـــا عِـبَـــرُ
لَـوْ كَـانَ يُـطْلَقُ عَنْ أَفْكَـارِنَـا الـرَّسَنُ

وَقَـدْ حَكَى اللّهُ إِعْرَاضَ العِبَـادِ فَهَـلْ
غَـطَّى عَلَى العَيْنِ مِنْ أَفْكَارِنَـا الوَسَنُ

إنَّ التَّفَكُّرَ في آيَاتِ خَالِقِنَا
عِبَادَةُ الفِكْرِ فِيهَا الخَلْقُ قَدْ غُبِنُوا
تَزْدَادُ بِالفِكْرِ إِيْمَاناً وَمَعْرِفَةً
فَلَا يَفُوتُكَ شَيءٌ مَا لَهُ ثَمَنُ
مَنَّ الإلَهُ عَلَيْنَا بِالكِتَابِ فَقُلْ
يَا مِنَّةً قَصُرَتْ مِنْ دُوْنِهَا المِنَنُ
فَصَرِّفِ الفِكْرَ في الذِّكرِ الحَكِيْمِ تَجِدْ
فِيْهِ العُلُومَ التِيْ لَمْ يَحْوِهَا الفَطِنُ
آيَاتُهُ أَعْجَزَتْ كُلًّا بِلاغَتُهَا
وَأَبْلَغُ الخَلْقِ قَدْ أَوْدَى بِهِ اللَّكَنُ
أَدِلَّةٌ وَأَقَاصِيْصٌ وَأَمْثِلَةٌ
لَفْظٌ بَلِيْغٌ وَمَعْنَى فَائِقٌ حَسَنُ
غُصْ بَحْرَه تَلْقَ فِيْهِ الدُّرَّ مُبْتَذَلاً
وَفُلْكُ فِكْرِكَ فِي أَمْوَاجِهِ السُّفُنُ
كَمْ قِصَّةٍ وَصَفَتْ أَخْبَارَ مَنْ دَرَجُوا
مِنْ صَالِحٍ وَشَقِيٍّ رَبُّهُ الوَثَنُ
قِفْ بِالمَثَانِيْ تَرَىٰ آيَاتِهَا عَجَباً
أَوْ بِالمِئِيْنِ فَفِيْهَا كُلِّهَا المِنَنُ
أَوْ الطِّوَالِ فَفِيْهَا العِلْمُ أَجْمَعُهُ
خَزَائِنٌ هِيَ لِلأَحْكَامِ تَخْتَزِنُ
وَفي المُفَصَّلِ آيَاتٌ مُفَصَّلَةٌ
قَوَارِعٌ لِقُلُوبٍ مَا بِهَا دَرَنُ

إنَّ الـذُّنُـوْبَ لأَوْسَـاخُ القُلُوبِ فَـلا
يَـكُنْ فُـؤَادُكَ بَيْتَـاً حَشْـوُهُ الـدِّمَـنُ

وَدَاوِ قَلْبَـكَ مِنْ قَبْـلِ المَمَـاتِ فَمَـا
يُجْـدِي الـدَّوَاءُ بِمَيْتٍ بَعْـدَ مَـا دَفَنُـوا

بِمَـرْهَـمِ التَّوْبَـةِ الصِّدْقِ النَّصُـوْحِ فَذَا
هُـوَ الدَّوَاءُ لِـذَاكَ الدَّاءِ لَـو فَـطِنُـوا

وَنَـارُ ذَنْبِـكَ تُـطْفِيْهَـا الـدُّمُـوْعِ إذَا
أَثـارَهَـا الخَـوْفُ مِنْ مَـوْلاَكَ وَالحَـزَنُ

بَـادِرْ بِهَـذَا الـدَّوَا مِنْ قَبْـلِ مِيْتَتِـهِ
فَمَا لِسَهـمِ الـقَضَـا مِـنْ دُوْنِـهِ جُنَـنُ

وَرُبَّ شَـخْصٍ تَـوَفَّـى قَـبْـلَهُ وَثَـوَى
فِي صَـدْرِهِ فَهُـوَ قَبْـرٌ وَالحَشَـا كَفَنُ

تَـرَاهُ فِي النَّاسِ يَمْشِيْ حَـامِلاً جَـدَثاً
فَهَــلْ بِـأَعْجَبَ مِنْ هَــذَا أَتَى الـزَّمَنُ

فَـأَسْـأَلُ اللَّهَ تَـوْفِيْقَـاً يَكُـونُ بِـهِ
حُسْنُ الخِتَـامِ فَفِيْـهِ الفَـوْزُ مُـرْتَهَنُ

فَفِيْ الصَّلاةِ على خَيْرِ الوَرَىٰ وَعَلَى الآ
آلِ الكِـرَامِ مَـعَ التَّسْلِيْمِ يَقْـتَـرِنُ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمدٍ وَعَلى آلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْــلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنا اللّهُ وَايَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ أَنَّ تَوْثِيْقَ عُرَى المودَّةِ بَيْنَ المُسْلِمين وَتَصْفِيَةَ القُلُوبِ مِن الغِلِّ وَالحِقْدِ وَالحَسَدِ ، وَالحِرْصَ عَلى مَا يَجْلِبُ المَودَّةَ وَالتَّآلُفَ والتَّنَاصُرَ وَالتَّعَاضُدَ ، وَتَجَنُّبَ ما يُوْغِرُ الصُّدُوْرَ وَيُوْرِثُ العَدَاوَةَ وَاجِبٌ تَقْتَضِيْهِ الأُخُوّةُ الايْمَانِيّةُ ، وَالإِيْمَانُ لا يَكُونُ تَامّاً إلاَّ بِذَلِكَ .

وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ فَقَالَ ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً وَلَا تَفرَّقُوا ﴾ فَأَمَرهُمْ بالجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيْثُ مُتَعَدِّدَةٌ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالأمْرِ بالاجْتِمَاعِ وَالائْتِلَافِ .

وَلَمَّا كَانَ الصُّلْحُ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ أَفْراداً أَوْ جَمَاعَاتٍ يُثْمِرُ إِحْـلَالَ الأُلْفَةِ مَكَانَ الفُرْقَةِ وَاسْتِئْصَالَ دَاءِ النِّزَاعِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَفْحِلَ وَحَقْنَ الدِّمَاءِ التِيْ تُرَاقُ بَيْنَ الطَّوَائِفِ المُتَنَازِعَةِ .

وَتَوْفِيْرَ الأمْوَالِ التِي تُنْفَقُ لِلْمُحَامِيْنَ بالحَقِّ وَالبَاطِلِ وَتَوْفِيْرَ الرُّسُومِ وَالنَّفَقَاتِ الأُخْرَى وَتَجَنُّبَ إِنْكَارِ الحَقَائِقِ التِيْ تَجُرُّ إِليها الخُصُوْمَاتُ وَتَرْكَ شَهَادَةِ الزُّوْرِ وَتَجَنُّبَ المشَاجَرَاتِ والاعْتِدَاءَاتِ عَلى الحُقُوقِ وَالنُّفُوسِ وَتَفرُّغَ النُّفُوسِ لِلْمَصَالِحِ بَدَلَ جِدَالِهَا وَانْهِمَاكِهَا في الكَيْدِ لِلْخُصُومِ إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُثْمِرُهُ الصُّلْحُ أَمَرَ اللهُ بِهِ وَحَثَّ عَلَيْهِ .

قَالَ اللّهُ تَعَالَى ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُم ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَانْ طَائِفَتَانِ مِن المُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقْسِطِيْنَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّمَا المؤْمِنُونَ اخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُم ﴾

وَقَالَ ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ .

وَحَثَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ عَلى الصُّلْحِ وَأَصْلَحَ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَعَنْ أَبِي العَبَّاسِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَلَغَهُ أَنَّ بَنِي عَمْرو بْن عَوْفٍ كانَ بَيْنَهُم شَرٌّ فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلَمَ يُصْلِحُ بَيْنَهُم في أُنَاسٍ مَعَهُ الحَدِيْثُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَلَقَدْ بَلَغَت العِنَايَةُ بالصُّلْحِ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ إلى أَنَّهُ رُخِّصَ فِيْهِ بالكَذِبِ رَغْمَ قَبَاحَتِهِ وَشَنَاعَتِهِ وَشِدَّةِ تَحْرِيْمِهِ ، وَعَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النبي صَلى اللهُ عَليه وسَلم قَالَ : « لَمْ يَكْذِبْ مَنْ نمى بَيْنَ اثْنَيْن لِيُصْلِحَ بَيْنَهُم » .

وفي رواية لَيْسَ بالكاذِبِ مَنْ أَصْلَحَ بينَ الناسِ فَقالَ خَيْراً أَو نَمى خَيْراً رَوَاهُ أبُوا دَاوُدَ ،وفي رِوَايَةٍ لِمُسْلِم قَالَتْ وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ في شَيءٍ مِمَّا يَقُولُه الناسُ إلَّا في ثلاثٍ يَعْنِي الحَرْبَ وَالاصْلَاحَ بَيْنَ النّاسِ وَحَدِيْثُ الرَّجُل امْرَأَتَهُ وَحَدِيْثَ المَرْأةِ زَوْجَهَا ، أَيْ قَالَ خَيْراً على وَجْهِ الاصْلَاحِ وَلَيْسَ المُرَادُ نَفْيَ ذَاتِ الكَذِبِ بَلْ نَفْيُ اثْمِهِ فالكذبُ كذِبٌ وَإِنْ قِيْلَ لِلإِصْلَاحِ أو غَيْرِهِ وَإِنَّما نُفِيَ عَنَ المُصْلِح كَوْنُه كَذَّاباً باعْتِبَارِ قَصْدِه .

وَهَذِهِ أُمُوْرٌ قَدْ يَضطَرُّ الانْسَانُ فِيْهَا إلى الزّيَادَةِ في القَوْلِ وَمُجَاوزَةِ

الصّدْقِ طَلَباً لِلسَّلامَةِ وَدَفْعاً لِلضَّرَرِ وَرَخّصَ في اليَسِيْرِ في مِثْلِ هَذا لِمَا يُؤَمِّلُ فيهِ من الصَّلاحِ ، وَالكَذِبُ بينَ اثْنَيْنِ في الاصْلاحِ أَنْ يَنْمِي مِنْ أَحَدِهِمَا إلى صَاحِبِهِ خَيْراً وَيُبَلِّغُه جَمِيْلاً وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَمِعَهُ مِنْهُ بِقَصْدِ الإِصْلاحِ ، وَالكَذِبُ في الحَرْبِ أَنْ يُظْهِرَ في نَفْسِهِ قُوَّةً وَيَتَحَدَّثَ بِمَا يُقَوّي بِهِ أَصْحَابَهُ وَيَكِيْدُ بِهِ عَدُوّهُ وَيُوهِنُهُ وَيُشَتِّتُ فِكْرَهُ . وَالكَذِبُ لِلزَّوْجَةِ أَنْ يَعِدَهَا وَيُمَنِّيَهَا وَيُظْهِرَ لَهَا أَكْثَرَ مِمَّا فِي نَفْسِهِ لِيَسْتَدِيْمَ صُحْبَتَهَا وَيَتَأَلَفها وَيُصْلِحَ بِهِ خُلُقَهَا .

وَبَلَغَتْ العِنَايَةُ بِالصُّلْحِ بَيْنَ النَّاسِ إلى أَنَّ المُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ يُعْطَى مِن الزَّكاةِ أَوْ مِنْ بَيْتِ المالِ لأَداءِ مَا تَحَمَّلَهُ مِنَ الدُّيُونِ في سَبِيْلِ الاصْلاحِ وَإِنْ كَانَ قادِراً على أدائِهَا مِنْ مَالِهِ .

وَأَخْبَرَ صَلى اللهُ عليه وَسَلم أَنَّ الاصْلاحَ بَيْنَ النّاسِ تِجارَةٌ وَأَنَّهُ مِمّا يَرْضَاهُ اللهُ وَرَسُولُه ، فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيّ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم قَالَ لأَبِي أَيُّوبَ أَلاَ أَدُلُّكَ على تِجارَةٍ قَالَ بَلَى قَالَ صِلْ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَقَرِّبْ بَيْنَهُم إِذَا تَبَاعَدُوا رَوَاهُ البَزَّارُ وَالطَّبَرانِيّ ، وَعِنْدَهُ ألا أَدُلُّكَ عَلى عَمَلٍ يَرْضَاهُ اللهُ وَرَسُولُه قَالَ بَلى قالَ صِلْ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَقَرِّبْ بَيْنَهُم إِذَا تَبَاعَدُوا .

وَرُوِيَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَن النّبي صَلى اللهُ عليه وَسَلم قَالَ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ أَصْلَحَ اللّهُ أَمْرَهُ وَأَعْطَاهُ بِكُلِّ كِلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا عِتْقَ رَقَبَةٍ وَرَجَعَ مَغْفُوراً لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ رَوَاهُ الاصْبِهَانِيّ وَهُوَ حَدِيْثٌ غَرِيْبٌ جِدًّا .

اللهُمَّ يَا مَنْ فَتَحَ بَابَهُ لِلطَّالِبِيْنَ وَأَظْهَرَ غِنَاهُ لِلرَّاغِبِيْنَ أَلْهِمْنَا مَا أَلْهَمْتَ عِبَادَكَ الصَّالِحِيْنَ وَأَيْقِظْنَا مِنْ رَقْدَةِ الغَافِلِيْنَ إِنَّكَ أَكْرَمُ مُنْعِمٍ وَأَعزُّ مُعِيْنٍ وَاغْفِرْ

لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ لمَّا كَانَ الانْسَانُ مُكَلَّفاً بالسَّعْي وَالعَمَلِ لِطَلَبِ الرِّزقِ من وُجُوهِهِ المشْرُوعَةِ كان حَقّاً عليه أنْ يَصُونَ نَفْسَه عَنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ .

وَأَنْ لا يَمُدَّ يَدَهُ لِسُؤَالِهم وَلاَ يَتَقَدَّمَ إليهم لِطَلَبِ حُطامِ الدُّنْيَا إلاَّ عِنْدَ الضَّرُورةِ أَوِ الحَاجَةِ الشَّدِيْدَةِ لأَنَّهُ إذَا قَعَدَ عن العَمَلِ وَلَزِمَ البَطَالَةَ وَالكَسَلَ وَنَظَرَ لِمَا في أَيْدِي النَّاسِ مِنْ أَوْسَاخِهم سَاءَتْ حَالُهُ ، وَضَاعَتْ آمالُه ، وَضَعُفَ تَوكلُه ، وَضَاق عَيْشهُ ، وَانْحَطَّتْ نَفْسُهُ ، وَاعْتَادَ السُّؤَالَ الذِي لا يَنْفَكُّ عن ثَلاثَةِ أُمُورٍ مُحَرَّمَةٍ :

الأَوَّلِ : اظْهَارِ الشَّكْوَى مِنَ اللهِ تَعَالَى ، إذ السُّؤَالَ اظْهَارُ لِلفَقْرِ وَذِكرٌ لِقُصُورِ نِعْمَةِ اللهِ عنه ، وَهُوَ عَيْنُ الشَّكوى ، وَكَما أَنَّ العَبْدَ المَمْلُوكَ لَو جَعَلَ يَسْأَلُ وَأَنَّهُ مَا يَجِدُ شَيْئاً لَكَانَ سُؤَالُهُ تَشْنِيْعاً عَلى سَيِّدِه وَلا يَرْضى بِذَلِكَ وَلِلّهِ المَثَلُ الأَعْلَى .

وَلاَ سِيَّمَا إذا أَتَى إلى بَيْتِ اللهِ يَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، ثُمَّ قَامَ مِنْ حِيْنِ مَا يُسَلِّمُ الامَامُ وَجعَلَ يَشْرَحُ حَالَهُ وَفَقْرَهُ وَأَوْقَفَ النَّـاسَ عَنْ تَهْلِيْلِهم ، وَتَسْبِيْحِهِمْ ، وَتَكْبِيْرِهِمْ ، وَالمَسَاجِدُ لَمْ تُبْنَ إلا لِذِكْرِ اللهِ ، وَالصَّلاَةِ فِيْهَا وَقِرَاءةِ القرْآنِ .

الأَمْرِ الثَّانِيْ : أَنَّ في سُؤَالِ النَّاسِ إذْلاَلٌ لِنَفْسِ السَّائِلِ ، وَلَيْسَ لِلإِنْسَانِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ وَيُخْضِعَهَا إلاَّ لِلهِ ، الذِي في اذْلالِهَا عِزُّهُ ، فَأَمَّا سَائِرُ

الخَلْقِ فَإِنَّهُم عِبَادٌ أَمْثَالُه فَلاَ يُذِلُّ لَهُم نَفْسَهُ .

ثَالِثاً : أَنَّ فِيْهِ ظُلْمٌ لِنَفْسِه إلاّ عِنْدَ الضَّرُورَةِ أَوْ الحَاجَةِ الشَّدِيْدَةِ وَفِيْهِ أَيْضاً إِيْذَاءٌ لِلمَسْئُولِ خُصُوصاً إذا كَانَ مَعَ إِلْحَاحٍ ، وَالإِيْذَاءُ حَرَامٌ ، فَأَيُّ عَاقِلٍ يَرْضَى لِنَفْسِهِ بِهَذِهِ الحَالَةِ التَّعِسَةِ ، بَلْ كَيْفَ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عُضْواً أَشَلاً في الهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ لاَ يُقَامُ لَهُ وَزْنٌ وَلاَ تُقَامُ لَهُ قِيْمَةٌ .

وَقَدْ أَثْنَى اللهُ عَلى الذِيْنَ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَقَالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ « لَيْسَ المِسْكِيْنُ الذِيْ يَطُوفُ عَلى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللّقْمَةُ وَاللقْمَتَانِ وَالتّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَان ، وَلَكِن المِسْكِيْنُ الذِيْ لا يَجدُ غِنىً يُغْنِيْهِ وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُوْمُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ .

فَفِيْ زَمَنِنَا الذِي اخْتَلَطَ فِيْهِ الحَابِلُ بالنَّابِلِ وَصَارَ عِنْدَهُمْ الحَلاَلُ مَا وَصَلَ إِلى اليَدِ وَذَهَبَ عَنْهُم الوَرَعُ وَالابْتِعَادُ عَن الشُّبُهَاتِ ، عَلى الانْسَانِ أَنْ يَبْذُلَ جُهْدَهُ وَيَتَثَبَّتَ وَلاَ يَبْذِلُ زَكَاتَهُ لِكُلِّ مَنْ مَدَّ يَدَهُ ، بَلْ يَسْأَلُ بِدِقَّةٍ ، وَيَتَحَقَّقُ مِن الأَوْرَاقِ التِي تُعْرَضُ عَلَيْهِ ، التِي صَارَتْ تُصَوَّرُ وَتُبَاعُ وَتُشْتَرَى .

وَرُبَّمَا حَصَلَ عَلى أَضْعَافِ مَا فِيْهَا وَلَوْ أَنَّ هَؤُلآءِ المتَسَوِّلِيْنَ الشَّحَّاذِيْنَ اسْتَعْمَلُوا في طَرِيْقٍ مُنْتِجٍ مِن تِجَارَةٍ أو غَيْرِهَا مَا يَصِلُ إِلى أَيْدِيْهِم مِن الصّدَقَاتِ لما بَقِيَ في الأمَّةِ مِنْهُم مُتَسَوّلٌ ، وَلَكِنْ هؤلآءِ قَوْمٌ أَلِفُوا هَذَا العَيْشَ وَرَكَنُوا إِلَيْهِ لاَ يَدْفَعُهم إِلَيْهِ فَقْرٌ وَلاَ يَرُدُّهُمْ عَنْهُ غِنَى ، وَكَمْ مِمَّنْ اكْتُشِفَ فَصَارَ عِنْدَهُ ثَرْوَةٌ ، وَهَذَا سَبَبُهُ عَدَمُ التّثَبُّتِ وَاجْرَاء العَادَاتِ بِدُوْنِ سُؤَالٍ هَلْ اغْتَنَى أَمْ لا .

وَقَدْ بَيَّنَ صَلى اللهُ عليه وسلم مَنْ يَحِلُّ لَهُ السُّؤَالُ وَذَلِكَ فِيْمَا وَرَدَ عَنْ

قَبيصَةِبْنِ مُخَارِقٍ الهِلاَلِيّ قَالَ تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَسْأَلُه فِيْهَا ، فَقَالَ أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيْنا الصَّدَقَةُ فآمر لكَ بِهَا ، ثم قَالَ يَا قَبِيْصَة إنَّ المَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ إلا لأَحَدِ ثَلاَثَةٍ : رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالةً فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيْبَهَا ثم يُمْسِكُ ، أَو رَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيْبَ قِواماً مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ .

وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُوْمَ ثَلاَثَةٌ مِنْ ذَوِيْ الحِجَى مِنْ قَوْمِهِ يَقُولُونَ لَقَدْ أَصَابَتْ فُلاناً فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيْبَ قِواماً مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ ـ فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ المَسْأَلةِ يَا قَبِيْصَةُ سُحْتٌ يَأْكلُها صَاحِبُهَا سُحْتَا رَوَاهُ مُسْلِم .

وَقَدْ ذَكَرْنَا الأَحَادِيْثَ التِي تَتَضَمَّنُ التَّغْلِيْظَ الشَّدِيْدَ في السُّؤَالِ مِنْ غيرِ ضَرُورةٍ وَذَلك في مَوْضُوعِ « مَنْ تَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ » .

شِـعْراً :

غَفَلْتُ وَحَادِيْ المَوْتِ في أَثَرِيْ يَحْدُوْ
فَإِنْ لَمْ أَرُحْ يَوْمِيْ فَلا بُدَّ أَنْ أَغْـدُ
أُنَـعِّمُ جِسْمِـيْ بِـاللِّبَـاسِ وَلِـيْنِـهِ
وَلَيْسَ لِجِسْمِيْ مِنْ لِبَاسِ البِلَى بُدُّ
كَـأَنِّيْ بِهِ قَـدْ مَـرَّ في بَـرْزَخِ البِلَى
وَمِنْ فَـوْقِـهِ رَدْمٌ وَمِنْ تَحْتِـهِ لَحْـدُ
وَقَـدْ ذَهَبَتْ مِنِّيْ المَحَاسِنُ وَانْمَحَتْ
وَلَمْ يَبْقَ فَوْقَ العَظْمِ لَحْمٌ وَلاَ جِلْدُ

أرى العُمْـرَ قَـدْ وَلَّى وَلَمْ أُدْرِك المُنَى
وَلَـيْسَ مَعِيْ زَادٌ وَفي سَفَـرِيْ بُـعْـدُ

وَقَـدْ كُنْتُ جَاهَـرْتُ المُهَيْمِنَ عَاصِيـاً
وَأحْـدَثْـتُ أَحْـدَاثـاً وَلَـيْسَ لَهَا رَدُّ

وَأَرْخَيْتُ خَوْفَ النّاسِ سِتْراً مِنْ الْحَيَا
وَمَا خِفْتُ مَنْ سِرّيْ غَداً عِنْدَهُ يَبْدُو

بَلَى خِفْتُـهُ لَكِـنْ وَثِقْتُ بِحِلْمِـه
وَأَنْ لَيسَ يَعْفُـو غَيْرُهُ فَلَهُ الحَمْـدُ

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ شَيءٌ سِوَى المَوْتِ وَالبِلَى
عَنِ اللّهْوِ لَكِنْ زَالَ عَنْ رَأْيِنَا الرُّشْدُ

عَسَى غَـافِرُ الـزَّلَّاتِ يَغْفِـرُ زَلَّتِيْ
فَقَـدْ يَغْفِرُ المَـوْلَى إِذَا أَذْنَبَ العَبْـدُ

أَنَـا عَبْدُ سُـوْءٍ خُنْتُ مَـوْلايَ عَهْـدَهُ
كَـذَلِكَ عَبْـدُ السُّـوءِ لَيْسَ لَـهُ عَهْـدُ

فَكَيْفَ إِذَا أَحْـرَقْتَ بـالنَّـارِ جُثَّتِيْ
وَنَـارُكَ لَا يَقْوَى لَهَـا الحَجَرُ الصَّلْدُ

أَنَا الفَرْدُ عِنْدَ المَوْتِ وَالفَرْدُ في البِلَى
وَأَبْعَثُ فَـرْداً فَـارْحَمْ الفَـرْدَ يَـا فَـرْدُ

اللَّهُمَّ افْتَحْ لِدُعَائِنَا بَابَ القَبُولِ وَالاجَابَةِ وارْزُقْنَا الاقْبَالَ عَلى طَاعَتِكَ والانَابَةَ وَبَارِكْ في أَعْمَالِنَا وَأَعْمَارِنَا وَأَجْزِلْ لَنَا الأَجْرَ والاثَابَةَ وَآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ

المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْــلٌ)

وَأَخْبَرَ صلى اللهُ عليه وسلم بِأَنَّ دَرَجَةَ المُصْلِحِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلُ مِنْ دَرَجَةِ الصَّائِمِيْنَ وَالمُصَلِّيْنَ وَالمُتَصَدِّقِيْنَ فَعَنْ أَبِيْ الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِيَّامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ قَالُوا بَلَى قَالَ إِصْلاَحُ ذاتِ البَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ ، وَقَالَ التِّرمِذيّ حَدِيْثٌ صَحِيْحٌ قَالَ وَيُرْوَى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ هِيَ الحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّيْنَ .

وَلاَ غَرْوَ إِذَا ارْتَفَعَتْ دَرَجَةُ المُصْلِحِ البَاذِلِ جُهْدَهُ المُضَحّي بِرَاحَتِهِ وَأَمْوَالِهِ في رَأْبِ الصَّدْعِ وَجَمْعِ الشَّتَاتِ وَإِصْلاحِ فَسَادِ القُلُوبِ ، وَإِزَالَةِ مَا في النـفُوسِ من ضَغِيْنَةٍ وَحِقْدٍ وَالعَمَلِ على إِحْكَامِ الرَّوَابِطِ لِلإِلْفَةِ وَالإِخاءِ وَإِطْفَاءِ نَارِ العَدَاوَةِ وَالفِتَنِ .

كَمَا هِيَ وَظِيْفَةُ المُرْسَلِيْنَ لا يَقُوْمُ بِهَا إِلَّا أُوْلَئِكَ الذِيْنَ أَطَاعُوا رَبَّهم وَشَرُفَتْ نُفُوسُهم وَصَفَتْ أَرْوَاحُهُمْ يَقُومُونَ بِهِ لأَنَّهم يُحِبُّونَ الخَيْرَ والهُدُوءَ وَيَكْرَهُوْنَ الشَّرَّ حَتَّى عِنْدَ غَيْرِهِم مِنَ النَّاسِ وَيَمْقِتُونَ الخِلاَفَ حَتَّى عِنْدَ غَيْرِهِم مِنَ الطَّوَائِفِ وَيَجِدُّوْنَ في إِحْبَاطِ كَيْدِ الخَائِنِيْنَ .

وَلَوْ أَنَّنَا تَتَبَّعْنَا الحَوَادِثَ وَرَاجَعْنَا الوَقَائِعَ لَوَجَدْنَا أَنَّ مَا بالمَحَاكِمِ مِنْ

قَضَايَا وَمَا بالمَرَاكِزِ وَالنِّيَابَاتِ مِنْ خُصُوْمَاتٍ وَمَا بِالمُسْتَشْفَيَاتِ مِنْ مَرْضَى ، وَمَا بِالسُّجُوْنِ مِنْ بُؤَسَاءِ يَرْجِعُ أَكْثَرُهُ إلى إِهْمَالِ الصُّلْحِ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى عَمَّ الشَّرُّ القَرِيْبَ وَالبَعِيْدَ وَأَهْلَكَ النُّفُوسَ وَالأَمْوَالَ وَقَضَى عَلى الأَواصِرِ وَقَطَعَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ مِنْ وَشَائِجِ الرَّحِمِ وَالقَرابَةِ وَذَهَبَ بِرِيْحِ الجَمَاعَةِ وَوَبَعَثَ عَلى الفَسَادِ في الأَرْضِ .

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ اليَوْمَ وَجَدَ أَنَّ كثِيْراً مِنْهُم قَدْ فَسَدَتْ قلُوبُهم وَخَبُثَتْ نِيَّاتُهم لأَنَّهُم يُحِبُّونَ الشَّرَّ وَيمِيْلُون إليهِ ويَعْمَلُونَ على نَشْرِهِ بَيْنَ النّاسِ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَتْرُكُون المُتَخَاصِمَيْنِ في غَضَبِهِمْ وَشَتَائِمِهِمْ وَكَيْدِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ حَتَّى يَسْتَفْحِلَ الأَمْرُ .

وَيَشْتَدُّ الشَّرّ وَيَسْتَحْكِمُ الخِصَامُ بَيْنَهم فَيَنْتَقِلُوا مِن الكَلَامِ إلى القَذْفِ وَالطَّعْنِ وَمِنْ ذَلِكَ إلى اللَّطْمِ وَمِن اللَّطْمِ إلى العُصِيِّ وَمِن العُصِيِّ إلى السِّلاحِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إلى المَرَاكِزِ ثُمَّ إلى السُّجُوْن وَالنّاسُ في أَثْنَاءِ ذَلِك كُلِّه يَتفَرَّجُوْنَ وَيتَغامَزُونَ وَيَتَتَبَّعُونَ الحَوادِثَ وَيَلْتَقِطُوْنَ الأَخْبَارَ ، بَلْ قَدْ يُلْهِبُونَ نَارَ الفِتْنَةِ وَالعَدَاوَةِ وَلا يَزالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَقْهَرَ القَوِيُّ الضَّعِيْفَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ بالبَاطِلِ وَالزُّوْرِ وَالبُهْتَانِ بِدُوْنِ خَوْفٍ مِن اللهِ وَلاَ حَيَاءٍ مِن النّاسِ .

وَتَكُونُ النَّتِيْجَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ضَيَاعُ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ مَالٍ أَو عَقارٍ وَقَدْ كَانَ يَكْفِيْ لإزَالَةِ مَا في النُّفُوسِ مِنَ الأَضْغانِ وَالأَحْقَادِ وَالكَرَاهَةِ ، كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ عَاقِلٍ لَبِيْبٍ ناصِحٍ مُخْلِصٍ تَقْضِي عَلى الخُصُومَاتِ في مَهْدِهَا فَيَتَغَلَّبُ جَانِبُ الخَيْرِ وَيَرْتَفِعُ الشرُّ وَتَسْلَمُ الجَمَاعَةُ مِنَ التّصَدُّعِ .

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ سَمِعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم

صَوْتَ خُصُومٍ بالبَابِ عَالِيَةٌ أَصْوَاتُهُمَا ، إِذَا أَحدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُه في شَيءٍ وَهُوَ يَقُولُ وَاللهِ لَا أَفْعَلُ فَخَرَجَ عَليْهِمَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم فقَالَ أَيْنَ المُتَأَلِّيْ عَلَى اللّهِ لَا يَفْعَلُ المَعْرُوفَ ، فَقَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللّهِ فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحبَّ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فَعِنْدَمَا رَأَى النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يَسْتَنْكِرُ عَمَلَهُ عَدَلَ عَنْ رَأْيِهِ وَاسْتَجَابَ لِفِعْلِ الخَيْرِ وَقَدْ قَامَتْ في نَفْسِهِ دَوَافِعُهُ إِرْضَاءً لِلّهِ وَلِرَسُوْلِهِ .

وَالشَّاهِدُ مِنْ ذَلِكَ خُرُوْجُهُ صلى الله عليه وسلم لِلإِصْلَاحِ بَيْنَهُم فَالدِّيْنُ الاسْلامِيُّ الحَنِيْفُ أَوجَبَ عَلَى العُقَلَاءِ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَتَوَسَّطُوا بَيْنَ المُتَخَاصِمَيْنِ وَيَقُومُوْا باصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَيُلْزِمُوا المُعْتَدِيْ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ حَدِّهِ دَرْأً لِلْمَفَاسِدِ المُتَرَتِّبَةِ عَلَى الخِلَافِ وَالنِّزَاعِ وَمَنْعاً لِلْفَوْضَى وَالخِصَامِ ، وَأَقْوَمُ الوَسَائِلِ التي تَصْفُو بِهَا القُلُوْبُ مِنْ أَحْقَادِهَا أَنْ يَجْعَلَ كُلُّ امْرِىءٍ نَفْسَهُ مِيْزَاناً بَيْنَهُ وَبَيْنَ اخْوَانِهِ المُسْلِمِيْنَ فَمَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ يُحِبُّهُ لَهُمْ وَمَا يَكْرَهُهُ لِنَفْسِهِ يَكْرَهُهُ لَهُمْ .

وَبِذَلِكَ تَسْتَقِيْمُ الأُمُـورُ باذْنِ اللّهِ ، قَالَ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّم لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَهَذِهِ الطَّرِيْقَةُ هِيَ التِيْ كَانَ عَلَيْهَا السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنَ المُسْلِمِيْنَ وَكَانُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ مُفْلِحِيْنَ .

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوْبَنَا مِنَ الحَسَدِ وَالحِقْدِ وَالبُغْضِ لِعِبَادِكَ المؤ مِنِيْنَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

العَدْلُ : ضِدُّ الجَوْرِ وَهُوَ الاعْتِدَالُ وَالاسْتِقَامَةُ وَالمَيْلُ إِلَى الحَقِّ . وَشَرْعاً : هُوَ الاسْتِقَامَةُ عَلى طَرِيْقِ الحَقِّ بالاجْتِنَابِ عَمَّا هُوَ مَحْظُورٌ دِيْناً : وفي اصْطِلَاحِ الفُقَهَاءِ العَدَالَةُ اسْتِوَاءُ أحْوَالِهِ في دِيْنِهِ وَاعْتِدَالُ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .

وَيُعْتَبَرُ لَهَا شَيْئَانِ الصَّلاحُ في الدِّيْنِ وَاجْتِنَابُ المُحَرَّمِ ، وَالعَدَالَةُ تَارَةً يُقَالُ لهَا هِيَ الفضَائِلُ كلُّها مِنْ حَيْثُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِن الفَضَائِلِ عَنْهَا وَتَارَةً يُقَالُ لها هِيَ أَجْمَلُ الفَضَائِلِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ صَاحِبَهَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا في نَفْسِهِ وفي غَيْرِهِ .

وَقِيْلَ في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ اللَّهُ الذي أَنْزَلَ الكِتَابَ بالحَقِّ وَالمِيْزَانَ ﴾ أيْ العَدْلُ والانصَافُ ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيْزَانَ ﴾ وَقَوْلُه ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الكِتَابَ وَالمِيْزَانَ ﴾ قَالَ قُتَادَةُ وَمُجَاهِدُ وَمُقَاتِلُ : العَدْلُ . وَسُمِّيَ العَدْلُ مِيزَاناً لأَنَّ المِيْزَانَ آلَةُ الإِنْصَافِ وَالتَّسْوِيَةِ ،وَعَبَّرَ عَنْ العَدَالَةِ بِالمِيْزَانِ إِذْ كَانَ مِنْ أَثرِهَا ، وَمِنْ أَظْهَرِ أَفْعَالِهَا لِلحَاسَّةِ .

وَمِنْ مَزِيَةِ العَدْلِ أَنّ الجَوْرَ الذِيْ هُوَ ضِدُّ العَدْلِ لا يَتَسَبَّبُ إِلَّا بِهِ فَلَوْ أَنَّ لُصُوصاً أَوْ نَحْوَهُمْ تَشَارَطُوا فِيْمَا بَيْنَهُمْ شَرْطاً فَلَمْ يُرَاعُوا العَدَالَةَ فِيْهِ لَمْ يَنْتَظِمْ أَمْرُهُم . وَمِنْ فَضْلِهَا أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ تَتَلَذَّذُ بِسَمَاعِهَا وَتَتَأَلَّمُ مِنْ ضِدِّهَا وَلِذَلِكَ حَتَّى الجَائِرُ يَسْتَحْسِنُ عَدْلَ غَيْرِهِ إِذَا رَآهُ أَو سَمِعَهُ .

وَالعَدْلُ يَدْعُو إِلى الإِلْفَةِ وَالمَحبَّةِ وَيَبْعَثُ عَلى الطَّاعَةِ وَتَعْمُرُ بِهِ البِلَادُ وَتَنْمِيْ بِهِ الأَمْوَالُ وَيَكْثُرُ مَعَهُ النّسْلُ وَيَأْمَنُ بِهِ السُّلطَانُ لِحُصُولِ الأَمْنِ العَامِّ وَانبِسَاطِ الآمَالِ .

وَقَدْ قالَ المرْزِبَانُ ، رَئِيْسُ المَجُوسِ لِعُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ لَمَّا رَآهُ مُتبَذِّلاً لاَ حَارِسَ لَهُ عَدلْتَ فأَمِنْتَ فنمْتَ .

وَفِيْ ذَلِكَ يَقُوْلُ الشَّاعِرُ :

وَرَاعَ صَاحِبَ كِسْرَى أَنْ رَأَى عُمَراً
بَيْنَ الرَّعِيَّةِ عُطْلاً وَهُوَ رَاعِيْهَا
وَعَهْدُهُ بِمُلُوكِ الفُرْسِ أَنَّ لَهَا
سُوْراً مِنَ الجُنْدِ وَالأَحْرَاسِ يَحْمِيْهَا
رَآهُ مُسْتَغْرِقاً فِي نَوْمِهِ فَرَأَى
فِيْهِ الجَلاَلَةَ فِي أَسْمَى مَعَانِيْهَا
فَوْقَ الثَّرَى تَحْتَ ظِلِّ الدَّوْحِ مُشْتَمِلاً
بِبُرْدَةٍ كَادَ طُوْلُ العَهْدِ يُبْلِيْهَا
فَهَانَ فِي عَيْنِهِ مَا كَانَ يُكْبِرُهُ
مِنَ الأَكَاسِرِ وَالدُّنْيَا بِأَيْدِيْهَا
وَقَالَ قَوْلَةَ حَقٍّ أَصْبَحَتْ مَثَلاً
وَأَصْبَحَ الجِيْلُ بَعْدَ الجِيْلِ يَحْكِيْهَا
أَمِنْتَ لَمَّا أَقَمْتَ العَدْلَ بَيْنَهُمُوا
فَنِمْتَ نَوْمَ قَرِيْرِ العَيْنِ هَانِيْهَا

وَقَالَ النّبيّ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ فَأَمَّا المنجِيَاتُ فَالعَدْلُ في حَالةِ الغضَبِ وَالرِّضَا وَخَشْيَةُ اللهِ تَعَالى في السِّرِّ وَالعَلاَنِيَةِ وَالقَصْدُ في الغِنَى وَالفَقْرِ .

وَأَمَّا المُهْلِكَاتُ فَشُحٌّ مُطَاعٌ وَهوىً مُتَّبَعٌ وَاعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ ، وَالذِيْ يَجِبُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ الإِنْسَانُ العَدْلَ مَعَهُ أَوَّلاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّ العِزَّةِ جَلَّ وَعَلا بِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِهِ وَتَطْبِيْقِهَا بالعَمِلِ بِهَا .

فَأَعْظَمُ الحُقُوقِ عَلى الاطْلاَقِ حَقُّ اللهِ تَعَالَى عَلى عِبَادِهِ وَذَلِكَ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئَا ، قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوْن ﴾ وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ ﴾ وفي حَدِيْثِ مُعَاذٍ المتَّفَقِ عليهِ « حَقُّ اللهِ عَلى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئَا » فَمَنْ قَامَ بِهَذَا الحَقِّ فَعَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ . وَأَدَّى هَذَا الحَقَّ وَقَامَ بِحُقُوقِهِ مُخْلِصاً لِلّهِ ، فَقَدْ قَامَ بِأَعْظَمِ العَدْلِ ، وَمَنْ صَرَفَهُ لِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ جَارَ وَظَلَمَ ، وَعَدَلَ عَنِ العَدْلِ وَاسْتَحَقَّ العُقُوْبَةَ .

الثَّانِيْ : أَنْ يَعْدِلَ مَعَ نَفْسِهِ وَذَلِكَ بِحَمْلِهَا عَلى مَا فِيْهِ صَلاَحُهَا وَكَفُّهَا عَنَ القَبَائِحِ ثم بِالوُقُوفِ في أَحْوَالِهَا عَلى أَعْدَلِ الأَمْرَيْنِ مِنْ تَجَاوُزٍ أَوْ تَقْصِيْرٍ ، فَإِنَّ التّجَاوُزَ في الأَحْوَالِ جَوْرٌ عَلى النَّفْسِ وَالتَّقْصِيْرُ فِيْهَا ظُلْمٌ لَهَا لِمَنْعِهَا عَنْ كَمَالِهَا وَمَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ فَهُوَ لِغَيْرِهِ أَظْلَمُ وَمَنْ جَارَ عَلى نَفْسِهِ فَهُوَ عَلى غَيْرِهِ أَجْوَرُ ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُرَاعِ حُقُوْقَ نَفْسِهِ فَعَدَمُ مُرَاعَاتِهِ حُقُوْقَ غَيْرِهِ أَوْلَى وَأَحْرَى .

الثَّالِثُ : عَدْلُ الانْسَانِ فِيْمَنْ دُوْنَهُ كَالسُّلْطَانِ في رَعِيَّتِهِ وَالرَّئِيْس مَعَ صَحَابَتِهِ ، وَذَلِكَ بِأُمور : الأَوَّلُ اتبَاعُ المَيْسُورِ لَهُمْ وَتَرْكُ المَعْسُوْرِ وَحَذْفُهُ عَنْهُم وَتَرْكُ التَّسَلُّطِ وَالقَهْرِ بِالقُوَّةِ وَابْتِغَاءِ الحَقِّ في المَيْسُورِ وَيُقِيْمُ العَدْلَ فِيْهِمْ قَرِيْبِهِم وَبَعِيْدِهِمْ غَنِيِّهِمْ وَفَقِيْرِهِمْ وَأَنْ يَكُوْنُوا عِنْدَهُ في هَذَا سَواءٌ .

وَلَا يُقَصِّرُ شَيْئاً مِنْ وَاجِبِهِ مَعَ رَعِيَّتِهِ وَلَا يُهْمِلُ شَيْئاً يُرَقِّي أَبْدَانَهُم وَعُقُولَهُم وَأَخْلَاقَهُم وَيَحْفظُ عَلَيْهِمْ أَمْوَالَهُم وَدِمَاءَهُمْ وَأَعْرَاضَهُم وَيَكُوْنُ لَهُمْ مَثَلاً أَعْلَى في مُعَامَلَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً بِالعَدْلِ وَالانْصَافِ ، فَالحَاكِمُ كَالقَلْبِ مِن الجَسَدِ إذا صَلُحَ صَلُحَ الجَسَدُ ، فَإِذَا صَلَحِ الرَّاعِيْ صَلَحَتْ الرَّعِيَّةُ وَإذا فَسَدَ فَسَدَتْ ، فَلِهَذَا كَانَتْ مَسْؤُلِيَّةُ وُلَاةِ الأُمُورِ عَظِيْمَةٌ في نَظَرِ الشَّرِيْعَةِ الاسْلَامِيَّةِ .

وَقَدْ حَذَّرَ مِنْهَا النَّبي صلى الله عليه وسلم تَحْذِيْراً شَدِيْداً رُوِيَ عَنْ أَبِيْ ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قُلتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِيْ . قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلى مَنْكِبِيْ ، ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا ذَرّ إِنَّكَ ضَعِيْفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وإِنَّهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الذيْ عَلَيْهِ فِيْهَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَحَقُّهَا في نَظَرِ الدِّيْنِ أَنْ يَقُومَ بِكُلِّ شَيءٍ فِيْهِ مَصْلَحَةٌ لِلْمَحْكُومِيْنَ .

قَالَ عُمَرُ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ : وَاللّهِ لَوْ عَثرَتْ بَغْلَةٌ في العِرَاقِ لَوَجَدْتَنِيْ مسئولاً عَنْهَا ، فَقِيْلَ لِمَاذَا يا أَمِيْرَ المؤمنين ، فقالَ لِأَنَّنِيْ مُكَلَّفٌ باصْلَاحِ الطَّرِيْقِ . هذا مِثَالُ الحَاكِمِ العَدْلِ ، وَلَهَذَا جعَلَ اللهُ لَهُ فَضْلاً عَظِيْماً وَمَيَّزَهُ كَمَا سَيَأْتِي في الأَحَادِيْثِ .

وَرُوِيَ أَنَّ يَهُودِيّاً شَكَا عَلِيّاً إِلَى عُمَرُ في خِلَافَتِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، فقالَ عُمَرُ لِعَلِيّ بْنِ أَبِيْ طَالِبٍ : قِفْ بِجَوَارِ خَصْمِكَ يَا أَبَا الحَسَنِ ، فَوَقَفَ وَقَدْ عَلَا وَجْهَهُ الغَضَبُ فَبَعْدَ أَنْ قَضَى الخَلِيْفَةُ بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ قَالَ أَغَضِبْتَ يَا عَلِيُّ أَنْ قُلْتُ لَكَ قِفْ بِجَوَارِ خَصْمِكَ ، قَالَ لَا وَاللهِ يَا أَمِيْرَ المؤمنينَ ، وَلَكِنْ مِنْ كَوْنِكَ كَنَّيتَني بِأَبِيْ الحَسَن فَخَشِيْتُ مِنْ تَعْظِيْمِكَ إِيَّايَ أَمَامَ اليَهُودِيْ أَنْ يَقُولَ ضَاعَ العَدْلُ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ .

وَجَاءَ رَجُلٌ إلى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَأْخُذُ رِزْقَهُ وَكَانَ جُنْدِيّاً مِنْ جُنُودِ المسلمينَ ولكنّهُ كانَ في الجَاهِلِيّةِ قَدْ قتل أَخاً لِعُمَرَ بْنِ الخَطَابِ فَلَمَّا رَآهُ عُمَرُ ارْبَدَّ وَجْهُهُ ، وَقَالَ لَهُ يَا هَذَا إِنّي لاَ أُحِبُّكَ حَتّى تُحِبَّ الأَرْضُ الدَّمَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ لِعُمَرَ أَوَ مَانِعِي ذَلِكَ عِنْدَكَ حقاً مِنْ حُقُوقِ اللّهِ فَقَالَ عُمَرُ اللَّهُمَّ لاَ .

فَقَالَ الرَّجُلُ مَا يَضِيْرُنِي بُغْضُكَ إِيَّايَ إِنَّمَا يَأْسَى عَلَى الحُبِّ النِّسَاءُ فَقَدْ عَرَفَ الرّجلُ مِنْ وَرَعِ عُمَرَ وَدِيْنِهِ أَنَّ شِدَّةَ غَضَبِهِ وَغَيْظِهِ وَحَنَقِهِ عَلَيْهِ وَكَراهِيَتَهُ لَهُ لاَ تَخْرُجُ بِهِ عن العَدْلِ إِلَى الظُّلْمِ فَهُوَ لِمَا عَلِمَ مِنْ عَدْلِهِ وَثِقَتِهِ بِدِيْنِهِ أَمِنَ مِنْ بَطْشِهِ .

وَمِمَّا يَجِبُ عليهِ أَنْ يَسْتَنِيْبَ لِكُلِّ عَمَلٍ الأَكْفَأَ الأَمِيْنَ وَلِيَحْذَرَ أَنْ يُوَلِّيْ عَلَيْهِمْ رَجُلاً وفي رَعِيَّتِهِ خَيْرٌ مِنْهُ .

فَعَن ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَن اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنْ عِصَابَةٍ وَفِيْهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلّهِ مِنْهُ فقدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالمؤمنينَ رَوَاهُ الحَاكِمُ .

وَعَنْ يَزِيْدَ بْنِ أَبِيْ سُفْيَانَ قَالَ قَالَ لِيْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ رَضِيَ اللهُ عنه حِيْنَ بَعَثَنِيْ إلى الشَّامِ يا يَزِيْدُ إِنَّ لَكَ قَرابةً عَسِيْتَ أَنْ تُؤْثِرَهُم بالامَارَةِ وَذلِكَ أَكْثَرُ مَا أخافُ عليك بَعْدَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ المسلمينَ شَيْئاً فَأَمَّرَ عليهم أَحَداً مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ لاَ يَقْبَلُ اللهُ منه صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ رَوَاهُ الحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيْحُ الاسْنَادِ .

وَعَلى الامَامِ أَنْ يُوْصِيَ مَن اسْتَنَابَهُ باقامَةِ العَدْلِ وَيُحَذِّرَهُمْ مِن الجَوْرِ وَظُلْمِ العِبَادِ في الدِّمَاءِ وَالأَمْوَالِ وَالأَعْرَاضِ ، وَيُذَكِّرَهُمْ حَدِيْثَ أبي هُرَيرة

عن النبي صَلى اللهُ عليه وسلم أنهُ قالَ ثَلاثُ دَعوَاتٍ مُسْتَجابَاتٌ لا شَك فِيْهِنَّ دَعْوَةُ المَظْلُومِ وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ .

وَيَتَفَقَّدَهُم في ذَلِكَ الأَمْرِ الذِيْ هُوَ أَسَاسُ الصَّلاحِ الدِّيْنِي والدُّنْيَويّ فَلَا يَصْلُحُ الدِّيْنُ إِلَّا بالعَدْلِ وَلَا تَصْلُحُ الدُّنْيَا وَتَسْتَقِيمُ الأمُورُ إِلَّا على العَدْلِ .

وَقَالَ الشَّيْخُ تَقِيّ الدّيْنِ أُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيْمُ في الدُّنْيَا مَعَ العَدْلِ الذِيْ فِيْهِ اشْتِرَاكٌ في أَنْوَاعِ الاثْمِ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَقِيْمُ مَعَ الظلْمِ في الحُقوقِ وَإِنْ لَمْ تَشْتَرِكْ في إِثْمٍ ، وَلِهَذا قِيْلَ إِنَّ اللهَ يُقِيْمُ الدَّوْلَةَ العَادِلَةَ وانْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يُقِيْمُ الظَّالِمَةَ وإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً وَيُقَالُ الدُّنْيَا تَدُوْمُ مَعَ العَدْلِ وَالكُفْرِ وَلَا تَدُوْمُ مَعَ الظُّلْمِ وَالإِسْلَامِ ، وَذَلِكَ أَنَّ العَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيءٍ فَإِذَا أُقِيْمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلٍ قَامَتْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ أهـ .

وَعَن ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلمَ يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبادَةِ سِتّيْنَ سَنَةً وَحَدٌّ يُقَامُ في الأَرْضِ بِحَقِّهِ أَزْكَى فِيْهَا مِنْ مَطَرٍ أَرْبَعِيْنَ صَبَاحاً رَوَاهُ الطَّبَرانِيّ في الكَبِيْرِ وَالأَوْسَطِ وَاسْنَادُ الكَبِيْرِ حَسَنٌ .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَا أَبَا هُريرةَ عَدْلُ سَاعَةٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبادَةِ سِتّيْنَ سَنَةً قِيَامُ لَيْلِهَا وَصِيَامُ نَهَارِهَا ، وَيَا أَبَا هُرَيْرَةَ جَوْرُ سَاعَةٍ في حُكمٍ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مَعَاصِيْ سِتينَ سَنَة وفي رِوَاية عَدْلُ يومٍ وَاحِدٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبادَةِ سِتينَ سَنَةً رَوَاهُ الاصْبِهَانِيّ .

وَعَنْ أَبِيْ سَعِيْدٍ الخُدْرِيْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِساً إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَأَبْغَضُ النَّاسِ إلى اللهِ تَعَالَى وَأَبْعَدُهُمْ مَجْلِساً إِمَامٌ جَائِرٌ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالطّبَرانِيّ في الأَوْسَطِ مُخْتَصَراً ، وَعَدَّ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ مِنْ السَّبْعَةِ الذِيْنَ يُظِلُّهُمْ اللّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلّهُ إِمَامٌ عَادِلٌ .

اللَّهُمَّ ارزُقْنَا عِلْماً نَافِعاً وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً وَرِزْقاً وَاسِعاً نَسْتَعِيْنُ بِهِ عَلَى طَاعَتِكَ ، وَقَلْباً خَاشِعاً ، وَلِسَاناً ذَاكِراً ، وَإِيْمَاناً خَالِصاً ، وَهَبْ لَنَا إِنَابَةَ المُخْلِصِيْنَ ، وَخُشُوْعَ المُخْبِتِيْنَ ، وَأَعْمَالَ الصَّالِحِيْنَ ، وَيَقِيْنَ الصَّادِقِيْنَ ، وَسَعَادَةَ المُتّقِيْنَ ، وَدَرَجَاتِ الفَائِزِيْنَ ، يَا أَفْضَلَ مَنْ رُجِيَ وَقُصِدَ ، وَأَكْرَمَ مَنْ سُئِلَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

وَيَجِبُ على القُضَاةِ وَالحُكَّامِ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ يَتَحَرَّوا العَدْلَ وَيَحْكُمُوا بِهِ بين النَّاسِ .

وَهُمْ أَهَمُّ رُكْنٍ تَقُومُ عليهِ سَعَادَةُ المجْتَمعِ وَيَنْبَنِيْ عليه أَمْنُ النَّاسِ عَلى دِمَائِهِم وأَمْوَالِهِم وَأَعْرَاضِهِم ، فَإِذا جَارَ القَاضِيْ وَلَمْ يُقْسِطْ اخْتَلَّ النِّظَامُ وَسَادَت الفَوْضَى ، وَلِهَذَا إِذَا عَمَّ العَدْلُ اسْتَغْنَت الأُمَّةُ عَن المَحَاكِم وَقُضَاتِهَا وَمُحَامِيْهَا وَالوُكلاَءِ وَالسَّمَاسِرَةِ ، وانْقَطَعَ دَابِرُ شُهَدَاءِ الزّوْرِ أَعْدَمَهُم اللهُ عن الوُجُودِ أَوْ أَصْلَحهُم ، فَأَكْثَرُ الحُكَّامِ وَظِيْفَتُهم إِقَامَةُ العَدْلِ ، فَإِذَا وُجِدَ العَدْلُ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهِمْ ، وَبِذَلِكَ يَتَوَفَّرُ على الأُمّةِ عَدَدٌ كَبِيْرٌ يَشْتَغِلُ في مَصَالِحَ أُخْرَى ، وَيَتَوَفَّرُ مِقْدَارٌ كَثِيْرٌ مِن المَالِ .

ولِهَذا السَّلَفُ تَمُرُّ المُدَّةُ الكَثِيْرَةُ عَلى القَاضِيْ لا يَأْتِيْهِ خُصُومٌ ، وَإِلَيْكَ حِكَايَةُ حَالٍ تَارِيْخِيَّةٍ تَنْطَبِقُ تَماماً عَلى المُتَّصِفِيْنَ بالصِّفَاتِ الحَمِيْدَةِ وَالأَخْلاقِ الكَرِيْمَةِ ، عَيَّنَ أَبُو بَكْـرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ قَاضِياً عَلى المَدِيْنَةِ ، فَمَكَثَ عُمَرُ سَنَةً لَمْ يَخْتَصِمْ إِلَيْهِ اثْنَانِ فَطَلَب مِنْ أَبِيْ بَكْرٍ إِعْفَاءَهُ مِن القَضَاءِ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكرٍ أَمِنْ مَشَقَّةِ القَضَاءِ تَطْلبُ الاعْفَاءَ يَا عُمَرُ .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لا يَا خَلِيْفَةَ رَسُولِ اللّهِ وَلَكِنْ لا حَاجَةَ لِيْ عِنْدَ قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ عَرَفَ كُلُّ مِنْهُم مَا لَهُ مِنْ حَقٍّ فَلَمْ يَطْلُبْ أَكْثَرَ مِنْهُ وَمَا عليهِ مِنْ وَاجِبٍ فَلَم يُقَصِّرْ في أَدَائِهِ ، أَحَبَّ كلُّ مِنْهُم لأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَإِذا غابَ أَحَدُهم تَفَقَّدُوهُ وَإِذَا مَرِضَ عَادُوهُ وَإِذَا افْتَقر أَعَانُوه ، وإذا احْتَاجَ سَاعدُوه ، وَإِذَا أُصِيْبَ وَاسوه ، دِيْنُهم النَّصِيْحَةُ ، وَخُلقُهم الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَن المُنْكَرِ ، فَفِيْمَ يَخْتَصِمُونَ إذاً .

وَبالتَّالِيْ فَقَدْ عُنِيَتِ الشَّرِيْعَةُ بِالعَدْلِ في القَضَاءِ عِنَايَتَهَا بِكُلِّ مَا هُوَ دِعَامَةٌ لِسَعَادَةِ الحَيَاةِ ، فَأَتَتْ بالعِظَاتِ البَالِغَاتِ تُبَشِّرُ مَنْ أَقَامَهُ بِعُلُوّ المَنْزِلَةِ وَحُسْنِ العاقِبَةِ ، وَتُحَذِرُ مَن انْحَرَفَ عَنْهُ بالعَذَابِ الأَلِيْمِ .

فَمِن الآيَاتِ المُنَبِّهةِ لِمَا في العَدْلِ مِنْ فَضْلٍ وَكَرَامَةٍ قَوْلُهُ تَعالَى ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهم بالقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقْسِطِيْنَ ﴾ فَأَمَرَ بِالعَدْلِ وَنَبَّهَ عَلى أَنْ الحَاكِمَ المقْسِطَ يَنَالُ خَيْراً عَظِيْماً ، هُوَ مَحَبَّةُ اللهِ لِلْعَبْدِ ، وَمَا بَعْدَ مَحبّةِ اللهِ إِلاَّ الحَيَاة الطّيبَة في الدّنْيَا وَالعِيْشَةُ الرّاضِيَةُ في الآخِرَةِ .

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وأَقسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِيْنَ ﴾ وَمِن الأَحَادِيْثِ الدَّالةِ عَلى مَا يُورِثُهُ العَدْلُ مِنْ شَرفِ المنْزِلَةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مَا وَرَدَ عَن عَبْدِ

اللهِ بنِ عَمْرو بنِ العَاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : إنَّ المقْسِطِيْنَ عِنْدَ اللّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عنْ يَمِيْنِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِيْنٌ الذِيْنَ يَعْدِلُون في حُكْمِهم وَأَهْلِيْهِم وَمَا وُلّوا رَوَاهُ مُسْلِم وَالنّسَائِيّ .

فَفِيْهِ دَلِيْلٌ على العِنَايَةِ بِهِمْ لِكَوْنِهم عَنْ يَمِيْنِهِ جَلَّ وَعَلا وَدَلِيْلٌ على شِدةِ قُرْبِهِم مِنْهُ جَلَّ وَعَلاوَفَوْزِهِمْ بِرِضْوَانِهِ وفي ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَرْبِيَةٌ لِقُوَّةِ الرَّجَاءِ وَالثِّقَةِ بِأَنَّ الحَاكِمَ العَادِلَ يَجِدُ مِن النَّعِيْمِ مَا تَشْتَهِيْهِ نَفْسُهُ وَتَلَذُّ عَيْنُهُ قالَ تَعَالَى ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ ﴾ فالمقَرّبُونَ يَحْصُلُ لَهُم مِن النَّعِيْمِ مَالا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِمْ .

وَقَدْ وَرَدَتْ آيَاتٌ وَأَحادِيْثُ تُحَذِّرُ مِن الجَوْرِ في القَضَاءِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ يَا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً في الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالحَقّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوى فَيُظِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ إنَّ الذِيْنَ يُظِلّونَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ لَهُمْ عذابٌ شَدِيْدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ ﴾ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه عَن النبيّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا مِنْ أَمِير عَشرةٍ إلَّا يُؤْتى بِهِ مَغْلُولاً يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَفُكَّهُ العَدْلُ أَوْ يُوبِقَهُ الجَوْرُ رَوَاهُ البَزّارُ وَالطّبَرانِيّ في الأَوْسَطِ وَرِجَالُ البَزارِ رِجَالُ الصَّحِيْحِ .

وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنَ النَّبي صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ القُضَاة ثلاثَةٌ وَاحِدٌ في الجَنّةِ وَاثْنَانِ في النّارِ فَأَمّا الذي في الجَنّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الحَقَّ فَقَضَى بِهِ ، وَرَجُلٌ عَرفَ الحَقَّ فَجارَ في الحُكْمِ فَهُوَ في النَّارِ وَرَجُلٌ قَضى لِلنَّاسِ عَلى جَهْلٍ فَهُوَ في النَّارِ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالترمِذِيّ وَابْنُ مَاجَهْ .

فَالقَاضِيْ المَمْدُوْحُ في نَظَر الدِّيْنِ هُوَ الذِي يَعْرِفُ الحَقَّ وَيَقْضِي بِهِ فَأَمَّا

مَعْرِفةُ الحَقِّ فَإِنَّها تَحْتَاجُ إلى مَجْهُودٍ عَظِيْمٍ وَبَحْثٍ في كُلِّ الظُّرُوفِ وَالأَحْوالِ المُحِيْطَةِ بالخُصُومِ وَأَمّا الحُكْمُ بالحَقِّ فإِنَّهُ يَحْتَاجُ إلى مُجاهَدَةٍ عَظِيْمَةٍ حَتَّى يُبْعِدَ القاضِيْ عَنِ المَيْلِ ويتنزَّهَ عَنِ التَّحَيُّزِ إلى أَقْرِبائِهِ وَأَصْدِقَائِهِ وأَصْهَارِهِ وَجِيْرَانِهِ أَوْمَنْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ رَابِطَةٌ ، أَوْ تَجْمَعُهُمْ مَعَهُ جَامِعَةٌ أَوْ يَكُوْنُ لَهُ في المَيْلِ غَرضٌ يَنَالُهُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَنْصِبٍ أَوْ شَهْوَةٍ .

فَالقَاضِيْ لا يَنْجُو إِلَّا إِذَا كَانَ كَالمِيْزَانِ المُنْضَبِطِ فَلاَ يَمِيْلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ إلى أَحَدِ الخَصْمَيْنِ إِلَّا بِالحَقِّ وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَتَحقَّقُ فِيْهِ قَولُ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عليه وسلم مَنْ وَلِيَ القَضَاءَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ على مَا فَسَّرَهُ بَعْضُ العُلَمَاءِ مِنْ أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلهَلاكِ وَالعَذَابِ الأَلِيْمِ وَهَذَا إِنْ لَمْ يَقْضِ بِالحَقِّ .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى الله عليه وسلم يَقُولُ لَيَأْتِيَنَّ على القَاضِيْ العَدْلِ يَوْمَ القِيَامَةِ سَاعَةٌ يَتَمنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بينَ اثْنينِ في تَمْرةٍ قَطّ رواهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبّانَ في صَحِيْحِهِ وَلَفْظُهُ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُوْلُ يُدْعَى القَاضِيْ العَدْلُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَلْقَى مِنْ شِدّةِ الحِسَابِ مَا يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَين في عُمْرِهِ قَطّ وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلى اللهُ عَلىَ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

(فَصْلٌ)

وَكَذَلِكَ العَدْلُ بَيْن الأَوْلاَدِ وَالأَقَارِبِ بالقِيَامِ بِحُقُوقِهِمْ عَلى اخْتِلاَفِ مَرَاتِبِهِمْ وَالقِيَامِ بِصِلَتِهِم الوَاجِبَةِ وَالمُسْتَحَبَّةِ بِهِ تَتِمُّ الصِّلةُ وَتَقْوَى رَوَابِطُ المحبّةِ والتَّعَاطُفِ ، وَبِذَلِكَ يَكْسِبُوْنَ الشَّرَفَ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ وَبِهِ تُنْظَرُ هَذِهِ البُيُوتِ الَّتِي قَامَتْ عَلى ذَلِكَ بِعَيْنِ التَّقْدِيْرِ وَالتَّعْظِيْمِ وَالاجْلاَلِ .

وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ بِإِذْنِ اللّهِ التَّكَاتُفُ وَالتَّسَاعُدُ عَلى مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالدِّيْنِ وَذَلِكَ رَاجِعٌ إِلى العَدْلِ وَعَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلّكُم مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِهَا مسئولة عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ وَكُلّكُم رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ رَواهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ .

وَأَمَّا المَرْأَةُ فَإِنَّهَا مَسْؤُلَةٌ عَنْ تَدْبِيْرِ مَنْزِلِهَا بِمَا يُوَافِقُ حَالَ زَوْجِهَا فَلَا تُرْهِقُه بالانْفَاقِ وَلَا تَطْلُبُهُ بِطَلَبٍ لَا يَقْدِرُ عَليهِ وَلَا تَخُوْنُهُ في عِرْضِهِ وَلَا تَفْعَلُ مَا يُؤْذِيْهِ وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَليها أَنْ تَعْدِلَ بَيْنَ أَبْنَائِها فيمَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ فَلَا تُفَضِّلُ وَاحِداً على الآخَرِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ بَلْ تُعْطِيْ كُلَّ وَاحِدٍ مَا يُنَاسِبُه فَلا تَحْرِمُ مَنْ تُبْغِضُ وَتُجْزِلُ العَطَاءَ لِمَنْ تُحِبُّ فَإِنْ خَانَتْ زَوْجَهَا في عِرْضِهَا أَوْ مَالِهِ أَوْ آذَتْهُ بِعِصْيَانِهَا أَوْ فَضَّلَتْ بَعْضَ أَوْلَادِهَا على بَعْضٍ كَانَتْ ظَالِمَةً تَسْتَحِقُّ العِقَابَ .

وَكَذَا الخَادِمُ وَالعَامِلُ مَسْئُولٌ عَنِ العَمَلِ الذِي وُكِلَ إِليهِ وَائْتُمِنَ عليه فَإِذا أَهْمَلَ العَامِلُ عَملاً أَوْ أَدَّاهُ نَاقِصاً فَقَدْ ظَلَمَ سَيِّدَهُ وَاسْتَحَقَّ العِقَابَ وَكَذَلِكَ الخَادِمُ إِذَا خَانَ سَيِّدَهُ في مَالِهِ كَأَنْ كَلَّفَهُ بِشِرَائِهِ فَزَادَ في ثَمَنِهِ وَأَخَذَهُ لِنَفْسِهِ أَوْ أَهْمَلَ مُسَاوَمَةَ التّاجِرِ فَغَبَنَهُ في السِّلْعَةِ أَوْ رَأى أَحداً يَعْتَدِيْ عَلى مَالِ سَيِّدِهِ فَلَمْ يَرُدَّهُ أَو كَلَّفَهُ بالانْفَاقِ على عَمَلٍ فَأَسْرَفَ فِيْهِ بِدُوْنِ حَقٍّ فَانّهُ يكونُ ظَالِماً وَآثِماً .

وَمِنْ هؤُلَاءِ الصُّنَّاعُ الذينَ يَتَعَاقَبُونَ عَلى عَمَلٍ ثُمَّ لَا يُجِيْدُونَ صُنْعَهُ وَيَغُشّونَ النَّاسَ فَإِنَّهم ظَالِمُونَ آثِمُونَ وَكَذَلِكَ النَّجّارُونَ والحَدَّادُونَ وَسَائِرُ أَهْلِ الصَّنائِعِ لِأَنّهم مُكَلَّفُونَ بالعَدْلِ في صَنَائِعِهِمْ بأَنْ يُجِيْدُوها وَلا يَتْرُكُوا

خللاً إلاّ أَصْلَحُوهُ .

وَعَن أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم إن اللهَ سَائِلٌ كلَّ راعٍ عمّا اسْتَرْعَاهُ حَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ رَوَاهُ ابْنُ حِبّان في صَحِيْحِه وَجَاءَ في تَرْكِ العَدْلِ بينَ الزّوْجَاتِ أَحَادِيْثُ تَدُلُّ على خُطُورَةِ ذلِكَ مِنْهَا مَا وَرَدَ عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلّمَ قَالَ مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأتَانِ فلمْ يَعْدِلْ بَيْنَهما جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشِقُّهُ سَاقِطٌ رَوَاهُ التّرْمذيّ .

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَلَفْظُهُ مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَال الى احْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ وَرَوَاهُ النَّسائِيّ وَلَفْظُهُ مَنْ كانت لَهُ امْرَأَتَانِ يَمِيْلُ احْدَاهُمَا عَلى الاخْرَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجه وَابْنُ حِبّانَ في صَحِيْحِهِ بِنَحْوِ رِوايَةِ النّسائِيّ هذهِ إلا أَنَّهُما قالاَ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ ، اللهُمَّ قَوِّ إيْمَـانَنَا بِكَ وَبِكُتُبِكَ وَبِمَلائِكَتِكَ وَبِرُسُلِكَ وَباليَوْمِ الآخِرِ وَبالقدرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ . اللهُمَّ ثَبّتْنَا على قَوْلِكَ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ الدنيا وفي الآخِرَةِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

وَإِذَا تَتَبّعْتَ سِيْرَةَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ وَمَن اقْتَدَى بِهِمْ وَجَدْتَهُم يَعْدِلُونَ وَيَأْمُرونَ بِالعَدْلِ بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ بِنَفْسِهِ مِن الأمةِ أَنْ تُحَاسِبَهُ عَلى كُلّ عَمَلٍ وَتَصَرُّفٍ وَتُقَوّمُه في كُلِّ خَطأٍ قد يَصْدُرُ منه ما دَامُوا مُخْلِصِين يَبْتَغُون وجْهَ اللهِ في حُكْمِهِم وَسُلْطَانِهِم .

فَهَذَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَلِيْفَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُر بِالْعَدْلِ يَقُولُ عِنْدَما اسْتَلَمَ الحُكْمَ فإِنْ أَحْسَنْتُ فَأعِيْنُوني وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي ، أَطِيْعُونِي مَا أَطَعْتُ اللّهَ وَرَسُولَهُ فِيْكُمْ وَيَقُولُ أَمِيْرُ المؤمنين عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه مَنْ رَأَى مِنْكُم فِيَّ اعْوِجَاجاً فَلْيُقَوِّمْهُ .

وَقَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ اتَّقِ اللّهَ يا عُمَرُ فَأَجَابَهُ أَحَدُ الحَاضِرِيْنَ بِقَوْلِهِ أَتَقُولُ هَذَا لِأَمِيرِ المُؤْمِنِيْنَ وَلَكِنَّ عُمَرُ نَهَرَهُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ وَقَالَ لا خَيْرَ فِيْكُم إِنْ لم تَقُولُوهَا وَلا خَيْرَ فِيْنَا إن لَمْ نَسْمَعْهَا .

وفي مَرَّةٍ كَانَتْ جُمْلَةٌ مِنْ غَنَائِم المُسْلِمِيْنَ أَبْرَادٌ يَمَانِيَّةٌ فَقَامَ عُمَرُ رَضِيَ الله عنه يَقْسِمُ هَذِهِ الغَنَائِمَ بالعَدْلِ وقد أَصَابَهُ مِنْهَا بُرْدٌ كَمَا أَصَاب ابْنَهُ عَبْدُ اللهِ مِثْلُ ذَلِكَ كَأَيِّ رَجُلٍ مِن المُسْلِمِيْنَ وَلَمَّا كَانَ عُمَرُ بِحَاجَةٍ إلى ثَوْبٍ طَوِيلٍ لِأَنَّهُ طَوِيْلُ الجِسْمِ تَبَرَّعَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بِبُرْدِهِ لِيَصْنَعَ مِنْهُمَا ثَوْباً يَكْفِيْهِ ثُمَّ وَقَفَ وَعَلَيْهِ هَذَا الثَّوْبُ الطَّوِيْلُ يَخْطُبُ في النَّاسِ فقَالَ بَعْدَ أَن حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَى رَسُولِهِ صَلى الله عليه وسلم : أيها النَّاسُ اسْمَعُوا وَأَطِيْعُوا فوَقَفَ له سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ الصَّحَابِيُّ المَشْهُوْرُ الجَلِيْلُ فَقَالَ لِعُمَرَ لَا سَمْعَ لَكَ عَلَيْنَا وَلَا طَاعَةَ .

فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه وَلِمَ ؟ قَالَ سَلْمَانُ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الثَّوْبُ ، وَقَدْ نَالكَ بُرْدٌ وَاحِدٌ وَأَنْتَ رَجُلٌ طَوِيْلٌ فَقَالَ لا تَعْجَلْ وَنَادَى ابْنَهُ عَبْدَ اللهِ فَقَالَ لَبَّيْكَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنينَ قَالَ نَاشَدْتُكَ اللهَ البُرْدُ الذِي اتَّزَرْتُ بِهِ أَهُوَ رِدَاؤُكَ ، فقَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ قَالَ سَلْمَانُ الآنَ مُرْ نَسْمَعْ وَنُطِيْع .

وَلَمَّا بُوْيِعَ بالخِلَافَةِ فِي اليَوْمِ الذِي مَاتَ فِيْهِ أَبُو بَكْرٍ بِوَصِيَّةٍ مِنْ أَبِي بَكْرٍ إِلَيْهِ هَابَهُ النَّاسُ هَيْبَةً شَدِيْدَةً حَتَّى إِنَّهُم تَركُوا الجُلُوْسَ فِي الأَفْنِيَةِ فَلَمَّا بَلَغَهُ

ذَلِكَ جَمَعَ النّاسَ ثُمَّ قَامَ عَلى المِنْبَرِ حَيْثُ كَانَ يَقُومُ أَبُو بَكْرٍ يَضَعُ قَدَمَيْهِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلهُ ثمّ صَلَّى عَلَّىٰ النَبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ثُمَّ قَالَ بَلَغَنِي أَنَّ النَّاسَ هَابُوا شِدَّتِيْ وَخَافُوا غِلْظَتِيْ وَقَالُوا قَدْ كَانَ عُمَرُ يَشْتَدُّ عَلَيْنَا وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ثُمَّ اشْتَدَّ عَلَيْنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالِيْنَا دُوْنَهُ فَكَيْفَ الآنَ وَقَدْ صَارَتْ الأُمُوْرُ إِليهِ .

وَلَعمْرِيْ مَنْ قَالَ ذَلِكَ فَقَدْ صَدَقَ كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عليه وَسلم فَكُنْتُ عَبْدَهُ وَخَادِمَهُ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى وَهُوَ رَاضٍ وَالحَمْدُ للهِ وَأَنَا أَسْعَدُ النَّاسِ بِذَلِكَ ثُمَّ وَلِيَ أَمْرَ النَّاسِ أَبُو بكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَكُنْتُ خَادِمَهُ وَعَوْنَهُ أَخْلِطُ شِدَّتِيْ بِلِيْنِهِ فَأَكُونُ سَيْفاً مَسْلُولاً حَتَّى يُغْمِدَنِي أَوْ يَدعَنِيْ فَمَا زِلْتُ مَعَهُ كَذَلِكَ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى وَهُوَ عَليَّ رَاضٍ وَالحَمْدُ لِلّهِ وَأَنَا أَسْعَدُ النَّاسِ بِذَلِكَ .

ثّمّ إنِّي وُلِّيتُ هَذَا الأَمْرَ أَمْرَكُمْ فَاعْلَمُوْا أَنَّ تِلْكَ الشِّدَّةِ قَدْ تَضَاعَفَتْ ولكنَّها تَكُونُ عَلى أَهْلِ الظّلْمِ وَالتّعَدِّيْ عَلى المُسْلِمِيْنَ .

وَأَمّا أَهْلُ السَّلَامَةِ وَالدِّيْنِ وَالقَصْدِ فَأَنَا أَلْيَنُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ وَلَسْتُ أدَعُ أَحَداً يَظْلِمُ أحَداً وَيَتعَدّى عَليه حتى يَضَعَ خَدَّهُ على الأَرْض وأَضَعَ قَدَمَيَّ على الآخَرِ حَتّى يُذْعِنَ لِلْحَقِ .

وَإلى هَذا أَشَارَ الشَّاعِرُ في قَوْلِهِ :

فِي طَيِّ شِـدَّتِـهِ أَسْـرَارُ رَحْـمَتِـهِ
لِلْعَـالَمِيْنَ وَلَـكِنْ لَـيْسَ يُفْـشِيْهَـا

وَبيْنَ جَنْبَيْـهِ فِيْ أَوْفَـى صَـرَامَتِـهِ
فُـؤَآدُ وَالِـدَةٍ تَـرْعَـى ذَرَارِيْـهَـا
أغْنَتْ عَنَ الصَّارِمِ المَصْقُولِ دُرَّتُـهُ
فكمْ أخَـافَتْ غَوِيَّ النَّفْسِ عَـاتِيْهَـا

وقال : وَلَكُم عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ لا أَخْبأَ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ خَرَاجِكُمْ وَاذَا وَقَعَ عِنْدِي أنْ لا يَخْرُجَ إلاّ بِحقّهِ وَلَكُمْ عَلَيّ أنْ لا أُلْقِيَكُمْ في المهَالِكِ وَإذا غِبْتُمْ فِيْ البُعُوْثِ فأنَا أَبُو العِيَالِ حَتَّى تَرْجِعُوا أَقُولُ قَوْلِيْ هَذا وَأَسْتَغفِرُ اللهَ لِيْ وَلَكُمْ .

وَأَخْرَجَ بْنُ سَعْدٍ عَن الحَسَنِ قَالَ كَتَبَ عُمَرُ إلى حُذَيْفَةَ رَضي الله عَنْهُمَا أنْ أعْطِ النّاسَ أَعْطِيْتَهُمْ وأَرْزَاقَهُمْ فكتَبَ إلَيْهِ إنّا قَدْ فَعَلْنَا وَبقِيَ شَيءٌ كَثِيْرٌ .

فَكَتَبَ إليْهِ عُمَرُ إنهُ فَيْئُهُمْ الذِي أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَيْسَ هُوَ لِعُمَرَ وَلاَ لآلِ عُمَرَ اقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ وَابْنُ عَسَاكِرٍ عَن الحَسَنِ قَالَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ الى أَبِيْ مُـوْسَى رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا ، أَمَّا بَعْدُ فَاعْلَمْ يَوْماً مِن السَّنَةِ لا يَبْقَى فِي بَيْتِ المالِ دِرْهَمٌ حَتَّى يُكْتَسَحَ اكْتِسَاحاً حَتَّى يَعْلَمَ اللهُ أنّيْ قدْ أدّيْتُ إلىَ كُلِّ ذِيْ حَقٍّ حَقَّهُ .

وَعِنْدَ ابْنِ عَسَاكِرٍ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَعِيْدٍ قَالَ أُتِيَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ بِمَالٍ فَقَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فقالَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ لَوْ حَبَسْتَ مِنْ هَذَا المالِ في بَيْتِ المالِ لِنَائِبَةٍ تَكُوْنُ أَوْ أَمْرٍ يَحْدُثُ .

فَقَالَ كَلِمَةٌ مَا عَرَضَ بِهَا إلاّ شَيْطَانٌ لَقَّانِيْ اللّهُ حُجَّتَهَا وَوَقَانِيْ فِتْنَتَهَا

أَعْصِيْ العَامَ مَخَافَةَ قَابِلٍ أَعِدُّ لَهُمْ تَقْوَى اللهِ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وَلِتَكُونَ فِتْنَةً مِنْ بَعْدِيْ .

وَقَالَ سَعِيْدُ بْنُ المُسَيَّبِ تُوُفِّيَ وَاللَّهِ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَزَادَ في الشِّدَّةِ في مَوَاضِعِهَا وَاللِّيْنِ في مَوَاضِعِهِ وَكَانَ أَبَا العِيَالِ حَتَّى إِنَّهُ يَمْشِيْ على المُغِيْبَاتِ اللاتِيْ غَابَ عَنْهُنّ أَزْوَاجُهُنّ وَيَقُولُ أَلَكُنَّ حَاجَةٌ حَتّى اشْتَرِيْ لَكُنَّ فَإِنِّيْ أَكْرَهُ أَنْ تُخْدَعْنَ في البَيْعِ وَالشِّرَاءِ فَيُرْسِلْنَ مَعَهُ جَوَارِيْهُنّ .

فَيَدْخُلُ وَمَعَهُ جَوَارِيْ النِّسَاءِ وَغِلْمَانُهُنّ مَالاَ يُحْصَى فَيَشْتَرِيْ لَهُنَّ حَوَائِجَهُنَّ فَمَنْ كَانَتْ لَيْسَ عِنْدَهَا شَيْءٌ اشْتَرَى لهَا مِنْ عِنْدِهِ وَكَانَ يَحْمِلُ جِرَابَ الدَّقِيْقِ على ظَهْرِهِ لِلأَرَامِلِ وَالأَيْتَامِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لهُ دَعْنِيْ أَحْمِلُ عَنْكَ فَقَالَ عُمَرُ وَمَنْ يَحْمِلُ عَنّيْ ذُنُوْبِيْ يَوْمَ القِيَامَةِ .

وَيُرْوَى أَنّهُ مَرَّ بِنُوْقٍ قَدْ بَدَتْ عَلَيْهَا آثَارُ النِّعْمَةِ تَهِفُّ ذُرَاهَا فَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِهَا فَقَالُوا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ فَسَاقَهَا إِلَى بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِيْنَ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ثَرْوَةَ ابْنِهِ لا تَفِيْ لَهَا وَأَنَّهُ لَوْلا جَاهُهُ بَيْنَ النّاسِ مَا قَدِرَ على إِطْعَامِهَا .

وفي ذَلكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

وَمَـا وَفَى ابْنُكَ عَبْـدُ اللّهِ أَيْنُقُـهُ
لَمَّـا اطّلَعْتَ عَلَيْهَـا في مَـرَاعِيْهَـا
رَأَيْتَهَـا في حِمَـاهُ وَهْيَ سَـارِحَـةٌ
مِثْـلَ القُصُـور قـدِ اهْتَـزَّتْ أَعَـالِيْهَـا
فَقُلْتَ مَـا كَـانَ عَبْـدُ اللهِ يُشْبِعُهَـا
لَـوْ لَمْ يَكُن وَلَدِي أَوْ كَـانَ يُرْوِيْهَـا

قَـدْ اسْتَعَـانَ بِجَـاهِـيْ فـي تِجَـارَتِــهِ
وَبَــاتَ بـاسْمِ أبيْ حَفْصٍ يُنَمِّيْهَــا
رُدُّوْا النِّيَــاقَ لِبَيْتِ المَــالِ إنَّ لَــهُ
حَقَّ الــزِيَـادَةِ فِيْهَــا قَبْـلَ شَــارِيْهَـا
وَهَــذِهِ خُــطَّةٌ لِــلّهِ وَاضِــعُــهَــا
رَدَّتْ حُقُــوقاً فَـأَغْنَتْ مُسْتَمِيْحِيْهَـا

وَرُوَي أَنَّ طَلْحَةَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ خَرَجَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ فَرَآىَ عُمَرَ رَضي اللهُ عنه قَدْ دَخلَ بَيْتاً ثُـمَّ خَرجَ فَلمّا أصْبَحَ طَلْحَةُ ذَهَبَ إلى ذلكَ البَيْتِ فَإذَا فِيْهِ عَجُوزٌ عَمْيَاءُ مُقْعَدَةٌ لا تَقْدِرُ على المَشْيِ فقَالَ لهَا طَلحَةُ مَا بَالُ هَذا الرَّجُل يَأْتِيْكَ فقَالَتْ إنهُ يَتعاهَدُنِي مِنْ مُدَّةِ كذَا وكذَا بمَا يُصْلِحُنِيْ وَيُخْـرِجُ عَنِّيْ الأَذَى يَعْنِي القَذرَ وَالنَّجَاسَةَ فرضي الله عنه وأرضاه.

اللّهُمّ اجْعَلْ خيْرَ أَعْمَالِنَا خوَاتِمهَا وَخيْرَ أَيَّامِنَا يَوْمَ لِقَائِكَ ، اللهم ثَبّتْنَا على قَوْلِكَ الثّابِتِ وَأَيِّدْنَا بِنصْرِكَ وَارْزُقْنَا مِنْ فَضْلِكَ وَنجِّنَا مِنْ عذَابِكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ وَاغْفِرْ لنَا وَلوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعَ المُسْلِمين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرّاحمينَ وَصَلّى اللهُ على مُحمدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَلَمّا رَجَعَ رَضْيَ اللهُ عنهُ مِن الشَّام إلَى المَدِيْنَةِ انْفَرَدَ عَنْ النَّاسِ لِيَتَعَرَّفَ وَيَتَفَقّدَ أَحْوَالَ رَعِيَّتِهِ فَمَرَّ بعَجُوزٍ في خِبَاءٍ لها فقَصَدَهَا فقَالَتْ يَا هَذا مَا فعَلَ عُمَرُ قَالَ قَدْ أَقْبَلَ مِن الشَّامِ سَالِماً فقَالَتْ لَاجَزَاهُ اللهُ خَيْراً .

قَالَ وَلِمَ قَالَتْ لأَنَّهُ وَاللهِ مَا نَالَنِي مِنْ عَطَائِهِ مُنْذُ تَوَلَّى أَمْرَ المُسْلمينَ دِيْنَارٌ

وَلا دِرْهَمٌ قَالَ وَمَا يُدْرِيْ عُمَرُ بحَالِكَ وَأَنْتِ في هذا المَوْضِعِ فَقَالَتْ سُبْحَانَ اللهِ واللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أحداً يَلِيْ على النّاسِ وَلا يَدْرِيْ مَا بَيْنَ مَشْرِقِهَا وَمغْرِبِهَا فَبَكَى عُمَرُ رَضِي اللّهُ عَنْهُ وقَالَ وَاعُمَراه كُلُّ أحدٍ أَفْقَهُ مِنْك يَا عُمَرُ حَتَّى العَجَائِزَ .

ثُمّ قَالَ لَهَا يَا أَمَةَ اللهِ بِكَمْ تَبِيْعِيْنِي ظُلامَتكِ مِنْ عُمَرَ فَإِنِّيْ أَرْحَمُهُ مِن النّارِ فقَالَتْ لا تَسْتَهْزِئْ بِنَا يَرْحَمُكَ اللهُ فَقَالَ لَسْتُ بِهَزَّاءٍ فلم يَزَلْ بها حَتّى اشْتَرى ظُلامَتَهَا بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِيْنَ دِيْنَاراً .

فَبَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ إذْ أَقْبَلَ عَلِيّ بْنُ أَبِيْ طَالِبٍ وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضيَ اللهُ عَنهُما فَقَالاَ السّلامُ عليكَ يَا أَمِيْرَ المؤْمِنينَ فَوَضَعَتْ العَجُوزُ يَدَهَا عَلى رَأْسِهَا وَقَالَتْ وَاسَوْأَتاهُ شَتَمْتُ أَمِيْرَ المُؤْمِنين في وَجْهِهِ .

فَقَالَ لها عُمَرُ مَا عَلَيْكِ يَرْحَمُكِ اللهُ ثُمَّ طَلَبَ رُقْعَةَ جِلْدٍ يَكْتُبُ بِهَا فَلَمْ يَجِدْ فَقَطَعَ قِطْعَةً مِنْ مُرَقَّعَتِهِ وَكَتَبَ فِيْهَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرّحِيْمِ هَذَا مَا اشْتَرى بِهِ عُمَرُ مِنْ فُلانَةٍ ظَلامَتَهَا مُنْذُ وَلِيَ إلى يَوْمِ كَذا وَكَذا بخَمْسَةٍ وَعِشرينَ دِيْنَاراً فمَا تَدَّعِي عِنْدَ وَقُوفِهِ في الحَشْرِ بَيْنَ يَدي اللهِ تَعالَى فَعُمَرُ منهُ بَرِيءٌ شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ عَلِيٌّ وَابنُ مَسْعُودٍ ثُمَّ دفَعَ الكِتَابَ إليَّ وَقَالَ إذا أنَا مُتُّ فَاجْعَلْهُ في كَفَنِيْ ألقَى بهِ رَبّيْ عَزَّ وَجَلَّ .

هَكَذَا يكُونُ العُلَماءُ العَامِلُوْنَ قَالَ اللهُ تَعالَى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ .

عَلى قَدْرِ عِلْمِ المَرْءِ يَعْظُمُ خَوْفُهُ
فَلا عَالِمٌ إلَّا مِن اللّهِ خَائِفُ

فَـآمِنُ مَكْـرِ الـلّهِ بـالـلّهِ جَـاهِـلٌ
وَخَـائِفُ مَكْـرِ اللّهِ بِـالـلّهِ عَـارِفُ

وَأَخْرجَ ابْنُ عَساكِرٍ وَسَعِيْدُ بْنُ مَنْصُوْرٍ وَالبَيْهَقِيّ عَن الشَّعْبِيّ قَالَ كَانَ بَيْنَ عُمَرَ وبَيْنَ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا خُصُوْمَةٌ فَقَالَ عُمَر اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ رَجُلاً فَجَعَلا بَيْنَهُمَا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَأَتَيَاهُ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَتَيْنَاكَ لِتَحْكُمَ بَيْنَنَا وَفي بَيْتِهِ يُؤْتَى الحَكَمُ .

فَلَمَّا دَخَلا عَلَيْهِ وَسَّعَ لَهُ زَيْدٌ عَنْ صَدْرِ فِرَاشِهِ فَقَالَ هَا هُنا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ فَقَالَ لهُ عُمَرُ :

هَذَا أَوَّلُ جَوْرٍ جُرْتَ في حُكْمِكَ ، وَلَكِنْ أَجْلِسُ مَعَ خَصْمِي فَجَلَسَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَادَّعَى أُبَيٌّ وَأَنْكَرَ عُمَرُ فَقَالَ زَيْدٌ لأُبَيّ أَعْفِ أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ مِن اليَمِيْنَ وَمَا كُنْتُ لأَسْأَلَها لأَحَدٍ غَيْرِهِ فَحلفَ عُمَرُ ثُمّ أَقْسَمَ لا يُدْرِكُ زَيْدٌ القَضَاءَ حَتّى يَكُونَ عُمَرُ وَرَجُلٌ مِنْ عُرْضِ المُسْلِمِيْنَ عِنْدَهُ سَوَاءٌ .

وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ كانَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا دَارٌ إلى جَنْبِ مَسْجِدِ المَدِيْنَةِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه بِعْنِيْهَا فَأَرَادَ عُمَرُ أَنْ يَزِيْدَهَا في المَسْجِدِ فَأَبَى العَبَّاسُ أَنْ يَبِيْعَهَا إِيَّاهُ فَقَالَ عُمَرُ فَهَبْهَا لِيْ فَأَبَى فقَالَ فَوَسِّعْهَا أَنْتَ في المَسْجِدِ فَأَبَى .

فَقَالَ عُمَرُ لا بُدَّ لَكَ مِنْ إِحْدَاهُنَّ فَأَبَى عَلَيْهِ فَقَالَ خُذْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ رَجُلاً فأَخَذَ أُبَيّا رَضِيَ اللهُ عنهُ فَاخْتَصَمَا إِلَيْهِ فَقَالَ أُبَيٌّ لِعُمَرَ مَا أَرَى أَنْ تُخْرِجَهُ مِنْ دَارِهِ حَتَّى تُرْضِيَهُ فَقَالَ لهُ عُمَرُ أَرَأَيْت قَضَاءَكَ هَذَا في كِتَابِ اللهِ وَجَدْتَهُ أَمْ سُنَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلم فقَالَ أُبَيّ بَلْ سُنَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلى

اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ .

فَقالَ عُمَرُ وَمَا ذاكَ فقالَ إنِّيْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ إنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لمّا بَنى بَيْتَ المَقْدِسِ جَعَلَ كُلَّمَا بَنى حَائِطاً أصْبَحَ مُنْهَدِماً فَأَوْحَى اللّهُ إلَيْهِ أَنْ لا تَبْنِيْ في حَقّ رَجُلٍ حَتَّى تُرْضِيَهُ فتَرَكَهُ عُمَرُ فَوسَّعَها العَبَّاسُ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ في المَسْجِدِ .

بَلِّغْ يَا أَخِيْ هَذِه القِصَّةَ لِلسَّاكِنِيْنَ في بُيُوتِ المُسْلِمِيْنَ بِغَيْرِ رِضَاهُمْ وَقُلْ لِمَ تُصَلُّونَ وَتَصُوْمُوْنَ وَتَنْكِحُوْنَ في بَيْتٍ مَغْصُوْبٍ يَدْعُو عَلَيْكُمْ مَالِكُهُ لَيْلاً وَنَهاراً سِرّاً وجِهَاراً . أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ وَجَعَلَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ مُحَرَّماً .

وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَيْضاً عَنْ سَعِيْدِ بْنِ المُسَيَّبِ قَالَ أَرادَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أنْ يَأْخُذَ دَارَ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَيَزِيْدَهَا في المَسْجِدِ فَأبى العَبَّاسُ أنْ يُعْطِيْهَا إيّاهُ فَقَالَ عُمَرُ لآخُذَنَّهَا فَقَالَ فاجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ نَعَمْ .

فَأَتَيَا أُبَيّاً فَذَكَرَا لهُ فقَالَ أُبَيّ أَوْحَى اللّهُ الى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أنْ يَبْنِيْ بَيْتَ المَقْدِسِ وَكانَتْ أَرْضاً لِرَجُلٍ فَاشْتَرَى مِنْهُ الأَرْضَ فلمّا أعْطَاهُ الثَّمَنَ قالَ الذِيْ أعْطَيْتَنِيْ خَيْرٌ أَمْ الذِي أَخَذْتَ مِنّي قَالَ بَلْ الذيْ أخَذْتُ مِنْكَ قَالَ فَانّيْ لا أجِيْزُ ثُمَّ اشْتَراهَا مِنْهُ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَصَنَعَ الرَّجُلُ مِثْلَ ذلِكَ مَرَّتَيْنِ أوْ ثَلاثاً .

فَاشْتَرَطَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنّـيْ أَبْتَاعُهَا مِنْكَ عَلى حُكْمِكَ فَلا تَسْأَلْنِيْ أَيُّهُما خَيْرٌ قَالَ فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ بِحُكْمِهِ فَاحْتَكَمَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفِ قِنْطَارٍ

ذَهَباً فَتعَاظَمَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصّلاةُ وَالسّلامُ أنْ يُعْطِيَهُ فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ إنْ كُنْتَ تُعْطِيْهِ مِنْ شَيءٍ هُوَ لَكَ فَأَنْتَ أَعْلَمُ وَإنْ كُنْتَ تُعطِيْهِ مِنْ رِزْقِنَا فَأَعْطِهِ حَتَّى يَرْضَى فَفَعَلَ وَأَنَا أَرَى أَنَّ عَبَّاساً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَحقُّ بِدَارِهِ حَتَّى يَرْضَى ، بَلِّغْ يَا أَخِيْ أَيْضاً هَذه القِصَّةَ السَّاكِنِيْنَ فِيْ بُيُوتِ المُسْلِمِيْنَ بِغَيْرِ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ وَقُلْ لَهُمْ أما تَتَّقُوْنَ اللّهَ وَتخشَون عُقُوبَتَهُ .

قَالَ العَبَّاسُ فَإذَا قَضَيْتَ لِيْ فَإِنِّي أَجْعَلُهَا صَدَقَةً لِلْمُسْلِمِيْنَ رَضيَ اللهُ عنهم وَأَرْضَاهُم وَجَعَلَ جَنَّةَ الفِرْدَوْسِ مَثْوَانا وَمَثْوَاهُمْ ..

وَسَاوَمَ عُمرُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلاً مِنْ رَعِيَّته في شِرَاءِ فَرَسٍ ثُمَّ رَكِبَهُ عُمَرُ لِيُجَرِّبَهُ فَعطِبَ فَرَدَّهُ إلى صَاحِبه فأبَى صَاحِبُ الفرسِ أَنْ يَأخُذَهُ فَقَالَ لهُ وهُوَ خَلِيْفَةُ المُسْلِمين اجْعَلْ بَيْنِيْ وَبَيْنَك حَكَماً فَرَضِيَ الرَّجُلُ بِقَضَاء شُرَيْحٍ العِرَاقِيّ فَتَحَاكَمَا إلَيْهِ .

فَقَالَ شُرَيْحٌ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ حُجَّةَ كُلٍّ مِنْهُمَا يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنيْنَ خُذْ مَا اشْتَرَيْتَ أو رُدَّهُ كَمَا أخذتَهُ فأكْبرَ عُمَرُ هَذِهِ العَدَالَةَ وَالنَّزَاهَةَ مِنْ شُرَيْحٍ وَقَالَ وَهَلْ القَضَاءُ إلا هَكَذا ثُمّ أَقَامَ شُرَيْحاً عَلَى القَضَاءِ في الكوْفَةِ تَقْدِيْراً لِنزاهَتِهِ وَعدْلِهِ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا وَارْضَاهُمَا اللّهُمَّ يَسرْ لنا أمثالَهُمَا وأبعدْ عَنَّا أَضْدَادهما .

اللَّهُمَّ يَا حَيّ يَا قَيُّومُ يَا مَنْ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ مَكِّنْ مَحبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوّهَا وَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وَأَعِنَّا على القِيَامِ بِطَاعَتِكَ وَالانْتِهَاءِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ اللهم افتَحْ لِدُعَائِنَا بَابَ القَبُولِ والاجَابَةِ فَإنّا نَدْعُوْكَ دُعَاءَ مَنْ كَثُرَتْ ذُنُوْبُهُ وَتَصَرَّمَتْ آمَالُه وبقِيَتْ آثامُه وَانْسَبَلَتْ دَمْعَتُه وَانْقَطعَتْ مُدَّتُهُ دُعَاءَ مَنْ لا يَرْجُو لذنبِهِ غَافِراً غَيْرَكَ وَلا لِمَا يُؤَمِّلُهُ مِن الخَيْرَاتِ مُعْطِياً سِوَاكَ وَلا

لِكَسْرِهِ جَابراً إلاَّ أنْتَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ وصَلّى الله عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وكَانَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ في خِلاَفَةِ أَبِيْ بَكْرٍ يَتَعَهَّدُ امْرَأَةً عَمْيَاء بالمدِيْنَةِ لِيَقُومَ بِأمْرِهَا فكانَ اذا جَاءَهَا ألفَاهَا قدْ قُضِيَتْ حَاجَتُها فتَرَصَّدَ عُمَرُ يَوْماً فاذَا أَبُوْ بَكْرٍ هُوَ الذِيْ يَكْفِيْهَا مَؤُنَتَها لا تَشْغَلُهُ عَنْ ذَلِكَ الخِلافَةُ وَتبعاتُهَا ، عِنْدَئِذٍ صَاحَ عُمَرُ حِيْنَ رَآهُ أَنْتَ هُوَ لَعَمْرِيْ . وَلِلّهِ دَرُّ القَائِلَ يَصِفُ الصَّحَابَةَ رَضىَ اللهُ عَنْهُمْ :

قَــوْمٌ طَـعَــامُـهُـمُــو دِرَاسَــةُ عِـلْـمِــهِـمْ
يَـتَـسَــابَــقُــونَ إلـى الــعُــلاَ وَالــسُّــؤْدَدِ

وَمِنْ كَلاَمِهِ إنَّا كُنَّا أَذَلَ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللّهُ بِالاسْلاَمِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ العِزَّ بِغْيرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللّهُ .

وَعَنْ أَبِيْ عُثْمَانَ النَّهْدِيْ أَنَّهُ قَالَ رَأَيْتُ عُمَرَ يَطُوْفُ بِالبَيْتِ وَعَلَيْهِ جُبَّةُ صُوْفٍ فِيْهَا اثْنَا عَشَرَ رُقْعَةً بَعْضُهَا مِنْ جِلْدٍ ، وَرَآهُ رَجُلٌ وَهُوَ يَطْلِيْ بَعِيراً مِنْ إبلِ الصَّدَقَةِ بالقَطِرَانِ فقَالَ لَهُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ لو أمَرْتَ عَبْداً من عَبِيْدِ الصَّدَقَةِ فكفالَهُ فَضَرَبَ عُمَرُ صَدْرَ الرَّجُلِ وَقَالَ عَبْدٌ أعْبَدُ مِنِّيْ .

وَرُوِيَ أنَّهُ أُتِيَ بِمَالٍ كَثِيْرٍ فأَتَتْهُ ابْنَتُهُ حَفْصَةَ فَقَالَتْ يَا أَمِيْرَ المؤ مِنينَ حَقَّ أقْرِبيْكَ فَقَدْ أوْصَى اللّهُ بِالأقْرَبِيْنَ فَقَالَ لاَ يَا حَفْصَةُ إنَّمَا حَقُّ الأقْرَبِيْنَ في مَالِيْ

فَأمَّا مَالُ المسْلِمِينَ فَلاَ يَا حَفْصَةُ نَصَحْتِ قَوْمَكِ وغَشَشْتِ أبَاكِ فَقَامَتْ تَجُرُّ ذَيْلَها .

وَرُوِيَ أَنَّهُ جِيْءَ بِمَالٍ كَثِيرٍ مِنَ العِرَاقِ ، فَقِيْلَ لَهُ أَدْخِلْهُ بَيْتَ المَالِ فَقَال لَا وَرَبِّ الكَعْبَةِ لا يُرَى تَحْتَ سَقْفِهِ حَتَّى أَقْسِمَهُ بِيْنَ المُسْلِمِيْنَ ، فَجُعِلَ بالمَسْجِدِ ، وَغُطِّيَ بِالانْطَاعِ ، وَحَرَسَهُ رِجَالٌ مِن المُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ .

فَلَمّا أَصْبَحَ نَظَرَ الى الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَاليَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ وَالدُّرِّ يَتَلأْلأُ ، فَبَكَى ، فَقَال لهُ العَبَّاسُ يَا أميرَ المؤمِنْينَ مَا هَذا بِيَوْمِ بُكَاءٍ وَلَكِنَّهُ يَوْمُ بُشْرَى ، وَسُرُوْرٍ ، فَقَالَ وَاللهِ مَا ذَهَبْتُ حَيْثُ ذَهَبتَ ، وَلَكِنَّهُ مَا كَثُرَ هَذَا في قَوْمٍ قَطُّ إلّا وَقَعَ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ .

ثُمَّ أَقْبَلَ إلَى القِبْلَةِ وَقَالَ اللّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَكُوْنَ مُسْتَدْرَجاً فإنِّي أَسْمَعُكَ تَقُوْلُ « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وَعَنْ سِنَانَ الدَّوْلِيْ أَنَّهُ دَخلَ عَلى عُمَرَ وَعِنْدَهُ نَفَرٌ مِن المُهَاجِرِيْنَ الأَوَّلِيْنَ فَأَرْسَلَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ لِسِفْطٍ أُتِيَ به مِنْ قَلْعَةٍ بالعِرَاقِ ، وَكَانَ فِيْهِ خَاتَمٌ فَأخذهُ بَعْضُ بَنِيهِ فأدْخَلَهُ في فِيْهِ فَانْتزعَهُ مِنْهُ ثم بَكَى ، فَقَالَ لهُ مَنْ عِنْدَهُ لِمَ تَبْكِي يَا أَمِيْرَ المؤمِنينَ وَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكَ ، وَأَظْهَرَكَ عَلى عَدُوِّكَ ، وَأقرَّ عَيْنَكَ ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى الله عليه وسلم يَقُوْلُ لَا تُفْتَحُ الدُّنْيا عَلى أحَدٍ حَتّى تُلْقَى بَيْنَهُم العَدَاوَةُ ، وَالبَغْضَاءُ ، إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَأنا أَشْفِقُ مِنْ ذَلكَ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالبَزَّارُ .

وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَقْسِمُ شَيْئاً مِنْ بَيْتِ المَالِ فَدَخَلَتْ ابْنَةٌ لَهُ صَغِيْرَةٌ فَأَخَذَتْ دِرْهَماً فَنَهَضَ في طَلَبِهَا حَتَّى سَقَطَتْ مِلْحَفَتُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، وَدَخَلَتْ

الصَّبِيَّةُ إلى بَيْتِ أهْلِهَا وَهِيَ تَبْكِي ، وَجعَلَتْ الدِّرْهَم في فَمِهَا ، فَأَدْخَلَ عُمَر أَصْبُعَهُ في فَمِهَا فأَخْرَجَ الدِّرْهَمَ وَطَرَحَهُ على خراج المُسْلِمْينَ ، وَقَالَ أيُّها النّاسُ إنَّهُ ليْسَ لِعُمَرَ وَلاَ لآلِ عُمَرَ إلاّ ما لِلْمُسْلِمْينَ قَرِيْبِهِمْ وَبَعِيْدِهِمْ .

وَعَنْ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيْهِ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ ذَاتِ لَيْلَةٍ حَتَّى أشْرَفْنَا على حَرَّةِ وَاقِمْ ، فإذا نَارٌ تُوَارىْ بضِرَامٍ ، فقَالَ يَا ابْنَ أَسْلَمَ إنِّيْ أَحْسِبُ هَؤلآءِ رَكْباً يَضْرِبُهُمْ اللَّيْلُ وَالبَرْدُ ، انْطَلِقْ بِنَا إليْهِمْ ، قَالَ فَخَرَجْنَا نُهَرْوِلُ حَتَّى انْتَهَيْنَا إلىَ النّارِ فَاذَا امْـرَأَةٌ تُوْقِدُ تَحتَ قِدْرٍ ، وَمَعَهَا صِبْيَانٌ يَتَضَاغَوْنَ ، فَقَالَ السَّلامُ عَلَيْكُم أَصْحَابَ الضَّوْءِ أأَدْنُوْ فقَالَتْ المَرْأَةُ أدنُ بِخَيْرٍ أَوْ دَعْ فقَالَ مَا بَالُكُمُ قَالَتْ يَضْرِبُنَا اللَّيْلُ والبَرْدُ قَالَ فَمَا بَالُ هَؤُلآءِ الصِّبْيَةِ يَتَضَاغَوْنَ ، قَالَتْ الجُوْعُ قَالَ فَمَا هَذَا القِدْرُ قَالَت مَاءٌ أُسَكِّتُهْم بِهِ وَاللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عُمَرْ .

فَقَالَ وَمَا يُدْرِيْ عُمَرُ قَالَتْ يَتَوَلَّى أمْرَنَا ثُمَّ يَغْفُلُ عَنَّا ، فَأَقْبَلَ عَليَّ وَقَالَ انْطَلِقْ بِنَا فَخَرَجْنَا نُهْرِولُ حَتَّى أَتيْنَا دَارَ الدَّقِيْقِ ، فَأخَرجَ عِدْلاً مِنْ دَقِيْقٍ فيهِ عُكْنَةٌ مِنْ شَحْمٍ ، فَقَالَ احْمِلْهُ عَلَيَّ ، قُلْتُ أنا أحْمِلُهُ عَنْكَ ، فَقَالَ أَنْتَ تَحْمِلُ عَنِيْ وِزْرِيْ يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ أُمَّ لَكَ ، احْمِلْهُ عَلَيَّ فَحمَلْتُه عَلَيْهِ فَخَرَجْنَا نُهَرْوِلُ حَتَّى ألقَيْنَا ذَلِكَ العِدْلَ عِنْدَها .

ثُمَّ أخرَجَ الدَّقِيْقَ فَجعَلَ يَقُولُ ذُرِّيْ عَلَيَّ وَأنَا أَسُوْطُهُ ، وَجَعلَ يَنْفُخُ تَحْتَ القِدْرَ وَكَانَتْ لِحْيَتُه عَظِيْمَةً ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إلَى الدُّخانِ يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ خَللِ لِحْيَتِهِ حَتَّى أنْضَجَ .

ثُمَّ أخذَ مِنْ الشَّحْمِ فَأدَّمهَا بِهِ ثُمَّ قَالَ إئْتِ بشَيْءٍ فجاءَتْهُ بِصَحْفَةٍ ، فَأَفْرَغَ القِدْرَ فِيْهَا ، ثُمَّ جعَلَ يَقُولُ لهَا أَطْعِمِيْهِم ، وَأَنَا أسْطَحُ لَكِ ، يَعْنِيْ

أبرِّدُه ، فأكَلُوْا حَتَّى شَبِعُوا .

ثُمَّ تَرَكَ عِنْدَهَا فَضْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَتْ لَهُ جَزَاكَ اللّهُ خَيْراً أَنْتَ أَوْلَى بِهَذا الأَمْرِ مِنْ أَمِيْرِ المؤمِنِيْنَ ، فَقَال قُوْلِي خَيْراً إنَّكِ إذَا جِئْتِ أمِيْرَ المَؤمِنين وَجَدتنِيْ هُنَاكَ .

ثُمَّ تَنَحَّى قَرِيْباً فَرَبَضَ مَرْبَضَ السَّبُعِ ، فَقُلْتُ لَهُ إنَّ لَكَ شَأْناً غيرَ هَذا ، فلمْ يُكَلِّمْنِيْ حَتَّى رَأَيْتُ الصِّبْيَة يَصْطَرِخُوْنَ وَيَضْحكُونَ ، ثُمَّ نَامُوا فقَامَ وَهُو يَحْمَدُ اللّهَ تعَالَى .

ثُمَّ أَقْبَل عَلَيَّ وَقَالَ يَا ابْنَ أَسْلَمَ إنِّيْ رَأَيْتُ الجُوْعَ أَبْكَاهُمْ ، فَأَحْبَبْتُ أنْ لاَ أنصرِفَ حَتَّى أرَى مِنْهُم مَا رَأيْتُ أ هـ .

وَفي ذَلِكَ يَقُوْلَ حَافِظُ ابْرَاهِيْم :

وَمَـنْ رَآهُ أمَـامَ القِـدْرِ مُنْصَـهِـراً
وَالنَّـارُ تَـأْخُـذُ مِنْهُ وَهْـوَ يُـذْكِيْهَـا

وَقَـدْ تَـخَلَّلَ فـي أَثْنَـاءِ لِـحْيَتِـه
مِنْهَـا الدُّخَـانُ وَفُوْهُ غَـابَ فِيْ فِيْهَـا

رَآى هُنَـاكَ أمِيْـرَ المُؤْمِنِيْـنَ عَلَى
حَـالٍ تَـرُوْعُ لَعَمْـرُ اللَّهِ رَائِيْـهَـا

يَسْتَقْبِـلُ النَّارَ خَـوْفَ النّارِ في غَـدِهِ
وَالعَيْنُ مِنْ خَشْيَـةٍ سَـالَتْ مَـآقِيْهَا

وَعَنْ الحَسَنِ البَصْرِيّ قَالَ بَيْنَمَا عُمَرُ يَعُسُّ بالمدِيْنَةِ لَيْلاً لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ تَحْمِلُ قِرْبَةً ، فَسَأَلَها فذَكَرَتْ له أنَّ لها عِيالاً وَلَيْس لها خَادِمٌ ، وأَنَّها تَخْرُجُ

لَيْلاً فتسْقِيْ لَهُمْ الماءَ ، وَتكْرَهُ أَنْ تَخْرُجَ نَهاراً ، فَحمَل عُمرُ عَنْهَا القِرْبَةَ حَتَّى بَلَغ مَنْزِلِها .

ثُمَّ قَالَ لَهَا أُغْدِيْ إلَى عُمر غَدْوَةً يُخْدِمُكَ خَادِماً ، قَالَتْ لاَ أَصِلُ إلَيْهِ ، قَالَ إنَّكِ سَتَجِدِيْنَهُ إنْ شَاءَ اللهُ ، فَغَدَتْ عَلَيْهِ ، فَإذَا هِيَ بِهِ فَعَرفَتْ أنّهُ الذِي حَملَ عَنْهَا القِرْبَةَ ، فَاسْتَحْيَتْ وَذَهَبَتْ فأرسَلَ لَهَا عُمَرُ بِخَادِمٍ وَنفَقةٍ .

وَكانَ إذَا قَدِمَ الرَّسُوْلُ مِن الثُّغُور بِكُتُبِ الغُزَاةِ إلى أَهْلِيْهِم هُوَ الذِيْ يَدُوْرُ بِهَا وَيُوْصِلُهَا إلَى بُيُوتِهم بِنَفْسِهِ ، وَيَقُوْلُ إذَا كانَ عِنْدَكُنَّ مَنْ يَقْرَأُ وَإلا فاقرَبْنَ مِن الأبْوَابِ حَتَّى أقْرَأَ لكُنَّ ثُمَّ إذَا خَرَجَ الرَّسُولُ دَارَ عَلَيْهِنَّ بالقِرْطَاسِ وَالدَّوَاةِ بِنَفْسِهِ ، فَيَقْرُبْنَ مِن الابْوَابِ فيَكَتُبُ لَهُنَّ الى رِجَالِهِنَّ .

ثُمَّ يَأْخُذُ الكُتُبَ فَيأْمُرُ بِهَا مَعَ الرَّسُولِ ، وَعَنْ أَبِيْ فِرَاسٍ قَالَ خَطَبَنَا عُمَرُ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ إنّي لَمْ أَبْعَثْ عُمَّالِيْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُم - أي جُلُوْدَكُم - وَلا لِيَأخُذُوْا أمْوَالكُمْ .

فَمَنْ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَلْيَرفَعْهُ إلَيَّ أَقُصُّهُ مِنْهُ ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ لوْ أنَّ رَجُلاً أَدَّبَ بَعْضَ رَعِيّتِهِ ، أَتُقِصُّهُ مِنْهُ ، قَالَ أيْ وَالذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِه لأُقِصُّهُ مِنْهُ ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عليه وسلم أقصَّ مِنْ نَفْسِهِ - أيْ مَكَّنَ مِن القِصَاصِ مِنْهُ - أخْرَجَهُ أبو دَاوُدَ .

وَفي حَدِيْثٍ أَخْرَجَهُ البُخَارِيّ عَنْ عُمرَ أنَّهُ قَالَ اللَّهُمَّ إنِّيْ أُشْهِدُكَ عَلى أُمَرَاءِ الأمْصَارِ ، وَإنِّي إنّما بَعَثْتُهُم لِيَعْدِلُوا ، وَلِيُعَلِّمُوا النَّاسَ دِيْنَهُم ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِم ، وَيَقْسِموا فِيْهِمْ فَيأَهُم ، وَيَرْفَعُوا إلَيّ مَا أشْكَلَ مِنْ أمْرِهِمْ .

وَفي حَدِيْثٍ أَخْرَجَهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمُ أَنَّ عُمَر لمَّا طُعِنَ قِيْلَ لَهُ لَوْ اسْتَخَلَفْتَ ، فقَالَ أتحمَّلُ أمْركُمْ حَيّاً وَمَيِّتاً ، إنْ اسْتَخْلِفْ فَقَدْ اسْتَخْلَفَ مَنْ هَوْ خَيْرٌ مِنِّي أبُو بَكْرٍ وَإنْ أتْرُكَ فَقَدْ تَركَ مَنْ هُوَ خَيرٌ مِنِّي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَدِدْتُ أنْ حَظِّيْ مِنْهَا الكَفافُ ، لا عَليَّ ولا لِيَ ، فَقَالُوا جَزاكَ اللهُ خَيْراً ، فَقَال رَاغِبٌ وَرَاهِبٌ .

اللّهُمَّ رَضِّنا بقَضَائِكَ وَأَعِنَّا عَلى الدُّنْيَا بالعِفَّةِ وَالزُّهْدِ وَالقَنَاعَةِ وَعَلى الدِّيْنِ بالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَطَهِّرْ ألْسِنَتَنَا مِن الكَذبِ وَقُلُوْبَنا مِن النِّفَاقِ وَأَعْمَالَنا مِن الرِّيَاءِ وَاحْفَظْ أبْصَارَنَا مِن الخِيَانَةِ فَانَّكَ تَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْينِ وَمَا تُخْفِيْ الصُّدُوْر وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمْينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَعَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ تَضرَّعْتُ إلَى اللهِ أنْ يُـرِيَنِّـيْ أَبِيْ في النَّوْمِ ، حَتَّى رَأَيْتُه وَهُوَ يَمْسَحُ العَرقَ عَنْ جَبِيْنِهِ ، فَسَألْتُهُ عَنْ حَالِهِ ، فَقَالَ لَوْلاَ رَحْمَةُ اللهِ لَهلَكَ أبُوكَ إنّهُ سَألَنِيْ عَنْ عِقَالِ بَعِيْرِ الصَّدَقَةِ ، وَعَنْ حِيَاضِ الابِلِ ، فَكَيْفَ النَّاسُ فَسَمِعَ بذَلِكَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ فَصَاحَ وَضَربَ بِيَدِهِ عَلى رَأْسِهِ ، وَقَالَ فُعِلَ هَذَا بِالتّقِيِّ الطَّاهِرِ ، فَكَيْفَ بِالمُتْرَفِ عُمَر بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ .

وَلَمّا أصَابَ النَّاسَ هَوْلُ المَجَاعَةِ وَالقَحْطِ في عَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ لا يَنَامُ اللَّيْلُ إلاّ قَلِيْلاَ ، وَلا يَجِدُ الرَّاحَةَ إلاَّ قَلِيْلاً كَانَ كُلُّ هَمِّهِ أنْ يَدْفَعَ خَطَرَ المَجَاعَةِ عَنْ شَعْبِهِ ، وَمَا زَالَ بِهِ الهَمُّ حَتَّى تَغيَّر لَوْنُه وَهزُلَ ،

وَقَالَ مَنْ رَآهُ لَوْ اسْتَمرَّتْ المَجَاعَةُ شُهُوراً أُخْرَى لَمَاتَ عُمَرُ مِن الهَمِّ وَالأَسَى .

وَجَاءَتْهُ يَوْماً قَافِلَةٌ مِنْ مصْر تَحْمِلُ اللَّحْمَ وَالسَّمْنَ وَالطَّعَامَ وَالكِسَاءَ فوزَّعَهَا على النّاسِ بِنَفْسِه وَأبى أنْ يأكُلَ شَيْئاً وَقَالَ لِرَئِيْسِ القَافِلَةِ ستأكُلُ مَعِيْ فَي البَيْتِ وَمَنَّى الرَّجُلُ نفْسَهُ مُمْتَازاً حَيْثُ ظَنَّ أنَّ أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ يَكُوْنُ طَعَامُهُ خَيْراً مِنْ طَعَامِ النَّاسِ .

وجَاءَ عُمَرُ وَالرَّجُلُ إلى البَيْتِ جَائِعَيْنِ بَعْدَ التَّعبِ ونَادَى عُمَرُ بِالطَّعَامِ فَاذَا هُو خُبْزٌ مُكَسَّرٌ يَابِسٌ مَعَ صَحْنٍ مِن الزَّيْتِ وَانْدَهَشَ الرَّجُلُ وَتَعجَّبَ مِنْ أنْ يَكونَ هَذا طَعَامُ أمِيْرِ المؤْمِنْينَ .

وَقَالَ لِمَاذَا مَنَعْتَنِي مِنْ أَنْ آكُلَ مَعَ النَّاسِ لَحماً وَسَمْناً وَقَدَّمْتَ هَذا الطَّعَامَ قَالَ عُمَرُ مَا أُطْعِمُكَ إلا مَا أُطْعِمُ نَفْسِيْ .

قَالَ وَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَأْكُلَ كَمَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَقَدْ وَزَّعْتَ بِيَدِكَ اللحْمَ وَالطَّعَامَ عَلَيْهِمْ قَالَ عُمَرُ لَقَدْ آلَيْتُ على نَفْسِيْ أنْ لا أذوُقَ السَّمْنَ وَاللَّحْمَ حَتَّى يَشْبَعَ مِنْهُمَا المُسْلِمُونَ جَمِيْعاً ، أسَمِعْتَ مِثْلَ هَذا الايْثَارِ لِغَيْرِ الأنْبِيَاءِ والخلفآء الرَّاشِدِيْنَ .

وَمِنْ وَرَعِهِ وَتَقَشُّفِهِ مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ امْرَأتَهُ اشْتَهَتْ الحَلْوى فَادَّخرَتْ لِذَلِكَ مِنْ نَفَقَةِ بَيْتِهَا حَتَّى جَمَعَتْ مَا يَكْفِي لِصُنْعِهَا فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ ذَلِكَ رَدَّ مَا ادّخَرَتْهُ إلى بَيْتِ المَالِ وَنقَصَ مَن النفَقَةِ بِقَدْرِ مَا ادَّخرَتْ وَإلى هَذا أشَارَ الشَّاعِرُ :

إنْ جَـاعَ في شِـدَّةٍ قَـوْمٌ شَـرَكْتَهُمُ
في الجُوعِ أَوْ تَنْجَلِيْ عَنْهُم غَوَاشِيْهَا
جُـوْعُ الخَلِيْفَـةِ وَالـدُّنْيَا بِقَبْضَتِـهِ
فِيْ الـزُّهْدِ مَنْزِلَـةٌ سُبْحَـانَ مُـوْلِيْهَـا
فَمَنْ يُبَـارِيْ أَبَـا حَفْصٍ وَسِيْـرَتَـهُ
أَوْ مَنْ يُحَـاوِلُ لِلْفَـارُوْقِ تَشْبِيْـهَـا
يَوْمَ اشْتَهَتْ زَوْجُهُ الحَلْوَى فَقَالَ لَهَا
مِنْ أَيْنَ لِيْ ثَمَنُ الحَلْوَى فَـأَشْرِيْهَـا
لاَ تَمْتَـطِيْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ جَـامِحَـةً
فَكِسْـرَةُ الخُبْـزِ عَنْ حَلْوَاكِ تُجْـزِيْهَـا
قَـالَتْ لَـكَ اللّهُ إنِّي لَسْتُ أَرْزَؤهُ
مَـالاً لِحَـاجَـةِ نَفْسٍ كُنْتُ أَبْغِيْهَـا
لَكِنْ أُجَـنِّبُ شَـيْئَـاً مِنْ وَضِـيْفَـتِنَـا
فِيْ كُـلِّ يَوْمٍ عَلَى حَـالٍ أُسَـوِّيْهَـا
حَتَّى إذَا مَـا مَلَكْنَـا مَـا يُكَـافِئُهَـا
شَـرَيْتُـهَـا ثُـمَّ إنِّـيْ لاَ أُثَـنِّيْـها
قَالَ اذْهَبِيْ وَاعْلَمِيْ إنْ كُنْتِ جَاهِلَةً
أنَّ القَنَـاعَـةَ تُغْنِيْ نَفْسَ كَـاسِيْهَـا
وَأَقْبَلَتْ بَعْـدَ خَمْسٍ وَهْيَ حَـامِلَةً
دُرَيْهِمَـاتٍ لِتَقْـضِيْ مِـنْ تَشَـهِّيْهَـا
فَقَـالَ نَبَّهْتِ مِنِّيْ غَـافِـلاً فَـدَعِيْ
هَـذِي الدَّرَاهِمَ إذْ لاَ حَقَّ لِيْ فِيْهَـا

مَـا زَادَ عَنْ قُوْتِنَـا فَـالمُسْلِمُـوْنَ بِـهِ
أَوْلَى فَقُــوْمِي لِبَيْتِ المَـالِ رُدِّيْهَـا

وَكَانَ يَقُولُ إِنِّي أَنْزَلْتُ مَالَ اللهِ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ مَالِ اليَتِيْمِ، فَإِنَ اسْتَغْنَيْتُ عَنْهُ عَفَفْتُ عَنْهُ وَإِن افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالمَعْرُوْفِ .

وَسُئِلَ يَوْماً عَمَّا يَحِلُّ لَهُ مِنْ مَالِ اللهِ فَقَالَ أَنَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا أَسْتَحِلُّ مِنْهُ يَحِلُّ لِيْ حُلَّتَانِ حُلَّةٌ فِي الشِّتَاءِ وَحُلَّةٌ فِي الصَّيْفِ وَمَا أَحِجُّ عَلَيْهِ وَأَعْتَمِرُ مِن الظَّهْرِ وَقُوْتِيْ وَقُوْتُ أَهْلِيْ كَقُوتِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ لَيْسَ بِأَغنَاهُمْ وَلاَ بِأَفْقَرِهِمْ ثُمَّ أَنَا رَجُلٌ مِن المُسْلِمِيْنَ يُصِيْبُنِيْ مَا أَصَابَهُمْ رَضِيَ اللهُ وَأَرْضَاهُ وَجَعَلَ جَنَّةَ الفِردَوْسِ مَثْوَاه .

وَرُوِيَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ ـ وَهُوَ عَلَى الشَّامِ بَعَثَ مَرَّةً إِلى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ بِمَالٍ وَأَدْهَمٍ ـ أَيْ قَيْدٌ ـ وَكَتَبَ إِلى أَبِيْهِ أَبَا سُفْيَانَ أَنْ يَدْفَعَ ذَلِكَ إِلى عُمَرَ فَخَرَجَ رَسُولُ مُعَاوِيَةَ بالمَالِ وَالأَدْهَمِ حَتَّى قَدِمَ عَلَى أَبِيْ سُفْيَانَ بِالمَالِ وَالأَدْهَمِ ، فَذَهَبَ أَبُوْسُفْيَانَ بِالأَدْهَمِ وَالكِتَابِ إلى عُمَرَ وَاحْتَبَسَ المالَ لِنَفْسِهِ فَلَمَّا قَرَأَ عُمَرُ الكِتَابَ قَالَ فَأَيْنَ المالُ يا أَبَا سُفْيَانَ قَالَ كَانَ عَلَيْنَا دَيْنٌ وَمَعُوْنَةٌ وَلَنا فِي بَيْتِ المالِ حَقٌّ فَإِذَا أَخْرَجْتَ لَنا شَيْئاً قَاصَيْتَنَا بِهِ فَقَالَ اطْرَحُوْهُ فِي الأَدْهَمِ أيْ فِيْ القَيْدِ حَتَّى يَأْتِيَ المالُ .

فَأَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ مَنْ أَتَاهُ بالمَالِ فَأَمَرَ عُمَرُ بإِطْلاَقِهِ مِن القَيْدِ فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ مُعاوِيَةَ عَلَى مُعَاوِيَةَ قَالَ لَهُ أَرَأَيْتَ أَمِيْرَ المؤمِنِيْنَ أُعْجِبَ بِالأَدْهَمِ قَالَ نَعَمْ وَطَرَحَ فِيْهِ أَبَاكَ قَالَ وَلِمَ قَالَ إِنَّهُ جَاءَ بالأَدْهَمِ وَحَبَسَ المَالَ قَالَ مُعَاوِيَةُ أَيْ وَاللّهِ وَالخَطَّابُ لَوْ كَانَ لَطَرَحَهُ فِيْهِ يُرِيْدُ لَوْ أَنَّ الخَطَّابَ أبا عُمَر مَكَانَ أَبِيْ

سُفْيَانَ في القِصَّةِ حَتَّى يَأْتِيَ المَالُ فَرَضِيَ اللهُ عَنْ عُمَرَ وَأَرْضَاهُ مَا أَنْصَفَهُ وَأَعْدَلَهُ وَأَوْرَعَهُ .

وفي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

وَمَا أَقَلْتَ أَبَا سُفْيَانَ حِيْنَ طَوَى
عَنْكَ الهَدِيَّةَ مُعْتَزّاً بِمُهْدِيْهَا
لَمْ يُغْنِ عَنْهُ وَقَدْ حَاسَبْتَهُ حَسَبٌ
وَلاَ مُعَاوِيَةٌ بِالشَّامِ يَجْبِيْهَا
قَيَّدْتَ مِنْهُ جَلِيْلاً شَابَ مَفْرِقُهُ
فِي عِزَّةٍ لَيْسَ مِنْ عِزٍّ يُدَانِيْهَا
قَدْ نَوَّهُوْا في اسْمِهِ فَي جَاهِلِيَّتِهِ
وَزَادَهُ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ تَنْوِيْهَا
في فَتْحِ مَكَّةَ كَانَتْ دَارُهُ حَرَماً
قَدْ أَمَّنَ اللهُ بَعْدَ البَيْتِ غَاشِيْهَا
وَكُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَشْفَعْ لَدَى عُمَرٍ
في هَفْوَةٍ لأَبِي سُفْيَانَ يَأْتِيْهَا
تَا للّهِ لَوْ فَعَلَ الخَطَّابُ فِعْلَتَهُ
لَمَا تَرَخَّصَ فَيْهَا أَوْ يُجَارِيْهَا
فَلاَ الحَسَابَةُ فِي حَقٍّ يُجَامِلُهَا
وَلاَ القَرَابَةُ في بُطْلٍ يُحَابِيْهَا

وَيُرْوَى أَنَّ جَبَلَةَ بْنَ الأَيْهَم أَحَدُ أَبْنَاءِ الغَسَاسِنَةِ مُلُوْكِ الشَّامِ قد اعْتَنَقَ

الاسْلَامَ وَبَيْنَمَا هُو ذَاتَ يوم يَطُوْفُ إذْ وَطِىءَ أَعْرَابِيٌّ ثَوْبَهُ فَلَطَمَهُ جَبَلَةُ لَطْمَةً هَشَمَتْ أَنْفَهُ فَشَكَاهُ الأَعْرَابِيُّ إِلَى عُمَرَ فَأمَرَ أَنْ يُقْتَصَّ مِنْ جَبَلَةَ فَأَبَى جَبَلَةُ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنَ القِصَاصِ وَهَرَبَ وَالتَجأَ إلى القُسْطَنْطِيْنِيَّةِ وَتَنَصَّرَ .

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

كَمْ خِفْتَ فِي اللهِ مَضْعُوفاً دَعَاكَ بِهِ
وَكَمْ أَخَفْتَ قَوِيّاً يَنْثَنِيْ تِيْهَا
وَفِي حَدِيْثِ فَتَى غَسَّانَ مَوْعِظَةٌ
لِكُلِّ ذِيْ نَعْرَةٍ يَأْبَىَ تَنَاسِيْهَا
فَمَا القَوِيُّ قَوِيَّاً رَغْمَ عِزَّتِهِ
عِنْدَ الخُصُومَةِ وَالفَارُوْقُ قَاضِيْهَا
وَمَا الضَّعِيْفُ ضَعِيْفَاً بَعْدَ حُجَّتِهِ
وَإنْ تَخَاصَمَ وَالِيْهَا وَرَاعِيْهَا

وَيُرْوَى أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَتَبَ إلى عَمْرو بْنِ العَاصِ إِنَّهُ قَدْ فَشَتْ لَكَ فَاشِيَةٌ مِنْ مَتَاعٍ وَرَقِيْقٍ وَآنِيَةٍ وَحَيَوَانٍ لَمْ تَكُنْ حِيْنَ وَلِيْتَ مِصْرَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْروٌ إنَّ أَرْضَنَا أَرْضُ مُزْدَرَعٍ وَمُتَّجَرٍ فَنَحْنُ نُصِيْبُ فَضْلاً عَمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ لَنَفَقَتِنَا فَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنِّيْ خَبَرْتُ مِنْ عُمَّالِ السُّوْءِ مَا كَفَى وَكِتَابُكَ إِلَيَّ كِتَابُ مَنْ أَقْلَقَهُ الأَخْذُ بالحَقِّ وَقَدْ سُؤْتُ بِكَ ظَنَّاً وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ لِيُقَاسِمَكَ مَالَكَ فَأَطْلِعْهُ وَأَخْرِجْ إليهِ مَا يُطَالِبُكَ وَأَعْفِهِ مِن الغِلْظَةِ عَلَيْكَ ، فَلَمْ يَسَعْ عَمْرُو ابْنُ العَاصِ عَلَى دَهَائِهِ وَعُلُوِّ مَكَانِهِ وَبُعْدِهِ عَنْ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ إِلاّ الخُضُوْعُ لِمَا أَمَرَ بِهِ وَمُقَاسَمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ مَالَهُ وإلى هذِهِ القِصَّةِ يُشِيْرُ الشَّاعِرُ .

شَاطَرْتَ دَاهِيَةَ السُّوَّاسِ ثَرْوَتَهُ
وَلَمْ تَخَفْهُ بِمِصْرَ وَهْوَ وَالِيْهَا
وَأَنْتَ تَعْرِفُ عَمْرَاً في حَوَاضِرِهَا
وَلَسْتَ تَجْهَلُ عَمْرَاً في بَوَادِيْهَا
فَلَمْ يَرُغْ حِيْلَةً فِيْمَا أَمَرْتَ بِهِ
وَقَامَ عَمْروٌ إلى الأَجْمَالِ يُزْجِيْهَا
وَلَمْ تُقِلْ عَامِلاً مِنْهَا وَإِنْ كَثُرَتْ
أَمْوَالُهُ وَفَشَا في الأَرْضِ فَاشِيْهَا

اللَّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا وَاشْرَحْ صُدُوْرَنَا وَاسْتُرْ عُيُوْبَنَا وَأَمِّنْ خَوْفَنَا وَاخْتِمْ بِالصَّالِحَاتِ أَعْمَالَنَا وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ وَحِزْبِكَ المُفْلِحِيْنَ الذِيْنَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَمِنْ وَرَعِهِ رَضِيَ اللهُ عنهُ مَا يَتَجَلَّى فِيْمَا يَلِي مِمَّا رُوِيَ عَنْهُ : كَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِمَّنْ يَأْخُذُوْنَ بِالشُّوْرَى في أُمُوْرِهِمْ عَمَلاً بِقَوْلِ اللّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَشَاوِرْهُم في الأَمْرِ﴾ وَكَانَ يَقُولُ لا خَيْرَ في أَمْرٍ أُبْرِمَ مِنْ غَيْرِ شُوْرَى .

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَرَّرَ قَاعِدَةَ الشُّورَى في انْتِخَابِ الخَلِيْفَةِ فَقَدْ سُئِلَ عِنْدَمَا طُعِنَ عَمَّنْ يُوْصِي بَعْدَهُ فَقَالَ لِلْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ إِذَا وَضَعْتُمُونِيْ فِي حُفْرَتِي فَأَدْخِلْ عَلِيّاً وَعُثْمَانَ وَالزُّبَيْرَ وَسَعْداً وَعَبْدَ الرَّحْمنِ بْنِ عَوْفٍ وَطَلْحَةَ إِنْ قَدِمَ

وَأَحْضِرْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ وَلَا شَيْءَ لَهُ مِنَ الأَمْرِ وَقُمْ عَلَى رُؤُسِهِمْ فإنْ اجْتَمَعَ خَمْسَةٌ وَرَضُوا رَجُلاً وَأَبَى وَاحِدٌ فَاضْرِبْ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ وَإِنْ اتَّفَقَ أَرْبَعَةٌ وَرَضُوا رَجُلاً مِنْهُمْ وَأَبَى اثْنَانِ فَاضْرِبْ رَأْسَيْهِمَا فإِنْ رَضِيَ ثَلاثَةٌ رَجُلاً وَثَلاثَةٌ رَجُلاً مِنْهُم فَحَكِّمُوا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ حَكَمَ لَهُ فَلْيَخْتَارُوا رَجُلاً مِنْهُمْ .

فَإِنْ لَمْ يَرْضَوْا بِحُكْمِ عَبْدِ اللّهِ فَكُونُوا مَعَ الذِيْنَ فِيْهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَاقْتُلُوا البَاقِيْنَ إِنْ رَغِبُوا عَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ وَلَمْ يَذْكُر في الشُّوْرَى سَعِيْدَ بْنَ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ لأَنَّهُ ابْنُ عَمِّهِ فَخَشِيَ أَنْ يُرَاعَى فَيُوَلَّى لِكَوْنِهِ ابْنَ عَمِّهِ فَلِذَلِكَ تَرَكَهُ وَهُوَ أَحَدُ العَشْرَةِ المُبَشَّرِيْنَ في الجَنَّةِ بَلْ قِيْلَ إِنَّهُ اسْتَثْنَاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ والى هَذِهِ القِصَّةِ يُشِيْرُ الشَّاعِرُ في قَوْلِهِ :

يَا رَافِعاً رَايَةَ الشُّوْرَى وَحَارِسَهَا
جَزَاكَ رَبُّكَ خَيْراً عَنْ مُحِبِّيْهَا
لَمْ يُلْهِكَ النَّزْعُ عَنْ تَأْيِيْدِ دَوْلَتِهَا
وَلِلْمَنِيَّةِ آلامٌ تُعَانِيْهَا
لَمْ أَنْسَ أَمْرَكَ لِلمِقْدَادِ يَحْمِلُهُ
إلى الجَمَاعَةِ إِنْذَاراً وَتَنْبِيْهَا
إِنْ ظَلَّ بَعْدَ ثَلاثٍ رَأْيُهَا شُعَباً
فَجَرِّدِ السَّيْفَ وَاضْرِبْ فِي هَوَادِيْهَا
فَاعْجَبْ لِقُوَّةِ نَفْسٍ لَيْسَ يَصْرِفُهَا
طَعْمُ المَنِيَّةِ مُرّاً عَنْ مَرَامِيْهَا
دَرَى عَمِيْدُ بَنِيْ الشُّورَى بِمَوْضِعِهَا
فَعَاشَ مَا عَاشَ يَبْنِيْهَا وَيُعْلِيْهَا

وَمَـا اسْتَبَدَّ بِـرَأْيٍ فِي حُكُـوْمَتِـهِ
إِنَّ الحُكُـوْمَـةَ تغـرِي مُسْتَبِـدِّيْهَـا
رَأْيُ الجَمَـاعَةِ لَا تَشْقَى البِـلَادُ بِـهِ
رَغْمَ الخِـلَافِ وَرَأْيُ الفَـرْدِ يُشْقِيْهَـا

وَمِنْ لُطْفِهِ وَرَأْفَتِهِ بِرَعِيَّتِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى العَدْلِ فِيْهِم مَا يَتَجَلَّى فِي وَصِيَّتِهِ لِأَبِي مُوْسَى الأَشْعَرِيّ وَقَدْ كَتَبَ لَهُ كِتَاباً قَالَ فِيْهِ فَإِذَا جَاءَ كِتَابِيَ هَذَا فَأْذَنْ لِأَهْلِ الشَّرَفِ وَأَهْلِ القُرْآنِ وَالتَّقْوَى وَالدِّيْنِ فَإِذَا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ فَأْذَنْ لِلعَامَّةِ وَلَا تُؤَخِّرْ عَمَلَ اليَوْمِ لِغَدٍ فَتَزْدَحِمُ عَلَيْكَ الأَعْمَالُ فَتَضِيْعُ .

وَإِيَّاكَ وَاتِّبَاعَ الهَوَى فَإِنّ لِلنَّاسِ أَهْوَاءً مُتَّبَعَةً وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَضَغَائِنَ مَحْمُوْلَةً وَحَاسِبْ نَفْسَكَ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ الشِّدَّةِ فَإِنَّ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ الشِّدَّةِ كَانَ مَرْجِعُهُ إِلَى الرِّضَا وَالغِبْطَةِ .

وَمَنْ أَلْهَتْـهُ حَيَاتُهُ وَشَغَلَتْهُ أَهْوَاؤُهُ عَادَ أَمْرُهُ إِلَى النَّدَامَةِ وَالحَسْرَةِ ، آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ حَتَّى لا يَطْمَعَ شَرِيْفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيْفٌ مِنْ عَدْلِكَ .

وَلَا يَمْنَعُكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ اليَوْمَ فَرَاجَعْتَ فِيْهِ نَفْسَكَ وَهُدِيْتَ فِيْهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الحَقِّ فَإِنَّ الحَقَّ قَدِيْمٌ وَمُرَاجَعَةُ الحَقِّ خَيْرٌ مِن التَّمَادِي فِي الباطل وَالفَهْمَ الفَهْمَ فِيْمَا تلجلج فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ وَلَا سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ اعْرِفْ الأَشْبَاهَ وَالأَمْثَالَ فَقِسِ الأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ بِنَظَائِرِهَا .

وَاعْمَدْ إِلَى أَقْرَبِهَا إِلَى اللهِ وَأَشْبَهِهَا بِالحَقِّ وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقّاً غَائِبَاً

أمَداً يَنْتَهِي إليْهِ فَإنْ أحْضَرَ بَيِّنَتَهُ أخذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإلاّ اسْتَحلّت عَلَيْهِ القَضِيّةُ فَإنّ ذلكَ أنْفَى لِلشَّكِ وَأجْلَى لِلْمَعْنَى وَأبْلَغُ في العُذْرِ ، وَالمُسْلِمُوْنَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ إلا مَجْلَوداً في حَدّ أو مُجَرّباً عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُوْرٍ أَوْ مُتَّهماً في وَلاَءٍ أَوْ نَسَبٍ فإنّ اللهَ قَدْ تَوَلَّى مِنْكُمْ السَّرَائِرَ . وَادْرَأْ بالبَيِّنَاتِ وَالأَيْمَانِ وَإيَّاكَ وَالغَلَقَ وَالضَّجَرَ وَالتَّأَذّيْ بِالخُصُومِ وَالتَّنَكُّرِ عِنْدَ الخُصُوْمَاتِ

فَإنَّ الحَقَّ في مَوَاطِنِ الحَقِّ يُعْظِمُ اللهُ بِهِ الأَجْرَ وَيُحْسِنُ بِهِ الذُّخْرَ فَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ وَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النّاسِ .

وَمَنْ تَخَلَّقَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللهُ انَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسِهِ شَانَهُ اللهُ فَمَا ظَنَّكَ بثَوَابِ عِنْدَ اللهِ عزَّ وَجَلَّ وَخزَائِنَ رَحْمَتِهِ وَالسَّلاَمُ .

(فَصْلٌ)

« فِي نَمَاذِجَ مِنْ الفِرَاسَةِ »

وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَهُ فِرَاسَةٌ مِنْ ذَلِكَ أنَّهُ أُتِيَ يَوْماً بِفَتىً أمْرَدٍ قَدْ وُجِدَ قَتِيْلاً مُلْقىً عَلَى الأرْضِ فسَألَ عُمَرُ عَنْ أمْرِهِ وَاجْتَهَدَ فَلَمْ يَقِفْ لَهُ عَلَى خَبَرٍ فَشَقَّ ذَلِك عَلَيْهِ .

فَقَالَ اللهُمَّ أَظْفِرْنِيْ بِقَاتِلِهِ حَتَّى إذَا كانَ عَلَى رَأْسِ الحَوْلِ وُجِدَ صَبِيٌّ مَوْلُوْدٌ مُلْقىً بِمَوْضِعِ القَتِيْلِ فَأُتِيَ بِهِ عُمَرُ فَقَالَ ظَفِرْتُ بِدَمِ القَتِيْلِ إنْ شَاءَ اللهُ تَعالَى فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إلى امْرَأَةٍ تُرْضِعُهُ وَتَقُومُ بِشَأْنِهِ وَقَالَ خُذِيْ مِنَّا نَفَقَتَهُ وَانْظُرِيْ مَنْ يَأْخُذُهُ مِنْكِ فإذَا وَجَدْتِ امْرَأةً تُقَبِّلُهُ وَتَضُمُّهُ إلى صَدْرِهَا فَأعْلِمِينِي بِمَكَانِها .

فَلَمَّا شَبَّ الصَّبِيُّ جاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ لِلْمَرْأةِ إنَّ سَيِّدَتِي بَعَثَتْنِي إلَيْكَ لِتَبْعَثِيْ بالصَّبِيّ لِتَرَاهُ وَتَرُدُّهُ إلَيْكِ قَالَتْ نَعم إذْهَبِيْ بِهِ إلَيْهَا وَأنَا مَعَكِ فَذَهَبتْ بِالصَّبِيِّ وَالمَرْأةُ مَعَهُ حَتَّى دَخلَتْ عَلَى سَيِّدَتِهَا فَلَمَّا رَأَتْهُ أخذَتْهُ فَقَبَّلَتْهُ وَضَمَّتْهُ إلَيْهَا .

فَإذَا هِيَ ابْنَةُ شَيْخٍ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ النبيّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأتَتْ عُمَرَ فَخَبَّرَتْهُ فَاشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ إلى مَنْزِلِ المَرْأةِ فَوجَدَ أَبَاهَا مُتَّكِئاً عَلَى البَابِ فَقَالَ يَا فَلانُ مَا فَعلَتْ ابْنَتُكَ فُلانَةُ قَالَ جَزَاهَا اللهُ خَيْراً يَا أمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ هِيَ مِنْ أَعْرَفِ النَّاسِ بِحَقِّ اللهِ وَحَقِّ أَبِيْهَا مَعَ حُسْنِ صَلاَتِهَا وَصِيَامِهَا وَالقِيَامِ بِدِيْنِهَا .

فَقَالَ عُمَرُ قَدْ أَحْبَبْتُ أَن أَدْخُلَ إلَيْهَا فَأَزِيْدَهَا رَغْبَةً فِي الخَيْرِ وَأَحُثَّهَا عَلَيْهِ فَدَخَلَ أَبُوهَا وَدَخَلَ عُمَرُ مَعَهُ فَأَمَرَ مَنْ عِنْدَهَا فَخَرَجَ وَبَقِيَ هُوَ وَالمَرْأةُ فِي البَيْتِ فَكَشَفَ عُمَرُ عَن السَّيْفِ وَقَالَ لَتَصْدُقِيْني وَ إلاَّ ضَرَبْتُ عُنُقَكِ وَكَانَ لا يَكْذِبُ .

فَقَالَتْ عَلَى رِسْلِكَ فَوَاللّهِ لأَصْدُقَنَّ إنَّ عَجُوْزاً كَانَتْ تَدْخُلُ عَلَيَّ فَاتَّخذَتْهَا أمّاً وَكَانَتْ تَقُومُ مِنْ أَمْرِيْ كَمَا تَقُومُ بِهِ الوَالِدَةُ وَكُنْتُ لَهَا بِمَنْزِلَةِ البِنْتِ فَمَضَى لِذَلِكَ حِيْنٌ ثمَّ إنها قَالَتْ يَا بُنَيَّةُ إنَّهُ قَدْ عَرَضَ لِيْ سَفَرٌ وَلِيْ ابْنَةٌ فِي مُوْضِعٍ أَتَخَوَّفُ عَلَيْهَا فِيْهِ أَنْ تضِيْعَ وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَضُمَّهَا إلَيْكِ حَتَّى أَرْجِعَ مِنْ سَفرِيْ .

فَعَمَدَتْ إلَى ابْنٍ لَهَا شَابٍّ أَمْرَدٍ فَهَيَّئَتْهُ كَهَيْئَةِ الجَارِيَةِ وَأَتَتْنِيْ بِهِ وَلاَ أشُكُّ أَنَّهُ جَارِيَةٌ فَكَانَ يَرَى مِنِّي مَا تَرَى الجَارِيَةُ مِن الجَارِيَةِ حَتَّى اغْتَفَلَنِي يَوْماً وَأنَا نَائِمَةٌ فَمَا شَعَرْتُ حَتَّى عَلاَنِيْ وَخَالَطَنِيْ فَمَدَدْتُ يَدِيْ إلى شَفْرَةٍ كَانَتْ إلى جَنْبِيْ فَقَتَلْتُهُ .

ثُمَّ أَمَرْتُ بِهِ فَأَلْقِي حَيْثُ رَأَيْتَ فَاشْتَمَلْتُ مِنْهُ عَلَى هَذَا الصَّبِيِّ فَلَمَّا وَضَعْتُهُ أَلْقَيْتُهُ فِي مَوْضِعِ أَبِيهِ فَهَذَا واللّهِ خَبَرُهُمَا عَلَى مَا أَعْلَمْتُكَ .

فَقَالَتْ صَدَقْتِ ثُمَّ أَوْصَاهَا وَدَعَا لَهَا وَخَرَجَ وَقَالَ لِأَبِيْها نِعْمَ الابْنَةُ ابْنَتُكَ ثُمَّ انْصَرَفَ .

وَقَالَ نَافِعُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ بَيْنَمَا عُمَرُ جَالِسٌ إِذْ رَأَى رَجُلاً فَقَالَ لَسْتُ ذَا دِرَايَةٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ كَانَ يَنْظُرُ فِي الكِهَانَةِ ادْعُوْهُ لِي فَدَعَوْهُ فَقَالَ هَلْ كُنْتَ تَنْظُرُ وَتَقُوْلُ فِي الكِهَانَةِ شَيْئاً قَالَ نَعَمْ .

وَقَالَ مَالِكُ عَنْ يَحْيَ بْنِ سَعِيْدٍ إِنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ قَالَ لِرَجُلٍ مَا اسْمُكَ قَالَ جَمْرَةُ قَالَ ابْنُ مَنْ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ قَالَ مِمَّنْ قَالَ مِنَ الحُرْقَةِ قَالَ أَيْنَ مَسْكَنُكَ قَالَ بِحَرَّةِ النَّارِ قَالَ أَيُّهَا قَالَ بِذَاتِ لَظَى فَقَالَ عُمَرُ أَدْرِكْ أَهْلَكَ فَقَدْ احْتَرَقُوا فَكَانَ كَمَا قَالَ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ ابْرَاهِيْمَ مُصَلَّى فَنَزَلَتْ الآيَةُ ﴿ وَاتَّخِذُوْا مِنْ مَقَامِ ابْرَاهِيْمَ مُصَلَّى ﴾ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَمَرْتَ نِسَائَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ فَنَزَلَتْ آيَةُ الحِجَابِ وَاجْتَمَعَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاؤُهُ فِي الغَيْرَةِ فَقَالَ لَهُنَّ عُمَرُ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ فَنَزَلَتْ كَذَلِكَ .

وَشَاوَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ فَأَشَارَ بِقَتْلِهِمْ وَنَزَلَ القُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ وَرَوَى زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيْه ، قَالَ قَدِمَتْ عَلَى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللّهُ عنه حُلَلٌ مِنْ اليَمَنِ فَقَسَمَها بَيْنَ النَّاسِ فَرَأى فِيْهَا حُلَّةً رَدِيْئَةً فَقَالَ كَيْفَ أَصْنَعُ بِهَذِهِ إِنَّ أَحَداً لَمْ يَقْبَلْهَا فَطَوَاهَا وَجَعَلَهَا تَحْتَ

مَجْلِسِهِ وَأخْرَجَ طَرَفَهَا وَوَضَعَ الحُلَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَقْسِمُ بَيْنَ النَّاسِ .

فَدَخَلَ الزُّبَيْرُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إلى تِلْكَ الحُلَّةِ ، فَقَالَ مَا هَذِهِ الحُلَّةُ فَقَالَ عُمَرُ دَعْهَا عَنْكَ قَالَ مَا شأْنها قالَ دَعْهَا قَالَ فأعْطِنِيْهَا قَالَ إنَّكَ لاَ تَرْضَاهَا ، قَالَ بَلَى قَدْ رَضِيْتُهَا فَلَمَّا تَوَثَّقَ مِنْهُ وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لاَ يَرُدَّهَا رَمَى بِهَا إلَيْهِ فَلَمَّا نَظَرَ إلَيْهَا إذا هِيَ رَدِيْئَةٌ قَالَ لا أُرِيْدُهَا قَالَ عُمَرُ هَيْهَاتَ قَدْ فَرَغْتُ مِنْهَا فَأَجَازَهَا عَلَيْهِ وَلَمْ يَقْبَلْهَا .

اللهُمَّ وَفِّقْنَا لِلْهِدَايَةِ وَأَبْعِدْنَا عَنْ أَسْبَابِ الجَهَالَةِ وَالغَوَايَةِ اللهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ وَالسُّنَّةِ وَلاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ الوَهَّابُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَاصَمَ غُلاَمٌ مِنَ الأنْصَارِ أُمَّهُ إلى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه فَجَحَدَتْهُ فسَأَلَهُ البَيِّنَةَ فَلَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ وَجَاءتْ المَرْأَةُ بِنَفَرٍ فَشَهِدُوا أَنَّها لَمْ تَتَزَوَّجْ وَأَنَّ الغُلاَمَ كَاذِبٌ عَلَيْهَا وَقَدْ قَذَفَهَا فَأَمَرَ عُمَرُ بِضَرْبِهِ .

فَلَقِيَهُ عَلِيّ بْنُ أَبِيْ طَالِبٍ فَسَأَلَهُ عَنْ أَمْرِهِمْ فَأَخْبَرَهُ فَدَعَاهُمْ ثُمَّ قَعَدَ فِي مَسْجِدِ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم وَسَأَلَ المَرْأَةَ فَجَحَدَتْ فَقَالَ لِلْغُلاَمِ اجْحَدْهَا كَمَا جَحَدَتْكَ فَقَالَ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلَّم إنَّها أُمِّي قَالَ اجْحَدْهَا وَأَنَا أَبُوْكَ وَالحَسَنُ وَالحُسَيْنُ أخَوَاكَ .

قَالَ قَدْ جَحَدْتُهَا وَأَنْكَرْتُهَا فَقَالَ عَلِيٌّ لأَوْلِيَاءِ المَرْأَةِ أَمْرِيْ فِي هَذِهِ المَرْأَةِ

جَائِزٌ قَالُوا نَعَمْ وَفِيْنَا أَيْضاً فَقَالَ أُشْهِدُ مَنْ حَضَرَ أَنِّيْ قَدْ زَوَّجْتُ هَذَا الغُلاَمَ مِنْ هَذِهِ المَرْأَةِ الغَرِيْبَةِ مِنْهُ يَا قَنْبَرُ ائْتِنِيْ بِدَرَاهِمَ فَأَتَاهُ فَعَدَّ أَرْبَعْمَائَةٍ وَثَمَانِيْنَ دِرْهَماً فَقَذَفَهَا مَهْراً لَهَا .

وَقَالَ لِلْغُلاَمِ خُذْ بِيَدِ امْرَأَتِكَ وَلاَ تَأْتِنَا إِلاَّ وَعَلَيْكَ أَثَرُ العُرْسِ فَلَمَّا وَلَّى قَالَتْ المَرْأَةُ يَا أَبَا الحَسَنِ اللهَ اللهَ هُوَ النَّارُ هُوَ واللهِ ابْنِيْ .

قَالَ وَكَيْفَ ذَلِكَ قَالَتْ إِنَّ أَبَاهُ كَانَ هَجِيْناً ـ الهَجِيْنُ عَرَبِيٌّ وُلِدَ مِنْ أَمَةٍ أَوْ مَنْ أَبُوْهُ خَيْرٌ مِنْ أُمِّهِ ـ وَإِنَّ إِخْوَتِيْ زَوَّجُونِيْ مِنْهُ فَحَمَلْتُ بِهَذَا الغُلاَمِ وَخَرَجَ الرَّجُلُ غَازِيَاً فَقُتِلَ وَبَعَثْتُ بِهَذَا إِلَى حَيِّ بَنِيْ فُلاَنٍ فَنَشَأَ فِيْهِمْ وَأَنِفْتُ أَنْ يَكُوْنَ ابْنِيْ فَقَالَ عَلِيٌّ أَنا أَبُو الحَسَنِ وَأَلْحَقَهُ بِهَا وَثَبَّتَ نَسَبَهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ سَأَلَ رَجُلاً كَيْفَ أَنْتَ فَقَالَ مِمَّنْ يُحِبُّ الفِتْنَةَ وَيَكْرَهُ الحَقَّ وَيَشْهَدُ عَلَى مَا لَمْ يَرَهُ . فَأَمَرَ بِهِ إِلَى السِّجْنِ فَأَمَرَ عَلِيٌّ بِرَدِّهِ فَقَالَ صَدَقَ ، فَقَالَ كَيْفَ صَدَّقْتَهُ قَالَ يُحِبُّ المالَ وَالوَلَدَ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ وَيَكْرَهُ المَوْتَ وَهُوَ الحَقُّ وَيَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَلَمْ يَرَهُ فَأَمَرَ عُمَرُ بِإِطْلاَقِهِ وَقَالَ « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

وَشَكَا شَابٌ إِلَى عَلِيٍّ نَفَراً فَقَالَ إِنَّ هؤلاء خَرَجُوا مَعَ أَبِيْ فِي سَفَرٍ فَعَادُوا وَلَمْ يَعُدْ أَبِيْ فَسَأَلْتُهُمْ عَنْهُ فَقَالُوا مَاتَ فَسَأَلْتُهُم عَنْ مَالِهِ فَقَالُوا مَا تَرَكَ شَيْئاً وَكَانَ مَعَهُ مَالٌ كَثِيْرٌ وَتَرَافَعْنَا إِلَى شُرَيْحٍ فَاسْتَحْلَفَهُم وَخَلَّى سَبِيْلَهُم .

فَدَعَا عَلِيٌّ بِالشُّرَطِ فَوَكَّلَ بِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُم رَجُلَيْنِ وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لا يُمْكِّنُوا بَعْضَهُم أَنْ يَدْنُو مِنْ بَعْضٍ وَلاَ يُمَكِّنُوا أَحَداً يُكَلِّمُهُمْ وَدَعَا كَاتِبَهُ وَدَعا أَحَدَهُمْ فَقَالَ أَخْبِرْنِيْ عَنْ أَبِ هَذَا الفَتَى أَيَّ يَوْمٍ خَرَجَ مَعَكُم وَفِي أَيِّ مَنْزِلٍ

نَزَلْتُمْ وَكَيْف كَانَ سَيْرُكُمْ وَبِأَيِّ عِلَّةٍ مَاتَ وَكَيْفَ أُصِيبَ بِمَالِهِ وَسأَلَهُ عَمَّنْ غَسَّلَهُ وَدفَنَهُ وَمَنْ تَوَلَّى الصَّلاَةَ عَلَيْهِ وَأَيْنَ دُفِنَ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَالكاتِبُ يَكْتُبُ فَكَبَّرَ عَلِيٌّ وَكَبَّرَ الحَاضِرُوْنَ وَالمُتَّهَمُوْنَ لاَ عِلْمَ لَهُمْ إلاّ أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ صَاحِبَهُم قَدْ أَقَرَّ عَلَيْهِم .

ثُمَّ دَعَا آخَرَ بَعْدَ أَنْ غَيَّبَ الأَوَّلَ عَنْ مَجْلِسِهِ فَسَأَلَهُ كَمَا سَأَلَ صَاحِبَهُ ثُمَّ الآخَرَ كَذَلِكَ حَتَّى عَرَفَ مَا عِنْدَ الجَمِيْعِ فَوَجَدَ كُلَّ وَاحِدٍ يُخْبِرُ بِضِدِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ صَاحِبُهُ ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ الأَوَّلِ فَقَالَ يَا عَدُوَّ اللّهِ قَدْ عَرَفْتُ غَدْرَتَكَ وَكَذِبَكَ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ أَصْحَابِكَ وَمَا يُنْجِيْكَ مِن العُقُوْبَةِ إلا الصِّدْقُ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ إِلى السِّجْنِ ،وَكَبَّرَ وَكَبَّرَ مَعَهُ الحَاضِرُوْنَ .

فَلَمَّا أَبْصَرَ القَوْمُ الحَالَ لم يَشُكُّوا أَنَّ صَاحِبَهُمْ أَقَرَّ عَلَيْهِمْ فَدَعَا آخَرَ مِنْهُمْ فَهَدَّدَهُ فَقَالَ يَا أَمِيْرَ المؤْمِنِيْنَ وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ كَارِهاً لِمَا صَنَعُوا ثُمَّ دَعَا الجَمِيْعَ فَأَقَرُّوا بالقِصَّةِ وَاسْتَدْعَى الذِي في السِّجْنِ وَقَالَ لَهُ قَدْ أَقَرَّ أَصْحَابكَ وَلاَ يُنْجِيْكَ سِوَى الصِّدْقِ فَأَقَرَّ بِكُلِّ مَا أقرَّ بِهِ القَوْمُ فَأَغْرَمَهُمْ المالُ وَأَقَادَ مِنْهُمْ بِالقَتِيْلِ .

وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

(فصل)

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ دَفعا إلَى امْرَأَةٍ مِائَةَ دِيْنَارٍ وَدِيْعَة وَقَالاَ لاَ تَدْفَعِيْهَا إلَى وَاحِدٍ مِنّا إلا وَمَعَهُ صَاحِبُه فَلَبَثَا حَوْلاً فَجَاءَ أَحَدُهُمَا فَقَالَ إنَّ صَاحِبِيْ قَدْ مَاتَ فَادْفَعِي إليَّ الدَّنَانِيْرَ فَأبَتْ وَقَالَتْ إِنَّكُمَا قُلْتُمَا لا تَدفَعِيْهَا إلَى وَاحِدٍ مِنّا دُوْنَ صَاحِبِه فَلَسْتُ بِدَافِعَتِهَا إِلَيْكَ ، فَثَقَّلَ عَلَيْهَا بِأَهْلِهَا وَجِيْرَانِهَا

حَتَّى دَفعْتَهَا إلَيْهِ .

ثُمَّ لَبِثَتْ حَوْلاً آخر فَجاءَ الآخَرُ فَقَالَ ادْفعِي إلَيَّ الدَّنَانِيْرَ فَقَالَتْ إنَّ صَاحِبَكَ جاءَنِي فَزَعَمَ أنكَ قَدْ مُتَّ فَدَفعْتُها إلَيْهِ فَاخْتَصَمَا إلَى عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ فَأَرَادَ أنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا فقالَتْ ادْفعْنَا إلَى عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ فَعَرفَ عَلِيّ أنَّهُمَا قَدْ مَكرا بِهَا .

فَقَالَ أَلَيْسَ قُلْتُمَا لا تَدْفَعِيْهَا إلَى وَاحِدٍ مِنَّا دُوْنَ صَاحِبِه قَالَ بَلَى قَالَ مَالُكَ عِنْدَها فَاذْهَبْ فَجِىءْ بِصَاحِبَكَ حَتَّى تَدْفَعهُ إلَيْكُما .

وَاخْتَصَمَ إلَى إيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ رجُلانِ فقَالَ أَحَدُهُمَا إنَّهُ بَاعِنِيْ جَارِيَة رَعْنَا فقَالَ إيَاسٌ وَما عَسَى أنْ تَكُوْنَ هَذِهِ الرُّعُوْنَةُ قَالَ شِبْهُ الجُنونُ فَقَالَ إيَاسٌ لِلْجَارِيَةِ أَتَذْكُرِيْنَ مَتَى وُلِدْتِيْ قَالَتْ نَعَمْ قَالَ فأيُّ رِجْلَيْكِ أطوَلُ قَالَتْ هَذِهِ فقَالَ إيَاسٌ رُدَّهَا فَانَّهَا مَجْنُونَةٌ .

وَتَقَدَّمَ إلَى إيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ فَقَالَ إيَاسٌ أَمَّا احْدَاهُنَّ فَحامِلٌ وَالأُخرى مُرْضِعٌ وَالآخَرىٰ ثَيِّبٌ وَالاخْرَى بِكْرٌ فَنَظَرُوا فَوَجَدَوا الأَمْرَ كَما قَالَ قَالُوا كَيْفَ عَرَفْتَ ، فَقَالَ أمَّا الحامِلُ فَتَرْفَعُ ثَوْبَها عَنْ بَطْنِها وَهِيَ تُكَلمُنِيْ فَعلِمْتَ أنَّها حَامِلٌ وأمَّا المُرضِعُ فكانَتْ تَضْرِبُ ثَدْيَها فَعلِمْتُ أنها مُرْضِعٌ ، وأمَّا الثَّيِّبُ فكانتْ تُكَلِّمُنِي وَعينُها في عَيْنِيْ فَعلِمْتُ أنَّها ثيِّبٌ .

وَأمَّا البِكْرُ فَكَانَتْ تُكلِّمُنِيْ وَعَيْنُهَا في الأَرْضِ فَعَلِمْتَ أنَّها بِكْرٌ ، وقَالَ المدَائِنِيّ عَنْ رَوْحٍ اسْتَوْدَعَ رَجُلٌ رَجُلا مِنْ أبْنَاءِ النَّاسِ مَالاً ثُمَّ رَجَعَ فَطلَبَهُ فَجحَدَ فَأَتَا إيَاساً فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لهُ إيَاسٌ انْصرِفْ فَاكْتُمْ أمْرَكَ وَلا تُعلِمْهُ أنَّك أتَيْتَنِيْ ثم عُدْ إلَيَّ بَعْدَ يَوْمَيْنِ .

فَدَعَا إِيَاسُ المُودَعَ فَقَالَ قَدْ حضَرَ مَالٌ كَثِيْرٌ وَأُرِيْدُ أَنْ أُسَلِّمَهُ إِلَيْكَ أَفَحصِيْنٌ مَنْزِلُكَ قالَ نَعَمْ قَالَ فأَعِدَّ لهُ مَوْضِعاً وَحَمَّالِيْنَ وَعادَ الرَّجُلُ صَاحِبُ الوَدِيْعَةِ إِلى إِيَاسٍ .

فَقَالَ انْطَلِقْ إِلى صَاحِبِكَ فاطْلُبْ المَالَ فَإِنْ أَعْطَاكَ فَذَاكَ وَإِنْ جَحدَكَ فَقُلْ لَهُ إِنِّيْ أخْبِرُ القاضِيْ فَأتى الرَّجُلُ صَاحِبَهُ فَقالَ مَالِيْ وَإلا أَتَيْتُ القَاضِيْ وَشَكَوتُ إِلَيْهِ وَأَخْبَرْتُه بِأَمْرِي ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَالَهُ فَرجَع الرَّجُلُ إِلى إِيَاسٍ فَقَالَ قَدْ أَعْطَانِيْ المالَ .

وَجَاءَ الأَمِيْنُ إِلَى إِيَاسٍ لِوَعْدِهِ فَزجَرَهُ وَانْتَهرَهُ وَخَجَّلَهُ وَقَالَ لَا تَقْرَبْنِيْ يَا خَائِنُ . وَتَقلَّدَ القَضَاءَ بِوَاسَطَ رَجُلٌ ثِقَةٌ فَأَوْدَعَ رَجُلٌ بَعْضَ شُهَودِهِ كِيْساً مَخْتُوماً ذَكَر أَنَّ فِيْهِ أَلفَ دِيْنَارٍ .

فَلَمَّا طَالَتْ غَيْبَةُ الرَّجُلِ فَتَقَ الشَّاهِدُ الكِيْسَ مِنْ أَسْفَلِهِ وَأَخَذَ الدَّنَانِيْرَ وَجَعَلَ مَكانَها دَرَاهِمَ وأَعَادَ الخِيَاطَةَ كَمَا كَانَتْ .

وَجَاءَ صَاحِبُ الكِيْسِ فَطَلَبَ وَدِيْعَتَهُ فَدَفَعَ إِلَيْهِ الكِيْسَ بِخَتْمِهِ لَمْ يَتَغَيّر فلمَّا فتحهُ وَشَاهَدَ الحَالَ رَجَعَ إِليْهِ وَقَالَ إِنِّيْ أَوْدَعْتُكَ دَنَانِيرَ وَالتِيْ دَفَعْتَ إِليَّ دَرَاهِمَ فَقَالَ هُوَ كِيْسُكَ بِخَاتَمِكَ فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ القَاضِيْ فَأَمَرَ بِاحْضَارِ المُوْدَعِ فلمَّا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ القَاضِيْ مُنْذُ كَمْ أَوْدَعَكَ هَذَا الكِيْسُ فقالَ مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَر سَنَةً .

فَأَخَذَ القَاضِيْ تِلْكَ الدَّرَاهِمَ وَقَرَأَ سِكَّتَها فَاذَا فِيْهَا مَا قَدْ ضُرِبَ مِنْ سَنَتَيْنِ وَثَلاثٍ فَأَمَرهُ بِدَفْعِ الدَّنَانِيْرِ إِلَيْهِ وَأَسْقَطَهُ وَنَادَى عَلَيْهِ ، وَاسْتَوْدَعَ رَجُلٌ لِغَيْرِهِ مَالاً فَجَحَدَهُ فَرفَعَهُ إِلى إِيَاسٍ فَسَأَلهُ فَأنكَرَ .

فَقَالَ لِلْمُدَّعِي أَيْنَ دَفَعْتَ إلَيْهِ فَقَالَ في مَكَانِ كَذا في البَرِّيَّةِ فَقالَ وَما كانَ هُناكَ قَالَ شَجَرةٌ قَالَ اذْهَبْ إلَيْهَا فلَعَلَّكَ دَفَنْتَ المَالَ عِنْدَها وَنسِيْتَ فَتَذْكُرَ إذَا رَأيْتَ الشَّجَرَةَ فمَضَى وقَالَ لِلْخَصْمِ اجْلِسْ حَتَّى يَرْجِعَ صَاحِبُكَ وَإيَاسٌ يَقْضِيْ وَيَنْظُرُ إلَيْهِ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةً .

ثُمَّ قَالَ يا هَذَا أَتَرىٰ صَاحِبَكَ بَلَغَ مَكَانَ الشَّجَرَةِ قَالَ لا قَالَ يَا عَدُوَّ اللهِ إنَّكَ خائِنٌ قَالَ أقِلْنِيْ قَالَ أقَالَكَ اللهُ فأمَرَ مَنْ يَحْتَفِظُ بِهِ حَتَّى جاءَ الرَّجُلُ فقالَ لهُ أيَاسٌ اذْهَبْ مَعَهُ فَخُذْ حَقَّكَ .

وَتَقَدَّمَ رَجُلٌ شَيْخٌ أَيْ كَبِيْرُ السِّنِّ ومَعهُ غُلامٌ حَدَثٌ أيْ صَغِيْرٌ إلى القَاضِيْ أبِي حَازِمٍ فَادّعَى الشَّيْخُ على الغُلامِ بألِفْ دِيْنَارٍ دَيْناً فقَالَ مَا تَقُولَ قَالَ نَعْمَ فَقالَ القَاضِيْ لِلشَّيْخِ مَا تُرِيْدُ قالَ احِبْسُه قَالَ لا .

فَقَالَ الشَّيْخُ إنْ رَأى القَاضِيْ أَنْ يَحْبِسَهُ فَهُوَ أرْجَى لِحُصُولِ مَالِي فَتَفَرَّسَ أبُو حَازِمٍ فِيْهِما سَاعَةً ثم قالَ تلَازَما حتّى أنْظُرَ في أمْرِكُما في مَجْلِسٍ آخرَ فقَالَ لَهُ مُكْرِمُ بْنُ أحْمَدٍ لِمَاذَا أخرَّتَ حَبْسَهُ فقَالَ وَيْحكَ إنِّي أعْرِفُ في أَكْثَرِ الأَحْوَالِ في وُجُوْهِ الخُصُوْمِ وَجْهَ المُحِقِّ مِن المُبْطِلِ وَقدْ صَارَتْ لِيْ بذلِكَ دِرَاية لا تكادُ تُخْطِىءُ .

وَقَدْ وَقَعَ لِيْ أنَّ سَمَاحَهُ هَذا بالاقْرَارِ عَيْنُ كَذِبه وَلَعَلَّهُ يَنْكَشِفُ لِي من أمْرِهِمَا مَا أكُوْنُ مَعَهُ على بَصِيْرةٍ أمَا رَأيْتَ قِلَّةَ تَعَاصِيْهِمَا في المُناكَرَةِ وقِلَّةِ اخْتِلافِهِمَا وَسُكُون طِبَاعِهِمَا مَعَ عِظَمِ المالِ ومَا جَرَتْ عَادَاتُ الأَحْدَاثِ بِفرْطِ التَّوَرُّعِ حَتَّى يُقِرَّ بِمِثْلِهِ طَوْعاً عَجِلاً مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ على هَذَا المالِ .

قَالَ وَنحنُ على ذَلِكَ نَتحدَّثُ إذْ أتى الآذِنُ يَسْتأْذِنُ على القَاضِيْ لِبَعْضِ

التُّجّارِ فأذِنَ لَهُ فَلَمَّا دَخلَ قالَ أصْلَحَ اللّهُ القَاضِيْ إنّي بُلِيْتُ بولَدٍ حدَثٍ صَغيْرٍ يُتْلِفُ كُلَّ مَا يَظْفَرُ بِهِ مِنْ مَالِيْ في القِنَانِ عِنْدَ فُلانٍ فإذا مَنَعْتُهُ احْتَالَ بِحِيَلٍ تَضْطَرُّنِيْ إلى الْتِزَامِ الغُرْمِ عنْهُ .

وَقَدْ نَصَبَ اليَوْمَ صاحِبُ القِنَانِ يُطَالِبُ بِأَلْفِ دِيْنارٍ حالاً وبَلَغنِيْ أَنَّهُ تَقَدَّمَ إلى القَاضِيْ لِيُقِرَّ لَهُ فيَسْجُنَهُ وأقَعُ مَعَ أمِّهِ فِيْمَا يُنَكِّدُ عَيْشَنَا إلَى أنْ أقْضِيَ عَنْهُ فَلَمَّا سَمِعْتُ بِذلِكَ بَادَرْتُ إلى القَاضِيْ لأشْرَحَ لَهُ أمْرَهُ .

فَتَبَسَّمَ القَاضِيْ وَقَالَ لَهُ كَيْفَ رَأيتَ فَقُلْتُ هَذا مِنْ فَضْلِ اللّهِ عَلى القَاضِيْ فَقَالَ عَلَيَّ بالغُلامِ والشَّيْخِ وَوعَظَ الغُلامَ فَأَقَرَّ فَأخَذَ الرَّجُلُ ابْنَهُ وانْصَرَفَا وَاللهُ أعْلَمُ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

(مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللّهِ تَيَقَّظُوا فَالعِبَرُ مِنْكُم بِمَرْأى وَمَسْمَعٍ ، وَطَالَمَا نَادَاكُم لِسَانُ الزَّوَاجِرِ عَن الانْهِمَاكِ في الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا وَالتَّهالُكِ عَلَيْهَا فَاسْمَعْ .

عِبَادَ اللّهِ احْذَرُوا أنْ تَكونُوا مِثْلَ مَنْ قَدْ مَحَّضُوْا لِلْدُّنْيَا كُلَّ مَا لَهُم مِنْ أعْمَالٍ وَأصْبَحُوا لا يَقْصِدُونَ بِتَصَرُّفَاتِهِمْ إلاَّ الدنْيَا وأمّا الآخِرَة فلا تَخْطُرُ لَهُمْ عَلى بَالٍ .

أَخَذَتْ الدُّنْيَا أسْمَاعَهُمْ وأبْصَارَهُمْ وعُقُولَهُم بِمَا فِيْهَا مِن الزَّخَارِفِ الوَهْمِيَّةِ التِيْ هِيَ مَرَاقِدُ الفَنَاءِ ومَرَابِضُ الزَّوَالِ وَقَوَاتِلُ الأوْقَاتِ .

وَهَلَ هِيَ الاّ الألْعَابُ وَالمَلاهِيْ المُشَارُ الَيْهَا بقَوْلِهِ تَعالَى ﴿ اعْلَمُوا أنّما الحَيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وزِيْنَةٌ وَتفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ في الأمْوالِ وَالاوْلادِ﴾ الآيَة

وَقَوْلُهُ ﴿ وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ لَعِبٌ وَلَهْو وَانَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُوْنَ ﴾ وَقَوْلهُ ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَعِبٌ وَلَهُو ﴾ الآيَةِ ، عِبَادَ اللّهِ ، كُلُّ مَا تَرَوْنَ مِن البَلاَيَا وَالمِحَنِ مِنْ أَجْلَ الدُّنْيَا وَمَالَهَا مِنْ مَتَاعٍ حَقِيرٍ .

عَجَبٌ أَنْ يَكُونَ كُلُّ هَذَا الاهْتِمَام مِنْ أَجْلِ دارِ الغُرُوْرِ وأَيَّامِهَا المَعْدُودَةِ ، وَكُلُّ مَا فِيْهَا مِنْ لذائِذَ مَعْلُومٌ أَنَّهَا مُنَغَّصَاتٌ ثُمَّ مُنْتَهِيَاتٍ ذَلِكَ فَوْقَ أَنَّ الأَرْزَاقَ فِيْهَا قَدْ ضَمِنَهَا اللَّطِيْفُ الخَبِيْرُ خَالِقُ كُلُّ شَيءٍ الذِي مَا مِنْ دَابَّةٍ في الأَرْضِ إلا عَلَيْهِ رِزْقُهَا .

وَهَلْ يَشُكُّ مُؤْمِنٌ عَاقِلٌ في مَا ضَمِنَهُ مَوْلاَهُ الغَنِيُّ الحَمِيْدُ لَقَدْ كَانَ الأَجْدَرُ وَالأَوْلَى بِهَذا الاهْتِمَامَ حَيَاتَنَا الثَّانِيَة لإِنَّهَا دارُ القَرَارِ وَلأَنَّهَا إذَا فَاتَتْكَ فِيْهَا دَارُ الكَرَامَةِ هَوَيْتَ في الْهَاوِيَةِ وَأَنْتَ لا تَدْرِي هَلْ أَنْت مِنْ فرِيْقِ الجَنَّةِ أمْ مِنْ فَرِيْقِ السَّعِيْرِ .

فَتَيَقَّظَ يَا مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ في الغَفَلاتِ ! انْتَبِهْ يَا مَنْ يَقْتُلُ أَوْقَاتَهُ عِنْدَ الملاهِيْ وَالمنكرَاتِ .

يَا أَسَفى عَلَى أَوْقَاتٍ لَا تُبَاعُ بملء الأَرْضِ ذَهَباً تُضَيَّعُ عِنْدَ التِّلفِزْيُونِ وَالفِدْيُو والسِّيْنَمَاتَ والبكمات .

آهٍ على أوقاتٍ تُقْتَلُ عِنْدَ المِذْيَاعِ واسْتِمَاعِ أَغَانِيْهِ وَمَلاَهِيْهِ المُهْلِكَاتْ .

آهٍ على سَاعَاتٍ تَمْضِيْ عِنْدَ الكُرَةِ وَالمُطْرِبِيْنَ وَالمُطْرِبَاتِ .

آهٍ عَلى أَوْقَاتٍ وَتَفْكِيْرَاتٍ تَذْهَبُ في قِرَاءَةِ الكُتُبِ الخلِيْعَةِ وَالجَرَائِدِ

وَالمَجلاّتِ .

آه على أوقاتٍ تَنْقَضِيْ في الإقَامَةِ بَيْنَ أَعْدَاءِ اللهِ وَرَسُولِه .

آهٍ عَلى أوْقاتٍ تُقْتَلُ في الغِيْبَةِ وَالبُهْتِ وَالتَّمَلّقِ وَالنِّفَاقِ وَالمُدَاهَنَاتِ .

آهٍ عَلى أوْقَات تُقْتَلُ في الجُلُوسِ في الأَسْوَاق لاَ لِمَصْلَحَةِ دُنْيَا ولا دِيْنٍ بَلْ لِأمُورٍ عِنْدَ أهلِ الضَّياعِ مَعْلُومات .

آهٍ على أوقاتٍ تُقضىَ في بِلادِ الحُرِّيَةِ وَالفِسْقِ وَالفُجُوْرِ .

آهٍ عَلى أوقاتٍ تُقْتَلُ بالحِكَايَاتِ المضحكَاتِ والتَّمْثِيْلِيَاتْ .

آه على أوقاتٍ تَنْقَضِي بلَغْوِ الكلامِ والمُغَازَلات .

آه على أوقاتٍ تَنْقَضي في الاسْتِمَاعِ لِلأَغَانِيْ الخَلِيْعَاتِ .

آه عَلى أوْقَاتٍ تَمْضِيْ في السُّكْرِ وَشُرْبِ أبي الخَبَائِثِ الدُّخَانْ .

آله على أوْقَاتٍ تُقْتَلُ في ذِكْرِ الحَوَادِثِ وَالامُوْرِ المَاضِيَاتِ التِيْ لاَ تَعُوْدُ عَلَيْهِم بِنْفْعٍ بَلْ رُبَّما عَادَتْ بِالضَّرَرِ والنَّكَبَاتِ .

آه عَلى أوْقَاتٍ تذهَبُ سُدَى في النَّوْمِ وَالغَفَلاتِ .

آه عَلى أمْوالٍ تنْفَقُ فِيْمَا يُغْضِبُ فَاطِرَ الأرْضِ وَالسَّموَاتِ .

آه على أَلْسِنَةٍ لاَ تَفْتر عَن الكَلامِ فِيْمَا يَضُرُّ ولَمْ تَسْتبدِلْهُ بِتَمْجِيْدٍ وَتَسْبِيْحٍ وَتَكْبِيْرِ وَتَهْلِيْلٍ بَدِيْعِ الأَرْضِ وَالسَّمواتِ .

آهٍ عَلى أفْكَارٍ وأَذْهانٍ مَصْرُوفةٍ ومُشْتَغِلَةٍ طوْل لَيْلِهَا وَنَهارِهَا فَيْمَا في

الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعٍ وعَقَارَاتٍ وَلَمْ تُفكِّرْ وَتَلْتَفِتْ وتَسْتَعِدّ إِلَى مَا في أمامِهَا مِنْ أهْوَالٍ وَشَدائِدَ وَعقَباتٍ وَمَا في الآخِرَةِ لِمنْ أطَاعَ اللهَ مِنْ أنْهَارٍ وثِمَارٍ وَحُوْرٍ حِسَانٍ طَاهِرَاتٍ .

تَاللّهِ لقَدْ فَسَدَتْ أمْزِجَةُ أكْثَرِ النَّاسِ حَتَّى أثَّرَ فَسَادُهَا عَلى الأَفْهَامِ لِذَلِكَ رَجَّحُوا فَانِياً مُكَدَّراً مُنَغّصاً عَلى بَاقٍ ضَمِنَ صَفْوَهُ مُوْلِيْ الأنْعَامِ وَهَا هُمْ أُوْلاَءِ كَمَا تَرَى لاَ هَمَّ لَهُمْ وَلاَ عَمل إلاّ لِلدُّنْيَا وَمَا لهَا مِنْ حُطَامٍ قَالَ تَعالَى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُوْنَ الحَيَاةَ الدُّنيا وَالآخِرَةُ خيرٌ وَأبْقَىٰ ﴾ .

عِبَادَ اللهِ أمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَليه وسلم أبْشِروا وَأمِّلُوا مَا يَسُرُّكم فوَاللهِ مَا الفقْرَ أخْشَى عَلَيْكُم وَلَكِنْ أخْشَى أن تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُم كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَن كانَ قَبْلَكُمْ فَتنَافَسُوْهَا كَما تنافسُوهَا فَتُهْلِككم كَما أهلكتْهُم رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ وَخِتَاماً :

فَيَنْبَغِي لِلعَاقِلِ أنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ وَقَدْرَ وَقْتِهِ فَلا يُضِيْعُ مِنْهُ لحْظَةً في غيرِ قُرْبَةٍ وَيُقدِّمَ الأفْضَلَ فالأفْضَلَ مِنْ القَوْلِ وَالعَمَلِ .

إذَا كَـانَ رأسُ المَـالِ عُمْـرُكَ فَـاحْتـرِزْ
عَـليْـهِ مِنْ الانْـفَـاقِ في غَـيْـرِ وَاجِـبِ

آخَرُ :

سَتَبْـكِيْ رِجَـالٌ فـي القِـيَـامَـةِ حَسْـرَةً
عَـلى فَـوْتِ أوْقَـاتِ زَمَـانِ حَـيَـاتِـهَـا

(فَصْلٌ)

أَتَتْ عُمَرَ امْرَأَةٌ فَشَكَتْ عِنْدَهُ زَوْجَها وَقَالَتْ هُوَ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الدُّنْيَا يَقُومُ اللَّيْلَ حَتَّى الصَّبَاحِ وَيَصُوْمُ النَّهَارَ حَتَّى يُمْسِي ثُمَّ أَدْرَكَهَا الحَيَاءُ فَقَالَ عُمَرُ جَزَاكِ اللّهُ خَيْراً فَقَدْ أَحْسَنْتِ الثَّنَاءَ .

فَلَمَّا وَلَّتْ قَالَ لَهُ كَعْبُ بْنُ سُوْرٍ : يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ لَقَدْ أَبْلَغَتْ إِلَيْكَ فِي الشَّكْوَى ، فَقَالَ وَمَا اشْتَكَتْ قَالَ زَوْجَهَا ، قَالَ عَلَيَّ بِهَا فَقَالَ لِكَعْب اقْضِ بَيْنَهُمَا ، قَالَ أَقْضِ وَأَنْتَ حَاضِرٌ ، قَالَ إِنَّكَ قَدْ فَطِنْتَ لِمَا لَمْ أَفْطَنْ لَهُ .

قَالَ كَعْبٌ إِنَّ اللهَ يَقُولُ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِن النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ صُمْ ثَلاثَةَ أَيَامٍ وَافطِرْ عِنْدَهَا يَوماً وَقُمْ ثَلاثَ لَيَالٍ وَبِتْ عِنْدَها لَيْلَةً فَقَالَ عُمَرُ هَذَا أَعْجَبُ إِلَيَّ مِن الأَوَّلِ فَبَعَثَهُ قَاضِياً لأَهْلِ البَصْرَةِ فَكَانَ يَقَعُ لَهُ مِنَ الفِرَاسَةِ أُمُوْرٌ عَجِيْبَةٌ .

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ وَمِنْ دَقِيْقِ الفِرَاسَةِ أَنَّ المَنْصُوْرَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ خَرَجَ فِي تِجَارَةٍ فَكَسِبَ مَالاً فَدفَعهُ إِلى امْرَأَتِهِ ثُمَّ طَلَبَهُ فَذَكَرَت أَنَّهُ سُرِقَ مِنْ البَيْتِ وَلَمْ يَرَ نَقْباً وَلاَ أَمارَةً فَقَالَ لَهُ المَنْصُوْرُ مُنْذُ كَم تَزَوَّجْتَهَا قَالَ مُنْذُ سَنَةٍ ، قَالَ بِكْراً أَوْ ثَيِّباً قَالَ ثَيِّباً قَالَ فَلَهَا وَلَدٌ مِنْ غَيْرِكَ قَالَ لا .

فَدَعَا لَهُ المَنْصُوْرُ بِقَارُوْرَةِ طِيْبٍ يَتَّخِذُهُ لَهُ حَادُّ الرَّائِحَةِ غَرِيْبُ النَّوْعِ فَدَفَعَهُ إِليهِ وَقَالَ تَطَيَّبْ مِنْ هذا الطِّيْبِ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ غَمَّكَ فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ المَنْصُوْرُ لأَرْبَعَةٍ مِنْ ثِقَاتِهِ لِيَقْعُدْ مِنْكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ على بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ

المَدِيْنَةِ فَمَنْ شَمَّ مِنْكُمْ رَائِحَةَ هَذا الطِّيْبِ مِنْ أحَدٍ فَليَأتِ بهِ ، وَخرَجَ الرَّجُلُ بالطِّيْبِ وَدَفعَهُ إلَى امْرَأَتِهِ فَلمَّا شَمَّتْهُ بَعَثَتْ مِنْهُ إلى رَجُلٍ كَانَتْ تُحِبُّهُ وَقَدْ كَانَتْ دَفَعَتْ إلَيْهِ المَالَ .

فَتَطَيَّبَ مِنْهُ وَمَرَّ مُجْتَازاً بِبَعْضِ أَبْوَابِ المَدِيْنَةِ فَشَمَّ المُوَكَّلُ بِالبَابِ رَائِحَةً طيِّبَةً فَأتَى بِهِ المَنْصُوْرَ فَسَألهُ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذا الطِّيْبِ فَلَجْلَجَ في كَلامِهِ فبَعَثَ بهِ إلى وَالِيْ الشُّرْطَةِ فقَالَ إنْ أَحْضَرَ لكَ كَذا وكَذَا مِن المالِ فَخلِّ عَنْهُ وَإلا اضْرِبْهُ ألْفَ سَوْطٍ .

فَلَمَّا جُرِّدَ لِلضَّرْبِ أَحْضَرَ المالَ على هَيْئَتِهِ فدعَا المَنْصُوْرُ صَاحِبَ المالِ فقَالَ إنْ رَدَدْتُ إلَيْكَ مالَك تُحَكِمَنِيْ في امْرَأَتِك قَالَ نَعَمْ قَالَ هَذا مَالُكَ وَقَدْ طَلَّقْتُ المَرْأَةَ مِنْكَ .

قَالَ وَمِنْ عَجِيْبِ الفِرَاسَةِ مَا ذُكِرَ عَنْ أَحْمَدِ بْنِ طُوْلُوْنَ أنَّهُ بَيْنَما هُوَ جَالِسٌ في مَجْلِسٍ لهُ يَتنَزَّهُ فِيْهِ إذْ رَأى سَائِلاً في ثَوْبٍ خَلِقٍ فَوضَعَ لهُ دَجاجَةً على رَغِيْفٍ وَحَلْوَى وَأَمرَ بَعْضَ الغِلْمَانِ فَأَعْطَاهُ إيَّاهُ فَلَمَّا وَقَعَ في يَدِهِ وَأخذهُ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ وَلَمْ يَهُشَّ لَهُ وَلَمْ يَعْبَأْ بِهِ .

فَقَالَ لِلْغُلَامِ ائْتِنِيْ بالسَّائِلِ فَلَمَّا وَقَفَ قُدَّامَهُ اسْتَنْطَقَهُ فَأَحْسَنَ الجَوَابَ وَلَمْ يَخفْ وَلَمْ يَضْطَرِبْ مِنْ هَيْبَتِهِ فَقَالَ لَهُ هَاتِ الكُتُبَ التِيْ مَعَكَ وَاصْدُقْنِيْ مَنْ بَعثَكَ فَقَدْ صَحَّ عِنْدِيْ أنَّكَ صَاحِبُ خَبَرٍ وَأَحْضَرَ السِّيَاطَ فاعْتَرَفَ .

فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَائِهِ هَذَا وَاللهِ السِّحْرُ قَالَ مَا هُوَ بِسِحْرٍ وَلكِنْ فِرَاسَةٌ صَادِقَةٌ رأَيْتُ سُوْءَ حَالِهِ فوَجَّهْتُ إليْهِ بطعَامٍ يَـرْغَبُ أكْلَهُ الشَّبْعَانُ فَما هَشَّ لهُ وَلا فَرِحَ وَلا مَدَّ يَدَهُ إلَيْهِ فَأَحْضَرْتُه فَتلَقَّانِي بِقُوَّةِ جَأْشٍ فَلَمَّا رأيْتُ رَثَاثَةَ حَالِهِ

وَقُوَّةَ جَأْشِهِ عَلِمْتُ أنّه صَاحِبُ خَبَرٍ فَكَانَ كَما قَالَ .

وَرَأى يَوْماً حَمَّالاً يَحْمِلُ صَنّاً ـ أيْ صُنْدُوقاً مِنْ خَشَبٍ ـ وَالحَمَّالُ تَضْطَرِبُ رِجْلاَهُ تَحْتَهُ فَقَالَ لَوْ كَانَ هَذا الاضْطِرَابُ مِن الثِّقَلِ لَغَاصَتْ عُنُقُ الحَمَّالِ وَهَذِهِ عُنُقُهُ أَرَاهَا بَارِزَةً وَما أرَى الأَمْرَ إلَّا مِنْ خَوْفٍ .

فَأَمَرَ بحطِّ الصَّنِّ فَإِذَا فِيْهِ أُنْثَى مَقْتُولَةٌ وَقَدْ قُطِّعَتْ فَقَالَ لِلْحَمَّالِ اصْدُقْنِيْ عَنْ حَالِهَا فقَالَ هُنَاكَ في الدَّارِ الفُلانِيَّةِ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ أَعْطَونِي هَذهِ الدَّنَانِيْرَ وَأَمَرُونِي بحَمْلِ هَذِهِ المَقْتُولَةِ فَضَرَبَهُ لأَنَّهُ لَمْ يُخْبِرْهُ رَأْساً وَأمَرَ بِقَتْلِ الأَرْبَعَةِ .

وَكَانَ يَتَنَكَّرُ ـ أَيْ يُغيِّرُ لِبْسَتَهُ وَهَيْئَتَهُ ـ وَيَدُوْرُ وَيَسْمَعُ قِرَاءَةَ أَئِمَّةَ المسَاجِدِ فَدَعَا ثِقَةً وَقَالَ خُذْ هَذِه الدَّنَانِيْرَ وَأَعْطِهَا إمَامَ المَسْجِدِ الفُلاَنِيَّ فَإنَّهُ فَقِيرٌ مَشْغُولُ القَلْبِ فَفعلَ وَجَلَسَ مَعَ إمَامِ المَسْجِدِ وَباسَطهُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ زَوْجَتَهُ قَدْ أخَذَهَا الطَّلْقُ وَلَيْسَ مَعَهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فأخْبَرَهُ فَقَالَ صَدَقَ عَرَفْتُ شُغْلَ قَلْبِهِ بِكَثْرَةِ غَلَطِهِ في القراءة.

وَكَانَ يَرْكَبُ وَحْدَهُ وَيطُوْفُ لَيْلاً وَنَهاراً يُفَتِّشُ وَيَتَفَقَّدُ الرَّعِيَّةَ الى أَنْ مَرَّ يَوْماً في سُوْقٍ مَسْدُودٍ في بَعْضِ أَطْرَافِ البَلَدِ فَدَخَلَهُ فَوَجَدَ مُنْكَراً وَوَجَدَهُ لا يَنْفُذُ فَرَآى عَلى أحَدِ أَبْوَابِهِ شَوْكَ سَمَكٍ كَثِيْرٍ وعِظَام الصُّلْبِ .

فَقَالَ لِشَخْصٍ كَمْ يُقَوِّمُ تَقْدِيْرُ ثَمنِ هَذَا السَّمكِ الذِيْ هَذِهِ عِظَامُهُ قَالَ دِيْنَارٌ قالَ أهْلُ هَذا الزُّقاقِ ـ أَيْ السُّوْقِ لا تَحْتَمِلُ أَحْوَالُهُمْ مُشْتَرَى مِثْلِ هَذَا لأَنَّهُ زُقَاقٌ بَيّنُ الاخْتِلالِ إلى جَانِبِ الصَّحْراءِ لا يَنْزِلُهُ مَنْ مَعه شَيءٌ يَخَافُ عَلَيْهِ أَوْ لَهُ مَالٌ يُنْفِقُ مِنْهُ هذهِ النَّفَقة وَمَا هِيَ إلّا بَلِيَّةٌ يَنْبَغِي أَنْ يُكْشَفَ عَنْهَا فَاسْتَبْعَدَ الرَّجُلُ هَذا وَقَالَ هَذا فِكْرٌ بعِيْدٌ .

فقَالَ اطْلَبُوا لِيْ امْرَأَةً مِنْ الدَّرْبِ أُكَلِّمُهَا فَدَقَّ بَاباً غَيْرَ الذِيْ عليْهِ الشَّوْكُ وَطَلَبَ مَاء فَخَرَجَتْ عَجُوزٌ ضَعِيْفَةٌ فمَا زَالَ يَطْلُبُ شَرْبَةً بَعْدَ شَرْبَةٍ وَهِيَ تَسْقِيْهِ وَهُوَ في خِلالِ ذَلِكَ يَسْأَلُ عَن الدَّرْبِ وَأَهْلِهِ وَهِيَ تُخبِرُهُ غَيْرَ عارِفَةٍ بعَوَاقِبِ ذَلِكَ .

إلى أَنْ قَالَ لهَا وَهَذِهِ الدَّارُ مَنْ يَسْكُنُهَا وَأشَارَ إلَى التِي عِنْدَ بابِها عِظامُ السَّمَكِ فقالَتْ فِيْهَا خَمْسَةُ شَبَابٌ أعفَارٌ كأَنَّهُم تُجَّارٌ وَقَدْ نَزَلُوا مُنْذُ شَهْرٍ لاَ نَراهُمْ نَهاراً إلا فِي مُدَّةٍ طَوِيْلَةٍ وَنَرى الوَاحِدَ مِنْهُم يَخْرُجُ لِلْحَاجَةِ وَيَعُوْدُ سَرِيْعاً .

وَهُمْ في طُوْلِ النَّهَارِ يَجْتَمِعُونَ فَيأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَلْعَبُونَ بِالشِّطْرَنْجِ وَالنَّرْدِ وَلَهُم صَبِيٌّ يَخْدِمُهُم فإذَا كانَ اللَّيْلُ انْصَرَفُوا إلى دَارٍ لهُم بالكَرْخِ وَيَدَعُوْنَ الصَّبِيَّ في الدَّارِ يَحْفَظُهَا فإذَا كَانَ سَحَراً جَاؤ وا وَنَحْنَ نِيَامٌ لا نَشْعُرُ بِهِمْ .

فَقَالَ لِلرَّجُلِ هَذِهِ صِفَةُ لُصُوصٍ أَمْ لاَ قَالَ بَلَى فَأَنْفَذَ في الحَالِ فَاسْتَدْعَى عَشَرَةً مِنْ الشُّرَطِ وَأَدْخَلَهُم إلى سَطْحِ الجِيْرَانِ وَدَقَّ هُوَ البَابَ فَجَاءَ الصَّبِيّ فَفَتَحَ فَدَخَلَ الشُّرَطُ مَعَهُ فمَا فَاتَهُ مِنَ القَوْمِ أَحَدٌ فكانُوا هُمْ أصْحَابُ الخِيَانَةِ بِعَيْنِهِمْ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الوُلاَةِ سَمِعَ في بَعْضِ لَيَالِيْ الشِّتَاءِ صَوْتاً بِدَارٍ يَطْلُبُ مَاءً بَارِداً فَأَمَرَ بِكَبْسِ الدّارِ فأخْرَجُوا رَجُلاً وَامْرَأَةً فَقِيْلَ لهُ مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ قَال الماءُ لا يُبَرَّدُ في الشّتَاءِ إنَّمَا ذَلِكَ عَلامَةٌ بينَ هَذيْنِ .

وَأَحْضَرَ بَعْضُ الوُلاةِ شَخصَيْن مُتَّهَمَيْنِ بسَرِقَةٍ فَأمَرَ أَنْ يُؤْتَى بكُوزٍ مِنْ مَاءٍ

فَأَخَذَهُ وَأَلقَاهُ في الأَرْضِ عَمْدَاً فانْكَسر فارْتاعَ أحدُهُمَا وَثَبتَ الآخِرُ فَلَمْ يَتَغَيَّرْ فَقَالَ للذِيْ انْزَعج اذْهَبْ وَقَالَ للآخَرِ أَحْضِرْ العُمْلَةَ .

فقَالَ لَهُ مِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ ذَلِكَ فَقَالَ اللِّصُّ قَوِيُّ القَلْبِ لا يَنْزَعِجُ وَالبَرِيءُ يُرَى أَنَّهُ لَوْ نَزَلَتْ فِيْ البَيْتِ فَأْرَةٌ لأَزْعَجَتْه وَمَنَعَتْه مِنَ السَّرِقَةِ .

شِعْراً :

يَا نَفْسُ قَدْ طَابَ في امْهَالِكِ العَمَلُ
فاسْتَدْرِكِي قَبْلَ أنْ يَدْنُو لَكِ الأَجَلُ
إلى مَتَى أنْتِ في لَهْـوٍ وفي لَعِبٍ
يَغُـرُّكِ الخَـادِعَـانِ الحِـرْصُ وَالأَمَـلُ
وَأَنْتِ في سُكْـرِ لَهْـوٍ لَيْسَ يَـدْفَعُـهُ
عَنْ قَلْبِكِ النَّاصِحَـانِ العُتْبُ وَالْعَذَلُ
فَـزَوِّدِيْ لِـطَرِيْـقٍ أَنْـتِ سَـالِكَـة
فِيْهَـا فَعَمَّـا قَلِيْـلٌ يَـأْتِـكِ الْمَثَـلُ
وَلا يَـغُـرُّكِ أَيَّـامُ الشَّبَـابِ فَفِـي
أَعْقَـابِهَـا المُـوبِقَـانِ الشَّيْبُ وَالأَجَـلُ
يَا نَفْسُ تُوْبِيْ مِنَ العِصْيَانِ وَاجْتَهِدي
وَلا يَـغُـرَّنَّـكِ الابْـعَـادُ وَالـمَـلَـلُ
ثُمَّ احْـذَرِيْ مَـوْقِفـاً صَعْبـاً لِشِـدَّتِـهِ
يَغْشَى الوَرَى الْمُتْلِفَانِ الحُزْنُ وَالوَجَلُ
وَيُخْتَـمُ الفَـمُ وَالأَعْضَـاءُ نَـاطِقَـةٌ
وَيَـظْهَرُ المُفْصِحَـانِ الخَطُّ وَالخَـطَلُ

وَيَحْكُمُ اللّهُ بَيْنَ الخَلْقِ مَعْدِلَةً
فتُذْكَرُ الحَالتَانِ البِرُّ وَالزَّلَلُ

اللَّهُمَّ قَوِّ ايْمَانَنا بِكَ وَبِمَلائِكتِكَ وَبِكُتُبِكَ وَبِرُسُلِكَ وَباليَوْمِ الآخِرِ وَبالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ رَبَّنَا آتِنَا في الدنيا حَسَنَةً وفي الآخِرةِ حَسَنةً وَقِنَا عَذابَ النّارِ ، رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللّهِ كُلُّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَّا مَنْ لا يُخْطِيْ وَلا يَنْحَرِفُ عَنْ طَرِيْقِ الحَقِّ بَلْ إِنَّ فِيْنَا مِنَ الغَرائِزِ وَالطِّبَاعِ مَا يَمِيْلُ بِنَا إِلى الرُّشْدِ وَالغَيِّ وَالخَيْرِ وَالشَّرِّ وَلَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ يَعْرِفُ خَطَأَهُ أو يَهْتَدِيْ إِلَيْهِ .

وَبِذَلِكَ كانَ مِنْ حَقِّ المُسْلِمِ عَلى أَخِيْهِ أَنْ يُبَصِّرَهُ بِعُيُوْبِهِ وَيَنْصَحَ لهُ في أَمْرِهِ وهَذا مِن التَّوَاصِيْ بالحَقِّ . وَكَما يَجِبُ عَلى مَنْ رَأَى الظُّلمَ مِنْ حاكِمٍ ومسئول أنْ يُنْكِرَ عَليْهِ ظُلْمَهُ وبَغْيَهُ وَجَبَ عَلى مَنْ رَأى مُؤْمِناً يَظْلِمُ غيرَهُ أوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ أنْ يَحُوْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَظْلِمْ إِبْقَاءً عَلى حَقِّ الأُخُوَّةِ وَدَفْعاً لِلأَذَى عَنْ المظْلُومِ وَعَن المُجْتَمعِ .

قال بَعْضُ العُلَمَاءِ

النَّصِيْحَةُ على مَرَاتِبَ أَوّلًا أَنْ لا يُبَادِرَ الانْسَانُ إِلَى تَصْدِيْقِ مَا يُقَالُ لَهُ عَنْ قَرِيْبٍ أوْ صَدِيْقٍ أَوْجَارٍ أَوْ زَمِيْلٍ أَوْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بَلْ يَتَثَبَّتُ في ذَلِكَ حَتَّى يَسْتَيْقِنَ لأَنّ أكثَرَ الناس في وَقْتِنا اعْتَادُوا إِشَاعَةَ السُّوْءِ وَأَكْثَرُ النَّاسِ إِلىَ الاسَاءَةِ

يُسْرِعُونَ، وَيَنْدُرُ مِنْهُم مَنْ يُحْسِنُ الظَّنَّ ، فَلا تُصَدِّقْ فَوْراً بكلِّ مَا سَمِعْتَهُ حَتّـى تَسْمَعَهُ مِمَّنْ حَضَرَهُ وَشَاهَدَهُ وَتَتأكّدَ مِنْ ثُبُوتِهِ وَبَرَاءَتِهِ وَخُلُوِّهِ مِن الهَوَى وَالأَغْرَاضِ .

وَإذَا رَأَيْتَ أمْرَاً أو بَلَغَكَ عَنْ صَدِيْقِكَ كَلامٌ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ فاحْمِلْهُ مَحْمَلاً حَسَناً ، قَالَتْ بِنْتُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُطِيْعٍ لِزوْجِهَا طَلْحَةَ بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وكانَ أجْوَدَ الناسِ في زَمَانِهِ مَا رَأَيْتُ قَوْماً ألأمَ مِنْ إخوانِكَ قَالَ لَها وَلِمَ ذَلِكَ قَالَتْ أرَاهُمْ إذَ أيْسَرْتَ لَزِمُوْكَ وَإذا أعْسَرْتَ تَرَكُوْكَ فقالَ لَها هَذَا وَاللهِ مِنْ كَرَمِ أخْلاقِهِم يَأْتُونَنَا في حَالِ قُدْرَتِنا على إكْرَامِهِمْ وَيَتْرُكُوْنَنَا في حَالِ عَجْزِنَا عَنْ القِيَامِ بِحَقِّهِمْ .

فَانْظُرْ كَيْفَ حَمَلَ فِعْلَهُم عَلى هَذَا المَحْمَلِ الحَسَنِ ، وَثَانِياً أَنْ يَكُونَ عَلى بَالِكَ مُسْتَحْضَراً أنَّ الناسَ لَيْسُوا مَعْصُومِيْنَ بَلْ لَهُم هَفَواتٌ وَأخْطَاءٌ وَتَصوَّرْ ذَلِكَ في نفْسِكَ لِتَعْذُرَهُم وَلقدْ أحْسَنَ القَائِلُ :

مَـن الـذِي مَـا سَـاءَ قَطّ
وَمَـنْ لَـهُ الـحُـسْـنَـى فَـقَطْ

آخرُ :

وَمَـن الـذِيْ تُـرْضَى سَجَـايَـاهُ كُلُّهَـا
كَفَى المَـرْءَ نُبْـلاً أَنْ تُـعَـدَّ مَعَـائِبُـهُ

ثَالِثاً : أَنْ تَنْظُرَ إلى الأَمْرِ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِكَ وَمِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ صَاحِبِه أيْضاً ، فَقَدْ يَكُونُ مُجْتَهِداً فِيْمَا أعْتَقَدهُ مِنْ رَأْيٍ مُتَحَرِّياً لِلْخَيْرِ فِيْمَا سَلَكَهُ

مِنْ سَبِيْلٍ ، فَلا تُسَارِعْ إلى الانْكَارِ عَلَيْهِ وَتَخْطِئَتِهِ مَا دَامَ مِن المُحْتَمَلِ أنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ مِن الحقِّ فَإنْ تَأكَّدْتَ مِنَ الخَطإِ وَالانْحِرَافِ فَتَقَدَّمْ بالنَّصِيْحَةِ سِرّاً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، لا عِنْدَ ملأٍ مِنَ الناسِ كَماَ يَفْعَلهُ بَعْضُ النَّاسِ ، فَإنَّهُ أحْرَىٰ لِقَبُولِ النَّصِيْحَةِ ،رَابِعَا أنْ لَا يَتَرَتَّبُ عَلى النَّصِيْحَةِ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا .

وَعِنْدَمَا يُهْمِلُ الصَّدِيْقُ صَدِيْقَهُ وَيُهْمِلُ الأَخُ حَقَّ أخِيْهِ عَلَيْهِ في النُّصْحِ وَالارْشَادِ تَسُوءُ عَلائِقُ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ وَتَنْقَلِب الصَّدَاقَةُ عَدَاوَةً وَيُصْبِحُ أمْرُ المجْتَمعِ فَوْضَى يَمُوْجُ بِالشَّرِّ وَالاثْمِ .

وَلَقَدْ أخْبَرَنَا اللهُ في القُرْآنِ الكَرِيْمِ أَنَّ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ اسْتَحَقُّوا اللَّعْنَةَ وَالحِرْمَانَ وَالتَّشْرِيْدِ لأَنَّهُمَ كَانُوا لا يَتَناصَحُونَ ، قَالَ تَعَالى «لُعِنَ الذين كَفَرُوا مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلِ عَلى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَم ، ذَلِك بمَا عَصَوا وكَانُوا يعتَدُون ، كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كانُوا يَفْعَلُوْنَ » .

وَلَيْس أدلَّ على رُقِيِّ الأمَّةِ وَاسْتِقَامَةِ ضَمَائِرِهَا مِنْ تَمَسُّكِهَا بِخُلُقِ التَنَاصُحِ فِيْمَا بَيْنِهَا وَالتَّوَاصِيْ بالحق، قَالَ اللهُ تعالى ﴿وَالعَصْرِ إنَّ الانْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ ، إلا الذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوا بالحَقِّ وَتواصَوْا بالصَّبْرِ﴾ رُوِيَ عنْ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ أنَّهُ قَالَ لَوْ لَمْ يَنْزِلْ غيرَ هَذهِ السُّوْرَةِ لَكَفتِ النَّاسِ .

وَكانَ الرَّجُلانِ مِنْ أصْحَابِ النَّبي صَلى الله عليه وسَلَّمَ إذَا الْتَقيا لَمْ يَتفَرَّقَا حَتّى يَقْرَأَ أحدُهُمَا على الآخرَ سُوْرَةَ العَصْرِ ثمَّ يُسَلِّمُ أحدُهُما عَلى الآخرِ .

قُلْتُ وَذِلِكَ أنَّ الأوَامِرَ وَالنَّوَاهِيْ كُلُّهَا تَدُوْرُ عَلى التَّوَاصِيْ بِالحَقِّ

وَالتّواصِيْ بالصَّبْرِ ، فَالتَّواصِي بالحَقِّ مِثلُ الايْصَاءِ بِتَوْحِيْدِ اللّهِ وَالايْمَانِ بهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ .

وَالايْصَاءِ بالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَام وَالحَجِّ وبرِّ الوَالِدَيْنِ وَصِلَةِ الارْحَامِ وَالاحْسَانِ إلى اليَتِيْمِ وَالمِسْكِيْنِ وَالجَارِ وَابْنِ السَّبِيْلِ وَنَحْوِ ذَلكَ ، وَالتَّوَاصِيْ بالابْتِعَادِ عَنْ مَا نَهى اللهُ عنْهُ وَرَسُولُهُ مِن المَعاصِيْ كُلِّهَا الصَّغَائِرِ وَالكَبَائِرِ ، وَالتَّواصِيْ بالصَّبْر عَلى الطَّاعَـاتِ حَتّى المْمَاتِ ، وَالتّواصِيْ بِالصَّبْرِ عَلى المَصَائِبِ ، وَالتّوَاصِيْ بِالصَّبْرِ عَن المَعاصِيْ .

وَلكِنْ يَا لَلأَسَفِ صَارَ التَّوَاصِيْ عِنْدَ هَذَا الجِيْلِ فِيْمَا يَتَعلَّقُ بالدُّنْيَا وَحُطَامِهَا فَتَجِدُ الواحِدَ يَحُثُّ صَدِيْقَهُ على التَّعَلُّقِ بِهَا وَعِمَارَتِهَا وَكُلِّ مَا يَشْغَلُهُ ويُلهِيْهِ عَنِ الآخِرَةِ مِنْ مشاركةٍ وسلفةٍ ونحـو ذلك واذا انتقص بشيء ممـا يتعلّق بهـا أَقَـامَ النّـاسَ وَأَقْعَـدَهُمْ حَتّى المُنْتَسِبِيْنَ إلَى طَلَبِ العِلْمِ فَتجِدُ الوَاحِدَ مِنْهُمْ إذَا خُصِمَ عَلَيْهِ بَعْضُ الدَّرجَاتِ أو بَعْضُ الفُلُوس انْفعَلَ وَتَغيَّرَ مِزَاجُهُ وَصَارَ يَتَكلَّمُ بكَلامٍ غَير مُتَّزِنٍ عَكْس أُمُوْرِ الآخِرَة فانَّهُ لا يَهْتَمُّ لها، فَتَفُوتُه تكْبِيْـرَةُ الأَحْرَامِ مَعَ الأَمَامِ بل تَفُوتُـهُ الصلاةُ مَعَ الجماعَـةِ وَلا يُبَالِـيْ بِنَـقْصِ خَمْسٍ وَعِشْرِيْـنَ دَرجَةً . وَتَجِدُ الوَاحِد مِنْهُمْ يُوصِيْ زَمِيْلَهُ بالدِّرَاسَةِ لأجْلِ الحُصُوْلِ عَلى شَهَادَةٍ في زَعْمِهِ أنّهَا تَأمِيْنٌ لِلْحَيَاةِ مِن الفَقْرِ ، وَهَذا يَدُلُّ عَلى ضَعْفِ التَّوكُّلِ عَلى اللهِ ، وَأَمّا الصَّلاةُ وَسَائِرُ الطَّاعَاتِ وتَرْكُ المعَاصِيْ التِيْ بِهَا بِاذْنِ اللّهِ تَأْمِيْنُ الحَياةِ الأَبَدِيَّةِ وَالسَّلامَةُ مِنْ جَهَنّمَ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ فَلا تَجِدُهُ يُوْصِيْهِ بهَا ، وَلا يَهْتَمُّ مِنْهَا ، حَتّى الآبَاءُ دَخلَ عَلَيْهِمْ النَّقْصُ فَتجِدُ الأَبَ وَالأَمَّ يَحْرِصُوْنَ عَلى إيْقَاظ أوْلادِهِمْ للاخْتِبَارِ يَتَرَدّدُونَ عليْهِم وَلو شَقَّ ذَلِكَ

عَلَيْهِمْ أمَّا لِصلاةِ الفَجْرِ وَسَائِرِ الصَّلَواتِ وَسَائِرِ الطَّاعَاتِ وَالابْتِعَادِ عَن الملاَهِيْ وَالمُنكَراتِ فلا ، نَسْأَلُ اللهَ العَظِيْمَ أنْ يُوْقِظَ قُلوبَنا ويَمْلأَهَا بِالغَيْرةِ وَالنَّصِيْحَةِ وَأَنْ يُصْلِحَ قُلوبَنَا وَأوْلاَدنا وَأحْوَالَنَا وَجَمِيْعَ المُسلِمِيْنَ .

وَاذَا خَلا المُجْتَمعُ مِنَ التَّوَاصِيْ بالحَقِّ وَالصَّبْرِ وَالتَّنَاصُحِ أوْ ضَعُفَ مُظْهرُ العَمَلِ بهِ فَقَدْ انتهت الأمَّةُ إلى أسْوءِ حَالاتِهَا مِنَ الفَوْضَى وفَسَادِ الاخْلاقِ وَالتَّقَاطُعِ وَالتَّدابُرِ وَالعُدْوَانِ وفشُوِّ الشُّرُورِ مِن المُنَافِقِيْنَ والنَّمامِيْنَ وَالكَذَّابِيْنَ وأعوانهم .

وَانْظُرْ كَيْفَ تَكُوْنُ الحَالُ فِيْمَا إذَا عُدِمَ الأمْرُ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهْي عَن المنْكَرِ وَتَرْكِ التَّوَاصِيْ بالحَقِّ وَالتَّوَاصِيْ بِالصَّبْرِ وَأُهْمِلتْ النَّصِيْحَةُ وَكَيفَ يَجْترِىءُ الفُسَّاقُ على المعَاصِيْ وَيَصِلُوْنَ فِيْهَا إلَى مَا تَضِجُّ لَهُ السَّمَواتُ وَالارْضُ وَمَا فِيهِمَا مِنْ أنواعِ الشُّرُوْرِ .

وَإنْ شِئْتَ فَزُرْ أيَّ جِهَةٍ مِنْ جِهاتِ العَالَمِ تَرى مَا يَتَقَطَّعُ لَهْ قَلبُكَ حَسَراتٍ انْظُرْ آكَدَ أرْكَانِ الاسْلامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ الصَّلاَةَ كَيْفَ تَركَهَا الكَثِيْرُ مِن النَّاسِ .

وَانْظُرْ إلَى الزَّكَاةِ التِيْ لَوْ أُخْرِجَتْ لَمْ يَبْقَ فَقِيْرٌ وانْظُرْ صِيَامَ رَمَضَانَ كَيْفَ لَمْ يُبَالِ بهِ كَثِيْرٌ مِن النَّاسِ .

وَانْظُرْ كَيْفَ تَهاوَنَ النَّاسُ بِالرِّبَا وَالغِشِّ وَسَائِرِ المُحَرَّماتِ كُلُّ هَذا نَتِيْجَةُ اهْمَالِ التَّوَاصِيْ بِالحَقِّ وَالتَّواصِي بِالصَّبْرِ وَإهْمَالِ النَّصِيْحَةِ وَالأمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهي عَنَ المنْكرِ .

لِأَنّ التَّساهُلَ بهَذِهِ الأمُورِ يَفْتَحُ لِلنُّفُوسِ الخَبِيْثَةِ أبْوَابَ المعَاصِيْ

فَتَنفُذُ إلى مَا تَشْتَهِي مِنْ خَبَائِثَ وَترى مَوْقِعَ ذلِكَ سَهْلاً عَلى النَّاسِ فَتَنْدَفِعُ إلى كلِّ مَا يَحْلُو لَها مَهْمَا كَانَ عَرِيْقاً في بَابِ الرَّذِيْلَةِ آمِنَةً مِنْ تَغيُّرِ وَجْهٍ أوْ انْقِبَاضِ قَلْبٍ لِمَا تَفْعَلُ .

وإذاً تَنْتَعِشُ الرَّذِيْلَةُ وَتَشْتَدُّ وَتزْدَادُ ويَقْوَى أهْلُهَا وَهُمْ الفَسَقَةُ لأنَّ أهْلَ الجَهْرِ بالفَاحِشَةِ يَكُونُونَ قُدْوَةً سَيِّئَةً لِغَيْرِهِمْ . وَالنُّفُوسُ مِنْ طَبِيْعَتِهَا التَّقْلِيْدُ وَالمُحَاكَاةِ لِمَا ترى وتَسْمَعُ خُصُوصاً إذا كَانَ مَا تَراهُ أو تَسْمَعُهُ لَذَّةً وَاطْلاَقا .

وَإذَا كَثُرَ جَيْشُ الرَّذِيْلَةِ في قُوَّةٍ قَلَّ جَيْشُ الفَضِيْلَةِ في ضَعْفٍ ، وَلا تَسْتَبْعِدْ أنْ يَتَغَلَّبَ جَيْشُ الرَّذِيْلةِ فَيُبِيْدَ جَيْشَ الفَضِيْلَةِ أوْ يَجْعَلَه في حُكْمِ المُبَادِ وَإنْ كَانَ لا يَزَالُ بَاقٍ مِنْهُ أفْرَادٌ .

وَإذَا كانَ غَضِبَ اللهُ جَلَّ وَعَلا عَلى عِبَادِهِ فعَاقَبَهُم في الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ وَلا يَنْجُو مِنْ بَطْشِ اللّهِ وَعَذابِهِ إلا مَنْ كَانَ في جانِبِ دِيْنِهِ يَتَأَلَّمُ لَهُ وَيَغضَبُ عَلى مَخالِفِيْهِ آمِراً لَهُمْ وَنَاهِياً مَهْمَا نَالَهُ في سَبِيْلِ ذَلِكَ مِنْ إيْذَاءٍ .

عَلَّمَنَا ذَلِكَ رَبُّنَا بِقَوْلِهِ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أنْجَيْنَا الذِيْنَ يَنْهَوْنَ عَن السُّوءِ وَأخَذْنَا الذِيْنَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بئِيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ﴿وَمَا ظَلَمَهُم اللهُ وَلَكِنْ كانَوا أنفُسَهُم يَظْلِمُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالى ﴿ وَمَا أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أيْدِيْكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيْرٍ﴾ ،وَقَالَ في الآيَةِ الأُخْرىٰ ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ وَالبَحْرِ بمَا كَسَبَتْ أيْدِيْ النَّاسِ لِيُذِيْقَهُم بَعْضَ الذِي عَمِلُوا لعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾ .

إذاً عَاقِبَةُ التَّساهُلِ في الأَمْرِ بالمعَرُوف وَالنَّهْي عَن المُنْكَرِ شَقَاءُ الدُّنْيَا بمَا يَنْزِلُ مِنْ آلامٍ لِمَعاصِيْهِمْ التِيْ يَقْتَرِفُوْنَها آمِنِيْنَ مِنْ زَجْرٍ عَليهَا وَمَلامٍ وَشَقاءِ الآخِرَةِ بِمَا أعَدّ رَبُّنَا لِلّعُصَاةِ مِنْ عَذابٍ .

قَالَ بَعْضُهُم :

مَضَى الزَّمَانُ وَعَيْشِيْ عَيْشُ تَنْكِيدْ
وَالعُمْرُ وَلّى وَلَمْ أظفرْ بِمَقْصُوْدِ
وَالِ اليَقِيْنَ وَعَادِ الشَّكَ أجْمَعَهُ
عَظِمْ إلَهَكَ لا تَرْكَنْ لِمَنْقُودِ
فَالخَطْبُ عَمَّ وَصَارَ النَّاسُ كُلُّهُم
مُعَظِّمِيْنَ لِبِدْعِيٍّ وَمَرْدُوْدِ
هَذَا الزَّمَانُ الذِي كُنَّا نُحَاذِرُهُ
في قَوْلِ كَعْبٍ وفي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودِ
فَصَاحِبُ الدِّيْنِ مَمْقُوتٌ وَمُنْكَتِمٌ
وَصَاحِبُ الفِسْقِ فِيْهِم غَيْرُ مَظْهُودِ
كُلٌّ يُقَلِّدُ في الأَهْوَاءِ صَاحِبَهُ
حَتّى البِلَادُ لَهَا شَأْنٌ بِتَقْلِيْدِ
وَالأَمْرُ بِالعُرْفِ ثمَّ النَّهْيُ عَنْ نُكُرٍ
صَارَا لَدَيْنَا بلا شَكٍ كَمَفْقُوْدِ
إِذَا نَصَحْتَ لِشَخْصٍ قَالَ أنْتَ كَذَا
فِيْكَ العُيُوْبُ لَدَيْنَا غَيرُ مَحْمُوْدِ

أَضْحَى تَفَـاخُرُهُمْ في حُسْنِ بِـزَّتِهِمْ
وَمَـنْـزِلٍ حَسَـنٍ عَـالٍ بِتَشْـيِـيْـدِ

وَجَـمْـعِ حُلْيٍ وَخُـدَّامٍ وأمْـتِـعَـةٍ
أيَّـامُهمْ فَنِيْتَ في جَمْـعِ مَنْقُـوْدِ

تَلْقى الأَمِيْـرَ مَعَ المأمُـوْرِ في وَهَنٍ
عَنْ رَفْـعِ مَـظْلَمَـةٍ أوْ نَفعِ مَنْكُـوْدِ

لِنَيْـلِ دُنْيَـاهُمُ كـالأُسْدِ ضَـارِيَـةٍ
وَكُلُّهُم في الهَـوَى مُبْـدٍ لِمَجْهُـودِ

إذَا رَأَوْا صَـالَحاً يَـدْعُو لِنَيْـلِ هُدَى
تَـأَنَّـبُـوْهُ بـإيْـذَاءٍ وَتَـبْـعَـيْـدِ

حُكْمُ القَـوَانِيْنِ قَـالُـوا فِيْـهِ مَصْلَحَـةٌ
وَفي الـرِّبَا سَـاعَدَتْ شِيْبُ لِمَـوْلُـوْدِ

أهْلَ الحِجَى وَالنُّهىَ مَالُـوا لِمُحْدَثَـةٍ
قَـالُـوا الشَّـرِيْعَـةَ لا تَكْفِيْ لِمَقْصُـودِ

أبْـدَوْا لنَـا بِـدَعـاً مَـا كُنّـا نَعْـرِفُهَـا
وَجَـانَبُـوا نَهْـجَ تَـوْفِيْقٍ وَتَسْـدِيْـدِ

تَلْقَى الهَـوَىَ وَالرِّبَـا وَالجَوْرَ مُـرْتَكَباً
وَالعِلْم وَالنُّصْـحَ فِيْهِمْ غَيْرَ مَـوْجُـوْدِ

وَالهَـرْجَ وَالمَـرْجَ تَلْقَـاهَـا مَـرُوَّجَـةً
وَالدِّيْنَ وَالسَّمْتَ في جِلْبَابِ مَـرْدُوْدِ

وَقُـلِّدَ الأَمْـرَ لِكُـعِيٍّ أخُـوْ بِـدَعٍ
لِجَلِبِ أمْـرٍ وَفِكْـرٍ غَيْـرِ مَحْمُـوْدِ

مُخَالِفُ الشَّرِّ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ
لَوْ نَالَ خَيْراً قُصَارَاهُ لِتَبْدِيْدِ
اَلبُهْتُ وَالذَّمُّ وَالايْذاءُ قَدْ وُجِدَتْ
لِكُلِّ مُنْتَسِبٍ يَوْماً لِتَوْحِيْدِ
فَالدِّيْنُ في غُرْبَةٍ وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ
بِخُبْثِ طَبْعٍ يُوَالِيْ كُلَّ مَطْرُوْدِ
صَارَ الذِيْ كَانَ تَأتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ
وَتَقْتَفِيْهِ بِأَمْرٍ غَيْرِ مَعْهُوْدِ
مَنْ كَانَ يَهْجُرُ ذَا بِدْعٍ وَمَظْلَمَةٍ
أَمْسَى يُبَاشِرُهَا مِنْ غَيْرِ تَرْدِيْدِ
فَالكُلُّ يَسْرِيْ لِمَا يَهْوَاهُ خَاطِرُهُ
لَمْ يَلْتَفِتْ لِمَرَاضِيْ خَيْرِ مَعْبُودِ
حَقُّ القَرِيْبِ وَحَقُّ الجَارِ أَهْمَلَهُ
مَنْ كَانَ نَعْرِفُهُ بِالدِّيْنِ وَالجُوْدِ
تُجَّارُهُمْ لَمْ تُزَكِّ وَيْلُ أُمِّهِمُ
مِنْ شَرِّ عَاقِبَةٍ في يَوْمٍ مَوْعُوْدِ
لَا يَرْبُ سُحْتٌ كَمَا قَالَ الإِلَهُ لَكُمْ
كَسْبُ الحَرامِ طَرِيْقٌ غَيْرُ مَحْمُوْدِ
أَيْنَ الفِرَارُ وكَمْ مِنْ بِدْعَةٍ حَدَثَتْ
وَسُنَّةٍ دَرَسَتْ مِنْ غَيْرِ تَعْدِيْدِ
كَمْ مِنْ طَرائِقِ سُوْءٍ بَانَ مُنْكَرُهَا
وَمَنْهَلُ الحَقِّ أضْحَى غَيْرَ مَوْرُوْدِ

فَمَا الطَّرِيْقَةُ إلَّا نَهْجُ أحْمَدَ مَعْ
أصْحَابِهِ السَّادَةِ الغُرِّ الصَّنَادِيْدِ
فَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ وَاتبعْ نَهْجَ سَيِّدِنا
قَوْلًا وَفِعْلًا تَنَلْ فَوْزاً بِتَسْدِيْدِ
ثَعَالِبُ السُّوْءِ نَادَتْ في أرَانِبِهَا
هَذَا زَمَانُكِ عِيْشِي عَيْش مَحْمُوْدِ
مَا فِيْ الأَنَامِ حُمَاةٌ غَيْرَ مَنْ رَحَلُوا
وَمَنْ بَقِيْ عِنْدَنَا في زِيِّ مَلْحُوْدِ
وَاغُرْبَةَ الدِّيْنِ وَالايْمَانِ في زَمنٍ
أَهْلُ الهُدَى بَيْنَ مَقْهُوْرٍ وَمَظْهُوْدِ
إنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ غَيْرٌ
لِمْ يُبْكَ مَيْتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُوْدِ
وَفَارِقِ الكُلَّ لا تَلْوِ عَلى أَحَدٍ
أرضاً بِأَرْضٍ وَخِلّاناً بِمَوْجُوْدِ
مَنْ كَانَ نَأْمَلُهُ في كَشْفِ مُعْضِلَةٍ
أبْدَى بِعُذرٍ وَلا أجْدَى بِمَقْصُوْدِ
فَأَيُّ أَرْضٍ بِهَا الاسْلامُ في شَرَفٍ
وَسُنَّةُ المُصْطَفَى تَزْهُوْ بِتَجْدِيْدِ
أَيْنَ الفِرَارُ وَأَيُّ الدَّارِ نَلْقَى بِهَا
وُلاتَهَا كُلَّ مَيْمُوْنٍ وَمَحْمُوْدِ
عُمْرِيْ غَدَا بَيْنَ وَاشٍ ثُمَّ مُبْتَدِعٍ
يَا رَبِّ يَسِّرْ بِأنصَارٍ لِتَوْحِيْدِ

يَا صَاحِ مَنْ رَامَ فَوْزاً يَمْشِيَنَّ عَلى
طَرِيْقَةِ المُصْطَفى يَحْظَى بِتَسْعِيْدِ
وَآلِهِ ثُمَّ أَصْحَابٍ لَهُ تَبَعٌ
فَازُوا بِسَبْقٍ وَفَاقُوْنَا بِتَسْدِيدِ
وَقَادَةِ الخَيْرِ كَالنُّعْمَانِ أولهِمْ
وَأَحْمَدَ وَابْنِ ادْرِيْسٍ أَخَا الجُوْدِ
وَمَالِكٍ كُلِّهِمْ كَانُوا أَئِمَّتَنَا
أَئِمَّةُ النّاسِ قَدْ جَاؤُوا بِمَقْصُوْدِ
نَوَاقِضُ الدِّيْنِ عَشْرٌ تِلْكَ فَافْهَمَهَا
لِكَيْ تَنَالَ نَعِيْماً غَيْرَ مَحْدُوْدِ
وَحُبَّ فِي اللّهِ لا تَرْكَنْ لِمُبْتَدِعٍ
وَاهْجُرْ رِجَالَ الخنَا حُبّاً لِمَعْبُودِ
وَلاَزِمِ السُّنَّةَ الغَرَّاءَ تَنْجُ بِهَا
عِنْدَ اللّقَاءِ بِفَوْزٍ غَيْرِ مَحْدُوْدِ
وَلاَ تُوَافِقْ لأَهْوَاءٍ تُلَفِّقُهَا
أَقْوَامُ سُوْءٍ بِلاَ شَكٍّ وَتَرْدِيْدِ
خَيْرُ الأُمُورِ أَخِيْ مَا كَانَ مَرْجِعُهُ
إلى الرَّسُولِ بِلاَ شَكٍّ وَتَرْدِيْدِ
فَامْسِكْ عَلَيْهِ وَجَانِبْ كُلَّ مُنْحَرِفٍ
لِكَيْ تَفُوزَ بِدَارِ الخُلْدِ وَالجُوْدِ

اللهُم افْتَحْ لِدُعَائِنَا بَابَ القَبُولِ وَالاجَابَةِ وَارْزُقْنَا صِدْقَ التَّوْبَةِ وَحُسْنَ الانَابَةِ وَيَسِّرْنَا لِلْيُسْرَى وَجَنِّبْنَا العُسْرَى وَآتِنَا فِي الدُّنيا حَسَنَةً وفي

الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَأَمَّا عَلِيّ بْنُ أَبي طَالِبٍ فَالَيْكَ نَماذِجُ مِنْ عَدْلِهِ وَزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ ، قَالَ رضي اللهُ عَنْهُ في خُطْبَتِهِ عَقِبَ البَيْعَةِ لَهُ : أَيُها النَّاسُ إنَّما أنَا رَجُلٌ مِنْكُم لِيْ مَا لَكُمْ وَعَليَّ مَا عَلَيْكُم ، وإنّي حَامِلُكُم عَلى مَنْهج نَبِيِّكُمْ وَمُنَفِّذٌ فِيْكُم مَا أُمِرْتُ بِهِ ، ألا إنَّ كُلَّ قَطِيْعَةٍ أَقْطَعَهَا عُثْمَانُ .

وَكُلُّ مَالٍ أَعْطَاهُ مِنْ مَالِ اللّهِ فَهُوَ مَرْدُودٌ في بَيْتِ المَالِ ، فإنَّ الحَقَّ لا يُبْطِلُه شَيءٌ وَلَوْ وَجَدْتُه قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاء وَمُلِكَ الاماء وَفُرِّقَ في البُلْدَانِ لرَدَدْتُه فإنَّ العَدْلَ سَعَةٌ .

وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الحَقُّ فَالجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ ، أَيُّهَا النَّاسُ أَلا لاَ يَقُولَنَّ رِجَالٌ مِنْكُم غداً قَدْ غَمَرَتْهُم الدُّنْيَا فامْتَلَكُوا العَقَارَ وَفَجَّرُوا الأَنْهارَ وَرَكِبُوا الخَيْلَ وَاتَّخَذُوا الوَصَائِفَ الْمُرَقَّعَةَ إذَا مَا مَنَعْتُهم مَا كانُوا يَخُوضُون فِيْهِ وَأَصَرْتُهم إلى حُقُوْقِهِمْ التِيْ يَعْلَمُونَ « حَرَمَنَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ حُقُوقَنا » .

أَلاَ وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِن المهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَرى أَنَّ الفَضْلَ لهُ على سِوَاهُ بِصُحْبَتِهِ فإنَّ الفَضْلَ غداً عِنْدَ اللّهِ وَثَوَابُه وَأَجْرُهُ على اللّهِ ، ألا وَأَيُّما رَجُلٍ اسْتَجَابَ لِلّهِ وَلِرَسُوْلِهِ فَصَدَّقَ مِلَّتَنا وَدَخَلَ دِيْنَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنا فَقَد اسْتَوْجَبَ حُقُوقَ الاسْلامِ وَحُدُوْدَهُ .

فَأَنْتُمْ عِبَادُ اللّهِ ، وَالمَالُ مَالُ اللّهِ ، يُقْسَمُ بَيْنَكُمْ بالسَّوِيَّةِ وَلا فَضْلَ فِيهِ لأَحَدٍ على أَحَدٍ وَلِلْمُتَّقِيْنَ عِنْدَ اللّهِ أَحْسَنُ الجَزَاءِ .

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيْعَةَ الوَالِبِيْ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ قَال جَاءَ ابْنُ النَّبَّاجِ فقالَ يا أَمِيرَ المُؤْمنينَ امْتَلأَ بَيْتُ مَالِ المُسْلِمينَ مِنْ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ فقَالَ اللهُ أَكْبَرُ فقَامَ مُتَوَكّئاً على ابْنِ النَّباجِ حَتَّى قَامَ على بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِيْنَ فقَالَ :

هَـذا جَـنَـايَ وَخِـيَـارُهُ فِـيْـهِ
وَكُـلُّ جَـانٍ يَـدُهُ إلـى فِـيْـهِ

يَا ابْنَ النَّباجِ عَلَيَّ بأَشْيَاعِ الكُوْفَةِ قَال فَنُودِيَ في النَّاسِ فَأَعْطى جَمِيْعَ مَا فِيْ بَيْتِ مَالِ المُسْلمين وَهُوَ يَقُوْلُ : يَا صَفْرَاءُ وَيا بَيْضَاءُ غُرِي غَيْرِي هَا وَهَاحَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهُ دِيْنَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ ثُمَّ أمَرَ بِنَضْحِهِ وَصَلى فِيْهِ رَكْعَتَينِ وَعَنْ مَجْمَع التَّيْمِيّ قَالَ كَانَ عَلِيّ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ يَكْنِسُ بَيْتَ المَالِ وَيُصَلِّيْ فِيْهِ وَيَتَّخِذُهُ مَسْجِداً رَجَاءَ أنْ يَشْهَدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ .

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ العَلا عَنْ أَبِيْهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ مَا أَصَبْتُ مِنْ فَيْئِكُم غَيْرَ هَذِهِ القَارُوْرَةِ أَهْدَاهَا إِلَيَّ الدِّهْقَانُ ، ثُمَّ نَزَلَ إلى بَيْتِ المالِ فَفرَّقَ كُلَّ مَا فِيْهِ ، وَلَمَّا قَرَّرَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم الهِجْرَةَ مِنْ بَيْتِهِ الذِيْ أَحَاطَ بِهِ المُشْرِكُوْنَ لِيَقتُلُوهُ إثْرَ مَكْرِهِمْ بهِ في دَارِ النَّدْوَةِ وَضَعَ مَكَانَهُ في فِرَاشِهِ ابْنَ عَمِّهِ أبَا الحَسَنِ عَلِيّاً رَضيَ اللهُ عَنْهُ .

وَآثَرَ عَلِيٌّ أَنْ يَكُوْنَ الفِدَا لِرَسُوْلِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْ

يُعَرِّض نَفْسَهُ لِلسُّيُوْفِ سُيُوْفِ المُشْرِكِيْنَ تُقَطِّعُ لَحْمَهُ وَتُزْهِقُ رُوْحَهُ وَبذَلِك فَدَى بِنَفْسِهِ رَسُولَ اللّهِ صَلى اللهُ عَليهِ وَسَلِمَ وَفِيْـهِ يَقُولُ النّـاظِمُ لِلعَقِيْدَةِ :

وَلَا تَنْسَ صِهْرَ المُصْطَفَى وَابْنَ عَمِّهِ
فَقَـدْ كـانَ حَبْـراً لِلْعُلُومِ وَسَيِّـدَا
وَفـادَى رَسُـولَ اللهِ طَـوْعـاً بِنَفْسِـهِ
عَشِيَّـةَ لمَّـا بـالفِـرَاشِ تَـوَسَّـدَا
وَمَنْ كَـانَ مَـوْلَاهُ النَّبِيّ فَقَـدْ غـدَى
عَلِيٌّ لَـهُ بِـالحَقِّ مَـوْلَىً وَمُنْجِـدا

اللّهُمَّ نوِّرْ قُلُوْبَنا بِطاعَتِكَ وَأَلْهِمْنا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَارْزُقْنا الانَابَةَ إلَيْكَ وَحُسْنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْكَ وَآتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ وصَلى اللهُ على مُحَمّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَرُوِيَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلى عَلِيِّ بْنِ أَبي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَوْماً فَقالُوا لَهُ لَوْ أَعْطَيْتَ هَذِهِ الأَمْـوالَ ، وَصَلْتَ بِهَا هَؤُلاءِ الاشْرَافَ ، وَمَنْ تَخَافُ فِرَاقَهُ ، حَتَّى إذَا اسْتَتَبَّ لَكَ مَا تُرِيدُ عُدْتَ إلى مَا عَوَّدَكَ اللهُ مِن العَدْلِ في الرَّعِيَّةِ وَالقِسْمَةِ بالسَّوِيَّةِ .

فَقَالَ أَتَأْمُرُوْنِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصرَ بِالجَوْرِ فِيْمَنْ وُلِّيْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ

الاسْلَامِ وَاللّهِ لاَ أَفْعَلُ ذَلكَ لَوْ كَانَ هَذا المالُ لِيْ لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُم فِيْهِ كَيْفَ وَإِنَّمَا هِيَ أمْوَالهُم .

وَرُوِيَ أَنَّ أخاهُ عقِيْلاً سَأَلَهُ شَيْئاً مِنْ بَيْتِ المَالِ فَقَالَ إذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ فَأْتِنِيْ ، فَأَتَاهُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إلى المَسْجدِ ، وَقَدْ اجْتَمع فِيْهِ النَّاسُ فقالَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ مَا تَقُوْلُ فِيمَنْ خانَ هَؤُلاءِ ، فَقَالَ أَقُوْلُ إنَّهُ رَجُل سُوْءٍ ، فقَالَ إنَّكَ سَأَلْتَنِيْ أَنْ أَخُونَهم أوْ كَما قَالَ .

وَرُوِيَ عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفْلَةَ قَالَ دَخلْتُ على أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِيْ طَالِبِ بَعْدَ مَا صَارَ إلَيْهِ الأمْرُ فإذَا هُوَ جالِسٌ عَلى مُصَلى لَيْسَ في دَارِهِ سِوَاهُ فَقُلْتُ يا أَمِيرَ المؤمِنينَ أنْتَ مَلِكُ الاسْلامِ ، وَلا أرى في بَيْتِكَ أثاثاً وَلا مَتَاعاً ، سِوَى مُصَلًّى أنتَ جَالِسٌ عليه فقالَ يا ابْنَ غَفْلَةَ إنَّ اللَّبِيْبَ لا يَتَأَثَّثُ في دَارِ النُّقْلَةِ، وَأَمَامَنَا دارٌ هِيَ دَارُ المُقَامِ ، وقَدَ نَقَلْنَا إلَيْهَا خَيْرَ مَتَاعٍ وَنَحْنُ إلَيْها مُنْتَقِلُونَ .

وَعَنْ بَعْضِهِمْ قَالَ رَأَيْتُ عَلِيّاً يَطُوْفُ وَبِيَدِهِ الدُّرَّةُ وَعَلَيْهِ إزَارٌ فِيْهِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ رُقْعَةً بَعْضُهَا مِنْ جِلْدٍ .

وَمِنْ كَلامِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَلاَ وَإنَ إمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِن الدُّنْيَا بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طَعَامِهِ بِقُرْصَيْهِ ، ألاَ وَإنَّكُمْ لا تَقْوَوْنَ عَلى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِيْنُونِيْ بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ ، فَوَاللّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُم تِبْراً ، وَلا أَحْرَزْتُ مِنْ غنَائِمِهَا وَفْرًا .

إلَى أَنْ قَالَ وَلَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيْقَ إلَى مُصَفًّى هَذَا العَسَلِ ، وَلُبَابِ هَذَا القَمْحِ ، وَنَسَائِجِ هَذا القَزِّ ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِيْ هَوَايَ ،

وَيَقُوْدُنِيْ جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ .

وَلَعَلَّ بِالحِجَازِ وَاليَمَامَةِ مَنْ لاَ يُدْرِكُ القُرْصَ ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بالشِّبَعِ ، أَوَ أَبِيْتُ مِبْطَاناً وَحَوْلِيْ بُطُوْنٌ غَرْثَى مِن الجُوْعِ ، وَأَكْبُدٌ حَرَّاءُ ، فأَكُونُ كَمَا قَالَ القائِلُ :

وَحَسْبُكَ عَاراً أَنْ تَبِيْتَ بِبِطْنَةٍ
وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إلى القِدِّ

ومِنْ كَلامِ عَلِيّ رَضي اللهُ عَنْهُ في كِتَابِ العَهدِ لِلأَشْتَرِحِيْن وَلاَّهُ مِصْرَ وَلْيَكُنْ أَحَبُّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيْرَةَ العَمَلِ الصَّالِحِ فَامْلِكْ هَوَاكَ وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَنْ مَا لا يَحِلُّ لكَ ، فإِنَّ الشُّحَّ بالنَّفْسِ بالانْصَافِ مِنْهَا فِيْما أَحَبَّتْ وكَرِهَتْ .

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ المَحَبَّةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالرَّحْمَةِ بِهِمْ وَالرِّفْقَ بِهِمْ وَلاَ تَكُوْنَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعَاً ضَارِيَاً يَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّمَا هُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ في الدِّيْنِ ، أَوْ نَظِيْرٌ لَكَ في الخُلُقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُم الزَّلَلُ وَتَعْرِضُ لَهُم العِلَلُ وَيَأْتِيْ عَلَى أَيْدِيْهِم العَمْدُ والخَطَأْ .

فأَعْطِهُمْ مِنْ عَفْوِكَ ، وَصَفْحِكَ ، مِثْلَ الذي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيْكَ اللّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِيَ الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ ، وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ ، وَابْتَلاَكَ بِهِمْ .

وَفِيْهِ لاَ تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ وَلاَ تَبَجَّحَنَّ بِعُقُوْبَةٍ وَلاَ تُسْرِعَنَّ إِلى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَنْدُوْحَةً .

ولاَ تقُولَنَّ إني امْرُؤٌ آمُرُ فأُطَاع ، فَإِنَّ ذَلِكَ إدْغَالٌ في القَلْبِ وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّيْنِ ، وَتَقَرُّبٌ مِن الغَيْرِ .

فَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا فِيْهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةٌ أو مَخْيَلَةٌ فانْظُرْ إلى عِظَمِ مُلْكِ اللّهِ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ على مَا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ .

وَفِيْهِ إيَّاكَ وَمُسَامَاتِ اللّهِ في عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ في جَبَرُوتِهِ، فإنَّ اللهَ يُذِلُّ كَلَّ جَبَّارٍ ، وَيُهِيْنُ كُلَّ مُخْتَالٍ ؛ أَنْصِفِ اللهَ ، وَانْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لكَ فِيْهِ هَوَىً مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إنْ لَمْ تَفعَلْ ذَلِكَ تَظْلِمْ وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ ، دُوْنَ عِبَادِهِ ،وَمَنْ خَاصَمَهُ اللّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ .

وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ عَنْكَ وَأَشْنَؤُهُمْ عِنْدَكَ ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ فَإِنَّ في النَّاسِ عُيُوباً الوَالِيْ أحَقُّ بِسَتْرِهَا ، فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَنْ مَا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيْرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ .

وَفِيْهِ وَلاَ تَعْجَلَنَّ بِتَصْدِيْقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيْ غَاشٌّ وَإنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِيْنَ وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُوْرَتِكَ بَخِيْلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الفَضْلِ وَيَعِدُكَ الفَقْرَ وَلاَ جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأمُوْرِ وَلاَ حَرِيْصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالجَوْرِ وَلاَ يَكُوْنُ المُحْسِنُ وَالمُسِيءُ عِنْدَكَ سَوَاءً بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ في ذَلِكَ تَزْهِيْداً لأَهْلِ الإِحْسَانِ في الإِحْسَانِ وَتَدْرِيْباً لأهْلِ الاسَاءَةِ وَأَلْزِمْ كُلاً مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ .

ثُمَّ اللهَ اللهَ في الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِن النَّاسِ الذِيْنَ لا حِيْلَةَ لَهُمْ

وَالمَسَاكِيْنَ وَالمُحْتَاجِيْنَ وَالبُؤْسَاءِ وَالزَّمْنَى فاحْفَظَ اللهَ فِيْهِما كَمَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيْهِمْ وَاجْعَلْ لَهُم قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ وَسَهْماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي بَلَدِكَ .

وَتَفَقَّدْ أُمور مَنْ لا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهَمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ العُيُوْنُ وَتَحْتَقِرُهُ الرِّجَالُ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ مِن الرَّعِيَّةِ أَحَقُّ بالانْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَتَعَهَّدْ أَهْلَ اليَتِيْمِ وَأُوْلِيْ الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لا حِيْلَةَ لَهُ وَلاَ يَنْصِبُ نَفْسَهُ لِلْمَسْأَلَةِ وَذلِكَ عَلَى الوُلاَةِ ثَقِيْلٌ وَالحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيْلٌ .

وَفِيْهِ وَلاَ يَطُوْلَنَّ احْتَجَابُكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّ احْتَجَابَ الوُلاَةِ عَنْ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِن الضِّيْقِ وَقِلَّةُ عِلْمٍ بالأُمُورِ وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُوْنَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمْ الكَبِيْرُ وَيَعْظُمُ عِنْدَهُمْ الصَّغِيْرُ وَيَقْبُحُ الحَسَنُ وَيَحْسُنُ القَبِيْحُ وَيُشَابُ الحَقُّ بِالبَاطِلِ .

وَفِي كِتَابِهِ رَحِمَهُ اللهُ وَإِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكِهَا بِغَيْرِ حِلِّها ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيءٌ أَدْعَى لِنَقْمَةٍ وَلاَ أَعْظَمَ تبعَةٍ وَلاَ أَحْرَى لِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ، فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ ، فَإِنَّ ذلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوْهِنُهُ ، بَلْ يُزِيْلُهُ وَيَنْقُلُهُ وَأَخِّرْ السَّطْوَةَ حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الخِيَارَ ، وَلَنْ تُحْكِمَ ذلِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُوْمُكَ بِذِكْرِ المَعَادِ إِلى ربِّكَ وَالسَّلاَمُ .

وَعَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : وَجَدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ دِرْعَهُ عِنْدَ رَجُلٍ نَصْرَانِيّ فَأَقْبَلَ بِهِ إِلى شُرَيْحٍ يُخَاصِمُهُ قَالَ فَجَاءَ عَلِيٌّ حَتَّى جَلَسَ إِلى جَنْبِ شُرَيْحٍ قَالَ يَا شُرَيْحُ لَوْ كَانَ خَصْمِي مُسْلِماً مَا جَلَسْتُ إِلا مَعَهُ وَلَكِنَّهُ

نَصْرَانِيٌّ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كُنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ في طَرِيْقٍ فَاضْطرُّوْهُمْ إلى مَضَايِقِهِ وَصَغِّرُوْا بِهِمْ كَمَا صَغَّرَ اللهُ بِهِم مِنْ غَيْرِ أنْ تَطْغَوْا ثمَّ قَالَ : هَذَا الدِّرْعُ دِرْعِي وَلَمْ أَبِعْ وَلَمْ أهَبْ.

فَقَالَ شُرَيْحٌ لِلنَّصْرَانِيّ مَا تَقُولُ فِيْمَا يَقُولُ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ فَقَالَ النَّصْرَانِيّ مَا الدِّرْعُ إلاّ دِرْعِيْ ، وَمَا أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ عِنْدِي بِكاذِبٍ فَالْتَفَتَ شُرَيْحٌ إلى أميْرِ المؤْمنينَ عَلِيّ بْنِ أَبِيْ طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ هَلْ مِنْ بَيِّنَةٍ فَضَحِكَ عَلِيٌّ رَضيَ اللهُ عنه ، وَقَالَ أصَابَ شُرَيْحٌ مَالِيْ فَقَضَى شُرَيْحٌ بِهَا لِلنَّصْرَانِيّ .

قَالَ فَأَخَذَهُ النَّصْرَانِيّ وَمَشَى خُطاً ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أنَّ هَذِهِ أَحْكَامُ الأنْبِيَاءِ، أمِيْرُ المؤمِنِيْنَ يُدْنِيْنِي إلى قَاضِيْهِ يَقْضِيْ عَلَيْهِ .

أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلاّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه ، الدِّرْعُ وَاللهِ دِرْعُكَ يَا أَمِيْرَ المؤمنِيْنَ اتَّبَعْتُ الجَيْشَ وأنْتَ مُنْطَلِقٌ إلى صِفِّين فَخَرَجَتْ مِنْ بَعِيْرِكَ الأَوْرَقِ فَقَالَ أمَّا إذَا أسلَمْتَ فَهِيَ لَكَ وَحَمَلَهُ عَلَى فَرَسٍ .

شِعْرَاً :

لَعَمْرُكَ مَا تُغْنِي المَغَانِيْ وَلَا الغِنَى
إِذَا سَكَنَ المُثْرِيْ الثَّرَى وَثَوَى بِهِ
فَجُدْ في مَرَاضِيْ اللّهِ بالمالِ رَاضِياً
بِمَا تَقْتَنِيْ مِنْ أجْرِهِ وَثَوَابِهِ

وَعَاصِ هَوَى النَّفْسِ الذِي مَا أَطَاعَهُ
أخُـوْ ظَلّةٍ إلَّا هَـوَى مِنْ عُقَـابِـهِ
وَحَافِظْ عَلَى تَقْـوَى الآلَـهِ وَخـوْفِـهِ
لِتَنْجُـوَ مِمَّـا يُتّقَـى مِنْ عِـقَـابِـهِ
وَلَا تَلْهُ عَنْ تِـذْكَـارِ ذَنْبِـكَ وَابْلُهُ
بِدَمْعٍ يُضَاهِيْ المُزْنَ حَالَ مُصَابِهِ
وَمَثِّـلْ لِعَيْنَيْـكَ الحِـمَـامَ وَوَقْعَـهُ
وَرَوْعَـةَ مُلْقَـاهُ وَمَـطْعَـمَ صَـابِـهِ
وَإنَّ قُصَـارَى مَنْزِلِ الحَيِّ حُفْـرَةٌ
سَيَنْـزِلُهَـا مُسْتَنْـزَلًا عَـنْ قِبَـابِـهِ
فَـواهـاً لِعَبْـدٍ سَـاءَهُ سُـوْءُ فِعْلِه
وَأَبْـدَى التَّلَافِيْ قَبـلَ إغـلَاقِ بَـابِـهِ

قَالَ عَلِيّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ لِعَمَّارٍ عَلَامَ تَتَأَوَّهُ ؟ إنْ كَانَ عَلَى الدُّنْيَا فَقَدْ خَسِرَتْ صَفْقَتُكَ ، وإنْ كانَ عَلَى الآخِرَةِ فَقَدْ رَبِحَت تِجارَتُكَ ، يَا عَمَّارُ إنِّيْ وَجَدْتُ لَذّاتِ الدُّنْيَا في أَحْقَرِ الأشْيَاءِ الطَّعَامِ وَأَفْضَلُهُ العَسَلُ وَهُوَ مِنْ حَشَرَةٍ ، المَشْرُوْبَاتِ ، وَأَفْضَلُهَا سَائِرَةٌ في الهَوَاءِ .

المَلْبُوْسَاتُ وَأَفْضَلُهَا الحَرِيْـرُ وَهُوَ مِنْ دُوْدِ القَـزِّ ، المَشْمُوْمَـاتُ وَأَفْضَلُهَا المِسْكُ وَهُوَ مِنْ فَأرَةٍ ، المَسْمُوْعَاتُ وَهِيَ أعْرَاضٌ سَائِرَةٌ في الهَوَاءِ .

النِّكَاحُ وَهُوَ مَبَالٌ في مَبَالٍ وَحَسْبُكَ أَنَّ المَرْأَةَ تتزَيَّا بِأَقْبَحِ شَيءٍ فِيْهَا : هَذِهِ العِظَةُ تَكْشِفُ لَنَا عَنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللّهِ حَيْثُ جَعَلَ لَذَّاتِهَا

فِي أَحْقَرِ الأَشْيَاءِ .

اللَّهُمَّ قَوِّنَا بالْيَقِيْنِ وَامْنَحْنَا التَّوْفِيْقَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

شِعْراً :

تَبَارَكَ مَنْ شُكْرُ الوَرَى عَنْهُ يَقْصُرُ
لِكَوْنِ أَيَادِيْ جُوْدِهِ لَيْسَ تُحْصَرُ
وَشَاكِرُهَا يَحْتَاجُ شُكْراً لِشُكْرِهَا
كَذَلِكَ شُكْرُ الشُّكْرِ يَحْتَاجُ يُشْكَرُ
فَفِي كُلِّ شُكْرٍ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ
بِغَيْرِ تَنَاءٍ دُوْنَهَا الشُّكْرُ يَصْغُرُ
فَمَنْ رَامَ يَقْضِي حَقَّ وَاجِبَ شُكْرِهَا
تَحَمَّلَ ضِمْنَ الشُّكْرِ مَا هُوَ أَكْبَرُ
تُسَبِّحُهُ الحِيْتَانُ في الْمَا وفي الْفَلَا
وُحُوْشٌ وَطَيْرٌ في الهَوَاءِ مُسَخَّرُ
وَفِي الفُلْكِ وَالأَمْلَاكِ كُلٌّ مُسَبِّحٌ
نَهَاراً وَلَيْلاً دَائِمَاً لَيْسَ يَفْتُرُ
تُسَبِّحُ كُلُّ الكَائِنَاتِ بِحَمْدِهِ
سَمَاءٌ وَأَرْضٌ وَالجِبَالُ وَأَبْحُرُ
جَمِيْعَاً وَمَنْ فِيْهِنَّ وَالكُلُّ خَاشِعٌ
لِهَيْبَتِهِ العُظْمَى وَلَا يَتَكَبَّرُ

لَـهُ كُـلُّ ذَرَّاتِ الـوُجُـوْدِ شَـوَاهِـدُ
عَلَى أنـهُ البَـارِيْ الإلَـهُ المُصَـوِّرُ
دَحَا الأَرْضَ وَالسَّبْعَ السَّمَاوَاتِ شَادَهَا
وَأَتْـقَنَـهَـا لِلْعَـالَـمِيْـنَ لِـيَـنْـظُرُوا
وَأَبْـدَعَ حُسْنَ الصُّنْعِ فِي مَلَكُـوْتِهَـا
وَفِي مَلَكُـوْتِ الأرْضِ كَيْ يَتفَكَّـرُوا
وَأَوْتَـدَهَـا بِـالـرَّاسِيَـاتِ فَلَمْ تَمِـدْ
وَشَـقَّـقَ أنْـهَـاراً بِـهَـا تَـتَـفَـجَّـرُ
وَأَخْـرَجَ مَـرْعَـاهَـا وَبَـثَّ دَوَابَهَـا
وَلِـلْكُـلِّ يَـأْتِي مِـنْـهُ رِزْقٌ مُقَـدَّرُ
مِنْ الحَبِّ ثُمَّ الأَبِّ وَالقَضْبِ وَالكَلاَ
وَنَـخْـلٍ وَأَعْنَـابٍ فَـوَاكِـهُ تُـثْمِـرُ
فَأَضْحَتْ بِحُسْنِ الزَّهْرِ تَزْهُوْ رِيَاضُهَا
وَفِي حُلَلٍ نُسْـجُ الـرَّبِيْـعِ تَبَخْتَـرُ
وَزَانَ سَمَـاءً بِـالمَصَـابِيْـحِ أَصْبَحَتْ
وَأَمْسَتْ بِبَاهِيْ الحُسْنِ تَزْهُـوْ وَتُزْهُـرُ
تَـرَاهَا إذَا جَنَّ الـدُّجَى قَـدْ تَقَلَّدَتْ
قَـلاَئِـدَ دُرِّيٍّ لِـدُرٍّ تُـحَـقِّـرُ
فَيَـا نَـاظِـراً زَهْـرَ البَسَـاتِيْنِ دُوْنَهَـا
أَظُنُّـكَ أعْمَى لَيْسَ لِلْحُسْنِ تُبْصِـرُ
وَيَـا مَنْ لَهَـا إنَّ المَحَـاسِنَ كُلَّهَـا
بِـدَارٍ بِهَـا مَـالا عَلَى القَلْبِ يَخْـطُرُ

وَلَا سَمِعَتْ أُذْنٌ وَلَا الْعَيْنُ أَبْصَرَتْ
وَمَا تشْتَهِيْهِ النَّفْسُ في الحَالِ يَحْضُرُ
تَـزِيْـدُ بَهَـاءً كُـلَّ حِيْنٍ وَعَيْشُهَـا
يَـزِيْـدُ صَـفَـاءً قَطُّ لَا يَتَـكَـدَّرُ
مِنْ الـدُّرِّ وَاليَاقُوْتِ تُبْنَى قُصُوْرُهَا
وَمِـنْ ذَهَبٍ مَـعْ فِضَّـةٍ لَا تَغَيَّـرُ
وَمَـا يُشْتَهَى مِنْ لَحْمِ طَيْرٍ طَعَـامُهَا
وَفَـاكِـهَـةٍ مِمَّـا لَـهُ يُـتَـخَـيَّـرُ
وَمَشْـرُوْبُهَا كَـافُـوْرُهَـا وَرَحِيْقُهَـا
وَتَسْنِيْمُـهَـا والسَّـلْسَبِيْـلُ وَكَـوْثَـرُ
وَمِنْ عَسَلٍ وَالخَمْرُ نَهْرَانِ جَوْفُهَا
وَنَـهْـرَانِ ألبَـانٌ وَمَـاءٌ يُـفَـجَّـرُ
وَغَـالِيْ حَـرِيْـرٍ فُـرْشُهَـا وَلِبَاسُهَـا
وَحَصْبَاؤُهَا والتُّرْبُ مِسْكٌ وَجَوْهَـرُ
وَمِنْ زَعْفَـرَانٍ نَبْتُـهَـا وَحَشِيْشُـهَـا
وَمِنْ جَـوْهَـرٍ أَشْجَـارُهَـا تِلْكَ تُثْـمِـرُ
فَـوَاكِـهُ تَـكْـفِـيْ حَـبَّـةٌ لِقَـبِـيْـلَةٍ
أُدِيْمَتْ أُبِيْحَـتْ لا تُبَـاعُ وَتُـحْجَـرُ
وَأَكْـوَابُـهَـا مِنْ فِضَّـةٍ لَا كَبِـيْـرَةٍ
عَلَى شَارِبٍ مِنْهَـا وَلا هِيَ تَصْغُـرُ
وَمِنْ ذَهَبٍ زَاهِيْ الجَمَالِ صِحَافُهَـا
يَلِذُّ بِهَـا عَيْشٌ بِـهِ العَيْنُ تَقْـرُرُ

وَأَزْوَاجُهُـا حُـورٌ حِسَـانٌ كَـوَاعِبٌ
رَعَـابِيْبُ أَبْكَـارٌ بِهَـا النُّوْرُ يَـزْهِـرُ
هَـرَاكِيْـلُ خُـوْدَاتٌ وَغِيْـدٌ وخُـرَّدٌ
مَـدَى الـدَّهْـرِ لَا تَبْلَى وَلا تَتَغَيَّـرُ
نَشَتْ عُـرُبـاً أتْـرَابَ سِنٍّ قَـوَاصِـرٍ
لِـطَرْفٍ كَحِيْـلٍ لِلْمَـلاحَـةِ يَفْتُـرُ
عَـوَالِي الحُلَى وَالحَلْيُ عَيْنٌ فَوَاخِـرٌ
زَكَتْ طَهُـرَتْ مِنْ كُـلِّ مَـا يُتَقَـذَّرُ
ثَوَتْ في خِيَامِ الدُّرِّ في رَوْضَةِ البَهَا
عَلى سُـرُرِ اليَاقُـوْتِ تَغْـدُو وَتَحْضُـرُ
وَبَيْنَ جَـوَارِيْهَـا تَهَـادَى إذا مَشَتْ
عَلى كُثُبِ المِسْـكِ الـزَّكِيِّ تَبَخْتَـرُ
مِلاحٌ زَهَتْ في رَوْنَقِ الحُسْنِ وَالبَهَا
وَكُـلُّ جَمَـالٍ دُوْنَـهُ الْمَـدْحُ يَقْصُـرُ
وَمَـا الْمَدَحُ فِيْمَنْ نَشْـرُهَا وَابْتِسَـامُهَا
يُضِيءُ الـدَّيَـاجِيْ وَالـوُجُـوْدَ يُعَـطِّرُ
وَمَنْ يَعْـذُبُ البَحْرُ الأجَـاجُ بَـرِيْقِهَـا
وَمَنْ حُسْنِهَـا لِـلْعَـالَمِيْنَ يُـحَيِّـرُ
وَمَنْ لَوْ بَدَتْ مِنْ مَشْرِقٍ ضَاءَ مَغْرِبٌ
وَحارَ الوَرى مِنْ حُسْنِهَا حِيْنَ تَظْهَـرُ
وَمَنْ مُخُّهَـا مِنْ تَحْتِ سَبْعِيْنَ حُـلَّةً
يُرَى كَيْفَ مُوْفِيْ المَدْحِ عَنْهَا يُعَبِّـرُ

فَخَيْرٌ مِن الدُّنْيا جَمِيْعاً خِمَارُهَا
فأحْسِنْ بِمَنْ تَحْتَ الخِمَارِ مُخَمَّرُ
وَأحْقِرْ بِرَبَّاتِ المْحَاسِنِ وَالتَّي
بِتَشْبِيْهِ أوْصَافِ الجِنَانِ تُصَدَّرُ
فَمَا الفِضَّةُ البَيْضَاءُ شِيْبَتْ بِعَسْجِدٍ
وَمَا البَيْضُ مَكْنُونُ النَّعَامِ المُسَتَّرُ
بَهَاءً وَحُسْناً مَا الْيَوَاقِيْتُ فِي الصَّفَا
وَفِي رَوْنَقٍ مَا اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ يُنْثَرُ
وَمَا الدُّرُّ والرُّمَّانُ وَالرِّيْمُ مَا المَهَا
وَمَا البَدْرُ مَا زُبْدٌ وَشَهْدٌ وَعَنْبَرُ
ثَنَايا وَكَعْبٌ ثُمَّ جِيْدٌ وَمُقْلَةٌ
وَلَوْنٌ وَلِيْنٌ رِيْقُهَا وَالمُعَطَّرُ
وَمَا شَبَّهَ الرَّحْمَنُ مِنْ بَعْضِ وَصْفِها
بِبَيْضٍ وَيَاقُوتٍ فَذَلِكَ يُذْكَرُ
عَلى جِهَةِ التَّقْرِيْبِ لِلذُّهْنِ إذْ لَنا
عُقُوْلٌ عَلَيْهَا فَهْمُ مَا يَتَعَسَّرُ
تَبارَكَ مُنْشِيْ الخَلْقِ عَنْ سِرِّ حِكْمَةٍ
هُوَ اللّهُ مَوْلانَا الحَكَيْمُ المُدَبِّرُ
إذَا مَا تَجَلَّى اللّهُ لِلْخَلْقِ جَهْرَةً
تَعَالَى لِكُلِّ المُؤْمِنِيْنَ لِيَنْظُرُوا
وَقَدْ زُيِّنَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ وَزُخْرِفَتْ
نَسُوَا كلَّ مَا فِيْهَا لِمَا مِنْهُ أبْصَرُوا

جَمَــالاً وَوَصْفــاً جَــلَّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ
وَفَضْــلاً وَإِنْعَــامَــاً يَجِــلُّ وَيَكْـبُــرُ
نَــعِــيْــمٌ وَلَــذَّاتٌ وَعِــزٌّ وَرِفْــعَــةٌ
وَقُــرْبٌ وَرِضْــوَانٌ وَمُـلْكٌ وَمَتْـجَـرُ
بِمَقْعَــدِ صِـدْقٍ فِي جِــوَارِ مَلِيْكِهِمْ
هَنِيْئــاً لِمَسْعُــوْدٍ بِــذَلِـكَ يَــظْفُــرُ
أَيَــا سَــاعَــةً فِيهَــا السَّعَــادَاتُ يُجْتَلَى
عَلى وَجْهِهَــا دُرُّ العِنَــايَــاتِ يُنْثَــرُ
وَيَــا سَــاعَــةً فِيْهَــا المفَــاخِرُ تُـرْتَقَى
عُــلاهَــا وَخَلْعَــاتُ الكِـرَامِ تُنَشَّــرُ
أَلاَ مُشْتَــرٍ جَنَّــاتِ خُلْدٍ وَخَيْــرَهــا
وَحُــوْراً حِسَانــاً فِي المَلاَحَـةِ تَفْخَـرُ
أَلا بَــائِـعُ الفَــانِيْ الحَقِيْـرِ بِبَــا قِي
خَــطِيْـرٍ وَمُلكٍ لَيْسَ يَبْلَى وَيَـدْمُـرُ
أَلاَ مُفْتَــدٍ مِنْ نَــارِ حَــرٍّ عَــظِيْمَــةٍ
أُلُــوْفُ سِنِيْنَ تِلْكَ تُحْمَى وَتُسْعَــرُ
لَهــا شَـرَرٌ كَـالقَصْـرِ فِيْهَــا سَلاسِـلٌ
عِــظَامٌ وَأَغْــلالٌ فَغُلُّوْا وَجُــرْجِــرُوا
عُصَــاةٌ وَفُجَّــارٌ وَسَـبْــعٌ طِبَــاقُـهَــا
وَسَبْعِيْنَ عَــامــاً عُمْقُهَــا قَـدْ تَهَــوَّرُوا
وَحَيَّــاتُهَــا كَــالبُخْتِ فِيْهَــا عَقَــارِبٌ
بِغَــالٍ وضَــرْبٌ وَالــزَّبَــانِيُ يَـنْهَــرُ

غَلِيْظٌ شَـدِيْـدٌ في يَـدَيْـهِ مَقَـامِـعٌ
إذَا ضَـرَب الصُّمَّ الجِبَـالَ تَكَسَّـرُ
وَمَـطْعُـومُهُمْ زَقُّـوْمُهَـا وَشَـرَابُهُـمْ
حَمِيْمٌ بِهَـا أمْعَـاؤُهُمْ مِنْـهُ تَنْـدُرُ
وَيُسْقَـوْنَ أيْضـاً مِنْ صَـدِيْـدٍ وَجِيْفَـةً
تَفَجَّـرُ مِنْ فَرْجِ الـذِيْ كَـانَ يَفْجُـرُ
وَقَدْ شَابَ مِنْ يَوْمٍ عَبُوسٍ شَبَابُهُم
لِهَـوْلٍ عَـظِيْم لِلْخَـلائِقِ يُـسْكِـرُ
فَيَـا عَجَبـاً نَـدْرِيْ بِنَـارٍ وَجَنَّـةٍ
وَلَيْسَ لِـذَيْ نَشْتَـاقُ أَوْ تِلْكَ نَحْـذَرُ
إذَا لَمْ يَكُنْ خَـوْفٌ وَشَوْقٌ وَلا حَيَـا
فَمَـاذَا بَقِيْ فِيْنَـا مِنَ الخَيْـرِ يُـذْكَـرُ
وَلَـيْسَ لِحُـرٍّ صَـابِـرِيْـنَ وَلا بَـلاَ
فَكَيْفَ عَلى النِّيْـرَانِ يَـا قَـوْمُ نَصْبِـرُ
وَفَـوْتُ جِنَـانِ الخُلْدِ أعْـظَمُ حَسْـرَةً
عَلى تِلْكَ فَلْيَسْتَحْـسِـرِ المُـتَحَـسِّـرُ
فَـأُفٌّ لَـنَـا أُفٍّ كِـلابُ مَـزَابِـلٍ
إلـى نَتْـنِهَـا نَـغْـدَوْا وَلا نَـتَـدَبَّـرُ
نَبِيْـعُ خَـطِيْـراً بِـالحَقِيْـرِ عِمَـايَـةٌ
وَلَـيْسَ لَـنَـا عَـقْـلٌ وَلُـبٌّ مُـنَـوَّرُ
فَطُوْبَى لِمَنْ يُؤْتَى القَنَاعَـةَ وَالتُّقَى
وَأَوْقَـاتُـهُ في طَـاعَـةِ اللَّهِ يَعْمُـرُ

فَيَا أَيُّهَا الأَخْـوَانُ مِنْ كُـلِّ سَـامِعٍ
لَـهُ فَهْمُ قَـلبٍ حَـاضِـرٍ يَتَـذَكَّـرُ
أَلَا إِنَّ تَقْـوَى اللّهِ خَيْرُ بِضَـاعَـةٍ
لِصَاحِبِهـا رِبْـحٌ بِهَـا لَيْسَ يَخْسَـرُ
وَطَـاعَتُـهُ لِلْمُـتَّقِي خَيْـرُ حِـرْفَـةٍ
بِهَا يَكْسِبُ الخَيْرَاتِ وَالسَّعْيُ يُشْكَـرُ
إِذَا أَصْبَحَ البَطَّالُ في الحَشْـرِ نَادِمـاً
يَـعُضُّ عَلى كَـفٍّ أَسىً يَتَـحَسَّـرُ
فَـطُوْبَى لِمَنْ يُمْسِي وَيُصْبِحُ عَامِلاً
عَلى كُـلِّ شَيءٍ طَـاعَـةَ اللّهِ يُؤْثِـرُ
بِهَـا يَعْمُـرُ الأَوْقَـاتَ أَيَّـامَ عُمْـرِهِ
يُـصَلِّي وَيَتْلُو لِـلكِتَـابِ وَيَـذْكُـرُ
وَيَـأْنَسُ بِالمَـوْلَى وَيَسْتَوْحِشُ الـوَرَى
وَيَشْكُرُ في السَّرَّا وَفي الضَّـرَّا يَصْبِرُ
وَيَسْلُوْ عَنِّ اللَّذَّاتِ بـالـدُّوْنِ قَـانِـعٌ
عَـفِـيْـفٌ لَـهُ قَـلبٌ نَـقِـيٌّ مُـنَـوَّرُ
حَـزِيْنٌ نَحِيْلٌ جِسْمُـهُ ضَامِـرُ الحَشَا
يَصُومُ عَنَ الدُّنْيَا عَلى المَوْتِ يُفْطِرُ
إِذَا ذُكِـرَتْ جَنَّـاتُ عَـدْنٍ وَأَهْلُهَـا
يَـذُوْبُ اشْتِيَـاقـاً نَحْوَهَـا وَيُشَمِّـرُ
وَيَعْلُو جَـوَادَ العَـزْمِ أَدْهَـمَ سَـابِقـاً
وَأَبْيَضَ مَجْنُـوبَـاً عَنِ النُّـوْرِ يُسْفِـرُ

فَـأَدْهَمُ يَسْـقِيْ مَـاءَ عَـيْنٍ وَأَبْـيَضٌ
لِصَبْـرٍ عَلى صَـوْمِ الهَجِيْــرِ يُضَمَّــرُ
وَيَرْكُضُ في مَيْدَانِ سَبْقٍ إلَى العُـلا
وَيَسْـرِيْ إلى نَيْلِ المَعَـالِيْ وَيَسْهَـرُ
فَمَجْـدُ العُلاَ مَـا نَالـهُ غَيْـرُ مَـاجِـدٍ
يُخَـاطِـرُ بـالـرُّوْحِ الخَـطِيْـرِ فَيَـظْفُـرُ
سَـأَلْتُ الـذِيْ عَمَّ الـوُجُـوْدَ بِجُـوْدِهِ
وَمَنْ مِنْهُ فَيْضُ الفَضْلَ لِلْخَلْقِ يَغْمُرُ
يَمُنُّ عَلَيْنَــا فِـي قَبُـولِ دُعَــائِـنَـا
وَيُلْحِقُـنَــا بِــالصَّــالِـحِيْـنَ وَيَغْـفِـرُ
وَأَزْكَـى صَــلاةِ الـلّهِ ثُـمَّ سَــلامِـهِ
عَلى المُصْطَفَى مَا لاَحَ فِيْ الأُفقِ نَيِّرُ

فِي ذِكْرِ بَعْضِ سِيْرَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ وَزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ وَعَدْلِهِ

انْصَافُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَأَقَارِبِه رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى فَعِنْدَمَا تَوَلَّى أخَذَ جَوْهَرَ زَوْجَتِهِ وَحُلِيِّهَا فِيْمَا أخذ فَأوْدَعَهُ بَيْتَ المالِ حَتَّى إذَا احْتَاجَ إلَيْهِ المُسْلِمُونَ أنْفَقَهُ عَلَيْهِمْ .

وَعِنْدَمَا أَحسَّ أَنَّهَا لَمْ ترض أَوَّلَ الأَمْرِ كُلَّ الرِّضَا بِمَا فَعَلَ خَيَّرَهَا بَيْنَ أَنْ تُقِيْمَ عِنْدَهُ وَبَيْنَ أنْ تَلْحَقَ بِأَهْلِهَا فَرَضِيَتْ أنْ تُقِيْمَ عِنْدَهُ وَأنْ تَدْفَعَ بِحُلِيِّهَا وَجَوَاهِرِهَا إلى بَيْتِ المَالِ ثُمَّ لاَ تَرُدُّهُ إلَيْهَا أبداً .

وَمَا زَالَ عُمَرُ في زَوْجَتِهِ حَتَّى أَثَّرَ عَلَيْهَا وَاقْتَدَتْ بِهِ في الوَرَعِ وَالزُّهْدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

وَكَمَا فَعَلَ عُمَرُ مَعَ زَوْجَتِهِ فَاطِمَةَ فَعَلَ بِأَوْلَادِهِ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ .

أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ ابْنَتُهُ بلؤلؤةٍ وَقَالَتْ لَهُ : إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَبْعَثَ لِيْ بأُخْتِهَا حَتْى أجْعَلَها في أُذنَيَّ فأرْسَلَ لَهَا بِجَمْرَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ لها إن اسْتَطعْتِ أنْ تَجْعَلِيْ هَاتَينِ الجَمْرَتَيْنِ في اذُنَيكِ بَعثْتُ إلَيْكِ بِأُخْتِهَا .

وَبَلَغَ عُمَرَ أَنَّ ابْنَهُ اشْتَرَى فَصَّ خَاتَمٍ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ فَكَتَبَ عَزِيْمَةٌ مِنِّيْ عَلَيْكَ إلاّ بِعْتَ هَذا الخَاتَمَ الذِي اشْتَرَيْتَهُ بأَلْفِ دَرْهَمٍ وَتَصَدَّقْتَ بِثَمَنِهِ وَاشْتَرَيْتَ آخَرَ بِدْرَهمٍ نَقَشْتَ عَلَيْهِ : رَحِمَ اللهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ وَالسَّلامُ .

وَجَمَعَ يَوْماً رُؤَسَاءِ النَّاسِ فَخَطَبَهُم فقَالَ : إنَّ فَدَكَ كَانَتْ بيَدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَضَعُهَا حَيْثُ أَرَاهُ اللهُ ثم وَلِيهَا أبو بَكرٍ وَعُمَرُ كذَلِكَ قالَ الأَصْمَعِيُّ وَمَا أَدْرِيْ مَا قَال في عُثْمَانَ ثمْ قَال أنَّ مَرْوَانَ أَقْطَعَهَا فَحصَلَ لَيْ مِنْهَا نَصِيْبٌ وَوَهَبَنِيْ الوَلِيْدِ وَسُلَيمانُ نَصِيْبَهُما وَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَالِيْ شَيءٌ أَرُدُّهُ أَغْلَى مِنْهَا وَقد رَدَدْتُهَا في بَيْتِ المالِ عَلى ما كانَتْ عليْهِ في زَمانِ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم .

قال فَيئِسَ النَّاسُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ المَظَالِمِ ثُمَّ أَمَرَ بأَمْوَالِ جَمَاعَةً مِنْ بَنِيْ أُمَيَّة فَرَدُّوهَا إلى بَيْتِ المالِ وَسَمَّاهَا أَمْوَالُ المظالِم فاسْتَشْفَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ وتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ بعَمَّتِهِ فَاطِمَةِ بِنْتِ مَرْوانَ فَلمْ يَنْجَعْ فِيْهِ شَيْءُ .

وَقَالَ لَهُم لَتدعُنِّيْ وَإلاَّ ذَهبْتُ إلى مَكَّةَ فنزَلْتُ عَنْ هَذَا الأَمْرِ لأَحَقِّ النَّاسِ بِهِ .

وَقَدْ اَجْتَهَدَ رَحِمَهُ اللهُ في مُدَّةِ وِلايَتِهِ مَعَ قِصَرِهَا حَتَّى رَدَّ المظَالِمَ وَصَرَفَ إِلَى كُلِّ ذِيْ حَقٍّ حَقَّهُ .

وَكَانَ مُنَادِيْهِ في كُلِّ يَوْمٍ يُنَادِيْ أَيْنَ الغَارِمُوْنَ أَيْنَ النَّاكِحُوْنَ أَيْنَ المسَاكِيْنُ أَيْنَ اليَتَامَى حَتَّى أغنَى كلاًّ مِنْ هَؤُلاءِ فَرَحْمَةُ اللهِ عَلى تِلْكَ الرُّوْحِ المَطْبُوعِ عَلى العَدْلِ والصدق والوَرَعِ والزُّهْدِ .

وَقَالَتْ زَوْجَتُهُ فَاطِمَةُ دَخلْتُ عَلَيْهِ يَوْماً وَهُوَ جَالِسٌ فِي مُصَلاَّهُ وَاضِعاً خَدَّهُ على يَدِهِ وَدُمُوْعُه تَسِيْلُ على خَدَّيْهِ فقُلتُ مَالَكَ فَقَالَ وَيْحَكِ يَا فَاطِمَة قد وُلِّيْتُ مِنْ أَمْرِ هذِه الأُمَّةِ مَا وُلِّيتُ فَتفَكَّرْتُ في الفَقِيْرِ الجَائِعِ وَالمظْلُوْمِ المَقْهُوْرِ وَالغَرِيْبِ وَالأَسِيْرِ وَالشَّيْخِ الكَبِيْرِ وذِي العِيَالِ الكَثِيْرِ وَالمرِيْضِ الضَّائِع وَالعَارِيْ المَجْهُودِ واليَتِيْمِ المكْسُوْرِ وَالأَرْمَلةِ الوَحِيْدَةِ وَالمَالُ قَلِيْلٌ وَأَشْبَاهُهُم في أقطارِ الأَرْضِ وَأَطْرَافِ البِلاَدِ .

فَعَلِمْتُ أَنَّ رَبِّيْ عَزَّ وَجلَّ سَيَسْأَلُنِي عَنْهُم يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَنَّ خَصْمِيْ دُوْنَهُم محمد صلى الله عليه وسلم فَخَشِيْتُ أَنْ لا يَثْبُتَ لِيْ حُجَّةٌ عِنْدَ خُصُومَتِهِ فَرَحِمْتُ نَفْسِيْ فَبكَيْتُ ؛ قَالُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَى ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَكَانَ إذا غَسَلُوهُ جَلَسَ فِي المَنْزِلِ حَتَّى يَيْبَسَ. قَالُوا وَدَخَلَ مَرَّةً عَلَى امْرَأَتِهِ فَسأَلَهَا أَنْ تُقْرِضَهُ دِرْهَماً أو فُلُوساً يَشْتَرِيْ لَهُ بِهَا عِنَباً فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهَا شَيْئاً فَقَالَتْ لَهُ أَنْتَ أَمِيْرُ المؤمنينَ وَلَيْسَ في خِزَانَتِكَ ما تَشْتَرِيْ بِهِ عِنَباً .

فَقَالَ هَذَا أَيسَرُ مِنْ مُعَالَجَةِ الأَغْلاَلِ وَالانْكَالِ غداً في جَهنَّمَ . قَالَ

وَكَانَ سِرَاجُه عَلى ثلاثِ قَصبَاتٍ في رَأْسِهِنَّ طِينٌ وَبعَثَ يَوْماً غُلاَمَهُ لِيشْوِيْ لهُ لَحْماً فَجاءَ بِهَا سَرِيْعاً مَشْوِيَّةً فَقَالَ أيْنَ شَوَيْتَها قَالَ في المَطْبَخِ فَقَالَ في مَطْبَخِ المُسْلِمْينَ قال نعَمْ فقَالَ كُلْهَا فانِّيْ لَمْ أُرْزَقْهَا هِيَ رِزْقُكَ وَسَخَّنُوا لهُ المَاءَ في المـطْبَخِ العَامِّ فرَدَّ بدَلَ ذلكَ بدِرْهَمٍ حَطَباً .

وَكَانَ لهُ سِرَاجٌ يَكْتُبُ عَلَيْهِ حَوَائِجَهُ وَسِرَاجٌ لِبَيْتِ المَالِ يَكْتُبُ عَلَيْهِ مَصَالِحُ المُسْلِمِيْنَ لا يَكْتُبُ على ضَوْئِهِ لِنَفْسِهِ حَرْفاً وَبَلَغَ عُمَرُ أنَّ رَجُلا مِنْ أصْحَابِهِ تُوُفِّيَ فَجَاءَ إلَى أهْلِهِ يُعَزِّيْهِمْ فَصَرَخُوا في وَجْهِهِ بالبُكَاءِ عَلَيْهِ فَقَالَ مَهْ إنَّ صَاحِبَكُمْ لَمْ يَكُنْ يرْزُقكُم إنّ الذِي يَرْزُقُكُمْ حَيٌّ لا يَمُوتُ وَانَّ صَاحِبَكُمْ هَذا لَمْ يَسُدَّ شَيْئاً مِنْ حُفركُمْ وَإنَّمَا سَدَّ حُفْرَةَ نَفْسِهِ ألا وَإنَّ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْكُم حُفْرَةً لاَ بُدَّ وَاللَّهِ أنْ يَسُدَّهَا .

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ لمَّا خلَقَ الدُّنْيا حَكَمَ عَلَيْهَا بالخَرابِ وَعَلى أهْلِهَا بِالفَنَاءِ وَمَا امْتَلأَتْ دَارٌ حُبْرَةً إلّا امْتَلأَتْ عِبْرَةً وَلاَ اجْتَمعُوا إلا تَفرّقُوا حَتَّى يَكُوْنَ اللهُ هُوَ الذِي يَرِثُ الارْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ بَاكِياً فَلْيَبْكِ عَلى نَفْسِهِ فإنَّ الذِي صَارَ إلَيْهِ صَاحِبُكُمْ كُلَّ النَّاسِ يَصِيْرُونَ إلَيْهِ غَداً .

شِعْراً :

أبْقَيتَ مَـالَـكَ مِيْـرَاثـاً لِـوَارِثِـهِ
فَلَيْتَ شِعْـرِيَ مَـا أَبْقَى لَـكَ المَـالُ
القَـوْمُ بَعْـدَكَ في حَـالٍ تَسُـرُّهُمُ
فكيْفَ بَعْدهُمُو صَـارَتْ بِكَ الحَـالُ
مَلُّوا البُكَـاءَ فَمَـا يَبْكِيْـكَ مِنْ أحَـدٍ
وَاسْتَحْكَمَ القِيْلُ في المِيْرَاثِ وَالقَالُ

مَـالَتْ بِهِمْ عَنْكَ دُنْيَـا أَقْبَلَتْ لَهُمُوا
وَأَدْبَــرَتْ عَــنْــكَ وَالأَيَّــامُ أَحْــوَالُ

وَكَان رَحِمَهُ اللهُ قَدْ رَزَقَهُ اللهُ العِلْمَ وَالحِكْمَةَ وَالأَدبَ وَالعَدْلَ فَمَا تَزحْزَحَ قَيْدَ شِبْرٍ عَن طَرِيْقَةِ الخُلفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ وَقَدْ كَانَ مِنْ أمْرِهِ مَا ذُكِرَ عَنْهُ أنّهُ شَيَّعَ جنَازَةً فَلمَّا انْصَرفَ النّاسُ تَأخّرَ عُمَرُ وَتَأَخَّرَ مَعَهُ أُنَاسٌ وَجَلَسُوا نَاحِيَةً .

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ لِمَ تَأَخَّرْتَ وَتَركت الجَنَازَةَ وَأَنْتَ وَلِيُّهَا فَقَالَ نعَمْ نَادَانِيْ القَبْرُ مِنْ خَلْفِيْ يَا عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيْزِ ألا تَسْأَلُنِيْ مَا صَنَعْتُ بالأحِبَّةِ قلتُ بَلىٰ .

قَالَ أَحْرَقْتُ الأَكْفَانَ وَمَزَّقْتُ الأبْدَانَ وَمَصَصْتُ الدَّمَ وَأَكَلْتُ اللَّحْمَ قَالَ أَلَّا تَسْأَلُنِيْ مَا صَنَعْتُ بِالأَوْصَالِ قُلْتُ بلى قَالَ نَزَعْتُ الكَفَّينِ مِنَ الذِّرَاعَيْنِ وَالذِّرَاعَيْنِ مِنَ العَضُدَيْنِ وَالوَرْكَيْنِ مِنَ الفَخِذَيْنِ وَالفَخِذَيْنِ مِنَ الرُّكْبَتَينِ وَالرُّكْبَتَينِ مِنَ السَّاقَينِ وَالسَّاقَينِ مِنَ القَدَمَيْنِ .

ثُمَّ بَكَى عُمَرُ وَقَالَ أَلَا إنَّ الدُّنْيَا بَقَاؤُهَا قَلِيْلٌ وَعَزِيْزُهَا ذَلِيْلٌ وَغَنِيُّهَا فَقِيرٌ وَشَابُّها يَهْرَمُ وَحيُّهَا يَمُوْتُ فَلا يَغُرَّنكُم إقبالُهَا مَع سُرْعَةِ ادْبَارِهَا فَالمغْرُورُ مَنْ اغْتَرَّ بِمَا لا يَدُومُ وَالمفْتُونُ مَنْ أجْهَدَ نَفْسَهُ في طَلَبِ مَا لَيْسَ بِمَقْسُوْمٍ .

ثُمَّ قَالَ أيْنَ سُكّانُها الذِيْنَ تَبَوَّؤُا مَدَائِنَها وَشَقُّوا أَنْهَارَها وَغَرَسُوا أَشْجَارَهَا لَقَدْ أقَامُوا أَيّاماً يَسِيْرَةً فَتَنَتْهُم العَافِيَةُ وَغَرَّهُم النَّشَاطُ وَأَلْهَتْهُم

الزَّخَارِفُ فرَكِبُوا المَعَاصِيْ حَتَّى أنَاخَتْ بِهِم مَطَايَاهَا عَلى حَافَاتِ الحُفَرِ.

وَالقَبْرُ إمَّا رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ

فَوَاخَيْبَةَ آمَالِهم ويَا حَسْرَةَ قلُوبِهِم لَقَدْ كَانُوا مَغْبُوطِيْنَ بِمَا صَنَعُوا ومَحْسُودِيْنَ عَلى مَا جَمَعُوا وَلَقَدْ عَلِمْتُم مَا صَنَعَ التُّرَابُ بأبْدَانِهِم وَالديْدَانُ بِلُحُوْمِهِمْ.

وَأطَالَ الكَلامُ في هَذَا المَوْضُوعِ وَهُوَ يَبْكِيْ إلى أَنْ قَالَ يَا سَاكِنَ القَبْرِ بَعْدَ أيّامٍ قَلائِلَ مَا غرَّكَ من الدنيا هَلْ ظَنَنْتَ أنّكَ تَبْقى لهَا أمَا رَأيْتَ مِنْ آبَائِكَ مَنْ قدْ نَزَلَ بِهِ الأمْرُ وَجاءَ الأَجَلُ فأصْبَحَ لا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ مَا نَزَلَ بِهِ وَهُوَ يَرْشَحُ عَرَقاً وَيَتلظَّى عَطَشاً وَيَتَقَلَّبُ في غَمَرَاتِ المَوْتِ وَسَكَرَاتِهِ.

ثُمَّ قَرَأَ «حَتَّى إذَا بَلَغَت الحُلْقُوْمُ وَأَنْتُمْ حِيْنَئِذٍ تَنْظُرُوْنَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْكُم وَلكِنْ لا تُبْصِرُوْنَ فَلَوْلا أنْ كُنْتُم غَيْرَ مَدِيْنِين تَرْجِعُونَها إنْ كُنْتُم صَادِقِيْنَ» وَبَكى طَوِيْلاً ثُمَّ قَالَ لَيْتَ شِعْرِيْ مَا الذِيْ يَلقَانِي بِهِ مَلَكُ المَوْتِ عِنْدَ خُرُوْجِيْ مِنَ الدُّنْيَا وَما يَأتِيْنِيْ بِهِ مِنْ رِسَالَةِ رَبِّيْ ثُمَّ تَمَثَّلَ قَائِلاً:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ
وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَازِمُ
تُسَرُّ بِمَا يَفْنَى وَتَفْرَحُ بالمُنَى
كَمَا اغْتَرَّ بِاللّذَّاتِ بِالنَّوْمِ حَالِمُ

وَتَعْمَلُ مَا لَوْ تَدْرِهِ لَبَغَضْتَهُ
كذالك في الدُّنْيَا تَعِيْشُ البَهَائِمُ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِمَا تُحِبُّهُ مِنَ الأَعْمَالِ وَتَرْضَاهُ ، وَنَجِّنَا مِنَ المِحَنِ وَالأَهْوَالِ ، وَارْزُقَنَا الاسْتِعْدَادَ للآخِرَةِ ، وَجَنِّبْنَا الإِهْمَالَ وَاغفِرْ لنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأحْيَاءِ مِنْهُم وَالميِّتينَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فصل)

وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ مُحَمَّدٍ المُرْوَزِيّ قَالَ أُخْبِرْتُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيز رضيَ اللهُ عَنْهُ لما دُفِنَ سُليمانُ بن عبدِ الملكِ وَخَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ سُمِعَ للأَرْضِ هَدَّةٌ أو رَجَّةٌ فقالَ مَا هَذِهِ فَقِيْلَ هَذِهِ مَرَاكِبُ الخِلافةِ قُرِّبَتْ إِلَيْكَ لِتَركَبَهَا فَقَالَ مَا لِيْ وَلَهَا أَبْعِدُوْهَا عَنِّيْ وَقَرِّبُوا لِيْ دَابَّتِي فَقُرِّبَتْ إِلَيْهِ فَرَكِبَها فَجَاءَ صَاحِبُ الشُّرْطَةِ يَسِيْرُ بَيْنَ يَدَيْهِ بالحَرْبَةِ جَرْياً عَلى عَادَةِ الخُلَفَاءِ قَبْلَهُ .

فَقَالَ تَنَحَّ عَنِّيْ مَا لِيْ وَلَكَ إِنَّمَا أنَا رَجُلٌ مِن المُسلِمِيْنَ ثُمَّ سَارَ مُخْتَلطاً بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى دَخَلَ المَسْجِدَ وَصَعَدَ المِنْبَرَ وَاجْتَمعَ النَّاسُ إِلَيْهِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَرَ النَّبيَّ صَلى الله عليه وسلم ثمّ قالَ أَيُّها النَّاسُ إِنَّمَا بُلِيْتُ بهَذَا الأَمْرِ مِنْ غَيْرِ رَأْيٍ مِنِّيْ وَلا طِلْبَةٍ وَلا مَشُوْرَةٍ وَإِنِّيْ قَدْ خَلَعْتُ مَا في أَعْنَاقِكُمْ مِنْ بَيْعَةٍ فَاخْتَارُوا لأَنْفُسِكُم غَيْرِيْ فَصَاحَ المُسلِمُونَ صَيْحَةً وَاحِدَةً قَدِ اخْتَرْنَاكَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنينَ وَرَضَيْنَاكَ فَلِيْ أَمْرَنَا بِاليُمْنِ وَالبَرَكَةِ .

فَلَمَّا سَكَتُوا حَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى على النَّبِيِّ صَلى الله عليه وسلم ثُمَّ قَالَ أُوْصِيْكُم بتَقْوَى اللهِ فإنّ تَقْوَى اللهِ خلَفٌ مِنْ كُلِّ شَيءٍ وَلَيْسَ مِنْ تقوى اللهِ خَلَفٌ وَأصْلِحُوا سَرائِرَكُمْ يُصْلِحَ اللهُ عَلانِيَتَكُم وَأكْثِرُوْا ذِكْرَهَا ذِم اللذّاتِ المَوْتَ وَأحْسِنُوا لهُ الاسْتِعْدَادَ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ بِكُمْ .

وَإنَّ مَنْ لا يَذْكُرُ مِنْ آبَائِهِ الذِيْنَ بَيْنَهم وبَيْنَ آدَمَ أباً حَيّاً لمعُرْقٌ في المَوْتِ وَانّ هَذِه الأُمّةِ لم تَخْتَلِفْ في رَبِّهَا وَلَا فِي نَبِيِّهَا وَلا في كِتَابِهَا إنَّمَا اخْتَلفُوا في الدِّيْنَارِ والدِّرْهَمِ وَإنِّيْ وَاللهِ لَا أعْطِيْ أحَداً بَاطِلاً وَلا أَمْنَعُ أحَداً حَقّاً .

أَيُّها النَّاسُ مَنْ أطَاعَ اللهَ تَعَالى وَجَبتْ طَاعَتُه وَمَنْ عَصَى اللهَ فلا طَاعَةَ لهُ أَطِيْعُونِيْ مَا أَطَعْتُ اللهَ فاذَا عَصَيْتُه فلا طَاعَةَ لِيْ عَلَيْكُم ثُمَّ نَزَلَ وَدخَلَ دَارَ الخِلاَفةِ وَأَمَرَ بالسُّتُورِ فَهُتِكَتْ وَبالبُسُطِ فَرُفِعَتْ وَأمَرَ بِبَيْعِ ذَلِكَ وَادْخَالِ أثْمَانِهَا بيْتَ مَالِ المُسْلِمِيْنَ .

ثُمَّ ذَهَبَ يَتَبَوَّءُ مَقِيْلاً فَأَتَاهُ ابْنُهُ عَبْدُ المَلِكِ فقَالَ مَا تُرِيْدُ أَنْ تَصْنَعَ يَا أَبَتِيْ قَالَ أيْ بُنَيَّ أَقِيلُ فَقَالَ تَقِيْلُ وَلا تَرُدُّ المظالِمَ قَالَ أَيْ بُنَيَّ إنّيْ قَدْ سَهِرْتُ البَارِحَة في أَمْرِ عَمِّكَ سُلَيْمَان فَاذا صَلَّيْتُ الظّهْرَ رَدَدْتُ المظالِمَ فَقَالَ يا أَمِيْرَ المؤمِنينَ مِنْ أَيْنَ لكَ أَنْ تَعِيْشَ إلى الظّهْرِ فقَالَ ادْنُ مِنّيْ فَدَنَا مِنْهُ فقَبّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ .

وَقَالَ الحَمْدُ لِلَّهِ الذيْ أَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِيْ مَنْ يُعِيْنُنِي على دِيْنِي فَخَرَجَ وَلَمْ يَقِلْ وَأمَرَ مُنَادِياً يُنَادِيْ أَلَا مَنْ كَانَتْ لهُ مَظْلَمَةٌ فليَرفعْهَا إلَيْهِ

فَتَقدّمَ إلَيْهِ ذِمِّيّ مِنْ أهْلِ حِمْصَ فقَالَ يَا أَمِيرَ المؤمِنِيْنَ أَسْأَلُكَ كِتابَكَ قَالَ وَمَا ذَاكَ قَالَ إنَّ العَبَّاسَ بْنَ الوَلِيْدِ اغْتَصَبَنِيْ أَرْضِيْ وَالعَبَّاسُ حَاضِرٌ فقَالَ عُمَرُ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ مَا تَقُولُ يا عَبَّاسُ قَالَ إنَّ أَمِيْرَ المؤمِنينَ الوَلِيْدُ أَقْطَعَنِيْ إيَّاهَا وَهَذا كِتَابُهُ .

فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا تَقُوْلُ يَا ذِمِّيْ قَالَ أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ أَسْأَلُكَ كِتَابَ اللّهِ تعالَى فقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كِتَابُ اللهِ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ مِنْ كِتَابِ الوَلِيْدِ فَارْدُدْ عَلَيْهِ أَرْضَهُ يا عَبَّاسُ فَرَدَّهَا عَلَيْهِ ثمَّ جَعَلَ لاَ يُدَّعَى عَلَى شَيْءٍ مِمَّا فِي أَيْدِيْ أَهْلِ بَيْتِهِ مِن المَظَالِمِ إلاَّ رَدَّهُ مَظْلَمَةً مَظْلَمَةً ولَما بَلَغَ الخَوَارِجَ سِيْرَةُ عُمَرَ وَمَا رَدَّ مِنَ المَظَالِمِ اجْتَمَعُوا وَقَالُوا مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُقَاتِلَ هَذَا الرَّجُلَ وَقَالَ فِيْهِ كُثَيِّرُ عزَّةَ :

وَلَيْتَ وَلَمْ تَسْبُبْ عَلِيّاً وَلَمْ تُخِفْ
بَرِيَّاً وَلَمْ تَقْبَلْ مَقَالَةَ مُجْرِمِ
وَصَدَّقْتَ بِالقَوْلِ الفِعَالَ مَعَ الذِيْ
أَتَيْتَ فَأمْسَى رَاضِيَاً كُلَّ مُسْلِمِ
فَمَا بَيْنَ شَرْقِ الأَرْضِ وَالغَرْبِ كُلِّهَا
مُنَادٍ يُنَادِيْ مِنْ فَصِيْحٍ وَأَعْجَمِ
يَقُوْلُ أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ ظَلَمْتَنِيْ
بِأَخْذِكَ دِيْنَارِيْ وَلاَ أَخْذِ دِرْهَمِ
فَأَرْبِحْ بِهَا مِنْ صَفْقَةٍ لِمُبَايِعٍ
وَأَكْرِمْ بِهَا مِنْ بَيْعَةٍ ثُمَّ أَكْرِمِ

وَلَمَّا بَلَغَ الجَبَّارَ العَنِيْدَ عُمَرَ بْنِ الوَلِيْدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيْزِ رَحِمَهُ

اللّهُ رَدَّ الضَّيْعَةَ عَلَى الذِمِيّ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ يَعْتَرِضُ عَلَى عَدْلِهِ وَيَزْعُمُ أنه جورٌ ، فقال في كتابه إنك قد ازدريت على من كان قبلك مِنَ الخُلَفَاءِ ، وَعِبْتَ عليهم وسرت بغير سيرتهم بغضاً لهم وشيناً لمن بعدهم مِنْ أَوْلَادِهِمْ . قَطَعْتَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ إِذْ عَمَدْتَ إِلَى أَمْوَالِ قُرَيْشٍ وَمَوَارِيْثِهم فَأَدْخَلْتَهَا بَيْتَ المَالِ جَوْراً وَعُدْوَاناً ، وَلَنْ تُتْرَكَ عَلَى هَذِهِ الحَالِ ، والسَّلَامُ .

فَلَمَّا قَرَأَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ كِتَابَهُ كَتَبَ إِلَيْهِ (بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ) مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ إلى عُمَرَ بْنِ الوَلِيْدِ السَّلَامُ عَلَى المُرْسَلِيْنَ وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ ، أَمَّا أَوَّلَ شَأْنِكَ يَا ابْنَ الوَلِيْدِ فَأُمُّكَ بَنَانَةُ السُّكُوْنِ كانَتْ تَطُوْفُ في سُوْقِ حِمْص وَتَدْخُلُ في حَوَانِيْتِهَا ثُمَّ اللّهُ أَعْلَمُ بِهَا .

ثُمَّ اشْتَرَاهَا ذُبْيَانُ مِنْ مَالِ المُسْلِمِيْنَ فَأَهْدَاهَا لأَبِيْكَ فَحَمَلَتْ بِكَ فَبِئْسَ المَوْلُوْدُ ، ثُمَّ نَشَأْتَ وَكنْتَ جَبَّاراً عَنِيْداً تَزْعُمُ أَنِّي مِنَ الظَّالِمِيْنَ إِذْ حَرَمْتُكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ مَالَ اللهِ تَعَالَى الذِي هُوَ في حَقِّ القَرَابَاتِ والمَسَاكِيْنِ وَالأَرَامِلْ .

وَإِنَّ أَظْلَمَ مِنِّيْ وَأَتْرَكَ لِعَهْدِ اللهِ مَنْ اسْتَعْمَلَكَ صَبِيَّاً سَفِيْهَاً عَلَى جُنْدِ المُسْلِمِيْنَ تَحْكُمْ فِيهِمْ بِرَأْيِكَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ في ذَلِكَ نِيَّةٌ إلا حُبُّ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ فَوَيْلٌ لِأَبِيْكَ مَا أَكْثَر خُصَمَاؤُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَكَيْفَ يَنْجُو أَبُوكَ مِنْ خُصَمَائِهِ .

وَإِنَّ أَظْلَمَ مِنِّيْ وَأَتْرَكَ لِعَهْدِ اللهِ مَنَ اسْتَعْمَلَ الحَجَّاجَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَأْخذ المالَ الحَرَامَ .

وَإنَّ أظْلَمَ مِنّيْ وَأتْرَكَ لِعَهْدِ اللهِ مَنْ اسْتَعْمَلَ قُرَّةَ أعْرَابِيّاً جَافِيَاً عَلَى مِصْرَ وَأذِنَ لَهُ في المَعَازِفِ وَاللهْوِ وَشُرْبِ الخَمْرِ .

وَإنَّ أظْلَمَ مِنّيْ وَأتْرَكَ لِعَهْدِ اللهِ مَنْ جَعَلَ لِعَالَيَةِ البَرِيْقِيَّةِ في خُمسِ العَرَبِ نَصِيْبَاً فَرُوَيْدَاً يَا ابْنَ بَنَانَةَ لَوْ الْتَقَتَا حِلَقُ البِطَانِ وَرُدَّ الفَيْءُ إلى أهْلِهِ لَتَفَرَّغْتُ لَكَ وَلأهْلِ بَيْتِكَ فَوَضَعْتُهُم عَلَى المحجّة البَيْضَاءِ فَطَالَمَا تَرَكْتُمْ آلمَحَجَّةِ البَيْضَاءِ فَطَالَمَا تَرَكْتُمْ الحَقَّ وَأخَذْتُم البَاطِلَ وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ مَا أرْجُو أنْ أكُونَ رَأَيْتُهُ مِنْ بَيْعِ رَقَبَتِكَ وَقَسْمِ ثَمَنِكَ عَلى الأرامِلِ والمساكين واليَتَامَى فإنَّ لِكُلٍّ فِيْكَ حَقَّاً وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى وَلَا يَنَال سَلَامُ اللهِ القَوْمَ الظَّالِمِيْنَ

وَكَتَبَ إلَيْهِ أحَدُ عُمَّالِهِ فَقَالَ أمَّا بَعْدُ أصْلَحَ اللهُ الأمِيْرَ فَإنَّ قَبْلِي أنَاساً مِن العُمَّالِ قَد اقْتَطَعُوا مالاً عَظِيْمَاً لَسْتُ أقْدِرُ عَلَى اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ أيْدِيْهِم إلّا أنْ أمَسَّهُم بِشَيْءٍ مِن العَذَابِ فَإنْ رَأى أمِيْرُ المؤمنين أنْ يَأذَنَ لِيْ في ذَلِكَ أفْعَلُ .

فَكَتَبَ إلَيْهِ عُمَرُ أمَّا بَعْدُ فَالعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مِنْ اسْتِئْذَانِكَ إيَّايَ في عَذَابِ بَشَرٍ كَأنِّيْ لَكَ وِقَايَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَكَأنَّ رِضَائِي عَنْكَ يُنْجِيْكَ مِنْ سَخَطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَانْظُرْ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ عُدولٌ فخذه بِمَا قَامَتْ بِهِ البَيِّنَةُ .

وَمَنْ أقَرَّ لَكَ بِشَيْءٍ فَخُذْهُ بِمَا أقَرَّ بِهِ وَمَنْ أنْكَرَ فَاسْتَحْلِفْهُ باللهِ العَظِيْمِ وَخَلِّ سَبِيْلَهُ وَأيْمُ اللهُ لأنْ يَلْقُوْا اللّهَ بِخِيَانَاتِهِمْ أحَبُّ إلَيَّ مِنَ أنْ ألقَى الله بِدِمَائِهِمْ والسَّلَامُ .

وَكَانَ لِلْوَلِيْد بْنِ عَبْدِ المَلِكِ ابْنٌ يُقَالُ لَهُ رَوْحٌ وَكَانَ نَشَأ بِالبَادِيَةِ فَكَأنَهُ

أعْرَابِيٌّ فَأَتَى نَاسٌ مِن المُسلِمِيْنَ إلى عُمَرَ يُخَاصِمُوْنَ رَوْحاً في حَوَانِيْت بِحِمْصٍ وكَانَتْ لَهُمْ أقْطَعَهَا إيَّاهُمْ أَبُوهُ بِسِجِلِّ الوَلِيْدِ .

قَالَ مَا يُغْنِيْ عَنْكَ سِجِلُّ الوَلِيْدِ ، الحَوَانِيْتُ حَوانِيْتُهُمْ قَدْ قَامَتْ لَهُمْ البَيِّنَةُ عَلَيْهَا خَلِّ لَهُمْ حَوَانِيْتَهُم فَقَامَ رَوْحٌ وَخَصْمُهُ الحَمْصِيُّ مُنْصَرِفِيْنَ فَتَوَعَّدَ رَوْحٌ الحِمْصِيُّ فَرجعَ الحِمْصِيُّ إلَى عُمَرَ فقَالَ هُوَ وَاللهِ يَتَوَعَّدُنِيْ يَا أمِيْرَ المؤ مِنِيْنَ .

فَقَالَ عُمَرُ لِكَعْبِ بْنِ حَامِدٍ وَهُوَ مِنْ حَرَسِ عُمَرَ إذْهَبْ إلَى رَوْحٍ يَا كَعْبُ فَإنْ سَلَّمَ الحَوَانِيْتَ إلى الحِمْصِيّ فَذَاكَ وَإلاّ أتِنِيْ بِرَأسِهِ فَسَمِعَ بَعْضُ المُوَالِيْنَ لِرَوْحٍ كَلامَ عُمَرَ فَأسْرَعَ في إخْبَارِهِ بِمِا قَالَ عُمَرُ فَخلَعَ قَلْبَهُ وَخَرجَ إلَيْهِ كَعْبٌ وَقَدْ سَلَّ بَعْضَ السَّيْفِ فَقَالَ لَهُ قُمْ فَخلِّ لَهُ حَوانِيْتَهُ قَالَ نَعَمْ وَخلَّى لَهُ الحَوانِيْتَ وَتَابَعَ النَّاسُ في رَفْعِ المَظَالِمِ فَمَا رُفِعَتْ إلَيْهِ مَظْلَمَةٌ إلاَّ رَدَّهَا .

اللَّهُمَّ أَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الأبْرَارِ وَأَسْكِنَّا الجَنَّةَ دَارَ القَرَار وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المسلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللّهِ قَدْ كَثُرَ في زَمَنِنَا اليَوْمَ أُنَاسٌ يَرَى أَحَدُهُمْ قَدْرَ نَفْسِهِ فَوْقَ مَا تَتَصَوَّرُهُ الأفْهَام وَيَجْزِمُ كُلَّ الجَزْمِ أَنَّهُ رَفِيْعُ المَقَامِ ، رِفْعَةً كُلُّ رَفِيْعٍ مَعَهَا تَحْتَ الأقْدَامِ ، لا تَذْكُرُ أمَامَهُ فَاضِلاً إلاّ ضَحِكَ وَهَزَّ رَأسَهُ مُتَهَكِّماً سَاخِراً بِمَا لَهُ مِنْ مَقَامٍ وقَدِيْماً قِيْلَ :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ

رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَالا يَرَىٰ

وَتَجِدُ هَذَا المُتَكَبِّرُ المُعْجَبُ بِنَفْسِهِ شَرِساً أَحْمَقاً ذَا إِبَاءٍ وَاسْتِعْصَاءٍ حَتَّى على خَالِقَهَ القَدِيْرالكَبِيْر المُتَعَالِي وَتَرَاهُ نَارِيَّ المِزَاجِ يَلْتِهِبُ التِهَاباً وَيَنْفَجِرُ لِأَدْنىٰ كَلِمَةٍ لا تُرْضِيْهِ وَلَوْ لَمْ يَقْصِدَ قَائِلُهَا إِلَّا الحُسْنَى .

وَمِنْ عَلَامَاتِهِ أَنَّكَ تَجِدُهُ حَرِيْصاً عَلَى أَنْ يَكُوْنَ أَمَامَ النَّاسِ وَأَنْ يُصْغُوا إِلَى كَلَامِهِ وَيُؤْلمهُ كَلَامُ غَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ حَقّاً وَتَجِدُ ثِيَابَهُ مُسْبَلَةٌ وفِي مَشْيِهِ يَتَبَخْتَر مُصَعِّراً خَدَّهُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ عِقَالٌ تَجِدُهُ مُمِيْلاً لَهُ وَتَجِدُ بَعْضَهُمْ قَدْ وَفَّرَ شَارِبَهُ وَفَتَلَهُ وَسَوَّى شَنَبَاتِهِ كَالقُرُوْنِ قَالَ بَعْضُهُمْ :

إِنَّ الكَمَالَ الذِيْ سَادَ الرِّجَالُ بِهِ

هُوَ الوَقَارُ وَقَرْنُ العِلْمِ بِالعَمَلِ

فَقُلْ لِمَنْ يَزْدَهِيْ عُجْباً بِمَنْطِقِهِ

وَقَلْبُهُ فِي قُيُوْدِ الحِرْصِ وَالأَمَلِ

مَهْلاً فَمَا اللّٰهُ سَاهٍ عَنْ تَلَاعُبِكُمْ

لَكِنَّ مَوْعِدُكُمْ فِي مُنْتَهَى الأَجَلِ

وَقُلْ لِمَنْ فَخْرُه فِي فَتْلِ شَارِبِه

أَضَعْتَ عُمْرَكَ بَيْنَ الكِبْرِ وَالكَسَلِ

حَتَّامَ تُبْرِمُ يَا وَافِيْ القَفَا شَنَباً

مَا فِي طَوَايَاهُ إِلَّا خَيْبَةُ الأَمَلِ

أَصْبَحْتَ بُعْبُعَ مَنْ فِي البَيْتِ تُزْعِجُهُمْ

هَلَّا أَخَفْتَ العِدَا يَا مَعْرِضَ الخَجَلِ

وَمِنْ عَلاَمِاتِهِ أَنَّكَ تَجِدُ صَاحِبَ الكِبْرِ لا يَرْغَبُ قُرْبَ الفُقَرَاءِ مِنْهُ ولاَ يَأْلَفُ إلاَّ الأَغْنِيَاءَ فَالمُتَكَبِّرُ لا يُحِبُّ لِلْمُؤْمِنِيْنَ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ لأَنَّهُ لا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ بِسَبَبِ كِبْرِهِ وَعُجْبِهِ وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى التَّوَاضُعِ وَهُوَ رَأْسُ أخْلاَقِ الأَصْفِيَاءِ .

وَلاَ يَقْدِرُ المُتَكَبِّرُ عَلَى تَرْكِ الحِقْدِ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدُوْمَ عَلَى الصِّدْقِ وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ الغَضَبِ وَلاَ عَلَى كَظْمِ الغَيْظِ ولاَ يَسْلَمُ مِنَ احْتِقَارِهِ لِلنَّاسِ وَلاَ يَسْلَمُ مِن الغِيْبَةِ وَالبُهْتِ لأَنَّهُ فِيْهِ مِن العَظَمَةِ وَالعِزَّةِ وَالكِبْرِيَاءِ مَا يَحُوْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ .

فَمَا مِنْ خُلُقٍ ذَمِيْمٍ وَقَبِيْحٍ إلاّ وَصَاحِبُ الكِبْرِ مُضْطَرٌّ إلَيْهِ لِيَحْفَظَ بِهِ عِزَّهُ وَعَظَمَتَهُ وَلِذَلِكَ وَرَدَ في الحَدِيْثِ أنّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ وفي وَصِيَّةِ لُقْمَانَ لابْنِهِ يَقُولُ « وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ في الأَرْضِ مَرحاً إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ » .

وَمِنْ تَعَالِيْمِ رَبِّنَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ وَنَبِيِّهَا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى ﴿ وَلاَ تَمْشِ في الأَرْضِ مَرحاً إنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُوْلا ﴾ .

وَبِالحَقِيْقَةِ إنَّ المتَكَبِّرَ مِسْكِيْنٌ ثم مِسْكِيْنٌ إلَى حَدٍّ يَسْتَحِقُّ مَعَهُ الرِّثَاءُ فإنَّكَ بَيْنَمَا تَرَاهُ بِهَذِهِ الكِبْرِيَاءُ وَالعَظَمَةِ تَرَاهُ غَارِقَاً في بَحْرِ المَعَاصِيْ وَذُلِّهَا يُلْقِيْ نَفْسَهُ في جَهنَّمَ .

أَيظُنُّ هَذَا المِسْكِيْنُ أَنَّهُ عَزِيْزٌ واللّهُ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ أَوْ يَظُنُّ أَنَّهُ رَفِيْعٌ وَهُوَ في قَاذُوْرَاتِ المَعَاصِيْ إنَّ العِزَّةَ والرِّفْعَةَ لاَ يَحْصُلاَنِ بِالدَّعْوَى وَلَيْسَ

حُصُوْلُهُمَا بِيَدِ مَخْلُوقٍ وَلَكِنَّهُمَا بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ يَمْنَحُهُمَا إِلَى مَنْ يُسَارِعُونَ إلى طَاعَةِ مَوْلاَهُم جلَّ وَعَلاَ وَتَقَدَّسَ .

فَيَا عِبَادَ اللهِ انْصَحُوا مَنْ وَقَعَ في وَرْطَةِ الكِبْرِ وَقُولُوا لَهُ تَدبَّرْ كَلاَمَ رَبِّ العَالَمِيْنَ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِيْنَ ﴾وَقَوْلَهُ تَعالَى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذِيْنَ يَتَكَبَّرُوْنَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإنْ يَروْا سَبِيْلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوْهُ سَبِيْلا وَإنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيْلاَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِيْنَ » .

وَعَنْ عَمْروِ بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيْهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْشَرُ المتَكَبِّرُوْنَ أَمْثَالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ يُساقُوْنَ إلَى سِجْنٍ في جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُوْلُس تَعْلُوْهُمْ نارُ الأنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِيْنَةِ الخَبالِ رَوَاهُ النَّسَائِيّ وَالتِرْمِذِيْ واللّفْظُ لَهُ وَقَالَ حَدِيْثٌ حَسَنٌ .

شِعْراً :

اعْلَمْ هُـدِيْتَ وَخَيرُ العِلْمِ أَنْفَعُـهُ
أنَّ اتبَاعَ الهَوىٰ ضَـرْبٌ مِنْ الخَبَلِ
وَالحَمْـدُ لِلّهِ رَبِّ العَـالَمِيْـنَ على
إنْعَـامِـهِ وَتَعـالَى اللّهُ خَيْـرُ وَلِيّ
فَكَمْ وَكَم ظَلَّ بـالأَهْـوَاءِ وَطَـاعَتِهَا
مِنْ عَـاقِلٍ جَـامِعٍ لِلْعِلْمِ وَالعَمَـلِ

هُـوَ الهَوَانُ كَمَـا قَالُـوا وَقد سُـرِقَتْ
النُّـوْنُ مِنْـهُ فَجَـانِبْـهُ وَخُـذْ وَمِـلِ
وَأَقْبِـلْ عَلى طَاعَـةِ الرَّحْمَنِ وَالْـزَمْهَا
في كلِّ حِيْنٍ وَلا تَخْلُدْ إلَى الكَسَلِ
وَلا تُخَـالِفْ لَـهُ أَمْـراً تَبَـارَكَ مِنْ
رَبٍّ عَـظِيْمٌ وَسِرْ في أَقْـوَمِ السُّبُلِ
وَخُـذْ بِمَـا في كِتَـابِ اللهِ مُجْتَهِـداً
مُشَمِّـراً وَاحْتَـرِزْ مِنْ سَـوْفَ وَالأَمَلِ
وَلا تُـعَـرِّجْ عَلى دَارِ الـغُـرُوْرِ وَدا
الخُلْفِ وَالزُّوْرِ وَالنِّسْيَانِ لِـلأَجَلِ
وَاحْذَرْ مُصَاحَبَةَ المرْءِ المُضِيْعِ فَقَدْ
صَارُوا إلى الشَّرِّ وَالعِصْيَانِ وَالزَّلَـلِ
وَأَصْـبَحُـوا فـي زَمَـانٍ كُـلُّهُ فِتَـنٌ
وَبَـاطِـلٌ وَفَـسَـادُ بَـيِّـنٌ وَجَـلِيْ
هُـوَ الزَّمَـانُ الذِي قَـدْ كانَ يَحْـذَرُهُ
أئِمَّـةُ الحَقِّ مِنْ حَبْـرٍ وَمِنْ بَـدَلِيْ
هُـوَ الزَّمَـانُ الذِيْ لَا خَيْـرَ فِيْـهِ وَلَا
عُرْفٌ نَرَاهُ عَلَى التَّفْصِيْـلِ وَالجُمَلِ
هُـوَ الزَّمَـانُ الـذِيْ عَمَّ الحَـرَامُ بِـهِ
وَالظُّلْمُ مِنْ غَيْرِ مَا شَكٍّ وَلا جَـدَلِ
أَيْـنَ القُـرَآنُ كِتَـابُ اللهِ حُـجَّتُـهُ
وَأَيْنَ سُنَّـةُ طَـهَ خَـاتَمِ الـرُّسُـلِ

وَأَيْنَ هَــذِيْ رِجَـالِ اللهِ مِنْ سَلَفٍ
كانَ الهُدَى شَأْنُهم في القَوْلِ وَالعَمَلِ
أَكُلُّ أَهْلِ الهُدَىٰ وَالحَقِّ قَدْ ذَهَبُـوا
بِالمَوْتِ أَمْ سُتِرُوا يَا صَـاحِبِيْ فَقُلِ
وَالأَرْضُ لا تَخْلُو مِنْ قومٍ يَقُوْمُ بِهِمْ
أمْـرُ الالهِ كَمَـا قـد جَـاءَ فَـاحْتَفِـلِ
فَـارْجُ الالَـهَ وَلا تَيْـأَسْ وَانْ بَعُـدَتْ
مَـطَالِـبُ إِنَّ رَبَّ العَــالَـمِيْـنَ مَلِيْ
وَفي الالَــهِ مَلِيْـكِ العَــالَمِيْنَ غِنىً
عَنْ كُـلِّ شَيءٍ فَـلازِمْ بَــابَـهُ وَسَلِيْ
هُـوَ القَرِيْبُ المُجِيْبُ المُسْتَغَـاثُ بِهِ
قــلْ حَسْبِيَ اللّهُ مَعْبُــودِيْ وَمُتَّكَلِيْ
وَأَسْـأَلُـه مَغْفِـرَةً وَاسْـأَلُــهُ خـاتِمَــةً
حُسْنَى وعَــافِيَــةً وَالـجَبْـرَ لِـلْخَلَلِ
وَأَنْ يُــوَفِّـقَنَــا لِـلصَّــالِحَــاتِ وَمَــا
يُـرْضِيْهِ عَنّـا وَيَحْفَظْنَـا مِنَ الخَـطَلِ
وَأَنْ يُصَلِّي عَلى المُخْتَــارِ سَيِّـدِنَــا
مُحَمَّــدٍ مَـا بَكَتْ سُحْبٌ بِمُنْهَمِــلِ
وَالآلُ وَالصَّحْبُ مَــا غَنَّتْ مُـطَوَّقَــةٌ
عَلى الغُصُوْنِ فَأشْجَتْ وَاجِداً وَخَلِيْ

اللّهُمَّ ثَبِّتْ إِيْمَانَنَا ثُبُوْتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَوَفِّقْنَـا لِلْعَمَلِ في

البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَجَنِّبْنَا جَمِيعَ الطُّرُقِ المُردِيَاتِ وَزَحْزِحنَا عنْ النّارِ وَأَدْخِلْنَا فَسِيْحَ الجَنَّاتِ يَا رَفِيْعَ الدَّرجاتِ بِرَحْمَتِكَ التِيْ وَسعَتْ الأَحْيَاءَ وَالأَمْوَاتِ وَصَلّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَكَتَبَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللهَ إلَى عُمَّالِهِ أَنْ لا يُقَيَّدَ مَسْجُوْنٌ فَإِنَّهُ يَمْنَعُهُ مِنَ الصَّلاةِ وَكَتَبَ إِلَى عُمَّالِهِ إِذَا دَعَتْكُمْ قُدْرَتُكُمْ عَلى النَّاسِ إِلَى ظُلْمِهِمْ فَاذْكُرُوا قُدْرَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَنَفَادَ مَا تَأْتُونَ إِلَيْهِم وَبقَاءَ مَا يَأْتِيْ إِلَيْكُمْ مِنَ العَذَابِ بِسَبَبِهِمْ وَكانَتْ حُجْزَةُ إِزَارِهِ قَبْلَ الخِلاَفَةِ غائِبَةً في عُكَنِهِ مِنْ الحَالِ فَلَمّا تَوَلَّى الخِلافَةَ ذَهَبَتْ تِلْكَ الحَالُ فلو شِئْتَ أنْ تَعُدَّ أَضْلاَعَهُ مِنْ غَيْرِ مَسٍّ لَعَدَدْتَهَا .

وَكانَتْ لهُ غَلَّةٌ خَمْسِيْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ فلَمَّا وَلِيَ الخِلاَفَةَ صَارَ يُنْفِقُهَا كُلَّ حِيْنٍ حَتَّى ما بقي لَهُ غَيْرُ قَمِيْصٍ وَاحِدٍ لَا يَخْلَعُهُ حَتَّى يَتَّسِخَ فَإِذَا اتَّسَخَ غَسَلَهُ وَمَكَثَ بِالبَيْتِ حَتَّى يَجِفَّ ثُمَّ يَلْبَسُهُ .

وَلَمَّا وَلِيَ خَيَّرَ جَوَارِيْهِ وَقَالَ قَدْ نَزَلَ بِيْ أَمْرٌ قد شَغَلَنِيْ عَنْكُنَّ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَحَتَّى يَفْرُغَ النَّاسُ مِنَ الحِسَابِ فَمَنْ أَحبَّتْ مِنْكُنّ عِتْقَها أَعْتَقْتُهَا وَمَنْ أَحبَّتْ أَنْ أُمْسِكَهَا عَلى أَنْ لا يَكُوْنَ مِنِّيْ إِلَيْهَا شَيْءٌ فَبَكَيْنَ وَارْتَفَعَ بُكَاؤُهُنَّ إِيَاساً مِنْهُ .

وَكَانَ يَخْطُبُ النَّاسَ بِقَمِيْصٍ مَرْقُوْعِ الجَيْبِ مِنْ قُدَّامْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ إِنَّ اللّهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاكَ فَلَوْ لَبِسْتَ فَنَكَّسَ رَأسَهُ سَاعَةً ثمّ قالَ أفْضَلُ القَصْدِ عَنَ الجِدَةِ وَأفْضَلُ العَفْوِ عَنْ المَقْدِرَةِ .

وَذَكَرَتْ زَوْجَتُه فَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ المَلِكِ أَنَّ عُمَرَ مَا اغْتَسَلَ عَنْ حُلُمٍ وَلا جَنَابَةٍ مُنْذُ وَلِىَ الخِلافَةَ نَهَارُهُ في أَشْغَالِ النَّاسِ وَرَدِّ المَظالِم إلى أَهْلِهَا وَلَيْلُه في عِبَادَةِ رَبِّهِ .

وَقَالَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ دَخَلْتُ عَلى أَمِيرِ المُؤْمِنِيْنَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أَعُودُهُ في مَرَضِهِ الذِي مَاتَ فِيْهِ فَإذَا عَلَيْهِ قَمِيْصٌ وَسِخٌ فَقُلْتُ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ المَلِكِ اغْسِلِي قَمِيْصَ أَمِيْرِ المؤمِنِيْنَ فَقَالَتْ نَفْعَلُ إنْ شَاءَ اللّهُ قَالَ مَسْلمَةُ ثُمَّ عُدْتُه فَاذَا القَمِيْصُ على حَالِهِ فَقُلْتُ يَا فَاطِمَةَ أَلَمْ آمُرُكِ أَنْ تَغْسِلِيْ قَمِيْصَ أَمِير المؤمنينَ فَإِنَّ النَّاسَ يَعُوْدُوْنَهُ فقَالَتْ وَاللهِ مَا لَهُ قَمِيْصٌ غَيْرُهُ وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ كَثِيْراً مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ :

نَهَارُكَ يَا مَغْرُوْرُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ
وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لاَزِمُ
يَسُرُّكَ مَا يَفْنَى وَتَفْرَحُ بِالمُنَى
كَمَا غُرَّ بِاللَّذَاتِ في النَّوْمِ حَالِمُ
وَشُغْلُكَ فِيْمَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ
كذَلِكَ في الدُّنْيَا تَعِيْشُ البَهَائِمُ
وَفِعْلُكَ فِعْلُ الجَاهِلِيْنَ بِرَبِّهِمْ
وَعُمْرُكَ في النُّقْصَانِ بَلْ أَنْتَ ظَالِمُ

فَلاَ أَنْتَ فِي اليَقْظَانِ يَقْضَـانَ حَازِمٌ
وَلا أنْتَ في النُّـوَّامِ نَـاجٍ وَسَـالِمُ
فَـلاَ تَحْمَـدِ الـدُّنْيَا وَلَكِنْ فَـذُمَّهَا
وَلا تُكْثِـرِ العِصْيَـانَ إنَّـكَ ظَـالِمُ

وَكَانَ يَقُوْلُ أَردَكْنَا العُلَمَاءَ ، والامُرَاءُ وَالسَّلاطِيْنُ يَأْتُوْنَهُم فَيَقِفُوْنَ على أَبْوَابِ العُلَمَاءِ كَالعَبِيْدِ حَتَّى إذَا كَانَ اليَوْمُ رَأَيْنَا العُلَمَاءَ وَالفُقَهَاءَ وَالعُبَّادَ هُمَ الذِيْنَ يَأْتُونَ الأُمَراءَ وَالأغنِيَاءَ فلمَّا رَأَوْا ذَلِكَ مِنْهُمْ ازْدَرَوْهُمْ وَاحْتَقَرُوْهُمْ .

وَقَالُوا لَوْلاَ أَنَّ الذِيْ بِأَيْدِيْنَا خَيْرٌ مِمَّا بِأَيْدِيْهِم مَا فَعَلُوا ذَلِكَ مَعَنَا وَنُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ إنَّ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ لما كَانُوا عَلى الصَّوَابِ كانَتْ الأمَرَاءُ تَحْتَاجُ إلى العُلَمَاءِ وَكَانَتْ العُلَمَاءُ تَفِرُّ بِدِيْنِهَا مِن الأُمَراءِ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَوْمٌ مِنْ رُذَالَةِ النَّاسِ تَعَلَّمُوا ذَلِكَ العِلْمَ وَأَتَوْا بِهِ الأُمَراءَ فَاسْتَغْنَتْ بِهِ عَنِ العُلَمَاءِ وَاجْتَمَعَ القَوْمُ عَلىَ المَعْصِيَةِ فَسَقَطُوا وَانْتَكَسُوا ، وَلَوْ كَانَ عُلَمَاؤُنَا يَصوْنُوْنَ عِلْمَهُمْ لَمْ تَزِلَ الأُمَراءُ تَهابُهُمْ قُلْتُ وَلِلّهِ دَرُّ القَائِلِ :

وَلَـوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوْهُ صَانَهُمْ
وَلَـوْ عَـظَّمُـوْهُ في النُّفُـوسِ لَعُـظِّمَـا
وَلَكِنْ أَهَـانُـوْهُ فَـهَـانُـوا وَدَنَّسُـوا
مُحَيَّـاهُ بِـالاْطمَـاعِ حَتَّى تَجهَّمَـا
فَـإِنْ قُلْتَ زَنْدُ العِلْمِ كَـابٍ فـإنَّمَـا
كَبَى حَيْثُ لَمْ تُحْمَى حِمَاهُ وَأَظْلَمَا

آخر :

فَهُبُّوا أُهَيْلَ العِلْمِ مِنْ رَقْدَةِ الهَوَى
وَمِيْلُوا إلَى نَهْجِ الرَّشَادِ وَخَالِفُوْا

هَوَى النَّفْسِ إنَّ النَّفْسَ مِنْ أَكْبَرِ العِدَا
وَلِلْعَبْدِ فِيْهَا إنْ أَطَاعَ المَتَالِفُ

وَحُثُّوا مَطَايَا العَزْمِ في طَلَبَ العُلاَ
فَقَدْ مَاتَ أَهْلُوهُ الكِرَامُ السَّوَالِفُ

وَنَحْنُ إذَا مَاتُوْا نَمُوْتُ بِمَوْتِهِمْ
إذَا لَمْ يَكُنْ مِنّا على النَّهْجِ عَارِفُ

فَأَحْيُوا مَوَاتَ العِلْمِ مِنْكُمْ بِعَطْفَةٍ
إلىَ العِلْمِ كَيْ تَحْيَا بِتِلْكَ الوَضَائِفُ

فَلاَ خَيْرَ يُرْجَى في الحَيَاةِ على الهَوَى
إذَا لَمْ يَكُنْ فِيْنَا إلَى العِلْمِ صَارِفُ

بِضَاعَتُنَا المُزْجَاةُ فِيْهِ قَلِيْلَةٌ
وَقَدْ كانَ فِيْنَا جِسْمُهُ وَهْوَ نَاحِفُ

وَعَمَّا قَلِيْلٍ سَوْفَ يُطْوَى سِجِلُّهُ
وَتَذْهَبُ أرْبَابٌ لَهُ وَطَوَائِفُ

وَدَخَلَ على عُمَرَ مَسْلَمَةُ في مَرَضِهِ فَقَالَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ إنَّكَ أَفْقَرْتَ أفْوَاهَ وَلَدِكَ مِنْ هَذَا المالِ وَتركْتَهُمْ عَيْلَةً لا شَيْءَ لَهُمْ فَلَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إلَى وَالٍ نَظَرَ إلَى أَهْلِ بَيْتِكَ فَقَالَ عُمَرُ أَسْنِدُوْنِي .

ثُمَّ قَالَ أَمَّا قَوْلُكَ إنّيْ أفقَرْتُ أَفْوَاهَ وَلَدِيْ مِنْ هَذَا المَالِ فَوَاللّهِ مَا

مَنَعْتُهُمْ حَقّاً هُوَ لَهُمْ وَلَمْ أُعْطِهِمْ مَا لَيْسَ لهُمْ وَأَمَّا قَوْلُكَ لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ فإنَّ وَصِيِّيْ وَوَلِيِّ فِيْهِمْ ﴿اللّهُ الذي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِيْنَ﴾ بَنِيّ أَحَدُ رَجُلَيْنِ إمَّا رَجُلٌ يَتَّقِيْ اللّهَ فَيَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجا وَإمّا رَجُلٌ مُكِبٌّ عَلى المَعَاصِيْ فَانِّي لَمْ أَكُنْ أَقَوِّيْهِ عَلى الْمَعاصِيْ .

ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ بِضْعَةَ عَشَرَ ذَكَراً فَنظَرَ إِلَيْهِمْ فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ثَمَّ قَالَ بِنَفْسِيْ الفِتْيَةُ الذِيْنَ تَرَكْتُهُمْ عَيْلَةً لا شَيْءَ لَهُمْ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ قَدْ تَرَكْتُهُمْ بِخَيْرٍ أَيْ بَنِيّ إنّ أَبَاكُمْ قَدْ مَيَّزَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ بَيْنَ أَنْ تَسْتَغْنُوْا وَيَدْخَلَ النَّارَ أَبُوكُمْ أَوْ تَفْتَقِرُوْا وَيَدْخُلَ أَبُوْكُمْ الجَنَّةَ فكَانَ أَنْ تَفْتَقِرُوا وَيَدْخُلَ الجَنّةَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ تَسْتَغْنُوا وَيَدْخُلَ النَّارَ قُوْمُوا عَصَمَكُمْ اللّهُ .

وَذكَرَ ابْنُ أَبِيْ الدُّنْيَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العزيْزِ لَمَّا كَانَ في اليَوْمِ الذِي مَاتَ فِيْهِ قَالَ أَجْلِسُوْنِيْ فأجلَسُوهُ فَقَالَ أنَا الذِيْ أَمَرْتَنِيْ فَقَصَّرْتُ وَنَهَيْتَنِيْ فَعَصَيْتُ ثلاثَ مَرَّاتٍ وَلَكِنْ لاَ إِلَهَ إلا اللهُ ثمّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَأحَدّ النَّظَرَ فَقَالُوا إِنَّكَ لَتَنْظُرُ نَظَراً شَدِيْداً يَا أَمِيْرَ المؤمِنِيْنَ فَقَالَ إنِّيْ لأَرَى حَضَرَةً مَا هُمْ بِإنْسٍ وَلاَ جِنٍّ ثُمَّ قُبِضَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ .

اللّهُمَّ ارْزُقْنَا حُبَّكَ وَثَبِّتْهُ فِي قُلُوْبِنَا وَارْزُقْنَا مَحَبَّةَ أَوْلِيَائِكَ وَأَحْبَابِكَ وَاجْمَعْنَا وَإِيَّاهُمْ في فَسِيْحِ جَنَّاتِكَ وَآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَة وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ الاحْيَاءِ مِنْهُم وَالميتِينَ برَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَرَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيّ قَالَ قَالَ: عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ لِابْنِهِ عَبْدِ الملكِ وَهُوَ مَرِيْضٌ كَيْفَ تَجِدُكَ قَالَ في المَوْتِ قَالَ لأنْ تكُونَ في مِيْزَانِيْ أَحَبُّ إليَّ أنْ أكُونَ في مِيْزَانِكَ فقَالَ لهُ واللهِ يَا أبتِ لأَنْ يَكونَ مَا تُحِبُّ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ يَكُونَ مَا أُحِبُّ .

قِيْلَ فَلَمَّا مَاتَ ابْنُه عَبْدُ الْمَلِكِ قَالَ عُمَرُ يَا بُنَيَّ لَقَدْ كُنْتَ في الدُّنْيَا كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿ المالُ وَالبَنُونَ زِيْنَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وَلَقَدْ كُنْتَ أفْضَلَ زِيْنَتِهَا وَإنِّيْ لأرجو أنْ تَكُوْنَ اليَوْمَ مِنْ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ التِيْ هِيَ خَيْرٌ ثواباً وَخَيْرٌ أمَلاً وَاللهِ مَا سَرَّنِي أنْ دَعَوْتُكَ مِنْ جَانِبٍ فاجَبْتَنِيْ .

وَلما دَفَنَهُ قَامَ عَلى قَبْرِهِ فَقَالَ مَا زِلْتُ مَسْرُوراً بِكَ مُنْذُ بُشِّرْتُ بِكَ وَمَا كُنْتُ قَطُّ أسَرَّ إليَّ مِنْكَ اليَوْمَ ثُمَّ قَالَ اللّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ الملكِ بْنِ عُمَرَ وَلِمَنْ اسْتَغفرَ لَهُ .

وَلَمَّا قَامَ النَّاسُ لَهُ قَالَ يَا مَعْشَرَ النَّاسِ إنْ تَقُومُوا نَقُمْ وَإنْ تَقْعُدُوْا نَقْعُدْ فَإنَّمَا يَقُوْمُ النَّاسُ لِرَبِّ العالَمِيْنَ إنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ وسَنَّ سُنَناً مَنْ أخَذَ بِهَا لَحَق وَمَنْ تَرَكَهَا مُحِقَ .

وَمَنْ أرَادَ أنْ يَصْحَبْنَا فَلْيَصْحَبْنَا بِخَمْسٍ يُوْصِلُ إلَيْنَا حَاجَةَ مَنْ لا تَصِلُ إلَيْنَا حَاجَتُه وَيَدُلُّنَا مِنَ العَدْلِ إلى مَالا نَهْتَدِيْ إلَيْهِ وَيَكُونُ عَوْناً لنا على الحَقِّ وَيُؤَدِّيْ الأَمَانَة إلَيْنَا وَإلَى النَّاسِ وَلا يَغْتَبْ عِنْدَنَا أحَداً وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ في حَرَجٍ مِنْ صُحْبَتِنَا وَالدُّخُولِ عَلَيْنا .

وَسُئِلَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ المَلِكِ زَوْجَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ عَنْ عِبَادَةِ عُمَرَ فقالَتْ وَاللهِ مَا كَانَ بأكْثَرَ النّاسِ صَلاَةً ولا أكثرَ صِياماً وَلكِنْ وَاللهِ مَا رأيْتُ أخْوفَ لِلّهِ مِنْهُ لَقدْ كَان يذْكُرُ اللهَ في فِرَاشِهِ فَيَنْتَفِضُ انْتِفَاضَ العُصْفُورِ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ حَتَّى نقوْل لَيُصْبِحَنَّ النّاسُ وَلا خَلِيْفَةَ لهُمْ.

قَالَ وَمَرَّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزيز ذاتَ يَومٍ بفَاطِمَةَ زَوْجَتِهِ فَضَرَبَ عَلى كَتِفِهَا وَقَالَ يَا فَاطِمَةُ لَنحْنُ لَيَالِيَ دَابِقَ أنْعَمُ مِنَّا اليَوْمَ فقالَتْ وَاللهِ مَا كُنْتَ عَلى ذَلِكَ أقْدَرَ مِنْكَ اليَوْمَ فأدْبَرَ عنهَا وَلَهُ حَنِيْنٌ وهُوَ يَقُولُ يَا فَاطِمَةُ إنِّيْ أخـافُ النَّارَ يَـا فَاطِمَـةُ ﴿إنِّيْ أخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَـذَابَ يَـوْمٍ عَظِيْمٍ﴾.

قَال وَكانَ عُمَرُ يُصَلِّي العَتَمَةَ ثمَّ يَدْخُلُ عَلَى بَنَاتِهِ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ فَدَخَلَ عَلَيْهِنَّ ذاتَ لَيْلَةٍ فَلمَّا أحَسْنَهُ وَضَعْنَ أيْدِيَهُنَّ على أفْوَاهِهِنَّ ثُمَّ تَبَادَرْنَ البَابَ فقَالَ لِلْحَاضِنَةِ مَا شَأْنُهُنَّ قَالَتْ إنَّهُ لَمْ يكُنْ عِنْدَهُنَّ شَيْءٌ يَتَعَشَّيْنَهُ إلاّ عدَسٌ وَبَصَلٌ فَكَرِهْنَ أنْ تَشُمَّ ذَلِكَ مِنْ أفْوَاهِهِنَّ فَبَكَى عُمَرُ ثُمَّ قَالَ لَهُنَّ يَا بَنَاتِي مَا يَنْفَعُكُنَّ أنْ تعشَيْنَ الألوانَ وَيُؤْمَرُ بِأَبِيْكُنَّ إلى النَّارِ قَالَ فَبكَيْنَ حَتَّى عَلَتْ أصْوَاتُهُنَّ ثُمَّ أنْصَرَفَ.

وَجاءَتْ عَمَّةٌ لَه إلَى فَاطِمَةَ امْرَأته فَقَالَتْ إنِّيْ أُرِيْدُ كَلاَمَ أمِيْـرِ المَؤْمِنِينَ قَالَتْ لهَا اجْلِسِيْ حَتَّى يَفْرُغَ فجَلَسَتْ فاذا بِغُلامٍ قَدْ أتَى فَأخَذَ سِرَاجاً. فقَالَت لهَا فَاطِمَةُ إنْ كُنْتِ تُريدينَهُ فالآنَ فَانَّهُ إذَا كَانَ في حَوَائِجِ العَامَّةِ كَتَبَ عَلى الشَّمْعِ وَاذا صَارَ إلَى حَاجَةِ نَفْسِهِ دَعَا بِسِرَاجِهِ.

فَقَامَتْ فَدَخلَتْ عَلَيْهِ فَإذَا بَيْنَ يَدَيْهِ أقْرَاصٌ وَشَيْءٌ مِنْ مِلْحٍ وَزَيْتٍ وَهُوَ يَتَعَشَّى فَقَالَتْ يَا أَمِيْرَ المؤمنينَ اتَيْتُ لِحَاجَةٍ لِيْ ثم رَأَيْتُ أنْ أبْدَأ بِكَ

قَبْلَ حَاجَتِيْ قالَ ، وَمَا ذَاكَ يَا عَمَّةُ قَالَتْ لَوْ اتَّخَذْتَ لَكَ طَعَاماً أَلْيَنَ مِنْ هَذا قَالَ لَيْسَ عِنْدِيْ يَا عَمَّةُ وَلَوْ كَانَ عِنْدِيْ لَفَعَلْتُ .

قَالَتْ : يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ كَانَ عَمُّكَ عَبْدُ المَلِكِ يُجْرِيْ عَلَيَّ كَذَا وَكَذا ثُمَّ كَانَ أَخُوْكَ الوَلِيْدُ فَزَادَنِيْ ثُمَّ كانَ أَخُوكَ سُلَيْمَانُ فَزَادَنِيْ ثُمَّ وَلِيْتَ أَنْتَ فَقَطَعْتَهُ عَنِّيْ قَالَ يَا عَمَّةُ إِنَّ عَمِّيْ عَبدَ المَلِكِ وَأَخِيْ الوَلِيْدِ وَأَخِي سُلَيْمَانُ كَانُوا يُعْطُوْنَك مِنْ مَالِ المُسْلِمِيْنَ .

وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ قَدْ أَمَرَ لِعَنْبَسَةَ بْنِ سَعدٍ بنِ العَاصِ مِنَ البَيْتِ الأمَوِيّ بِعِشْرِينَ أَلْفِ دِيْنَارٍ فَدَارَتْ المُعَامَلَةُ في الدّوَاوِيْنِ حَتَّى انْتَهتْ إلى دِيْوَانِ الخَتْمِ فلمْ يَبْقَ إلاّ قَبْضُهَا فتوُفِيَ سُلَيْمَانُ قبْلَ أنْ يَقبِضَهَا .

وَكانَ عَنْبَسَةُ صَدِيْقاً لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ فَغَدَا يَطْلُبُ مِنْ عُمَرَ مَا أَمَرَ لَهُ بِهِ سُلَيْمَانُ فَوَجَدَ بَنِيْ أُمَيَّةَ حُضُوراً بِبَابِ عُمَرَ ابْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ يُرِيْدُوْنَ الإِذْنَ عَلَيْهِ لِيُكَلِّمُوهُ فِي أُمُوْرِهِمْ فَلَمَّا رأوا صَدِيْقَ عُمَر عَنْبَسَةَ قَالُوا نَنْتَظِرُ مَاذَا يَعْمَلُ مَعَهُ قَبْلَ أَنْ نُكَلِّمَهُ .

فَدَخَلَ عَنْبَسَةُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ إِنَّ أَمِيرَ المُؤمِنينَ سُلَيْمَانُ كانَ قدْ أمر لِيْ بعِشْرِيْنَ أَلْفِ دِيْنَارٍ حَتَّى وصَلَتْ إلَى دِيْوَانِ الخَتْمِ وَلَمْ يَبْقَ إلا أنْ أقْبِضَهَا فَتُوفيَ قبْلَ أنْ أقْبِضَها وأميرُ المُؤْمِنينَ أوْلَى باسْتِتْمَامِ الصَّنِيْعَةِ عِنْدِيْ وَمَا بَيْنِيْ وَبَيْنَهُ أعْظَمُ مِمَّا كانَ بَيْنِي وَبَيْنَ أمِير المؤمِنينَ سُليْمَانُ .

فقَالَ لَهُ عُمَرُ كَمْ ذَلِكَ قَالَ عِشْرُونَ أَلْفِ دِيْنَارٍ قَالَ عُمَرُ عِشْرُونَ أَلْفِ

دِيْنَارٍ تُغْنِيْ أَرْبَعَة آلافِ بَيْتٍ مِنْ المُسلِمِيْنَ وَأَدْفَعُهَا إلى رَجُلٍ وَاحِدٍ وَاَلله مَا لِيْ إلىَ ذَلكَ مِنْ سَبِيْلٍ .

قَالَ عَنْبَسَةُ فَرَمَيْتُ بِالكِتَابِ الذي فيه الصَّكُّ فقَال عُمَرُ لا عَلَيْكَ أَنْ يَكُون مَعَكَ فلعَلَّهُ أَنْ يأتِيْ مَنْ هُوَ أَجْرَأُ على هَذَا المالِ مِنِّي فَيَأْمَر لكَ بِهِ فأَخَذْتُهُ وَخَرَجْتُ إلى بَنِيْ أُمَيَّةَ وَأَعْلَمْتُهم مَا كَان مِنْ ذَلِك فقَالُوا لَيس بَعْد هَذا شَيءٌ ارْجعْ إلَيْهِ فاسأَلْهُ أنْ يأذنَ لنَا في البُلْدَانِ .

فَرَجَعْتُ إلَيْهِ فَقُلْتُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ إنَّ قَوْمَكَ بِالبَابِ يَسْأَلُونَكَ أَنْ تُجْرِيْ عَلَيْهِمَ مَا كَانَ يَجْرِيْ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِكِ . فَقَالَ عُمَرُ وَاللّهِ مَا هَذَا المالُ لِيْ وَمَا لِيْ إلىَ ذلِكَ مِنْ سَبِيْلٍ .

قُلْتُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنيْنَ فَيَسْأَلُونَكَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُمْ يَضْرِبُوا في البُلْدَانِ قَالَ مَا شَاؤا ذلِكَ لَهُمْ وَقَدْ أَذِنْتُ لهُمْ قُلْتُ وَأنَا أَيْضاً قَالَ وَأَنْتَ أَيْضاً قَدْ أَذِنْتُ لَكَ وَلكِنِّيْ أَرى لَكَ أنْ تُقِيْمَ فإنَّكَ رَجُلٌ كَثِيْرُ النَّقْدِ وَأَنا أَبِيْعُ تَرِكَةِ سُلْيْمَانَ فَلَعَلَّكَ تَشْتَرِيْ مِنْهَا مَا يَكُونُ لَكَ في رِبْحِهِ عِوَضٌ مِمَّا فَاتَكَ .

قَالَ فَأَقَمْتُ فَاشْتَرَيْتُ مِنْ تَرِكَةِ سُلَيْمَانَ بِمَائَةِ أَلْفٍ فَخَرَجْتُ بِهَا إلىَ العِرَاقِ فَبِعْتُهَا بِمائَتَيْ أَلفِ دِيْنَارٍ وَحَبَسْت الصَّكَّ فَلمَّا تُوُفيَ عُمَرُ وَولِيَ يَزِيْدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ أَتَيْتُه بِكِتَابِ سُلَيْمَانَ فَأَنْفَذَ لِيْ مَا كَانَ فِيْهِ .

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ يَنْظُرُ لَيْلاً في أَحْوَالِ الرَّعِيَّةِ في ضَوْءِ السِّرَاجِ فَجَاءَ غُلامٌ له فَحَدَّثَهُ في شَأْنٍ خَاصٍّ بِعُمَرَ فَقَالَ عُمَرُ لِلْغُلامِ أَطْفِىءْ سِرَاجَ بَيْتِ المَالِ ثُمَّ حَدِّثْنِيْ لأَنَّ الدُّهْنَ مِنْ بَيْتِ مَالِ المُسلِمينَ وَلَا يَجُوْزُ اسْتِعْمَالُه إلاَّ في أَشْغَالِ المُسْلِمِيْنَ.

وَعَنْ الفِهْرِيّ عَنْ أَبِيْهِ قَالَ كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ يَقْسِمُ تُفَّاحَ الفَيء فتَنَاوَلَ ابْنُهُ تُفَّاحَةً فَانْتَزَعَها مِنْهُ عُمَر وَأَوْجَعَ فَمَهُ فَسَعَى إلى أُمِّهِ فَأَرْسَلَتْ إلى السُّوْقِ وَاشْتَرَتْ لهُ تُفَّاحاً .

فَلمَّا رَجَعَ عُمَرُ وَجَدَ رِيْحَ التُّفَاحِ فَقَالَ لِزَوْجَتِهِ يَا فَاطِمَةُ هَلْ في البَيْتِ شَيءٌ مِنْ هَذا الفَيْءِ قَالتْ لاَ وَقَصَّتْ عَليْهِ القِصَّةَ فقَالَ وَاللهِ لقَدْ انْتَزَعْتُها مِنْ ابْنِي وَكَأَنَّمَا انْتَزَعْتُهَا مِنْ قَلْبِي وَلَكِنْ كَرِهتُ أن أُضِيْعَ نَفْسِي بتفاحَةٍ مِنْ فَيءِ المِسلِمينَ .

اللَّهُمَّ أَحْيِ قُلُوبَنَا وَنَوِّرْهَا بِنُورِ الايْمَانِ وَزَيِّنْهَا بِمَحَبَّتِكَ وَجَمِّل أَلْسِنَتَنا بذِكِرِكَ وَشُكْرِكَ وَحَسِّنْ أعْمَالَنَا وَوَفِّقْنَا لِحِفْظِ أَوْقَاتِنَا وَأَحْيِينا حَيَاةً طَيِّبَةً وَتوَفَّنَا مُسْلِمِيْنَ وَأَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ وَصَلّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْلٌ)

وَمِنْ إعْلانِهِ الجَوَائِزَ لِمَنْ يَدُلُّهُ عَلى الخَيْرِ أَنَّهُ كَتَبَ إلَى أَهْلِ المَوْسِمِ أمّا بَعْدُ فَأَيُّما رَجُلٍ قَدِمَ عَليْنَا في رَدِّ مَظْلَمَةٍ أَوْ أمْرٍ يُصْلِحُ اللهُ به خاصّاً أَوْ عامّاً مِنْ أمْرِ الدِّيْنِ فلهُ مَا بَيْنَ مِائَةِ دِيْنَارٍ إلَى ثَلاثِمائَةِ دِيْنَارٍ بقَدْرِ مَا يَرِي مِنْ الحُسْبَةِ وَبُعْدِ السَّفَرِ لَعَلَّ اللهَ يُحْيِي بِهِ حَقّاً أَوْ يُمِيْتُ بِهِ بَاطِلاً أو يَفْتَحَ بِهِ مِنْ وَرَائِهِ خيراً وَلَوْلا أَنِّي أُطِيْلُ عَليْكُم وَأُطْنِبُ فيَشْغَلُكُم ذلكَ عنْ مَناسِكِكم لَسَمَّيْتُ أُموراً مِنَ الحَقّ أَظْهَرَهَا اللهُ وَأُموراً مِنَ البَاطِلِ أَمَاتَها اللهُ وَكانَ اللهُ هُوَ المُتوحِّدُ لَكُم في ذَلِكَ لا تَجِدُونَ غَيْرَهُ فَإِنَّهُ لَوْ وَكَلَنِي إِلَى نَفْسِي لَكُنْتُ كَغَيْرِي وَالسَّلامُ .

وَكَتَبَ مَرَّةً إلى الحَسَنِ البَصْرِيّ وَمُطَرِّف بْنِ الشِّخِّيْر : مِنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ إلى الحَسَنِ البَصْرِيّ ومُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ الشِّخِّيرِ سَلامٌ عَلَيْكُما فَإِنِّي أحْمَدُ إلَيْكُما اللهَ الذِيْ لا إلهَ إلا هُوَ وأسْألهُ أنْ يُصَلِّي عَلى مُحَمدٍ عَبْدِه وَرَسُولِهِ أمَّا بَعْدُ فَإِنِي أوْصِيْكُمَا بتَقْوَى اللهِ فإنَّ مَنْ يَقُولُها كَثِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بها قَلِيْلٌ فإذا أتاكُما كِتَابِي فعِظَانِيْ وَلا تُزَكِّيَانِ وَالسَّلامُ .

فَكَتَبَ إليْهِ الحَسَنُ إلَى عُمَرَ سَلامٌ عليْكَ فَإِنِّيْ أحْمَدُ إلَيْكَ اللهَ الذي لا إلهَ إلَّا هُوَ أمّا بَعْدُ فَإنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَخوْفَةٍ أُهْبِطَ إليْهَا آدَمُ عَلَيْهِ السّلامُ عُقُوبَةً تُهِينُ مَنْ أكْرَمَها وَتُكْرِمُ مَنْ أهانهَا وَتُفْقِرُ مَنْ جَمَعَ لهَا في كُلِّ يَوْمٍ قَتِيْلٌ فكُنْ يَا أمِيرَ المؤمِنينَ كالمُدَاوِيْ لِجرْحِهِ واصْبِرْ عَلى شِدَّةِ الدَّوَاءِ لِمَا تَخافُ مِنْ طُوْلِ البَلاءِ .

وَكَتَب إلَيْهِ مُطَرِّفُ سَلامٌ عَلَيْكَ يَا أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبركاتِه فإنّيْ أحْمَدُ إليْكَ اللهَ الذي لا إلهَ إلا هُوَ أمَّا بَعْدُ فَلْيَكُنْ اسْتِئْنَاسُكَ باللهِ وَانْقِطاعُكَ إليْهِ فَانَّ قَوْماً أنِسُوا باللهِ وَانْقَطعُوا إلَيْهِ في وَحْدتِهِم أشَدُّ اسْتِئْنَاساً مِنْهُمْ بالنَّاسِ في كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ ، أمَاتُوا مِن الدُّنْيَا مَا خَافُوا أَنْ يُمْيتَ قلُوبَهُم وَتَركُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أنْ سَيَتْرُكَهُمْ فَأَصْبَحُوا لِمَا سَالَمَ النَّاسُ مِنْهَا أعْدَاءً جَعَلَنا اللهُ وَإيَّاكَ مِنْهُم ، فإنَّهُم قَدْ أصْبَحُوا بهَا قَليْلا وَالسَّلامُ .

وَقَدِمَتْ امْرَأَةٌ مِن العِرَاقِ عَلى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ . فَلَمَّا صَارَتْ إلَى بَابِهِ قَالَتْ هَلْ عَلى أميرِ المؤمِنينَ حَاجِبٌ فَقَالُوا لَا فَادْخُلِيْ إنْ شِئْت ، فَدَخَلَتْ المَرْأةُ عَلى زَوْجَةِ عُمَرَ فَاطِمَةَ وَهِيَ جَالِسَةٍ في بَيْتِها وفي يَدِهَا قُطْنٌ تُعالِجُهُ فَسَلَّمَتْ المَرْأةُ فردَّتْ عَليْهَا فاطِمَةُ السَّلامَ وَقَالَتْ لَهَا ادْخُلِيْ .

فَلَمَّا جلَسَت المَرْأَةُ رَفعَتْ بَصرَهَا فَلَمْ تَرَ في البَيْتِ شَيْئاً لَهُ بَالٍ وَذُو أَهَمِيَّةٍ ، فَقَالَتْ إِنَّمَا جِئْتُ لأَعْمُرَ بَيْتِي مِنْ هَذا البَيْتِ الْخَرَابِ قَالَتْ فَاطِمَةُ: إِنَّمَا خَرَّبَ هَذا البَيْتَ عِمَارَةُ بُيُوتِ أَمْثَالِكِ فَأَقْبَلَ عُمَرُ حَتَّى دَخَلَ الدّارَ فَسَلَّمَ وَدَخَلَ بَيْتَهُ فَمَالَ إِلَى مُصَلّى كَانَ لَه في البَيْتِ يُصَلِّيْ فِيْهِ .

فَسَأَلَ فَاطِمَةَ عَن المَرْأَةِ فَقَالَتْ هِيَ هَذِهِ فَأَخذَ مِكْتَلاً لَهُ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ عِنَبٍ فَجَعَلَ يَتَخَيَّرُ لَهَا أَحْسَنَهُ يُنَاوِلُهَا إِيَّاهُ ثُمَّ أَقْبلَ عَليْهَا فَقَالَ مَا حَاجَتُكِ .

فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ العِرَاقِ لِيْ خَمْسُ بَنَاتٍ كُسُلٍ كُسُدٍ فَجِئْتُكَ ابْتَغِيْ حُسْنَ نَظَرِكَ لَهُنَّ ، فَجَعَلَ يَقُولُ كُسُلٌ ، كُسُدَ وَيَبْكِيْ فَأَخَذَ الدَّوَاةَ وَالقِرْطَاسَ وكَتَبَ إِلَى وَالِيْ العِرَاقِ فَقَالَ سَمِّيْ أَكْبَرَهُنَّ فَسَمَتَّهَا فَفَرَضَ لَهَا فَقَالَتْ المَرْأَةُ الحَمْدُ لِلّهِ .

ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ اسْمِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ وَالرَّابعَةِ وَالمَرْأَةُ تَحْمَدُ اللّهَ فَفَرَضَ لَهَا فَلمَّا فَرَضَ لِلأَرْبَعِ اسْتَفَزَّهَا الفَرَحُ فَدَعت لَهُ فَجزَتْهُ فَرَفَعَ يَدَهُ وَقَالَ قَدْ كُنّا نَفْرِضُ لَهُنَّ حِيْنَ كُنْتِ تُوْلِيْنَ الحَمْدَ أَهْلَهُ فَمُرِيْ هَؤُلآءِ الأَرْبَعِ يُفِضْنَ عَلى هَذِهِ الخَامِسَةِ .

فَخَرَجَتْ بِالكِتَابِ حَتَّى أَتَتْ بِهِ العِرَاقَ فَدَفَعَتْهُ إِلى وَالِيْ العِرَاقِ فَلَمَّا دَفَعَتْ إِلَيْهِ الكِتَابَ بَكَى وَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ وَقَالَ رَحِمَ اللهُ صَاحِبَ هَذَا الكِتَابِ فَقَالَتْ أَمَاتَ قَالَ نَعَمْ فَصَاحَتْ وَوَلْوَلَتْ فَقَالَ لَا بَأْسَ عَلَيْكِ مَا كُنْتُ لأَرُدَّ كِتَابَهُ في شَيْءٍ فَقَضَى حَاجَتَهَا وَفَرَضَ لِبَنَاتِهَا .

وَأَرْسَلَ عَطَاءُ إِلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ المِلِكِ أَخْبِرِيْنِيْ عَنْ عُمَرَ قَالَتْ أَفْعَلُ . إِنَّ عُمَرَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ كَانَ قَدْ فَرَّغَ لِلْمُسْلِمِيْنَ نَفْسَهُ وَلأُمُوْرِهِمْ

فَكَانَ إِذَا أَمْسَى وَلَمْ يَفْرُغْ فِيْهِ مِنْ حَوَائِجِ يَوْمِهِ وَصَلَ يَوْمَهُ بِلَيْلَتِهِ إِلَى أَنْ أَمْسَى مَسَاءً وَقَدْ فَرِغَ حَوَائِجَ يَوْمِهِ فَدَعَا بِسِرَاجِهِ الذِيْ كَانَ مِنْ مَالِهِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ أَقْعَى وَاضِعاً رَأْسَهُ عَلَى يَدَيْهِ تَسِيْلُ دُمُوْعُهُ عَلَى خَدَّيْهِ يَشْهَقُ الشَّهْقَةَ يَكَادُ يَنْصَدِعُ قَلْبُهُ لَهَا وَتَخْرُجُ لَهَا نَفْسُهُ حَتَّى إِذَا بَرِقَ الصُّبْحُ أَصْبَحَ صَائِماً فَدَنَوْتُ مِنْهُ .

فَقُلْتُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ أَلَيْسَ مِنْكَ مَا كَانَ قَالَ أَجَلْ فَعَلَيْكَ بِشَأْنِكَ وَخَلِّيْنِي وَشَأْنِيْ قَالَتْ فَقُلْتُ إِنِّيْ أَرْجُوْ أَنْ أَتَّعِظَ قَالَ إِذَنْ أُخْبِرُكَ إِنِّيْ نَظَرْتُ فَوَجَدْتُنِيْ قَدْ وُلِّيْتُ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَسْوَدِهَا وَأَحْمَرِهَا .

ثُمَّ ذَكَرْتُ الفَقِيْرَ الجَائِعَ وَالغَرِيْبَ الضَّائِعَ وَالأَسِيْرَ المَقْهُورِ وَذَا المالِ القَلِيْلِ والعِيَالِ الكَثِيْرِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ فِي أَقَاصِيْ البِلَادِ وَأَطْرَافِ الأَرْضِ فَعَلِمْتُ أَنَّ اللهَ سَائِلِيْ عَنْهُمْ وَأَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَجِيْجِيْ فِيْهِم فَخِفْتُ أَنْ لا يَقْبَلَ اللهُ مِنِّيْ مَعْذِرَتِيْ فِيْهِم وَلَا تَقُوْمُ لِيْ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلَّم حُجَّةٌ فَرَحِمْتُ وَاللّهِ يَا فَاطِمَةُ نَفْسِي رَحْمَةً دَمَعَتْ لَهَا عَيْنِي وَوَجِعَ لَهَا قَلْبِيْ فَأَنَا كُلَّما ازْدَدْتُ لَهَا ذِكْراً ازْدَدْتُ مِنْهَا خَوْفاً فَاتَّعِظِيْ إِنْ شِئْتِ أَوْ ذَرِي .

وَكَانَ النَّاسُ فِي زَمَنِهِ كَلَامُهُمْ وَبَحْثُهُمْ فِي الأَعْتِنَاءِ بِكِتَابِ اللّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَسِيْرَةِ الرَّسُولِ وَالصَّحَابَةِ وَالزُّهْدِ وَالوَرَعِ وَالبَحْثِ عَن الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِيْنِ وَالأَرَامِلِ وَالأَيْتَامِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوْفِ وَالنَّهِي عَنِ المُنْكَرِ وَنَحْوَ ذَلِكَ وَهَكَذَا النَّاسُ فِي كُلِّ عَصْرٍ تَبَعُ مُلُوكِهِمْ وَقَادَتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ غَالِبَاً .

وَكَانَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ حُبُّ العَدَالَةِ وَالأنْصَافِ رَكِيْزَةٌ في نَفْسِهِ وَمِنْ لُطْفِ اللّهِ بِهِ أَنْ وَهَبَ لَهُ ابْنَهُ عَبْدُ المَلِكِ وَكَانَ أُعْجُوْبَةَ التاريخ، كانَ نَاشِئاً لَمْ يُجَاوِزْ عِشْرِيْنَ عَاماً ، وَلكِنَهُ مِنْ تَوْفِيْقِ اللهِ لَهُ أَنَّهُ مُنْذُ صِغَرِهِ قَوِيُّ الأيْمَانِ وَرِعَاً زَاهِداً ، يَقْتَحِمُ عَلَى أَبِيْهِ في مَجْلِسِهِ وَنَادِيْهِ وَمَخْدَعِ نَوْمِهِ وَقَيْلُوْلَتِهِ يَحُثُّهُ وَيَعِظُهُ وَيَذكرُهُ بالله ويوقظه وينهيهِ الا يؤخر مظلمةً للناس مخافة أن يَحُمَّ الأجَلُ فَتَسُوءُ المَغَبَّةُ وَتَلْتَهِبُ عَلَى أَبِيْهِ النَّارُ .

وَكَانَ كُلَّمَا دَخَلَ عُمَرُ في الأُمُوْرِ على هيِّنَةٍ اقْتَحَمَهَا عَبْدُ المَلِكِ قَوِيّاً مُسْتَعْجِلاً وَقَدْ أَثَّر عَلَى أَبِيْهِ وَزَادَ في وَرَعِهِ وَتَنْجِيْزِهِ لِلأُمُوْرِ وَدَخلَ عَبْدُ المَلِكِ يَوْماً عَلَى أَبِيْهِ وَكَانَ عِنْدَهُ عَمُّهُ مَسْلَمَةُ فَطَلَبَ إِلَى أَبِيْهِ أَنْ يُخْلِيْهِ بِهِ فَقَالَ أسِرٌّ دُوْنَ عَمِّكَ قَالَ نَعَمْ فَقَامَ مَسْلَمَةُ وَجَلَسَ عَبْدُ المَلِكِ بَيْنَ يَدَيْ أَبِيْهِ فَقَالَ لَهُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ مَا أَنْتَ قَائِلٌ لِرَبِّكَ غَداً إِذَا سَأَلَكَ فَقَالَ رَأَيْتَ بِدْعَةً لَمْ تُمِتْهَا أَوْ سُنَّةً لَمْ تُحْيِهَا فَقَالَ عُمَرُ يَا بُنَيَّ أَشَيءٌ حَمَلَكَ أَمْ رَأْيٌ رَأَيْتَهُ قَالَ لاَ واللهِ وَلَكِنْ رَأْيٌ رَأَيْتُهُ مِنْ نَفْسِيْ عَرَفْتُ أَنَّكَ مسؤُلٌ فَمَا أَنْتَ قَائِلٌ .

قَالَ أَبُوهُ يَرْحَمُكَ اللّهُ يَا بُنَيّ وَيجْزِيْكَ مِنْ وَلَدٍ خَيْرَاً فَوَاللهِ إِنِّيْ لأَرْجُوْ أَنْ تكونَ مِنَ الأعْوَانِ عَلَى الخَيْرِ يَا بُنَيَّ إِنَّ قَوْمَكَ شَدُّوا هَذَا الأمْرَ عُقْدَةً وَعُرْوَةً عُرْوَةً وَمَتَى مَا أُرِيْدَ مُكَابَرَتَهُم عَلَى انْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِيْهِمْ لَمْ آمَنْ أَنْ يَفْتِقُوا عَلَيَّ فَتْقَاً تَكْثُرُ فِيْهِ الدِّمَاءُ وَاللهِ لزَوَالُ الدنيا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ أنْ يُهْرَاقَ فِي سَبَبِي مِحْجَمَةٌ مِنْ دَمْ أَوَ مَا تَرْضَى أَلاَّ يَأْتِي عَلَى أَبِيْكَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا إلاّ وَهُوَ يُمِيْتُ فِيهِ بِدْعَةً وَيُحْيِي فِيْهِ سُنَّةً حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِيْنَ .

وَلَمْ يَزَلْ عَبْدُ المَلِكِ بِأَبِيْهِ حتى صَارَ لَا يُبْرِمُ أَمْراً فِي الْمَظَالِمِ دُوْنَ رَأْيِهْ قَالَ مَيْمُوْنُ بْنُ مَهْرَانْ بَعَثَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ وإِلى مَكْحُوْل وَإِلَى أَبِي قِلَابَةَ فَقَالَ مَا تَرَوْنَ فِي هَذِهِ الأَمْوَالِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنَ النَّاسِ ظُلْماً فَقَالَ مَكْحُوْل يَوْمَئِذٍ قَوْلًا ضَعِيْفاً كَرِهَهُ عُمَرُ فَالَ أَرَىٰ أَنْ تُسْتَأْنَفَ فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَيَّ كَالْمُسْتَغِيْثِ بِي فَقُلْتُ يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ إِبْعَثْ إِلى إِبْنِكَ عَبْدِ المَلِكِ فَأَحْضِرْهُ فإِنَّهُ لَيْسَ بِدُوْنِ مَنْ رَأَيْت .

وَكَانَ عَبْدُ المَلِكِ قَدْ تَفَقَّهَ وَدَرَسَ حَتَّى صَارَ فِي الصَّفِ الأَوَّلِ مِنْ فُقَهَاءِ الشَّامْ ثُمَّ زَهِدَ قَالَ مَيْمُوْن فَقَالَ عُمَرُ يَا حَارِثُ ادْعُ لِيْ عَبْدُ الْمَلِكِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ يَا عَبْدَ الْمَلِكِ مَا تَرى فِي هَذِهِ الأَمْوَالِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنَ النَّاسِ ظُلْماً وَقَدْ حَضَرُوا يَطْلُبُوْنَهَا وَقَدْ عَرَفْنَا مَوَاضِعَهَا قَالَ أَرَى أَنْ تَرُدَّهَا فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ كُنْتَ شَرِيْكاً لِمَنْ أَخَذَهَا .

تَسْمَعُ حِكَايَاتٍ يَطِيْبُ سَمَاعُهَا
وَيَحْلُو كَطَعْمِ الشَّهْدِ فِي ثَغْرِ ذَائِقِ
فَكَمْ مِنْ شَوَاجٍ لِلْقُلُوْبِ رَقَائِقِ
وَكَمْ مِنْ مَعَانٍ لِلْعُلُومِ حَقَائِقِ

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعِزيْزِ لَمَّا كَانَ فِي يَوْمِهِ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ قَالَ أَجْلِسُوْنِي فَأَجْلَسُوْهُ فَقَال أَنَا الَّذِي أَمَرْتَنِي فَقصَّرْتُ وَنَهَيْتَنِي فَعَصَيْتُ وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وأَحَدَّ النَّظَرَ فَقَالُوا إِنَّكَ لَتَنْظُرُ نَظَراً شَدِيْدَاً يَا أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ فَقَال إِنِّي لأَرَى حَضَرَةً مَا هُمْ بِإِنْسٍ وَلَا جِنٍ ثُمَّ قُبِضَ .

وَقَالَ مَسْلَمَة بْنُ عَبْد الْمَلِكَ لَمَّا احْتُضِرَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ كُنَّا عِنْدَهُ

فِي قُبَّةٍ فَأومَأ إلَيْنا أنْ أخْرُجُوْا فَخرَجْنَا حَوْلَ القُبَّة وَبَقِي عِنْدَهُ وَصِيْفٌ فَسَمِعْنَاهُ يقْرَأ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلّذِيْنَ لا يَرِيْدُوْنَ عُلُواً في الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِيْنَ ﴾ ما أنتُمْ بِإنْسٍ وَلاَ جِن ثُمَّ خَرَجَ الْوَصِيْفُ فأومَأ إلَيْنا أنِ ادْخُلُوا فإذَا هُوَ قَدْ قُبِض .

« مَوْعِظَة »

عِبَادَ اللَّهِ ، إقْتَرَبَتِ السَّاعَة وَقَرُبَ التَّحَوُّلُ والمَسِيْرُ ، وَأَزِفَتِ الآزِفَةُ وَلَيْسَ هُناكَ حَمِيْمٌ وَلاَ نَصِيْرٌ وَكُتِبَتِ الصَّحِيْفَةُ فَلاَ نِسْيَانَ لِقَلَيْلٍ وَلاَ كَثِيرٍ (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ في السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إلاَّ في كِتَاب مُبِيْن» .

تَاللّهِ لَقَدْ غَرَّتِ ألآمَانِي أَكْثَر خَلْقِ اللَّهِ فَتَركُوا سَبِيْلَ الْهُدَى وأعْرَضُوا عَنْ دَارِ التَّهَانِي والْقَرَارِ فَوقَعُوا في شَرَكِ الرَّدَىٰ وَتَمادَوْا على التَّوَانِي وَظَنُّوْا أَنْ يُتْرَكُوا سُدَىٰ وَنَسُوا قَوْلَهُ تَعالَى ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إنّ كَيْدِي مَتِيْن ﴾ وَقَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ ذَرْهُمْ يأْكُلوْا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُوْنَ ﴾ وَقَوْلَه ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدّهم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَّ يَشْعُرُوْنَ ﴾ .

عِبَادَ اللَّهِ كَيْفَ حَالُكُمْ إذَا قُمْتُمْ مِنَ الْقُبُورِ حَيارَىٰ حُفَاةً عُراةً غُرْلاَ ، وَقَدْ عَظُمَتِ الأَهْوَالُ « وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارىٰ » وَلَزِمَتِ الصُّحُفُ الأَعْنَاق ثُمَّ رُدُّوا إلى اللَّهِ مَوْلاَهُمْ الْحَق ألاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أسْرَعُ الْحَاسِبِيْنَ .

كَيْفَ أَنْتُمْ إذَا ، سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْجَبَّارَ ﴿ لاَ تَخْتَصِمُوْا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إلَيْكُمْ بِالوَعِيْد﴾ ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّم هَل امْتلأْتِ وَتَقُوْلُ هَلْ مِن مَزِيْد ﴾

وَقَوْلِهْ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ أعْهَد إلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أنْ لاّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَان إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌ مُبِيْن ﴾ .

فَعْنْدَ ذَلِكَ يُؤْخَذُ المُجْرِمُونَ بالنَّواصِي والاقْدَام ، ، وَيُطْرَحُ في الجَحِيْمِ مَنْ كَانَ لَهُ عَلى المَعَاصِي جَرَاءَةٌ وإقْدَام .

وَيَمْرَحُ بالنَّعِيْم مَنْ قَدَّمَ الخَيْرَاتِ لِدَارِ السَّلاَمِ وَعَمِلَ بِالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَيَحْظَى بِجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأرْض فاتَّقُوا اللّه عِبَادَ الله واسْلُكُوا طَرِيْقَ الشّرعِ القَوِيْمِ الذي لاَ اعْوِجَاجَ فِيهْ وَقُوْمُوا بأوَامِرِ المنَّانِ وَلاَ تَتبِعُوا خُطُوَاتِ الشّيْطَان .

وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا مِمَّنْ غَرَّتْهُم الحَيَاة الدُّنْيَا بِزَخَارِفِهَا الـزَّائِلة وَزِيْنَتِهَا العَاطِلَة وَأُولَئِكَ هُمْ الّذِيْنَ تَنْقُص الأَيَّامُ واللَّيَالِي آجَالَهُمْ وَهُمْ لاَهُونَ وَتَجْرِي بِهِم الأعْوَامُ إلى مَرَاقِدِ قُبُورِهِمْ وَهُمْ نَائِمُون وَتَتَخَطَّفَهُمْ المَنَايَا وَهُمْ لاَعِبُون وَتُنَادِيْهُم العِبَرُ وَالمواعِظُ وَهُمْ لاَ يَسْمَعُون وَلاَ يُبْصِرُون وَيَرَوْنَ مَا وَقَعَ بالأمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا نَزَلَ بـآبَائِهِمْ وَلَكِنْ لاَ يَفْقَهُـوْنَ واللّهُ سُبْحَانهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَآلِهِمْ وَمَا إلَيْهِ صَائِرُون ، إذا هُمْ وَصَلُوا إلى الغَايَة المَفْهُومَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّها الإنْسَانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحَاً فَمُلاقِيْه ﴾ .

شِـعْراً :

يَـا غَـافِـلاً عَـمَّـا خُلِقْـتَ لَـهُ انْتَبِـهْ
جَـدَّ الـرَّحِـيْـلُ وَلَسْـتَ بِـالْـيَـقْـضَـانِ

سَـارَ الـرِّفَـاقُ وَخَـلَّفُـوكَ مَـعَ الأُوْلَـى
قَـنِعُـوا بِـذَا الـحَظِّ الخَـسِيْسِ الـفَـانِ
وَرَأَيْـتَ أَكْـثَـرَ مَـنْ تَـرَى مُـتَـخَـلِّفَـاً
فَـتَـبِـعْـتَـهُـمْ وَرَضِـيْـتَ بـالـحِـرْمَـانِ
لَـكِـنْ أَتَـيْـتَ بِـخُـطَّتَيْ عَـجْـزٍ وَجَـهْـ
ـلٍ بَـعْـدَ ذَا وَصَـحِـبْـتَ كُـلَّ أَمَـانِ
مَنَّتْـكَ نَفْسُـكَ بِـاللَّـحَاقِ مَـعَ القُعُـو
دِ عَـنِ الـمَـسِـيْـرِ وَرَاحَـةِ الأَبْـدَانِ
وَلَـسَـوْفَ تَعْـلَمُ حِيْـنَ يَنْكَشِفُ الغِـطَا
مَـاذا صَـنَـعْـتَ وَكُـنْـتَ ذَا امْـكَـانِ

اللَّهُم نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الإِيْمَانْ وَثَبِّتْنَا عَلَى قَوْلِكَ الثَّابِت ، في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَة ، وَيَسِّرْنا لِلْيُسْرَىٰ وَجَنِّبْنَا العُسْرَىٰ ، واجْعَلْنا هُداةً مُهْتَدِيْن واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـــلٌ)

وَوَقَفَ مُعَاوِيَة رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَوْماً عَلَى مِنْبَرِهِ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ العَطَايَا المالية عَنْ أَفْرَادِ المُسْلِمِيْنَ فَقَالَ اسْمَعُوْا وَأَطِيْعُوْا فَقَامَ إليه أَبُو مُسْلِمُ الخَوْلاَنِي فَقَالَ لاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ يَا مُعَاوِيَةُ قَالَ مُعَاوِيَة وَلِمَ يَا أَبَا مُسْلِم فَقَالَ يَا مُعَاوِيَةُ كَيْفَ تَمْنَعُ العَطَا وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّكَ وَلاَ كَدِّ أَبِيْكَ وَلاَ مِنْ كَدِّ أُمِّكَ .

فَغَضِبَ مُعَاوِيَةُ وَنَزَلَ عَنِ المنْبَرِ وَقَالَ لِلْحَاضِرِيْنَ مَكَانَكُمْ وَغَابَ سَاعَةً عَنْ أَعْيُنِهِمْ ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ وَقَدْ اغْتَسَلَ فَقَال إِنَّ أَبَا مُسْلِمْ كَلَّمَنِي بِكَلام أَغْضَبَنِي وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولَ « الغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَان وَالشَّيْطَانُ خُلِقَ مِنَ النَّار وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بالمَاء فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ » وَإِنِّي دَخَلْتُ فَاغْتَسَلْتُ وَصَدَقَ أَبُو مُسْلِم إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّي وَلاَ مِنْ كَدِ أَبِي فَهلمُّوا إِلَى عَطَائِكُم .

وبالتّالِي فَإِلَيْكَ صِفَةُ الإمام العَادِل : كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا وَلِيَ الخِلاَفَةَ إِلَى الحَسَنِ البَصْرِي لِيُخْبِرَهُ عَنْ صِفَةِ الإِمَامِ العَادِلَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ الحَسَنَ إِعْلَمْ يَا أَمِيْرَ المؤمِنِيْن أَنَّ اللّهَ جَعَلَ الإِمَامَ العَادِلَ قِوّامَ كُلِّ مَائِل وَقَصْدَ كلِّ جَائِرٍ وَصَلاَحَ كُلِّ فَاسِد وَقُوَّةَ كُلِّ ضَعِيْف وَنَصَفَةَ كُلِّ مَظْلُوم وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوف وَالإِمَامُ العَادِلَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ كَالرَّاعِي الشَّفِيقِ عَلى إِبلِهِ الرَّفِيْقِ بِهَا الَّذِيْ يَرْتَادُ لَهَا أَطْيَبَ المَرْعَى وَيَذُودُهَا عَنْ مَرَاتِعِ الهَلَكَةِ وَيَحْمِيْهَا عَنِ السِّبَاعِ وَيُكِنُّها عَنْ أَذَى الحَرِّ والقَر .

والإِمَامُ العَادِل كَالأَبِ الحانِي عَلَى وَلَدِهِ يَسْعَى لَهُمْ صِغَاراً وَيُعَلِّمُهُمْ كِبَاراً يَكْتَسِبُ لَهُمْ في حَيَاتِه وَيَدّخِرُ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِه .

والإِمَامُ العَادِلُ كَالأُمِّ الشَّفِيْقَةُ البَرَّةِ الرَّفِيْقَةِ بِوَلَدِهَا حَمَلَتْهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَرَبّتْهُ طِفْلاً تَسْهَرُ بِسَهَرِهِ وَتَسْكُنُ بِسُكُونِهِ تُرْضِعُهُ تَارَةً وَتَفْطِمُهُ أُخْرَى وَتَفْرَحُ بِعَافِيَتِهِ وَتَغْتَمُّ بِشِكَايَتِه .

وَالإِمَامُ العَادِلَ وَصِيُّ اليَتَامَى وَخَازِنُ المَسَاكِيْنِ يُرَبِّي صَغِيْرَهُمْ وَيَمُونُ

كَبِيْرَهُمْ والإِمَامُ العَادِلُ كَالْقَلْبِ بَيْنَ الجَوارِح تَصْلُحُ الجَوَارِحُ بِصَلَاحِه وَتَفْسُد بِفَسَادِه والإِمَامُ العَادِلُ هُوَ القَائِمُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِه يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ ويُسْمِعَهُمْ وَيَنْظُر إلى اللَّهِ وَيُرِيْهِمْ وَيَنْقَادُ إلى اللَّهِ وَيَقُودُهُمْ فَلَا تَكُنْ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ فِيْمَا مَلَّكَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَل كَعَبْدٍ إئْتَمَنَهُ سَيِّدُهُ وَاسْتَحْفَظَهُ مَالَهُ وَعِيَالَهُ فَبَدَّدَ المَالَ وَشَرَّدَ العِيَالَ فَأَفْقَرَ أَهْلَهُ وَفَرَّقَ مَاله .

وَأَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الحُدُوْدَ لِيَزْجُرَ بِهَا عَنَ الخَبَائِث وَالفَوَاحِش فَكَيْفَ إِذَا أَتَاهَا مَنْ يَلِيْهَا وَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ القِصَاصَ حَيَاةً لِعِبَادِه فَكَيْفَ إِذَا قَتَلَهُمْ مَنْ يَقْتَصُّ لَهُمْ وَاذْكُر المَوْتَ وَمَا بَعْدَه وَقِلّةَ أَشْيَاعِكَ عِنْدَه وَأَنْصَارِكَ عَلَيْهِ فَتَزَوّدْ لَهُ وَلِمَا بَعْدَهُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبر .

وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ مَنْزِلاً غَيْرَ مَنْزِلِكَ الَّذي أَنْتَ فِيْهِ يَطُولُ فِيْهِ ثَوَاؤُكَ وَيُفَارِقُكَ أَحِبَّاؤُك يُسْلِمُوْنَكَ في قَعْرِهِ وَحِيْداً فَرِيْدَاً فَتَزَوَّدْ لَهُ مَا يَصْحَبُكَ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيْهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيْهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْهِ وَاذْكُرْ اذا بُعْثِرَ مَا في القُبُور وَحُصِّلَ مَا في الصُّدُور فالأَسْرَارُ ظَاهِرَة والكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيْرَةً وَلَا كَبِيرةً إِلَّا أَحْصَاهَا .

فالآنَ وَأَنْتَ في مَهلٍ قَبْلَ حُلُولِ الأَجَل وانْقِطَاعِ الأَمَل لَا تَحْكُمُ في عِبَادِ اللّهِ بِحُكْم الجَاهِلِيْن وَلَا تَسْلُكْ بِهِمْ سَبِيْلَ الظَّالِمِيْنَ وَلَا تُسَلّطْ المُسْتَكْبِرِيْنَ عَلى المُسْتَضْعِفِيْنَ فَإِنَهُمْ لَا يَرْقُبُونَ في مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً فَتَبُوءَ بِأَوْزَارِكَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكَ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِك .

وَلَا يَغُرَّنَّكَ الّذِيْنَ يَتَنَعَّمُونَ في بُؤْسِك وَيأْكُلُونَ الطَّيِّبَاتِ في دُنْيَاهُمْ بِإِذْهَابِ طَيِّبَاتِكَ في آخِرَتِكَ وَلَا تَنْظُرْ إِلى قُدْرَتِكَ اليَوْمَ وَلَكِنْ انْظُرْ إِلى

قُدْرَتِكَ غداً وَأَنْتَ مَأْسُورٌ في حَبَائِلِ المَوْتِ وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يدي اللَّهِ في مَجْمَعٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ والمُرْسَلِيْنَ وَقَدْ عَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومْ .

شِـعْرَاً :

سَـلِ المَنَـايَـا عَـلى عِلْمٍ وَتَـجْـرُبَـةٍ
في أي شَيءٍ بَغَى الإِنْسَـانُ أَوْ حَسَـدَا
تَنَافَسَ النَّاسُ في الـدُّنْيَا وَقَـدْ عَلِمُـوْا
أَنْ سَـوْفَ تَـقْـتُـلَهُـم لَـذَّاتُـهَـا بُـدَدَا
تَـبَـادَرُوهَـا وَقَـدْ آذَتْـهُـم فَـشَـلاً
وَكَـاثَـرُوهَـا وَقَـدْ أَفْـنَـتْـهُـمُ عَـدَدَا
قُـلْ لِـلْمُحَـدِّثِ عَنْ لُقْمَـانَ أَوْ لِبَـدٍ
لَمْ يَتْـرُكِ الـدَّهْـرُ لُقْمَـانـاً وَلاَ لِبَـدَا
« وَلَـمْ يُـغَـادِرْ عَـمَـارَاتٍ وَلاَ قُـلَلاً
وَلاَ قُصـوراً بِهَـا المَغْـرُورُ مُـسْتَنِـدَا »
« وَلاَ بَـسَـاتِيْـنَ فـي الأَشْـجَـارِ زَاهِـيَـةً
وَسَـاهِـرُ المَـاءِ في الأَنْـهَـارِ مُـطَّرِدَا »
« وَلاَ جَبَـانـاً يَخَـافُ المَـوْتَ ذَا قَلَقٍ
وَلاَ شُجَـاعـاً يَهْـزِمُ الْجَمْـعَ مُنْفَـرِدَا »
« وَلاَ كَـرِيْـمـاً تُبِيْـدُ المَـالُ رَاحَـتُـهُ
وَلاَ بَـخِيْـلاً إِذَا اسْـتَـمْـنَـحْـتَـهُ شَـرَدَا »

واللَّهُ أَعْلَمْ وَصَلَّى اللَّهُ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّم .

(فَصْــلٌ)

فِي مَآلِ الإِنْسَانِ وَمَصِيْرِهِ

قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ : بَيْنَمَا الإِنْسَانُ في صِحَّتِهِ مُتَمَتِّعاً فَرِحاً بِقُوَّتِهِ وَشَبَابِهِ لَا يَخْطُرُ لَهُ الضَّعْفُ عَلى قَلْبٍ وَلَا المَوْتُ عَلَى بَال إِذْ هَجَم عَلَيْهِ المَرَضُ وَجَاءَ الضَّعْفُ بَعْدَ القُوَّةِ وَحَلَّ الهَمُّ مِنْ نَفْسِهِ مَحَلَّ الفَرَح والكَدَرُ مَكَانَ الصَّفَاءِ وَلَمْ يَعُدْ يُؤَنِّسُه جَلِيْسٌ وَلَا يُرِيْحَهُ حَدِيْثٌ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللَّهِ العَلِي العَظِيْم قَدْ سَئِمَ وَمَلَّ مِمَّا كَانَ يَرْغَبُهُ في أَيَّام صِحَّتِهِ وَصَارَ لَا يَشْتَهِي الغِذَا وَيَكْرَهُ تَنَاوُلَ الدَّوَاءِ عَلَى بَقَاءٍ في لُبِّهِ وَصِحَّتُهُ في عَقْلِهِ يُفَكِّرُ في عُمُر أَفْنَاهُ وَشَبَابٍ أَضَاعَهُ في الفُسُوقَ والعِصْيَان وَعِنْدَ المَلَاهِي والمُنْكَرات .

وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالًا جَمَعَهَا وَدُوْراً بَنَاهَا وَقُصُوراً شَيَّدَهَا وَضِيَاعاً جَدَّ وَكَدَّ فِي حِيَازَتِهَا وَيَتَأَلَّمُ لِدُنْيَا فَارَقَهَا وَيَتْرُكُ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً يَخَافُ عَلَيْهِمْ الضَّيَاعَ مِنْ بَعْدِهِ مَعَ اشْتِغَالِ نَفْسِهِ بِمَرَضِهِ وَآلَامِهِ وَتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِمَا يُعَجِّلُ شِفَاءَهُ وَلَكِنْ مَا الحِيْلَةُ إِذَا اسْتَفْحَلَ الدَّاءُ وَلَمْ يُفِدِ الدَّوَاءُ وَحَارَ الطَّبِيْبُ وَيَئِسَ الحَبِيْبُ « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيْد » .

عِنْدَ هَذَا يَسْتَشْعِرُ النَّدَم عَلَى مَا مَضَى وَيُحِسُّ بِعَوَاقِبِ التَّفْرِيْطِ والإِهْمَال وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنَهُ وَغَارَتْ عَيْنَاهُ وَمَالَ عُنُقُهُ وَأَنْفُهُ وَذَهَبَ حُسْنُهُ وَجَمَالُه وَخَرِسَ لِسَانُه وَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ وَأَصْدِقَائِه يَنْظُر وَلَا يَفْعَلُ وَيَسْمَعُ ولَا يَنْطُق يُقَلِّبُ بَصَرَهُ فِيمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ وَإِخْوَتِهِ وَأَقَارِبِهِ وَأَحْبَابِهِ وَجِيْرَانِهِ يَنْظُرُوْنَ مَا يُقَاسِيْهِ من كَرْبٍ وَشِدَّةٍ وَلَكِنَّهُمْ عَنْ انْقَاذِهِ أَوْ تَخْفِيْفِ كَرْبِهِ عَاجِزُون .

شِعْراً :

أَحَاطَتْ بِهِ أَحْزَانُهُ وَهُمُومُهُ
وَأَبْلَسَ لَمَّا أَعْجَزَتْهُ المَقَادِرُ
فَلَيْسَ لَهُ مِنْ كُرْبَةِ المَوْتِ فَارِجٌ
وَلَيْسَ لَهُ مِمَّا يُحَاذِرُ نَاصِرُ
وَقَدْ جَشَّأَتْ خَوْفَ المنِيَّةِ نَفْسُهُ
تُرَدِّدُهَا مِنْهُ اللَّهَا وَالحَنَاجِرُ
فَكَمْ مُوجَعٌ يَبْكِي عَلَيْهِ مُفْجَعٌ
وَمُسْتَنْجِدٌ صَبْراً وَمَا هُوَ صَابِرُ
وَمُسْتَرْجِعٍ دَاعٍ لَهُ اللَّهَ مُخْلِصاً
يُعَدِّدُ مِنْهُ كُلَّ مَا هُو ذَاكِرُ
وَكَمْ شَامِتٍ مُسْتَبْشِرٍ بِوَفَاتِهِ
وَعَمَّا قَلِيلٍ لِلَّذِي صَارَ صَائِرُ
وَحَلَّ أَحَبُّ القَوْمِ كَانَ بِقُرْبِهِ
يَحُثُّ عَلَى تَجْهِيْزِهِ وَيُبَادِرُ
وَشَمَّرَ مَنْ قَدْ أَحْضَرُوهُ لِغَسْلِهِ
وَوُجِّهَ لَمّا فَاضَ لِلْقَبْرِ حَافِرُ
وَكُفِّنَ في ثَوْبَيْنِ وَاجْتَمَعُوا لَهُ
مُشَيِّعُهُ إِخْوَانُهُ وَالعَشَائِرُ
فَلَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ أَوْلَادَهُ الّذِي
عَلى فقْدِهِ مِنْهُمْ قُلُوبٌ تَفَطَّرُ

لَعَـايَنْتَ مِنْ قُبْحِ المنِيَّـةِ مَنْـظَراً
يُـهَـالُ لِمَـرْآهُ وَيَـرْتَـاعُ نَـاظِـرُ
أَكَـابِـرُ أَوْلَادٍ يَـهِيْـجُ اكْتِئَـآبُـهُـمْ
إِذَا مَـا تَنَاسَـوْهُ البَنُـوْنَ الْأَصَـاغِـرُ
وَرَبَّـةُ نِـسْـوَانٍ عَـلَيْـهِ جَـوَازِعٌ
مَـدَامِعُهُمْ فَـوْقَ الخُـدُودِ غَـوَازِرُ
ثَـوَى مُـفْـرَدَاً فِي لَحْـدِهِ وَتَـوَزَّعَتْ
مَـوَارِيْـثَـهُ أَوْلَادُهُ وَالْأَصَـاهِـرُ
وَأَحْنَـوا إِلَى أَمْـوَالِـهِ يَقْسِمُـوْنَهَـا
فَـلَا حَـامِـدٌ مِنْهُمْ عَلَيْهَـا وَشَـاكِـرُ
فَيَـا عَامِـرَ الـدُّنْيـا وَيَـا سَـاعِيَـاً لَهَـا
وَيَـا آمِنـاً مِمَّـا تَـدُوْرُ الـدَّوَائِـرُ
سَتَلْقَىٰ الَّذِيْ لَاقَى عَلَى الرّغْمِ آنِفاً
فَخُـذْ أُهْبَةً وَاحْـرِصْ فَمَا لَـكَ عَاذِرُ

وَبَعْدَ أَنْ كَانُوا يُحِبُّونَ حَيَاتَهُ وَبَقَاءَهُ صَارُوا يَتمَنّوْنَ مَوْتَهُ وَرَاحَته وَهْوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَمَّا قَلِيْلٍ مَأْخُوذٌ مِنْ بَيْنِهِمْ حَيْثُ لَا يَقْدِرُونَ على مَنْعِه وَلَا يَسْتَطِيْعُونَ رَدَّ رُوْحِهِ إلى بَدَنِه قالَ اللّهُ تَعالَىٰ ﴿فَلَوْلَا إذَا بَلَغتِ الْحُلْقوْمَ وَأَنْتُمْ حِيْنَئِذٍ تَنْظُرُوْن وَنَحْنُ أقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُون ۝ فَلَوْلَا إنْ كُنْتُم غير مدِيْنِينَ تَرْجِعُونَها إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾

ثُمَّ لَا يَزَالُ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَشَدَائِدَه وَيَشْتَدُّ بِهِ النَّزْعِ وَجَعَلَ يُتَابِعُ نَفَسَه وَاخْتَلَّ نَبْضُه وَتَعَطَّلَ سَمْعُهُ وَبَصَرُه كَمَا تَعطَّل قَبْلَ ذَلِكَ لِسَانُه

حَتَّى إِذَا جَاءَ الأَجَلَ وَنفَذَ الْقَضَاءُ وَفاضَتْ رُوْحُهُ إِلَى السَّماء صَارَ جُثَّةً هَامِدَةً وَجِيْفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ وَعَشِيْرَتِه قَد اسْتَوْحَشُوْا مِنْ جَانِبِهْ وَتَبَاعَدُوا وَمَاتَ اسْمُهُ الّذِيَ كَانُوا يَعْرِفُونَهُ كَمَا مَاتَ شَخْصُهُ الّذِي كَانُوا يَأْنَسُونَ بِه وأَصْبَحُوا يَقُولُونَ الْمَيّت بَعْدَ أَنْ كَانُوا يُنَادُونَهُ بِإسْمِهِ حَيًّا .

فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون ثُمَّ أَخَذَ الْغَاسِلُ فَجَرَّدَهُ مِنْ ثِيَابِه وَصَارَ يُقَلِّبُهُ عُرْيَاناً وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى سَوْأَتِهِ وَعَوْرَتِهِ وَقَدْ كَانَ يَسْتَحِي وَيَخْجَلُ مِنْهُ حَالَ حَيَاتِه . ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ كَمَا يُدْرَجُ الْمَتَاعُ فِي لِفَافِتِه وَبَعْدَ الصَّلاَةِ عَلَيْهِ يَحْمِلُونَهُ إلى حُفْرَةٍ عَمِيْقَةٍ ضَيّقَةٍ مُظْلِمَةٍ مُوْحِشَةٍ وَيَتْرُكُوْنَهُ وَحِيْداً لاَ أَنِيْسَ وَلا رَفِيْقَ إلاَّ عَمَلُه اِنْتَهَى وَوُجِدَ مَكْتُوباً عَلى قَبْرِه :

شِعْرَاَ :

فَأَمْسَوْا رَمِيْماً فِي التُّرَابِ وَعُطِّلَتْ
مَجَالِسُهُمْ مِنْهُمْ وأُخْلِيْ الْمَقَاصِرُ
وَحَلُّوا بِدَارٍ لاَ تَزَاوُرَ بَيْنَهُمْ
وَأَنَّى لِسُكَّانِ الْقُبُورِ التَّزَاوُرُ
فَمَا أَنْ تَرَىٰ إلاَّ قُبُوْراً ثَوَوْا بَهَا
مُسَطَّحَةً تَسْفِيْ عَلَيْهَا الأَعَاصِرُ
فَمَا صَرَفَتْ كَفَّ الْمَنِيَّةِ إِذْ أَتَتْ
مُبَادَرَةً تَهْوِي إِلَيْهَا الذَّخَائِرُ
وَلاَ دَفَعَتْ عَنْهُ الْحُصُونُ الّتِي بَنَى
وَحَفَّتْ بِهَا أَنْهَارُهُ والدَّسَاكِرُ

وَلاَ قَــارَعَتْ عَنْــهُ الْـمَنِيَّــةَ حِيْـلَةٌ
وَلاَ طَمِعَتْ فِي الذّبِّ عَنْهَا الْعَسَاكِرُ
أَتَــاهُ مِــنَ الـجَـبَّــارِ مَــالاَ يَــرُدُّهُ
وأَمْــرُ قَضَـاهُ اللّهُ لاَ بُــدَّ صَــائِـرُ
مَـلِيْــكٌ عَــزِيْــزٌ لاَ يُــرَدُّ قَضَــاؤُهُ
حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ نَــافِذُ الأَمــرِ قَــاهِــرُ
عَنَى كُــلُّ ذِي عِــزِّ لِعــزَّةِ وَجْهِــهِ
فَكَمْ مِنْ عَــزِيْـزٍ لِلْمُهَيْمِنِ صَــاغِـرُ
لَقَـدْ خَضَعَتْ واسْتَسْلَمَتْ وَتَضَـاءَلَتْ
لِعِـزَّةِ ذِي الْعَرْشِ الْمُلُوكُ الْجَبَـابِـرُ

وَقَفَ بَعْضُ السَّلَف عَلَى إِنْسَانٍ شَدِيْدِ الْحُزْنِ فَقَالَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ مَحْزُون قَال لأَنِّي أُصِبْتُ فِي نَفْسِي وَذَلِكَ أَنّي قَتَلْتُها بِالذّنُوب فَأنَا حَزِيْنٌ عَلَيْهَا ثُمَّ أَسْبَلَ دَمْعَهُ فَقَالَ لَهُ مَا يُبْكِيْكَ الآن قال ذَكَرْتُ يَوْماً مَضَى مِنْ أَجَلِي لَمْ يَحْسُنْ فِيْهِ عَمَلِي فَبُكَائِي لِقِلّةِ الزّادِ وَبُعْدِ الْمفَازَة وَعقَبَةٍ لا بُدّ لِيَ مِنْ صُعُودِها ثم لا أدْرِي أيْنَ يُهْبَطُ بِي إلى الْجَنّةِ أمْ إلى النّارِ ثمَّ أنْشَد :

يَــا رَاكِبـاً يَــطْوِي مَسَـافَــةَ عُمْــرِهِ
بِـاللّهِ هَــلْ تَــدْرِي مَكَــانَ نُــزُوْلِكَــا
شَمِّرْ وَقُمْ مِنْ قَبْلِ حَطِّكَ فِي الثَّرَى
فِي حُفْــرَةِ تَبْلَى بِــطُولِ حُــلُولِكَــا

ـ وَوُجِدَ مَكْتُوباً على قَبْرٍ ـ

ذَهَبَ الأَحِبَّـةُ بَعْدَ طُـولِ تَـزَاوُرٍ
وَنَـأى الْمَـزارُ وأسْلَمُـوكَ وَأَقْشَعُـوا
تَـرَكُـوكَ أَوْحَشَ مَـا تَكـونَ بِقَفْـرَةٍ
لَمْ يُؤْنِسُـوكَ وَكُـرْبَـةً مَـا نَفَّسُـوا
وَقَضَى الْقَضَاءُ وَصِرْتَ صَاحِبَ حُفْرَةٍ
عَنْكَ الأَحِبّـةُ أعْـرَضُـوا وَتَصَـدَّعُـوا

آخَرْ :

قِفْ بِـالْقُبُـورِ وَقُـلْ عَلَى سَـاحَتِهَـا
مَنْ مِنْكُمْ الْمَغْمُـورُ فِي ظُلُمَـاتِهَـا
وَمَنِ الْمُكَـرَّمُ مِنْكُمْ فـي قَعْـرِهَـا
قَـدْ ذَاقَ بَـرْدَ الأَمْنِ مِنْ رَوْعَـاتِهَا
لَـوْ جَـاوَبُـوكَ لأَخْبَـرُوكَ بِـأَلْسُنٍ
تَصِفُ الْحَقَـائِقَ بَعْـدُ مِنْ حَـالاَتِهـا
أَمَّـا الْمُـطِيْـعُ فَنَـازِلٌ في رَوْضَـةٍ
يُفْضِي إلىَ مَـا شَـاءَ مِنْ دَوْحَـاتِهـا
والْمُجْـرِمُ الـطَّاغِـي بِهـا مُتَقَلِّبٌ
فِي حُفْـرَةٍ يَـأْوِي إلـى حَيَّـاتِـهَـا
وَعَـقَـارِبُ تَسْـعَى إلَيْـهِ فَـرُوحُـهُ
فِي شِـدَّةِ التَّعْـذِيْبِ مِنْ لَـدَغَـاتِهَـا

آخَرْ :

إنَّ الْحَبِيْبَ مِنَ الأحْبَـابِ مُخْتَـلَسُ
لاَ يَمْنَـعُ الْمَوْتَ بَـوَّابٌ وَلاَ حَـرَسُ
فَكَيْفَ تَفْـرَحُ بـالـدّنْيـا وَلَـذّتِهـا
يَـا مَنْ يُعَـدُّ عَلَيْـهِ اللّفْظُ والنَّفَسُ
أَصْبَحْتَ يَا غَافِلاً في النّقْصِ مُنْغمِساً
وَأَنْتَ دَهْـرَكَ فِي الـلّذَّاتِ مُنْـغَمِسُ
لاَ يَـرْحَمُ الْمَوْتُ ذَا جَهْـلٍ لِغِـرّتِـهِ
وَلا الّـذِي كـانَ مِنْـهُ الْعِلْمُ يُقْتَبَسُ
كَمْ أَخْرَسَ الْمَوْتُ في قَبْرٍ وَقَفْتَ بِهِ
عَنِ الْجـوَابِ لِسَانـاً مَـا بِـهِ خَـرَسُ
قَـدْ كَانَ قَصْـرُكَ مَعْموراً لَـهُ شَـرَفٌ
فَقَبْـرُكَ الْيَومَ في الأَجْـدَاثِ مُنْدَرِسُ

هَذِهِ الأَبْيَاتُ كُتِبَتْ عَلى قُبُورٍ لِلاعْتِبَار فالبَصِيْرِ هُوَ الذَّيْ يَنْظُرُ إلى قَبْرِ غيْرِهِ فيَرَى مَكَانَه بَيْنَ أظْهُرِهِمْ فَيَسْتَعِدّ لِلَحُوقِ بِهم وَيَعْلَمُ أنّهُمْ لاَ يَبْرَحُونَ مِنْ مَكَانِهِمْ حَتّى يَلْحَق بِهِمْ وَلْيَتَحقّقْ أنّهُ لَوْ عُرِضَ عَلَيْهِمْ يَوْمٌ مِنْ أيّامِ عُمُرِهِ الّذِي هُوَ مَضيّعٌ لَهُ لكَانَ ذَلِكَ الْيومُ أَحبّ إِلَيْهِمْ مِنَ الدّنْيَا بِحَذَافِيْرِهَا لأَنّهُمْ عرَفُوا قَدْرَ الأَعْمَارِ وَالأَعْمَال وانْكَشفَتْ لَهُمْ حَقَائِقَ الأُمور وَإِنّمَا حَسْرَتُهُمْ عَلى يَوْمٍ مِنَ الْعُمُر لِيَتَدَارِكَ الْمُقصِّرُ بِهِ تَقْصِيْرَهَ فيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعِقَابِ ولْيَسْتَزِيْدَ الْمُوفَّقُ بِهِ رُتْبَةً فَيَتضَاعَفُ لَهُ الثّواب .

وَفِي الْحَدِيْث مَا مِنْ أَحد يَمُوْتُ إلاّ نَدِم : إنْ كَانَ مُحْسِناً نَدِمَ أنْ لاَّ يَكُوْنَ إزْدَادَ ، وَإنْ كَانَ مُسْيْئاً نَدِمَ أنْ لاَّ يَكُونَ نزَعَ ، فَإنَّهُمْ إنّما عَرَفُوا قَدْرَ الْعُمُرِ بَعْدَ إنْقِطَاعِهِ فَحَسْرَتُهُمْ عَلَى سَاعَةٍ مِنَ الحَيَاةِ وَأَنْتَ أَيُّهَا الْحَيُ قَادِرٌ عَلَى تِلْكَ السَّاعَةِ وَرُبَّمَا أقْدرَكَ اللَّهُ عَلَى أمْثَالِهَا .

ثُمَّ أَنْتَ مُضَيّع لِلْوَقْتِ وَقَاتِلٌ لَهُ فِيْمَا لاَ فَائِدَةَ فِيْهِ أوْ فِيْمَا فِيْهِ مَضَرَّةٌ عَلَيْكَ فَوَطِّنْ نَفْسَكَ عَلَى النّدَم والتّحسُّر والتَّلَهُّفِ على تضييْعِ الْوَقْتِ عِنْدَ خُرُوجِ الأَمْرِ مِن اخْتِيَارِكَ وَعَدَمِ تمَكُّنِك مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِح .

وَاذْكُرْ قَوْل اللّهِ جَلَّ وَعَلا ﴿ أَنْ تَقوْلَ نَفْسٌ يَا حَسْرتَا عَلَى مَا فَرّطتُ فِي جَنْبِ اللّهِ وَانْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِيْن ﴾ الآيات وَقَوْلَهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ وأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْل أنْ يَأتِيَ أحَدَكُم الْمَوْت فَيَقُولَ رَبّي لَوْلاَ أخْرَتَنِي إلَى أَجَلٍ قَرِيْبٍ فأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحْينَ ﴾ وقولَهُ تَعَالى ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْر وَهُمْ في غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمنون ﴾ وَقَوْله تَعَالَى ﴿ يَوْم تَبْلُو كُلّ نَفْسٍ مَّا أسْفَلت ﴾ الآيَة وَقَوْلُه ﴿ واتَّقَوا يَوْماً تُرجَعُونَ فِيْهِ إلى اللّه ثُمَّ تُوَفّى كُلُّ نَفْسٍ مّا كَسَبتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون ﴾ .

وَنَحْو هَذِهِ الآيَاتِ الّتِي هِيَ بِالْحَقِيْقَةِ لِمَنْ تَدَبَّرهَا أبْلَغُ مِنَ السّيَاطِ ، فِي الْحَثّ عَلَى التّزَوّدِ لِلْمَعادِ وَصِيَانَةِ الوَقْتِ وَصَرْفِهِ فِيْما يُقَرّبُ إلى اللّه جَلَّ وَعَلا .

وقال الشيخ سعدُ بنُ عتيق رحمه الله تعالى ناظماً المفاتيحَ التي ذكرها ابنُ القيم رحمه اللهُ تعالى في كتابِهِ حادِي الأرواح .

حَمِدتُ الذي يـوْلِي الجَمْيِلَ وَيُنْعِمُ
لَـهُ الفَضْلُ يُؤْتِي مَنْ يَشَاءُ وَيُكْـرِمُ
وأزْكَـى صَـلاةِ الـلهِ ثـم سَـلاَمُـهُ
عَـلى خَيْـرِ مَـخْلُوقٍ عـليـهِ يُسَـلَّمُ
مُحَمَّـدٍ الهـادِي وأصْحَـابِـهِ الأُولَى
بِحُسْنِ اجْتِـهَـادٍ عُلِّمُـوْا وتَـعَلَّمُـوْا
وَبعْـدُ فَقَـدْ عَنَّ الـوَفَـاءُ لِسَـائِلٍ
بـوَعْـدِيَ إِيَّـاهُ بـأَنِّـي أَنْـظِمُ
مَفَـاتِيْحَ كَـانَتْ لِلشُّرْورِ وضِـدِّهَا
فَقَـدْ فَـازَ مَن بـالْخَيْـرِ وَالشَّـرِ يَعْلَمُ
وَأَضْحَى بِمَا يَدْرِيْ مِن الحَقِّ عَامِلاً
فَكُنْ عَـامِلاً بـالعِلْمِ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ
وَقَـدْ جعَـلَ الْمَـولَى لَهُنَّ مَفَـاتِحَـاً
تُـنَـالُ بَهـا والـلهُ بـالـحق أعْـلَمُ
فَمِفْتَـاحُ شَـرْعِيّ الصَّـلاةِ طُهُـوْرُنَـا
وَيَفْتَـحُ حَجاً مُحْـرِمٌ حِيْنَ يُحْـرِمُ
وبـالصّـدْقِ فَتْـحُ البِرّ وَالعِلْمُ فَتْحُـهُ
بِـحُسْـنِ سُؤآلٍ عَـنْ فَتَـى يَـتَـعَلَّمُ
ومُسْتَحْسنِ الاصْغَـاءِ والنَّصْـرُ فَتْحُـهُ
مَعَ الظَّفَرِ الْمَحْمُودِ بالصَّبْرِ فـاعْلَمُوا
وَتَـوْحِيْـدُنَـا لِله مِفْتَـاحُ جَنَّـةِ النَّـ
نَعِيْمِ فبـالتَّـوْحِيـدِ دِيْنُـوا تَنَعَّمُـوا

وبـالـشُّكْرِ لِلنَّعْمَـاءِ فَتْـحُ زِيَـادَةٍ
وَيَحْصُـــلُ حُبٌّ والـوِلَايَـةُ تُغْنَمُ

بِمفْتَاحِهِ الـذِّكْرُ الشَّـرِيْفُ وَذُو التُّقى
يَنَـالُ بِتَقْـوَاهُ الـفَـلَاحَ وَيُكْـرَمُ

وَمِفْتَاحُ تَـوْفِيقِ الفَتَى صِـدقُ رَغْبَةٍ
وَرَهْبَتِـهِ ثُـمَّ الـدُّعَـاءُ الـمُكَـرَّمُ

لَـدَى اللهِ مِفْتَاحُ الاجـابَـةِ واعْلَمَنْ
بِـأَنَّ جَمِيْلَ الـزُّهْدِ لِلْعَبْـدِ مَغْنَمُ

وَيُفْتَـحُ لِـلْعَبْـدِ الـتَّجَلِي بِـرَغْبَـةٍ
بِـدَارِ البَقَـاء فـازْهَـدْ لَعَلَّكَ تَغْنَمُ

وَمِـفْتَـاحُ إِيْـمَـانِ العِبَـادِ تَفَكُّـرُ
بِمَـا كَـانَ رَبُّ العَـالَمِيْنَ دَعَـاهُم

إِلَـى نَـظَرٍ فِيْـهِ وَأَنْ يَتَـفَـكَّـرُوْا
بِـهِ وَدُخُـوْلُ العَبْـدِ ذَاكَ المُفَـخَّمُ

عَـلَى رَبِّـهِ مِفْـتَـاحُ ذَاكَ سَـلَامَـةٌ
وَإِسْـلَامُ قَلْبٍ لِـلإِلَـهِ فَـأَسْلِمُـوْا

وَمَـعَ ذَاكَ إِخـلاصٌ بِحُبٍّ وَبُغْضِـهِ
وفِـعْـلٍ وَتَـرْكٍ كُـلُ ذَلِـكَ يَـلْزَمُ

وَيُحْيِـي قُلُوْبَ الـعَـارِفِيْنَ تَضَـرُّعٌ
بِـأَوْقَـاتِ أَسْحَـارٍ فَكُنْ أَنْتَ مِنْهُمُ

كـذا الـوَحْيُ إِذْ يُتْلَى بِحُسْنِ تَـدَبُّرٍ
وَتَـرْكُ الـذُّنُـوبِ فَهِيَ لِلْقَلْبِ تُؤْلِمُ

وإحســانُ عَبْـدٍ فـي عِبَـادَةِ رَبِّـهِ
وَنَـفْـعُ العِبَـادِ والقِيَـامُ عَـلَيْـهِـمُ
لإِصْلَاحِهِمْ مِفْتاحُ تَحْصِيْلِ رَحْمَةِ الْـ
إلــهِ فَـلاَزِمْ ذَا لَـعَـلَّكَ تُـرْحَـمُ
وَمِفْتَـاحُ رِزْقِ العَبْدِ سَعْيٌ مَـعَ التُّقَى
وَكَثْـرَةُ الاسْتِغْفَـارِ إذْ هُـوَ مُجْـرِمُ
وَمِفْتَـاحُ عِـزِّ العَبْـدِ طَـاعَـةُ رَبِّـهِ
وَطَـاعَـةُ خَيْـرِ المُـرْسَلِيْنَ فَعَـظِّمُـوْا
وَمِفْتَـاحُ الاسْتِعْـدَادِ مِنْـكَ لِمَا لَـهُ
تَصِيْـرُ مِن الـدَّارِ الَّتِيْ هِيَ أَعْـظَمُ
هُـوَ القَصْـرُ لِـلآمَـالِ والْخَيْـرُ كُلُّهُ
فَمِفْتَـاحُـهُ رَغْبٌ مِن العَبْـدِ يُعْـلَمُ
بِمَـوْلاَهُ والـدَّارِ الَّتِـيْ بَعْـدَ هَـذِهِ
وَمِفْتَـاحُ كُـلِّ الشَّـرِّ إنْ كُنْتَ تَفْهَمُ
إطَـالَتُـكَ الآمـالَ فـاحْـذَرْ غُـرُوْرَهَا
وَحُـبُّـكَ لِلدُّنْيَـا التِـي تَـتَـصَـرَّمُ
وَمِفْتَـاحُ نَـارِ الخُلْدِ شِـرْكُ بِـرَبِّنَـا
وَكِبْـرُ الفَتَى فـالكِبْـرُ حُـوْبٌ مُـعَـظَّمُ
وإعْـرَاضُـه عَمَّـا عَنِ اللهِ قَـد أَتَى
بِهِ المُصْطَفَى الهَـادِي النبيُّ المُكَرَّمُ
وَغَـفْـلَتُـهُ عَـنْ ذِكْـرِهِ وَقِـيَـامِـهِ
بِحقٍ لِـذِي العَـرْشِ المَلِيْـكِ يُحَتَّمُ

وَمِفْتَــاحُ إِثْمٍ يُـوْبِقُ العَبْـدَ مُسْكِـرٌ
مِن الْخَمْـرِ فـاحْـذَرْهَـا لَعَلَّكَ تَسْلَمُ
وَمِفْتَاحُ ذِيْ المَقْتِ الزِنَا سَيِّءُ الغِنَا
وَذَلِـكَ قُـرْآنُ الـلَّعِيْـنِ وَمَـأْثَـمُ
وإطلاقُ طَرْفِ الشَّخْصِ مِفْتَاحُ عِشْقِهِ
لِمُسْتَحْسَنِ الأَشْبَـاحِ فَهُـوَ مُحَـرَّمُ
وبالكَسَل الْمَذْمُوْمِ مَعَ رَاحَـةِ الفَتَى
يخِيْبُ وَكُـلُّ الخَيْرِ لَا شَـكَّ يُحْـرَمُ
وَمِفْتَــاحُ كُـفْـرَانِ الْفَـتَى وَبَــرِيْـدُهُ
مَعَـاصِيْهِ والعَـاصِيْ قَـرِيْبـاً سَيَنْـدَمُ
وَبَــابُ نِفَــاقِ العَـبْـدِ يَفْـتَحُـهُ إِذَا
يَكُــونُ كَـذُوْبَــاً والكَـذُوْبُ مُـذَمَّمُ
وشُـحُّ الْفَتَى والحِرْصُ مِفْتَـاحُ بُخْلِهِ
وَمِفْتَاحُ أَخْذِ المَـالِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُ
بَــأَنْ لَيْسَ حِـلاً مَــعْ قَـطِيْعَــةِ رَحْمِــهِ
وَكُـلُّ ابْـتِـدَاعٍ فـي الْـخَـلِيْـقَـةِ يُـعْـلَمُ
فَمِفْتَـاحُـهُ الإِعْـرَاضُ عَمَّـا أَتَى بِــهِ
نَـبِيُّ الْـهُـدَى مِـنْ سُـنَّــةٍ نَـتَـعَـلَّمُ
واخْتِمُ قَـوْلِي فِي القَـرِيْضِ بِــأَنَّنِيْ
أُصَـلِّيْ عَلَى خَيْـرِ الْـوَرَى وَأُسَلِّمُ
وآلٍ مَـعَ الصَّحْبِ الْكِرَامِ الذين هم
لِـمُقْتَبِسٍ عِـلْمَ الشَّـرِيْعَـةِ أَنْجُمُ

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ اتَّقُوا الله تعالى واحْمَدُوْهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ وارْغَبُوْا إِلَيْهِ في حِرَاسَةِ النِّعَم عن الزَّوَالِ فإنَّ نِعَمَ اللهِ قَدْ عَمَّتِ الْبَوَادِيَ وَالأَمْصَارَ وإنَّ نِعَمَ اللهِ لَا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ولا تُحَدُّ بِمِقْدَارٍ .

قال تعالى ﴿ وإِنْ تَعُدُّوْا نِعمَةَ اللهِ لا تُحْصُوْهَا إِنَّ الإنسانَ لَظُلُومٌ كَفَّار ﴾ فكَمْ أَسْدَى مَعْرُوْفاً وكَمْ أَغَاثَ مَلْهُوْفاً فاشْكُرُوْا آلاءَ اللهِ وَأذْكُرُوْهُ كَثِيْرَاً قال تعالى ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوب ﴾ .

وهُبُّوْا مِنْ هَذِهِ الرَّقْدَةِ وَالمَقَامِ واحْذَرُوْا الأَهْوَاءَ فإِنَّهَا تُوْرِثُ المَهَالِكَ وَالمَذَامَّ ، والْزَمُوْا طَاعَةَ الْمَلِكِ العَلَّام ، واغْتَنِمُوْا بَقِيَّةَ العُمُرِ وَالأَيَّامِ ، وَبَادِرُوْا بالتَّوْبَةِ مِنَ الْمَعَاصِي والإِجْرَامِ ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَومٌ تَشَقَّقُ فِيْهِ السَّمَاءُ بالغَمَام وَتَظْهَرُ فِيه الخَفَايَا والدَّوَاهِي والأَهْوالُ الطَّوَام ، وتُنَكِّسُ فِيْهِ الظَّلَمَةُ رُؤُوْسَهَا وَيعْلُوهَا الذُّلُ مِن الرُؤُوْسِ إلى الأَقْدَمِ وَيَتجَلَّى لِفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ حَاكِمُ الحُكَّام .

قال تعالى ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيْءَ بالنَّبِيّيْنَ والشُّهَدَاءِ وَقُضْيَ بَيْنَهُمْ بالحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُون وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُون ﴾ ونُودِيَ أَيْنَ الظَّلَمةُ وَأَعْوَانُ الظَّلَمَةِ وَمَنْ كَانَ لَهُمْ على الْمَعَاصِي وُثُوبٌ وَإِقْدَامٌ فَيَالَهُ مِنْ يَوْمٍ مَا أَطْوَلَهُ وَمِن بَلاءٍ مَا أَهْوَلَهُ وَمِنْ حِسَابٍ مَا أَثْقَلَهُ وَمِنْ عَذَابٍ مَا أَعْضَلَهُ وَمِنْ جَزَاءٍ مَا أَجْزَلَهُ وَمِنْ حَاكِمٍ مَا أَعْدَلَهْ .

هُنَالِكَ شَابَ الْوَلِيْدُ وَحَقَّ الْوَعِيْدُ وَعَظُمَ الْهَوْلُ الشَّدِيْدُ قَالَ تَعَالَى

﴿ وجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيْدٌ ، لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِن هَذا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيْدٌ ﴾ وَخَضَعَتِ الرِّقَابُ وَذَلَّ كُلُّ فَاجِرٍ كَذَّابٍ وَرَجَعَ الأَشْقِيَاءُ بالخُسْرَانِ والتَّبَابِ فالسعيدُ مَن اسْتَعْمَلَ نَفْسَهُ في طَاعةِ الْمَلِكِ الْمَعْبُوْدِ وَخَافَ أَنْ لاَ يَنْجُو مِن النَّارِ بَعْدَ الْوُرُوْدِ .

فانْتَبِهْ أَيُّهَا العَبْدُ لِأَيَّامِ شَبَابِكَ قَبْلَ فِرَاقِ أَحْبَابِكَ وَأَحْفَظْ أَيَّامَ عُمرِكَ قَبْلَ حُلُولِ قَبْرِكَ واغْتَنِمْ حيَاتَكَ قَبْلَ أَوَانِ وَفَاتِكَ فإِنَّ العُمُرَ بالسِّنِيْنَ يُنْهَب والأَجَلَ بِمُرُوْرِ الليالِي والأيَّامِ يَذْهَب .

شِـعْرَاً :

مـا زُخْـرُفُ الـدُّنْيـا وَزُبْـرُجُ أَهْلِهَـا
إلَّا غُـرُوْرٌ كُـلُّهُ وَحُـطَامُ
وَلَـرُبَّ أَقْـوَامٍ مَـضَـوْا لِسَبِيْلِهِـمْ
وَلَـتَمْضِيَـنَّ كَـمَـا مَـضَـى الأَقْـوَامُ
وَلَـرُبَّ ذِيْ فُـرُشٍ مُـمَـهَّـدَةٍ لَـهُ
أَمْسَى عَـلَيْـهِ مِن الـتُّـرَابِ رُكَـامُ
والمَـوتُ يَعْمَـلُ والْعُيُـونُ قَـرِيْـرَةٌ
تَـلْهُـو وَتَـلْعَـبُ بالمُـنَـى وَتَـنَـامُ
كُـلٌ يَـدُوْرُ عَلَى الْبَقَـاءِ مُؤَمِّـلاً
وَعَـلى الـفَـنَـاءِ تُـدِيْـرُهُ الأَيَّـامُ
والـدَّائِمُ الْمُلْكُـوتِ رَبٌّ لَمْ يَـزَلْ
مَـلِكـاً تَـقَـطَّعُ دُوْنَـهُ الأَوْهَـامُ

فـالـحَمْـدُ لِـلّهِ الـذِيْ هُـوَ دَائـمٌ
أَبَـداً وَلَـيْسَ لِـمَـا سِـوَاهُ دَوَامُ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَنَوِّرْهَا بِنُورِ الإِيْمَان واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وَتَوَفَّنا مُسْلِمِيْنَ وَأَلْحِقْنا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْن واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

مَــوْعِظَــةٌ

عِبَادَ اللَّهْ قَدْ حَثَّنَا نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أَنْ نَكُونَ اخْوَاناً مُتَرَاحِمِيْنَ مُتَعَاوِنِيْنَ مُتَحَابِيْن مُتَعَاطِفِيْن يُحِبُّ كُلُّ مِنّا لأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه وَيَسْعَى في ذَلِك أَخْرَجَ الْبُخَارِي وَمُسْلِمُ في صَحِيْحِهمَا عَنْ أَبِي مُوْسَى الأَشْعَرِيُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللّه صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدّ بَعْضُه بَعْضَا وَشَبكَ بَيْنَ أَصَابِعِه .

وَأَخْرَجَ البُخَارِيُّ أَيْضَا في صَحِيْحِهِ عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا أَنّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَال الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِم لاَ يَظْلِمُه وَلاَ يُسْلِمُه وَمَنْ كَانَ في حَاجَةِ أَخِيْهِ كَانَ اللَّهُ في حَاجَتِهْ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

في الحديث الأَوّلِ ما يُفِيْدُ أَنَّ المُؤْمِنِيْنَ مِن شَأْنِهم التَّنَاصُرُ والتَّنَاصُحُ والتَّكَاتُفُ والتعاون على مَصَالِحِهِمْ العَامَةِ والخَاصَةِ وَأَنْ يَكُونُوا مُتَرَاحِمِيْنَ كُلُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُسَاعِدُ أَخَاهُ وَيُعَاوِنُهُ على ما يُصْلِحُ حَالَهُ وَيُصْلِحُ

حَالَ الجَمِيْعِ كَمَا في الحَدِيْثِ الآخرِ مَثَلُ المُؤْمِنِيْنَ في تَوادِّهِم وَتَراحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إذا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَداعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّىٰ والسَّهَرِ .

وَكَمَا وَصَفَهُم اللَّهُ جَلَّ وَعَلاَ ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللَّهِ والَّذِيْنَ مَعَهُ أَشِدَآءُ على الكفارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وفي الحديث الآخرِ « المُؤْمِنُ أَخُو المُؤْمِنِ يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَيَحُوْطُهُ مِن وَرَائِهِ » .

وَمِنْ مُقْتَضَى الأُخُوَّةِ في الدِيْنِ أَوِ النَّسَبِ أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَخَاهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَيَسْعَىٰ لِتَفْرِيْجِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ كَرْبٍ وَمَا حَلَّ بِهِ مِنْ ضَيْمٍ وَمَا انْتَابَهُ مِنْ هَمٍ وَغَمٍّ وَعُسْرٍ وَضِيْقٍ وَلَا يَسْعَىٰ لِهَتْكِ عِرْضِهِ وَنَشْرِ سِرِّهِ وَالتَّشْهِيْرِ بِهِ .

وَمَحَلُّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ مِنْ ذَوِيْ الهَيْئَآتِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ لَيْسَ مَعْرُوْفاً بالفُجُوْرِ والفِسْقِ والمُجَاهَرَةِ بِالمَعَاصِيْ وَهَذَا في سَتْرِ مَعْصِيَـةٍ وَقَعَتْ وَانْقَضَتْ .

أَمَّا إِذَا عَلِمَ مَعْصِيَتَهُ وَهُوَ مُتَلَبِّسٌ بِهَا فَتَجِبُ المُبَادَرَةُ بالإِنْكَارِ عَلَيْهِ وَمَنْعُهُ مِنهَا والحَيْلُولَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا بِحَسَبِ الإِسْتِطَاعَةِ فإِنْ عَجزَ لَزِمَهُ رَفْعُهَا إِلى وَلِيِ الأَمْرِ إِنْ لَمْ يَتَرتَّبْ عَلَىٰ ذَلِكَ مَفَاسِدُ أَعْظَمُ مِنْهَا لأَنَّ السَّتْرَ عَلَيْهِ يُطْمِعُهُ في الفَسَادِ وَيُجَرِئُهُ على انْتِهَاكِ الحُرُمَاتِ واسْتِرْسَالِهِ في طُرُقِ الغَيِ والفَسَادِ والضَّلالاتِ .

وَهَذَا مِن بَابِ النَّصِيْحَةِ والأَمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْي عن المُنْكَرِ ثُمَّ بَيَّنَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ في حَدِيْثِ ابنِ عُمَرَ وَصْفَ المُسْلِمِ لِأَخِيْهِ المُسْلِمِ

بأَنَّهُ لَا يَظْلِمُهُ في نَفْسِهِ وَلَا فِي عِرْضِهِ وَلَا فِي مَالِهِ والظُلْمُ مُحَرَّمٌ بِسَائِرِ أَنْوَاعِهِ .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُ عَنْ أَوْسِ بنِ شُرَحْبِيْلٍ أَنَّ النبيَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قالَ مَن مَشَى مَعَ ظَالِمٍ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الإِسلامِ فَهذَا وَعِيْدٌ شَدِيْدٌ لِأَعْوَانِ الظَّلَمَةِ وَمُسَهِّلِي مُصَالِحِهم وَمُوَطِّدِي طُرقِهِمْ الدَّالِينَ لَهُمْ على عَوْرَاتِ المُسْلِمِيْنَ .

فَمَا الظَّنُ بِحَالِ الظَّلَمَةِ إِذَا جَاءَ الحَكَمُ العَدْلُ لِلْفَصْلِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَشُوْفِهَ الظَالِمُ بِمَا جَنَى وَأَيْقَنَ بالعَذَابِ وَتَمَنَّى أَنَّهُ تَخَلَّصَ مِنْ مَظَالِمِه في الدُنْيا .

وَلِهَذَا أَمَرَنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَصْرَةِ المَظْلُومِ والأَخْذِ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَكَفِّهِ عن ظُلْمِهِ وَمَنْعِهِ مِن جَوْرِهِ وفي الحَدِيْثِ الآخرِ يَقُولُ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالماً أَوْ مَظْلُوماً قالوا يا رسولَ اللهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُوماً فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِماً قال تَأْخُذُوْا على يَدِهِ » .

وَهُوَ كِنَايَةٌ عن مَنْعِهِ مِنَ الظُلْمِ بالفِعْلِ كالاسْتِعَانَةِ عَلَيْهِ بِرَفْعِهِ لِوُلَاةِ الأُمورِ وَرَفْعِهِ لِلْحُكَّامِ حَيْثُ لَمْ يُؤثِّرْ فِيْهِ النُّصْحُ باللِّسَانِ وَضُرُوْبِ الكلام .

وَمِنَ النُّصْرَةِ لِلْمَظْلُومِ إِعَانَتُهُ والسَّعْيُ لِرَفْعِ ظَلَامَتِهِ والضَّرْب على يَدِ الظَّالِمِ وَكَفِهِ عن ظُلْمِهِ فَهَذَا نُصْرَةٌ لَهُ عَلى شَيْطَانِهِ الذي يُغْوِيْهِ وَيُوْرِدُهُ المَهَالِكَ وَيُوْقِعُهُ في المآزِقِ والوَرْطَاتِ التِي يَصْعُبُ التَّخَلُصُ مِنْهَا وَنُصْرَةٌ لَهُ على نَفْسِهِ الشَرِيْرَةِ التِي تَأْمُرُهُ بالفَحْشَاءِ .

والعاقِلُ اللَّبِيْبُ مَنْ يَتحلَّل مِن أَهْلِ المَظَالِمِ في دُنْيَاهُ قَبْلَ الآخِرَةِ ولا يَدَعُ حَقاً لِأَحَدٍ عَلَيْهِ بَلْ يُسَارِعُ لِأَدَاءِ مَا في ذِمَّتِهِ وَيَطْلُبُ المُسَامَحَةَ مِمَّنْ حَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مُنَافَسَةٌ أَوْ مُنَازَعَةٌ أَوْ مُعَامَلَةٌ مِنْ جَارٍ أَوْ زَوْجَةٍ أَوْ قَرِيْبٍ أَوْ بَعِيْدٍ .

قَبْلَ أَنْ يَقِفَ ذَلِكَ المَوْقِفَ الرَّهِيْب في يَوم يَجْعلُ الوِلْدَانَ شِيْبَا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كان وَعدُهُ مَفْعُولا ﴿ يوم تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَفْسِهَا وتُوَّفى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُوْن ﴾ .

وفي حديث أبي هريرة عندَ مُسْلمٍ لَتُؤَدُنَّ الحُقُوْقُ إِلَى أَهْلِهَا يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّـاةِ الجَلْحَاءِ مِن الشَّاةِ القَرْنَاءِ وَقَدْ عَقَدْنَا فَصْلاً كَامِلاً لِبَيَانِ الظُّلْمِ وَأَنْوَاعِهِ وَأَدِلَّةِ تَحْرِيْمِهِ والتَّحْذِيْرِ مِنْه في الجزء الثالث من الكتاب ص ١٠٥ .

وقال أَبُو هُريرةَ مَكْتُوبٌ في التَّوْرَاةِ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ وَرَاءِ الجَسْرِ يَعْنِي الصِرَاطَ يَا مَعْشَرَ الجَبَابِرَةِ الطُّغَاةِ وَيَا مَعْشَرَ المُتْرَفِيْنَ الأَشْقِيَاءِ إِنَّ اللهَ يَحْلِفُ بِعِزَّتِهِ وَجَلاَلِهِ أَنْ لاَ يُجَاوِزَ هَذَا الجَسْرَ ظَالِمٌ .

وَعَنْ جَابِرٍ قال لَمَّا رَجَعَتْ مُهَاجِرَةُ الحَبَشَةِ عَامَ الفَتْحِ إِلى رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ قال أَلاَ تُخْبِرُوْنِي بِأَعْجَبَ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ فَقَالَ فِتْيَةٌ كَانُوْا مِنْهُمْ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ إِذْ مَرَّتْ بِنَا عَجُوْزٌ مِن عَجَائِزِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ فَمَرَّتْ بِفَتَىً مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كتفيها ثم دَفَعَهَا فَخَرَّتْ المَرْأَةُ على رُكْبَتَيْهَا وانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا .

فَلَمَّا قَامَتْ التفَتَتْ إليهِ ثُمَّ قَالَتْ سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غَادِرُ إِذَا وَضَعَ اللهُ الكُرْسِيَّ وَجَمَعَ اللهُ الأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ وَتَكَلَّمَتْ الأَيْدِي والأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون ، سَوْفَ تَعْلَمُ مَنْ أَمْرِيْ وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَداً .

قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ صَدَقَتْ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ قَوْماً لا يُؤْخَذُ مِنْ شَدِيْدِهِم لِضَعِيْفِهِم .

ورُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « خَمْسَةٌ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ أَمْضَى غَضَبَهُ عَلَيْهِمْ في الدُنْيَا وإلا أَمَرَ بِهِمْ في الآخِرَةِ إِلى النارِ .

أَمِيْرُ قَوْمٍ يَأْخُذُ حَقَّهُ مِنْ رَعِيَّتِهِ وَلَا يُنْصِفُهُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا يَدْفَعُ الظُلْمَ عَنْهُمْ .

وَزَعِيْمُ قَوْمٍ يُطِيْعُونَهُ ولا يُسَاوِيْ بَيْنَ القَوِّيِ والضَّعِيْفِ وَيَتَكَلَّمُ بالهَوَى وَرَجُلٌ لا يَأْمُرُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ بطَاعَةِ اللهِ ولا يُعَلِمُهُمْ أَمْرَ دِيْنِهِمْ .

وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيْراً فَاسْتَوْفَى مِنْهُ العَمَلَ وَلَم يُوَفِّهِ .

وَرَجُلٌ ظَلَمَ امْرَأَتَهُ صَدَاقَهَا وعن عَبْدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ قال إِن اللهَ تَعالَى لَمَّا خَلَقَ الخَلْقَ واسْتَمَرُّوْا عَلَى أَقْدَامِهِم رَفَعُوْا رُؤُسَهُم إلى السَّمَاء وقالُوا يَا رَبُّ مَعَ مَنْ أَنْتَ قالَ مَعَ المَظْلُومِ حَتَّى يُؤَدى إليه حَقَّهُ .

وَقِيْلَ لَمَّا حُبِسَ خَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ وَوَلَدُهُ قَالَ يَا أَبَتِيْ بَعْدَ العِزِّ صِرْنَا في القَيْدِ وَالحَبْسِ فقالَ يَا بُنَيَّ دَعْوَةُ مَظْلُومٍ سَرَتْ بِلَيْلٍ غَفَلْنَا عَنْهَا وَلَمْ يَغْفُلِ اللهُ عَنْهَا وكانَ يَزِيْدُ بنُ حَكِيْمٍ يَقُولُ مَا هِبتُ أَحَدَاً قَطُّ هَيْبَتِي رَجُلاً ظَلَمْتُهُ

وأنَا أَعْلَمُ لاَ نَاصِرَ لَهُ إلا اللهُ يقولُ : حَسْبِيَ اللهُ ، واللهُ بَيْنِي وَبَيْنَك .

وَعَن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ يَجِيءُ الظَّالِمُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ على جَسْرِ جَهَنَّمَ لَقِيَهُ المَظْلُومُ وَعَرَّفَهُ مَا ظَلَمَهُ بِهِ فَمَا يَبْرحُ الذِيْنَ ظُلِمُوْا بالذِيْنَ ظَلَمُوْا حَتَّى يَنْزِعُوْا مَا بِأَيْدِيْهِمْ مِنَ الحَسَنَاتِ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوْا لَهُمْ حَسَنَاتٍ حَمَلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ سَيِئآتِهِمْ مِثْلَ مَا ظَلَمُوْهُمْ حَتَّى يُرَدُّوْا إِلى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِن النارِ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ أُنَيْسٍ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ يُحْشَرُ العِبَادُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً فَيُنَادِيْهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ أَنَا المَلِكُ الدَّيَان لا يَنْبَغِيْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَوْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النارِ أَنْ يَدْخُلَ النارَ وَعِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ إلى أَنْ أُقِصَّهُ حَتَّى اللَّطْمَةَ فَمَا فَوْقَهَا ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدَا .

قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ وإِنَّمَا نَأْتِي حُفَاةً عُرَاةً فَقَالَ بالحسناتِ والسيئاتِ جَزَاءً ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدَا وجَاءَ عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال مَنْ ضَرَبَ سَوْطاً ظُلْماً اقْتُصَّ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ .

وعن ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال قال رسول اللهُ صلى الله عليه وسلم مَنْ أَعَانَ ظَالِماً سُلِّطَ عَلَيهِ وقال سعيدُ بنُ المُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللهُ لا تَمْلَؤُا أَعْيُنَكُمْ مِن أَعْوَانِ الظَّلَمَةِ إلا بالإِنكارِ مِنْ قُلُوبِكُم لئلآ تَحْبُطَ أَعْمَالُكُمْ .

وقال مَكْحُولُ الدِمَشْقِي يُنَادِيْ مُنَادٍ يوم القِيَامَةِ أَيْنَ الظَّلَمَةُ وَأَعْوَانُ الظَّلَمَةِ فَمَا يَبْقَى أَحَدٌ مَدَّ لَهُمْ حِبْراً أَوْ حَبَّرَ لَهُمْ دَوَاةً أَوْ بَرى لَهُم قَلَماً فَما

فَوْقَ ذَلِكَ إلا حَضَرَ مَعَهُمْ فَيُجْمَعُوْنَ في تَابُوْتٍ مِن نارٍ فَيُلْقَوْنَ في النارِ .

وَجَاءَ رَجُلٌ خَيَّاطٌ إلى سُفْيَانِ الثَّوْرِي فَقَالَ إِنِّي رَجُلٌ اخِيْطُ ثِيَابَ السُلْطَانِ هَلْ أَنَا مِن أعْوَانِ الظَّلَمةِ فَقَالَ سُفْيَانُ أَنْتَ مِنَ الظَّلَمَةِ أَنْفُسِهِمْ ولَكِن أعْوَانَ الظَّلَمَةِ مَنْ يَبِيْعُ مِنْكَ الإِبْرَةَ والخُيُوْط .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فَصْــلٌ)

فــي التَّــواضــع

التَّواضُع يُقَابِلُ الكِبْرَ وَهُوَ انْكِسَارُ القَلْبِ لِلَّهِ وَخَفْضُ جَنَاحِ الذُلِّ وَالرَّحْمَةِ لِلْخَلْقِ وَقِيْلَ هُوَ رِضَا الإنسانِ بِمَنْزِلَةٍ دُوْنَ ما يَسْتَحِقُّهُ فَضْلُهُ وَمَنْزِلَتُهُ وَفَضِيْلَته لا تَكَادُ تَظْهَرُ في أَكْثَرِ الناسِ وَإِنَّمَا يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ في أَجِلاَّءِ الناسِ وَعُلَمَائِهِم العَامِلِيْنَ بِعِلْمِهِم وهَذَا كَانَ في عُلَمَاءِ السَلَفِ كَثِيْرٌ أَمَّا اليَومَ فَهُوَ نَادِرٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّفَضُلِ لِأَنَّ المُتَوَاضِعَ يَتْرُكُ بَعْضَ حَقِّهِ والتَّوَاضُعُ مُتَوَسِّطُ بَيْنَ الكِبْرِ والضَّعَةِ والكِبْرُ تَقَدَّمَ تَعْرِيْفُهُ في أَوَّلِ الكتاب .

والضَّعَةُ وَضْعُ الإنسان نَفْسَهُ في مَنْزِلَةٍ تُزْرِي بِهِ مِن الدَّنَاءَةِ والخِسَّةِ وابْتِذَالِ النَّفْسِ في سَبِيْلِ شَهَوَاتِهَا الفَاسِدَةِ فَتَجِدُ الوَضِيْعَ يَقِفُ في المَوَاقِفِ التِي تُزْرِي بِهِ مِن أَجْلِ الحُصُولِ على وَظِيْفَةٍ أَوْ مَالٍ أو جَاهٍ أَوْ امرَأةٍ أَوْ نَحو ذَلِكَ فَلاَ يُبَالِي أَنْ يَذِلَّ لِمَنْ دُوْنَهُ أَوْ يَتَمَلَّقَ لِمَنْ يُهِيْنُهُ أَوْ يَقِفَ عَلَى بَابِ مَنْ يَسْتَثْقِلُهُ وَيُظْهِرُ الاشْمِئْزَازَ مِنْهُ وَهُوَ لاَ يُبَالِي بالألحاحِ عَلَيْهِ وَالوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ذَلِيْلاً خَاضِعاً ولا شَكَّ أَنَّ هَذَا صِفَةٌ ذَمِيْمَةٌ .

وَمَنْشَأُ التَّوَاضُعِ مِنْ مَعْرِفَةِ الإنسانِ قَدْرَ عَظَمَةِ رَبِّهِ وَمَعْرِفَتِهِ قَدْرَ نَفْسِهِ لِأَنَّ مَنْ يُدْرِكُ أَنَّهُ شَخْصٌ ضَعِيْفٌ فانٍ وَأَنَّ كُلَّ صِفَةٍ مِن صِفَاتِهِ المُوْجِبَةِ لِلرِّفْعَةِ والكِبْرِ في هَذِهِ الحَيَاةِ لا ثَبَاتَ لَهَا بَلْ هِيَ أَعْرَاضٌ زَائِلَةٌ وَيُدْرِكُ أَنَّ رَبَّهُ هُوَ الخَالِقُ العَظِيْمُ المُتَفَرِّدُ بالبَقَاءِ والكِبْرِيَاءِ ، فَهَذَا لَا يَتَمَرَّدُ عَلَى خَالِقِهِ باقْتِرَافِ الجَرَائِمِ والآثامِ وعندَ ذَلِكَ يُعَامِلُ النَاسَ مُعَامَلَةً حَسْنَةً بِلُطْفٍ وَرَحْمَةٍ وَرِفْقٍ وَلِيْنِ جَانِبٍ ولا يَتَكَبَّرُ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَزْهُوْ عَلَى مَخْلُوقٍ وَلَا يُبَالِي بِمَظَاهِرِ العَظَمَةِ الكاذِبَةِ وَلَا يَتَرَفَّعُ عَنْ مُجَالَسَةِ الفُقَرَاءِ والمَشْيِ مَعَهُمْ واجَابَةِ دَعْوَتِهِم وَمُخَاطَبَتِهِم بالكلامِ اللَّيِنِ ولا يَأْنَفُ مِن اسْتِمَاعِ نَصِيْحَةِ مَنْ هُوَ دُوْنَهُ .

وَقال الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ التَّوَاضُعُ أَنْ تَخْضَعَ لِلْحَقِّ وَتَنْقَادَ لَهُ وَلَوْ سَمِعْتَهُ مِن صَبِي قَبِلْتَهُ مِنْهُ وَلَوْ سَمِعْتَهُ مِن أَجْهَلِ الناسِ قَبِلْتَهُ وَلِلتَّوَاضُعِ فَوَائِدُ وَمَنَافِعُ تَعُودُ عَلَى الأَفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ بِالخَيْرِ الكثيرِ فإِنَّ المُتَواضِعَ قَرِيْبٌ إِلى الناسِ مُحَبَّبٌ إلى نُفُوسِهِمْ ضِدُّ المُتَكَبِّرِ فَإِنَّهُ بَغِيْضٌ إِلَيْهِمْ ثَقِيْلٌ عِنْدَهُمْ وَكُلَّمَا دَنا المُتَوَاضِعُ مِنَ الناسِ ارْتَفَعتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُم وَعَظُمَ في عُيُوْنِهم وَثَقُلَ مِيْزَانُهُ عِندَهُم واسْتَفَادَ مِنْهُمْ وَأَفَادَهُمْ .

وَكُلَّمَا كَانَ المُتَواضِعُ عَظِيْماً ذا مَكَانَةٍ رَفِيْعَةٍ كَانَ التَّوَاضُعُ مِنْهُ أَكْبَرُ أَثَراً وَأَكْثَرُ فائِدَةً لأَنَّ الأَشْيَاءَ تَعْظُمُ بِنِسْبَة مَنْ تَسْتَنِدُ إليه كَمَا قِيل :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ
وتأتي على قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ
وتعْظُمُ في عَيْنِ الصَّغِيْرِ صغارها
وَتَصْغُرُ في عَيْنِ العَظِيم العَظَائِمُ

وَإِذَا كَانَ المُتَواضِعُ عَالِماً فإنَّهُ بالتَّوَاضُعِ يَزْدَادُ عِلْماً لأَنَّهُ لا يَسْتنكِفُ عَنْ أَخْذِ الفائِدَةِ مِمَّنْ هُوَ دُوْنَهُ وَلِهَذا قِيْلَ تَعَلَّمُوْا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوْا ولا يَأْبَى العَالِمُ المُتَواضِعُ أَنْ يَنْقُلَ الحَقَّ عن أيِّ مَخْلُوقٍ .

وَقَدْ تتلمذ الشَّيْخُ تَقِيُ الدِّينِ على ابنِ عَبْدِ القَوِّي نَاظِمِ عِقْدَ الفَرَائِدِ وَنَظَمَ ابنُ عَبْدِ القَوي بَعْضَ اخْتِيَارَاتِ الشَيخِ تَقِيِّ الدِّيْن فَعِنْدَمَا ذَكَرَ مَسَافَةَ القَصْرِ قال :

وَعِـنْـدَ إِمَـامِ العَـصْـرِ لاَ حُـجَّـةً لَـهُم
عَـلَى ذَا وَلَـكِـنْ بـاسْـمِـهِ فَـلْـيُـحَـدَّدِ

وَعِنْدَمَا ذَكَرَ قِتَالَ أَهلِ البَغْي قال :

وَيَكْـرَهُ شَيْـخُ العَصْـرِ أَنْ يَقْصُـدَ الفَتَى
بُـغَـاةَ ذَوِيْ الأَرْحَـامِ لاَ ذُوْ الـمُـجَـرَّدِ

وعِنْدَمَا ذَكَرَ مَن لَهَا عَادَةٌ وَتَغَيَّرَتْ قال :

وَعِنْـدَ إِمـامِ الـوَقْتِ تَجْلِسُ مُـطْلَقـا
لِـظَاهِـرِ مَـا يُـرْوَى بِـغَـيْـرِ تَـقَـيُّـدِ

فَلِلّهِ دَرُّهُ مِن مُتَوَاضِعٍ .

قِيْلَ لِبزْرِ جَمْهَر مَا النِّعْمَةُ التِي لا يُحْسَدُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا ، قال التَّواضُعُ قِيْلَ لَهُ فَمَا البَلاَءُ الذِي لا يُرْحَمُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ قال العُجْبُ وقال التَّواضُعُ مَعَ السَّخَافَةِ والبُخْلُ أَحْمَدُ مِن الكِبْرِ مَعَ السَّخَاءِ والآدَابِ فَأَعْظِمْ بِحَسَنَةٍ عَفَتْ عَن سَيِّئَتَيْنِ وَأَقْبِحْ بِعَيْبٍ أَفْسَدَ مِن صَاحِبِهِ حَسَنَتَيْنِ ولقد أَحْسَنَ القَائِلُ :

وَأَحْسَنُ مَقْرُونَيْنِ فِي عَيْنِ نَاظِرٍ
جَلاَلَةُ قَدْرٍ فِي خُمُوْلِ تَوَاضُعِ

وَأحسنُ مِنه قولُ الآخِرِ :

فَتىً كانَ عَذْبَ الرُوْحِ لا مِنْ غَضَاضَةٍ
وَلَكِنَّ كِبْراً أنْ يُقَالَ بِهِ كِبْرُ

وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاء مَنْ بَرِىء مِنْ ثَلاَث نَالَ ثَلاَثاً مَنْ بَرِىءَ مِنَ السَّرَفْ نَالَ العِز وَمَنْ بَرِىءَ مِنَ البُخْلِ نَالَ الشَّرَف وَمَنْ بَرِىءَ مِنَ الْكِبْرِ نَالَ كَرَامَةَ التَّواضُع وَقَالَ مِصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْر التَّواضُعُ مَصَائِدُ الشّرَف وَقِيْلَ فِي مَنْثُورِ الحِكَمَ مَنْ دَامَ تَوَاضُعُهُ كَثُرَ صَدِيْقُهُ .

أَمَّا المُتَكّبر فَهُوَ كَالمَغْرُورِ فَإِنَّهُ كَثِيْراً مَا تَفُوتَهُ الحَقَائِقُ العِلْمِيَّةُ لِأَنَّهُ تَأْبَى عَلَيْهِ نَفْسُه أنْ يَأْخُذَ الحَقَّ حَيْثُ وَجَدَهُ وَلِهَذَا قِيْلَ ضَاعَ الْعِلْمُ بَيْنَ الْحَيَاءِ وَالكِبْرِ ثُمَّ إِنْ كَانَ المُتَواضِعُ تِلْمِيْذاً يَجِدُ لُطْفاً وَعَطْفاً مِنَ الاسْتَاذ فَلاَ يَبْخَلُ عَلَيْهِ بِمَجْهُودِهِ وَلاَ يَشُحُّ عَلَيْهِ بِفَائِدَةٍ لأَنَّ التَّواضُعَ يَسْتَلْزِمُ الأَدَب .

وَأَمَّا أَحْسَنُ الأَدَب والتَّواضُعِ واللُّطْفِ مَعَ المُعَلِم الَّذِيْ يَبْذِلُ جُهْدَهُ فِي سَبِيْلِ تَثْقِيْفِهِ وَتَهْذِيْبِهْ وَتَرْبِيَتِهِ تَرْبِيَةً صالِحَةً وَأَنَّهُ بِتَوَاضُعِهِ وَحُسْنِ سَيْرَتِهِ مَعَ مُعَلِّمِه يُبَرْهِنُ عَلَى أَنَّهُ مِمَّنْ يَعْرِفُ قَدْرَ الْعِلْمِ والْعُلَمَاء وَأَنَّهُ يُدْرِكُ قِيمَةَ الْمَعْرُوف وَأَنَّهُ مِمَّنْ يُجَازِي عَلَى الإِحْسَانِ بِالإِحْسَان .

أَمَّا المُتَكَبِّرُ الّذِيْ يَتَكَبَّرُ وَيَتَعَاظَمُ في نَفْسِه وَيَحْمِلُهُ الْكِبْرُ عَلَى سُوءِ الأَدَب واحْتِقَارِ المُعَلِم فَهُوَ بِالحَقِيْقَةِ غَبِيٌّ جَاهِلٌ جلفٌ فَدِم لاَ يَعْرِفُ

لِلْعِلْمِ قِيْمَته وَلاَ يُرِيْدُ أَنْ يَخرجَ مِنْ جَهْلِهِ وَهَذَا شَيءٌ مُشَاهَدٌ مَعْرُوف فَإِنَّكَ تَرَىٰ الْمُتَكَبِّرِيْنَ عَلَى المُعَلِمِيْنَ يَعْمَهُونَ في حُمْقِهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَلاَ يَخْرُجُونَ عَنِ السَّخَفِ فَضْلاً عَمَّا ارْتَكَبُوهُ مِنْ نُكْرَانِ الجَمِيْلِ وَجَحْدِ المَعْرُوفِ الَّـذِيْ يُسْدَىٰ إِلَيْهِمْ وَقَدِيْماً قِيْل :

فَـاصْبِـرْ لِـدَائِـكَ إِنْ جَفَـوْتَ طَبِيْبَـهُ
واصْبِـرْ لِجَـهْلِكَ إِنْ جَـفَـوْتَ مُعَـلِّمـا

آخَــر :

وَمَـنْ لَمْ يَـذُقْ مُـرَّ التَّـعَـلُّمِ سَـاعَـةً
تَـجَـرَّعَ ذُلَّ الْجَـهْـلِ طُـوْلَ حَـيَـاتِـهِ
فَـصَبْـراً عَـلَى مُـرِّ الْجَـفَـا مِن مُـعَلِّمٍ
فَـإِنَّ رُسُـوبَ الـعِلْمِ فِـي نَـفَـرَاتِـهِ
وَمَـنْ فَـاتَـهُ التَّـعْـلِيمُ وَقْتَ شَـبَـابِـهِ
فَـكَـبِّـرْ عَـلَيْـهِ أَرْبَـعـاً لِـوَفَـاتِـهِ
وَذَاتُ الْـفَتَـى وَالـلّهِ بِـالـعِلْمِ والـتُّـقَـى
إِذَا لَـمْ يَـكُـونَـا لاَ اعْـتِـبَـارَ لِـذَاتِـهِ

تَنْبِيْه : وَنَعْنِي بالْعَالِمِ المُعَلَّم الّذِي يُتَأَدَّبُ مَعَهُ وَيُتَوَاضَعُ لَهُ وَيُقَدَّرُ وَيُحْرَصُ عَلَى أَخْذِ العِلْم مِنْه وَمُجَالَسَتِهِ العَامِلُ بِعَمَلِهِ المتَأَدِّب بِآدَابِ الشَّرِيْعَةِ المُتَمَسِّكُ بِهَا تَمَاماً الَّذِي يَصْدَعُ بالحَق وَلاَ تَأْخُذُه في الله لَوْمَة لائِم البَعِيْدُ عَنِ المُجَامَلَة إِذَا رَأَى مَا يُغْضِبُ اللّٰهَ البَعِيْد عن الظَّلَمَةِ وَأَعوانِهِمْ .

أَمَّا مَنْ يُسَمُّونَ مَشَايِخَ وَأَسَاتِذَة وَيُرَىٰ عَلَيْهِمْ آثَارَ مُخَالَفَةِ النَّبِي صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِنْ حَلْقِ لِحْيَةٍ أَوْ تَشَبُّهٍ بِالْكَفرةِ أَوْ تَرْكِ حُضُورِ جُمعَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَو اسْتِعْمَالِ آلاتِ لَهْو أَوْ شُرْبِ دُخَان أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَهؤلآءِ يَتَعَيَّنُ الإِبْتِعَادُ عَنْ مُجالَسَتِهِمْ وَمُجاوَرَتِهِمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ وَمُشَارَكَتِهِمْ إِلَّا لِضَرُوْرَةٍ أَوْ حَاجَةٍ شَدِيْدَةٍ تَدْعُوْ إِلى ذَلِكَ لأَنَّ الطِّبَاع كَسَّابَةٌ وَيُخْشَى عَلَى مَنْ قَارَفَهُمْ أَوْ قَارَبَهُمْ أَنْ يَتَّصِلَ مَا بِهِمْ مِنْ مَرَضٍ مَعْنَوي إِلى ذَلِكَ الشَّخْصِ البَرِيْ .

قَالَ ابْنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ غَائِباً عَنِ المُنْكَرِ في بُيوتِ الوُلاَةِ وَيكُونُ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ حَضَر وَذَلِكَ لأَنَّهُ يَبْلُغه فَيَرْضَى بِهِ وَيَسْكُتُ عَلَيْهِ ، قُلْتُ وفي وَقْتِنَا مَا أَكْثَرَ السَّاكِتِيْن وَالمدلِّسِين والمُدَاهِنِيْن الَّذِيْنَ هَمُّهُمْ وَهَدَفَهمُ الْوَحِيْدُ مَا يَحْشُونَ بِهِ بُطُونَهُمْ مِنْ مَطْعُومٍ وَمَشْرُوب أَوْ مَا يُجَمِّلُونَ بِهِ ظَوَاهِرَهُمْ مِنْ مَلْبُوسٍ وَمَرْكُوبٍ أَوْ يَتَذَوَّقُونَ مِنْ زَوْجَةٍ إِلى زَوْجَة دَائِماً يُطَلِّقُ وَيَتزَوّج لاَ يَسْتَقِرُّ عَلَى الدَّوَامِ .

قال صَلَّى اللهُ عليه وسلم لا تُطَلَّقُ النِسَّآءُ إِلا مِن رِيْبَةٍ إِنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يُحِبُّ الذَّوَاقِيْنَ والذَّوَاقَاتِ والذَّوَاقُ الكثيرُ النكاحِ والطَّلاَقِ مِن غَيْرِ عُذْرٍ شَرْعِي والذَّوَاقَةُ التِي كُلُّ مَنْ أَخذَهَا تَتَسَبَّبُ لِفراقِهِ لِأَجلِ أَن تَتَزَوَّجَ بِغَيْرِهِ .

وإنْ كَانَ المُتَواضِعُ تَاجِراً ذَا مَالٍ فَإِنَّهُ بِمُخَالَطَتِهِ الناسَ وَعَدَمِ التَّرَفُعِ والكِبْرِ عَلَيْهِم يَنَالُ بِهِ الإِنسانُ الألفة والإِئْتِنَاسَ والمَحبّةَ والاقبالَ عليه في المُعَامَلَةِ وَيَعْرِفُ الفُقَرَآءَ والمُحْتَاجِيْنَ وَيَرَى مَا يُصِيْبُهُمْ مِن الشَّقَاءِ وَيَمَسُّهُمْ مِنَ الجُوْعِ والعُرِيِّ وَمَا يُؤْذِيْهِم مِن أَلَمِ الحَرِّ والبَرْدِ فَتَأَلَّمُ نَفْسُهُ

لِمَا يُصِيبُهُمْ فَيَرْحَمُهُمْ وَيَعْطِف عَلَيْهِم فَيَسْهُلُ عَلَيهِ فِعْلُ الخَيْرِ والمُشَارَكَةُ فِيْهِ وَيَسْهُلُ عَلَيهِ أَدَاءُ ما فَرَضَهُ اللهُ عليهِ مِن نَفَقَاتٍ وَزَكَاةٍ وَيَهُوْنُ عَلَيْهِ انْقَاذُ المَكْرُوْبِ وإِغَاثَةُ المَلْهُوْفِ .

وفي عَمَلِهِ ذَلِكَ مَعَ النِّيَةِ الصَّالِحَةِ فَائِدَةٌ لَهُ وَلِلنَّاسِ لِأَنَّهُ بِعَمَلِهِ هَذَا يُرْضِي اللهَ أَوَلاً وَرِضَى الرَّبِ خَيْرُ ذَخِيْرَةٍ يَذْخَرُهَا المَرْءُ تَنْفَعُهُ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ لأَنَّ مَن يَرْضَى عَنْهُ مَوْلاَهُ القَوِيُّ العَزِيْزُ فَقَدْ فَازَ بالدُّنْيَا والآخِرَةِ أَمَّا بالدُّنْيَا فَلِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِن رَاحَةِ الخَاطِرِ الَّتِي يَتَأَلَّمُ لَهَا المُتَكَبِرُوْنَ وَتَغْلِي مِن أَجْلِهَا دِمَاؤُهُمْ وَيَطْغَى غَضَبُهُم فَيَحْمِلُهُمْ على التَّعَدِيْ عَلى عِبَادِ اللهِ قَوْلاً وَفِعْلاً وَلِمَا يَكْسِبُهُ مِن قُلُوبِ النَاسِ وَمَحَبَّتِهِم لَهُ واحْتِرَامِهِم لَهُ وإِخْلاَصِهِم في خِدْمَتِهِ والمُبَادَرَةِ لِقَضَاءِ حَوَائِجِهِ وتَضَافُرِهم عَلى الدِّفَاعِ عَنْهُ والانْتِصَارِ لَهُ .

وَعَلَى عَكْسِهِ المُتَكَبِّرُ لاحْتِقَارِهِ لَهُمْ واحْتِقَارِهِمْ لَهُ وانْ كَانَ التَّوَاضُعُ مِن صَاحِبِ جَلهِ فَإِنَّ التَّوَاضُعَ يَجْعَلُ لِجَاهِهِ قِيْمَةً لِأَنَّ الجَاهَ إِنْ لَمْ يُسْتَعْمَلْ في فَائِدَةِ الأُمَّةِ والأَفْرَادِ لَا يَكُونُ لَهُ مَعْنَى وَمَنْ تَرَفَّعَ عن النَاسِ وَلَمْ يَتَوَاضَعْ لَهُمْ فَإِنَّهُ لَا يَدْنُوْ مِنْهُ أَحَدٌ وَلَا يَنْتَفِعُ بِجَاهِهِ مُحْتَاجٌ فَيَظَلُّ جَاهَهُ قَاصِرٌ عليهِ وَيُصْبِحُ اسْماً بِدُوْنِ مُسَمَّى .

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مَتَى حَصَلَ لَهُ مَا يَسُدُّ شَهْوَتَهُ وَحْدَهُ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أو سُلْطَان فَقَدْ ظَفَرَ بِلَذَّاتِ الدُّنْيَا وَنَعِيْمِهَا فَلاَ يُبَالِي بَعْدَ ذَلِكَ بِغَيْرِهِ شَقِيَ أَمْ سَعِد فَهُوَ ضَائِعٌ أَحْمَق لأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَسْتَقِلُّ في هَذِهِ الحَيَاةِ بَلْ لَا بُدَّ مِنَ التَّعاوُنِ مَعَ غَيْرِهِ ، قَالَ اللّهُ تَعالَى ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ قالَ الشَّاعِرْ :

النَّـاسُ لِلنَّـاسِ مِـنْ بَـدْوٍ وَحَـاضِـرَةٍ
بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُـرُوا خَـدَمُ
وَكُـلُّ عُـضْـوٍ لأَمْـرٍ مَّـا يُـمَـارِسُـهُ
لاَ مَشْيَ لِلْكَفِّ بَـلْ تَمْشِي بِـهِ الْقَـدَمُ

آخَـر :
إِذَا مَـا تَـأَمَّـلْنَـا الأُمُـورَ تَـبَـيَّـنَـتْ
لَنَـا وَأَمِيْـرُ الـقَـوْمِ لِلْقَـوْمِ خَـادِمُ

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللّهْ مَنْ كَانَ المَوْتُ يَطْلُبُهُ كَيْفَ يَقِرُّ لَهُ قَرَار وَمَنْ كَانَ الدَّهْرُ يُجَارِيْهِ فَكَيْفَ يُطِيْقُ الانْتصَار ، وَمَنْ كَانَ رَاحلاً عَنِ الدّنْيَا إلى الآخِرَةِ كَيْفَ يَلَذُّ لَهُ قَرَارُ ، عَجباً لِمَنْ يَمْلأُ عينهُ بِالنَّومِ وهُوَ لاَ يَدْرِي أَيُسَاقُ إلى الجَنَّةِ أَوْ إلى النَّار .

وَلَقَدْ أَحْسَن مَنْ قَال :
(وَكَـيْفَ تَـنَـامُ الْـعَـيْـنُ وَهِـيَ قَـرِيْـرَةٌ
وَلَمْ تَـدْرِ فِي أَيْ الـمَكَـانِـيْنِ تَـنْـزِلُ)

إنْ هِيَ إِلَّا غَفْلَةٌ وَأُمْنِيَّةٌ عَاجِلَةٌ وَسَجِيَّةٌ عَادِلَةٌ جَرَى بِهَا القَلَمُ وَمَضَى عَلَيْهَا سَالِفُ الأُمَمِ ، فَيَا فَرَائِسَ الاحْدَاث وَيَا غَرَائِسَ الاجْدَاث ، لَقَدْ صَعَقَ المَوْتُ في دِيَارِكُمْ فَنَعب ، وَصَدَقَكُمْ صَرْفُ الزّمَانِ وَمَا كَذَب ، فَكَأَنَّهُ قَدْ أَعَادَ عَلَيْكُمْ الكَرَّةَ وَسَلَب ، وَنَغَّصَ عَلَيْكُمُ الْمَسَّرةَ ، وَانْتَهَزَ فِيْكُم الغِرَّة ، فَمَا أَقَالَكُمْ عَثْرَة .

عَنْ كَعْبٍ أَوْ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِيْن قَال : يَقُوْمُونَ مِقْدَارَ ثَلاثمائَةِ عَامْ قَالَ سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُوْلُ : مَا ظَنَّك بِأَقْوَامٍ قَامُوا لِلَّهِ عَزّ وَجَلَ عَلى أَقْدَامِهِمْ مِقْدَارُ خَمْسِيْنَ أَلْفَ سَنَة لَمْ يَأْكُلُوا فِيْهَا أَكْلَة وَلَمْ يَشْرَبُوا فِيْهَا شَرْبَـةْ حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ أَعْنَـاقُهِمْ مِنَ الْعَطَشْ وَاحْتَرَقَتْ أَجْوَافُهُمْ مِنَ الجُوْعِ انْصُرِفَ بِهِمْ إِلى النَّارْ فَسُقُوا مِنْ عَيْنٍ قَدْ آنَ حَرُّهَا واشْتَدَّ نَفْحُهَا .

فَلَمَّا بَلَغَ المَجْهُودُ مِنْهُمْ مَالاَ طَاقَةَ لَهُمْ بِهْ كَلَّمَ بَعْضُهُمْ بَعْضَاً في طَلَبِ مَنْ يَكْرُمُ عَلى مَوْلاَهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ في الرَّاحَةِ مِنْ مَقَامِهِمْ وَمَوْقِفِهِمْ لِيَنْصَرِفُوا إِلى الجَنَّةِ أَوْ إِلى النَّارْ مِنْ وُقُوفِهْم فَفَزعُوا إِلى آدَمَ وَنُوحٍ وَمِنْ بَعْدِهِ ابْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وَعِيْسَى كُلُّهُمْ يَقُولُ إِنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ مِثْلَهُ قَبْلَهْ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهْ مِثْلَهْ فَكُلُّهمْ يَذْكُرُ شِدَّةَ غَضَبِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَل وَيُنَادِي بالشُّغْل بِنَفْسِهْ فَيَقُولَ نَفْسِي نَفْسِي فَيَشْتَغِلُ بِنَفْسِهِ عَنَ الشَّفَاعَةِ لَهُمْ إِلى رَبِّهِمْ لإِهْتِمَامِهِ بِنَفْسِهِ وَخلاَصِهَا .

وَكَذلِكَ يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجل ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلَّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِها فَبادِرُوا رَحِمَكُمُ اللّهْ وَأَنْتُم في مَكَانِ الإِمْكَانْ ، قَبْلَ ضِيْقِ الأَوْطَان ، وَتَقَلُّصِ اللّسَانَ واصْفِرَارِ البَنَان ، والتَّقَلُّبِ مِن جِهَةٍ إِلى جِهَة مِنْ شِدَّةِ الآلام.

وَرَفْعُ يَدٍ وَوَضْعُ الأخْرَى مِنْ شِدَّةِ السَّكَرَات ، لِجَذْبِ الرُّوحِ مِن العُرُوقِ والعَصَبِ والعِظَامَ ، قَبْل شُخُوصِ البَصَر ، وَبُرُودَةِ البَدَن ، وَنَقْلِهِ لِبَيْتِ الدَّوْدِ والظُّلْمَةِ وَالوَحْشَةِ والإِنْفِرَادِ وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيْرٍ ، وَمَا يَعْقُبُه مِنْ كُلِّ أَمْرٍ خَطِيْرٍ في يَوْمٍ يَشِيْبُ مِنْ أَهْوَالِهِ الوِلْدَان .

فَمَا ظَنَكُمْ عِبَادَ اللّهِ بِيَوْمٍ بَضَائِعُهُ الأَعْمَالُ ، وَشُهُوْدُهُ الجُلُودُ والأَلْسِنَةُ وَالأَوْصَال ، وَسِجْنُهُ النَّارُ ، وَحَاكِمُهُ الجَبَّارُ ، إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيْمٌ لَا يَعْمَلُ لِحَسَابِهِ إِلَّا مَنْ وَفّقَهُ الْحيُ الْقَيّوم لَيْس فيهِ لِلْمُجْرِمِ رَاحَةٌ ولا نَوْمٌ ، فانْتَبِهُوا رَحِمَكُمُ اللهُ وَتَيَقَّظُوا وَتَزَوَّدُوْا فَكَأَنَّكُم بِهِ وَقَدْ أتى قَالَ تَعَالى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهم وهُم في غَفْلَةٍ مُعْرِضِوْنَ ﴾ ﴿ أَتى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه ﴾ .

شِعْرَاً :

خَبَتْ مَصَابِيْحُ كُنَّا نَسْتَضِيْئُ بِهَا
وَطَوَّحَتْ لِلْمَغِيْبِ الأَنْجُمُ الزَّهَرُ
واسْتَحْكَمَتْ غُرْبَةُ الاسْلاَمِ وانكَسَفَتْ
شَمْسُ العُلُومِ التي يُهْدَى بِهَا البَشَرُ
تُخُرِّمَ الصَّالِحُونَ المُقْتَدَى بِهِم
وقَامَ مِنهُم مَقَامَ المُبْتَدَا الخَبَرُ
فَلَسْتَ تَسْمَعُ إلا كَانَ ثُمَّ مَضَى
وَيَلْحَقُ الفَارِطُ البَاقِيْ بِمَنْ غَبَرُوا
والناسُ في سَكْرَةٍ مِن خَمْرِ جَهْلِهِمُ
والصَّحْوُ في عَسْكَرِ الأَمْوَاتِ لَوْ شَعِرُوا
نَلْهُو بزُخْرُفِ هَذَا العَيْشِ مِن سَفَهٍ
لَهوَ المُنَبِّتِ عُوْداً مَا لَهُ ثَمَرُ
وَتَسْتَحِثُّ مَنَايَانَا رَوَاحِلَنَا
لِمَوقِفٍ مَالَنَا عَنْ دُوْنِهِ صَدَرُ

إلَّا إلى مَــوْقِفٍ تَبْدُوْا سَــرَائِــرُنَــا
فِيْـهِ وَيَـظْهَـرُ لِلْعَـاصِيْنَ مَــا سَتَـرُوْا
فَيَـالَـهُ مَصْــدَراً مَـا كَــانَ أَعْـظَمَـهُ
النَاسُ مِن هَوْلِهِ سَكْرَى وَمَا سَكِرُوْا
فَكُنْ أَخِيْ عَـابِـراً لا عَـامِـراً فَلَقَـدْ
رَأَيْتَ مَصْرَعَ مَنْ شَادُوْا وَمَنْ عَمَرُوْا
اسْتُنْـزِلُـوا بَعْــدَ عِـزٍ عَن مَعَــاقِلِهِم
كَــأَنَّهُم مَـا نَهَــوْا فيهَـا ولا أَمَــرُوْا
تُغَــلُّ أَيْـدِيْهِمُــوْ يَـوْمَ القِيَــامَـةِ إِنْ
بَرُّوْا تُفَكُّ وفي الأَغْـلَالِ إِنْ فَجَرُوْا
وَنُحْ على العِلْمِ نَوْحَ الثَّاكِلَاتِ وَقُلْ
والهْفَ نَفْسِيْ عَلى أَهْـلٍ لَهُ قُبِـرُوْا
الثَّــابِتِيْنَ عَـلَى الإِيْمَــانِ جُـهْــدَهُم
والصَّــادِقِيْنَ فَمَــا مَــانُـوْا ولا خَتَــرُوْا
الصَّــادِعِيْنَ بِـأَمْـرِ اللهِ لَـو سَخِــطُوْا
أَهْـلُ البسِيْطَةِ مَـا بَالَـوْا ولَـوْ كَثُـرُوْا
السَّالِكِيْنَ عَلَى نَهْجِ الـرسُولِ عَلَى
مـا قَـرَّرَتْ مُحْكَمُ الآيَــاتِ والسُـوَرُ
العَــادِلِيْنَ عَن الــدُّنْيَـا وَزَهْــرَتِهَــا
والآمِـرِيْنَ بِخَيْـرٍ بَعْــدَ مَـا ائْتَمَــرُوْا
لَمْ يَجْعَلُوا سُلَّماً لِلْمَـالِ عِلْمَهُمُـوْا
بَــلْ نَـزَّهُــوْهُ فَلَمْ يَعْلُقْ بِـهِ وَضَــرُ

فَحَيَّ أَهْـلاً بِهِمْ أَهْـلاً بِـذِكْـرِهِمُـوْا
الـطَّيِـبِيْـنَ ثَـنَـاءً أَيْـنَـمَـا ذُكِـرُوْا
أَشْخَاصُهُم تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى وَهُمُوْا
كَـأَنَّهُم بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ قَـدْ نُشِـرُوْا
هَـذِيْ المَكَـارِمُ لاَ تَـزْوِيْقُ أَبْنِيَـةٍ
وَلاَ الشُّفُوفُ الَّتِيْ يُكْسَى بِهَا الجُدُرُ
والعِلْمُ إِنْ كَـانَ أَقْـوَالاً بِـلاَ عَمَـلِ
فَلَيْتَ صَـاحِبَـهُ بِـالجَهْـلِ مُنْغَمِـرُ
يَـا حَـامِـلَ العِلْمِ والقُـرْآنِ إِنَّ لَنَـا
يَـوْمـاً تُضَمُّ بِـهِ المَـاضُـوْنَ والأخَـرُ
فَـيَسْـأَلُ الـلَّهُ كُـلاً عَنْ وَظِـيْفَتِـهِ
فَلَيْتَ شِعْـرِي بِمَـاذَا مِنْـه تَعْتَـذِرُ
وَمَـا الجَـوابُ إِذَا قَـالَ العَلِيْم أَذَا
قَـالَ الرسـولُ أَوِ الصِّدِّيْقُ أَوْ عُمَـرُ
والكُـلُ يَـأْتِيْـهِ مَغْلَولَ اليَـدَيْنِ فَمِنْ
نَـاجٍ وَمِنْ هَالِـكٍ قَدْ لَـوَّحَتْ سَقَـرُ
فَـجَـدِّدُوْا نِـيَـةً لِـلَّهِ خَـالِـصَـةً
قُـومُوْا فُرَادَى وَمَثْنَى واصْبِرُوْا وَمُـرُوْا
وَنَاصِحُوا وَانْصَحُـوا مَنْ وَلِيَ أَمْرَكُمُ
فَـالصَّفْـوُ لاَ بُـدَّ يَـأْتِي بَعْـدَه كَـدَرُ
واللهُ يَلْطُفُ في الـدُّنْيا بِنَـا وَبِكُمْ
وَيَـوْمَ يَشْخَصُ مِن أَهْـوَالِـهِ البَصَـرُ

وَصَلِّ رَبِّ عَلَى المُخْتَارِ سَيِّدِنَا
شَفِيْعِنَا يَوْمَ نَارِ الكَرْبِ تَسْتَعِرُ
مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَبْعُوْثٍ وَشِيْعَتِهِ
وَصَحْبِهِ مَا بَدَا مِن أُفْقِهِ قَمَرُ

اللهم كَمَا صُنْتَ وُجُوْهَنَا عن السُّجُودِ لِغَيْرِكَ فَصُنْ وُجُوْهَنَا عن المَسْأَلَةِ لِغَيرِكَ ، اللهم مَن كَانَ عَلى هَوَى وهو يَظُنُّ أَنَّهُ على الحَقِ فَرُدَّهُ إلى الحَقِ حَتَّى لَا يَظَلُّ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ اللَّهُمَّ لا تَشْغَلْ قُلُوبَنَا بِمَا تَكَفَلْتَ لَنَا بِهِ وَلَا تَجْعَلْنَا في رِزْقِكَ خَوَلاً لِغَيْرِكَ وَلَا تَمْنَعْنَا خَيْرَ مَا عِنْدَكَ بِشَرِ مَا عِنْدَنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ منهم والمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ إِنَّ عَلَيْكُم مَسْؤُلِيَّةً كُبْرَى وفي أَعْنَاقِكُم أَمَانَةً عُظْمَى سَتُسْأَلُونَ عنها يَوْمَ يَبْعَثُ اللهُ الأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ ، فإِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ حَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ .

عِبَادَ اللهِ إِنَّ في أَعْنَاقِكُم أَوْلَادَكُم وهُم أَفلَاذُ أَكْبَادِكُم فاتَّقُوا اللهَ فِيْهِم ووَجِّهُوْهُم إلى الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ والأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ ، فإِنَّ هَؤلَاءِ الأَوْلَادِ سَيكُونونَ في المُسْتَقْبَلِ رِجَالاً ، فَإِذَا تَرَبُّوْا على طاعةِ اللهِ وَتَعوَّدُوْا الأَخْلَاقَ الصَّالِحَةَ الَّتِي تَرْفَعُ مَقَامَهُمْ وَتُعْلِي شَأْنَهُمْ وَحَصَّلُوا مِنَ العُلُومِ النَّافِعَةِ مَا يَنْفَعُوْنَ به أَنْفُسَهُمْ وَيَنْفَعُونَ بِهِ عِبَادَ اللهِ ، كَانُوْا أَسَاساً مَكِيْناً

لِنَهْضَةِ الأُمَّةِ وَهذا أَمْرٌ لا يَخْتَلِف فِيه إِثْنَانِ .

وإن اسْتَعَادُوْا سَافِلَ الأَخْلاَقِ وَهَجَرُوْا العُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ وما يُعِيْنُ عَلَيْهَا ، كَانُوا ضَرَراً عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلى الأمَّةِ .

عِبَادَ اللهِ التَّرْبِيَةُ أَمْرٌ عَظِيْمُ الخَطَرِ كَبِيْرُ القِيْمَةِ ، والطِّفْلُ أَمَانَةٌ عِنْدَ وَالِدَيْهِ ، وَقَلْبُهُ الطَّاهِرُ جَوْهَرَةٌ نَفِيْسَةٌ خَالِيَةٌ مِنْ كُلِّ نَقْشٍ وَصُوْرَةٍ فإِنْ عُوِّدَ الخَيْرَ وَعُلِّمَهُ نَشَأَ عَلَيْهِ وَسَعِدَ في الدنيا والآخِرَةِ وَشَارَكَهُ في ثَوَابِهِ أَبَوَاهُ ، وَكَلُ مُؤَدِّبٍ وَمُعَلِّمٍ لَهُ في الخَيْرِ ، وإِنْ عُوِّدَ الشَّرَّ وأُهْمِلَ وَتُرِكَ بِلَا عِنَايَةٍ ، شَقِيَ وَهَلَكَ وَكَانَ عَلَى وَلِيِّه وَرَاعِيْهِ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الإِثْمِ .

فالتَّرْبِيَةُ هِيَ غَرْسُ الدِيْنِ الإِسْلاَمِي وَمَحَبَّتِهِ وآدَابِهِ قَـوْلًا وَعَمَلاً واعتقاداً ، وغَرْسُ الأَخلاقِ الفاضِلَةِ في نُفُوسِ النَّاشِئِيْنَ وَسَقْيُهَا بِمَاءِ الإِرْشَادِ والنَّصِيْحَةِ ، والتَّوْجِيْهِ إِلى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ واتِّبَاعِ سَبِيْلِ السابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ مِن المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ .

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في الحَدِيْثِ الذي أَخرجَهُ البُخَارِي عن أبي هريرة رضي اللهُ عنه ، قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَا مِن مَوْلُودٍ يُوْلَدُ إلا عَلَى الفِطْرَةِ فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ البَهِيْمَةُ جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّوْنَ فِيها مِن جَدْعَاءَ .

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عنه فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَاسَ عليها لا تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدينُ القَيِمُ .

قَالَ في الدُرُوْسِ الوَعْظِيَّةِ عَلَى هَذا الحَدِيْثِ : أَجْمَعَ العُقَلاءُ

عَلى أَنَّ الإِنْسَانَ بِحَاجَةٍ إِلى التَّرْبِيَةِ فَإِنَّمَا يُوْلَدُ صَغِيْراً مُجَرَّداً عَنْ كلِّ المُمَيِّزَاتِ قَابِلاً لِكُلِّ نَقْشٍ مُسْتَعِدّاً لِكُلِّ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ تَعْلِيْمٍ وَيُحَاطُ بِهِ مِنْ تَثْقِيْفٍ .

وَالوَالِدَانِ هُمَا الرَّاعِيَانِ لِوَلَدِهِمَا المَسْؤُلانِ عَنْهُ لدَى اللّهِ والنَّاسِ ، فانْ أَحْسَنَا تَأْدِيْبَهُ وَعَوّدَاهُ الخَيْرَ وَانْشَآءهُ عَلَيْهِ سَعدَ في دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ وَنَالَ أُمْنِيَتَهُ وَمُبْتَغَاهُ ، وَكَانَ لِوَالِدَيْهِ وَكُلِّ مَن اشْتَرَكَ في تَعْلِيْمِهِ وَسَاهَمَ في تَهْذِيْبِهِ أَجْرُهُ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنْ أَهْمَلَهُ وَالِدَاهُ إِهْمَالَ البَهَائِم وَلَمْ يَرْعَيَا حَقّ اللهِ بِهِ كَانَ اثْمُهُمَا عِنْدَ اللهِ كَبِيْراً وَسُؤَالُهُمَا خَطِيْرا .

وَإِنَّ مِن الأُمُورِ المُحَقَّقَةِ وَالحَقَائِق المُشَاهَدَةِ عَلَى مَا قَدَّمْنَا أَنَّ عَقْلِيَّةَ الوَلَدِ تَتَأَثّرُ بِتَأَثُّرِ البِيْئَةِ وَالمُجْتَمَعِ صِحَّةً وَفَسَاداً ، لِسَذَاجَةِ نَفْسِهِ وَسَلاَمَةِ فِطْرَتِهِ إِذَنْ ، فَوَاجِبُ الوَالِدِ كَبِيْرٌ فَعَلَيْهِ أَنْ يَحُوطَهُ بِعِنَايَةٍ دَقِيْقَةٍ وَرَقَابَةٍ شَدِيْدَةٍ وَتَوْجِيْهٍ صَحِيْحٍ وَتَرْبِيَةٍ حَسَنَةٍ .

وَذَلِكَ بِأَنْ يُؤَدِّبَهُ ، وَيُهَذِّبَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ ، وَمَحَاسِنَ العَادَاتِ ، وَيَحْفَظَهُ مِنْ قُرَنَاءِ السُّوْءِ ، وَذَوِي الأَخْلاَقِ المُنْحَطَّةِ ، وَلْيَعْلَم الوَالِدُ أَنَّ وَلَدَهُ أَمَانَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلْيُؤَدِّ وَاجِبَ الأَمَانَـةِ ، وَلْيَقُمْ بِحَقِّ الرِّعَايَةِ .

وَإِذَا أُهْمِلَ الوَلَدُ في ابْتِدَاءِ نَشْأَتِهِ وَأَوَّلِ رَعْرَعَتِهِ وَتَمْيِيْزِهِ خَرجَ خَبِيْثَ الطَّبْعِ سَيِّءَ الأَخْلاَقِ ، مُحْتَالاً كَذّاباً سَرَّاقاً كَثِيْـرَ الهَذَيَـانِ وَفُضُوْلِ الكَلَامِ ، يَتَدَخَّلُ فِيْمَا لاَ يَعْنِيْهِ ، بَذِيْءَ اللِّسَانِ مُغْتَاباً نَمَّاماً وَقِحاً بَعِيْداً عَن التَّقْوَى وَالطَّاعَةِ ، قَرِيْباً مِنَ الفُسُوْقِ والفُجُورِ .

وَفي مِثْلِ هَذِهِ الحَالُ يَكُونُ وَبالاً عَلى المُجْتَمَعِ وَعُضْواً فَاسِداً يَجِبُ أَنْ يُبْتَرَ وَيُقْطَعَ إلا مَنْ حَفِظَ رَبُّكَ .

وَيَجِبُ عَلى وَلِيّ الطِّفْلِ وَالطِّفْلَةِ عِنْدَ إرادَةِ التَّعْلِيْم أَنْ يُسَلِّمَ الوَلَدَ لِمُرَبٍّ صَالِحٍ ، وَمُعَلِّمٍ نَاصِحٍ ، يَحْفَظُ عَلَيْهِ أَخلاقَهُ ، وَيُحَسِّنُ آدَابَهُ ، وَيُرَوِّضُه وَيُمَرِّنُه على الشَّعَائِرِ الدِّيْنِيَّةِ ، وَيُلَقِّنُهُ العَقَائِدَ الصَّحِيْحَة السَّلِيْمَةَ ، الإِسْلَامِيَّةَ وَلَا يَتَسَامَحْ مَعَهُ في إِهْمَالِ أَمْرِ الدِّيْنِ وَآدَابِهِ .

وَلَا يَجُوزُ تَسْلِيْمُ الطِّفْلِ إِلَى مُعَلِّمٍ مُتَهَتِّكٍ يَسْتَهْتِرُ بِأَمْرِ الدِّيْنِ أَوْ زِنْدِيْقٍ مارِقٍ لَا يُبَالِيْ بِعَقَائِدِ المُسْلِمِيْنَ ، أَوْ جَاهِلٍ سَخِيْفٍ يَبْهُتُه بالخَرَافاتِ والغَرائِبِ ، وَهُوَ في نَفْسِهِ لَا يُمَيِّزُ الحَقَّ مِنْ البَاطِلِ والغَث مِن السَّمِيْنِ ، أَوْ مُلْحِدٍ خَارِجٍ عَنِ الأَوَامِرِ الإِلٰهِيَّةِ والنَّوامِيْسِ السَّمَاوِيَّةِ غيرَ مُكْتَرِثٍ بالتَّعَالِيْمِ الدِّيْنِيَّةِ ، أَوْ يَقْذِفُ بِهِ في المَدَارِسِ التَّبْشِيْرِيَّةِ الأَجْنَبِيَّةِ ذَاتِ الاغْرَاضِ المَعْرُوْفَةِ وَالغَايَاتِ الدَّنِيْئَةِ وَالتَّوْجِيْـهِ الفَاسِـدِ ضد الإِسـلام والمسلمين .

وَلِمِثْلِ هَذِهِ الأَغْرَاضِ الشَّرِيْفَةِ وَالغَايَاتِ النَّبِيْلَةِ ، يُرْشِدُنَا النبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ إِلى رِعَايَةِ الوَلَدِ ، وَصِيَانَتِه ، وَشِدَّةِ مُرَاقَبَتِهِ ، وَحِمَايَتِهِ فَهُوَ يَقُوْلُ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ الصَّحِيْحَةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، والعَقِيْدَةِ المَرْضِيّة فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ » .

المَعْنَى إِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَمَنْ تَغَيَّرَ عَن الفِطْرَةِ الصَّحِيْحَةِ وَمَالَ إِلى العَقَائِدِ البَاطِلَةِ وَالآرَاءِ الفَاسِدَةِ ، وَالمَذَاهِبِ الزَّايِفَةِ كَانَ سَبَبُ تَغَيُّرِهِ أَنَّ أَبَوَيْهِ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ بِتَعْلِيْمِهِمَا إِيَّاهُ ، وَتَرْغِيْبِهِمَا فِيْهِ ، أَو

تَبعيَّتِهِ لَهُمَا في الدِّيْنِ على سَبِيْلِ التَّقْلِيْدِ المَذْمُومِ ، وَتَرْكِ تَحْكِيمِ العَقْلِ في البَرَاهِيْنِ ، وَالأَدِلَةِ الشَّرْعِيَّةِ .

ثُمَّ ضَرَبَ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ مَثَلاً لِتَأْيِيْدِ مَا تَقَدَّمَ وَإِيْضَاحِهِ فَقَالَ كَمَا تَنْتُجُ البَهِيْمَةُ ـ أَيْ تَلِدُ بَهِيْمَةً جَمْعَاءَ لَمْ يَذْهَبْ مِنْ بَدَنِهَا شَيْءٌ هَلْ تُحِسُّوْنَ فِيْهَا مِنْ جَدْعَاءَ ، أَيْ مَقْطُوْعَةَ الأُذُنِ ، أَوْ الأَنْفِ ، أَوْ الأَطْرَافِ ، أَوْ مَفْقُوءَةُ العَيْنِ .

قَالَ وَأَرى أَنْ لاَ مَنْدُوْحَةَ لِيْ مِنْ تَوْجِيْهِ نِدَاءٍ إِلَى أُوْلَئِكَ المُغَفَّلِيْنَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الطُّلاَّبِ وَالطَّالِبَاتِ وَالفِتْيَـانِ والفَتَيَاتِ الـذِيْنَ يَقْذِفُـوْنَ بِهِمْ في المَدَارِس التَّبْشِيْرِيّةِ فَتُرْضِعُهُمْ مِنْ سُمُـوْمِهَا وَتُغَـذِّيْهِمْ مِنْ مَكَائِـدِهَا ، وَتَخْدَعُهُمْ بِمَا اخْتَطَّتْهُ مِنْ طُرُقِ المَكْرِ وَأَسالِيْبِ الخدَاعِ وَأنواع الفسادَ .

فَلاَ يَخْرُجُوْنَ مِنْهَا إِلَّا وَقَدْ عَرَفُوا كُلَّ شَارِدَةٍ وَوَارِدَةٍ مِنْ تَارِيْخِ الأَجَانِبِ وَسِيَرِهِمْ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا إلا النَّزْرَ القَلِيْلَ عَنْ سِيْرَةِ أَجْدَادِهِمْ مِن الفَاتِحِيْنَ المُسْلِمِيْنَ ، والعَرَبِ الأَكْرَمِيْنَ فَلْيَتّقِ اللهَ أَوْلِيَآؤهُمْ ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُم هُمْ المَسْؤُلُونَ عَنْ ضَيَاعِ دِيْنِهِمْ وَالمتَسَبِّبُونَ لِفُقْدَانِ مَجْدِهِمْ .

وَلْيَسْتَعِدُّوْا لِلْجَوَابِ بَيْنَ يَـدَيْ أَحْكَمِ الحَاكِمِيْنَ ، وَالمُنْتَقِم مِن الظَّالِمِيْنَ قَالَ اللهُ تَعالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا قُوْا أَنْفُسَكُم وَأَهْلِيْكُم نَاراً وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ﴾ أهـ .

وَنَحْوِ هَذِهِ الآيَةِ وَأمرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا والآيَةُ الأُخْرَى وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ وِقَايَةَ الأَنْفُسِ بالزَامِهَا أَوَامِرَ اللّهِ امْتِثَالاً وَنَوَاهِيْهِ اجْتِنَاباً وَالتَّوْبَةُ عَمَّا يُسْخِطُ اللّهَ ، وَيُوْجِبُ العَذَابَ .

وَوِقَايَةِ الأَهْلِ وَالأَوْلَادِ بِتَأْدِيْبِهِم وَتَعْلِيمِهِمْ وَإِلْزَامِهِمْ عَلَى أَمْرِ اللّهِ فَلَا يَسْلَمُ العَبْدُ إِلَّا إِذَا قَامَ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي نَفْسِهِ وَفِيْمَنْ تَحْتَ وِلَايَتِهِ وَتَصَرُّفِهِ .

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَر قَالَ حِيْنَ نَزَلَتْ يَا رَسُولَ اللهِ نَقِيْ أَنْفُسَنَا فَكَيْفَ لَنَا بِأَهْلِيْنَا فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلامُ تَنْهَوْنَهنَّ عَمَّا نهاكُم اللهُ عنهُ وَتَأْمُرُوْنَهُنَّ بِمَا أَمَركُم اللهُ بِهِ فَيَكُونَ ذَلِكَ وِقَايَةً بَيْنَهُم وَبَيْنَ النَّارِ .

وقَالَ بَعْضُهُمْ بَعْدَ سِيَاقِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا قُوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيْكُمْ نَاراً وَقُوْدُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ ﴾ وَحَدِيْثُ كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلى الفِطْرَةِ فَأَبَواهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ » .

إِنَّ تَرْبِيَةَ الأَوْلَادِ وَتَعْلِيْمَهُم لأَمْرٌ عَظِيْمٌ لَهُ شَأْنُهُ الأَكْبَر وَخَطَرُهُ الجَسِيْمُ فِي حَيَاتِنَا الدِّيْنِيّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ ، والخُلُقِيَّةِ ، فَهُمْ قُوَى المُجْتَمع المُنْتَظَرِ وَدَعَائِمُه التِيْ سَيَقُوْمُ عَلَيْهَا ، وَعَلَيْهِمْ وَحْدَهُم يَتوقَّفُ رُقِيُّ الأُمَّةِ الحَقِيْقِيّ وَنُمُوُّهَا وَتَقَدُّمُهَا .

وَإِنَّ أَمَامَهُم لَخَطَرٌ عَظِيْمٌ وَغَزْوٌ هَائِلٌ مُتَسَتِّرٌ بِبَعْضِ الثَّقَافَاتِ لِهَدْمِ عَقَائِدِهِمْ وَفَسَادِ أَخْلَاقِهِمْ ، وَانْتِزَاعِ رُوْحِ الإِبَاءِ والغَيْرَةِ والعَفَافِ مِنْ نفوسِهِم ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ .

وَإِنَّ مُشْكِلَتَهُمْ اليَوْمَ لَهِيَ أُمُّ المَشَاكِلِ فَلأَنْ نَخْسَرَ الأَمْوَالَ والأَنْفُسَ أَيْسَرُ وَأَهْوَنُ مِنْ أَنْ نَخْسَرَ رُوْحَ نَشْئِنَا المَعْنَوِيَّةِ ، وَعَقَائِدَهُمْ السَّلَفِيَّةِ ،

فَيَجِبُ أَنْ نَسْعَى في حِيَاطَتِهِم بِسِيَاجِ الدِّيْنِ وَأَنْ نَغْرِسَ في نُفوسِهم أَوَّلاً وَقَبْلَ كلِّ شَيْءٍ احْتِرَامَ الإِسْلاَمِ ، وَحُبَّ تَعَالِيْمِهِ ، وَآدابِهِ قَوْلاً وَعَمَلاً وَاعْتِقَاداً .

يَجِبُ أَنْ يَعْتَنِيْ بِذَلِكَ الآبَاءُ وَالمُصْلِحُونَ يَجِبُ أَنْ لاَ تُوْكَلَ تَرْبِيتُهم وَتَعْلِيْمُهُم وَتَهْذِيْبُهُمْ وَالإِشْرَاف عَلَيْهِم إلَّا لِمَنْ عُرِفَ بِصِحَّةِ العَقِيْدَةِ وَسَلاَمَةِ المَبْدَأ وَنَزَاهَةِ العِرْضِ وَالمُحَافَظَةِ عَلَى شَعَائِر الدِّيْن وَأَرْكَانِهِ فَمَا أَنْتُم إلَّا بِاللّهِ ثُمَّ بِنَشْئِكُم وَمَا النَّشْءُ إلَّا باللهِ ثُمَّ بالدِّيْنِ والأَخْلاَقِ .

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاَقُ مَا بَقِيَتْ
فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخَلاَقُهُم ذَهَبُوا

وَيَقُولُ الآخَرُ :
صَلاَحُ أَمْرِكَ لِلأَخْلاقِ مَرْجِعُهُ
فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالأَخْلاَقِ تَسْتَقِمِ

وَمَا الأَخْلاَقُ إلَّا بِالتَّرْبِيَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ الصَّحِيْحَةِ فَاتَّقُوا اللّهَ عِبَادَ اللّهِ في ثَمراتِ قُلُوبِكُم وَفَلَذَاتِ أَكْبَادِكُمْ لاَ تُهْمِلُوا تَربِيَتَهُمْ التَّرْبِيَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ ، وَلاَ تَتَسَاهَلُوا بِهَا فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللّهِ فَقَدْ أُلْقِيَتْ إِلَيْكُمْ مَقَالِيْدُهُمْ ، وَأَصْبَحْتُمْ رُعَاةَ أَمُورِهِمْ ، وَلاَ تَكِلُوا أَمْرَهُمْ إِلَى حَاضِنَةٍ وَلاَ مُرَبِّيَةٍ وَلا إِلَى مُعَلِّمٍ لَمْ تَتَأَكَّدُوا صِحَّةَ إِسْلاَمِهِ .

فَإِنَّهُم وُلِدُوا أَصْفِيَاءَ النُّفُوسِ قَابِلِيْنَ لِكُلِّ مَا أُلْقِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ ، فَإِنْ وُفِّقَ أَحَدُهُمْ فِيْمَنْ يُحْسِنُ تَرْبِيَتَهُ وَتَعْلِيْمَهُ ويغذيه بِلِبَانِ الدِّيْنِ ، وَيُحَبِّبُهُ لِسِيْرَةِ سَيِّدِ المُرْسَلِيْنَ ، شَبَّ حَسَنَ الاخْلاَقِ طَيِّبَ

النَّفْسِ ، مُتَمَسِّكاً بِدِيْنِهِ ، مُبْتَعِداً عَنِ الرَّذَائِلِ ، وَمُتَحَلِّياً بِالفَضَائِلِ ، نَافِعاً لِلأُمَّةِ .

وَإِلَّا فَسَيَشِبُّ خَبِيْثَ النَّفْسِ فَاسِدَ الاعْتِقَادِ سَيِّءَ الأَخْلَاقِ خَالٍ مِنَ الرُّوْحِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالتَّعَالِيْمِ النَّبَوِيَّةِ كلًا على نَفْسِهِ وَعَشِيْرَتِهِ وَشَقاءً وَشَرّاً عَلى مُجْتَمَعِهِ ، وَبَلَاءً .

فَاتَّقُوا اللّهَ عِبَادَ اللّهِ في أَوْلَادِكُمْ بَاعِدُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَنَاءِ السُّوْءِ وَفَاسِدِيْ الأَخْلَاقِ وَفَاقِدِيْ المُرُوءَةِ وَالشَّرَفِ ، وَمُرُوهُمْ بِمَا أُمِرْتُم بِهِ ، قَالَ الله تَعَالَى ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ وَأَخبَرَ عَنْ اسْمَاعِيْلَ فَقَالَ ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ الآيَةِ وَقَالَ حِكَايَةً عَنْ لُقْمَانَ وَهُوَ يُوْصِي ابْنَهُ ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ .

وانْهَوْهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ كَمَا أَخْبَرَ اللّهُ عَنْ لُقْمَانَ بَعْدَ مَا أَمَرَ ابْنَهُ بِأَشْيَاءَ نَهَاهُ عَنْ أَشْيَاءَ فَقَالَ ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيْرِ ﴾ .

وَقَالَ الشَّيْخُ عَلِيّ بْنُ حُسَيْنِ بْنِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُم اللهُ حينَ جلَوْ مِن الدِّرْعِيّةِ بَعْدَ اسْتِيْلَاءِ الاعْدَاءِ عَلَيْهَا سُقْنَاهَا لَعَلَّ المُسْلِمِيْنَ يَسْتَيْقِظُوا مِنْ رَقْدَتِهم وَيَرْجِعُوا إِلى اللهِ وَيَأْمُروا بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوا عَنْ المنكَرِ قَوْلا وَفِعْلاً وَيَخْشَوْا العُقوبَةَ الَّتي إِذَا جَاءت لا تَخصُّ الظَّالِمِيْنَ .

شِـعْراً :

خَلِيْلَيَّ عُـوْجَا عَنْ طَـرِيْقِ العَـوَاذِلِ
بِمَهْجُـورِ لَيْلَى فَـابْكِيَا في الْمَنَـازِلِ
لَعَـلَّ انْحِـدَارَ الـدَّمْـعِ يُعْقِبُ رَاحَـةً
مِنْ الوَجْدِ أَو يَشْفِيْ غَلِيْلَ البَلاَبِـلِ
أَرَى عَبْـرَةً غَبْـرَاءَ تَـتْبَـعُ أُخْتَهَـا
عَلى إِثْـرِ أُخْـرَى تَسْتَهِـلُّ بِـوَابِـلِ
تُهَيِّجُ ذِكْـرَاً لِـلأُمُـوْرِ التِي جَـرَتْ
تُشِيْبُ النَّـوَاصِي وَاللِّحَـا لِـلأَمَـاثِـلِ
وَتُسْقِطُ مِنْ بَـطْنِ الحَوامِـلِ حَمْلهَا
وَتُـذْهِـلُ أَخْيَـارَ النِّسَـاءِ المَـطَافِـلِ
فَبَيْنَـا نَسُـودُ النَّـاسَ والأَمْـرُ أَمْـرُنَـا
وَتَنْفُـذُ أحْكَـامٌ لَنَـا في القَبَـائِـلِ
وَتَخْفِـقُ رَايَـاتُ الجِهَـادِ شَهِـيْـرَةً
بِشَـرْقٍ وَغَـرْبٍ يَمْنَـةً وَشَمَـائِـلِ
تَبَـدَّلَتَ النَّعْمَـاءُ بُؤْسـاً وَأَصْبَحَتْ
طُـغَـاةٌ عُـتَـاةٌ مَـلْجَئـاً لِـلأَرَاذِلِ
وَبَثَّ عُتَاتُ الدِّيْنِ في الأَرْضِ بَغْيَهُم
وَرِيْعَتْ قُلُوبُ المُؤْمِنِيْنَ الـغَـوَافِـلِ
وَأَقْبَـلَ قَـادَاتُ الضَّـلاَلَـةِ وَالـرَّدَى
وَسَـادَاتُهَـا في عَسْكَـرٍ وَجَحَـافِـلِ

وَشُتِّتَ شَمْـلُ الـدِّيْنِ وَانْبَتَّ أَصْلُهُ
فَـأَضْحَى مُضَاعـاً كَالبُـدُوْرِ الأَوَافِـلِ
وَفَـرَّعَنِ الأَوْطَـانِ مَنْ كَـانَ قَـاطِنـاً
تَـرَاهُمْ فُرَادَى نَحْـوَ قِـطْرٍ وَسَـاحِـلِ
وَفُـرِّقَ شَمْـلٌ كَـانَ لِلْخَيْـرِ شَـامِـلاً
وَزَالَـتْ وُلَاةُ المُسْلِمِيْـنَ الأَعَـادِلِ
وَسَادَ شِرَارُ الخَلْقِ في الأَرْضِ بَعْدَهُمْ
وَدَارَتْ رَحىً لِـلأَرْذَلِيْنَ الأَسَـافِـلِ
فَـأَصْبَحَتِ الأَمْـوَالُ فِيْهِمْ نَهَـائِبـاً
وَأَضْحَتْ بِهَا الأَيْتَامُ خُمْصَ الحَوَاصِلِ
فَكَمْ دَمَّـرُوْا مِن مَسْكَنٍ كَـانَ آنِسـاً
وَكَـمْ خَـرَّبُـوْا مِن مَـرْبَـعٍ وَمَعَـاقِـلِ
وَكَمْ خَـرَّبُـوْا مِن مَسْجِـدٍ وَمَـدَارِسٍ
يُقَـامُ بِهَا ذِكْـرُ الضُّحَى والأَصَـائِـلِ
وَكَمْ قَـطَعُـوْا مِن بَـاسِقَـاتٍ نَـوَاعِمٍ
وَكَمْ أَغْلَقُوْا مِن مَـعْقَـلٍ وَمَـنَـازِلِ
وَكَمْ أَهْلَكُـوا حَـرْثـاً وَنَسْـلاً بِبَغْيِهِمْ
وَكَمْ أَيْتَمُـوْا طِفْـلاً بِغَـدْرٍ وَبَـاطِـلِ
وَكَمْ هَتَكُـوا سِتْـراً حَيِّـاً مُمَنَّعـاً
وَكَمْ كَشَفُوا حُجْبَ العَذَارَى العَقَائِلِ
وَكَمْ حَرَّقُوا مِن كُتْبِ عِلْمٍ وَحِكْمَـةٍ
وفِقْـهٍ وَتَـوْحِيـدٍ وَشَـرْحِ مَسَـائِلِ

وَكَمْ هَـدَمُـوْا سُـوْراً وَقَصْـراً مُشَيَّـداً
وَحِصْناً حَصِيْناً أَوْهَنُـوْا بـالمَعَـاوِلِ
وَكَمْ أَسَـرُوْا مِن حَاكِمٍ بَعْـدَ عَـالِمٍ
وَكَمْ زَلْـزَلُوْا مِنْ مُحْصَنَـاتٍ غَوَافِـلِ
وَكَمْ قَتَـلُوا مِنْ عُصْبَـةِ الحَقِ فِتْيَـةً
تُقَـاةً هُدَاةً في الـدُّجَى كَالمَشَـاعِلِ
يَـذُوْدُوْنَ عَن وِرْدِ الدَّنَـايَا نُفُـوسَهُمْ
وَيَسْعَـونَ جُهْـداً لإقْتِنَـاءِ الفَضَـائِـلِ
فَمَا بَعْدَهُمْ وَاللّهِ في العَيْشِ رَغْبَـةٌ
« لِذَى مُخْلِصٍ حُرٍّ كَرِيْمِ الشَّمَائِلِ »
مَضَـوْا وَانْقَضَتْ أَيَّامُهُمْ حِيْنَ أَوْرَثُـوا
ثَنَـاءً وَمَجْـداً كَـالهُـدَاةِ الأَوَائِـلِ
فَـوَا أَسَفـاً مِنْ فَقْـدِهِمْ وَفِـرَاقِهِمْ
وَوَاسَـوْءَتا مِنْ بَعْـدِ أَهْلِ الفَضَـائِلِ
فَجَـازَاهُمُ الـرَّبُّ الكَـرِيْمُ بِـرَحْمَـةٍ
تَعُمُّ عِـظَامـاً أُوْدِعَتْ في الجَنَـادِلِ
وَأَبْقَى لَهُمْ نَـصْـراً وَأَهْـلاً مُؤَثَّـلاً
يُعِـزُّ هُدَاةَ الدِّيْنِ بَـيْنَ الـجَحَـافِـلِ
لَـقَـدْ بَخِـلَتْ عَـيْنٌ تَظُنُّ بِـمَائِـهَـا
عَلى فَقْـدِهِمْ أو دَمْعُ عَيْنٍ تُهَـامِـلِ
فَقَدْ كُسِفَتْ شَمْسُ المَعَارِفِ بَعْدَهُمْ
وَسَـالَتْ جُفُونٌ بـالدُّمُـوعِ الهَوَاطِـلِ

فَكَمْ عَـاتِقٍ غَـرَّاءَ تَبْكِي بِشَجْوِهَا
وَأَرْمَـلَةٍ ثَـكْـلَى وَحُـبْـلَى وَحَـائِـلِ
يَـنُـحْـنَ بِـأَكْـبَـادٍ حِـرَارٍ وَعَـبْـرَةٍ
وَيَكْـظِمْنَ غَيْظاً فِي الجَـوانِبِ دَاخِل
يُـرَجِّعْنَ أَلْحَـانَ التَّعَـزِّيْ بِحُـرْقَـةٍ
وَيُـظْهِرْنَ صَبْـراً عَنْ شُمَـاةٍ وَعَـاذِلِ
فَلَوْ شَهِـدَتْ عَيْنَـاكَ يَـوْمَ رَحِيْلِهِمْ
عَنْ المَسْكَنِ الأعْلَى الرَّفِيْعِ المَنَازِلِ
وَفُـرِّقَتْ الأَحْبَـابُ فِي كُـلِّ قَـرْيَـةٍ
وَسَـارَ بِهِمْ حِـزْبُ العَـدُوِّ المُـزَايِـلِ
يَسُـوقُـوْنَهُمْ سَـوْقـاً عَنِيْفـاً بِشِـدَّةٍ
وَيُـزْجُـوْنَ أَشْيَـاخـاً بِتِلْكَ القَـوَافِـلِ
لَذَابَتْ جُفُون العَيْنِ وَاحْتَـرَقَ الحَشَا
وَسَـالَتْ خُدُوْدٌ بِـالدُّمُـوعِ السَّوَائِـلِ
فَقَدْ عَاثَت الأَحْـزَابُ فِي الأَرْضِ بَعْدَهُمْ
بِـكُـلِّ مكَـانٍ نَـاصِبِـيْـنَ الـحَـبَـائِـلِ
فَكَمْ غَـارَةٍ غَبْـرَاءَ يُكْـرَهُ وِرْدُهَـا
عَلَى إِثْـرِ أُخْرَى بَيْنَ تِلْكَ القَبَـائِـلِ
وَكَمْ فِتْنَـةٍ كُبْـرَى تُتَـابِـعُ أُخْتَهَـا
عَلَى إِثْرِ صُغْرَى مِنْ قَتِيْـلٍ وَقَاتِـلِ
تَـرَى خَيْلَهُم فِي كُـلِّ يَـوْمٍ مُغِيْـرَةً
عَلَى دَاخِـلٍ أَو خَارِجٍ أَوْ مُسَـابِـلِ

عَسَى وَعَسَى أَنْ يَنْصُـرَ اللهُ دِيْنَنَـا
وَيَجْبُـرَ كَسْراً مُثْقَـلاً بـالحَبَـايِـلِ
وَيَعْمُـرَ لِلسَّمْحَـاءِ رُبُـوعـاً تَهَـدَّمَتْ
وَيُعْلِي مَنَـاراً لِلْهُـدَى غَيْـرَ زَائِـلِ
فَيَـظْهَـرُ نُـوْرُ الحَقّ يَعْلُو سَنَـاؤُهُ
فَيُضْحِيْ ظَلامُ الشِّرْكِ وَالشَّكّ زَائِل
وَيَكْسِـرَ أَعْـلاَمَ الـضَّـلاَلَـةِ إِنَّـهُ
قَـرِيْبٌ مُجِيْبٌ مُسْتَجِيْبٌ لِسَـائِـلِ
وَيَـطْمِسَ آثَـارَ الفَسَـادِ بِـدِيْـمَـةٍ
مِنْ النَّصْـرِ هَتَّـانِ الجَـوانِبِ وَابِـلِ
فَيَنْبُتُ زَرْعُ الحَقِّ أَخْـرَجَ شطأة
مُسِحّـاً بِخَيْرٍ لِلثِّمَـارِ الحَـوَاصِـلِ
إِلَـهِيْ فَـحَقِّـقْ ذَا الـرَّجَـاءَفَـإِنَّنَـا
عَبِيْـدُكَ تُبْنَـا لَسْتَ عَـنَّـا بِغَافِلِ
أَغِثْنَـا أَغِثْنَـا وَارْفَـعِ الضُّـرَّ وَالبَـلاَ
بِعَفْـوِكَ عَـنَّـا يَـا قَـرِيْبٌ لآمِـلِ
فَـإِنْ لَمْ تُغِثْنَـا يَـا قَـرِيْبُ فَمَنْ لَنَـا
لِنَقصُـدَ في دَفْـعِ الأُمُـوْرِ الثَّقَـائِـلِ
إِلَيْـكَ أَنَبْنَا فَـاغْفِـرْ الـذنْبَ والخَـطَا
إِلَيْكَ رَجَعْنَا فَـارْجِعِ الخَيْـرَ كَامِـلِ
فَقَـدْ سَامَنَـا الأَعْدَاءُ سَـوْمـاً مُبَـرِّحـاً
بِقَتْـلٍ وَأَسْـرٍ مُـوْثَقـاً بـالحَبَـائِـلِ

عَلى غَيْـرِ جُرْمٍ غَيْـرِ تَـوْحِيْـدِ رَبّنـا
وَهَـدْمِ قِبَـابِ المُشْـرِكِيْنَ الأَبَـاطِـلِ
وَأَمْـرٍ بِـمَعْـرُوْفٍ وإِنْـكَـارِ مُنْـكَـرٍ
وَفِعْـلِ صَلاَةٍ في الجَمَـاعَةِ حَـافِلِ
وَأَخْـذِ زَكَـاةِ المَـالِ فَـرْضَـاً مُؤَكَّـداً
يُـرَدُّ لِـذِي فَقْـرٍ وَغُـرْمٍ وَعَـامِـلِ
وَحَـجٍ وَتَـقْـوِيْـمِ الـجِـهَـادِ لأَنَّـهُ
أَمَـانٌ وَعِـزُ عَـنْ مَـذَلَّـةِ خَـاذِلِ
إِذَا مَـا مَـلَكْنَـا قَـرْيَـةً أَوْ قَـبِيْـلَةً
أَقَمْنَـا بِهَـا شَـرْعَ الهُـدَاةِ الكَـوَامِـلِ
فَنَهْـدِمُ أَوْثَـانـاً وَنَبْنِـي مَسَـاجِـداً
وَنَكْسِـرُ مِـزْمَـاراً وَطَبْـلاً لِجَـاهِـلِ
وَنَقْـطَعُ سُـرَّاقـاً وَنَـرْجُـمُ مُحْصَنـاً
وَنَجْلِدُ سَكْـرَانـاً بِنَصّ الـرَّسَـائِـلِ
نَكُفُّ ظُلُومَ البَـدْوِ والحَضْرِ إِنْ غَـدَا
يُغِيْـرُ عَلَى حَقّ الضِّعَـافِ الأَرَامِـلِ
وَنَتْبَـعُ آثَـارَ الـرَّسُـولِ وَصَـحْبِـهِ
مَـعَ السَّلَفِ البِـرّ التُّقَـاةِ الأَفَـاضِـلِ
كَـأَحْمَدَ والنُّعْمَـانِ قُـلْ لِيْ وَمَـالِـكٍ
كَذَا الشافِعِي رُكْنِ الحـديثِ وَنَاقِـلِ
فَمَــاذَا عَلَيْنَــا إِذْ سَلَكْنَــا سَبِيْلَهُـمْ
بِقَـوْلٍ وَفِعْـلٍ مُسْعِـدٍ فَنُـوَاصِـلِ

أَلَا أَيُّهَـا الإِخْـوَانُ صَبْـراً فَـإِنَّنِي
أَرَى الصَّبْرَ لِلْمَقْدُوْرِ خَيْـرَ الوَسَـائِلِ
وَلَا تَيْأَسُوْا مِنْ كَشْفِ ذَا الكَرْبِ وَالبَلَا
فَذُوْ العَرْشِ فَرَّاجُ الأُمُوْرِ الجَـلَائِلِ
عُيُـونُ القَضَـا لَيْسَتْ نِيَـاماً وَسَهْمُـهُ
مُصِيْبٌ فَمَا يُخْطِيْ عُيُـونَ المَقَاتِـلِ
فَـطُوبَى لِعَبْـدٍ قَـامَ لِلهِ مُـخْلِصـاً
تَـرَنَّـمَ فِي مِـحْـرَابِـهِ مُتَمَـايِـلِ
يَمُـدُّ يَـدَيْـهِ سَـائِـلاً مُتَضَـرِّعـاً
لِـرَبٍّ قَـرِيْـبٍ بِـالإِجَـابَـةِ كَـافِـلِ
فَجَاءَتْ سِهَامُ اللَّيْـلِ تَهْوِيْ بِسُـرْعَةٍ
إِلى ظَـالِمٍ عَنْ ظُلْمِـهِ مُتَغَـافِـلِ
أَصَابَتْ نِيَاطَ القَلْبِ فِي وَسْطِ نَحْرِهِ
فَـآبَ بِـخُسْـرَانٍ وَحَـرِّ بَـلَابِـلِ
فَقُمْ قَـارِعـاً لِلْبَـابِ والنَّـابِ نَـادِماً
عَلى مَا جَرَى وَأَقْبِـلْ عَلَيهِ وَسَـائِلِ
وَأَمَّـا بَنُـوْ الـدُّنْيَـا فَـلَا تَـرْجُ نَفْعَهُمْ
فَـلَا مُـرْتَقَى مِنْهُمْ يُـرَجَّى لِنَـازِلِ
فَـإِنِّـي تَتَبعْـتُ الأَنَـامَ فَلَمْ أَجِـدْ
سِـوَى حَاسِـدٍ أَوْ شَامِتٍ أَوْ مُعَـاذِلِ
فَلَمْ أَرَى أَنْكَى لِلْعَـدُوِّ مِنَ الـدُّعَـا
كَـرَمْيٍ بِنَبْـلٍ أُوْتِـرَتْ بِـالمَنَـاصِلِ

فَـلاَ تَدْعُ غَيْـرَ اللهِ في كُلِّ حَـالَـةٍ
وَخَـلِّ جَمِيْـعَ الخَلْقِ طُـراً وَعَـازِلِ
سَأَلْتُكَ يَـا ذَا الجُوْدِ وَالمَنِّ والعَـطَا
تَجُـودُ وَتَعْفُـوْ عن عُبَيْـدِكَ يَـاوَلِي
وَتُـرْسِـلَ طَـاعُـونـاً وَرِجْـزاً وَنِقْمَـةً
وَطَعْنـاً لِـطَعَّـانٍ وَقَتْـلاً لِقَـاتِـلِ
يَعُم لِأَحْـزَابِ الضَّـلاَلِ وَصَحْبِهِـمْ
بِسَـوْطِ عَذَابٍ عَـاجِـلٍ غَيْـرِ آجِـلِ
فَـإِنَّـكَ قَهَّـارٌ على كُـلِّ قَـاهِـرٍ
وَأَمْـرُكَ غَـلاَّبٌ لِكُـلِّ مُحَـاوِلِ
وَأَزْكَى صَـلاَةً لاَ تَنَاهَى عَلَى الـذِيْ
لَـهُ انْشَقَّ إِيـوانٌ لِكِسْـرَى بِبَـابِـلِ
مُحَمَّـدٍ والأَصْحَابِ مَـا هَبَّتِ الصَّبَـا
وَآلِ رَسُـولِ اللهِ زَيْنِ المَحَـافِـلِ

اللهم أبْرِمْ لِهَذِهِ الأُمَّةَ أَمْرَ رُشْدٍ يُعَزُّ فِيْهِ أَهْلُ طَاعَتِكَ وَيُذَلُّ فيه أَهْلُ مَعْصِيَتِكَ وَيُؤْمَرُ فِيْهِ بالمَعْرُوْفِ وَيُنْهَى فِيْهِ عن المنكرِ وَيُزَالُ بِهِ ما حَدَثَ مِن بِـدَعٍ وَمُنْكَرَاتٍ وَمَعَاصِي ويُحْيَا بِهِ بَدَلُهَا مَا أُمِيْتَ مِن سُنَّةٍ وَغَيْرَةٍ وَشِيْمَةٍ كَرِيْمَةٍ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر وبالإِجابَةِ جَدِيْر وصلى اللهُ على محمد وعلى آلِهِ وَصحبهِ أجمعين .

(فَصْــلٌ)

وكانَ صَلى اللهُ عليه وسلم مُتَواضِعاً كَانَ يَرْكَبُ الحِمَارَ وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ فَقَدْ أَرْدَفَ بَعْضَ نِسَائِهِ وَأَرْدَفَ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ عليه الصلاةُ والسلامُ كانَ في سَفَرٍ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ باصْلَاحِ شَاةٍ فقالَ رَجُلٌ ، يَا رَسُولَ اللهِ عَلَيَّ ذَبْحُهَا وقال آخرُ عَلَيَّ سَلْخُهَا وقال آخرُ عَلَيَّ طَبْخُهَا .

فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم وَعَليَّ جَمْعُ الحَطَبِ فقالُوا يَا رَسُولَ اللهِ نَكْفِيْكَ العَمَلَ فقال عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تَكْفُونَنِيْ وَلَكِنْ أَكْرَهُ أَنْ أَتَمَيَّزَ عَلَيْكُمْ ، وإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكْرَهُ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَراهُ مُتَمَيِّزاً بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، وَقَدْ جَاءَ وَفْدُ النَّجَاشِي فَقَام صَلَى اللهُ عليه وسلم يَخْدِمُهُم فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ نَكْفِيْكَ ، قال إِنَّهُم كَانُوا لِاصْحَابِنَا مُكْرِمِيْنَ ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أُكَافِئَهُمْ .

وَعن ابْنِ عُمَرَ قال أَتَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم صَاحِبَ بز فاشْتَرى مِنْهُ قَمِيْصاً بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ فَخَرَجَ وَهُوَ عليهِ ، فإِذَا رَجُلٌ مِن الأَنْصَارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ اكْسِنِيْ قَمِيْصاً كَسَاكَ اللهُ مِن ثِيَابِ الجَنَّةِ فَنَزَعَ القَمِيْصَ فَكَسَاهُ إِيَّاهُ ثُم رَجَعَ إِلى صَاحِبِ الحَانُوتِ فاشْتَرَى مِنْهُ قَمِيْصاً بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ وَبَقِيَ مَعَهُ دِرْهَمانِ ، فَإِذَا هُوَ بِجَارِيَةٍ تَمْشِيْ في الطَّرِيْقِ تَبْكِيْ فَقَالَ مَا يُبْكِيْكِ قَالَتْ يَا رَسُوْلَ اللهِ دَفَعَ إِليَّ أَهْلِي دِرْهَمَيْن اشْتَرِي بِهِمَا دَقِيْقاً فَهَلَكَا فَدَفَعَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم إِلَيْهَا الدِرْهَمَيْنِ البَاقِيَيْنِ .

ثُمَّ وَلَّتْ وَهِيَ تَبْكِيْ فَدَعَاهَا فَقَالَ مَا يُبْكِيْكِ وَقَدْ أَخَذْتِ الدِّرْهَمَيْنِ فَقَالَتْ أَخَافُ أَنْ يَضْرِبُوْنِيْ فَمَشَى مَعَهَا إِلى أَهْلِهَا فَسَلَّمَ فَعَرَفُوا صَوْتَهُ ثُمَّ

عَادَ فَسَلَّمَ ثُمَّ عَادَ فَثَلَّثَ فَرَدُّوْا .

فَقَالَ أَمَا سَمِعْتُمْ أَوَّلَ السَّلَامِ فَقَالُوا نَعمْ وَلَكِنْ أَحْبَبْنَا أَنْ تَزِيْدَنَا مِن السَّلامِ فَمَا أَشْخَصَكَ بِأَبِيْنَا وَأُمِّنَا قَالَ أَشْفَقَت هَذِهِ الجَارِيَةُ أَنْ تَضْرِبُوْهَا .

قَالَ صَاحِبَهَا هِيَ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ لِمَمْشَاكَ مَعَهَا فَبَشَرَهُمْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالخَيْرِ وبالجَنةِ .

وقال لَقَدْ بَارَكَ اللهُ في العَشَرةِ كَسَا اللهُ نَبِيَّهُ قَمِيْصاً وَرَجُلاً مِن الأَنصارِ قَمِيْصاً وَأَعْتَقَ مِنْهَا رَقَبَةً وَأَحْمَدُ اللهَ هُوَ الذي رَزَقَنَا هَذَا بِقُدْرَتِهِ أَخْرَجَه الطبرانيُّ كَمَا في مَجْمَعِ الزوائد في ٩ ص ١٣ .

فَهَذَا الحَدِيْثُ يَشْهَدُ لِتَواضُعِهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم وَسَمَاحَتِهِ وَرَحْمَتِه وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِن إِمَاءِ المَدِيْنَةِ لتَأْخُذُ بِيَدِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ رواهُ البخاري .

وعن الأَسوْدِ بنِ يَزِيْدٍ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها ما كانَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم يَصْنَعُ في بَيْتِهِ قالَتْ كَان يَكُونُ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ ، يَعْنِيْ خِدْمَةِ أَهْلِهِ فإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ خَرَجَ إلى الصلاةِ رواه البخاري .

وَدَخَلَ الحَسَنُ والنبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يُصَلِّيْ فَرَكِبَ الحَسَنُ ظَهْرَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَبْطأَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم في سُجُودِهِ فَلَمَّا فَرَغَ قال لَهُ بَعْضُ أَصْحابه لَقَدْ أَطَلْتَ سُجُوْدَكَ قالَ إن ابْنِي ارْتَحلَنِيْ فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ .

وَكَان صَلى اللهُ عليه وسلم يُبَاسِطُ أَصْحَابَهُ وقالَتْ عائشةُ رضي اللهُ عنها كان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذا خَلاَ في بَيْتِهِ أَلْيَنَ الناسِ بَسَّاماً ضَحَّاكاً .

وعن البَرَاءِ بنِ عازِبٍ رضي اللهُ عنه قال رأيت رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَوْمَ الأحزابِ يَنْقُلُ التُّرابَ وقَدْ وَارَى البَيَاضُ بَيَاضَ بَطْنِهِ .

وعن أنسٍ رضي اللهُ عنه قال كانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَعودُ المريضَ وَيَشْهَدُ الجَنَائِزَ ويَأتي دَعْوَةَ المَمْلُوكِ وَيَرْكَبُ الحِمَارَ وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يوماً على حِمَارٍ خِطَامُهُ لِيْفٌ .

وعن أنس رضي اللهُ عنه ما كانَ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِن رَسُول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوْا لِمَا يَعْلَمُونَ مِن كرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ .

وَعن الحسنِ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّهُ ذَكَرَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالَ لا وَاللهِ مَا كَانَ يُغْلَقُ دُوْنَهُ الأَبْوَابُ ولا يَقُوْمُ دُوْنَهُ الحِجَابُ ، ولا يُغْدَى عَلَيْهِ بالجِفَانِ ولا يُرَاحُ عليه بِهَا ولَكِنَّهُ كان بَارِزاً مَنْ أَرادَ أنْ يَلْقَى نَبِيَّ اللهِ لَقِيَهُ كانَ يَجْلِسُ بالأَرْضِ وَيُوْضَعُ طَعَامُهُ بالأَرْضِ وَيَلْبَسُ الغَلِيْظَ وَيَرْكَبُ الحِمَارَ وَيُرْدِفُ بَعْدَهُ وَيَلْعَقُ واللهِ يَدَهُ صلى اللهُ عليه وسلم .

وعن قُبَيْس بنِ أَبِي حَازِمٍ أنَّ رَجُلاً أَتَى النبيَّ صَلى اللهُ عليه وسلم فلَمَّا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ اسْتَقْبَلَتْهُ رِعْدَةٌ فقالَ لَهُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ مَلِكاً إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِن قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأكُلُ القَدِيْدَ .

وَإِنَّمَا قالَ ذَلِكَ صَلَواتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ حَسْماً لِمَوادِّ الكِبْرِ وَقَطْعاً لِذَرائِعِ الاعْجَابِ وكَسْراً لِأَشَرِ النَّفْسِ وَبَطَرِهَا وتذليلاً لِسَطْوَةِ الاسْتِعْلاَءِ وهَذَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه كانَ قَبْلَ أَنْ يَتولَّى الخِلاَفَةَ يَحْلِبُ لِلضُّعَفاءِ مِمَّنْ حَوْلَهُ أَغْنَامَهُمْ فَلَمَّا وَلِيَ الخِلاَفَةَ سَمِعَ جَارِيَةً تَقُولُ اليَوْمَ لاَ تُحْلَبُ لَنا مَنَائِحُ دَارِنَا فَسَمِعَهَا فقالَ بَلَى لَعَمْرِي لَأَحْلُبَنَّهَا لَكُم فَكَانَ يَحْلِبُهَا وَرُبَّمَا سَأَلَ صَاحِبَتَهَا يَا جَارِيَةُ أَتُحِبِّينَ أَنْ أُرْغِيَ لَكِ أَمْ أُصَرِّحْ فَرُبَّمَا قَالَتْ أَرْغِ وَرُبَّمَا قالَتْ صَرِّحْ فَأَيُّ ذَلِكَ قالَتْ فَعَلْ .

وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ نَادَى الصَّلاَةُ جَامِعَة فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ صَعِدَ المِنْبَرَ فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى على النبي صلى اللهُ عليه وسلم .

ثُمَّ قالَ أَيُّهَا الناسُ لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَرْعَى عَلَى خَالاتٍ لِيْ مِن بَنِي مَخْزُوْمٍ فَيَقْبِضْنَ لِيْ القَبْضَةَ مِنَ التَّمْرِ والزَّبِيْبِ فَأَظَلُ اليَوْمَ وَأَيُّ يومٍ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمنِ واللهِ يَا أَمِيرَ المؤمِنِينَ مَا زِدْتَ على أَنْ قَصَّرْتَ بِنَفْسِكَ فَقَالَ وَيْحَكَ يا ابْنَ عَوْفٍ إِنِّي خَلَوْتُ فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِيْ فَقَالَتْ أَنْتَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ فَمَنْ أَفْضَلُ مِنْكَ فَأَرَدْتُ أَنْ أُعَرِفَّهَا نَفْسَهَا .

شِعْراً :

تَوَاضَعْ لِرَبِّ العَرْشِ عَلَّكَ تُرْفَعُ
فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَخْضَعُ
وَدَاوِ بِذِكْرِ اللَّهِ قَلْبَكَ إِنَّهُ
لَأَشْفَى دَوَاءً لِلْقُلُوبِ وَأَنْفَعُ

آخـرُ :

تَـواضَـعْ تَكُنْ كـالـنَّجْم لاحَ لِنَـاظِـرٍ
عَـلى صَفَحَـاتِ الـمَـاءِ وَهُـوَ رَفِـيْـعُ
ولا تَـكُ كَـالـدُّخَـانِ يَـرْفَـعُ نَـفْسَـهُ
إلـى طَـبَـقَـاتِ الـجَـوِّ وَهُـوَ وَضِـيْـعُ

وعن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لَوْ دُعِيْتُ إلى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ ولَو أُهْدِيَ إلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ .

وعن أَبي أوْفَى قال كانَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لا يَأْنَفُ وَلاَ يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَمْشِي مَعَ الأَرْمَلَةِ والمِسْكِيْن فيَقْضِي لَهُ حَاجَتَهُ وعن أنس رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ امرأةً كان في عَقْلِهَا شيءٌ فَقَالَتْ يا رسولَ اللهِ إنَّ لِيْ إلَيْكَ حاجَةً قَالَ يَا أمَّ فُلاَنٍ خُذِيْ في أَيِّ طَرِيْقٍ شِئْتِ قُوْمِيْ حَتَّى أَقومَ مَعَكِ فَخَلاَ مَعَهَا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُنَاجِيْهَا حَتَّى قَضَى حَاجَتَهَا .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَبِي ذَرٍّ قَالا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلم يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ فَيَجِيْءُ الغَرِيْبُ فلا يَدْرِيْ أَيُّهمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ فَطَلَبْنَا إلَى رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم أنْ يَجْعَلَ مَجْلِساً يَعْرِفُهُ الغرِيْبُ إذا أَتَاهُ فَبَنَيْنَا لَهُ دُكّاناً مِنْ طِيْنٍ فكانَ يَجْلِسُ عَلَيْهِ وَنَجْلِسُ بِجَانِبَيْهِ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ كُلْ جَعَلَنِيَ اللهُ فِدَاكَ مُتَّكِئاً فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكَ قال لاَ بَلْ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ وأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ .

وَعَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم جَاءَنِي مَلَكٌ فَقَالَ إِنَّ رَبَّكَ يُقْرِئُكَ السَّلامَ وَيَقُولُ إِنْ شِئْتَ نَبِيّاً عَبْداً وَإِنْ شِئْتَ نَبِيّاً مَلِكاً فَنظَرْتُ إِلى جِبْرِيْلَ فَأَشَارَ لِيْ أَنْ ضَعْ نَفْسَكَ فَقُلْتُ نَبِيّاً عَبْداً . وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِيْ أَوْفَى قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ يُكْثِرُ الذِّكْرَ وَيُقِلُّ اللّغْوَ وَيُطِيْلُ الصَّلاةَ وَيُقَصِّرُ الخُطْبَةَ وَلاَ يَأْنَفُ ولاَ يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَمْشِيْ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِيْنِ يَقْضِيْ لَهُمَا حَاجَتَهُمَا .

وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ فِي عِصَابَةٍ مِن المُهَاجِرِينَ جَالِساً وَإِنَّ بَعْضَهُم يَسْتَتِرُ بِبَعْضٍ مِن العُرْي وَقَارِىءٌ لَنَا يَقْرَأُ عَلَيْنَا فَكُنَّا نَسْتَمِعُ إِلى كِتَابِ اللهِ فقَالَ النَّبِيُّ صَلى اللهُ عليهِ وَسلم الحَمْدُ لِلّهِ الذيْ جَعَلَ مِنْ أُمَّتِيْ مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أُصَبِّرَ مَعَهُمْ نَفْسِيْ ثُمَّ جلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسلم وَسْطَنَا لِيَعْدِلَ بَيْنَنَا بِنَفْسِهِ فَقَالَ أَبْشِرُوا مَعَاشِرَ صَعَالِيْكِ المُهَاجِرِيْنَ بالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَذَلِكَ خَمْسُمائةِ عام .

ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم

شِـعْرَاً :

إِلَيْـكَ رَسُـولَ اللّهِ مِـنَّـا تَحِيَّـةً
وَصَلَّى عَلَيْـكَ العَـابِـدُ المُتَهجِّـدُ
فَـأَنْتَ رَسُـولُ اللّهِ هَـادٍ وَمُـهْتَـدٍ
نَـبِيٌّ هُـدَىً لِـلأَنْـبِيَـاءِ مُـؤَيَّـدُ
وَقَدْ قَالَ حَسَّـانٌ وفي الشِّعْرِ شَاهِدٌ
تُـجَـدِّدُهُ الأَيَّـامُ يُـرْوَى وَيُـنْشَـدُ

أَغَـرُّ عَـلَيْـهِ لِـلْنُّبـوَّةِ خَـاتَـمٌ
مِـن اللّهِ مَـشْهُـوْدٌ يَـلُوْحُ وَيُشْـهَـدُ

وَضَمَّ الإلـهُ اسْمَ النَّبِيّ إِلَى اسْمِـهِ
إِذَا قَالَ فِي الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

فَقُلْتُ شَبِيْهـاً بِـالـذِيْ قَـالَ إِنَّنِيْ
بِـهِ مُؤْمِناً حَقّـاً لِـرَبِّيْ مُـوَحِّـدُ

فَـلاَ يُقْبَلُ التَّـوْحِيْدُ إِلَّا بِـذِكْرِهِ
لِيَقْـرِنَـهُ عِنْـدَ النِّـدَاءِ المُـوَحِّـدُ

وَمَـا جَاءَ يَـدْعُونَـا بِغَيْرِ دَلاَلَـةٍ
وَلَكِـنْ بِـآيَـاتٍ تَـدُلُّ وَتَـشْـهَـدُ

وَمِنْ ذَاكَ جِذْعٌ حَنَّ شَوْقاً إِلَى الرِّضَى
وَمَـا زَالَ سَـاعَـاتٍ يَمِيْلُ وَيُسْنَـدُ

وَقَدْ سَمِعُوا صَوْتاً مِن الجِذْعِ بَيِّناً
فَيَـا عَجَبـاً مِمَّنْ يَشُـكُّ وَيُلْحِـدُ

وَمِنْ ذَاكَ شَـاةٌ خِلْوَةُ الضَّرْعِ مَسَّهَـا
فَـدَرَّتْ بِغَـزْرٍ حَـافِـلٍ يَتَـزَبَّـدُ

فَقَـامَ إِلَيْهَـا الحَـالِبَـانِ فَـأَتْـرَعَـا
أَوَانِيْهِمَـا وَالضَّـرْعُ مَـلآنَ أَبْـرَدُ

وَسَـارَ إِلى البَيْتِ المقَـدَّسِ لَـيْلَةً
مَسِيْـرَةَ شَهْـرٍ وَارِداً لَـيْس يُـطْرَدُ

يُخَبِّـرُ بـالعِيْـرِ التِيْ فِي طَـرِيْقِـهِ
لِيُـوقِنَ أَهْـلُ الشِّـرْكِ ذَاكَ فَيَسْعَـدُوا

وَمِنْ ذَاكَ أَخْبَارٌ عَن الغَيْبِ قَالَهَا
يُعَايَنُ مِنْهَا الصِّدْقُ فِيْهَا وَيُوْجِدُ
فَسُؤْدَدُهُ بِاللهِ اذْ كَانَ وَحْيُهُ
إلَيْهِ وَهَلْ فَوْقَ النُّبُوَّةِ سُؤْدَدُ
فَأَظْهَرَ بالإِسْلامِ دَعْوَةَ صَادِقٍ
فَضَلَّ بِهِ قَوْمٌ وَقَوْمٌ بِه هُدُوا
تُسَلِّمُ أَحْجَارٌ عَلَيْهِ فَصِيْحَةً
إذَا مَا خَلا في حَاجَةٍ يَتَفَرَّدُ
وَيُسْمَعُ مِنْ أَصْوَاتِهَا في طَرِيْقِهِ
تُمَجِّدُه إنَّ النَّبِيَّ مُمَجَّدُ
وَأَنْشَأَ رَبِّيْ مُزْنَةً فَوْقَ رَأْسِهِ
رَآهَا بُحَيْرُ الرَّاهِبُ المُتَعَبِّدُ
تُظَلِّلُهُ مِنْ كُلِّ حَرٍّ يُصِيْبُهُ
تُقِيْمُ عليهِ مَا أَقَامَ فَيَرْكُدُ
وَإنْ سَارَ سَارَتْ لا تُفَارِقُ رَأْسَهُ
فقَالَ لهُم هَذا النَّبِيُّ مُحَمَّدُ
حَلِيْمٌ رَحِيْمٌ لَيِّنٌ مُتَوَاضِعٌ
سَخِيٌّ حَيِيٌّ عَابِدٌ مُتَزَهِّدُ

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ إنَّا نَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ وَصِفَاتِكَ العُلَى أَنْ تُعْتِقَ رِقَابَنَا وَرِقَابَ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا مِن النَّارِ وَالدَّيْنِ وَالمَظَالِمِ يَا عَزِيْز يَا غَفَّارُ يَا كَرِيْمُ يَا سَتَّارُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فهرس الجزء الثاني

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة
من ثمرات الخوف، مقدمات الخوف	٨٧/٨٦
القدر الواجب من الخوف والقدر النافع والمذموم	٨٨
آيات وأحاديث في الخوف	٩٢/٩٠
موعظة بليغة مشهد من مشاهد القيامة	٩٤/٩٣
هيأة الناس في المحشر وما يبلغ عرقهم ومسافة قعر جهنم	٩٥
ما ورد في فضل الخوف وذكر مقامات الخوف وأقسام الخائفين	٩٧/٩٦
فصل في الحث على التيقض وترك الغفلة والرجاء للمحسن لا الجزم له بالجنة إلا من شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم	١٠٠/٩٨
طلب معاوية من ضرار بن حمزة أن يصف له علي بن أبي طالب	١٠٢/١٠١
ذكر بعض أحوال الخائفين	١٠٣
فائدة جليلة من كلام شيخ الاسلام وابن القيم	١٠٥
لشهادة أن لا إله إلا الله تأثير عظيم عند الموت	١١٠
قصيدة زهدية تحت على الاستعداد للموت	١١٣/١١٢
موعظة بليغة تحث على الاستعداد للآخرة	١١٥/١١٣
قصيدة وعظية زهدية	١١٧/١١٦
فصل في الرجاء تعريفه ومقدماته	١١٨
الدنيا مزرعة الآخرة فمن زرع خيراً وجده وتوضيح أن الرجاء الصحيح ما كان مقروناً بالأسباب	١١٩
موعظة بليغة في الحث على الصلاة	١٢١/١٢٠
أحاديث وردت في الرجاء وآيات ألق لها سمعك	١٢٧/١٢٦
قصيدة بليغة وعظية زهدية تنعى على من ضيع وقته وتحفز الهمم إلى	

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة
الصلاة على الميت وشروطها وأركانها... الخ	٢٩٦
الدعاء في الصلاة على الميت وكونها جماعة أفضل	٢٩٧
تكون الصفوف ثلاثة أو أزيد ومدة الصلاة عليه بعد دفنه	٢٩٨
الصلاة على الغائب والأولى بالصلاة على الميت وصفة الصفوف إذا كانوا رجالاً وصبياناً ونساء وموقف الامام من الجنازة وإذا وجد بعض ميت وما يفعله المسبوق في الصلاة على الميت	٢٩٩/٢٩٨
إذا وجد بعض ميت بعد ما صلى عليه وانه لا يصلى على من في البلد في النية لأنه يمكن حضوره للصلاة عليه ولا يصلى على كل غائب ولا يصلي الامام على الغال من الغنيمة ولا على قاتل نفسه	٣٠٢
صفة حمل الميت وحكم اتباع جنازته للراجل والراكب	٣٠٢
حكم اتباع النساء للجنائز وحكم القيام للجنازة	٣٠٣
قصيدة زهدية وعظية بليغة جداً جرسها يهز القلوب	٣٠٩/٣٠٤
الثناء على الميت بخير أو شر دليل على حال الانسان	٣١٠
القبر والوضع فيه وما يتعلق بذلك	٣١٤/٣١٣
قصيدة تضرع الى الله	٣١٦/٣١٤
حكم إسراج القبور والتجصيص والبناء وما إلى ذلك	٣١٨/٣١٧
زيارة القبور وما يقوله الزائر وزيارة النساء لها	٣٢٠/٣١٩
التعزية وما يتعلق بها وما يقال فيها وما يجاب به المعزي	٣٢٢/٣٢١
من صور التعزية التي وردت عن بعض السلف	من ٣٢٣
النياحة على الميت والبكاء والندب	إلى ٣٣٢
وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وما جرى بعدها وحالة الصحابة	

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	ص
جواب عمر لمسلمة عندما قال له أفقرت أفواه ولدك كلام عمر لابنه عبد الملك وهو مريض وما قال بعد موت ابنه ووصية عمر لمن أراد أن يصحبه	٦٣٥/٦٣٤
بنات عمر لا يجدن عشاء إلا بصلا وجواب عمر لعنبسه في طلبه منه تنفيذ ما أمر له به وذكر شيء من ورعه وزهده	٦٣٨/٦٣٦
إعلان عمر الجوائز لمن يدله على الخير وطلبه من عبد الله بن الشخير والحسن البصري يطلب منهما الوعظ له والجواب على ذلك وقصة المرأة العراقية	٦٤١/٦٣٩
عطاء يرسل الى زوجة عمر يسألها عن عمر وشؤنه في وقته وكيف يقضيه	٦٤٢/٦٤١
من لطف الله بعمر أن قيض له أبناً يعينه على طاعة الله	٦٤٤/٦٤٣
موعظة في الحث على الاستعداد للرحيل إلى القبور	٦٤٦/٦٤٥
أبو مسلم الخولان يصدع بالحق أمام معاوية ولا يبالي بغضب معاوية ..	٦٤٨/٦٤٧
صفة الامام العادل للحسن البصري	٦٤٩/٦٤٨
فصل في مآل الانسان ومصيره وبعد قصيدة بليغة في مصير الانسان وحالته عند الاحتضار وبعد خروج روحه	٦٥١/٦٥٠
قصيدة زهدية في الحث على الاستعداد للموت	٦٥٥/٦٥٢
ذكر بعض أبيات مكتوبة على قبور	٦٥٧/٦٥٦
قصيدة تتضمن بيان مفاتيح الخير والشر ويليها موعظة بليغة	٦٦٣/٦٥٨
موعظة في الحث على التعاون والصلة والبر والأخوة في الله والتحذير من الظلم وأكل حقوق عباد الله	٦٧٠/٦٦٥

الموضوع	رقم الصفحة
فضل في التواضع والحث عليه والتحذير من الكبر والتحذير من المعاصي وأصحابها ومجالس اللهو والغناء والكبر فيه مضار عظيمة والتواضع فيه فوائد عديدة	٦٧٦/٦٧١
موعظة بليغة في الحث على الاستعداد للآخرة	٦٧٩/٦٧٨
قصيدة زهدية في الحث على الاستعداد للموت	٦٨٢/٦٨٠
موعظة بليغة حول تربية الأولاد	٦٩٠/٦٨٣
قصيدة بليغة فيما فعل الطغاة العتاة البغات في المسلمين	٦٩٨/٦٩١
فصل في ذكر نماذج من تواضع المصطفى صلى الله عليه وسلم	٦٩٩
قصيدة فيها نماذج من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم	٧٠٤ الخ

ألى هنا إنتهى فهرس الجزء الثاني
من موارد الضمآن

بسم الله الرحمن الرحيم
(وقف لله تعالى)

يوزع مجاناً

موارد الظمآن لدروس الزمان

خطب وحكم واحكام وقواعد ومواعظ وآداب واخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه
عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض

الجزء الثالث

الطبعة الحادية عشر

١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م

(فَصْلٌ)

فِي المُعَاشَرَةِ وَالْحِلْمِ وَآثَارِهِ وَالأَسْبَابِ الباعِثَةِ على ضَبْطِ النَّفْسِ

الْحِلْمُ لُغَةً الأَنَاةُ وَالعَقْلُ لِكَوْنِهِ سَبَبُ الحِلْمِ وَاصْطِلاَحاً ضَبْطُ النَّفْسِ وَالطَّبْعِ عِنْدَ هَيَجَانِ الغَضَبِ أَوْ احْتِمَالِ الأذَى مِنْ الأَدْنَى وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الأَوَّلِ لأَنَّ مَنْ احْتَمَلَ الأَذَىٰ مِمَّنْ دُوْنَهُ مَعَ القُدْرَةِ عَلَيْهِ فَقَدْ ضَبَطَ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ .

وَقَالَ القَاضِيْ عِيَاضٌ الحِلْمُ حَالَةُ تَوَقُّرٍ وَثَبَاتٍ ، أَيْ صِفَةٌ تُوْرِثُ طَلَبَ وَقَارٍ وَثُبُوتٍ فِي الأَمْرِ واسْتِقْرَارٍ عِنْدَ الأَسْبَابِ المُحَرِّكَةِ لِلْغَضَبِ البَاعِثَةِ عَلَى العَجَلَةِ فِي العُقُوْبَةِ . وَلاَ يُسَمَّى المرْءُ حَلِيْماً إِلاّ إِذا كَانَ ذَلِكَ طَبْعاً لاَ تَكَلُّفاً وَقَدْ وَصَفَ اللّهُ بِهِ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيْمَ الخَلِيْلَ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ لأَوَّاهٌ حَلِيْمٌ . وَكَمَا قَالَ فِي وَلدِهِ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيْمٍ .

قَالَ الشَّاعِرُ :

أَلا إِنَّ حِلْمَ المَـرْءِ أَكْـرَمُ نِـسْبَـةٍ
تَسَـامَى بِهَـا عِنْـدَ الفِخَـارِ حَلِيْمُ

فَيَا رَبِّ هَبْ لِيْ مِنكَ حِلْماً فَإِنَّنِيْ
أَرَى الحِلْمَ لَمْ يَنْـدَمْ عَلَيْـهِ كَـرِيْمُ

وَقَالَ الآخَرُ :

أُحِـبُّ مَكَـارِمَ الأَخْـلاَقِ جُـهْـدِيْ
وَأَكْـرَهُ أَنْ أَعِـيْـبَ وَأَنْ أُعَـابَـا
وَأَصْفَـحُ عَنْ سِبَـابِ النَّـاسِ حِلْمـاً
وَشَـرُّ النَّـاسِ مَنْ يَهْـوَى السِّبَـابَـا
وَمَـنْ هَـابَ الـرِّجَـالَ تَـهَـيَّـبُـوهُ
وَمَنْ حَقَـرَ الـرِّجَـالَ فَلَنْ يُهَـابَـا

فَأَمَّا ضَبْطُ النَّفْسِ عِنْدَ الغَضَبِ مَعَ التَّكَلُّفِ فَهُوَ تَحَلُّمٌ لاَ حِلْمٌ فَإِذَا تَكَلَّفَ الإِنْسَانُ الحِلْمَ بِأَنْ مَرَّنَ نَفْسَهُ عَلَى كَظْمِ الغَيْظِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ أَصْبَحَ الحِلْمُ لَهُ عَادَةً .

وَأَصْلُ الكَظْمِ شَدُّ رَأْسِ القِرْبَةِ عِنْدَ امْتِلائِهَا وَكَظْمُ البَابِ سَدُّهُ شُبِّهَ بِهِ مَنْ أَمْسَكَ نَفْسَهُ وَضَبَطَهَا عِنْدَ امْتِلاَئِهَا بِالغَضَبِ فَلَمْ يَنْتَقِمْ مِمَّنْ أَهَاجَهُ وَمِنْهُ فُلانٌ كَظِيْمٌ بِمَعْنَى مُمْتَلِىءٌ حُزْناً قَالَ تَعَالَى عَنْ يُونُسَ « إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ أيْ غَيْظاً عَلَى قَوْمِهِ إِذْ لَمْ يُؤْمِنُوا لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى الإِيْمَانِ » .

وَالغَيْظُ مُرَادِفٌ لِلْغَضَبِ وَلاَ يَتِمُّ حِلْمُ الإِنْسَانِ إِلاَّ بِامْسَاكِ الجَوَارِحِ كُلِّهَا : اليَدِ عَنْ البَطْشِ وَاللِّسَانِ عَنْ الفُحْشِ وَالعَيْنِ عَنْ فُضُوْلاَتِ النَّظَرِ وَأَقْرَبُ لَفْظٍ يُسْتَعْمَلُ ضِدَّ الحِلْمِ التَّذَمُّرُ .

وَأَمَّا العَفْوُ وَالصَّفْحُ فَهُمَا صُوْرَتَا الحِلْمِ فَالعَفْوُ تَرْكُ المُؤَاخَذَةِ بالذّنْبِ ،

وَالصَّفْحُ تَرْكُ التَّثْرِيْبِ وَهُوَ مَحْمُودٌ إِذَا كَانَ عَلَى الوَجْهِ الّذِيْ يَجِبُ . بِأَنْ لَا يَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ إِخْلَالٌ بِالدِّيْنِ ، قَالَ تَعَالَى (فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الجَمِيْلَ) تَنْبِيْهاً عَلَى مَا يَجْمُلُ مِنْهُ .

وَأَمَّا الصَّفْحُ في غَيْرِ مَحَلِّهِ فَلَا يَصْفَحُ حَيْثُ اقْتَضَى المَقَامُ العُقُوْبَةَ ، كَعُقُوْبَةِ المُعْتَدِيْنَ الظَّالِمينَ الّذِيْنَ لَا يَنْفَعُ فِيْهِمْ إِلّا العُقُوْبَةُ .

وَقَدْ حَثَّ اللّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ « وَالكَاظِمِيْنَ الغَيْظَ وَالعَافِيْنَ عَنْ النَّاسِ » فَأَمَرَ جَلَّ وَعَلا بالحِلْمِ وَالعَفْوِ وَقَالَ تَعَالَى وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا وَقَالَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِيْنَ وَقَالَ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ ، وَقَالَ تَعَالَى (إِدْفَعْ بِالّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الّذِيْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيْمٌ وَمَا يُلقها إِلّا الّذِيْنَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلّا ذُو حَظٍّ عَظِيْمٍ) .

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَاصْدُقْ صَدِيْقَكَ إِنْ صَدَقْتَ صَدَاقَةً
وَادْفَعْ عَدُوَّكَ بِالّتِي فَإِذَا الّذِيْ

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الحِلْمُ عَلَى مَنْ يَعْتَدِيْ عَلَى الدِّيْنِ أَوْ العِرْضِ أَوْ المَالِ فَهَذا في غَايَةِ الجُبْنِ وَمُنْتَهى الذَّمِّ نَعَمْ يَنْبَغِيْ لِمَنْ يُدافِعُ عَنْ الفَضِيلَةِ أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ عِنْدَ الدِّفَاعِ فَلَا يُسْرِفْ فِي الانْتِقَامِ .

وَيُعْجِبُنِيْ جَوابُ مَا ذُكِرَ في القِصَّةِ المَشْهُوْرَةِ مِنْ أَنَّ مُعَلِّماً كَانَ يُلقِي دَرْساً أَوْ هُوَ يَعِظُ فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ إِنْسَانٌ لَمْ يَسْتَعْمِلْ الرِّفْقَ وَتَسَرَّعَ فِي الانْتِقَادِ وَخَطَّأَ المُعَلِّمَ جَهْراً وَالنَّاسُ يَسْمَعُوْنَ وَمَضَى الشَّيْخُ في شَرْحِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَبَيَّنَ لِلنَّاقِدِ أَنَّهُ أَخْطَأَ وَأَنَّ الصَّوَابَ مَا قَالَهُ الشَّيْخُ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فِي بَيْتِهِ مُعْتَذِراً مِمَّا فَرَطَ

مِنْهُ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ نَظْماً جَواباً لَهُ :

جَفَاءٌ جَرَى جَهْراً لَدَى النَّاسِ وَانْبَسَطْ
وعُـذْرٌ أَتَى سِـرّاً فَـأَكَّـدَ مَـا فَـرَطْ
وَمَنْ ظَنَّ أَنْ يَمْحُـو جَلِيَّ جَفَـائِـهِ
خَفِيُّ اعْتِذَارٍ فَهْوَ في أَعْـظَمِ الغَلَطْ

فَالنَّقْدُ يَجِبُ أَنْ يكونَ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِيَكُونَ مِنْ وَرائِهِ نَجاحُ القَصْدِ وَالسَّلاَمَةِ مِنَ الإِثْمِ وَالزَّلَلِ وَكَانَ الوَاجِبُ عَلَى المنْتَقِدِ أَنْ يُلَطِّفَ الكَلاَمَ وَيَأْتِي بِصِيغَةِ سُؤَالٍ وَاسْتِفْهامٍ وَيَسْأَلَ مَنْ حَوْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ هَذَا إِذَا كَانَ مُتَيَقِّناً لِلْخَطَأِ وَإِلاّ فَبَعْدَ التَّثَبُّتِ يُبَيِّـنُ لَهُ ذَلِكَ بالكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالمَعْرُوفِ مِنَ القَوْلِ وَلْيَحْذَرْ مِنْ خُشُونَةِ الكَلاَمِ فَإِنَّها مُنَفِّرَةٌ وَدَاعِيَةٌ إِلَى التَّمادِيْ في البَاطِلِ .

وَعَلَى الحَلِيْمِ أَنْ لا يَتَجاوَزَ الحَدَّ المَشْرُوْعَ لِرَدِّ المعتَدِيْنَ وَرَدْعِهِمْ وَإِلاّ كَانَ مُتَهَوِّراً ظَالِماً فالشَّجَاعَةُ تَسْتَلْزِمُ الحِلْمَ لأَنَّ الشَّجاعَةَ لَيْستْ مُجَرَّدُ القُوَّةِ الّتِي يَسْتَطِيْعُ بِهَا المَرْءُ مُواجَهَةَ الأَخْطَارِ بَلْ لاَ بُدَّ مَعَهَا مِنْ ضَبْطِ النَّفْسِ عِنْدَ الغَضَبِ حَتَّى يَتمكَّنَ مِنْ اتِّبَاعِ سُنَنِ الدِّيْنِ .

وَالشَّجَاعَةُ هِيَ الحَدُّ الوَسَطَ بَيْنَ رَذِيْلَتَيْ الجُبْنِ وَالتَّهَوُّرِ فَفِيْ الجُبْنِ تَفْرِيْطٌ وَتَضْيِيْعٌ وَتَقْصِيْرٌ وفِي التَّهَوُّرِ إِفرَاطٌ وَتَعَدٍّ لِلْحُدُودِ وَفِي الشَّجَاعَةِ السَّلاَمَةُ بِأَنْ يُقْدِمَ حَيْثُ يَرَى الإِقْدَامَ عَزْماً وَيُحْجِمَ حَيْثُ يَرَى الإِحْجامَ حَزْماً .

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى الحِلْمِ آثَارٌ جَلِيْلَةٌ وَمَنَافِعُ عَظِيْمَةٌ يَعْرِفُ الإِنْسَانُ قَدْرَهَا إِذَا حَصَلَ الغَضَبُ وَآثَارَ العَواطِفَ وآثَارَ النُّفُوْسِ وَشَبَّ نَارَ الفِتْنَةِ فَاضْطَرَبَتْ

الأُمُوْرُ وتَغَيَّرتْ وَاسْتَحْكَمتْ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ وَاسْتَوْلَى عَلَى النَّفْسِ حُبُّ النِّزَاعِ وَالصِّدَامُ وَحُبِّبَ إِلَى النُّفُوْسِ الفَتْكُ وَالدَّمَارُ وَنُسِيَتْ عَوَاقِبُ الأُمُورِ مِمَّا يَجُرُّهُ الطَّيْشُ وَالتَّهَوُّرُ مِنْ بَلاَءٍ وَدَمَارٍ وَشَقَاءٍ وَنَتَائِجَ وَخِيْمَةٍ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ وَيَظْهَرُ فَضْلُ الحِلْمِ .

فَإِنَّ الحِلْمَ إِذَا أَرَادَ اللّهُ يَدْفَعُ بِهِ هَذِهِ الشُّرُورِ لأَنَّ الحَلِيْمَ يَسْتَطِيْعُ إذا وَفِقَهُ اللّهُ أنْ يَنْظرَ إلى كُلِّ أمْرٍ مِنْ الأُمُورِ نَظَراً صَادِقاً وَيُقَدِّرُهُ تَقْدِيْراً صَحِيْحاً وَيَزِنُهُ بِمِيْزَانٍ عَادِلٍ فَلا يَسْتَخِفُّهُ الغَضَبُ وَالطَيْشُ فيَدْفَعُهُ إِلى المُخَاطَرَةِ وَيَسُوقُهُ إلى مَا لاَ قِبَلَ لَهُ بِهِ .

فَالحِلْمُ خَيْرُ وِقَايَةٍ تَقِيْ مَصَارِعَ السُّوْءِ وَتَحْفَظُ مِنْ الوُقُوعِ فِي مَوَاطِنْ الهَلاكِ .

وَقَدْ مَثَّلَ العُلَماءُ لِذَلِكَ أَمْثِلَةً مِنهَا إِذَا كَانَ الحَاكِمُ حَلِيْماً لا يَسْتَفِزُّهُ الغَضَبُ إلى إبْرَامِ الأُمُوْرِ قَبلَ التَّثَبُّتِ مِنهَا فَإِنَّهُ يَكُوْنُ نِعْمَةً وَبركَةً عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى رَعِيَّتِهِ لأنَّ التَّثَبُّتَ فِي الأُمُورِ قَبْلَ إِبْرَامِهَا يَسْتَلْزِمُ العَدْلَ واعْطَاءَ كُلِّ ذِيْ حَقٍّ حَقَّهُ وَجَزاءَ كُلِّ فَرْدٍ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وبِذَلِكَ تَسْعَدُ وَتَدُوْمُ الدَّوْلَةُ بِإِذْنِ اللّهِ وَتَرْتَفِعُ مَكَانَتَهُ عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ عِبَادِهِ .

المَثَالُ الثَّانِيْ : الزُّعَماءُ وَالرُّؤَسَاءُ إِذَا كَانُوا حُلَمَاءَ فَإِنَّهُمْ يَرْفَعُونَ عَنْ أَتْبَاعِهِمْ إِذَا أَرَادَ اللّهُ كَثِيْراً مِنْ الأَذَىٰ وَيَدْفَعُوْنَ عَنْهُمْ شَرَّ التَّنَازُعِ وَالخُصُوْمَاتِ مَعَ بَعْضِهِمْ وَمَعَ غَيْرِهِمْ فَإِنَّ الحَلِيْمَ يُمْكِنُهُ أَن يُعَالِجَ الأُمُوْرَ بِالهُدُوءِ وَالرِّفْقِ وَالتَّلَطُّفِ وَيُفَكِّرَ فِي الوَسَائِلِ وَالأَسْبَابِ الَّتِيْ تُزِيْلُ الأَحْقَادَ وَالضَّغَائِنَ وَالخِصَامَ وَيَكُفُّهُمْ عَنْ الشَّرِّ وَيَأْخُذَ مِنْهُمْ بِحِلْمِهِ وَلِيْنِهِ مَا لَمْ يَسْتَطِعْ أخْذُهُ بِقُوَّتِهِ

وَجَاهِهِ فَتَنْحَسِمُ مَادَّةُ الشَّرِّ وَيَحِلُّ الوِئَامُ مَحَلَّ الخِصَامِ .

وَمِنْ الأَمْثِلَةِ القُضَاةُ إِذَا كَانُوا مُتَّصِفِيْنَ بِالحِلْمِ فَإِنَّهُمْ بِإِذْنِ اللّهِ يَهْتَدُوْنَ إِلَى الصَّوَابِ وَيَظْهَرُ لَهُمْ الحَقُّ لأَنَّ سَعَةَ صَدْرِ القَاضِيْ لاسْتِمَاعِ جَمِيْعِ مَا يَذْكُرُهُ الخُصُوْمُ وَحِلْمُهُ عَلَيْهِم حَتَّى يُدْلُوا إِلَيْهِ بِكُلِّ حُجَجِهِمْ وَيُبَيِّنُوا لَهُ كُلَّ مَا يَسْتَطِيْعُوْنَهُ مِنْ طُرُقِ الإِثْبَاتِ مِنْ خَيْرِ الوَسَائِلِ الّتِيْ تُفِيْدُ فِي اسْتِنْبَاطِ الحَقِّ ومَعْرِفَةِ المُبْطِلِ مِنَ المُحِقِّ بِخِلافِ الأَحْمَقِ الغَضُوبِ فَإِنَّ ضَرَرَهُ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ وَخَطَأَهُ أَكْثَرُ مِنْ صَوَابِهِ .

وَمِنْ الأَمْثِلَةِ لِذَلِكَ أَنَّ المُرَبِّيْ إِذَا كَانَ حَلِيْماً فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ اللّهُ أَنْتجَ أَحْسَنَ النَّتَائِجِ وَيُؤَدِّيْ لأُمَّتِهِ أَجَلَّ الخِدَمِ وَأَفْضَلَهَا لأَنَّهُ يَسْتَطِيْعُ بِحِلْمِهِ أَنْ يَتَبَيَّنَ مَوْضِعَ الضَّعْفِ مِنْ نَفْسِ القَائِمِ عَلَى تَرْبِيَتِهِ فَيُعَالِجُهُ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَهُ حَتَّى يَشِبَّ صَالِحاً نَافِعاً إِذَا كَانَ قَائِماً بِتَلْقِيْنِهِ العِلْمَ فَإِنَّ مُلَقِّنَ العِلْمِ إِذَا لَمْ يَكُنْ حَلِيْماً فَإِنَّهُ يُضِيْعُ عَلَى مَنْ يُعَلِّمُهُ أَحْسَنَ الفُرَصِ فِي حَيَاتِهِ لأَنَّهُ يَمْنَعُهُ مِنْ مُنَاقَشَةِ الحَقَائِقِ العِلْمِيَّةِ الّتِيْ يَتمَكَّنُ بِهَا مِنْ مَعْرِفَةِ الخَطَأِ مِنْ الصَّوَابِ وَالحَقِّ مِنْ البَاطِلْ وَيَتَدَرَّبَ بِهَا عَلَى المُنَاظَرَةِ الْمُفِيْدَةِ لِلْفِكْرِ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ المُرَبِّيْ الأَحْمَقَ يُضِيْفُ إِلَى ذَلِكَ أَثَراً سَيِّئاً فِي نَفْسِ المُرَبَّي لأَنَّ الطِّبَاعَ كَسَّابَةٌ فَيَتَأَثَّرُ مِنْهُ وَيَسْرِيْ إِلَيْهِ مِنْ أَسْتَاذِهِ مِنْ مَا بِهِ مِنْ أَمْرَاضٍ أَخْلاَقِيَّةٍ غَالِباً وَيَكُونُ شَرّاً مُتَعَدِّياً عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ .

وَمِنْ الأَمْثِلَةِ لِذَلِكَ الزَّوْجُ مَعَ زَوْجَتِهِ فَإِذَا كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا حَلِيْماً فَإِنَّهُمَا يَعِيْشَانِ عِيْشَةً مَرْضِيَّةً إِذَا كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا يُغْضِيْ عَنْ هَفَوَاتِ الآخَرِ وَيَرْفُوْهَا فَلا يُثِيْرَانِ نِزَاعاً لأَيْسَرِ الأُمُورِ وَأَحْقَرِ الأَسْبَابِ وَأَتفَهِهَا وَإِنْ وَقَعَ نَادِراً عَالَجَاهُ بِلُطْفٍ

وَحَرِصَا عَلَى كَتْمِهِ عَنْ الأَوْلَادِ لِعِلْمِهِمَا بِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى إِظْهَارِهِ مِنْ الضَّرَرِ العَظِيْمِ خُصُوصَاً إِذَا كَانَ الأَبْنَاءُ فِي حَدٍّ قَابِلٍ لانْطِبَاعِ الأَخْلاقِ فِيْهِمْ وَانْتِقَالِ الصِّفَاتِ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الحِلْمَ فِي هذِهِ الحَالَةِ مَوْقِعُهُ عَظِيْمٌ وَضَرَرُ الحَمَاقَةِ شَدِيْدٌ جِدّاً لما يُصِيْبُ الأَبْنَاءَ مِنْ ضَرَرِ عَدَمِ الحِلْمِ فالحِلْمُ فِي الحَقِيْقَةِ سَعَادَةٌ عَاجِلَةٌ وَخَيْرٌ للأَسْرَةِ بِتَمَامِهَا .

وَمِنْ الأَمْثِلَةِ لِذَلِكَ التَّاجِرُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ حَلِيْماً تَرُوْجُ تِجَارَتُهُ وَيُقْبِلُ المُعَامِلُونَ عَلَيْهِ لأَنَّ حِلْمَهُ يُرَغِّبُ فِي مُعَامَلَتِهِ أَمَّا إذا كَانَ حَمَقِيّاً غَضُوْباً لأَهْوَنِ الأَشْيَاءِ وَأَيْسَرِ الأُمُورِ فَتَجِدُهُ مَعَ النَّاسِ فِي لِجَاجٍ وَخِصَامٍ لا يُمَكِّنُ غَضَبُهُ أَحَداً مِنْ مُفاهَمتِهِ فِيْمَا يُرِيْدُ أنْ يَبِيْعَهُ أو يَشْتَرِيْهِ وَرُبَّمَا أَدَّى بِهِ غَضَبُهُ وَعَدَمُ حِلْمِهِ إلَى اتْلَافِ السِّلْعَةِ الَّتِي يُرِيْدُ بَيْعَها أَوْ إِلَى الأَيْمَانِ أَنَّهُ لا يَبِيْعُهَا مِنْ المُسَاوِمِ لَهُ أو غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الحَمْقَى الجَاهِلِيْنَ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ لِكَسَادِ تِجَارَةِ هَؤلاءِ وَانْصِرَافِ النّاسِ عَنْهُمْ وَنُفْرَتِهِمْ مِنْ مُعَامَلَتِهِمْ . وَقَدْ يُفَضِّلُونَ مُعَامَلَةَ الحَلِيْمِ حَتّى وَلَوْ كَانَتْ سِلْعَتُهُ أَقَلَّ جَوْدَةً مِنْ سِلْعَةِ ذَلِكَ الأَحْمَقِ .

وَمِثْلُ ذَلِكَ أَهْلُ الصَّنَائِعِ إِذَا كَانُوا حُمَقَاءَ فَإِنَّ النَّاسَ لَا يُعَامِلُونَهُمْ خَوْفاً مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ وَيَذْهَبُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَنْ كَانَ حَلِيْماً لأَنَّهُ يكونُ مُحَبَّباً إِلَى النُّفُوسِ يَسْتَرِيْحُ مَعَهُ النَّاسُ .

« مَوْعِظَةٌ »

عِبَادَ اللَّهِ تَنَبَّهُوا رَحِمَكُمْ اللّهُ بِقَوَارِعِ العِبَرِ وَتَدَبَّرُوا مَوَاعِظَ كِتَابِ رَبِّكُمْ فَإِنَّهُنَّ صَوَادِقُ الخَبَرِ وَتَفَكَّرُوا في حَوَادِثِ الأَيَّامِ فَإِنَّ فِيهَا المُزْدَجَرُ وَتَأَمَّلُوا دَوْرَ الزَّمَانِ عَصْراً فَعَصْراً أيّامٌ تَتْلُو أَيَّاماً وَشَهْرٌ يَتْلُو شَهْراً وَسَنَةٌ تَتْلُوا سَنَةً وَأَوْقَاتٌ

تُطْوَى فَتُخَرِّبُ عُمْرَاناً وَتَعْمُرُ قَفْرا وتُعِيْرُ مَرَّةً وتَسْلُبُ أُخْرَىٰ .

مَوَاعِظُ تُنَادِيْ العَاقِلَ بِلِسَانِ الحَقِيْقَةِ جَهْراً فَاحْذَرُوا زَخَارِفَ الدُّنْيَا المظَلِّلَة وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ تَكَثَّرَ مِنْهَا وَلَمْ يَسْتَعْمِلْهُ فِي مَرَاضِيْ اللّهِ وَيَجْعَلْهُ ذُخراً لِلدَّارِ الآخِرَةِ لَمْ يَزْدَدْ مِنْ اللّهِ إلاَّ قِلَّةً .

فَتَزَوَّدُوا مِنْهَا التَّقْوى فَإِنَّهَا خَيْرُ زَادٍ وَخُذُوا أُهْبَةَ التَّحَوُّلِ وَانْتَبِهُوا مِنْ سِنَةِ الرُّقَادِ قَبْلَ أَنْ تُقَرَّبَ لَكُمْ مَرَاكِبُ التَّحَوُّلِ إِلَى القُبُورِ وَيُنَادِي بِكُمْ الرَّحِيْلُ إِلَى الآخِرَةِ .

نَهْوَى الحَيَاةَ وَلَوْ صَحَّتْ عَزَائِمُنَا
لَمَا صَرَفْنَا إِلَى الخَدَّاعَةِ الهِمَمَا
لَوْ عِلمُنَا ما عَلِمَتْ شُمُّ الجِبَالِ بِهِ
أَزَالَ ذَلِكَ مِنْ آنَافِهَا الشَّمَمَا
إِنَّ الشُّخُوصَ الَّتِيْ كانَتْ رَجَاحَتُهَا
تُوازِنُ الهَضْبَ صَارَتْ في الثَّرَىٰ رِمَمَا
عَمَّتْهُمُ حَادِثَاتٌ غَيْرُ مُبْقِيَةٍ
شَيْئاً فَلَمْ تُبْقِ أَبْدَاناً وَلاَ قِمَمَا

اللّهُمَّ عَافِنَا مِنْ مَكْرِكَ وَزَيِّنَّا بِذِكْرِكَ وَاسْتَعْمِلْنَا بِأَمْرِكَ وَلاَ تَهْتِكْ عَلَيْنَا جَمِيْلَ سِتْرِكَ وَامْنُنْ عَلَيْنَا بِلُطْفِكَ وَبِرِّكَ وَأَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ اللّهُمَّ سَلِّمْنَا مِنْ عَذَابِكَ وَآمِنَّا مِنْ عِقَابِكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْـلٌ)

قَالَ العُلَمَاءُ وَأَسْبَابُ الحِلْمِ البَاعِثَةِ عَلَى ضَبْطِ النَّفْسِ عَشَرَةٌ أَحَدُهَا الرَّحْمَةُ لِلْجُهَّالِ وَذَلِكَ مِنْ خَيْرٍ يُوَافِقُ رِقَّةً وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْثُورِ الحِكَمِ مِنْ أَوْكَدِ أَسْبَابِ الحِلْمِ رَحْمَةُ الجُهَّالِ فَيَأْمَنُ وَيَأْمَنُونَ مِنْ اسْتِحْدَاثِ البُغْضِ وَالقَطِيْعَةِ المؤدِيَّيْنِ إِلَى تَرْكِ النَّصْرَةِ وَالغَيْبَةِ .

الثَّانِيْ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ القُدْرَةُ عَلَى الانْتِقَامِ وَالانْتِصَافِ وَذَلِكَ الحِلْمُ مِنْ سَعَةِ الصَّدْرِ وحُسْنِ الثِّقَةِ بِاللّهِ وبِقُدْرَتِهِ وَقَالَ بَعْضُ البُلَغَاءِ أَحْسَنُ المَكَارِمِ عَفْوُ الْمُقْتَدِرِ وَجُوْدُ المفْتَقِرْ .

شِعْراً :

خيـرُ الخَلِيْلَيْنِ مَنْ أَغْضَى لِصَـاحِبِـهِ
وَلَــوْ أَرَادَ انْتِصَـاراً مِنْــهُ لَا انْتَصَـرَا

وَالثَّالِثُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ التَّرَفُّعُ عَنْ السِّبَابِ وَذَلِكَ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ وَعُلُوِّ الهِمَّةِ وَقَالَتْ الحُكَمَاءُ شَرَفُ النَّفْسِ أَنْ تَحَمَّلَ الْمَكَارِهَ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

لا يَبْلُغُ المَجْـدَ أَقْـوَامٌ وَإِنْ كَـرُمُـوا
حَتَّى يَـذِلُّـوا وَإِنْ عَـزُّوْا لأَقْــوَامِ
وَيُشْتَمُــوْا فَتَــرَى الأَلْــوَانَ مُسْفِـرَةً
لا صَفْـحَ ذُلٍّ وَلَكِنْ صَفْـحُ أَحْـلَامِ

وَالرَّابِعُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ الاسْتِهَانَةُ بِالمُسِيءِ قَالَ الشَّاعِرُ :

قَـوْمٌ إِذَا مَـا جَنَـا جَـانِيْهُمُـوا أَمِنُـوا
لِلُؤْمِ أَحْسَـابِهِمْ أَنْ يُـقْتَـلُوا قَـوَدَا

وَقَالَ آخَرُ :

فَـدَعِ الوَعِيْـدَ فَمَا وَعِيْـدكَ ضَائِـرِيْ
أَطِنْينُ أَجْنِـحَـةِ الـذُّبَـابِ يَـظِيْـرُ

وَقَالَ الآخَرُ :

إِذَا نَـطَقَ السَّفِيْـهُ فَـلا تُـجِبْـهُ
فَـخَيْـرٌ مِـنْ إِجَـابَتِـهِ الـسُّكُـوتُ
سَـكَتُّ عَـنْ السَّـفِيْـهِ فَـظَنَّ أَنِّـيْ
عَيِيْـتُ عَنْ الـجَـوَابِ وَمَـا عَيِيْتُ

وَالخَامِسُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ الاسْتِحْيَاءُ مِنْ جَزَاءِ الجَوَابِ وَهَذَا يَكُوْنُ مِنْ صِيَانَةِ النَّفْسِ وَكَمَالِ المُرُوْءَةِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُم :

إِنِّيْ لأُعْـرِضُ عَنْ أَشْيَـاءَ أَسْمَعُهَـا
حَتَّى يَـظُنَّ رِجَـالٌ أَنَّ بِيْ حَمَقـاً
أَخْشَى جَـوَابَ سَفِيْـهٍ لا حَيَـاءَ لَـهُ
فَسْـلٍ يَظُنُّ رِجَـالٌ أَنَّـهُ صَـدَقَـا
آخَرُ: فَمَا الأُنْسُ بِالأُنْسِ الّذِيْنَ عَهِدْتُهُمْ
بِـأُنْسٍ وَلَـكِنْ فَـقْـدُ أُنْسِـهِمُ أُنْسُ

إِذَا سَلِمَتْ نَفْسِـي وَدِيْنِي مِنْـهُمُـوا
فَحَسْبِيْ أَنَّ العِـرْضَ مِنِّيْ لَهُمْ تُرْسُ

السَّادِسُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ التَّفَضُّلُ عَلى السَّابِّ وَهَذَا يَكُوْنُ مِنْ الكَرَمِ وَحُبِّ التَّآلفِ قالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كَـانَ دُوْنِيْ مَنْ بُـلِيْتُ بِـجَهْـلِهِ
أَبَيْتُ لِنَفْسِيْ أنْ أُقَـابِـلَ بـالجَهْـلِ
وَإِنْ كَانَ مِثْلِيْ في مَحَلٍّ مِنْ العُـلاَ
هَوَيْتُ إذاً حِلْماً وَصَفْحاً عَنْ الجَهْلِ
وَإِنْ كُنْتُ أَدْنَى مِنْهُ في الفَضْلِ وَالحِجَا
رَأَيْـتُ لَـهُ حَـقّ العلاوَة والفَضْلِ

السّابعُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ اسْتِكْفَافُ السَّابِّ وَقَطْعِ السِّبَابِ وَهَذا يَكُونُ مِنْ الحَزْمِ وَجَوْدَةِ العَقْلِ وَمِمَّا يُنْسَبُ لِلأَمَامِ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللّهُ :

قَالُوا سَكَتَ وَقَدْ خُوْصِمْتَ قُلْتُ لَهُمْ
إنّ الجَـوَابَ لِبَـاب الشَّـرِّ مِفْتَـاحُ
فَالصَّمْتُ عَنْ جَاهِلٍ أَوْ أحْمَقٍ شَرَفٌ
أَيْضاً وَفِيْهِ لِصَـوْنِ العِرْضِ إصْـلاحُ
أمَا تَرَى الأُسْدَ تُخْشَى وَهْيَ صَامِتَةٌ
وَالكَلْبُ يَخْشَى لعَمْـرِيْ وَهْـوَ نَبَّـاحُ

وَقَالَ الآخرُ :

إذَا فَاهَ السَّفِيْهُ بِسَبِّ عِرْضِي
كَرِهْتُ بأنْ أكُوْنَ لَهُ مُجِيْبَا

يَزِيْدُ سَفَاهَةً وَأَزِيْدُ حِلْماً
كَعُوْدٍ زَادَهُ الإحْرَاقُ طِيْبَا

وَتعَرَّضَ رَجُلٌ أَحْمَقٌ لأَحدِ العُقَلاءِ الحُكَمَاءِ وأَسْمَعَهُ كَلَاماً غَلِيْظاً وَأفْحَشَ في القَوْلِ فتَحَلَّمَ عَنْهُ وَتركَهُ يُنَوِّعُ سَبَّهُ وَلَمْ يُجِبْهُ بشَيءٍ فَقِيلَ لِمَاذَا لَا تُجِبْهُ ؟

فَقَالَ أَرَأَيْتَ لَوْ عَضَّكَ حِمَارٌ أَوْ رَمَحكَ أَكُنْتَ تَعُضُّهُ أَوْ تَرْمَحُهُ قَالَ لا ، قَالَ أَرَأَيْتَ لَوْ نَبَحَ عَلَيْكَ كَلْبٌ أَوْ عَظَّكَ أَكُنْتَ تَعُظُّهُ أَوْ تَنْبَحُ عَلَيْهِ قَالَ لَا قَالَ فَإِنَّ السَّفِيْهَ إِمَّا يَكُونُ كَالكَلْبِ أَوْ كَالحِمَارِ لأَنَّهُ مَا يَخْلُ مِنْ جَهْلٍ وَأَذى وَشَرٍّ وَكَثِيْراً مَا يَجْتَمِعَانِ فِيْهِ فَالأبْعَادُ عَنْهُ غَنِيْمَةٌ لِتَحْصُلَ عَلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّهِ وَأَذَاهُ .

وَالثّامِنُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ الخَوْفُ مِنَ العُقُوْبَةِ عَلَى الجَوَابِ وَهَذا يَكُوْنُ مِنْ ضَعْفِ النَّفْسِ وَرُبَّمَا أَوْجَبَهُ الرَّأْيُ السَّدِيْدُ وَاقْتَضَاهُ الحَزْمُ .

وَالتَّاسِعُ : مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ الرِّعَايَةُ لِيَدٍ سَلَفَتْ وَحُرْمَةٍ لَزِمَتْ وَهَذا يَكُونُ مِنْ الوَفاءِ وَحُسْنِ العَهْدِ وَقِيْلَ فِي مَنْثُورِ الحِكَمِ أَكْرَمُ الشِّيَمِ أَرْعَاهَا لِلذِّمَمِ والعَاشِرُ مِنْ أَسْبَابِ الحِلْمِ الكَيْدُ والمَكْرُ وَتوقُّعِ الفُرَصِ الخَفِيَّةِ وَهَذا يَكُوْنُ مِنْ الدَّهَاءِ .

وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْثُورِ الحِكَمِ مَنْ ظَهَرَ غَضَبُهُ قَلَّ كَيْدُهُ وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ غَضَبُ الجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ وَغَضَبُ العَاقِلِ فِي فِعْلِهِ وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ إِذَا

سَكَتَّ عَنْ الجَاهِلِ فَقَدْ أَوْسَعْتَهُ جَوَاباً وَأَوْجَعْتَهُ عِقَاباً وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ قَتَادَةَ :

(تُعَاقِبُ أَيْدِيْنَا وَيَحْلَمُ رَأْيُنَا
وَنَشْتُمُ بِالأَفْعَالِ لاَ بِالتَّكَلُّمِ)

وَقَالَ آخَرُ :

لَقَدْ أَسْمَعُ القَوْلَ الّذِيْ كَادَ كُلَّمَا
تُذَكِّرْ نِيْهِ النَّفْسِ قَلْبِيْ يُصَدَّعُ
فَأُبْدِيْ لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنّيْ بَشَاشَةً
كَأَنّي مَسْرُورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
وَمَا ذَاكَ مِنْ عُجْبٍ بِهِ غَيْرَ أَنَّنِيّ
أَرَى أَنَّ تَرْكَ الشرِّ لِلشَّرِّ أَقْطَعُ

قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ ثَلاثَةٌ لا يُعْرَفُونَ إِلَّا فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ لا يُعْرَفُ الجَوَادُ إِلَّا فِي العُسْرَةِ وَلَا يُعْرَفُ الشُّجَاعُ إِلَّا فِي الحَرْبِ وَلَا يُعْرَفُ الحَلِيْمُ إِلّا فِي الغَضَبِ قَالَ الشَّاعِرُ :

« مَنْ يَدّعِيْ الحِلْمَ أَغْضِبْهُ لِتَعْرِفَهُ
لا يُعْرَفُ الحِلْمُ إِلّا سَاعَةَ الغَضَبِ »

وَمَنْ فَقَدَ الغَضَبَ فِي الأَشْيَاءِ المغضِبَةِ حَتَّى اسْتَوَتْ حَالَتَاهُ قَبْلَ الأَغْضَابِ وَبَعْدَهُ فَقَدْ عَدِمَ مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ الشَّجَاعَةَ وَالأَنفَةَ وَالحَمِيَّةَ وَالغَيْرَةَ وَالدِّفَاعَ وَالأَخْذَ بِالثَّأرِ لأَنَّهَا خِصَالٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ الغَضَبِ فَإِذا عَدِمَهَا هَانَ بِهَا وَلَم يَكُنْ لِبَقَاءِ فَضَائِلِهِ فِي النُّفُوسِ قِيْمَةٌ وَلَا لِوُفُوْرِ حِلْمِهِ مَوْقِعٌ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا كَانَ الحِلْمُ يُؤَدِّيْ إِلَى فَسَادٍ بأنْ كَانَ المَحْلُومُ عَلَيْهِ لَئِيماً يَزْدَادُ شَرُّهُ مَعَ الحِلْمِ فَالجَهْلُ مَعَهُ أحْسَنُ لأنَّهُ يَرْدَعُهُ عَنْ الشَّرِّ وَالتّمادِيْ فِيْهِ قَالَ الشّافِعِيّ رَحِمَهُ اللّهُ :

وَأنْـزَلَنِيْ طُـوْلُ النَّـوَى دَارَ غُـرْبَـةٍ
إِذَا شِئْتُ لاقَيْتُ الّـذِيْ لَا أُشَـاكِلُهْ
فَـحَـامَقْتُـهُ حَتَّـى يُقَـالَ سَجِيَّـةٌ
وَلَـوْ كَـانَ ذَا عَقْـلٍ لَكُنْتُ أُعَـاقِلُهُ

وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ العَفْوُ يُفْسِدُ مِنْ اللَّئِيْمِ بِقَدْرِ إِصْلَاحِهِ مِنْ الكَرِيْمِ وَقَالَ أبُو الطَّيِّبِ :

مِنْ الحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الجَهْلَ دُوْنَهُ
إِذَا اتَّسَعَتْ في الحِلْمِ طُرْقُ المَظَالِمِ

فَالحَكِيْمُ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ في المَحَلِّ اللَّائِقِ بِهِ فَلا يُعَامِلُ الكَرِيْمَ مُعَامَلَةَ اللئِيْمِ وَلَا بالعَكْسِ فَإِنَّ هَذَا فِيْهِ ضَرَرٌ عَظِيْمٌ وَيُخِلُّ فِي مَنْصِبِ الشَّخْصِ وَيَحِطُّ مِنْ قَدْرِهِ وَيَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ عَقْلِهِ وَأَنّهُ لا يُحْسِنُ أنْ يُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَيَقُولُ أبُو الطَّيِّبِ في ذَلِكَ :

إِذَا أنْتَ أَكْـرَمْتَ الكَـرِيْمَ مَـلَكْتَـهُ
وَإِنْ أنْـتَ أَكْـرَمْتَ الـلَّئِيْمَ تَمَـرّدَا
فَوَضْعُ النَّدا في مَوْضِعِ السَّيْفِ بالعُلَا
مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَا

وَيَقُوْلُ الآخَرُ :

وَالعَفْـوُ عِنْدَ لَئِيْمِ الـطَّبْعِ مَفْسَـدَةٌ
تُـطْغِيْ وَلَكِنَّـهُ عِنْـدَ الكَـرِيْمِ يَـدَا

وَقَالَ آخَرُ :

وَلِيْ فَـرَسٌ لِلْحِلْمِ بِـالحِلْمِ مُلْجَمٌ
وَلِيْ فَرَسٌ لِلْجَهْلِ بالجَهْلِ مُسْـرَجُ
فَمَنْ شَـاءَ تَقْـوِيْمِيْ فَـإِنِّيْ مُقَـوَّمٌ
وَمَنْ شَـاءَ تَعْـوِيْجِيْ فَـإِنِّيْ مُعَـوَّجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الجَهْلَ خِدْناً وَصَاحِباً
وَلَكِنَّـنِيْ أَرْضَـى بِـهِ حِيْـنَ أُحْـرَجُ

وَيَقُولُ الآخَرُ :

إِذَا كُنْتَ بَيْنَ الحِلْمِ وَالجَهْلِ نَاشِئاً
وَخُيِّـرْتَ أنى شِئْتَ فَـالحِلْمُ أَفْضَـلُ
وَلَكِنْ إِذَا أَنْصَفْتَ مَنْ لَيْسَ مُنْصِفـاً
وَلَمْ يَرْضَ مِنْكَ الحِلْمَ فَالجَهْلُ أَمْثَلُ

وَلَمَّا ظَفِرَ النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ بِحَمْرَاءَ الأَسَدِ بِأَبِيْ عَزَّةَ الشَّاعِرُ الَّذِيْ مَنَّ عَلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَتَعَهَّدَ لِلنَّبِيّ ﷺ أَنْ لا يُنَاصِبَ المُسْلِمِينَ العِدَا وَلَا يُحَرِّضَ عَلَيْهِ الأَعْدَاءَ فَلَمْ يَفِ بِقَوْلِهِ وَلَمْ يَصْدُقْ بِوَعْدِهِ بَلْ نَقَضَ العَهْدَ وَخَانَ المِيْثَاقَ وَمَا أَبْرَمَ مِنْ الاتِّفَاقِ فَأَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بِقَتْلِهِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقِلْنِيْ وَامْنُنْ

عَلَيَّ وَدَعْنِي لِبَنَاتِيْ وَأُعْطِيْكَ عَهْداً أَلاَّ أَعُوْدَ لِمِثْلِ مَا فَعَلْتُ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ وَاللّهِ لاَ تَمْسَحُ عَارِضَيْكَ بِمَكّة وتَقُولُ خَدَعْتُ مُحَمّداً مَرَّتَيْنِ لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ يَا زَيْدُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ .

« مَوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللّهِ إِنَّ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ الّتِيْ هِيَ آدَابُ الإِسْلامِ جَمَالٌ لا يُوَازِنُهُ جَمَالٌ وَحَظُّ الإِنْسَانِ مِنْهَا يَكُوْنُ بِقَدْرِ مَا تَخَلَّقَ بِهِ مِنْ تِلْكَ الأَخْلاَقِ وَلـمّا كَانَ النَّبِيّ ﷺ مُتَخَلِّقاً بِجَمِيْعِهَا كَانَ أَجْمَلَ خَلْقِ اللّهِ أَجْمَعِيْنَ .

وَجَاءَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ وَجَاءَ فِي حَدِيْثٍ مُرْسَلٍ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلى النَّبِيّ ﷺ فقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا الدِّيْنُ فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ حُسْنُ الخُلُقِ .

وَهَذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حُسْنَ الخُلُقِ رُكْنُ الإِسْلامِ العَظِيْمِ الّذي لا قِيَامَ لِلدِّيْنِ بِدُونِهِ كَالوُقُوفِ بِعَرَفَاتٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْحَجِّ فَقَدْ جَاءَ عَنْهُ ﷺ أَنّهُ قَالَ الحَجُّ عَرَفَة أَيْ إِنّهُ رُكْنُ الحَجِّ العَظِيْمِ الّذِي لا يَكُونُ الحَجُّ إلاّ بِهِ الوُقُوفُ بِعَرَفَاتٍ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلأَخْلاَقِ مَكَانَةً عَظِيْمَةً أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَتَفَاضَلُونَ فِي الإِيْمَانِ وَأَنَّ أَفْضَلَهُمْ فِيْهِ أَحْسَنُهم خُلُقاً جَاءَ عَنْ النَّبِيّ ﷺ في الحَدِيْثِ أَنَّهُ قَالَ لمَّا قِيْلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللّهِ أَيّ المُؤْمِنِيْنَ أَفْضَلُ إِيْمَاناً قَالَ « أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً » .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ المُؤْمِنِيْنَ يَتَفَاوَتُونَ فِي الظَّفَرِ بِحُبِّ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَالقُرْبِ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَكْثَرهمْ ظَفراً بِحُبِّهِ وَالقُرْبِ مِنْهُ الّذِيْنَ حَسُنَتْ أَخْلاقُهُمْ جَاءَ فِي الحَدِيْثِ عَنْ النّبِيّ ﷺ أنّهُ قَالَ « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِليّ وَأقْرَبكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقاً » .

وَمِنْ ذَلِكَ أنَّ حُسْنَ الخُلُق أَمْرٌ لازِمٌ وَشَرْطٌ لا بُدَّ مِنْهُ لِلنَّجَاةِ مِنَ النّارِ وَالفَوْزِ بِالجَنَّةِ وَأَنَّ إِهْمَالَ هَذا الشَّرْطِ لا يُغْنِي عَنْهُ الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ جَاءَ فِي الحَدِيْثِ أَنَّ أَحَدَ المُسْلِمِيْنَ قَالَ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ إنّ فُلاَنَةُ تَصُوْمُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ وَهِيَ سَيِّئَةُ الخُلُقِ تُؤْذِي جِيْرانِهَا بِلِسَانِهَا قَالَ لا خَيْرَ فِيْهَا هِيَ في النَّارِ .

وَكَانَ النَّبِيّ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ بأَنْ يُحَسِّنَ خُلُقَهُ وَهُوَ أحْسَنُ النّاسِ خُلُقاً وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ « اللّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِيْ » وَيَقُولُ « اللّهُمَّ أهْدِنِيْ لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ فَإِنَّهُ لا يَهْدِي لأحْسَنِهَا إلاّ أَنْتَ » وَمَعْلُومٌ أنّهُ لَا يَدْعُو إلاّ بِمَا يُحِبُّهُ اللّهُ وَيُقَرّبُهُ مِنْهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَدْحُ اللّهِ تَعَالَى لِلنّبِيّ ﷺ بِحُسْنِ الخُلُقِ فَقَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ « وَإِنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ » وَاللّهُ لَا يَمْدَحُ إلاّ عَلَى الشَّيْءِ العَظِيْمِ ، وَمِنْ ذَلِكَ كَثْرَةُ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ بِمَوْضُوعِ الأَخْلاقِ أمْراً بالجَيِّدِ مِنْهَا وَمَدْحاً لِلْمُتَّصِفِيْنَ بِهِ وَمَعَ المَدْحِ الثَّوَابُ ، وَنَهْياً عَنْ الرَّدِيْ مِنْهَا وَذَمٌّ لِلْمُتَّصِفِيْنَ بِهِ وَمَعَ الذّمِّ العِقَابُ وَلَا شَكّ أَنَّ كَثْرَةَ الآيَاتِ في مَوْضُوْعِ الأخْلَاقِ دَلِيْلٌ عَلَى أَهَمِيَّتِهَا .

وَبالتَّالِيْ فَالإكْثَارُ مِنْ الأخْلاقِ الفَاضِلَةِ وَالاقلالُ مِنْهَا يَكُوْنُ جَمَالُ الإِنْسَانِ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ الاكْثَارِ أَوْ الاقْلالِ وَكَذَلِكَ تَرْكُ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ شَيْن لِتَارِكِهَا كَبِيْر وَعَلَى قَدْرِ مَا تَرَكَهُ يَكُوْنُ شَيْنُهُ عِنْدَ الكَبِيْرِ مِنّا وَالصَّغِيْرِ فَمَهْمَا أَكْثَرْتَ أو أقْلَلْتَ مِنْ تَرْكِهَا يَكُونُ شَيْنُكَ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ التَّقْدِيْرِ .

وَلِذَلِكَ أَنْظُرْ إِلَى الكُفَّارِ حَيْثُ أَنَّهُمْ تَرَكُوْهَا كُلَّهَا وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ شَيْءٌ تَجِدُهُمْ فِي قُبْحٍ لَا نِهَايَةَ لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ الحُسْنُ

وَالجَمَالُ فِيْمَنْ اتّصَفَ بِمَكَارِمِ الأخْلاقِ عِنْدَنا فَقَطْ بَلْ عِنْدَ اللّهِ بِهِ يَمْدَحُ اللّهُ المُؤْمِنِيْنَ المُتَّصِفِيْنَ بِذَلِكَ ويُدْخِلُهُمْ الجَنّةَ فانْظُرْ أَيَّ نَصِيْبٍ نصِيْبُكَ مِنْ تِلْكَ الخِلاَلِ الحِسَانِ لتَعْرِفُ قَدْرَكَ وَقِيْمَتَكَ عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ إِنَّ الأَلَمَ ليَمْلؤُ الجَوَانِحَ عَلَى الأخْلاقِ الفَاضِلَةِ وَعَلى عُشَّاقِهَا الفُضَلاءِ النُّبَلاَء مَاتَتْ وَمَاتُوا ، أيْنَ أهْلُ الأخْلاصِ الّذِيْنَ يَرَوْنَ المَوْتَ خَيْراً مِنْ حَيَاةِ الرِّيَاءِ .

أَيْنَ أَهْلُ الصِّدْقِ الّذِيْنَ يَرَوْنَ قَطْعَ أَلْسِنَتِهِمْ أَخفَّ عِنْدَهُمْ مِنْ أَنْ يَكْذِبُوا أوْ يَتَمَلَّقُوا أَوْ يُدَاهِنُوا أَوْ يُنَافِقُوا أَوْ يَنِمُّوا أوْ يَغْتَابُوا أو يَتَجَسَّسُوْا على المُؤْمِنين ليَزُجُونَهمْ بالسُّجُون .

أَيْنَ الّذِيْنَ إِذَا وَعَدُوا صَدَقُوا وَإِذَا عَاهَدُوا وَفَوْا أَيْنَ أَهْلُ العَفْوِ عِنْدَ المَقْدِرَةِ أيْنَ أهْلُ العَدْلِ وَالإِنْصَافِ .

الّذِيْنَ حِلْمُهُمْ مِثْلُ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ أَيْنَ الّذِيْنَ يَلْتَمِسُوْنَ الكُرَبَ لِيُفَرِّجُوهَا ، أَيْنَ الّذِيْنَ يَبْتَعِدُوْنَ عَنْ الرِّبَا وَمُعَامِلِيْهِ أَيْنَ الّذِيْنَ يَعْرِفُونَ الوَلاَءَ وَالبَراءَ وَلاَ يَأْلَفُونَ وَلا يُجَالِسُونَ إلاّ أهْلُ الصَّلاحِ وَيَبْتَعِدُوْنَ كُلَّ البُعْدِ عَنْ أهْلِ المَعَاصِي .

أَيْنَ الّذِيْنَ يَبْحَثُوْنَ عَنْ الفُقَرَاءِ الّذِيْنَ لا مَوْرِدَ لَهُمْ فَيُنْعِشُوْهُمْ بِمَا تَيَسَّرَ مِنْ زَكَاةٍ أَوْ صَدَقَةِ تَطَوُّعِ دَرَاهِمَ أوْ طَعَامٍ أَوْ كُسْوَةٍ . أوْ يَتَسبّبُوْنَ لَهُمْ فِي وَظَائِفَ يَكُفُّونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ عن النَّظَرِ لِمَا فِي أيْدِي النَّاسِ .

أَيْنَ الّذِيْنَ يُؤدُّوْنَ الزّكاةَ مُكَمَّلَةً لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا لا يُحَابُونَ بِهَا وَيَبْحَثُونَ عَنْ أهْلِ العَوَائِدِ فَإِذَا وَجَدُوْهُمْ غَيْرَ مُسْتَحِقِّينَ لمْ يُبَالُوا بِهِمْ وَلَمْ يُعْطُوهُمْ لِعِلْمِهِمْ أنّهَا لا تَبْرَأُ ذِمَمُهُمْ بِذَلِكَ .

أَيْنَ الّذِيْنَ يَبْحَثُوْنَ عَنْ الأرامِلْ وَالأَيْتَام لِيَجْبُرُوا قُلُوْبَهُمْ بِمَا مَنّ اللّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ ، أَيْنَ الّذِيْنَ يَهْجُرُوْنَ الفَسَقَةَ وَالظَّلَمَةَ وَالمُجْرِمِيْنَ حَتَّى وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ .

أَيْنَ الرَّجُلُ المُهَذَّبُ الّذِيْ لا يَتَلَبَّسُ فِي سِرِّهِ وَلَا فِي عَلَانِيَتِهِ بِحَالٍ يَسْتَحِي مِنْ اطِّلاعِ العُقَلاءِ عَلَيْهِ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلاً لَا يَرْفَعُهُ عِنْدَ اللّهِ دَرَجَةً وَلَا يَقُولُ قَوْلاً غَيْرَ مُفِيْدٍ لِسَامِعِهِ فَائِدَةً فِي دِيْنِهِ وَلَا يُضْمِرُ لِعَدُوِّهِ سُوْءاً إِذَا سَالَمَهُ وَلَا يَتَخَلَّقَ إلاّ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيْلٍ .

أَيْنَ الّذِيْنَ لا يَعْرِفُوْنَ إِلَّا النُّصْحَ لِلْمُسْلِمِيْنَ يُبْعِدُوْنَ عَنْ الغِشِّ كُلَّ البُعْدِ ، بَعَثَ أَبُو حَنِيْفَةَ بِمَتَاعٍ إِلَى شَرِيْكِهِ فِي التِّجَارَةِ حَفْص بْنِ عَبْدِ الرَّحْمنِ وأعْلَمَهُ أَنْ فِي ثَوْبٍ مِنْهُ عَيْباً وَاسْتَوْفَى الثَّمَنَ كَامِلاً لِثَوْبٍ غَيْرِ كَامِلٍ وَقِيْلَ ثَمَنُ المَتَاعِ الّذِيْ بِيْعَ ثَلَاثُونَ أَلفاً أَوْ خَمْسَةٌ وَثَلاثُونَ أَلْفاً فَأَبَى أَبُو حَنِيْفَةَ إلاّ أَنْ يَبْعَثَ لِشَرِيْكِهِ فِي التِّجَارَةِ يُكَلِّفُهُ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ المُشْتَرِي وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْهُ بَعْدَ البَحْثِ عَنْهُ .

فَأَبَى أَبُو حَنِيْفَةَ إلاّ انْفِصَالاً مِنْ شَرِيْكِهِ وَتَتَارَكَا بَلْ أَبَى أَبُو حَنِيْفَةَ أَنْ يُضِيفَ الثَّمَنَ إِلَى حُرِّ مَالِهِ وَتَصَدّقَ بِهِ كَامِلاً مِنْ شِدَّةِ الوَرَعِ .

وَيُرْوَى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ يُوْنُسَ بْنِ عُبَيْدٍ حُلَلٌ مُخْتَلِفَةُ الأَثْمَانِ ضَرْبٌ قِيْمَةُ كُلِّ حُلَّةٍ مِنْهُ أَرْبَعُمَائِةٍ وَضَرْبٌ كُلِّ حُلّةٍ قِيْمَتُها مائِتَانِ فَمَرَّ إِلَى الصَّلاةِ وَخَلَّفَ ابْنَ أَخِيْهِ فِي الدُّكَّانِ فَجَاءَ أَعْرَابِيّ وَطَلَبَ حُلّةً بِأَرْبَعمائَةٍ فَعَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ حُلَلِ المِائَتَيْنِ فَاسْتَحْسَنَهَا وَرَضِيَهَا وَاشْتَرَاهَا وَمَضَى بِهَا وَهِيَ عَلَى يَدَيْهِ .

فَاسْتَقْبَلَهُ يُوْنُسُ فَعرَفَ حُلّتَهُ فَقَالَ لِلأَعْرَابِيّ بِكَمْ اشْتَرَيْتَ فَقَالَ بِأَرْبَعمائَةٍ

فَقَالَ لَا تُسَاوِيْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْنِ فَارْجِعْ حَتَّى تَرُدَّهَا فَقَالَ هَذِهِ تُسَاوِيْ فِي بَلَدِنَا خَمْسُمَائةٍ وأنَا ارْتَضَيْتُهَا فَقَالَ يُوْنُسُ انْصَرِفْ فَإِنَّ النُّصْحَ فِي الدِّيْنِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا .

ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى الدُّكَّانِ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ وَخَاصَمَ ابْنَ أَخِيْهِ فِي ذَلِكَ وَقَالَ أمَا اسْتَحَيْتَ أمَا اتَّقَيْتَ اللّهَ تَرْبَحُ مِثْلَ ثَمَنِهَا وَتَتْرُكُ النُّصْحَ لِلْمُسْلِمِيْنَ فَقَالَ وَاللّهِ مَا أَخَذَهَا إلاّ وَهُوَ رَاضٍ بِهَا قَالَ فَهَلْ رَضِيْتَ لَهُ بِمَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ .

وَرُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ المُنْكَدِرِ أَنَّ غُلَامَهُ بَاعَ لِأَعْرَابِيّ فِي غَيْبَتِهِ مِنَ الخَمْسِيَّاتِ بعَشَرَةٍ فَلَمْ يَزَلْ يَطْلُبُ ذَلِكَ الأَعْرَابِيّ طُوْلَ النَّهَارِ لِيَرُدَّ عَلَيْهِ خَمْسَةً حَتَّى وَجَدَهُ فَقَالَ لَهُ إِنَّ الغُلامَ قَدْ غَلِطَ فَبَاعَكَ مَا يُسَاوِيْ خَمْسَةً بِعَشَرَةٍ .

فَقَالَ يَا هَذَا قَدْ رَضِيْتُ فَقَالَ وَإِنْ رَضِيْتَ فَإِنَّا لَا نَرْضَى لَكَ إلا مَا نَرْضَاهُ لأنْفُسِنَا وَرَدَّ عَلَيْهِ خَمْسَةً ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ يُوْجَدُ مِنْ الوَرِعِيْنَ النَّاصِحِيْنَ الَّذِيْنَ يُحِبُّونَ لأخْوَانِهِمْ المُؤْمِنِينَ مَا يُحِبُّونَ لأَنْفُسِهِمْ نَسْأَلَ الله أنْ يُكْثِرَ أمْثَالَهُمْ وأنْ يُقَلِّلَ الغَشَّاشِينَ السَّرَّاقِيْنَ المُنَافِقِينَ الكَذَّابِيْنَ ، أَيْنَ الّذِيْنَ لا تَأْخُذُهُم في اللّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ .

أَيْنَ الّذِيْنَ يَحِنُّونَ إِلَى بُيُوتِ اللّهِ حَنِيْنَ الأَلْفِ فَارَقَهُ الأَلْفُ .

أَيْنَ الّذِيْنَ لَا يَطِيْبُ لَهُمْ مَجْلِسٌ إلا عِنْدَ كِتَابِ اللّهِ وَالبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٌ وَسَائِرَ السُّنَنِ أو مَا أُخِذَ مِنْهَا أو مَا هُوَ وَسِيْلَةٌ إِلَيْهَا .

أَيْنَ الّذِيْنَ إِذَا فَاتَهُمْ قِيَامُ اللّيْلِ جَلَسُوا يَبْكُوْنَ عَلَى مَا فَاتَ .

أَيْنَ الّذِيْنَ دَرَسُوا سِيْرَةَ المُصْطَفَى وَأَصْحَابِهِ فَكَأَنَّهُمْ بَيْنَهُمْ يَتَرَدَّدُوْنَ .

أَيْنَ الّذِيْنَ يَتَقَدَّمُونَ إلى بُيُوتِ اللّهِ قَبْلَ الوَقْتِ وَيُسَبِّحُونَ وَيُهَلِّلُونَ مَاتَ هَؤلآءِ وَبَلِيَّةٌ مِنْ أكْبَرِ البَلا أنْ نَفْقِدَ هَذا الطِّرَازَ فَهَلْ لَكَ يَا أَخِيْ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيْلَ هَؤُلآءِ لِتَكُوْنَ قُدْوَةً وَمَثَلاً لِلْعَامِلِيْنَ .

وَتَفُوْزَ بِرِضَا رَبِّ العَالَمِيْنَ فَتَحْظَى بِالفَوْزِ بِسُكْنَى جَنَّاتِ النَّعِيْمِ الّتِيْ فِيْهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٍ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مِنْ الحُورِ العَيْنِ وَالفَوَاكِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنْ رَغِبْتَ فِي ذَلِكَ فَاجْتَهِدْ فِي تَحْسِيْنِ عَمَلِكَ الّذِي هُوَ المَهْرُ لِذَلِكَ .

قَالَ بَعْضُهُمْ :

فَإِنْ كُنْتَ لِلْمَهْرِ الّذِيْ عَزَّ قَادِراً
فَنَافِسْ وَسَابِقْ نَحْوَهَا كُلَّ سَابِقِ
وَإِنْ كُنْتَ مِثْلِيْ عَاجِزاً فَارْضَ بالدُّنَا
فَبِالدُّوْنِ يَرْضَى الدُّوْنُ عِنْدَ العَلائِقِ
رَعَى اللّهُ مَنْ أَضْحَى وَأَمْسَى مُشَمِّراً
لِنَيْلِ المَعَالِيْ قَاطِعاً كُلَّ عَائِقِ
إِلَى أَنْ عَلاَ فَوْقَ المَقَامَاتِ في العُلاَ
وَنَالَ المَنَى مِنْ قُرْبِ مَوْلَى الخَلاَئِقِ

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِنَا سَبِيْلَ عِبَادِكَ الأبْرَارِ ، وَنَجِّنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَأَسْكِنَّا الجَنَّةَ دَارَ القَرَارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

اعْلَمْ وَفَّقَنا اللّهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أَنَّ الزَّوَاجَ هُوَ أَهَمُّ مُقَوِّمَاتِ الحَيَاةِ وَالمُتَمِّمُ لِلوَضائِفِ الحَيَوِيَّةِ وَالحَافِظُ لِلْجَامِعَةِ البَشَرِيَّةِ مِنْ الانقِرَاضِ وَالزَّوَالِ بِإِذْنِ اللّهِ وَأَسَاسٌ لِتَقْدِيْرِ المَرْءِ فِي الهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ .

وَقُوَامُهُ وُجُودُ الإِلْفَةِ وَالتَّحَابُبِ وَالاحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيْرِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَبِهِ يَحْصُلُ التَّعَاوُنُ وَالتَّعَاضُدُ وَالتَّآلُفُ وَالتآزرُ بَيْنَ الأُسَرِ المُتَنَاسِبَةِ بِسَبَبِ مَا تَمَّ بَيْنَهَا مِنْ المُصَاهَرَةِ المُقَرِّبَةِ لِلْبَعِيْدِ وَالمُحَبِّبَةِ لِلْقَرِيْبِ وَالمُدْنِيَةِ لِلأَجْنَبِيِّ .

وَقَدْ نَدَبَ اللّهُ إِلَى الزَّوَاجِ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ « وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ » وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ النِّسَاءَ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ » وَقَالَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » وَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » .

وَلِهَذَا خَاطَبَ النَّبِيّ ﷺ الشَّبَابَ يَدْعُوْهُمْ إِلَى الزَّوَاجِ وَالمُبَادَرَةِ إِلَيْهِ مَتَى كَانَ قَادِراً عَلَى مُؤَنِ الزَّوَاجِ وَنَفَقَاتِهِ وَكَانَ بِهِ تَوَقَانٌ إِلَى النِّسَاءِ حَتَّى لَا تَزِلَّ بِهِ القَدَمُ فِي مَهَوَاتِ المَعَاصِيْ فَتَقُودُهُ نَفْسُهُ وَيُغْرِيْهِ شَيْطَانُهُ فَيَقَعُ فِيْمَا لَا يَحِلُّ مِنْ المُوبِقَاتِ وَالذُّنُوْبِ المُهْلِكَاتِ فَإِنَّ لِلشَّبَابِ فُتُوَّةً وَنَزْوَةً تَدْفَعُ الشَّابَّ إِلَى إِطَاعَةِ شَهْوَتِهِ وَتَقْهَرُهُ عَلَى إِرْضَائِهَا بِدُوْنِ أَنْ يُبَالِيْ بِسُوْءِ مَغَبَّةٍ أَوْ حُسْنِهَا .

وَكَمْ جَرَّ ذَلِكَ مِنْ وَيْلاتٍ وَأَعْقَبَ مِنْ أَدْوَاءٍ اسْتَفْحَلَ فِيْمَا بَعْدُ شَرُّهَا وَعَمَّ ضَرَرُهَا وَأَصْبَحَتْ مُلاقَاتُهَا عَسِيْرَةً وَتَدارُكُ أخْطارِهَا في غَيْرِ الوُسْعِ وَالطَّاقَةِ

وَكَمْ مِنْ شَابٍّ أغْرَتْهُ شَهْوَتُهُ وَاسْتَعْبَدَتْهُ لَذَتُهُ فَآتَى نَفْسَهَا مِنَ الذّنُوبِ وَالمَعاصِيْ حَظَّها وَأَرْوَىٰ مِنْ المُوْبِقَاتِ غلّتها .

فَكَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ ضَيَاعَ الثَّرْوَةِ والافْتِقَارِ بَعْدَ اليُسْرِ وَالمَالِ العَرِيْضِ وَالذِّلَّةِ بَعْدَ الجاهِ وَالعِزَّةِ ، وَالضَّعْفَ بَعْدَ القُوَّةِ وَالصِّحَّةِ الشَّامِلَةِ وَانْتَابَتْهُ بَعْدَ نَضَارَةِ شَبَابِهِ العِلَلُ وَالأَسْقَامُ وَصارَ حَلِيْفَ الهَمِّ والغَمِّ والسُّهَادِ يَنَامُ عَلَى مِثْلِ شَوْكِ القَتَادِ قَدْ أقَضَّ مَضْجَعَهُ وَذَبَلَتْ نَضْرَتُهُ وَتَنَكَّرَتْ لَهُ الحَيَاةُ بَعْدَ إقْبَالِهَا وَكَشَّرَتْ لَهُ الأَيَّامُ بَعْدَ ابْتِسامِهَا أنْيَابَهَا وَذَلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَدَاه .

وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَنْفُرُوْنَ عَنْهُ بَعْدَ مَا كَانَ قُرَّةَ أَعْيُنِهِمْ وَمَوْضِعَ الغِبْطَةِ والسُّرُوْرِ وَلَقَدْ بَيّنَ الرَّسُوْلُ ﷺ حِكْمَةَ المُبَادَرَةِ إِلَى الزَّوَاجِ بَعْدَ القُدْرَةِ وَالاسْتِطَاعَةِ بِأَنَّهَا تُحَصِّنُ الفَرْجَ عَنْ الوُقُوعِ فِي المُحَرَّمَاتِ وملابَسَةِ مَا يُغْضِبُ فَاطِرَ الأَرْضِ وَالسَّمواتِ وَيُزْرِيْ بِالشَّرَفِ وَالكَرَامَاتِ .

وَإِنَّ المُبَادَرَةَ تَدْعُو إِلَى العِفَّةِ وَغَضِّ البَصَرِ عَنْ المُحَرَّمَاتِ أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ المُبَادَرَةَ فِي الزَّوَاجِ تُمَكِّنُ المَرْءُ بِإِذْنِ اللّهِ إذا رَزَقَهُ اللّهُ أوْلاداً مِنْ تَرْبِيَتِهِمْ وَالقِيَامِ بِشُؤُونِهِمْ وَإِعْدَادِهِمْ لِمُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِمْ وَجَعْلِهِمْ رِجَالاً صَالِحِيْنَ مُصْلِحِيْنَ يَنْفَعُوْنَ أنْفُسَهُمْ وَأُمَّتَهُمْ وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ عِمَاداً لَهَا وَقُوَّةً يُرْهَبُ بِهِمْ جَنَابُهَا وَتَقْوَى شَوْكَتُهَا وَتُحْفَظُ هَيْبَتُهَا وَكَرَامَتُهَا وَيَدْفَعُ مَنْ يُرِيْدُ إذْلاَلَها وَاسْتِعْبَادَهَا .

تَأَمَّلْ فِي حَيَاةِ المُتَزَوِّجِ عِنْدَمَا يُفَاجِئُهُ مَرَضٌ أَوْ تَنْتَابُهُ نَائِبَةٌ وَعِنْدَهُ زَوْجَةٌ صَالِحَةٌ كَيْفَ يَكُوْنُ مُحاطاً بِعَطْفِهَا وَقِيَامِهَا بِخِدْمَتِهِ نَائِماً عَلَى فِرَاشِ الرَّاحَةِ وَالهَنَاءِ مَحْفُوفاً بِإِذْنِ اللّهِ بأَسْبَابِ الصِّحَّةِ وَالرَّفَاهِيَّةِ وَبِجَانِبِهِ قَرِيْنَتُهُ تُخَفِّفُ آلامَهُ

وَتُسَلّيْهِ وَتُؤْنِسُهُ وَتَقُومُ بِخِدْمَتِهِ وَتُضْمِرُ الخَيْرَ لَهُ .

وَارْجِعْ بِنَظَرِكَ إِلَى العَزَبِ فِي حَالَةِ مَرَضٍ فِي حَالَةِ يَأْسٍ وَقُنُوطٍ وَنَدمٍ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ لِعَدَمِ اقْتِرَانِهِ بِزَوْجَةٍ صَالِحَةٍ وَقَرِيْنَةٍ نَاصِحَةٍ تكُونُ لَهُ خَيْرَ مُعِيْنَةٍ وَأَفْضَلَ مُسَاعِدَةٍ عَلَى نوَائِبِ الدَّهْرِ وَأنْكادِهِ فَقَدْ فَقَدَ العَزَبُ العَطْفَ وَالرَّأْفَةَ بِهِ وَالرَّاحَةَ وَالقِيَامَ بِتَمْرِيْضِهِ وَحَوائِجِهِ الكَثِيْرَةِ في أَشَدِّ الأَوْقَاتِ وأَحْرَجِهَا وَأَضْيَقِ السَّاعَاتِ وَكَانَ في حَالَتِهِ المُحْزِنَةِ كَالغَرِيْبِ النَّائِيْ عَنْ وَطَنِهِ وأَقْرَبَائِهِ وَأَصْدِقَائِهِ يَتَمَنَّى وَيَتَلَهَّفُ عَلَى أَحَدٍ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِشَرْبَةِ مَاءٍ أَوْ نَحْوِهَا .

وَأَمَّا الإِبْطَاءُ عَنْ الزَّوَاجِ حَتَّى يَتَقَدَّمَ في العُمْرِ فَصَاحِبُهُ عَلَى خَطَرٍ فَقَدْ لَا يَسْتَطِيْعُ تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِ لِضُعْفِ قُوَّتِهِ وَعَجْزِهِ عَنْ تَحْصِيْلِ مَا بِهِ حَيَاتُهُمْ وَتَوْفِيْرِ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ لَهُمْ .

وَرُبَّمَا اخْتَرَمَتْهُ المَنِيَّةُ فَيَتْرُكُهُمْ كَزُغْبِ القَطا مَهِيْضِيْ الجَنَاحِ أَيْتَامٌ لَا يَقْدِرُوْنَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ الأَكْدَارِ وَالأَنْكَادِ زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الإِبْطَاءَ فِي الزَّوَاجِ يَزِيْدُ كَثْرَةِ الفَتَيَاتِ العَانِسَاتِ وَيُفوِّتَ عَلَيْهِنَّ زَمَنَ نَضْرَتِهِنَّ وَجَنْيِ ثِمَارِهِنَّ وَلَيْسَ لَهُنَّ قُوَّةٌ عَلَى دَفْعِ الشَّهْوَةِ كالرِّجَالِ فَرُبَّمَا تَطْغَى عَلَيْهِنَّ وَيَسْلُكْنَ طُرُقَ الغِوَايَةِ وَالفَسَادِ .

وَهُنَاكَ الطَّامَّةُ الكُبْرَى وَالمُصِيْبَةُ العُظْمَى مِنْ اخْتِلَاطِ الأَنْسَابِ وَانْتِهَاكِ حُرْمَةِ الأَعْرَاضِ وَتَمْزِيْقِ ثَوْبِ الحَيَاءِ وَالاسْتِهْتَارِ بِمَا يُزِيْلُ الكَرَامَةَ وَيُذِلُّ الشَّرَفَ والعِزَّةَ وَيَقْضِيْ عَلَى الابَاءِ وَالمُرُوءةِ وَالنَّخْوَةِ .

وَإِنَّ مِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَشَدَّ الأَسَفِ مِنْ إنْصِرَافِ الشَّبَابِ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ الزَّوَاجِ إِعْرَاضاً تَامّاً ظَنّاً مِنهُم أنَّ حَيَاةَ العُزُوْبَةِ ألَذُّ وأَهْنَأُ وَأَهْوَنُ حِمْلَا وأَخَفُّ

كُلْفَةً مِنْ الزَّوَاجِ مَعَ أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِي عَمَلِهِمْ شَاذُّوْنَ في رَأْيِهِمْ ضَالُّوْنَ عَنْ طَرِيْقِ الحَقِّ تَائِهُونَ عَنْ جَادَّةِ الصَّوَابِ .

لأَنَّ التَّزَوُّجَ سُنَّةُ المُرْسَلِيْنَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِيْ فَلَيْسَ مِنِّي وَكَانَ ﷺ يَأمُرُ بالبَاءَةِ وَيَنْهَى عَنْ التَّبَتُّلِ نَهْياً شَدِيْداً وَرُوِيَ لا صَرُوْرَةَ فِي الإِسْلَامِ وَالصَّرُوْرَةُ الذي لَمْ يَتَزَوَّجْ .

وَقَالَ أَحْمَدُ لَيْسَ العُزُوْبَةُ مِنْ أَمْرِ الإِسْلامِ في شَيْءٍ وَقَالَ مَنْ دَعَاكَ إلَى غَيْرِ التَّزَوّجِ فَقَدْ دَعَاكَ إلَى غَيْرِ الإِسْلَامِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِرَجُلٍ تَزَوَّجْ فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الحَثِّ عَلَى الزَّوَاجِ وَالنَّهْيِ عَنْ العُزْبَةِ إلاّ قَوْلُهُ تَعَالَى « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً لَكَفَى وَشَفَى .

اللّهُمَّ وَفِّقْنَا لِسُلُوْكِ صِرَاطِكَ المُسْتَقِيْمِ وَجَنِّبْنَا جَمِيْعَ مَا يُغْضِبُكَ يَا كَرِيْمُ وَأَعِذْنَا مِنْ عَذَابِ القَبْرِ وَالجَحِيْمِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

وَقَالَ ﷺ مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ نِصْفَ دِيْنِهِ فَلْيَتَّقِ اللّهَ في النِّصْفِ البَاقِي رَوَاهُ الطَّبَرانِيّ في الأَوْسَطِ وَقَالَ ﷺ مَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِيْ فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِيْ وَمِنْ سُنَّتِيْ النِّكَاحُ رَوَاهُ البَيْهَقِيّ في السُّنَنِ الكُبْرَى وَقَالَ ﷺ أيّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ في حَدَاثَةِ سِنِّه عَجَّ شَيْطَانُهُ يَا وَيْلَهُ عُصِمَ دِيْنُهُ رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى في مُسْنَدِهِ .

وَقَالَ ﷺ ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللّهِ عَوْنُهُمْ المُجَاهِدُ فِي سَبِيْلِ اللّهِ والمَكَاتِبُ الّذِيْ يُرِيْدُ الأَدَاءَ والنَّاكِحُ الّذِيْ يُرِيْدُ العَفافَ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنّسَائِيّ وَغَيْرُهُمَا بإسْنَادٍ صَحِيْحٍ .

وَقَالَ ﷺ لِعَكَّافِ بْنِ وَدَاعَةَ الهِلاَلِيّ أَلَكَ زَوْجَةٌ يَا عَكَّافُ قَالَ لاَ قَالَ وَلاَ جَارِيَةٌ قَالَ وَلاَ جَارِيَةٌ قَالَ وَأَنْتَ مُوْسِرٌ قَالَ وَأَنَا مُوْسِرٌ بِخَيْرٍ قَالَ أَنْتَ إِذاً مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِيْنِ لَوْ كُنْتَ مِنَ النَّصَارَىٰ كُنْتَ مِنْ رُهْبَانِهِمْ إِنَّ سُنَّتَنَا شِرَارُكُمْ عُزَّابُكُمْ وَأَرَاذِلُ مَوْتَاكُمْ عُزَّابُكُمْ أَبَا الشّيْطَانُ تَمرسُونَ مَا لِلشَّيْطَانِ سِلاحٌ أَبْلَغُ فِي الصّالِحِيْنَ مِنْ النِّسَاءِ إلاّ الْمُتَزَوِّجُونَ أُوْلَئِكَ المُطَهَّرُوْنَ المُبَرَّؤُنَ مِنْ الخَنَا وَيْحَكَ يَا عَكّافُ إِنّهُنَّ صَوَاحِبُ أيُّوبَ وَدَاوُدَ وَيُوْسُفَ وَكُرْفُسَ .

قَالَ لَهُ بِشْرُ بْنُ عَطِيَّةَ مَنْ كُرْفُسُ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ رَجُلٌ كَانَ يَعْبُدُ اللّهَ بِسَاحِلٍ مِنْ سَوَاحِلِ البَحْرِ ثَلاثَمِائَةِ عَامٍ يَصُوْمُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللّيْلَ ثُمَّ إِنّهُ كَفَرَ بِاللّهِ بِسَبَبِ امْرَأَةٍ عَشِقَهَا وَتَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةٍ ثُمَّ اسْتَدْرَكَهُ اللّهُ بِبَعْضِ مَا كَانَ مِنْهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَيْحَكَ يَا عَكَّافُ تَزَوَّجْ وإلاّ فَأَنْتَ مِنْ المُدْبِرِيْنَ قَالَ زَوِّجْنِي يَا رَسُوْلَ اللّهِ قَالَ زَوَّجْتُكَ كَرِيْمَةَ بِنْت كُلْثُومَ الحِمْيَرِيِّ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَدِهِ .

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَقُولُ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِيْ إِلاَّ عَشَرَةُ أَيَّامٍ أَحْبَبْتُ أَنْ أَتزَوَّجَ حَتَّى لاَ أَلْقَى اللّهَ عَزَباً وَتَزَوَّجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ فِي اليَوْمِ الثّانِي مِنْ وَفاةِ امْرَأتِهِ وَقَالَ أَكْرَهُ أَنْ أَبِيْتَ عَزَباً وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ مَا اسْتَفَادَ المُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْراً لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ إِنْ أَمَرَهَا أَطاعَتْهُ وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا بَرَّتْهُ وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ .

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ إنِي لأُكْرِهُ نَفْسِيْ عَلَى الجِمَاعِ رَجَاءَ أَنْ يُخْرِجَ اللّهُ نَسْمَةً تُسَبِّحُهُ وَتَذْكُرُهُ وَقَالَ ﷺ دَعُوْا الحَسْنَاءَ العَاقِرَ وَتَزَوَّجُوا السَّوْدَاءَ الوَلُوْدَ فَإِنِّي أُكَاثِرُ بِكُمْ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ ، وَالأَمْرُ لِلنَّدْبِ .

وَقَالَ عُمَرُ تَكَثَّرُوا مِنْ العِيَالِ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْرُوْنَ بِمَنْ تُرْزَقُوْنَ وَقَالَ ﷺ تَزَوَّجُوا الوَدُوْدَ الوَلُودَ فَإِنِّي مُكاثِرٌ بِكُمْ الأُمَمَ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالنَّسَائِيّ وَقَالَ ﷺ لا تُطَلِّقُ النِّسَاءُ إلاّ مِنْ رِيْبَةٍ إنَّ اللّهَ تَعَالَى لاَ يُحِبُّ الذَّوَّاقِيْنَ وَلاَ الذَّوَّاقَاتْ » وَالذَّوَّاقُ الكَثِيْرُ النِّكَاحِ وَالطَّلاقِ مِنْ دُوْنِ عُذْرٍ شَرْعِيٍّ وَالذَّوَّاقَةُ الّتِيْ كُلَّ مَنْ أخذَهَا تَتَسَبَّبُ لِفِرَاقِهِ لأجْلِ التَّزَوّجِ بِغَيْرِهِ هَذا وَاللّهُ أَعْلَمُ مَعْنَاهُمَا .

وَمِنْ الأَسْبَابِ الرَّئِيْسِيَّةِ لِتَوَقُّفِ كَثِيْرٍ مِنْ الشَّبَابِ عَنْ الزَّوَاجِ ثِقَلُ المُهُوْرِ وَالتَّبْذِيْرِ السَّخِيْفِ فِي الطُّرُقِ الّتِيْ غَيْرَ شَرْعِيّة وسَبَبُ ذلِكَ مُوافقَةُ سُخَفاءِ العقول في تَصَرّفاتِهِمْ .

فَالعَاقِلُ إذَا جَاءَهُ مَنْ يَرْضَى دِينَهُ وَعَقْلَهُ مَا يَغْتَرُّ بالزَّخَارِفِ وَيَنْخَدِعُ بِالبَهَارِجِ الكَاذِبَةِ وَيَحْذُو حِذَاءَ المُسْرِفِيْنَ بَلْ يَنْقَادُ لِعَقْلِهِ الرَّاجِحِ وَدِيْنِهِ الحَقِّ وَتعَالِيْمِهِ السَّامِيَةِ وَيَرْضَى بِالْمَيْسُورِ إِذَا كَانَ لَهُ السُّلْطَةُ التَّامَّةُ عَلَى أَهْلِهِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ المُسْتَضْعِفِيْنَ فَيُحَاوِلُ بِالّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ فَإنْ عَجزَ فَلَيْسَ لَهُ وَاللّهِ إلاَّ الصَّبْرُ وَالرِّضَا بِمَا قَدَّرَهُ اللّهُ وَقَضَاهُ فِي هَذَا الزَّمَنِ الّذِيْ انْحَطَّ أَهْلَهُ وَسَيْطَرَتْ فِيْهِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ وَصَارَ الأَكْثَرُ مِنْ الرِّجَالِ عِنْدَ أَهْلِيْهِمْ وَأَوْلادِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الخَادِمِ الحَقِيْرِ وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ حَارِسٌ وَخَادِمٌ مَحْقُورٌ وَمُحَامِيْ لِلأَمْوَالِ الّتِي سَتؤُلُ إِلَيْهِمْ وَلَا شُكْرَ مِنْهُمْ وَلاَ ثَناءَ وَاللّهُ المُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التِّكْلانِ وَصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وَإِلَيْكَ قِصَّةَ سَعِيْدِ بْنِ المُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللّهُ

قَالَ أَبُو وَدَاعَةَ كُنْتُ أُجَالِسُ سَعِيْدَ بْنَ المُسَيِّبِ فَفَقَدَنِيْ أَيَّاماً فَلَمَّا جِئْتُهُ قَالَ أَيْنَ كُنْتَ قُلْتُ تُوفِيَتْ زَوْجَتِيْ فَاشْتَغَلْتُ بِهَا فَقَالَ هَلاَّ أَخْبَرْتَنَا فَشَهِدْنَاهَا فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَقُوْمَ قَالَ هَلْ أَحْدَثْتَ امْرَأَةً غَيْرَهَا فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللّهُ وَمَنْ يُزَوِّجُنِيْ وَمَا أَمْلِكُ إِلاّ دِرْهَمَيْنِ أَوْثَلاثَةً قَالَ إِنْ فَعَلْتُ تَفْعَلُ قُلْتُ نَعَمْ ثُمَّ حَمِدَ اللّهَ وَصَلّى عَلَى النّبِيّ ﷺ وَزَوَّجَنِيْ ابْنَتَهُ عَلَى دِرْهَمَيْنِ .

وَفِيْ مَسَاءِ ذَلِكَ اليَوْمِ إِذَا بِالبَابِ يُقْرَعُ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا فَقَالَ سَعِيد فَفَكَّرْتُ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ أَعْرِفُهُ اسْمُهُ سَعِيْدٌ إِلاّ سَعِيْدَ بْنَ المُسَيِّبِ فَإِنَّهُ لَمْ يُرَ مُنْذُ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً إِلاّ مَا بَيْنَ بَيْتِهِ وَالمَسْجِدِ فَقُمْتُ وَفَتَحْتُ البَابَ وَإِذَا سَعِيْدُ بْنُ المُسَيَّبِ فَظَنَنْتُ أَنّهُ بَدَا لَهُ فَقُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِيْ قَالَ رَأَيْتُكَ رَجُلاً عَزباً فَكَرِهْتُ أَنْ تَبِيْتَ اللَّيْلَةَ وَحْدَكَ وَهَذِهِ زَوْجَتُكَ فَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ خَلْفَهُ فِي طُوْلِهِ ثُمّ دَفَعَهَا وَرَدَّ البَابَ .

وَثِقَلُ المُهُورِ يَنْشَأُ عَنْهُ التَّزَوُّجُ بِالاجْنَبِيَّاتِ وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الأَضْرَارِ عَلَى الأَمّةِ وَمِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ لِكَسَادِ بَنَاتِ الوَطَنِ لأَنّهُ يُكْسِدُ وَاحِدةً وَيَأْتِي بِأُخْرَى تُحَمِّلُهُ في كُلِّ زِيَارَةٍ مَهْراً جَدِيْداً وَيَبْعُدُ أَنْ تَتَّفِقَ الطِّبَاعُ بَيْنَهُمَا وَإِنْ حَصَلَ أَوْلادٌ ثُمَّ فِرَاقٌ فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ ضَرَرٍ .

وَأَكْثَرُ مَنْ يَتَزَوَّجُ بِالأَجْنَبِيَّاتِ الأَغْبِيَاءُ قُصَّارُ النَّظَرِ الّذِيْنَ لاَ يَحْسِبُونَ لِلْمُسْتَقْبَلِ حِسَاباً وَلاَ يُفَكّرُونَ وَلاَ يَفْرضُوْنَ وَيُقَدِّرُونَ أَهْلُ ظَوَاهِرَ فَقَطْ عُقُولِهِمْ ضَعِيْفَةٌ وَنَظَرُهُمْ قَاصِرْ .

وَالنَّــاسُ أكْثَرُهُمْ فَــأَهْـلُ ظَــوَاهِـرٍ
تَبْــدُو لَهُمْ لَيْسُــوا بــأَهْـلِ مَعَــانِي
فَهُمْ القُشُـــوْرُ وبِــالقُشُــوْرِ قِــوَامُهُمْ
وَالـلُّبُّ مِنْــهُ خُــلاصَــةُ الإنْسَــانِ

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الغَالِبَ في الأجْنَبِيَّاتِ السُّفُورُ وَالاسْتِهَانَةُ بِالأَزْوَاجِ وَكَثْرَةُ الخُرُوْجُ وَاسْتِطَالَةُ اللّسَانِ عَلَى الزَّوْجِ وَضَعْفُ الدِّيْنِ أو عدَمُهُ وَالغِلْظَةُ عَلَى الأوْلاَدِ وَتَكْلِيْفُ الزّوْجِ بالمَصَارِيْفِ البَاهِضَةِ حَتّى تُجْلِسَهُ عَلَى بِسَاطِ الفَقْرِ هَذَا في الغَالِبِ وَلِهَذَا نَسْمَعُ أَنَّ بَعْضَ الّذِيْنَ اغْتَرُّوا وَتَزَوَّجُوا بِهِنَّ يَئِنُّوْنَ وَيَتَمَنَّوْنَ الخَلاصَ وَهَيْهَاتَ الخَلاصُ بَعْدَ مَا امْتَلأَ البَيْتَ مِنَ الأوْلادِ وَالبَنَاتِ . ولِذَلِكَ تَجِدهم يتضجَّرُوْن ويَتشكون بَعْدَمَا تورّطُوا .

وَكَمْ مِنْ إنْسَانٍ اضْطُرَّ إلَى مُصَادَقَةِ زَوْجَتِهِ لأجْلِ الأوْلَادِ وَبِالعَكْسِ فَكَمْ مِنْ زَوْجَةٍ اضْطُرَّتْ إلَى مُجامَلَةِ زَوْجِهَا وَالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِهِ لأجْلِ أوْلاَدِهَا قَالَ بَعْضُهُمْ وأظُنُّهُ مِمَّنْ ابْتُلِيَ بِزَوْجَةٍ يُبْغِضُهَا وَلَكِنَّهُ مُضْطَرٌّ إلَى المُجَامَلَةِ وَالصَّدَاقَةِ .

وَإنِّيْ لمُشْتَــاقٌ إلَى مَــوْتِ زَوْجَتِــيْ
وَلَكِنْ قَــرِيْنُ السُّــوْءِ بَــاقٍ مُعَمَّــرُ
فَيَا لَيْتَهَا في القَبْـرِ أمْسَتْ ضَجِيْعَـةً
يُعَـذِّبُهَــا فِيْــهِ نَكِيْـرٌ وَمُنْكَـرُ

وَكَمْ مِنْ زَعِيْمٍ اضْطُرَّ إلى مُصَادَقَةِ زَعِيْمٍ وَكَمْ مِنْ مَرْؤُسٍ اضْطُرَّ إلَى مُصَادَقَةِ رَئِيْسٍ وَصَبَرَ عَلَى النَّكَدِ وَالضَّرَرِ وَهَذَا مِنْ أَثْقَلِ مَا يَكُونُ عَلَى

النُّفُوسِ قَالَ المُتَنَبِّيْ :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى
عَـدُوّاً لَـهُ مَـا مِنْ صَـدَاقَتِـهِ بُـدُّ

آخَرُ : مُحَذِّراً عَمَّنْ لاَ تَصْلُحُ وَحَاثّاً عَلَى الّتِي تَصْلُحُ :

وَإِيَّـاكَ يَـا هَـذَا وَرَوْضَـةَ دِمْنَـةٍ
سَتَرْجِعُ عَنْ قُرْبٍ إِلَى أَصْلِهَا الرَّدِيْ
وَخَيْرُ النِّسَاء مَنْ سَرَّتِ الزَّوْجَ مَنْظِراً
وَمَنْ حَفِـظَتْـهُ فِي مَغِيْبٍ وَمَشْهَـدِ
قَصِيْـرَةُ أَلْـفَـاظٍ قَصِيْـرَةُ بَيْتِهَـا
قَصِيْرَةُ طَرْفِ العَيْنِ عَنْ كُـلِّ أَبْعَـدِ
حَسِيْبَـةُ أَصْـلٍ مِنْ كِـرَامٍ تَفُـزْ إِذَا
بِـوُلْـدٍ كِـرَام وَالبَكَـارَةَ فَـاقْصُـدِ
وَوَاحِـدَةٌ أَدْنَى إِلَى العَـدْلِ فَـاقْتَنِـعْ
وَإِنْ شِئْتَ فَـابْلغْ أَرْبَعـاً لاَ تَـزَيَّـدِ

اللّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوْبَنَا بِنُوْرِ الإِيْمَانِ وَثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ فِيْهَا وَقَوِّهَا وَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَأَرْزُقْنَا حُبَّ أَوْلِيَائِكَ وَبُغْضَ أَعْدَائِكَ وَآتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْــلٌ)

ثُمَّ اعْلَمْ وَفَّقَنِيْ اللّهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ أَنَّهُ يُسَنُّ لِمَنْ أَرَادَ النِّكَاحَ أَنْ يَتَخَيَّر ذَاتَ الدِّيْنِ لِحَدِيْثِ أبي هُريرة مَرْفُوعاً تُنْكَحُ المَرأةُ لأرْبَعٍ لِمالِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِدِيْنِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدّيْنِ تَرِبَتِ يَداكَ متفقٌ عَلَيْهِ وأنْ تكونُ ذاتَ عَقْلٍ لَا حَمْقَى جَاهِلَةً لأنَّ النّكَاحَ يُرَادُ لِلعِشْرَةِ الحَسَنَةِ وَلَا تَصْلُحُ العِشْرَةُ مَعَ الحَمْقَاءِ وَلَا يَطِيْبُ مَعَها عَيْشٌ وَرُبَّمَا تَعَدَّى ذَلِكَ إلَى وَلَدِهَا وَقَدْ قِيْلَ اجْتَنِبُوا الحَمْقَاءَ فَإنَّ وَلَدَهَا ضَيَاعٌ وَصُحْبَتَها بَلاءٌ وَلَا يَنْفَعُ فِيْهَا العِلاجُ وَقَدِيْماً قِيْلَ :

لِــكُــلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُــسْــتَــطَبُّ بِــهِ
إلّا الحَمَــاقَــةَ أعْيَتْ مَنْ يُــدَاوِيْهَــا

وَأَنْ تَكُوْنَ الزَّوْجَةُ مِنْ بَيْتٍ مَعْرُوفٍ بِالقَنَاعَةِ لأَنَّهُ مَظِنَّةُ دِيْنِهَا وَقَنَاعَتِهَا وَيُسْتَحَبُّ أنْ تَكُونَ جَمِيْلَةً لأَنَّهُ أَسْكَنُ لِنَفْسِهِ وَأَغَضُّ لِبَصَرِهِ وَأَكْمَلُ لِمَوَدَّتِهِ وَلِذَلِكَ جَازَ النَّظَرُ إلَيْهَا قَبْلَ النِّكَاحُ .

وَعَنْ المُغِيْرَةِ بْنِ شُعْبَةٍ أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ انْظُرْ إلَيْهَا فَإِنَّهُ أحْرَى أنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُما رَوَاهُ الخَمْسَةُ إلّا أبُو دَاوُدَ وَعَنْ جَابِر قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ إذَا خَطِبَ أحَدُكُمْ المَرْأَةَ فَقَدِرَ أنْ يَرَى مِنْهَا بَعْضَ مَا يَدْعُو إلى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ رَوَاهُ أحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ .

وَعَنْ مُوْسَى بْنِ عَبْدِ اللّهِ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ أَوْ حُمَيْدَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ إذا خَطَبَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَنْظُرَ مِنْهَا إذَا كانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا

لِخِطْبَةٍ وَإِنْ كَانَتْ لَا تَعْلَمُ رواه أحْمَدُ .

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ إِذا أَلْقَى اللّهُ عَزَّ وَجلّ فِي قَلْبِ امْرِىءٍ خُطْبَةَ امْرَأَةٍ فَلا بَأْسَ أنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا رواهُ أحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ .

وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَكُوْنَ نَظَرُهُ إِلَيْهَا بِلا خَلْوَةٍ لِحَدِيْثِ لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُوْ مَحْرَمٍ فَإِنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ النَّظَرُ إِلَيْهَا بَعَثَ إِمْرَأَةً ثِقَةً تَتَأَمَّلُها لَهُ وَتَصِفُهَا لأنَّهُ ﷺ بَعَثَ أُمَّ سُلَيْمٍ إلى امْرَأَةٍ وَقَالَ انْظُرِيْ عُرْقُوبَهَا وَشُمِّيْ عَوارِضَهَا رواهُ الحَاكِمُ وصَحَّحَهُ وَالعُرْقُوبُ إذا لَمْ يَكُنْ طَوِيْلًا فَهُوَ أَحْسَنُ بِأَنْ يَكُوْنَ مُساوِي لِلسَّاقِ ، وَكَانُوا يَذُمُّوْنَ الّتِيْ عُرْقُوْبُهَا طَوِيْلٌ قَالَ بَعْضُهُمْ وَهُوَ مِنْ المُتَثَاقِلِيْنَ لِلصِّيَامِ .

أُنْبِئْتُ أَنَّ فَتَاةً كُنْتُ أَخْطُبُهَا
عُرْقُوْبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ بالطُّوْلِ

وَالعَوَارِضُ الأَسْنَانُ الّتِيْ فِي عَرْضِ الفَمِ وَهِيَ مَا بَيْنَ الثَّنَايَا وَالأَضْرَاسِ وذَلِكَ لاخْتِبَارِ النَّكْهَةِ فَإِنْ لَمْ تُعْجِبْهُ سَكَتَ وَلَا يَقُوْلُ إِلّا خَيْراً لَا يَقُوْلُ لا أُرِيْدُهَا لأَنَّ فِي ذَلِكَ إِيْذَاءً .

وَلِحَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قِيْلَ يَا رَسُوْلَ اللّهِ أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ قَالَ الّتِيْ تَسُرُّهُ إذا نَظَرَ إِلَيْهَا وَتُطِيْعُهُ إِذَا أمَرَهَا وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَلَا فِي مَالِهِ بِمَا يَكْرَهُ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيّ وَعَنْ يَحْيَى بْنِ جَعْدَةَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ خَيْرُ فَائِدَةٍ أَفَادَهَا المَرْءُ المُسْلِمُ بَعْدَ إسْلامِهِ امْرَأَةٌ جَمِيْلَةٌ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا تَسُرُّهُ وَتُطِيْعُهُ إِذَا أَمَرَهَا وَتَحْفَظُه في غَيْبَتِهِ في مَالِهِ وَنَفْسِهَا رَوَاهُ سَعِيْدٌ .

وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا وَأَحَبَّهَا وَتَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِهَا وَهِيَ ذَاتُ دِيْنٍ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ جَمِيْلَةً فَقَدْ لَا يُحِبُّ الجَمِيْلَةَ فَالأَحْسَنُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِمَنْ يُحِبُّ فَإِنَّهُ أَحْرى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَهُمَا وَقَدْ قِيْلَ :

وَرُبَّ مَلِيْحٍ لَا يُحِبُّ وَضِدُّهُ
يُقَبِّلُ مِنْهُ العَيْنُ وَالأَنْفُ وَالفَمُ
هُوَ الجَدُّ خُذْهُ إِنْ أَرَدْتَ مُسَلَّماً
وَلَا تَطْلُبِ التَّعْلِيْلَ فَالأَمْرُ مُبْهَمُ

وَيقُولُ الآخَرُ :

وَمَا الحُبُّ مِنْ حُسْنٍ وَلَا مِنْ مَلَاحَةٍ
وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ بِهِ الرُّوْحُ تُكْلَفُ

آخَرُ : كَلِفْتُ بِهَا شَمْطَاءَ شَابَ وَلِيْدُهَا
وَلِلنَّاسِ فِيْمَا يَعْشَقُوْنَ مَذَاهِبُ

وَيُسَنُّ أَنْ تَكُوْنَ وَلُوْداً لِحَدِيْثِ أَنَسٍ كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَقُولُ تَزَوَّجُوا الوَدُوْدَ الولود فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ رَوَاهُ سَعِيْدٌ .

وَيُعْرَفُ كَوْنُ البِكْرِ وَلُوْداً بِكَوْنِهَا مِنْ نِسَاءٍ يُعْرَفْنَ بِكَثْرَةِ الأَوْلَادُ فَإِذَا كَانَتْ أُمُّهَا وَأُخْتُهَا وَخَالَتُهَا وَعَمَّتُهَا وَالقَرِيْبَاتِ لَهَا مِنْ النِّسَاءِ وَلُوداتٍ فَالغَالِبُ وَالعِلْمُ لِلّهِ أَنَّهَا تَكُونُ مِثْلُهُنَّ وَيَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ بِخِلافِ ذَلِكَ .

وَلْيَحْذرْ الإِنْسَانُ مِنْ خَضْرَاءِ الدِّمَنْ فَفِيْ الحَدِيْثِ الّذِيْ رَوَاهُ الدَّارُ قِطْنِيُّ فِي الأَفْرَادِ وَالعَسْكَرِيُّ فِي الإِمْثَالِ إِيَّاكُم وَخَضْرَاءَ الدِّمَنْ قَالُوا وَمَا خَضْرَاءُ الدِّمَنْ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ المَرْأَةُ الجَمِيْلَةِ مِنْ المنْبَتِ السُّوْءِ ، قَالَ ابْنُ الجَوْزِيّ

يَنْبَغِيْ لِلْعَاقِلِ أنْ يَنْظُرَ فِي الأُصُوْلِ فِيْمَنْ يُخَالِطُهُ وَيُعَاشِرُهُ وَيُشَارِكُهُ وَيُصَادِقُهُ وَيُزَوِّجُهُ أَوْ يَتَزَوَّجُ إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْظُرَ بَعْدَ ذَلِكَ في الصُّوَرِ .

قَالَ أَمَّا الأُصُوْلُ فَإِنَّ الشَّيْءَ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ وَبَعِيْدٌ مِمَّنْ لا أَصْلَ لَهُ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ مَعْنَى حَسَن فَإِنَّ المَرْأَةَ الحَسْنَاءُ إِذَا كَانَتْ مِنْ بَيْتٍ رَدِيءٍ فَقَلَّ أَنْ تَكُوْنَ أَمِيْنَةً وَكَذَا أَيْضاً الْمُخَالِطُ وَالصَّدِيْقُ وَالمَبَاضِعُ وَالمُعَاشِرُ وَإِيَّاكَ أَنْ تُخَالِطَ إِلاّ مَنْ لَهُ أَصْلٌ يَخَافُ عَلَيْهِ الدَّنَسُ فَالغَالِبُ السَّلامَةُ وَإِنْ وَقَعَ خِلافُ ذَلِكَ كَانَ نَادِراً أ . هـ .

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمْ :

يَا مُطْلِقَ الطَّرْفِ المُعَذَّبِ بالأُولَى
جُرِّدْنَ عَنْ حُسْنٍ وَعَنْ احْسَانِ
لَا تَسْبِيَنَّكَ صُوْرَةُ مَنْ تَحْتَها الد
دَّاءُ الدَّفِيْنُ تَبُوْءُ بِالخُسْرَانِ
قَبُحَتْ خَلائِقُهَا وَقُبِّحَ فِعْلُهَا
شَيْطَانَةٌ فِي صُوْرَةِ الإنْسَانِ
تَنْقَادُ لِلأَنْذَالِ وَالأذالِ هُمْ
أَكْفَاؤُهَا مِنْ دُوْنِ ذِيْ الأَحْسَانِ
مَا ثَمَّ مِنْ دِيْنٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا
خُلُقٍ وَلَا خَوْفٍ مِنْ الرَّحْمَنِ
وَجَمَالُهَا زُوْرٌ وَمَصْنُوعٌ فَإِنْ
تَرَكَتْهُ لَمْ تَطْمَحْ لَهَا العَيْنَانِ

طُبِعَتْ عَلَى تَـرْكِ الحِفَاظِ فَمَـا لَهـا
بِـوَفَـاءِ حَـقِّ الـزَّوْجِ قَطُّ يَـدَانِ
إنْ قَصَّـرَ السَّاعِيْ عَلَيْهَـا سَـاعَـةً
قَـالَتْ وَهَـلْ أوْلَيْتَ مِنْ إحْسَـانِ
أوْرَامَ تَقْـوِيْماً لَهَـا اسْتَعْصَتْ وَلَمْ
تَقْبَـلْ سِـوَى التَّعْـوِيْـجِ وَالنُّقْصَـانِ
أفْكَـارُهَـا فِي المَكْـرِ وَالكَيْـدِ الّـذي
قَـدْ حَـارَ فِيْـهِ فِكْـرَةُ الانْـسَـانِ
فَـجَمَـالُـهَـا قِشْـرٌ رَقِيْقٌ تَـحْـتَـهُ
مَـا شِئْتَ مِنْ عَيْبٍ وَمِنْ نُقْـصَـانِ
نَـقْـدٌ رَدِيءٌ فَـوْقَـهُ مِـنْ فِـضَّـةٍ
شَـيْءٌ يُـظَنُّ بِـهِ مِـنَ الأَثْـمَـانِ
فَـالنَّـاقِـدُوْنَ يَـرَوْنَ مَـاذَا تَحْتَـهُ
وَالنَّـاسُ أكْثَـرُهُـمْ مِنَ الـعِمْـيَـانِ
أمَّـا جَمِيْلاتُ الـوُجُـوهِ فَخَـائِنَـا
تٌ بُـعُـولَهُـنَّ وَهُـنَّ لِـلأَخْـدَانِ
وَالحَـافِـظَاتُ الغَيْبِ مِنْهُـنَّ الّتِـي
قَـدْ أصْبَحَتْ فَـرْداً مِنْ النِّسْـوَانِ

وَاللّهُ أعْلَمُ وَصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلّمَ .

« مَوْعِظَـةُ »

عِبَادَ اللّهِ كَانَ تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ عَادَةٌ شَائِعَةٌ فِي العَرَبِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَقَيَّدُونَ فِيْهِ بِعَدَدٍ وَلَا يُراعُوْنَ عَدْلاً بَيْنَ الزّوْجَاتِ فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا أَصْلَحَهُ الإِسْلَامُ فَلَمْ يَمْنَعْهُ مَنْعاً بَاتاً لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الحَرَجِ وَلَمْ يَتْرُكْهُ فَوْضَى كَمَا كَانَ بَلْ أَبَاحَهُ إِلَى أَرْبَعٍ وَشَرَطَ لِلْحِلّ شَرْطاً وَثِيْقاً وَهُوَ العَدْلُ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ فِي المُعَامَلَةِ .

قَالَ اللّه تعالى « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُم الا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » فَتَرَاهُ قَدْ شَرَطَ إباحَةَ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ بالعَدْلِ كَمَا جَعَلَ مُجَرَّدَ خَوْف الجَوْرِ والظُّلْم سَبَباً كَافِياً في تَحْرِيْمِ التَّعَدُدِ فَمَنْ لَمْ يَأنَسْ مِنْ نَفْسِهِ أنْ يَقُوم بالقِسْطِ بَيْنَ الزوجاتِ لا يُتَاحُ لَهُ التَّعَدُّدُ وَيَجِبُ عَلَيْهِ الاقْتِصارُ عَلَى وَاحِدَةٍ .

نَعَمْ الأَصْلُ فِي التَّزَوّجِ التّوحُدُ فِيهِ يَتِمُّ السُّكُونُ لِكُلٍّ مِن الزَّوْجَيْنِ إلى الآخرِ وَيَسْتَقِيْمُ أمْرُهُما وَيَهْنَأُ عَيْشُهُمَا وَتَسْعَدُ أَوْلَادُهُمَا بِإذْنِ اللّهِ وَلَكِنْ قَدْ تَدْعُو الحَاجَةُ أوْ الضَّرُوْرَةُ إلى التَّعَدُّدِ وَتَقْتَضِيْهِ المَصْلَحَةُ لِمَسَائِلَ كَثِيْرَةٍ كَمَا إذا لَمْ تَرْغَبْ أُمُّ أَوْلادِهِ في مُضَاجَعَتِهِ والاتّصَالِ بِهِ وَكَمَا لَوْ كَانَ بِهَا مَرَضٌ لا يُرْجَى بُرْؤُهُ أوْ مَاتَ أوْلَادُهَا وَوَقَفَتْ عن الحَمْلِ أَوْ يَكُونُ بِهِ شَبَقٌ وَلَا يَكْتَفِي بِوَاحِدَةٍ لَمَا يَتَعَرَّضُهَا مِنْ حَيْضٍ أوْ اسْتِحَاضَةٍ أوْ نِفاسٍ أو نحوِ ذلِكَ .

فَإذَا تَزَوَج أكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِ العَدْلُ بَيْنَ زَوْجَاتِهِ فَيَبِيتُ عِنْدَ احْدَاهُنَّ كَمَا يَبِيْتُ عِنْدَ الأُخْرَى وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ في المَطْعَمِ وَالمَسْكَنِ والمَلْبَسِ وسائِرِ أنْوَاعِ النَّفَقَةِ إنْ كُنَّ فِي الغِنَى مُتَساوِيَاتٍ وَإنْ لَمْ تَفعَلْ ذَلِكَ

وَجُرْتَ مَعَ إِحْدَاهُمَا فَأَنْتَ في عِدَادِ الظالِمِين .

وَلَا تَظُنّ الأَمْرَ في هَذَا بَسِيطاً هَيّناً لَا بَلْ إِعْلَمْ أَنَّهُ عَظِيْمٌ مَنْ أَخَلَّ بِهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشقُّهُ سَاقِطٌ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الرّسُوْلُ الكَرِيمُ وَهُو جَزَاءٌ يُنَاسِبُ جُرْمَهُ لأَنَّهُ أَسْقَطَ نَاحِيَةَ المَظْلُوْمَةِ بِإِخْلَالِهِ الذَّمِيْمِ .

وَيَا لَيْتَ الأَمْرَ يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ بَلْ وَرَاءَهُ النّارُ دَارُ المُذْنِبِيْنَ وَلِذَلِكَ مُعَاذُ بْنُ جَبَل الّذِي أَثْنَى عَلَيْهِ رسُولُ اللّهِ ﷺ وَقَالَ أَعْلَمُ أمّتِي بالحَلالِ وَالحَرَامِ ، كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأتانِ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ إِحْدَاهُمَا لم يَشْرَبْ مِنْ بَيْتِ الأُخْرَى الماءَ ، مَعْنَاهُ أنّه مِنْ وَرَعِهِ وَخَوْفِهِ مِنْ المَيْلِ إِلَى إِحْدَاهُمَا إِذا كَانَت النَّوْبَةُ لِوَاحِدَةٍ وَفّرَ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا عَلَيْهَا فَلَوْ مَرَّ في يَوْمِهَا فِي بَيْتِ ضَرَّتِهَا وَهُوَ عَطْشَانٌ لَمْ يَشْرَبْ مِنْ عِنْدِهَا حَتَّى يَأتِي بَيْتَ الّتِي اليَوْمُ يَوْمُهَا .

هَذَا العَدْلُ أَصْبَحَ عِنْدَ النّاسِ الّذِيْنَ اخْتَارُوْا التَّعَدُّدَ نَادِرَ الوُجُودِ يَتْرُكُ أَحَدُهُمْ زَوْجَتَهُ الّتِي لا يُحِبُّهَا مُدةً طَوِيْلَةً تُقَاسِي مِن آلامِ الجَوْرِ والغَيْرَةِ مَا تُقَاسِيْ وَهُوَ مَعَ المَحْبُوْبَةِ أَوْ صَاحِبَةِ المَالِ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ كأَنَّهُ لَاعَنَ تِلْكَ المَبْغُوْضَة فَحَرُمَتْ عليهِ أَبَدَ الآبِدِيْنَ .

وَتَجِدُهُ إِذَا دَعَاهُ إِنْسَانٌ جَعَلَهُ فِي لَيْلَةِ المَبْغُوْضَةِ وَيَوْمِهَا وَالمَفْرُوضُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ القُرْعَةَ وإِذَا قَدِمَ أَتَى إِلى المَحْبُوْبَةِ وَيَخْتَارُ لَهَا المَسْكَنَ الطَّيبَ وكَذَلِكَ الصُوْغ وَالثِيَابُ وَالطَّعَامُ وَالأَطْيَابُ وَالفَواكِهُ وَبِودّهِ لَوْ اسْتَرَاحَ وَطَلّقَ المَبْغُوضَة ولكِنَّهُ يَخْشَى أَنْ تَتْرُكَ الأَوْلَادَ وَتَذْهَبَ أَوْ تَسْحَبَ مَا لَها عِنْدَهُ مِنْ أَمْوالٍ فَلِهذا يُجَامِلُهَا مَعَ العَدَاوَةِ والبُغْضِ وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهِ قولُ المتنبي :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أنْ يَرَى
عَــدُوّاً لَــهُ مَــا مِن صَــدَاقَتِــهِ بُــدُّ

وَلَكِنْ لِيَعْلَمَ هَذَا الجَائِرُ أَنَّ اللّهَ جَلَّ وَعَلاَ لَهُ وَلأَمْثَالِهِ بِالمِرْصَادِ وليَعْلَمَ أنَّ حَنِيْنَ الزَّوْجَةِ إِلى زَوْجِها يَزِيدُ بَعْدَ زِوَاجِهِ عَلَيْهَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَاتٍ وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ زِوَاجِهِ لاَ تَصْبِرُ عَنْهُ سَاعةً فَكَيْفَ تَصْبِرُ بَعْدَ الزّواجِ شُهُوْراً أوْ سَنَواتٍ فأطِلِ التَّفَكُّرِ في هَذَا لِتَعْلَمَ كَيْفَ تَكُونُ العَاقِبَةُ لَعَلَّكَ تَسْلُكُ طَرِيْقَ العَدْلِ وتُبْعِدُ عَنِ الجَوْرِ والجَائِرِيْنَ .

فَفِي الحَدِيْثِ إذَا كَانَتْ عِنْدَ الرَّجُلِ امْرَأَتانِ فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ سَاقِط رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما .

اللّهُمَّ وفّقْنا لِلاسْتِقامَةِ والعدْلِ فِيْمَا وَلَّيْتَنَا عليْهِ اللّهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن دُنْياً تَمْنَعُ خَيْرَ الآخِرَةِ ونَعُوذُ مِنْ حَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيرَ المَمَاتِ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ أملٍ يَمْنَعُ خَيْرَ العَمَلِ ونسْأَلُكَ أنْ تُنَوِّرَ قُلُوْبَنَا وتُثَبِّتَنَا على قَوْلِكَ الثّابتِ في الحياةِ الدنْيا وفي الآخرَةِ وأن تَغْفِرَ لَنَا ولِوَالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

ويَنْبَغِي أَنْ يَتَخَيَّرَ الدَّينَةَ حَسْنَةَ السِيْرَةِ رَاجِحَةَ العَقْلِ المُحْسِنَةَ لِلتّدْبِيْرِ وليَحْذَرْ كُلَّ الحَذَرِ مِنَ الخَرْقَاءِ والبَخِيْلَةِ فكِلاَهُمَا مَا يُفْسِدَانِهِ أَكْثَرُ مِمّا يُصْلِحَانِهِ إنْ حَصَل صَلاَحٌ وفيما قِيْلَ قَدِيْماً :

« وُدَوْنَـكَ بَيْتاً قَـدْ تَحَلَّى بِـهِ النُّهَى
كَـمَـا يَتَحَلَّى مِعْصَمٌ بِسِـوَارِهِ »
« إِذَا لَمْ يَكُنْ في مَنْزِلِ المَرْءِ حُرَّةٌ
تُـدَبِّرُهُ ضَـاعَتْ مَصَـالِـحُ دَارِهِ »

وَوَرَدَ أَنَّ المَرأةَ الصَالِحَةَ كَالغُرَابِ الأَعْصَمِ وهُوَ أَبْيَضُ الجَنَاحَينِ فلا يَكَادُ يُوْجَدُ إلا القَلِيْل ومِن الصَالِحاتِ ما في حديثِ أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال أَلَا أُخْبِرُكُم بِرِجَالِكُمْ في الجَنَّةِ قُلْنا بَلى يَا رَسُوْلَ اللهِ قال النبيُ في الجَنةِ أَلَا أُخبِرُكُم بنِسَائِكُم في الجَنَّةِ قُلْنَا بَلى يَا رَسُولَ اللهِ قال وَدُوْدٌ وَلُودٌ إذا غَضِبَتْ أَوْ أُسِيْءَ إِلَيْهَا أَوْ غَضِبَ زَوْجُهَا قَالَتْ هَذِه يَدِيْ في يَدِكَ لا أَكْتَحِلُ بغَمْضٍ حتَّى تَرْضَى » المعنى أنها تُرْضِيْهِ رواه الطبراني .

وقَدْ وَرَدَ مَا فِيْهِ بَشارةٌ بعَظِيْمِ أَجْرِ المَرْأَةِ الصَّالِحَةِ القَانِتَةِ ونَجاتُها فَمِنْهَا مَا رَواه الامام أحمدُ والطبراني عن عبد الرحمن ابن عوفٍ رضِي الله عنه قال قال رسولُ اللهِ ﷺ إذا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَهَا وصَامَتْ شَهْرَهَا وحَفِظَتْ فَرْجَهَا وأطاعَتْ زَوْجَهَا قِيْلَ لَهَا ادْخُلِي الجَنَّةَ مِن أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شِئْتِ .

ونَحْوُ هَذَا فِي رواية ابن حبان عن أبي هريرة وروى الحاكم وصححه أَيُّمَا امْرَأةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عنها راضٍ دَخلَتِ الجَنَّةَ وقال ﷺ مُحذِّراً لَهُنَّ عمَّا فِيهِ ضَررٌ عَلَيْهِنَّ أَيُّمَا امْرَأَةٍ خَرجَتْ مِن بَيْتِهَا بِغَيْرِ إِذْنِ زَوْجِهَا كانَتْ في سَخَطِ اللهِ حَتَّى تَرْجِعَ إِلى بَيْتِهَا أَوْ يَرْضَى عَنْهَا زَوْجُهَا رواه الخطيب عن أنس ابن مالك .

وقال ﷺ « إِنّي لَأُبْغِضُ المَرْأَةَ تَخْرُجُ مِن بَيْتِهَا تَجُرُّ ذَيْلَهَا تَشْكُوْ زَوْجَهَا

رواه الطبراني وقال ﷺ أَيُّما امْرَأةٍ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا في غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا فَقَدْ هَتَكَتْ سِتْرَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ عَزَ وَجَلَ رواه أحمد والحاكم .

وقَالَ ﷺ أَيُّمَا امْرَأةٍ نَزَعَتْ ثِيَابَهَا في غَيرِ بَيْتِ زَوْجِها خَرَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا سِتْرَهُ رواه أحمد والطبراني والبيهقي والحاكم في مستدركه .

وأن تَكُونَ طَيِّبَةَ الأَصْلِ حَسِيْبَةً لِيَكُونَ الوَلَدُ بإذْنِ اللهِ نَجِيْبًا فانهُ أَشْبَهَ أهْلَهَا فَجَذَبُوْهُ بالخَلْقِ والخُلُقِ وفي الخَبَرِ انْظُرْ في أيّ شَيْءٍ تَضَعُ وَلَدَكَ فإنَّ العِرْقَ دَسَّاسٌ وقال عليهِ أفْضَلُ الصلاةِ والسلامِ تَخَيَّرُوْا لِنُطفِكُمْ فإنَّ النِسَاءَ يَلِدْنَ أَشْبَاهَ إِخْوَانِهِنَّ وأَخَوَاتِهِنَّ رواه ابن عدي وابن عساكر عن عائشةَ رضي الله عنها .

وأَنْ تَكُونَ بِكْراً لِمَا في الصَّحِيْحَينِ عن جابر رضي اللهُ عنه فَهَلَّا بِكْراً تُلَاعِبُهَا وتُلَاعِبُكَ ولِقَوْلِهِ فَهَلَّا بكراً تَعُضُّهَا وتَعُضُّكَ رواه الطبراني واسناده صحيح ولِقَولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ عليكم بالأَبْكَارِ فإنَّهُنَّ أَعْذَبُ أفواهاً وأَنْتَقُ أَرْحَاماً وأَرْضَى باليَسِيرِ رواه ابن ماجه وغيره وفي رواية عليكم بالأَبْكَار فإنَّهُنَّ أَطْيَبُ أَفْوَاهاً وأَنْتَقُ أرْحَاماً وأَرْضَى باليَسِيْرِ مِن الجِمَاعِ .

ومِن فَوائِدِ نِكَاحِ البِكْر أَنَّها تُحِبُّ الزَّوْجَ الأَوَّلَ وتَأْلَفُهُ فإنَّ الطِّبَاعَ مَجْبُوْلَةٌ على حُبِّ الأُنسِ بأَوَّلِ مَأْلُوفٍ وفي هذا المَعْنى قِيْلَ :

نَقِّلْ فُؤَادَكَ ما اسْتَطَعْتَ مِن الهَوَى
مَا الحُبُّ إلَّا لِلْحَبِيْبِ الأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ في الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الفَتَى
وحَنِيْنُهُ أَبَداً لأَوَّلِ مَنْزِلِ

آخَرُ : أتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أنْ أَعْرِفَ الهَوَا
فَصَادَفَ قَلْباً خَالِياً فَتَمَكَّنَا

ومِنْ أَمْثِلَةِ العَرَبِ « لَا تَنْسَى الشَّيْبَاءُ أَبَا عُذْرِهَا ولا قَاتِلَ بِكْرِهَا »

المَعْنَى أنها لا تَنْسَى الذِي افْتَضَّ بَكَارَتَها ولا الذِي يَقْتُلُ أَوَّلَ أَوْلَادِهَا ولِهَذا قَالَ بَعْضُهُمْ النِّسَاءُ ثَلَاثٌ وَاحِدَةٌ لَكَ وَوَاحِدَةٌ عَلَيْكَ وَوَاحِدَةٌ لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ .

فأمَّا التِي لَكَ فالبِكْرُ التِي لَم تَرَ غَيْرَكَ إنْ رَأَتْ خيْراً حَمِدَتِ اللهَ وإنْ رَأَتْ غَيْرَ ذَلِكَ قَالَتْ هكذا الرِّجَالُ أَجْمَعُ .

وأما التِي لا لَكَ ولا عليكَ غَالِباً فالثَّيْبُ إنْ رَأَتْ خَيْراً قَالَتْ هَكَذَا يَجْمُلُ بِي وَإنْ رَأَتْ شَراً حَنَّتْ إلى الأَوَّلِ ولَوْ أنه مُسِيْء فِيها وهذا إذَا كُنْتَ أَنْتَ وَزَوْجُهَا الأولُ مُتَقَارِبيْنَ في السِنِّ والكَرَمِ والغِنَا والعَفَافِ وإنْ كُنْتَ دُوْنَهُ سَمِعْتَ مَا يَسُوْءُكَ ويُؤْلِمُكَ ورَأَيْتَ مَا يُحْزِنُكَ ويُقْلِقُكَ مِن ذِكْرِ زَوْجِهَا الأَوَّلِ وأَفْعَالِهِ لَمْزاً وَهَزْباً ولِهَذَا قال بعضُهم مُحَذِّراً عنها :

ولا تَنْكِحَنَّ الدّهْرَ مَا عِشْتَ أَيِّماً
مُجَرَّبَةً قَدْ مُلَّ مِنْهَا وَمَلَّتِ

ويقول القحطاني :

عَانِقْ مِن النِسْوانِ كُلَّ فُتَيَّةٍ
أَنْفَاسُهَا كَرَوَائِحِ الرَّيْحَانِ

أَحْذِرْكَ عَن نَفَسِ العَجُوْزِ وبُضْعِهَا
فَهُمَا لِجِسْمِ ضَجِيْعِهَا سَقَمَانِ

وقال بَعْضُ العُلَمَاءُ يُكْرَهُ نِكَاحُ الحَنَّانَةِ والمَنَّانَةِ والأَنَّانَةِ والحَدَّاقَةِ والبَرَّاقَةِ والمِمْرَاضِ .

فالحَنَّانَةُ التي لَهَا وَلَدٌ تَحُنُّ إليه أَوْ زَوْجٌ تُحِبُّهُ مِنْ قَبْلِكَ .
والمَنانَةُ التي تَمُنُّ على زَوْجِهَا بما تَفْعَلُه أوْ تَبْذِلْهُ
والأنانةُ كثيرةُ الأنِيْنِ الكَسْلاَنَةُ .
والحَدَّاقَةُ التي تَسْرِقُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَدَقَتِهَا التي تُحِبُّ أَنْ تَطَّلِعَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وتُكَلِّفُ زَوْجَهَا .

والبَرَّاقَةُ التِي تَشْتَغِلُ بتَبْرِيْقِ وَجْهِهَا وَيَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا مِن تَحْمِيْرٍ وَتَبْيِيضٍ وتَنْمِيْقٍ وتَحْسِيْنٍ وقِيْلَ أنَّهَا التِي تَغْضَبُ عندَ الطعامِ ولا تَأكلُ إلَّا وَحْدَهَا .

والشَّراقةُ كَثيرةُ الكَلامِ قَلِيْلةُ الصَّمْتِ .
والمِمْرَاضُ التي تَتَمارَضُ غالبَ أَوْقَاتِهَا ولَيْسَ فِيْهَا مَرَضٌ إنَّمَا تَهْرَبُ مِن العَمَلِ أَوْ مِن الاسْتِمْتَاعِ بها فَهِيَ دَائماً تُعَبِّسُ بِوَجْهِهَا مُقَطِّبَةً دَائِماً كَسْلانَة تُحبُّ النومَ وَالرَّاحَة .

« مَوْعظَـة »

عِبَادَ اللّهِ يَقُولُ اللّهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ قَائِلٍ « وَلاَ تُلْقُوْا بِأَيْدِيْكُمْ إلَى التَّهْلُكَةِ » وَيقُولُ جلَّ وَعَلاَ ﴿ولا تَقْتِلُوا أنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيْماً﴾ ويقُولُ جلَّ وَعلاَ ﴿اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وأتممْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ بالإسْلامِ دِينَا ، ويَقُولُ ﷺ تَركْتُمْ عَلَى المَحَجَّةِ البَيْضاءِ لَيْلُها كَنهارِهَا لاَ

يَزِيْغُ عَنْهَا بَعْدِي إلا هالكٌ ويقُولُ جَلَّ وَعَلا ﴿ما فَرَّطْنَا فِي الكتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ويقولُ ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ .

وبِذَلِكَ قَدْ وَضَحَ الأَمْرُ وَتَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغي والهُدَى مِنْ الضَّلالِ وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ ذَلِكَ حَاجَةً لِطَالِبِ الرُّشْدِ وَلا عُذْرَ لِمَنْ وَقَعَ فِي الغِوَايَةِ ولكِنَّ فَرِيقاً مِنَ النَّاسِ وَضَعُوا عُقُوْلَهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ وَلَمْ يُبَالُوا بمُخَالَفَةِ الكِتَابِ والسّنةِ واتَّبَعُوْا شَهَواتِ أَنْفُسِهِمْ فَعَمِيَتْ بَصَائِرُهُمْ واسْقَطُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ دَرَجَةِ الكَمَالِ الّذي أعَدَّهُمُ اللّهُ لَهُ .

وذَلِكَ بأنّهم سَعَوا بِمَا يَضُرُّ نُفُوْسَهُمْ وَدِيْنَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَهُوَ شُرْبُهُمْ لأَبِي الخَبَائِثِ الدُّخَانِ الّذِي لاَ يَتوقَّفُ عَالِمٌ بِتَحْرِيْمِهِ وَلاَ يَتَوَقَّفُ طَبِيْبٌ بِمَضَرَّتِهِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ الأَدِلَّةِ الدَّالَةِ عَلَى تَحْرِيْمِهِ إلاّ الآياتُ المُتقدّمةُ لكانَتْ كافِيَةً لأَنَّ شَارِبَهُ يَسْعَى في اضْعَافِ جِسْمِهِ وَالقَضَاءِ عَلَى حَيَاتِهِ وَتَبْذِيْرِ مَالِهِ والمُبَذِّرِيْنَ إِخْوَانُ الشّياطِيْنِ وَهُوَ إِسْرَافٌ ﴿والله لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ﴾ .

ومِنْ أَوْضَحِ الأَدِلَّةِ عَلَى تَحْرِيْمِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي حَقِّ نَبِيِّهِ ﷺ ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطّيّباتِ وَيُحَرّمُ عَلَيْهِم الخَبَائِثَ﴾ وَلاَ يَمْتَرِي عَاقِلٌ فَضْلاً عَنْ العَالَمِ أَنّهُ مِنْ قِسْمِ الخَبَائِثِ وَلَهُ مِنْ المَفاسِدِ والأَضْرَارِ مَا لاَ يَخْفَى عَلى ذِي بَصِيْرَةٍ وَإِلَيْكَ تعْدَادُ بَعْضِ مَضَارّه وهِيَ قليلٌ مِن كثير .

١ ـ فَمِنْ مَضَارِّهِ الدِّيْنِيَّةِ أَنَّهُ إِسْرَافٌ واللَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِين .

٢ ـ ومِنْها أنّهُ تَبْذِيْرٌ والمُبَذِّرِيْنَ إخْوانُ الشَّياطِين .

٣ ـ ومِنْها أنّهُ يُعْدِيْ أَوْلاَدَهُ فيقلدُونَهُ بِشُرْبِهِ .

٤ ـ أنّهُ يُثقِّلُ عَلى العَبْدِ العِبَادَاتِ ويُبَغِّضُهَا عِنْده .

٥ ـ ومِنْها أَنَّهُ يُبَغِّضُ إليْهِ المُكْثَ في بَيْتِ اللّهِ المَسْجِدِ .

٦ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُكَرِّهُ الصِّيَامَ لِشَارِبِهِ .

٧ ـ ومِنْهَا أنّهُ يَدْعُو إلى مُخَالَطَةِ الأنْذالِ والسُّفَلِ .

٨ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُزَهِّدُ في مُجَالَسَةِ الأخيارِ .

٩ ـ ومِنْهَا اقْتِطَاعُ جُزْءٍ مِنَ العُمْرِ كَبِيرٍ في هذِهِ المَعْصِيَةِ وذلِكَ وَقْتُ شُرْبِهِ وشِرَائِهِ.

١٠ ـ ومِنْهَا إِيْذَاءُ الكِرامِ الكاتِبِين في رَائِحَتِهِ الكَرِيْهَةِ .

١١ ـ ومِنْهَا إِيْذَاءُ المُعقّبَاتِ كذَلِكَ .

١٢ ـ ومِنْهَا تَوسِيْخُ مَوْضِعِ قِرَاءَةِ كَلَامِ اللّهِ وَسُنَّةِ رَسُوْلِهِ لأَنَّ مَحَلَّ التِّلَاوَةِ اللِّسَانُ والحَلْقُ والصَّدْرُ والدُّخَانُ يُلوِّثُهُ .

١٣ ـ ومِنْهَا إيذاءُ المُسْلِمينَ المُجَالِسِيْنَ والماشِينَ مَعَهُ .

١٤ ـ ومِنْ مَضَارِّهِ البَدَنِيّةِ احْتِوَاؤُهُ عَلَى مَادةِ النِيْكُوتِيْن السَّامَةِ وأنّهُ سَبَبٌ لارتِفَاعِ ضَغْطِ الدَّم .

١٥ ـ ومِنْ مِضَارِّهِ أنّ شَارِبَهُ يَتَعَرَّضُ لأمْرَاضٍ خَطِرَة كَثِيْرَةٍ فِي بَدَنِهِ مِنْ ذَلِكَ تَعْسِيْرُ هَضْمِ الطَّعَامِ وإِفسادُ مَجَارِي البوْل .

١٦ ـ ومِنْهَا إِحْدَاثُ التِهَابٍ فِي الرِّئَتَيْنِ .

١٧ ـ ومِنْهَا إِحْدَاثُ السُّعَالِ وكَثْرَةِ المُخَاطِ .

١٨ ـ ومِنْهَا تَعْطِيْلُ الشَّرَايِيْنِ الصَّدْرِيَّةِ وأَوَّلُهُ تَضْيِيْقُهَا .

١٩ ـ ومِنْهَا ما يَحْدُثُ مِن عُسْرِ التَّنَفُسِ .

٢٠ ـ ومِنْهَا التأْثِيْرُ عَلَى القَلْبِ بِتَشْوِيْشِ انْتِظَامِ دَقَّاتِهِ .

٢١ ـ ومِنْهَا أنَّ شَارِبَهُ يُعِيْنُ عَلَى قَتْلِ نَفْسِهِ .
٢٢ ـ ومِنْهَا إضْعَافُ البَصَرِ وأوّله إثارة إفْرازِ الدُّمُوع .
٢٣ ـ ومِنْهَا إضعَافُ شَهِيَّةِ الطَّعَامِ شَيْئاً فَشَيْئاً .
٢٤ ـ ومِنْهَا إضعَافُ شَهْوَةِ الجَمَاعِ أو قَطْعَهَا مُفاجأة .
٢٥ ـ ومِنْهَا إضْعَافُ السَّمْعِ .
٢٦ ـ ومِنْهَا إضعَافُ العَقْلِ إذ العَقْل يَضْعف تبع الجسْم .
٢٧ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُحْدِثُ الخَفقَانَ في القَلْبِ .
٢٨ ـ ومِنْهَا إضْعَافُ الفِكْرِ والحِفْظِ فَتضْعُفُ الذَّاكِرَةُ .
٢٩ ـ ومِنْها أنَّهُ يُوْرِثُ الحُمُقَ وسُرْعَةَ الغَضَبِ .

٣٠ ـ ومِنْهَا إحداثُهُ للجُنُـون التُوْتُونِي كَمَا ذَكَرَهُ العُلَمَاءُ والجُنونُ فُنُونٌ وَلَوْ أَنَّ إنْسَاناً أتَى بِأَلْفٍ مِنَ الرِّيالاَتِ وَحَرَّقَهَا أَمَامَ النَّاسِ لَقَالُوا مَجْنُوْنٌ وَلَمْ يَشُكُوْا وَشَارِبُ الدُّخَانِ يُحَرِّقُ آلافاً فِي جَوْفِهِ لاَ فِي الفَضَاءِ نَسْأَلُ اللّهَ العَافِيَةَ فَانْظُرْ وَفَكِّرْ واحْكُمْ أَيُّهُمَا أَحَقُّ باطْلاقِ الجُنُوْنِ عَلَيْهِ الّذِيْ يُحَرِّقُ مَالَهُ فِي الفَضَاءِ أمْ الّذِيْ يُحَرِّقُ بِهِ بَدَنَهُ وَيُعَذِّبُ بِهِ نَفْسَهُ نَعُوذُ بِاللّهِ مِنْ عَمَى البَصِيْرَةِ واتّبَاعِ الهَوَى والنّفْس الامَّارَةِ بالسُّوء .

٣١ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُخَرِّبُ كُرَيَّاتِ الدَّمِ التي تَدْفع المكْرُوْباتِ عن الجسم .

٣٢ ـ ومِنْهَا إنْحِطَاطُ القُوَّةِ العَصَبِيَّةِ .
٣٣ ـ ومِنْهَا أنَّهُ يُؤَدّي إلى مَرَضِ السِّل الرِّئَوِي .
٣٤ ـ ومِنْهَا المَوْتُ بالسَّكْتَةِ القَلْبِيَّةِ .
٣٥ ـ ومِنْهَا تَقَلُّصُ الأوْعِيَةِ الدَّمَوِيَّةِ بالأَطْرَافِ .

٣٦ ـ ومِنْهَا أثَرَهُ المَحْسُوسُ في مَرَضِ السَّرَطَانِ .

٣٧ ـ ومِنْهَا تَسْوِيْدُهُ الفَمَ والشَّفَتَيْنِ والحَلْق .

٣٨ ـ ومِنْهَا تَسْوِيْدُ الأسْنَانِ وَسُرْعَةُ بلاَئِها وتَحَطُّمِهَا وتَأكُلِهَا بالسُّوْسِ وذهابُ نظرَتِها وتَكريْهِهَا لِناظِرِهَا .

٣٩ ـ ومِنْهَا انْهِيَارُ الفَمِ والبُلْعُوْمِ وَرُبَّما حَدَثَ سَرَطَانٌ في الحَلْقِ بِسَبَبِهِ أو شَلَلٌ فِي الأعْضَاءِ .

٤٠ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُكَرّهُ شَارِبَهُ عِنْدَ زَوْجَتِهِ وَأَهْلِهِ لِمَا يُحْدثُهُ مِنَ البَخرِ لأَنَّهُ يُخَيِّسُ الفمَ والأنف .

٤١ ـ ومِنْهَا أنَّ ضَررَهُ يَتَعَدَّى إلى المُجْتَمَع دِيْنِياً واقْتِصَادِيّاً .

٤٢ ـ ومِنْهَا أنّهُ يُحْدِثُ الأرَقَ وَهُوَ السَّهَرُ وَعَدَمِ النَّوْم فَيَتضرّرُ بِهِ .

٤٣ ـ ومِنْهَا إضعَافُهُ حَاسَةَ الشَّم وربما تَعَطَّلت كلّياً بسَبَبِهِ .

٤٤ ـ ومِنْهَا أنَّ كَثِيْراً مِنَ الحَرَائِقِ تَحْدُثُ بِسَبَبِهِ .

٤٥ ـ ومِنْهَا مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ العُلَمَاءِ مِنْ أَنَّهُ يُوَلِدُ البَاسُوْرَ وَيَزْدَادُ مَعَهُ إنْ كَانَ مَوْجُوْداً مِنْ قَبْلِ شُرْبِهِ .

٤٦ ـ ومِنْهَا أَنَّ بَعْضَ العُلَمَاءِ لاَ يَقْبَلُ شَهَادَتَهُ لأَنَّهُ يَعْتَبِرُهُ فاسِقاً بِهَذِهِ المَعْصِيَةِ والعِيَاذِ بالله .

٤٧ ـ ومِنْهَا أَنَّها لا تَصِحُ إمَامَتُهُ عِنْدَ بَعْضِ العُلَمَاءِ .

٤٨ ـ ومِنها مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الأطِبّاءِ مِنْ أَنَّهُ يُحْدِثُ تَيَبُّسَ في الكَبِدِ وأنّهُ مِنْ أهمِّ المُسَبّباتِ للقرْحة المِعَويّة .

٤٩ ـ ومِنْهَا ما ذَكَرَهُ بَعْضُ العُلَمَاءِ مِنْ أنَّهُ يُحْدِثُ الفَالِجَ .

٥٠ ـ ومِنْهَا أَنَّ شَارِبَهُ يُجْلَدُ أَرْبَعِيْنَ جلْدَةً عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ لأَنَّهُ مُحَرَّمٌ كالخَمْرِ وفِيْهِ مَضَارٌ أُخْرَى ذَكرَهَا الأَطِّبَاءُ تَرَكْنَاهَا خَوْفَ الإِطَالَةَ .

فَالوَاجِبُ عَلَى العَاقِلِ النَّاصِحِ لِنَفْسِهِ التَّوْبَةُ إلى اللّهِ عن شُرْبِهِ قَبْلَ أنْ يَمُوْتَ بِسَبَبِه فيكُونُ قَدْ أعَانَ عَلى قَتْلِ نَفْسِهِ

بَذَلْتُ لَهُمْ نَصْحِي بِمُنْعَرَجِ اللّوى
فلم يَسْتَبِيْنُوا الرُّشْدَ إلاَّ ضُحَى الغَدِ

والله أعلم وصلى الله على محمد .

(فَصْـلٌ)

ومِمَّا لاَ يُسْتَهَانُ بِهِ وَيَحْرَصُ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ الزَّوْجَةُ ذَاتُ دِينٍ شَرِيْفَةٍ فإِنَّ الشَّرِيفَةُ غَالِباً تُحَافِظُ عَلَى شَرَفِها وسُمْعَتِهَا وتُبْعِدُ عَمَّا يُدَنِّسُ الشَّرَفَ وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ لِرَجُلٍ أَشِرْ عَلَيَّ فِيْمَنْ أَسْتَعْمِلُ فَقَالَ أَمَّا أَرْبَابُ الدِّيْنِ فَلا يُرِيْدُوْنكَ وأَمَّا أَرْبَابُ الدُّنْيا فَلاَ تُرِيْدُهُمْ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالأَشْرَافِ فَإِنَّهُمْ يَصُوْنُوْنَ شَرَفَهُمْ عَمَّا لاَ يَصْلَحُ .

وَرُوِيَ عن أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ دَعَانِي الْمُعْتَصِمُ يَوْماً فَأَدْخَلَنِي مَعَهُ الحَمامَ ثُمَّ خَرَجَ فَخَلاَ بِيْ وَقَالَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ فِي نَفْسِيْ شَيْءٌ أُرِيْدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ إنَّ أَخِيْ المَأْمُوْنُ اصْطَنَعَ فَأَنْجَبُوْا وَاصْطَنَعْتُ أنا مِثْلَهُمْ فَلَمْ يُنْجِبُوْا قُلْتُ ومَنْهُمْ قال اصْطَنَعَ طَاهِرَ وابْنَهُ وَإِسْحَاقَ وآلَ سَهْلٍ فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ هُمْ وَاصْطَنَعْتُ أَنَا الأَفْشِيْنَ فَقَدْ رَأَيْتَ إِلَى مَا آلَ أَمْرُهُ وأَسَاسَ فَلَمْ أجِدْهُ شَيْئاً وكَذَلِكَ انْبَاحَ وَوَصِيْفَ .

قُلْتُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ هَهُنَا جوَابٌ عَلَى أَمَانٍ مِنْ الغَضَبِ قَالَ لَكَ ذَلِكَ

قُلْتُ نَظَرَ أَخُوكَ إلى الأُصُولِ فاسْتَعْمَلَهَا فَانْجَبَتْ فُرُوعُهَا وَاسْتَعْمَلْتَ فُرُوعاً لاَ أُصُوْلَ لَهَا فَلَمْ تُنْجِبْ فقَالَ يَا أَبَا اسْحَاق مُقَاسَاةُ مَا مَرَّ بِي هَذِهِ المُدَّةُ أهونُ عليَّ مِنْ هَذَا الجَوَابِ أ هـ .

وَقِيْلَ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ سُلَيمانَ بْنَ علي عَابَ يَوْماً عَلَى أَوْلاَدِهِ وأَنَّهُمْ لَيْسُوا كَمَا يُحِبُّ فَقَالَ لَهُ ولَدَهُ أحْمَدُ بْنُ جَعْفَرَ إِنَّكَ عَمَدْتَ إلى فَاسِقَي مَكَّةَ والمَدِيْنَةَ فَأَوْعَيْتَ فِيْهِنَّ بضُعْكَ ثُمَّ تُرِيْدُ أَنْ يُنْجِبُوْا وَإِنَّمَا نَحْنُ لِضَاجِبَاتِ الحِجَازِ هَلاّ فَعَلْتَ في وَلَدِكَ مَا فَعَلَ أَبُوكَ فِيْكَ حِيْنَ اخْتَارَ لَكَ عَقِيْلَةَ قَوْمِهَا .

وَيَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى زَوْجَةٍ وَاحِدَةٍ خَوْفاً مِن عَدَمِ العَدْلِ قال اللّه تَعَالى ﴿وإن خفْتُمْ أنْ لاَ تَعْدِلُوا فَواحِدة﴾ وقَالَ تَعَالى ﴿وَلَنْ تَسْتَطيعوا أَنْ تَعْدِلُوا بينَ ولو حرصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلّ المَيْلِ فتَذَرُوها كالمعلقة﴾ .

وَلَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَربَعَ نِسْوَةٍ ولا يَزِيدُ على ذَلِكَ إِلاَّ بِمُلْكِ اليَمِيْنِ فَلَهُ أَنْ يَتَسَرَّى بِمَا شَاءَ مِن الإِمَاءِ وإنْ أَرَادَ اصطحاب وَاحِدَةٍ مِنْ نِسَائِهِ في سَفَرِهِ أَقْرَعَ بَيْنَهُنَّ وَمَدَحَ أَحَدُ العُلَمَاءِ زَوْجَتَهُ وبَالَغَ فِي مَدْحِهَا فَقَال :

مُكَمِّلَةُ الأَوْصَافِ خُلْقاً وخِلْقَةً
فَأَهْلاً بِهَا أَهْلاً وَسَهْلاً بِهَا سَهْلاَ
وَدُوْدٌ وَلُوْدٌ حُرَّةٌ قُرَشِيَّةٌ
مُخَدَّرَةٌ مَعْ حُسْنِهَا تُكْرِمُ البَعْلاَ
وَبَاذِلَةٌ نَظِيْفَةٌ وَلَطِيْفَةٌ
مِنْ أَظْرَفِ إِنْسَانٍ وأَحْسَنِهِمْ شَكْلاَ
شَكُورٌ صَبُورٌ حُلْوَةٌ وَفَصِيْحَةٌ
ومُتْقِنَةٌ تُتْقِنُ القَوْلَ والفِعْلاَ

تَغَــارُ مِنْ أَسْبَابِ النّقَــائِصِ كُلِّهَــا
وتَحْفَظُ مَالَ الزَّوْجِ والنَّفْسَ والأَهْلاَ
حَـصَــانٌ رَزَانٌ لَيْسَ فِـيْهَــا تَـكَبُّــرٌ
قَنُـوْعٌ فَـلاَ شِـرْبٌ يَـدُوْمُ وَلاَ أَكْــلاَ
مُــطَاوِعَــةٌ لِلْبَعْــلِ يَـقْضـي أدِيْبَــةٌ
مُــوَافِقَـةٌ قَــوْلاً وفِعْـلاً فَمَــا أَعْــلاَ
صَغِيْــرةُ سِنٍّ فِي الكَــلاَمِ كَبِيْــرَةٌ
نُهَـاهَا يُـرَى مُمْتَــازَ أكْـرِمْ بِـهِ عَقْـلاَ
يُـشِيــرُ عَــلَيْهَــا بِــالتَّـفَـرُّجِ مَــرَّةً
فَتَــأْبَى وَقَعْرُ البَيْتِ فِي عَيْنِهَـا أَحْـلاَ
مُــدَارِيَــةٌ لِــلأَهْـلِ إنْ عَتِبَـتْ وإنْ
أَحَبَّتْ فَـلاَ حِقْـدٌ لَـدَيْهَـا وَلاَ غِــلاَّ
رَقِيْقَــةُ قَلْبٍ مَــعْ سَــلاَمَــةِ دِيْنِهَــا
فَلَسْتَ تَرَى شِبْهاً لَهَا في النِسَا أَصْلاَ
خَـدُوْمٌ بقَلْبٍ في جَمِيْـعِ أُمُــورِهـا
مُبَــاشِـرَةٌ لِلْكُــلِ مَـا دَقَّ أَوْ جَــلاَّ
مُـلاَزِمَـةٌ لِلشُّغْــلِ في البَيْتِ دَائِمـاً
عَلَى صِغَـرٍ مِنْ سِنِّهَا لاَ تَنِيْ فِعْـلاَ
مُــطَرِّزَةٌ خَــيَّــاطَــةٌ ذَهَــبِـيَّــةٌ
مُفَصِّـلَةٌ خَــطَّاطَــةٌ تُحْـكِمُ الـغَــزْلاَ
تَنَقَـلُ في الأَشْغَالِ مِنْ ذَا لِـذَا وذَا
وَتَفْعَلُ حَتَّى الكَنْسَ وَالطَّبْخَ والغَسْلاَ

وَمَـا ذَاكَ مِنْ عُدْمٍ فَلَمْ يَخْـلُ بَيْتُهَا
مِن امْـرَأَةٍ تَكْفِي إذا شَـاءَتِ الفِعْـلا

وَلَكِنَّهَـا اعْتَـادَتْ نَـظَافَـةَ شُغْلِهَـا
فَعَـافَتْ فِعَالَ الكُـلِّ واحْتَمَلَتْ فِعْلا

خَـفِيْـفَـةُ رُوْحٍ مَـعْ وَقَـارٍ ذَكِيَّـةٌ
فَتَفْهَـمُ مَـا يُلْقَى لَـدَيْهَـا وَمَا يُتْلَى

لَهَـا هِمَّـةٌ عُلْيَـا تَـطُوْلُ شُـرُوحُهَـا
عَلَى صَعَبِ الأشْغَـالِ تَتْرُكُـهُ سَهْلا

مُـرَبِّـيَـةٌ حَـنَّـانَـةٌ ذَاتُ رَحْـمَـةٍ
وكُـلُّ يَتِيْمٍ وَاحِـدٍ عِنْـدَهَـا فَضْـلا

نَفُـوْرٌ إِذَا ارْتَـابَتْ أُلُـوْفٌ لأَهْلِهَـا
فَمَهْـلاً إِذَا قِيْسَ النِّسَـاءُ بِهَـا مَهْلا

عَـدِيْمَـةُ لَفْظٍ وَالْتِفَـاتٍ إِذَا مَشَتْ
صَمُـوْتٌ فَلا قَـطْعاً تَـرُدُّ وَلا وَصْـلا

وَلَـمْ يَنْكَشِفْ مِنْهَـا بَنَـانٌ يَحَـارُ مَنْ
مَشَى مَعَهَـا فِي حِفْظِهَـا يَدَهَـا قَبْلا

يَعِـزُّ عَلَى مَنْ يَطْرُقُ البَـابَ لَفْظُهَـا
جَـوَابـاً فَـلا عَقْـداً تَـرَاهُ وَلا حَـلَّا

يُـطِيْـلُ وُقُـوْفـاً لا يُجَـابُ مُحَـرَّمٌ
عَلَيْهَـا كَـلامُ الأجْـنَبِـيِّ وَإِنْ قَـلَّا

وَحَـافِـظَةٌ لِلْغَيْـبِ صَـالِحَـةٌ أَتَـتْ
لَحَقٍّ إِذَا كَـانَتْ مَنَـاقِبُهَـا تُتْـلا

وَقَــانِــتَــةٌ صَــوَّامَــةٌ وَمُــدِلَّــةٌ
بِعَقْـلٍ وَتَـدْبِيْـرٍ تَـرَاهُ العِـدَا بُخْـلاَ
تَـجَـمَّـعَ فِـيْـهَـا عِـفَّـةٌ وَنَـزَاهَـةٌ
وَعِــزَّةُ نَفْسٍ فَهِيَ تَكْـلاَ وَلاَ تُقْـلاَ

قُلْتُ مَا أَظُنُّ مِثْلَ هَذِهِ وُجِدَتْ وَلا فِي القَرْنِ الرَّابِعِ أَوْ الخَامِسِ فَضْلاً عَمَّا بَعْدَهُمَا وَخُصُوصاً في زَمَنِنَا الّذِي اسْتَطَالَتْ فِيهِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ بَعْدَ مُخَالَطَةِ الأَجَانِبِ الخَاضِعِيْنَ لَهُنَّ واسْتَعْمَرَ النّساءُ الرِّجَالَ اسْتِعْمَاراً مَا بَعْدَهُ اسْتِعْمَارٌ وَصَارَ الزَّوْجُ بِالنّسْبَةِ لِشُئُونِ الأَوْلَادِ والبَيْتِ والذَّهَابِ والمَجِيءِ مُسَيَّراً لا مُخَيَّراً كالسَّيَّارَةِ بِيَدِ السَّائِقِ والمِلْعَقَةِ بِيَدِ الآكِلِ والقَلمِ بِيَدِ الكاتِبِ هِيَ الّتِي تَدبِرُهُ وتُصَرِّفُهُ كالصَّبِيّ الخَادِمِ .

وإِن وُجِدَ أَحَدٌ خِلافَ ما ذَكَرْنَا فَهُوَ مِن النَّادِرِ والشَّاذِ والسَّبَبُ الوَحِيْدُ فِي ذَلِكَ هُوَ تَقْلِيْدُنَا لِلأَجَانِبِ الّذِيْنَ هُمْ فِي أَيْدِي نِسَائِهِمْ كالخَاتَمِ تُصَرِّفُهُ كَيْفَ شَاءَتْ يَتْبَعُهَا أَيْنَمَا تَوَجَّهَتْ سَارَ خَلْفَها حَامِلاً لِوَلَدِهَا قَدْ نَبَذَ الحَيَاءَ كَمَا نَبَذَتْهُ هِيَ بِدُوْنِ مُبَالَاتٍ وَلَا خَجَلٍ فَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاّ بِاللّهِ العلي العظيم .

« مَوْعِظَةٌ »

عِبَادَ اللّهِ لَقَدْ طَغَتْ شَهْوَةُ الفَرَحِ اليَوْمَ عَلَى كَثِيْرٍ مِن النّاسِ طُغْيَاناً لَيْسَ فَوْقَهُ طُغْيَانٌ وأَصْبَحَ سُلْطَانُها عَلَى أَفْرَادِهِ شَيْباً وَشُبَّانَا لَا يُدَانِيْهِ سُلْطَانٌ حَتَّى إِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إلى بَعْضِهِمْ أنَّ فَاحِشَةَ الزِنا بَسِيْطَةٌ وَالعِيَاذُ بِاللّهِ وأَنَّ مُغَازَلَةَ النِّسَاءِ والخَلْوَة بِهِنَّ مُبَاحَةٌ نَسْأَلُ اللّهَ العافِيَة .

يَدُلُّك عَلَى ذَلِكَ مَا تُشَاهِدُهُ مِن الرِّجَالِ والنِّسَاءِ فَتَرَى الرِّجَالَ فِي تَأَنُّقٍ بَدِيْعٍ فِي لِبَاسِهِمْ قَدْ حَلَقُوا لِحَاهُمْ وأَلْهَبُوْا الأَصْبَاغُ فِي وَجَنَاتِهِمْ وذَكَتْ رَوَائِحِهُمْ وَرَجَّلُوا شَعَرَ رُؤُوسِهِمْ وَتَعَرَّضُوْا لِلنِّسَاءِ في الطُّرُقِ قَدْ خَلَعُوْا سِرْبَالَ الحَيَاء .

وَتَرى النِّسَاءَ تَسْتَعِدُّ اسْتِعْدَاداً تَامّاً إذَا أَرَادَتِ الخُرُوْجِ مِنْ بَيْتِهَا فَتَتَزَيَّنُ بِأَنْوَاعِ الزِّيْنَةِ مِنْ لِبَاسٍ بَرَّاقٍ وَشَفَّافٍ وَمِن حُلِي يَلْمَعُ لَمَعَاناً يَأْخُذُ بالأَبْصَارِ وَمِنْ تَعَطُّرٍ بِمَا تَهْزَأُ رَائِحَتُهُ بِرَائِحَةِ المِسْكِ وَمِن أدْهَانٍ تَدْهُنُ بِهِ وَجْهَهَا وَأَطْرَافَهَا وَحَاجِبَهَا وَشَفَتَيْهَا وَمِنْ آلَةٍ تَفْرِقُ بِهَا رَأْسَهَا وَجُفُوْنَهَا لِيَصِيْرَ نَاعِماً لَامِعَاً كَثِيْراً وبِذَلِكَ تَنْقَلِبُ فِتْنَةٌ لِلنَّاظِرِيْنَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ تَشُقُّ عَلَى العُيُونِ رُؤْيَتُهَا وَعَلَى الآذانِ سَمَاعُ صَوْتِهَا ويُفَرُّ مِنْ شَهَابَتِهَا وَقُبْحِها وهَيْئَتِها الّتِي كَانَتْ تَتَقَدَّمُ بِهَا لِزَوْجِهَا فِي البيتْ كُلُّ ذلِكَ سَبَبُهُ مُخَالَطَةَ الأجْنَبيّاتِ أبْعَدهُنَّ اللَّه .

فَمَا ظَنُّكَ إِذَا الْتَقَا هَؤُلَاءِ إِنَّهَا لَمَصَائِبُ تَجرَحُ قَلْبَ كُلِّ مُؤْمِنٍ غَيُوْرٍ لِدِيْنِهِ يَمُوْتُ كَمَداً مِنْ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ وَأَشْبَاهِهَا قَالَ ﷺ مُحَذِّراً عَنْ فِتْنَةِ النِّسَاءِ « اتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ إِبْلِيْسَ طَلَّاعٌ رَصَادٌ وَمَا هُوَ بِشَيْءٍ مِن فُخُوْخِهِ بِأَوْثَقَ لِصَيْدِهِ في الأَتْقِيَاءِ مِنْ النِّسَاءِ » .

وَخَصَّ الأَتْقِيَاءَ لِمَا لَهُمْ مِنَ الشُّهْرَةِ عَلَى قَهْرِ الشَّيْطَانِ وَرَدِّ كَيْدِهِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِ الأَتْقِيَاءِ فَهُوَ مَا يَثِقُ بِصَيْدِهِ الأَتْقِيَاء بِشَيْءٍ مِنْ آلاتِ الصَّيْدِ وُثُوْقُهُ بِالنِّسَاءِ وَكَوْنِهِنَّ مِنْ فُخُوْخِهِ فَلأَنَّهُ جَعَلَهُنَّ مَصْيَدَةً لَا تُفْلِتُ يُزَيِّنُهُنَّ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ ويُغْرِيْهِم بِهِنَّ فَيُورِّطُهُم فِي الزِّنَا كَصَائِدٍ يَنْصِبُ شَبَكَةً لِيَصْطَادَ بِهَا ويُغْرِيْ الصَّيْدَ عَلَيْهَا لِيَقَعَ فِي حَبَائِلِهَا .

قَالَ ﷺ « يَا أَيُّهَا النّاسُ انْهَوْا نِسَاءَكُمْ عَنْ لُبْسِ الزِّيْنَةِ وَالتَّبَخْتُرِ فِي المَسْجِدِ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى لَبِسَ نِسَاؤُهُمْ الزِّيْنَةَ وَتَبَخْتَرْنَ فِي المَسَاجِدِ » رواه ابْنُ ماجَةَ وفي الحَدِيثِ الآخَرِ مَا مِنْ صَبَاحٍ إِلَّا وَيُنَادِيْ مَلَكَانِ وَيْلٌ لِلرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ وَوَيْلٌ لِلنِّسَاءِ مِنَ الرِّجَالِ رواهُ ابنُ ماجه والحاكم .

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ « إِنَّ المَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُوْرَةِ شَيْطَانٍ وتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدَكُم مِنْ امْرَأَةٍ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ » .

وعَنْ ابن مَسْعودٍ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ إِنَّ المَرأةَ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشّيطانُ رواه الترمذي قال أبُو حَمْزَةَ الخُرَاسَاني النَّظَرُ رسُولُ البَلايَا وسِهَامُ المَنَايا .

وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ مَنْ غَلَبَ هَوَاهُ عَقْلَهُ افْتَضَحَ وَمَن غَضَّ طَرْفَهُ اسْتَرَاحَ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لا شَيْء أَشَدُّ مِنْ تَرْكِ الشَّهْوَةِ لأنَّ تَحْرِيْكَ السَّاكِنِ أَيْسَرُ مِنْ تَسْكِيْنِ المُتَحَرِّكِ .

وَقَالَ ابْنُ الحَاجِ قَالَ صَاحِبُ الأَنْوَارِ احْذَرُوْا الاغْتِرَارَ بِالنِّسَاءِ وإِنْ كُنَّ نُسَّاكاً عُبَّاداً فَإِنَّهُنَّ يَرْكَنَّ إلى كُلِّ بَلِيَّةٍ ولا يَسْتَوْحِشْنَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ .

وَقَالَ بَعْضُ العَارِفِيْنَ مَا أَيِسَ الشَّيْطَانُ مِنْ إنْسَانٍ قَطُّ إلاّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ لأَنَّ حَبْسَ النَّفْسِ مُمْكِنٌ لأهْلِ الكَمَالِ إلاَّ عنْ النِّسَاءِ لأَنَّهُنَّ مِنْ ذَوَاتِ الرِّجَالِ وَشَقَائِقِهِمْ ولَسْنَ غَيْراً حَتَّى يُمْكِنُ التَّبَاعُدُ عَنْهُ والتَّحَرُّزُ عَنْهُ .

قَالَ اللّٰهُ تَعَالى « هُوَ الّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَهَا » وَمَا عَدَاهُنَّ فَاتّبَاعُ هَوَى النَّفْس فِيْهِ آيَةُ تَكْذِيْبِ الرّحمن وَعَلاَمَةُ الاسْتِرْسَال مَعَ الشَّيْطَانِ وَتَصْدِيْقُهُ فِيْمَا يُزَيِّنُهُ مِن البُهْتَان .

وَلِذَا نَرَى الحَازِمَ اللَّبِيْبَ الكَامِلَ مُنْقَاداً مُسْتَرْسِلَ الزِّمَامِ لِتِلْكَ النَّاقِصَاتِ دِيْناً وَعقْلاً مَقْهُوْراً تَحْتَ حُكْمِهِنَّ قَال جَرير :

إنَّ العُيُونَ الَّتِي في طَرْفِهَا حَوَرُ
قَتَلْنَنَا ثُمَّ لاَ يُحْيِيْنَ قَتْلاَنَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لاَ حَرَاكَ بِهِ
وَهُنَّ أضْعَفُ خَلْقِ اللّهِ إنْسَانَا

فَالنِّسَاءُ فِتْنَةٌ عَظِيْمَةٌ لِلرِّجَالِ فَالّذي يَقْوَى على قَهْرِ نَفْسِهِ عَن هَوَاهَا أمَامَ هَذِهِ الشَّهْوَةِ خَوْفاً مِنَ اللّهِ تَعَالى وَيُلْزِمُهَا الصَّبْرَ وَعَدَمَ التَّسَخُّطِ عِنْدَ فَادِحَاتِ المَصَائِبِ رِضىً بِمَا قَدَّرَهُ اللّهُ وَأَجْرَاهُ دَلِيْلٌ عَلَى كَمَالِ إيْمَانِهِ بِخِلاَفِ المتَّبِعِ لِهَوَاهُ عادِمَ الصَّبْرِ والاحْتِسَابِ وهَذا هُوَ المِيْزَانُ عِنْدَ الاخْتِبَارِ .

قال بعضهم :

وَعَبْدُ الهَوَى يَمْتَازُ مِن عَبْدِ رَبِّهِ
لَدَى شَهْوَةٍ أَوْ عِنْدَ صَدْمِ بَلِيَّةِ
بِكِيْرِ البَلاَ يَبْدُوْ مِن التِّبْرِ حُسْنُهُ
وَيَبْدُو نُحَاسُ النَّحْسِ فِي كُلِّ مِحْنَةِ
خَلاَ مِنْ حُلَى قَوْمٍ كِرَامٍ تَدَرَّعُوا
دُرُوْعَ الرِّضَا والصَّبْرِ في كُلِّ شِدَّةِ

وَلاَقَوْا طِعَانَ النَّفْسِ فِي مَعْرَكِ الهَوَى
وَراحُـوْا وَقَدْ أَرْوَوْا مَـوَاضِيْ الأَسِنَّـةِ
وَسَـاقُوْا جِيَـادَ الجِدِّ عِنْـدَ اشْتِيَـاقِهِمْ
وَأَرْخَـوْ لَهَـا نَحْـوَ العُـلاَ لِـلأَعِنَّـةِ
سَمَوْا فاعْتَلَوْا بِيْضَ المَعَـالِيْ عَوَالِيـاً
بِبِيْضِ العَـوَالِيْ فِي القُصُوْرِ العَلِيَّـةِ
مَقَامَاتِ قَوْمٍ أَتْعَبُوْا النَّفْسَ فِي السُّرَى
وفَـازُوْا بِمَـا نَـالُوْهُ فَـوْقَ الأَسِـرَّةِ
بِـذُلٍّ أُنِيْلُوْا العِـزَّ وَالجُهْـدِ رَاحَـةً
وَفَقْـرٍ غِنَىً والحُـزْنِ كُـلَّ مَسَـرَّةِ
وَطَيَّبَ عَيْشٍ بـالـطَّوى ثُمَّ بـالـظَّمَـا
شَـرَابَ كُؤُوسٍ حَـالِيَـاتٍ هَـنِيَّـةِ
بِجَنَّـاتِ عَـدْنٍ فِي رِيَـاضٍ أَنِيْقَـةٍ
لَهُمْ ذُلِّـلَتْ مِنْـهَـا قُـطُوْفٌ تَـدَلَّتِ
جَنَـوْا مِنْ جَنَـاهَـا زَاكِيـاً لاَ يَـذُوْقُـهُ
مِنَ الْخَـلْقِ إلاَّ كُـلُّ نَفْسٍ زَكِيَّـةِ
تَسَلَّتْ عَن الدُّنْيا وَماتَتْ عَنِ الهَوَى
وَغَسَّلَهَـا فِي مَـوْتِهـا مَـاءُ دَمْعَـةِ
وَصَلَّتْ عَلَيْهَـا صَـالِحَـاتُ فِعَـالِهَـا
وَقَـدْ كُفِّنَتْ في بِيْضِ أَثْوَابِ تَـوْبَـةِ
وَنَـالَتْ مُنَـاهَـا والسَّعَـادَاتِ كُلَّهَـا
فَيَـا سُعْـدَ نَفْسٍ أَدْرَكَتْ مَـا تَمنَّتِ

إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاحْرِصْ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى صِيَانَةِ أَهْلِكَ فِي هَذَا الزَّمَنِ وَأَمَّا فِي البُيُوتِ فَمُتَمَرِّدَاتٌ على الرِّجَالِ لا يَهْدَأْنَ لَيْلاً ولا نَهاراً مِنْ المُشَاغَبَاتِ والتَّدَخُّلِ فِيْمَا لا يَعْنِي حَتَّى أنَّ الرَّجُلَ لَيَكْرَهُ دُخُولَ بَيْتِهِ لأنَّهَا مِنْ المُؤْذِيَاتِ لا يَنْتَهِي ذَلِكَ الشَّغَبُ في يومٍ ولا أسبوعٍ وَلَا شهرٍ ولا سَنَةٍ .

كُلَّ يَوْمٍ تَجَدَّدُ مُحاضَرَاتُ المُشَاغَبَةِ فَقَاتَلَهُنَّ اللّهُ مَا لِلْؤْمِهِنَّ مَعَ الرِّجَالِ حَدٌّ تَقِفُ عِنْدَهُ أُولَئِكَ اللَّئِيْمَاتِ وَصَارَ الرَّجُلُ لا يَقْدِرُ على مَنْعِهَا مِن الخُرُوْجِ إِلى الأَسْوَاقِ وَلَا مِن الجُلُوسِ عِنْدَ التِّلْفِزْيُون وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ الّذِي حَطَّمَ الأَخْلاقَ والعَقَائِدَ والأَدْيَانَ وَقَتَلَ الغَيْرَةَ الدِّيْنِيَّةَ وَالمُرُؤةَ وسَبَّبَ الإِنْحِلَالَ والتَّمَيُّعَ فِي العائِلَاتِ وخَدَّرَ أَعْصَابَ الأَبَوَيْنِ وانْتَزَعَ السُّلْطَةَ مِنْهُمَا وَسَبَّبَ نُشُوْزَ الزَّوْجَةِ عَنْ زَوْجِهَا وَالزَّوْجَ عَنْ زَوْجَتِهِ وَدَلَّ النَّاسَ عَلَى طُرُقِ المَكْرِ والحِيَلِ وَالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ والعُدْوَانِ على النَّاسِ مَعَ ما فِيْهِ مِنْ احْتِقارِ المُسْلِمِيْنَ وخُصُوصاً عُلَماؤَهُمْ وأَبْطَالَهُمْ وَتَعْظِيْمَ الكَفَرَةِ والمُنَافِقِيْنَ وَالنَّظَرِ إِلَى الأَجْنَبِيَّاتِ ونَزْعِ الحَيَاءِ وَالعِفَّةِ وَالتَّشَبُّهِ بِأعْدَاءِ اللّهِ والسَّيْرِ في رِكَابِهِمْ وَضَيَاعِ الأَوْقَاتِ فِيْمَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ المَضَارِّ الّتِي فِيْمَا أَظُنُّ تَزِيْدُ عَلَى المائَتَيْنِ نَسْأَلُ اللّهَ العافيةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ إِنَّهُ القَادِرُ على ذَلِكَ .

شعراً :

بِضَاعَةُ العُمْرِ المَاضِي يَفُوزُ بِهَا
مَنْ يَقْطَعُ الدَّهْرَ في عَزْمٍ وَتَشْمِيْرِ
يَا نَفْسُ ضَيَّعْتِ رأْسِ المالِ في غَلطٍ
فَمَرَّ عُمْرُكِ في سَهْوٍ وَتَبْذِيْرِ

يا ضَيْعَتَ العُمْرِ مَاضٍ ما نْتَفَعْتُ بِهِ
ولا حَصَلْتُ عَلى البَـاقِيْ بِتَـدْبِيْـرِ

آخر :

ولـو أنَّ عَيْناً سَـاعَـدَتْ لَتَـوَكَّفَتْ
سَحَـائِبُهَا بِـالـدَّمْـعِ دِيْماً وَهُـطَّلا
وَلَكِنَّهَـا مِن قَسْـوَةِ القَلْبِ أقْحَـطَتْ
فَيَـا ضَيْعَتَ الأعْمَـارِ تَمْشِي سَبَهْلَلا

آخر :

فَيَـا أسَفَـايَـا حَسْـرَتَـا يَـا مُصَيْبَتَـا
وَيَـا ضَيْعَـةِ الأعْمَـارِ عِنْـدَ المَنَـاكِـرِ

اللّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوْبَنا بِنُوْرِ الإيمانِ واحْمِنَا مِنَ الفِتَنِ والطُّغْيَانِ وآتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وفِي الآخِرة حَسَنَةً وَقِنا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالدِيْنَا ولِجَمِيع المُسْلِمِين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلّ اللّهُ عَلَى مُحَمّد وآلِهِ وصحْبِهِ أجْمَعِين .

(فصــل)

اعْلَمْ وفّقْنا اللّه وإيَّاكَ وَجَمِيعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ اللّهُ وَيَرْضَاهُ أنّهُ يَلْزَمُ كُلَّ وَاحِدٍ مِن الزَّوْجَينِ مُعَاشَرَةَ الآخَرِ بِالمَعْرُوْفِ مِن الصُّحْبَةِ الجَمِيْلَةِ ، وكَفِّ الأذَى ، وأنْ لَا يَمْطُلُهُ بِحقّهِ ، مَعَ قُدْرَتِهِ ، وَلَا يُظْهِرُ الكَرَاهَةَ لِبَذْلِهِ ، بَلْ بِبِشْرٍ وطَلَاقةٍ ، وَطِيْبِ نَفْسٍ ، ولا يُتْبِعُهُ مِنَّةً ، ولا أذى ، لأَنَّ هَذا مِنَ المَعْرُوْفِ المأمُوْرِ بِهِ .

لِقَوْلِهِ تَعَالى « وَعَاشِرُوْهُنَّ بِالمَعْرُوْفِ » وقولُهُ « وَلَهُنَّ مِثلُ الّذِي عَلَيْهِنَّ بالمَعْرُوْف » قَالَ ابن عَبّاس إنِّيْ لأُحِبُّ أنْ أتَزَيَّنَ لِلْمَرْأةِ كَمَا أُحِبُّ أنْ تَتَزَيَّنَ لِي ، لأَنَّ اللّهَ تَعالى يَقُولُ « ولَهُنَّ مثلُ الّذِي عَلَيْهِنَّ بالمَعْرُوْفِ » .

وَحَقُّ الزَّوْجِ عَلَى المَرْأةِ أعْظَمُ مِنْ حَقِّهَا عَلَيْهِ ، لِقَوْلِهِ تَعالى « وللرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةً » .

ولِقَوْلِهِ ﷺ لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ ، لِمَا جَعَلَ اللّهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الحَقِّ رَواه أبُو داود .

وَقَالَ إِذَا بَاتَتِ المَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا . لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ ، متفق عليه .

وفِي الصَّحيحين أنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إلى فِرَاشِهِ فَلمْ تَأْتِهِ لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ .

وفِي لَفْظٍ فَبَاتَ وَهُوَ عَلَيْهَا غَضْبَانُ ، لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حتّى تُصْبِحَ ، وَلَفْظُ الصَّحِيْحَيْنِ أيْضاً إذا بَاتَتْ المَرْأةُ هاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا فَتَأَبَى عَلَيْهِ إلاّ كَانَ الّذِي فِي السَّماءِ سَاخِطاً عَلَيْهَا ، حَتّى يَرْضَى عَنْهَا زَوْجَها .

وَعَنْ جَابرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ ثَلاَثَةٌ لا يَقْبَلُ اللّهُ لَهُمْ صَلاةً ولا تُرْفَعُ لَهُمْ إلى السَّمَاءِ حَسَنَةُ العَبْدُ الآبِقُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَوَالِيْهِ فَيضعَ يَدَهُ فِي أَيْدِيْهِمْ وَالمَرْأَةُ السَّاخِطُ عَلَيْهَا زَوْجُهَا حَتّى يَرْضَى عَنْهَا ، والسَّكْرَانُ حَتَّى يَصْحُوْا .

وَقَالَ ﷺ لا تُؤْذِيْ إمْرَأَةٌ زَوْجَهَا إلاّ قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الحُوْر العَيْنِ لا

تُؤْذِيهِ قَاتَلَكَ اللَّهُ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيْلٌ يُوْشِكُ أنْ يُفَارِقَكَ رواهُ ابْنُ ماجة والتّرمذي وقال حديثٌ حَسَن .

وَعنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أيُّ النَّاسِ أَعْظَمُ حَقّاً عَلَى المَرْأَةِ قَالَ زَوْجُهَا قُلْتُ فَأَيُّ النّاسِ أعْظَمُ حَقّاً عَلى الرَّجُلِ قَالَ أُمُّهُ رَواهُ البزّار والحَاكم .

وعنِ الحَسَن قال حَدَّثَنِي من سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ ، أَوَّلُ ما تُسْأَلُ عنهُ المَرْأَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، عَنْ صَلاتِهَا وعن بَعْلِهَا .

وعن ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ خَثْعَمَ أَتَت رَسولَ اللهِ ﷺ فقالَتْ يَا رَسولَ اللهِ أَخْبِرْنِيْ مَا حَقُّ الزَّوْجِ على الزوجة ، فإنّيْ امْرَأَةٌ أَيِّمٌ فإنْ اسْتَطَعْتُ والا جَلَسْتُ أيّماً قَالَ إنَّ حَقَّ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ إنْ سَأَلَها نَفْسَهَا وهِيَ عَلَى ظَهْرِ قَتَبٍ أنْ لا تَمْنَعَهُ نَفْسَها .

ومِنْ حُقُوقِ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ أَنْ لَا تَصُوْمَ تَطَوُّعاً إلا بإِذْنِهِ ، فإِن فَعَلَتْ جَاعَتْ وعَطِشَتْ ولا يُقْبَل مِنها ، ولا تَخْرُجْ مِن بَيْتِهَا إلَّا بإِذْنِهِ ، فان فَعَلَتْ لَعَنَتْهَا مَلَائِكَةُ السَماءِ ومَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، ومَلائكَةُ العَذَابِ ، حَتَّى تَرْجِعَ ، قالَتْ لا جَرَمَ ولَا أَتزَوَّجُ أَبَداً رواه الطبراني .

ومِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ حَقِّ الزَّوْجِ ، مَا رَواه البزّار عنْ ابن عبّاس رَضِيَ اللّهُ عَنْهُما قَال وَجاءَتْ امْرَأَةٌ إلى رَسُولِ اللّهِ ﷺ فقالَتْ يَا رَسُوْلَ اللّهِ أنَا وَافِدَةُ النِّسَاءِ إلَيْكَ ، هَذَا الجِهَادُ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَى الرِّجَالِ ، فَإِنْ أصِيْبُوْا أجِرُوْا ، وإِنْ قُتِلُوا كَانُوْا أَحْيَاءً عِنْدَ اللّهِ يُرْزَقُوْنَ .

ونَحْنُ مَعْشَرَ النِّسَاءِ ، نَقُوْمُ عَلَيْهِم فَمَا لَنَا مِن ذَلِكَ ، قال فَقالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بَلِّغي مَن لَقِيْتِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ طَاعَةَ الزَّوْجِ واعْتِرَافاً بِحقِّهِ يَعْدِلُ ذلِكَ وقَلِيْلٌ مِنْكُنَّ مَن يَفْعَلُه .

ومِمَّا يَدُلُ عَلى عِظَم حَقِّ الزَّوْجِ ، حَديثُ أَبِيْ سَعِيْدٍ رَضِيَ الله عَنه قالَ أَتَى رَجُلٌ بِابْنَتِهِ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فقالَ إِنَّ ابْنَتِيْ هَذِه أَبَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ فقالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَطِيْعِيْ أَبَاكِ فَقَالَتْ والذِي بَعَثَكَ لا أَتَزَوَّجُ حَتَّى تُخْبِرَنِي مَا حَقُّ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ قالَ حَقُّ الزَّوْجِ على زَوْجَتِه لَوْ كانَتْ بِهِ قَرْحَةٌ فَلحَسَتْهَا ، أَوْ تَنَثَّرَ مَنْخِرَاهُ صَدِيْداً ودَماً ثُمَّ ابْتَلَعَتْهُ ، ما أَدَتْ حَقَّهُ ، قالَتْ والذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ لا أَتَزَوَّجُ أَبَداً ، فقال النبيُ ﷺ لا تُنْكِحُوْهُنَّ إِلَّا بِإِذْنِهِنَّ رواه البزار وابن حبان في صحيحه .

وقالَتْ عَمَّةُ حُصَيْنِ بنِ مِحْصَنٍ وَذَكَرتْ زَوْجَها لِلنَّبِي ﷺ فقالَ انْظُرِيْ مِن أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ ، فإِنَّهُ جَنَّتُكَ ونَارُكِ أخرجه النِسائي .

وقَالَتْ عَائِشَةُ رَضيَ اللهُ عَنْهَا يا مَعْشَرَ النِسَاءِ لَوْ تَعْلَمْنَ بِحَقِ أَزْوَاجِكِنَّ عَلَيْكُنَّ لَّجعَلْتِ المَرْأة مِنْكُنَّ تَمْسَحُ الغُبَارَ عن قَدَمَيْ زَوْجِهَا بِخَدِ وَجْهِهَا .

وقالَ ﷺ نِسَاؤُكُمْ مِن أَهْلِ الجَنَّةِ الوَدُوْدُ التي إذَا أُوْذِيَتْ أَوْ آذَتْ أَتَتْ زَوْجَهَا حتى تَضَعَ يَدَهَا في كَفِّهِ فَتَقُولُ لا أَذُوْقُ غَمْضاً حَتَّى تَرْضَى .

وعن عبدِ اللهِ بن عمرو رضي اللهُ عنهما قالَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لا يَنْظُرُ اللهُ إلى امْرَأةٍ لا تَشْكُرُ زَوْجَهَا وهِيَ لا تَسْتَغْنِيْ عَنْهُ .

وجاءَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ إذَا خَرَجَتِ المَرْأةُ مِن بَيْتِ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ أَوْ تَتُوْبَ .

وعن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَرْأَةُ لا تُؤْدي حَقَّ زَوْجِهَا كُلَّهُ ولَوْ سَألَهَا وهِيَ علىظَهْرِ قَتَبٍ لَمْ تَمْنَعْهُ نَفْسَهَا رواه الطبراني باسناد جيد .

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اثْنَانِ لا تُجَاوِزُ صَلاَتُهُمَا رُؤُسَهُمَا عَبْدٌ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ حَتَّى يَرْجِعَ وَامْرَأَةٌ عَصَتْ زَوْجَهَا حَتَّى تَرْجِعَ .

وعنه رضي الله عنه قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّ المَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِن بَيْتِهَا وَزَوْجُهَا كارِهٌ لَعَنَهَا كُلُ مَلَكٍ في السَّمَاءِ وكُلُ شَيْءٍ مَرَّتْ عَلَيْهِ ، غَيْرَ الجِنِ والإنسِ ، حَتَّى تَرْجِعَ رواه الطبراني في الأوسط .

وعن طَلْقِ بنِ عَليٍّ رضي اللهُ عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وإنْ كانَتْ على التَّنُّورِ رواه الترمذيُ وقال حديث حسن والنسائيُ وابنُ حبان في صحيحه .

وعن ابنِ أَبِي أَوْفَى رضي اللهُ عنه قَالَ لَمَّا قَدِمَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ مِن الشامِ سَجَدَ لِلنَّبِي ﷺ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ما هَذَا قال يا رسولَ اللهِ قَدِمْتُ الشَّامِ فَوَجَدْتُهُم يَسْجُدُوْنَ لِبَطَارِقَتِهِمْ وأَسَاقِفَتِهِمْ فأرَدْتُ أنْ أَفْعَلَ ذلكَ بِكَ .

قَالَ فَلاَ تَفْعَلَ فإِنِّيّ لَوْ أَمَرْتُ أَحَداً أنْ يَسْجُدَ لِإحَدٍ لَأَمَرْتُ المَرْأَةَ أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا والذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لاَ تُؤَدِيْ المَرْأَةُ حَقَّ رَبِها حَتَّى تُؤَدِيْ حَقَّ زَوْجِهَا رواه ابن ماجه وابنِ حبان في صحيحه .

وقال صَلى اللهُ عليه وسلم لَوْ أَمَرْتُ أحداً أنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أنْ تَسْجُدَ لِزُوْجِهَا مِن عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا ولا تَجِدُ حَلاَوَةَ الإِيمانِ حَتَّى تُؤَدِيْ حَقَّ زَوْجِهَا ولو سَألها نَفْسَهَا وهيَ على ظَهْرِ قَتَبٍ .

وقال ﷺ لا يَحِلُ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ باللهِ أَنْ تَأْذَنَ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَهُوَ كَارِهٌ ولاَ تَخْرُجْ وَهُوَ كارِهٌ ولا تُطِيْعُ فِيهِ أَحَداً ولا تَعْزِلْ فِراشَهُ ولا تَضْرِبْهُ فإِن كَانَ هُوَ أَظْلَم فَلْتَأتِهِ حَتَّى تُرْضِيْهِ فإِن قَبِلَ مِنْهَا فَبِهَا ونِعْمَتْ وقَبِلَ اللهُ عُذْرَهَا وأَفْلَجَ حُجَّتَهـا وَلاَ إِثْمَ عَلَيْهَا وإِن هُوَ لم يَرْضَ فَقَدْ أَبْلَغتْ عِندَ اللهِ عُذْرَهَا رواه الحاكم وقالَ صحيح الاسناد .

اللّهُمّ أرْزِقْنَا حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وحُبَّ العَمَلِ الّذِي يُقَرِّبُنَا إِلى حُبِّكَ اللّهُمَّ افْتَحْ لِدُعَائِنَا بابَ القَبُولِ والإِجَابَة وألهِمْنَا ذِكرَكَ وشُكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لامْتِثَالِ أَمْرِكَ وآتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنةً وَقِنَا عَذابَ النّارِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنا وجمِيعِ المُسْلِمِيْنَ برحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّد وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْن .

(فصــل)

إِذَا عُلِمَ مَا سَبَقَ فَالواجِبُ عَلَى المَرْأَةِ أَنْ تَطْلُبَ رِضَا زَوْجِهَا وَتَجْتَنِب سُخْطَهُ ولا تَمْتَنِعْ مِنْهُ مَتى أَرادَهَا وَهِيَ طَاهِرَةٌ ويَنْبَغِيْ أن تُقَدِّرْ كأنَّهَا كَمَمْلُوكَةٍ لِلزَّوْجِ فَلا تَتَصَرَّفْ فِي نَفْسِهَا وَلاَ فِي مَالِهِ إلاّ بِإِذْنِهِ .

وتُقَدِّم حَقَّهُ عَلَى حَقِّهَا وَحُقُوقَ أَقَارِبِهِ عَلَى حُقُوقِ أَقَارِبِهَا وَتَكُونُ مُسْتَعِدَّةً لِتَمَتُّعِهِ بِهَا بِجَمِيْعِ أَسْبَابِ النَّظَافَةِ وَلاَ تَفْتَخِرُ عليْهِ وَلاَ تَتَطَاوَلُ عَلَيْهِ بِرَفْعِ صَوْتِهَا كَمَا تَفْعَلَهُ ضَعِيْفَاتِ الدّيْنِ سَخِيْفَاتِ العُقُولِ المُلْسِنَاتِ الفَاهِرَاتِ اللاَّتي يَحمِلُ أَزْوَاجُهُنَّ هَماً عَظِيْماً إذا أرَادَ دُخُولَ بَيْتِهِ خَوْفاً مِنْ شُرُوْرِهِنَّ وأَلْسِنَتِهِنَّ وما أكثرهن في الزمن.

ويَجِبُ عَلَيْهَا أَيْضاً دَوَامُ الحَيَاءِ مِنْ زَوْجِهَا وَغَضُّ طَرْفِهَا قُدَّامِهِ وَلاَ تَفْعَلُ

قُدَّامَهُ مَا يُكرِهُهَا عِنْدَهُ وَلا تُسْمِعْهُ مَا يُنَغِصُ عَلَيْهِ عَيْشَهُ وَيُكَدِّرُ خَاطِرَهُ وَتُطِيْعُهُ إِذَا أَمَرَهَا فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللّهِ .

وتَسْكُتُ عِنْدَ كَلامِهِ وَلاَ تُنَازِعُهُ القَوْلَ ولا تَتَدَخَّلُ فِيْمَا لاَ يَعْنِيْهَا لِئَلاّ يَحْصُلُ فِرَاقٌ وتَبْتَعِدُ عنْ كُلِّ ما يُسْخِطُهُ وتَقُومُ مَعَهُ عِنْدَ خُرُوْجِهِ .

وتَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ عِنْدَ النَّوْمِ وتَتَجَنَّبُ خِيَانَتَهُ في غَيْبَتِهِ وفي حُضُورِهِ في فِرَاشِهِ ومالِهِ وبَيْتِهِ وتُطَيِّبُ رَائِحَتَهَا .

وتَتَعَاهَدُ فَمَهَا بالسِّوَاكِ وبِالمِسْكِ والطّيْبِ ودَوَامِ الزِّيْنَةِ بِحَضْرَتِهِ وتَتْرُكُهَا في غَيْبَتِهِ وتَحْرِصْ عَلَى كُلِّ ما يُسَلِّكُهَا عِنْدَهُ وتُكْرِمُ أَهْلَهُ وأَقَارِبَهُ وتَرَى القَلِيْلَ مِنْهُمْ كَثِيْراً وَهَذا إِذَا كَانَ مُسْتَقِيماً في أعْمَالِهِ وأخْلاَقِهِ .

وَلَقَدْ أَحْسَنَ القَائِلُ يُخَاطِبُ زَوْجَتَهُ :

خُـذِيْ العَفْوَ مِنِّيْ تَسْتَـدِيْمِي مَـوَدَّتي
وَلاَ تَنْطِقِي في سَوْرَتِي حِيْنَ أَغْضَبُ
فإِنِّيْ رَأَيْتُ الحُبَّ في الصَّدْرِ والأذَى
إِذَا اجْتَمَعَـا لَم يَلْبَثِ الحُبُّ يَذْهَبُ

وَمِنْ حُقُوقِ الزَّوجِ عَلَى زَوْجَتِهِ أَنْ لاَ تَأْلُو جُهْداً فِيْمَا يُحَبِّبُهَا إِلَيْهِ ، قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ خَارِجَةَ الفَزَارِي لابْنَتِهَا عِنْدَ الزِّفَافِ يا بُنَيَّة إِنَّكَ خَرَجْتِ مِن العِشِّ الّذي دُرَجَتِ فِيْهِ فَصِرْتِ إلى فِرَاشٍ لَمْ تَعْرِفِيْهِ وَقَرِيْنٍ لَمْ تَأْلفِيْهِ .

فَكُونِي لَهُ أَرْضاً يَكُنْ لَكَ سَمَاءً وكُوْني لَهُ مِهاداً يَكُنْ لَكِ عِماداً وكُونِي لَهُ أَمَّةً يَكُنْ لَكِ عَبْداً لاَ تُلْحِفِي فيقْلاكِ « المَعْنَى لاَ تُلِحِّي عَلَيْهِ فَيُبْغِضَكِ » ولا تَبَاعَدِي عَنْهُ فَيَنْسَاكِ إِنْ دَنَا مِنْكِ فاقْرَبي مِنْهُ واحْفَظِيْ أَنْفَهُ وسَمْعَهُ وَعَيْنَهُ فَلا

يَشُمُّ مِنْكَ إلا طِيْباً وَلَا يَسْمَعُ إلّا حَسَناً ولا يَنْظُرُ إلّا جَمِيْلًا .

وهَكَذَا تَكُونُ المَرْأَةُ المُؤَدَّبَةُ النَّاجِحَةُ فِي امْتِلَاكِ قَلْبِ زَوْجِهَا لَا كَالَّتِي إذ أَتَتْ لِزَوْجِهَا اسْتَقْبَلَتْهُ بِثِيابِ المَطْبَخِ والمَلَابِسِ الوَسِخَةِ شَهْبَاءَ الوَجْهِ غَبْرَاءَ الجِلْدِ شَعْثَاءَ الشَّعَرِ طَوِيْلَةُ اللّسانِ جاحِدَةُ الإِحْسانِ كأَنَّ زَوْجَها عِنْدَهَا خَادِمٌ حَقِيْرٌ مُضْطّرٌ إِلَيْهَا لَا تُقِيْمُ لَهُ وَزْناً وَلَا تُبالي فِيْهِ وَلَا تَهْتَمُّ مِنْهُ .

ومِنْ حُقُوقِ زَوْجِها عَلَيْهَا أَنْ تَتْرُكْ لَهُ وَقْتاً يَتفَرَّغُ فِيْهِ لِنَفْسِهِ ولِفِكْرِهِ فَإِنْ كَانَ عَابِداً تَرَكَتْ لَهُ وَقْتاً تَطْمَئِنُّ فِيهِ نَفْسُهُ إِلَى عِبادَةِ رَبِّهِ بِخُشُوْعٍ وَخُضُوْعٍ وَحُضُوْرٍ وقَلْبٍ وَإِنْ كَانَ عَالِماً تَرَكَتْ لَهُ وَقْتاً يُطَالِعُ فِيْهِ وَيَقْرأ الكُتُبَ أَوْ يُؤَلِّفُ أَوْ يُفَكِّرُ .

فاللَّذَّةُ الّتِي يَجِدُها العَالِمُ فِي قِراءَتِهِ والعَابِدُ فِي خَلْوَتِهِ لا تَعْدِلُهَا لَذَّةٌ في الحَياةِ قال بعضُ العُلَمَاءِ « لَوْ عَلِمَ المُلُوكُ وأبْنَاءُ المُلُوكِ ما نَحْنُ فِيهِ لَجَالدُوْنَ عليْهِ بِالسُّيُوفِ » وَقَدْ لا تَشْعُرُ المَرْأَةُ بِهَذِهِ اللَّذَّةِ فَلَا تَفْهَمُ لَهَا مَعْنَى وَقَدْ تَتَأَلَّمُ مِنْهَا عَلَى مَعْنَى الكُرْهِ والبُعْدِ عَنْهَا وَهِيَ في ذَلِكَ مُتَجَنِّيَةً على زَوْجِهَا وَنَفْسِهَا ورُبَّمَا جَنَتْ عَلَى نَفْسِهَا .

اللّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنَ النِّفَاقِ وعَمَلَنا مِن الرِّيَاءِ وألْسُنَنا مِن الكَذِبِ وأعْيُنَنا مِن الخِيَانَةِ اللّهُمّ إنّنا نَسْأَلُكَ إِيْمَاناً يُبَاشِرُ قُلُوبَنَا ويَقِيناً صَادِقاً حتّى نَعْلَمَ أنّهُ لا يُصِيْبُنَا إلّا مَا كَتَبْتَ لَنَا واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنا وجَمِيع المُسْلِمِين بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وصَلّى اللّهُ على مُحَمّد وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِين .

(فصــل)

وَإِذَا كَانَتِ المَرْأَةُ مَأْمُوْرَةً بطَاعَةِ زَوْجِهَا وَبِطَلَبِ رِضَاهُ فَالزَّوْجُ أَيْضاً مأمُوْرٌ

بالإحْسانِ إلَيْهَا وَاللُّطفِ بِهَا وَالصَّبْرِ عَلَى ما يَبْدُوْ مِنْهَا مِن سُوْءِ خُلُقٍ وغَيْرِهِ وإيْصَالِهَا حَقَّهَا مِنَ النَّفَقَةِ .

والكِسْوَةِ والعِشّرَةِ الجَمِيْلَةِ لقولِهِ تعالى ﴿وعاشِرُوْهُنَّ بِالمَعْرُوْفِ﴾ .

ولِقَوْلِهِ ﷺ ألا وَاسْتَوْصُوْا بالنِّسَاءِ خَيْراً فَإنَّما هُنَّ عَوانٍ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئاً غَيرَ ذَلِكَ إلاَّ أنْ يَأتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ فَإنْ فَعَلْنَ فاهْجُرُوْهُنَّ فِي المَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ (أيْ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ) فَإنْ أَطَعْنَكُمْ فلا تَبْغُوْا عَلَيْهِنَّ سَبِيْلاً .

أَلاَ إنَّ لَكُمْ على نِسَائِكُمْ حَقّاً وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَن تَكرهُوْنَ ولاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوْتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُوْنَ أَلاَ وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أنْ تُحْسِنُوا إلَيْهِنَّ في كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ .

وَقَال ﷺ خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إلاَّ كَرِيْمٌ وَلَا أهَانَهُنَّ إلاَّ لَئِيْمٌ .

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَكْمَلُ المُؤْمِنِيْنَ إيْمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً وخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ .

وعَنْ عَائِشَةُ رضِيَ اللّهُ عَنْها قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إنَّ مِن أكْمَلِ المُؤْمِنِينَ إيْمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً وأَلْطَفُهُمْ بأهْلِهِ .

وَقَالَ ﷺ إنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ فَإنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا فَدَارِهَا تَعِشْ بِهَا رَواهُ ابْنُ حَبّان في صَحِيحه .

وَفِي الصَّحِيحينْ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ اسْتَوْصُوْا بِالنِّسَاءِ فَإنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ وَإنَّ أعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أعْلاهُ فَإنْ ذَهَبْتَ تُقِيْمهُ كَسَرْتَهُ وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ فاسْتَوْصُوْا بِالنِّسَاءِ وَفي رواية

لمسلم إِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيْقَةٍ فَإِن اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيْهَا عِوَجٌ وإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيْمَهَا كَسَرْتَهَا وكَسْرُهَا طَلاَقُهَا .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ لا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ رَواه مُسْلم .

فَفِيْ هَذَا الحَدِيْثِ ارْشَادٌ مِنْهُ ﷺ لِلزَّوْجِ فِي مُعَاشَرَةِ زَوْجَتِهِ وَهَذا الارْشَادُ مِن أَكْبَرِ الأَسْبَابِ والدَّوَاعِيْ إلى حُسْنِ العِشْرَةِ واسْتِدَامَتِها فَقَدْ نَهَى ﷺ عَنْ سُوءِ العِشْرَةِ .

وَمَفْهُوْمُ الحَدِيثِ الحَثُّ على حُسْنِ العِشْرَةِ وأَمْرِهِ ﷺ الزَّوْجَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى المَحَاسِنِ والمَسَاوِيء وَيَجْعَلَ مَا كَرِهَ فِي مُقَابَلَةِ مَا رَضِيَ مِنْهَا فَإِنَّهُ إِذَا تَأَمَّلَ بانْصَافِ الأَخْلاَقَ الجَمِيْلَةَ والأَخلاَقَ الّتِي يَكْرَهُهَا تبَيَّنَ لَهُ فِي الغَالِبِ أَنَّهَا أَقَلُّ مِنَ الأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ بِكَثِيْر .

فَإِذَا كَانَ صَاحِبَ انْصَافٍ وَعَدْلٍ وَرَأَى رُجْحَانَ المَحَاسِنِ على المَسَاوِيْ غَضَّ عَنِ المَسَاوِيْ طَرْفَهُ لاضْمِحْلاَلِهَا في المَحَاسِنِ .

وَاسْمَعْ مَا يَلِيْ رُوِيَ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَشْكُوْ زَوْجَتَهُ مِنْ جِهَةِ سُوْءِ خُلُقِهَا مَعَهُ فَوَقَفَ بِبَابِ عُمَرَ يَنْتَظِرُ خُرُوْجَهُ فَسَمِعَ امْرَأَةَ عُمَرَ تَسْتَطِيْلُ عَلَيْهِ بِلِسَانِهَا وتُخَاصِمُهُ وعُمَرُ سَاكِتٌ لا يَرُدُّ عَلَيْهَا فَقَنِعَ الرَّجُلُ وَانْصَرَفَ رَاجِعاً قَائِلاً فِي نَفْسِهِ إذاكَانَ هَذَا حَالُ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ مَعَ شِدَّتِهِ وَصَلاَبَتِهِ وَحَزْمِهِ فَكَيْفَ حَالِيْ أَنَا مَعَ ضَعْفِيْ فَخَرَجَ عُمَرُ قَبْلَ أَنْ يُبْعِدَ الرَّجُلُ فَرَأَى الرَّجُلَ مُدْبِراً مُوَلِياً عَن بَابِهِ .

فَنَادَاهُ عُمَرُ وقَالَ لَهُ مَا حَاجَتُكَ يَا رَجُلُ فَقَالَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ جِئْتُ أَشْكُوْ

إِلَيْكَ سُوْءَ خُلُقِ زَوْجَتِيْ واسْتِطَالَتُهَا عَلَيَّ فَلَمَّا سَمِعْتُ زَوْجَتَكَ كَذَلِكَ رَجَعْتُ وقُلْتُ إِذَا كَانَ هَذَا حَالُ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ مَعَ زَوْجَتِهِ فَكَيْفَ حَالِي .

فَقَالَ عُمَرُ يَا أَخِيْ إِنّي احْتَمِلُهَا لِحُقُوْقٍ لَهَا عَلَيَّ إِنَّهَا طَبَّاخَةٌ لِطَعَامِي خَبّازَةٌ لِخُبْزِيْ غَسَّالَةٌ لِثِيَابِي مُرْضِعَةٌ لِوَلَدِيْ وَلَيْسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِوَاجِبٍ عَلَيْهَا وَيَسْكُنُ بِهَا قَلْبِيْ عَنِ الحَرَامِ فَأَنَا أَحْتَمِلُهَا لِذَلِكَ فَقَالَ الرَّجُلُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ وكَذَلِكَ زَوْجَتِيْ .

قَالَ عُمَرُ فَاحْتَمِلْهَا يَا أَخِيْ فَإِنَّمَا هِيَ مُدَّةٌ يَسِيْرَةٌ ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الانْصَافِ لأَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ فَإِنَّهُ لاَحَظَ الأَخْلاَقَ الجَمِيْلَةَ وَالمَحَاسِنَ وَغَضَّ عَنْ المَسَاوِيْ بالكُلّيَّةِ وَتَنَاسَاهَا .

ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ أَثَّرَتْ سِيْرَتُهُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الّذِي جَاءَ إِلَيْهِ لِيَشْكُوْ امْرَأَتَهُ وَرَجَعَ قَانِعاً رَاضِياً .

وَمِنْ حُقُوْقِ الزَّوْجَةِ عَلَى زَوْجِهَا أَنْ يَغَارَ عَلَيْهَا فَلاَ يُعَرِّضْهَا لِلشُّبْهَةِ وَلاَ يَتَسَاهَلُ مَعَهَا فِي مَا يُؤْذِي الشَّرَفَ وَالمُروْءَةَ ولا يُعَرِّضُهَا لأَلْسِنَةِ السُّوْءِ والتَّسَاهُلُ في هَذَا قَبِيْحٌ يُعَدُّ مِنْ سَفْسَافِ الأَخْلاقِ لِما يَجُرُّهُ مِن الشَّقَاءِ لَهَا ولِلأُسْرَةِ وَلِزَوْجِهَا .

وَمَا زَالَ النَّاسُ تَتَأَثَّرُ سُمْعَتُهُمْ وَكَرَامَتُهُمْ بِسُلُوكِ الزَّوْجَاتِ فَمَنْ أَغْضَى عَنْ زَوْجَتِهِ وَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ أَوْ أَغْضَى عَن بَنَاتِهِ أَوْ أَخَوَاتِهِ أَوْ أَيّ أُنْثَى مِن قَرَابَاتِهِ فَقَدْ أَخْرَجَ نَفْسَهُ مِنْ زُمْرَةِ الرِّجَالِ الّذِيْنَ لَهُمْ حُرْمَةٌ وَشَرَفٌ فِي النُّفُوسِ وَمَنزِلَةٌ عِنْدَ اللّهِ عَلَى أَنَّهَا إِذَا رَأَتْ مِنْهُ تَسَامُحاً رُبَّمَا ازْدَادَتْ تَوَسُّعاً فِيْمَا هَمَّتْ بِهِ أَوْ دَخَلَتْ فِيْهِ .

فَالمَرْأَةُ شَدِيْدَةُ التَّأَثُّرِ بِسُلُوكِ زَوْجِهَا الدِّيْنِي فَإِنْ رَأَتْ مِنْهُ حِرْصاً على التَّسَتُّرِ والعِفَّةِ والنَّزَاهَةِ وَالعِبَادَةِ أَقْتَدَتْ بِهِ وَبَادَرَتْ إلى ذَلِكَ اسْتِجَابَةً لِعَاطِفَتِهِ وارْضَاءً لِزَوْجِهَا وَإِنْ رَأَتْ مِنْهُ تَشْجِيْعاً عَلى الإِهْمَالِ والانْفِلاَتِ مِن أَحْكَامِ الدِّيْنِ وآدَبِ الأُسْرَةِ لَمْ تَجِدْ بُدّاً آخِرَ الأَمْرِ مِنْ أنْ تَسْتَجِيْبَ لَهُ وَتَفْعَلْ مَا يُرْضِيْهِ .

هَذَا فِي الغَالِبِ وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ مَنْ تَبْتَعِدُ عَنْهُ إِذَا رَأَتْهُ غَيْرَ مُسْتَقِيْمٍ وَكَمْ مِنْ زَوْجَاتٍ خَرَجْنَ مِنْ بُيُوْتِ آبَائِهِنَّ عَفِيْفَاتٍ قَانِتَاتٍ يَصُمْنَ أَيَّامَ البِيْضِ وَيَقُمْنَ لِصَلاَةِ اللَّيْلِ فَمَا مَكَثْنَ غَيْرَ زَمَنٍ يَسِيْرٍ حَتَّى انْحَرَفْنَ عَن ذَلِكَ كُلِّهِ بِتَأَثُّرِ الزَّوْجِ وانْحِرَافِهِ وَجَهْلِهِ وَتَوْجِيهَاتِهِ الفَاسِدَةِ وتَعْلِيْمِهِ لَهَا بِالقَوْلِ والفِعْلِ نَسْأَلُ اللَّهُ العافِيَةَ .

وأَقَلُّ النَّاسِ إِيْمَاناً وتَوْفِيْقاً وأَبْعَدُهُمْ عَنِ الأَخْلاَقِ الفَاضِلَةِ مَنْ أَهْدَرَ المَحَاسِنَ كُلَّهَا وَلَوْ كَانَتْ تَرْبُوْ بِكَثِيْرٍ عَلى المَسَاوِيْ .

وَجَعَلَ المَسَاوِيْ نَصْبَ عَيْنَيْهِ وَرُبَّمَا مَدَّدَهَا وَبَسَطَهَا وَطَوَّلَهَا وَأَلْحَقَ بِهَا غَيْرَهَا وَكَرَّرَهَا وأَعَادَهَا وَفَسَّرَهَا بِظُنُوْنِهِ السَّيِّئَةِ وَتَأْوِيْلاَتِهِ الفَاسِدَةِ .

وَأَضَافَ إِلَيْهَا مِن الكَذِبِ والبَهْتِ مَا تَسْتَغِيْثُ مِنْهُ الفَضِيْلَةُ كَمَا هُوَ الوَاقِعُ عِنْدَ كَثِيْرٍ مِن أَهْلِ هَذَا العَصْرِ المُظْلِمِ بالمَعَاصِي والفِتَنِ والمُنْكَرَاتِ والظُّلْمِ .

وَبَعضٌ يُلاَحِظُ المَحَاسِنَ وَالمَسَاوِيَ وَيُوَازِنُ بَيْنَهُمَا وَيُعَامِلُ الزَّوْجَةَ بِمَا يَرَى أَنَّهُ مُقْتَضَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَهَذا مُنْصِفٌ ولَكِنْ الكَمَالُ في الحَالَةِ الأُوْلَى وَقَدْ حُرِمَهُ وَلَقَدْ أَجَادَ القَائِلُ :

إذَا قِيْسَ إحْسَانَ امْرِئٍ بِإسَاءَةٍ
فَأرْبَى عَلَيْهَا فَالإسَاءَةُ تُغْفَرُ

وَقَدْ وَرَدَ فِي فَضْلِ المَرْأَةِ المُطَاوِعَةِ لِزَوْجِهَا أَحادِيثُ كَثِيْرَةٌ نَذْكُرُ بَعْضَهَا إن شَاءَ اللّهُ مِن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ أيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتِ الجَنَّةَ رواهُ ابْنُ ماجة والتّرمذيّ وحسنه .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ إذَا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَهَا وَحَصَّنَتْ فَرْجَهَا وأطَاعَتْ بَعْلَهَا دَخلَتْ مِنْ أيِّ أبْوَابِ الجَنَّةِ شَاءَتْ رواه ابْن حبّان في صحيحه .

وَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَسْتَغْفِرُ لِلْمَرْأَةِ المُطِيْعَة لِزَوْجِهَا الطَّيْرُ فِي الهَوَاءِ والحِيْتَانُ فِي المَاءِ وَالملائكةُ في السّماءِ والشّمْسُ والقَمَرُ مَا دَامَتْ فِي رِضَا زَوْجِهَا .

وأيُّمَا امْرَأَةٍ عَصَتْ زَوْجَهَا فَعَلَيْهَا لَعْنَةُ اللّهِ وَالمَلاَئِكَةِ والنّاسِ أَجْمَعِين وأيُّمَا امْرَأَةٍ كَلَحَتْ فِي وَجْهِ زَوْجِهَا فَهِيَ فِي سَخَطِ اللّهِ إلى أنْ تُضَاحِكَهُ وتَسْتَرْضِيَهِ وأيُّمَا امْرَأَةٍ خَرَجَتْ مِنْ دَارِها بِغَيْرِ إذْنِ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتّى تَرْجِعَ .

تَنْبِيْه : المُرَادُ بِطَاعَةِ المَرْأَةِ لِزَوْجِهَا إنَّمَا هِي في حُدُوْدِ الشَّرِيْعَةِ قَال ﷺ لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخالِقِ فَلَوْ أمَرَهَا زَوْجُهَا بِمَعْصِيَةٍ كاتْيَانِهَا فِي الدُّبُرِ فَلا يَجُوزُ لَهَا المُوافَقَةُ ويَحْرُمُ عَلَيْهَا ذَلِكَ .

وَكَذَا لَوْ أَمرَهَا بِتَرْكِ صِيَامِ رَمَضَانَ أَوْ حَجّ البَيْتِ أوْ أَمرَهَا بِتَرْكِ الزَّكَاةِ فَلاَ

يَجُوْزُ لَهَا طَاعَتُهُ وكَذَا لَوْ أَرَادَ جِمَاعَهَا وَهِيَ حَائِضٌ حَرَمُ عَلَيْهَا طَاعَتُهُ فِي ذَلِكَ وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الأُمُوْرُ .

اللّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا واشْرَحْ صُدُوْرَنَا وَيَسِّرْ أُمُوْرَنَا وَثَبِّتْنَا عَلى قَوْلِكَ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا وفِي الآخِرَةِ وارْفَعْ مَنَازِلَنَا فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا وجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فصـــل)

أعْلَمْ وَفَّقَنَا اللّهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيعَ المُسْلِمين أَنَّهُ يَقَعُ مَشَاكِلُ كَثِيْرَةٌ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ تَحْتَاجُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَيْهَا لِتُجْتَب مِنْ أَسْبَابِ المَشَاكِلِ العَائِلِيَّةِ سُوْءُ خُلِق أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ وَكَوْنُهُ يَثُوْرُ لأَدْنَى سَبَبٍ وَيَغْضَبُ لأَقَلَّ كَلِمَةٍ وَلَوْ كَانَتْ خَارِجَةً سَهْواً فَكَمْ ثَارَتْ فِي البُيُوتِ مَشَاكِلُ مِن أَسْبَابِ ضِيْقِ الصَّدْرِ وسُوْءِ الخُلُقِ .

وَكَمْ إِنْهَارَتْ بُيُوْتٌ فَتَفَرَّقُوْا مِنْ أَجْلِ ضِيْقِ الصَّدْرِ والحُمُقِ مِن الزَّوْجِ أَوْ الزَّوْجَةِ والغَالِبُ أَنَّ الزَّوْجَ أَكْثَرُ تَجَنِّياً مِن الزَّوْجَةِ فَالْمَرْأَةُ تَتَحَمَّلُ مِن الزَّوْجِ غَالِباً أَكْثَرَ مِمَّا يَتَحَمَّلُ زَوْجُهَا مِنْهَا لِغُرُوْرِهِ هَذَا فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ أَمّا الآنَ فَالنِّسَاءُ أَكْثَرُهُنَّ عَلَى العَكْسِ لأَنَّ المَرْأَةَ فِي زَمَنِنَا صَارَ لَهَا الكَلامُ وَسَيْطَرَتْ عَلَى الرِّجَالِ فِي الغَالِبِ بأَسْبَابِ مُخَالَطَةِ الأَجَانِبِ لأَنَّهُمْ يَخْضَعُوْنَ لَهُنَّ وَيُقَدِّمُوْنَهُنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ يَخْرجُون عَنْ رأيِهِنَّ أبَدا .

ومِنْ أَسْبَابِ المَشَاكِلِ العَائِلِيّةِ سوْءُ الظَّنِّ مِن أحدِهِمَا وَغَضَبِهِ قَبْلَ التَّذكُّرِ والتَّثَبُّتِ فَيَقَعُ النِّزَاعُ وَرُبَمَا حَصَلَ فِرَاقٌ ثُمَّ تَبَيَّنَ الأَمْرُ خِلاَفَ الظَّنِّ .

ومِنْ أسْبَابِ المَشَاكِلِ العَائِلِيَّةِ تَدَخُّلُ الزَّوْجِ فِي الشُّئُونِ البَيْتِيَّةِ أكْثَرَ مِمَّا تَدْعُوْ الحَاجَةُ أوْ الضَّرُوْرَةُ إلَيْهِ وكَمْ مِن رَجُلٍ فَارِغٍ مِن العَمَلِ يَقِفُ مَعَ زوْجَتِهِ فِي المَطْبَخِ وَيَعْتَرِضُ اعْتِرَاضَاتٍ تَافِهَةٍ واقْتِرَاحَاتٍ يُرِيْدُ بِهَا التَّحَدّي والتَّعْجِيْزَ وَهَذَا تَضيْقُ زَوْجَتُهُ بفُضُوْلِهِ فَمَا تَلْبَثُ أنْ تَنفَجِرُ وتَثُوْرُ وَيَقَعُ الخِصَامُ واللّجَاجُ .

وَمِن أَسْبَابِ المَشَاكِلِ سُوْءُ فَهْمِ كُلٍّ مِن الزَّوْجَيْنِ لِطِبَاعِ الآخَرِ فَقَدْ يَكُونُ الزَّوْجُ حَادَّ المِزَاجِ شَدِيْدَ الإحْسَاسِ يَتَأَثَّرُ لأَقلِّ الأَشْيَاءِ الّتِي يَرَاهَا مُخَالِفَةً لِذَوْقِهِ فَلاَ تُراعِيْ زَوْجَتُهُ فِيْه هَذا فَمَثَلاً تَتْرُكُهُ وَهُوَ يُوَجّهُ إلَيْهَا الكَلاَمَ وَتَمْزَحُ وَالمَقَامُ يَقْتَضِيْ الجِدَّ وَتَضْحَكُ وَهُوَ غَضْبَانٌ وَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ .

فَتُقَابِلُهُ بِعِشْرِيْنَ كَلِمَةً فَقَلَّ أَنْ تَطُولَ المُدَّةُ قَبْلَ الانْفِجَارِ وَقَدْ يُجْبِرُهَا عَلَى مَا تَكْرَهُ لُبْسَهُ أَوْ يُسْكِنُهَا بِمَا لا يَصْلَحُ لِمِثْلِهَا فَمَا تَلْبَثُ الزَّوْجَةُ أَنْ تُحسَّ بِضِيْقِ الصَّدْرِ والانْقِبَاضِ ثُمَّ يَنْقَلِبُ الانْقِبَاضُ إلى تَبَرُّمٍ ثُمَّ يُؤَدِيْ إِلَى الشِّقَاقِ لأقلّ سَبَبٍ وربما أمرها والعياذ بالله بقص رأسها أو على أن تحضر عند كملاهي.

وَمِنْ الأَسْبَابِ التَّدَخُلُ فِيْمَا لا يَعْنِي إِمَّا مِنْهَا أَوْ مِنْهُ وأَكْثَرُ المَشَاكِلِ تَقَعُ مِنْ هَذَا السَّبَبِ ولِهَذا في الحَدِيثِ مِن حُسْنِ اسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيْه .

وَمِنَ الأَسْبَابِ مَيَلاَنُ أحَدِهِمَا إلى أَحَدِ الأوْلاَدِ وَتَخْصِيْصُهُ بالمالِ أوِ الحُنُوِ والشَّفَقَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

ومِنَ الأَسْبَابِ عَدَمُ رِضَا أَحَدِهِمَا بالآخَرِ رِضىً صَحِيْح وَقُبُوْلٍ وانْقِيَادٍ عِنْدَ عَقْدِ النِّكَاحِ بَلْ إكْرَاهٍ أَوْ مُجامَلَةٍ فَهَذا لَا يَلْبَثُ إلا زَمَنٌ يَسِيْرٌ ثُمَّ يَقَعُ الخِصَامُ والفِرَاقُ والدَّعَاوِيْ والمُطَالَبَاتُ .

ومِنَ الأَسْبَابِ تَدَخُّلُ أحَدِ الأَبَوَيْنِ بَيْنَ الزَّوْجِ والزَّوْجَةِ فَتَقَعُ المَشَاكِلُ

بَيْنَهُمَا وَيَطُولُ النِّزَاعَ وَقَدْ تَقَعُ الفُرْقَةُ مِنْ ذَلِكَ السَّببِ .

وَمِنَ الأَسْبَابِ خُرُوْجُ المَرْأَةِ مِن بَيْتِهَا مِن غَيْرِ إِذْن زَوْجِهَا وَقَدْ كثُرَ هَذَا فِي زَمَنِنَا بسَببِ مُخَالَطَةِ الأجَانِبِ أبْعَدَهُمُ اللهُ عَنَّا.

ومِنَ الأَسْبَابِ خُلُوُ الزَّوْجَةِ مَعَ أَقارِبِ الزَّوْجِ الَّذيْن لَيْسُوْا مَحارِمَ لَهَا وَلِهَذا قَالَ ﷺ الحَمُو المَوْتُ .

ومِنَ الأَسْبَابِ إِذَا كَانَ لَهُ زَوْجَتَانِ فَأَكْثرُ مَيْلُهُ إِلى إِحْدَى الزَّوْجَاتِ فَتَجِدُ بَعْضَ مَنْ عِنْدَهُ أَكْثَرُ مِنْ زَوْجَةٍ يَحْرِصُ على أن يَجْعَلَ مَوَاعِيْدَ الدَّعْوَةِ لِطَعَام أَوْ غَيْرِهِ في لَيْلَةِ الّتِي يكرَهُهَا أَوْ أقَلَّ مَحبَّةً مِنَ الأُخْرَى وَيَأْتي فِي لَيْلَةِ الْتي يُحِبُّهَا مِن حِيْنِ يُصَلّيي العِشَاءَ إن كَانَ مِمَّنْ يَشْهَدُوْن صَلاَةَ الجَماعَةِ ، وَبَعْضُهُمْ يأتِي رَاجِحَة المَحَبَّةِ في لَيْلَةِ المَرْجُوْحَةِ بِغَيْرِ رِضَاهَا والعِيَاذُ باللّهِ .

وَأَمَّا العَادِلُ فَيَنْظُرُ إلى السَّاعَةِ وَيَضَعُ قُرْعَةً لِلدَّعْوَةِ فَأَيَّتهُنَّ خَرَجَتْ فِي لَيْلَتِهَا عَمِلَ بذلِكَ ، هَذِهِ هِيَ مُعْظَمُ مَا يَحْصُلُ بِهِ المشاكِلُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فَيَنْبَغِي لِلإنْسَانِ أنْ يُلاحِظَهَا وَيَجْعلَهَا على بَالِهِ دَائِماً لِيَتَجنَّبَهَا وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ أكْمَلُ عَقْلاً مِنهَا فعَلَيْهِ أَنْ يَدْمَحَ الزَّالاتِ البَسِيْطَةِ لِتَدُوْم العِشْرَةُ وتَسُوْدَ المَحبَّةَ وَعلَيْهَا هِيَ أَيْضاً أنْ تَحْرِصَ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى طَاعَتِهِ في غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللّهِ تَعالَى واللّه أعلم وصلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّد وآلِهِ وسلّم .

شعراً :

أَلَا يَـا غَـوَانِي مَنْ أَرَادَتْ سَعَـادَةً
وتُـوْقَى عَذَابـاً بالنِّسَـا صَارَ مُحْـدِقَـا

فَــأَكْثَــرُ أَهْــلُ النّــارِ هُنَّ حَقِـيْقَــةً
رَوَيْنَـا حَدِيْثـاً فِيْـهِ صِـدْقـاً مُصَـدَّقـا
تُخَلِّي التَّبـاهِيْ تُبْـدلُ اللَّهْـوَ بـالبُكَـا
وتَبْـذُلُ كُلَّ الجَهْـدِ بالـزُّهْـدِ والتُّقَى
وتَعْتَـاضُ عَنْ لِيْنٍ بِـدُنْيـاً خُشُوْنَــةً
وعن يَابِسٍ في الدِّيْنِ أَخضَرَ مُوْرِقَا
رَعَى اللّهُ نِسْــوَنــاً تَبِيْتُ قَــوَانِتــاً
ويُصْبِحُ مِنْهَا القَلْبُ بالخَوْفِ مُحْـرِقَا
تَظَلُّ عنِ المَرْعَى الخَصِيْب صَوَائِماً
ويُمْسِيْ سَمِيْنُ البَطْنِ بالظَّهْرِ مُلْصَقَا
تَــرَى بَيْنَ عَيْنٍ والسُّهَـادِ تَــوَاصُـلاً
وَبَيْنَ الكَــرَى والعَيْنِ مِنْهَـا تَفَــرُّقَـا
وَبَـيْنَ مِـعَــاءٍ والغِــذَاءِ تَـقَــاطُـعــاً
وبَيْنَ خُلُوفِ المِسْـكِ والثَّغْـرِ مُلْتَقى
تَـرَى نَـاحِـلاتٍ قَـارِئـاتٍ مَصَـاحِفـاً
وَلُؤْلُؤُ بَحْـرِ الدُّرِّ في الْـوَرْدِ مُشْرِقَـا
فَـدَتْها مِن الآفـاتِ كُلُّ نُفُـوسٍ مَنْ
يُخَالِفُهَا فِي الـوَصْفِ غَرْبـاً وَمَشْرِقَـا
خَلِيْلَيَّ إنَّ المَـوْتَ لا شَـكَّ نَــازِلٌ
وبَـيْنَ الأَحِـبَّــا لا يَــزَالُ مُـفَــرِّقَــا
فَجُــدًّا لِـدَارٍ لا يَــزُوْل نَعِيْمُـهَــا
بِهَـا الحُسْنُ واللَّذاتُ والمُلْكُ والبَقا

وَلُقْيَا حِسَانٍ نَاعِمَاتٍ مُنَعَّمٌ
بِهِنَّ سَعِيدُ سَعْدَ ذَلِكَ مَنْ لَقَا
كَوَاعِبَ أَتْرَابٍ زَهَتْ فِي خِيَامِهَا
بِظِلٍّ نَعِيمٍ قَطُّ مَا مَسَّهَا شَقَا
كَدُرٍّ ويَاقُوْتٍ وبَيْضِ نَعَامَةٍ
كَسَاهَا الْبَهَا والنُّوْرُ والحُسْنُ رَوْنَقَا
تُغَنِّي بِمَا لَمْ تَسْمَعِ الخَلْقُ مِثْلَهُ
وَقَدْ حَبَّرَتْ صَوْتاً رَخِيماً مُشَوِّقَا
غِنَاهُنَّ نَحنُ الخَالِدَاتُ فَقَطُّ مَا
نَبِيْدُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلاَ شَقَا
ولا سَخَطُ والرَّاضِيَاتُ بِنَا الْمُنَى
فَطُوبِي لِمَنْ كُنَّا لَهُ مِن أُولِي التُّقَى

والله أعْلَم وصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّد وآلِهِ وسلّم .

فصل

« في ذِكْرِ بَعْضِ أَحْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ »
« والرّدّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ »

عِبَادَ اللّهِ قَدْ سَبَقَ ذِكْرُ المَوْتِ وأحْوَالِ المَيِّتِ في سَكَرَاتِهِ وفِتْنَةِ القَبْرِ وسُؤالِ مُنْكَرٍ ونَكِيْرٍ وعَذَابِ القَبْرِ ونَعِيمِهِ وَخطَر مَنْ كَانَ مَسْخُوْطاً عَلَيْهِ وأعْظَمُ مِن ذلِكَ الأَخْطَارُ الّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ نَفْخِ الصُّوْرِ والبَعْثِ والنُّشُوْرِ والعَرْضِ عَلَى الجَبَّارِ وَالسُّؤالِ عن الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْلِ ونَصْبِ المِيْزَانِ لِمَعْرِفَةِ المَقَادِيرِ .

ثُمَّ جَوازُ الصِّراطِ مَع دَقَّتِهِ وَحَدَّتِهِ ثُمَّ انْتِظَارُ النِّدَاءِ عِنْدَ فَصْلِ القَضَاءِ إِمَّا بالإِسْعَادِ وإِمَّا بالإِشْقاء فَهَذِهِ أحْوالٌ وأهْوَالٌ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ثُمَّ الإِيْمَانُ بِهَا عَلى سَبِيْلِ الجَزْمِ والتَّصْدِيْقِ ثُمَّ تَطْوِيلُ الفِكْرِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ الّذي مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ ألفَ سَنَةٍ .

كَمَا جَاءَ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ يَجْمَعُ اللّهُ فِيهِ الأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ في صَعِيْدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمْ الدَّاعِيْ وَيَنْفُذُهُمْ البَصَرُ لا يَغِيْبُ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَتَدْنُو مِنْهُم الشَّمْسُ ويُلْجِمُهُمُ العَرَقُ هَذَا اليَوْمُ هُوَ اليَوْمُ الّذي تَذْهَلُ فِيهِ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَنْ مَا أرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ولَكِنَّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيد » .

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ يَبْلُغُ الأَمْرُ مِن الحَيْرَةِ والدَّهْشَةِ والاضْطِرَابِ والذُّهُولُ أنْ تَذْهَلَ المُرْضِعَةُ عن وَلَدِهَا الّذي فَمُهُ في ثَدْيِهَا وَهُوَ أعزُّ شَيْءٍ لَدَيْهَا فَكَيْفَ بالذُّهُولِ عَمَّا سِوَاهُ وتَسْقِطُ الحَوَامِلُ مِنَ الفَزَعِ وَالرُّعْبِ والرَّوْعِ مَا فِي بُطُونِهَا مِن الأَجِنَّةِ قَبْلَ التّمَامِ وتَرى النّاسَ كَأَنَّهُمْ سُكَارَى مِن شِدّةِ الرَّوْعِ والفَزَعِ والخَوْفِ الّذِي صَيَّرَ مَنْ رَآهُمْ يُشَبِّهُهُمْ بالسُّكَارَى لِذَهَابِ عُقُولِهِمْ مِن شِدَّةِ الخَوْفِ كَمَا يَذْهَبُ عَقْلُ السَّكْرانِ مِن الشَّرَابِ « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ تَكُونُ الأَرْضُ كالسَّفِيْنَةِ في البَحْرِ عِنْدَ اضْطِـراب الأَمْوَاجِ تكفأُ بأَهْلِهَا .

فَيَمِيْدُ النّاسُ عَلى ظَهْرِهَا وَيَتَسَاقَطُونَ مِنْ شِدَّةِ الأَمْرِ وبُلُوغِهِ أقْصَى الغَايَاتِ وَلِهَذا أذْهَلَ العُقُولَ وأذْهَبَ التّمْييز والفِكْرَ والصَّحْوَ إِنَّهُ يَوْمُ القِيَامَةِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وأخْرَجَتِ الأرْضُ أَثْقَالَها﴾ .

إِنَّهَا لَهَزَّةٌ عَنِيْفَةٌ لِلْقُلُوبِ الغَافِلَةِ حَيْثُ تَرْجُفُ الأَرْضَ الثَّابِتَةُ ارْتِجَافاً وتَزَلْزَلُ زِلْزَالاً وَتَنْفُضُ ما فِي جَوْفِهَا نَفْضاً وَتُخْرِجُ مَا يُثَقِّلُهَا مِن أَجْسَادٍ وَنُقُوْدٍ وَغَيْرِهَا مِمَّا حَمَلَتْهُ طَوِيْلاً وَهُوَ مَشْهَدٌ يَهُزُّ كُلَّ شَيْءٍ ثَابِتٍ والأَرْضُ تَهْتَزُّ والسَّمَاءُ تَمُوْرُ .

إِنّهُ لَمَشْهَدٌ مُجَرَّدُ تَصَوُّرِهِ ، يَخْلَعُ القُلُوْبَ يَرَى الإِنْسَانُ مَا لاَ يَعْهَدُ وَيُوَاجِهُ مَا لاَ يُدْرِكُ وَيَشْهَدُ مَا لاَ يَمْلِكُ الصَّبْرَ أَمَامَهُ وَلاَ السُّكُوتَ عَنْهُ ﴿وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ ما الّذِي يُزَلْزِلُهَا هَكَذا وَيَرُجُّهَا رَجّاً .

وكَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ مَا نَزَلَ يَتَمايَلُ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ وَيَتَشَبَّثُ وَيُحَاوِلُ أَنْ يُمْسِكَ بِشَيْءٍ لَعَلّهُ يَثْبُتُ لأَنَّ كُلَّ مَا حَوْلَهُ يَمُوْرُ مَوْراً شَدِيْداً قَدْ إمْتلأَ مِنَ الرُّعْبِ والفَزَعِ وَالدَّهْشَةِ والعَجَبِ .

يَرَى الجِبَالَ وَهِيَ تَسِيْرُ وإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ ، هَذِهِ الجِبَالُ وَقَدْ نُسِفَتْ وبُسَّتْ وَرَاءَهَا ذَرَّاتٍ فِي الهَوَاءِ ﴿وَبُسَّتِ الجبالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عنْ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبّي نَسْفا ، وسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » .

هَذِهِ تُصَرِّحُ وَتُشِيْرُ إلى حَدَثٍ عَظِيم تَتَزَلْزَلُ مِنْهُ الجِبَالُ وَتَذْهَبُ هَبَاءً يَتَلاَشى ثَبَاتُهَا وَرُسُوخُها واسْتِقْرَارُهَا وَتَمَاسُكُهَا والإِنْسَانُ يَنْظُرُ وَلاَ يَكَادُ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ ﴿إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كاظِمِيْن﴾ .

هُنَا يُشَاهِدُ وَيُواجِهُ الحَشْرَ والحِسَابَ والوَزْنَ والجَزَاءَ وَيقِفُ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السّلاَمُ والملاَئِكَةُ صَفّاً بَيْنَ يَدَيْ الرَّحْمَنِ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوْحُ والملاَئِكَةُ صَفّاً لا يَتكَلَّمُونَ إلاّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرحمن وقال صواباً﴾ « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوْعٌ لَهُ

النّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ يَوْمَ يأتِ لا تَكَلَّمُ نَفسٌ إلاّ بإذْنِهِ » ﴿وَجاءَ رَبُّكَ والملكُ صَفّاً صَفّاً﴾ .

وَمَوْقِفُ هَؤُلاءِ المُقَرَّبِيْنَ صَامِتِيْنَ خَاشِعِيْنَ خاضِعيْنَ لِعَظَمَةِ اللّهِ ﴿وَخشَعَتِ الأصْوَاتِ للرّحمَنِ فلاَ تَسْمَعُ إلاّ هَمْسَا﴾ وَعَنَتِ الوُجُوْهُ لِلْحَي القَيُّوْمُ وَقَدْ خابَ مَن حَمَلَ ظُلْمَا » .

مَوْقِفُهُمْ هَكَذا صَامِتِيْنَ لاَ يَتَكَلَّمُوْنَ إلاّ بإذْنٍ مِن الرّحْمَنِ يُلْقِي فِي النَّفْسِ الرَّهْبَةَ والرُّعْبَ والفَزَعَ مِن ذَلِكَ اليَوْمِ العَظِيْمِ الّذي يَنْكَشِفُ فِيْهِ كُلُّ مَسْتُوْرٍ وَيُعْلِمُ فِيْهِ كُلُّ مَجْهُوْلٍ .

وَتَقِفُ فِيْهِ النَّفْسُ أمامَ مَا أَحْضَرَتْ مِن الرَّصِيْدِ والزَّادِ فِي مَوْقِفِ الفَصْلِ والحِسَابِ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوْ كُلُّ نَفْسٍ مَا أسْلَفَتْ﴾ « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ مُحْضَرَا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوْءٍ تودُّ لَو أنَّ بيْنَهَا وَبَيْنَهُ أمداً بَعِيْداً » يَوْمَ يَنْظُرُ المرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِيْهِمُ اللّهُ دِيْنَهُمُ الحَقُّ﴾.

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ يَكُونُ التَّغيُّرُ العَظِيْمُ الشَّامِلُ لِلْمَعْهُوْدَاتِ السّمواتِ والأَرْضِ الشَّمْسُ مُكَوَّرَةٌ وَالنُّجُوْمُ مُنْكَدِرَةٌ والسَّمَاءُ مُنْشَقَّةٌ والوُحُوشُ النَّافِرَةُ مَحْشُوْرَةٌ والأَنْعَامُ والطُّيُورُ والعِشَارُ مُعَطَّلَةٌ ﴿فإذَا بَرِقَ البَصَرُ وَخَسَفَ القَمَر وجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ يَقُولُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أيْنَ المَفَر﴾ ﴿إذا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وإِذَا الكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وإذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَشَقّقُ السَّماءُ بِالغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلاَئِكَةُ تَنْزِيلا﴾ ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدِّهَانِ﴾.

هَذِهِ الآيَاتُ وأَمْثَالُهَا تُشِيْرُ إِلَى ذَلِكَ الحَادِثِ الهَائِلِ فِي الكَوْنِ كُلِّهِ وَلاَ يَعْلَمُ حَقِيْقَتَهُ إلاّ اللّهُ إنّهُ حَادِثٌ عَظِيْمٌ تَرْجُفُ الأَرْضُ مِنْهُ وَتَخَافُ وَتَنْهَارُ فَكَيْفَ

بالخَلْقِ الضِّعَافِ المَهَازِيْلِ الّذِينَ تَهُزُّهُمْ الصَّواعِقُ هَزّاً وتَخْلَعُ قُلُوبَهُمْ خَلْعا ﴿فَكَيْفَ تَتَقُوْنَ إنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلِ الوِلْدَانَ شِيْبَا السّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ والجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيْباً مَهِيْلاَ﴾ .

وفي وَسَطِ هَذَا الرُّعْبِ والخَوْفِ والقَلَقِ والفَزَعِ والذُّهُوْلِ والانْقِلابِ يتساءلُ الإِنْسَانُ المَذْعُوْرُ المَرْعُوْبُ أَيْنَ المَفَرُّ وَيَبْدُوْ ذلِكَ في سُؤَالِهِ وَكَأَنَّمَا يَنْظُرُ في كُلِّ اتّجَاهٍ فَإِذَا هُوَ مَسْدُوْدٌ دُوْنَهُ مأخُوْذٌ عَلَيْهِ وَلاَ مَلْجَأ وَلاَ مَحِيْصَ ولا مَنْفَذَ وَلاَ وِقَايَةَ مِنْ قَهْرِ اللّهِ وأخذِهِ،والرَّجْعَةُ إِلَيْهِ والمَصِيْرُ والمستقرُّ عِنْدَهُ ﴿كَلَّا لَا وَزرَ إلى رَبّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرْ﴾ ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنْفُذُوا مِن أقطارِ السّمواتِ والأرضِ فانفذوا﴾ .

فَفِيْ هَذَا المَوْقِفِ الرَّهِيْبِ يَتَبَيَّنُ عَجْزُ الخَلاَئِقِ وضَعْفُهُمْ وَكَمَالُ سُلْطَانِ اللّهِ وقُدْرَتِهِ ونُفُوذِ مَشِيئَتِهِ ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُوْنَ لآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ﴾ إنّكُمْ في قَبْضَةِ اللّهِ﴿مَا مِن دابّةٍ إلاّ هُوَ آخذٌ بِناصِيَتِها﴾ إنّهُ لَيَوْمٌ عَصِيْبٌ وَمَوْقِفٌ رَهِيْبٌ «إِنْ كُلُّ مَن فِي السّمواتِ والأرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً لقَدْ أحْصَاهُم وعَدَّهُم عَدّا وكُلُّهُم آتِيهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَرْدا » .

فَلاَ مَجَالَ لِهَرَبِ أَحَدٍ وَلا نِسْيَانَ لأَحَدٍ فَعَيْنُ اللّهِ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ وَكُلّ فَرْدٍ يَقُوْمُ وَحِيْداً لاَ يَأْنَسُ بأحَدٍ فإذا هُوَ فَرِيْدٌ وَحِيْدٌ أمَامَ الدَّيّانِ ﴿يَوْمَ تأتِي كُلُّ نَفسٍ تُجَادِلُ عنْ نَفْسِها﴾ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخِيْهِ وأمِّهِ وأبِيْهِ وصَاحِبَتِهِ وبَنِيْهِ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يغنيه﴾ .

مَشْهَدُ المَرْءِ يَفِرُّ وَيَنْسلِخُ وَيَهْرَبُ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ وَأَلْصَقِهِمْ بِهِ أُولَئِكَ الّذِينَ تَرْبُطُهُمْ بِهِ وَشَائِجُ وَرَوَابِطُ لا تَنْفَصِمُ وَلَكِنْ الصَّاخةُ وَالطَّامَةُ تُمَزِّقُ

هَذِهِ الرَّوَابِطِ وتُقَطِّعُ الوَشَائِجَ والصّلاتِ ﴿فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ﴾ .

فَالْهَوْلُ يُفْزِعُ النَّفْسَ ويُقْلِقُهَا وَيَفْصِلُهَا مِنْ مُحِيطِهَا وَيَسْتَبِدُّ بِهَا اسْتِبْدَاداً فَلِكُلٍّ نَفْسُهُ وَشَأْنُهُ وَلَدَيْهِ الكِفَايَةُ مِنَ الهَمِّ الخَّاصِ بِهِ الّذِي لا يَدَعُ لَهُ فَضْلَةً مِنْ وَعْيٍ أَوْ جُهْدٍ ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ شَأْنٌ يُغْنِيْهْ﴾ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِيْنَ) .

فَهَا هِيَ ذِي السَّاعَةِ الّتِي يَغْفُلُ عَنْهَا الغَافِلُونَ وَيَلْهُوْا عَنْهَا اللاَّهُوْنَ وَيَسْتَعْجِلُ بِهَا المُسْتَعْجِلُون ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالّذِيْنَ آمَنُوا مُشْفِقُوْنَ مِنْهَا وَيَعْلَمُوْنَ أَنّهَا الحَقُّ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعةُ يَلْبِسُ المُجْرِمُوْنَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كافِرِيْنَ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يَوْمئِذٍ يَتفَرَّقُونَ فَأَمَّا الّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُوْنَ وَأَمَّا الّذِينَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ في العَذَابِ مُحْضَرُوْنَ﴾ .

وَهؤُلاءِ المُجْرِمُونَ حَائِرِيْنَ يَائِسِينَ لا أَمَلَ فِي النَّجَاةِ وَلا رَجَاءَ وَلا خَلاصَ بَلْ قَدْ أَيْقَنُوْا في العَطَبِ ﴿وَرَأَى المُجْرِمُوْنَ النَّارَ فَظَنُّوْا أَنَّهُمْ مُواقِعُوْهَا وَلَمْ يَجِدُوْا عَنْهَا مَصْرِفَا﴾ ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ المُجْرِمُوْنَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وسَمِعْنَا فَأرجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنّا مُوْقِنُون﴾ .

هُنَا يَعْتَرِفُوْنَ بِالخَطِيْئَةِ وَيُقِرُّوْنَ بِالحَقِّ الّذِي جَحَدُوْهُ بِالدُّنْيَا وَيُعْلِنُوْنَ اليَقِيْنَ بِمَا شَكُوْا فِيْهِ وَيَطْلُبُوْنَ العَوْدَةَ إلى الدُّنْيَا لإِصْلاحِ مَا فَاتَ فِي الدُّنيا وَمَنْظَرُهُمْ إِذْ ذَاكَ مُفْزِعٌ مُخِيْفٌ وَهُمْ نَاكِسُوا الرُّؤُوسِ خَجلاً وخِزْياً .

فَالأَمرُ أَمْرٌ فَظِيْعٌ وَالحَالُ مُزْعِجَةٌ أَقْواماً حَاسِرِيْنَ مَكْرُوْبِيْنَ وَسُؤَالٌ غَيْرُ

مُجاب لِفَواتِ وَقْتِ الإمْهَالِ ﴿وَقَالُوْا آمَنَّا بِهِ وأَنَّى لَهُمْ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيْدٍ﴾ .

فَيَا عِبَادَ اللّهِ انْتَبِهُوْا مِنْ رَقْدَتِكُمْ واسْتَدْرِكُوْا بَقِيَّةَ أَعْمَارِكُمْ وَاحْذَرُوْا الإنْهِمَاكَ فِي دَارِ الغُرُوْرِ فَالوَيْلُ كُلَّ الوَيْلِ لَكُمْ إِنْ أَدْرَكَكُمْ المَوْتُ وَأَنْتُمْ عَلَى هَذِهِ الحَالَة ، زَيَّنْتُمُ الفُلَلَ وَالقُصُوْرُ وَنَسِيْتُمُ القُبُوْرَ ، اذْكُرُوْا القَبْرَ وَظُلْمَتَهُ وَوَحْشَتَهُ وَالمَوْتَ وَسَكْرَتَهُ وَالمِيْزَانَ وخِفَّتَهُ أَوْ رَجْحَتَهُ والكِتَابَ وأَخْذَتَهُ وَالصِّرَاطَ وَدِقَّتَهُ ، وَالمَوْتَ ، سَكْرَةٌ فِي سَكْرَةٍ وَحَيْرَةٌ فِي حَيْرَةٍ وَجَذْبَةٌ يَا لَهَا مِنْ جَذْبَةٍ وَكُرْبَةٌ يَا لَهَا مِنْ كُرْبَةٍ فَالمِسْكِيْنُ يُكابِدُ غُصَصَ المَنُوْنِ دَاهِشَ العَقْلِ كَالمَحْزُوْنِ .

فاللّهَ اللّهَ عِبَادَ اللّهِ أَفِيْقُوْا مِنْ سَكَرَاتِكُمْ وانْتَبِهُوْا مِنْ نَوْمَاتِكُمْ واسْتَيْقِظُوا مِنْ غَفَلاتِكُمْ قَبْلَ مُفَاجَأَةِ المَنِيَّةِ وحُلُولِ الرَّزِيَّةِ وَوُقُوعِ البَلِيَّةِ حَيْثُ لا مَالَ وَلا وَلَدَ نَافِعٌ وَلاَ حَمِيْمَ شَافِعٌ وَلاَ فَرحَ وَاقِعٌ وَلاَ رَجاءَ طَامِعٌ وَلاَ حَسَنَةً تُزَادُ وَلا سَيِّئَةً تُحْذَفُ ولاَ حَيَاةَ تُعادُ وَيُزَوِّدُكَ أَحْبَابُكَ بالحَزَنِ عَلَيْكَ وَالبُكَاءِ فَلا عَثْرَةً تُقَالُ وَلاَ رَجْعَةَ تُنَالُ .

شعرا :

أَلاَ إِنَّ أَيَّـامَ الـحَـيَـاةِ مَـرَاحِـلُ
طَرِيْقُ الفَتَى مِنْهَا إِلَى المَوْتِ سَاحِلُ
يُسَـرُّ بِمَـا يَمْضِيْ لِمَـا هُـوَ آمِـلٌ
وَيَأْتِي الرَّدَى مِنْ دُوْنِ مَا هُوَ آمِـلُ
وَمَـا يَـوْمُـهُ إِلَّا غَـرِيْمٌ مُـحَـكَّمٌ
إِذَا مَـا اقْتَضَـاهُ نَفْسَـهُ لاَ يُمَـاطِـلُ

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي السَّلاَمَةَ جَاهِداً
وَمَرُّ اللَّيَالِي كُلُّهُنَّ غَوَائِلُ
وَنَحْنُ بَنُو الأَيَّامِ نَظْلِمْ نُفُوْسَنَا
وَنَرْجِعُ وَهْيَ القَاتِلاَتُ الثَّوَاكِلُ

اللَّهُمَّ أَقِمْ عَلَمَ الجِهَادِ وَوَفِّقْنَا لِسُلوكِ طَرِيقَ الحِقِّ وَالرَّشَادِ ، وَأَقْمَعْ أهْلَ الكُفْرِ وَالزَّيْغِ والشَّرِّ وَالفَسَادْ ، وانْصُرْ دِيْنَكَ وَانصُرْ مَنْ نَصَرَهُ مِنَ العِبَادِ ، وَثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ فِي قُلُوْبِنَا وَقَوِّهَا ، يَا كَرِيْمُ يَا جَوَاد ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فصــل)

وَتَفَكَّرْ فِي حَالَتِهِمْ فِي المَحْشَرِ تَجِدْ مَشْهَدَ مَكْرُوْبٍ ذَلِيْلٍ يُثِيْرُ الفَزَعَ وَالخَوْفَ « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِيْن » .

هَذِهِ أَبْصَارُهُمْ لاَ تَطْرُفُ مِنَ الهَوْلِ الَّذِي فُوْجِئُوْا بِهِ يَقُوْلُون يَاوَيْلَنَا وَهُوَ تَفَجُّعٌ وَتَوَجُّعُ المَفْجُوْءِ الَّذِي تَنْكَشِفُ لَهُ الحَقِيْقَةُ المُرَوِّعَةُ بَغْتَةً فَيَذْهَلُ وَيَشْخَصُ بَصَرُهُ فَلاَ يَطْرُفُ وَيَدْعُوْ بِالوَيْلِ وَالهَلاَكِ وَيَعْتَرِفُ وَيَنْدَمُ وَلَكِنْ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ .

إِنَّهَا مَشَاهِدُ يَوْمِ القِيَامَةِ وَمَا يَجْرِيْ فِيْهِ مِن تَغَيُّرَاتٍ كَوْنِيَّةٍ وَمِنْ اضْطِرَابَاتٍ نَفْسِيَّةٍ ومِنْ حَيْرَةٍ وَتَحَسُّرٍ فِي مُوَاجَهَةِ الأَحْدَاثِ الغَالِبَةِ حَيْثُ يَتَجَلَّى

الهَوْلُ فِي صَمِيْمِ الكَوْنِ وفِي اغْتِرَارِ النَّفْسِ وَهِيَ تَرُوْغُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ .

« فَذَرْهُمْ يَخُوْضُوْا وَيَلْعَبُوْا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الّذِي يُوْعَدُوْنَ يَوْمَ يَخْرُجُوْنَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوْفِضُوْنَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ اليَوْمُ الّذِي كَانُوا يُوْعَدُوْن » .

وَكَذَلِكَ خُرُوْجُهُمْ مِنَ القُبُوْرِ يُنْبِىءُ أَنَّهُمْ فِي كَرْبٍ وَشِدَّةٍ وَأَنَّهُمْ أذِلاَّءُ غَيْرُ مُتَمَكِّنِيْنَ مِنَ الاسْتِعْصَاءِ عَلَى الدَّاعِي إِذْ هُمْ يُهَرْوِلُوْنَ مَقْهُوْرِيْنَ مَعَ خُشُوْعِ أَبْصَارِهِمْ وَذِلَّتِهَا لِهَوْلِ مَا تَحَقَّقُوا مِنَ العَذَابِ .

قَدْ مَلَكَ القَلَقُ وَالخَوْفُ قُلُوْبَهُمْ واسْتَوْلَى عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ وَسَكَّنَ حَرَكَاتِهِمْ وَقَطَعَ أَصْوَاتَهُمْ تَعْلُو وُجُوْهَهُمُ القَتَرَةُ لِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الكَآبَةِ وَالحُزْنِ وَالهَمِّ العَظِيْمِ الّذِي لاَ يُرْجَى لَهُ فَرَجٌ « تَرَى الظّالِمِيْنَ مُشْفِقِيْنَ مِمَّا كَسَبُوْا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِم » « وَتَرَى الظّالِمِيْنَ لَمَّا رَأَوا العَذَابَ يَقُوْلُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍ مِن سَبِيْلٍ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خَاشِعِيْنَ مِن الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِي » .

إِنَّ هَؤُلاءِ الظّالِمِيْنَ الطُّغَاةِ كَانُوْا فِي الدُّنْيا مُتَكَبِّرِيْنَ فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ الذُّلُّ وَالصِّغَارُ هُوَ مَظْهَرُهُمْ البَارِزُ فِي يَوْمِ القِيَامَةَ يَوْمَ الجَزَاءِ عَلَى الأَعْمَالِ فَعِنْدَ مَا يُشَاهِدُوْنَ الحَقَائِقَ وَيَرَوْنَ العَذَابَ تَتَهَاوَى كِبْرِيَاؤُهُمْ وَعَظَمَتُهُمْ وَيَتَساءَلُوْنَ فِي ذُلٍّ وانْكِسَارٍ وَخَوْفٍ « هَلْ إِلَى مَرَدٍ مِنْ سَبِيل » .

فِي هَذِهِ العِبَارَةِ الّتِي يُفْهَمُ مِنْهَا اليَأْسُ مَعَ التَّلَهُّفِ وَالإِنْهِيَارِ مَعَ التَّطَلُّعِ إلى أَيِّ بَارِقَةٍ لِلْخَلاصِ وَيُعْرَضُوْنَ عَلَى النّارِ خَاشِعِيْنَ لاَ مِنْ وَرَعٍ وَلاَ تَقْوَى وَلاَ مِنْ حَيَاءٍ وَخَجَلٍ وَلَكِنْ مِنَ الذُّلِّ وَالهَوَانِ مُنَكِّسِيْ أَعْيُنِهِمْ مِنَ الذُّلِّ والعَارِ يَنْظُرُوْنَ مِن طَرْفٍ خَفِي .

إِنَّهُ لَمنْظَرٌ وَمَرْأَ فَظِيْعاً صَعْبَاً شَنِيْعاً مُجَرَّدُ تَصَوُّرُه يُزْعِجُ وَيُقْلِقُ حَيْثُ يَظْهَرُ مِنْهُ النَّدَمُ العَظِيْمُ والحُزْنُ الطَّوِيْلُ والأسَفُ الشَّدِيْدُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِن الإِهْمَالِ والتَّفْرِيْطِ والتَّضْيِيْعِ الّذِي لَا يُمْكِنُ تَلافِيْهِ .

فَيَا أَيُّهَا الغَافِلُ السَّاهِيْ المُهْمِلُ وَكُلُّنَا كَذَلِكَ انْتَبِهْ وَمَثِّلْ نَفْسَكَ فِي هَذَا اليَوْمِ العَظِيْمِ الجَامِعِ للأَوَّلِيْن وَالآخِرِيْنَ فَيَا لِعِظَمِ يَوْمٍ يُوَجَّهُ السُّؤَالُ فِيْهِ لِمَنْ قَالَ اللّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي حَقِّهِمْ ﴿وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِيْن﴾ ﴿وإِذَا قَالَ اللّهُ يَا عِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُوْنِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُوْنِ اللّهِ﴾ ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الّذِيْنَ أُرْسِلَ إِلَيْهِم ولَنَسْأَلَنَّ المُرْسَلِيْنَ﴾ .

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ العَصِيْبِ يُنَادَوْنَ الخَلَائِقَ وَاحِداً وَاحِدَا يَا فُلانُ هَلُمَّ إِلى العَرْضِ وَعِنْدَ ذَلِكَ تَنْخَلِعُ القُلُوْبُ وَتَرْتَعِدُ الفَرائِصُ وتَضْطَرِبُ الجَوَارِحُ وَتَنْبَهِتُ العُقُوْلُ وتَتَحَيَّرُ ويَيْبَسُ اللِّسَانُ وَتَشْخَصُ الأَبْصَارُ .

فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُؤْخَذُ بِنَاصِيَتِهِ وَيُقَادُ وَفُؤَادُهُ مُضْطَّرِبٌ وَلُبُّهُ طَائِرٌ وَفَرائِصُهُ تَرْتَعِدْ وَجَوَارِحُهُ تَنْتَفِضْ وَلَوْنُهُ مُتَغَيِّرٌ وَلِسَانُهُ وَشَفَتَاهُ قَدْ نَشَفَ مَا بِهِمَا مِنْ رُطُوْبَةٍ وَقَدْ عَضَّ عَلَى يَدَيْهِ وَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ وَلَمْ يَنَمْ وَلَمْ يَسْتَرِح وَلَمْ يَجْلِسْ وَلَمْ يَرْكَبْ .

والعَالَمُ والجَوُّ عَلَيْه مُظْلِمٌ وضَاقَتْ عَلَيه الأَرْضُ وَصَارَتْ الدُنيا عِنْدَهُ أَضْيَقَ مِنْ سَمِّ الخِيَاطِ مَمْلُوءً مِن الرُّعْبِ والخَجَلِ مِنْ عَلَّامِ الغُيُوبِ والأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ وَأَهْلِ السَّموَاتِ وأَتَى يتخطى رِقَابَ النّاسِ وَيَخْتَرِقِ الصُّفُوفَ يُقَادُ كَمَا يُقَادُ الفَرَسُ المَجْنُوْبُ وَقَدْ رَفَعَ الخَلَائِقُ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ حَتَّى انْتَهي بِهِ إِلى عَرْشِ الرّحمن فَرَمُوْهُ مِن أَيْدِيْهِم .

ونَادَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَدَنَى بقَلْبٍ مَحْزُوْنٍ خَائِفٍ وَجِلٍ وطَرْفٍ خَاشِعٍ ذَلِيْلٍ وَفُؤَادُهُ مُتَحطِّمٌ مُتَكَسِّرٌ وأُعْطِي كِتَابَهُ الذِي لا يُغَادِرُ صَغِيْرَةً ولاَ كَبِيْرَةً إلا أَحْصَاهَا .

فَكَم مِن فَاحِشَةٍ نَسِيَهَا فَتذَكَّرَهَا وَكَمْ مِنْ سَاعَةً قَتَلَهَا عند مُنْكَرٍ وكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ أضَاعَهَا عِنْدَ مَلْهَى وَكَمْ مِنْ فُلُوسٍ أَنْفَقَهَا فِي المَعَاصِيْ وكَمْ مِنْ صَلاَةٍ ضَيَّعَهَا وَكَمْ مِنْ زَكَاةٍ تَهَاوَنَ بِهَا وَكَمْ مِنْ صِيَامٍ فِي الكَذِبِ والغَيْبَةِ خَرَّقَهُ وَكَمْ مِنْ أَعْرَاضٍ انْتَهَكَهَا وجلود مزقها وَكَمْ مِن جِيْرَانٍ تأذَوْا بِمُجَاوَرَتِهِ وكَمْ مِن بَرِيءٍ قَذَفَهُ بالزِّنَا واللِّوَاطِ وكَمْ مِن مُحْصَنَةٍ قَذَفَهَا واتَّهَمَهَا وكَمْ مِن مُحْصَنَةٍ حَاوَلَهَا لِلْفَسَادِ وَكَمْ مِنْ مُخَالِطٍ لَهُ أَوْقَعَهُ في المَعَاصِيْ وكَمْ مِن أَرْحَامٍ قَطَعَهُمْ وكَمْ مِن مُسْلمٍ غَشَّهُ وكَمْ مِن سَاعَةٍ قَتَلَهَا فِيْمَا يُغْضِبُ اللهَ حَوْلَ المُنْكَرَاتِ وكَمْ مِنْ زَكَاةٍ تَنَاسَاهَا وَكَمْ مِن صَلاةٍ أَضَاعَهَا وأَفْسَدَها .

وَكَمْ مِن حُقُوقٍ لِلْخَلْقِ اللهِ نَسْيَهَا أَوْ تَنَاسَهَا وكَمْ مِن أَسْرَارٍ تَسَمَّعَهَا لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي ذَلِكَ وَكَمْ مِن مُحَرَّمٍ نَظَرَ إليْهِ وَمُسْلِمٍ جَسَّ عَلَيْهِ وَأَوْقَعَهُ فَأَفْزَعَهُ وأَزْعَجَ أوْلادَهُ وأَحِبَّاءَهُ وَأَثَّرَ بِهِ الفَزَعُ والهَمُّ إلى أَنْ أَبَادَهُ وَكَمْ مِن رِحْلَةٍ إِلى بِلاَدِ الكُفْرِ أَقَامَهَا وأَنْفَقَ فِيها الأَمْوَالَ في المَعَاصِيْ .

وَكَمْ مِن أَعْدَاءٍ لِلهِ جَالَسَهُمْ وَمَازَحَهُمْ وشَارَكَهُمْ وَوَلاَهُمْ وَدَاهَنَهُمْ وَكَمْ مِنْ أَوْلِيَآءٍ لِلهِ عَادَاهُمْ وَانْتَهَكَ أَعْرَاضَهُمْ وَكَمْ مِن كُفَّارٍ والاهُمْ وَصَادَقَهُمْ وَمَدَحَهُمْ وَكَمْ مِنْ عَمَلٍ بالرِّيَاءِ أَفْسَدَهُ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِن اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُون وبَدَا لَهُمْ سيئَآتُ ما عَمِلُوا وحَاقَ بِهِم ما كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ .

فَلَيْتَ شِعْرِي بأَيِّ قَدَم يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَبِأَيِّ لِسَانٍ يُجِيْبُ وبأَيِّ قَلْبٍ

يَعْقِلُ ما يَقُولُ وبأيِّ يَدٍ يَتَناوَلُ وبأَيِّ عَيْنٍ يَنْظُرُ وبَدِيْعُ السمواتِ والأَرض أمَامَهُ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدَا وَكُلُّهُمْ آتِيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْدَا﴾ .

إذا فَهِمْتَ مَا سَبَقَ مِن أَحْوَالِ يوم القِيَامَةِ وأَدِلَّتِهِ فَاعْلَمْ أَنَّ أكْثَرَ خَلْقِ اللهِ لَمْ يَدْخُلِ الايمانُ باليَوْمِ الآخِرِ في قُلُوبِهِم وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِن سُوَيْدَاءِ أَفْئِدَتِهِمْ .

ويَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ اسْتِعْدَادُهُم لِبَرْدِ الشِتَاءِ وحَرِ الصَّيْفِ وتَهَاوُنُهُمْ بِجَهَنَّمَ وَزَمْهَرِيْرِهَا وَزَقُّومِهَا وَحَمِيْمِهَا وَوَيْلِهَا وغَسَّاقِهَا معَ مَا يَتْبَعُ ذلكَ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالأَهْوَالِ والكُرُوْبِ والْقَلاَقِلِ والمُزْعِجاتِ .

ولَو كانُوا مُصَدِّقِيْنَ مَا كَانُوا بِهَذِهِ الحَالِ ، اللِّسَانُ يُصَدِّقُ والعَمَلُ يُكَذِّبُ إِذَا سُئِلُوا عَنِ اليَوْمِ الآخِرِ نَطَقَتْ أَلْسِنَتُهُمْ وغَفَلَتْ عَنْه قُلُوبُهم .

ومَنْ قُدِّمَ لَهُ طَعَامٌ وأُخْبِرَ أَنَّهُ مَسْمُوْمٌ فَقَالَ لِلَّذِي أَخْبَرَهُ صَدَقت فيهِ سُمٌ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ يَتَنَاوَلُهُ لِيَأْكُلَ كَانَ مُصَدِّقاً بِلِسَانِهِ ومُكَذِّباً بِفِعْلِهِ وتَكْذِيْبُ العَمَلِ أَبْلَغُ مِن تَكْذِيبِ اللِّسَانِ قَالَ بَعْضُهم :

وَمُنْتَظِرٍ لِلْمَوتِ في كُلِّ لَحْظَةٍ
يَشِيْدُ وَيَبْنِي دَائِماً وَيُحَصِّنُ
لَهُ حِيْنَ تَبْلُوْهُ حَقِيقَةُ مُوْقِنٌ
وأعْمَالُهُ أَعْمَالُ مَن لَيْسَ يُوْقِنُ
عِيَانٌ كَانْكَارٍ وَكَالجَهْلِ عِلْمُهُ
بِمَذْهَبِهِ فِي كُلِّ مَا يُتَيَقَّنُ

اللهم إِنا نَعُوذُ بكَ مِن القَسْوَةِ والعَيْلَةِ والذِّلَّةِ والمَسْكَنَةِ ونَعُوذ بك مِن

الكُفْرِ والفُسُوقِ والعِصْيَانِ والشّقَاقِ والسُمْعَةِ والرِّيَاءِ ونَسْأَلُكَ رِضَاكَ والجَنَّةَ اللهم وَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بما يُرْضِيْكَ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« موعظة »

عِبَادَ اللهِ إِنَّ مِن عِبَادِ اللهِ مَنْ إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِ بِمَالٍ كَثِيْرٍ كَانَتِ الحَالُ عِنْدَهُ فَوْضَى فلا تَضَعُ زَوْجَتُهُ ولاَ بَنَاتُهُ أيْدِيَهُمْ في دَقِيْقٍ ولا جَلِيْلٍ مِن أعْمَالِ البَيْتِ فَيَجِيءُ لَهُنَّ بِخَدَّامِيْنَ وَسَوَّاقِيْنَ وَطَبَّاخِيْنَ الوَاحِدُ مِنْهُمْ في طُوْلِ النَّخْلَةِ في مُنْتَهَى العَافِيَةِ ولا يَبْعُدُ أنْ يَكُونَ مِنَ الشَّبَابِ الذِيْنَ يُعْجِبُوْنَ النِسَآءَ جَمَالاً وَرُبَّمَا خَلَوْ في النِّسَآءِ وَصَاحِبُ البَيْتِ مِنْ زَوْجٍ أَوْغيرهِ لاَهٍ في أُمُوْرِ دُنْيَاهُ أَوْ فِي عَمَلِهِ لا يُفَكِّرُ فِيْمَا تُفَكِّرُ فِيْهِ النِسَآءُ ولا فِيْمَا يُفَكِّرُ فِيْهِ الخَادِمُ أو السَّائِقُ وكأنَّ نِسَاءَهُ في اعْتِقَادِهِ مَعْصُوْمَاتٍ وَلاَ يَدْرِي أَنَّهُ مَا خَلاَ رجُلٌ بِامْرَأَةٍ إلا وَثَالِثُهُمَا الشيطانُ وأنَّ النِسَآءَ حَبَائِلُ الشيطانِ وَأَنَّهُنَّ مِن أَضَرِّ مَا عَلَى الرَّجُلِ وَأنَّ لذةَ الرَّجُلِ عِنْدَهُنَّ ولَذّاتُهُنَّ عِنْدَهُ لا يُخَالِفُ في ذَلِكَ أَحَدٌ إلا مَعْتُوْهٌ أَوْ نَحْوُهُ فإِذَا رَأَتْ المَرْأَةُ شَاباً وَلاَ ثَالِثَ لَهُمَا فَلا يَبْعُدُ أنْ تَدْعُوْهُ لِذَلِكَ فَمَا مَوْقِفُ هَذَا المُغَفَّلِ أمَامَ بَدِيْعِ السَّمَواتِ والأَرْضِ الذي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَما تُخْفي الصُّدُوْر .

ولَعَلَّ جَوَابَ هَذَا الجَاهِلِ أَنَّهُ لا يَدُوْرُ في خَلَدِهِ أَنَّ امْرَأَتَهُ تُقْدِمُ عَلَى مِثْلِ هَذَا لأَنَّهَا عِنْدَهُ مَعْصُوْمَةٌ قُولُوا لَهُ أَمَا سَمِعْتَ بِقِصَّةِ امْرَأةِ العَزِيْزِ اقْرَأْهَا لَعَلَّكَ تَأْخُذُ حِذْرَكَ وتَعْلَم أنه لاَ يَسْلَمُ مِن فِتْنَتِهِنَّ إلا عِبَادَ اللهِ المُخْلِصِيْن .

قُوْلُوا لَهُ تَأَمَّلِ القِصَّةَ لَعَلَّكَ أَنْ تَفْهَمَ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا لم يَذْكُرْهَا فِي القُرْآنِ إلا لِيَعْتَبِرَ أُولُو الأَبْصَارِ فَيَحْتَرِسِ الرِّجَالُ على نِسَائِهِم مِن الخَدَمِ ونَحْوِهِم .

إِنَّ اِمْرَأَةَ العَزِيْزِ كَانَتْ ذَاتَ مَرْكَزٍ عَظِيْمٍ في مِصْرَ وكَانَ يُوْسُفُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسلامُ في بَيْتِهَا كَخَادِمٍ لَهَا وَمَعَ ذلكَ لَمْ تَسْأَلْ عَنْ شَرَفِهَا وكَرَامَتِهَا ولا شَرَفِ زَوْجِهَا بَلْ دَاسَتْهُمَا بِنَعْلِ الشَّهْوَةِ دَوْساً ولم تَتَوَقَّفْ في بَذْلِ كُلِّ مَا تَسْتَطِيْعُ مِن قُوَّةٍ وَحِيْلَةٍ لاخْضَاعِ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السلامُ وَلَوْلَا أَنَّ اللهَ عَصَمَهُ وصَرَفَ عَنْهُ السُّوْءَ والفَحْشَآءَ لَوَصَلَتْ إلى مَا تُرِيْدُ قال تعالى « كذلك لِنَصْرِفَ عنه السُّوْءَ والفَحْشَآءَ إنه مِن عِبَادِنا المخلصين » .

والفِتْنَةُ الثَّانِيَةُ أَنَّكَ تَجِدُ آخَرَ يَأْتِي بِخَدَّامَةٍ وَيَتَخَيَّرُ القَوِيَّةَ الجَمِيْلَةَ وبَيْتُهُ الوَاسِعُ مَمْلُوءٌ مِن العُزَّابِ أَوْلَادٍ وإِخْوَانٍ وَرُبَّمَا خَلَوْ بِهَا وهُوَ أَيْضاً رُبَّمَا خَلا بِهَا وَرُبَّمَا تكونُ أَجْمَلَ مِن زَوْجَتِهِ أَوْ أَشَبَّ مِنْهَا وَمَعَ هَذا فَلَا يُفَكِّرُ في الخَطَرِ مِن زَوْجَتِهِ أَوْ أَوْلَادِهِ فلا تَهُمُّهُ تِلْكَ النَّاحِيَةُ وإِنَّمَا تَهُمُّهُ النَّاحِيَةُ التِي يَعْرِفُهَا عن بَعْضِ النِسَآءِ الفَاسِقَاتِ ويَسْتَبْعِدُ ذلِكَ مِن نِسَائِهِ وأَنَّهُ مِن المُحَالِ عِنْدَهُ فَتَنَبَهُوْا يا عِبَادَ اللهِ ولا تَسْتَخْدِمُوْا الشَّبَابَ ولا الشَّابَاتِ مِن النِّسَاءِ وإلا فَقَدْ عَرَّضْتُمْ أَنْفُسَكُم لِلْفِتَنِ والمَشَاكِلِ والعُقُوبَاتِ. واحذروا إستخدام الكافرين والكافرات.

فإِنْ كانَ لَا بُدَّ فاسْتَخْدِمُوْا الرِّجَالَ خَارِجَ البُيُوتِ واحْذَرُوْا مِن اتِّصَالِهِم بنِسَائِكُم وأَمَّا الخَدَّامَاتِ فاحْرِصُوا على كَبِيْرَةِ السِّنِّ المُتَدَيِّنَةِ غَيْرَ الجَمِيْلَةِ لِتَبْتَعِدُوا عن أَسْبَابِ الشَّرِ والفَسَادِ وتَطْمَئِنُوْا على مَا يَأْتِيْكُم مِن أَوْلَادٍ أَنَّهُم مِن أَصْلَابِكُم وإِن أَبَيْتُم فالضَّرَرُ عَائِدٌ عَلَيْكُم دُنْياً وأُخْرَى .

بَـذَلْتُ لَهُمْ نُصْحِي بِمُنْعَـرَجِ اللِّوَا
فَلَمْ يَسْتَبِيْنُوْا الرُّشْدَ إلاَّ ضُحَى الْغَدِ

اللهم احْمِنَا عن أَسْبَابِ الشَّرِ والفَسَادِ ويَسِّرْنَا لِلْعَمَلِ بالبَاقِيَاتِ الصالِحات بالجِدِّ والاجْتِهَاد ، وكَلِّل أَعْمَالَنَا بالنَّجاحِ والسَّدَادِ ، وادْخِلْنَا الجَنَّةَ مَعَ أَوْلِيَائِكَ خِيْرَةِ العِبَادِ وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه الأخْيارِ الأمْجَاد .

(فصل)

وقِسْمٌ مِن النَّاسِ وَالعِيَاذُ باللهِ أَنْكَرُوْا يومَ القِيَامَةِ بتَاتاً مُسْتَبْعِدِيْنَ ومُسْتَفْهِمِيْنَ اسْتِفْهَامَ إِنْكَارٍ وتهكم ﴿أئذا مِتْنَا وَكُنَّا تُراباً ذَلك بَعِيدٌ﴾ ﴿وضَرَبَ لَنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قَال مَنْ يُحْيِي العظامَ وهي رَمِيْمٌ﴾ فأَوْضَحَ جَلَّ وَعَلاَ وَبَيَّنَ اَنَّ الذِيْ خَلَقَهُم وأنشَأَهُم أوَّل مَرةٍ قَادِرٌ على إِحْيَائِهِم بَعْدَ فَنَائِهِم .

بَلِ الإِعَادَةُ أهْوَنُ في نَظَرِ النَّاسِ وَحُدُوْدِ قُدْرَتِهِم مِن الإِبْدَاعِ فالذِيْ يَعْتَرِفُ وَيُقِرُ بأَنَّ الله تعَالَى هُوَ الذِي بَدَأَ الخَلْقَ يَجِبُ عليهِ ويَتَحَتَّمُ أَنْ يُسَلِّمَ بأَنَّ الله تعالى قادِرٌ على الإِعَادَةِ .

وذَكَرَ جَلَّ وَعَلاَ البَدْأَ دليلاً على الإعادة فقال ﴿ويقول الإنسان إذا قامت لسوف أخرج حياً أَوَ يَذْكُرُ الانسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ولَم يَكُ شَيْئَاَ وَذَكَرَ جَلَّ وَعَلاَ في سُوْرَةِ الرُوْمِ أَنَّ إِعَادَةَ الخَلْقِ أَهْوَنُ مِن ابْتِدَائِهِ فقال جَلَّ وَعَلاَ ﴿وهُوَ الذِي يَبْدَؤُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وهُوَ أَهْوَنُ عليهِ ولَهُ المَثَلُ الأَعْلَى في السمواتِ والأَرضِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيْمِ﴾ .

ومِنَ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ الدَّالَةِ عَلَى البَعْثِ دَلاَلَةً قَاطِعَةً بمُجَرَّدِ نَظَرِ العَاقِلِ إِلَيْهَا يَسْتَدِلُ بِهَا اسْتِدْلاَلاً لاَ يَقْبَلُ الشَّك والشُبْهَةَ بِوُقُوعِ مَا خَبَّرَتْ بِه الرُّسُلُ مِنَ البَعْثِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ على عِظَمِهِمَا فكُلُّ مُنْصِفٍ يَعْلَمُ بالبَدَاهَةِ الحِسِّيَةِ أنَّ خَلْقَ السَّمواتِ والأَرْضِ أكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ في ابْتِدَائِهم وإِعَادَتِهِمْ .

وَوَرَدَ بِعِدَّةِ آيَاتِ الاسْتِدْلَالُ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ المَوْتَى قالَ تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذِي خَلَقَ السمواتِ والأَرْضَ ولَمْ يَعْيَ بخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أنْ يُحْيِيَ المَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر﴾ .

وقال تعالى ﴿أَفَعَيِيْنا بالخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِن خَلْقٍ جَدِيْدٍ﴾ بِهَذِهِ الآيَةِ أَكَّدَ جَلَّ وَعَلاَ صحَةَ البَعْثِ ، المَعْنَى أنَّ ابْتِداءَ الخَلْقِ لَمْ يُعْجِز اللهَ والإعادةُ أَسْهَلُ مِن الابْتِدَاءِ والكُلُّ على اللهِ هَيِّنٌ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فيكُون﴾ ، فلا مَجَالَ لِلشَّكِ فِي الإِعَادَةِ عِنْدَ مَنْ يُقِرُ في الابْتِدَاء .

وقال جَلَّ وَعَلاَ مُخْبِراً عَمَّا قَالَهُ الكُفَّارُ الذِيْنَ يَسْتَبْعِدُوْنَ البَعْثَ وَرَاداً عَلَيْهِم ﴿آئـذا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .

وقَدْ أَمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أَنْ يُجِيْبَهُمْ ويُعَرِّفَهُم قُدْرَتَهُ على بَعْثِهِ إِيَّاهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهم وانْشَائِهِ لَهُمْ كَمَا كَانُوا قَبْل بَلاَئِهِم خَلْقاً جَدِيْداً عَلى أيِّ حَالٍ كانُوا عِظَاماً أَوْ رُفَاتاً أَوْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيْدَاً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يُسْتَبْعَدُ عِنْدَكُمْ قَبُولُهُ لِلْحَيَاةِ فإِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر ، لا يُعْجِزُهُ إِعادَتُكُمْ مَهمَا تَحَوَّلْتُمْ وتَمَزَّقْتُمْ وتَفَرَّقْتُمْ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴿فإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فإِذَا هُمْ بالسَّاهِرة﴾ .

وأَخْبَرَ أنَّه عِنْدَمَا يُقِيْمُ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ على البَعْثِ يَقُولُوْنَ مَنْ يُعِيْدُنَا أيْ مَنْ يُعِيْدُنَا وَنَحْنُ بهٰذِهِ الحَالِ : فَقُلْ تَحْقِيْقاً لِلْحَقِّ وَإِزاحَةً للاسْتِبْعَادِ وارْشَاداً إِلى طَرِيْقِ الاسْتِدْلَالِ ، الذِي يَفْعَلُ ذَلكَ هُوَ القَدِيْرُ العَظِيْمُ الذِي لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في الأَرْضِ ولا فِي السَّماءِ .

الذِي ذَرَأَكُم فِي الأَرْضِ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ يُحْتَذَى وَلَا مِنْهَاجٍ مُعَيَّنٍ يُنْتَحَى وكُنْتُمْ تُراباً لَمْ يَشُمَّ رَائحَةَ الحَيَاةِ أَلَيْسَ الذِي يَقْدِرُ على ذَلِكَ يَقْدِرُ على أنْ يَجْمَعَ ما تَفَرَّقَ ويُفِيْضُ الحَيَاةَ عليهِ ويُعِيْدُهُ كَمَا خَلَقَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلَى إِنَّه سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدير .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ مَا يَفْعَلُوْنَهُ حِيْنَ مَا يَسْمَعُوْا الجَوابَ « فَسَيُنْغِضُوْنَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُوْلُون مَتَى هُوَ »أيّ مَتَى هَذَا البَعْثُ وَفِي أيِّ وَقْتٍ وَحَالٍ يُعِيْدُنَا خَلْقاً جَدِيْداً كَمَا كُنَّا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَمَقْصَدُهُمْ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ اسْتِبْعَادُ حُصُوْلِهِ .

وَفِي مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُم « وَيَقُولُون مَتَى هَذَا الوَعْدُ إن كُنْتُمْ صَادِقِيْن » قَالَ تَعَالَى « قُلْ عَسَى أنْ يَكُوْنُ قَرِيباً » أيّ فَاحْذَرُوا فَإِنَّهُ قَرِيْبٌ مِنْكُمْ وَسَيأتِي لَا مَحَالَةَ وَكُلُّ آتٍ قَرِيْب وَكُلُّ مَا هُوَ مُحَقَّقُ الحُصُوْلِ قَرِيب .

وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ فِي نَظَرِ العِبَادِ وَلَمْ يُخْبِرْ بِهِ أَحداً لَا مَلَكاً مُقرَّبا وَلَا نَبِيّاً مُرْسَلا «يَوْمَ يَدْعُوكُم فَتَسْتَجِيبُوْنَ بِحَمْدِهِ » أيّ يَوْمَ يَدْعُوْكُمْ لِلْبَعْثِ وَالنُّشُورِ والحِسَابِ والجَزَاءِ فَتَسْتَجِيبُوْنَ لَهُ مِن قُبُورِكُمْ بِقُدْرَتِهِ وَدُعَائِهِ إِيَّاكُمْ وَلَهُ الحَمْدُ فِي كُلِّ حَالٍ وَتظُنُّونَ حِيْنَ تَقُوْمُوْنَ مِنْ قُبُوْرِكُمْ إنْ لَبِثْتُم إلاّ قَلِيْلا فِي دارِ الدُّنْيا وَقَوْله « كَأَنَّهُمْ يَوم يَرَوْنَ مَا يوعَدُوْن لم يَلبثُوا إلاّ ساعَةً مِنْ نهار » .

وَنَحْوُ هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ تعَالَى « كَأَنَّهُم يَومَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوْا إلَّا عَشِيَّةً أوْ ضُحَاهَا » وقوْله « وَيَوْمَ تَقُوْمُ السّاعةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُوْنَ مَا لَبِثُوا غيْرَ سَاعَةٍ » وقولُهُ « ويَوْمَ يحشُرهُمْ كأنْ لَمْ يَلْبَثُوا إلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُوْنَ بيْنَهُمْ » وَقَوْله « إذْ يَقُولُ أمثلُهُم طَريقةً إنْ لَبِثْتُمْ إلَّا يَوْمَا » .

شعرا :

هُوَ الدَّهْرِ فَاصْبِرْ مَا عَلَى الدَّهْرِ مَعْتَبُ
وَلَيْسَ لَنَا مِمَّا قَضَى اللّهُ مَهْرَبُ
وَلَا بُدَّ مِنْ كَأْسِ الحِمَامِ ضَرُورَةً
وَمَنْ ذَا الّذِي مِنْ كَأْسِهِ لَيْسَ يَشْرَبُ
وَمَا يَعْمُرُ الدُّنْيَا الدَّنِيَةَ حَازِمٌ
إذَا كَانَ فِيْهَا عَامِرُ العُمْرِ يَخْرَبُ
وإنَّ عَلِيّاً ذَمَّهَا فِي كَلَامِهِ
وَطَلَّقَهَا وَالجَاهِلُ الغِرُّ يَخْطُبُ
ألَا إنَّ هَذَا الكَوْنَ فِيْهِ مَوَاعِظٌ
لِمُتَّعِظٍ مِن ظُلْمَةِ القَبْرِ يَهْرَبُ
فَكَمْ مِنْ عَظِيْمِ البَأْسِ صَارَتْ عِظَامَهُ
أوَانٍ وَمِنْهَا المَاءُ يَا قَوْمُ يُشْرَبُ
وَيُنْقَلُ مِنْ أرْضٍ لأُخْرَى وَمَا دَرَى
فَوَاهاً لَهُ بَعْدَ البِلَى يَتَغَرَّبُ

اللَّهُمَّ قَوِّمْنَا إذَا اعْوجَجْنَا وأَعِنَّا إذَا اسْتَقَمْنَا وَكُنْ لَنَا وَلَا تَكُنْ عَلَيْنا وَأحْيِنَا فِي الدُّنْيَا مُؤْمِنِيْنَ طَائِعِيْنَ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِيْنَ مُخْلِصِيْنَ واجْعَلْنَا عِنْدَ السُّؤَالِ

ثَابِتِيْنَ وَاجْعَلْنا مِمَّن يَأخُذُ كِتابَهُ باليَمِيْنِ واجْعَلْنَا يَوْمَ الفَزَعِ الأكْبَرِ مِنَ الآمِنِيْن وَمَتِّعْنَا بالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الكَرِيمِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْن .

(فصــل)

ومِنْ تَوَهُّمَاتِ المُنْكِرِيْنَ لِلْبَعْثِ أَنَّ مَنْ يَمُوْتُ يَضَلُّ رُفَاتُهُ في الأَرْضِ فَتَذْهَبُ صُوْرَتُهُ وَصِفَاتُهُ فَكَيْفَ يُرْجِعُ اللّهُ هَذِهِ الذَّوَاتِ والصِّفَاتِ وَكَيْفَ يَجْمَعُ هَذِهِ الذَّرَّاتِ المُتَفَتِّتَةُ مِنْ عِظَامِهِمْ وَأَثَرُ هَذَا التَّوَهُّمُ الفَاسِدِ يَظْهَرُ فِي تَوَهُّمِهِمْ أَن عِلْمَ اللهِ غَيْرُ مُحِيْطٍ بِكُلِّ صَغِيْرٍ وَكَبِيْرٍ مِن أَعْدَادِ الّذِينَ يَمُوْتُوْنَ مِن النّاسِ وَغَيْرُ مَحِيْطٍ بِصِفَاتِهِمْ وَأَوْضَاعِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ .

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلاَ مَقَالَتَهُمُ الفَاسِدَةَ الّتِي تَدُلُّ عَلَى هَذَا التَّوَهُّمِ مِنْ تَوَهُّمَاتِهِمْ قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ « وَقَالُوا أئِذَ ظَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أئِنَّا لفِيْ خَلْقٍ جَدِيْد » وَهَؤُلاءِ قَاسُوْا قُدْرَةَ الخالِقِ الّذِي بَدأهُمْ أوّلَ مَرَّةٍ عَلَى قُدْرَةِ المَخْلُوقِ العَاجِزِ .

وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ القُدْرَتَيْنِ « إِنَّمَا أمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون » « فَإِنَّمَا هِيَ زَجرَةٌ وَاحِدَةٌ فإِذَا هُمْ بالسَّاهِرَةِ » .

ثُمَّ زَادَ فِي النَّعْي عَلَيْهِمْ والإِنْكَارِ لآرَائِهِمْ بِقَوْلِهِ « بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُوْنَ » أيْ تَعَدَّوْا ذَلِكَ إِلى الجُحُودِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ وَذَكَرَ اللّهُ جَلَّ وَعَلاَ مَقَالَتَهُمْ هَذِهِ فِي سُوْرَةِ سَبَأ وَهُم أَتَوْا بِهَا عَلَى وَجْهِ الاسْتِهْزَاءِ وَالتَّهكُّمِ وَالتَّكْذِيْبِ والاسْتِبْعَادِ والانْكَارِ .

« وَقَال الّذِيْنَ كَفَرَوْا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أَنَّكُمْ لَفِي خَلق جَدِيد » أَيْ إِنَّهُ يَقُولُ إِذَا أَكَلَتْكُمُ الأَرْضُ وصِرْتُم رُفَاتاً وعِظَاماً وَقَطَّعَتْكُم السِّبَاعُ والطَّيْرُ سَتَحْيَوْنَ وَتُبْعَثُونَ ثُمَّ تُحَاسَبُوْنَ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْكُمْ مِنْ صَالِحِ العَمَلِ وَسَيِّئِهِ .

وَإِنَّ أَمْرَهُ دَائِرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُفْتَرِياً عَلَى اللّهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَجْنُوْناً فَرَدَّ اللّهُ عَلَيْهِمْ مَقَالَتَهُمْ وأَثْبَتَ لَهُمْ مَا هُوَ أَشَدُّ وأَنْكَى فَقَالَ « بَلْ الّذِيْنَ لا يُؤْمِنُوْنَ بِالآخِرَةِ فِي العَذَابِ والضَّلالِ البَعِيْدِ أيْ لَيْسَ الأَمْرُ كَمَا زَعَمُوْا وَلاَ كَمَا ذَهَبُوْا إِلَيْهِ .

بَلْ إِنَّ مُحَمَّداً ﷺ صَادِقٌ فِيْمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ البَعْثِ وَهُمْ فِي شَقَاءٍ عَذَابٌ فِي حَيَاتِهِمْ مِنْ دَاخِلِ نُفُوسِهِمْ كُفْرٌ وشُكُوكٌ وأَوْهَامٌ وَفِي الآخِرَةِ إِذَا بُعِثُوْا ذَاقُوا أَلْوَانَ العَذَابِ لأَنَّهُمْ مُجْرِمُوْنَ مُتَمَرِّدُوْنَ على الحَقِّ وهُمْ فِي الضَّلاَلِ البَعِيْدِ فِي عَقِيْدَتِهِمْ وفِي سُلُوكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ .

ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ بِمَا يُعَايِنُونَهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ مِنَ الدَّلِيْلِ العَقْلِي الدَّالِ عَلَى عَدَمِ اسْتِبْعَادِ البَعْثِ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَوْ نَظَرُوْا إِلى مَا بَيْنَ أَيْدِيْهِمِ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ فَرَأَوْا مِنْ قُدْرَةِ اللّهِ فِيْهِمَا مَا يَبْهَرُ العُقُوْلِ وَمِن عَظَمَتِهِ مَا يُذْهِلُ العُلَمَاءَ الفُحُوْلَ وَلَكِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى « وَكَائِنْ مِنْ آيَةٍ فِي السّمواتِ والأرضِ يَمُرُّوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُون » وَقَال عَمَّا قَالَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السّلام « قال يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ على بينَةٍ مِنْ رَبِّي وآتاني رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكم أَنُلزِمُكُمُوها وأَنْتُم لَهَا كَارِهُوْن » .

وَفِي الكَوْنِ مِن سِرِّ الوُجُوْدِ عَجَائِبٌ
أَطَـلَّ عَلَيْهَـا العَـارِفُـوْنَ وأَشْـرَفُـوْا

آخَرُ : فَيَا عَجَباً مِمَّنْ يُضِيْعُ حَيَاتَهُ
عَلَى حِفْظِ مَالٍ وَهُوَ لِلْغَيْرِ يَدْخَرُ
وَمَنْ تُتَوفَّى نَفْسُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ
وتَرْجِعُ فِيْهِ كَيْفَ لِلْبَعْثِ يُنْكِرُ
بَلَى قَادِرٌ أَنْشَاهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
عَلَى رَدِّ رُوْحٍ مِنْهُ فِي الجِسْمِ أَقْدَرُ
آخَرُ : تَأَمَّلْ سُطُوْرَ الكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا
مِنَ المَلِكِ الأَعْلَى إِلَيْكَ رَسَائِلُ
وَقَدْ كَانَ فِيْهَا لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا
أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلُ

وَفِي سُورةِ قٓ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ اسْتَبْعَدُوْا البَعْثَ وَتَعَجَّبُوْا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَمَّا قَالُوا « وقال الكَافِرُونَ هَذا شَيْءٌ عَجِيْب أئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيْد » .

فَعُقُوْلُ هؤُلاَءِ سَخِيْفَةٌ حَيْثُ قَاسَتْ قُدْرَةَ مَنْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر وبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْم الكَامِلُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بِقُدْرَةِ العَبْدِ الفَقِيْرِ الضَّعِيْفِ العَاجِزِ مِنْ جَمِيْعِ الوُجُوْهِ الجَاهِلِ الَّذِي لا عِلْمَ لَهُ .

فَقَالَ جَلَّ وَعَلاَ مُشِيْراً إِلى دَلِيْلِ جَوَازِ البَعْثِ وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ ومُؤَكِّداً عِلْمَهُ بجَمِيْعِ الأَشْياءِ « قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهم وعندنا كِتَابٌ حَفِيْظ » حَافِظٌ لِتَفاصِيْلِ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا مَحْفُوْظٌ عن التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ بِكُلِّ مَا يَجْرِيْ عَلَيْهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ أَوْ مَمَاتِهِمْ .

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حَالَ مُنْكِرِيْ البَعْثَ لَفَتَ أَنْظَارَهُمْ إلى الدَّلِيْلِ الّذِي يَدْحَضُ كَلاَمَهُمْ أَلاَ وَهُوَ النَّظَرُ فِي آياتِهِ الأفَاقِيَّةِ كَيْ يَعْتَبِرُوْا وَيَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى مَا جُعِلَتْ أَدِلَّةً عَلَيْهِ .

فإنَّ مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَزَيَّنَهَا بالكَوَاكِبِ وأَحْكَمَهَا وَبَسَطَ الأَرْضَ وَجعَلَ فِيْهَا رَوَاسِيَ وأَنْبَتَ فِيْهَا صُنُوفَ النَّبَاتِ صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ واحدٍ وَيَتَفَاضَلُ فِي الأُكْلِ .

وَجَعَلَ ذَلِكَ تَبْصِرَةً لِأوْلِي الألْبَابِ وَنَزَّلَ مِن السَّمَاءِ مَاءً فأَنْبَتَ بِهِ خُضْرَ الجِنَانِ وَالزَّرْعِ المُخْتَلَفِ الأصْنَافِ والألْوَانِ والطُعُومِ والنَّخْلِ البَاسِقِ ذَا الطِلْعِ المُتَرَاكِمِ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ رزقا للعباد وأَحْيَا الأرْضَ الموات .

أَفَلاَ يَسْتَطِيْعُ مَنْ هَذِه قُدْرَتُه وَهَذَا شَأْنُهُ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ القُبُوْرِ بَعْدَ بَلاَئِهِم وَبَعْدَ أَنْ يَصِيْرُوْا عِظَاماً وَرُفَاتاً وَيُنْشِئُهُمْ خَلْقاً آخَرَ في حَيَاةٍ اخْرَى وعَالَمٍ غَيْرَ هَذَا العَالَمِ بَلَى وَاللهِ إنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر وبكلِ شَيءٍ أَحَاطَ عِلْمَا .

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ السَّفَارِيْني :

وَاجْــزِمْ بِــأَمْــرِ الـبَعْـثِ والنُـشُــوْرِ
والحَشْـرِ حَـزْمـاً بَعْـدَ نَفْـخِ الصُـوْرِ
كَـذَا وُقُـوفِ الـخَـلْقِ لِلْـحِـسَـابِ
والـصُّـحْـفِ والـمِـيْـزَانِ لِـلثَّـوابِ
كَـذَا الصِراطِ ثُمَّ حَـوْظِ المُصْطَفَى
فَيَـا هنـا لِـمَنْ بِـهِ نَـالَ الشِفَـا

عَنْهُ يُذَادُ المُفْتَرِيْ كَمَا وَرَدْ
وَمَنْ نَحَا سُبْلَ السَّلامَةْ لَمْ يُرِدْ
وَكُنْ مُطِيْعاً وَأقْفُ أَهْلَ الطَّاعَةْ
في الحَوْضِ والكَوْثَرِ والشَّفَاعَةْ
فَانَّهَا ثَابِتَةٌ لِلْمُصْطَفَى
كَغَيرِهِ مِن كُلِّ أرْبابِ الْوَفَا
مِنْ عَالِمٍ كَالرُسْلِ والأَبْرَارِ
سِوَى التِي خُصَّتْ بِذِي الأَنْوَارِ

اللهم انا نعوذ بك مِن جَهْدِ البَلاء ودَرَكِ الشَّقاء وشَماتَةِ الأَعْدَاء وسوءِ المنظر في الأهلِ والمالِ والولَدِ اللهم حَبِّبْ إلِيْنَا الايمانَ وزَيِّنْهُ في قُلُوبِنَا وَكَرِّهْ إلينَا الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ واجعلنا مِن الراشدين واغفر لَنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

ومِن الأَدلَّةِ الدَّالَّةِ على البَعْثِ قولُه تعالى ﴿ومِن آياتِهِ أنَّك تَرَى الارض خاشِعةً فإذا أَنْزَلْنا عليها الماءَ اهْتَزَّتْ ورَبَّتْ إنَّ الذي أَحْيَاهَا لمحْيي الموتى إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير ﴾ .

إنَّ جَفَافَ الزَّرْعِ ويُبْسَ الشَّجَرِ وانْقِطَاعَ تَغْذِيَتِهِ مِن الأَرْضِ وحَصَادَهُ وتَحَطُّمَهُ يُشْبِهُ حَالةَ المَوْتِ في الأَحياء .

ثُمَّ إنَّ سُنَّةَ اللهِ الكَوْنِيَةِ الدَّائِمَةِ الظَّاهِرَةِ المُشَاهَدَةِ في عَمَلِيَّةِ انْشِقَاقِ

الحُبُوْبِ في بَطْنِ الأَرْضِ ونَبَاتِها بَعْدَ مَا سَبَقَ مِن حَالِهَا التِي تُشْبِهُ حَالةَ المَوتِ وَعَوْدَتَهَا إلى الحياة .

والنَّظْرَةَ كَرَّةً أخِرَةً وذلكَ عِنْدَ وُجُوْدِهَا في البِيْئَةِ المُلائِمَةِ مِن مَاءٍ مُمْتَزِجٍ بالتُّرابِ الصَّالِحِ لِتُعْطِيْ تَقْرِيْباً حِسِّياً مُشَاهَدَاً بِاسْتِمْرارٍ في الظَواهِرِ الكَوْنِيَّةِ لِقِصَّةِ بَعْثِ الحَيَاةِ وتَفَرُّقِ أَجْزائِهَا فِي تُرَابِ الأَرْضِ .

وقَدْ نَبَّهَ اللهُ في القُرْآنِ إلى هَذَا الشَاهِدِ الكَوْنِي الذِيْ يُقَرِّبُ إلى تَصَوُّرِ أَصْحَابِ هَذَا التَّوَهُمِ إمْكَانَ الحَيَاةِ الأُخْرَى وأَنَّهَا تُشْبِهُ عَوْدَةَ الحَيَاةِ إلى الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ بَعْدَ جَفَافِهَا ومَا يُشْبِهُ حَالَةَ المَواتِ فِيْهَا قالَ اللهُ تعالى ﴿وتَرى الأَرْضَ هَامِدَةً فإِذَا أَنْزَلْنَا عليها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأَنْبَتَتْ مِن كُلِ زَوْجٍ بَهِيْجٍ ذَلِك بأن اللهَ هُوَ الحَقُّ وأنهُ يُحْي المَوْتَى وأنه على كلِ شيءٍ قَدِير﴾ .

وقَالَ فِي سُوْرَةِ الرُّوْمِ ﴿فانْظُرْ إلى آثارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ المَوْتَى وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر﴾

وقالَ فِي سُوْرَةِ قَ ﴿وَنَزَّلْنَا مِن السَّمَآءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيْدِ والنخلَ باسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيْد رِزْقاً لِلعِبادِ وأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الخُرُوْجِ﴾ جَعَلَ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى ما سَبَقَ دَلِيْلاً على البَعْثِ لِأَنَّهُ شَبِيْهٌ بِهِ .

وفي التَعْبِيْرِ عَن إخْرَاجِ النِّبَاتِ مِن الأَرْضِ بالاحْيَاءِ وعن احْيَاءِ المَوْتَى بالخُرُوْجِ تفخِيْمٌ لِشَأْنِ الإنْبَاتِ وَتَهوِيْنٍ لأمْرِ البَعْثِ وتَحْقِيْقٌ لِلْمُمَاثَلَةِ بَيْنَ اخْرَاجِ النِّبَاتِ وإِحْيَاءِ المَوْتَى لِتَوْضِيْحِ مِنْهَاجِ القِيَاسِ وتَقْرِيْبِهِ لِأَفْهَامِ النَّاسِ وكَذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿وَهُوَ الذِيْ يُرْسِلُ الرِيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فأنْزَلْنا بِهِ الماءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِ الثَّمَراتِ

كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ﴾ .

فَفِي إِحْيَاءِ الأَرْضِ اليَابِسَةِ بَعْدَ نُزُوْلِ المَطَرِ عَلَيْهَا دَلِيْلٌ قَاطِعٌ واضِحٌ على إِحْيَاءِ المَوتَى فَكَمَا أَحْيَا الأَرْضَ بَعدَ مَوْتِهَا يُحْيِ الأَجْسَادَ وَيُعِيْدُ إِلَيْهَا أَرْواحَهَا يومَ القِيَامَةِ .

فَيَقُومُ الناسُ مِن قُبُورِهم لِرَبِ العَالَمِين كَمَا أَخْبَرَ جَلَّ وَعَلاَ وهُوَ أَصْدَقُ قَائِلٍ وذَلِكَ أنَّ اللهَ يُنْزِلَ مَاءً مِن السَّمَاءِ فَتُمطَرُ الأَرْضُ أَرْبَعِيْنَ يوماً فَتَنْبُتُ مِنْهُ الأجسادُ في قُبُورِهِمْ كَمَا يَنْبُتُ الحَبُّ في الأَرْضِ ، قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

وإِذَا أَرَادَ اللهُ اخْـرَاجَ الـوَرَى
بَعْـدَ المَمَـاتِ إلى مَعَـادٍ ثَـانِي
أَلْقَى عَلَى الأَرْضِ التِي هُمْ تَحْتَهَا
واللهُ مُـقْـتَـدِرٌ وذُوْ سُـلْطَانِ
مَـطَراً غَـلِيْـظاً أَبْيَضـاً مُتَتَـابِعـاً
عَشْـراً وعَشْـراً بَعْـدَهَـا عَشْـرَانِ
فَتَـظَلُّ تَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَـامُ الـوَرَى
ولُـحُـوْمُهُـم كَمَنَـابِتِ الـرَّيْحَـانِ
حَـتَّى إذَا مَـا الأُمُّ حَـانَ وِلاَدُهَـا
وتَـمَخَّضَـتْ فَـنِفَـاسُهَـا مُتَـدَانِ
أَوْحَى لَهَـا رَبُّ السَّمـا فَتَشَقَّقَتْ
فَبَـدَا الجَنِيْنُ كَـأَكْمَـلِ الشُّبَـانِ

وَتَـخَلَّتِ الأُمُّ الـوَلُـوْدُ وَأخْـرَجَـتْ
أثْـقَـالَـهَـا أنْثَـى وَمِـنْ ذُكْـرَانِ
واللهُ يُـنْشِـئُ خَلْقَهُ فِـي نَـشْـأَةٍ
أُخْـرَى كَمَـا قَـدْ قَـالَ في القُـرْآنِ
هَـذَا الذِي جَـاءَ الكِتَابُ وَسُنَّـةُ الْـ
ـهَادِيْ بِـهِ فَـاحْرَصْ عَلَى الإِيْمَـانِ

يُضَافُ إِلى هَذِهِ الأَدِلَّةِ مَا ذَكَرَ اللهُ في كِتَابِهِ أَيْضاً مِثْلَ قِصَّةِ إِحْيَاءِ قَتِيْلِ بَنِي اسْرَائِيلَ لِسُؤالِهِ عن القَاتِلِ وَهَذِهِ القِصَّةِ أَخْبَرَنَا اللهُ بِهَا فِي أَوَائِلِ سُوْرَةِ البَقَرةِ وَمُلَخِّصُهَا فِيْمَا ذُكِرَ أَنَّهُ كانَ فِي بَنِي اسْرَائِيْلَ شَيْخٌ مُوْسِرٌ لَهُ ابْنٌ وَاحِدٌ قَتَلَهُ ابنُ عَمِّهِ طَمَعاً في مِيْرَاثِهِ .

ثُمَّ جاءَ يُطَالِبُ بدَمِهِ قَوْماً آخَرِيْنَ فأَنْكَرُ المُتَّهَمُوْنَ قَتْلَهُ وَترَافَعُوا إِلى مُوْسَى عليهِ السَّلامُ كِلٌ مِنْهُم يَدْفَعُ التُّهْمَةَ عن نَفْسِهِ فَقَالَ لَهُمْ مُوْسَى إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوْا بَقَرَةً وَذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ لَهُمْ القَاتِلُ الحَقِيْقِيُّ فَقَالُوا أَتَهْزَأُ بِنَا قَالَ مُوْسَى ﴿أَعُوْذُ باللهِ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ فَسَأَلُوْهُ عن مَا تَتَميَّزُ بِهِ مِنَ الأَوْصَافِ وَشَدَّدُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَثَرُوْا عَلَيْهَا وَذَبَحُوْهَا وَمَا كَادُوْا يَفْعَلُونَ ثُمَّ ضَرَبُوْا جَسَدَ القَتِيْلِ بِبَعْضِ البَقَرَةِ التِي ذَبَحُوْهَا فَأَحْيَا اللهُ القَتِيْلَ وأَخْبَرَ بالقَاتِلِ .

ومِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ أَصْحَابِ الكَهْفِ وَكَيْفَ ضَرَبَ اللهُ عَلَى آذَانِهِمْ ثَلاثَةَ قُرُوْنٍ وَتَزِيْدُ تِسْعُ سِنِيْنَ وحَفِظَ أَجْسَامَهُمْ مِن البِلَى على طُولِ الزَّمَانِ وثِيَابَهُمْ مِنَ العَفَنِ والبِلَى وأَعْثَرَ عَلَيْهِمْ الفَرِيْقَ الآخَرَ الذينَ كَانُوا في شَكٍّ مِن قُدْرَةِ اللهِ عَلَى إِحْيَاءِ المَوْتَى وَفِي مِرْيَةٍ مِن إِنْشَاءِ أَجْسَامِ خَلْقِهِ كَهَيْئَتِهِمْ يَوْمَ قَبْضِهِمْ بَعْدَ

البِلَى لِيَعْلَمُوْا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ وَيُوْقِنُوْا أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيْهَا فَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ ودَلِيْلٌ عَلَى وُقُوعِ المَعَادِ الجِسْمَانِي يَوْمَ القِيَامَةِ .

ومِنْ ذَلِكَ الذِيْنَ خَرَجُوْا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوْتُوْا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ثُم بَعْدَ هَذِهِ الإِمَاتَةِ أَحْيَاهُمْ فَفِيْهَا أَيْضا عِبْرَةٌ وَدَلِيْلٌ قَاطِعٌ عَلَى وُقُوْعِ المَعَادِ الجُسْمَانِيْ وَأَنَّهُ لا مِرْيَةَ فِيه ومِن ذَلِكَ قِصَّةُ الذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوْشِهَا فقال مُسْتَبْعِداً لِعَوْدَةِ عِمارَتِهَا وإحْيَاءِ أَهْلِهَا أَنَّى يُحْيِ هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فأَمَاتَهُ اللهُ مَائةَ عَامٍ ثُمَّ بَعثَهُ قِيْل إنَّ اللهَ تَعالى أَمَاتَهُ في أَوَّلِ النَّهَارِ وأَحْيَاهُ بَعْدَ المائَةِ آخِرَ النَّهارِ .

وقِيْلَ واللهُ أَعْلَمُ أَوَّلَ شَيْءٍ أَحْيَاهُ اللهُ فِيْهِ عَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا إلى قُدْرَةِ اللهِ وَصُنْعِهِ كَيْفَ يُحْي بَدَنَهُ فَلَمَّا اسْتَقلَّ سَوِياً قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يوماً أَوْ بَعْضَ يَوم قَالَ جَلَّ وَعَلاَ وَتَقَدَّسَ بَلْ لَبِثْتَ مَائَةَ عَامٍ فانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وشَرَابِكَ قِيْلَ كَانَ مَعَهُ عِنَبٌ وَتِيْنٌ وَعَصِيْرٌ فَوَجَدَهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ وانْظُرْ إلى حِمَارِكَ كَيْفَ يُحْيِيْهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ « ولِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ » أيْ دَلِيْلاً عَلَى المَعَادِ حَيْثُ أَحْيَاهُ اللهُ بَعْدَ إمَاتَتِهِ وَأَحْيَا حِمَارَهُ ولم يَتَغَيَّرْ طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ إحْيَاءُ الطُّيُوْرِ الأَرْبَعَةِ لَمَّا طَلَبَ أَبِيْنَا إبْرَاهِيْمُ عَلَيْهِ السلامُ مِن اللهِ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِ المَوْتَى لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ أَرْبَعَةً مِن الطَّيْرِ فَيُقَطِّعُهُنَّ أَجْزَاءً ثُمَّ يُفَرِّقُهَا عَلَى عِدَّةِ جِبَالٍ حَوْلَهُ ثُمَّ يَدْعُوْهَا فَفَعَلَ وَدَعَاهَا بِأَسْمَائِهِنَّ فأَقْبَلْنَ إِلَيْهِ سَرِيْعَاتٍ تَطِيْرُ والطَّيْرُ أَشَدُّ الحَيَوانِ نُفُوراً مِنَ الانْسَانِ غَالِباً فهذا أَكْبَرُ بُرْهَانٍ عَلَى كَمَالِ عِزَّةِ اللهِ وحِكْمَتِهِ وقُدْرَتِهِ عَلَى البَعْثِ والمعاد والجزاء . فتبارك اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِيْن .

ومِنَ الأَدِلَّةِ الدَّالَةِ على البَعْثِ مَا فِي قِصَّةِ مُوْسَى وَهَرُوْنَ مَعَ فِرْعونَ فَفِي قَلْبِ عَصِيَ مُوْسَى حَيَّةً تَسْعَى تَلْقَفُ مَا يَأْفكُونَ أَكْبَرُ بُرْهَانٍ عَلى البَعْثِ وَذَلِكَ أَنَّهَا صَارَتْ تِنِّيْناً عَظِيْماً هَائِلاً ذَا قَوَائِمَ وَعُنُقٍ وَرَأْسٍ وأَضْراسٍ فَجَعَلَتْ تَبْتَلِعُ تِلْكَ الحِبَالَ والْعُصِيَّ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ إلاَّ ابْتَلعتْهُ والسَّحَرَةُ والناسُ يَنْظُرُوْنَ إِلى ذَلِكَ عِيَاناً جَهْرَةً نَهاراً ضَحْوَةً .

ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلا بِأَنْ يَأْخُذَهَا قَالَ لَه ﴿خُذْهَا ولاَ تَخَفْ﴾ فَلَمَّا أَمَرَهُ بِأَخْذِهَا لَفَّ طَرَفَ المِدْرَعَةَ عَلَى يَدِهِ فَقَالَ لَهُ مَلَكٌ أَرَأَيْتَ يَا مُوْسَى لَوْ أَذِنَ اللهُ بِمَا تُحَاذِرُ أَكَانتِ المِدْرَعَةُ تُغْنِيْ عَنْكَ شَيْئاً قَالَ لاَ وَلَكِنِّي ضَعِيْفٌ وَمِن ضُعْفٍ خُلِقْتُ فَكَشَفَ عَن يَدِهِ ثمَّ وَضَعَهَا في فَمِ الحَيَّةِ حَتَّى سَمِعَ حِسَّ الأَضْرَاسِ والأَنْيَابِ ثُمَّ قَبَضَ فإذَا هِيَ عَصَاهُ التِي عَهِدَهَا وإِذَا يَدُهُ في مَوْضِعَهَا إذَا يَتَوَكَأُ عَلَيْهَا بَيْنَ الشُعْبَتَيْنِ فَفِيْهَا دَلِيْلٌ وَاضِحٌ على بَعْثِ الأَجْسَادِ لِمَنْ بَصَّرَهُ اللهُ وَنَوَّرَ عَقْلَهُ .

ومِنَ الأَدِلَّةِ الدَّالَةِ على البَعْثِ مَا أَيَّدَ اللهُ به عِيْسَى بنَ مَرْيَمَ عَلَى إِحْيَاءِ المَوْتَى قَالَ اللهُ تعالى ﴿ورَسُولاً إِلى بَنِي اسْرَائِيلَ أَنِي قَدْ جِئْتِكُم فيهِ مِن رَبِّكُمْ أَنِي أَخْلُقُ لكُم مِن الطِيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ﴾ فَكَان يُصَوِّرُ مِن الطِّيْنَ شَكْلَ طَيْرٍ ثمّ يَنْفَخُ فِيه فَيَكُونُ طَيْراً فَيَطِيْرُ عِيَاناً بإِذْنِ اللهِ .

فَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ البَرَاهِيْنِ عَلَى بَعْثِ الأَجْسَادِ وكَذَلِكَ إِحْيَاءُ المَوْتَى بإذْنِ اللهِ قال تعالى « وأحْيِ المُوْتَى بإذْنِ اللهِ » فَهَذَا بُرْهَانٌ وَاضِحٌ عَلَى بَعْثِ الأَجْسَادِ لاَ رَيْبَ فِيهِ لِذي عَقْلٍ سَلِيْمٍ .

« هَذِهِ أبْيَاتٌ مُخْتَارَةٌ مِن قَصِيْدَةِ لِبَعْضِ »
« العُلَمَاءِ رَداً عَلَى مَنْ قَالَ بالطَّبِيعَةِ »

وَاهـاً لِـدُنْيَـا إذَا مَـا أَقْبَلَتْ قَتَلَتْ
وشَـوْطُ إِقْبَـالِـهَـا فَـوْتٌ وَإِدْبَـارُ

دَسَّتْ لَكَ السُّمَّ في حَلْوَى زَخَارِفِهَا
وَزَيَّـنَتْ لَـكَ مَـا عُـقْبَـاهُ أَضْـرَارُ

وعِشْتَ دَهْـراً مِنَ الأَعْـوَامِ مُنْتَـظِراً
فـي مَـلْعَـبٍ كُـلُّهُ جُـرْمٌ وإِصْـرَارُ

حَتَّى إِذَا جَاءَ وَقْتُ المَقْتِ وَانْتَشَبَتْ
يَـا لَاهِياً لِلْمَنَـايَـا فِيْـكَ أَظْفَـارُ

خَـابَتْ ظُنُـوْنُـكَ فِي دُنْياً مُخَـادِعَـةٍ
أَلْـوَتْ عِنَـانَـكَ عَمَّـا كُنْتَ تَخْتَـارُ

يَا ذَا الوِجَاهَةِ والجَاهِ العَرِيْضِ لَقَـدْ
خَـانَتْ عُهُـوْدَكَ أَعْـوَانٌ وأَنْـصَـارُ

أَلْقَـوْكَ فِي حُفْـرَةٍ هَـالَتْـكَ وَحْشَتُـهَـا
كَـأَنَّهـا مِخْـدَعٌ يُغْلَى بِـهِ القَـارُ

وَغَـادَرُوْكَ وَمَا فِي الحَيِّ مِن حَكَمٍ
تَشْكُـو إِلَيْـهِ وَمَـا فِي الـدَّارِ دَيَّـارُ

يَـا رَاقِـداً وَمَضِيْقُ القَبْـرِ مَضْجَعُـهُ
أمَلَّكَ القِـطْرُ أَمْ ضَاقَتْ بِـكَ الـدَّارُ

أَبْعَدَ مَا فِي مَغَانِي الحَيِّ مِن سَعَةٍ
تُغْنِي الضَّجِيْعَ عنِ الأَمْيَالِ أَشْبَارُ
خَلَوْتَ وَحْدَكَ لَا خِلٌّ وَلَا خَدَمٌ
فَهَلْ تُنَاجِيْك بالإِصْلَاحِ أفْكَارُ
أَمْ أَنْتَ مِمَّنْ يَرَوْنَ المَوْتَ رَاحَتَهُمْ
يَا حَبَّذَ المَوْتِ لَوْلَا الحَشْرُ والنَّارُ
والقَبْرُ إِنْ لَمْ تَكُنْ فِيْهِ مُنَغِّصَةٌ
حَاكَتْ زَوَايَاهُ رَوْضاً فِيْهِ أَزْهَارُ
لَكِنَّهُ وَظَلَامُ الزَّيْغِ يُوْحِشُهُ
سِجْنٌ لَهُ مِنْ ذَوَاتِ النَّهْشِ عُمَّارُ
فَهَلْ يُحَاكِي قُبُورَ القَوْمِ مَضْجَعُكُمْ
أَمْ زَاحَمَتْكَ ظَلَامَاتٌ وآصَارُ
بِالأَمْسِ صَدْراً أَخَا كِبْرٍ وَغَطْرَسَةٍ
وَمَا سِوَى الصَّدْرِ نَهَاؤٌ وَأَمَّارُ
وَاليَوْمَ بَيْنَ هَوَامِ الأَرْضِ مُضْطَجِعٌ
في مَضْجَعٍ مَا بِهِ جَارٌ وَسُمَّارُ
وَاهاً لِدُنْيَا إِذَا مَا أَقْبَلَتْ قَتَلَتْ
وشَوْطُ اقْبَالِهَا فَوْتٌ وإِدْبَارُ
تَمُرُّ بالمَرْءِ مَرَّ الطَّيْفِ بَاسِمَةً
وخَلْفُهَا مِن جُيُوْشِ الحُزْنِ جَرَّارُ
إِذَا سَقَتْ كَأْسَ إِيْنَاسٍ أَخَا سَفَهٍ
تَجَرَّعَ السُّمَّ مِنْهُ وَهُوَ مُخْتَارُ

وَمَا السُّمُوْمُ سِوَى لِذَاتِهَا وبِهَا
كَمْ أَهْلَكَتْ أُمَماً فِي القَبْرِ قَدْمَا زُوْا
تَزْهُوْ لأَهْلِ الهَوَى حَتَّى إِذَا ابْتَهَجُوْا
جَاءَتْ بِمَا فِيْهِ أَرْزَاءٌ وَأَكْدَارُ
يَا وَيْحَ مَنْ أَخَذَتْ يَوْماً بِمِخْنَقِهِ
إِلَى طَرِيْقٍ إِلَيْهَا يَنْتَهِي العَارُ
وَيَا نَدَامَةَ مَنْ لَمْ يَبْكِ إِنْ ضَحِكَتْ
فَضِحْكُهَا لِذَوِيْ اللَّذَاتِ إِنْذَارُ
وَيَا خَسَارَةَ مَنْ أَنْسَتْهُ مَبْدَأَهُ
ومُنْتَهَاهُ وَلَمْ يُوْقِظْهُ تَذْكَارُ
كَالشَّابِ تُنْسِيْهِ عَصْرَ الشَّيْبِ غُرَّتُهُ
حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ بِالأُزْرِ أَوْزَارُ
فَرَّ الشَّبَابُ وَظَلَّ الشَّيْبُ هَازِمَهُ
إِنَّ الشَّبَابَ أَمَامَ الشَّيْبِ فَرَّارُ
فَهَلْ لِذِي الجَاهِ أَنْ يَنْسَى مَنِيَّتَهُ
والمَوْتُ فِي رَأْسِ رَبِّ الجَاهِ مِعْثَارُ
وَكَمْ وَجِيْهٍ تَعَامَى عَنْ عَوَاقِبِهِ
إِذْهَابُهُ خَشْيَةً عَمْرُوٌ وَعَمَّارُ
وَظَلَّ فِي زُخْرُفِ التَّضْلِيْلِ مُتَّجِراً
وَالنَّاسُ مِنْهُ بِسُوْقِ الزَّيْغِ تَمْتَارُ
حَتَّى إِذَا مَا الرَّدَى لِلْمَوْتِ أَضْجَعَهُ
أَضْحَى كَأُضْحِيَةٍ مِنْ حَوْلِهَا دَارُوا

وَمَـاتَ وَالخَـوْفُ حَيٌّ بَيْنَ أَضْلُعِـهِ

وَلِلمَخَـازِيْ بِـتِلْكَ الـدَّارِ أَدْوَارُ

أُفٍّ لِمُقْبِلَةٍ مَـرَّتْ عَـلَى عَـجَـلٍ

كَـأَنَّهَـا الفَجْـرُ لَمْ يُمْهِلْهُ إِسْفَـارُ

كَـأَنَّمَـا أَنْتَ وَالـدُّنْيَا وَمَـا صَنَعَتْ

أُلْعُـوْبَـةٌ بَـاعَهَـا الصِّبْيَـانِ مِهْـزَارُ

أَلْهَتْهُمُـوا بُـرْهَـةً حَتَّى إِذَا تَـلِفَتْ

وَفَـاتَهُمْ فِي المَسَـادَفُّ وَمِـزْمَـارُ

لَمْ يَلْبَثُوا فِي المَلاَهِيْ غَيْرَ سَاعَتِهِمْ

وَقَـدْ دَهَـتْهُـمْ مُـلِمَّـاتٌ وَأَكْـدَارُ

وَهَكَـذَا كُـلُّ حَـالٍ لاَ بَقَـاءَ لَهَـا

وَكُلُّنَـا فِي الجَنَى لِلْمَـوْتِ أَثْـمَـارُ

وَكُـلُّ مَنْ كَـانَتْ الأَيَّـامُ مَـرْكَبَـهُ

فَـكُـلُّ أَوْقَـاتِـهِ ظَـعْـنٌ وَأَسْـفَـارُ

تَبّـاً لِـدَارٍ أَرَتْنَـا مِـنْ مَـلاَعِبِهَـا

عَجَـائِبـاً مَـا أَتَـاهَـا الـدَّهْـرَ سَحَّـارُ

فَيَا أَخَا العِلْمِ لاَ يُنْجِيْكَ عِلْمُكَ إِنْ

فَـاتَتْـكَ خَشْيَـةُ رَبٍّ اسْمُـهُ البَـارُ

وَيَـا أَخَا المَـالِ لاَ تَـرْكَنْ لِكَثْـرَتِـهِ

فَـالـمَـالُ كَـالمَـاءِ كَـرَّارٌ وَفَـرَّارُ

وَالجَاهُ ضَيْفٌ وَعُقْبَى الضَّيْفِ رِحْلَتُهُ

وإِنْ دَعَتْـهُ لِـطُولِ المُكْثِ أَوْطَـارُ

واضْرَعْ إلى اللّهِ يا مَنْ بَاتَ في سَعَةٍ
مِـنْ نِعْـمَـةِ اللّهِ إنَّ الـدَّهْـرَ دَوَّارُ
ونِعْمَـةُ الـلّهِ تـأْتِي طَيَّ رَحْمَتِـهِ
كَمَـاطِـرٍ غَيْـثُـهُ الهَـطَّالُ مِـدْرَارُ
لَكِنَّمَـا الغَيُّ والـطُّغْيَـانُ يَنْقُصُهَـا
فَمَـا تَهَنَّى بِهَـا فِي الكَـوْنِ كُفَّـارُ
وإنْ تَقُـلْ إنَّ أَهْـلَ البَغْيِ فِي نِعَمٍ
فَـرَكْبُهُمْ فِي طَـرِيـقِ الغَـمِّ سَيَّـارُ
والغَـافِلُونَ لَهُمْ فِي القَبْـرِ مُـزْعِجَةٌ
وَبَعْـدَ فَصْـلِ القَضَـا عُقْبَـاهُمُ النَّـارُ

اللَّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الإيمَانِ واشْرَحْ صُدُورَنَا واسْتُرْ عُيُوبَنَا وأَمِّنْ خَوْفَنَا وَوَفِّقْنَا لاسْتِغْرَاقِ أَوْقَاتِنَا فِي البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ واجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ الّذِيْنَ لَا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون وآتِنَا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفِي الآخِرَة حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلّى اللّهُ عَلى مُحَمّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

(فصــل)

قَال ابْنُ القيِّم رَحِمَهُ اللّهُ :

طبَقاتُ المُكَلَّفِيْنَ في الآخِرَةِ ثَمَانِيَةَ عشَرَ طَبَقَةً أَعلاهَا مَرْتَبَةُ الرُّسُلِ صَلَواتُ اللّهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ ثَلاثُ طَبقاتٍ أَعْلاهُمْ أُولُو العَزْمِ الخَمْسَةُ ثُمَّ مَنْ عَدَاهُمْ من الرسل ثم الأَنْبِياءُ الّذِيْنَ لَمْ يُرْسَلُوا إلَى الأُمَمِ.

الرَّابِعَةُ : الصِّدِّيقُونَ وَرَثَةُ الرُّسُلِ القَائِمُونَ بِمَا بُعِثُوْا بِهِ عِلْماً وعَمَلاً وَدَعْوَةً لِلْخَلْقِ إِلى اللّهِ عَلى طَرِيْقِهِمْ .

الخَامِسَةُ : أئِمّةُ العَدْلِ وَوُلاَتُه .

السادِسةُ : المُجَاهِدُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللّهِ .

السابِعَةُ : أَهْلُ الإِيْثَارِ وَالإِحْسَانِ وَالصَّدَقَةِ .

الثّامِنَةُ : مَنْ فَتَحَ اللّهُ عَلَيْهِ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ الخَيْرِ القَاصِرِ عَلَى نَفْسِهِ مِن صَلاةٍ وَصِيامٍ وَحَجٍّ وَغَيْرِهَا .

التّاسِعَةُ : طَبَقَةُ أَهْلِ النَّجَاةِ وَهُمْ مَن يُؤَدِّيْ فَرَائِضَ اللّهِ وَيَجْتَنِبْ مَحَارِمَهُ .

العَاشِرَةُ : طَبَقَةُ قَوْمٍ أَسْرَفُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَغَشَوْا كَبَائِر مَا نَهى اللّهُ عَنْهُ وَلَكِنْ رَزَقَهُمُ اللّهُ التَّوْبَةَ النَّصُوْحَ قَبْلَ المَوْتِ فَمَاتُوا عَلَى تَوْبَةٍ صَحِيْحَةٍ .

الحادِيَةَ عَشَرْ : طَبَقَةُ أَقْوَامٍ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً وَلَقُوا اللّهَ مُصِرِّيْنَ غَيْرَ تَائِبِيْنَ لَكِنْ حَسَنَاتُهُمْ أَغْلَبُ مِنْ سَيِّئاتِهِمْ فَإِذَا وُزِنَتْ بِهَا رَجَحَتْ كِفَّةُ الحَسَنَاتِ فَهؤُلاءِ أيْضاً نَاجِحُوْنَ فَائِزُوْنَ .

الثّانِيَةَ عَشَرْ : قَوْمٌ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ وَهُمْ أَصْحَابُ الأعْرَافِ وَهُوَ مَوْضِعٌ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنّارِ ولَكِنْ مَآلُهُمْ إلى دُخُوْلِ الجَنَّةِ .

الثّالِثَ عَشَرْ : طَبَقَةُ أَهْلِ البَلِيَّةِ والمِحْنَةِ وَهُمْ قَوْمٌ مُسْلِمُوْنَ خَفَّتْ مَوازِيْنُهُمْ وَرجَحَتْ سَيِّئَاتُهُمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ وَهؤُلاءِ الّذِيْنَ ثَبَتَتْ فِيْهِمْ الأحادِيثُ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ فَيَكُونُوْنَ فِيْهَا عَلَى مِقْدَارِ أَعْمَالِهِمْ ثُمَّ يُخْرجُوْنَ

مِنْهَا بشَفَاعَةِ الشَّافِعِيْنَ وبِرَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِيْن .

الرَّابِعَةَ عَشَر : قَوْمٌ لَا طَاعَةَ لَهُمْ وَلاَ مَعْصِيَةَ ولاَ كُفْرَ وَلاَ إِيْمَانَ وَهُمْ أَصْنَافٌ مِنْهُم مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُمُ الدَّعْوَةُ بِحَالٍ وَمِنْهُم المَجْنُونُ الّذي لا يَعْقِلُ ومِنْهُمْ الأَصَمُّ الّذي لا يَسْمَعُ شَيْئاً أَبَدا ومِنْهُمْ أطْفَالُ المُشْرِكِيْنَ الّذِينَ مَاتُوْا قَبْلَ أنْ يُمَيِّزُوْا شَيْئاً فاخْتَلَفَتِ الأَئِمَّةُ فِيْهِمْ عَلَى ثَمَانِيَةَ مَذَاهِبِ أَرْجَحُهَا أَنَّهُمْ يُمْتَحِنُوْنَ في عَرَصَاتِ القِيَامَةِ ويُرْسَلُ إِلَيْهِمْ هُنَاكَ رَسُولٌ فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ .

وبِهَذَا تَتَّفِق الأَحَادِيْثُ وَتُوَافِقُ الحِكْمَةُ والعَدْلُ .

الطَّبْقَةُ الخَامِسَةَ عَشَرَ : طَبقَةُ الزَّنَادِقَةِ وَهؤُلاءِ المُنَافِقُوْنَ الّذِيْنَ أَظْهَرُوْا الإِسْلاَمَ وأبْطَنُوا الكُفْرَ وهُمْ فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِن النّارِ .

الطَّبَقَةُ السَّادِسَةَ عَشَرَ : رُؤُسَاءُ الكُفرِ وأَئِمَّتُهُ وَدُعاتُهُ وَيَتَغَلَّظُ الكُفْرُ بِغِلَظِ العَقِيْدَةِ وبِالعِنَادِ وبالدَّعْوَةِ إِلى البَاطِلِ .

الطَّبَقَةُ السّابِعَةَ عَشَرَ : طَبَقَةُ الْمُقَلِّدِيْنَ وَجُهَّالُ الكَفرَةِ وَقَدْ اتَّفَقَتِ الأُمَّةُ عَلَى أَنَّهُم كُفَّارٌ .

الثَّامِنَةَ عَشَرَ : طَبقَةُ الجِنّ وهُمْ مُكَلَّفُوْنَ مُثَابُونَ وَمُعَاقَبُوْنَ بِحَسَبِ أعْمَالِهِمْ ولِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوْا ولِيُوْفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُوْنَ .

وقَالَ الإِنابَةُ الرُّجُوعُ إِلى اللّهِ وانْصِرافُ دَوَاعِي القَلْبِ وَجَوَاذِبِهِ إِلَيْهِ وَهِيَ تَتَضَمَّنُ المَحَبَّةَ والخَشْيَةَ والنَّاسُ فِي إِنَابَتِهِمْ دَرَجَاتٌ مُتفاوِتَةٌ فَمِنْهُمْ المُنِيْبُ إِلى اللّهِ بِالرُّجُوْعِ إِلَيْهِ مِن المُخَالَفَاتِ والمَعَاصِي والحَامِلُ الخَوْفُ والعِلْمُ .

ومِنْهُمْ المُنِيْبُ إِلى اللّهِ في أَنْواعِ العِبادَاتِ فَهُوَ سَاع بِجُهْدِهِ وَمَصْدَرُهَا الرَّجَاءُ وَمُطَالَعَةُ الوَعْدِ والثَّوابِ وَهؤُلاءِ أبْسَطُ نُفُوْساً مِن الأَوَّلِيْنَ وَكُلٌّ مِنْهُمَا مُنِيْبٌ بِالأمْرَيْنِ ولَكِنْ يَغْلِبُ عَلَى الأَوَّلِيْنَ الخَوْفُ وَيَغْلِبُ الرَّجَاءُ عَلَى الآخِرِيْن .

ومِنْهُمُ المُنِيْبُ إِلَيْهِ بالتَّضَرُّعِ والدُّعَاءِ وكَثْرَةِ الافْتِقَارِ وسُؤَالِ الحَاجَاتِ كُلِّهَا مَعَ قِيَامِهِمْ بالأَمْرِ والنَّهْيِ ومِنْهُمْ المُنِيْبُ إِلى اللّهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ فَقَطْ إِنَابَة المُضْطَّرِّ لا إِنَابَةَ اخْتِيَارٍ .

وَأَعْلَى أَنْوَاعِ الإِنَابَاتِ إِنَابَةُ الرُّوحِ بِجُمْلَتِهَا إِلَيْهِ لِشِدَّةِ المَحَبَّةِ الخَالِصَةِ المُغْنِيَة لَهُمْ عَمَّا سِوَى مَحْبُوْبِهِمْ وَحِيْنَ أنَابَتْ إِلَيْهِ لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ شَيْء عَنِ الإِنَابَةِ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا رَعِيَّتُهَا وَأَدَّتْ وَظَائِفَهَا كَامِلَةً فَسَاعَةٌ من إِنَابَةِ هَذَا أَعْظَمُ مِن إِنَابَةِ سِنِيْنَ مِنْ غَيْرِهِ وذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ انتهى .

« موعظـــة »

عِبَادَ اللّهِ نَحْنُ فِي عَصْرٍ بَارَكَ اللّهُ فِيْهِ بَرَكَةً عَمَّتِ المَشَارِقَ والمَغَارِبَ وَكُلَّ مَا للأَرْضِ مِنْ أَنْحَاءَ مِمَّا نَعْلَمُهُ وَجَّهَ بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ أَفْكَارَ بَنِي آدَمَ إِلى مَا أَوْدَعَهُ فِي خَلْقِهِ مِن أَسْرَارٍ تَفُوْتُ الاحْصَاءَ وَيَسَّرَ لَهُمْ السَّبِيْلَ فَوَصِلُوا مِنْ التَّرَاقِيْ فِي الاخْتِرَاعِ والاطّلاعِ إِلى مَا يُدْهِشُ الأفْكَارَ وتَزْدَادُ بِهِ عَقِيْدَةُ المُؤْمِنِ قُوَّةً فَلا يَعْتَرِيْهِ أدْنَى شَكٍّ فِي مَا أَخْبَرَ اللّهُ بِهِ وَرَسُولُه .

أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا كُلُّها كَأَنَّهَا بَيْتٌ وَاحِدٌ يُكَلِّمُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مَع بُعْدِ المَسَافَةِ وَيُسَافِرُوْنَ بَرّاً وَبَحْراً فَيَقْطَعُوْنَ بِالمَرَاكِبِ البَرِيَّةِ والبَحْرِيَّةِ في مُدَّةٍ يَسِيْرَةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى مُدَّةٍ طَوِيْلَةٍ فِيْمَا مَضَى وَتَنْقُلُ تِلْكَ المَرَاكِبُ الّتِي خَلَقَهَا

اللّهُ لَنا مِنَ الأثْقالِ بِقُوَّةٍ وسُرْعَةٍ تَقِفُ أَمامَها الألبَابُ حَائِرَاتٍ بَلْ لَوْ أَرادُوْا مُسَابَقَةَ الطّيرِ فِي السَّمَاءِ لَسَبقُوْهُ بِالطّائِراتِ .

فَسُبْحَانَ مَنْ أَرْشَدَ عِبادَهُ إِلَى صُنْعِ هَذِهِ المُخْتَرعَاتِ قَالَ تَعَالَى « واللّهُ أخرجَكُم مِن بُطُوْنِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ شَيْئاً وَجعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأبْصارَ والأفْئِدَةَ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُوْنْ » .

وانْظُر إِلَى الكَهْرباءِ وَفَائِدَتِهِ العَظِيْمَةِ في اللَّيْلِ وَالنَّهارِ فَقَدْ صارَ اللَّيْلُ بِأنْوارِهِ وكَأنَّهُ نَهارٌ وَمَا فِيْهِ مِنْ أسْبَابِ الرَّاحَةِ والمَنَافِعِ العَظِيْمَةِ الّتِي لَمْ تَحْصُلْ لِمَنْ قَبْلَنَا أَلَيْسَ هَذا مِن أَعْظَم البَراهِيْنِ والأدِلّةِ عَلَى صِدْقِ مَا أَخْبَرَ اللّهُ بِهِ بِقَوْلِهِ « سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ » .

وَعَلَى صِدْقِ مَا أَخبرَ بِهِ الصَّادِقُ المَصْدُوْقُ مِنْ أَنَّ الزَّمَانَ يَتقَارَبُ وَهَا أَنْتَ لَا تَمْشِي شَرْقاً وَلَا غَرْباً إِلّا وَأَنْتَ ترَى وَتَسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الأَسْرَارِ مَا تَحارُ بِهِ الأَفْكَارُ فَنَحْنُ اليَوْمَ نَتقَلَّبُ فِي كُلِّ أَحْوالِنَا فِي نَعِيْمٍ لَمْ يَظْفَرْ بِهِ عَصْرٌ مِنَ الأعْصارِ حَتَّى إِنَّكَ تَرَى حَيَوانَ هَذَا العَصْرِ فِي رَاحَةٍ وإِكْرَامٍ لَمْ تَتَمَتَّعْ بِهَا بَنُوْ العُصُورِ الْمَاضِيَاتِ إِنَّ حَقّاً عَلَيْنَا إزاءَ كُلِّ هَذَا أَنْ نَكُوْنَ أَسْبَقَ الأجْيَالِ فِي مِيْدَانِ شُكْرِ اللّهِ لِيُبَرْهِنَ كُلٌّ مِنَّا أَنَّهُ يُحِسُّ وَيَشْعُرُ بِمَا اخْتَصَّهُ بِهِ مَوْلَاهُ أ ـ هـ .

ولكِنْ يَا لِلأَسَفِ لَمْ يَكُنْ مِنَّا شُكْرُ هَذِهِ النِّعَمِ وَاسْتِعْمَالُهَا فِي طَاعَةِ اللّهِ وَمَرَاضِيْهِ وَدَلِيْلُ ذَلِكَ مَا تَرَى وَتَسْمَعُ مِن المَعَاصِي والمُنْكَراتِ الّتِي تَكَادُ أَنْ تَبْكِي مِنْ فُشُوِّهَا وَازْدِيَادِهَا الجَمَادَاتُ .

فَيَا لَلَّهِ لِلْمُسْلِمِيْنَ إِنَّها لَتَجْرَحُ قَلْبَ المُؤْمِنِ السَّالِمِ مِنْهَا جَرحاً يُوْشِكُ أَنْ يُوْصِلَهُ إِلى القَبْرِ اللّهُمَّ وَفِّقْ وُلَاتَنا لإِزَالَةِ هَذِهِ المُنْكَراتِ وَلتأْيِيْدِ الإِسلامِ

والمُسْلِمِيْنَ في جَمِيْعِ الجِهَاتِ وَوَفِّقْهُمْ لِلرِّفْقِ فِي رَعَايَاهُمْ والنُّصْحِ لَهُمْ وَسَدِّدْ خُطَاهُمْ .

والله أعْلَمُ وَصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّد وآلَهِ وَسَلّم .

(فصـــل)

عَنْ ابن عَبَّاسٍ رضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ نِعْمَتَانِ مَغْبُوْنٌ فِيْهِمَا كَثِيْرٌ مِن النّاسِ الصّحة والفَرَاغُ رَواهُ البُخاريّ والتّرمذيّ والنّسائيّ وأحْمد وابن ماجة .

لَقَدْ صَدَقَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فِيْمَا قَالَهُ فِي هَذَا الحَدِيْثِ العَظِيْمِ فَإِنَّ كَثِيْراً مِنَ النَّاسِ يُهْمِلُ وَاجِبَ النِّعَمِ عَلَيْهِ فلاَ يَسْتَقْبِلُ النِّعَمَ بِمَا يَجِبُ لَهَا مِنَ الشُّكْرِ وَلاَ يُحَاوِلُ اسْتِبْقَاءَهَا بأداءِ حَقِّ اللّهَ فِيْهَا بَلْ يُعْرِضُ عَنْ اللّهِ وَيَنْآى بِجَانِبِهِ وَلاَ يَذْكُرُ هَذِهِ النِّعْمَةَ مِنْ نِعَمِ اللّهِ عَلَى عَظَمِهَا إلاّ حِيْنَ يَعْدُوْ عَلَيْهَا المَرَضُ فيُذْبِلُ نَضْرَةَ العَافِيَةِ وَيَخْطُوْ بِقُوّةِ الشَّبَابِ على غَيْرِ مَوْعِدٍ إِلى ضَعْفِ الشَّيْخُوْخَةِ .

أَمَّا حِيْنَ يَنْعَمُ الإِنْسَانُ بِسَلاَمَةِ أَعْضَائِهِ وقُوّةِ بُنْيَتِهِ وَحِيْنَ يُحِسُّ الحَيَوِيَّةَ تَسْرِيْ فِي عُرُوْقِهِ فَهُوَ يَنْطَلِقُ فِي شَهَوَاتِهِ خَاضِعاً لَهَا ، وَهُوَ يَظُنُّ نَفْسَهُ الآمِرَ النَّاهِي ، وخَاسِراً بِهَا وَهُوَ يَحْسِبُ نَفْسَهُ قَدْ ربِحَ كُلَّ شَيْءٍ .

وتَمْضِيْ بِهِ أَيَّامُهُ وَلَيَالِيْهِ وَهُوَ يرْتَعُ كَالحَيَوانِ فِي مَلَذَّاتِهِ مِنْ مَأْكُوْلاتٍ وَمَشْرُوْبَاتٍ دُوْنَ تَفْرِقَةٍ بَيْنَ حَلاَلٍ وَحَرامٍ ومِنْ غَيرِ تَمْيِيْزٍ بَيْنَ طَيِّبٍ وَخَبِيْثٍ فَيُسِيءُ إِلَى نَفْسِهِ وَيَبْخَسُهَا حَقّهَا إِذْ يُضَيِّعُ طَاقَتَهَا عَلَى العَمَلِ النَّافِعِ وَعَلَى الطَّاعَةِ الوَاجِبَةِ فِي اللَّهْوِ واللَّعِبِ .

وَبِلَا شَكٍّ أَنَّ الصِّحَةَ عَرَضٌ لا يَدُوْمُ بَلْ يَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ وأَنَّ المَرَضَ يُفْقِدُ الإِنْسَانَ مُعْظَمَ طَاقَتَهُ عَلَى العَمَلِ بَلْ رُبَّمَا فَقَدَهَا كُلَّها وَعَجِزَ فَمِنَ السَّفَهِ والحُمُقِ إِذاً أَنْ لاَ يَغْتَنِمَ الإِنْسَانُ فُرْصَةَ الصِّحَّةِ والفَرَاغِ مِن الشَّوَاغِلِ لِلطَّاعَةِ والعِبَادَةِ .

وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَتَقَدَّمُ بِهِ الزَّمَنُ يَقْصُرُ عُمُرُهُ وَمَقْدِرَتُهُ عَلَى العَمَلِ تَضْعُفُ كُلَّمَا خَطَا بِهِ الزَّمَنُ وَمحْصُوْلُهُ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَقِلُّ كُلَّمَا أَقْعَدَهُ المَرَضُ أَوْ أَثْقَلَتْهُ السُّنُوْن فالعَاقِلُ اليَقِظُ يُحَافِظُ عَلَى وَقْتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مُحافَظَتِهِ عَلَى مَالِهِ وَلَا يُضَيِّعُ مِنْهُ شَيْئاً بَلْ يَسْتَعْمِلَهُ فِيْمَا يُقَرِّبُهُ إِلَى اللّهِ والدّارِ الآخِرَةِ أَوْ مَا هُوَ سَبَبٌ إِلى ذَلِكَ فَإِنَّ فَاتَهُ شَيْءٌ أَوْ نَسِي شَيْئاً مِنْ أَعْمَالِهِ بِاللّيْلِ قَضَاهُ بِالنَّهَارِ وبِالعَكْسِ .

ولِلّهِ آياتٌ كَوْنِيَّةٌ وآيَاتٌ قُرْآنِيّةٌ يَتَمَشَّى المُسْلِمُ النَّشِيْطُ المُبْتَعِدُ عَنْ الكَسَلِ والعَجْزِ عَلَى ضَوْئِهَا . قال تَعَالى : ﴿وهُوَ الّذِي جَعَلَ اللّيْلَ وَالنّهار خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أنْ يَذّكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ وقَالَ : ﴿إنَّ في اخْتِلافِ اللّيلِ والنّهارِ ومَا خلَق اللّه في السموات والأرضِ لآياتٍ لقَوْمٍ يَتّقُون﴾ .

وقَالَ تَعالى : ﴿يُغْشَى اللّيلَ النّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ فاللّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْ هَذِهِ عَبَثاً فَالذّاهِلُونَ عن مَعَانِي هَذِهِ الآياتِ ، الهَائِمُوْنَ وَرَاءَ مَنَافِعِهِمْ المُعَجَّلَةِ حَمْقَى لا يَنْتَصِحُوْنَ مِن حِكْمَةٍ وَلا يَسْتَفِيْدُوْنَ مِنْ دَرْسٍ تَجِدْهُمْ لا يُبَالُوْنَ بإضَاعَةِ أَوْقَاتِهِمْ في غَيْرِ فائِدَةٍ وَرُبّما أَضاعُوْهَا فِي المَعَاصِي .

شعرا ـ قال بعضهم :

« إِذا شَغَّلَ الضُّيَاعُ آلاتِ لَهْوِهِمْ
وَطَابَ لَهُمْ عِنْدَ المَلاهِي مَحْفَلُ »
« وَسُرُّوْا بِمَا فِيْهِ هَلاكُ نُفُوْسِهِمْ
وَدِيْنُهُمُ وَالأَهْلُ وَالمَالُ أَوَّلُ »
« فَقُمْ وَتَوَضّأ وأقْصِدْ الماجِدَ الّذي
إذا مَا مَضَى الثُّلْثَانِ لِلَّيْلِ يَنْزِلُ »
« يَقُولُ أَلَا مِنْ سَائِلٍ يُعْطَ سُؤْلَهُ
ومُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرْ لَهُ مَا يُؤَمِّلُ »
« ومِنْ مُذْنِبٍ مِمَّا جَنَى جَاءَ تَائِباً
إِلَى غَافِرٍ لِلّذنْبِ لِلتَّوْبِ يَقْبَلُ »
« وَكَرِّرْ سُؤَالاً وَالدُّعَا بِتَضَرُّعٍ
لَعَلّكَ تُحْظَى بِالفَلَاحِ فَتُقْبَلُ »
« وَقُلْ عَبْدُكَ المِسْكِيْنُ قَدْ جَاءَ تائِباً
وَيَرْجُوْكَ تَوْفِيْقاً ولِلْعَفْوِ يَأْمَلُ »
« فَجُدْ وَتَجَاوَزْ يَا جَوَادُ لِمَنْ أتَى
وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا رَجَاؤُكَ مَوْئِلُ »

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ الضَّيَاعِ لِلْوَقْتِ الّذِيْنَ كَانَ أَمْرُهُمْ فُرُطَا وأَعْمَارُهُمْ سَبَهْلَلَا لا يُفِيْقُوْنَ مِنْ قَتْلِ أَوْقَاتِهِمْ فِي البَطَالَةِ وعِنْدَ المُنْكَراتِ مِنْ كورة وفِدْيو وتلفزْيُون ومِذْيَاعٍ وسِيْنَمَا وَوَرَقٍ وَغِيْبَة ونَمِيْمَةٍ وتَجَسُّسٍ على المسلمين ونحْوِ ذَلِكَ.

رُبَّمَا أَضَافُوْا إلى ذَلِكَ الجِنَايَةَ عَلَى أَوْقَاتِ الآخَرِيْن فَشَغَلُوهُم عَنْ أَعْمَالِهِمْ بِشُئُونٍ تَافِهَةٍ أَوْ فِيْمَا يَعُوْدُ عَلَيْهِم بِالخُسْرانِ فَهَؤُلَاءِ أَسَاؤُوا مِنْ جِهَتَيْن عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِذْ يُمْضُونَ أَيَّامَهُمْ فِي غَيْرِ عَمَلٍ وَعَلى غَيْرِهِمْ حَيْثُ شَغَلُوْهُمْ عَن العَمَلِ والعَجَبُ أنَّ هَؤُلَاءِ الّذِيْنَ اعْتَادُوْا قَتْلَ الوَقْتِ إِذَا مَا تَبَيَّنَ فَشَلُهُمْ فِي نَوْبَةِ يَقْظَةٍ رَاحُوْا يَتساءَلُوْنَ عَنْ سِرِّ هَذَا الفَشَلِ وَيَتَّهِمُوْنَ الأَيَّامَ تارةً والحَظَّ تَارَةً أُخْرَى ، كَأَنَّهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ مَطْبُوْعُونَ عَلَى النَّجَاحِ دُوْنَ عَمَلٍ وَأَنْ يَجْنُوْا ثِمَارَ مَوَاهِبِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَتَلُوْا هَذِهِ المَوَاهِبَ .

أَمَّا السَّبَبُ الحَقِيْقِي لِفَشَلِهِمْ فَهُوَ لَا يَخْطُرُ لَهُمْ بِبالٍ وَلا يُفَكِّرُوْنَ فِيْهِ وذَلِكَ لِضُعْفِ عُقُوْلِهِم .

فَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَن هَؤُلَاء الكُسَالَى كُلَّ البُعْدِ لِئلا يُؤَثِّرُوْا عَلَيْهِ فَيُصِيْبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِن ضَيَاعِ العُمْرِ سُدَى وَيَجْتَهِدَ فِي صُحْبَتِهِ ضِدَّ هَؤُلَاءِ أُنَاساً أَتْقِيَاءَ مُحَافِظِيْنَ عَلَى أَوْقَاتِهِمْ لَا يُمْضُوْنَهَا إلا في طاعَةِ اللّهِ وَمَا أَحْسَنَ مَا قِيْل :

فَصَاحِبْ تَقِيّاً عَالِماً تَنْتَفِعْ بِهِ
فَصُحْبَةُ أَهْلِ الخَيْرِ تُرْجَى وَتُطْلَبُ
وَإِيَّاكَ والفُسَّاقَ لا تَصْحَبَنَّهُمْ
فَقُرْبُهُمْ يُعْدِي وَهَذَا مُجَرَّبُ
فَإِنَّا رَأَيْنَا المَرْءَ يَسْرِقُ طَبْعَهُ
مِن الإِلْفِ ثُمَّ الشَّرُّ لِلنَّاسِ أَغْلَبُ
وجَانِبْ ذَوِيْ الأَوْزارِ لا تَقْرَبنَّهُمْ
فَقُرْبُهُمْ يُرْدِي ولِلْعِرْضِ يَثْلِبُ

وبالتَّالِي فالّذِي يُرْشِدُنَا إلَيْهِ النَّبيُّ ﷺ فِي هَذا الحَدِيثِ أنَّهُ يُقَرِّرُ أوّلاً أنَّ صِحَّةَ البَدَنِ نِعْمَةُ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللّهِ عَلَيْنَا لِيُرَبّي فِيْنَا الوَعْي بِقِيْمَةِ الطَّاقَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الّتِي خَلقَهَا اللّهُ فِيْنَا . فَنَسْتَغلّها فِيمَا يَعُوْدُ عَلَيْنَا أَفْراداً وَجَماعَةً بالخَيْرِ والنَّفْعِ .

وَيُقَرِّرُ لَنا ﷺ ثَانِياً أَنَّ الوَقْتَ هُوَ الحَيَاةُ ، وَأَنَّ مَا نَحْسِبُهُ فَرَاغاً فَنَتَفَنَّنُ فِي وَسَائِلِ قَتْلِهِ هُوَ الطَّرِيْقُ إِلى التَّقَدُّمِ فَالحَقِيْقَةُ أَنَّ الحَيَّ الّذِي يُقَدِّرُ حَيَاتَهُ يَبْخَلُ فِي الوَقْتِ أَنْ يَكُونَ فِيْهِ فَارِغاً وَيَجْتَهِدُ فِيْهِ فِي العَمَلِ الذي يُقَرِّبُهُ إِلَى اللّهِ وإِلى مَرْضَاتِهِ مِنْ صَلاَةٍ وَصَدقَة وتَهْلِيل وتَسْبِيح وتكْبير وتَحْمِيد .

وَمِن اسْتِغْلالِ الوَقْتِ بأنْفَعِ الوَسَائِلِ المُدَاوَمَةُ عَلى العَمَلِ وَإِنْ كَانَ قَلِيْلاَ . وذَلِكَ أَنَّ اسْتِدَامَةَ العَمَلِ القَلِيْلِ عَلَى تَوالي الزَّمَانِ واسْتِمْرَارِهِ يُكَوِّنُ مِن القَلِيْل كَثِيْراً مِنْ حَيْثُ لا يَجِدُ الإِنْسَانُ مَشَقَّةً وَلا ضَجَراً .

وفِي الحَدِيْث إنّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلى اللّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ وفِي الحَدِيث الآخَرِ إِنَّ الدِّيْنَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدّيْنَ أَحَدٌ إِلّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوْا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوْا واسْتَعِيْنُوْا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ والقَصْدَ القَصْدَ .

فَقَدْ ختَمَ ﷺ هَذَا الحَدِيثَ بوَصِيَّةٍ خَفِيْفَةٍ على النُّفُوسِ ، نَافِعَةٍ تُرْشِدُ إِلى المُحَافِظَةِ عَلَى الوَقْتِ ، حَيْثُ حَثَّ فِيْهَا عَلَى التَّبْكِيْر وَرغَّبَ أَنْ يَبْدأَ المُسْلِمُ أَعْمَالَ يَوْمِهِ نَشِيْطاً طَيِّبَ النَّفْسِ مُكْتَمِلَ العَزْمِ فَإِنَّ الحِرْصَ عَلَى الانْتِفَاعِ مِنْ أَوَّلِ اليَوْمِ يَسْتَتْبِعُ الرَّغْبَةَ القَوِيَّةَ في أنْ لا يَضِيْعَ سائِرُهُ سُدَى .

فَهَذِهِ الأَوْقَاتُ الثّلاثَةُ المَذْكُورَةُ فِي الحَدِيثِ ، كَمَا أَنَّهَا السَّبَبُ الوَحِيْدُ لِقَطْعِ المَسَافَاتِ القَرِيْبَةِ والبَعِيْدَةِ في الأَسْفَارِ الحِسّيَةِ مَعَ رَاحَةِ المُسَافِرِ وَرَاحَةِ

رَاحِلَتِهِ وُوُصُوْلِهِ بِرَاحَةٍ وَسُهُوْلَةٍ فَهِيَ السَّبَبُ الوَحِيْدُ لِقَطْعِ السَّفَرِ الأُخْرَوِيِّ وَسُلُوْكِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ والسَّيْرِ إلى اللّهِ سَيْراً جَمِيْلاً .

فَمَتَى أَخَذَ العَامِلُ نَفْسَهُ وَشَغَلَهَا بِالخَيْرِ والأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ المُنَاسِبَةِ لِوَقْتِهِ أَوَّلَ نَهَارِهِ وآخِرَ نَهَارِهِ وشَيْئاً مِنْ لَيْلِهِ وخُصُوصاً آخِرَ اللَّيْلِ حَصَلَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ ومِنَ البَاقِيَاتِ الصّالحاتِ أَكْمَلُ حَظٍّ وَأَوْفَرُ نَصِيْبٍ وَنَالَ السَّعَادَةَ والفَوْزَ والفلاحَ وَتَمّ لَهُ النَّجَاحُ بِإِذْنِ اللّهِ فِي رَاحَةٍ وَطُمَأْنِيْنَةٍ مَعَ حُصُوْلِ مَقْصَدِهِ الدُّنْيَوِيّ وأغْرَاضِهِ النَّفْسِيَّةِ .

وَمِمَّا وَرَدَ فِي الحَثِّ عَلَى صِيَانَةِ الوَقْتِ مَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ : شَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ .

وَقَال ﷺ مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللّهِ غَالِيَةٌ ألاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللّهِ الجَنَّةَ وَرُوِيَ عنْ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ مَرَّ بِي رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ وأنَا مُضْطَجِعَةٌ مُتَصَبِّحَةٌ فَحَرَّكَنِيْ بِرِجْلِهِ ثُمَّ قَالَ يَا بُنَيَّةَ قُوْمِي اشْهَدِي رِزْقَ رَبِّكِ وَلاَ تَكُونِي مِنَ الغَافِلِيْنَ فَإِنَّ اللّهَ يَقْسِمُ أَرْزَاقَ النّاسِ مَا بَيْنَ طُلُوْعِ الفَجْرِ إلى طُلُوْعِ الشَّمْسِ » إِذْ أَنَّ الجَادِيْنَ أَوْ الكُسَالَى يَتَمَيَّزُوْنَ فِي هَذَا الوَقْتِ فَيُعْطَى كُلُّ أمْرِءٍ حَسَبَ اسْتِعْدَادِهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ .

وخِتَاماً فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ اللَّبِيْبِ أَنْ لاَ يُضَيِّعَ أَيَّامَ صِحَّتِهِ وَفَرَاغَ وَقْتِهِ بِالتَّقْصِيْرِ فِي طَاعَةِ اللّهِ، وَأَنْ لاَ يَثِقَ بِسَالِفِ عَمَلٍ وَيَجْعَلَ الاجْتِهَادَ غَنِيْمَةَ صِحَّتِهِ ، وَيَجْعَلَ العَمَلَ فُرْصَةَ فَراغِهِ . فَلَيْسَ الزَّمَانُ كُلُّهُ مُسْتَعِدّاً وَلاَ مَا فَاتَ مُسْتَدْرِكاً .

قَال بَعْضُهُمْ فَوْتُ الوَقْتِ أَشَدُّ مِنْ فَوْتِ الرُّوحِ عِنْدَ أَصْحَابِ الحَقِيْقَةِ لأَنَّ فَوْتَ الرُّوحِ إنْقِطَاعٌ عنْ الخَلْقِ وَفَوْتُ الوَقْتِ انْقِطَاعٌ عَنِ الحَقِّ .

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ الرَّاحَةُ لِلرِّجَالِ غَفْلَةٌ ولِلنِّسَاءِ غِلْمَةٌ فَالفَرَاغُ مَفْسَدَةٌ وقَالَ بَعْضُهُمْ لا تُمْضِ يَوْمَكَ في غَيْرِ مَنْفَعَةٍ وَلاَ تُضِعْ مَا لَكَ فِي غَيْرِ الفِعْلِ الحَسَنِ ، فَالعُمْرُ أقْصَرُ مِنْ أنْ يَنْفَدَ فِي غَيْرِ المَنَافِعِ كَمَا قِيْلَ :

أَذَانُ الْمَـرْءِ حِيْنَ الـطِّفْـل يَـأتِيْ
وتَـأْخِيْـرُ الصَّـلاةِ إلـى المَمَـاتِ
دَلِـيْـلٌ أَنَّ مَـحْـيَـاهُ قَـلِيْـلٌ
كَمَـا بَيْـنَ الأذَانِ إلـى الـصَّـلاَةِ

وَالمَالُ أَقَلُّ مِنْ أَنْ يُصْرَفَ فِي غَيْرِ الصَّنَائِعِ والعَاقِلِ أَجَلُّ وأَكْيَسُ مِنْ أنْ يُفْنِي أَيَّامَهُ فِيْمَا لاَ يَعُودُ إِلَيْهِ نَفْعُهُ وَخَيْرُه ويُنْفِقُ أَمْوالَهُ فِيْمَا لاَ يَحْصُلُ لَهُ ثَوَابُهُ وأجْرُهُ .

وَقَالَ عِيْسَى عَلَيْهِ وَعلى نَبِيِّنَا أفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ البِرُّ ثَلاَثَةٌ المَنْطِقُ والنَّظَرُ والصَّمْتُ فَمَنْ كَانَ مَنْطِقُهُ في غَيْرِ ذِكْرٍ فَقَدْ لَغَا وَمَنْ كَانَ نَظَرُهُ فِي غَيْرِ اعْتِبَارَ فَقَدَسَها وَمَنْ كَانَ صَمْتُهُ فِي غَيْرِ فِكْرٍ فقَدَ لَهَا .

ومِمَّا يَحْفِزُ الإنْسَانَ عَلَى المُسَابَقَةِ إلى فِعْلِ الطَّاعَاتِ تَذَكُّرُ يَوْمِ القِيَامَةِ وَحَالَةَ السَّبْقِ لِلْمُجدِّيْنَ قَالَ بَعْضُهُمْ :

إذَا مَضَتِ الأَوْقَـاتُ فِي غَيْرِ طَـاعَـةٍ
وَلَمْ تَكُ مَحْزُوْناً فَذَا أعْظَمُ الخَطْبِ

عَلاَمَةُ مَـوْتِ القَلْب أنْ لاَ تَرَى بِـهِ
حَراكاً إِلى التّقْوَى ومَيْلاً عَنِ الذَّنْبِ

وقال الآخر :

وَلَـوْ قَـدْ جِئْتَ يَـوْمَ الفَصْـلِ فَـرْداً
وأبْـصَـرْتَ المَنَـازِلَ فِـيْـهِ شَتَّـى
لأَعْـظَمْتَ النَّـدَامَـةَ فِـيْـهِ لَهْـفـاً
عَلَى مَـا فِي حَيَـاتِـكَ قَـدْ أضَعْتَـا

فَالعَاقِلُ مَنْ يُبَادِرُ أَيَّامَ الصِّحَّةِ وَالسَّلاَمَةِ ولا يُفَوِّتُ مِنْهَا شَيْئاً فِي غَيْرِ طَاعَةِاللّهِ.

قال الأَعْشَى :

إذا أَنْتَ لَمْ تَـرْحَـلْ بِـزَادٍ مِنَ التُّقَى
وَأَبْصَرْتَ بَعْدَ الْمَـوْتِ مَنْ قَدْ تَـزَوَّدَا
نَـدِمْتَ عَـلَى أَنْ لاَ تَكُـوْنَ كَمِثْلِهِ
وَأَنَّـكَ لم تُـرْصِـدْ كَـمَا كـانَ أَرْصَـدَا

شعرا :

تَغَنَّمْ سُكُـوْنَ الحَـادِثَـاتِ فَـإِنَّهَـا
وَإِنْ سَكَنَتْ عَمَّـا قَلِيْـلٍ تَحَـرَّكُ
وبَـادِرْ بـأَوْقَـاتِ السَّـلامَـةِ إنَّهَـا
رِهَـانٌ وهَـلْ لِلرَّهْنِ عِنْـدَكَ مَتْـرَكُ

نَسْأَل أن يُوفِقَنَا لِتَدبُّرِ آياتِهِ وفَهْمِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ والعَمَلِ بِهِمَا وأَنْ يَرْزُقَنَا الانْتِفَاعَ بِمُرُوْرِ الزَّمَنِ على خَيرِ وَجْهٍ إِنَّه القَادِرُ على ذلكَ ، اللهم أيْقِظْنَا مِن هَذِهِ السِّنَةِ وَوَفِقْنَا لإتِّبَاعِ ذَوِي النُّفُوسِ المُحْسِنَةْ وآتِنَا في الدنيا حَسَنَةً وفي الآخرةِ حَسنةً وَقِنَا عذابَ النارِ ، اللهم وآتِنَا أَفْضَلَ ما تُؤْتِي عِبَادَكَ الصَّالِحِيْنَ

واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

(فصل)

وفي وَصِيَّةِ الإِمَامِ المُوَفَّقِ بنِ قُدَامَةَ مَا لَفْظُهُ : فاغْتَنِمْ رَحِمَكَ الله حَيَاتَكَ النَّفِيْسَةَ واحْتَفِظْ بأَوْقَاتِكَ العَزِيْزَةِ واعْلَمْ أنَّ مُدَّةَ حَيَاتِكَ مَحْدُوْدَةٌ وأَنْفَاسَكَ مَعْدُوْدَةٌ فكُلُ نَفَسٍ يَنْقُصُ بِهِ جُزْءٌ مِنْكَ والعُمْرُ كُلُّهُ قَصِيْرٌ والبَاقِي مِنْهُ هُوَ اليَسِيْرُ وَكُلُ جُزْءٍ مِنْهُ جَوْهَرةٌ نَفِيْسَةٌ لا عِدْلَ لَهَا والبَاقِي مِنْهُ هُوَ اليَسِيْرُ وَكُلُ جُزْءٌ مِنْهُ جَوْهَرَةٌ نَفِيْسَةٌ لا عِدْلَ لَهَا ولا خلفَ مِنْهَا فإنَّ بِهَذِهِ الحَيَاةِ اليَسِيْرَةِ خُلُودُ الأَبَدِ في النَّعِيْمِ أَوْ العَذَابِ الأَلِيْمِ .

وإذا عَادَلْتَ هَذِهِ الحَيَاةَ بِخُلُودِ الأَبَدِ عَلِمْتَ أَنَّ كُلَّ نَفَسٍ يُعَادِلُ أكْثَرَ مِنْ أَلفِ أَلْفِ عَامٍ فِي نَعِيْمٍ لاَ خَطَرَ لَهُ أَوْ خِلافَ ذَلِكَ وما كانَ هَكَذَا فَلا قِيْمَةَ لَهُ فَلاَ تُضَيِّعَ جَوَاهِرَ عُمْرِكَ النَّفِيْسَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ ولا تُذْهِبْهَا بِغَيْرِ عِوَضٍ واجْتَهِدْ أَنْ لاَ يَخْلُو نَفَسٌ مِنْ أَنْفَاسِكَ إلاَّ في عَمَلِ طَاعَةٍ إو قُرْبَةٍ تُقَرَّبُ بِهَا فإِنَّكَ لَوْ كَانَ مَعَكَ جَوْهَرَةٌ مِن جَوَاهِرِ الدُّنْيَا لَسَاءَكَ ذَهَابُهَا فَكَيْفَ تُفَرِّطُ في سَاعَاتِكَ وكَيْفَ لاتَحْزَنُ عَلَى عُمرِكَ الذَّاهِبِ بِغَيْرِ عِوَضٍ انتهى .

وعن عُمَرَ بنِ ذَرٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ اعْمَلُوا لأَنْفُسِكُمْ رَحِمَكُم الله في هَذَا اللَّيْلِ وَسَوَادِهِ ، فإِنَّ المَغْبُوْنَ مَن غُبِنَ خَيْرَ اللَّيلِ والنَّهارِ ، والمَحْرُوْمَ مَن حُرِمَ خَيْرَهُمَا ، إِنَّمَا جُعِلاِ سَبِيْلاَ لِلْمُؤْمِنِينَ إلى طَاعَةِ ربّهم ؛ وَوَبالاً على الآخَرِيْنَ لِلْغَفْلَةِ عن أنْفُسِهِم فأَحْيُوا لِلّهِ أَنْفُسَكُمْ بذِكْرِهِ ، فانَّمَا تَحْيَا القُلُوبُ بِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

كَمْ مِن قائِمٍ لِلهِ جَلَّ وَعَلا في هَذَا الليلِ قَدْ اغْتَبَطَ بقِيَامِهِ فِي ظُلْمَةِ

حُفْرَتِهِ وَكَمْ مِن نَائِمٍ فِي هَذَا اللَّيْلِ قَدْ نَدِمَ عَلَى طُولِ نَوْمَتِهِ عِنْدَمَا يَرَى مِن كَرَامَةِ اللهِ لِلْعَابِدِيْنَ غَداً فَأغْتَنِمُوْا مَمَرَّ السَّاعَاتِ واللَّيَالِي والأَيَّامِ رَحِمَكُم اللهُ وَرَاقِبُوا اللهَ جَلَّ وَعَلاَ في كُلِّ لَحْظَةٍ ودَاوِمُوْا شُكْرَهُ .

قالَ مُحَمَّد بنُ عَلي الترمذيُ اجْعَل مُرَاقَبَتَكَ لِمَنْ لا تَغِيبُ عن نَظَرِهِ إِلَيْكَ واجْعَلْ شُكْرَكَ لِمَنْ لا تَنْقَطِعُ نِعْمَتُهُ عَنْكَ واجْعَلْ خُضُوْعَكَ لِمَنْ لا تَخْرُجُ عَنْ مُلْكِهِ .

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : العَبْدُ مِنْ حِيْنِ اسْتَقَرَّتْ قَدَمُهُ في هذِهِ الدارِ فَهُوَ مُسَافِرٌ فِيْهَا إلى رَبِّهِ ، وَمُدَّةُ سَفَرِهِ عُمْرُهُ ولأيَّامُ واللَّيالِي مَرَاحِلُ فلا يَزَالُ يَطْوِيْهَا حَتّى يَنْتَهِي السَّفَرُ ، فالكَيِّسُ لاَ يَزَالُ مُهْتَماً بِقَطْعِ المَرَاحِلِ فِيْمَا يُقَرِّبُهُ إلى اللهِ لِيَجِدَ ما قَدَّمَ مُحْضَراً ثُمَّ الناسُ مُنْقَسِمُونَ إلى أقْسَامٍ ، مِنْهُمْ مَن قَطَعَهَا متزَوِّداً بِمَا يُقَرِّبُهُ إلى دَارِ الشَّقَاءِ مِن الكُفْرِ وَأَنْوَاعِ المَعَاصِيْ .

ومِنهُمْ مَنْ قَطَعَهَا سَائِراً فِيْهَا إلى اللهِ وإلى دَارِ السَّلامِ ، وَهُمْ ثَلاَثَةُ أَقْسَامٍ : سَابِقُوْنَ أدُّوْا الفَرَائِضَ وأَكْثَرُوْا مِن النَّوافِلِ بأنْوَاعِهَا ، وَتَرَكُوْا المَحَارِمَ ، والمَكْرُوْهَاتِ وفُضُولِ المُبَاحَاتِ ، ومُقْتَصِدُوْنَ أَدَّوْا الفَرَائِضَ وتَرَكُوْا المَحَارِمَ ، ومِنْهُمُ الظَّالِمُ لنفسه الَّذي خَلَطَ عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً وهُمْ فِي ذَلِكَ دَرجَاتٍ يَتَفاوَتُوْنَ تَفَاوُتاً عَظِيْماً أ هـ .

وقالَ رَحِمَهُ اللهُ : النَاسُ مُنْذُ خُلِقُوا لَمْ يَزَالُوْا مُسَافِرِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ حَطٌّ عن رِحَالِهِم إلا في الجَنَةِ أو النَّارِ والعَاقِلُ يَعْلَمُ أن السّفَرَ ، مبْنِيٌّ على المَشَقَّةِ وَرُكُوبِ الأَخْطَارِ وَمِنَ المُحَالِ عَادَةً أَنْ يُطْلَبَ فِيه نَعِيْمٌ ، ولَذَةٌ وَرَاحَةٌ إِنَّمَا ذَلِكَ بَعْدَ انْتِهَاءِ السَّفَرِ وِمِنَ المَعْلومِ أنَّ كُلَّ وَطْأةِ قَدَمٍ أوْ كُلَّ آنٍ مِن آنَاتِ السَّفَرِ غَيْرَ وَاقِفَةٍ ولا المُكَلَّفُ وَاقِفٌ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ سَافَرَ عَلَى الحَالِ التِي يُحِبُ أَنْ

يَكُوْنَ المُسَافِرُ مِنْ تَهْيِئَةِ الزَّادِ المُوْصِلِ وَإِذَا نَزَلَ أو نام أو استراح فعلى استعداد .

شعراً :

أَنْتَ المُسَافِرُ والدُنْيَا الطَّرِيْقُ وَأَنْ
فَاسُ خُطَاكَ وَرَأْسُ المَـرْءِ إِيْمَانُ
فَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ تَقْوَى اللهِ مَدْرَجَةً
فَلِلْأَسَاءَآتِ قُطَّاعٌ وأَعْوَانُ
يَا قَومُ دُنْيَاكُمُوْا دَارٌ مُزَوَّقَةٌ
لكِنْ لَهَا وُضِعَتْ في الرَّمْلِ أَرْكَانُ
لَهَا سُقُوفٌ بِلَا أسٍ مُزَخْرَفَةٌ
وكَيْفَ يُبْنِيَ بِغَيْرِ الأُسِّ بُنْيَانُ
كَمْ فَاتِحٍ عَيْنَهُ فِيْهَا تَخَطَّفَهُ
أَيْدِي الرَّدَى قَبْلَ أَنْ تَنْضَمَّ أَجْفَانُ
هِيَ السَّرَابُ وَمَاءُ الوَجْهِ تُهْرِقُهُ
ولا يَرَى فِيهِ وَجْهَ الماءِ عَطْشَانُ
رَحًى يَدُوْرُ دَقِيْقٌ شَأْنُهُ عَجَبٌ
غَدَا لِكُلِّ خَلِيْلٍ وَهُوَ طَحَّانُ
يَسُرُّ كُلُّ فَتًى طُوْلُ الزَّمَانِ بِهِ
ولِلْفَتَى حَاصِلُ الأَزْمَانِ إِزْمَانُ

وقَالَ ابْنُ القَيْمِ رَحِمَهُ الله وعِمَارَةُ الوَقْتِ الاشْتِغَالُ في جَمِيْعِ آنَائِهِ بِمَا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ أَوْ يُعِيْنُ على ذَلِكَ مِن مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ أَوْ مَنْكَحٍ أَوْ مَنَامٍ أَوْ رَاحَةٍ

فإنَّهُ مَتى أخَذَها بِنيَّةِ القُوَّةِ عَلى مَا يُحِبُّهُ اللهُ وتَجنَّبَ مَا يُسْخِطُهُ كَانتْ مِن عِمارَةِ الوَقْتِ وَإنْ كَانَ لَهُ فِيْهَا أَتَمَّ لَذَّةٍ فلا تَحْسَبْ عِمارَةَ الوَقْتِ بِهَجْرِ اللَّذاتِ وَالطَّيِّبَاتِ فالمُحِبُ الصَّادِقُ رُبَّمَا كَانَ سَيْرُهُ القَلْبِي في حَالِ أكْلِهِ وشُرْبِهِ وجِمَاعِ أهْلِهِ وَرَاحَتِهِ أقْوَى مِن سَيْرِهِ البَدَنِي في بَعْضِ الأحْيَانِ .

وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ : والعَبْدُ إذَا عَزَمَ عَلى فِعْلِ أمْرٍ فعَلَيْهِ أنْ يَعْلَمَ أوَّلاً هَلْ هُوَ طَاعَةٌ لِلهِ أمْ لا فَإنْ لَمْ يَكُنْ طَاعةً فَلا يَفْعَلَهُ إلَّا أنْ يَكُونَ مُباحاً يَسْتَعِيْنُ بِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وحِيْنَئِذٍ يَصِيرُ طَاعةً فَإذَا بانَ لَهُ أنَّهُ طَاعَةٌ فلا يُقْدِمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْظُرَ هَلْ هُوَ مُعَانٌ عَلَيْهِ أمْ لا فإنْ لَمْ يَكُنْ مُعَاناً عَلَيْهِ فلا يُقْدِمْ عَلَيْهِ فَيُذِلَ نَفْسَهُ وإنْ كَانَ مُعَاناً عَليهِ بَقِيَ عَلَيْهِ نَظَرٌ وهُوَ أنْ يَأْتِيَهُ مِن بَابِهِ فَإنْ أتَاهُ مِن غَيْرِ بَابِهِ أضَاعَهُ أوْ فَرَّطَ فِيْهِ أوْ أفْسَدَ مِنْهُ شَيْئاً فَهَذِهِ الأُمُوْرُ الثلاثَةُ : الطَّاعَةُ والإعَانَةُ والهِدَايَةُ أصْلُ سَعَادَةِ العَبْدِ وفَلاحِهِ .

وَهُوَ مَعْنَى قَولِ العَبْدِ لِربِّهِ إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ فأَسْعَدُ الخَلْقِ أَهْلُ هَذِهِ العِبادَةِ والاسْتِعَانَةِ والهِدَايَةِ إلى المَطْلُوبِ وأشقَاهُمْ مَنْ عَدِمَ الأُمُوْرَ الثلاثَةَ وَمِنْهُمْ مَن يَكُونُ لَهُ نَصِيْبٌ مِن إيَّاكَ نَعْبُدُ ونَصِيْبُهُ مِن إيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ مَعْدُوْمٌ أوْ ضَعِيْفٌ فَهَذَا مَخْذُوْلٌ مَهِيْنٌ مَحْزُوْنٌ ومِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نَصِيْبُهُ مِن إيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ قَوِياً ونَصِيْبُهُ مِن إيَّاكَ نَعْبُدُ ضَعِيْفاً أوْ مَفْقُوْداً فَهذا لَهُ نُفُوذٌ وَتَسلُّطٌ وَقُوَّةٌ ولكِنْ لا عَاقِبَةَ لَهُ بَلْ عَاقِبَتُهُ أسْوَءُ عَاقِبَةٍ .

ومِنْهُمْ مَن يَكُونُ لَهُ نَصِيْبٌ مِن إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ولَكِنْ نَصِيْبُهُ مِن الهِدَايَةِ إلَى المَقْصُوْدِ ضَعِيْفٌ جِداً كَحَالِ كَثِيْرٍ مِنَ العِبادِ والزُهَادِ الذِيْنَ قَلَّ عِلْمُهُمْ بحَقَائِقِ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّداً ﷺ مِن الهُدَى والتُقَى .

اللهم اِجْعَلْ إيْمَانَنا بِكَ عَمِيْقا وسَهِلْ لَنا إلى مَا يُرْضِيْكَ طَرِيْقاً وألطفْ بِنَا يَا مَوْلاَنَا وَوَفِقْنَا لِلْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ تَوْفِيْقَا واغفِرْ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا وجَمِيعِ المسلمين برحمتكَ يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وقال رحمه الله :

أَقَامَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذَا الخَلْقَ بَيْنَ الأَمْرِ والنَّهْيِ والعَطَاءِ والمَنْعِ فافْتَرَقُوْا فِرْقَتَيْنِ ، فِرْقَةً قَابَلَتْ أَمْرَهُ بالتَّرْكِ ، وَنَهِيَهُ بالارتكابِ ، وَعَطَاءَهُ بالغَفْلَةِ ، عَن الشُّكْرِ ومَنْعَهُ بالسُّخْطِ وهَؤُلَاءِ أَعْدَاؤُهُ ، وفِيْهِم مِنَ العَدَاوَةِ بحَسَبِ مَا فِيْهِم مِن ذَلِكَ .

وقِسْمٌ قَالُوا إنَّمَا نَحْنُ عَبِيْدُكَ ، فإنْ أَمَرْتَنَا سَارَعْنَا إلى الاجَابَةِ ، وانْ نَهَيْتَنَا أَمْسَكْنَا نُفُوسَنَا وكَفَفْنَاهَا عَمَّا نَهَيْتَنَا عَنهُ وإنْ أعْطَيْتَنَا حَمِدْنَاكَ وشَكَرْنَاكَ ، وإنْ مَنَعْتَنَا تَضَرَّعْنَا إِلَيْكَ وذَكَرْنَاكَ ، فَلَيسَ بَيْنَ هَؤلَاءِ وبَيْنَ الجَنَّةِ إلا سِتْرُ الحَيَاةِ الدُنْيَا ، فإذَا مَزَّقَهُ عَلَيْهِم الموتُ ، صَارُوا إلى النَّعِيْمِ المُقِيْمِ وقُرَّةِ العَيْنِ ، كَمَا أنَّ أُولَئِكَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ النارِ إلا سِتْرُ الحَيَاةِ ، فإذا مَزَّقَهُ الموتُ صَارُوْا إلى الحَسْرةِ وَالأَلَمِ .

فاذَا تَصَادَمَتْ جُيُوشُ الدُنيا والآخِرَةِ في قَلْبِكَ وأَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ أَيِّ الفَرِيْقَيِنِ أَنْتَ ، فانْظُرْ مَعَ مَنْ تَمِيْلُ مِنْهُمَا ، وَمَعَ مَنْ تُقَاتِلُ ، إذْ لَا يَمْكِنُكَ الوُقُوفُ بَيْنَ الجَيْشَيْنِ ، فأنْتَ مَعَ أَحدِهِمَا لاَ مَحَالَةَ .

فَفَرِيقٌ مِنْهُمْ اسْتَغَشُّوْا الهَوَى فَخَالَفُوهُ ، واسْتَنْصَحُوْا العَقْلَ فَشَاوَرُهُ ، وفَرَّغُوا قَلُوبَهُمْ لِلْفِكرِ فِيْمَا خُلِقُوْا لَهُ ، وَجَوارِحَهُم لِلْعَمَلِ بمَا أُمِرُوْا بِهِ ،

وَأَوْقَاتَهم لِعِمَارَتِهَا بِمَا يَعْمُرُ مَنَازِلَهُمْ فِي الآخِرَةِ ، واسْتَظْهَرُوْا عَلَى سُرْعَةِ العَمَلِ بالمُبَادَرَةِ إِلَى الأَعمالِ ، وسَكَنُوا الدُنْيَا وقُلُوبُهُم مُسَافِرَةٌ عَنْهَا ، واسْتَوْطَنُوا الآخِرَةَ قَبْلَ انْتِقالِهِم إِلَيْهَا .

واهْتَمُّوْا باللهِ وطَاعَتِهِ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ ، وَتَزَوَّدُوْا لِلآخِرَةِ عَلَى قَدْرِ مَقَامِهِمْ فِيْهَا ، فَجَعَلَ لَهُمْ سُبْحَانَهُ مِنْ نَعِيْمِ الجَنَّةِ وَرَوْحِها أَنْ آنَسَهُمْ بِنَفْسِهِ ، وَأَقْبَلَ بقُلُوبِهِمْ إِلَيْهِ ، وَجَمَعَهَا عَلَى مَحَبَّتِهِ ، وشَوَّقَهُمْ إِلَى لِقَائِهِ وَنَعَّمَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَفَرَّغَ قُلُوبَهُمْ مِمَّا مَلأَ قُلُوبَ غَيْرِهِمْ مِنْ مَحَبَّةِ الدُنْيَا ، والهَمِّ والحُزْنِ عَلَى فَوْتِهَا ، والغَمِّ مِنْ خَوْفِ ذَهَابِهَا ، فاسْتَلاَنُوْا مَا اسْتَوْعَرَهُ المُتْرَفُوْنَ ، وأَنِسُوْا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الجَاهِلُونَ ، صَحِبُوا الدُنْيَا بأَبْدَانِهِمْ والملأَ الأَعْلاَ بأَرْوَاحِهِمْ على حَدِّ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَصَــاحَبُـوْهَــا بــأَبْـدَانٍ قُلُوبُـهُـمُ
طَيْرٌ لَها في ظِـلاَلِ العَرْشِ أَوْكَـارُ

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ سَيِّدُ عَمَلِهِ وطَرِيْقُهُ الذي يَعُدُّ سُلُوْكَهُ إِلى اللهِ طريْقَ العِلْمِ والتَّعْلِيمِ قَدْ وَفَّرَ عَلَيهِ زَمَانَهُ مُبْتَغِياً بِهِ وَجْهَ الله فلا يَزَالُ كَذَلِكَ عَاكِفاً على طَرِيقِ العِلم والتَّعلِيم حَتَّى يَصِلَ مِنْ تِلْكَ الطَّرِيْقِ إِلى اللهِ وَيَفْتَحَ لَهُ فِيْهَا الفَتْحَ الخَاصَّ أَوْ يَمُوْتَ في طَرِيْقِ طَلَبِهِ فَيُرجَى لَهُ الوُصُولُ إِلى مَطْلَبِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ قَالَ تعالى : (وَمَن يَخْرجْ مِن بَيتِهِ مُهَاجراً إِلى الله ورسولِهِ ثم يدركه الموتُ فقد وقعَ أجرُه على الله) .

وقَدْ حُكِيَ عَنْ جَماعَةٍ كَثِيْرَةٍ مِمَّنْ أَدْرَكَهُ الأَجَلُ وهُوَ حَرِيْصٌ طَالِبٌ لِلْقُرْآنِ أنَّهُ رُؤِيَ بَعْدَ مَوْتِهِ وأَخْبَرَ أَنَّهُ في تَكْمِيلِ مَطْلُوبِهِ وأنهُ يَتَعلَّمُ في البَرْزَخِ فإِنَّ العَبْدَ يَمُوْتُ على مَا عَاشَ عَلَيْهِ .

وَمِن النَّاسِ مَنْ يَكُوْنُ سَيِّدُ عَمَلِهِ الذِّكْرُ وَقَدْ جعَلَهُ زَادَهُ لِمَعَادِهِ وَرأْسَ مَالِهِ لِمآلِهِ فَمَتى فَتَرَ عَنْهُ أوْ قَصَّرَ رأى أنَّهُ قَدْ غُبِنَ وَخَسِرَ .

وَمِن الناسِ مَنْ يَكُوْنُ سَيِّدُ عَمَلِهِ وَطَرِيْقُهُ الصَّلاةُ فَمَتى قَصَّرَ في وِرْدِهِ مِنها أوْ مَضَى عَلَيْهِ وَقْتٌ وهُوَ غَيْرُ مَشْغُولٍ بِهَا أوْ مُسْتَعِدٌ لَهَا أظْلَمَ عَلَيْهِ وَقْتُهُ وضَاقَ صَدْرُهُ .

ومِنَ الناسِ مَن يَكُونُ طَرِيْقُهُ الاحسانُ والنَّفْعُ المُتَعَدِّيْ كَقَضَاءِ الحَاجَاتِ وتَفْرِيْجِ الكُرُبَاتِ وإِغَاثَةِ اللَّهَفَاتِ وأَنْوَاعِ الصَّدَقَاتِ قَدْ فُتِحَ لَهُ فِي هَذَا وَسَلَكَ مِنْهُ طَرِيْقاً إلى رَبِّهِ .

ومِن الناسِ مَنْ يَكونُ طَرِيْقُهُ الصَّوْمُ فَهُوَ مَتى أَفْطَرَ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ وَسَاءَتْ حَالُهُ .

ومِنَ الناسِ مَنْ يَكُونُ طَرِيْقُهُ تِلاَوَةُ القُرْآنِ وَهِيَ الغَالِبُ عَلَى أوْقَاتِهِ وهِيَ أَعْظَمُ أوْرَادِهِ .

ومِنْهُمْ مَن يَكُونُ طَرِيْقُهُ الأمْرُ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ قد فتح الله له فيه ونفَذ منه إلى ربه .

ومِنْهُمْ مَن يَكُونُ طَرِيْقُهُ الذي نَفَذَ فِيه الحَجُّ والاعْتِمَارُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ طَرِيْقُهُ قَطْعُ العَلائِقِ وتَجْرِيْدُ الهِمَّةِ وَدَوَامُ المُرَاقَبَةِ وَمُرَاعَاةُ الخَوَاطِرِ وحِفْظُ الأَوْقَاتِ أَنْ تَذْهَبَ ضَائِعَةً .

ومِنْهُمْ جَامِعُ المَنْفَذِ السَّالِكُ إلى اللّهِ فِي كُلِّ وَادٍ الوَاصِلُ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ طَرِيْقٍ فَهُوَ جعَلَ وَظَائِفَ عُبُودِيَّتِهِ قِبْلَةَ قَلْبِهِ وَنَصَبَ عَيْنِهِ يؤُمُّهَا أيْنَ كَانَتْ وَيَسِيْرُ

مَعَهَا حَيْثُ سَارَتْ قَدْ ضَرَبَ مَعَ كُلِّ فَرِيْقٍ بِسَهْمٍ فَأَيْنَ كَانَتْ العُبُوْدِيَّةُ وَجَدْتَهُ هُنَاكَ إِنْ كَانَ عِلْمٌ وَجَدْتَهُ مَعَ أَهْلِهِ أَوْ جِهَادٌ وَجَدْتَهُ فِي صَفِّ المُجَاهِدِيْنَ أَوْ صَلاَةٌ وَجَدْتَهُ فِي القَانِتِيْنَ أَوْ ذِكْرٌ وَجَدْتَهُ فِي الذَّاكِرِيْنَ أَوْ إِحْسَانٌ وَنَفْعٌ وَجَدْتَهُ فِي زُمْرَةِ المُحْسِنِيْنَ أَوْ مَحَبَّةٌ وَمُرَاقَبَةٌ وإِنَابَةٌ إِلى اللَّهِ وَجَدْتَهُ فِي زُمْرَةِ المُحِبِّيْنَ المُنِيْبِيْنَ .

يَدِيْنُ بِدِيْنِ العُبُوْدِيَّةِ أنّي اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبُهَا وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ مَضَارِبُهَا لَوْ قِيْلَ لَهُ : مَا تُرِيْدُ مِنَ الأَعْمَالِ ؟ لَقَالَ أُرِيْدُ أَنْ أُنَفِّذَ أَوَامِرَ رَبِّي حَيْثُ كَانَتْ وأَيْنَ كَانَتْ جَالِبَةً مَا جَلَبَتْ مُقْتَضِيَةً مَا اقْتَضَتْ جَمَعَتْنِي أَوْ فَرَّقَتْنِي .

لَيْسَ لِيَ مُرَادٌ إِلَّا تَنْفِيذُها والقِيَامُ بِأَدَائِهَا مُرَاقِباً لَهُ فِيْهَا عَاكِفاً عَلَيْهِ بِالرُّوْحِ والقَلْبِ وَالبَدَنِ وَالسِّرِّ قَدْ سَلَّمْتُ إِلَيْهِ المَبِيْعَ مُنْتَظِراً مِنْهُ تَسْلِيْمَ الثَّمَنِ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ المُؤْمِنِيْنَ أنفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بأن لَهُمُ الجَنَّةُ﴾ فَهذا هُوَ العَبْدُ السَّالِكُ إِلى رَبِّهِ النَّافِذُ إِلَيْهِ حَقِيْقَةً .

وَمَعْنَى النُّفوذُ إِلَيْهِ أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ قَلْبُهُ وَيَعْلِقَ بِهِ تَعَلُّقَ المُحِبِّ التَّامِ المَحَبَّةِ بِمَحْبُوْبِهِ فَيَسْلُوا بِهِ عَنْ جَمِيْعِ المَطَالِبِ سِوَاهُ فَلاَ يَبْقَى فِي قَلْبِهِ إِلاَّ مَحَبَّةُ اللّهِ وَأَمْرُهُ وَطَلَب التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ .

فَإِذَا سَلَكَ العَبْدُ عَلى هَذَا الطَّرِيْقِ عَطَفَ عَلَيْهِ رَبُّهُ فَقَرَّبَهُ واصْطَفَاهُ وأَخَذَ بِقَلْبِهِ إِلَيْهِ وَتَوَلاَّهُ فِي جَمِيْعِ أُمُوْرِهِ فِي مَعَاشِهِ وَدِيْنِهِ وَتَوَلَّى تَرْبِيَتِهِ أَحْسَنَ وَأَبْلَغَ مِمَّا يُرَبِّي الوَالِدُ الشَّفِيْقُ وَلَدَهُ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ القَيُّومُ المُقِيْمُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ المَخْلُوْقَاتِ طَائِعِهَا وَعَاصِيْهَا .

فَكَيْفَ تَكُوْنُ قَيُّوْمِيَتُهُ بِمَنْ أَحَبَّهُ وَتَوَلاَّهُ وآثَرَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ وَرَضِيَ بِهِ مِنَ

النّاس حَبِيْباً وَربّاً وَوَكِيْلاً وَناصِراً وَمُعِيْناً وَهادِياً فَلَوْ كَشَفَ الغِطَاءُ عَنْ أَلطَافِهِ وَبِرِّهِ وَصُنْعِهِ لَهُ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُ وَمِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُ لَذاب قَلْبُهُ مَحبَّةً لَهُ وَشَوْقاً إِلَيْهِ وَتَقَطّعَ شُكْراً لَهُ .

وَلَكِنْ حَجَبَ القُلُوْبَ عَنْ مُشَاهَدَةِ ذَلِكَ إِخْلادُهَا إِلَى عَالَمِ الشَّهَوَاتِ والتَّعَلُّقِ بِالأَسْبَابِ فَصَدَّتْ عَنْ كَمَالِ نَعِيْمِهَا وَذَلِكَ تَقْدِيْرُ العَزِيْزِ العَلِيْمِ وإِلاَّ فَأيُّ قَلْبٍ يَذُوْقُ حَلاَوَةَ مَعْرِفَةِ اللّهِ وَمَحبّتِهِ ثُمَّ يَرْكَنُ إِلى غَيْرِهِ وَيَسْكُنُ إِلَى مَا سِوَاهُ هَذا ما لا يَكُوْنُ أَبَداً .

وَمَنْ ذَاقَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ وَعَرَفَ طَرِيْقاً مُوْصِلَةً إِلى الله ثُمَّ تَرَكَهَا وأَقْبَلَ عَلَى إِرَادَتِهِ وَرَاحَاتِهِ وَشَهَواتِهِ وَلَذَّاتِهِ وَقَعَ فِي آثارِ المَعَاطِبِ وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ سُجُوْنَ المَضَايِقِ وَعُذِّبَ فِي حَيَاتِهِ عَذَابا لَمْ يُعَذَّبْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِيْن ، فَحَيَاتُهُ عَجْزٌ وَغَمٌّ وَحَزِنٌ وَمَوْتُهُ كَدَرٌ وَحَسْرَةٌ وَمَعَادُهُ أَسَفٌ وَنَدَامَةٌ قَدْ فَرَطَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَشُتِّتَ عَلَيْهِ شَمْلُهُ وَأَحْضَرَ نَفْسَهُ الغُمُوْمَ والأَحْزَان .

فَلا لَذَّةَ الجَاهِلِيْنَ وَلاَ رَاحَةَ العَارِفِيْنَ يَسْتَغِيْثُ فَلاَ يُغَاثُ وَيَشْتَكِي فَلاَ يُشَكَّى فَقَدْ تَرَحَّلَتْ أَفْرَاحُهُ وَسُرُوْرُهُ مُدْبِرَةً وَأَقْبَلَتْ آلامُهُ وَأَحْزَانُهُ وَحَسَرَاتُهُ فَقَدْ أُبْدِلَ بِأُنْسِهِ وَحْشَةً وبِعِزِّهِ ذُلاًّ وَبِغِنَاهُ فَقْراً وَبِجَمْعِيَّتِهِ تَشْتِيْتاً وأَبْعَدُوْهُ فَلَمْ يَظْفُرْ بِقُرْبِهِمْ وأَبْدَلُوْهُ مَكَانَ الأُنْسِ إِيْحَاشَا .

ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَرَفَ طَرِيْقَهُ إِلى اللّهِ ثُمَّ تَرَكَهَا نَاكِباً عَنْهَا مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ فَأَبْصَرَ ثُمَّ عَمِيَ وَعَرَفَ ثُمَّ أَنكَرَ وأَقْبَلَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَدُعِيَ فَمَا أَجَابَ وفُتِحَ لَهُ فَوَلَّى ظَهْرَهُ البابَ قَدْ تَرَكَ طَرِيْقَ مَوْلاَهُ وأَقْبَلَ بِكُلِّيَتِهِ عَلَى هَوَاهُ .

فَلَوْ نَالَ بَعْضَ حُظُوظِهِ وتَلَذَّذَ بِرَاحَاتِهِ وَشُؤُونِهِ فَهُوَ مُقَيَّدُ القَلْبِ عَنْ

انْطِلاقِهِ فِي فَسِيْحِ التَّوْحِيْدِ وَمَيَادِيْنِ الأُنْسِ وَرِياضِ الْمَحَبَّةِ وَموائِدِ القُرْبِ قَدْ انْحَطَّ بسَبَبِ إِعْراضِهِ عن إلهِهِ الْحَقِّ إلى أَسْفَلِ سَافِلِينَ وحَصَلَ فِي عِدادِ الْهَالِكِيْنَ فَنارُ الحِجَابِ تَطْلُعُ كُلَّ وَقْتٍ عَلَى فُؤَادِهِ وإِعْراضُ الكونِ عَنْهُ ـ إذْ أَعْرَضَ عنْ رَبِّهِ ـ حائِلٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ مُرادِهِ .

فَهُوَ قَبْرٌ يَمْشي على وَجْهِ الأَرْضِ وَرُوْحُهُ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جِسْمِهِ وقَلْبُهُ فِي مَلالٍ مِنْ حَيَاتِهِ يَتمَنَّى المَوْتَ وَيَشْتَهِيْهِ وَلَوْ كَانَ فِيْهِ ما فِيْهِ حَتَّى إذا جاءَهُ المَوْتُ على تِلْكَ الحَالِ وَالعِياذُ بِاللّهِ فَلاَ تَسْألْ عَمَّا يَحِلُّ بِهِ مِنَ العَذابِ الأليمِ بِسَبَبِ وُقُوعِ الحِجابِ بَيْنَهُ وَبيْنَ مَوْلاهُ الحَقّ وإِحْرَاقِهِ بِنَارِ البُعْدِ مِنْ قُرْبِهِ وَالإِعْرَاضِ عَنْهُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبيْنَ سَعادَتِهِ وأُمْنِيَتِهِ .

فَلَوْ تَوَهَّمَ العَبْدُ المِسْكِيْنُ هَذِهِ الحالَ وَصَوَّرَتْها لَهُ نَفْسُهُ وَأَرَتْهُ إِيَّاهَا على حَقِيقَتِهَا لتَقطَّعَ واللّهِ قَلْبُهُ وَلَمْ يَلْتَذَّ بِطَعَامٍ وَلاَ شَرابٍ وَلَخَرجَ إِلى الصُّعُداتِ يَجْأَرُ إلى اللّهِ وَيَسْتَغِيْثُ بِهِ وَيَسْتَعْتِبُهُ فِي زَمَنِ الاسْتِعْتَابِ هَذا مَع أَنَّهُ إذا آثَرَ شَهَواتِهِ وَلِذَّاتِهِ الْفَانِيَةَ الّتِي هِيَ كخَيَالِ طَيْفٍ أَوْ مُزْنَةِ صَيْفٍ نَغَّصَتْ عَلَيْهِ لذَّتَها أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهَا وَحِيْلَ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا أَقْدَرَ ما كَانَ عَلَيْهَا وتِلْكَ سُنَّةُ اللّهِ فِي خَلْقِهِ كَما قَالَ تَعالَى : ﴿حَتَّى إذا أخذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنتْ وَظَنَّ أهْلُهَا أنَّهُمْ قَادِرُوْنَ عَلَيْها أَتَاهَا أَمرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجعَلْنَاهَا حَصِيْداً كأنْ لَمْ تَغْنَ بالأمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لقَوْمٍ يَتفكَّرُون﴾ .

وَهَذا هُوَ غِبُّ اعْراضِهِ وإيثَارِ شَهْوَتِهِ على مَرْضَاةِ رَبِّهِ يَعُوقُ القَدَرُ عَلَيْهِ أَسْبابَ مُرَادِهِ فَيَخْسَرُ الأمْرَيْنِ جَمِيعاً فَيَكُوْنُ مُعَذَّباً فِي الدُّنْيَا بِتَنْغِيصِ شَهَوَاتِهِ وَشِدّةِ اهْتِمَامِهِ بِطَلَبِ ما لَمْ يُقْسَمْ لَهُ وَإِنْ قُسِمَ لَهُ مِنْهُ شَيْءٌ فَحَشْوُهُ الخَوْفُ والحَزنُ والنَّكَدُ والأَلَمُ فَهَمٌّ لا يَنْقَطِعُ وَحَسْرَةٌ لا تَنْقَضِي وحِرْصٌ لا يَنْفَدُ وَذُلٌّ لا

يَنْتَهِي وَطَمَعُ لاَ يُقْلَع وهذا في هَذِهِ الدّار .

وَأَمّا فِي البَرْزَخِ فأضْعَافُ أضْعَافِ ذَلِكَ قَدْ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهِي وفاتَهُ مَا كَانَ يَتمنَّاهُ مِنْ قُرْبِ رَبِّهِ وَكَرَامَتِهِ وَنَيْلِ ثَوَابِهِ وأُحْضِرَ جَمِيعُ غُمومِهِ وأَحْزانِهِ ، وأمّا فِي دَارِ الجَزَاءِ فَسِجْنٌ أمثَالِهِ مِنَ المُبْعِدِيْنَ المَطْرُودِيْن فَوَاغَوْثَاهُ ثُمَّ وَاغَوْثَاهُ بِغِيَاثِ المُسْتَغيثينَ وأرحَمِ الرّاحِمِيْنَ .

فَمَنْ أعْرَضَ عَن اللّهِ بالكُلّيَّةِ أعرَضَ اللّهُ عَنْهُ بالكُلِّيَّةِ وَمَنْ أعْرَضَ اللّهُ عَنْهُ لَزِمَهُ الشّقَاءُ وَالبُؤْسُ والبَخْسُ فِي أَحْوالِهِ وأعمَالِهِ وقَارَنَهُ سُوءُ الحَالِ وَفَسَادٌ فِي دِيْنِهِ وَمَالِهِ فَإنَّ الرّبَّ إِذَا أعْرَضَ عَنْ جِهَةٍ دَارتْ بِهَا النُّحُوسُ وأظلَمْتْ أرْجاؤُهَا وانْكَسَفَ أنوارُهَا وَظَهَرَ علَيْها وَحْشَةُ الإعْرَاضِ وَصَارَتْ مَأْوَى لِلشَّيَاطِيْنَ وَهَدَفاً لِلشُّرُورِ وَمَصبّاً لِلْبَلاءِ .

فَالمَحْرُوْمُ كُلَّ الْمَحْرُوْمِ مَنْ عَرَفَ طَرِيقاً إِلَيْهِ ثُمَّ أعْرَضَ عَنْهَا أَوْ وَجَدَ بَارِقَةً مِنْ حُبِّهِ ثُمَّ سُلِبَها لَمْ يَنْفُذْ إِلَى رَبِّهِ مِنْها خُصُوصاً إِذَا مَالَ بِتِلْكَ الإِرَادَةِ إِلى شَيْءٍ مِنَ اللّذَاتِ وانْصَرف بجُمْلَتِهِ إلى تَحْصِيْلِ الأغْرَاضِ والشّهَوَاتِ عاكِفاً على ذَلِكَ فِي لَيْلِهِ وَنَهارِهِ وَغُدُوِّهِ وَرَوَاحِهِ هابِطاً مِنَ الأوْجِ الأعْلَى إِلَى الحَضِيضِ الأدْنَى .

قَدْ مَضَتْ عَلَيْهِ بُرْهَةٌ مِنْ أوْقَاتِهِ وَكَانَ هَمُّهُ اللّهُ وبُغْيَتُهُ قُرْبُهُ وَرِضاهُ وإِيثارُهُ على كُلِّ مَا سِواهُ على ذَلِكَ يُصْبحُ ويُمْسِي وَيَظَلُّ ويُضْحِي وكَانَ اللّهُ فِي تِلْكَ الحالِ وَلِيَّهُ لأَنَّهُ وَلِيُّ مَنْ تَولاّهُ وَحَبِيْبُ مَنْ أَحَبَّهُ وَوَالاَهُ .

فَأَصْبَحَ فِي سِجْنِ الهَوَى ثَاوِياً وفِي أَسْرِ العَدُوِّ مُقِيماً وفِي بِئْرِ المَعْصِيَةِ سَاقِطاً وفِي أوْدِيَةِ الحَيْرَةِ وَالتَّفْرِقَةِ هَائِماً مُعْرِضاً عَنِ المَطَالِبِ العالِيَةِ إِلى

الأغْرَاضِ الخَسِيْسَةِ الفَانِيَةِ كَانَ قَلْبُهُ يَحُومُ حَوْلَ العرْشِ فأصْبَحَ مَحْبُوْساً فِي أَسْفَلِ الحُشِّ :

فَـأَصْبَـحَ كَـالبَـازِ المُنَتَّفِ رِيْشُـهُ
يَـرَى حَسَـراتٍ كُلَّمَـا طَـارَ طَـائِرُ
وَقَدْ كَانَ دَهْـراً فِي الرِّيَـاضِ مُنَعَّماً
عَلَى كُلِّ مَا يَهْوَى مِنَ الصَّيْدِ قَـادِرُ
إِلَى أَنْ أصَـابَتْـهُ مِنَ الـدَّهْـرِ نَكْبَـةٌ
إِذَا هُـوَ مَقْصُوصُ الجنـاحَيْنِ حَاسِـرُ

فَيَا مَنْ ذَاقَ شَيْئاً مِنْ مَعْرِفَةِ رَبِّهِ وَمَحَبَّتِهِ ثُمَّ أعْرَضَ عَنْهَا واسْتَبْدَلَ بِغَيْرِها مِنْهَا يَا عَجَبا لَهُ بأيِّ شَيْءٍ تَعوَّضَ وكَيْفَ قَرَّ قَرارُهُ فَما طَلَبَ الرُّجوعَ إلى أحنِيَتِهِ وَمَا تَعرَّض وَكَيْفَ اتّخذ سِوى احنيَتَهُ سَكناً وجَعَلَ قَلبَهُ لِمَنْ عادَاهُ مولاهُ مِنْ أجْلِهِ وطَناً أمْ كيْفَ طاوَعَهُ قَلْبُهُ على الاصطِبارِ ووافَقَهُ عَلَى مُساكَنَةِ الأغيار .

فَيَا مُعْرِضاً عَنْ حَياتِهِ الدّائِمَةِ وَنَعِيْمِهِ المُقِيم وَيَا بائعاً سَعَادَتَهُ العُظْمَى بالعَذابِ الأليْمِ وَيَا مُسْخِطاً مَنْ حَيَاتُهُ وَرَاحَتُهُ وَفَوْزُهُ فِي رِضاهُ وطَالباً رِضى مَنْ سَعادَتُهُ فِي إرْضاءِ سِوَاه إنّما هِيَ لَذّةٌ فَانِيةٌ وشَهْوَةٌ مُنْقِضيةٌ تَذْهَبُ لِذّاتُها وَتَبقى تبِعاتُهَا فَرَحُ ساعَةٍ لا شَهْرٍ وغَمُّ سَنَةٍ بَل دَهْرٍ طعامٌ لذيذٌ مَسْمُومٌ أوَّلُهُ لذّةٌ وآخِرُهُ هَلاك .

فَالعَامِلُ عَلَيْها والسّاعِي فِي تَوْصِيْلِها كَدُودَةِ القَزِّ يَسُدُّ على نَفْسِهِ المَذاهِبَ بِمَا نَسجَ عَلَيْها مِن المَعاطِبِ فَيَنْدَمُ حِيْنَ لَا تَنْفَعُ النَّدامَةُ وَيَسْتَقِيلُ حِيْنَ لا تُقْبَلُ الاسْتِقَالَةُ فَطُوبَى لِمَنْ أقْبَلَ على اللّهِ بكُلّيتِهِ وَعَكَفَ عَلَيْهِ بإرادَتِه وَمَحبَّتِهِ .

فَإنَّ اللّهَ يُقْبِلُ عَلَيْهِ بِتَوَلّيهِ وَمَحَبَّتِهِ وَعطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ وإنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ إذَا أقْبَلَ عَلَى عَبْدٍ اسْتَنَارَتْ جِهاتُهُ وأشْرَقتْ سَاحَاتُها وَتَنوَّرَتْ ظُلمَاتُها وَظَهَرَ عليْهِ آثارُ إقْبالِهِ مِنْ بَهْجَةِ الجلاَلِ وآثارِ الجَمَالِ .

وَتَوَجَّهَ إلَيْهِ أهلُ الملأ الأعْلَى بالمَحَبّةِ والمُوالاَةِ لأنَّهُمْ تَبَعٌ لِمَوْلاهُمْ فإذا أحَبَّ عَبْداً أحبُّوهُ وإذا وَالَى وَلِيّاً وَالوْهُ إذا أحَبّ اللّهُ العبْدَ نادى يَا جِبْرائيلُ إنّي أُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبَّهُ فيُنادِي جِبْرائيلُ في السَّماءِ إنّ اللّهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ فيُحِبُّهُ أهْلُ السّماءِ ثُمَّ يُحِبُّهُ أهْلُ الأرْض .

فَيُوْضَعُ لَهُ القَبُولُ بَيْنَهُمْ ويجْعَلُ اللّهُ قُلوبَ أوْلِيائِهِ تَفِدُ إلَيْهِ بالوُدِّ والمَحَبّةِ والرّحْمَةِ ونَاهِيْكَ مَنْ يَتوجَّهُ إلَيْهِ مالِكُ المُلْكِ ذُو الجَلاَلِ والإكْرامِ بِمَحَبَّتِهِ ويُقْبِلُ عَلَيْهِ بأنْوَاعِ كرَامَتِهِ ويَلْحَظُهُ الملأُ الأعلى وأهْلُ الأرْضِ بالتَّبْجيلِ والتّكريمِ وذَلِكَ فضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ .

(قاعدة) السائِرُ إلى اللّهِ والدّارِ الآخِرَةِ بَلْ كُلُّ سائِرٍ إلى مَقْصَدٍ لا يَتِمُّ سيرُهُ ولا يَصِلُ إلى مَقْصُودِهِ إلاّ بِقُوَّتَيْنِ ـ قُوّةٍ عِلْمِيَّةٍ ـ وقُوَّةٍ عَمليَّةٍ ـ فَبِالقُوَّةِ العِلْمِيَّةِ يُبْصَرُ مَنازِلَ الطَّرِيقِ ومَواضِعَ السُّلُوكِ فَيَقْصِدُها سَائراً فِيها ويَجْتَنِبُ أسْبابَ الهلاكِ ومواضِعَ العَطَبِ وطُرُق المَهالِكِ المنحرفةِ عَنِ الطّريقِ الموصِلِ .

فَقُوَّتُهُ العِلْمِيَّةُ كَنُورٍ عَظِيمٍ بِيدِهِ يَمْشي فِي لَيْلَةٍ عَظِيْمَةٍ مُظْلِمةٍ شَديدَةِ الظُّلْمَةِ فَهُوَ يُبْصِرُ بذَلِكَ النّورِ مَا يَقَعُ الماشي فِي الظُّلْمَةِ فِي مِثْلِهِ مِنَ الوِهَادِ والمتآلِفِ ويَعْثُرُ بِهِ مِنَ الأحجَارِ والشَّوْكِ وَغيْرِهِ ويُبْصِرُ بِذَلِكَ النّورِ أيضاً أعْلاَمَ الطّرِيقِ وأدَاتَها المَنْصُوْبَةَ عَلَيْها فلا يَضِلُّ عَنْها فَيَكْشِفُ لَهُ النّورُ عَنِ الأمْرَيْنِ

أَعْلَامِ الطّرِيقِ وَمَعاطِبِهَا .

وبالقُوّةِ العَمَلِيّةِ يَسِيْرُ حَقِيْقَةً بَلِ السَّيْرُ هُوَ حقِيْقَةُ القُوَّةِ العَمَليّةِ فإِنَّ السَّيْرَ هُوَ عَمَلُ المُسَافِرِ وكَذَلِكَ السّائِرُ إِلى رَبِّهِ إذا أبْصَرَ الطّرِيقَ وأعْلامَهَا وأبْصَرَ المَغَابِرَ والوِهَادَ والطُّرُقَ النّاكِبَةَ عَنْها فقَدْ حَصَلَ لَهُ شَطْرُ السّعادَةِ والفَلاحِ وبَقِيَ عَلَيْهِ الشّطْرُ الآخَرُ وَهُوَ أنْ يَضَعَ عَصاهُ عَلَى عَاتِقِهِ ويُشَمِّرَ مسافِراً فِي الطّرِيقِ قَاطِعاً مَنَازِلَها مَنْزِلَةً بَعْدَ مَنْزِلَةٍ فَكُلَّمَا قَطَعَ مَرْحَلَةً اسْتَعَدَّ لِقَطْعِ الأُخرى وَاسْتَشْعَرَ القُرْبَ مِنَ المَنْزِلِ فهانَ عَلَيْهِ مشَقّةُ السَّفَرِ .

وَكُلَّمَا سَكَنَتْ نَفسُهُ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ ومُواصَلَةِ الشَّدِّ والرَّحِيلِ وَعَدها قُرْبُ التّلاقي وبَرْدُ العَيْشِ عِنْدَ الوُصُولِ فَيُحْدِثُ لَها ذَلِكَ نَشاطاً وَفرَحاً وهِمَّةً فهُو يقولُ : يا نفسُ أبْشِرِي فقَدْ قرُبَ المنزلُ ودَنا التّلاقِي فَلا تَنْقطِعِي في الطّرِيقِ دُونَ الوُصُولِ فيُحالَ بَيْنَكِ وَبَيْنَ مَنازِلِ الأحِبَّةِ .

فَإِنْ صَبرْتَ وَواصلْتِ المَسْرَى وَصَلْتِ حَمِيْدَةً مَسْرورةً جَذِلَةً وتلَقّتْكِ الأحِبَّةُ بأنواعِ التُحَفِ والكَراماتِ ولَيْس بَيْنَكِ وَبَيْنَ ذَلِكَ إلّا صَبْرُ سَاعَةٍ فَإِنَّ الدُّنْيا كُلَّها كَساعةٍ مِنْ سَاعَاتِ الآخِرَةِ وعُمُرُكِ درجةٌ مِنْ دَرَجِ تِلْكَ السّاعَةِ فَاللّهَ اللّهَ لا تَنْقَطِعِي في الْمَفازَةِ فهُوَ واللّهِ الهلاكُ والعَطَبُ لوْ كُنْتِ تَعْلَمين .

فَإِنْ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ فليُذَكِّرْهَا ما أَمَامَهَا مِنْ أحْبابِها وَمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الإِكْرَامِ والإِنْعَامِ وَمَا خَلفَها مِنْ أعْدَائِها وَمَا لَدَيْهِمْ مِن الإِهَانَةِ والعَذَابِ وأنْواعِ البلاءِ فَإِنْ رَجَعَتْ فإلى أعدَائِهَا رُجُوعها وإِنْ تَقَدَّمَتْ فإلى أحبابِها مصِيْرُها وإِنْ وَقَفَتْ في طَرِيقها أدْرَكَها أعداؤُها فَإِنّهُمْ وَرَاءَها في الطَّلَبِ ولا بُدَّ لَها مِنْ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الأقْسامِ الثّلاثَةِ فلْتَخْتَرْ أيّها شاءَتْ انتهى .

شعرا :

تَـراهُمْ وأَمْلَاكُ الـرِّضَـا يَقْـدُ مُـونَهِمْ
إِلَى جَنَّـــةٍ طَـابَـتْ وَطَـاب نَعِيمُهَـــا
يَسِيْــرُوْنَ فِي أَمْنٍ إِذَا الخَلْقُ فُــزَّعٌ
وَقَــدْ بَـرَزَتْ نَــارٌ وَشَبَّ جَحِيْمُهَـــا
آخر : فَلِلّهِ كَمْ مِنْ خَيْرَةٍ قَدْ تَهَيَّئَتْ
لِقَـوْمٍ عَلَى الأَقْـدَامِ بِـاللَّيْـلِ قُـوَّمُ
يُـنَــاجُــوْنَ رَبَّ العَــالَـمِيْـنَ إِلٰهَـهُمْ
فَتَسْـرِي هُمُوْمُ القَـوْمِ والنّـاسُ نُـوَّمُ
آخـر : ولِلّهِ أَلْـطافٌ بَـطيٍّ قَضَـائِـهِ
أَخُـــو الفَهْمِ فِي أَسْــرَارِهَــا يَتَفَهَّمُ
فَـمُــوْسَى بِـقَــذْفِ اَلْيَــمِّ تَمَّ عُـلُوُّهُ
تَـرَقَّى إِلى أَعْلَى الذُرَى وَهْـوَ مُكْرَمُ
ويُـوْسُفُ بَعْدَ الجُبِّ والسّجْنِ حُقْبَـةً
حَوَى المُلْكَ وهُوَ المُسْتَفَـادُ المُعَظَّمُ
وبِــالصَّبْـرِ والتَّقْــوَى تُنَـالُ هِبَــاتُــهُ
وأَتْقَى الـوَرَى عِنْـدَ المُهَيْمِنِ أَكْـــرَمُ

وقال رحمه الله :

السَّنَةُ شَجرةٌ والشُّهُورُ فُرُوعُهَا والأَيَّامُ أَغْصَانُها وَالسَّاعَاتُ أَوْرَاقُها والأَنْفَاسُ ثَمرُهَا فَمَنْ كَانَتْ أنفَاسُهُ فِي طَاعةٍ فَثَمرَةُ شَجرَتِهِ طَيِّبَةٌ وَمَنْ كَانَتْ فِي مَعْصِيةٍ فَثَمَرَتُهُ حَنْظلٌ وإِنّمَا يَكُونُ الجَدَادُ يَوْمَ المَعَادِ فَعِنْدَ ذلِكَ يَتَبَيّنُ حُلْوُ

الثِّمَارِ مِنْ مُرِّهَا .

والإِخْلاصُ والتَّوْحِيْدُ شَجَرَةٌ في القَلْبِ فُرُوعُها الأعمالُ وثَمَرُهُ طِيْبُ الحيَاةِ فِي الدُّنْيا والنَّعِيْمُ المُقِيْمُ فِي الآخِرَةِ وكَما أنّ ثِمارَ الجَنّةِ لاَ مَقْطُوْعَةٌ وَلاَ مَمْنُوْعَةٌ فَثَمَرَهُ التَوْحِيْدِ والإِخْلاَصِ في الدُّنْيا كذَلِكَ .

والشِّرْكُ والكَذِبُ والرِّياءُ شَجَرَةٌ فِي القَلْبِ ثَمرُهَا فِي الدُّنْيا الخَوْفُ والهَمُّ والغَمُّ وضِيْقُ الصَّدْرِ وظُلمَةُ القَلْبِ وثَمرُها في الآخِرَةِ الزَّقُّومُ والعَذَابُ الأَلِيْمُ المُقِيْمُ وَقَدْ ذَكَرَ اللّهُ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ فِي سُورَةِ إبراهيمَ .

وقال رَحِمَهُ اللهُ: إشْتَرِ نَفْسَكَ فَالسُّوقُ قَائِمَةٌ والثَّمَنُ مَوْجُودٌ وَلا بُدَّ مِن سِنَةِ الغَفْلَةِ وَرُقَادِ الهَوَى ولَكِنْ كُنْ خَفِيْفَ النَّوْمِ فَحُرَّاسُ البَلَدِ يَصْحُونَ دَنَا الصَّبَاحُ نُورُ العَقْلِ يُضِيءُ في لَيْلِ الهَوَى فتَلُوحُ جادّةُ الصَّوابِ فيَتَلمَّحُ البَصِيْرُ فِي ذَلِكَ النُّوْرِ عَوَاقِبَ الأُمورِ أُخْرُجْ بالعَزْمِ مِن هَذَا الفِنَاءِ الضَّيِّقِ المَحْشُوِّ بالآفاتِ إلى ذلِكَ الفِنَاءِ الرَّحْبِ الّذي فِيهِ ما لاَ عيْنٌ رأتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

فَهُنَاكَ لاَ يَتعَذّرُ مَطلوبٌ وَلا يُفْقَدُ محبُوبٌ يا بائعاً نَفْسَهُ بِهَوَى مَنْ حُبُّهُ ضَنا وَوَصْلُهُ أذَى وحُسْنُهُ إلى فَناءِ لقَد بِعْتَ أنْفَسَ الأشياءِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ كأنّكَ لَمْ تَعْرِفْ قَدْرَ السِّلعَةِ حتّى إذا قَدمْتَ يوْمَ التَّغابُنْ تبيَّنَ لَكَ الغَبْنُ فِي عَقْدِ التّبايُعِ لاَ إلَهَ إلاّ اللّهُ سِلْعَةٌ اللّهُ مُشْتَريها ، وثَمنُها الجَنّةُ .

شعراً :

كـرِهْتُ وَعَـلَّامِ الغُيـوبِ حَيَـاتِي
وأَصْبَحْتُ أرجـو أنْ تَحينَ وَفَـاتـي

فَشَا السُّوءُ إلا في القليل مِنَ الوَرَى
وخـاضُـوا بِحَـارَ اللهْـوِ والشَّهَـواتِ

وضَاعَتْ لَدَيْهِمْ حُرْمَةُ الدِّينِ وآغْتَدَتْ
نُفُـوسُهُمُـوْا في الفِسْقِ مُنْغَمِسَـاتِ

وقـدْ فَسَـدَتْ أَخْـلاقُهُمْ وتَغَيَّـرتْ
وأضْحَتْ خِـلالُ الخِـزْيِ مُنْتَشِـرَاتِ

وَسَارَ الخَنَا فِيْهِمْ فلَسْتُ أرَى سِوَى
كَتَـائِبِ فُسَّـاقٍ وجَـمْـعَ طغَـاةِ

فَمِنْهُمْ كَـذُوْبٌ في الـوِدَادِ مُخَـادِعٌ
أراهُ صَـدِيقِي وهُـوَ رأْسُ عُـداتِي

يُقـابِلُنِي بـالبِشْـرِ واللُّطْفِ عِنْدَمَـا
يَـرَانِي ويَـدْعُـو لِيْ بِطُولِ حَيَـاتِي

وإنْ غِبْتُ عنـه سَبَّني وأَهَـانَـني
وَعَـدَّ عُيُـوبي لـلوَرَى وَهَنَـاتِي

ومِنهُمْ شَقِيٌّ هَمُّـهُ الفِسْقُ والـزِنَـا
ولَـوْ كـانَ عُقْبَـاهُ إلى الهَـلَكَـاتِ

تُـلاقِيـهِ يَجْـرِي خَلْفَ مُسْلِمَـةٍ بِـلاَ
حَيَـآءٍ ولا خَـوْفٍ مِنَ ٱلْعَنَـاتِ

كَـأنْ لَمْ يُفَكِّـرْ أنَّ تِلْكَ كَـأخْتِـهِ
فَـيَـغْـمِـزُهَـا لِـلْحَظِ والـغَـمَـزَاتِ
وَيُبْدِي لَهَا الإِعْجَاب غِشًّا وَخِـدْعةً
ولمْ يَـرْعَ حقَّ اللهِ في الحُـرُمَـاتِ
وآخَـرُ أَمْسَى لِـلْعُـقَـارِ مُـعَـاقِـراً
وأَصْبَـحَ في خَبْـلٍ وفي سَكَـرَاتِ
تَـرَاهُ إذَا مَـا أَسْـدَلَ الليـلُ سِتْـرَهُ
عَـلَيـهِ وَوَافِـيَ بَـادِيَ الـظُّلُمَـاتِ
يُدِيْرُ ابْنَـةَ العُنْقُـودِ بَينَ صِحَـابِـهِ
ويَـطْربُ بينَ الكـأسِ والنَغَمَـاتِ
وَقَـدْ أَغْفَـلَ المِسْكِيْنُ ذِكْـرَ مَمَاتِـهِ
وَمـا سَيُـلاقِي مِنْ جَـوَى النَّـزَعَـاتِ
يَتِيْـهُ عَـلَى كُـلِّ العِبَـادِ بِعُـجْبِـهِ
وَيَـخْتَـالُ كِـبْـراً نَـاسِـيـاً لِـغَـدَاةِ
غَـدَاةَ يُـوارَى فِي التُّـرابِ ويَغْتَـدِي
طَعـامـاً لِـدُودِ القَبْـرِ والحَشَـرَاتِ
وآخَـرُ مَـغْـرُورٌ بِكَـثْـرَةِ مَـالِـهِ
ومـا عِنْـدَهُ فِي البَنْـكِ مِنْ سَنَـدَاتِ
يُفَـاخِـرُ خَلْقَ اللّهِ بِـالْجَـاهِ والغِنَى
وبـالْمَـالِ لا بـالفَضْـلِ والْحَسَنَـاتِ
وَلَـمْ يَـدْرِ أَنَّ المـالَ فَـانٍ وأَنَّـهُ
يَـزُولُ كَسُحْبِ الصّيْفِ مُنْقَشِعَـاتِ

وَذَا شَـاهِـدٌ بـالـزُّور إنْ يَسْتَعِنْ بِــهِ
أَخُــوْ شِقْـوةٍ يَشْهَــدْ بِكُــلِّ ثَبَــاتِ
ولَمْ أَدْرِ مَــاذَا قَــدْ أُعَــدَّ لِمــوْقِفٍ
بِــهِ يَقِفُ العَــاصِيْ بغَيْــرِ حُـمَــاةِ
وذَا آكِــلٌ مَــالَ اليَتِيْمِ وَلَـمْ يَــدَعْ
لَــهُ عِنْــدَ رَدِّ الحَـقِّ غَيْــرَ فُـتَــاتِ
وفي بَـطْنِهِ قَـدْ أدْخَلَ النّـارَ عـامِـداً
وأصْبَــحَ مَحْــرُوْمــاً مِنَ النَّفَحَــاتِ
وَذَلِــكَ مُـغْـتَــابٌ وَهَــذا مُنَــافِقٌ
لِحِــطَّتِــهِ قَــدْ عُــدَّ فِي النّكِــرَاتِ
وهَذَا يَغُشُّ النّاسَ فِي البَيْعِ والشِرَا
وأَرْبَــاحُــهُ مَـنْـزُوْعَــةُ الـبَــرَكَــاتِ
وَهَـذَا حَـوَى كُـلَّ الخَنَا وَصِفَــاتُـهُ
مَـعَ الخَلْقِ والخَـلاَّقِ شَـرُّ صِفَـاتِ
وكَمْ مُعْلِنٍ لِلْفِـطْرِ والنّــاسُ صُــوَّمٌ
يُجَـاهِـرُ فِي الإِفْـطَارِ في الـطُّرُقَـاتِ
وَلَـيْسَ يُبَــالِـي بــانْتِـقَــامِ إلٰـهِــهِ
وَتَـعْــذِيْبِــهِ لِــلأَنْـفُسِ النَّجِسَــاتِ
وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ مُسْتَـطِيْــعٍ تَــرَاهُ لاَ
يُبَــادِرْ بِحَــجِّ البَيْــتِ قَبْــلَ فَــوَاتِ
فَيَسْعَى بِنَفْسٍ مِلْؤُهــا البِـرُّ وَالتُّقَى
لِـتَلْبِـيَــةِ الــرَّحْمَـنِ فـي عَــرَفَــاتِ

وَلَمْ أَرَ إِلَّا النَّـزْرَ فِيْهِـمْ مُسـارِعـاً
لإِحْيَـاءِ دِيْـنِ الـلّهِ بِـالـصَّـلَوَاتِ
ومـا الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ إِلَّا وَسَـائِـلٌ
عَلَى المُتّقي تَسْتَنْـزِلُ الـرَّحَـمَـاتِ
وَتَنْهَى عَنْ الفَحْشـاءِ والمُنْكَرِ الّـذي
يَـزُجُّ بِمَنْ يَـأتِيْـهِ فِي الكُـرُبَـاتِ
وَيَـنْـدُرُ أَنْ أَلْقَـى غَنِيّـاً بمـالِـهِ
يَجُـودُ لِـذِي جُـوعٍ وَذَاتِ عُـرَاةِ
فَمَـا ائْتَمَرُوا بـالأمْرِ كَـلَّا وَلَا انْتَهَـوْا
عَنْ النَّهْيِ حَتَّى سـوَّدُوا الصَّفَحَـاتِ
وعـاثُوا فَسـاداً فِي البِلادِ فَـأَصْبَحُـوا
بِعِصْيَـانِهِمْ في أسْفَـلِ الـدَّرَجَـاتِ
خَـلَائِقُ يَـأْبَـاهَـا الـرَّشِيْدُ لِقُبْحِهَـا
وَلَا يَـرْتَضِيْهَـا غَيْـرُ أَحْمَقَ عَـاتِي
ويُنْكِرُها ذُوْ العَقْلِ والرَّأْيِ والحِجَـا
ويَخْجَـلُ مِنْهَـا صـادقُ العَـزَمَـاتِ
وَمَنْ يَتَّخِـذْهـا مَنْهَجـاً خَـابَ سَعْيُـهُ
ولا يَقْتَنِي مِنْهَـا سِوَى الحَسَـرَاتِ
إِذَا جَـاءَ وَقْتُ الصَّيْفِ شَدَّ رِحـالَـهُ
إِلَى الغَـرْبِ يَلْهُـوْ والشَّبَـابُ مُـوَاتِي
كأَنَّ بَنِي الإِسْلَامِ في عَصْرِنا غَدَوْا
لِهَـدْمِ عُـلا الإِسْـلامِ شَـرَّ دُعـاةِ

فَتُـوبُـوا عِبَـادَ اللّهِ لِلّهِ وَارْجِـعُـوا
إِلَيْـهِ تَنَـالُـوا مُنْتَهى الـرَّغَـبَـاتِ
وَلَا تَقـرَبُـوا مَـا لَا يَحِـلُّ وأَبْعِـدُوا
نُفُـوسَكُمُـوا حَتَّى عَنْ الشُّبُـهَـاتِ
وأَدُّوا حُقُـوقَ اللّهِ وآرعَـوْا حُـدودَهُ
كَمَـا يَنْبَغِي في الجَهْـرِ والخَلَوَاتِ
وَلَا تَهِنُـوا يَـوماً وَلَا تَحْـزَنُـوا لِمَـا
يُصِيْبُكُمُـوا فِي الحَقِّ مِنْ عَقَبَـاتِ
تَفُـوزُوا بـرِضْـوانِ الإِلٰـهِ ولُـطْفِـهِ
ويُغْـدِقْ عَلَيْكم أنْـعُمَـاً وهِبَـاتِ
وَيَفْتَـحْ لَكُمْ بَابَ القَبـولِ وَيَسْتَجِبْ
إذا مَـا دَعَـوْتُمْ صالِـحَ الـدَّعَـوَاتِ
وَيَجْعَـلْ لَكُمْ فِي النَّسْلِ قُـرَّةَ أعْيُنٍ
وَيَـرْزُقْكُمْ مِنْ أَطْيَـبِ الـثَّمَـرَاتِ
ويُمْـدِدْكُمْ بـالنَّصْـرِ حَتَّى إذا طَغَى
عَـلَيْـكُـمْ عَـدُوٌّ رَدَّهُ بِـشَـتَـاتِ
فَمَـا حَـلَّ هَـذَا الحَـالُ إِلَّا لِنَبْـذِكُمْ
تَـعَـالِيـمَ دِيـنِ الـلَّهِ نَـبْـذَ نَـوَاةِ
وَمَـا سـلَّطَ الـلّهُ الـعَـدُوَّ عَـلَيْكُـمُ
فَلَمْ يَبْقَ فِيْكُمْ غَيْـرُ بعضِ رُفَـاتِ
سِـوَى بُعْـدِكُمْ عَنْ دِينِـهِ ولأنّـكُمْ
قَنِعْتُمْ عَنِ الأعْمَـالِ بـالـكَلِمَـاتِ

اللّهُمَّ ثَبِّتْ وَقَوِّ مَحبَّتَكَ في قُلوبِنا واشْرَحْ صُدُورُنا وَنَوِّرْها بِنُورِ الإِيْمانِ واجْعَلنا هُداةً مُهْتَدينِ وألْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ واْجْعَلنا مِمَّنْ يفُوزُ بالنَّظَرِ إلَى وَجْهِكَ فِي جَنّاتِ النّعيمِ يَا حَليمُ وَيَا كَرِيمُ واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِينا ولِجَميعِ المُسْلِمين الأحياءِ منهُم والميّتينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ وصلّى اللّهُ عَلَى مُحمّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِين .

(فصــــل)

وقال ابن القيم رحمه الله :

الجِهَادُ أرْبَعُ مَرَاتِبَ أحدُهَا أنْ يُجاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الهُدَى ودِينِ الحقِّ الّذي لا فلاحَ لَها وَلاَ سَعادَةَ لَها فِي مَعَاشِهَا ومَعادِها إلا بِهِ وَمَتى فَاتَها علمُهُ شَقِيَتْ في الدَّارَيْن الثانية أَنْ يُجاهِدَهَا عَلَى العَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ وإلاَّ فَمُجَرَّدُ العِلْم بِلا عَمَلٍ إنْ لَمْ يَضُرَّها لَمْ يَنْفَعْهَا الثَّالِثَةُ أنْ يُجاهِدَ عَلَى الدَّعْوَةِ إلَيْهِ وتَعْلِيمِهِ مَنْ لا يَعْلَمُهُ وإلاّ كَانَ مِنَ الّذينَ يكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ الهُدَى والبَيِّنَاتِ وَلاَ يَنْفَعُهُ علمُهُ وَلاَ يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللّهِ .

الرَّابِعةُ : أَنْ يُجاهِدَها عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إلى اللّهِ وأذَى الخَلْقِ وَيَتَحمَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلّهِ فَإِذا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ المَرَاتِبَ الأَرْبَعَ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيينَ فَإنَّ السَّلفَ مُجْمِعُوْنَ عَلَى أنَّ العالِمَ لا يَسْتَحِقُّ أنْ يُسَمَّى رَبَّانياً حَتَّى يَعْرِفَ الحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ .

فَمَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ وَعَمِلَ فَذاكَ يُدْعَى عَظِيْماً فِي مَلَكُوْتِ السَّماءِ وأمّا جِهَادُ الشّيطانِ فَمرْتَبتانِ جهَادُهُ عَلى دَفْعِ ما يُلْقِي إلى العَبْدِ مِن الشُّبُهاتِ والشُّكوكِ القادِحَةِ في الإيمانِ .

الثّانِية : جِهادُهُ عَلَى دَفْعِ ما يُلْقِيهِ مِنَ الإِرَادَاتِ والشَّهَوَاتِ فَالجِهَادُ الأوّلُ يَكُونُ بَعْدَهُ اليَقِينُ والثّاني بَعْدَهُ الصَّبْرُ قَالَ تعالَى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُوْنَ بِأَمْرِنا لمَّا صَبَرُوْا وكَانُوا بآيَاتِنَا يُوْقِنُون﴾ فأخْبَرَ أَنَّ إمامَةَ الدِّيْنِ إنّما تُنَالُ بالصَّبْرِ واليَقِيْنَ فَالصَّبْرُ يَدْفَعُ الشَّهَوَاتِ والإرَادَاتِ وَاليَقِيْنُ يَدْفَعُ الشُّكُوكَ والشُّبُهَاتِ وأمّا جِهادُ الكُفّارِ والمُنَافِقِيْنَ فأَرْبَعُ مَرَاتِبَ بالقَلْبِ وَاللّسانِ والْمَالِ وَالنَّفْسِ وَجِهادُ الكُفَّارِ أَخَصُّ باليَدِ وجِهَادُ المُنَافِقِيْنَ أَخَصُّ باللّسَانِ وأمّا جِهَادُ أَرْبَابِ الظُّلْمِ والبِدَعِ والمُنْكَرَاتِ فَثَلاثُ مَرَاتِبَ الأُولَى باليَدِ إِذَا قَدَرَ فَإِنْ عَجِزَ انتقلَ إلى اللّسانِ فَإِنْ عَجزَ جَاهَدَ بِقَلْبِهِ فَهَذِهِ ثَلاثَةَ عشْرَةَ مَرْتَبَةً مِنَ الجهادِ وَمَنْ مَاتَ ولَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بالغَزْو ماتَ على شُعْبَةٍ مِنَ النّفاقِ وَلاَ يَتِمُّ الجِهَادُ إلاّ بالهِجْرَةِ وَلاَ الهِجْرَةُ وَالجِهادُ إلاّ بالإِيمانِ .

والرّاجُونَ رَحْمَةَ اللّهِ هُمُ الّذِينَ قَامُوْا بهَذِهِ الثَّلاَثَةِ قَال تَعالَى ﴿إِنَّ الّذِينَ آمَنُوا وَالّذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِي سَبِيْلِ اللّهِ أُولئِكَ يَرْجُوْن رَحمةَ اللّهِ واللّهُ غَفورٌ رحِيمٌ﴾ .

وَكَمَا أَنَّ الإيمانَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فَفُرِضَ عَلَيْهِ هِجْرَتَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ هِجْرةٌ إِلى اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْحِيْدِ وَالإِخْلاَصِ وَالإِنابَةِ وَالتَّوكُّلِ والخَوْفِ وَالرَّجاءِ والمَحبَّةِ والتَّوْبَةِ وهِجْرَةٌ إِلى رَسُولِهِ بالمُتَابِعَةِ والانْقِيَادِ لأمْرِهِ والتَّصْدِيْقِ بِخَبَرِهِ وتَقْدِيْمِ أمْرِهِ وخَبَرِهِ على أَمْرِ غَيْرِهِ وخَبَرِهِ .

فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلى اللّهِ ورسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتزَوَّجُها فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ .

وفُرِضَ عَلَيْهِ جِهَادُ نَفْسِهِ فِي ذَاتِ اللّهِ وجِهَادُ شَيْطَانِهِ فَهَذَا كُلُّهُ فَرضٌ

عَيْنٍ لَا يَنُوبُ فِيهِ أحَدٌ عَنْ أحَدٍ وأمّا جِهَادُ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِيْنَ فَقَدْ يُكْتَفي فِيْهِ بِبَعْضِ الأُمّةِ إذا حَصَلَ مِنْهُم مَقْصُوْدٌ .

وأَكْمَلُ الخَلْقِ عِنْدَ اللّهِ مَنْ أَكْمَلَ مَرَاتِبَ الجِهَادِ كُلَّها ، وَالخَلْقُ مُتَفاوِتُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللّهِ تَفاوُتَهُمْ فِي مَرَاتِبِ الجِهَادِ وَلِهَذا كانَ أكْمَلُ الخَلْقِ وأكْرَمُهُمْ عَلَى اللّهِ خاتَمُ أنْبيائِهِ وَرُسُلِهِ فَإنّهُ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الجِهَادِ وَجَاهَدَ فِي اللّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَشَرَعَ في الجِهَادِ مِنْ حِيْنَ بُعِثَ إلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿يَا أَيُّهَا المُدَثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ﴾ شَمَّرَ عَنْ سَاقِ الدَّعْوَةِ وَقامَ فِي ذَاتِ اللّهِ أَتَمَّ قِيَامٍ وَدَعَا إلَى اللّهِ لَيْلاً وَنَهاراً وَسِرّاً وَجَهْراً فَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ صَدَعَ بأمْرِ اللّهِ لا تَأخُذُهُ فِيْهِ لَوْمَةُ لائِمٍ فَدَعَا إلَى اللّهِ الصّغيرَ وَالكَبِيْرَ والحُرَّ والعَبْدَ والذّكَرَ وَالأُنْثَى والأحْمَرَ والأسْوَدَ والجِنَّ والإنْسَ .

وَلَمَّا صَدَعَ بِأَمْرِ اللّهِ وَصَرَّحَ لِقَوْمِهِ بِالدَّعْوَةِ وَنَادَاهُمْ بِسَبِّ آلِهَتِهِمْ وَعَيْبِ دِيْنِهِمْ اشْتَدَّ آذَاهُمْ لَهُ وَلِمَنْ اسْتَجَابَ لَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَنَالُوهُمْ بأنْوَاعِ الأَذى وَهَذِهِ سُنَّةُ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ كَمَا قَالَ تَعالى ﴿مَا يُقالُ لَكَ إلَّا مَا قَدْ قِيْلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وَقَال : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِيْنَ الإنْسِ والجِنِّ﴾ وقال : ﴿كَذَلِكَ مَا أتَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلّا قَالُوا سَاحِرٌ مَجْنون أَتَواصَوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون﴾ .

فَعَزَّى سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ بِذَلِكَ وأنَّ لَهُ أسْوَةً بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ المُرْسَلِيْنَ وَعَزَّى أتْبَاعَهُ بِقَوْلِهِ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُمْ مَثَلُ الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البأسَاءُ والضّراءُ وزُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرّسُولُ والّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ ألَا أنَّ نَصرَ اللّهِ قَرِيْب﴾ .

وَقَوْلِهِ ﴿أَلم أَحَسَبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون ، وَلَقدْ فتَنَّا الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَليَعْلَمَنَّ اللّهُ الّذِيْنَ صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِيْنَ ، أَمْ حَسَبَ الّذِيْنَ يَعْمَلُونَ السّيّئَاتِ أنْ يَسْبِقُونَا سَاءما يَحْكُمُونَ مَنْ كَانَ يَرْجُوْ لِقَاءَ اللّهِ فَإِنَّ أجل اللّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيْعُ العَلِيم ، وَمَنْ جاهَد فَإِنّما يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العالَمِيْن والّذِيْنَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُكَفِرَنَّ عَنْهُم سَيّئاتِهِم ولَنجزيَنَّهُمْ أَحسَنَ الّذي كَانُوا يَعْمَلُون﴾.

وَوَصَيْنا الإِنْسَانَ بِوالديهِ حُسْناً وإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِليَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون ، وَالّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لِنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصّالحِين ، ومِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا باللّهِ فَإِذا أُوْذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ ولَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّك لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللّهُ بأعْلمَ بِمَا فِي صُدُوْرِ العالَمين﴾ فَلْيَتَأَمَّلِ العَبْدَ سِيَاقَ هٰذِهِ الآياتِ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِن العِبَرِ وكُنُوْزِ الحِكَم فَإِنَّ النّاسَ إِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ بَيْنَ أَمْرَيْن : إِمَّا أَنْ يَقُوْلَ أحدُهُم آمَنَّا ، وإِمَّا أَنْ لاَ يَقُولَ ذلِكَ بَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى السَّيِّئاتِ والكُفْرِ .

فَمَنْ قَالَ آمَنَّا . امْتَحَنَهُ رَبُّهُ وابْتَلاَهُ وَفَتَنَهُ والفِتْنَةُ الإِبْتِلاءُ والاخْتِبَارُ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الكَاذِبِ . وَمَنْ لَمْ يَقُلْ آمَنَّا فَلاَ يَحْسَبْ أَنَّهُ يُعْجِزُ اللّهَ وَيَفُوتُهُ وَيَسْبِقُهُ فإِنَّهُ إِنَّما يَطْوِي المَرَاحِلَ فِي يَدَيْهِ .

وَكَيْفَ يَفِرُّ المَرْءُ عَنْهُ بِذَنْبِهِ
إِذَا كَانَ يَطْوِي فِي يَدَيْهِ المَرَاحِلُ

فَمَنْ آمَنَ بالرُّسُلِ وأَطَاعَهُمْ عادَاهُ أَعْدَاؤُهُمْ وَآذَوْهُ فَابْتُلِيَ بِمَا يُؤْلِمُهُ ،

وإنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِمْ وَلَمْ يُطِعْهُمْ عُوْقِبَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَحَصَلَ لَهُ مَا يُؤْلِمُهُ وَكَانَ هَذَا المُؤْلِمُ أعْظَمَ وَأَدْوَمَ مِن أَلَمِ إتباعِهِمْ فَلاَ بُدَّ مِنْ حُصُولِ الألَمِ لِكُلِّ نَفْسٍ آمَنَتْ أَوْ رَغِبَتْ عَنِ الإِيْمَانِ لَكِنْ الْمُؤْمِنُ يَحْصُلُ لَهُ الأَلَمِ لِكُلِّ نَفْسٍ آمَنَتْ أَوْ رَغِبَتْ عَن الإِيْمَانِ لَكِنْ المُؤْمِنُ يَحْصُلُ لَهُ الألَمُ فِي الدُّنْيا ابْتِدَاءً ثُمَّ يَكُونُ لَهُ العاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ والمُعْرِضُ عَنْ الإيمانِ يَحْصُلُ لَهُ لَذَّةٌ ابْتِداءً ثُمّ يَصِيْرُ في الأَلَمِ الدَّائِمِ .

وسُئِلَ الشّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللّهُ أيُّما أَفْضَلُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُمكَّنَ أَوْ يُبْتَلى فقَالَ لاَ يُمَكَّنُ حَتَّى يُبْتَلَى وَاللّهُ تَعالَى ابْتَلى أُولُوا العَزْمِ مِن الرُّسُلِ فَلَمَّا صَبَرُوْا مَكّنَهُمْ .

فَلا يَظُنُّ أَحَدٌ أَنَّهُ يَخْلُصُ مِنَ الأَلَمِ البَتَّةَ وإِنَّما تَفَاوَتَ أَهْلُ الآلامِ في العُقُولِ فَأَعْقَلُهُمْ مَن بَاعَ أَلماً مُسْتَمِرّاً عَظِيْماً بألمٍ مُنْقَطِعٍ يَسِيْرٍ وأشْقَاهُمْ مَنْ بَاعَ الألَمَ المُنْقَطِعَ اليَسِيْرَ بالآلمِ العَظِيْمِ المُسْتَمِرِ. فإِنْ قِيْلَ كَيْفَ يَخْتَارُ العَقْلُ لِهَذا ؟ قِيْلَ الحَامِلُ لَهُ عَلَى هَذَا النَّقدُ والنَّسِيْئَةُ والنَّفْسُ مُوكَّلَةٌ بالعَاجِلِ (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العاجِلةَ ـ أيّ الدُّنْيا ﴿وتذرون الآخِرة﴾ ﴿إنّهؤلاء يُحبّونَ العاجِلةَ ويَذَرُوْنَ وَراءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيْلا﴾ وهَذا يَحْصُلُ لِكُلِّ أحَدٍ فَإِنَّ الإِنْسَانَ مَدَنِيٌّ بالطَّبْعِ لا بُدَّ لَهُ أنْ يَعِيْشَ مَعَ النّاسِ .

وَالنَّاسُ لَهُمْ إرَادَاتٌ وَتَصوُّرَاتٌ فَيَطْلُبُوْنَ مِنْهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَيْهَا وانْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ آذَوْهُ وعَذَّبُوْهُ ، وإِنْ وَافَقَهُمْ حَصَلَ لَهُ الآذَى وَالعَذَابَ تَارةً مِنْهُمْ ، وتَارَةً مِنْ غَيْرِهِمْ كَمَنْ عِنْدَهُ دِيْنٌ وتُقىً حَلَّ بَيْنَ قَوْمٍ فُجَّارٍ ظَلَمَةٍ وَلاَ يَتَمَكَّنُوْنَ مِنْ فُجُوْرِهِمْ وظُلْمِهِمْ إلاّ بِمُوافَقَتِهِ لَهُمْ وسُكُوْتِهِ عَنْهُمْ فَإِنْ وَافَقَهُمْ أَوْ سَكَتَ عَنْهُمْ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ فِي الابْتِدَاءِ ثُمَّ يَتَسَلَّطُوْنَ عَلَيْهِ بالإِهَانَةِ والأذَى أضْعَافَ

مَا كَانَ يَخَافُهُ ابْتِدَاءً لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِم وخَالَفَهُمْ وإِنْ سَلِمَ مِنْهُمْ فَلاَ بُدَّ أَنْ يُهَانَ وَيُعَاقَبَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِمْ .

فَالحَزْمُ كُلَّ الحَزْمِ فِي الأَخْذِ بِمَا قَالَتْ أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ لِمُعَاوِيَة : مَنْ أَرْضَى اللّهَ بسَخَطِ النّاسِ كَفَاهُ اللّهُ مؤُنَةَ النّاسِ وَمَنْ أَرْضَى النّاسَ بسَخَطِ اللّهِ لَمْ يُغْنُوْا عَنْهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً .

ومَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ العَالَمِ رَأَى هَذا كَثِيْراً فِيمَنْ يُعِيْنُ الرُّؤَسَاءَ عَلَى أَغْرَاضِهِمْ الفَاسِدَةِ وفِيمَنْ يُعِيْنُ أَهْلَ البَدَعِ عَلَى بِدَعِهِمْ هَرَباً مِنْ عُقُوْبَتِهِمْ فَمَنْ هَدَاهُ اللّهُ وأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ وَوَقَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ امْتَنَعَ مِن المُوَافَقَةِ عَلَى فِعْلِ المُحَرَّمِ وَصَبرَ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ ثُمَّ يَكُونُ لَهُ العَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ كَمَا كَانَتْ لِلرُّسُلِ وأَتْبَاعِهِمْ كالمُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ وَمَنْ ابْتُلِيَ مِنَ العُلَمَاءِ والعُبَّادِ وصَالِحِيْ الوُلاَةِ والتُّجارِ وغَيْرِهِمْ وَلَمَا كَانَ الأَلَمُ لاَ مَحِيْصَ مِنْهُ البَتَّةَ عَزَّى سُبْحَانَهُ مَنْ اخْتَارَ الأَلَمَ اليَسِيْرَ المُنْقَطِعَ عَلَى الأَلمِ العَظِيْمِ المُسْتَمِرِّ بقَوْلِهِ ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّهِ لآتٍ وهُوَ السَّمِيْعُ العَلِيم﴾ .

فَضَرَبَ لِمُدَّةِ هَذَا الأَلَمِ أَجَلاً لاَ بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ وَهُوَ يَوْمُ لِقَائِهِ فَيَلْتَذُّ العَبْدُ أَعْظَمَ اللَّذَّةِ بِمَا تَحَمَّلَ مِنَ الأَلَمِ فِي اللّهِ وللّهِ وأَكَّدَ هَذَا العَزَاءَ وَالتَّسْلِيَةِ بِرَجَاءِ لِقَائِهِ لِيَحْمِلَ العَبْدَ اشْتِيَاقُهُ إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ وَوَلِيِّهِ عَلَى تَحَمُّلِ مَشَقَّةِ الأَلَمِ العَاجِلِ بَلْ رُبَّمَا غَيَّبَهُ الشَّوْقُ إِلى لِقَائِهِ عَنْ شُهُوْدِ الأَلمِ والاحْسَاسِ بِهِ وَلِهذا سَأَلَ النَّبِيّ ﷺ رَبَّهُ الشَّوْقَ إِلى لِقَائِهِ فقَالَ فِي الدُّعَاءِ الّذي رواهُ أحمد وابن حبان :

(اللَّهُمَّ إِنّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ وقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِني إذا

كانَتِ الحَيَاةُ خَيراً لِيْ وَتَوَفَّنِيْ إِذَا كانَتْ الوَفاةُ خَيْراً لِي وأسألكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ والشَّهَادَةِ وأَسْأَلُكَ نَعِيْماً لا يَنْفَذُ وأسْألُك قُرَّةَ عَيْنٍ لا تَنْقَطِعُ وأسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ وأسْأَلُكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ وأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلى وَجْهِكَ وأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلا فتنَةٍ مُضِلَّةٍ اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِيْنَةِ الإِيمانِ واجْعَلْنا هُدَاةً مُهْتَدِيْن) .

فالشَّوْقُ يَحْمِلُ المُشْتَاقَ عَلَى الجِدِّ فِي السَّيْرِ إِلى مَحْبُوْبِهِ ويُقَرِّبُ عَلَيْهِ الطَّرِيْقَ وَيَطْوِيْ لَهُ البَعِيْدَ ويُهَوِّنُ عَلَيْهِ الآلامَ والمَشَاقَ وَهُوَ مِنْ أعْظَمِ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللّهُ بِهَا على عَبْدِهِ ولكِنْ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ أقْوالٌ وأَعْمَالٌ هُمَا السَّبَبُ الّذي تُنَالُ بِهِ واللّهُ سُبْحَانَهُ سَمِيْعٌ لِتِلْكَ الأَقْوالِ عَلِيْمٌ بِتِلْكَ الأفْعَالِ وَهُوَ عَلِيْمٌ بِمَنْ يَصْلحُ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأعْلَمَ بِالشَّاكِرِين﴾ .

فَإِذَا فَاتَتِ العَبْدَ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ رَبِّهِ فَلْيَقْرَأْ عَلَى نَفْسِهِ ﴿أَلَيسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بالشّاكِرِين﴾ ثُمَّ عَزَّاهُمْ تَعَالى بِعَزَاءٍ آخَرَ وَهُوَ أنَّ جِهَادَهُمْ فِيْهِ إِنَّمَا هُوَ لأَنْفُسِهِمْ وَثَمَرَتُهُ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِيْنَ ومَصْلَحَةُ هَذَا الجِهَادِ تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ لا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ثُمَّ أخْبَرَ أَنَّهُ يُدْخِلُهُمْ بِجِهَادِهِمْ وَإِيْمَانِهِمْ فِي زُمْرَةِ الصّالِحِيْنَ ثُمَّ أخْبَرَ عَنْ حَالِ الدَّاخِلِ فِي الإِيمانِ بلا بَصِيْرَةٍ وَأَنَّهُ إذا أُوْذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ لَهُ كَعَذَابِ الله .

وَهِيَ أذَاهُمْ لَهُ وَنَيْلُهُمْ إيّاهُ بالمَكْرُوْهِ والأَلَمِ الّذي لا بُدَّ أَنْ يَنالَهُ الرُّسُلُ وأتْبَاعهُم مِمَّنْ خَالَفَهُمْ جعَلَ ذَلِكَ الّذي نَالَهُ مِنْهُمْ كَعَذَابِ اللّهِ الّذي فَرَّ مِنْهُ المُؤْمِنُونَ بالإِيمانِ فَالمُؤْمِنونَ لِكَمَالِ بَصِيْرَتِهِمْ فَرُّوا مِنْ ألَمِ عَذابِ اللّهِ إِلَى الإِيمانِ وتَحَمَّلُوا ما فِيْهِ مِنَ الألَمِ الزّائِلِ المُفَارِقِ عَنْ قَرِيبٍ .

وَهَذَا لِضُعْفِ بَصِيْرَتِهِ فَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ إِلى مُوَافَقَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ فَفرَّ مِنْ ألَمِ عَذَابِهِمْ إِلى أَلَمِ عَذَابِ اللّهِ فَجَعَلَ أَلَمَ فِتْنَةَ النّاسِ فِي الفِرَارِ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ أَلَمِ عَذَابِ اللّهِ وَغُبِنَ كُلَّ الغَبْنِ إِذْ اسْتَجَارَ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنّارِ وَفَرَّ مِنْ ألَمِ سَاعَةٍ إِلى أَلَمِ الأَبَدِ وإِذَا نَصرَ اللّهُ جُنْدَهُ وأَوْلِيَاءَهُ قَالَ إِنِّي مَعَكُمْ وَاللّهُ عَلِيم بِمَا انْطَوَى عَلَيْهِ صَدْرُهُ مِنَ النّفَاقِ .

وَالمَقْصُوْدُ أَنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ اقْتَضَتْ حِكْمَتُه أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَمْتَحِنَ النُّفُوسَ ويَبْتَلِيْهَا فَيَظْهَرُ بالامْتِحَانِ طِيْبَهَا مِنْ خُبْثِهَا وَمَنْ يَصْلُحُ لِمُوالاتِهِوكَرامَاتِهِ وَمَنْ لاَ يَصْلحُ ولِيُمَحِّصَ النّفُوسَ الّتِي تَصْلُحُ لَهُ ويُخَلّصَهَا بِكيْرِ الامْتِحانِ كالذَّهَبِ لاَ يَخْلُصُ وَلاَ يَصْفُو مِنْ غِشِّهِ إلاّ بالامْتِحانِ إذ النَّفْسُ فِي الأَصْلِ جَاهِلةٌ ظَالِمةٌ وَقَدْ حَصَلَ لَهَا بالجَهْلِ والظُّلْمِ مِنَ الخُبْثِ مَا يَحْتَاجُ خُرُوْجَهُ إِلَى السَّبْكِ والتَّصْفِيَةِ فَإِنْ خَرَجَ فِي هَذِهِ الدَّارِ وإلاّ فَفِيْ كِيْرِ جَهَنَّمَ فإذا هُذِّبَ العَبْدُ ونُقِّيَ أُذِنَ له فِي دُخول الجَنّةِ .

قال الناظم رحمه الله :

وَإِنَّ جِهَادَ الكُفْرِ فَرْضُ كِفَايَةٍ
وَيَفْضُلُ بَعْدَ الفَرْضِ كُلَّ تَعبُّدِ
لأَنَّ بِهِ تَحْصِيْنُ مِلَّةِ أَحْمَدٍ
وَفَضْلُ عُمُومِ النَّفْعِ فَوْقَ المُقَيَّدِ
فَلِلّهِ مَنْ قَدْ بَاعَ لِلّهِ نَفْسَهُ
وجُوْدُ الفَتَى فِي النَّفْسِ أَقْصَى التَّجَوُّدِ
وَمَنْ يَغْزُ إِنْ يَسْلَمْ فَأجْرُ ومَغْنَمٌ
وإِنْ يَرْدَ يَظْفُرْ بالنَّعِيْمِ المُخَلَّدِ

وَمَـا مُحْسِنٌ يَبْغِي إِذَا مَـاتَ رَجْعَـةً
سِوَى الشُّهَدَا كَيْ يَجْهَدُوْا فِي التَّزَوُّدِ
لِفَضْلِ الَّذِي أُعْطُوْا وَنَالُوا مِنَ الرِّضَى
يَفُوقُ الأَمَانِيْ فِي النَّعِيْمِ المُسَرْمَدِيْ
كَفَى أَنَّهُمْ أَحْيَـا لَـدَى اللّهِ رُوْحُهُمْ
تَـرُوْحُ بِجَنَّـاتِ النَّعِيْمِ وَتَـغْتَـدِيْ
وغُـدْوَةُ غَـازٍ أَوْ رَواحُ مُـجَـاهِـدٍ
فَخَيْـرٌ مِنَ الـدُّنْيَـا بِقَـوْلِ مُحَمَّـدِ
يُكَفَّـرُ عَنْ مُسْتَشْهَـدِ البَـرِّ مَا عَـدَا
حُقُوقَ الوَرَى والكُلُّ فِي البَحْرِ فَاجْهَدِ
وَقَـدْ سُئِلَ المُخْتَـارُ عَنْ حَـرِّ قَتْلِهِمْ
فَقَـالَ يَـرَاهُ مِثْـلَ قَـرْصَـةِ مُفْـرَدِ
كُـلُوْمُ غُـزَاةِ اللّهِ ألْـوَانُ نَـزْفِـهَـا
دَمٌ وكَمِسْكٍ عَـرْفُهَا فَـاحَ في غَـدِ
ولَمْ يَجْتَمِعْ فِي مَنْخِرِ المَرْءِ يَا فَتَى
غُبَـارُ جِهَادٍ مَعْ دُخَانِ لَـظَى أَشْهَـدِ
كَمَنْ صَـامَ لَمْ يُفْطِرْ وقَـامَ فَلَمْ يَنَمْ
جِهَادُ الفَتَى في الفَضْلِ عِنْدَ التَّعَدُّدِ
لَشَتَـانَ مَـا بَيْنَ الضَّجِيْعِ بِفُـرْشِـهِ
وسَـاهِـرِ طَـرْفٍ لَيْلَةً تَحْتَ أَجْـرَدِ
يُـدَافِعُ عَنْ أَهْـلِ الهُدَى وحَـرِيْمِهِمْ
وأَمْـوَالِهِم بـالنفسِ والمَـالِ واليَـدِ

وَمَن قَـاتَـلَ الأَعْـدَاء لإِعْـلاَءِ دِيْنِنَـا
فَــذَا فِيْ سَبِيْـلِ اللهِ لاَ غَيْــرُ قَيِّـدِ
وَيَحْسنُ تَشْيِيْـعُ الغُـزَاةِ لِـرَاجِـلٍ
وَحَــلَّ بــلاَ كُـرْهٍ تَلَقِيْـهُمُ أشْـهَـدِ
وأهْلُ الكِتَابِ والمجُوسُ إنْ تَشَا أغْزُهُمْ
بِغَيْـرِ دُعَـاءٍ إذْ بــإِبْـلاغِهِمْ بُـدِيْ
ويُغْـزَوْنَ حَتَّى يُسْلِمُـوْا أَوْ يُسَلِّمُـوْا
صَغَـاراً إِلَيْنَـا جِـزْيَـةَ الذَّل عَنْ يَدِ
وَغَيْرٌ أُولَى فَلْيُدْعَ قَبْلَ قِتَالِهِ
إِلى أَشْـرَفِ الأَدّيَـانِ دِيْنِ مُحَمَّـدِ
وَعَــرِّفْهُ بــالبُرْهَـانِ حَتْمَ اِتِّبَـاعِـهِ
ولا تَـقْبَـلَنْ مِـنْـه سِـوَاهُ بـأَوْطَـدِ
وإنَّ رِبَـاطَ الـمَـرْءِ أَجْـرٌ مُعَـظَّمٌ
مُـلازِمُ ثَـغْـرٍ لِلِّقَـا بـالـتَّـعَـدُّدِ
ويَجْرِيْ عَلى مَيْتٍ بِهِ أَجْـرُ فِعْلِهِ
كَحَيٍ وَيُـؤْمَنْ بـافْـتِتَـانِ بمَلْحَـدِ
ولا حَدَّ في أَدْنَاهُ بَلْ أَرْبَعُوْنَ في التَّـ
تَمَامِ ويُعْطَى أجْـرَ كُـلِّ مُـزَيَّـدِ
وأَفْضَلُهُ مَـا كَـانَ أَخْـوَفَ مَـرْكَـزاً
وأَقْـرَبَ مِن أرضِ العَـدُوِّ المُنَكِـدِ
وذَلِـكَ أَثْنَى مِـن مُقَـامٍ بِـمَكَـةٍ
وفِي مَكَـةٍ فَضْـلُ الصَّــلاةِ فَـزَيِّـدِ

ومَنْ لَمْ يُطِقْ في أرْضٍ كُلِّ ضَلاَلةٍ
قِيَامـاً وَإِظهَـاراً لِـدِيْـنِ مُحَمَّـدِ
فَحَتْمٌ عَلَيْـهِ هِجْرَةٌ مَـعَ أَمْنِـهِ الْـ
هَـلاَكَ ولَـوْ فَـرْداً وَذَاتَ تَـعَـدُّدِ
بِـلاَ مَحْرَمٍ مَشْيـاً وَلَوْ بَعْـدُ المَدَى
لِفِعْـلِ الصَّحَابِيَـاتِ مَـعْ كُـلِّ مُهْتَـدِ

وقال ابن القيم رحمه الله :

فائدة جليلة

إذَا أَصْبَحَ العَبْدُ وأَمْسَى ولَيْسَ هَمُّهُ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ يَحْمِلُ اللهُ سُبْحَانَهُ حَوائِجَهُ كُلَّهَا وَحَمَلَ عَنْهُ كُلَّ مَا أَهَمَّهُ ، وفَرَّغَ قَلْبَهُ لِمَحَبَّتِهِ ولِسَانَهُ لِذِكْرِهِ وَجَوارِحَهُ لِطَاعَتِهِ وإنْ أَصْبَحَ وأَمْسَى والدُنْيَا هَمُّهُ حَمَّلَهُ اللهُ هُمُوْمَهَا وَغُمُوْمَهَا وَأَنْكَادَهَا ووَكَلَهُ إلى نَفْسِهِ فَشَغَلَ مَحَبَّتَهُ بمَحَبَّةِ الخَلْقِ ولِسَانَهُ عن ذِكْرِهِ بِذِكْرِهِمْ وجَوَارِحهُ عن طَاعَتِهِ بِخِدمَتِهِم وأشْغَالِهِم .

فَهُوَ يَكْدَحُ كَدْحَ الوَحْشِ في خِدْمَةِ غَيْرِهِ كالكِيْر يَنْفَخُ بَطْنَهُ وَيَعْصِرُ أَضْلاَعَهُ في نَفْعِ غَيْرِهِ فَكُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَن عُبُودِيَّةِ اللهِ وطَاعَتِهِ ومَحَبَّتِه بُلِيَ بعُبُوْدِيَّةِ المَخْلُوقِ ومَحَبَّتِهِ وخِدْمَتِهِ قَالَ تَعَالى « وَمَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ له شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ » أ هـ .

شعرا :

كَأَنِّي بنَفْسِيْ قَدْ بَلَغْتُ مَدَى عُمْرِي
وأنْكَرْتُ مَا قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْ دَهْرِي

وطَـالَـبَنِـي مَن لاَ أَقُـومُ بِـدَفْعِـهِ
وحُـوِّلْتُ مِن دَارِي إلى ظُلْمَةِ القَبْـرِ

وَفَـازَ بِـمِيْـرَاثِي أنـاسٌ فَشَتَّـتُـوْا
بإِفْسَادِهِم مَا كُنْتُ أَجْمَعُ في عُمْرِي

وأَهْمَلَنِي مَنْ كَـانَ يُبْـدِي مَحَبَّتِـي
وأُخْـلِصُـهُ وُدِّي ويَـغْـمِـرُهُ بِـرِّي

ولَمْ يَسْـخُ لِي مِنْهُمْ صَدِيْقٌ بِـدَعْوَةٍ
إِذَا مَا جَرَى يَـوماً بحَضْـرَتِهِ ذِكْـرِي

وأَضْحَى لِبَيْتِي سَـاكِنٌ مُبْهَـجٌ بِـهِ
وفي اللحدِ بَيْتِي لَا أَقُوْمُ إِلى الحَشْرِ

فَيَـا شِقْـوَتِي إنْ لَمْ يَجُدْ بنَجَـاتِـهِ
إِلٰهي ولَمْ يَجْبُـرْ بـرَحْمَتِـهِ فَقْـرِي

فَقَـدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرِي ذُنُـوْبٌ لَـوْ أنَّهَا
على ظَهْـرِ طُـوْرٍ أَثْقَلَتْـهُ مِنَ الـوِزْرِ

« موعظة »

عِبَادَ اللهِ مَضَى رِجَالٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ كَانُوا يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ خَشْيَةَ العَارِفِينَ الموقِنِينَ لِذَلِكَ كَانَتْ أَقْوَالُهُمْ وأفْعَالُهُم مَوْزُوْنَةٌ بِمَا لِلشَّرْعِ مِن مَوَازِيْنَ كانُوا يَزِنُونَ كَلاَمَهُمْ قَبلَ أَنْ يَلْفُظُوا بِهِ لِأَنَّهُم يُوْقِنُوْنَ أَنَّ خَالِقَهُمْ سَمِعَهَا وشَهِدَ عَلَيْهَا وهُوَ تَعَالَى خيرُ شَاهِدٍ .

كَانُوا إِذَا أَظْلَمَ اللَّيْلُ يَقِفُونَ في مَحَارِيْبِهِمْ بَاكِيْنَ مُتَضَرِّعِيْنَ لَهُم أَنِيْنٌ كأَنِيْنِ المَرْضَى ولَهُمْ حَنِيْنٌ كَحَنِيْنِ الثُّكْلَى وكَانُوا رُبَّمَا مَرُّوْا بالآيةِ مِن كِتَابِ اللهِ

فَجَعلُوْا يُرَدِّدُوْنَهَا بقَلْبٍ حَزِيْنٍ فأثَّرتْ عَلَيْهِم ومَرِضُوْا بَعْدَهَا مَاتَ أُولَئِكَ السَّلَفُ الصَّالِحُ الذِينَ تَتجافَى جُنُوبُهُم عن المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وطمعاً .

ومَاتَتْ تِلْكَ الخَشْيَةُ وأعْقبَهَا قَسْوَةٌ أذْهلَتِ العِبَادَ عن طَاعةِ اللهِ فَصَارُوْا يَأتُون ويَذَرُوْنَ ما يَذَرُوْنَ دُوْنَ سُؤآلٍ عن سَخَطِ اللهِ ورِضَاه .

وغَدَتْ جَوارِحُهُم مُطْلَقَةً في كُلِّ مَا يُغْضِبُ اللهَ وصَارَتْ أفْعَالُهُم فَوْضَى لَيْسَ لَهَا ضَوَابطُ ولاَ قُيُودٌ العَينُ تَجُولُ في المَنَاظِرِ المُحرَّمَةِ مِن نِسَاءٍ سَافِرَاتٍ إلى سِيْنَماءٍ إلى تَلْفِزْيُونٍ إلى الفِدْيُو مُعَلِّمِ الفَسَادِ إلى كُوْرَة إلى مَجلاّةٍ في طَيِّها الشُّرُورُ إلى صُورةٍ مُجَسَّدَةٍ وغَيرِ مُجَسَّدَةٍ إلى كُتُبٍ هَدَّامَةٍ لِلأخْلاَقِ إلى غَيْرِ ذلكَ مِن المُحَرَّمَاتِ التي تَجْرَحُ القُلُوب .

والفَرْجُ يَسْرَحُ كَمَا شَاءَ إلى الفَوَاحِشِ الدِّيْنُ ضَعِيْفٌ وَالخُلُقُ فَاسِدٌ والاذنُ لا تَشْبَعُ مِن سَمَاعِ مَا يُسْخِطُ رَبَّهَا والبَطْنُ يَسْتَزِيْدُ مِن سُحْتِ الأقْوَاتِ .

وأما اليَدُ فَحدَّثْ ولاَ حَرَجَ في تَعَدِّي الحُدُوْدِ وأمَّا اللِّسَانُ فَلَيْلُهُ ونَهَارُهُ يَتحَرَّكُ وَيَتقَلَّبُ في مُنْكَرِ القَوْلِ وزُوْرِهِ وَلاَ كَأَنَّ رَبَّهُ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ العَلِيْمُ مَوْجُوْدٌ وَتَرَاهُ يَطْعَنُ في أعْرَاضِ الغَوَافِلِ ويُمَزِّقُ جُلُودَهُم في السَّبِ والغِيْبَةِ والبَهْتِ والكَذِبِ ولا يَعِفُ عَن عِرْضِ أيِّ بَشَرٍ .

ويَحْلِفُ باللهِ العَلِي العَظِيم كُلَّ يَومٍ مَرَّاتٍ ولا يَهُمُّهُ أبَرَّ في يَمِيْنِهِ أمْ فَجَرَ وأمَّا وُعُودُهُ وَعُهُوْدُهُ وَعُقُوْدُهُ فَتُهْمَلُ وَلاَ كأنَهُ مُكَلَّفٌ باحْتِرَامِهَا فَهذَا وأمْثَالُهُ قد انْهَمَكُوا في المَعَاصِي وتَوَغَّلُوْا فِيْهَا وصَارَتْ عِنْدَهُم عَادَاتٌ وشَيءٌ طَبِيْعِيٌ مَألُوفٌ لَهُمْ .

وَلِذَلِكَ إِذَا مَرَرْتَ بِهِمْ أَوْ مَرَرْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ اسْتَوْحَشْتَ مِنْ سَمَاعِ الأَغانِيْ والرَّقصِ والمُطْرِبِيْنَ والسَّبِّ واللَّعْنِ والقَذْفِ والاسْتِهْزَاءِ بِالدِّينِ وأَخَذْتَ فِي العَجَبِ بَيْنَ هَؤلآءِ وَأُولَئِكَ الذينَ في أَوْقَاتِ التَّجَلِّياتِ في حَنَادِسِ الظُّلمِ يُنَاجُوْنَ رَبَّهُمْ رَاغِبِيْنَ في رِضْوَانِ العَزِيْزِ الجَبَارِ خَائِفِيْنَ مِنْ سَخَطِ المُنْتَقِمِ القَهَّارِ مُتَفَكِّرِيْنَ في سُرْعَةِ حُلُولِ المَنَايَا التي تُسَارِعُ الأَيَّامَ واللَّيَالِيْ في اقْتِرَابِهَا ومُوْقِنِيْنَ بأَنَّهُمْ مُحَاسَبُوْنَ على الفَتِيْلِ والنَّقِيْرِ والقِطْمِيْرِ عَالِمِينَ بأَنَّهُم مُكَلَّفُوْنَ بِوَاجِبَاتٍ عُبُوْدِيَّةٍ مَا قَامُوا بِالقَلِيْلِ مِنْهَا وهُمْ عَنْهَا مَسْؤُلُونَ وعلى مَا قَدَّمُوْهُ مِن خَيْرٍ وشَرٍّ قَادِمُوْنَ .

وَهَلْ حَالُ هَؤلآءِ السُّعَدَاءِ في جَانِبِ أُولَئِكَ التُعَسآءِ الأَشْقِيَآءِ إِلَّا كَحَالِ المُصَابِ بالجُنُونِ في جَانِبِ أَوْفَرِ الناسِ عَقْلاً وأَكْمَلِهِمْ وَقَاراً فأَكْثِرْ يَا أَخِيْ مِنْ قَوْلِكَ الحَمْدُ للهِ الذِي عَافَانَا مِمَّا ابْتَلاهُمْ اللهُ يُعَافِيْهِمْ وَلَا يَبْلَانَا قَال تعالى « قُلْ إِن الخَاسِرِيْنَ الذِينَ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُم وأَهْلِيْهِم يَومَ القِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِيْنُ »

وَكُـلُّ كَـسْـرٍ فَـإِنَّ اللهَ يَـجْـبُـرُهُ
وَمَـا لِكَسْـرِ قَنَـاةِ الـدِّيْنِ جُبْـرَانُ

فَتَنَبَّهْ أَيُّهَا المُؤْمِنُ واعْلَمْ أَنَّكَ مَسْؤُلٌ عَن كُلِّ مَا تَعْمَلُ لا مُهْمَلٌ كالأَنْعَامِ فانْهَجْ نَهجَ الاِسْتِقَامَةِ وَرَاقِبْ رَبَّكَ في مَصَادِرِكَ وَمَوَارِدِكَ لِتَقِفْ عِنْدَ الحُدُوْدِ قَالَ بَعْضُ المُرْشِدِيْنَ إِلَى مَعَالِمِ الرُّشْدِ ضَارِباً لِذَلِكَ مَثَلاً .

واعْلَمْ أَنَّ الانسَانَ فِي تَقَلُّبِهِ في أَطْوَارِ حَيَاتِهِ كَمَثَلِ غَرِيْبٍ أَلْقَتْ بِهِ المَقَادِيْرُ إِلى قَوْمٍ اسْتَقْبَلُوهُ بِتَرْحَابٍ وتَكْرِيْمٍ وكَانَ ذَلِكَ النَّازِلُ فَاقِدَ القُوَى غَيْرَ عَالِمٍ بِمَا عَلَيْهِ القَوْمُ مِن الشُّؤُنِ ولا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَتَى وَلا إِلى أَيْنَ يَذْهَبُ .

فَقَامَ القَوْمُ بواجبَاتِ خِدْمَتِهِ وإكْرامِهِ حَتَّى قَوِيَتْ حَوَاسُّهُ وَجَوارِحُهُ ومَدارِكُهُ وأخذَ يَعْمَلُ كَمَا يَعْمَلُ القَوْمُ فَجَاءَ رَجُلٌ مِن عُقَلائِهِم قَائِلًا يا هَذَا إِنَّ هَذِهِ الدارَ التِي تَوطَّنَهَا مُكْرِمُوْكَ ما هِيَ دَارُ إِقَامَةٍ ولا هِيَ مَمْلُوكَةٌ لِأحَدٍ مِن الخَلقِ ولكِنَّهُمْ أَمْثَالُكَ نُزَلَاء مَنْ كَانُوْا يَعْمِرُوْنَ هَذِهِ الدارَ قَبْلَهُم ثُمَّ رَحلُوْا وَتَرَكُوْهَا وَمَا كَانَ رَحِيْلُهُم إلى مَكَانٍ بَعِيْدٍ ولَكِنَّهُ كَانَ إلى سِجْنٍ ضَيِّقٍ وَمكانٍ مُظْلِمٍ لَوْ أَرْسَلْتَ بِبَصَرِكَ لَرَأَيْتَهُ وقَدْ فَقَدُوْا تِلْكَ القُوَى وتَنَاسَوْا ذَلِكَ النَّعِيْمَ .

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ إلى مَكَانٍ قَفْرٍ وأَعْنِي به المَقْبَرَةَ وقَالَ لَهُ هَذَا مُرَاحُ القَوْمِ ومَسْقَطُ رؤُسِهِمْ وإنَّ الطَّرِيْقَ التِي تُوْصِلُكَ إلى هَؤلآءِ القَوم هِيَ الطَّرِيْقُ التي سَلَكَهَا مُكْرِمُوْكَ وإِنَّهَا لَطَرِيْقٌ ذَاتُ عَقبَاتٍ مُهْلِكَةٍ وَلَهَا أَوْحَالٌ مَنْ تَوَرَّطَهَا هَلَكَ وَلا مَخْلَصَ مِن تِلْكَ الأَوْحالِ إلا بتَجَنُّبِ تِلْكَ العَقَبَاتِ أَوْ تَجَاوُزِهَا عَدْواً .

فإنْ رُمْتَ السَّلَامَةَ فَسِرْ فَرِيْداً مُتَحَفِّظاً مِن تَخَاصُمِ القَوْمِ وتَنَازُعِهِم ومِنْ مَلاهِيْهِمْ وَأَلعَابِهِمْ ولا تُصْغِ لِمَنْ يُنَادِيْكَ مِن خَلْفِكَ فإِنَّ الذِي يُنَادِيْكَ مِن خَلْفِكَ في طَرِيْقِ النَّجَاةِ هُوَ أَجْهَلُ مِنْكَ بِهَا ولا تُخَالِفْ مَنْ نَادَاكَ مِن الأَمَامِ فَإِنَّهُمْ أَدْرَى مِنْكَ بمَفَاوِزِ الطَّرِيْقِ .

وإيَّاكَ أَنْ تَشْتَبِهَ عَلَيْكَ الطُّرُقُ وأَصْوَاتُ المُنَادِيْنَ فإِنَّ طَرِيْقَ السَّلامَةِ لَهَا أَعْلَامٌ ومَصَابِيْحُ نَيِّرَةٌ عَلَى رَأسِ كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَراحِلِها وأَمَّا بَاقِي الطُّرُقِ فإِنَّها مُظْلِمَةٌ مُوْحِشَةٌ مُهْلِكَةٌ وَمَا هِيَ إلاطَرِيْقٌ وَاحِدَةٌ وَلَكِنَّهَاذَاتُ شُعَبٍ ومَسَارِبٍ كَثِيْرَةٍ .

فاحْذَرْ انْ تَتَهاوَنَ بِنَفْسِكَ كَمَا تَهَاوَنَ القَوْمُ بِنُفُوسِهِمْ فَهَلَكُوْا وَهُمْ لا يَشْعُرُوْنَ فإِنْ كَانَ النَازِلُ الغَرِيْبُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِتَعَقُّلِ النَّصَائِحِ وَذَا قَابِلِيَةٍ تَقْبَلُ

الارْشَادَ وقفَ عَلى أَفْواهِ الطَريْقِ وفَتَحَ عَيْنَيْهِ واسْتَعْمَلَ فِكْرَهُ وتَبَصَّرَ في أَمْرِهِ وتَدَبَّرَ عَوَاقِبَ مَا عَلَيه القومُ وأَخَذَ لِنَفْسِهِ بأَحْوَطِ الأَحْوَالِ وأَقْرَبِهَا إِلَى السَّلاَمَةِ وَجَعَلَ عَيْنَهُ مُتَّجِهَةً لِلنَّظَرِ إِلى مَنَازِلِ الرَّاحِلِيْنَ التِي لا أَنِيْسَ بِهَا ولا جَلِيْسَ .

وَتَأَمَّلَ سُرْعَةَ الرَّحِيْلِ وقِصَرَ أَوْقَاتِ الاقَامَةِ وتَجَنَّبَ الأَلْعَابَ والمَلاَهِي وسَلَكَ سَبِيْلَ المُهْتَدِيْنَ وإِنْ كَانَ ضَيِّقَ الحَضِيْرَةِ قَاصِرَ النَّظَرِ ضَعِيْفَ الهِمَّةِ ضَائِعَ العَقْلِ سَيِءَ التَّصَوُرِ فَاقِدَ الفِكْرِ خَبِيْثَ الاسْتِعْدَادِ لَئِيْمَ الطَّبْعِ لا يَجِدُ بُداً مِن مُنَازعَةِ اللاَّعِبِيْنَ وَمُسَابَقَةِ اللاَّهِيْنَ وَتَغَافَلَ عن عَاقِبَةِ أَمْرِهِ وسُوْءِ مَصِيْرِهِ وتَبَاعَدَ عن صِيَاحِ النَّاصِحِيْنَ وأَصْغَى إِلَى مُدَاهَنةِ الغَاوِيْنَ أَصْبَحَ مِنَ النادِمِيْنَ .

وَمَا ضَرَبْنَا لَكَ هَذَا المَثَلَ إِلا لِتَعْلَمَ أَنَّكَ أَنْتَ الغَرِيْبُ الذي نَزَلْتَ يَوْمَ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ بقَوْمِكَ وأَنْتَ ضَعِيْفُ القُوَى لا تَعْلَمُ شَيْئاً كَمَا قَالَ تعالَى « واللهُ أخرجَكُم مِن بُطونِ أُمَّهَاتِكُم لا تَعْلَمُون شيئاً وجَعَلَ لَكُم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تَشْكُرون » فَفَرِحَ بِكَ قَوْمُكَ وأَكْرَمُوكَ إِلى أَنْ قَوِيَتْ الآتُ أَعْمَالِكَ وصِرْتَ تُحْسِنُ الرَّحِيْلَ وَحْدَكَ .

ونُرِيْدُ بالرَّحِيْلِ هُنَا سُلُوكَ إِحْدَى الطَّرِيْقَيْنِ إِمَّا طَرِيقَ الكَمَالاتِ وإِمَّا طَرِيْقَ النَّقَائِصِ لأَنَّهُما مَسَارِبَ المكلفِيْنَ الذينَ لا بُدَّ لَهُمْ مِن السَّيْرِ فِيْهَا لِلوُصُوْلِ إِلى أَحَدَ الغَايَتَيْنِ فَإِنَّهُ مَا مِن طَرِيْقٍ إِلا وَلَهَا غَايَةً يَنْتَهِي إِلَيْهَا مَسِيْرُ سَالِكِهَا .

وَمَا نُرِيْدُ بالرَّجُلِ العَاقِلِ المُرْشِدِ إِلَّا صَاحِبَ الرِّسَالَةِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أَوْ النَّائِبِ عَنْهُ فِي تَبْلِيْغِهَا وَمَا نُرِيْدُ بِمَنْ يُنَادِيْكَ مِنَ الأَمَامِ إِلَّا السَّلَفُ

الصَّالِحُ الّذِينَ سَبَقُوْنَا بِالإِيْمانِ وَبَيَّنُوْا لَنَا طَرِيْقَ النَّجاةِ أَوِ الأَتْقِيَاءِ المُقْتَفُوْنَ لآثارِهِمْ الّذِيْنَ ثَبَتَتِ اسْتِقَامَتُهُمْ .

وَمَا نُرِيْدُ بِالّذِيْنَ يُنَادُوْنَكَ مِنْ خَلْفِكَ إِلَّا الّذِيْنَ لاَ قَدَمَ لَهُمْ فِي طَرِيْقِ النُّبُوَّةِ فَلَمْ يَسْلُكُوْا سَبِيْلَ المُهْتَدِيْنَ بَلْ اعْتَمَدُوْا فِي ارْشَادِهِمْ عَلَى مَقَالٍ لاَ حَالَ مَعَهُ وَلاَ عَمَلَ وَهَذا لا تَصْلُحُ مُتابَعَتُهُ لأَنَّهُمْ أَجْهَلُ النَّاسِ بِطَرِيْقِ الاسْتِقَامَةِ .

وَمَا أَهْلُ الاسْتِقَامَةِ إِلَّا الّذِيْنَ رَاقَبُوْا قُلُوْبَهُمْ وأَمْسَكُوْا أَلسِنَتَهُمْ وَطَهَّرُوْا أَقْلامَهُمْ فلَا عَزْمَ لَهُمْ إِلَّا عَلَى أَعْمَالِ البِرِّ والمُوَاسَاةِ وَلَا يَقُوْلُوْنَ إِلَّا الحَقَّ المُنْجِيْ وَلَا يَكْتُبُوْنَ إِلّا مَا لَوْ سُئِلُوا عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ لأَحْسَنُوْا الإِجَابَةَ وَالّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللّهَ كَثِيْراً وإِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالبَكّاؤُونَ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ المُقْتَفُونَ لآثَارِهِ ﷺ .

شعرا :

نُورُ الحَدِيْثِ مُبِيْنٌ فَادْنُ وَاقْتَبِسِ
وَاحْدُ الرِّكَابَ لَهُ نَحوَ الرِّضَا النَّدُسِ
مَا العِلْمُ إِلَّا كِتَابُ اللّهِ أَوْ أَثَرٌ
يَجْلُو بِنُوْرِ هُدَاهُ كُلَّ مُلْتَبِسِ
نُوْرٌ لِمُقْتَبِسٍ خَيْرٌ لِمُلْتَمِسٍ
حِمىً لِمُحْتَرِسٍ نُعْمَى لِمُبْتَئِسِ
فَاعْكُفْ بِبَابِهِمَا عَلَى طِلابِهِمَا
تَمْحُوْ العَمَى بِهِمَا عَنْ كُلِّ مُلْتَبِسِ

وَرِدْ بقَلْبِكَ عـذْباً مِنْ حِيَـاضِهِمَـا
تَغْسِـلْ بِمَـائِهمـا مـا فِيْـهِ مِنْ دَنسِ
واقْـفُ النَّـبِيَّ وأَتْبَـاعَ النَّـبِيّ وَكُـنْ
مِنْ هَـدْيِهِمْ أَبَـداً تَـدْنُـوْ إِلَى قَبَسِ
والْـزَمْ مَجَـالِسَهُمْ وَاحْفَظْ مُجَـالِسَهُمْ
وَانْدُبِ مَدَارِسَهُمْ بـالأَرْبُعِ الـدُّرُسِ
واسْلُكْ طَـرِيْقَهُمْ وَاتْبَـعْ فَـرِيقَـهُمُ
تَكُنْ رَفِيْقَهُمُ في حَضْـرَةِ القُـدُسِ
تِلْكَ السَّعَـادَةُ إِنْ تُلْمِمْ بِسَـاحَتِهَـا
فَحُطَّ رَحْلَكَ قَـدْ عُوْفِيْتَ مِنْ تَعَسِ

وَمَا نُرِيْدُ بِمَرَاحِلِ حَيَاتِكَ إلاّ الأَطْوَارَ الَّتِي تَتَقَلَّبُ بِكَ فِيْهَا الشَّمْسُ كُلَّمَا غَرَبَتْ أَوْ أَشْرَقَتْ وَتَنْتَقِلُ بِكَ إِلَيْهَا اللَّيَالِي وَأَنْتَ لا تَشْعُرُ فَمَا أَسْرَع مُرُوْرِ الشَّمْسِ بِكَ إِلى نِهَايَةِ أَجَلِكَ وَمَا أَغْفَلَكَ عَنْ عَمَلِهَا فِيْكَ .

وَمَا نُرِيْدُ بأَوْحَالِ حَيَاتِكَ إِلاّ مُتَابعَةُ شَهَوَاتِكَ عِنْدَ بُلُوغِ الحُلْمِ فَإِنَّ لِطَوْرِ الشُّبُوبِيَّةِ أَوْحَالٌ مُهْلِكَةٌ وهِيَ الشَّهَوَاتُ البَهِيْمِيَّةُ الَّتِي تَضْطَرُّ الشَّبَابَ الّذِيْ غَلَبَتْ شَهوَتُهُ عَقْلَهُ إِلى مُغَازَلَةِ الغَانِيَاتِ وَمُعَانَقَةِ المَلاَهِي وَتَعَاطِي المُحَرَّمَاتِ فَيَصِيْرُ في أَوْحَالٍ تُنَاسِبُهُ .

وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَسْتَطِيْعُ تَجَنُّبَ تِلْكَ الأَوْحَالَ إِلاَّ الّذِيْ وَفَّقَهُ اللّهُ فَتَبَاعَدَ عَنْ ظُلُمَاتِ الزَّيْغِ وَتَنَوَّرَ بِنُورِ العِلْمِ الدِّينِيْ الّذي عَلَّمَهُ العَلِيْمُ الخَبِيْرُ لِرَسُوْلِهِ ﷺ وأَمَرَهُ بِتَعْلِيْمِهِ لِلنَّاسِ لأَنَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ هُوَ الحَكِيْمُ العَلِيْمُ الّذِي عَلِمَ الدَّاءَ ودَبَّرَ

الدَّوَاءَ قَال تَعَالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الخَبِير﴾ انتهى بتصرف يسير .

شعرا :

مَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا المَغْرُوْرُ
يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُوْرُ
قَدْ كُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وأُضْعِفَتْ
حَرّاً عَلَى رُؤُس العِبَادِ تَفُوْرُ
وَإِذَا الجِبَالَ تَعَلَّقَتْ بِأُصُوْلِهَا
فَرَأَيْتَهَا مِثْلَ السَّحَابِ تَسِيْرُ
وإِذَا النُّجُومُ تَسَاقَطَتْ وَتَنَاثَرَتْ
وَتَبَدَّلَتْ بَعْدَ الضِّيَاءِ كَدُوْرُ
وإِذَا العِشَارُ تَعَطَّلَتْ عَنْ أَهْلِهَا
خَلَتِ الدِّيَارُ فَمَا بِهَا مَعْمُوْرُ
وإِذَا الوُحُوْشُ لَدَى القِيَامَةِ أُحْضِرَت
وتَقُوْلُ لِلأَمْلَاكِ أَيْنَ نَسِيْرُ
فَيُقَالُ سِيْرُوْا تَشْهَدُوْنَ فَضَائِحاً
وَعَجَائِبَاً قَدْ أُحْضِرَتْ وَأُمُوْرُ
وإِذَا الجَنِيْنُ بِأُمِّهِ مُتَعَلِّقٌ
خَوْف الحساب وقلبه مذعُوْرُ
هَذَا بِلَا ذَنْبٍ يَخَافُ لِهَوْلِهِ
كَيْفَ المُقِيْمُ عَلَى الذُّنُوْبِ دُهُوْرُ

اللّهُمَّ ثَبِّتْ وَقوّي مَحَبَّتَك فِي قُلُوْبِنَا وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وَوفِّقْنَا لِطَاعَتِكَ وامْتِثالِ أمْرِكَ اللّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُوْرِ الإيْمَانِ واجْعَلْنا هُدَاةً مُهْتَدِيْن وتَوفَّنَا مُسْلِمِيْنَ والْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِديْنَا وجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلّى اللهُ عَلَى مُحَمّد وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِين .

(فصـــل)

« نَخْتُمُ هَذَا الجُزْءَ فِي فَصْلٍ يَحْتَوِيْ عَلَى نُبْذَةٍ يَسِيْرَةٍ »
« عَنْ سِيْرَةِ النَّبِيّ ﷺ »
« وَنُمُوذجٍ عَنْ حِلْمِهِ وَوَفَائِهِ »

هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلبِ بْنِ هَاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصيّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بنِ لُؤي بْنِ غَالِبٍ بْنِ فِهْرِ بْنِ مالِك بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بنِ مُدْرِكَةً بْنِ الياس بْنِ مُضَر بْنِ نِزَارٍ بْنِ مَعَدِ بْنِ عَدْنَانٍ هَذا متّفق عَلَى صِحَّتِهِ .

وَلَا خِلافَ أَنَّ عَدْنَانَ مِنْ وَلَدِ إسْمَاعِيْلَ بْنِ إبراهِيمَ وإِسْمَاعِيْلُ هُوَ الذَّبِيْحُ عَلَى القَوْلِ الصَّحِيْحِ والقَوْلُ بِأَنَّهُ اسْحٰقُ باطلٌ وَلَا خِلافَ أَنَّهُ ﷺ وُلِدَ بِمَكَّةَ عَامَ الفِيْلِ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ لِثَمَانٍ خلوْنَ مِنْ رَبِيْعِ الأَوَّلِ وقِيْلَ لِعَشْرٍ مِنْهُ وقِيلَ لاثْنَتي عَشْرَةَ خلَتْ مِنْهُ سَنَة ٥٧١ م .

وأَمَّا عَبْدُ اللّهِ أَبُو رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَكَانَ أَحْسَنَ أَوْلادِ عبْدِ المُطَّلِبِ وأعَفَّهُمْ وكَانَ أَبُوْهُ يُحِبُّهُ والأَكْثَرُ يَقُولُونَ أَنَّهُ تُوفّيَ وَالنَّبِيُّ ﷺ حَمْلٌ وقِيْلَ أَنَّهُ مَاتَ وَلِرَسُولِ اللّهِ ﷺ شَهْرَانِ وَجَمِيْعُ مَا خَلَّفَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ خَمْسَةُ أجْمَالٍ وجَارِيَةٌ

حَبَشِيَّةٌ اسْمُهَا بَرَكَةُ وَكُنْيَتُهَا أُمُّ أَيْمَنَ وهِيَ حَاضِنَتُهُ ﷺ .

وَرَوَى البِيهَقيُّ أَنَّهُ ﷺ وُلِدَ مَخْتُوْناً وذَكرَ البَيْهَقِيُّ أيْضاً أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةَ الَّتِي وُلِدَ فِيْهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ ارْتَجَّ إِيْوَانُ كِسْرَى وَسَقَطَ مِنْهُ أَرْبَعَ عَشْرَ شَرَفةً وخَمَدَتْ نَارُ فَارِسَ وَلَمْ تَخْمُدْ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ أَلْفِ عَامٍ وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَة .

وإلى هذا أشارَ الشَّاعِرُ فِي قَوْلِهِ :

نُـوْرٌ مِـنَ الـرَّحْمٰنِ أَرْسَلَهُا هُـدَى
لِلنَّـاسِ فَـازْدَهَـرَ الـزَّمَـانُ وأَيْنَعَـا
دَعْ عَنْـكَ إِيْـوَانـاً لِكِسْـرَى عِنْـدَمَـا
هَتَفُـوْا بِمَـوْلِـدِهِ هَـوَى وتَصَـدَّعَـا
واذْكُـرْهُ كَيْفَ أَتَى شُعُـوْبـاً فُـرِّقَتْ
أَهْـوَاءُهَـا كُـلٌّ يُصَحِّـحُ مَـا ادَّعَـا
فَـهَـدَاهُمْ لِـلْحَقِّ حَـتَّى أصْبَحُـوْا
فِـي اللّهِ إِخْـوَانـاً تَـرَاهُـمْ رُكَّعَـا
أَبْنَـاءَ أَخْيَـافٍ تَـجَمَّـعَ شَمْـلُهُمْ
وَغَـدَوْا بِـدِيْنِ اللّهِ شِعْبـاً أَمْنَعَـا
فَتَحْـوا لَـهُ الـدُّنْيا فَسَـار مُظفـراً
وَبَنَـوْا لَـهُ حِصْنـاً أَشَمَّ مُـمَنَّعَـا
بَـذَلُوْا النُّفُـوسَ رَخِيْصَـةً فِي نَصْـرِهِ
فَتَسَنَّمُـوْهَـا ءِ السَّـلَامِ الأَرْفَعَـا

لَهْفِيْ عَلَى مَــاضِي الحَنِيْفَــةِ إنَّــهُ
مَــاضٍ تَــأَلَّقَ زَاهِيــاً وَتَـضَــوَّعَــا
أَيَّــامَ كَــانَ الــدِّيْنُ تُشْـرِقُ شَمْسُــهُ
فَيَــرَى الغُــوَاةُ السَّــادِرُوْنَ المَهْيَعَــا
يَــا أُمَّــةَ التَّــوْحِيْـدِ هَــذَا مَجْـدُكُمْ
إنِّــيْ لأخْشَــى أَنْ يَضَــلَّ مُـضَيَّعَــا

سِيْــرُوْا عَلَى سُنَنِ النَّبِيِّ وَجَنِّبُــوْا
زَيْفَ الحَضَــارَةِ عَنْكُمُ أَنْ يَخْدَعَـا
وَخُذُوْا لَكُمْ مِن سُنَّةِ الهَادِي هُدَى
فَهُــوَ المَنَــارُ إذَا الضَّــلاَمُ تَجَمَّعَـا

وَرَوَى الإمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قالَ إنِّيْ عِنْدَ اللّهِ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَخَاتِمُ النَّبِيِّيْنَ وإنَّ آدمَ لمُجَنْدَلٌ فِي طِيْنَتِهِ وَسَوْفَ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيْلِ ذَلِكَ دَعْوةُ أَبِي إبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيْسَى قَوْمَهُ وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِيْ رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُوْرٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُوْرُ الشَّامِ .

قَالَ فِي اللَّطَائِفِ وخُرُوْجُ هَذَا النُّوْرِ عِنْدَ وَضْعِهِ إشَارَةٌ إلَى مَا يَجِيءُ بِهِ مِنَ النُّوْرِ الّذِي اهْتَدَى بِهِ أَهْلُ الأَرْضِ وَزَالَتْ بِهِ ظُلْمَةُ الشِّرْكِ كَما قَالَ تَعَالَى قَدْ«جَاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُوْرٌ وكِتَابٌ مُبِيْنٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السّلامِ » .

واللّهُ أعْلَم وصلّى اللّهُ على مُحَمّد وآلِهِ وَسَلّم .

(فصــل)

وَبعْدَ مَوْلِدِهِ ﷺ أَرْضَعَتْهُ أُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبِ بْنِ مَنَافٍ بْنِ زُهْرَةَ بنِ كُلَاب ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ﷺ ثُوبْيَةُ عتِيْقَةُ أَبِي لَهَبٍ أَعْتَقَهَا حِيْنَ بَشَّرَتْهُ بِوِلادَةِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّةُ .

قَالَتْ حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّةُ الَّتِي أَرَادَ اللّهُ أَنْ تَقُوْمَ بِإِرْضَاعِهِ قَدِمْتُ مَكّةَ مَعَ تِسْعِ نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ نَلْتَمِسُ الرَّضَاعَ فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ عَلَى أَتانٍ لِي وَمَعِي صَبِيٌّ لَنا وَقَدْ عُرِضَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ عَلَى كُلِّ امْرَأةٍ مِنَّا فَأَبَيْنَ أنْ يُرْضِعْنَهُ حِيْنَمَا عَلِمْنَ أنَّهُ يَتِيْمُ الأبِ .

وَذَلِكَ أَنَّا كُنّا نَرْجُو المَعْرُوْفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيّ فَكُنَّا نَقُوْلُ إِنَّهُ يَتِيْمٌ مَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ فَكُنّا نَكْرَهُهُ لِذَلِكَ قَالَتْ : فَوَاللّهِ مَا بَقِيَ مِنْ صَوَاحِبِيْ امْرَأَةٌ إِلَّا أَخَذَتْ رَضِيْعاً فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ قُلْتُ لِزَوْجِيْ وَهُوَ الحَارِثُ بْنُ عَبْدِ العُزَّى وَاللّهِ إِنّيْ لاَ أكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِيْ وَلَيْسَ مَعِيْ رَضِيْعٌ لأنْطَلِقَنَّ إِلى ذَلِكَ اليَتِيْمِ وَلاَ آخُذَنَّهُ .

قَالَ لَا ضَرَرَ عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلِيْ . عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنا فِيْهِ بَرَكَةً فَذَهَبْتُ ثُمَّ أَخَذْتُهُ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ فأقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيِي بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ فَشَرِبَ حَتَّى رَوِيَ وَشَرِبَ ابْنِيْ حَتَّى شَبِعَ فَوَدَّعَتِ النِّسَاءُ بَعْضُهُنَّ بَعْضا .

ثُمَّ رَكِبْتُ أَتَانِيْ وأَخَذْتُ مُحَمَّداً بَيْنَ يَدَيَّ ثُمَ مَشَتْ أَتَانِي حَتَّى سَبَقَتْ دَوابَّ النّاسِ الّذِيْنَ كَانُوْا مَعِيْ وَصَارُوْا يَتَعجَّبُوْنَ مِنِّي ثُمَّ وَصِلْنَا إِلَى مَنَازِلِ بَنِيْ سَعْدٍ وَلاَ أَعْلَمُ أَرْضَاً مِنْ أَرْضِ اللّهِ أجْدَبَ مِنْهَا فَكَانَتْ غَنَمِيْ تَرُوْحُ عَلَيَّ حِيْنَ قَدِمْنَا بِهِ كَثِيْرَةَ اللَّبَنِ فَنَحْلِبُ وَنَشْرَبُ .

وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ ذُكِرَ أَنَّ مَلَكَيْنِ شَقّا بَطْنَهُ واسْتَخْرَجا قَلْبَهُ وَشَقّاهُ فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ ثُمَّ غَسَلا قَلْبَهُ وَبَطْنَهُ بِالثَّلْجِ وَقَالَ أَحَدُهُمَا زِنْهُ بِعَشَرَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَوَزَنَهُ ثُمَّ ما زَالَ يَزِيْدُ حَتَّى بَلَغَ الأَلْفَ فَقَالَ واللّهِ لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَوَزَنَها .

وَمَاتَتْ أُمُّهُ عَلَيْهِ السّلامُ وَلَمْ يَسْتَكْمِلْ إِذْ ذَاكَ سَبْعَ سِنِيْنَ حِيْنَ انْصَرَفَتْ مِنْ زِيَارَاتِ أَخْوَالِهِ بَنِيْ النَّجَارِ وَكَانَتْ خَرَجَتْ بِهِ مَعَهَا وَمَعَهُ دَايَتُهُ أُمُّ أَيْمَن قَدِمَتْ بِهِ إِلى مَكَّةَ بَعْدَ مَوْتِها .

فَكَفَلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ وَرَقَّ عَلَيْهِ رِقَّةً لَمْ يَرِقَّهَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ فَكَانَ لَا يُفَارِقُهُ وَمَا يَجْلِسُ عَلَى فِرَاشِهِ إِجْلَالا لَهُ إِلّا رَسُولُ اللّهِ ﷺ .

وَقَدِمَ مَكّةَ قَوْمٌ مِنْ بَنِيْ مُدْلِجٍ مِنَ القَافَةِ فَلَمَّا نَظَرُوْا إِلَيْهِ قَالُوْا لِجَدِّهِ احْتَفِظْ بِهِ فَلَمْ نَجِدْ قَدَماً أَشْبَهَ بالقَدَمِ الّذي في المَقَامِ مِنْ قَدَمِهِ فَقَالَ لأَبِي طَالِبٍ اسْمَعْ مَا يَقُولُ هَؤُلاءِ واحْتَفِظْ بِهِ .

وَتُوُفِّيَ جَدُّهُ عَبْدُ المُطَّلِبْ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ مَوْلِدِهِ ﷺ وَأَوْصَى بِهِ إِلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ شَقِيْقِ أَبِيْهِ عَبْدِ اللّهِ فَكَفَلَهُ وَأَحْسَنَ كَفَالَتَهُ قَالَ الوَاقِدِيّ أَقَامَ أَبُو طَالِبٍ مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ مِنْ مَوْلِدِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ إِلى السَّنَةِ العَاشِرَةِ مِنَ النُّبُوّةِ ثَلَاثاً وأَرْبَعِيْنَ سَنَة يَحُوطُهُ وَيَقُومُ بأَمْرِهِ ويَذُبُّ عَنْهُ وَيَلْطُفُ بِهِ .

وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً خَرَجَ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ حَتَّى بَلَغَ بُصْرى فَرَآهُ بُحَيْرُ الرَّاهِبُ وَاسْمُهُ جِرْجِيْسُ فَعَرَفَهُ بِصِفَتِهِ فَقَالَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِهِ هَذَا سَيِّدُ العَالَمِيْنَ هَذا يَبْعَثُهُ اللّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ فَقَالَ وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ فَقَالَ إِنَّكُمْ حِيْنَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ العَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ حَجَرٌ وَلَا شَجرٌ إِلَّا وَخَرَّ سَاجِدًا وَلَا

تَسْجُدُ إلّا لِنَبيّ وإنّيْ أعْرِفُهُ بِخَاتِم النُّبُوَّةِ في أسْفَلِ غُضْرُوْفِ كتِفِهِ مِثْلُ التُّفَاحَةِ وإنّا نَجِدُهُ فِي كُتبِنَا .

وَسَأَلَ أَبَا طَالِبٍ أَنْ يَرُدَّهُ خَوْفاً عَلَيْهِ مِنَ اليَهُوْدِ الحَدِيْثَ رَواه ابن أبي شيْبَة وفِيْهِ إنَّهُ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظَلِّلُهُ . ثُمَّ خَرجَ ﷺ مَرَّةً أُخْرَى ومَعَهُ مَيْسَرَةُ غُلامُ خَدِيْجَةَ فِي تِجَارةٍ لَهَا حَتَّى بَلَغَ سُوْقَ بُصْرَى وَلَهُ إذْ ذَاكَ خَمْسٌ وعِشْرُوْنَ سَنَةً .

فَنزَلَ تَحْتَ ظِلِّ شَجرَةٍ فَقَالَ نَسْطُوْرُ الرَّاهِبُ مَا نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلّا نَبِيٌّ وَكَانَ مَيْسَرَةُ يَرَى فِي الهَاجِرَةِ مَلَكَيْنِ يُظِلّانِهِ مِنَ الشَّمْسِ فَلَمَّا رَجعُوْا إلَى مَكَّةَ سَاعَةَ الظَّهِيْرَةِ وَخَدِيْجَةُ فِي عَلِيَّةٍ لَها رَأَتْ رَسُوْلَ اللّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَعِيْرِهِ وَمَلكَانِ يُظِلّانِهِ ذَكَرَهُ أَبُو نُعَيْم .

اللّهُمَّ عَمِّقْ إيمَانَنَا بِكَ وبِمَلائِكَتِكَ وبِكُتُبِكَ وبِرُسُلِكَ وباليَوْمِ الآخِرِ وبِالقَدّ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ وَصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ وَسلّم .

(فصــل)

وَتَزَوَّجَ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ خَدِيْجَةَ بَعْدَ ذَلِكَ وَكَانَتْ تَحْتَ أَبِي إهَابَة بْنِ زُرَارَةَ التَّمِيْمِيْ ثُمَّ تَزَوَّجَهَا عَتِيْقُ بْنُ عَائِذٍ المَخْزُوْمِيّ فَوَلَدتْ لَهُ هِنْداً وَكَانَ لَهَا حِيْنَ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنَ العُمُرِ أَرْبَعُونَ سَنَةً فَوَلَدَتْ لِرَسُولِ اللّه ﷺ بَنِيْنَ وَبَنَاتٍ وَكُلُّ أَوْلَادِهِ مِنْهَا حَاشَا إبْرَاهِيْمَ فَإنّه مِنْ مَارِيَةِ القُبْطِيَّةِ الّتِي أَهْدَاهَا لَهُ المُقَوْقِسُ صَاحِبُ مِصْرَ .

فَالذُّكُوْرُ مِنْ وَلَدِهِ القَاسِمُ وَبِهِ كَانَ يُكْنَى وَهُوَ أَكْبَرُ وَلَدِهِ عَاشَ أَيَّاماً

يَسِيْرَةً وُلِدَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَوُلِدَ لَهُ غَيْرُ إِبْرَاهِيْمَ وَالقاسِمَ عَبْدُ اللّهِ وَهُوَ المُسَمَّى بِالطَّيِّبِ وَالطَّاهِرِ لأَنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ وأَمَّا إِبْرَاهِيْمُ فَوُلِدَ لَهُ بِالمَدِيْنَةِ وَعَاشَ عَامَيْنِ غَيْرَ شَهْرَيْنِ وَمَاتَ قَبْلَ مَوْتِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِثَلاثَةِ أَشْهُرٍ يَوْمَ كُسُوفٍ .

وَأَمَّا بَنَاتُهُ ﷺ فَأَرْبَعٌ زَيْنَبُ تَحتَ أَبِي العَاصِ بْنِ الرَّبِيْعِ وَكَانَتْ خَدِيْجَةُ خَالَتُهُ وَالثَانِيَةُ رُقَيَّةُ تَزَوَّجَها عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَمَاتَتْ بَعْدَ بَدْرٍ بِنَحْوِ ثَلاثَةِ أَيَّام وَزَيْنَبُ مَاتَتْ فِي حَيَاةِ أَبِيْهَا ﷺ وَالثَّالِثَةُ أُمُّ كُلْثُوم وَهِيَ أَصْغَرُ بَنَاتِهِ كَانَتْ مُمَلَّكَةً بِعُتْبَةَ بنَ أبي لَهَبٍ فَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا وَطَلَّقَهَا فَتَزَوَّجَها عُثْمَانُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ فَمَاتَتْ عِنْدَهُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ .

الرَّابعةُ فَاطِمَةُ تَزَوَّجَها عَلِيُّ بْنُ أَبِيْ طَالِبٍ فَوَلَدَتْ لَهُ الحَسَنَ والحُسَيْنَ وَزَيْنَبَ وَأُمّ كُلْثُوم وابْنًا مَاتَ صَغِيْراً اسْمُهُ المُحْسِنُ وَمَاتَتْ فَاطِمَةُ بَعْدَ رَسُوْلِ اللّهِ ﷺ بِستّةِ شُهُوْرٍ ، وَخَدِيْجَةُ أَوَّلُ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَ بِهَا وَأَوَّلُ امْرَأَةٍ مَاتَتْ مِنْ نِسَائِهِ وأَمَرَهُ جِبرِيْلُ أَنْ يَقْرَأ عَلَيْهَا السّلامَ مِنْ رَبِّهَا .

وَهِيَ أَوَّلُ امْرَأَةٍ آمَنَتْ بِهِ وَعَاضَدَتْهُ وَنَاصَرَتْهُ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ لَهَا مِنْهُ المَنْزِلَةُ العَالِيَةُ .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ وَمَحَبَّةَ كُتُبِكَ وَمَلاَئِكَتِكَ وَرُسُلِكَ وَأَوْلِيائِكَ فِي قُلُوبِنَا ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُوْرِ الإِيْمانِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلّى اللّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمّد وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِين .

(فصــل)

وَلَمْ يَرِثْ ﷺ مِنْ وَالِدِهِ شَيْئاً بَلْ وُلِدَ يَتِيماً عَائِلاً فَاسْتُرْضِعَ فِي بَنِي سَعْدٍ وَلَمَّا بَلَغَ مَبْلَغاً يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلاً كَانَ ﷺ يَرْعَى الغَنَمَ مَعَ إِخْوَانِهِ مِنَ الرَّضَاعِ فِي البَادِيَةِ وَكَذَلِكَ لَمَّا رَجَعَ إِلى مَكَّةَ كَانَ يَرْعَاهَا لأَهْلِهَا عَلَى قَرَارِيْطَ كَمَا ذَكَرَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحه .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَا بَعَثَ اللّهُ نَبِيّاً إِلاّ رَعَى الغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ فَقَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيْطَ لأَهْلِ مَكَّةَ .

وَلَمَّا شَبَّ ﷺ كَانَ يَتَّجِرُ وَكَانَ شَرِيْكُهُ السَّائِبُ بْنُ أَبِي السَّائِبِ وَذَهَبَ بِالتِّجَارَةِ لِخَدِيْجَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا إِلى الشَّامِ عَلَى جُعْلٍ يَأْخُذُهُ وَلَمَّا شَرفَتْ خَدِيْجَةُ بِزوَاجِهِ وَكَانَتْ ذَاتَ يَسَارٍ عَمِلَ فِي مَالِهَا وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ نَتِيْجَةِ عَمَلِهِ وَحقَّقَ اللّهُ مَا امْتَنَّ عَلَيْهِ بِهِ فِي سُوْرَةِ الضُّحى بِقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى » بالإِيْوَاءِ والاغْنَاءِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ والهِدَايَةِ بِالنُّبُوَّةِ هَدَاهُ اللّهُ لِلْكِتَابِ وَالإِيْمَانِ وَدِيْنِ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السّلامُ وَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي قَبْلَ ذَلِكَ قَالَ تَعَالى « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْك رُوْحاً مِن أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِيْ مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوْراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنا وإِنَّكَ لتَهْدِيْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْم » .

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أَحْسَنَ قَوْمِهِ خُلُقاً وأَصْدَقَهُمْ حَدِيْثاً وأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً وأَبْعَدَهُمْ عَنْ الفُحْشِ والأَخْلاقِ الّتِي تُدَنِّسُ الرِّجَالَ حَتّى كَانَ أفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوْءةً وأَكْرَمَهُمْ مُخَالَطَةً وَخَيْرَهُمْ جِوَاراً وَأَعْظَمَهُمْ حِلْماً

وأَصْدَقَهُمْ حَدِيْثاً فَسَمُّوْهُ الأَمِيْنَ .

لَمّا جَمَعَ اللّهُ فِيْهِ مِنَ الأُمُوْرِ الصَّالِحَةِ الحَمِيْدَةِ والفِعَالِ السَّدِيْدَةِ مِنَ الحِلْمِ والصَّبْرِ والشُّكْرِ والعَدْلِ وَالتَّوَاضُعِ والعِفَّةِ والجُوْدِ وَالشَّجَاعَةِ والحَيَاءِ حَتَّى شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ أَلَدُّ أَعْدَائِهِ النَّظْرُ بْنُ الحَارِثِ مِنْ بَنِيْ عَبْدِ الدّارِ حَيْثُ يَقُوْلُ قَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيْكُمْ غُلاماً حَدَثاً أَرْضَاكُمْ فِيْكُمْ وأصْدَقُكُمْ حَدِيْثاً وأَعْظَمُكُمْ أَمَانَةً حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ قُلْتُمْ سَاحِرٌ لاَ وَاللّهِ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ .

قَالَ ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الاتِّفَاقِ عَلَى مَا يَقُوْلُوْنَهُ لِلْعَرَبِ الّذِيْنَ يَحْضُرُوْنَ المَوْسِمَ حَتَّى يَكُوْنُوْا مُتَّفِقِيْنَ عَلَى مَا يَقُوْلُوْنَهُ وَلَمَّا سَأَلَ هِرْقَلُ مَلِكُ الرُّوْمِ أَبَا سُفْيَانَ قَائِلاً هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُوْنَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُوْلَ مَا قَالَ قَالَ لاَ فَقَالَ هِرْقِل مَا كَانَ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللّهِ وَرَدَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ صَحِيحِ البُخَارِيّ .

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ خَمْسَ عَشْرَةَ حَجَّةً
يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى صَدِيقاً مُوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي كُلِّ المَوَاسِمِ نَفْسَهُ
فَلَمْ يَرَى مَنْ يُؤْوِيْ وَلَمْ يَرَ دَاعِيَاً
فَلَمَّا أَتَانَا واطْمَأَنَّتْ بِهِ النَّوَى
وكنا لَهُ عَوْناً مِن اللّهِ بَادِيَا
يَقُصُّ لَنَا مَا قَالَ نُوحُ لِقَوْمِهِ
وَمَا قَالَ مُوسى إِذَا أَجَابَ المناديا

فأَصْبَحَ لا يَخْشَى مِنَ النّاسِ وَاحداً
قَرِيْباً ولا يَخْشَى مِن الناسِ نَائِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الأَمْوَالَ مِنَ جُلِّ مَالِنَا
وأَنْفُسَنَا عِنْدَ الوَغَى والتَّآسِيَا
نُعَادِي الذِي عَادَى مِن الناسِ كُلِّهِمْ
جَمِيْعاً وَلَو كَانَ الحَبِيْبَ المُوَاسِيَا
ونَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ
وأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَصْبَحَ هَادِيَا

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فصل)

وقال شَيْخُ الاسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ وقَدَ نَقَل النَّاسُ صِفَاتِ النبِي ﷺ الطَّاهِرَةَ الدَّالةَ عَلَى كَمَالِهِ ونَقَلُوا أَخلاقَهُ مِنْ حِلْمِهِ وشَجَاعَتِهِ وكَرَمِهِ وزُهْدِهِ وغَيرِهِ ونَحْنُ نَذْكُرُ بَعْضَ ذَلِكَ :

فَفِيْ الصَّحِيْحَيْنِ عنِ البَرَاءِ بنِ عازِبٍ قال كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أَحسَنَ الناسِ وَجْهاً وَأَحسَنَهُم خُلُقَا لَيس بالطَويْلِ الذَّاهِبِ ولا بالقَصِيْرِ وعَنْهُ قال كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْيدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ عَظِيْمَ الجُمَّةِ إِلى شَحْمَةِ أُذنَيْهِ عَلَيْهِ حُلَةٌ حَمْرَاءَ ما رَأَيْتُ شَيْئاً قَطُ أَحْسَنَ مِنْهُ .

وفي البخاري وسئِل البَرَاءُ أَكَانَ وَجْهُ رَسولِ الله ﷺ مِثْلُ السَّيْفِ قَالَ لا بَلْ مِثْلَ القَمَرِ وفي الصَّحِيْحَيْنِ مِنْ حَديثِ كَعْبِ ابنِ مالِكٍ قَالَ كَانَ النبيُ ﷺ إذا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ فِلْقَةُ قَمَرٍ .

وفي الصحيحين عن أنسٍ بنِ مالِكٍ قال كَانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ضَخْمُ الرَّأسِ والقَدَمَيْنِ وَلَمْ أَرَ قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ مِثْلَهُ وكانَ بَسِيْطَ الكَفَيْنِ ضَخْمُ اليَدَيْنِ وَسُئِلَ عن شَعَرِهِ فقال كَانَ شَعْراً رَجِلاً لَيْسَ بالجَعْدِ ولا بالسَّبِطِ بَيْنَ أُذُنَيْهِ وعَاتِقِهِ .

وفي الصحيحين عن سِمَاكِ بنِ حَرْبٍ عن جابرِ بنِ سَمُرَةَ قال كان رسولُ اللَّهُ ﷺ ضَلِيْعُ الفَمِ اشْكَلَ العَيْنَيْنِ مَنْهُوْسَ العَقِبَيْنِ وفَسَّرهُمَا بنُ سِمَاكٍ بنُ حَرَبٍّ فَقالَ وَاسِعَ الفَمِ طَوِيْل شِقِّ العَيْن قَلِيْلَ لَحمِ العَقِبِ .

وفي الصَّحِيْحَيْنِ عن أنسٍ بن مالكٍ قال كَانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ بالطّويْلِ البَائِنِ ولابالقَصيْرِ وَلَيْس بالأَبْيَضِ الأَبْهَقِ ولا بالآدَمِ ولا بالَجْعِدِ ولا بالسَّبِطِ .

وفي الصحيحين عنه قال كان رسولُ اللَّهِ ﷺ أزْهَرَ اللَّوْنِ كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُؤْلُؤُ إذا مَشَى تَكفأً وَمَا مَسْستُ دِيْبَاجَةً ولا حَرْيَرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رسُوْلِ اللَّهِ ﷺ وروَىَ الدَّرامِيُ عن اِبنِ عباسٍ قال كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أَبْلَجَ الثَّنِيَّتَيْنِ إذا تَكلَّمَ رُؤِي النُوْرُ يَخْرُجُ مِن ثَنَايَاهُ

وعنَ أَنَسٍ قَالَ دَخلَ عَلَيْنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقالَ عِنْدَنا ـ أَيْ نَامَ ـ فَعرَقَ وَجاءَتْ أُمِّيْ بِقَارُوْرَةٍ فَجَعَلَتْ تَسْلِتُ العَرَقَ فِيْهَا فاسْتَيْقَظَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فقَالَ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ ما هَذَا الذِي تَصْنَعِيْنَ قَالَتْ هَذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ في طِيْبِنَا وإنه أَطْيَبُ مِنَ الطِّيْبِ أخرجاه .

وَرَوَى الدَّارِمِيُ عن جابر قال رسولُ اللَّهِ ﷺ لاَ يَسْلُكُ طَرِيْقاً فَيَتْبَعُهُ أَحَدٌ إلَّا عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ سَلَكَهُ مِن طِيْبِ عَرَقِهِ ﷺ .

وفي حديثِ أُمِّ مَعْبَدِ المَشْهُوْرِ لَمَّا مَرَّ بِهَا النَّبيُ ﷺ في الهِجْرَةِ هُوَ وأبُو بَكْرٍ وَمَوْلاهُ وَدَلِيْلُهُمْ وَجاءَ زَوْجُهَا فَقَالَ صِفِيْهِ لِيْ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ فَقَالَتْ رَجُلاً ظَاهِرَ الوَضَاءَةِ حُلْوُ المَنْطِقِ فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ كأنَّ مَنْطِقَهُ خرزاتٌ نَظْمٍ يَتحَدَّرْنَ .

وذَكَرَ بَعْضُهُم زِيَادَةً عَلَى هَذَا قَالَ فِيه :

وفي وَصْفِ أُمِّ مَعْبَدِ الخُزَاعِيَّةِ لِرَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ قالَ أبُو مَعْبَدٍ لِزَوْجَتِهِ صِفِي لِيْ صَاحِبَ قُرَيْش الذِي يُطْلَبُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ قالَتْ رَأَيْتُ رَجُلاً ظاهِرَ الوَضَأَةِ ـ أَيْ الحُسْنِ وَالنَّظَافَةِ مُبْتَلِج الوَجْهِ ـ أَيْ مُشْرِقٌ ذَا نُوْرٍ ـ .

حَسَنُ الخُلُقِ لِمْ تَعْبهُ ثَجْلَةٌ ـ أَيْ لَيْس بَطْنُهُ ضَخْمٌ ـ وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ ـ أيْ لَيْسَ رَأْسُهُ صَغِيرٌ ـ وَسِيْمٌ ـ أيْ جَمِيْلُ مُعْتَدِلُ القَامَةِ ـ في عَيْنَيْهِ دَعَجُ ـ أَيْ شِدَّةُ سَوَادِ العَيْنِ مَعَ سَعَتِهَا ـ .

وفي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ ـ كَثْرَةُ شَعَرِ الحَاجِبْينِ ـ وفي صَوْتِهِ صَحَلٌ ـ صَوْتُهُ رَخِيْمٌ ـ أَحْوَرُ ـ شِدَّةُ بَياضَ العَيْنِ في شِدَّةِ سَوَادِهَا ـ أَكْحَلُ أَزَجُ ـ كَانَّ عَيْنَهُ مَكْحُوْلَةٌ وَإِنْ لَمْ تُكْحَلْ ـ دَقِيْقُ الحَاجِبْنِ في طُولِ ـ أَقْرَنُ ـ مَقْرُوْنُ الحَاجِبْينِ ـ شَدِيْدُ سَوَادِ الشَّعَرِ في عُنُقِهِ سَطْحٌ ـ أَيْ ارْتِفَاعٌ وطُوْلٌ وفي لِحْيَتِهِ كَثَافَةٌ .

إذا صمَتَ فَعَلَيْهِ الوَقَارُ وإذا تَكَلَّم سَمَا ـ أَيْ أَرْتَفَعَ ـ وَعَلاَهُ البَهَاءُ ـ الحُسْنُ والجَمَالُ وكأنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتٌ يَتَحَدَّرْنَ حُلْوُ المَنْطِقِ فَصلٌ لا نَزْرٌ ولاَ هَذْرٌ ـ أَيْ لَا عِيَّ فِيْهِ ولا ثَرْثَرَةَ أَجْهَرُ الناسِ وَأَجْمَلُهُم مِن بَعِيْدٍ وأَحْلاهُمْ وأَحْسَنُهُمْ مِن قَرِيْبٍ .

رَبْعَةٌ لا تَشْنَؤُهُ من طُوْلٍ ولا تَقْتَحِمُهُ عَيْنُ مِن قِصَرٍ غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْن فَهُو أَنْظَرُ الثَّلاثَةِ مَنْظِراً وَأَحْسَنُهُمْ قدْراً لَهُ رُفَقَاءُ يَحُصُّونَ بِهِ إذا قَالَ اسْتَمَعُوْا لِقَوْلِهِ وَإِذَا أَمَرَا تَبادَرُوْا إلى أَمْرِهِ مَحْفُودٌ ـ أَيْ يُطِيْعُهُ أَصْحَابُهُ مُسْرِعِيْنَ ـ مَحْشُوْدٌ ـ يَجْتَمِعُوْنَ حَوْلَهُ .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

« قِصَّةُ أَبِي أَيُّوْبَ الأَنْصارِي »

أَبُو أَيُوْبَ الأَنْصَاري خَالدُ بنُ زَيْدِ الأَنْصَارِي ، شَهِدَ بَدْرَاً والعَقَبَةَ ، وَرَوَى مائَةً وخَمْسِيْنَ حَدِيْثاً ، مَاتَ بِأَرْضِ الرُوْمِ غَازِياً سَنَة ٥٢ هـ ودُفِنَ إلى أَصْلِ حِصْنٍ بالقَسْطِنْطِيْنِيَّةِ ، ولَهُ قِصَّةٌ يَحْلُوْ ذِكْرُهَا .

بَعْدَ مَا تَآمَرتْ قُرَيْشٌ بدَارِ النَّدْوَةِ عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجاءَ جِبَرِيْلُ عليهِ السلامُ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فأخبَرَهُ بَذلِكَ وأَمَرَهُ أَنْ لَا ينامَ في مَضْجَعِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ .

وَجَاء رَسُولُ الله ﷺ إلى أَبِيْ بَكْرٍ نِصْفَ النهارِ في سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِيْهِ فِيْهَا مُتَقَنِعاً فقال أَخرِجْ مَنْ عِنْدَكَ فقالَ إِنَّمَا هُم أَهْلُكَ يا رَسُوْلَ اللَّهِ ، فقال رَسولُ اللَّهِ ﷺ إنَّ اللَّهَ قَدْ أذِنَ لِي في الخُرُوْجِ فقال أَبُو بَكْرٍ الصُحْبَةَ يا رَسُولَ الله ، قال نَعَمْ فقال أَبُو بَكْرٍ فَخُذْ بِأَبُيْ أَنْتَ وَأُمِّي احْدَى الرَّاحِلَتَيْنِ ، فَقَالَ بالثَّمَنِ ، وأَمَرَ عَلِياً رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أنْ يَبِيْتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ على فِراشِهِ ﷺ .

ومَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى بَيْتِ أَبِيْ بَكْرٍ فَخرَجَا مِن خَوْخَةٍ في بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ لَيْلاً ، وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وأَبُوْ بَكْرٍ إلى غَارِ ثورٍ ، فَنَسَجَتِ العَنْكَبُوْتُ

على بَابِهِ ، وَحَامَ الحَمَامُ فوْقَ الغَارِ وَجدَّتْ قُرَيْشٌ في طَلَبِهِمَا وأَخَذُوْا مَعَهُمُ القَافَةِ حَتَّى انْتَهَوْا إلى بَابِ الغَارِ ، فَوَقَفُوا عَلَيْهِ فَلمَّا رَأوْا الحَمَامَ فَوْقَهُ والعَنْكَبُوتَ قَدْ نَسَجتْ على بَابِهِ اسْتَبْعَدُوا ذَلِكَ جِدًّا وأَعْمَى اللَّهُ بَصائِرهُم وَأبْصَارَهُمْ وفي ذلكَ يَقُولُ الشاعِرُ :

وَمَا حَوَى الغَارُ مِنْ خَيْرٍ ومِنْ كَرمٍ
وكُـلُ طَرْفٍ مِنَ الكُفَّـارِ عَنْـهُ عَمِيْ
ظَنُّوْا الحَمَامَ وظَنُّـوْا العَنْكَبُوتَ عَلَى
خَيْـرِ البَـرِيَّـةِ لَمْ تَنْسِجْ وَلَمْ تَحُمِ
وِقَـايَـةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَـاعَفَـةٍ
مِنَ الـدُرُوْعِ وعَنْ عَالٍ مِن الأُطُمِ

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحدَهُمْ نَظَرَ إِلى مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فقالَ مَا ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ، لاَ تَحْزنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا وَكَانَا يَسْمَعَانِ كَلاَمَهُمْ إلا أنَّ اللَّهَ عَمَّى عَلَيْهِمْ أَمْرهُمَا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر .

بَلَغَ النَّبيُّ ﷺ المدِيْنَةَ ، فَتلَقَتْهُ قُلُوبُ أَهْلِهَا بأَكْرَمِ ما يُتَلقَى بِهِ وَافِدٌ ، وتَطَلَّعَتْ إِلَيْهِ عُيُوْنُهُمْ تَبُثُّهُ شَوقَ الحَبْيبِ إلى حَبْيْبِهِ ، وفَتَحُوْا لَهُ قُلُوْبَهُم لِيَحِلَّ مِنْهَا في سُوَيْدَائِهَا ، واشرَعُوْا لَهُ أَبْوَابَ بُيُوْتِهِم لِيَنْزِلَ فِيْهَا أَعزَّ مَنْزِلٍ ، فَكَانُوا يَخْرُجُونَ كُلَّ يَوْمٍ إلى الحَرَّةِ يَنْتَظِرُوْنَهُ ، فإِذَا اشْتَدَّ حَرُّ الشمسِ رَجَعُوا إلى مَنَازِلِهِم .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الأثْنَيْنِ ثَانِي عَشَرَ الأَوَّلِ عَلَى رَأْسِ ثَلاَثَ عَشْرَة سَنَةً مِن نُبُوَّتِهِ ﷺ خَرَجُوْا على عَادَاتِهِم فَلَمَّا حَمِيْتِ الشَّمْسُ رَجَعُوْا ، فَصَعِدَ رَجُلٌ من

اليَهُوْدِ على أُطُمٍ من آطامِ المدِيْنَةِ فرآى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وأصْحَابَهُ مُبيضِيْنَ يَزُوْلُ بِهِمُ السَّرابُ ، فَصَرِخَ بأعْلَى صَوْتِهِ يا بَنِيْ قَيْلَةَ ، هَذَا صَاحِبُكَم هَذا جَدُكُم الذِي تَنْتَظِرُوْنَهُ .

فَثَارَ الأَنْصَارُ إلى السِّلاحِ ، لِيَتَلَقُوْا رَسُوْلَ اللَّهِ ﷺ ، وسُمِعَتِ الوَجْبَةُ وَالتَّكْبِيْرُ في بَنِيْ عَمْرٍو وبنِ عَوْفٍ وكَبَّرَ المُسْلِمُونَ فَرحاً وَسُرُوراً بِقُدُوْمِهِ .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الجُمعَةِ رَكِبَ فَأَدْرَكَتْهُ الجُمُعَةُ في بَنِيْ سَالِمٍ ابنِ عَوْفٍ فَصَلاَّهَا في المَسْجِدِ الذي في بَطْنِ الوَادِي ، فَكَانَتْ أَوَّلَ جُمُعَةٍ صَلاهَا بالمَدْيَنَةِ ، ثَمَّ رَكِبَ نَاقَتَهُ فَجَاءَهُ سَادَاتُ يَثْرِبَ في طَرِيْقِهَا كُلُّ يُرِيْدُ أَنْ يَظفَرَ بِشَرَفِ نُزُوْلِهِ ﷺ عِنْدَهُ .

فأَتَاهُ عِتْبَانُ بنُ مَالِكِ ، وعَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بنُ نَضْلَةَ في رِجَالٍ مِنَ بَنِيْ سَالِمِ بنِ عَوْفٍ ، فقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقِمْ عِنْدَنَا في العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنعَةِ قالَ (خَلُّوْا سَبِيْلَهَا فإِنَّهَا مَأمُوْرَةٌ) فخَلُّوَا سَبِيْلَ نَاقَتِهِ ﷺ .

فانْطَلَقَتْ حَتَّى إِذَا وَازَنَتْ دَارَ بَنِيْ بَيَاضَةَ تَلَقَّاهُ زِيَادُ بنُ لَبِيدٍ وَفَرْوَةُ بنُ عَمْرَوَ، في رِجَالٍ مِن بَنِيْ بَيَاضَةَ ، فقالُوا يا رَسُولَ اللَّهِ هَلُمَّ إِلَيْنَا إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنعَةِ ، قالَ (خَلُّوْا سَبِيْلَهَا فإِنَّهَا مَأْمُوْرَةٌ) فَخَلَّوْا سَبِيْلَهَا .

فانْطَلَقَتْ حَتَّى إذا مَرَّتْ بِدَارِ بَنِيْ سَاعِدَةَ اعْتَرَضَهُ سَعْدُ ابنُ عُبَادَةِ ، والمُنْذِرُ بنُ عَمْرو ، في رِجَالٍ مِن بَنِي سَاعِدَةَ ، فَقَالُوا يا رَسُولَ اللَّهِ هَلُمَّ إِلَيْنَا إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنعَةِ قالَ (خَلُّوْا سَبِيْلَهَا فإنَها مَأْمُوْرَةٌ) فخلوا سبيلها .

فانْطَلَقَتْ حَتَّى إِذَا وَازَانَتْ دَارَ بَنِيْ الحَرْثِ بْنِ الخَزْرَجِ اعْتَرَضَهُ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيْعِ وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فِي رِجَالٍ مِنْ بَنِيْ الحَرْثِ

بْنِ الخَزْرَجِ فقالُوْا يَا رَسُوْلَ اللّهِ هَلُمَّ إِلَيْنَا إِلَى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ قَالَ (خَلُّوْا سَبِيْلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُوْرَةٌ) فَخَلُّوا سَبِيْلَهَا .

فَانْطَلَقَتْ حَتَّى إِذَا مَرَّتْ بِدَارِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجّارِ وَهُمْ أَخْوالُهُ دُنْيَا أُمِّ عَبْدِ المُطَّلِبِ سَلْمَى بِنْتِ عَمْرٍو وإِحْدَى نِسَائِهِمْ اعْتَرَضَهَا سَلِيْطُ بنُ قَيْسٍ وَأَبُوْ سَلِيْطٍ أَسِيْرُهُ بنُ أَبِي خَارِجَةَ في رِجَالٍ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجّارِ فَقَالُوْا يَا رَسُولَ اللّهِ إِلَى أخوالِكَ إِلى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ قَالَ (خَلُّوْا سَبِيْلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُوْرَةٌ) فَخَلُّوا سَبِيْلَهَا .

فَانْطَلَقَتْ حَتَّى إذا أَتَتْ دَارَ بَنِي مَالِكِ بْنِ النَّجّارِ بَرَكَتْ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مِرْبَدٌ ـ المَوْضِعُ الّذِيْ يُجَفَّفُ فِيْهِ التَّمْرُ ـ لِغُلَامَيْنِ يَتِيْمَيْنِ مِنْ بَنِيْ النَّجارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي مَالِك بنِ النَّجّارِ فِي حِجْرِ مُعَاذِ بْنِ عَفْراءَ : سَهْلٌ وسُهَيْلٌ ابْنَيْ عَمْرٍو فَلَمَّا بَرَكَتْ وَرَسُوْلُ اللّهِ ﷺ عَلَيْها لَمْ يَنْزِلْ وَثَبَتْ فَسَارَتْ غَيْرَ بَعِيْدٍ وَرَسُولُ اللّهِ ﷺ واضِعٌ لَهَا زِمَامَهَا لَا يَثْنِيْهَا بِهِ .

ثُمَّ الْتَفَتَتْ إلى خَلْفِهَا فَرَجَعَتْ إِلى مَبْرَكِهَا أَوَّلَ مَرّةٍ فَبَرَكَتْ فِيْهِ ثُمَّ تَحَلْحَلَتْ ـ أيّ تَحَرّكَتْ ـ وَرَزَمَتْ ـ أيّ رَغَتْ وَرَجَّعَتْ فِي رُغَائِهَا وَوَضَعَتْ جِرَانَهَا فَنَزَلَ عَنْهَا ﷺ .

فَاحْتَمَلَ أَبو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ رَحْلَ النَّبِيِّ ﷺ وكَأَنَّما يَحْمِلُ كُنُوزَ الدُّنْيَا مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ وَالسُّرُوْرِ وبَادَرَ أَبُو أَيُّوب يُرَحِّبُ بِرَسُوْلِ اللّهِ ﷺ قالَ أَبُوْ أَيُّوب لَمَّا نَزَلَ عَلَيَّ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ في بَيْتِي نَزَلَ في السُّفْلِ وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوْب فِي العُلُوِّ فَقُلْتُ لَهُ يا نَبِيَّ اللّهِ بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ إِنّي لَأَكْرَهُ وأُعْظِمُ أَنْ أَكُوْنَ

فَوْقَكَ وَتَكُوْنَ تَحْتِيْ فَاظْهَرْ أَنْتَ فَكُنْ فِي العُلُوِّ ونَنْزِلُ نَحْنُ فَنَكُنْ فِي السُّفْلِ .

فَقَالَ يَا أَبَا أَيُّوْبَ ارْفَقُ بِنَا وبِمَنْ يَغْشَانَا أَنْ نَكُوْنَ فِي سُفْلِ البَيْتِ قَالَ فَكَانَ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ فِي سُفْلِهِ وكُنَّا فَوْقَهُ فِي المَسْكَنِ فَلَقَدْ انْكَسَرَ حِبٌّ لَنَا فِيْهِ مَاءٌ فَقُمْتُ أنَا وَأُمُّ أيُّوب بِقَطِيْفَةٍ لَنَا مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرُهَا نُنَشِّفُ بِهَا الماءَ تَخَوُّفاً أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رَسُوْلِ اللّهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيْهِ .

قَالَ وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ العَشَاءَ وَنَبْعَث بِهِ إِلَيْهِ فإذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلَةً تيَمّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أيُّوب مَوْضِعَ يَدِهِ فَأكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِيْ بِذَلِكَ البَرَكَةَ حَتَّى بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بعَشَائِهِ وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ فِيْهِ بَصَلاً أَوْ ثُوْماً فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللّهِ ﷺ وَلَمْ أَرَ لِيَدِهِ فِيْهِ أَثَراً قَالَ فَجِئْتُهُ فَزِعاً فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ بأبِيّ وَأُمّي رَدَدْت عَشَاءَكَ وَلَمْ أَرَى فِيْهِ مَوْضِعَ يَدِكَ وَكُنْتُ إِذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا تَيَمّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوب مَوْضِعَ يَدِكَ نَبْتَغِيْ بِذَلِكَ البَرَكَةَ قَالَ إِنِّيْ وَجَدْتُ فِيْهِ رِيحَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وأَنَا رَجُلٌ أُنَاجِيْ فَأَمَّا أَنْتُم فَكُلُوْهُ قَالَ فَأَكَلْنَاهُ وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةِ بَعْدُ .

اللّهُمَّ ثَبِّتْ إيْمَانَنَا بِكَ ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ونَوِّرْ قُلُوْبَنَا بِنُوْرِ الإِيْمَانِ واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْن وأصْلِحْ أَوْلَادَنَا واغْفِرْ لآبَائِنا وأُمَّهَاتِنَا واجْمَعْنَا وإِيَّاهُمْ مَعَ عِبَادِكَ الصَّالِحِيْن فِي جَنّاتِ النَّعِيْم وَصلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَعلى آلِهِ وأَصْحَابِهِ أجْمَعِيْن .

« موعظـة »

عِبَادَ اللّهِ إنَّ الإنْسَانَ مِنَّا كَمَا عَلِمْتُمْ مُعَرَّضٌ لِلأذَى وَالإسَاءَةِ والإهَانَةِ وَعُرْضَةٌ لِلأخْطَارِ ، والمُهْلِكَات ، فَمَنَحهُ اللّهُ قُوَّةً يَدْفعُ بِها الإهَانَةَ ، ويَدْفَعُ بِهَا الخَطَرَ ، وَيَنْجُوْ بِهَا بإذْنِ اللّهِ مِن الهَلاكِ ، هِيَ قُوَّةُ الغَضَبِ والحَمِيَّةِ .

وَخُلِقَ الغَضَبُ مِنَ النّارِ ، فَتَسَلَّطَ الشَّيْطانُ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الطَّرِيْق وَرَكِبَنَا وقْتَ الغضَبِ ، حَتَّى صَارَ النّاسُ فِي غَضَبِهِمْ حَمْقَى مُتَهَوِّرِيْنَ ، وسُفَهَاءَ طَائِشِيْنَ .

فَكَرِهَ النّاسُ الغَضَبَ لِذَلِكَ ، واصْطَلَحُوْا عَلى ذَمِّهِ مُطْلَقَا ، وَهَذَا خَطَأٌ فَظِيْعٌ وَخَلْطٌ لا يَجُوْزُ ، فَلَيْسَ كُلُّ غَضَبٍ مَذْمُوْم وَلاَ كُلُّ حِلْم بِمَمْدُوْحٍ ، واللّهُ جَلَّ وَعَلاَ لاَ يَخْلُقُ لَنا طَبْعاً إلَّا لِحكمَةٍ ، وَلاَ يُرَكِّبُ فِيْنا قُوّةَ الحَمِيَّةِ والغَضَبِ إلّا لِسَبَبٍ وحِكْمَةٍ .

فَالأَذَى إذَا جاءَنَا لَا يُدْفَعُ إلّا بالغَضَبِ ، والشَّرُّ إذَا نَالَنا لَا يُدْفَعُ إلّا بالغَضَبِ ، وحِمَايَةُ الدِّيْنِ والأعْرَاضِ والشَّرَفِ والكَرَامَةِ لَا تُدْفَعُ إلّا بِالغَضَبِ لِلْحَقِّ ، فَمَنْ فَقَدَ قُوَّةَ الغَضَبِ بالكُلّيّةِ ، أَوْ ضَعُفَتْ فِيْهِ الحَمِيَّةُ فَهُوَ نَاقِصٌ مَحْلُولُ العَزْمِ ، مَفْقُوْدُ الحَزْمِ ، مَعْدُوْمُ الرُّجُوْلَةِ .

وَقَدْ امْتَدَحَ اللّهُ غَضَبَ المُؤْمِنِيْنَ عَلَى الكُفَّارِ ، وحَمِيَّتَهُمْ الدِّيْنِيَّةِ ، لِمَا لَهُ مِن أثَرٍ في اعْلاَءِ كَلِمَةِ اللّهِ ، فَقَالَ تَعالى « أشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

وقال « أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِيْنَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِيْنَ » وقَالَ « ولْيَجِدُوْا فِيْكُمْ غِلْظَةً » .

وأَمَرَنا بِالغَضَبِ إِذَا انْتُهِكَتْ حُرْمَةُ الدِّيْنِ ، والغَيْرَةِ عَلَى حُدُوْدِ اللّهِ ، فَقَالَ في الزُّنَاةِ « وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِيْنِ اللّهِ إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنُون بِاللّهِ واليومِ الآخِر » .

فَمَنْ فَقَدَ قُوَّةَ الغَضَبِ ، يُصْبِحُ جَبَاناً ، ضَعِيْفاً ، وَذَلِيْلاً حَقِيْراً لَا يَأنَفُ مِنَ العَارِ ولَا يهمُّهُ ، وَلَا يَتأَلَّمْ لأَذَى السُّفَهَاءِ ، يَتَطَاوَلُ السُّفَهَاءُ والفَسَقَةُ على حَرَمِهِ ، فَلا يَغَارُ لِعِرْضٍ ، ولَا يَغْضَبُ لِشَرَفٍ ، فَيَكُوْنُ تَيْساً فِي صُوْرَةِ إِنْسَانٍ ، وجَمَاداً لَا إِحْسَاسَ لَهُ ، وَلا شُعُوْر .

وَلَيْسَ مِنَ الحِلْمِ فِي شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ جُبْنٌ ، وخَوَرٌ ، وَذِلَّةٌ وَقَدْ وَرَدَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ دَيُّوْثٌ ، قَالُوْا وَمَا الدَّيُّوْثُ يَا رَسُوْلَ اللّهِ قَالَ الّذي لَا يَغَارُ عَلَى أَهْلِهِ .

وَقَالَ سَعْدٌ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللّهِ لَوْ وَجَدْتُ مَعَ أَهْلِيْ رَجُلاً أَمْهِلُهُ حَتَّى آتِي بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَقَالَ ﷺ نَعَمْ ، فَقَالَ كَلَّا وَالّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ ، إِنْ كُنْتُ لأُعَاجِلُهُ بالسَّيْفِ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَ ﷺ اسْمَعُوْا إِلَى مَا يَقُوْلُ سَيِّدُكُمْ ، إِنَّهُ لَغَيُوْرٌ وأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ واللّهُ أَغْيَرُ مِنِّيْ .

وَإِذَا لَمْ يَغْضَبِ الإِنْسَانُ لِعِرْضِهِ ، ضَاعَتْ الأَنْسَابُ ، واخْتَلَطَتِ الأَوْلَادُ ، وَكُلُّ أُمَّةٍ تَمُوْتُ الغَيْرَةُ فِيْهِمْ لَا بُدَّ وأَنْ تَضِيْعَ العِفَّةُ ، والصِّيَانَةُ مِنْ نِسَائِهَا ، وَهَذَا هُوَ الضَّعْفُ ، والخَوَرُ ، والعَجزُ ، وَالجُبْنُ ، الّذِي اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيّ ﷺ ، وَكَيفَ تَذُمُّ رَجُلاً يَغْضَبُ لِدِيْنِهِ ، إِذَا رَأَى المُنْكَرَاتِ ، وَقَدْ أُمِرَ بِمُحَارَبَتِهَا وكَيْفَ يُصْلِحُ المَرْءُ عُيُوْبَ نَفْسِهِ ، إِذَا لَمْ يَغْضَبْ عَلَيْهَا ، ويَشْتَدُّ فِي رَدِّهَا عَنْ هَوَاهَا .

أَمَّا الغَضَبُ المَذْمُوْمُ فَهُوَ الَّذِي يُعْمِيْ صَاحِبَهُ عَن الحَقِّ ، ويُفْقِدُهُ بَصَرَ البَصِيْرَةِ ، والفِكْرِ فَتأخُذُهُ العِزَّةُ بالإِثْمِ ، ويُعْرِضُ عَن النُّصْحِ إِذَا نُصِحَ ، وَرُبَّمَا زَادَ هَيْجَاناً ، وإِذَا رُوْجِعَ في قَوْلٍ ازْدَادَ سُخْطاً ولِجَاجاً .

وَقَدْ يَحْدُثُ مِنْهُ ضَرَرٌ عَلَى مَنْ حَوْلَهُ ، وتَجِدُهُ مُتَغَيّراً لَوْنُهُ ، مُرْتَعِشَةً أَعْضَاؤُهُ ، زَائغاً بَصَرُهُ ، وكَالأَعْمَى يَسُبُّ الجَمَادِ ، والحَيوانَ ، ويَبْطِشُ بِكُلِّ مَا يُصَادِفُهُ ، حَتَّى إِنَّهُ يُتْلِفُ الأَثَاثَ ، وَالرِّيَاشَ ، ورُبَّمَا لَا يَشْفِيْ غَلَّةً ، وَقَدْ يَحْدُثُ مِنْهُ طَلَاقٌ ، ولَعْنٌ وَسَبٌّ ، وشَتْمٌ ، فَهَذا غَضَبٌ مَذْمُوْمٌ قَبِيْحٌ مَرْذُوْلٌ يَنْتَصِرُ فِيْهِ إِبْلِيْسُ عَلَى هَذَا الَّذي لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْد الغَضَبِ كَمَا قِيْلَ :

وَمَا غَضَبُ الإِنْسَانِ إِلَّا حَمَاقَةٌ
إِذَا كَانَ فِيْمَا لَيْسَ لِلّهِ يَغْضَبُ

ومِثْلَ هَذَا الغَضَبِ يَهْدِمُ الجِسْمَ ، ويُتْلِفُ الصِّحَّةَ ، ويَحْرِمُ صَاحِبَهُ الرَّاحَةَ والهَنَاءَ وَيَجْعَلُ نَظَرَتَهُ إِلَى الحَيَاةِ مُظْلِمَةً سَوْدَاءَ فالتَّفْرِيْطُ فِي الغَضَبِ ضَعْفٌ ، والإِفْرَاطُ تَهُورٌ وجُنُوْنٌ ، والمَحْمُوْدُ مِنْهُ الوَسَطُ والاعْتِدَالُ والقَصْدُ المَحْمُودُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ غَضَبُكَ لِلدِّيْنِ فَإِذَا اعْتَدَى قَوْمٌ عَلَى الإِسْلامِ بالطَّعْنِ والتَّشْهِيْرِ أَوْ التَّشْكِيْكِ فِي العَقَائِدِ كَمَا يُحاوِلُ المُلْحِدُوْنَ وَكَمَا يَفْعَلُ المُبَشِّرُونَ فَيَجِبُ أَنْ تَغْضَبَ عَلَيْهِم انْتِصاراً لِدِيْنِنَا وَدِفاعاً عَنْ شَرْعِنَا .

وَمِنَ الغَضَبِ المَحْمُودِ الغَضَبُ عَلَى مَنْ تَعَدَّى عَلى بِلَادٍ إِسْلَامِيَّةٍ أَوْ تَعَدَّى عَلَى مُسْلِمٍ أَوْ مَدَحَ غَيْرَ الدِّيْنِ الإِسْلَامِيْ أَوْ ذَكَرَ اللّهَ أَوْ كِتَابَهُ أَوْ مَلَائِكَتَهُ أَوْ رُسُلَهُ بِسُوْءٍ أَو سَبَّ صَحَابِيّاً أَوْ إِمَاماً مَشْهُوْراً بالتُّقَى وَالوَرَعِ

والاسْتِقَامَةِ أَوْ طَعَنَ في رِجَالِ الدِّيْنِ لأَجْلِ دِيْنِهِمْ أَوْ كَذَبَ عَلَى اللّهِ أَوْ عَلَى رُسُلِهِ أَوْ أَحلَّ شَيْئاً مِنَ المُحَرَّمَاتِ أَوْ حَرَّمَ شَيْئاً مِمَّا حَلَّلَهُ اللّهُ أَوْ اسْتَهَانَ بِكِتَابِ اللّهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُوْلِهِ ﷺ أَوْ كُتُبِ أَهْلِ العِلْمِ المُحَقِّقِيْنَ مِثْلُ الإِمَامِ أَحْمَدَ والشَّافِعِيّ ومَالِكٍ وأَبي حَنِيْفَةَ والمُوَفِّق والمَجْدِ وابْنِ أَبي عُمَرَ وَشَيْخِ الإِسْلامِ وابْنِ القَيِّم وابْنِ كَثِيْرٍ وابْنِ رَجَب وابْنِ مُفلحٍ ونَحْوِهِمْ مِنَ العُلَمَاءِ المَشْهُوْرِيْنَ بالاسْتِقَامَةِ والبُعْدِ عَن البِدَعِ وكَأئِمّةِ الدَّعْوَةِ .

ومِنَ الغَضَبِ المَحْمُوْدِ الغَضَبُ عَلَى مَنْ مَدَحَ الكَفَرَةَ والمُنَافِقِيْنَ وأئمة الضَّلالِ والحَيَارَى كابنِ عَرَبِيّ وابْنِ رُشْدٍ وَالفَارَابِيّ وابْنِ سِيْنَا وَابْنِ كُلَّابٍ والعَفِيْفِ التِّلْمُسَانِيّ وابْنِ سَبْعِيْنَ وابْنِ الفَارِضِ وابْنِ الرَّاوَنْدِي والكَوْثَرِي والبُوْصِيْرِي والمَعَرِّي ونَحْوِ هؤُلاءِ مِنَ المُلاَحدةِ والزَّنَادِقَةِ والمُبتَدِعَةِ والفَسَقَةِ والظُّلمَةِ وأعْوانِهِمْ .

ومِنَ الغَضَبِ المَحْمُودِ الغَضَبُ عَلَى مَنْ ابْتَدَعَ فِي الدِّيْنِ بِدَعاً أَوْ نَشَرَهَا أَوْ دَعَا إِلَيْهَا أَوْ مَدَحَ مُحَلِّلِيْهَا أَوْ مَدَحَ الكُفَّارَ أَوْ مَدَحَ المَلاهِي والمُنْكَرَاتِ الّتِي حَطَّمَتِ الأَخلاقِ وَقَضَتْ عَلَيْهَا وأتْلَفَتِ الأَمْوَالِ وَقَتَلَتِ الأَوْقَاتَ وَأَوْرَثَتِ الخَلْقَ أَفَانِيْنَ العَدَوَاتِ وأَحْدَثَتِ التَّفَرُّقَ فِي البُيُوْتِ والقُلُوْبِ .

شِعْرا :

« إِنَّ المَلاَهِيَ أَلْقَتْ بَيْنَنَا إِحَناً
وَأَوْرَثَتْنَا أَفَانِيْنَ العَدَوَاتِ »

« وَهَلْ أُصِيْبَ شَبَابُ اليَوْمِ وانْحَرَفُوْا
إِلَّا بِتَقْلِيْدِ أَصْحَابِ الضَّلالاتِ »

« مِنْ كُلِّ أَهْوَجَ لاَ دِيْنٌ وَلاَ أَدَبٌ
وَلاَ حَيَـاءٌ ومَعْـدُوْمُ الـمُـرُؤاتِ »
« يَرَى التَّمَدُّنِ فِي تَطْوِيْلِ شَـارِبِهِ
وَحَلْقِ لِحْيَتِـهِ مِثْلَ الخَـوَاجَاتِ »
« يُقَلِّدُ الكُفْـرَ فِي تَطْوِيْـلِ أَظْفُـرِهِ
أَقْبِحْ بِهِ مِنْ سَفِيْهٍ سَاقِطٍ عَـاتِ »

اللَّهُمَّ قَوِّي إِيْمَانَنَا بِكَ وَبِمَلاَئِكَتِكَ وبِكُتُبِكَ وبِرُسُلِكَ وبِاليَوْمِ الآخِرِ وبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِلهِدَايَةِ وَجَنِّبْنَا أَسْبَابَ الجَهَالَةِ والغِوَايَةِ اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى الإِسْلامِ والسُّنَّةِ وَلاَ تُزِغْ قُلُوْبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحيَاءِ مِنْهُمْ والمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فصـــل)

ومِنْ وَفَائِهِ ﷺ مَا أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيْحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيْجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا .

وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيْجَةَ فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلا خَدِيْجَةَ فَيَقُوْلُ إِنَّها كَانَتْ وَكَانَ لِيْ مِنْهَا وَلَدٌ ، كَانَتْ خَدِيْجَةُ رَضِيَ الله عنها في الجَاهِلِيَّةِ سَيِّدَةً وَقُوْرَةً ذات عَقْلٍ رَزِيْنٍ وصَاحَبَةَ مَالٍ وَيَسَارٍ وجاهٍ وشَرَفٍ تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ في مَالِهَا وَتُضَارِبُهُمْ إِيَّاهُ .

فَلَمَّا وَقَعَ في سَمْعِهَا مَا يَتَحدَّثُ بِهِ الناسُ وَيَتَنَاقَلُهُ العَارِفُونَ عن المُصْطَفَى ﷺ مِن الوَفاءِ والصِّدْقِ والأَمانةِ والنُصْحِ وحُسْنِ السِّيْرَةِ وكَرِيْمِ الشَّمَائِلِ والسَّخَاءِ ونَحْوِ ذَلِكَ مِن مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ ومَحَاسِنِ الشَّيم مَا لَمْ تَسْمَعْهُ عَنْ غَيرِهِ حَتَّى سَمَّاهُ قَوْمُهُ الأَمِيْنَ اسْتأجَرْتْهُ لِيَخْرُجَ في مَالِهَا تَاجِراً وتُعْطِيْهِ أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي غَيْرَهُ .

فَسَافَرَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسلام بقَصْدِ الاتِّجارِ إِلَى الشَّام يَصْحَبُهُ غُلاِمُهَا مَيْسَرةُ فَباعَا وابْتَاعَا وَرَبِحَا رِبْحاً عَظِيْماً وَظَهَرَ لَهُ ﷺ في هَذِهِ السَّفرةِ مِن البَرَكَاتِ وإِفَاضَةِ الخَيْرَاتِ الشيءُ الكثيرُ وجَعَلَ اللَّهُ حُبَّهُ في قَلْبِ غُلاَمِهَا مَيْسَرَةَ وأُعْجِبَ بِمَا شَاهَدَهُ مِنْهُ .

وكَانَتْ سِنُّهُ ﷺ في هَذِهِ السَّفْرَةِ خَمْساً وعِشْرِينَ سَنَةً وهِيَ السَّفْرَةُ الثانِيَةُ مِن اسْفَارِهِ إِلَى الشَّامِ وَلمَّا رَجَعَ قَافِلاً مِن الشَّامِ وقَدِمَ مَكَّةَ وَرَأَتْ خَدِيْجَةُ ما وَفقَهُ اللَّهُ لَه مِن رِبْحٍ كانَ عَلَى يَدَيْه وَبرَكَاتٍ وَفِيْرَةٍ .

وَمَا أَتْحفَهَا بِهِ غُلاَمُهَا مَيْسَرَةُ مِمَّا شَاهَدَهُ مِن حُسْنِ سِيْرَتِهِ وَمَا جَعَلِ اللَّهُ عَلى يَدَيْهِ مِن البَرَكَاتِ كُلُّ ذَلِكَ حَفزَهُ في نَفْسِ خَدِيْجَةَ وَحَبَّبَهُ إِلَيها فَلَمْ تَتَمالَكْ نَفْسُهَا وكَانَ سِنُّهَا نَحْوُ الأَرْبَعِيْنَ سَنَةً وهِيَ كَمَا وَصفْنَا وَأَضْعَافِ مَا وَصَفْنَا مِن كَرَامَةِ مَحْتَدِهَا وَشَرَفِ حَسَبِهَا وحُسْنِ سِيْرَتِها رضي اللَّهُ عنهَا .

فأَرْسَلَتْ إِلى رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ تَخْطُبُهُ لِنَفْسِهَا فقَامَ ﷺ يُنْجِزُ رَغْبَتَهَا وَيُجِيْبُ طِلْبَتَهَا واسْتَدْعَى أَعْمَامَهُ حَتَّى دَخَلَها على عَمِّهَا عَمْرِو بنِ أَسَدٍ فَخَطَبَهَا مِنه بِوَاسِطَةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فَزَوَّجهَا عَمُّهَا .

ثم قَامَ أَبو طَالِبِ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَطِيْباً فقَالَ الحَمْدُ لِله الذِي جَعلَنَا

مِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَزَرْعِ اسْمَاعِيْلَ وضِئْضِيءِ مَعَدٍ وعُنْصُرِ مُضَرٍ وَجَعَلَنَا حَضَنَةَ بَيْتِهُ وَسُوَّاسَ حَرَمِهِ وَجَعَلَ لنا بَيْتاً مَحْجُوْجاً وَحَرَماً آمِناً وَجَعَلَنَا حُكَّامَ النَّاسِ .

ثُمَّ إِنَّ ابنَ أَخِيْ هَذَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ لا يُوْزَنُ بِهِ رَجُلٌ شَرَفَاً وَنُبْلاً وفَضْلاً وَإِنْ كَانَ في المالِ قِلٌ فإنَّ المالَ ظِلٌ زَائِلٌ وَأَمْرٌ حائِلٌ وعَارِيَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ وهُوَ وَاللَّهِ بَعْدَ هَذا لَهُ نَبَأٌ عَظِيْمٌ وخَطَرٌ جَلِيْلٌ وَقَدْ خَطَبَ إِلَيْكُمْ رَغْبَةً في كَرِيْمَتِكُم خَدِيْجَةَ وقَدْ بَذَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ كَذَا وعَلَى ذَلكَ تَمَّ الأَمْرُ .

وَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بالرِّسالَةِ وشَرَّفَهُ بالنُبُوَّةِ كانَتْ خَدِيْجَةُ رَضْيَ اللَّهُ عَنْهَا أَسْرَعَ الناسِ بِهِ إِيْمَاناً ولِدَعْوَتِهِ تَصْدِيْقاً ولَهُ إجابَةً وَلَم تَنْتَظِره آيةً أُخْرَى زِيَادَةً على مَا عَلِمَتْهُ مِن مَكَارِمِ أَخْلاَقِهِ ﷺ وما سَمِعَتْ مِن خَوارِقِ العَادَاتِ الَّتِي كانَتْ تَظْهَرُ عَلَى يَدَيْهِ .

وَأَوَّلُ شَيْءٍ بُدِىءَ بِهِ الوَحْيُ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَاً إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاءُ وَالعُزْلَةُ عَنِ البَشرِ فكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَا فَيتَعَبَّدُ فِيْهِ اللَّيالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ فَتَارَةً يَمْكُثُ عَشَرَةً وتَارَةً أَكْثَرَ إِلى شَهْرٍ .

وَكَانَتْ عِبَادَتُهُ إِذْ ذَاكَ عَلَى الشَّرِيْعَةِ الحَنِيْفِيَّةِ دِيْنِ أَبِيهِ إبراهِيمَ عَليهِ السَّلامُ ويَأْخُذُ زَادَهُ فَاذَا نَفَدَ رَجَعَ إلى خَدِيْجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَ مُبَلِّغُ الوَحْيِ ومَلَكُ السَّماءِ جَبْرِيْلُ عليهِ السلامُ فَبَيْنَما هُوَ قَائِمٌ عَلَى الجَبَلِ إِذْ فَاجَأَهُ جِبْرِيلُ وَقَال أَبْشِره يا مُحَمَّدُ أَنَا جِبريْلُ وَأَنْتَ رَسُوْلُ اللَّهِ إِلى هَذِهِ الأُمَّةِ .

ثُمَّ قَالَ لَهُ اقْرَأْ قَالَ مَا أَنَا بِقَارِىءٍ يُرِيْدُ بذَلِكَ أَنَّهُ أُمِّيٌ لَمْ يَتعَلَّمِ القِرَاءَةَ مِن قَبْلُ فَأَخَذَهُ فَغطَّهُ بِالنَّمَطِ الذِي كانَ يَنامُ عليهِ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الجُهْدَ ثم أَرْسَلَهُ فَقَالَ لَهُ اقْرَأْ قال مَا أَنَا بِقَارِىءٍ فَأَخَذَهُ فَغطَّهُ ثَانِيَةً ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ اقْرَأْ قَالَ مَا أَنَا

بِقَارِىءٍ فَأَخَذَهُ فغطَّهُ الثَّالِثَةَ فقَالَ « اِقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ خَلَقَ الانْسَانَ مِن عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُكَ الأكْرَمُ الذِي عَلَّم بالقلَمِ عَلَّمَ الانسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

فَرَجعَ عَلَيه السلامُ مَذْعُوراً خَائِفاً يَرْجُفُ فؤآدُهُ ولاَ يَتَمالَكُ نَفَسُهُ مِن هَوْلِ المَنْظِرِ وشِدَّةِ مَا أَلَمَّ بِهِ فَدَخلَ عَلَى خَدِيْجَةَ زَوْجَتِهِ فقالَ « زَمِّلُونِي زَمِّلُوْنِي » أَيْ لُفُّوْنِي في ثَوْبِي ، ليَزُوْلَ عَنْهُ مَا يَجِدُ مِن الرُّعْبِ والقُشَعْرِيْرَةِ التِي انْتَابَتْهُ مِن رُؤْيَةِ المَلَكِ فَزَمَّلُوْهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الخَوْفُ .

فَذَكَرَ لِخَدِيْجَةَ الأَمْرَ وأَخْبَرَهَا قَائِلاً لَقَدْ خَشِيْتُ عَلَى نَفْسِي مِن شِدَّةِ مَا أَصَابَنِي مِن غَطِّ المَلَكِ لِيْ ولَمْ يَكُنْ عَلَيهِ الصلاةُ والسلامُ يَعْرِفُ شَيْئَاً عن جِبْرِيْلَ وَوَصْفِهِ وأَشْكَالِهِ ، فأَجَابَتْهُ خَدِيْجَةُ رضي اللَّهُ عنها على الفَوْرِ وَوَقَفَتْ ذَلْكَ المَوْقِفَ المُشَرِّفَ في تَثْبَيْتِ فُؤآدِهِ وتَهْدِئَةِ أَعْصَابِهِ وتَقْوِيَةِ دَوَاعِي الأَمَلِ فيهِ قَائِلَةً كَلاَّ واللَّهِ لا يُخْزِيْكَ اللَّهُ أَبَدَا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وتَحْمِلُ الْكَلَّ وتَكْسِبُ المَعْدُوْمَ وتَقْرِيْ الضَّيْفَ وتُعِيْنُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِ فَلاَ يُسَلِطُ اللَّهُ عليكَ الشَياطِينَ والأَوْهَامَ ولا مِرَاءَ أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَكَ لِهِدَايَةِ قَوْمِكَ .

ثُمَّ لَمْ تَكْتَفِ بِهَذَا القَدْرَ مِن القَوْلِ بَلْ أَرادَتْ أَنْ تَتَثَبَّتَ مِمَّنْ لَهُمْ عِلْمٌ بِحَالِ الرُسُلِ واطِّلاَعٌ عَلَى أَخْبَارِهِمْ بِمَا قَرؤُهُ في الكُتُبِ القَدِيْمَةِ فانْطَلَقَتْ بِهِ إِلى وَرقَةَ بنِ نَوْفَلٍ وهُوَ ابنُ عَمِّهَا وَكَانَ امْرأً قَدْ تَنَّصرَ في الجَاهِلِيَّةِ وكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَبْرَانِي فَيَكْتُبُ مِن الانْجِيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أنْ يَكْتُبَ وكان شَيْخاً كَبِيْراً قَدْ عَمِي .

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيْجَةُ يا بنَ عَمِّ اسْمَعْ مِن ابْنِ أَخِيْكَ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِيْ مَاذَا تَرى فأَخْبَرَهُ عليه الصَلاةُ والسلامُ خَبَرَ مَا رَأَى فقال لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوْسُ الذِي

أَنْزَلَ اللَّهُ على مُوْسَى لأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ وَاسِطَةَ الوَحْيِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ هُوَ جِبْرِيْلُ عليهِ السلامُ .

ثُمَّ قال يَا لَيْتَنِي فِيْهَا جَذَعاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ مِن بِلَادِكَ الَّتِي نَشَأْتَ بِهَا لِمُعَادَاتِهِمْ إِيَّاكَ وكَرَاهَتِهِمْ لَكَ حِيْنَمَا تُطَالِبُهُم بِتَغْيِيْرِ اعْتِقَادَاتِهِم التِي وَجَدُوْا عَلَيْهَا آبَاءَهُمْ فَكَانَ قَوْلُ وَرَقَةَ مَوْضِعَ اسْتِغْرَابِ النَّبِي ﷺ لِمَا يَعْرِفُهُ مِن حُبِّ قَوْمِهِ لَهُ لاتِّصَافِهِ بِصِدْقِ الحَدِيْثِ والأَمَانَةِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاقِ حَتَّى سَمَّوْهُ الأَمِيْن .

وقَالَ أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُوْدِيَ عَلَى حَدِّ مَا جَاءَ فِي القُرآنِ الكَرِيْمِ (لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ) وقوله « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخَرجَنَّكم مِن أرضنا أو لَتعُوْدُنَّ في مِلَّتِنَا » وقولهم « أَخْرِجُوْا آلَ لُوْطٍ مِن قَرْيَتِكُم » .

ثم قال وَرَقَةُ مُسْتَأْنِفاً : وإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ انْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّرا ثم تُوُفِي وَرَقَةُ بَعْدَهَا بِقَلِيْلٍ : قَالَ وهذا نُمُوْذَجٌ مِن مَنَاقِبِ أُمِّنَا وَأُمِّ المُؤْمِنِيْنَ خَدِيْجَةَ وَمَوَاقِفِهَا إِزَاءَ مَا كَانَ يَحْدُثُ لِلنَّبِي ﷺ .

ولِذَا كَانَ ﷺ يُبَادِلُهَا الوَفَاءَ بالْوَفَاءِ والإِخلاصَ بالإِخلاصِ وكانَ يَحْنُوْ إِلَيْهَا وَيُدِيْمُ ذِكْرَهَا بَعْدَ مَوْتِهَا اللهم صَلي وسلم عليه .

وكَانَ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرِهَا ورُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيْجَةَ وَهَذا يُشْعِرُ بِبَقَاءِ وِدِّهَا واسْتِمْرَارِ حُبِّهِ لَهَا واخْلَاصِهِ حَتَّى كَانَ يَتَعَهَّدُ صَدِيْقَاتِهَا بالاهْدَاءِ والعَطَاء بَعْدَ مَوْتِهَا .

ولِذَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما غِرْتُ عَلَى أَحدٍ مِن نِسَاءِ النبي ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيْجَةَ ومَا رأَيْتُهَا وفي حَدْيثٍ رَواهُ البُخَارِيُ عن عائشةٍ رَضِيَ

اللَّهُ عنها قَالَتْ : اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدُ أُخْتُ خَدِيْجةِ على رَسُولِ اللَّه ﷺ فَعرفَ اسْتئْذَانَ خَدِيْجَةَ فارْتَاعَ لِذَلِكَ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَالَةُ قَالَتْ فَغِرْتُ الحديث .

وفي الاسْتِيْعَابِ لأَبِي عمر جـ ص ١٨١٠ بسندِهِ إلى عائِشَةَ قَالَتْ جَاءَتْ عَجُوْزٌ إلى النبيِ ﷺ فقالَ لَهَا مَنْ أَنْتِ قَالَتْ أَنَا جَثَّامَةَ المزُنِيَّةُ : قالَ بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ المُزَنِيَّةُ : كَيْفَ حَالُكُم كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنا قالَتْ بخَيْرٍ بأَبِيْ أَنْتَ وأُمِّي يَا رَسُولَ الله .

فَلَمَّا خَرجَتْ قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللَّهِ تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ العَجُوزِ هَذَا الاقْبَال قَالَ إِنَّها كَانَتْ تَأْتِيْنَا أيَّامَ خَدِيْجَةِ وَإِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِن الايْمانِ : مُقَابَلَةٌ طَيِّبَةٌ ومُلَاطَفَةٌ جَمِيْلَةٌ وتَوَدُّدَ مَحْمُوْدٌ ووَفَاءٌ مِنْ النّبيِّ ﷺ لِزَوْجَتِهِ خَدِيْجَةَ الّتي ماتَتْ وَطَالَما أيّدَتْهُ وخَفّفَتْ عنه وسَلّتْهُ وعَاشَرَتْهُ وَتَبَادَلُ هُوَ وَإِيّاهَا المَوَدَّةَ ولَمْ تُكَدِّرْ خَاطِرَهُ ولَا مَرَّةً وَاحِدَةً عَكْسُ مَا عَلَيْهِ زَوْجَاتُ هَذا الجِيْل المنحرف إلا النَّادرة .

وأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ جـ ٢ ص ٦٣ أَنَّ عُمَرَ بنَ السَّائِبِ حَدَّثَهُ أَنَّه بَلَغَهُ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَالِساً يَوْماً فأَقْبَلَ أَبُوْهُ مِن الرَّضَاعَةِ فَوَضَعَ لَهُ بَعْضَ ثَوْبِهِ فَقَعَدَ عَلَيه ثُمَّ أَقْبَلَتْ أُمُّهُ فَوَضَعَ لَها نِصفَ ثَوْبِهِ مِن جَانِبِهِ الآخَرَ فَجَلَسَتْ عَلَيهِ ثم أَقْبلَ أَخُوْهُ مَن الرَّضَاعَةِ فَقَامَ لَهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهَا .

وعندَ أَحْمَدَ مِن حَدْيْثِ مَسْرُوْقٍ عن عائشَةَ : آمَنَتْ بِي إِذْ كفَرَ بِي النَّاسُ وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِيْ النَاسُ وَوَاسَتْنِيْ إِذ حَرَمَنِي الناسُ وَرَزَقَنِي اللَّهُ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِيْ أَوْلَادَ النِسَآءِ وكَانَ جَمِيْعُ أَوْلَادِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْهَا عدَا إِبْرَاهِيْمَ فَإِنَّهُ مِن ماريَةِ القِبْطِّيّةِ وتُوُفِيَتْ خَدِيْجَة قَبْلَ الهِجْرَةِ بثَلَاث سِنْين وحَزِنَ عَلَيْهَا ﷺ حَزَناً

شَدِيْداً لِمَا كَانَ لَهَا مَن الأَعْمَالِ النَّبِيْلَةِ والوَفَاءِ التَّامِ والتَّأْيِيْدِ لَهُ وَتَثْبِيْتِهِ ولِمَا لَهَا مِن آراءَ سَدِيْدَةٍ .

ومْنِهَا القَاسُم الذِي كَانَ يُكْنَى بِهِ وسَائِرُ وَلَدِهِ سوَى إِبْراهِيْمَ وبوَفَاتِهَا انْطَفَأَ مِصْبَاحٌ مُنِيْرٌ وعَوْنٌ كَبِيْرٌ لِيَتَمَثَّلَ النِّسَآءُ بأَعْمَالِهَا في حُسْنِ الوَفَاءِ والاخلاصِ والصِدْقِ والبِرِ فانَّهَا امْرأةٌ ولكِنَّهَا خَيْرٌ مِنْ آلافِ الرِّجالِ وفي مِثْلِهَا وأَشْبَاهِهَا لَوْ يُوْجَدُ حَسَنُ التَّمثُّلُ بقَولِ المُتَنبي :

(ولَـــوْ كَـانَ النِسَـــآءُ كَمَنْ فَقَــدْنَـا

لَفُضِّلَتِ النِّسَـــاءُ عَلَى الــرِّجَـالِ)

ولِهَذَا اسْتَحَقَّتْ أَجْرَ العَامِلِيْنَ وَثَوابَ المُخْلِصِيْنَ وَجاءَتْها البَشَارَةُ مِن رَبِّ السَّمَآءِ عَلَى لِسَانِ جِبْرِيْلَ الأَمِيْن قَائِلًا « يَا رَسُولَ اللَّهَ هَذِهِ خَدِيْجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيْه إِدامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ شَكٌّ مِنْ الرَّاوِيء » وذَلِكَ عِنْدَمَا كَانَ ﷺ في غَارِ حِرَاءٍ فاذا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السلامَ مِن رَبِّهَا ومِنِّيْ وبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ في الجَنَّةِ مِن قَصَبٍ لا صَخَبَ فيهِ ولا نَصَبَ »

فقالَتْ هُوَ السَّلامُ ومِنْهُ السلامُ وعلى جِبْرِيْلُ السَّلامُ وَعَلَيْكَ يا رسولَ اللَّهِ السلامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

رَأَتْ خَــدِيْجَـةُ إِنْسَــانـاً تُصَـاحِبُـهُ

عِنَــايَــةُ اللَّهِ رَغْـمَ الفَـقْــرِ والْيُتُمِ

فاخْتَارَتْ المُصْطَفى زَوْجاً لَهَـا ولَقَدْ

وَفيَّ لَهَا المُصْطَفَى المُخْتَارُ بالذِّمَمِ

يُثْنِيْ عَلَيْهَــا ولاَ يَنْسَى فَـضَــائِلَهَــا

مِثْـلُ اسْتِجَـابَتِهَــا فِيْ لاَ وَفِي نَعَمِ

أَوْلَادُهُ غَيْرَ إِبْرَاهِيْمَ سِتَّتُهُمْ
أَتَوْهُ مِنْهَا وَنُوْرُ الشَّمْسِ فِي النَّجمِ

واللّهُ أَعْلَم وصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وآلِهِ وسَلّم .

« موعظــة »

عِبَادَ اللّهِ إِنَّ شَأْنَ الصَّلَاةِ عَظِيْمٌ جِدّاً فِي دِيْنِنَا مَعْشَرَ المُسْلِمِيْنَ وَفِي كُلِّ دِيْنٍ وأَسْرَارُهَا العَظِيْمَةُ وَبَرَكَاتُهَا العَمِيْمَةُ وَفَوائِدُهَا الكَثِيْرَةُ لا تَخفَى عَلَى كَثِيْرٍ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ .

وَلَيْسَتِ الصَّلَاةُ مُجَرَّدُ أَقْوَالٍ يَلُوْكُهَا اللِّسَانُ وَحركَاتٌ تُؤَدِّيْهَا الجوَارِحُ بِلَا تَدَبُّرٍ مِنْ عَقلٍ وَلَا تَفهُّمٍ وَلَا خُشُوْعٍ مِنْ قَلْبٍ لَيْسَتْ تِلْكَ الّتِيْ يَنْقُرُهَا صَاحِبُهَا نَقْرَ الدَّيكَةِ وَيَخْطِفُهَا خَطفَ الغُرَابِ وَيَمُرُّ بِهَا مَرَّ السَّحَابِ كَأَنَّ وَرَاءَهُ طَالِبٌ حَثِيْثٌ وَيَلْتَفِتُ فِيْهَا التِفَاتَ الثَّعْلَبِ يَمِيْناً وَشِمَالاً وَفَوْقاً وَتَحْتاً .

كَلَّا فَالصّلاةُ المُقَامَةُ تَماماً هِيَ الّتِي تَأْخُذُ حَقَّهَا مِنَ التَّأَمُّل والخَشْيَةِ والخُضُوْعِ والسُّكُوْنِ واسْتِحْضَارِ عَظَمَةِ المَعْبُوْدِ جَلَّ جَلَالُهُ .

وَذَلِكَ أَنَّ القَصْدَ مِنَ الصَّلَاةِ وَسَائِرِ العِبَادَاتِ هُوَ تَذْكِيْرُ الإِنْسَانِ بِرَبِّهِ الأَعْلَى الّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالّذِي قَدَّر فَهَدَى .

وَالصّلَاةُ صِلَةٌ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ تَقْوَى بِهَا مَحبَّةُ العَبْدِ لِرَبِّهِ كُلَّمَا تَكَرَّرَتْ قَالَ ابْنُ القِيم رَحِمَهُ اللّهُ فَإِنَّ المُحِبَّ يَتَلَذَّذُ بِخِدْمَةِ مَحْبُوْبِهِ وَتَصرُّفِهِ فِي طَاعَتِهِ وكُلَّمَا كَانَتْ المَحبَّةُ أَقْوَى كَانَتْ لَذَّةُ الطَّاعَةِ والخِدْمَةِ أَكْمَلُ فَلْيَزِنِ العَبْدُ إِيْمَانَهُ وَمَحبَّتَهُ بِهَذَا المِيْزَانِ والْيَنْظُرْ هَلْ هُوَ مُلْتَذٌّ بِخِدْمَةِ مَحْبُوْبِهِ أَوْ

مُتكَرِّهٌ لَهَا يَأْتِي بِهَا عَلَى السَّآمَةِ والمَلَلِ والكَرَاهَةِ فَهَذا مَحكُّ إيْمانِ العَبْدِ وَمَحبَّتُهُ لِلّهِ .

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ إنِّي أَدْخُلُ فِي الصَّلاَةِ فَأَحْمِلُ هَمَّ خُرُوْجِيْ مِنْهَا وَيَضِيْقُ صَدْرِي إذا فَرَغْتُ لِأَنِّي خارِجٌ مِنْهَا وَلِهَذا قَالَ النَّبِيّ ﷺ وَجُعِلَتْ قُرَّتْ عَيْنِي فِي الصّلاةِ وَمَن كَانَتْ قُرَّةُ عَيْنِهِ فِي شَيْءٍ فَإِنَّهُ لَا يَوَدُّ أَنْ يُفَارِقَهُ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ فَإِنَّ قُرَّةَ عَيْنِ العَبْدِ نَعِيْمُهُ وَطِيْبُ حَياتِهِ بِه .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ إنِّي لَأَفْرَحُ باللَّيْلِ حِيْنَ يُقْبِلُ لِمَا تَتَلَذَّذُ بِهِ عيشتي وتَقرُّبِهِ عَيْنِي مِن مُنَاجَاةِ مَنْ أُحِبُّ وَخَلْوَتِي بِخِدْمَتِهِ والتَّذلُّلِ بَيْنَ يَدَيْهِ واغْتَمُ لِلفَجْرِ إذا طَلَعَ لِمَا اشْتَغِلُ بِهِ بِالنّهَارِ عَنْ ذَلِكَ فَلا شَيْءَ أَلَذُّ لِلْمُحِبِّ مِنْ خِدْمَةِ مَحْبُوْبِهِ وَطَاعَتِهِ أيْنَ هؤلآء ممن لَذَّتُهم وأنسُهُمْ عند المنكرات.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ تَعَذَّبْتُ بِالصَّلاةِ عِشْرِيْنَ سَنَةً ثُمَّ تَنَعمْتُ بِهَا عِشْرِيْنَ سَنَةً وَهَذِهِ اللَّذَّةُ وَالتَّنَعُّمُ بالخِدْمَةِ إِنَّمَا تحْصُلُ بِالْمُصَابَرِهِ عَلَى التَّكَرُّهِ والتَّعَبِ أوَّلاً فَإذا صَبرَ عَلَيْهِ وَصَدَقَ فِي صَبْرِهِ أفْضَى بِهِ إِلَى هَذِهِ اللَّذَّةِ .

وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ سُقْتُ نَفْسِيْ إِلَى اللّهِ وَهِيَ تَبْكِيْ فَمَا زِلْتُ أَسُوْقُهَا حَتَّى انْسَاقَتْ إِلَيْهِ وَهِيَ تَضْحَكُ أ . هـ .

وَقَالَ اللّهُ تَعَالَى « وأقِمِ الصّلاةَ لِذِكْرِي » .

وَقَالَ ﷺ إِنَّمَا فُرِضَتِ الصَّلاَةُ وأُمِرَ بالحَجِّ وأُشْعِرَتِ المَنَاسِكُ لإِقَامَةِ ذِكْرِ اللّهِ رَوَاهُ أَبُو داود وَلِهَذا كَانَتْ عُنْوَانًا عَلَى الفَلاحِ قَالَ تَعَالَى « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ الآية » .

والمُرَادُ بِعِمَارَتِهَا بالصّلاَةِ والقُرُبَاتِ وقَال ﷺ إذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسْجِدَ فَاشْهَدُوْا لَهُ بِالإِيْمَانِ ، فَإِنَّ اللّهَ يَقُول : « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ » .

وَجَاءَ ذِكْرُ الصّلاَةِ فِي القُرْآنِ في مَوَاضِعَ كَثِيْرَةٍ وأَثْنَى جَلَّ وَعَلا عَلَى المُقِيْمِيْنَ لَهَا والمُحَافِظِيْنَ عَلَيْهَا وأخْبَرَ أَنَّهَا تَنْهَى عن الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ومِنْ دُعَاءِ الخَلِيْلِ عَلَيْهِ السّلامُ أَنّهُ يَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَهُ مُقِيْماً لَهَا قَالَ تَعَالَى : « رَبِّ اجْعَلْنِيْ مُقِيْمَ الصَّلاَةِ ومِنْ ذُرِّيّتِي » .

وَمَدَحَ بِهَا إِسْمَاعِيْلَ قَالَ تَعَالَى « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًا » وأَمَرَ جَلَّ وَعَلاَ مُوْسَى بإقَامَتِهَا أَوَّل مَا يَأْمُرُهُ بِهِ فِي سَاعَاتِ الوَحْيِ الأُوْلَى قَالَ تَعَالَى « وأنَا اخْتَرْتُكَ فاسْتَمِعْ لِمَا يُوْحَى إِنَّنِي أَنَا اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وأَقِمِ الصّلاَةَ لِذِكْرِي » وَقَالَ لَهُ وَلِهَارُوْنَ « أَنْ تَبَوّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوْتاً واجْعَلُوْا بُيُوْتَكُمْ قِبْلَةً وأَقِيْمُوْا الصَّلاَةَ » .

وفي وَصِيَّةِ لُقْمَانَ لابْنِهِ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وأْمُرْ بالمَعْرُوْفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ الآيَة ويُنْطِقُ اللّهُ عِيْسَى وَهُوَ فِي مَهْدِهِ فَيَقُوْلُ « وَأَوْصَانِي بِالصّلاَةِ والزّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » .

وَيَأْمُرُ اللّهُ بِهَا صَفْوَةَ خَلْقِهِ وَخَاتِمَ أَنْبِيَائِهِ فَيَقُوْلُ جَلَّ وَعَلاَ « اتلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصّلاَةِ » وَيَقُولُ جَلَّ وَعَلاَ وَتَقَدَّسَ « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » .

وَيَبْتدِؤ بِهَا أَوْصَافَ المُؤْمِنِيْنَ وَيَخْتِمُ بِهَا فَيَقُوْلُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى « قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُوْنَ الّذِيْنَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُوْنَ » الآيَات إِلى قَوْلِهِ « وَالّذِيْنَ

هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُوْنَ » .

وَيُؤَكِّدُ المُحَافَظَةَ عَلَيْهَا حَضَراً وَسَفَراً وفِي الأَمْنِ والخَوْفِ والسِّلْمِ والحَرْبِ « حَافِظُوْا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى وقُوْمُوْا لِلّهِ قَانِتِيْنَ فإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً » .

وَأَخْبَرَ جَلَّ وَعَلاَ عَمَّنْ أَضَاعُوْا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوْا الشَّهَوَاتِ أَنَّ عَاقِبَةَ أَعْمَالِهِمْ وَسُوْءَ مَآلِهِمْ شَرٌّ وخُسْرَانٌ فقالَ « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوْا الصَّلاَةَ واتَّبَعُوْا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غيا » .

وَجَعَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ الشِّعارَ الفَاصِلَ بَيْنَ المُسْلِمِ والكَافِرِ فَقَالَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ وَقَالَ العَهْدُ الّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاَةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ وَفِي الحَدِيثِ الآخِرِ مَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ مُتَعَمِّداً فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللّهِ وَرَسُوْلِهِ وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسّلامُ مَنْ فَاتَتْهُ صَلاَةٌ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالُهُ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ الصَّلاَةِ مَعَ مَا تَقَدَّمَ اهْتِمَامُ المُسْلِمِيْنَ بِتَوْجِيهِ المُحْتَظَرِ وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ المَوْتِ إلى القِبْلَةِ وَكَذَلِكَ وَضْعُهُ فِي قَبْرِهِ مُتَّجِهاً إلى القِبْلَةِ وَمَا ذَاكَ إلاّ لأَنَّهَا الجِهَةُ الّتِي يَتَّجِهُ إِلَيْهَا كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَى رَبِّهِ وَيَدْعُوْهُ وَيُجَدِّدُ الصِّلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ فِي الصَّلاَةِ .

وَاللّه أعلَم وصَلّى اللّهُ عَلَى نَبِيّنا مُحَمّد وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّم .

(فصــل)

إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْتَنِيْ بِهَا وَتَجْتَهِدَ فِي كُلِّ مَا يُصْلِحُهَا ويُكَمِّلُهَا تَجْتَهِدُ أَوّلاً فِي الطَّهَارَةِ وَالنَّظَافَةِ فِي جِسْمِكَ وَثَوْبِكَ وَمَوْضِعِ صَلاَتِكَ فَعَلَيْكَ أَوّلاً بالاسْتِبْراءِ مِن البَوْلِ والغائِطِ بأنْ تَتَأَنَّى قَلِيلاً حَتَّى يَخْرُجَ البَوْلُ كُلُّهُ بِدُوْنِ نَتْرٍ .

وهُوَ دَفْعُ بَقِيْتِ البَوْلِ وبِدُوْنِ مَصْرٍ لِلذَّكَرِ فَإِنَّ هَذَا العَمَلَ يُحْدِثُ السَّلَس وتَغْسِلُ مَحلَّ الغَائِطِ حَتَّى يَعُوْدَ المَحَلُّ كَمَا قَبْلَ التَّغَوُّطِ خَالٍ مِنْ آثارِ النَّجاسَةِ ولُزُوْجَتِها لِئَلا تَكُونَ حَامِلاً لِلنَّجَاسَةِ فِي صَلاَتِكَ فَتَبْطُلُ .

ثُمَّ عِنْدَ الوُضُوءِ تُزِيْلُ مَا يَمْنَعُ وُصُوْلَ المَاءِ إِلَى البَشَرَةِ مِنْ مَرْهَمٍ أَوْ وَازِلِيْن أَوْ دُهْنٍ عَلَى غَيْرِ جُرْحٍ يَضُرُّهُ المَاءُ وتَتَفَقَّدُ عِنْدَ الوُضُوءِ أَخْمُصَ القَدَمَيْنِ والعَقِبَ وَهُوَ مُؤَخَّرُ القَدَمِ وأَعْلَى الجَبة ومَا حَوْلَ المَرَافِقِ .

وفِي الغَسْلِ صِمَاخَ الأُذُنَيْنِ وَطَيَّ الرُّكْبَتَيْنِ وَمَا تَحْتَ الشُّعُوْرِ والإِبْطِ والسُّرَّةَ وَمَا بَيْنَ الأَصَابعِ أَصَابع الرِّجْلَيْنِ والأَضافِرِ ان كَانَتْ طِوَالاً وتَمْنَعُ الماءَ وَيَضُرُّكَ قصُّهَا وإِلَّا فَتَقُصُّها ثُمَّ بَعْدُ تَنْتَبِه لِهَذِهِ الدّقَائِقِ .

وَتَكُوْنُ مُحْسِناً لِلْوُضُوْءِ وَتَسْعَى فِي تَفَقُّدِ مَا يُفْسِدُهَا أَوْ يُنَقِّصُها كَمَا تَرَاهُ فِي فِعْلِ الصَّلاةِ عِنْدَ بَعْضِ النّاسِ تَرَا عِنْدَهُ مِنَ العَبَثِ والحَرَكَةِ والتَّلَفُّتِ مَا يَجْعَلُكَ فِي شَكٍّ مِنْهُ هَلْ هُوَ فِي صَلاةٍ أَمْ لاَ فَتَجِدُهُ أَحْياناً يَنْظُرُ سَاعَتَهُ وأَحْيَاناً يُصَلِّحُ غُتْرَتَهُ وأَحْيَاناً يُوَاسِيْ ثَوبَهُ وَيُطَالِعُهُ وأَحْيَاناً يَعْبَثُ فِي مَحلِّ لِحْيَتِهِ وأحْيَاناً فِي أَنْفِهِ أَوْ عَيْنِهِ وَفِي خِفَّةِ رُكُوْعِهِ وسُجُوْدِهِ مَا يُدْهِشُكَ .

وَلَعَلَّكَ تَظُنُّ أَنَّ هَذَا مُبَالَغَةً ولَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ الوُقُوْفَ عَلَى ذَلِكَ فَانْظُرْ بَعْدَ مَا تُسَلِّمْ إلى الّذِيْنَ يُكَمّلُوْنَ وَإِلَى مَنْ يُصَلِّي وَحْدَهُ وَعَلى كُلِّ حالٍ الأَمْرُ عَظِيْمٌ وَمَعَ ذَلِكَ النَّاسُ فِي غَفْلةٍ وسَهْوٍ عَنْ ذَلِكَ .

وَأَمَّا الطُّمَأْنِيْنَةُ فِي الصّلاةِ فَيُفْهَمُ قَدْرُ تَرْكِهَا مِنْ حَدِيْثِ المُسِيْءِ فِي صَلاَتِهِ الّذي رَواهُ أبُو هُرَيْرَةَ رضِيَ اللّهُ عَنْهُ مِنْ أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ المَسْجِدَ وَرَسُوْلُ اللّهِ ﷺ جَالِسٌ في نَاحِيَةِ المَسْجِدِ فَصَلّى ثُمَّ جَاءَ إِلى النَّبِيّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فقَالَ لَهُ ﷺ وَعَلَيْكَ السّلامُ ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ .

فَصَلَّى ثُمَّ جاءَ فَسَلَّمَ فقَالَ وَعَلَيْكَ السّلامُ فَارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّك لَمْ تُصَلِّ فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ فقَالَ وَعَلَيْكَ السّلامُ فَقَالَ فِي الثّانِيَةِ أو فِي الّتِي تَلِيْهَا عَلّمْنِي يَا رَسُولَ اللّهِ فقَالَ « إِذَا قُمْتَ إِلى الصّلاةِ فأَسْبِغِ الوُضُوءَ » .

ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكبِّرْ ثُمَّ إقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ ثُمّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ثُمّ ارْفَعْ حَتّى تَسْتَوِيَ قَائِماً ثُمَّ اسْجُدْ حَتّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ثُمّ اسْجُدْ حَتّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمّ ارْفَعْ حَتّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا .

ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّها رَواهُ البُخارِيّ ومُسْلِم فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ ﷺ لِمَنْ تَرَكَ الطُّمَأْنِيْنَةَ ارْجِعْ فَصَلِّ فإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ فَإِنَّ هَذَا نَفْيٌ صَرِيْحٌ فِي أَنَّ الرَّجُلَ وإِنْ كَانَ يَفْعَلُ صُوْرَةَ الصَّلاَةِ فِي رَأْيِ العَيْنِ لَمْ يَأْتِ بِحَقِيْقَةِ الصّلاةِ .

وَالّذي جعَلَهُ كَذَلِكَ هُوَ تَرْكُهُ لِلطُّمَأْنِيْنَةَ فِيْهَا وَهِيَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهَا إِذاً فَلْيَطْمَئِنَّ الّذِي يُرِيْدُ أَنْ يَصْدُقَ عَلَيْهِ أنّهُ صَلّى والْيَعْلَمْ أَهْلُ السُّرْعَةِ والنَّقْرِ

ذلِكَ تَماماً والِيُمَرِّنُوْا أنفُسَهُمْ عَلَى التَّأَنّي والتَّرَيُّثِ والرِّفقِ حَتَّى يُعَدُّوْا فِي فَرِيْقِ المُصَلِّين .

وإنْ لَمْ يَطْمَئِنُّوْا فَلْيَعْلَمُوْا أَنَّهُمْ هُمْ وَتَارِكُ الصَّلاَةِ سَوَاءٌ حُكْمُهُمْ بِمُقْتَضى قَوْلِهِ ﷺ لِلْمُسْتَعْجِلِ فِي صَلاتِهِ ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَوْصَانِيْ خَلِيْلِي ﷺ بِثَلاَثٍ ونَهَانِي عن ثَلاثٍ نَهَانِي عَنْ نَقْرَةٍ كَنقْرَةِ الدِّيْكِ (العَجلَة فِي الصَّلاَةِ) واقْعَاءٍ كاقْعَاءِ الكَلْبِ (وَضْعُ الإِلْيَةِ عَلَى الأَرْضِ ونَصْبُ السَّاقَيْنِ وَوَضْعُ اليَدَيْنِ عَلَى الأَرْضِ) .

والتِفَاتٍ كَالْتِفَاتِ الثَّعْلَبِ ، وقَال ﷺ لاَ يَزَالُ اللّهُ مُقْبِلاً عَلَى العبْدِ فِي صَلاَتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ فإِذَا صَرَفَ وَجْهَهُ انْصَرَفَ عَنْهُ وَنَهى ﷺ عَن رَفْعِ البَصَرِ إلى السَّماءِ في الصَّلاَةِ ، إِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَابْذِلْ يَا أَخِيْ كُلَّ مَا فِي وُسْعِكَ مِن الاجْتِهَادِ فِي تَكْمِيْلِ صَلاتِكَ واحْذَرْ مِن التَّفْرِيْطِ فِيْهَا فَعَلَيْهَا مَدَارٌ عَظِيْمٌ .

وَالمَعَانِي الَّتِي تَتِمُّ بِهَا الصَّلاَةُ كَثِيْرَةٌ مِنْهَا حُضُوْرُ القَلْبِ وَمَعْنَاهُ أَنَّكَ تُفَرِّغُ قَلْبَكَ عَن الشَّوَاغِلِ الّتِيْ تَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيا وزِيْنَتِها مُتفَهِّماً لِمَا تَتْلُوْهُ أوْ تَقُوْلُهُ أَوْ تَسْمَعُه إِنْ كُنْتَ مَأْمُوْماً فَتَصْرِفُ ذِهْنَكَ وَهِمَّتَكَ إِلَى إِدْرَاكِ المَعْنَى بِدَفعِ الخَواطِرِ الشَّاغِلَةِ وَقَطْعِ مَوادِّهَا فَإِنَّ المَوادَ إِذَا لَمْ تَنْقَطِعْ لَمْ تَنْصَرِفْ الخَواطِرُ والهَوَاجِسُ عنْهَا وَالمَوادُّ إِمَّا ظاهِرَةٌ وَهِيَ مَا يَشْغَلُ السَّمْعَ والبَصَرَ .

وإِمَّا بَاطِنَةٌ وهِيَ أَشَدُّ كَمَنْ تَشعبتْ بِهِ الهُمُوْمُ في أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا فإِنَّه لا يَنْحصِرُ فِكْرُهُ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَمْ يُغْنِهِ غَضُّ البَصرِ لإِنَّ مَا وَقَعَ في القَلْبِ كَافٍ في الاشْتِغَالِ بِهِ .

وعِلاجُ ذَلِكَ إنْ كَانَ مِن المَوادِ الظَّاهِرَةِ بِقَطْعِ مَا يَشْغَلُ البَصرَ والسَّمع وهُوَ القُرْبُ مِن القِبْلَةِ والنَّظَرُ إلى مَوْضِعِ السُجُوْدِ والابْتِعَادُ في الصَّلاةِ عَمَّا فِيْهِ نُقُوشٌ أَوتَطْرِيْزٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يُلْهِيْ ويَشْغَلُ القَلْبَ فإنَّ النَّبِيَ ﷺ صَلَّى في أَنْبِجَانِيَّةٍ فِيْهَا أَعْلاَمٌ وَنَزَعَهَا وَقال « إِنَّها أَلْهَتْنِي آنِفاً عن صلاتي » .

وإنْ كَانَ مِن المَوادِّ البَاطِنَةِ فَطَرِيْقُ عِلاجِهِ أَنْ يَرُدَّ النَّفْسَ قَهْراً إِلى مَا يَقْرَأُ في الصَّلاةِ وَيَشْغَلُهَا بِهِ عَنْ غَيرِهِ وَيَسْتَعِدُّ لِذَلِكَ قَبْلَ الدُخُوْلِ في الصَّلاةِ بأَنْ يَقْضِيْ أَشْغَالَهُ ويَجْتَهِدَ عَلَى تَفْرِيْغِ قَلْبِهِ عَن الهَوَاجِسِ وَيُجَدِّدُ عَلَى نَفْسِهِ ذِكْرِ الآخِرَةَ وخَطَرَ القِيَامِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وهَولَ المطْلع .

فإنْ لَمْ تَذْهَبْ وتَسْتَكِنُّ الأَفْكَارُ بذَلِكَ فَلْيَعْلَم أَنَّهُ إِنَّمَا يَتفَكَّرُ فِيْمَا أَهَمَّهُ واشْتَهَاهُ ونَاسَبَ لِهَوَاهُ فَلْيَتْرُكْ تِلكَ الشَّهواتِ واليَقْطَعْ تِلْكَ العَلاَئِقَ .

واعْلَمْ أَنَّ العِلَّةَ والمَرَضَ مَتَى تَمَكَّنَ لَا يَنْفَعُ فِيْهِ إِلاَّ الدَّوَاءُ القَوِيُّ والعِلَّة إذَا قَوِيَتْ جَاذَبَتْ المُصَلِيَ وجَاذَبَهَا إِلى أنْ تَنْقَضِيَ الصَلاةُ في المُجَاذَبَةِ ومِثْلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ أَرَادَ أَنْ يَصْفُوْ لَهُ فِكْرُهُ أوْ أَرَادَ أَنْ يَنَامَ وكَانَتْ هَذهِ الشَّجَرَةُ مَأْوَى لِلْعَصَافِيرْ تَقَعُ عَلَيْهَا وتُشَوِّشُ عَلَيْهِ بأَصْوَاتِهَا وَحَركَاتِهَا وفي يَدِهِ عَصَا يَطْرُدُهَا بِهِ فَمَا يَسْتَقِرُ فِكْرُهُ حَتَّى تَعُوْدُ العَصَافِيْرُ فَيَشْتَغِلُ بِهَا .

فَقِيْلَ لَهُ هَذَا شَيْءٌ يَدُوْمُ لَا يَنْقَطِعُ فَإِنْ أَرَدْتَ الخَلاَصَ مِمَّا شَوَّشَ عَلَيْكَ فاقْطَعِ الشَّجَرَةِ فَكَذَلِكَ شَجَرَةُ الشَّهْوَةِ وَحُبُّ الدُنْيَا إذا ارْتَفَعَتْ وَتَفَرقَتْ أَغْصَانُهَا انْجَذَبَتْ إِلْيْهَا الأَفْكَارُ فَذَهَبَ العُمُرُ النَفِيْسُ في دَفْعِ مَالاَ يَنْدَفِعُ وَالسَّبَبُ الوَحِيْدُ حُبُّ الدُنْيَا فَهُوَ الذِي يَجْذِبُ الأفكَارَ وَيُوَلِّدُهَا ويُنَمِّيْهَا فَعلَى العَاقِلِ أَنْ يَجْتَهِدَ في قَلْعِ حُبِّهَا .

ولِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يَعْتَنُوْنَ بالصَّلاةِ اعْتِنَاءً عَظِيْماً وَيَتَلَذُّذُوْنَ بِهَا وَيَحْزَنُوْنَ لانْقِضَائِهَا وقَالَ بَعْضُهُمْ تَفَقدُوا قُلوبَكُمْ في ثَلاثَةِ مَوَاضِعَ في الصلاةِ وفي القُرْآن وفِي ذِكْرِ الله فإِنْ وَجَدْتُمْ حَلاوةً وإِلاَّ فالبَابُ مُغْلَقٌ .

ومِنَ المُؤْسِفِ أنَّكَ تَجِدُ كَثِيْراً مِن النَّاسِ يأتِي الصلاةَ كالمُكْرَهِ بدَلِيْلِ أَنَّهُ إذَا تَأخَّرَ الامامُ ولو قَلِيْلا ضَاقَتْ صُدُوْرُهُمْ مَعَ أَنّهمُ في صَلاَةٍ مَا انْتَظَرُوْا الصَّلاةَ وتَجِدْهُمْ يُسْرِعُوْنَ الخُرُوْجَ بَعْدَهَا بِخِلافِ المَجِيءِ إِلَيْهَا .

وتَجِدْهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَى الامِامِ الذِيْ يَنْقُرُهَا مَعَ أَنَّهُمْ في أُمُورِ الدُنيا عَلَى العَكْسِ إِذَا أرَادَ أَحَدُهُم أنْ يَذْهَبَ إلى طَبِيْبٍ لِيَكْشَفَ عَلِيهِ حَرِصَ عَلى مَنْ يَترَكَّدُ ويَطْمَئِنُ وَيُطيْلَ الفَحصْ وَيُتْقِنُهُ ولوَ بِزَيادَةٍ كَثيرْةٍ لمَا يُؤَمِّلُهُ مِنَ النُصْحِ وإتِقانِ العَمَلِ .

وَكَذِلِكَ إذا أَرَادَ صَنعَةَ شَيْءٍ حَرِصَ عَلَى البَصِيرِ الخِبيرِ المُتْقِن لِذَلِكَ .

أَمَّا في الصَّلاةِ فَكَمَا ذَكَرْنَا ما يَهْتَمُّ لَهَا ولاَ يُبَالِي وَيَرَاهَا عَلَيْهِ أَثْقَلَ مِن أُحُدٍ وَرَضْوَى وهِيَ عَشْرُ دَقَائِقَ أَوْ أَقَلَّ ولوَ وَقَفَ مَعَ صَدِيْقٍ لَهُ أَوْ قَرِيبٍ أَوْ زَمِيْلً سَاعَةً أَوْ أَكْثَرَ وَأَرَادَا التَّفَرُّقَ لَقَالَ سَاعَةُ المُحِبِّ قَصِيْرَةٌ لأُنْسِهِ بِهِ وتَلَذُذِهِ بِمُنَاجَاتِه .

وأَمَّا رَبُّ العَالَمِين الذِي نِعَمُهُ عَلَيْهِ لاَ تُعَدُ ولاَ تُحْصَى فالُوقُوْفُ أَمَامَهُ طَوِيْلٌ وإِنْ كانَ قَصِيْراً صَدَقَ اللَّهُ العَظِيْمُ حَيْثُ يَقُولُ « وإِنَّها لَكَبِيْرَةٌ إلا عَلى الخَاشِعِيْن » فلا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ العليِ العظِيْمِ « إنا لِلهِ وإنا إِلَيْهِ رَاجِعُوْن » والله أعلم و صلى الله على محمد وآله وسلم .

« فصل »

وإلَيْكَ نَمَاذِجُ مِن حِلْمِهِ فَقَدْ أَرَادَ مَرَّةً أَنْ يُعَلِّمَ أَصْحَابَهُ الحِلْمَ والأَنَاءَةَ والتُّؤَدَةَ وضَبْطَ النَّفْسِ فَرُوِيَ أَنَّ أعْرَابِياً جَاءَ يَوْماً يَطْلُبُ مِن النبي ﷺ شَيْئاً فأَعْطَاهُ ﷺ ثُمَّ قالَ لَهُ أَحْسَنْتُ إليكَ قَالَ الأَعْرَابِيُ ولا أَجْمَلْتَ فَغَضَبَ المُسْلِمُونَ وقَامُوْا إِلَيهِ فأَشارَ إِلَيْهِمْ أَنْ كُفُوْا ثُـمَّ قَامَ ﷺ ودَخلَ مَنزِلَهُ فَأَرْسَلَ إِلَيهِ وَزَادَهُ شَيْئاً ثم قالَ لَهُ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ قالَ نَعَمْ فَجزَاكَ اللَّهُ مِن أَهْلٍ وعَشِيْرَةٍ خَيْرًا .

فَقَالَ النَّبِي ﷺ إِنَّك قُلْتَ مَا قُلْتَ آنِفَاً وفي نَفْسِ أَصْحابِي مِن ذلكَشَيْءٌ فانْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ حَتَّى يَذْهَبَ مَا فِي صُدُوْرِهِم عَلَيْكَ قَالَ نَعَمْ فَلَمَّا كانَ الغَدُ جَاءَ فقال لَهُ النبيُ ﷺ إنَّ هَذَا الأَعرابِيَّ قالَ مَا قَالَ فِزدْنَاهُ فزَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ أَكَذَلِكَ قَالَ نَعَمْ فَجزَاكَ اللَّهُ مِن أَهْلٍ وَعَشِيْرةٍ خَيْرًا .

فقالَ رسولُ الله ﷺ مَثَلِيْ وَمَثَلُ هَذَا وكَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيهِ فاتَّبَعَهَا الناسُ فَلَمْ يَزِيْدُوْهَا إلا نُفُوْراً فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا فقالَ لَهمُ خَلُّوْا بَيْنِيْ وَبَيْنَ نَاقَتِيْ فإِنِّي أَرْفَقُ بِهَا مِنكُمْ وأَعْلَمُ فتوجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا فَأَخَذَ مِن قُمَامِ الأَرْضِ فَرَدَّهَا حَتَّى جَاءَتْ واسْتَنَاخَتْ وشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا واسْتَوَى عَلَيهَا وإِنِيْ لَوْ تَرَكْتُكُم حَيْثُ قال الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوْهُ دَخلَ النارَ .

ومِن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ رضيَ اللَّهُ عنهما أَنَّهُ ﷺ كانَ يَقْبِضُ لِلنَّاسِ يَوْمَ حُنَيْنٍ مِن فِضَّةٍ في ثَوْبِ بِلالٍ فَقَال رَجُلٌ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَعْدِلْ فَقَامَ عُمَرُ فقال أَلا أَضْرِبُ عُنُقَهُ فإِنَّهُ مُنَافِقٌ فقالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَاسُ أَنِي أَقْتُلُ أَصْحَابِي رواه مسلم .

ومِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن أنسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ كُنْتُ أَمْشِيْ مَعَ النَّبي ﷺ وعَلَيْهِ بُرْدٌ نجْرَانِيٌ غَلِيظُ الحاشِيَةِ فأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌ فَجَبَذَهُ بِرِادائِهِ جَبْذَةً شَدِيْدَةً فَنظَرْتُ إلى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِي ﷺ وقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِن شِدَّةِ الجَبْذَةِ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ مُرْلِيْ مِن مَالِ اللَّهِ الذِي عِندَكَ فالتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بعَطَاءٍ متفق عليه .

ومِن ذَلِكَ مَا وَرَدَ عن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه قال كُنَّا إِذَا صَحِبْنَا رَسولَ اللَّهِ ﷺ في سَفَرٍ تركْنَا لَهُ أعْظَمَ شَجَرَةٍ وَأَظَلَّهَا فَيَنْزِلُ تَحْتَهَا فَنَزَلَ ذَاتَ يومٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ وعَلَّقَ سَيْفَهُ فِيْهَا فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فأَخَذَهُ فقالَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّيْ فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ اللَّهُ يَمْنَعُنِيْ مِنْكَ ضَعِ السَّيْفَ فَوَضَعَهُ ، ولم يُعَاقِبْهُ ﷺ .

وَوَرَدَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ تَمْراً في عُرْجُوْنِهِ في يَومٍ شَدِيْدِ الحَرِّ فَهَجَمَ عَلَيه أَعْرَابِيٌ فَضَايَقَهُ فضَربَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بعرْجُوْنِهِ فقال لَهُ الرَّجُلُ أَتَضْرِبُنِيْ يا رسولَ اللَّهِ فقَالَ لَهُ خُذْ فاقْتَصَّ فقالَ لَهُ بَلْ عَفَوْتُ يَا رَسولَ اللَّهِ ، فانْظُرْ إلى عَفْوِهِ ﷺ عن الرَّجُلِ الذِي أَرَادَ قَتْلَهُ فإنَّهُ لَفَتَ بَعفوِهِ نَظَرَ الرَّجُلِ إلى مَكَارِمِ أَخْلاَقِهِ ﷺ ولِذَلِكَ ذَهَبَ الرَّجُلُ إلى قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُمْ جِئْتُكْم مِن عِنْدِ خَيرِ النَاسِ .

وفي ذلِكَ مِن تَوْجِيْهِهِم إلى النَّظَرِ فِي تَعالِيْمِهِ والبَحْثِ فِيْمَا جاءَهُمْ بِهِ مِن عِندِ رَبِهِم ما قَد يَكُونُ سَبَباً في اسْلامِهِمْ وهِدَايَتِهِمْ وهَذِهِ هِيَ النَّتِيْجَةُ الْتي يَسْعَى لَهَا ﷺ .

وَمِن ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الطَّبرانيُ عن عبدِ اللَّهِ بِنِ سلامٍ باسنادٍ رِجالُهُ ثِقاتٌ

قالَ لَمَّا أرادَ اللَّهُ هُدَى زَيْدِ بنِ سَعِنَةَ قالَ زيدُ مَا مِن علاماتِ النُّبُوةِ شَيْءٌ إلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهَا في وَجْهِ مُحَمَّدٍ حِيْنَ نَظَرْتُ إلَيْهِ إلا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْبُرْهُمَا مِنْهُ يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ ولا تَزِيْدُهُ شِدَّةُ الجَهْلِ عَلَيْهِ إلَّا حِلْمَا .

قال زَيْدُ فَخَرَجَ رسولُ الله ﷺ يَوماً مِنَ الحُجُرَاتِ وَمَعَه عَلِيُ بنُ أبي طالبٍ فأَتَاهُ رَجُلٌ عَلىَ رَاحِلَتِهِ كالبَدَوِي فقال يَا رَسُولَ اللَّهِ لي نَفَرٌ في قَرْيَةِ بَنِيْ فُلاَنٍ قَدْ أَسْلَمُوا وَدَخَلُوا في الاسْلامِ وَكُنْتُ حَدَّثْتُهُمْ إنْ أَسْلَمُوْا أَتَاهُمْ الرِّزْقُ رَغَداً وقَدْ أصَابَتْهُمْ سَنَةٌ وشِدَّةٌ وقَحْطٌ مِنَ الغَيْثِ .

فأَنَا أَخْشَى يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَخْرُجُوْا مِنَ الاسلامِ طَمَعاً كَمَا دَخَلُوا فِيهِ طَمَعاً فإنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلْ إليْهِمْ بِشيْءٍ تُغِيْثُهُمْ بِهِ فَعلْتَ فَنظَرَ إلى رَجُل بِجَانِبِهِ أَرَاهُ عَلِياً فقالَ يا رَسولَ اللَّهِ مَا بَقِي مِنْهُ شَيْءٌ قال زَيْدُ بنُ سَعْنَةَ فَدَنُوتُ إلَيْهِ فَقُلْتُ يا مُحَمَّدُ هَلْ لكَ أنْ تَبْيْعَني تَمْراً مَعْلُوماً في حَائِطِ بَنِيْ فُلاَنٍ إلى أَجَلٍ مَعْلُومٍ إلى أَجَلِ كذا وَكَذَا قال لَا تُسَمِّيْ حَائِطَ بَنِي فُلاَنٍ قُلْتُ نَعَمْ فَبَايَعَنِي فاطَلَقْتُ هَمَيانِيْ فَأَعْطَيْتُهُ ثَمانِيْنَ مِثْقالاً مِن ذَهَبٍ في تَمْرٍ مَعْلُومٍ إلى أَجَلِ كَذَا وَكذا . فَأَعْطَاهَا الرَّجُلَ وقال اعْدِلْ عَلَيْهِمْ وَأَغِثْهُمْ .

قال زَيْدُ فَلَمَّا كَانَ قَبلَ مَحلِّ الرَّجُلِ بِيَوْمَينِ أَوْ ثلاثٍ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ومَعَهُ أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ وعُثْمَانُ في نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ .

فَلَمَّا صَلَّى عَلَى الجَنَازَةِ وَدَنَا إلى الجِدَارِ لِيَجْلِسَ إليه أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيْصِهِ وَرِدَائِهِ ونَظَرتُ إليه بوَجْهٍ غَلِيْظٍ قُلْتُ يا مُحَمَّدُ أَلَا تَقْضِيْنِي حَقِّيْ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ بَنِي المُطَّلِبِ إلا مُطْلاً ولقد كانَ بِمُخَالَطَتِكُم عِلْمٌ ، وَنَضَرْتُ إلى عُمَرَ وَعَيْنَاهُ تَدُوْرَانِ في وَجْهِهِ كالفَلَكِ المُسْتَدِيْرِ .

ثُمَّ رَمَانِي بِبَصَرِهِ فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ما أَسْمَعُ وَتَصْنَعُ بِهِ ما أَرَى فَوَالذِي نَفْسِي بِيْدِهِ لَولاَ مَا أُحَاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بسَيْفِي رَأْسَكَ وَرَسولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُر إِليَّ في سُكُونٍ وتؤدَةٍ .

فقال يَا عُمَرُ أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلى غَيْرِ هَذَا أَنْ تَأْمُرَنِي بحُسْنِ الأَدَاءِ وتأمُرَهُ بحُسْنِ اتِّبَاعِهِ إِذَهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فأعْطِهِ حَقَّهُ وزِدْهُ عِشْرِيْنَ صَاعاً مِن تَمْرٍ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ قالِ زَيْدُ فَذَهَبَ بِي عُمَرُ فأعطانِي حَقِّيْ وَزادَنِي عِشْرِيْنَ صَاعاً مِن تَمْرٍ .

فَقُلْتُ مَا هَذِه الزِّيَادَةُ يَا عُمَرُ قال أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَزِيْدَكَ مَكَانَ ما رُعْتُكَ قال وَتَعْرِفُنِيَ يا عُمَرُ قال لاَ قُلْتُ أَنَا زَيْدُ بنُ سَعْنَةَ قالَ الحَبْرُ قُلْتُ الحَبْرُ قال فَمَا دَعَاكَ إِلى أَنْ فَعَلْتَ بِرَسُولِي مَا فَعَلْتَ وقُلْتَ لَهُ مَا قُلْتَ .

قُلْتُ يَا عُمَرُ لَم يَكُنْ مِن عَلاَمَاتِ النُبُوةِ شَيْئاً إِلا وَقَدْ عَرَفْتُه في وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِيْنَ نظَرْتُ إِليه إِلا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْبُرْهُمَا مِنْهُ . يَسْبِقُ حِلْمُهُ جِهْلَهُ ولا تَزِيْدُهُ شِدَّةُ الجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمَا .

وقَدْ اخْتَبَرْتُهُمَا أُشْهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيْتُ باللَّهِ رَباً وبالاسلامِ دِيْناً وبِمُحَمَّدٍ نَبِيّاً وأُشْهِدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَالِي فإنّيْ أَكْثَرُهَا مَالاً صَدَقَةٌ على أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ عُمَرُ أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ فَإِنَّكَ لا تَسَعُهُمْ قُلْتُ أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ فَرجَعَ عُمَرُ وزَيْدٌ إِلى رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَقالَ زَيْدُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاّ اللّهُ وأَشْهَدُ أَنَّ مُحمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه وآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وبَايَعَهُ وشَهِدَ مَعَهُ مَشَاهِدَ كَثِيْرَةً .

ثم تُوُفِيْ في غَزْوَةِ تَبُوْكَ مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ ـ رَحِمَ اللَّهُ زَيداً ، مِن هَذِهِ الآثارِ وما يَأتِي بَعدَهَا يَتَبَيَّنُ لكَ كَيْفَ قَامَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بالقِسْطِ وأَقَامَهُ على نَفْسِهِ

وأتْبَاعِهِ وأصْحَابِهِ بلا مُحَابَاةٍ ولا مُدَارَاةٍ ولا مُدَاهَنَةٍ فَكَانَ في ذلكَ في القُمَّة العَالِيَةِ التِّي لا يَصِلُ إليْهَا رَاقٍ في تَنْفِيْذِ أمْرِ اللَّهِ وتَطْبِيْقِهِ على الكبيرِ والصغيرِ والقَوِيِّ والضَّعِيْفِ والشَّرِيْفِ والوَضِيْعِ والسَّيدِ والمَسُوْدِ .

اللهم أَرْزُقْنَا حُبَّكَ وحُبَّ مَن يُحِبُّكَ وحُبَّ العَمَلِ الذي يُقَرِّبُنَا إلى حُبِّكَ ، اللَّهُم ثَبِّتْ إيْمَانَنَا ثُبُوْتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَوَفقْنَا لِلْعَمَلِ بالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ واعْصِمْنَا يا مَوْلاَنَا عن المُحَرَّمَاتِ والمُشْتَبِهَاتِ واغْفِرْ لَنَا جَمِيْعَ الخَطَايَا والزَّلاَّتِ وافْتَحْ لِدُعَائِنَا بابَ القَبُولَ والإجابَات يَا أَجْوَدَ الأَجْوَدِين وأكرم الأكرمين وصَلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل »

ومِن ذَلِكَ حِلْمُهُ مَعَ الأعرابِي الذي قَالَ لَهُ أَتَضرِبُنِي يا رسولَ اللَّهِ فإنه ﷺ لَمْ يَتَمَادَى في غَضَبِهِ ولم يَسْتَنْكِرْ مَن الأَعْرَابِي اسْتِفْهَامَهُ الذِي فيهِ المُطَالَبَةُ فقالَ للأَعْرَابِي خُذْ العِرْجُونَ واقْتَصَّ مِنِّيْ .

ولَقَدْ بَلَغَ مِن حِلْمِهِ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَضرِبْ امْرَأَةً ولا خَادماً ولَمَّا قِيْلَ لَهُ وَهُوَ في القِتَالِ لَوْ لَعَنْتَهُم يا رسولَ اللَّهِ فقالَ إنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً ولم أبْعَثْ لَعَانَا وعِندَمَا لقِي ﷺ مِن قَوْمِهِ أَشَدَّ مَا لَقِي نَادَاهُ مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عليهِ .

ثم قَالَ يا محمدُ إنَّ اللَّهَ سَمِعَ قولَ قَوْمِكَ وأَنا مَلَكُ الجِبَالِ وقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إلَيْك لِتأْمُرَنِي بأمْرِكَ فمَا شِئْتَ إنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ بَلْ أَرْجُو أن يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصْلابِهِم مَن يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شَيْئاً .

ولَمَّا آذاهُ المُشْرِكُونَ يومَ أُحُدٍ وَكَسرُوْا رَبَاعِيَتَهُ وشَجُّوْا وَجْهَهُ وشَقَّ ذَلِكَ

على أصْحَابِهِ فقَالُوا لَوْ دَعوْتَ عَلَيْهِم فقال إنِّي لَمْ أُبْعَثِ لَعَاناً ولكِنْ بُعْثِتُ دَاعِياً وَرَحْمَةً اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي أوِ اهْدِي قَوْمِي فإنَّهُم لا يَعْلَمُون .

وقال أنسُ رضي الله عنه خَدَمْتُ النبيَّ ﷺ عَشَرَ سِنِيْنَ فَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ : لمَ صَنَعْتَهُ ولا لِشَيْءٍ لِمْ أَصْنَعْهُ لِمَ لَمْ تَصْنَعْهُ وكان إذا عَاتَبَنِي بَعْضُ أَهْلِهِ يَقُوْلُ دَعُوْهُ فَلَوْ قُضِيَ لَكانَ .

وقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ في سَفَرٍ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ باصَلْاحِ شَاهٍ فقالَ رَجُلٌ يا رَسُولَ اللَّهِ عَليَّ ذَبْحُهَا وقَالَ آخرُ عَليَّ سَلْخُهَا وقال آخَرُ عَلِيَّ طَبْخُهَا فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ وَعَليَّ جَمْعُ الحَطَبِ فقالُوا يَا رَسولَ اللَّهِ نَكْفِيْكَ العَمَلَ فقالَ عَلِمْتُ أنكُم تَكْفُونَنِيْ ولكِنْ أَكْرَهُ أنْ أَتَمَيَّزَ عَلَيْكُم وإنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وتَعالى يَكْرَهُ مِن عَبْدِهِ أنْ يَرَاهُ مُتَمَيِّزاً بَيْنَ أصْحَابِهِ وقَدْ جَاءَ وَفْدُ النَّجَاشِي فقامَ ﷺ يَخْدِمُهُمْ فقال أصحابُهُ نَكْفِيكَ قال إنَّهُمْ كانُوا لإصْحابِنَا مُكْرِمِيْنَ وأنا أُحِبُّ أنْ أُكَافِئَهُمْ .

وجَاءَتْه امْرَأَةٌ في عَقْلِهَا شَيْءٌ فَقَالَتْ إنَّ لِيْ إلَيْكَ حاجَةٌ فَقَالَ اجْلِسِيْ فِي أَيِّ سِكَكِ المَدِيْنَةِ شِئْتِ أَجْلِسُ إلَيْكِ حَتَّى أَقْضِيْ حَاجَتَكِ فَخَلَا مَعَهَا في بَعْضِ الطَّرِيْقِ حَتَّى فرَغَتْ مِن حَاجَتِهَا وَجَاءَ في البُخارِي كَانَتِ الأَمَةُ تَأْخُذُ بيَدِ رسولُ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلَقَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ .

وَدَخَلَ الحَسَنُ بنُ عَلي والنبيُ ﷺ يُصَلِّيْ فَرَكِبَ على ظَهْرِهِ وهُوَ سَاجِدٌ فَأَبْطأَ في سُجُوْدِهِ حتَّى نَزَلَ الحَسَنُ فَلمَّا فَرَغَ قال لَهُ بَعْضُ أصْحَابِهِ لَقَدْ أطَلْتَ سُجُودَكَ قال إنَّ ابْنِي ارْتَحلَنِي فكَرِهْتُ أنْ أُعَجِّلَهُ .

وكان ﷺ يُبَاسِطُ أَصْحَابَهُ وكَانَ رَجُلٌ يُسَمَّى زُهَيْراً يُهَادِي النبيَّ ﷺ بِمَا

يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَوْجُودِ البَادِيَةِ وَكان ﷺ يُهَادِيْهِ ويُكَافِئُهُ بمَوْجُودِ الحَاضِرَةِ وبِمَا يُسْتَطرَفُ مِنْهَا وكان ﷺ يَقُولُ زهَيْرٌ بادِيَتُنَا ونَحْنُ حَاضِرَتُهْ .

ولَقَدْ جَاءَ إلى السُّوْقِ يَوْماً فَوَجَدَ زُهَيْراً قَائِماً فَجَاءَ مِن قِبَلِ ظَهْرِهِ وضَمَّهُ بِيَدِهِ إلى صَدْرِهِ فأَحَسَّ زُهَيْرُ أَنَّهُ الرَّسُوْلُ ﷺ فَجَعَلَ يَمْسَحُ ظَهْرَهُ في صَدْرِ النَّبي ﷺ رَجَاءَ البَرَكَةِ مِن اللَّهِ ثُمَّ مِن جَسَدِه ﷺ فَجَعَلَ ﷺ يقولُ مَنْ يَشْتَرِي العَبْدَ قال زُهيراً إِذَا تَجِدْنِي كَاسِداً فقالَ المُصْطَفى ﷺ أَنْتَ عَندَ اللَّهِ غَالِيْ .

وكَانَ ﷺ يَمْزَحُ ولَا يَقُولَ إلا حَقاً فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلاً جَاءَهُ فقالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ احْمِلْنِي فقَالَ أَحْمِلُكَ على ابْنِ النَّاقَةِ فقال مَا عَسَى يُغْنِي عَنِيْ ابنُ النَاقةِ فقالَ النبي ﷺ وَيْحَكَ وَهَلْ يَلِدُ الجَمَلَ إلا النَّاقَةُ .

وجَاءَتَهْ مَرَّةً عجُوزٌ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ لِيْ أَنْ يُدْخِلِنِي الجَنَّةَ فقالَ يَا أُمَّ فُلَانٍ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَجُوْزٌ فوَلَّتْ تَبْكِيْ فقالَ أَخْبِرُوْهَا أَنَّهَا لا تَدْخُلُهَا وهي عَجْوزٌ إن اللَّهَ تعالى يَقُولُ « إِنَّا أنشأناهَنَ إِنشاءً فجعلناهن أبكارا » .

ومِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَنَساً كَانَ لَهُ أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُوْ عُمَيْرٍ وَكَانَ لَهُ نُغَرٌ « طَائِرُ صَغِيْرٌ » يَلْعَبُ بِهِ فَمَاتَ فَدَخَلَ عَلى النبي ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وهُوَ حَزِيْنٌ فَقَالَ مَا شَأْنُهُ قِيْلَ لَهُ مَاتَ نُغَرُهُ فقالَ يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ .

وكَانَ النبي ﷺ يُكْرِمُ كَرِيْمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُوَلِيْهِ أَمْرَهُمْ ويَقْبَلُ مَعْذِرَةَ المُعْتَذِرِ إِلَيْهِ وَإِلَيْكَ قِصَّةُ كَعْبِ بنِ زُهَيرٍ غَضَبَ كَعْبُ على أَخِيْهِ بُجَيْرٍ حيْنَ أَسْلَمَ وَآمَنَ بالنَّبِي ﷺ فقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسلامُ مَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ كَعْبَ ابنَ زُهَيْرٍ فَلْيَقْتُلْهُ .

فَكَتَبَ بُجَيْرُ إلى أَخِيْهِ كَعْبٍ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ وأنَّ النَّبِيَ ﷺ أَهْدَرَ دَمَهُ فإِنْ كانَ لَكَ في نَفْسِكَ حَاجَةٍ فَصِرْ إِلَيْهِ فانَّهُ يَقْبَلُ مَنْ جَاءَ تَائِباً ولا يُطَالِبُه بِمَا عَمِلَ

قَبلَ الإِسْلاَمِ .

فَلمَّا بَلَغَ الكِتابُ كَعْباً فَرَّ إِلى قَبْيْلَتِهِ لِتُجِيْرَهُ فأَبَتْ عَلَيْهِ ذَلِكَ فأَشْفَقَ وخَافَ عَلى نَفْسِهِ وأَرْجَفَ بِهِ أَعْدَاؤْهُ فَقَدِمَ المَدِيْنَةَ ونَزلَ على عَليّ بْن أَبِي طَالِبِ رَضِيَ اللَّهُ عنه فأَتَى بِهِ إِلى المَسْجِدِ وقال هذا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُمْ إِلَيْهِ واسْتَأْمِنْهُ .

فَسَمِعَ كَلاَمَهُ وقَامَ إِلَيْهِ حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَوَضَعَ يَدَهُ في يَدِهِ قائِلاً يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كَعْبَ بنَ زُهَيْرٍ قَدْ جَاءَ يَسْتَأْمِنُكَ تائباً مُسْلِماً فَهَلْ أَنْتَ قَابِلٌ مِنْهُ ذَلكَ إِنْ أَنا جِئْتُكَ بِهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ أَنا كَعْبُ بنُ زُهَيْرٍ فقَالَ النبي ﷺ الذِيْ يَقُولُ مَا يَقُولُ .

وَوَثَبَ إليه رَجُلٌ مِن الأَنْصَارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي وَعَدُوَ اللَّهِ أَضْرِبُ عُنَقَهُ فقال لَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ دَعْهُ عَنْكَ فانَّهُ قَدْ جَاءَ تَائِباً نَازِعاً ثُمَّ أَخَذَ كَعْبُ في إِنْشَاءِ قَصِيْدَتِهِ المَشْهُوْرَةِ يَمْدَحُ فِيهَا رسولَ اللَّهِ ﷺ وَيَذْكُرُ خَوْفَهُ وارْجَافَ الوُشَاةِ بِهِ ومَطْلَعُهَا :

بَـانَتْ سُعَـادُ فَقَلْبِيْ اليَـوْمَ مَتْبُـوْلُ
مُتَيَّمٌ إِثْـرَهَـا لَمْ يُفْـدَي مَكْبُـوْلُ

إِلى أَنْ بَلَغَ :

إِنَّ الـرَّسُـولَ لَنُـوْرٌ يُسْتَضَـاءُ بِـهِ
مُـهَنَّـدٌ مِـن سُيُـوفِ الـلَّهِ مَسْـلُوْلُ

فَرَمَى رسولُ اللَّهِ ﷺ بُرْدَتَهُ الشَّرِيْفَةَ إِلَيْهِ وَعَفَا عنهُ كَمَا هِيَ عَادَتُهُ الكَرِيْمَةُ

وَكانَ ﷺ لا يُوَاجِهُ أَحداً في وَجْهِهِ بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ لِسعَة صَدْرِهِ وَغَزارَةِ عَقْلِهِ وشِدَّةِ حَيائِهِ وكان ﷺ يأمُرُ بالِرْفقِ ويَحُثُّ عليهِ وَيْنهَي عن العُنْفِ ويُبْغِضُهُ ولَمْ يَكُنْ فَاحِشاً ولاَ مُتَفَحِّشاً ولا يُجْزِيْ بالسَّيئَةِ السَّيئَةَ بَلْ يَعْفُو ويَصْفَحُ اللَّهم صلِ وسَلِّمْ عليه .

وكانَ يَزُوْرُ ضُعفَاءَ المُسْلِمِيْنَ تَلَطُّفا بِهِمْ وإيْنَاساً لَهُمْ ويَعُوْدُ مَرْضَاهُمْ ويَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ سَوَاءٌ كانَتْ لِشَرِيْفٍ أَوْ وضِيعٍ وبذَلِكَ كان خَيْرَ أُسْوَةٍ وكانَ ﷺ أَصْبَرَ الناسِ على مَا يَكُونُ مِن قِبَيْحِ الأفعالِ مِنهُم وَسُوْءِ سِيْرَتِهِمْ وقَبْيحِ سَرْيرَتِهِمْ لإنَّ اللَّهَ تعالى شَرحَ لَهُ صَدْرَهُ فاتَّسَعَ لِما تَضِيْقُ مِنهُ صُدُوْرُهُمْ .

وَكانَ ﷺ كَامِلاً في قُوَّةِ عَقْلِهِ وَادْرَاكِهِ وصِحَّةِ قِيَاسِهِ الفِكْرِي وصِدْقِ ظُنُوْنِهِ وصِحَّة فَهْمِهِ وقُوَّةِ حَواسِّهِ مَفْطُوْراً عَلىَ الصَّبْرِ والسُّكُونِ والحَيَاءِ والمُرُؤَةِ والمَودَّةِ والرَّحْمَةِ والهِدَايَةِ لِلْخَلْقِ وَحُبِّ الخَيْرِ لَهُمْ وإعْطَاءِ الحِكْمَةِ حَقَّهَا في سَائِر أُمُوْرِهِ .

وكانَ ﷺ ذَا سَياسَةٍ شَرِيْفَةَ ومَعَارِفَ مُنِيفةٍ وَنَظَرٍ ثاقِبٍ ورأيٍ صائِبٍ وحَدْسٍ مُوافق وَفَضَائِلَ مَقْصُودَةٍ وأَخْلاقٍ مَحْمُوْدَةٍ دِيْنُهُ الاسلامُ وخُلُقُهُ القُرآنَ يَرْضَي لِرِضَاهُ وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ مُحَرِّراً لِلشَّرائِعِ حَافِظاً لِلْوَدَائِعِ .

وكَان ﷺ كَثِيْرَ الأفْضالِ يَصِلُ مَن قَطعَهُ ويُعْطِيْ مَن حَرَمَهُ ويَبْذِلُ لِمَنْ مَنَعَهُ ويَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ ويُغْضِي طَرْفَهُ عن القَذَى ويَحْبِسُ نَفْسَهُ عن الأَذى لا يَنْتَقِمُ مَعَ القُدْرَةِ ويَصْبِرُ على ما يَشُقُ ويُكْرَهُ ولا يَزِيْدُ مَعَ أذى الجَاهِلِ إلَّا صَبْرًا وَحِلْمًا .

وما خُيرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إثْمًا وَكَمْ أَعْرَضَ عَن

جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وكان ﷺ يأكلُ مَعَ الخَادِمِ وَيُبَادِرُ إلى خِدْمَةِ القَادِمِ ويَرْقَعُ ثَوْبَهُ ويَخْصِفُ نَعْلَهُ ويَقُمُّ بَيْتَهُ ويَخْدِمُ أَهْلَهُ ويَحْمِلُ بِضَاعَتَهُ مِن السُوْقِ مَعَ أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وأَكْرَمُ الخلْقِ على اللَّهِ .

وكَانَ ﷺ رَحِيْماً حَتَّى بأَعْدَائِهِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ لمَّا دَخَلَ يومَ فَتْح مَكَّةَ عَلى قُرَيْشٍ : وقَدْ جَلَسُوْا بالمَسْجِدِ الحَرَامِ وصَحْبُهُ يَنْتَظِرُوْنَ أَمْرَهُ فِيْهِمْ مِن قَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ .

قالَ لِقُرَيْشٍ ما تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ قَالُوا خَيْرًا أَخٌ كَرِيْمٌ وابنُ أَخٍ كَرِيمٍ فقال ﷺ أَقُولُ كَمَا قالَ أخِي يُوْسُفُ : لا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ اليومَ . اذْهَبُوا فأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ .

ولا غَرَابَةَ فَقَدْ انْفَرَدَ بالأَخْلاقِ الفَاضِلَةِ والمَحَاسِنِ والمَعَارِفِ والتَّوَدُّدِ والرِّفْقِ واللَّهُ أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

« موعظة »

عبادَ اللَّهِ إنَّ أَمَامَكُم يومٌ لا كَالأَيَّامِ يَومٌ فِيهِ مِن الأَهْوَالِ والشَّدائِدِ والكُرُوْبِ ما يُشَيِّبُ الوِلْدَانَ وتَذْهَلُ فِيه المُرْضِعَةُ عَمَّا أَرْضَعَتْ يَوْمٌ يَتَغَيَّر فيهِ العَالَمُ ويَنْتَهِي نِظَامُهُ الذي نَرَاهُ .

فَتَنْتَثِرُ الكَوَاكِبُ وتَتَساقَطُ وتُطْوَى السَّمَاءُ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكُتُبِ يُزِيْلُهَا اللَّهُ وتُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وتُمِدُّ كما أَخْبَرَ اللَّهُ تعالى ويُنْفَخُ في الصُّورِ فَيَقُومُ الناسُ مِن قُبُورِهِم لِرَبِ العَالَمِين .

وحِيْنَئِذٍ يُحْشَرُ الكَافِرُ أَعْمَى لا يُبْصِرُ أَصَمَّ لا يَسْمَعُ أَبْكَمُ لا يَنْطِقُ يَمْشِي

عَلىَ وَجْهِهِ لِيَعْلَمَ مِن أَوَّلِ الأَمْرِ أَنَّهُ مِن أهْلِ الإِهَانَةِ ويَكُونُ أَسْوَدَ الوَجْهِ أُزْرَقَ العَيْنَيْنِ في مُنْتَهَى العَطَشِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِيْنَ ألفَ سَنَةٌ لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الشَّمْسِ إلا مِقْدَارُ مِيْلٍ .

إِذْ ذَاكَ يَقِفُ مَبْهُوْتاً ذَاهِلَ العَقْلِ شَاخِصَ البَصَرِ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ تُرَاباً ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إِلى النَّارِ ويُسْلَكُ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً وَبَعْدَ دُخُولِهِ فِيْهَا لا يَخْرُجُ مِنها أبَداً وَلاَ يُزدادُ إلاَّ عَذاباً ولا يُفَتَّرُ عنه .

إِن اسْتَغَاثَ يُغَاثُ بِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَشْوِيْ الوُجُوْهَ ويُذِيْبُ الأَمْعَاءَ وَيُحْرِقُ الجُلُوْدَ تُحِيْطُ بِهِ النارُ مِن كُلِ جِهَاتِهِ لَهُمْ مِن جَهَنَّمَ مِهادٌ ومِن فَوْقِهِم غَواشٍ كُلَّما نَضِجَ جِلْدُهُ بُدِّلَ جِلْداً غَيْرَهُ .

وَكُلَّمَا أُرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا قُمِعَ بمَقَامِعَ مِن حَدِيْدٍ كُلُ هَذَا العَذَابَ يُعَانِيْهِ ولا يَمُوْتُ« وَيأتِيْهِ المَوتُ مِن كُلِ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ومِن وَرَائِهِ عذابٌ غَلِيْظٌ » لا يَمُوتُ فِيْهَا ولا يَحْيَا وسَواءٌ صَبَرَ أَمْ لَمْ يَصْبِرْ هُوَ خَالِدٌ في جَهَنَّمَ خُلُوداً لا انْتِهَاءَ لَهُ أَبَدَا .

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيْ اللَّهُ عَنْه أَنَّ رَسُوْلَ اللَّه ﷺ أتِيَ بفَرَسٍ يَجْعَلُ كُلَّ خَطْوٍ مِنْهُ أَقْصَى بَصَرَهُ فَسَارَ وَسَارَ مَعَهُ جِبْرِيْلُ عليه السلامُ .

فأَتَى علَى قَوْمٍ يَزْرَعُونَ في يَوْمٍ ويَحْصُدُوْنَ في يوم كُلَّمَا حَصَدُوْا عَادَ كَمَا كَانَ فقالَ يَا جِبْرِيْلُ مَنْ هَؤُلآءِ قال هَؤُلآءِ المُجَاهِدُوْنَ في سَبْيلِ اللَّهِ تُضَاعَفُ لَهُمُ الحَسَنَةُ بِسَبْعِمِائَةِ ضَعْفٍ وما أَنْفَقُوا مِن شيءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ .

ثُمّ أَتى عَلَى قَوْمٍ ترضَخُ رُؤُوسُهُم بِالصَّخْرِ كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ قَالَ يا جِبْرِيْلُ مَن هؤُلاءِ قَالَ هَؤُلاءِ الّذِين

تَثَاقَلَتْ رُؤُوسُهُمْ عَنِ الصَّلاَةِ .

ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ عَلَى أَدْبَارِهِم رِقَاعٌ وعَلَى أَقْبَالِهِم رَقَاعٌ يَسْرَحُونَ كَمَا تَسْرَحُ الأنْعَامُ إلى الضَّرِيْعِ والزَّقومِ ورَضَفِ جَهَنَّمَ قالَ مَا هَؤُلآءِ يا جِبْرِيْلُ قال هَؤلآءِ الذينَ لا يُؤَدُّوْنَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِم وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ومَا اللَّهُ بظلامٍ لِلْعَبِيْدِ .

ثُمَّ أُتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ جمعَ حُزْمَةً عَظِيْمَةً لاَ يَسْتَطِيْعُ حَمْلَهَا وهُوَ يُرِيْدُ أَنْ يَزِيْدَ عَلَيْهَا قالَ يَا جِبْرِيْلُ مَا هَذَا قال هَذَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِكَ عَليهِ أَمَانَةُ الناسِ لا يَسْتَطِيْعُ أداءَهَا وهُوَ يُرِيْدُ أَنْ يَزِيْدَ عَلَيْهَا .

ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُم بمَقَارِيْضَ مِن حَدِيْدٍ كُلَّمَا قُرِضَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ لا يُفَتَّرُ عَنْهُم مِن ذَلكَ شَيْء قال يا جِبْرِيْلُ مَا هَؤُلآءِ : قالَ خُطَبَآءُ الفِتْنَةِ .

ثُمَّ أَتَى عَلَى جُحْرٍ صَغِيْرٍ يَخْرُجُ مِنْهُ ثَوْرٌ عظِيْمٌ فَيرِيْدُ الثَّوْرُ أَنْ يَدْخُلَ مِن حَيْثُ خَرَجَ فلاَ يَسْتَطِيْعُ قالَ مَاهَذايَا جِبْرِيلُ قَالَ هَذَا الرَّجلُ يَتَكَلَّم بالكَلِمَةِ العَظِيْمَةِ فَيَنْدَمُ عَلَيْهَا فَيُرِيْدُ أَنْ يَرُدَّهَا فَلاَ يَسْتَطِيْعُ .

ثَمَّ أَتَى عَلَى وَادٍ فَوَجَدَ رِيْحاً طَيِّبَةٍ وَوَجَدَ رِيْحَ مِسْكٍ مَعَ صَوْتٍ فقالَ مَا هَذَا قالَ صَوْتُ الجَنةِ تَقُولُ يَا ربُّ ائْتِنِي بأَهْلِي وبِمَا وَعَدْتَنِي فَقَدْ كَثُرَ غَرْسِيْ وحَرِيْرِيْ وسُنْدُسِيْ وَإِسْتَبْرَقِي وعَبْقَرِيّي ومُرْجَانِي وفِضَّتِيْ وذَهَبِي وأَكْوَابِي وصِحَافِي وأَبَارِيْقِي وفَوَاكِهِيْ وعَسَلِي ومَائِيْ ولَبَنِي وخَمْرِيْ ائتِنِي بِمَا وَعَدْتَنِي .

قال لَكِ كُلُّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمَةٍ ومُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ وَمَنْ آمَنَ بِي وبِرُسُلِي وعَمِلَ

صَالِحاً ولَمْ يُشْرِكْ شَيْئاً ولَمْ يَتخِذْ مِن دُوْنِي أنداداً فَهَوُ آمِنٌ ومَن سَأَلَنِي أعْطَيْتُهُ ومَنْ أقْرَضَنِي جَزَيْتُهُ ومَن تَوكَّلَ عَليَّ كَفَيْتُهُ إِنِيْ أَنَا اللَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا أَنَا لَا خُلْفَ لِمِيْعَادِيْ قَدْ أَفْلَحَ المؤمِنُوْنَ تبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخالِقِيْن فَقَالَتْ رَضِيْتُ . ثُم أَتَى عَلَى وادٍ فَسَمِعَ صَوْتاً مُنْكِراً فقَالَ يَا جِبْرِيْلُ مَا هَذَا الصَّوْتُ قَالَ هَذَا صَوْتُ جَهَنَّمَ تَقُولُ يَا رَبُّ ائْتِنِيْ بأَهْلِيْ وبِمَا وَعَدْتَنِي فَقَدْ كَثُرَتْ سَلاسِلِيْ وأغْلَالِيْ وسَعِيْرِيْ وَحَمِيْمِيْ وَغَسَاقِي وغِسْلِيْنِي وَقَدْ بَعْدَ قعْرِيْ واشْتَدَّ حَرِّيْ ائتِنِيْ بِمَا وَعَدْتَنِيْ قال لَكِ كلُ مُشْرِكٍ وَمُشْرِكَةٍ وخَبِيْثٍ وخَبِيْثَةٍ وكُلُ جَبَّارٍ لا يُؤْمنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ قالَتْ قَدْ رَضِيْتُ رواه البزارُ عن أبي العالِيةِ ـ أو غيرِهِ ـ عن أبي هَريرَةِ الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٤٥٤ في كتاب صفة الجنة والنار .

عن أبي سَعِيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه عن النبي ﷺ قال « وَيْلٌ وَادٍ في جَهَنَّمَ يَهْوِيْ فِيْهِ الكَافِرُ أرْبَعِيْنَ خَرِيْفاً قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ .

وعنه رَضِيِ اللَّهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال في قوله سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » قال : « جَبَلٌ مِن نَارٍ يُكَلَّفُ الكَافِرُ أَنْ يَصْعَدَهُ فاذَا وَضَعَ يَدَهُ عليهِ ذَابَتْ فإذا رَفَعَهَا عَادَتْ وإذا وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَيهِ ذَابَتْ فإِذَا رَفَعَهَا عَادَتْ يَصْعَدُ سَبْعِيْنَ خَرِيفًا ثم يَهْوِيْ كذلك رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد .

اللهم ثَبِّتْ قَوَاعِدَ الايمانِ في قُلُوبنا وشَيِّدْ فِيْهَا بُنْيَانَهُ وَوَطِّدْ فِيها أرْكَانَهُ وألْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وَوَفِّقْنَا بِطَاعَتِكَ وامْتثالِ أمْرِكَ وآتِنَا في الدُنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عذابَ النارِ واغْفِرْ لَنَا ولِوَالدينا وجَميعِ المسلمينَ برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

نَمَاذِجُ مِن
« عَدْلِهِ ﷺ »

مِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن عُروةَ عن عائشةَ أَنَّ امْرَأَةً سَرقَتْ في عَهْدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ في غَزْوَةِ الفَتْحِ فَفَزِعَ قَوْمُهَا الى أُسَامَةَ ابنِ زَيدٍ يَسْتَشْفِعُوْنَ بِهِ قالَ عُرْوَةُ فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيْهَا تَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وقال أَتُكَلِّمُنِي في حَدٍّ مِن حُدُوْدِ اللَّهِ تَعَالى فَقَالَ أُسامَةُ اسْتَغْفِرْ لِيْ يا رَسُولَ اللَّهِ فلمَّا كَانَ العَشِيُّ قامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيْبًا فأَثْنَى على اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُم أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهم الشَّرِيْفُ تَرَكُوْهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيْفُ أقَامُوْا عَلَيهِ الحَدَّ والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ مُحمدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا .

ثُمَّ أَمَرَ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ بِتِلْكَ المَرْأَةِ فَقُطِعَتْ يَدُهَا الحَدِيْثَ أخرجَهُ البُخَاري .

ولَمَّا كَانَ العَبَاسُ عَمُّ النَّبِي ﷺ في وَثَاقِهِ مَعَ الأَسْرَى يَئِنُ فَأَرِقَ النبيُّ ﷺ فَسُئِلَ عن سَبَبِ أرَقِه ـ أَيْ عَدَمِ نَوْمِهِ ـ وقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ نَصْراً مُؤزَّراً قال سَمِعْتُ أَنِيْنَ العَبَاسِ في وَثَاقِهِ فأَسْرَع بَعْضُ المُسْلِمْينَ لَمَّا سَمِعَهُ وَحَلَّ وَثَاقَهُ وعَادَ فأَخْبَرَ النبيَّ ﷺ أَنَّهُ حَلَّ وَثَاقِ العَبَاسِ قال ﷺ اذْهَبْ فافْعَلْ ذَلِكَ بالأَسْرَى كُلِّهِمْ فَتَأَمَّلْ هذا النَّصفَ والعَدْلَ مِنه ﷺ .

« موعظة »

عِبَادَ الله مِنْ أَحْكامِ دِيْنِنا وَوَحْيْ قُرْآنِنا وتَعَالِيْمِ نَبِيِّنا مُحمدٍ ﷺ المُقَرَّرَةِ

الثَابِتَةِ أنّهُ لا فَضلَ لِعَرَبِيٍ على عَجَمِيٍ ولاَ لأبيض عَلَى أسْوَدَ ولا لِسَيِّدٍ عَلَى مَسُوْدٍ ولا لِمِلِكٍ على مَمْلُوْكٍ ولا صُعُلوكٍ إلا بالتَّقْوَى .

فالمِعْيَارُ الصحيحُ والمِيْزَانُ العَدْلُ الحَقُّ لِلتَّفَاضُلِ بَيْنَ الأَفْرَادِ والجَماعَاتِ والتَّرْجِيْحِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الطَّوَائِفِ والطبقاتِ والْهَيْئآتِ مَا جَاءَ عَن رَبِّ الأَرْضِ والسَّمواتِ « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أتْقاكُمْ » ولَم يَقُلْ سُبْحَانَهُ وتعالى إنَّ الكَرْيمَ مَنْ عَظُمَ جَاهُهُ أَوْ كَثُرَ مَالُهُ أَوْ كَثُر رِجَالُهُ واسْتَسْلَمَ لَهُ الناسُ طائِعِيْنَ ومُكْرَهِيْنَ، بَلِ الكَرِيْمُ عِنْدَهُ مَنْ اتَّصَفَ بالتَّقْوَى .

فالعَاقِلَ مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ في السِّرِ والنَّجْوَى وعَامَلَ النَّاسَ بالمُسَاوَاةِ ولَمْ يُرَاعِي الرُتَبَ والدَّرَجَاتِ والحَسَبَ والشَّرَفَ والسِّيَادَاتِ وسَوَّى بَيْنَهُمْ وِفْقَ تَسْوِيَةِ اللَّهِ لَهُمْ في الوَاجِبَاتِ والحُدُوْدِ وَالعِبَادَاتِ .

فَتَأَمَّلْ تَجِدْ في المَوْقِفِ بالصَّلاةِ والحَجِّ وَكَيْفَ يَتَسَاوَى فِيهِ الأَمِيْرُ وَالمَأْمُورُ والعَظِيْمُ والحَقِيْرُ والغَنِيُ والفَقِيْرُ والصُعْلُوكُ والوَزِيْرُ كُلُّهُمْ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ ولَهْجَةٍ صَادِقَةٍ يُؤَدُوْنَ العِبَادَةَ لِمَوْلاَهُمْ العَلِي الكَبِيْرِ وهُمْ مُعْتَرِفُوْنَ بِشَّدةِ الافْتِقَارِ إلِيْهِ والعَجْزِ والتَّقْصِيْرِ فتِلْكَ هِيَ المُسَاوَاةُ كُلَّ المُسَاوَاةِ الَّتِي جَاءَ بِها الاسلامُ ودَعَى إليْها النَّبِي ﷺ ومَكّنَهَا في نُفُوسِ أَصْحَابِهِ أيَّ تَمْكِيْنٍ .

كَمَا سَتَرى ما سَنذْكُرُهُ إنْشَاءَ اللَّهُ مِن عَدْلِهِمْ وانْصَافِهِم وحُبِّهِمْ لِلْمُسَاوَاةِ وإِيْثَارِهِم العَدْلَ في الأَحْكَامِ وتَأَمَّلْ مَا فِي هَذَا الحَدَيْثِ الشَّرِيْفِ ومَا قَالَهُ المُصْطَفى ﷺ وتَأَمَّلْ ما بَعْدَهُ مِمَّا سَيَأتِيْكَ مِن سِيْرَتِهِ أ . هـ .

أَخرَجَ ابنُ عَسَاكِرَ عن عبدِ اللَّهِ بنِ حَدْرَدٍ الأَسْلَمِي رَضي اللَّهُ عنه أنَّه كانَ لِيَهُوْدِي عَلَيْهِ أَرْبَعَةُ دَرَاهِمَ فاسْتَعْدى عليهِ فقال يا مُحَمَّد إنَّ لِيْ عَلَى هَذَا

أرْبَعَةَ دَراهِمَ وقَدْ غَلَبَنِي عَلَيْهَا قالَ أعْطِهِ حَقَّهَ قال والذِي بَعَثَك بالحَقِّ ما أَقْدِر عَلَيْهَا قال أعْطِهِ حَقَّهُ قال والذي نَفْسِي بَيَدِهِ ما أَقْدِرُ عَلَيْها قَدْ أخْبَرْتَهُ أنَّك تَبْعَثُنا إلىٰ خَيْبَرَ فأرْجُوْ أنْ تُغَنِّمَنا شَيْئاً فأرْجِعُ فأَقْضِيْهِ .

قالَ أَعْطِهِ حَقَّهُ وكانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إذا قال ثَلاثاً لَمْ يُراجَعْ فَخَرَجَ ابنُ أَبِي حَدْرَدٍ إلى السُّوْقِ وعلى رَأسِهِ عِصَابَةٌ وهُوَ مُتَزِرٌ بِبُرْدَةٍ فَنَزَعَ العِمَامَةَ فاتَّزَرَ بِهَا ونَزَعَ البُرْدَةَ فقَالَ : اشْتَرِ مِنِّيْ هَذِه البُرْدَةَ فَباعَهَا مِنْهُ بِأرْبَعَةِ دَراهِمَ فَمَرَّتْ عَجُوْزٌ فَقَالَتْ مَا لَكَ يَا صَاحِبَ رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ فأَخْبَرَهَا فقَالَتْ هَا دُوْنَكَ هَذا البُرْدَ لِبُرْدٍ عَلَيْها طَرَحَتْهُ عليه .

وعن أَبِيْ سَعِيْدٍ الخُدْرِي قال جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إلى النبي ﷺ يَتقَاضَاهُ دَيْناً كَانَ عَلَيْهِ فاشْتَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى قال احَرِّجُ عَلَيْكَ إلَّا قَضَيْتَنِي فانْتَهَرَهُ أصْحَابُهُ فقَالُوا وَيْحَكَ تَدْرِيْ مَنْ تكلم فقَالَ إنِّي أَطْلُبُ حَقِّيْ فقالَ النبيُّ ﷺ :

هَلَّا مَعَ صَاحِبِ الحَقِّ كُنْتُمْ ثُمَّ أَرْسَلَ إلى خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فَقَالَ لَهَا إنْ كَانَ عِنْدَكِ تَمْرٌ فأقْرِضِيْنَا حَتَّى يَأتِيَنا تَمْرٌ فنَقْضِيْكِ فقَالَتْ نَعَمْ بأَبِي أَنْتَ وأُمِّيْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْرَضَتْهُ فقَضَى الأَعْرابِيَّ وأطْعَمَهُ .

فَقَالَ أَوْفَيْتَ أَوْفَى اللَّهُ لَكَ فَقَالَ أُولَئِكَ خِيارُ الناسِ إنَّهُ لاَقُدِّسَتِ أمةٌ لا يَأْخُذُ الضَّعِيْفُ فِيْهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ أخرجه ابنُ ماجة ورَوَاهُ البزارُ مِن حديث عائشة رضي الله عنها مُخْتَصرا .

وأَخْرَجَ الطبرانِيُّ خَوْلَة بِنْتِ قَيْسٍ امْرأةِ حَمْزَةَ بن عَبْدِ المُطَّلِبِ رضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَتْ كانَ عَلىَ رَسُولِ اللَّهِ وسَقٌ مِن تَمْرٍ لِرَجُلٍ مِن بَنِيْ سَاعِدَةَ فَأَتَاهُ يَقْتَضِيْهِ فأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً مِنَ الأَنْصارِ أنْ يَقْضِيَهُ فَقَضَاهُ تَمراً دُوْنَ تَمْرِهِ

فأَبَى أنْ يَقْبَلَ فقَالَ أَتَرُدُّ على رَسُولِ الله ﷺ .

قَالَ نَعَمْ ومَنْ أَحَقُّ بالعَدْلِ مِن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فاكْتَحلتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بدُمُوْعِهِ ثُمَّ قَالَ صَدَقَ ومَنْ أَحَقُ بالعَدْلِ مِنِّيْ لاقَدَّسَ اللَّهُ أُمَّةً لا يَأْخُذُ ضَعِيْفُهَا حَقَّهُ مِن شَدِيْدِهَا ولاَ يُتَعْتِعُهُ .

ثُمَّ قَالَ « يَا خَوْلَةُ عِدْيهِ وَاقْضِيْهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ غَرِيْمٍ يَخْرُجُ مِنْ عِنْدِ غَرِيْمِهِ رَاضِياً إِلَّا صَلَّتْ عَلَيْهِ دَوابُّ الأَرْضِ وَنُوْنُ البِحَارِ وَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَلْوِيْ غَرِيْمَهُ وَهُوَ يَجِدُ إِلّا كَتَبَ اللّهُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِثْماً .

وَلَمَّا بَلَغَ بُنْيَانُ قُرَيْشٍ مَوْضِعَ الرُّكْنِ اخْتَصَمَ القَبَائِلُ كُلُّ قَبِيْلَةٍ تُرِيْدُ أَنْ تَرْفَعَ الرُّكْنَ إِلى مَوْضِعِهِ وَكادُوْا يَقْتَتِلُوْنَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ لَهُمْ أَبُو أُمَيَّةَ بْنُ المُغِيْرَةِ بنُ عَبْدِ اللّهِ بْنُ عَمرو بْنِ مَخْزُوْمٍ وَكَانَ شَرِيْفاً مُطَاعاً اجْعَلُوا الحَكَمَ بَيْنَكُمْ لأَوَّلِ مَن يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الصَّفَا فَقَبِلُوا ذَلِكَ مِنْهُ وَكَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا هَذَا الأَمِيْنُ أَقْبَلَ وَكَانَ يُسَمَّى فِي الجاهِلِيّةِ « الأَمِيْنُ » لأَمَانَتِهِ وَصِدْقِهِ فَقَالُوا جمِيْعاً رَضِيْنَا بِحُكْمِهِ .

ثُمَّ قَصُّوْا عَلَيْهِ قِصَّتَهُمْ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ هَلُمَّ إِليَّ ثَوْباً فَأُتِي بِهِ فَوَضَعَ الرُّكْنَ فِيْهِ يَعْنِي الحجَرَ الأَسْوَدَ ثُمَّ قَالَ لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيْلَةٍ بِطَرَفٍ مِنْ هَذَا الثَّوْبِ فَحَمَلهُ مِنْ أَرْبعةِ أَطْرَافٍ أَرْبَعَةٌ مِن وُجُوْهِ القَبَائِلِ وَأَشْرَافِهَا وزُعَمائِهَا وَرَفَعُوْهُ إِلى مُحَاذاةِ مَوْضِعِ الحَجَرِ .

فَتَنَاوَلَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنَ الثَّوْبِ وَوَضَعَهُ بِيَدِهِ الشَّرِيْفَةِ فِي مَحَلِّهِ فَكَانَ الأَشْرَافُ والزُّعَمَاءُ خَدَماً لَهُ ﷺ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ هُبَيْرَةُ بْنُ وَهْبٍ المَخْزُوْمِي :

تَشَاجَرَتِ الأَحْيَاءُ فِي فَضْلِ خُطَّةٍ
جَرَتْ طَيْرُهُمْ بالنَّحْسِ مِنْ بَعْدِ أَسْعَدِ
تَـرَامَـوْا بِهَـا بـالغَضِّ بَعْـدَ مَـوَدَّةٍ
وأَوْقَـدَ نَـاراً بَيْنَـهُمْ شَـرُّ مُـوْقِـدِ
فَلَمَّـا رَأَيْنَـا الأَمْـرَ قَـدْ حَـانَ جِـدُّهُ
وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ غَيْـرَ سَلِ المُهَنَّـدِ
رَضِيْنَـا وَقُلْنَـا العَـدْلُ أَوَّلُ طَـالِـعٍ
يَجِيءُ مِنَ البَطْحَاءِ مِنْ غَيْـرِ مَوْعِـدِ
فَفَـاجَـأَنَـا هَـذَا الأَمِيْـنُ مُحَـمَّـدٌ
فَقُلْنَـا رَضِيْنَـا بـالأَمِيْنِ مُحَمَّـدِ
بِخَيْـرِ قُـرَيْشٍ كُلِّهَـا أَسْوَ شِيْمَـةٍ
وَفِي اليَوْمِ مَعْ مَا يُحْدِثُ اللّهُ فِي غَدِ
فَجَـاءَ بِـأَمْـرٍ لَمْ يَـرَ النَّـاسُ مِثْلَهُ
أَعَمَّ وأَرْضَى فِي العَـوَاقِبِ والبَدِيْ
أَخَـذْنَـا بِـأَطْـرَافِ الـرِّدَاءِ وكُلُّنَـا
لَـهُ حِصَّـةٌ مِنْ رَفْعِـهِ قَبْضَـةُ اليَـدِ
فَقَـالَ ارْفَعُوْا حَتَّى إِذا مَـا عَلَتْ بِـهِ
أَكُـفُّهُـمُ وَالَى بِـهِ خَيْـرُ مُسْنِـدِ
وَكُـلٌّ رَضِيْنَـا فِعْلَهُ وَصَنِيْعَـهُ
فَـأَعْظِمْ بِـهِ مِن رأى هَـادٍ وَمُهْتَـدِ
وتِلْكَ يَـدٌ مِنْـهُ عَلَيْنـا عَـظِيْـمَـةٌ
يَـرُوْحُ بِهَـا هَـذا الـزَّمَـانُ وَيَغْتَـدِيْ

وَالأَرْبَعَةُ الآخِذِيْنَ بِطَرَفِ الرِّدَاءِ هُمْ عُتْبَةُ بنُ رَبِيْعَةَ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْس بنِ عَبْدِ مَنافٍ والأَسْوَدُ بْنُ المُطَّلِبِ بْنِ أَسَد بْن عَبْدِ العُزّى بن قُصَيّ ، وأبُو حُذَيْفَةَ بْنُ المُغِيْرَة بْنِ عَمْرو ابنِ مَخْزُوْمِ بْنِ يَقظة ، وَقَيْسُ بنُ عَدِيّ السَّهْمِي .

واللّه أعْلم صَلّى اللّهُ عَلى مُحَمّد وآلِهِ وسَلّم .

(فصـــل)

وَقالَ شَيْخُ الإسلام ابنُ تَيْمِيَّةَ رحِمَهُ اللّهُ وسيْرَةُ النّبِيّ ﷺ مِن آياتِهِ وأخْلاَقُهُ وأقْوالُهُ وأفْعَالُهُ وَشَرِيْعَتُهُ مِنْ آيَاتِهِ وَأُمَّتُهُ مِن آياتِهِ وكَرامَاتُ صَالِحِي أُمَّتِهِ مِن آياتِهِ .

وَذَلِكَ يَظْهَرُ بتَدَبُّرِ سِيْرَتِهِ مَنْ وُلِدَ إلى أَنْ بُعِثَ وَمِنْ حِيْنِ بُعِثَ إلى أَنْ مَاتَ وبِتَدَبُّرِ نَسَبِهِ وَبَلَدِهِ وأَصْلِهِ وَفَضْلِهِ فإِنَّهُ كَانَ مِن أَشْرَفِ أَهْلِ الأرْضِ نَسَبا مِن صَمِيْمِ سُلالَةِ إِبْرَاهِيْمَ الّذي جَعَلَ اللّهُ فِي ذُرِّيَتِهِ النُّبُوّةَ والكِتَاب .

فَلَمْ يَأْت نَبِيٌّ مِنْ بَعْدِ إِبْرَاهِيْمَ إلاّ مِن ذُرِّيَتِهِ وَجَعَلَ لَهُ ابْنَيْنِ اسْمَاعِيْلَ وإسْحَاقَ وذُكِرَ فِي التَّوْرَاةِ هَذَا وَهَذَا وبُشّرَ فِي التَّوْرَاةِ بِمَا يَكُونُ مِن وَلَدِ إِسْمَاعِيْل .

وَلَمْ يَكُنْ فِي وَلَدِ إِسْمَاعِيْلَ مَنْ ظَهَرَ فِيْمَا بَشَّرَتْ بِهِ النُّبُوّاتُ غَيْرَهُ وَدَعا إبْراهيمُ لِذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيْل بأنْ يَبْعَثَ فِيهِمْ رَسُوْلاً مِنْهُمْ ثُمَّ هُوَ مِن قُرَيْشٍ صَفْوَةِ بَنِي إِبْرَاهِيْمَ مِن بَنِيْ هَاشِمٍ صَفْوَةِ قُرَيْشٍ .

ومِنْ مَكَّةَ أُمِّ القُرَى وَبَلَدُهُ البَيْتُ الّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيْمُ وَدَعَا النّاسَ إلى

حَجِّهِ ، ولَمْ يَزَلْ مَحْجُوجاً مِنْ عَهْـدِ إِبْرَاهِيْمَ مَذكوراً في كُتُبِ الأَنْبِيَاءِ بأحْسَنِ وَصْفٍ ، وَكَانَ مِن أَكْمَلِ النّاسِ تَرْبِيَةً وَنَشأةً لَمْ يَزَلْ مَعْرُوْفاً بالصِّدْقِ والبِرِّ وَالعَدْلِ ومَكَارِمِ الأخلاقِ وَتَرْكِ الفَوَاحِشِ والظُّلْمِ وكُلِّ وَصْفٍ مَذْمُوْمٍ .

مَشْهُوداً لَهُ بِذلِكَ عِنْدَ جَمِيْعِ مَنْ يَعْرِفُهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَمِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَكَفرَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ ، لاَ يُعْرَفُ لَهُ شَيْءٌ يُعَابُ بِهِ لا فِي أقْوالِهِ وَلاَ فِي أفعالِهِ وَلاَ فِي أخلاَقِهِ وَلاَ جُرِّبَتْ عَلَيْهِ كِذْبَةٌ قَطُّ ولاَ ظُلْمٌ وَلاَ فَاحِشَةٌ .

وكَانَ خُلُقُهُ وَصُوْرَتُهُ مِن أكْمَلِ الصُّوَرِ وأتَمِّها وأجْمَعِهَا لِلْمَحَاسِنِ الدَّالَةِ عَلَى كَمَالِهِ ، وكَان أُمِّياً مِن قَوْمٍ أُمِّيْنَ لاَ يَعْرِفُ لا هُوَ وَلاَ هُمْ مَا يَعْرِفُهُ أهْلُ الكِتَابِ « التَّوْرَاةِ والانْجِيلِ » .

وَلَمْ يَقْرَأْ مِنْ عُلُومِ النّاسِ وَلاَ جَالَسَ أَهْلَهَا وَلَمْ يَدَّعِ بِنُبُوَّةٍ إلى أنْ أكْمَلَ اللّهُ لَهُ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً فَأتَى بِأمْرٍ هُوَ أعْجَبُ الأُمُوْرِ وأعْظَمُهَا وبكَلاَمٍ لَم يَسْمَعْ الأوَّلُونَ والآخَرُونَ بِنَظِيْرِهِ .

وأخْبَرَ بأَمْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي بَلدِهِ وَلاَ فِي قَوْمِهِ مَنْ يَعْرِفُ مِثْلَهُ وَلَمْ يُعْرَفْ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ ، لاَ فِي مِصْرٍ مِن الأمصَارِ وَلاَ فِي عَصْرٍ مِن الأعْصَارِ مَن أتَى بِمِثْلِ مَا أتَى بِهِ وَلاَ مَنْ ظَهَرَ كَظُهُوْرِهِ .

وَلاَ مَنْ أتَى مِنَ العَجَائِبِ والآياتِ بِمِثْلِ مَا أَتَى بِهِ وَلاَ مَن دَعَا إِلى شَرِيْعَةٍ أَكْمَلَ مِن شَرِيْعَتِهِ ، وَلاَ مَنْ ظَهَرَ دِيْنُهُ عَلَى الأَدْيَانِ كُلِّهَا بالعِلْمِ والحُجَّةِ وبِاليدِ والقُوَّةِ كَظُهُوْرِهِ .

ثُمَّ إِنَّهُ اتَّبَعَهُ أتْبَاعُ الأَنْبِيَاءِ وهُمُ الضُّعَفَاءُ مِنَ النّاسِ وَكَذَّبَهُ أَهْلُ الرِّئَاسَةِ

وَعَادَوْهُ وَسَعَوْا فِي هَلاَكِهِ وَهَلاكِ مَن تَبِعَهُ بِكُلِّ طَرِيْقٍ ، كَمَا كَانَ الكُفَّارُ يَفْعَلُونَ مَعَ الأَنْبِيَاءِ وأَتْبَاعِهِمْ .

وَالّذِيْنَ اتَّبَعُوهُ لَمْ يَتَّبِعُوْهُ لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَالٌ يُعْطِيْهِمْ وَلاَ جِهَاتٍ يُوَلِّيْهِم إِيَّاهَا وَلاَ كَانَ لَهُ سَيْفٌ بَلْ كَانَ السَّيْفُ والجَاهُ والمالُ مَعَ أَعْدَائِهِ ، وَقَد آذَوْا أَتْبَاعَهُ بِأَنْوَاعِ الأَذَى وهُمْ صَابِرُوْنَ مُحْتَسِبُونَ لاَ يَرْتَدُّوْنَ عَنْ دِيْنِهِمْ لَمَّا خَالَطَ قُلُوْبَهُمْ حَلاَوَةُ الإِيْمَانِ والمَعْرِفَةِ .

وكَانَتْ مَكّةُ يَحُجُّهَا العَرَبُ مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيْمَ فَتَجْتَمِعُ فِي المَوْسِمِ قَبَائِلُ العَرَب فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ يُبَلِّغُهُمْ الرِّسَالَةَ وَيَدْعُوْهُمْ إِلى اللّهِ صَابِراً عَلَى مَا يَلْقَاهُ مِن تَكْذِيْبِ المُكذِّبِ وَجَفاءِ الجَافِي وإِعْرَاضِ المُعْرِضِ إِلى أَنْ اجْتَمَعَ بأَهْلِ يَثْرِبَ وكَانُوا جِيْرَانَ اليَهُودِ قَدْ سَمِعُوْا أَخْبَارَهُ مِنْهُمْ وَعَرَفُوْهُ .

فَلَمَّا دَعَاهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُ النَّبِيُّ المُنْتَظَرُ الّذي تُخْبِرُهُمْ بِهِ اليَهُوْدُ وَكَانُوا قَدْ سَمِعُوا مِنْ أَخْبَارِهِ مَا عَرَفُوا بِهِ مَكَانَتَهُ ، فَإِنَّ أَمْرَهُ كَانَ قَدْ انْتَشَرَ وَظَهَرَ فِي بِضْعِ عَشْرَةِ سَنَةً فَآمَنُوا بِهِ وَتَابَعُوْهُ عَلى هِجْرَتِهِ وهِجْرَةِ أَصْحَابِهِ إِلى بَلَدِهِمْ وعَلَى الجِهَادِ مَعَهُ فَهَاجَرَ هُوَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ إِلى المَدِيْنَةِ وَبِها المُهَاجِرُوْنَ والأَنْصارُ لَيْسَ فِيْهِم مَنْ آمَنَ بِرَغْبَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ وَلاَ بِرَهْبَةٍ إِلا قَلِيلاً مِن الأَنْصارِ أَسْلَمُوا فِي الظّاهِرِ ثُمَّ حَسُنَ إِسْلاَمُ بَعْضِهِمْ ثُمَّ أُذِنَ لَهُ في الجِهادِ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ .

وَلَمْ يَزَلْ قَائِماً بِأَمْرِ اللّهِ عَلَى أَكْمَلِ طَرِيْقَةٍ وأَتَمِهَا مِن الصِّدْقِ والعَدْلِ والوَفَاءِ لاَ يُحْفَظُ عَلَيْهِ كِذْبَةً وَاحِدةً وَلاَ ظُلْمٌ لأَحدٍ وَلاَ غَدْرٌ بأَحَدٍ ، بَلْ كَانَ أَصْدَقَ النّاسِ وأَعْدَلَهُمْ وأَبَرَّهُم وأوفَاهُمْ بِالعَهْدِ مَعَ اخْتِلاَفِ الأَحْوَالِ عَلَيْهِ مِنْ حَرْبٍ وسِلْمٍ وأَمْنٍ وَخَوْفٍ وغِنىً وفِقْرٍ وقِلَّةٍ وكَثْرَةٍ وظُهُوْرِهِ عَلى العَدُوِّ

تَارَةً وَظُهُوْرِ العَدُوِّ عَلَيْهِ تَارَةً .

وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مُلاَزِمٌ لأَكْمَلِ الطُّرُقِ وَأَتَمِّهَا حَتَّى ظَهَرَتِ الدَّعْوَةُ فِي جَمِيْعِ أَرْضِ العَرَبِ الَّتِي كَانَتْ مَمْلُوءَةً مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَمِنْ أَخْبَارِ الكُهَّانِ وَطَاعَةِ المَخْلُوْقِ فِي الكُفْرِ بالخَالِقِ وسَفْكِ الدِّمَاءِ المُحَرَّمَةِ وقَطِيْعَةِ الأَرْحَامِ لاَ يَعْرِفُوْنَ آخِرَةً وَلاَ مَعَاداً .

فَصَارُوْا أَعْلَمَ أَهْلِ الأَرْضِ وأَدْيَنَهُمْ وَأَعْدَلَهُمْ وَأَفْضَلَهُمْ وَهَذِهِ آثَارُ عِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ فِي الأَرْضِ وآثارُ غَيْرِهِمْ يَعْرِفُ العُقَلاءُ فَرْقَ مَا بَيْنَ الأَمْرَيْنِ وَهُوَ ﷺ مَعَ ظُهُوْرِ أَمْرِهِ وَطَاعَةِ الخَلْقِ لَهُ وَتَقْدِيْمِهِمْ لَهُ عَلَى الأَنْفُسِ والأَمْوَالِ مَاتَ وَلَمْ يُخَلِّفْ دِرْهَماً وَلاَ دِيْنَاراً وَلاَ مَتَاعاً وَلاَ دَابَّةً إِلاّ بَغْلَتَهُ وَسِلاَحَهُ وَدِرْعُهُ مَرْهُوْنَةٌ عِنْدَ يَهُوْدِي عَلَى ثَلاَثِيْنَ وَسَقاً مِن شَعِيْرٍ ابْتَاعَهَا لأَهْلِهِ .

وَكَانَ بِيَدِهِ عَقَارٌ يُنْفِقُ مِنْهُ عَلَى أَهْلِهِ والبَاقِي يَصْرِفُهُ فِي مَصَالِحِ المُسْلِمِيْنَ فَحكَمَ بأَنَّهُ لاَ يُوْرَثُ ولا يَأخُذْ وَرَثَتُهُ مِنْهُ شَيْئاً وَهُوَ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَظْهَرُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الآيَاتِ وفُنُوْنِ الكَرَامَاتِ مَا يَطُوْلُ وَصْفُه .

ويُخْبِرُهُمْ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُوْنُ وَيَأْمُرُهُمْ بالمَعْرُوْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ ويُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَشْرَعُ الشَّرِيْعَةَ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ .

أَكْمَلَ اللَّهُ دِيْنَهُ الّذي بُعِثَ بِهِ وَجَاءتْ شَرِيعَته أَكْمَلَ شَرِيْعَةٍ لَمْ يَبق مَعْرُوف تَعرفُ العُقول أنّهُ مَعْرُوْفَ إلاّ أمَرَ بِهِ وَلاَ مُنْكَرٌ تَعْرِفُ العُقُولُ أنّهُ مُنْكَرٌ إلاَّ نَهى عَنْهُ .

لَمْ يَأْمُرْ بِشَيْءٍ فَقِيْلَ لَيْتَهُ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ وَلاَ نَهى عَنْ شَيْءٍ فَقِيْلَ لَيْتَهُ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ وأَحلَّ الطّيّباتِ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئاً مِنْها كَمَا حُرِّمَ فِي شَرْعِ غَيْرِهِ وَحَرَّمَ الخَبَائِثَ لَمْ يُحِلَّ مِنْها شَيْئاً كَمَا اسْتَحَلَّهُ غَيْرُهُ.

وَجمَعَ مَحاسِنَ مَا عَلَيْهِ الأُمَمُ فَلا يُذْكَرُ فِي التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ وَالزَّبُوْرِ نَوْعٌ مِنَ الخَبَرِ عَن اللّهِ وَعَنْ مَلاَئِكَتِهِ وَعَنْ اليَوْمِ الآخِرِ إِلَّا وَقَدْ جَاءَ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ وأَخْبَرَ بأَشْياءَ لَيْسَتْ فِي هَذِهِ الكُتُبِ.

وأُمَّتُهُ أَكْمَلُ الأُمَمِ فِي كُلِّ فَضِيْلَةٍ فَإِذَا قِيْسَ عِلْمُهُمْ بِعِلْمِ سَائِرِ الأُمَمِ ظَهَرَ فَضْلُ عِلْمِهِمْ وإِن قِيْسَ دِيْنُهُمْ وَعِبادَتُهمْ وَطَاعَتُهُمْ لِلّهِ بِغَيْرِهِمْ ظَهَرَ أَنَّهُمْ أَدْيَنُ مِنْ غَيْرِهِمْ وإِذَا قِيْسَ شَجَاعَتُهُمْ وَجِهادُهُمْ وَصَبْرُهُمْ عَلَى المَكَارِهِ فِي ذَاتِ اللّهِ ظَهَرَ أَنَّهُمْ أَعْظَمُ جِهاداً وأَشْجَعُ قُلُوباً وهَذِهِ الفَضَائِلُ بِهِ نَالُوْها ومِنْهُ تَعَلَّمُوهَا وهُوَ الّذِي أَمَرَهُمْ بِهَا ا. هـ.

وَقَالَ آخَرُ:

اعْلَمْ أَنَّ مَنْ شَاهَدَ أَحْوالَهُ ﷺ وأَصْغَى إِلى سَمَاعِ أَخْبارِهِ المُشْتَمِلَةِ عَلَى أَخْلاَقِهِ وأَفْعَالِهِ وأَحْوالِهِ وعَادَاتِهِ وَسَجَايَاهُ وَسِيَاسَتِهِ لأَصْنَافِ الخَلْقِ وهِدَايَتَهُ إِلى ضَبْطِهِمْ وَتأَلُّفِه أَصْنَافَ الخَلْقِ وقَوْدَهُ إِيَّاهُمْ إِلى طَاعَتِهِ.

مَعَ مَا يَحْكِي مِنْ عَجَائِبِ أَجْوِبَتِهِ فِي مَضَائِقِ الأَسْئِلَةِ وَبَدَائِعِ تَدْبِيْرَاتِهِ فِي مَصَالِحِ الخَلْقِ وَمَحَاسِنِ إِشَارَاتِهِ فِي تَفْصِيْلِ ظَاهِرِ الشَّرْعِ الّتِي يَعْجِزُ الفُقَهاءُ والعُقَلاءُ عَنْ إِدْرَاكِ أوائِلِ دَقَائِقِها فِي طُوْلِ أَعْمَارِهِمْ لَمْ يَبْقَ لَهُ رَيْبٌ وَلاَ شَكٌّ فِي أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُكْتَسَباً بِحِيْلَةٍ تَقُوْمُ بِهَا القُوَّةُ البَشَرِيَّةِ.

بَلْ لاَ يَتصَوَّرُ ذَلِكَ إِلّا بالاسْتِمْدَادِ مِنْ تَأْيِيْدٍ سَمَاوِيٍّ وَقُوَّةٍ إِلهِيَّةٍ وأَنَّ

ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَتصوَّرُ لِكَذَّابٍ وَلَا مُلَبِّسٍ بَلْ كَانَتْ شَمَائِلُهُ وأحْوَالُهُ شَوَاهِدُ قَاطِعَةٌ بِصِدْقِهِ حَتَّى أنَّ العَرَبِيَّ القُحَّ كَانَ يَرَاهُ فَيَقُولُ : وَاللّهِ مَا هَذَا وَجْهُ كَذَّابٍ .

فَكَانَ يُشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ بِمُجَرَّدِ رُؤْيَتِهِ لِشَمَائِلِهِ فَكَيْفَ مَنْ شَاهَدَ أخْلَاقَهُ وَمَارَسَ أحْوَالَهُ فِي جَمِيعِ مَصَادِرِهِ وَمَوَارِدِهِ أ . هـ .

وَقَالَ حَسّانُ يَرْثِي رَسُولَ اللّهِ ﷺ :

بِطَيْبَةَ رَسْمٍ للرَّسُوْلِ وَمَعْهَدُ
مُنِيْرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُوْمُ وتَهْمُدُ
وَلَا تَنْمَحِيْ الآياتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
بِهَا مِنْبَرُ الهادِيْ الّذِي كَانَ يَصْعَدُ
وَوَاضِحُ آيَاتٍ وبَاقِي مَعَالِمٍ
وَرَبْعٌ لَهُ فِيْهَا مُصَلًّى ومَسْجِدُ
بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا
مِنَ اللّهِ نُوْرٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوْقَدُ
مَعَالِمُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى العَهْدِ آيُهَا
أتَاهَا البِلَى فالآيُ مِنْهَا تَجَدَّدُ
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُوْلِ وعَهْدَهُ
وقَبْراً بِهِ وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مَلْحَدُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْماً رَزِيَّةُ هَالِكٍ
رَزِيَّةَ يَوْمٍ مَاتَ فِيْهِ مُحَمَّدُ

تَقَـطَّعَ فِيْـهِ مَنْـزِلُ الـوَحْيِ عَنْهُمُ
وَقَـدْ كَـانَ ذَا نُـوْرٍ يَغُـورُ ويُنْجِـدُ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ مَنْ يَقْتَدِيْ بِهِ
وَيُنْقِـذُ مِنْ هَوْلِ الخَـزَايَا ويُـرْشِدُ
إِمَـامٌ لَهُمْ يَهْـدِيْهُمُ الحَقَّ جَـاهِـداً
مُعَلِّمُ صِـدْقٍ إِنْ يُطِيْعُـوهُ يَسْعَـدُوا
عَفُـوٌّ عَنِ الـزَّلَّاتِ يَقْبَـلُ عُـذْرَهُمْ
وأَنْ يُحْسِنُـوا فَاللّهُ بـالخَيْـرِ أَجْـوَدُ
فَبَيْنَـاهُمُـوْا فِي نِعْمَــةِ اللّهِ بَيْنَهُمْ
دَلِيْـلٌ بِـهِ نَهْـجُ الـطَّرِيْقَــةِ يُقْصَـدُ
عَزِيْزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيْدُوْا عَنِ الهُدَى
حَرِيْصٌ على أنْ يَسْتَقِيْمُوْا وَيَهْتَدُوْا
عَـطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يُثَنِّيْ جَنَاحَـهُ
إِلَى كَنفٍ يَحْنُـوْ عَلَيْهِمْ وَيَمْهَـدُ
فَبَيْنَاهُمُوْا فِي ذَلِكَ النُّوْرِ إِذْ غَدَى
إِلَى نُوْرِهِمْ سَهْمٌ مِنَ المَوْتِ مُقْصِدُ
فَـأَصْبَحَ مَحْمُـوْداً إِلى اللّهِ رَاجِعـاً
يُبكِيْـهِ جَفْنُ المُـرْسَـلاتِ ويَحْمَـدُ
وأَمْسَتْ بِلَادُ الحُرْمِ وَحْشاً بِقَاعُهَا
لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الوَحْيِ تَعْهَـدُ
قِفَاراً سِوَى مَعْمُوْرَةِ اللَّحْدِ ضَـافَهَا
فَـقِيْـدٌ يُـبَكِّيْـهِ بِـلَاطٌ وغَـرْقَـدُ

وَمَسْجِـدُهُ فَـالمُـوحِشَـاتُ لِفَقْـدِهِ
خَـلاَءٌ لَـهُ فِيْـهِ مَقَـامٌ وَمَـقْعَـدُ

فَبَكّيْ رَسُـوْلَ اللّهِ يَـا عَيْنُ عَبْـرَةً
ولا أعْرِفَنْكِ الـدَّهْرَ دَمْعُـكِ يَجْمُدُ

ومَا لَكِ لاَ تَبْكِيْنَ ذَا النِّعْمَةِ الّتِيْ
عَلَى النّـاسِ مِنْهَا سَـابِغٌ يَتَغَمَّـدُ

فَجُـوْدِيْ عَلَيْهِ بـالـدُّمُـوْعِ وأعْـوِلِي
لِفَقْدِ الّذِي لاَ مِثْلَهُ الـدَّهْرَ يُـوْجَدُ

وَمَـا فقَدَ الْمَـاضُـوْنَ مِثْـلَ مُحَمَّـدٍ
ولا مِثْلَهُ حَتَّى الـقِيَـامَـةَ يُـفْقَـدُ

أَعَـفَّ وَأَوْفَـي ذِمَّـةً بَـعْـدَ ذِمَّـةٍ
وأقْـرَبَ مِنْـهُ نَـائِـلاً لاَ يُنَكَّـدُ

وأبْـذَلَ مِـنْـهُ لِـلطَّرِيْـفِ وتَـالِـدٍ
إِذَا ظَنَّ مِعْـطَاءٌ بِمَـا كَـانَ يُتْلَدُ

وَأَكْرَمَ حَيّاً فِي البُيُـوْتِ إِذَا انْتَمَى
وأكْـرَمَ جَـداً أبْـطَحِـيّـاً يُـسَـوَّدُ

وأَمْنَـعَ ذِرْوَاتٍ وأثْبَتَ فِي الـعُلَى
دَعَـائِمَ عِـزٍّ شَـاهِقَـاتٍ تُـشَيَّـدُ

وأَثْبَتَ فَـرْعـاً فِي الفُـرُوْعِ ومَنْبَتـاً
وعُـوْداً غَذَاهُ المُزْنُ فَالعُـوْدُ أَغْيَـدُ

رَبّـاهُ وَلِيْـداً فـاسْتَتَمَّ تَـمَـامُـهُ
عَلَى أكْـرَمِ الخَيْرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّـدُ

تَنَــاهَتْ وِصَــاتُ المُسْلِمِيْنَ بِكَفِّــهِ
فَلا العِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلاَ الرَّأْيُ يُفْنَدُ
أَقُــوْلُ وَلا يُلْفَى لِقَــوْلِيَ عَــائِبٌ
مِنَ النّاسِ إلّا عَازِبُ العَقْلِ مُبْعَدُ
وَلَيْسَ هَـوَائِي نَـازِعـاً عَنْ ثَنَـائِـهِ
لَعَلِّيْ بِــهِ في جَنَّـةِ الخُلْدِ أُخْلَدُ
مَعَ المُصْطَفَى أَرْجُـوْ بِذَاكَ جِـوَارَهُ
وفِي نَيْلِ ذَاكَ اليِوْمِ أَسْعَى وأَجْهَدُ

اللّهُمَّ توَفّنَا مُسْلِمِين وألْحِقْنا بِعِبادِكَ الصَّالِحِيْنَ الّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنا وجَمِيع المُسْلِمِيْن بِرَحْمتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْن .

« موعظـــة »

عِبَادَ اللّهِ نحْنُ فِي زَمَنٍ بَلَغَ فِيْهِ الفَسَادُ مَبْلَغاً مَا كَانَ يَدُوْرُ فِي خَلدِ إنسانٍ وَهَانَ عَلَى كَثِيْرٍ مِنَ النّاسِ اليَوْمَ أنْ يَتَقَدَّمُوا إلى المَعَاصِيْ مُطْمَئِنِّيْنَ وَخَفَّ عَلَيْهِم جِداً أنْ يَرْتَكِبُوا مَا حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ غَيْرَ هَيَّابِيْنَ وَسَهُلَ كُلَّ السُّهُوْلَةِ عَلَيْهِمْ أنْ يَقْتَحِمُوا حَتَّى مُوْبَقاتِ الأَوْزَارِ غَيْرَ خَائِفِيْنَ مِنَ اللّهِ تَعَالى وَلاَ مُبَالِيْنَ بِنَواهِيه .

وَلَعَلَّ زَمَنَنَا هَذَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ مَا فِي حَدِيْثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يأتِي على النّاسِ زَمَانُ القَابِضُ عَلَى دِيْنِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ وَمَا فِي حَدِيْثِ أبي هُرَيْرَة رضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنّهُ قَالَ « بَدَا

الإِسْلَامُ غَرِيْباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَا فطُوبى لِلْغُرَباءِ أخرجهُ مسلم .

وأَخْرَجَهُ الإِمَامُ أحمَدُ وابْنُ ماجَةَ مِنْ حَدِيْثِ بن مَسْعُودٍ بزيادةٍ فِي آخِرِهِ وهي ـ قِيْلَ يا رَسُولَ اللّهِ ومِنَ الغُرَبَاءُ قَالَ « النُّزَّاعُ مِنَ القَبَائِلِ » وأخرجه أبو بكر الآجُرِيُّ وعِنْدَهُ ـ قِيْلَ ومَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللّهِ ، قال « الذين يَصْلَحُوْنَ إذا فَسَدَ النّاسُ » .

وخَرَّجَهُ غَيْرُهُ وعِنْدَهُ قال « الّذِينَ يَفِرُّوْنَ بِدِيْنِهِمْ مِنَ الفِتَنِ » وخَرَّجَهُ التِّرْمِذيُّ مِنْ حَدِيثِ كَثِيْر بْن عَبْدِ اللّه المُزَنِيّ عَنْ أبِيهِ عنْ جَدِّهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ « إنَّ الدِّيْنَ بَدَا غَرِيْباً وَسَيَرْجِعُ غَرِيْباً فطُوبى لِلْغُرَبَاءِ الّذِيْنَ يُصْلِحُوْنَ مَا أفْسَدَ النّاسُ مِنْ سُنَّتِيْ » وفِي حَدِيْثِهِ قِيْلَ وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللّهِ قالَ « الّذِيْنَ يَصْلَحُوْنَ حِيْنَ فَسَادِ النّاسِ » .

أمّا الحَدِيْثُ الأَوَّلُ فَهُوَ وَاضِحٌ وَمُنْطَبِقٌ كُلَّ الانْطِبَاقِ عَلى هَذَا الزَّمَانِ فِيْمَا أَرَى وَاللّهُ أَعْلَمُ وَذلِكَ أَنَّكَ تَرَى الشَّرَّ والفَسَادَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مُنْتَشِراً والخَيْرَ نَادِرْ الوُجُودِ فالفِتَنُ فِي البُيُوْتِ والأَسْوَاقِ والدَّكَاكِيْن والسَّيَّارَاتِ والقِطَارَاتِ والطَّائِرَاتِ فِتَنُ شَهَواتٍ نِسَاءٌ سَافِرَاتٌ وفِتَنُ شُكُوكٍ وإِلحَادٍ وشُبُهَاتٍ مِن أُناسٍ مُنْحَرِفِيْنَ وكُتُبُ ضَلالٍ ومَجَلَّاتٌ تَحْمِلُ فِي طَيِّهَا البَلَايَا والشُّرُوْر وفِدْيُواتٌ تُعَلِّمُ الفَسادَ أبْلَغَ تَعْلِيْم وتُهَيِّجُ عَلَيْهِ ، حَدَثَ فِتَنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُها بَعْضاً وحَوادِثُ الأُخْرَى أعْظَمُ مِن الأُوْلَى ومن أعظَم ما حَدَثَ كَثْرَةُ الخَدَّامِينِ والخدامات والسواقينَ والطباخينَ والمربينَ فإن ضررهم عَظِيمٌ على الدينِ والأخلاقِ والدنيا.

وَقَدْ كُنْتُ أَشْكُو مِنْ حَوادِثَ بُرْهَة
واسْتَمْـرِسُ الأَيَّـامَ وهْيَ صَحَـائِحُ

إِلَى أَنْ تَغَشَّتْنِيْ وُقِيْتَ حَوَادِثُ
تُحَقِّقُ أَنَّ السَّالِفَاتِ مَنَائِحُ

آخر : ظُلَمٌ تَهَافَتْ آخِذَاتٌ بَعْضُهَا
بِالبَعْضِ تَسْتَلِبُ الفُؤَادَ الأَلْمَعَا
لَا يَسْتَبِيْنُ المَرْءُ فِيْهَا كَفَّهُ
تَذَرُ الحِجَى بِالبَاطِلَاتِ مُوَلَّعَا
وَجَهَالَةٌ جَهْلَا يَرْتَعُ أَهْلُهَا
فِي حِنْدِسٍ مِنْهَا وَسَاءَتْ مَرْتَعَا

وفِتَنُ أمْوَالٍ انْفَتَحَتْ عَلى النَّاسِ بكَثْرَةٍ وفِتَنُ أَوْلَادٍ وبَنَاتٍ وَزَوْجَاتٍ وزُمَلاءٍ وشُرَكَاءٍ وعُمَّالٍ مُنَافِقِيْنَ كَذَّابِيْنَ لَا يُصَلُّون وَلا يَصُوْمُوْنَ وكَثْرَةُ مُغْتَابِيْنَ ونَمَّامِيْنَ وخَدَّاعِيْنَ ومَكَّارِيْنَ ومُجَاهِرَةٌ بِالمَعَاصِي وقِلّةُ أَنْصَارٍ وأَعْوَانٍ وكَثْرَةُ مُثَبِّطِيْنَ عَنِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوْفِ والنَّهْيِ عنْ المُنْكَرِ ونحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. وقَلَّ أن تجد من هؤلاء من يحافظ على أركان الإسلام.

ولَكِنَّ المُتَمَسِّكَ بِدِيْنِهِ القَائِمَ بِدَفْعِ هَذِهِ المُعَارَضَاتِ والعَوائِقِ الَّتِي لَا يَصْمُدُ لَها إلّا أَهْلُ البَصَائِرِ واليَقِيْنِ وَأَهْلُ الإِيْمانِ المَتِيْنِ الثَّابِتِيْنَ ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ مِنْ أَفْضَلِ خَلْقِ اللّهِ وأعْلَاهُم دَرَجَةً عِنْدَ اللّهِ وأَعْظَمِهِمْ عِنْدَهُ قَدْراً جَعَلَنَا اللّهُ وإِيَّاكُمْ مِنْهُم إِنّهُ القَادِرُ عَلى ذَلِكَ .

وأَمَّا الحَدِيْثُ الثّانِي فَالإِسْلامُ فِي أَوّلِ أَمْرِهِ غَرِيْبٌ قَلِيْلٌ لأَنَّ النّاسَ كانُوا قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ عَلَى ضَلالَةٍ عامَّةٍ فَلَمَّا بُعثَ مُحَمّداً ﷺ لم يَسْتَجِبْ لَهُ فِي أَوّلِ الأَمْرِ إلّا الوَاحِدُ بعْدَ الواحِدِ مِنْ كُلِّ قَبِيْلَةٍ وكَانَ المُسْتَجِيْبُ لَهُ خَائِفاً مِنْ عَشِيْرَتِهِ يُؤْذَى غَايَةَ الأَذَى ويُنَالُ مِنْهُ وَهُوَ صَابِرٌ عَلَى

ذَلِكَ فِي اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَكَانَ المُسْلِمُوْنَ إِذْ ذَاكَ مُسْتَضْعَفِينَ يُشَرَّدُوْنَ كُلَّ مُشَرَّدٍ ويَهْرَبُوْنَ بِدِيْنِهِمْ إِلى البِلادِ النَّائِيَةِ كَمَا هَاجَرُوْا إِلى الحَبَشَةِ مَرَّتَيْن ثُمَّ هَاجَرُوا إِلى المدِينَةِ وَكَان مِنْهُمْ مَنْ يُعَذَّبُ فِي اللّهِ ويُقْتَلُ كَعَمَّارٍ وأُمِّهِ وأبِيْهِ وبِلالٍ وغَيْرِهِمْ مِنَ الصّحابَةِ .

وَلَعَلَّهُ مَرَّ بِكَ أَثْنَاءَ الكِتَابِ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ فِي أَوَّلِ إِسْلامِهِمْ مِنَ الأَذى فَقَدْ ذَكَرْنَا نَمَاذِجَ مِنْهم ، قَالَ بَعْضُهم أبياتاً لَا تَنْطَبِقُ إِلا عَلَى الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللّهِ عَلَيْهِمْ أجْمَعِيْن :

قَـوْمٌ لَقَـدْ آمَنُـوْا بِـاللّهِ خَـالِقِهِمْ
وَهَـاجَـرُوْا وَاتَّقَـوا إِثْمـاً وَعُـدْوَانَـا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيْلِ اللّهِ بَلْ صَبَرُوْا
وَصَـابَرُوْا لِـذَوِي الإِشْـرَاكِ أَزْمَـانَـا
تَعَلُّمُ العِلْمِ بـالإِصْبَـاحِ هَمُّهُمُـوْا
وَيَنْقَـضِيْ لَـيْلُهُـمْ ذِكْـراً وقُـرْآنَـا
وجَامِعُ الأَمْرِ إِنْ تَطْلُبْ لِوَصْفِهِمُوْا
نَهَـارُهُمْ أُسُـدٌ واللَّيْـلُ رُهْبَـانَـا

فَكَانَ الدَّاخِلُونَ فِي الإِسْلامِ إِذْ ذَاكَ غُرَبَاء .

ثُمَّ ظَهَرَ الاسلامُ بَعدَ الهِجْرَةِ إِلى المَدِيْنَةِ وعَزَّ وصَارَ أَهْلُهُ ظاهِرِينَ كُلَّ الظُّهُورِ ودَخَلَ الناسُ بَعدَ ذَلِكَ في دِيْنِ اللهِ أفواجاً وأَكمَلَ اللهُ لَهُم الدِّينَ وأَتَمَّ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ .

وتُوفِي رَسُولُ اللهِ ﷺ والأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ وأَهْلُ الاسلامِ على غَايَةٍ مِن الاسْتِقَامَةِ في دِيْنِهِمْ وهُمْ مُتَعَاضِدُوْنَ مُتَنَاصِرُوْنَ .

وكانُوا على ذَلِكَ فِيْ زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ثُمَّ عَمِلَ الشَّيْطَانُ مَكَائِدَهُ على المُسْلِمِيْنَ وأَلْقَى بأسهُمْ بَيْنَهُمْ وأفْشَى فِيهِم فِتَنَ الشُبُهَاتِ والشّهوَاتِ .

ولم تَزَلْ هَاتَانِ الفِتْنَتَانِ تَتزَايَدَ ان شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى اسْتَحْكَمتْ مَكِيْدَةُ الشيطانِ وأَطاعَهُ أَكْثَرُ الخَلْقِ فمِنْهُم مَن أطاعَهُ وَدَخَلَ في فِتْنَةِ الشُبُهاتِ ومِنْهُمْ مَن دَخَلَ في فِتْنَةِ الشَّهوَاتِ ومِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ في الفِتْنَتَيْنِ .

وكُلُّ ذلكَ مِمَّا أَخْبَرَ النبيُ ﷺ بِوُقُوْعِهِ فأَمَّا فِتْنَةُ الشُبُهَاتِ .

فقد رُوِيَ عنِ النبي ﷺ مِن غيرِ وَجْهٍ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقَ على أَزْيَدَ مِن سَبْعِيْنَ فِرْقَةً وأَنَّ تِلْكَ الفِرَق في النّارِ إلاَّ وَاحِدةٌ وهِيَ مَن كَانَتْ على ما هُوَعَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُه ﷺ .

وعن أبي بَرْزَةَ عن النبي ﷺ قَالَ إِنَّمَا أَخْشَى عليكُم الشَّهواتِ الَّتِي في بُطُونِكُم وفُرُوْجِكُم ومُضِلاَّتِ الفِتَنِ وفي رِوَايَةٍ ومُضِلاتِ الهَوَى .

فَلَمَّا دَخَلَ أَكْثَرُ الناسِ في هَاتَيْنِ الفِتْنَتَيْنِ أَوْ أَحدِهِمَا أَصْبَحُوا مُتَقَاطِعِيْنَ مُتَبَاغِضِيْنَ بَعْدَ أن كَانُوا إِخْوَاناً مُتَحَابِّيْنَ مُتَواصِلِيْنَ فإنَّ فِتْنَةَ الشَّهَوَاتِ عَمَّتْ غَالِبَ الخَلْقِ فَفُتِنُوْا بِالدُنْيَا وزَهْرَتِهَا فَصَارَتْ غَايَةَ قَصْدِهِمْ لَهَا يَطْلُبُوْنَ وبِهَا يَرْضَوْنَ ولَهَا يَغْضَبُون ولَهَا يُوَالُونَ وعَلَيْهَا يُعَادُوْنَ فَقَطَعُوْا لِذلِكَ أَرْحَامَهُمْ وسَفَكُوْا دِمَاءَهُم وارْتَكَبُوا مَعَاصِيَ اللهِ بسَبَبِ ذَلِكَ .

وأمَّا فِتْنَةُ الشُّبُهاتِ والأَهْوَاءِ المَضُلَّةِ فِبَسَبَبِهَا تفرَّقَ أَهْلُ القِبْلَةِ وَصارُوْا شِيَعاً وكَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضَا وَأَصْبَحُوا أعْدَاءً وفِرَقاً وأَحْزَاباً بَعْدَ أنْ كَانُوا إِخْوَاناً قُلُوبُهُمْ على قَلْبِ رَجُلٍ وَاحدٍ فَلَمْ يَنْجُ مِنْ هَذِهِ الفِرَقِ كُلِّهَا إلا الفِرْقَةُ الوَاحِدةُ النَّاجِيَةُ .

وهُمُ المَذْكُوْرُوْنَ في قَوْلِهِ ﷺ لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظاهِرِينَ على الحَقِ لَا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأتِيَ أمْرُ اللهِ وهُمْ عَلى ذلك .

وهُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ الغُرَبَاءُ المَذْكُوْرُوْنَ فِي هذِهِ الأَحَادِيث الذينَ يَصْلحُونَ إِذَا فَسَدَ الناسُ ويُصْلِحُونَ ما أفسَدَ الناسُ مِن السُّنَّةِ وهُمُ الذينَ يَفِرُّوْنَ بِدِيْنِهِم مِن الفِتَنِ وهُمُ النُّزَّاعُ مِن القَبَائِلِ .

لأَنَّهُم قَلُّوْا فلَا يُوْجَدُ في كُلِّ قَبِيْلَةٍ مِنهم إلا الوَاحِدُ وقَدْ لا يُوْجَدُ في بَعْضِ القَبَائِلِ مِنْهُم أَحَدَ كَمَا كانَ الدَّاخِلُونَ في الاسلامِ في أَوَّلِ الأمرِ كَذلِكَ .

وفِي مُسْنَدِ الامامِ أحمدَ عن عبادةَ بنِ الصامتِ أنه قال لِرَجُلٍ مِن أصْحَابِهِ يُوْشِكُ إنْ طَالَتْ بِكَ الحَيَاةُ أنْ تَرَى الرَّجُلَ قَدْ قَرَأَ القُرْآنَ على لِسَانِ محمدٍ ﷺ فأعادَهُ وَأَبْدَاهُ وأَحَلَّ حَلاَلَهُ وحَرَّمَ حَرَامَهُ ونَزَلَ عِنْدَ مَنَازِلِهِ لا يَجُوْزُ فِيْكُم إلا كَمَا يَجُوزُ الحِمَارُ المَيْتُ .

ومِثْلُه قَوْلُ ابنِ مَسْعُودٍ يَأْتِي على الناسِ زَمَانٌ يكونُ المُؤْمِنُ فِيهِ أذَلَّ مِن الأُمَّةِ وَإِنَّمَا ذَلَّ المؤمِنُ آخِرَ الزمانِ لِغُرْبَتِهِ بَيْنَ أهلِ الفَسَادِ مِن أهْلِ الشُّبُهَاتِ والشَهوَاتِ فكلُّهُم يكْرَهُهُ ويُؤْذِيهِ لِمُخَالَفَةِ طَرِيْقَتِهِ لِطَرِيْقَتِهِم

ومَقْصُوْدِهِ لِمَقْصُوْدِهِم ومُبَايَنَتِهِ لِما هُمْ عليهِ مِن الشَّرِ والفَسَادِ والخُبْثِ وسائرِ الصِفَاتِ القَبِيْحَةِ .

وتَجِدُ أَكْثَرَ مَن يُؤْذِيْهِ سَقَطُهُمْ وسُفَلُهُم ولئآمُهُمْ لِقِلَّةِ أَعْوَانِهِ وأَنْصَارِهِ وكَثْرَةِ المُخَذِّلِيْنَ والمُرْجِفِيْن وأَعْوَانِ ابْلِيْسَ وجُنُودِهِ خَذَلَهُمُ اللهُ وَدَمَّرَهُمْ .

شعرا :

وقَـدْ تَسْلِبُ الأَيَّامُ حَـالاتِ أَهْلِهَـا
وتَعْدُوْا على أُسْدِ الرِّجَالِ الثَّعَالِبُ

آخَرُ : إذَا هَلَكَتْ أُسْدُ العَرِيْنَ ولم يَكُنْ
لَهَا خَلَفٌ في الغِيْلِ سَادَ الثَّعَالِبُ

آخر : لَمَّا تَبَدَّلَتِ المَجَالِسُ أَوْجُهاً
غَيْـرَ الذين عهِـدْتُ مِن عُلَمَـائِهَـا

وَرَأَيْتُهَـا مَحفُـوفَـةً بِسِـوَى الأُولَى
كَـانُـوا وُلاَةِ صُـدُوْرِهَـا وَفِنَـائِهَـا

أَنْشَـدْتُ بَيْتـاً سَـائِـراً مُتَقَـدِّمـاً
والعَيْنُ قَـدْ شَرِقَتْ بِجَـارِيَ مَائِهَـا

أَمَّـا الـخِيَـامُ فَـإِنَّهَـا كَخِيَـامِهِمْ
وَأَرَى رِجَـالَ الحَيِّ غَيْـرَ رِجَـالِهَـا

فَيَا لَهُ مِن زَمَانٍ يُوَاجِهُ فِيهِ المؤمِنُ الصَّابِرُ عَوَاصِفَ الفِتَنِ ورُبَّمَا تَمَنَّى المَوْتَ لِمَا يَرَىَ مِن المُنْكَراتِ الَّتِيْ لا يَسْتَطِيْعُ لَهَا تَغْيِيْراً واسْمَعْ إِلى مَا وَرَدَ عن بعضهم :

فَعَنْ مَحْمَر عَن يَحْيَ بْن أَبِي كَثِيرٍ قال دَخلْتُ عَلَى أَبِي مَسْلَمَةَ ابْنِ عَبْدِ الرحمن وهو مَرِيْضٌ فقالَ إنْ اسْتَطَعْتَ أن تَمُوْتَ فَمُتْ فَوَاللهِ لَيَأْتِي على الناسِ زَمَانٌ يكونُ الموتُ أَحَبَّ إلى أحدِهِم مِن الذَّهَبِ الأَحْمَرِ .

قُلْتُ وفي زَمَنِنا هَذَا مَوْجُوْدٌ في كَثِيْرٍ مِن أَقْطَارِ الأَرْضِ مُسْلِمُوْنَ يُنَوَّعُ عَلَيهِم العَذَابُ عَشِيَّةً وضُحاهَا وبِوِدِّهِم لَوْ ماتُوا واسْتَرَاحُوا فالموتُ أَحَبُّ إليهم مِن الذهبِ الأَحْمَرِ وقال طاوُوْسُ لا تُحْرِزُ دِيْنَ المرءِ إلا حُفْرَتُه .

ورُوِيَ أَنَّ ابنَ عَبَّاسٍ قال لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَكْثَرْتَ مِن الدُّعَاءِ بالموتِ حَتَّى خَشِيْتَ أنْ يَكونَ ذَلِكَ أَسْهَلَ لَكَ عندَ أوَانِ نُزُوْلِهِ فَلِمَاذا مَلَلْتَ أَمَا تُعِيْنُ صَالِحاً أَوْ تُقَوِّمُ فاسِداً قال يا ابنَ عَبَّاسٍ إني قَائِلٌ لَكَ قَوْلاً وهُوَ إلَيكَ قالَ قُلْتُ لَنْ يَعْدُوْنِي قال كَيْفَ لا أُحِبُّ فِرَاقَهُم وفِيْهِم ناسٌ كلٌ فَاتِحٌ فَاهُ لِلَهْوَةٍ مِن الدُّنْيَا إما بحَقٍّ لا يَنُوْءُ بِهِ أو بِبَاطِلٍ لا يَنالُهُ ولَوْلاَ أنْ أُسْأَلَ عَنْهُم لَهَرَبْتُ مِنكُم فأَصْبَحَ الأَرْضُ مِنِّي بَلاَقِعُ .

ومِن كَلَامِ أَحْمَدَ بْنِ عَاصِمٍ الأَنْطَاكِيْ وكانَ مِن كِبَارِ التَّابِعِيْنَ قال إِنِي أَدْرَكْتُ مِن الأَزمِنَةِ زَماناً عَادَ فِيه الاسلامُ غَرِيْباً كَما بَدَا إنْ تَرْغَبَ فيه إلى عَالَمٍ وَجدْتَهُ مَفْتُوْناً بحُب الدُّنْيا يُحبُّ التَّعْظِيْمَ والرِّيَاسَةَ ، قُلْتُ وَمَا أكثرهُ في زَمِننَا فأمْعِنْ نظرَكَ ، قال وإنْ تَرْغَبَ فيه إلى عَابِدٍ وَجدْتَهُ جاهِلاً في عِبَادَتِهِ مَخْدُوْعاً صَرِيْعاً غَدْرَة إبْلِيْسَ قَدْ صَعَدَ بِهِ إلى أعْلاَ دَرَجَةِ العِبَادَةِ وهو جَاهِلٌ بأدْنَاها فَكَيْفَ لَهُ بأعْلاَهَا .

وسَائِرُ ذَلِكَ مِن الرَّعَاعِ هَمَجٌ عُوجٌ ذِئَآبٌ مُخْتَلِسَةٌ وسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ وَثَعَالِبُ ضَوَارٍ هَذَا وَصْفُ عُيُوْنِ أَهْلِ زَمَانِكَ مِن حَمَلَةِ العِلْمِ والقُرْآنِ

ودُعَاةِ الحِكْمَةِ خَرَّجَهُ أَبُوْ نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ فهذا وَصْفُ أَهْلِ زَمَانِهِ فَكَيْفَ بِمَا حَدَثَ بَعْدَهُ مِن العَظَائِمِ والدَّوَاهِي الَّتِي لَم تَخْطُرْ بِبَالِهِ ولم تَدُرْ في خَيَالِهِ من المنكرات .

وعن الحسنِ البَصْرِي أَنَّه قَالَ لَو أَنَّ رَجُلاً مِن الصَّدْرِ الأَوَّلِ بُعِثَ اليومَ مَا عَرَفَ مِنَ الاسْلامِ شيئاً إلا تِلكَ الصلاة . قُلْتُ وفي زمننا الصلاة جِسْمٌ بلا رُوْحٍ عندَ كَثِيرٍ مِن البَقَايَا المُتَمَسِّكِينَ بها فلا حَوْلَ ولا قوةَ الا بالله العلي العَظِيم وَهُو حَسْبُنا وَنِعمَ الوَكِيل .

ثُمَّ قَالَ والذي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَئِنْ عَاشَ على هَذِهِ المُنْكَراتِ فَرأى صَاحِبَ بِدْعَةٍ يَدْعُو إِلى بِدْعَتِهِ وصَاحِبَ دُنْيَا يَدْعُو إِلى دُنْيَاهُ فَعَصَمَهُ الله تعالى وَجَعَلَ قَلْبَهُ يَحِنُّ إلى ذِكْرِ السَلَفِ فَيَتْبَعُ آثارَهُم ويَسْتَنُّ بِسُنَّتِهِمْ وَيَتْبَعُ سَبِيْلَهُمْ كَانَ لَهُ أَجْرٌ عَظِيْمٌ .

وَقَالَ عَلِيُّ بِنُ أَبِي طَالِبٍ تَعَلَّمُوا العِلْمَ تُعْرَفُوا بِه واعْمَلُوْا به تَكُوْنُوا مِن أَهْلِهِ فإنه سَيَأتِيْ بَعْدُ زَمَانٌ يُنْكِرُ الحَقَّ فيه سَبْعَةُ أَعْشَارِهِمْ .

وقال ابْنُ مَسْعُوْدٍ يُوشِكُ مَنْ عَاشَ مِنْكُم أَنْ يَرَى مُنْكَراً لا يَسْتَطِيْعُ لَهُ غَيْرَ أنْ يَعْلَمَ الله مِن قَلْبِهِ أنه لَهُ كَارِهٌ . قُلْتُ وقَدْ وقَعَ شَيءٌ كَثِيْرٌ في زَمِنِنَا وَقَبْلَهُ مثل الصُوَرِ والتلفزيونِ والفيديوِ والمذياعِ ، والكُوْرة والسُّفُورِ وحلقِ اللحيةِ والدُّخَانِ .

وقال أبو الدَّرْدَاءِ لَوْ خَرَجَ إِلَيْكم رَسُوْلُ اللهِ ﷺ اليومَ مَا عَرَفَ شيئاً مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وأَصْحابُهُ إلا الصلاة وعن ابنِ عَباسٍ قالَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ مَنْ تَمَسَّكَ بسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أمَّتِي فَلَهُ أَجْرُ مائةِ شَهِيْدٍ رواه البيهقي ورواه الطبراني من حديث أبي هريرة إلا أَنَّه قال فله أجر شهيد .

وروى الترمذيُ عن أَبي أُميَّةَ الشَعْبَانِي قَالَ أَتَيْتُ أَبا ثَعْلَبَةَ الخُشَنِي فَقُلْتُ لَهُ مَا تَصْنَعُ بِهَذِهِ الآيَةِ قَالَ أَيَّةُ آيَةٍ قُلْتُ قول الله تعالى « يا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .

قال أَمَا والله لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيْراً سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُوْلَ الله ﷺ فَقَالَ بَلِ ائْتَمِرُوْا بالمَعْرُوْفِ وتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحاً مُطَاعَاً وَهَوًى مُتَّبعاً ودُنْياً مُؤْثَرَةً وإِعْجَابَ كُلِّ ذِيْ رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ العَوَّامَ .

فانَّ مِن وَرَائِكُم أَيَّاماً الصَّابِرُ فِيْهِنَّ عَلَى دِيْنِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيْهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِيْنَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُم قال الترمذيُ عن ابنِ مُبَارَكٍ وزَادَ غَيْرُ عُتْبَةَ أَيْ الرَّاوِي وهُوَ ابنُ حَكِيْمٍ خَمْسِيْنَ رَجُلاً مِنْكُمْ وروى الطَّبَرَانِيُ مِن حَدِيْثِ عُتْبَةَ بِن غَزْوَانَ قَالَ قَالَ رسولُ الله ﷺ مِن وَرَائِكُمْ أَيَّامُ الصَّبْرِ المُتَمَسِّكُ فِيْهَا يَوْمَئِذٍ بِمثل ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ كأَجْرِ خَمْسِيْنَ مِنْكُمْ .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

هَـذَا ولِلْمُتَمَسِّكِيْنَ بِسُنَّةِ الْـ
مُخْتَارِ عِنْدَ فَسَادِ ذِيْ الأَزْمَانِ
أَجْرٌ عَظِيْمٌ لَيْسَ يَقْدُرُ قَدْرَهُ
إلا الذِي أَعْطَاهُ لِلإِنْسَانِ
فَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنٍ لَهُ
وَرَوَاهُ أَيْضاً أَحْمَدُ الشَّيْبَانِي
أَثَراً تَضَمَّنَ أَجْرَ خَمْسِيْنَ امْرَأً
مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ خِيْرَةِ الرَّحْمَنِ

إسْنَــادُهُ حَسَــنٌ ومِصْــدَاقٌ لَــهُ
في مُسْلِمٍ فَــافْهَمْهُ بــالاحْسَــانِ
أَنَّ العِبَــادَةَ وَقْتَ هَــرْجٍ هِجْــرَةٌ
حَــقــاً إلــيَّ وَذَاكَ ذُوْ بُــرْهَــانِ
هَذَا فَكَمْ مِن هِجْرَةٍ لَكَ أَيُّهَا السّـ
ـنِّــيُّ بِــالتَّحْقِيْقِ لاَ بــأَمَــانِ
هَــذَا وَكَمْ مِن هِجْرَةٍ لَهُمُ بِمَــا
قَــالَ الــرســولُ وجَــاءَ فِي القُرآن
وَلَقَدْ أَتَى مِصْدَاقُه فِي التِرْمِذِيّـ
ـي لِــمَــنْ لَــهُ أُذُنَــانِ وَاعِــيَــتَانِ
في أَجْـرِ مُحْيِي سُنَّةً مَـاتَتْ فَـذَا
كَ مَعَ الـرسـولِ رَفِيْقُـهُ بِجِنَــانِ
هَــذَا ومِصْــدَاقٌ لَــهُ أيضــاً أَتَى
في التِـرْمِـذِيْ لِمَنْ لَـهُ عَيْنَــانِ
تَـشْـبِـيْـهُ أُمَّتِـهِ بِـغَـيْـثٍ أوّلٍ
مِــنْــهُ وآخِـرُهُ فَـمُـشْـتَـبِـهَـانِ
فَلِذَاكَ لاَ يُدْرَي الذي هُـوَ مِنْهُمَا
قَـدْ خُصَّ بِـالتَّفْضِيْـلِ والـرُّجْحَانِ
ولَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ الْفَضْلَ فِي الطَّـ
ـطَرَفَيْـنِ أَعْــنِـيْ أَوَّلاً والــثَّـانِـي
والْـوَسْطُ ذُوْ ثَبَجٍ فـاعْـوَجَ هَكَـذَا
جَــاءَ الحَـدِيْثُ ولَيْسَ ذَا نُكْـرَانِ

ولَقَدْ أَتَى في الوَحْيِ مِصْدَاقٌ لَهُ
فِي الثُّلَّتَيْنِ وذَاكَ في القُرْآنِ
أَهْلُ اليَمِيْنِ فَثُلَّةٌ مَعْ مِثْلِهَا
والسَّابِقُوْنَ أَقَلُّ في الحُسْبَانِ
مَا ذَاكَ إلَّا أنَّ تَابِعَهُمْ هُمُ الْـ
غُرَبَاءُ لَيْسَتْ غُرْبَةَ الأَوْطَانِ
لَكِنَّهَا واللهِ غُرْبَةُ قَائِمٍ
بِالدِّيْنِ بَيْنَ عَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ
فَلِذَاكَ شَبَّهَهُمْ بِهِ مَتْبُوْعُهُمْ
في الغُرْبَتَيْنِ وَذَاكَ ذُوْ تِبْيَانِ
لم يُشْبِهُوْهُمْ في جَمِيْعِ أُمُوْرِهِمْ
مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ
فَأنْظُر إلى تَفْسِيْرِهِ الغُرَبَاءَ بِالْـ
مُحْيِيْنَ سُنَّتِهِ بِكُلِّ زَمَانِ
طُوْبَي لَهُمْ والشَّوْقُ يَحْدُوْهُمْ إِلَى
أَخْذِ الحَدِيْثِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ
طُوْبَي لَهُمْ لَمْ يَعْبَؤُا بِنُحَاتَةِ الْـ
أفْكَارِ أَوْ بِزُبَالَةِ الأَذْهَانِ
طُوْبَي لَهُمْ رَكِبُوا عَلَى مَتْنِ العَزَا
ئِمِ قَاصِدِيْنَ لِمَطْلعِ الإِيْمَانِ
طُوْبَي لَهُمْ لَمْ يَعْبَؤُا شَيْئاً بِدَالْـ
أَراءِ إذْ أَغْنَاهُمُ الوَحْيَانِ

طُـرْبَي لَهُمْ وإِمامُهُمْ دُوْنَ الـوَرَى
مَنْ جَـاءَ بـالإِيْمَـانِ والفُـرْقَـانِ
واللهِ مَـا ائْتَمُّـوْا بِشَخْصٍ دُوْنَـهُ
إلَّا إِذَا مَـا دَلَّـهُـمْ بِـبَـيَـانِ
في البَـابِ آثَارٌ عَـظِيْمٌ شَأْنُهَـا
أَعْيَتْ عَلَى العُلَمَـاءِ في الأَزْمَانِ
إِذْ أَجْـمَـعَ العُـلَمَـاءُ أنَّ صَـحَـابَـةَ الْـ
مُـخْـتَـارِ خَـيْـرُ طَـوَائِـفِ الإِنْـسَـانِ
ذَا بالضَّرُوْرَةِ لَيْسَ فِيْهُ الخُلْفُ بَيْـ
نَ اثْنَيْنِ مَـا حُكِيَتْ بِـهِ قَـوْلَانِ
فَلِذَاكَ ذِي الآثَـارِ أَعْضَـلَ أَمْرُهَـا
وبَغَـوْا لَهَـا التَّفْسِيْـرَ بـالإِحْسَـانِ
فـاسْمَـعْ إِذاً تَـأْوِيْلَهَـا وافْهَمْـهُ لَا
تَعْجَـلْ بِـرَدٍّ مِـنْـكَ أَوْ نُكْـرَانِ
إِنَّ البِـدَارَ بِرَدِّ شَيْءٍ لَمْ تُحِطْ
عِلْماً بِـهِ سَبَبٌ إلى الحِرْمَـانِ
والـفَـضْـلُ مِـنْـهُ مُـطْلَقٌ ومُقَـيَّـدٌ
وهُمَـا لِأَهْـلِ الفَضْـلِ مَـرْتَبَتَـانِ
والفَضْلُ ذُوْ التَّقْيِيدِ لَيْسَ بِمُـوْجِبٍ
فَضْـلًا عَلَى الإِطْـلَاقِ مِن إِنْسَـانِ
لا يُـوْجِبُ التَقْيِيْدُ أَنْ يَقْضِيْ لَـهُ
بـالاسْتِـوَاءِ فَكَيْفَ بـالـرُّجْحَـانِ

إِذْ كَانَ ذُوْ الاطلاقِ حَازَ مِن الفَضَا
ئِـلِ فَوْقَ ذِي التَّقْيِيْـدِ بـالإِحْسَـانِ
فـإِذَا فَـرَضْنَـا وَاحِـدَاً قَـدْ حَـازَنَـوْ
عَاً لَمْ يَحُـزْهُ فَـاضِـلُ الإِنْسَـانِ
لم يُوْجِبِ التَّخْصِيْصُ مِن فَضْلٍ عَلَيْـ
ـهِ وَلا مُـسَـاوَاةٍ ولا نُـقْـصَـانِ
مَـا خَلْقُ آدَمَ بـاليَـدَيْنِ بِمُـوْجِبٍ
فَضْـلاً على المَبْعُـوْثِ بـالقُـرْآنِ
وكَذَا خَصَائِصُ مَن أَتَى مِن بَعْدِهِ
مِنْ كُـلِ رُسْـلِ اللهِ بـالبُـرْهَـانِ
فَمُحَـمَّـدٌ أَعْـلاهُمُ فَـوْقـاً وَمَـا
حَكَمْتَ لَهُمْ بمَـزِيَّـةِ الـرُّجْحَـانِ
فالحَائِزُ الخَمْسِيْنَ أَجْراً لَمْ يَحُزْ
هَا فِي جَمِيْعِ شَـرَائِعِ الإِيْمَـانِ
هَلْ حَازَهَا فِيْ بَدْرٍ أَوْ أُحْدٍ أَوِ الْـ
فَتْـحِ الْمُبِيْنِ وبَيْعَـةِ الـرِّضْـوَانِ
بَلْ حَازَهَا إِذْ كَانَ قَدْ عَدِمَ المُعِيْـ
نَ وهُمْ فَقَـدْ كَانُـوا أُولِي أَعْـوَانِ
والرَّبُ لَيْسَ يُضِيْعُ مَا يَتَحَمَّلُ الْـ
مُـتَـحَـمِّلُونَ لأَجْـلِهِ مِـن شَـانِ
فَتَحَمُّـلِ العَبْدِ الـوحيدِ رِضَـاهُ مَعْ
فَـيْضِ الـعَـدُوِّ وَقِـلَّـةِ الأَعْـوَانِ

مِمَّـا يَـدُلُّ على يَقِيْنٍ صَـادِقٍ
وَمَـحَبَّـةٍ وَحَـقِيْـقَـةِ الـعِـرْفَـانِ

يَـكْفِيْـهِ ذُلاًّ وَاغْتِـرَابـاً قِـلَّةُ الْـ
أَنْصَـارِ بَيْنَ عَسَـاكِـرِ الـشَّيْـطَانِ

فِي كُـلِّ يَـوْمٍ فِـرْقَـةٌ تَغْـزُوْهُ إِنْ
تَـرْجِـعْ يُـوَافِيْـهِ الفَـرِيْقُ الثَّـانِي

فَسَلِ الغَرِيْبَ المُسْتَضَامَ عَنِ الذِيْ
يَلْقَـاهُ بَيْنَ عِـدًى بِـلاَ حُسْبَـانِ

هَذَا وَقَدْ بَعُدَ المَدَى وَتَـطَاوَلَ الْـ
عَهْدُ الذِيْ هُـوَ مُوْجِبُ الإِحْسَـانِ

ولِذَاكَ كَانَ كَقَـابِضٍ جَمْراً فَسَـلْ
أَحْشَـاءَهُ عَنْ حَـرِّ ذِيْ الـنِيْـرَانِ

واللهُ أَعْـلَمُ بـالـذِيْ فِـي قَـلْبِـهِ
يَـكْفِيْـهِ عِلْمُ الـوَاحِـدِ الـمَنَـانِ

في القَلْبِ أَمْـرٌ لَيْسَ يَقْدُرُ قَـدْرَهُ
إِلا الــذِيْ آتَـاهُ لِـلإِنْـسَـانِ

بِـرٌّ وتَـوْحِيْـدٌ وصَبْرٌ مَـعْ رِضَـا
والـشُـكْـرُ والتَّـحْـكِيْمُ لِلْقُـرْآنِ

سُبْحَـانَ قَـاسِمِ فَضْلِهِ بَيْنَ العِبَـا
دِ فَـذَاكَ مُوْلِ الفَضْـلِ والإِحْسَانِ

فالفَضْلُ عِنْدَ اللهِ لَيْس بِصُوْرَةِ الْـ
أَعْمَـالِ بَـلْ بِحَقَـائِقِ الإِيْـمَـانِ

وَتَفَاضُلُ الأَعْمَالِ يَتْبَعُ مَا يَقُوْ
مُ بِقَلْبِ صَاحِبِهَا مِن البُرْهَانِ
حَتَّى يَكُونَ العَامِلاَنِ كِلاَهُمَا
فِي رُتْبَةٍ تَبْدُوْ لَنَا بِعِيَانِ
هَذَا وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَا
والأَرْضِ في فَضْلٍ وَفِي رُجْحَانِ
وَيَكُونُ بَيْنَ ثَوَابِ ذَا وَثَوَابِ ذَا
رُتَبٌ مُضَاعَفَةٌ بِلا حُسْبَانِ
هَذَا عَطَاءُ الرَّبِ جَلَّ جَلاَلُهُ
وبِذاكَ تُعْرَفُ حِكْمَةُ الرَّحْمٰنِ

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم .

« موعظة »

عِبَادَ اللهِ إنَّ لَكُمْ بأَبْدَانِكُم عِنَايَةٌ عَظِيْمَةٌ لا تُسَامِيْهَا العِنَايَاتُ بَلْ كُلَ حَيَاتِكُم ذَاهِبَةٌ فِيْمَا تَبْذِلُونَهُ لِخِدْمَةِ هَذَا البَدَنِ مِنْ مَجْهُودَاتٍ أَلَيْسَ لَيْلُكُم وَنَهَارُكُم في كَدٍّ مُدِيْمٍ لِجَمْعِ الأَمْوَالِ وهَلْ كلُ تِلْكَ الأَمْوَالِ إلا وَسِيْلَةٌ تَصِلُونَ بِهَا مَا لِهَذَا البَدَنِ مِنْ مَلْذُوْذَاتٍ .

لا بَأْسَ بالاعْتِنَاءِ بالبَدَنِ لَكِنْ بدُوْنِ هَذَا الافْرَاطِ الَّذِيْ لاَ يَرْتَضِيْهِ العَاقِلُ اللَّبِيْبُ لِأَنَّ البَدَنَ مَهمَا أَكْرِمَ مَآلُهُ إِلَى التُرَابِ تَتَمَتَّعُ بِلَذِيْذِ لَحْمِهِ الدِيْدَانُ والذي يَنْبَغِي أَنْ تَهْتَمَّ بِهِ وتَصْرِفَ عِنَايَتَكَ بِهِ نَفْسَكَ قَبْلَ جِسْمِكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مِن صَفْوَةِ هَذَا العَالَمِ وعَلَى العِنَايَةِ بِهَا تَتَوَقَّفُ سَعَادَتُكَ في هَذِهِ الحَيَاةِ وَبعْدَ المَمَاتِ .

ولِهَذِهِ النَّفْسُ غِذَاءٌ وَلعَلَّكَ تَوَدُّ أَنْ تَعْرِفَهُ وهُوَ جدِيْرٌ بالإِعْتِنَاءِ مِنْكَ والتّقْدِيْرِ والجِدّ لَهُ والتَّشْمِير لأَنَّ مَنْفَعَتَهُ دُنْياً وأُخْرَى ولا نِسْبَةَ بَيْنَهَا وبَيْن مَنْفَعَةِ هَذِهِ الأَبْدَانِ .

ذَلِكَ الغِذَاءُ أَوِ القُوْتُ هُوَ أَنْوَاعُ الطّاعَاتِ كاخْلاَصِ الأَعْمَالِ للهِ والذِكْرِ لَهُ والشُّكْرِ لَهُ وَمَحبَّتِهِ وتَعْظِيْمِهِ والقِيَامِ التَّامِ بأَرْكَانِ الاسلامِ الشَّهَادَتَيْنِ وَالصلاةِ والزَّكَاةِ والصِيَامِ والحَجِ وسَائِرِ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وأَنْوَاعِ العُلُومِ والمَعَارِفِ أَوْحَاهَا اللهُ وأوْدَعهَا هَذِهِ المَصْنُوعَاتِ .

والاعْتِنَاءِ بمكَارِمِ الأخلاقِ ومَحَاسِنِ الشِيَمِ وما إِلى ذَلِكَ مِن أَنْوَاعِ القُرُبَاتِ والذي يَظْهَرُ لَنَا مِن حَالِكَ وسِيْرَتِكَ أَنَّكَ في شُغْلٍ شَاغِلٍ عن الإِقْبَالِ عَلَى النَّفْسِ وَتَغْذِيَتِهَا بِمَا قُلْنَا مِن أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ ذَلِكَ أنَّ قَلْبَكَ مُتَعَلِّقٌ بتَحْصِيْلِ غِذَاءِ الجِسْمِ والاعْتِنَاءِ بِهِ فَهُوَ الذِي نَصْبَ عَيْنَيْكَ .

ولِذَلِكَ تَشِبُّ وتَشِيْبُ وتَمُوْتُ وأَنْتَ جَاهِلٌ بِضَرُوْرِيَاتِ الدِيْنِ الإِسْلامِي ورُبَّمَا مَرَّ عَلَيْكَ مُدَّةً طَوِيْلَةً بِدُوْنِ أَنْ تَتَفكَّرَ بِنِعَمِ اللهِ وتَذْكُرُهُ بِلِسَانِكَ وتَشْكُرَهُ عَلَى مَا أَوْلاَكَ وكَذَلِكَ الآخِرَةَ رُبَّمَا أَنها تَمْضِي المُدَّةُ لا تَذْكُرُهَا ولا تَسْتَعِدُّ لَهَا .

وكَمَا أَنَّ لِلأَبْدَانِ أَمْرَاضٌ كَثِيْرَةٌ فَلِنَّفْسِ أَمْرَاضٌ أَكْثَرُ وأَعْظَمُ وأَخْطَرُ وتِلْكَ الأَمْرَاضُ هِيَ السَّيئآتِ التِيْ مَن وُقِيَهَا رُحِمَ قال اللهُ تعالى « ومَن تَقِ السَّيئآتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيْم » .

وكذلكَ مِن أَمْرَاضِ النَّفْسِ رَذَائِلُ الأَخْلاَقِ والجَهْلُ بالشَّرْعِ الحَكِيمِ ولِهذه الأَمْرَاضِ دَوَاءٌ نافع بإذنِ اللهِ أَنْ تَتُوْبَ تَوبَةً نَصُوْحاً إِلى اللهِ وتَتَخَلَّقَ بِضِدِّ الفِعْلِ أَوِ الخُلُقِ الذّمِيْمِ فهَلْ لَكَ شَوْقٌ إِلى هَذَا الدَّوَاءِ

الشّافِي بإِذْنِ اللهِ كَمَا أَنَّكَ تَشْتَاقُ بَلْ تُهَرْوِلُ وتُسْرِعُ إلى طَبِيْبِ الأَبْدَانِ وَمعَكَ مَا مَعَكَ مِن المَالِ إِذَا أَحْسَسْتَ بِمَرَضٍ في بَدَنِكَ وانْ لَمْ تَجِدْ في بِلَادِكَ ذَهَبْتَ تَطْلُبُ الشِّفَاءَ ولَو فِي بلادِ الحُرِّيَةِ والكُفْرِ مُحَكِّمَة القَوانِيْن أعداءَ اللهِ ورَسُوْلِهِ والمؤمِنِيْن .

أَمَّا بَدِيْعُ السَّموات والأَرْضِ فلا أَرَاكَ تَلْتَجِي لَهُ إلا عِنْدَ الشَّدَائِدِ وهذا وَاللهِ قَبِيْحٌ مِمَّنْ يَدِيْنُ بِدِيْنِ الاسلامِ ويُؤْمِنُ بالبَعْثِ والنُشُوْرِ ، فالتَفِتْ يَا أخِيْ لِنَفْسِكَ وَذَكِّرْهَا بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ لِتَتَمَكَّنَ مَحَبَّتُهُ مِنها واقْبِل عَلَيْهَا وَعَوِّدْهَا على الآدابِ الشَّرْعِيَّةِ .

شعراً :

يا خادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَسْعَى لِخِدْمَتِهِ
أتَطْلُبُ الرِّبْحَ مِمَّا فِيْهِ خُسْرَانُ
أَقْبِلْ عَلى النَّفْسِ واسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا
فأَنْتَ بالنَّفْسِ لا بالجِسْمِ إِنْسَانُ
آخر : أَرَى وُجُوْدَكَ هَذَا لَمْ يَكُنْ عَبَثاً
إلا لِتَكْمُلَ مِنْكَ النَّفْسُ فانْتَبِهِ
فاعْدِلْ عَنِ الجِسْمِ لا تُقْبِلْ عَلَيْهِ وَمِلْ
إلى رِعَايَةِ مَا الإنسانُ أَنْتَ بِهِ
فَمُؤْيِسُ النَّفْسِ عن أَهْوَائِهَا يَقِظٌ
ومُطِوعُ النَّفْسِ فِيْهِ غَيْرِ مُنْتَبِهِ
واسْلُكْ سَبِيْلَ الهُدَى تَحْمِدْ مَغَبَّتَهُ
فَمَنْهَجُ الحَقِّ بَادٍ غَيْرُ مُشْتَبِهِ

إذا فَهِمْتَ ذَلِكَ فاعْلَمْ أَنَّ غِذَاءَ نَفْسِكَ وَدَوَائَهَا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ العَامِلِيْنَ بِهِ الذِيْنَ يُصَدِّقُوْنَ أَقْوَالَهُم بأَفْعَالِهِمْ المُعَظِّمُوْنَ لِلشَّرِيْعَةِ الذِيْنَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ذَكَرْتَ اللهَ الذِيْنَ لا يَتَشَبَّهُوْنَ بأَعْدَاءِ اللهِ ولا يُجَاهِرُوْنَ بالمَعَاصِيْ الصَّادِعُونَ بالحَقِّ الذِيْنَ لَا تَأْخُذُهُمْ في اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ الذِيْنَ لَا تَهُمَّهُمْ الدُنْيَا وَزَخَارِفُهَا البَرَّاقَةُ .

وكَذَلِكَ مَوْجُوْدٌ الدَّوَاءُ الذيْ ذَكَرنَا في كُتُبِ العُلَمَاءِ السَّلَفِيِّيْنَ أَتْبَاعَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِيْنَ كَالْائِمَةِ الأَرْبَعَةِ والمُوَفَّقِ وابْنِ أَبِي عُمَرَ وشَيْخِ الاسلامِ وابنِ القيمِ وابنِ رَجَبَ وابْنِ مُفْلِحِ وابْنِ كُثَيْرٍ ومَنْ تَلْمَذَ عَلَى كُتُبِهِمْ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ واقْتَفَى أَثَرَهُمْ وسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ فَجَزَاهُمُ اللهُ عن الإِسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ خَيْرَاً اللَّهُمَّ وفِّقْنَا لِمَا وَفَّقْتَ القَومَ واجْعَلْنَا مِن عبادكَ الذينَ يقولونَ الحقَّ ولَا يَخْشَوْنَ اللَّوْمَ وَيَتَهَجَّدُوْنَ باللَّيْلِ ويُقَلِّلُوْنَ النَّوْمَ .

وأَرْزُقْنَا الاسْتِعْدَادَ لِذَلِكَ اليَوْمِ ويَسِّرْنَا لِليُسْرَى وَجَنِّبْنَا العُسْرَى يا حَيُّ يَا قَيُّومُ واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل »

« مِن رِسالةِ الامام مَالِكٍ »
« لِهُرُوْنَ الرَّشِيْد »

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ »

الحمدُ لِلّهِ رَبِ العَالَمِين ، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ المرسلينَ ، سيدِنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين .

أَمَّا بَعْدُ ، فإنّي كَتَبْتُ إِلَيْكَ بِكِتَابٍ لَمْ آلُكَ فِيْهِ رُشْداً ، وَلَمْ أَدَّخِرْكَ فِيهِ نُصْحاً ، تَحْمِيْداً لِلهِ ، وأدَباً عن رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ فَتَدَبَّرْهُ بعَقْلِكَ ، وَرَدِّدْ فِيهِ بَصَرَكَ ، وَارْعِهِ سَمْعَكَ ، ثم اعْقِلْهُ بِقَلْبِكَ ، وأَحْضِرْهُ فَهْمَكَ ، ولا تُغَيِّبَنَّ عنه ذِهْنَكَ .

فإنَّ فِيْهِ الفَضْلَ فِي الدُنْيَا ، وحُسْنَ ثَوَابِ اللهِ تعالى في الآخِرَةِ ، اذْكُرْ نَفْسَكَ في غَمَرَاتِ المَوْتِ وَكُرَبِهِ ، وَمَا هُوَ نَازِلٌ بِكَ مِنْهُ ، وَمَا أَنْتَ مَوْقُوْفٌ عَلَيْهِ بَعْدَ المَوتِ مِن العَرْضِ على اللهِ سُبْحَانَهُ ، ثُمَّ الحِسَابَ ، ثُمَّ الخُلُودَ بَعْدَ الحِسَابِ .

وأَعِدَّ للهِ عَزَّ وَجلَّ ما يُسَهِّلُ بِهِ عَلَيْكَ أَهْوَالَ تِلْكَ المَشَاهِدَ وكُرَبِهَا ، فإنَّكَ لَوْ رَأيْتَ أَهْلَ سَخَطِ اللهِ تعالى ، وَمَا صَارُوْا إليهِ مِن أَلْوَانِ العَذَابِ ، وشِدَّةِ نِقْمَتِهِ عَلَيْهِم ، وسَمِعْتَ زَفِيْرَهُم في النارِ وشَهِيْقَهُمْ ، مَعَ كُلُوحِ وُجُوْهِهِم ، وَطُوْلِ غَمِّهِمْ ، وَتَقَلُّبِهِمْ في دَرَكَاتِهَا عَلَى وُجُوْهِهِم ، لا يَسْمَعُوْنَ ولا يُبْصِرُوْنَ ، ويَدْعونَ بالوَيْلِ والثُّبُورِ .

وأَعْظَمُ مِن ذَلِكَ حَسْرَةً إِعْرَاضُ اللهِ تَعَالَى عَنْهُمْ ، وانْقِطَاعُ رَجَائِهِمْ ، وإجَابَتُهُ إِيَّاهُمْ بَعْدَ طُوْلِ الغَمِّ بِقَوْلِهِ : ﴿اخْسَئُوا فِيْهَا ولا تُكَلِّمُوْنِ﴾ .

لم يَتَعَاظَمْكَ شَيْءٌ مِن الدُنْيَا إن أَرَدْتَ النَّجاةَ مِن ذَلِكَ ، ولا أَأْمَنُكَ مِن هَوْلِهِ ، ولَوْ قَدَّمْتَ في طَلب النَّجَاةَ مِنه جَمِيْعَ مَا مَلَكَ أَهْلُ الدُنيَا ـ كانَ في مُعَايَنَتِكَ ذَلِكَ صَغِيْراً .

وَلَو رَأَيْتَ أَهْلَ طَاعَةِ اللهِ تعالى ، وما صَارُوْا إِلَيْهِ مِن كَرَمِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ ، ومَنْزِلَتِهِمْ مَعَ قُرْبِهِمْ مِن اللهِ عَزَّ وَجلَّ ، ونَضِرَة وَجُوْهِهِمْ ، ونُورِ أَلْوَانِهِم ، وسُرُوْرِهِمْ بالنَّعِيْمِ المُقِيْمِ ، والنَّظَرِ إليْهِ وَالمكانَةِ مِنْهُ .

لَتَقَلَّلَ في عَيْنِكَ عَظِيْمُ مَا طَلَبْتَ بِهِ صَغِيْرَ مَا عِنْدَ اللهِ ، ولَصَغُرَ في عَيْنِكَ جَسِيْمُ مَا طَلَبْتَ بِهِ صَغِيْرَ ذَلِكَ مِن الدُنْيَا .

فاحْذَرْ عَلَى نَفْسِكَ حَذَراً غَيْرَ تَغْرِيْرٍ ، وبَادِرْهُ بِنَفْسِكَ قَبْلَ أَنْ تُسْبَقَ إِلَيْهَا ، ومَا تَخَافُ الحَسْرَةَ مِنْهُ عِنْدَ نُزُوْلِ المَوْتِ ، وخَاصِمْ نَفْسَكَ على مَهَلٍ ، وأَنْتَ تَقْدِرُ بإِذْنِ اللهِ عَلى جَرِّ المَنْفَعَةِ إِلَيْهَا ، وصَرْفِ الحُجَّةِ عنها ، قَبْلَ أَنْ يَتَوَلَّى اللهُ حِسَابَهَا .

ثُمَّ لَا تَقْدِرُ عَلَى صَرْفِ المَكْرُوْهِ عَنْهَا واجْعَلْ مِن نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ نَصِيْباً باللَّيْلِ والنهارِ ، وصَلِّ مِن النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً ، واقْرَأْ فِيْهِنَّ مَا أَحْبَبْتَ ، إِنْ شِئْتَ صَلِّهِنَّ جَمِيْعاً ، وإِنْ شِئْتَ مُتَفَرِّقَاتٍ ، فإِنَّهُ بَلَغَنِيْ عن النبي - ﷺ - أَنَّهُ قال : « مَن صَلَّى مِن النهارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً في الجنة » والله أعلم وصلى الله على محمد .

(فصل)

وقال رَحِمَهُ اللهُ :

وَصَلِّ مِنَ اللَّيْلِ ثَمَانَ رَكَعَاتٍ بِجُزْءٍ مِن القُرْآنِ ، وأَعْطِ كُلَّ رَكْعَةٍ حَقَّهَا ، والذي يَنْبَغِي فِيْهَا مِن تَمَامِ الرُكُوعِ والسُجُودِ ، وصَلِّهِنَّ مُثْنَي مُثْنَي ، فانه بَلَغَنِي عن النبي - ﷺ - أَنَّه كانَ يُصَلِّي مِن الليلِ ثَمَانَ رَكَعاتٍ ، والوِتْرَ ثَلاثَ رَكَعَاتٍ سِوى ذَلِكَ يُسَلِّمُ مِن كُلِّ اثْنَتَيْنِ .

وصُمْ ثَلاثَة أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ : الثَّالثَ عَشَر ، والرَّابعَ عَشَرَ ، والخَامِسَ عَشَرِ ، فانه بَلَغَنِي عن النبي - ﷺ - أنه قال : « ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ » .

واَعْطِ زَكَاةَ مَالِكَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُكَ حِيْنَ يَحُولُ عَلَيه الحَوْلُ ولا تُؤَخِرْهَا بَعْدَ حِلِّهَا ، وَضَعْهَا فِيْمَنْ أَمَرَ اللهُ تعالى ، ولا تَضَعْهَا إِلَّا في أَهْلِ مِلَّتِكَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ ، فانَّهُ بَلَغَنِي عن النبي - ﷺ - أنه قال : إنَّ اللهَ تعالى لَم يَرْضَ مِن الصَّدَقَةِ بِحُكْمِ نَبِيٍّ ولا غَيْرِهِ حَتَّى حَدَّها هُوَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَجْزَاءٍ . قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَراءِ ، والمَسَاكِيْنَ ، والعاملينَ عليها ، والمؤلفةِ قلوبهم ، وفي الرقابِ ، والغارمين ، وفي سبيلِ الله ، وابنِ السبيل﴾ .

واحْجُجْ حَجَّةَ الاسلامِ مِن أَطْيَبِ مَالِكَ ، وأَزْكَاهُ عِنْدَكَ ، فإِنَّ اللهَ تَعالى لا يَقْبَلُ إلا طَيِّباً ، وبَلَغَنِي أنَّ قولَه تعالى : ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ في يَومَينِ فلا إِثْمَ عليهِ ومَن تَأَخَّرَ فلا إِثم عَلَيْهِ) غُفِرَ لَهُ .

مُرْ بِطَاعَةِ اللهِ وأَحْبِبْ عَلَيْهَا ، وانْهَ عَنْ مَعَاصِي اللهِ تعالى ، وأَبْغِضْ عَلَيْهَا ، فإِنَّه بَلَغَنِيْ عن النبي - ﷺ - أنه قال : « مُرُوْا بِالمَعْرُوْفِ ، وانْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ، فإِنَّمَا هَلَكَ مَن كَانَ قَبْلَكُمْ بِتَرْكِهِمْ نَهْيَهُمْ عَنِ المَعَاصِي ، ولَمْ يَنْهَهُمْ الرَّبانِيُونَ والأَحْبَارُ » .

فَمُرُوْا بالمَعْرُوْفِ ، وانْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ مِن قَبْلِ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ الذيْ نَزَلَ بِهِمْ ، فَأَنَّ الأَمْرَ بالمَعْرُوْفِ ، والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ لا يُقَدِّمُ أَجَلاً ، ولا يَقْطَعُ رِزْقاً .

أَحْسِنْ إلى مَنْ خَوَّلَكَ اللهُ تعالى ، واشْكُرْ تَفْضِيْلَهُ إِيَّاكَ عَلَيْهِمْ ، فإِنَّهُ بَلَغَنِي عن النبي - ﷺ - أَنَّهُ كانَ يُصَلِي فانْصَرَفَ ، وقال : « أَطَتِ السَّمَاءُ ، وحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَ ، ما فِيها مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ إلا عَلَيْهِ جَبْهَةُ مَلَكٍ سَاجِدٍ ،

فَمَنْ كَانَ لَهُ خَوَلٌ فَلْيُحْسِنْ إِلَيْهِ ، وَمَنْ كَرِهَ فَلْيَسْتَبْدِلْ ، ولا تُعَذِّبُوا خَلْقَ اللهِ » .

الْزِمِ الأَدَبَ مَنْ وُلِيتَ أَمْرَهُ وَأَدِّبْهُ ، وَمَنْ يَجِبُ عَلَيْكَ النَّظَرُ في أمرِهِ ، فانَّهُ بَلَغَنِيْ عن النبي - ﷺ - أَنَّهُ قال لِلْفَضْلِ بنِ العَبَاسِ : « لا تَرْفَعْ عَصَاكَ عَنْ أَهْلِكَ ، وأَخِفْهُمْ في اللهِ » .

لا تَسْتَسْلِمْ إلى الناسِ واسْتَجْرِهِمْ في طاعةِ اللهِ ، لا تَغْمِص الناسَ ، واخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، فإِنَّهُ بَلَغَنِي عن النبي - ﷺ - أنه قال : « ألا أُحَدِّثُكُم بوصِيَّةِ نُوحٍ ابْنَهُ . قال : آمُرُكَ باثْنَيْنِ ، وأَنْهَاكَ عن اثْنَيْنِ ، آمُرُكَ بقَوْلِ لا إلَه إلاَّ اللّهُ ، فإنها لَوْ كَانَتْ فِي كِفَّةٍ ، والسَّمَوَاتُ والأَرْضُ في كَفَّةٍ وَزَنَتها ، وَلَوْ وَضَعْتَها عَلى حَلْقَةٍ قَصَمْتَها .

وقُلْ : سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ فانَّهَا عِبَادَةُ الخَلْقِ ، وبِهَا تُقْطَعُ أَرْزَاقُهُمْ ، فانَّهُما يكثران لِمَنْ قَالَهُمَا الوُلُوجَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وأَنْهَاكَ عن الشِّرْكَ والكِبْرِ ، فإنَّ اللهَ مُحْتَجِبٌ عَنْهُمَا فقالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ : أمِنَ الكِبْرِ أنْ يَكُونَ لِيْ الدَّابَةُ النَّجِيْبَةُ ؟ قال : لا . قال : أَمِنَ الكِبْرِ أَنْ يَكُونَ لِيَ الثَّوْبُ الحَسَنُ ، قال : لا ، قال : أَفَمِنَ الكِبْرِ أن يَكُونَ لِيَ الطَّعَامُ أَجْمَعُ عليهِ الناسَ ؟ قال : لاَ .

إنما الكِبْرُ أَنْ تُسَفِّهِ الحَقَّ ، وتَغْمِصِ الخَلْقَ ، وإيَّاكَ والكِبْرَ والزَّهْوَ ، فان اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يُحِبُهُمَا، وبَلَغَنِي عن بَعْضِ العُلَمَاءِ أنه قال : « يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُوْنَ يومَ القِيامَةِ في صُوَرِ الذرِ تَطُؤُهُمُ الناسُ بِتَكَبُرِهِم على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » والله أعلم وصلى الله على محمد .

(فصل)

وقال رحمه الله :

لا تَأْمَنْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ مَنْ لَا يَخَافُ اللهَ ، فإِنَّهُ بَلَغَنِي عن عُمَرَ بنِ الخطابِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ أنه قال : شَاوِرْ في أَمْرِكَ الذينَ يَخَافُونَ اللهَ ، احْذَرْ بِطَانَةَ السُّوْءِ ، وأَهْلَ الرَّدَي على نَفْسِكَ .

فانَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النبي ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قَالَ : « مَا مِن نَبِيٍّ ولَا خَلِيْفَةٍ إلا وَلَهُ بِطَانَتَانِ : بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بالمَعْرُوْفِ وتَنْهَاهُ عَن المُنْكَرِ ، وبِطَانَةٌ لا تَأْلُوْهُ خبالاً ، وهُوَ مَعَ التيْ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وُقِيَ بِطَانَةَ السُّوْءِ فَقَدْ وُقِيَ » .

واسْتَنْبِطْنْ أَهْلَ التَّقْوَى مِن النَّاسِ ، وأَكْرِمْ ضَيفَكَ فإِنَّهُ يَحِقُّ عَلَيْكَ

إِكْرَامُهُ ، وارْعَ حَقَّ جَارِكَ بِبَذْلِ المَعْرُوْفِ ، وَكُفَّ الأَذَى عَنه ، فانَّهُ بَلَغَنِي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِن باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » .

وَتَكَلَّمْ بِخيرٍ أَوِ اسْكُتْ ، فإِنَّهُ بَلَغَنِي عن النَّبي ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قَال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيُمْسِكْ » .

واتَّقِ فُصُولَ المَنْطِقِ ، فانَّهُ بَلَغَنِي عن ابن مسعودٍ أَنَّهُ قَالَ : أُنْذِرُكُم فُضُولَ المَنْطِقِ . وأَكْرِمْ مَن وَادَّكَ ، وكَافِئْهُ بِمُودَّتِهِ ، وإِيَّاكَ والغَضبَ في غَيْرِ اللهِ ، لا تأمُرْ بِخَيْرٍ إلا بَدَأْتَ بِفِعْلِهِ ، ولا تَنْهَ عَن سُوْءٍ إِلَّا بَدَأْتَ بتَرْكِهِ ، دَعْ مِنَ الأَمْرِ مَا لَا يَعْنِيْكَ ، فانّهُ بَلَغَنِي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « مِن حُسْنِ اسْلَامِ المرءِ تَرْكهُ مَا لَا يَعْنِيْه » .

صِلْ مَن قَطَعَكَ ، واعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، واعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، فانَّهُ بَلَغَنِي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قالَ : « إنَّهَا أفْضَلُ أخلاقِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ » .

اتَّقِ كَثْرَةَ الضَّحِكِ ، فانَّهُ يَدْعُوْ إلى السَّفَهِ ، فانَّهُ بَلَغَنِي عن النبِي ـ ﷺ ـ أنَّ ضِحْكَهُ كَانَ تَبَسُّمَا.

لَا تَمْزَحْ فَتَذُمَّ نَفْسَكَ ، فانه بَلَغَنِي عن النبي ـ ﷺ ـ أنَّهُ قال : « إنِّي لأمْزَحُ ولا أقُوْلُ إلّا حَقاً » .

لا تُخَالِفْ إلى مَا نَهَيْتَ عَنْهُ ، وإذَا نَطَقْتَ فَأَوْجِزْ ، فإنَّهُ بَلَغَنِي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ في نارِ جَهَنَّمَ إلا هَذَا » يَعْنِي لِسَانَهُ .

لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، فانه بَلَغَنِي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « إنَّ أهْلَ الجَنَّةِ كُلُّ هَيِّنْ لَيِّنٍ سَهْلٍ طَلِقٍ »

اتْرُكْ مِن أعْمَالِ السِّرِ مَا لَا يَحْسُنُ بِكَ أنْ تَعْمَلَهُ في العَلَانِيَةِ اتَّقِ كُلَّ شَيْءٍ تَخافُ فِيه تُهْمَةً في دِيْنِكَ ودُنْيَاكَ ، بَلَغَنِي عن النَبِي ـ ﷺ ـ أنه قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلا يَقِفْ مَوَاقِفَ التُّهَمِ » .

أقْلِلْ طَلَبَ الحَوَائِجِ مِن النَّاسِ ، فإنَّ في ذَلِكَ غَضَاضَةً ، وَبَلَغَنِي ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال لِرَجُلٍ : « لا تَسْأَلِ الناسَ ، ولْيَكُنْ مَجْلِسُكَ بَيْتَكَ أوْ مَسْجِدَكَ » وبَلَغَنِي عن ـ النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « المَسَاجِدُ بُيُوتُ المُتَّقِيْن » .

لا تُكْثِرِ الشُّخُوصَ مِن بَيْتِكَ إلا في أمْرٍ لَا بُدَّ مِنْهُ ، فإنَّهُ بَلَغَنِي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « ستّةُ مَجَالِسِ المُسْلِمُ ضَامِنٌ عَلى اللهِ مَا كَانَ في

شَيْءٍ مِنْهُنَّ : في سَبِيْلِ اللهِ ، أَوْ فِي بَيْتِ اللهِ ، أو فِي عِيَادَةِ مَرِيْضٍ ، أَوْ شُهُودِ جَنَازَةٍ أو جُمُعَةٍ ، أو عِندَ إمامٍ مُقْسِطٍ يُعَزِّرُهُ وَيُوَقِّرُهُ » .

أَحْسِنْ خُلُقَكَ مَعَ أَهْلِكَ ، وَمَنْ اعْتَزَّ بِكَ ، فإِنَّ ذَلِكَ رِضاً لِرَبِّكَ ، وَمَحَبَّةً في أَهْلِكَ ، وَمَثْرَاةً في مَالِكَ ، وَمَنْسَأَةً في أَجَلِكَ .

فانَّهُ بَلَغَنِي «عن بَعْضِ العُلَمَاءِ مِن الصحابَةِ أَنَّهُ قال ذَلِكَ .

أَحْسِنْ البِشْرَ إلى عَامَّةِ النَّاسِ ، واتَّقِ شَتْمَهُمْ وغِيْبَتَهُم فانَّ اللهَ تَعَالَى قال : (أَيُحِبُّ أحدُكم أَن يأكلَ لَحْمَ أخِيهِ) . وبَلَغَنِي عن النبي - ﷺ - أنه قال : « لا تَشْتِمِ الناسَ » والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(فصـــل)

وقَالَ رَحِمَهُ اللّهُ :

اتَّقِ أَهْلَ الفُحْشِ ، ومُجالَسَةِ أَهْلِ الرَّدي ، ومُحَادَثَةِ الضَّعَفَةِ (أي ضُعَفَاءِ العُقُولِ) مِنَ النَّاسِ ، فإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ - أنهُ قَال : اعْتَبِرِ النّاسَ بأخدَانِهِمْ فَإِنَّمَا يُخَادِنُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِثْلَهُ .

أَكْرِمِ اليَتِيمَ ، وارْحَمْهُ ، واعْطِفْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَن النّبِيّ - ﷺ - أَنهُ قَال : « مَنْ كَفَلَ يَتِيماً لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الجَنّةِ كهاتَيْنِ » وأشَارَ بأصْبُعَيْهِ فَضَمَّهُمَا .

أَعْرِفْ لابْنِ السَّبِيْلِ حَقَّهُ ، واحْفَظْ وَصِيَّةَ اللّهِ تَعَالَى فِيْهِ فإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ أَوَّلَ مَن ضَافَ الضَّيْفَ إِبْرَاهِيْمُ الخَلِيْلُ عَلَيْهِ السّلامُ .

أعِن المَظْلُومَ ، وانْصُرْهُ مَا اسْتَطَعْتَ ، وخُذْ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ، وادْفَعْهُ

عنْ ظُلْمِهِ ، فإِنَّهُ بَلَغنِي عَنِ النّبيِّ ـ ﷺ ـ أنَّهُ قال : « مَن مَشي مَعَ مَظْلُوم ٍ حَتَّى يَثْبُتَ لَهُ حَقُّهُ ، ثَبّتَ اللّهُ قَدمهُ يوْمَ تَزُوْلُ الأقْدامُ » .

اتَّقِ اتِّبَاعَ الهَوى فِي تَرْكِ الحَقّ ، فَإِنَّهُ بلَغَنِي عَنِ النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَالَ : « إنّي أخافُ عَلَيْكُمْ اثْنَتَيْنِ : اتّبَاعُ الهَوى ، وطُوْلُ الأمَلِ » فَإِنَّ اتّبَاعَ الهَوَى يَصُدُّ عَنْ الحَقِّ ، وطُولُ الأمَلِ يُنْسِيْ الآخِرَةَ .

أنْصِفِ النّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَلاَ تَسْتَطِلْ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَن النَّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَالَ : « أشْرَفُ الأعْمالِ ثَلاثَةٌ : ذِكْرُ اللّهِ عَلى كُلِّ حالٍ ، ومُوَاسَاةُ الأخِ مِنَ المالِ ، وانْصَافُ النّاسِ مِنْ نَفْسِكَ » .

اغْضُضْ بَصرَكَ عَنْ مَحَارِمِ اللّهِ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْ عَلِيّ ـ كَرّمَ اللّهُ وَجْهَهُ ـ أنّهُ قَال : لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ ، فَإِنّما لَكَ النَّظْرَةُ الأُولَى ، وَلَيْستَ لَكَ الأُخْرَى .

اتَّقِ المَطْعَمَ الوَبِيَّ ، والمَشْرَبَ الوَبِيَّ ، والمَلْبَسَ الوَبِيَّ ، فإن ذَلِكَ تَذْهَبُ أنفَتُهُ ، وتَبْقَى عَاقِبَتُهُ ، وإنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ أدّبَ رُسُلَهُ ، فقال : ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحاً﴾ .

وقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصّلاَةُ والسّلام : « مَنْ أكَلَ بِأخِيْهِ المُسْلِمِ أكْلَةً ، أطْعَمَهُ اللّهُ مَكَانَهَا أكْلَةً مِنْ نَارٍ ، ومَنْ سَمَّعَ بِأخِيْهِ المُسْلِمِ سَمَّعَ اللّهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، ومَنْ لَبِسَ بأخِيْهِ المُسْلِمِ ثَوْباً ، ألْبَسَهُ اللّهُ مَكَانَهُ ثَوْباً مِنْ نار » .

اقْبَلْ عُذْرَ مَنِ اعْتَذَرَ إلَيْكَ ، وارْجِعْ عَمَّا كَرِهْتَ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَن النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَال : « مَنِ اعْتَذَرَ إلى أَخِيْهِ المُسْلِمِ فَلَمْ يَعْذُرْهُ كانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ صَاحِبِ مَكْسٍ » .

لِتَكُنْ يَدُكَ العُلْيَا عَلَى كُلِّ مَنْ خَالَطتْ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِيْ عَن النّبيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَال : « اليَدُ العُلْيَا خيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى » .

اصْحَبِ الأَخْيارَ فإِنَّهُمْ يُعِيْنُونَكَ عَلَى أَمْرِ اللّه عزَّ وَجلَّ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَن النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَال : « مَا تَحابَّ رَجُلانِ فِي اللّهِ إلاّ كَانَ أفْضَلُهُمَا أشَدُّهُمَا حُبّاً لِصَاحِبِهِ » .

صِلْ رَحمَكَ وإنْ قَطَعَكَ ، وَلاَ تُكَافِئْهُ بِمِثْل مَا أَتي إلَيْكَ ، فإنَّهُ بَلَغَنِي عَن النّبيّ ـ ﷺ ـ أنَّ رَجُلاً قَال لَهُ : « إن لِيْ أقْرِبَاءَ ، أعْفُوا وَيَظْلِمُونِي ، وأصِلُ وَيَقْطَعُونِي ، وأُحْسِنُ ويُسِيْئُونِي ، أفَاكافِئُهُمْ » ؟ فَقَال ﷺ : « اذنْ تُتْرَكُوا جَمِيْعاً ، ولكِنْ إذا أساءُوْا فأحْسِنْ ، فإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللّهِ ظَهِيْرٌ » واللّه أعْلَم وصلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّد .

(فصــل)

وقال رحمه الله :

ارْحَم المِسْكِيْنَ المُضْطَرَّ ، والغَرِيْبَ المُحْتَاجَ ، وأعِنْهُ عَلَى مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ أمْرِهِ ، فإنَّهُ بلَغَنِي عَن ابن عبّاسٍ أنّهُ قَال : « كُلُّ مَعْرُوْفٍ صَدَقَةٌ » .

ارْحَم السَّائِلَ ، وارْدُدْهُ مِن بَابِكَ بِفَضْلِ مَعْرُوْفِكَ ، بالبَذْلِ مِنْكَ ، أَو قَوْلٍ مَعْرُوْفٍ تَقولُهُ لَهُ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَن النّبيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَال : « رُدَّ عَنْكَ مَذمَّةَ السَّائِلِ بِمِثْلِ رَأسِ الطَّيْرِ مِن الطَّعامِ » .

لا تَزْهَدْ فِي المَعْرُوْفِ عِنْدَ مَنْ تَعْرِفُهُ ، وعِنْدَ مَنْ لاَ تَعرِفُهُ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِيْ

عَن النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَالَ : « لا تَزْهَدْ فِي المَعْرُوْفِ وَلَوْ أنْ تَصُبَّ مِن دَلْوِكَ فِي إناءِ المُسْتَقِي » .

أَرِدْ بِكُلِّ مَا يَكُوْنُ مِنْكَ مِن خَيْرٍ إلى أَحَدٍ اللّهَ ، فإنَّهُ بَلَغَنِي عن النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الّذينَ هُم﴾ . . . الآية . قال : المُنَافِقُ الّذِي إنْ صَلَّى راءى ، وإنْ فَاتَتْهُ لَمْ يَبْلُغْ إلَيْهَا ﴿وَيَمْنَعُوْنَ المَاعُونَ﴾ قَال : الماعون : الزَّكَاةَ الّتي فَرَضَها اللّهُ عَزَّ وَجَلّ .

إيَّاكَ والرِّيآءَ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِيْ أَنَّهُ لَا يَصْعَدُ عَمَلُ المُرَائِيْ إلى اللّهِ عَزَّ وَجَلّ ، وَلَا يُزَكّيْهِ عِنْدَهُ . إنْ اسْتَطَعْتَ أنْ تَعْمَلَ بِعَمَلٍ مَا عَمِلْتَ فِيْمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللّه فافْعَلْ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَن النّبِيّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قَالَ : « نَضَّرَ اللّهُ امْرءاً سَمِعَ مَقَالَتِي فوَعَاهَا حَتَّى يُبَلِّغَهَا غَيْرَهُ ، فَرُبَّ غَائِبٍ أَحْفَظَ مِن شَاهِدٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيرِ فَقِيْهٍ » .

لَا يَغْفُلُ قَلْبُ امْرِيءٍ مُسْلِمٍ عَن ثَلاثِ خِصَالٍ : إخْلاصُ العَمَلِ لِلّهِ ، والنَّصِيْحَةِ للإمَامِ العَادِلِ ، والنَّصِيْحَةِ لِعَّامّةِ المُسْلِمِيْنَ ، فإنّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيْطُ من وَرَائِهُمْ .

إيَّاكَ وَسُوْءُ الخُلُقِ ، فَإِنَّهُ يَدْعُوْ إلى مَعَاصِي اللّهِ تَعَالى ، وَقَدْ بَلَغَنِيْ عَن النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قال : « خِيَارُكُمْ أحْسَنُكُمْ أخْلَاقاً » .

إخْضَعْ لِلّهِ إذَا خَلَوْتَ بِعَمَلك ، فَإنَّهُ بَلَغَنِيْ عَن النّبِيّ ﷺ : « أَنَّ مَلَكاً أتَاهُ فقال : إنَّ رَبّكَ يُقْرِئُكَ السّلامَ وَيقُولُ : إنْ شِئْتَ أجْعَلُكَ مَلَكاً نَبِيّاً أَوْ عَبْداً نَبِيّاً ، فأشَارَ إلَيْهِ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السّلامُ أنْ تَوَاضَعَ ، فَمَا أكَلَ مُتّكِئاً حَتّى مَاتَ » .

لا تَظْلِمِ النّاسَ فَيُديْلُهمْ اللّهُ عَلَيْكَ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِيْ عن بَعْضِ العُلَماءِ مِنَ الصَّحَابَةِ أنَّهُ قَال : ما ظَلَمْتُ أحداً أشَدَّ عَلَيَّ ظُلْماً مِن أحدٍ لَا يَسْتَعِيْنُ عَلَيَّ إلا بِاللّهِ تعالى .

احْذَرِ البَغْيَ فَإِنَّهُ عاجِلُ العُقُوْبَةِ ، بَلَغَنِيْ عَن النّبي ـ ﷺ ـ أنّهُ قَالَ : « إِنَّ أعْجَلَ الخَيْرِ ثَوَاباً صِلةُ الرَّحمِ ، وإِنَّ أعْجَلَ الشَّرِّ عُقُوْبَةً اليَمِيْنُ الغَمُوْسُ تَتْرُكُ الدِّيَارَ بَلاقِعَ » .

لَا تَحْلِفْ بِغَيْرِ اللّهِ في شَيْءٍ ، فإِنَّهُ بَلَغَنِيْ عنْ النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَال : « لا تَحْلِفُوا بآبائِكُمْ ، لِيَحْلِفَ حَالِفٌ باللّهِ أو لِيَسْكُت » . ولا تَحْلِفْ باللّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَإِنَّهُ بَلَغَنِيْ أنَّ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالى : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللّهَ عُرْضَة لأَيْمَانِكُمْ﴾ واللّه أعلَم وَصَلّى اللّه على مُحَمّد .

(فصـــل)

وقَال رَحِمَهُ اللّهُ :

ارْحَمِ النّاسَ يَرْحَمْكَ اللّهُ . بَلَغَنِيْ عَن النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قال : « مَنْ لَا يَرْحَمُ النّاسَ لا يَرْحَمُهُ اللّهُ » .

أحْبِبْ طَاعَةَ اللّهِ يُحِبُّكَ اللّهُ ، ويُحَبِّبُكَ إلى خَلْقِهِ ، قالَ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ : (قُل إنْ كُنْتُم تُحِبُّوْنَ اللّهَ فاتَّبِعُوْنِي يُحْبِبْكُمْ اللّهُ) .

وقَال عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام : « إِنَّ اللّهَ جَعلَ قُرَّةَ عَيْنِيْ فِي السُّجُودِ » .
وقَال بَعْضُ العُلَمَاءِ : مَا أَسَرَّ عَبْدٌ قَطُّ سَرِيْرَةَ خَيْرٍ إلَّا أَلْبَسَهُ اللّهُ رِداءَهَا ، وَلَا أَسَرَّ سَرِيْرَةَ شَرٍّ قَطُّ إلَّا أَلْبَسَهُ اللّهُ رِداءَهَا .

ولْيكُنْ عَلَيْكَ السَّكِيْنَةُ والوَقَارُ فِي مَنْطِقِكَ ومَجْلِسِكَ ومَرْكَبِكَ ، فإنَّهُ بَلَغَنِي عَنْ النَّبِيّ ـ ﷺ ـ أنَّهُ قَال : « إذا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَّ العُجْمَ فاعْطُوْهَا حَظَّهَا مِن الأرْضِ » .

عَلَيْكَ بالحِلْمِ والإغْضَاءِ عَمَّا كَرِهْتَ ، وَلاَ تَتَّبِعْ ذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ بَلَغَكَ عَنْهُ أذَى ، ولا تُكَافِئْهُ فَإنَّ فِي ذَلِكَ الفَضْلُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ، بَلَغَنِيْ عَن النَّبِيّ ـ ﷺ ـ أنَّهُ قالَ : « إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الحَلِيْمَ الحَيِيَّ العَفِيْفَ المُتَعَفِّفَ » .

ادْفَعِ السَّيِّئَةَ بالَّتِي هِيَ أَحْسَن ، بَلَغَنِيْ عَنِ النَّبِيّ ـ ﷺ ـ أنَّهُ قالَ : « أيُّهَا السُّلَمِيّ اتّق العُقُوقَ وقَطِيْعَةَ الرَّحمِ ، فَإنَّ فِي ذلِكَ شَيْناً في الدُّنْيَا وتَبَاعُداً فِي الآخِرَةِ » .

وبَلَغَنِيْ عَنِ النَّبِيّ ـ ﷺ ـ أنَّهُ قال : « اشْتَكَتِ الرَّحمُ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ مِمَّنْ يَقْطَعُهَا ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا أمَا تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وأقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ » .

إذا غَضِبْتَ مِنْ شَيْءٍ مِنْ أمْرِ اللَّهِ فاذْكُرْ ثَوَابَ اللَّهِ عَلَى كَظْمِ الغَيْظِ ، قالَ عَزَّ وَجَلَّ : « والكَاظِمِيْنَ الغيظَ والعَافِينَ عن النَّاسِ » الآية .

وَبَلَغَنِيْ عنِ النَّبِيّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قَالَ : « مَا امْتَلأ رَجُلٌ غَيْظاً فَكَظَمَهُ لِلَّهِ إلاَّ مَلاَهُ اللَّهُ رِضْوَاناً يَوْمَ القِيَامَةِ » .

إذا وَعَدْتَ مَوْعِداً فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَلا تُخْلِفْهُ ، وإذَا قُلْتَ قَوْلاً فِيْهِ رِضَا اللَّهِ فأوْفِ بِهِ وَدُمْ عَلَيْهِ ، بَلَغَنِي عَن النَّبِي ـ ﷺ ـ أنَّهُ قَال : « مَنْ تَكَفَّلَ بِستٍّ أَتَكَفَّلُ لَهُ بالجَنَّةِ : إذا حَدَّثَ لَمْ يَكْذِبْ ، وإذا وَعَدَ لَمْ يُخْلِفْ ، وَإذا ائْتُمِنَ لَمْ يَخُنْ ، وغَضَّ بَصَرَهُ، وحَفِظَ فَرْجَهُ ، وَكَفَّ يَدَهُ » .

إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ لَيْسَتْ مِن طَاعَةِ اللّهِ فَلاَ تَهُمَّنَّ بِهَا وَكَفِّرْهَا ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قَال : « لا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللّهِ وَكَفَّارَتُهَا كَفَّارَةُ يَمِينٍ وَالنَّذْرُ يَمِيْنٌ وإذا حَلَفْتَ على يَمِينٍ ثُمَّ رَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فأتِ الّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكفِّرْ عَن يَمِينِكَ » فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ .

إِيَّاكَ وَالتَّزَيُّدَ فِي القَوْلِ ، وأَنْ تَقُولَ قَوْلاً وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عنِ النّبِيّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قَال : « ثَلاثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللّهُ إِلَيْهِم يَوْمَ القِيَامَةِ ، الإمامُ الكذَّابُ ، والعَائِلُ المزْهُوْ ، والشَّيْخُ الزَّانِي » .

بَرَّ وَالِدَيْكَ وخُصَّهُمَا مِنْكَ بِالدُّعَاءِ فِي كُلِّ صَلاَةٍ ، وأَكْثِرْ لَهُمَا الاسْتِغْفَارَ ، وابْدَأْ بِنَفْسِكَ قَبْلَهُمَا ، فإِنَّ إِبْرَاهِيْمَ ـ علَيْهِ السّلامُ ـ قال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » فَبَدأ بِنَفْسِهِ قَبْلَ وَالِدَيْهِ . وَبَلَغَنِي عَنِ النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَال : « مَنْ سَرَّهُ أنْ يُنسأ لَهُ فِي عُمُرِهِ ، ويُزَادَ فِي رِزْقِهِ ، فَلْيَتّقِ اللّهَ رَبَّهُ ، ولْيَصِلْ رَحِمَهُ » .

اشْكُرِ النّاسَ مَا أتَوا إِلَيْكَ مِنْ خَيْرِهِم ، وكَافِئْهُمْ إن قَدِرْتَ عَليه ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قالَ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللّهَ » واللّهُ أعلَم وصَلّى اللّهُ عَلى مُحَمّد .

(فصــل)

وقَال رَحِمَهُ اللّهُ :

إذا رَكِبْتَ دَابَّةً فَوَضَعْتَ رِجْلَكَ فِي الرّكَابِ ، فَقُلْ : بِسْمِ اللّهِ ، وإذا اسْتَوَيْتَ راكباً فَقُل : ﴿سُبْحان الّذي سَخّر لَنا هَذا وَمَا كُنّا لَهُ مُقْرِنين﴾ الآية .

فإنَّهُ بَلَغنِيْ عَنِ النّبيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ كُلَّما رَكِبَ دابَّةً (قُلْتُ ومِثْلُها السَّيّارَةُ والطَّائِرَةُ والقِطارُ والسَّفِيْنَةُ ونَحوُها) .

إِذَا أَكَلْتَ أَوْ شَرِبْتَ فاذْكُرِ اسْمَ اللّهِ ، فإِنْ نَسِيْتَ فِي أَوَّلِ حالِكَ فاذْكُرْهُ إِذا ذَكَرْتَ ، بَلَغَنِي عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ قالَ : تَذْكُرِ اسْمَ اللّهِ حِيْنَ تَذْكُرُ ، فَإِنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الخَبِيْثِ ، وَبَيْنَ أَنْ يَأكُلَ مَعَكَ ويَتَقَيّأُ ما أَكَلَ ، فإذا فَرَغْتَ فَقُلْ : الحَمْدُ لِلّهِ الّذي أَطْعَمَنا وَسَقَانا وَجَعَلَنَا مُسْلِمِيْنَ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْ النّبيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ ذَلِكَ إذا أَكَلَ وَشَرِبَ .

وَإِذَا أَكَلْتَ وَمَعَكَ آخَرُ فَكُلْ مِمَّا يَلِيْكَ بِيَمِيْنِكَ ، وَلا تَأْكُلْ مِنْ فَوْقِ الطَّعامِ وَلاَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ أَحَدٍ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِيْ عَنِ النّبيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ يَفْعَلُهُ : « اذْكُرِ اسْمَ اللّهِ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيْكَ » وكُلْ بِيَمِيْنِكَ وَلاَ تَأْكُلْ بِشِمَالِكَ ، وَلا تَشْرَبْ بِشِمَالِكَ . وَبَلَغَنِي عَنِ النّبيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قَال : « إِنَّها أَكْلَةُ الشَّيْطَانِ » .

لا تُسَافِرْ مَا اسْتَطَعْتَ إلا في يَوْمِ الخَمِيْسِ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِيْ عَنِ النّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَحِبُّ أن يُسافِرَ يَوْمَ الخَمِيْسِ لا يُسَافِرُ إلاّ فِيْهِ .

إِذا أَصابَكَ كَرْبٌ فَقُلْ : يا حَيُّ يا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنِ النّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ ذَلِكَ عِنْدَ الكَرْبِ .

احْتَرِسْ مِمَّنْ يَقْرُبُ إِلَيْكَ بالنَّمِيْمَةِ ، وَيُبَلِّغُ الكلامَ عن النّاسِ ، بَلَغَنِي عَنِ النّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قالَ : « مَلْعُونٌ مَنْ لَعَنَ أَباهُ ، مَلْعُونٌ مَنْ لَعَنَ أُمَّهُ ، مَلْعُونٌ مَنْ غَيَّرَ تَخومَ الأَرْضِ ، مَلْعُونٌ كُلَّ صَقَّارٍ » وَهُوَ النَّمامُ .

لَا تَجُرُّ ثِيَابَكَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ ، وَبَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ جَرَّ ثِيَابَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

أَطِعِ اللَّهَ فِي مَعْصِيَةِ النَّاسِ ، وَلَا تُطِعِ النَّاسَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ : « لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ » .

إِذَا أَصَابَكَ حَزَنٌ أَوْ سُقْمٌ أَوْ ذِلَّةٌ أَوْ لأْوَاءَ - يَعْنِي الجُوْعَ - فَقُلْ : اللَّهُ رَبِّي لا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا : ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِذَلِكَ مَنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ مِنْ فَجَائِعِ الدُّنْيَا وأَحْزَانِهَا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّي الصَّابِرُوْنَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَاب﴾ . والصَّبْرُ مِنَ الإِيْمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ .

لا تُمَارِيَنَّ أحَداً وإِنْ كُنْتَ مُحِقّاً ، بَلَغَنِي أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَلا رَفَثَ وَلَا فُسُوْقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾ أَنَّهُ المِرَاءُ .

إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُوْرِ الدُّنْيَا فَفَكِّرْ فِي عَاقِبَتِهِ ، بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا هَمَمْتُ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُوْرِ الدُّنْيَا فَفَكِّرْ فِي عَاقِبَتِهِ ، فإِنْ كَانَ رُشْداً فامْضِهِ ، وإِنْ كَانَ غَيّاً فانْتَهِ عَنْهُ » .

إِيَّاكَ والتَّجْرِيْدَ خالِياً ، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَسْتَحْيِيْ مِنَ اللَّهِ إذا خَلَوْتَ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ : « لَا أُحِبُّ أَنْ يَلِيَ لِيْ شَيْئاً مَنْ لَا يَسْتَحْيِيْ مِنَ اللَّهِ فِي الخَلاءِ » . وإِيَّاكَ أَنْ تَدْخُلَ الحَمَّامَ والماءَ إلا بإِزَارٍ ، وَلا يَدْخُلُ مَعَكَ أَحَدُ الحَمّامَ إلاّ بِإِزَارٍ وأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ .

فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ ، فَغُضَّ طَرْفَكَ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ كَانَ مَكْشُوْفاً ، بَلَغَنِيْ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَحِلُّ لامْرِيءٍ يُؤْمِنُ باللّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَدْخُلَ الحَمَّامَ إلّا بإِزَارٍ » وَاللّه أعْلَم وصَلّى اللّهُ عَلى مُحَمّد .

(فصــل)

وقال رحمه الله :

أَفْشِ السَّلَامَ ، وإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَسْبِقَكَ أَحَدٌ إِلَيْهِ فَافْعَلْ ، تُعْطَ بِذَلِكَ فَضْلًا عَنِ النّاسِ ، وَبَلَغَنِي عَنْ ابْنِ مَسْعُوْدٍ أَنَّهُ قَالَ : السّلامُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللّهِ ، وَضَعَهُ فِيْكُمْ فَأَفْشُوْهُ فِيكُم ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذا سَلَّمَ كُتِبَ لَهُ عشْرُ حَسَنَاتٍ .

أَدِّبْ وَلَدَكَ ، وَمَنْ وُلِيْتَ أَمْرَهُ عَلَى خُلُقِكَ وأَدبِكَ ، حَتَّى يَتَأَدَّبُوْا عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ ، فَيَكُوْنُوْا لَكَ عَوْناً عَلَى طَاعَةِ اللّهِ . بَلَغَنِي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ - أَنّهُ قالَ : كُلُّ مُؤَدِّبٍ يُحِبُّ أنْ يُؤْخَذَ بِأَدَبِهِ ، وإِنَّ أَدَبَ اللّهِ هُوَ القُرْآنُ .

وَإِذَا اسْتَشَارَكَ أَحَدٌ فَإِنْ شِئْتَ تَكَلَّمْتَ ، وإِنْ شِئْتَ سَكَتَّ واجْتَهِدْ رَأْيَكَ فَإِنَّهُ بلَغَنِي عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَال : « المُسْتَشَارُ بالخِيَارِ إِن شَاءَ تَكَلَّمَ وإِنْ شَاءَ سَكَتَ » .

لا تُفْشِ عَلَى أَحَدٍ سِرّاً أَفْشَاهُ إِلَيْكَ ، فَإِنَّمَا هِيَ أَمَانَةٌ اسْتَوْدَعَكَها ، وائْتَمَنَكَ عَلَيْهَا إِلَّا أنْ يَكُونَ إِفْشَاؤُهُ خيْراً لَهُ فِي دُنْيَاهُ وآخِرَتِهِ ، فَأَفْشِهَا عَلَيْهِ وانْصَحْهُ فِيْها ، بَلَغَنِي عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنّهُ قالَ : « مِنْ حَقِّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ إِذَا اسْتَنْصَحَهُ أنْ يَنْصَحَهُ » .

إِذَا تَعَلَّمْتَ عِلْماً مِنْ طَاعَةِ اللّهِ فَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُهُ ، ولْيُرَ فِيْكَ سَمْتُهُ ، وتَعَلَّمْ لِلَّذي تَعْمَلُهُ ، وتَعَلَّمْ لَهُ السَّكِيْنَةَ والحِلْمَ وَالوَقَارَ بلَغَنِي عَنْ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قالَ : « العُلَمَاءُ وَرَثَة الأَنْبِيَاءِ » .

رُدَّ جَوابَ الكِتَابِ إلى كُلِّ أَحَدٍ كَتَبَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّمَا هُوَ كَرَدِّ السّلام قَالَ عَزَّ وَجَلّ : (وَإِذَا حُيِّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوْا بأَحْسَنَ مِنْها أوْ رُدُّوْهَا) .

وقَالَ ابْنُ عَبّاس ـ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ :

أَرَى رَجْعَ الكِتَابِ عَلَيَّ حقّاً كَمَا أَرى رَجْعَ السّلام .

إلْزَمِ الحَيَاءَ فإِنّهُ خُلُقُ الإسلام ، وفِيْهِ قَالَ ﷺ : « لِكُلِّ شَيْءٍ خُلُقٌ ، وخُلُقُ الإِسْلامِ الحَيَاءُ » .

إذَا سَافَرْتَ فَقُلْ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفرِ ، وكَآبَةِ المُنْقَلَبِ ، وَدَعْوَةِ المَظْلُومِ ، وسُوءِ المَنْظِرِ فِي الأَهْلِ والمالِ ، والحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ » . بَلَغَنِي عَنْ النّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنّهُ كَانَ يَقُولَ ذَلِكَ إذا سَافَرَ .

إِيَّاكَ وظُلْمَ الضَّعِيْفِ ، ومَنْ لَا يَسْتَعِيْنُ عَلَيْكَ إِلَّا باللّهِ ، لِقَوْلِ النّبِيِّ ـ ﷺ ـ : « ثلاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الإِمَامُ العادِلُ ، والصّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ فإنّها تَصْعَدُ فَوْقَ الغَمَامِ ، فَيَقُوْلُ اللّهُ لَهَا : وعِزَّتِيْ وَجلَالِيْ لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِيْنٍ » .

إذا وَدَّعْتَ مُسَافِراً فَقُلْ : « زَوَّدَكَ اللّهُ التَّقْوَى ، وغَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ ، وَيَسَّرَ لَكَ الخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، أَسْتَوْدِعُ اللّهَ دِيْنَكَ وأَمَانَتَكَ وَخَواتِيْمَ عَمَلِكَ » لأنَّ النّبيّ ﷺ كَانَ يأْمُرُ أصْحَابَهُ بِهَا .

إِذَا حَضَرْتَ أَمْرَاً لَيْسَ لِلّهِ بِطَاعَةٍ ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تَدْفَعهُ ، فَقُمْ عَنْهُ وَلَا تَقْعُدْ . لِقَوْلِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ « لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ مَخَافَةُ النّاسِ أَنْ يَقُولَ الحَقَّ إِذا شَهِدَهُ أَوْ عَلِمَهُ » .

الْزَمِ السِّوَاكَ فَإِنَّهُ سُنَّةٌ ، بَلَغَنِي عَنْ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنّهُ قَالَ : « السِّوَاكُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِين » .

أَفْشِ الصَّدَقَةَ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيْتَةَ السُّوءِ ، ولْيَكُنْ ذَلِكَ مِنْ أَطْيَبِ مَالِكَ ، فإنَّ اللّهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ إلّا الطَّيِّبَ ، بَلَغنِي عَنْهُ ـ ﷺ ـ أنّهُ قال : « إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَصَدَّقُ بِالتَّمْرَةِ إِذا كَانَتْ مِنْ طَيِّبٍ وَلا يَقْبَلُ اللّهُ إلّا الطّيِّبَ فَيَجْعَلُهَا فِي كَفِّهِ ، فيُرَبّيهَا لَهُ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ أَوْ فَصِيْلَهُ ، حَتّى تَكُونَ فِي يَدِهِ مِثْلَ الجَبَل » واللّهَ أعْلم وصلّى اللّهُ على مُحَمّد .

(فصـــل)

وقال رحمه الله :

إذا نَزَلَتْ بِكَ كُرْبَةٌ مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، فَلْيَكُنْ مفْزَعُكَ فِيْهَا إِلَى اللّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حِيْنَ تَنْزِلُ بِكَ ، بَلَغَنِي عنِ النّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنّهُ قَالَ : « لَنْ يَنْزِلَ بِعَبْدٍ قطُّ أَمْرٌ كَانَ مَفْزَعُهُ فِيْهِ إلى اللّهِ إلّا فَرَّجَ اللّهُ عَنْهُ » .

لا تَضْطَجِعْ عَلَى بَطْنِكَ إِذَا نِمْتَ ، ولَا فِي غَيْرِ نَوْمِكَ ، لِمَا بَلَغَنِي عَن النّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنّهُ قَالَ : « إِنَّهَا لَضِجْعَةٌ يُبْغِضُهَا اللّهُ » .

أَوْفِ بالعَهْدِ إِذَا أَعْطَيْتَهُ مِنْ نَفْسِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ ، لِقَوْلِ النّبيِّ ﷺ : « أَحَقُّ مَا وُفِيَ بِهِ عَهْدُ اللّهِ » .

إِذَا حَضَرْتَ السّلطَانَ فَاشْفَعْ بخَيْرٍ ، وإِيَّاكَ والكَلامَ عِنْدَهُ إلّا بِمَا يُرْضِي اللّهَ ، لِقَوْلِ النّبِيّ ـ ﷺ ـ : « إِنَّ الرَّجُلَ ليَتكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللّهِ ، مَا يَظُنُّ أَنَّهَا تَبْلُغُ مَا بَلَغتْ يَكْتُبُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وإِنَّ الرَّجُلَ لِيَتكَلَّم بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوانِ اللّهِ ، مَا يَظُنُّ أنَّها تَبْلغ مَا بَلَغتْ ، يَكْتُبُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ » .

أَرِدْ مَا أَرَدْتَ بِهِ اللّهَ مَا اسْتَطَعْتَ ، بَلَغَنِي عَن النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَالَ : « صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِيءُ غَضَبَ الرَّبِ » .

اتَّقِ كَثْرَةَ التَّزْكِيَةِ لِنَفْسِكَ ، أَوْ تَرْضَى بِهَا مِنْ أَحَدٍ يَقُوْلُهَا لَكَ فِي وَجْهِكَ ، بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً امْتَدَحَ رَجُلاً عِنْدَ النّبِيّ ـ ﷺ ـ فَقَال : « ويْحَكَ قَطعْتَ عُنُقَهُ ، وَلَو سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ أبَدا » .

إِيَّاكَ ومَدْحَ النّاسِ والثَّنَاءِ عَلَيْهِم فِي وُجُوْهِهِمْ ، لِقَوْلِ النّبِيّ ـ عليه الصّلاةُ والسّلامُ ـ : « أَحْثوْا التُّرَابَ فِي وُجُوْهِ المَدَّاحِيْنَ » .

طَهِّرْ ثِيَابَكَ وَنَقِّهَا مِنْ مَعَاصِي اللّهِ تَعَالى ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ، يَأْمُرُهُ أنْ لَا يَلْبَسَهَا عَلَى عَذِرَةٍ .

واكْرَهْ لِكُلِّ أَحَدٍ مَا تَكْرَهُه لِنَفسِكَ ، بَلَغَنِي عَنْ النّبِيّ ـ ﷺ ـ أَنّهُ بَايَعَ جَرِيْراً البَجَلِيّ عَلى الإِسْلامِ والنَّصِيْحَةِ لِكُلِّ مُسْلِم .

إِيَّاكَ والحَسَدَ والشَّرَهَ فَهُمَا خُلُقَانِ مُرْدِيَانِ لِصَاحِبِهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وقَالَ ﷺ فِيهِمَا : « لا حَسَدَ إلّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللّهُ مَالاً وَسَلَّطَهُ عَلَى انفَاقِهِ فِي الحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا ويُعَلِّمُهَا » .

اقْتَدْ فِي أُمُوْرِكَ بِرَأْيِ ذَوِيْ الانْصَافِ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى . بَلَغَنِي عَنْ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قالَ : « خِيَارُكُمْ شُبَّانكُمْ المُتَشبِّهُونَ بِشُيُوخِكُمْ ، وشِرَارُكُمْ شُيُوخُكُمْ المُتَشبِّهُوْنَ بِشُبَّانِكُمْ » .

لا تَحْتَقِرْ أحداً ، ولا تُجَالِسْ مَأْفُوناً ، فإِنَّ الوَحْدَةَ خَيْرٌ مِن جَلِيْسِ السُّوءِ .

عَلَيْكَ بِمَعَالِي الأَخْلاَقِ وكَرِيْمِهَا ، واتَّقِ رَذَائِلَهَا وَمَا سَفْسَفَ مِنْها ، بَلَغنِي عَن النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأخلاَقِ ويَكْرَهُ سَفْسَافَهَا » .

إِذَا رَأَيْتَ مَن فُضِّلْتَ عَلَيْهِ فِي دِيْنِكَ وَدُنْيَاكَ ، فَأَكْثِرْ حَمْدَ اللّهِ عَلَيْه ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الشُّكْرِ ، بلَغَنِي عَنْهُ ـ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ ـ أنّهُ قَالَ : « مَا أَنْعَمَ اللّهُ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ » فقَال : « الحَمْدُ لِلّهِ إلاّ كَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ وإِنْ عَظُمَتْ » .

لاَ تَرْكَبِ المِثْرَةَ الحَمْراءَ ، وَلاَ تَلْبَسِ المُعَصْفَرَ ، فَقَدْ نَهِيَ رَسُولُ اللّهِ ـ ﷺ ـ عَنْ ذلِكَ : إِذَا غَضِبْتَ وأَنْتَ قَائِمٌ فاقْعُدْ ، وإِنْ كُنْتَ قَاعِداً فَاضْطَجِعْ ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الغَضَبُ وإلا فَلْيَضْطَجِعْ » « لاَ تَتَطَيَّرَنَّ مِنْ شَيْءٍ تَرَاهُ أَوْ تَسْمَعُهُ » .

وَإِذَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ فَقُلْ : اللّهُمَّ لاَ يَأْتِي بِالخَيْرِ إِلاّ أَنْتَ وَلاَ يَدْفَعُ السُّوْءَ إِلاَ أَنْتَ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللّهِ . فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ كانَ يَأْمُرُ بِذَلِكَ لِمَنْ رَأى مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً .

لَا تَتَوَضَّأْ بِشَيْءٍ مِمَّا تَأْكُلُ مِنَ الطَّعَامِ (إلاّ مِنْ لَحْمِ الجَزُوْرِ) وَلا تَدْلُكْ بِهِ فِي الحَمّامِ ، فإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الجَفَاءِ .

لَا تَتَخَلَقَنَّ بالخَلُوقِ إلاّ أنْ يَكُونَ فِي أَثَرِ النُّوْرَةِ لِيَذْهَبَ رِيْحُهَا ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ النّبِيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ قَالَ : « بَيْنَمَا رَجُلٌ فِي بُرْدَتَين لَهُ مُتَخَلِّقٌ يَتَبَخْتَرُ فِيْهِمَا إِذْ ساخَتْ بِهِ الأَرْضُ ، فَهُوَ يَتَجلْجَلُ فِيْهَا إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ » .

واللّهُ أعْلَم وصَلّى اللّهُ عَلَى نَبِيّنا مُحَمّد وَعلى آلِهِ وسَلّم .

(فصــل)

وقال رحمه الله :

لَا تَحْلِفْ بالطّلاقِ وَلا بالعَتَاقِ ، فإنّهَا مِنْ أَيْمَانِ الفُسَّاقِ . بَلَغَنِي عَنْ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ ـ أنّهُ قَالَ : أَرْبَعٌ جَائِزَةٌ إِذا تَكَلَّمَ بِهِنَّ : الطَّلاقُ والعَتاقُ والنِّكَاحُ والنَّذْرُ ، وأَرْبَعَةٌ يُمْسُوْنَ واللّهُ عَلَيْهِمْ سَاخِطٌ ، ويُصْبِحُونَ واللّهُ عَلَيْهِمْ غَضْبَانٌ : المُتَشَبِّهُوْنَ مِن الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ ، والمُتَشَبِّهَاتُ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ ، وَمَن أتي بهيْمَةً ، أَوْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ .

لا تَتطَيّبَنَّ بشَيْءٍ مِنَ الطِّيْبِ يَظْهَرُ لَوْنُهُ ، فَإِنَّ النّبِيّ ـ ﷺ ـ قَالَ : « طِيْبُ الرِّجَالِ مَا بَطنَ لَوْنُهُ وَظَهرَ رِيْحُهُ ، وطِيْبُ النِّساءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَبطَنَ رِيْحُهُ » .

الزَمْ الرَّأْيَ الحَسَنَ ، والهَدْيَ الحَسَنَ ، والاقْتِصَادَ ، بَلَغَنِي عَنْ ابن عبّاس ـ رضِيَ الله عَنْهُ ـ أنّهُ قَال : الرَّأْيُ الحَسَنُ جُزْءٌ مِنْ خَمْسةٍ وعِشْرِيْنَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ .

إنْ اسْتَطَعْتَ أنْ لَا تَدَعَ العَمَامَةَ والبُرْدَ فِي العِيْدَيْنِ والجُمُعَةِ فَافْعَلْ . لِمَا عَلِمْتَ مِنْ أمْرِ النَّبِيِّ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسّلامُ ـ أنّهُ كَانَ يَلْبَسُ العِمَامَةَ والبُرْدَ فِي العِيْدَيْنِ والجُمُعَةِ .

إذا صَافَحَكَ أَحَدٌ فَلا تَنْزِعَنَّ يَدَكَ عَنْ يَدِهِ ، حَتّى يَكُونَ هُوَ الّذي يَنْزِعُ يَدَهُ عن يَدِكَ ، بَلَغني عَنْ النّبيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ لَمْ يُصَافِحْ أحداً فَنَزَعَ يَدَهُ حَتّى يَكُونَ هُوَ الّذي يَنْزِعُ يَدَهُ .

إذا أَقْبَلَ عَلَيْكَ رَجُلٌ بوَجْهِهِ يُحَدِّثُكَ ، فَلا تَصْرِفْ وَجْهَكَ عَنْهُ ، حَتّى يَكُونَ هُوَ الّذي يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْكَ ، وَإذا جَلَسْتَ إلى جَنْبِ رَجُلٍ ، أَوْ جَلَسَ إلى جَنْبِكَ رَجُلٌ ، فلا تَقُومَنَّ مِن بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلا تُجَاوزَنَّ رُكْبَتُكَ رُكْبَتِهِ ، بَلَغَنِيْ عَنْ النّبِيِّ ﷺ أنّهُ لَمْ تتجَاوزْ رُكْبَتُهُ رُكْبَةَ جَلِيْسٍ لَهُ .

وَإذا أَحْسَسْتَ مِنْ أَمِيرٍ ظَلَامَةً أَوْ تَغَطْرُساً فَقُلْ : « اللّهُ أَكْبَرُ ، اللّهُ أكْبَرُ ، اللّهُ أكْبَرُ أعَزُّ مِنْ خَلْقِهِ جَمِيْعاً ، اللّهُ أكْبَرُ مِمَّا أخَافُ وأَحْذَرُ ، وأَعُوذُ بِاللّهِ المُمْسِكِ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأرْضِ إلّا بإذْنِهِ مِنْ شَرِّ فُلانٍ ، اللّهُمَّ كُنْ لِيْ جَاراً مِنْ فُلَانٍ وجُنُودِهِ ، أَنْ يَفْرُطَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَوْ أَنْ يَطْغي ، جَلَّ جَلَالُكَ وَعَزَّ جَارُكَ ، وَلا إلَهَ غَيْرُكَ » تَقُولُ ذلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

بَلَغَنِي عَنْ ابنْ عبّاسٍ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ وأَمَرَنَا بِهِ .

وإذَا كَتَبْتَ إلى أَحَدٍ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الإسْلامِ ، فَلا تَكْتُبَنَّ سَلامَ اللّهِ عَلَيْكَ ، ولَكِنْ أكْتُبْ السَّلَام عَلَى مَنِ اتّبَعَ الهُدَى ، بَلَغَنِي عَنْ النّبيّ ـ ﷺ ـ أنّهُ كَتَبَ ذَلِكَ إلى مُسَيْلَمَةَ .

إذَا عَطَسْتَ فِي الخَلاَءِ ، فاذْكُرِ اسْمَ اللّهِ خَفِيّاً . لَا تَدَهَّنْ فِي مِدْهَنٍ

ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ ، وَلَا تَسْتَجْمِرْ فِي مَجَامِرِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، بَلَغَنِي عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ نَهي عنْ الشُّرْبِ فِي إناءِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ .

لا تَنَمْ عَلَى الحَرِيْرِ والدِّيْبَاجِ فَإِنَّهُ لُبْسَةُ النِّسَاءِ ، بَلَغَنِي عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أنهُ نَهِيَ عَنْ لُبْسِ الحَرِيْرِ والدِّيْبَاجِ إلَّا لِلنِّسَاءِ .

إِذَا رَأَيْتَ أَمْرَاً فِي أَهْلِكَ وَخَاصَّتِكَ مِمَّا يَنْبَغِي تَغْيِيْرُهُ ، فلَا تُحَابِيَنَّ مِنْهُمْ أَحداً ، وقُمْ فِيْهِ بِالّذي يَحِقُّ عَلَيْكَ ، بلَغَنِي عَنْ النَبِيِّ - ﷺ - أنّهُ قَالَ : « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أوْ مَظْلُوماً » .

إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ مِنْ طَاعَةِ اللّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَلا تَحْبِسْهُ إِن اسْتَطَعْتَ فُواقاً حتَّى تُمْضِيْهِ ، فَإِنَّكَ لا تأمَنُ الأَحْدَاثُ ، وإذا هَمَمْتَ بأمْرٍ غيْرِ ذَلِكَ . فإِنْ اسْتَطَعْتَ أنْ لَا تُمْضِيْهِ فُوَاقاً فافعَلْ ، لَعَلَّ اللّهَ تَعَالى يُحْدِثُ لَكَ تَرْكَهُ .

لَا تَسْتَحِيْ إذا دُعِيْتَ لأَمْرٍ لَيْسَ بِحَقٍّ أَنْ تَقُولَ : لَا فَإِنَّ اللّهَ تَعالى يَقُولُ : ﴿واللّه لَا يَسْتَحِيْ مِنَ الحَقِّ﴾ .

إِذَا سَمِعْتَ المُؤَذِّنَ يُؤَذِّنُ ، فَقُلْ كَمَا يَقُولُ ، إِلَّا أَنَّكَ تقولُ إِذا قَالَ : حَيَّ عَلَى الصّلاةِ ، حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ : لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلَّا باللّهِ ، بَلَغَنِي ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - .

لَا تَخْلُونَّ بامْرَأةٍ لَيْسَتْ لَكَ بِمَحْرَمٍ ، بَلَغَنِي عَنْ عُمَرَ بن الخطابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : مَا خَلَا رَجُلٌ بامْرأةٍ لَيْسَتْ لَهُ بمَحْرَمٍ إلّا كَانَ ثَالِثُهُمَا الشّيْطانُ .

إذا قَالَ الإِمَامُ آمِين ، فَقُلْ : آمِيْنْ ، فإِنَّهُ يَنْبَغِي إِذَا فَرَغَ مِنْ أمّ القُرْآنِ أَنْ يَقُولَ آمِيْنْ ، وَيَقُوْلُهُ مَنْ خَلْفَهُ ، بَلَغَنِي عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أنَّهُ قالَ : « إذا

أمَّنَ الإمَامُ فَأَمِّنُوْا فَإنَّ المَلاَئِكَةَ تُؤَمِّنُ لِتأْمِينِ الإمام ، فَمَنْ وافَقَ مِنْكُمْ تأمِيْنَ المَلائكَةُ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » أ هـ ما اخترناهُ واللّهُ أعْلَمُ وصَلّى اللّهُ عَلَى مُحَمّد .

قال ابن القيم رحمه الله :

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَإِنَّهَا
أَمَّارَةُ تَسْلِيمِيْ عَلَيْكُمْ فَسَلِّمُوْا

سَلامٌ مِنَ الرَّحْمنِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
وَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ، وفَضْلٌ وأنْعُمُ

عَلَى الصَّحْبِ والإِخْوَانِ والوِلْدِ والأُلى
رَعَاهُمُ باحْسَانٍ فَجَادُوْا وأَنْعَمُوْا

وَسَائِرِ من لِلسُّنَّةِ المَحْضَةِ اقْتَفَى
ومَا زَاغَ عَنْهَا فَهُوَ حَقٌّ مُقَوَّمُ

أُولئِكَ أَتْبَاعُ النَّبِيّ وحِزْبِهِ
وَلَوْلاَهُمْ مَا كَانَ فِي الأَرْضِ مُسْلِمُ

ولَوْلاَهُمُ كَادَتْ تَمِيْدُ بِأَهْلِهَا
ولكِنْ رَوَاسِيْهَا وَأَوْتَادُهَا هُمُ

ولَوْلاَهُمُ كَانَتْ ظَلاماً بِأَهْلِهَا
ولاكِنَّهُمُ فِيْهَا بدُوْرٌ وأَنْجُمُ

أُولَئِكَ أَصْحَابِيْ فَحَيَّ هَلاً بِهِم
وحَيَّ هَلاً بِالطَّيِّبِيْنَ وأَنْعُمُ

لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ سَلامٌ يَخُصُّهُ
يُبَلِّغُهُ الأَدْنَى إِلَيْهِ وَيَنْعَمُ

فَيَا مُحْسِناً ، بَلِّغْ سَلاَمِيْ وقُلْ لَهُمْ :
مُحِبُّكُمْ يَدْعُوْ لَكُمْ ، ويُسَلِّمُ
ويَا لاَئِمِيْ فِي حُبِّهِمْ وَوَلائِهِمْ
تأمَّلْ ، هَدَاكَ اللّهُ ، مَنْ هُوَ أَلْوَمُ
بأيٍّ دَلِيْلٍ أمْ بِأيَّةِ حُجَّةٍ
تَرَى حُبَّهُم عَاراً عَلَيَّ ، وتَنْقِمُ
وَمَا العَارُ إلّا بُغْضُهُمْ واجْتِنَابُهُمْ
وحُبُّ عِدَاهُمْ ذَاكَ عَارٌ ومَأْثَمُ
أمَا وَالّذِي شَقَّ القُلُوبَ ، وأوْدَعَ الْـ
مَحَبَّةَ فِيْهَا حَيْثُ لاَ تَتَصَرَّمُ
وحَمَّلَهَا قَلْبَ المُحِبِّ ، وإنَّهُ
لَيَضْعُفُ عَنْ حَمْلِ القَمِيْصِ ، وَيَأْلَمُ
وذَلَّلَهَا حَتَّى اسْتَكَانَتْ لِصَوْلَةِ الْـ
مَحبَّةِ لا تَلْوِيْ وَلاَ تَتَلَعْثَمُ
وذَلَّلَ فِيْهَا أنْفُساً دُوْنَ ذُلِّهَا
حِيَاضُ المَنَايَا فَوْقَهَا ، وهْيَ حُوَّمُ
لأنْتُمْ عَلَى قُرْبِ الدِّيَارِ وبُعْدِهَا
أحِبَّتُنَا ، إنْ غِبْتُمُ أوْ حَضَرْتُمُ
سَلُوا نَسَمَاتِ الرِّيحِ كَمْ قَدْ تَحَمَّلَتْ
مَحَبَّةَ صَبٍّ شَوْقُهُ لَيْسَ يُكْتَمُ !!
وشَاهِدُ هَذَا أنَّهَا فِي هُبُوْبِهَا
تَكَادُ تَبُثُّ الوِجْدَ لَوْ تَتَكَلَّمُ

وكُنْتُ إذا مَا اشْتَدَّ بِي الشَّوْقُ والجَوَى
وكَادَتْ عُرَى الصَّبْرِ الجَمِيْلِ تفَصَّمُ
أُعَلِّلُ نَفْسِيْ بـالتَّلاقِيْ وقُـرْبِـهِ
وأُوْهِمُهَا ، لَكِنَّهَا تَتَوَهَّمُ
وأُتْبِعُ طَرْفِي وِجْهَـةً أَنْتُمْ بِهَا
فَلِيْ بِحِمَاهَا مَرْبَعٌ ومُخَيَّمُ
وأَذْكُرُ بَيْتاً قَالَهُ بَعْضُ مَنْ خَلا
وَقَدْ ضَلَّ عَنْهُ صَبْرُهُ فَهْوَ مُغْرَمُ
«أُسَائِلُ عَنْكُمْ كُلَّ غَادٍ ورَائِح
وأُوْمِي إِلَى أَوْطَانِكُمْ وَأُسَلِّمُ»
وَكَمْ يَصْبِرِ المُشْتَاقُ عَمَّنْ يُحِبُّهُ
وفِي قَلْبِهِ نَارُ الأَسَى تَتَضَرَّمُ
أَمَا وَالَّذي حَجَّ المُحِبُّوْنَ بَيْتَهُ
ولَبَّوْا لَهُ عِنْدَ المَهَلِّ ، وأَحْرَمُوْا
وقَدْ كَشَفُوْا تِلْكَ الرُّؤُوْسِ تَوَاضُعاً
لِعِزَّةِ مَنْ تَعْنُوْ الوُجُوْهُ وتُسْلِمُ
يُهِلُّونَ بالبَيْدَاءِ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا
لَكَ المُلْكُ والحَمْدُ الَّذِي أَنْتَ تَعْلَمُ
دَعَاهُمْ فَلَبَّوْهُ رِضىً وَمَحَبَّةً
فَلَمَّا دَعَوْهُ كَانَ أَقْرَبَ مِنْهُمُ
تَرَاهُمْ عَلَى الإِنْضَاءِ شُعْثاً رُؤُوْسُهُمْ
وغُبْراً ، وهُمْ فِيْهَا أَسَرُّ وأَنْعَمُ

وَقَدْ فَارَقُوْا الأَوْطَانَ والأَهْـلَ رَغْبَةً
وَلَـم يُثْنِهِـمْ لَـذاتُهُـمْ والتَّـنَـعُّـمُ
يَسِيْـرُوْنَ مِن أَقْـطَارِهَـا وفِجَاجِهَـا
رِجَـالًا ورُكبانـاً ، ولِلّهِ أَسْلَمُـوْا
وَلَمَّـا رَأَتْ أَبْصَـارُهُمْ بَيْتَـهُ الّذي
قُلُوبُ الـوَرَى شَـوْقـاً إِلَيْـهِ تَضَـرَّمُ
كَـأَنَّهُمْ لَـمْ يَنْصِبُـوْا قَطُّ قَبْلَهُ
لِأَنَّ شَقـاهُمْ قَـدْ تَـرَحَّـلَ عَنْهُمُ
فَـلِلّهِ كَمْ مِـنْ عَـبْـرَةٍ مُـهَـرَاقَـةٍ
وأُخْـرَى عَـلَى آثَـارِهَـا تَتَـقَـدَّمُ
وَقَـدْ شَرِقَتْ عَيْنُ المُحِبّ بِـدَمْعِهَا
فَيَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ الدُّمُـوْعِ ، ويُسْجِمُ
إِذَا عَـايَنَتْـهُ العَيْنُ زَالَ ظَـلَامُهَـا
وَزَالَ عَنِ القَلْبِ الكَئِيْبِ التَّـأَلُّمُ
وَلَا يَعْرِفُ الطَّرْفُ المُعَـايِنُ حُسْنَهُ
إلى أَنْ يَعُوْدَ الطَّرْفُ ، والشَّوْقُ أَعْظَمُ
وَلَا عَجَبٌ مِنْ ذَا فَحِيْنَ أَضَـافَـهُ
إلى نَفْسِهِ الرَّحْمٰنُ ، فَهْوَ المُعَظَّمُ
كَسَاهُ مِنَ الإِجْـلَالِ أَعْـظَمَ حُلَّةٍ
عَلَيْهَـا طِـرَازٌ بِـالمَـلَاحَـةِ مُعْلَمُ
فَمِنْ أَجْلِ ذَا كُلُّ القُلُوبِ تُحِبُّـهُ
وتَخْضَـعُ إِجْـلَالًا لَـهُ ، وتُعَـظِّمُ

وَرَاحُوْا إِلى التَّعْرِيْفِ يَرْجُوْنَ رَحْمَةً
وَمَغْفِرَةً مِمَّنْ يَجُوْدُ ويُكْرِمُ

فَلِلَّهِ ذَاكَ المَوْقِفُ الأَعْظَمُ الّذِي
كَمَوْقِفِ يَوْمِ العَرْضِ بَلْ ذَاكَ أَعْظَمُ

وَيَدْنُوْ بِهِ الجَبَّارُ جَلَّ جَلاَلُهُ
يُبَاهِي بِهِمْ أَمْلاَكَهُ ، فَهْوَ أَكْرَمُ

يَقُوْلُ : عِبَادِيْ قَدْ أَتَوْنِي مَحَبَّةً
وَإِنّي بِهِمْ بَرٌّ أَجُوْدُ ، وأَرْحَمُ

فأُشْهِدُكُمْ أَنِّيْ غَفَرْتُ ذُنُوبَهُمْ
وأَعْطَيْتُهُمْ مَا أَمَّلُوْهُ وأَنْعَمُ

فَبُشْرَاكُمْ يَا أَهْلَ ذَا المَوْقِفِ الّذِي
بِهِ يَغْفِرُ اللّهُ الذُّنُوبَ ، ويَرْحَمُ

ومَا رُؤيَ الشَّيْطَانُ أَغيَظَ فِي الْوَرَى
وأَحْقَرَ مِنْهُ عِنْدَهَا ، وَهْوَ الأَمُ

وَذَاكَ لِأَمْرٍ قَدْ رَآهُ فَغَاظَهُ
فَأَقْبَلَ يَحْثُو التُّرْبَ غَيْظاً ، ويَلْطِمُ

ومَا عَايَنَتْ عَيْنَاهُ مِنْ رَحْمَةٍ أَتَتْ
ومَغْفِرَةٍ مِنْ عِنْدَ ذِي العَرْشِ تُقْسَمُ

بَنَى مَا بَنَى ، حَتَّى إذا ظَنَّ أَنَّهُ
تَمَكَّنَ مِنْ بُنْيَانِهِ ، فَهْوَ مُحْكَمُ

أَتَى اللّهُ بُنْيَاناً لَهُ مِنْ أَسَاسِهِ
فَخَرَّ عَلَيْهِ سَاقِطاً يَتَهَدَّمُ

وكَمْ قَـدْرَ مَـا يَعْلُو البِنَـاءُ ويَنْتَهِيْ
إذَا كَانَ يَبْنِيْهِ وذُو العَرْشِ يَهْدِمُ !!
وَراحُوْا إلى جَمْعٍ فَبَاتُوْا بِمَشْعَرِ الْـ
حَرامِ وَصَلُوا الفَجْرَ ، ثُمَّ تَقَـدَّمُوْا
إلى الجَمْرَةِ الكُبْرى يُرِيْدُوْنَ رَمْيَهَا
لِـوَقْتِ صَلاةِ العِيْـدِ ، ثُمَّ تَيَمَّمُـوْا
مَنَـازِلَهُم لِلنَّحْـرِ يَبْـغُـوْنَ فَضْـلَهُ
وإحْيَـاءَ نُسْـكٍ مِنْ أَبِيْهِم يُعَـظَّمُ
فَلَوْ كَانَ يُرْضِي اللّهَ نَحْرُ نُفُوسِهِمْ
لَدَانُوا بِـهِ طَوْعـاً ، ولِلأمْـرِ سَلَّمُوْا
كَمَـا بَذَلُـوا عِنْدَ الجِهَـادِ نُحُورَهُمْ
لِأَعْـدَائِـهِ حَتَّى جَـرَى مِنْهُمُ الـدَّمُ
ولَكِنَّهُمْ دَانُـوا بِـوَضْـعِ رُؤوْسِهِمْ
وذَلِـكَ ذُلٌّ لِـلْعَـبِـيْـدِ ومِـيْـسَـمُ
ولَمَّـا تَقَضَّـوْا ذَلِـكَ التَّفَثَ الّـذِي
عَلَيْهِمْ ، وَأَوْفَوْا نَذْرَهُم ، ثُمَّ تَمَّمُوْا
دَعَـاهُم إلى البَيْتِ العَتِيْقِ زِيَـارَةً
فَيَـا مَـرْحَبـاً بِـالـزَّائِـرِيْنَ ، وأَكْـرِمُ
فَلِلّهِ مَـا أَبْهَى زِيَـارَتَهُـمْ لَـهُ !!
وَقَـدْ حُصِّلَتْ تِلْكَ الجَوَائِـزُ تُقْسَمُ
وَلِـلّهِ إفْـضَـالٌ هُـنَـاكَ ونِـعْـمَـةٌ
وبِـرٌّ وإحْسَـانٌ ، وَجُـوْدٌ ومَـرْحَمُ

وَعَادُوْا إِلَى تِلْكَ المَنَازِلِ مِنْ مِنَى
وَنَالُوْا مُنَاهُمْ عِنْدَهَا ، وتَنَعَّمُوْا
أَقَامُوْا بِهَا يَوماً وَيَوماً وثَالِثاً
وأُذِّنَ فِيهِمْ بِالرَّحِيْلِ وأُعْلِمُوْا
وَرَاحُوْا إلى رَمْيِ الجِمَارِ عَشِيَّةً
شِعَارُهُمُ التَّكْبِيْرُ وَاللّهُ مَعْهُمُ
فَلَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ مَوْقِفَهُمْ بِهَا
وَقَدْ بَسَطُوْا تِلْكَ الأَكُفَّ لِيُرْحَمُوْا
يُنَادُوْنَهُ : يَا رَبُّ ، يَا رَبُّ ، إِنَّنَا
عَبِيْدُكَ ، لا نَدْعُوْ سِوَاكَ ، وتَعْلَمُ
وَهَا نَحْنُ نَرْجُوْ مِنكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ
فَأَنْتَ الّذِي تُعْطِيْ الجَزِيْلَ وتُنْعِمُ
وَلَمَّا تَقَضَّوْا مِنْ مِنَى كُلَّ حَاجَةٍ
وسَالَتْ بِهِمْ تِلْكَ البِطَاحُ تَقَدَّمُوْا
إِلى الكَعْبَةِ البَيْتِ الحَرَامِ عَشِيَّةً
وَطَافُوْا بِهَا سُبْعاً ، وصَلُّوْا ، وَسَلَّمُوْا
ولَمَّا دَنَا التَّوْدِيْعُ مِنْهُمْ وأَيْقَنُوْا
بِأَنَّ التَّدَانِيْ حَبْلُهُ مُتَصَرِّمُ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَقْفَةٌ لِمُوَدِّعٍ
فَلِلَّهِ أَجْفَانٌ هُنَالِكَ تَسْجُمُ !!
ولِلَّهِ أَكْبَادٌ هُنَالِكَ أُوْدِعَ الْـ
غَرَامُ بِهَا !! فَالنَّارُ فِيْهَا تَضَرَّمُ

ولِـلَّهِ أَنْفَـاسٌ يَـكَـادُ بِـحَـرِّهَـا
يَـذُوبُ المُحِبُّ المُسْتَهَـامُ المُتَيَّمُ
فَـلَمْ تَـرَ إِلَّا بَـاهِتـاً مُـتَـحَـيِّـراً
وآخَـرَ يُـبْـدِي شَـجْـوَهُ يَـتَـرَنَّـمُ
رَحَلْتُ ، وأَشْـوَاقِي إِلَيْكُمْ مُقِيْمَـةٌ
ونَـارُ الأَسَى مِنِّيْ تُشَبُّ وتُضْـرَمُ
أُوَدِّعُكُمْ ، وَالشَّـوْقُ يَثْنِيْ أَعِـنَّتِـيْ
وَقَلْبِيَ أَمْسَى فِي حِمَـاكُمْ مُخَيِّمُ
هُنَالِكَ لَا تَثْرِيْبَ يَوْماً عَلَى امْرِئٍ
إِذَا مَا بَدَا مِنْهُ الّذِيْ كَـانَ يَكْتُمُ
فَـيَا سَائِقِيْنَ العِيْسَ ، بِـاللَّهِ رَبِّكُمْ
قِفُوْا لِيْ عَلَى تِلْكَ الرُّبُوْعِ وَسَلِّمُوْا
وَقُوْلُوا مُحِبٌّ قَادَهُ الشّوقُ نَحْـوَكُمْ
قَضَى نَحْبَهُ فِيْكُم تَعِيْشُوْا وتَسْلَمُوْا
قَضَى اللّهُ رَبُّ العَرْشِ فِيْمَا قَضَى بِهِ
بِـأَنَّ الهَـوَى يُعْمِي القُلُوْبَ ويُبْكِمُ
وحُبُّكُمْ أَصْـلُ الهُـدَى ، ومَـدَارُهُ
عَلَيْـهِ، وَفَـوْزٌ لِلْمُحِبِّ ، ومَـغْنَـمُ
وتَفْنَى عِـظَامُ الصَّبِّ بَعْـدَ مَمَـاتِـهِ
وأَشْـوَاقُـهُ وَقْـفٌ عَـلَيْـهِ مُـحَـرَّمُ
فَيَا أَيُّهَا القَلْبُ الّذي مَلَكَ الهَوَى
أَزِمَّتَـهُ ، حَتَّى مَتَى ذَا التَّـلَوُّمُ ؟!

وحَتَّامَ لَا تَصْحُو؟! وَقَدْ قَرُبَ المَدَى
وَدُنَّتْ كُؤُوْسُ السَّيْرِ والنَّاسُ نُـوَّمُ

بَلى ، سَوْفَ تَصْحُو حِيْنَ يَنْكَشِفُ الغِطَا
وَيَبْدُوْ لَكَ الأَمْرُ الَّذِي أَنْتَ تَكْتُمُ

ويَـا مُوْقِـداً نَاراً لِغَيْـرِكَ ضَـوْؤُهَـا
وَحَـرُّ لَـظَاهَـا بَيْنَ جَنْبَيْـكَ يُضْـرَمُ

أَهَذَا جَنَى العِلْمِ الَّذِي قَدْ رَضِيْتَهُ
لِنَفْسِكَ فِي الدَّارِيْن : جَاهٌ ودِرْهَمُ ؟!

وَهَذا هُوَ الرِّبْحُ الَّذِي قَدْ كَسَبْتَهُ ؟!
لعَمْرُكَ لا رِبْحٌ ، وَلَا الأَصْلُ يَسْلَمُ !!

بَخِلْتَ بِشَيْءٍ لَا يَضُـرُّكَ بَـذْلُـهُ
وجُـدْتَ بِشَيْءٍ مِثْلُهُ لَا يُـقَـوَّمُ

بَخِلْتَ بِـذَا الحَظِّ الخَسِيْسِ دَنَاءَةً
وجُدْتَ بِدَارِ الخُلْدِ لَوْ كُنْتَ تَفْهَمُ

وبِعْتَ نَعِيْمـاً لَا انْقِضَـاءَ لَـهُ وَلَا
نَـظِيْرَ بِبَخْسٍ عَن قَلِيـلٍ سَيُعْـدَمُ

فَهَلَّا عَكَسْتَ الأَمْرَ إِنْ كُنْتَ حَازِماً
ولَكِنْ أَضَعْتَ الحَزْمَ لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ

وتَهْـدِمُ مَـا تَبْنِيْ بِكَفِّـكَ جَـاهِـداً
فـأَنْتَ مَـدَى الأَيَّـامِ تَبْنِي وَتَهْـدِمُ

وعِنْـدَ مُـرَادِ اللَّهِ تَـفْنَـى كَمَيِّتٍ
وعِنْدَ مُرادِ النَّفْسِ تُسْدِيْ وتُلْحِمُ

وعِنْدَ خِلَافِ الأمْرِ تَحْتَجُّ بالقَضَا
ظَهِيراً عَلَى الرَّحْمنِ ، لِلْجَبْرِ تَزْعُمُ
تَنَزَّهُ مِنْكَ النَّفْسُ عنْ سُوْءِ فِعْلِهَا
وتَعْتِبُ أقْدَارَ الإلهِ وَتَظْلِمُ
تَحُلُّ أُمُوْراً أحْكَمَ الشَّرْعُ عَقْدَهَا
وتَقْصُدُ مَا قَدْ حَلَّهُ الشَّرْعُ تُبْرِمُ
وتَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ الرَّسُوْلِ خِلَافَ مَا
أرَادَ لأَنَّ الْقَلْبَ مِنْكَ مُعَجَّمُ
مُطِيْعٌ لِدَاعِي الغَيِّ عَاصٍ لِرُشْدِهِ
إلى رَبِّهِ يَوماً يُرَدُّ ويَعْلَمُ
مُضِيْعٌ لأمْرِ اللّهِ قَدْ غَشَّ نَفْسَهُ
مُهِيْنٌ لَهَا أنّي يُحِبُّ ويُكْرِمُ
بَطِيءٌ عَنْ الطَّاعَاتِ أسْرَعُ لِلْخَنَا
مِنَ السَّيْلِ فِي مجْرَاهُ لَا يَتَقَسَّمُ
وَتَزْعُمُ مَعْ هَذَا بِأنَّكَ عَارِفٌ
كَذَبْتَ يَقِيْناً بِالّذِي أنْتَ تَزْعُمُ
وَمَا أنْتَ إلّا جَاهِلٌ ثُمَّ ظَالِمٌ
وأنَّكَ بَيْنَ الجَاهِلِيْنَ مُقَدَّمُ
إذَا كَانَ هَذَا نُصْحُ عَبْدٍ لِنَفْسِهِ
فَمَنْ ذَا الّذِي مِنْهُ الهُدَى يُتَعَلَّمُ ؟!
وفِي مِثْلِ هَذَا الحَالِ قَدْ قَالَ مَنْ مَضَى
وأحْسَنَ فِيْمَا قَالَهُ المُتَكَلِّمُ

« فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِيْ فَتِلْكَ مُصِيْبَةٌ
وإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيْبَةُ أَعْظَمُ »

وَلَوْ تُبْصِرُ الدُّنْيَا وَرَاءَ سُتُورِهَا
رَأَيْتَ خَيَالاً فِي مَنَامٍ سَيُصْرَمُ

كَحُلْمٍ بِطَيْفٍ زَارَ فِي النَّوْمِ وانْقَضَى الْـ
مَنَامُ وَرَاحَ الطَّيْفُ ، والصَّبُّ مُغْرَمُ

وَظِلٍّ أَرَتْهُ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
سَيَقْلُصُ فِي وَقْتِ الزَّوَالِ ، ويَفْصِمُ

ومُزْنَةِ صَيْفٍ طَابَ مِنهَا مَقِيْلُهَا
فَوَلَّتْ سَرِيْعاً ، والحُرُوْرُ تَضَرَّمُ

وَمَطْعَمِ ضَيْفٍ لَذَّ مِنْهُ مَسَاغُهُ
وَبَعْدَ قَلِيلٍ حَالُهُ تِلْكَ تُعْلَمُ

كَذَا هَذِهِ الدُّنْيَا كَأَحْلَامِ نَائِمٍ
ومِنْ بَعْدِهَا دَارُ البَقَاءِ سَتَقْدَمُ

فَجُزْهَا مَمَرّاً لَا مَقَرّاً وَكُنْ بِهَا
غَرِيْباً تَعِشْ فِيْهَا حَمِيْداً ، وتَسْلَمُ

أَو ابْنَ سَبِيْلٍ قَالَ فِي ظِلِّ دَوْحَةٍ
وَرَاحَ ، وَخَلَّى ظِلَّهَا يَتَقَسَّمُ

أَخَا سَفَرٍ لا يَسْتَقِرُّ قَرَارُهُ
إِلَى أَنْ يَرَى أَوْطَانَهُ ويُسَلِّمُ

فَيَا عَجَباً !! كَمْ مَصْرَعٍ وعَظَتْ بِهِ
بَنِيْهَا !! ولَكِنْ عَنْ مَصَارِعِهَا عَمُوْا

سَقَتْهُمْ كُؤُوسَ الحُبِّ حَتَّى إِذا نَشَوْا
سَقَتْهُمْ كُؤُوسَ السُّمِّ ، والقَوْمُ نُوَّمُ
وأَعْجَبُ مَا فِي العَبْدِ رُؤْيَةُ هَذِهِ الْـ
عَـظَائِمِ ، والمَغْـرُوْرُ فِيْهَـا مُتَيَّمُ
وَمَـا ذَاكَ إلَّا أَنَّ خَمْـرَةَ حُبِّهَـا
لَتَسْلِبُ عَقْـلَ المَـرْءِ مِنْـهُ وتَصْلِمُ
وأَعْجَبُ مِن ذَا أَنَّ أَحْبَابَهَا الأُلَى
تُهِيْنُ ، ولِـلأَعْـدا تُـرَاعِي وتُكْـرِمُ
وَذَلِـكَ بُـرْهَـانٌ عَلَى أَنَّ قَـدْرَهَـا
جَـنَـاحُ بَـعُـوضٍ أَوْ أَدَقُّ وأَلأَمُ
وحَسْبُـكَ مَا قَـالَ الرَّسُـولُ مُمَثِّلاً
لَهَـا ، ولِـدَارِ الخُلْدِ والحَقُّ يُفْهَمُ
كَمَا يُدْلِيَ الإِنْسَانُ فِي اليَمِّ أُصْبُعاً
ويَنْـزِعُهَـا مِنْـهُ فَمَـا ذَاكَ يَغْنَمُ
أَلَا لَيْتَ شِعْـرِيْ هَـلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً
عَلَى حَـذَرٍ مِنْهَـا ، وأَمْـرِيَ مُبْـرَمُ
وَهَـلْ أَرِدَن مَـاءَ الحَيَـاةِ وَأَرْتَـوِيْ
عَلَى ظَمَأٍ مِن حَوْضِهِ ، وَهْوَ مُفْعَمُ
وَهَلْ تبدُوَنْ أَعْلامُهَا بَعْدَ مَا سَفَتْ
عَلَى رَبْعِهَـا تِلْكَ السَّوافِي فَتُعْلَمُ
وَهَلْ أَفْرِشَنْ خَـدِّيْ ثَرَى عَتَبَـاتِهِمْ
خُضُوعاً لَهُمْ كَيْمَا يَرِقُّوْا ويَرْحَمُـوْا

وَهَـلْ أَرْمِيَنْ نَفْسِي طَرِيْحـاً بِبَابِهِمْ
وَطَيْـرُ مَنَـايَـا الحُبِّ فَـوْقِيَ تُحَـوِّمُ
فَيَـا أَسَفِيْ ، تَفْنَى الحَيَاةُ وتَنْقَضِيْ
وذَا العُتْبُ بَـاقٍ مَا بَقِيْتُمْ وعِشْتُمُ
فَمَـا مِنْكُمُ بُـدٌّ وَلاَ عَنْكُمُ غِنَـى
وَمَـا لِيْ مِنْ صَبْـرٍ فَـأَسْلُوَ عَنْكُمُ
وَمَنْ شَاءَ فَلْيَغْضَبْ سِوَاكُمْ فَلاَ إِذاً
إِذا كُنْتُمُ عَنْ عَبْـدِكُمْ قَدْ رَضِيْتُمُ
وعُقْبَى اصْطِبَارِيْ فِي هوَاكُمْ حَمِيْدَةٌ
ولَـكِنَّهَـا عَنْكُمْ عِـقَـابٌ ومَـأْثَمُ
وَمَـا أَنَا بـالشَّـاكِي لِمَا تَرْتَضُوْنَهُ
وَلـكِـنَّـنِـيْ أَرْضَـى بِـهِ وَأُسَـلِّمُ
وحَسْبِيْ انْتِسَـابِيْ مِنْ بَعِيْـدٍ إِلَيْكُمُ
أَلاَ إِنَّــهُ حَظٌّ عَـظِيْـمٌ مُـفَـخَّـمُ
إِذَا قِيْـلَ : هَـذَا عَبْدُهُمْ ومُحِبُّهُمْ
تَـهَـلَّلَ بِـشْـراً وَجْـهُـهُ يَـتَـبَـسَّـمُ
وَهَـا هُوَ قَـدْ أَبْدَى الضَّـرَاعَةَ سَـائِلاً
لكُمْ بِلِسَانِ الحَالِ ، والقَـالِ مُعْلِمُ
أَحِـبَّتَـهُ ، عَـطْفـاً عَلَيْـهِ فَـإِنَّـهُ
لَمُظْمىً ، وإِن المَوْرِدَ العَـذْبَ أَنْتُمُ
فَيَا سَاهِياً ، في غَمْرَةِ الجَهْلِ والهَوَى
صَرِيْعَ الأَمَـانِيْ عَنْ قَـرِيْبٍ سَتَنْـدَمُ

أفِقْ قَدْ دَنا الوَقْتُ الّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ
سِوَى جَنَّةٍ ، أَوْ حَرِّ نَارٍ تَضَرَّمُ
وبالسُّنَّةِ الغَرَّاءِ كُنْ مُتَمَسِّكاً
هِيَ العُرْوَةُ الوُثْقى الَّتِي لَيْسَ تُفْصَمُ
تَمَسَّكْ بِهَا مَسْكَ البَخِيْلِ بِمَالِهِ
وعُضَّ عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ تَسْلَمُ
وَدَعْ عَنْكَ مَا قَدْ أَحْدَثَ النّاسُ بَعْدَهَا
فَمَرْتَعُ هَاتِيْكَ الحَوَادِثِ أَوْخَمُ
وهَيِّءْ جَوَاباً عِنْدَمَا تَسْمَعُ النِّدَا
مِنَ اللّهِ يَوْمَ العَرْضِ مَاذَا أَجَبْتُمُ
بِهِ رُسُلِي لَمَّا أَتَوْكُمْ فَمَنْ يَكُنْ
أَجَابَ سِوَاهُمْ سَوْفَ يُخْزَى ويَنْدَمُ
وخُذْ مِنْ تُقَى الرَّحْمنِ أَعْظَمَ جُنَّةٍ
لِيَوْمٍ بِهِ تَبْدُوْ عِيَاناً جَهَنَّمُ
ويُنْصَبُ ذَاكَ الجِسْرُ مِنْ فَوْقِ مَتْنِهَا
فَهَاوٍ ، ومَخْدُوْشٌ ، ونَاجٍ مُسَلَّمُ
ويَأْتِي إِلٰهُ العَالَمِيْنَ لِوَعْدِهِ
فَيَفْصِلُ مَا بَيْنَ العِبَادِ ويَحْكُمُ
وَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ رَبُّكَ حَقَّهُ
فَيَا بُؤْسَ عَبْدٍ لِلْخَلائِقِ يَظْلِمُ !!
ويُنْشَرُ دِيْوَانُ الحِسَابِ وتُوْضَعُ الْـ
مَوَازِيْنُ بالقِسْطِ الّذِي لَيْسَ يَظْلِمُ

فَــلاَ مُجْــرِمٌ يَخْشَى ظَــلامَــةَ ذَرَّةٍ
ولا مُحْسِنٌ مِنْ أجْــرِهِ ذَاكَ يُهْضَـمُ
وَتَشْهَـدُ أَعْضَـاءُ الْمُسِيءِ بِمَــا جَنَى
كَــذَاكَ عَلَى فِيْــهِ المُهَيْمِـنُ يَخْتِمُ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِيْ !! كَيْفَ حَالُكَ عِنْدَمَا
تَــطَايَــرُ كُتْبُ العَــالَمِيْنَ وتُقْسَمُ ؟!
أَتَــأْخُــذُ بــاليُمْنَى كِتَابَــكَ أَمْ تَكُنْ
بِــالأُخْرَى وَرَاءَ الظُّهْــرِ مِنْــكَ تَسَلَّمُ
وَتَــقْــرَأُ فِيْــهِ كُــلَّ شَــيْءٍ عَمِـلْتَــهُ
فَيُشْرِقُ مِنْكَ الــوَجْهُ ، أَوْ هُــوَ يُظْلِمُ
تَقُــولُ : كِتَابِي فَــاقْــرَؤُوهُ فَــإِنَّــهُ
يُبَشِّــرُ بِــالفَــوْزِ العَــظِيْمِ ، ويُعْلِمُ
وَإِنْ تَكُنِ الأُخْــرَى فَــإِنَّــكَ قَــائِــلٌ :
أَلا لَيْتَــنِي لَــمْ أُوْتَــهُ فَهْــوَ مُـغْــرَمُ
فَبَــادِرْ إِذاً مَا دَامَ فِي العُمْــرِ فُسْحَةٌ
وعَــدْلُــكَ مَقْبُــوْلٌ ، وصَــرْفُــكَ قَيِّمُ
وجُدَّ ، وسَارِعْ ، واغْتَنِمْ زَمَنَ الصِّبَا
فَفِيْ زَمَنِ الامْكَــانِ تَسْعَى ، وتَغْنَمُ
وسِرْ مُسْرِعاً ، فالسَّيْلُ خَلْفُكَ مُسْرِعٌ
وهَيْهَــاتَ مَــا مِنْــهُ مَفَــرٌّ ومَهْــزَمُ !!
« فَــهُنَّ الــمَنَــايَــا أَيَّ وَادٍ نَــزَلْــتَــهُ
عَلَيْهَــا القُــدُومُ أَوْ عَلَيْــكَ سَتَقْدَمُ »

وَمَـا ذَاكَ إلاّ غَـيْـرَةٌ أَنْ يَنَـالَـهَـا
سِوَى كُفْؤِهَا والـرَّبُّ بـالخَلْقِ أَعْلَمُ

وإنْ حُجِبَتْ عَنَّـا بِـكُـلِّ كَـرِيْهَـةٍ
وحُفَّتْ بِمَـا يُؤْذِي النُّفُـوسَ ويُؤْلِمُ

فَلِلّهِ مَـا فِي حَشْـوِهَـا مِن مَسَـرَّةٍ
وأصْنَـافِ لَـذَّاتِ بِهَـا يُـتَنَـعَّمُ !!

ولِلّهِ بَـرْدُ العَـيْشِ بَيْـنَ خِيَـامِـهَـا
وَرَوْضَاتِهَا والثَّغْرُ فِي الرَّوْضِ يَبْسِمُ

فَلِلّهِ وَادِيْهَـا الّـذي هُـوَ مَـوْعِـدُ الْـ
مَـزِيْدِ لِـوَفْـدِ الحُبِّ لَـوْ كُنْتَ مِنْهُمُ

بِـذَيَّـالِـكَ الـوَادِيْ يَهِيْمُ صَبَـابَـةً
مُحِبٌّ يَـرَى أَنَّ الصَّبَـابَـةَ مَغْنَمُ !

ولِـلّهِ أَفْـرَاحُ المُـحِبّيْـنَ عِـنْـدَمَـا
يُـخَـاطِبُـهُمْ مِـنْ فَـوْقِهِـمْ وَيُـسَـلِّمُ

وَلِـلّهِ أَبْـصَـارٌ تَـرَى الـلّهَ جَـهْـرَةً
فَـلاَ الضَّيْمُ يَغْشَاهَـا وَلاَ هِيَ تَسْـأَمُ

فَيَـا نَظْرَةً أَهْـدَتْ إِلَى الوَجْـهِ نَضْرَةً
أَمِنْ بَعْـدِهَـا يَسْلُو المُحِبُّ المُتَيَّمُ ؟

ولِلّهِ كَمْ مِـنْ خِيْـرَةٍ لَـوْ تَـبَسَّـمَتْ
أَضَـاءَ لَهَـا نُـوْرٌ مِنْ الفَجْـرِ أَعْـظَمُ

فَيَـا لَـذَّةَ الأَبْصَـارِ إنْ هِيَ أَقْبَلَتْ
ويـا لَـذَّةَ الأَسْمَـاعِ حِيْـنَ تَكَـلَّمُ

وَيَا خَجْلَةَ الغُصْنِ الرَّطِيْبِ إِذا انْثَنَتْ
وَيَـا خَجْلَةَ البَحْـرَيْنِ حِيْنَ تَبَسَّمُ ؟؟

فَـإِنْ كُنْتَ ذَا قَلْبٍ عَلِيْـلٍ بِحُبِّهَـا
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَصْلُهَـا لَـكَ مَـرْهَمُ

وَلاَ سِيَّمَـا فِي لَثْمِهَا عِنْـدَ ضَمِّهَا
وَقَدْ صَارَ مِنْهَا تَحْتَ جِيْدِكَ مِعْصَمُ

يَـرَاهَا إِذَا أَبْدَتْ لَـهُ حُسْنَ وَجْهِهَا
يَلَذُّ بِهَـا قَبْـلَ الـوِصَـالِ وَيَنْـعَمُ

تَفَكُّـهُ مِنْهَـا العَيْنُ عِنْـدَ اجْتِلائِهَـا
فَـوَاكِـهَ شَتَّى طَلْعُهَـا لَيْسَ يُعْـدِمُ

عَنَـاقِـدُ مِنْ كَـرْمٍ وَتُفَّـاحُ جَنَّـةٍ
ورُمَّـانُ أَغْصَـانٍ بِهَـا القَلْبُ مُغْـرَمُ

ولِلْوَرْدِ مَـا قَـدْ أُلْبِسَتْـهُ خُدُوْدُهَـا
ولِلْخَمْـرِ مَا قَـدْ ضَمَّهُ الـرِّيْقُ والْفَمُ

تَقَسَّمَ مِنْهَا الحُسْنُ فِي جَمْعٍ وَاحِدٍ
فَيَـا عَجَبـاً مِنْ وَاحِـدٍ يَتَقَـسَّمُ

تُـذَكِّـرُ بـالـرَّحْمنِ مَنْ هُـوَ نَـاظِـرٌ
فَـيَنْـطِقُ بـالـتَّسْبِيْـحِ لاَ يَـتَلَعْثَمُ

لَهَـا فِرَقٌ شَتَّى مِنَ الحُسْنِ أَجْمَعَتْ
بِـجُـمْـلَتِـهَـا إِنَّ الـسُّـلُوَّ مُـحَـرَّمُ

إِذَا قَـابَلَتْ جَيْشَ الهُمُـوْمِ بِـوَجْهِهَا
تَـوَلَّى عَلَى أَعْقَـابِـهِ الجَيْشُ يُهْـزَمُ

فَيَا خَاطِبَ الحَسْنَاءِ إِنْ كُنْتَ رَاغِباً
فَهَذا زَمَانُ المَهْرِ فَهْوَ المُقَدَّمُ
وَلَمَّا جَرَى مَاءُ الشَّبَابِ بغُصْنِهَا
تَيَقَّنَ حَقّاً أَنَّهُ لَيْس يَهْرَمُ
وَكُنْ مُبْغِضاً لِلْخَائِنَاتِ لِحُبِّهَا
لِتُحْظَى بِهَا مِنْ دُوْنِهِنَّ وتَنْعَمُ
وكُنْ أَيِّماً مِمَّا سِوَاهَا فَإِنَّهَا
لِمِثْلِكَ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ تَأَيَّمُ
وَصُمْ يَوْمَكَ الأَدْنَى لَعَلَّكَ فِي غَدٍ
تَفُوْزُ بِعِيْدِ الفِطْرِ وَالنَّاسُ صُوَّمُ
وأَقْدِمْ وَلَا تَقْنَعْ بِعَيْشٍ مُنَغَّصٍ
فَمَا فَازَ بِاللَّذَّاتِ مَنْ لَيْس يُقْدِمُ
وإِنْ ضَاقَتْ الدُّنْيَا عَلَيْكَ بِأَسْرِهَا
وَلَمْ يَكُ فِيْهَا مَنْزِلٌ لَكَ يُعْلَمُ
فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا
مَنَازِلُكَ الأُوْلَى ، وفِيْهَا المُخَيَّمُ
ولَكِنَّنَا سَبْيُ العَدُوّ فَهَلْ تَرَى
نُرَدُّ إِلَى أَوْطَانِنَا ونُسَلِّمُ
وَقَدْ زَعَمُوْا أَنَّ الغَرِيْبَ إِذَا نَأَى
وَشَطَّتْ بِهِ أَوْطَانُهُ فَهْوَ مُغْرَمُ
وَأَيُّ اغْتِرَابٍ فَوْقَ غُرْبَتِنَا الَّتِي
لَهَا أَضْحَتْ الأَعْدَاءُ فِيْنَا تَحَكَّمُ

وَحَيَّ عَلَى رَوْضَاتِهَا وَخِيَامِهَا
وَحَيَّ عَلَى عَيْشٍ بِهَا لَيْسَ يُسْأَمُ
وَحَيَّ عَلَى السُّوْقِ الّذِي يَلْتَقِي بِهِ الْـ
مُحِبُّوْنَ ، ذَاكَ السُّوقُ لِلْقَوْمِ يُعْلَمُ
فَمَا شِئْتَ خُذْ مِنْهُ بِلاَ ثَمَنٍ لَهُ
فَقَدْ أَسْلَفَ التُّجّارُ فِيْهِ وَأَسْلَمُوْا
وَحَيَّ عَلَى يَوْمِ المَزِيْدِ فَإِنَّهُ
لَمَوْعِدُ أَهْلِ الحُبِّ حِيْنَ يُكَرَّمُوْا
وَحَيَّ عَلَى وَادٍ هُنَالِكَ أَفْيَح
وتُرْبَتُهُ مِنْ اذْفَرِ المِسْكِ أَعْظَمُ
مَنَابِرُ مِنْ نُوْرٍ هُنَاكَ وَفِضَّةٍ
ومِنْ خَالِصِ العِقْيَانِ لاَ تَتَفَصَّمُ
ومِنْ حَوْلِهَا كُثْبَانُ مِسْكٍ مَقَاعِدُ
لِمَنْ دُوْنَهُمْ هَذَا العَطَاءُ المُفَخَّمُ
يَرَوْنَ بِهِ الرَّحْمَنَ جَلَّ جَلالُهُ
كَرُؤْيَةِ بَدْرِ التِّم لاَ يُتَوَهَّمُ
كَذَا الشَّمْسُ صَحْواً لَيْسَ مِنْ دُوْنِ أُفْقِهَا
سَحَابٌ وَلاَ غَيْمٌ هُنَاكَ يُغَيِّمُ
فَبَيْنَاهُمُ فِي عَيْشِهِمْ وسُرُوْرِهِمْ
وأَرْزَاقُهُمْ تَجْرِي عَلَيْهِمْ وتُقْسَمُ
إِذَا هُمْ بِنُوْرٍ سَاطِعٍ قَدْ بَدَا لَهُمْ
وَقَدْ رَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ فَإِذَا هُمُ

بِــرَبِّهِمْ مِنْ فَـوْقِهِمْ قَــائِــلٌ لَهُمْ :
سَــلاَمٌ عَلَيْكُــمْ ، طِبْتُمُ ، ونَـعِمْـتُمُ
سَــلاَمٌ عَلَيْكُمْ ، يَسْمَعُــوْنَ جَمِيْعُهُمْ
بــآذَانِــهِــمْ تَــسْلِيْــمَــهُ إِذْ يُــسَــلِّمُ
يَقُولُ : سَلُوْنِيْ مَا اشْتَهَيْتُمْ فكُلُّ مَا
تُــرِيْــدُوْنَ عِــنْــدِي ، إِنَّنِيْ أَنَــا أَرْحَمُ
فَقَالُوْا جَمِيْعاً : نَحْنُ نَسْأَلُكَ الرِّضَى
فَـأَنْتَ الّذِي تُـوْلِيْ الجَمِيْلَ وتَــرْحَمُ
فَيُعْــطِيْهِمُ هَــذَا ، ويُشْهِــدُ جَمْعَهُمْ
عَلَيْــهِ ، تَعَــالَى اللّهُ ، فَــاللَّهُ أَكْــرَمُ
فَبِــالّــهِ مَــا عُــذْرُ امْــرِىءٍ هُــوَ مُؤْمِنٌ
بِهَــذَا ، وَلاَ يَسْعَى لَــهُ وَيُقَــدِّمُ ؟!
ولــكِنَّــمَــا الــتَّــوفِــيْقُ بِــالــلّهِ إِنَّــهُ
يَخُصُّ بِــهِ مَنْ شَــاءَ فَضْــلاً وَيُنْعِمُ
فَيَــا بَــائِعــاً غَــالٍ بِبَخْسٍ مُعَجَّــلٍ
كأَنَّكَ لاَ تَــدْرِيْ ، بَلَى سَوْفَ تَعْلَمُ
فَقَدِّمْ ، فَدَتْكَ النَّفْسُ ، نَفْسَكَ إِنَّهَــا
هِيَ الثَّمَنُ الـمَبْــذُوْلُ حِيْنَ تُــسَلَّمُ
وخُضْ غَمَرَاتِ المَوْتِ وَارْقَ مَعَارِجَ الْـ
مَــحَبَّــةِ فِــي مَــرْضَــاتِهِــمْ تَتَسَــنَّمُ
وَسَلِّمْ لَهُمْ مَــا عَــاقَــدُوْكَ عَلَيْــهِ إِنْ
تُــرِدْ مِنْهُمُ أَنْ يَبْــذِلُــوا وَيُــسَلِّمُــرا

فَمَـا ظَفِرَتْ بـالـوَصْـلِ نَفْسٌ مَهِيْنَةٌ
وَلَا فَـازَ عَبْـدٌ بـالبَـطَالَـةِ يَـنْعَـمُ

وإنْ تَكُ قَدْ عَاقَتْكَ سُعْدَى فَقَلْبُكَ الْـ
مُعَنـى رَهِيْـنٌ فِي يَـدَيْـهَـا مُسَلَّمُ

وَقَدْ سَاعَدَتْ بِالْوَصْلِ غَيْرَكَ فالْهَوَى
لَهَـا مِنْـكَ ، والـواشِيْ بِهَـا يَتَنَعَّمُ

فَـدَعْهَا ، وسَـلِّ النَّفْسَ عَنْهَـا بِجَنَّـةٍ
مِنَ العِلْمِ فِي رَوْضَاتِهَا الحَقُّ يَبْسِمُ

وَقَـدْ ذُلِّلَتْ مِنْهَا القُـطُوفُ فَمَنْ يُـرِدْ
جَنَـاهَـا يَنَلْهُ ، كَيْفَ شَـاءَ وَيَـطْعَمُ

وَقَــدْ فُتِحَتْ أَبْـوَابُهَـا ، وتَـزَيَّـنَتْ
لِخُـطَّابِهَا ، فَـالحُسْنُ فِيْهَـا مُقَسَّمُ

وَقَـدْ طَـابَ مِنْهَـا نَـزْلُهَـا وَنَـزِيْلُهَـا
فَـطُوبِي لِمَنْ حَلُّوْا بِهَـا وَتَنَـعَّمُـوْا

أَقَـامَ عَلَى أَبْـوَابِهـا دَاعِي الهُـدى
هَلِمُّـوْا إلى دَارِ السَّعَـادَةِ تَغْنَمُـوْا

وَقَـدْ غَـرَسَ الـرَّحْمنُ فِيْهَـا غِـرَاسَـةً
مِنَ النَّاسِ ، والرَّحْمنُ بالخَلْقِ أَعْلَمُ

وَمَنْ يَغْـرِسِ الـرَّحْمنُ فِيْهَا فَـإِنَّـهُ
سَـعِيْـدٌ ، وإلَّا فـالشَّقَـاءُ مُحَتَّـمُ

اللّهُمَّ ثَبِّتْ إِيْمَانَنَا بِكَ وَمَحَبَّتَكَ فِي قُلُوبِنَا ثُبُوتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ واعْصِمْنَا يَا مَوْلاَنا مِنْ جَمِيْعِ المُوبِقَاتِ وَوَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بِالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَارْفَعْ مَنَازِلَنَا فِي فَسِيْحِ الجَنَّاتِ وأَرْزُقْنَا النَّظَرَ إِلى وَجْهِكَ الكَرِيْمِ يا حَكِيْمُ يَا عَلِيْمُ يا حَيُّ يَا قَيُّومُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا ولِجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ بِرحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين . . .

(فَصْلٌ فِي الرِّيَاءِ)

اعْلَمْ عَصَمَنَا اللهُ وايَّاكَ وجَمِيْعَ المسلمينَ أَنَّ القُلُوبَ تُمْرَضُ كَمَا تُمرَضُ الأبدانُ بَلْ مَرَضُها أشدُ ومِن أَمْرَاضِهَا الرِّياءُ وهو مِن أَخْطَرِ أَمْرَاضِ القُلُوبِ ومِن الأَوْباء الأخلاقِيَّةِ الضارةِ التي تَحْتَاجُ إلى عِلاجٍ دَائِمٍ وَيَقْظَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ وهُوَ مَأخُوذُ مَن الرُؤْيَا لأَنَّ المَرائِي يُرِيَ النَّاسَ فِعْلَه لِلْخَيْرِ لِيُثْنُوا عليه ويَحْمَدُوْه وَيأْمَنُوْهُ فَيَسْتَوْلِيْ بِذَلِكَ على قُلُوبهم فيكونُ لَهُ سُلْطانٌ عليهم يَصِلُ به إِلَى لَذَتِهِ ويَسْتَعِيْنُ بِهِ على تَحْصِيْلِ شَهَوَاتِهِ وهذا الرِّياء إِنَّما يَكُونُ مِن رَجُلٍ قَصُرَ نَظَرُهُ وَرَقَّ دِيْنُهُ فإن هذا هُوَ الذي يَتَصَوَّرُ أَنَّ النَاسَ إِذَا رَأَوْهُ يُصَلِّي كَثِيْرَاً أَوْ رَؤَهُ يُطِيْلُ الصلاةَ أو يَصُومُ النوافلَ أو يَحُجُ أو يَتَصَدَقُ أو يَفْعَلُ أَيَّ فَعْلٍ مِن أفعالِ الخَيرِ يُحْسِنُونَ بِهِ الظَنَّ ويُعَامِلُونَهُ مُعَامَلَةً خاصَّةً تَتْرُكُهُ في دُنياه في سرور .

وأما العاقِلُ بَعِيْدُ النَّظَرِ صَادِقُ الايْمَانِ فإِنَّهُ يَعْلَمُ عِلْماً يَقِيْناً لَا يَشُوْبُهُ الظنُ أَنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ دُنْيَاً وأخرَى لِلَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ وأَنَّ العَالَمَ كُلَّهُ أعجزُ مِن أَنْ يَدْفَعَ أَجَلاً أَوْ يُكْثِرَ رِزْقاً أو يُجِيْرَ مِن نَائِبَةٍ تَنْزِلُ عَلَى الانسان كَمَا في حَدِيْثِ ابنِ عَبَاسٍ قَولُهُ ﷺ واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوْا على أَنْ يَنْفعُوْكَ بشَيءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا على أَنْ يَضُرُوْكَ بِشَيْءٍ لم

يَضُرُوْكَ إلَّا بِشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ فإذا كانَ الخَلْقُ بِهذا الضَّعْفِ فلا يَلْتَفِتُ لِمُرَاآتِهِمْ إلا مَنْ كَانَ سَخِيْفَ العَقْلِ وضَعِيْفَ الدِيْن على أنَّ رِيَاءَ المُرَائِي لاَ يَخْفِي حَتَّى عَلَى الخَلْقَ غَالِباً فَإِنَّ حَرَكَاتِهِ لا تَشْتَبِهُ بأعمالِ المُخْلِصِيْنَ الذين قَد اسْتَوَتْ ظَوَاهِرُهُم وبَوَاطِنُهُم على السَّوَاءِ .

قال عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ لِلْمُرَائِي ثلاثُ عَلامَاتٍ أولاً أَنَّهُ يَكْسَلُ إذا كَانَ وَحْدَهُ وَيَنْشَطُ إذَا كانَ فِي الناسِ ويَزِيْدُ فِي العَمَلِ إذا أُثْنِيَ عَلَيْهِ الناسُ وَيَنْقُصُ إذا ذُمَّ وقَد وَرَدَتْ آياتٌ وأحادِيثُ وآثارٌ تَدُلُّ على تَحْرِيْمِ الرِّيَاءِ وأَنَّهُ مَمْقُوتٌ مِنْهَا قولُ اللهِ تعالى ﴿فويلٌ لِلْمُصَلِّيْنَ الذِيْنَ هُمْ عن صلاتِهِم ساهُوْنَ الذين هُم يُرَاؤُنَ الآية﴾ .

وقال تعالى ﴿والذينَ يَمْكُرُوْنَ السَّيِّئَاتِ لَهُم عذابٌ شديدٌ وَمَكْرُ أولَئِكَ هُوَ يَبُوْر﴾ .

قال مُجَاهِدُهُمْ أَهْلُ الرِّيَآءِ وقال تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بِعِبَـادَةِ ربه أحداً﴾ نَزَلَ ذَلِكَ فِيْمَنْ يَطْلُبُ الأجرَ والحَمْدَ بِعِبَادَاتِهِ وأَعْمَالِهِ .

وأما الأحاديث فعن أبي هريرة رضي اللهُ عنه قال سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ إنَّ أَوَّلَ الناسِ يُقْضِي يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فأتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا قَال فَما عملتَ فيها قال قاتَلْتُ فِيْكَ حَتى اسْتُشْهِدْتُ قال كَذَبْتَ ولَكِنَّكَ قاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ هُوَ جَرِيءٌ فقدْ قِيْلَ ثم أمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ في النار .

ورَجلٌ تَعَلَّمَ العلمَ وعَلَّمَهُ وَقرأَ القُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا قال فما عَمِلتَ فِيها قال تَعَلَّمْتُ العِلمَ وَعلَّمْتُه وَقَرَأْتُ فِيكَ القرآنَ قال كَذَبْتَ

ولكِنَّكَ تعلَّمْتَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِىءٌ فقد قِيْلَ ثُمَّ أمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ في النارِ ورَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْه وأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المالِ فأتى بِهِ فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قال فَمَا عَمِلْتَ فِيْهَا قال ما تَرَكْتُ مِن سَبِيْلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيْهَا إِلا أَنْفَقْتُ فِيها لكَ قال كَذَبْتَ ولكنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيْلَ ثم أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ في النار رواه مسلم والنسائي والترمذي وابن حبان .

وعن عبدِ الله بن عمرو بنِ العاصِ قال قُلْتُ يا رسولَ اللهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الجِهَادِ والغَزْوِ فقال يا عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرٍو إِنْ قَاتَلْتَ صَابِراً مُحْتَسِباً بَعَثَكَ اللهُ صَابِراً مُحْتَسِباً وإِنْ قَاتَلْتَ مُرَائِياً مُكَاثِراً بَعَثَكَ اللهُ مُرَائِياً مُكَاثِراً يَا عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرٍو عَلَى أَيِّ حَالٍ قاتَلْتَ أَوْ قُتِلْتَ بَعَثَكَ اللهُ على تِلْكَ الحالِ رواه أبو داود .

وعن أَبَيّ بن كَعْبٍ قال قال رسول رسول الله ﷺ بَشِّرْ هَذِهِ الأمَّةَ بالسَّنَا والرِفْعَةِ والدِيْنِ والتَّمْكِيْنِ في الأرضِ فَمَنْ عَمِلَ مِنهم عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدنيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَصِيْبٍ رواه أحمدُ وابنُ حِبانَ في صحيحِه والحاكمُ والبيهقيُ ، إذا فَهِمْتَ ذلكَ فاعْلَم أنَّ هُنَاكَ أمورٌ خَمْسَةٌ ١ ـ مُرَاءٍ وهو العابِدُ الذي يُظْهِرُ خِصَالَ الخَيْرِ ٢ ـ ومُرَاءَىَ وهُمُ الخَلْقُ الذِين يُظْهِرُ المُرَائِي لَهُم أَعْمَالَهُ ٣ ـ ومُرَآءٌ لأجلِهِ وهو الجَاهُ والمالُ والسلطانُ وحُبُّ الحَمْدِ وكَرَاهَةُ الذَّمِ ورِيَاءٌ وهو قَصْدُ إِظْهارِ العِبَادَةِ لِذَلِكَ الغَرضِ ، والمُراؤ ن بالعبادات أَقْسَامٌ ، القِسْمُ الأولُ المُراؤ نَ فِي العَقَائِدِ الدّيْنِيَّةِ وهم الذينَ يُظْهِرُوْنَ لِلنَّاسِ أنهم مُوَحِّدُونَ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِله إِلا الله وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ وهم يَعْتَقِدُونَ خِلَافَ ذلكَ أوْ يُظْهِرُونَ لَهُمْ أنَّهم يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ مِن جَنَّةٍ أو نار ويُظْهِرُونَ

للناسِ أنه يُؤمِنُونَ بالملائِكَةِ وَيُصَدِّقونَ بوُجُودِهِم ونحوِ ذلكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ مِن الدِيْنِ بِالضَرُوْرَةِ وهُمْ يَعْتَقِدُونَ في قلوبهم غَيْرَ ذَلِكَ ولا رَيْبَ في ذَلِكَ أنه كُفْرٌ نَاقِلٌ عن المِلَّةِ الاسلاميَّةِ بالكُلِّيَّةِ لأنَّهُ تكذيبٌ للهِ ولِرسُولِهِ وصاحبُه إنْ لَم يَتُبْ فَهُوَ مُخَلَّدٌ في النار .

قال اللهُ تعالى ﴿ومِن الناسِ مَن يعجبك قَولُه في الحياة الدنيا ويُشْهِدُ الله على ما في قلبه وهو ألدُ الخِصَام﴾ فهذا لِلْمُرائِي الشِرير الذَّلِق اللسانِ الذي إذا تكلم رَاقَ كَلامُهُ لِلسَّامِعِ وظنه يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ نَافِعٍ ويُؤكد هذا المُرائِي ما يقول بأنهُ يُخْبِرُ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ أن ما نَطَقَ به مُوافِقٌ ومُطَابِقٌ لِمَا فِي قلبه وهو كَاذبٌ في ذلكَ لِأَنَّهُ يُخَالِفُ قولُه فِعلَه .

وقال تعالى في الآية الأخرى ﴿وإذا لقُوا الذينَ آمنوا قَالُوا أَمَنَّا وإذا خَلَوا إلى شَيَاطِيْنِهِم قالُوا إنَّا مَعَكُم إنَّمَا نَحْنُ مُستهزؤ ن﴾ .

وما أَكْثَرَ أَشْبَاهِ هَؤلآءِ في زَمَنِنَا مِن مُنْكِرِيْ الجِنَّ والملائكة والبَعْثَ مِمَّن نَجِدُهُم يَجْبَنُونَ عندَ المُواجَهَةِ وَيَتَظَاهَرُونَ بالايمانِ عندَ لِقَاءِ المؤمِنِينَ ويَعْتَرِفُونَ بوُجُودِهِم لِيَتَّقُوا الأَذى ولِيَتَّخِذُوا هَذَا السِّتَارَ وَسِيْلَةً لِلأذى وإِذَا انْفَرَدُوْا مَعَ أَوْلِيَائِهِم مِن شَيَاطِيْن الإِنْسِ صَرَّحُوْا بِمُعْتَقَدَاتِ قُلُوبِهِم وتَفَكَّهُوا بأكلِ لُحُومِ المؤمِنين وطعَنُوا في الدِّيْن وَحَمَلَتِهِ وصَرَّحُوْا بِانْكَارِ الجِنِّ والملائكةِ وهَؤُلَآءِ كَفَرَةٌ مُنَافِقُونَ والرِّياءُ في العَقِيْدَة على هذا الوَجْهِ مِن أكبرِ دَرَجَاتِ الرِّيَاءِ وأَشَدِّهَا أثراً وَضَرَراً .

القِسْمُ الثاني : المُرَاؤُ نَ في الفَرَائِضِ والأَرْكَانِ الشرعيةِ هَؤلآء الذين يَفْعَلُونَ أركانَ الدِيْنِ مِن صلاةٍ وصِيَامٍ وزكاةٍ وحَجٍ أمامَ الناسِ مِن أجلِ غَرَضٍ مِن الأَغراضِ التي ذَكَرتُ آنِفَاً فإذا خَلاَ الوَاحِدُ مِنْهُم بِنَفْسِهِ لم يَعْمَلْ

شَيْئاً فَلَولاَ الغَرَضُ الذي يُرِيدُ تَحْقِيْقَهُ مَا صَامَ وَلَا صَلَّى ولا حَجَّ ولا زكَّى فهذا العَمَلُ باطِلٌ لِأَنَّه لم يُرِدْ بِهِ وَجْهَ اللهِ فَعَن أَنسٍ رضي الله عنه قال رسولُ اللهِ ﷺ تُعْرَضُ أعْمَالُ بَنِي آدَمَ بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّ وجَلَّ يومَ القِيامَةِ في صُحُفٍ مُخَتَّمَةٍ فَيَقُولُ اللهُ أَلْقُوا هَذَا واقْبَلُوا هَذَا فَتَقُولُ الملائكةُ يا رَبُّ واللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُ إلا خَيْرَا فَيَقُولُ إن عَمَلَهُ كانَ لِغَيْرِ وَجْهِي ولا أَقْبَلُ اليومَ مِن العملِ إلا مَا أُرِيْدَ بِهِ وَجْهِي .

صاحِ اسْتَمِعْ نُصْحاً أتاكَ مُفَصَّلاً
كَتَفَضُّلِ العِقيانِ فَوقَ لَئالِي
بادِرْ بَقَايَا عُمْرِكَ الفَانِي فَلاَ
تَصْرِفْهُ إلاَّ فِي الرِّضَى المُتَوالِي
واشْغَلْ فُؤآدَكَ دائِباً مُتَفَكِّراً
فِيْمَا يَلِيْقُ بِمَنْصِبِ الإجْلَالِ
واخْلِصْ عِبَادَتَكَ التِي بَاشَرْتَها
فِي القَولِ والأَحْوالِ والأَفْعَالِ
واشْغَلْ بِذِكْرِ اللهِ قَلْبَكَ لَاهِجاً
بِصِفَاتِهِ العُلْيَا بِلاَ إمْلَالِ
واجْعَلْ مَمَاتَكَ نَصْبَ عَيْنَيْكَ إنَّهُ
أَوْلَى الأُمُورِ وأنصَحُ الأحْوَالِ
واعْلَمْ بأَنَّكَ بَعْدَ ذاكَ مُحَاسَبٌ
فاضْبُطْهُ لا تَكُ فِيْهِ ذَا إهْمَالِ
واعْلَم بأَنَّكَ بَعدَ ذلِكَ صَائِرٌ
إما إلى بُؤْسٍ أوِ الإفْضَالِ

وادْأَبْ على حِفْظِ الشَّرِيْعَةِ سَالِكاً
سُبْلَ الهُدَى لَا قَالِياً أو غَالِي
وابْدَأْ بِحِفْظِ القَلْبِ عن شُبُهَاتِهِ
واعْرِفْ مَسَاوِيَهَا على الإِجْمَالِ
ثم اسْقِهِ مَاءَ الحياةِ بِوَاعِظٍ
مِن مُحْكَمِ التنزيلِ في إجْلَالِ
واحْرِسْ فَرَاغَكَ بالتَّذَكُّرِ إِنَّهُ
عُمُرٌ إِذَا مَا ضَاعَ مِنْكَ لَغَالِي
واحْفَظْ جَوَارِحَكَ الَّتِي أُوْتِيْتَهَا
عن كلِ مَا يَقْضِي بكُلِ نَكَالِ
واعْلَمْ بأنَكَ مَا خُلِقْتَ سَبَهْللاً
فاعْبُد إلٰهَ العَرْشِ بالإِقْبَالِ
واجْعَلْ سِلَاحَكَ دَعْوَةً بِإِنَابَةٍ
والْجَأْ إِلَى مَوْلَاكَ غَيْرَ مُبَالِي
واسْأَلْهُ لا تَسْأَمْ فإِنَّكَ عَبْدُهُ
فَهْوَ الكَرِيمُ ورَبُّ كُلِ نَوَالِ
يا رَبُّ فاقْطَعْ عَن فُؤَادِي كُلَّ مَا
أرجُوْهُ إلا مِنْكَ مِنْ آمَالِ
واغْسِلهُ مِن دَرَنِ الذُّنُوبِ فأنَّهُ
مَرَضُ القُلُوبِ وَمُوجِبُ الاعْلَالِ
وأرِحْهُ مِن مَرَضِ الرِّيَاءِ فإِنَّهُ
أصْلُ الفَسَادِ وأفْسَدُ الأشْغَالِ

وأخْتُم لَنَا بالخَيْرِ عَاجِلِهِ الذِي
تَبْدُوْ حَلاَوةُ ذَوْقِهِ بِمَآلِ
واجْعَلْ صَلاَتَكَ دَائِماً تَتْرَى عَلَى
كَنْزِ المَعَالِي السَّيدِ المِفْضَالِ
وكَذَا عَلَى آلٍ لَهُ وَصَحَابَةٍ
أَهْلِ العُلاَ والعِزِّ والإِجْلاَلِ

« فصل »

وأَقْبَحُ أَنْوَاعِ الرِّيَاءَ مَا فُعِلَ لِلْحُصولِ على لَذَّةٍ مُحَرَّمَةٍ كأَنْ يَحْتَالَ على الفِسْقِ بامْرَأَةٍ أَوْ يَسْتَعِيْنُ بِهِ عَلَى سَلْبِ مَالٍ ظُلْمَا وعُدْوَانًا أَوْ يَتوَسّلُ بِهِ إلى ايْذَاءِ بَرِيْىءٍ في عِرْضِهِ أوْ مَالِهِ أَوْ دِيْنِهِ وَصَاحِبُ هَذَا العَمَلِ مُعَرَّضٌ نَفْسَهُ لِلْمُجَازَاتِ على عَمَلِهِ أشَدَّ الجزَاءِ والعِقَابِ عَلَيْهِ أَسْوَأَ العِقَابِ في يومٍ يُؤْخَذُ فيهِ المُجْرِمُوْنَ بالنَّوَاصِي إنْ لَمْ يَتُبْ مِن عَمَلِهِ ذلك توبةً نَصُوحاً .

ومِن أنْواعِ الرِّياءِ الرِّياءُ بالفَرائِضِ الدِيْنِيَّةِ لِلْحُصُولِ على لَذَّةٍ مُباحَةٍ كأنْ يَحْتَالَ بأداءِ الفَرَائِضِ على الحُصُولِ عَلَى مَالٍ بِطَرِيْقِ الهِبَةِ وَنَحْوِهَا وَلَوْلاَ هَذَا الغَرَضَ مَا قَامَ بأَدَائِها وَهَذَا شِرْكٌ باللهِ بَلْ فِي الحَقِيْقَةِ عِبادَةٌ لِلشَّهْوَةِ لاَ لِلَّهِ ولو كانَ عِنْدَ صاحِبِ هَذَا العَمَلِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن الأدَبِ والحَيَاءِ لَخَجِلَ مِن خَالِقِهِ الذي يَجِبُ عَلَيْهِ أنْ يُخْلِصَ العِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ ولكِنَّهُ بَدَلاً مِن ذلكَ قَدْ جَعَلَ عِبادَتَهُ وسِيْلَةً لاقْتِنَاصِ المَلاَّذِ والحُصُولِ عَلَى الشَّهَواتِ .

القسم الثالثُ : المُرَاؤُوْنَ بِالنَّوَافِلِ الّتِي يُؤَدُّوْنَهَا فِي حَضْرَةِ النّاسِ

ويَتْرُكُونَها إذا خلَوْا أَوْ يُجِيْدُوْنَ الفَرائِضَ ويُطِيْلُونَها فِي حَضْرَةِ النّاسِ وإذا انْفرَدُوْا خفَّفُوا وهذا أيضاً قَبِيْحٌ ولَكِنَّهُ دُوْنَ الأوّلِ وَوَجْهُ قُبْحِهِ أنَّ عِبادَةَ اللّهِ يَجِبُ أنْ تكُونَ خالِصَةً لَهُ لا يَشُوْبُها رِياءٌ أبَدا فَمَنْ يُؤَدِّيْها لِغَرَضٍ مِنَ الأغْرَاضِ فَقَدْ أشْرَكَ فِيْهَا مَعَ اللّهِ وَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَهُوَ غَبِيٌّ مَمْقُوْتٌ يَسْتَحِقُّ الذَّمَّ والعِقَابَ إنْ لَمْ يَتُبْ لأنَّهُ قَدْ اسْتَهَانَ بِعِبادَةِ اللّهِ وَجَعلَها وَسِيْلَةً لِلْحُصُولِ عَلَى الأغْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ والشَّهواتِ الجُسْمَانِيَّةِ مَعَ أنَّ النَّوافِلِ مَثَلاً لَمْ تُشْرَعْ إلاّ لِلحُصُولِ على الثَّوابِ الكَثِيْرِ والدّرجاتِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَ اللّهِ تَعَالى فانْقَلَبَتْ عَلَى المُرائِي بِهَا شَرّاً وَوَبالاً بِفِعْلِها رِيَاءً وأصْبَحَ يَسْتَحِقُّ عَلَيْها عِقاباً وذلك فَسادٌ وخَلَلٌ عَظِيْمٌ فكَمْ مِنْ إنْسانٍ يُرائِي يَتَظَاهَرُ بالصّلاحِ ويَتَباعَدُ عن مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ونَفْسُهُ فاجِرَةٌ لاَ يَتورَّعُ مِن أكْلِ أمْوالِ النّاسِ بالباطِلِ واسْتِحْلالِها بأدْنَى الوَسَائِلِ وعِنْدَ مُعَامَلَتِهِ فِي بَيْعٍ أوْ شِرَاءٍ أوْ اسْتِئْجارٍ يَظْهَرُ مَخْبَرُهُ عَكْسَ مَنْظَرِهِ على حَدِّ قَوْلِ الشاعر:

قَوْمٌ هَمُوا شَرُّ خلقِ اللّهِ كُلِّهِمُ
وأخْبَثُ النّاسِ في الدُّنْيا وَفِي الدِّيْنِ
هُمْ فِي الظَّواهِرِ زُهّادٌ أُولُوا وَرَعٍ
وفِي البَواطِنِ إخْوَانُ الشَّيَاطِينِ
يُحَرِّمُوْنَ الّذِي حَلَّ الإلهُ لَهُمْ
ويَسْتَبِيْحُونَ أمْوَالَ المَسَاكِينِ
يا بِئْسَ مَا فَعَلُوا يَا بِئْسَ مَا تَرَكُوا
وهُمْ يُعَدُّوْنَ فِينَا بالمَلاَيِيْنِ

قالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللّهُ واعْلَمْ أَنَّ العَمَلَ لِغَيْرِ اللّهِ أقْسَامٌ فَتارَةً يَكُونُ رِيَاءً مَحْضاً كَحَالِ المُنَافِقِيْنَ كَمَا قَالَ تَعالى ﴿وإذا قَامُوا إلى الصّلاةِ قَامُوا

كُسَالى يُرَاؤُ ن النّاسَ ولاَ يذكُرونَ اللّهَ إلا قليلاً﴾ .

وهَذَا الرّياءُ المَحضُ لا يكادُ يصدُرُ عَنْ مُؤْمِنٍ فِي فَرْضِ الصّلاةِ والصّيامِ وَقَدْ يَصْدُرُ فِي الصّدقَةِ أو الحَجّ الواجِبِ أوْ غيرِهما مِنَ الأعمالِ الظّاهِرَةِ أو الّتي يَتَعدّى نَفْعُها فإنِ الإخلاصَ فِيها عَزيْزٌ وَهَذا العَمَلُ لاَ يَشُكُّ مُسلمٌ أنّهُ حابطٌ وأن صَاحِبَه يَسْتَحِقُّ المَقْتَ مِنَ اللّهِ والعُقوبةِ وتَارةً يكونُ العَمَلَ لِلّهِ ويُشارِكُهُ الرِّياءُ فإِنْ شَارَكَهُ مِن أصْلِهِ فالنُّصُوصُ الصّحِيحَةُ تَدلُّ على بطلانِهِ أيضاً وحُبُوطِهِ .

وَفِي صحِيح مُسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللّهُ عَنْه عَن النّبيّ ﷺ قالَ يَقُولُ اللّهُ تَبارَكَ وتَعَالى أنَا أغْنِيَ الشُّركَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَملاً أشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ وخَرَجَهُ ابنُ ماجَه ولَفظه فأنا مِنْهُ برِيء وهُوَ للذي أشركَ .

وخَرَجَ الإمام أحمد عن شَدّادِ بنِ أَوْسٍ عَن النّبيّ ﷺ قالَ مَنْ صَلّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ وَمَنْ تَصدَّقَ يُرائِي فقَدْ أشْرَكَ فَإِنَّ اللّه عَزَّ وَجلَّ يَقُولُ أنَا خَيْرُ قَسِيْمٍ لِمَنْ أشْرَكَ بِي شَيْئاً فإن جِدَةِ عَمَلِه قَلِيْلِهِ وَكَثِيْرِهِ لِشَرِيْكِهِ الّذِي أشْرَكَ بِهِ أنا عَنْهُ غَنِيٌّ وَخَرَجَ الإمام أحمد والتّرمِذي من حديث أبي سعيد ابن أبي فَضَالة وكان مِنَ الصّحابَةِ قال قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا جَمَعَ الله الأولين والآخرين ليوم لا ريبَ فِيهِ نَادَا مُنَادٍ من كَانَ أشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمَلَهُ لِلّهِ فَيطْلُبُ ثَوابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ عَزَّ وجَلّ فإن الله أغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ انتهى .

القِسم الرّابع : مِنَ المُرائِين المُتَحَدِّثُونَ بأَعمالِهِمْ بَعْدَ تَمامِهَا كأن يَقولَ الواحِدُ صَلّيْتُ كَذا وَصُمْتُ كَذَا وحَجَجْتُ كَذا مِنْ أفعالِ الخَيْرِ وَهَذا وإِنْ كَانَ

لَا يُحْبِطِ العَمَلَ الّذي تَمَّ عَلَى وَجْهٍ صَحِيْح إلّا أنّهُ يُنْظَر إلى مَقْصَدِه مِنَ التَّحدُّثِ بِذَلِكَ فإن كَانَ فَسَاداً كَانَ مُحَرَّماً وإنْ كَانَ فِراراً مِن ذَمِّ النّاسِ وَرَغْبَةً فِي مَدْحِهِمْ بِدُونِ أنْ يَقْصُدَ مِنْهَا الوُصُولَ إلى غَرَضٍ غَيْرِ ذَلِكَ كَان مَلُوماً مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وأنّهُ قَصَدَ رِيَاءَ النّاسِ بِطَاعَةِ اللّهِ وقَدْ عَلِمْتَ أنّ ذَلِكَ لَا يَجُوز .

القِسْم الخامِسُ : المراؤونَ بالهَيْئَةِ والزِّي فتَرَى الوَاحِد مِنْ هَؤلاءِ يَتَكلَّفُ العَمَلَ على نُحُولِ بَدَنِهِ واصْفِرَارِ وَجْهِهِ كَيْ يَظْهَرَ بِمَظْهَرِ العَابِدِ الّذي أضْنَاهُ وأنْهَكَهُ السَّهَرُ وانحلَ جِسْمَهُ الصَّومُ وَمِنْهُمْ مَن يَتَكَلَّفُ خَفْضَ صَوْتِهِ أَوْ يَلْبَسُ ثَوْباً يَخْتَلِفُ عن أَثْوابِ أَهلِهِ وبَنِي جِنْسِهِ ليَلْفِتَ أنظَارَ النّاسِ إلَيْهِ وَهَذا النّوعُ مِنَ الرِّيَاءِ سَخِيْفٌ جِداً لَا يَتأَثّرُ بِهِ إلّا ضِعَافُ العُقُولِ صِغَارُ النُّفُوسِ وكُلُّ هَؤلاءِ مِن شِرَارِ النّاسِ الّذِيْنَ يَجِبُ على النّاسِ أَنْ يَحْذَرُوْا مِنْهُمْ ويَمْقُتُوهُمْ ولا يُبَالُوا بِهِمْ ولَا بحِيَلِهِمْ وأزْيَائِهِمْ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ النِّيَةَ عَلَيْهَا مَدارٌ عَظِيْمٌ مَدارُ الثّوابِ والعِقَابِ فإنَّ المَرءَ يَتَحدَّثُ بِعَمَلِهِ الصّالِحِ أَوْ يُظْهِرُهُ لِيَكُونَ قُدْوَةً صَالِحَةً لَهُمْ ومِثالاً حَسَناً يَقْتَدُونَ بِهِ لَا يُرِيْدُ بِذَلِكَ إلّا وَجْهَ اللّهِ وابتِغاءَ مَرْضَاتِهِ بِنَشْرِ الفَضِيْلَةِ وإحْيَائِهَا بَيْنَ النّاسِ مِنْ غَيْرِ أنْ يَنْظُرَ إلى مَدْحِهِمْ لَهُ وَذَمِّهِمْ لَهُ فَلا يَثْنِيْهِ شَيْءٌ عَن عَمَلِ الصّالِحَاتِ وَلَا يُغْرِيْهِ عَلَيْها رِضَاءُ أَحَدٍ مِنَ النّاسِ على أن يَكُونَ يَقِظاً نَبِيْهاً لَا يَجْعَلُ لِلْغُرورِ والعُجْبِ إلَيْهِ سَبِيْلا فإنَّ عَمَلَهُ على ذلِكَ الوَجْهِ الحَسَنِ لا يَكُونُ رِيَاءً بل رُبَّمَا يَكُونُ مُسْتَحِبّاً إنْ تأكّدَ مِن اقْتداءِ النّاسِ بِهِ في عَمَلِهِ الصّالِحِ وكذَلِكَ تَنْظُرُ الشَّرِيْعَةُ الإسلامِيَّةُ الكريمةُ إلى جَمِيْعِ الأَعْمَالِ فإنْ تَرَتَّبَ على العَملِ فَسَادٌ كَانَ مَذْموماً وانْ تَرَتَبَ عَلَيْهِ صَلاحٌ كَانَ مَمْدُوْحاً فَجَمِيْعُ أحْكَامِهَا مَبْنِيَّةٌ على جَلْبِ المَصَالِحِ وَدَرْءِ المَفَاسِدِ وكُلُّها تَرْمِي إلى تَهْذِيْبِ النُّفُوسِ وتَطْهِيْرِ

القُلُوبِ وتَرْبِيَةِ النّوعِ الإنْساني أحسَنَ تَرْبِيَةٍ وتأدِيْبِهِ أفضَلَ الأَدَبِ ويَكْفِي في ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى ﴿إنَّ الله يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذِي القُربى ويَنْهَي عن الفحْشاءِ والمُنْكرِ والبَغي يَعِظُكم لعلّكُم تَذكُرُوْن﴾ .

وخِتاماً فَعلَى العَاقِلِ أنْ يَتفكَّر ويَعْلَم مَضرَّةَ الرِّياءِ وَمَا يفُوتُهُ مِن صَلاحِ قَلْبِهِ وَمَا يُحْرَمُ عَنْهُ مِن التَّوْفِيْقِ وَما يتَعرَّضُ لَهُ مِن العِقابِ والمَقْتِ الشّدِيْدِ والخِزْي الظّاهِرِ فَمَهْمَا تفكَّرَ الإنْسانُ وَقَابَلَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِن العِبادِ والتَّزَيُّنِ لَهُمْ فِي الدُّنْيا بِمَا يفُوتُهُ فِي الآخِرَةِ وبِمَا يَحبُطُ عَلَيْهِ مِنْ ثَوابِ الأعمالِ فإنَّهُ يَسْهَلُ عَلَيْهِ قَطْعُ الرّغبَةِ عنْهُ كَمَنْ يَعْلَمُ أن العَسَلَ لَذِيْذٌ ولكِنْ إذا بَانَ لَهُ أَنَّ فِيهِ سُمّاً أعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ أيُّ غَرَضٍ لَهُ فِي مَدْحِهِمْ وإيثَارِ ذَمِّ اللّهِ لأجْلِ حَمْدِهِمْ وَلاَ يَزِيْدُهُ حَمْدُ النَّاسِ رِزْقاً وَلا أَجلاً ولا يَنْفَعُهُ يَوْمَ فَقْرِهِ وفَاقَتِهِ .

وأمَّا الطَّمْعُ فِيمَا فِي أَيْدِي النّاسِ فَبِأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللّهَ تَعالى هُوَ الرَّزَاقُ وهُوَ المُسَخِّرُ لِلْقُلُوبِ بِالمَنْعِ والإعْطَاءِ وأنَّ الخَلْقَ مُضْطرُّوْنَ فِيْهِ .

ولا رَازِقَ إلاّ اللّهُ ومَنْ طَمِعَ فِي الخَلْقِ لَمْ يَخلُ مِنَ الذُّلِّ والخَيْبَةِ وإِنْ وَصِلَ إلى المُرادِ لَمْ يَخلُ عَن المِنَّةِ والمَهَانَةِ فَكَيْفَ يَلِيْقُ بعَاقِلٍ أنْ يَتْرُكَ مَا عِنْدَ اللّهِ بِرَجَاءٍ كَاذِبٍ وَوَهْمٍ فَاسِدٍ وَقَدْ يُصِيْبُ وَقَدْ يُخْطِيءُ وإذَا أَصَابَ فَلا تَفِيْ لذَّتُهُ بِألَمِ مِنّتِهِ ومَذلَّتِهِ .

شعرا :

أمِنْ بَعْدِ غَوصِي فِي عُلُومِ الحَقائِقِ
وطُولِ انْبِسَاطِي في مَـوَاهِبِ خَالِقِي

وفِي حِيْنَ اشْــرَافِي عَلَى مَلَكُـوتِــهِ
أُرَى طَــالِبــاً رِزْقــاً إلى غَيْـرِ رَازِقِ
وأَيَّــامُ عُمْـرِ المَـرْءِ مُتْعَـةُ سَــاعَـةٍ
تَجِيءُ حَثِيْثــاً مِثْــلَ لَمْحَــةِ بَــارِقِ
وَقَـدْ آذَنَتْ نَفْسِي بتَقْـوِيْضِ رَحْلِهَـا
وأَسْرَعَ فِي سَوْقِي إِلَى المَوْتِ سَائِقِي
وإنّي وَإِنْ أَوْغَلْتُ أَوْ سِرْتُ هَـارِبـاً
مِنَ المَوْتِ فِي الآفاقِ فالمَوْتُ لَاحِقِي
آخر : شَادَ الأنامُ قُصُورَهُمْ وتَحَصَّنُوا
مِن كُــلِّ طَـالِبِ حــاجَـةٍ أَوْ رَاغِبِ
فـارْغَبْ إلَى مَلِكِ المُلُوكِ ولا تَكُنْ
يـا ذَا الضَّـراعَـةِ طَالِبـاً مِن طَـالِبِ

وَأَمَّا ذَمُّ الخلْقِ لَهُ فَلاَ يَحْذَرْ مِنْهُ فَإِنَّهُ لاَ يَزِيْدُهُ ذَمُّهُمْ شَيئاً مَا لَمْ يَكْتُبْهُ اللّهُ عَلَيْهِ ولا يُعَجِّل أجلَهُ وَلاَ يُؤَخِّرُ رِزْقَهُ وَلا يَجْعَلُهُ مِنْ أهْلِ النّارِ إن كَانَ مِنْ أهْلِ الجَنّةِ ولا يُبَغِّضُهُ إلى اللّهِ إن كَانَ مِن الّذِينَ يُحِبُّهُم اللّهُ فَالعِبادُ كُلُّهُمْ عجَزَةٌ لاَ يَمْلِكُوْنَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً فإذا قَرَّرَ في قَلْبِهِ آفَةَ هَذِهِ الأسْبَابِ وضَرَرَهَا فَتَرَتْ رَغْبَتَهُ عَنِ الرِّيَاءِ وأقْبَلَ عَلَى اللّهِ قَلبُهُ والعَاقِلُ لا يَرْغَبُ فِيْمَا يُكْثِرُ ضَرَرَهُ ويُقِلُّ نَفْعَهُ فهذا دَوَاءٌ نافِعٌ قَالِعٌ لِلرِّياءِ مِن أصْلِهِ بإِذْنِ اللّهِ فَهَذا مِنْ الأَدْوِيَةِ العِلْمِيَةِ القَالِعَةِ مغَارِسَ الرِّيَاءِ بإذنِ اللّهِ وأَمَّا الدَّوَاءُ العَمَلِيُّ فَهُوَ أنْ يُعَوِّدَ نَفْسَهُ إخْفَاءَ العِبَادَاتِ وإِغلاقَ الأبوابِ دُوْنَهَا كَمَا تُغْلَقُ الأبوابُ دُوْنَ الفَوَاحِشِ فَلاَ تُنَازِعُهُ نَفْسُهُ إلى طَلَبِ غَيْرِ اللّهِ بِهِ .

وبالتالِي :

فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ وعِلْمٍ وبَصِيْرَةٍ عَرَفَ شِدَّةَ حَاجَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وشِدَّةِ فَقْرِهِ إِلَى صَافِي الحَسَنَاتِ فَخَشِيَ أَنْ يَأتِي ذَلِكَ اليَوْمَ بِصَلاةٍ أَوْ صِيَامٍ أو حَجٍّ أو جِهَادٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الأعْمَالِ لَمْ يُخْلِصْهُ لِلّهِ فَيَحْبَطَ عَمَلُهُ فَتَصِيْرَ حَسَنَاتُهُ أَنْقَصَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ وَلَوْ كَانَ أَخْلَصَ العَمَلَ لِلّهِ فِي الدُّنْيا لَرَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلى سَيِّئَاتِهِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ فَلَمَّا فَاتَهُ ذَلِكَ الإخلاَصُ فلا تَسْأَلْ عَن ذَهَابِ نَفْسِهِ حَسَراتٍ فَيَخَافُ اللَّبِيْبُ ذَلِكَ فَيَغْلِبُ عَلَى عَقْلِهِ حَذَرُ الرِّيَاءِ والتَّصَنُّعِ لِلْعِبَادِ ويُقْبِلُ عَلَى تَصْحِيْحِ عَمَلِهِ وتَنْقِيَتِهِ مِن شَوَائِب الرِّيَاءِ حَتَّى يُوافِيْ بِهِ يوْمَ القِيَامَةِ خَالِصاً صَوَاباً .

« موعظــة »

عِبَادَ اللّهِ أُوْصِيْكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللّهِ فالْزَمُوْهَا ، وأُحُثُّكُمْ على الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ فاغْتَنِمُوْهَا ، إِنَّ الزَّمَانَ يَطْوِي بِكُمْ مَسَافَةَ الأعمارِ لا شَكَّ وأَنْتُمْ رَاحِلُونَ عنْ هَذِهِ الدّارِ فيَا مَعْشَرَ الشُّيُوخِ مَاذَا تَنْتَظِرُوْنَ بَعْدَ المَشِيْبِ وَهَلْ بَعْدَهُ إلا المَوْتُ فإِنَّ المَوْتَ قَرِيْبٌ إِنَّهُ لَيْسَ إِلَى البَقَاءِ مِنْ سَبِيْلٍ فمَاذَا تَزَوَدْتُم لِلرَّحِيلِ وَيَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ أَنْفَقْتُم غُرَرَ الأعْمَارِ عِنْدَ المِذيَاعِ والكُرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وعَنْ الصَّلاةِ ويَا مَعْشَرَ التُّجَارِ لَقَدْ ضَاعَتْ أعْمَارُكُمْ فِي أَلُوْوكَمْ رَبحَ فُلاَنٌ وَكَمْ بِيْعَ البَيْتُ الفُلاَنِيُّ والأَرْضُ الفُلاَنِيَّةُ وخُذْ هَذِهِ الجَرِيْدَةَ وأعْطِنِي الأخْرَى أَلاَ صَرَفْتُمْ بَعْضَ الوَقْتِ إِلى المُسَابَقَةِ إِلى غُرَفِ الجَنَّةِ وأَرَاضِيْهَا وأَنْفَقْتُمْ بَعْضَ مَا وَهَبَكُمْ اللّهُ مِنَ المَكَاسِبِ إِلى مَا يُرْضِيْ اللّهَ مِنْ تَفَقُّدِ الفُقَرَاءِ الّذِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ مَوارِدُ لا قَلِيْلَةٌ وَلاَ كَثِيْرَةٌ مِمَّنْ

يَسْتَعِيْنُونَ بِها عَلَى طَاعَةِ اللّهِ ومِن مَسَاجِدَ تَحْتَاجُ إلى تَرْمِيْمٍ أَو فُرُشٍ وإِلَى إنْشَاءِ مَسَاجِدَ عِنْدَ مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا أَوْ إلى طِبَاعَةِ مَصَاحِفَ طِبَاعَةً جَيِّدَةً فتُوزِعُوْهَا عَلَى التالِينَ لِلْقُرْآنِ آنَاءَ اللّيْلِ والنّهارِ أوْ طَبْعِ كُتُبٍ دِيْنِيَّةٍ فِيها تَقْوِيَةٍ لِلشَّرِيْعَةِ ونَشْرِ لِمَحاسِنِ الإسلامِ كَكُتْبِ شَيْخِ الإِسْلامِ بنِ تَيْمِيَّةَ وتِلْمِيْذِهِ بْنِ القِيَم وابنِ رَجَب وابنِ مُفْلِحٍ وابنِ كَثِيْرٍ والمُوفِق والمَجْدِ والشّيخِ المُجدّدِ الشَّيخِ مُحَمَّد بن عبْدِ الوهاب ونَحْوِهِمْ مِنَ العُلَمَاءِ العَامِلِينَ بعِلْمِهِمْ المُصْلِحينَ المُخْلِصِيْنَ الّذينَ لا تأْخُذُهُم في اللّهِ لَومةَ لائم نَسأَلُ اللّهَ أنْ يُيَسِّرَ لنا في هَذا الزّمانِ أمثالَهم لنَصْرِ دينه إِنّهُ القَادِرُ على ذَلِك .

شعرا :

الـمَــالُ يَــذْهَــبُ حِــلُّهُ وَحَــرَامَــهُ
طُــرّاً وتَــبْـقَــى فــي غَــدٍ آثَــامَــهُ
لَــيْسَ الــتَّــقِيُّ بــمُــتَّــقٍ لإِلاهِــهِ
حَــتَّى يَــطِــيبُ شَــرَابُــهُ وطَعَــامُــهُ
وَيَــطِــيبُ مَــا يَحْــوِي ويَكْسِبُ كَفُّهُ
ويكُــوْنُ فِي حُسْنِ الحَدِيْثِ كَــلاَمُــهُ
نَــطَقَ الــنَّبِيُّ لَنَــا بِــهِ عَــنْ رَبِّــهِ
فَــعَلى الــنَّبِــيِّ صَــلاَتُــهُ وَسَــلاَمُــهُ

اللّهُمّ طهِّرْ قُلوبَنَا مِنَ النِّفَاقِ وعَمَلَنَا مِنَ الرِّياء وطَهِّر مَكْسَبَنا مِنَ الرِّبَا وألْسُنَنَا مِنَ الكَذِب وَوَفِّقْنا لِمَصالِحِنَا واعصِمْنا عن ذُنوبنا وقبائحنا ولا تؤاخذنا بِما انطوَتْ عَلَيْهِ ضمائِرُنا وأكنته سرائرنا مِن أنواعِ القبائح والمعائب واغفر لنا

ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الرّاحمين وصلّى الله على محمّد وعلى آلِه وصحبهِ أجمعِين .

« فصل » في الكبر والعجب

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وإيَّاكَ وجَمِيْعَ المُسلِمِين أنَّ مِمَّا يَتأَكَّدُ تَحْرِيْمُهُ واجْتِنَابُه في رَمَضَانَ وَغيرِهِ الكِبْرُ والاعْجَابُ لِأَنَّهُمَا يَسْلِبَانِ الفضائلَ ويَكْسِبَانِ الرذائل وليسَ لِمَنْ اسْتَوْلَيَا عليه قَبُوْلُ النُصْحِ ولا قَبُولُ التأدِيْبِ لأنَّ المتَكَبِرَ يَعْتَقِدُ في نفسِهِ أنه جَلِيْلٌ عَظِيْمٌ مُتَعَالٍ عن رُتْبَةِ المُتَعَلِّمِيْنَ والكِبْرُ في اللغة العِزَّةُ والعَظَمَةَ ومثلُه الكِبْرِيآء وقد فسَّرَ ﷺ الكِبْرَ بأنه بَطَرُ الحقِ وغَمْطُ الناسِ والكِبْرُ والعُجْبُ مِن الصِفَاتِ النَّفْسِيَّةِ المَرْذُوْلَةِ التي كَثِيْراً مَا تُثِيْرُ الغضَبَ والحِقْدَ وتُوْرِثُ العَدَاوَةَ والبَغْضَآءَ وَتُوْرِثُ الاحْتِقَارَ والازدِرَاءَ بالناسِ واغتيَابَهُم وَيُجَافِي بَيْنَ الصِّدْق وكَظْمِ الغَيْضِ وقَبُولِ النُصْحِ ويُعْمِي المَرْءَ عن عُيوبِه ويَحُولُ بَيْنَهُ وبَينَ العِلْمِ والانقيَاد لِلْحَق .

والكِبْرُ نوعانِ أحدُهُما التَّكَبُرُ على الحَقِ وهُوَ رَدُّهُ وَدفْعُهُ وعَدَمُ قَبُولِهِ وهو عالِمٌ به سَوَاءٌ كانَ مِن حُقُوقِ اللهِ أوْ مِن حُقُوقِ عِبَادِهِ فَمَعْنَى بَطَرُ الحقِ رَدُّهُ وَجَحْدُهُ وهُوَ عَالِمٌ بِهِ فَكُلُّ مَنْ رَدَّ الحَقَّ فَإِنَّهُ مُسْتَكْبِرٌ عنه بحَسَبِ مَا رَدَّ مِن الحَقِ ومَعْنَى غَمْطُ الناسِ احتقارُهُم وتَنَقُصُهُمْ وذلكَ نَاشِيءٌ عن عُجْبِ الانسانِ بِنَفْسِهِ وتَعَاظُمِهِ عَلَيْهِم فالعُجْبُ بالنفسِ يَحْمِلُ على التَّكَبُّرِ على الخَلْقِ واحتقارِهِم والاستِهْزَاءِ بِهم وتنقيصِهم بِقولِهِ وفعلِهِ وذلكَ أنَّ ذا العُجْبِ إِذَا مَدَّ نَظَرَهُ إلى مَنْ مِثْلِه أو فوقَهُ اعْتَقَدَ أنه مُمْتَازٌ عنه بمَا سَما بِهِ في نَظَرِ نَفْسِهِ وإِذَنْ يَرَى ذلكَ الغَيْرَ في دَرجَةٍ مُنْحَطَّةٍ عن دَرَجَتِهِ فيَعْتَقِدُ حِينَئِذٍ أنَّ مُسْتَوَاهُ

فَوْقَ مُسْتَوَى غَيْرِهِ وذلكَ هُوَ الكِبْرُ بعَيْنِهِ فالعُجْبُ عَنه نَشَأَ الكِبْرُ وعَلَى أَصْلِهِ تَفَرَّعَ .

ولِلْكِبْرِ أَسْبَابٌ كَثِيْرَةٌ فَقَدْ تَكونُ عن صِفَةِ كَمَالٍ كَالعِلْمِ والنسبِ والجاهِ والسلطانِ وربما نشأ عن غُرُوْرٍ وَوَهْمٍ بِحَيْثُ يَعْتَقِد أَنَّهُ أَكْمَلُ مِن غَيْرِهِ خطأً وجَهْلاً وهَذَا بُرْهَانٌ عَلَى نَقْصٍ عَقْلِهِ ولِذَا يَقُولُ محمدُ بن علي البَاقِرُ مَا دَخَلَ قلبَ امْرِءٍ شيءٌ مِن الكِبر إلا نَقَصَ مِن عَقْلِهِ مثل ما دخَلَ مِن ذلك قَلَّ أو كَثُرَ .

فإنْ كَانَ الكِبْرُ نَاشِئاً عنِ العِلْم كانَ صَاحِبُهُ مِثَالاً سَيِئاً وقُدْوَةً رَدِيْئَةً ، خُصوصاً إِذَا دَفَعَهُ الكِبْرُ إلى صِفَةٍ ذَمِيْمَةٍ كالحَسَدِ وَ الحِقْدِ ، أَوْ أَفْضى بهِ إلى ارْتِكَابِ مَظْلَمَةٍ مِن المَظَالِمِ بِيَدِهِ أو لِسَانِهِ ، فإِنَّ ضَرَرَ هَذَا لا يُقَدَّرُ ، لأَنَّ النَّاسَ يَقْتَدُوْنَ بالعُلَمَاءِ في أَقْوَالِهِم وأَفْعَالِهِم ، فَيَسْتَسْهِلُونَ عِنْدَ ذَلِكَ ارْتِكَابَ الجرائم ، ويَسْتَبِيْحُونَ الاتصَافَ بالصِّفَاتِ الذَّمِيْمَةِ ، وفي هذا شرٌّ عظيم ، وأيضاً فإن العالمَ المُتكبِّرَ يَنْصَرِفُ الناسُ عنه وَيَنْفَضُّوْنَ مِن حَوْلِهِ ، فلا يَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِ إلا مَنْ يُوَافِقُهُ عَلَى هَوَاهُ فلا يَرُدُّهُ عَن خَطَأ ، ولَا يُشِيْرُ عليهِ بحقٍ ولَا يُزَاحِمُه في غَرَضٍ ومثل هَذَا لا فَائِدَةَ مِن تَعْلِيمِهِ لِأَنَّهُ نَاقِصُ النَّفْسِ ضَعِيْفُ الارَادَةِ ومَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ فان عِلْمَهُ وَبَالٌ عليه .

أَمَّا العِلْمُ النّافِعُ فَهُوَ الّذِي يُرَبّيْ الأَنْفُسَ ، وَيُطَهِّرُهَا مِنَ الصِّفَاتِ الرّدِيئَةِ ، وَيُعَرِّفُ العَبْدَ رَبَّهُ وَنَفْسَهُ وَخطَرَ أمْرِهِ ، وهَذا يُوْرِثُ الخَشْيَةَ والتَّواضُعَ ، فَيَكُوْنُ صَاحِبُهُ مِثَالاً حَسَناً فِي النّاسِ ، وقُدْوَةً صَالِحَةً في الأَقْوالِ وَالأَفْعَالِ .

وإِنْ كَانَ الكِبْرُ نَاشِئاً عنْ النَّسَبِ فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُوْنُ سَبَباً لِلطَّعْنِ في ذَلِكَ

النَّسَبِ ، وحَمْلِ النّاسِ على اعْتِقَادِ أنَّهُ نَسَبٌ رَدِيءُ العُنْصِرِ ، خَسِيْسُ الأصْلِ ، فإنّ النَّسَبَ الشَّرِيْفَ هُوَ الّذي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ آثَارٌ صَالِحَةٌ تَدُلُّ عَلى رِفْعَتِهِ وكَرَمِهِ ، أَمَّا مَنْ يَتَكَبَّرُ ويَظْلِمُ ويُؤْذِي عِبَادَ اللّهِ ويَحْتَقِرُهُمْ فإنَّهُ لا يَكونُ مِن عُنْصُرٍ طَيِّبٍ ، ولا مِنْ أصْلٍ كَرِيمٍ غَالِباً ، وَقَدْ يَتَّهِمُ النّاسُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ بِأنَّهُ وَلَدُ زِنَا ، وذلِكَ أنَّ اللّهَ وَصَفَ النمامَ والفَاجِرَ والمَنَّاعَ لِلْخَيْرِ بالوَصْفِ الذّمِيْمِ كَمَا تَقدَّمَ وذَلِكَ لِأنَّ الأعْمَالَ الفاجِرَةَ تَتْبَعُ خُبْثَ المَنِيّ غَالِباً ، مَا لَمْ يُيَسِّرَ اللّهُ لِوَلَدِ الزِّنَا بيْئَةً صَالِحَةً يَتَربَّى فِيْها ويَنْزِعُ مِنْ نَفْسِهِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الرَّدِيئَةِ الّتي وَرِثَهَا مِن أَصْلِهِ واكْتَسَبَهَا مِنْ وَالِدَيْهِ .

وإِنْ كَانَ الكِبْرُ ناشِئاً عَن الجَاهِ والسُّلطانِ فإنَّهُ غَالِباً يُفْضِيْ إليّ شَرِّ أنواعِ الظُّلْمِ وانْتِهَاكِ المَحَارِمِ مِن حُقُوقِ اللّهِ وحُقُوقِ خَلْقِهِ ، فَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ أَوْ ضَيَاعُ حَقٍّ فَهُوَ الكِبْرُ الضَّار .

وأمّا العِزَّةُ الّتي يَنْشَأُ عَنْهَا ما يَنْفَعُ النّاسَ ، ومَا يَحْفَظُ كَرَامَةَ المَرْءِ وَعَدَالَتَهُ وَمَكَانَتَهُ ، مِثْلُ تَرَفُّعِ الحَاكِمِ عن مُخَالَطَةِ العَوامِ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَمُجَامَلَتِهِمْ بِمَا يُسْقِطُ هَيْبَتَهُ أَوْ يُطْعِمُهُمْ فِي قَضَائِهِ أو يُسَهِّلُ لَهُمْ الإخلَالَ بِمَا يَقْتَضِيْهِ الشَّرْعُ ، فإنَّ مِثْلَ هَذَا لاَ يُعَدُّ تَكَبُّراً لأَنَّهُ إِذَا أَهْمَلَهُ الإنسانُ لَم يَكُنْ جَدِيْراً بالحُكْمِ إنّمَا الكِبْرُ المَمْنُوعُ هُوَ أنْ لا يُبَالِي بِهِم فَلا يَسْمَعُ شَكْوَى ضَعِيْفِهِمْ ولا يَسْمَحُ لَهُ بالدُّنُو مِنْهُ لِيُعَبّر عَن مَظَالِمِهِ ، أوْ يَحْقِد على مَنْ تَوَسَّعَ فِي الدِّفاعِ عنْ نَفْسِهِ بِما لاَ يُرْضِيْهِ ، أو أعْرَضَ عَنْ سَمَاعِ النَّصِيْحَةِ واسْتَكْبَرَ عن العَمَلِ بِالحَقِّ ، فإنَّهُ فِي هَذِهِ الحالَةِ يكُونُ مُتكبّراً مَذْمُوماً مَمْقُوْتاً .

لِكُلِّ بَنِي الدُّنْيا مُرادٌ ومَقْصَدُ
وإنَّ مُرَادِي صِحَّةٌ وَفَرَاغُ

لَأَبْلُغَ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ مَبْلَغاً
يَكُونُ بِهِ لِي فِي الجِنَانِ بَلاَغُ
فَفِي مِثْلِ هَذَا فَلْيُنَافِسْ أُولِي النُّهَى
وحَسْبِي مِنَ الدُّنْيا الغَرُوْرِ بَلاَغُ
فَمَا الفَوْزُ إلَّا في نَعِيْمٍ مُؤَبَّدٍ
بِهِ العَيْشُ رَغْدٌ والشَّرَابُ يُسَاغُ

اللّهُمَّ إنّا نَسألك العفوَ والعافِيةَ في دِيْنِنا ودُنْيانَا وأهْلِنا وأمْوالِنَا ونَسألُكَ أنْ تَغْفِرَ لَنَا ولِوَالِدَيْنا وجميعِ المُسلمين برحْمتكَ يا أرحمَ الرّاحِمين وصلّى الله على مُحمّد وآلِه وصحبِهِ أجمَعِين .

« موعظـة »

عِبَادَ اللَّهِ لَقَدْ توعَّدَ اللّهُ عِبادَهُ الّذيْنَ يُخالِفُونَ أَمْرَهُ ويُعْرِضُونَ عَن مُرَاقَبَتِهِ وينْصرِفُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وذِكْرِهِ ويَجْترِؤُونَ عَلَى مَعَاصِيهِ بِشَديْدِ غضَبِهِ وعَظِيمِ سَخَطِهِ وحَذَّرَهُمْ بأسَهُ وانْتِقَامُهُ فمَا بَالُ المُسْلِمينَ بَعْدَ القُرُوْنِ الأُوْلَى وَدُخُولِهِمْ فِي هَذِهِ الأزمَانِ عَمَدُوا إلى مَحَارِمِ اللّهِ فارْتَكَبُوهَا وَمَنْهِيَاتِهِ فاسْتَباحُوهَا وَمأْمُوْرَاتِهِ فاجْتَنَبُوها وَنَبَذُوْهَا وقَطَعُوا الأسْبَابَ بيْنَهُمْ وبَيْنَ خَالِقِهِمْ وَرَازِقِهِمْ وَعَادُوْا بِمُرِّ الشَّكْوَى مِن تَغيُّرِ الأحْوَالِ وانْتِزَاعِ البَرَكَةِ مِنَ الأرْزَاقِ والآجالِ وَلَيْس الغَرِيْبُ أنْ تَذْهَبَ البَرَكَةُ مِن أرْزَاقِ العُصَاةِ وأمْوَالِهِمْ فَإنَّ اللّهَ جَلَّ وَعَلاَ يَغارُ عَلَى أوَامِرِهِ أن تُجْتَنَبَ وَمَحَارِمِهِ أنْ تُرْتَكَبَ عِبادَ اللّهِ إن المُحافَظَةَ عَلَى أوامِرِهِ الّتِي أمَرَكُمْ بِهَا فِي كِتَابِهِ وَعلى لِسَانِ نَبِيّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بمَنْزِلَةِ العَهْدِ والمِيْثَاقِ بَيْنَكُمْ وَبيْنَهُ تَعالى أنْ يَحُوْطَكُمْ بِرَحْمَتِهِ ويُسْبغُ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً

وَباطِنَةً وأنْ يكُونَ مَعَكُمْ بالعَوْنِ وَالتَّوْفِيْقِ فإذا حَارَبْتُمُوْهُ بارْتِكابِ مَعَاصِيْهِ وإهْمَالِ أوامِرِهِ فقَدْ حَارَبْتُمْ بَدِيْعَ السَّمواتِ والأرْضِ ذَا القُوَّةِ المَتِيْنِ وَلَسْتُمْ بِمُعْجزيْهِ أنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُم عَذَاباً فِي الدُّنْيَا ولِعَذابُ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبْقَى عِبَادَ اللّهِ اتّقُوا اللّهَ وَرَاقِبُوْهُ فِي سِرِّكُمْ وَجَهْرِكُمْ وإيَّاكُمْ أنْ تَظُنُّوا أَنَّ اللّهَ يُهْمِلُ المُسِيْءَ فَلاَ يُجَازِيْهِ وَلا يُحَاسِبُهُ عَلَى جُرْمِهِ وذَنْبِهِ الّذي اقْتَرفَهُ وَمَنْ ظَنَّ ذلِكَ كَانَ مِن الّذينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُوْنَ يا عِبَادَ اللّهِ قَدْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِن الأُمَمِ مَنْ اصْطَفَاهُمُ اللّهُ عَلَى عِلْمٍ عَلى العَالَمِيْن وآتاهُمْ مِنَ الآياتِ مَا فِيهِ بلاغٌ لِلعَابِدِيْن وأسْبَغَ علَيْهِم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وباطِنَةً فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا وَقالُوا نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللّهِ وأَحِبَّاؤُهُ فَلَمَّا أفْسَدُوْا فِي الأرْضِ لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ النُّذُرُ شَيْئاً وأخذَهُم اللّهُ أخْذَ عَزِيْزٍ مُقْتَدِرٍ قَالَ تَعَالى ﴿وَكَذلك أخْذُ ربِّكَ إذا أَخَذَ القُرى وهيَ ظالمةٌ إن أَخْذَهُ أليمٌ شَدِيد﴾ وفي الحديث ان الله لَيُمْلِيْ لِلظَّالِمَ فإذا أخذه لم يفلته .

شعرا :

خَفِ اللّهَ في ظُلْمِ الوَرَى واحْذَرَنَّهُ
وخَفْ يَوْمَ عَضَّ الظَّالِمينَ عَلَى اليَدِ
ولا تَحْسَبَنَّ اللّهَ عن ذَاكَ غَافِلاً
ولكِنّه يُمْلِيْ لِمَنْ شَاءَ إلى الغَدِ
ولا تَغْتَرِرْ بالحِلْمِ عن ظُلْمِ ظَالِمٍ
سَيَأخُذُهُ أخْذاً وَبِيْلاً وعن يَدِ

(وفي كتاب الأخلاق)

قَال : والكِبْرُ أنْواعٌ وَأعْظَمُ أنْواعِ الكبر على اللّهِ وَعَلَى رُسُلِهِ ، وَهذا شَرُّ أنْواع الكِبْرِ ، لأنَّ الإِنْسَانَ الضَّعِيْفَ المَخْلُوقِ مِن مَاءٍ مَهِيْنٍ ، الّذي يَصْرَعُهُ أضْعفُ الحَيوَانَاتِ إذا سَلَّطَهُ اللّهُ عَلَيْهِ لا يَلِيْقُ بِهِ وَلا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَكَبَّرَ على مَنْ خَلَقَهُ وأوجَدَهُ وَمِنْهُ يَسْتَمِدُ بَقَاءَهُ وَيَحْتَاجُ إلَيْهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَفِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ .

وَمَنْ جَهِلَ قَدْرَ رَبِّهِ فَهُوَ مِنْ بَهِيْمَةِ الأَنْعَامِ أوْ أَضَلْ ، كَمَا أَخْبَرَ اللّهُ عَمَّنْ اسْتَكْبَرُوْا عَلَيْهِ وَعَلى رُسُلِهِ ، وكَيْفَ يَجْهَلُ الإِنْسانُ قَدْرَ إلهِهِ القَادِرِ القَاهِرِ الّذِي أبْدَعَ العَالَمَ على أحْسَنَ إحْكَام وأدَقِّ تَكْوِيْنٍ وَلَهُ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ خَلْقِهِ شَاهِدٌ واضِحُ الدَّلاَلَةِ ، وحُجَّةٌ ظَاهِرَةُ البَيَانِ ، تَدُلُّ على أنَّهُ هُوَ ذَلِكَ الصَّانِعُ الّذِيْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْر﴾ فَمَنْ تَكَبَّرَ عَلى اللّهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِذَاتِهِ وَصِفاتِهِ أَوْ اسْتَكْبَرَ عن عِبَادَتِهِ فإنَّهُ سَيَرَى نَتِيجَةَ كِبْرِيَائِهِ ذلاًّ وصَغاراً وعذاباً أَلِيْمَا يَوْمَ البَعْثِ والنُّشُورِ ، فَضْلاً عَمَّا يُصِيْبُ كَثِيْراً مِنَ المُتَكَبِّرِيْنَ عنْ عِبَادَةِ اللّهِ مِن الانْتِقامِ الدُّنْيَوِيّ ، كما وَقَعَ لِلنَّمْرُوْدِ وفِرْعَوْنَ وغَيْرِهم مِنَ المُتكبرين .

وأمّا المتكبّرُ على رُسُلِ اللّهِ فَهُوَ كالمُتَكَبِّرِ على اللّهِ فِي نَتِيْجَتِهِ فإنَّ جَزَاءهُ الخُلُودُ فِي نارِ جَهَنَّمَ ،لأَنَّهُم إنَّما جاؤُوا بِتَوْحِيدِ اللّهِ وتَنْزيهِهِ عن كُلِّ مَا لا يَلِيْقُ بِهِ ، وهِدَايَةِ النّاسِ إِلَى سَبِيْلِ السَّعَادَةِ ، فَمَنْ اسْتَكْبَرَ عَلَيْهِم ولَمْ يُؤْمِن بِهِمْ فَقَدْ كَفَرَ بِرَبِّهِ وخَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيْنا .

ولَقَدْ قَالَ المستكبِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ على رَجُلٍ مِن

القريتين عظِيم﴾ يُرِيْدُونَ الوليدَ بنَ المُغِيْرَةَ مِن مَكَّةَ وأبا مَسْعُودِ الثّقفيّ مِن أهْلِ الطّائِفِ ، دَفعَهُمْ الكِبْرُ إلى أَنْ يَطْلُبوا مَنْ هُوَ عِنْدَهُمْ وفِي زَعْمِهِمْ أَعْظَمُ رِئاسَةً مِن المُصْطَفَى ﷺ لأنّه غُلَامٌ يَتِيْمٌ وإنْ كَانَ مِن أطْهَرِ أَصْلابِهِمْ وأشْرَفِ أنْسابِهِمْ فَرَدَّ اللّهُ عَلَيْهِم بقَوْلِه ﴿أهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ ربِّكَ﴾ ، ذلِكَ أنَّهُمْ جَهَلَةٌ مُتَهَوِّرُوْنَ غِلَاظُ القُلُوبِ حَسَدَةٌ لَمْ يُقَدِّرُوْا اللّهَ الّذِي خَلَقَهُمْ وَالّذِينَ مِن قَبْلِهِم ، الحَكِيم الّذِي يَضَعُ الأشياءَ مَوَاضِعَهَا وَيُنَزِّلُ الأُمُورَ مَنازِلَهَا .

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقّاصٍ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ فقَالَ المُشْرِكُونَ : اطْرُدْ هَؤُلاءِ عَنْكَ فإنَّهُمْ وَإنَّهُم ، قَالَ فكُنْتُ أنَا وابنَ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِن هُذَيْلٍ وبلالٌ وَرَجلانِ نَسِيْتُ أَسَمِيْهِمَا ، قالَ فَوَقَعَ في نَفْسِ النّبِيّ ﷺ مِن ذَلِكَ مَا شَاءَ اللّهُ فَحَدَّثَ بِهِ نَفَسَهُ ، فَأَنْزَلَ اللّهُ عزّ وَجلّ ﴿وَلَا تطردِ الّذينَ يدعُون رَبّهُم بالغداةِ والعشي يريدون وجهه﴾ وَرَوَى عن خَبابِ ابنِ الأرَتِّ ـ في سَبَبِ نُزُوْلِ هَذِهِ الآيَةِ ـ قَالَ جَاءَ الأقْرَعُ بنُ حَابِسٍ التَّمِيْمِي وعُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ الفَزَارِي فَوَجَدُوا النّبِيَّ ﷺ قاعِداً مَعَ بِلَالٍ وعَمَّارٍ وصُهَيْبٍ وخَبَّابٍ ، في نَاسٍ مِن الضُّعفاءِ مِنَ المُؤْمِنِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَقَرُوْهُم ، فَخَلوا بِهِ فَقالُوا : إنَّا نُحِبُّ أنْ تَجْعَلَ لَنا مِنْكَ مَجْلِساً تَعْرِفُ لَنَا بِهِ العَرَبُ فَضْلَنَا ، فإنَّ وُفُودَ العَرَبِ تأتِيْكَ ، فَنَسْتَحي أن يَرَانَا العَرَبُ قُعُوداً مَعَ هَذِهِ الأعْبُدِ فإذا نَحْنُ جِئْنَاكَ فأقِمْهُم عَنَّا ، فإذا نحْنُ فَرَغْنا فاقْعِدْهُم إن شِئْتَ ، قَالَ « نَعَمْ » ، قَالُوا : فاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَاباً ، فَدَعَا بالصَّحِيفَةِ ، لِيَكْتُبَ لَهُمْ ، وَدَعَا علياً لِيَكْتُبَ ، فَلَمَّا أَرادَ ذَلِكَ وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ ، إذْ نَزَلَ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فقَالَ : ﴿وَلا تَطْرد الّذين يدعُون ربّهُم بالغداة والعشي يريدُون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء

فتطردَهُم فتكون مِنَ الظّالمين﴾ ثم ذَكَرَ الأقرعَ وصَاحِبَه فقال : ﴿وكَذَلِكَ فتنا بعضهم ببعْض لِيقولوا أهؤلاء مَنَّ الله علَيْهم مِن بيْننا أليسَ اللّهُ بأَعلم بالشّاكِرين﴾ .

ثُمّ ذَكَرنَا فقَال ﴿وإِذَا جاءَكَ الّذِين يؤ مِنُون بآياتنا فقُل سلام عليكم كتَبَ ربُّكم على نفسِهِ الرّحمة﴾ فرَمَى رسُولُ اللّهِ ﷺ بالصَّحِيْفَةِ وَدعَانَا فَأَتَيْنَاهُ وهُوَ يَقولُ ﴿سَلامٌ عَلَيكُم﴾ فَدَنَوْنَا مِنه حتَّى وَضَعْنَا رُكبنَا عِنْدَ رُكْبَتِهِ فكانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَجْلِسُ مَعَنَا فإذا أَرادَ أنْ يَقُومَ قَامَ وتَركَنَا فأنزل الله ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عنْهُمْ تُريد زينةَ الحيَاةِ الدُّنْيا﴾ يقولُ لَا تَعْدُ عَيناكَ عَنهُم تُجالِسْ الأشرافَ ﴿وَلَا تطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكْرنا واتّبع هَواهُ وكان أمرهُ فرطا﴾ أمّا الّذي أَغْفَلَ قَلْبُهُ عن الذِّكر فهو عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ والأقرَعُ ، وأمّا فرطا فهلاكا ، فإذا بلغْنا الساعةَ الّتِي كان يقومُ فِيها قُمْنَا وتَرَكْنَاهُ حَتَّى يقُومَ ، وإلا صَبَرَ أبَدًا حتَّى نقُومَ ، رواه ابن شيبة ورواه أبو نعيم .

ومعنَى هَذَا أَنَّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ حَمَلَهُمَا الكِبْرُ والأنفةُ علَى احتقارِ بَعْضِ هَؤلاءِ المُؤمنين لِضَعْفِهم مِن جِهَةِ المالِ والنَّسَبِ فَطَلَبَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أنْ يَخْتَصَّهُمْ بمَجْلسٍ لا يَشْملَ هؤلاءِ الضَّعَفاءِ وفي روايةٍ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بهِ إِن فَعلَ ذلِكَ وكان ﷺ حَرِيصاً عَلَى إيمانِ النّاسِ ، كَمَا ذَكَرَ اللّهُ عنْهُ بقولِه ﴿لَعَلّكَ باخِعٌ نفسَكَ أن لا يكُونوا مُؤمنين﴾ .

وقال ﴿فلا تَذْهَبْ نفسُكَ عليهِمْ حسراتٍ﴾ وقال ﴿فلعلّك باخعٌ نفسَكَ على آثارِهم إن لم يُؤ مِنُوا بِهذا الحديث أسفا﴾ وقال ﴿وَلَا تَحزَنْ عَلَيْهِم﴾ ورَأى أن هذا لا يَضُر أَصحابَهُ خُصُوْصاً بَعْدَ أن يَدْخُلَ هَذَانِ مَعهُمَا ، فإِن الدِّيْنَ كَفِيْلٌ بإذْنِ اللّهِ في تَهْذِيْبِهِمَا فأجابَهُمَا إلى طَلَبِهِمَا .

ولكِنَّ اللّهَ تَعالى الّذي شَرَعَ الدِّيْنَ وَهُوَ الّذِيْ فَوْقَ عِبادِهِ جَمِيْعاً أبى على نَبِيِّهِ ذلِكَ وأعْلَمَهُ أنَّهُ لا يُبَالِي بالمُتَكبِّرِيْن ، ولا يَحْفَلُ بدُخُولِهِمْ فِي دِيْنِهِ ، ما دامَتْ أنفُسُهُمْ مُتأثِّرَةً بالعِزَّةِ الكَاذِبَةِ واحْتِقَارِ المُؤْمِنِيْنَ لأنَّ دِيْنَهُ تَعالَى قَدْ جَاءَ بِالقَضَاءِ عَلَى هَذِهِ الرَّذِيْلَةِ وَلَمْ يَجْعَلْ الاحْتِرَامَ وعُلُوَ الهِمَّةِ والمَنْزِلَةِ وَرِفْعَةِ القَدْرِ مُرْتَبِطاً بِرِفْعَةِ النَّسَبِ أوْ كَثْرةِ المالِ أوْ الجاهِ والسُّلطان، وإنَّمَا جَعَلَ ذلِكَ مُرْتَبِطاً بالعِلْمِ النّافِعِ وَتَقْوى الله ، ولِذَا قالَ لِنَبِيِّهِ ﴿واصْبِرْ نفسَكَ مَعَ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشيِ يُرِيْدُونَ وَجْهَهُ ، ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيا ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أمْرُهُ فُرُطَا﴾ وقالَ ﴿وَلا تَطْرُدِ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشيِ﴾ ، الآية فصَدَعَ ﷺ بأمْرِ اللّهِ تَعَالَى وبَلَّغَ ما أُوْحِيَ إلَيْهِ .

شعرا :

رغِبْتُ عَن الـدُّنْيـا لِعِلْمِـيَ أنَّهَـا
مَحَـلُّ حَيَـاةِ المَـرْءِ فِيْهَـا بَـلاَغُ
وقَدْ لاَحَ فِي فَوْدَيَّ شَيْبٌ على الرَّدَى
دَلِـيْـلٌ وفِـيْـهِ مَـا أَرَدْتُ بَـلاَغُ
وأَمَّلْتُ مِن مَـوْلاَيَ نَـظْرَةَ رَحْـمَـةٍ
يَـكُـوْنُ بِـهَـا مِنِّي إلـيْـهِ بَـلاَغُ
فـأحْظَى إذَا الأبْـرَارُ قِيْـلَ لَهُمْ غَـداً
هَلِمُّـوا إلى دَارِ النَّعِيمِ فَـرَاغُـوا
رَأيْتُ بَنَيْهـا مَـا رَمَتْهُمْ سِهَـامُهـا
فَـطَاشَتْ ولا حُمَّ الحِمَـامُ فَـرَاغُـوا

فَعُجِبْتُ إِلى دَارِ البَقَاءِ بِهِمَّتِي
فَعِنْدِي عَنْهَا رَاحَةٌ وَفَرَاغُ

اللّهُمَّ مَكِّنْ مَحبَّةَ القُرْآنِ في قُلُوبِنَا وَوَفِّقْنَا لِتِلاوَتِهِ آناءَ اللّيلِ وَالنّهار اللّهُمّ وارْزُقنا العملَ بِهِ والدّعوةَ إِلَيْهِ واجْعلهُ حُجَّةً لنَا وقائِداً لنا إلى جَنّتِك وَاغْفِرْ لنا ولِوَالِديْنَا ولِجَميع المُسْلِمين برحمتِكَ يا أرحَمَ الرّاحِمِين وصلّى الله على مُحَمّد وآلِه وصحْبِهِ أجمَعِين .

« موعظة »

عِبَادَ اللّهِ إِنَّمَا يَسْعَدُ المُسْلِمُونَ أَنْ يَتَّبِعُوا الحَقَّ وَيَدْعُوْا إِلَيْهِ ولا تأخُذُهُمْ في اللّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ وَيَقْبَلُوا النَّصِيْحَةَ مِمَّنْ يَنْصَحُهُمْ وَيَعْمَلُوا بِهَا رَاضِيَةً نُفُوسُهُمْ شَاكِرَةً أَلْسِنَتُهُمْ غَيْرَ مُسْتَكْبِرِيْنَ وَلا مُتَعَنِّتِيْنَ وَلَمْ يُعْمِهِمُ الهَوَى عَن اتِّبَاعِ الحَقِّ إِذْ ذَاكَ تكمَلُ لَهُم السَّعَادَةُ ويتمُّ لَهُمْ النَّعِيْمُ وقَدْ فَشَا في النّاسِ دَاءُ الكِبْرِ واسْتَحْكَمَ ولا أقْصُدُ بِذَلِكَ مِنَ الكِبْرِ الخُيَلاءَ والتَّبَخْتُرَ فَقَط وَإِنَّما أقْصُدُ كِبْرَ المُتَكَبِّرِ عن قَبُولِ نَصحِ النَّاصِحِ وارْشَادِ المُسْتَرْشِدِ فإِنَّ الأَوّلَ وإِنْ كَانَ شَرّاً ولَكِنْ الثّانِي شَرٌّ مِنْهُ فإِنَّ المَرْءَ إذا لَمْ يَقْبَلَ نَصِيْحَةَ النَّاصِحِ كانَ رَاضِياً عَن نَفْسِهِ وَمَتَى رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ عَمِيَتْ عَن عُيُوبِهَا فَلا يُؤَثِّرُ فِيْهَا نُصْحٌ وَلا يَنْفَعُ مَعْهَا إِرْشَادٌ لأَنَّ الغُرُوْرَ مُتحكِّمٌ فِيْهَا والشَّهوَاتِ مُحِيْطَةٌ بِها فإذا أَرادَ اللّهُ بِعَبْدِهِ خَيْراً بَصَّرَهُ بعُيُوبِ نَفْسِهِ فأَصْلَحَها واتَّهَمهَا دَائماً بالنَّقْصِ وطَالَبَهَا بالكَمالِ حَتَّى تَلْتَحِقَ بالنُّفُوسِ الزَّكِيّةِ والأَرْواحِ الطَّاهِرَةِ وهكذا كان سَلفا الصالِحُ فَكَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَقُولُ رَحِمَ اللّهُ امْرأً أَهْدَى إليَّ عُيُوْبَ نَفْسِي وَكَانُوْا إذا أَرْشَدَهُمْ أخٌ مِنْ إخْوَانِهِمْ إلَى عَيْبٍ في

نُفُوسِهِمْ فَرِحُوا بِهَذَا التَّنْبِيْه وَطَهَّرُوْا نُفُوسَهُمْ مِنْهُ وشَكَرُوْا مَنْ نَصَحَهُمْ وَجعَلُوا نَصِيْحَتَهُ مِنّةً لَهُ عَلَيْهِم وَلَمْ يأنَفُوا أو لَمْ يَسْتَكْبِرُوْا لأنَّهُم يَتَّهِمُونَ نُفُوسَهُمْ وَيَرَوْنَها نَاقِصَةً وَيَسْعَونَ إِلَى رِفْعَتِهَا إِلى أوْجِ الكَمَالِ وبِهَذَا بَلَغُوْا مَا بَلَغُوا ونَالُوا مَا نَالُوا يا عِبَادَ اللّهِ كيْفَ نَرْضى عنْ نُفُوسِنَا واللّهُ جَلَّ وعَلاَ يَقُولُ ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسّوءِ﴾ عِبَادَ اللّهِ مَنْ مِنَّا بَلَغ مِعْشَارَ مَا بَلَغَهُ عُمَرُ في كَمَالِ نَفْسِهِ وقُوَّةِ إيْمَانِهِ وشِدَّةِ يَقِيْنِهِ وَقَدْ كَانَ يَقُوْلُ لأَصْحَابِهِ مَن رَأى مِنْكُمْ فِيَّ اعْوِجَاجاً فَلْيُقَوِّمْهُ هَكَذا كَانَ ظَنُّهُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ بنفسِهِ على جَلاَلَةِ قَدْرِهِ وعُلُوِ مَنْزِلَتِهِ فِي دِيْنِهِ وكُلُّ مَا كَانَ أكْبَرَ كَانَ أقَلَّ اعْجَاجاً بِنَفْسِهِ وأكثَرَ مُطَالَبَةً لَهَا بسُلُوكِ طَرِيْقِ الحَقِّ .

شعرا :

ألا قِفْ بِبَابِ الجُوْدِ واقْرَعْهُ مُدْمِناً
تَجِدْهُ إذا مَا جِئْتَهُ غَيْرَ مُرْتَجِ
وقُلْ عَبْدُ سُوءٍ خَوَّفَتْهُ ذُنُوبُهُ
فَمَدَّ إِلَيْكُمْ ضَارِعاً كَفَّ مُرْتَجِي

نَسأَلُ اللّهَ أنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَنَا ويُبَصِّرَنا بعُيُوبِ أنفُسِنَا ويَشْغَلَنَا بإِصلاحِها ويُوفِّقنَا لِقبُول نُصْحِ النَّاصِحِ وإرشادِ المُرْشِدِ واللهُ أعلَمُ وصلّى اللّهُ على مُحمّد وآلهِ وسلّم .

(فصــل)

وأَمَّا التَّكَبُّر عَلَى خَلْقِ اللّهِ فَهُوَ مِنْ شَرِّ الرَّذَائِلِ وأَسْوَءِ الصِّفَاتِ ، لأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ مَظَالِمَ شَائِنَةً وجَرَائِم مَمْقُوْتَةً وقدْ يُفْضِيْ بِهِ ذلِكَ إلى التَّكَبُّرِ عَلَى اللّهِ وعَلى رُسُلِهِ لأَنَّ اللّهَ تَعَالى نَهَى عَنْ ارْتِكَابِ تِلْكَ المَظَالِمِ ، وَحَذَّرَ عَاقِبَةَ

شَرِّهَا ، فَلَمْ يُبَالِ بِهِ ولَمْ يَخْشَى وَعِيْدَهُ ، ولَمْ يَخَفْ بَطْشَهُ ، وفي ذَلِكَ كِبْرٌ وعُتُوٌ وتَمَرُّدٌ .

وأيضاً فإنَّ المُسْتَعْظِمَ عَلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللّهِ لا يُصْغِيْ لِقَوْلِهِ مَهْمَا كَانَ حَقّاً مَفْرُوْضاً ولَا يَدَّخِرُ مَجْهُوْداً في رَدِّهِ بالباطِلِ وهَذا مِن أخْلاقِ الكَافِرِيْنَ الّذِينَ يَسْتَكْبِرُوْنَ على اللّهِ فَمَنْ أجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ اللّهُ الكِبْرَ ونَهَى عَنْهُ نَهْياً شَدِيْداً ا هـ بتصرف .

وَقَدْ وَرَدَتْ آياتٌ وأحَادِيثُ في ذَمِّ الكِبْرِ والنَهْي عَنْهُ مِن ذَلِكَ آيةُ سُوْرَةِ الأعْرَافِ المُشِيْرَةِ إلى حِرْمَانِ الحَقِّ وعَمَى القَلْبِ عَنْ مَعْرِفَةِ آياتِ اللّهِ تَعالى وفَهْمِ أحْكَامِهِ ، قَال تَعَالى : ﴿سَأَصْرِفُ عن آياتِي الّذِينَ يَتَكَبَّرُوْنَ فِي الأرْضِ بغَيْرِ الحَقِّ وإنْ يرَوْا كُلَّ آيةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وإنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الرُّشْدِ لا يَتّخِذُوْهُ سَبِيْلا وإنْ يرَوْا سَبِيْلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيْلا ، ذلِكَ بأنّهم كَذَّبُوْا بآياتِنا وكانُوا عَنها غَافِلين﴾ .

وقال تعالى ﴿كذَلِكَ يطْبعُ الله على كلّ قَلْبِ متكبر جبّار﴾ وقال ﴿إنّه لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِيْن وقال تعالى ﴿تِلْكَ الدّار الآخِرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا﴾ وقال ﴿وَلَا تمشي في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ وقال ﴿ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ وقال ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للناس ولا تمشي في الأرض مرحا﴾ وعن أبي هُريرَةَ رضي الله عنْهُ أن رسُول الله ﷺ قال : « لا يَنْظُرُ اللّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إلى مَن جرَّ إزَارَهُ بَطَرا » متفق عليه ، وعنْهُ أن رَسُولَ اللّهِ ﷺ قال : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي في حُلَّةٍ ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ رأْسَهُ ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ خَسَفَ اللّهُ بِهِ فهُوَ يتَجَلْجَلُ في الأرضِ إلى يوْمِ القِيامَةِ متفق عليه .

وعن ثوبانَ رضِيَ اللّهُ عَنْهُ قال رسُولُ اللّهِ ﷺ « مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِن الكِبْرِ والغُلُولِ والدَّيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ » رواه الترمذي واللفظ له والنسائي، وابنُ مَاجَه وابن حبان في صحيحه .

وعن أبي سعيد وأبي هُريرة رضي الله عنهما قال (قال رسولُ الله ﷺ « يقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ : العِزُّ إزارِي ـ والكِبْرِياءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي شَيْئاً مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ » رواه مسلم بلفظ « يقُولُ اللّهُ عزْ وجلّ : العِزُّ إزارُهُ ، والكِبْرِياءُ رِداؤُهُ ، فَمَن يُنازِعُنِي عَذَّبْتُهُ » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسولُ الله ﷺ « يقولُ اللّهُ جلّ وعلاّ : الكِبْرِياءُ رِدائي والعَظَمَةُ إزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ في النَّارِ » رواه ابن ماجه واللفظ له وابن حبان في صحيحه .

وعن حارثةَ بنِ وَهْبٍ رضِيَ اللّهُ عنه قال سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ : « ألا أخْبِرُكُم بأهلِ النّارِ ؟ . كُلُّ عتلٍ جواظٍ مُسْتَكْبِرٍ رواه البخاري ومسلم » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول اللّهِ ﷺ قال : « مَنْ تَوَاضَعَ لِلّهِ دَرَجَةً يَرْفَعُهُ اللّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ اللّهُ في أعْلَى عِلّيين ـ ومَن تَكَبَّر عَلَى اللّهِ دَرَجَةً يَضَعُهُ اللّهُ دَرَجَةً ، حَتّى يَجْعَلَهُ فِي أسْفَلِ سَافِلِيْنَ ، وَلَو أنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صمّاءَ لَيْسَ عَلَيْها بابٌ وَلاَ كُوَّةٌ لَخرَجَ ما غَيَّبَهُ لِلنّاسِ كائناً مَا كَانَ » رواه ابنُ ماجه وابنُ حبان في صحيحه .

وَعَنْ أبي سعيدٍ الخدري رضيَ اللّهُ عَنْهُ عن النّبيّ ﷺ قال « احْتَجَّتِ الجنّةُ والنّارُ فقالت النّارُ : فِيَّ الجَبّارُوْنَ والمتكَبِّرُوْنَ ، وقالَت الجنّةُ : في

ضُعَفَاءُ المُسْلِمِينَ ومَسَاكِيْنُهُمْ ، فَقَضَى اللّهُ بَيْنَهُمَا : إِنَّكَ الجَنَّةُ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِك مَنْ أَشَاءُ ، وإِنّكَ النّارُ عَذَابِي أُعذِّبُ بِك مَنْ أشَاءُ ، ولِكِلَيْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤها » رواه مسلم .

وعنْ أَبي سلمةَ بن عبدِ الرّحمنِ بنِ عَوْفٍ قال الْتَقَى عَبْدُ اللّهِ ابنُ عُمَرَ وعَبْدُ اللّهِ بنُ عمْرو بنِ العاص رضي اللّهُ عَنْهُمْ عَلَى المَرْوَة فَتَحَدَّثَا ثمّ مَضَى عَبْدُ اللّهِ بنُ عَمْرو وبَقِيَ عَبْدُ اللّهِ بنُ عُمَر يَبْكِيْ فَقَالَ ـ لَهُ رَجُلٌ مَا يُبْكِيْكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرّحمنِ ؟ قال هذَا . يَعْنِي عَبْدَ اللهِ بنِ عَمْرو زَعَمَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُوْلَ اللّهِ ﷺ يقُولُ « مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ كَبَّهُ اللّهُ لِوَجْهِهِ فِي النّارِ » رواه أحمد ورواته رواة الصحيح .

شعرا :

اعْجَبْ لمُحْتَكِرِ الدُّنْيا وبَانِيْهَا
وعن قَرِيبٍ عَلى كُرْه يُخَلّيْهَا
دَارٌ عَواقبُ مَفْرُوْحَاتِها حَزَنُ
إذَا أَعَارَتْ أَسَاءَتْ في تَقَاضِيْهَا
يا مَنْ يُسَرُّ بأَيَّامٍ تَسِيْرُ بِهِ
إلى الفَنَاءِ وأَيَّامٍ يُقَضِّيْهَا
قِفْ في مَنَازِلِ أَهْلِ العِزِّ مُعْتَبِراً
وأنْظُر إلَى أيِّ شَيءٍ صَارَ أَهْلُوهَا
صَارُوا إلى جَدَثٍ فِيْهِ مَحَاسِنُهُم
على الثَّرَى ودَوِيُ الدُّوْدِ يَعْلُوهَا

اللهم يَسِّرْنَا لِلْيُسْرَى وجَنِّبْنَا العُسْرَى واجْعَلْنا هُدَاةً مُهْتَدِيْن واغْفِر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« موعظة »

عِبَادَ اللَّهِ لَقَدْ كَانَتِ القُلُوبُ مَوْضِعَ العِنَايَةِ التَّامَّـةِ عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ لِأَنَّهُمْ يَعلمون أنّها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَـدُ كُلُّهُ » وذلكَ لِأَنَّهـا مَبْدَأُ الحَـرَكَاتِ البَـدَنِيَّةِ ، والإرادات النَّفْسَانِيَّة ، فإن صَدَرَتْ مِن القُلُوبِ إرادَةٌ صَالِحَةٌ تَحَرَّكَ البَدَنُ حَرَكَةً طاعة ، وان صَدَرَتْ عَنْهَا ارادَةٌ فَاسِدَةٌ تَحَرَّكَ البَدَنُ حَرَكَةً فَاسِدَةً ، فَهُوَ كَمَلِكٍ والأَعْضَاءُ كَالرَّعِيَّةِ ، ولا شَكَّ أَنَّ الرَّعِيَّةِ تَصْلَحُ بِصَلاحِ المَلِكِ وَتَفْسُدُ بِفَسَادِهِ ، وكانَ وَاجِباً عَلَيْنَا أن نَكُونَ كَمَا كَانَ سَلَفُنَا في العِنَايَةِ بِهَاتِيْكَ القُلُوبِ لأنّ بِهَا سَعَادَتُنَا بإِذْنِ اللهِ وَبِهَا شَقَاؤُنَا ، ولكن يَا لِلأَسَفْ مَا كَانَ مِن ذَلِكَ شَيْءٌ والذي كانَ مِنَّا أَنَّنَا أَهْمَلْنَا قُلوبَنا إهْمَالاً تَتَجَرَّحُ لَهُ القُلُوبُ ، وَتَذُوبُ لَهُ الأَكْبَـادُ وَلِذَلِـكَ نَشَأَ فِيْنَـا نَتِيْجَةَ الإِهْمَـالِ كَثْرَةُ الأمْرَاضِ فِي القُلُوبِ وَتَشَعَّبَتْ وَأَعْضَلَتْ وَصَعَبَ شِفَاؤُهَـا ، وانْعَدَمَ أطبَاؤُهَا وَمَنْ وَصِلَ إلى هَذَا الحَدِّ فَهُوَ في خَطَرٍ عَظِيْمٍ .

فَمِنْ الأَمْرَاضِ التِي أَزْمَنَتْ فِي قُلُوبِنَا مَرَضُ الرِّياءِ الذِي لا يَكَادُ يَسْلَمُ منه إلَّا النَّوَادِرُ ، وَمِنَ الأَمْرَاضِ التِي أُصِبْنَا بِهَا مَرَضُ العُجْبِ ، ولِهَذَا يَعْتَقِدُ الصغيرُ مِنَّا والكبيرُ الكَمَالَ في نَفْسِهِ ومَن اعْتَقَدَ ذلكَ في نَفْسِهِ هَوَى لأنَّهُ لا يَلْتَفِتُ إلى مَا بِهِ كَمَالُ الرِّجَالِ ، وَمَرَضٌ يُنْتِجُ مَرَضاً آخَرَ هُوَ مَرَضُ الكِبْرِ

وَصْفُ الأنْذَالِ والأرْذَالِ والجُهَّالِ ، والمُتَكَبِّرُ لا يُنْظَرُ إليهِ بعَيْنِ الرضَا والكِبْرُ يَنْشأُ عَنه مَرَضُ الحَسَدِ والحَسُودُ يَتمَنَّى زَوَالَ نِعْمَةِ اللهِ عَن خَلْقِهِ ، والحَسَدُ يُوَلِّدُ الحِقْدَ الذِي رُبَّمَا حَملَ صَاحِبَهُ على قَتْلِ مَنْ لا ذَنْبَ لَهُ إلَّا ما أَوْلاَهُ اللهُ مِن النِّعَمِ ، ولَيْسَ هَذَا كُلُ مَا فِي قُلُوبِنَا مِن الأمْرَاضِ بَلْ فِيْهَا مَرَضُ البُخْلِ وَالشُّحِّ الذِي وَصلَ بِنَا إلى مَنْعِ الزكاةِ أو بَعْضِهَا ، وغَيرُ ذَلِكَ كَثِيْرٌ وَكُلُّهَا أمْرَاضٌ مُهْلِكَاتٌ ، ونحنُ لا نَهْتَمُّ بقُلُوبِنَا ولا بأَمْرَاضِهَا وإِنَّمَا نَهْتَمَ بأمْرَاضِ أَجْسَامِنَا ، ونُبَادِرُ في عِلاَجِهَا إلى المُسْتَشْفَياتِ ، وأَمْرَاضُهَا يَسِيْرَةٌ بَسِيْطَةٌ بِالنِّسْبَةِ إلى أمْرَاضِ القُلُوبِ ، ونَهْتَمُّ أَيْضاً بِجَمَالِ ظَوَاهِرِنَا فَنُبَالِغُ فِي تَحْسِيْنِ مَلاَبِسِنَا ومَرَاكِبنَا ومَسَاكِنِنَا ومَجَالِسِنَا وأبْدَانِنَا ، أنْظُرْ إلَيْنَا عِنْدَ الذِّهَابِ إلَى مَقَرِّ العَمَلِ لِتَتَعَجَّبَ مِن تَغْفِيْلِنَا وانْخِدَاعِنَا ، ولَو كانَتْ عنَايَتُنَا بالقُلُوبِ كَعِنَايَتِنَا بالمَلاَبِسِ فَقَطْ مَا كُنَّا بِهَذِهِ الحَالاَتِ المحزنات .

شعراً :

خَلِيْلَيَّ قُومَا فاحْمِلاَ لِي رِسَالَةً
وقُولاَ لِدُنْيَانَا الَّتِي تَتَصَنَّعُ
عَرَفْنَاكِ يا خَدَاعَةَ الخَلْقِ فاذْهَبِي
ألسنَا نَرَى ما تَصْنَعِيْنَ وَنَسْمَعُ
فلا تَتَجَلَّيْ لِلْعُيُونِ بِزِيْنَةٍ
فإنَّا مَتَى مَا تَسْفُرِي نَتَقَنَّعُ
نُغَطِي بثَوْبِ اليَأسِ عَنْكِ عُيُونَنَا
إذَا لاَحَ يَوماً مِن مَخَازِيْكِ مَطْمَعُ

رَتَعْنَا وجُلْنَا في مَرَاعِيْكِ كُلِّهَا
فلم يَهْنَنَا فِيْمَا رَعَيْنَاهُ مَرْتَعُ

اللهم أرِنا الحقَّ حَقاً وارْزُقْنَا اِتّبَاعَه ، وأَرنا الباطل باطلاً وجَنِبْنَا اِتّبَاعَه ، واغفر لنا ولوالدينَا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فصل)

عن حذيفةَ رضي اللهُ عنه قال كُنَّا مَعَ النبي ﷺ في جَنَازَةٍ قال : « ألاَ أُخْبرُكُم بشَرِّ عِبَادِ اللهِ ؟ : ألفَظُ المُسْتَكْبِرُ ، ألا أُخْبرُكُم بِخَيْرِ عِبَادِ اللهِ ؟ الضَعِيْفُ المُسْتَضْعَفُ لله ، ذُوْ الطِّمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَو أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ » رواه أحمد ورواته رواةَ الصحيح إلا محمدَ بنَ جابر .

وعن عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ رضيَ اللهُ عنه أنه مَرَّ في السُوْقِ وعليه حُزْمَةُ مِن حَطَبٍ ، فَقِيْلَ لَهُ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى هَذَا ، وقَدْ أغْنَاكَ اللهُ عن هَذَا ؟ قال أَرَدْتُ أنْ أدْفَعَ الكِبْرَ ، سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقولُ « لا يَدْخُلُ الجنةَ مَن في قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ مِن كِبْرٍ » رواه الطبراني باسناد حسن والاصبهاني إلا أنه قال ذَرَّةٍ مِن كبر .

وعن عمروِ بنِ شُعَيْبٍ رضيَ اللهُ عنه عن أَبِيهِ عن جَدِّهِ قال قال رسولُ اللهِ ﷺ يَحْشَرُ المُتَكبرُونَ يومَ القيَامَةِ أمْثَالَ الذَّرِ في صُوَرِ الرجَالِ يَغْشَاهم الذُلُّ مِن كُلِّ مَكَانٍ يُسَاقُونَ إلى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُوْلَسُ ، تَعْلُوهُم نارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِن عِصَارَةِ أهلِ النارِ طِيْنَةِ الخَبَال. رواه النسائي والترمذي واللفظ له

وقال حديث حسن وعن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قالَ « لا يَدْخُلُ الجنةَ مَن كَانَ في قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْر » فقالَ رجلٌ : إن الرَّجُلَ يُحِبُّ أن يَكُونَ ثوبُهُ حَسَناً ، ونَعْلُهُ حَسَنَة قال إن الله جَمِيْلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ الناسِ » رواه مسلم والترمذي .

وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبِيَ ﷺ قال : « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَم يَنْظُرِ اللهُ إليه يَوْمَ القِيَامَةِ فقال أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : يا رَسُوْلَ اللهِ إن إزاري يَسْتَرْخِيْ إلا أنْ أتعَاهَدَهُ . فقال لَهُ رسولُ اللهِ ﷺ « إنكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خُيَلَاءَ » رواه مالك والبخاري واللفظ له .

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول : « مَنْ تَعَظَّمَ في نَفْسِهِ واخْتَالَ في مِشْيَتِهِ لَقِيَ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى وهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَان » رواه الطبراني في الكبير واللفظ له ورواته محتج بهم في الصحيح والحاكم بنحوه وقال صحيح علي شرط مسلم .

وعن خولةَ بنتِ قَيْسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال « إذا مَشَتْ أُمّتِيْ المُطَيْطَأ ، وخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ والرُّوْمُ ، سُلِّطَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ » رواه ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ وَرواهُ التّرمِذيُّ وابنُ حبّان أيضاً مِن حديث ابنِ عُمَرَ ، وَرُوِيَ عن أسماءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنها قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ واخْتَالَ ونَسِيَ الكَبِيْرَ المُتَعَالِي ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ واعْتَدَى ، وَنَسِيَ الجَبّارَ الأعْلَى ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ سَهَا وَلَها ، وَنَسِي المَقَابِرَ والبِلَى ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ عَتَى وَطَغَى ، وَنَسِيَ المُبتَدَأ والمُنْتَهَى بِئْسَ العَبْدُعَبْدٌ يَختِلُ الدُّنْيا بالدِّيْنِ ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدِّيْنَ بالشُّبُهاتِ ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ طَمِعٌ يَقُودُهُ ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ هَوَىً يُضِلُّهُ ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ رَغبٌ

يُذِلُّهُ » رواه التّرمذِيّ وقال حديث غريب .

وعَنْ أبي هُريرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَال قَال رسُولُ اللّهِ ﷺ « ثَلاثَةٌ لا يُكلِّمُهُمْ اللّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ولا يُزَكِّيْهم وَلا يَنْظُرُ إلَيْهِم ولَهُمْ عَذابٌ ألِيْم ، شَيْخٌ زَانٍ ، ومَلِكٌ كَذابٌ ، وعائِلٌ مُستكبر » راه مسلم والنسائي ، وعنهُ رضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَال رسُولُ اللّهِ ﷺ « أرْبَعَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللّهُ البَيَّاعُ الحَلاَّفُ والفَقِيْرُ المُخْتَالُ ، والشَّيْخُ الزَّانِي ، والإمامُ الجَائِرُ » رواهُ النّسائي وابن حبّان في صحيحِهِ .

وعَنْهُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ « عُرِضَ عَليَّ أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ : أَمِيْرٌ مُسَلَّطٍ ، وَذُوْ ثَرْوَةٍ مِن مَالٍ لا يُؤَدِّيْ حَقَّ اللّهِ فِيهِ ، وَفَقِيْرٌ فَخُورٌ » رواهُ ابن خُزيمة وابن حبّان في صحِيحِهِ .

وأخْرَجَ ابنْ ماجَه والحاكِم وصحّح إسنادَه أنّ رسُول اللّه ﷺ بَصَقَ يَوْماً عَلَى كَفِّهِ وَوَضَعَ أصْبعَهُ عَلَيْهِ وَقال : « يَقُولُ اللّهُ تَعَالى : ابنَ آدَمَ أتُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُك مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ؟ حَتَّى إذَا سَوَيْتُكَ وَعَدَّلْتُكَ ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْين ، ولِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيْدٌ ، جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إذا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، قُلْتَ أتَصَدّقُ ، وأَنَّي أوَانُ الصَّدَقةِ » واللّهُ أعلم وصلّى الله على مُحمّد وآلِه وصَحبِهِ وسلّم .

شعرا :

يــا غــافــلاً عن سَـاعَــةٍ مَقْـرُوْنَـةٍ
بــنــوَادِبٍ وصَــوَارِخٍ وثَــوَاكِــلِ

قَـدِّمْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَـوْتِـكَ صَـالِحـاً
فـالمَوْتُ أسْـرَعُ مِن نُزُوْلِ الهَـاطِلِ
حَتَّـامَ سَمْعُـكَ لا يَعِي لِمُـذَّكِـرٍ
وصَـمِيْمُ قَلْبِـكَ لا يَـلِيْنُ لِعَـاذِلِ
تَبْغي مِنَ الـدُّنْيا الكَـثِيْـرَ وإنَّمَـا
يَكْفِيْـكَ مِنْ دُنْيَاكَ زَادُ الـرَّاحِـلِ
آيُ الكِتَـابِ يَهُزُّ سَمْعَـكَ دَائِمـاً
وتَصُمُّ عَنْهـا مُعْرِضـاً كـالغَـافِلِ
كَمْ لِـلإِلٰـهِ علَيْـكَ مِن نِعَمٍ تُـرَى
وَمَـواهِـبٍ وفَـوائِـدٍ وفَـوَاضِـلِ
كَمْ قَـد أنَالَـكَ مِن مَـوَانِـحِ طَـوْلِـهِ
فـأسْألْـهُ عَفْواً فهُـوَ غَـوثُ السَّـائِلِ

اللّهُمَّ مَكِّنْ حُبَّكَ في قُلوبِنا وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ ووفِّقْنا لامْتِثالِ طَاعَتِكَ وأمْرِكَ واغْفِرْ لَنَا ولِوالِديْنَا ولجَمِيعِ المُسْلِمينَ بِرَحْمتِك يَا أرْحَمَ الرّاحِمِين وصلّى الله على مُحَمّد وآلِهِ وصحْبِهِ أجمَعِين .

« موعظــة »

عِبادَ اللّه مَن تَكبَّرَ أَذَلَّهُ وَمَنْ تَواضَعَ لِلّهِ رَفعَهُ اللّهُ والمُتكَبِّرُوْنَ يُحشَرُوْنَ يَوْمَ القِيامَةِ في صُوَرِ الذَّر تَطؤُهُمْ النّاسُ لِهَوانِهِمْ عَلَى اللّهِ تعالى المُتكَبِّرُوْنَ شِرَارَ الخَلْقِ وأهلُ النّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَواظٍ مُسْتكْبِرٍ ، المُتكَبِّرُ يَشْمَخُ بأنْفِهِ إذا تكَلَّمَ ، وَيُجافِي مِرْفَقَيْهِ عَن جَنْبَيْهِ لَاوِياً عُنُقَهُ، يُقَارِبُ خُطَاهُ إذا مَشَى ،

مُتَطَاوِلاً عَلَى إِخْوَانِهِ ، مُتَرَفِّعاً عَلَى أَقْرَانِهِ ، يَنْظُرُ النَّاسَ شَزْراً بِمُؤَخَّرِ العَيْنِ ، مُتَقَدِّماً عَلَيْهِم إِذا مَشَى ، مُحْتَقِراً لِلْعَامَّةَ ، ولا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَهُم وَبَيْنَ الحَمِيْرِ اسْتِجْهَـالاً مِنْهُ لَهُم ، فالمُتَكَبِّرُ لا يُحِبُّ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، لأَنّهُ لا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، ولا يَقدِرُ على التَّواضُعِ وَهُوَ رَأْسُ أَخْلاَقِ المُتَّقِيْنَ ، وَلا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ الحِقْدِ ، وَلا يَقْدِرُ أَنْ يَدُوْمَ عَلَى الصِّدْقِ ، ولا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ الغَضَبِ ، وَلا عَلَى كَظْمِ الغَيْظِ ، ولا يَسْلِمُ مِنَ الازْدِرَاءِ بالنَّاسِ واحْتِقَارِهِم ولاَ يَسْلَمُ مِنْ اغْتِيابِهِمْ ، وتَنْقُصِهِمْ ، لِأَنَّ فِيْهِ مِنَ العَظَمَةِ والعِزَّةِ والكِبْرِيَآءِ ، مَا يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَمَا مِن خُلُقٍ ذَمِيْمٍ إِلا وَصَاحِبُ الكِبْرِ والعَظَمَةِ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ ، لِيَحْفَظَ بِهِ عِزَّهُ وَعَظَمَتُهُ ، وَمَا مِن خُلُقٍ مَحْمُوْدٍ إِلاّ وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ خَوْفاً مِن أَنْ يَفُوتُهُ عِزُّهُ وعَظَمَتُهُ ، ولِذَلِكَ وَرَدَ فِي الحَدِيْثِ أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ ،ومِمَّا جَاءَ فِي وَصِيَّةِ لُقْمَانَ لابنِهِ﴿ وَلاَ تُصَعِّر خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تمشِ فِي الأَرْضِ مَرحاً إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور » ومِن تَعَالِيمِ رَبِّنَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ ونَبِيِّهَا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، يقُولُ تَعَالى : ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرحاً إِنّكَ لَنْ تَخْرِق الأَرْضَ ولنْ تَبْلُغَ الجبالَ طُوْلاَ﴾ فَيا أَيُّهَا المُتَكَبِّرُ النَّاظِرُ في عِطْفَيْهِ ، المُتَعَاظِمُ فِي نَفْسِهِ ، إِنَّ شَأْنَكَ حَقِيْرٌ ، وَقَدْرُكَ صَغِيْرٌ وَلَسْتَ بِمَحْسُوبٍ في العِيْر ، ولا في النَّفِيْرِ ، وَمَا لَكَ عِنْدَ عَاقِلٍ مِنْ حِسَابٍ ، ولا تَقْدِيْر ، لاَ قَلِيْلٍ ولا كَثِيْرٍ ، فَهَوِّنْ عَلَيْكَ ، وارْفُقْ بنَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ مَغْرُوْرٌ ، يا مِسْكِيْن وَتَدَبَّرْ كَلاَمَ رَبِّ العَالَمِيْن ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِيْن﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين ﴿قِيْلَ ادْخُلُوا أبوابَ جَهَنَّمَ خَالِدِيْنَ فِيْهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرينَ﴾ وذَمُّ الكِبْر في القُرآنِ كَثِيرٌ ، والمُتَكَبِّرُ عَدُوٌّ لِلّهِ ولِنَفْسِهِ ، ولِلنَّاسِ ، يُقَصِّرُ في الوَاجِبِ ويَدَّعِي مَا لَيْسَ لَهُ وَيَتشَدَّقُ في الكَلاَمِ ، وَيَتَأَلَّقُ في اللِّبَاسِ ، وإِنَّهُ لَثَقِيْلٌ فِي حَرَكَاتِهِ ، وسَكَنَاتِهِ ،

بَغِيْضٌ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ ، وَمُجَالَسَتِهِ ، ومُؤاكَلَتِهِ وَمُشَارَبَتِهِ ، والوَيْلُ كُلَّ الوَيْلَ لِمَنْ صَاهَرَهُ أوْ شَارَكَهُ أوْ رَبطَتْهُ بِهِ صِلَةٌ ، لأنَّ دَاءَ الكِبْرِ يُعْدِي ويَسْرِي فَتَبْعُدُ السَّلامَةُ مِن المقْتَرِبِ مِنْهُ رَأى بَعْضُ أهْلِ العِلْمِ مَنْ يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ فَغَمَزَ جَنْبَهُ ، ثُمّ قَالَ لَيْسَتْ هَذِهِ مِشْيَةُ مَنْ فِي بَطْنِهِ خِراءٌ ، وكَيْفَ يَتَكَبَّرُ مَنْ أوَّلُهُ نُطْفَةٌ مذِرَةٌ ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَحْمِلُ البَوْلَ والعَذَرَة ، هَذَا أكْبَرُ بُرْهانٍ على أنَّهُ دَنِس جَاهِلٌ مَجْهُوْلٌ نَكِرَةٌ مُمْتَلِئاً كِبْراً وإعْجَاباً بِنَفْسِهِ وسُمْعَةً ، ورِيَاءً ، ولُؤماً وشُؤْماً وشَرَهاً فَهُوَ أشْبَهُ شَيْءٍ بالدُّخَانِ يَمْلأُ الفَضَاءَ ويَتُكُ صُدُوْرَ النّاسِ وأصْلُهُ مِن القُمَامَاتِ والأوْسَاخِ المُبَعْثَرَةِ نَسألُ اللّهَ أن يُقَلِّلَ هَذَا النوْعَ المُنْحَطَّ وأنْ يُكثِّرَ ضِدَّهُ مِنْ أهْلِ التَّواضُعِ واللِّيْنِ والعَطْفِ والحَنَانِ : قَالَ اللّه تعَالى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرة نَجْعَلُها لِلّذِينَ لاَ يُرِيْدُونَ عُلوا فِي الأرْضِ ولا فَسَاداً والعَاقِبَةُ لِلمتَّقِين﴾ : اللّهُمّ أنْظِمْنَا في سِلْكِ عِبادِكَ الأخْيار ونَجّنَا برحْمَتِكَ مِن عَذَابِ النّارِ وأسكنّا الجَنّة مع أولِيائِكَ الأبرَار واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيعِ المُسْلِمينْ يا أرْحَم الرّاحِمِين وصلّى الله على مُحَمّد وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجمَعِين .

(فَصْــلٌ)

ولِلْكِبْرِ آثارٌ تَظْهَرُ عَلَى الجَوارِحِ كُلِّهَا تَدُوْرُ حَوْلَ ذَلِكَ النَّظَر ، فَتَرى المُتَكَبِرَ إنْ سَمَحَ بِمَمْشَاهُ مَعَ النَاسِ يَكُونُ مُتَقَدِّماً عَليهم ،حَرِيصاً جِدًا أنْ يَكُونُوا كُلُهُم خَلْفَهُ ، وتَراهُ إن جَلَسَ مَعَهُم ورَضِيَ أنْ يكوُنُوا جُلَسَآءَهُ ، مُحْتَفِظاً بِصَدْرِ الْمَجْلِسِ مُسْتَقِلاً بِهِ ويَسُرُّهُ أنْ يُصْغُوْا إلى كَلامِهِ ، ويُؤْلِمُهُ كَلامُ غَيْـرِهِ وتَجِدُهُ يَنْتَظِرُ مِنَ الناسِ أنْ يَتَلقَوْا كَلَامِهِ بالقَبُوْلِ والتَّصْدِيْقِ .

ومِنْ آثارِ الكِبْرِ تَصْعِيْرُ الخَدِّ ، والنَّظَرُ شَزْراً ، واطْرَاقُ رَأْسِهِ ، وجُلُوسُهُ مُتَرَبِّعاً أَوْ مُتَكِئاً .

وتَظْهَرُ الكِبْرِ أَيْضاَ في أَقْوالِ المُتَكَبِرِ حَتَّى في صَوْتِهِ ونَغْمَتِهِ وَصِيْغَةِ كَلاَمِهِ في الإِيْرَادِ وقِيْلَ لإِحْمَقَ تَكَبَّرَ وقَامَ سَاخِطاً على اسْتَاذِهِ لِماذا قُمْتَ فقال دَخلْتُ ولم يَحْتَرِمْنِيْ وَجَلَسْتُ فلم يُكْرِمْنِي ولم يَدْرِ مَنْ أَنَا واسْتَشْهَدَ بقولِ الشاعِرِ

(وَلَوْ كَانَ ادْرَاكُ الهُدَى بِتَذَلُلٍ
رَأَيْتُ الهُدَى أَنْ لاَ أَمِيْلَ إِلى الهُدَى)

وَيَظْهَرُ أَيْضاً أَثَرُ الكِبْرِ في مَشْيِهِ وَتَبَخْتُرِهِ وَقِيَامِهِ وَجُلُوسِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَفِيْ تَعَاطِيْهِ لأَفْعَالِهِ ، وَفِيْ سَائِرِ تَقَلُّبَاتِهِ فِيْ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ .

وفي كِتَابِ الخُمُولِ والتَّوَاضُعِ لابنِ أَبي الدُنْيا عن أَبِي بَكْرٍ الهُذَلِي قال : بَيْنَمَا نَحنُ مَعَ الحَسَنِ ، اذْ مَرَّ عَلَيهِ ابنُ الأَهْتَمِ يُرِيْدُ المَنْصُورَ وعليهِ جُبَابُ خَزٍ ، قد نَضَدَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ على سَاقِهِ ، وانْفَرَجَ عَنْهَا قَبَاؤُهُ وهو يَمْشِيْ وَيَتَبَخْتَرُ، إِذْ نَظَرَ إِلَيْهِ الحَسَنُ نَظْرَةً فقال: أُفٍّ أُفٍّ، شَامِخٌ بِأَنْفِهِ ثَانِي عِطْفِهِ ، مُصَعِّرٌ خَدَّهُ ، يَنْظُرُ في عِطْفَيْهِ أَيُّ حَمِيْقٍ يَنْظُرُ في عِطْفَيْهِ في نِعَمٍ غَيْرَ مَشْكُوْرَةٍ ولا مَذْكُوْرَةٍ ، غَيْرَ المأخُوْذِ بأَمْرِ اللَّهِ فِيْهَا ، ولا المُؤَدِيْ حَقَّ اللَّهِ مِنها واللَّهِ أَنْ يَمْشِيْ أَحَدُهُمْ طَبِيْعَتَهُ يَتَلَجْلَجَ تَلَجْلُجَ المجنون في كل عضو منه نِعْمَةٌ وللشيطان بها لعنة ، فسمعه ابنُ الأَهْتَمِ ، فَرَجَعَ يَعْتَذِرُ إليهِ ، فقال لا تَعْتَذِرْ إِلَيَّ وَتُبْ إِلى رَبِّكَ ، أما سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ ولا تَمْشِي في الأرضِ مَرَحاً إنك لَنْ تَخرِقَ الأرضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُوْلاً ﴾ .

ورأى ابن عمر رجلا يخطر في مشيته فقال : إن للشياطين اخوانا .

ورُوِيَ عن عَلِي بن أَبِي طالبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ مَنْ أَرادَ أَنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ مِن أَهْلِ النارِ فلْيَنْظُرْ إلى رَجُلٍ قَاعِدٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ قَوْمٌ قِيَامٌ ، وقال أَنسٌ لم يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إليهِم مِن رسول اللَّهِ ﷺ وكانُوا إذا رَأَوْهُ لم يَقُومُوا لَهُ لِمَا يَعْلَمُونَ من كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ .

ومِنْ آثارِ الكِبْرِ أن المتكَبِّرَ يَحْرَصُ جِدًا عَلى أَنْ يَمْشِيْ مَعَهُ غَيْرُهُ ويكُونُ الماشِي مَعَهُ خَلْفَهُ ، وكانَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ لا يُعْرَفُ مِن بَيْنِ عَبِيْدِهِ إِذْ كانَ لا يَظْهَرُ في صُوْرَةٍ ظَاهِرةٍ ، وَمَشَى قَومٌ خَلْفَ الحَسَنِ البَصْرِيْ فَمَنَعَهُم ، وكان ﷺ في بَعْضِ الأوقاتِ يَمْشِي مَعَ بَعْضِ أَصْحَــابِهِ فَيَأْمُرُهُمْ بِالتَّقَدُمِ ويَمْشِي في غِمَارِهِم ، إمَّا لِتَعْلِيْمِ غَيْرِهِ أَوْ لِيَنْفِي عن نَفْسِهِ وسَاوِسَ الشيطانِ بالكِبْرِ والاعجابِ .

ومِنْ آثارِ الكِبْرِ أنْ يَسْتَنْكِفَ مِن جُلُوسِ غَيْرِهِ مَعَهُ بالقُرْبِ مِنْهُ إلَّا أنْ يَجْلِسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، والتَّوَاضُعُ خِلافُهُ ، ومِنَها أنْ لا يَتَعَاطَى شُغْلاً في بَيْتِهِ ، وقد كانَ النبيُّ ﷺ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ - في مِهْنَةِ أَهْلِهِ يَعْنِي خِدْمَتِهِم ، ومِن آثَارِ الكِبر أَنْ لَا يَحْمِلَ مَتَاعَهُ إِلى بَيْتِهِ ولَو كَانَ لَا يُثْقِلُهُ ، وَهُو خِلَافُ التَّواضِعُ ، فقدْ كانَ ﷺ يَفْعَلُ ذلِكَ ، وقال عليٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : لا يَنْقُصُ الرجلُ الكاملُ مِن كَمَالِهِ مَا حَمَلَ مِن شيءٍ إلى عِيَالِهِ ، وكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَحْمِلُ سَطْلاً لَهُ مِن خَشَبٍ إلى الحَمَامِ وهو أمِيْر .

وقال ثابتُ بنُ مالكٍ : رَأَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ أَقْبَلَ مِن السُّوْقِ يَحْمِلُ حُزْمَةَ حَطَبٍ وهو يَوْمَئِذٍ خَلِيْفَةً لِمَرْوَانَ ، فقال أَوْسِعْ الطرِيْقَ لِلأَمِيْرِ يا ابنَ مَالكٍ ،

وعن الأصْبغِ بنِ نُبَاتَةَ قال : كَأَنّي أنْظُرُ إلى عُمَرَ رضيَ اللّهُ عنه مُعَلِّقاً لَحْماً في يدِهِ اليُسْرَى وفي يَدِهِ اليُمْنَى الدُّرَّةُ يَدُوْرُ في الأسْواقِ حتى دَخَلَ رَحْلَهُ ، وقال بَعْضُهُم رأيتُ عَلياً رضيَ اللّهُ عنه قد اشْتَرى لَحْماً بِدِرْهَمٍ فَحَمَلَهُ في مِلْحَفَتِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ أَحْمِلُ عَنْكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، فقال لا ، أبُوْ العِيَالِ أَحَقُّ أنْ يَحْمِلَ .

ورُوِيَ أنَّ عُمَرَ بنَ عُبْدِ العَزِيز أتاهُ لَيْلَةً ضَيْفٌ وكان يَكْتُبُ فكادَ السِرَاجُ يَطْفَأُ ، فقالَ الضَّيْفُ : أقُومُ إلى المِصْبَاحِ فأُصْلِحُـهُ فقالَ : لَيْسَ مِن كَرَمِ الرَجُلِ أنْ يَسْتَخْدِمَ ضَيْفَهُ ، قال . أفَأُنَبِّهُ الغُلامَ ؟ فقالَ : هِيَ أوَّلُ نَوْمَةٍ نَامَهَا . فقامَ فأَخَذَ البَطَّةَ فَمَلأ المِصْبَاحَ زَيْتاً ، فقال الضَّيْفُ : قُمْتَ أنت بنَفْسِكَ يا أَمِيرَ المؤمنينَ ! فقال : ذَهَبْتُ وأنا عُمَرُ ورَجَعْتُ وأنا عُمُرُ ما نقصَ مِني شيءٌ وخَيْرُ الناسِ مَن كانَ عِندَ اللّهِ مُتَواضِعاً وَمِن آثارِ الكِبْرِ تطوْيْلُ الشَارِبِ الذِي يُسَمَّى شَنَبَاتٍ كأنَّها رِيْشُ الجَعْلِ اذا ابتَدأ بالطَّيرانِ أوْ نَزَلَ قَبْلَ أن يُدْخِلَه ، قال الله تعالى ﴿أفَمَنْ زُيّنَ لَهُ سوءُ عَمَلِهِ فرآهُ حَسَنا﴾ .

وكذَلك إمَالَةُ العِقَالِ إلى الجَبْهَةِ أوْ إلى جَانِبِ الرأسِ .

ومِن آثارِهِ إسْبَالُ الثِيَابِ والتَّفَاخُرُ بها .

وحُكِيَ أنَّ مُطَرِّفَ ابنَ عبدِ اللّهِ بنِ الشِّخِيْر نَظَر إلى المُهَلَّبِ بنِ أَبِي صُفْرَةَ وعَلَيهِ حُلَّةٌ يَسْحَبُهَا ويَمْشِيْ الخُيَلاءَ ، فقالَ مُطَرِّفُ لِلْمهلبِ يا عَبْدِ اللّهِ مَا هَذِهِ المِشْيَةُ التِي يُبْغِضُهَا اللّهُ وَرَسُولُهُ فقال المُهَلَّبُ : أَمَا تَعْرِفُنِي وَتَنْهَانِي مِمَّا رَأيْتَ فَقَالَ بَلْ اَعرِفُكَ أَوَّلُـكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ وآخِرُكَ جِيْفَةٌ قذِرَةُ وحَشْوُكَ فِيْمَا بَيْنَ ذلكَ بَولٌ وَعَذِرَةٌ ، قال بعضهم .

يـا مُظْهِـرَ الكِبْـرِ إعْجَـابـاً بصُـوْرَتِـهِ
أنْـظُرْ خَـلاكَ فـإنَّ النَّتْنَ تَثْـرِيْبُ

لـو فَكَّـرَ النـاسُ فِيْمَـا في بُطُونِهِم
مـا اسْتَشْعَرَ الكِبْـرَ شُبَّـانُ ولا شِيْبُ

هَلْ في ابْنِ آدمَ مِثْلَ الرَّأْسِ مَكْرُمَةً
بـأرْبَعٍ هُـو في الأقْـدْارِ مَضْـرُوْبُ

أنْفٌ يَسِيْـلُ وأُذْنٌ رِيْحُـهَـا سَهِـكٌ
والعَيْنُ مُـرْفَضَّـةٌ والثَّغْـرُ مَلْعُـوْبُ

يا ابن التُرابِ ومأكُـولَ التُرَابِ غَـداً
اقْصُـرْ فـإنَّـكَ مَـأْكُـوْلٌ ومَشْـرُوْبُ

ومِن آثارِهِ جَعْلُ خَاتَم ذَهَبٍ أَوْ سَاعَةٍ فيها ذَهَبٌ . ومِن آثارِ الكِبْرِ جَعْلُ الكَبَكَاتِ في أكَمامَ الثِّيَابِ ، وقالَ زَيْدُ بنُ وَهْبٍ : رَأَيْتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضيَ اللَّهُ عنه خَرَجَ إلى السُوْقِ ، وَبِيَدِهِ الدُرَّةُ ، وعَلَيهِ ازارَهُ فيهِ أرْبَعَ عَشْرَةَ رِقْعَةً بَعْضُهَا مِنْ جِلْدٍ وَعُوْتِبَ عَلِيٌ كرمَ اللَّهُ وَجْهَهُ في إزُارٍ مَرْقُوْعٍ ، فَقالَ يَقْتَدِي بِهِ المؤمِنُ وَيَخْشَعُ لَهُ القَلْبُ . أَيْنَ هَؤُلآءِ مِن أَهْلِ زَمَانِنَا المُظْلِم .

ومِنْ آثارِ الكِبْرِ الأكْلُ أو الشُرْبُ باليَسَارِ وهو خِلافَ السُنَّةِ والعَقِلِ والأدبَ .

فإنَّ اليَسَارَ لِمَا يُسْتَكْرَهُ كَالاسْتِجْمَارِ والاسْتِنْجَاءِ والتَّمَخُّطِ وإخْرَاجِ ما فِي الأنْفِ . أوْ فِي الجُرُوْحِ مِن صَدِيْدٍ وَغسلِ الأوَسَاخِ والنجَاسَاتِ ، أَوْ لِمَا يَحْرُمُ وَيَسْتَقذَرُ كالدُّخَانِ والخَمْرِ ، واليُمْنَى على العَكْسِ لِلأَكِلِ والشَرَابِ والتَّسَوُّكِ والتَّطيُبِ ، وتَقْدِيمِهَا لِلسَّلامِ ولِلْمُنَاوَلَةِ ونَحْوِ ذلكَ مِمَّا هُوَ لائِقٌ بها .

وقد يَصِلُ الكِبْرُ ومِثْلُهُ العُجْبُ ـ بِصَاحِبِهِ إلى أَنْ يُوْرِدَهُ مَوَارِدَ الكُفْرِ برب العالَمِين ، كَمَا حَصَلَ لِلْمُتَكَبِرِ ينَ على اللّهِ ورُسُلِهِ ، فَمِنَ ذَلكَ ما رُوِيَ أَنَّ رَجُلاً كان جَالِساً في طَرِيقٍ فَمَرَّتْ بِهِ امْرأةٌ فَقَالَتْ : يَا عَبْدَ اللّهِ كَيْفَ الطَّرْيْقُ ؟ فَقَالَ يَا هَنَّاةُ أَمْثِلِيْ يَكُونُ مِنْ عَبيدِ اللّهِ ؟ وَخَطَبَ رَجُلٌ آخَرُ في الناسِ ، فلمَّا انْتَهَى مِن خُطْبَتِهِ قَالَ لَهُ بَعْضُ الناسِ . أَكْثَرَ اللّهُ مِن أَمْثالِكَ فقال لَهُمْ : لَقَدْ كَلَفْتُمْ للّه شَطَطَا . أَيْ أَمْراً بَعِيْداً ومُشِقاً نَعُوذُ باللّهِ تعالى مِن حَالِهِ . وحَالَةِ أَمْثَالِهِ قَلَّلهُمُ اللّهُ في المسلمين .

وآخرُ أُضَلَّ رَاحِلَتَهُ فالتَمَسَهَا فلَمْ يَجِدْهَا فَقَالَ إنْ لَمْ يَرُدَّ اللّهُ إليَّ رَاحَلِتِي لا صَلَيْتُ لَهْ صَلاةً أبَدَاً ، فالتَمَسَهَا الناسُ فَوَجَدُوْهَا ، فقالُوا لَهُ : قَدْ رَدَّ اللّهُ عَلَيْكَ رَاحِلَتَكَ فَصَلِّ ، فَقَالَ إن يَمْينِي يَمِيْنُ مُصِرٍّ ، كَأَنَّهُ يُهَدِّدُ اللّهَ ، نَعُوذُ باللّهِ مِن ذَلِكَ وآخرُ دخلَ مَسْجِدَ البَصْرَةِ فَبَسَطَ ناسٌ لَهُ أَرْدِيَتَهُمْ تَعْظِيْمَـاً لَهُ ، فَمَشَى عَلَيَها وقَال لِرَجُلٍ يُمَاشِيْهِ : (لِمثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُون) اقْتَبَاساً مِن آيةِ الصَّافاتِ ، إلى هذا الحَدِّ يَصِلُ الكِبْرُ بأهلِهِ قال ابن القيم رحمه الله :

وسَـلِ العياذَ مِن التَّكبـرُ والهَـوَى
فَـهُـمَـا لِـكُـلِ الشَّـرِ جَـامِـعَـتَـانِ
وهُمَـا يَصُدَانِ الفَتَى عن كُـلِ طُرْ
قِ الـخَيْـرِ اذْ فـي قَلْبِـهِ يَـلِجَـانِ
فَـتَـراهُ يَـمْـنَـعُـهُ هَـوَاهُ تَـارَةً
والـكِبْـرُ أُخْـرَى ثُـمَّ يَجْـتَـمِـعَـانِ
والـلّهِ مـا فِـي الـنـارِ إلَّا تَـابِـعٌ
هَـذَيْن فـاسْـأَلْ سَـاكِنِي النِيْـرَانِ

ونَصِيْبُ المُتَكبِّرْ مِن الناسِ أن يَزْدَرُوْهُ ويحتَقِرُوْهُ ويَمتهِنُوْهُ وَيَمْقُتُوْهُ ، ويَعْمَلُوا خِلافَ مَا يَفْهَمُونَ أنه يُحِبُّهُ مِنهُم حَتَّى يَدَعُوْهُ يَغْلِي مِن مُعَامَلَتِهِم غَيْظاً وحِقْداً ، ولوَ أَمْكَنَ الناسُ أنْ يَجْعَلُوا المتكبِرَ دَائِماً في غُمُومٍ وهُمُومٍ لَمَا تَأَخَّرُوْا عِن ذلكَ ، فالناسُ لَهُمْ كَرَامَةٌ يَفْعَلُونَ بمَنْ يَكْرَهُوْنَهُ مِن أَجْلِ أَنَّه يَحْتَقِرُهُمُ ويَمْتَهِنُ كَرَامَتَهُم ويَرى نَفْسَهُ فَوْقَهُم فَهُم يُدْرِكُونَ أنَّه لَئِيْمٌ لا يَتَوضَع إلا اذا أَهَنْتَهُ ولا يَعْرِفُ نَفْسَهُ إلا إِذَا احْتَقَرْتَهُ وَعامَلْتَهُ مِثْلَ مُعَامَلَتِهِ وأنَّه يُنطَبِقُ عليه قولُ الشاعر .

فِي النَّاسِ مَنْ لا يُرْتَجَى نَفْعُهُ
إلا إذَا مُسَّ بِأَضْرَارِ
كَالعُودِ لا تَطْمَعُ فِي رِيْحِهِ
إلَّا إذا أُحْرِقَ بالنارِ

وقول الآخر

أهِنْ عَامِراً تَكْرُمْ عَليهِ وإنَّمَا
أخُو عَامِرٍ مَن مَسَّهُ بهَوَانِ

وأَمَّا نَصِيْبُ المُتَكَبِرِ من اللَّهِ فَكَمَا سَمِعْتَ مِن الآياتِ الكريمةِ ، والأحادِيث الشريفةِ التي إذا سَمِعَهَا المتواضِعُ المُوَفَّقُ فَتَّشَ على نَفْسِهِ خَشْيَةَ أنْ يَكُونَ قد دَخَلَ عَليهِ الكِبْرُ وهو غَافِلٌ عنه .

عَجِبْتُ لِما تَتوقُ النفْسُ جَهْلاً
إليه وقَدْ تَصَرَّمَ لانْبِتَاتِ

وعِصْيَـانِي العَـذُوْل وَقَـد دَعَـانِي
إلى رُشْـدِي ومـا فِيـهِ نَجَـاتِـيْ
أُؤَمِّـلُ أَنْ أعِـيْش وكـلُ يَـوْمٍ
بسَمْعِيْ رَنَّـةٌ مِـن مُعْـوِلاتِـي
وأَيْـدِي الحَـافِـرِيْنَ تَكِـلُّ مِمَّـا
تُسَـوِّيْ مِن مَسَـاكِنَ مُـوْحِشَـاتِ
نُـرَاعُ إذَا الـجَنَـائِـزُ قَـابَـلَتْنَـا
ونَسْكُـنُ حِيْنَ تَـخْفَـي ذَاهِبَـاتِ
كَـرَوْعَـةِ ثُـلَّةٍ لِـظُهُـورِ ذِئْـبٍ
فَـلمَّـا غَـابَ عَـادَتْ رَاتِـعَـاتِ
فَـإنْ أَمَّـلْتَ أنْ تَـبْقَـى فَسَـائِـلْ
بِـمَـا أَفْنَـي القُـرُوْنَ الـخَـالِيَـاتِ
فَكَم مِن ذِي مَصَـانِع قَـدْ بَنَـاهَـا
وشَيَّـدَهَـا قَلِيْـلُ الخَـوْفِ عَـاتِي
قَـلِيـلُ الـهَـمِّ ذِيْ بَـالٍ رَخِـيٍ
أَصَّمَ عن النَّصَـائـحِ والـعِـظَاتِ
فَـبَـاتَ ومـا يُـرَوَّعُ مِـن زَوَالٍ
صَحِيْحـاً ثُمَّ أَصْبَـحَ ذَا شِكَـاتِ
فَبَـاكَـرهُ الـطَّبِيْـبُ فَـرِيْـعَ لَمَّـا
رَآهُ لا يُـجِـيْـبُ إلـى الـدُّعَـاةِ
فَـلَوْ أنَّ الـمُـفَـرِّطَ وهْـوَ حَـيٌّ
تَـوخَّى البَـاقِيَـاتِ الصَّـالِـحَـاتِ

لَـفَـازَ بَـغِـبْـطَةٍ وَأَصَـابَ حَـظَّاً
ولـم يَـغْشَ الأُمُـورَ الـمُـوبِقَـاتِ
فَيَـالَـكِ عِنَـدَهَـا عِـظَةً لِـحَـيٍ
ويَـا لَـكِ مِـن قُلُوبٍ قَـاسِيَـاتِ
وكُـلُ أَخِـيْ ثَـرَاءٍ سَـوْفَ يُمْسِي
عَـدِيـمـاً والجَـمِيْـعُ إلـى شَتَـاتِ
كـأَنْ لَـمْ يُلْفَ شَـيْءٌ مـا تَقَـضَّى
ولَـيْسَ بفَـائِـتٍ مَـا سَـوْفَ يَـأْتِيْ

اللهم إنا نَعُوذُ بكَ مِن سوءِ القضاءِ وشماتَةِ الأعداءِ ، وعُضَالِ الدَّاءِ ، وخَيْبَةِ الرجاءِ وزوالِ النعمةِ وفَجْأَةِ النِقمةِ ، ونسألك أن تغفرَ لنا ولوالدينا ، ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فُصل

ولِلْكِبْرِ علاجٌ قد ذَكَرهُ العُلَمَاءُ أولاً أن يَعْرفَ الانسانُ رَبَّـهُ ويَعْرِفَ نفسَهُ ، فإنَّهُ إذا عَرَفَ رَبَّهُ حَقَّ المَعْرِفَةِ عَلِمَ أنه لا تَلِيْقُ العظَمةُ والكِبْرِيَاءُ إلاّ باللَّهِ ، وإذا عَرَفَ نَفْسَهُ عَلِمَ أنه ضَعِيْفٌ ذَلِيْلٌ لا يَلِيْقُ به إلاَ الخُضَوعُ لِلَّهِ والتواضعُ والذِلةُ ، قال اللَّهُ تعالى ﴿قتل الانسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره﴾ .

وقال تعالى ﴿هل أتى على الانسانُ حينَ من الدهر لم يكن شيئاً

مذكُوراً﴾ ففي الآياتِ الاشارةُ إلى خَلْقِ الانسانِ وإلى آخِرِ أَمْرِهِ وإلىٰ وَسَطِهِ ، أما أَوَّلُهُ فهو أنه لم يَكنْ شيئاً مَـذكُـوراً وقدَ كانَ في حَيِّزِ العَدَمِ دُهُوْراً ، ثم خَلَقَهُ العَزِيزُ الحَكِيم مِن تُرابٍ ثم مِن نطفةٍ ثُم مِن علقَةٍ ثم مِن مُضْغَةٍ ثم جَعَلَهُ عِظَامَاً ثم كَسَا العظامَ لحَماً ، فقد كان هذا بدايةُ وُجُودِهِ أولاً جَماداً لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُحِسُّ ولا يَتَحَرَّكُ ولا يَنْطقُ ولا يَبْطِشُ ولا يُدْرِكُ ولا يَعْلَمُ ، كذا خَلَقَهُ اللَّهُ .

ثم امْتَنَّ عليهِ فقال﴿ثم السبيل يسره﴾أَيْ بَيَّنَهُ وَأَوْضَحَهُ وَسَهَّلَهُ ، كما في قوله تعالى ﴿انا هديناه السبيل﴾ فالله جل وعلا هو الذي أحيا الانسانَ بعدَ أن كانَ جَمَاداً مَيتاً ، تُراباً أولاً ونطفة ثانياً ، وأَسْمَعَهُ بَعدَ أن كان أصَمَّ وبَصَّرَهُ بعدَ ما كان فاقدَ البَصَرِ ، وقَوَّاهُ بعدَ الضَعْفِ ، وعَلَّمَهُ بعدَ الجَهْلِ ، كَمَا قال تعالى ﴿واللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُون أُمَهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وجَعَلَ لَكُمْ السَّمَعَ والأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَكُمْ تُشْكَرُون﴾ .

فَمَنْ كان هَذَا أَولُهُ ، وهَذِهِ أَحْوَالُهُ، فَمِنْ أَيْنَ لَهُ البَطَرُ والأَشَرُ والكِبْرِيَاءُ والخُيَلاءُ ؟ وهو الضَّعِيْفُ الحَقِيْرُ بالنسبةِ إلى قدرةِ البارِيء جلَّ وعَلاَ كما قال تعالى ﴿ألم نخلقكم مِن ماء مهين﴾ وقال ﴿كلا انا خلقناهم مما يعلمون﴾ وقال ﴿فلينظر الانسانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِن ماءٍ دافِقٍ﴾ فَلْيَتَأَمَلِ العَاقِلُ هَلْ يَلِيْقُ الكِبْرُ بِمَنْ هذا أَوَّلُهُ ، وآخِرُهُ أَنَّه يُسْلَبُ رُوحُه وسَمْعُه وبَصَرُهُ وعِلْمُهُ وقُدْرَتُه وحِسُّهُ وادْرَاكَهُ وحَرَكَتُهُ وجَمَالُهُ وجَمِيْعُ أَحْوالِهِ ، فَيَعُودَ كما كانَ أولاً جَماداً ، لا يَبْقى إلاَّ شَكْلُ أعضائِهِ وصُوْرَتِهِ فيه ولا حَرَكَةَ ، ثم يُوضَعُ في هذا التُرابِ فَيَصيرُ جِيْفَةً مُنْتِنَاً ، كما كانَ في الأَوَّلِ نُطْفَةً مَذِرَةً ، تَبْلَى أَعضَاؤُهُ وَتَتَفَتتُ أَجْزَاؤُهُ ، وتَنْخُرُ عِظَامُهُ وَيَصِيْرُ رَمِيْماً رُفَاتاً ويأكُلُ الدُوْدُ أَجْزَاءَه ،

ويكونُ جِيْفَةً يَهْرَبُ مِنه كُلُّ حيَوَانٍ ويَسْتَقْذِرُهُ الانسانُ ، وأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ أَنْ يَعُودَ تُراباً كَمَا كانَ ، ثُمَّ يُحْيِيْهِ الذي خَلَقَهُ أولَ مَرَّةٍ فَيُقَاسِي البَلاَءَ والشَّدائِدَ وأهوالَ المُزْعِجَاتِ ، فَيَخْرُجُ مِن قَبْرِهِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالى بقوله ﴿يومَ يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون﴾ فَيَنْظُر إلى قِيَامَةٍ قَائِمَةٍ ، وسَمَاءٍ مُنْفَرِجَةٍ مُشَقَّقَةٍ ، وأرضٍ مُبَدَّلَةٍ ، وجِبَالٍ مُسَيَّرَةٍ ، ونُجُوم مُنْكَدِرَةٍ ، وشَمْسٍ مُنْكَسِفَةٍ ، وأَحْوَالٍ مُظْلِمَةٍ ومَلائِكَةٍ غِلاظٍ شِدَادٍ ، وَجَهَنَّمَ تَزْفُرُ قال تعالى ﴿وجِيءَ يومئذٍ بجنهم ، يومئذ يتذكر الانسانُ وأنَّى له الذِكْرَى﴾ يَنْظُر إليهَا المجرمُ فَيَتَحَسَّرُ ، وَيَرى صَحَائِفَ مَنْشُوْرَةً ، فَيُقَالُ ﴿اقرأ كتابَك﴾ فِيْهِ جَمِيْعُ عَمَلِهِ مِن أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ . ﴿يُنَبَأ الانسانُ يومَئذٍ بما قَدَّمَ وأخَّر﴾ قال تعالى ﴿فَمَنْ يعمل مثقال ذَرَةٍ خيراً يرهُ ، ومَنْ يعمل مِثقالَ ذَرةٍ شراً يره﴾ وقال ﴿وان عـليـكـم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون﴾

فَمَا لمِنْ هَذا حَالُهُ ومَالَهُ والتَّكَبُّرُ والتَّعَاظُمُ والتَّجبُّرُ ، بلْ مَالَهُ ولِلْفَرحِ في لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَضْلاً عن الأشَرِ والبَطَرِ ، قالى ﷺ : « لو تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم ، لضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكَيْتُمْ كَثِيْراً ولمَا تلَذَذْتُم بالنِسَاءِ على الفُرُشِ » فَهَذَا مِن أَحْسَنِ الطُرُقِ لَتَذْلِيْلِ النَّفْسِ وَحَمْلِهَا عَلَى الخُضُوعِ والتَّواضُعِ لِلَّهِ الذي له الكِبْرِيَآءُ في السَمواتِ والأرضِ وهو العزيز الحكيم .

وأما العِلاجُ الثاني فَهُوَ التَّواضُعُ لِلَّهِ بالفِعْلِ ولِسَائِرِ الخَلْقِ بالمُواظَبَةِ على أَخْلاقِ المُتَواضِعِيْنَ المُتبِعِيْنَ لِطَرِيْقَةِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ ومِن جُمْلَتِهَا مَا فِيْهَا مِن التَّوَاضُعِ بالمُثُوْلِ قائِماً وبالرُكُوعِ والسُجُودِ « إنما أنا عَبْدٌ آكلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ » وَقَدْ ذَكرنَا نَمُوذَجاً مِن تَوَاضُعِهِ صلى الله عليه وسلم في فَصْلِ التَّواضُعِ مَنْ أَحَبَّ الزِيَادَةَ فَيَرْجِعُ إليه قَالَ بَعْضُ مَن رَضِيَ بالكفافِ وَقَنَّعَهُ

اللهُ بِمَا آتَاهُ وَمَنَّ عَلَيْهِ بالتَّواضُعِ .

أَيَا لائِمِي مَالِي سِوَى البَيْتِ مَوْضِعُ
أرَى فِيـه عِـزاً إنَّـهُ لِيَ أَنْفَـعُ
فِـرَاشِي ونَـطْعِي فَـرْوَتِي فَـرَجِيتي
لِحَـافِي وَأَكْلِيْ مَـا يَسُـدُ ويُشْبِـعُ
وَمَـرْكُوْبِـيَ الآنَ الأَتَـانُ ونَجْلُهَـا
لأَخَـلاقِ أَهْلِ الـدِيْنِ والعِلْمِ أَتْبَعُ
وقَـدْ يَسَـر اللَّهُ الـكَـريمُ بَـفَضْـلِهِ
غِنَى النَّفْسِ مَـعْ شَيءٍ بـهِ أَتَقَنَّـعُ
أُوفِـرُهُ لِـلأَهْـلِ خَـوفـاً يَـرَاهُم
عَـدُوٌ بِـعَـيْشٍ ضَـيِّقٌ فَـيُشَـنِّـعُ
وأَصْبِـرُ في نَفْسِي عَلَى ما يَنُـوْبُنِي
وأَطْلُبُ عَفْـوَ اللَّهِ فـالعَفْـوُ أَوْسَـعُ
ومـا دُمْتُ أَرْضَى بـاليَسِيْـرِ فـإنَّني
غَنِيٌّ لِغَيـرِ اللَّهِ مَـا كُنْتُ أَخْضَـعُ
ورَبِيَ قَـد آتَـانِي الصَّبْـرَ والغِنَـى
عن الناسِ في هذا لِيَ العِزُ أَجْمَعُ
وقـد مَرَّ مِن عُمْـري ثَلاثٌ أُعُـدُّهَـا
وسِتُونَ في رَوْضٍ مِن اللُّطْفِ أَرْتَعُ
وَوَجْـهِيَ مِـن ذُلِّ التَّـبَـذُلِ مُقْـفِـرٌ
مُقِـلٌّ ومِن عِـزِّ القَنـاعَـة مُـوْسَـعُ

ومِنْ حُسْنِ ظَنِّي أَنَّ ذَا يَسْتَمِـرُ لِي
إلى المَـوتِ إنَّ اللَّهَ يُعْطِي ويَمْنَعُ
وإنِّيَ لآ أَلْجَـا إلَـى غيـرِ بَـابِـه
فـأَبْقى كَمَا قَـد قِيْلَ والقَـولُ يُسْمَعُ
نُـرقِّـعُ دُنْيَـانَـا بتَـمْـزِيْقِ دِيْـنِنَـا
فـلا دِيْنُنَـا يَبْقَى ولا مَـا نُـرَقِـعُ
فَـطُـوبَـى لِعَبـدٍ آثَـرَ الـلَّهَ رَبَّـهُ
وجـادَ بـدُنْـيَـاهُ لِـمَـا يُـتَـوقَّـعُ

ولا يَتِمُ التَّواضُعُ بَعْدَ المَعْرِفَةِ إلَّا بالعَمَلِ ، ولِذَلِكَ أُمِرَ العَرَبُ الذينَ تَكَبَّرُوْا على اللَّهِ ورسولِهِ بالايمانِ وبالصلاةِ جميعا ، وقِيْلَ الصَّلاةُ عِمَادُ الدِينِ ، وفي الصلاةِ أسرارٌ لأَجْلِهَا كانَتْ عِمَادَ الدِيْنِ ، ومِن جُمْلَتِهَا ما فِيْهَا مِن التَّواضُعِ بالمُثُولِ قائماً وبالرُكُوعِ والسُجُودِ ، قال حكيمُ بنُ حِزَامٍ : بايَعْتُ النبيَّ ﷺ على أن لآ أخِرَّ إلا قائماً ، فبايَعَهُ ﷺ ثم فَقُهَ وكَمُلَ إيمانُهُ بعد ذلكَ ، فَلَمَّا كانَ السُجُودُ عِندَهُمْ هُوَ مُنْتَهَى الذِلَّةِ والضَّعَةِ أُمِرُوْا بِهِ لِتَنْكَسِرَ بِذَلِكَ خُيلآؤُهُم ، ويَزُوْلَ كِبْرُهُم ، ويَسْتَقِرَّ التَوَاضُعُ في قلُوبِهم ، وبه أمِرَ سَائِرُ الخَلْقِ ، فإنَّ الرُكُوعَ والسُجودَ والمُثُولَ قائما هُوَ الذي يَقْتَضِيْهِ التَّواضُعُ فكذِلكَ مَنْ عَرفَ نَفْسَهُ ، فَيَنْظُرُ كُلَّ ما يَتَقاضَاهُ الكِبْرُ مِن الأفعالِ فَلْيُوَاظِبْ على نَقِيْضِهِ ، حَتَّى يَصِيْرَ التواضعُ لَهُ خُلُقا ، فإنَّ القُلُوبَ لَا تَتَخَلَّقُ بالأخلاقِ المَحْمُوْدَةِ إلا بالعِلْمِ والعَمَلِ .

ومَنْ كانَ يَعْتَرِيْه الكبْرُ مِن جِهَة النَّسبِ ، فَلْيُدَاوِ قَلْبَهُ بأمْرَيْن أولاً : أنْ هَذا جَهْلٌ مِن حَيْثُ أَنَّهُ تَقَوِّى وَتعزُّزٍ بِكمَالِ غَيْرِهِ وانَّما يَحْصُلُ لَهُ بكَمَالِهِ هو

قال الشاعِر :

لَعَمْـرُكَ مـا الإنْسَـانُ الا ابنُ يَـومِـهِ
عَلَى مـا تَجَلَّى يَومُـهِ لا ابنُ أَمْسِـهِ
ومـا الفَخْرُ بـالعَظْمِ الـرَّمِيْمِ وَإنَّمَـا
فِخَـارُ الـذي يَبْغِي الفِخَـارَ بِنَفْسِـهِ

وقال آخر فِيْمَنْ افْتَخَرَ بآبائه ذَوِي الشرَفِ مَعَ رداءَتِهِ في نَفْسِهِ :

لَئِنْ فَخَـرْتَ بـآبـاءٍ ذَوِي شَـرَفٍ
لقَـدْ صَدَقْتَ ولَكِنْ بِئْسَ مَـا وَلَـدُوا

آخر :

إذا المرء لَم تَسْتَأنِفْ المَجْـدَ نَفْسُه
فـلا خَيـرَ في مَـا أَوْرَثَتْـهُ جُـدُوْدُهُ

آخـر

وَمَـا يُجْـدِي افْتِخَارُكَ بـالأَوَالِي
إذَا لَـم تَفْـتَخِـرْ فَـخْـراً جَـدِيْـداً

الثاني أَنْ يَعْرِفَ نَسَبَهُ الحَقِيْقِيْ ، فَيَعْرِفَ أبَاهُ وجَدَّهُ فإن أَبَاهُ القَرِيْبَ نُطْفَةٌ قَذِرَةٌ ، وَجَدَّهُ البَعِيْدَ تُرَابٌ ذَلِيْلٌ ، وقَدْ عَرَّفَهُ اللَّهُ تعالى نَسَبَهُ فقال جَلَّ وَعَلاَ . ﴿الذي أَحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ وبدأ خَلْقَ الانسانِ من طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ من ماءٍ مُهِيْن﴾ فَمِنْ أَصْلُهُ التُرابُ الْمَهِيْنُ الذى يُدَاسُ بالأقدام ثُمَّ خُمِّرَ طِيْنَهُ حَتَّى صَارَ حَمَأً مَسْنُوناً كَيْفَ يَتَكَبَّرُ ؟ .

اللهم احمنا واعصمنا مِن الكبر والرِياء والرِبا والحسد وسائرِ الأخلاقِ الدنِيْئةِ ، ووفقنا للعمل بِطَاعَتَكَ واغفر لَنَا ولوالدينا ولجميع المُسلمين ، بِرحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فُصل)

وإنْ كَانَ التَّكَبُر بالجَمَالِ فَدَوَاؤُهُ أَنْ يَنْظُر إلى بَاطِنَهُ نَظَرَ العُقَلاءِ ، ولا يَنْظُر إلى الظَّاهِرِ نَظَرَ البَهائِم ، ومَهْمَا نَظَرَ إلى باطِنِهِ رَأَى مِن القَبَائِح ما يُكَدِّرُ عَلَيهِ تعَزُزَهُ بالجَمَالِ ، فإنَّ الأقْذَارَ في جَمِيْعِ أجْزَائِهِ ، فالرجِيْعُ في أَمْعَائِهِ ، والبَوْلُ في مَثَانَتِهِ والمُخَاطُ في أنفِهِ ، والبُزَاق في فَمِهِ ، والوَسَخُ في أُذنَيْهِ ، والدَّمُ في عُرُوْقِهِ ، والصَّدِيْدُ تَحْتَ بشَرَتِهِ والصُّنَانُ تَحْتَ إبْطِهِ ، يَغْسِلُ الغَائِط بِيَدِهِ كُلَّ يَوم مَرَّتَيْن أو ثلاثا لِيُخْرِجَ مِن باطِنِهِ ما لَوْ عَايَنَهُ لَاسْتَقْذَرَهُ ، فضْلاً عَنْ أنْ يَمَسَّهُ أو يَشُمَّهُ ، فَهَلْ يَلِيْقُ بِمَنْ هَذِهِ حَالُهُ الكِبْرُ والتَّعَاظُمُ . كَلَّا مَا يَلِيْقُ بِهِ إلا التَّواضُعُ لِلَّذِي أوْجَدَهُ .

وفي أَوَّلِ أَمْرِهِ خُلِقَ مِن النُّطْفَةِ وفي بَطْنِ أُمِّهِ يَتَغَذَّى بِدَمِ الحَيضِ ، وأُخْرِجَ مِن مَجْرَى البَوْلِ مَرَّتَيْنِ ، قال طَاوُوْسُ لِعُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ ـ قَبْلَ تَوَلِّيهِ الخِلافَةَ وَزُهْدِهِ في الدُّنْيَا ـ ما هَذِهِ مِشْيَةُ مَنْ في بَطْنِهِ خِرَاءٌ ، إذْ رَآهُ يَتَبَخْتَرُ ، فإذا نَظَرَ إلى أنَّهُ خُلِقَ مِن مَاءٍ مَهِيْنٍ ، وأسْكِنَ في أَقْذَارٍ ، وسَيَمُوتُ فَيَصِيْرُ جِيْفَةً لم يَفْتَخِرْ بَجَمَالِهِ الذي هُوَ كَخَضْرَاءِ الدِّمَنِ ، كَيْفَ وَلَوْ كَانَ جَمَالُهُ بَاقِياً ، وجِسْمُه عن هذه الأشيآءِ خَالِياً ، لَكَانَ يَجِبُ عليهِ أنْ لا يَتَكَبَّرَ ، وَيَعْلَمَ أنَّ هذَا عُرْضَةٌ لِلزَّوالِ بِمَرضٍ أَوْ حَرقٍ أَوْ قَرْحَةٍ أَوْ بَرَصٍ أَوْ تَشْوِيْهٍ ، فَمَعْرِفَةُ هَذا تماماً تَنْزِعُ بإذنِ اللَّهِ مِن القَلْبِ دَاءَ الكِبْرِ والعُجْبِ لِمَنِ أَكْثَرَ تَأَمُّلَهَا .

وإنْ كَانْ التكبر بالقوةِ فالعلاج أنْ يعلم أنَّ القُوةَ لِلَّهِ جَمِيْعًا وَيَعْلَمَ ما سُلِّطَ عَلَيْهِ مَن العِلَلِ والأَمْراضِ ، وأنَّهُ لَوْ أَصَابَهُ عُوْدٌ يَسِيْرٌ وَدَخَلَ في لَحْمِهِ لأَقْلَقَ رَاحَتَهُ ، وَأَقَضَّ مَضْجَعَهُ ولو وَجِعَ أُصْبُعٌ أو عِرْقٌ من عُرُوْقِ بَدَنِهِ لَتَألَّمَ وَصَارَ أَعْجَزَ مِنْ كُلِّ عَاجِزٍ ، وَأَذَلَّ مِنْ كُلِّ ذَلِيْلٍ ، وَأَنَّ البَعُوضَةَ والجُرْثُوْمَةَ الدَّقِيْقَةَ إذا سُلِّطَتْ عَليهِ أَهْلَكَتْهُ وَإنّ حُمَّى سَاعَةٍ تُحَلِّلُ مِن بَدَنِهِ ما لا يَنْجَبِرُ بالمُدَةِ الكَثِيْرَةِ ، قال الشاعر :

ولا تَمْشِيْ فَوْقَ الأَرْضِ إلَّا تَوَاضُعاً
فكَمْ تَحْتَهَا قَومٌ هُمُو مِنْكَ أَرْفَعُ
وإنْ كُنْتَ في عِزٍّ رَفِيعٍ وَمِنْعَةٍ
فكم مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُوا مِنْكَ أَمْنَعُ

فَمَنْ كَانَ هَذِهِ حَالُـهُ فَلَا يَلِيْقُ بِهِ الكِبْرُ ، ثُمَّ مِن البَهَائِمِ مَا هُوَ أَقْوَى بِكَثِيْرٍ مِنْهُ ، وَأَيُّ افْتِخَارٍ وَتَعَاظُمٍ في صِفَةٍ يَسْبِقُهُ فِيهَا الحِمَارُ . والبَغْلُ والثَّوْرُ والفِيْلُ .

وإنْ كَانَ التَّكَبُرُ بالمَالِ فبأنْ يَعْرِفَ وَيَعْلَمَ أَنَّهُ عَرَضٌ زَائِلٌ ، وفي مَعْنَاهُ التَّكَبُّرُ بكَثْرَةِ الأَتْبَاعِ والأَنْصارِ ، ويُقَالُ لَهَا كَثْرَةُ الشَّعْبِيَةِ ، وكَذلكَ التَّكَبُرُ بولَايَةِ السَّلاطِيْنِ والأُمَرَاءِ ، وَكُلُ ذَلِكَ تَكَبُّرٌ بأمْرٍ خَارِجي أَيْ خارِجٌ عن ذَاتِ الانسانِ ، وهَذَا أَقْبَحُ أنواعِ الكِبْرِ ، فإنَّ المُتَكَبِّرَ بمالِهِ أَوْ عَقَارِهِ لَوْ ذَهَبَ مَالُهُ أو انْهَدَمَ عَقَارُهُ أَوْ تَلِفَ لَعَادَ في لَحْظَةٍ ذَلِيْلاً مِن أَذَلِّ الخَلْقِ وَكُلُ مُتَكبر بأمْرٍ خَارِجٍ عَنْ ذَاتِهِ مِن أَجْهَلِ الخَلْقِ ، كَيْفَ والمُتَكَبِرُ بالمالِ لَوْ تَأمل لَرأى في اليَهُودِ والنَّصَارَى وَغيرِهِم مِن الكَفَرَةِ مَنْ يَزِيدُ عليهِ في المالِ والتَّجمُلِ والثَّروَةِ ، فأفٍّ لِشَرَفٍ يَسْبِقُكَ بهِ يَهُوْدِيٌ وَنَحْوُهُ ، ويأخُذُهُ سَارِقٌ أَوْ نَحْوُه في لَحْظَـةٍ ،

فَيَعُوْدُ صَاحِبُه ذلِيْلاًحَقِيْرا مُفْلِسَا .

وإن كان الكِبْرُ بالعِلْمِ ـ وهو أعْظَمُ الآفاتِ ، وأَغْلَبُ الأدْوَاءِ وأبْعَدُهَا عن قَبْولِ العِلاجِ إلا بشِدَّةٍ شَدِيْدَةٍ ، وذَلِكَ لأنَّ العِلْمَ عَظِيْمٌ عندَ الناسِ ، وهو أعَظَمُ مِن قَدْرِ المالِ والجَاهِ ، ولِذَلِكَ قالَ عُمَرُ رضيَ اللَّهُ عنه : العَالِمُ إذا زَلَّ زَلَّ بزَلَّتِهِ عَالَمٌ فَيَعْجزُ العَالِمُ أنْ لا يَسْتَعْظِمَ نَفْسَه بالإِضَافَةِ إلى الجَاهِلِ ـ، لِكَثْرَةِ ما نَطَقَ بِهِ الشَّرْعُ مِن فَضَائِلِ العِلْمِ وأَهْلِهِ ـ فلا بُدَّ لِلْعَالِمِ من مَعْرِفَةِ أمْرَيْن أَحَدُهُمَا أنْ يَعْلَمَ أنَّ حُجَّة اللَّهِ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ آكَدُ ، وأَنَّهُ يُحْتَمَلُ مِنْ الجَاهِلِ ما لا يُحْتَمَلُ مِن العَالِمِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يعلمون والذين لا يعلمون﴾ فإِنَّ مَنْ عَصَى اللَّهَ عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ أَعْظَمُ جِنَايَةً مِمَّنْ عَصَى اللَّهَ على جَهْلٍ ، لإِنَّ العَالِمَ لم يَقْضِ حَقَّ نِعْمَةِ اللَّهِ عليهِ ولِذلكَ قال النبيُ ﷺ : « يُجَاءُ بالرَّجلِ يومَ القِيَامَةِ فَيُلْقَي في النارِ فتَنْدَلِقَ أَقْتَابُهُ فيَدُوْرُ بِهَا كَمَا يَدُوْرُ الحِمَارُ في الرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أهْلُ النارِ ، فَيَقُولُونَ يا فُلَانُ مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بالمَعْرُوْفِ وَتَنْهَى عن المُنْكَرِ فيقولُ بَلَى كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوْفِ وَلَا آتِيْهِ ، وَأَنْهَى عن المُنْكَرِ وآتِيْهِ » رواه البخاري ومسلم . فإذا تَفَكَّرَ فِيْمَا أَمَامَهُ مِن الخَطَرِ العَظِيْمِ وَعَلِمَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصالحُ الصحابةُ فَمَنْ بَعْدَهم مِن التَّواضعِ والخَوْفِ مِمَّا أَمَامَهُم مِن الأهْوَالِ والكُرُبَاتِ والشَّدَائِدِ ، امْتَنَعَ بِإِذْنِ اللهِ مِن الكِبْرِ ، فَقَدْ كَانَ بَعْضُ الصحابَةِ يَقُولُ : لَيْتَنِي لَمْ تَلِدْنِي أُمِّي ، وَيَقُولُ الآخرُ لَيْتَنِي شَجَرةٌ تُعْضَدُ وَيَأْخُذُ الآخر تِبْنَةً وَيقولُ : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ هَذِهِ التِّبْنَةَ ، وَيَقُولُ الآخَرَ : لَيْتَنِي كُنْتُ طَيْراً أُوْكَلُ ، وَيَقُولُ الآخَرُ : لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً .

الثاني أنَّ العَالِمَ يَعْرِفُ أَنَّ الكِبْرَ لا يَلِيْقُ إلَّا باللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهو السميعُ البَصِيْرُ﴾ وأنَّهُ إذا تَكَبَّرَ صَارَ مَمْقُوتاً عِنْدَ اللَّهِ بَغِيْضَا ، وقد أحبَّ اللَّهُ منه أَنْ يَتَواضَعَ ، وأَنْ يُفَكِّرَ في خَطَرِ الخَاتِمَةِ ، فَكَمْ مِن إِنْسَانٍ مُزْدَرى مُحْتَقَرٌ لِكُفْرِهِ أَوْ فِسْقِهِ فَتَحَ اللَّهُ عليه بابَ التوبةِ والانابةِ ، فأقبلَ على اللَّهِ فَسَعِدَ بذلكَ وشُهِدَ له بالجنةِ كَعُمَرَ رضي اللَّهُ عنه ، وبالعكس فكَمْ مِن انسانٍ عَمِلَ بعَمَلِ أهلِ الجنةِ زَمَناً طويلاً وفي آخِرِ الأَمْرِ عَمِلَ بعَمَلِ أهلِ النارِ فَيَدْخُلُهَا كَثَعْلَبَةَ وبِلْعَامَ ونَحوهِمَا مِمَّنْ ارتَدَّ عن الاسلامِ وفي حَدِيثِ ابنِ مَسعودٍ قولُه ﷺ : « ان أَحَدَكم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهلِ الجنةِ حَتَّى ما يكونُ بينهُ وبينَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عليه الكَتابُ فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهل النارِ فَيَدْخُلها ، وإن أَحَدَكُمْ ليَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ النارِ حتى ما يَكونُ بينَهُ وبينَهَا إلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عليه الكتَابُ فيَعْملُ بعَمَلِ أهلِ الجنةِ فَيَدْخُلُهَا » متفق عليه .

فَمهْمَا بَلَغَ المَرءُ مِن العِلْمِ والتُقى والوَرَعِ والزُهْدِ فَهُوَ في خَطَرٍ مِن سُوءِ الخَاتِمَةِ التِي عليها المَدارُ ، فبِمُلَاحَظَتِهَا يَتَلاشَى الكِبْرُ بِإِذْنِ اللهِ .

ومِن أَضَرِّ مَا عَلَى كَثِيرٍ من عُلَمَاءِ هَذَا الزمانِ الشَّهَادَاتُ الحَالِيَّةُ التِي يُسَمُّونَهَا دُكْتُوراه وماجِسْتِيْر وعَالمِيَّةِ وبَكَالِرْيُوس ونحو ذلك لأَنَّ مَنْ حَصَلَ عَلَيها رَأى مَنْ لم يَحْصُلْ عليهَا بعَينِ الاحتقارِ والامْتِهانِ والازْدِراءِ وَمَعَ ذلكَ فهِيَ عندَ بَعضِهِمْ مُضْعَفَةٌ لِلتَّوكُلِ على اللَّهِ مِن قِبَلِ الرِزْقِ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ ما يَجْرِيْ على أَلْسِنَةِ كَثيْرٍ مِنهُم بقَوْلِهِم لِمَنْ لم يَحْصُلْ عليها أَمِّنْ حَيَاتَكَ أَحْصُلْ على شَهادَةٍ . وَنَسُوْا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأَرْضِ إلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وقوله ﴿ وَمَنْ يَتَوكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُه ﴾ وقوله ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوكَّلُوا إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِين﴾. وكَثِيرٌ مِن أولَئكَ أَهْمَلُوا التَّوكُلَ عَلَى اللهِ وتَوكَّلُوا على الشَّهَادَةِ الْمَذْكُورةِ.

شعرا :

أَتَــطلبُ رزقَ الـلَّهِ مِـن عِـنـدِ غَـيْـرِهِ
وَتُـصْبِـحُ مِـن خَـوْفِ العَـوَاقِـبِ آمِـنَـا
وتَــرْضَى بِصَــرَّافٍ وإِنْ كَـانَ مُشْـرِكـاً
ضَمِيْنـاً ولا تَـرْضَى بِـرَبِـكَ ضَـامِنَـا
كَـأَنَّــك لَـمْ تَقْـرَأْ بِمَـا فِي كِتَـابِـهِ
فَـأَصْبَحْـتَ مَنْحُـولَ اليَقِيْـنِ مُبَـايِـنَـا

يُشِيْرُ إِلى قَولِ اللَّهِ تعالى ﴿وَمَا مِن دَابَةٍ في الأرضِ إلا على اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وقوله ﴿إِنَّ اللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ﴾ .

وَمَنْ أَمْعَنَ نَظَرَهُ في الناسِ وسَبَرَهُم وَجَدَ ذلكَ بِكَثْرَةٍ ، وَوَجَدَ عِنْدَهُم مِن الطغيانِ والأُبَّهَةِ والكِبْرِ الشيءِ الكثيرِ ، يَظْهَرُ ذَلِكَ على ألسِنَتِهِم وهَيْئَآتِهِم نسأل اللَّه العصمة لنا ولاخواننا المسلمين .

بـاتُوا على قُلَلِ الأجْبَـالِ تَحْرِسُهُمْ
غُلْبُ الـرِجَـالِ فَلَمْ تَنْفَعْهُم القُلَلُ
واسْتُنْـزِلُـوا بَعْـدَ عِـزٍ عن مَعَـاقِلِهِم
إلى مَقَـابِـرِهِمْ يا بِئْسَ مَـا نَـزَلُـوْا
نَـادَاهُم صَـارِخٌ مِن بَعْـدِمَا دُفِنُـوا
أيْـنَ الأَسِــرَّةُ والتِيْـجَـانُ والـحُـلَلُ
أيْنَ الـوُجُـوهُ التِيْ كَـانَتْ مُحَجَّبَـةً
مِنْ دُوْنِها تُضْـرِبُ الأَسْتَـارُ والكِلَلُ

فـأَفْصَـحَ القَبْـرُ عَنْهُم حِيْنَ سَـاءلَهُم
تِلْكَ الـوُجُـوهُ عَلَيـهـا الـدُوْدُ يَقْتَتِـلُ
قَـدْ طَالمَـا أكَلُوا فِيهَـا ومـا شَـرِبُـوا
فأصْبَحُوا بَعدَ طُولِ الأُكلِ قَدْ أُكِلُوا
وطَـالَمـا كَنَـزُوا الأَمْـوَالَ وادَّخَـروا
فَخَلَّفُـوهَـا عَلَى الأَعْـدْاءِ وارْتَحَلُوْا
وطَـالَمـا شَيَّـدُوا دُوْراً لِتُحْـصِنَـهُمْ
فَفَـارُقُـوْا الـدُوْرَ والأهْلِيْنَ وانْتَقَلُوا
أَضْحَتْ مَسَـاكِنُهُم وَحْشـاً مُعَـطَّلَةً
وسَاكنُوهَـا إِلى الأَجْدَاثِ قَـدْ رَحَلُوا
سَـلِ الخَلِيْـفَـةَ إِذْ وَافَتْ مَـنِيَّتُـهُ
أَيْنَ الجُنُـودُ وأَيْنَ الخَيْـلُ والخَـوَلُ
أَيْنَ الكُنُـوزُ الَّتِي كـانَتْ مَفَـاتِحُهـا
تَنُوءُ بـالعُصْبَـةِ المُقْـوِيْنَ لَـوْ حَمَلُوْا
أَيْنَ العَبِيـدُ الَّتِي أَرْصَـدْتَهُمْ عُـدَداً
أَيْنَ الحَـديـدُ وأَينَ البِيْضُ والأَسَـلُ
أَيْنَ الفَـوارسُ والغِلْمَـانُ مـا صَنَعُـوا
أَيْنَ الصَـوارِمُ والخِطِّيَـةُ الـذُبُـلُ
أَيْنَ الكمُـاةُ أَلَمْ يَكْفُـوا خَلِيْفَتَهُـم
لمَّـا رَأوهُ صَـرِيْعـاً وَهْـوَ يَبْتَهِـلُ
أَيْنَ الكُمَاةُ الَّتِي ماجُوا لِمَا غَضِبُوا
أَيْنَ الحُمَاةُ الَّتِي تُحْمَى بِهَا الـدُوَلُ

أينَ الـرماةُ أَلَمْ تَمْنَـعْ بـأَسْهُمِهِمْ
لَمَّا أَتَتْكَ سِهَامُ الْمَـوْتِ تَنْتَصِـلُ
هَيْهَـاتَ ما كَشَفُوا ضَيْماً ولا دَفَعُوا
عَنْكَ المَنِيَّةَ إِذْ وَافَى بِكَ الأَجَلُ
ولا الـرُّشَى دَفَعَتْهَا عَنْكَ لَو بَذَلُوا
ولا الـرُّقَى نَفَعَتْ فِيهَا ولَا الحِيَـلُ
ما سَاعَدُوكَ ولا وَاسَاكَ أَقْـرَبُهُم
بَلْ سَلَّمُوكَ لَهَا يا قُبْحَ ما فَعَلُوْا
مَا بَالُ قَبـرِكَ لا يَأتِي بـه أَحَدٌ
وَلَا يَـدُوْرُ بِـهِ مِن بَيْـنِهِم رجُـلُ
مـا بَال ذِكْـرِكَ مَنْسِياً ومُـطَّرَحـاً
وَكُلُهُمْ بـاقْتِسَامِ الْمَـالِ قَـدْ شُغِلُوْا
ما بَالُ قَصْرِكَ وَحْشاً لا أَنِيْسَ بـه
يَغْشَاكَ مِن كَنَفيـهِ الـرَوْعُ والـوَهَـلُ
لا تُنْكِـرَنَّ فَمَـا دامَتْ عـلى مَلِكٍ
إلاَّ أَنَـاخَ عليـه المـوتُ والـوَجَـلُ
وكَيْفَ يَـرجُـو دَوَامَ العَيْشِ مُتَّصِـلاً
وَرُوْحُـه بِحِبـالِ المـوتِ مُتَّصِـلُ
وجِسْمُـهُ لِبُنَيَّـاتِ الـرَّدَى غَـرَضٌ
ومَـالُـه زَائِـلٌ عَـنْـهُ ومُـنْـتَـقِـلُ

اللهم امْنُنْ علينا باصلاحِ عُيوبِنا واجعل التَّقْوَى زادَنا وفي دِيْنِكَ

اجْتهادَنا وعليكَ توكلنا واعتمادُنا اللهم ثَبِتْنَا على نَهْجِ الاستقامة واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

« فصل في الغضب والتحذير منه »

إعْلَمْ وَفَّقَنا اللّهُ وإيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِينَ وَجَنَّبنَا وإيَّاكَ وإيَّاهُم كُلَّ خُلُقٍ رَذِيْلٍ أنَّ مِمَّا يَتَأكّدُ اجْتِنَابُهُ فِي رَمَضَانَ وفي غَيْرِهِ الغضَبُ إلاّ أنْ تَنْتَهكَ مَحارِمَ اللّهِ فَيَغْضَبُ لِمَا يُغْضِبُ اللّهَ وَيَمْلِكُ نَفْسَهُ فِيْمَا عَدَا ذَلِكَ إلا أنْ يُبْغِى عَلَيْهِ وتَعْرِيْفُ الغضَبِ أنَّهُ قُوّةٌ أَوْدَعَهَا اللّهُ فِي الإنْسَانِ تَثُوْرُ مِن بَاطِنِهِ فَتَحْمِلُهُ على الدِّفَاعِ عَمَّا يُحِبُّهُ مِن الأغْرَاضِ وتَدْفَعُهُ إلى البَطْشِ بِكُلِّ ما يُؤْذِيْهِ فإذا اعْتَدَى عَلَيْهِ مُعْتدٍ أوْ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أغْرَاضِهِ تَثُوْرُ تِلْكَ القُوَّةُ فَيَغْلي دَمُهُ وَيَنتَشِرُ في العُرُوْقِ ويَرْتَفِعُ إلى أعَالِي البَدَنِ فَيَظْهَرُ أثرُهُ عَلَى ظَاهِرِ الوَجْهِ والعَيْنَيْنِ .

والغَضَبُ مِن مَدَاخِلِ الشّيْطانِ إلى قَلْبِ الإنْسانِ فإنَّ الغَضَبَ غُولُ العَقْلِ وإذا ضَعُفَ جُنْدُ العَقْلِ هَجَمَ جُنْدُ الشَّيْطانِ وَمَهْمَا غَضِبَ الإنْسانُ لَعِبَ الشّيْطانُ بِهِ كَمَا يَلْعَبُ الصِّبْيانُ بالكُرَة .

وَلِلْغَضَبِ ثَلاثُ دَرَجاتٍ أَوّلاً درَجَةُ الاعْتِدَالِ وذَلِكَ بأنْ يَغْضَبَ لِيَدْفَعَ عَنْ دِيْنِهِ أوْ نَفْسِهِ أوْ مَالِهِ أَوْ يَغْضَبَ لِيُدَافِعَ عَنْ الحُقُوقِ العَامَّةِ ونُصْرَةِ المَظْلُومِيْنَ وَتِلْكَ الحَالَةُ هِيَ الّتِي مِن أَجْلِهَا خَلَقَ اللّهُ الغَضَبَ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لِحِكْمَةٍ وَلوْلاَ أَنَّ اللّهَ جَعَلَ ذَلِكَ فِي الإنْسَانِ لَفَسَدَتْ الأرْض بانْتِشَارِ الفَوْضَى وتَقْوِيْضَ دَعَائِمِ النُّظُمِ الإجْتِمَاعِيَّةِ وَالدِّيْنِيَّةِ لِأنَّ مَن لا يَغْضَبُ لعِرْضِهِ لا يَغارُ لِنِسَائِهِ فَتَخْتَلِطُ الأنسَابُ وتَعُمُّ الفَوْضَى في ذَلِكَ البَابِ ويُصْبِحُ الإنْسَانُ

كَالحَيَوانَاتِ الّتِي يَسْطُو بَعْضُها على بَعْض بِدُوْنِ غَيْرَةٍ ولا حَميَّةٍ وَلا مَعْرِفَةٍ لِمَا يَتَرتَّبَ عَلى ذَلِكَ مِن التَّناسُلِ الّذِي بِهِ حَيَاةُ النَّوْعِ الانسانِي وَبقاءُ العُمْرَانِ إِلى الأجَلِ الّذِي قَدَّرَهُ اللّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ الوُجُوْدِ .

ومَنْ لا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ فإِنَّهُ يَكونُ مُعَرَّضاً لِلزَّوالِ مِنْ هَذَا الوُجُودِ أَوْ مُعَرَّضاً لِأَنْ يُسَخِّرَهُ غَيْرُهُ كَمَا تُسَخَّرُ الدَّوَابُ الّتِي لا تَغْضَبُ لِنَفْسِهَا .

وَمَنْ لا يَغْضَبُ لِمالِهِ فَإِنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْلُبَهُ النّاسُ مِنْهُ ويُصْبِحُ فَقِيْراً مُعْدِماً وَإِذا فَشَى سَلْبُ المَالِ فَإِنَّ نِظَامَ العَمَلِ يَتعَطَّلُ وتَبْطُلُ الأعْمَالُ التِّجَارِيَّةُ والصِّنَاعِيَّةُ والزِّرَاعِيَّةُ ويَعْتَمِدُ النّاسُ عَلى سَلْبِ بَعْضِهِمْ بَعْضَا .

ومَنْ لَا يَغْضَبُ لِدِيْنِهِ فَإِنَّهُ في الغَالِبِ لَا يَسْتَقِرُّ عَلَى دِيْنٍ لِأَنَّ اخْتِلافَ طَبَائِعِ النّاسِ واخْتِلافَ أَنْظَارِهِمْ مِنْ أَكْبَرِ البَواعِثِ على اخْتِلافِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ فَمَنْ لا يَغَارُ عَلى دِيْنِهِ يَكُونُ عُرْضَةً لِتَقْلِيْدِ القَوِيّ في كُلِّ مَا يَرَاهُ فَيَنْتَقِلُ مِنْ دِيْنٍ إِلى دِيْنٍ .

وهَكَذا فَخلق الله الغَضَبَ لِيَحْمِي النّاسَ بعضهُمْ بعضاً فَيَسْتَقِرُّ النِّظَامُ ويَقِفُ كُلُّ واحِدٍ عِنْدَ الحَدِّ الّذِي قَدَّرَ اللّهُ لَهُ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ قَال الله تعالى ﴿وَلوْلَا دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ ببعْضٍ لَفسدتْ الأرض ولكن الله ذُو فَضْل على العَالَمِين﴾ . وقال تعالى ﴿وَلَوْلا دَفْعُ الله النَّاسَ بعضَهم ببعض لهدمت صوامِعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكُر فيها اسم الله كثيراً﴾ .

ولِلْغَضَبِ أَسْبَابٌ كَثِيْرَةٌ تَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ أَحْوَالِ النَّاسِ وطَبَائِعِهِمْ واسْتِعْدَادِهِمْ لِلتَّأثُّرِ بالأشْيَاءِ فَنَذْكُرُ طَرَفاً مِنها لِيَجْتَنِبها الإِنسانُ ، فمِنْهَا الجِدَالُ والمَزْحُ والسُّخْرِيَّةُ بالنّاسِ نَعُوْذُ بِاللّهِ والاسْتِهْزَاءُ بِهِمْ واطلاقُ اللّسانِ في

السَّبِ واللَّعْنِ والغَيْبَةِ وَمِن ذَلِكَ الكِبْرُ والعُجبُ لِأَنَّ المُتَكَبِّرَ المُعْجَبَ بِنفسِهِ يَتَأثَّرُ كُلَّمَا فَاتَهُ مَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُنَافِي عَظَمَتَهُ وخُيلاءَهُ فإذا طَالَبَهُ أَحَدٌ بِحَقٍّ اهْتَاجَ غَضَبُهُ وهَكَذَا إِذَا نُهِيَ عَنْ رَذِيْلَةٍ لِأَنَّهُ مِنَ سَخَافَةِ عَقْلِهِ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ كَامِلٌ مِن كُلِّ وَجْهٍ فَلا يَصِحُّ لأحَدٍ عِنْدَهُ أنْ يَأْمُرَهُ أَوْ يَنْهَاهُ أَوْ يَقِفُ فِي سَبِيْلِهِ أَوْ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الوَاقِعِ نَاقِصٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَيُحَاوِلُ أَنْ يَجْبُرَ نَقْصَهُ بِكِبْرِيائِهِ وعَظَمَتِهِ وهُوَ مَغْرُوْر .

ومـن جـهـلَتْ نَـفْـسُـه قَـدْرَهُ
رَأَىٰ غَـيْـرُهُ مِـنْـهُ مـا لا يَـرَى

ومِنْ أسبَابِ الغضَبِ مُصَاحَبَةُ الأشْرَارِ الّذين لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ المَمْدُوحِ وَالمَذْمُوْمِ مِنَ الغَضَبِ فَيَحْسَبُونَ التَّهَوُّرَ والطَّيْشَ شَجَاعَةً وَيَعُدُّوْنَ طُغْيَانَ الغَضَبِ المُوجِبِ لِلْظُّلْمِ رُجُوْلَةً وَيَتَبَجَّحُوْنَ بِذَلِكَ فَيَقُولُ الواحِدُ مِنْهُمْ : أَنَا الّذي لا أصْبِرُ عَلَى مَكْرُوْهٍ ، وَلَا عَلَى مَكْرٍ وَلا أَحْتَمِلُ مِن أحَدٍ أمْراً وَمَعْنَاهُ حَقِيْقَةً لَا عَقْلَ فِيَّ وَلا حِلْمَ يُذْكَرُ فِي مَعْرَضِ الفَخْرِ بِالجَهْلِ فإذا سَمِعَهُ الجَاهِلُ رَسَخَ فِي ذُهْنِهِ حُسْنُ الغضَبِ وَحبَّ التَّشَبُّهَ بِالقَوْمِ فيَقْوَى بِهِ الغَضَبُ ، وَمَهْمَا اشْتَدَّتْ نَارُ الغضَبِ وَقَوِيَ اضْطِرَامُهَا أَعْمَتْ صَاحِبَهَا وأَصْمَتْهُ عن كُلِّ مَوْعِظَةٍ فإذا وُعِظَ لَمْ يَسْمَعْ بَلْ زَادَهُ ذَلِكَ غَضباً وإذا اسْتَنَارَ بِنُوْرِ عَقْلِهِ وَرَاجَعَ نَفْسَهُ لَمْ يَقْدِرْ إِذْ يَنْطَفِىءُ نُوْرُ العَقْلِ وَيَنْمَحِيْ فِي الحَالِ بِدُخَانِ الغَضَبِ والعِيَاذُ باللّهِ .

فإنَّ مَعْدَنَ الفِكْرِ الدِّماغُ وَيَتَصَاعَدُ عِنْدَ شِدَّةِ الغَضَبِ مِن غَلَيَانِ دَمِ القَلْبِ دُخانٌ مُظْلِمٌ إلى الدِّمَاغِ يَسْتَوْلِي عَلَى مَعَادِنِ الفِكْرِ وَرُبَّمَا يَتَعَدَّى إلى مَعَادِنِ الحِسِّ فَتُظْلِمُ عيْنُهُ وَتَسْوَدُّ عَلَيْهِ الدُّنْيا وَيكُونُ دِمَاغُهُ عَلى مِثَالِ كَهْفٍ اضْطَرَمَتْ فِيهِ النَّارُ فاسْوَدَّ جوُه وحَمِيَ مُسْتقَرُّهُ وامْتَلأتْ بالدُّخانِ جوانِبُهُ وَكَانَ

فِيهِ سِرَاجٌ فانْمَحَى أو انطفأ فلا تَثْبُتُ فِيهِ قَدَمٌ وَلا يُسْمَعُ فِيْهِ كَلامٌ وَلا يُرى فِيهِ صُوْرَةٌ وَلا يُقْدَرُ على إطْفَائِهِ لا مِن دَاخِلٍ وَلا مِنْ خَارِجٍ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُصْبَرَ إِلَى أَنْ يَحْتَرِقَ جَمِيْعُ مَا يَقبَلُ الاحْتِرَاقَ فكذَلِكَ يَفْعَلُ الغضَبُ في القَلْبِ والدِّمَاغِ ، وَرُبَّما تقْوى نَارُ الغضَبِ فتُفْنِي الرُّطُوبَةَ الّتِي فِيها حَيَاةُ القَلْبِ فَيَمُوْتُ صَاحِبُهُ غَيْظاً كَما تَقْوَى النّارُ في الغَارِ فيتفكَّكُ وَتَهدَّمُ أعالِيْهِ عَلَى أَسْفَلِهِ وذَلِكَ لِأَبْطَالِ النّارِ مَا فِي جوانِبِهِ مِن القُوَّةِ المُمْسِكَةِ الجَامِعَةِ لأجْزائِهِ فهكذا حَالُ القَلْبِ عِنْدَ الغضَبِ نسألُ اللّهَ العَافِيَةَ والسَّلامَةَ .

وبِالحَقِيْقَةِ فَالسَّفِيْنَةُ في مُتَلاطِمِ الأمْوَاجِ عِنْد اضْطِرَابِ الرِّيَاحِ في لُجَّةِ البَحْرِ أَحْسَنُ حَالاً وأَرْجَى سَلامَةً مِنَ النَّفْسِ المُضْطَرِبَةِ غَيْظاً إِذْ فِي السَّفِيْنَةِ مَنْ يَحْتَالُ وَيَتَسبَّبُ لِتَسْكِيْنِهَا وَتَدْبِيْرِها وَيَنْظُرُ لَهَا وَيَسُوْسُهَا بإِذْنِ اللّهِ وأَمَّا القَلْبُ فَهُوَ صَاحِبُ السَّفِيْنَةِ وَقَدْ سَقطَتْ حِيْلَتُهُ إِذْ أَعْمَاهُ الغضَبُ وأَصَمَّهُ إِنْتهى .

ومِنْ أَسْبَابِ الغَضَبِ فَوَاتُ اللَّذاتِ والشَّهواتِ مِن مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ وَمَسْكَنٍ ونحوِ ذَلِكَ لكِنْ إنْ كَانَتْ هَذِهِ الأشْياءُ مَمْلُوكَةٌ لَهُ وحِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فإِن كَانَ بِدُوْنِ مُبَرِّرٍ شَرْعِي فَلَهُ أَنْ يَغْضَبَ حَتَّى يَسْترِدَّهُ وَيَكُونُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ لَيْسَ مَذْمُوْماً ثُمَّ إِنْ كَانَ الّذي فَاتَهُ ضَرُوْرِياً لَهُ كَانَ الغضَبُ وَاجباً مِنْ أجْلِهِ وانْ كَانَ كَمَالِياً كانَ الغَضَبُ مِنْ أَجْلِهِ جَائِزاً وإِن كَانَ حَرَاماً عَلَيْهِ أَوْ غَيرَ مَمْلُوكٍ لَهُ كَانَ الغَضَبُ مَذْمُوْماً .

ومِنْ أَسْبَابِ الغَضَبِ الوِشَايَاتُ والنَّمَائِمُ فَمِنَ النّاسِ مَنْ يَغْضَبُ لِمُجَرَّدِ وِشَايَةٍ نُقِلَتْ إِلَيْهِ عنْ بَعْضِ النّاسِ أَوْ لِمُجَرَّدِ نَمِيْمَةٍ بَلَغَتْهُ مِن نَمَّام بِدُوْنِ أَنْ يَتَثَبَّتَ في الأمْرِ فَيَعْتَدِي عَلى الأبْرِياءِ بِإِزَالَتِهِمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ ، أَوْ نَقْلِهِمْ عَنْهَا إِلى مَحَلاَّتٍ لا يَرْغَبُوْنَهَا ، أَوْ يَتَسَبَّبُ لِقَطْعِ مَا هُوَ مَاشٍ لَهُمْ مِنْ

أرْزَاقٍ أَوْ يُؤْذِيهِمْ فِي أَبْدَانِهِمْ أَوْ يَقْدَحُ فِي أَعْرَاضِهِمْ أَوْ يُنَشِّزْ الزَّوْجَةَ أَوْ بالعَكْسِ بأنْ يُنَشِّزِ الزَّوْجَ إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِن الجَرَائِمِ الّتي تَتَرَتَّبُ على الغضَبِ وَرُبَّمَا كَانَتِ الكَلِمَةُ الّتِي نُقِلَتْ إِلَيْهِ عَلى فَرْضِ صُدُوْرِهَا لا تُسَاوِيْ شَيْئاً مِنْ غَضَبِهِ ، وَذَلِكَ شَرُّ مَا يَتَرَتّبُ عَلَى الغَضَبِ مِنَ الظُّلْمِ فعَلَى مَنْ كَانَتْ نَفْسُهُ تَتَأَثَّرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ أنْ يُعَالِجَهَا بِالتَّثَبُّتِ حَتَّى إِذا تأَكَّدَ مِنْ صِدْقِ مَا نُقِلَ إِلَيْهِ كَانَ لَهُ الحَقُّ في أَنْ يَدْفَعَ عَن نَفْسِهِ بِقَدْرِ مَا أصَابَهُ بِدُوْنِ بَغْيٍ وَلاَ عُدْوَانٍ والعَفْوُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالَةِ أفْضَلُ خُصُوصاً إِذا أَنْكَرَ المَنْقُولُ عَنْهُ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ فإِنَّ الإنكارَ اعْتِذَارٌ يَسْتَوجِبُ الرَّأفَةَ والرَّحْمَةَ وبِالتّالي فَمَنْ نَظَرَ الدُّنْيا بِعَيْنِ البَصِيْرَةِ والاعْتِبَارِ هَانَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ وسَامَحَ أخَاهُ المُسْلِمَ وقَبِلَ مَيْسُوْرَ عُذْرِهِ وَاحْتَسَبَ الأَجْرَ عِنْدَ اللّهِ والله لا يُضَيّعْ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً .

شعرا :

سَكَنْتُكَ يَا دَارَ الفَنَاءِ مُصَدِّقَا
بأَنِّيْ إِلَى دَارِ البَقَاءِ أصِيْرُ
وأعْظَمُ مَا فِي الأَمْرِ أنّي صَائِرٌ
إِلى عَادِلٍ فِي الحُكْمِ لَيْسَ يَجُوْرُ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَلْقَاهُ عِنْدَهَا
وَزَادِي قَلِيْلٌ والذُّنُوبُ كَثِيْرُ
فَإِنْ أكُ مَجْزِياً بِذَنْبي فإِنَّني
بِشَرِّ عِقَابِ المُذْنِبِيْنَ جَدِيْرُ
وَإِنْ يَكُ عَفْوٌ ثَمَّ عَنّي وَرَحْمَةٌ
فَثَمَّ نَعِيْمٌ دَائِمٌ وَسُرُوْرُ

اللّهُمّ جُدْ عَلينا بكرَمِك ، وأفض علينا مِن نِعَمِك ، وتغمّدنا بِرحمَتِكَ وعامِلْنا بِرأفتِكَ وَوفّقْنا لخدمَتِك واغْفِر لَنا ولِوالِديْنا ولِجيمعِ المُسلِمين ، بِرحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمين ، وصلّى الله على محمّد وعلى آلــهِ وصحبهِ أجمَعِين .

(فصــل)

ومِنْ أَسْبَابِ الغَضَبِ المُشَاحَّةُ فِي البَيْعِ والشِّرَاءِ فَيَغْضَبُ الوَاحِد إذا لَمْ تَكُنِ السَّوْمَةُ تُنَاسِبُ القِيمَةَ أَوْ سَاوَمَهُ وَلم يَشْتَرِ أَوْ لَمْ يُقْرِضْهُ أَوْ لَمْ يُعِنْهُ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ والغَضَبُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَحْوَالِ حَماقَةٌ لا مُبَرِّرَ لَهَا لأَنّهُ مَا دَامَ لَمْ يَعْتَدِ عَلى حَقِّهِ فَلَيْسَ لَهُ أنْ يَغْضَبَ وَعَلَيْهِ أنْ يَعْتَدِلَ فِي بَيْعِهِ وَشِرائِهِ ، وأنْ يُمَرِّنَ نَفْسَهُ على احْتِمَالِ مَا يَقَعُ عَادَةً عِنْدَ البَيْعِ وَالشِّرَاءِ مِن النِّزَاعِ وأنْ يُمَرِّنَ نَفْسَهُ دَائِماً على التَّواضُعِ ويُذَكِّرَها بِعَظَمَةِ اللّهِ ويُفَهِّمَهَا بِأنّهُ ضَعِيفٌ مَخْلُوقٌ مِنْ مَاءٍ مَهِيْنٍ ، وأنّهُ صَائِرٌ إلى الفَنَاءِ ، وأنّهُ سَيَكُونُ عِظاماً بَالِيَة يُوطأ بِالأقدامِ كَمَا قِيْلَ :

يُــدَفِـنُ بَعْـضُنَــا بَـعْضــاً وتَـمْشِي
أَوَاخِــرُنَــا عــلـى هَــامِ الأَوَالــي

وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ فَلا يَلِيْقُ بِهِ التَّكَبُّرُ فَيَحْقِرُ خَلْقَ اللّهِ وَيَطْغَى عَلَيْهِمْ الّذِينَ رُبَّمَا رَفَعَهُمْ اللّهُ عَلَيْهِ قَال بعضُهم .

لا تَـحْقِــرنَّ أبَـيْتَ الـلَّعْنِ ذَا أَدَبٍ
فَكَمْ وَضِـيْـعٍ مِن الأَقْوَامِ قَـدْ رَئِسَا

فَـرُبَّ قَـوْمٍ حَقَـرْنَـاهُمْ فَلَم نَـرَهُمْ
أَهْـلاً لِخِـدْمَتِنَـا كَـانُـوا لَنَـا رُؤَسَـا

فإذَا نَزَعَتْ نَفْسُهُ إلى التَّواضُعِ فَإنَّهُ لا يَتَألَّمُ لِتِلْكَ الاعْتِبَارَاتِ الّتي يَتَألّمُ مِنْهَا المُتَكَبِّرُوْنَ وبِهذا بإذنِ اللّهِ يَدْفَعُ عن نَفْسِهِ سُرْعَةَ الغَضَبِ إلى أنْ تَقِلَّ حِدَّتُهَا وَتَذْهَبَ ثَوْرَتُهَا وَهذا أهَمُّ مَا تُعَالَجَ بِه أنْفُسُ المُسْتَعِدِّيْنَ بِفِطْرَتِهِمْ لِلْغَضَبِ وأمَّا مَنْ كَانَتْ سُرْعَةُ غَضَبِهِ لَيستْ طَبِيْعَةً لَهُ وَلَكِنَّهَا اكْتُسِبَتْ بالعَادَةِ والمُخَالَطَةِ فإنَّهُ يُعَالَجُ بأُمُوْرٍ أوّلاً اجْتِنَابُ مُصَاحَبَةُ الأشْرَارِ والبُعْدِ عنْهُمْ ، ثَانِياً اجْتِنَابُ الأسْبَابِ المُثِيْرَةِ لِلْغَضَبِ آنِفاً ثَالِثاً تَعْلِيْمُهُ أنَّهُ لَيْسَ لِلإنْسَانِ أنْ يَغْضبَ إلَّا مِنْ أجْلِ دِيْنِهِ أوْ نَفْسِهِ أو عِرْضِهِ أوْ مَالِهِ وَمَا زَادَ عَلَى هَذَا فَهُوَ رَذِيْلَةٌ مَذْمُومَةٌ يَجِبُ عَلى العَاقِلِ أنْ يَتَنَبَّهَ لَهَا وَلا يَذَرَهَا تَتَسَلَّطُ عَليْهِ فَتَضِيْعَ سُلْطَةُ العَقْلِ ويُصْبِحُ الإنْسَانُ عُرْضَةً لِلْهَلاَكِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ وحَسْبُكَ في ذَمِّ الغَضَبِ أن النّبيّ ﷺ خَطَبَ في النّاسِ عصْرَ يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ فكَانَ مِمَّا قَالَهُ لَهُمْ « إن بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلى طَبَقاتٍ شَتّى ألا وَإن مِنْهُمْ البَطِيءَ الغَضَبِ سَرِيْعَ الفَيْءِ والسَّرِيْعَ الغَضَبِ سَرِيْعَ الفَيْءِ والبَطِيءَ الغَضَبِ بَطِيءِ الفَيْءِ فَتِلْكَ بِتِلْكَ ألا وإن مِنْهُمْ بَطِيءَ الفَيْءِ سَرِيْعَ الغَضَبِ ألا وخَيْرُهُمْ بَطِيءَ الغَضَبِ سَرِيْعَ الفَيْءِ وشَرُّهُمْ سَرِيْعَ الغَضَبِ بَطِيءَ الفَيْءِ ألا وإنَّ مِنْهُم حَسَنُ القَضَاءِ حَسَنُ الطَّلَبِ ومِنْهُمْ سَيّءُ القَضَاءِ حَسَنُ الطَّلَبِ ومِنْهُمْ سَيّءُ الطَّلَبِ حَسَنُ القَضَاءِ فَتِلْكَ بِتِلْكَ ألا وإن مِنْهُمْ سَيّءَ القَضَاءِ سَيّءَ الطَّلَبِ ألَا وخَيْرُهُم الحَسَنُ القَضَاءِ الحَسَنُ الطَّلَبِ وَشَرُّهُمْ سَيّءُ الطَّلَبِ ألا وإن الغَضَبَ جَمْرَةٌ في قَلْبِ ابنِ آدَمَ أما رَأَيْتُمْ إلى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وانْتِفَاخِ أوْدَاجِهِ وَسَيّئَاتُ الغَضبِ كَثِيْرَةٌ وَنَتَائِجُهُ الوَخِيْمَة أَكْثَرُ . فَمَنْ أحَسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصَقْ بِالأرْضِ » رواه التّرمذِيّ .

ومِنْ سَيِّئَاتِهِ أَنَّ الطَّلاقَ غَالِباً يَحْدُثُ عَن غَضَبٍ ، ومِن سَيِّئَاتِهِ أَنَّ الفِرَاقَ بَيْنَ الأقارِبِ والأولادِ يَقَعُ غَالِباً عن غضَبٍ .

ومِنْ سَيِّئَاتِهِ اتلافُ بَعْضِ المالِ أوْ كُلِّهِ .

ومن سيئاته أنه رُبَّمَا قَضَى على نَفْسِهِ أوْ عَلَى أولَادِهِ بسَبَبِ غَضَبِهِ ومِن سيئات الغَضَبِ أنَّ الانسانَ إذا غَضِبَ أطْلقَ لِسَانَهُ بالقَذْفِ والغِيْبَةِ والنَّمِيْمَةِ والبَهْتِ والاسْتِهْزاءِ والسُخْرِيَّةِ والشَّتْمِ والسَّبِ وسائِرِ أنواعِ المَعاصِي التي تَقْضِيَ على حَسنَاتِهِ إن كانَ له حَسَناتٌ وإلا فَتُوْقِرُهُ مِن سَيِئآتِ عَدُوِّهِ ولو مَلَكَ نَفْسَهُ لَسَلِمَ مِن ذَلِكَ كُلِّهِ .

ومِن سَيِئَآتِهِ أنهُ يُفْضِيْ إلى المُهَاتَرَاتِ الشَّفَهِيَّةِ وتَبادُلِ السِّباب بَيْنَ المُتَخَاصِمَيْنِ وهذا لا يَجُوزُ وكَمْ مِن مَعَارِكَ تُبْتَذَلُ فِيها الأعْرَاضُ وتَعْدُو الشَتَائِمُ المُحَرَّمَةُ على الحُرُماتِ البَعِيْدَةِ ولَيْسَ لِهذِه الآثامِ الغَلِيْظَةِ مِن عِلَّةٍ إلا تَسلُطُ الغَضَبِ ، وضَياعُ الأدَبِ ، ولِذَلِكَ كان ضَبْطُ النَّفْسِ عِنْدَ سَوْرَاتِهِ دَلِيْلُ قُدْرَةٍمَحْمُوْدَةٍورَزَانَةٍ عَقْلٍ وحَسْبُكَ دَلِيْلاً على ذلِكَ مَا وَرَدَ عن ابنِ مَسْعُوْدٍ قال قال رسول الله ﷺ « مَا تَعُدُّوْنَ الصُرَعَةَ فِيكم » ؟ قالوا : الذي لا تَصْرَعُهُ الرِجَالُ . قال « لا . ولكنِ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِندَ الغَضَبِ » رواه مسلم .

وقال رجلٌ للنبي ﷺ : أَوْصِنِيْ ولَا تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِي لا أَنْسَى . قال « لا تَغْضَبْ » وَرَوَى أبو هريرة أن رَجُلاً قال : يا رسول الله مُرْنِي بعَمَلٍ وَأَقْلِلْ . قال « « لا تَغْضَبْ »ثم أَعادَ عليه فقال « لا تغْضَبْ » ثم أعاد عليه فقال « لا تَغْضَبْ » رواه البخاري ، وقال ابنُ عمر : قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْ لِي قولاً وأَقْلِلْهُ ، لَعَلِي أَعْقِلَهُ . فقال « لا تَغْضَبْ » فأَعَدْتُ عليه مرَّتَيْنِ ، كُلُّ ذلك

يَرْجِعُ إِليَّ « لا تَغْضَبْ » اخرجه أبو يعلى بسند حَسَنٍ وقال أبُو هريرة قال النبي ﷺ « لَيْسَ الشَّدِيْدُ بالصُرعَةِ ، وإِنَّمَا الشَّدِيْدُ الذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عند الغضبِ » متفق عليه ، وقال ابنُ عُمَرَ : قال النبي ﷺ« مَنْ كَفَ غَضَبَهُ سَترَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ » أخرجه ابن أبي الدنيا .

وإليكَ بَعْضُ الآثارِ قال عبدُ الله بنُ مَسْعُودٍ انْظُرُوا إلى الرَّجُل عندَ غَضَبِهِ وأمَانَتِهِ عندَ طَمَعِهِ وما عِلْمُكَ بحِلْمهِ إذا لَمْ يَغْضَبْ وما عِلْمُكَ بأمَانَتِهِ إذا لَمْ يَطْمَعْ وكَتَبَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيز إلى عَامِلِهِ أنْ لاَ تُعَاقِبَ عندَ غَضَبِكَ واذا غَضِبْتَ على رَجُلٍ فاحِبْسْهُ فإذا سَكِنَ غَضَبُكَ فأَخْرِجْهُ فَعَاقِبْهُ على قَدْرِ ذَنْبِهِ وقال عَلِيُ بنُ زَيْدٍ : أَغْلَظَ رَجُلٌ مِن قُرَيْشٍ لِعُمَرَ بن عَبدِ العِزَيزِ القولَ فأطرقَ عُمُرُ زَمَاناً طَوِيْلاً ثُمَّ قالَ اردْتَ أنْ يَسْتَفِزُنِي الشيطانُ بِعِز السُلْطانِ فأنالَ مِنْكَ اليومَ مَا تَنَالُهُ مِنِّي غداً .

وقال بعضُهُم لابْنِهِ يا بُنَيَّ لا يَثْبُتُ العَقْلُ عندَ الغَضَبِ كَمَا لا تَثْبُتُ الرُوحُ في الحَي في التَنَانِيرِ المَسْجُورَةِ ومِمَّا يُرْوَى عن ذِي القَرْنَيْنِ أنه لِقَيَ مَلَكاً مِن المَلاَئِكَةِ فقال عَلِّمْنِي عَلْماً أزْدَادُ بِهِ إيْمَاناً وَيَقِيْناً قال لا تَغْضَبْ فإنَّ الشَّيْطَانَ أقْدَرَ مَا يَكُونُ عَلَىِ ابْن آدَمَ حِيْنَ يَغْضَبُ فَرُدَّ الغَضَبَ بالكَظْمِ وسَكِّنْهُ بالتُّؤَدَةِ وإِيَّاكَ والعَجَلَةَ وعن ابنِ عياس قال: لَمَا قدِمَ عُيَيْنَة بْنِ حِصْنٍ نَزَلَ على ابنِ أخِيْهِ الحُرِّ بنِ قَيْسٍ : وكانَ مِن النَّفر الذِينَ يُدْنِيْهِمْ عُمَرُ ، إِذْ كانَ القُرَّاءُ أصحَابَ مَجْلِسِ أمِيْر المؤمنينَ عُمَرَ ومشاوَرتِهِ كُهُولاً كانُوا أَوْ شُبَّاناً فقال عُيَيْنَةُ يا ابْنَ أخِيْ اسْتَأذِنْ لِي عَلَى أُمْير المؤمِنِيْنَ فاسْتَأذَنَ لَهُ فلمَّا دَخلَ قَال : هِيْهْ يا ابْنَ الخَطَّابِ فَوَاللَّهِ ما تُعْطِيْنَا الجَزْلَ ولا تَحْكُمُ بَيْنَنا بالعَدْلِ فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوْقِعَ بِهِ فقال الحُرُّ يا أَمِيْرَ المؤمنين إِنَّ اللَّهَ

يَقُولُ لِنَبيّهِ ﷺ ﴿خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عن الجَاهِلِين﴾ وإِنَّ هَذَا مِن الجَاهِلِين ، فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِيْنَ تَلاهَا عَلَيهِ وكان وَقَّافاً عندَ كِتَابِ اللَّهِ وإِنَّما غَضِبَ عُمَرُ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ وهَمَّ بَرْدعِ الأعْرَابِي لِتَطَاوُلِ الأَعْرَابِي عليهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ نَاصِحاً أَوْ مُشِيْراً بخَيْرٍ وإِنَّمَا دَخَلَ عليه في سُلْطانِهِ لِيَشْتِمَه دُوْنَ مُبَرِّرٍ وَلِيَسْأَلَهُ عَطَاءً جَزِيْلاً عَلَى غيْرِعَمَلٍ فَلَمَّا ذُكِّرَ عُمُرُ بأَنَّ هَذَا مِن الجَاهِلين أَعْرَضَ عنه وتَرَكَهُ يَنْصَرِفُ سَالِماً وفي الحديث « مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وهُوَ يَقْدِرُ أن يُنَفِذَّهُ ، دَعَاهُ اللَّهُ يومَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوْسِ الخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ في أيِّ الحْورِ العِيْنِ .

شعرا :

تَنبـهْ قُبَيْـلَ المـوتِ إنْ كُنْتَ تَعْقِـلُ
فَـعَمَّـا قَـلِيْـلٍ لِلْمَـقَـابِـر تُنْقَـلُ
وَتُـمْـسِـي رَهِـيْـنـا لِـلْقُـبُـورِ وَتَـنْـثَـنِـيْ
لَـدَى جَـدَثٍ تَحْتَ الـثَّـرى تَتَـجَنْـدَلُ
فَـرِيـداً وحِيْـداً في التُـرابِ وإِنَّمَـا
قَرينُ الفَتَى في القَبرِ مَا كَانَ يَعَملُ
فَـوَا أَسَفاً مـا يَفْعَـلُ الـدُودُ والثَرَى
بِـوَجْـهٍ جَمِيـلٍ كـانَ لِلَّهِ يَخْجَـلُ
ومـا يَفْعَلُ الجِسْمُ الـوَسِيْمُ إذَا ثَوى
وَصَـارَ ضَجِيْـعَ القَبْـرِ يَعْلُوْهُ جَنْـدَلُ
وبَـطْنِي بَدَا فيـه الرَّدَىْ ثُم لَـو ترى
دَقيْقَ الثَّــرَى في مُقْلَتِي يَتَـهَـرْوَلُ

أَعَيْنَايَ جُوْدَا بالدُمُوعِ عَلَيْكُمَا
فَحُزْنِي عَلَى نَفْسِي أَحَقُّ وأَجْمَلُ
ويا مُدَّعِي حُبِيْ هَلُمَّ بِنَا إذا
بَكَى الناسُ نَبْكِي لِلْفِرَاقِ ونُهْمِلُ
دَعِي اللَّهْوَ نَفْسِي واذْكُرِيْ حُفرةَ البِلَى
وكَيْفَ بِنَادُوْدُ المَقَابِرِ يَفْعَلُ
إلى اللَّهِ أَشْكُو لاَ إلى الناسِ حَالَتِي
إذا صِرْتُ في قَبْرِيْ وَحِيْداً أُمَلْمَلُ

اللهم يا حَيُّ يا قيومُ يا عليُّ يا عَظِيْم أبرم لهذه الأمةِ أمرَ رُشْدٍ يُعَزُّ فيه أهلُ طَاعَتِكَ وَيُذل فيه أهلُ معصيتِك ويُؤْمَرُ فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر اللهم بارك في أعمارنا وأصلح أَعْمَالَنَا ونِيَاتِنَا وذُرِّيَاتِنَا واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« موعظة »

عِبَادَ اللَّهِ مِن عِبَادِ اللَّهِ مَنْ تَرَوْنَهُ سَيِىءَ الخُلُقِ ، عَنِيْفاً شَرساً في كُلِّ حَالٍ إنْ قَالَ فَعُنُفٌ قَولُهُ يَنْطِقُ بالكَلِمَةِ فَلِعُنْفِهَا تُحْدِثُ مِن الشَّرِ مَالاً يَحْكِيْهِ المَقَالُ إنَّ مِثْلَ هَذَا لا تَطُوْلُ مَعَهُ عَشْرَةُ نِسَاءٍ ولا صَدَاقَةُ رِجَالٍ ولا يَجِدُ قَلْباً يَعْطِفُ عَلَيْهِ ولَو كَانَ في أَشَدِّ الأَحْوَالِ ولَوْ قِيلَ لَكَ إِنَّ البَهَائِمَ تَنْفُرُ مِنْهُ لِعُنْفِهِ وشَرَاسِتِهِ فَصَدِّقْ هَذا المَقَالَ ولِلْناسِ عُذْرٌ وَاضِحٌ في نُفُوْرِهِمْ مِنْ هَذَا العَنِيْفِ السَّيِءِ الأَخْلاَقِ ولاَ لَوْمَ عَلَيْهِمْ إذَا فَارَقُوهُ الفِرَاقَ الذِيْ لَيْس بَعْدَهُ مِن تلاقٍ فَإِنَّ

الطِّبَاعَ البَشَرِيَّةَ مُتَّفِقَةً على بُغْضِ العُنْفِ وَكَيفَ يُحِبُّ الناسُ مَن يُؤْذِيهِمْ بأَقْوالِهِ وأَفْعَالِهِ بِسَبَبٍ وبِغَيْرِ سَبَبٍ فَالعَنِيْفُ شُؤْمٌ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُوْنَ شُؤْماً عَلَى سِوَاهُ وَرُبَّمَا عَمَّ شُؤْمُهُ دُنْيَاهُ وأُخْرَاهُ قال ﷺ « مَنْ يُحْرِمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ » رواه مسلم وأحمد وأبو داود وابن ماجه ، وفي الحديثِ الآخر « إنَّ اللَّهَ تعالى رَفِيْقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، ويُعْطِي على الرِّفْقِ مَالاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ رواه مسلم أَمَّا الرَّفِيْقُ فَهُوَ العَبْدُ الحَسَنُ الخُلُقِ الوَقُورُ الحَلِيمُ الذي أَيْنما كانَ وَمَتَى كانَ تَصْبُو إليهِ القُلُوبُ لإنَّهُ إنْ قالَ فَقَولُهُ حُلْوٌ لإنَّهُ أَدِيبٌ حَكِيْمٌ وإنْ فَعَلَ فأفعالُهُ تُرْشِدُ إلى تَعَلُّمِ الأدَبِ وَلَيْس بَنُوْ آدَمَ الذِيْنَ يُحِبُونَ الرِّفْقَ ، بَلْ يُشَارِكُهُمْ في ذَلِكَ سائِرُ الحَيَوانَاتِ ، وإن شِئْتَ فَانْظُرْ مَبْلَغَ حَنِيْنِ تِلْكَ الحَيَوَانَاتِ إلَيْهِمْ فَكُنْ رَفِيْقاً أَيُّهَا المؤمِنُ تَجْمَعُ بَيْنَ حُبِّ اللَّهِ وحُبِّ عِبادِهِ وَلَيْسَ بَعْدَ ذَلك لِذَوِيْ النُّهَى أربُ ، اللَّهُمَّ اخْتُمْ لَنَا بخاتِمَةِ السعادة واجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه اجمعين .

فَصْلٌ في بَيَانِ تَحْرِيْمِ الحَسَدْ

إعلَمْ وَفَّقَنَا اللّهُ وإيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِينَ وَجَنَّبَنا وإيَّاكَ وإيَّاهُم كُلَّ خُلُقٍ ذَمِيْم أَنَّ مِمَّا يَتأكَّدُ اجْتِنَابُهُ في كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ الحَسَدُ إذْ هُوَ مِنَ الذُّنُوبِ المُهْلِكاتِ ، ومَعْنَى الحَسَدُ أنْ يَجِدَ الإنسانُ في صَدْرِهِ وقَلْبِهِ ضِيقاً وحَرَجاً وكَرَاهِيَةً لِنِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللّهُ بِهَا عَلَى عَبْدٍ مِن عِبادِهِ فِي دِيْنِهِ أوْ دُنْياهُ حَتَّى أنَّهُ ليُحِبُّ زَوالَها عَنْهُ ورُبَّما تَمَنَّى ذَلِكَ أَوْ سَعَى في إزالَتِهَا وحَسْبُكَ بِذمِّهِ وقُبْحِهِ أنَّ اللّهَ تعَالى أمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أنْ يَتَعَوَّذَ مِن شَرِّ الحَاسِدِ كَمَا أَمَرَ بالاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ

الشَّيْطَانِ قالَ الله تعالى ﴿ومِن شَرِّ حاسدٍ إذا حَسد﴾ .

والحِرْصُ والحَسَدُ مِنْ مَدَاخِلِ الشّيطَانِ إلى القَلْبِ فَمَهْمَا كَانَ العَبْدُ حَرِيْصاً عَلَى كُلِّ شَيْءٍ أعْمَاهُ حِرْصُهُ وأصَمَّه قَال ﷺ « حُبُّكَ للشيْءَ يُعْمِي ويُصِمُّ » ونُوْرُ البَصِيْرةِ هُوَ الّذي يَعْرِفُ مَدَاخِلَ الشّيْطانِ فإذا غَطَّاهُ الحَسَدُ والحِرْصُ لَمْ يُبْصِرْ فَحِينَئِذٍ يَجِدُ الشّيْطانُ فُرْصَةً فَيُحَسِّنُ عِنْدَ الحَرِيْصِ كُلَّ مَا يوصِلُهُ إلى شَهَوَاتِهِ وإنْ كانَ مُنْكَراً وَفَاحِشاً ، فبالحَسَدِ لُعِنَ إبْلِيْسُ وجُعِلَ شَيْطاناً رَجِيْمَا وأمّا الحِرْصُ فَإنّهُ أُبِيْحَ لآدَمَ الجَنَّةَ كُلَّهَا إلاّ الشَّجَرَةَ ، فأصَابَ حَاجَتَهُ إبليسُ مِن آدَمَ بالحِرْصِ فأكَلَ مِن الشَجَرَةِ الّتِي نَهَاهُ اللّهُ عَنْهَا .

ومِنْ أجْلِ أنَّ الحَسَدَ بِهَذِهِ الدَّرَجةِ وَرَدَ فِيهِ تَشْدِيْدٌ عَظِيْمٌ حَتَّى قال فِيهِ الرّسُولُ ﷺ « الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تأكُلُ النّارُ الحَطَبَ » رَوَاه أبو داود وابن ماجه ، وقال ﷺ : « لا يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ غُبَارُ في سَبِيلِ الله ، وفَيْحُ جَهَنَّمَ ولا يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدِ الإيْمَانُ والحَسَدُ » رواه ابن حبان في صحيحه وروا‌ه البيهقي .

والّذي يَجِبُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ هَذَا الحَدِيْثِ أنْ الإيمانَ الصَّادِقَ الكَامِلَ الّذي يَسْتَحْضِرُ صَاحِبُهُ أنَّ كُلَّ أفْعَالِ اللّهِ لِحِكْمَةٍ لا يَجْتَمِعُ مَعَ الحَسَدِ الّذي يُغْضِبُ مِن فِعْلِ اللّهِ وقِسْمَتِهِ ويقُولُ ﷺ في الحَسَد « لا يَزَالُ النّاسُ بِخَيْرٍ ما لَمْ يَتَحَاسَدُوا » رواهُ الطّبراني ، والمَعْنَى واللّهُ أعلَمُ أنَّهُمْ إذا تَحَاسَدُوا ارْتَفَعَ الخَيْرُ مِنْهُم وَكَيْفَ لا يَرْتَفِعَ مِنْهُمْ الخَيْرُ وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَتَمَنّى أن يَزُوْلَ الخَيْرُ الّذي عِنْدَ أخِيْهِ ، وَنَهَى ﷺ عن الحَسَدِ فَقَال « ولا تَحَاسَدُوا » والحَسَدُ نَتِيْجَةٌ مِنْ نَتَائِجِ الحِقْدِ وثَمَرَةٍ مِنْ ثَمرَاتِهِ المُتَرَتِّبَةِ علَيْهِ فإنَّ من يَحْقِدُ عَلَى إنْسانٍ يَتَمنّى زَوَالَ نِعْمَتِهِ ويغْتَابُهُ وَيَنِمُ عَلَيْهِ وَيَعْتَدِي عَلى عِرْضِهِ ، وَيَشْمُتُ فِيْهِ لِما يُصِيْبُهُ

مِنَ البَلاءِ ، وَغيرُ ذَلِكَ مِن الصِّفَاتِ المَذْمُومَةِ الَّتِي لا تَلِيْقُ بالإِنْسانِ وكَثِيْراً مَا تَرَى الحَاسِدَ يُنَقِّبُ عن مَسَاوي المَحْسُوْدِ فَيُبْرِزُهَا على صِفَةِ الذَّمِّ والتَّثْرِيْبِ فَيَنْتَبِهُ المَحْسُوْدُ لَهَا وَيَتَجَنَّبُهَا فيَكُونُ السَّبَبُ فِي إِزَالَتِهَا عَدُوُّه الحَاسِدِ كَمَا قِيل :

عُـدَاتِـي لَهُـمْ فَضْـلٌ عَـلَيَّ ومِنَّـةً
فـلا أذهَبَ الـرّحمنُ عَنِّي الأَعَـادِيَـا
هُمُـوْا بَحَثُـوْا عن زَلَّتِي فـاجْتَنَبْتُهَـا
وهُمْ نَـافَسُـونِي فـاكْتَسَبْتُ المَعَـالِيَـا

ويقُول الآخر :

وَإِذَا أَرَادَ الـلهُ نَـشْـرَ فَـضِـيْـلَةٍ
طُـوِيَتْ أَتَـاحَ لَهَـا لِسَـانَ حَسُـودِ
لولا اشْتِعَالُ النّارِ في جَزْلِ الغَضَـا
مـا كَانَ يُعرَفُ طِيبُ رِيحِ العُـودِ

آخر :

إِنّي حُسِدْتُ فَزَادَ اللّهُ فِي حَسَـدِي
لا عَاشَ مَن عَاشَ يَوْماً غَيْرَ مَحْسُودِ
مـا يُحْسَـدُ المَـرءُ إِلَّا مِنْ فَضَـائِلِهِ
بالعِلْمِ والظُّرْفِ أَوْ بالْبَأسِ والجُـودِ

وَكَفَى بالحِقْدِ ذَمّاً أَنْ يَكُونَ الحَسَدُ ثَمرَةً مِن ثَمرَاتِهِ وأَثراً مِنْ آثارِهِ .

وفِي الغَالِبِ أَنَّ الحَسَدَ يَكُونُ بَيْنَ النُّظَراءِ والزُّمَلاءِ وأَرْبَابِ الصِّنَاعَاتِ والمَرَاتِبِ والمَنَاصِبِ الحُكُومِيَّةِ فالتَّاجِرُ يَحْسُدُ التّاجِرَ والصَّانِعُ يَحْسُدُ الصّانِعَ والنَّجَارُ يَحْسُدُ النَّجّارَ والفّلاحُ يَحْسُدُ الفّلاحَ وأربابُ الجَاهِ يَحسِدُوْنَ أَرْبَابَ الجَاهِ وذَوُوْ المَنَاصِبِ الحُكُومِيَّةِ يَحْسُدُ بَعْضُهُمْ بَعْضَا ومِن الأَمْثَالِ المُتَداوَلَةِ قَوْلُهُمْ عَدُوُّ المَرْءِ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَهُ ولِلْحَسَدِ أعاذَنَا اللّهُ وجَمِيعَ المُسلمينَ مِنْهُ مَراتِبُ .

أَحدُهَا أَنْ يَتَمَنَّى زَوالَ النِّعْمَةِ عَنْ الغَيْرِ ، ويَعْمَلَ وَيَسْعَى فِي الوَسَائِلِ المُحَرَّمَةِ الظَّالِمَةِ وَيَسْعَى في إِسَاءَتِهِ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيْعُ وَهَذا الغَايَةُ فِي الخُبْثِ والخَسَاسَةِ والنَّذَالَةِ وَهَذِهِ الحَالَةُ هِيَ الغَالِبَةُ في الحُسَّادِ خُصُوصاً المُتَزاحِمِيْنَ فِي صِفَةٍ وَاحِدَةٍ فإِن مَن يَربحُ مِنْهُمْ رِبْحاً كَبِيْراً أَوْ يَظْفرُ بِلَذَّةٍ يَرْقبُها غَيْرُهُ فَإِنَّ ذَلِكَ الغَيْرَ يَحْسُدُهُ على مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَيَسْعَى فِي حِرْمَانِهِ فِي ذَلِكَ الرِّبْحِ لِيَظْفَرَ هُوَ بِهِ وَيَكْثُرُ ذَلِكَ فِي طُلَابِ المَنَاصِبِ والجَاهِ .

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ : أَنْ يتمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ ، ويُحِبُّ ذَلِكَ ، وإِنْ كَانَتْ لا تَنْتَقِلُ إِلَيْهِ ، وهَذَا أَيْضاً فِي غَايَةِ الخُبْثِ ، وَلَكِنَّها دُوْنَ الأُوْلَى .

الثَّالِثَةُ أَنْ يَجِدَ مِنْ نَفْسِهِ الرَّغْبَةَ في زَوَالِ النِّعْمَةِ عَن المَحْسُوْدِ سَوَاءً انْتَقَلَتْ إِلَيْهِ أَوْ إِلى غَيْرِهِ وَلَكِنَّهُ فِي جِهَادٍ مَعَ نَفْسِهِ وَكَفِّهَا عن مَا يُؤ ذِي خَوْفاً مِن اللّهِ تَعَالى وكَرَاهِيَةً فِي ظُلْمِ عِبَادِ اللّهِ وَمَنْ يَفْعَلُ هَذَا يَكُونُ قَدْ كَفِي شَرَّ غَائِلَةِ الحَسَدِ ، وَدَفَعَ عَنْ نَفْسِهِ العُقُوْبَةَ الأُخْرَوِيَّةَ وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعالِجَ نَفْسَهُ مِن هَذَا الوَبَاءِ حَتَّى يَبْرأ مِنْهُ .

الحَالَةُ الرَّابِعَةُ : أَنْ يَتَمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ عَن الغَيْرِ ، بُغْضاً لِذَلِكَ

الشَّخْصِ ، لِسَبَبٍ شَرْعِيٍّ ، كَأَنْ يَكُونَ ظَالِماً يَسْتَعِيْنُ على مَظَالِمِهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ فَيَتَمَنَّى زَوالَهَا لِيُرِيْحَ النّاسَ مِنْ شَرِّهِ وَمِثْلُ أَنْ يَكُونَ فاسِقاً يَسْتَعِيْنُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ عَلى فِسْقِهِ وَفُجُوْرِهِ ، فَيَتَمَنَّى زَوالَ المَغَلِّ هَذا عَنْهُ لِيُرِيْحَ العِبادَ والبِلاَدَ مِنْ شَرِّهِ القَاصِرِ والمُتَعَدِّيْ ، فَهَذَا لاَ يُسَمَّى حَسَداً مَذْمُوْماً وإِن كَانَ تَعْرِيْفُ الحَسَدِ يَشْمَلُهُ ، وَلَكِنَّهُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ يَكُونُ مَمْدُوحَاً لاَ سِيَّمَا إِذا كَانَ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ عَمَلٌ يَدْفَعُ هَذَا الظُّلْمَ والعُدْوَانَ وَيَرْدَعُ هَذَا الظَّالِمَ .

الحَالَةُ الخَامِسَةُ : أَنْ يُحِبَّ وَيَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ مِثْلَهَا فإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِثْلُهَا فَلا يُحِبُّ زَوَالَها عَن صَاحِبِهَا فَهذا لاَ بَأْسَ بِهِ إِنْ كَانَ مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ كَالمَالِ المُبَاحِ والجَاهِ المُبَاحِ وإِن كَانَ مِن النِّعَمِ الدِّيْنِيَّةِ كالعِلْمِ الشَّرْعِيِّ والعِبادَةِ الشَّرْعِيَّةِ كَانَ مَحْمُوْداً كأنْ يَغْبِطَ مِن عِنْدَهُ مَالٌ حَلالٌ ثُمّ سُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ مِن واجب وَمُسْتَحَبٍّ فَإِن هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الأَدِلَّةِ عَلى الإِيْمَانِ ومِن أعظَمِ أنواعِ الإِحْسانِ وَكَذا مَنْ آتَاهُ اللّهُ الحِكمَةَ والعِلْمَ فَوُفِّقَ لِنَشْرِهِ ، كَمَا فِي الحَدِيْثِ « لا حَسَدَ إِلاّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٍ آتاهُ اللّهُ مَالاً ، فَسَلَّطَهُ عَلى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ ، وَرَجُلٍ آتاهُ اللّهُ الحِكْمَةَ ، فَهُوَ يَقْضِيْ بِهَا وَيُعلِّمُهَا » . فَهَذانِ النَّوْعَانِ مِن الإِحسانِ لا يُعَادِلُهُما شَيْءٌ إِلاّ أنْ ترتبَ عَلَيْه وَسَاوِسُ شَيْطَانِيَّةٌ ، وَخَواطِرُ نَفْسَانِيَّةٌ تَجرُّ الإِنْسَانَ إِلى مَواضِعِ الخَطَرِ الّتي تُفْسِدُ عَمَلَهُ كأنْ يَقُولَ في نَفْسِهِ أنَا أَحَقُّ مِنه بِهذا فَهَذَا اعْتِرَاضٌ على حِكْمَةِ اللّهِ وقِسْمَتِهِ ولا يَجُوزُ ذَلِكَ :

شعرا :

عَلَيْكَ أُخَيَّ بالتُّقَى ولُزومِهِ
ولا تَكْثِرَنْ ما فِيْهِ زَيدٌ ولا عَمْرُوْ

فَزَهْرَةُ ذِي الدُّنْيا سَرِيْعٌ ذُبُولُهَا
وفي نَهْيِ طَهَ لِلنَّبِيِّ لَنَا ذِكْرُ

وكُنْ مُنْشِداً مَا قَالَ بَعْضُ أُولِي النّهى
فَكَمْ حِكْمَةٍ غَرَّاءَ قَيَّدَهَا الشِّعْرُ

« إذا المَرْءُ جَازَ الأَرْبَعِيْنَ وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ دُوْنَ ما يَأتِي حَيَاءٌ ولا سِتْرُ »

« فَدَعْهُ وَلا تَنْفُسْ علَيْهِ الّذِي أتَى
وإِن مَدَّ أسْبَابَ الحَيَاةِ لَهُ العُمْرُ »

والله أَعلم وصلّى الله على مُحمّد وعلى آلهِ وصحبِهِ وسلّم .

(فصــل)

ثُمّ اعْلَمْ أَنَّ لِلْحَسَدِ أسْبَاباً .

الأوّلُ : العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ وَهَذَا أَشَدُّ أسْبَابِ الحَسَدِ .

الثّانِي : التَّعزُّزُ والتَّرفُّعُ وَهُوَ أنْ يَثْقُلَ عَلَيْهِ أنْ يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فإذا أَصَابَ أحَدُ زُمَلاَئِهِ وِلاَيَةً أَوْ مَالاً خَافَ أنْ يَتَكَبَّرَ عَلَيْهِ وَهُوَ لاَ يُطِيْقُ تَكَبُّرَه وَافْتِخَارَهُ عَلَيْهِ .

السَّبَبُ الثّالثُ الكِبْرُ وَهُوَ أنْ يَكُونَ فِي طَبْعِهِ أَنْ يَتَكَبَّرَ علَيْهِ وَيَسْتَحْقِرَهُ وَيَسْتَصْغِرَهُ وَيَسْتَخْدِمَهُ فإذَا نَالَ وِلاَيَةً خَافَ أنْ لا يَحْتَمِل تَكَبُّرَهُ ومِن التَّكَبُّرِ والتَّعزُّزِ كَانَ حَسَدُ أكْثَرِ الكُفَّارِ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ إذْ قَالُوا : كَيْفَ يَتَقَدَّمُ عَلَيْنَا

غُلامٌ يَتِيْمٌ فَنُطأطِىءُ رُؤُوْسَنا لَهُ . فقالُوا ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِن القَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٍ﴾ .

السَّبَبُ الرّابعُ التَّعَجُّبُ كَمَا أَخْبَرَ اللّهُ عن الأُمَمِ المَاضِيَة إذْ ﴿قالُوا ما أنتُم إلا بَشَرٌ مِثْلنا﴾ فَتَعَجَّبُوا مِن أنْ يَفُوزَ بِرُتْبَةِ الرُّسُلِ والوَحْيِ والقُرْبِ مِنَ اللّهِ بَشَرٌ مِثْلُهُم فَحَسَدُوْهُم وأحَبُّوْا زَوالَ النِّعْمَةِ عَنْهُم .

الخَامِسُ الخَوْفُ مِن فَوتِ مَقْصَدٍ مِنَ المَقَاصِدِ وَذَلِكَ يَخْتَصُّ بِمُتَزَاحِمِيْنَ عَلَى مَقْصُوْدٍ واحِدٍ وذَلِكَ مِثْلُ الضَّرّاتِ عِنْدَ زَوْجِهِنَّ وَالتَّلامِيْذِ عِنْدَ الأُسْتاذِ والإِخْوَةِ في التَّزَاحم عَلى نيْلِ المنْزِلَةِ في قَلْبِ الأَبوَيْنِ لِيَتوَصَّلَ بِهِ إلَى مَقَاصِدِ الكَرَامَةِ والمَالِ وخُدّامِ المَلِكِ في نَيْلِ المَنْزِلَةِ مِنْ قَلْبِهِ .

السّادِسُ حُبُّ الرِّيَاسَةِ وَطَلَبُ الجَاهِ لِنَفْسِهِ مِن غَيْرِ تَوصُّلٍ بِهِ إِلى مَقْصُوْدٍ وَذَلِكَ كَالرَّجُلِ الّذِي يُرِيْدُ أنْ يَكُونَ عَدِيْمَ النَّظِيْرِ فِي فَنٍّ مِنَ الفُنُونِ إذا غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ الثَّنَاءِ والمَدْحِ واسْتَفَزَّهُ الفَرَحُ بِما يُمْدَحُ بِهِ ، فإنَّهُ لَوْ سَمِعَ بِنَظِيْرٍ لَهُ فِي أقْصَى أقْطَارِ الأَرْضِ لَسَاءَه ذَلِكَ ، وَأحَبَّ مَوْتَهُ أوْ زَوالَ تِلْكَ النِّعْمَةِ الَّتِيْ عِنْدَ الّذي يُشارِكُهُ بِهَا فِي المَنْزِلَةِ مِنْ شَجاعَةٍ أَوْ عِلْمٍ أوْ صِنَاعَةٍ أَوْ جَمالٍ أوْ ثَرْوَةٍ أوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

السّابِعُ : خُبْثُ النَّفْسِ وحُبُّهَا لِلشَّرِّ وشُحُّهَا بِالخَيْرِ لِعِبَادِ اللّهِ، فَتَجِدُ المُتَّصِفَ بِذَلِكَ إذا ذُكِرَ لَهُ اضْطِرَابٌ وَنَكَباتٌ تُصِيْبُ النّاسَ وإِدْبارُهُمْ وَفَوْتُ مَقَاصِدِهِمْ وَتَنْغِيصَ عَيْشِهِمْ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ وَفَرِحَ بِهِ وَصارَ يَبُثُّهُ وَرُبَّمَا أَتَى بإِشَاعَتِهِ فِي صُوْرَةِ التَّرَحُّمِ والتَّوَجُّعِ فَهُوَ أبَداً يُحِبُّ الإِدْبارَ لِغَيْرِهِ وَيَبْخَلُ بِنِعْمَةِ اللّهِ عَلى عِبَادِهِ كأَنَّهُ يُؤْخَذُ مَا أعطاهُمْ اللّهُ مِن مَالِهِ وَخِزَانَتِهِ ، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ

وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ وَهَذا لَيْسَ لَهُ سَبَبٌ إلاّ التَّعَمُّقُ فِي الخُبْثِ والرَّذَالَةِ والنَّذالَةِ والخَسَاسَةِ فِي الطَّبْعِ اللّئِيمِ ولِذَلِكَ يَعْسُرُ مُعَالَجَةُ هَذَا السَّبَبَ لأَنَّهُ جَهولٌ ظَلُوْمٌ وَلَيْسَ يَشْفِي عِلَّةَ صَدْرِهِ وَيُزِيْلُ حَزَازَةَ الحَسَدِ الكَامِنِ فِي قَلْبِهِ إلَّا زَوَالُ النِّعْمَةِ فَحِيْنَئِذٍ يَتَعَذَّرُ الدَّوَاءُ أَوْ يَعِزُّ وَمِنْ هَذَا قول بعضهم .

وَكُـلٌّ أَدَاوِنْـهِ عـلى قَـدْرِ دَائِـهِ
سِوَى حَاسِدِي فَهْيِ الّتِي لاَ أَنَالُهَـا
وَكَيْفَ يُـدَاوِيْ المَرؤُ حَـاسِدَ نِعْمَـةٍ
إذا كَانَ لا يُـرْضِـيْـهِ إلَّا زَوَالُـهَـا

قَالَ بَعْضُهُمْ رَأَيْتُ أَكْثَرَ النّاسِ إلا مَنْ عَصَمَ اللّهُ وَقَلِيْلٌ مَا هُمْ يَتَعَجَّلُونَ الشَّقَاءَ والهَمَّ والتَّعَبَ لأنْفُسِهِمْ في الدُّنْيَا ويَحْتَقِبُونَ عَظِيْمَ الإِثْمِ المُوْجِبِ لِلنَّارِ فِي الآخِرَةِ بِمَا لاَ يُحْظَوْنَ مَعَهُ بِنَفْعٍ أَصْلاً مِن نِيَّاتٍ خَبِيْثَةٍ يَحْرِصُوْنَ عَلَيْهَا مِن تَمَنِّي الغَلاءَ المُهْلِكَ لِلنَّاسِ ولِلصِّغَارِ وَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ وَتَمَنَّى أَشَدَّ البَلاءِ لِمَنْ يَكْرَهُوْنَهُ وَقَدْ عَلِمُوا يَقِيْناً أَنَّ تِلْكَ النِّيَاتِ الفَاسِدَةِ لا تُعَجِّلُ شَيْئاً مِمَّا يَتَمَنُّونَهُ أَوْ تُوْجِبُ كَوْنَهُ وَأَنَّهُمْ لَوْ صَفَّوْا نِيَاتِهِمْ وَحَسَّنُوْهَا لَتَعَجَّلُوْا الرَّاحَةَ لأَنْفُسِهِمْ وَتَفَرَّغُوْا بِذَلِكَ لِمَصَالِحِ أُمُوْرِهِمْ ، ولاَ اقْتَنَوْا عَظِيْمَ الأَجْرِ في المَعَادِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤخِّرَ ذلِكَ شَيْئاً مِمَّا يُرِيْدُوْنَهُ أَوْ يَمْنَعَ كَوْنَهُ ، فَأَيُّ غَبْنٍ أَعْظَمُ مِن هَذِهِ الحالِ الّتِي نَبَّهْنَا عَلَيْهَا ا هـ .

وأَمَّا الأسبَابُ الأُخْرَى فَيُتَصَوَّرُ إزالَتُها فِي المُعَالَجَةِ .

وَقَدْ تَجْتَمِعُ أَسْبَابُ الحَسَدِ المذْكُورة كُلُّهَا في شَخْصٍ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرُهَا .

وَقَدْ ذَكَرَ العُلَمَاءُ لِلْحَسَدِ دَوَاءً فَأَوَّلاً أَنْ تَعْرِفَ أَنَّهُ ضَرَرٌ عَلَيْكَ فِي الدِّين والدُّنْيا ولاَ ضَرَرَ بِهِ عَلَى المَحْسُوْدِ لا فِي الدُّنْيَا ولا فِي الدِّين بَلْ يَنْتَفِعُ بِهِ فِيْهِمَا جَمِيْعاً أمَّا ضَرَرُهُ فِي الدِّيْنِ فلأَنَّهُ سُخْطٌ لِقَضَاءِ اللّهِ وَقَدَرِهِ ، وكَرَاهَةٌ لِنِعْمَتِهِ على عَبْدِهِ المُؤْمِنِ وانْضَمَّ إِلَيْهِ غِشُّ المُسْلِمِ وتَرْكُ نُصْحِهِ وَتَرْكُ العَمَلِ بِقَوْلِهِ ﷺ « لا يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخِيْهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وانْضَمَّ أَيْضاً إِلى ذَلِكَ أنَّهُ شَارَكَ إِبْلِيْسَ وهَذِهِ خَبَائِثُ تأكُلُ الحَسَنَات وأمَّا ضَرَرُهُ في الدُّنْيا فإِنَّهُ الألَمُ النَّقْدُ الحَاضِرُ والعَذابُ الدَّائِمُ .

وأَمَّا كَوْنُهُ لا ضَرَرَ عَلَى المَحْسُودِ فَوَاضِحٌ لأَنَّ النِّعْمَةَ لا تَزُوْلُ بِالحَسَدِ وأمَّا مَنْفَعَتُهُ في الدُّنْيا لِلْمَحْسُودِ فَهُوَ أنَّ أهَمَّ مَقَاصِدِ أكْثَرِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا إِيْصَالُ الضَّرَرِ والهَمِّ إلى أعْدَائِهِمْ وهُوَ مُتوفِّرٌ في الحَسَدِ وَقَدْ فَعَلَ الحَاسِدُ بِنَفْسِهِ مُرَادَهُمْ فأنْتَ بالحَقِيْقَةِ عَدُوٌّ لِنَفْسِكَ وصَدِيْقٌ لِعَدُوِّكَ وَمَعَ هَذا كُلِّهِ فَقَدْ أدْخَلْتَ السُّرُوْرَ عَلَى إِبْلِيْسُ وهُوَ أَعْدَى عَدُوٍّ لَكَ وَلِغَيْرِكَ وَلَو عَقَلْتَ تَمَاماً لَعَكَسْتَ وَكَلّفْتَ نَفْسَكَ نَقِيْضَ الحَسَدِ إِذْ أنّ كُلَّ مَرَضٍ يُعَالَجُ بِضِدِّهِ فَمَثَلاً يُكَلِّفُ لِسَانَهُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ مِنْ غَيرِ كَذبٍ ويُلْزِمُ نَفْسَهُ بِرَّهُ إِنْ قَدِرَ فَهَذِهِ الأفْعَالُ تَعْمَلُ مُقَارَبَةً تُطَيِّبُ قَلْبَ المَحْسُوْدِ ويُحِبُّ الحَاسِدَ ويَصِيْرُ مَا يَتَكَلَّفُهُ أَوّلاً طَبْعاً آخِراً وَلاَ يَعْمَلُ بِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ إِنَّ هَذَا عَجْزٌ وَنِفَاقٌ وَخَوْفٌ لأنَّ ذَلِكَ مِنْ خِدَعِهِ وَمَكَائِدِهِ فَهَذَا الدَّوَاءُ إِلَّا أنَّهُ مُرٌّ قَلَّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالى ﴿ادفع بالّتي هي أحْسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه ولي حميم﴾ الآية وبالتالي فإِنَّ خَيْرَ مَا لِلْمَرْءِ أنْ يَكُونَ مُسْتَرِيْحاً فِي دُنْيَاهُ لَعَلَّ اللّهَ أنْ يَجْعَلَهُ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ فِي أُخْرَاهُ .

وفِي الدُّنْيَا في أمْنٍ وفِي رَغَدٍ هَذَا شَيْءٌ مُتَحَقِّقٌ وقَدِيْمَا قِيْلَ :

يا طالِبَ العَيْشِ في أمنٍ وفي دَعَةٍ
رَغْـداً بـلا قَتَـرٍ صَفْـواً بِـلاَ كَـدَرَ
خَلِّصْ فُؤادَكَ مِنْ غِـلٍّ ومِن حَسَـدٍ
فالغِلُّ في القَلْبِ مِثْلُ الغِلِّ في العُنُقِ

آخر :

(لَمَّـا عَفَوْتُ وَلَمْ أحْقِـدْ عَلَى أحَدٍ
أرَحْتُ نَفْسِيَ مِـنْ هَمِّ الـعَـدَوَاتِ)
(إنّي أُحَيّيْ عَـدُوّيْ عِنْـدَ رُؤْيَتِـهِ
لأدْفَـعَ الشَـرَّ عَنِّيْ بـالتَّحِيّـاتِ)

وقال آخر :

إلْقَ العَـدوَّ بـوَجْـهِ لا قُطُوبَ بِـهِ
يكَـادُ يقْطُرُ مِن مَـاءِ البَشَـاشَـاتِ
فـأَحْـزمُ النَّاسِ مَن يَلْقى أعَـادِيَـهُ
في جِسْمِ حِقْـدٍ وثَوْبٍ مِن مَـوَدَاتِ

آخر :

أجـامِـلُ أقْـوَامـاً حَيَـاءً وَقَـدْ أَرى
صُـدُوْرَهُـمُ بـادٍ علـي مِـرَاضُـهَـا

والطّرِيْقُ الوحِيدُ أَنْ تَعْلَمَ تَماماً أَنَّ الخَيْر كُلَّهُ في أَنْ لاَ يَكُونَ في نَفْسِكَ لأحَدٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ غِشٌ وَلا تَحْسِدْ أَحَداً عَلَى خَيْرٍ أعطاهُ اللّهُ إيّاهُ ثُمّ أيُّ ضَرَرٍ

يَحْصُلُ لَكَ لَوْ كَانَ غَيْرُكَ فَوْقَكَ في المال أو فِي المنصِبِ، إِنَّهُ مِسْكِيْنٌ ، مَا نَقَصَ مِنْ دُنْيَاكَ ولا مِن آخِرَتِكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

وإِذَا رأيْتَ قَلْبَكَ صَافِياً مُحِبّاً لإِخْوَانِكَ مِن المُسْلِمِيْنَ الخَيْرَ كَارِهاً لَهُم ما تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ ، فَهَذِهِ بَشَارَةٌ لِلْمُسْتَقِيْم ، ولْيَسْمَعْ إِلى ما وَرَدَ عَن أَنْسِ بنِ مالِكٍ قَالَ كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ رسُولِ اللّهِ ﷺ فقالَ « يَطْلَعُ الآنَ عَلَيْكُم رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَطَلَعَ رَجُلٌ مِن الأنصارِ تَنْطُفُ لِحْيَتُهُ مِن وُضُوئِهِ ، قَدْ عَلَّقَ نَعْلَيْهِ بِيدِهِ الشِّمَال .

فلَمَّا كَانَ الغَدُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أيْضاً فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ على مِثْلِ حَالِهِ الأوَّلِ فلَمَّا قامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللّهِ بنُ عَمْروٍ أيْ تَبعَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فَقَالَ إِنِّيْ لاَحَيْتُ أَبِيْ ، فَأَقْسَمْتُ أَنِّيْ لاَ أَدْخُلُ عَلَيْهِ ثلاَثاً ، فإِنْ رَأَيْتَ أن تُؤْوِيْنِي إِليكَ حَتَّى تَمْضِيْ فَعَلْتَ قَالَ نَعَمْ قَال أَنَسٌ فكَانَ عَبْدُ اللّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ الثّلاثِ اللّيَالِي فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِن اللّيْلِ شَيْئاً غيرَ أَنّهُ إذا تَعارَّ مِنَ اللَّيْلِ ذَكَرَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ وكَبَّرَ ، حتّى قَامَ لِصَلاَةِ الفَجْرِ .

قَالَ عبْدُ الله غَيْرَ أَنِّيْ لَم أَسْمَعْهُ يَقُولُ إلاّ خَيْراً فَلَمَّا مَضَتْ الثّلاثُ اللَّيالِي وكِدْتُ أنْ أحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ يا عَبْدَ اللّهِ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وبَيْنَ أبِي غَضَبٌ وَلاَ هُجْرٌ ولكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلاث مَرّاتٍ يَطْلُعُ عَلَيْكُم الآنَ رَجُلٌ مِن أهْلِ الجنّةِ فَطَلَعْتَ أنْتَ الآنَ فأرَدْتُ أنْ آوِيْ إِلَيْكَ فأنْظُرَ عَملكَ فأقْتَدِيْ بِكَ فَلَمْ أرَكَ عمِلْتَ كَبِيْرَ عَمَلٍ فَمَا الّذي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ قال مَا هُوَ إلاّ ما رَأيْتَ فَلَمَّا وَلّيْتُ دَعانِيْ فقَال ما هُوَ إلاّ ما رَأيْتَ غيْرَ أنِّي لا أجِدُ في نَفْسِي لأحَدٍ مِن المُسْلِمِيْن غِشّاً ولا حَسَداً على خَيْرٍ أعْطاهُ اللّهُ إيَّاهُ فقَالَ عبدُ الله هَذِهِ الّتِي بَلَغَتْ بِكَ رواهُ أحمد بإسناد صحِيح .

« موعظـــة »

عِبَادَ اللّهِ إن دَاءَ الحَسَدِ مِن أَعظَمِ الأَدْوَاءِ ، والإِبْتِلاءُ بِهِ مِن أَشَدِّ البَلْوَى ، يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى مَرْكَبٍ صَعْبٍ ، ويُبْعِدُهُ عنْ التَّقْوَى ، ويُرْكِبُهُ الأَهْوَاءَ فَيَظَلُّ وَيَغْوَى ، يَضِيْقُ صَدْرُ الحَسُوْدِ ويَنْفَطِرُ قَلْبُهُ إذا رَأَى نِعْمَةَ اللّهِ عَلَى أخِيْهِ المُسْلِمِ فَيُعَانِي مِن البُؤْسِ والَّلأوى ، مَا لاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يَبُثَّ مَعَهُ مَا يَجِدُهُ مِن الحُزْنِ والقَلَقِ ، وَلا يَقْدِرُ عَلَى الشَّكْوَى ، إلاّ إلَى الشَّيْطَانِ ونَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوْءِ أوْ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ في الحَسَدِ ، فَقَاتَلَ اللّهُ الحَسُوْدَ لا يَفْعَلُ الخَيْرَ ولَا يُحِبُّهُ لإِخْوانِهِ المُسْلِمين ، غَايَةُ أُمْنِيَّتِهِ زَوَالُ نِعْمَةِ اللّهِ عن عِبَادِهِ إِنَّهُ بعَمَلِهِ سَالِكُ طَرِيْقَ إبْلِيْسَ لَعَنَهُ اللّهُ ، فَمَا أوْقَعَ الشّيْطانُ في مَعْصِيَةِ اللّهِ إلاّ حَسَدُهُ لِأَبِيْنَا آدَمَ وامْتِنَاعُهُ مِنَ السُّجُودِ بَعْدَ مَا أَمَرَهُ اللّهُ ، وَمَا حَمَلَ قَابِيْلَ عَلَى قَتْلِ هَابِيْلَ إلاّ حَسَدُهُ لأخِيْهِ حَيْثُ تَقَبَّلَ اللّهُ مِنْهُ قُرْبَانَهُ الّذي أرَادَ بِهِ وَجْهَ اللّهِ والدّارَ الآخِرَةَ وَمَا مَنَعَ المُشْرِكِيْنَ والمُتْرَفِيْنَ مِن اتِّبَاعِ الرُّسُلِ إلاّ الحَسَدُ والكِبْرُ ، وَمَا حَمَلَ أَهْلَ الكِتابِ عَلَى كَرَاهَةِ الدِّيْنِ الإسلامِيّ وَصَرْفِ المُسْلِمِيْنَ عنْ كِتَابِ اللّهِ والإِيْمَانِ بِسَيِّدِ الرُّسُلِ وَخاتَمِهِمْ إلاَّ مَا ذَكَرَهُ اللّهُ عَنْهُمْ ﴿وَدَّ كَثِيْرٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوْنَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الحَقُّ﴾الآية، وقال ﷺ « الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النّارُ الحَطَبَ » الحَاسِدُ لا يُضْمِرُ إلاّ غَدْراً ولا يَعْمَلُ إلاّ شَرّاً ولا يُدَبِّرُ إلاّ مَكْراً وجُمْلَةُ القَوْلِ أنَّ الحَاسِدَ مُيَسَّرٌ لِلْعُسْرَى لا تُجْدِيْ مَعَهُ المَوَاعِظُ والنَّصَائِحُ وَقَدْ قِيْلَ إنَّ بضَاعَةَ إبْلِيْسَ خَمْسَةُ أَصْنَافٍ يَبِيْعُهَا مِنْ قَوْمٍ مَعْرُوْفِيْن ، وَهِيَ الحَسَدُ وأَهْلُهُ العُلَمَاءُ ، وأَهْلُ الحِرْفَةِ الوَاحِدَةِ ، أيْ كُلُّ مَنْ يَتَّفِقُ عَمَلَهُمْ مُسْلِمِين أَوْ غَيْرَ مُسْلِمِيْن ، والكِبْرُ وأَهْلُهُ الأَنْذَالُ والسَّفَلَةُ والسُّفَهَاءُ والْحَمْقَاءُ وَمَنْ لا خَيْرَ

فِيهِ مِن المُحْتَرِفِيْنَ .

والجَوْرُ والطُّغْيَانُ ، وأهْلُهُ المُلُوكُ والأُمَراءُ والوزَرَاءُ والعُظَمَاءُ ، وأعْوَانُهُمْ مِنَ الفَسَقَةِ والمُجْرِمِيْنَ ، والكَيْدُ ، وأهلُهُ النِّسَاءُ ، والنَّمَامِيْنَ والدَّلاَلِيْنَ ، والمُتَسَبِبِيْنَ وبِئْسَتِ البِضاعَةُ بِضاعَةُ الشَّيْطانِ ، ويا حَسْرَةَ المُشْتَرِيْنَ ، وَيَا نَدَامَتَهُم ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلىً عن مَوْلىً شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُوْنَ﴾ ﴿ولايَحِيْقُالمَكْرُالسّيِّءُ إِلاَّ بأهْلِهِ﴾ قِيْلَ إِنّهُ كَانَ رَجُلٌ يَغْشَى أحَدَ المُلُوْكِ فَيَقُوْمُ بِحِذاءِ المَلِكِ فيَقُولُ أحْسِنْ إلى المُحْسِنِ بإحْسَانِهِ ، فَإِن المُسِيءَ سَيَكْفِيْكَهُ إِسَاءَتُهُ ، فَحَسَدَهُ رَجُلٌ عَلَى ذَلِكَ المَقَامِ ، والكَلام فَسَعَى بِهِ إِلى المَلِكِ ، فَقَالَ إِنَّ هَذا الّذي يَقُومُ بِحِذَائِكَ وَيقُولُ وَيَقُوْلُ ما يَقُوْلُ يَزعُمُ أنَّكَ أبْخَرُ ، فقَالَ لَهُ المَلِكُ وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ عِنْدِي ، قَالَ تَدْعُوْهُ إِلَيْكَ فإِنَّهُ إِذَا دَنَا مِنْكَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى أنْفِهِ لِئَلا يَشُمُّ رَائِحَةَ البَخرِ ، فَقَالَ لَهُ انْصَرِفْ حَتَّى انْظُرَ وأتَحقَّقَ ذَلِكَ ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ المَلِكِ ، فَدَعَا الحَاسِدُ ذَلِكَ الرَّجُلَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَأطْعَمَهُ طَعَاماً فِيهِ ثُوْمٌ فَخَرَجَ الرَّجُلُ مِن عِنْدِهِ وَذَهَبَ إِلَى المَلِكِ عَلَى عَادَتِهِ وَقَامَ بِحِذاءِ المَلِكِ فَقَال أحْسِنْ إلى المُحْسِنِ بِإحْسَانِهِ فَإِنَّ المُسِيْءَ سَيَكْفِيْكَهُ إِسَاءَتُهُ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ إِدْنُ مِنّيْ ، فَدَنَا مِنْهُ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فِيْهِ ، مَخَافَةَ أنْ يَشُمَّ المَلِكُ مِنْهُ رَائِحَةَ الثُّوْمَ فَقَالَ المَلِكُ فِي نَفْسِهِ مَا أرَى فُلاَناً إِلاّ صَدَقَ ، قَالَ وَكَانَ المَلِكُ لا يَكْتُبُ بخَطِّهِ إِلاَّ بجَائِزَةٍ أوْ صِلَةٍ ، فَكَتَبَ لَهُ كِتاباً بِخَطِّهِ إِلى عامِلِهِ : قَالَ فِيْهِ إذا أتَاكَ حَامِلُ كِتَابِيْ هَذا فاذْبَحْهُ ، واسْلَخْهُ ، وأحْشُ جِلْدَهُ تِبْناً وابْعثْ بِهِ إِلَيَّ ، وأخَذَ الكِتَابَ وخَرجَ فَلَقِيَهُ الرَّجُلُ الّذي سَعَى بِهِ إِلَى المَلِكِ وَكَذَبَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ مَا هَذَا الكِتَابُ قالَ خطُّ المَلِكِ لِيْ بِهِ صِلَةٌ فَقَالَ هَبْهُ لِيْ فَقَالَ هُوَ لَكَ فأَخذَهُ ، السَّاعِيْ وَمَضَى بِهِ إِلى عَامِلِ المَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ العَامِلُ : فِي كِتَابَكَ

أَنِّيْ أَذْبَحُكَ ، وأَسْلَخُك فقَالَ إنَّ الكِتَابَ لَيْسَ لِيْ ، فَاللّهَ اللّهَ ، فِي أمْرِي حَتَّى تُراجِعَ المَلِكَ فقَالَ لَيْس لِكِتَابِ المَلِكِ مُرَاجعَةٌ فَذَبحَهُ وَسَلَخَهُ وَحشى جِلْدَهُ تِبْناً ، وأَرْسَلَهُ لِلْمَلِكِ ، ثُمّ عَادَ الرَّجُلُ إلَى المَلِكِ كَعَادَتِهِ وَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ ، فَتَعَجَّبَ المَلِكُ ، وَقَالَ لَهُ مَا فعَل الكِتَابُ ، فقَالَ لَقِيْنِي رَجلٌ هُوَ فُلانٌ فاسْتَوْهَبَهُ مِنِّيْ فَوَهَبْتُهُ لَهُ ، قَالَ لَهُ المَلِكُ إنَّهُ ذَكَرَ لِيْ أَنَّكَ تَزْعُمُ أنِّي أبْخَرُ قَالَ مَا قُلْتُ ذَلِكَ ، قَالَ فَلِمَ وَضَعْتَ يَدَكَ عَلَى فِيْكَ قَال لأنَّهُ أطْعَمَنِيْ طَعاماً فِيْهِ ثُوْمٌ فَكَرِهْتُ أنْ تَشُمَّهُ ، قَال صَدَقْتَ ، ارْجِعْ إلَى مَكَانِكَ ، فقَدْ كَفَى المُسِيءَ إسَاءَتُهُ فانْظُرْ يَا أَخِي كَيْفَ دَارَتْ عَلى البَاغِي الدَّوَائِرُ واسْأَلْ رَبَّكَ أن يُعَافِيْك مِن هَذِهِ الأمراضِ الفَتَّاكَةِ الّتي رُبَّمَا قَضَتْ على حَيَاتِهِ وَأَوْصَلَتْهُ فِي الآخِرَةِ نَارَ جَهَنَّمَ .

وخِتَاماً فَعَلى اللَّبِيْبِ أَنْ يَتَجَنَّبَ الحَسَدَ فإنَّهُ مِن خُلُقِ الأدْنِيَاء وصِفَةِ الجُهَلاءِ فإنْ أبْصرْتَ بقائِمٍ بالحَقِّ فاعْضُدْهُ وَيَسِّرْ لَهُ السَّبِيلَ حَسَبَ اسْتِطَاعَتِك وإنْ رَأَيْتَ نِعْمَةً أسْبَغَهَا اللّهُ عَلَى عَبدٍ مِن عِبادِهِ فاسْعَ إلَى مِثْلِهَا بِقَلْبٍ طَاهِرٍ وَوِجْدَانٍ نَقِيٍ لعلّكَ أنْ تَبْلُغَهَا بإذْنِ اللّهِ .

فَعَزِيْزُ النَّفْسِ إنْ أَبْصَرَ غَيْرَهُ فِي أَمْرٍ يُثْنَى عَلَيْهِ بِهِ ، أَوْ رَآهُ فِي مَنْزِلَةٍ يُغْبَطُ عَلَيْهَا فَلا يَجُوْلُ فِي وَهْمِهِ أنْ يَحْسِدَهُ عَلَى نِعْمَتِهِ أوْ يَحُطَّ مِن مَنْزِلَتِهِ بَلْ يَسْعَى كُلَّ السَّعْيَ لِيَنَالَ مِثْلَ مَنَالِهِ وَيَرْقَى مِثْلَ رُقِيِّهِ فإنْ زَادَتْ فِيهِ عِزَّةُ النَّفْسِ والإباءِ فَلَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ إلاّ بِمَا فَوْقَ ذَلِكَ المَقَامِ :

شعرا :

أَسَأْتُ فَمَا عُذْرِيْ إذَا انْكَشَفَ الغِطَا
وأَظْهَرَ رَبُّ العَرْشِ مَا أنَا أسْتُرُ

إِذَا اللّهُ نَادَانِي بِيَوْمِ قِيَامَةٍ
تَعَدَّيْتَ حَدَّ العِلْمِ هَلْ أَنْتَ تُوْجَرُ
أَسَأْتَ إِلَى خَلْقِي وَحَقِّي تَرَكْتَهُ
فَأَيْنَ الحَيَا مِنِّي فَإِنِّي أَكْبَرُ
دَعَوْتَ إِلى عِلْمٍ وأَظْهَرْتَ حِكْمَةً
وأَنْتَ عَلى الدُّنْيَا عَكُوفٌ مُشَمِّرُ
وَخَالَفْتَ ما قَدْ قُلْتَ وازْدَدْتَ غَفْلَةً
وَقَلْبُكَ لِلَّذَاتِ والغِشِّ يُضْمِرُ
ظَنَنْتَ بأَنِّي مُهْمِلٌ لِامْرِءٍ عَصَى
كَأَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ بأَنَّكَ تُحْشَرُ
هُنَالِكَ يَمْتَازُ المُسِيْؤُنَ كُلُّهُمْ
فَوَحَسْرَتَا إِنْ كُنْتُ مِمَّنْ يُحَسَّرُ
فَيَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا خَيْرَ رَاحِمٍ
ومَنْ هُوَ لِلزَّلَاتِ والذَّنْبِ يَغْفِرُ
عَصَيْتُكَ مِنْ لُؤمِي ونَفْسِي ظَلَّمْتُهَا
وَذنْبِيَ فِي عُمْرِي يَزِيدُ وَيَكْثُرُ
وَلَكِنَّنِي إنْ جِئْتُ ذَنْباً وَزَلَّةً
أُرَجِيْكَ يَا رَحْمَنُ لِلْوَهْنِ تَجْبُرُ
وَتَغْفِرُ لِي ذَنِبِيْ وتُصْلِحُ عِيْشَتِيْ
وتَرْحَمُ آبَائِي فَإِنَّكَ تَقْدِرُ
وَأَرْجُوكَ يَا رَحْمَنُ إِذْ مَا سَتَرتَنِي
بدُنْيَايَ في يَوْمِ القِيَامَةِ تَسْتُرُ

اللّهُمَّ حَبّبْ إلَيْنا الإيْمانَ وَزَيِّنْهُ في قُلوبِنا وكَرِه إلَيْنا الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصْيانَ واجْعَلنا مِنَ الرّاشِدِين وَاغْفِرْ لَنا ولِوالِديْنا وجمِيْع المُسْلمينَ برحْمتِكَ يا أرحَمَ الرّاحِمِيْن وصلّى الله على محمّد وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمَعِين .

« موعظـــة »

إخْوَانِي إنّ فِي مَوَاعِظِ الأَيَّامِ واللَّيَالِي لَعِبْرَةً لِذَوِيْ البَصَائِرِ رَكَائِبُ أمْوَاتٍ تُزْعَجُ عن مَقْصُوْرَاتِ القُصُوْرِ ثُمَّ تُحْمَلُ إلى مَضَائِقِ القُبُورِ ، فَكَمْ قَدْ شَاهَدْتُمْ مِنْ شَخْصِيَّاتٍ في الأَرْضِ ، قَدْ وُضِعَتْ ، وكَمْ قَدْ عَايَنْتُمْ مِنْ أبْدَانٍ نَاعِمَةٍ في الأكْفانِ قَدْ لُفَّتْ وإلَى مَضِيْقِ الأَلْحَادِ قَدْ زُفَّتْ فَيا لَهَا مِنْ غَايَةٍ يَسْتَبِقُ إلَيْهَا العِبَادُ وَيَا لَهُ مِنْ مِضْمَارٍ يَتَنَاوَبُهُ جَوَادٌ بَعْدَ جَواد وَيَا لَهُ مِنْ هَوْلٍ شَدِيْدٍ يَعْقِبُهُ أَهْوَالٌ شِدَادٌ فِتْنَةُ قُبُوْرٍ وَحَشْرٌ في مَوْقِفٍ مَهِيْلٍ مَوْقِفٌ فِيهِ تَنْقَطِعُ الأَنْسَابُ وَتَخْضَعُ فِيهِ الرِّقَابُ وتَنْسَكِبُ فِيهِ العَبَراتُ وتَتَصَاعَدُ فِيهِ الزَّفَراتُ ذَلِكَ مَوْقِفٌ تُنْشَرُ فِيْهِ الدَّوَاوِيْنُ ، وتُنْصَبُ فِيهِ المَوازِيْنُ ، وَيُمَدُّ فِيهِ الصِّرَاطُ ، وحِيْنَئِذٍ يَقَعُ الامْتِيَازُ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ومُكَرْدَسٌ في النّار .

دَخَلَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ رحِمَهُ اللّهُ على سابِقِ البَرْبَرِي وهُوَ يَتَمَثَّلُ بالأَبْيَاتِ المَشْهُوْرَةُ مِن قَصِيْدَةِ الأعْشَى .

أجِـدَّكَ لَمْ تَـذْكُـرْ وِصَاةَ مُحَمَّـدٍ
نَبِيّ الإلَـهِ حِيْنَ أوْصَى وأشْهَـدَا
إذا أنْتَ لَمْ تَـرْحَلْ بـزَادٍ مِنَ التُّقَى
وأبْصَرْتَ بَعْدَ المَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا

نَـدِمْتَ عَلَى أنْ لاَ تَكُـوْنَ كَمِثْلِهِ
وَأَنَّـكَ لَمْ تُرْصِـدْ كَمَا كَـانَ أَرْصَدَا

فَغُشِيَ عَلَى عُمَرَ رَحِمَهُ اللّهُ فَلَمَّا أفَاقَ قَالَ زِدْنَا فقَالَ القَصِيْدَة الّتِيْ تَلِي

بِسْمِ الّذِي أَنْزِلَتْ مِنْ عِنْـدِهِ السُّوَرُ
الْحَمْـدُ لِلّهِ أَمَّـا بَعْـدُ يَـا عُمَـرُ
إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَـا تُبْقِي وَمَا تَـذَرُ
فَكُنْ عَلَى حَـذَرٍ قَـدْ يَنْفَـعُ الحَـذَرُ
واصْبِرْ عَلَى القَدَرِ المَقْدُوْرِ وارْضَ بِهِ
وإنْ أتَـاكَ بِمَـا لاَ تَشْتَهِي القَـدَرُ
فَمَـا صَفَى لامْـرِىءٍ عَيْشٌ يُسَـرُّ بِـهِ
إلَّا وأعْـقِبَ يَـوْمـاً صَـفْـوُهُ كَـدَرُ
قد يَرعَوِي المَرْءُ يَـوْماً بَعْـدَ هَفْوَتِـهِ
وتُحْكِمُ الجَـاهِـلَ الأَيَّـامُ والعِبَـرُ
إنَّ الـتُّقَـى خَيْـرُ زَادٍ أَنْـتَ حَـامِلُهُ
والبِّـرُّ أَفْضَـلُ مَـا تَـأْتِي وَمَـا تَـذَرُ
مَن يَطْلُبِ الجوْرَ لاَ يَـظْفُرْ بحَـاجَتِهِ
وطَالِبُ العَدْلِ قَدْ يُهْدَى لَـهُ الظَّفَـرُ
وفي الهُدَى عِبَرٌ تُشْفَى القُلُوبُ بِهـا
كـالغَيْثِ يَحْيَى بِهِ مِنْ مَـوْتِهِ الشَّجَـرُ
وَلَيْسَ ذُوْ العِلْمِ بـالتَّقْوَى كَجَـاهِلِهَا
ولا البَصِيـرُ كـأعْمَى مَـالَـهُ بَصَـرُ

والـذِّكْـرُ فِيْـهِ حَيَـاةٌ لِلْقُلُوبِ كَمَـا
تَحْيَـا البِلادُ إِذَا مَـا جَـاءَهَـا المَـطَرُ
والعِلْمُ يَجْلُو العَمَى عن قَلْبِ صَاحِبه
كمَـا يُجَلِّي سَـوادَ الـظُّلمَـةِ القَمَـرُ
لا يَنْفَـعُ الـذِّكْـرُ قَلْبـاً قَـاسِيـاً أَبَـدَا
وهَـلْ يَلِيْنُ لِقَـوْلِ الـواعِظِ الحَجَـرُ
ما يَلْبَثُ المَرْءُ أَنْ يَبْلَى إِذَا اخْتَلَفت
يَـوْماً على نَفْسِـهِ الرَّوْحَـاتُ والبِكَـرُ
والمَـرْءُ يَصْعَـدُ رَيْعَـانُ الشَّبَـابِ بِـه
وكُـلُّ مُصْعِـدَةٍ يَـوْمـاً سَتَنْحَـدِرُ
وكُـلُّ بَيْتٍ سَيَبْـلَى بَعْـدَ جِـدَّتِـهِ
ومِن وَرَاءِ الشَّبَـابِ المَـوْتُ والكِبَـرُ
والمَوْتُ جِسْرٌ لِمَنْ يَمْشِيْ على قَدَم
إِلَى الأُمُـورِ الّتِي تُخْـشَى وتُـنْتَـظَرُ
فَهُمْ يَمُـرُّونَ أَفْـوَاجـاً وتَجْـمَعُـهُمْ
دَارٌ يَصِيْـرُ إِلَيْهَـا البَـدْو والحَـظَرُ
كَمْ جَمْعُ قَوْمٍ أَشَتَّ الدّهرُ شَمْلَهُمْ
وَكُـلُّ شَمْـلٍ جَمِيْـعٍ سَـوْفَ يَنْتَثِـرُ
وَرُبَّ أَصْيَـدَ سَـامَ الـطَّرْفِ مُقْتَضِبـاً
بـالتّـاج نِيْـرانُـه لِلْحَـرْبِ تُسْتَعَـرُ
يَـظَلُّ مُفْتَـرِشَ الـدِّيْبَاجِ مُحْتَجِبـاً
عَلَيْـهِ تُبْنِى قِبَـابُ المُلْكِ والحُجَـرُ

إلَى الفَنَـاءِ وإنْ طَـالَتْ سَـلاَمَتُهُمْ
مَصِيْـرُ كُـلِّ بَنِي أنثى وإنْ كَبُـرُوا
إذا قَـضَتْ زُمَـرٌ آجـالَـهـا نَـزَلَتْ
علَى مَنَـازِلِهِمْ مِـنْ بَعـدِهَـا زُمَـرُ
أَصْبَحْتُمْ جُـزُراً لِلْمَـوْتِ يَـأْخُذُكُمْ
كَمَـا البَهَائِمُ فِي الـدُّنْيا لَكُمْ جُـزُرُ
أَبَعْـدَ آدَمَ تَـرْجُـونَ الخُلُودَ وهَـلْ
تَبْقَى الفُـروعُ إذا مَا الأصْـلُ يَنْعَقِـرُ
وَلَيْسَ يَـزْجُـرُكُمْ مَـا تُـوعَـظُونَ بِـه
والبَهْمُ يَـزْجُـرُهَـا الـرَّاعِي فَتَنْـزَجِـرُ
لا تَبـطُرُوْا واهْجُروا الـدُّنْيا فـإنَّ لَها
غِبـاً وخِيْماً وكُفْـرُ النِّعْمَـةِ البَـطَرُ
ثُمّ اقْتَدُوا بالأُوْلَى كَـانُوا لَكُمْ غُـرَراً
ولَـيْسَ مِـن أُمَّـةٍ إلَّا لَـهَـا غُـرَرُ
مَتَى تَكُـونُـوا على مِنْهَـاجِ أَوَّلِكُمْ
وتَصْبِرُوا عَن هَوَى الدُّنْيَا كَمَا صَبَرُوا
مَـالِيْ أَرَى النَّـاسَ والـدُّنْيَا مُـوَلِّيَةٌ
وَكُـلُّ حَبْـلٍ عَلَيْهَـا سَـوْفَ يَنْبَتِـرُ
لا يَشْعُـرُونَ إِذَا مَـا دِيْنَهُم نُقِصُـوا
يـوْمـاً وإنْ نُقِصَتْ دُنْيَـاهُم شَعِـرُوا
حَتّى مَتَى أَكُ في الدُّنْيا أَخـا كَلَفٍ
في الخَـدِّ مِنّي إلى لَـذّاتِهـا صَعَـرُ

ولا أرى أثَـراً لِلذِّكْـرِ في جَسَـدِي
والحَبْلُ في الحَجَرِ القَـاسِي لَهُ أَثَـرُ
لَـوْ كَـانَ يُسْهِـر لَيْلِي ذِكْـرُ آخِـرتِي
كَمَـا يُؤرِّقِني لِلْعـاجِـلْ السَّـفَـرُ
إذاً لَـدَاوَيْتُ قَلْباً قَـدْ أضَـرَّ بِـهِ
طُـولُ السِّقامِ وكَسْـرُ العَظْمِ يَنْجَبِـرُ
ثُمَّ الصَّـلاةُ على المَعْصُومِ سَيِّـدِنَـا
ما هَبَّت الرِّيْحُ واهْتَزَّتْ بِهَـا الشَّجَرُ

اللهم ثبت إيماننا ثبوت الجبال الراسيات واشرح صدورنا للإسلام وثبتنا عليه واجعلنا من حزبك المفلحين وعبادك الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصـــل »

قال ابن القيم رحمه الله :

أركانُ الكُفْرِ أربعةٌ : الكِبْرُ والحَسَدُ والغضَبُ والشّهوةُ فالكِبْرُ يَمْنَعُهُ الانْقِيَادَ . والحَسَدُ يَمْنَعُهُ قَبُوْلَ النَّصِيْحَةِ وَبَذْلَهَا والغضَبُ يَمْنَعُهُ العَدْلَ . والشَّهْوَةُ تَمْنَعُهُ التَّفَرُّغَ لِلْعِبَادَةِ فإن انْهَدَمَ رُكْنُ الكِبْرِ سَهُلَ عَلَيْهِ الانْقِيَادُ وإذا انْهَدَمَ رُكْنُ الحَسَدِ سَهُلَ عَلَيْهِ قَبُوْلُ النُّصحِ وَبَذْلُهُ وإذا انْهَدَمَ رُكْنُ الغَضَبِ سَهُلَ عَلَيْهِ العَدْلُ والتَّوَاضُعُ وإذا انْهَدَمَ رُكْنُ الشَّهْوَةِ سَهُلَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ والعَفَافُ والعِبَادَةُ .

وَزَوَالُ الجِبَالِ عَنْ أمَاكِنِهَا أَيْسَرُ مِن زَوَالِ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ عَمَّنْ بُلِيَ بِهَا ولا

سِيَّمَا إذا صَارَتْ هَيْئاتٌ رَاسِخَةٌ ومَلَكَاتٌ وَصِفَاتٌ ثَابِتَةٌ فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَقِيْمُ لَهُ مَعَهَا عَمَلٌ البَتَّة . ولا تزْكُو نَفْسُهُ مَعَ قِيَامِهَا بِهَا ، وكُلَّمَا اجْتَهَدَ في العَمَلِ أَفْسَدَتْهُ عَلَيْهِ هَذِهِ الأَرْبَعَةُ وكُلُّ الآفاتِ مُتَوَلِّدَةٌ مِنْها وإِذا اسْتَحْكَمَتْ في القَلْبِ أَرَتْهُ البَاطِلَ فِي صُوْرَةِ الحَقِّ والحَقُّ في صُوْرَةِ البَاطِلِ والمَعْرُوْفَ فِي صُوْرَةِ المُنْكَرِ والمُنْكَرَ في صُوْرَةِ المَعْرُوْفِ وَقَرَّبَتْ مِنْهُ الدُّنْيَا وبَعَّدَتْ مِنْهُ الآخِرَةَ .

وإذا تَأَمَّلْتَ كُفْرَ الأُمَمِ رَأَيْتَهُ نَاشِئاً مِنْهَا وَعَلَيْهَا يَقَعُ العَذَابُ وتَكُونُ خِفَّتُهُ وَشِدَّتُهُ بِحَسَبِ خِفَّتِهَا وَشِدَّتِهَا فَمَنْ فَتَحَها عَلى نَفْسِهِ فَتَحَ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الشُّرُوْرِ كُلِّهَا عَاجِلاً وآجِلاً ، ومَنْ أَغْلَقَهَا عَنْ نَفْسِهِ أَغْلَقَ عَنْهُ أَبْوابَ الشُّرُوْرِ ، فَإِنَّهَا تَمْنَعُ الانْقِيَادَ والإِخْلاَصَ والتَّوبَةَ والإِنابَةَ وقَبُولَ الحَقِّ ونَصيحةَ المُسلمين والتَّواضُع لِلّهِ ولِخَلْقِهِ .

(ومَنْشَأُ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ) : مِنْ جَهْلِهِ بِرَبِّهِ وَجَهْلِهِ بِنَفْسِهِ فإِنَّهُ لَوْ عَرَفَ رَبَّهُ بِصِفَاتِ الكَمَالِ ونُعُوتِ الجَلالِ . وَعَرَفَ نَفْسَهُ بالنَّقَائِصِ والآفاتِ ، لَمْ يَتَكَبَّرْ ولم يَغْضَبْ لَهَا ، ولَمْ يَحْسُدْ أَحَداً عَلَى مَا آتَاهُ اللّهُ ، فَإِنَّ الحَسَدَ فِي الحَقِيْقَةِ نَوْعٌ مِن مُعَادَاةِ اللّهِ ، فَإِنَّهُ يَكْرَهُ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَى عَبْدِهِ ، وَقَدْ أَحَبَّهَا اللّهُ ويُحِبُّ زَوَالَهَا عَنْهُ ، واللّهُ يَكْرَهُ ذَلِكَ ، فَهُوَ مُضَادٌّ لِلّهِ فِي قَضَائِهِ وقَدَرِهِ ومَحَبَّتِهِ وَكَرَاهَتِهِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ إِبْلِيْسُ عَدُوَّهُ حَقِيْقَةً ، لأَنَّ ذَنْبَهُ كَانَ عَن كِبْرٍ وَحَسَدٍ . فَقَلْعُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بمَعْرِفَةِ اللّهِ وَتوْحِيْدِهِ ، والرِّضَا بِهِ وَعَنْهُ ، والإِنَابَةِ إِلَيْهِ ـ وَقَلْعُ الغَضَبِ بمَعْرِفَةِ النَّفْسِ ، وأنّها لا تَسْتَحِقُّ أَنْ يُغْضَبَ لَهَا ، وَيَنْتَقِمَ لَهَا فإِنَّ ذَلِكَ إِيْثَارٌ لَهَا بِالرِّضَا والغَضَبِ عَلَى خَالِقِهَا وَفَاطِرِهَا وأَعْظَمُ مَا تُدْفَعُ بِهِ هَذِهِ الآفَةُ أَنْ يُعَوِّدَهَا أَنْ تَغْضَبَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَرْضَى لَهُ فَكُلَّما دَخلَها شَيْءٌ مِنَ الغَضَبِ والرِّضَا لَهُ خَرَجَ مِنْهَا مُقَابِلُهُ مِنَ الغَضَبِ والرِّضَا لَهَا وكَذَا بالعَكْسِ .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللّهُ : أَسَاسُ كُلِّ خَيْرٍ أنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَا شَاءَ اللّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَـأْ لَمْ يَكُنْ ، فَتيَقَّنْ حِيْنَئِذٍ أَنَّ الحَسَناتِ مِن نِعَمِهِ فَتشْكُرُهُ عَلَيْها ، وَتتَضَرَّعُ إِلَيْهِ أنْ لا يَقْطَعَهَا عَنْكَ ، وأَنَّ السَّيِّئاتِ مِن خُذْلانِهِ وعُقوبَتِهِ ، فَتَبْتَهِلُ إِلَيْهِ أنْ يَحُولَ بَيْنكَ وَبَيْنَهَا ، وَلا يَكِلَكَ فِي فِعْلِ الحَسَنَاتِ وتَرْكِ السَّيِّئاتِ إلى نَفْسِكَ وَقَدْ أَجْمَعَ العَارِفُونَ على أنَّ كُلَّ خَيْرٍ أَصْلُهُ بتَوْفِيْقِ اللّهِ لِلْعَبْدِ وَكُلُّ شَرٍّ أَصْلُهُ خُذْلانُهُ لِعَبْدِهِ وأجْمَعُوا عَلَى أَنَّ التَّوْفِيْقَ أنْ لَا يَكِلَكَ اللّهُ إلى نَفْسِكَ وأنْ الخُذْلانَ هُوَ أنْ يُخَلِّيْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ فإذا كَانَ كُلُّ خَيْرٍ فأصْلُهُ التَّوْفِيْقُ وهُوَ بِيَدِ اللّهِ لَا بِيَدِ العَبْدِ فَمِفْتَاحُهُ الدُّعَاءُ والرَّغْبَةُ والرَّهْبَةُ إليْهِ فَمَتَى أعْطِيَ العَبْدُ هَذا المِفْتَاحَ فَقَدْ أرَادَ أنْ يَفْتَحَ لَهُ وَمَتَى أَضَلَّهُ عَنْ المِفْتَاحِ بَقِيَ بَابُ الخَيْرِ مُرْتجاً دُوْنَهُ ، وَقَالَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنُ الخَطّابِ إنّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الإجَابَةِ ولَكِنْ هَمَّ الدُّعاء فإذا أُلْهِمْتَ الدُّعَاءَ فإنْ الإجَابَة مَعَهُ وَعَلى قَدْرِ نِيَّةِ العَبْدِ وهِمَّتِهِ ومُرَادِهِ ورَغْبَتِهِ فِي ذَلِكَ يَكُوْن تَوْفِيْقه سُبْحَانَهُ وإعَانَتُهُ فالمَعُوْنَةُ مِن اللّهِ تَنْزِلُ عَلَى العِبَادِ عَلَى قَدْرِ هِمَمِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ وَرَغْبَتِهِمْ وَرَهْبَتِهِمْ والخُذْلَانِ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ فَاللّهُ سُبْحَانَهُ أَحْكَمُ الحَاكِمِيْنَ ، وَأَعْلَمُ العَالِمِيْنَ يَضَعُ التَّوْفيْقَ فِيْ مَوَاضِعِهِ اللَّائِقَةِ بِهِ والخُذْلَان في مَوَاضِعِهِ اللَّائِقَة بِهِ ، وَهُوَ العَلِيْمُ الحَكِيْمُ وَمَا أُتِيَ مَنْ أتِيَ إلَّا مِنْ قِبَلِ إضَاعَةِ الشُّكْرِ وإهْمَالِ الافْتِقَارِ والدُّعَاءِ ولا ظَفِرَ بِمَشِيْةِ اللّهِ وَعَوْنِه إلَّا بِقِيَامِهِ بالشُّكْرِ وَصِدْقِ الافتقارِ والدُّعَاءِ وملاكُ ذَلِكَ الصَّبْرُ فَإِنَّهُ مِن الإِيمانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ فَإذا قُطِعَ الرَّأْسُ فَلَا بَقَاءَ لِلْجَسَدِ .

عَلَيْـكِ بِتَقْوى اللّهِ يَـا نَفْسُ سَرْمَـدَا
ولا تُلْحِقِي بـالخَلْقِ ضُـرّاً تَعَمُّـدَا

ولا تَحْسِدِي حَيّاً وَلَوْ جَارَ واعْتَدَى
عَليكِ فَمَا يَحْيَى البُغَاةُ مُخَلَّدَا
تَدُوْرُ على البَاغِي الدَّوَائِرُ عَنْوةً
ويحيى سَعِيْدَ ذُو الفَضِيْلةِ أمْجَدَا
وكُلُّ حَسُودٍ يَنْخَرُ الحِقْدُ قَلْبَهُ
يَذُوْبُ كَشَمْعٍ فِي سَعِيْرٍ تَوَقَّدَا
يَعِيْشُ ونَارُ الغَيْضِ تُحْرِقُ كَبْدَهُ
وإِن مَاتَ أضْحَى الجَمْرُ فيهِ مُجَدَّدَا
فجازِ أخَا فَضْلٍ وَرَاعِ ذِمَامَهُ
وسَامِح عَدُوّاً إن قَلاَكَ وَنَدَّدَا
فَإِنّي رَأَيْتُ الفَضْلَ خَيْرَ ذَخِيْرَةٍ
لِمَنْ رَامَ قَبْلَ المَوْتِ أَنْ يَتَزَوَّدَا

اللّهُمّ اسْتِر عوْراتنا وأمِّنْ رَوَعاتِنَا واحْفَضْنا مِن بين أيدينا ومِن خلفنا وعن ايماننا وعن شَمائِلنا ونعوذُ بعظَمَتِكَ أن نغتالَ مِن تَحْتِنا واغْفِرْ لَنا ولِوالدينا ولِجميع المُسلمين يا أرحَمَ الرّاحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبِهِ أجمَعِين .

اللّهُمَّ اجْعلنا مِمَّنْ أفاقَ لِنَفسه وفاقَ بالتّحفظِ أبناءَ جِنسِه وأَعَدَّ عُدَّةً تصلحَ لِرمْسِهِ واستدركَ في يَومِهِ ما ضيعَهُ في أمسِه واغفِر لنا ولوالِدِيْنا ولجميع المُسلمين الأحْياء مِنهم والميتين برحمتِكَ يا أرحَمَ الرّاحِمِين وصلى الله على محمد وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين .

(قال في منهاج القَاصِدِيْن)

[فصل] إعْلَم أَنَّ القَلْبَ بأَصْلِ فِطْرَتِهِ قَابِلٌ لِلْهُدَى ، وبِمَا وُضِعَ فِيْهِ مِنَ الشَّهْوَةِ والهَوَى ، مَائِلٌ عنْ ذَلِكَ ،والتَّطارُدُ فِيْهِ بَيْنَ جُنْدِ المَلائِكَةِ والشَّياطِيْنِ دائِمٌ ، إلى أَنْ يَنْفَتِحَ القَلْبُ لأَحَدِهِمَا فيَتَمكَّنُ ، ويَسْتَوْطِنُ ، ويَكُونُ اخْتِيَارُ الثَّانِي اختِلَاساً ، كَمَا قَال تَعالى ﴿مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ﴾ وهُوَ الّذِي إذا ذُكِرَ اللّهُ خَنسَ وإذا وقَعتِ الغَفْلَة انْبَسَطَ ، ولا يَطْرُدُ جُنْدَ الشَّيَاطِيْنِ مِنَ القَلْبِ إلا ذِكْرُ اللّهِ تَعالى ، فإِنَّهُ لا قَرارَ لَهُ مَعَ الذِّكْرِ . واعْلَمْ أَنَّ مَثَلُ القَلْبِ كَمَثَلِ حِصْنٍ ، والشّيطانُ عَدُوٌّ يُرِيْدُ أن يَدْخُلَ الحِصْنَ ويَمْلِكَهُ ويَسْتَوْلِي عَلَيْهِ ، ولا يُمْكِنُ حِفْظُ الحِصْنِ إلاَّ بِحِرَاسَةِ أبْوابِهِ ، ولا يَقْدِرُ عَلَى حِرَاسَةِ أَبْوابِهِ مَن لَا يَعْرِفُهَا وَلَا يُتَوصَّلُ إلى دَفْعِ ، الشَّيْطانِ إلَّا بِمَعْرِفَةِ مَدَاخِلِهِ ، وَمَدَاخِلُ الشّيطان وأبوابُهُ . . صِفاتُ العَبْدِ ، وهِيَ كَثِيْرَةٌ إلَّا أَنَّا نُشِيْرُ إلى الأَبْوَابِ العَظِيْمَةِ الجَارِيَةِ مَجْرَى الدُّرُوْبِ الّتِي لا تَضِيْقُ عن كَثْرَةِ جُنُوْدِ الشّيْطانِ .

فَمِنْ أَبْوابِهِ العَظِيْمَةِ : الحَسَدُ ، والحِرْصُ . فَمَتَى كَان العَبْدُ حَرِيصاً علَى شَيْءٍ ، أَعْمَاهُ حِرْصُهُ ، وأَصَمَّهُ ، وغَطَّى نُورَ بَصِيْرَتِهِ الّتي يَعْرِفُ بِهَا مَدَاخِلَ الشَّيْطانِ . وكَذَلِكَ إذا كَانَ حَسُوْداً فَيَجِدُ الشّيطانُ حِيْنَئِذٍ الفُرْصَةَ ، فَيُحُسِّنُ عِنْدَ الحَرِيْصِ كُلَّ مَا يُوْصِلُهُ إلى شَهْوَتِهِ ، وإنْ كَانَ مُنْكراً أَوْ فاحِشاً ، ومِنْ أَبْوابِهِ العَظِيْمَةِ .

الغَضَبُ ، والشَّهْوَةُ ، والحِدَّةُ فإِنَّ الغَضَبَ غُوْلُ العَقْلِ ، وإذا ضَعُفَ جُنْدُ العَقْلِ هَجَمَ حِيْنَئِذٍ الشّيطانُ فَلَعِبَ بِالإِنْسانِ . وقَد رُوِيَ أَنَّ إِبْلِيْس يقُولُ : إذا كانَ العَبْدُ حَدِيْداً ، قَلَبْنَاهُ كَمَا يَقْلِبُ الصّبيان الكرة .

ومِنْ أبْوابِهِ : حُبُّ التَّزَيُّنِ في المَنْزِلِ ، والأَثَاثِ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو إلى عِمَارَةِ الدّارِ ، وتَزْيينِ سُقُوفِها وحِيْطَانِها ، والتَّزَيُّن بالثِّيَابِ ، والأثاثِ ، فيَخْسَرُ الإنْسانُ طُولَ عُمُرِهِ في ذلِكَ . ومِنْ أبْوابِهِ : الشِّبَع فإنَّهُ يُقَوِّي الشَّهْوَةَ ، وَيُشْغِلُ عن الطَّاعةِ . ومِنْها الطَّمَعُ في النّاسِ ، فإنَّ مَنْ طَمِعَ في شَخْصٍ ، بالَغَ بالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِما لَيْسَ فِيهِ ، وداهَنَهُ ولَمْ يأمُرْهُ بالمَعْرُوْفِ ، ولَمْ يَنْهَهُ عنْ المُنْكَرِ . ومِنْ أبْوابِهِ : العَجَلَةُ ، وتَرْكُ التَّثَبُّتِ وقَدْ قَالَ النّبِيُّ ﷺ : « العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطانِ ، والتَّأنّي مِن اللّهِ تَعالى » . ومِنْ أبْوابِهِ : حُبُّ المَالِ ، ومَتَى تَمكَّنَ مِن القَلْبِ أفْسَدَهُ وحَمَلَهُ على طَلَبِ المَالِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ ، وأخْرَجَهُ إلى البُخْلِ وَخَوَّفَهُ الفَقْرَ فَمنَعَ الحُقُوقَ اللاّزِمَةَ . ومِنْ أبْوابِهِ : حَمْلُ العَوامِّ عَلَى التَّعَصُّبِ في المَذَاهِبِ ، دُوْنَ العَمَلِ بمُقْتَضَاهَا ومِنْ أبْوَابِهِ أيْضاً حَمْلُ العَوَّامِ عَلَى التَّفَكُّرِ في ذاتِ اللّه تعالَى ، وصِفَاتِهِ ، وفي أُمورٍ لا تَبْلُغُهَا عُقُولُهُمْ حتَّى يُشَكِّكُهمْ في أصْلِ الدِّيْنِ . ومِن أبْوابِهِ : سُوْءُ الظَّنِّ بالمُسْلِمِيْنَ فإن مَنْ حَكَمَ على مُسْلِمٍ بِسُوْءِ ظَنِّهِ ، احْتَقَرَهُ وأطلَقَ فِيهِ لِسَانَهُ ، ورَأَى نَفْسَهُ خَيْراً مِنْهُ . وإنّما يَتَرَشَّحُ سُوءُ الظَّنِّ بِخُبْثِ الظَّانِ ، لأنَّ المُؤْمِنَ يَطْلُبُ المَعَاذِيْرَ لِلْمُؤْمِنِينَ والمُنَافِقَ يَبْحَثُ عن عُيُوبِهِمْ .

ويَنْبَغِي للإنْسَانِ أنْ يَحْترِزَ عَن مَوَاقِفِ التُّهَمِ ، لِئَلَّا يُسَاءَ بِهِ الظَّنُّ ، فهَذَا طَرَفٌ مِنْ مَدَاخِلِ الشّيْطانِ وعِلاَجُ هَذِهِ الآفاتِ سَدُّ المَدَاخِلِ بِتَطْهِيْرِ القَلْبِ مِنَ الصِّفَاتِ المَذْمُوْمَةِ ، وَسَيَأْتِيْ الكَلامُ عَلَى هَذِهِ الصِّفاتِ إن شَاءَ اللّهُ تَعالى مُفَصَّلاً .

وإذا قُلِعَتْ عَن القَلْبِ أصوْلَ هَذِهِ الصِّفات ، بَقِيَ لِلشَّيْطَانِ بالقَلْبِ خَطَرَاتٌ واجْتِيَازَاتٌ مِنْ غَيْرِ اسْتِقْرَارٍ فَيَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرُ اللّهِ تَعالَى ،

وَعِمَارَةُ القَلْبِ بِالتَّقْوى . وَمَثَلُ الشيطانِ كَمَثَلِ كَلْبٍ جَائِعٍ يَقْرُبُ مِنْكَ ، فإِنْ لَم يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْكَ لَحْمٌ وَخُبْزٌ ، فإِنَّهُ يَنْزَجِرُ بأَنْ تَقُولَ لَهُ : إِخْسأْ ، وإِنْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ جَائِعٌ ، لَمْ يَنْدَفِعْ عَنْكَ بِمُجَرَّدِ الكَلَامِ ، فَكَذَلِكَ القَلْبُ الخَالِيْ عن قُوْتِ الشَّيْطَانِ يَنْزَجِرُ عَنْهُ بِمُجَرَّدِ الذِّكْرِ . فَأَمَّا القَلْبُ الّذي غَلَبَ عَلَيْهِ الهَوَى فإِنَّهُ يُرْفع الذِّكْرَ إِلى حَوَاشِيْهِ فَلَا يَتمَكَّنُ الذِّكْرُ مِنْ سُوَيْدَائِهِ ، فَيَسْتَقِرُّ الشَّيْطَانُ في السُّوَيْدَاءِ . وإِذا أَرَدْتَ مِصْدَاقَ ذَلِكَ ، فَتَأَمَّلْ فِي صَلَاتِكَ ، وانْظُرْ الى الشَّيْطانِ كَيْفَ يُحَدِّثُ قَلْبَكَ في مِثْلِ ذَلِكَ المَوْطِنِ ، بِذِكْرِ السُّوْقِ ، وحِسَابِ العَالَمِيْنَ ، وتَدْبِيْرِ أَمْرِ الدُّنْيَا واعْلَمْ أَنَّهُ قَد عُفِيَ عن حَدِيْثِ النَّفْسِ وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَا هَمَمْتَ بِهِ ، وَمَن تَرَكَ ذلِكَ خَوْفاً مِنَ اللّهِ تَعَالَى كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، وإِنْ تَرَكَهُ لِعَائِقٍ رَجَوْنا لَهُ المُسَامَحَةَ ، إِلا أَنْ يَكُونَ عَزْماً ، فإِنَّ العَزْمَ عَلَى الخَطِيْئَةِ خَطِيْئَةٌ بِدَلِيْلِ قَوْلِهِ ﷺ : « إِذا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفيْهِمَا فَالقَاتِلُ والمَقْتُولُ فِي النَّارِ ، قِيْلَ : ما بَالُ المَقْتُولُ ؟ قَالَ : إِنه كَانَ حَرِيْصاً على قَتْلِ صَاحِبِهِ » .

وكَيْفَ لَا تَقَعُ المُؤاخذَهُ بالعَزْمِ ، والأَعْمَالُ بِالنِيَّةِ ، وهَلِ الْكِبْرُ والرِّيَاءُ إِلَّا أُمُوْرٌ باطِنَةٌ ؟ وَلَوْ أَنَّ إِنْسَاناً رَأَى عَلَى فِرَاشِهِ أَجْنَبِيَّةً ظَنَّهَا زَوْجَتَهُ لَمْ يَأثَمْ بِوَطْئِهَا ، ولَو رَأى زَوْجَتَهُ وَظَنَّهَا أَجْنَبِيَّةً أثِمَ بِوَطْئِهَا ، وكُلُّ هَذا مُعَلَّقٌ بِعَقْدِ القَلْبِ .

وقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَ ﷺ كَانَ يَقُولُ « يا مُثَبِّتَ القُلُوْبِ ثَبِّتْ قلُوبَنا عَلَى دِيْنِكَ ، يَا مُصَرِّفَ القُلُوْبِ اِصْرِفْ قُلُوْبَنَا إِلى طَاعَتِكَ » . وفي حديث آخَرَ : « مَثَلُ القَلْبِ كَمَثَلِ رِيْشَةٍ بأَرْضِ فلَاةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحِ » واعْلَمْ أَنَّ القُلُوبَ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الخَيْرِ والشَّرِ والتَّرَدُدِ بَيْنَهُمَا ثلاثَةٌ : الأولُ قَلْبٌ عَمَرَ

بالتَّقْوَى ، وزَكي بالرِّيَاضَةِ ، وَطَهُرَ عَنْ خَبَائِثِ الأخْلاَقِ ، فَتَنْفَرِجُ فِيْهِ خَوَاطِرُ الخَيْرِ مِنْ خَزَائِنِ الغَيْبِ ، فَيَمُدُّهُ المَلَكُ بالهُدَى .

القَلْبُ الثَّانِي : قَلْبٌ مَخْذُوْلٌ ، مَشْحُوْنٌ بالهَوَى ، ودَنِيْسٌ بالخَبَائِثِ مُلَوَّثٌ بالأَخْلاقِ الذَّمِيْمَةِ فيَقْوَى فيهِ سُلْطَانُ الشَّيْطَانِ لِاتِّسَاعِ مَكَانِهِ ، فَيَضْعُفُ سُلْطَانُ الايمانِ ، ويَمْتَلِىءُ القَلْبُ بِدُخَانِ الهَوَى ، فَيُعْدَمُ النُّورُ ، ويَصِيْرُ كَالعَيْنِ المُمْتَلِئَةِ بِالدُخَانِ لاَ يُمْكِنُهَا النَّظَر ؛ ولاَ يُؤثرُ عِنْدَهُ زَجرٌ ولا وَعْظ .

والقلبُ الثالثُ : قَلْبٌ يَبْتَدِىءُ فيه خَاطِرُ الهَوَى ، فَيَدْعُوهُ إلى الشَّرِ ، فَيَلْحَقُهُ خَاطِرُ الايمانِ ، فَيَدْعُوْهُ إلى الخَيْرِ . مِثَالُهُ ، أَنْ يَحْمِلَ الشيطانُ حَمْلَةً على العقل ، ويَقْوى دَاعِيَ الْهَوَى ، ويَقولُ : أَمَا تَرَى فُلَاناً وفُلَاناً كَيْفَ يُطْلِقُونَ أَنْفُسَهُم في هَوَاهَا حَتَّى يَعُدَّ جَماعَةً مِن العُلَمَاءِ ، فَتَمِيْلُ النَّفْسُ إلى الشَّيْطَانِ ، فَيَحْمِلُ المَلَكُ حَمْلَةً على الشيطانِ ، وَيَقُولُ : هَلْ هَلَكَ إلَّا مَنْ نَسِيَ العاقِبَةَ ، فَلَا تَغْتَرَّ بِغَفْلَةِ الناسِ عن أَنْفُسِهِم ، أَرَأَيْتَ لَوْ وَقَفُوا في الصَّيْفِ في الشمسِ وَلَكَ بَيْتٌ بَارِدٌ ، أَكُنْتَ تُوَافِقهُم أَمْ تَطْلُبُ المَصْلَحَةَ ؟ أَفَتُخَالِفهُم في حَرِّ الشَّمْسِ ، ولاَ تُخَالِفهُم فِيْمَا يَؤُوْلُ إلى النارِ فَتمِيْلُ النَّفْسُ إلى قَوْلِ المَلَكِ ، وَيَقَعُ التَّرَدُدُ بَيْنَ الجُنْدَيْنِ ، إلَى أَنْ يَغْلِبَ عَلَى القَلْبِ ما هُوَ أَوْلَى بِهِ ، فَمَنْ خُلِقَ لِلْخَيْرِ يُسِّر لَهُ ومَنْ خُلِقَ لِلشَّرِ يُسِّرَ لَهُ قَال تَعَالَى﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلاسلام ، ومَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّه يَجعلْ صَدْرَهُ ضَيقاً حَرَجاً كأنما يَصَّعَّدُ في السماء﴾ اللهم وفقنا لما تحبه وترضاهُ .

إلى كَمْ إذَا مَا غِبْتُ تُرْجَى سَلاَمَتِي
وَقَدْ قَعَدَتْ بِي الحَادِثَاتُ وَقَامَتِ

وَعُمِّمْتُ مِن نَسْجِ القَتِيْرِ عِمَـامَةً
رُقُـومُ البِلَى مَـرْقُـومـةٌ بِعِمَـامَتِي
وَكُنْتَ أَرَى لِي فِي الشَّبَابِ عَلامَـةً
فَـصِـرْتُ وَإِنِّي مُـنْكِـرٌ لِعَـلاَمَتِـي
ومـا هِـيَ إِلا أَوْبَـةٌ بَعـدَ غَـيْبَـةٍ
إِلَى الغَيْبَـةِ القُصْـوَى فَثَمَّ قِيَـامَتِي
كَـأَنِّيْ بِنَـفْسِي حَسْـرَةً وَنَـدَامَـةً
تُقَـطَّعُ إِذْ لَمْ تُغْنِ عَـنِيْ نَـدَامَتِي
مُنَى النَّفْسِ مِمَّا يُوْطِىءُ المَرْءَ عَشْوَةً
إِذا النَّفْسُ جَـالَتْ حَـوْلَهُنَّ وَحَـامَتِ
وَمَنْ أَوْطَـأَتْـهُ نَفْسُـهُ حَـاجَـةً فَقَـدْ
أَسَـاءَتْ إِلَـيْـهِ نَـفْـسُـهُ وَأَلاَمَـتِ
أَمَـا وَالذِي نَفْسِيْ لَـهُ لَـوْ صَـدَقْتُهَا
لَـرَدَّدْتُ تَـوْبِيْخِي لَهَـا وَمَـلاَمَتِي
فَـلِلَّهِ نَفْسٌ أَوْطَـأَتْـنِي مِـن العَـشَـا
حُـزُوْنـاً وَلَـوْ قَـوَّمْتُهَـا لاَسْتَقَـامَتِ
وَلِـلَّهِ يَـوْم أَيَّ يَـوم فَـظَاعَـةً
وَأَفْـظَعُ مِنْـهُ بَعْـدُ يَـومُ قِيَـامَتِـي
وَلِـلَّهِ أَهْلِي إِذْ حَبَـوْنِـي بِـحُـفْـرَةٍ
وَهُمْ بِهَـوانِي يَـطْلُبُـونَ كَـرامَتِـي
وَلِـلَّهِ دُنْـيَـا لا تَـزَالُ تَـرُدُّنِـي
أَبَاطِيْلُهَا فِي الجَهْـلِ بَعْدَ اسْتِقَـامَتِي

وَلِلّهِ أَصْحَابُ المَلاَعِبِ لَوْ صَفَتْ
لَهُمْ لَذَّةُ الدُّنْيَا بِهِنَّ وَدَامَتِ
وَلِلّهِ عَيْنٌ أَيْقَنَتْ أَنَّ جَنَّةً
ونَاراً يَقِيْنٌ صَادِقٌ ثُمَّ نَامَتِ

اللهم اجعلنا مِن عبادكَ الأبرار المصطفينَ الأَخيار وأتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحيمن ، صلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

« فَصْلٌ في تَحْرِيْمِ النَّمِيْمَة »

وَيَجِبُ اجْتِنَابُ النَّمِيْمَةِ قال اللهُ تعالى : ﴿ولا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِيْن هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بنَمِيْم﴾ وقال صلى اللهُ عليه وسلم ألا أُخْبِرُكُمْ بشِرَارِكُمْ قَالُوا بَلَى قال المَشَّاؤُوْنَ بالنَّمِيْمَةِ المُفَرِّقُوْنَ بَيْنَ الأَحِبَةِ البَاغُوْنَ لِلْبُرَّاءِ العَنَت رواه أحمد .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامُ » وعن ابنِ مَسْعُودٍ رضي اللهُ عنه ، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أنبِئُكُمْ ما العَضِةُ هِيَ النَّمِيْمَةُ ، القالةُ بَيْنَ الناسِ » رواه مسلم . وعن عبد الرحمنِ بن غُنْمٍ وأَسْمَاءِ بِنْتِ يَزِيْدَ رضي اللهُ عَنْهُم أَنَّ النبي صلى اللهُ عَلَيْه وسلم قال : خِيَارُ عِبَادَ اللهِ الذينَ اذا رُؤُا ذُكِرَ اللهُ وَشِرَارُ عِبَادِ اللهِ المَشَاؤُوَن بالنَّمِيْمَةِ المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ البَاغُونَ البُرَاءَ العَنَت رواهما أحمد والبيهقي في شعب الايمان .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ ، فقال : « إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبِيْرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فكانَ يَمْشِيْ بالنَّمِيْمَةِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فكانَ لاَ يَسْتَبْرِىءُ مِن بَوْلِهِ » الحديث رواه البخاري .

فالنَّمِيْمَةُ نَقْلُ كَلاَمَ بعضِ الناسِ لِبَعْضٍ لِقَصْدِ الافْسَادِ ، وإِيْقَاعِ العَدَاوَةِ والبَغْضَاءِ ، فالنَّمُ خُلُقٌ ذَمِيْمٌ لأَنَّهُ بَاعِثٌ لِلْفِتَنِ وَقَاطِعٌ لِلصِّلاتِ ، وَزَارِعٌ لِلْحِقْدِ ، وَمُفرِّقٌ لِلْجَمَاعَاتِ ، يَجْعَلُ الصَّدِيْقَيْن عَدُوَّيْنِ ، والأخَوَيْنِ أَجْنَبِيَيْنِ ، والزَّوْجَيْنِ مُتَنَافِرَيْنِ ، فَهَذِهِ المَعْصِيَةُ مَعْصِيَةُ النَّمِيْمَةِ ، ولا يَرْضَاهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا مَنْ انْحطَّتْ قِيْمَتُهُ وَدَنَؤُتْ نَفْسُهُ ، وكانَ عِنْدَهَا حَقِيْراً ، وَصَارَ كالذُّبَابِ يَنْقُلُ الجَرَاثِيْمَ .

وَأَمَّا مَن كَانَ يَشْعُرُ بِنَفْسِهِ ، فلا يَرْضَى لَهَا هَذِهِ الحَالَةَ ، وهي حَرامٌ بِجَمِيْعِ أَنْواعِهَا ، سَوَاءٌ كانَتْ بَيْنَ الأَصْدِقَاءِ والأَصحابِ أو عندَ أربابِ الجاهِ والسلطانِ ، وهي شَرُّ أَنْوَاعِ النَّمِيْمَةِ وَأَشَدُّ خَطَراً فإن هَذِهِ هِيَ السِّعَايَةُ ولا يَخْفَى مَا وَرَاءَ ذِلِكَ مِن المَفَاسِدِ العَظِيْمَةِ فَكَمْ جَرَّتْ مِنْ وَيْلاَتٌ عَلَى كَثِيْرٍ مِن الأَبْرِيَاءِ المؤمنينَ الغافِلِيْنَ طَاهِرِي القُلُوبِ سَلِيْمِي الصُدُوْرِ فَقَضَتْ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَكَمْ نَكَّلَتْ بِكَثِيْرٍ مِنْ العُلَمَاءِ فَأَخرَجَتْهُمْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوالِهِم وَأَصْبَحُوْا عُرْضَةً لِلْمِحَنِ والنَّوائِبِ وَكَمْ ضَرَّتْ بِصَالِحِيْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ فَأَوْدَعَتْهُم السُجُونَ وَسَلَبَتْهُمْ الحُقُوْقَ ، وَجَعَلَتْ لِلْفَسَقَةِ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً ، وَكَمْ حَرَمَتْ أَطْفَالاً مِنْ قُوتِهِمْ وَسَلَبَتْ مِنْهُمْ نَعِيْمَهُمْ بِدُوْنِ جِنَايَةٍ اقْتَرَفُوْهَا أَوْ كَانَتْ بَيْنَ زَوْجَيْنِ ، أَوْ بَيْنَ الأَهْلِ وَالأَقْرِبَاءِ ، وَلَا رَيْبَ في أَنَّ النَّمِيْمَةَ في هَذِهِ الحَالَةِ أَشَدُّ مِنَ النَّمِيْمَةِ بَيْنَ

الأَصْدِقَاءِ والأَصْحَابِ ، لإفضَائِهَا إِلى قَطِيْعَةِ الرَّحِمْ والطَّلاقِ غَالباً ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّمِيْمَةُ بَيْنَ الجَمَاعَاتِ والإِفْسَادُ بَيْنَ القَبَائِلِ وَمِنْ ذَلِكَ النَّمِيْمَةُ لِرَفْعِ الثِّقَةِ مِنْ مُزَاحِمٍ في تِجَارَةٍ أَوْ صِنَاعَةٍ أَوْ زِرَاعَةٍ وَمِنْ ذَلِكَ النَّمِيْمَةُ لانْزَالِ شَخْصٍ عَنْ مَكَانَتِهِ واحْتِرَامِهِ عِنْدَ فِئَةٍ مِن الناسِ . هَذَا مُعْظَمُ أَنْوَاعِ النَّمِيْمَةِ ، وَهِيَ كَمَا تَرَى مِنْ شَرِّ مَا مُنِيَتْ بِهِ الفَضِيْلَةُ وَرُزِئَتْ بِهِ الانْسَانِيَّةُ فَلْيَتَقِ اللهَ ذَوُوْا الأَلْسِنَةِ الحِدَادِ ولا يَنْطِقُوا إِلا بِمَا فِيْهِ الخَيْرُ لِخَلْقِ اللهِ ، وَيَكْفِيْكُم في هَذَا قَوْلُ المُصْطَفَى صلى اللهُ عليه وسلم « وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ » رواه البخاري ومسلم .

فإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ النَّمِيْمَةَ دَاءٌ وَبِيْلٌ ، وشَرٌّ خَطِيْرٌ تَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ كُلُّ هَذِهِ الشُّرُوْرُ والمَفَاسِدُ فَعَلَى مَنْ نُقِلَتْ إِليهِ النَّمِيْمَةُ مِثْلُ أَنْ يُقَالَ لَهُ : قَالَ فِيْكَ فُلانٌ كَذَا وكَذَا ، أَوْ فَعَلَ في حَقِّكَ كَذَا وَنَحْوُ ذَلك أَنْ لا يُصَدِّقَ النَّاقِلَ لِأَنَّ النَّمَّامَ فَاسِقٌ لا يَصِحُّ الوُثُوقُ بِخَبَرِهِ .

ثانياً : أَنْ يَنْهَي النَّاقِلَ وَيَنْصَحهُ إِن كان يَظُنُّ به خَيْراً وَيَعْتَقِدُ أَنْ يَتَأَثَّرَ بالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ فَيَذْكُرُ لَهُ مَا يَتَرَتَّبُ على نِمَامَتِهِ مِن إِيْذَاءِ الأَبْرِيَاءِ وَظُلْمِ الناسِ في أَمْوَالِهِمْ وأَرْزَاقِهِمْ وَيُحَذِّرُهُ مِن عَاقِبَةِ وَشَايَتِهِ وَأَنَّهُ رُبَّمَا يَنْكَشِفُ أَمْرُهُ عِنْدَ حَاكِمٍ عَادِلٍ فَيَقْتَصُّ مِنْهُ شَرَّ قِصَاصٍ أَوْ يُظْهِرَ كَذِبَهُ عِنْدَ مَنْ يَنْقُلُ إِليهِ فَيَنْعَكِسُ غَرَضُه وَأَنَّهُ رُبَّمَا نَمَّ على رَجُلٍ أَقْوَى مِنْهُ فَيَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ بِمَا لا قِبَلَ لَهُ بِهِ وَإِنَّ النَّمَامَ سَاقِطُ المُرُوْءَةِ في أَنْظَارِ الناسِ ، مَبْغُوْضاً عِنْدَهُمْ حَتَّى أَقْرِبَائِهِ الذِيْنَ فِيْهِمْ خَيْرٌ وَصَلاحٌ ، فَرُبَّمَا يَرْتَدِعُ بذلك .

ثالثاً : أَنْ لا يَظُنَّ بِأَخِيْهِ الغَائِبِ السُّوْءَ وَخَيْرُ عِلاجٍ يَقْضِي عليهِ أَنْ يَنْصَرِفَ الناسُ عن النَّمَامِ ولا يَسْتَمِعُوْنَ لَهُ .

تَنَحَّ عن النَّمِيْمَةِ واجْتَنِبْهَا
فإِنَّ النَّمَ يُحْبِطُ كُلَّ أَجْرِ
يُثِيْرُ أَخُوْ النَّمِيْمَةِ كُلَّ شَرٍ
وَيَكْشِفُ لِلْخَلاَئِقِ كُلَّ سِرِ
وَيَقْتُلُ نَفْسَهُ وَسِوَاهُ ظُلْماً
وَلَيْسَ النَّمُ مِن أَفْعَالِ حُرِ

آخر :
وَصَاحِبُ النمِّ كالدَّاءِ العَيَاءِ إِذَا
مَا ارْفَضَّ في الجِلْدِ يَجْرِيْ هَاهُنَا وَهُنَا
يُبْدِي وَيُخْبِرُ عَنْ عَوْرَاتِ صَاحِبِهِ
وَمَا يَرَى عِنْدَهُ مِن صَالِحٍ دَفَنَا

رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عبدِ العزيزِ أنه دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَذَكَرَ عِنْدَهُ وَشَايَة في رَجُلٍ آخرَ فقالَ عُمَرُ إِنْ شِئْتَ حَقَقْنَا هَذَا الأَمْرَ الذي تَقُوْلُ فِيْهِ وَنَنْظُرْ فِيْمَا نَسَبْتَه إليه .

فإِنْ كُنْتَ كاذباً فأَنْتَ مِن أهلِ هذِهِ الآيةِ ﴿ إن جآءَكُم فاسِقٌ بنبأ فتبينوا ﴾ وإنْ كُنْتَ صَادقاً فَأَنْتَ مِن أَهْلِ هَذِهِ الآيةِ : ﴿ هَمَّازٍ مشاء بنميم ﴾ وان شِئْتَ عَفَوْنَا عَنْكَ فقال : العَفْوَ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ لا أَعودُ إِليهِ أَبَدًا .

وَرَفَعَ إِنسانٌ رِقْعَةً إلى الصَاحِبِ بن عَبَّادٍ يَحُثُّهُ على أَخْذِ مَالِ يَتِيْمٍ وكان له مَالٌ كَثِيْرٌ فَكَتَبَ عَلَى ظَهْرِ الرِّقْعَةِ : النَّمِيْمَةُ قَبِيْحَةٌ ، وان كَانَتْ

صَحِيْحَة ، والميتُ رحِمَهُ اللهُ ، واليَتِيْمُ جَبرَهُ الله ، والمالُ ثَمَّرَهُ الله ، والسَّاعِي لَعَنَهُ اللهُ وقال الحسنُ البصري مَن نَقَلَ إليكَ حَدِيْثاً فاعْلَمْ أَنَّهُ يَنْقُلُ إلى غَيْرِكَ حَدِيْثَك

لا تُفْشِ سِراً ما اسْتَطَعْتَ إلى امْرِئٍ
يُفْشِيْ إِلَيْكَ سَرَائِراً يَسْتَوْدِعُ
فَكَمَا تَرَاهُ بِسِرِ غَيْرِكَ صَانِعَاً
فَكَذَا بِسِرِّكَ لَا أَبَالَكَ يَصْنَعُ

وقال الآخر :

لا تَقْبَلَنَّ نَمِيْمَةً بُلِّغْتَهَا
وَتَحَفَظَنَّ مِنَ الَّذِيْ أَنْبَاكَهَا
إِنَّ الذِيْ أَهْدَى إِلَيْكَ نَمِيْمَةً
سَيَنِمُ عَنْكَ بِمِثْلِهَا قَدْ حَاكَهَا

وقال ابنُ المباركِ وَلَدُ الزِنَا لا يَكْتُمُ الحَدِيْثَ أَشَارَ بِهِ إلى أَنَّ كُلَّ مَن لَمْ يَكْتُم الحديثَ ، وَمَشى بالنمِيْمَةِ دَلَّ على أَنَّهُ وَلَدُ زِنَا اسْتِنْبَاطاً مِن قولِهِ تعالى ﴿عُتُلٍ بعدَ ذَلِكَ زنيم﴾ والزنيمُ هو الدَّعِيُ .

وروى انَّ بَعْضَ السلفِ زَارَ أَخا لَهُ، وَذَكَرَ لَهُ عَن بَعْضِ إخوانِهِ شيئاً يَكْرَهُهُ ، فقال لَهُ : يا أَخِيْ أَطَلْتَ الغِيْبَةَ ، وأتيْتَني بثلاثِ جِناياتٍ ، بَغَّضْتَ إِليَ أَخِي ، وَشَغَلْتَ قَلْبِي بِسبَبِهِ ، واتَّهَمْتَ نَفْسَكَ الأَمِيْنَةَ اهـ .

« مَــوعظــة »

عِبَادَ اللهِ إنَّ صِفَاتِ الشَّرِ وَخِصَالِ السُوْءِ مَا وُجِدَتْ فِي قَوْمٍ إلَّا كَانُوْا أَهْلاً لِغضَبِ اللهِ وَسَخْطِهِ فَاسْتَحقُّوْا الشَّقَاءَ والذلَّ في الـدُنْيَا والآخِرَةِ وإنَّ مِن أَقْبَحِ الخِصَالِ وَأَشْنَعِ الخِلَالِ الغِيْبَةَ والنَّمِيْمَةَ وقد انْهَمَكَ الناسُ فِيهِمَا وَصَارَتْ مَجَالِسُهم لا تَعْمُرُ إلَّا بِهِمَا يَسْمَعُ المَرْءُ مِن أَخِيْهِ الكَلِمَةَ لِيُفَرِّجَ بِهَا مِن كُرَبِهِ وَيُخَفِفَ بِهَا مِن آلامِهِ فَيَنْقُلُهَا إلى صَاحِبِهَا قَصْدَ الايقاعِ بِهِ والتَّفْرِيْقِ بَيْنَ المؤمِنِيْنَ هَذِهِ يَا عِبادَ اللهِ غَايَةُ الدَنَاءَةِ ، وَمُنْتَهَى الخِسَّةِ والنَّذَالةِ واللآمَةِ، أَلاَشَهَامَةَ تَحْمِلُ النَّمَامَ عَلَى كِتْمَانِهِ سِرَّ أَخِيْهِ أَلاَ مُرُوْءَةَ تَمْنَعُهُ مِن أَنْ يَنِمَّ عَلَى أَخِيْهِ المُسْلِمِ ، إنَّ النَّمامَ لا يَعْرِفَ لِلشَّهَامَةِ سَبِيْلاً ، ولا لِلْمُرُوْءَةِ طَرِيْقاً ، إنَّ مَنْ يَنِمُّ عَلَى المُسْلِمِيْنَ لِيُبَدِّلَ الوِدَّ جَفَاً وَبُغْضاً والصَّفْوَ كَدَراً وَحِقْداً وَيَفْتَحَ أَبْوَابَ الشُرُوْرِ وَالجِنَايَاتِ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا بَيْنَ المؤمِنِيْنَ مِن أَكْبَرِ المَصَائِبِ، وَاشَدِّ الرَّزَايَا عَلَى هَذَا المُجْتَمَعِ الإنْسَانِي ، وَكَذَلِكَ الغِيْبَةُ فَإِنَّهَا تُذْهِبُ الحَسَنَاتِ ، وَأَنْتَ إذا قُلْتَ في أَخِيْكَ كَلِمَةً يَكْرَهُهَا فَأَنْتَ لَهُ بِهَا مُغْتَابٌ وَهُوَ لَا يَكْرَهُ كَلِمَةً إلَّا إذا كَانَتْ مُتضَمّنَةً عَيْباً ، ذَلِكَ العَيْبُ الذي أَنْتَ تُرِيْدُ أَنْ تَكْشِفَهُ لِلنَّاسِ تُرِيْدُ مِنْهُم أَنْ يَحْقِرُوْهُ وَيَزْدَرُوْهُ وَيَحْتَرِسُوْا مِنه أَنْ يَكُونَ يَوْماً لَهُم مِنَ الأَصْحَابِ أَنْتَ تُرِيْدُ مِنْهُم أَنَّهُ أَن خَطَبَ مِنْهُم مَنَعُوْهُ لِتَحْقِيْرِكَ إيَّاهُ عِنْدَهُم تُرِيْدُ مِن غِيْبَتِكَ لَهُ أَنْ يُبْعَدَ مِنْهُمْ وَيَكُونَ مُنْطَوِياً عَنْهُم لِمَا لَقَنْتَهُمْ مِمَّا ذَكَرْتَهُ فِيْهِ وَيَكُوْنَ في وَحْشِيَةٍ مِنْهُمْ وَتُرِيْدُ مِن غِيْبَتِكَ أَنَّهُ إذَا احْتَاجَ لَا يُدْلِي عَلَيْهِم بِشَيْءٍ يَقْضِيْ فِيْهِ حَاجَتَهُ بَلْ تُرِيْدُ مِنْهُمْ أَنْ لَا يَرُدُوْا عَلَيهِ السلامَ إذا سَلَّمَ لِمَا عِنْدَهُم لَهُ مِمَّا لَقَنْتَهُم مِن الازْدِراءِ والاحتقارِ وإن كانَ صَانِعَاً فَبِسَبَبِ

غِيْبَتِك لَهُ أَنْ يَجْفُوا صَنْعَتَهُ فَتَقِفُ ، وَإِنْ كَانَ تَاجِراً فَتُرِيْدُ بِعَيْبَتِك أَنْ تَخْسَرَ تِجَارَتُهُ لإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ ، وَتُرِيْدُ أَنهُ إذا كَانَ لَهُ أَوْلَادٌ أَوْ بَنَاتٌ يُرْغَبُ في تَزْوِيْجِهِمْ أَنْ يَأْنَفَ الناسُ مِنْهُم فَيَبُوْرُوْنَ ، هَذَا واللهِ شَيْءٌ يُؤلِمُ النُفُوسَ الزَّكِيَّةَ لأَنَّهَا مَضارٌ عَظِيْمَةٌ جِداً تَنْزِلُ بِمَن تَغْتَابُهُ فَعَلَى العَاقِلِ أَنْ لَا يُصَدِّقَ المُغْتَابَ وَأَنْ يَرُدَّهُ خَائِباً ولا يَظُنَّ بِأَخِيْهِ المُسْلِمِ إِلَّا خَيْرَاً واللهُ أَعْلَمُ .

شِـعْرَاً :

حَيَاتُـكَ في الـدُنْيَا قَلِيْـلٌ بَقَاؤُهَـا
وَدُنْيَاكَ يَـا هَـذَا شَـدِيْـدٌ عَنَاؤُهَـا
ولا خَيْـرَ فِيْهَـا غَيْـرَ زَادٍ مِنَ التُقَى
يُنَـالُ بِـهِ جَنَّـاتُ عَـدْنٍ وَمَـاؤُهَـا
بَـلَى إِنَّـهَـا لِـلْمُـؤْمِنِيْـنَ مَـطِيَّـةٌ
عَلَيْهَـا بُلُوغُ الخَيْـرِ والشـرُ دَاؤُهَـا
وَمَنْ يَزْرَعِ التقْوَى بهَا سَوْفَ يَجْتَني
ثِمَاراً مِنَ الفِرْدَوْسِ طَـابَ جَنَاؤُهَـا
نُؤَمِـلُ أَنْ نَبْقَى بِهَـا غَيْـرَ أَنَّـنَـا
عَلَى ثِقَـةٍ أَنَّ الـمَمَـاتَ انْتِهَـاؤُهَـا
فَكُنْ أَيهَـا الإِنْسَانُ في الخَيْـرِ رَاغِباً
يَلُوحُ مِن الـطَّاعَـاتِ فِيْـكَ بَهَـاؤُهَـا
وَجَـانِبْ سَبِيْلَ الغَي واتْـرُكْ مَعَاصِيـاً
يُـذِيبُـكَ مِنَ نَـارِ الجَحِيْمِ لَظَاؤُهَـا

فَلاَ بُدَّ يَوْماً أنْ تَمُوْتَ بِمَشْهَدٍ
يُسَاعِدُ مَنْ نَاحَتْ عَلَيْكَ بُكَاؤُهَا
وَتَنْزِلُ قَبْراً لاَ أَبَالَكَ مُوحِشاً
تَكُونُ ثَرى أُمٍ عَلَيْكَ ثَرَاؤُهَا
وَتَبْقَى بِهِ ثَاوٍ إلَى الحَشْرِ والجَزَاء
وَنَفْسُكَ يَبْدُوْ في الحِسَابِ جَزَاؤُها
فَإِمَّا تَكُونُ النَّفْسُ ثَمَّ سَعِيدَةٌ
فَطُوْبى وإلَّا فَالضَّرِيْعُ غِذَاؤُها
يُسَاقُ جَمِيْعُ النَّاسِ في مَوْقِفْ القَضَا
وَتُنْشَرُ أعْمَالُ يَبِيْنُ وَبَاؤُهَا
هُنَالِكَ تَبْدُو لِلْعِبَادِ صَحَائِفٌ
فَتُوْضَعُ في المِيْزَانِ والذَنْبُ دَاؤُهَا
وَكَمْ من ذَلِيْلٍ آخِذٍ بِشِمَالِهِ
صَحِيْفَتَهُ السَّوْدَا الشَّدِيْدُ بلاؤُهَا
وآخَرُ مِنْ أَهْلِ السَعَادَة أخذٌ
صَحِيْفَتَهُ البَيْضَاءَ طَابَ لِقَاؤُهَا

اللهم يا حيُ ياذا الجَلال والاكرام يا جَامع الناسِ ليوم لا ريب فيه ، إجمع بيننا وبين الصدق والنية الصالحةُ ، والاخلاص والخشوع والمراقبة ، واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْـــلٌ »

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ البَاعِثَ على النَّمِيْمَةِ إِمَّا إِرَادَةُ السُوْءِ بالمَحْكِي عنه ، أَوْ إِظْهَارُ الحُبِّ لِلْمَحْكِي لَهُ أَوْ التَفَرُّجِ بالحديث أو الخوض في الفُضُوْلِ ونحوِ ذَلِكَ وَمِنْ آفاتِ الكلامِ كلامُ ذِي اللِّسَانَيْنِ الذي يَتَكَلَّمُ لِكُلّ مِن المُتَعَادِيْيْنِ بِكَلامٍ يُوَافِقُهُ فَيُظْهِرُ لَهُ إِذَا قَابَلَهُ أَنَّهُ صَدِيْقُهُ الحَمِيْمُ الحَرِيْصُ على مَصْلَحَتِهِ السَّاعِي في مَنْفَعَتِهِ وَيُظْهِرُ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِعَدُوِّهِ وَأَنَّهُ حَرْبٌ عَلَيْهِ مِثْلَهُ فَيَغْتَرُّ بِقَوْلِهِ وَيَنْخَدِعُ بِوَشْيِهِ فَيُفْضِي إِلَيْهِ بِخَبِيْئِهِ وَيَبُوْحُ لَهُ بِأَسْرَارِهِ وَيُحَدِّثُهُ عَنْ عَدُوِّهِ وَبِمَا نَقِمَ مِنْهُ ، وَمَا عَابَ عَلَيْهِ ، وما دَبَّرَهُ ضِدَّ عَدُوِّهِ أَو اتَّقى بِهِ شَرَّهُ وَكَيْدَهُ ، وَمَكْرَهُ وَخِدَاعَهُ فإذَا فَارَقَهُ ذَهَبَ إلى عَدُوِّهِ وَأَعْلَمَهُ بِخَبِيءِ أَمْرِهِ وَبِمَكْتُومِ سِرِّهِ وَطَعَنَ في عِرْضِهِ وَنَالَ مِن شَرَفِهِ وَأَظْهَرَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لَهُ وَأَنَّهُ لَهُ الصَدِيْقُ الوَفِي فَتَطْمَئِنُ نَفْسُهُ إليهِ وَيَنْطَلِقُ في ذَمِّ الآخَرِ والنَّيْلِ مِن عِرْضِهِ ثم يُحَدِّثُ هَذَا بِمَا فَكَّرَ فِيْهِ وَقَدَّرَ وَبَيَّتَ وَدَبَّرَ فَيَذْهَبُ به إلى الأَوّلِ وَيَقُصُّهُ عليهِ قَصاً يُوْغِرُ صَدْرَهُ وَيُشْعِلُ في قَلْبِهِ نَارَ العَدَاوَةِ ، فَيَزْدَادُ العِدَا ، وَتَرْبُو البَغْضَاءُ والشَّحْنَاءُ ، وَهكَذَا بَيْنَ الإِثْنَيْنِ والحِزْبَيْنِ فَمِثْلُ هَذَا مُنَافِقٌ كَذَّابٌ نَمَّامٌ خَدَّاعٌ غَشَّاشٌ مَكَارٌ ظَالِمٌ .

قال الشاعر :

وَكَـمْ مِـن صَـدِيْـق وُدُّهُ بِـلِسَـانِـهِ
خَـؤُوْنٍ بِـظَهْـرِ الغَـيْـبِ لاَ يَـتَـذَمَّـمُ
يُـضَـاحِكُـنِي عُـجْـبـاً إِذَا مَـا لَـقِـيْـتُـهُ
وَيَـصْـدِفُـنِي مِـنْـهُ إِذَا غِـبْـتُ أَسْـهُـمُ

كَـذَلِكَ ذُوْ الـوَجْهَيْنِ يُـرْضِيْـكَ شَـاهِـداً
وفـي غَيْـبِـهِ إنْ غَـابَ صَـابٌ وَعَـلْقَـمُ

وَمِن الآفاتِ المهلكةِ التي يَتَأَكَّدُ تَجَنُبُهَا في رَمَضَانَ وَغَيْرِهِ المَدْحُ وَلَهُ سِتُ آفاتٍ أَرْبَعٌ في المَادِحِ واثْنَتَانِ في المَمْدُوْحِ : الأُوْلَى أَنَّهُ قَدْ يُفْرِطُ فَيَنْتَهِي بِهِ إلى الكَذِبِ . الثانيةُ أنهُ قَدْ يَدْخُلُهُ الرِيَآءُ إِذْ لَا يَكُونُ قَلْبُهُ كَذَلِكَ . الثالثَةُ أَنَّهُ قد يَقُولُ ما لا يَتَحَقَّقُهُ ولا سَبِيْلَ لَهُ إلى الاطلاعِ عليهِ الرابعةُ أنه قَدْ يَمْدَحُ الظَّالِمَ والفاسِقَ والكَافِرَ والمُنَافِقَ وهذا أَمْرٌ عَظِيْمٌ الخامسةُ أَنَّهُ يُحْدِثُ في المَمْدُوْحِ كِبْرَاً وَاعْجَاباً ، وَهُمَا مُهْلِكَتَانِ ، السادسةُ : أَنَّهُ يُحْدِثُ في المَمْدُوْحِ فُتُوراً وَرِضى عن نَفْسِهِ ، عِنْدَمَا يُثْنِي عَليهِ بالخَيْرِ ، وَيَحْصُل مَعَهُ فَرَحٌ وَسُرُوْرٌ ، فَيَقِل اجْتِهَادُهُ وَتَشْمِيْرِه عن العَمَلِ لأنه يَظُنُ أنه قَدْ أَدْرَكَ النِهَايَةَ وَقَدْ وَرَدَتْ أحادِيْثُ في ذَمِّ المَدْحِ في الوَجْهِ لِمَنْ خِيْفَ عَليهِ مَفْسَدَةً مِن إِعْجَابٍ ونَحْوِ .

مِن ذَلِكَ ما وَرَدَ عن أبي مُوسى الأشعَرِي رضي اللهُ عنه قال سَمِعَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم رَجُلاً يُثْنِي على رَجُلٍ وَيُطْرِيْهِ في المَدْحِ فقال « أَهْلَكْتُم أَوْ قَطَعْتُم ظَهْرَ الرَّجُلِ » متفق عليه ، والاطراءُ المبالغةُ في المدح .

وقد بَالغَ بَعْضُ الشُعَرآءِ الذِيْنَ يَتَقَرَّبُوْنَ إِلى أَسْيَادِهِم بما يُرْضِيْهِم ، طمعاً في الدنيا ، أو اتَّقَاءَ شَرِهِم ، ولولا التحذيرُ عن مِثلِهَا لما سُقْنَاهَا .

قال المتنبي :

يَـا مَـن أَلُـوذُ بـه فِـيمَـا أُؤَمِـلُهُ
وَمَـن أعـوذُ بـهِ مِـمَّـا أُحَـاذِرُهُ

لا يَجْبُـرُ النـاسُ عَـظْمـاً أنتَ كَـاسِـرُهُ
ولا يَـهِـيْـضُـونَ عـظمـاً أَنْـتَ جَـابِـرُهُ

ويقولُ الآخـر :

مـا شِئْـتَ لا مـا شَـاءَتِ الأَقْـدَارِ
فـاحـكُـمْ فَـأَنْـتَ الـمَـالِـكُ الـقَـهَّـارُ

ولو اعْتَصَمَ باللهِ وَعَلِمَ أنه لا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ إلَّا اللهُ جَلَّ وَعَلا لأَغْنَاهُ وَكَفَاهُ ، وَحَالَ بَيْنَ مَنْ يَخْشَاهُ وَبَيْنَهُ ، قال تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُه ﴾ وقال ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ باللهِ فَقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْم ﴾ وَعَلاَمَ يَخْضَعُ المُؤْمِنُ أَوْ يَتَذَلَّلْ لِمَخْلُوْقٍ مِثْلَهُ ، يَحْتَاجُ إلى مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ .

وَصَدَقَ القائِلُ

مَـوْلَاكَ يَكْفِيْـكَ فـالْـزَمْ بَـابَ طَاعَتِـهِ
فَـقَـدْ كَفَـى الـنَّـاسَ أَحْـيَـاءً وَأَمْـوَاتَـا
مَنْ يَعْتَمِـدْ غَيْـرَهُ يَـرْجِـعْ بِمَـحْـرَمَـةٍ
كَـالمُبْتَغِي بـالفَـلاَ الصَّحْـرَاءِ أَحْـوَاتَـا

وقَالَ الآخَرُ :

لا تَـخْـضَـعَـنَّ لِـمَـخْـلُوقٍ عَـلى طَـمَـعٍ
فَـإِنَّ ذَلِـكَ نَـقْصٌ مِنْـكَ فـي الـدِّيْـنِ
واسْـتَـرْزِقِ الـلهَ مِـمَّـا فـي خَـزَائِـنِـهِ
فَـإِنَّـمَـا الأَمْـرُ بَيْـنَ الكَـافِ والـنُّـوْنِ

وعن أبي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا ذُكِرَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم فأثْنَى عَلَيْهِ رَجُلٌ خَيْرًا فقال النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم « وَيْحكَ قَطعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ » يَقُوْلُهُ مِرَاراً « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحاً لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ : أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا . إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ ، وَحَسِيْبُهُ اللهُ ، ولا يُزَكِّيْ عَلَى اللهِ أَحَداً » متفق عليه .

وَعَن هَمَّام بنِ الحَارِثِ ، عَن المِقْدَادِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عنهُ فَعَمَدَ المِقْدَادُ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَجَعَلَ يَحْثُوْ في وَجْهِهِ الحَصْبَاءَ ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ : ما شَأْنُكَ ؟ فقال إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ « إِذَا رَأَيْتُمْ المَدَّاحِيْنَ فاحْثُوْا في وُجُوْهِهِم التُّرابَ » رواه مسلم .

وقَد ذَكَرَ شُرَّاحُ الحِدِيْثِ أَنَّ المَدَّاحِيْنَ المَعْنِيِّيْنَ هُنَا هُمُ الذِيْنَ اتَّخَذُوْا مَدْحَ الناسِ عَادَةً يَسْتَأْلُونَ بِهِ فَأَمَّا مَنْ مَدَحَ عَلَى الأَمْرِ الحَسَنِ والفِعْلِ الجَمِيْلِ تَرْغِيْباً وَتَنْشِيْطاً وَتَحْرِيْضاً لِلنَّاسِ عَلَى الاقْتِدَاءِ بِهِ فَلَيْسَ بمَدَّاحٍ وختاماً فإِنَّ التَّمَدُّحَ مَدْرَجَةٌ إِلى الكَذِب والمُسْلِمُ يَجِبُ أن يَكُونَ نَبِيْهاً حَذِراً حِيْنَمَا يُثْنَى عَلَى غَيْرِهِ فلا يَذْكُرُ إِلَّا مَا يَعْلَمُ مِن خَيْرٍ ولا يَجْنَحُ إِلى المبالغَةِ في المَدْحِ فَمهمَا كَانَ المَمْدُوْحُ جَدِيْراً بالثَّنَاءِ فإِن المُبَالَغَةَ في مَدْحِهِ ضَرْبٌ مِن الكَذِبِ عَلَى أَنَّ المَمْدُوْحَ إِنْ كَانَ رَزِيْنَ العَقلِ انْتَقَدَ المُتَجَاوِزَ لِلْحَدِ فيَ مَدْحِهِ كما قيل .

وَمَدْحُكَ الشَّخصَ بالأَخلَاقِ يَعْدِمُهَا
لِلْحُرِّ ذِي اللُّبِ تَبْكِيْتٌ وَتَخْجِيْلُ

وقال الآخر :

إذا المَــرْءُ لم يَمْـدَحْـهُ حُسْنُ فِعَـالِـهِ
فَمَـادِحُـهُ يَهْـذِيْ وإنْ كَـانَ مُفْصِحَـا

وأجَابَ بعضُ الصُلَحَاءِ المُبَالِغَ في مَدْحِهِ بِقَوْلِهِ :

كُـفِيْـتَ أَذىً يَـا مَن تَـعَـدُّ مَحَـاسِنِـي
عـلانِيَـتِـيْ هَـذَا وَلَـمْ تَـدْرِ بـاطِـنِـي

وأَجَابَ الآخرُ بقوله :

وَلَـوْ عَـلِمَ الـخَـلاَئِـقُ سُـوْءَ فِـعْـلِي
لَـمَـا رَدُّوْا إِلَـى مِـثْـلِيْ سَـلاَمَـا

وَحَيث أنَّ الشَّافِعِيَ لاَ يُحِبُّ الرِّيَاءَ والشهْرَةَ وَطَلَبَ المَدْحِ والثناءِ يَقُولُ :

أَرَى الغِـرَّ في الـدُنْيَا إذَا قِيْـلَ فـاضِـلٌ
تَـرَقَّى عَلَى رُؤْسِ الـرِجَـالِ ويَخْـطُبُ
وإِنْ كَـانَ مِـثْلِي لا فَـضِـيْـلَةَ عِـنْـدَهُ
يقَـاسُ بِـطِفْـلٍ في الـشَّـوَارِعِ يَلْعَبُ

وَأَمَّا الثناءُ مِن الإِنْسَانِ على نَفْسِهِ فَشَنَاعَةٌ وَفَظَاعَةٌ وقَدْ قِيْلَ لِحَكِيْمٍ ما الذِي لا يَحْسُنُ وإن كانَ حقاً فقال مَدْحُ الرَّجُلِ نَفْسَه وقَالَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللهُ عنه لِرَجُلٍ مَنْ سَيِّدُ قَوْمِكَ فقال أَنَا فَقَالَ لَوْ كُنْتَهُ لَمَا قُلْتَهُ قال بَعْضُهُمْ .

وَمَـا حَسَنَ أن يَمْـدَحَ المَـرْءُ نَفْسَـهُ
وَلَـكِـنَّ أَخْـلاَقـاً تَـذُمُّ وَتَـمْـدَحُ

وَمَا كُلُّ حِيْنٍ يَصْدُقُ المَرْءُ ظَنُّهُ
ولا كُلُّ أَصْحَابِ التِّجَارَةِ يَرْبَحُ
ولا كُلُّ مَن تَرْجُوْ لِغَيْبِكَ حَافِظاً
ولا كُلُّ مَن ضَمَّ الوَدِيْعَةَ يَصْلَحُ

وَرُبَّمَا آلَ حُبُّ المَدحِ بِصَاحِبِهِ إلى أَن يَصِيْرَ دَيْدَانُهُ مَدْحُ نَفْسِهِ إِمَّا لَتَوَهُّمِهِ أَنَّ الناسَ غَفَلُوا عن فَضْلِهِ وأَخلُوا بِحَقِهِ مِن المَدْحِ فَتَسُوْقُهُ المُنَافَسَةُ إلى مَدْحِ نَفْسِهِ وَفَتْحِ بَابِ الاسْتِهْزَاءِ عَلَيْهِ وَإِمَّا لِيَخْدَعَهُمْ بِتَدْلِيْسِ نَفْسِهِ بالمَدْحِ والاطْرَاءِ فَيَعْتَقِدُ الجُهَالُ أَنَّ قَوْلَهُ حَقٌ مُتَّبَعٌ وَصِدْقٌ مُسْتَمَعٌ وإِمَّا لِتَلَذُذِهِ بِسَمَاعِ الثَّنَاءِ وَسُرُوْرِ نَفْسِهِ بالمَدْحِ ولأيِّ وَاحِدٍ مِن الثلاثةِ كان مَدْحُ النفسِ فَهُوَ الجَهْلُ الصَرِيْحُ والنَّقْصُ الفَضِيْحُ ، والكِبْرُ القبيحُ لأَنَّهُ ناشِيءٌ عن عَقْلٍ فَاسِدٍ .

وقد قال بعضُ الشعراء :

وَدَعْوَةُ المَرْءِ تُطْفِيْ نُوْرَ بَهْجَتِهِ
هَذا بِحَقٍ فَكَيْفَ المُدَّعِي زَلَلاَ

وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَسْتَرْشِدَ إِخْوَانَ الصِدْقِ الذين هُمْ أَصْفِيَآءُ القُلُوبِ الذِيْنَ يَثِقُ بِدِيْنِهِم وأَمَانَتِهِم فَهُم مَرَايَا المَحَاسِنِ والعُيوبِ لِيُنَبِّهُوْهُ على مَسَاوِيْهِ التِي صَرَفَهُ حُسْنُ الظنِ بِنَفْسِهِ عَنْهَا فإنهم أَمْكَنُ نَظَراً وَأَسْلَمُ فِكْرَاً وَيَجْعَلُونَ ما يُنَبِّهُوْنَهُ عَلَيْهِ مِنْ مَسَاوِيْهِ عِوَضاً عَنْ تَصْدِيْقِهِ المَدْحَ فِيْهِ .

وقد رَوَى أَنَسُ بنُ مالكٍ عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال « المُؤْمِنُ مِرْآةُ المُؤْمِن ، إذا رَأَى فيهِ عَيْباً أَصْلَحَهُ » وكان عُمَرُ رَضي اللهُ

عنه يقُولُ رَحِمَ اللهُ امْرَأً أهْدَى إلَيْنَا مَسَاوِيْنَا لِنُصْلِحَهَا . وَقِيْلَ لِبَعْضِ الحُكَمَاءِ أتُحُبُّ أنْ تُهْدَى إليكَ عُيُوْبُكَ قال نَعَمْ مِمَّنْ يُرِيْدُ بَرَاءَتِي مِن العُيُوبِ لا مِنْ عَدُوٍ يَشْمُتُ بالذُنُوبِ .

وَمِمَّا يُقَارِبُ هَذَا القَوْلَ مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي اللهُ عنه أنه قال لابن عَباسٍ مَنْ تَرَى نُوَلِّيْهِ حِمْصَ فقَالَ رَجُلاً صَحِيْحاً مِنْكَ لا تَسُوءُ بِهِ الظنَّ بأنه لَيْسَ مِن أَهْلِ الكِفَايَةِ نَصِيْحاً لكَ مُخْلِصاً في طَاعَتِكَ قَالَ عُمَرُ تكُونُ أَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لا تَنْتَفِعُ بي مَعَ سُوْءِ ظَنِّكَ بِيْ لَمَّا حَمَلْتَ كَلامِيْ عَلَى التَّعْرِيْضِ ، وَسُؤَالِ الوِلاَيَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ فَلأَنَّـه قَصَدَ بِذَلِكَ التَّنْبِيْهَ عَلَى اسْتِقْلالِهِ بِمَا سَأَلَ أَنْ يُفَوَّضَ إلَيْهِ لِمَصْلَحةٍ لا يَقُومُ بهَا غَيْرُه وَهِيَ العِلْمُ بِجَمِيْعِ الجِهَاتِ المُتَعَلِّقَةِ بِهَذِهِ الخَزَائِنْ مِنْ حُسْنِ الاسْتِخْرَاجِ وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ وَاقَامَةِ العَدْلِ الكامِلْ مَعَ الحِفْظِ التَّامِّ لِذَلِكَ فَهُوَ لَمَّا رَأَى المَلِكَ اسْتَخْلَصَهُ لِذَلِكَ وَجَعَلَهُ مُقَدَّماً عَلَيْهِ وفي المَحَلِّ العَالِيْ وَجَبَ عَلَيْهِ النَّصِيْحَةُ التَّامَّةُ لِلمَلِكِ والرَّعِيَّةِ ، وَأَمَّا طَلَبُ مَا يَحْصُلُ بِهِ الثَّنَاءُ مِنْ وَجْهٍ يُسْتَحَبُّ فَذَلِكَ مَحْمُودٌ ، وَهُوَ طَرِيْقُ ابْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حَيْثُ قَالَ (واجْعَلْ لِيْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِيْنَ أيْ اجْعَلْنِيْ بِحَيْثُ أَفْعَلُ مَا إذَا مُدِحْتُ بِهِ يَكُونُ مَادِحِيْ صَادِقاً وَلِذَلِكَ يَنْبَغِيْ للإنْسَانِ إذَا أُثْنِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ اللهُمَّ اجْعَلْنِيْ خَيْراً مِمّا يَظُنّوْنَ .

شِـعْرَاً :

تَبَـارَكَ مَنْ سَـاسَ الأمـورَ بِعِلْمِـهْ
وَذَلَّ لَـهُ أَهْـلُ السَّمـواتِ والأرضِ

وَمَنْ قَسَّمَ الأرْزَاقَ بَيْنَ عِبَادِهِ

وَفَضَّلَ بَعْضَ الناسِ فيها على بَعْضِ

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الحِرصَ فيهِ يَزِيْدُهُ

فَقُولُوا لَهُ يَزْدَادُ في الطُّوْلِ والعَرْضِ

آخـر :

وَدَاوِ وَلاَزمْ قَرْعَ بَابٍ مُؤمِّلاً

فَمَا خَيَّبَ المَوْلَى رَجَاءَ مُؤَمِّلِ

وَصَابِرْ فما نَالَ العُلاَ غَيْرُ صَابِرٍ

وقُلْ وَاعِظاً لِلنَّفْسِ عِنْدَ التَّمَلْمُلِ

مَعَ الصَّبْرِ إحْدَى حُسْنَيَيْنِ مُنَاكَ أَو

مَنَايَا كِرَام فاصْبِري وَتَحَمَّلِيْ

وَدَاوِ لِسُقْمِ القَلْبِ واعْمُرْ خَرَابَهُ

بِذِكْرِكَ مَوْلاَنَا فَسَبِّحْ وَهَلِّلِ

مَوْعِظَةٌ

أَيْنَ مَنْ عمرَ العَمَائِرَ وَالفِلَلَ وَاحْتَرَسْ، أَيْنَ مَنْ عَمَرَ الحَدَائِقَ وَغَرَسْ وَنَصبَ لِنَفْسِهِ سَرِيْرَ العِزِّ وَجلَسْ وَبَلَغَ الغَايَةَ في العُتُوِّ وَالطغْيَانِ وَعَنْ الحَقِّ انْتَكَسْ وَظَنّ في نَفْسِهِ البَقاءُ وَلَكِنْ خَابَ الظَّنُّ في النَّفْسِ ، أَقْلَقَهُ خَوْفُ المَوْتِ وَاخْتُلِسْ وَأُنْزِلَ بالقَهْرِ عَنْ ظَهْرِ الفرَسْ وَحُمِلَ إِلَى دَارِ البَلاَءِ فَانْطَمَسْ وَتَرَكَهُ في ظَلامٍ ظُلْمَةٌ مِنْ الجَهْلِ وَالدَّنَسْ فالعَاقِلُ مَن اغْتَنَمَ الوَقْتَ قَبْلَ أَنْ يُخْتَلَسْ وَصَبَّرَ نَفْسَهُ عَلَى طَاعَةِ مَوْلاَهُ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ الحَيَاةُ وَيَنْقَطِعُ النَّفَسْ .

شِـعْراً :

نَـبْنِـي وَنَجْـمَـعُ والآثـارُ تَـنْـدَرِسُ
وَنَـأْمَـلُ اللُّبْثَ والأعمـارُ تُخْتَلَسُ

ذَا اللُّبِ فَكِّرْ فَمَا في العَيْشِ مِن طَمَعٍ
لا بُـدَّ مـا يَنْتَهِي أَمْـرٌ وَيَـنْعَـكِسُ

أَيْـنَ المُـلُوْكُ وَأَبْنَـاءُ الـمُلُوكِ وَمَـن
كانُوا إِذَا النَّاسُ قَامُـوا هَيْبَةً جَلَسُـوا

وَمَنْ سُيُـوفُهُم فـي كُـلِّ مُعْـتَـرَكٍ
تُخْشَى وَدُوْنَهُم الحُجَّـابُ والحَـرَسُ

أَضْحَـوْا بِمَهْلَكَـةٍ في وَسْطِ مَعْـرَكَـةٍ
صَرْعَى وَصَارُوا بِبَطْنِ الأَرْضِ وانْطَمَسُوا

وَعَمَّهُهُم حَـدَثٌ وَضَـمَّهُـمْ جَـدَثٌ
بَاتُوْا فَهُم جُثَثٌ في الرَّمْسِ قَدْ حُبِسُوا

كَـأَنَّهُم قَطُ مَـا كَـانُـوا وَمَـا خُلِقُـوْا
وَمَـاتَ ذِكْـرُهم بَيْنَ الـوَرَى وَنُسُـوْا

واللَّهِ لَـو عَايَنَتْ عَيْنَـاكَ مَـا صَنَعَتْ
أَيْـدِي البِلَى بِهِمُـوا والـدُودُ يَفْتَـرِسُ

لَعَـايَنَتْ مَنْظِراً تُشْجَى القُلُوبُ لَـهُ
وَأَبْصَـرَتْ مُنْكَـراً مِن دُوْنِـه البَلَسُ

مِن أَوْجُـهٍ نَـاظِـرَاتٍ حَـارَ نَـاظِـرُهَـا
في رَوْنَقِ الحُسْنِ مِنْهَا كَيْفَ يَنْطَمِسُ

وَأَعْـظُمٍ بَـالِيَـاتٍ مَـا بِهَـا رَمَقٌ
وَلَـيْسَ تَبْقَى لِـهَـذَا وَهِيَ تُـنْتَـهَسُ

وَأَلْـسُـنٍ نَـاطِـقَـاتٍ زَانَـهَـا أَدَبٌ
مَا شَأْنُهَا شَانهَا في المَنْطِقِ الخَرَسُ

حَتَّـامَ يَاذَ النُّهَى لاَ تَـرْعَـوِي سَفَهـاً
وَدَمْـعُ عَيْنَيْـكَ لاَ يَهْمِي وَيَنْبَـجِسُ

اللَّهُمَّ اهْدِنَا بِهُدَاكَ إلَى صِرَاطِكَ المُسْتَقِيْم ووَفِّقْنَا لِلقِيَامِ بِحَقِّكَ عَلى الوَجْهِ المَطْلُوبِ يَا كَرِيْمُ وَاجْعَلْنَا يَا مَوْلاَنَا مِمَّنْ أَتَاكَ بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْـــلٌ »

وَمِمَّا يَتَأَكَّدُ اجْتِنَابُهُ في رَمَضَانَ وَغَيْرِهِ الشَّتْمُ وَهُوَ رَمْيُ أَعْرَاضِ النَّاسِ بالمَعَائِبِ القَبِيْحَةِ وَذِكْرِهِمْ بِقَبِيْحِ القَوْلِ حَضَرا أَوْ غَيْباً . عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم « مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ » رَوَاهُ البُخاريّ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم : « سِبَابُ المُسْلِم فُسُوْقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ وَقَال صلى الله عليه وسلم : « يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الايْمَانُ إلَى قَلْبِهِ لا تَغْتَابُوا المُسْلِمِيْنَ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فإِنَّ مَنْ يَتْبَعْ عَوْرَاتِ المُسْلِمِيْنَ يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ في جَوْفِ بَيْتِهِ » .

وَفي حَدِيْثِ المِعْرَاجِ : « وَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُوْنَ وَجُوهَهُمْ وَصُدُوْرَهُمْ فَقُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيْلُ ؟قَالَ: هَؤُلاءِ الذِيْنَ يَأْكُلُوْنَ لُحُوْمَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ في أَعْرَاضِهِمْ » .

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ : ذَكَرْتُ رَجُلًا بِسُوءٍ عِنْدَ إِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ فَنَظَرَ في وَجْهِي وَقَالَ أَغَزَوْتَ الرُّوْمَ قُلْتُ لا قال أَغَزَوْتَ السِّنْدَ والهِنْدَ والتُّرْكَ قُلْتُ لا قالَ أَفَسَلِمَ مِنْكَ الرُّوْمُ وَالسِّنْدُ والهِنْدُ وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْكَ أَخُوْكَ المُسْلِمَ قالَ فَلَمْ أَعُدْ بَعْدَهَا ، وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ مُوْلَعاً بِلُحُوْمِ الغَوافِلِ عَيَّاباً لِلناسِ إلَّا وَفيه مِنْ العُيوبِ مَالَو اشْتَغَلَ بإصْلاحِ بَعْضِهَا لَكَانَ أَوْلَى بِهِ ، وَأَحْفَظُ لِوَقْتِهِ ، وَأَسْلَمُ لِدِيْنِهِ ، وَأَسْلَم لِعِرْضِهِ فَإِنَّهُ إِذَا عَابَهُم عَابُوهُ وَأَكْثَرُوا فِيْهِ .

شِعْراً :

إذا أَنْتَ عِبْتَ النَّاسَ عَابُوا وَأَكْثَرُوْا
عَلَيْكَ وَأَبْدَوا فِيْكَ مَا كَانَ يُسْتَرُ
وَإِمَّا ذَكَرتَ الناسَ فاتْرُكْ عُيُوبَهم
ولا عَيْبَ إلا مِثْلَ ما فيكَ يُذْكَرُ
فإنْ عِبْتَ قَوماً بالذِي فِيْكَ مِثْلُه
فَكَيْفَ يَعِيْبُ العُوْرَ مَن هُو أَعْوَرُ
وإنْ عِبْتَ قَوماً بالذِيْ لَيْسَ فِيْهِم
فَذَلِكَ عِنْدَ الناسِ واللهِ أَكْبَرُ

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ ، وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ . قالَ « لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيْمٍ

وَإِنَّهُ لِيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عليهِ تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَان ، وَتَحُجُّ البَيْتَ » ثمّ قالَ لَهُ « أَلاَ أَدُلّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ والصَّدَقَةُ تُطْفِيءُ الخَطِيْئَةَ كَمَا يُطْفِيءُ الماءُ النَّارَ ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ في جَوْفِ الليْلِ » ثُمَّ تَلاَ : ﴿تتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ المَضَاجِعِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ « أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُوْدِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ . قالَ « رَأْسُ الأَمْرِ الاسْلامُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ » ثم قالَ « قَالَ ألا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ » قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ . فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَالَ « كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا » قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، وَإِنَّا لمؤآخذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ فقَالَ « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ، وَهَل يَكُبُّ النَاسَ في النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ أَو قالَ : على وُجُوهِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ .

وَلَقَدْ أَحسَنَ القَائِلُ :

اغْمِدْ لِسَانَكَ لا يَنْسَلَّ عن فَمِهِ
فَإِنَّهُ في عُيوبِ الخَلْقِ طَعَّانُ
لو لَم يَكُنْ مِثْلَ يَأْجُوجَ اللِّسَانُ إذاً
لَمْ يُبْنَ مِن دونهِ كالسَّدِ أَسْنَانُ

آخر :

وإحْفَظْ لِسَانَك واحترزْ مِن لَفظِهِ
فالمرءُ يسلَمُ باللسانِ وَيَعْطَبُ

آخر :

لسانُكَ لَكَ المَمْلُوكُ ما دُمْتَ صَامِتاً
وَأَنْتَ لَهُ المَمْلُوكُ حِيْنَ تَكَلَّمُ

آخر :

ما إنْ نَدِمْتُ على سُكُوتِيْ مَرَّة
ولقد نَدِمْتُ عَلَى الكَلَامِ مِرَاراً

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ لَقِيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسلم فقلْتُ : مَا النَّجَاةُ ؟ فقالَ « أمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيْئَتِكَ » رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرمِذِيّ ، وَخَرَّجَ البَزَّارُ مِنْ حَدِيْثِ أَبِي بُسْر أَنّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِيْ على عَمَل يُدْخِلُنِي الجَنَّةِ قالَ « أمْسِكْ هَذَا » وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ ، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ وَقَالَ « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ هَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ في النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » ، وَالمُرَادُ بِحَصَائِدِ الألسن جَزَاءُ الكَلَامِ المُحَرَّمِ وَعُقُوبَاتُهُ ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَزْرَعُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ الحَسَناتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ يَحْصُدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَا زَرَعَ فَمَنْ زَرَعَ خَيْراً مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ حَصَدَ الكَرَامَةَ وَمَنْ زَرَعَ شَرّاً مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ حَصَدَ النَّدَامَة وفي حَدِيْثِ أَبِيْ هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِي صَلَّى اللهُ عليه وسلم « أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ الأجْوَفَانِ الفَمُ وَالفَرْجُ » رَوَاهُ الامَامُ أَحْمَدُ والتِّرمِذِيّ وَخَرَّجَ البُخَارِيّ وَالتِّرْمِذِيّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ يَضْمَنْ لِيْ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ » .

وفي الحَدِيْثِ الآخر أنهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « أَتَدْرُوْنَ مَنْ المُفْلِسُ ؟ » قَالُوا : المُفْلِسُ فِيْنَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاع ، فقالَ إِنّ

المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَام وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيْ ما عليه أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ والتِّرْمِذِيّ وَمِمَّا يَتَأَكَّدُ اجْتِنَابُه الفُحْشُ وَهُوَ كُلُّ مَا اشْتَدَّ قُبْحُهُ مِنْ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِيْ .

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : قالَ رسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم :

« مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّوْرِ وَالعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلّهِ حَاجَةٌ في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » رَوَاهُ البُخَارِيّ وَأَبُو دَاوُدَ وَاللفْظُ لَهُ .

وَيُسَنُّ لِمَنْ شُتِمَ وَهُوَ صَائِمٌ أنْ يَقُولَ : « إِنِّيْ صَائِمٌ » سَوَاءٌ في رَمَضَانَ أَوْ غَيْرِهِ ، لِمَا وَرَدَ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلى الله عليه وسلم قالَ : « إِذَا كَانَ صَوْمُ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ فَإِنْ شَاتَمَهُ أَحَدٌ أو قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّيْ صَائِمٌ » مُتّفَقٌ عَلَيْهِ .

شِعْراً :

تَزَوَدْ مَا اسْتَطَعْتَ لِدَارِ خُلْدٍ
فَخَيْرُ الزَّادِ زَادُ المُتَقِيْنَا
ولا يَغْرُرْكَ في الدُنْيَا ثَرَاءٌ
هُنَاكَ تَرَى أُجُوْرَ العَامِلِيْنَا
تَبَصَّرْ يَا هَدَاكَ اللهُ إِنَّا
نَسِيْرُ عَلَى طَرِيْقِ السَّابِقِيْنَا

فــإِنَّ المــوتَ غَــايَــةُ كُــلِّ حَيٍ
وَبَــطنُ الأرضِ مَثْــوَى العَــالَمِيْنَــا
أَلَــمْ تَـعْـلَمْ بِـأَنَّ الـلَّاءَ كَــانُــوا
مُلُوكــاً في الـقُـرُونِ الغَــابِــرِيـنَــا
أَضَــاعُــوا العُمْــرَ في لَهْــوٍ وَظُلْم
وَحَــادُوا عَــن طَــرِيْقِ الـمُـتَّقِيْنَــا
ولم يَجِـدُوا لِـدَفْــعِ المـوتِ عَنْهُم
سَبِيْــلًا فــاسْتَكَــانُــوا صَــاغِــرِيْنَــا
نَـعِيْـمُ الخُـلْدِ لا يَـفْـنَـى فَـسَــارِعْ
لِأَعــمَــالِ العِبَــادِ الصــالِحِيـنــا

مــوعظة

قَالَ ابْنُ الجَوْزِيّ رَحِمَهُ اللهُ : الحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ المَعَاصِيْ فَإِنَّهَا سَيِّئَةُ العَواقِبِ ، والحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ الذُّنُوبِ خُصُوصاً ذُنُوبُ الخَلَوَاتِ ، فَإِنَّ المبَارَزَةَ لِلّهِ تَعَالَىٰ تُسْقِطُ العَبْدَ مِنْ عَيْنِهِ سُبْحَانَهُ وَلَا يَنالُ لَذَةَ المَعَاصِيْ إِلَّا دَائِمُ الغَفْلَةِ ، فَأَمَّا المُؤْمِنُ اليَقظَانُ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَذُّ بِهَا ، لأَنَّهُ عِنْدَ التِذَاذِهِ يَقِفُ بازائِهِ عِلْمُهُ بِتَحْرِيْمِهَا وَحَذَرُهُ مِنْ عُقُوبَتِهَا ، فَإِنْ قَوِيتْ مَعْرِفَتُه رَأَى بِعَيْنِ عِلْمِهِ قُرْبَ النَّاهِيْ وَهُوَ اللهُ فَيَتَنَغَصُ عَيْشُهُ في حَالِ التِذَاذِهِ فَإِنْ غَلَبَهُ سُكْرُ الهَوى كَانَ القَلْبُ مُتَنَغِصاً بِهَذِهِ المُراقَبَاتِ وَإِنْ كَانَ الطّبْعُ في شَهْوَتِهِ فَمَا هِيَ إلا لَحْظَةٌ ثُمَّ خِزْيٌ دَائِمٌ وَنَدم مُلاَزِمٌ وَبُكَاءٌ مُتَواصِلٌ وأَسَفٌ عَلَى مَا كَانَ مَعَ طُوْلِ الزَّمَانِ حَتَّى إِنَّهُ لَوْ تَيَقَّنَ العَفْوَ وَقَفَ بِإِزَائِهِ حِذَارَ العِتَابِ فَأُفٍّ لِلذُّنُوبِ مَا أَقْبَحَ آثَارَهَا وَأَسْوَءَ أَخْبَارَهَا انْتَهى .

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا مَا أَلْهَمْتَ عِبادَكَ الصَّالِحِيْنَ ، وَأَيْقِظْنَا مِنْ رَقْدَةِ الغَافِلِيْنَ إِنَّكَ أَكْرَمُ مُنْعِمٍ وَأَعزُّ مُعِيْنٍ وَاغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، الأَحْيَاءِ مِنْهُم والمَيِّتِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فصل في « تحريم الظلم »

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وَايَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أَنَّ الظُّلْمَ مَرْتَعُهُ وَخِيْمٌ وَعَاقِبَتُهُ سَيِّئَة وَهُوَ مَنْبعُ الرَّذَائِلِ وَمَصْدَرُ الشُّرُوْرِ ، وَحَدُّ الظُّلْمِ انَّهُ وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَهُوَ انْحِرَافُ عَنْ العَدَالَةِ وَمَتَى فَشَى وَشَاعَ في أمَّةٍ أهْلَكَهَا وَإذا حَلَّ في قَرْيَةٍ أو مَدِيْنَةٍ دمَّرهَا . وَهُوَ وَالفَسَادُ قَرِيْنَانِ بِهِمَا تَخْرُبُ الدِّيَارُ وَتزُولُ الأَمْصَارِ وَتَقِلُّ البَرَكَاتِ وَيَحِلُّ الفَشَلُ مَحَلَّهَا وَهُوَ ظُلُمَاتٌ تَزِلُّ الأَقْدَامُ في غَيَاهِبِهِ وتَضِل بِهِ الأفْهَامُ وَيظْهَرُ الفَسَادُ وَيَنْتَشِرُ بِسَبَبِهِ الفَزَعُ بيْنَ النَّاسِ .

وَأَعْظَمُ الظُلمِ وَأَشَدُّهُ وَأَخبَثُهُ الشِّرْكُ باللّهِ قَالَ اللهُ تَعَالى ﴿إن الشركَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾ وَقَال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿مَا لِظَّالِمِيْنَ مِنْ مِنْ حَمِيْمٍ وَلاَ شَفِيْعٍ يُطَاعُ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَسَيَعْلَمُ الذِيْنَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون﴾ وَقَالَ تعالَى ﴿وَلَو تَرَىٰ إِذْ الظَّالِمُونَ في غَمَرَاتِ المَوْتِ وَالمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أيْدِيْهِمْ أَخرِجُوا أنْفُسَكُم اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الهُوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُوْنَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُوْنَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُوْنَ﴾ الآياتِ وَقَال ﴿وَيَوْمَ يَعُضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ الآية .

هَذا مِمَّا وَرَدَ في القُرْآنِ الكَرِيْمِ في حَقِّ الظَّالِمِيْنَ وَأَمَّا السُّنَّةُ فَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم « الظُّلْمُ ظلماتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ » رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ والتِّرْمِذِيّ .

وَعَنْ جَابِرٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ « اتقُوا الظّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلُكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحلوا مَحارِمَهُم » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم « إنَّ اللهَ لَيُمْلِيْ لِلظَّالِمِ فَإذَا أَخذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخذَ رَبِّكَ إذَا أخذَ القُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إنّ أخْذَهُ ألِيْمٌ شَدِيْدٌ ﴾ رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرمِذِي .

وَظُلْمُ النَّاسِ أنْوَاعٌ يَجْمَعُهَا قَوْلَهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ » .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُوْدٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبي صَلَّى اللهُ عَليه وسلم قَالَ « إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أنْ يُعْبَدَ الأَصْنَامُ في أرْضِ العَرَبِ وَلَكِنَّهُ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِدُوْنِ ذَلِكَ بِالمُحَرَّمَاتِ وَهِيَ الموبِقَاتُ يَوْمَ القِيَامَةِ اتَّقُوا الظُّلْمَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإنَّ العَبْدَ يَجِيءُ بِالحَسَنَاتِ يَوْمَ القِيَامَةَ يَرَى أنّهَا سَتُنْجِيْهِ فَمَا زَالَ عَبْدٌ يَقُولُ يَا رَبِّ ظَلَمَنِيْ عَبْدُكَ فَيَقُولُ امْحُوْا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ مَا يَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ مِنْ الذنوبِ » .

« وَإنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَسَفَرٍ نَزَلُوا بِفَلاَةٍ مِنْ الأَرْضِ لَيْسَ مَعَهُمْ حَطَبٌ فَتَفَرَّقَ القَوْمُ لِيَحْطِبُوا فَلَمْ يَلْبَثُوا أنْ احْتَطَبُوا فَاعْظَمُوا النَّارَ وَطَبَخُوا مَا أَرَادُوا

وكذلِكَ الذّنوبُ » رَوَاهُ أبُو يَعْلَى مِنْ طَرِيْقِ ابْرَاهِيْمَ ابْنِ مُسْلِمٍ الهَجَرِيِّ عَنْ أَبِيْ الأَحْوَصِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيْ بِاسْنَادٍ حَسَنٍ نَحْوِهِ بِاخْتِصَارٍ .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قالَ «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيْهِ مِنْ عِرْضٍ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ لاَ يَكُونَ دِيْنَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ إنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدَرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » رَوَاهُ البُخاريّ وَالتِّرْمِذِيّ .

وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قَالَ « أَتَـدْرُوْنَ مَنْ المُفلِسُ ؟ » قَالُوا : المُفْلِسُ فِيْنَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتاعَ . فَقَالَ « إِنَّ المُفْلِسَ مَنْ أُمَّتِيْ مَنْ يَأْتِيْ يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مال هَذَا وسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعَطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أنْ يَقْضِيْ مَا عَلَيْهِ ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيّ .

وَعَنْ ابْنِ عُثْمَانَ عَنْ سَلْـمَانَ وَسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ وَحُذَيْفَةُ بْنِ اليَمَانِ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ حَتَّى عَدَّ سِتَّةً أَوْ سَبْعَةً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ صَحِيْفَةٌ حَتَّى يُرَى أَنَّهُ نَاجٍ فَمَا تَزَالُ مَظَالِمُ بَنِيْ آدَمَ تَتَّبِعُهُ حَتَّى مَا يَبْقَى لَهُ حَسَنَةً وَيُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَآتِهِمْ رَوَاهُ البَيْهَقِيّ فِي الشُّعَبِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ .

وَعَنْ أَبِيْ ذَرّ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيّ صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلَّم فِيْمَا

يَرْوِيْهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ . أَنَّهُ قَالَ « يَا عِبَادِيْ إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِيْ وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمَاً فلا تَظالَمُوا » الحَدِيْثِ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيّ وَابنُ مَاجَهْ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « لَا تَظْلِمُوا فَتَدْعُوا فَلاَ يُسْتَجَابَ لكُمْ ، وَتَسْتَسْقُوا فَلا تُسْقَوْا ، وَتَسْتَنْصِرُوا فَلاَ تُنْصَرُوا » رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ .

(مَوْعِظَة)

عِبَادَ اللّهِ بِمَا أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلاَ مَنَّ عَلَيْكُمْ بِالإِسْلاَمِ فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحِبُّوهُ ، فَإِنَّه الذِيْ بِيَدِهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَأَنْ تُحِبُّوا رَسُوْلَهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الذِيْ لَوْلا اللهُ ثم لَوْلاَهُ لَكُنْتُمْ مِنْ حَطَب جَهَنَّمَ تَلْتَهِبُ بِكُمْ أَبَد الآبِدِيْنَ ، وَأَنْ تُحِبُّوا أَحْبابَ اللهِ ، وَأحْبَابُه هُمُ الذِينَ لَزِمُوا طَاعَة مَوْلاَهُمْ وَتَبَاعَدُوا عَنْ مَعْصِيَتِهِ كَمَا يَتَبَاعَدَ الإِنْسَانُ عَمَّا يَقتُلُهُ مِنْ سُمٍّ وَنَحْوِهِ بَلْ السُّمُّ أهْوَنُ وَأخَفُّ مِنْ كَثِيْر مِنْ المَعَاصِيْ كَيْفَ لَا وَالمَعَاصِيْ لاَ تُسْلِمُ فَاعِلَهَا إلاّ إلَى العَذَابِ الأَلِيْمِ إنْ لَمْ يَتَجاوَزْ عَنْهُ مَوْلاَهُ ، مَضَى في صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ أُنَاسٌ قَالَ اللّهُ فِيهِمْ ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيحِبُّونَهُ ﴾ وَهُمْ الذِيْنَ كانوا بِأَرْوَاحِهِمْ في سَبِيْلِ اللهِ يَجُودُوْنَ ، وكانُوا يَرَوْنَ السَّعَادَةَ كُلَّ السَّعَادَةِ في ذَلِكَ الجُودِ وَإذَا لَمْ يَسْتَطِيْعُوْا كانُوا لِذَلِكَ يَحْزَنُوْنَ وَكَانَ هَؤُلآءِ النَّاسُ يَحُبُونَ رَسُولَهُمْ فَوقَ مَحَبَّتِهِمْ لِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَكانَ حُبُّ أَحَدِهِمْ لِأَخِيْهِ أَعْظَمَ مِن حُبِّهِ لِآثَاثِهِ وَمَالِهِ يُحِبُّ لَهُ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَلِذَلِكَ كَانُوا في كُلِّ المَنافِعِ لَا يَعْـرِفُوْنَ إلا خُلُقَ الإِيْثَـارِ ، كَمَا حَكَى اللهُ عَنْهُمْ بِقَـوْلِهِ ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ، وَلَو كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ سَلِ التَّارِيْخَ عَنـهُمْ

يُخْبِرْ عَنْهُمْ أخبَاراً مَا سَمِعْتَ قَطُّ بِمِثْلِهَا يُخْبِرْكَ أنهُمْ كَانُوا سَادَةَ الدُنْيَا يَعْتَرِفُ بِذَلِكَ العَدُوُّ قَبْلَ الصَّدِيْقِ اعْتِرَافَ إقْرارٍ وإذعانٍ يُخْبِرْكَ أنهُم كانُوا إذَا اتَّجَهُوا لِغَزْوِ جِهَةٍ يَنْهَزِمُ أَهْلَهَا وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ مَسَافَةٌ عَظِيْمَةٌ وَكَيْفَ لَا يُعِزُهُمْ رَبُّهُمْ وَقُلُوبُهُمْ كَانَتْ وَقْفاً عَلَى حُبِّهِ وَحُبِّ رَسُوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحُبَّ كُلِّ مَا يُرْضِيْهِ مِنْ مبَارٍّ ، هَؤُلاءِ كَانُوا عَبِيْدَ اللهِ عُبُوْدِيَّةً مَا رَأتْ الدُّنْيَا عُبُوْدِيَّةً مِثْلَهَا فِي سَائِرِ العَبِيْدِ عَدَا الرُّسُلِ الكِرَامِ لِذَلِكَ كَانُوا يَحُنُّونَ لِطَاعَتِهِ حَنِيْنَاً لا يَنْقَضِي عَجَبُهُ وَهُوَ مُخْلَصٌ وَشَدِيْدٌ كَانُوا لا يَشْبَعُونَ مِنَ العِبَادَةِ بِالنَّهارِ فَيَسْتَقْبِلُونَ اللَّيْلَ بِعَزَائِمِهِمْ بَعَثَتْهَا هِمَمٌ عَالِيَةٌ ، لَا تَكِلُّ وَلا تَمِلُّ مِنَ العِبَادَةِ ، بَلْ هِيَ فِي العِبَادَةِ كَالسَّمَكِ فِي البَحْرِ ، واللَّيْلِ عَلَى ذَلِكَ شَهِيْدٌ وَمَنْ الذِيْ يَقُولُ إنَّ الحَبِيْبَ يَشْبَعُ مِن خِدْمَةِ حَبِيْبِهِ وَسَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ الذي بِيَدِهِ الخَيْرَ كلُّهُ خَيْرُ الدُنْيَا والآخِرَةِ هَؤُلاءِ الذِيْنَ هُمْ خِيْرَةُ اللهِ مِن خَلْقِهِ هُمْ سَلَفُنَا الصَّالِحُ ، فَيَنْبَغِيْ أنْ نَقْفُو آثارَهُمْ ، وَنَكُونَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِن المَحَبَّةِ الفائِقَةِ والطّاعَةِ الفَرِيْدَةِ لِمَوْلَانَا .

شعرا

يَـا بَـاغِيَ الإِحْسَـانِ يَـطْلُبُ رَبَّـه
لِـيَـفـوزَ مـنـه بِـغَـايَـةِ الآمَـالِ
انْظُرْ إِلَى هَدْيَ الصَّحَـابَـةِ والـذي
كـانُـوا عليـه في الـزَّمـانِ الخَالِ
واسْلُكْ طَـرِيْقَ القَـوْمِ أينَ تَيَمَمُـوا
خُـذْ يَمْنَـةً فـالـدَّربُ ذاتُ شَمَـالِ

تَـالله مَـا اخْتَـارُوا لأنْفُسِهِمْ سِوَى
سُبْلَ الهُدَى في القَـوْلِ والأفْعَـالِ
دَرَجُـوا عَلَى نَهْجِ الـرَّسُولِ وَهَـدْيِهِ
وَبِـهِ اقْتَـدَوْا في سَـائِرِ الأَحْـوَالِ
نِعْمَ الـرَّفِيْقُ لِطَالِبٍ يَبْغِي الهُـدَى
فَمَـآلُـهُ في الحَشْـرِ خَيْـرُ مَـآلِ
القَـانِتِيْنَ المُخْبِتِيْـنَ لِـرَبِّهـمْ
النَاطِقِيْنَ بأَصْدَقِ الأَقْوَالِ
التَّارِكِيْنَ لِكُلِّ فِعْلٍ سَيءٍ
وَالعَـامِلِيْـنَ بـأَحْسَـنِ الأَعْـمَـالِ
أَهْـوَاءُهُـمْ تَبَـعٌ لِـدِيْـنِ نَـبِيِّهِـمْ
وسِـوَاهُـم بـالضِّـدِ مِن ذِي الحَـالِ
مَـا شَـابَهُمْ في دِيْنِهِم نَـقْصٌ وَلَا
في قَـوْلِهِمْ شَطْحُ الجَهُـول الغَـالِ
عَـمِلُوا بِـمَـا عَلِمُـوا وَلَـمْ يَتَكَـلَفُوا
فَلِذَاكَ مَـا شَـابُـوا الهُـدَى بِضَـلَالِ
وسِـوَاهُمُ بـالضِّـدِ في أَحْـوَالِهِمْ
تَرَكُـوا الهُـدَى وَدَعَـوا إلَى الإِضْـلَالِ
فَهُمْ الأَدِلَـةُ لِلْحَيَـارَى مَـن يَسِـرْ
بِهُـدَاهُـمْ لَـم يَخْش مِـن إضْـلَالِ
وهُـمْ الـنُّجُـومُ هِـدَايَـةً وإضَـاءَةً
وعُـلُوَ مَـنْـزِلَـةٍ وَبُـعْـدَ مَـنَـالِ

يَمْشُـوْنَ بَيْنَ النـاسِ هَـوْنـاً نُـطْقُهُمْ
بـالـحَقِّ لا بِـجَهـالَـةِ الـجُـهّـالِ
حِلْمَـاً وَعِلْمَـاً مَـعْ تُقىً وَتَـواضِـعٍ
وَنَـصِيْـحَـةٍ مَـعْ رُتْبَـةِ الإفْـضَـالِ
يُـحْيُـونَ لَـيْلَـهُـمْ بِـطَاعَـةِ رَبِـهِـمْ
بِـتِـلاَوَةٍ وَتَـضَـرُّعٍ وَسُـؤالِ
وَعُيُـونُهُمْ تَجْـرِي بِفَيْضِ دُمُـوْعِهِمْ
مِثْـلَ انْهِمَـالِ الـوابِـلِ الهَـطَّالِ
في اللَّيْـلِ رُهْبَـانٌ وعِنْـدَ جِهَـادِهِمْ
لِـعَـدُوِّهِمْ مِـن أَشْجَـعِ الأبْـطَالِ
وإذَا بَـدَا عَـلَمُ الـرِّهَـانِ رَأيْتَـهُـمْ
يَتَسَـابَقُـونَ بِصَـالِـحِ الأَعْـمَـالِ
بِوُجُوْهِـهِمْ أَثَـرُ السُّجُـودِ لِـرَبِّهِمْ
وَبِـهَـا أَشِـعَّـةُ نُـورِهِ الـمُـتَـلاَلِ
وَلَقَـدْ أَبَـانَ لَـكَ الكِتَـابُ صِفَـاتِهِمْ
فِي سُـوْرَةِ الفَتْـحِ المُبِيْنِ العَـالِ
وبِـرَابِـعِ السَّبْـعِ الـطِّوَالِ صِفَـاتُهُمْ
قَـوْمٌ يُـحِـبُـهُـمُ ذَوُوا الإذْلاَلِ
وَبَــرَاءَةٍ والـحَشْـرِ فِـيهَـا وَصْفُهُـمْ
وبِـهَـلْ أَتَـى وبِـسُـورَةِ الأَنْـفَـالِ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِمَا وَفَّقْتَ اليه القَوْمَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ

المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ.

فَصْلٌ

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ بَعَثَ مُعَاذاً إلَى اليَمَنِ فَقَال « اتّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللّهِ حجَابٌ » رواهُ البُخاريّ وَمُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم « ثلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ،وَالامَامُ العَادِلُ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُوْمِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الغَمَامِ وَيَفْتَحُ لهَا أَبْوابَ السَّمَاءِ وَيَقُوْلُ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حَيْنٍ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرمِذِيّ وَحَسَّنَهُ وَابْنُ مَاجَهْ ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحَيْهِمَا وَالبَزَّارُ مُخْتَصراً بِلَفْظٍ :

« ثَلاثٌ حَقٌّ عَلى اللّهِ أنْ لَا يَرُدَّ لَهُمْ دَعْوَةً الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ وَالمَظْلُومُ حَتَّى يَنْتَصِرَ ، وَالمُسَافِرُ حَتَّى يرْجَعِ » .

وفي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيّ « ثَلاثُ دَعَواتٍ لَا شَكَّ في إجَابَتِهِنَّ ، دَعْوَةُ المظْلُومِ ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرُ ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِه » وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ هَذِهِ بتَقْدِيْمٍ وَتَأْخِيْرٍ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسَلم « اتَّقُوا دَعْوَة المَظْلُومِ ، فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا شَرَارَةٌ » رَواهُ الحَاكِمُ وَقَالَ رُوَاتُهُ مُتَّفَقٌ عَلَى الاحْتِجَاجِ بِهِمْ إلاَّ عَاصِمَ بْنَ كُلَيْبٍ فَاحْتَجَّ

بِهِ مُسْلِمٌ وَحْدَهُ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عَليه وسلمَ « دَعْوَةُ المَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ » وَإِنْ كَانَ فَاجِراً فَفُجُوْرُهُ عَلَى نَفْسِهَ » رَوَاهُ أَحْمَدُ باسْنَادٍ حَسَنٍ ، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا دَعْوَتَانِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابُ دَعْوَةُ المَظْلُومِ وَدَعْوَةُ المَرْءِ لأَخِيْهِ ، بِظَهْرِ الغَيْبِ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ وَلَهُ شَوَاهِدٌ كَثِيْرَةٌ .

وَعَنْ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَليه وسلم « اتقُوا دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَانَّهَا تُحْمَلُ عَلَى الغَمَامِ ، يَقُولُ اللهُ وَعِزّتِيْ وَجَلالِيْ لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِيْنٍ » رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ .

قَالَ بَعْضُهُم يَصِفُ دَعْوَةَ المَظْلُومِ وُهُو في الحَقِيْقَةِ لُغْزٌ .

وَسَائِرَةٍ لم تَسْرِ في الأرضِ تَبْتَغِي
مَحَلاً وَلَم يَقْطَعْ بِهَا البِيْدَ قَاطِع
سَرَتْ حَيْثُ لم تَحْدَ الرِّكَابُ وَلَم تُنَخْ
لِوَرْدٍ ولم يَقْصُرْ لَهَا القَيْدَ مَانِعُ
تَمرُّ وَرَاءَ اللَّيلِ واللَّيلُ ضَارِبٌ
بِجُثْمَانِهِ فَيْهِ سَمِيْرٌ وَهَاجِعُ
إِذَا وَفَدَتْ لَم يَرْدُدِ اللّهُ وفْدَهَا
عَلَى أَهْلِهَا وَاللهُ رَاءٍ وسَامِعُ
تَفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ دُوْنَهَا
إِذَا قَرَعَ الأَبْوَابَ مِنْهُنَّ قَارِعُ

وإنّـي لأَرْجُـو اللَّهَ حَتَّى كَـأَنَّـمـا
أرَى بجَمِيْـلِ الظَّنِ مَـا اللهُ صَانِـعُ

آخر :

أَلَا رُبَّ ذِي ظُلْمٍ كَمَنْتُ لِحَـرْبـِهِ
فـاوقَـعُـهُ الـمَـقْـدُوْرُ أَيَّ وُقُـوْعٍ
وَمـا كَـانَ لِيِ إلَّا سِـلَاحُ تُـركُّـعٍ
وأدعـيَـةٌ لا تُـتَّـقَـى بِـدُرُوْعِ
وَهَيْهَـات أن يَنْجُـو الـظَلُومُ وَخلْفَهُ
سِـهَـامُ دَعُـاءٍ من قِسّيٍ رُكُـوْعِ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أنّ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عليه وسَلم قالَ « المُسْلِمُ أخُو المُسْلِم لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذلُهُ وَلا يَحْقِرُه ، التَّقْوى هَا هُنَا التَّقْوى هَا هُنَا » وَيُشِيْرُ إلىَ صَدْرِهِ « بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِن الشَّرِ أنْ يَحِقْرَ أخَاه المُسْلِمَ ، كُلُّ المُسلِمِ عَلى المُسْلِم حَرَامٌ ، دَمُهُ وَمالَهُ وعِرضُهُ » رَوَاه مُسلِمٌ .

وَعَنْ أبي ذرّ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قُلت يا رسُولَ اللهِ ما كانت صُحُفُ إبْرَاهِيْمَ قالَ كانَتْ أمْثَالاً كُلَّهَا ، أيُّها الملكُ المُسَلَّطُ المُبْتَلي المَغْرُورُ إنّيْ لم أبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَلكِنّيْ بَعَثْتُكَ لِتَرُدّ عَنِّي دَعْوَةَ المظَلْوم فَإنّيْ لا أرُدُّهَا وإنْ كانتْ مِنْ كَافِر وَعَلى العَاقِل مَا لمْ يَكُنْ مَغْلُوبَاً عَلى عَقْلِهِ أنْ يكُونَ لهُ سَاعَاتٍ فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيْهَا رَبَّهُ وسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيْهَا نفْسَهُ وسَاعَةٌ يَتفَكّرُ فِيْهَا في صُنْعِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وسَاعَة يخْلُو فِيْهَا لِحَاجَتِهِ مِنْ المَطْعَمِ وَالمشْرَبِ .

وَعلى العَاقِلَ أنْ لا يَكُوْنَ ظَاعِناً إلاّ لِثَلاثٍ تَزَوُّدٍ لمَعادٍ أوْ مَرَمَّةٍ لِمَعاشٍ أوْ لَذَّةٍ في غَيْرِ مُحَرّمٍ وعَلى العَاقِلِ أنْ يَكُونَ بَصِيْراً بِزَمَانِهِ مُقْبِلاً عَلى شَأنِهْ حَافِظاً لِلِسَانِهِ وَمَنْ حَسَبَ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلامُه إلاّ فِيْمَا يَعْنِيْهِ .

قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ فما كَانَتْ صُحُفُ مُوْسَى عَلَيْهِ السَّلامُ قَالَ«كانَتْ عِبَراً كُلهَا ، عَجِبْتُ لِمَنْ أيْقَنَ بالمَوْتِ ثُمَّ يَفْرَحُ ، عَجِبْتُ لِمَنْ أيْقَنَ بِالنَّارِ ثم هُوَ يَضْحَكُ ، عَجِبْتُ لمنْ أيْقَنَ بالقَدَر ثُم هُوَ يَنْصَبُ ، عَجِبْتُ لِمَنْ رَأىَ الدُّنيا وَتَقَلُّبُهَا بِأهْلِهَا ثمَّ اطْمَأَنَّ إلَيْهَا عَجِبْتُ لِمَنَ أيقنَ بالحِسَابِ غداً ثُمَّ لَمْ يَعْمَلْ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللّهِ أوْصِنِيْ . قَا « أُوصِيْكَ بِتَقْوى اللّهِ ، فَإنَّهَا رَأْسُ الأمْرِ كُلِّهِ » قُلْتُ : يا رَسْولَ اللهِ زِدْنِيْ . قالَ « عَلَيْكَ بِتلاوَةِ القُرْآنِ وَذِكْرِ اللّهِ عَزَّ وَجلَّ ، فَإنَّه نورٌ لَكَ في الأرْضِ ، وَذِخرٌ لَكَ في السَّمَاءِ » قُلْتُ : يَا رَسوُلَ اللهِ زِدْنِيْ . قالَ « إيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ ، فَإنَّهُ يُمِيْتُ القَلْبَ وَيذْهَبُ بِنُورِ الوَجْه » قلتُ :يَا رَسُولَ الله زِدْنِيْ . قَالَ « عَلَيْكَ بالجهادِ فإنهُ رَهْبَانِيَّةُ أمَّتِيْ » قلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِيْ . قَالَ : « أحِبَّ المَسَاكِيْنِ وَجالِسْهُمْ » .

قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ زَدْنِي ، قالَ « انْظُرْ إلَى مَنْ هُوَ تَحْتَكَ وَلاَ تَنْظُر إلىَ مَنْ هُوَ فَوقَكَ ، فإنَّهُ أجْدَرُ أنْ لا تَزْدَرِيْ نِعْمَةَ اللّهِ عِنْدَكَ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللّهِ زِدْنِيْ . قَالَ « قُلْ الحَقَّ وَإنْ كَانَ مُرّاً قَلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ زَدْنِيْ . قَالَ « لِيَرُدَّكَ عَنْ النَّاسِ مَا تَعْلَمُهُ مِنْ نَفْسِكِ ، وَلا تَجِدُ عَلَيْهِمْ فِيْمَا تَأْتِيْ وَكَفَى بِكَ عَيْباً أنْ تَعْرِفَ مِنْ النَّاسِ مَا تَجْهَلُهُ مِنْ نَفْسِكَ وَتَجِدُ عَلَيْهِمْ فَيْمَا تَأتِيْ » ثُمَّ ضَرَبَ بَيدِه عَلَى صَدْرِيْ فَقَالَ « يَا أبَا ذَرّ لا عَقْلَ

كالتَّدْبِيْرِ ، وَلا وَرَعَ كالكفِّ ، وَلا حَسَبَ كحُسْنِ الخُلُقِ » رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيْحِهِ وَاللَّفْظُ لهُ وَالحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيْحُ الاسْنَادِ .

(مَوْعِظَةٌ)

عِبَادَ اللّهِ مَا لِلأَلْسُنِ عَنْ شُكْرِ نِعَمِ اللّهِ المُتَتالِيَةِ قَاصِرَةٌ ، وَمَا لِلعُيُونِ إلى زَهْرَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا الفانِيَةِ نَاظِرَةٌ ، وَمَا للأقْدَامِ عَنْ طَرِيْقِ الهِدَايَةِ الوَاضِحَةِ حَائِرَةٌ وما لِلعَزَائِمِ وَالهِمَمِ عَنْ العَملِ الصَّالِحِ فَاتِرَةٌ وَمَا لِلنُّفُوسِ لا تَتَزَوَّدُ مِنْ التَّقْوى وَهِيَ مُسَافِرَةٌ وَمالَها لا تَتَأَهَّبُ وَتَسْتَعِدُّ لِلنُّقلةِ إلىَ الدَّارِ الآخِرَةِ ، أرُكُوناً إلى الدُّنْيَا وَقَدْ فَرَّقَتْ الجُمُوعِ وَكَسَرتْ أعْنَاقَ الأَكاسِرَةِ وَقَصَّرَتْ آمَالَ القَيَاصِرَةِ وَأدارتْ على أهْلِهَا مِنْ تَقَلُّبِهَا الدَّائِرَةَ أمْ اغْتِرَاراً بالاقامَةِ ، وَمَطَايَا الأيَّامِ بكمُ في كلِّ لحْظَةٍ سَائِرَةٍ أمْ تَسْوِيْفاً بالتَّوبَةِ وَالأعْمَالِ فَهذه واللهِ الفِكْرَةُ والصَّفَقَةُ الخاسِرَةُ لقَدْ رَانَتْ عَلى القُلوبِ قَبائِحُ الأعْمَالِ ، وَضَرَبَتْ عَلَيْهَا وَعَلى المَسامِعِ مِنْ الـذُّنُوبِ أقْفَالٌ فَيا خَجْلَةَ مَنْ سُئِلَ فَعَدِمَ الجوابَ أَوْ أجَابَ بِجَوابٍ يَسْتَحِقُّ عَليْهِ أَلِيْمَ العَذابِ ويَا حَسْرَةَ مَنْ نُوْقِشَ عنْ الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْلِ في الآخِرَةِ الحِسَابَ ، وَيا نَدَامَةَ مَنْ لَمْ يَحْصُلْ إلاّ عَلى الغَضَبِ مِنْ الكَرِيْمِ الوَهّابِ ويَا خَيْبَةَ مَنْ مَآلُهُ إلى نَار تَلْتَهِبُ إلى إحْرَاقِهِ التِهابَا ، فَمَتَى تُقْبِلُونَ عَلى اللّهِ بِقُلوبٍ صَادِقَةٍ لا تَنْتَهُونَ مِنْ مُفَارَقَةِ الذنُوبِ بَعْزَمةٍ صَادِقَةٍ ، لا في الصَّادِقْينَ تَيَقّنُونَ أَنَّهُ ثَابِتٌ لَكُمْ قَدَمٌ ، وَلا في التَّائِبْينَ صَحَّتْ لكمُ تَوْبَةٌ وَاقْلاعٌ وَعْزَمٌ وَنَدَمٌ .
ولا عِنْدَ تِلاَوَةِ كِتاب اللهِ تَقْشَعِرُّ مِنْكُمُ الجُلُودُ وَلا عنْدَ سَمَاعِ المَواعِظِ تَرِقُّ مِنْكُم القُلوبُ ، التي هِيَ أقْسَى من الجُلْمُودِ فَبِماذَا تَرْجُون لحَاقَ السُّعَدَاءِ

وَكَيْفَ تَطْمَعُونَ في الفَوْزِ وَالنّجاةِ مَعَهُم غداً وَأَنْتُمَ تُتْبِعُونَ الخطَايَا بالخَطَايا وَتُبَارِزُونَ .

اللهَ بهَا في البُكْرِ والعشيا ، فَيَا حَسْرَةَ نُفُوسٍ اطْمَأَنَّتْ إلى الدُّنْيَا دَارِ الغُرورِ ، ويَا خَرَابَ قُلُوبٍ عُمِرَتْ بَأمَانِيّ كُلُّهَا بَاطِلٌ وَزُوْرٍ ، وَيَا نَفَادَ أعْمَارٍ يَنْقُصُ مِنْهَا كلُّ يَوْمٍ وَسَاعَةٍ وَلا يُزَادُ وَيَا خَيْبَةً مُسَافِرِ يَسِيْرُ السَّيْرَ السَّرِيْعَ وَهُوَ بلا زَادٍ ، فَالبِدَارَ البِدَارَ عِبَادَ اللهِ بالتَّوْبَةِ البِدَارَ والغَنِيْمَةَ الغَنِيْمَةَ قَبْلَ خُرُوْجِ وَقتْ الاخْتِيَارِ ، وَإتْيَانِ وَقْتِ لا تُقَالُ فِيْهِ العِثَارَ :

نَسِيرُ إلىَ الأجَالِ في كُلِ لَحْظَةٍ
وأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ
ولم نَرَ مِثْلَ المَوتِ حَقاً كَأنَّهُ
إذَا مَا تَخَطَّتْهُ الأَمَانِيُ بَاطِلُ
تَرَحَّلْ مِن الدُنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُقَى
فَعُمْرِكَ أيَّامٌ تُعَدُّ قَلائِلُ

آخر :

خَرَجْتُ مِن الدُنْيَا كَأَنِّيَ لَمْ أكُنْ
دَخَلْتُ إلَيْهَا قَطُّ يَوْمَاً مِن الدَّهْرِ
تَبَلَغْتُ فيهَا بِاليَسِيْرِ وَقَدْ كَفِي
وَحَصَّلْتُ فِيَهَا مَا عَمَرْتُ به قَبْرِي
يُؤَنِسُنِي فِيهِ إذَا مَا سَكَنْتُهُ
وَنِعْم رفِيْقٌ صَاحِبٌ لي إلى الحشر

فيا عامِرَ الدنيا رُوَيْدَكَ فاقْتَصِرْ
فَإنّ سِهَامَ الموتِ تَأتِيْ ومَا تَدْرِي
وإيَّاكَ والتَّفرْيْطَ فالغَبْنُ كُلُهُ
لِمن مُنِحَ الدُنْيَا وَرَاحَ بلا أجْرِ

اللهُمَّ ألْحِقْنَا بِعبَادِكَ الأبْرَارِ وَآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ واغفِرْ لنَا وَلوَالِدْينا وَلجمِيْعَ المُسْلِمْينَ برَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ عَلى مُحمّدٍ وَعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِين .

فَصْلٌ

وَعَنْ أنس رضْيَ اللهُ عَنه قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « انْصُرْ أخَاكَ ظَالِماً أو مَظْلُوماً » فقالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ أنْصرُهُ إذَا كَان مَظْلُومَاً ؛ أفرأيْتَ إنْ كَان ظَالماً كَيْفَ أنْصُره ؟ قالَ « تَحجِزُهْ أو تَمْنَعُه عن الظُّلْمِ فانّ ذلك نَصْرُه » رواهُ البُخَاري .

فالمظْلُومُ في حَقّهِ أو مَالِهِ يُمْنَعُ عنه الظلمَ ويُرْفَعُ عنه الحَيْفَ بكُلِّ ما يُسْتَطاعُ من الوَسَائِلِ والقَصْدُ أنْ تكونَ اليدُ مَعَ يَدِ المظلوم حتى يَأخذَ حَقَّه وأمَّا نَصْرُ الظَّالِمِ فَمَنْعُه عن الظلمِ فانْ أرادَ اسْتِلاَبَ مالٍ حُلْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وأَخذْتَ بيَدِهِ .

وَإنْ أرَادَ البَطْشَ ببَريْءٍ ضَرَبْتَ علىَ يَدِه إنْ كَانتْ يَدُكَ أقْوَى مِنْ يَدِه وَتُرَاعِي الحِكْمَةَ لِئَلَّا يَنْقلِبَ ظَالِماً لك وَإنْ كَانَتْ النَّصِيْحَةُ رَادِعَةً سَلكتَها وَإلاّ فَتَسْتَعْمِلُ معَهُ القُوَّةَ حَتَّى يَرْجِعَ إلىَ الحَقّ ، وطُرُقُ الظُّلْمِ

كَثِيْرَةٌ جِدّاً وَوَسَائِلُه جَمَّةٌ وَكُلُّ المُسْلِمِ عَلى المُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ .

وَلا يَخْتَصُّ الظُّلْمُ بِأَرْبَابِ الوَظَائِفِ وَالمناصِبِ وَأَرْبَابِ الحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ ، حَيْثُ أَنَّ كلا مِمَّنْ عَدا هَؤُلاءِ رَبُّ بَيْتٍ أو بُيُوتٍ ، وَزَعِيْمُ أَسْرَةٍ وفي الأَسْرَةِ الكَبِيْرُ وَالصَّغِيْرُ وَالقَوِيُّ وَالضَّعِيْفُ وَالخادِمُ وَالأجِيْرُ وَلِكلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ حُقوقٌ في أَعْنَاقِ المَسْؤُلِيْنَ وَسَيُسْأَلُوْن عنها بَلْ إنّ الانْسَانَ لَيُعَدُّ ظَالِماً اذا تَعدَّى على حُقُوقِ نَفْسِهِ الشَّخْصِيَةِ فَقَدْ يَكُونُ مُبَذِّراً وَحَالَتُهُ تَدْعُو إلَى الاقْتِصَادِ وَقَدْ يَكُوْنُ مُقتراً وحَــالَتُه تَدْعُو إلى التَّيْسِيْر فَمِنْ ظُلِمْ الانْسَانِ لِأَهْلِهِ سِيَاسَتُهُم بالقَسْوَةِ كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُهُمْ ظَنّاً مِنْهُ أَنَّهُ مَدْعَاةٌ لِاحْتِرَامِهِمْ لَهُ أَوْ يَبْخَلُ عَلَيْهِمْ فَلا يُنْفِقُ النَّفَقَةَ الوَاجِبَةَ كَأَمْثَالِهِمْ أَوْ لَا يُحْسِنُ مُعَاشَرَتَهُم فَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ عُمَرَ رَضْيَ الله عَنْهُ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ مُسْتَلِقْياً عَلَى ظَهْرِهِ في بَيْتِهِ وَصِبْيَانُهُ يَلْعَبُونَ حَوْلَهُ فَدَخلَ عَلَيهم .

أَحَدُ عُمَّالِهِ فَأنكرَ ذَلكَ عَلَيْهِ فقالَ له عُمَرُ: كَيْفَ أَنْتَ مَعَ أَهْلِكَ ؟ فَقَالَ : إذا دَخَلْتُ سَكَتَ النَّاطِقُ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ اعْتَزِلْ عَمَلَنا فَإنَّكَ لا تَرْفُقُ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ فَكَيْفَ تَرْفُقُ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم وَمِنْ ظُلْمِهِ لِأَوْلادِهِ أَنْ يَتْرُكَهُمْ بلا أَمْرٍ وَلا نَهْيٍ وَلا تَوْجِيْهٍ ، وَمَنْ ظُلْمِهِ لِجِيْرَانِهِ أَنْ لا يَقُوْمَ بحَقِّ الجِوَارِ لَهُمْ ، ولا يُوَاسِيْهِمْ بَلْ وَلَا يَكُفَّ شَرَّهُ وَشَرَّ أَوْلادِهِ وَأَهْلِهِ وَلَقَدْ أَوْصَى اللهُ بالجَارِ فَقَالَ (وَالجَـارِ ذِيْ القُرْبَى ، وَالجَـارِ الجُنُبِ) وَأَوْصَى رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم به فَقَالَ « مَا زَالَ جِبْرِيْلُ يُوْصِيْنِي بالجَارِ ، حَتَّى ظَنَنْتُ انَّهُ سَيُوَرِّثُهُ » وَقِيْلَ إنَّ فُلانَةً تَصُوْمُ النَّهَارُ وَتَقُومُ اللَّيْلَ وَهِيَ سَيِّئَةُ الخُلُقِ ، تُؤْذِي جِيْرَانَها بِلِسَانِها .

فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسَلم «لا خَيْرَ فِيْهَا ، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» وَمِنْ ظُلْمِ القُضَاةِ الحَيْفُ مَعَ أَحَدِ الخَصْمَيْنِ أَوْ شَهَادَةِ الشُّهُودِ وشَرُّ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ ظُلْمُ وُلاةِ الأُمُور لِرَعِيَّتِهِمْ وَاذَا انْتَشَرَ الظُّلْمُ في أُمَّةٍ سُلِبَتْ الأَمْنَ عَلَى الأَرْوَاحِ وَالأَمْوَالِ وَالأَعْرَاضِ وَانْتَشَرَتْ فِيْهَا المفَاسِدُ وسُوْءُ الأَخْلاقِ ، وَفَشَتْ فِيْهَا العَداوَةُ وَالبَغْضَاءُ وَأَكَلُ القَوِيّ الضَّعِيْفَ ، وَقَلَّتْ فِيْهَا اليَدُ العَامِلَةُ ، وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الجَهْلِ وَتَذْهَبُ مِنْ الأُمَّةِ الشَّجَاعَةُ وَالحَمِيَّةُ ، وَيَحِلُّ مَحَلَّهَا النِّفَاقُ وَالمَلَقُ ، وَيُثْمِرانِ النَّمِيْمَةَ وَنَقْلَ الكلامِ والغَصْبِ وَالسَّرقَةِ وَالاخْتِلاسِ ونَهْبَ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالرِّبَا وَالتَّطْفِيْفَ في المكاييْلِ وَالمَوازِيْنِ وَالتَّغْرِيْرَ بالعامل وَالغِشَّ وَالخِيَانَةَ لِلْوَدِيْعِ والأَجِيْرِ وَالجَعِيْلِ وَالمُقَارِضِ وَالشَّرِيْكِ وَالوَكِيْلِ وَهَذا كُلُّهُ مِنَ الظُّلْمِ الذِيْ توعّدَ اللهُ أَهْلَهُ ، وقَالَ فِيْهِمْ ﴿أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلى الظَّالِمِيْنَ﴾ وَلَكِنَّهَا دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِتَةٌ والجَزاءُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ وَلَقَدْ وَصَلَ النَّاسُ اليَوْمَ في ظُلْمِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً إِلَى حَدٍّ تَقْصُرُ عَنْ شَرْحِهِ العِبَارَةُ وَذلكَ أَنَّهُمْ لا يَتَهَيَّبُونَ ظُلْماً إلاّ إذا رَأَوْا بِجَانِبِه إِقَامَةَ الحَدّ الشَّرْعِيّ فَاذا أَمِنَ أَحَدُهُمْ مِنْ العُقُوبَةِ الشَّرْعِيَّةِ بَطْش بَطْشَ الجَبَّارِيْنَ ، فَإذَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ قَذْفَ شَخْص قَذَفَهُ ، مَهْمَا كان نَقِيَّ العِرْضِ وَاذَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ سَبَّ انْسَانٍ وشَتْمَهَ سَبَّهُ وَشَتَمَهُ بَلْ ولَعْنَه وَالعِيَاذُ باللّهِ وَاذَا اشْتَهَت نَفْسُه غِيْبَةَ غَافِلٍ أَوْ بَهْتَهُ إِغْتَابَهُ وَبَهتَهُ وَإِذَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ ضَرَبَهُ مَالَ عَلَيْهِ وَضَرَبَهُ ضَرباً لا رَحْمَةَ مَعَهُ وَاذا هَمَّتْ بِأَكْلِ مَالِهِ نَفَّذَ ذَلكَ بِغَايَةِ الجُرْأةِ وَالوَقَاحَةِ وَبِطُرقٍ شَتَّى مَسْلكُهَا يَهُونُ وَانْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَطْعَنَ بنَسَبِ انْسَانٍ وَحَسَبِهِ طَعَنَ طَعْناً تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الأَبْدَانُ وَاذا زَيَّنَتْ لهُ نَفْسُهُ أَنْ يَقْتُلَ إِنْساناً أَرَاقَ دَمَهُ في الحَالِ غَيْرَ مُفَكِّرٍ وَغَيْرَ مُتَنَدِّمٍ وَهَكَذا مَنْ تَوغلَ في الظُّلْمِ وَأَمِنَ العُقُوبَةَ لا يَقُومُ في نَفْسِهِ

لَوْنٌ مِنْ الظُّلْم إلاّ نَفَّذَهُ مُسْرِعاً كأنهُ لا يُؤْمِنُ بالبَعْثِ وَلا بالمَوْتِ وَلا بأنَّ الجَزَاءَ واقِعٌ عَلى الاعْمَالِ وَلذلكَ تَرى نِيْرَانَ الظُّلْمِ تَلْتَهِبُ فِي أنْحَاءِ الدُّنيا بحَالةٍ تُزْعِجُ النَّاظِرِيْنَ وَلقدْ غفَلَ النَّاسُ عَن عَوَاقِبِ الظُّلْمِ دُنْياً وَأُخْرَى وَلَوْ عَلِمُوا أنَّ شَقَاءَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلِيْدُ الظلْمِ وَأَثَرٌ مِمَّا لهُ مِنْ آثَارٍ مَا دَنَا مِنْ الظُّلْمِ أَحدٌ وَلَوْ لِبَهِيْمِ لا يُحْسَبُ لَهُ أَدْنَى حِسَابٍ فالظُّلْمُ يَتَغَيَّرُ مِنْهُ قَلْبُ المظلُوِمِ ويتَفَاوَتُ التَّغَيُّرُ بتَفَاوُتِ مَا لِلظلمِ مِنْ مِقْدَارٍ وَعَلى قَدْرِ ذَلكَ الظُّلْمِ يكُونُ الغَضَبُ وَالانْتِقَامُ ، خُصُوصاً إذَا كَانَ المظلُومُ ضَعِيْفاً لا نَاصِرَ لهُ .

شِعْرا :

إذا مَا الظَّلومُ اسْتَحْسَنَ الظُلْمَ مَذْهَباً
وَلَجَّ عُتُواً في قَبِيْحِ اكتِسَابِهِ
فكِلْهُ إلَى صَرْفِ اللَّيَالِي فإنَّهَا
سَتُبْدِيْ لَهُ مَا لَمَ يَكُنْ فِي حِسابِهِ
فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا ظَالِماً مُتَمَرِّداً
يَرَى النَّجْمَ تِيْهاً تَحْتَ ظِلِ رِكَابِهِ
فَعَمَّا قَلِيْلٍ وَهْوَ في غَفَلاتِهِ
أنَاخَتْ صُرُوفُ الحَادِثَاتِ بِبَابِهِ
فأصْبَحَ لا مالٌ ولا جَاهٌ يُرتَجى
ولا حَسَنَاتٌ يَلْتَقِي في كِتَابِهِ
وجُوْزِيَ بالأَمْرِ الذِي كَانَ فَاعِلاً
وَصَبَّ عليهِ اللَّهُ سَوْطَ عَذَابِهِ

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللّهِ لَقَدْ امْتلأتْ الأرْض مِنْ الشَّرِّ وَوَسَائِلهِ . وَضَجَّتْ وَمَا فِيْهَا مِمَّا وَصَلَ إليْهِ مِنْ المعَاصِيْ الانْسَانَ وَإنْ شِئْتَ فَزُرْ أيْ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ العَالَمِ تَرَى مَا يَتقطّعُ لهُ قَلْبُكَ حَسَرَاتٍ افْتَتَنَ النّاسُ بِزخارِفِ الدُّنيَا فاسْتَوْلَتْ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَمَلَكَتْهَا فنَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ وأصْبَحَتْ المعَاصِيْ أمْراً مَألُوفا عِنْدَ كَثِيْرٍ مِنْ النَّاسِ وَغُلِبَ المَسْتَقِيْمُوْنَ عَلَى أمْرِهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِيْعُوا إزالَتَهَا فَتَمادَى المُجْرِمُوْنَ عَلَى انْتِهَاكِ الآدابِ فتَفَاقَمَ الخَطْبُ ثمّ تفَاقُمَ إلِى أنْ التَهَبَتْ الدُّنْيَا بالموبِقَاتِ خَفَّ الزّنَى الذِيْ هُوَ مِنْ كبَائِرِ الذنُوبِ حَتَّى صَارَ الغَيُورُ المنكِرُ لهُ المقَبَّحُ يُسَمّى رَجْعِيّاً لا يَعْرِفُ الحُرِّيَّةَ مَعَ أنَّ الزِّنَى مِنْ بَيْنِ المَعَاصِيْ عَارٌ تَسْوَدُّ لهُ الوُجُوْهُ ، وَتَنْتَكِسُ لـهُ الرُّؤوْسُ ، وَتَنْهَدِمُ بِهِ بيُوتُ المَجْدِ العَالِيَةِ ، وهَانَ التَّعَامُلُ بالرِّبَا مَعَ أنهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ المعَاصِيْ قَدْ تَوَعَّدَ اللهُ فَاعِلَه المُسْتَمِرُّ عَلى التعَامُلِ به بالحَرْبِ وقارَفَ كثِيْرٌ مِنْ النَّاسِ المُسْكِرَاتِ مَعَ أنَّ الخَمْرَ أُمُّ الخبَائِثِ وَهَذِهِ شَهَادَةُ الزُّوْرِ قَدْ هَانَتْ مَعَ أنها مِنْ عَظَائِمِ الذُّنُوبِ وهذِه فاحِشَةُ اللُّوَاطِ قَدْ انْتَشَرَتْ انْتِشَارَ الوَبَاءِ ، مَعَ أنّ القُرْآنَ يَحْكِيْ عَنْ أمَّةٍ كانَتْ تَفْعَلُ ذلِكَ أنها خُسِفَ بِهَا ، وَأمْطِرَتْ عَلَيْهَا حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيْلٍ وَأمَّا الأَرْضُ فَهَانَ اغْتِصَابُهَا مَعَ أنَّ المُغْتَصَبَ يَكُوْنُ طَوْقاً لمغْتَصِبِه في دَارِ الانْتِقَامِ ، وأمَّا الأمْوَالُ والأعْرَاضُ فحدِّثْ عَنْ الاسْتِخفافِ بهَا وَانْتِهَاكِهَا وَلا حَرَجَ وهَذَا الغِشُّ قدْ صَارَ عَادَةً لا يَكادُ يَسْلِمِ مِنْهُ مُعامِلٌ مَع أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قالَ « مَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنَّا » وَهَذا حَلْقُ اللِّحْيَةِ قَدْ أَصْبَحَ عِنْدَ كثِيْرٍ مِنْ النَّاسِ كأنهُ وَاجِبٌ مَعَ أمْرِ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عليه وسلم

باعْفَائِهَا هَذَا وَأضْعَافُ أضْعَافِهِ حَاصِلٌ في هَذَا العَصْرِ المُظْلِمِ الحَالِكِ الذي عَادَة فيه غُرْبَةُ الدِّيْن .

شعْراً :

سَمَّوْكَ يا عَصْرَ الظَّلَامِ سَفَاهَةً
عَصْرَ الضِياءِ وَأَنْتَ شَرُ الأَعْصُرِ
وَتَقَدَّمَتْ فِيْكَ الحَضَارَةُ حَسْبَمَا
قالُوا فَيَا وَحْشِيَّةَ المُتَحَضِرِ
والعِلمُ قَدْ يَأتِي بِكُلِ بَلِيَّةٍ
ويَسْيرُ نَحْوَ المَوْتِ بالمُسْتَبْصرِ

اللهم أرزقنا حُبّكَ وحَبَّ مَن يَحُبّكَ وحبَّ العَمَل الذي يُقربنا إلى حُبكَ وألهِمنَا ذِكْرَكَ وشُكْرِكَ وَوَفِّقْنَا لِلقِيَامِ بحقِك وخَلِصنَا مِن حقوقِ خَلقِكَ وَرَضّنَا باليسير مِن رزقَك يا خَيرَ مَنْ دَعَاه دَاعٍ وأفضَلَ مَنْ رجَاهُ راج ، يا قاضي الحاجات ومجيب الدعوات هَب لنا مَاسَأَلنَاه وحَقق رجَاءَنَا فِيْمَا تَمنيناهُ يَا مَن يَملِكَ حَوَائِجَ السائلين ويَعْلم ما فِي صَدَوْرِ الصامِتِيْنَ أذِقنَا بَرْدَ عَفوِكَ وحَلاوَةَ مَغْفِرَتِك واغفر لَنَا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فَصْلٌ

قَالَ شَيْخُ الاسْلامِ رَحِمَهُ اللّهُ وَالظُّلْمُ لا يُبَاحُ بحَالٍ حَتَّى أَنَّ اللّهَ تَعالَى قَدْ أوْجَبَ عَلى المؤْمِنِيْنَ أنْ يَعْدِلُوا عَلى الكُفَّارِ في قَوْلِهِ ﴿كُونُوا

قوَّامِين لله شُهَداءَ بالقِسْطِ ولاَ يَجْرِمَنَّكُم شنَآنُ قَوْمٍ عَلى ألَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ وَالمؤمِنِيْنَ كَانُوا يُعَادُونَ الكُفار بأَمْرِ اللّهِ فقَالَ تعَالى لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُكُمْ لِلكُفَّارِ عَلى أَنْ لا تَعْدِلُوا بَلْ اعْدِلُوا عَلَيْهِمْ فإِنَّهُ أقربُ لِلتَّقْوَى وَحِيْنَئذٍ فَهؤُلآءِ المُشْرِكِيْنَ لَيْسَ لِبَعْضِهِمْ أَنْ يَفعَلَ مَا بِهِ يُظْلَمُ غيْرُهُ بل إمّا أنْ يُؤَدِّيْ قِسْطهُ فيَكُونُ مُحْسِناً وَلَيْس لَهُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَنْ أَدَاءِ قِسْطِهِ مِنْ ذَلِكَ المالِ امْتِنَاعاً يُؤْخَذُ بِهِ قِسْطُهُ مِنْ سَائِرِ الشُّرَكاءِ فَيَتَضَاعَفُ الظُّلْمُ عَلَيْهِمْ .

فانَّ المالَ إذَا كانَ يُؤْخذُ لا مَحالَةَ وَامْتَنَعَ بجاهٍ أو رِشْوَةٍ أو غَيْرِهِمَا كانَ قد ظَلَمَ مَنْ يُؤْخَذُ مِنْهُ القِسْطُ الذي يَخُصُّهُ ، وَلَيْسَ هَذا بمَنْزِلَةِ أنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ الظُّلْمَ مِنْ غيرِ ظُلْمٍ لغَيْرِهِ فإنَّ هَذا جَائِزٌ ، مِثْلَ أنْ يَمْتَنِعَ عنْ أَدَاءِ مَا يَخُصُّهُ ، فَلا يُؤخَذُ ذلك مِنْهُ ولاَ مِنْ غَيْرِهِ . .

وَهَذا كالوَظَائِفُ السُّلْطَانِيَّةِ التِي تُوْضَعُ عَلى القُرَى ، مِثْلَ أَنْ يُوْضَعَ عَلَيْهِمْ عَشَرَةُ آلافِ دِرْهَمٍ فيَطْلُبُ مَنْ لهُ جَاهٌ بِأَمْرَةٍ أو مَشْيَخةٍ أو رِشْوَةٍ أو غَيْرِ ذَلِكَ أنْ لا يؤخذَ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُمْ لا بُدَّ لَهُمْ مِنْ أخْذِ جَمِيْعِ المَالِ واذَا فَعلَ ذلِكَ أُخِذَ مَا يَخُصُّهُ مِنْ الشُّرَكاءِ فَيَمْتَنِعُ مِنْ أخْذِ مَا يَنُوبُهُ وَيُؤْخَذُ مِنْ سَائِرِ الشُّرَكاءِ فانَّ هَذا ظُلمٌ مِنهْ لِشُرَكَائِهِ لأنَّ هَذا لَمْ يَدْفعْ الظُّلَمَ عَنْ نَفْسِهِ إلَّا بِظُلْمِ شُرَكائِهِ وَهَذا لا يَجُوْزُ .

وَلَيْسَ لهُ أنْ يَقُولَ أنا لَمْ أَظْلِمْهُمْ بَلْ ظَلْمُهُمْ مِنْ أَخَذَ مِنْهُمْ الحِصَّتَيْنِ لأَنَّهُ يُقَالُ أَوّلَاً هَذَا الطَّالِبُ قَدْ يَكُوْنُ مَأْمُوراً مِمَّنْ فَوْقَهُ أنْ يَأْخُذ ذَلِكَ المالَ فلا يُسْقِطُ عَنْ بَعْضِهِمْ نَصِيْبَهُ إلا إذَا أخذَهُ مِنْ أَخْذِهِ من نَصِيْبِ الآخرِ فَيَكُونُ أمْرُهُ بأنْ لا يَأخذَ أمْراً بالظُّلْمِ .

الثّانِيْ أنهُ لو فُرِضَ أَنّهُ الآمِرُ الأَعْلَى فَعلَيْهِ أنْ يَعْدِلَ بَيْنَهُمْ فِيْمَا يَطْلِبُه

مِنْهُم وَإنْ أصْلُ الطَّلَبِ ظُلْماً فعَلَيْهِ أنْ يَعْدِلَ في هَذا الظُّلْمِ وَلا يَظْلِمَ فِيْهِ ظُلْماً ثانِياً فَيَبْقَى ظُلْماً مُكرَرّاً فإنَّ الوَاحِدَ مِنْهُمْ إذَا كانَ قِسْطهُ مائةً فطُوْلِبَ بِمائتَيْنِ كانَ قَدْ ظُلِمَ ظُلْماً مُكَرّراً بخِلافِ مَا إذَا أُخِذَ مِنْ كُلّ قِسْطُهُ ، وَلأنَّ النُّفُوْسَ تَرْضَى بالعَدْلِ بَيْنَها بالحِرْمَانِ وفِيْمَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ظُلْما وَلا تَرْضَى بأنْ يُخَصَّ بَعْضُهَا بالعَطاءِ أوْ الاعْفَاءِ .

الثَّالِثُ أنّهُ إذا طَلَبَ مِنْ القَاهِرِ أنْ لا يَأْخُذَ مِنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَضَعُ قِسْطهُ عَلى غيْرِهْ فقَدْ أَمَرَهُ بما يَعْلَمُ أَنَّهُ يَظْلِمُ فِيْهِ غَيْرَهُ .

وَلَيْسَ للإِنْسَانِ أنْ يَطْلُبَ مِنْ غَيْرِه مَا يُظْلَمُ فِيْهِ غَيْرُهُ وَإنْ كَانَ هُوَ لَمْ يَأْمُرْهُ بالظُّلْمِ كَمَنْ يُوَلّي شَخْصاً وَيَأمُرُهُ أنْ لا يَظْلِمَ وَهُوَ يَعْلَمُ أنّهُ يَظْلِمُ فَلَيْسَ لهُ أنْ يُوَلِيْهِ وَكذلكَ مَنْ وَكّلَ وَكِيْلاً وَأمَرهُ أنْ لا يَظْلِمَ وَهُوَ يَعْلَمُ أنهُ يَظلِمُ فليْسَ لَهُ أنْ يُوَلِيْهِ وَمَنْ طَلَبَ مِنْ غَيْرِهِ أنْ يُوفِيْهِ دَيْنَهُ مِنْ مَالِهِ الحَلالِ وَهُوَ يَعْلَمُ أنهُ لا يُوْفِيْهِ إلا مِمَّا ظلَمَهُ مِنْ النَّاسِ وَكذلِكَ إذَا طَلَبَ مِنْهُ أنْ يُعْفِيْهِ مِنْ الظّلْمِ وَهُوَ يَعْلَمُ أنهُ لا يُعْفِيْهِ إلاّ بِظُلْمِ غَيْرِهِ فَلَيْسَ لهُ أنْ يَطْلُبَ مِنْهُ ذَلِكَ ا هـ .

وقَالَ في تَنْبِيْهِ الغَافِلِيْنَ عَنْ أَعْمالِ الجَاهِلِيْنَ لَمَّا عَدَّ بَعْضَ الكَبَائر قالَ وَمِنْهَا الدُّخولُ عَلَى الظلمَةِ بِغَيْرِ قَصْدٍ صَحِيْحٍ بَلْ إعَانةٌ لهُم وَتَوْقِيْراً وَمَحَبَّةً ، قَالَ اللهُ تَعالى ﴿وتَعاوَنُوا عَلى البرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تعاوَنُوا عَلَى الأثْمِ والعُدْوَانِ﴾ وقَالَ تعالَى ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إلَى الذِيْنَ ظَلَموا فَتمَسّكُمْ النَّارُ وَمالكُمْ مِنْ دُوْنِ اللّهِ مِنْ أوْلِيَاءَ ثم لا تُنْصَرُونَ وَعَنْ جَابِرٍ رَضْيَ اللهُ عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قالَ « سَتَكُونُ أُمَراءُ ، مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فأعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَصَدَّقَهُمْ بكذِبهِم ، فَلَيْسَ مِنّيْ ، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَنْ يَرِدَ عَلَى

الحَوْضِ » رَواهُ أَحْمَدُ والبَزَّارُ باسْنَادٍ رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيْحِ وَابْنُ حِبَّانٍ في صَحِيْحِهِ وَهَذَا لفظُهُ وَسَاقَ غَيْرَ هَذا الحَدِيْثِ حَوْلَ هَذا الموضُوعِ تمَّ قالَ قَدْ يَقُولُ مَنْ اعْتَادَ الدُّخُولَ على الملُوكِ الظَّلَمَةِ وَالقضَاةِ الخَونَةِ إنَّمَا قَصْدِيْ بِذَلِكَ نَصْرُ مَظْلُومٍ أو مُسَاعَدَةُ ضَعِيْفٍ أو دَفْعُ ظُلامَةٍ أَو التَّسَبُّبُ في مَعْرُوفٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَهَذا لا يَخْلُو إمَّا أنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَتَنَاوَلُ مِنْ مَآكِلِهِمْ ومشَارِبِهِمْ ، وَيُشَارِكُهم في مَقَاصِدِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ ، وَيقبَلُ مِنْ أَمْوَالِهِم التِي اكْتَسَبُوهَا مِنْ الجِهَاتِ المحَرَّمَاتِ أو وُجُوْهِ المَظَالِمِ وَالمُكُوسِ وَالمُصَادَرَاتِ ، وَيُدَاهِنُهُمْ فِيْمَا يَرَاهُ عِنْدَهُمْ مِنْ المُنْكَرَاتِ ، فَهذا لا يَحْتَاجُ النَّظَرُ في سُوْءِ حَالِهِ إلَى دَلِيْلٍ إذْ يَشْهَدُ كُلُّ ذِيْ بصِيْرَةٍ أَنَّهُ ضَالٌّ عَنْ سَواءِ السَّبِيْلِ ، وَأَنَّهُ مِنْ ﴿الاخسَرِيْنَ أعمَالاً ، الذِيْنَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ﴿مُصْلِحُونَ ، أَلا إنَّهُمْ هُمْ المُفْسِدُوْنَ ، وَلكِنْ لا يَشْعُرُوْنَ﴾ ثُمَّ قَالَ لَيتَ شِعْرِيْ كَيْفَ يُمْكِنُ مَنْ يَأْكُلُ مِنْ أمْوَالِهِمْ ، أنْ يُنْكِرَ قَبِيْحِ أفْعَالِهِمْ ، وَأنَّى يَرْجِعُ الظَّالِمُ مِنْهُمْ إليْهِ ، وهُوَ يرى مِنَّتَهُ في الصُّحْبَةِ واللُّقمةِ عَلَيْهِ ، وَكَيْفَ يَقْبَلُ مِنْهُ الكَلامُ وَبَاطِنُهُ قَدْ امْتَلأ مِنْ مَالِهِ الحَرَامُ . وَاخْتِصَارُ الكَلامُ في مِثْلِ هَذا أَلْيَقُ وَالسَّلامُ وَإنْ كَانَ مِمَّنْ يعِفُّ عَنْ مَآكِلِهِمْ وَمَشَارِبِهم ولا يَقْبَلُ منهُمْ إِدْرَاراً وَلَا صِلَةً وَيُنكِرُ عليهم مَا قَدْ يَرَاهُ عِنْدَهُم مِنَ المُنكرِ فَهذا في مَحَلِّ اشْتِبَاهٍ وَالحَالَةُ مِيْزَانٌ يُعْلَمُ بِهَا صِحَّتُهُ مِنْ سِقَمِهِ وَهُوَ أنْ يَرىٰ أنَّهُ كَالمُكْرَهِ في دُخُولِهِ عَلَيْهِمْ وَكلامِهِ مَعَهُم وَيَوَدُّ أنْ لَوْ كُفِيَ بغَيْرِهِ وَلَوْ انْتَصَرَ المظْلُوم بِسِوَاهُ وَلا يَتَبَجَّحُ بصُحْبَتِهِمْ وَلا بالاجْتِمَاعِ عَلَيْهِم وَلَا في فلتَاتِ لِسَانِهِ قُلْتُ للسُّلْطَانِ وَقَالَ لِيْ السُّلْطَانُ وَانتصر بِيْ فُلانٌ فَنصَرْتُهُ وَطَلَبَ مِنِّيْ المُسَاعَدَةَ فلَانٌ فَسَاعَدْتُهُ وَنَحْو ذلِكَ وَلَوْ قَدَّمَ السُّلْطَانُ عَلَيْهِ

أَحَداً أو قَرَّبَهُ وَاعْتَقَدَهُ وَقَامَ بِمَا كَانَ هُوَ قَائِمٌ بِهِ مِنَ السُّلْطَانُ المَعْرُوفِ لما شَقَّ عَليْهِ ذلكَ ، بَلْ يَجِدُ عِنْدَهُ انْشِرَاحاً بذلِكَ وَفَرَحاً بِهِ إِذْ كَفَاهُ اللهُ التَّعَرُّضَ إلى هَذَا الخَطَرِ العَظِيْمِ بمَا لا يَثِقُ بِصِحَّةِ قَصْدِهِ فيْهِ ، وَلا يَقْطَعُ باخْلاصِ نِيَّتِهِ فِي القِيَامِ بهِ انْتَهَى .

شعر :

عَنَوا يَطْلُبُونَ العِلمَ في كُل بَلْدَةٍ
شَبَاباً فَلَمَّا حَصَّلُوهُ وَحَشَّرُوا
وَصَحَّ لَهُم اسْنَادُهُ وأُصُولُهُ
وصَارُوا شُيُوخاً ضَيَّعُوهُ وأَدبَرُوْا
وَمَالَوا عَلى الدُّنْيَا فَهُم يَحْلُبُونَهَا
بأَخْلافِهَا مَفْتُوحَةً لا تُصَرَّرُوْا
فَيَا عُلَمَاءَ السُوءِ أَيْنَ عُقُولُكُمْ
وأَيْنَ الحَدِيْثُ المُسْنَدُ المُتَخَيَّرُ

ويقول الآخر :

عَجِبْتُ لأَهْلِ العِلْمِ كَيْفَ تَشَاغَلُوا
عَن العِلْمِ واسْتَغْشَوْا ثِيَابَ المَمَالِكِ
يَطُوفُونَ حَولَ الظَّالِمينَ كَأَنَّمَا
يَطُوفُونَ حوْلَ البَيْتِ وَقْتَ المَنَاسِكِ

اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ مُوْجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِم مَغْفِرَتِكَ وَالعَزِيْمَةِ عَلى الرُّشْدِ وَالغَنِيْمَةِ مِنْ كُلِّ بِرٍّ والسَّلامَةِ مِنْ كلِّ إثْمٍ وَنَسْأَلكَ أنْ تَغْفِرَ لَنَا

وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَصْلٌ

إِذَا فَهِمْتَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ شَنَاعَةِ الظُّلْمِ وَقُبْحِ عَاقِبَتِهِ وَمَا وَرَدَ مِنْ الوَعِيْدِ الشَّدِيْدِ عَلَى مُرْتَكِبِهِ وَأَنَّ مَنْ مَاتَ قَبْلَ رَدِّ المَظَالِمِ أَحَاطَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ خُصَمَاؤُهُ فَهَذَا يَأْخُذُ بِيَدِهِ وَهَذَا يَقْبِضُ عَلَى نَاصِيَتِهِ وَهَذَا يُمْسِكُ يَدَهُ وَهَذَا يَتَعَلَّقُ بِلَبَبِهِ وَهَذَا يَتَعَلَّقُ بِرَقَبَتِهِ هَذَا يَقُولُ ظَلَمَنِيْ فَغَشَّنِيْ وَهَذَا يَقُولُ ظَلَمَنِيْ فَبَخَسَنِيْ وَهَذَا يَقُولُ خَدَعَنِيْ وَهَذَا يَقُولُ قَذَفَنِيْ وَهَذَا يَقُولُ أَكَلَ مَالِيْ وَهَذَا يَقُول شَتَمَنِيْ وَهَذَا يَقُولُ اغْتَابَنِيْ وَهَذَا يَقُولُ كَذَبَ عَلَيَّ وَهَذَا يَقُولُ قَطَعَ رَحِمِيْ .

وَهَذَا يَقُوْلُ جَاوَرَنِيْ فَأَسَاءَ مُجَاوَرَتِيْ ، وَهَذَا يَقُوْلُ رَآنِيْ مَظْلُوماً فَلَمْ يَنْصُرْنِيْ وَهَذَا يَقُوْلُ رَآنِيْ عَلَى مُنْكَرٍ فَلَمْ يَنْهَنِيْ وَهَذَا يَقُولُ جَحَدَ مَالِيْ وَهَذَا يَقُوْلُ مَطَلَنِي بِحَقِّي وَهَذَا يَقُولُ جَحَدَ وَدِيْعَتِيْ وَهَذَا يَقُولُ بَاعَنِيْ وَأَخْفَى عَنِّيْ عَيْبَ السِّلْعَةِ وَهَذَا يَقُولُ سَرَقَ مَالِيْ وَهَذَا يَقُولُ قَطَعَ مِنْ مُلْكِيْ .

وَهَذَا يَقُولُ شَهِدَ عَلَيَّ بِالزُّورِ وَهَذَا يَقُولُ سَخِرَ بِيْ وَهَذِهِ زَوْجَة تَقُولُ لَمْ يَعْدِلْ بَيْنِيْ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ الأُخْرَى وَهَذِهِ تَقُولُ أَكَلَ صَدَاقِيْ وَهَذَا يَقُولُ تَعَدَّى عَلَى مَحَارِمِيْ ، وَهَذَا يَقُولُ نَشَزَ زَوْجَتِيْ ، وَهَذِهِ تَقُولُ نَشَزَ زَوْجِيْ .

وَهَذَا يَقُولُ غَدَرَ بِيْ وَهَذَا يَقُولُ خَانَنِيْ وَهَذَا يَقُولُ دَلَّسَ عَلَيَّ وَهَذَا

يَقُولُ نَجَشَ عليَّ في السِّلعَةِ التِي أُرِيْدُ شِرَاءَهَا ، وهَذَا يَقُولُ كَاذَبنِي وَهَذا يَقُولُ مَنعنِي النَّوْمَ بِمَلاهِيْهِ مِنْ مِذْيَاعٍ وَتلفِزْيونِه وبَكمِهِ وَسِيْنَمَائِهِ فَبَيْنَما أَنْتَ عَلى تِلْكَ الحالِ المُخِيْفَةِ التِي لا يُرى فِيْهَا بَعْضك بَعْضَكَ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ تَعلَّقَ بكَ مِنْ الغُرَمَاءِ، الذَيْنَ أنشبُوا فِيْكَ مَخالِبَهُم وَأحْكَمُوا في تَلابِيْبَك أيْدِيَهُمَ وَأنْتَ مَبْهُوتٌ مُتَحيِّرٌ مُضطَرِبُ الفِكْر والعَقْلِ مِنْ كَثْرَتِهِمْ وَمُطَالَبَتِهِمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ أَحدٌ مِمَّنْ جَالسْتَهَمُ أوْ عَامَلْتَهُمَ وَصَاهَرْتَهُم أَوْ شَارَكْتَهُمْ وَلو مُدَّةً قَلِيْلَةً إلاّ وَقَدْ اسْتَحقَّ عَليْكَ مَظْلمَةً وَقَدْ ضَعُفْتَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ وَمَدَدْت عُنُقَ الرَّجَاءِ إلىَ سَيِّدِكَ وَمَوْلاَكَ لعَلَّهُ أَنْ يُخَلّصَكَ مِنْ أيْدِيْهِمْ .

إذْ قَرَعَ سَمْعَكَ نِدَاءُ الجَبَّارِ جَلَّ وَعَلا وَتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤُهُ (اليَوْمَ تُجْزِيَ كُلُّ نفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لا ظُلْمَ اليَوْمَ) فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْخَلِعُ قَلبُكَ وَتَضْطَرِبُ أعْضَاؤُكَ مِنْ الهَيْبَةِ وَتَوقِنُ نَفَسُكَ بالبَوارِ وَتَذَكَّرُ مَا أنذرَكَ اللهُ اللهُ تَعالَى بِهِ عَلى لِسَانِ رُسُلِهِ ، حَيْثُ قالَ ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيْهِ الأبْصَارُ مُهْطِعِيْنَ مُقْنِعي رُؤُوسِهِم لا يَرْتدُّ إلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأفْئِدَتُهم هَوَاءٌ﴾ .

وقَوْلُه ﴿ وَتَرى الظَّالِمْينَ لمَّا رَأوْا العَذَابَ يَقُولونَ هَلْ إلىَ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيْلٍ وتَرَاهُم يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِيْنَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيّ ﴾ الآيَةِ ، فَيَالَهَا مِنْ مُصِيْبَةٍ ، وَمَا أشَدَّهَا مِنْ حَسْرَةٍ في ذلكَ اليَوْمَ ، إذَا جَاءَ الرَّبُّ جَلَّ وَعَلا لِلفَصْل بَيْنَ عِبَادِهِ بحُكْمِهِ العَدْلِ وَشُوْفِه الظّالِمُ بالخِطَاب وَعَلِمَ أنَّهُ مُفْلِسٌ فقِيْرٌ عَاجِزٌ مَهِيْنٌ لا يَقْدِرُ عَلى أنْ يَرُدِّ حَقّاً أو يُظْهِرَ عُذْراً .

فعِنْدَ ذلِكَ تُؤْخَذُ حَسنَاتُه التِيْ تَعِبَ عَلَيْهَا في عُمْرِهِ ، لَيْلاً وَنَهارا

حَضَرا وَسَفَرا وَتُنْقَلُ إلىَ الخُصَمَاءِ عِوَضاً عَنْ حُقوقِهِمْ وَتَقَدَّم حَدِيْثُ أبي هُرَيْرَةَ في بَيَانِ المُفْلِسِ مِنْ الأُمَّةِ ، فلْيَنْظُرِ العَاقِلُ إلىَ المُصِيْبَةِ في مِثْلِ ذلِكَ اليَوْمَ الذِي رُبَّمَا لا يَسْلَمُ لَهُ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ الحَسَنَاتِ فَإنْ سَلِمَ شَيْءٌ ابْتَدَرَهُ الغُرَمَاءُ وَأخَذُوهُ فكَيْفَ تكوُن حَالُ مَنْ رَأى صَحِيْفَتهُ خَالِيَةً مِنْ حَسَنَاتٍ طَالَمَا تَعِبَ فِيْهَا ، فَاذا سَألَ عَنْهَا قِيْلَ لهُ نُقِلَتْ إلىَ صَحِيْفَةِ خُصَمَائِكَ الذِيْنَ ظَلَمْتَهُم وَيَرى صَحِيْفَتَهُ مَشْحَونَةً بسَيِّئَاتٍ لَمْ يَعْمَلْهَا ، فَاذا سَألَ عَنْهَا وَمِنْ أيْنَ جَاءَتْ إلَيْهِ ؟ قِيْلَ : هَذه سَيِّئَاتُ القَوْمِ الذِيْنَ طَالَما تَمَضْمَضْتَ بِهَتْكِ أعْرَاضِهِمْ وَتَناوَلْتَ أمْوالَهُمْ وَقَذَفْتَهُمْ وَشَتَمْتَهُمْ وَقَصَدْتَهُمْ بِالسُّوْءِ وَخُنْتَهُمْ فِيْ المُبَايَعَةِ وَالمُجاوَرَةِ وَالمُعَامَلَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أنْوَاعِ الظُّلْمِ .

قَالَ بَعْضُهُمْ :

وفي الناسِ مَن ظُلْمُ الوَرى عادةٌ له
وَيَنْشُرُ أعْذاراً بِهَا يَتأوَّلُ
جَرِيء على أكْلِ الحَرامِ ويَدَّعِي
بأنَّ له فِي حِلِّ ذَلِكَ مَحْمَلُ
فَيَا آكَلَ المالِ الحرامِ إبْنْ لَنا
بأيِ كِتَابٍ حَلَّ ما أنْتَ تأكُلُ
أَلَمْ تَدرِ أنَّ اللهَ يَدْرِي بِمَا جَرَى
وبَينَ البَرايَا في القِيَامَةِ يَفْصِلُ
حَنانَيْكَ لا تَظْلِمْ فَانَّكَ مَيِّتٌ
وبالبَعْثِ عَمَّا قَدْ تَولَّيْتَ تُسْأَلُ

وتُـوقَفُ لِلْمَـظْلُومِ يَـأْخُـذُ حَقَّـهُ
فَيأخُذُ يومَ العَرْضِ مَـا كُنْتَ تعْمَلُ
ويـأخُـذُ مِن وِزْرٍ لِمَنْ قَـدْ ظَلَمْتَه
فَيُـوْضَعُ فَـوقَ الظهْـرِ منك ويُجْعَـلُ
فَيَأخُـذُ مِنْـكَ اللهُ مَـظْلَمَـةَ الـذي
ظَلَمْتَ سَـرِيعـاً عَـاجِـلاً لَا يُـؤَجّلُ
تَفِـرُّ مِن الخَصْمِ الذِي قَدْ ظَلَمْتَهُ
وَأنْتَ مَخُوفٌ مُوجَفُ القَلْبِ مُـوْجَلُ
تَفِـرُّ فَـلاَ يُغْنِي الفِـرَارُ مِن القَضَـا
وانْ تَتَـوجَّـلْ لَا يُفِيْـدُ التَّـوَجُّـلُ
فَيَقْتَصُ مِنْـكَ الحَقَ مَن قَدْ ظَلمَتْـهُ
بـلا رَأْفَـةٍ كَـلاَ وَلا مِنْـكَ يَخْجَـلُ

وَحُكْيَ أَنَّ الرَّشِيْدَ حَبسَ أبَا العَتَاهِيَةَ فكَتَبَ على جِدَارِ الحَبْسِ

أمَـا والـلّهِ إنَّ الـظُّلْمَ شُـؤْمٌ
ومَـا زَالَ الـمُـسِـيْءُ هُـوَ الـظَّلُومُ
إلَى الـدَّيَـانِ يَـوْمَ الـدِّيْنِ نَمْضِي
وعـنـد اللهِ تَجْتَمِـعُ الـخُـصُـوْمُ
سَتَعْلَمُ في الحِسَـابِ إذَا الْتَقَيْنَـا
غَـداً عِنْـدَ المَلِيْـكِ مَنْ الـظَّلُوْمُ
تَـنَـامُ ولم تَـنَمْ عَـنْـكَ المَنـايَـا
تَـنَـبَّـهْ لِـلْمَـنِـيَّـةِ يَـا نَؤُومُ

لَـهَـوْتَ عَن الـفَنَـاءِ وَأَنْـتَ تَفْـنـى
وَمـا حَـيٌّ عَـلَى الـدُنـيـا يَـدُوْمُ
تَـرومُ الـخُـلْدَ في دَارِ الـمَـنَـايَـا
وكـمَ قَـدْ رَامَ غَـيْـرُكَ مَـا تَـرُوْمُ
سَـلِ الأَيَـامَ عَـن أمَّـم تَـقَـضَّـتْ
سَتُخَـبـرِكِ الـمَـعَـالِـمُ والـرُّسُـوْمُ

فَأُخْبِرَ الرَّشِيْدُ بذَلِكَ فَبكى بُكاءً شَدِيْدا ودَعا أبا العَتَاهِيَةَ فَاسْتَحَلَهُ وَوَهَبَ لَهُ أَلْفَ دِيْنَارٍ لِحَبْسِه مِنْ غَيْرِ مُوْجِبٍ شَرْعِيّ .

وقال الآخَرُ :

لَا تَـظْلِمَـنَّ اذا مَـا كُـنْـتَ مُـقْـتَـدِراً
واحْذَرْ سِهَامَ الدُعَا في حِنْدِس الظُلَمِ
تَـنـامُ عَـيْـنَـاكَ والـمَـظْلُومُ مُـنْـتَـبِـهُ
يَـدْعُـو عَـلَيْـكَ وَعَيـنُ اللهِ لَـمْ تَـنَـمِ

اللهُمَّ أَيْقِظْ قُلُوبَنَا وَنَوِّرْهَا بِنُورِ الإيمانْ وَثَبِّتْ فيْهَا مَحَبَّتَكَ ومَحَبَّةَ أوْلِيائِكَ وعِبَادَكَ الصَّالِحِيْنَ وَأَرْزُقْنا المَعْرِفَةَ بِكَ على بَصِيْرَة وَأَلْهِمْناَ ذِكْرَكَ وَشُكَرَكَ وَاجْعَلْ آخِرَ كَلِمَةٍ نَتَكَلَّمُ بها كَلِمَةَ التَّوْحِيْدِ وَثَبِّتْنا عَلى قَولِكَ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ الدُّنيا وَفي الآخِرَة إنَّك عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدْيْرٍ وبالاجابَة جَدِيْرٌ وَصَلَّى اللّهُ عَلى مُحَمدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ لَقَدْ تَوَعَّدَ اللهُ الذِيْنَ يُخَالِفُونَ أَمْرَهُ وَيَنْصَرِفُوْنَ عَنْ ذِكْرِهِ وَيَجْتَرِؤُنَ على مَعَاصِيْهِ بشَدِيْدِ غَضَبِهِ وَعَظِيْمِ سَخَطِهِ وَحَذَّرَهُمْ بأسَهُ وَانْتِقَامَهُ فَمَا بَالُ كَثِيْرٍ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ القُرُوْنِ الأُوْلى عَمَدُوا إلى مَحَارِمِ اللّهِ فارْتَكَبُوهَا وَمَأمُوْراتِهِ فَاجْتَنَبُوهَا ثُمَّ عَادُوا بمُرِّ الشَّكْوَى مِنْ تَغَيُّرِ الأَحْوَالِ وَانْتِزَاعِ البَرَكَةِ مِنْ الأَرْزَاقِ والأَمْوالِ .

أَحَسِبْتَ أَنَّكَ يَا ابْنَ آدَمَ تُهْمَلُ وَتُتْرَكُ فَلا تُعَاقَبْ ، وَتَظْلِمُ وَتَتَقَلَّبُ في النَّعِيْمِ كَيْفَ شِئْتَ وَلا تُحَاسَبْ أَنَسِيْتَ قَوْلَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسَلم « إنَّ اللهَ لَيُمْلِيْ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » كُلُّ هَذا مِنْ جَهَالَتِكَ وَانْطِمَاسِ بَصِيرَتِكَ وَلكِنْ اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَسَيرى اللهُ عَمَلكَ ثُمَّ تَرُدُّ إِلَيْهِ وَيُجازِيْكَ بِمَا تَسْتَحِقُّ ، جَهِلْتَ في حَالِ النَّعِيْمِ وَكانَ الواجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتعرَّفَ إِلىَ اللّهِ في الرَّخاءِ لِيَعْرِفَكَ في الشِّدَّةِ ، وَلكِنْ لَمْ تَفْعَلْ ، وَأَصْبَحْتَ بَعْدَ زَوَالِهَا مِنْكَ تَشْكُوْ لِمَنْ ؟ تَشْكُوْ لِمَنْ عَصَيْتَهُ بالأَمْسِ تَشْكَو لِمَنْ خَالَفْتَ أَوَامِرَهُ وَفَعَلْتَ نَواهِيْهِ مَعَ عِلْمِكَ إِنَّهُ المُنْتَقِمُ الجَبَّارُ تَشْكُوْ لِمَنْ حَارَبْتَهُ بالمعَاصِيْ المُتَنَوِّعَةِ وَقَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَة وَلو شَاءَ لَمَنعَها عَنْكَ لإنَهُ الفَعَّالُ لِمَا يُرِيْدُ تَشْكُو لِمَنْ تَأكُلُ نِعَمَهُ في أَرْضِهِ مُسْتَعِيْناً بهَا على مَعَاصِيْهِ أَلَيْسَ عَمَلُكَ هَذا في مُنْتَهى اللآمَةِ وَالخَسَاسَةِ يُمِدُّكَ بالنِّعَمِ وَتبارِزُهُ بالمعَاصِيْ ، أَلَكَ صَبْرٌ عَلَى جَهَنَّمَ وَزَمْهَرِيْرهَا ، أَلَكَ طَاقةٌ بالوَيْلِ والغَسَّاقِ وَالزَّقُومِ وَالحَمِيْمِ وَالضَّرِّيْعِ ، عِبَادَ اللهِ هَذا الذي نحنُ فيه مِنْ الانْهِمَاكِ في الدنيا وقَتْلِ كلِّ الوَقْتِ في جَمْعِهَا وَالابْتِعَادِ عَنْ الآخِرَةِ وَانْتِشَارِ المَعَاصِيْ بسُرْعَةٍ هَائِلَةً مَا هُوَ والله

إلاّ بِمَا كَسَبَتْ أيْدِيْنا، قَالَ تَعَالى ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ وَالبَحْرِ، بِمَا كَسَبَتْ أيْدِيْ النّاسِ﴾ الآيَـةِ . عِبَـادَ الله إِنَّ غَـلاء الأسْعَـارِ، وانْتِشَـارَ الأمْرَاضِ، وَمَا رَأيْتُم مِنْ الفِتَنِ وَالتَّعْقِيـدِ في المُمْتَلَكَاتِ وَالتَّقَاطُعِ وَالعُقُوقَ، مَا هُوَ واللهِ إلاّ جَزاءُ عَمَلِنَا وَمَا هُوَ إلاَّ قَلِيْلٌ مِنْ كَثِيْرٍ فَقَدْ تَمَادَيْنا في المَعَاصِي وَاللهُ يغَارُ عَلَى أوَامِرِهِ أنْ تُجتَنَبْ ومَحَارِمِهِ أنْ تُرْتَكَبْ قَالَ صلىَّ اللهُ عليه وسلم « لا أحَدَ أغْيَرُ مِنْ الله » الحَدِيْث .

تَيَقَنْتُ أنِّي مُذْنِبٌ وَمُحَاسِبْ
ولم أدرِ هَلْ نَاجٍ أنا أو مُعَاقَبُ
ومَا أنَا إلا بَيْنَ أمْرَيْنِ وَاقِفٌ
فإمَّا سَعِيْدٌ أمْ بِذَنْبِي مُطَالَبُ
وقد سَبقَتْ مِنّي ذُنُوبٌ عَظِيْمَةٌ
فيا لَيْتَ شِعْرِي ما تَكُونُ العَوَاقِبُ
فَيَا مُنْقِذَ الغَرْقَى وَيا كَاشِفَ البَلا
وَيا مَنْ لَهُ عِندَ المماتِ مَوَاهِبُ
أغِثْنَا بغُفْرانٍ فإنَّك لَم تَزَلْ
مُجِيْباً لِمَنْ ضَاقَتْ عليهِ المَذَاهِبُ

والله أعلم وصلى الله على محمد .

فصل

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ لما نزلتَ هَذِهِ السُّورةُ عَلى رَسُولِ اللهِ صلىَّ اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وَإنَّهُم مَيِّتُونَ، ثُمَّ إنَّكُم يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُم تَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ الزبَيْرُ

رَضِيَ اللهُ عَنهُ أيْ رسُولَ اللهِ أيُكَرَّرُ عَلينَا مَا كَان بَيْنَنا في الدُّنيا ، مَعَ خَوَاصِّ الذنوبِ ؟ قَالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ « نَعمْ لَيُكَررن عَلَيْكُم حَتَّى يُؤَدِّيْ إلَى كُلِّ ذِيْ حَقٍّ حَقَّهُ » قالَ الزُّبَيْرُ : وَاللهَ إنَّ الأمْرَ لشَدِيْدٌ رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ .

وَعَنْ أَبِيْ سَعِيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم « وَالذِي نَفْسِي بيدِهِ إنَّهُ ليَخْتَصِمُ حَتَّى الشَّاتَانِ فِيْمَا انْتَطحَتَا » تَفرَّدَ بِهِ أحْمَدُ رحِمَهُ اللهُ ، وفي المُسْنَدِ عَنْ أبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنه أنهُ قَالَ رأى النبي صَلى اللهُ عليه وسلم شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ « أتَدْرِيْ فِيْمَا يَنْتَطِحَانِ يَا أبَا ذَرّ » ؟ قُلْتُ : لا قالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « لكِنّ اللهُ يَدْرِي ، وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا » .

فتَفَكَّرْ الآنَ في نَفْسِكَ إنْ خَلَتْ صَحِيْفَتُكَ عَنْ المَظَالِمِ وَعفى اللهُ عَنكَ وَرحِمَكَ فَأيْقَنْتَ بسَعَادَةِ الأبَدِ كَيفَ يكُونَ سُرُوْرُكَ وَاغْتِبَاطُكَ في مُنْصَرفِكَ مِن فَصْلِ القَضَاءِ وَقد خَلَعَ عليْكَ خِلْعَةَ الرِّضَا وَعُدَتُ بسَعَادَةٍ لَيْسَ بَعْدَها شَقَاءٌ ونَعُمَ بَدنُكَ بنَعِيْمٍ لا يَدُوْرُ بحَوَاشِيْهِ الفَنَاءُ وعنْدَ ذلكَ طَارَ قَلْبُكَ سُرُوراً وَأُنْساً وَابْتِهَاجاً وفرحاً وَصِرْتَ مِنْ الحِزْبِ الذِيْنَ ابْيَضَّتْ وُجُوْهُهُمْ وَاسْتَنَارَتْ وَأشْرقَت فَتَصَوَّرْ مَشْيُكَ بينَ الخَلائِق رَافِعاً رَأْسَكَ خَالِياً مِنْ الأوزَارِ ظَهْرُكَ ، يُعْرَفُ في وَجْهِكَ نَضْرَةُ النَّعِيْم ، وَالخَلْقُ يَنْظرُونَ إلَيْكَ وَإلَى حَالِكَ وَيغْبِطُونَكَ في حُسْنِكَ وَجَمَالِكَ وَالملائكةُ يُمَشُّوْنَ بين يَديْكَ يُبَشِّرونَكَ بِمَا يَسُرُّكَ .

وإن تَكُنْ الأخْرَى وَالعِيَاذُ باللهِ بِأنْ خَرجَتْ الصَّحِيْفَةُ مَمْلُؤَةً مِنْ المظَالِمِ وَمَقتَهُ اللهُ ولَعنَهَ ونَكَّسَ هذا المُجْرِمُ رَأسَه مُسْوَدًّا الوَجْهِ أزرقَ

العَيْنينِ وَأخَذَتْهُ الزَّبَانيةُ بنَاصِيَتِه يَسْحَبُونَهُ عَلى وَجْهِهِ عَلى مَلاءٍ مِنْ الخلقِ وهُمْ يَنْظُرُونَ إليْهِ وهُوَ يُنَادِي بالويْلِ وَالثبُورِ وَيُقَالُ لهُ وَلأمْثَالِهِ ﴿ لا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُوراً واَحِداً وَادْعُوا ثُبُوْراً كثِيْرا فمَا أعْظَم جُرْمَ مَنْ يَسْتَتِرُ وَيحْتَرِزُ عَنْ مَلاءٍ مِنْ الخَلْقِ خَشَيةَ الافْتِضَاحِ عندَهُم في هذه الدنيا المُضْمَحِلَّةِ المنقَرضَةِ ثُمَّ لا يَخشَى مِن الافتضَاحِ عندَ عَلاّمِ الغُيُوبِ وفي ذلك الْمَلاَءِ العَظِيْمِ مَع التَّعَرُّضِ لِسَخَطِ بَدِيْعِ السَّمواتِ وَالأرْضِ .

شعرا :

تَـوَارَى بجُدْرَانِ البُيُـوتِ عَن الوَرَى
وأنتَ بعَـيْنِ الـلهِ لـو كُنْـتَ تُنْـظَرُ

وَتَخْشَى عُيُونَ الناسِ أنْ يَنْظُرُوَا بِها
ولم تَخْشَ عَـيْنَ الـلهِ واللهُ يَـنْـظُرُ

آخر :

يـا مَن يَرَى مـدَّ البَعُوضِ جَنَـاحَهَا
في ظُلْمَـةِ اللَّيـلِ البَهِيْمِ الألْيَـلِ

ويـرى مَنَـاطَ عُـرُوقْهَـا في نَحْـرِهـا
والمُـخّ في تِلكَ العِظَامِ النُّحَـلِ

وَيَـرى مكـانَ الـدَّمِ مِن أعْضَـائِهـا
مُتَنَقِـلاً مِن مَفْصِـلٍ في مَفْصِـلِ

ويَـرى مَكَـانَ المَشْيِ مِن أقْـدَامِهـا
وخَـطِيْـطَهَـا في مَشْيِهَـا المُسْتَعْجِـلِ

وَيرَى وَيسمَعُ حِسَّ ما هُو صَوْتُهَا
فِي قعْرِ بَحْرٍ غَامِضٍ مُتَجَدْوِلِ
أَصْوَاتُها مَرفُوعَةٌ عندَ النِدَا
أَرزاقُها مَقْسُومَةٌ لِسُؤَ لِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِن فَرَطَاتِه
مَا كانَ منه في الزَّمان الأَولِ

آخر :

إنَّ القُلُوبَ يَدُ البَاري تُقَلِّبُهَا
فَاسْأَل مِن اللهِ توفيقاً وتَثْبيتاَ
مَن يُظْلِ اللهُ لا تَهْدِيْه مَوْعِظة
وانْ هَدَاهْ فلَوْ قد كَان عِنْتِيْتا
فَهَذِه غُربَةُ الاسلامِ أنَتَ بهَا
فكُنْ صَبُوْرا إذَا فِي اللّه أوْذِيتا
واسَألَهْ مِن فَضلِهِ خَيْراً يَمُنَّ بِه
عَلِيكَ واصْبِرْ ولو في الدِّينِ عُودِيتَا
واعْلم بأنّكَ مخلوقٌ لِطاعَتهِ
فَإن أجَبْتَ فللِخَيْراتِ أُوْتِيْتَا
وَسَوفْ تَرضَى غداً إن كنْتَ مُعْتَصَماً
بالوَاحدِ الفرْدِ لا بالشركِ إِن جِئْتَا

« مَوْعِظَةٌ في الحَثِّ عَلى الأَقْبَالِ على الآخِرَةِ »

اخْوَانِي أَيْنَ رُفَقَاؤُنَا وَاخْوَانُنَا أَيْنَ ذَهَبَ مَعَارِفُنَا وَجيْرَانُنَا أَيْنَ أَصْدِقَاؤنَا أَيْنَ زُمَلاؤُنا وَأقْرانُنَا أَيْنَ عُلَمَاؤُنَا العَامِلُوْنَ بِعِلمهم أَيْنَ آبَاؤُنَا وَأَجْدَادُنَا رَحَلُوا وَقَلَّ والله بَعْدَهُمْ بَقَاؤُنَا. هَذِهِ مَسَاكِنهُم فِيْهَا غَيْرُهُمْ قَدْ نَسِيْنَاهُم وَنَسِيَهُم مُحِبُهم وَجفَاهُم. أَيْنَ أَصْحَابُ القُصُوْرِ الحَصِيْنَةِ، وَالانْسَابِ العَالِيَةِ الرَّصِيْنَة وَالعُقُولِ الرَّاجِحَةِ الرَّزِيْنةِ، قَبَضَتْ عَلَيْهِمْ يَدُ المنَايَا فظَفِرَتْ، وَنُقِلُوا إلَى أجْداثٍ مَا مُهِّدَتْ إذْ حُفِرَتْ وَرَحِلُوا بذُنُوبِ لا يَدْرُونَ هَلْ غُفِرتْ أو بَقِيَتْ فالصَّحِيْحُ مِنْهُم بالحَزَنِ قد سَقِمْ وَالمَدْعُو إلىَ دَارِ البَلىَ أَسْرَعَ وَلَمْ يُقِمْ والكتابُ قد سُطِّرَ بالذنوبِ فَرُقِمْ. وَلَذِيْذُ عَيْشِهم بالتَّنْغِيْصِ قدْ خُتِمَ وفِراقُهم لأَحْبَابِهم وَأمْوَالِهِمْ قد حُتِمَ وَالولدُ قد ذَلَّ وَيَتِمْ، فتفكّرُوا في القوْمِ كَيْفَ رَحلُوا، وتَذَكَرُوا دِيارَهُم أَيْنَ نَزَلُوا، وَاسْأَلُوا مَنَازِلهم عَنْهُم مَاذَا فَعَلُوا فانْتَبِهْ مِنْ رُقَادِكَ قبْلَ أنْ تصلَ مَا وَصِلُوا يَا مَنْ غَفَلَ وَسَهَى وَلَهَى وَنَسِيَ المقَابِرَ وَالبِلَى.

شِعْراً :

لَنَا كُلَّ يَوْمٍ رَنَّةٌ خَلْفَ ذَاهِبٍ
وَمُسْتَهْلَكٌ بينَ النَّوى والنَوَائِبِ
وقَلْعَةُ إخْوَانٍ كَأَنَّا وَرَاءهُمْ
نُرامِقُ أعْجَازَ النُّجُومِ الغَوَارِبِ
نُوادِعُ أحْدَاثَ اللَّيَالِي عَلى شَفَا
مِن الحَرْبِ لَوْ سَالمنَ مَنْ لَمْ يُحَارِبِ

وَنَـأْملُ مِن وَعْـدِ المُنَى غَيْرَ صَـادِقٍ
وَنـأملُ مِن وَعْـدِ الرَّدَى غَيْـرَ كاذِبِ
إلى كَمْ نُـمَنَّـى بـالغُـرُورِ ونَـنْثَنِي
بـأعْنَـاقِنَـا لِلْمُـطْمِعَـاتِ الكَـواذِبِ
نُـراعُ إذا مَا شِيْـكَ أَخْمُصُ بعْضِنَـا
وأقْـدامُنَـا مَـا بينَ شَـوْكِ العَقَـارِبِ
وَنَمْشِـي بـآمَـالٍ طِـوَالٍ كَـأنَّنَـا
أمِنَّا بَنَـاتِ الخَـطْبِ دُونَ المَـطَالِبِ
نَعَمْ إنَّهَـا الـدُنيـا سُمُومٌ لِـطَاعِمٍ
وَخَـوْفٌ لِـمَـطلوبِ وَهَـمٌ لِـطَالِـبِ
وَإنَّـا لنَهْـواهَـا مَـعَ الغَـدرِ والقِلا
ونَمْـدَحُهَـا مَـعْ عِلْمِنَـا بـالمَعـائِبِ
ومَن كـانَتِ الأَيَّـامُ ظَهْـراً لِـرَاحِلِهْ
فيـا قُرْبَ مَـا بَينَ المدَى والـرَّكَائِبِ
تَحِـلُ الـرَّزَايَـا بـالـرِّجَالِ وتَنْجَلِي
ورُبَّ مُصَـابٍ مُقْلِع عنِ مَـصَـائِبِ

اللَّهم يَا حيُ يَا قَيُّومُ يَا مَن لا تأخذُه سِنَةٌ ولا نَومٌ يا ذا الجلالِ والاكرامِ يَا وَاحِدُ أحَد يا فَرْدُصَـمَدُيا بَدِيْعَ السمواتِ والأرضِ نَسْأَلُكَ أن تَنْصُرَ الاسلامَ والمُسْلِمينَ وأن تَعْلُى كلَمةَ الحَقِ والدِّيْن وأن تَشمَلَ بعنَايَتك وَتوفيقِكَ كُلَّ مَنْ نصر الدِّينَ وأن تَملأ قُلوُبَنَا بمَحبَّتك ومَحبَّةِ رُسُلِكَ وَأوْلِيَائِكَ وَأنْ تُلْهمَنَا ذِكرُكَ وشُكْرَكَ وَأنَ تَأخُذُ بنَواصِينا إلى مَا

تِرضَاهُ وأنْ تَرزُقَنَا الاسْتعْدَادَ لِمَا أَمَامَنَا وأنْ تُهوّنَ أمرَ الدّنْيا عَلَينَا وأن تغفِرَ لَنَا ولِوَالِدَينَا وجَمِيْعِ المُسْلِمين الأحياءِ مِنهم والميِّتِيْنَ برَحمتِكَ يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْلٌ » في تَحْرِيْمِ القَتْلِ وَإثْمِ القَاتِلِ

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللَّهُ وَيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ أَنَّ القَتْلَ مِنْ أَكْبَرَ الكَبَائِرِ وَأَعْظَم الذُّنوبِ وَأشَدِّ الآثامِ بَلْ هُوَ أَغْلَظُهَا جَمِيْعاً بَعْدَ الاشْرَاكِ باللهِ وَمَا زالَ النَّاسُ مُنْذُ تَكَوَّنُوا جَمَاعَاتٍ وَظَهرَ فِيْمَا بَيْنَهُم تعـارُضُ الرَّغبـاتِ وَالشَّهَوَاتُ وَتَمَكَّنَتْ بِهَا في النُّفُوسِ بَوَاعِثُ التَّعَدِّيْ يَرَوْنَ أنَّ جَرِيْمَةَ القَتْلِ مِنْ أَكْبَرِ الجَرَائِم وَذَلِكَ أنَّهَا سَلْبٌ لِحَيَاةِ المَجْنِيّ عَلَيْهِ بغَيْرِ حَقٍّ وتَيْتِيْمٌ لِأَوْلادِهِ وَتَرْمِيْلٌ لِنسائِهِ وَحِرْمَانٌ لِأَهْلِهِ وأَقارِبِهِ، وإضَاعَةٌ لِحُقُوقِهِ ، وَقَطْعٌ لِأعْمَالِ حَيَاتِهِ ، وَالحَيْلُولَةُ بَيْنَهُ وَبيْنَ التَّوْبَةِ وَالوَصَايَا وَغَيْرِ ذلِكَ وَإيْصَالُ النَّاسِ حُقُوقَهُم إنْ كانَ عَلَيْهِ لهُمْ شَيْءٌ وَأَنْتَإذَا تَتَبَعْتَ المَعاصِيْ مَعْصِيَةً مَعْصِيَةِ لا تَجِدُ لِوَاحِدَةٍ مِنْهَا فَسَاداً يُسَاوِيْ فَسَادَ القَتْلِ لِأَنَّ الانْسَانَ إذا مَاتَ وَمُحِيَ مِنْ الوُجُودِ ذَهَبَ كلُّهُ وَلَمْ يَبْقَ ناحِيَةٌ مِنْ نَوَاحِيْهِ ولَيْسَ ذَلِكَ المَعْنَىفي أيِّ مَعْصِيَةِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ الكَبيرةِ تِلي الشِّرْكَ باللَّهِ وَوَرِدَ عَنْ أبي مُوسَى رضيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النّبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَم قالَ « اذا أَصْبَحَ ابْلِيْسُ بَثَّ جُنُودَهُ فَيقول مَنْ أضَلَّ اليَوْمَ مُسْلِماً أَلْبَسْتُهُ التاجَ قالَ فيَجِيءُ هَذا فيَقولُ لَمْ أزَلْ بهِ حَتَّى طَلَّقَ أمْرَأتَهُ فيَقولُ يُوْشِكُ أنْ يَتَزَوَّجَ وَيَجِيُءُ هَذا فيَقُولَ لَمْ أَزَلْ به حتّى عَقَّ وَالِدَيْهِ فيقُولُ يُوْشِكُ أنْ يبرَّهُما وَيَجِيْءُ هَذا فيَقُولُ لم لم أزَلْ بِهِ حَتّى أشْرَكَ فيقولُ أنْتَ أنْتَ ويَجيءُ هَذا فيَقولُ لم أَزَلْ به حَتَّى قَتَلَ فيقولُ أَنْتَ أَنْتَ ويُلْبِسُه التّاجَ » رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ في

صَحِيْحِه وَالحَاكِمُ في مُسْتَدْرَكِهِ .

وَأَيْضاً تَحَدٍ لِشُعُورِ الجَمَاعَةِ البَشَرِيَّةِ الذِيْ فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنْ اعْتِقَادِ أَنَّ الحَياةَ جعَلَها اللهُ حَقّاً لِكُلِّ حَيٍّ يَتَمَتَّعُ بِه ولا يَجُوْزُ انْتِزاعُهُ مِنْهُ إلاَّ بحَقٍّ شَرْعِيّ .

وأيضاً جَرِيْمَةُ القَتْلِ مُزَعْزِعَةٌ لِمَا تَرْجُو هَذِهِ الجَمَاعَةُ ، مِنْ هُدُوءِ الحَيَاةِ وَاسْتِقْرَارِها وَأيضاً هَدْمٌ لِعَمَارَةٍ شادَهَا اللهُ تَتَكَوَّنُ مِنْهُا وَمِنْ أَمْثَالِهَا العِمَارَة لِهَذَا الكَوْنِ .

وَهَذَا القُرْآنُ الكرِيْمُ يُحَدِّثُنَا عَنْ أَوَّلِ اعْتِداءٍ وَقَعَ مِنْ الأنْسَانِ عَلَى أخِيْهِ ، وَيُصَوِّرُ لَنَا كَيْفَ كانَ القَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ كِلاَهُمَا يَعُدَّانِ القَتْلَ جَرِيْمَةً آثِمَةً تَسْتَوْجِبُ غَضَبَ اللهِ وعِقَابَهُ وَأنَّ القَاتِلَ لِشُعُورِهِ بهَذا كانَ يُعَالِجُ في نَفْسِهِ الأقْدَامَ عَلى هذِهَ الجَرِيْمَةِ عِلاجَ الكارِهِ المُتَحَرِّجِ ، حَتَّى ﴿طَوَّعَتْ لهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أخِيْهِ فقَتلَهُ فأصْبَحَ مِنْ الخَاسِرِيْنَ﴾ .

وَقَالَ بَعْضُ المفَسِّرِيْنَ على قَوْلِهِ تَعالَى ﴿مِنْ أجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِيْ اسْرَائِيْلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ فكأنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جمِيْعاً وَمَنْ أحْيَاهَا فكَأنَّمَا أحْيَا النَّاسَ جمِيعاً﴾ مِنْ أجْلِ الاعْتِداءِ الذِي لا مُوجِبَ لَه ولاَ مُبرِّرَ عَلَى المُسالمِيْنَ الوَادِعِيْنَ الذِيْنَ لا يُرِيْدُونَ شَرّاً وَلا مُدافعَةً . . ﴿مِنْ أجلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلى بَنِـيْ اسْرَائِيْلَ﴾ أَنَّ جَرِيمَةَ قَتْلَ نَفسٍ وَاحِدَةٍ بلا مُبَرِّر مِنْ قِصَاصٍ أو دَفْعٍ لِفَسَادٍ عَامّ كجَرِيْمَةِ قَتْلِ النَّاسِ جَمِيعاً ، وَأَنَّ حِمَايَة نَفْسٍ وَاحِدةٍ وَاسْتَحْيَاءَهَا بهذِهِ الحِمَايَةِ في أيّةِ صُوْرَةٍ مِنْ صُوَرِهَا وَمِنْهَا القِصَاصُ كأنها اسْتِحياءٌ لِلنّاسِ جَمِيْعاً .

ذلِكَ أنَّ الاعْتِداءَ عَلى نَفْسٍ وَاحِدةٍ هُو اعْتِدَاءٌ عَلَى حَقِّ الحَياةِ الذِي يَصُونُ لِلنَّاسِ جمِيْعاً حياتَهَمْ فَالاسْتِهْتَارُ بهَذا الحَقّ اعْتِداءٌ عَلى كُلِّ مَنْ يُدْلِي بِهِ وَيَتَحصَّن به والمُحَافَظةُ عَلَيْهِ مُحَافظةٌ عَلى الحَقِّ الذِي تُصَانُ به دِمَاءُ النَّاسِ وَأرْوَاحُهُم فَلَيْسَتْ نَفْسٌ مُفْرَدَةٌ هِيَ التِيْ تُقْتَلُ إنَّمَا هُوَ حَقُّهَا فِي الحَيَاةِ التِيْ يُشَارِكُها فِيْهَا النَّاسُ ، وَلَيْسَتْ نَفْسٌ مُفْرَدَةٌ هِيَ التِي تُصَانُ إنَّمَا هِيَ كلُّ نَفْسٍ مُسْتَحِقّةٍ لِلصِّيَانَةِ بمَا اسْتَحقتْ بِهِ تِلْكَ النَّفْسُ الوَاحِدَةُ ا هـ .

وقدْ اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ هَلْ للقَاتِلِ مِنْ تَوْبَةٍ أم لا فروَى البُخَارِيّ عَنْ سَعِيْدِ بْنِ جُبَيْر قَالَ اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الكُوْفَةِ فيْهَا فَرَحَلْتُ إلَى ابْنِ عَبّاسٍ رَضْيَ اللهُ عنه ، فَسَألْتُه عَنْهَا ، فَقالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جهَنَّم﴾ الآيَةِ وَهِيَ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ ، وَمَا نَسَخَها شَيْءٌ .

وَعَنْ سَالِمْ بْنِ أبِي الجَعْدِ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ بَعْدَ مَا كَفَّ بَصَرُه فأتاهُ رَجُلٌ فنَادَاهُ يَا عَبْدَ اللهِ بْنِ عَبّاسٍ ما ترى في رَجُلٍ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتُعَمِّداً ؟ فقَالَ ﴿جَزَاؤُهُ جهَنَّمُ خالِدا فيهَا ، وَغضِبَ الله عليه ، ولعَنَهُ ، وَأعَدَّ لهُ عَذابا عظِيْما﴾ . قال : أفرَأَيْتَ إنْ ﴿تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً ثمَّ اهْتَدَى﴾ قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ وَأنَّى لهُ التّوبَة والهُدَى والذِي نَفْسِي بيَدِهِ ، لقَدْ سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلى اللهُ عليه وسلم يقُولُ « ثَكِلَتْهُ امهُ ، قاتِلُ مُؤْمِنٍ مُتَعَمِّداً ، جَاءَ يومَ القِيَامَة آخذه بيَمينِه أو بشِمَالِه ، تشْخَبُ أَوداجُه في قِبَلِ عَرْشِ الرَّحْمَن يَلْزَمُ قاتِلَهُ بِشمَاله وبيَدِهِ الأخْرَى رَأسُه يَقُولُ يَا رَبِّ سَلْ هذا فِيْمَا قَتَلَنِي ؟ » وَأيْمُ الذِي نفْسُ عَبدِ الله بِيَدِه لقَدْ أُنْزِلَتْ هَذه الآيَةِ فَمَا نَسَختها مِنْ آيةٍ حَتَّى قُبِضَ نَبيكم صلى اللهُ عليه وسلم ومَا نزَلَ

بعدَها مِنْ برهَانٍ .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يَجيءُ المقتُولُ مُتَعَلِّقاً بقاتِله يومَ القيَامَةِ آخذٌ رَأْسَهُ بيَدِهِ فيقُولُ يا رَبِّ سَلْ هَذا فيمَ قَتلني قالَ فيقُولُ قَتَلْتهُ لِتَكُونَ العِزَّةُ لِفلانٍ قال فإنَّهَا لَيْسَتْ لَهُ بُؤْ بإِثمِهِ قالَ فيَهْوِى في النارِ سَبْعِيْنَ خرِيْفاً » .

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضْيَ اللهُ عنه قالَ سَمعْتُ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقُولُ « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أنْ يَغْفِرَهُ إلاّ الرَّجُلُ يَمُوتُ كافِرا ، أو الرَّجُلُ يَقتُلُ مؤمِناً متعَمِّداً » رَواهُ أحْمَدُ وَالنسَائِيّ ، ولأَبي دَاوُد من حَدِيْثِ أبي الدَّردَاءِ كذلكَ وعَنْ أبيْ هُرَيْرَة رضْيَ الله عنه قالَ قالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ أعانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بشَطْرِ كَلمَةٍ ، لَقِيَ اللهَ مكتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » .

وَاخْرَجَ الطَّبَرانِيّ في الكَبِيْرَ والضِّيَاءُ في المُخْتَارَةِ عَنْ أنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضيَ اللهُ عنه . أنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم قالَ « أبىَ اللهُ أنْ يَجْعَلَ لِقَاتِلِ المُؤْمِنِ تَوْبَةً » .

ورُوِيَ عَنْ البَراءِ بنَ عَازِبٍ رضيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلى الله عليه وسلم قالَ « لزَوَالُ الدنْيا أهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بغَيْرِ حَقٍّ » رَواهُ ابْنُ مَاجَهْ باسْنَادٍ حَسَنٍ ، وَرَوَاهُ البَيهقِيّ وَالأصبَهانِيّ ، وزادَ فِيْهِ « وَلَوْ أنَّ أهْلَ سمَواتِه وَأهْلَ أرْضِهِ اشْتَركُوا في دَمِ مُؤْمِنٍ لأدْخَلَهَمُ اللهُ النَّارَ » .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم قالَ « لزَوَالُ الدُّنْيَا أهْوَنُ عِنْدَ اللهِ من قتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ رَوَاهُ مُسْلِمٌ

وَالنَّسَائِي وَالتِّرْمِذِيّ مَرْفُوعاً وَمَوْقُوفا وَرَجَّحَ المَوْقُوْفَ .

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم«أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ في الدِّمَاءِ»رَوَاهُ البُخَارِي وَمُسْلِم وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْروٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ في فُسْحَةٍ مِنْ دِيْنِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَماً حَرَاماً » وقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا · إنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الأُمُورِ التِيْ لا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيْهَا سَفْكُ الدَّمِ الحَرَامِ بغَيْرِ حِلِّهِ رَوَاهُ البُخَارِيّ وَالحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيْحٌ عَلى شَرْطِهما وَرَوى ابْنُ مَاجَه عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْروٍ قالَ رَأيتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهِ عليه وسلم يَطُوفُ بالكعبة ويقولُ ما أَطْيَبَكِ وَمَا أَطْيَبَ رِيْحُكَ مَا أَعْظَمَكِ ومَا أَعْظَمَ حُرْمَتِكَ وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِه لحُرْمَةُ المُؤْمِن عندَ اللهِ أَعْظَمُ مِن حُرْمَتِكَ مالُه ودمُه . وعن أبي سَعيدٍ وأبي هُريرة رضي اللهُ عنهُمَا عنْ رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « لَوْ أنَّ أهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَركُوا في دَمِ مُؤْمِنٍ لأكَبَّهُم اللهُ في النَّارِ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ ، وقالَ حَدِيْثٌ حَسَنٌ غَرِيْبٌ وروَى الطَّبَرانِي في الصَّغِيْرِ مِنْ حَدِيْثِ أَبِي بَكرَةَ عَنْ النَّبِيّ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ « لَوْ أنَ اهْلَ السَّمواتِ وَالأرضِ اجْتَمَعُوا عَلى قَتْلِ مُسْلِمٍ لَكَبَّهُم اللهُ جَمِيْعاً عَلى وُجُوْهِهِمْ في النَّارِ » .

وَعَنْ جُنْدبِ بْنُ عَبْدِ اللّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أنْ لا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ مِلْءُ كَفٍّ مِنْ دَمِ امْرِىءٍ مُسْلِم أنْ يُهَرِيْقَهُ ، كَمَا يَذْبَحُ بِهِ دَجَاجَةً ، كُلَّمَا تَعَرَّضَ لِبَابٍ مِنْ أبْوابِ الجَنةِ حَالَ اللّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَمَنْ اسْتَطاعَ مِنْكُم أنْ لا يَجْعَلَ

فِي بَطْنِهِ إلاّ طَيِّباً فَلْيَفعَلْ فإنَّ أوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنْ الانْسَانِ بَطْنُه » رَوَاهُ الطَّبَرانِيّ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ .

وقَالَ عَبْدُ المَلِكَ بْنِ مَرْوَانَ كُنْتُ أُجَالِسُ بَرِيْرَةٍ بالمَدِيْنَةِ فَكَانَتْ تَقُولُ لِيْ : يَا عَبْدَ الملكِ إنِّيْ أرَى فِيْكَ خِصَالاً ، وَإنَّكَ لَخَلِيْقٌ أَنْ تلِيَ الأمْرَ فَإنْ وَلِيْتَه فاحْذَرْ الدنيا فإني سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ يَقُولُ « إنَّ الرَّجُلَ لَيُدْفَعُ عَنْ بَابِ الجَنَّةِ بَعْدَ أنْ يَنْظُرَ إلَيْهَا ، بِمِلءِ مِحْجَمَةٍ مِنْ دَمٍ يُهْرِيْقُهُ مِنْ مُسْلِم بغَيْرِ حَقّ » انْتَهى .

وَعَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي صَلى اللهُ عليه وسلم قالَ « أبغَضُ النَّاسِ إلَى اللهِ ثلاثةٌ مُلْحِدٌ في الحَرَمِ ، ومُبْتَغٍ في الاسْلام سُنَّةَ الجَاهِليّةِ ، وَمُطَّلِبُ دَم امْرِىءٍ بغَيْرِ حَق لِيُهْرِيْقَ دَمَهُ » رواهُ البُخاريّ ، قالَ شَيْخُ الاسْلام : أخبرَ صلى اللهُ عليه وسَلّمَ أن أبغَضَ الناسِ إلى الله هَؤُلاءِ الثلاثةِ وَذَلِكَ لِأنَّ الفَسَادَ إمَّا في الدِّيْنَ وإمّا في الدنيا فأعْظَمُ فَسَادِ الدنيا قَتْلُ النُّفُوسِ بغَير حَقّ ، ولهذا كانَ أكْبَرُ الكبَائِر بَعْدَ أعْظَمِ فسَادِ الدِّيْنِ الذِيْ هُوَ الكُفْرُ .

وَعَنْ أبي الدَّرْدَاءِ رَضْيَ اللهُ عنهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقُولُ « كلُّ ذَنْبٍ عَسى اللهُ أنْ يَغْفِرَهُ إلا الرَّجُلُ يَمُوتُ مُشْرِكاً ، أو يَقْتُلُ مُؤْمِنا مُتَعَمِّداً » رَوَاهُ أبُو دَاوُدَ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِه وَالحَاكِمُ وقالَ صَحِيْحُ الاسْنَادِ وَعَنْ أَبِيْ مُوْسَى رضْيَ اللهُ عنه عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم قالَ « إذا أصْبَحَ إبْلِيْسُ بَثَّ جُنُودَهُ ، فيَقولُ مَنْ أضَلَّ مُسْلِماً ألْبَسْتُهُ التَّاجَ ، قَالَ فَيَجيْءُ هَذا فيَقُولُ : لَمْ أزَلْ به حَتّى طَلَّقَ امْرأَتَهُ فيَقُولُ يُوْشِكُ أنْ يَتزَوَّجَ ، وَيَجيْءُ هَذا فيَقُولُ : لَمْ أزَلْ به حَتّى عَقَّ وَالدِيْهِ ،

فَيقُولُ : يُوْشِكُ أنْ يبرّهُمَا ، وَيَجِيْءُ هَذا : فيَقُولُ لَمْ أزَلْ بهِ حَتَّى أشْرَكَ ، فيقُولُ : أنْتَ أنْتَ ، وَيَجِيْءُ هَذا فيَقُولُ لَمْ أزَلْ بِهِ حَتَّى قَتَلَ . فَيُقُولُ : أنْتَ أنْت وَيُلْبِسُهُ التَّاجَ » رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ .

وعَنْ أبيْ سَعِيدٍ رضْيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسلم قال « يَخْرُجُ عَنَقٌ مِن النَّار يَتَكلَّمُ يقُولُ : وُكِّلْتُ اليَوْمَ بثَلاثَةٍ ، بكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ وَمْن جَعَلَ مَعَ اللهِ إلهَا آخَر وَمَنْ قَتَل نَفْساً بغيَرِ حَقٍ فَيَنْطوِي عَلَيْهم فيَقْذِفُهم في حَمْرَاءِ جَهَنَّمَ » رَواهُ أحْمَدُ وَالبَزارُ .

شِعراً :

فـإيـاكَ قَتْـلَ النَّفْسِ ظُلمـاً لِمُؤمِنٍ
فـذلكَ بَعْـدَ الشّـرِكِ كُبْـرى التَفَسُـدِ
كَفَى زَاجِـراً عَـنْـهُ تـوعُّـدُ قَـادِرٍ
بـنـارٍ ولَعْـنٍ ثم تَـخْـلِيْـدِ مُـعْـتَـدِ
فقدْ قَالَ عَبدُ اللهِ ذُو العِلمِ والتُقَى
بنَفيْ مَتَـابِ القَـاتِـلِ المُـتَعَـمِّـدِ

« فَصْـلٌ »

وَمِمَّنْ يَرى أنهُ لا تَوْبَةَ لِقَاتِل المُؤْمِنِ عَمْداً أَبُو هُرَيْرَة وَعَبْدُ اللهِ ابنُ عَمْرو وأبُو سَلمَة وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَير وَالحَسَنُ والضَّحَّاكُ بْنُ مُزاحِم نقلهُ ابْنُ أبي حَاتِم عَنْهُم ، وبالتاليْ فَلو لَمْ يَرِدْ في بَيَانِ ضَخَامَةِ هَذا الذَنْبِ ذَنْبُ القَتْلِ ، وَعِظَمِهِ الذِي لا يتَنَاهَى إلا قَولُهُ تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُه جهَنَّمُ خَالِداً فيها، وَغَضِبَ اللهُ عليهِ ، وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيْما ﴾ .

لكانَ فِيْهَا كِفايةٌ وَمَوْعِظَة وَزَجْرٌ ، فَفِيْهَا مِنْ الوَعِيْدِ الشَّدِيْدِ الذي تَرْجُفُ مِنْهُ القلوبُ وتنْصَدِعُ له الأفئِدَة وَيَنْزَعِجُ مِنْهُ أولُو العُقول ، فقرَنَ سُبْحَانَهُ وتَعالَى القَتْلَ بالشّرْك ، وَبين أنّ جزاءَهُ جهَنَّمُ وَأَنَّهُ خالِدٌ فِيْهَا وَأَنَّ مَعَ ذَلِكَ العَذَابِ والخُلُودِ غَضبُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلا وَلَمْ تَسْكُتْ الآيَةُ ، بَلْ أَضَافَتْ إلى ذَلِكَ اللَّعْنَ ، وَهُوَ الطَّرْدُ والابْعَادُ عَنْ الرَّحْمَةِ وَلَمْ تَنْتَهِ الآيَةُ إِلَى هَذَا الحَدِّ مِنْ بَيانِ عِظم جَزاءِ القاتِلِ بَلْ صَرَّحَتْ تَصْرِيْحاً لاخفاءَ فيه بأنَّ عَذَابَ ذلك القاتِلِ سَيكُونُ نوعاً وَحْدَهُ في الشدَّةِ لا يُماثِلُه عَذَابُ أيِّ مَعْصِيَةٍ ما عَدَا الشِّرْك، فَذَنْبُه أعْظَمُ الذُّنُوبِ وَعُقُوبَتُهُ أشدُّ العُقوبَاتِ هَذا مِمَّا وَرَدَ في قَتْلِ الانْسَانِ غَيْرَهُ وَأَمَّا قَتْلُ الانْسَانِ نَفْسَهُ المَعْرُوفُ عِنْدَنا اليَوْمَ بالانْتِحَارِ فَهُوَ نَوْعٌ مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ التِيْ حَرَّمَ اللهُ وَهُوَ جدِيْرٌ بأنْ يَكُونَ أَفْظَعُ أَنْوَاعِ القَتْلِ لِأنَّ حِرْصَ الانْسَانِ عَلى حَيَاتِهِ أَمْرٌ فِطْرِيّ يَبْعُدُ كُلُّ البُعْدِ أَنْ تَثُوْرَ عَلَيْهِ عَوَامِلُ الغَضَبِ والانتِقَامِ .

وَنَفْسُ الانْسَانِ لَيْسَتْ مِلْكاً لَهُ فَهُوَ لَمْ يَخْلُقْ نَفْسَهُ ولا عُضْواً مِنْ أَعْضَائِه ، بَلْ وَلَا خَلِيّةً مِنْ خلاَيَاه ، وَإِنَّمَا نَفْسُه وَدِيْعَةٌ وَأَمانة عِنْدَهُ اسْتَوْدَعَهُ اللّهُ إِيَّاهَا ، فلا يَجُوزُ لَهُ التَّفْرِيْطُ فِيْهَا وَلا التَّصرُّفُ فِيْهَا إلَّا عَلَى وِفْقِ الشَّرْعِ فَكَيْفَ بالاعْتِدَاءِ عَلَيْهَا بالتَّخَلُّصِ مِنْهَا قالَ تَعالَى ﴿ ولا تَقْتُلوا انْفُسَكُم إنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحِيْمَا ﴾ فالمُسْلِمُ يُرادُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ صَلْبَ العُوْدِ قَوِيَّ العَزْمِ في مُوَاجَهَةِ الشَّدَائِدِ وَلَمْ يُبَحْ لَهُ أن يَهْرُبَ مِنْ الحَياةِ ، وَيَخْلَعَ ثوْبَهَا لِبَلاءٍ نَزَلَ به ، أَوْ أَمَلٍ كانَ يَحْلُم بِهِ فخابَ أَمَلُهُ فإنَّ المؤمِنَ خُلِقَ لِلْجِهَاد لا لِلْقُعُودِ وَلِلْكِفَاحِ لا لِلْفِرَار ، وَإِيْمَانُه باللهِ وَخُلُقُهُ يَأبيانِ عَلَيْهِ أَنْ يَفِرَّ مِنْ مِيْدَانِ الحَياةِ وَمَعَهُ السّلاحُ الذِي لا يُفِلُّ ، والذخِيْرَةُ التِي لا تنْفَدُ ، سِلاحُ الايْمانِ المكِين ، وذخيْرَةُ الخُلُقِ المَتِيْنِ الذي اسْتَمَدَّهُ مِن

كتابِ اللهِ وَسُنةِ رَسُولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ تعَالَى ﴿ فاسْتَمْسِكْ بالذِي أُوْحِيَ إلَيْـكَ إنَّكَ عَلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيْم ﴾ وَفقنَا اللهُ وَجَمِيْـعَ المُسْلِمِيْنَ إِلَى الاقتداءِ بِهِمَا والتمَسُّكِ بِهِما عِلْماً وَعَمَلاً .

وَإِذَا كَانَ جَزَاءُ قَاتِلِ المؤمِن عَمْداً مَا سَمِعْتَ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُصَوِّرُ لنا جَزاءَ قَاتِلِ نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُه صَلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ تردَّى مِنْ جَبلٍ فقتَل نَفْسَهُ ، فَهُوَ في نَارِ جَهَنَّم يَتَردَّى فِيْهَا خالِداً مُخَلَّداً فِيْهَا أَبَداً ، وَمَنْ تَحَسَّى سُمّاً فقتَل نَفْسَهُ ، فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِداً مُخَلَّداً فِيْهَا أبدا ، وَمَنْ قتَل نَفْسَهُ بِحَدِيْدَةٍ فَحَدِيْدَتُه في يَدِهِ يَتَوجَّأُ بِهَا في نارِ جَهَنَّم خَالِداً مُخَلَّداً فِيْهَا أَبَداً » رَوَاهُ البُخارِيْ وَمُسْلِمٌ والتّرمِذيّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيّ ، فَهَذَا الحَدِيْثُ يُصَرِّحُ بالخُلُودِ المؤبَّدِ في حَقِّ قاتِلِ نَفْسِه وَيُفِيْدُ أَنَّ قاتلَ نَفْسِهِ في أيِّ آلةٍ مِنْ الآلاتِ القَاتِلةِ يُعَذّبُ نَفْسَه بِتِلْكَ الآلةِ في نَارِ جَهَنَّمَ فَيَسْتَعْمِلُهَا هُنَاكَ كَمَا اسْتَعْمَلَهَا هُنا عِنْدَمَا قتَلَ نَفْسَهُ فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ عَذَابَانِ عَذَابُ النَّارِ وَعَذَابُ الآلَةِ المَذْكُورَةِ نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ في الدنيَا والآخِرَةِ وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « الذِي يَخْنِقُ نَفْسَهُ يَخْنِقُهَا في النَّارِ ، والذِي يَطْعَنُ نَفْسَه يَطْعَنُ نفسَه في النَّارِ ، وَالذِي يَقْتَحِمُ يَقْتَحِمُ في النَّارِ » رَوَاهُ البُخَارِيّ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فقالَ لِرَجُل مِمَّنْ يَدَّعِيْ الإِسْلاَمَ « هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ » فلمَّا حَضرَ القِتَالُ قاتلَ ذلكَ الرَّجُلُ قِتَالاً شَدِيْدَاً فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ فَقِيْلَ يَا رَسُولَ اللهِ الذِي قُلْـتَ إنَّـهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ

قد قَاتَلَ قِتَالاً شَدِيْدَاً وَقَدْ مَاتَ فقالَ صلى اللهُ عليه وسلم « إلى النَّارِ » فكادَ بَعْضُ المسلمِيْنَ أنْ يَرْتَابَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذلك ، إذْ قِيْلَ لَهُ إِنَّهُ لم يَمُتْ وَلَكِنْ بِهِ جِرَاحَة شَدِيْدَةٌ فَلَمَّا كَانَ مِنْ اللَيْلِ لَم يَصْبِرْ عَلَى الجِرَاحِ فَأَخَذَ ذُبَابَ سَيْفِهِ فَتَحَامَلَ عليهِ فقتلَ نَفْسَهُ فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فقَالَ « اللهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه » ثُمَّ أَمَر بلالا فَنَادَى في النَّاسِ « إِنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ، وَإِنَّ اللهَ لَيُؤيِّدُ هَذَا الدِيْنَ بالرَّجُلِ الفَاجِرِ » وَعَنْ جُنْدِبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ البَجَلِيّ عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم قالَ « كانَ مِمَّن كانَ قَبْلَكُم رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ ، فَجَزِعَ فَأَخَذَ سِكّيْناً فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ فقالَ اللهُ بادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ » وَعَنْ جَابِر بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَّ رَجُلاً كَانَتْ بِهِ جِرَاحَةٌ فأتَى قَرْنَاً لَهُ فَأَخَذَ مِشْقَصاً فَذَبَحَ بِهِ نَفْسَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عليه النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ .

وَعَنْ أَبِيْ قُلَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ ثَابِتَ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخبَرَهُ بأنهُ بَايَعَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم تَحْتَ الشَّجَرَةِ وأَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِيْنٍ بمِلَّةٍ غَيْرِ الاسْلامِ كاذِباً مُتَعَمِّداً فَهُوَ كَمَا قَالَ وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَه بِشَيْءٍ عُذِبَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فِيْمَا لا يَمْلِكُ وَلَعْنُ المؤمِنِ كَقَتْلِهِ وَمَنْ رَمَى مُؤْمِناً بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ وَمَنْ ذَبَحَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمُ .

وَجَاءَ في تَرْوِيْعِ المُسْلِمِ عِدَّةُ أَحَادِيْثَ كَقَوْلِهِ صَلَى اللهُ عليه وَسَلَّمَ « مَنْ أَشَار إِلَى أَخِيْهِ بِحَدِيْدَةٍ فإنَّ الملائِكة تَلْعَنَهُ حَتَّى يَنْتَهِيْ ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيْهِ وَأُمِّهِ » .

وَقَالَ صَلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ نظَرَ إلَى مُسْلِمٍ نَظْرَةً يُخِيْفُه فِيْهَا بِغَيْرِ حَقٍّ ، أَخَافَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

وقالَ صَلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ أَخَافَ مُؤْمِناً كَانَ حَقّاً عَلَى اللّهِ أَلَّا يُؤَمِّنَهُ مِنْ أَفْزَاعِ يَوْمِ القِيَامَةِ » .

شِـعْرَاً :

فَـيَـا عَـجَـبـاً نَـدْرِي بِنَـارٍ وَجَـنَّـةٍ
وَلَـيْسَ لِـذِي نَشْتَـاقُ أَوْ تِـلْكَ نَـحْـذَرُ
إِذَا لَـمْ يَكُـنْ خَــوْفٌ وَشَــوْقٌ وَلاَ حَيَـا
فمــاذا بَقِيَ فِيْـنَـا مِن الـخَيْـرِ يُــذْكَـرُ
وَلَــيْسَ لِـحَــرٍّ صَـابِـرِيْــنَ ولا بِــلَى
فكيفَ على الـنِّيْـرَانِ يـا قَــوْمُ نَـصْبِـرُ
وَفـوْتُ جِنَــانِ الخُـلْدِ أَعْــظَمُ حَـسْــرَةً
عَـلَى تِلْكَ فَـلْيَسْتَـحْسِـرِ الـمُـتَـحَـسِّـرُ
فـأفٍ لَــنَــا أفٍ كِـلاَبُ مَـزَابِـلٍ
إلــى بِتْـنِـهـا نَـغْـدُوا ولا نَـتَـدَبَّـرُ
نَـبِيْـعُ خَـطِيْـراً بـالـحَقِيْـرِ عِـمـايَـةً
وَلَــيْسَ لَـنَـا عَـقْـلٌ وَلُــبٌ مُـنَـوَّرُ
فَــطُوبى لِمَـنْ يُؤْتَـى القَـنَــاعَــةَ والتُّقَى
وَأَوْقَــاتُــهُ فــي طَـاعَـةِ الـلهِ يَـعْـمُـرُ

مَوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ طَلَبُ الرِّزْقِ الحَلاَلِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فَالْتَمِسْ الرِّزْقَ أَيُّهَا المُسْلِمُ مِنْ حِلِّهِ وَإِيَّاكَ وَمَا نَهَاكَ اللهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ فَمَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيْلٌ ؛ أَيُّهَا المُسْلِمُ إِنَّ جَمْعَكَ لِلْمَالِ مِنْ حِلِّهِ عِبَادَةٌ إِذَا كُنْتَ تُرِيْدُ بِهِ إِعْفَافَ نَفْسِكَ ، وَالقِيَامَ بِمَا أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ مِنَ الحُقُوْقِ ، واحْذَرْ مِنْ تَرْكِ العَمَلِ ، وَافْعَلْ الأَسْبَابَ التِي بِهَا يَحْصُلُ الرِّزْقَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، واعْلَمْ أَنَّ مَنْ تَرَكَ العَمَلَ وَغَلَبَ عَلَيْهِ الكَسَلُ حَتَّى صَارَ كَلاًّ عَلَى الخَلْقِ يَعُدُّهُ أَهْلُهُ ثُقْلاً وَيَرَاهُ صَاحِبُهُ بَغِيْضاً ، وَلاَ يَلْقَاهُ أَحَدٌ إِلاَّ وَكَرِهَ لُقْيَاهُ قَالَ تَعَالَى حَاثاً عَلَى طَلَب الرِّزْقِ ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فانْتَشِرُوا في الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيْهُم تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والمُؤْمِنُ المُحْتَرِفُ الكَسُوْبُ الذِيْ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ مُكْرَمٌ مَحْبُوبٌ مُحْتَرَمٌ ، عِنْدَ أَهْلِهِ ، وَالأَوْلاَدُ ، وَكَانَ نُوحٌ وَدَاوُدُ يَحْتَرِفَانِ التِّجَارَةَ وَمُحَمَّدٌ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ رَعَى الغَنَمَ ، وَمُوسَى كَانَ أَجِيْراً عِنْدَ صَاحِبِ مَدْيَنَ وَكَانَ ادْرِيْسُ خَيّاطاً ، وَمَا أَبْعَدَ هَذِهِ الأَعْمَالِ الشَّرِيْفَةِ عَنْ الكَسَلِ وَالبَطَالَةِ وَكَانَ السَّلْفُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عُمَّالاً مُكْتَسِبِيْنَ ، فَكُلُّهُمْ مَا بَيْنَ غَنِيّ شَرِيْفٍ وَفَقِيرٍ شَرِيْفٍ عَفِيْفٍ ، لاَ تَشْغَلُهُمْ الدُّنْيَا عَنْ الآخِرَةِ وَلا يَمْنَعُهُمْ الدِّيْنُ عَنْ طَلَبِ الكَسْبِ ، وَالقِيَامِ بالوَاجِبَاتِ ، وَهُمْ مَعَ هَذَا مِنْ أَقْوَى النّاسِ تَوَكُّلاً عَلَى اللّهِ وَرِضىً بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ وَقَضَاهُ وَلِلّهِ دَرُّ القَائِلِ :

وَكُنْ بِـالـذي قَـدْ خُطَّ بـاللَّوحِ راضيـاً
فـلا مَـهْـرَبٌ مِـمَّـا قَـضَـاهُ وَخَـطَّهُ

وإنَّ مَـعَ الـرِّزْقِ اشْـتِـرَاطُ الْتِمَـاسِـهِ
وَقَـد يَـتَـعَـدَّى إنْ تَـعَـدَيْـتَ شَـرْطَـهُ
فَلَوْ شَـاءَ أَلْقَى في فَمِ الـطَّيْـرِ قُـوتَـهُ
ولـكـنَّـه أَوْحَـى إلـى الـطَّيْـرِ لَـقْـطَهُ

ويَقُوْلُ الآخَرُ :

لَا تَـقْعُـدَنَّ بِـكِسْـرِ الـبَـيْـتِ مُكْـتَئِبـاً
يَفْنَـى زَمَـانُـكَ بَيْـنَ الـيَـأْسِ وَالأَمَـلِ
وَاحْتَـلْ لِنَـفْسِـكَ فـي رِزْقٍ تَعِيْشُ بِـهِ
فـإنَّ أَكْثَـرَ عَيْشِ الـنـاسِ بـالحِيَـلِ
وَلا تَـقُـلْ إنَّ رِزْقِي سَـوْفَ يُـدْرِكُـنِي
وإنْ قَـعَـدَتُ فَلَيْسَ الـرِّزْقُ كَـالأَجَـلِ

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَلَا تُعَذِّبْنَا وَوَفِّقْنَا وَلَا تَخْذُلْنَا وَلَا تَسْلِبْ الأيْمَانَ مِنَّا لا مَلْجَأَ لَنَا إلا إِلَيْكَ وَلاَ مُعَوَّلَ لَنَا إلَّا عَلَيْكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فصل في التحذير من الزنا وآثاره في الدنيا والآخرة

اعْلَمْ وَفقنَا اللهُ واياكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لما يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا مِنْ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ رَكَّبَ في الانْسَانِ شَهْوَةَ الفَرْجِ تَرْكِيْباً قَوِيّاً وَجَعَلَ لَهَا عَلَيْهِ سُلْطَةً شَدِيْدَةً فإِذَا هَاجَتْ كانَتْ أَشَدَّ الشَّهَوَاتِ عِصْيَاناً عَلَى العَقْلِ فَلا تَقْبَلُ مِنْهُ صَرْفاً وَلَا عَدْلاً فمَنْ لَمْ يَجْعَلْهُ اللهُ قَوِيَّ الارَادَةِ شُجَاعاً انْقَادَ لَهَا صَاغِراً وَأَطَاعَهَا ذَلِيْلاً وَلَوْلَا قُوَّةُ هَذِهِ الشَّهْوَةِ التِي جَعَلَهَا

اللهُ ، وَشِدَّةَ سُلْطَانِهَا عَلَى الانْسَان ، لأبَى أنْ يَحْتَمِلَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ مَشَاقِّ البَيْتُوتَةِ وَتَكالِيْفِ الزَّوْجِيَّةِ وَتَرْبِيَةِ الأوْلَادِ وَالكَدِّ وَالتَّعَبِ مِنْ أَجْلِهِم وَالرِّضَى بالآلَامِ التِي تَنْتَابُهُ إِذَا مَرِضُوا أَوْ أُصِيْبُوا بِمَكْرُوْهٍ .

فَخَلْقَ اللهُ هَذِهِ الشَّهْوَةَ مِنْ القُوَّةِ مِنْ أَوْضَحِ الدَّلالَةِ عَلَى قُدْرَةِ الخَالِقِ وَكَمالِ عِلْمِهِ وَخِبْرَتِهِ وَجلِيْلِ حِكْمَتِهِ فَإِنَّ الإِنْسَانَ مَسُوقٌ إِلَى التَّنَاسُلِ رَغْمَ أَنْفِهِ وَمُسَخَّرٌ على احْتِمَالِ كُلِّ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ النَّصَبِ وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ رَاضٍ كُلَّ الرِّضا .

وَكَذَلِكَ المَرْأَةُ لَوْلَا مَا جَعَلَ اللهُ فِيْهَا مِنْ هَذِهِ الشَّهْوَةِ القَوِيَّةِ مَا كَانَتْ تَسْتَطِيْعُ حَمْلَ عِبْءِ الوِلَادَةِ وَالحَمْلِ وَمَشاقَّ تَرْبِيَةِ الأَوْلَادِ وهُمْ صِغارٌ وَالسَّهَرَ في اللَيَالِيْ والقِيَامَ عَلَى حِرَاسَتِهِمْ وَدَفْعِ الأضْرَارِ المَكْرُوْهَةِ عَنْهُم وَهُمْ أَطفَالٌ صِغَارٌ وَاحْتِمَالَ مَا يَعْتَرِيْهِمْ مِنْ الآلام وَعَدَمِ الرَّاحَةِ وَأَيْضاً فَإِنَّ اللهَ قَدْ خَلَقَ النِّسَاءَ عَلَى حَالَةٍ مِنْ الضَّعْفِ لا يَقْدِرْنَ مَعَها عَلَى احْتِمالِ تَكَالِيْفِ الحَياةِ وَمَشاقِّ الجِهَادِ في مُعْتَرَكِهَا .

فَسَخَّرَ اللهُ لَهُنَّ الرِّجَالَ يَحْمِلُونَ عَنْهُنَّ كُلَّ مَا يَعْجَزْنَ عَنْ احْتِمَالِهِ في سَبِيْلِ حَيَاتِهِنَّ بدَافِعِ هَذِهِ الشَّهْوَةِ القَوِيَّةِ التِيْ أَوْدَعَهَا العَزِيْزُ الحَكِيْمُ جَلَّ وَعَلا ، وَلَوْلَاهَا لما كَانَ لِلنِّسَاءِ هذا السُّلْطَانُ عَلَى النُّفُوسِ .

وإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ شَهْوَةَ الفَرْجِ لَهَا مِنْ القُوَّةِ وَالتَّأْثِيْرِ هَذِهِ المكانَة وَأَنَّهَا إِنَّمَا خُلِقَتْ لِحِكْمَةٍ أَرَادَها اللهُ فاعْلَمْ أَنَّ العَقْلَ مَسْئُولٌ عَنْ تَصْرِيْفِ هَذِهِ الشَّهْوَةِ ، وَالوُقُوفِ مَعَهَا عِنْدَ الحَدِّ الذِيْ خُلِقَتْ مِنْ أَجْلِهِ وَلَا يَتْرُكُهَا تَهِيْجُ بالوَسَائِلِ المُخْتَلِفَةِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُبْعِدَ عَنْ كُلِّ المَنَاظِرِ والأَسْبَابِ التي تُحَرِّكُهَا وَتبْعَثُها إِلَى مَا هُو مَمْنُوعٌ شَرْعاً . والأَسْبَابُ التِيْ

تُثِيْرُ هَذِهِ الشَّهْوَةَ وَتَهيِّجهَا ، مِنْهَا النَّظرُ والخَلْوَةُ بـالأجْنَبِيَّةِ ، وَحَـدِيْثُ النَّفْسِ ، وَتقَدَّمَ الكَلامُ عَلَى النَّظرِ وَالخلوةِ .

وَشَرُّ مضَارِّ شَهْوَةِ الفَرجِ الزِّنَا وَاللُّوَاطِ فَالزِّنَا أَكْبَرُ الكَبَائِرِ بَعْدَ الشِّرْكِ وَالقَتْلِ وَهُوَ فَاحِشَةٌ مُهْلِكَةٌ وَجَرِيْمَةٌ مُوْبِقَةٌ وَفَسَادٌ لا تَقِفُ جَرَائِمُه عِنْدَ حَدٍّ ولا تَنْتَهِيْ آثارُهُ وَنَتَائِجُهُ إِلَى غَايَةٍ وَهُوَ ضَلالٌ في الدِّيْنِ وَفَسَادٌ في الأَخْلاَقِ وَانْتِهَاكٌ لِلْحُرُمَـاتِ والأعْرَاضِ وَاسْتِهْتَـارٌ بالشَّـرَفِ والمُرُوْءَةِ ، وَدَاعِيَـةٌ لِلْبَغْضَاءِ وَالعَدَاوَةِ .

وَإِلَيْكَ مَا قَالَ أَحَدُ المُتَكَلِّمِيْنَ عَنْهُ : عَارُهُ يَهْدِمُ البُيُوْتَ الرَّفِيْعَة وَيُطَأْطِيءُ الرُّؤُسَ العَالِيَةِ وَيُسَوِّدُ الوُجُوْهَ البِيْضَ وَيَصْبَغُ بِأَسْوَدَ مِنْ القَارِ أَنْصَعَ العَمَائِمَ بَيَاضاً وَيُخْرِسُ الأَلْسِنَةَ البَلِيْغَة وَيُبَدِّلُ أَشْجَعَ الناسِ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ جُبْناً لا يُدَانِيْه جُبْنٌ وَيهْوِيْ بأَطْوَلِ النَّاسِ أَعْنَاقاً وَأَسْمَاهُم مَقَاماً وَأَعْرَقُهم عِزّاً إِلَى هَاوِيَةٍ مِنْ الذلِّ والازدِرَاءِ والحَقَارَةِ لَيْسَ لَهَا مِنْ قَرَارٍ .

وَهُوَ أَقْدَرُ أَنْوَاعِ العَارِ عَلَى نَزْعِ ثَوْبِ الجَاهِ مَهْمَا اتَّسَعَ وَنَبَاهَةِ الذِّكْرِ مَهْمَا بَعُدَتْ وَإِلبَاسِ ثَوْبٍ مِنْ الخُمُولِ يَنْبُو بالعُيونِ عَنْ أَنْ تَلْفِتَ إِلَى مَنْ كَانَ في بُيُوتِهم لَفْتَةَ احْتِرَامٍ وَهُوَ أَيْ الزِّنَا لُطْخَةٌ سَوْدَاءَ إِذا لَحِقَتْ تَارِيْخَ أَسْرَةٍ غَمَرتْ كُلَّ صَحَائِفِهِ البِيْضِ وَتَركَتْ العُيُونَ لا ترى مِنْهَا إِلاَّ سَوَاداً حَالِكاً .

وَهُوَ الذَنْبُ الظَّلُومُ الذِيْ إِنْ كانَ في قَوْمٍ لا يَقْتَصِرُ عَلَى شَيْنِ مَنْ قَارَفَتْهُ مِنْ نِسَائِهِم بَلْ يَمْتَدُّ شَيْنُه إلى مَنْ سِوَاهَا مِنْهُم فَيَشِيْنُهُنَّ جمِيْعاً شَيْناً يَتْرُكُ لَهُنَّ مِنْ الأثرِ في أَعْيُنِ النَّاظِرِيْنَ مَا يَقْضِيْ عَلَى مُسْتَقْبلِهِنَّ النِّسَوِيْ

وَهُوَ العَارُ الذِي يَطُوْلُ عُمْرُه طُوْلاً فقاتَلَهُ اللهُ مِنْ ذَنْبٍ وَقَاتَلَ فاعِلِيْهِ اهـ .

وَقَالَ آخَرُ إنَّ الزَّانِيْ يَحُطُّ نَفْسَهُ مِنْ سَمَاءِ الفَضِيْلَةِ إِلَى حَضِيْضِ الرَّذِيْلَةِ وَيُصْبِحُ بِمَكانٍ مَنْ غَضبِ اللهِ وَمَقْتِهِ عَظِيْمٍ وَيَكُونَ عِنْدَ الخَلْقِ مَمْقُوتاً وفي دُنْيَاهُ مَهِيْنُ الجَانِب عَدِيْمَ الشَّرفِ مُنْحَطَّ الكَرَامَةِ سَاقِطَ العَدَالَةِ تَزْدَرِيْهِ العَامَّةُ مِنْ الفَاسِقِيْنَ وَإِنْ كَانَ عَلَى أَخْلاَقِهِمْ وَيَسِيْرُ فِي رِكَابِهِمْ .

وَتَبْعُدُ عَنْهُ الخَاصَّةُ مِنْ ذَوِي المُرُوْءَةِ وَالكَرَامَةِ وَالشَّرَفِ ، مَخَافَةَ أَنْ يُلَوِّثَهُم وَيُعْدِيْهُم بِجَرَبِهِ وَلاَ تُقْبَلُ رِوَايَتُه وَلاَ تُسْمَعُ شَهَادَتُه وَلاَ يُرْغَبُ فِي مُجَاوَرَتِهِ بَلْ يُبْتَعَدُ عَنْهُ كُلَّ البُعْدِ وَيَكُونُ مُتَّهماً فِي حَرَكَاتِه وَسَكَنَاتِهِ وَجَمِيْعِ حَالاتِه وَلاَ يُرْغَبُ فِي مُصَادَقَتِه وَمُخَالَطَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ .

إِنْ سَارَ قَالَ النَّاسُ أَيْنَ يَذْهَبُ هَذَا المُجْرِمُ وَإِنْ قَعَدَ قَالُوا لِمَ قَعَدَ هَذَا الفَاسِقُ فِي هَذَا المكان وَإِنْ صَاحَبْتَهُ أو عَامَلْتَهُ أَخَذُوْكَ بِذَنْبِهِ وَرموْكَ بِمَا رَموْهُ بِهِ غَالِباً وَإِنْ جَاوَرْتَهُ فَأَعْظَمُ النَّاسِ إِخْلاصاً لكَ وَمَعْرِفَةً بِكَ شَكَّ فِي نَزَاهَتِكَ وَأَبْعَدَ عَنْ زِيَارَتِكَ يَخْشَى أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ يُرِيْدُ بَيْتَ هَذَا الفَاسِقِ وَلَوْ جَاءَ إِلَيْهِ لأَمْرٍ ضَرُورِيّ أَكْثَر التَّلَفُّتَ عَسَى أَنْ لاَ يَرَاهُ أَحَدٌ وَهُوَ حَوْلَ بَابِ هَذَا الدَّنَسْ النَّذِلِ المُجْرِمِ .

وَإِنْ مَشَتْ مَعَهُ أُنْثَى مِنْ أَقَارِبِهِ ظَنُّوْهَا أَجْنَبِيَّةً مِنْهُ جَرْياً عَلَى مَا اشْتَهَرَ بِهِ وَعُلِمَ عَنْهُ وَإِنْ جَاءَ إِلَى بَيْتِ إِنْسَانٍ شَرِيْفٍ لأَمْرٍ ضَرُورِيّ إِشْمَأَزَّ مِنْهُ وَحَرِصَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ بِسُرْعَةٍ لا يَرَاهُ أَحَدٌ وَهُوَ عِنْدَ بَابِهِ وَإِنْ مَشَى مَعَ شَرِيْفٍ لِحَاجَةٍ فِي النَّهَارِ وَدَّ الشَّرِيْفُ أَنَّهُ كانَ بالليل لِئَلا يَرَاهُ أَحَدٌ وَهُوَ يَمْشِيْ مَعَ هَذَا الدَّنسِ العِرْضِ السَّاقِطِ نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ .

شِـعْرَاً :

رَأَيْتُـكَ فِيْمَـا يُخْـطِىءُ النَّـاسُ تَنْظُرُ
وراسُـك مِن مَـاءِ الخَـطِيْئَـةِ يَقْـطُرُ

تَـوَارَي بِجُدْرَانِ البُيـوتِ عن الوَرَى
وأنتَ بِعَيْنِ اللهِ لَـوْ كُنْت تَشْـعُـرُ

وَتَخْشَى عُيُونَ النَّاسِ أَنْ يَنْظُرُوْا بِهَا
ولم تَخْشَ عَـيْنَ الـلهِ وَاللهُ يَـنْـظُرُ

وَكَمْ مِن قَبِيْـحٍ قَدْ كَفَى اللهُ شَـرَّهُ
أَلَا إنـهُ يَـعْفُـو الـقَبِـيْـحَ وَيَسْـتُـرُ

إِلَى كمْ تَعَامَى عَنْ أُمورٍ مِنْ الهُدَى
وَأَنْتَ إِذَا مَـرَّ الهَـوى بِـكَ تُبْصِـرُ

إِذَا مَا دَعَاكَ الـرُّشْدُ أَحْجَمْتَ دُوْنَـهُ
وَأَنْتَ إِلَى مَـا قَـادَكَ الغَيُّ تَـبْـدُرُ

وَلَيْسَ يَقُـومُ الشُّكْـرُ مِنْـكَ بِنِعْمَـةٍ
ولكن عَلَيْكَ الشُّكرُ إنْ كُنت تَشْكُـرُ

وَمَا كُلُّ مَا لَمْ تَأْتِ إِلَّا كَمَـا مَضَى
مِن اللَّهْوِ في اللذَّاتِ إِنْ كُنْتَ تَذْكُرُ

وَمَـا هِيَ إِلا تَـرْحَـةٌ بَعْدَ فَـرْحَـةٍ
كَذَلِكَ شُـرْبُ الدَّهْـرِ يَصْفُو وَيَكْـدُرُ

كَـأَنَّ الفَتَى المُغْتَـرَّ لم يَـدْرِ أَنَّـهُ
تَـرُوحُ عليـهِ الحَـادِثَـاتُ وَتُبْكِـرُ

أَجِـدَّكَ أَمَّـا كُنْتَ وَاللَّهْـوُ غَـالِبٌ
عَلَيْـكَ وَأَمَّـا السَّهْـوُ مِنْكَ فَيَكْثُـرُ

وَأَمَّا بَنُو الدُّنْيَا فَفِيْ غَفَلاتِهِمْ
وَأَمَّا يَدُ الدُنْيَا فَتَفْرِي وَتَجْزُرُ
وَأَمَّا جَمِيْعُ الخَلْقِ فِيْهَا فَمَيِّتٌ
وَلَكِنَّ آجَالاً تَطُوْلُ وَتَقْصُرُ
لَهَوْتَ وَكَمْ مِن عَبْرَةٍ قد حَضَرْتَها
وَأَنْتَ تَرَى في ذَاك أَنَّكَ تَتْجُرُ
خُدِعْتَ عن السَّاعَاتِ حَتَّى غُبْنْتَها
وَغَرَتْكَ أَيَّامٌ قِصَارٌ وَأَشْهُرُ
فَيَا بَانِيَ الدُّنْيَا لِغَيرِكَ تَبْتَنِي
وَيَا عامِرَ الدنيا لِغَيْرِكَ تَعْمُرُ
وَمَالَكَ إِلَّا الصَّبْرُ والبِرُّ عُدَّةٌ
وَإِلَّا اعْتِبَارٌ ثَاقِبٌ وَتَفَكُّرُ

واللهُ أعلم وَصَلى اللهُ على محمدٍ وآله وسلم .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ إِنَّ التَّوْبَةَ مِنْ الذُّنُوبِ مِفْتَاحُ السَّعَادَةِ في هَذِهِ الدَّارِ وفي دَارِ القَرَارِ ، وَانَّمَا كَانَتْ التَّوْبَةُ كَذَلِكَ لأَنَّ بِهَا يَغْفِرُ اللَّهُ الذُنُوبَ جَمِيْعاً لا فَرْقَ بَيْنَ صِغَارِهَا والكِبَارِ وَلأَنَّ التَّائِبَ إِذَا صَحَّتْ تَوْبَتُهُ بِأَنْ اجْتَمَعَتْ شُرُوْطُهَا وَانْتَفَتْ المَوانِعُ يُصْبِحُ بِالتَّوْبَةِ أَمِيْناً عَلَى دِيْنِهِ لَا يُخِلُّ بِوَاجِبٍ مِنْ وَاجِبَاتِ الإِسْلَامِ فَتُوبُوا عِبَادَ اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً لِتَسْتَنِيْرَ قُلُوبُكُم وَأَبْدَانُكُم بَدَلَ ظُلُمَاتٍ كَانَتْ مُخَيِّمَةً عَلَيْهَا تُثْقِلُكُمْ عَنْ طَاعَةِ مَوْلَاكُمْ وَسَتَجِدُوْنَ بإِذْنِ اللهِ انْشِرَاحاً في صُدُوْرِكُمْ بَدَلَ انْقِبَاضِهَا وَضِيْقِهَا فإِنَّ الذُنُوبَ تُؤَثِّرُ عَلَى

القُلُوبِ وَالأبْدَانِ انْقِبَاضاً يَشْتَدُّ عَلَى المُصِرِّ عَلَى الذنُوبِ حَتَّى يَضِيْقَ بِهِ فَسِيْحُ الأَرْجَاءِ وَلَكَ أَيُّهَا التَّائِبُ العَامِلُ بالطَّاعَاتِ الأَمَلُ القَوِيّ بتَوَالِيْ الطَّاعَاتِ لأنَّ الخَيْرَاتِ تُنْتِجُ بإذْنِ اللّهِ بَعْضُهَا بَعْضاً وَلَكَ الأمَلُ القَوِيّ بِأَنْ تَنْقَادَ لَكَ الأرْزَاقُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُمْتَنِعَةً فَتُصْبِحُ في يُسْرٍ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ في اعْسَارٍ وَلَكَ الأمَلُ في أَنْ العَدَاوَاتِ التِيْ كَانَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الخَلْقِ تُصْبِحُ بِإِذْنِ اللَّهِ حبّاً يَلْفِتُ الأَنْظَارَ ذَلِكَ أَنَّ الذُّنُوبَ وَالمَعَاصِيْ هِيَ أَسْبَابُ الشُّرُوْرِ وَالعُقُوبَاتِ المُؤْلِمَاتِ وَأَنَّ المَرْءَ بالتَّوْبَةِ مِنْهَا يُرْضِي بَدِيْعَ الأرْضِ وَالسَّموَاتِ فَتَأَكَّدْ أَيُّهَا الأَخُ أَنَّ التَّوْبَةَ هِيَ اليَنْبُوعُ الفيّاضُ لِكُلِّ خَيْرٍ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلَا تَشُكُّ في أنَّ اللهَ تَعَالَى يُفِيْضُ مِنْ فَضْلِهِ وَجُوْدِه مَا يُفِيْضُ عَلَى مَنْ أَخْلَصَ العَمَلَ لِجَلَالِهِ فَتُبْ أَيُّهَا الأخُ وَاصْدُقْ في التَّوْبَةِ وَاسْأَلْهُ أَنْ يُبَلِّغَكَ بِهَا رِضْوَانَهُ وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِنْ حِزْبِهِ المُفْلِحِيْنَ الذِيْنَ ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فَتَعِيْشُ وَتَمُوتُ وَتُبْعَثُ في رِعَايَةِ رَبِّكَ وَلُطْفِهِ وَغَيْرُكَ مِمَّنْ لَمْ يَتُوبُوا في اهَانَتِه البَالِغَةِ يَتَقَلَّبُونَ فَعَلَيْكَ بِالاعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ وَالتَّوكُّلِ عَلَيْهِ وَاللَّجَاءِ إِلَيْهِ دَائِماً مُتَضَرِّعاً مُتَمَلِّقاً .

شِعْرَاً :

لَبِسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْرَقَدُوْا
وَبِتُّ أَشْكُوْ إِلَى مَوْلَايَ مَا أَجِدُ

فَقُلْتُ يَا أَمَلِيْ في كُلِّ نَائِبَةٍ
وَمَنْ عَلَيْهِ لِكَشْفِ الضُّرِ أَعْتَمِدُ

أَشْكُو إِلَيْكَ أُمُوراً أَنْتَ تَعْلَمُهَا
مَالِى إِلَى حَمْلِهَا صَبْرٌ ولا جَلَدُ

وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بالذُّلِّ مُبْتَهِلاً
إِلَيْكَ يا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إليهِ يَدُ
فَلاَ تَرُدَنَّها يَا ربُّ خَائِبَةً
فَبَحْرُ جُوْدِكَ يُرْوِيْ كُلَّ مَنْ يَرِدُ

آخر :
عَطَاءُ ذِي العَرْشِ خَيْرٌ مِن عَطَائِكُمُ
وَسَيْبُهُ واسِعٌ يُرْجَى وَيُنْتَظَرُ
أَنْتُمْ يُكَدِّرُ ما تُعْطُونَ مِنَّتُكُم
والله يُعطِيْ وَلاَ مَنٌّ ولا كَدَرُ
لاَ حُكْمَ إلاَّ لِمَن تَمْضِيْ مَشِيْئَتُهُ
وَفِيْ يَدَيْهِ عَلَى مَا شَاءَهُ القَدَرَ

آخر :
شَادَ المُلُوكُ قُصُورَهُم فَتَحَصَّنُوا
عَنْ كُلِّ طَالِبِ حَاجَةٍ أَوْ رَاغِبِ
غَالَوْا بأَبْوَابِ الحَدِيْدِ لِعِزِّهَا
وَتَنوقُوا في قُبْحِ وَجْهِ الحَاجِبِ
فَإِذَا تَلَطَّفَ في الدُّخُولِ عَلَيْهِم
رَاجٍ تَلَقَّوْهُ بِوَعْدٍ كَاذِبِ
فَاقْصِدْ إِلَى مَلِكِ المُلُوكِ وَلاَ تَكُنْ
يَاذَا الضَّرَاعَةِ طَالِباً مِنْ طَالِبِ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِلتَّوْبَةِ النَّصُوحِ ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَغْدُوْ مُشَمِّراً في طَاعَتِكَ

وَيَرُوحُ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِـدَيْنَا وَلِجَمِيْـعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِـكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنُ وصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحِبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فصل

(أَدِلَّةٌ عَلَى تَحْرِيْمِ الزِّنَا)

قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيْلًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ والذِيْنَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التِيْ حَرَّمَ اللهُ إلّا بالحَقِّ وَلَا يَزْنُوْنَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثامَا .

وَمِنْ السُّنَّةِ مَا وَرَدَ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قَال «لا يَزْنِيْ الزانِيْ حِيْنَ يَزْنِيْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» الحَدِيثُ رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لا يَحِلُّ دَمُ امْرِيءٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أنْ لا إِلَهَ إلَّا اللهَ وَأنِّي رَسُولُ اللهِ الا باحْدَى ثَلَاثٍ الثَّيِّبِ الزَّانِيْ وَالنَّفْسِ بالنَّفْسِ وَالتَّارِكِ لِدِيْنِهِ ، المفَارِقُ لِلجَمَاعَةِ » رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قال « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِمٌ ، يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا الله ، وَانَّ مُحَمَّداً رسُولُ اللهِ الا في احْدى ثلاثٍ زِنَاً بَعْدَ احْصَانٍ فانَّهُ يُرْجَمُ وَرَجُلٌ خَرَجَ مُحَارِباً لِلهِ وَلِرَسُولِهِ ، فإنَّهُ يُقْتَلُ ، أو يُصْلَبُ ، أو يُنْفَى مِنْ الأرْضِ ، أو يَقْتُلُ نَفْساً فيُقْتَلُ بِها » رَوَاهُ أبُو دَاوُدَ وَالنّسائِيّ .

وَعَنْ عُثْمَانَ بْن أَبِيْ العَاصِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عَنْ رَسُولِ اللهِ

صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ قَالَ«تُفْتَحُ أبْوَابُ السَّمَاءِ نِصْفَ الليْلِ فَيُنَادِي مُنادٍ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابَ لَهُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى هَل مِنْ مَكْرُوبٍ فَيفَرَّجُ عَنْهُ فَلاَ يَبْقَى مُسْلِمٌ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ إلاّ اسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهُ ، إلاَّ زَانِيَةً تَسْعَى بِفَرْجِهَا أوْعَشَّاراً » وفي رِوَايَةٍ « إنَّ اللهَ يَدْنُو مِنْ خَلْقِهِ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَسْتَغْفِر الا لِبَغِيّ بِفَرْجِهَا أوْ عَشَّارٍ » رَوَاهُ أحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيّ .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أنهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم يَقولُ - حِيْنَ نَزلَتْ آيَةُ الملاَعَنَةِ - « أيُّمَا امْرَأةٍ أدْخَلتْ عَلَى قَوْمٍ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ مِنْ اللّهِ في شَيْءٍ وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللهُ جَنَّتَهُ وأيُّمَا رَجُل جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إلَيْهِ احْتَجَبَ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤوسِ الأوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ » رَوَاهُ أبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيَّ وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَألْتُ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيُّ الذَنْبِ أعْظَمُ عِنْدَ اللهِ ؟ قالَ « أنْ تَجْعَلَ لِلهِ نِدّاً وَهُوَ خَلقَكَ » قُلْتُ : إنَّ ذَلِكَ لَعَظِيْمٌ ، ثُمَّ أيٌّ ؟ قَالَ « أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخافَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قُلْتُ : ثُمَّ أيٌّ ؟ قال « أنْ تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ » رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ وَرَوَاهُ الترمِذيّ والنَّسَائِيّ .

وَعَنْ المِقْدَادِ بْنِ الأسْوَدِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لأصْحَابِهِ « مَا تَقُولُونَ في الزِّنَا ؟ » قَالُوا حَرامٌ حَرَّمَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ وَرَسُولُهُ فَهُوَ حَرَامٌ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ فقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لأصحابِهِ «لأنْ يَزْنِيْ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ ، أيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أنْ

يَزْنِي بامْرَأةِ جَارِهِ » رَوَاهُ احْمَدُ ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ وَالطَّبَـرَانِيّ في الكَبِيْرِ وَالأوْسَطِ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم يُحَدِّثُ عَنْهُمَا لَوْ لَمْ أسْمَعْهُ إلاَّ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِوَسَلَّم يَقُولُ « كانَ الكِفْلُ مِنْ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ ، وَكَانَ لا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فأتَتْهُ امْرَأةٌ فأعْطَاهَا سِتِّيْنَ دِيْنَاراً عَلَى أنْ يَطَأهَا فلمّا أرَادَها عَلَى نَفْسِهَا ارْتَعَدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ مَا يُبْكِيْكِ قَالَتْ لأنَّهُ عَمَلٌ مَا عَمِلْتُهُ وَمَا حَمَلَنِيْ عَلَيْهِ إلا الحَاجَةُ فَقَالَ تَفْعَلِيْنَ أنْتِ هَذَا مِنْ مَخَافَةِ اللهِ فَأنَا أحْرَى اذْهَبِيْ فَلَكِ مَا أعْطَيْتُكَ وَوَاللّهِ لاَ أعْصِيهِ بَعْدَهَا أبَداً فمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأصْبَحَ مَكْتُوْبَاً عَلَى بَابِهِ إنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ للكِفْلِ ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ ذَلِك » رَوَاهُ التِّرْمِذيّ ، وَقَالَ : حَدِيْثٌ حَسَنٌ . وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ وَالحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيْحُ الإِسْنَادِ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ الله صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « إذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا في قَوْمٍ ، فَقَدْ أحَلُّوا بِأنْفُسِهِمْ عَذَاباً » رَوَاهُ الحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيْحُ الأسْنَادِ .

وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رسول اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « حُرْمَةُ نِسَاءِ المُجَاهِدِيْنَ عَلَى القَاعِدِيْنَ كَحُرْمَةِ أمَّهَاتِهِمْ ، مَا مِنْ رَجُل مِنَ القَاعِدِيْنَ يَخْلِفُ رَجُلاً مِنْ المُجَاهِدِيْنَ في أهْلِهِ فَيَخُونُهُ إلا وَقَفَ لَهُ يَوم القِيَامَةِ ، فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ ، حتَّى يَرْضَى » ثُمَّ الْتَفَتَ إلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ « فَمَا ظَنُّكُم ؟ » رَوَاهُ مُسْلِمُ وَأبُو دَاوُد .

وَرَوَى أبو يَعْلَى وَأَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ وَالحَاكِمْ وصححه أن النبي صلى الله عليه وسَلَّم قال من حديث وَمَن مَاتَ مُدْمِنُ خَمْرْ سَقَاهُ اللّهُ مِنْ نَهْرِ الغُـوطَةِ قِيلَ وَمَا نَهْرُ الغُوطَةِ قال نَهْرٌ يَجْرِي مِن فُرُوْجِ المَومِسَاتِ يُؤذِي أهلَ النَّارِ رِيحُ فُرُوْجِهِمْ .

موعظة

عِبَادَ اللهِ كُلُّنَا يَعْلَمُ أَنَّ الزِّنَا مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ وَأَنَّ فِيْهِ فَسَاداً لِلزَّانِيْ وَالزَّانِيَةِ أَمَّا فَسَادُهُ لِلزَّانِيَةِ فَهُوَ وَاضِحٌ لأَنَّها بِذَلِكَ الجُرْمُ العَظِيْمُ - جُرْمُ الزِّنَا - تَجِدُ حَلَاوَةً ، فَتُفْسِدُ كُلَّ مَنْ اتَّصَلَ بِهَا ، فَيُصْبِحُوْنَ في تَعَلُّقِهِم بالنِّسَاءِ كالكَلْبِ المَسْعُورِ هَذَا مِنْ جِهَةٍ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى تُفْسِدُ فِرَاشَ زَوْجِهَا إنْ كَانَتْ ذَاتَ زَوْجٍ وَرُبَّمَا ادْخِلَتْ عَلَيْهِ أوْلَاداً مِنَ الزِّنَاةِ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ طُوْلَ حَيَاتِهِ وَيَرِثُوْنَ مِنْهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَيَتَفَوَّظُونَ حَرَمَ الزَّوْجِ ، وَرُبَّمَا تَوَلَّوا عَقْدَ نِكَاحٍ لَهُنَّ ، أَوْ صَارُوا مَحَارِمَ لَهُنَّ في حَجٍّ أو نَحْوِ ذَلِكَ نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَمِنْ جِهَةِ فَسَادِ الزَّانِيْ ، فَإِنَّهُ بِالزِنَا يَنْكَلِبُ ، وَيَتَوَلَّعُ فِيْهِ ، وَكُلُّ أُنْثَى يَتَعَدَّى عَلَيْهَا يَحْلُو لَهَا هَذَا السِّفَاحُ فَتُفْسِدُ كالأُولى كَثِيْرِيْنَ مِنْ النَّاسِ تَنَبَّهُوا بَعْدَ أنْ كَانُوا غَافِلِيْنَ فَيُفْسِدُونَ مِنْ النِّسَاءِ كَثِيْرَاتٍ وَهَكَذَا فَالزَّانِيْ لِصٌّ يَسْرِقُ ثَرْوَةَ النَّاسِ في حَيَاتِهِمْ وَبَعْدَ المَمَاتِ بِمَا يُدْخِلُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَوْلَادٍ يَعُولُونَهُم ، وَإِنْ كانَتْ المَرْأَةُ التِيْ تَعَدَّى عَلَيْهَا غَيْرُ مُتَزَوِّجَةٍ ، فَقَدْ أَفْسَدَ حَيَاتَها ، بِهَتْكِ عِرْضِهَا ، وَصَرْفِ أَنْظَارِ رَاغِبِي الزَّوَاجِ عَنْهَا ، فَتَعِيْشُ بَعْدَ جُرْمِ الزِّنَا عِيْشَةَ ذُلٍّ وَهَوَانٍ لَا زَوْجَ يُحَصِّنُهَا وَلَا عَائِلَ يَعُولُهَا هَذَا مُضَافاً إِلَى سُوْءِ السُّمْعَةِ وَإِلَى الجِنَايَةِ عَلى شَرَفِهَا وَأَهْلِهَا فَيَقِفُونَ مِنْهُ

مَوْقِفَ الأنْتِقَامِ غَالِباً وَرُبَّمَا قَضَوْا عَلَيْهِ أوعَلَى إبنتهِمْ وَانْ لَمْ يَقْضُوا وَثَبَتَ ذَلِكَ بِطَرِيْقِ الشَّرْعِ فَإمَّا جَلْدُ مِائةٍ ، وَإمَّا رَجْمٌ يُؤدِّيْ بالنَّفْسَيْنِ ، هَذَا عَاقِبَةُ هَذِهِ الكِبِيْرَةِ عَصَمَنَا اللهُ وَايَّاكُمْ مِنْهَا وَمِنْ جَمِيْعِ المَعَاصِيْ فَعَلَى الأنْسَانِ أنْ يُـفَـكِّـرَ ويَعْرِفَ عَوَاقِبَ الجِنَايَاتِ عَلَى الأعْرَاضِ لِيَحْذَرَ وَيُحَذِّرَ عَنْهَا أجْنَبِيَّةً أو قَرِيْبَةً وَلاَ أدْرِيْ كَيْفَ يُقْدِمُ الزَّانِيْ عَلَى الزِّنَا وَهُوَ يُؤْمِنُ أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ لا تَخفَى عَلَيْهِ مِنهُ خَافِيَةٌ وَأنَّ جَزَاءَهُ إنْ لَمْ يَتُبْ تَوْبَةً نَصُوحاً الهَاوِيَةُ نَسْأَل اللهَ السَّلامَةَ مِنها وَلا أدْرِيْ كيفَ يَزْنِيْ وَهُوَ لاَ يَشُكُّ انهُ سَيُجازَى عَلَى فِعْلِهِ في الدنيا قَبْلَ الآخِرَةِ ، وَمَنْ كانَ الزِّنَا مِنْ أعْمَالِهِ فَلاَ يُؤْمَنُ حَتَّى عَلَى مَحَارِمِهِ وَلاَ يُرْغَبُ فيمُصَاهَرَتِهِ وَلاَ مُجاوِرَتَهِ وَلاَ مُشَارَكَتِهِ وَلاَ مُعَامَلَتِهِ وَلاَ الأجْتِمَاعِ مَعَهُ في مَحَلٍّ عَمَلِهِ قَالَ اللهُ تعالَى ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إنَّهُ كانَ فَاحِشَةً، وَسَاءَ سَبِيْلاَ ﴾ وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسلَّمَ ﴿ اذا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا في قَرْيَةٍ ، فَقَدْ أحَلُّوا بِأنْفُسِهِمْ عَذابَ اللهِ ﴾ رَوَاهُ الحَاكِمُ اللَّهُمَّ احْمِنَا مِنَ الفَوَاحِشِ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَن وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

فصـــل

وَمنْ مَضارِّ الزِّنَا وَآثَارِهِ السَّيِّئَةِ في المُجْتَمَعِ الإنْسَانِيِّ ضَيَاعُ النَّسْلِ وَالجِنَايَةِ عَلَيْهِ فالزَّانِيْ وَالزَّانِيَةُ لَوْ أدْرَكَا مَا قد يَتَرَتَّبُ عَلَى زَنْيَتِهِمَا التِي تَنْقَضِيْ عَلَى الفَوْرِ مِنْ الآثَامِ والشُّرُورِ لهَانَ عَلَيْهِمَا أنْ يَفْنَيا مِنَ الوُجُودِ وَلاَ يَرْتَكِبا تِلْكَ الجَرِيْمَةَ الشَّنْعَاءَ فَقَدْ يَتَرَتَّبُ عَلى عَمَلِهِمَا وُجُودُ وَلَدٍ قَدْ

تَخْنُقُهُ تِلْكَ الفَاسِقَة في مَهْدِهِ وقد تُسْقِطُهُ جنِيْناً .

وَقَدْ تلدُه انْساناً كامِلاً ثُمَّ تَطْرَحُه في شَارِعٍ أو مَسْجِدٍ أو نَحْو ذَلِكَ مُعرَّضاً لِمحَنِ الحَيَاةِ وَمَصَائِبِ اللّيَالِيْ والأَيَّامِ لا يَعْرِفُ لَهُ أمّاً تَحْنُو عَلَيْهِ ، وَلاَ أَباً يَرْحَمُ طُفُولَتَهُ ، وَيَحْفلُ بِتَرْبِيَتِهِ ، وَقَدْ يؤُولُ إلَى حَضَانَةِ إنْسَانٍ غَيْرِ مُسْتَقِيْمٍ فَيُرَبِّيْه على غَيْرِ دِيْنِ الاسْلامِ أو عَلى أخلاقٍ فاسِدَةٍ فَيَنْشأ عضْواً ضَارّاً بالمُجْتَمعِ الانْسَانِيّ وَذَلِكَ بَلاءٌ عَظِيْمٌ وَضَرَرٌ مُبِيْنٌ .

فَإِنْ كَانَتْ المَزْنِيُّ بِهَا ذَات زَوجٍ كَانَتْ خِيَانَتُهَا أَشَدَّ وَجنَايَتُها أعْظَمَ فَإِنَّهَا تُدخِلُ عُنْصُراً غَرِيْباً بَيْنَ أَبْنَائِهَا تَغشُّ بِهِ زَوْجهَا فَيُرَبِّى غَيْرَ بَنِيْهِ يَكِدُّ يَوْمَهُ وَيَسْهَرُ لَيْلَهُ لِيُنْفِقَ عَلَى مَنْ ظَنّه لَهُ وَلَدَا وَهُوَ في الحَقِيْقَةِ لَيْس لَهُ أَبَا وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الوَلَدُ الذي أُدْخِلَ عَلَى هَذَا الانْسَانِ نَكْبَةً عَلَى الأُسْرَةِ بِتَمامِهَا فَإِنَّهُ قَدْ يَنْزَعُ إلَى أَبِيْهِ الحَقِيْقِيّ وَيَتّبعُه في أَخْلاَقِهِ وَفَسَادِهِ وَاجْرَامِهِ فَيُفْسِدُ عَلَى الإنْسَانِ الأسْرَةَ بِأكْمَلِهَا .

وَإنْ كَانَتْ غيْرَ مُتَزَوِّجَةٍ ، فَإِنَّ هَذَا الفَاسِقَ المُتَعَدِّي ، تَعدَّىٰ عَلَى شَرَفِهَا ، وَعَائِلَتِهَا وَأَقَارِبِهَا ، فَأَفْسَدَ حَيَاتِهِم ، وَأَهَانَ كَرَامَتِهَا ، وَأَسَاءَ سُمْعَتَهَا وَسُمْعَتَهُم وَعَرَّضَهَا لِلقتْلِ أوْ لِلعُقُوبَةِ الشَّدِيْدَةِ أَو عَرَّض عِرْضَها لِلسُّقوطِ فِي بُوْءَةٍ لا يُنْقِذُهَا منْهَا إلَّا المَوْتُ فَإِنْ قُتِلَتْ فَهُوَ السَّبَبُ الأَوَّلُ في قَتْلِهَا ، وَإِنْ أسقَطَتْ فهُوَ الجَانِيْ ، وَالاثْمُ أَوَّلَهُ وَآخِرُهُ ، قَدْ نَالَ مِنْهُ ذَلِكَ الغَادِرُ المُعْتَدِيْ الحَظَّ الأوْفَرَ .

وَلَوْ قِيْلَ لِهَذَا المُجْرِمِ الفَاسِقِ الزَّانِيْ هَلْ تَرْضَى عَمَلَكَ أَنْ يُعْمَل بِبَنَاتِكَ وَأَخَوَاتِكَ وَزَوْجَاتِكَ لَبَطَشَ بالقَائِلِ إنْ كَانَ ضَعِيْفاً يَقْدِرُ عَلَى

الانْتِقَامِ مِنْهُ ، والنبي صلى الله عليه وسلم يَقُوْلُ « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » رَوَاهُ البُخَارِيّ فَمَا أَبْعَدَ هَذَا المُعْتَدِيْ عَنْ العَمَلِ بِهَذَا الحَدِيْثِ .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ فتىً شَاباً أَتَى النَّبي صَلى اللهُ عليه وَسَلم فقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِيْ في الزِّنا ، فَأَقْبَلَ القَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوْهُ وَقَالُوا : مَهْ مَهْ ؟ فقالَ « أُدْنُهُ » فَدَنا مِنْهُ قَرِيْباً ، فقالَ « اجْلِسْ » فَجَلَسَ ، فقالَ « أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ ؟ » قَالَ : لاَ وَاللهِ جَعَلنِيْ اللهُ فِدَاكَ . قالَ « ولاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهاتِهِمْ » قَالَ « أَفتُحِبُّهُ لإِبْنَتِكَ ؟ » قَالَ : لاَ واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِيْ اللهُ فِدَاكَ . قَالَ وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِم . قالَ « أَفتُحِبُّه لأُخْتِكَ ؟ » قالَ : لا واللهِ جَعَلنِي اللهُ فِدَاكَ . قالَ « وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونه لأخواتِهم » قَالَ «أَفتُحِبُّه لِعَمَّتِكَ ؟ » قَالَ : لاَ وَاللهِ جعَلَنِيْ اللهُ فِدَاكَ . قالَ « وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهم » قالَ « أَفتُحِبهُ لِخَالَتِكَ؟»قالَ : لاَ واللهِ قَالَ « وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونهُ لِخالاَتِهم » قالَ . فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ ، وَقَالَ « اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ » قَالَ : فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذلِكَ يَلتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ ، وَوَرَدَ عَن النَّبي صَلى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قالَ « مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ من نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ في رَحِمٍ لا يَحِلُّ لَهُ » .

وَمِنْ مَضَارِ الزنا أَنَّ هَذَا الوَلَدَ المُدْخَلَ عَلى البَرِيْءُ مِنْهُ يَرِثُ مِنْ مَالِهِ وَيَكُونُ مُحَرِّماً لِبَنَاتِهِ وَزَوْجَاتِهِ وَلاَ يَحْتَجِبْنَ عَنْهُ .

وَمِنْ مَضَارِّهِ أَنَّهُ إِضاعَةٌ لِلْمَالِ الذيْ نُهِيَ عَن إِضَاعَتِهِ .

وَمِنْ مَضارِّهِ إِخْتِلاَطُ الأَنْسَابِ وَإِفْسَادُ الأَخْلاَقِ وَأَنَّهُ يُفْضِيْ إِلَى فَنَاءِ الأُمَّةِ وَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الشِّقاقِ والفَسَادِ وأَنَهُ يُوْقِعُ في الأَمْرَاضِ وَيَنْشُرُهَا وَمِنْ

آثَارِهِ السَّيِّئَةِ عَلَى البَدَنِ السَّيلَانُ والسَّلُّ الرِّئوِيّ ، وَالزُّهْرِيّ والتشْوِيْشُ والقرُوحُ الأكالةُ .

وَمِنْ آثَارِةِ السَّيِّئَةِ أَنَّهُ يَصْرِفُ القَلْبَ عن صِحَّتِهِ واسْتَقَامَتِهِ إِلَى مَرَضِهِ وَانْحِرَافِهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنّهُ يُعْمِيْ القَلْبَ وَيَطْمِسُ نُوْرَهُ وَأَنّهُ يُحقِّرُ النَّفسَ وَيَقْمَعُها وأنهُ يُسْقِطُ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ وَأَنّهُ يُؤَثِّرُ في نُقْصَانِ العَقْلِ وَأَنَّهُ يَمْحَقُ بَركَةَ العُمْرِ وَأَنّهُ يُضْعِفُ في القَلْبِ تَعْظِيْمَ اللهِ ، وَمِثْلُهُ سَائِرُ المَعَاصِيْ ، نَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ والمُعَافَاةَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهُ .

وَالسِّرُّ في كَثْرَةِ الزِّنَا إِلَى هَذَا الحَدِّ مَوْتُ غَيْرَةِ كَثِيْرٍ مِنْ النَّاسِ عَلَى نِسَائِهِم ، لا يُبَالُونَ بِهِنَّ ، ولاَ تَتَحرَّكُ مِنْهُمْ شَعْرَةُ غَيْرَةٍ وَحَمِيَّةٍ ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ يَرَى امْرَأَتَهُ بِعَيْنِهِ تَتَزَيَّنُ وَتَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ ، إِلَى حَيْثُ لَا يَعْلمُ لَيْلاً وَنَهاراً ، وَتَرْكَبُ مَعَ أَيِّ سَائِقٍ شَاءَتْ ، وَتَدْخلُ عَلَى أَيِّ خَيَّاطٍ أَرَادَتْ وَتَذْهَبُ إِلَى أَيِّ دُكْتُورٍ باسْمِ الكَشْف وَالعِلَاجِ وَزَوْجُها مَشْغُولٌ بِدُنْيَاهُ لا يَهْتَمُّ لَهَا تَرى في خُرُوجِهَا رِجَالاً أَجْمَلَ مِنْهُ وَأَقْوَى مِنْهُ وَأَنْظَفَ مِنْهُ .

وَمِنْهُمْ الأَفْصَحُ الأَحْلَى كَلاماً مِنْهُ وَهَذَا يُحادِثُهَا وَذاكَ يُسامِرُهَا وَقُلْ ـ وَلاَ تُبَالِ ـ : إِنّ بَعْضَهُم يُغازِلُهَا ، وَكَثِيْراً مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهَا الأَيْدِيْ الخَائِنَةِ فَهَلْ هِيَ حَجَرٌ كَلَّا إِنَّهَا بَشَرٌ وناقِصَةُ عَقْلٍ وَدِيْنٍ فَقَلَّ مَنْ تَقْوى عَلَى الوُقُوفِ أَمَامَ شَهْوَاتِهَا فلا تَقِفُ مَخَافَةُ اللهِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ هَيَجَانِهَا الحَيَوانِيّ .

بَلْ الرَّجُلُ الذِي هُوَ أَقْوَى مِنْهَا عَقْلاً وَدِيْناً لا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَقِفَ أَمَامَ

نَفْسِهِ إِذَا هَاجَتْ ، وَطَلَبَتْ هَذَا الشَّيْءَ وَأَصْبَحَتْ تَشْعُرُ بِلَذةٍ لَمْ تَشْعُر بِهَا فِي حَيَاتِهَا . أَمَّا البِكْرُ فَوَاضِحٌ وَأَمَّا المُتزَوِّجَةُ فَإِنَّ لَذَّةَ الحَلَالِ عِنْدَهَا نَاقِصَةٌ لَا تُسَاوِيْ لَذَّةَ الحَرَام وَلَا تُدَانِيْهَا فَإِنَّ المَمْنُوْعَ أَحَبُّ وَأَلَذُّ كَمَا قِيْلَ :

وزَادنِي كَلفَاً فِي الحُبِ أَنْ مَنَعَتْ
أَحَبُ شَيءٍ إِلَى الإِنسانِ ما مُنِعَا

لا سِيَّمَا وَابْلِيْسُ يُسَاعِدُ عَلَيْهِ وَالنَفْسُ الامَّارَةُ بالسُّوءِ وَالهَوى . فَإِذَا ذَاقَت هَذِهِ اللذَّةَ الجَدِيْدَةَ اشْتَدَّ حِرْصُهَا عَلَيْهَا كُلَّ وَقْتٍ وَحِيْنَئِذٍ تَكُونُ هِيَ الطَّالِبَة لا المَطْلُوبَة فَتُصْبِحُ تَفْتِكُ بِالرِّجَالِ فَتْكاً وَكُلِّ رَجُلٍ يَزْنِيْ يَنْكَلِبُ فَيفْتِكُ بالنِّسَاءِ .

وَكُلُّ امْرَأَةٍ يَفْتِكُ بِهَا الرَّجُلُ تَنْكَلِبُ فَتفتِكُ بالرِّجَالِ وَيَكُونُ فِي هَذَا مِنْ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ مَا لا يَعْلَمُ مَدَاهُ إِلَّا اللهُ وفِي هَذِهِ الجُيُوشِ الفَاسِدَةِ الجُرَبُ مِنْ الأَمْرَاضِ المُخْتَلِفَةِ وَالأَوْبَاءِ الكَثِيْرَةِ مَا لَا يَعْلَمُ لَهُ قَدْرٌ وَلَا حَصْرٌ وَباخْتِلَاطِهِم وَالحَالُ هَذِهِ تَسْرِي أَمْرَاضُهم إِلَى الأَصِحَّاءِ نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَعْصِمَنَا وَإِخْوَانِنَا المُسْلِمِيْنَ مِنْهَا وَأَن يَقْمَعَ أَهْلَهَا والرَّاضِيْنَ بِهَا والقادرين على ازالتها ولم يزيْلها .

إذا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الزِّنَا أَعَاذَنا اللهُ وَايَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْن مِنْهُ تَخْتَلِفُ دَرَجَاتُهُ فِي غِلَظِه فَلَيْسَ الزِّنا فِي امْرَأَةِ الكَافِرِ المُحَارِبِ مِثْلَهُ فِي امْرَأَةِ المعاهَدِ ، وَلَيْسَ هُوَ فِي امْرَأَةِ المَعَاهَدِ ، مِثْلَهُ فِي امْرَأَةِ المُسْلِم وَلَيْسَ هُوَ فِي امْرَأَةِ المُسْلِم الذِيْ لَيْسَ لَكَ بِجَارٍ مِثْلُهُ فِي أَمْرَأَةِ الجَارِ

وَلَيْسَ هُوَ في امْرَأةِ الجَارِ مِثْلُهُ في امْرَأةِ الجَارِ القَرِيْبِ مِنْكَ وَامْرَأةُ الأقْرَبِ أشَدُّ مِنَ امْرَأةِ القَرِيْبِ وَامْرَأةُ المجَاهِدِ أَشَدُّ مِنْ امْرَأةِ غَيْرِهِ وَغَيْرُ ذَاتِ الزَّوْجِ لَيْسَ الزنَا بِهَا كَالزّنَا بِذَاتِ الزَّوْجِ وَهَكَذا تَتَفَاوَتْ دَرَجَاتُه.

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : وَأعظَمُ أَنْوَاعِ الزِّنَا أَنْ يَزْنِيْ بِحَلِيْلَة جَارِهِ فإِنَّ مَفْسَدَةَ الزِّنَا تَتَضَاعَفُ بِتضَاعُفِ مَا يَنْتَهِكُه مِنْ الحُرْمَةِ ، فَالزِّنَا بالمَرْأَةِ التِيْ لَهَا زَوْجٌ ، أَعْظَمُ إثْماً وَعُقُوبَةً مِنْ التِيْ لا زَوْجَ لَهَا إذْ فِيْهِ انْتِهَاكُ حُرْمَةِ الزَّوْجِ وَإفْسَادُ فِرَاشِهِ وَتَعْلِيْقُ نَسَبِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ أذَاهُ فَهُوَ أَعْظَمُ إثْماً وَجُرْماً مِنْ الزِّنَا بِغَيْرِ ذَاتِ البَعْلِ ، فَإنْ كَانَ زَوْجُهَا جَاراً لَهُ انْضَافَ إلَى ذَلِكَ سُوْءُ الجِوَارِ .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عليه وَسَلم أَنَّهُ قَالَ « لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » وَلَا بَائِقَةَ أَعْظَمُ مِنَ الزِّنَا بامْرَأَتِهِ فالزِّنَا بِمِائَةِ امْرَأةٍ لا زَوْجَ لَهَا أَيْسَرُ عِنْدَ اللّهِ منْ الزِّنَا بامْرَأةِ الجَارِ ، فَإِنْ كَانَ الجَارُ أخا لَهُ، أو قَرِيْباً مِنْ أَقارِبِهِ ، انْضَمَّ إلَى ذَلِكَ قَطِيْعَةُ الرَّحِم فَيَتَضَاعَفُ الأثْمُ فإِنْ كَانَ الجَارُ غَائِباً في طَاعَةِ اللهِ كالصَّلاَةِ وَطَلَبِ العِلْمِ وَالجِهَادِ تَضَاعَفَ الأثْمُ .

حَتَّى إنَّ الزَّانِيْ بامْرَأةِ الغَازِيْ في سَبِيْلِ اللهِ يُوْقَفُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيُقالُ خُذْ مِنْ حَسَناتِهِ مَا شِئْتَ قالَ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسلم « فَمَا ظَنُّكُم ؟ » أَيْ مَا ظَنُّكُم أنْ يَتْرُكَ لَهُ مِنْ حَسَنَاتٍ قد حُكِّمَ في أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا شَاءَ عَلَى شِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَى حَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ حَيْثُ لَا يَتْرُكُ الأبُ لابْنِهِ وَلَا الصَّدِيْقُ لِصَدِيْقِهِ حَقّاً يَجِبُ عَلَيْهِ .

فَإنْ اتَّفَقَ أَنْ تَكُون المَرْأَةُ رَحِماً مِنْهُ انْضَافَ إلَى ذَلِكَ قَطِيْعَـةُ

رَجمها ، فإنْ اتّفقَ أنْ يكُونَ الزَّانِي مُحْصَناً ، كانَ الاثْمُ أعْظَمَ فإنْ كانَ شَيْخاً كانَ أعْظَمَ إثْماً ، وَهُوَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ الذِيْنَ ﴿ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَلاَ يُزكِّيْهِمْ ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيْمٌ ﴾ فَإنْ اقترنَ بِذَلِكَ وُقُوعُه في شَهْرٍ حرامٍ ، أو بَلَدٍ حَرامٍ ، أو وَقْتٍ مُعَظَّمٌ عِنْدَ اللهِ ، كأَوْقَاتِ الصَلَوَاتِ وَأَوْقَاتِ الاجَابَةِ تَضاعَفَ الاثْمُ وَالعُقُوبَةِ وَاللهُ المُسْتَعانُ واللهُ اعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَسَلَّمَ .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ : وَمَفْسَدَةُ الزِّنَا مُنَاقِضَةٌ لِصَلَاحِ العَالَمِ ، فَإِنَّ المَرْأَةَ إذا زَنَتْ أَدْخَلَتْ العَارَ عَلَى أَهْلِهَا وَزَوْجِها وَأَقَارِبِهَا وَنَكَسَتْ رُؤُوسَهُم بَيْنَ النَّاسِ ، وَإِنْ حَمَلَتْ مِنْ الزِّنَا ، فَإنْ قَتَلَتْ وَلَدَها جَمَعَتْ بَيْنَ الزِّنا وَالقَتْلِ وَإنْ أَبقَتْهُ حَمَلَتهُ عَلى الزَّوجِ فَأَدْخلَتْ عَلى أَهْلِهَا وَأَهْلِه أَجْنَبِيّاً لَيْسَ مِنْهُم فَوَرِثَهُم وَلَيْسَ مِنهُم وَرَآهُم وَخَلا بهم وانْتَسَبَ إِلِيهم وَلَيْسَ مِنْهُم وَأمَّا زِنَا الرَّجُلِ فانهُ يُوجدُ اختِلاطَ الانْسَابِ أيْضاً وَافْسادَ المَرْأَةِ المُصونَةِ وَتَعْرِيْضِهَا لِلتّلفِ وَالفَسَادِ فَفِيْ هَذِهِ الكَبِيْرَةِ خَرَابُ الدُّنْيا والدِّيْنِ .

وَمِنْ خَاصِّيَّتِهِ أَنَّهُ يُوجِبُ الفَقْرَ وَيُقَصِّرُ العُمْرَ وَيَكْسُو صَاحِبُه سَوَادُ الوَجْهِ وَثَوْبُ المَقْتِ بَيْنَ النَّاسِ .

وَمِنْ خَاصِّيَّتِهِ أَيْضاً أَنَّهُ يُشَتِّتُ القَلْبَ ، وَيُمْرِضُهُ ، وَيَجْلِبُ الهَمَّ وَالحَزْنَ والخَوْفَ وَيُبَاعِدُ صَاحِبُهُ مِنْ المَلَكِ وَيُقَرِّبُهُ مِنْ الشَّيْطَانِ فَلَيْسَ بَعْدَ مَفْسَدَةِ القَتْلِ أَعْظَمَ مِنْ مَفْسَدَتِهِ وَلِهَذَا شُرِعَ فِيهِ القَتْلُ عَلى أَشْنَعِ الوُجُوهِ وَأَفْحَشِهَا وَأَصْعَبِهَا وَلَوْ بَلَغَ العَبْدُ أَنّ امْرَأَتَهُ أو حُرْمَتَه قُتِلَتْ كَانَ أَسْهَلَ عَلَيْهِ

مِنْ أَن يَبْلُغَهُ أَنَّهَا زَنَتْ .

وَفي الصَّحِيْحَيْنِ مِنْ خُطْبَةِ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَمَ في صَلاَةِ الكُسُوفِ أَنَّهُ قالَ « يَا أمَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَاللهِ إِنَّهُ لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنْ اللهِ ، أَنْ يَزْنِيْ عَبْدُه أو تَزْنِيْ أَمَتُهُ ، يَا أُمَّةَ مُحمدٍ ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحِكْتُم قَلِيْلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيْراً » ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ « اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » .

وفي ذِكْرِ هَذِهِ الكَبِيْرَةِ بِخُصُوصِهَا عَقِبَ صَلاَةِ الكُسُوفِ سِرٌّ بَدِيْعٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ فَظهُورُ الزِّنَا مِنْ أَمَارَاتِ خَرَابِ العَالَمِ وَهُوَ مِنْ اشْرَاطِ السَّاعَةِ كَمَا في الصَّحِيْحَيْنِ عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنهُ قَالَ لأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيْثاً لاَ يُحَدِّثُكُموهُ أَحَدٌ بَعْدِي سَمِعْتُهُ مِنْ النَّبِي صَلى اللهُ عليه وَسَلم يَقُولُ « مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ وَيُشْرَبُ الخَمْرُ وَيَظْهَر الزِّنَا وَيَقِلُّ الرِّجَالُ وَتَكْثرُ النِّسَاءُ ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِيْنَ امْرَأةِ القَيِّمُ الوَاحِدُ وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ في خَلْقِهِ أنهُ عِنْدَ ظُهُور الزِّنا يَغْضَبُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيَشْتَدُّ غَضَبُه فلا بُدَّ أَنْ يُؤثِّرَ غَضَبُه في الأَرْضِ عُقُوبَة » .

وَخَصَّ سُبْحَانَهُ حَدَّ الزِّنَا مِنْ بَيْنَ سَائِرِ الحُدُودِ بِثَلاَثِ خصَائِصَ ، أَحَدُهَا القَتْلُ فِيْهِ بِأَشْنَعِ القَتَلاَتِ وَحَيْثُ خَفَفَهُ فَقَدْ جَمَعَ فِيْهِ بَيْنَ العُقُوبَةِ على البَدَنِ بالجَلدِ وَعَلَى القَلْبِ بِتَغْرِيْبِهِ عَنْ وَطَنِهِ سَنَةً ، الثَّانِيْ أَنَّهُ نَهى عِبادَهُ أَنْ تَأْخُذَهُم بالزُّنَاةِ رَأْفَةً في دِيْنِهِ بِحَيْثُ تَمْنَعَهُمْ مِنْ اقَامَةِ الحَدِّ عَلَيْهِمْ .

الثَّالِثُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَ أَنْ يَكُونَ حَدُّهُمَا بِمَشْهَدٍ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ فَلاَ

يَكُونُ في خَلْوَةٍ حَيْثُ لاَ يَرَاهُمَا أَحَدٌ وَذَلِكَ أَبْلَغُ في مَصْلَحَةِ الحَدِّ وَحِكْمَةِ الزَّجْرِ .

وَمِنْ الأَسْبَابِ التِيْ رُبَّمَا تَكُونُ سَبَباً إِلَى الوُقُوعِ في هَذِهِ المَعْصِيَةِ خُرُوْجُ النِّسَاءِ إِلَى الأَسْوَاقِ مُتبَرِّجَاتٍ لِسَانُ حالِهِنَّ يَدْعُو إِلَيْهِنَّ الفَسَقَةَ فَخُرُوجُهُنَّ في هذا الزَّمَانِ إِلَى الأَسْوَاقِ خَطَرٌ علَيْهِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الأخْطَارِ فَقَلَّ أَنْ تَسْلَمَ المَرْأَةُ مِنْ التَّعَرُّضِ لها إِذَا خَرَجَتْ قَوْلاً أَوْ فِعْلاً وَقَدْ يَكُونُ مَعَها أَبُوهَا أو أَخُوهَا ولا تَسْلَمُ مِنْ الاعْتِدَاءِ .

وَمِنْ الأَسْبَابِ دُخُولِ الأَجَانِبِ عَلَى المَرْأَةِ فَإِنَّ الأَجْنَبِيْ إِذَا وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى المَرْأَة فَأَعْجَبَتْهُ أَوْ أَعْجَبَهَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ الأُمُورُ التِيْ تُخْشَى عَواقِبُها وَأَخْطَرُ الأَجَانِبِ عَلَى المَرْأَةِ أَقَارِبُ زَوْجِهَا وَأَقَارِبُ أَبَوَيْهَا فإِنَّهُم يَتَرَدَّدُوْنَ غَالِباً وَرُبَّمَا كَانَ يَجْمَعُهم بَيْتٌ وَاحِدٌ وَتَارَةً تَكُونُ وَحْدَهَا في البَيْتِ عِنْدَ دُخُولِ أَحَدِهِمْ .

وفي ظِلِّ ذَلِكَ التَّرَدُّدِ والتَّزَاوُرِ وَالاجْتِمَاعِ يَكُونُ مَا يَكُونُ مَعَ الدَّوَامِ وَالاسْتِمْرَارِ .ومن الأَسْبَابِ وُجُودُ الخَدَّامِيْنَ والخَدَّامَاتِ والمُرَبِّيَاتِ والسَّواقِيْنَ والطَّبَّاخِيْنَ والخَيَّاطِيْنَ والخياطات ونحو ذلك .

وَمِنْ الأَسْبَابِ تَأْخِيْرُ مَنْ بَلَغَ مِنْ الشَّابَّاتِ وَالشُّبَّانِ فَإِنَّهُ بِمُجَرَّدِ بُلُوغِه تَهِيْجُ عَلَيْهِ الشَّهْوَةُ هَيَجَانَ النِّيْرانِ فإِذَا لَمْ يَكُنْ بِجَانِبِهِ حَلاَلٌ يُطْفِىءُ ذَلِكَ الهَيَجَانُ رُبَّمَا أَطْفَأَهُ بِمَا يُعْقِبُ لَهُ العَارَ في الدنيا وَيُعْقِبُه في الآخِرَةِ إِنْ لَمْ يَتُبْ النَّارَ .

وَمِنْ تِلْكَ الأَسْبَابِ إِعْوِجَاجُ الأَزْوَاجِ وَخِيَانَتُهم بالاتِّصَالِ بِغَيْرِهِنَّ عَلَى غَيْرِ الوَجْهِ الشَّرْعِيِّ فَإِنَّ المَرْأَةَ إِذَا عَلِمَتْ أَنَّ زَوْجَهَا أَصْبَحَ لِغَيْرِهَا

أَصْبَحَتْ لِغَيْرِهِ مُقَلِدَةً لَهُ في ذَلِكَ وَمُتَبِعَةً لِطَرِيْقَتِهِ فَسَفُلتْ فَبَاعَتْ عِرْضَها تَسَفُّلاً مِنْهَا وَانْتِقَاماً مِنْ زَوْجِهَا الذِيْ فَتَحَ أَمَامَهَا بَابَ الاثْمِ وَسَارَ أَمَامَهَا في مَهَاوِي الخَطِيْئَةِ وَالمَرْأَةُ غَالِباً عَلَى دِيْنِ زَوْجِهَا ، أَفَلَا يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ هُوَ الفَاسِقُ الآثِمُ لأَنَّهُ الذِي سَنَّ لَهَا هَذِهِ السُّنَّةَ السَّيِّئَةَ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَرُبَّمَا كَانَ مِثَالاً سَيِّئاً يُقْتَدَى بِهِ في ذَلِكَ وَربَّمَا قَلَّدَتْهُ بَنَاتُهُ وَأَوْلَادُه وَأَخَوَاتُهُ وَقَدِيْمَاً قِيْلَ في الزوْجَةِ .

لا تَـطّلِعْ مِـنْـكَ عَـلَى رِيْـبَـةٍ
فَـيَـتْـبَـعُ الـمَـقْـرُوْنُ حَـبْـلَ الـقَـرِيْـنِ

وَرَوَى القَاسِمُ بْنُ بِشْرٍ في أَمَالِيْهِ وَابْنُ عَدِيّ عَنْ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعَاً « عُفُّوا تَعِفُّ نِسَاؤكُمْ » وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ باسْنَادٍ حَسَنٍ عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ « من سَتَرَ عَوْرَةَ أخِيْهِ ، سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيْهِ المُسْلِمِ كَشَفَ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحْهُ بِهَا » قَالَ بَعْضُهُمْ :

يـا هَـاتِكـاً حَـرَمَ الـرِّجَـالِ وَتَـابِعـاً
طُـرُقَ الـفَسَـادِ فَـأَنْتَ غَيْـرُ مُكَـرَّمِ
مَـنْ يَـزْنِ في قَـوْمٍ بـألْـفَيْ دِرْهَـم
فــي أَهْلِهِ يُـزْنـي بِـرُبْـعِ الـدِّرْهَـمِ
إن الـزِّنَـا دَيْـنٌ إذا اسْـتَـقْـرَضْـتَـهُ
كَـانَ الـوَفَـاءُ مِن أَهْـلِ بَيْتِـكَ فاعْلَمِ

وَإِنَّهُ لَيَنْدُرُ جِدّاً أَنْ تَرَى فَاجِراً مِنْ بَيْتٍ عَفِيْفٍ أَو عَفِيْفاً مِنْ بَيْتٍ فاجِرٍ وَإِنْ وُجِدَ ذَلِكَ على نُدْرَتِهِ فَلاَ بُدَّ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَأْثِيْرِ بِيْئَةٍ أُخْرَى غَيْرِ بِيْئَةِ المَنْزِلِ التِيْ هِيَ المَزْرَعَةُ الأوْلَى لِبُذُورِ الأخْلاَقِ .

وَأَوْلَى النَّاسِ بالعِفَّةِ وَالحِرْصِ عَلَى التَّحَلِّيْ بِفَضِيْلَتِهَا والابْتِعَادِ عَنْ مَوَاقِعِ الرِّيَبِ هُمْ العُلَمَاءُ وَالعُظَمَاءُ لأَنَّهُمْ قُدْوَةٌ يُقْتَدَىٰ بِهِمْ .

أَقْوَالُهُم مَأْثُوْرَةٌ ، وَأَفْعَالُهم مَنْظُوْرَةٌ ، وَهَفَواتُهم عَظَائِمٌ ، وَزَلاَّتُهم مِنْ أَكْبَرِ الجَرَائِمِ فَعَلَيْهِم أَنْ يَعْرِفُوا أَقْدَارَ أَنْفُسِهِمْ ويَقْدِروا لَهَا مَوْضِعَهَا مِنَ الكَرَامَةِ .

شِعْرَاً :

يا خائفَ الموتِ لو أَمْسَيْتَ خَائِفَهُ
كَانَتْ دُمُوعُكَ طُوْلَ الدَّهْرِ تَنْبَجِسُ

أَمَا يَهُوْلُكَ يومٌ لا دِفَاعَ لَهُ
إِذْ أَنْتَ في غَمَرَاتِ المَوْتِ مُنْغَمِسُ

أَمَا تَهُوْلُك كَأْسٌ أَنْتَ شَارِبُهَا
والعقلُ مِنْكَ لِكُوب الموتِ مُلْتَبِسُ

لِلْمَوْتِ ما تَلِدُ الأَقْوَامُ كُلُّهُمُ
ولِلْبِلَى كُلُّ ما بَنَّوا وَمَا غَرَسُوا

إِأَّكَ إِيَّاكَ والدُّنْيَا وَلَذَّتَهَا
فالموتُ فِيْهَا لِخَلْقِ اللهِ مُفْتَرِسُ

إِنَّ الخَلاَئِقَ في الدُّنْيَا لَوِ اجْتَهَدُوا
أَنْ يَحْبَسُوا عنكَ هذا الموتَ ما حَبَسُوا

إنَّ المَنِيَّــةَ خَــوْضٌ أَنْتَ تَكْــرَهُــهُ
وأنتَ عَمَّــا قَلِيْــلٍ سَــوفَ تَنْغَمِسُ
مَــالِيْ رَأَيْتُ بَنِي الدُنْيَـا قَـدْ افْتَتَنُـوا
كَــأَنَّمَـا هَــذِهِ الـدُنْيَـا لَهُمْ عُـرُسُ
إذَا وَصَفْتَ لَهُمْ دُنْيَـاهُم ضَحِكُـوا
وَإنْ وَصَفْتَ لَهُمْ أُخْــرَاهُم عَبَسُــوا
مــالي رَأَيْتُ بَنِيْ الـدُنْيَا وإخْـوتِهَـا
كَــأَنَّـهُمْ لِـكِتَــابِ الـلَّهِ مَــادَرَسُــوا

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِلْعَمِلِ بِمَا يُرْضِيْكَ وَجَنِّبْنَا أَسْبَابَ سَخَطِكَ وَمَعَاصِيْكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فصل في إثم فاحشة اللِّوّاط

إعْلَمْ وَفَّقَنَا اللّهُ وَإيَّاكَ لما يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَجَنَّبنَا وَإِيَّاكَ مَا يَكْرَهُهُ ولَا يَرْضَاهُ أَنَّ اللُّوَاطَ رَذِيْلَةٌ مِنْ أَسْوَءِ الرَّذَائِلِ وَخَصْلَةٌ مِنْ شَرِّ الخِصَالِ التِيْ لَا تَلِيْقُ بالإنْسَانِ فإنَّ اللهَ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَ الأُنْثَى مَحَلاً لَقَضَاءِ تِلْكَ الشَّهْوَةِ وَمَكَاناً لِذَلِكَ العَمَلِ الخَاصّ فَهُوَ مَسُوقٌ بِفِطْرَتِهِ إِلَى ذَلِكَ المَعْنَى .

وَاللّوَاطُ ـ أَعَاذَنَا اللهُ وَايَّاكَ مِنْهُ ـ خُرُوْجٌ عَنْ ذَلِكَ ، وَاعْتِدَاءٌ صَرِيْحٌ عَلَى الطَّبِيْعَةِ التِيْ رَكَّبها اللهُ وَذَلِكَ شَرٌّ وَبِيْلٌ وَفَسَادٌ كَبِيْرٌ وَفِيْهِ عَارُ الزِّنَا وَاثمُهُ وَعِقَابُه بَلْ هُوَ أَشَدُّ عَاراً وَأَعْظَمُ جُرْماً وَنَحْنُ بالبَدَاهَةِ نُدْرِكُ أَنَّ عَارَ

امْرَأةٍ يُزْنَى بِهَا لَيْسَ كَعَارِ رَجُلٍ يُلاطِ بِهِ كَمَا أَنَّ احْتِقَارَنَا وَبُغْضَنا إِيَّاهَا مَهْمَا كانَ شَدِيْدَاً أَخفُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ نُفْرَتِنَا مِنَ اللّوْطِيّ وَمَقْتِنَا لَهُ .

وَالسَّبَبُ في هَذَا أَنَّ الزِّنَا وَإِنْ خالَفَ مُقْتَضَى الشَّرِيْعَةِ لَمْ يُخَالِفْ مُقْتَضَى الطَّبِيْعَةِ التِيْ رَكَّبَهَا اللهُ في الإِنْسَانِ بِخِلَافِ اللوَاطِ فَقَدْ خَالَفَ مُقْتَضَى الشَّرِيْعَةِ وَالطَّبِيْعَةِ مَعاً . وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ العِلْمِ عَلَى تَحْرِيْمِ اللوَاطِ وَقَدْ ذَمَّهُ اللهُ تَعَالَى في كِتَابِهِ وَعَابَ مَنْ فعلهُ وَذَمَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم .

قالَ اللهُ تَعالى ﴿ وَلُوْطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِيْنَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُوْنِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتَمُ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ وفي قِصَّةِ قَوْمِ لُوْطٍ يَبْدُو انحِرَافُ الفِطْرَةِ وَاضِحاً حتَّى انَّ لُوطاً لَيُجِيْبُهم بأنهم بِدْعٌ دُوْنَ خَلْقِ اللهِ فِيْهَا وَأَنَّهُم في هذَا الانْحِرَافِ الشَّنِيْعِ غير مُسَبْوُقِين .

قَالَ عَمْرُو بْنُ دِيْنَارٍ في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِيْنَ ﴾ قالَ : مَا نزا ذكرٌ عَلَى ذَكَرٍ ، حَتَّى كَانَ قَوْمُ لُوْطٍ ، وَقَالَ الوَلِيْدُ ابْنُ عَبْدِ الملكِ لَوْلَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَصَّ عَلَيْنَا خبَرَ قَوْمِ لُوْطٍ مَا ظَنَنْتُ أَنّ ذكراً يَعْلُو ذكراً .

وَعَجَبٌ أَنْ نَرى تِلْكَ العَادَة الشَّائِنَةِ القَبِيْحَةِ تَنْتَقِلُ مِنْ أُوْلَئِكَ الأَشْرَارُ الذِيْنَ خَسَفَ اللهُ بِهِمْ - إِلَى غَيْرِهِمْ مِنَ النَّوْعِ الإِنْسَانِيّ مَعَ إِنَّهَا لَمْ تَكدْ تُوْجَدُ في الحَيوانات الأخرى ، فإنّكَ لا تكادُ تَجِدُ حَيواناً مِنَ الذُّكُورِ يَأْتِي ذكراً مِثْلَهُ اللهُمَّ إِلَّا قَلِيْلاً نَادِراً كَبَعْضِ الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ وَإِلَى ذَلِكَ تُشِيْرُ الآيَةُ

الكَرِيْمَةُ فَإِنَّهُ تعَالَى يَقُولُ لَهُم : إِنَّ تِلْكَ الفَاحِشَةِ لَمْ يَسْبِقْكُم بِهَا أَحَدٌ مِنْ العَالَمِيْنَ وَالعَالَمْ كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ فَيَشْمَلُ الانْسَانَ والحَيَوانَ قَالَ في كِتَابِ الأَخْلَاقِ الدِّينيَّةِ .

وَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ تَسُوقُهُ شَهْوَتُهُ إِلَى أَنْ يَفْعَلَ مَا تَأْبَاهُ نُفُوسُ الحَيَوانَاتِ العَجْمَاءِ فَمَاذَا يَكُونُ حَالهُ أَلَيْسَ مِنْ أَكْبَرِ المَصَائِبِ أَنْ تَنْحَطَّ دَرَجَةُ الإِنْسَانِ في شَهْوَةِ الفَرْجِ عَنْ دَرَجَةِ الحَيَوانِ .

اللهُمَّ ان في ذَلِكَ مِنْ الخِزْيِ وَالعَارِ مَا لاَ تُطِيْقُهُ النُّفوسُ الكَرِيْمَة وَلَا تَحْتَمِلُه الطِبَاعُ السَّلِيْمَةُ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ في رَذِيْلَةِ اللوَاطِ سِوَى ذَلِكَ لَكَفَى بِهَا ذَمَّاً يَصْرِفُ النَّاسَ عَنْهَا وَيُزَهِّدُهُم فِيْهَا وَلَكِنَّها فَوْقَ ذَلِكَ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ المَضَارِّ وَالمَفَاسِدِ مَا يُؤْذِيْ المُجْتَمَعَ الانْسَانِي .

وَإِلَيْكَ البَيَانُ أَوَّلاً إِذَا فَشَتْ تِلْكَ العَادَةُ في أُمَّةٍ مِنْ الأُمَمِ وَأَصْبَحَتْ دَاءً خُلُقِيّاً فِيْهَا لا تَلْبَثُ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِلفَنَاءِ بانْقِرَاضِ نَسْلِهَا ، وَلَوْ بَعْدَ حِيْن ، لِأَنَّ الرِّجَالَ فِيْهَا تَنْصَرِفُ عَنْ النِّسَاءِ ، فَيَقِلُّ النَّسْلُ تَدْرِيْجِيّاً وَتَنْقَرِضُ الأُمَّةُ في وَقْتٍ مَا .

ثانِياً أَنَّ اللائِطَ يَسْتَغْنِيْ بالذَّكَرِ عَنْ المَرْأَةِ فَإِنْ كَانَ مُتَزَوِّجاً يُهْملُ زَوْجَتَهُ ، فَيُعَرِّضُهَا لِلْخنَا وَالفَسَادِ ، وَإِنْ كَانَ أَعْزَبَ ، لَمْ يُفَكِّر في الحُصُولِ عَلَى زِوَاجٍ وَإِذا عَمَّتْ اللوَاطِيّةُ أَمَّةٌ اسْتَغْنَتْ رِجَالُهَا عَنْ نِسَائِهَا وَأَصْبَحَتْ النِّسَاءُ ضَائِعَاتٍ لَا يَجِدْنَ مَوْئِلاً وَلَا يَظْفَرْنَ بِمُعِينٍ يَرْحَمُ ضَعْفَهُنَّ وفي ذَلِكَ مِنْ الخَطَرِ الإِجْتِمَاعِيّ وَالعُمْرَانِي مَا فِيْهِ .

وَقَالَ فَدَاءُ اللّوْطِيَّةِ مَآلُهُ الانْصِرَافُ عَنْ النِّسَاءِ وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ اتْيَانَ

النِّساءِ في غَيْرِ مَحلِّ الوِلَادَةِ عَادَةٌ مَرْذُوْلَةٌ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا ضَيَاعُ النَّسْلِ كَمَا قَدَّمْنَا .

ثالثاً : أَنَّ اللائِطَ لَا يُبَالِيْ أَن يَسْتَهْوِيْ الأَحْدَاثَ الذِيْنَ لا يُدْرِكُوْنَ العَارَ وَلَا يَعْرِفُونَ الفَضِيْحَةَ فَيُمَرِّنُهُم عَلَى فَسَادِ الأخلاقِ وَيُوَلِّدُ عِنْدَهُمْ ذَلِكَ الدَّاءَ فَإِذَا مَا بَلَغُوا حَدَّ الرُّجُولةِ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ مُنْغَمِسِيْنَ في الرَّذِيْلَةِ فَيَضِيْعُ الحَيَاءُ مِنْ وُجُوهِهِمْ وَلَا يُبَالُوْنَ بِارْتِكَابِ الجَرَائِمِ الأَخْلَاقِيَّةِ ، وَلَا يَتَعَفَّفُونَ عَنْ المُحَرَّمَاتِ الدِّيْنِيَّةِ وَيَكُونُ ذَلِكَ الوِزْرُ في عُنُقِ اللائِطِ الذِيْ عَمِلَ عَلَى إِفْسَادِ أَخْلَاقِهِم وَكَانَ سَبَباً في انْتِزَاعِ مَاءِ الحَيَاءِ مِنْ وُجُوهِهِمْ وذلكَ عَظِيْمٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَمَنْ يَفْعَلَهُ يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ لأَنَّ عَلَيْهِ وِزْرَيْنِ وِزْرُ ذَلِكَ العمَلِ الشَّائِنِ وَوِزْرُ افْسَادِ الغُلَامِ الذِيْ لَمْ يُكَلفْ لِتِلْكَ الشَّهْوَةِ الفَاسِدَةِ التِيْ تُخَلِّفُ وَرَاءَهَا ذَلِكَ البَلَاءِ المُبِيْنِ اهـ . واللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

فصــل

وَالدَّلِيْلُ مِنْ السُّنَّةَ عَلَى تَحْرِيْمِ اللُّوَاطِ وَعِظَمِ جُرْمِهِ وَعُقُوبَةِ فَاعِلِهِ قَوْلُهُ صَلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ وَجَدْتُموهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوْطٍ فَاقتُلوا الفاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ » رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ وَالتِّرمِذِيّ وَابْنُ مَاجه وَالبَيْهَقِيّ .

وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِيْ مِنْ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ » رَوَاهُ ابْنُ مَاجه التِّرمِذِيّ ، وَقَالَ : حَدِيْثٌ حَسَنٌ غَرِيْبٌ ، والحَاكِمُ وَقَالَ : صَحِيْحُ الاسْنَادِ ، وَقَالَ صَلى اللهُ عليه وسَلم « لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ

لُوْطٍ ، لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوْطٍ ، لَعَنَ اللهُ من عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ » رَوَاهُ النَّسَائِيّ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ « لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُل أَتَى رَجُلاً ، أَوْ امْرَأَةً في دُبُرِهَا » رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ ، وَمِمَّا جَاءَ في اتْيَانِ النِّسَاءِ في أَدْبَارِهِنَّ مَا يَلِيْ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وَسَلم قَالَ هِيَ اللُّوْطِيَّةُ الصُّغْرَى يَعْنِيْ الرَّجُلُ يَأْتِي امْرَأَتَهُ في دُبُرِهَا وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم اسْتَحْيُوا فَإِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحِيْ مِنْ الحَقِّ وَلَا تَأْتُوا النِّسَاءَ في أَدْبَارِهِنَّ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالبَزَّارُ ، وَرَجَالهما رِجَال الصَّحِيْحِ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قالَ عَشْرُ خِصَالٍ مِنْ أَعْمَالِ قَوْمِ لُوطٍ تَصْفِيْفُ الشَّعْرِ ، وَحَلُّ الأزارِ وَرَمْيُ البُنْدُقِ وَالخَذْفُ بالحَصَا ، واللعِبُ بالحَمَامِ الطيَّارةِ وَالصَّفِيْرُ بالأصَابع ، وَفرْقَعَةُ الأكْعُبِ وَاسْبَالُ الأزارِ وَحَلُّ أَزْرِ الأقْبِيَةِ وَادْمَانُ شُرْبِ الخَمْرِ وَاتْيَانُ الذُّكُورِ وَسَتَزِيْدُ عَلَيْهَا هَذِهِ الأمَّةِ مُسَاحَقةُ النِّسَاءِ في أَدْبَارِهِنَّ » رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى باسْنَادٍ جَيِّدٍ وَرُوِيَ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « ثلاثَة لا تُقْبَلُ لَهُم شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله الرَّاكِبُ وَالمَرْكُوبُ وَالرَّاكِبَةُ وَالمَرْكُوبَةُ وَالامَامُ الجَائِرُ » حَدِيْثٌ غَرِيْبٌ جِدّاً رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ في الأوْسَطِ وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النبيَّ صَلى اللهُ عليه وَسَلم نَهَى عَن مَحَاشِّ النِّسَاءِ . رَوَاهُ الطبرَانِي في الأوْسَطِ وَرُوَاتُه ثِقَاتٌ وَروَى ابْنُ مَاجَهْ وَالبَيْهَقِيّ كِلَاهُمَا عَنْ الحَارِثْ بْنِ مَخْلَدَةَ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيّ صَلَّى

اللهُ عليه وَسَلم قالَ « لَا يَنْظُر اللهُ إِلَى رَجُلٍ جَامَعَ امْرَأَةً في دُبُرِهَا » وَعَنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم قَالَ « مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً في دُبُرِهَا » رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ ، وَعَنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قَالَ « مَنْ أَتَى حَائِضاً ، أو امْرَأَةً في دُبُرِهَا ، أو كاهِناً فَصَدَّقَهُ ، كفَر بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلى اللهُ عليه وسلم » وَعَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ مَنْ أَتَى صَبِيّاً فَقَدْ كَفَر .

وَرُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوْطٍ نقلهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيهم ، حَتَّى يَحْشُرَهُ مَعَهم » وَخَرَّجَ الطَبَرانِيّ مِنْ حَدِيْثِ جَابِر رَضِيَ اللهُ عنه ، عَنْ النبي صلى اللهُ عليه وسَلَمَ قَالَ فيهِ « وَإذا كَثُرَ اللُّوطِيَّةُ رَفَعَ اللهُ يَدَهُ عَنْ الخَلْقِ ، فلا يُبَالِيْ في أَيِّ وَادٍ هَلَكُوا » وَاللهُ اعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَمَ .

فصل

وَلَمَّا كَانَتْ فَاحِشَةُ اللُّوَاطِ شَأْنُهَا في القَبْحِ كَمَا ذُكِرَ اخْتَلَفَ أَئِمَّةُ الإِسْلامِ في عُقُوبَتِهَا لِمَنْ ثَبَتَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ قَوْمٌ إِنَّهَا كالزِّنَا تَمَاماً أي يُرْجَمُ فِيْهَا المُحْصَنُ ، وَيُجْلَدُ غَيْرُهُ مائةَ جَلْدَةٍ وَيُغَرَّبُ ، وَقَالَ آخَرُونَ يُرْجَمُ الفَاعِلُ وَالمَفْعُولُ بِهِ عَلَى أَيِّ حَالٍ كانُوا عَمَلاً بالحَدِيْثِ المُتَقَدم قولُه صلى اللهُ عليه وسلم « فَاقتُلوا الفَاعِلَ والمَفْعُولَ بِهِ » .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ وَقَدْ أَطْبَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على قَتْلِهِ لم يَخْتَلِفْ فِيْهِ مِنْهُم رَجُلانِ وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُهم

فِي صِفَةِ قَتْلِهِ .

وَمَنْ تَأَمَّلَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيْلا ﴾ وَقَوْلَه فِي اللوَاطِ ﴿ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ ، مَا سَبقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِيْنَ ﴾ تَبَيَّنَ لَهُ تَفَاوُتَ مَا بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ نَكَّرَ الفَاحِشَةَ فِي الزِّنَا أَيْ هُوَ فَاحِشَةٌ مِنْ الفَوَاحِش ، وَعَرَّفَهَا فِي اللِّوَاطِ ، وَذَلِكَ يُفِيْدُ أَنَّهُ جَامِعٌ لِمَعَانِي اسْمِ الفَاحِشَةِ كَمَا تَقُولُ زَيْدٌ الرَّجُلُ وَنِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ أَيْ أَتَأْتُون الخَصْلَةَ التِي اسْتَقَرَّ فُحْشُها عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ فَهِيَ لِظُهُورِ فُحْشِهَا وَكَمَالِهِ غَنِيَّةٌ عَنْ ذِكْرِهَا ، بِحَيْثُ لَا يَنْصَرِفُ الاسْمُ إِلى غَيْرِهَا ، ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ شَأْنَ فُحْشِهَا بِأَنَّها لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ مِنْ العَالَمِيْنَ قَبْلَهُمْ ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ العَالَمِيْنَ ﴾ .

ثُمَّ زادَ فِي التأكِيْدِ بِأَنْ صَرَّحَ بِمَا تَشْمَئِزُّ مِنْهُ القُلُوبُ وَتَنْبُو عَنْهُ الأَسْمَاعُ وَتَنْفُرُ مِنْهُ أَشَدَّ النُّفُورِ وَهُوَ اتيَانُ الرَّجُل رَجُلًا مِثْلَهُ يَنْكَحُه كمَا يَنْكَحُ الأنْثَى ، فقَالَ ﴿ إِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ ثُمَّ نَبَّهَ عَلى اسْتِغْنَائِهِم عَنْ ذَلِكَ .

وَأَنَّ الحَامِلَ لَهُم عَلَيْهِ لَيْسَ إِلا مُجَرَّدُ الشَّهْوَةِ لا الحَاجَةُ التِي لأَجْلِهَا مَالَ الذَّكَرُ إِلَى الأُنْثَى مِنْ قَضَاءِ الوَطَرِ وَلَذَّةِ الاسْتِمْتَاعِ وَحُصُولِ المَوَدَّةِ والرَّحْمَةِ التِي تَنْسَى المَرْأَةُ لَهَا أَبَوَيْهَا ، وَتَذْكُرُ بَعْلَهَا ، وَحُصُولِ النَّسْلِ الذِي هُوَ حِفْظُ هَذَا النَّوْعِ الذِيْ هُوَ أَشْرَفُ المَخْلُوقَاتِ وَتَحْصِيْنِ المَرْأَةِ .

وَقَضَاءِ الوَطَر وَحُصُولِ عِلَاقَةِ المُصَاهَرَةِ التِيْ هِيَ أُخْتُ النَّسَبِ وَقِيَامِ الرَّجُلِ عَلَى النِّسَاءِ وَخُرُوجُ أَحَبِّ الخلقِ إِلَى اللهِ مِنْ جِمَاعِهِنَّ

كالأنْبِيَاءِ والأوْلِيَاءِ وَالمؤمِنِيْنَ وَمُكَاثَرَةِ النبيِّ صَلى اللهُ عليه وَسَلم الأنبيَاءَ بأمَّتِهِ إِلَى غيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحْ النِكَاحِ .

والمفْسَدَةُ التِي في اللوَاطِ تُقَاوِمُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَتُرْبِيْ عَلَيْهِ بِمَا لاَ يُمْكِنُ حَصْرُ فَسَادِهِ وَلاَ يَعْلَمُ تَفْصِيْلَهُ إلا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ قُبْحَ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّوْطِيَّةَ عَكَسُوا فِطْرَةَ اللَّهِ التِيْ فَطَرَ اللهُ عَلَيْهَا الرِّجَالَ وَقَلَبُوا الطبِيْعَةَ ، التِيْ رَكَّبَهَا اللهُ في الذُّكُورِ وَهِيَ شَهْوَةُ النِّسَاءِ دُوْنَ الذُّكُورِ ، فَقَلَبُوا الأَمْرَ ، وَعَكَسُوا الفِطْرَةَ والطبِيْعَةَ ، فَأَتوا الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُوْنِ النِّسَاءِ .

وَلِهَذَا قَلبَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِم دِيَارَهُم ، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وَكذلكَ قُلِبُوا هُمْ وَنُكِّسُوا في العَذابِ عَلَى رُؤُسِهِمْ ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ قُبْحَ ذَلِكَ ، بِأَنْ حَكَم عَلَيْهِم بالاسْرَافِ ، وَهُوَمُجَاوزَةُ الحَدِّ ، فقالَ ﴿ بَلْ أَنْتُم قومٌ مُسْرِفُون ﴾ فتأَمَّلْ هل جَاءَ مِثْلُ ذَلِكَ أوَ قَرِيْبٌ مِنْهُ في الزنَا ؟ .

وَأَكَّدَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِم ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ القَرْيَةِ التي كَانَتْ تَعْمَلُ الخَبَائِثَ ﴾ ثمّ أَكّدَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِم الذمَّ بِوَصْفَيْنِ في غَايَةِ القُبْحِ ، فَقَالَ ﴿ إِنَّهُم كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِيْنَ ﴾ وَسَمَّاهُمْ مُفْسِدِيْنَ في قَوْلِ نَبِيِّهِم ﴿ قَالَ ربِّ انْصُرْنِيْ على القَومِ المُفْسِدِيْنَ ﴾ وَسَمَّاهُم ظَالِمِيْنَ في قَولِ الملائِكَةِ لِإِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِيْنَ ﴾ فَتَأَمَّلْ مَنْ عُوْقِبَ بِمِثْلِ هَذِهِ العُقُوبَاتِ وَمَنْ ذَمَّهُ اللهُ بِمِثْلِ هَذِهِ المَذَمَّاتِ وَلَمَا جَادَلَ فِيْهِم خَلِيْلُه ابْرَاهِيْمُ الملائِكَةَ وَقَدْ أَخْبَروه بِإهْلاَكِهِم ، قِيْلَ لَه ﴿ يَا ابْرَاهِيْمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، إِنَّهُ قد جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ آتِيْهِم عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُوْد ﴾ .

شِعْرَاً :

وكُنْ نَـاصِحـاً لِلْمُسْلِمِيْنَ جَمِيْعِهِمْ
بـإرشَـادِهِـمْ لِلْحَـقِّ عِنْـدَ خَـفَـائِـهِ
وَمُـرْهُمْ بِمَعْـرُوف الشـرِيْعَـةِ وَانْهَـهُمْ
عن السُوءِ وَازْجُر ذَا الخَنَا عن خَنَائِـهِ
وَعِـظْهُـمْ بـآيـاتِ الكِتَـابِ بِحِكْمَـةٍ
لَـعَـلَّكَ تُـبْـرِيْ دَاءَهُـمْ بِـدَوائِـهِ
فَـإنْ يَهْدِ مَـوْلاَنَـا بِـوَعْـظِكَ وَاحِـداً
تَنَـلْ مِنْهُ يَـوْمَ الحَشْرِ خَيْـرَ عَـطَائِـهِ
والاَّ فَـقَـدْ أَدَّيْـتَ مَـا كَـانَ واجِـبـاً
عَـلَيْـكَ ومـا مُلِّكْتَ أَمْـرَ اهتـدائِـهِ

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مـوعظـة

عِبَادَ اللهِ ذَنْبُ اللُّوَاطِ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ يُغْضِبُ رَبَّ العِبَادِ إِنَّهَا لفاحِشَةٌ يَضِيْقُ بِهَا الفَضَا وَتَعِجّ لهَا السَّمَاءُ وَيَحِلُّ بِهَا البَلاَءُ فَكَشْفُ حَالٍ ، وَسُوءُ مآلٍ ، وَدَاءٌ عُضَالٌ وَقُبْحُ أَفْعَال وَعَيْبٌ دُوْنَهُ سَائِرُ العُيُوبِ ، عَيْبٌ تَمُوتُ بِهِ الفَضِيْلَةُ ، وَتَحْيا بِهِ الرَّذِيْلَةُ وَتَتَفتَّتُ عَلَى أَهْلِهَا الأكْبَادُ ، وَتَذُوبُ مِنْ أَجْلِهَا حَيَاةُ القُلُوبِ ، فَعَمَلٌ مَسْبُوبٌ ، وَوَضْعٌ مَقْلُوبٌ ، وَفَاعِلٌ مَلْعُونٌ ، وَمَفْعُولٌ بِهِ عَلَيْهِ مَغْضُوبٌ ، وَخُلُقٌ فاسِدٌ ، وَشَرَفٌ مَسْلُوبٌ ، وَعِرْضٌ مُمَزَّقٌ ، وَكَرَامَةٌ مَعْدُومَةٌ ، وَزُهْرِيٌّ ؛ وَجَرَبٌ ، ذُوْ أَلْوانٍ ، وَقَذَرٌ وَانْتَانٌ ، وَوَسَاخَةٌ دُوْنَها كُلُّ وَسَاخَةٍ ، اللهُمَّ إِنَّ فِي هَذِهِ

الفِعْلَةِ الشَّنِيْعَةِ مِنْ الخِزْي والعَار مَا لا تُطِيْقُهُ الطِّبَاعُ السَّلِيْمَةِ ، كَانَتْ أمَّةً قَدِيْمٌ عَصْرُهَا ، بَاقٍ ذِكْرُهَا ، كَثِيْرٌ شَرُّهَا تَسْكُنُ بَيْنَ الحِجَازِ وَالشَّامِ ، تَرْتَكِبُ هَذِهِ الفاحِشَةَ الشَّنِيْعَةَ ، وَالجَرِيْمَةَ الفظيعةَ عَلناً ، في نَوَادِيْهِم وَيَذرُونَ مَا خَلقَ اللهُ مِنْ أَزْوَاجٍ ، وَلاَ يُبَالُونَ بِمَنْ يَعْتَبُ عليهم ، وَيُشَنِّعُ عَليهم وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ اللُّوَّامِ ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِم لُوطاً عَلَيْهِ وَعلى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلامِ فَدَعَاهُم إِلَى التَّوْحِيْدِ ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَحَذَّرَهُمْ مِنْ فِعْلِ فَاحِشَةِ اللوَاطِ ، وَبَالَغَ في انذارِهِم ، وَتَحْذِيْرِهِم ، وَكَانَ الجَزَاءُ والجَوابُ مِنْهُم عَلَى هَذِهِ النَّصِيْحَةِ أَنْ قَالُوا « أَخْرِجُوا آلَ لُوْطٍ مِنْ قَرْيَتِكُم إِنَّهُم أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ » وَمَقْصُودُ هَؤُلاَءِ الأَشْقِيَاءِ بِهَذَا الوَصْفِ السُّخْرِيَةِ ، وَالتَّهكمِ ، بِلُوطٍ وَمَنْ مَعَهُ ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُه الفُسَّاقُ والمَرَجَةُ المُعَاصِرُونَ ، لِبَعْضِ الصُّلَحَاءِ إذا أَنْكَرُوا عَلَيْهِم ، ووعظوهُم ، أَخْرِجُوا عَنَّا هَذَا المُتَدَيِّنُ ، أَوْ هَذَا المُتَزَهِّدُ وَمَا نَقمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا باللهِ العَزِيْزِ الحَمِيْدِ .

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غيــر أَنْ سُيُــوفَهُــم
بِــهِنَ فُــلُولٌ مِن قِــرَاعِ الـكتــائِــبِ

فَقُلِبَتْ مَـدِيْنَتُهُم وَأُتْبِعُوا بِحِجَـارَةٍ مِنْ سِجِّيْل مُسَوَّمَةً عِنْـدَ اللهِ لِلمُسْرِفِيْنَ أَيُّهَا المُسْلِمُ أتدْرِي لِماذا ذَكَرَ اللهُ أخبارَهُم في كِتَابِهِ العَظِيْمِ وعلى لِسَانِ نَبِيِّهِ الكَرِيْم إِنَّهُ واللهُ أعْلَمُ لِنَعْتَبِرَ بِمَا أَصَابَهُمْ ، وَنَحْذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الحَالِ ، وَقُبْحِ الفِعَالِ ، قَالَ اللهُ تَعالَى « وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِيْنَ بِبَعِيْد » سُبْحَانَ اللهِ كَيْفَ يَقَعُ ذَكَرٌ عَلى ذَكَر وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلاَ يَراهُ . وَقَدْ نَهَاهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ مُخَالَفَةِ العَقْلِ ،

وَالدّيْنِ ، وَمَا فِيْهِ مِنْ مَرَضٍ خَطِيْرٍ ، وَشَرٍّ مُسْتَطِيْرٍ ، وَخِزْيٍ ، وَعَارٍ ، هَذَا بِالحَقِيْقَةِ فِعْلٌ تَترَفَّعُ عَنْهُ طِبَاعُ الكِلاَبِ . وَالبِغَالِ ، وَالحَمِيْرِ بَلْ وَالقِرَدَةِ وَالخَنَازِيْرِ ، وما ظَهَرَ اللِّوَاطُ في أمَّةٍ إلاَّ أُذِلَّتْ وَأُخْزِيَتْ ، وَسُلِبَ عِزُّهَا ، وَإِذَا أرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِهْلاَكَ قَرْيَةٍ فَسَقَ فِيْهَا المُتْرَفُونَ فاسْتَحَقَّتَ الخَرَابَ وَالدَّمَارَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أمَرْنا مُتْرَفِيْهَا فَفَسَقُوا فِيْهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيْرًا ﴾ فَانْتَبِهُوا أيُّها الأخْوَانُ وَتَنَاصَحُوا وَاحْفَظُوا أوْلاَدَكُمْ وَاعْلَمُوا أنَّكُم مَسْئُولُون عَنْهُمْ وَعَنْ هَمَالِكُمْ لَهُمْ اَحْرِصُوا عَلَيْهِمْ فَوْقَ حِرْصِكُمْ عَلَى أمْوَالِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَنْجُوا مِنْ التَّبُعَاتِ وَتَسْلَمُوا مِنْ العُقُوبَاتِ جَعَلَنَا اللهُ وَايَّاكُمْ مِمَّنْ إذَا خُوِّفَ باللهِ نَدِمَ وَخَافَ وَرَزَقَنَا وَايَّاكُمْ مِنْ الانَابَةِ وَالأنْصَافِ مَا يُلْحِقُنَا بِصَالِحِ الأَسْلاَفِ وَغَفَرَ لَنَا وَلَكُمْ وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ إنَّهُ جَوادٌ كَرِيْمٌ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

فصل

وَتَأَمَّلْ خُبْثَ اللُّوْاطِيَّةِ وَفَرْطِ تَمَرُّدِهِمْ عَلَى اللّهِ حَيْثُ جَاؤُوا نَبِيُّهُمْ لُوْطاً ، لَما سَمِعُوا بأنه قد طَرَقَهُ أضْيَافٌ هُمْ مِنْ أحْسَنِ البَشَرِ صُوَراً فاقْبَلَ اللوْطِيَّةُ إِلَيْهِ يَهْرَعُوْنَ ، فَلَمَّا رَآهُم قالَ لَهُمْ ﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلاَءِ بَنَاتِيْ هُنَّ أطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ففَدَى أضْيَافَهُ بِبَنَاتِهِ يُزَوِّجُهُم بِهِنَّ ، خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أَضْيَافِهِ مِنْ العَارِ الشَّدِيْدِ .

فقالَ ﴿ يَا قَوْمِ هَؤلاءِ بَنَاتِيْ ، هُنَّ أطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوْا اللّهَ ، وَلاَ تُخْزُوْنِ في ضَيْفِيْ ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيْدٌ ﴾ فَرَدُّوا عَلَيْهِ وَلَكِنْ رَدَّ جَبَّارٍ

عَنِيْدٍ ، (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لنا في بناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَانَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيْد) فَنَفَثَ نَبِيُّ اللهِ نَفْثَةَ مَصْدُورٍ ، خَرَجَتْ من قَلْبٍ مَكْرُوْبٍ ، فَقَالَ (لَوْ أنَّ لِيْ بِكُمْ قُوَّةً ، أَوْ آوِيْ إِلَى رُكن شَدِيْدٍ) .

فَكَشَفَ لَهُ رُسُلُ اللهِ عَنْ حَقِيْقَةِ الحَالِ وَأعْلَمُوهُ أَنَّهُمْ مِمَّنْ لَيْسَ يُوْصَلُ إِلَيْهِمْ وَلاَ إليهِ بِسَبَبِهِمْ فَلاَ تَخَفْ مِنْهُمْ وَلاَ تَعْبأ بهم وَهَوَّنْ عَلَيْكَ فَقَالُوا ﴿يَا لُوطُ إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ، لَنْ يَصِلُوا إلَيْكَ﴾ وَبَشَّرُوهُ بِمَا جَاؤا بِهِ مِنَ الوَعْدِ لَهُ ، وَمِنَ الوَعِيْدِ المُصِيْبِ لِقَوْمِهِ فقالُوا ﴿فَأسْرِ بأهْلِكَ بِقِطَعٍ من اللَيْلِ ، وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إلا امْرَأتَكَ إنَّهُ مصِيْبُها مَا أصابَهُمْ إنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ﴾ فاسْتَبْطَأ نَبِيُّ اللهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَوْعِدَ هَلاَكِهِمْ ، وقَالَ : أُرِيْدُ أعْجَلَ مِنْ هَذَا فَقَالَتْ الملائِكَةُ ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيْبٍ﴾ .

فَوَاللهِ ما كَانَ بَيْنَ اهْلاَكِ أعْدَاءِ اللهِ وَنَجاةِ نَبِيِّهِ وَأَوْلِيَائِهِ إلا مَا بَيْنَ السَّحَرِ وَطُلُوْعِ الفَجْرِ وَإذا بِدِيَارِهِمْ قَدْ اقْتُلِعَتْ مِنْ أُصُولِهَا وَرُفِعَتْ نَحْوَ السَّمَاءِ حَتى سَمِعَتْ المَلاَئِكَةُ نِبَاحَ الكِلاَبِ وَنَهِيْقَ الحَمِيْرِ ، فَبرزَ المَرْسُوْمُ الذي لاَ يُرَدُّ ، مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ الجَلِيْلِ ، عَلَى يَدَيْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ جِبْرِيْلُ بأنْ يَقلِبَهَا عَلَيْهِمْ ، كَمَا أخْبرَ بِهِ في مُحْكَمِ التَّنْزِيْلِ .

فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَائِلِ ﴿ فَلَمَا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيْهَا سَافِلَهَا ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً ﴾ فَجَعَلَهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِيْنَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِيْنَ وَنكَالاً وَسَلَفاً لِمَنْ شَارَكَهَا في أعْمَالِهِم مِنْ المُجْرِمِيْنَ وَجَعَلَ دِيَارَهُمْ بِطَرِيْقِ السَّالِكِيْنَ ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِيْن﴾أُخِذُوا عَلَى غِرَّةٍ وَهُمْ نَائِمُوْنَ ، وَجَاءَهُمْ بأسُهُ وَهُمْ في سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَمَا أغنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ تَقَلَّبُوا عَلَى تِلْكَ اللذاتِ طَوِيلاً فأصْبَحُوا بِهَا يُعَذَّبُونَ .

مَــآرِبَ كـانَتْ في الحَيَــاةِ لأَهْلِهَـا
عِـذَاباً فَصَـارَتْ في المَمَاتِ عَـذَاباً

ذَهَبَتْ اللَّذَّاتُ وَأَعْقَبَتْ الحَسَـرَاتُ وَانْقَضَتَ الشَّهَـوَاتُ وَأَوْرَثَت الحَسَرَاتِ تَمَتَّعُوا قَلِيْلاً وَعُذِّبُوا طَوِيْلاً رَتَعُوا مَرْتَعاً وَخِيْماً فَأَعْقَبَهُمْ عـذاباً أَلِيْماً أَسْكَرَتْهُمْ خَمْرَةُ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ فَمَا اسْتَفَاقُوا مِنْهَا إلاَّ وَهُمْ فِي مَنَازِلِ الهَالِكِيْنَ فَنَدِمُوا وَاللهِ أَشَدَّ النَّدَامَةِ حِيْنَ لاَ يَنْفَعُ النَدَمُ وَبَكوا عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ بَدَلَ الدُّمُوعِ بالدَّمِ فَلَوْ رَأَيْتَ الأعْلَى وَالأسْفَلَ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ وَالنَّارُ تَخْرُجُ مِنْ مَنَافِذِ وُجُوهِهِم وَأَبْدَانِهِمْ وَهُمْ بَيْنَ أطْبَاقِ الجَحِيْمِ ، وَهُمْ يَشْرَبُوْنَ بَدَلَ لَذِيْذِ الشَّرابِ ، كُؤوْسَ الحَمِيْمِ ، ويُقَالُ لَهُمْ وَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِم يُسْحَبُونَ ﴿ ذُوقوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُوْنَ ﴾ ﴿ إصلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَلَقَدْ قَرَّبَ سُبْحَانَه مَسَافَةَ العَذَابِ بَيْنَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِم في العَمَلِ ، فَقَالَ مُخَوِّفاً لَهُم ﴿ وَمَا هِيَ مِنْ الظالِمِيْنَ بِبَعِيْدٍ ﴾ انْتَهى .

وَمِنْ الأَسْبَابِ التِيْ رُبَّمَا تَكُونُ سَبَباً إِلَى هَذِهِ المَعْصِيَةِ النَّظَرُ إِلَى الأَمْرَدِ ، فَعَلَى الأنْسَانِ أنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ صَحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلَّم أنهُ « قال زِنَا العَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَا اللِّسَـانِ النُّطْقُ ، وَزِنَا اليَدِ البَطْشُ ، وَزِنَا الرِّجْلِ الخُطَا ، وَزِنَا الأُذُنِ الاسْتِمَاعُ ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي ، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ » وَلأَجل ذَلِـكَ بَالَـغَ الصَّالِحُونَ في الأعْرَاضِ عَنْ المُرْدَانِ وَعَنْ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ وَعَنْ مُخَاطَبَتِهِمْ وَعَنْ مُجَالَسَتِهِمْ قَالَ الحَسَنُ بْنُ ذَكْوَانَ لاَ تُجَالِسُوا أَوْلاَدَ الأغْنِيَاءِ فَإِنَّ لَهُم صُوَراً كَصُوَرِ العَذَارَى فَهُمْ أَشَدُّ فِتْنَةً مِنْ النِّسَاءِ وَقَالَ بَعْضُ التَّابِعِيْنَ مَا أنا

بِأَخْوَفَ عَلَى الشَّابِّ النَّاسِكِ مع سَبُعٍ ضَارٍ مِنْ الغُلَامِ الأَمْرَدِ يَقْعُدُ إلَيْهِ وَكَانَ يُقَالُ لا يَبِيْتَنَّ رَجُلٌ مَعَ أمْرَدٍ في مَكَانٍ وَاحِدٍ وَحَرَّم قِيَاساً عَلَى المَرْأةِ لِأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « مَا خَلاَ رَجُلٌ بامْرَأةٍ إلاّ كَانَ الشَّيْطَانُ ثَالِثُهُمَا » وَفِي المُردان مَنْ يَفُوقُ النِّسَاءَ بِحُسْنِهِ فَالفِتْنَةُ بِهِ أَعْظَمُ وَأَنهُ يُمْكِنُ فِي حَقِّهِ مِنْ الشَّرِّ مَا لاَ يُمْكِنُ في حَقِّ النِّسَاءِ ، وَيَسْهُلُ في حَقِّهِ مِنْ طَرِيْقِ الرِّيْبَةِ وَالشَّرِّ مَا لاَ يَتَسَهَّلُ فِي حِقِّ المَرْأةِ ، فَهُوَ بالتَّحْرِيْمِ أوْلَى ، وَأقوَالُ السَّلفِ في التَّنفِيْرِ مِنْهُمْ وَالتَّحْذِيْرِ مِنْ رُؤْيَتِهِمْ أكثَرُ مِنْ أنْ تُحْصَرَ .

شِعْراً :

صُنِ الحُسْنَ بالتَّقْوَى والاّ فَيَذْهَبُ
فَنُورُ التُقَى يَكْسُو جَمَالاً وَيكْسِبُ
وَمَا يَنفَعُ الوَجْهَ الجَمِيْلَ جَمَالُهُ
وَلَيْسَ لَهُ فِعْلٌ جَمِيْلٌ مُهَذَّبُ
فَيا حَسَنَ الوَجْهِ اتَّقِ اللّهَ إنْ تُرِدْ
دَوَامَ جَمَالٍ لَيْسَ يَفْنَى وَيَذْهَبُ
يَزِيْدُ التُقَى ذَا الحُسنِ حُسْنَاً وَبَهْجَة
وَأما المَعَاصِي فَهْيَ لِلْحُسْنِ تَسْلِبُ
وَتَكْسِفُ نُورَ الوَجْهِ بَعدَ بَهَائِهِ
وَتَكسُوهُ قَبْحَاً ثم لِلْقَلْبِ تَقْلِبُ
فَسَارِعْ إلَى التَّقْوَى هُنَا تَجِدِ الهَنَا
غَدَاً في صَفَا عَيْشٍ يَدُوْمُ وَيَعْذُبُ

فَمَا بَعْدَ ذِي الدُّنْيَا سِوَى جَنَّةٍ بِهَا
نَعِيْمٌ مُقِيْمٌ أَوْ لَظَىً تَتَلَهَّبُ

مَوْعِظَةٌ

رَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلم « تَفَرَّغُوا مِنَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّهِ ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ أَكْبَرَ هَمِّهِ جَمَعَ اللهُ لَهُ أُمُورَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ في قَلْبِهِ وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلبِهِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا جعَلَ اللهُ قُلُوبَ المُؤْمِنِيْنَ تَفِدُ إليه بِالوِّدِّ وَالرَّحْمَةِ وَكَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ بِكُلِّ خَيْرٍ أَسْرَعُ » وَلَمَّا دَخلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ الشَّامَ قَالَ يا أَهْلَ الشَّامِ اسْمَعُوا قَوْلَ أَخٍ نَاصِحٍ فاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ مَا لِيْ أَرَاكُمْ تَبْنُونَ مَا لا تَسْكُنُونَ وَتَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ وَتُؤَمِّلُونَ مَا لَا تُدْرِكُوْنَ إِنَّ الذِينْ كَانُوا قَبْلَكُم بَنَوا مَشِيْدَا وَأَمَّلُوا بَعِيْداً وَجَمَعُوا عَتِيْدَا فَأَصْبَحَ أَمَلُهُم غُرُوْرَا وَمَسَاكِنُهُمْ قُبُوْرا : وَقَالَ بعضهم :

إِنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمُرُّ بِكُمْ يَحْمِلُ مَا ثَبَتَ فِيْهِ مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ ثُمَّ يَمْضِيْ فَلَا يَعُودُ أَبَدَاً فَإِنْ قَدَرْتُمْ أَنْ تَحْظَوا كُلَّ يَوْمٍ بِمَكْرَمَةٍ وَتُثْبِتُوا فِيْهِ حَسَنَةً فَلا تُؤَخِّرُوا فَإِنَّ الأَيَّامَ صَحَائِفُ فَخَلِّدُوا فِيْهَا الجَمِيْلَ فَقَدْ رَأَيْتُمْ حِفْظَهَا لِمَا اسْتودعتْ مِنْ المَحَامِدِ والمَحَاسِنِ وَالمَكَارِمِ فِي قَدِيْمِ الدَّهْرِ وَحَدِيْثِهِ.

شِعْراً :

لَيْسَ الغَرِيْبُ غَرِيْبَ الشامِ واليَمَنِ
إِنَّ الغَرِيْبَ غَرِيْبُ اللَّحْدِ والكَفَنِ

تَمُـرُ سَـاعَـاتُ أَيَّـامِيْ بِـلاَ نَـدَمٍ
ولا بُكَـاءٍ ولاَ خَـوفٍ ولا حَـزَنِ
سَفَـرِيْ بَعِيْـدٌ وَزَادِيْ لا يُبَلِّغُنِـي
وَقِسْمَتِي لم تَـزَلْ والمـوتُ يَـطْلُبُني
مَـا أَحْلَمَ اللهَ عني حَيْثُ أَمْهَلَنِـي
وَقَـد تَمَـادَيْتُ في ذَنْبِي وَيَسْتُـرني
أَنَـا الـذِي أُغْلِقُ الأَبْـوَابَ مُجْتَهِـدَاً
عَلَى المعَـاصِي وَعَيْنُ اللهِ تَنْظُرُني
يَـا زَلَـةً كُتِبَـتْ يَـا غَفْـلَةً ذَهَبَتْ
يَـا حَسْرَةً بَقِيَتْ في القَلْبِ تَقْتُلُني
دَعْ عَنْكَ عَذْلِي يا مَن كَانَ يَعْذِلُنِي
لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا بِي كُنْتُ تَعْذُرُنِي
دَعْنِي أَنُـوْحُ على نَفْسِي وَأَنْدِبُهَـا
وَأَقْـطَعُ الدَّهْـرَ بـالتَّـذْكَـارِ والحَـزَنِ
دَعْنِي أَسِـحُّ دُمُـوعـاً لا انقطـاعَ لَهَـا
فَهَـلْ عَسَى عَبْـرَةٌ مِنْهَـا تُخَلِّصُني
كَأَنَّنِـي بَيْنَ تِلْكَ الأَهْـلِ مُنْطَرِحَـاً
علـى الفِـرَاشِ وَأَيْـدِيْهِمْ تُـقَلِّبُنِي
وَقَـدْ أَتَـوْا بِـطَبِيْبٍ كَيْ يُعَـالِجُنِي
وَلَم أرَ مِن طَبِيْبِ اليَـوْمِ يَنْفَعُنِـي
وَاشْتَدَّ نَزْعِي وَصَـارَ الموتُ يَجْـذِبُها
مِن كُـلِّ عِـرقٍ بِـلاَ رِفْقٍ وَلاَ هَـوَنِ

وَاسْتَخْرَجَ الرُوْحُ مِنِّيْ في تَغَـرْغُرِهَـا
وصَارَ في الحَلْقَ مُراً حِيْنَ غرْغَرَنِي
وَغَمَّضُـونِي وَرَاحَ الكُـلُ وَانْصَــرَفُـوا
بَعدَ الإِيَاسِ وَجَـدُّوا في شِرَا كَفَنِي
وَقَامَ مَنْ كَانَ أَوْلَى الناسِ في عَجَلٍ
إلى المُـغَسِّـلِ يـأتِيْنِـي يُغَـسِلُنِـي
وقَـال يـا قَوْمُ نَبْغِي غَـاسِـلاً حَـذِقَـاً
حُــراً أدِيْبَـاً أَريبـاً عَـارِفَـاً فَـطِنِي
فَجَـاءَنِيْ رَجُـلٌ مِـنْهُـمْ فَجَـرَدَنِـي
مِـن الثِّيَــابِ وَاعْـرَانِي وأفـردَنِـي
واطَّـرحُـونِي عَلَى الأَلْــواحِ مُنْفَـرِدَاً
وَصَـارَ فَوْقِي خَـرِيْـرُ المـاءِ يُنْـظِفُنِي
وَأَسْكَبَ المــاءَ مِن فَـوقِي وَغَسَّلَنِي
غَسْـلاً ثَلاَثَـاً وَنَادَى القَـوْمَ بِـالكَفَنِي
وَأَلْبَسُــوْنِي ثِيَــابَــاً لا كُمُــومَ لَهَــا
وَصَـارَ زَادِي حَنُـوطَـاً حِيْنَ حَنَّـطَنِيْ
وَقَدَّمُونِي إلى المِحْرَابِ وانصرفُـوا
خَلْفَ الأَمَــامِ فَصَـلَّى ثُمَّ وَدَّعَـنِيْ
صَلُّوا عَلَيَّ صَــلاَةً لا رُكُـوعَ لَهَــا
ولا سُجُــوْدَ لَعَــلَّ اللـهَ يَـرْحَمُـنِي
وَأَنْــزَلُـونِي في قَبْـرِي عَلَى مَهَـلِ
وأنــزَلُــوا واحِــدَاً منهم يُلَحِّــدُنِـيْ

وَكَشَّفَ الثَوْبَ عن وَجْهِي لِيَنْظُرَنِي
وأسْبَلَ الدَّمْعَ مِن عَيْنَيْهِ أغْرَقَنِيْ
فَقَامَ مُحْتَرِمَاً بالعَزْمِ مُشْتَمِلاً
وَصَفَّفَ اللِّبنَ مِن فَوقِي وَفَارَقَنِي
وَقَالَ هُلُّوا عَلَيْهِ التُرْبَ واغْتَنِمُوا
حُسْنَ الثَّوَابِ مِن الرحمنِ ذِي المِنَنِ
في ظُلْمَةِ القَبْرِ لَا أُمٌّ هُنَاكَ ولا
أبٌ شَفِيْقٌ ولا أخٌ يُؤَنِّسُنِيْ
وَأَوْدَعُوني وَلَجُوا في سُؤَ الِهْمُوا
مَا لِي سِوَاكَ إلَهي مَن يُخَلِّصُنِيْ
وَهَالَنِي صُوْرَةٌ في العَيْنِ إذْ نَظَرَتْ
مِن هَوْلِ مَطْلَعِ مَا قَدْ كَان أدْهَشَنِي
مِن مُنْكَرٍ وَنَكِيْرٍ ما أقُولُ لَهُم
إذْ هالَنِي مِنْهُمَا ما كانَ أفْزَعَنِي
فامْنُن عَلَيَّ بِعَفْو مِنْكَ يَا أَمَلِي
فَإنَّنِي مُوثَقٌ بالذَّنْبِ مُرْتَهَنِ
تَقَاسَمَ الأَهْلُ مالِيْ بَعْدَمَا انْصرَفُوا
وَصَارَ وزْرِي على ظَهْرِيْ فأثْقَلَنِي
فَلا تَغُرَّنَكَ الدُّنْيَا وزِينَتُهَا
وَانْظُرْ إلى فِعْلِهَا في الأهْلِ والوَطَنِ
وانْظُر إلى مَن حَوَى الدنيا بأجْمَعِهَا
هَلْ رَاحَ منها بغَيْرِ الزَّادِ والكَفَنِ

خُذِ القَنَاعَةَ مِن دُنْيَاكَ وارضَ بِها
لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إلاَّ رَاحَةُ البَدَنِ

يَا نَفْسُ كُفِّيْ عَنِ العِصْيَانِ واكْتَسِبِي
فِعْلاً جَمِيْلاً لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنِي

اللَّهُمَّ أَيْقِظْنَا مِنْ غَفْلَتِنَا بِفَضْلِكَ وَاحْسَانِكَ وَتَجاوَزْ عَنْ جَرائِمِنَا بِعَفْوِكَ وَغُفْرَانِكَ وَأَلْحِقْنَا بِالذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمَ فِي دَارِ رِضْوَانِكَ وَارْزُقْنَا كَمَا رَزَقْتَهُمْ مِنْ لَذِيْذِ مُنَاجَاتِكَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

فصل في التَّحْذِيْرِ عَنْ تعَاطِيْ المُسْكِرَاتِ وَالمُخَدِّرَاتِ

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وَايَّاكَ وجَمِيْعَ المُسْلِمْينَ لِمَا يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ أَنَّ مِنْ أَشْرَفِ هِبَاتَ اللهِ لِلإنْسَانِ عَقْلُه وَقدْ رُوِيَ عنْ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ، أنهُ قَالَ في قَوْلِ اللهِ تَعَالَى ﴿ ولقدْ كَرَّمْنَا بَنِيْ آدم ﴾ : أَيْ في العَقْلِ ، وَوَرَدَ عَنْ المصْطَفَى صَلى اللهُ عليه وسَلم أنَّهُ قالَ « مَا اكْتَسَبَ مُكْتَسِبٌ مِثْلَ فَضْلِ عِلْمٍ يَهْدِيْ صَاحِبَهُ إلَى هُدَى ، أو يَرُدُّهُ عَنْ رَدَى ، ولا اسْتَقَامَ دِيْنَه حتَّى يَسْتَقِيْمَ عَقْلُهُ » .

فالعَقْلُ جعَلَهُ اللهُ لِلإنْسَانِ لِيَمِيْزَ بهِ النَّافِعَ مِنْ الضَّارّ ويَفْهَمَ عَنْ اللهِ شَرْعَهُ وَيَفْهَمَ لِمَاذا حَسُنَ الحَسَنُ وَقُبِحَ القَبِيْحُ وَيفْهَمَ ما لِلهِ عَلَيْهِ منْ الحُقُوقِ وما لِرُسُلِهِ وَمَا يَنْبَغِيْ نحْوَ عِبَادِ اللّهِ .

فهُوَ الجَوْهَرَةُ التِيْ دُوْنَ قَدْرِهَا الأثْمَانُ ومَا يُقدَّرُ بالأثْمَانِ بَلْ الدّنْيا

بأسْرِهَا لا قِيْمَةَ لهَا بجَانبِ هَذا العَقْلِ العَظِيْمِ الشَّأْنِ الذِي رَفعَ اللهُ دَرجَةَ بَنِيْ آدَمَ إلىَ أنْ خَاطَبَهُم جَلّ وَعَلا وَهُوَ الذِيْ صَلُحَ لأنْ يَكُونَ مِنْ خَدَمِهِ تَعَالَى يُؤَدّيْ مَالهُ مِنْ وَاجِبَاتٍ .

وَهُوَ الذِي بِهِ يَكُونُ أهْلاً لأنْ يَكُونَ مِنْ ضُيُوفِهِ تَعَالَى فِي دَارِ الكَرَامَاتِ ، بلْ هُوَ الذِي سَمَا بِهِ الى أن يَرى رَبَّهُ تعالَى في دَارِ الرِّضْوَانِ ، إنَّ قِيْمَة كلِّ شَيْءٍ إنّمَا تُقَدَّرُ بقَدْرِ مَالَهُ مِنْ آثارِ العَقْلِ ، لا يُدَانْيه فِيْهَا غيْرُهُ ، مَهْمَا كانَ لذلك الغَيْرِ مِنْ مِقدارٍ ، إذْ هو أجَلُّ مِنحةٍ مَنَحهَا اللهُ ابْنَ آدمَ في هَذِه الدَّارِ بَلْ لا تكُونُ الجَنَّةُ جَنّةً إذا سُلِبَ العَقْلُ فِيْهَا مِنْ الانْسَانِ .

إذَا عَلِمْتَ ذلكَ فَاعْلَمْ أنّ النَّاسَ يَتَفَاوَتُونَ في الدَّرَجَاتِ بِتفَاوُتِ مَالهُم مِنْ عُقُولٍ فكُلَّمَا كانَ العَقْلُ أقْوَى كانَ أَقْدَرَ عَلَى دَفْعِ النَّفسِ عَمّا لَها مِنْ فُضُولٍ ومِنْ هَذا نَسْتَطِيْعُ أنْ نَقُولَ إنَّ أعْقلَ المُؤْمِنِيْنَ أتْقَاهُم للهِ أمَّا ضَعِيْفُ العَقْلِ فَيضْعَفُ دَفْعُهُ لِلنَّفسِ عَنْ مَالَها مِنْ شَهَوَاتٍ .

هُوَ مِنْ الأَشْيَاءِ التِيْ تُشِيْرُ أَسْمَاؤُهَا إلىَ مَعْنَاهَا سُمِّيَ عَقْلاً لأنّهُ يَعْقِلُ صَاحِبَهُ غالِباً عَمَّا لا يَنْبَغِيْ وَلِذَلكِ إذَا جُنَّ الانْسَانُ رَأيْتَهُ كالوَحْشِ الضّارِيِّ يَبْطِشُ بكلِّ مَا قَابَلَهُ .

قال بَعْضُهُم :

مَـا وَهَـبَ الـلهُ لِامْـرِىءٍ هِـبَـهْ
أشْـرَفَ مِـن عَـقْـلِهِ ومِـن أَدَبِـهْ
هُـمَـا حيـاةُ الـفَـتـى فَـإنْ فُـقِـدا
فَـإنَّ فَـقْـدَ الـحَـيَـاةِ أجـمَـلُ بِـهْ

وَالمَقْصُودُ مِنْ سِيَاقِ هَذه المقدِّمَةِ حَوْلَ العَقْلِ ، هُوَ أنَهُ يُوْجَدُ قِسْمٌ مِنْ النَّاسِ قد عَمِيَتْ بَصَائِرُهُم وَأسْقَطُوا أنفُسَهُم مِنْ دَرَجَةَ الكمالِ الذِي أعَدَّهُمْ اللهُ لهُ ، وَأنزلُوا أنْفُسَهُمْ إلى مَرْتَبَةِ الحَيوانِ أو أنْزَلَ ، وَرَضُوا بأَنْ يَكوُنُوا مَعَاوِلَ لِهَدْمِ الفَضِيْلَةِ وَيَداً عَامِلةً لِنَشْرِ الرَّذِيْلَةِ وَهؤلآءِ قد اسْتَحْوَذَ عَليْهِم الشَّيْطَانُ وَلعِبَ بهِمْ وَزَيَّنَ لهُم أنْ يُفَارِقُوا عُقُولَهُم زَمَناً بِتَنَاوُلِ المُخَدِّرَاتِ وَتَعاطِيْ المُسْكِرَاتِ وَلَيْسَ هَذا الاعْتِدَاءُ عَلَى العَقْلِ الذِيْ شَرَّفَهُم اللهُ بهِ في العُمْرِ مَرَّةً بَلْ وَلا في السَّنَةِ مَرَّةً لكِنَّهُ عِندَهُمْ دَواماً نَسْألُ اللهَ العَافِيَة أمَا عَلِمَ أُولئِكَ التُّعَسَاءُ أنَّ الخمْرَ أمُّ الخَبَائِثِ وَرَأْسُ المُنْكَر كُلِهِ وَطَرِيْقُ الفَسَادِ العَامِّ .

فسَادِ الدِّيْنِ وَفَسَادِ الأَخْلاَقِ وفَسَادِ العَقْلِ وَفَسَادِ الجْسمِ وَفَسَادِ المالِ وَفَسَادِ الذُّرِّيَّةِ وَلهَذا قَال صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ « اجْتَنِبُوا الخَمْرَ فإنَّهَا مِفْتَاحُ كلِّ شَرّ » رَواهُ الحَاكِمُ ، وَقال صَحِيْحُ الاسْنادِ ، فَالخْمَرُ مُحَرَّمة بالكتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالاجْماعِ .

أمَّا الكِتَابُ فقوْلُه تَعَالى ﴿ يَا أيُّها الذِيْنَ آمَنُوا إنمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالانْصَابُ وَالازْلامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعلكُم تفلحُون ﴾ إلىَ قَوْلِه ﴿ فَهَلَ أنتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ .

وَأمَّا السُّنَّةُ ، فقَوْلُ النَّبيّ صَلى اللهُ عليه وسَلم « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٍ ، وَكُلُّ خمْرٍ حَرَامٌ » رَواهُ أبُو دَاوُدَ وَالامَامُ أحْمَدُ وَروىَ عَبْدُ اللهِ بنْ عُمَر ، أنَّ النَّبِيَّ صَلى اللهُ عليه وَسَلمَ قَالَ « لَعَنَ اللهُ الخَمْرَ ، وَشَارِبَها ، وسَاقيَها ، وبَائِعَها ، ومُبْتَاعَها ، وعَاصِرَها ومُعْتَصِرَهَا ، وحَامِلَها والمَحْمُولةَ إليْه » رَواهُ أبُو دَاوُدَ .

وَقَالَ صَلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ في الدُّنْيَا ، ومَاتَ وَلَمْ يَتُبَ مِنْهَا ، وَهُوَ مُدْمِنٌ لهَا ، لَمْ يَشْرَبْهَا في الآخِرَةِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ وروى مُسْلِمٌ عَنْ جَابر رَضْيَ اللهُ عنه ، قالَ قالَ رسوُلُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « إنَّ عَلَى اللهِ عَهْداً لمَنْ شَرِبَ المُسْكِرَ ، أنْ يُسْقِيَهِ اللهُ مِنْ طِيْنَةِ الخَبَالِ » قِيْلَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طِيْنَةُ الخَبَالِ ؟ قَالَ « عَرَقُ أهْلِ النَّارِ » .

وَفي الصَّحِيْحَيْنَ أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم قَالَ « مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ في الدُّنْيَا ، يُحْرَمْهَا في الآخِرَةِ » وَوَرَدَ أن مُدْمِنَ الخَمْر ، كعَابدِ وَثَنٍ وَرَوىَ النَّسَائِي من حَدِيْثِ عُمَرَ أنّ رَسُولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم قالَ لا يَدْخلُ الجَنّة عَاقٌ ، وَلا مُدْمِنُ خَمْرٍ » وَفي رِوَايَةٍ « ثَلاثَة لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ ، مُدْمِنُ الخَمْر ، وَالعاقُّ لِوَالِدَيْهِ ، وَالدَّيُّوثُ ، وَهُوَ الذِي يُقِرُّ السُّوْءَ في أهْلِه » .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَة عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم قالَ « لَا يَزْنِي الزَّانِي حَين يزني وهو مؤمن ولا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِيْنَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤمِنٌ وَلا يَشْرَبُ الخَمْرَ حين يَشْرَبُها وَهُو مُؤمِنٌ ، وَالتَّوبَةُ مَعْروضَةٌ بَعْدُ » رَوَاهُ البُخَارِيّ ، وفي الحَدِيْثِ « مَنْ زَنَى أو شَرِبَ الخَمْرَ ، نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الايْمَانَ ، كَما يَخْلَعُ الانسان القَمِيْصَ مِنْ رَأْسِه» وَفيهِ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهُ قال « انَّ رائِحَةَ الجَنَّةِ لتُوجَدُ مِن مَسِيْرَةِ خَمْسُمَائةِ عَامٍ وَلا يَجِدُ رِيْحَهَا عَاقٌ وَلا مَنَّانٌ وَلا مُدْمِنُ خَمْر وَلا عَابدُ وَثنٍ » .

وَرَوَى الامَامُ أحْمَدُ مِنْ حدِيْثِ أبي مُوسَى الأَشْعَرِيّ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مُدْمِنُ خَمْرٍ وَلا

مُؤمِنٌ بِسِحْرٍ وَلا قَاطِعُ رَحِم ومَن مَاتَ وَهُوَ يَشْرَبُ الخَمْر سَقَاهُ اللهُ مِنْ نَهْرِ الغُوطَةِ وَهُوَ مَاءٌ يَجْرِيْ مِنْ فُرُوجِ المُومِسَاتِ ـ أي الزَّانِيَاتِ ـ يُؤْذِي أهْلَ النَّارِ رِيْحُ فرُوجِهنَّ .

وَقالَ ابْنُ عُمَر أمَرنِي رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم أنْ آتِيَهُ بِمُدْيَةٍ وَهِيَ الشَّفْرَةُ فَأتَيْتُهُ بها فَأرْسَلَ بِهَا فَأُرْهِفَتْ ثُمَّ أعْطَانِيْهَا وَقالَ « اغْدُ عَليَّ بِهَا » فَفَعَلْتُ ، فَخَرَجَ بأصْحَابهِ إلى أسْوَاقِ المدِيْنَةِ ، وفَيْهَا زِقَاقُ الخَمْرِ قَدْ جُلِبَتْ مِنْ الشَّامِ فأخَذَ المُدْيَةَ مِنّيْ فَشَقَّ مَا كانَ مِنْ تِلْكَ الزِّقَاقِ بحَضْرَتِهِ ثُمَّ أعْطَانِيْهَا وَأمَر أصْحَابَهُ الذِيْنَ كانُوا مَعَهُ أنْ يَمْضُوَا مَعِي وَأنْ يُعَاوِنُونِي وَأمَرنِيْ أنْ آتِيَ الأسْوَاقَ كُلَّهَا فلا أجدُ فِيْهَا زِقّ خَمْرٍ إلاّ شَقَقْتُهُ فَفعلْتُ فَلَمْ أتْرُكْ في أسْوَاقِهَا زِقّاً إلاّ شَققْتُه .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو ، قَالَ إنَّ هَذِهْ الآيَةِ التِي في القُرْآنِ ﴿ يَا أَيُّها الذِيْن آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ والأنصابُ وَالأزلامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَل الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوُهُ لَعلكم تُفْلِحُون ﴾ قَالَ : هِيَ في التَّوْرَاةِ : إنَّ اللهَ أنْزَلَ الحَقَّ لِيُذهِبَ بِهِ البَاطِلَ وَيُبْطِلَ بِهِ اللعِبَ وَالمزَامِيْرَ وَالزَّفْنَ ، وَالكُبَارَاتِ يَعْنِي البَرَابِطَ ، وَالزُّمَّارَاتِ ، يَعْنِيْ به الدُّفَّ وَالطَّنَابِيْر وَالشِّعْرَ ، وَالخَمْرَ مرة لِمَن طَعِمَها أقْسَمَ اللهُ بيَمِيْنِهِ وَعِزَّتِهِ مَنْ شَرِبَها بَعْدَ مَا حَرَّمْتُها لأُعَطِّشَنَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَمَنْ تَركَها بَعْدَ مَا حَرَّمْتُها لأُسْقِيَنَّهُ إيَّاها في حَظِيْرَةِ القُدْسِ » .

اللهُمَّ اغْفِرْ لنَا ذُنُوبنا حَالَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَاعْفُ عَنْ تَقْصِيْرِنَا في طَاعَتِكَ وَوَفِّقْنَا لِلزُومِ الطَّرِيْقِ المُوصِلَةِ إلَيْكَ وَثَبِّتْنَا عَلَيْهَا حَتَّى المَمَاتِ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَألْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

(فصل)

وَأَجْمَعَتْ الأُمَّةُ عَلَى تَحْرِيْمِ الخَمْر ، وَقَلِيْلُ الخَمْرِ وَكَثِيْرُهُ كُلُّهُ حرامٌ لما أخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالطحَاويّ عن سَعْدِ بْن أبي وَقَاصٍ رَضْيَ اللهُ عنه انَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « أنْهَا كُمْ عَنْ قَلِيْلِ مَا أسْكَر كَثِيْرُهُ » .

وَرَوَى أحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارَقُطْنِيْ وَصَحَّحَهُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عَنْ النبَّي صَلى اللهُ عليه وسَلم قَالَ « مَا أسْكَر كَثِيْرُهُ فقَلِيْلُهُ حَرَامٌ » .

وَرَوَى أحْمَدُ في مُسْنَدِهِ ، وَأَبُو دَاوُدَ في سُنَنِه ، بسَنَدٍ صَحِيْحٍ عَنْ أمِّ سَلمَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا قَالتْ نَهى رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم عَنْ كُلِّ مُسْكِر وَمُفَترٍ وَلَمْ يَكْتَفِ الشَّارِعُ بتَحْرِيْمْ شُرْبِ قلِيْلِهَا وَكَثِيْرِهَا ، بلْ حَرَّمَ الاتّجارَ بهَا وَلَوْ مَعَ غَيْرِ المسلِميْنَ فلا يَحِلُّ لمسْلِم يُؤمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِر أنْ يَعْمَلَ مُسْتَوْرِداً أو مُصَدِّراً أوْ صاحِبَ مَحَلٍّ لِبَيْعِ الخَمْرِ او عَامِلاً في هَذا المحَلِّ كَيْفَ وَقَدْ لَعَن النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم عَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَشَارِبَها وحَامِلَها وَالمحْمُولَةَ اليْهِ وسَاقِيْهَا وبَائِعَها وَآكِلَ ثَمنِهَا وَالمُشْتَرِيْ لهَا وَالمُشْتَرَاةَ لهُ .

وَكذا يَحْرُمُ إهْدَاؤُهَا فَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَابِر بْنِ عَبْدِ اللهِ قالَ كَانَ رَجلٌ يَحْمِلُ الخَمْرَ مِنْ خَيْبَر إلى المَدِيْنَة فيَبِيْعَهَا مِنْ المُسلِمِيْنَ فَحمَلَ مِنْهَا بمَالٍ فقدِم بهَا المِدْيْنَة فلقِيَهُ رَجلٌ مِنْ المُسْلِمْين فقالَ يَا فُلانُ إنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ فَوَضَعَها حَيْثُ انْتَهى عَلَى تَلٍّ وَسَجَّى عَلَيْهَا بأَكْسِيةٍ ثم أتى النبيَّ صلى الله

عليه وسلم فقالَ يَا رَسُولَ اللهِ بَلغَنِيْ أنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ قالَ « أجلْ » قالَ: لِيْ أنْ أرُدَّهَا عَلى مَنْ ابتعْتُها مِنْهُ ؟ قال « لا يَصِحُّ رَدَّهَا » قال : لِيْ أنْ أُهْدِيْهَا إلىَ مَنْ يُكَافِيْنِيْ مِنْهَا ؟ قالَ «لا » قالَ: فَانَّ فِيْهَا مَالاً لِيَتَامَى في حَجْرِيْ . قالَ « اذا أتانَا مَالُ البَحْرِيْنِ فَانَّا نُعَوِّضُ أيْتَامَكَ مِنْ مَالِهم » ثُمّ نَادَى بالمدِيْنَةِ فَقَالَ رجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ الأوْعِيَةُ يُنْتَفَعُ بهَا ؟ قَالَ « فحُلُّوا أوْكِيَتَها » فانْصَبَّتْ حَتَّى اسْتَقرَّتْ في بَطْنِ الوَادِيْ .

ويَجبُ مُقَاطَعَةُ مَجَالِس الخَمْرِ وَشَارِبْيهَا فعَنْ عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ « مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، فلا يَقْعُدْ على مَائِدَةٍ تُدارُ عَلَيْهَا الخَمْرُ » رَواهُ أحْمَدُ ومَعْنَاهُ عَندَ التِّرْمِذِيّ . وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزيز أنّهُ كانَ يَجْلِدُ شَارِبْي الخَمْرَ ، ومَنْ شَهِدَ مَجْلِسَهُمْ ، وَإنْ لَمْ يَشْرَبْ ، وروَوْا عَنْهُ أنهُ رُفِعَ إليْهِ قَوْمٌ شَربُوا الخَمْرَ فأمَر بجَلِدهِم ، فَقِيْلَ إن فِيْهِم فُلاناً ، وَقدْ كَانَ صَائِماً ، فَقَالَ : بهِ ابْدَؤ وا ، أمَا سَمِعْتُم قَوْلَ اللهِ تَعالى ﴿ وَقدْ نَزَّلَ عليْكُم في الكِتَابِ أنْ إذَا سَمِعْتُم أياتِ اللهِ يُكْفَرُ بهَا ، وَيُسْتَهزأ بها ، فلا تَقْعدوا مَعَهُم ، حَتى يَخُوضُوا في حَديثٍ غَيْرِه ، إنكمُ إذاً مِثْلُهم ﴾ .

وَرُوى عَنْ عُثْمَانَ بن عفان أنَّهُ كان يَقُولُ اجْتَنِبُوا الخَمْرَ فَإنَّهَا أمُّ الخَبَائِثِ إنهُ كانَ رَجُلٌ فِيْمَنْ كَان قَبْلكُم يَتعَبَّدُ وَيَعْتزِلُ النّاسَ فَعَلِقَتْهُ امْرأةٌ غَويّةٌ فأرْسَلتْ إليهَ جَارِيَتَها أن تَدْعُوُهُ لِشَهَادَةٍ فَدَخل مَعَها فطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخلَ بَاباً أغْلَقَتْهُ دُوْنَه حتَّى أفْضَى إلى امْرَأةٍ وَضِيْئَةٍ عِنْدَهَا غُلاَمُ وباطِيَةُ خَمْرٍ فقَالَتْ إنِّي واللهِ ما دَعوتُك لِشَهادةٍ ولكِنْ دَعَوْتُك لِتَقَعَ عَليَّ أوْ تَقْتُلَ هَذا الغُلامَ أوْ تَشْرَبَ هَذا الخمْرَ فسقَتْهُ كأْساً فقالَ زِيْدونِي فَلَمْ يَزلْ حَتَّى وَقَع عليْها وقَتل

النَّفْسَ فاجْتَنِبُوا الخَمْر فأنَّها لا تَجْتَمِعُ هِيَ وَالايْمَانُ أبداً إلّا أوْشَك أحَدُهُما أنْ يُخْرِجَ صَاحِبَهُ رَواهُ البيهقي .

وروى الطَّبَراني بسَنَدٍ صَحِيْح وَالحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيْحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضْيَ اللهُ عنْهُما : أنَّ أبَا بَكرٍ وعُمَرَ وَناساً جلَسُوا بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلم فذَكَروا أَعْظَمَ الكبائِر فَلَمْ يَكُنْ عِنْدُهُم فِيْهَا عِلْمٌ فَأَرْسَلُونِي إلى عَبْدِ اللهِ بْن عَمْروٍ أسْألُه فاخْبَرنِيْ أنَّ أعْظَمَ الكَبَائِر شُرْبُ الخَمْر فَأتيتُهم فأخْبَرْتُهم فأنْكَرُوا ذَلك وَوَثَبُوا إليْهِ جَمِيْعاً حَتَّى أتَوْهُ في دَارِهِ فَأخْبَرهُم أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسَلم قَالَ « إنَّ مَلِكاً مِنْ مُلُوكِ بَنِيْ اسْرَائِيْلَ أخذَ رَجُلاً فَخَيَّرهُ بَيْنَ أنْ يَشْرَبَ الخَمْرَ أو يَقْتُلَ نفْساً أو يَزْنِيْ أوْ يَأكُلَ لَحْمَ خنزيرٍ أَوْ يَقْتُلُوه فاخْتَارَ الخَمْرَ وَأنَّهُ لمَّا شَرِبَها لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ شَيْءٍ أرَادُوهُ مِنْهُ » .

وَإنّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ « مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْرَبُهَا فَتُقْبَلُ لهُ صَلاةٌ أرْبَعِيْنَ ليْلَةً ، وَلا يَمُوتُ وفي مَثَانَتِه مِنْهَا شَيْءٌ إلا حُرِّمَتْ بهَا عليْهِ الجَنَّةُ ، فاذَا مَاتَ في أرْبَعِيْنَ لَيْلة مَاتَ مِيتةً جَاهِلِيّةً » .

وفي تَصِوْير اثْمِ الخَمْرِ يَقُولُ : أَمْيْرُ المُؤْمِنينَ عليّ بْنُ أَبِيْ طَالِبٍ رضْيِ اللهُ عَنْهُ لَوْ وَقَعتْ قَطْرَةٌ مِنْهَا في بئْرٍ فبُنِيَتْ عَليْهِ مَنَارةٍ لمْ أؤذنْ عليْهَا ، وَلَوْ وَقَعَتْ في بَحْرٍ فَجفَّ فنبتَ الكَلأُ لَمْ أرْعَهُ .

وَقَال ابْنُ عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا لَوْ دَخلَتْ أصْبُعِيْ فِيْهَا لَمْ تَتَّبْعْني اللهُمَّ وَفِّقْنَا لِصَالِحِ الأعْمَالِ ، وَاحْمِنَا مِنْ المعَاصِيْ وَالآثام وَآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنةَ وفي الآخِرَة حسنةً وقِنَا عَذَابَ النّارِ وَاغْفِرْ لنا وَلوالِدَيْنَا وَلجَمِيْعِ

المُسْلِمْينَ برَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

موعظة

عِبَادَ اللهِ انَّمَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكُمْ الخَمْرَ ، لِمَا فِيْهِ مِنْ الأَضْـرَارِ وَالأَخْطَارِ ، وَمَا مَنَعَكُمْ مِنْ شُرْبِهَا إلا لما يَنْشَأُ عَنْ ذَلكَ مِنْ المفَاسِدِ والشُّرُوْرِ والأضرار، فشَارِبُ الخَمْرِ مَلْعُونٌ عَلَى لِسَانِ نبيِّكُمْ مُحَمَّد صَلى اللهُ عليه وسلم ، وبَائِعُهَا ، وشَارِبُهَا ، وعَاصِرُهَا وَمُعْتَصِرُهَا ، وسَاقِيْهَا ، وحَامِلُهَا ، وَالمحَمْوُلَةِ إِلِيْهِ ، وَمُدْمِنُ شُرْبِهَا لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ ، بَلْ يَدْخُلُ النَّارَ وَيُسْقَى مِنْ طِيْنَةِ الخَبَالِ ، عَرقُ أهْلَ النَّارِ ، وَوَرَدَ أنَّ مُدْمِنُ الخَمْرِ كَعابِدِ وَثَنٍ فَشَارِبُ الخَمْرِ مُفْسِدٌ لدِيْنِهِ ، وَمُفْسِدٌ لِجسْمِهِ ، وَصِحَتِهِ ، وَجَانٍ عَلَى نَفْسِهِ ، وعَلى أوْلَادِهِ ، وَأقَارِبِهِ ، وَأهْلِهِ وَجِيْرَانِهِ وَمُفَرِّطٌ في مَالِهِ وَمُسْرِفٌ فِيْهِ وَعَابِثٌ بكَرامَتِهِ ، وَسَاعٍ إلىَ الشَّرِّ وَالفَسَادِ بيَدِهِ ، وَرِجْلِهِ ، وَلِسَانِهِ ، وَصَائِلٌ ، خَبِيْثٌ ، عَلَى الأَخْلَاقِ وَالأدْيَانِ شَارِبُ الخَمْر عُضْوٌ مَسْمُومٌ في جِسْمِ مُوَاطِنِيْهِ ، إذَا لَمْ يُبَادِرُوهُ بالعِلَاج أو يَقطِعُوهُ أصابَهُم ضَرَرُهُ ، شَارِبُ الخَمْرِ يُزَيِّنُ الشَّرَّ وَيُحَسِّنُه ، لِبَنِيْهِ ، وَبَنَاتِهِ ، وَأصْدِقَائِهِ وَيَدْعُوهُم بلسِانَ حالِه وَمَقالِهِ ، وَأنْتُم تَعْلَمُونَ أنَّ دَاعِيْ الفَسَادِ مُجَابٌ في كُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ وأنْصَارُه بلا عَدٍّ وَلا حُسْبَان ، وَاذا دَبَّتْ الخَمْرُ في رَأْسِ شَارِبَها فَقَدَ شُعَورَه ، وَزنَى ، وَلاطَ ، أو لِيْطَ به ، وَجاء بأنْوَاعِ الفُحْشِ ، وَالفُجُـورِ ، وَسَبَّ وَشَتَم ، وَقَـذَفَ ، ولَعَنَ ، وَطَلَّقَ وَسَبَّ الـدِّيْنَ وَالمُسْلِمْينَ ، بَلْ رُبَّما وَقَع على أُمِّهِ ، أو بنْتُهِ أو أُخْتِهِ أو عَلَى نِسَاءِ جيـرانِـه ، أو عَلَى بهائِمِهِ ، وَرُبَّمَا كَفَر باللهِ وَارتَدَّ عَنْ الاسْلام ، وَتَرَكَ

الصَّلاةَ ، وأفْطَرَ في رَمضَانَ ، وَسَبَّ القُرْآنَ ، وبالجُمْلَةِ أنَّ مَنْ تَعاطَى الخَمْرَ سَقَطَ مِنْ شَاهِقِ مَجْدِه إلَى مُسْتَوَى الخَنَازِيْرِ، والقِرَدَةِ يُصَدِّقُ بهذا مَنْ عَايَنَ شَارِبَ الخَمْرِ وَقَدْ اسْتَولَى عَليْهِ الشَّرَابُ وَغَطَّى عَقْلَهُ فَترى مَنْ يَقُودُهُ مُتْعَبٌ ، يَجُرُّهُ كَما يَجُرُّ الدَّابَّةَ الحَرُونُ بَلْ الدَّابَّةُ تَمْشِي أحْيَاناً هَادِئَةً إذَا جُرَّتْ لا تُتْعِبُ القَائِدَ دَائِماً ، وَأمَّا السَّكْرَانُ فَيَمِيْلُ بقَائِـدِهِ هَكَذَا وَهَكَذَا ، حَتَّى يُكَلِّفَهُ مَتَاعِبَ عَظِيْمَةٍ ، وَالدَّابَّة إذَا رَأَتْ حُفْرَةً امْتَنَعَتْ عَنْهَا وَتَبَاعَدَتْ عَنْهَا ، أمَّا شَارِبُ الخَمْرِ فَتَكُونُ الحُفْرَةُ أمَامَهُ ، وَيَسْقُطُ فِيْهَا ، وَالدَّابَّةُ رُبَّمَا دَافَعَتْ عَنْ طَعَامِهَا وَشَارِبُ الخَمْرِ تُسْلَبُ مِنْهُ النُّقُودَ ، وَلا يَحْصُلُ مِنْهُ أدْنَى مُمَانَعَةً ، وَمَعنَى هَذا أنَّ البَهِيْمَةَ أرْجَحُ وأحْسَنُ حَالاً مِنْهُ ، وَقَدْ قَالَ الخَبِيْرُ بأحْوَالِ شُرَّابِ الخَمْرِ ، مَنْ أرَادَ أنْ يَعْرِفَ قَدْرَ السِّكِّيْرِ ، فَلْيَنْظُرْ إلَى قَهْقَهته ، وضَحِكِهِ ، وَالخَمَّارُ يُوَالِيْ الصَّفَعَاتِ عَلَى قَفَاهُ ، وَلْيَنْظُرْ رَقْصَهُ أمَامَ البُزُوْرِ ، كأنَّهُ قِرْدٌ يُرَقِّصُهُ صَاحِبُه ، لِيَضْحَكَ مَنْ يَراهُ ، وَلْيَنْظُرْهُ وهُوَ يَجْرِيْ وَرَاءَ أُمِّهِ ، أو بنْتِهِ ، لِيَقْضِيْ مِنْهَا حَاجَتَـهُ ، وَمُنَاهُ ، وَلِيْنْظُرْه وَامْرَأتُهُ تَكْنِسُ مَلا بسَهُ ، وَتمْسَحُها مِنْ الأوْسَاخِ ، التِيْ يَقْذِفُها عَلَى ثِيَابِهِ ، وَالقَاذُورَاتِ ، هَذا قَدْرُ شَارِبِ الخَمْرِ عندنَا ، أمَّا عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فهُوَ كعابدِ وَثَنٍ مَلْعُونٌ ، نَسْألُ اللهَ جَلَّ وَعَلا أنْ يَعْصِمَنا وَاخوَاننا المسلِمْينَ منها ومَنْ سَائِرِ المعَاصِيْ وَأنْ يَلْطُفَ بِنَا ويُوَفِّقَنا لِمَا يُرْضِيْهِ عَنَّا وَيَغْفِرَ لنَا وَلوالِدَيْنا وَلِجَمْيعِ المُسْلِمْينَ بِرَحْمَتِـهِ أنهُ أرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللهُ علىَ مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وصَحْبِه أجْمَعِيْنَ .

فَصْلٌ

وَاعْلَمْ أنَّ الخَمْرَ نَجِسَةٌ يُغْسَلُ مَا أصَابَتْهُ مِنْ بَدَنٍ أَوْ ثَوْبٍ أو إنَاءٍ وَيُصَبُّ عَلَى مَا أصَابَتْهُ مِنْ الأرْضِ مَاءٌ كنجاسَةِ البَوْلِ لِماً في حَدِيْثِ أبي ثَعْلَبة الخُشَنِيِّ أنَّهُ قالَ يَا رسُولَ اللهِ إنَّا بأرْض قَوْمٍ أهْلُ كِتَاب يَأْكُلون الخِنْزِيْرَ وَيَشْرِبُونَ الخَمْرَ أفنأْكُلُ في آنيتهم قَال « لا ، إلا أنْ تَجِدُوا غَيْرَها ، فاغَسِلُوهَا ثُمَّ كُلُوْا فِيْها » .

وَلَا يَجُوزُ التَّدَاوِيْ بالخَمْرِ لما في صَحِيْح مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ سُوَيْدِ الجَعْفِيِّ أنّهُ سَألَ النبي صلى الله عليه وسلم عَنْ الخَمْرِ فنَهاهُ أو كَره أنْ يَصنَعَهَا فقالَ أصْنَعُها للدَّواءِ فقَال « انُه لَيْسَ بدَوَاءٍ ، وَلكنّهُ دَاءٌ » وَرَوى أبُو دَاوُدَ في سُنَنِهِ مِنْ حَدِيْثِ أبِيْ الدَّرْدَاءِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم « إنَّ اللهَ أنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ ، فَتَدَاوَوْا وَلا تَتداوَوْا بالمُحَرَّمِ » .

وَذَكر البُخَارِيّ في صَحِيْحِه عَنْ ابْنِ مَسْعُود أنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءكُم فيْمَا حَرَّمَ عَليْكُم وفي السُّنَنِ عَنْ أبِيْ هُرَيْرَة قَالَ نَهى رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم عَن الدّوَاءِ الخَبِيْثِ وَفي السُّنَنِ أنهُ صَلى اللهُ عليه وسَلم سُئِلَ عَنْ الخَمْرِ يُجْعَلُ في الدَّوَاءِ ؟ فقالَ « إنَّهَا دَاءٌ ، وَلَيْسَتْ بالدَّواءِ » رَوَاهُ أبُو دَاوُدَ والتِّرمِذِيّ ، وَيُذْكَرُ عَنْهُ صَلى اللهُ عليه وسَلم أنهُ قالَ « مَنْ تَداوَى بِالخمْرِ فَلا شَفَاهُ اللهُ » .

وَقَدْ نَبَّهَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى جَانِبٍ نَفْسِيّ هَامّ ، فَقَالَ :

وَهَهُنَا سِرٌّ لَطِيْفٌ في كوْنِ المُحَرَّمَاتِ لا يُسْتَشْفَى بهَا فَإِنَّ شَرْطَ الشِّفَاءِ بالدَّواءِ تَلَقّيهِ بالقبُولِ وَاعْتِقَادِ مَنْفَعَتِهِ وَمَا جعَلَ اللهُ فِيْهِ مِنْ بَرِكَةِ الشِّفَاءِ فَانَّ النَّافِعَ هُوَ المبَارَكُ وأنفعُ الأشْيَاءِ أبْركُهَا والمبَارَكُ مِنْ النَّاسِ هُوَ الذِي يُنْتَفَعُ بِهِ حَيْثُ حَلَّ وَمَعْلومٌ أنَّ اعْتِقَادِ المُسْلِمِ تَحْرِيْمُ هَذِهِ العَيْنِ مِمَّا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اعْتِقَادِ بَركَتِهَا وَمَنْفَعتِهَا وَبَيْنَ حُسْنِ ظَنّهِ بهَا وَتلقّي طَبْعِهِ لَها بالقَبُولِ بَلْ كُلمَا كَانَ العَبْدُ أعْظَمْ إِيْمَاناً كانَ أكْرَهَ لها وَأسْوأ اعْتِقَادَا فِيْهَا وَطَبْعُهُ أكْرَه شَيْءٍ لهَا ، فَإذَا تَنَاوَلهَا في هَذِهِ الحَالِ كَانَتْ دَاءً لا دَوَاءً ، إلا أنْ يَزوْلَ اعْتِقَادُ الخُبْثُ فيْهَا وَسُوْءُ الظَّنِّ وَالكَراهَةِ بالمَحبَّةِ وَهَذا يُنافِيْ الايْمَانَ فلا يَتَنَاوَلَهُا المؤمِنُ قَطّ إلا على وَجْهِ أنها دَاءٌ انْتَهَى .

وَمِنْ ذلكَ تِلْكَ المَوادِ التِيْ تُعْرَفُ باسْمِ المُخَدِّرَاتِ مِثْلِ الحَشِيْشِ ، وَالكوُكَايين ، وَالأفْيُونِ وَنَحوهَا ، مِمَّا عُرِفَ أثرُهَا عِنْدَ مُتعاطِيْهَا أنها تُؤثرُ في العَقْلِ فَيرى البَعِيْدَ قَرِيْباً وَبالعَكسِ القَرِيْبَ بَعِيْداً وَيذْهَلُ عَنْ الوَاقِعَ وَيَتخَيَّلُ مَا لَيْسَ بوَاقِعَ وَيَسْبَحُ فَي بَحْرٍ مِنْ الأوْهَام وَالأحْلام وهَذاَ مَا يُرِيْدُ مُتَعاطِيْهَا لأجْلِ أنْ يَذهَلُوا أنفُسَهُم وَيَنْسَوا دِيْنَهُم وَدُنْيَاهُم وَيَهِيْمَوا في أوْدِيَةِ الخَيالِ .

وَهَذا غَيْرُ مَا تُحْدِثُهُ مِنْ فُتُورٍ في الجِسْمِ وَخَدرٍ في الأَعْصَاب ، وَهُبُوطٍ في الصِّحَةِ وَفَوْقَ ذَلكَ مَا تُحْدِثُهُ مِنْ خَورٍ في النَّفْسِ وَتحلّلِ الارَادَةِ ، وَتَمْييْعٍ لِلْخُلُقِ وَتَضْعِيْفٌ لِلشُّعُورِ بالوَاجِبِ مِمَّا يَجْعَلُ هَؤُلاءِ التُّعَسَاءَ المُدْمِنيْنِ لهَا أعْضَاءً مُضِرَّةً بالمُجْتَمَعِ فَضْلاً عَمَّا وَرَاء ذلِكَ مِنْ إتْلافِ الأمْوَالِ وَخَرابِ البُيُوتِ .

وَقَالَ شَيْخُ الاسِلاْمِ ابْن تَيْمِيَّةَ في فَتَاوِيْهِ مَا خُلاصَتُهُ : إنَّ هَذه

الحَشِيْشَةِ الملْعونَةِ هِيَ وَآكِلُوهَا وَمُسْتَحِلُّوهَا المُوجبَةِ لِسَخَطِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَسَخطِ عبادِهِ المؤ مِنِيْنَ المعَرِّضةِ صَاحِبَهَا لِعُقُوْبَةِ اللهِ تَشْتَمِلُ على ضَررٍ في دِيْنِ المرءِ وَعَقْلِهِ وَخُلقِه وَطَبْعِه وَتُفْسِدُ الأمْزَجَةَ ، حَتَّى جَعَلْت خلقاً كَثِيْراً مَجَانِيْنَ ، وَتُوْرِثُ مِنْ مَهانَةِ آكِلِهَا وَدَناءَةِ نفسْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

فضَرَرُهَا مِنْ بَعْضِ الوُجُوهِ أعْظَمُ مِنْ الخَمْرِ وَلهَذا قَالَ الفُقَهاءُ إنهُ يَجبُ فِيْهَا الحَدُّ كما يَجِبُ في الخَمْرِ ، وَالسُّكْرُ مِنْهَا حَرامٌ باتّفَاقِ المُسْلِمْينَ .

وَمَنْ اسْتَحَلَّ ذَلَكَ وَزَعَمَ أَنَّهُ حَلالٌ فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تابَ وَألا قُتِلَ مُرْتَدّاً لا يُصَلَّى عليهْ وَلا يُدْفَنُ في مَقابِرِ المُسْلِمِيْنَ .

اللهُمَّ اقْسِمْ لنَا مِن خَشْيتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِكَ وَمِنْ طَاعِتَكَ مَا تُبلِّغُنَا به جَنَّتَكَ ومِنْ اليَقِيْن مَا تُهَوِّنُ بِهِ علَيْنَا علينا مَصَائِبَ الدنْيَا اللهُمَّ مَتِّعْنَا بأسْماعِنا وَأبْصَارنَا وَقُوَّاتِنا مَا أحْيَيْتَنا وَاغْفِرْ لنَا ولوالِدَيْنا وَلجَمِيْع المُسْلِمِيْنَ الأحْيَاءِ منْهُمْ والميتين بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وصَلى اللهُ على مَحمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

فصل في بعض مضار الخمر

وَنَسُوقُ إلَيْكَ نُمُوذَجاً مِنْ مَضَارِّ الخَمْرِ مِمَّا ذَكَرَهُ العُلَمَاءُ وَالأَطِبَّاءُ :

١ ـ أنَها فسَادٌ في الدِّيْن .

٢ ـ أنها فسَادٌ في الأخْلاقِ .

٣ ـ أنهَا فسَادٌ في العَقْل .

٤ ـ أنهَا فَسادٌ في الجِسْمِ تُحَطِّمُ قُوَّتَهُ وَتَهْدِمُ بِنْيَتَهُ وَتُسْقِمُ الجَسَدَ .

٥ ـ أنَها فَسَادٌ في الذُّرِّيَّةِ .

٦ ـ أنهَا جِنَايَةٌ علىَ الشَّرَفِ .

٧ ـ أنَّ الخَمْرَ رِجْسٌ مِنْ عمل الشَّيْطَانِ .

٨ ـ أنَّها نَجِسَةٌ ، تُنَجِّسُ مَا اتَّصَلَتْ بِهِ .

٩ ـ أنها تُوْرِثُ الذُّلَّ وَالمَهَانَةَ .

١٠ ـ أن ضَرَرهَا مُتَعَدٍّ .

١١ ـ أنهَا تَضُرُّ اقْتِصَادِّياً .

١٢ ـ مَا فِيهَا مِنْ الضَّرَرِ الاجْتَماعِي .

١٣ ـ أنَّ الجهاز الهَضْمِيّ يُصَابُ بالنَّزْلَةِ المِعَوِيَّةِ الحَادَّةِ فَيَحْصُلُ فَسَادٌ في الهَضْمِ وَخمُودٌ في المَعِدَةِ وَالتِهَابٌ في الأمْعَاءِ وَاسْتِحَالَةٌ في مَنْسُوجِ الكَبِدِ وَتيبَسٌّ وَالتِهَابٌ وَتغيُّرٌ فِيْهِ وَأخْيراً تَفتُّتُ الكبِـد وَتتلَفُ وَتنْتَهِي حَيَاتُهُ .

١٤ ـ أن الجهَازَ البَوْلِي وَالتَّنَاسُلِيّ يُحْصُلُ فيهِ تَنَبُّهٌ ، يَنْشَأُ عَنْهُ التِهَابُ الكِلَى وَفسادُ مَنْسُوجِهَا وَضَعْفُ الانعَاظِ وَضَياعُ مُحَصَّلِ النَّسْلِ .

١٥ ـ الجَهازُ العَصِبيّ : يُصَابُ المُخّ باضْطِرَابٍ يَكُوْنُ مِنْهُ الجُنُونُ السُّكْـرِيْ وَالخَـوْفُ وَالخَيـالاتُ المُختَلِفَـةِ كـرُؤيَـةِ الهَيْئَـآتِ الشَّنِيْعَـةِ وَالارْتِعَاشِ وَفَقْدِ الاحْسَاسِ وَالشَّلَلِ المَحْدُودِ الذِيْ يَؤُولُ إلى شَللٍ

عُمُومِيّ ، وَقَدْ تُؤَدِّيْ الخَمْرُ إلىَ الصِّراعْ ، وَالتَّشَنُّجِ وَاسْتِحَالةِ المَرَاكِزِ العَصَبِيَةِ المُخِّيَّةِ الشَّوْكِيَّةِ وَعَلى العُمُـومِ يَحْصُلُ في البِنْيَـةِ اضْطِرَابٌ تَضْعُفُ أمَامَه عَنْ مُقَاوَمَةِ المُؤثِراتِ الخَارِجيَّةِ .

١٦ ـ أنَّهُ يَعْتَرِيْ القَلْبَ الضُّمُورُ وَالاسْتِحَالَةُ الشَّحْمِيَّةَ فَيَنْشَأُ عَنْ ذَلكَ إبْطَاءٌ في الدَّوْرَةِ الدَّمَوِيَّةِ بالرِّئَةِ تَحْدُثُ عَنْهُ النُّزَلْ الشُّعْبِيَّةِ وَمَوْتُ الفُجْأةِ .

١٧ ـ أنَّهُ يُسَبِّبُ انْسِدَاد في بَعْضِ أوْعِيَةِ الرِّئَةِ وَذَلكَ مَا تُعْرَفُ أعْرَاضُهُ بالسُّعَالِ .

١٨ ـ أنَّها تُعَرْقِلُ هَضْمِ الطَّعَامِ فَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ التُّخَمُ وَالحُمُوضَةُ في المَعِدَةِ وَالقَيءُ .

١٩ ـ تُضْعِفُ المَنَاعَةَ ، وَتُخَدِّرُ الكُرَاتِ الدَّمَوِيَّةَ البَيْضَاءَ التِيْ جَعَلهَا اللهُ حَارِسَةً لِجِسْمِ الأنْسَانِ .

٢٠ ـ التَّعْرِيْضُ لِفَجأةِ ذَهَابِ البَصَرِ .

٢١ ـ مُبَادرةُ انْقِطَاعِ شَهْوَةِ الجِمَاعِ وَسُرْعَةِ وُقُوفِ النَّسْلِ .

٢٢ ـ أنَّ أكثَرَ حَوَادِثِ السَّيَّارَاتِ مِن شُرَّابِ الخَمْرِ وَالمخَدَّرَاتِ وَبالحَقِيْقَةِ أنَّ الشَّيْطَانَ يَصُدّ الشَّارِبَ عن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنْ الصَّلاةِ ويُوقِعُهُ في مَعْصِيَةِ اللهِ وَسَخطِهِ وَيُعَرِّضَهُ لِخِزْيِ الدُّنْيَا وَعذابِ الآخِرَةِ يرْتَكِبُ الكبَائِرِ وَيَقْتَرِفُ الجَرائِمَ وَالآثام ، وَيَخْبِطُ في الحَرَامِ ، وَيَتجَنَّبُ مَا وَجبَ عليهْ مِنْ الأحْكامِ ، فَيَفْعَلُ نُكْراً وَيَنْطِقُ بالعَظَائِمِ منْ القَوْلِ وَالزُّورِ ويَسُبُّ رَبَّهُ

وأمَّهُ وأباهُ ويُطَلِّقُ ويَزنِيْ ويَلُوطُ ويَعْبَثُ بالأعْرَاضِ وَالكرَامَاتِ وَيُتْلِفُ أثاثَهُ وأمْوَالَهُ ويُوَسِّخُ ثِيَابَهُ ويَبُولُ على نَفْسِه وَيَبْكِي بلا سَببٍ وَيَضْحَكُ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ فَتهْزأُ بِهِ الصِّبْيَانُ وَيَعْبَثُ بِهِ الفُسَّاقِ ويَسْخَرُ بِه السُّفَهاءُ وَيَمْقُتُه العُقَلاءُ ويُبْغِضُه أهْلُهُ لِلْخَطَرِ المُتَوَقَّعُ مِنْهُ في سُكرِهِ لَيْلاً ونَهاراً ويَمْقُته جِيْرانُه ولا يأمَنُونَ من وَثَبَاتِهِ إذا سَكِرَ ولا شَكَّ أنَّ فَتْكَ أمِّ الخَبائِثِ الخَمْرِ أشَدُّ مِنْ فَتْكَ الطَّاعُونِ وَالحَرْبِ وَالمَجاعَاتِ وَالعَاهَاتِ لإنَّ ضَرَر الخَمْرِ اقْتِصَادِيّ وَصَحِّيْ ونفْسِيْ وَاجْتِمَاعِيْ وَأَخْلاقِيّ .

فَشَارِبُهَا عُضْوٌ مَسْمُومٌ في جِسْمِ أُمَّتِه وَمُواطِنيْه إنْ لَمْ يُعَالَجْ أو يُسَوى لهُ عَملِيَّةً وَيُقْطَعْ ، سَرَى سُمُّهُ وَدَاؤهُ الفتَّاكُ إلى سَائِر الأعْضَاءِ وأثَّر عَلَى الجِسْمِ كُلِّهِ : ـ

وَقيْلَ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتَمَ : مَالكَ لا تَشْرَبُ الخَمْرَ . فَقَال: مَا أُحِبُّ أنْ أُصْبِحَ حَكِيْمَ قَوْمِيْ وأُمْسِي سَفِيْهَهُمْ وَكانَ بَعْضُ المُلُوكِ يَجْمَعُ أفاضِلَ دَولِتِه ويُلْقِيْ عَلَيْهم أسْئلَةً عِلْمِيَّةً يَتَعَرَّفُ بها فَضْلَهُم فَيوْماً حَضَر هَذا المجْلِسَ رَجُلٌ رثُّ الهَيْئَةِ فكَانَ إذَا انْتَهى العُلَماءُ مِنْ اجابَتِهِم تَكلَّمَ بمَا لم يَحُمْ حَوْلَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمَ وَكانَ ذلك حَالهُ في كُلِّ سُؤَالٍ ولَمَّا انْصَرَفَ العُلَماءُ أرَادَ أنْ يَنْصَرِف هُوَ أيْضاً فأشَارَ إليْه المَلِكُ أنْ لا يَنْصَرِفَ فَلَمَّا خليَا أدْنَاهُ المَلِكُ ثُمَّ أدْنَاهُ حَتَّى أجْلسَهُ إلَى جَنْبِهِ ثم عَرَضَ عَلَيْهِ كأْساً مِنَ الخَمْرِ فاسْتَعْفِى فَألَحَّ عليه أنْ يَشْرَبَها فاسْتَعْفَى وَأخْبَرَهُ أنَّهُ لا يُرِيْدُهَا ثُمَّ قَالَ لِلمَلِكِ أيُّها المَلِكُ إنِّي الآنَ في مَجْلِس يَحْسِدُنِيَ عليْهِ النَّاسُ جَمِيْعاً وَهُوَ إحْسَان وَمكانٌ عظِيْمٌ لم يُوْصِلْنِيْ إلَيْهِ إلا عَقْلِيْ فَلا أسِيْءُ إلَى عَقْلِي أبَداً باحْتِسَاءِ كأسٍ مِنْ الخَمْرِ يَقْضِيْ عليْه فازدَادَ اعْجَابُ المَلِكِ بِهِ وَازْدَادَ

فضْلاً عنْدَهُ عَلى فَضْلِهِ وَلعَلّهُ كانَ يَخْتبِرْه بذَلِك .

وختَاماً فَإنَّ الفلاحَ مَرْجُوٌّ حُصُولُهُ باجْتِنَابِهَا قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِل ﴿ إنَّمَا الخَمْرُ وَالميْسِرُ وَالانْصَابُ والأزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فاجْتَنِبُوهُ لَعلّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

شعرا :

وَإيَّـاكَ شُـرْبـاً لِلْخُمُـورِ فَـإنَّـهَـا
تُسَوِّدُ وَجْهَ العَبْدِ في اليَوْمِ مَعْ غَدِ
ألاَ إنَّ شُـرْبَ الخَمْـرِ ذَنْبٌ مُعَـظَّمٌ
يُـزِيْـلُ صِفَـاتِ الآدَمِي الـمُسَـدَّدِ
فَيُلْحَقُ بـالأنْعَـامِ بَـلْ هُـو دُونَهَـا
يُخَلِّطُ فـي أفْعَـالِـهِ غَـيْـرَ مُهْتَـدِ
وَيَسْخَـرُ مِنْهُ كُـلُّ رَاءٍ لِسُوْءِ مَـا
يُـعَـايِنُ مِن تَـخْلِيْـطِهِ وَالـتَّبَـدُدِ
يُـزِيْـلُ الحَيَـا عَنْـهُ وَيَـذْهَبُ بـالغِنَـا
وَيُـوقِعُ فِي الفِحْشَـا وَقَتْلِ الـمُعَـرْبَدِ
وَكُـلُّ صِفَـاتِ الـذَّمِ فِيْهَـا تَجَمَّعَتْ
كَـذَا سُمِيَتْ أمَّ الفُجُـوْرِ فَـاسْنِـدِ
فكَمَ آيَـةٍ تُنْبِي بِتَحْـرِيْمِـهَـا لِمَـنْ
تَـدَبَّـرَ آياتِ الكِتَـابِ الـمُمَـجَـدِ
وَقَدْ لَعَنَ المختارُ في الخَمْـرِ تِسْعَةً
رَوَاه أبُـو داود عن خَيْـرِ مُـرْشِـدِ

وَأَقْسَمَ رَبُّ العَـرْشِ أَنْ لَيُعَـذِبَنْ
عَلَيْهَـا رَوَاهُ أَحْـمَـدُ عن مُـحَمَّـدِ
وَمَـا قَدْ أَتَى في حَظْرِهَا بالِغٌ إذَا
تَـأَمَلْتَـهُ حَـدَّ التَّـوَاتُـرِ فَـاهْتَـدِ
واجْمَعْ على تَحْرِيْمِهَا الناسُ كُلُهُم
فَكَفِـرْ مُبِيْحِيْهَـا وفي النَّـارِ خَلِّدِ
وإدْمَـانُهـا إحْـدَى الكَبَـائِـرِ فـاجْتَنِبْ
لَعَلَّكَ تُحْـظَى بـالفَـلاَحِ وَتَهْتَـدِي
وَيَحْـرُمُ مِنْهَـا النَّـزْرُ مِثْلُ كَثِيْـرِهَـا
وَلَيْسَتْ دَوَاءً بَـلْ هِيَ الدَّاءُ فـابْعِـدِ
فَمَـا جَعَـلَ اللهُ العَـظِيْمُ دَوَاءَنَـا
بِمَـا هُـوَ مَحْـظُورٌ بِمِلَّةِ أَحْـمَـدِ
وَكُـلُ شَـرَابٍ إنْ تَكَـاثَـرَ مُسْكِـرٌ
يُحَـرَّمُ مِنْـهُ النَّزْرُ بـالخَمْـرِ فـاعْدِدِ
ومِنْ أيِّ شَيْءٍ كَـانَ يَحْرُمُ مُـطْلَقاً
وَلَـو كَـانَ مَـطْبُـوْخَـاً بِغَيْـرِ تَقَيُّـدِ
فَـسِيَّـانِ مِـن بُـرٍ وَمِنْ ذُرَةٍ ومِـنْ
شَـعِيْـرٍ وَتَـمْـرٍ أَيْ وكُـلِ مُـعَـوَّدِ
سِوَى لِظَمَا المُضْطَّرِ إنْ مُزِجَتْ بِمَا
يُـرَوِّيْ ولِلْمغْتَصِ اجْمَـاعَـاً ازْرُدَ
ثَمَـانِيْنَ فاجْلِدْ مُسْلِمَـاً شَارِبَـاً رِضَى
عليهـا بـاسْكـارِ الكَثِيْـرِ المُـزَبِّـدِ

وَمَن مَـاتَ في حـدٍ بِغَيْـرِ تَـزَيُّـدِ
فـلا غُـرْمَ فِيْـهِ وَلْيُغَسَّـلْ وَيُلْحَـدِ

موعظة

عِبَادَ اللّهِ إنَّ مِفْتَاحَ سَعَادَةِ المَرءِ في دُنْيَاهُ وأُخْراهُ أَنْ يُرَاقِبَ مَوْلاَهُ بِحَيْثُ يَكُونُ في كُلِّ حَالٍ مِنْ أحْوالِهِ مُسْتَحْضِراً عَظَمَةَ رَبِّهِ وَجَلاَلَه ولا يَنْسَاهُ مُؤْمِناً بأنهُ تَعَالَى يَرَاهُ أيْنَمَا كانَ وَيَعْلَمُ سِرَّهُ وَنَجْوَاهُ فَمَنْ كَانَ هَكَذا أَوْرَثَهُ ذَلِكَ خَشْيَةَ رَبِّهِ في سِرِّهِ وَعَلاَنِيَتِهِ ، فَإذَا خَافَ الأنْسَانُ رَبَّهُ خَوْفاً صَحِيْحَاً وَقَفَ وَلاَ بُدَّ عِنْدَمَا حُدَّ لهُ مِن حُدُودٍ يَفْعَلَ أوامِرَهُ وَيَجْتَنِبُ نَوَاهِيْهُ ، لا يَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ إلاَّ إجْلاَلُهُ لِرَبِّهِ ، وَمِنْ أبْعَدِ البُعْدِ أَنْ يَقْرَب المَعْصِيَةَ مَنْ كَانَ هَكَذَا ، لأنَهُ يَسْتَحْضِرُ أنَّ اللهَ تَعالَى يَرَاهُ ، ويُوْقِنُ أنَّ اللهَ تَعَالَى يُجَازِيْهِ عَلَى كُلِّ مَا قَدَّمَ مِنْ طَاعَةٍ أو مَعْصِيَةٍ فإذَا وَصَلَ العَبْدُ إلى هَذِهِ الحَالَةِ كانَ مَعَ تَوْفِيْقِ اللهِ لهُ مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِ اللهِ المتَّقِيْنَ الذِيْنَ لِلَّهِ تعالَى بِهِمْ عِنَايَة فوْقَ مَا يَتَصَوَّرُه المُتَصَوِّرُونَ هُوَ أنهُ تعالَى أخْبَرَهُ عن مَبْلَغِ هَذِهِ العِنَايَةِ في الكِتَابِ المُبِيْنِ أخْبَرَ تَعالَى أَنَّهُ مَعَهُم لِمَا هم عليه ممّا وَفَّقَهُمْ لَهُ مِنْ تَقْوَى وَاحْسَانٍ ، وإذا كانَ الأمرُ هَكَذا . فَمِنْ يَغْلِبُ التَّقِيَّ وَمَعَهُ القَاهِرُ الغَلاَّبُ وَمَنْ يُذِلُّهُ وَمَعهُ مَنْ بِيَدِهِ نَاصِيَةَ كُلِّ مَخْلُوقٍ وَمَنْ يُحْوِجُهُ وَمَعَهُ مَن كُلُّ العَوالِمِ تَتَقَلبُ في بَحْبُوْحَةِ جُودِهِ وكَرَمِهِ البَاهِرْ ، ومَنْ يُشْقِيْهِ وَمَعَهُ مَنْ لا سَعَادَةَ إلا وهِيَ مِنْ فَيْضِ كَرَمِهِ وإحْسَانِهِ . فَعَلَيْكَ بِلُزُوْمِ تَقْوَى اللهِ وَطَاعَتِهِ تَنَلْ السَّعَادَةَ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أفْضَلُ الأيْمَانِ أنْ تَعْلَمَ أنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ » رَوَاهُ الطَبَرَانِيّ .

اللهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا قَبْلَ أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْنَا الجَوارِحُ وَنَبِّهْنَا مِنْ رَقَدَاتِ الغَفَلاَتِ وَسامِحْنَا فَأنْتَ الحَلِيْمُ المُسَامِحُ وانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا فَمِنْكَ الفَضْلُ وَالمَنائِحُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحمدٍ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَصْلٌ في تَحْرِيْمِ حَلْقِ اللِّحْيَةِ

وَمِمَّا يَتَأَكَّدُ اجْتِنَابُهُ وَالبُعْدُ عَنْهُ ، وَالتَّحْذِيْرُ مِنْهُ في رَمَضَانَ وَفِي غَيْرِهِ حَلْقُ اللحْيَةِ وَقَصُّهَا وَنَتْفُها ، لِما يَأْتِي مِنْ الآيَاتِ وَالأَحَادِيْثِ .

... قَالَ اللهُ تَعالَى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيْ آدَمَ ﴾ قَالَ البَغوِيّ رَحِمَهُ اللهُ : قِيْلَ الرِّجَالُ باللحَى ، وَالنِّسَاءُ بالذَّوائِب ، وَقَالَ اللهُ تَعالَى ﴿وأطِيعوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وقَالَ ﴿مَا آتاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهاكُمْ عنه فَانْتَهُوا﴾ وَقَالَ ﴿فَلْيَحْذَرِ الذِيْنَ يُخالِفُونَ عَنْ أمْرِهِ أنْ تُصِيْبَهُم فِتْنَة ، أو يُصِيْبَهُم عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾ .

وَقَالَ تَعالَى ﴿ وَلَا تَكُونوا كالذِيْنَ نَسُوا اللهَ ، فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُم ﴾ وَقَدْ رأَى النبي صلى اللهُ عليه وسلم عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ « إِنَّ هَذِهِ مِنْ ثِيَابِ الكُفَّارِ فَلَا تَلْبَسْهَا » رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، فَالعَاقِلُ المُتَدَيِّنُ البَصِيْرُ الوَرِعُ يَبْعُدُ كُلَّ البُعْدِ عَن تَقْلِيْدِهِمْ ، وَالتَّشَبُّهِ بِهِم ، وَالدُّنُو إلَى مُسْتَوَاهُمْ المُنْحطِّ الشَّاذِّ ، وَإِلَيْكَ مَا وَرَدَ في التَّحْذِيْرِ عَنْ التَّشَبُّهِ بِهِمْ ، وَالأمْرِ بِمُخَالَفَتِهِم ، لِتَكُوْنَ عَلَى بَصِيْرَةٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَتَفْهَمَ الأدلَّةَ وَتَنْصَحَ مَنْ رَأَيْتَهُ يُقَلِّدُهُم وَيَتَشَبَّهُ بِهِم ، وَتُبَيِّنُ لَهُ أَنَّهُ قد أمِرَ

صلى الله عليه وَسَلَّمَ بإعْفَاءِ اللحْيَةِ ، وَمُخَالَفَةِ المُشْرِكِيْنَ ، فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللـهُ عَنْهُ ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم . « جُزُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللِّحَى ، خَالِفُوا المَجُوسَ » رَوَاهُ أحْمَدُ وَمُسْلِمٌ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَـرَ عَنْ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « خَـالِفُـوا المُشْرِكِيْنَ ، وَفِّرُوا اللِّحَى ، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، وَرَوَى الأمَامُ أحْمَدُ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أعْفُوا اللحَى ، وَجُزُّوا الشَّوَارِبَ ، ولاتَشَبَّهُوا باليَهُودِ وَالنَّصَارَى » وَلِلْبَزَّارِ ، « لَا تَشَبَّهُوا بالأَعَاجِمِ ، أعْفُوا اللِّحَى » .

وَرَوَى ابْنُ عُمَرَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُم » رَوَاهُ أحْمَدُ وأبو دَاوُدَ .

وَقَالَ أيْضاً « إنَّ اليَهُودَ والنَّصَارَى لا يَصْبُغُونَ فَخَالِفُوهُمْ » رَوَاهُ البُخَاريّ وَمُسْلِمٌ .

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيْهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قالَ : « لَيْسَ مِنَّا من تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا ، لا تَشَبَّهُوا باليَهُودِ وَلَا النَّصَارَى » ورُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَر « مَنْ تَشَبَّـهَ بِهِمْ حَتَّى يَمُوتَ حُشِـرَ مَعَهُمْ » .

وفي كِتَابِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ، إلَى عُتْبَةَ بْنِ فَرْقَد : وَإيَّاكَ وَزِيّ أهْلِ الشِّرْكِ . رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِم .

قَالَ ابْنُ عَقِيْل رَحِمَهُ اللهُ : النَّهْي عَنْ التَّشَبُّهِ بِالعَجَمَ لِلتَّحْرِيْمِ .

وَقَالَ شَيْخُ الاسْلَامِ أَبُو العَبَّاسِ بْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

التَّشَبُّهُ بالكُفَّارِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ بِالأجْمَاعِ . وَقَالَ عَلَى حَدِيْثِ ابْنُ عُمَرَ « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُم » : وَقَدْ احْتَجَّ الأمَامُ أَحْمَدُ وغَيرُه بِهَذَا الحَدِيْث ، قَالَ : وَهَذَا أقَلُّ أحْوَالِهِ أَنَّهُ يَقْتَضِي تَحْرِيْم التَّشَبُّهِ بِهِم ، وَإنْ كانَ ظَاهِرُهُ يَقْتَضِي كُفْرَ المُتَشَبِّهِ بِهِمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُم فإنَّهُ مِنهُم ﴾ انتَهَى .

وَقَدْ جَاءَ في حَدِيْثٍ رَوَاهُ ابْنُ اسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيْرٍ أنـه صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ « إنَّ اللهَ أمَرَنِي باعْفَاءِ لِحْيَتِي وَقَصِّ شَارِبِيْ » .

وَمِنْ الأدِلَّةِ عَلَى تَحْرِيْمِ حَلْقِ اللحْيَةِ قَوْلُهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِيْ فَلَيْسَ مِنِّيْ » : وَمِنْ سُنَّتِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْفَاءُ اللحْيَةِ ،وَرَوَى الامامُ أحْمَدُ في زَوَائِدِ المُسْنَدِ بأَسَانِيْدِ جَيِّدَةٍ ، عَنْ عَلِيِّ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَظِيْمَ اللحْيَةِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أنَّهُ كَانَ يُعْفِيْهَا ، وَلَا يَأخُذُ مِنْهَا شَيْئاً ، وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ : قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيْرَ اللحْيَةِ وَعَنْ أنَسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ لِحْيَتَه قَدْ مَلأتْ مِنْ هَا هُنا وَأمر يدَهُ على عَارِضِهِ .

وعن عَائِشَةِ رضْيَ اللهُ عَنْهَا ، قَالَتْ كَانَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ كثَّ اللِحْيَةِ ، تَمْلأُ عَارِضَيْهِ ، وَقَال أبو مَعْمَر : قُلْنَا لخَبَّابِ ابْنِ الأرَتِّ أكانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلم يَقْرَأُ في الظُّهْرِ وَالعَصْرِ ؟ قالَ : نَعَمْ ، فَقُلْنَا لهُ : بِمَ كُنْتُم تَعْرِفُوْنَ قِرَاءَتَهُ قَالَ : باضْطِرَابِ لِحْيَتِه .

رَوَاهُ البُخَارِيّ ، وسُئِلَ ابْنُ عُمَرَ رضْيَ اللهُ عَنْهُمَا : كيْفَ كُنْتُم تَعْرِفُونَ قِرَاءةَ رسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم في السِّرِّيَّةِ ؟ قالَ : باضْطِرَابِ لحْيَتِهِ .

وَعن عُثْمَانَ رضْيَ اللهُ عنه أنّ النبي صلى اللهُ عليه وسَلم كان يُخللُ لحيَتَه . رَواهُ ابْنُ مَاجَهْ والترمذي وصَحَّحَهُ ، فَهَذا يَدُلُ على عِظمِهَا وطُوْلِهَا ، وعن أنس أنّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم كانَ إذَا تَوَضّأ ، أخذَ كفاً مِن ماءٍ فأدْخله تَحْت حَنكِهِ ، فَخَلّلَ بهِ لِحْيَتُه ، وقَالَ « هَكذا أمَرنِي رَبّي » رَوَاهُ أبُو دَاوُدَ ، وعَنْ عَمْرِوِ بنِ شُعَيْبٍ رضْيَ اللهُ عنهُ ، عنْ أبيْهِ عَنْ جَدّهِ ، أنَّ النّبيّ صَلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « لا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ ، فإنّه نُورُ المسلمِ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشِيْبُ شَيْبَةً في الاسْلام إلا كتَبَ اللهُ لهُ بهَا حَسَنةً وَرَفَع لهُ بهَا درجَةً ، وحَطَّ عنهُ بهَا خَطِيْئةً » رَواهُ أحْمَدُ وأبُو دَاودُ .

وَالذِيْ يَحْلِقُها قَدْ كَرِهَ الشَّعْرَ الأَسْوَدَ ، فَضْلاً عَنْ الأَبْيَضِ الذِي هُوَ نورُ المَسلِمِ ، وقد أخْرَجَ مُسْلِمٌ في الصَّحِيْحِ مِن حَدِيْثِ قتادَةَ ، عن أنسِ بن مالكٍ ، قالَ : كنّا نكرَهُ أنْ يَنتِفَ الرَّجُلُ الشَّعْرَةَ البَيْضَاءَ مِن رأسِهِ ولِحْيَتِه .

وكانَ أبُو بَكرٍ رَضْيَ اللهُ عنه كَثُّ اللحْيَةِ ، وكَانَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَقِيْقَ اللِّحْيَةِ ، وَكَانَ عَليٌّ عَرِيْضَ اللحْيَةِ ، وَقَدْ مَلأتْ مَا بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ، وَقدْ قالَ صَلَّى اللهُ عَليْهِ وسَلم « عَليْكُم بسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِيْ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ ، وَإيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتُ الأمُورِ ، فَإنَّ كُلَّ مُحْدَثةٍ بِدْعَةٌ » الخ ومِنْ الأدِلّةِ على تَحْرِيْمِ حَلْقِ اللحْيَةِ ـ مَع مَا تقدَّمَ ، وَانَّهُ تَشَبُّهٌ بأعْدَاءِ اللهِ اليَهُودِ والنّصَارَىٰ ـ أنّهُ

أيْضَاً تَشَبُّهٌ بالنِّسَاءِ .

وَبالأمْرَدِ في عَدَمِ الشَّعْرِ بالوَجْهِ ، وَقَدْ وَرَدَ اللَّعْنُ للمُتَشَبِّهِيْنَ مِنْ الرِّجَالِ بالنِّسَاءِ ، وَالمُتَشَبِّهاتِ منْ النِّسَاءِ بالرِّجَالِ ، في عِدَّةِ أحَادِيْثٍ تَقدَّمَتْ في فَصْلٍ مُفْرَدٍ لهَا .

وَأيْضاً فَحلْقُ اللحْيَةِ تَغْييْرٌ لِخَلْقِ اللهِ وَتَمْثِيْلٌ بالشَّعَرْ ، وَقَدْ وَرَدَ عَنْ ابْنَ عَبّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « مَنْ مَثَّلَ بالشِّعْر فليْسَ لهُ عَنْدَ اللهِ خَلَاقٌ » رَواهُ الطبراني . قَالَ أهْلُ اللغَةِ : مَثَّل بالشَّعْرِ : صَيَّرَهُ مُثْلَه ، بأنْ حَلَقَهُ مِنْ الخُدُودِ أوْ نَتَفَهُ ، أوْ غَيَّرَهُ بالسَّوادِ .

وَقَدْ عَمَّتْ هَذه البدْعَةُ في زَمَنِنَا ، وَانْتَشَرَتْ انْتِشاراً يُؤْلِمُ قَلْبَ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، فإنهُ اذا الْتَفَتَ إلىَ وُجُوه مَنْ حَوْلهُ مِنْ الرِّجَالِ وَجَدَ الأكْثَر مِنْهُم مُغيّراً لِمَا جَمَّلَهُ اللهُ بهِ ، وجَعَلهُ ـ لَوْ أبْقَاهُ ـ دَاعِياً إلىَ وَقارِهِ وَاحْتِرَامِه وَهَيْبَتِه ، ويَنْدُر جِدّاً أنْ تَرى وَجْهَ الْمُتأدِّبِ بآدَابِ الشَّرِيْعَةِ ، الذِي لا يَتعَرَّضُ لِلحَيتِه بحَلْقٍ ولا قَصٍّ وَلا نَتْفٍ ، ولا تَسْوِيدٍ للشَّعْرِ الأبْيَضِ ، عَليْهِ مَا زيَّنَهُ اللهُ بهِ مِنْ سِيْمَا الرُّجُولِةِ والوَقار حَيْثُ أبْقاهَا ، إذْ هُوَ بحَلْقِهَا يُزِيْلُ جمالَهُ الشاهد في بَقَائِها ويُنْفِقُ مالَهُ في حَلقِهَا وسَيُسْأل عَنْهُ يَومَ القِيَامَة ويَهدِمُ رُجُولَتَهُ ، ويُعْدِمُ هَيْبَتَه وَوَقارَهُ ، ويَرْضَى لِنفسِهَ أن يَعيشَ طُوْلَ حَيَاتِه مُتَشَبّهاً بأعْدَاءِ الاسْلامِ الافرَنْجَ ، فإنَّ حَلْقَها علامَتُهُم جميعاً في هَذا الزَّمَانِ كَما نُشَاهِدُ وأمَّا اعْفَاءُ اللحْيَةِ فَعلامَةُ المرْسَلينَ وأتْبَاعِهم وأحِبّائِهِمْ السَّائِرِيْنَ عَلى مِنْهَاجِهِمْ عِبَادِ الله الصَّالِحِيْنَ . نسألُ اللهَ أن يوفقنا لِسُلُوْكِ مِنهاجِهِم إنه القادِرُ على ذلك .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ : ثُمَّ تَأَمَّلْ لِمَ صَارَتْ المَرْأَةُ والرَّجُلُ إذَا أدْرَكَا اشْتَرَكا في نباتِ العانَةِ ثم يَنْفرِدُ الرَّجُلُ عَنْ المرْأةِ باللحِيْةِ ، فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لمَّا جَعَلَ الرَّجُلَ قَيِّماً عَلَى المرْأةِ ، وَجَعلهَا كالخَوَلِ وَالعَانِيْ في يَديْهِ ، مَيَّزَهُ عَليْهَا بمَا فِيْهَ لَهُ المَهَابَةُ وَالعِزُّ وَالوَقارُ والَجَلالةُ ، لِكَمالِه وَحاجَتِه إلىَ ذلِكَ ، وَمُنِعَتْهَا المْرأة لِكَمَالِ الاسْتَمْتَاع بهَا وَالتَّلذُّذِ ، لِتبْقَى نَضارَةُ وَجْهِهَا وَحُسْنِهُ لا يَشِيْنُهُ الشَّعْرُ . انْتَهَى .

وَقالَ في الدّرِّ المُخْتَارِ وَأَمَّا الأخْذُ مِنْهَا وَهِيَ دُوْنَ القَبْضَةِ كَمَا يَفْعَلُه بَعْضُ المغَارِبَةِ وَمُخَنَّثَةِ الرِّجَالِ فلَمْ يُبحهُ أحَدٌ ا هـ وَرَدَّ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ رضْيَ اللهُ عنه وَابْنُ أبي لَيْلىَ قاضِيْ المدِيْنَةِ شَهَادَةَ مَنْ كَانَ يَنْتِفُ لِحْيَتَهُ وَالحَلْقُ أعْظمُ بكثِيرٍ ، لأنَّه لا يُبْقِي شَيْئاً مِنْهَا .

وَقَال أبُو شَامَة وَقَدْ حَدَثَ قَوْمٌ يَحْلقِونَ لِحَاهُمْ وَهُوَ أشَدُّ مِمَّا نُقِلَ عَنْ المَجُوسِ مِنْ أنَّهُم كانُوا يَقُصُّونَها وَقَال في التَّمهْيِدِ وَيَحْرُمُ حَلْقُ اللحْيَةِ ولا يَفْعَلهُ إلاَّ المُخَنَّثُونَ مِنْ الرِّجَالِ ا هـ .

وفِي اللحْيَةِ خِصَالٌ نَافِعَةٌ : أوّلاً مُخَالَفَةُ المشْرِكِيْنَ .

ثانياً تَمْيْيزُ الرَّجُل عَنْ المَرْأةِ : ثالثاً : تَمييزُ الرَّجُلِ عَنْ الصَبّيّ وَتغطية ما في منبتِهَا مِن تشويه أو تَثنٍ لا سيَّما في الكِبَر رَابِعاً تَعْظِيْمُ الرَّجُلِ الذِيْ يُعْفِيْها وَتَوْقِيْرُه . خامِساً : أنّ إعْفَاءَها مِنْ سُنَن المرْسَلِيْنَ . سَادِساً أنهُ يُنْظَرُ إلىَ مُعْفِيْهَا بعين التعظيم والأجْلال وَالتّقْدير . سَابِعاً : تَقْديْمُ مَنْ يُعْفِيْهَا عَلَى الجَماعَةَ وتَعْقيْله وَالسلامَة من تضييع قِطعةٍ مِنْ العُمرِ في حَلقِها أو قصِّها ثامِنا : صِحّة إِمَامَتِه بالجَماعَةِ . تاسِعاً : إبْعادُه

عَنْ مُشَابَهَةِ النُّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ، وَاليَهُودِ وَالنَّصارى والمَجُوسِ والمَخَنَّثِيْنَ .

وَوَصَفَ بَعْضُ بَنِيْ تَمِيْم من رَهْطِ الأَحْنَفِ بن قَيْسٍ ، قالَ : وَدِدْت أنَّا اشْتَرَيْنَا لِلأَحْنَفِ لِحْيَةً بعِشْرِيْنَ ألفاً ، فَلَمْ يَذْكُرْ حَنَفَه ولا عَوَرَهُ ، وَذكر كَرَاهِيَةَ عَدَمَ اللحْيَةِ ، لِإِنَّ مَنْ لا لِحْيَةَ لَهُ يُرى عِنْدَ العُقَلاءِ نَاقِصاً ، وَكَانَ الأَحْنفُ عَاقِلاً حَلِيْماً ، يُضْرَبُ بهِ المثَلُ في الحِلْمِ ، وَذُكِرَ عَنْ شُرَيْحٍ القَاضِيْ ، قالَ : ودِدْتُ أنَّ لِيْ لِحْيَةً بعَشَرةِ آلافِ دِرْهَمٍ وَأهْلُ زَمننا بَعْضُهُم يَودُّ لَوْ عَدِمَهَا وسَاق آلافاً مِنْ الوَرِقْ وَلا تُفِيْدُ مَعَهُ النَّصائِحُ مَهْمَا أُيِّدَتْ بالآيَاتِ وَالأحادِيْثِ ، وَذكرَ العُلَماء أنَّ في اللحْيَةِ إذا أزِيْلَتْ بالكُلِيّةِ وَلمْ تَعُدْ الدِّيَة كَامِلةً ، وَهؤلآءِ المُجَاهِرُونَ بهَذه المعْصِيَةِ العَظِيْمَةِ ، المعَاكِسُونَ لهَدْيِ المُصْطَفى صلى اللهُ ليه وسلم في إبْقَائِهَا وَإكْرَامِهَا ، المُتَشَبِّهُونَ باليَهُودِ وَالنَّصارى في حَلْقِهَا ، يَروْنَ الجَمالَ وَالتَّمدُّنَ بالقَضاءِ على أعْظَمِ الفَوارِق بَيْنَ الذَّكر والأُنْثى وَهُوَ اللحْيَةُ عَكْسُ رَأيْ أهْل الدِّيْنِ والصَّلاحِ ، قالَ اللهُ تَعالى ﴿ أفمَنْ زُيِّنَ لهُ سُوْءُ عَملِهِ فرآه حَسناً ﴾ .

وَأَكْثَرُ حَالِقِي لِحَاهُمْ وَصَلَ بهم التَّشَبُّهُ إلَى حَدِّ أنْ أَبْقَوا شَوارِبَهُم وَاقِفَةً لَيْسَ فِيْهَا قَصِيْرٌ ، وَكأنَّهُم بفعْلِهِمْ هَذا يُعَانِدُوْنَ المُصْطَفى صلى اللهُ عليه وسلم وَيُعَاكِسُونَهْ ، حَيْثُ أنَّهُ يَأْمُرُ بابْقَاءِ اللِّحى وَاحْفَاء الشَّوارِبَ ، وَزِيادَةً على هَذا يَجْعَلُون مَا يُسَمَّى بالتَّـوالِيْت وَيفْرِقُونه ويُكـدِّدونَهُ ، وبَعْضُهُم يَزيْدُ وَيُخنَفِسُ ، فهَلْ هَذا التَّشَبُّهُ وَالتَّتبُّعُ لِسَفَاسِف الأخلاق إلّا مِنْ الانتِكَاسِ وَعمى البَصِيرة والتّقليدِ الأعمىَ ولا يفهمُ أنَّ هذَا إزالةُ للجَمالِ وَالرُّجُولةِ وَالهَيْبَةِ وَالوَقارِ وَالكَمالِ ، نَعُوذُ باللهِ مِنَ الانتِكَاسِ وَهذا مِنْ نَتِيْجَة تقْلِيْد الأجانِب ، وَلهذا ترَى كثِيْراً من النّاسِ أهْمَلُوا أمْرَ

الذين وَاسْتَهانُوا بحُقوقِه ، وَعَبَثُوا بواجَباتِهِ وَانْتَهكَوا حُرُمَاتِ اللهِ ، وَلَمْ يُبَالُوا بارْتِكَابِ ما لا يَرْضَاهُ الشَّرْعُ مِنْ الشُّرُور وَالمنْكَراتِ وَالقَبائِحِ ، سَائِرٌ كلٌّ مِنْهُم وراءَ شَهْوَتِهِ وَهَواهُ ، ونفْسِهِ الأمَّارَةِ بالسُّوءِ .

قالَ تَعَالى ﴿ ومَنْ أضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغَيْرِ هُدَى مِنْ اللَّهِ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِين ﴾ وقال تعالى ﴿ أفمن زُيِّنَ لَهُ سُوْءُ عَمَلِهِ فرآه حَسَنَا ﴾ وَيَا لَيْت أَنَّهمُ قلدوا الأجانِبَ فِيْمَا يُفِيْدُ وَيَنْفَعُ مِنْ الصِّنَاعَاتِ .

وَكلٌّ مَا يُـرَقِّيْ شَؤُونَهُم ، مِنْ الفُنُونِ التِي تَعُـودُ إلى مَصْلَحَةِ الاسْلامِ وَالمُسلِمْينَ ، لكِنْ قلّدُوهُم فِيْمَا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ ، في حَلْقِ اللِّحَى وشُرْبِ الدّخانِ ، ولَعِبِ القِمَارِ والمسكراتِ ، والرِّبَا في البُنُوكِ وغيرَها ، وفي التأمِيْناتِ ، وفي الملاهِي بأنواعها ، وفي التَّصْوِيْرِ والتَّبَرُّجِ والتَّهتُك واللَّعِب بالكُرَةِ ، وضَيَاعِ العُمْرِ عندَ المِذيَاعِ والتَّلفِزْيُونِ والسِّيْنَماءِ ، وسَائِر أنْـوَاعِ المُحَرَّمـاتِ التي قَضَتْ على العُمُر والـوَقْتِ والمـالِ والأخلاقِ ، فيَا للأسفِ عَلى ذِهابِ العُمْرِ النَّفِيْسِ الذي لا قِيْمَة لَه ولا خَطرَ ، ولا يُعَادِلُهُ جَوْهَرٌ ولا ذَهَبٌ ولا فِضَّةٌ ولا دُرٌّ ولا مُرْجَان ، ولا لُؤلؤ ولا عقيانٌ عِندَ الملاهِي والمُنْكَرَاتِ التِي سَوفَ يَعُضُونَ أيْدِيَهُمْ على ضَيَاعِ الوقتِ عندها إذا نُوْدُوْ الْلوُقوفِ بَينَ يَدَي الْعَزِيزِ الجبار.

شعرا :

أعـوُذُ بربِّ العَـرشِ مِن كُلِّ فِتْنَةٍ
وَأسَـألُـهُ عَـفْـواً لِكُـلِّ خَـطِيئَـة
وحفْـظاً لِـدِيْني ثمُ دُنْيَـايَ ثم مَـا
أُكِنُّ ومَـا أُبْـدِيـهِ مَعْ حُسْنِ نِيَّـةِ

فَـأحْـيَـا مِـحِـبًّـا لِلنَّـبي وآلِـهِ
وأَصْحَـابِـهِ في خَيْـرِ هَـدْيٍ وسُنَّـةِ

فمِنْ هَدْيِ خيرِ الْخَلْقِ إِعْفَـاءُ لِحْيَةٍ
ومِنْ هَـدْيِـهِ يـا صَـاحِ لُبْسُ لِعِمّـَةِ

وقـد جَـاءَ أقْـوامٌ عُتَـاةٌ تَجَـاسَـرُوْا
على هَـدْمِ أعْلامِ الهُـدَى بِوَقَـاحَـةِ

ويَـالَيْتَهَمُ لمَّـا عَن الحَق أَعْـرَضُـوا
بـأفْعَـالِهِم مَـا عَـارَضُـوا بَصَـراحَـةِ

هُمُ مَثّلوُا مِن جَهْلِهِم بُـوجُـوهِهِمْ
لقَـدْ بلَغُـوا في ذَاكَ حَـدَّ الشَّنَـاعَـةِ

أقُـولُ لِمَنْ أمْسَى عن الدِّيْنْ نَـاكِبـاً
مُعَـانِـدَ أعْـلامَ الهُـدَى لِلشِـرِّيعَـةِ

يُجَـاهِـرُ في نُكْـرٍ ويُبْـدِيْ تَشبُهـاً
بـأعْـدَاءِ دِينٍ يـا لَهَـا مِن خَسَـارَةِ

يُـمَثِّـلُ فـي وَجْـهٍ بحَلْقِ لِلِحْـيَـةِ
لعَمْـرْي لقَـدْ سَـاوَى لِـوَجْـهٍ بِعَـانَـةِ

فـأصبَح مِنْـهُ الـوَجْـهُ أُسْتـاً مَشـوَّهـاً
لَدَى كُلِّ ذِيْ عَقْـلٍ بأقْبَـحِ صُوْرَةِ

تَـعَـوّدَ هَـذَا الخُـلْقَ طَبْـعـاً لِأنَّـهُ
يُـلائِمُ مـا يَعْتَـادُهُ مِن خَـلاَعَـةِ

«فَأُفٍ عَلَى مَن ضَيَّعُوا هَدْيَ دِيْنِهِمْ
وساروا على نَهْجِ العِدا في الطِرِيقةِ»

وبالتالي فلو لم يَكن في حَلِقها إلاّ أنَّهُ اعِترَاضَ عَلى حِكمةِ اللهِ حيث جَعَلها مِيزَةً للرَّجُلِ عنَ الأنثى ثانياً أنَّ مِن نواقِضِ الاسلامِ كَرَاهةَ ما جاء عن اللهِ أو عن رسولِهِ ويُخشى على حالِقِهَا مِن ذلكَ . ثالثاً أنَّ حَلِقَها مَعْصِيَةِ لِله ولرسُولِهِ لقولَه تعالى مَن يُطِع الرَسُول فقد أطاع اللهَ وقد أَمَرَ الرسُولُ بإعفائِها رابعاً أن حَلقَها تَمْثِيلٌ بالشعرِ وتقدَمَ حديثُ مَنَ مَثَّلَ بالشعرِ فليسَ لهُ عندَ اللهِ خلاقٌ خامساً أنه تَشَبُّهٌ باليَهُودِ سادساً أنه تَشَبُّهٌ بالنَّصَارَى سابعاً أنه تَشَبُّهٌ بالمَجُوس . ثامناً أنه تشبهٌ بالنَساءِ تاسعاً أنه تَشَبُّهٌ بالمُرْدِ عاشراً أَنه دَليل على أن حَالِقَها يَمِيْلَ إلى غَيْرِ أمتَّهِ . الحادي عَشَر أَنَّ مَنْ حَلَقَها أَو قَصَّ منها لِرِضَاء الزَّوْجَةِ أو الزُّمَلاَءِ مُلْتَمِسٌ رضا الناسِ بِسَخَطِ اللهِ لِأَنَّ مَنْ عَصَى أَمْرَ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم فقد عَصَى الله.

موعظة

عِبَادَ اللهِ مَا بَالُ الكَثِيْرِ اليَوْمَ لا يَسْمَعُونَ ، وَإِذَا سَمِعُوا لا يَنْتَفِعُونَ ، أَفي آذانِهِم صَمَمٌ ، أَمْ هُمْ في الأَمْرِ مُتَهاوِنُوْنَ، وَلأيِّ شَيْءٍ يَجْتَمِعُونَ ، وَيَقُومُ فِيهِمْ الخُطَبَاءِ المُجِيْدُوْنْ ، وَالوُعَّاظُ المُبَلغُونَ ، وَيُذَكِّرونَهُمْ أَيَّامَ اللّهِ فلا يَخْشَعُ الوُعَاظُ وَلا المُوَعَّظُونَ ، وَيُرَغِّبُونَهم في الخَيْـرِ فلا يُسَارِعُونَ ، وَيُنْذِرُونَهُم عَوَاقِبَ السُّوْءِ فلا يَتَأَثَّرُونَ « فَسُبْحَانَ الذِيْ بَيـده مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيهِ تُرْجَعُونَ » لَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ إذا وَعَظُوا تَأَثَّرَ المُستمِعُ لَهُمْ تـأثـراً عَـظِيْمـاً ، وفَارَقَ مَـا عِنْـدَهُ مِنْ المُنْكـرَاتِ ، وَالمُحَرَّمَاتِ ، وَفَارَقَ مَنْ أَصرَّ عَلَيْهَا مِنْ أَقَارِبِهِ ، وَأَوْلَادِهِ ، وَإِخْوَانِهِ ، وآبَائِهِ ، وَجَدَّدَ تَوْبَة نَصُوْحَاً ، عَمّا سَلفَ لـهُ مِنْ الأَعْمَالِ ، التِيْ لا يَرْتَضِيْها الدِّيْنَ الاسْلامِيّ ، فَأَيْنَ أُوْلَئكَ مِنْ هَؤلآءِ الخَلَفُ ، الذِيْنَ ضَيَّعُوا

تَعالِيْمَ الدِّيْنَ الاسْلامِي ، وَضيَّعُوا العَمَل بهِ ، وتَركُوا الانْقَيادِ لِكِتَابِ الله ، وَسُنَّةِ رَسُولِه صَلَّى اللهُ عليه وسَلم ، تَأمَّل كيْفَ ترى أكثرهَم أضاعُوا الصَّلاةَ ، وَعَطَّلوا الأحْكَام، وتَسَاهَلوْا بأمْرِ الحَرام ، يَمُرُّوْنَ بالمساجدَ ، وَقْتَ الصَّلاةِ ، فلا يُعِيرونْهَا أيَّ اهْتِمَام أمَّا الملاهِيْ وَالمُنْكَراتِ فإليْهَا يُسْرِعُونَ وعَليْهَا يَعْكُفُون وَإلَى ما فِيْهَا مِنْ الأغَانِيْ وَالمجُونِ والسُّخْفِ يَتَسابَقُونَ فإنّا للهِ وَإنّا إليْه راجِعُونَ ، أيْنَ الخوفُ مِنْ الجَبَّارِ ، أيْنَ الحَيَا مِنْ فَاطِرِ الأرضِ وَالسَّمواتِ ، أيْنَ المُرؤةُ وَالاعْتِصَامُ بالقُرْآن ، ومَا كانَ عليْهِ آباؤكمُ وَأجْدادُكُم العُبَّاد الكِرَامُ ، الذِيْنَ كانَتْ المَسَاجِدُ تغُصُّ بهِمْ شُيُوخاً وشُبَّانا ، وَكانَتْ تَعُجُّ بأصْواتِهم تَسْبِيْحاً ، وَتحْمِيْدا وتَهْلِيْلاً ، وَتكْبيرا ، وَاستغْفَاراً ، وقُرْآناً ، وكَانوا يَؤْمُونَ المساجَد قَبْلَ الآذانِ زُرَافَاتٍ وَوَحْدانَا ، ولاَ يَتَخَلَّفُ مِنْهُم إلا مَعْذُورٌ ، إمَّا مَرْيضٌ أو غَائِبٌ ، أو نَحْو ذلِكَ ، وكَان المارُّ بِبُيُوتِهم لَيْلاً يَسْمَعُ زَجَل التسبيح ، والتَّهْلِيْل ، وَالبُكَاءِ والأنِينَ والتَّضرُّعِ إلىَ بَدِيْعِ السَّمَواتِ وَالأرْضِ ، وَالألحَاحِ بدُعَائِهِ ، وَالالتِجَاءِ إليْهِ وَالانَابَةِ ، عَكْسُ مَا عَليْهِ هؤلآءِ الخَلَفِ ، الذِيْنَ صَدَقَ عليْهِمْ قَوْلُ اللهِ تَعالَى ﴿ فَخَلفَ مِنْ بَعْدِهم خَلْفٌ أضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَبَعُوا الشَّهواتِ فَسوْفَ يَلقَونَ غيّا ﴾ الذِيْنَ إنْ بَحَثْتَ عَنْهُم في الليْلِ ، وَجَدْتَهُم حَوْلَ الملاهِيْ وَالمُنْكَراتِ ، مُتَربِّعْينَ أمَامَ التّلفِزْيُونِ ، وَغِنَاءِ المُطْرِبْيَن ، وَإنْ بَحَثْتَ عَنْهُم في صلاةِ الفَجْرِ وَجَدْتَهُم في فُرُشِهم ، إثر سَهَرِهِم حَوْلَ تِلْكَ المُنْكَراتِ ، وَانْ بَحَثْتَ عَنْهُم وَقْتَ صَلاةِ الظهْر ففِي شؤون الدُّنْيَا ، ومَا يَتَعَلَّقُ بهَا ، وَإنْ أرَدْتَهُم في صلاةِ العَصْرِ ، وَجَدْتَ بَعْضَهُم عِنْدَ الكُورَةِ ، وَالبَعْضَ عِنْدَ التّلفِزْيُون ،وَالبَعْض عِنْدَ المذْيَاع ، وَأغَانِيْه وَملاهِيْهِ ، وَإنْ سَألت عَنْهَم وَقْتَ صلاةِ المَغْرِب ،

وَجَدْتَ بَعْضَهُم يَمْشِيْ مُتردداً،والبَعْضُ في المَلْعَب ، وَالبَعْضُ عِنْدَ التلفِزْيُونِ، أوِ المذْيَاع، وَأمّا العِشَاءُ الآخِرَة فَتِلْكَ هُمْ فيها أَقْسَامٌ اكثَرُهم حَوْلَ التّلفِزْيون أو في الأسْواقِ ، أو يَلْعَبُونَ ورَقَةً ، أو نْحو ذَلكَ مِنْ المُنْكَراتِ وَهَكذا قَتلوا أوْقَاتَهُمْ الثَّمِيْنَةَ ، وَضَيَّعُوهَا، وَقَضَوْا عَلَى مُسْتَقْبَلِهِمْ ، فَإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ رَاجِعُونَ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّة إلَّا باللّهِ وَاللهُ أعْلَمُ بِمَا أرَادَهُ بعِبَادِهِ ، قَالَ تَعَالى ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ وَالبَحْرِ بمَا كَسَبْت أيْدِيْ النَّاس لِيُذِيْقَهُم بَعْضَ الذيْ عَمِلُوا لَعلَّهُم يَرْجِعُون ﴾ وَالحالة هَذِهِ مُخِيْفَة لِذَوِيْ العُقُولِ وَالفُهومِ ، لا سِيَّمَا وَقد تَوالتْ أسْبَابُ الهَناءِ وَالرَّاحَةِ ، وَالسُّرُورِ ، وَالاطْمِئنَانِ ، وَقَدْ قِيْلَ إذا رَأيْتَ اللهَ تَعالَى أنْعَمَ على عَبْدٍ وهُو مُقِيْمٌ على مَعْصِيَته فَاعْلَمْ أنَّهُ مُسْتَدرَجٌ وَرَوى عُقْبَةُ بنُ عامرٍ أنَّ رسُول الله صلى الله عليه وسلم قالَ إذا رَأيْتَ اللهَ يُعْطِيْ العَبْدَ مَا يُحِبُّ وَهُو مُقِيْمٌ على مَعْصِيَتِهِ فإنَّما ذلكَ اسْتِدْرَاجٌ ثُمَّ تَلاَ ﴿ فَلَما نَسُوا مَا ذُكِرُوا به فتَحْنا عليهم أبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إذَا فَرِحُوا بمَا أوتُوا أخَذناهُم بغْتَةً فاذا هم مُبْلِسُونَ ﴾ وَقال قتادةُ ما أخذَ اللهُ قَوْماً إلاْ عِنْدَ سَكَرتِهم وغِرّتِهم ، ونِعْمَتِهم ، فلا تَغْتَرّوا باللهِ ، فإنَّهُ لا يَغترُّ بالله إلا القَومُ الفاسِقُونَ ، نسْألُ اللهَ أن يُوْقِظ ولاتَنا فَيَأخْذُوا على أيْدِيْ السُّفَهَاءِ مِنَّا ويُزيْلَ مَا حَدَث مِنْ هَذِهِ المنْكَراتِ ، وأنْ يُوَفقنا وَجَمِيْع المُسلِمين لطاعته ، ويتوفَّانا مُسْلِمْينَ ، وَيُلحِقَنا بعبَادِهِ الصَّالِحْينَ ، ويَغْفِرَ لنَا ولوَالِديْنَا وَلجميع المسلمينَ ، ويَرْحَمنا برحْمَتِهِ أنَّهُ أرْحَمُ الرَّاحِمين ، وصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمْعَيْنَ .

فصل في الحثّ عَلَى صِيَانَةِ الوَقْتِ

وَصَرْفِهِ فِيْمَا فِيْهِ النفْعُ مِنْ صَلاَةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍ وتَسْبِيْحٍ وَتَهْلِيْلٍ وَتَكْبِيْرٍ، وَسَائِرِ أنوَاعِ القُرُبَاتَ لِلّهِ، التي هي عَمَارَة بَيْتِهِ الذي سَيَسْكُنُهُ طَوِيلا.

وَمِمَّا يَتَأَكَّدُ اجْتِنَابُهُ وَالتَّحْذِيْرُ مِنْهُ فِي رَمَضَانَ وَغَيْرِهِ الجُلُوسُ فِي المَجَالِسِ التِيْ هِيَ كَفِيْلَةٌ بالخُسْرَانِ وَالنَّدامَة ، كَمَجَالِسِ آلاتِ اللهَوِ مِنْ الأسْطُوانَاتِ وَالمَذْيَاعِ وأعظَمُ مِنْ ذَلِكَ السِّيْنَما وَالتّلْفِزْيُونَ والفديو والكُرَة.

أمّا المِذْيَاعُ فلأنّهُ آلةُ لَهْوٍ مُحَرَّم ، لِدُخُولِهِ في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِيْ لَهْوَ الحَدِيْثِ ﴾ الآيَة وَقَدْ فَسَّرَ لَهْوَ الحَدِيْثِ ، كَثِيْرٌ مِنْ السَّلَفِ ـ مِنْ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِيْنَ ـ بالغِنَـاءِ وَالمَزَامِيْـر ، وَفَسَّرَهُ بَعْضُهُم بالأسَاطِيْرِ وَالقَصَصِ مِنْ أخْبَارِ مُلُوكِ الأعَاجِمِ وَالرُّوْمِ ، وَبَعْضُهُم فَسَّرَ لَهْوَ الحَدِيْثِ بِكُلِّ بَاطِلٍ يُلْهِي وَيُشْغِلُ عَن الخَيْرِ ، فَإِنْ فُسِّرَتْ هَذِهِ الآيَةِ بالغِنَاءِ وَالمَزَامِيْرِ فَهُو رَأْسُ الملاهي كُلِّها ، وإنْ فُسِّرَتْ بِمَا يَجْمَعُ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ بَاطِلٍ يُلْهِي وَيُشْغِلُ عن الخَيْرِ فَهُوَ الجَامِعُ لِذَلِكَ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ الوَصْفِ ، ومِنْ المَعْلُوْمِ لَدَى كُلِّ ذِي عَقْلٍ سَلِيْمٍ مُنْصِفٍ أنَّ الرَّادْيُو المَقْصُودُ الأصْليّ مِنْهُ اللهْوُ وَالغِنَاءُ ، والاشْغَالُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ .

وفي المِذْيَاعِ يُجْمَعُ بَيْنَ كَلاَمِ اللهِ والغِنَاءِ ، وهَذَا مِنْ أَعْظَمِ التَّنَقُّصِ وَالامْتِهَانِ لِكِتَابِ اللهِ ، ومن جِهَةٍ أخْرَى فَهُوَ اسْتِهْزَاءٌ وَاسْتِخْفَافٌ بِكِتَابِ اللهِ وقَدْ قالَ جَلَّ وَعلاَ وَتَقَدَّسَ ﴿ وَقَد نَزَّلَ عَلَيْكُمْ في الكتابِ : أَنْ إذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكفَرُ بها ويُسْتَهْزأُ بِهَا فَلا تَقعُدُوا معهم ﴾ وَعَدَمُ

تَنْزِيْهِ كِتَابِ اللهِ عَن مَزَامِيْرِ الشَّيْطَانِ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ وَأقبَحِه، وَأجْورِ الجَوْرِ وَأشْنَعِهِ وربما أغْلِقَ المذاعَ كراهةً للقُران وهَذَا رِدَّةٌ قال تعالى ﴿ذلكَ بأنَّهُمْ كرِهُوا ما أنْزَلَ اللهُ فأحْبَطَ أعمالَهُم﴾.

قَالَ ابْنُ القَيّمِ رَحِمَهُ اللّهُ في كِتَابِهِ إغَاثَةُ اللهْفَانِ : وَأَمَّا سَمَاعهُ أيْ الغِنَاءُ ، مِنْ المَرْأةِ الأجْنَبِيَّةِ أوِ الأمْرَدِ ،فَمِنْ أعْظَمِ المُحَرَّمَاتِ ، وَأشَدِّهَا فَسَاداً لِلدِّيْنِ .

قَالَ الشَّافِعِيّ رَحِمَه اللهُ : وَصَاحِبُ الجَارِيَةِ إذَا جَمَعَ النَّاسَ لِسَمَاعِهَا فَهُوَسَفِيْهٌ ، تُرَدُّ شَهَادَتُهُ ، وَغَلَّظَ القَوْلَ فِيْهِ ، وَقَالَ : هُوَ دِيَاثَةٌ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ دَيُّوثاً قَالَ القَاضِيْ أبُو الطَّيبْ وَإنَما جُعِلَ صَاحِبُهَا سَفِيْهاً لِأنَّهُ دَعَا النَّاسَ إلى البَاطِلِ وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إلى البَاطِلِ كانَ سَفِيْهاً فَاسِقاً ، قُلْتُ فَكَيْفَ لَو رَأىَ الرَّادْيُو ، وَمَا يَأْتِيْ مِن الخَلاَعَةِ وَالغِنَاءِ ، وَالمنْكَرَاتِ العَظِيْمَةِ ، التِي أنبَتَتْ النّفَاقَ ، وَمَكّنَتْهُ من قُلُوبِ الأولادِ وَالشَّبَابِ وَالكُهُولِ وَالشُّيُوخِ ، إلا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ ، وَكَذَلِكَ لَو رَأىَ التّلْفِزْيُونَ أ وَالسِّيْنَمَا أوالمَجلاتِ الخَلِيْعَةِ ، ومَا فِيْ ذَلِكَ مِنَ المَفاسِدِ والصُّوَرِ والمُنْكَرَاتِ والشرورِ والخلاعَاتِ فَياللهِ للمُسْلِمِيْنَ .

وقَالَ : كَانَ الشَّافِعِيّ يَكْرَهُ التَّغْبِيْرَ ، وَهُوَ الطَّقطَقَةُ بالقَضِيْب ، ويَقُولُ : وَضَعْتهُ الزَّنَادِقَةُ لِيُشْغِلُوا بِهِ عَنْ القُرْآنِ قَالَ : وأمّا العُودُ والطُّنْبُورُ وَسَائِرُ المَلاَهِيْ فَحَرَامٌ ، وَمُسْتَمِعُهُ فَاسِقٌ .

قَالَ ابْنُ القَيّمِ : وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ رُقيَّةَ الزّنَا : أَيْ الغِنَاءُ ، فَهُوَ اسْمُ مُوافِقٌ لِمَسَمَّاهُ وَلَفْظٌ مُطَابقٌ فَلَيْسَ في رُقْيَهِ الزّنَا أَنْجَعُ مِنْهُ ، وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ مَعْرُوْفَةٌ عَنْ الفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ ، قَالَ ابْرَاهِيْمُ بْنُ مَحَمَّدِ المَرْوَزِيّ ، عَنْ

أَبِي عُثْمَانَ اللَيْثِيّ ، قَالَ قَالَ يَزِيْدُ بْنُ الوَلِيْدِ : يَا بَنِيْ أَمَيَّةَ إيَّاكُمْ وَالغِنَاءَ ، فَإِنَّهُ يُنَقِّصُ الحَيَاءَ وَيَزِيْدُ في الشَّهْوَةِ ، وَيَهْدِمُ المرُوءةَ ، وانهُ لَيَنُوبُ عَن الخَمْرِ ، وَيَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ السُّكْرُ ، فإنْ كنتُم وَلَا بُدَّ فاعِلُون فَجَنِّبُوهُ النِّسَاءَ فَإنَّ الغِنَاءَ دَاعِيَةُ الزِّنَا ، قَالَ : وَأخبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الفَضْلِ الأزْدِيّ قَالَ : نَزَلَ الحُطَيْئَةُ برجُل مِنْ العَرَبِ ، وَمَعَهُ ابنَتُهُ مُلَيكَةُ ، فَلَمَّا جَنَّ اللَيْلُ سَمِعَ غِنَاءً فقَالَ لِصَاحِبِ المَنزِلِ : كُفَّ هَذَا عنِّي ، فَقَالَ وَمَا تَكْرَهُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : إنَّ الغِنَاءَ مِنْ رَادَةِ الفُجُورِ ، وَلَا أُحِبُّ أنْ تَسْمَعَهُ هَذِهِ ، يَعْنِيْ ابْنَتَهُ ، فَإنْ كَففتَهُ وإلا خَرَجْتُ عَنْكَ ، ثُمَّ ذَكَرَ عَنْ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، قَالَ : كُنَّا في عَسْكَرِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ ، فَسَمِعَ غِنَاءً مِنْ اللَيْلِ ، فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ بُكْرَةً ، فَجِيْءَ بِهِمْ ، فَقَالَ : إنَّ الفَرَسَ لَيَصْهَلُ فَتَسْتَوْدِقُ لَهُ الرَّمَكَةَ ، وإنَّ الفَحْلُ لَيَهْدرُ فَتَضْبَعُ لَهُ النَّاقَةُ ، وَإنَّ التَّيْسَ لَيَنِبُّ فَتَسْتَحْرِمُ لَهُ العِنْزُ ، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَتَغَنَّى فَتَشْتَاقُ لَهُ المَرْأةُ ، ثُمَّ قَالَ : اخْصُوْهِمْ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ : هَذَا مُثْلَةٌ فَلَا يَحِلُّ فَخَلَّى سَبِيْلَهُمْ .

فَإذَا كانَ الشَّاعِرُ المَفْتُوقُ اللسَانُ ، الذِي هَابَتْ العَرَبُ هِجَاءَهُ ، خَافَ عَاقِبَةَ الغِنَاءِ ، وَأنْ تَصِلَ رُقْيَتُهُ إلَى حُرْمَتِهِ ، فَمَا الظَنُّ بِغَيْرِهِ ، وَلَا رَيْبَ أنَّ كُلَّ غَيُورٍ يُجَنِّبُ أهْلَهُ سَمَاعَ الغِنَاءِ ، كَمَا يُجَنِّبُهُنَّ أسْبَابَ الرِّيَبِ .

وَمَنْ طَرَّقَ أهْلَهُ إلَى سَمَاعِ رُقْيَةِ الزِّنَا فَهُوَ أعْلَمُ بالإثْمِ الذِي يَسْتَحِقُّهُ ، وَمِنْ الأمْرِ المَعْلُوْمِ عِنْدَ القَوْمِ أنّ المرأة إذا استَعْصَتْ على الرجل اجْتَهَدَ أنْ يُسْمِعَها صَوتَ الغِنَاءِ ، فَحِيْنَئِذٍ تَعْطِيْ اللَّيَانَ ، وَهَذَا لِأنَّ المَرْأَةَ سَرِيْعَةُ الانْفِعَالِ لِلأصْوَاتِ جِداً ، فإذا كَانَ الصَّوْتُ بِالغِنَاءِ كَانَ انْفِعَالُها مِنْ وَجْهَيْنِ ، مِنْ جِهَةِ الصَّوْتِ ، وَمِنْ جِهَةِ مَعْنَاهُ ، وَلِهَذَا قَالَ

النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنْجَشَةِ حَادِيْهِ «يَا أنْجَشَةُ رُوَيْـدَكَ رِفْقَاً بالقَوَارِيْرِ» يَعْنِي النِّسَاءَ ، فَإِذَا اجْتَمَعَ إِلَى هَذِهِ الرُّقيَةِ الدُّفُّ والشَّبَابَة والرَّقْصُ بالتَّخَنُّثِ وَالتَّكَسُّرِ فَلَوْ حَبِلَتْ المرأةُ مِنْ غِنَاءٍ حَبِلَتْ مِنْ هَذَا الغِنَاءِ . فَلَعَمْرُ اللهِ كَمْ مِنْ حُرَّةٍ صَارَتْ بِالغِنَاءِ مِنْ البَغَايا ، وَكَمْ مِنْ حُرٍّ أَصْبَحَ به عَبْدَاً لِلصِّبْيَانِ وَالصَّبَايا ، وَكَمْ مِنْ غَيُورٍ تَبَدَّلَ بِهِ اسْمَاً قَبِيحاً بَيْنَ البَرَايَا ، وَكَمْ مِنْ ذِيْ غِنىً وَثَرْوَةٍ أَصْبَحَ بِسَبَبِهِ عَلَى الأرْضِ بَعْدَ المَطَارِفِ وَالحَشَايَا ، وَكَمْ مِنْ مُعَافَى تَعَرَّضَ لَهُ فأمْسَى وَقَدْ حَلَّتْ بِهِ أَنْواعُ البَلاَيَا ، وَكَمْ أَهْدَى للمَشْغُوفِ مِنْ أشْجَانٍ وَأَحْزَانٍ ، فَلَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ قَبُولِ تِلْكَ الهَدَايَا ، وَكَمْ جَرَّعَ مِنْ غُصَّةٍ ، وأزالَ مِنْ نِعْمَةٍ ، وَجَلَبَ من نِقْمَةٍ ، وَذَلِكَ مِنْهُ مِنْ إِحْدَى العَطَايَا ، وَكَمْ خَبَّأَ لأَهْلِهِ مِنْ الآمٍ مُنْتَظَرَةٍ ، وَغُمُومٍ مُتَوَقَّعَة ، وَهُمُومٍ مُسْتَقبَلة .

قَالَ : وَأمَّا تَسْمِيَتُهُ مُنْبِتُ النِّفَاقِ فَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَـالَ : الغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ في القَلْبِ ، كَمَا يُنْبِتُ الماءُ الزَّرْعَ ، وَالذِّكْرُ يُنْبِتُ الأيْمَانَ في القَلْبِ ، كَمَا يُنْبِتُ الماءُ الزَّرْعَ ، فإنْ قِيْلَ : فَمَا وَجْهُ انْبَاتِهِ لِلنِّفَاقِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ المَعَاصِيْ ؟ قِيْلَ : هَذَا مِنْ أَدَلِّ شَيْءٍ عَلَى فِقْهِ الصَّحَابَةِ في أحْوالِ القُلُوبِ وَأعْمـالِها ، وَمَعـرِفَتِهِمْ بِأدْوِيَتِهـا وَأدْوَائِهـا ، وَأَنَّهُم هُمْ أطِبَّـاءُ القُلُوبِ ، دُوْنَ المنْحَرِفِيْنَ عَنْ طَرِيْقَتِهِم ، الذِيْنَ دَاوَوْا أمْرَاضَ القُلُوبِ بِأعْظَمِ أدْوَائِهَا ، فَكَانُوا كالمُدَاوِيْ مِنْ السُّقْمِ بالسُّمِّ القَاتِلِ ، وَهَكَذَا واللهِ فَعَلُوا بِكَثِيْرٍ مِنْ الأدْوِيَةِ التِيْ رَكَّبُوهَا أو بِأَكْثَرِهَا ، فَاتَّفَقَ قِلَّةُ الأطباءَ وَكَثْرَةُ المَرْضَى ، وَحُدوثُ أمْرَاضٍ مُزْمِنَةٍ لَمْ تَكُنْ في السَّلَفِ ، وَالعُدُولُ عَنْ الدَّوَاءِ النَّافِعِ الذِي رَكَّبَهُ الشَّارِعُ ، وَمَيْلُ المَرِيْضِ إِلَى مَا يُقَوِّي مَادَّةَ

المَرَض ، فَاشْتَدَّ البَلاءُ ، وَتَفَاقَمَ الأمْرُ ، وَامْتَلأَتْ الدُّوْرُ والطُّرُقُ وَالأَسْوَاقُ مِنْ المَرْضَى ، وَقَامَ كُلُّ جَهُولٍ يَطِبُّ النَّاسَ .

وقال : فَاعْلَمْ أنَّ لِلغِنَاءِ خَوَاصٌّ لَهَا تَأْثِيْرٌ في صَبْغِ القُلُوبِ بِالنِّفَاقِ وَنَبَاتِهِ كَنَبَاتِ الزَرْعِ بِالمَاءِ ، فَمِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ يُلْهِي القَلْبَ وَيَصُدهُ عَنْ فَهْمِ القرآنِ وَتَدَبُّرَه ، والعَمَلِ بِمَا فِيْهِ ، فَإِنَّ القُرْآنَ وَالغِنَاءَ لَا يَجْتَمِعَانِ في القَلْبِ أَبَداً ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّضَادِ فإِنَّ القُرْآنَ يَنْهَى عَنْ اتِّبَاعِ الهَوَى ، ويَأْمُرُ بالعِفَّةِ وَمُجَانَبَةِ شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَأسْبَابِ الغَيّ ، وَيَنْهَى عن اتبَاعِ خُطُوَاتِ الشيطَانِ ، وَالغِنَاءُ يَأمُرُ بِضِدِّ ذلكَ كُلِّهِ وَيُحَسِّنُهُ ، وَيُهَيِّجُ النُّفُوسَ إلى شَهَوَاتِ الغَيِّ ، فَيُثِيرُ كامِنَها ، ويُزْعِجُ قَاطِنَها ، وَيُحَرِّكُهَا إِلَى كلِّ قَبِيْحٍ وَيَسُوقُهَا إلى وَصْلِ كُلّ مَلِيْحَةٍ وَمَلِيْحٍ ، فهُو والخَمْرُ رَضِيْعَا لِبَانٍ وفي تَهْييجِهَا عَلَى القَبَائِحِ كَفرسَيْ رِهَانٍ ، فإِنَّهُ صِنْوُ الخَمْرِ وَرَضِيْعُهُ ، وَنَائِبُهُ وَحَلِيْفُهُ ، وَحَدِيثُهُ وَصَدِيْقُهُ ، عَقَدَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمَا عَقْدَ الإِخَاءِ الذِي لا يُفْسَخُ .

وَهُوَ جَاسُوسُ القُلُوبِ ، وَسَارِقُ المُروْءَةِ ، وَسُوْسُ العَقْلِ ، يَتَغَلْغَلُ في مَكَامِنِ القُلُوبِ ، وَيَطَّلِعُ عَلَى سَرَائِرِ الأفئِدَةِ ، وَيَدِبُّ إِلَى مَحلِّ التَّخييل ، فَيُثِيرُ ما فِيْهِ مِنْ الهَوَى وَالشَّهْوَةِ وَالسَّخَافَةِ وَالرِّقَاعَةِ وَالرّعُونَةِ وَالحَمَاقَةِ ، فَبَيْنَمَا تَرَى الرَّجُلَ وَعلَيهْ سِمَةُ الوَقَارِ ، وَبَهَاءُ العَقْلِ ، وَبَهْجَةُ الأيْمَانِ ، ووَقَارُ الإِسْلَامِ ، وَحلَاوَةُ القُرْآنِ ، فإذا سَمِعَ الغِنَاءَ وَمَالَ اليْه ، نَقَصَ عَقْلُهُ ، وَقَلَّ حَيَاؤُهُ وَذَهَبَتْ مُروءَتُه، وفارَقهُ بَهاؤُهُ ، وَتَخَلَّى عَنْهُ وَقَارُه ، وَفَرِحَ بِهِ شَيْطَانُه ، وَشَكَا إِلَى اللهِ إِيْمَانُه ، وَثَقُلَ عَلَيْهِ قُرْآنُهُ ، وَقَالَ : يَا رَبِّ لا تَجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَ قرآنِ عَدُوِّكَ في صَدْرٍ وَاحِدٍ . وَقَالَ في

النُّونِيَّةِ في سَمَاعِ أهْلِ الجَنَّةِ .

قـالَ ابنُ عباسٍ وَيُـرسَـلُ رَبُنـا
رِيْحـاً تَـهُـزُ ذَوَائِـبَ الأَغْـصَـانِ
فَتُثِيْـرُ أَصْـوَاتَـاً تَلَذُّ لِمَسْمَـعِ الْـ
إنْسـانِ كـالـنَّـغَـمَـاتِ بـالأَوْزَانِ
يَـا لَـذَةَ الأَسْمَـاعِ لاَ تَتعَـوَّضِي
بـلَذَاذَةِ الأَوْتَـارِ وَالـعِـيْـدَانِ
أَوْ مَا سَمِعْتَ سَمَاعَهُم فِيْهـا غِنَا
ءَ الحُـوْرِ بـالأَصْـوَاتِ والأَلْحَـانِ
وَاهـاً لِـذَيَّـاكَ السَّمَـاعِ فَـإنَّـهُ
مُـلِئَـتْ بِـهِ الأُذانِ بـالإِحْـسَـانِ
وَاهـاً لِـذَيَّـاكَ السَّمَـاعِ وطِيْبِـهِ
مِـن مِثْـلِ أَقْـمَـارٍ على أَغْـصَـانِ
وَاهـاً لِذَيَّـاكَ السَّمَـاعِ فَكَمْ بِـهِ
لِلْقَلْبِ مِـن طَـرَبٍ ومِن أشْجَـانِ
وَاهـاً لِذَيَّـاكَ السَّمَاعِ وَلَمْ أَقُـلْ
ذَيَّـاكَ تَـصْـغِـيْـراً لَـهُ بِـلِسَـانِ
مـا ظَنَّ سـامعُـه بِصَـوْتٍ أَطْيَبَ الْـ
أَصْـواتِ مِن حُـوْرِ الجِنـانِ حِسَـانِ
نحنُ النَّـواعِمُ والـخَـوالِـدُ خَيِّـراً
تٌ كـامِـلاتٌ الحُسْـنِ والإِحسَـانِ

لسَنَا نَمُوتُ ولا نَخَافُ ومالَنَا
سَخَطٌ ولا ضَغَنٌ مِنَ الأضْغَانِ
طُوبى لِمنْ كُنَّا لَه وكَذَاكَ طُوْ
بي لِلذَّي هُوَ حَظُنَا لَفْظَانِ
نَزِهْ سَمَاعَكَ إنْ أرَدْتَ سَمَاعَ
ذَيَّاكَ الغِنَا عَن هَذه الألْحَانِ
لا تُؤْثِر الأدْنى على الأعْلَى فَتُحْ
رَمَ ذَا وَذَا يَا ذِلَّةَ الحِرْمَانِ
إنَّ اخْتيَارَك للسَّماعِ النازلِ الْـ
أدْنَى على الأعلى مِن النُقْصَانِ
واللهِ إنَّ سَمَاعَهم في القَلْب والـ
إيمانِ مِثْلُ السُّمِّ في الأبْدَانِ
واللهِ ما انْفَكَ الذِي هُوَ دَأبُهُ
أبداً مِن الاشْرَاكِ بالرَّحْمٰنِ
فالقَلْبُ بَيْتُ اللهِ جَلَّ جَلالُه
حُباً وإخْلاَصاً مَعَ الاحْسَانِ
فإذَا تَعَلَّقَ بالسَّمَاعَ أصَارَهُ
عَبْداً لِكُلِ فُلاَنَةٍ وَفُلاَنِ
حُبُّ الكِتَابِ وَحُبُّ ألْحَانِ الغِنَا
في قَلْبِ عَبدٍ لَيس يَجْتَمِعَانِ
ثَقُلُ الكِتَابُ عَلَيْهُموا لَمَّا رَأوَا
تَقيْيدَهُ بشَرائعِ الإيمانِ

واللَّهْوُ خَفَّ عَلَيْهِمُ لَمَّا رَأوا
ما فيه مِن طَربٍ ومِن ألْحَانِ
قُوتُ النُّفوسِ وانَّمَا القُرْآنُ قُوتُ
القَلْبِ أنَّى يَسْتَوِي القُوتَانِ
ولِذَا تَرَاهُ حَظُّ ذِي النُّقْصَانِ كَالْـ
جُهَّالِ والصِبيانِ والنِّسوانِ
وألَذُّهُم فِيه أقلُّهُم مِن الْـ
عَقْلِ الصحيح فَسَلْ أخَا العِرْفَانِ
يَا لَذَّةَ الفُسَّاقِ لَسْتِ كَلَذَّةِ الْـ
أبْرَارِ في عَقْلٍ ولا قُرْآنِ

موعظة

عِبادَ اللهِ اعْتَادَ النَّاسُ أنَّ مَنْ طَلَبَ شَيْئاً مِنْ نَفائِسِ الدُّنْيا لا يَهْدَأ ولا يَنامُ ، بَلْ يَسْعَى لِلْوصُولِ إلَيْهِ ، لَيْلَهُ ، ونَهارَهُ ، سَعْيَ النَّشِيْطِ الهُمَامِ ، وَكُلمَّا سُدَّ في وَجْهِهِ بَابٌ ، قَرَع بَاباً آخَرَ ، وَانْ تَعدَّد الأبْوابُ ، كمَا هُوَ دَأْبُ الحَرِيْصِ المِقْدامِ ، وَكُلَّمَا نَظَرَ إلَى قَدْرِ مَا يَطْلُبُ هَانَ عَلَيْهِ السَّعْيْ ، وَما يلقَاهُ مِنْ مصَاعِبَ وَمتاعِبَ وَالآمٍ وَالعَجِيْبُ أنَّهُ لا يَمَلُّ ولا يَسْأمُ ، وَإنْ وَاصَلَ السَّعْيَ سِنِيْنَ، وَأعَجَبُ مِنْ ذَا أنّهُ لا يَنْثَنِيْ عَنْ مَطْلُوبِهِ ، وَإنْ مُسَّ شرَفُهُ وَأُهِيْنَ ، وَإنْ اسْتَصَعَبَ عليْهِ الوُصُولُ ، اسْتَعانَ بذوِيْ الوَجَاهَةِ المُحْتَرَمِيْنَ ، وَلا يَزالُ هَذا يَوْاصِلُ السَّعْيَ حَتَّى يَصِلَ مُبْتَهجاً إلى مَالَهُ مِنْ مَرامٍ . أنْتَ تَطْلُبُ الجَنَّةَ يا هَذا ولا نَفِيْسَ أنْفَسَ مِنْهَا لِإنَّها لا تَفْنَى وَلا تَبِيْدُ ، وَلأَنَّ لكَ فِيْهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ ، وَلذَّتْ عَيْنُكَ

دُوْنَ أيِّ تَقْيِيدٍ ، وَلأَنَّكَ خَالِدٌ فِيْهَا أبَداً دُوْنَ أنْ يُكدِّرَ ، بأيِّ مُكَدِّرٍ ، ذلِكَ العَيْشُ الرَّغِيْدُ فَهلْ شَمَّرْتَ عَنْ سَاقٍ وَسَعَيْتَ لِلْوُصُولِ إليْهَا ، كَمَا تَسْعَى فَقَطْ لِذَلكَ الفَانِيْ مِنْ الحُطَامِ ، المُشَاهَدُ أنَّكَ لا تَسْعَى لِتِلْكَ الجَنَّة وَلا يَخْطُرُ لَكَ السَّعْيُ إليْهَا عَلَى بَالٍ ، وَلوْ أنَّكَ سَاوَيْتَها في السَّعْي إليْها بأيِّ مَطْلُوبٍ دُنيَوِيّ لَكُنْتَ مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ ، ولَكِنْ يَا للأسَفِ لمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، وَالسَّعْيُ لِلجَنَّةِ لا يَكُوْنُ بالكَلامِ ، وَلا بالأمَانِيّ وَالأحْلامِ ، وَلكِنْ بصالِحَاتِ الأعْمَالِ ، وَهَلْ تَزَهَّدْتَ أنتَ في شَيْءٍ كَما تَزَهَّدْتَ في تِلْكَ الأعْمَالِ الفِخَامِ ، وَلِذَلِكَ أجْرَى اللهُ العَادة أنَّ مَنْ خَافَ شَيْئًا مِنْ مُؤْلِمَاتِ الدُّنيا يُبْعِدُ عَنْهُ وَيَفِرُّ ، كُلَّ الفِرَار ، وَيذْهَبُ هُدُوْءُهُ وَطَمَأنِيْنَتُهُ ، وَرُبَّمَا ذَهَبَ نَوْمُهُ اضْطِرَاراً لا اختِيَاراً وَلا يَطْمَئِنُّ بَعْضَ الاطْمِئنَانِ إلا إذَا احْتَرَسَ مِنْهُ بكلِّ مَا يَقْدِرُ عَليْه مِنْ أعْوَانٍ ، وَأنْصارٍ ، يَفْعَلُ كُلُّ ذَلِكَ لِئلاّ يَصِلَ إليْهِ منْ الأذى مَا يُكدِّرُ عليْه حَيَاتَهُ ، وَصفوهَا جهَنَّمُ يَا هَذَا أعْظَمُ مخُوْفٍ فَهلْ عَمِلْتَ الاحْتِيَاطَ لهَا كَمَا تَحْتَاطُ لِمُخَوِّفاتِ هذِهِ الدَّارِ .

الذِيْ يَتَبَادَرُ مِنكَ وَيظْهَرُ أنَّ إيْمَانَكَ بها ضَعِيْفٌ ، وَأنَّكَ لَمْ تَعْمَلْ أيَّ احْتِيَاطٍ لهَا ، فلوْ كَان ايْمَانُكَ قَوِيٌّ في قَوْلِهِ تَعالَى ﴿ وَجيْءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الانْسَانُ وأنَّى لهُ الذِّكْرَى ﴾ لَسَعْيَتَ جُهْدَكَ في الأعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، التِيْ تَحُولُ بَيْنَك وبَيْنَها وَلأزْعَجَك وأقْلَقَكَ وَلمْ تَهْنأ بنَوْمٍ ولا طَعَامٍ وَشَرابٍ ، وأمَامَك تِلْكَ العَقَباتِ ، شِعْراً :

وَكَيْفَ تَنَامُ العَيْنُ وهْيَ قَرِيْرَةٌ
وَلَمْ تَدْرِ في أيِّ المَكَانَيْنِ تَنْزِلُ

اللهُمّ أنقِذْنَا مِنْ دَرَكاتِنَا وَأيقِظْنَا مِنْ غَفَلاتِنَا ، وَألْهِمْنَا رُشْدَنَا ، ولا

وَأحْسِنْ بكرَمِكَ قصْدَنا ، وَاحْشُرنَا في زُمْرَة عِبَادِكِ المتّقِيْنَ ، وَألْحِقنا بعِبَادِكَ الصَّالِحْينَ ، واغْفِرْ لنا وَلِوالدِيْنا ولجَمِيْع المُسلِمْينَ برَحَمْتِكَ يَا أرْحمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلّى اللهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَعلى آلهِ وَصَحْبهِ أجْمَعِيْنَ .

فَصْلٌ

وَقَالَ بَعْضُ العَارِفْينَ : السَّمَاعُ يُوْرِثُ النِّفَاقِ في قَوْمٍ ، وَالتَّكذِيْبَ في قَوْمٍ ، وَالفُجورَ في قَوْمٍ ، وَالرُّعُونَة في قَوْمٍ ، وَأكثَرُ مَا يُوْرِثُ عِشْقَ الصُّورِ ، وَاسْتِحْسَانَ الفَواحِشِ ، وَادْمَانه يُثْقِلُ القُـرْآن عَلى القَلْبِ ، وَيُكَرّهُهُ إلى سَمَاعِهِ بالخَاصَّةِ ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ هَذا نِفَاقاً فَمَا لِلنِّفاقِ حَقِيْقَةٌ ، وَسِرُّ المَسْألةِ أنهُ قُرْآنُ الشَّيْطَانِ كمَا سَيَأْتِي ، فَلا يَجْتَمِعُ هُوَ وَقُرْآنُ الرَّحْمَنِ في قَلْبٍ أبَداً ، وَأيْضاً فَإنَّ أسَاسَ النِّفَاقِ أنْ يُخالِفَ الظَّاهِرُ البَاطِنَ ، وَصَاحِبُ الغِنَاءِ بَينَ أمْرَيْنِ : إمَّا أنْ يَتهَتَّكَ فيكُونُ فاجِراً ، أوْ يُظْهِرَ النُّسُكَ فيَكُونُ مُنَافِقاً ، فإنَّه يُظْهِرُ الرَّغْبَة في اللهِ وَالدَّارَ الآخِرَة ، وَقَلْبُهُ يَغلِيْ بالشَّهواتِ ، وَمَحبَّةِ مَا يَكْرَهُه اللهُ ورَسُولُهُ مِنْ أصْوَاتِ المَعازِفِ وَآلاتِ اللهْوِ ، وَما يَدْعُو إلَيْهِ الغِنَاءُ وَيُهَيجُه ، فقَلبُهُ بذلِكَ مَغْمُورٌ ، وَهُوَ مِنْ مَحبَّةِ مَا يُحِبُّهُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَكَراهَةِ مَا يَكْرَهُهُ قَفْرٌ وَهَذا مَحْضُ النِّفَاقِ .

وَأيْضاً فَإنّ الايْمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ الحَقِّ وَعَمَلٌ بالطَّاعَةِ وَهَذا يَنْبُتُ عَلَى الذكر وَتِلَاوةِ القُرْآنِ ، وَالنِّفَاقُ قَوْلُ البَاطِلِ وَعَملُ الغَيِّ ، وَهَذا يَنْبُتُ علىَ الغِنَاءِ ، وَأيْضاً فمِنْ عَلامَاتِ النِّفَاقِ قلة ذِكْر اللهِ ، والكَسَلُ عند القِيَامِ إلىَ الصَّلاةِ ، وَقَلَّ أنْ تَجدَ مفتوناً بالغِنَاءِ الَّا وهَذا وَصْفُه ، وأيضاً فإنَّ النِّفَاقَ مُؤسَسٌ عَلَى الكذِبَ ، وَالغِنَاءُ مِنْ أكذَبِ الشِّعْرِ ، فإنَّهُ

يُحسِّنُ القَبِيْحَ وَيُزينه ويأمرُ بهِ ، ويُقَبّح الحسَنَ وَيُزهِّدُ فيه ، وذلكَ عَيْنُ النِّفاقِ وَأيضاً فإنَّ النِّفَاقَ غِشٌ ومَكرٌ وَخِدَاعٌ ، وَالغِنَاءُ مُؤَسَّسٌ عَلى ذلكَ ، وأيْضاً فإنَّ المُنافِقَ يُفْسِدُ مِنْ حَيْثُ يَظنُّ أنهُ يُصْلِحُ ، كمَا أخْبَر اللهُ سُبْحانَه بذلك عَنْ المُنافِقْينَ ، وَصَاحِبُ السَّمَاع يُفْسِدُ قَلبَه وحَالَهُ ، مِن حَيْثُ يظُنّ أنهُ يُصْلِحهُ ، وَالمُغَنِّي يَدْعُو القلُوبَ إلى فِتْنَةِ الشَّهواتِ ، وَالمُنافِقُ يَدْعُوهَا إلى فِتْنَةِ الشُّبُهاتِ قالَ الضَّحاكُ : الغِنَاءُ مَفسَدةٌ لِلْقَلْبِ ، مَسْخطة للرَّبِّ ، وَكتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزيْزِ إلىَ مُؤَدِّبِ وَلَدِهِ : لِيَكُنْ أوّلُ مَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ أدَبكَ بُغضَ الْمَلاَهِي ، التِي بَدْؤها مِنْ الشَّيطَانِ وَعاقِبَتُهَا سَخَطُ الرّحْمَن ، فإنهُ بلغَنِي عَن الثّقاتِ مِنْ أهْلِ العِلمِ أنّ صَوْتَ المَعَازِفِ وَاسْتِمَاعَ الأغانِيْ ، وَاللّهْجَ بِهَا، يُنْبِتُ النِّفَاقَ في القَلْبِ ، كمَا يَنْبُتُ العُشْبُ على الماءِ ، فالغِنَاءُ يُفْسِدُ القَلْبَ ، وَإِذَا فَسَدَ القَلْبُ هَاجَ فيهِ النِّفَاقِ .

قالَ : وَأما تَسْمِيَتُه قُرْآنَ الشَّيْطَانِ . فمَأْثُورٌ عَنْ التَّابعِيْنَ . وَعَن أبي أُمَامَة عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم قَالَ « إنَّ ابْلِيْسَ لَمَّا أُنْزِلَ إلىَ الأرْضِ قَالَ: يَا رَبِّ أنزَلْتَنِيْ إلىَ الأَرْضِ وَجَعلْتَنِي رَجيماً ، فاجْعَلْ لِيْ بَيْتاً ، قال: الحَمّامُ . قالَ: فاجْعَلْ لِيْ مَجْلِساً . قالَ: الأسْواقُ ومَجَامِعُ الطّرُقِ، قالَ: فاجْعَلْ لِيْ طَعاماً ، قالَ: كُلُّ مَا لَمْ يُذكَرْ اسْمُ اللهِ عَليهِ ، قالَ: فاجْعَلْ لِيْ شَراباً : قَالَ: كُلُّ مُسْكِرٍ ، قالَ: اجْعَلْ لِي مُؤَذِناً ، قالَ: المِزْمَارَ قَالَ: اجْعَلْ لِيْ قُرْآناً، قَالَ: الشِّعْرُ. قَالَ: فَاجْعَلْ لِيْ كِتَاباً ، قَالَ: الوَشْمُ ، قَال: اجْعَلْ لِيْ حَدِيْثاً ، قَالَ: الْكَذِبُ ، قال: اجْعَلْ لِيْ رُسُلاً ، قالَ: الكَهَنَةُ. قَالَ: اجْعَلْ لِيْ مَصَائِدَ، قَال: النِّسَاءُ .

وَشوَاهِدُ هَذا الأثرِ كَثِيْرَةٌ ، فكُلُّ جُمْلَةٍ منْهُ لهَا شَاهِدٌ مِنْ السُّـنَّةِ أو مِنْ القُرْآن . وَاللهُ اعْلمُ وصَلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وآلهِ وسَلم .

(فصل)

وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ بِالصَّوْتِ الأحْمَقِ وَالصَّـوْتِ الفَاجِـرِ ، فَهِيَ تَسْمِيَةُ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ ، الذِي لا يَنْطِقُ عَنْ الهَوَى ، فَرَوَى التِّرْمِذِي مِنْ حَدِيْثِ ابْنِ أبي لَيْلَى ، عَنْ عَطَاءِ عَن جَابر رَضْيَ اللهُ عَنه قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَع عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ إلَى النَّخْلِ ، فاذَا ابْنُهُ ابْرَاهِيْمُ يَجُودُ بِنفْسِهِ ، فَوَضَعَهُ في حَجْرِهِ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، فَقَالَ عبدُ الرَّحمَن : أتبْكِيْ وَأنْتَ تَنْهَى النَّاسَ ؟ قال : « إنّي لَمْ أنْهَ عَنْ البُكَاءِ ، وانَّمَا نَهِيْتُ عَنْ صَوْتَيْن أحْمَقَيْنِ فاجِرَيْنَ ، صَوتٍ عِنْدَ نَغْمَةِ لَهْوٍ وَلَعِبٍ ومَزَامِيْرِ شَيْطَانٍ ، وَصَوْتٍ عِنْدَ مُصِيْبَةٍ ، وَخَمْشِ وُجُوهٍ ،

وَشَقِّ جُيُوبٍ ، وَرنَّةٍ ، وَهَذِهِ رَحْمَةٌ ، وَمَنْ لَا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ ، لَوْلَا أنهُ أمْرٌ حَقٌّ ، وَوَعْدُ صِدْقٍ وَأنّ آخِرَنَا سَيَلْحَقُ أوَّلَنا لَحَزِنّا عَلَيْكَ حَزناً هُوَ أشدُّ مِنْ هَذَا ، وإنَّا بكَ لَمَحْزُونُونَ ، تَبْكِي العَيْنُ ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ ، وَلَا نقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ » قالَ التِّرْمِذِيّ هَذَا حَدِيْثٌ حَسَنٌ فانْظُرْ إلَى هَذَا النَّهْيِ المُؤكَدِ بتَسْمِيَتِهِ صَوْتَ الغِنَاءِ صَوْتاً أحْمَقَ ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى وَصَفَهُ بالفُجُورِ وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى سَمَّاهُ مِنْ مَزَامِيْرِ الشيطان، وأمَّا تَسْمِيَتُهُ صوتَ الشَّيْطان فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِلشَيْطَانِ وَحِزْبِهِ ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ ﴿واسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ كُلُّ دَاعٍ إلَى مَعْصِيَةٍ ، ومِنْ المَعْلُومِ أنّ الغِنَاءَ مِنْ أعْظَمِ

الدَّوَاعِي إلَى المَعْصِيَةِ ، وَلِهَذَا فُسِّرَ صَوْتُ الشَّيْطَانِ بِهِ انْتَهَى بتَصَرُّفٍ يَسِيْرٍ.

وَقَالَ شَيْخُ الاسْلَام رَحْمَةُ اللهِ عليْهِ : وَالشَّرَائِعُ هِيَ غِذَاءُ القُلُوبِ وقُوتها ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ـ ويُرْوَى مَرْفُوعاً ـ « إنَّ كُلَّ آدِبٍ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى مَأْدُبَتَهُ ، وَأنَّ مَأدُبَةَ اللّهِ هِيَ القُرْآنُ » وَمِنْ شَأْنِ الجَسَدِ إذا كَانَ جَائِعاً فَأخَذَ مِنْ طَعَامٍ حَاجَتَهُ اسْتَغْنَى عَنْ طَعَامٍ آخَرَ ، حَتَّى لا يَأْكُلهُ ـ إنْ أكَلَ مِنْهُ ـ إلا بِكَرَاهَةٍ وَتَجَشُّمٍ ، وَرُبَّمَا ضَرَّهُ أكلُهُ ، إوْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُوَالمُغَذِّي الذِي يُقِيْمُ بَدَنَهُ ، فالعَبْدُ إِذَا أخذَ مِنْ غَيرِ الأَعْمالِ المَشْرُوْعَةِ بَعْضَ حَاجَتِهِ ، قَلَّتْ رَغْبَتُهُ في المَشْرُوعِ وَانتِفاعُه بِهِ ، بقَدْرِ مَا اعْتَاضَ مِنْ غَيره ، بخِلافِ مَنْ صَرَفَ نَهْمَتَهُ وهمَّتَهُ إلِىَ المَشْرُوعِ ، فَإنَّهُ تعْظُم مَحَبَّتُهُ لَهُ وَمَنْفَعَتُهُ بِهِ ، وَيَتِمُّ دِيْنُهُ بِهِ ، وَيَكْمُلُ إِسْلامُهُ .

وَلِهَذَا تَجِدُ مَنْ أَكْثَرَ مِنْ سَمَاعِ القَصَائِدِ لِطَلَبِ صَلاحِ قَلْبِهِ تَنْقُصُ رَغْبَتُهُ في سَمَاعِ القرْآنِ ، حَتَّى رُبَّمَا كَرِهَهُ ، وَمَنْ أكْثَرَ مِنَ السَّفَرِ إلَى زَيَارَةِ المَشَاهِدِ وَنَحْوِهَا ، لَا يَبْقَى لِحِجِّ البَيْتِ المُحَرَّمِ في قَلْبِهِ مِنَ المَحَبَّةِوَالتَّعْظِيْمِ مَا يكونُ في قلْبِ مَنْ وَسِعَتْهُ السُّنّةَ ، ومَنْ أدْمَنَ عَلَى أخـذِ الحِكْمَـةِ وَالآدَابِ مِنْ كَـلَامِ حُكَمَاءِ فَـارِسَ وَالـرُّومِ ، لا يَبْقَى لِحِكمَةِ الاسْلَامِ وَآدَابِه في قَلْبِهِ ذَاكَ المَوْقِعُ ، وَمَنْ أدْمَنَ عَلَى قِصَصِ المُلُوكِ وَسِيَرِهِمْ ، لَا يَبْقَى لِقَصَصِ الأنْبِيَاءِ وسِيَرِهِم فِي قَلْبِهِ ذَاكَ الاهْتِمَامُ وَنَظَائِرُ هَذِهِ كَثِيْرَةٌ .

وَلِهَذَا عَظمَتْ الشَّرِيْعَةُ النّكِيْرَ عَلَى مَنْ أحْدَثَ البِـدَعَ وَحذَّرَتْ

مِنْهَا ، لِأَنَّ البِدَعَ لَوْ خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْهَا كَفَافاً لا عَلَيْهِ وَلَا لَهُ لكَانَ الأَمْرُ خَفِيْفاً ، بَلْ لا بُدَّ أنْ تُوْجِبَ لهُ فَسَاداً في قَلْبِهِ وَدِيْنِهِ ، يَنْشَأُ مِنْ نَقْصِ مَنْفَعَةِ الشَّرِيْعَةِ في حَقِّهِ ، إذْ القَلْبُ لا يَتَّسِعُ لِلعِوَضِ وَالمُعَوِّضِ عَنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العِيْدَيْنِ الجَاهِلِيّيْنِ « إنَّ اللهَ قد أبْدَلكُم بِهِمَا يَوْمَيْنِ خَيْرَاً مِنْهُمَا » فَيَبْقَى اغْتِذَاءُ قلبهِ مِنْ هَذِهِ الأَعْمَالُ المُبْتَدِعَة مَانِعاً مِنَ الاغْتِذَاءِ ، أو مِنْ كَمَالِ الاغْتِذَاءِ بِتِلْكَ الأَعْمَالِ النَّافِعَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، فَتَفْسُدُ عَلَيْهِ حَالُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ كَمَا يَفْسُدُ جَسَدُ المُغْتَذِي بالأَغْذِيَةِ الخَبِيْثَةِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ ، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ بَعْضُ ضَرَرِ البِدَعِ أ هـ قُلْتُ لِلهِ دَرُّهُ مِنْ إمَامٍ مَا أعْلَمَهُ وَأبْصَرَهُ بأمْرَاضِ القُلُوبِ وعِلَاجِهَا فَتَدَبَّرْ كَلَامَهُ رَحِمَهُ اللهُ بِحُضُوْرِ قَلْبٍ لَعَلَّ اللهَ يَنْفَعُكَ بِهِ وَاللهُ أعْلَمُ .

(فَصْلٌ)

وَمِنْ الأَدِلَّةِ عَلَى تَحْرِيْمِ الغِنَاءِ مَا رَوَى سَعِيْدُ بْنُ أبي زَيْدٍ عَنْ أخِيْهِ عَنْ لَيْثٍ بْنِ أبي سُلَيْمٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سابِطٍ عَنْ عائِشَة رضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عَنْ النبي صَلى اللهُ عليه وسَلم أنَّهُ قَالَ « إنَّ اللهَ حَرَّمَ المغَنِّيَة وَبَيْعَها ، وَثمَنها وَتَعْلِيْمَها وَالاسْتِمَاعِ إلَيْهَا » .

وَرَوَى لاحِقُ بْنُ حُسَيْنٍ بْنُ عُمَرَ ، أنَّ ابْنَ أبِيْ الوَرْدِ المَقْدِسِيّ قَالَ : حَدّثَنَا أبُو المَرْجِيْ ضِرَارُ بْنُ علي بن عُمَيْر القَاضِيْ الجَيْلَانِيّ حَدَّثَنَا أحْمَدُ بْنُ سَعِيْد ، عن محمدِ بنِ كَثِيرِ الحِمْصِي ، حَدَّثَنَا فَرَجُ ابْنُ فَضَالَةَ ، عَنْ يَحْيَى بنِ سَعِيْد ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ ، عَنْ علي ابن

أبي طَالب قالَ : قَال رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إذا عَمِلَتْ أُمَّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خُصْلَةً حَلَّ بِهَا البلاءُ ، إذَا كَانَ المالُ دُوَلاً ١ والأمَانَةُ مَغْنَماً ٢ وَالزَّكَاةُ مَغرَماً ٣ وَأطَاعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ ٤ وَعَقَّ أُمَّهُ ٥ وَجفَا أبَاهُ ٦ وَارْتَفَعَتْ الأصْوَاتُ في المسَاجِدِ ٧ وكَانَ زَعِيمُ القَوْمِ أرْذَلَهُم ٨ وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخافَةَ شَرِّهِ ٩ وَلُبِسَ الحَرِيْرُ ١٠ وَاتُّخِذَتْ القَيْنَاتُ ١١ وَالمعَازِفُ ١٢ وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أوَّلَهَا ١٣ فَلْيَتَوقَّعُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيْحاً حَمْرَاء وَمَسْخاً وَخَسْفاً وَعَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ تِسْع ، وأنا أنْهَاكُم عَنْهُنّ ، ألا إن مِنْهُنّ الغِنَاءُ وَالنَّوْحُ والتَّصاوير الحَدِيْثُ ، وَعَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « لَا يحِلُّ تَعْلِيْمُ المغَنِّيَاتِ ، وَلاَ شِرَاؤُهُنَّ وَلاَ بَيْعُهُنَّ ، وَلاَ اتخَاذُهُنَّ ، وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيْثِ ﴾ الآية وَالذيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ مَا رَفَعَ رَجُلٌ عَقِيْرَتَهُ بِالغِنَاءِ إلاَّ ارْتَدَفَهُ شَيْطَانَانِ يَضْرِبَانِ بِأرْجُلِهِمَا صَدْرَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى يَسْكُتَ .

وَعَنْ أَبِيْ أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « إنَّ اللهَ حَرَّمَ تَعْلِيْمَ المُغَنِّيَاتِ ، وَشِرَاءَهُنَّ وَبَيْعَهُنَّ ، وَأَكْلُ أَثْمَانِهِنَّ وَذَكَرَ البُخَارِيُّ عَنْ أبي مَالِكٍ الأشْعَرِيُّ ، أنهُ سَمِعَ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَتِي قَوْمٌ يَسْتَحِلُّوْنَ الحِرَ وَالحَرِيْرَ وَالخَمْرَ وَالمعَازِفَ » ، وَعَنْ أنَسٍ قَال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ جَلَسَ إلى قَيْنَةٍ ، صُبَّ في أُذُنَيْهِ الآنكُ يَوْمَ القِيَامَةِ » وَعَنْ ابْنِ عَبّاسٍ في قَوْلِ الله عزَّ وَجلَّ ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِيْ لَهْوَ الحَدِيْثِ ، لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ ﴾ قَالَ الغِنَاءُ ، وَعَنْ أَبِيْ مَالِكٍ الأَشْعَرِيّ أنهُ سَمِعَ

رسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ « يَشْرَبُ ناسٌ مِن أمّتِي الخَمْرَ يُسَمُّـــونَها بِغَيْرِ اسْمِها ، تُضْربُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ المَعَازِفُ وَالقَيْنَـاتُ ، يَخْسِفُ اللّهُ بِهِمْ الأرْضَ » .

قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ رَضِيَ اللهُ عنه : قَالَ رسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « تُعْرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ ، كَعَرْضِ ، الحَصِيْرِ عُـوْدَاً عُوْدَاً ، فأيُّ قَلْبٍ أشْرِبَهَا نَكَتَتْ فِيْهِ سَوْدَاءُ ، وأيُّ قَلْب أنْكرَهَا نَكِتَتْ فِيْهِ نُكْتَـةٌ بَيْضَـاءُ ، حَتّى تَعُــودَ القُلوبُ على قَلْبَيْنِ أسْـوَدُ مُـرْبَـدًّا كالكُوزِ مُجَخِيًا ، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفَاً وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرَا إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ ، وَقَلْبٌ أبْيَضُ ، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَة مَا دَامَتْ السَّمواتُ والأرْضُ » قَالَ ابْنُ القيِّمِ : فَشَبَّهَ عَرْضَ الفِتَنِ عَلَى مَـا القُلُوبُ شَيْئَاً فَشَيْئَاً كَعَرْضِ عِيْدَانِ الحَصِيْرِ وَهِيَ طَاقَاتُها شَيئاً فشَيْئاً ، وَقَسَّمَ القُلُوبَ عند عَرْضِهَا عَلَيْهَا إلَى قِسْمَيْنِ : قَلْبٌ إذا عُرِضَتْ عَلَيْهِ فِتْنَةٌ أُشْرِبَهَا ، نُكِتَتْ فِيْهِ نكتَة سَوْدَاءُ ، كَمَا يَشْرَبُ الأسْفَنْجُ الماءَ ، فَتُنْكَتُ فِيْهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَلاَ يَزَالُ يَشْرَبُ كُلَّ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَيْهِ ، حَتَّى يَسْوَدَّ وَيَنْتَكِسَ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ « كالكُـوز مَجْخِيًّا » أيْ مَنْكُوسا .

فَإذَا اسْوَدَّ وَانْتَكَسَ ، عَرَضَ لَهُ مِنْ هَذَيْنِ الآفَتَيْنِ خَطَرَانِ مترامِيان به إلَى الهَلاَكِ ، أَحَدُهُمَا اشْتِبَاهُ المَعْرُوْفِ عَلَيْهِ بِالمُنْكَرِ فَلاَ يَعْرِفُ مَعْرُوْفَاً وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً وَرُبَّمَا اسْتَحْكَمَ عَلَيْهِ هَذا المَرَضُ ، حَتَّى يَعْتَقِد المَعْرُوف مُنْكراً ، وَالمُنْكَرَ مَعْرُوفاً ، وَالسُّنَّةَ بْدعَةً ، وَالبِدْعَةَ سُنَّةً ، وَالحَقَّ بَاطِلاً ، وَالبَاطِلَ حَقّاً .

الثَانِي تَحْكِيْمُهُ هَواهُ عَلَى مَا جَاءهُ بِهِ الرَّسُولُ صلى اللهُ عليه

وسَلم، وَانْقِيَادُهُ للهَوى وَاتّبَاعُهُ لهُ .

وَقلبٌ أبْيَضُ ، قد أشْرَقَ فيه نُورُ الايْمَانِ وأزْهَر مِصْبَاحُهُ ، فاذا عُرِضَتْ عليه الفِتْنَةُ أنكرهَا وردَّهـا ، فازدَادَ نُورُه وَاشْرَاقُهُ وَقُوّتُه ، وَالفِتْنَةُ التي تُعْرَضُ عَلى القُلوبِ هيَ أسْبَابُ مَرضِهَا ، وهيَ فِتَنُ الشهَواتِ، وفِتَنُ الشُّبُهَاتِ، فتَنُ الغيِّ والضّلال ، فِتَنُ المعَاصِيْ والبدَعِ ، فِتَنُ الظلمِ وَالجَهْلِ ، فالأُولَى تُوجبُ فَسَادَ القَصْدِ والارَادةِ ، والثانيةِ توجِبُ فسَادَ العِلْمِ وَالاعْتِقَادِ أ هـ والله أعلمُ .

فَصْلٌ

فَالقُلُوبُ نَوْعَانِ قَلْبٌ اذا عُرِضَتْ عليْهِ الفِتْنَةُ أُشْرِبهَا وَأحَبَّهَا ومَالَ اليْهَا وَأيَّدَهَا ، وقَلْبٌ يُنْكِرُهَا وَيَنْفُر منها وَيحَذِّرُ عَنْهَا ، فَذلِـكَ القلبُ الأبْيَضُ الذي أشْرَق بنُورِ الايْمَانِ، وَهُوَ مَعْنَى مَا تَقَدّمَ في حَدِيْثِ حُذَيفةَ ، وقَال أيْضاً : وَمِنْ حِيَلِ الشيْطَانِ وَمَكـائِدِهِ الكَـلامُ البَاطِـلُ ، وَالآرَاءُ المُتَهَافِتَةِ ، وَالخيَالاتِ المُتَناقِضَةِ ، التِيْ هِيَ زبَالةُ الأذهَانِ، وَنُحَاتَةُ الأفكارِ، وَالزَّبَدُ الذِيْ تَقْذِفُ بهِ القلوُبُ المُظلِمَةُ المُتَحَيِّرةُ ، التِي تَعْدِلُ الحَقَّ بالبَاطِل ، وَالخطأ بالصَّوابِ، وقَدْ تَقَاذَفَـتْ بهَا أمْوَاجُ الشُّبُهاتِ ، ورَانَتْ عَليْهَـا غُيُومُ الخَيَـالاتِ ، فمَـرْكَبُهَـا القِيْـلُ وَالقَـالُ ، وَالشّـكُّ وَالتَّشْكِيْكُ ، وَكَثْرَةُ الجِدَال ، ليْسَ لهَا حَاصِلٌ مِنْ اليَقِيْن يُعَوَّلُ عَليْهِ ، وَلا مُعْتَقَدٌ مُطَابِقٌ لِلحَقِّ يُرْجَعُ إلَيْهِ ﴿ يُوْحِي بعْضُهم إلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورا ﴾ وَقدْ اتُّخِذَ لِذَلِك القرْآنُ مَهْجُوراً .

ومِمّا وَرَدَ في النَّهْي عَمّا يَلهُو بِهِ الرَّجُلُ إلاَّ مَا اسْتُثْنِيَ : ما وَرَدَ عَنْ

عُقْبَة بنْ عامِر رَضْيَ اللهُ عنْهُ ، أنّ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ « كلُّ مَا يَلْهُو بهِ الرَّجُلُ المُسْلِمُ بَاطِلٌ ، إلا رَمْيُهُ بقَوْسِهِ وَتَأدِيْبُهُ فَرَسَهُ ، وَمُلاعَبَتُه أهْلَهُ ، فَانَّهُنَّ مِنْ الحقّ » فَفِيْ الحَدِيْثِ دَلِيْلٌ على أنَّ كُلَّ مَا يَلْهُو بِهِ الانْسَانُ فهُو بَاطِلٌ ، أي مُحَرَّمٌ مَمْنُوعٌ مَا عَدا هَذِهِ الثَّلاثِ التِيْ اسْتَثْنَاهَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهِ عليه وسَلم ، فانَّهُنَّ مِنْ الحَقّ أَوْ وَسِيْلَةً إلىَ الحَقِّ .

وَقَالَ شَيْخُ الاسْلاَمِ رَحِمَهُ اللهُ في الكَلاَمِ عَلَى حَدِيْثِ عُقْبَةَ : « كُلُّ لَهْو يَلْهُوْ بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ » الحَدِيْث مَا مَعْنَاهُ : البَاطِلُ ضِدُّ الحَقّ ، فَكُلُّ ما لَمْ يَكُنْ حَقّاً ، أو وَسِيْلَة إليه ، وَلَمْ يَكُنْ نَافِعاً فَانّهُ بَاطِلٌ ، مُشْغِلٌ لِلْوَقْتِ ، مُفَوِّتٌ عَلَى الأنْسَانِ ما يَنْفَعُهُ في دِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ ، فَيَسْتَحِيْلُ عَلَى الشَّرْعِ أبَاحَةُ مِثْلِ هَذَا . ا هـ .

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : إذا أشْكَلَ حُكْمَ شَيْءٍ هَلْ هُوَ لِلابَاحَةِ أَو لِلتَّحْرِيْمِ ؟ فَلْيُنْظَرْ إلَى مَفْسَدَتِهِ ، وَثَمرَتِهِ وَغَايَتِهِ ، فَإنْ كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَى مَفْسَدَةٍ رَاجِحَةٍ ظَاهِرَةٍ ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِيْلُ عَلَى الشّارِعِ الأمْرُ بِهِ أَوْ إبَاحَتِهِ ، بَلْ العِلْمُ بِتَحْرِيْمِهِ مِنْ شَرْعِهِ قَطْعِيّ وَلاَ سِيَّمَا إذَا كَانَ مُفضِياً إلى مَا يُغْضِبُ اللهَ وَرَسُوْلَهُ وقال إلَى شَيْخُ الإسْلاَمِ : لاَ يَجُوزُ اللّعِبُ بالطَّابِ وَالمَنْقَلَةِ ، وَكُلُّ ما أفْضَى كَثْيْرُهُ إلَى حُرْمَةٍ ، وَإذا لَمْ يَكُنْ فِيْهِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ ، لأنَّهُ يَكُونُ سَبَباً لِلشَّرِّ وَالفَسَادِ ، وَمَا أَلْهَى أَو شَغَلَ عَنْ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ ، وَإنْ لَمْ يُحَرَّمْ جِنْسُهُ كَالبَيْعِ وَالتِّجارَةِ ، وَسَائِرِ مَا يَلْهَى بِهِ البَطَّالُونَ مِنْ أنْوَاعِ اللّهْوِ وَسَائِرِ ضُرُوْبِ اللّعِبْ ، مِمَّا لاَ يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى حَقٍّ شَرْعِيّ ، فَكُلّ ذَلِكَ حَرَامٌ ا هـ .

وَكَذا يَنْبَغِي أنْ يَحْذَرَ مِمَّا يَعُوقُ سَيْرُهُ إلَى اللّهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ ،

كالمُطالَعَةِ في المَجَلَّاتِ وَالصُّحُفِ ، وَالكُتُبِ التِيْ لَا يَعُودُ عَلَى صَاحِبِهَا مِنْهَا إلا الضَّرَرُ ، وضَيَاعُ عُمْرِهِ الذيْ هُوَ رَأسُ مَالِهِ فِيْهَا . قَالَ بَعْضُهُمْ .

وَأَسْوَأُ النَّاس تَدْبِيْرَاً لِعَاقِبَةٍ   مَنْ أَنْفَقَ العُمْرَ فِيْمَا لَيْسَ يَنْفَعُهُ

وَسَوْفَ يُسْأَلُ الإِنْسَانُ عَمّا أَفْنَاهُ فِيْهِ . فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : « لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيْمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيْمَا أَبْلَاهُ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ ، وَمَاذَا عَمِلَ بِمَا عَلِمَ » .

فالعَاقِلُ مَنْ كَانَ مِلْءُ قَلْبِهِ ، وَمَالِكُ لُبِّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيْلٌ ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى ، وَلَا تُظلَمُـونَ فَتِيْلا ﴾ فَسَـارِعْ فِي الخَيْرَاتِ ، وَبَادِرْ إِلَى الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، عَامِلاً بِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « بَادِرُوا بالأعْمَالِ سَبْعَاً هَلْ تَنْتَظِرُوْنَ إِلَّا فَقْرَاً مُنْسِيَاً ، أوْ غِنَىً مُطْغِيَاً ، أَوْ مَرَضاً مُفْسِدَاً ، أَوْ هَرَمَاً مُفْنِّداً ، أَوْ مَوْتَاً مُجْهِزَاً ، أو الدَّجَّالَ فَالدَّجَّالُ شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرّ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ .

شِعْرَاً :

نَخْطُوا وما خَـطْوُنَا إِلَّا إِلَى الأَجَـلِ
وَنَنْقَضِيْ وَكَـأَنَّ العُمْـرَ لَـمْ يَـطُلِ
وَالعَيْشُ يُـؤْذِنُنَـا بِـالـمَـوْتِ أَوَّلُـهُ
وَنَحْنُ نَـرْغَبُ في الأيَّـامِ وَالـدُوَلِ
يَـأْتِيْ الحِمَـامُ فَيُنْسِي المَـرءَ مُنْيَتَـهُ
وَأعْضَـلُ الدَّاءِ مَـا يُلْهِيْ عَنْ الأَمَلِ

تُـرْجِي النَّوَائِبُ عن أعْمَـارِنَا طـرَفـاً
وَنَسْتَقِـرُ وَقَـدْ أُمَسْكَنَ بـالـطَّوْلِ
لا تَحْسَبِ العَيْش ذَا طُـولٍ فَتَتْبَعُـهُ
يَا قُرْبَ مَا بَيْنَ عُنْقِ المَرْءِ وَالكَفَلِ
سَلَّى عَنْ العَيْشِ أنَّـا لا نَـدُومُ لَـهُ
وَهَـوَّنَ المَوتَ مَـا نَلْقَى مِنْ العِلَلِ
لَنَـا بِمَـا يَنْقَضِي مِنْ عُمْـرِنَـا شُغُـلٌ
وَكُـلُّنَـا عَلِقُ الأحْـشَـاءِ بِالغَـزَلِ
وَنَـسْـتَـلِذُ الأمَـانِـي وَهْـي مُـرْدِيَـةٌ
كَشَارِبِ السُّمِّ مَمْزُوْجاً مَعَ العَسَـلِ

اللَّهُمَّ لاَ تُشْغِلْ قُلُوْبَنا بِمَا تَكَفَّلْتَ لَنَا بِهِ ، وَلاَ تَجْعَلْنَا في رِزْقِكَ خَوَلاً لِغَيْرِكَ ، وَلاَ تَمْنَعْنَا خَيْرَ مَا عِنْدَكَ بِشَرِّ مَا عِنْدَنَا ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

مَوْعِظَةٌ

قَال بَعْضُ العُلُمَاءِ بَعْدَ سِيَاقِهِ لِقَوْلِهِ تعالى﴿إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوْامَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾: أَيُهَا النَّاسُ لَقَدْ كَانَتْ الأُمَّةُ الأسْلاَمِيَّةُ فِيْمَا مَضَى مُتَمَسِّكَةً بِكِتَابِ اللهِ ، عَامِلَةً بِسُنَّةِ نَبِيِّهَا صَلَى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، صَحِيْحَةً في عَقَائِدِهَا ، صَالِحَةً في أعْمَالِهَا حَسَنَةً في مُعَامَلاَتِهَا وَعَادَاتِهَا ، كَرِيْمَةً في أَخْلاَقِهَا بَصِيْرَة في دِيْنِهَا رَاقِيَةً في آدَابِهَا وَعُلُوْمِهَا ، فَكَانَتْ عَزِيْزَةَ الجَانِبِ ، قَوِيَّةَ الشَّوْكَةِ ، جَلِيْلَةً مَهِيْبَةً ، صَاحِبَةَ السُّلْطَانِ وَالصَّوْلَةِ عَلى

مَنْ عَدَاهَا ، وَاليَوْمَ تَغيّرَ أمْرُهَا ، وَتَبَدَّلَ حَالُهَا ، اخْتَلَّتْ عَقَائِدُهَا وَفَسَدَتْ أَعْمَالُها ، وَسَاءَتْ مُعَامَلاَتُهَا وَعَادَاتُها ، وَتَدَهْوَرتْ أَخْلاَقُهَا ، وَجَهِلَتْ أَمْرَ دِيْنِهَا وَدُنْيَاهَا ، وَتَأَخَّرتْ عُلُوْمُها وَصَنَائِعُهَا فَصارَتْ ذَلِيْلَةَ الجَانِبِ ، ضَعِيْفَةَ الشَّوْكَةِ ، سَاقِطَةَ الكَرَامَةِ ، فاقِدةَ الهَيْبَةِ مَغْلُوْبَةَ عَلَى أَمْرِهَا ، مُتَأَخِّرَةً في مَرَافِقِ حَيَاتِهَا تَتَخَبَّطُ في ظُلُمَاتِ الجَهْلِ ، وَتَنْقَادُ لِلْخُرافَاتِ وَالأوْهَامِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ ﴾ ومَا ذَاكَ إلَّا لِأَنَّها خَالَفَتْ كِتَاب رَبِّهَا ، وَانْحَرفَتْ عَنْ طَرِيْقِ الهَادِيْ نَبِيِّهَا ، وَسَارَتْ وَرَاءَ هَوَاهَا ، وَفُتِنَتْ بِزَخَارِفِ الحَضَارَةِ المُزَيَّفَةِ ، والمَدَنِيَّةِ الكاذِبَةِ وَظَنَّتْ الإِبَاحِيَّةَ حُرِّيَّةً وَالخَلاَعَةَ رُقِيًّا ، فَتَعَدَّتْ حُدُوْدَ الدِّيْنِ وَالعَقْلِ . وَأَغضَبَتْ خَالِقَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ فَسَاءَتْ حَالُهَا ، وَسُلِّطَ عَلَيْهَا عَدُوُّهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذِيْنَ يُخَالِفُوْنَ عن أمرهِ أن تَصِيْبَهُمْ فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أيها الناس لقد ذَاقَتْ الأُمَّةُ وَبَالَ أَمْرِهَا ، وَعُوْقِبَتْ بِشَرِّ أَمْالِهَا ، وَتَجرَّعَتْ مَرارَةَ الذُّلِ والهوانِ ، وَالتَّفرُقِ والأنْحِلاَلِ ، كُلُّ ذَلِكَ نَتِيْجَةٌ لاَزِمَةٌ لِعَدَمِ اسْتِقَامَةِ الأُمَّةِ، وَانْحِرَافِهَا عَنْ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ ، ﴿ صِرَاطَ اللهِ الذِي لَهُ مَا في السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، ألا إِلَى اللهِ تَصِيْرُ الأُمورُ ﴾ كُلُّ ذَلِكَ نازِلٌ بِنَا وَوَاقِعٌ عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ لا نُفِيْقُ مِنْ سَكْرَتِنَا ، وَلاَ نَنْتَبِهُ مِنْ غَفْلَتِنا ، وَلاَ نَنْزَجِرُ بِالمِحَنِ وَالبَلاَيَا ، وَلاَ نَعْتَبِرُ بِحَوَادِثِ الأَيَّامِ فَلَو كَانَتْ لنا نُفُوسٌ حَيَّةٌ وقُلُوْبٌ يَقِظَةٌ وشُعُورٌ حَيٌّ واحْسَاسٌ قَوِيٌّ ، لَنَبَّهَتْنَا البَلاَيَا ، وَأَيْقَظَتْنَا المُؤْلِمَاتِ ، أَيُّهَا المسلمُ : الدِّيْنُ عَقِيْدَةٌ صَحِيْحَةٌ ، وَعِبَادَةٌ قَوِيَّةٌ ، وَمُعَامَلاَتٌ حَسَنَةٌ عَادِلَةٌ ، وَأَخْلاَقٌ كَرِيْمَةٌ ، فَانْظُرُوْا وَفَكِّرُوا ، وَفَتِّشُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ أَنْتُمْ سَائِرُوْنَ في أَعْمَالِكُمْ وَأحْوَالِكُمْ عَلَى مَنْهَجِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ ، أمْ

أَنْتُمْ مُنْحَرِفُوْنَ عَنْهَا ، فَألْزِمُوْهَا السَّيْرَ عَلَى الطَّرِيْقِ القَوِيْمِ ، وَفَّقَنَا اللهُ وَايَّاكُمْ للأسْتِقَامَةِ ، وَأمَّننا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أهْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَوَقَانَا وَإِيَّاكُمْ شَرَّ الحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ ، وَغفَرَ لَنَا وَلَكُمْ وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، بِرَحْمَتِهِ إِنهُ أرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَصْلٌ في تَحْرِيْمِ الدُّخانِ وَذِكْرِ مَفاسِدِهِ

وَمِمَّا يَتَأكَّدُ اجْتِنَابُهُ وَالتَّحْذِيْرُ عَنْهُ الدّخَانُ ، لِدُخُوْلِهِ في قِسْمِ المُحَرَّمَاتِ ، وَمِنْ الأَدِلَةِ عَلَى تَحْرِيْمِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى في حَقِّ رَسُولِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِم الخَبَائِثَ ﴾ وَلاَ يَمْتَرِيْ عَاقِلٌ في دُخُولِهِ في الخَبَائِثِ ، وورد عَنْهُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انهُ قَالَ « مَا أسْكَرَ كَثِيْرُهُ فَقَلِيْلُهُ حَرَامٌ » وَعَنْ أمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : قالَتْ : نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرْ .

وَفِي الحَيْثِ الآخَرِ « مَا أَسْكَرَ الفَرقُ مِنْهُ ، فَمِلْءُ الكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ » فَهَذِهِ الأدِلَّة تَدُلُّ عَلَى حُرْمَتِهِ ، فَإِنَّهُ تارَةَ يُسْكِرُ ، وَتَارَةً يُفَتِّرُ ، وَمِنْ الأدِلَّةِ المؤَيِّدَةِ لِمَا سَبَقَ ، أنهُ ثَبَتَ طِبيّاً أنّ التبْغَ يُفَتِّرُ وَمِنْ الأدِلَةِ المؤَيِّدَةِ لِمَا سَبَقَ ، أنّهُ ثَبَتَ طِبِّياً أنّ التَّبْغَ يَحْتَوِيْ عَلَى كَمِّيَةٍ كَبِيْرَةٍ مِنْ مَادَّةِ النِّيْكُوتِيْنَ السَّامَةِ ، وَأَنَّ شَارِبُهُ يَتَعَرَّضُ لِأَمْرَاضٍ خَطِرَةٍ في بَدَنِهِ أوّلاً ، ثُمَّ تَدْرِيْجِيّاً فَيَضْطَرِبُ الغِشَاءُ المُخَاطِيُّ وَيَهِيْجُ وَيَسِيْلُ مِنْهُ اللُّعَابُ بِكَثْرةٍ ، وَيَتَغَيَّرُ ، وَيَتَعَسَّرعَلَيْهِ هِضْمُ الطَعَامِ ، وَأَيْضاً يُحْدِثُ التِهَاباً في الرِّئَتَيْنِ ، يَنْشَأُ عَنْهُ سُعَالٌ ، وَيَتَسَبَّبُ عَنْ ذَلِكَ تَعْطِيْلٌ لِلشَّرَايينِ الصَّدْرِيَّةِ ، وَعُروضُ أمْرَاضٍ صَدْرِيَّةٍ ، رُبَّمَا يَتَعَذَّرُ البُرْءُ مِنْهَا وَمَا يَجْتَمِعُ عَلَى بَاطِنِ القَصَبَةِ مِنْ آثَارِ

التَّدْخِيْن ، يَجْتَمِعُ مِثْلُهُ عَلَى عُرُوقِ القَلْبِ ، والقلبُ يَضْغَطُ عَلَى فَتحَاتِهِ فَيَحْصَلُ عُسْرٍ فِي التَّنَفُّسِ ،وَيُؤَثِّرُ عَلَى القَلْبِ بِتَشْوِيْشِ انْتِظَامِ دَقَاتِهِ،وَرُبَّمَا أَدَّى بِشَارِبِهِ إِلَى المَوْتِ ، فَيَكُوْنُ شَارِبُهُ قَدْ تَسَبَّبَ لِقَتْلِ نَفْسِهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ مُحَرَّمٌ مِنْ الكَبَائِرِ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وَقَالَ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم « مَنْ قَتَلَ نَفْسُهُ بِحَدِيْدَةٍ ، فَحَدِيْدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدَاً مُخَلَّدَاً فِيْهَا أَبَدَا » .

وَمِنْ الادلّة عَلَى تَحْرِيْمِهِ أَنَّهُ إِسْرَافٌ ، وَلَيْسَ فِيهِ مُبَاحٌ ، بَلْ هُوَ مَحْضُ ضَرَرٍ ، بِاخْبَارِ أَهْلِ الخِبْرَةِ مِنْ شَارِبِيْهِ وَغَيْرِهِمْ ، وَقَدْ حَرَّمَ اللهُ الإِسْرَافَ ، وَأَخْبَرَ جَلَّ وَعَلاَ : أنهُ لا يُحِبُّ المسرفين ، قَالَ تعالَى ﴿ وَلاَ تُسْرِفُوا إنهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِيْنَ ﴾ وقَالَ ﴿ إِنَّ المُبَـذِّرِيْنَ كانُوا اخْوَانَ الشَّيَاطِيْنَ .

وَالتَّبْذِيْرُ هُوُ الذِي يُنْفِقُهُ الأنْسَانُ في غَيْرِ طَاعَةِ وَفِيْمَا لا مَنْفَعَة فِيْهِ وَقَالَ مُجَاهِدْ لَوْ أَنْفَقَ مَالَهُ في الحَقِّ ما كَانَ تَبْذِيْرا وَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُوْدٍ عَنْ التَّبْذِيْرِ فَقَالَ إنفاقُ المالِ في غَيْرِ حَقِّهِ وَقَالَ ابْنُ عَبّاسٍ إِنْفَاقُ المالِ فِي غَيْرِ مَنْفَعِةٍ وَقَالَ بَعْضُهُمْ الأَسْرَافُ الأَنْفَاقُ في مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى وَإِنْ قَلَّتْ . فَيَتَبَيَّنُ لكَ مِمَّا مَضَى وَمِمَّا يَأْتِي أنَّ هَذَا الدُّخانَ الخَبِيْثَ المُحَرَّمَ عَيْنُ الأَسْرَافِ وَالتَّبْذِيْرِ وَقَالَ صَلَى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ وَهَذَا في الجَارِ الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ جدارٌ وَقَالَ فِيْهِ أيضاً : مَا زَالَ جِبْرِيْلُ يُوصِيْنِي بالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ . فَكَيْفَ بالجِيْرَانِ الطَّيِّبِيْنَ الكِرَامِ الكَاتِبِيْنَ الذِيْنَ عَنْ اليَمِيْنِ وَعَنْ الشِّمالِ قَعِيْدْ

وَهُمْ الذين يَكْتُبُوْنَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّآتِ فَالمُدَخِّنُ يُؤْذِيْهِم نَعُوذُ باللهِ مِنْ حَالَه وَالمَفْرُوْضُ أَنَّهُ يَسْتَعْمِلُ المِسْوَاكَ طَيِّبَ الرائحةِ بَدَلًا مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الخَبِيْثَةِ وَمِنْ خَصَائِصِ هَذَا الدُّخَانِ انَّهُ يُنفرُ عَنْ الطَّاعَةِ وَعَنْ قِرَاءَةِ القُرْآنِ وَالمُكْثُ في المَسَاجِدِ وَمَحبَةِ أَهْلِ الدِّيْنِ وَالصَّلَاحِ الخ .

وَنَهى الشَّارِعُ عَنْ إضَاعَةِ المالِ ، وَكَمْ مِنْ حَرِيْقِ التَهَمَ نُفُوساً وَأمْوالاً ، سَبَبُهُ الدُّخَانُ ، وَكمْ مِنْ برِيْء اتَّصَلَ بشَارِبهِ فَصَارَ مِثْلُهُ ، وَكَمْ مِنْ مَلايِّيْنِ مِنْ الأثْمَان يَوْمِيّاً تحرق وتتلف في هذا الدخان الخبيث الكريه، فنضرب لذلك مثلاً لما يُتْلَفُ يَـوْمِيّاً مِنْ الفُلُوس بسَببِ شُـرْبِ الدُّخَانِ ، فإذا كانَتْ الدَّوْلَةُ عِشْرِيْنَ مِلْيُونَاً ، وَثلاثةُ أرْبَاعِهِمْ يَشْرَبُونَهُ ، أَي خَمْسَةٌ وسَبْعُونِ في المائِةِ ، وَقُلْنَا أدْنَى مَصْرفٍ لِلْواحِدِ يَوْمِيّاً في الدُّخَانِ رِيَالٌ ، فَمَعْنَاهُ أنَّ الذِي يَتْلَفُ عَلىَ الجَمِيْع يَوْمِيّاً خَمْسَةَ عَشَرَ مِلْيُونَاً مِنْ الرِّيالاتِ وَفي الشَّهْر يَكوُن الذِي يُتْلَفُ في سَبِيْلِ هَذا الدُّخَانِ الخَبيْث أَرْبَعَمَائةٍ وخَمْسِيْنَ مَلْيُوناً ، وَفي السَّنةِ خَمْسَةُ آلافٍ مِلْيُون وَأَرْبَعُ مَائةِ مَلْيُون مِنَ الرِّيَالَات . نسألَ اللَّهَ أن يَعْصِمَنَا وَاخوَانَنا المسْلِمِينَ مِنهُ ومن سَائِر المعَاصِي اللهم صل على مُحمد وآله وسلم وَمِنَ الأدِلة على تَحْرِيمِ الدُّخَانَ كَوْنَ رائِحَته كريهَة ، تُؤذِي النَّاسَ الذِيْنَ لا يَسْتَعْمِلُونَهُ ، وَتَؤْذِيْ الكِرَامَ الكاتِبيْنَ ، وَتؤذِيْ المُعَقِّبَاتِ ، وَبالخُصُوصِ أذِيّتُهُ في مَجَامِعِ الناسِ ، كاجتماعِهِمْ لِصَلاةِ الجَماعَةِ ، وَلصَلاةِ التَّرَاوِيْحِ ، ان وُجِدَ مِنْ شَاربيْهِ أحَدُ يُصَلّيْ التَّرَاوِيْح ، وَكذا يُؤذِي زُمَلاءَهُ ، إنْ كَانَ أسْتَاذاً أوْ كَانَ تِلْمِيْذَا ، ويُؤذِي زَوْجَتَه ، وَيَسْرِي إلىَ أوْلادِه ، لأنهُ اذا شَرَبَهُ عندهُم صَار تَعلِيماً فِعْلِيّاً لهُم ، وَمَا نالهُم مِنْ الضَّرَرِ النَّاشِيءِ عَنْ

الدّخانَ الذِي صَار هُو السّبَبُ في شُرْبهِم له فلا يسلمُ وَاللهُ أعلمُ مِنَ الاثم ، وَكذلكَ يَسْرِي لِقَرابتِهِ وَأصْدِقَائِهِ ، وجيْرَانِهِ وَزُمـلائِهِ أحْيَـاناً ، وَإيْصَالُ الضَرَّرِ إلىَ المسلم حَرَامٌ ، وَأذِيّتُهُ حَرَامٌ وَقد وَرد عنه صلى اللهُ عليه وسَلم ، أنّهُ قَالَ « مَنْ أكلَ ثُـوْماً أوْ بَصَـلاً فَلْيَعْتزِلْنَـا ، وَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا ، وَلْيَقعُدَ في بَيْتِه » وَورَدَ عَنْهُ صَلى اللهُ عليه وسلم أنَهُ قَالَ « إنَّ الملائِكَةَ تَتَأذى مِمّا يَتَأذّى منْهُ النَّاسُ » وفي الحَدِيْثِ الآخَر « مَنْ آذَى مُسْلِماً فقَدْ آذانِيْ ، ومَنْ آذَانِيْ فقَدْ آذَى اللهَ » وأذِيةُ المُسْلِم مُحَرَّمَةٌ ، وَمِنْ المَعْلُوم عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ مُنْصِفٍ ، أنَّ رَائِحَةَ الدُّخَانِ ، لا تَقِلُّ كَرَاهَتُها وَأذِيتُها عَنْ كرَاهِيةِ رَائِحَةِ الثُّوم وَالبَصَلِ وَالكُرَّاثِ » . بل هي عند بعضهم أَعظَمُ كَرَاهةً وهَذا الدُّخانُ مِنْ العَادَاتِ القَبِيْحَةِ ، المُضِرَّةِ بالشَّارِبِ وَغَيْرِهِ فترَى الشَّابَّ تَمِيْلُ نفْسُهُ إليْهِ ، ويَمِيْلُ بهِ هَواهُ إلى مُشابهَةِ غَيْرِهِ في تَعاطِيْهِ ، ورُبَّمَا عَدَّهُ تَظرُّفاً ، وَظنَّه مَدنِيَةً وتَرَفاً ، فإذَا قَدّمَ لَهُ أحَدُ زملائهِ أَو أتْرَابهِ أو غَيْرُهُم هَذا الدخانَ لأوَّلِ مَرَّةٍ ، وبَدأ يَسْتَنْشِقُ دُخَانَهُ السَّامَّ ، وَلا يَلْبَثُ إلا قَلِيْلاً حَتَّى يَأْخُذَ في الإكثَارِ مِن تَناوُلِ هذَا السُّمِّ النَّاقِعِ ، فيُصْبحُ لهُ عَادَةً لا يَسْتَطِيْعُ إلىَ تَرْكِهَا سَبِيْلا ، وَاذا طَالَ الزَّمَنْ ، ومَكَثَ عَلَى ذلِكَ مُدَّةً : اسْتَحْكَمَتْ في نَفْسِهِ هَذِه العَادَةُ القَبْيحَةُ السَّيِّئَةُ ، وَبَدَأتْ صِحّتَهُ تَضْعُفُ ، وَقوُتَّهُ تَنْقُصُ ، وَشَهِيَّتُه للطَّعَامِ تَقِلُّ ، ورَغْبَتُهُ في المشَيْ ومَا يُقوِّي البَدَنَ تَضْعُفُ ، وَاذا ذَلِكَ الوَجْهُ النَّاظِرُ الحَسَنُ المشْرِقُ ، وَذلكَ الجِسْمُ المُمْتَلِىءُ عَافِيَةً ، وَالشَّبَابُ الغَضُّ قَدْ تَغَيَّرَ وَعراهُ الذُّبولُ ، وتمَكَّنَ مِنهُ النُّحولُ ، فتَرى جِلْدُهُ يَسْترخِي ، وَبَصُرُهُ يَضْعُفُ ، وسَمْعُـهُ كذلكَ يَضْعُفُ ، وَقُوَّةُ الشَّهْوَةِ تَضْعُفِ جِدّاً ، وَعَقْله يَضْعُفُ بإذْنِ اللهِ تَبَعاً لِلْجِسْمِ ، وَيُصْبحُ بَعْدَ غضَارَتِه وَنضارته ذَابلاً ، وَجِسْماً نَاحِلاً ،

يَأخُذهُ سُعَالٌ مُؤْلِمٌ ، وَيُحِسُّ بخفقَانِ قلبهِ ، وَدَقّهِ وَفُتُورِ جسْمِهِ ، وَيَتَمَنّى بَعْدَ ذَلك لو يُقاسِمُه انْسَانٌ مَالَهُ ، وَيَتَسَبَّبُ لهُ في مَنعِهِ مِنْ هَذِهِ العَادَةِ السّيّئَةِ الخَبيْثَةِ ، ولكنْ أنّى لهُ بذلِك ، هَيْهَات إلا أنْ يشَاء اللهُ جَلَّ وعَلا ، فاللهُ عَلى كلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، لا يُعْجِزُه شَيْءٌ في الأرْضِ وَلا في السَّمَاءِ ، ثّم هَذا الشّارِبُ لِلدِخّانِ يَفقِدُ بشَاشَتَهُ ، وَيُحْرَمُ صَفاءَ نَفْسِه ، وَقُوّةَ فِكْرِهِ ، فَتَتَغَيَّرُ أخْلاقُهُ وتَتَبَّدلُ صِفاتُه ، وَتَراهُ إذا أعوزَهُ الدُّخانُ أحيَاناً ، يُذْهَلُ نَفْسَهُ وَيُنَكِّسُ رَأْسَهُ ، كَأنَّما هُوَ في هَمٍّ نَاصِبٍ ، وَعَنَاءٍ وَتَعَبٍ ، وَقَدْ تَتَغيَّر سَجَايَاهُ ، فإذا ذَلكَ الحَلِيْمُ الهَادِئُ الأعْصَابِ ، غَضُوبٌ جَمُوحٌ ، وَاذا ذلكَ السَّاكِنُ هَائِجٌ وَثَائِرٌ ، يَظْهَرُ منْهُ فلتَاتُ كلامٍ يَتَعَجَّبُ مِنْهَا مَنْ يَعْرفُه أوّلاً ، وَتَراهُ يَلجأ إلىَ تَنَاوُلِ الدُّخَانِ ، لِتَسْكِيْنِ غضَبهِ ، وَتَهْدِئةِ ثَائِرَة نَفْسِه .

وَخِتَاماً فعلى الأنْسَانِ أنْ يَتعاهَدَ أبْنَاءَهُ ، وَكَذلِكَ عَلى المُعَلِّمِ أنْ يَتعاهَدَ الطُّلابِ بالنُّصْحِ وَالتَّحْذِيْرِ مِنْ هَذَا الوَباءِ الفَتَّاكِ ، وَعَليْهِ أنْ يُرَاقِبَهُم في كلِّ وَقْتٍ ، وَبالأخِصِّ في أوْقَاتِ الفَرَاغِ ، وَأنْ يَحْرِصَ كلَّ الحِرْصِ عَلى أنّهُم لا يَتَّصِلُونَ بمَنْ يشْرَبُ الدُّخَانَ لِيَحفَظَ عَليهم صِحّتَهم وَرَاحَتَهُم ، وَيَدْفَعَ عَنْهُم شَرَّ هَذا المَرضِ ويَصُوْنَ أمْوالهِم عَنْ الضَّياعَ حَتَّى إذا عقلُوا عَرَفُوا لِوَلِيِّهم ذلكَ الجَمِيْلِ الذِيْ أسْدَاهُ إلَيْهِم . وَالله أعْلَمُ ،وصلى اللهُ عَلى مُحمّدٍ .

فَصْلٌ

سُئِلَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحمّدٍ رَحِمَهُما اللهُ عن التّنْباكِ الذِي اعْتَادَ شُرْبَه كثيرٌ مِن النّاسِ ؟ فأجَابَ رَحِمَهُ اللهُ . لا رَيْبَ أنّ اللهَ تَعالَى بَعَث مُحمّداً صلى اللهُ عليه وسَلم بجَوامِع الكِلِم ، وهِيَ مِنْ خَصَائِصِه التِي خَصّهُ اللهُ بهَا من بَيْنِ الأنبيَاءِ ، كَما ثَبَتَ أنّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ في ذِكرِ خصائِصِه « وَأوْتِيْتُ جَوَامِعَ الكَلِم » وهي أن يقَولَ الكلِمَاتِ اليَسِيْرَةِ ، الجَامِعَةِ لِأحْكامٍ كَثِيْرَةٍ ، لا تُعَدُّ وَلا تُحْصَى ، ومن ذلك قولُه صلى اللهُ عليه وسَلم « كُلُّ مسْكرٍ حَرامٌ » فدَخَلَ في هَذه الكَلِمَة جَميْعُ المُسْكِرَاتِ ، التِي تُسْكِرُ وَتزيلُ العَقلَ ، مِنْ الأَطعِمَةِ وَالأشْربَةِ المَوجُودةِ في زَمانِه وَالحادِثةِ بعْدَهُ صَلى الله عليه وسَلم إلىَ يَوْم القِيامَةِ ، وَقَدْ توَاتَرتْ الأحادِيْثُ عَنْ النبي صَلى اللهُ عليه وسلمَ بالنَّهْي عَنْ المسْكِرِ ، وَهُو الخَمْرُ الذِي يُغَطّيْ العَقْلَ ويُزِيْلُهُ ، كَمَا في الصّحِيْحِ عَنْ ابنِ عُمرَ رضْيَ اللهُ عنهُما ، عَنْ النَبّي صلى اللهُ عليهِ وسَلَم قَالَ « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ » وَلَفْظُ مُسْلِم « وَكُلُّ مُسْكِر حَرَامٌ » وَعَنْ عَائِشَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهُ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ البِتْعِ ؟ فقالَ « كلُّ شَرَابٍ أسْكَر فهُوَ حَرَامٌ » وفي رِوَايَةٍ لمُسْلِم « كلّ شَرَابٍ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » وَنَقل ابْنُ عَبْدِ البَرِّ اجْمَاعُ أهْلِ العِلْم بالحَدِيْث عَلَى صِحَّتِهِ ، وَأنُه أثْبتُ شَيْءٍ في تَحْرِيْمِ المُسْكِر ، وجَاءَ التَّصْرِيْحُ بالنَّهْي عَنْ قَلِيْلِ مَا أسْكَر كَثِيْرُه ، إذا تَقَرَّرَ هَذا . فاعْلَمْ أنَّ المُسْكِرَ الذِي يُزِيْلُ العَقْلَ نَوْعَـانِ (أَحَدُهُمَا) مَا كانَ فِيْهِ لَذَّةٌ وَطَربٌ ، قالَ العُلَماءُ : وسَوَاءُ كانَ مِنْ حَبّ أو

مِنْ تَمْرٍ أو لبَنٍ أو غَيْرِ ذلكَ ، وَأَدْخَلُوا في ذَلكَ الحَشِيْشَةَ التي تُعْمَلُ من وَرَقِ العِنبِ أوَ غيرِهَا ، مِمَّا يؤْكَلُ لأجْلِ لَذتِهِ وَسُكرِهِ (والثَّانِيْ) مَا يُزِيْلُ العَقْلَ وَيُسْكِرُ ، وَلا لَذَّةَ فيه وَلا طَرَبَ ، كَالبَنْجِ وَنحْوِهِ ، وَأكثَرُ العُلمَاءِ الذِيْنَ يرَوْنَ تَحْرِيْمِ مَا أسْكَرَ كَثيْرُه ، يَرْوَنَ حَدَّ مَنْ شَرِبَ مَا يُسْكِرُ كَثِيْرُه ، وَإنْ اعْتَقَدَ حِلَّهُ مُتَأوِّلاً ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيّ وَأحْمَدُ .

قَالَ : وبمَا ذَكَرْنَا مِنْ كَلامِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلم وَكَلامِ أهْلِ العِلْمِ يَتَبَيَّنُ لكَ بيانُ تَحْرِيْمِ التّتِنِ ، الذِي كَثُرَ في هَذا الزمَانِ اسْتِعمالهُ ، وَصَحّ بالتّواترُ عِنْدَنَا والمُشاهَدَة اسْكَارُه في بَعْضِ الأوْقَاتِ ، خُصُوصاً إذا أكْثَرَ منهُ ، أو تَركَهُ يَوْماً أو يَوْمين لا يَشْرَبُه ثم شَرِبَهُ ، فإنّه يُسْكِرُ ويُزِيْلُ العَقْلَ ، حَتّى إِنَّ صَاحِبَهُ يُحْدِثُ عنْدَ النَّاسِ وَلا يَشْعُرُ بذلك ، نعوُذ باللهِ مِنْ الخِزْيِ وَسُوءِ البَأْسِ ، فَلا يَنبَغِي لمن يُؤمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أن يَلْتَفِتَ إلى قَوْلِ أحَدٍ مِنْ النَاسِ إذا تبَيَّنَ لهُ كَلامُ اللهِ ، وَكلامُ رسُولِهِ في مِثِله مِنْ المَسَائِلِ ، وذلكَ لِأنّ الشَّهادَةَ بأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ تَقْتَضِيْ طاعتَه في مَا أمرَ ، وَالانْتِهَاءَ عَمّا عنهُ نَهى وَزَجَرَ ، وتَصْدِيْقَهُ فيْمَا أخْبَرَ ، وَأنْ لا يُعْبَدَ اللهَ إلا بمَا شَرَعَ وَأنْ يُقَدّمَ أمْرُهُ على قَوْلِ كُلِّ أحَدٍ مِنْ النَّاسِ .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ : وَالذِيْ يَشْرَبُ التِّنْبَاكَ إنْ كَانَ شُرْبُه لَهُ بَعْدَ مَا عَرفَ أنّهُ حَرَامٌ فَيُضْرَبُ ثمَانِيْنَ جَلْدَةً ، ضَرْبَاً خَفِيْفاً مَا يَضُرُّهُ ، فانْ كَانَ شَرِبَهُ وَهُوَ جَاهِلٌ فلا حَدٌّ عَلَيْهِ ، وَيُؤْمَرُ بالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ ، وَالذي يَقُولُ لكُمْ مِنْ عُلمَاءِ تُهَامَة إنَّ التِتنَ ليْسَ حَرَاماً وَلا حَلالا فَهذا جَاهِلٌ ، مَا يَعْرِفُ مَا يَقُولُ ، وَلا يُلْتَفَتُ لقَوْلِهِ وَفي الحَدِيْثِ عَنْ النبي صَلى اللهُ عليه

وسَلم « كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » وَمَا أسْكَر كثِيْرُه حَرُمَ قَلِيْلُه » .

وَأجَابَ أيْضاً : إذا شَهِدَ اثْنَانِ عَلى رِيْحِ التِّتْنِ مِنْ فَمِ رَجُلٍ جُلِدَ ثَمَانِيْنَ جَلْدَةً .

وَأجَابَ أيْضاً : وَأمَّا شَارِبُ التِّتْنَ إذَا شَهِدَ عَلَيْهِ شَاهِدَانِ أنَّهُم رَأوْهُ يَشْرَبُهُ فيُجْلدُ أرْبَعِين جَلْدَةً .

وَأجَابَ أيْضاً : وَأمّا شَارِبُ التِّتْنِ فَيُؤَدَّبُ بِأرْبَعِيْنَ جَلْدَةً ، فَإنْ لمْ يَنْتَهِ بذلِكَ أُدِّبَ بثمانِيْنَ .

وَأجَابَ أيْضاً : وَالذِي زرَعَ التِّنْبَاكِ يُؤَدَّبُ ، أوْ يُوْجَدُ في بَيْتِه أو مَتَاعِهِ أو يَشْرَبُهُ يُؤدَّبُ .

وأجَابَ أيْضاً : إذا شَهِدَ اثْنَانِ عَلَى رِيْحِ التِّتْنِ مِن فَمِ رَجُلٍ يُحَدُّ ، لِأنَ الصَّحَابَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُم حَدُّوا على رِيْحِ الخَمْرِ ، وهَذا خَمْرٌ ، لِأنَهُ مُسْكِرٌ ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ .

وَسُئِلَ الشَّيْخُ حَمَدُ بْنُ نَاصِرِ بْنِ معمَّرٍ عَنْ التُّتْنِ ؟ فَأجَابَ : هُوَ حَرامٌ لقَولِ النَّبِي صلى اللهُ عليه وسَلم « كُلُّ مُسْكِر خَمْرٍ » وَفي لْفظٍ « حَرَامٌ » وفي لفظٍ « مَا أسْكَر كثِيْرُهُ ، فمِلءُ الكفِّ مِنْهُ حَرامٌ وَهَذا عَامٌ في كلِّ مُسْكرٍ ، فَانَّ النَّبيّ صَلى اللهُ عليه وسَلم قَدْ أُوْتِيَ جَوَامِعَ الكلِمِ ، وقد نَصَّ العُلمَاءُ عَلَى ذلكَ .

وَسُئِلَ عَنْ شَارِبِ التِّنْبَاكِ ؟ فأجَابَ : وَأمَّا شَارِبُ التِّنْباكِ فَيُجْلَدُ أرْبَعِيْنَ جَلْدَةً .

وَقَدْ سُئِلَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ أَبَا بُطَيْنٍ عَنْ التَنْبَاكِ ؟ فأجَابَ بقَوْلِهِ : الذِي نرَى فيْهِ التَّحْرِيمَ ، لِعِلَّتَينِ (أَحَدُهُمَا) حُصُولُ الأسْكَارِ فِيْمَا إذا فَقدَهُ شَارِبُهُ مُدّةً ثمَّ شَرِبَهُ ، أو أَكْثَر مِنْهُ ، وإنْ لَمْ يَحْصُلْ إِسْكَارٌ حَصَلَ تَخْدِيْرٌ وَتَفْتِيْرٌ ، وَرَوَى الامَامُ أَحْمَدُ حَدِيثاً مَرْفُوعاً أَنَّهُ صَلى اللهُ عليه وسَلم : نَهى عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ (وَالعِلّةُ الثَّانِيَةُ) أَنَّهُ مُنْتِنٌ مُسْتَخِبْثٌ عِنْدَ مَنْ لمْ يَعْتَدْهُ .

وَاحْتَجَّ العُلَماءُ بقَولِهِ تَعالَى ﴿ يُحِلُّ لَهُمْ الطّيِّبَاتُ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الخَبَائِثُ ﴾ وَأمّا مَنْ أَلِفَهُ وَاعْتَادهُ فلا يَرَى خُبْثَهُ ، كَالجُعْلِ لا يَسْتَخْبِثُ العَذِرَةَ وكالخنزيرِ يَتْرُكُ الطَّيبَاتِ وَيَأكُلُ النَّجَاسَاتِ وكالهُدْهُدِ يَأكُلُ العَذِرَةَ.

وَأجَابَ الشَّيْخُ خَالِدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ أَحْمَدَ مِنْ فقهَاءِ المَالِكيَّةِ بقَوْلِهِ : لا تجوزُ إمامَةُ شَارِبِ التِّنْبَاكِ، وَلا يَجُوزُ الاتّجَارُ بِهِ وَلا بِمَا يُسْكِرُ .

وَمِمَّنْ حَرَّمَ الدُّخَانَ وَنَهَى عَنْهُ مِنْ عُلمَاءِ مِصْرَ الشَّيْخِ أَحْمَدُ السَّنْهُورِيّ البُهُوتِي الحَنْبَلِيّ ، وَشَيْخُ المالِكيَّةِ اللقَانِيّ ، وَمِنْ عُلمَاءِ دِمَشْقَ النَّجْمُ الغزِّيْ العَامِرِيّ الشَّافِعِيّ ، وَمِنْ عُلمَاءِ اليَمَنِ الشَّيْخُ ابْرَاهِيْمُ بْنُ جَمْعَانَ ، وَكَثِيْرٌ مِنْ العُلَمَاءِ المعَاصِرِيْنَ في المملكةِ العَرَبيَّةِ السُّعُودِيَّةِ ، كالشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النّاصِرْ السِّعْدِي ، وَالشَّيْخِ مُحَمّدِ بْنِ ابْرَاهِيْمَ ، وَالشَّيْخ عَبْدِ العَزيزِ بْنِ بَازٍ ، وَالشَّيْخِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ حُمَيْدٍ ، وَعُلماءُ كَثِيْرون يَطُولُ عَلَيْنَا تَعْدادُهم ، فَنكتَفِيْ بمَنْ ذَكرْنا ، وَمَنْ أرَادَ زِيَادَةً عَلى هَؤلآءِ فَلْيَسْأَلْ ، وَلا أَظُنُّ يُفْتِي بحِلّهِ عَالِمٌ عَاقِلٌ ، يَعْلَمُ مَضارَّهُ دِيْنِيّاً وَاقْتِصَادِيّا وَاجْتِمَاعِيًا وَخُلُقِيًا وَصِحّياً ، بلْ وَلا أَظُنُّ عَالِماً يَتوقفُ بالقَوْلِ بتَحْرِيْمِهِ ، حَتّى وَلوْ أنّهُ مِمَّنْ ابْتُلِيَ بِشُرْبهِ لِوُضُوحِ مَضارِّهِ ،

وبالأخصّ لِشُرَّابه ، وَانْ شَكَكْتَ فاسْأَلْ مُنْصِفِيهِم يُخْبرونَك وَيحُذِروكَ ، اللهُمَّ اعْصِمْنَا مِنْ جَمِيعِ المَعاصِيْ ، وَامْنُنْ عَلَيْنا يا مَوْلانَـا وَجَميعَ المسلِمْينَ بالتّوفِيْقِ لِلعَملِ الصَّالِح ، وَالاسْتِقَامَةِ عَلى الطريْقِ ، وَاغفِرْ لَنا وَلِوَالِدِيْنا ولِجَميعِ المسلِمْين ، برَحمَتِكَ يا أرْحمَ الرّاحِمِيْنَ ، وصَلَّى اللهُ عَلى مُحمّدٍ وَعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجّمَعِيْنَ .

« فصل »

وَقَـالَ في تَبْصِرَةِ الأخْـوَانِ : وَقَدْ أَشْغَـلَ جَهابِـذَةُ الأَطِبَاءِ قُـوَّةَ أَفْكَـارِهِمْ ، وَدَقَّقُوا النَّـظَرَ غَايَـةَ في اكْتِشَافِ أَضْـرَارِ التَّبْـغِ بِنَـوْعَيْـهِ المَعْلُوْمَيْنِ ، وَشَحذُوا أقْلامَهُمْ فِي بَيَانِ مَا ظَهرَ لَهُمْ فِيْهِ ، بَعْدَ التَّحْقِيْقِ وَالتَّدْقِيْقِ التَّامِّيْنِ ، فَذَكَرُوا (أَوَّلاً) أَنّهُ مِنْ الفَصِيْلَةِ البَاذِنْجَانِيَّةِ التِيْ تَشْتَمِلُ عَلَى أَكْثَرِ النَّبَاتَاتِ السَّامَةِ ، كالبَلَادُوْنَا وَالبَـرْش وَالبَنْجِ ، قَـالُوا وَهُـوَ نَوْعَانِ ، تُوْتُونْ وَتِنْبَاكْ ، وَلاَ يَخْتَلِفُ أَحَدُهُمَـا عَنْ الآخَرِ في تَـرْكِيْبِهِ الكِيْمَاوِيّ إلاّ قَلِيْلا ، فَانَّهُمَا مُرَكّبَانِ مِنْ أَمْلاحِ البُوْتَاس وَالنُّوشَادِرْ ، وَمِنْ مَادَّةٍ صَمْغِيَّةٍ ، وَمَادَّةٍ أُخْرَى مُرَّةٍ حَرِّيْقَةٍ ، تُسَمَّى نِيْكُوْتِيْن ، قَالُوا وَهِيَ سُمٌّ مِنْ أَشَدِّ السُّمُومِ فِعْلاً ، بِحَيْث أَنَّهُ لَو وُضِعَتْ نُقْطَةٌ مِنْهَا عَلَى لِسَانِ كَلْبٍ لَمَاتَ في أقْرَبِ زَمَنٍ ، مَعَ أَنَّ الكَلْبَ أَقْوَى تَحَمُّلاً لِلسُّمُوْمِ مِنْ الأنْسَانِ ، وَمِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الحَيَوَانِ ، وَذَكَرُوا أَنَّ الدُّخَانَ الذِيْ يَتَصَاعَدُ عَنْ أَوْرَاقِ التَّبْغِ المُحْترِقَةِ ، يَحْوِيْ كَمِّيَّةً وَافِرَةً مِنْ المَادَّةِ السَّامَةِ هِيْ النِّيْكُوْتِيْنْ ، فَإِذَا دَخَلَ الفَمَ والرِّئتَيْنِ أَثَّرَ فِيْهِمَا تَأْثِيْراً مَوْضِعِيّاً وَعُمُومِيّاً لأَنَّهُ عِنْدَ دُخُولِهِ الفَمَ تُوَثِّرُ المَادَّةُ الحَرِّيْقَةُ السَّامَّةُ التِيْ فِيْهِ ـ وَهِيَ النِّيْكُوْتِيْن ـ في الغِشَاءِ المُخَاطِيِّ فَتُهَيِّجُهُ تَهْيِيْجاً قَوِيّاً ، وَتَسِيْلُ مِنْهُ كَمِّيَّة زَائِدَةً مِنْ الطَّعَامِ وَتُغَيِّرُ

تَرْكِيبَهُ الكِيْماويّ ، بِحَيْثُ تُقَلِّلُ فِعْلهُ في هَضْمِ الطَّعَامِ وَكَذلِكَ تَفعَلُ في مُفرَزِ المَعِدَةِ ، مثلَ مَا فَعَلَتْ في مُفرَزِ الفمِ ، فَيَحْصُلُ حِينَئِذٍ عُسْرٌ في مُفْرَزِ الهَضْمِ ، وَعِنْدَ وُصُولِ الدّخَانِ إلَى الرّئتين عَلَى طَرِيْقِ الحُنْجَرَةِ ، تؤثر فِيْهِمَا التِهَاباً قَوِيّاً مُزْمِناً ، فتُهيْجُ السُّعَالَ حِيْنَئِذٍ ، لِأخْرَاجَ ذَلِكَ المُفْرَزِ الغَزيْرِ ، الذي هُوَ البَلْغَمُ المَعْرُوفُ وَيَتَسَبَّبُ عَنْ ذَلِكَ تَعْطِيْلُ الشَّرَايِينِ الصَّدْرِيَّةِ وَعُرُوضُ أمْرَاضٍ صَدْرِيَّة يَتَعَذَّرُ البُرءُ مِنها .

وَبِالجُمْلَةِ فقد تَحَقَّقَ عند عَامّةِ المُحَقِّقِيْنَ ، مِنْ أئِمّةِ الطِّبِّ ، أنّ مَضَارّ الدّخَانِ ـ أعَمُّ مِنْ أنْ يكونَ تُوتُوناً أو تِنْبَاكاً ـ كَثِيْرَةٌ ، قَالُوا : وَيَشْعُرُ بِأعْرَاضِهَا الجُزْئِيَّةِ كُلُّ مَنْ يُبَاشِرُ اسْتِعْمَالهُ قَبْلَ الإعْتِمَادِ عليْهِ ، وَهِيَ دَوَرَانٌ وِغَثَيَانٌ، وَقَيْءٌ وَصُدَاعٌ ، وَارْتِخَاءُ العَضَلاتِ أيْ الأعْصَابِ ، ثُم سُبَاتٌ أيْ رَاحَةٌ وَهُوَ كنَايَةٌ عَنْ حَالَةِ التَخْدِيْرِ الذِي هُوَ مِنْ لَوَازِمِ التَّبْغِ ، وَماذُكِرَ مِنْ الأعْرَاضِ النَّاشِئَةِ عَنْهُ ، فِي بَدْءِ اسْتِعْمَالِهِ قَبْلَ الأعْتِمَادِ عَلَيْهِ ، لِمَا يَحْوِيْهِ مِنْ المادَّةِ السَّامَّةِ التي هِيَ النِّيْكُوتِيْن ، وَيَجِدُ فَسَادَ الذَّوْقِ وَعُسْرَ الهَضْمِ ، وَقِلَّةَ القَابِلِيَّةِ لِلطعام ، وَهَذِهِ الأشْيَاءُ كُلُّهَا تَحْدُثُ مِنْ تَخللِ الدُّخَانِ في اللُعَابِ ، فَيُسَبِّبُ اضْطِراباً مَعِدِيّاً ، وَكَثِيْراً ما يَحْدُثُ المَرَضُ المَعْرُوْفُ بالبَيْرُوسِسْ ، وَهُوَ الحُرْقَةُ المَعْدِيةٌ ، وَهَذَا كُلّه في اسْتِعْمَالِهِ على سَبِيْل القِلّةِ والأعْتِدَالِ ، وَأمّا الأكْثَارُ مِنْهُ فَهُوَ مُفْضٍ إلى عَطبٍ لَيْسَ لَه زَوَالٌ ، وَمِنْ المَعْلُومِ الثَّابِتِ شَرْعَاً أنَّ كُلَّ مَا أُضَرَّ بالصِّحَّةِ يَحْرُمُ تَعَاطِيْهِ قَطْعَاً ، وَلِذَلِكَ حَرُمَ الأكْلُ فَوْقَ الشِّبَعِ ، وَأَكْلُ الطّيْنِ ، لِمَا فيهِمَا مِنْ الأضْرَارِ بِالصِّحَّةِ ،قال عليه الصَّلاةُ والسَّلَامُ « مَنْ أكَلَ الطِّينَ فَكأنَّما أعَانَ على قَتْلِ نَفْسِهِ » ، وفِي رِوَايَةٍ « فَإنَّمَا أعَانَ عَلَى قَتلِ نَفْسِهِ » وَلَيْسَ

التَّدْخِيْنُ أَقَلُّ ضَرَراً مِنْ أكلِ الطِّيْنِ ، بَلْ هُوَ أَشَدَّ ضَرَراً مِنْهُ بِكَثِير ، قَالَ : وَقَد سَأَلْتُ عِدَّةً مِنْ الأَطِبّاءِ المَوْثُوقِيْنَ بِهِمْ عَن تَفَاوُتِهِمَا في الضَّرَرِ ؟ فَأجَابُوا : بأنَّهُ لا نِسْبَة بَيْنَهَا في الضَّرَرِ تفاوُتاً كُلِيّاً ، حَيْثُ أنَّ الجُزْءَ الفعّال ، الذِي يَنْشأ عن التّدْخِيْنِ وَهُوَ النِّيْكُوتِين ، لاَ يُعَادِلُهُ شَيْءٌ في الأَضْرَارِ ، كَمَا هُو ظَاهِرٌ لَدَى الامْتِحَان ، فَيَكُونُ نَهْي الشَّارِع صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكْلِ الطّينِ ، لِمَا فِيْهِ من الضَّرَرُ ، شَامِلاً لِفِعْلِ التَّدْخِيْنِ بالأوْلَوِيّةِحَيْثُ كَانَ الضَّرَرُ فِيْهِ أشَدُّ وَأعْظَمُ ،كَمَا عَلِمْتَهُ ، قَالَ وَقَد ذَكَرَ جَمْعٌ مِن أكابِرِ العُلَمَاءِ ، وَجَهابِذَةِ الأطِبَّاءِ ، أَنَّ مِنْ العَقْل - فَضْلاً عَنْ الشَّرْعِ - وَجُوبُ اجْتِنَابِ التّدْخِيْن ، حِفْظاً لِلصَّحَّةِ ، التِي هِيَ مِن اللهِ تَعالَى مِنَّةٌ وَمِنْحَةٌ ، وَدَفْعا لِدَوَاعِيْ الضَّعْفِ الذِي هُوَ مِنْ مُقَدِّمَاتِ الهَلاَكِ وَالدَّمَارِ ، كَمَا هُوَ مَعْلُوْمٌ لِذَوِيْ الأَسْتِبْصَارِ كَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعالَى ﴿ وَلاَ تُلقُوا بأيديكم إلَى التَّهْلُكَة ﴾ عَلَى أَنَّهُ لاَ يَقْتَصِرُ ضَرَرُ التَّدْخِيْنِ عَلَى المُدَخِّن وَحْدَهُ ، بَلْ يَعُمُّ جُلَسَاءَهُ في المَكَانِ ، لأنهُ يُفْسِدُ الهَواءَ ، فَيَتَعَيَّنُ الفِرَارُ حِيْنَئِذٍ مِنْ الجُلُوسِ في أمَاكِنِ التَّدْخِيْنِ ، وَلاَ سِيَّمَا إِذَا كانَتْ مُغْلَقَة الأَبْوَابِ قَالُوا : وَيَسْرِي الضَّرَرُ أيْضاً إِلَى نَسْلِهِ ، فَيَجْعَلُهُ ضَعِيْفَ البِنْيَةِ ، شَاحِبَ اللوْنِ ، فَاسِدَ المِزَاجِ ، لِتَمكُّنِ سُمّ التبغ في جِسْمِ الوَالِدِ أمَّا سَرَيَانُ الضَّرَرِ قَبْلَ الوِلاَدَةِ ، فِيْمَا إذا كَانَتْ الأُمُّ تَشْرَبُ أَيْضاً كالأبِ ، فَمِنْ تَغْذِيَتِهِ حَالَ كَوْنِهِ جَنِيْناً ، مِنْ دمِ أُمِّهِ الفَاسِدِ بِسُمّ التَّبْغ ، الذِيْ هُوَ النِيْكُوْتِيْن ، حَيْثُ أَنَّهُ يَفْعَلُ عَلَى الحُوَيْصِلاَتِ العَصَبِيَّةِ فِعْلاً مُؤثِراً ، يَتَّصِلُ بالجَنِيْنِ .

وَأَمَّا سَرَيَانُ الضَّرِرِ عَلَيْهِ بَعْدَ الوِلاَدَةِ ، فَمِنْ ثَلاثِ جِهَاتٍ

(أَحدُهُما) تَغذِيْهِ مِنْ اللَّبَنِ المُتحمِّل سُمُومَ التَّبْغ ، المُفْسِدَةِ لِلْمَوادِ الغِذَائِيَّةِ ، (ثانِيْهَا) استنشاقُه الهَوَاءَ الفاسِدَ بِتَدْخِيْنِ الأَبَوَيْنِ أَوْ أَحدِهِمَا ، (ثالِثُهُما) صَيْرُورَةِ الأبَوَيْنِ سَبَباً حامِلاً لِلوَلَدِ عَلَى سُلُوكِ تِلْكَ العَادَةِ الوَخِيْمَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الطِّفلَ مِنْ طَبْعِهِ التَّقْلِيْدُ وَالتَّشَبُّهُ بِمَنْ يَرَاهُ ، فَاذَا نَظَرَ أَبَوَيْهِ يُدَخّنَانِ ، وَعَلَى فَرْضٍ أنهُمَا يَنْهِيَانِهِ عَنْ ذَلِكَ فَنَظَرَ لِكَوْنِهِ لا يَفْهَمُ سِرَّ النّهْي لا يَنْتَهِيْ مِنْ غيرِ مُبالَاةٍ ، إِلَى أَنْ يَصِيْرَ التَّدْخِيْنُ عَادَةً لازِمَةً ، فَإِذَا اعْتَادَ هَـذَا المِسْكِيْنُ التَدْخِيْنَ مِنْ مَبدَأ نَشأتِـهِ ، فَهُنَاكَ الطَّامَّةُ الكُبْرَى ، وَالبَلِيَّةُ العُظْمَى ، لِأَنَّهُ لا يَلبَثُ قَلِيْلاً إلاَّ وَيَشْكُو مِنْ قِلَّةِ القَابِلِيَّةِ وَوَجَعَ الصَّدْرِ ، وَيَصْحَبُهُ أيْضاً سُعَالٌ قَويّ ، مُزْعِجٌ لِلصَّدْرِ، وَلَا يَزَالُ يَزْدَادُ ضَعْفَاً عَلَى ضَعْفٍ ، وَسَقَماً عَلَى سِقَمٍ إِلَى أَنْ يَمْضِيْ عُمْرُهُ في الأَسْقَامِ وَالآلامِ وَاللهُ أعلمُ ، وَصَلَى اللهُ على مُحمدٍ وَآلِهِ وسَلَم .

(فصل)

قَالَ : وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ عَادَةَ التَّدْخِيْنِ مِنْ أَقْبَحِ العَوائِدِ ، لِأَنَّهَا تَسْتَعْبِدُ مُتَّبِعِيْهَا ، وَتُقَيِّدُهُمْ بِسَلَاسِلَ وَأغْلَالٍ ، بحَيْثُ أنَهُمْ إذَا أرَادُوا التَّخَلُّصَ لا يَجِدُوْنَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيْلَا ، وَهِيَ عَادَةٌ لَوْ لَمْ يَتْبِعْهَا الأنْسَانُ في زَمَنِ صِباهُ ـ الذيْ هُوَ زَمَنُ جَهْلِهِ ، وَعَدَمِ تَبَصُّرِهِ بِالعَوَاقِبِ ـ لكانَتْ قَلِيْلَةً جِدّاً بَيْنَ أفْرَادِالنَّـوْعِ الأنْسَانِيّ وَالبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ مَا تَرَاهُ مِنْ غَيرِ المُدَخّنِ ، فإِنهُ إِذا شَبَّ وَصَارَ بِتَمَامِ التَّمْيِيزْ ، وَتَحقَّقَ مَضَارَّ الدُّخَانِ الصِّحِّيَّةِ والمالِيَّة ، وَالأخْلَاقِيَةِ وَالأَحْتِمَاعِيَّةِ ، عَنْ طَرِيْقِ الأسْتِقْصَاءِ وَالنَّظرِ أو عَنْ طَرِيْقِ التَّوَاتُرِ وَالخَبَر ، حَمِدَ اللهَ تَعالَى حَمْداً كَثِيْراً ، عَلَى عَدَمِ دُخُوْلِهِ تَحْتَ سَيْطَرَةِ

تِلْكَ العَادَةِ الوَخِيْمَةِ ، وَمَنْ تَكُنْ هَذِهِ حَالَتُهُ فَإنّهُ يَتَبَاعَدُ بِلاَ شَك عَنْ السُّلُوكِ في هَذَا الطَّرِيْق ، الذِيْ يُوصِلُهُ إلى فِرَاشِ التَّمْرِيْضِ ، بِسَلْبِ الصِّحَّةِ التِيْ يُقَدِّرُ قَدْرُهَا .

قَالَ : هَذَا وَإنَّ التعوُّدَ عَلَى التَّدْخِيْنِ لا يَحْصَلُ غَالِبَاً إلا فِي أَيَّامِ الصِّبَا، كَمَا عَلِمْتَهُ آنِفَا ، حَيْثُ يَكُونُ الأنْسَانُ حِيْنَئِذٍ بِتَمَامِ الأسْتِعْدَادِ لِلتَّقْلِيْدِ ، فِيْمَا يَرَاهُ وَيَسْمَعُهُ مِنْ سِوَاهُ ، فَتَرى الصَّبِيَّ يُدَخِّنُ تَشَبُّهَاً بِغَيْرِهِ ، رَغْمَاً عَنْ اسْتِكْرَاهِهِ لِرَائِحَةِ الدُّخَانِ ، وَمَرَارَةِ طَعْمِهِ مُتَكَلِّفَاً تَحَمُّلَ أثْقَالِ أعْرَاضِهِ المُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ ، مِنْ دَوَرَانِ الرَّأْسِ وَصُدَاعِهِ ، وَغثَيَانِ الصَّدْرِ وأوجَاعِهِ فَاذَا تَعَوَّدَهُ بَعْدَ طُوْلِ المُكَابَدَةِ ، وَتَحَمّلِ المَشَاقّ ، وَتعلَّقَ قَلْبُهُ بِهِ لَا يَجِدُ لَه غِنَىً عَن تَعَاطِيْهِ ، لَكِنَّهُ كُلَمَا كَبُرَ سِنُّهُ ، وَزَادَ لاَ يَقْرِنُ القَولَ بالفِعْلِ ، إلى أنْ يَتَمَكَّنَ مِنْهُ الدَّاءُ ، وَيَصِلُ إلَى حَالَةٍ لَا يَنْفَعُهُ الدَّوَاءُ فَيَبْقَى هَذَا المِسْكِيْنُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ في مُقَاسَاتِ الآلامِ وَشِدَّةِ الأسْقَامِ ، يَغْبِطُ الأصِحَّاءَ ، عَلَى التَّوَسّدِ في الفِرَاشِ وَطِيْبِ المَنَامِ وَيُكْثِرُ مِن التأوُّهِ والأنِين ، وَيَتأسَّفُ عَلَى فَقْدِ الصِّحَّةِ التِي بَاعَهَا بِلِذَّةِ التَّدْخِيْنِ ، فَالحَذَرَ الحَذَرَ ، وَالفِرَارَ الفِرَارَ ، مِنْ لِذَةٍ تُوْجِبُ البَوارَ وَالدَّمَارَ ، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الدِّرَايَةِ في هَذَا الشَّأْنِ ، مِنْ أَطِبّاءِ الزَّمَان ، مَا نَصُّه : أمّا التَّـدْخِيْنُ بالتُّوتُون والتِّنْبَاكِ فانَّهمَا مُحْتَوِيَانِ عَلَى مَادَّةٍ سُمِّيَّةٍ ، عَظِيْمَةِ التَّأْثِيْرِ ، تُسَمَّى نِيكُوْتِيْنْ ، فَلَوْاستُخْلِصَتْ وَحْدَهَا ، وَجُرِّبَ فِعْلُهَا ، بِوَضْعِ جُزْءٍ يَسِيْرٍ مِنهَا عَلَى لِسَانِ كَلْبٍ ، لَقَتَلَتْهُ حَالاً بأسْرَعِ مَا يُمْكِنُ، وَهَذَا السُّمُّ تَحْتَ رِدَاءٍ رَقِيْقٍ ، بِوَاسِطَةِ التَّدْخِيْنِ المُسْتَعْمَلِ عُمُوماً : وَقَدْ قِيْلَ

شِعْرَاً :

إنَّ الأَفَـاعِيْ وَإنْ لاَنَتْ مَـلاَمِسُهَـا
عِنْـدَ التَّقَلُّبِ في أنْيَـابِهَـا العَـطَبُ

فَمِنْ مَضَرَّاتِهِ الكُلِّيَةِ ، تَخْرِيْبُ كُرَيَّاتِ الدَّمِ ، وَمِنْهَا التَّأْثِيْرُ عَلَى القَلْبِ ، وَمِنْهَا مُعَارَضَتُهُ ، لِشَهْوَةِ الطَّعَامِ ، وَمِنْهَا انْحِطَاطُ القُوى العَصَبِيَّةِ عَامَّةً ، وَيَظْهَرُ هَذَا بالخُدُوْرِ وَالدَّوَرَانِ الذِيْ يَحْصُلُ حُدُوْثُهُ عَقِبَ اسْتِعْمَالِ التَّدْخِيْنِ لِمَنْ لَمْ يَأْتَلِفَهُ ، وَلِمَنْ كَانَ مُؤْتَلِفَاً وَانْقَطَعَ عَنْهُ مُدَّة عَشْرِ سَاعَاتٍ تَقْرِيْباً ، وَمِنْ مَضَرَّاتِهِ إحْدَاثُهُ للجُنُونِ التُّوتُونِيّ .

قَالَ : وَقَدْ اطَّلَعْتُ عَلَى رِسَالَةٍ لِلْمُحَقِّقِ مُحَمَّد فِقْهِيْ العَيْنِيّ نَزِيْلُ الأَسِتَانَة العَلِيَّةْ ، وَهُوَ مِنْ فُقَهَاءِ الحَنَفِيَّةِ ، ذَكَرَ فِيْهَا تَحْرِيْمَ الدّخَانِ مِنْ أرْبَعَةِ أوْجُهٍ (أحَدُه)) كَوْنُهُ مضـرا بالصِّحَّةِ بِأخْبَارِ الأطِبَّاءِ المُعْتَبِرِيْنَ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ يَحْرُمُ اسْتِعْمَالُهُ اتِّفَاقاً (ثَانِيْهَا) كَوْنهُ مِنَ المُخَدِّرَاتِ ، المُتَّفَقُ عَلَيْهَا عِنْدَهُمْ ، المَنْهِيّ عَنْ اسْتِعْمَالِهَا شَرْعاً ، لِحَدِيْثِ أحْمَدَ ، عَنْ أُمِّ سَلمَةَ : نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ ، وَهُوَ مُفَتِّرٌ باتِّفَاقِ الأَطِبَّاءِ ، وَكَلاَمُهُمْ حُجّة في ذَلِكَ وَأمثَالِهِ ، باتّفَاقِ الفُقَهَاءِ ، سَلَفَاً وَخَلَفَاً (ثَالِثُهُمَا) كَوْنُ رَائِحَتِهِ الكَرِيْهَةِ تُؤذِيْ النَّاسَ الذِيْنَ لا يَسْتَعْمِلُونَهُ ، وَعَلَى الخُصُوصِ في مَجَامِعِ الصَّلاَةِ وَنَحْوِهَا بَلْ وَتُؤْذِيْ الملائِكَةَ المُكَرَّمِيْنَ ، وَقَدْ رَوَى الشَّيْخَانُ في صَحِيْحِهِمَا عَن جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه مَرْفُوعاً (مَنْ أكلَ ثُوماً أو بَصَلاً فَليعْتَزِلْنَا وَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدنَا ، وَلْيَقْعُد في بَيْتِهِ) وَمَعْلُوْمٌ أنَّ رَائِحَة التَّدْخِيْنِ ، لَيْسَت أقَلَّ كَرَاهَةً مِنْ رَائِحَةِ مَا ذُكِرَ مِنَ الثُّوْمِ وَالبَصَلِ .

وَفي الصَّحِيْحَيْنِ أيْضاً عَنْ جَابرٍ رَضْيَ اللهُ عنهُ ، « إنَّ المَلائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتأذى مِنْهُ النَّاسُ » وفي الحَدِيْثِ عَنْهُ صلى اللهُ عليه وسلم ، أنهُ قالَ « مَنْ آذَى مُسْلِماً فقَدْ آذانِيْ ، وَمَنْ آذانِي فَقَدْ آذى اللهَ » رَوَاهُ الطَبَرانِيّ في الأوْسَطِ ، عَنْ أنَسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ (رَابعُها) كونُه سَرَفاً إِذْ لَيْسَ فيْهِ نَفعٌ مُبَاحٌ ، بلْ فِيْهِ الضَّرَرُ المُحَقَّقُ ، بإِخبَارِ أهْلِ الخِبْرَةِ كمَا تَقدَّمَ ، وَحُرْمَةُ مَا فيْهِ السَّرَفُ وَالضَّرَرُ ، ثَابِتَةٌ شَرْعاً وعَقْلاً ، وَقَدْ تَقدَّمَ بيانُهُ مُفَصَّلاً .

قالَ : وقَدْ نُصَّ في (نِصَابُ الاحْتِسَابَ) وَغَيْرِهِ مِنْ المُعْتَبراتِ الفِقْهِيَّةِ ، عَلى أَنَّ اسْتِعَمالَ المُضِرِّ حَرَامُ اتفاقاً .

قالَ: وقَالَ العَلامَةُ أحْمَدُ العَبجيّ الحَلَبِيّ ، في كِتَابِ الأشْرِبَةِ مِنْ شَرْحِهِ عَلى « الدُّرِّ المُخْتَارِ ، شَرْحُ تَنْوِير الأبْصَارِ » بَعْدَ نَقْلِ الشَّارِحِ تَحْرِيْمُ الدُّخَانِ ، عَنْ شَيْخِهِ النَّجْمُ الغَزِّي : وقَدْ أوْضَحْنَا تَحْرِيْمَه في رِسَالَةٍ لمْ تُسْبَقْ بنَظِيْر ، أدْخَلْنا تحْرِيْمَهُ فِيْهَا تَحْتَ الأصُولِ الأربَعَةِ ، وردَدْنَا كلَّ ما نافاهُ مِنْ كلامِ الغيْرِ ، رَدّاً جَامِعاً مَانِعاً ، مُؤيَّداً بالحُجَجِ وَالبَرَاهِيْنِ .

شعراً :

يَـا مَن يرومُ التُّقَى مِنْ كُـلِّ مَأْثَمَـةٍ
أُسْلكْ سَبيلَ الهُدَى وَامْشِ عَلى السُنَنِ

ولا تَحُدْ أبداً عن ذِي الـطرِيقِ تَفُزْ
وخالِفَ النَّفْسَ واقْهَرْهَـا عن المِحَنِ

إيَّـاكَ مِن مِحْنَـةٍ تُلْقِيْـك في عَـطَبِ
لا سِيَّما ما فَشَى في الناسِ مِن تُتُنِ
مُخَـــدرٌ الجِسْمِ لا نَفـعٌ بِــهِ أبَدَا
بل مُوْرِثُ الضُرِّ والأسْقَامِ في البَدَنِ
وحَيْثُ قـد ثَبَتَتْ هَذِي الصِّفـاتُ لَهُ
فـاجْزِمْ بتَحْـرِيْمِهِ إنْ كُنْتَ ذَا فِـطَنِ
وإنْ تِـرُدْ ثِقَـةٍ فِيْمَـا أقُـوُلُ فَسْــلْ
بِهِ الخَبِيْرَ تَنَلْ مِن عِلْمِهِ الحَسن

وقال آخر :

كَمْ في الــدُخَـانِ مَعَـائِبٌ ومَكَـارِهٌ
دَلَّــتْ رَذَائِـلُهُ عــلى إنْـكَــارِهِ
سَـأُرِيـكَ بَعْضـاً مِن مَعَـائِبِ شُـرْبِـهِ
يــا صــاحِـبي أحْـبَبْتَنِـي أمْ كَــارِهِ
يُؤْذِي الكِــرَامَ الـكَــاتِبِيْنَ بِنَتْـنـهِ
وأَمَــامَ وَجْـهِـكَ شُعْـلَةٌ مِـن نَــارِهِ
كَمْ مِن نُقُــودٍ يَــا فَتَـى ومَــلَابِسٍ
أتــلفَـتَــهـا بـشِـــرائِــهِ وشَـــرَارِهِ
وبِــهِ الثَّنَــايَـا اللُؤْلُؤِيَــةُ أُفْسِـدَتْ
بـقَبِيْــحِ لَــوْنِ سَــوَادِهِ وصَـفَــارِهِ
كَـانَتْ كَمِثْـلِ الـدُّرِ حُسْنـاً شَـانَهَـا
مِن نَفْخِهَـا الشِـدْقَينِ في مِـزْمَـارِهِ

وتَــرا الصَّفَـارَ على شَــوَارِبِـهِ بَـداً
مِن جَـذْبِـهِ الـدُخَـانَ مِن مِنْخَـارِهِ
وتَـرَى الَّـذِي فِي شُــرْبِـهِ مُتَــولِهـاً
يلْتَــذُ في الصُهْــرُوْجِ بــاسْتِكْثَـارِهِ
وتَــرَا الـهَــوامَ إذَا أَحَسَّ بِــرِيْحِـهِ
تَـرَكَ الـمَكَــانَ وفَــرَّ مِـنْ أوْكَـارِهِ
وَالـنَّحْـلُ لا تَـلْوِي إليـه لِـخُبْثِـهِ
أبــداً ولا تَــدْنُــو إلــىَ أزْهَــارِهِ
ولَـنَتْنِـهِ ولِقُبْحِهِ في طَعْـمِـهِ ـ
لم تَــدْنُ سَــائِمَــةٌ إلـى أشْجَـارِهِ
انْ خَــالَطَ المَــأْكُـوْلَ مِنْـهُ دُرَيْهِمٌ
غَـلَبَـتْ خَـبَـائِثُـه عَـلَى قِـنْـطَارِهِ
وَإذا تَنَــاوَلَ سَــاخِنـاً مِن مَــأْكَــلٍ
سَــالَ انْـفُــهُ وأنِفْـتَ مِـن أقْــذَارِهِ
فَــإنْ انْتَهَيْتَ ومَــا أَظُنَّــكَ تَنْـتَهِي
ورَغِبْتَ عنــه نَجَــوتَ مِن أَوُعَـارِهِ
وأَرَحْتَ نَفْسَــكَ مِنْ عَنـا تَحْصِيْلِهِ
وحَفِظتَ مَالَـكَ مِن مُصَابِ خَسَـارِهِ

وقال آخر :

يــا شَـارِبَ التِّنْبَــاكَ مَـا أجْـرَاكَـا
مَن ذَا الــذِي في شُرْبِهِ أفْتَــاكَـا

أَتَـظُنَّ أنَّ شَـرابَـه مُـسْـتَـعْـذَبٌ
أمْ هَـلْ تَـظُنُ بـأَنَّ فِيْـهِ غِـذَاكَـا
هَـلْ فيهِ نَفْـعٌ ظَـاهِـرٌ لَـكَ يَـا فَتى
كَـلاَ فَـلاَ فِيـهِ سِـوى إِيْـذَاكَـا
وَمَـضَـرَّةٌ تَـبْـدُو وخُـبْـثُ رَوَائِـحٍ
مَكْـرُوْهَـةٍ تُؤذِي بـهـا جُلَسَـاكَـا
وفُتُـورُ جُسْمٍ وارْتُخَـاءُ مَفَـاصِـلٍ
مَـعْ ضِيْقِ أنْفَـاسٍ وضُعْفِ قُـواكَـا
وتَـلاَفُ مـالٍ لَا تَجِدْ عِـوَضـاً لَـهُ
إلا دُخَـانـاً قَـدْ حَشَى أحْشَـاكَـا
وَرَضَيْتَ فيـه بـأن تَكُـوْنَ مُبَـذِّراً
وأخُـو المُبَـذِرِ لَمْ يَكُنْ يَخْفَـاكَـا
فـإذا حَضَـرْتَ بِمَجْلِسٍ وَاسْتَنْشَقُـوا
مِن فِيـكِ رِيحـاً يَكْـرَهُـون لِقَـاكَـا
يكْفِيْـكَ ذَمـاً فِيـه أنَّ جميـعَ مَن
قـد كـان يَشْـرَبُـهُ يَـودُّكَـاكَـا
فـارْفُقْ بنفسِـكَ واتَّـبِـعْ آثـارَ مَن
أهْـدَاكَ لامَن فِيـه قَـدْ أغْـوَاكَـا
إِن كُنتَ شَهْماً فـاجْتَنِبْـهِ ولا تَكُنْ
فـي شُـرْبِـهِ مُسْتَتْبِعـاً لِـهَـواكَـا
إِنِيّ نَصَحْتُـكَ فـاسْتَمِـعْ لِنَصِيْحَتِي
ونَهَيْتُ فـاتْبَعْ قَـولَ مَن يَنْهَـاكَـا

وبَـذَلْتُ قَولي نـاصحاً لَـكَ يـا فَتى
فعسَـــاكَ تَقْبَـلُ مـــا أقُـول عَســـاكَـا

وَقَالَ الشَّيْخُ العَلاّمَةُ الفَقْيِهُ ، مَحُمَّدُ الطَّرابِيْشِيّ الحَلَبِيّ المالِكيّ ، بَعْدَ كَلامٍ لَهُ طَوِيْلٍ عَلى الدُّخانِ مَا لَفْظُهُ : وَبالجُمْلَةِ فَقَدْ تَحرَّرَ ، مِنْ مَجْمُوعِ مَاَ تقرَّرِ ، الحُكْمُ عَلى الدُّخَـانِ المَشْهُورِ ، بـأنَّهُ من جُمْلَةِ المُخَدِّرَاتِ ، التِي يَحْرُمُ اسْتِعْمَالهُا ، وَأَنهُ مُضِرٌّ بالصِّحَّةِ ضَرَراً بَيِّنَاً ، وَكُلُّ ما كانَ كذلكَ فَهُوَ حَرَامٌ بالاتّفَاقِ ، ولِذَلِكَ ـ أيْ لِمَا ذُكِرَ مِنْ مَضَرَّاتِهِ الوَخِيْمَةِ ـ حَرُمَ شُرْبُهُ دِيْناً ـ أي مِنْ جِهَةِ الدّيْنِ ـ عِنْدَ الأئِمَّةِ المحَققيْنَ ، كَما حُرِّمَ طِبّاً ، إلىَ أنْ قَالَ: وَالنَّصُّ عَلى المنْعِ مِنْ شُرْبهِ وبَيْعِه يَقْتَضِي تحْرِيْمَهُمَا ، إِذْ مُفَادُ المنْعِ التّحْرِيْمُ ، وَحَيْثُ حَرُمَ بَيْعُه لِحُرْمَةِ شُرْبِهِ ، حَرُمَ شِرَاؤهُ أيْضاً لِأَنَّ كُلَّ مَا يَحْرُمُ بَيْعُهُ يَحرُمُ شِرَاؤهُ ، كَمَا هُوَ مُقرَّرٌ في مَحَلِهِ فَقِفْ عَنِدَ هَذه الفُتْيَا لِهَذا المالِكّي ، وعنْدَ فُتْيَا الحَنفِيّ التِيْ قَبْلَها تَعْرِفُ كَلامَ المَحققِيْنَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَى أهْلِ العِلْمِ ا هـ .

وَاللهُ أعْلَمُ وصَلى اللهُ على مُحَمّدٍ وَعلى آلهِ وسَلمَّ .

فصل : في بيَانِ تَحْرِيمِ التَّصْوِيْر وَاسْتِعْمَالِه وَاتِّخاذِه

اعْلمْ وَفّقنا اللهُ وإيَّاكَ وَجَمِيْعَ المسلِمْينَ لما يُحِبّه اللهُ ويَرْضَاهُ وَجَنَّبْنَا وَأيَّاكَ وجَمْيْعَ المُسْلِمْينَ مَا يَكْرَهُهُ وَلا يَرْضَاهُ ، أنَّ مِمَّا يتأكّدُ اجْتِنابُهُ وَالتّحذِيْرُ عَنْهُ ـ في رَمَضَانَ وَغيْرِهِ ـ التَّصْويْرُ لِذَوَاتِ الأَرْوَاحِ ، مُجَسَّدةً أوْ غَيْرَ مُجسَّدَةٍ ، وَقَدْ كَانَ بسَبَبِهِ حَدَثَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ في بَنِي آدَمَ ، كَما قَالَ ابْنُ جَرِيْر : حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ ، حَدَّثَنا مِهْرَانُ ، عَنْ مُوْسَى ، عَنْ مُحَمَّدِ

بْن قَيْسٍ ، في قَوْلِهِ تعالَى ﴿ وَلا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرَا ﴾ قَالَ : كَانُوا قَوماً صَالِحِيْنَ بَيْنَ آدَمَ ونُوحٍ ، وَكانَ لهُمْ أتْبَاعٌ يَقْتَدُون بِهِم ، فلمَّا مَاتُوا قَالَ أصْحَابُهُم الذِينَ كَانُوا يَقْتَدُون بِهِمْ : لوْ صَوَّرْنَاهُمْ كانَ أشْوَق لنَا إلى العِبَادَةِ إذَا ذَكَرْنَاهُمْ ، فَصَوَّرُوْهُمْ .

فَلَمَّا مَاتُوا جَاءَ آخَرُونَ ، دَبَّ إلَيْهِم إبْلِيْسُ ، فَقَالَ: إنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُم ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ المَطَرَ ، فَعَبَدُوهُم ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ في قَوْلِه تَعالَى ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُم ، وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعا . وَلا يَغُوْثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرَاً ﴾ : هذه أسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِيْنَ مِنْ قَوْمِ نُوْحٍ وَلما هَلكُوا صَوَّرَ قَوْمُهُم صُوَرَهُمْ ، ثم طَالَ عليهِم الأمدُ فعَبَدُوهُمْ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتَم بسَنَدِهِ عن أبي المُطَهِّرِ قالَ: ذَكَرُوا عِنْدَ أبي جَعْفر ـ وَهُو قَائِمٌ يُصَلِّي ـ يَزِيْدَ بْنَ المهلبِ ، قَالَ فلمّا انْفَتَلَ مِن صَلاتِه ، قَال: ذكَرْتُمْ يَزِيْدَ بنَ المهَلَّبِ أمَا إنّه قُتِلَ في أوَّلِ أرْضٍ عُبِدَ فِيْهَا غيْرُ اللهِ ، قالَ: ثم ذَكروُا رَجُلاً مُسْلِماً ، وَكان مُحَبَّبا في قَومِهِ ، فلمْا مَات اعْتكَفُوا حَوْلَ قَبْرِهِ في أرْضِ بَابِلَ، وجَزِعُوا عليْهِ فَلمّا رَأى ابْلِيْسُ جَزَعَهُم عَليْهِ ، تَشَبَّه في صُوْرَةِ إنْسَانَ ثمّ قَالَ: إنّيْ أرى جَزعَكُم عَلَى هَذا الرَّجلِ ، فَهْل لَكُم أنْ أصُوِّرَ لكُم مِثْلَهُ فيَكونُ في نَادِيْكُم ، فتَذْكُرْونَهُ . قَالُوا : نَعَمْ . فصَوَّرَ لهُم مِثْلَهُ قالَ: وَوَضَعُوه في نَادِيهِمْ ، وَجَعلُوا يَذكُرونَهْ .

فَلَمَّا رَأَى مَا بِهْمَ مِنْ ذِكْرِهْ ، قَالَ لَهُمْ : هَلَّ لَكُمْ أنْ أجْعَلَ فِي مَنْزِلِ كَلِّ رَجُلٍ مِنْكُمَ تِمْثَالاً ، فَيَكُونَ لَهُ في بَيْتِهِ فَتَذكُرُونَهُ ، قَالُوا نَعمْ .

قَالْ فَمَثّلَ لِكُلِّ أهْل بَيْتٍ تِمَثالاً مِثْلهْ ، فَاقْبَلوا فَجعلُوا يَذْكُرُونَهُ بهْ ، قَالْ: وأدْرَكَ أبْنَاؤهُم ، فَجعلوا يَرَوْنَ مَا يَصْنَعُونَ بِهْ ، قَالْ: وَتَناسَلُوا وَدَرسَ أمْرُ ذِكْرِهْمَ ايَّاهْ ، حَتَّى اتَّخَذُوهُ إلهاً يَعْبُدُونَهُ مِنْ دونِ اللّهِ ، وَأوْلادُهُمْ ، كَانَ أوَّلَ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللّه وُدُّ الصَّنَمُ الَّذِي سَمَّوْهُ وَدًّا ا هـ .

وَعَنْ هَذَا انْتَشَرتَ الْوَثَنِيَّةْ ، وَاسْتَفْحَلَ أمْرُهَا في كُلِّ زَمَانٍ وَمكَانْ ، وَفي هَذا التَّصْويْرِ مَعْنَىً في غَاية القْبُحِ وَالْبَشَاعَةْ ، وَهْوَ التَّشَبُّه بِالخَالِقِ الْحَكِيْم ، فَإنَّ الْمُصَوِّرَ بِيَدِهِ أوْ بآلَةَ ، يَرْسِمُ الصُّوْرَة رَسْماً يُشْبِهُ الحَقِيْقَةَ ، وَلِذَا « يُقَالُ لِلْمُصَوِّرِيْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةْ : أَحْيُوا مَا خَلَقْتُم » ، وَيُكَلِّفَ أنْ يَنْفَخَ فِي الصُّوْرَةِ الرُّوُحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ أبَدا ، فَيَسْتَمِرُّ الْعَذابْ .

وَإلَيْكَ الأدِلَّةُ الدَّالَةُ عَلَى تَحْرِيْمِ التَّصْوِيْرِ ، وَمَشْرُوْعِيَّـةِ طَمْسِ الصُّوْرِ ، سَوَاءً كَانَ مُجَسَّدَةً أوْ غَيْرَ مُجَسَّدَةْ ، وَفِي عَمَلِها الْوَعِيْدُ الشَّدِيْدُ لِلْمُصَوِّرِيْن ، والاْخْبَارُ بأنَّ الْمَلائِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيْتاً فِيه صُوْرَة .

وأنّ التَّصْوِيْرَ مِنْ سُنَنِ النَّصارَى .

قَالَ اللّهُ تَعالى ﴿ إنَّ الَّذِين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا ﴾ قال عِكْرِمَـة : هُمُ الّذِينَ يَصْنَعُونَ الصُّوَرْ .

وَعَنْ أبِيَ هُرَيْرَة رَضْيَ اللّه عَنْه ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْه وَسَلّم « قَالَ اللّه تَعالى وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخلْقِي ، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً ، أوْ لِيَخْلُقوا حَبَّةً ، أوْ لِيَخْلقوا شَعِيْرَةً » أخْرَجَاهْ .

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضْيَ اللّهُ عَنْهُما ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى اللّهُ عليهِ وسَلّمَ يقولْ « كُلُّ مُصوِّرٍ في النّارْ ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُوْرَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ فَيُعَذّبُهُ في جَهَنَّمْ » .

وعَنْهُ قَالْ: سَمِعْتُ رَسْولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عليهِ وَسلم يَقُولْ « مَنْ صَوَّرَ صُوْرَةً في الدّنْيا ، كُلِّفَ أنْ يَنْفخَ فِيْهَا الرّوْحَ يَوْمَ القِيَامَة ، وَلَيْسَ بِنَافِخْ » مُتّفَقٌ عَلَيْه .

وَعَنْ عائشةَ رَضْيِ اللّهُ عَنْهَا قَالَتْ : دَخَلَ عَليَّ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللهُ عليهِ وَسَلّمْ ، وأنّا مُسْتَتِرَةُ بِقرامٍ فِيْهِ صُوْرَةٌ ، فَتَلَّوَن وَجْهُ رَسْولِ اللّه صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلمْ ، ثُمَّ تَنَاوَلَ السّتْرَ فهَتَكَهُ ثُمَّ قَالْ « إنَّ مِنْ أشَدِّ النّاسِ عذَاباً يَوْمَ القِيْامَةْ الّذِيْنَ يُشَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللّهْ » رَوَاهْ مُسْلِمُ وَالنَّسائِي ، وهَذا لَفْظُ مُسْلِمْ .

وَعَنْهَا رَضْيَ اللّهُ عَنْهَا ، أنها أخْبَرَتْـهُ أنَّها اشْتَـرَتْ نَمْرُقَـةً فِيْها تَصَاوِيْرِ ، فَلَمَّا رآها رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمُ قَامَ على الْبَابْ ، فلَمْ يَدْخُلْ ، فَعرفْتُ في وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةْ ، قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللّهْ أتوبُ إلى اللّه وإلى رَسُولِهْ ، مَاذا أذنَبْتُ ؟ قالْ « مَا بَالُ النّمْرُقَةْ ؟ » فَقَالتْ : اِشْتَرَيْتُهَا لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا وَتَوسَّدَها ، فقَاَل رَسُولَ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلم « إنَّ أصْحَابَ هَذِهِ الصّوُرِ يُعَذّبُونَ يَوْمَ القِيَامَةْ ، وَيُقَالُ لَهُمْ ، أحْيوا مَا خَلقْتُمْ » .

وَقَالْ « اِنَّ الْبَيْتَ الّذِي فِيهِ الصُّوَرْ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلائِكَةْ » رَواهُ مَالِك والشّيْخانْ ، وفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِي : أنَّ النَّبيَّ صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلّم لَمَّا

رَأى التَّمَاثِيْل قَامَ بَيْنَ البَابَيْن، وجَعَلَ يَتَغَيّرُ وَجْهُهْ .

وَلِمُسْلِمِ عَنْ أبِي الْهَيَّاجِ قَالْ: قَال لِي عَلِيْ: ألا أبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عليهِ وَسلْمّ؟ أنْ لاَّ تَدَعَ صُوْرَةً إلاَّ طَمَسْتَها، وَلاَ قَبْراً مُشْرِفاً إلا سَوَّيْتَهْ .

وَعَنْ أبي طَلْحَةَ رَضْيَ اللّهُ عَنْهُ، أنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمْ قَالْ (لا تَدْخُلُ الْملائِكَةُ بَيْتَاً فِيْهِ كَلْبٌ وَلاَ صُوْرَةْ) مُتّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَأخْرَجَ التِّرمِذِي وَقَالْ : حَسَنٌ صَحِيْحٌ، عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْه، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةْ، لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعَانْ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إنّي وُكِّلْتُ بِثَلاثَةٍ، بِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللّهِ إلَهاً آخَرْ، وَبِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ، وَبِالْمُصَوِّرْ » وَفِي الْبُخَارِيْ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ نَهى عَنْ ثَمَنِ الدَّمْ، وَثَمَنِ الْكَلْبِ، وَكَسْبِ الْبَغْيْ، وَلَعَنَ آكِلَ الرِّبَا وَمُوْكِلَهُ، وَالْواشِمَةَ والمُسْتَوْشِمَةَ، والمُصَوِّرَ .

وَعَنْ أَبِيْ جُحَيْفَةَ، أَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ الْمُصَوِّرِيْنَ، رَوَاهُ الإمَامُ أحْمَد .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا اشْتَكى النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذَكَرَ بَعْضُ نِسَائِهِ كَنِيْسَةً يُقَالَ لَهَا مارِيَةُ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَأُمُّ حَبِيْبَةَ أَتَيا أَرْضَ الحَبَشَة، فَذَكَرَتَا مِنْ حُسْنِهَا وتَصاوِيْرِ فِيْهَا، فَرَفَعَ رَأسَهُ فَقَالْ « أولَئِكَ إذَا مَاتَ فِيْهِمَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدَاً، ثُمَّ صَوَّرُوا فِيْهِ تِلْكَ الصُّوَرْ، أُولَئِكَ شِرَارُ خَلْقِ اللهِ » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالْ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ « إنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَتَلَ نَبِياً أَوْ قَتَلَهُ نَبِي ، أَوْ قَتَلَ أَحَدَ وَالِدَيْهِ ، والمُصَوِّرُونَ ، وَعَالِمٌ لَمْ يَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِ » رَواهُ البَيْهَقِي في شُعَبِ الأيْمَانْ .

وَعَنْ علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالْ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جَنَازَةٍ ، فَقَالْ « أَيُّكُمْ يَنْطَلِقُ إلى المَدِينَة ، فَلاَ يَدَعُ بِهَا وَثَناً إلاّ كَسَرَهُ ، وَلاَ قَبْرَاً إلاّ سَوَّاهُ ، وَلاَ صُورَةً إلاّ لَطَّخَهَا » فَقَالَ رَجُلٌ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَانْطَلَقَ فَهَابَ أَهْلَ المدِيْنَةَ فَرَجَعْ فَقَالَ عَلِيٌّ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَا أَنْطَلِقُ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالْ : فَانْطَلَقَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالْ : يَا رَسُولَ اللهُ لَمْ أَدَعْ بِهَا وَثَناً إلاّ كَسَرْتُهُ ، وَلاَ قَبْرَاً إلاّ سَوَّيْتَه ، وَلاَ صُوْرَةً إلاّ لَطَخْتُها ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ عادَ لِصَنْعَةِ شَيءٍ مِنْ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » رَوَاهُ الإمَامُ أَحْمَد ، وَابْنُهُ عَبْدُ اللهِ في زَوَائِدِ المُسْنَد ، وَأبو دَاوُد الطَّيَالِسي في مُسْنَدِهِ .

وعَنْ أُسَامَةَ بْنُ زَيْدٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالْ : دَخَلْتُ عَلَى رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في الكَعْبَة وَرَأى صُورا ، قَالْ فَدَعَا بَدلْوٍ مِنْ مَاءَ ، فَأَتَيْتُه بِهْ، فَجَعَلَ يَمْحُوْهَا ويَقُوْلْ « قَاتَل اللّهُ قَوْماً يُصَوِّرُونَ مَا لاَ يَخْلُقُونَ » رواهُ أَبُو دَاود الطَّيالِسي في مُسْنَدِهِ باسْنَادٍ جَيِّدْ .

اللّهُمَّ وَفِّقْنَا لِحُسْنِ الاقْبَالِ عَلَيْكَ ، وَالتَّعَاوُنِ في طَاعَتِكَ ، وَالمُوَاظَبَةِ عَلَيْهَا ، وَالْمُبَادَرَةِ إلى خِدْمَتِكَ ، وَحُسْنِ الأَدَبِ في مُعَامَلَتِكَ ، والتَّسْلِيْمِ لِأمْرِكَ ، والرِّضَا بِقَضَائِكْ ، والصَّبْرِ عَلَى بَلاَئِكَ ، والشُّكْرِ لِنَعْمَائِكْ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِيْنَ

بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

(فَصْلُ فِيْمَا فِي الأَحَادِيْثِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْفَوَائِدْ)

فَفِي الْحَدِيْثِ الْأَوَّلِ مِنَ الْفَوَائِدِ (أَوَّلاً) تَحْرِيْمُ التَّصْوِيْرِ ، لِمَا فِيْهِ مِنْ الْمُضَاهَاةِ بِخَلْقِ اللهِ . (ثانياً) أَنَّهُ لَا أَحدَ أَلْأَمَ مِنَ الْمُصَوِّرْ (ثالثاً) التَّحْذِيْرُ وَالتَّنْفِيْرُ عَنْ التَّصْوِيْرِ (رَابعاً) أَنَّ الْمُصَوِّرِيْنَ عِنْدَهُمْ مِنْ قِلَّةِ الْحَيَاءِ ، وَسَخَافَةِ الْعُقُوْلِ ما لَا يُوْجَدُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ حَيْثُ أَنَّهُمْ بِفِعْلِهِمْ يُضَاهؤُنَ بَدِيعَ السَّمواتِ والأَرْضِ (خَامساً) تَحَدِّيْهِم في أَنْ يَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ حَبَّة ، وَبَيَانِ عَجْزِهِمْ وَحَقَارَتِهِمْ (سَادِساً) أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الصُّوْرَةِ الْمُجَسَّدَةَ ، وَغَيْرِ الْمُجَسَّدَة وَهْيَ الَّتِي لَا ظِلَّ لَهَا .

(وَالْعِلَّةُ) في تَحْرِيْمِ التَّصْوِيْرِ هِيَ الْمُضَاهَاةُ بِخَلْقِ اللّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ ، (وَالعِلَّةُ الثَّانِيَةُ) لِلتَّحْرِيْمِ هِيَ أَنَّ التَّصْوِيْرَ وَسِيْلَةٌ إلى عِبَادَةِ الصُّوَرْ ، كَمَا وَقَعَ لِقَوْمِ نُوح ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ المشْرِكِيْنَ والنَّصَارَى ، وَالْوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ المَقَاصِدِ ، وَلَهُ (عِلَّةٌ ثَالِثَةٌ) وَهْيَ التَّشَبُّهُ بِالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِيْنَ ، وَقَدْ ثَبتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ العِلَلِ الثَّلَاثِ تَكْفِي في تَحْرِيْم التَّصْوِيْرِ .

وَحَدِيْثُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيهِ دَلِيْلٌ عَلَى تَحْرِيْمِ التَّصْوِيْرِ ، وَأَنَّهُ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ لِلْوَعِيْدِ عَلَيْهِ بالنَّارْ ، وَأَنَّ التَّحْرِيْمَ عَامْ ، فِي كُلِّ صُوْرَةٍ مِنْ صُوَرِ ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ ، وَأَنَّهُ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُوْرَةٍ نَفْسٌ فَيُعَذِّبُهُ في جَهَنَّمَ، وَفِي

الحَدِيْثِ إثْبَاتُ الْبعْثِ وَالحِساب ، وَالْجزَاءِ عَلَى الأعْمَال وفي الحَدِيْثِ التَّحْذِيْرُ والتَّنْفِيْرُ عَنِ التَّصْوِيْرِ .

وَالحَدِيْثُ الَّذِي بَعْدَهُ فِيْهِ دَلِيْلٌ عَلَى تَحْرِيْمِ التَّصْوِيْرِ ، وَأَنَّهُ مِنَ الْكَبَائِرْ وأنَّ الْمُصوّرَ في الدُّنْيَا يُكَلَّفُ أَنْ يَنْفَخَ في الصُّوْرِ الَّتِي صَوَّرَهَا الرُّوْحَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَهَذَا الأمْرُ يُرادُ بِهِ إهَانَتَهُمْ ، وَتَعْجِيْزَهُمْ وَتَحْقِيْرَهُمْ ، وفي الْحَدِيْثِ إثْبَاتُ الْبعْثِ والحِسَابْ ، والْجزَاءِ عَلى الأعْمَالِ .

وحَدِيْثُ ابْنُ مَسْعُودٍ فِيْهِ دَلِيْلٌ أَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذاباً يَوْمَ القِيَامَةِ المُصوِّرُونَ ، وَدَلِيْلٌ عَلَى تَحْرِيْمِ التَّصْوِيْرِ، وَأَنَّهُ مِنَ الْكَبَائِرِ ، وَإِثْبَاتِ الْبعْثِ وَالحِسَابْ ، وَالجزاءِ عَلَى الأعْمَالِ

وَحَدِيْثُ ابْنُ عُمَرَ فِيْهِ دَلِيْلٌ عَلَى تَحْـرِيْمِ التَّصْوِيْـرِ ، وَأَنَّهُ مِنَ الكَبَائِرِ ، وَعَلَى اسْتِمْرَارِ تَعْذِيْبِ المُصَوِّرِيْنَ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُوْنَ عَلَى إحْيَاءِ الصّوَرْ الْمَطْلُوْبِ مِنْهُمْ إحْيَاؤُهَا ، وَإِثْبَاتُ الْبَعْثِ والْحِسَابْ ، والْجَزَاءِ عَلَى الأعْمَالِ .

وَحَدِيْثُ عائِشَة (أوّلاً) فِيْهِ دَلِيْلٌ عَلَى تَحْرِيْمِ التَّصْوِيْرِ ، يُسْتَفَادُ مِنْ إنْكَارِ النَّبيّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَصْبِ السِّتْر ، وَتَلَوُّنِ وَجْهِهِ ، وَهَتْكِهِ لَهُ ، وَمِنَ الْوَعِيْدِ الشَّدِيْدِ لِلْمُصَوِّرِيْنَ .

(ثَانياً) أَنَّهُ مِنَ الْكَبَائِرِ ، لِمَا جَاءَ فِيْهِ مِنَ الْوَعِيْدِ الشَّدِيْدِ .

(ثالثاً) أنَّ الْمُصَوِّرِيْنَ مِنْ أشَدِّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ .

(رابعاً) أنَّ عِلَّةَ التَّحْرِيْمِ هِيَ الْمُضاهَاةُ بِخَلْق اللّهِ .

(خامساً) أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ تَكُـونَ الصُّورَةَ مُجَسَّـدَةً أَوْ غَيْرَ مُجَسَّدَةْ ، لِأَنَّ الّتِي أنْكَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيرُ مُجَسَّدَةْ .

(سَادساً) الْغضَبُ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْمُنْكَرْ وَتَمعُّرِ الْوَجْهِ .

(سابعاً) كَرَاهَةُ دُخُولِ البَيتِ الَّذِي فِيْهِ صُوْرَةْ .

(ثامناً) إنْكَارُ المُنْكَرْ بِحَسَبِ الاسْتِطَاعَةِ والْقُدْرَةِ ، فَمَنْ قَدِرَ بِيَدِهِ . فَهْوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ ، كَمَا فَعَلَ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هَتَكِ السِّتْرِ بِيَدِهِ الْكَرِيْمَةِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ .

(تَاسعاً) أَنَّهُ يُكَلَّفُ أَنْ يَنْفخَ الرُّوْحَ فِيْهَا ، وَلَيْسَ ذلِكَ فِي قُدْرَتِهِ .

(عاشراً) دَلِيْلٌ عَلى اسْتِمْرَارِ عَذَابِ الْمُصَوِّرِ ، وَإِثْبَـاتِ الْبَعْثِ وَالحِسَابِ ، والجَزَاءِ عَلَى الأَعْمَالِ .

(حادِي عَشَرْ) أنَّ البَيْتَ الّذِي فِيْهِ صُوْرَةٌ لَا تَدْخُلُهُ الملائِكَةُ .

وَحَدِيثُ أَبِي الهَيَّاجِ فِيهِ دَلِيْلٌ عَلَى طَمْسِ الصُّـوَرِ ، وَهَدْمِ الْقُبُورِ الْمُشَرَّفَةِ ، وَفِيهِ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ المُجَسَّدَةِ وَغَيْرِهَا ، وفِيهِ دَلِيْلٌ عَلَى إنْكَارِ الْمُنْكَرِ ، والرَّدِّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ المَنْعَ خَاصٌّ بِالصُّوَرِ الْمُجَسَّدَةِ فَإِنَّ الصُّوْرَةَ الَّتِي أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَحْوِهَا غَيْرُ مُجَسَّدَةٍ .

وَحَدِيْثُ أَبِي طَلْحَةَ فِيْهِ دَلِيْلٌ عَلى أَنَّ الْمَلائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتَاً فِيْهِ صُوْرَةٌ وَلَا كَلْبٌ ، وَالْمُرَادُ الْمَلائِكَة الّـذِيْنَ يَنْزِلُـونَ بِالـرَّحْمَةِ والْبَـرَكَةِ الْمُسْتَغْفِـرُونَ لْلعَبْدِ ، الْمُصَلّونَ عَلَيْـهِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا فَـوَاتَ هَذِهِ

الْغَنَائِمْ ، لَكَانَ الْعَاقِلُ يَحْزَنُ لِذَلِكَ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ هُنَاكَ آثَامٌ ، وَسَبَبُ إِمْتِنَاعِ دُخُوْلِ الْمَلاَئِكَةِ الْبَيْتَ الَّذِي فِيْهِ صُوْرَةٌ ، كَوْنُها مَعْصِيَةً فاحِشَةً ، وفِيْهَا مُضَاهَاةً بِخَلْقِ اللهِ ، وَأَمَّا الكَلْبُ فَلِكَوْنِهِ نَجِساً ، وَلِكَثْرَةِ أَكْلِهِ النَّجَاسَةَ ، وَلِقُبْحِ رَائِحَتِهِ ، وَلأَنَّهُ مَنْهِيٌّ عن اتِّخَاذِهَا إلا لِحَرْثٍ أَوْ صَيْدٍ أَوْ مَاشِيَةٍ .

وَحَدِيْثُ أَبِي هُرَيْرَةَ « يَخْرُجُ عَنَقٌ مِن النَّارِ » فِيْهِ دَلِيْلٌ عَلَى تَحْرِيْمِ التَّصْوِيْرِ ، وأنهُ مِن كَبَائِرِ الذُنُوْبِ، لِشِدَّةِ الوَعِيْدِ ، وإِنْ مَصِيْرَ المُصَوِّرِيْنَ إلى النَّارِ ، مَعَ الجَبَابِرَةِ والمشْرِكِيْنَ ، وأَنَّهُ لا فَرْقَ بَيْنَ مَا لَهُ ظِلٌّ وما لا ظِلَّ لَهُ ، وأنَّ هَذَا الجُزءَ الخَارِجَ مِن النارِ المُوَكَّلِ بالمُصَوِّرِ والمُشْرِكِيْنَ والجَبَّارِ لَهُ عَيْنَانِ ولِسَانٌ ، وأنهُ يَنْطِقُ وفيهِ دَلِيْلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ ، وعَلَى البَعْثِ والحِسَابِ ، والجَزاءِ عَلَى الأعمالِ ، واثْبَاتِ النارِ ، ثم تَأَمَّلْ واسْأَلْ رَبَّكَ العَافِيَةَ كَيْفَ قَرَنَ المُصَوِّرَ بالجَبَّارِ العَنِيْدِ ، وبِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ ، تَفْهَمُ كَيفَ قَدْرِ المُصَوِّرِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ عَذَابُهُ ، والحَدِيْثُ الذِي سَبَقَ تُؤَكِّد عِبارَتُهُ إن أَشَدَّ الناسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ المُصَوِّرُوْنَ ، والحَدِيْثُ السابِقُ أيضاً يُفْهِمْكَ أَنَّ الذنبَ كَبِيْرٌ جِداً ، ولِذَلِكَ يُكَلَّفُ فاعِلُهُ وَهُوَ في النارِ أَنْ يَنْفَخَ فِيْمَا صَوَّرَ الرُّوْحَ ، ولَيْسَ في إمْكَانِهِ ، فَيسْتَمِرُ التَّبْكِيْتُ والتَّعْذِيْبُ . كَمَا وَرَدَ في خَائِنِ الأَمَانَةِ والمُتَحَلِّمِ بِمَا لَمْ يَرَ من أَنَّهُ يكلف إخراجها بعد سقوطها في النار .

والحَدِيْثُ الذي بَعْدَهُ فِيْهِ لَعْنُ آكِلِ الرِّبَا ومُوْكِلِهِ ، والوَاشِمَةِ والمُسْتَوْشِمَةِ ، والمُصَوِّرِ ؛ وفيه دَليلٌ على تَحرِيْمِ التَّصْوِيْرِ ، وأَنَّهُ مِن الكبائر ، لِأَنَّ اللَّعنَ لا يَكُونُ إلَّا على كَبِيْرَةٍ ، وفيه شِدَّةُ الوَعِيْدِ

لِلْمُصَوِّرِيْنَ ، لأنَّ اللَّعْنَ هُوَ الطَّرْدُ والإِبْعَادُ مِن رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى ، وفِيهِ أَنَّ التَّحْرِيْمَ عَامٌ لِمَا لَهُ ظِلٌ وَلِمَا لا ظِلَّ لَهُ مِن صُوَرِ ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ .

وَكَذَا حديثُ أَبي جُحَيْفَةَ فِيهِ لَعْنُ المُصَوِّرِ ، وانَّ التَّصْوِيْرَ مِن الكَبَائِرِ لِلْوَعِيْدِ الشَّدِيْدِ .

وحَدِيثُ أُمِّ سَلَمَةَ وأُمِّ حَبِيْبَةَ وَمَا بَعْدَهُ وَاضِحُ المَعْنَى .

قَالَ الأمَامُ النَّوَوِيُّ رحِمَه اللهُ : قَال أصحَابُنَا وغيرُهُمْ مِن العلماء : تَصْوِيْرُ صُورَةِ الحَيَوَانِ حَرَامٌ ، شَدِيْدُ الحُرْمَةِ ، وهُوَ مِن الكَبَائِرِ ، لأنهُ مُتَوَعَّدٌ عَلَيْهِ بِهَذَا الوَعِيْدِ الشَّدِيْدِ، المذكورِ في الأحَادِيْثِ ، وَسَواءٌ صَنَعَهُ بِمَا يُمْتَهَنُ أو بِغَيْرِهِ، فَصَنْعَتُهُ حَرَامٌ بِكُلِّ حَالٍ ، لِأَنَّ فِيْهِ مُضَاهَاةٌ بِخَلْقِ اللهِ ، وَسَوَاءٌ مَا كَانَ فِيْ ثَوْبٍ أو بِسَاطٍ ، أو دِرْهَمٍ أَوْ دِيْنَارٍ ، أَوْ فِلْسٍ أَوْ إنَاءٍ ، أَوْ حَائِطٍ أَوْ غَيْرِهَا ، قال : وَلَا فرقَ في هذَا كُلِّهِ بَيْنَ مَا لَهُ ظِلٌّ وما لا ظِلَّ لَهُ ، هَذَا تَلْخِيصُ مَذْهَبِنَا في المَسْأَلَةِ ، وَبِمَعنْاهَا قَالَ جَمَاهِيْرُ العُلَمَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِيْنَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ وَهُوَ مَذْهَبُ الثَّوْرِيّ وَمالِكٍ وأبِي حَنِيْفَةَ وغَيْرِهِمْ .

شِعْراً :

فَلَا تَرْجُ إلَّا اللهَ في كُلِّ حَادِثٍ
فَأَلْقِ إليهِ بَثَّ شَكْوَاكَ تُحْمَدِ
لَهُ المُلْكُ بالأَكْوَانِ لَا بِمُؤَآزِرٍ
وَلَا بِنَصِيْرٍ في الدِّفَاعِ لِمُعْتَدِ
قَرِيْبٌ ولَكِنْ بالذُّنُوْبِ تَبَاعَدَتْ
مَسَائِلُنَا عَنْ رَوْضِ إحْسَانِهِ النَّدِي

فَقُمْ قَارِعَاً لِلْبَابِ والنَّابِ نَادِمَاً
عَلَى ما جَرَى وَارْفَعْ دُعَاءكَ يَصْعَدِ
وَقُمْ سَائِلاً وَالدَّمْعُ في الخَدِّ سَائِلٌ
تَجِدْ مَا تَشَا مِن لُطْفِهِ وَكأنْ قَدِ
وَقُمْ زُلَفاً في اللَّيْلِ إن نَشرَ الدُجَى
جَنَاحَ غُدافٍ يُلْبِسُ الكَوْنَ عَن يَدِ
وَرُدَّ ظَلاَمَ اللَّيْلِ بالذِّكْرِ مُشْرِقاً
فَقَدْ فَازَ مَن بالذِكْرِ يَهْدِي وَيَهْتَدِي
وَأَمَّا بَنُو الدُنْيَا فَرَ تَرْجُ نَفْعَهُمْ
فَلاَ مُنْجِدٌ فِيْهِمْ يُرَجَّى لِمُجْتَدِ
فَإِنِّيْ تَتَبَعْتُ الأنَامَ فَلَمْ أَجِدْ
سِوَى شَامِتٍ أَوْ حَاسِدٍ أَوْ مُفَنِّدِ
وَقَدْ رَضَعُوا ثَدْيَ المَهَابَةِ كُلُّهُمْ
وَكُلٌ بذَيْلِ الذُّلِ أصْبَحَ مُرْتَدِ
فَلَم أَرَ أَرْمَى بالسِّهَامِ مِن الدُعَا
إلى مَقْتَلِ الأعْدَاءِ مِن قَوْسِ مِذْوَدِ
وَعَن مَا قَلِيْلٍ يُدْرِكُ السَّهْمُ صَيْدَهُ
فَكَمْ صَادَ سَهْمُ اللَّيْلِ مُهْجَةَ أَصْيَدِ
وأُوْصِيْكَ بالتَّقْوَى لِرَبِّكَ إنَّهُ
سَيَحْمِدُ تَقْوَاهُ المُوفَّقُ في غَدِ
وَخُذْ لَكَ مِن دُنْيَاكَ زَاداً فإنَّمَا
أقَامَكَ في الدُّنْيَا لأَخْذِ التَّزَوُدِ

وَعَنْ مَا قَلِيلٍ قَدْ أَنَاخَ رِكَابُنَا
بِقَصْرٍ خَلِيٍّ مُظْلِمِ الجَوِّ فَدْفَدِ
فَإِنَّ اللَّيَالِي كَالمَرَاكِبِ تَحْتَنَا
تَرُوحُ بِنَا فِي كُلِّ حِينٍ وَتَغْتَدِي
فَيَا حَبَّذَا جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا
تَحُطُّ رِحَالَ القَادِمِ المُتَزَوِّدِ
وَلَيْسَ لَنَا إلاَّ الرَّجَاءُ فَإِنَّهُ
يُبَلِّغُنَا مِن فَضْلِهِ خَيْرَ مَقْعَدِ

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم .

مَوْعِظَةْ

خَطَبَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ في خُطْبَتِهْ : اتَّقُوا اللّه عِبَادَ اللّهْ ، وَبَادِرُوا آجالَكُمْ بأعْمَالِكُمْ ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ - أيْ اشْتَرُوا مَا يَبْقَى مِنَ النّعِيْمِ الأَبدِيْ ، مِمَّا لاعَيْنٌ رَأتْ ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خطر على قَلْبِ بَشَرْ ، بِمَا يَفْنِي مِنْ لذّة الْحَيَاةِ الدّنْيَا ، وَشَهَواتِهَا الزّائِلَةْ ، وَترحلَوُا فَقَدْ جدّ لَكُمُ الانْتِقَالْ - أيْ حُثِثْتُمْ وَأُزْعِجْتُمْ إلى الرَّحِيْل - وَاسْتَعِدّوا فانْتَبِهُوا وَاعْلَمُوا أنّ الدُّنْيا لَيْسَتْ بِدَارِ إقامةٍ ، فَاسْتَبْدِلُوهَا بِدَارِ الآخِرَةْ فَإنّ اللّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدَى - أَيْ مُهْمَلِيْن ، بلا رَاعٍ يزْجُرُكُمْ عَمَّا يَضُرُّكُم ، وَيسُوقَكُمْ إلى مَا يَنْفَعُكُمْ - وَما بَيْنَ أحَدِكُمْ وَبينَ الْجَنّة أو النَّارِ إلاّ الْمَوتُ أنْ يَنْزِلَ بِهْ ، وَإنَّ غايةً هِيَ الأَجَلُ ، تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ ، لَجَدِيْرَةٌ بِقِصَرِ

الْمُدَّةِ ، وَإِنَّ غَائِبَاً يَحْدُوهُ الْجَدِيْدَانِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الأَوْبَةِ ، وَإِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بالْفَوْزِ أَوِ الشَّقْوَةِ ، لَمُسْتَحِقٌّ لِافضلِ الْعُدَّةْ فَتَزَوَّدُوا في الدُّنْيَا مِنَ الدّنْيا ، مَا تُحْرِزُون به أَنْفُسَكُم غداً ، فاتَّقى عَبْدٌ رَبَّهُ ، نَصَحَ نَفْسَهُ ، قَدَّمَ تَوْبَتَهُ وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ ، فَإِنَّ أجلَهُ مَسْتَورٌ عَنْهُ ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ ، والشَّيْطانُ مُوَكّلٌ بِـه ، يَزَيْنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا وَيمَنِّيْهِ التَّوْبَـةَ لِيُسَوفِهَا حَتَّى تَهْجُمَ مَنِيَّتَهُ عَلَيْه ، أَغْفَلُ مَا يَكُونَ عَنْهَا ، اللّهُمَّ اجْعَلْنا مِمَّنْ لا تُبْطِرُهُ النَّعْمَةُ ، وَلَا تُطْغِيْهِ ، وَلاَ تُسْدِلُ عَلَى بَصِيْرِتِهِ حُجُبَ الْغَفَلةِ عَمَّا هُوَ صَائِرٌ إليْه ، وَلا تَقْصُرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبّهِ غَايَةٌ ، وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوتِ نَدَامَةٌ ، وَاغْفِـرْ لَنَا وَلِـوَالِدَيْنـا .وَلِجَمْيعَ الْمُسْلِمين بِـرَحْمَتِكَ يـا أَرْحَمَ الرّاحِمين ، وصَلّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجْمعين .

فَصْل فِي تَحْرِيْمِ الرِّشْوَةْ

اَعْلَمْ وَفَّقَنا اللهُ وايَّاكَ ، وَجَمِيْع الْمُسلِمِيْن ، لِما يُحِبُّهُ وَيَرْضَاه ، أنّ الرِّشْوَةَ دَاءٌ مِنْ أخْطَرَ الأَدْوَاءِ فَتْكَاً بالْمُجْتَمَعاتِ ، ذَلِكَ أَنَّها لَا تَشِيْعُ في مُجْتَمع ، إلَّا تَداعَتْ أرْكانُهْ ، وَهَبَطَ في مُسْتَواهُ الْخُلُقي إلى الحَضِيضِ، وَسَيْطَرَتْ فِيْهِ الْمَادَّةُ الْجَشِعَةُ عَلَى الْحُكّام والمَحْكُومِيْن ، فَيُصبِحُ صَاحِبُ الْحَقّ في قَلْقٍ ، لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ الْحُصُولُ عَلىَ حَقّهِ إلاَّ إذَا قَدَّمَ جُعْلاً لِمَنْ عِنْدَهُ ، وَسِيْلَةً لِلْحُصُولِ عَلَيْه .

وَلا تَرَى صَاحِبُ ظَلاَمَةٍ يَطْمَعُ في رَفْع ظَلَامَتِه عَنْه ، إلَّا أَنْ يَرْشِي مَنْ لَهُ قَدْرَةٌ على رَفْعِها ، وَقد يَبْلُغُ الأَمْرُ بالْمُرتَشِي إلى أنْ يُمَاكِسَ الرَّاشِي في مِقْدَارِ الرِّشْوَةِ ، وَرُبَّما كَان ذَلِك جَهْراً ، بِلا حَياءٍ وَلا خَجَلْ .

وَلَا تَسْأَلْ عَنْ مَا يَنْتُجُ عَنْهَا مِنَ الأَضْرَارِ ، الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ، مِنْ ضَيَاعِ الْكَرَامَةِ ، وَهَضْمِ الْحُقُوقِ ، وَقَبْرِ النُّبُوغِ وتلاشِي الْجِدِّ فِي الْعَمَلِ ، وَاضْمِحْلَالُ الْغَيْرَةِ عَلَى أَداءِ الْواجِبِ ، وتَرْكِ العَامِلِيْن ، كُلُّ ذَلِكَ يَذْهب، وَلَا تَجِدْ لَهُ أَثَرًا ، وَيَحِلُّ مَكَانَهُ الخُمُولُ وَالضَّعْفُ ، وَالْغِشُّ وَالْخِيَانَةْ ، وَمَا إلى ذَلِكْ .

إذا رُشْوَة مِن سُورِ بَيْتٍ تَقَحَّمَتْ
لِتَسْكُنَ فِيه والأَمَانَةُ فِيهِ
سَعَتْ هَرَباً مِنْهُ وَوَلَّتْ كَأَنَهَا
حَلِيْمُ تَوَلَّى عن جَوابِ سَفِيهِ

وَتُصَابُ مَصَالِحُ الأَمةِ بالشَّلَلْ ، وَعُقولِ النَّابِغين بالْعُقْمِ وَمَواهَبُ المُفَكِّرِيْنَ بالجُمُودِ ، وَعَزائِمُ المُجِدِّيْنَ وَهِمَهُمْ بَالخَورِ وَالْفُتُورْ ، وَأَيُّ خَيْرٍ يُرْجَى مِنْ يَوْمٍ يَكُونُ مِقْيَاسُ الكَفَاءَة فِيْهم مَا يَتَقَرَّبُ الْمَرْؤوسُ بهِ مِن قُرابَيْن ، وَأيُّ ثَمرةٍ مِنْ عَمَلٍ لا يُوْصَلَ إِلَيْهِ إلاّ بالرُّشَا وَالمطامِعْ .

وَقَدْ تُلْبَسُ الرِّشْوَةُ ثَوباً مُسْتَعاراً وَلَكِن يَشِفُّ عَنْ حَقِيْقَتِها كَمَا قِيْل :

ثَوْبُ الرِّيَاءِ يَشِّفُ عَمَّا تَحْتَهُ
فَإذَا التَحَفْتَ بِه فَإنَّكَ عَارِي

فَقَدْ تَكُونُ الرِّشْوَةُ في صُوْرَةِ تُحْفَةٍ أوْ هَدِيَّة ، أوْ مُحابَاةٍ في بَيْعٍ أوْ شِرَاء ، أوْ إبْرَاءٌ مِنْ دَيْن ، أوْ يُشْركهُ فى أرْض أوْ يَتوسّطُ له في شَيءٍ مِنْ ذلِكْ ، وَنَحْوِ ذَلِكْ وكُلُّ هَذِهِ الحِيَلِ لا تُزِيْلُ الحَقَائِق.

وَهْي فِي جَمِيْعِ الصُّوَرِ رُشْوَةْ ، بَشِعَةُ الْمَنْظَرُ ، سَيِّئَةُ الْمَخْبَرْ كَرِيْهَةُ الرَّائِحَةِ ، مُلَوِّثَةٌ لِلشَّرفِ ، مُضَيِّعَةٌ لِلْعِفَّةِ وَالكَرَامَةِ وَالْمَهَابَةِ وَلِذا كَانَ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي مَلْعُونَيْن ، لِأَنَّ الرَّاشِي يُسَاعِدُ الْمُرْتَشِي عَلى تَضْيِيعِ الْحُقوقْ ، وَيُسَهِّلُ لَهْ أَكْلَ أَمْوَالِ النّاسِ بالْبَاطِلْ ، وَيُنَمِّي فيهِ الْخُلُقَ الذَّمِيْم ، وَيُيَسِّرُ لَهُ التَّحَكُم فِيْمَا هُوَ حَقٌّ لِغَيْرِهْ ، فَيَسْتَمْرِىءُ هَذا الْمرْعى الْوَخَيْم ، وَالمُرْتَشِي قَدْ أَخَذَ مَالَ غَيْرِه ، وَمَنَعَ الحَقَّ عَنْ صَاحِبِه حَتَّى يَأخُذُ الرِّشْوة مِنْهُ .

والرُّشْوَةُ الْمُحَرَّمَةُ هَيِ مَا تُوَصِلُ بِهِ إلى إبطالِ حَقْ ، أَوْ تَمْشِيَةُ باطِلْ ، أَمَّا مَا وَقعَ لِلتَّوَصُّلِ لِحَقٍ ، أوْ دَفْعِ ظُلْم ، فَلَيْس بِرُشْوَةٍ مَنْهِيَّةٍ ، قَال في الْمُغْنِي : فأمَّا الرُّشْوَة في الْحُكْمِ ، ورُشْوَةُ الْعامِلِ ، فَحَرامٌ بِلا خِلاَفْ .

قَالَ تَعالى ﴿ أَكَّالُون لِلسُّحْت ﴾ قَالَ الْحَسنُ وَسَعِيْدُ بْنُ جُبَيْر في تَفْسِيْره : هُوَ الرِّشْوَة . وَقَال : فَأَمَّا الرَّاشِي ، فإنْ رَشَاهُ لِيَحْكُمَ لَهُ بِبَاطِلْ ، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ حَقّا ، فَهْو مَلْعونْ ، وَإِنْ رَشَاهُ لِيَدْفَعَ ظُلْمَهُ ، وَيجْزِيَهُ عَلى وَاجِبَه ، فقَدْ قَالَ عَطَاءُ وَجابِرُ بنُ زَيْد وَالْحَسَنْ : لَا بَأس أنْ يُصَانِعَ عَنْ نَفْسِهِ : قَال : وَلإنَهُ يَسْتَنْقِذُ مَالَهُ ، كَمَا يَسْتَنْقِذُ الرَّجُلَ أسِيْره . انتهى .

قَالَ اللّه تَعالى ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أمْوَالَكُم بَيْنَكُم بالباطِل ، وَتُدلُوْا بَها إلى الحُكَّامِ ، لِتَأكُلُوا فَرِيْقاً مِن أمْوَال الناس بالاثمِ وَأَنْتُمْ تعلمون ﴾ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ قَال رَسُولُ اللّه صَلَّى الله عليه

وسلم « لَعَنَ اللهَ الرّاشِيَ والمرْتَشِيَ في الحُكْم » أَخْرَجُه التّرمذي ، وقَالْ :حَدْيْثُ حَسَنْ . أمَّا الْحَدِيْثِ فوَجْه الاسْتِدْلاَلُ بِه عَلَى تَحْرِيْم الرِّشْوَةِ وَاضِحْ ، إذْ لاَ يَسْتَحِقّ لَعْنَةَ اللّهِ إلاَّ فاسِقٌ أوْ كَافِرْ ، وأمَّا الآيةُ فقَيلَ اِنَّ مَعْنَاها : لاَ تُدلُوا بِأمْوَالِكُمْ إلى الْحَكَّامْ ، أيْ لا تُصَانِعُوهُم بِهَا ، وَلاَ تَرْشُوُهُمْ لِيَقْطَعُوا لَكُمْ حَقّاً لِغيْرِكُمْ ، وَاِنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنهْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ ، فالآيةُ تَنِهْي المسلمينَ عنْ أَن يَأكُلوا أمْوالَهُمْ بيْنَهُم بالباطِلْ ، والرُّشْوَةُ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ هَذا الأَكْلِ الْمنْهِي عَنْهُ .

شِعْرا :

وَالِي اليَقِيْنَ وَعـادِ الشَّـك أجْمَعَـهُ
عَـظِّمْ إلهكَ لا تَـرْكَـنْ لِمَنْقـودِ

فـالخَـطْبُ عَمَّ وَصـارَ الناسُ كُلُهم
مُـعَـظِمِيـنَ لِبِـدْعِـيٍ وَمَـرْدُوْدِ

هَـذَا الـزَّمَـانُ الـذي كُنَّـا نُحَـاذِرُهُ
في قولِ كَعْبٍ وفي قولِ ابن مَسْعُودِ

فَصَـاحِبُ الـدِّيْنِ مَمْقُـوتٌ وَمُنْكَتِمٌ
وصـاحبُ الفِسْقِ فِيهمِ غيرُ مَظْهُودِ

كُـلٌ يُقَلِدُ فـي الأهـواءِ صَـاحِبَـهُ
حتى البـلادَ لهَـا شَـأنٌ بـتَقْلِيْـدِ

والأمـرُ بالعُـرْفِ ثم النَّهْيُ عن نُكُرٍ
صَـارَا لَـدَيْنَـا بـلا شَـكٍ كَمفْقُـودِ

إذَا نَصَحْتَ لِشَخْصٍ قَالَ أنْتَ كَذَا
فِيكَ العُيوبُ لَدَيْنَا غَيْرَ مَحْمُودِ
إذَا رَأوا صَالِحاً يَدْعو لِنَهْجِ هُدىً
تأنَّبُوهُ بإيْذَاءٍ وتَبْعِيْدِ
حُكْمُ القَوانِينِ قَالُوا فيه مَصْلَحةٌ
وفي الرِّبَا سَاعَدْتَ شِيْبٌ لِمُوْلودُ
أهْلُ الهَوى والرَّدَى مَالُوا لِمُحْدَثَةٍ
قالوا الشَّرِيْعَةَ لا تَكفِي لمَقْصُودِ
قُولُوا لَهَمْ قوْلَ نُصْحٍ مَا به شَطَطٌ
مَقَالَةٌ صَاغَهَا حَبْرٌ بِتَسْدِيدِ
مُخَالِفُ الشَّرْعِ لَمْ يَظْفُرْ بحَاجَتِهِ
لَو نَالَ خَيراً قُصَارَاهُ لِتَبْدِيدِ
إنْ دَامَ هذَا ولم يَحْصُلْ لهَ غِيَرٌ
لَمْ يُبْكَ مَيْتٌ ولَمْ يُفْرَحْ بِمولُودِ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

« فصل »

قَالَ الْعُلَماءُ : الرَّاشِي هُوَ الّذِي يُعْطِي الرِّشْوَةُ ، وَالمُرْتَشِي هُوَ الّذِي يَأْخُذُ الرِّشْوَة ، قالُوا : وانَّما سُمِّي مِنْحَةُ الْحُكَامِ رِشْوة لأَنَّها وُصْلَةٌ إلى الْمَقْصُودْ ، بِنَوْعٍ مِنَ التَّصْنِيْع ، مأْخُوذٌ مِنَ الرِّشاء ، وهْوَ الْحَبلُ الّذِي يُتَوَّصل بِهِ إلى نَزْحِ المَاءِ .

قَالَ بَعْضُهُمْ :

وَلِيْتُ الحُكْمَ خمساً بَعْدَ عَشْرٍ
لَعَمْرِي والصِّبَا في العُنْفُوانِ
فَلَمْ تَضِعِ الأعَادِي قَدْرَ شَانِي
ولا قَالُوا : فُلَانٌ قَدْ رَشَانِي

وَقَدْ رُوِيَ في حَدِيْث آخَرْ : أنَّ اللَّعْنَة عَلى الرَّائِش أيْضاً ، وَهْوَ السَّاعِي بَيْنَهُمَا ، وَهْوَ تَابعٌ لِلرَّاشِي في قَصْدِهْ ، إنْ قَصَدَ خَيْراً لَم تَلْحَقُه اللَّعْنَةِ ، وَإلَّا لَحِقَتْهُ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوى أبُو دَاوُدَ في سُنَنِهْ ، عَن أبي أمَامَةَ البْاهِلِيْ رَضْيَ اللهُ عنهُ ، قَالَ قَالَ رسوُلُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « مَنْ شَفَعَ لِرَجُلٍ شَفَاعَةً ، فأهْدَى لَهُ هَدِيَّةْ ، فَقَدْ أتى بَاباً مِنْ أبْوابِ الرِّبَا » وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالْ : السُّحُتْ أنْ تَطْلُبَ لأخِيْكَ الْحَاجَةَ ، فَتَقْضِيَ فَيُهْدِي إلَيْكَ هَدِيَّةً فَتَقْبَلُها مِنْه .

وَعَنْ مَسْرُوقٍ أنَّهُ كَلَّمَ ابْنَ زِيَادٍ في مَظْلَمَةٍ فَرَدَّهَا ، فَأهْدَى إلَيهِ صاحبُ الْمَظْلَمَةِ وَصِيفاً ، فَرَدَّهَا وَلَمْ يَقْبَلُها وقَالْ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُول: مَن رَدَّ عنْ مُسْلِمٍ مَظْلَمَةٍ ، فأعطَاهُ عَلْيها قَلِيْلاً أوْ كَثيراً فَهو سُحُتْ ، فَقَالَ الرَّجُلْ : يَا أبَا عَبْدَ الرَّحْمنِ مَا كُنَّا نَظُنُّ أنَّ السُّحْتَ إلَّا الرِّشْوَةَ في الْحُكْم ، فقَالْ : ذَلِكَ كُفْر نَعُوذُ باللّهِ مِنْه .

قَالَ الْعُلَمَاء : وَيَحْرُمُ عَلَى الْقَاضِي قَبُولُ هَدِيَّة إلَّا مِمَّنْ كَانَ يُهَادِيْهِ قَبْلَ وِلَايتْه ، إذَا لَمْ تَكُنْ لَهْ حُكُومَةْ ، لِمَا رَوى أبُو سَعِيْدٍ قَالْ: بَعَثَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلّم رَجُلاً مِنَ الأزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلى الصَّدَقةِ ، فَقَالْ: هَذَا لَكُمْ ، وهَذَا أُهْدِي إليَّ ، فَقَامَ النَّبي صلى اللهُ عليه وسلّم ،

فَحَمِدَ اللّهَ وأثْنَى عَليْه ، ثم قال « ما بالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ ، فيجيء فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ ، وهَذَا أُهْدِيَ إليَّ أَلاَ جلَسَ في بَيْتِ أبيْه ، فَيَنْظُرَ أيُهَدِيَ إلَيْه أمْ لاَ ، وَالذِي نَفْسُ مَحْمَّدٍ بيدِهِ لاَ نَبْعَثُ أحداً مِنْكُمْ ، فَيَأخُذَ شَيْئا إلاّ جَاء بِه يَومَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُه ، إنْ كَانَ بَعِيْراً لَهْ رُغاءٌ أوْ بَقَرَةً لَهَا خُوارٌ ، أوْ شَاةً تَيْعَرْ » ثُم رَفَع يَدَه حَتَّى رَأيْتُ عُقْدَةَ إِبْطَيْه ، فَقَالْ « اللّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » ثَلاثاً . متفق عليه .

شعر :

لا يَـأمَنِ الدَّهْـرَ إلَّا الخَـائِنُ البَـطِرُ
مَن لَيْسَ يَعْقِـلُ مَا يَـأتِى ومـا يَـذَرُ
ما يَجْهَلُ الرُّشْدَ مَن خَافَ الإلَه ومَن
أمْسَيَ وهِـمَّتُـه فـي دِيْنِـهِ الـفِكَـرُ
فِيْمَـا مَضَى فِكْـرَةٌ فِيْهَـا لِصَاحِبَهـا
إنْ كَـانَ ذا بَصَـرٍ بـالـرَّأيِ مُعْتَبِـرُ
أيْنَ القُـرُوْنُ وأيْنَ المُـبْتَنُـونَ لَنَـا
هَـذِي المَدَائِنُ فِيْهَـا الْمَاءُ والشَّجَـرُ
وأيْنَ كِسَـرى أنُـو شُـرْوانَ مَـالَ بـه
صَـرَفُ الـزَّمـانِ وأفْنَى مُلْكَـهُ الغِيَـرُ
بَلْ أيْنَ أهلُ التُّقَى بَعْـدَ النَّبِي ومَن
جَـاءَتْ بفَضْلِهُم الآيَـاتُ والسُّـوَرُ
أُعْـدُدْ أبَـا بَكْـرٍ الصِّـدِيقَ أوَّلَهُـمْ
ونادِ مِن بَعدِه في الفَضْـلِ يَا عُمَـرُ

وَعُــدَّ مِن بَعْـدِ عُثْمــانٍ أبَـا حَسَنٍ
فــإِن فَـضْلَهُـمَـا يُـرْوَى ويُـذَّكَـرُ
لم يَبْقَ أهــلُ التُقَى فِيْهَـا لِبِّـرِهُمُ
ولا الجَبَـابِـرَةُ الأمـلاكُ مـا عَمَـرُوا
فـاعْمَلْ لِنَفْسِكَ واحْذرْ أَنْ تُـوَرِّطَهَا
في هُـوَّةٍ مَـالَهَـا وِرْدٌ ولا صَـدَرُ
مـا يَحْذَرُ اللهَ إلاّ الـرَّاشِـدُونَ وقَـدْ
يُنْجِي الرَّشِيْدَ مِنَ المَحْـذُوْرَةِ الحَذَرُ
والصَّبْـرُ يُعْقِبُ رِضْـوانـاً وَمَغْفِـرَةً
مَـعَ النَّجَاحِ وَخَيـرُ الصُحْبَةِ الصَبِـرُ
النـاسُ في هذِه الـدُنيـا عَلَى سَفـرٍ
وعن قَـرِيبٍ بِهِم مَا يَنْقَضِي السَّفَـرُ
فَـمِنْـهُمْ قَـانِـعٌ رَاضٍ بِـعِيْشَتِـهِ
ومِنُهُـمُ مُـوْسِـرٌ والقَـلْبُ مُفْـتَـقِـرُ
ما يُشْبِعُ النَّفْسَ إنْ لَمْ تُمْسِ قَانعةً
شَيءُ ولَـو كثُرَتْ في مِلْكِهَـا البِـدَرُ
والنَّفْسُ تَشْبَـعُ أَحْيـانـاً فَيُـرْجِعُهَـا
نَحْـوَ المجَاعَـة حُبُّ العَيْشِ والبَطَرُ
والمَرْءُ ما عَـاشَ في الدُنْيَـا لَه أَثَـرٌ
فَمَـا يَمُـوتُ وفي الـدُنْيَـا لَـهُ أَثَـرُ

اللهم مَكِّنْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وقَوِّهَا ونَوِّر قُلُوبَنَا بنُورِ الايمان وثَبِّتْنَا على قَولِكَ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ وزَحْزِحْنَا عنَ النار وأدخِلْنا

الجنة دارَ القَرار ومَتِّعْنا بالنظرِ إلى وجْهِكَ يا أكرم الأكـرمين وأرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

مَوْعِظَةْ

عِبَادَ اللَّهْ : لَقَدْ نَهانا رَبُّنا جَلَّتْ قُدْرَتُه عَنْ أكْلِ أمْوالِ النَّاسِ بالْبَاطِلْ ، وَاسْتِحْلاَلِها بُدونَ حَقٍّ ، وَأخْذِهَا بَوْجْهٍ لَمْ يُبْحْهُ الدِّينْ وَلَمْ يَشْرَعْهُ ، يَنْهَانَا عَنْ رَفْعِ الدَّعَاوِي الكاذِبَةِ ، وَالإِدْلاَءِ بِالْقَضَايَا الْمُخْتَلِقَةِ الْمُلَفَّقَةِ ، وَتَقْدِيْمِ صَفَحَاتِها إلى الْقُضَاةْ ، رَجَاءَ الْفَصْلِ فِيْها بالْبَاطِلْ ، اسْتِناداً إلَى الْيَمِيْنَ الْغمُوسِ الْكـاذِبَةِ ، وَارْتِكَـاناً على شَهَـادَةِ الزُّورِ الْفاجِرَةِ ، أوْ اعْتِمَاداً عَلى الشَّفَاعَاتِ والْوَسَـائطْ ، واسْتِظْهَـاراً بِتِلْكَ الرَّشَاوَي الَّتِي تُقَدَّمُ باسْمِ الْهَدَايَا ، إلى مَنْ لاَّ خَلاَقَ لَهُمْ ، فَيَتَخَطُّونَ العَدَالَةَ لِقَاءَ هَذَا ، وَيَجُورُونَ في الْحُكُومَةَ والْقَضَاءِ .

إنَّ أمْوالَ النَّاسِ الَّتِي تَؤْكَلُ بالْبَاطِل قَبَسٌ مِنْ نَارْ، وَأُتُونٌ مُسْتَعِرَةٌ بِاللَّظَى ، وَتُنُورٌ مَسْجَورٌ ، مُوقِد إنّ أمْوالَ النّاسِ التي تُؤْكَلُ بالْباطِلْ ، جَذْوَةٌ مِنْ لَهِيبِ ، وشُعْلَةٌ مُتَوهِجَةٌ ، إنّ أمْوَالَ النّاسِ الّتِي تُؤْكَلُ بالْبَاطِلِ آفةٌ مُهْلِكَةٌ ، تأْكُلُ الأخْضَرَ وَالْيَابِسْ وَتَأْتِي عَلَى الْغَضِّ والْهَشِيْم، هَذا إذَا فَنِيَتْ وَزَالَتْ ، وَأمَّا إذَا بَقِيَتَ وَدَامَتْ ، وَرَبَتْ وَنَمَتْ ، وَزَادَتْ وَكَثُرَت ، وَشَبَّ عَلَيْها جِسْمُهُ ، وَنَما عَلَيْهَا عَظْمُهُ وَلَحْمُهُ ، فالْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ لآكِلِ الْحرَامْ ، الْتَفِتوا أيُّها الإِخْوَةُ يَمِيْناً وشِمَالاً تَرَوْا إنَّ أمْوَالَ النّاسِ الّتِي أُكِلَتْ حَراماً ما أغْنَتْ آكِلِيْها ، ومَا أجْدَتْ عَلَى غَاصِبِيْها ونَاهِبِيُهَا ، بَلْ عَلى الْعَكْس مِنْ ذَلِكْ ، أتَتْ عَلى بُيُوتِهِمْ فَخَرّبْتَهَا ، وَدَكّتْ

صُرُوحَ عِزِّهِمْ وَمَجْدِهِمْ فَهَدَّمَتْهَا ، فَلَيْتَ شِعْرِي بِمَاذَا يَكُونْ . الْجَوابُ ، إذَا وَقَفُوا غداً بَيْنَ يَدْيِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِيْنَ ، وَسأَلَهُمْ عَنْ هَذِهِ الأمْوَالْ ، بأيِّ وَجْهِ أخَذُوهْا ، وَعَلى أَيِّ دِيْنٍ اسْتَبَاحُوهَا ، وبأي شيءٍ يَنْطِقُونَ إذَا شَهِدَتْ عَلَيْهِمُ الْجَوارِحُ وَوَاجَهَتْهُمُ الأعْضَاءُ بالْحَقائقِ ، فقالَ اللّسانُ : بِيَ نطقَ كَذِباً وَبُهْتاناً ، وَقالتْ الْيَدَانِ : بِيَ أَخذَ الْمالَ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ ، وَأَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ وَقالَت الرِّجْلاَنْ : بِيَ سَعَى الأَثِيْمُ إلى دَارِ الْقَضَاء يَطلبُ الأنْصَافَ ، كَأنَّهُ مَغْبُونٌ وَمظْلُومْ ، وَقَالْتِ الرِّجْلاَنْ : أيْضا بِيَ مَشَى إلى الزِّنا أوِ اللِّواطْ ، أوِ السَّرِقَةِ أوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الجَرائِمْ .

آكِلُ الْحَرامِ فَتِّشْ حَوالَيْكَ ، تَجِدُ الْحَرَامَ لاَ يَنْفَعْ ، قَلِّبْ النَّظرَ مَلِيَّاً تَرَى الْمُبْطِلُ لاَ يَتَقَدَّمْ ، تَأمَّلْ قَلِيْلاً ، وَفَكِّرْ في الْعَاقِبَةِ ، فَإنَّ الْعَافِيَةَ تَزُولُ ، ارْجِعْ النَّظَرَ كَرَّاتٍ وَرَدِّدِ الْبَصَرِ مَرَّاتٍ ، تُجِبْكَ الْحَوادِثُ بِلَهْجَةِ الخَبِيْرِ ، بأَنَّ الْعُمُرَ وَإنْ طَالَ قَصِيْر ، وَإنْ الْحِسَابَ عَسيْرٌ وَشَدِيْدٌ ، وَأنَّ الْمَوقِفَ رَهِيْبٌ وَشَاقٌ ، وَأنَّ الْمَصِيرَ إمَّا إلى الْجَنَّةِ وَإمَّا إلى النَّارِ .

إيُّها النَّاسُ أيْقِنُوا بِأَنَّ الأحْكَامَ الَّتِي تُؤْخَذُ في الدُّنْيَا بالسَّفْسَطَةِ والتَّدْلِيْسِ لاَ تَرْفَعُ الاثْمَ ، وَلا تَرُدُّ الْعِقَابْ ، لإنَّ الْحُكُومَةَ سَتُعَادُ ، والشُّهُودَ عِيَانٌ ، والْقَضاءُ بالقِسْطَاسِ ، والْقَاضِي الْحَكَمُ الْعَدْلُ ، قَالَ تَعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمِ اللهُ دِيْنَهُمُ الحق ، ويَعْلَمُونَ أن الله هو الحق المبين ﴾ . وقال «وقُضِيَ بَيْنَهُم بالْحَقِّ وقِيلَ: الحمدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْن».

وَاعْلَمُوا أنَّ هَذِهِ الْحَاجِيَّاتِ الَّتِي تُؤْخَذُ خِلْسَةً وَتُخْتَطَفُ فِي غَفْوَةٍ ، أَوْ تُؤْخَذُ رَغْماً وَكُرْهَاً في صَحْوٍ وَيَقْظَةٍ ، بَاقِيَةٌ لإِصْحَابِهَا سَتَقْضُونَها مِنْ حَسَناتِكُمْ ، وتُؤَدُّونَها مِنْ مَبُرّاتِكُمْ ، اِنْ كانَتْ لَكُمْ حَسَناتٌ وَمَبَّراتٌ ، فَإنْ

لَمْ يَكُنْ أُخِذَ مِنْ خَطَايَا أَصْحَابهَا فطُرِحَتْ عَليْكُمْ ، ثُمّ تُلْقَوْنَ بِهَا في النَّارِ ، فاتَّقوا الله ، وتَحرَّوا الْكَسْبَ الطَّيِّبْ ، فَقَدْ قَالَ صَلى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلّم « أتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ » قَالُوا : المُفْلِسْ فِيْنَا مَنْ لاَدِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعٌ ، فَقَالْ « إنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أمتَّي مَنْ يَأتي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيامٍ وَزَكَاةٍ وَيأتِيْ وَقَدْ شَتَم هَذا ، وَقَذَفَ هَذا ، وأكلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذا مِنْ حَسَناتِهِ ، وَهَذاَ مِنْ حَسَنَاتِهْ ، فإنْ فنِيْت حَسَناتُه قَبْلَ أنْ يُقْضَى مَا عَلَيْه ، أخِذَ مِنْ خطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَليهِ ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ » .

شعرا :

خَفِ اللهَ وانْظُرْ في صَحِيْفَتِكَ الَّتي
حَـوَتْ كُلَّمَـا قَـدَّمْتَـهُ مِنْ فِعَـالِكَـا
فَقَـدْ خَطَّ فِيْهَـا الكَـاتِبَـانِ فـأكْثَـرَا
وَلَمْ يَبْـقَ إلا أنْ يَقُـوْلاَ فَـذَالِكَـا
وَوَاللهِ مَـا تَـدْرِي إذَا مَـا لَقِيْتَهَـا
أتُـوْضَعُ في يُمْنَـاكَ أوْ فِي شِمَالِكَـا
ولا تَحْسَـبَّنَ الـمَـرْءَ يَبْقَى مُـخَلَّداً
فما النَّاسُ إلا هَـالِكٌ فـابْكِ هَـالِكا

آخر :

إذَا انْقَطَعَتْ أعْمَالُ عَبْدٍ عَنِ الوَرَى
تَـعَلَّقَ بـالـرَّبِ الـكَـرِيْمِ رَجَـاؤُهُ

فَـأَصْـبَـحَ حُـراً عِـزَّةً وَقَـنـاعَـةً
عـلى وَجْـهِـهِ أنْـوَارُهُ وضِـيَـاؤُهُ
وإنْ عَلِقَتْ بـالخَلْقِ أطْمَـاعُ نَفْسِـهِ
تَبـاعَـدَ مَـا يَـرْجُـوْ وطَـالَ عَنَـاؤُهُ
فَـلا تَـرْجُ إلاَّ اللهَ لِلْخَـطْبِ وَحْـدَهُ
ولـو صَحّ في خِلِّ الصَّفَاءِ صَفَـاؤُهُ

اللهم اجْعَلْ قُلُوبَنَا مَمْلوُءَةً بحُبّكَ وألْسِنَتَنَا رَطْبَةً بِذِكْرِكْ ونُفُوْسَنَا مُطِيعَةً لأمْرِكَ وأمِّنَّا مِن سَطوَتِكَ ومَكْرِكْ ، اللهم إنا نَسْأَلُكَ العَافِيَةَ في دينِنَا ودُنْيَانَا وأخرانَا وأهلِنا وما لنا اللَّهمَ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وأمِّنْ رَوْعاتِنَا واحْفَظْنَا مِن بَيْنَ أيْدِيْنَا ومِن خَلْفِنَا وعن أيْمانِنَا وعَنْ شَمائِلنَا ومِنْ فوقَنا ونعوذُ بعظَمتِكَ أن نغتال من تحتنا واغفر لنا ولوالدينا وجَميع المُسْلمين برَحْمَتِكَ يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصَحْبِهِ أجمعِيْن .

« فصل في حكم التأمين »

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللَّهُ وَايَّاكَ وَجَمِيْعَ الْمُسلِمينَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاه وَجَنَّبَنَا وايَّاكَ وَجَمِيْعِ المسلمينَ ما يَكْرَهه ولا يرْضَاه أنَّ مِمَّا حَدَث في هَذا الزّمَانْ ، وانْتَشَر في الأرضْ انْتِشَارَ الْوَبَاءِ الْفَتَّاكْ ، مَا يُسَمّى بِالتَّأمِيْن عَلى الْحَيَاةِ وَعَلى الأمْوالْ ، وَهْوَ عَقْدُ بَيْنَ طَرَفَيْن ، أحَدُهُما مُؤَمِّنٌ ، والآخر مُؤَمَّنٌ ، يَلْتَزِمُ فيه المُؤمِّنُ ، أنْ يُؤَدِّي إلى المُؤَمِن مَبْلَغاً مِن المال ، أو شَيئاً مُرَتباً ، عِنْدَمَا يَحْصُل ضَررٌ أوْ حَادِثْ، وذَلِكَ في مُقَابل قِسْطٌ ، أوْ أيَّةِ دُفْعَةٍ مَالِيَّةٍ أُخْرَى ، يُؤَدِّيْها الْمؤَمِّنُ إلى الْمُؤَمِّن .

وَفي الْغَالِبْ أنَّ الّذي يَقُومُ بالتَّأمِينِ شَرِكَاتٌ مُسَاهِمَةٌ كَبِيْرَةٌ مُهِمَّتُها

الّتي مِنْ أجْلِها أنْشِئَتْ : التَّأمِيْنُ على الْحَيَاة . فِيْمَا زَعَمُـوا ، وَعَلى الأمْوَالِ أي ضَمَانِهَا ، وَدَفْع ثَمنهَا إذا تَلَفَتْ ، فانْكَبَّ النّاسُ عَلَيْها انْكِبَاباً عَظِيْماً ، وَلَمْ يُفَكِّروا وَلَمْ يَفحَصُوا ، وَلَمْ يَسْألوا عَنْ حِلّها وَحُرْمَتِهـا وَضَرَرِها ، عَاجِلاً وآجِلا .

فأمّا التَّأمِيْنُ على الْحَياةِ فَطَرِيْقَتُهمْ فَيْها أنّهُ إذَا أرَادَ الانْسَانُ أنْ يُؤَمِّنَ عَلَى حَيَاتِهْ ، فَعَلَيْهِ أنْ يَذْهَبَ إلى مَرْكَزِ شَرِكَةِ التَّأمِينْ ويُفْهِمُهَا أنّهُ يُرِيْدُ أنْ يَدْفَعَ مِنْ الأمْوَالِ كَذَا ، لِتَضْمَنَ لَهُ حَيَاتَهُ . كَذا مِنَ السِّنِيْن ، وَاذِنْ هِيَ تُحْضِرُ حُكَماءَهَا الْبَارِعْينَ فِيْما زَعَمْتَ ، وَيَبحْثُونَ جِسْمَهُ بَحْثا دَقِيْقاً ، ثُمَّ يُعْطَونَ الشّرِكَةَ رَأيَهُمْ في مَبْلَغ صِحَّتَهُ عِنْدَهم ، وَفي سِنّهِ التّي هُوَ فِيْها إذْ ذَاكْ ، فَإذَا أحَاطَ رِجَالُ الشَّرِكَةِ الْعامِلِونَ بِمقْدَارِه ، أصْدرُوا أمْرَهُمْ بِضَمانِ حَيَاتِه عَشْرَ سِنِيْن أوْ عَشْرِيْن ، أوْ ثَلاثِين أوْ أرْبَعين أوْ خَمْسِيْنْ ، وَلَيْسَ كُلُّ شَخْصٍ ، بَلْ الْمُراد عِنْدَهُم الصَّحِيْحُ ، أمّا الْمَرِيْضِ أوْ مَنْ يَتَعاطَى الأشْيَاءِ الْتي تَجْلِبُ الأمْرَاضْ ، فَيُقَدَّرُ لَهُ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ فِيْما يَرَوْنَ ، فَاذا انْتَهى تَسَلَّمُوا أوّلَ قِسْطِ مِنَ الأقْساطِ التي اتفَقوا عَليها مَعَ الْمُتَعاقِدْ .

وَهذِهَ الأقْسَاطْ مَعَ الْمَدَّةِ الْمَعْلُومَةْ تَكُونُ مَكْتُوبَةً في وَثِيْقَةً يُمْضِي عَلَيْهَا مُمَثِّلُ الشَّرَكَةِ والْمُتَعاقِدْ ، وَبِيدِ كُلٍّ مُنْهُمَا نُسْخَة مِنْهَا ، تكونُ سَنَداً لَهُ عَلَى الآخرِ عِنْدَ اللُّزُوم ، وَتَلْتَزِمُ الشَّرَكَةِ فِي هَذِهِ الْوثِيْقَة ، إنَّ الْمُتعاقِدْ مَعَهَا لَوْ مَاتَ في الْيَوْمِ الذي حَصَلَ فِيْهِ الْعَقْدِ ، تَدْفَعُ لِوَرَثَتِهِ مِنْ بَعْدِهْ ، أوْ لِمَنْ يُعَيِّنَهُ في الْوثِيْقَة ـ وَإنْ كَانَ لا يَقْرَبُ لَه ، وَلاَ لَهُ بِهِ صِلةْ ، وَلَوْ أنّهُ خَادِمٌ عِنْدَهُ ، أوْ عِنْد غَيْرِه ـ تَدْفَعُ مَبْلَغاً ، يُوَازِنُ أوْ يَزِيْدُ عَنِ الْمَبْلَغِ الّذِي ذَكَرَ الْمُتَعاقِدْ أنّهُ يَدْفَعُهُ لِلشَّرِكَةْ ، في الْمَدَّةِ الْمُتَّفِق عَلَيْهَا ، لَكِنْ يَشْتَرِطُ

هؤلاءِ الْوَضِيْعُونْ أنْ يَكُونَ الْمَوتُ عَادِيًّا ، لَيْسَ بِجِنَايَةٍ مِنَ الْوَرَثَةِ وَلِهَذا : الشَّرِكَةْ لَا تَدْفَعُ الْمَبْلَغ بِمُجَرَّدِ أَنْ يُقَالُ لها إنّهُ مَاتْ ، بَلْ لَهَا أَبْحَاثٌ وَمُناقَشَاتٌ تَطُوْلُ وتَدُق ، يَكْتَشِفُونَ بِهَا كَيْف مَات ، رُبَّما يَنْشَأ عَنْ هَذِهِ الْفُحُوص سَبُّ المَيّتِ ولَعْنهُ وأعْمَالِهِ وَما أَرَّثْ وَإِنْ قِيْلِ لَهُمْ ، أوْ ظَنُّوا أنّ الْموتَ يُرَادَ بِهِ الْوَصُولِ إلى الْمَبْلغِ المعلومِ ، فانْظُرْ كَيْفَ يَعْمَلُونْ . عافانا الله وإيَّاكَ مِنْ أعْمَالِهِمْ .

وَعِنْدَ هَؤلَاءِ الْوضعِيْينَ فِيْمَا ذُكِرَ أنَّهُ لَوْ دَفَعَ بَعْضَ الأَقْسَاطِ ثُمَّ عَجِزَ عَنْ الْبَاقِي ذَهَبَ عَلَيْه كُلُّ الّذِي دَفَعَهُ ، وفِيْهِ شُرُوطٌ أُخْرَى ، مِنْهَا كَوْنُ الشرِّكَة تَشْترِطُ عَلَى نَفْسِهَا أنْ تَدْفَعَ رِبْحاً خَمْسَةً فِي الْمِائَةِ فِي حَالَةِ اسْتِمَرارِ عَقْدِ التّأمِيْن ، وَهَذا عَقْدٌ بَاطِلٌ بِلَا شَكْ .

وَمِنْ ذَلِكَ أنَّهَا تَسْلِيْمُ دَرَاهِمُ مُقَسَّطَةٌ فِي دَرَاهِمَ أَكْثَرَ مِنْهَا مُؤَجَّلَةً ، قَدْ يَتَحصَّلُ عَلَيْها ، وَقَدْ تَفُوتُ عَلَيْه فِي حَالَةِ عَجْزِهِ عَنْ بَعْضِ الأقْسَاطِ ، فَحَقِيْقَتُها شِرَاءُ دَيْنٍ بِدَيْنٍ وَهْوَ مَمْنُوعَ ، وشِرَاءُ دَرَاهِمٍ بِدَرَاهِمَ أَكْثَرَ مِنْهَا وَهْوَ مَمْنُوع .

وَمِنْ جِهَةْ فَهْيَ تُشْبِهُ بَيْعُ الآبِقِ الّذِي لَا يَصِحُّ بَيْعُه ، فِي حَالَةِ جَهَالَةِ الْحُصُولِ عَلى الْعِوَضِ المَشْرُوطِ ، وَقَدْ يَفُوتُ عَلَيْهِ مَعَ رَأسْ مَالِه ، وَمَعَ مَا فِيْهِ مِنْ الرِّبَا .

وَبِهَذا يَتَبَيَّنْ أَنَّ مَسْأَلَةَ التَّأْمِيْنِ عَلَى الْحَيَاةِ ، هِيَ مِنَ الْمَعامَلاتِ الْفَاسِدَةْ ، وَلِمُشَابَهَتِهَا لِعَقْدِ الْمَيْسِرْ حَقِيْقَةً وَمَعْنَى ، قَال تَعَالى ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ .

وَأمَّا التّأمِيْنْ عَلى الأمْوَالْ ، فَأنا أُوَضِّحُ لَكَ خَطرَهُ وَضَرَرَهْ ، وَأُمَثِّلُ لَهْ ، وَأذْكُرُ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الأدِلَّةِ على تَحْرِيْمِهِ ، وَذَلِكَ انَّهُ لَوْ دَفَعَ انْسَانٌ إلى شَرِكَةِ التّأمِيْنَ مَثَلاً عَشَرةَ آلافِ رِيَالٍ ، لِتأمِيْنِ بِضَاعَتِهِ الّتِي قِيْمَتُها نِصْفُ مَلْيُونٍ ، أو لِتَأمِيْن مكْتَبَتِه أوْ مَطْبَعَتِه الّتِي تُسَاوِي نِصْفَ مِلْيُون مَثلا ، ثُمَّ تَلِفَتْ ، فَالزَّائِدةُ عَلَى مَا دَفَعَه لِلشَّرِكة عَلى أيِّ وَجْهٍ تَحِلُّ لَهْ ، ألَيْسَ يَقُولُ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم « لَوْ بِعْتَ مِنْ أخِيْكَ ثَمراً فأصَابَتْه جَائِحة ، فَلَا يَحلُّ لَكَ أنْ تَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئا ، بِمَ يَأخُذُ أحَدكُمْ مَالَ أخِيْهِ بِغَيْرِ حَقْ ؟ » رَواهُ مُسْلِمْ.

وَإذَا سَلِمَتْ الْبَضَاعَةُ الْمُؤَمَّنَةُ ، أوْ الْمَطْبَعَةُ أوِ الْمَكْتَبَةُ أَوْ الْبَيْتُ ، فَبَأيِّ وَجْهٍ يَحِلُّ لِلشَّرِكَةِ أكْلُ مَا دَفَعَهُ لَهَا مُقَسَّطاً أوْ دُفْعَةً وَاحِدَةً ، لا هِبَةً وَلا مِيْرَاثاً وَلا وَقْفا ، ألَيْسَ بِدُونَ مُقَابِلْ ، ألَيْسَ اللّهُ جَلَّ وَعَلا يَقُولْ ، وَهْوَ أصْدَقُ قَائِلْ ﴿ وَلا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ مَعَ الحْدَيْثِ الُمتَقَدّمْ « بِمَ يَأخُذُ أحَدكُمْ مَالَ أخِيْهِ بِغَيْرِ حَقٍّ » ألَيْسَ هَذَا الْعَمَلُ فَيْهِ مِنْ الغرَرِ وَالْجهالَةِ مَالا يَخْفَى .

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيْثُ فِي النَّهْيِ عَنِ الْغرَرِ ، مِنْ ذَلِكَ حَدِيْثُ أبِي سَعْيدٍ ، أنَّ النَّبيَّ صَلى اللهُ عَليْهِ وَسَلَّمْ نَهى عَن الْمُنابَذَةِ، وَهِيَ طَرْحُ الرَّجُل ثَوْبَهُ بالْبَيْع إلى الرَّجُلِ ، قَبْلَ أنْ يُقَلِّبهُ أوْ يَنْظُرُ إلَيْه .

وَنَهَى صَلّى اللهُ عَليْه وسلّمَ عَنِ الْمُلامَسَةِ ، وَهْي لَمْسُ الرَّجلِ الثَّوْبَ لَا يَنْظُرُ إليه ، ونَهى صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلمّ عَنْ بَيْعِ الْحَصَاةِ ، وَعَنْ بَيْعِ الْغرَرِ .

وَقَالْ « لَا تَشْتَرُوا السَّمكَ فِي الْمَاءِ فإنَّهُ غَرَرٌ » وَنَهى عَنْ بَيْعِ حَبْلِ الحَبْلَةِ .

وَنَهى عَن ضَرْبَةِ الفائص ، وَهُوَ ما سَيُخْرِجُهُ الغَائِصُ ، وَنَهى عَن شِرَاءِ الصَّدَقَاتِ حتى تُقْبَضَ ، وَنَهى عَن بَيْعِ المَغَانِمِ حَتَّى تُقْسَم ، وَنَهى عَن بَيْعِ المَضَامِيْنِ ، وَهُوَ مَا يَنْتُجُ مِن أَصْلَابِ فُحُولِ الأبل الأَصْلِيَّةِ مِن نِتَاجٍ ، لِمَا في ذَلِكَ مِن الغَرَرِ والجَهَالَةِ .

وَقَالَ العُلَمَاءُ • وَلَا يَجُوزُ بَيْعُ الآبِقِ والشَّارِدِ ، وَلَا الطَّيْرِ في الهَوَاءِ لأنَّهُ تَرَدَّدَ بَيْنَ الحُصُولِ وعَدَمِهِ ، وَكُلُّ هَذِهِ النَّوَاحِي تَدُلُّ عَلَى تَحْرِيْمِ التَأْمِيْنِ ، عَلَى أَنَّهُ مِن جِهَةٍ أُخْرَى دَاخِلٌ في القَرْضِ الذي يَجُرُ نَفْعاً وِمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى فَهُوَ قِمَارٌ ، لِأَنَّ المُتَقَامِرَيْنِ الأَصْلِيَيْنِ حِيْنَ المُقَامَرَةِ لَا يَدْرِي كُلُّ مِنْهُمَا لِمَنْ تَكُوْنُ الغلَبَةُ ، حَتَّى يَكُونَ المالُ الذي اتَّفَقَا أَنْ يَدْفَعَهُ المَقْمُورُ وهكذا الحَالُ هُنَا وَمَا يُرَى مِن أَخْذِ الشَّرِكَةِ مَالَ المُتَعَاقِدِ أَوَّلًا لا عِبْرَةَ بِهِ ، فَقَدْ يَنْقَلِبُ الأَمْرُ ، وتَكُونُ هِيَ الدَّافِعَةُ ، وكَمَا أَنَّ المُقَامِرَ يَعْتَمِدُ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى حَظِّهِ ، وَيَنْتَظِرُ مَا يَنْكَشِفُ مِمَّا غُيِّبَ لَهُ أو لِصَاحِبِهِ ، فَكَذَلِكَ الأَمْرُ هُنَا ، لَا مُرَجّح لِأَحَدِهِمَا على الآخَرِ في الأَخْذِ أَوْ الدَّفْعِ ، وما تَرَاهُ مِن الرُّجْحَانِ في جَانِبِ الشَرِكَةِ ، قَدْ يَنْقَلِبُ مَرْجُوحَاً .

وَكَمَا أَنَّ المُشْتَغِلِيْنَ بِاللّعِبِ بالقِمَارِ، لم يَعْمَلْ أَحَدُهُمَا عَمَلاً يُفِيْدُ صَاحِبَهُ ، أَيْ فَائِدَةً يَسْتَحِقُ بِهَا المَبْلَغَ الذي يَأْخُذُهُ مِنْهُ لَوْ غَلَبَهُ ، فَالأَمْرُ في هَذِهِ الشَّرِكَاتِ ، وَمَنْ يَتَعَاقَدُ مَعَهَا كَذَلِكَ ، وكما أَنَّ الدَّفْعَ في القِمَارِ يَكونُ مِن جَانِبٍ وَاحِدٍ ، وهو الجَانِبُ المَغْلُوبُ فالأمرُ هُنَا كَذَلِكَ .

وَكَمَا أنَّ المُشْتَغِلِيْنَ بِلَعِبِ القِمَارِ ، لم يَعْمَلْ أَحَدُهُمَا عَمَلاً يُفِيْدُ مِنْهُمَا ، وبِنَاءً عَلَيْهِ يَدْفَعُ المالَ المَشْرُوْط ، فَكَذَلِكَ هُنَا ، تَقُولُ الشَّرِكَة لَهُ إنْ احْتَرَقَ البَيْتُ ، أَوْ المُسْتَوْدَع ، أو الْمَكْتَبَةُ أَوْ نَحْوَ ذَلِك ، أَخَذْتَ مِنِّي قِيْمَتَهُ بالغاً مَا بَلَغ ، وانْ لَمْ يَحْتَرِقْ ، أَسْتَمِرُّ أَنَا آخُذُهَا ما نَدْفَعُهُ لِي ، إن كانَ مُقَسَّطاً ، في مُقَابِلِ ذَلِكَ الضَّمَان .

وَكَمَا أنَّ المُتَقَامِرَيْنِ يَكُونُ كُلّ مِنْهُمَا في وَجَلٍ ، مِن ظُهُورِ الغَلَبَةِ في جَانِبِ صَاحِبِهِ ، وَيُسَرُّ كُل السُّرُوْرِ وإذا ظَهَرَتْ نَتِيْجَةُ اللَّعِبِ في نَاحِيَتِهِ ، كذَلِكِ الحَالُ هُنَا ، فالشَّرِكَةُ مَا دَامَ هَذَا المَغْرُوْرُ ـ الذي هُوَ صَاحِبُهَا ـ يَدْفَعُ ، وفي جَانِبِهَا الأطمِئْنَانُ عَلَى المَنْزِلِ في سُرُوْرٍ ، إلا أَنَّها مِن نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، مَمْلُوْءَةً رُعْباً وَخَوْفَاً ، مِنْ أنْ يَطْرَأَ الطَّارِىءُ المَخُوْف ، الذي به تُصْبحُ مُكَلَّفَةً بِدَفعِ الضَّمَانِ والمُتَعَاقِدُ دَائِمَاً في أَلَمٍ وَهَمٍّ ، مِن دَفْعِهِ ما هُوَ مُكَلَّفٌ نَفسَهُ بِهِ ، لأنه في هَذِهِ الحَالَةِ في مَظْهَرِ المَغْلُوْبِ ، لَكِنْ لَوْ حَدَثَ بالمَنْزِلِ حَرِيْقٌ يُفْزِعُهُ لَوْ حَصَلَ وَلاَ ضَمَانٌ ـ تَرَاهُ في مُنْتَهى الفَرَحِ والسُّرُوْرِ ، لأنهُ في اطْمِئْنَانٍ على قِيمَةِ المَنْزِلِ ، كأَنَّهَا في جَيْبِهِ ، وَعَلَى كُل فَإنَّ غُلِبَتِ الشَرِكَةُ فهي تَغْلِبُ مَرَّاتٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ،

وايضاً فَالشرِكَةُ غالِباً تُعَامِلُ بِالرِّبَا ، لأَنَّهَا تُعْطِي الأَموالَ بِفَوَائِدَ ، فالمالُ بِاختِلَاطِهِ بالأَمْوالِ الرِّبَوِيّةِ ، وبِاسْتِعْمَالِهِ في الرِّبَا ، أَصْبَحَ خَبِيْثَاً مُلَوَّثَاً ، ثُمَّ بِرَد مَبْلَغٍ مِن الرِّبَا ، مَعَ المَبْلَغِ الأصْلِي ، يَزِيْدُ خُبْثَاً على خُبْثِهِ ، فيكون الدَّافِعُ لِلشَّرِكَةِ ـ الذي هُوَ المُؤَمِّنُ ـ قَدْ أَعَانَ عَلَى فُشُوِ الرِبا ، والله تَعَالَى يقولُ ﴿ ولا تَعَاوَنُوا علَى الأثمِ والعدوانِ ﴾ ويقولُ جل وعلا وتقدس ﴿ يا أيهَا الذين آمنُوا اتَّقوا اللهَ وَذروا ما بَقِيَ مِن الربا إن كُنْتُمْ مُؤْمِنْينَ ، فان لَمْ تَفْعَلوا فاذنوا بحربٍ مِن اللهِ ورسوله ﴾ .

شعرا :

وقـائِلَةٍ مَـا لِـي أراكَ مُجَـانِبَـاً
أُمُـوراً وَفِـيْهَـا لِـلتِّجَـارَةِ مَـرْبَـحُ
فَقُلْتُ لَهَـا كَفِيْ مَـلاَمَـكِ واسْمَعِيْ
فَنَحْنُ أنـاسٌ بـالسَّـلاَمَـةِ نَفْـرَحُ

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم .

« فصلٌ »

وأما التأمينُ على السَّيَّاراتِ وَحَوَادِثِهَا ، فَهُوَ أَعْظَمُ خطَراً ، وأَكْثَرُ جَهَالَةً مِن مَا مَثَّلْنَا فيه (أولًا) لِأنَّ السَّيَّارَةَ كَما يَأْتِي يَفُوتُ فِيْهَا نُفُوسٌ وأَمْوَالٌ لا تَقَعُ في الحِسْبَانِ ، وصِفَةُ التَّأْمِيْنِ لَهَا : هُوَ أَنْ يَتَّفِق الشَّخْصُ الذي يُرِيْدُ التَّأْمِيْنَ لَهَا مَعَ شَرِكَةِ التَّأْمِيْنِ ، سَواء كَانَ كَامِلاً أَوْ ضِدَّ الغِيرِ أو الغَيَارِ ، فَيَدْفَعُ قَدراً مَعْلُوْمَاً مِن المالِ ، على تأمِيْنِهَا مُـدَّةً مَعْلُوْمَةً ، بِشُرُوْطٍ والتِزَامَاتٍ مَعْلُوْمَةٍ عِنْدَ الجَمِيْعِ ، وَمَهْمَا حَصَلَ عَلَى هَذِهِ السَّيَّارِةِ المُؤَمَّنَةِ مِن إصَابَاتٍ أَوْ أَصَابَتْ غَيْرَهَا ، وغَرِمَ صَاحِبُهَا أمْوالاً بِسَبَبِ مَا أَتْلَفَتْ ، مِنْ نُفُوْسٍ وَأَمْوَالٍ ، أَوْ تَلِفَ بِهَا في خِلاَلِ هَذِهِ المُدَّةِ المُتَعَاقَدِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ شَرِكَةِ التَّأْمِيْنِ مُلْزَمَةٌ بِضَمَانِهِ ، بالغاً فِيْهَا ما بَلَغَ فَمَثَلاً لَوْ أَمَّنَ سَيَّارَتَهُ الكَبِيْرَةَ بِخَمْسَةِ آلافٍ، وَتَلِفَ فِيْهَا مائةُ نَفْسٍ ، وَاحْتَرَقَتْ هِيَ ، وَبِهَا نَقُودُ كَثِيْرَةٌ احْترَقَتْ مَعَهَا ، فَالشَّرِكَةُ مَلْزَمَةٌ بِضَمَانِ ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَالزَّائِدُ عَلَى خَمْسَةِ آلاَفٍ مِن دِيَاتٍ وَأَمْوالٍ مَا المُسَوِّغُ لِصَاحِبِهَا أَنْ يَأْخُذَهُ مِن الشَّرِكَةِ ؟ أَلَيْس بِدُوْنِ مُقَابِلٍ ؟ وَقَدْ مَرَّتْ الآيَةُ الكَرِيْمَةُ ، والأَحَادِيْثُ

الشَّرِيْفَةُ في الفَصْلِ الذِي قَبْلَ هَذَا فَنَكْتَفِي بِذَلِكَ عن التَّكْرَارِ والإِطَالَةِ وبالتَّالِي فَلَوْ لَمْ يَحْصُلْ مِن أَضْرَارِ التَّأْمِيْنِ إِلاَّ أَنَّ أَكْثَرَ المُؤْمِنِيْنَ لِسَيَّارَاتِهِمْ أَدَّى بِهِمْ ذَلِكَ إلى أَنْ تَهَوَّرُوْا في السُّرْعَةِ في السِيَاقَةِ لِلسَّيَّارَةِ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الشَّرِكَةَ سَتَقُومُ بِدَفْعِ ما نَتَجَ عَن ذَلِكَ وَقَد اقتدَى بهم غيرهم في السُّرْعَةِ فَحَصَلَ بِذَلِكَ أَضْرَارٌ عَظِيْمَةٌ لاَ يَعْلَمُ مَدَاهَا إِلاَّ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ فَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ باللهِ العَلِي العَظِيْمِ وصلى اللهُ عَلَى محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجمعين .

موعظة

أَيُّهَا الإِخْوَانُ لَقَدْ ذَهَبَ أَكْثَرُ عَامِكُمْ وَفَاتَ ، وَتَقَضَّتْ أَيَّامُهُ ولَيَالِيْهِ وَأَنْتُمْ مُنْهَمِكُونَ في اللَّذَّاتِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا تَصَرَّمَتْ مِنْهُ الأوقَاتُ، وَمَا أَكْثَرَ مَا خَطَبَكُمْ لِسَانُ حَالِهِ بِزَوَاجِرِ العِظَاتِ، وما أَطْوَلَ مَا نَادَى بكُم مُنَادِي الشَّتَاتِ .

أَبَنِي أَبِيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ
أَبَداً غُرَابُ البَيْنِ فِيْهَا يَنْعِقُ

فَطُوْبَى لِمَنْ تَدَارَكَ الهَفَوَاتِ ، وَبُشْرَى لِمَنْ لاَزَمَ تَقْوَى اللهِ ، وَعَمِلَ بِالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ ، وَهَنِيْئَاً لِمَنْ أَذْهَبَ السَّيِّئَاتِ بالحَسَنَاتِ ، وَيَا خَيْبَةَ مَنْ شَغَلَتْهُ المَلاَهِيْ والمُنْكَرَاتِ ، عنَ طَاعَةِ رَفِيْعِ الدَّرَجَاتِ، وَمَا أَعْظَمَ خَسَارَةَ من بَاعَ نَفِيْسَ آخِرَتِهِ بِخَسِيْسِ دُنْيَاهُ ، وَحَسْرَةً لَهُ يَوْمَ ﴿ تَقُولُ نَفْسٌ يا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ ﴾ وَتَعْسَا وَجَدْعَاً لَهُ ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ :

هُوَ الموتُ مَا مِنْهُ مَلاَذٌ وَمَهْرَبُ
مَتَى حُطَّ ذَا عَنْ نَعْشِهِ ذَاكَ يَرْكَبُ

نُشَــاهِــدُ ذا عَيْنَ اليَـقِـيْـنِ حَقِـيْقَـةً
عَلَيْــهِ مَضى طِفْـلٌ وَكَهْــلٌ وَأَشْيَبُ
وَلَكِنْ عَــلاَ الـرَّانُ القُلُوبَ كَــأَنَّنـا
بِمَــا قَــدْ عَلِمْنَــاهُ يَقِيْنَــاً نُـكَـذِّبُ
نُؤَمِــلُ آمَــالاً وَنَــرْجُــوْ نِتَــاجَـهَــا
وَعَـلَّ الـرَّدَى مِمَّــا نُـرَجِيْــهِ أَقْـرَبُ
وَنَبْنِي القُصُورَ المُشْمَخِراتِ في الهَوَى
وفي عِلْمِنَــا أَنَّــا نَمُــوتُ وَتَخْــربُ
وَنَسْعَى لِجَمْـعِ المَـالِ حِـلاًّ ومأْثماً
وَبـالـرَّغْمِ يَحْــوِيْـهِ البَعِيْــدُ وأَقْـرَبُ
نُحَــاسَبُ عَنْـهُ داخـلاً ثُم خَـارِجَــاً
وَفِيْمَــا صَــرَفْنَــاهُ وَمِنْ أَيْنَ يُكْسَبُ
ويُـسْـعَــدُ فِيــهِ وَارِثٌ مُـتَـعَـفِـفٌ
تَـقِيٌ وَيَـشْقَـى فـيــه آخَــرُ يَـلْعَـبُ
وَأَوَّلُ مَــا تَبْــدُو نَــدَامَــةُ مُجْـرِمٍ
إِذَا اشتَدَّ فيه الكَرْبُ والرُّوْحُ تُجْذَبُ
وَيُشْفِقُ مِنْ وَضْـعِ الكِتَـابِ وَيَمْتَنِي
لَـوْ أنْ رُدَّ لِلدُّنْيَـا وَهَيْهَــاتَ مَـطْلَبُ
وَيَشْهَــدُ مِنَّــا كُــلُّ عُضْـوٍ بِفِعْـلِهِ
وَلَيْسَ على الجَبَّــارِ يَخْفَى المُغَيَّبُ
إذا قِيْلَ أَنْتُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ فَمَــا الـذي
عَمِلْتُم وَكُــلٌ في الكِتَــابِ مُــرَتَّبُ

وَمَــاذَا كَسَبْتُمْ في شَبَــابِ وصِحَّــةٍ
وفي عُمُــرٍ أَنْفَــاسُكُمْ فِيــهِ تُحْسَبُ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِيْ ما نَقُولُ ومـا الذي
نُجِيْبُ بــه والأمْــرُ إذْ ذَاكَ أَصْعَبُ
إلى اللهِ نَشْكُــو قَسْوَةً في قُلُوبِنَــا
وفي كُلِّ يَوْمٍ وَاعِظُ المَوْتِ يَنْدُبُ
ولِـلهِ كَـمْ غَـادٍ حَـبِـيْـبٍ ورائِـحٍ
نُشَيِّعُـهُ لِلْقَبْـرِ والـدَّمْـعُ يَسْكُبُ
أَخٌ أَوْ حَـمِـيـمٌ أَو تـقـيٌّ مُـهَـذَّبٌ
يُـوَاصِـلُ في نُصْـحِ العِبَـادِ وَيَدْأبُ
نُهَيْــلُ عليــهِ التُربَ حَتَّى كَــأَنَّــهُ
عَــدُوٌ وفـي الأحْشَاءِ نَــارٌ تَـلَهَّبُ
وَما الحالُ إلاَّ مِثْلُ مَا قَالَ مَنْ مَضَى
وَبِـالجُمْلَةِ الأَمْثَـالُ لِلنَّـاسِ تُضْـرَبُ
لِكُـلِّ اجْتِمَـاعٍ مِن خَلِيْلَيْنِ فُـرْقَـةٌ
وَلَـوْ بَيْنَهُمْ قَدْ طَـابَ عَيْشٌ وَمَشْرَبُ
وَمِن بَعْـدِ ذَا حَشْـرٌ وَنَشْـرٌ وَمَـوْقِفٌ
وَيَوْمٌ بِهِ يُكْسَى المَذَلَّــةَ مُــذْنِــبُ
إذا فَــرَّ كُــلٌ مِــن أَبِـيْــهِ وَأُمِّــهِ
كَـذَا الأُمُّ لَم تَـنْـظُرْ إليـهِ ولا الأَبُ
وَكَمْ ظَـالِمٍ يَدْمَي مِن العَضِّ كَفُّـهُ
مَـقَــالَتُــهُ يــا وَيْـلَتِـي أَيْـنَ أَذْهَـبُ

إِذَا اقْتَسَمُوْا أَعْمَالَهُ غُرَمَاؤُهُ
وَقِيْلَ لَهُ هَذَا بِمَا كُنْتَ تَكْسِبُ
وَصُكَّ لَهُ صَكٌّ إِلَى النَّارِ بَعْدَ مَا
يُحَمَّلُ مِنْ أَوزَارِهِمْ وَيُعَذَّبُ
وَكَمْ قَائِلٍ واحَسْرَتَا لَيْتَ أَنَّنَا
نُرَدُّ إِلَى الدُّنْيَا نُنِيْبُ وَنَرْهَبُ
فَحُثُّوْا مَطَايَا الأَرْتِحَالِ وَشَمِّرُوْا
إِلى اللَّهِ والدَّارِ التِيْ لَيْسَ تَخْرُبُ
فَمَا أَقْرَبَ الآتِي وأَبْعَدَ مَن مَضَى
وَهَذَا غُرابُ البَيْنِ بِالدَّارِ يَنْعُبُ
وَصَلِ إِلٰهي ما هَمَا الوَدْقُ أَوْ شَدَا
عَلَى الأَيْكِ سَجَّاعُ الحَمَامِ المُطَرِّبُ
عَلَى سَيِّدِ السَّادَاتِ والآلِ كُلِّهِم
وأَصحابِهِ ما لاحَ في الأُفُقِ كَوْكَبُ

اللهم توفنا مسلمين ، وألحقنا بعبادك الصالحين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل في التَّحْذِيْرِ مِن الغِشِّ »

إِعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ أَنَّ مِمَّا يَتَأَكَّدُ اجْتِنَابُهُ ، والتَّحْذِيْرُ عَنْهُ وَإِنْكَارُهُ ، الغِشُّ والخِدَاعُ في المُعَامَلاتِ ،

فَإِنَّ الاسْلَامَ يُحَرِّمُ ذَلِكَ بِكُلِّ صُورَةٍ ، في بَيْعٍ وَشِرَاءٍ وَفِي سَائِرِ أَنْوَاعِ المُعَامَلَاتِ الانْسَانِيَّةِ ، والمُسْلِمُ مُطَالَبٌ بالتِزَامِ الصِّدْقِ في كُلِّ شُؤُونِهِ ، والنَّصِيْحَةُ في الدِيْنِ أغلاَ مِن كُلِ كَسْبٍ قَالَ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « الدينُ النَّصِيْحَةُ » .

وقال عليه أَفْضَلُ الصلاةِ والسلامِ « البَيِّعَانِ بالخِيَارِ ما لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُوْرِكَ لَهُمَا في بَيْعِهَا ، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا » وَمَرَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ يَبِيْعُ طَعَامَاً ، فَأَعْجَبَهُ ظَاهِرُهُ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيْهِ، فَرَأَى بَلَلاً فَقَالَ « مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ ؟ » قال : أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ (أي المطر) فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « فَهَلاّ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ الناسُ ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

وفي رِوَايَةٍ أَنَّهُ مَرَّ بِطَعَامٍ وَقَدْ حَسَّنَهُ صَاحِبُهُ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِيْهِ ، فَإِذَا طَعَامٌ رَدِيءٌ ، فَقَالَ « بِعْ هَذَا عَلَى حِدَةٍ ، وَهَذَا عَلَى حِدَةٍ مَن غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

فَانْظُرْ بِمَاذَا حَكَمَ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مَنْ غَشَّ في الطَّعَامِ ، وَالطَّعَامُ مَادَّةٌ يَنْقَضِي أَثَرُهَا بِسُرْعَةٍ ، فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ وأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، فالأَيْمَانُ الصَّحِيْحُ الكامِلُ يَقْتَضِيْ الصِّدْقَ والاخلاَصَ ، والتَّقْوَى والنَصْحَ ، وأَنْ يُحِبَّ لِأَخِيْهِ مَا يُحِبُ لِنَفْسِهِ .

فاذا سَأَلَكَ انسَانٌ مُؤْمِنٌ عِنِ حَالِ رَجُلٍ وَأَخْلاَقِهِ ، وَأَمَانَتِهِ ودِيْنِهِ ، فَأَجَبْتَهُ بِغَيْرِ مَا تَعْرِفُ وَتَعْلَمُ ، كَأَنْ كَانَ فَاسِقَاً فَقُلْتَ : إِنَّهُ صَالِحٌ ، أَوْ كَانَ صَالِحَاً فَقُلْتَ : إِنَّهُ مِن المُفْسِدِيْنَ ، فَقَدْ غَشَشْتَهُ وَفِي الحَديث « مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » واذا سَأَلَكَ أَخُوكَ المُؤْمِنُ عنِ امْرَأةٍ يُرِيْدُ أَنْ يَتَزَوَّجَها ، تَعْرِفُهَا

وَتَعْلَمُ صِفَاتِهَا ، وَأَخْلاَقَهَا وأَهْلِهَا ، فَلَمْ تَصْدِقْهُ الحَقِيْقَةَ ، وَلَمْ تَذْكُرْ لَهُ الحَقَّ الذِي تَعْرِفُهُ ، فَقُلْتَ لَهُ : إِنَّ شَكْلَهَا جَمِيْـلٌ ، وهيَ قَبِيْحَةٌ ذَمِيْمَةٌ ، أَوْ قلْتَ لَهُ : ذَمِيْمَةٌ ، وهي جَمِيْلَةٌ ، أَوْ اجَبْتَهُ أَنَّ أخلاقها وَسِيْرَتَهَا غَيْرُ حَمِيْدَةٍ وَالأَمْرُ بِخِلاَفِ ذَلِكَ ، فَقَدْ كَذَبْتَ وَغَشَشْتَ وَكُنْتَ مِن الخَائِنِيْنَ واذا سَأَلَكَ أَخُوكَ عَنْ تاجرٍ وَمُعَامَلَتِهِ لِلنَّاسِ ، فَقُلْتَ غَيْرَ الحَقِ ، وعَمِيَّت عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، فَمَدَحْتَهُ وَهُوَ مَذْمُوْمٌ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ بِذَلِكَ جَمَعْتَ بَيْنَ الغِشِّ والكَذِبِ .

وَقَدِيْماً قِيْلَ :

لَقَـدْ أَبَـاحَـكَ غِشَـاً في مُعَـامَلَةٍ
مَنْ كُنْتَ مِنْـهُ بِغَيْـرِ الصِّـدْقِ تَنْتَفِـعُ

ومَحَلُّ ذَلِكَ كُلِّهِ إِذَا كَانَ السَّائِلُ لَهُ مَصْلَحَةٌ تَتَعلَّقُ بِمَنْ يَسْأَلُكَ عَنْهُمْ ، فَيَلْزَمُكَ دِيَانَةً وانْسَانِيَّةً أَنْ تَصْدِقَهُ الخَبَرَ ، وَان تَبْذِلَ لَهُ النَّصِيْحَةِ ، خَالِصَةً لِوَجْهِ اللهِ تَعالَى ، أَمَّا إِذَا كَانَ السَّائِلُ مِنَ الذينَ يَبْحَثُونَ عَن أَحْوَالِ الناسِ ، وَيَتْبَعُونَ عَوْرَاتِهِمْ وَهَفَوَاتِهِمْ ، لِلتَّشْهِيْرِ بِهِمْ ، وَالقَدْحِ في أَعْرَاضِهِمْ وَتَنَقُّصِهِمْ فَلْيَكُنْ جَوَابَكَ لَهُ عَلَى كُلِ سُؤَالٍ ، قَوْلَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مِن حُسْنِ اسْلاَمِ المَرْءِ تَركُهُ مَا لاَ يَعْنِيْهِ » وقُلْ لَهُ : الأَوْلَى بِكَ أَنْ تُفَتِّشَ عَلَى نَفْسِكَ وَعُيُوبِهَا ، وَتَسْعَى في اصْلاَحِهَا واحْذَرْ أَنْ تَتَّصِفَ بِمَا قَالَ الشَّاعِرُ

شَرُ الوَرَى مَن بِعَيْبِ النَاسِ مُشْتَغلاً
مِثْـلُ الذُبَـابِ يُرَاعِي مَـوْضِعَ العِلَلِ

واعْمَلْ بِمَا قَالَ الآخَرُ

عَلَيْـكَ نَفسَـكَ فَتِشْ عن مَعَـائِبِهَـا
وَخَـلِّ مِن عَثَراتِ النـاسِ لِلنَّـاسِ

وإذَا كَانَ الغِشُّ ـ وهُوَ تَقْدِيْمُ الباطِلِ في ثَوْبٍ مِنَ الحَقِّ ـ يَكُوْنُ في الرَّأيِ والعَمَلِ ، والفَتْوَى والارْشَادِ ، والتَّوْجِيْهِ والوَظِيْفَةِ ، فَإنَّ غِشَّ الطَّعَامِ في الإِفْسَادِ ، أَقَلُّ بِدَرَجَاتٍ مِن الغِشِّ في هَذِهِ النَّوَاحِيْ ، المُمْتَدُّ أَثَرُهَا الشَّامِلُ ضَرَرُهَا ، وَلِهَذَا لَمَّا كـان السَّلَفُ يَفْهَمُوْنَ مَـدَى ضَرَرِ الغِشِّ ، وَيُطَبِّقُوْنَ أَحَادِيْثَ المُصْطَفَى صلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، كَانُوا يُبَيِّنُوْنَ ما في المَبِيْعِ مِن عَيْبٍ وَلَا يَكْتُمُوْنَ ، وَيَصْدُقُونَ ولا يَكْذِبُوْنَ ، وَيَنْصَحُوْنَ ولا يَغُشُّوْنَ ، قَالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم « لا يَحِلُ لِامْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَبِيْعُ سِلْعَةً يَعْلَمُ بِهَا دَاءً إلا أَخْبَرَ بِهِ » .

وَبَاعَ ابنُ سِيْرِيْنَ شَاةً ، فَقَالَ لِلْمُشْتَرِي : أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِن عَيْبٍ فِيْهَا ، إِنَّهَا تَقْلِبُ العَلَفَ بِرِجْلِهَا ، وَبَاعَ الحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ جَارِيَةً ، فَقَـالَ لِلْمُشْتَرِيْ : إِنَّهَا مَرَّةً عِنْدَنَا تَنَخَّمَتْ دَمَاً ، وَمَعَ هَذَا يَأبَى ضَمِيْرُ المُؤْمِنِ إلَّا أنْ يَذْكُرَ العَيْبَ ، وإنْ نَقَصَ الثَّمَنُ ، وَتَتَأكَّدُ الحُرْمَةُ إذَا قَوَّى غِشَّهُ بِيَمِيْنٍ كَاذِبَةٍ ، وقَالَ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم « الحَلِفُ مَنْفَعَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَـةٌ لِلْبَرَكَةِ » .

وَقَدْ أَصْبَحَ الغِشُّ عِنْدَ كَثِيْرٍ مِنَ البَاعَةِ رُكْنَاً وَيَنْدُرُ وُجُوْدُ بَائِعٍ غَيْرِ غَاشٍ ، فَيَنْبَغِيْ لِلأنْسَانِ في هَذَا الزَّمَانِ الذي سَادَ فِيْهِ الغِشُ وَعَمَّ وَطَمَّ ، وَقلَّ فِيْهِ الرَّدْعُ ، والضَّرْبُ عَلَى أَيْدِي الغَشَّاشِيْن ، أنْ يَتَحَفَظَ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ مِن تَحَفُظٍ ، وَيَنْتَبِهِ كُلَ الأنْتِبَاهِ لِكَلامِهِمْ ، وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ، فَإنْ لَمْ يَفْعَلْ سُرِقَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ .

وَلِهَذَا تَجِدْ رِجَالاً يُقْبِلونَ عَلَى البَاعَةِ ، وَهُمْ قَلِيْلُوا الخِبْرَةَ ، سَرِيْعُوْا التَّصْدِيْقِ لِمَا يُقَالُ لَهُمْ ، فَيَلْعَبُ بِهِمْ هَؤُلَاءِ الغَشَّاشُوْنَ وَيَسْتَغِلُّوْنَ سَذَاجَتَهُمْ ، في كَسْبٍ مُضَاعَفٍ ، أَوْ تغْطِيَةِ عَيْبٍ وَقَدْ قَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم « كَبُرَتْ خيَانَةً ، أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيْثاً هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ ، وَأَنْتَ لَهُ كَاذِبٌ » .

وَلَعَلَّكَ فَهِمْتَ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الغِشَّ لَيْسَ مَحْصُوْراً في السُّوْقِ بَلْ يَقَعُ في كُلِّ مَكَانٍ ، وَلَكِنّ أَكْثَرَهُ في السُّوْقِ ، لأَنَّهُ مَحَلُ الأَخْذِ والإِعْطَاءِ وَالبَيْعِ والشِّرَاءِ والعُقُودِ غالباً ، المُهِمُّ أَنَّكَ تَتَحَفَّظْ مِن هَؤُلَاءِ الغَشَّاشِيْنَ السُّرَّاق، وإِنَّمَا قُلْنَا سُرَّاقَاً لِأَنَّ السَرِقَةَ الأَخْذُ عَلَى وَجْهِ الأَخْتِفَاءِ ، وَهُوَ مُنْطِبقٌ على الغَشَاشِ .

تَذْهَبُ إلى المَأكُولِ أَوِ المَشْرُوْبِ ، أَوْ مَا يُجْعَلُ في أَحَدِهِمَا ، فَتَجِدُ أَعْلَاهُ نَظِيْفَاً طَيِّباً مُنَقَّى ، تَشْتَاقُ إلى شِرَائِهِ ، وَعِنْدَمَا تَأْخُذُهُ ، وَتُسَلِّمُ الفُلُوسِ ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ بِدَقَّةٍ تَجِدْهُ مُخْتَلِفَاً عَمَّا نَظَرْتَ إِلَيْهِ أَوَّلاً ، بِرَدَاءَةٍ ، وَإِنْ ذَهَبْتَ إلى بَاعَةِ المَلَابِسِ ،قَدَّمَ لَكَ البائِعُ ثَوباً رَدِيْئاً باسْمِ أَجْوَدِ المَلَابِس ، وَيُعْلِمُكَ بِثَمَنٍ زَائِدٍ جداً عَنِ ثَمَنِهِ الحَقِيْقِيْ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُنْتَبِهاً ، وَصَدَّقْتَ البَائِعَ كُنْتَ مَسْرُوْقاً بِذَلِكَ الفَرْقِ الكَبِيْرِ ، وَإِنْ نَاقَشْتَهُ القَوْلَ ، عَاجَلَكَ بأَغْلَظِ الأيْمَانِ ، بأَنَّهُ يَنْتَقِي لَكَ الجَيِّد ، لِيَخْدِمَكَ ولِتَتَعَرَّفْ بِمَحَلِّهِ ، لِتَكُوْنَ زَبُوْنَاً لَهُ ، حَتَّى رُبَّمَا أَنَّكَ لَا تَشُكُّ في أَنَّهُ صَادِقٌ مِنْ كَثْرَةِ الأَيْمَانِ التِي لَفَظَهَا فُوْهُ ، وَسَوَّدَ بِهَا صَحِيْفَتَهُ ، وإِذَا أَتَيْتَ إِلى تَاجِرِ الدَّقِيْقِ ، حَلَفَ لَكَ أَنَّ هَذَا مِن أَحْسَنِ البُرّ ، وَهُوَ مَجْمُوْعٌ مِنْ شَعِيْرٍ وَبُرٍ مُنْخِشٍ ، قَدْ أَكَلَ الدُوْدُ لُبَّهُ ، أَلَا يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا شَاهِدٌ

رَقِيْبٌ ، وَأَنَّهُ أَعَدَّ لِأَمْثَالِهِ مِن الغَشَّاشِيْنَ أَنْوَاعَ العُقُوْبَاتِ إنْ لَمْ يَتُوْبُوا إليهِ ، وتاجِرُ المَاشِيَةِ تَجِدُ حَوْلَهُ لَفِيْفاً مِن النَّجَاشِيْنَ ، الذِيْنَ يَكْتَنِفُوْنَ المَشْتَرِيَ مِن كُلِّ جَانِبٍ فَهَذَا يَزِيْدُ كاذِباً ، وَذَاكَ يَحْلِفُ آثِماً ، إلَى أَنْ يَقَعَ في الشَّرْكِ المِسْكِيْنُ ، إذَا كَانَ شَارِياً ، أَمَّا إذَا كَانَ بَائِعاً زَهَّدُوْهُ فِيْمَا يُرِيْدُ بَيْعَهُ ، وَأَحَاطُوا بِهِ وَكُلٌّ يُرذِّلُ سِلْعَتَهُ مِن جِهَةٍ ، إلى أَنْ تَسْقُطَ مِن عَيْنِ صَاحِبِهَا ، فَيَبِيْعُهَا لَهُمْ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .

وإذَا أَتَيْتَ إلى بَائِعِ الخُضَرِ وَجَدْتَ الأَعْلاَ زَيْناً والوَسَطَ فَاسِداً أَمُمَرِّضاً لِلْبَدَنِ وَتَدْخُلُ إلى مَنْ عِنْدَهُ السَّمْنُ والزُّبْدُ والعَسَلُ ، فَيَبِيْعَكَ بِاسْمِ الجَيِّدِ ، واذا عَرَضْتَهُ عَلَى أَهْلِ الخِبْرَةِ أَهْلَ الصِّنْفِ قَالُوا لَكَ هَذَا غَيْرُ الذي تُرِيْدُ ، أَوْ مَخْلُوطاً مَعَهُ غَيْرُهُ .

وَإذَا ذَهَبْتُ إلى مَبِيْعِ السَّيَّارَاتِ رَأَيْتَ مَا يُزْعِجُكَ وَيُشَتِّتُ ذِهْنَكَ مِنْ كَثْرَةِ النَّجَاشِيْنَ والغَشَّاشِيْنَ المُعَمِّيْنَ لِلْعُيُوْبِ الذينَ قَدْ مَهَرُوا في المُكْرِ والخِدَاعِ والمَلْقِ والنِّفَاقِ .

وَإذَا أَتَيْتَ أَهْلَ الاَوَانِيْ وَالغَضَارِ والصَّنَادِيْقِ وَجَدْتَ الأَصْبَاغَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ لِتَغْطِيَةِ العَيْبِ عن المُشْتَرِي .

وإن ذَهَبْتَ إلَى أَرْبَابِ الصَّنَائِعِ ، وَجَدْتَ أَكْثَرَهُمْ عَنْدَهُ مِن الغِشِّ وإخْلاَفِ الوَعْدِ الشَّيْءَ الكَثِيْرَ ، ولا فَرْقَ في هَذَا بَيْنَ نَجَّارٍ وَحَدَّادٍ ، وَخَيَّاطٍ وَصَبَّاغٍ وصَائِغٍ وَطَبَّاخٍ ، وَسَبَّاكٍ وَبَنَّاءٍ وَنَقَّاشٍ وَخَرَّازٍ ، وَسَاعَاتِي وَحَبَّاكٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، كُلُّهُمْ في حِرْصٍ تامٍ على أَخْذِ الفُلُوْسِ ، وَلَوْ بِلاَ عَمَلٍ يُقَابِلُهُ .

وإنْ ذَهَبْتَ إلى بَائِعِي مَوَادِّ البِنَاءِ ، وَجَدْتَ أَكْثَرَهُمْ عِنْدَهُ مِنْ الوَانِ الغِشِّ أَشْيَاءَ كَثِيْرةً، يَعْرِفُهَا أَهْلُ الخِبْرَةِ بِذَلِكَ .

وَبِهَذَا صَارَ جَوُّ التِّجَارَةِ ، المِهْنَةِ الشَّرِيْفَةِ ، التِّيْ لَوْ صَدَقَ صَاحِبُهَا لَحلَّتْ عَلَيْهِ البَرَكَةُ ، جواً وَبِيْئاً ، مُشْبَعَاً بالكَذِبِ والأيْمَانِ الآثِمَةِ ، مَلِيْئاً بالتَّغْرِيْرِ ، والغِشِّ والتَّدْلِيْسِ ، واخْفَاءِ العُيُوْبِ ، وما إلى ذَلِكَ ، وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ بَاقِي أَهْلِ الأعْمَالِ والصَّنَائِعِ ، والمُقَاوِلِيْنَ والمُقَاوِلِيْنَ وَغَيْرِهِم ، وِمن ألوانِ الغِشِّ تَطْفِيْفُ المِكْيَالِ والمِيْزَانِ ، وقَدْ اهْتَمَّ القُرآنُ بِهَذَا الجَانِبِ مِن المُعَامَلَةِ ، وَجَعَلَهُ مِن وَصَايَاهُ العَشْرِ في آخِرِ سُوْرَةِ الأنْعَامِ ، قَال الله تعالى ﴿ وأَوْفُوا الكيلَ والميزانَ بالقِسْطِ ﴾ وقالَ ﴿ وأوفوا الكيلَ إذا كِلْتُم ، وزِنُوا بالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيْمِ ﴾ وقال تعالَى ﴿ وَيْلٌ للمطفِفينَ ، الذين اذا اكتالوا على الناسِ يَسْتَوْفُونَ ، وإذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوْهُمْ يُخْسِرُوْنَ ، ألا يَظُنُّ أولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوْثُون لِيَوْمٍ عظيمٍ ، يومَ يقوم الناسُ لربِ العالمين ﴾ .

وَلَقَدْ بَعَثَ الله شُعَيْباً عليه السلامُ يَدْعُو قَوْمَهُ أَوَّلًا إلى تَوْحِيْدِ اللهِ ، وَيُتْبِعُهُ بالنَّهْيِ والتَّحْذِيْرِ عن نَقْصِ المِكْيَالِ والمِيْزَانِ مُبَيِّناً أن ذَلِكَ إفْسَادٌ في الأرضِ بَعْدَ إصْلَاحِهَا ، قَال تعالى ﴿ وَإلى مَدينَ أخاهُم شُعَيْباً ، قَالَ يا قومِ اعبَدوا اللهَ مالكم مِن إله غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُم مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّكُم فأوفُوا الكَيْلَ والمِيْزَانَ ، ولا تَبْخَسُوا الناسَ أَشْيَاءَهُم ، ولا تُفْسِدُوا في الأرْضِ بعدَ إصْلَاحِها ، ذَلِكُم خيرٌ لكم إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنِ ﴾ .

شعراً :

يا مُنْفِقَ العُمْرِ في حِرْصٍ وفي طَمَعٍ
إلَى مَتَى قَدْ تَوَلَّى وانْقَضَى العُمُرُ
إلى مَتَى ذَا التَمَادِي في الضَّلَالِ أمَا
تَثْنِيكَ مَوْعِظَةٌ لَوْ يَنْفَعُ الذِكَرُ
بادِرْ مَتَاباً عَسَى مَا كَانَ مِن زَلَلٍ
وَمَا اقْتَرَفْتَ مِن الآثَامِ يُغْتَفَرُ
وجَنِّبْ الحَرْصَ واتْرُكْهُ فَمَا أَحَدٌ
يَنَالُ بالحِرْصِ مَا لَمْ يُعْطِه القَدَرُ
وَلا تُؤْمِلْ لِمَا تَرجُو وَتَحْذَرُهُ
مَن لَيْسَ فِي كَفِّهِ نَفْعٌ وَلاَ ضَرَرُ
وَفَوِّضِ الأَمْرَ لِلرَّحْمٰنِ مُعْتَمِداً
عَلَيْهِ في كُلِ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ
وَاحْذَرْ هُجومَ المَنَايَا واسْتَعِدَّ لَهَا
مَا دَامَ يُمْكِنُكَ الإِعْدَادُ والحَذَرُ

اللهم وفقنا لاتباع الهدى وجنبنا أسباب الهلاك والشقا واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجميعن .

« فصل »

واعْلَم أَنَّ انْتِقَاصَ الحُقُوقِ عَلَى أَيِّ طَرِيْقٍ كَانَ أَسَاسٌ كَبِيْرٌ لِزَعْزَعَةِ الثِّقَةِ في المُجْتَمَعِ ، وسَبِيْلٌ إلى قَطْعِ الصِّلاتِ وإثَارَةِ الأحْقَادِ ،

والبَغْضَآءِ والعَدَاوَةِ بَيْنَ الناسِ ، ولِذَلِكَ يَنْتَشِرُ الفَسَادُ في الأَرْضِ ، وتَضِيعُ المَصَالِحُ ، فالقِصَّةُ يُفْهَمُ مِنْهَا ـ كَمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ العُلَمَاءِ ـ أنَّ الهَدَفَ هُوَ اقْتِلاَعُ الخُلُقِ الذِي يَدْفَعُ الانسانَ إلى انْتِقَاصِ الحُقُوقِ ، والكَيْدِ لِأَصْحَابِهَا ، عَن طَرِيْقِ الغِشِّ والخَدِيْعَةِ ، وعن طَرِيْقِ تَسْخِيْرِ الْمَنَافِعِ العَامَّةِ ، وحُقُوْقِ الناسِ ، في سَبِيْلِ الحُصُولِ على المَنَافِعِ الخَاصَّةِ ، وَهَذَا هُوَ الذِي يَعْقِبُ حَقاً الافْسَادَ في الأَرْضِ ، وزَلْزَلَةَ الحَيَاةِ العَامَّةِ عَلَى أَصْحَابِهَا .

قَالَ: ومِنْ هُنَا يَجْدُرُ بالمُوظَّفِ والكُتَّابِ والمُوجِّهِ والمُشْيِرِ والمُعَلِّمِ ، أنْ يَأخُذُوا لأنْفُسِهِم مِن تَخْصِيْصِ المِكْيَالِ والمْيزَانِ في رِسَالَةِ شُعَيْبٍ ، وقَرْنِهَما بِعِبَادَةِ اللهِ ، واعْتِبَارِ انْتِقاصِهِمَا إفْسَاداً في الأرضِ ـ يَجْدُرُ بِهِم جَمِيْعاً أنْ يَأخُذُوا لِأَنْفُسِهْم أعْظَمَ عِظَةً ، وأجْدَى عِبْرَةً ، وإنَّ انتقاصَ الكَيْلِ والمْيزَانِ ـ فيْمَا وَرَاءَ السِّلَعِ المادِيَّةِ ـ لأشَدُّ خَطَراً ، وأقْبَحُ أثراً ، وأعْظَمُ ضَرَراً مِن انْتِقَاصِ حَفْنَةٍ مِن قَمْحٍ ، أوْ أوْقِيَّةٍ مِن رِطْلٍ .

إنَّ مِن حَقِّ الانسانِ في هذِهِ الحَيَاةِ أنْ يَتمَتَّعَ بحَقِّهِ كَامِلاً غَيْرَ مَنْقُوصٍ ، ومِن حَقِّ المُؤْمِنِ على أخِيْهِ المُؤْمِنِ أنْ يُمَكِّنَهُ مِن حَقِّهِ ، ويُعَاوِنه في الحُصول عليه ، ومِن حَقِّهِ أنْ يرشِدَهُ إذا اسْتَرْشَدَهُ ، وأنْ يَمْحَضَهُ النُّصْحَ إذا اسْتَنْصَحَهُ ، وأنْ يَفِيْ لَهُ إذا عَاهَدَهُ ، وأنْ يَصْدُقَهُ إذا حَدَّثَهُ أوْ وَعَدَهُ ، إنَّهَا مُبَادَلَةٌ ولكِنْ لَيْسَت في السِّلَعِ ولا فِي الطَّعامِ ، ولا في الشَّرَابِ ، وإنَّما هِيَ في الخُلُقِ والمُرُوْءَةِ والصدق والايمانِ ، والانْحرافُ فِيْهَا عن مُقابلة الخَيْرِ بالخَيْرِ ، تَطْفِيْفٌ في الكَيْلِ ، وانْتِقاصٌ لِلْحُقُوقِ .

وَقَدْ جعَلَهُ اللهُ عَلامَةً مِن عَلامَاتِ التَّكْذِيْبِ بِيَوْمِ الدِّيْنِ ، وأَنْزَلَ في شَأْنِهِ سُوْرَةً كاملة ، هي سورة اسْتَهَلَها بقولِه ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِيْنِ ، الذينَ إذا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وإذا كالُوُهُمْ أوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُوْنَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُوْنَ لِيومٍ عَظِيْمٍ يَومَ يَقومُ الناسُ لِرَبِّ العَالِمِين ﴾ انتهى .

ولَقَدْ صَارَ الغِشُّ في كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى اللَّبَنَ في ضَرْعِ الحَيَوانِ وحَتَّى في الشُعَورِ ، جَعَلُوا يَصْبَغُونَهَا بالسَّوادِ غِشَا وتَدْلِيْسَا .

شعرا :

قَــالَتْ أَرَاكَ خَضَبْتَ الشَّيْبَ قُلْتُ لَـهَــا
سَتَـرتُـه عَنْـكِ يـا سَمْعِي ويَــا بَصَـرِي
فَـقَـهْـقَـهَـتْ ثُـمَّ قَــالَـتْ إنَّ ذَا عَـجَـبٌ
تكــاثَــرَ الغِشُ حَتَّى صَــارَ في الشَّـعَــرِ

وبالتَّالي فإنَّ الغِشَّ مَعْصِيَةٌ لِلّهِ ولِرَسُولِهِ ، وأَنَّهُ لا يُفِيْدُ صَاحِبَهُ إلَّا الوِزْرَ ، والخِزْيَ العَاجِلَ والآجِلَ إنْ لم يَتُبْ ، والعارْ (ثالثا) أنَّ الغِشَّ يُضَيِّعُ الثِقَةَ ، وأنّهُ مِمَّا يَجْلِبُ الهَمَّ والغَمَّ ، وأنَّهُ حَجَرٌ في طَرِيْقِ تَقَدُّمِ صَاحِبِ العَمَلِ ، وأنَّ الناسَ إذا عَرَفُوْه بِذلَكَ انْصَرَفُوا عَنْهِ ، وأُغْلِقَ في وَجْهِهِ أبْوابُ الرِبْحِ .

ومِنْ جِنَايَاتِ الغِشِّ عَلَى صَاحِبِه أَنَّ البَرَكَةَ تَذْهَبُ مِن عَمَلِ يَدَيْهِ ، ورُبَّمَا دَارَتْ عَلَيهِ أوْ عَلى ذُرِّيَتِهِ الدَّوائِرْ .

ومِنْ ذَلِك أَنَّهُ دَلِيْلٌ على أنَّ نَفْسَ صَاحِبِه خَبِيْثَةٌ طَاغِيَةٌ .

ومِنْ ذَلِكَ أنَّ صاحَبُه يُعْتَبَرُ مِمَّنْ يَأْكُلُ أمْوَالَ الناسِ بالباطِل .

ومِنْ ذلكَ أنَّهُ دَلِيْلٌ على أنَّ صَاحِبَهُ مَا عِنْدَهُ رَأفَةٌ وَرَحْمَةٌ لِأخْوَانِهِ المُسْلِمْينَ ، وأنَّهُ مَا يُحِبُّ لهُم مَا يُحِبُّ لَنَفْسِهِ .

ومِنْ ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ سَبَبٌ لِقَطْعِ الصِّلاتِ ، وَزَعْزَعَةِ الثِّقَةِ في المُجْتَمَعِ ، وأَنَّهُ سَبَبٌ لِإِثَارَةِ الأحْقَادِ والبَغْضَآءِ بَيْنَ الناسِ وأنهُ سَبَبٌ لِنْشَرِ الفَسَادِ وتَضْيِيعْ المَصَالِحِ .

وأنَّهُ مَانَعٌ لِلاْنِسَانِ مِن تَمَتُّعِهِ بِحَقِّهِ كَامِلاً ، وأنَّهُ مُنَاقِضٌ لِمَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُ ، مِن أنهُ يُمَكِّنُ أَخَاهُ مِن حَقِهِ ، ويُعَاوِنُهُ في الحُصُولِ عليه .

وأنَّهُ مُنَاقِضٌ لِلنَّصِيْحَةِ .

وإنَّهُ يُعْتَبَرُ مِن عِدَادِ الكَذَّابِيْنَ وَالخَوَنَةِ والظَّلَمَةِ وأنَّهُ بَعْيْدٌ عن الاخلاصِ .

وأنَّ صَاحِبَهُ يَكُونُ مَرْمُوْقَاً بِعَيْنِ الاحْتِقَارِ والازْدِرَاءِ عَكْسَ المُخْلِصِ في عَمَلِهِ .

وأنَّ الغِشَّ أكْبَرُ بُرْهَانٍ عَلَى أَنَّ صَاحَبَهُ لَا يُزَكِّيْ وأَنَّهُ لا يَتَنَسَّخِ مِن الحُقوقِ الوَاجبَةِ لأن مَنْ يأخُذُ أمْوَالَهم يَبْعِد جِدًا أنْ يُعْطِيَهُمْ .

وأنَّ الغِشَّ بُرْهانٌ عَلَى أنَّ عِنْدَ صَاحِبِه منَ الطَّمعِ وَالشُّحِ والبُخْلِ والهَلَعِ الشَّيْءُ الكَثِيْرُ بدلِيلٍ عَدَمِ اكِتَفَائِه بمَا أعْطَاهُ اللهُ .

وأنَّهُ دَلِيْلٌ عَلَى ضَعْفِ إيْمَانِ صَاحِبه ، وعَدَمِ احْتِرَامِهِ لِأحَادِيْثِ

المُصْطَفَى صلى اللهُ عليه وسلم لِمُعَاكَسَتِهِ لهَا مَعَ عِلمِهِ بِهَا .

ومِنْ جِنَايَاتِ الغِشِّ أنَّهُ يُوْقِعُ صَاحِبَهُ في طُوْلِ الموقِفِ والحِسَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وكَثْرَةِ الخُصَمَاءِ الذِيْنَ أخَذَ أمْوَالَهُم بغير حَقٍ .

وأنَّهُ سَبَبٌ لإضَاعَةِ حَسَناتِهِ ، أوْ لِحَمْلِ سَيِّئَاتِ غَيْرِهِ مِمَّنْ غَشَّهُمْ ، وأخَذَ أمْوَالَهُمْ عَلى وَجْهُ الاخْتِفَاءِ لِجَنايَتِهِ على نَفْسِهِ بالغِشِّ .

ومِن مَضَّارِ الغِشِّ أنَّ صَاحِبَهُ يُسِيْءُ إلى أوْلَادِهِ وأسُرْتِهِ إذَا اشْتَهَرَ بهِ ، لِإنَّهُ يُلوثُهُمْ بِهَذه السُّمْعَةِ السَّيئَةِ ، والفَائِهَةِ القَبِيْحَةِ ، ويَحْمِلُ الناسَ عَلى أنْ يَقُولُوا لَهُمْ عَائِلة الغَشَّاشِ وأعْظِمْ بِهَا مِن أذِيَّةٍ لِلْمُسْتَقِيْمِيْنَ ، وأذِيَّةُ الغَشَاشِ لِإوْلَادِهِ خَاصَّةً ، أشَدُ بِكَثِيْرٍ مِن أذَيَتِـهِ لِبَاقِي الأُسْـرَةِ البَعِيْدِيْنَ مِنْهُ ، لأنَّ الأبْنَاءَ حَوْلَ أبيْهِمْ ، يأخُذُوْنَ عنهُ ، ويَنْشَئُونَ على أخْلَاقِ أبِيْهِمْ غَالِبَاً فإنَّهُمْ إذَا نَشَئُوْا عِنْدَهُ لا بُدَّ أنْ يَأخُذُوْا مِنْ طِبَاعِهِ ، ويُوْشِكُ أنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ غَشَّاشِيْنَ بَعَدْ مَا يَبْلُغُوا مَبْلَغ الرُّجُوْلَةِ ، فيَكُونُ أبُوْهُمْ سَبَباً في وُقُوعِهِمْ في ضَرَرِ الدُنْيَا والآخِرَةِ ، وإنْ تَحَرَّجُوْا ولا سَلَكُوا طَرِيْقَةَ أبِيْهِم بـالغِشِ فَمَا مِن سَـلَامَةِ ، يُعَيِّـرُهُمْ الناسُ ويقُـوْلُونَ لَهُمْ : يَـا أوْلَادَ الغَشَّاشِ ، وهَذِه أذِيَّةٌ عَظِيْمَةٌ ، تُؤَدِيّ إلى التَّشَاجُرِ والتَّقَاطُعِ والتَّهَاجُرِ وتَبَادُلِ السِّبَابِ .

وأمَّا أذِيَّةُ الغَشَّاشِ لجَمَاعَتِهِ وأهْلِ بَلَدِهِ فَوَاضِحَةٌ ، لِإنَّهُ يَكُوْنُ لَهُمْ قَدْوَةً سَيئَةً ، يُسَمُّونَهُم قَوْمَ الغَّشَاشِ ، وجَمَاعَةَ الغَشَّاشِ ، والطِّبَاعُ سَرَّاقَةٌ مِن حَيْثُ يَشْعُرُ أصْحَابُهَا ومِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، فَيَسْرِي إلَيْهِمْ هَذَا الطَّبْعُ والخُلُقُ الذِي هُو الغِشُ ، فإنْ لَمْ يُصِبْ الجَمِيْعَ تأثرَ بِه البَعْضُ كالجَرَبِ .

وبهَذَا تُنْسَبُ الجَمَاعَةُ والسَّاكِنُونَ في بَلَدِهِ إلى الغشّ ، نَظَراً لِذلِكَ الغَشَّاشِ ، ويُقَالُ بَلَدُ الغَشَّاشِيْنَ ، كَمَا يُقَالُ بِلادُ الفَراعِنَةِ ، وهَذِهِ مُصْيبَةٌ عَظِيْمَةٌ ، ودَاهِيَةٌ دَهْيَا .

وأمَّا ضَرَرُ الغَشَّاشِ وَأَذِيَّتُهُ لِلدِّيْنِ ، فَيالَهَا مِنْ مُصِيْبَةٍ فَادِحَةٍ ، وَعقَبَةٍ كَؤُوْدٍ ، ضِدَّ القَائِمينَ بالدَّعْوَةِ إلى الاسلامِ ، ونَشْرِ مَحَاسِنِه ، والحَثِّ عَلى التَّخَلُقِ بأخْلاَقِ المُسْلِمْينَ ، والتَّأَدُبِ بآدَابِهِم ، لأَنَّ أعْدَاءَ الاسلامِ إذَا نَظَرُوْا إلى هَؤُلاَءِ الغَشَّاشِيْنَ ، يَرْمُوْنَ الدِيّنْ الاسْلامِي بالنقصِ ، ولا يَقُوْلُونَ إنَّ النَّقْصَ في الناسِ ، لِعَدَمِ تَمَسُّكِهِمْ بالدِّيِنِ ، وعَدَمِ تَطْبِيْقِهِمْ لإحْكَامِهِ ، بَلْ يُلْصِقُونَ النَّقْصَ وَالعَيْبَ بالدِّيْنِ الاسلامِي ، وذلِكَ صَدٌّ عَن اتّبِاعِ الدِيْنِ الحَقّ ، وهَذا قَلْيْلٌ مِن كَثِيْرٍ ، مِمَّا يَنْشَأُ عَن الغِشّ مِنَ الأضْرَارِ والأذَايَا . اقْتَصَرْنَا عَلَيهِ خَشْيَةَ الأطَالَةِ ، والا هُوَ يَسْتَدِعي مُصَنَّفاً وَحْدَهُ .

وبالتَّالِي فمَا الدَّاعِي إلى ذلكَ أيُّهَا المُسْلِمُونَ ؟ أهُوَ القُوْتُ الذي تَكَفَّلَ بِهِ الحَيُّ الذي لا يَمُوْت ؟ وما رَأيْنَا تَقِيّاً مَاتَ جُوْعَاً ، أوْ مُؤْمِناً وَرِعاً قَضَى غَرْثَانا طَاوِياً ، أمْ هُوَ الجَشَعُ والطَّمَعُ ، وشَرَهُ النُفُوسِ في جَمْعِ الحُطَامِ الفَانِي ؟ وَقَدْ أُمِرْنَا بمُجَاهَدَةِ النُفُوسِ ، وَتَقْوِيْمِهَا حتى تَرْعَوَيْ وتَسْتَقِيْمَ ، امْ إنَّ ذلكَ المُشْتَرِيْ قد ارْتَكَبَ مِنَ الوِزْرِ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ العُقُوْبَةَ .

أَيُّهَا التُّجار مَا هَكَذَا يَكُونُ الربْحُ ، وما هَكَذَا يَكُونُ المُكْسَبُ وما بِتْلْكَ الأسَالِيْبَ تَتكَوَّنُ الثَّرْوَةُ ، ويُجْمَعُ المَالُ ، ولَكِنْ بالصِّدْقِ والأمَانَةِ والذِمَّةِ والشَّرَفِ ، والعِفَةِ عن الحَـرَامِ ، فَكِّرُوْا في مَصِيْـرِ ما أتْعَبْتُمْ

نُفُوسَكُم وأبْدَانَكُمْ في جَمْعِهِ ، وفَكِّرُوْا في المُنَاقَشَةَ يَوْمَ القِيامَةِ عَنْ دُخُولِهِ وخُرُوجِهِ ، وأنَّكُم مُفَارِقُوهُ عن قَرِيبٍ رَغم أنوفِكُمُ لأناسٍ يُضَيِّعُوهُ في الملاهِي والمنكراتِ كالتلفزيون والفيديو والسينماء والمَذَايِيْع والسَّفرِ لِبلادِ الكُفْرِ.

شعرا

أَبَعْدَ بَيَاضِ الشَّيْبِ أعْمُرُ مَنْزِلاً
سِوى القبرِ إنِّي إنْ عَمَرتُ لأَحْمَقُ
يُخَبِّرنِي شَيْبِيّ بأَنِّيَ مَيِّتٌ
وشِيْكَاً فَيَنْعَانِيْ إلَيَّ ويَصْدُقُ
يُخَرِّقَ عُمْرِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
فهلْ مُسْتَطاعٌ رَقْعُ مَا يَتَخَرَّقُ
كَأنِّيْ بِجِسْمِي فَوْقَ نَعْشِي مُمَدَّداً
فَمِنْ سَاكِتٍ أوْ مُعْوِلٍ يَتَحَرَّقُ
إذَا سُئِلُوْا عَنِّيْ أجَابُوا وَأعْوَلُوا
وأدمُعُهُم تَنْهَلُ هَذَا المُوفَّقُ
وغُيِبْتُ في صَدْعٍ مِنَ الأرْضِ ضَيِّقِ
وأُوْدِعْتِ لَحْداً فوقَهُ الصَّخْرُ مُطْبَقُ
ويَحثُوْ عليَّ التُربَ أوْثَقُ صَاحِبٍ
ويُسْلِمُنِي لِلْقَبْرِ مَن هُوَ مُشْفِقُ
فَيَا رَبُّ كُنْ لِي مُؤْنِساً يَوْمَ وَحْشَتِي
فإنِّيْ بِمَا أنْزَلْتَهُ لَمُصَدِّقُ
ومَا ضَرَّنِي أنِيَ إلَى اللَّهِ صَائِرٌ
ومَن هُوَ مِن أهْلِيْ أبَرُّ وأرْفَقُ

آخر :

نَرْضَى بما قَدَّرَ الرحمنُ مَوْلاَنَا
وما يَكُونُ ومَا مِنْ أمْرِهِ كَانَا

وَالحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ الحَامِدِيْنَ لَهُ
حَمْداً كَثِيْراً كَمَا يُرضِيهِ رِضْوانَا

ألاَ فإنَّا لَهُ مَاضٍ تَصَرُفُهُ
فِيْنَا لَعْمرِي ألاَ إلَيْهِ رُجْعَانَا

قَضَى وَقَدَّرَ أنَّ المَوْتَ دَائِرَةٌ
كُؤوسُهُ في الوَرَى لَمْ تُبْقِ إنْسَانَا

فَأيْنَ عَادٌ وكِسْرَى وابنُ ذِي يَزَنٍ
ومَن يُوَازِرُهُمْ ومَن لَهُمْ عَانَا

لَمْ يَمْنَعِ الموتَ عَنهم حَاجِبُونَ وَلَمْ
يُبْقِ البَلَى لَهُمْ صَرْحاً وإيْوَانَا

بَلْ أيْنَ صَفْوَةُ خَلْقِ الله فَاطِبَةً
وأرْجَحَ الناسِ عِند اللهِ مِيْزانَا

تَجرَّعَ الكُلُّ كَأسَ المَوتِ وانْتَقلُوا
عن هَذِهَ الدَّارِ شِيْبَاناً وشُبَّانَا

فَتِلْكَ مَوْعِظَةٌ لإنْفُسٌ فُجِعَتْ
أضْحَتْ وقَدْ لَقِيتَ هَمًّا وَأحْزَانَا

اللهم ثَبِّتْ وقَوِي إيمانَنَا بِكَ وبمَلائِكَتِكَ وبكُتُبِكَ وبِرُسُلِكَ وباليومِ الآخرِ وبالقدرِ خيرِه وشَرِّهِ اللهم أصلحْ أحوالَنَا وأكِفنا شَرَّ أشرارِنا واحْفَظْنَا

مِن بينِ أيدينا ومِن خلفنا ونعوذُ بَعَظَمَتِكَ أن نُغْتَالَ مِن تَحْتِنَا ونسألك أن تغفرَ لنا ولِوَالِدِينا وجميعِ المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

موعظة

عِبَادَ اللهِ فَتِّشُوْا قُلُوْبَكُم بتَأَنٍّ واتِّئَادٍ ، وابْحَثُوْا عَمَّا تَغَلْغَلَ فِيْهَا مِن الأَضْغَان والأَحْقَادِ ، فَاذا وَجَدْتُم شَيْئاً مِن ذَلِكَ فاجْتَهِدُوْا وَاعْمَلُوا عَلَى سُرْعَةِ إزَالَتِهِ وَمَحْوِهِ بِجِدٍ واجْتِهَادٍ وأَعْرِضُوْا بِكُلِّيَتِكُم عن وَحْي الشيطانِ وَوَساوِسِهِ ، واسْتَعِيْذُوا باللهِ القَوِيِ القَدِيرِ مِن هَمَزَاتِهِ وهَوَاجِسِهِ ، فانَّهُ لا يُرِيْدُ إلَّا إيقَاعَكُم في البَلَا ، وَتَعْرِيْضَكُم لِسَخَطِ اللهِ ومَقْتِهِ الشَّدِيدِ ، مَاذَا يَضُرُّكُم إنْ تَنازَلْتُمْ عَنْ بَعْضِ حُقُوقِكُم ، وتَجَاوَزْتُمْ وصَفَحْتُمْ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكُم مِن إخْوانِكُم ، وقَصَدْتُمْ وَجْهَ اللهِ وثَوابَهُ في صَفْحِكُم وتَنَازُلِكُم ، وبذَلِكَ تكُونُونَ قَدْ أَرْضَيْتُمْ اللهَ رَبَّ العَالَمِيْن ، وأبْعَدْتُم شَبَحَ الشَّرِ عَنْكُم . وعَنْ إخْوَانِكُم المُسْلِمِيْن وكُنْتُم أَصْحَابَ الفَضْلِ والمِنَّةِ ، يَشْكُر اللهُ والناسُ لكُم هَذَا الخُلُقَ الطَّيِّبَ الحَمِيْدَ ، أَلَا فاحْرِصُوْا عِبَادَ اللهِ على الفَضْلِ العَظِيْمِ ، وأَقْبِلُوا سِرَاعاً إليْهِ ، واكْظِمُوا غَيْظَكُم ، وابْذِلُوا جُهْدَكُم في التَّغَلُّبِ عليهِ ، واعْلَمُوا أنَّ الجَزَاءَ مِن جِنْسِ العَمَلِ ، فاللهُ يَغْفِرُ مِن ذُنُوبِ العَافِيْنَ عن الناسِ ، وَيُمَجِّدُ الكَاظِمِيْنَ الغَيْظَ ، ويَتَوَلَاهُمْ بالفَضْلِ والكَرَامَةِ ، ويُزَوِّجُهُم مِن حُوْرِ الجِنَانِ ما يَشَاؤُونَ يومَ القِيَامَةِ ، ويَدْعُوْهُمْ يَومَ القِيَامَةِ على رُؤوسِ الخَلائِقِ إلى تِلْكَ الكَرَامَةِ ، لِيَعْلَمَ فَضْلَهُمْ ، ويَشْهَدَ مَجْدَهُمْ القَرِيبُ والبَعِيْدُ . فاذَا مَا عَلِمْتُمْ هَذَا فَقَارِنُوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُعَامِلُ اللهُ به المُشَاحِنَ الحُقُوْدَ الحَسُوْدَ ، الذِيْ أَجَابَ دَاعِيَ الشَّيْطَانِ ،

وأَعْرَضَ عَنْ نَصِيْحَةِ رَبِّهِ الذِي خَلَقَهُ وَرَزَقَهُ ، ويَسَّرَ لَهُ أُمُورَهُ ، وأَصرَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِن التَّقَاطُعِ والشَّحْنَاءِ والصُّدُوْدِ ، وسَتَرَوْنَ أَنَّهُ بعِنَادِهِ وَإِبائِهِ واسْتِكْبَارِهِ قَدْ خَسِرَ الدُنْيَا والآخِرَةِ عَرَّضَ نَفْسَهُ في الدُنْيَا لِنِقَمِ اللهِ المُتَعَاقِبَةِ ، وأبقَى لَهَا بَعْدَ الموتِ جهَنَّمَ يَلْقَى فِيْهَا العَذابَ الأَلِيْمَ ، وَقَدْ وَرَدَ عَن النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم : أَنَّ المُتَهَاجِرَيْنَ المُتَشَاحِنَيْنِ ، يُعْـرِضُ اللهُ عنهما ، وَإِذَا أَفَـاضَ عَلَى خَلْقِهِ رَحْمَتَـهُ كَانَ الحِـرْمَانُ نَصِيْبَهُمَا ، ولاَ يَزَالانِ هكذا . حَتَّى يُزِيْلاَ مَا بَيْنَهُمَا مِن الخِصَامِ ، وَيَعُوْدَا إِلَى ما كانَا عَلَيْهِ مِن قَبْلُ مِن الصَّفَاءِ والوِئَامِ ، واللهُ سبحانه وتعالى عَفُوٌّ غَفُوْرٌ : تَفَهَّمُوْا يا إِخْوانِي جَيِّداً ، واقْرَعُوْا قُلُوبَكُمْ بِمَا سَمِعْتُمْ مِن الزَّوَاجِرِ والعِـظَاتِ ، واعْلَمُوْا أَنَّ أَقْـرَبَ المُتَصَـافِيَيْنِ إلى اللهِ أَسْبَقُهُمَـا إلى الصَّفْحِ ، وتَنَاسِيْ مَا فَاتَ ، وأَعْظَمَهُمَا أجراً مَن بَدَأَ بالسَّعْيِ إِلَى إِزَالَةِ الأَضْغَانِ والأَحْقَادِ ، فإِنْ اسْتَجَابَ خَصْمُهُ لِلصُّلْحِ ، ولَمْ يَتأخرْ ، فَبِهَا وَنِعِمَتْ ، واسْتَحَقَّ نَصِيبَهُ مِنَ الأَجْرِ والثَّوَابِ ، وَإِن أَبَى وامْتَنَعَ فَقَدْ احْتَمَلَ الاثمَ والعِقابَ فاتقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ ، واعْمَلُوا بهذِهِ النَّصِيْحَةِ ، وسَارِعُوا بالاعتذارِ إلى رَبِكُم ، واسْتَجِيْبُوا إلى دَاعِي الهُدَى والرَّشَادِ ، وأَصْلُحوا ذاتَ بَيْنِكم ، وهَلِمُّوا سِراعاً إلى مُصَافَاةِ مَن خَاصَمْتُمْ مِن إِخْوانِكُم ، وبذلكَ تَصُونُونَ بُيُوتَكُم مِنَ الخَرَابِ ، وتَحْفَظُونَ أَمْوَالكُم مِن التَّلاشِيْ والذَّهَابِ ، وتَرْجُونَ رِضَا رَبِكُم وَعَفْوَهُ يَومَ البَعْثِ والحِسَابِ ، ﴿ يَومَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بقَلْبٍ سَلِيْم ،﴾ ، ﴿إن في ذلك لَذِكْرَى ، لِمَنْ كانَ له قَلبٌ ، أَوْ أَلْقَى السمعَ وهو شهيد﴾ رَوَى أَبُو دَاوُدَ عن أبي هريرة رضي الله عنهُ أَنَّ رسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قال « لا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِناً فَوْقَ ثَلاثٍ ، فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلاثٌ

فَلْيَلْقَهُ فليُسَلِّمْ عَلَيهِ ، فإن رَدَّ عليهِ السلامَ فَقَد اشْتَرَكَا في الأَجْرِ ، وإنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ باءَ بالاثِم وَخَرَجَ المُسَّلِمُ مِن الهَجْرِ » وروى الطبراني عن جابر رضي الله عنه أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال .

« تُعْرَضُ الأَعْمَالُ يَومَ الاثْنَيْنِ والخَمِيْسِ ، فَمِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيُغْفَرُ لَهُ ، ومِن تَائِبٍ فيُتَابُ عَلَيْهِ ، وَيُرَدُّ أَهْلُ الضَّغَائِنِ بضَغَائِنِهم حتى يَتُوبُوا » وَوَرَدَ عنهُ صلى اللهُ عليه وسلم انَّهُ قال « مَن كظَمَ غَيْظاً وهُوَ قَادِرَ أن يُنَفِّذَهُ ، دَعَاهُ اللهُ يومَ القِيَامَةِ على رُؤُوسِ الخَلائِقِ ، حتى يُخَيِّرَهُ مِن الحُوْرِ العِيْنِ مَا شَاءَ » .

شعرا :

أَجِـدَّكَ ما الـدُنْيَا وَمَـاذَا نَعِيْمُهَا
وهَـلْ هِـيَ إلاَّ جَـمْـرَةٌ تَـتَـوقَّـدُ
إِذَا نَـالَ مِنْهَـا طَـالِبٌ مَا يَـرُومُـهُ
وَسَـاعَـدَهُ المَقْدُوْرُ والـدَّهْـرُ يُسْعِـدُ
أَتَـاهُ غَـداً مِن خَـطْبِهَـا كُـلُّ فَـادِحٍ
ويلَقَـاهُ مِنْـهَـا كُـلُّ شَيْءٍ يُـنَكِّـدُ
لَعَمْرِي لَقَدْ شَـاهَدْتُ مِنْهَا عَجَائِبـاً
وَصَـاحَبَنِـي فِيْـهَـا مَسُـوْدٌ وسَـيِّـدُ
رَأَيْتُ بِهَـا أَهْـلَ الـمَـوَاهِبِ مَـرَّةً
« وقَدْ طَابَ عَيْشٌ والسُّرُوْرُ يُجَدَّدُ »
فَمَـا رَاعَهُـم إلاَّ الـرّزايـا ثَـوابِتٌ
عَلَيْهِمْ وَقَـامَتْ في أَذَاهُمْ تُـحَشِّـدُ

وَأَسْقَتْهُم كَـأْسـاً مِنَ الـذُّل مُتْرَعـاً
وكَـانَ لَهمْ فَـوقَ السِّمَـاكَيْنِ مَقْعَـدُ
وَدَامَتْ لِمَنْ نَـاوَاهُم بَعْض بَـرْهَـةٍ
عَلَى نَكَـدٍ في كُـلِّ يَـوْمٍ يُجَـدَّدُ
وَقَدْ شاهَدَتْ عَيْنَاكَ مَن كَانَ بَعْدَهُم
فَمَـالِي وَوَصْفِي لِلّذِي أَنْتَ تَشْهَـدُ

والله اعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

« فصل في اليمين الغموس »

اعْلَمْ وَفَّقَنَا اللهُ وإيَّاكَ وجَمِيْعَ المُسْلِمِيْن لِمَا يُحِبُّهُ ويَرْضَاهُ ، أَنَّ مِمَّا يَتَأكَّدُ اجْتِنَابُهُ اليَمِيْنُ الغَمُوْسُ ، قالَ الله تعالى ﴿إن الذِينَ يَشْتَرُوْنَ بعَهْدِ اللهِ وأيْمَانِهِمْ ثَمناً قَلِيْلاً ، أُولَئِكَ لاخَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ ، ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ، ولا يَنْظُرُ إليْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، ولا يُـزَكِيْهِمْ ولَهُمْ عذابٌ أليم﴾ قِيْلَ نَزلَتْ في رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إلى رَسُوْلِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في ضَيْعَةٍ ، فَهَمَّ المُدَّعي عَلَيْهِ أنْ يَحْلِفَ ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِه الآيَةَ ، فَنَكَلَ المُدَّعَي عَلَيهِ عن اليَمِيْن ، وأَقَرَّ لِلْمُدَّعِي بحَقِّهِ ، وعَن أَبِيْ أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال « مَن اقْتَطَع حَقَّ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ بِيَمِيْنِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لهُ النارَ ، وحَرَّمَ علَيْهِ الجَنَّة » فقال رجلٌ : وإن كانَ شَيْئاً يَسِيْراً يَا رَسُوْلَ اللهِ ؟ قال « وإنْ كَانَ قَضِيْباً مِن أَرَاكٍ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ، قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه

وسلم « مَنْ حَلفَ على يَمِيْنٍ وَهُوَ فِيْهَا فَاجِرٌ ، لِيَقْطِعَ بِهَا مَالَ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ ، لَقِيَ اللهَ تَعالى وهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ » ، إِذَا فَهِمْتَ ذلِكَ فاعْلَمْ أنَّ اليَمِيْنَ الغَمُوْسَ لَيْسَ بالأَمْرِ الهَيِّنِ ، فإنَها إنَّمَا سُمِيَتْ غَمُوساً لأنها تَغْمِسُ الحَالِفَ في النارِ ، وكَيْفَ لا يَكُونُ كَذَلِكَ ، وهُوَ يَتَقَدَّمُ بِلاَ اكْتِرَاثٍ ولا مُبُالاةٍ ، إلى أَحَدِ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى ، فَيَحْلِفُ بِهَا ، مُؤكِّداً قولَهُ عِنْدَ السَّامِعِ بِهَذَا الحَلِفِ ولا يُفَكِّرُ أنَّ هَذَا القَسَمُ العَظَيْمُ ، إِذَا لَمْ يَتُبْ مِن ذَلِكَ تَوْبَةً نَصُوْحاً ، ويُقْلِعَ إلى اللهِ وَيَنْدمَ على مَا فَعَلَ فانه يَضُرُّهُ في الدنيا والآخرَةِ ، أما ضَررَهُ في الدُنْيَا فيكونُ سَبَباً لِمَحْقِ البَرَكَةِ لَهُ فِيْمَا يَتَعَاطَاهُ ، وإذا انْتُزِعَتِ البَرَكةْ حَلَ مَحَلَّهَا الفَشَلُ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّهُ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُوْلُ « الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ » متفق عليه، ورَوَى البَزَّارُ أنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال « اليَمِيْنُ الفَاجِرَةُ تُذْهِبَ المَالَ ـ أَوْ قَالَ ـ تَذْهبُ بالمالِ » وإذا ذَهَبَ المالُ خَرِبَ البَيْتُ ، وأَصْبَحَ صَاحِبُهُ في عِدَادِ الفُقَرَاءِ ، وأَمَّا في الآخرةِ فَحَسْبُ الحَالِفِ أنْ يَسْمَعَ ما وَرَدَ عن عبدِ اللهِ بن عَمْرِو بنِ العاصِ ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال « الكبائرُ الاشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدين ، وقَتْلُ النَّفْسِ ، واليَمِيْنُ الغَمُوسُ » وقوله صلى الله عليه وسلم « لَيْسَ شَيءٌ مِمَّا عُصِيَ اللهُ بِهِ هُوَ أَعْجَلُ عُقُوبَةً مِنَ البَغْيِ ، وَمَا مِن شَيءٍ أُطِيْعَ اللهُ بِهِ أَسْرَعَ ثَوَابَا مِن الصِّلَةِ ، واليَمِيْنُ الفَاجِرَةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاقِعَ » رواه البيهقي .

ثُمَّ إن الحَلِفَ باللهِ كَذِباً اسْتِخْفَافاً باسمِ اللهِ واسْتِهَانَةً بِهِ ، وتَشَبُّهٌ

بحَالِ المُنَافِقِيْنَ، الذِين أَخْبَرَ اللهُ عَمَّا قالُوا بقَولِهِ عَزَّ وَجلَّ ﴿وسَيَحْلِفُونَ باللهِ لَو اسْتَطَعْنَا لَخَرجْنا مَعكُمْ، يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إنّهُمّ لَكَاذِبُون﴾ فأخْبَرَ تَعالَ أَنَّهُمْ بِهَذَا الحَلِفِ، وبهذا الكَذِبِ الذِي يُخَيَّلُ إليْهِمْ أنّهُ سَبِيْلُ لِلنَّجاةِ عِنْدَ النـاسِ، يُهْلِكُون أَنْفُسَهُمْ، واللهُ يَعْلَمُ الحَقَّ، ويَكشِفُهُ لِلنّاسِ، فَيَهْلِكَ الكاذِبُ في الدُنْيَا بكَذِبه، ويَهْلِكُ في الآخِرَةِ يومَ لا يُفِيْدُهُ انْكَارُهُ شَيْئاً، وكَفَى بالحَلِفِ الكَاذِبِ شُؤْماً ولُؤْماً أنّهُ فِعْلُ المُنَافِقِيْنَ، وأنَّ فَاعِلَهُ مِن المؤمِنِيْنَ إنّمَا يَفْعَلُ فِعْلاً يُشَابِهِ فِيْهِ أَهْلَ النِّفَاقِ، أَخْبَثَ الكُفَارِ، الذَينَ أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ أنهُم رِجْسٌ وانّهُمْ في الدّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النارِ، وانْطَبَقَ عَلَى كَثِيْرٍ مِن أَهْلِ هَذَا العصر قول الشاعر:

أمْسَى النِّفَاقُ دُرُوعاً يُسْتَجَنُ بها
عن الأَذَى ويُقَوِّي سَرْدَهَا الحَلِفُ

ويَعْظُمُ الإِثْمُ إذَا كَانَ الحَلِفُ الكَاذِبُ تَرتَّبَ عَلَيْهِ اقْتِطَاعُ مالِ عَبْدٍ مُسْلمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، لِلْحَدِيْثِ السَّابقِ «مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ بغيرِ حَقٍ لَقِيَ اللهَ وهُوَ عَلَيهِ غَضْبَانٌ» ومَنْ يُطِيْقُ أنْ يَلْقَى خَالِقَ السَّمَواتِ والأَرْضِ وهُوَ عَلَيْهِ غَضْبانٌ، الذِي السموات والأَرْضُ قَبْضَتُهُ يَومَ القِيَامَةِ، والآية التي قَرَأهَا المُصْطَفَى صلى اللهُ عليه وسلم إثْرَ الحَدِيْثِ، مِصْدَاقاً لما أَخْبَرَ تُفِيْدَ أن غَضَبَ اللهِ عَظِيْمٌ، فإنَّها تُخْبِرُ عن الذين يَشْتَرُوْنَ بعَهْدِ اللهِ وأَيْمَانِهِم ثَمَناً قَلِيلاً، بأنَّه لا خَلاَقَ لَهُم في الآخِرَةِ، ومَعْرُوْفٌ أنَّ الذي لا نَصِيْبَ له في الآخِرَةِ الكافِرُ والعِيَاذُ باللهِ، وإلّا فالذي لا عَمَلَ لَهُ إلا الايمانُ والعملُ الصالحُ لا يَسْتَطِيْعُ أحدٌ أن يَقولَ:

إنَّهُ لا خَلاقَ في الآخِرَةِ ، ومَعَ أنهُ لا خلاقَ لَهُ في الآخِرَةِ فلا يُكَلِّمَهُ الله ولا يَنْظُرُ إليهِ يَوْمَ القِيامَةِ ، ولا يُزَكِّيْه ، ولهُ عَذَابٌ اَلِيْمٌ فَلْيَتأمّلِ العاقِلُ اللّبِيْبُ ما في هذهِ مِن الوَعِيدِ الشَدِيْدِ ، ولَيْحَذْرْ أنْ يَكُونَ مِمَّنْ اتَّصَفَ بذَلِكَ ، نعوذُ بالله مِن غضبه .

ولَقَدَ بَلَغَ تَهاوُنُ كَثِيْرٍ مِن النَّاسِ بالأَيْمَانِ الكاذِبَةِ إلَى ما تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الجُلُودُ ، حَتى في حَدِيْثِهِمْ في بُيُوتِهِمْ ، وفي مَجَالِسِهِمْ الخَاصَّةِ ، وفي أَسْوَاقِهِم ، وفي مُعَامَلاتِهِمْ ، وفي أوْعَادِهِمْ ويَأْتِيْ بالقَسَمِ بهَذَا اللَّفْظِ (واللهِ العَظِيْمِ) يُؤَيِّدُوْنَ ما يَتكلّمُوْنَ به مِنْ مَوَاعِيْدٍ وهُمْ في ذَلِكَ ، مُتّهَمُوْنَ في إخلَافِ الوَعْدِ ، كَمَا قِيْل :

وفِـي الْيَـمِيْـنِ عَلَى مَـا أَنـتَ فَـاعِلُه
مَـا دَلَّ أنَّـكَ في المِـيْعَـادِ مُـتَّهَـمُ

واسْتَمِعْ لَهُمْ وخُصُوصاً عندَ البَيـعِ والشِّرَاءِ ، لِيَبِيْعُـوْا مَا مَعَهُمْ بسُـرعَةٍ مِن نَاحِيَةٍ ، ومِنْ نَاحِيةٍ أُخْرَى لِيَكْثُرَ رِبْحُهُمْ في زَعْمِهِم ، فَعَلَى الانسانِ أنْ يَكُونَ حَذِراً مِنْهُم ، ولوَ حَلَفُوْا أَمَامَه فقد أصْبَحَ الحَلِفُ عِنْدَهُمْ عَادَةً ، ولِهَذَا أكْثَرُ الناسِ إذا حَلَفُوا لَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يسْمَعِهْمُ يَحْلِفُونَ ، ولْيَبْشِرُوْا مَعْشَرَ الحَالَفِيْنَ على سِلَعِهِم كَذِباً وَتَروِيْجاً أن رِبْحَهُمْ مَهْمَا كَثُرَ مَصِيْرُهُ لِلزَّوَالِ ، فَإِنَّهُ لا بَرَكَةَ فِيْهِ ، وكَيْفَ يُبارَكُ في رِبْحٍ لم يَجِىءْ إلا مَن غِشٍ وتَدْلِيْسٍ وكذِبٍ ومَعْصِيَةٍ لِلهِ ولِرَسُولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

وعن أبي ذَرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ عن النبي صلى الله عليه وسلم « ثـلاثـةٌ لَا يُكَـلِّمُـهُـم الـلهُ يَـوَم القِـيَـامَـةِ ولا يُـزَكِّـيْـهِـمْ ، ولَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيْمٌ » فَقَرأَ رسـولُ الله صلى اللهُ عليـه وسلم ثـلاث

مَرَاتٍ ، فقال أبُو ذَر . خَابُوْا وخَسِرُوْا يَا رَسُولَ اللهِ ، مَنْ هُمْ ؟ قال « المُسْبِلُ والمَنَّانُ والمُنَفِّقُ سِلعَتَهُ بالحَلِفِ الكَاذِبِ » ولا يَجُوْزُ الحَلِفُ بِغَيْرِ اللهِ لا بِكَعْبَةٍ ولا بِنَبِي ولا مَلَكٍ ، لِقَوْلِهَ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ « فَمَنْ كَانَ حَالفاً فَلْيَحْلِفْ باللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ » متفق عليه ، ولِمَا وَرَدَ عَن ابن عُمَرَ رَضِي اللهُ عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ : والكَعْبَةِ . فَقَال لا تَحْلِفْ بِغَيْرِ اللهِ ، فانِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ « مَنْ حَلَفَ بغيرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ » رواه الترمذي وحسنه ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهم ، ولا يَجُوزُ الحَلِفُ بالأَمَانَةِ لِمَا رَوَى أَبُو داودَ عن بُرَيْدَةَ مَرْفُوعا قال « لَيْسَ مِنّا مَن حَلَفَ بالأَمَانَةِ » ورِجالُهُ ثِقات .

شعرا :

تــدبَّــرْ كِتــابَ اللهِ يَنْفَعْـكَ وَعْـظُهُ
فــا ن كِـتَــابَ الـلهِ أَبْـلَغُ واعِظِ
وبِـالعَيْنِ ثم القَلْبِ لاحِـظْهُ واعْتَبِـرْ
مَعَــانِيَــهُ فَهْــوَ الهُــدَى لِلْمُــلاحِظِ
وأَنْـتَ إذَا أَتْقَـنْتَ حِـفْظَ حُــرُوْفِـهِ
فَـكُنْ لِـحُــدوْدِ اللَّهِ أَقْــوَمَ حــافِظِ
ولا يَنْفَــعُ التَّجْـوِيْـدُ لاَفِظَ حُكْمِـهِ
وإنْ كــانَ بـالقُــرْآنِ أَفْصَــحَ لاَفِظِ
ويُـعْــرَفُ أَهْلُوْهُ بــإِحْيَــاءِ لَـيْلِهِـمْ
وصَوْمِ هُجَيْرِيّ لاهِجِ القَيْضِ قَائِظِ

وغَضّهِمْ الأبْصَـارَ عن كُـلِ مَـأْثَمٍ
يَجُـرُّ بتَكْـرِيْـرِ العَيُـوْنِ اللَّواحِظِ
وكَضْمهِمُـوْا لِلْغَيْظِ عِنْـدَ اسْتعـارِهِ
إذَا عَـزَّ بَيْنَ الناسِ كَـظْمُ المَغَـائِظِ
وأخْـلاَقُهُم مَحْمُـودَةٌ إنْ خَبَـرْتَهَـا
فَلَيْسَتْ بـأخْـلاقٍ فِـظَاظٍ غَـلائِظِ
تَحَلَّوْ بـآدابِ الـكِتَـابِ وأَحْسَنُـوا التَّ
تَفكُّـرَ فـي أَمْثَـالِـهِ والـمَـوَاعِظِ
فَفَاضَتْ على الصَّبرِ الجَمِيْلِ نُفُوْسُهُمْ
سَـلاَمٌ على تِلكَ النُفُـوسِ الفَـوَائِظِ

مـوعظـة

عِبَادَ اللهِ إنَّ مِن أعْجَبِ العَجَبِ أَنْ يَعْصِي الرَّجُلُ مَوْلاَهُ وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ عَجَباً لأَنَّ المُؤْمِنَ يَتَيَقَّنُ يَقِيْناً لا شَكَّ فِيْهِ أَنْ مَوْلاَهُ جَلَّ وَعَلاَ يَراهُ ، وَيَعْلَمُ سِرَّهُ وَنَجْوَاهُ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الانْسَانَ يَسْتَحِيي أَنْ يَفْعَلَ مَا يُغْضِبُ أَخَاهُ وَهُوَ يَرَاهُ ، مَعَ أَنَّهُ لاَ يَمْلِكُ لَهُ ضَرّاً ولا نَفْعَاً في هَذِهِ الدَّارِ ، ولا في دَارِ القَرارِ ، وإِذَا كَانَ هَذَا حَالُهُ مَعَ هَذَا المَخْلُوقِ فَعَجِيْبٌ جِدّاً أَنْ لاَ يَكُونَ أَشَدَّ احْتِرَاماً وَحَياءً مَعَ فَاطِرِ الأَرْضِ والسَّمَواتِ ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الذِي أَوْجَدَ الجَمِيْعَ مِن العَدَمِ وَهُوَ الذِي يَحْفَظُ عَلَيْكَ الحَيَاةَ وَهُوَ الذِيْ أَسبْغَ عَلَيْكَ النِّعَمَ ظَاهِرَةً وباطِنَةً ، وَأَدَامَ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَوالاَهُ ، وَلَوْ شَآءَ لَسَلَبَكَ كُلَّ نِعْمَةٍ ، وَأَحَلَّ بِكَ كُلَّ نِقْمَةٍ ، وَجَعَلَكَ في هَذَا الوُجُوْدِ عِبْرَةً لأولي الأَبْصَارِ ، أَضِفْ إلى ذَلِكَ أَنَّهُ تَعالَى هُوَ الذِيْ يُمِيْتُكَ ، وَيُعَامِلُكَ في قَبْرِكَ

بِمَا يُنَاسِبُ مَالَكَ مِن أَعْمَالِ ، وَهُوَ الذِيْ يَبْعَثُكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ، وَيَسُوْقُكَ إِلى ذَلِكَ المَوقِفِ الذِيّ هَوْلَهُ يُشِيْبُ الأَطْفَالَ ، وَهُوَ الذِيْ يُحَاسِبُكَ عَلى مَا كَانَ مِنْكَ فِي حَيَاتِكَ الأُوْلَى مِنَ الأَفْعَالِ ، وهُوَ الذِيْ يَأْمُرُ بِكَ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلى النارِ ، نَعَمْ إِنَّهُ مِن أَعجَبِ العَجَبِ أَنْ يُجَاهِرَ المُؤْمِنُ رَبَّهُ بالمَعْصِيَةِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَالِكُ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ، إِن البُرْهَان الذِيْ لا مَغْمَزَ فِيْهِ على أَنَّكَ تَسْتَحِيْي مِن رَبِّكَ أَيُّها المُؤْمِنُ ، أَنْ تَكُونَ بَعِيْداً كُلَّ البُعْدِ دَائماً عن مَعَاصِي اللهِ ، فَتَحْبِسْ لِسَانَكَ عن القَذْفِ والكَذبِ والنَّمِيْمَةِ والغِيْبَةِ ، والخُلْفِ في الوَعْدِ ، وعن المِرَاءِ وَالجِدالِ والاسْتِهْزاءِ ، والسُّخْرِيَّةِ بالناسِ ، واللَّعْنِ والفُحْشِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُحَرَّمٌ شَرْعاً أَوْ مَكْرُوْهٌ ، لأَنَّ اللِّسَانَ إِنَّمَا خُلِقَ لِتِلاَوَةِ كِتَابِ اللهِ وَذِكْرِهِ ، وَلِتُرْشِدَ بِهِ خَلْقَ اللهِ ، وَتُظْهِرَ بِهِ مَا فِي ضَمِيْرِكَ مِنْ حَاجَاتِ دِيْنِكَ وَدُنْيَاكَ ، وَتُدَافِعُ بِهِ عَنْ دِيْنِكَ وَنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ ، فَإِذَا اسْتَعْمَلْتَهُ في غَيْرِ مَا خُلِقَ لَهُ كَانَ وَبَالاً عَلَيْكَ ، وَتَحْبِسُ عَيْنَكَ ، لأَنَّها إِنَّمَا خُلِقَتْ لَكَ لِتَهْتَدِي في الظلماتِ ، وَتَسْتَعِيْنُ بِهَا عَلَى قَضَاءِ الحاجاتِ ، وَتَنْظُرُ بِهَا بِعَيْنِ الاعْتِبَارِ الى عَجَائِبِ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَتَعْتَبِرَ بِمَا فِيْهَا مِنَ الآيَاتِ البَاهِرَاتِ ؛ فاحْفَظْهَا عنْ النَّظَرِ إِلَى المُحَرَّماتِ ، مِنْ نَظَرٍ إِلى غَيْرِ مَحْرَمٍ مِنْ النِّسَاءِ ، أَوْ إِلى مُسْلِمٍ بِعَيْنِ الاحْتِقَارِ والازدِرَاءِ ، أَوْ إِلَى تِلْفِزْيُونٍ أو الى سِيْنَماءِ ، أو الى صُورَةٍ مَلِيْحَةٍ بِشَهْوَةٍ ، أو تَطّلِعَ بِهَا على عَيْبِ مُسْلِم ، أو الى بَيْتِ جَارٍ أو غيْرِ جَارٍ مِمَّنْ لا يَرْضَى بِذَلِكَ ، أو نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ المُحَرَّمَاتِ .

وَأَمَّا الأُذُنُ فَاحْفَظْهَا عَنْ أَنْ تُصْغِيْ بِهَا إِلَى اسْتِمَاعِ المَلاَهِيْ وَالمُنْكَرَاتِ ، أو إِلَى بِدْعَةٍ أو إِلَى غِيْبَةٍ أَو فُحْشٍ ، أو قَذْفِ مُسْلِمٍ أَو

حَديْثِ قَوْمٍ وَهُمْ لاسْتِمَاعِكَ كَارِهُوْنَ ، أَوْ إِلَى الخَوْضِ بِالبَاطِلِ ، أو ذِكْرِ مَسَاوِيء النَّاسِ ، لأَنَّهَا خُلِقَتْ لَكَ لِتَسْمَعَ بِهَا كلامَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ، وَمَا يَنْفَعُكَ في دُنْيَاكَ وَأُخْرَاكَ وَلِتَتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى الاسْتِفَادَةِ مِنَ العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ ، المُوصِلَةِ إِلَى مَرْضَاةِ اللهِ والنَّعِيْمِ المَقِيْمِ ، الدَّائِم في جِوَارِ رَبِّ العَالَمِيْنَ ، فإذا أَصْغَيْتَ بِهَا إِلَى شَيْءٍ مِنَ المُحَـرَّمَاتِ أَوْ المكرُوهَاتِ ، صَارَ ما كانَ لَكَ عَلَيْكَ ، وانقلبَ مَا كَانَ سَبَبَ فَوْزِكَ سَبَبَ هَلاَكِكَ ، وَهَذَا غَايَةُ الخُسْرَانِ ، وَلَا تَظُنَّ أَنَّ الإِثْمَ يَخْتَصُّ بِهِ القَائِلُ دُوْنَ المُسْتَمِعِ إِلَّا إِنْ أَنْكَرَ بِلِسَانِهِ ، أَوْ بِقَلْبِهِ انْ خافَ ، وَانْ قَدِرَ عَلَى القِيَامِ وَالابْتِعَادِ عَنْهُم ، أَو قَدِرَ عَلَى قطع الكلامِ بِكلامٍ آخرَ فلمْ يَفْعَلْ فَهُو آثِمٌ ، وَكَذَلِكَ يَكُفُّ البَطْنَ وَالفَرْجَ عَنْ المُحَرَّمَاتِ ، وَاليَدَيْنِ والرِّجْلَيْنِ وَحَاسَّةَ الشَّمِّ .

شِعْرَاً :

وَقَـائِلَةٍ شِبْـتُمْ فَـقُلْتُ لَـهَـا شِبْـنَـا
وفي هَـذِه الـدُّنْيَـا الـدَّنِيَّـةِ أُنْشِبْنَـا
وَيَـا لَيْتَنَـا لَمَّـا تَقَضَّـى شَبَـابُـنَـا
خَلَصْنَـا وَأَخْلَصْنَـا وَلَكِنَّنَـا شِبْـنَـا
فيا عَجَبـاً مِنَّـا على اللهِ نَجْتَـرِي
وَتَهْوِي سَوافِي الرِيْحِ أَرْوَاحَنَـا جُبْنَا
وَكَيْفَ أَضَـعْنَـا بَـاقِيـاً لِمُـعَجَّـلٍ
سَيَفَنى لَقَـدْ نِلْنَـا بِصَفْقَتِنَـا غَبْنَـا
وَكَمْ صَـرَفْتَنَـا بَيْنَ مَلْهَـى وَمَلْعَـبٍ
فمَـا إِنْ نَكَرْنَـا قُبْحَ ذَاكَ وَمَـا عِبْنَـا

وَنَـادِي سَفَـاهٍ قَـدْ حَضَـرْنَـا وَإِنَّمَـا
عَنْ الـرُّشْـدِ وَالتَّـوْفِيْقِ يَـوْمَئِـذٍ غِبْنَـا
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَـا يَكُونُ جَـوَابُنـا
إذا نَحْنُ في وَفْـدِ القُبورِ غَـداً أُبْنَـا
أَيَنْفَـعُ إنكـارٌ وَذُو العَـرْشِ عَـالِمٌ
بِمُوْدَعَـةٍ صَـدْراً وَمُلْزَمَـةٍ ضِبْنَـا
أَلا لَـيْسَ إلَّا عَفْـوُه عـن ذُنُـوبِنـا
فَـإِن يَخِبِ التَّقْدِيْـرُ فِيْـهِ فَقَـدْ خِبْنَا

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى قَوْلِكَ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ وَبَعْدَهَا ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ المُفْلِحِيْنَ الذِيْنَ نَوَّرْتَ قُلُوبَهُم بِمَعْرِفَتِك ، وَأَهَّلْتَهُم لِخِدْمَتِكَ ، وَحَرَسْتَهُم مِنْ عَدُوِّكَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَصْلٌ في القَذْفِ

اعْلَمْ ـ وَفَّقَنَا اللهُ وَإيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ أَنَّ القَذْفَ ـ الذِيْ هُوَ الرَّمْيُ بالزِنَا ـ مُحَرَّمٌ بالكِتَابِ وَالسّنةِ والاجْمَاعِ ، أَمّا الكتابُ فَقَوْلُه تَعَالَى ﴿ والذِيْنَ يَرْمُونَ المُحْصِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فاجْلِدُوهُم ثَمانِيْنَ جَلْدَةً ، وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُم شَهَادَةً أَبداً ، وَأُولَئِكَ هُمْ الفَاسِقُونَ ﴾ وقـالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّ الـذِيْنَ يَرْمُـونَ المُحْصناتِ الغـافِلاتِ المؤْمِنَاتِ لُعِنُوا في الدُّنْيا والآخِرةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ ﴾ وَقَال صلى اللهُ عليه وَسَلم « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ » وَعَدَّ مِنْهَا « قَذْفَ المحْصَنَاتِ »

الحَدِيْثُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، وَلما عَظَّمَ جَلَّ وَعَلا أَمْرَ الزَّانِي بوُجُوبِ جَلْدِهِ ، وَكَذَا رَجْمِهِ انْ كَانَ مُحْصَناً ، وَأَنَّهُ لا تَجُوز مقارَنَته وَلاَ مُخالَطَتَهُ عَلى وَجْه لا يَسْلَمُ فِيْهِ مِنْ الشَّرِّ ، بَيَّنَ تَعَالَى تَعْظِيْمَ الاقْدَامِ عَلى رَمْيِ الأَعْرَاضِ المُحصَنَةِ العَفِيْفَةِ بالزِّنَا ، وَشَدَّد في عُقُوبَتِهِ ، فَأَوْجَبَ عَلَى القَاذِفِ إِذَا لَمْ يُقِمْ البَيِّنَةَ على مَا قالَ ثَلاثة أَحْكَامٍ .

(أَحدُهَا) أَنْ يُجْلَدَ ثَمانِيْنَ جَلْدَةً (الثَّانِيْ) أَنْ تُرَدَّ شَهَادَتُه ، فَيَكُونُ سَاقِطَ الاعْتِبَارِ في النَّاسِ ، مُلْغَى القَولِ ، لاَ تُسْمَعُ لَهُ كَلِمَةٌ ، وَلاَ تُقْبَلُ شَهَادَتُه ، وَلَوْ حُدَّ لِلْقَذْفِ حَتَّى يَتُوبَ (الثالِثُ) أَنَهُ يَكُونُ فَاسِقاً ، لَيْسَ بِعَدْلٍ عِنْدَ اللهِ وَلاَ عِنْدَ الناسِ ، ذَلِكَ انهُ يَعْمَدُ إلى امْرَأَةٍ مُتَمَتِّعَةً بالحصَانَةِ والعِفَّةِ والنَّزَاهَةِ، بَعِيْدَةً عَنْ الرِّيْبَةِ ، رُبَّمَا أَنها لاَ تَخْطُرُ لَهَا بِبَالٍ ، ولا تُحَدِّثُ بِهَا نَفْسَهَا وَرُبَّمَا كَانَتْ ذَات دِيْنٍ ، غَافِلَةً عَنْهُ ، مُقضِّيَةً وَقْتَهَا في اصْلاَحِ شَأْنِهَا ، وَتَدْبِيرُ بَيْتِهَا ، وَتَرْبِيَةِ أَوْلاَدِهَا ، وَتَطْهِيرِ نَفْسِهَا ، فَيَرْمِيْهَا بِالزِّنَا الذِيْ يَثْلِمُ بِهِ عِرْضَهَا ، وَيَجْرَحُهُ ، وَيُشِيْعُ الفاحِشَةَ عَلَيْهَا ، وَيُشَوِّهُ بِهِ سُمْعَتِهَا وَتَسُوءُ بِهِ حَالُهَا ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ سَيِّءِ الآثَامِ مَا يَجْلِبُ الهُمُومَ وَالغُمومَ والإِنْكَادَ والأَحْزَانَ وَمَاذا تكونُ نَظْرَةُ النَّاسِ بعدَ ذَلِكَ إِلى المَقْذُوفِ وَأُسْرَتِهِ ، وَمَاذَا يَكُونُ غَضَبُهُم عَلَى القَاذِفِ وَمَنْ سَاعَدَهُ وَنَشَرَ مَعَهُ الفَاحِشَةَ ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ .

وَقَالَ سَيِّدُ قُطب عَلَى هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيْمَةِ : إِنَّ تَرْكَ الأَلْسِنَةِ تُلْقِيْ التُّهَم عَلى المُحْصَنَاتِ ـ وَهُنَّ العَفِيْفَاتِ الحَرَائِرِ ثَيِّبَاتٍ أو أَبْكاراً ـ بِدُونِ دَلِيْل قَاطِعِ يَتْرُكُ المَجَالَ فَسِيْحاً لِكُلِّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَقْذِفَ بَرِيْئَةً أَوْ بَرِيْئاً بِتِلْكَ التُّهْمَةِ النُّكْرَاءِ ، ثُمَّ يَمْضِيْ آمِناً فَتُصْبِحُ الجَمَاعَةُ وَتُمْسِيْ وَاذَا أَعْرَاضُهَا

مُجرَّحَةً ، وَسُمْعَتُهَا مُلوَّثةٌ ، وَإذا كُلُّ فَرْدٍ فِيهَا مُتَّهَمٌ أو مُهَدَّدٌ بالإتِّهَامِ ، وَإذا كُلُّ زَوْجٍ فِيهَا شَاكٌّ في زَوْجِهِ ، وَكلُّ رَجُل فِيْهَا شَكَّ في أَصْلِهِ ، وَكُلُّ بَيْتٍ فِيْهَا مُهَدَّدٌ بالانْهِيَارِ ، وَهِيَ حَالَة مِنْ الشَّكِّ والقَلَقِ والرِّيْبَةِ لا تُطَاقُ ، ذَلِكَ إلَى إنَّ أطِّرَادِ سَمَاعِ التُّهَم يُوْحِيْ إِلَى النُّفُوسِ المتَحَرِّجَةِ مِنْ ارْتِكَابِ الفِعْلَةِ أَنَّ جَوَّ الجَمَاعَةِ كُلُّهُ مُلَوَّثُ ، وَأَنَّ الفِعْلَة فِيْهَا شَائِعَةٌ ، فَيُقْدِمُ عَلَيْهَا مَنْ كَانَ يَتَحَرَّجُ مِنْهَا ، وَتَهُونُ في حِسِّهِ بِشَاعَتُهَا ، بِكَثْرَةِ تَرْدَادِهَا وَشُعُورِهِ بِأَنَّ كَثِيْرِيْنَ غَيْرَهُ يَأْتُونَهَا، وَمِنْ ثَمَّ لا تُجْدِي عُقُوبَةُ الزِّنَا في مَنْع وُقُوعِهِ ، وَالجَمَاعَةُ تُمْسِي وَتُصْبِحُ وَهِيَ تَتَنَفَّسُ في ذَلِكَ الجَوِّ المُلَوَّثِ ، المُوحِيْ بِارْتِكَابِ الفَحْشَاءِ ، لِهَذَا وَصِيَانَة للأعْـرَاضِ مِنْ التَّهَجُّمِ وَحِمَايَة لأَصْحَابِهَا مِنْ الآلامِ الفَظِيْعَةِ التِي تُصَبُّ عَلَيْهِم ، شَدَّدَ القُرْآنُ الكَرِيْمُ في عُقُوبَةِ القَذْفِ ، فَجَعَلَهَا ، قَرِيْبَةً مِنْ عُقُوبَةِ الزِّنَا . . ثَمَانِيْنَ جَلْدَةً . . مَعَ اسْقَاطِ الشَّهَادَةِ وَالوَصْمِ بِالفِسْقِ . . والعُقُوبَةُ الأُوْلَى جَسَدِيَّةٌ . وَالثَّانِيَةُ أَدَبِيَّـةٌ في وَسَطِ الجَمَاعَـةِ ، وَيَكْفِي أَنْ يُهْدَر قَـوْلُ القَاذِفِ فَلاَ يُؤْخَذُ لَهُ بِشَهَادَةٍ ، وَأَنْ يَسْقُطَ اعْتِبَارُهُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَمْشِيْ بَيْنَهُم مُتَّهَماً لاَ يُوْثَقُ لَهُ بِكَلامٍ .

وَالثَّالِثَةُ دِيْنِيّـةٌ فَهُوَ مُنْحَـرِفٌ عَنْ الإيْمَانِ ، خَـارِجٌ عَنْ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْم . . ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ القَاذِفُ بأرْبَعَةٍ يَشْهَدُونَ بِرُؤْيَةِ الفِعْلِ ، أَوْ بِثَلاَثَةٍ مَعَهُ إِنْ كَانَ قَدْ رَآهُ ، فَيَكُونُ قَوْلُه إذاً صَحِيْحاً ، وَيُوْقَعُ حَدُّ الزِّنَا عَلَى صَاحِبِ الفِعْلَةِ ، وَالجَمَاعَةُ المُسْلِمَةِ لَا تَخْسَرُ بِالسُّكُوتِ عن تُهْمَةٍ غَيْرِ مُحَقَّقَةٍ ، كَمَا تَخْسَرُ بِشُيُوعِ الإتِّهَامِ وَالتَّرَخُّصِ فِيْهِ ، وَعَدَمِ التَّحَرُّجِ مِنْ الإِذَاعَةِ بِهِ وَتَحْرِيْضِ الكَثِيْرِيْنَ مِنْ المُتَحَرِّجِيْنَ عَلَى ارْتِكَابِ الفِعْلَةِ

التِيْ كَانُوا يَسْتَقْذِرُونَها ، وَيَظُنُّونها مَمْنُوعَةً في الجَمَاعَةِ أو نَادِرَةً ، ذَلِكَ فَوْقَ الآلامِ الفَظِيْعَةِ التِي تُصِيْبُ الحَرَائِرَ الشَّرِيْفاتِ ، والاحْرَارِ الشُّرَفَاءِ ، وَفوْقَ الآثَارِ التِيْ تَتَرتَّبُ عَلَيْهَا في حَيَاةِ النَّاسِ ، وَطُمأْنِيْنَةِ البُيُوتِ . انْتَهى كَلامُهُ .

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللهِ : سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِه أنْ لَا يُؤَاخِذَ مُذْنِباً بذَنْبٍ اقْتَرَفهُ ، أو جَرِيْمَةٍ اجْتَرمَها ، أو جَرِيْرَةً ارْتَكبَها إلا بَعْدَ أنْ يُبيِّنَ لهُم مَا يَنْبَغِيْ أنْ يَتّقوه مِنْ مَحارِمِه ، ويَجْتَنِبُوهُ مِنْ المُوبقَاتِ ، الْمُؤَدِّيَةِ بهم إلىَ هُوَّةِ الهَلاكِ والدَّمَارِ ، وقَد أرْسَلَ اللهُ جَلَّ وعَلا إلىَ هَذِهِ الأمّةِ الاسْلامِيَّةِ مُحَمَّداً رَسُولَه صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ النّبِيَّ الأمِّيّ ﴿ الذِيْ يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِنْدَهُم في التَّوْرَاةِ والانْجِيْلِ يَأْمُرهُم بالمعْرُوفِ وينْهَاهُمْ عَنْ المنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمْ الطّيِّبَاتِ ويُحَرِّمُ عَليْهِمْ الخبائِثُ ﴾ وَأنْزَلَ عَليْهِ كِتَابَهُ الكرِيْم ، ﴿ قُرْآناً عَرَبيّاً غَيْرَ ذِي عَوِجٍ لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ ﴾ ﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ اتّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ﴾ فَيْهِ هُدىً ، وَتِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ مِمّا يَحْتَاجُ إليْهِ النَّاسُ في دُنيَاهُم وأُخْرَاهُم ، فاسْتَمْسَكَ المُسلِمُون مُدّةً مِنْ الدَّهْرِ بهَدْيِهِ ، وَتَخَلَّقُوا بآدَابِهِ ، فَكَانُوا في ذَلِكَ الحِيْنِ أهْلَ الحَوْلِ وَالطَّوْلِ وَالقُوَّةِ وَالمَنعَةِ ، تَعْنُو لهُم الوُجُوهُ ، وَتَخْضَعُ لَهُم الرِّقَابُ فَلَمْ يَقُمْ لَهُم مُنَازِعٌ الا ابْتَزُّوا مُلكَهُ ، وَاسْتَبَاحُوا مَكانَ العِزَّةِ منْهُ ، وَاخَذُوا بطَرَفي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ ، وَكانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، يَأْمُرُوْنَ بالمعْرُوْفِ وَيَنْهَونَ عَنْ المُنْكَر ، وَيُؤمِنُونَ باللهِ ، كانُوا في تِلْكَ الأزْمَانِ يَعْمَلُون بطَاعَةِ اللهِ وَيَتَّقُونَهُ ، وَيُحْسِنُونَ في عِبَادَتِهِ وَإلى عِبَادِه ، وَيَصْبُرُونَ عَنْ مَعَاصِيْهِ ، وَعلى أقدَارِهِ ، فكانَ اللهُ مَعهم بعَوْنِهِ

وتوْفِيْقِهِ ، وَنَصْرِهِ وَتأييدِه وتَسْدِيْدِه ، يَا عَبَادَ اللهِ كَانَ كُبَراءُ النّاسِ وسَادَتُهم في الصَّدْرِ الأوّلِ أشَدُّ النَّاسِ ظُهُوراً بالتَّمَسُّكِ بالدِّيْنِ تَقْتَدِي بهِم العَامَّةُ في توحِيْدِهم وعَبَادَاتِهم ومُعَامَلاتِهم ، فانْعَكَستْ عَلَيْنَا الآنَ القَضِيّةُ ، وصَارَ العَامّةِ أشَدُّ تمَسُّكاً بالدِّيْنِ ، وَأرْسَى عَقِيْدَةً ، من أولئِكَ ، وأَصْبَحَ كَثِيْرٌ مِنْ المتعَلِّمِيْنَ الذِين يَزعُمونَ أنهُم مُثَقَّفُونَ ، يَحْمِلُونَ المؤهّلاتِ المعْرُوفَةِ أزهَدَ النَّاسِ في الدِّيْنِ ، وأبْعَدَهم عَنْ تَعالِيْمِهِ ، نَبَذُه كثِيْرٌ منهُم كَمَا تُنْبَذُ النَّواةُ ، لا لأنهُم وَقَفُوا عَلى عَيْبٍ في الدِّيْنِ ، أو هَفْوَةٍ في أصُولِه ، وَلكِنَّهم مُقَلِّدُون في هَذا الضَّلالِ لِقَومٍ عَرَفُوْا ﴿ ظَاهِراً مِنْ الحيَاةِ الدُّنْيَا ، وهُم عن الآخِرةِ هُم غافِلُون ﴾ وَرَأوا تكالِيْفَ الدينِ وتعَالِيْمهُ لا تَتَّفِقُ مَعَ شَهَواتِهم ومَلاذِّهِم ، فاتَّخَذَوا الخُرُوْجَ عَنْ تَكاليفِهِ لِلْحُصُولِ على مَلاذِّ الحَيَاةِ ، ﴿ ومَا الحياةُ الدُّنيا الا مَتاعُ الغُرورِ ﴾ .

شعرا :

هُوَ الموتُ فاصْنَعْ كُلَّ ما أَنْتَ صَانِعُ
وأنْتَ لِكَأْسِ الموتِ لا بُدَّ جَارِعُ
ألَا أيهُا المَرْءُ المُخَادِعُ نَفْسَه
رُوَيْداً أتَدْرِي مَن أرَاكَ تُخَادِعُ
ويا جَامِعَ الدُّنْيَا لِغَيرِ بَلاغِهِ
سَتَتْرُكُها فانْظُرْ لِمَنْ أنْتَ جَامِعُ
فَكَمْ قَد رأيْتُ الجَامِعِيْنَ قَد أصْبَحَتْ
لهم بَينَ أطْبَاقِ التُرابِ مَضَاجِعُ
لَوْ أنَّ ذَوِي الأبْصَارِ يَرعَونَ كُلمَّا
يَرَوْنَ لَمَا جَفَّتْ لَعِينٍ مَدَامِعُ

طَغَى الناسُ مِن بَعْدِ النَّبِي مُحَمَّدٍ
فَقَدْ دَرَسَتْ بَعدَ النبي الشَّرَائِعُ
وصارتْ بطونُ المُرْملاتِ خَمِيْصَةً
وأيتامُها منهم طَرِيدٌ وجائِعُ
وإنّ بُطُونَ المُكْثِرينَ كأنَّما
يُنَقْنِقُ في أَجْوافِهِنَّ الضَّفادِعِ
فما يَعرفُ العَطْشَانَ مَن طَالَ رِيُّهُ
ولا يَعرْفُ الشَّبْعَانُ مَن هُوَ جَائِعُ
وتَصْرِيفُ هذا الخلقِ لِله وَحْدَهُ
وَكُلُ إليهِ لا مَحَالَة رَاجِعُ
ولِلهِ في الدنيا أعاجِيْبُ جَمَّةٌ
تدلُ على تَدْبِيرِهُ وبَدَائِعُ -
ولِلهِ أسرارُ الأُمورِ وان جَرَتْ
بها ظاهراً بينَ العِبَادِ المَنَافِعُ
ولله أَحكَامُ القضاءِ بعِلْمِهِ
أَلاَ فَهْوَ مُعْطٍ مَا يَشَاءُ ومَانِعُ
اذا ظَنَّ مَن ترَجُو عليكَ بنَفْعِهِ
فدَعْهُ فانَّ الرزقَ في الأرضِ واسِعُ
ومَن كانَتِ الدنيا مُنَاهُ وهَمُّهُ
سَبَتْهُ المُنَى واسْتَعْبَدَتْهُ المَطَامِعُ
ومَن عَقَلَ اسْتَحْيَى وأكْرَمَ نَفْسَهُ
ومَن قَنِعَ اسْتَغْنَى فَهَلْ أنْتَ قَانِعُ

لِكُـلِّ امْـرِءٍ رَأيَـانِ رَأْيٌ يكُفُّـهُ
عن الشَّـرِ أحْيَـانـاً ورَأْيٌ يُنَـازِعُ

اللهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ، يَا بَدِيْعَ السَّمواتِ وَالأرْضِ ، نَسْألُكَ أنْ تَكْفِيْنَا مَا أهَمَّنا ومَا لا نَهْتَمُّ بهِ ، وأنْ تَرْزُقَنَا الاسْتِعْدَادِ لمَا أمَامَنَا ، وأنْ تَغفِرَ لنَا وَلوَالدَيْنا وَلجَمِيْعِ المسلمينَ ، الأحياءِ مِنْهُم وَالميِّتِيْنَ ، برَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

« فصل »

وَصَرِيْحِ القَذْفِ أنْ يَقُولَ : يَا زَانِيْ ، أو يَقُولُ لَهُ : يَا لُوطِيّ ، أو يَا عَاهِرُ ، أو يَقُولُ لهُ : إنكَّ قد زنَيْتَ ، أو زنى فرْجُكَ ، أو يَا مَنْيُوكُ أو يا وَلدَ الزَّانِيْ ، أو يَا وَلَدَ الزَّانِيَةِ فَفِيْ الأوَّلِ قَذْفٌ لهُ ، وفي الأخِيْرَتَيْن قَذفٌ لأَبيْهِ وأُمِّهِ ، أوْ يَقُولِ لابنتِهَا يَا ابْنَةَ الزَّانِيَةِ وكنَايَته أَي القَذْفُ أن يَقُولَ ، يا قَحْبَةٌ ، أو يَا فَاجَرةُ ، أو يَا خَبِيْثَةُ ففي الصَّرِيْحِ ـ اذا إجْتَمَعتْ الشُّرُوطُ ـ يُحَدُّ ثَمانِيْن ، وفي الكِنَايَةِ اذا فسَّرَهَا بذَلِكَ .

والشُّرُوطُ المعْتَبَرَةُ لِإِقَامَةِ الحَدِّ (أحَدُهُمَا) مُطالَبَةُ المَقْذُوفِ لِلْقَاذِفِ بحَقّهِ ، وَاسْتَدَامَةِ الطَّلَب إلىَ اقَامِةِ الحَدِّ ، بأنْ لا يَعْفُو ، (والثَّـانِـيْ) أنْ لا يَأْتِيْ بِبَيِّنَةٍ عَلَى مَا قذفَهِ بهِ ، لِمَفْهُوم قَولْهِ تَعالَى ﴿ ثُمَّ لمْ يَأتُوا بأَرْبعَةِ شُهَدَاء ﴾ والشَّرْطِ (الثَّالِثُ) أنْ لا يُصَدِّقَهُ المَقْذُوف، فانْ صَدَّقَهُ لمْ يُقَمْ عَليهِ الحَدُّ ، لِأنَّ تَصْدِيْقَهُ لَهُ أبْلَغُ مِنْ إقَامَةِ البَيِّنَةِ ، ويُشْترَطُ أنْ لا يُلاعِنَ القَاذِفُ المَقْذُوفَ ، إنْ كانَ القَاذِفُ زَوْجاً ، فَإنْ لَاعنَ سَقطَ عنه الحَدُّ ، ويُعَزَّرُ بِقَوْلِهِ يَا كافِرُ يا مُنَافِقُ ، يَا سَارِقُ يا فَاسِقُ يَا فَاجُر يا حِمَارُ يَا تَيْسُ يَا رَافِضِيّ

يا عَدُوَّ اللهِ يا جائِرُ ، يا شَارِبَ الخمْرِ يَا كَذَّابُ أو كاذِبُ أو يا ظالِمُ أو يَا خائِنُ ، أو يَا مُخَنَّثُ أو يا قَوَّادُ أو دَيّوثُ . والديُّوثُ هُوَ الذِي يُقِرُّ الفَاحِشَةَ على أهْلِهِ ، وَالقَوَّادُ هو السِّمْسَارُ في الزِّنَا وباللُّغة الشَّعْبِيَّةِ الجَرَّارُ وكثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَاقِعُونَ في القَذْفِ الذِي في الحَقِيْقَةِ عليهم عُقُوبَتُهُ دُنْياً وَأُخْرَى . والسَّبَبُ في ذلكَ أنَّ النَّاسَ لا يقِيْمُونَ لهَذا القَوْل وَزْناً ، فلَهَذا لَا يُسْمَعُ لهَذا الحَدِّ ذِكَرٌ ، ولا للمُطالَبَةِ به ، وهَذا غلطٌ ، بَلْ يَنْبَغِيْ للانْسَانِ أنْ يُحَافِظَ على كرَامَتِه ، وَيُطَالِبَ بحَقّهِ ، لا سِيَّمَا وفَي المطَالَبَة في مِثْلِ حَدِّ القَذِف رِدْعٌ لهَؤلاءِ المُطْلِقِيْنَ لأَلْسِنَتِهِم العِنَانُ في الفُحْشِ وَالسَّبِّ ، ونَشْرِ هَذِه الأَخْلاقِ السّيِّئَةِ التي تَضُرُّهُم وتَضُرُّ غَيْرَهُم ، ففِي الصَّحِيْحَيْنِ عنْ رَسُولِ الله صَلى اللهُ عليه وسَلم أنَّه قَالَ « إنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فَيْهَا ، يَزِلُّ بهَا في النَّارِ أبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المشْرِقِ والمغربِ » وَقَال لهُ مَعاذُ بْنُ جَبَلٍ :يَارسُولَ اللهِ ، وَانا لَمؤآخذون بَما نَتكَلّمُ بهِ ؟ فقَالَ « ثكِلتْكَ أُمّكَ يَا مُعَاذُ ، وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ في النَّارِ على وُجُوهُهُم إلا حصَائِدُ ألسِنَتِهِم » وفي الحَدِيْثِ « منْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرَ فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمُتْ » وقَالَ اللهُ تَعالى ﴿ مَا يَلفِظُ من قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيْدٌ ﴾ وقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ : مَا النجاةُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قال« أمْسِكَ عَليْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعُكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلى خَطِيْئَتِكَ » « وَانَّ أبْعَدَ النَّاسِ إلىَ اللهِ القَلْبُ القاسِيْ » إذا فهِمْتَ ذَلكَ فاعْلَمْ أنَّ لِلْكَلامِ شروطاً لا يَسْلَمُ المتكلّمُ مِنْ الزَّللِ إلا إذا عمِلَ بها باذْنِ اللهِ ، ولاَ يَعْرَىْ مِنْ النَّقْصِ إلاّ بَعْدَ أنْ يَسْتَوْفِيَها باذْنِ اللهِ ذكرَها العُلمَاءُ وهَيِ أربَعَةٌ .

الشَّرْطُ الأوَّلُ - أنْ يَكُونَ الكَلامُ لِدَاعٍ يَدْعُو الَيْهِ أمّا الذِيْ لا دَاعِيَ لَهُ مِن جَلْبِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضَرَرٍ فتَرْكَهُ أوْلَى .

وَالشَّرْطُ (الثّانِي) أنْ يَأتِي بهِ في مَوْضِعِه ، ويَتَوخّى بهِ إِصَابَةَ فُرْصَتِه ، بأنْ يَترقَّبَها ويَتَحرَّاهَا .

وَالشّرْطُ (الثّالِثُ) أنْ يَقْتَصِرَ منْهُ عَلى قَدْرِ الحَاجَةِ .

وُالشَّرْطُ (الرَّابعُ) أن يَتَخَيَّرَ اللفْظَ الذِي يَتَكَلَّمُ بهِ ، فَأمَّا الذِي لا دَاعِي لهُ منْ جَلْبِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضَرَرٍ هَذَيانٌ ، ومَا لا سَبَبَ لهُ هَجْرٌ ، ومن سَامَحَ نَفْسَه في الكلامِ اذا عرَضَ لهُ وهَبَّ في خَاطِرِه ، ولم يُرَاعِ صَحةَ دَواعِيْهِ ، واصَابَةِ مَعَانِيْهِ ، كانَ قَوْلُهُ مَرْذولاَ ، ورَأيُه مَعْلُولاً ، كَما حُكْيَ أنَّ شَاباً كانَ يُجَالِسُ الأحْنَفَ وَيُطِيلُ الصَّمْتَ ، فاعْجَبَ ذلك الأحنَف ، فَخَلَتِ الحَلقَةُ يوماً مِنْ المتكلمِين ، فَقَال الأحَنَف: تَكَلّمْ يَا أبْنَ أخِي. فقَالَ: يَا عَمِّ لو أنَّ رجُلاً سَقطَ منْ شَرفِ هذاالمَسْجِدهَلْ يَضُرُّهُ شَيْءٍ؟ فقال : يَا ابْنَ أخِي لَيْتَنا تركْنَاكَ مَسْتُوراً .

ثم تَمَثَّلَ الأَحْنَفُ بقَوْلِ الشّاعِر :

وكَائِنْ تَرى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِباً
زِيادَتُهُ أو نَقْصُهُ في التَّكَلُّمِ
لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ ونَصْفُ فُؤادُه
فلَمْ يَبْقَ إلاَّ صُوْرَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

فَلِسَانُ العَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ، فاذا أرَادَ الكلامَ رَجَعَ إلىَ قَلْبِهِ ، فَانْ كَانَ دِيْناً أو دُنْيَا تَكَلَّمَ ، وَانْ كَانَ عليْهِ كَالقَذْفِ وَالكذب وَالنَّمِيْمَةِ أمْسَكَ ، فلا يُخْرجُه ، وقَلْبُ الجَاهِل منْ وَرَاءِ لِسَانِهِ ، يَتَكَلَّمُ بكُلِّ مَا عَرَضَ لهُ ، فالعَاقِلُ يَتفكَّرُ وَيزنُ كَلامَهُ ثم يَتكلَّمُ بمَا يرَى أنَّ فِيْهِ لهُ مَصْلَحةً ، ولا مَضَرَّةَ

فيْهِ عَليْهِ ، وقَال عُمرُ بْنُ عبدِ العَزيز : مَنْ لَمْ يَعُدَّ كلامَهُ مِنْ عَمَلِه كَثُرَتْ خَطَايَاهُ . وقَالَ بَعْضُ البُلَغاء : احْبِسْ لسَانَكَ قَبْلَ أنْ يَحْبِسَكَ أو يُتْلِفَ نَفْسَكَ . وَقَال النّبي صَلى اللهُ عليه وسَلم لمُعَاذ « وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلى مَناخِرِهِمْ إلَّا حَصَائِدُ الْسِنَتِهِمْ » وقَالَ بَعْضُهُم : مَنْ كَثُرَ كَلامهُ ، كثُرَتُ آثامُهُ .

شعرا :

صَلَّى الالَـهُ عَلى قَـوْمٍ شَهْـدتُهُم
كـانُوا إذا ذَكَـرُوْا أوْ ذُكّـرُوْا شَهِقُـوا

كَـانُوا إذَا ذَكَـرُوا نارَ الجَحِيْمَ بَكَـوْا
وإنْ تَـلا بَعْضُهُم تَخْـوِيْفَهَـا صَعِقَـوا

مِنْ غَيرِ هَمْزٍ مِن الشَّيطانِ يَأْخُـذُهُمْ
عِنـدَ التِـلاوَةِ إلَّا الخَـوفُ والشّفَقُ

صَرْعَى مِن الحُزْنِ قَدْ سَجُّوْا ثِيَابَهُمُ
بَـقِيَّـةٌ الـرُوْحِ فـي أوَداجِهِـمْ رَمَقُ

حَتَّى تَخَـالهُمُ لَـو كُنْتَ شَـاهِـدَهُم
مِن شِدَّةِ الخَوْفِ والاشْفاقِ قَدْ زَهَقُوا

صانُوا العُيُونَ عن العَورَاتِ جُهْدَهُمُ
وفي لُحُومِ الوَرَى والكِذْبِ ما نَطَقُوْا

اللهُمَّ ثَبِّتْ مَحبَّتك في قُلوبنَا ثُبُوتَ الجَبالَ الرَّاسِيَاتِ وَوَفِّقنَا للعَملِ بالبَاقِيَاتِ الصَّالِحاتِ وَاعْصِمْنَا مِنْ الذُّنُوبِ المُوبِقاتِ واجْعَلْنَا مِمَّنْ تَتلَقّاهُم

الملائِكَةُ بالبَشَاراتِ ومتِّعنا بالنَّظرِ الى وجْهِكَ الكرِيم في رَوْضاتِ الجَنَّاتِ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلهِ وسَلم .

موعِظَةٌ

عِبَادَ اللّهِ لَقَدْ ضَاعَتْ أَعْمَارَنَا في القِيْلِ وَالقَالِ ، وَالغِيْبَةِ وَالنَّمِيْمَةِ ، والمَدَاهَنَةِ ،وَالأنْهَمَاكِ في الدنيَا ، إلى أنْ اسْتَلحَق كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ جُزْءاً مِنْ الليلِ مُضَافاً إلَى النَّهَارِ ، وَكأَنَّنَا لَمْ نُخْلَقْ إلا لِهَذِهِ الأعْمَالِ ، أَفَلا نَسْتَيْقِظُ مِنْ غَفْلَتِنَا ، وَنَحْفَظُ ألْسِنَتِنَا عن نَهْشِ أعْرَاضِ الغَوَافِلِ ، وَالطَّعْنِ فِي الأحْسَابِ والأنْسَابِ ،وَنَصْرِفَ جُلَّ الأوْقَاتِ ، إلَى البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ ، التِيْ هِيَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّنَا ثَوابَاً وَخَيْرٌ مَرَدّا ، وَنَذْكُرَ مَولاَنَا الذِي فَضْلُهُ عَلَيْنَا مِدْرَارٌ ، فَانَّ الذِّكْرَ عَاقِبَتُهُ الجَنَّةُ دَارُ الكَرَامَةِ والقَرَارِ ، مَعَ رِضَى رَبِّنَا الذِي دُوْنَهُ كُلُّ ثَوَابٍ ، تاللهِ لو عَرَفْتُم قِيْمَةِ هَذه النَّصِيْحَةِ لَبَادَرْتُمْ إلى العَمَلِ بِهَا كلَّ البِدَارِ ، فَانَّكَ وَأنْتَ تَذْكُرُ اللهَ أفْضَلَ مِمَّنْ يُفَرِّقُ الذَهَبَ وَالفِضَّة وسَائِرَ الأمْوَالِ ، وَأَفْضَلُ مِنْ أنْ تُجَاهِدَ العَدُوّ فَيَضْرِبَ عُنُقَكَ ، أو تَضْرِبَ عُنُقَهُ ، وَتَكُونَ مِنْ الشُّهَدَاءِ الأبْرَارِ ، كَيْفَ لا وَالذِّكْرُ خَيْرُ الأعْمَالِ وَأزكاها ، وأرْفَعَهَا لِلدَّرَجَاتِ عِنْدَ مَوْلاَنَا الوَهَّابُ حَسْبُ الذّاكِرِ : أنْ تَحُفَّهُ الملائِكَةُ ، وَتَنْزِلُ عَلَيْهِ السَّكِيْنَةُ ، وَتَغْشَاهُ الرَّحماتُ ، ومَنْ في الوُجُودِ مِثْلُ الذاكِرُ ، وهُو وقْتُ ذِكْرِهِ للهِ يَذْكُرُهُ بَارِيءُ الكائِنَاتِ ، وَمَنْ مِثْلُهُ فِي الدُّنْيَا وهُوَ بالذِكْرِ في حِصْنٍ حَصِيْنٍ ، يَحْفَظُهُ مَنْ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسَهِ الفَاتِنَاتِ ، وَمَنزلَةُ الذاكِرِ بَيْنَ الغَـافِلِيْنَ كَمَنْزِلَةِ الحَيّ بَيْنَ المَيِّتِينَ ، ذِكْر اللهِ يُنْيِرُ القلبَ ، ويُوْقِظَهُ ويُحْيِيهِ ، ويُزِيْلُ رَانَهُ ويَهْدِيْهِ إلَى الحَقّ .

شِعْراً :

وَالـذِّكْـرُ فيـهِ حَـيَـاةٌ للقُلُوبِ كَمَـا
تَحْيَـا البلادُ اذا مَـا جَـاءَهـا المَـطَرُ

وقَالَ الآخَرُ :

وَخَيْـرُ مَقَـامٍ قُمْتَ فِيْـهِ وَخَصْـلَةٍ
تَـخَلِّيْتَهَـا ذِكْـرُ الالٰـهِ بِـمَسْـجِـدِ

آخر :

« أحِنُّ اشْتِيَـاقَـاً لِلمَسَـاجِـدِ لا إلى»
قُصُـوْرٍ وفُـرْشٍ بِـالـطِّرَازِ مُـوَشَّـحُ
وأَمْنَـحُ وُدِّيْ لِلمَسَـاكِيـنِ صَـافيـاً
أُجَـالِسُهُـم والهَجْـرَ لِلْغَـيْـرِ أَمْنَـحُ
فَفِي ذُلِّ نَفْسِيْ عِـزُّهَـا وَبِمَـوْاتِهَـا
حَيَـاةٌ لأَجْلِ الغَـالِي بالـدُّونِ أَسْمِحُ
« لَنَا باعْتِزَالٍ لَذٌّ في جَـانِبَ الهَوَىٰ
مُجَـاوَرَةُ الأسْفَـارِ لِلْصَّـدْرِ تَشْـرَحُ »
« فَـإِنْ شِئْتَ تَفْسِيْـرَاً مُـرَادَ مُحَقِّقٍ
وإن شِئْتَ تَوْحِيْدَاً بِهِ المرءُ يُفْلِحُ »
« وان رَمُتَ كُتُبـاً لِلحَدِيْثِ وشَـرْحِـهِ
وَجَـدَتَ ولِمْ يَعْدُوْكَ أُنْسٌ وَمَـرْبَحُ »

« وان رُمْت آدَاباً وَتَارِيْـخ مَنْ مَضى
وَجَدْت وَفَاتَ الوَقْتُ والفِكْرُ يَسْرَحُ»
« وإن رُمْتَ كُتْبَ الفِقْهِ أَوْ كُتْبَ أَصْلِهِ
تَنـاوَلْتَ أحْكَـامَـاً بِهَـا القَلْبُ يَفْـرَحُ
وَتَسْلَمُ مِن قِيْـلٍ وَقَـالَ ومِـن أَذَى
جَـلِيْسٍ ومِن واشٍ يَـنِـمُ ويَـجْـرَحُ

اللَّهُمَّ أَيْقِظْ قُلُوْبَنَا وَنَوِّرْهَا بِنُوْرِ الأيْمَانِ وَثَبِّتْ فِيْهَا مَحَبَّتَكَ ثُبُوْتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَوَفِّقْنَا لِلعَمَلِ بِالباقِيَاتِ الصَّـالِحَاتِ وَجَنِّبْنَـا جَمِيْعَ المُوْبِقَاتِ وَلَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بعدَ اذ هَدَيْتَهَا وَهَبْ لَنِا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ، اللهُم افْتَح لِدُعَائِنَا بَابَ القَبُولِ والاجَابَةِ اللهُمَّ صَلَّى عَلَى مُحَمدٍ وآلِهِ وسَلَّم .

« فصل »

عِبَادَ اللهِ لَقَدْ أَخْبَرَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا أَنَّ حَيَاةً أُخْرَى ، نُجازَى فِيْهَا عَلَى مَا كَانَ مِنّا مِنْ أَعْمَالٍ ، وَلَا شَكَّ في تِلْكَ الحَيَاةِ ، الثَّانِيَةِ ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَخْبَرَ بِهَا في كِتَابِهِ ، وَاخْبَرَ بِهَا جَمِيْعُ الرُّسُلِ ، وَأَخْبَرَ صَلَى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بِعلَامَاتٍ دَالَّةٍ عَلَى إقْتِرَابِهَا ، يَزْدَادُ بِهَا ايْمَـانَاً ذُو القَلْبِ السَّلِيْمِ ، وَهَذِهِ العَلَامَاتُ تَنْقَسِمُ إلَى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ ، قِسْمٌ ظَهَرَ وَانْقَضَى ، وَهِيَ الامَارَاتُ البَعِيْدَةُ ، وقِسْمٌ ظَهَرَ وَلَمْ يَنْقَضِ ، بَلْ لا يَزَالُ في ازْدِيَادٍ حَتَّى إذا بَلَغَ الغَايَةَ ظَهَرَ ، وَالقِسْمُ الثَّالِثُ وهي الامَارَاتُ القَرِيْبَةُ الكَبِيْرَةُ التِيْ تَعْقُبُهَا السَّاعَةُ ، فَإنَّهَا تَتَابَعُ كَنِظَامِ خَرَزَاتٍ انْقَطَعَ سِلْكُهَا .

فَالأُوْلَى التِي ظَهَرَتْ وَمَضَتْ ، مِنْهَا بِعْثَةُ النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوْتُهُ ، وَفَتْحُ المقْدِسِ ، وَقَتْلُ أَمِيْرِ المؤمِنِيْنَ عُثْمَانُ رَضْيَ اللهُ عَنه ، ومِنْهَا وَقْعَةُ الجَمَلِ وَصِفِّينَ ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسَلَّم أَنَّهُ قَالَ « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلُ فِئَتَانِ عَظِيْمَتَانِ ، يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيْمَةٌ ، دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ » وَمِنْهَا قَوْلُهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم « إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ،وَسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بين فِئَتَيْنِ عَظِيْمَتَيْنِ مِنْ المُسْلِمِيْنَ » وَمِنْهَا مُلْكُ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَمَا جَرَى عَلَى أَهْلِ البَيْتِ في أَيَّامِهِمْ مِنْ الأَذِيَّةِ ، كَقَتْلِ الحُسَيْنِ ، وَرَمْي الكَعْبَةِ بالمُنْجَنِيْقِ ، وَنَارُ الحِجَازِ التِيْ أَضَاءَتْ لَهَا أَعْنَاقُ الإِبِلِ بِبُصْرَى ، وَمِنْهَا خُرُوجُ كَذَّابِيْنَ كُلُّ مِنْهُمْ يَدَّعِيْ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَمِنْهَا كَثْرَةُ المَالِ ، وَكَثْرَةُ الزَّلَازِلْ .

الثَّانِيَةُ العَلَامَاتُ المُتَوَسِّطَةِ ، مِنْهَا قَوْلُهُ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لا تَقومُ السَّاعَةُ حتَّى يَكُونُ أَسْعَدُ النَّاسِ بالدنيا لُكَعَ بْنَ لُكَع » وَاللكَعُ العَبْدُ الأَحْمَقُ وَاللئِيمُ ، وَالمَعْنَى : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ اللئَامُ وَالحَمْقَى وَنَحْوُهُم رُؤَسَاءُ النَّاسِ ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « يَأْتِيْ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ عَلَى دِيْنِهِ ـ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ أَنَسٍ ، وَقَوْلَهُ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم « يَكُونَ في آخِرِ الزَّمَانِ عُبَّادٌ جُهَّالٌ وَقُرَّاءٌ فَسَقَةٌ » وفي لَفْظٍ « فُسَّاقٌ » رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ وَالحَاكِمُ عَن أَنَسٍ ، وَمِنْهَا أَنْ يُرَى الهِلَالُ سَاعَةَ يَطْلُعُ ، فَيُقَالُ : لِلَيْلَتَيْنِ لِكِبَرِهِ ، رَوَى مَعْنَاهُ الطَّبَرَانِيّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وفِي لَفْظٍ « مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ انتِفَاخُ الأَهِلَّةِ » أي عِظَمُهَا .

وَمِنْهَا انْحِسَارُ الفُرَاتِ عن جَبَلٍ مِنْ ذَهَب ، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ

الحَارِثِ بْنِ نَوْفَلَ قَالَ كُنْتُ وَاقِفاً مَعَ أبيّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ « لا يَزَالُ النَّاسُ مُخْتَلِفَةً أعْنَاقُهُم فِيْ طَلَبِ الدُّنْيَا » قُلْتُ : أجَلْ قَالَ : انّيْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقُولُ « يُوشِكُ الفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَإذَا سَمِعَ بِهِ النَّاسُ سَارُوا إِليهِ ، فَيَقُولُ مَنْ عِنْدَهُ لَئِنْ تَركَنَا النَّاسُ يَأْخُذُوْنَ مِنْهُ لَيُذْهَبَنَّ بِهِ كُلِّهُ » قَالَ « فَيَقْتَتِلُوْنَ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُوْنَ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، ومنها ما في حَدِيْثِ ابنِ مَسْعُوْدٍ رَضْيَ اللهُ عَنه ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ تَسْلِيْمُ الخاصَّةِ وفُشُوّ التِّجَارَةِ ، حتى تُعِيْنَ المرْأةُ زَوْجَها عَلَى التِّجَارَةِ » رَوَاهُ احْمَدُ والبُخَارِيّ ، وَعَنْهُ أَيْضاً أنَّ النبي صلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ قَالَ « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَكُونَ السَّلَامُ على المَعْـرِفَةِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ ، وَعَنْ حُذَيْفَة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم « مِنْ اقْتَرابِ السَّاعَةِ مُشَا ركَةُ المرْأةِ زَوْجَهَا في التِّجَارَةِ ، وَالتَّسْلِيْمُ لِلمَعْرِفَةِ » أخْرَجَهُ أبو نُعَيْمٍ ، وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رسول اللهِ صَلَى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إنَّ مِنْ أشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ ، لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ الا لِلمَعْرِفَة » رَوَاهُ أحْمَدُ ، وعنهُ أيضاً أنَّ النبيَ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قال « انَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ تَسْلِيْمُ الخَاصَّةِ ، وَفشُوّ التِّجَارَةِ ، حَتَّى تُعِيْنَ المَرْأةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَـارَةِ ، وَشَهَادَةُ الـزُّورِ ، وَظُهُوْرُ القَلَمِ » رَوَاهُ أَحْمَدُ ، وَمِنْهَا مَا في حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدٍ ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إذَا رَأيْتُم الصَّدَقَةَ كُتِمَتْ وَغُلَّتْ، وَاسْتُؤْجِرَ عَلَى الغِزْوِ ، وأخْرِبَ العَامِرُ ، وَعُمِرَ الخَرَابُ ، وَرَأيْتَ الرَّجُلَ يَتمَرَّسُ بأَمَانَتِهِ ، فَأنَّكَ وَالسَّاعَةُ كَهاتَيْنِ » رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم « مِنْ

اشْرَاطِ السَّاعَةِ أنْ يكتنى المَسَاجِدَ ، ويُعْمَرَ خَرابٌ ، وَيُخَرَّبَ عُمْرَانٌ » الحَدِيْثُ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ ، وَعَنْ عَلِيّ بْنِ أبِيْ طَالِب رَضْيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مِنْ أشْرَاطِ السَّاعَةِ سُوْءُ الجِوَارِ ، وَأَنْ تُجْلَبَ الدُّنْيَا بِالدِّيْنِ ، والتَّعْلِيْمَ لِغَيْرِ اللّهِ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالحَاكِمُ .

وَمِنْهَا تَقْلِيْدُ الأجَانِبِ ، وَقَدْ وَقَعَ ، حَتَّى أنَّ أكْثَرَ النَّاسِ تَرَكُوا الدِّيْنَ ، وَلَا سِيَّمَا بَعْضُ المُتَدَيِّنِيْنَ ، وَرَأَوْا التَّقَدُّمَ في تَقْلِيْدِ الكَفَرَةِ وَرَبَائِبَ الكفَرَةِ ومِنْهَا لَعْنُ آخِرِ هَذِهِ الأمَّةِ أوَّلَهَا ، وقَدْ حَصَلَ ، وَمِنْهَا اتِّخَاذُ المَسَاجِدِ طُرُقاً ، وَمِنْهَا مَا قَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ مَسْعُوْدٍ مَوْقُوفاً ، وَهُوَ مَرْفُوعٌ إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُكْمَاً ، أنَهُ قَالَ « كَيْفَ أَنْتُم إذا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ ، يَهْرَمُ فِيْهَا الكَبِيْرُ وَيَرْبُو فِيْهَا الصَّغِيْرُ ، وَيَتَّخِذَها النَّاسُ سُنَّةً ، إذا تُرِكَ مِنها شَيْءٌ قِيْلَ تُرِكَتْ السُّنَّةُ » قَالُوا وَمَتَى ذَاكَ ؟ قَالَ « إذَا ذَهَبَتْ عُلَمَاؤُكُم ، وَكَثُرَتْ قُرَّاؤُكم ، وَقَلَتْ فقَهَاؤُكُم ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُم وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُم ، وَالْتُمِسَتْ الدنيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ ، وتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّيْنِ » فَهَذَا الحَدِيْثُ عَلَمٌ مِنْ أعْلَامِ نُبُوَّتِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصِدْقِ رِسَالَتِهِ ، فانَّ كُلَّ فقَرَةٍ مِن فقَراتِهِ قَد تَحَقَّقَتْ في العَصرِ الحَاضِرْ عَصْرُ الملاهي والمنكراتِ والفِتَنِ والشُّرُوْرِ ، والسُّفُورِ والتلفزيون والفِيْديُواتِ والمذَايِيعِ والكُراتِ ونحوِ ذلكَ مِمَّا أَلْهَى وَأَشْغَلَ عَن طَاعَةِ اللهِ .

شعرا :

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلْ
قَدْ غَرَّهُ طُوْلُ الأَمَلْ
المَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً
والصَّدْرُ صُنْدُوْقُ العَمَلْ

وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ الأَمَامُ أَحْمَدُ ، وَعَبْدُ بْنُ حَمَيْدٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عن سُلَيْمَانَ مَوْقُوفاً ، وَالحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ ، وَابْنُ عَسَاكِرَ مَرْفُوْعَاً ، « اذا ظَهَرَ القَوْلُ ، وَخُزِنَ العَمَلُ ، وَائْتلَفَتْ الأَلْسُنُ ، وَاخْتَلَفَتْ القُلُوبُ ، وَقَطَعَ كُلُّ ذِيْ رَحِمٍ رَحِمَهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَعَنَهُمْ اللهُ فأَصَمَّهُم وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم » ومنها مَا أَخْرَجَهُ الأمَامُ أَحْمَدُ وَالحَاكِمُ وَابْنُ مَاجَه ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ مَرْفُوعَاً « إِذَا كَانَتْ الفَاحِشَةُ في كِبَارِكُم ، والمُلْكُ في صِغَارِكُم، والعِلْمُ في مُرَّادِكُمْ ، والمُدَاهَنَةَ في خِيَارِكُم ، يَعْنِي فَتَقْرُبُ إِقَامَةُ السَّاعَةِ .

وَمِنْهَا ما في صَحِيْحِ البُخَارِيْ وغَيْرِهِ ، مِنْ حَدِيْثِ أَنَسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْه أَنَّهُ قَالَ : ألا أُحَدِّثَكُم بِحَدِيْثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُحَدِّثُكُم بِهِ أَحَدٌ غَيْرِي ؟ سَمِعْتُ رَسُول اللهِ صَلى الل عليْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ ، وَيَكْثُرَ الجَهْلُ ، وَيَكْثُر الزِّنَا ، ويَكْثُر شُرْبُ الخَمْرِ ، وَيَقِلُّ الرِّجَالُ ، وَيَكْثُرُ النِّسَاءُ ، حَتَّى يكونَ لِخَمْسِيْنَ امْرَأةَ القَيِّمُ الوَاحِدُ » وَمِنْ أَمَارَاتِهَا تَضْيِيْعُ الأَمَانَةِ ، وَاضَاعَتُها تَوْسِيْدُ الأمْرِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ ، وَمِنْهَا فُشَوّ الرِّبَا ، وَقَدْ عَمَّ

شعرا :

مِثْلْ وُقُوفَكَ أَيُّهَا المَغْرُوْرُ
يَوْمَ القِيَامَةِ والسَّمَاءُ تَمُوْرُ
مَاذَا تَقُولُ إِذَا وَقَفْتَ بِمَوْقِفٍ
فَرْدَاً وَجَاءَكَ مُنْكَرُ وَنَكِيْرُ
مَاذَا تَقُولُ إذا وَقَفْتَ بِمَوْقِفٍ
فَرداً ذَلِيْلاً والحِسَابُ عَسِيْرُ

وَتَعَلَّقَتْ فِيكَ الخُصُومُ وَأَنْتَ فِي
يَومِ الحِسَابِ مُسَلْسَلٌ مَجْرُوْرُ
وَتَفَرَّقَتْ عنكَ الجُنُودُ وَأَنْتَ فِي
ضِيْقِ القُبُورِ مُوَسَّدٌ مَقْبُورُ
وَوَدِدْتَ أَنَّكَ مَا وَلِيْتَ وِلَايَةً
يَوماً ولا قَالَ الأنامُ أَمِيْرُ
وَبَقِيْتَ بَعْدَ العِزِ رَهْنَ حَفِيْرَةٍ
فِي عَالَمِ المَوْتَى وَأَنْتَ حَقِيْرُ
وَحُشِرْتَ عَرْيَاناً حَزِيْناً بَاكِياً
قَلِقاً وَمَا لَكَ في الأَنَامِ مُجَيْرُ
أَرَضِيْتَ أَنْ تَحْيَا وَقَلْبُكَ دَارِسٌ
عَافِي الخَرَابَ وجِسْمُكَ المَعْمُوْرُ
أَرَضيتَ أَنْ يُحْظَى سِوَاكَ بِقُرْبِهِ
أَبَداً وَأَنْتَ مُعَذَّبٌ مَهْجُوْرُ
مَهِّدْ لنَفْسِكَ حُجَّةً تَنجُو بِهَا
يَوَمَ المَعَادِ وَيَوْمَ تَبْدُو العُوْرُ

مَوْعِظَةٌ

عِبَادَ اللَّهِ انْتَبِهُوا وَبَادِرُوا بالأعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، فَإِنَّ أَعْمَارَكُم سَرِيْعَةُ الانْصِرَامِ ، وَالأيَّام وَاللَيَالِي تَمُرُّ بكم مَرَّ السَّحَابِ ، والدُّنْيَا إذا تَأمّلهَا اللبِيْبُ رَآهَا كالسَّرَابِ ، وَصَدَقَ القَائِلُ في وَصْفِهَا حَيْثُ قَالَ :

أَلاَ كُـلُّ حَـيٍّ هَـالِـكٍ وَابْنُ هَـالِـكٍ
وَذُو نَـسَـبٍ فـي الـهَـالِـكِيْـنَ عَـرِيْـقُ
إِذَا امْـتَحَـنَ الـدُّنْيَـا لَـبِيْبٌ تَـكَـشَّـفَـتْ
لَـهُ عَـنْ عَـدُوٍّ فـي ثِـيَـابِ صَـدِيْـقِ

أَعْوَامٌ سَرِيْعَةُ المُرُوْرِ ، وَشُهُورٌ تَقْتَفِيْ إِثْرَ شُهُورٍ وَعِبَرٌ بَيْنَ ذَلِكَ تَتْرَى ، فَعَلاَمَ الغُرُورُ ، فلا تَغْتَرّوُا بالدُنْيَا فَقَدْ نَهَاكُم اللهُ عَنْ الاغْتِرَارِ بِهَا ، وَضُرِبَتْ لَكُم بِأَخذِ أَمْثَالِكُم الامْثَالُ ، أَرَتْكُمْ عِيَاناً كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِأَهْلِهَا الأَحْوَالُ ، وَخَدَعَتْهُم الآمَالُ ، حَتَّى انْتَهَتْ لَهُمْ الآجَالُ ، قَبْلَ أَنْ يَحْصُلُوا عَلَى مَا سَيَتَمَنَّوْنَهُ مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ ، فَاسْتَيْقِظُوا مِنْ نَوْمِكُم ، وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُم عَلى مَا اكْتَسَبَتْهُ مِنْ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِيْ الثقالِ ، فَأَيُّ نَفْسٍ مِنَّا لَمْ تَحمِلْ ظُلماً ، وَأَيُّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِنَا لَمْ تَقْتَرِفْ إِثْماً ، وَأَيُّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِنَا يَلِيْقُ بِذَلِكَ المقام ، وَأَيّ وَقْتٍ مِنْ أَوْقَاتِنَا تَمَحَّضَ لِلطَّاعَةِ وَخَلا مِن الآثامِ ، لَقَدْ جَنَيْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا بالذُّنُوبِ جِنَايَة عَظِيْمَةً ، فَلَيِّنُوا قُلوبَكُم بِذِكْرِ هَاذِمِ اللّذّاتِ ، لَعَلَّهَا تَلِيْنْ ، وَعِظُوهَا بِذِكْرِ القَبْرِ وَفِتْنَتِهِ فإِنَّهُما لَحقُّ اليَقِيْن ، وَذَكِّرُوْهَا ﴿ يومَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِيْن ﴾ ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرءُ ما قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ﴿ يَوْمَ تجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ﴾ ﴿ يَوْمَ تَأْتِيْ كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عن نَفْسِهَا ، وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُوْنَ ﴾ .

شِـعْرَ :

وفي دُوْنِ مـا عَـايَنْتَ مِن فَجَعَـاتِهَـا
إلى دَفعِهَـا دَاعٍ وبـالـزُهْـدِ آمِـرُ

فَـجُـدَّ ولا تَغْـفُـلْ وَكُنْ مُـتَيَـقِّـظاً
فَعمَّـا قَلِيْـلٍ يَتْـرُكُ الـدَّارَ عَـامِـرُ
وَشَمِّـرْ ولا تَفْتُـرْ فَعُمْـرُكَ زَائِـلٌ
وَأَنْـتَ إِلـى دَارِ الإِقَـامَـةِ صَـائِـرُ
وَلَا تَـطْلُبِ الـدُّنْيَـا فـإِنَّ نَعِيْمَهَـا
وان نِلْتَ منهـا غِبَّهُ لَـكَ ضَـائِـرُ
أَمَـا قَدْ نَـرى في كُـلِّ يَـومٍ وليلةٍ
يَـرُوْحُ عَلَيْنَـا صَـرْفُهَـا وَيُبَـاكِـرُ
تَـعَـاوَرَنَـا آفَـاتُـهَـا وَهُـمُـومُـهَـا
وَكَمْ قَـدْ نَـرَى يَبْقَي لَهَـا المُتَعَـاوِرُ
فَـلَا هُـوَ مَغْبُـوطٌ بِـدُنْيَـاهُ - آمِنٌ
وَلا هُـوَ عن تَطْلَابِهَـا النَّفْسَ قَاصِـرُ

اللَّهُمَّ أَيْقِظْنَا مِنْ سَنَةِ الغَفْلَةِ ، وَوَفِّقْنَا لاغْتِنَامِ أَوْقَاتِ المُهْلَةِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْـلٌ »

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ المُتَوَسِّطَةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ مِنْ الفِتَنِ التِيْ تَقَعُ في آخِرِ الزَّمَانِ ، فَعَن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال قالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « والذِي نَفْس بِيَدِهِ لا تَذْهَبُ الدُّنيا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ على القَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِيْ مَكَانَ صَاحِبِ

هَذَا القَبْرِ ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّيْنُ إلا البَلَاءُ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه قالَ قَالَ النبي صلى اللهُ عليه وسلم « والذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ لِيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَدْرِيْ القَاتِلُ في أَيِّ شَيْءٍ قَتلَ ، وَلَا المقتُولُ على أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ » وَعَنْ أَبِي قتادَةَ العَدويّ ، عَنْ يَسِير بْنِ جَابِرٍ قالَ : هَاجَتْ رِيْحٌ حَمْرَاءُ بالكُوفَةِ ، فَجَاء رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هُجِيْرًا إلَّا : يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ جَاءَتْ السَّاعَةُ قالَ : فَقَعَدَ وَكَانَ متّكِئاً ، فقالَ : إنَّ السَّاعَةَ لا تَقُومُ حَتَّى لا يُقْسَمَ مِيْرَاثٌ ، ولا يُفْرَحَ بِغَنِيْمَةٍ ، ثُمَّ قالَ بِيَدِهِ هَكذا ، ونحَّاهَا نَحْوَ الشَّام ، فقالَ : عَدُوٌّ يَجْتَمِعُوْنَ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ ، وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الإِسلامِ . قُلْتُ الرُّوْمُ تَعْنِيْ ؟ قالَ : نَعَمْ وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُم القِتَالَ رِدَّةٌ شَدِيْدَةٌ ، فَيَشْتَرِطُ المُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوتِ ، لا تَرْجِعُ إلَّا غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُم اللَيْلُ ، فَيَفِيْءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ غَيْرُ غالِب ، وَتَفْنَى الشُرْطَةُ ، ثم يَشْتَرِطُ المُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ ، لَا تَرْجِعُ إلَّا غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجِزَ بَيْنَهم اللَّيْلُ ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، ثم يَشْتَرِطُ المسلِمُوْنَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ ، لا تَرْجِعُ إلَّا غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ حتى يُمْسُوا ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كلُّ غيرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، فإذا كَانَ اليَوْمُ الرَّابعُ نَهدَ إِلَيْهِم بَقِيَّةُ أَهْلِ الإِسْلَامِ ، فَيَجْعَلُ اللهُ الدَّبَرَةَ عَلَيْهِم ، فَيَقْتَتِلُونَ مَقْتَلَةً إمَّا قَالَ : لا يُرَى مِثْلُهَا . وَإِمَّا قالَ : لَم يُرَ مِثْلُهَا ، حَتَّى إنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَباتِهِم ، فَمَا يَخْلِفُهم حَتَّى يَخِرَّ مَيِّتًا فَيَتَعَادُّ بَنُو الأَبِ كَانُوا مائةً ، فَلَا يَجِدُوْنَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إلَّا الرَّجُلُ الوَاحِدُ ، فَبِأَيِّ غَنِيْمَةٍ يُفْرَحُ ، أَوْ أَيِّ مِيْرَاثٌ يُقَاسَمُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعُوا بِبَأْسٍ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ ،

فَجَاءَهُم الصَّرِيْخُ إنّ الدَّجَالَ قَدْ خَلَفَهُم في ذَرارِيْهِمْ ، فَيَرْفُضُوْنَ مَا في أَيْدِيْهِمْ ، وَيُقْبِلُونَ ، فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيْعَةً ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم « إنِّيْ لأعْرِفُ أَسْمَاءَهُم وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ ، وَأَلْوَانَ خُيُولِهِم ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ ، عَلَى ظَهْرِ الأرْضِ يَوْمَئِذٍ ، أو مِنْ خَيْرِ فَوَارِس عَلَى ظَهْرِ الأرْضِ يَوْمَئِذٍ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

شِعر :

نَنْسَى المنايا عَلَى أَنَّا لَهَا غَرَضٌ
فَكَمْ أُنَاسٍ رَأَيْنَاهُم قَدْ انقَرَضُوْا
إنَّا لَنَرْجُو أُمُوْراً نَسْتَعِدُّ لَهَا
والموتُ دُوْنَ الذِيْ نَرْجُوهُ مُعْتَرِضُ
لِلهِ دُرِ بَنِي الدُنْيَا لَقَدْ غُبِنُوْا
لِمَا اطْمَأَنُوا بِهِ مِن جَهْلِهِم وَرَضُوْا
مَا أَرْبَحَ اللهُ في الدُنْيَا تِجَارَةَ إِنْ
سَانٍ يَرى أَنَّها مِن نَفْسِه عِوَضُ
لَبِئْسَتِ الدارُ داراً لا نَرَى أَحَداً
مِن أَهْلِهَا نَاصِحاً لَم يَعْدُهُ غَرَضُ
ما بَالُ مَنْ عَرَفَ الدُنْيَا الدَّنِيَّةَ لا
يَنْكَفُ عن عَرَضِ الدُنْيَا وَيَنْقَبِضُ
تَصِحُّ أَقْوَالُ أَقْوَامٍ بِوَصْفِهِمُ
وفي القُلُوبِ إِذَا كَشَّفْتَهَا مَرَضُ

والنـــاسُ في غَفْلَةٍ عَمَّـا يُـرَادُ بِهِم
وَكُلُهُمُ عن جَدِيْدِ الأَرْضِ مُنْقَـرِضُ
والحَـادِثَـاتُ بِهَــا الأَقْـدَارُ جَـارِيَـةٌ
وَالمَــرْءُ مُـرْتَفِــعٌ فِيْهَــا وَمُنْخَـفِضُ
يَا لَيْتَ شِعْرِيْ وَقَدْ جَدَّ الرَّحِيْلُ بِنَا
حَتَّى مَتَى نَحْنُ في الغِرَّاتِ نَرْتَكِضُ
نَفْسُ الحَكِيْمِ إلى الخَيْرَاتِ سَاكِنَةٌ
وَقَلْبُــه مِن دَوَاعِي الشَّــرِ مُـنْقَـبِضُ
إِصْبِـرْ على الحَقِ تَسْتَعْذِبْ مَغَبَّتَــهُ
والصبــرُ لِلْحَقِ أحيـانــاً لَـهُ مَضَضُ
ومـا اسْتَـرَبْتَ فكُنْ وَقَّـافَـةً حَـذِراً
قَــد يُبْرَمُ الأَمــرُ أَحْيَـانــاً فَيَنْتَقِضُ

مَوْعِظَة

عِبَادَ اللَّهِ اتَّقُوا اللَّهِ وَبَادروا بالتَّوْبَةِ قبل أنْ يُغْلَقَ عنكُم البَابُ ، وابتدروا الأَوبَةَ قَبْلَ أَنْ يُرْخَى دُوْنَكُم حِجَابُهَا ، وَانْتَهزوا فُرَصَ الحَيَاةِ فَقَدْ اقتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَتَضَاعَفَ اقْتِرَابُهَا ، قال اللَّهُ تعالى ﴿ اقْتَـرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابَهُم وهم في غَفْلَةٍ مُعْرَضون ﴾ فيَا عِبَادَ اللهِ تَذَكَّروا مَوَاقِفَ الخَلاَئِق بَيْنَ يَدَي العَزِيْز الجبَّارِ في يَوْم يُحَرّرُ فِيهِ الحسَاب ، وَأَعِدُّوا لِلحسَابِ صَوَابَ الجَوَاب ، فَلاَ بُدَّ أَن يُطْلَبُ مِنكمُ على كُلُّ مسأَلَةٍ جَوَابُهَا ، واجتَنَبُوا التَّسوِيْفَ ، فإِنَّ سُيُوفَ المِنْيَّةِ قاطعَةَ ، يا مَعْشَرَ المُسَوِّفِيْنَ أَظَنَنْتم أنكمُ في الدنيا مُخَلَّدون ، وأنتمُ مَعَ العَاصِيْنَ قَاعِدُوْن ، كم مَرَّتْ بكمُ مَوَاسِمُ الطَّاعَاتِ ، وأنتمُ عن استِغْلالِها بالباقِيَاتِ الصالحات راقدون ، فما

بالُكَ أيُّها الغَافِلُ تُسَارِعُ في مُتَابَعَةِ هَوَاك ، مَعَ أنكَ في العِبَادَةِ مُتكاسِل ، وَتُتْلى عَلَيْكَ آياتُ مَوْلَاكَ وَأَنْتَ عنهَا مُعْرَضٌ إِعْرَاضَ الجَاهِلِ تَسْمَعُ الملاهِيَ فتمِيلُ إليها بِقَلْبِكَ وَتُبْصِرُ المَنَاهِيَ مِن تِلفزيُون وَفِديو وَسينَماء وَسَافراتٍ وصُور فلا تَتحرَكُ ولا تتمعَرّ ، هَل أَنْتَ مُكَذِّبٌ بالتَّحْرِيْم ، أو مُتَشَكِّكٌ في البَعْثِ وعَذَاب القَبْر والحِسَابِ والصرّاط والمِيْزَان ، فيا مُؤمنا بِيَوم الحِسَابِ تَهَيأْ لِلْمُحاسَبَةِ ، وَيَا مُذعِناً بِحُقوق الرَّبِ اسْتَعَدَّ للمُطَالَبَةُ وَيَا طَوِيلَ الأَمَلِ كَمْ آمالٍ أصبَحَتْ خائبة ، فكأنَّكَ بالموتِ وقَدْ نَزَلَ بِسَاحَتِكَ وَنَزَلْتَ في القَبْرِ مَعَ عَمَلِكَ وَحُشَرْتَ وَعُرِضْتَ على عالم سرِيْرَتِكَ وعلانِيَتِكُ وكَأَنكَ بالحَشْرِ والنشْرْ والحِسَابِ بَيْنَ يَدَي اللهِ عزَّ وجَل ، وكأنَّكَ بالأَهْوالِ والمَخَاوُفِ وقد أَحَاطَتْ واشتدَّ الخوفُ والوجلُ وكأَنَّكَ بالجَحِيمِ وقد سُعِّرَتْ وبالجنةِ وقد أُزْلِفَتْ ، فَالبَدَارَ البدارَ قبلَ انقضاءِ الأعمارِ ، وفقنا الله وايَّاكَ للفوزِ بِدَار القَرَار ، واللهُ أعلم وصلَّى اللهُ على محمد وآله وسَلم .

« مَــوْعِظَــةٌ »

عِبَادَ اللهِ ما نَدِمَ مَنْ أَطَاعَ اللهَ في أيِّ وَقْتٍ كَانَ ، وَلَا عَادَتْ الطَاعاتُ على صَاحِبِهَا إلَّا بالخَيْرِ والبَرَكَةِ في كُلِّ آنٍ ، والعُصَاةُ في كُلِّ زَمَنٍ هُمْ المَمْقُوْتُونَ مَهْمَا ابْتَسَمَتْ لَهُم الدُنْيا وقَضَوُا فِيْهَا بَعْضَ مآرِبِهم ، وَمَهْمَا هَامُوْا بِحُبِّهَا وَأَحْكَمُوا أَسَالِيْبَ جَمْعِهَا ، فإِنَّ الدُنْيا لا تَبْتَسِمُ لِفاسِقٍ إلَّا لِتَسْحَقَهُ ، ولا تَفْتَحُ ذِراعَيْها لِمُقْبِلٍ عَلَيْهَا إلا لِتُحْرِقَهُ ، قال اللهُ تعالى ﴿ فلا تَغُرنكم الحياةُ الدنيا ولا يَغرنكم باللهِ الغَرُوْر ﴾ فَمَاذا غَرَّكَ فِيْهَا أَيُّها المِسْكِيْنُ ، إن كانَ الذي غَرَّكَ فِيْهَا كَثْرَةُ النَّقْدَيْنِ أَوْ مَا نَابَ مَنابَهُمَا مِن

أَوْرَاقٍ ، فإِنَّ الجَنَّةَ حَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ ، وَتُرابُهَا الزَّعْفرانُ ، وبِنَاؤُهَا الذَّهَبُ والفِضَّةُ ، والدُرُ واليَاقُوتُ ، وإنْ كَانَ الذي غَرَّكَ مِنْهَا فَوَاكِهُهَا وَمطْعُوْمَاتُهَا وَمَا حَوَتْ مِن مَتَاعٍ ، فإِنَّ في الجَنَّةِ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ ، وانْ كانَ الذي غَرَّكَ جَمالُ نِسَائِهَا ، فإِنَّ في الجَنَّةِ ﴿ قاصِرَاتُ الطَّرْفِ ، لم يَطْمَثِهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُم ولا جَانٌّ ﴾ ﴿وكَواعِبَ أَترابا ﴾ لَوْ ظَهَرَ بَنانُ إِحْدَاهُنَّ عَلَى الدُنيَا لأضاءَتْ مَا بَيْنَ السماءِ والأَرْضِ يَنْظُرُ إلى وَجْهِه في خَدِّهَا أَصْفَى مِن المِرْآةِ ، وَتُسَرُّ بِمُشَاهَدَتِهَا سُرُوْرَاً لَا يَعْلَمُ قَدْرَهُ إِلَّا اللهُ ، لا تَنْظُرُ إِلَّا إِلَيْها ولا تَنْظُرُ إلَّا إِلَيْكَ ، لَا تَتَكَلَّمْ إِلَّا بِمَا يَسُرُّكَ ، تَأْمُرُهَا فَتَخْضَعُ ، وَتُحَدِثُهَا فَتَسْمَعُ ، إذا تَكَلَّمَتْ أَطْرَبَتْ ، لَا تَفْتَخِرُ عَلَيْكَ بِحُسْنِهَا وَجَمَالِهَا ، ولَا تَمُنُّ بِجَمِيْلِ صُنْعِهَا ، لَا تَنْفُرُ مِنْكَ وَلَا تَغْضَبُ ، وَلَا تَلْهُو عَنْكَ وَلَا تَصْخَبُ ، الجَمَالُ كِسَاؤُهَا ، والكمالُ رِداؤُهَا ، والوُدُّ والوَفاءُ مِن طَبْعِهَا ، لا يَعْلُوَ صَوْتُهَا على صَوْتِكَ ولا تَجْتَهِدُ إلَّا في مَرْضَاتِكَ ، هَادِئَةً ، سَاكِنَةً رَاضِيَةً تِلْكَ وَأَمْثَالُهَا لِلْمُؤْمِنِيْنَ المُعْلُومِيْنَ ، مِن قوله تعالى ﴿ قد أَفْلَحَ المؤمنونَ الذين هُم في صلاتِهِمْ خاشعُون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئكَ هُمُ الوَارِثُونَ الذِيْنَ يرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هم فيها خالدون ﴾ أيُّهَا المسلمونَ ، لَقَدَ فَازَ والله مَنِ اجْتَهَدَ فِيْمَا يُنجِيْهِ ، وَخَابَ مَن أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِيْمَا يُخْزِيْهِ ، وَأَنْتُم الآنَ في فُسْحةٍ مِنْ أَجَلِكُم ، وَصِحَّةٍ مِنْ أَبْدانِكُم ، وَاكْتِمَالٍ مِن عُقُولِكُم ، وَآخِرُ الأجلِ غَائِبٌ عَنْكُم ، ولا تَدْرُون كَيْفَ حَالُكُم بَعْدَ يومِكم فَسارِعُوا ﴿ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ مِن قَبْلِ أَنْ يَفْقِدَ البَدنُ صِحَّتَهُ ، وَيَقُولُ الحَقُّ كَلِمَتَهُ ، فَينقضِيْ الأَجَلُ ، وَيُخْتَمُ عَلَى العَمَلِ ، فلا يُنْقَصُ فيهِ ولا يُزَادُ ، ولا يُعَدَّلُ فِيهِ شَيْءٌ إِلَى المَعَادِ ، تَقُولُ لَيْتَنِي أَطَعْتُ ، وَمَا

هِيَ بِنَافِعَةٍ ، وَلَيْتَنِي مَا عَصَيْتُ ، وَلَيْسَتْ بِدَافِعَةٍ ، إِذاً فَأَضْيَعُ النَّاسِ وَأَخْسَرُهم صَفْقَةً مَنْ سَوَّفَ في طَاعَةِ رَبِّهِ ، وأَشَدُّهُم خُسْرَاناً مَنْ لَمْ يُبَادِرْ فِيْ التَّوْبَةِ مِنْ ذَنْبِهِ ، قالَ تَعَالَى ﴿فأَمَّا مَنْ تَابَ وآمَن وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ المُفْلِحِيْنَ﴾ وفي الحَدِيْثِ « أَحَبُّ الأعْمَالِ إلى اللهِ أَدْوَمُها وانْ قَلَّ » رَوَاهُ البُخارِيّ .

إِلى اللهِ تُبْ قَبْلَ انْقِضَا زَمَنِ العُمْرِ
أُخَيَّ ولا تَأْمَنْ مُسَاوَرَةَ الدَّهْرِ
لَقَدْ حَدَّثَتْكَ الحَادِثَاتُ نُزُوْلَهَا
وَنَادَتْكَ إلَّا أَنَّ سَمْعَكَ ذُو وَقْرِ
تَنُوحُ وَتَبْكِيْ لِلأَحِبَّةِ أَنْ مَضَوْا
وَنَفْسَكَ لَا تَبْكِي وَأَنْتَ عَلَى الأَثْرِ

آخر :
إِذا مَرِضْنَا نَوَيْنَا كُلَّ صَالِحَةٍ
وانْ شُفِيْنَا فَمِنَّا الزَّيْغُ والزَّلَلُ
نُرضِي الإِلَهَ إِذَا خِفْنَا وَنُسْخِطُهُ
إِذَا أَمِنَّا فَمَا يَزْكُو لَنَا عَمَلُ

اللهُمَّ وَفِّقْنَا لِسَبِيْلِ الطَّاعَةِ ، وَثَبِّتْنَا عَلَىَ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ عَرفَ الحَقَّ وَأَضاعَهُ ، وَأَخْتِمْ لَنَا بِخَيْرٍ مِنْكَ يَا كَرِيْمُ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فصل »

في ذكر بعض الأحاديث التي وردت في الفتن وما يقع في آخر الزمان

عن حُذيفةَ رَضْيَ اللهُ عنه أنهُ قَالَ: اذا أحَبَّ أحَدُكم أنْ يَعْلَم أصَابَتْهُ الفِتْنَةُ أمْ لا ؟ فَلْيَنْظُرْ فإنْ كانَ رَأىَ حَلالاً كَانَ يَرَاهُ حَراماً فَقَدْ أصَابَتْهُ الفِتْنَةُ ، وَانْ كَانَ يرَى حَـرامـاً يَـراهُ حَلالاً فقدْ أصَابَتْهُ . رَواهُ الحَاكِمُ .

وَعَنْ زَيْنَبَ بنْتِ جَحْشٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم يَوْماً فَزِعاً ، مُحْمَرّاً وَجْهُهُ ، يَقُوْلُ « لا إلهَ إلا الله ، وَيْلٌ للعَرَب مِنْ شَرٍّ قَدْ اقترَبَ ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأجُوجَ ومَأجُوجَ مِثْلُ هَذه » وَحلِّقَ بأصْبُعِه الابْهَامَ وَالتِي تَلِيْها ، قَالتْ : فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أنَهْلَكُ وفِيْنَـا الصَّالِحُـونَ ؟ قالَ « نَعمْ اذَا كَثُـر الخَبثُ » رَواهُ أحْمَـدُ وَالبُخَارِيّ ومُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذيّ وَابْنُ مَاجَهْ .

وَعن أبي هُريَرةَ رَضْيَ اللهُ عنهُ ، قَالَ قَالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « ويْلٌ للعَربِ منْ شَرٍّ قد اقْتَربَ ، فِتَناً كقِطَعِ اللّيْل المظْلِم ، يُصْبَحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيمْسِيْ كافِراً ، يَبِيْعُ قَوْمٌ دِيْنَهُم بعرَضٍ منْ الدّنْيَا » رَواهُ الامَامْ أحْمَدُ ومُسْلِمٌ .

وَعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا أنْ رسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم قَالَ « سَتكُوْنُ فِتَنٌ يُفَارِقُ فِيْهَا الرَّجُلُ أباهُ وأخَاهُ ، تَطيْرُ الفِتْنَةُ

في قُلُوبِ رجَالٍ مَنْهُم إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ، حَتَّى يُعَيَّرَ الرَّجُلُ فِيْهَا بصَلاتِه ، كَمَا تَعيَّرُ الزّانِيَةُ بزِنَاهَا » رَواهُ الطَّبَراني .

قُلْتُ وهَذا الحَديْثُ فيهِ عَلمٌ من أعْلام نُبُوَّتِهِ صلى اللهُ عليه وسَلم وصِدْقَ رسَالَتِهَ ، فأنُه في هَذا العَصْرِ قَدْ وَقَعَ مَا ذُكِرَ فَفَارقَ رجَالٌ آبَاءهُم بسَبَبِ فِتْنَة التلفزيون، وبسَبَبِ فتْنَةِ الكُرَةِ ، فَارَقَ رجَالٌ آبَاءهمُ وَاخْوَانهُم وزَوجْاتَهِم ، نسْألُ اللهَ أنْ يَعْصِمَنا مِنْهَا ، وَوَقعَ في زمَنِنَا أيْضاً أناسٌ ، يَتهكَّمُونَ وَيَسْخَرُوْنَ بالمُصَلِّيْنَ ، وَمَنْ عَليْهِمْ سِيْمَا الصَّالِحْينَ ، مِنْ إعْفَاءِ لِحْيَةٍ ، وَاقْتِنَاء كُتُبِ السَّلف ، وَكَثْرةِ تلاوَةٍ لِكَلامِ الله ، وَالبُخَارِيّ وَمُسْلِم ، ويَرْمُوْنَهُم بأنَّهُم رَجْعِيُّونَ ومَتأخِّرُون ومَنْحُطُّونَ ، وضِدُّهُمْ مِمَّنْ لا يَشْهَدُونَ الصَّلاةَ ، حَالِقِي اللِّحَى ، شُرَّابِ الدخانِ ، أهْلِ الخَنَافِسِ وَالتَّوالَيْتَ ، يُسَمُّونَهُم المُتَمَدِنِيْنَ المُثَقَّفِيْن ، و هذَا انْعِكَاسٌ نَسْألُ اللهَ العَافِيَةَ وَالثَّبَاتَ عَلى الاسْلام ﴿ وَإنْ يُهْلِكُونَ إلا أنْفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونْ ﴾ ﴿ ألا إنَّهُم هُمْ السُّفَهَاءُ وَلكِنْ لاَ يَعْلَمُون ﴾ .

وَعَنْ أبي سَعِيْدٍ الخُدْرِيّ رَضْيَ اللهُ عنه قَالَ: بَيْنَا أعرَابيٌّ في بعضِ نَواحِي المدينةَ في غَنمٍ لهُ ، عَدا عَليهِ الذئبُ فأخَذ شاةً من غَنَمِهِ ، فأدْرَكَهُ الأعْرَابيِّ فاسْتَقَذَهَا مَنْهُ ، وهَجْهَجه فَعَانَدَهُ الذئبُ يَمْشِيْ ، ثم أَقْعَى مُسْتَثْفِراً بذَنبِهِ يُخاطِبُه ، فقالَ: أخَذْتَ رِزْقاً رَزقَنِيْهِ اللهُ ، قَال: وَاعَجَبَاً مِنْ ذِئْبٍ مُقْعٍ مُسْتَثْفِرٍ بذَنَبِهِ يُخاطِبُنِيْ ، فقالَ: وَاللهِ انَّكَ لتَتْرُكُ أعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ: وَمَا أعْجَبُ مِن ذلِكَ ؟ فقالَ: رسُول اللهُ صلى الله عليه وسلم في النَّخْلتَيْنِ ، بَيْنَ الحَرَّتَيْنِ ، يُحَدِّثُ النَّاسَ عَنْ نَبأِ مَا قَدْ سَبَقَ ، ومَا يكونُ بَعْدَ ذَلِكَ ، قَال: فَنعق الأعْرَابِيّ بغَنَمِه ، حَتَّى الْجَأها

إِلَى بَعْضِ المدِيْنَةِ ، ثم مَشَى إلى النبي صلى اللهُ عليه وَسَلم حتى ضَرَب عليه بَابَهُ ، فلمّا صلى النبي صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ « أيْنَ الأعْرابِيْ صَاحِبُ الغَنَمِ » فَقَامَ الاعْرَابيّ ، فَقَالَ النبي صلى اللهُ عليه وسلم « حدِّثْ النَّاسَ بمَا سَمِعْتَ ، وبِمَا رَأَيْتَ » فَحَدّثَ الأعْرَابيّ النّاسَ بمَا رأىَ مِنْ الذّئبِ ، ومَا سَمِعَ مِنْهُ ، فقَال النبي صلى الله عليه وسلم عِنْدَ ذلك « صَدَقَ آياتٌ تكُونُ قَبْلَ السَّاعَةِ ، والذِي نَفْسِيْ بيَدِه لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ أحَدُكم مِنْ أهْلِهِ فيُخبرُه نَعْلُه أوْ سَبْوطَهُ أو عَصَاهُ بمَا أحْدَث أهْلهُ بعْدَهُ » رَوَاهُ الامامُ أحْمَدُ ورُواتُه ثِقَاتٌ ، وعَنْ سَهْل بْنِ سَعْدٍ السَّاعِديّ رضْيَ اللهُ عنه أنّ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم قَال « اللهُمّ لا يُدرِكْنِيْ زَمانٌ أو لا تُدْرِكُوا زمَاناً لا يُتّبَعُ فِيْهِ العَلِيْم ، ولا يُسْتَحْيَ فيهِ مِن الحَلِيْم قُلُوبُهُم قُلُوبُ الأعَاجِمِ ، وألسِنَتُهُم ألْسنَةُ العَرَبِ » رواه أحمدَ .

وَعن حذيفَة قال سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يقول « تُعْرَضُ الفِتْنَةُ عَلىَ القُلُوبِ كالحَصِيْر عُوْداً عُوْدا ، فأيْ قَلْبٍ أشْرِبَهَا نَكَتَتْ فِيْهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وأيُ قَلْبٍ أنْكرَهَا نَكتَتْ فيه نَكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتى تَصيْرَ عَلَى قَلْبَيْن، عَلَى أبْيَضَ مِثْلَ الصَّفاءِ فلا تَضُرُهُ فِتْنَةٌ مَا دَامتِ السّمواتُ والأرضُ ، والآخَرُ أسْوَد مِرْبَادٌ ، كالكَوزِ مُجَخّياً ، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً ، ولا يُنْكِرُ مُنْكَراً إلا ما أشْرِبَهُ مِن هَوَاهَ » رواه مسلم وأحمد .

وعن عبدِ اللهِ بن عُمَرَ رَضي اللهُ عنهما قال كُنَّا قُعُوداً عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَذَكَرَ الفتنَ فأَكْثَر في ذِكْرِهَا حَتَّى ذَكرِ فِتْنَةَ الأَحْلاسِ ، قال « هِيَ هَرَبٌ وحَرْبٌ » ثمَّ فِتْنَةُ السَّراءِ « دَخَنُهَا مِن تَحتِ

قَدَمِي رَجُلٍ مِن أهْلِ قَرَيتِي ، يَزْعُمُ أنَّهُ مِنِّيْ ، ولَيْسَ مَنِيّ ، وإنَّما أوْلِيَائِي الْمُتَقُون ، ثم يَصْطَلِحُ الناسُ عَلى رَجُلٍ كَوَرْكٍ على ضَلَعٍ ، ثم فتنةُ الدُهَيْمَاء ، لا تَدَعُ أحَداً من هَذِه الأمةِ إلاَّ لَطَمْتَهُ لَطْمَةً ، فإذَا قِيْلَ انْقَضَتْ تَمادَتْ ، يُصْبَحُ الرجلُ فِيها مُؤْمِناً ويُمْسِي كافراً ، حتىً يَصيْرَ الناسُ عَلَى فِسْطَاطَيْنِ ، فِسْطَاطِ إيمانٍ لاَ نِفاقَ فِيهِ ، وفِسْطَاط نِفَاقَ لا إيمانَ فِيه ، فإذا كانَ ذاكُمْ فانْتَظُروا الدَّجالَ مِن يَوْمِهِ أوْ غَدِهِ » رواه أحمدُ وأبو دواد والحاكم .

وعن أبي هُرِيرَةِ رضي اللهُ عنه أن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم قال « لا تَقُومُ الساعةُ حَتَّى تَقْتَتلَ فِئَتانِ عَظِيْمَتانِ ، وتكونَ بَيْنَهُما مَقْتَلة عَظِيْمَةٌ، ودَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ » متفَق عليه .

وعن أبي سَعيدٍ رَضي اللهُ عنهُ قال : كُنَّا نَنْقُلُ لَبِنَ المَسْجَد لبنِة لَبنةً ، وكانَ عَمَّارَ يَنْقَلُ لِبَنْتَينِ لَبنَتَيْنِ ، فمَرَ بهِ النبيْ صَلى اللهُ عليهِ وسَلَّمِ ، ومَسَحَ عن رأسَهِ الغُبَارَ ، وقال « وَيْحَ عَمَّارٌ تَقْتُلُه الفِئَةُ البَاغِيَةُ ، عَمَّارٌ يَدْعُوهُم إلى اللهِ ، ويَدْعُوْنَهِ إلَى النَّار » رَوَاهُ البُخارِيّ .

وعن حَبَّةَ العُرَنِيّ قال : دَخَلْنا مَعَ أبي مَسْعُودِ الأَنْصَارِيّ عَلَى حُذَيفَةَ بْنِ اليَمانِ رَضْيَ اللهُ عنه ، أسْألُه عَنْ الفِتَنِ ، فقالَ دُوْرُوا مَعَ كِتَابِ اللهِ حَيْثُ مَا دَارَ ، وانْظُرُوا الفِئَة التِيْ فيْها ابْنُ سُمَيّةِ فاتبعُوهَا، فإنهُ يُدوُرُ معَ كِتَابِ اللهِ حيثُ مَا دارَ، قالَ فقُلْنَا لهُ ومَنْ ابْنُ سُمَيَّة؟ قالَ: عَمَّارُ ، سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم يقُول « لَنْ تَمُوتَ حتى تَقْتُلُكَ الفَئةُ الباغِيَةُ تَشْرَبُ شَرْبَة ضِيَاحٍ ، تكنْ آخِرَ رِزْقَكِ منْ الدُّنْيا » رَواهُ الحاكِمُ في مُسْتَدركهِ وقَالَ صَحِيْحٌ .

وَعنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضْيَ اللهُ عنه عن النبي صلى اللهُ عليه وسَلم قال « إذا اخْتَلفَ النَّاسُ فابْنُ سُمَيَّةَ مَعَ الحقِّ » رَواهُ الطَّبَرانِيّ وَالبَيْهَقِيّ .

وعنْ أبي هُريرةَ رَضْيَ اللهُ عنهُ ، قَالَ قَال رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « أبْشِرْ يَا عَمَّارُ ، تَقْتُلكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ » روَاه التِّرمِذُي وقَالَ هَذا حَدِيْثٌ حسَنٌ غرِيْبٌ .

قُلْتُ وفي هَذِه الأحَادِيْثِ عَلمٌ مِنْ أعلامِ نُبُوَّتِهِ صلى اللهُ عليه وسَلم ، وصِدْقِ رِسَالتِهَ ومَزِيّةٌ لِعَليّ ولعَمَّارٍ رَضْيَ اللهُ عنْهُما وهُوَ أنَّهُمَا مَع الحقِّ وعَنِ اسْرَائِيْلَ بْنَ أبي مُوْسَى ، قالَ سَمِعْتُ الحَسَنَ ـ يَعْنِيْ البَصْرِيّ يَقُولُ: اسْتَقْبَلَ واللهِ الحَسَنُ بْنُ عَلِيّ مُعَاوِيَة بِكتَائِبَ أمْثَالَ الجِبَالِ ، فَقَال عَمْرُو ابْنُ العاصِ إنِّيْ لأرَى كَتَائِبَ لا تُوَلِّيّ حَتّى تَقْتَل أقْرَانَها ، فقَال لَهُ مُعَاويةُ ـ وَكانَ وَالله خَيْرَ الرَّجُلَيْنِ ـ: أَيْ عَمْرُو إنْ قَتَل هَؤُلآءِ هَؤُلاء ، وهَؤُلآء هَؤلآء ، مَنْ لِيْ بأمُورِ النَّاسِ مَنْ لِيْ بنِسَائِهم ، مَنْ لِيْ بضَيْعَتِهم فَبعَثَ إليْهِ رَجُلْينِ مِنْ قُرَيْش ، مَنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، عَبْدِ الرَّحْمَنَ بْنِ سَمُرة ، وعَبْدِ اللهِ بن عامِرِ بنِ كُريز ، فقالَ: اذْهَبَا إلىَ هَذا الرَّجُل فاعْرِضا عَلْيهِ ، وَقُولاَ لهُ ، واطْلُبَا إليْهِ ، فأتياهُ فدَخلا عليهِ فتَكَّلما ، وقالاَ له: وطَلَبا إليْهِ ، فقَال لهُمَا الحَسَنُ بْنُ عَليٍ : إنَّا بَنُو عَبْدِ المُطَّلِبِ قد أصَبْنا مِنْ هَذا المالِ ، وإنَّ هَذِهِ الأمَّة قَدْ عاثَتْ في دِمَائِهَا ، قَالاَ فإنَّهُ يَعْرِضُ عَلْيكَ كَذا وَكَذا ، ويَطْلُبُ إليكَ ، ويَسْألُكَ ، قالَ: فمَنْ لِيْ بهَذا ؟ قالا : نَحْنُ لك به، فمَا سَألَهُما شَيْئاً إلا قالا : نَحْنُ لك بِهِ . فَصَالحَهُ ، فقَالَ الحَسَنُ ـ أي البَصْرِيّ ـ : ولَقَدْ سَمِعْتُ أبا بَكْرة رَضْيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: رَأيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عَلى المْنَبرِ

وَالْحَسَنُ بنُ عليّ رضيَ اللهُ عنهما إلى جَنْبِه ، وهُوَ يُقْبِلُ عَلى النّاسِ مَرَّةً ، وعليْهِ أخرى ، ويقُولُ « إنَّ ابْنِيْ هذَا سَيِّدٌ ، وَلَعلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيْمَتَيْنِ مِنْ المُسْلِميْن » رَواهُ أحْمَدُ وَالبُخَارِيّ ، وفي هَذا الخبرِ أيْضاً مُعْجزَةٌ ، حَيْثُ وَقَعَ مِصْدَاقُهُ بِمَا كَانَ مِن اصْلاحِ الحَسَنِ بَيْنَ أهْلِ العِرَاقِ وَأهْلِ الشَّامِ .

شعرا

نَهـارُكَ في بَحْـرِ السَّفَـاهَـةِ تَسْبَـحُ
وَلَيْلُكَ عن نـومِ الـرَّفَـاهَـةِ يُصْبِـحُ
وفي لَفْـظِكَ الدَّعْـوَى ولَيَس إزَاؤُهَا
من العَمَـلِ الـزَّاكِي دَلِيْـلٌ مُصَحَّـحُ
إذَا لَمْ تُـوافِقْ قَـولَـةً مِنْـكَ فِعْلَةٌ
فَفِي كُلِ جُزْءٍ مِن حَـدِيْثِكَ تُفْضَـحُ
تَنَـحَّ عن الغَايَـاتِ لَسْتَ مِن أهْلِهـا
طَـرِيقُ الهُوَيْنَـا في سُلُوكِكَ أوْضَـحُ
إذَا كُنْتَ في سِنّ النّهى غَيْرَ صَالِحٍ
فَفِيْ أيّ سِـنٍّ بَعْـدَ ذِلـكَ تَـصْلَحُ

اللَّهم افْتَحْ لِدُعَائِنَا بَابَ القَبُولِ والإجَابَة وَأرْزُقْنَا صِدْقَ التـوبةِ وحُسْنَ الانابَة ، ويَسِّرْنا لِلْيُسْرَى وجَنِّبْنَا العُسْرَى وَآتِنا في الدنيا حَسَنةً وفي الآخِرَةِ حَسَنةً وقِنَا عَذَابَ النارِ واغفر لنا ولِوَالِدِيْنا ولِجَمْيعِ المُسْلِمِين بِرَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

موعظة

عِبَادَ اللَّهِ لَقَدْ أصْبحَ النَّاسُ وَمَا يَتعَلَّقُ بالدُّنْيَا أهَمُّ عِنْدَهُمْ بكَثِيْر مِمَّا يَتَعَّلقَ بالدِّيْن ، فإنَّا لِلّهَ وإنّا إليْه رَاجِعُونَ ، في لَيْلِهْم ونهارِهم مَشْغُولِيْنَ شُغْلَ العَاشِقِيْنَ المُسْتَغْرِقِيْنَ ، كأنّهُم مَا خُلِقوا إلا لَها ، وأمّا الدِّيْنُ فلا يَخْطُرُ عَلى بَالِهِم ، وإنْ خطَر فَطيفٌ يَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، أثَّر بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ في هَذا الإنْهِمَاكِ العَظِيْمْ ، وَذَلكِ أنَّ الشيْطانَ بَلَغ في تَهْوِيْنْ الدِّيْنَ عِنْدَهُم الغَايَةَ ومِمَّا يَدُلُّكَ عَلى ذَلك أنكَ تَرى الشَّخْصَ يَرْتَدُّ عَنْ الدِّيْنِ فَلا يُسْألُ ولا يُنَاقَشُ ، ولذلكَ نُزِعَتْ البَرَكَةُ مِنْ أعْمَارِنَا وأعْمَالِنَا وأمْوَالِنَا وأوْلَادِنَا ، وَأصْبَحْنَا وقَدْ ضَرَبَ الذلُّ عَليْنا سُرَادِقَهُ ونَحْنُ كأنَّا لسْنا مِنْ الأحْيَاءِ ، أمَّا عَدمُ البركَةِ في أعْمَارِنَا ، فلأنَّ أحَدُنا يَمُرُّ عَليْهِ الشَّهْرُ وَالعامُ لا تَرى لِحَيَاتِهِ مِنْ أثرَ ، في الاصْلَاحِ وَتَوْجِيْهِ المُنْحَرفِيْنَ ، وَالقِيَامِ التَّامِّ المثْمِر بالأمْرِ بالمعَروفِ وَالنَّهْي عَنْ المنْكَرِ وَالسَّعْي في ازالَةِ مَا يَمَسُّ الدِّيْنَ مِمَّا حَلَّ في بلادِ المسْلِمْينَ مِنْ المُنْكَراتِ والمفاسِدِ والشُّرُوْرِ ، وَلَوْ سَألْتَ أحدُنا هَلْ لكَ مِنْ حَياتِك أثرٌ نافِعٌ لَتَلْجَلَج في الكلامِ ، يَنْظُرُ وَرَاءَهُ فلا يَرى أثراً ، وَيتَبَيَّنُ لهُ أنَّ الأيَّامَ مرَّتْ سُدَى تَتْلُوْها الأيَّامُ ، هَذا مِنْ عَدَمِ البَركةِ في أعْمَارِنَا وأمّا عَدمُ البرَكةِ في أعْمَالِنا فلأنَّ أحدُنا مَا دَامَ مُسْتَيْقِظاً يَتحَرَّكُ وَلا تَنْقَطِعُ أقوالُه ولَا أفْعَالهُ ، وَلكنَّها تَدُور بيْنَ حرامٍ أو مَكرُوهٍ ، أو عَبثٍ لا يَلِيْقُ أن يَصْدُرَ مِنْ الرِّجَالِ ، فَتجِدُ الكذِبَ وَالنَّمِيْمَةَ وَالقَذْفَ وَالغِيْبَة وَالتّمَلُّقَ والنِّفَاق والرِّيَاءَ وَتَعْظِيْمَ العُصَاةِ المُجَاهِرِيْنَ بهَا ونحْو ذلكَ ، وأمَّا عَدمُ البركَةِ في أمْوالِنَا فلأنَّ أحَدنَا يكُونُ عِنْده المالُ الكثِيْرُ فَتراهُ يُبَعْثِرَهُ في سَبِيْلِ شَهواتِهِ ومَلذَّاتِهِ الفَاجرَةِ أو يَكْنِزهُ ولا يُخْرِجُ

منهُ الزَّكَاةَ ، وانْ عَرضْتَ عليْهِ مَشْرُوعاً دِينِيّاً فرَّ مِنْكَ مذعُوراً فأيُّ بَركَةٍ تكوُن في مِثْل هَذا المالِ ، وأمّا عدَمُ البركَةِ في أوْلادِنَا فلأنَّهُم في صِغَرِهِم يَكونُونَ شَيَاطِيْن يُتْعِبُونَ في التَّرْبِيَةِ آبَاءَهُم وَأُمَهَاتِهِم ، فإذا شَبُّوا شُغِلُوا بَشَهواتِهم عَمَّا يَجبُ عليهم لِلْوَالدَيْن مِنْ صُنُوفِ البِرِّ وأكثَرُهُم يَكونُ طُوْلَ حَياتِهِ حَرْباً على وَالِدَيْهِ يُرِيْهِما أنْوَاعَ الاهَانَاتِ ، وَالأذَايَا وأيُّ بَركة في أوْلادٍ هَذا حالهُم مَع وَالدَيْهِم وَاللهُ أعْلمُ انَّ نَزْعَ البَركَةُ مِنْ كلِّ ذلكَ عقُوبَةً لنَا على إِقْبَالِنَا عَلى الدُّنيا وإعْرَاضِنَا عَنْ الدِّيْنِ فلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاّ باللهِ العِلَيّ العَظِيْمِ .

شعر :

هـذَا الـزَّمَـانُ الـذِيْ كُنَّـا نُحَـاذِرُهُ
في قَوْل كَعْبٍ وفي قَوْلِ ابنِ مَسعُودِ
دَهْـرٌ بـه الحَقُّ مَـرْدُوْدٌ بـأجْمَعِـهِ
والـظُّلْمُ والبَغْيُ فيـه غَيْـرُ مَـرْدُودِ
إنْ دَامَ هَـذَا ولَمْ يَحْصُلَ لـه غِيَرٌ
لم يُبْـكَ مَيْتٌ ولم يُفْـرَحْ بمَـوْلُـودِ

آخر :

زَعَمُـوا لَبِيْـدا قَـالَ في عَصْـرٍ لَـهُ
وبَقِيْتُ في خَلَفٍ كَجِلْدِ الأجْـرَبِ
وَأَرَاهُ أعْـدَى خَـلْفُـه مَـن خَـلْفَـهُ
جَـرَبـاً وأعْيَـا الـدَّاءُ كُـلَّ مُجـرِّبِ

وتَضَاعَفَ الجَربُ الذِي عَدْواهُ لا
تَنْفَكُ عن مَاضٍ ولاَ مُتَعَقِّبِ
وتَضَاعَفَ الدَّاءُ العُضَالُ فَخَلْفَنَا
بَلغ الجُذَامَ وعَصْرُنَا عَصْرٌ وبِي

اللهُمَّ أشْرِبْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبنَا وَوَفِّقْهَا لِلتَّفكُّرِ في عَظِيْم نِعَمِكَ عَلَيْنَا لِتَقْوَى وتَزْدَادَ وارْزُقْنا حُبَّ أحْبَابكَ وبُغْضَ اعْدَائِكَ اللهُمَّ وثَبِّتْ قلُوبنا على دِيْنَك ولا تُزِغْها بَعْد إذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لنَا مِنْ لَدُنْك رَحْمَةً إنَّك أنْتَ الوَهَّابُ وصَلّى اللهُ على مُحَمّدٍ وآله وسَلمَ .

« فصل »

وعَنْ مُحمَّدِ بْنِ سَعِيْدٍ ـ يَعْنِي ابْنُ رُمَّانَةَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ رَضْيَ اللهُ عَنهُ لما حَضرهُ المَوْتُ قالَ لَيزيد بْنِ مُعَاويَةَ ، قَدْ وَطَّأْتُ لَكَ البِلاَدَ ، وَفرَشْتُ لك النَّاسَ ، ولَسْتُ أخافُ علَيْكُم إلاَّ أَهْلَ الحِجَازِ ، فانْ رَابَكَ مِنْهُمْ رَيْبٌ ، فَوجِّهْ إلَيْهِمْ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ المرِّيّ ، فإنِّي قَدْ جَرَّبْتَهُ غيْرَ مَرَّةٍ ، فلمْ أجِدْ لَهُ مَثَلاً لِطَاعَتِهِ وَنَصِيْحَتِه ، فلمَّا جَاءَ يزيْدُ خِلافُ ابْنِ الزَبْيْرِ وَدُعَاؤهُ إلَى نَفْسِهِ دَعَا مَسْلِمَ بْنِ عُقْبَةَ المرّيّ ـ وَقَدْ أصَابَهُ الفَالِجُ ـ وَقَالَ : إنّ أمِيْرَ المؤمِنْينَ عَهِدَ إليَّ في مَرضِهِ : إنْ رَابنِيْ مِنْ أهْلِ الحِجَازِ رَائِبٌ أنْ أُوجِّهَكَ إلَيْهِم ، وَقدْ رَابَنِيْ فقَالَ : إنيْ كَمَا ظَنَّ أَمِيْرُ المؤمِنيْنَ اعْقِدْ لِيْ ، وَعَبِّ الجُيُوشَ ، قال : فَورَدَ المدِيْنَةَ فَابَاحهَا ثَلاثَاً ، ثُمَّ دعَاهُم إلَى بَيْعَةِ يَزيْدَ ، أنَّهُم أعْبَدٌ لَهُ قِنٌّ في طَاعَةِ اللهِ وَمَعْصِيَتِهِ ، فأجَابُوهُ إلَى ذَلِكَ إلا رَجُلاً وَاحِداً مِنْ قُرَيْشٍ أُمُّهُ أمُّ وَلدٍ فقالَ لَهُ بَايِعْ يَزيْدَ عَلَى أَنَّكَ عَبْدٌ في طَاعَةِ اللهِ ومَعْصِيتِهِ قَالَ : لا بَل في طَاعَةِ اللهِ ، فأبَى أنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ مِنْهُ وقَتَلَهُ ،

فأقْسَمتْ أُمُّه قسماً لئِنْ أمْكَنَها اللهُ مِنْ مُسْلِمٍ حَيًّا أو مَيِّتاً أنْ تُحْرقَهُ بالنَّارِ ، فلمَّا خَرجَ مُسْلِمُ بْنُ عُقَبَة مِنَ المدِيْنَةِ اشْتَدَّتْ عِلَّتُهُ فمَاتَ ، فخَرجَتْ أُمُّ القُرَشِيِّ بأعْبُدٍ لهَا إلى قَبْرِ مُسْلِم بْن عُقْبَة ، فأمَرتْ به أنْ يُنْبَشَ مِنْ عِنْدَ رأسِه ، فلمَّا وَصَلُوا اليْهِ إذَا ثُعْبَانٌ قَدْ الْتَوى على عُنُقِه ، قابضاً بأرْنَبةِ أنْفِه يمُصُّهَا ، قالَ: فكاعَ القَوْمُ عنهُ . وقَالُوا يا مَولاتِنَا انْصَرِفِيْ فقدْ كَفَاكِ اللهُ شَرَّهُ ، وأخْبَرُوهَا ، قالتْ: لَا أوْ أوفِـي لِلَّهِ بِما وَعَدْتُهُ ، ثُمَّ قَالَتْ انبِشُوا مِنْ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ ، فَنَبَشُوا فَإذَا الثُّعْبَانُ لاوِياً ذَنَبُه بِرِجْلَيْه ، قَال فَتَنَحَّتْ فَصلَّتْ ركَعْتَيْنِ ، ثمَّ قَالَتْ : اللهُمّ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ إنَّمَا غَضِبْتُ عَلى مُسْلِم بْن عُقْبَةَ اليَوْمَ لَكَ ، فخلِّ بَيْنِي وَبَيْنَه ، ثُمَّ تَناوَلَتْ عُوْدا فمَضتْ إلَى ذَنبِ الثُّعْبَانِ ، فانْسَلَّ مِنْ مُؤَخَّرِ رَأسِه ، فخَرَجَ مِنْ القَبْر ، ثمَّ أمرَتْ بهِ فأُخرِجَ مِنْ القَبْرِ ، فَأُحْرِق بالنَّارِ ، رَواهُ الطَّبَرانِيّ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم يَقُول « إنّ في ثَقِيْف كَذّاباً ومُبِيْرا » رواهُ أحْمَدُ وَالتِّرْمذِيّ .

وَقَال النَّووِيّ : اتَّفَقَ العُلَمَاءُ علَىَ أنَّ المُرَادَ بالكَذَّابِ هُنَا المُخْتَارُ بنُ أبِيْ عُبَيْدٍ ، وَبالمِبيْر الحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُف .

وَعَنْ أبِيْ نَوْفَلَ قَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا عَلىَ عقبَةِ المدِيْنَةِ ، قَالَ: فَجَعَلْتَ قُرَيْش تَمُرُّ عَليْهِ وَالنَّاسُ حَتَّى مَرَّ عَليْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَر رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا ، فوَقَف عَليْهِ ، فقالَ: السَّلامُ عَليْكَ أبا خُبَيْبٍ ، السَّلامُ عَليْكَ أبَا خُبيْبٍ ، السَّلامُ عَليْكَ أبا خُبَيْب ، أمَا واللّهِ لقَدْ كُنْتُ أنْهَاكَ عَنْ هَذا ، أمَا والله إنْ كُنْتَ مَا عَلمْتُ صَوّاماً قَوّاماً ، وَصُولاً لِلرَّحِمِ ، أمَا وَاللّهِ لأُمَةٌ أنتَ أشرُّها لأُمَةٌ خَيرٍ ، ثم نَفَذَ عَبْدُ اللهِ بْنِ عُمر

رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا ، فَبَلَغ الحَجّاجُ مَوْقِفُ عَبْدِ اللهِ ، وَقَوْلُهُ فأرسَلَ إليْهِ ، فأُنْزِلَ عَنْ جِذْعِهِ ، فأُلْقِيَ في قُبُورِ اليَهُودِ ، ثُمَّ أرْسَلَ إلىَ أمِّهِ أسْمَاءَ بِنْتَ أبي بَكرٍ رَضْيَ الله عنهما فأبَتْ أنْ تَأتِيَهُ ، فأعَادَ عليْهَا الرَّسولُ لتَأتِيَنِّيْ ، أوْلا لأَبعَثَّنَ إليْكِ مَنْ يَسْحَبُكِ بقُرُونِكِ قَال فأبتْ وقَالَتْ ، واللهِ لا آتِيْكَ حَتَّى تبْعَثِ إليَّ مَنْ يَسْحَبُنِي بقُرُونِيْ ، قَال فقَال أَرُونِي سَبْتِي فأخَذَ نَعْلَيهِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَتوذَّفُ ، حَتَّى دَخَل عَلَيْها ، فقالَ: كَيْفَ رَأيْتَنِي صَنَعْتُ بعَدُوِّ اللهِ ، قالَتْ : رَأيْتُكَ أفْسَدتِ عَليْه دُنْيَاهُ، وَأفْسَد عَليْكَ آخِرَتَك بَلَغنْي أنَّكَ تقُولُ: يَا ابْنَ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ . أنَا واللهِ ذاتُ النِّطاقَيْنِ . أمَّا أحَدُهما فكنْتُ أرْفَعُ به طَعَامَ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وطَعَامَ أبي بَكر مِنْ الدَّوابِّ ، وأمَّا الآخَرُ فنِطاقُ المَرْأةِ التي لا تَسْتَغْنِيْ عنهُ أما إنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم حَدّثَنا « أنَّ في ثَقِيْفَ كَذّاباً ومُبِيراً » فامَّا الكذابُ فرَأيْنَاهُ ، وأمّا المُبيْرُ فلا إخَالُكَ إلا إيَّاهُ ، قال فقامَ عنْهَا وَلَمْ يُراجِعْهَا ، رَواهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ أبي الصِّدِّيْقِ النَّاجِي قَالَ : لَمَّا ظَفِرَ الحَجَّاجُ بابْنِ الزُّبَيْرِ فقَتَلَهُ، ومَثَّلَ بِهِ، ثمّ دَخَل عَلى أُمِّ عَبْدِ االلهِ وَهِيَ أسْمَاءُ بنتُ أبي بَكر رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا : فقَالَتْ : كيفَ تَسْتأذِنُ عَليَّ وقَدْ قَتَلتَ ابْنِي ، فقال: إنَّ ابْنَكَ ألْحدَ في حَرَمِ اللهِ ، فقتَلْتُهُ مُلْحِداً عَاصِياً ، حَتَّى أذاقَهُ عَذاباً ألِيْماً ، وفَعَل به وفعَلَ، فقَالَتْ : كَذبْتَ يَا عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّ المسلِمْينَ، واللهِ لقَدْ قَتلتَ صَوَّاماً قَوَّاماً بَرّاً بِوَالِدَيْه حَافِظاً لِهَذا الدِّيْن ، ولِئْنَ أفْسَدْتَ عليْهِ دُنْيَاهُ لقَدْ أفْسَدَ عَليْكَ آخِرَتَكَ ، ولقَدْ حَدّثَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « أنهُ يَخْرُجُ مِنْ ثَقِيْفٍ كَذّابانِ الآخِرُ مِنْهُمَا أشرُّ مِنْ الأوّلِ وهُو المُبْيرُ » وَما

هُوَ إلاَّ أنْتَ يَا حَجَّاجُ . رَوَاهُ أحْمَدُ وأبُو يَعْلَى ، وَالحَاكِمُ وهَذا لفْظُهُ ، وقِيْلَ إنّ الحَجَّاجَ قَالَ لها : صَدَقَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ وصَدَقْتِ أنا المُبِيْرُ .

وَعَنْ الحَسَن قَالَ قَالَ عَليّ رَضْيَ اللهُ عَنهُ لأهْلِ الكُوفَةِ : اللهُمَّ كَما أئِتَمَنْتُهم فخَانُونِي ، ونَصَحْتُ لهمُ فَغَشْونِي ، فَسَلِّطْ عَليْهم فتى ثَقِيْف الذّيَّالُ المُيَّالُ، يأكُلُ خُضْرَتَها ، وَيَلْبُسُ فَرْوتَها ويَحْكَمُ فِيْهِم بحُكْمِ الجَاهِليّةِ . قالَ الحَسَنُ : وَمَا خَلَقَ اللهُ الحَجَّاجَ يوْمَئِذٍ . رَواهُ عبدُ الرّزَاقِ وَالبَيْهقِي في الدّلائِلِ وهُوَ مُنْقَطِعٌ . قالَ البَيْهَقِيّ : وَلا يَقُولُ علي ذَلِك إلا تَوْقِيْفاً .

وعَنْ هِشَامِ بْنِ حَسّانَ قَالَ : أَحْصَوْا مَا قَتَلَ الحَجَّاجُ صَبْراً ، فَبلغَ مائةَ الْفٍ وعِشْرِيْنَ ألْفِ قَتِيْلٍ . رَواهُ التّرمِذِيّ .

وقَالَ الأَصْمَعِيّ حَدّثَنا أبُو عَاصِم عَنْ عُبَادَةَ بْنِ كَثِيْرٍ عَنْ قَحْذَمٍ ، قَالَ أَطْلَقَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الملكِ في غَداةٍ وَاحِدةٍ واحدا وَثَمانِيْنَ ألْفِ أَسِيْرٍ كانُوا في سِجْنِ الحَجَّاجِ ، وَقِيْلَ إنهُ لبِثَ في سِجْنِه ثَمانُونَ ألفاً ، مِنْهُم ثلاثُونَ ألْفَ امْرَأةٍ ، وعُرِضَتْ السُّجُونُ بَعْدَ الحَجَّاج ، فوَجَدُوا فِيْهَا ثَلاثَةً وثلاثِيْنَ ألْفاً لَمْ يَجبْ عَلى أحَدٍ منهُم قَطْعٌ ولا صَلْبٌ . وقالَ الرِّيَاشِي : حَدَّثَنا عَبّاسُ الأزْرَقُ عنْ السَّرِيّ بْنِ يَحْيَى قَالَ : مَرَّ الحجَّاجُ في يَوْمِ جُمُعَةٍ ، فَسَمِعَ اسْتِغَاثَةً ، فقَالَ : مَا هَذا ؟ فقِيْلَ : أهْلُ السُّجُونَ يَقُولُونَ قَتَلَنا الحرُّ ، فقالَ : قُولُوا لهُم ﴿اخْسَؤا فِيْهَا ولا تُكَلمُون﴾ قال : فَمَا عَاشَ بعْدَهَا إلا أَقَلَّ مِنْ جُمُعَةٍ حتّى قصَمَهُ اللهُ قَاصِمُ كلِّ جَبَّارٍ .

وعَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانِ قَالَ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى : لَوْ أنّ الأُمَمَ تَخابَثَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فأخْرَجَتْ كُلُّ أُمَّةٍ خَبِيْثَهَا ، ثُمَّ أَخْرَجْنَا الحَجَّاجَ لَغَلَبْنَاهُم . رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ في الحِليَةِ .

وقَالَ في الرَّوْضَةِ النَّدِيَّةِ شَرْحُ الدُّرَّةِ البَهِيَّةِ : وقَدْ أُحْصِيَ الذِيْنَ قَتَلهَم الحَجَّاجُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ ، فَبلغُوا مِائَةَ ألفٍ وعِشْرِيْنَ ألفَا (١٢٠٠٠٠) .

وَعَنْ أبي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرَّاح قَالَ قَالَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليْهِ وسَلَّمَ « لا يَزالُ أَمْرُ أُمَّتِي قائِماً بالقِسْطِ ، حَتَّى يَكُونَ أوَّلُ مَنْ يَثْلِمُه رجُلٌ مِنْ بَنِي أمَيَّة يُقَالُ لهُ يَزِيْدُ » رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى وَالبَزَّارُ .

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ وُلِدَ لأَخِي أُمِّ سَلِمَةَ زَوْجِ النّبي صَلى اللهُ عليه وسَلم غُلامٌ ، فسَمَّوهُ الوَلِيدُ ، فقَالَ النبي صَلى اللهُ عليه وسَلمَ « سَمَّيْتُموهُ بأسْمَاءِ فرَاعِنَتِكُم ، ليَكُونَنَّ في هذِهِ الأُمَّةِ رَجُلٌ يُقالُ لَهُ الوَلِيدُ ، لَهُوَ أشَرُّ على هَذه الأُمَّةِ مِن فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ » رَوَاهُ الامَامُ أحْمَدُ ، قَالَ الهَيْثَمِيّ : وَاسْنَادُه حَسَنٌ وَقالَ في مَوْضِعٍ آخَرُ : رِجَالُه ثِقَاتٌ .

شِعْراً :

خَفِ اللهَ في ظُلْمِ الوَرَى واحْذَرَنَّهُ
وَخَفْ يَوم عَضّ الظَّالِمِينَ على اليَدِ
ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ عن ذاكَ غَافِلاً
ولَكِنَّهُ يُمْلِي لِمَنْ شَا إلى الغَدِ

فلا تَغْتَرِرْ بـالحِلْمِ عن ظُلْمِ ظَالِمٍ
سَيـأخُـذُهُ أخْـذاً وبيْـلاً وعَنْ يَـدِ

موعظة

عِبَادَ اللهِ انَّ النَّاسَ لم يُقَدِّرُوْا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَلَمْ يَعْرِفُوهُ المَعْرِفَةُ التِي تَلِيْقُ بِجلاَلِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَلَو عَرَفُوهُ هَذِهِ المَعْرِفَةَ وَقَدَّرُوْهُ مَا صَدَّقَ العَقْلُ أنْ يَكُونُوا بِهَذِهِ الحَالِ ، إنّ العَارِفَ بِاللّهِ تَعَالَى يَخْشَاهُ ، فَتَعْقِلُهُ هَذِهِ الخَشْيَةُ عَمَّا لاَ يَنْبَغِي مِنْ الأفْعَالِ كَيْفَ لاَ وَهَذَا القُرْآنُ يَقُولُ ﴿ إنَّمَا يخشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ العَارِفُ باللهِ تَعَالَى لاَ يَجْرُؤُ أنْ يُحرِّكَ لِسَانَهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ المُنْكَرَاتِ لِأنَّهُ يُؤْمِنُ أنَّ اللهَ تَعَالَى يَسْمَعُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى، وَلاَ يَجْرُؤ أنْ يَسْتَعْمِلَ عُضْوَاً مِنْ أعْضَائِهِ في عَمَلٍ لَيْسَ بِحَلاَلٍ ، لِأنَّهُ يُؤْمِنُ أنَّ الله تَعالَى يَرَاهُ مَهْمَا اخْتَفَى وَاجْتَهَدَ في الاخْتِفَاءِ ، وَكَذَلِكَ لا يُقْدِمُ وَيَعْزِمْ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ المُحَرَّمَاتِ ، لِأنَّهُ يُؤْمِنُ بِوَعِيْدِ اللهِ عَلَى مَنْ اجْتَرَأ وَانْتَهَكَ المَحْظُوراتِ ، العَارِفُ باللهِ حَقّ المَعْرِفَةِ لا يَنْطَوِيْ عَلَى رَذِيْلَةٍ كالكِبْـرِ والعُجْبِ وَالحِقْـدِ وَالنِّفَـاقِ وَغيْـرِ ذَلِـكَ مِنْ الـرَّذَائِـلِ المَمْقُوتَاتِ ، لِأنَّهُ يُؤْمِنُ أنّ مَا فِي قَلْبِهِ لاَ يَخفَى عَلَى مَنْ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءُ فِي الأرْضِ وَلاَ فـي السَّمَـاءِ، فَلاَ يَسْتَرِيْحُ حَتَّى يَكُونَ بَاطِنُهُ كَظَاهِرِهِ مُطَهَّراً مِنَ الفَوَاحِشِ ، وَكَذَلِكَ لا يَتَعَامَلُ بالرِّبا وَيَبْتَعِدُ كُلَّ البُعْدِ عَنْ الرِّيَاءِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ المُحَرَّمَاتِ ، وَكَذَلِكَ لاَ تَسْمَعُ مِنْ فَمِهِ عِنْدَ نُزُولِ البَلاَ إلا الحَسَنَ الجَمِيْلَ ، فَلاَ يَغْضَبُ لِمَوْتِ عَزِيْزٍ أوْ فَقْدِ مَالٍ ، أوْ مَرَضٍ شَدِيْدٍ ، لأنَّهُ يَعْلَمُ أنَّ غَضَبَهُ يَتَوَجَّهُ إلَى الحَكِيْمِ العَلِيْمِ اللَّطِيْفِ

الخَبِيرِ ، وَلَا يَصْدُرُ مِنْ العَارِفِ باللهِ حَسَدٌ لِخَلْقِ اللهِ عَلَى مَا أَوْلَاهُم مِنْ نِعْمَةٍ ، لأنَّهُ يُؤْمِنُ أنَّ اللهَ قَسَّمَ النِّعَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ وَلَيْسَ لِقِسْمَتِهِ رَادٌّ ، وَكَذَلِكَ العَارِفُ لَا يَيْأَسْ مِنْ زَوَالِ شِدَّةٍ مَهْمَا تَعَقَّدَتْ وَاسْتَحْكَمَتْ ، وَلَا يَيْأسُ مِنْ حُصُولِ خَيْرٍ مَهْمَا سَمَا وَابْتَعَدَ ، لأنَّهُ يُؤْمِنُ أنَّ الأمُورَ كُلَّهَا بيد اللهِ الَّذِي إذَا أَرَادَ شَيْئاً قَالَ لَهُ كُنْ فَكَانَ ، العَارِفُ باللهِ لَا يُقَنِّطُ المؤمِنُ العَاصِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، وَلَا يُؤَمِّنُ المُحْسِنَ ، لَكِنَّهُ يَرْجُوْ لِلْمُحْسِنِ وَيَخَافُ عَلَى المِسِيءِ ، العَارِفُ باللهِ لا يَغُشُّ مُؤْمِناً ، وَلَا يُسِيءُ إِلَى الجَارِ وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ البَاقِيْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا المَوْضُوْعِ : اللَّهُمَّ جُدْ عَلَيْنَا بِكَرَمِكَ ، وَأفِضْ عَلَيْنَا مِنْ نِعَمِكَ ، وَتَغَمَّدْنَا بِرَحْمَتِكَ الوَاسِعَةِ وَعَامِلْنَا بِرَأفَتِكَ ، وَوَفِّقْنَا لِخِدْمَتِكَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فصل »

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : حَجَّ النبي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّةَ الوَدَاعِ ، ثُمَّ أخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الكَعْبَةِ فَقَالَ « أَيُّهَا النَّاسُ ألا أُخْبِرُكُمْ بأشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟ » فَقَامَ إِلَيْهِ سَلمانُ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ فقَالَ : أَخْبِرْنَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ : « انَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ إِضَاعَةُ الصَّلَاةِ ، وَالمَيْلُ مَعَ الهَوَى وَتَعْظِيْمُ رَبِّ المالِ » فَقَالَ سَلْمَانُ : وَيَكُونَ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ « نَعَمْ والذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ تَكُونُ الزَّكَاةُ مَغْرَمًا ، وَالفَيْءُ مَغْنَماً ، وَيُصَدَّقُ الكَاذِبُ ، ويُكَذَّبُ الصَّادِقُ ، ويُؤْتَمَنُ الخَائِنُ ، وَيُخَوَّنُ الأمِيْنُ ، وَيَتَكَلَّمُ الرُّوَيْبِضَةُ » قَالُوا : وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ ؟ قَالَ « يَتَكَلَّمُ فِي النَّاسِ مَنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ ، وَيُنْكِرُ الحَقَّ

تِسْعَةُ أعْشَارِهِمْ ، ويَذْهَبُ الاسْلاَمُ فَلاَ يَبْقَى إلا اسْمُهُ ، وَيَذْهَبُ القُرْآنُ فَلاَ يَبْقَى إلا رَسْمُهُ ، وَتُحَلَّى المَصَاحِفُ بالذَّهَبِ ، وَتَسَمَّنُ ذُكُورُ أُمَّتِي ، وَتَكُـونُ المشُوْرَةُ لِلإِمَاءِ ، ويَخْـطُبُ عَلَى المَنَابِـرِ الصِّبْيَانُ ، وَتَكُـوْنُ المُخَاطَبَةُ لِلنِّسَاءِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تُزَخْرَفُ المَسَاجِدُ كَمَا تُزَخْرَفُ الكَنَائِسُ وَالبِيَعُ ، وَتُطَوَّرُ المَنَابِرُ ، وَتَكْثُرُ الصُّفُوفُ ، مَعَ قُلُوبٍ مُتَبَاغِضَةٍ ، وَأَلْسُنٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَأَهْوَاءٍ جَمَّةٍ » قَالَ سَلْمَانُ : وَيَكُونُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ « نَعَمْ وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، عِنْدَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ يَكُونُ المُؤْمِنُ أذلَّ مِنْ الأمَةِ ، يَذُوبُ قَلْبُهُ في جَوْفِهِ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ في الماءِ ، مِمَّا يَرَى مِنْ المنْكَرِ فَلاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يُغَيِّرَهُ ، وَيَكْتَفِي الرِّجَالُ بالرِّجَالِ ، وَالنِّسَاءِ بالنِّسَاءِ ، وَيُغَارُ على الغِلْمَانِ كَمَا يُغَارُ عَلَى الجَارِيَةِ البِكْرِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ يَكُونُ أَمَرَاءُ فَسقَةٌ ، وَوُزَرَاءُ فَجَرَةٌ ، وَأُمَنَاءُ خَوَنَةٌ ، يُضِيْعُوْنَ الصَّلاَةَ ، وَيَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ ، فإنْ أَدْرَكْتُمُوْهُم فصَلّوا صَلاَتِكُم لوَقْتِهَا عِنْدَ ذَلِكَ يَا سَلمَانُ يَجِيْءُ سَبْيٌ مِنْ المشْرِقِ ، وَسَبْيٌ مِنْ المَغْرِبِ جُثَاؤُهُم جُثَاءُ النَّاسِ ، وَقُلُوبُهم قُلُوبُ الشَّيَاطِيْنِ ، لاَ يَرْحَمُونَ صَغِيْرَاً ، وَلاَ يُوَقِّرُونَ كَبِيْرَاً ، عِنْدَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ يَحُجُّ النَّاسُ إِلَى هَذَا البَيْتِ الحَرَامِ ، تَحُجُّ مُلُوْكُهُم لَهْواً وَتَنَزُّهَاً ، وَأَغْنِيَاؤُهُم لِلتِّجَارَةِ ، وَمَسَاكِيْنُهم للمَسْأَلَةِ وَقُرَّاؤُهُمْ رِيَاءً وَسُمْعَةً » قالَ : وَيَكُونُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ « نَعَمْ وَالذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ ، عِنْدَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ يَفْشُو الكَذِبُ ، وَيَظْهَرُ الكَوْكَبُ لَهُ الذَّنَبُ ، وَتُشَارِكُ المَرْأَةُ زَوْجَهَا في التِّجَارَةِ ، وَتَتَقَارَبُ الأَسْوَاقُ » قالَ : وَمَاتقارُبُها ؟ قَالَ « كَسَادُهَا ، وَقِلَّةُ أَرْبَاحِهَا ، عِنْدَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ يَبْعَثُ اللهُ رِيْحاً فِيْهَا حَيَّاتٌ صُفْرٌ ، فَتَلْتَقِطُ رُؤَسَاءَ العُلَمَاءِ لَمَّا رَؤا المنْكَر فَلَمْ يُغَيِّرُوْهُ » قالَ : وَيَكُونُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ « نَعَمْ وَالذِيْ بَعَثَ مُحَمَّداً بالحَقِّ » رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ .

وَعَنْ ابنِ مَسْعُودٍ رَضْيَ اللهُ عَنهُ أنهُ كَانَ يقُولُ كُلَّ عَشِيَّةِ خَمِيْس : سَيأتي عَلَى النّاسِ زَمَانٌ تُمَاتُ فِيْهِ الصَّلاَةُ ، وَيُشْرَفُ فيه البُنْيَانُ ، وَيَكْثُرُ فيهِ الحَلَفُ والتَّلاعُنُ ، ويَفْشُو فِيْهِ الرُّشا والزِّنَا ، وَتُبَاعُ الآخِرَةُ بالدُّنْيَا ، فَإذا رَأيْتَ ذَلِكَ فَالنّجا النَّجا . قِيْلَ : وَكَيْفَ النَّجا ؟ قَال : كُنْ حِلْساً مِنْ أحْلاَسِ بَيْتِكَ ، وَكُفَّ لِسَانَكَ وَيَدَكَ . رَوَاهُ ابْنُ أَبي الدُّنْيَا .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عنهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم « مِنْ أشْرَاطِ السَّاعَةِ سُوْءُ الجِوَارِ ، وقَطِيْعَةُ الرَّحِمِ ، وَأنْ يُعَطَّلَ السَّيْفُ مِنْ الجِهَادِ ، وَأنْ تُخْتَلَ الدُّنْيَا بالدِّيْنِ رَوَاهُ ابنُ مَردَوَيْهِ والدَّيْلَمِيّ .

وَعَنْ ابْن مَسْعُوْدٍ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ قَالَ : إنَّكُمْ في زَمَانٍ الصَّلاَةُ فيهِ طَوِيْلَةٌ ، والخُطْبَةُ فِيْهِ قَصِيْرَةٌ ، وَعُلَمَاؤهُ كَثِيْرٌ ، وَخُطَبَاؤُهُ قَلِيْلٌ ، وَسَيأْتِيْ عَلى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّلاةُ فِيْهِ قَصِيْرَةٌ والخُطْبَةُ فِيْهِ طَوِيْلَةٌ ، خُطَبَاؤُهُ كَثِيْرٌ ، وَعُلَمَاؤُهُ قَلِيْلٌ ، يُؤَخِرُونَ الصَّلاةَ ، صَلاَةُ العَشِيّ إلَى شَرْقِ المَوْتَى ، فَمَنْ أدْرَكَ ذَلِكَ فَلْيُصَلِّ الصَّلاةُ لِوَقْتِهَا ، وَلْيَجْعَلْهَا مَعَهُم تَطَوُّعاً . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ قالَ الهَيْثَمِيّ : وَرِجَالُه رِجَالُ الصَّحِيْحِ ، وَرُوِيَ الإمَامُ مَالِكُ في مُوَطَّئِهِ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيْدٍ ، أنَّ عَبْد اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ لإنْسَانٍ : إنَّكَ في زَمَانٍ كَثِيْرٌ فُقَهَاؤُهُ ، قَلِيْلٌ قُرَّاؤُهُ ، تُحْفَظُ فِيْهِ حُدُوْدُ القُرْآنِ ، وَتُضَيَّعُ حُرُوْفُهُ ، قَلِيْلٌ مَنْ يَسْألُ ، كَثِيْرٌ مَنْ يُعْطَىٰ ، يُطِيْلُونَ فِيْهِ الصَّلاَةَ ، وَيُقَصِّرُونَ الخُطْبَةَ ، يُبْدُونَ أعْمَالَهُمْ قَبْلَ أهْوَائِهِمْ .

وَسَيأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيْلٌ فُقَهَاؤُهُ ، كَثِيْرٌ قُرَّاؤُهُ ، تُحْفَظُ فِيْهِ حُرُوفُ القُرْآنِ ، وَتُضَيَّعُ حُدُودُه ، كثِيْرٌ مَنْ يَسْألُ قَلِيْلٌ مَنْ يُعْطِى ، يُطِيْلُونَ فِيْهِ الخُطْبَةَ ، وَيُقَصِّرُونَ الصَّلاةَ ، يُبْدُونَ فِيْهِ أَهْوَاءهُم ، قَبْلَ أَعْمَالِهِم .

قُلْتُ وفي هَذَا الخَبَرِ أمُورٌ وَقَعَتْ في زَمَنِنَا ، مِنْهَا قِلَّةُ الفُقَهَاءِ بِمَعْنى الكَلِمَةِ ، أمَّا المُتَسمُوْنَ فَمَوْجُودُوْنَ بدُونِ مَعَنى ، وَمِنْهَا مَا وُجِدَ مِن كَثِيْرٍ من المُجِيْدِيْنَ للقِرَاءَةِ ، المُضَيِّعِيْنَ لِلْعَمَلِ ، تَسْمَعُهُ مِنْهُمْ غضّاً طَرِيّاً بِتَجْوِيْدٍ وَفَصاحَةٍ ، ومِنْهَا إطَالَةُ الخُطْبَةِ عِنْدَ كَثِيْرٍ مِنْ أهْلِ زَمَنِنَا وَتَقْصِيْرُ الصَّلاةِ ، وَهَذَا خِلاَفُ السُّنَّةِ ، وَمِنْهَا كَثْرَةُ سُؤَالِهم ، وقلةُ إعْطَائِهم ، فَهَؤُلَاءِ طَرِيْقَتُهُم ضِدُّ طَرِيْقَةِ السَّلَفِ ، نَعُوذُ باللهِ مِنَ الأنْتِكَاسِ ، وعن عَليّ رَضْيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قَالَ : يَا حَمَلَةَ العِلْمِ اعْمَلُوا بِهِ ، فَإنَّمَا العَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ ، وَوَافَقَ عِلْمَه عَمَلُه ، وَسَيَكُونُ أقْوَامٌ يَحْمِلُونَ العِلْمَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهِمْ ، يُخَالِفُ عَمَلُهُم عِلْمَهُم ، وَتُخَالِفُ سَرِيْرَتُهم عَلَانِيَتَهُمْ يَجْلِسُونَ حِلَقاً ، فَيُبَاهِي بَعْضُهُم بَعْضاً ، حَتَّى أنَّ الرَّجُلَ لِيَغْضَبُ عَلَى جَلِيْسِه أنْ يَجْلِسَ إلَى غَيْرِهِ ويَدَعَهُ ، أُوْلَئِكَ لَا تَصْعَدُ أعْمَالَهُم في مَجَالِسِهِم تِلْكَ إلَى اللهِ . رَوَاهُ الدّرامِيّ .

قَالَ العُلَمَاءُ : وَهَذَا الأثَرُ لَهُ حُكْمُ المرْفُوْعِ ، لِأنَّهُ إخْبَارٌ عَنْ أمْرٍ غَيْبِيّ ، فَلَا يُقَالُ الاَّ عَنْ تَوْقِيْفٍ .

وَعَنْ أبي الزَّاهِرِيَّةِ ـ واسْمُهُ حُدَيْرُ بنُ كُرَيْبٍ ـ يَرْفَعُ الحَدِيْثَ « إنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : أَبُثُّ العِلْمَ في آخِرِ الزّمانِ ، حَتَّى يَعْلَمَهُ الرَّجُلُ والمَرْأةُ ، والعَبْدُ والحُرُّ ، والصَّغِيْرُ والكَبِيْرُ ، فَإذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ بِهِمْ ، أخَذْتُهُم بِحَقي عَلَيْهِمْ » رَوَاهُ الدّارِمِيّ وأبُو نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ قُلْتُ وَفِي هَذَا الحديْثِ مُعْجزَة وقَعتْ طِبْقَ مَا ذكر

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ تَغْلِبَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « إنَّ مِنْ أشْرَاطِ السَّاعَةِ أنْ يَكْثُرَ التّجَّارُ ، وَيَظْهَرَ

القَلَمُ » رَوَاهُ أبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ في مُسْنَدِهِ .

شعرا :

أَلَمْ تَـرَ أنَّ المَـرْءَ يُـوْدِي شَبَابُـهُ
وأنَّ الـمَنَـايَـا لِـلرِجَـالِ تُـشَـعِّـبُ
فَمِنْ ذَائِقٍ كَـاساً مِن المَـوْتِ مُـرَّةً
وآخَـرُ أُخْـرَى مِـثْلَهَـا يَـتَـرَقَّـبُ
لَـهَـا مِنْـهُمْ زَادٌ حَـثِيْـثٌ وَسَـائِـقٌ
وَكُلٌ بكَأْسِ المَـوْتِ يَوْمَـاً سَيَشْرَبُ
وَمَـا وَارِثٌ إلاَّ سَـيُـوْرَثُ مَـالُـهُ
ولا سَـالِـبٌ إلاَّ قَـرِيْـباً سَيُسْـلَبُ
وَلاَ آلِـفٌ إلاَّ سَـيَـتْـبَـعُ إلـفَـهُ
ولا نِـعْمَـةٌ إلاَّ تَـبِـيْـدُو وَتَـذْهَـبُ
ومـا مِن مُعَانٍ في المَصَـائِب جَمَّـةٌ
يُعَـاوِرُهَـا العَصْـرَانِ إلا سَيَعْـطَبُ
أَرَى النـاسَ أَصْنَافَـاً أَقَـامُـوا بِغُـرْبَـةٍ
تُـقَـلِـبُـهُـمْ أَيَـامُـهَـا وَتَـقَـلَّـبُ
بِـدَارِ غُـرُوْرٍ حُـلْوَةٍ يَـعْـمُـرُوْنَـهَـا
وَقَـدْ عَـايَنُـوا فِيهَـا زَوَالاً وَجَـرَّبُـوا
يَــذُمُّـونَ دُنْيَـاً لا يَـرِيْحُـونَ دَرَّهَـا
فَلَمْ أَرَ كَـالدُّنْيَـا تُـذَمُّ وَتُـحْلَبُ

تَسـرُهُم طَـوْراً وَطَـوراً تُـذِيْـقُهُـم
مَـضِيْض مَـكَـاوٍ حَـرُّهَـا يَـتَـلَهَّـبُ

اللهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ أنْفُسِنَا وَالشَّيْطَان وَالدُّنْيَا وَالهَوَى وَنَسألُكَ أنْ تَغْفِرَ لَنَا وَلوَالِدَيْنَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى الله على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

مَوْعِظَةٌ

قَالَ اللهُ تَعالَى ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدنيا قَلِيْلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لمَنْ اتّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيْلا ﴾ وَقال ﴿ ومَا الحَيَاةُ الدنيَا إلا مَتَاعُ الغُرورِ ﴾ عِبَادَ اللهِ يَعِيْشُ ابْنُ آدمَ مَا قَدّرَ اللهُ لَهْ أنْ يَعِيْشَ، ويَمْشِيْ الانْسَانُ في هَذِه الأرْضِ وَيَتَقَلَّبُ فِيْهَا ، ويَرَى حُلْوَهَا وَمُرَّهَا وَسُرُوْرَهَا وَأحْزَانَها ، وَيَأخُذُ فيهَا حَظَهُ مِنْ الشَّقَاءِ وَحَظَّهُ مِنْ السَّعَادَةِ ، بِمْقَدارِ مَا قَدَّرَهُ اللهُ لهُ ومَا قَدّرَهُ عليْهِ ، وَلِكْن لِكُلِّ هَذا نِهَايَةٌ ، وَلكُلِّ ذَلكَ غَايَةٌ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلا ﴿ كلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ وَقال لِنَبّيهِ صلى اللهُ عليه وسَلم ﴿ وَمَا جَعَلْنا لِبَشرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلدَ افَئِنْ مِتَّ فهُم الخَالِدونُ ، كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ وقَال: ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وَانَّهُم مَيِّتُونَ ﴾ فَسبِيْلُ الموتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ ، وَالخُلُودُ في دَارِ الفَناءِ غَيْرُ مَعْقُولٍ ، أيُّها المسْلِمُ عِشْ مَا شِئْتَ فإنَّكَ مَيِّتٌ ، وَأحْبِبْ مَا شِئْتَ فإنكَ مُفَارِقُهُ .

شعرا :

لعَمَـرْكُ مَـا الـدُنْيَـا بِـدَارِ إقَـامَـةٍ
إذَا زَال عَنْ عَيْنِ البَصِيْـرِ غِـطَاؤُهَـا

وَكَيفَ بَقَـاءَ النَّـاسِ فِيْهَـا وإنَّمـا
يُنَـالَ بـأسْبَـابِ الفَنَـاءِ بَقَـاؤُهَـا

اخر :

سَـلامٌ عَلَى دَارِ الغُـرُوْرِ فـإنَّهَـا
مُـنَغَّـصَـةٌ لَـذَاتُهَـا بـالـفَجَـائِـعِ
فـإنْ جَمَعَتْ بَيْنَ المُحِبْينَ سَاعَـةً
فَعَمَّـا قَلِيْـلٍ أرْدَفَتْ بِـالمـوانِـعِ

فَالَبَقَاءُ في الدُّنْيَا مُحَالٌ ، هَذِه الدُّنْيَا جِسْرٌ ، هَذِه الدّنْيَا مَمَرٌ ومَعْبَرٌ وطَرْيقٌ إلىَ الآخِرَةِ ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَخَبَّطُ في هَذِه الطّرِيْقَ ويَتَعَثرُ فيهَا ولا يَهْتَدِي ، ومِنْ النّاسِ مَنْ يُوَفِقُهُ اللهُ فَيسْلُكُها مُسْتَقِيْما لا يَلْوِي عَلى شَيْءٍ إلَّا عَلَى زادِ الآخِرَةِ ، وَأمَلٍ يَهْدِفُ اليْهِ ، في تِلْكَ الدّارِ البَاقِيَةِ ، ذلك الهَدفُ هو رِضَى رَبِّ العِزّةِ وَالجَلالِ ، الذِي فيهِ كُلُّ نَعِيْمٍ ، الذِي فيْهِ الهُدُوءُ وَالاطْمَئْنَانُ ، وَالذِي فيهِ الفَوْزَ والنّجَاةُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ ، تِلْكَ حال مَنْ اتّعَظَ وَاعْتَبَرَ فَنَفَعْتُه العِبْرَةُ ، ولَمِسَ الْموعِظَةُ مِن دُروسِ الحَياةِ وَأحْدَاثِها فاهْتَدى ، وَزَادَهُ اللهُ هُدى ، تِلْكَ حَالٌ مَن اعتبروا ،فَنَفعتْهُمُ العِبْرَة ، وجَعَلوا التّقوى إلى اللهِ أمَامَهُم لاَ يَحِيْدونَ عنْهَا ، يَخافُوْنَ رَبَّهُم وَيَخْشَونَ سُوَء الحِسَابِ . ﴿ ومَنْ يُطِعِ اللهَ وَرسُولَهُ وَيخْشَ اللهَ وَيَتّقَه فأولَئِكَ هُمْ الفَائِزُون ﴾ .

أيُّها المُسْلِمُ لقَدْ خَرجْت مِنْ ظُلمَاتٍ ، وسَتَنْتَهِي إلى ظُلُمـاتٍ خَرجْتَ مِنْ ظُلماتِ الأرْحامِ ، وتنْتَظِرُكَ ظُلُماتُ القُبُورِ، خَرجْتَ مِنْ أحْشَاءِ أُمِّكَ ، واسْتَقْبَلكَ أحْشَاءٌ أُخْرَى ، أقْوَى وَأعْظَمُ ، قـالَ تَعالى

﴿ منْهَا خَلَقْنَاكُم وفيها نُعِيْدكم ، ومْنَها نُخْرِجُكم تَارةً أخْرَى ﴾ دَفَعكَ جَوْفٌ يَحِنُّ عَليْكَ ، إلىَ جَوْفِ الأرضِ ، وبَيْنَ الجَوفَيْنِ أمُورٌ وأمُوْرٌ، فَفِي الدُّنْيَا السَّرَّاءُ والضَّرَّاءُ والسَّعَادةُ وَالشّقَاءُ إنكَ تخْرُجُ مِنْ شِدةٍ إلى رَخَاءٍ ، ومِنْ رَخَاءٍ إلى بَلاءٍ ، وتُصَادِفُكَ عقَبَاتٌ في طَرِيْقِكَ ، بعْدَ عَقباتٍ ، وتَتغيَّرُ أحْوالُكَ مِنْ حَالاتٍ إلى حالاتٍ ، فمِن ذُلٍّ إلىَ عِزٍّ ، ومِنْ عِزٍّ إلى ذُلٍّ ، ومِنْ غِنىً إلى فَقْرٍ ومِنْ فَقْرٍ إلى يُسْرٍ ، ومِن صِحَّةٍ إلى مَرضٍ ، ومِنْ مَرضٍ إلىَ عَافِيَةٍ ، ومِن رَاحَةٍ إلى تَعَبٍ ، هَذهِ هِيَ الدُّنْيَا وهَذِه أحْوَالُهَا ، عِزُّهَا لا يَدُومُ ، ورخَاؤُهَا لا يَبْقَى ، قالَ اللهُ تعالَى ﴿ قُلْ اللهُمَّ مَالِكَ المُلكِ ، تُؤْتِي الملكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الملكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بيدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلِى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر ﴾ فحَاسِبْ نَفْسَكَ أيُّهَا المُسْلِمُ ، قَبْلَ أنْ تُحَاسَبَ، وَزِنْ أعْمَالَكَ قَبْلَ أنْ تُوْزَنَ عَلَيْكَ ، وراقِبْ مَوْلاَكَ الذِي لا يَخْفَى عَليْهِ شَيْءٌ في الأرْضِ ولا في السَّمَاءِ ، وَتُبْ إليْهِ تَوْبَةٍ نصُوحاً ، قَالَ تَعَالَى ﴿ وَإنِّيْ لغَفّارٌ لمَنْ تَابَ وَآمَنَ وعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ .

شِعْراً :

يَلَذُّ بهــذا العَيشِ مَن لَيَسَ يَعْقِــلُ
ويَــزْهَــدُ فيــه الألْمَعِيُّ المُحَصِّــلُ
وما عَجَبٌ نَفْسٌ تَرَى الرَّأيَ إنَّما الْـ
عَجِيْبَةُ نَفسٌ مُقْتَضَى الـرَّأيِ تفعَــلُ
إلـى اللهِ أشْكَـوُ هِمَّــةً دُنْيَـويَـةً
تَــرَى الــنَّصَ إلاَّ أنَّــهـا تَــتأوَلُ

يُنَهْنِهَـا مَـوْتُ النَّبِيْـهِ فَتَـرعَـوي
ويَخَـدعُهـا رُوحُ الحَيَـاةِ فَتَغْفَـلُ
وفي كـلِ جُزْءٍ يَنْقَضِي مِن زَمَـانِهَـا
مَن الجِسْمِ جُـزْء مِثْلَهُ يَتمَـلْمَـلُ

اللهُمَّ يا مَنْ فَتحَ بَابَهُ للطَّالِبِيْنَ ، وَأظْهَرَ غِنَاهُ لِلرَّاغِبِيْنَ نَسْألُكَ انْ تَسْلُكَ بِنا سَبِيْلَ عِبَادِكَ الصَّادِقِيْنَ ، وأنْ تَلْحِقَنا بعبَادِكَ الصَّالِحْينَ ، اللهُمّ أحْيِ قُلُوباً أَماتَهَا البُعْدُ عنْ بَابِكَ ، ولا تُعذِّبْهَا بألِيْمِ عِقَابِكَ ، يَا كَرِيْمُ يَا مَنَّانُ ، يَا مَنْ جَادَ عَلَى عِبَادِهِ بِالانْعَامِ وَالافضَالِ ، اللهُمّ أيقِظْنَا مِنْ غَفَلَتِنَا بُلُطْفِكَ واحْسَانِكَ وتَجَاوَزْ عنْ جَرَائِمنا بعَفْوِكَ وغُفْرَانِكَ ، وارْزقْنَا مَا رَزَقْتَ أوْلِيَآءَكَ ، مِنْ نَعِيْم قُرْبِكِ ، وَلَذَّةِ مُنَاجَاتِكَ ، وصِدْقِ حُبِّكَ ، واغْفِرَ لنَا ولوَالِدِينَا ولَجَمِيْع المُسلِميْن بَرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِميْنَ وصَلى اللهُ على محمّدٍ وَآله وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

« فصل »

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « يَخرُجُ في آخرِ الزَمَانِ رجَالٌ يَخْتِلُونَ الدّنْيَا بالدِّيْن يَلْبَسُونَ لِلنّاسِ جُلودَ الضَّأنِ مِنْ اللّينِ ، ألسِنَتُهم أحْلى مِنَ السُّكر ، وَقُلوبِهم قلوُبُ الذّئَابَ ، يَقُولُ اللهُ : أبِي تَغتَرُّونَ أم عَليَّ تَجْترؤُنَ، فَبي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنّ على أوْلَئِكَ منْهُم فِتْنَةً تَدعُ الحَلِيْم مِنْهُم حَيْرَانَ » رَواهُ التّرمِذِيّ .

وعَنْ أبي هُرَيَرَة رَضْيَ اللهُ عنهُ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم قال « لَيَأتِيَنَّ على النّاسِ زَمانٌ لا يُبَالِيْ المرْءُ بمَا أخَذَ المالَ، أمِنْ حَلالٍ

أمْ مِنْ حَرامٍ » رواهُ أحْمَدُ وَالبُخَارِيّ وَالدّرامِيّ .

وَعَنْ ابْن عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « وَالذِي بَعَثَنْي بالحَقِّ لتكُونَنَّ بَعْدِي فَتْرَةٌ في أمَّتِيْ ، يُبْتَغى فيهَا المالُ مِنْ غيْرِ حِلِّهِ ، وَتُسْفكُ فِيْهَا الدِّمَاءُ ويُسْتَبْدَلُ فيهَا اليِّشعْرُ بالقُرْآنِ » رَواهُ الدّيْلَمِيّ .

وَعَنْ الحَسَنِ عن أبي هُرَيرةَ رضْيَ اللهُ عنه أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم قالَ « لَيَأتِيَنَّ عَلَى النّاسِ زَمانٌ لا يَبْقَى مِنْهُم أحَدٌ إلَّا أكَلَ الرِّبَا ، فمَنْ لم يَأكُلْهُ أصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ » رَواهُ أحْمَدُ وأبُو دَاوُدَ وَالنّسَائِي وَابْنُ مَاجَهْ .

وعنْ مُعَاذِ بن أنَس رضْيَ اللهُ عنه أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ « لا تزالُ الأمةُ على الشَّرِيْعَةِ مَا لم تَظْهَرَ فِيْهِم ثَلاثٌ ، مَا لَمْ يُقْبَضْ منهم العِلْمَ ، وَيَكْثُرَ فِيْهِمْ ولدُ الحِنْثِ ، وَيَظْهَرُ فِيهم الصَّقَّارُون » قَالوا : ومَا الصَّقَارُونَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ « نشْءٌ يكونُـونَ في آخِرِ الزَّمانِ ، تكوُنُ تِحيَّتُهم بيْنَهُم التَّلاعُنُ » رَواهُ أحْمَدُ وَالطبَرانِيّ .

وَعنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَل رَضْيَ اللهُ عنه أنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « يَكُونُ في آخرِ الزمانِ أقْوَامٌ إخْوَانُ العَلانِيَةِ ، أعْدَاءُ السَّرِيْرَةِ » فَقِيْلَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَكُونُ ذلكَ ؟ قَالَ « ذَلِكَ بِرَغْبَةِ بَعْضهم إلىَ بَعْضٍ وَرَهْبَةِ بَعْضِهمْ مِنْ بَعْضٍ » رَواهُ الامامُ أحْمَدُ وَالبَزّارُ وَالطبَرانِيّ وَأبُو نَعيْم في الحِلْيَةِ .

وعَنْ أبي سَعِيْدٍ رَضْيَ اللهُ عنْهُ قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه

وسَلم « تمْرُقُ مارقَةٌ عندَ فِرْقَةٍ مِنْ المُسْلِمْينَ ، يَقْتُلَها أوْلَى الطّائِفَتَيْنِ بالحَقّ » أخْرَجَهُ أبُو دَاوُدَ .

وَعنْ طَارِقِ بْنِ زيادٍ قالَ: خَرجْنَا مَعَ عَلّي رَضْيَ اللهُ عنْهُ إلى الخَوارِج ، فَقَتَلهُم ثم قَال : انْظُرَوا فانَّ نبيَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « إنّهُ سَيْخْرُجُ قومٌ يَتكَلَّمُونَ بالحَقّ لَا يُجَاوِزُ حُلوقَهم ، يَخْرُجُونَ مِنْ الحَقّ كَمَا يَخُرجُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ ، سِيْمَاهُم إنَّ مِنْهُم رَجُلاً أسْوَدَ ، مُخدَّجَ اليَدِ ، في يَدِه شَعَراتٌ سُودٌ ، إنْ كَانَ هُوَ فقدَ قَتَلْتُم شَرَّ الناسِ ، وإنْ لم يَكُنْ هُوَ فقَدْ قَتَلتُم خيْرَ النَّاسِ . فَبكَيْنا . ثُمَّ قَال: اطْلُبوا ، فطَلَبْنا فَوَجَدْنَا المُخدَّجَ ، فَخرُرْنا سُجوداً ، وَخَرَّ عَلِيّ رَضْيَ اللهُ عنْهُ مَعنا سَاجِداً . رَوَاهُ أحْمَدُ وَالنَّسَائِيّ .

وعَنْ أبي جُحَيْفَة رَضْيَ اللهُ عنهُ قَالَ قَالَ عليّ رَضْيَ اللهُ عنه حِيْنَ فرِغَ مِن الحَرُورِيَّةِ : إنَّ فيهم رَجُلاً مُخَدَّجَ اليَدِ ، لَيْسَ على عَضُدِه عَظمٌ ، في عَضُدِه حَلمَةٌ كَحَلمَةِ الثَّدْي ، عَليْهَا شَعَرَاتٌ طِوَالٌ عُقْفٌ ، فالتَمُسَ فَلمْ يُوجَدْ ، قَال: وَأنا فِيْمَن يَلْتَمِسُ ، فمَا رَأيْتُ عَلِيّاً رَضْيَ اللهُ عنه جَزِعَ قَطُّ أشَدَّ مِنْ جَزعِهِ يَوْمَئِذٍ ، قَالُوا : مَا نَجِدُهُ يَا أمِيرَ المُؤْمنين ، قَالَ: مَا اسْمُ هَذا المكَانَ ؟ قالُوا : النَّهْرَوانِ . قَالَ: كَذبْتم إنَّهُ لَفِيْهم ، فَالْتَمِسُوهُ . قَالُوا فثَوَّرْنَا القَتْلِىَ فلمَ نَجِدْهُ ، فعُدْنا إليْهِ ، فقُلْنَا : يَا أمِيْرَ المؤْمِنْينَ مَا نَجِدُهُ ، قَالَ: مَا اسْمُ هَذا المكَان ؟ قُلْنَا : النَّهْرَوان . قَالَ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولهُ وَكَذبْتُم ،إنه لَفِيْهم فَالْتَمِسُوهُ ، فالْتَمسْنَاهُ فَوَجدْنَاهُ في سَاقِيَةٍ ، فَجِئنَا بهِ فَنَظْرتُ إلى عَضُدِه لَيْسَ فِيْهَا عَظمٌ ، وعَليْها كَحَلمَةِ ثَدْي المرْأةِ ، عَليْها شَعَراتٌ طِوَالٌ عُقْفٌ رَواهُ عَبْدُ اللهِ بْنِ الامَامِ أحْمَد في

كِتَابِ السُّنَّةِ .

وَعَنْ أنَس رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَتقارَبَ الزَّمَانُ ، فَتَكُونُ السَّنَةُ كالشَّهْرِ ، وَالشَّهْرُ كالجُمُعَةِ ، وتَكونُ الجُمُعَةُ كاليَوْمِ ، وَيكونُ اليَوْمُ كالسَّاعَـةِ ، وتكُونُ السَّاعَةُ كالضَّرْمَةِ بالنَّارِ » رَواهُ التِرمِذِي .

وعَن أبي هُرَيَرَة قَالَ قَالَ رسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسَلم « سَيَأتِيْ عَلى النّاسِ سَنَواتٌ خَدَّاعَاتٌ ، يُصَدَّقُ فيْهَا الكاذِبُ ويُكَذَّبُ فيْهَا الصَّادِقُ ، ويُؤْتَمَنُ فيْهَا الخِائِنُ ، ويَخُوَّنُ فيْها الأَمْيَنُ ، ويَنْطِقُ فيها الرُّوَيْبضَةُ » قِيْلَ : ومَا الرُّوَيْبَضَةِ ؟ قَالَ « الرَّجُلُ التّافِهُ ، يَتَكلَّمُ في أمْرِ العَامَّةِ » وَعَنْ أنَس رضْيَ اللهُ عنه أنّ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « لا يَزدَادُ الأمْرُ ، إلاَّ شِدّةً ولا الدُّنْيا إلاَّ إدْباراً وَلا النَّاسُ إلاَّ شُحّاً ، ولا تَقُومُ السَّاعَةُ إلا عَلَى شِرَارِ النّاسِ ، ولا المهْدِي إلا عِيْسَى بْنُ مَرْيَم » رَوَى الحَدِيْثَيْنَ ابْنُ مَاجَهْ .

وَعن سَالِمَ بْنِ أبي الجَعْدِ ، عَنْ زِيَادِ بْنِ لَبْيدٍ قَالَ: ذَكَرَ النّبي صَلى اللهُ عليه وسَلم شَيْئاً فقالَ « ذَاكَ عنْدَ أوَانِ ذَهَابِ العِلْمِ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ وكَيْفَ يَذْهَبُ العِلْمُ ، ونَحنُ نَقْرَأُ القرْآنَ ، ونُقْرِؤُه أبْنَاءَنَا ، وَيُقْرِؤُهُ أبْنَاؤُنَا أبْنَاءَهُم إلىَ يَوْمِ القِيَامَةِ ؟ قَالَ « ثَكِلَتْكَ أمُّكَ يَا زِيَادُ ، إنْ كُنْتُ لأرَاكَ مِنْ أفْقَهِ رَجُلِ بالمدِيْنة ، أوَ لَيْسَ هَذه اليهُودُ وَالنّصَارى يَقْرَؤُنَ التَّوْرَاةَ وَالانْجِيْلَ لا يَعْمَلُونَ بشَيْءٍ منْهُما » ؟ رَواهُ ابْنُ مَاجَهْ .

وعَنْ سَلامَة قالَ قَالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « مِنْ أشْرَاطِ

السَّاعَةِ أنْ يَتَدافَعَ أهْلُ المَسْجِدِ ، فلا يَجِدُونَ إمَاماً يُصَلِّي بِهِمْ » أخرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ. قُلْتُ وهذا الحديثُ عَلَمٌ مِن أعْلامِ النُّبُوةِ وصِدْقِ الرِّسَالَةِ.

وَعَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضْيَ اللهُ عنهما أنَّ النبي صلى اللهُ عليْهِ وسَلَم ذَكَر مِنْ أشَراطِ السَّاعَةِ أنْ يكُونَ المُؤْمِنُ فيهم أذلَّ مِنْ الأمَةِ ، يَذُوبُ قلبُه في جَوْفِه ، كما يَذُوبُ الْمِلْحُ في الماءِ ، مِمَّا يَرى مِنْ المنْكَرِ فلا يَسْتَطِيْعُ أنْ يغيِّرَهُ ، رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْه .

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ « يَأْتِي عَلَى النّاسِ زمانٌ يَسْتَخْفِيْ المُؤْمِنُ فِيْهِم ، كَمَا يَستخفِي المنافِقُ فِيْكَم » رواهُ ابنُ السُّنِّيْ ، وعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « مِنْ أشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَمُرَّ الرَّجُلُ بالمسجِدِ فلا يَرْكَعُ رَكْعَتَيْن» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضْيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ لهُ « يَأتِي دُعَاةٌ عَلَى أبْوابِ جَهَنَّم » وَوَصَفَهُم رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم أنَّهُمْ « مِنْ جِلْدتِنَا ، ويَتَكلَّمُونَ بِألْسِنَتِنا» قال : فمَا تأمُرني إنْ أدْرَكتُ ذلكَ ؟ قالَ « تلزَمُ جماعَةَ المُسْلِمِيْنَ وإمَامَهُم » قَال : فانْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَماعَةٌ ولا إمَامٌ ؟ قَالَ «أعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا ، وَلَوْ أنْ تَعُضَّ بأصْلِ شَجَرةٍ حتَّى يَأتِيْكَ المَوتُ وأنْتَ على ذلك » رَواه البُخَاري ومُسْلمٌ .

وَعَنْ الضَّحَّاكِ أَنّهُ قالَ : يَأتِيْ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَكْثُرُ فِيْهِ الأَحَادِيْثُ ، حَتَّى يَبْقَى المُصْحَفُ عَلَيْهِ الغُبَارُ لا يُلْتَفتُ إِلَيْهِ . قلت وهذه مُعْجِزَةٌ وَقَعَتْ فإنَّ المُصْحَفَ مَهْجُور والاقبال على الملاهي والمنكرات والجرائد والمجلات .

وعن وَابصَةَ الأسَدِي عَنْ أَبِيْهِ أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللهِ بنَ مَسْعُودٍ قَالَ : مَتَى تكونُ أيَّامُ الهَرْجِ ؟ قالَ : حِيْنَ لاَ يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيْسَهُ . قَالَ : فَمَا

تَأمُرُنِي ؟ قالَ : اكْفُفْ نَفْسَكَ وَيَدَكَ ، وَادْخُلْ دَارَكَ ، رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَفي المُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم ، « يَخْرُجُ قَوْمٌ في آخِرِ الإِسْلَامِ ، سُفَهَاءُ الأَحْلامِ ، حُدَثاءُ الأَسْنَانِ ، ـ أو قال ـ أَحْدَاثُ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ النَّاسِ ، يَقْرَؤُنَ القُرْآنَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، لا يَعْدُوْ تَرَاقِيْهِم ، يَمْـرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُم فَلْيَقْتُلْهُم ، فَإِنَّ في قَتْلِهِمْ أَجْراً عَظِيْماً عِنْدَ اللهِ». قُلْتُ هذا الحديث والذي قَبْلَهُ فِيهِمَا عَلَمٌ مِن أعلامِ النبوةِ.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ « مِنْ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ الحَلِفُ بِغَيْرِ اللهِ ، والشَّهَادَةُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَشْهَدَ ، وَكَثْرَةُ الـطَّلَاقِ ، وَمَوْتُ الفُجْـأَةِ » . أَخْرَجَـهُ أَبُو نُعَيم في الحِلْيَةِ ، قُلْتَ : وَهَذَا الحَدِيْثُ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ ، وَصِدْقِ الرِّسَالَةِ ، فإِنَّ كُلَّ فَقْرَةٍ مِنْ فَقَرَاتِهِ قَدْ تَحقَّقَتْ في العَصْرِ الحَاضِرِ ، فَتَأَمَّلْهُ بِدِقَّةٍ .

فَإِنَّ الحَلِفَ بِغَيْرِ اللهِ قَدْ كَثُرَ جِدّاً ، وَكَذَلِكَ الشَّهَادَةُ يَبْذُلُهَا كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ بِدُوْنَ طَلَب ، وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ الطَّلَاقِ ، وَهَذِهِ تَدُلُّ على ضَعْفِ إِيْمَانِ هَؤُلَآءِ ، وَأَمَّا مَوْتُ الفُجْأَةِ فَكَثِيْرٌ ، فَمِنْهُ السَّكْتَةُ القَلْبِيَّةِ ، والجَلْطَةُ الدَّمَوِيَّةِ ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْ انْقِلَابِ السَّيَّارَاتِ وَتَصَادُمِهَا ، وَسُقُوطُ الطَّائِرَةِ ، والانْفِجَارَاتِ ، فَكُلُّهَا يَصْدُقُ عَلَيْهَا مَوْتُ الفُجْأَةِ ، اللهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ على مَنْ لَا يَنطِقُ عَنْ الهَوى ، وَكُلُّ الأَحَادِيْثِ التِي تَقَدَّمَتْ ، وَالتِي تَأْتِي ، تَأَمَّلْهَا وَطَبِّقْهَا ، ولا حَاجَة إِلى شَرْحِهَا ، لِأَنَّهُ شَيْءٌ وَاضِحٌ وَاقِعٌ ، وَلَكِنَّ النَّاسَ في غَفْلَةٍ عِنْهَا مُعْرِضُونَ ، وَمُنْهَمِكُونَ في طَلَبِ الدُّنيا وَجَمْعِهَا ، وَالتَّكاثُرِ فِيْهَا. والاشتغال بما يلهي ويصد عن ذكر الله فتأَمَّلْ.

وَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم « يَأْتِي عَلى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَسْلَمُ لِذِيْ دِيْنٍ دِيْنَهُ إلَّا مَنْ هَرَبَ بِدِيْنِهِ مِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ ، وَمِنْ جُحْرٍ إلى جُحْرٍ فَإذا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ تُنَلْ المَعِيْشَةُ إلَّا بِسَخطِ اللهِ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ - كَانَ هَلاَكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدَيْ أَبَوَيْهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبوانِ كَانَ هَلاَكُه على يَدَيْ قَرابَتِهِ أَوِ الجِيْرَانِ » قَالُوا : كَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ « يُعَيِّرُونهُ بِضِيْقِ المَعِيْشَةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُوْرِدُ نَفْسَهُ المَوَارِدَ التِي يُهْلِكُ فِيْهَا نَفْسَهُ » رَواهُ البَيْهَقِيّ كَمَا في كِتَابِ الزُّهْدِج ٣ ، ص ٤٤٤ مِنْ كِتَابِ التَّرْغِيْبِ وَالتَّرْهِيْبِ .

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ بَيْعُ الحُكم ، وَكَثْرَةُ الشُّرَطِ » أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيْمٍ في الحِلْيَةِ. قُلْتُ هذا الحديث والذي قَبْلَهُ فِيهِمَا أَعْلاَمٌ مِن أَعْلامِ النبوةِ فتأمّلْ.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلم قَالَ « انَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ ظُهُوْرُ شَهَادَةِ الزُّوْرِ ، وَكِتْمَانُ الحَقّ » رَواهُ أَحْمَدُ وَالبُخَارِيّ قُلْتُ هذا الحديث فيه عَلَمٌ مِن أعلامِ النبوةِ.

شِعْراً :

تَخَيَّرْ قَرِيناً مِن فِعَالِكَ إِنَّمَا
يَزِيْنُ الفَتَى في القَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
فَإِن كُنْتَ مَشْغُولاً بِشَيْءٍ فَلا تَكُنْ
بِغَيْرِ الذِيْ يَرْضَى بِهِ اللهُ تَشْغَلُ
فَلا بُدَّ بَعْدَ القَبْرِ مِن أَن تُعِدَّهُ
لِيَومٍ يُنَادَيَ المَرْءُ فِيْهِ فَيُسْأَلُ

فَلَنْ يَصْحَبِ الإِنْسَـانَ مِنْ بَعْـدِ مَـوْتِـهِ
وَلَا قَـبْـلَهُ إلا الَّـذِيْ كَـانَ يَـعْـمَـلُ
أَلَا إنَّـمَـا الانْـسَـانُ ضَـيْـفٌ لِأَهْـلِهِ
يُـقِـيْـمُ قـلـيـلاً عِـنْـدَهُـم ثُـمَّ يَـرْحَـلُ

اللهُمَّ أحْيِنَا مُسْلِمِيْنَ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِيْنَ وَأَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فصل »

الأَمَارَةُ الثَّالِثَةُ مِنْهَا خُرُوْجُ الدَّجَّالِ ، وقَدْ أَنْذَرَتْ بِهِ الأنْبيَاءُ قَوْمَهَا ، وَحَذَّرَتْ مِنْهُ أُمَمَها ، وَنَعَتَتْهُ بالنُّعُوتِ الظَّاهِرَةِ ، وَوَصفَتْهُ بالأَوْصَافِ البَاهِرَةِ ، وَحَذَّرَ مِنْهُ المُصْطَفَى صلى اللهُ عليه وسلمَ وَأَنْذَرَ ، وَنَعَتَهُ لأُمّتِه نُعُوتاً لا تَخْفَى عَلَى ذِي بَصَرٍ ، فَعَنْ نَافِع عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، أنَّ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ذَكَرَ الدجّالَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ النّاسِ فقَالَ « إنّ اللهَ تَعالَى لَيْسَ بأعْوَرٍ ، أَلَا وَإنّ المَسِيْحَ الدَّجّالَ أعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِئَةٌ » رواهُ البُخاري وَمُسْلِمٌ وَأحْمَدُ .

وعَن أَنَس رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسَلمَ قالَ « مَا بُعِثَ نَبيٌّ إلا قَدْ أَنْذَرَ أمّتَهُ الدّجَّالَ الأعْوَرَ الكَذابَ ، ألَا وإنّهُ أعْوَرُ ، وَإنَّ رَبَّكُم لَيْسَ بأعْوَرَ ، وَإنّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكتُوبٌ كافِرٌ» وفي رِوَايَةٍ « يَقْرَؤهُ كُلُّ مُسْلِمٍ » رَوَاهُ أبو دَاوُدَ .

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضْيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ قال « إنّي حَدَّثْتُكُم عَنْ الدَّجّالِ ، حَتَّى خَشِيْتُ أَنْ لا تَعْقِلُوا إِنَّ مَسِيْحَ الدَّجَّالِ رَجُلٌ قَصِيْرٌ أَفْحَجُ جَعْدٌ ، أَعْوَرُ مَطْمُوسُ العَيْنِ ، لَيْسَتْ بنابِئَةٍ وَلَا حَجْرَاءَ ، فإنْ أُلْبِسَ عَلَيْكُم فاعْلَمُوا أَنَّ رَبكم لَيْسَ بأعْورَ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

وعَن أبي هُرَيْرَةَ رضْيَ اللهُ عنهُ قالَ قالَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إن مَسِيْحَ الضَّلالَةِ أعورَ العَيْنِ أجْلَى الجَبْهَةِ عَريضَ النَّحرَّ ، فيهِ دَفأ ، كأنَّهُ قَطَن بنْ العَزّى » فقال قطن ، هل يَضُرُّنِي شَبَهُهُ ؟ قَالَ « لا أَنْتَ مُسْلِمٌ وهُوَ امْرُؤ كافِرٌ » رَوَاهُ أحْمَدُ .

وعَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضْيَ اللهُ عنهُ أنَّ النّبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلم قال « لما أُسْرِيَ بي رَأيْتُ الدَّجّالَ في صُوْرَتِهِ ، رُؤْيَا عَيْنٍ ، لَيْسَ رُؤْيَا مَنَام » فَسُئِلَ عنْهُ فَقَالَ « أقْمَرُ هَجَّانَا فَيْلَمانِيّاً ، احْدَى عَيْنَيْهِ قائِمَةٌ ، كأَنَّها كَوْكَبٌ دُرّيّ ، كأنَّ شَعْرَهُ أغْصَانُ شَجرةٍ » رَوَاهُ أحْمَدُ .

وَعَنْ النَّوّاسِ بْنِ سِمْعَانَ رَضْيَ اللهُ عنهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « إنَّ الدَّجَّالَ خارِجٌ مِن خَلّةٍ بَيْنَ الشّامِ وَالعِرَاقِ ، فَعَاثَ يَمِيْناً وَشِـمَالاً ، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا » رواهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ ماجَهْ .

وعَنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : حَدَّثَنا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَّم أنّ الدَّجّالَ يَخْرُجُ مِنْ أرْضٍ بِالمَشْرِقِ يُقَالُ لهَا خُرَاسَانُ ، يَتْبَعُه أقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُم المَجَانُّ المُطْرَقَةُ . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَأحْمَدُ وَالحَاكِمُ .

وعَن جَابر رَضْيَ اللهُ عنهُ أنّ النّبيّ صَلى اللهُ عليه وسَلمَ قَالَ « إنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ فِي خِفّةٍ مِنْ الدِّيْنِ ، وَإدْبَارٍ مِنْ العِلْمِ » رَوَاهُ أحْمَدُ وابْنُ خَزَيْمَة .

وعَنْ حُذْيفةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله صَلى اللهُ عليه وسَلمَ « مَكْتُوبٌ بينَ عَيْنَيْهِ : كافِرٌ ، يَقْرَؤُهَا كُلُّ مُؤْمِن ، كاتِبٌ وَغَيْرُ كاتِبٍ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، ورَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ أبي أُمَامَةَ بِهَذا اللفْظِ .

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ قالَ قالَ رسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وسَلمَ « ألاَ أُخْبِرُكُم عَنْ الدَّجَّالِ حَدِيْثاً مَا حَدّثَهُ نَبيٌّ قَوْمَهُ ؟ إنَّهُ أَعْوَرُ ، وَإنّهُ يَجيْءُ مَعَهُ مِثْلُ الجَنةِ وَالنَّارِ ، فَالّتِيْ يَقُولُ إنّها الجَنّةُ هِيَ النّارُ » رَوَاهُ البُخارِيّ وَمُسْلِم .

وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضْيَ اللهُ عنه أن النبي صلى اللهُ عليه وسَلم قالَ في الدجّالِ « انّ مَعَه نارٌ ومَاءٌ ، فنَارُه ماءٌ بارِدٌ ، ومَاؤُه نارٌ ، فلاَ تَهْلِكُوا » قالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : وأَنَا سَمِعْتُه مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلّمَ . وعَنْهُ أنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسلمَ قالَ « إنّ الدّجّالَ يَخْرُجُ ، وَإنّ مَعَهُ مَاءٌ ونَارٌ ، فأمّا الذِي يَرَاهُ النَّاسُ مَاءٌ فنارٌ تُحْرِقُ ، وأمّا الذِي يَراهُ النّاسُ ناراً فمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ » فقالَ عُتْبَةُ : وَأنَا سَـمِعْتُه تَصْدِيْقاً لقَوْلِ حُذَيْفَةَ .

وعَنْ حُذَيْفةَ رَضْيَ اللهُ عنه قالَ قَالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « لأَنَا أعْلَمُ بمَا مَعَ الدّجَّالِ مِنْهُ مَعَهُ نَهْرَانِ يَجرِيَانِ ، أَحدُهُمَا رَأْيَ العَيْنِ مَاءٌ أبْيَضٌ ، وَالآخرُ رَأْيَ العَيْنِ نَارٌ تَأَجّجُ فأما إن أَدْرَكْنَ أحدا ، فلْيَأْتِ النَّهرَ الذِي يَرَاهُ نارا ، ولْيُغْمِضْ ثُمَّ لِيُطَأْطِىءْ رَأسَهُ فيَشْرَبْ مِنْهُ ،

فإنّهُ مَاءٌ بَارِدًا ، وَإنّ الدّجَالَ مَمْسُوحُ العَيْنِ ، عَليْها ظَفْرَةٌ غلِيْظَةٌ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وعن النّوّاسِ بْنِ سِمْعَانَ رَضْيَ اللهُ عنه قالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ الدَّجَّالَ فخفَضَ فيْهِ وَرَفَعَ ، حتّى ظَنّنا أنَّهُ في طائِفَةِ النَّخْل ، فَلَمَّا رُحْنَا إلَى رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم عرَفَ ذلك فِينَا ، فقالَ « مَا شَأْنُكم » ؟ فقُلْنَا : يا رَسُولَ اللهِ ذكَرْتَ الدَّجَّالَ الغَدَاةَ ، فَخفَضْتَ فِيْهِ ثُمّ رَفَعْتَ ، حَتّى ظَنَنّا أنّهُ في طَائِفَةِ النّخْلِ ، قَالَ « غَيْرُ الدَّجَّالِ أخْوَفَنِيْ عَلَيْكُمْ ، إنْ يَخرُجْ وَأَنَا فِيْكُم فأنا حَجيْجُه دُوْنَكُم ، وَإنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيْكُم فامْرُؤٌ حَجِيْجُ نَفْسِهِ ، واللهُ خَلِيْفَتِيْ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، إنّهُ شَابٌّ قَطَطٌ ، عَيْنُه قَائِمَةٌ » الحَدِيْثُ وفيْهِ : قالَ « فيَأتِيْ القَوْمَ فَيَدْعُوْهُمْ فَيَسْتَجِيْبُوْا لَهُ ، ويُؤْمِنُونَ بهِ ، فيأمُر السَّمَاء أنْ تُمْطِرَ ، ويَأمُرُ الأرْضَ أنْ تُنْبِتَ فتُنْبتُ ، وتَروُحُ عَليهم سَارِحَتُهم أَطْوَلَ مَا كانَتْ ذُرَى ، وأسْبَغَهُ ضُرُوعا ، وَأمَدَّهُ خَواصِرَ ، ثمّ يَأتِي القَوْمَ فيَدْعُوهُم ، فَيَرُدُّونَ عليهِ قَوْلَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُم ، فيُصْبِحُوا مُمْحِلين ، مَا بأيْدِيْهِمْ شَيْءٌ ، ثمّ يَمُرُّ الخَرِبَةَ فَيقُولُ لهَا : أَخْرِجيْ كُنُوزَكِ . فَيَنْطَلِقُ ، فَتَتْبَعُه كُنُوزُهَا كيَعَاسِيْبِ النّحْلِ » الحَدِيْثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهْ .

وعَنْ أنسِ بْنِ مَالِكٍ رَضْيَ اللهُ عنهُ قالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلَم « يتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانِ سَبْعُونَ ألْفاً عَلَيْهِم الطَّيَالِسَةُ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ النَّوّاسُ بْنُ سِمْعَانَ رَضْيَ اللهُ عنهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى

اللهُ عليه وسلم « مَنْ أدرَكَ الدَّجَّالَ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فواتِحَ سُوْرَةِ الكهْفِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وعن أبي الدَّرْدَاءِ رَضْيَ اللهُ عنهُ عنْ النبي صَلى اللهُ عليه وسَلم أنهُ قالَ « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَـاتٍ مِنْ أوَّلِ سُوْرَةِ الكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَـةِ الدَّجَّالِ » رَوَاهُ أبُو دَاوُدَ .

وَعَن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم « مَنْ سَمِعَ بالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ ، فواللهِ إنَّ الرَّجُلَ ليأتِيْهِ وهُوَ يَحْسَبُ أَنَّه مُؤْمِنٌ فيَتْبَعُه ، مِمَّا يَبْعَثُ بهِ مِنْ الشّبُهَاتِ ، أوْ لِمَا يَبْعَثُ بهِ مِنَ الشّبُهَاتِ » رَوَاهُ أبُو دَاوُد ، وَعَنْ أمِّ شَرِيْكٍ رضْيَ اللهُ عَنْهُما قالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلمَ يَقُولُ « لَيفِرَّنَّ النَّاسُ مِنْ الدَّجَّالِ في الجِبَالِ » قالَتْ أمُّ شَرِيْكٍ : يَا رَسُولَ اللهِ فأيْنَ العرَبُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ « هُمْ قَلِيْلٌ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَأمَّا قَدْرُ لُبْثِه في الأَرْضِ فعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ رَضْيَ اللهُ عنهُ قالَ : قُلنا يَا رَسُولَ اللهِ ومَا لُبْثُهُ ـ أيِ الدَّجَّالُ ـ في الأَرْضِ ؟ قَالَ « أرْبعُون يَوْماً ، يَوْمٌ كَسَنَةٍ ، ويَوْمٌ كشَهْر ، ويَوْمٌ كَجُمُعَةٍ ، وسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُم » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ فذلِكَ اليَوْمُ الذِي كَسَنَةٍ أتَكْفِينا فِيْهِ صَلاةُ يَوْمٍ ؟ قالَ « لا ، اقْدِرُوا لهُ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ومَا إسْـرَاعُه في الأرْضِ ؟ قَالَ « كالغَيْثِ اسْتَدْبَرتْهُ الرِّيحُ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَه .

وعَنْ أسْمَاءَ بنْتِ يزيْدَ قَالَتْ قَـالَ النبي صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ « يَمْكُثُ الدَّجَّالُ في الأَرْضِ أرْبعِيْنَ سَنـةً ، السَّنَةُ كـالشَّهرِ وَالشَّهـرُ

كالجُمُعَةِ ، والجُمُعَةُ كاليَوْمِ ، واليَـوْمُ كاضْطِرَامِ السَّعْفَةِ في النَّارِ » رَوَاهُ البَغَوِيّ في شَرْح السُّنّةِ .

وَعَن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنّ رَسُولَ اللهُ صلّى اللهُ عليه وَسَلّمَ قالَ « لا تَقُومُ السَّاعةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّوْمُ بالأعْمَاقِ أو بِدَابِقَ ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِم جَيْشٌ مِنْ المَدِيْنَةِ ، مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فإذا تصَافّوا قَالَتْ الرّوْمُ : خَلُّوْا بَيْنَنا وبَيْنَ الذِيْنَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلُهم ، فَيَقُولُ المُسْلِمُونَ : واللهِ لا نُخْلِيْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اخْوَانِنَا ، فَيُقَاتِلُوهُم ، فَيَنْهَزِمُ ثلثٌ لا يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ أَبَدًا وَيُقْتَلُ ثُلُثٌ هُمْ أَفْضَلُ الشُّهَداءِ عِنْدَ اللهِ تَعالَى ، وَيَفْتَحُ الثُّلُثُ لا يُفْتَنُـوْنَ أَبَـدا ، فَيَفْتَحُـونَ القُسْطَنْـطِيْنِيَّـة ، فَبَيْنَمـا هُمْ يَقْتَسِمُـونَ الغَنَائِمَ ، وَقَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُم بالزَّيْتُونِ ، اذْ صَاحَ فِيهِم الشَّيْطَانُ إِنَّ المَسِيْحَ قد خَلَفَكُم في أَهْلِيْكُم ، فَيَخْرُجُونَ وذاكَ باطِلٌ ، فإذا جَاؤُا الشّامَ خَرَجَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّوْنَ لِلْقِتَالِ ، يُسَوُّوْنَ الصُّفُوفَ ، إذْ أُقِيْمَتِ الصَّلاةُ ، فَيَنْزِلُ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ فَأَمَّهُم ، فإذَا رَآهُ عَدُوُّ اللهِ ذَابَ كَمَا يَذُوْبُ المِلْحُ في الماءِ ، فلو تَرَكَهُ لانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ ، وَلَكِنْ يَقْتُلُه اللهُ بِيَدِهِ ، فَيُرِيْهِم دَمَهُ في حَرْبَتِهِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ . وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إلّا سَيَطَؤُه الـدَّجَّالُ إلّا مَكّـةَ والمدِيْنَةَ ، وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إلّا عَلَيْهِ مَلائِكَةٌ صَافِّيْنَ تَحْرِسُهَا ، فَيَنْزِلُ بالسَّبْخَةِ ، فَتَرْجُفُ المَدِيْنَةُ ثلاثَ رَجفَاتٍ ، يَخْرُجُ إِلَيْهِ كُلُّ كافِرٍ وَمُنَافِقٍ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

« خطبة عظيمة كُلُهَا أَمْثَالٌ وحِكَمٌ لِلنَّبي صلى اللهُ عليه وسلم »

فبَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عليهِ قالَ ، أمّا بَعْدُ فإنَّ أصْدقَ الحَدِيْثِ كِتَابُ اللهِ تعَالَى ، وَأَوْثَقَ العُرى كَلِمَةُ التّقْوَى ، وَخَيْرَ المِلَلِ مِلّةُ ابراهِيمَ ، وخيرَ السُّنَنِ سُنّةُ محمدٍ ، وأشْرَفَ الحَدِيْثِ ذكرُ اللهِ ، وأحسَنَ القصَص هَذا القُرآنُ ، وخيرَ الأمُورِ عَوازِمُهَا وَشَرَّ الأمُور مُحْدثاتُها ، وَأحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ الأنْبياءِ ، وأشْرَفَ المَوتِ قَتْلُ الشَّهِيْدِ ، وَأعْمَى العَمَى الضّلالةُ بعْدَ الهُدى ، وخَيْرَ العِلْمِ ما نفعَ ، وخيرَ الهَدى ما اتُّبِعَ ، وشَرَّ العَمَى عَمَى القَلْبِ وَاليَدُ العُلْيَا خيرٌ مِنْ اليَدِ السُّفْلَى ، وَمَا قَلَّ وَكَفى خيْرٌ مِمَّا كثُرَ وَألْهَى ، وشَرَّ المَعْذِرَةِ حيْنَ يَحْضُر الموتُ ، وشَرَّ النّدَامَةِ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لا يَأتِيْ الصَّلاةَ إلّا دُبُراً ، ومِنْهُمْ مَن لا يذكُرُ اللهَ إلاَّ هُجْرَا ، وَأعْظمُ الخطَايَا اللِّسَانُ الكذُوبُ ، وخَيْرُ الغِنَى غِنَى النّفْسِ ، وَخَيْرُ الزّادِ التّقْوَى ، ورأْسُ الحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ ، وخيْرُ مَا وقرَ في القَلْبِ اليَقِيْنُ ، وَالارْتيَابُ مِنْ الكُفْرِ وَالنّيَاحَةُ مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيّةِ ، والغُلُولُ مِن جُثَا جَهنَّم ، وَالكَنْزُ كيٌّ مِنْ النّارِ ، وَالشّعْرُ مِنْ مَزَامِيْر ابْلِيْسَ ، وَالخَمْرُ جِمَاعُ الاثْمِ ، وَالنّسَاءُ حِبالَةُ الشّيْطَانِ ، وَالشّبَابُ شُعْبَةٌ مِنْ الجُنُونِ ، وشَرُّ المكَاسِبِ كَسْبُ الرِّبَا ، وشَرُّ المَآكِلِ مَالُ اليَتِيْمِ ، وَالسَّعِيْدُ مَنْ وُعِظَ بغَيْرِهِ ، وَالشّقِيُّ مَنْ شَقِيَ في بَطْنِ أمِّهِ ، وَإنَّمَا يَصِيْرُ أحَدُكم إلى مَوْضِعِ أرْبعَةِ أذْرُع ، وَالأَمْرُ بآخِرِهِ ومِلاكُ العَمَل خَوَاتِمُه وَسِبَابُ المؤْمِن فَسُوقٌ ، وَقِتَالُ المُؤْمِن كُفْرٌ ، وَأكْلُ لَحْمِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، وحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ ، ومَنْ يَتَألَّ على اللهِ يُكْذِبْهُ ، ومن يَغْفِرْ يُغْفرْ

اللهُ لهُ ، ومَن يَعْفُ يعْفُ اللهُ عنه ، ومَن يَكْظِمْ الغَيْظَ يَأجُرْهُ اللهُ ومن يَصْبِرْ على الرَّزِيَّةِ يُعَوِّضْهُ اللهُ ، ومَن يَتْبَعْ السُّمْعَة يُسَمِّعْ اللهُ بِهِ ، ومَنْ يَصْبِرْ يُضْعِفُ اللهُ لهُ ومَنْ يَعْصِ اللهَ يُعَذِّبْهُ اللهُ ، اللهُم اغْفِرْ لِيْ وَلامَّتِي ، اللهُمّ اغْفِرْ لِيْ وَلأمّتِي ، اسْتغْفِرُ اللهَ لِيْ وَلكُم » انتهى .

شعرا :

سَبَقَ القَضَاءُ بكُلِّ مَا هُوَ كَائِنٌ
والله يَا هَذَا لِرِزْقِكَ ضَامِنُ
تَعَنَّى بِمَا تُكْفَى وتَتْرُكُ مَا بِهِ
تُعْنَى كَأَنَّكَ لِلْحَوَادِثِ آمِنُ
أو مَا ترى الدُنيا ومَصْرَعَ أهْلِهَا
فاعْمَلْ لِيومِ فِراقِهَا يَا خَائِنُ
واعْلَمْ بأنَّكَ لا أبَا لَكَ في الذي
أصْبَحْتَ تَجْمَعُهُ لِغَيرِكَ خَازِنُ
يا عامِرَ الدُنيَا أتَعْمُرُ في الذي
لم يَبْقَ فِيه مَعَ المنيَّةِ سَاكِنُ
المَوتُ شيءٌ أنْتَ تَعْلَمُ أنّهُ
حَقٌّ وأنْتَ بِذِكْرِهِ مُتَهَاوِنُ
إنَّ المَنِيَّةَ لا تُؤَآمِرُ مَنْ أتَتْ
في نَفْسِهِ يَوماً ولا تَسْتَأذِنُ

اللهُمَّ افْتَح لِدُعَائِنَا بَابَ القَبُولِ والإجَابَةِ وَوَفِّقْنَا لِلتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَالانابَةِ وَثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلوبِنَا تثْبِيتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ، وَألْهِمْنا ذِكرَكَ

وشُكْرَكَ آناءَ الليْلِ وَالنَّهارِ ، وثبِّتْنا عَلى قَوْلِكَ الثّابتِ في الحَياةِ الدُّنْيا وَفي الآخِرَةِ ، واغْفِرْ لنَا وَلِوَالدَيْنَا وجَمِيْع المسْلِمين برَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرّاحِمِيْنَ وصَلَّى اللهُ على مُحَمّدٍ وعلى آلهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

« فَصْلٌ »

وَمِنْ عَلاَمَاتِ السَّاعَةِ العُظْمَى المَسْيحُ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، ونَزُولهُ ثَابِتٌ بالكِتَابِ وَالسُّنّةِ واجْمَاعِ الأمّةِ ، أمَّا الكِتَابُ فَقَوْلُه تَعالى ﴿ وَإنْ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ إلا ليُؤمِنَنَّ بهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أي ليُؤْمِنَنَّ بِعِيْسَى قَبْلَ مَوْتِ عيْسَى ، وذلك عندَ نُزُوْلِه مِنْ السَّماءِ آخِرَ الزّمَانِ ، حَتّى تكوُن المِلّةُ وَاحِدَةً ، مِلَّةُ ابْرَاهِيْمَ عليهِ السَّلامُ .

وأمَّا السُّنَّةُ ففِي الصَّحِيْحَيْن وَغَيْرِهِمَا عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « والذِيْ نَفْسِي بيدَهِ لَيُوْشِكّن أنْ يَنْزلَ فيكُم ابْنُ مَرْيَمَ ، حَكَماً عَدْلاً ، فَيَكْسِرُ الصّلِيْبَ ، وَيقْتُلُ الخِنْزِيْرَ ، وَيَضَعُ الجزْيَةَ ، وَيَفِيْضُ المالُ حَتَّى لا يَقْبَله أحَدٌ ، حَتّى تكوُنَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خيْراً مِنْ الدنْيَا ومَا فِيْهَا » .

وَأمّا الاجْمَاعُ فقدْ أجْمَعَتْ الأُمَّةُ عَلَى نُزُوْلِه ، وَلَمْ يُخَالِفْ فِيْهِ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الشّرِيْعَةِ ، وَقَدْ انْعَقَدَ الاجْمَاعُ عَلَى أنَّهُ ينْزِلُ ، ويَحْكمُ بهَذِه الشَّرِيْعَةِ المحَمَّدِيَّةِ .

وعن عائِشَة رضْيَ اللهُ عنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلَمَ « يَنْزِلُ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ ، فيَقْتُلُ الدَّجَالَ ، ثُمَّ يَمْكُثُ في الأرْضِ

أرْبَعْينَ سَنةً ، إمَاماً عَادِلاً وحَكماً مُقْسِطاً » رَواهُ أحْمَدُ وَابْنُ عَساكِرَ وأبُو يَعْلَى .

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عنهُ قَالَ « يَمْكُثُ عِيْسَى أرْبَعْينَ سَنَةً ، ثُمَّ يُتوفَّى ويُصَلّيْ عليْهِ المُسْلِمُونَ ، ويُدْفنُ عنْدَ نَبيِّنَا صَلى اللهُ عليه وسلم » رواهُ أحْمَدُ وأبُو دَاوُدَ وابْنُ حِبّانَ وعَنْ أبِيْ هُـرَيْرَةَ أنّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « لَيُهِلَّنَّ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ بفَجِّ الرَّوْحَاءِ بالحَجِّ أو العُمْرَةِ ، أوَ لَيُثَنِّيَنَّهَا جَمِيْعاً » وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنّ النبي صلى اللهُ عليه وسَلمَ قَالَ « الأنبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاّتٍ ، أمَّهَاتُهم شَتّى وَدِيْنُهم وَاحِدٌ ، وَإنّيْ أوْلَى النَّاس بِعِيْسى بْنِ مَرْيَمَ ، لأنّهُ لَمْ يَكُنْ نَبيٌّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَإنَّهُ نَازِلٌ ، فَإذا رَأيْتُموهُ فاعْرِفُوْه ، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ ، إلى الحُمْرَةِ وَالبياضِ ، عليْه ثُوبَان مُمَصَّرَانِ ، كَأنَّ رَأسُهُ يَقْطِرُ ، وَإنْ لَمْ يُصِبْهُ بَللٌ ، فيَدُقُّ الصَّلِيْبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزيرَ وَيَضعُ الجِزْيَةَ ، وَيَدْعُو النّاسَ إلىَ الاسْلامِ ، ويُهْلِكُ الله في زَمانه المِلَلَ كُلَّهَا إلاَّ الاسْلامَ ، ويُهْلِك اللهُ في زَمانِه المسِيحَ الدّجالَ ، ثُم تقعُ الأمانَةُ علَى الأرْضِ ، حَتّى تَرْتَعَ الأُسُودُ مَع الابل ، والنِّمَارُ مع البَقَـرَ وَالذِئـآبُ مَعَ الغَنَمِ ، ويَلعَبُ الصّبْيَـانُ بالحَيَّـاتِ لا تضُرُّهُم » الحَدِيْث .

وَمِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ العُظْمَى خُرُوجُ يأجُوجَ ومَأجُوجَ ، وَهُوَ ثَابِتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والاجْمَاعِ ، أمّا الكتَابُ فقَولُه تعالى ﴿ حَتّى اذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمأْجُوج ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، وَاقْتَرَب الوَعْدُ الحَقُّ ﴾ وَأمَّا السّنَةُ فِفي صَحِيْحِ مُسْلِمٍ منْ حَدِيْثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضيَ اللهُ عنه عن النبي صلى اللهُ عليه وسَلم أنّهُ قَالَ « إنَّ اللهَ تَعالى يُوْحِيْ إلى

عِيْسَى بْنِ مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلامُ ، بَعْدَ قَتْلِهِ للدَّجَالِ ، إنِّي قد أخرَجْتُ عِبَاداً لِيْ لا يَدَانَ لأحَدٍ بقِتَالِهِمْ ، فَحرِّزْ عِبَادِي إلى الطُّوْرِ ، ويَبْعَثُ اللهُ يأجُوْجَ ومأجُوجَ ، وهُمْ مِن كُلِّ حَدبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أوَّلُهم على بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيْهَا ، ويَمُرُّ آخِرهُمْ فَيَقُولُونَ: لقدْ كَانَ بِهَذِهِ مَاءٌ ، ويَحْصُرُونَ عِيْسَى وَأصْحَابَهُ حَتَّى يَكُونَ رَأسُ الثَّورِ لِأحَدِهِم خَيْراً مِنْ مِائَةِ دِيْنَارٍ » .

وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلمَ « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ ، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدُّخَانُ ، وَالدَّابَّةُ ويَأجُوجُ ومَأجُوجُ ، ونُزولُ عِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وثَلاثَةُ خُسُوفاتٍ وَنارٌ تخرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ » الحدِيث ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيْثِ حُذَيفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ ، وهُوَ في مُسْلِم وذكَر فيهِ « خسْفٌ بالمشْرِقِ ،وخَسْفٌ بالمغْرِبِ ، وخَسْفٌ بجزيرَةِ العَرَبِ » .

وَعَنْ أبي سَعِيْدٍ : قَالَ قَالَ رَسُولُ الله صَلى اللهُ عليهِ وسَلم « لَيُحَجَّنَّ هَذا البَيْتَ وَلَيُعْتَمَرنَّ بعْدَ خُرُوجِ يأجُوجَ ومَأْجُوجَ » أخْرَجَهُ البُخارِيّ .

وَمِنْ العَلَامَاتِ العُظْمَى هَدْمُ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، أخْرَجَ ، البُخَارِيّ ومُسْلِمٌ مِنْ حَدِيْثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عنْهُ عَنْ النَّبي صلى الله عليه وسلمَ أنَّهُ قَالَ « يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُوْ السُّوَيْقَتَيْنِ مِنْ الحَبَشَةِ » وَأخْرَجَ الامَامُ أحْمَدُ مِنْ حَدِيْثِ ابْنِ عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا نَحوَهُ وَزَادَ « وَيَسْلِبُها حُلِيَّهَا ، ويُجرِّدُهَا مِنْ كِسْوتِهَا ، فلَكَأنِّيْ أنْظُرُ إليْهِ ، أُصَيْلِعَ أفيْدِعَ ، يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ أو مِعْوَلِه » وعَن ابْنِ عَباسٍ أنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسلمَ قَالَ « كأنِّيْ أنْظُرُ اليْهِ » ـ يَعْنِيْ ذَا السُّوَيْقَتَيْنِ ـ « أسْوَدَ افْحَجَ يَنْقُضُهَا حَجَراً

حَجَراً » يَعْنِي الكَعبَة رَوَاهُ أحْمَدُ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَم « في آخِرِ الزمَانِ يَخْرُجُ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ عَلَى الكَعْبَةِ » قَال: حَسِبْتُ أنه قَالَ « فيَهْدِمُهَا » رَوَاهُ أحْمَدُ .

وَرَوَى البَزَّارُ عَنْ أبي سَعِيْدٍ عن النبي صَلى اللهُ عليه وسَلمَ « لا تَقُومَ السَّاعَةُ حتَّى لا يُحَجَّ البَيْتُ » .

وَمِنْ علاَمَات السَّاعَةِ العُظْمَى الدُّخَانُ ، قَالَ العُلَمَاءُ آيَةُ الدُّخَانُ ثَابتَةٌ بالكتابِ وَالسّنَةِ ، أمَّا الكتَابُ فقَوْلُهُ تعَالَى ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأتِي السَّمَاءُ بدُخَانٍ مُبيْنٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ وَالحَسَنُ وَزيدُ بنُ عَليّ رَحِمَهُم الله تَعَالَى : هُوَ دُخَانٌ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ ، يَدْخُلُ في أسْمَاعِ الكُفَّارِ وَالمنَافِقِيْنَ ، ويَعْتَرِيْ المُؤْمِنَ كَهيئَةِ الزُّكَامِ ، وتكُونُ الأرْضُ كُلُّهَا كَبيْتٍ أوْقِدَ فيْهِ ، وأمَّا السُّنَّةُ فأخْرَجَ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيْثِ حُذَيفَةَ رَضْيَ اللهُ عنه قَالَ طَلَعَ علينَا رسُولُ الله صلى الله عليه وسَلم ، ونحنُ نتذاكَرُ ، فقالَ « ما تَذَاكَرُونَ » قَالُوا : السَّاعَةَ يَا رسُولَ الله . . قالَ « إنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا فِيْهَا آيَاتٍ » فذَكَر مِنْهَا الدُّخَانُ . وَرَوَاهُ التّرمِذّي وَابْنُ مَاجَهْ ، وَانّهُ يَمْكُثُ في الأرْضِ أرْبَعِيْنَ يَوْماً ، وفي حَدِيْثِ حُذَيْفَة بْنِ اليَمانِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُ « إنّ مِنْ أشْرَاطِ السَّاعَةِ دُخَانَا يمْلأ مَا بَيْنَ المشْرِقِ وَالمغْرِبِ ، يَمْكُثُ في الأرْضِ أرْبَعِيْنَ يَوماً ، فأمّا المُؤْمِنُ فيُصِيْبُه مِنْهُ شِبْهُ الزّكامِ ، وأما الكافِرُ فيَكونُ بمَنْزلَةِ السّكْرَانِ يَخرُجُ الدُّخَانُ مِنْ فيْهِ ومِنْخَرِيْهِ ، وعَيْنَيْهِ وَأُذنَيْهِ ، وَدُبُرهِ » رَواهُ الطبَرانِيّ .

ومنْ عَلاَمَـاتِ السَّاعَةِ العُظْمَى رَفْعُ القُرْآنِ العَظِيْمُ مِنْ الصُّـدُورِ والسُّطُورِ ، وهِيَ مِنْ أشَدِّ مُعْضِلاتِ الأمُورِ ، فأخَرجَ الدّيْلَمِي مِنْ حَدِيْثِ أبي هُرَيْرة رَضْيَ اللهُ عنْهَ مَرْفُوعاً « يُسْرَى عَلَى كتابِ اللهِ ليْلاً ، فيُصْبِحُ النّاسُ ولَيْسَ مِنْهُ آيَةٌ ولا حَرْفٌ في جَوْفٍ إلا نُسِخَتْ » وَعِنْدَ الدّيْلَمِيّ مِنْ حَدِيْثِ ابْنِ عُمَرَ رَضْيَ اللهُ عَنْهُما « لا تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَرْجَع القُرْآن من حَيْثُ جَاءَ ، لهُ دَوِيٌّ حَوْلَ العَرْشِ كَدوِيٍّ النَّحْلِ ، فيَقُولُ اللهُ عز وجَلّ : مَا لكَ ؟ فيَقُولُ: مِنْكَ خَرجْتُ وإليكَ أعُوْدُ ، أُتْلَى فلا يُعْمَلُ بي » وَأخْرَجَ ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيْثِ حُذَيْفَة رَضْيَ اللهُ عنْهُ مَرْفُوعاً « يَدْرَسُ الاسْلامُ ، حتّى لا يَدْرُونَ مَا صِيَامٌ ولا صلاةٌ ولا نُسُكٌ وَلا صَدَقَةٌ ، ويُسْرَىٰ عَلى كِتَابِ اللهِ في ليْلةٍ ، فلا يَبْقَى في الأرْضِ مِنْهُ آيَةٌ » .

اللهُمَّ وَفِّقْنَا لِطَاعَتِكَ وَجَنِّبْنَا مَعْصِيَتَكَ وَاغْفِرْ لَنَا ولِوالِدَيْنا ولجَمِيْع المُسْلِمْينَ برَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلّى اللهُ عَلَى مُحَمَّـدٍ وَآلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِيْنَ .

« فصل »

وَمِنْ عَلاَمَاتِ السَّاعَةِ وَاشْرَاطِهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا قَالَ العُلَمَاءُ رَحِمَهُم اللهُ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ثَابِتٌ بالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسَاً ايْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أو كَسَبَتْ في إيْمَانِهَا خَيْرَاً .

إذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أنّهُ قَدْ وَرَدَ في طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا عِدَّةُ أَحَادِيْث ، مِنْهَا ما أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ في صَحِيْحِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو

بْنِ العَاصِ رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا قال : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ أوّلَ الآياتِ خُرُوْجاً طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوْجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحَى ، وأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى أَثَرِهَا ، قَرِيْبَاً مِنْهَا ، وَأخرجَ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيْثِ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْما « أَتَدْرُوْنَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟ » قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُه اعْلَمُ . قَالَ « إنّ هَذِهِ تَجْرِيْ حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ العَرْشِ ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً ، فَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالُ لَها ارْجِعِيْ مِنْ حَيْثُ جِئْتِ ، فَتَرْجِعُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلَعِهَا تَجْرِيْ لاَ يَسْتَنْكِرُ النَاسُ مِنْهَا شَيْئاً ، حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَلِكَ تَحْتَ العَرْشِ ، فَيُقَالُ لَهَا ارْجِعِي ارْتَفِعِيْ ، اصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ ، فَتُصْبحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا » ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ « أتَدْرُون مَتَى ذَلِكُم ؟ » حِيْنَ ﴿لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيْمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ الآيَة .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عَنهُ قَالْ قَالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها ، فاذا طَلَعَتْ وَرآهَا النَّاسُ آمَنُوا جَمِيْعَاً ، فَذَلِكَ حِيْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسَاً إِيْمَانُهَا » أخرجَهُ البُخَارِيّ .

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ رَضْيَ اللهُ عنهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم « إنّ مِنْ قِبَلِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ بَاباً مَفْتُوحاً عَرْضُهُ سَبْعُوْنَ سَنَةً ، فَلاَ يَزَالُ ذَلِكَ مَفْتُوْحاً لِلتَّوْبَةِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن نَحْوِهِ ، فَإِذا طَلَعَتْ مِنْ نَحْوِهِ ﴿لاَ يَنْفَعُ نفساً ايْمَانُها لم تكنْ آمَنَتْ من قَبْلُ ، أو كَسَبَتْ في أيْمَانِهَا خَيْراً﴾ أخرجَهُ ابنُ ماجَهْ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَة رَضْيَ اللهُ عنه قال قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تطلُعَ الشَّمْسُ من مَغْرِبِهَا فاذا طَلَعَتْ وَرآهَا النَّاسُ آمَنُوا أجْمَعِيْنَ ، فَذَلِكَ حِيْنَ ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسَاً ايْمَانُها لم تَكُنْ آمَنَتْ من قَبْلُ ﴾ فَقَرَأَ الآيَةَ أخْرَجَهُ أبو دَاوُدَ .

وَالمَقْصُودُ أنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأتِي بَعْضُ الآيَاتِ ، لا يَنْفَعُهُ إِيْمَانُهُ إنْ آمَنَ بَعْدَ إِتيانِها ، وَلَا يَحْصُلُ لِلْمُؤْمِن المُقَصِّرِ أنْ يُزَادَ خَيْرُهُ بعدَ ذَلِكِ ، بَلِ يَنْفَعُه مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ الأيْمَانِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ لَهُ مِنْ الخَيْرِ المَوْجُودِ قَبْلَ أنْ يَأتِي بَعْضُ الآيَاتِ ، وَالحِكْمَةُ ظَاهِرَةٌ ، فَإِنه إِنّما كانَ الأيْمَانُ يَنْفَعُ إِذا كانَ بالغَيْبِ وَكَانَ اخْتِيَارَا مِنْ العَبْدِ ، فَأَمَّا بَعْد وُجُودِ الآياتِ فَيَصِيْرُ الأمْرُ شَهَادَةً ، وَلَمْ يَبْقَ للأيْمَانِ فَائِدَةٌ ، لِأَنَّهُ يُشْبِهُ الأيْمَانَ الضّرُوْرِيّ ولِهَذَا لَمَّا أدْرَكَ فرْعَوْنَ الغرَقُ ، وَجزَمَ بالهَلَاكِ ، ﴿ قَالَ آمَنْتُ أنَهُ لا إِلَهَ الا الذي آمَنتْ بِهِ بَنُوا اسْرَائِيلَ وَأنا مِنْ المُسْلِمِيْنَ ﴾ قَالَ اللهُ تَعالَى مُبَيّناً أنَّ هَذَا الأيْمَانَ فِي هَذِهِ الحَالَةِ غَيْرُ نَافِع . ﴿ الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ المُفْسِدِيْنَ ﴾ وَقَالَ تَعالَى مُخْبِراً عَن أمْثَالِ فِرْعَوْنُ مِمَّنْ عَايَنُوْا بأسَ اللهِ ، وَأدْرَكُوا الغُرُورَ ، وَاعْتَرَفُوا بِمَا كَانُوا يُنْكِرُون ، وَأقَرُّوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ ، وَكَفَرُوا بِشُرَكائِهِم مِن دُوْنِهِ ، وَلَكِنْ الأوَانَ كانَ قَدْ فَاتَ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بأسَنَا قَالُوا آمَنّا باللهِ وَحْدَهُ ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِيْنَ ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُم ايْمَانُهم لما رَأوْا بَأسَنَا ، سُنَّةَ الله الَتِي قَدْ خلَتْ في عِبَادِهِ ﴾ ذَلِكَ أن سُنّةَ اللهِ قَد جرَتْ عَلَى أنْ لَا تُقْبَلَ التَّوْبَةُ بَعْدَ ظُهُوْرِ بأسِ اللهِ فَهِيَ تَوْبَةُ فَزَعٍ وَخَوْفٍ ، لَا تَوْبَةُ إِيْمَانٍ صَحِيْحٍ .

شعرا :

وَلَمَّـا دَنَى مِنِّيْ السِّيَـاقُ تَـعَـطَّفَتْ
عَلَيَّ وَعِنْـدِي عَنْ تَعَـطُفِهَـا شُغْـلُ
أَتَتْ وحِيَـاضُ المَـوْتِ بَيْنِي وبَيْنها
وَجَادَتْ بِوَصْلٍ حِيْنَ لا يَنْفَعُ الْوَصْلُ

وَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ في جَمِيْعِ الكُفّارِ ، إذَا وَصَلُوا إلَى هَذِهِ الحَالَةِ الأَضْطِرَارِيَّةِ ، أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُم الأَيْمَانُ ، لِأَنَّ إِيْمَانهُم صَارَ مُشَاهَدَاً ، كَأيْمَانِ الـوَارِدِيْنَ عَلَى القِيَامَـةِ ، والذي يَنْفَـعُ الأَيْمَـانُ بـالغَيْبِ كما قـالَ تعالَى ﴿ الذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ ﴾ فالشَّأنُ في الايْمانِ بالغَيْبِ الذي لَمْ يُرَ وَلَمْ يُشَاهَدْ وَإِنَّمَا نُؤْمِنُ بِهِ لِخَبَرِ اللهِ وَخَبَرِ رَسُولِهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَعَنْ أَبِي العَالِيَةِ في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يُؤْمِنُوْنَ بالغَيْبِ ﴾ ، قَالَ : يُؤْمِنُوْنَ باللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِـرِ ، وَجَنَّتِهِ وَنَـارِهِ ، وَلِقَائِهِ ، وَيُؤْمِنُون بِالحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ ، وبِالبَعْثِ فَهَذَا غَيْبٌ كلُّهُ . ا هـ

قَالَ في لَوَائِحِ الأنْوارِ : فَيَتَلَخَّصُ مِنْ مَجْمُوْعِ ا لأحَادِيْثِ المَذْكُوْرَةِ ، ومَا في مَعْنَاهَا مِمَّا هُوَ مُسَطَّرٌ في الدُّرِّ المَنْثُوْرِ لِلسُّيُوطِيِّ ، أَنَّ الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا لا يَنْفَعُ الإِيْمَانُ المُحْدَثُ في ذَلِكَ اليَوْمِ لِمَنْ كَانَ كافِرَاً أَوْ مُشْرِكَاً، وَلَا التَّوْبَةُ المُحدَثَةُ فِيْهِ لِمَنْ كَانَ مُخَلِّطَاً ، ولَا أعْمَالُ البِرِّ المُحْدَثَةِ فِيْهِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ يَعْمَلَهَا قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ ، وَأمّا مَنْ كَانَ قَبْلَ ذَلِك مُؤْمِنَاً فَانَّ الأيْمَانَ المُجَرَّد عَنْ الأعْمَالِ السَّابِقَةِ عَلَى ذَلِكَ اليَوْمِ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ ، لأجْلِ نَجاتِهِ وَايْمَانِهِ المُتَجَدِّدِ يَوْمَئِذٍ يَنْفَعُهُ أَيْضاً لأَنَّهُ نُورٌ على نُورٍ ، وَإِنْ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ عَنْ سَيِّئَاتِهِ ، وَأنَّ الأيْمَانَ السَّابِقَ مَعَ التَّخْلِيْطِ

يَنْفَعُهُ ، مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ التي كَانَ يَعْمَلُهَا ، وإنَّمَا الممنُوْعُ قَبُولُ تَوْبَتِهِ عَنْ تَخْلِيْطِهِ ، وَقَبُولُ مَا لَمْ يكُنْ مُتَّصِفاً بِهِ مِنْ الأيْمَانِ وأعْمَالِ البِرِّ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ ،وَالضَّابِطُ أَنَّ كُلَّ بِرٍّ مُحْدَثٍ يَكُونُ السَّبَبُ في إحْدَاثِهِ رُؤْيَةَ الآيَةِ ، وَلَمْ يَسْبِقْ مِنْ صَاحِبِهِ مِثْلُهُ ، لاَ يَنْفَعُ سَوَاءً كَانَ مِنَ الأُصُولِ أَوْ الفُرُوعِ ، وَكُلُّ بِرٍّ لَيْسَ كَذَلِكَ ، لكَوْنِ صَاحِبِهِ كانَ عَامِلاً بِهِ قَبْلَ رُؤْيَةِ الآيَةِ يَنْفَعُ ، وَهَذَا التَّحْقِيْقُ نَبَّهَ عَلَى مِثْلِهِ الأَمَامُ المُحَقِّقُ العَلاَمَةُ ابْنُ مُفْلِح في الآدابِ ، قَالَ في قَوْلِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إذا طَلَعَتْ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا طَبَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيْه ، وَكَفَى النَّاسُ العَمَلُ » : لَيْسَ المـرَادُ بِهَذَا الخَبَـرِ تَرْكُ مَـا كَانَ يَعْمَلُهُ مِنَ الفَرَائِضِ - أيْ وَكَذَا مِنْ النَّوَافِلِ - قَبْلَ طُلُوْعِ الشَّمْسِ مِنْ المَغْرِبِ ، فَيَجِبُ الأتْيَانُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُهُ مِنْ الفَرَائِض قَبْلَ ذَلِكَ ، وَيَنْفَعُهُ مَا يَأتِيْ بِهِ مِنْ الأيْمَانِ الذِيْ كَانَ يَأتِيْ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَكَفَى النَّاسَ العَمَلُ ؛أيْ عَمَلا لم يكونوا يَعْمَلُونَهُ ، وحَكَى ابْنُ الجَوْزِيّ عَنْ الضَّحَّاكِ أنَّ مَنْ أدْرَكَهُ بَعْضُ الآياتِ وَهُوَ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ مَعَ إِيْمَانِهِ قُبِلَ مِنْهُ كَما يُقْبَلُ مِنْهُ قَبْلَ الآيَةِ ، قَالَ ابْنُ مُفْلِحٍ : فَالعَمَلُ الصَّالِحُ الذِي سَبَبُهُ ظُهُورُ الآيَةِ اضْطَرَّتْهُ إلَيْهِ،وَأمَّا مَا كَانَ يَعْمَلُهُ فَظُهُوْرُ الآيَةِ لا تأثِيْر لَهَا فِيْهِ،فَبَقِيَ الحُكْمُ كما قَبْلَ الآيَةِ .

شعرا :

كـل يَـزَوْلُ وَكـلُّ هَـالـكٌ فَـان
إلا الالـهُ ومَـا لِـلهِ مِـن ثـانِ

قَـضَى وَقَـدَّرَ تَـقْـدِيْـرَاً فَـأتْقَـنَـهُ
سُبْحَـانَـهُ هُـوَ ذُو عِـزٍ وسُـلْطَانِ
فَـارْضَوا بِمَـا قَدَّرَ الجَبَّـارُ واحْتَسِبُـوا
إنَّ الـرِّضَـا بـالقَضَـا حَقٌ لِـدَيَّانِ
وَبَـادِرُوْا بِـثَـنَـاءِ الـلهِ وارْتَـجِـعُـوْا
عِنْـدَ المَصَـائِبِ في سِـرٍ وَإعْـلاَنِ
لا تَأسَفَنَّ عَلَى مَا فَاتَ مِن عَرَضٍ
فَـالـرَّبُ يَخْلِفُـهُ فَضْـلاً بـاحْسَـانِ
هَـذِيْ الحَيَاةُ وَرَبي صَفْـوُهَـا كَـدَرٌ
لَا بُـدَّ زَائِلَـةٌ عَـن كُـلِ إنْسَـانِ
يَشْقَى اللَّبِيْبُ وَيُمْسِي فِيْهَا ذَا عَطَبٍ
تَـبَـاً لَـهَـا دَارُ أكْـدَارٍ وأحْـزَانِ
إنَّ المُصَابَ الذِي يَـأتِي بِلاَ عَمَـلٍ
يـومَ المَعَـادِ وَمَنْ يُجْـزَى بِحِـرْمَـانِ
وما أَصَابَ جَمِيْعَ الناسِ مِن ضَـرَرٍ
إلَّا بِـظُلْمِهُمُـوا شُـؤْمٍ وَعِصْيَـانِ
نَسْتَغْفِـرُ اللهَ قَـدْ بَـانَتْ جَـرَاءَتُنَـا
عَلَى الا إلَـهَ ولم نَسْخَطْ لِشَيْـطَانِ
نَحْنُ المُسِيْؤُونَ نَحْنُ التَّابِعُوْنَ هَوَى
نَحْنُ الأُلَى خَلَطُوا ذَنْبَـاً بِعِصْيَـانِ
وَنَحْنُ في غَفْلَةٍ عَمَّـا أُرِيْـدَ بِنَـا
وَالكُـلُّ في سَكْـرَةٍ وَيْحَـاً لِسَكْـرَانِ

ولم نُـرَاقِبْ إلهَ العَـرْشِ في عَمَلٍ
وَذَا وَرَبِّـكَ مِـنَّـا ضُعْـفُ إيْـمَـانِ

والله أعلم وصلى الله على محمدٍ وآلِهِ وسلم .

« فَصْـلٌ »

وَمِنْ عَلاَمَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْـرَاطِهَا خُـرُوجُ الدَّابَّـةِ مِنْ الأَرْضِ ، وَخُرُوجُهَا ثَابتٌ بالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، قالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ وَاذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُم دَابَّةً مِنْ الأَرْضِ ، تُكَلِّمُهم أَنَّ النَّاسَ كَـانُوا بِـآيَاتِنـا لا يُوْقِنُونَ ﴾ وَهَذِهِ الدَّابَّة تَخْرُجُ في آخِرِ الزَّمَانِ ، عِنْدَ فَسَـادِ النَّاسِ ، وَتَرْكِهم أَوَامِرَ اللهِ ، وَتَبْدِيْلِهم الدِّيْنَ الحَقَّ وَتُكَلِّمَهُم ، وَالـدَّلِيْلِ مِنْ السُّنَّةِ مَا وَرَدَ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسَلم قالَ « لَا تَقُومُ السَّاعةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آياتٍ » فذكرَ مِنْهَا الدَّابَّةَ . رَواهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ .

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ قالَ « بَادِرُوا بالأعْمَالِ سِتّا » فَذَكَرَ « وَدابّةَ الأَرْضِ » رَواهُ ابْنُ مَاجَهْ ، وَعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُمَرَ، في حَدِيْثٍ طَوِيْل جَاءَ فِيْهِ: قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسَلم الدَّابَّةَ فقالَ « لَهَا ثلاثُ خَرجَاتٍ في الدَّهرِ فَتَخْرُجُ خَرْجَةً مِنْ أَقْصَى البَادِيَةِ ، وَلَا يَدْخُلُ ذِكْرُهَا القرْيَةَ ، أَعْنِي مَكَةَ ، ثم تَكْمُنُ زَمَناً طَوِيْلًا ، ثم تَخْرُجُ خَرجَةً أُخْرَى دُوْنَ تِلْكَ ، فَيَعْلُو ذِكْرُهَا في أَهْلِ البَادِيَةِ ، وَيَدْخُلُ ذِكْرُهَا القَرْيَةَ ، يَعْنِي مَكّة قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « ثُمَّ بَيْنَمَا

النَّاسُ في أَعْظَمِ المَسَاجِدِ وَأَكْرَمِهَا المَسْجِدِ الحَرَامِ ، لَمْ يَرُعْهُم إلَّا وَهِيَ تَرْغُوْ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالمقامِ ، تَنْفُضُ عَن رَأْسِهَا التُّرَابَ فَارْفَضَّ النَّاسُ عَنْهَا شَتَّى وَمَعا ، وَتَثْبُتُ عِصَابَةٌ مِنْ المُؤْمِنِيْنَ وَعَرَفُوا أَنَّهُم لَمْ يُعْجِزُوا اللهَ ، فَبَدَأَتْ بِهِمْ فَجلَتْ وُجُوْهَهُم حَتَّى جَعلَتْهَا كالكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ ، وَوَلَّتْ في الأَرْضِ لَا يُدْرِكُهَا طَالِبٌ ، وَلَا يَنْجُو مِنْهَا هَارِبٌ ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَعوَّذُ مِنْهَا في الصَّلاةِ ، فَتَأْتِيْهِ مِنْ خَلْفِهِ فَتقُولُ : يَا فُلَانُ الآنَ تُصَلِّيْ ، فَيُقْبِلُ عَلَيْهَا فَتَسِمُه في وَجْهِهِ ، ثُمَّ تَنْطَلِقُ ، وَيَشْتَرِكُ النَّاسُ في الأَمْوَالِ وَيَصْطَحِبُونَ في الأَمْصَارِ ، يُعْرَفُ المُؤمِنُ مِنْ الكافِرِ ، حَتَّى إِنَّ المُؤمِنَ لِيَقُولُ يَا كَافِرُ اقْضِنِيْ حَقِّيْ ، وَحَتَّى إِنَّ الكافِرَ يَقُولُ يَا مُؤْمِنُ اقْضِنِي حَقِّيْ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم « تَخْرُجُ الدَّابَّةُ وَمَعهَا خَاتَمُ سُلَيْمَانَ ، وَعَصَا مُوْسَى بْنِ عُمْرَانَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ ، فَتَجْلُو وَجْهَ المُؤمِنِ بالعَصَا ، وَتَخْطِمُ أنفَ الكَافِرِ بالخاتَمِ ، حَتّى إِنَّ أَهْلَ الخِوَانِ لَيَجْتَمِعُونَ ، فَيَقُولُ هَذَا : يَا مُؤْمِنُ . وَيَقُولُ هَذَا : يَا كَافِرُ » رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَأَحْمَدُ .

وَمِنْ علَامَاتِ السَّاعَةِ خُرُوجُ النَّارِ التِي تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنْ تَحْشُرُ النَّاسَ إلى مَحْشَرِهِم ، تَبِيْتُ حَيْثُ باتُوا ، وَتَقِيْلُ حَيْثُ قَالُوا ، وَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ بالسُّنَّةِ ، فَعَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ ، رَاغِبِيْنَ وَرَاهِبِيْنَ ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيْرٍ ، وَثَلاثَةٌ عَلَى بَعِيْرٍ ، وَعَشْرَةٌ عَلَى بَعِيْر ، وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُم النَّارُ ، تَقِيْلُ مَعَهُم حَيْثُ قَالُوا ، وَتَبِيْتُ مَعهم حَيْثُ بَاتُوا ، وَتُصْبِحُ مَعَهُم

حَيْثُ أَصْبَحُوا ، وَتُمْسِي مَعَهُم حَيْثُ أَمْسُوْا » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلم « لَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ وَمِنْهَا « نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليَمن ، تَطْرُدُ النَّاسَ إلى مَحْشَرِهِم » رَوَاهُ السِّتَّةُ الا البُخَارِيّ ، وَعَنْ أَنَس رَضِيَ اللهُ عنهُ ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنِ سَلاَمَ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم عَنْ أَوَّلِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ . فقالَ « نارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ » رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ « سَتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ، أَوْ مِنْ بَحْرِ حَضْرَمَوْتَ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ ، تَحْشُرُ النَّاسَ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا تَأْمُرنَا ؟ قالَ « عليْكُم بالشَّامِ » أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ والتّرمذيّ .

تَنْبِيهٌ :

وَرَدَ عَن النبي صلى اللهُ عليه وَسَلمَ أَنَّ السَّاعَةَ لاَ تَقُومُ إلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ ، فَقَدْ أَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيْثِ ابن عُمرَ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ « تَجِيْءُ بَعدَ عِيْسَى عليهِ السَّلامُ رِيْحٌ بَارِدَةٌ مِنْ قِبَلِ الشَّامِ ، فلا تُبْقِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحداً في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ الإِيْمَانِ إلا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحدَكُم دَخلَ في كَبَدِ جَبلٍ لَدَخلَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ ، فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ في خِفَّةِ الطَّيرِ ، وَأَحْلاَمِ السِّبَاعِ ، لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفاً ، وَلاَ يُنْكِرُونَ مُنْكَراً فَيَتَمَثَّلُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ ، فَيَقُولُونَ مَا تَأْمُرنَا ؟ فَيَأْمُرهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ فَيَعْبُدُونَهَا

وَهُم في ذَلك دَارٌّ رِزْقُهم، حَسَنٌ عَيْشُهُم ، ثُمَّ يُنْفَخُ في الصُّوْرِ » وَأَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ أَيْضاً وَالتِّرْمذِيّ مِنْ حَدِيْثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ « فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيْحاً طَيِّبَةً ، فَتَأْخُذُ تَحْتَ آبَاطِهِم ، فَتَقْبِضُ رُوْحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِم ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ تَهَارُجَ الحُمُرِ » ـ أَيْ يَتَسَافَدُونَ تَسَافُدَ الحُمُرِ جَمْعُ حِمَارٍ ـ « فَعَلَيْهِم تَقُومُ السَّاعَةُ » .

وفي حَدِيْثِ أبي هُرَيْرَةَ عِنْدَ الحَاكِمْ « أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ رِيْحاً مِنْ اليَمَنِ ، أَلْيَنُ مِنْ الحَرِيْرِ ، فَلاَ تَدَعُ أَحَداً في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ ايْمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ » .

وَقَالَ السَّفَارِيْنِي نَاظِماً لِلْعَلاَمَاتِ العِظَامِ ، وَالأَشْرَاطِ الجِسَام ، التِي تَعْقِبُهَا السَّاعَةُ .

وما أتى بالنص مِن اشْرَاطِ
فَكُلُّهُ حَقٌ بلا شِطَاطِ
منها الامامُ الخاتِمُ الفَصِيْحُ
مُحَمَّدُ المَهْدِيُ وَالمَسِيْحُ
وأَنَّه يَقْتُلُ لِلدَّجَالِ
بِبَابِ لِدُّخلِ عن جِدَالِ
وَأَمْرَ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ أَثْبتِ
فَإِنَّهُ حَقٌ كَهَدْمِ الكَعْبَةِ
وَأَنَّ مِنْهَا آيَةُ الدُّخان
وأَنَّهُ يُذْهَبُ بِالقُرآنِ

طُـلُوعُ شَـمْسِ الأفُـقِ مِن دَبُـورِ
كَـذَاتِ أَجْيَـادٍ على الـمَشْـهُـوْرِ
وآخُـرُ الآيَـاتِ حَـشْـرُ الـنَّـارِ
كَـمَـا أَتَى فـي مُحْـكَمِ الأَخْبَـارِ
فـكـلُهَـا صَـحَّت بـهـا الأخْبَـارُ
وَسَـطَّرَتْ آثَـارَهَـا الأَخْـيَـارُ

وقَال القَحْطَانِي:

أَيْقِنْ بـأشِـراط القِيَـامَـةِ كُـلِّهَـا
واسْمَـعْ هُـدِيْتَ نَصِيْحَتِي وَبَيَـانِي
كالشّمسِ تطلَعُ من مَكَـان غُرُوبِها
وَخُـرُوجِ دَجَّـالٍ وَهَـوْلِ دُخَـانِ
وَخُـرُوْجِ يَـأجُـوْجٍ وَمـأجُـوجٍ معـاً
مِن كُـلِّ صَقْـعٍ شـاسِـعٍ وَمَكَـانِ
« ونُـزُوْلِ عِيْسَى قـاتِـلاً دَجَّـالَهُمْ
يَقْضِيَ بِحُكْمِ العَـدْلِ والإحسـانِ »

اللهم يَا مُصْلِحَ الصَّالِحِيْنَ أَصْلِحْ فَسَادَ قُلُوْبِنَا واسْتُرْ في الدُنْيَا والآخِرَة عُيُوْبَنَا واغفِرْ بِعَفْوِكَ وَرَحْمَتِكَ ذُنُوْبَنَا ، وَهَبْ لَنَا مُوْبِقَاتِ الجَرَائِرِ واسْتُرْ عَلَيْنَا يَا مَوْلاَنَا فَاضِحَاتِ السرائِر ، ولا تُخْلِنَا في مَوْقِفِ القِيَامَةِ من بَرْدِ عَفْوك وَغُفْرَانِك ولا تَتْرُكْنَا مِنْ جَمِيْلِ صَفْحِكَ وَاحْسانِك وآتِنَا في الدُنْيَا حَسَنَةَ وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَاب النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلوالدينا ولجميع المُسْلِمِيْن بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الراحِمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

اعْلَمْ وَفَّقنَا اللهُ وَإِيَّاكَ وَجَمِيْعَ المُسْلِمِيْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الخَلْقَ لِيَعْبُدُوْهُ، وَيَعْرِفُوْهُ وَيَخْشَوْهُ وَيَخافُوهُ، وَنَصَبَ لَهُم الأدِلَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ لِيَهابُوْهُ، وَيَخَافُوهُ خَوْفَ إِجْلالٍ، وَوَصَفَ لَهُم شِدَّةَ عَذَابِهِ، وَدَارَ عِقَابِهِ التِيْ أَعَدَّهَا لِمَنْ عَصَاهُ، لِيَتَّقُوهُ بِصَالِحِ الأَعْمَالِ، وَلِهَذَا كَرَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كِتَابِهِ ذِكْرَ النَّارِ وَمَا أَعَدَّهُ فِيْهَا لأَعْدَائِهِ مِنْ العَذَابِ والنَّكَالِ وَالاغلالِ، وَمَا احْتَوتْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّرِيْعِ والزَّقُّومِ والحَمِيْمِ وَالسَّلاسِلِ والغَسَّاقِ وَالغِسْلِيْنِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِيْهَا مِنَ الأَهْوالِ وَالفَضَائِعِ وَالعَظَائِم، وَدَعَا عِبَادَهُ بِذَلِكَ إِلَى خشْيَتِهِ وَتَقْوَاهُ، وَالمُسَارَعَةِ الى امْتِثالِ مَا يَأْمُر بِهِ وَيُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَاجْتِنَابِ مَا يَنْهَى عَنْهُ وَيَكْرَهُه وَيَأْبَاهُ، وَأَخْبَرَ جَلَّ وَعَلا بِأَنَّ الخَلْقَ وَارِدُوْهَا قالَ تَعالَى ﴿ وَإِنْ مِنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا، ثم نُنَجِّي الذِيْنَ اتقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِيْنَ فِيْهَا جثِيًا ﴾ فأَنْتَ مِنْ الوُرُودِ على يَقِيْنٍ، وَمِنْ النَّجَاةِ في شَكٍّ، فَيَا أَيُّها الغَافِلُ السَّاهِيْ عَنْ نَفْسِهِ، المَغْرُورُ بِمَا هُوَ فِيْهِ مِنْ الاشْتِغَالِ بِعَمَائِرِهِ وَأَرَاضِيْهِ وَسَيَّارَاتِهِ، وَشَـرِكَاتِـهِ وَمُقَاوَلاَتِـهِ وَزَوْجَاتِـهِ وَأَوْلاَدِهِ، وَكُلِّ ما يُلْهِيْهِ عنْ ذِكْرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ، والالتِفَاتِ الى دَارِ القَرَارِ، دَعْ التَّفكُّرَ وَقَتْلَ الوَقْتِ فِيْمَا أَنْتَ مُرْتَحِلٌ عَنْهُ، وَجَـادٌّ في السَّيْرِ عَنْهُ، وَاصْرِفْ فِكْرَكَ فِيْمَا أَمَامَكَ فَاسْتَشْعِرْ في قَلْبِكَ هَوْلَ ذَلِكَ المَوْرِدِ، لَعَلكَ تَسْتَعِدّ لِلنّجَاةِ مِنْهُ وَتَأَمَّلْ في حَالِ الخَلْقِ وَقَد خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِم حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ﴿ مُهْطِعِيْنَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ تَفَكَّرْ في ازْدِحَامِ الخَلاَئِق وَقَدْ صَهرَتْهُم الشَّمْسُ، إِلَّا مَنْ أَظَلَّهُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا

ظِلَّ الا ظِلُّهُ ، وَاشْتَدَّ الكَرْبُ وَالغمُّ من الوَهَجِ ، وتدافَعَتْ الخلائقُ لِشِدَّةِ الزِّحَامِ ، وَاخْتِلَافِ الاقْدَامِ ، وَانْضَافَ إِلى ذَلِكَ شِدَّةُ الخَجَلِ والحَيَاءِ ، والخَوْفِ مِنْ الفَضَائِحِ وَالاخْتِزَاءِ عِنْدَ العَرْضِ عَلَى الجَبَّارِ ، وَقُرْبُ الشَّمْسِ مِنْ الخلْقِ فَيَبْلُغُ عَرَقُهم في الأَرْضِ سَبْعِيْنَ ذِراعاً ، كَمَا في حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الذِيْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ :

قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم « يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُم في الأَرْضِ سَبْعِيْنَ ذِرَاعاً » .

شِعْرَاً :

وَكَيْفَ يَلَذُّ العَيْشَ مَنْ هُوَ مُوْقِنٌ
بِمَوْقِفِ عَدْلٍ يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ
كَأَنَّا نَرَى أَنْ لَا نُشُوْرَ وَأَنَّنَا
سُدَىً مالَنَا بَعْدَ المَمَاتِ مَصَادِرُ
أَلَا لَا وَلَكِنَّا نَغُرُّ نُفُوسَنَا
وَتَشْغَلُنَا اللَّذاتُ عَمَّا نُحَاذِرُ

وَتَأَمَّلْ صِفَةَ يَوْمِ القِيَامَةِ وَدَوَاهِيْهِ ، لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَعِدَّ لَهُ قَبْلَ أَنْ تُفَارِقَ الرُّوْحُ البَدَنَ ، وَيُحَالُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، وَتَنْدَمْ حِيْنَ لَا يَنْفَعُكَ النَّدمُ ، فَإِنَّ في ذَلِكَ اليَوْمِ الرَّهِيْبِ تَنْفَطِرُ السَّمَاءُ وَالكَوَاكِبُ تَنْتَثِرُ ، وَالبِحَارُ تُفَجَّرُ ، وَالنُّجُومُ تَنْكَدِرُ ، وَالشَّمْسُ تُكَوَّرُ ، وَالجِبَالُ تُسَيَّرُ ، وَالعِشَارُ تُعَطَّلُ ، والوُحُوشُ تُحْشَرُ ، وَالنُّفُوسُ تُزَوَّجُ ، وَالجَحِيْمُ تُسَعَّرُ وَالجَنَّةُ تُقَرَّبُ ، وَالأَرْضُ تُمَدُّ يَوْمَ تَرى الأَرْضَ قَدْ زُلْزِلَتْ ، وَأَخْرَجَتْ أَثْقَالِهَا ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوا أَعْمَالَهُم﴾ يَوْمَ تُحْمَلُ ﴿ الأَرْضُ وَالجِبالُ فَدُكَّتَا

دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتْ الوَاقِعَةُ ، وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهيَةٌ ، والملكُ على ارْجَائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُم يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ، يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخفَى مِنْكُم خَافِيَة ﴾ ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بالغَمَامِ ، وَنُزِّلَ الملائِكَةُ تَنْزِيْلا ﴾ ﴿ يَوْمَ يَفِرّ المَرْءُ مِن أَخِيْهِ ، وَأُمِّه وَأَبِيْهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْهِ ، لِكُلِّ امْرِىءٍ منهُم يومَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيْهِ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كالفَرَاشِ المَبْثُوث ، وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالعِهْنِ المَنفُوشِ ﴾ ﴿ وَيومَ نُسَيِّرُ الجِبَالُ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ يومَ تُرَجُّ الأرْضُ رَجّا ، وَتُبَسُّ الجبالُ بَسًّا ، يَوْمَ ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى وَما هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيْدٌ ﴾ ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ، وَالسَّمواتُ ، وَبَرزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾ يَوْمَ يَنْسِفُ اللهُ الجِبَالَ ﴿ نَسْفَا فَيَذرُهَا قاعاً صَفْصَفا ، لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمْتَا ﴾ يَوْمَ ﴿ ترى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ يَوْمَ تَنْشَقُّ فِيْهِ السَّمَاءُ فَتَكُونُ ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَفْسِهَا ، وَتُوَفَّى كلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وقَالَ تَعَالَى ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِيْ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُوْنَ ﴾ وَقَالَ ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيْهِ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيْهِ إِلَى اللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ الآيَة ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوْءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنْ بَيْنَهَا

وَبَيْنَه أَمَداً بَعِيْداً ﴾ ﴿ يَوْمَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ يَوْمٌ تَعْلَمُ فِيْهِ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَحْضَرَتْ وَتَشْهَدُ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ، يَوْمٌ تَخْرُسُ فِيْهِ الأَلْسُنُ ، وَتَنْطِقُ فِيْهِ الجَوارِحُ ، يَوْمٌ شَيَّبَ ذِكْرُه سَيِّدَ المُرْسَلِيْنَ ، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم « شَيَّبَتْنِي هُوْدٌ وَالوَاقِعَةُ والمُرسَلاتُ ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » أَخْرَجَهُ الحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ، وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذيّ وَحَسَّنَهُ .

وَقَالَ اللهُ تَعالَى ﴿ اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِم ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيْهِم وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهم بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وقَالَ تَعالَى ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهم لِمَ شَهِدْتُم عَلَيْنا ؟ قَالُوا : انْطَقَنا اللهُ الذِي انْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وقالَ ﴿ بَلْ الانْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيْرَةٌ ﴾ قَالَ المُفَسِّرُوْنَ : إِنَّهُم يُنْكِرُوْنَ الشِّـرْكَ وَتَكْذِيْبَ الرُّسُلِ ، فَيَخْتِمُ اللهُ عَلَى أَفْواهِهِمْ خَتْماً لَا يَقْدِرُوْنَ مَعْهُ عَلى الكَلَامِ ، وَتَكَلَّمُ أَيْدِيْهِم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُوْنَهُ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلهُم عَلَيْهم بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَهُ باخْتِيَارِهِمْ ، بَعْدَ اقْدَارِ اللهِ تَعالَى لَهَا عَلَى الكَلام ، لِيَكُونَ أَدلَّ عَلَى صُدُورِ الذَّنْبِ مِنْهُمْ ، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ والنَّسائِيّ وَالبَزّارُ وَغَيْرُهُم عَنْ أَنَسٍ في قَوْلِهِ تَعالَى ﴿ اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِم ﴾ الآيَةِ قالَ : كُنَّا عِنْـدَ النبي صلى الله عليه وسلم ، فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، قَالَ « أَتَدْرُوْنَ مِمَّ أضْحَكُ ؟ » قُلْنَا : لَا يَا رَسُولَ اللهِ . قالَ « مِنْ مُخَاطَبَةِ العَبْدِ رَبَّهُ ، يَقُولُ يا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِيْ مِنْ الظُّلْمِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، فَيَقُولُ : إِنِّيْ لا أُجِيْزُ عَليَّ إِلَّا شَاهِدا مِنّيْ ، فَيَقُولُ ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عليك حَسِيْبا ﴾ وَبِالكِرَامِ الكاتِبينَ شُهُوداً ، فَيُخْتَمُ على فِيْهِ وَيُقالُ لِأَرْكانِهِ انْطِقي ، فَتَنْطقُ بِأَعْمَالِهِ ، ثم يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلَامِ ، فَيَقُولُ : بُعْداً لَكُنَّ وَسُحْقاً فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ » وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ والتِّرْمِذيّ عَنْ أبي

سَعِيْدٍ وَأَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالا قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « يَلْقَى العَبْدُ رَبَّهُ ، فَيَقُولُ اللهُ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الابلَ ، وَأَذَرُكَ تَرأَسُ وَتَربَّعُ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى أيْ رَبِّ . فَيَقُولُ : أفظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ ؟ فَيَقُولُ : لا ، فَيُقَالُ : إِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيْتَنِي ، ثم يَلْقَى الثَّانِي فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِث فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَيَقُولُ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَرَسُولِكَ ، وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطاعَ ، فَيَقُولُ ألا نَبْعَثُ شَاهِداً عَلَيْكَ ؟ فَيُفَكِّرُ في نَفْسِهِ : مَنْ الذِيْ يَشْهَدُ عَلَيَّ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيْهِ ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ انْطِقِيْ ، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَفَمُهُ وَعِظَامُه بِعَمَلِهِ مَا كانَ ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ ، وذَلِكَ المنَافِقُ وَذَلِكَ الذِي يُسْخَطُ عَلَيْهِ » .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في ذِكْرِ بَعْضِ أهْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ :

وَتَحَدِّثُ الارضُ التِيْ كُنَّا بِهَا
أخْبَارَهَا في الحَشْرِ لِلرَّحْمَانِ
وتَظلُّ تَشْهَدُ وهْيَ عَدْلٌ بالذي
مِن فَوقِهَا قد أحَدَثَ الثَّقلانِ
وتُمَدُّ أيضاً مِثْلَ مَدِّ أدِيْمِنَا
مِن غيرِ أوْدِيَةٍ ولا كُثْبَانِ
وتُقِيُّءُ يومَ العَرضِ مِن أكبادِهَا
كالأُصْطِوَانِ نَفَائِسَ الأثْمَانِ
كلٌ يَراهُ بِعَيْنِهِ وعِيَانِهِ
ما لاِمِرْئٍ بالأخذِ منه يَدَانِ

وكـذا الجِبالُ تُفَتُ فَتـاً مُحْكَماً
فتعودُ مِثْلَ الـرَّمْـلِ ذِي الكُثْبَـانِ
وتكـونُ كـالعِهْنِ الـذي ألـوانُـهُ
وصِبَـاغُـه مِن سَـائِـر الألْـوَانِ
وتُبَسُ بَسـاً مِثْـلَ ذاكَ فَتَنْشَنِي
مِثْـلَ الهَبَـاءِ لِنَـاظِـرِ الإنسـانِ
وكَـذَا البِحَـارُ فـإنَّهـا مَسْجُـورَةٌ
قـد فُجـرتْ تَفْجِيـرَ ذِي السُلطَانِ
وَكَـذَا لَـكِ القَمـرَانِ يَـأْذَنُ ربُنَـا
لَهُمَـا فَيَجْتَمِـعَـانِ يَلْتَقِيَـانِ
هَـذِيْ مُـكَـوَّرةٌ وَهَـذا خَـاسِفٌ
وكِـلاَهُمَـا فِي النَـارِ مَـطْرُوحَـانِ
وكُـواكِبُ الأفـلاكِ تُنْثَـرُ كُـلُّهَـا
كَـلآلِـىءٍ نُثِـرَتْ عَـلى مَـيْـدَانِ
وكـذا السمـاءُ تُشَقُّ شَقـاً ظاهِـراً
وتَـمُـورُ أيـضـاً أيَـمَـا مَـوَرَانِ
وتَصيرُ بعدَ الانْشقَاقِ كمِثْلِ هَذا المهْلِ أو تكُ وَرْدَةَ كدِهَانِ

وقال القطحاني رحمه الله :

يَـوُم القِيَامَـةِ لَـوْ عَلِمْتَ بهَـوْلِـهِ
لَفَـرَرْتَ مِن أهْـلٍ ومِـن أوْطَـانِ

يَـومٌ تَـشَقَّـقَتِ الـسَّمَـاءُ لِـهَـولِـهِ
وتـشيـبُ مِـنـه مَـفَـارِقُ الـوِلْـدَانِ
يَـومٌ عَـبُـوسٌ قَـمْـطَرِيْـرٌ شَـرُّهُ
في الخَلْقِ مُنْتَشِـرٌ عَـظِيْمٌ الشَّـأنِ
يَـوْمَ يَـجِيءُ الـمُتَـقُـونَ لِـرَبـهـم
وفـداً عَـلَى نُجُـبٍ مِن الـعِـقْـيَـانِ
ويَجيء فيـه المُجْـرِمُـونَ إلى لَـظَى
يَـتَـلَـمـظُونَ تَـلَمُظَ الـعَـطْشَـان

« موعظة »

فَيَا أيُّهَا المُهْمِلُونَ الغَافِلُون تَيقَّظُوا فَإلَيْكُم يُوجَّهُ الخَطَابُ ويَا أيُّها النَّائِمونَ انْتَبِهُوا قَبْل أنْ تُناخَ لِلّرحيْلِ الركابْ قَبْلَ هُجُوم هَادِمِ اللذَّاتِ ومُفَرِقَ الجَمَاعَاتِ ومُذِلِّ الرِّقَابِ ومُشَتِّتِ الأحْبَابِ فَيَا لَهُ مِنْ زَائِر لا يَعُوقُهُ عَـائِق ولا يُضْـرَبُ دُوْنَـهُ حِجَـاب ، وَيَالَهُ من نـازِلٍ لا يَسْتَـأذِنُ على المُلوُكِ ولا يَلِحُ مِنْ الأبْوَابِ ، ولا يَرْحَمُ صَغِيراً ولا يُوَقِّرُ كَبْيراً ولا يَخاف عَظِيماً ولا يَهَابُ ألا وانَّ بَعْدُهُ مَا هُوَ أعْظَمُ مِنْهُ مِنْ السُّؤَالِ والْجَوَابِ ، وَوَرَاءَهُ هَوْلُ البَعْثِ والحَشْرِ وأحْوَالِهِ الصِّعَاب مِن طُوْل المَقَامِ والازدِحَامِ في الأجَسَامِ والمِيْزانِ والصِّرَاطِ والحِسَابِ ، اللَّهُمَّ أيقضنا مِن نَوم الغفْلَةِ ونَبِّهْنَا لاغتَنامِ أوقاتِ المُهْلَةِ وَوَفِقْنَا لِمَصَالِحنا واعْصِمْنَا مِنْ قَبَائِحنا وذُنُوبِنَا ولا توآخِذْنَا بِمَا انَطوتْ عليه ضمائِرنا وَأَكَنَّتْهُ سَرَائِرَنَا واغفِر لَنَا ولَوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل »

ثُمَّ تَأَمَّلْ في المِيْزَانِ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مِيْزَانٌ حَقِيْقِيّ ، لَهُ كِفَّتَانِ وَلِسَانٌ ، تُوْزنُ بهِ أعْمَالُ العِبَادِ ، قالَ اللهُ تعالى ﴿فَمنْ ثَقُلَتْ موازِيْنه فَأولئِكَ هُمْ المفْلِحُونَ﴾ وقَالَ تَعالَى ﴿وَنضعُ المَوازِيْنَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ ، فَلا نُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَانْ كانَ مِثْقَالُ حَبّةٍ من خَرْدلٍ أتيْنَا بها ، وَكَفى بنَا حَاسِبيْنَ﴾ وقَالَ تَعَالى ﴿فأمّا مَنْ ثَقُلتْ مَوازِيْنُه فهُو في عِيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ، وأمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِيْنُه فأمّه هَاوِيَةٌ ، ومَا أدْرَاكَ مَا هِيَهْ نارٌ حَامِيَة﴾ .

وَفي الصَّحِيْحَيْنِ عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « كَلِمَتانِ خفِيْفَتانِ على اللسَانِ ، ثِقْيلتَانِ في المِيْزَانِ ، حَبِيْبَتان إلى الرّحْمَنِ ، سُبْحَانَ اللهِ وبحمْدِه ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيْمِ » الأَكثرُ على أنهُ مِيْزانٌ وَاحِدٌ ، لِجَمِيْعِ الأُمَمِ وَلِجَمِيْعِ الأعْمَالِ ، وَإِنَّمَا جُمِعَ باعْتِبَار تَعَدُّدِ الأعْمَالِ المَوْزُونَةِ ، أو باعْتِبَارِ الاشْخَاصِ ، أو لِلتَّفخِيْمِ ، كمَا في قَوْلِهِ تَعَالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِيْن﴾ مَعَ أنَّهُ لَم يُرْسَلْ إِلَيْهِم إلا وَاحِدٌ ، وَقِيْلَ لِأَنَّ المِيْزَانَ يَحْتَوى علىَ لِسَانٍ وَكِفَّتَيْنِ وشَاهِيْنَ ، ولا يَتِمُّ الوَزْنُ إلا باجْتِمَاعِهَا ، ورُوِيَ أنّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ سَأَلَ رَبَّهُ أنْ يُرِيَهُ المِيْزَانَ ، فأرَاهُ كُلَّ كِفَّةٍ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمغْرِبِ ، فغُشِيَ عَلَيْهِ ثُمّ أفاقَ، فَقَالَ : يَا إِلٰهِيْ مَنْ الذِيْ يَقْدِرُ أنْ يَمْلأ كِفّتَهُ حسَنَاتٍ ؟ فقالَ : يَا دَاودُ إِني إِذا رَضِيْتُ عَن عَبْدِي مَلأتُها بِتَمْرَةٍ .

وَأخرَجَ البَزّارُ والبَيْهَقِيّ في البَعْثِ عن أنَس بنِ مَالكٍ رَضْيَ اللهُ عنه ، عن النبي صلى اللهُ عليه وسلمَ قالَ « يُؤتَى بابنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ ،

فيُوقِفُ بَيْنَ كِفَّتِي المِيْزَانِ ، وَيُوْكَّلُ بِهِ مَلكٌ ، فإنْ ثَقُلَ ميْزانُه نادَى المَلَكُ بصَوْتٍ يُسْمِعُ الخَلائِقَ : سَعُدَ فُلانُ بْنُ فلانٍ ، سَعَادَةً لا يَشْقَى بَعْدَها أبدًا ، وَانْ خَفَّ مِيْزَانُه نَادَى المَلَكُ بصَوْتٍ يُسْمِعُ الخَلائِقَ : ألا شَقِي فُلانٌ شَقاوَةً لا يَسْعَدُ بَعْدَها أبدا » وعَنْ عائِشَة رضْيَ اللهُ عَنْهَا قالَتْ ذَكَرْتُ النَّارَ فَبكَيْتُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ « مَا يُبْكِيْكِ ؟ قُلتُ : ذكرْتُ النّارَ فَبكَيْتُ ، فَهَلْ تذكُرونَ أهْلِيْكُم يَوْمَ القِيامَةِ فقَالَ « أمّا في ثلاثِ مَواطِنَ فلا يَذكرُ أحَدٌ أحَدًا ، عندَ الميْزانِ ، حتّى يَعْلَمَ أيَخِفُّ مِيْزَانُه أَمْ يَثْقُلُ ، وعنْدَ تَطايرِ الصُّحُفِ ، حَتَّى يَعْلَمَ أيقعُ كِتابَه في يَمِيْنِه أمْ في شِمَالِهِ ، أمْ وراءَ ظهْرِهِ ، وعِنْدَ الصِّراطِ إِذا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جهنَّمَ ، حَتَّى يَجُوزَ » رَواهُ أبُو دَاوُدَ .

فلا تَغْفَلْ عن المِيْزَانِ ، بَلْ فَكِّرْ فِيْهِ وَخَطَرِهِ ، وَأَنَّ الأعْيُنَ شَاخِصَةٌ إلَى لِسَانِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَنْجُو مِنْ خَطَرِهِ الا مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ في الدّنيا ، وَوزنَ أَعْمَالَهُ فِيْهَا بِمِيْزَانِ الشْرعِ ، وَتَتَبَّعَ أَقْوالَهُ وَأَفْعالَهُ وَخطَرَاتِهِ وَلَحظَاتِهِ ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : حَاسِبُوا أَنْفُسَكُم قَبْلَ أنْ تُحاسَبُوا ، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَن تُوْزَنُوا ، وَاعْلَمْ أَنَّ مِمَّا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ كَالمِيْزَانِ الصُّحُفُ ، وَهِيَ صُحُفُ الأعْمَال ، قالَ اللهُ تَعالَى ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ وَقَالَ تَعالَى ﴿ وَكُلَّ انْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوْرا ، إقرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيْبَا ﴾ فَيُجْمَعُ لَهُ عَمَلُهُ كُلُّهُ في كِتَابٍ يُعْطَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِيْنَ البَعْثِ وَالحِسَابِ ، يَلْقَاهُ مَفْتُوحاً غَيْرَ مَطْوِيّ ، يَقْرَؤُه ، فِيْهِ جَمِيْعُ عَمَلِهِ مِنْ أَوّلِ عُمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ ، قالَ تَعالَى ﴿ يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخرَ ، بَلْ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيْرَةٌ ، وَلَوْ

أَلْقَىٰ مَعَاذِيْرَهُ ﴾ وَقَالَ تَعالَى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُم لَحَافِظِيْنَ ، كِراماً كَـاتِبِيْنَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ ﴾ وَقَالَ ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيْبٌ عَتِيْدٌ ﴾ وَقَالَ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُم وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ ، وَرُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِه يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ ﴾ .

فَلَيْسَ بِمُهْمَلٍ بَلْ لَهُ مَلاَئِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهِ ، حَرَسٌ بِاللَّيْلِ وَحَرَسٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَحْفَظُوْنَهُ مِنْ الأَسْوَاءِ وَالحَادِثَاتِ ، كَمَا يَتَعَاقَبُ مَلاَئِكَة آخَرُونَ لِحِفْظِ الأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ ، مَلاَئِكَةٌ بِالليْلِ ، وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، فاثْنَانِ عَنْ اليَمِيْنِ وَالشِّمَالِ يَكْتُبَانِ الأَعْمَالَ ، صَاحِبُ اليَمِيْنِ يَكْتُبُ الحَسَنَاتِ ، وَصَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَآتِ ، وَمَلَكَانِ آخرانِ يَحْفَظانِهِ وَيَحْرِسَانِه ، وَاحِدٌ مِنْ وَرائِهِ ، وَآخَرُ مِنْ قُدَّامِهِ ، فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَمْلاَكٍ بِالنَّهَارِ ، وَأَرْبَعَةٍ آخَرِيْنَ بِالليْل بَدَلاً ، حَافِظَانِ وَكَـاتِبَانِ ، كَمَا فِي الحَدِيْثِ الصَّحِيْـح « يَتَعَاقَبُونَ فِيْكُم ، مَلاَئِكَةٌ بِالليْلِ ، وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الصُّبْحِ ، وَصَلاَةِ العَصْرِ ، فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ الذِيْنَ بَاتُوا فِيْكُم ، فَيَسْأَلُهم وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِيْ ؟ فَيَقُوْلُوْنَ : أَتَيْنَاهُمْ وَهُم يُصَلُّوْنَ ، وَتَرَكْنَاهُم وَهُمْ يُصَلُّوْنَ » وفي الحَـدِيْثِ الآخر « إِنَّ مَعَكُم مَنْ لاَ يُفَـارِقُكُمْ إِلَّا عِنْدَ الخَـلاَءِ وَعِنْـدَ الجِمَاعِ ، فاسْتَحْيُوهُم وَأَكْرِمُوهُمْ » .

شِعْرَاً :

إِنْ سَـرَّكَ الشَّرَفُ العَـظِيْمُ مَـعَ الغِنَى
وَيَـكُـونُ يَـوْمَ أَشَـدِّ خَـوْفٍ وَابِـلَا

يَـوْمَ الحِسـابِ إِذَا النُّفُـوسُ تَـثـاقَلَتْ
فـي الـوَزْنِ إِذْ غَـبَطَ الأَخَـفُ الأثْـقَـلا
فـأعمَلْ لِمَـا بَعْـدَ المَمَـاتِ ولا تَكُنْ
عن حَظِ نفسِـكَ في حَيَـاتِـكَ غَـافِـلا

اللهُمَّ انْهَجْ بِنَا مَنَاهِجَ المفلِحِيْنَ وألْبِسْنَـا خِلَعَ الإيمانِ واليَقِيْنَ وخُصَّنَـا مِنْكَ بـالتوفِيْقِ المُبِيْنِ وَوَفِّقْنَـا لِقَوْلِ الحَقِّ وَاتِّبَـاعِهِ وَخَلِّصْنَـا مِن البَاطِلِ وابْتِدَاعِهِ وكُنْ لَنَا مُؤَيِّدا ولا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيْنَا يَدَا وَاجْعَلْ لَنَا عَيْشاً رَغَدَا ولا تُشْمِتْ بِنَا عَدُواً ولا حَاسِدَاً وَارْزُقْنَا عِلْماً نافِعا وَعَمَلاً مُتَقَبَّلا وَفَهْماً ذَكِياً وَطَبْعَاً صَفِياً وَشِفَاءً مِن كُلِّ دَاءٍ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المسلمين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلهِ وصحبه أجمعين .

« فَصْـلٌ »

إِذَا فَهِمْتَ ذلِكَ ، وَأَنَّكَ غَيْرُ مَتْرُوكٍ سُدَى ، فَالوَاجِبُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ عاقِلاً تُرِيْدُ نَجاةَ نَفْسِكَ أَنْ لا تَغفَلَ وَلاَ سَاعَةً ، وَأَنْ تَكُونَ دَائِماً على حَذَرٍ ، وَتَفَكَّرْ فِيْمَا أَمَامَكَ مِنَ العَقَبَاتِ ، وَالأَهْوَالِ المُزْعِجَاتِ ، وَاذْكُرْ تَطايُرَ الصُّحُفِ إِلَى الأَيْمَانِ وَالشَّمَائِلِ ، قالَ تَعالَى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِيْنِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ ﴾ الآيَاتِ وَقَالَ عَزَّ مِنْ قائِلٍ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْتَ كِتابِيَهْ ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ، يَا لَيْتَها كَانَتْ القَاضِيَهْ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ، هلَكَ عني سُلْطانِيَهْ ، خُذُوهُ فَغُلوهُ ، ثُمَّ الجَحِيْمَ صَلُّوهُ ، ثم في سِلْسِلَةٍ ذرعُهـا سبعُـونَ ذِرَاعـاً

فاسْلكُوهُ ﴾ وقالَ جلَّ وعَلا ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِيْنِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيْرا وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُورَا ، وَأَما مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوْرَا وَيَصْلَى سَعِيْرَا ﴾ .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : يُؤْتَى بالعَبْدِ أَوِ الأمَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُنَادِيْ مُنَادٍ على رُؤ س ِ الأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ : هَذَا فلانُ بنُ فلانٍ مَنْ كَانَ لَهُ حَقٌّ فليَأْتِ إِلى حَقِّهِ ، فَتَفْرَحُ المَرْأَةُ أَنْ يَكُونَ لَهَا الحَقُّ عَلَى أَبِيْهَا أَوْ أُمِّهَا أَوْ أَخِيْهَا أَوْ زَوْجِهَا ، ثم قَرَأَ ﴿ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُم يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ فَيَغْفِرُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ مَا يَشَاءُ ، وَلَا يَغْفِرُ مِنْ حُقُوقِ النَّاس ِ شَيْئاً فَيُنْصَبُ لِلنَّاس ِ ، فَيَقُولُ ائْتُوا إِلَى النَّاس ِ حُقُوقَهُم ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ فَنِيَتْ الدّنيَا ، مِنْ أَيْنَ أَوْتِيْهِم حُقُوقَهُم ؟ فَيَقُولُ : خذُوا مِنْ أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ ، فَأَعْطُوا كُلَّ ذِيْ حَقٍّ حَقَّهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، فإِنْ كَانَ وَلِيّاً لِلّهِ ، فَفَضَلَ لَهُ مِثْقَالَ ذَرَةٍ ضَاعَفَهَا اللهُ لَهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ بِهَا الجَنّةَ ، ثم قَرَأَ ﴿ انَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وانْ تكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ وَانْ كَانَ عَبْداً شَقِيّاً قالَ الملَكُ : رَبِّ فَنِيَتْ حَسَنَاتُه وَبَقِيَ طَالِبُونَ كَثِيْرٌ ، فَيَقُولُ خُذُوا مِنْ سَيِّئَاتِهِم فَأَضِيفُوهَا إِلَى سَيِّئَاتِهِ ، ثم صُكُّوا لَهُ صَكّاً إِلَى النار .

وَعَنْ أَنَس أَنّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ قَالَ « إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ المؤمِنَ حَسَنَةً ، يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقَ في الدُّنـيـا، وَيُجْزَى بِهَا في الآخِرَةِ ، وأَمَّا الكافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا في الدُّنْيَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حسَنَةً » .

وقالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وعِكْرِمَةُ وَسَعِيْدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالحَسَنُ وَقُتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ ، في قَوْلِهِ ﴿ وَيُؤتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً ﴾ يَعْنِيْ الجَنَّةَ ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُسْكِنَنا

وَإِخْوَانِنَا المُسْلِمِيْنَ الجَنَّةَ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرُو بْنِ العَاصِ أَن رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَمَ قَالَ « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُخَلِّصُ رَجُلا مِنْ أُمَّتِيْ عَلَى رُؤُوسِ الخَلاَئِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلاًّ كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَر ، ثمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبتِيْ الحافِظُوْنَ ؟ فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : أَفَلَكَ عُذْرٌ . فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ تَعَالَى : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ، فإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ ، فَيُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيْهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولَهُ ، فَيَقُولُ : احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِه السِّجِلاَّتِ ؟ فَقَالَ : فإِنَّكَ لا تُظْلَمُ فَتُوضَعُ السِّجِلاَتُ في كِفَّةٍ ، وَالبِطَاقَةُ في كِفَّةٍ ، فَطَاشَتْ السِّجلاتُ ، وَثَقُلَتْ البِطَاقَةُ ، وَلاَ يَثْقُل مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ » أَخْرَجَهُ التِّرمِذْيّ .

وَخُصّ مِمَّنْ يُحَاسَبُ وَتُوْزَنُ أَعْمَالُهم طَائِفَتَانِ ، فَمِنْ الكُفَّارِ مَنْ لَيْسَ لَهُم حَسَنَةٌ ، فَهؤُلاَءِ يَقَعُوْنَ في النَّارِ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ ولا مِيْزانٍ ، وَمنْ المؤمِنِيْنَ مَنْ لاَ سَيِّئَةَ لَهُ وَلَهُ حَسَنَاتٌ كَثِيْرَةٌ زَائِدَةٌ على مَحْضِ الإِيْمَانِ ، فَهذَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْبِ حِسَابٍ ، كَمَا في قِصَّةِ السَّبْعِيْنَ أَلْفاً ، وَمَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يُلْحِقَهُ بهم ، وَهُمْ الذِيْنَ يَمُرّوْنَ على الصِّرَاطِ كَلَمْحِ البَصرِ ، وكَالبَـرْقِ الخَاطِفِ ، وكالرِّيْحِ ، وَكَأَجَاوِدْ الخَيْلِ ، وَمَنْ عَدَا هَذَيْنِ مِنْ المؤمِنِيْنَ والكُفارِ يُحَاسَبُونَ ، وَتُعْرَضُ أَعْمَالُهم على المَوازِيْنِ .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه ـ في قَولِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ في الأَرْضِ ، وَلاَ طَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ : إِنَّهُ يَحْشُرُ الخَلاَئِقَ كُلَّهُم يَوْمَ القِيَامَةِ ، البَهَائِمَ والدَوابَّ والطَّيرَ وَكُلَّ شَيْءٍ ، فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ

اللهِ يَوْمَئِذ أَنْ يَأْخُذَ لِلجَمَّاءِ مِنْ القَرْناءِ ، ثمَّ يَقولُ كُونِي تُراباً ، فلذلِكَ ﴿ يَقُولُ الكافِرُ يَا لَيْتَنِيْ كُنْتُ تُرَابًا ﴾ فَتَفَكَّرْ في صَحِيْفَتِكَ ، وَكُنْ على حَذَرٍ خَشْيَةَ أَنْ تَخْرُجَ مَمْلُوءَةً بالسَّيِّئاتِ . وَاللهُ أعْلَمُ ، وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

عَلامَةُ صِحَّةٍ لِلْقَلْبِ ذِكرٌ
لِذِيْ العَرْشِ المُقَدَّسِ ذِيْ الجَلالِ
وَخِدْمَةُ رَبِنَا في كُلِ حَالٍ
بلا عَجزٍ هُنَالِكَ أو كَلالِ
ولا يَأْنَسْ بِغَيْرِ اللهِ طُرّاً
سِوَى مَن قَد يَدُلُ إلى المَعَالِي
وَيَذْكُرُ رَبَّهُ سِراً وَجَهْراً
وَيُدْمِنُ ذِكْرَهُ في كُلِ حَالِ
وفيها وَهُوَ ثانِيْهَا إذَا مَا
يَفُوتُ الوِرْدُ يَوماً لاشْتِغَالِ
فَيَأْلَمُ لِلْفَواتِ أَشَدَ مِمَّا
يفوتُ على الحريصِ مِن الفِضَالِ
ومنها شُحُهُ بالوقْتِ يَمْضِي
ضياعاً كالشَّحِيْحِ بِبَذْلِ مَالِ
وأيضاً مِن عَلامَتِه اهْتِمَامٌ
بِهَمٍ واحدٍ غَيْرِ انْتِحَالِ
فَيَصْرفُ هَمَّه لِلهِ صِرْفاً
وَيَتْرُكُ مَا سِوَاهُ مِنْ المَوَالِ

وأيــضــاً مِـن عَــلاَمَــتِـه إِذَا مَــا
دَنَــا وَقْتُ الصلاةِ لِــذِي الجَلاَلِ
وَأَحْــرَمَ دَاخِــلاً فِــيْـهَــا بِــقَــلْبٍ
مُنِيْبٍ خَــاضِــعٍ فِي كُــلِّ حَــالِ
تَــنَــاءَى هَــمُّــهُ والــغَــمُّ عَــنْــهُ
بِــدُنْيَــاً تَــضْــمَــحِــلُ إِلَــى زَوَالِ
وَوَافَــى رَاحَــةً وَسُــرُوْرَ قَــلْبٍ
وَقُــرَّةَ عَــيْــنِــهِ وَنَــعِــيْــمَ بَــالِ
وَيَشْتَــدُّ الــخُــرُوجُ عَــلَيْــهِ فِيْهَــا
فَيَــرْغَبُ جَــاهِــداً فِي الابْتِــهَــالِ
وَأَيْــضَــاً مِــن عَــلاَمَــتِــهِ اهْــتِـمَــامٌ
بِتَصْحِيْــحِ الــمَقَــالَــةِ والــفِعَــالِ
وَأَعْــمَــالٍ وَنــيَّــاتٍ وَقَــصْــدٍ
عَلى الاخْــلاَصِ يَحرصُ بــالكَمَــالِ
أَشَــدَّ تَــحَــرُصــاً وَأَشَّــدَّ هَــمَّــاً
مِــن الأَعْمَــالِ تَــمَّــتْ لاَ يُــبَــالِي
بِــتَــفْــرِيْطِ الــمُــقَــصِــر ثُمَّ فِيْهَــا
وإِفْــرَاطٍ وَتَــشْــدِيْــدٍ لِــغَــالِي
وَتَصْحِيْــحِ النَّصِيْــحَــةِ غَيْــرَ غِش
يُمَــازِجُ صَفْــوَهَــا يَــوْمــاً بِحَــالِ
وَيَحْــرِصُ فِي اتِّبَــاعِ النَّصُ جَهْــداً
مَــعَ الاحســانِ فِي كُــلِّ الفِعَــالِ

وَلَا يُصْغِي لِغَيْرِ النَّصِ طُراً
ولا يَعْبَأ بآرَاءِ الرِّجَالِ
فَستُ مَشَاهِدٍ لِلْقَلْبِ فِيْهَا
عَلَامَاتٌ عن الدَّاءِ العُضَالِ
وَيَشْهَدُ مِنْهُ لِلرَّحْمٰنِ يَوْماً
بِمَا أَسْدَى عَلَيْهِ مِنْ الفِضَالِ
وَيَشْهَدُ مِنْهُ تَقْصِيْراً وَعَجْزاً
بِحَقِ اللهِ في كُلِّ الخِلَالِ

فَقَلْبٌ لَيْس يَشْهَدُهَا سَقِيْمٌ
وَمَنْكُوسٌ لِفِعْلِ الخَيْرِ قَالِي
فَإِنْ رُمْتَ النَّجَاةَ غَداً وَتَرْجُو
نَعِيْماً لا يَصِيْرُ إلى زَوَالِ
نَعِيْمٌ لا يَبِيْدُ وَلَيْسَ يَفْنَى
بِدَارِ الخُلْدِ في غُرَفٍ عَوَالِ
فلا تُشْرِكْ بِرَبِّكَ قَطُ شَيْئاً
فَإِن اللهَ جَلَّ عَن المِثَالِ
إِلٰهٌ وَاحِدٌ أَحَدٌ عَظِيْمٌ
عَلِيْمٌ عَادِلٌ حَكَمُ الفِعَالِ
رَحِيْمٌ بالعِبَادِ إِذَا أَنَابُوا
وتَابُوا عن مُتَابَعَةِ الضَّلَالِ
شَدِيْدُ الانْتِقَامِ لِمَنْ عَصَاهُ
وَيُصْلِيْهِ الجَحِيْمَ ولا يُبَالِي

فَبَادِرْ بِالَّذِيْ يَرْضَاهُ تُحْظَى
بِخَيْرٍ فِي الحَيَاةِ وفي المَآلِ
ولازِمْ ذِكْرَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ
ولا تَرْكَنْ إِلَى قِيْلٍ وَقَالِ
وأَهْلُ العِلْمِ نَافِسْهُمْ وَسَائِلْ
وَلَا يَذْهَبْ زَمَانُكَ فِي اغْتِفَالِ
وَأَحْسِنْ وانْبَسِطْ وارْفُقْ وَنَافِسْ
لِأَهْلِ الخَيْرِ فِي رُتَبِ المَعَالِي
فَحُسْنُ البِشْرِ مَنْدُوْبٌ إِلَيْهِ
وَيَكْسُو أَهْلَهُ ثَوْبَ الجَمَالِ
وَأَحْبِبْ فِي الإِلٰهِ وَعَادِ فِيْهِ
وَابْغِضْ جَاهِداً مِنْهُ وَوَالِ
وَأَهْلَ الشِرْكِ بَايِنْهُم وَفَارِقْ
وَلَا تَرْكَنْ إِلَى أَهْلِ الضَّلَالِ
وَتَشْهَدُ قَاطِعاً مِن غَيْرِ شَكٍّ
بِأَنَّ اللهَ جَلَّ عَن المِثَالِ
عَلَا بالذَّاتِ فَوقَ العَرْشِ حَقاً
بِلا كَيْفٍ ولا تَأْوِيْلِ غَالِ
عُلُوُّ القَدْرِ والقَهْرِ اللَّذَانِ
هُمَا لِلهِ مِن صِفَةِ الكَمَالِ
بِهَذَا جَاءَنَا فِي كُلِّ نَصٍّ
عن المَعْصُومِ فِي صَحْبٍ وَآلِ

وَيَنْـزِلُ رَبُنَـا فـي كُـلِّ لَيْـلٍ
إلَـى أَدْنَـى الـسَّـمـواتِ الـعَـوَالِـي
لِثُلْثِ اللَّيْـلِ يَنْـزِلُ حِيْنَ يَبْقَى
بِـلا كَيْفٍ عَـلى مَـرِّ اللَّيَـالِـي
يُنَـادِيْ خَلْقَـهُ هَـلْ مِن مُنِيْبٍ
وَهَـلْ مِن تَـائِبٍ في كُـلِ حَـالِ
وَهَـلْ مِن سَـائِـلٍ يَـدْعُـو بِقَلْبٍ
فَيُعْـطَى سُؤْلَـهُ عِنْـدَ السُؤَالِ
وَهَـلْ مُسْتَـغْفِـرٍ مِـمَّـا جَنَـاهُ
مِن الأَعْمَـالِ أَوْ سُـوءِ الـمَقَـالِ
وَيَشْـهَـدُ أَنَّـمَـا القُـرآنُ حَـقَـاً
كَـلامُ اللهِ مِنْ غَـيْـرِ اعْتِـلالِ
وَلا تَـمْـوِيْـهِ مُـبْـتَـدِعٍ جَـهُـولٍ
بِخَلْقِ القَـولِ عَن أَهْـلِ الضَّـلالِ
وآيَـاتُ الـصِـفَـاتِ تُـمَـرُّ مَـراً
كَمَـا جَاءَتْ عَلَى وَجْـهِ الكَمَـالِ
وَرُؤْيَـا الـمُؤْمِنِيْـنَ لَـهُ تَعَـالَـى
عِيَـانـاً في القِيَـامَـةِ ذِيْ الجَـلالِ
يُـرَى كَالبَـدْرِ أَوْ كَـالشَّمْسِ صَحـواً
بِـلا غَـيْـمٍ وَلاَ وَهْـمٍ خَـيَـالِ
وَمِيْـزَانُ الحِسَـابُ كَـذَاكَ حَقـاً
مَـعَ الحَـوْضِ الـمُطَهَّـرِ كَـالزِلالِ

وَمِعْـرَاجُ الـرَّسُـوْلِ إِلَيْـهِ حَقـاً
بِـنَصٍّ وَارِدٍ لِـلشَّـكِ جَـالِـي
كَـذَاكَ الجَسْـرُ يُنْصَبُ لِلبـرَايَـا
على مَتْنِ السَّعِيْـرِ بـلا مُحَـالِ
فَـنَـاجٍ سَـالِـمٍ مِـن كُـلِ شَـرٍ
وَهَـاوٍ هَـالِـكٍ لِـلنَّـار صَـالِـي
وَتُـؤْمِنُ بـالقَضَـا خَيْـراً وَشَـراً
وبـالمقْـدُورِ في كُـلِّ الفِعَـالِ
وأنَّ الـنـارَ حَـقٌ قَـدْ أعِـدَتْ
لِأَعْـدَاءِ الـرُّسُـولِ ذَوِي الـضَّـلالِ
بـحِـكْـمَـةِ رَبِـنَـا عَـدْلاً وَعِـلْمـاً
بـأحْـوَالِ الـخَـلائِـقِ فـي الـمَـآلِ
وأَنَّ الـجَـنَّـةَ الـفِـرْدَوْسَ حَـقٌّ
أُعِـدَتْ لِـلْهُـدَاةِ أُوْلِـي الـمَـعَـالِ
بِفَضْـلٍ مِـنْـهُ إِحْسَـانـاً وَجُـوداً
بـلا شَـكٍ هُـنَـالِـكَ لِـلسُّـؤآل
وكُـلٌ في المَقَـابِـرِ سَـوْفَ يُلْقَى
وَتَكْـرِيْمـاً لَهُمْ بَعْـدَ الـوِصَـالِ
نَـكِيْـراً مُـنْكَـراً حَـقـاً بِـهَـذَا
أَتَـانـا الـنَّقْـلُ عن صَحْـبٍ وَآلِ
وَأَعْـمَـالاً تُـقَـارِنُـهُ فَـإِمَّـا
بِخَيْـرٍ قَـارَنْـتْ أَوْ سُـوءِ حَـالِ

اللهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ والمُسْلِمِيْنَ وانْصُرْ الإِسْلَامَ والمُسْلِمِيْن. واجْعَلْ كَلِمَتِكَ هِيَ العُلْيَا إِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ وَاخذِلْ الكَفَرَةَ وَأَعْوَانَهُم والمُلحِدِيْنَ والمُبْتَدِعِيْنَ وَأَصْلِحْ مَنْ في صَلَاحِهِ صَلَاحُ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِيْنَ وَأَهْلِكْ مَنْ في هَلَاكِهِ صَلَاحٌ لِلإِسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ وَوَلِّ عَلَى المُسْلِمِيْنَ خِيَارَهُم يَا رَبَّ العَالَمِيْنَ وَلُمَّ شَعْثَهُم وَاجْمَعْ شَمْلَهُم وَوَحِّدْ كَلِمَتَهُم وَانْصُرْهُم عَلَى مَنْ خَالَفَهُم وَاحْفَظْ بِلَادَنا مِنْ الفَسَقَةِ والمُجْرِمِيْنَ وَأَصْلِحْ أَوْلَادَنا وَإِشْفِ مَرْضَانا وَعَافِ مُبْتَلَانَا وَارْحَمْ موتانَا وَخُذْ بِأَيْدِيْنَا إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَاعْصِمْنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَاحْفَظْنَا مِنْ كُلِّ ضُرّ وَاغفِرْ اللَّهُمَّ للمُؤْمِنِيْنَ والمُؤْمِنَاتِ والمسلمين والمسلمات الأحيَاءِ منهم والأَمْوَاتِ إِنَّكَ قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ اللهُمَّ لا تَجْعَلْ الدنيا أكبرَ هَمِّنَا ولا مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلَا إِلَى النَّارِ مَصِيْرَنا ولا تُسَلِّطْ علينا بِذُنوبِنَا من لا يَخَافُكَ فِيْنَا ولا يَرْحَمُنَا ولا تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا وَلَا تَسْلِبْ نِعْمَتَكَ عَنَّا وَكُنْ مَعَنَا حَيْثُمَا كُنَّا يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْـــلٌ »

وَمِمَّا يَنْبَغِي ايْرَادُه في هَذَا المَقَامِ بَعْضُ المَعَاصِي التِي قَدْ تَلَبَّس بِهَا أَوْ بِبَعْضِهَا بَعْضُ النَّاسِ ، لِيَبْتَعِدَ عَنْهَا ، وَعَنْ مَنْ يُقَارِفُهَا ، وَيَنْصَحُ عَنْهَا ، وَيُبَيِّنُ أَنَّها أَمْرَاضٌ فَتَّاكَةٌ ، أَعْظَمُ وَأَخْطَرُ مِنْ أَمْرَاضِ الأَبْدَانِ ، لأَنَّهَا تُذْهِبُ الحَسَناتِ ، وَرُبَّمَا أَدَّتْ بالإِنْسَانِ إِلَى الهَلاكِ الأَبَدِيّ ، والعَذَابِ السَّرْمَدِيّ ، مِنْ ذَلِكَ أَكْلُ الحَرَامِ ، أَوْ رِيَاءٍ أو رِبَا ، أَوْ إِصْرَارٌ على مَنْع زَكَاةٍ ، أَوْ عَدَمُ تَنَزُّهٍ مِنْ بَوْلٍ ، أَوْ تَرْكُ حُضُورِ جُمُعَةٍ أو جَمَاعَةٍ ،

أَوْ غِيْبَةٌ أَوْ نَمِيْمَةٌ أو حَسَدٌ ، أو مَنْعُ حُقُوقٍ وَاجِبَاتٍ ، أو كَذِبٌ عَلَى اللهِ أَوْ أَذِيَّةُ جَارٍ ، أَوْ قَرِيْبٍ ، أَوْ كَثْرَةُ أَيْمَانٍ لِتَرْوِيْجِ سِلعٍ ، أَوْ غِشٌّ فِي بَيْعٍ أَوْ شِرَاءٍ، أَوْ تَدْلِيْسٌ أَوْ اقْتِطَاعُ شَيْءٍ مِنْ أَرَاضِي المُسْلِمِيْنَ، أَوْ اسْتِعْمَالُ آلاتِ اللهُوِ وَالطَّرَبِ، كالعُودِ والبَكمِ والتِّلِفِزْيُونِ والمِذْياعِ والفِيديو، أَوْ تَغْيِيْرُ مَنَارِ الأَرْضِ ، أَوْ لُبْسُ الرِّجَالِ لِلحَرِيْرِ ، أَوْ الذَّهَبِ ، أَوْ تَشَبُّهٍ بِنِسَاءٍ ، أَوْ نَظَرٌ إلى مُحَرَّمٍ ، أَوْ إِعَانَةُ ظَالِمٍ ، أَوْ تَرْكُ نَصْرِ مَظْلُومٍ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ ، أَوْ شَهَادَةٌ بِزُوْرٍ ، أَوْ نَجْشٌ لإِيْذاءِ مُؤمِنٍ ، أَوْ تَرْكُ الوَلاَءِ وَلْبَراءِ ، بِمُجَالَسَةِ العُصَاةِ ، ومُوَاكلتُهم ، وَتَرْكُ هَجْرِهِم ، أَوْ تَدْلِيْسٌ ، أَوْ غِشٌّ أَوْ مُجاهَرَةٌ بالمَعَاصِيْ ، كَحَلْقِ اللحْيَةِ ، وَشُرْبِ الدُّخانِ ، وَتَشَبُّهٍ بأعْدَاءِ الإِسْلامِ ، بِجَعْلِ خَنَافِسَ وَتَوَالَيْتٍ ، وَكَخَلْوَةٍ بامْرَأةٍ لاَ تَحِلُّ لَهُ ، أَوْ يُرْكِبُهَا مَعَهُ ، وَلاَ مَحْرَمَ مَعَهَا ، وَالعِيَاذُ باللهِ ، أَوْ تَصْوِيْرُ ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ ، أَوْ شِرَائُهَا ، أَوْ الرِّضَى بِهَا وَعَدَمُ اتْلاَفِهَا ، أَوْ مَيْلٌ مَعَ بَعْضٍ مَنْ يَجِبُ العَدْلُ بَيْنَهُم ، أَو تَنْشِيْزُ زَوْجَةٍ عَلَى زَوْجِهَا ، أَوْ بالعَكْسِ ، بِأَنْ يُنَشِّزَ الزَّوْجَ عَنْهَا ، أَوْ اضْرَارٌ لِتَفْتَدِي مِنْهُ ، أَوْ جَعْلُ يَدٍ على قَرِيْبَةٍ لَهُ وَمَنْعُهَا مِنَ الزَّوَاجِ إِلاَّ لَهُ أَوْ لِمَنْ يُرِيْدُهَا لَهُ ، أَوْ مُسَاعَدَةٌ لِصَاحِبِ مَعْصِيَةٍ ، أَوْ يُؤْوِيْ مُحْدِثاً ، أَوْ عُقُوقٌ لِوَالِدٍ أَوْ وَالِدَةٍ، أَوْ قَطِيْعَةُ رَحِمٍ ، أَوْ وَالعِيَاذُ باللهِ زِنَى أَوْ لِوَاطٍ ، أَوْ اتْيَانُ مَنْ حَاضَتْ ، أَوْ اتْيَانُهَا فِي الدُّبُرِ ، أو اتْيَانُ بَهِيْمَةٍ ، أَوْ دِيَاثَةٌ . أَوْ كتْمُ شَهَادَةٍ ، أَوْ خِيَانَةٌ ، أَوْ تَكْذِيْبٌ بالمَلاَئِكَةِ ، أَوْ بالجِنِّ ، أَوْ بالبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، وَالجَزَاءِ عَلَى الأعْمَالِ ، وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ ، أَوْ حَلِفٌ بِغَيْرِ اللهِ ، أَوْ قَذْفُ مُحْصَنٍ أَوْ شُرْبُ مُسْكِرٍ ، أَوْ سُجُودٌ لِغَيْرِ اللهِ ، أَوْ أَنْ تُلْحِقَ المَرْأَةُ أَوْلاداً بِزَوْجِهَا ، وَكَذَا الزَّانِي إِذَا أَدْخَلَ أَوْلاداً عَلَى غَيْرِهِ ، أَوْ أَخذُ مَكْسٍ أَوْ اعَانَةٌ عليه ، أَوْ وَشْمٌ ، أَوْ نَمْصٌ ، أَوْ مَحَبَّةُ قِيَامٍ

لَهُ ، أَوْ مُخاصَمَةٌ بِبَاطِلٍ ، أَوْ جَوْرٌ فِي وَصِيَّةٍ ، أَوْ اتّخَاذُ مَسَاجِدَ على القُبُورِ أَوْ إِسْرَاجُهَا ، أَوْ سَرِقَةٌ ، أَوْ جَحْدُ عَارِيَّةٍ ، أَوْ كَذِبٌ عَلَى النبي صلى اللهُ عليه وَسَلمَ ، أَوْ غَصْبُ مَالِ مُسْلِمٍ ، أَوْ أَكلُ مَالِ يَتِيمٍ ، أَوْ فِطْرٌ في رَمَضَانَ ، أَوْ خِيَانَةٌ فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ أَوْ ذَرْعٍ ، أَوْ تَقْدِيْمُ الصَّلاةِ عَلَى وَقْتِهَا ، أَو تَأْخِيْرُهَا عن وَقْتِهَا ، أو ضَرْبُ مُسْلِمٍ بلا حَقٍّ ، أَوْ تَرْوِيْعُهُ ، أَوْ سَبٌّ للصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ، أَوْ رِشْوَةٌ في الحُكْم ، أَوْ قِيَادَةٌ ، أَوْ نِسْيَانٌ للقُرْآنِ ، أَوْ تَحْرِيْقُ حَيوانٍ بالنَّارِ أَوْ تَرْكُ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، أَوْ يَأْسٌ من رَحْمَةِ اللهِ ، أَوْ أَمْنٌ مِنْ مَكْرِ اللهِ ، أَوْ وَقِيْعَةٌ في أَهْلِ العِلْمِ وَالقُرْآنِ ، أَوْ سِحْر ، أو بَهْتُ مُسْلِم ، أو تَهَاوُنُ القَادِرِ بالحَجِّ إِلَى أَنْ يَمُوتَ ، أَوْ تَكْذِيْبٌ بالقَدَرِ ، أَوْ هَجْرُ مُسْلِم فَوْقَ ثلاثٍ ، إِلَّا لِعُذْرٍ في المَهْجُورِ كَتَظاهُرِهِ بالفِسْقِ ، أَوْ يَكُونُ صَاحِبَ بِدْعَةٍ ، أَوْ نَحوَ ذَلِكَ ، أَوْ بَيْعُ حُرٍّ ، وَأَكْلُ ثَمَنِهِ ، أَوْ منعُ أَجِيْرٍ أُجْرَتَهَ ، بَعْدَ اسْتِيْفَاءِ العَمَل مِنْهُ ، أَوْ اتْيَانُ كاهِنٍ ، أَوْ اتخاذ شَيْءٍ فِيْهِ الرُّوْحُ غَرَضَاً ، أَوْ لَعْنُ مُسْلِم ، أَوْ التَّسَبُّبُ في لَعْنِ الوَالِدَيْنِ ، أَوْ يَقُولُ في يَمِيْنِهِ : وَإِلَّا كُنْتُ يَهُودِيّاً ، أو نَصْرَانِيّاً ، أو كافِراً وَنَحْوَ هَذَا وَالعِيَاذُ باللّهِ ، أَوْ يَتَتَبَّعُ عَوْرَاتِ المُسْلِمِيْنَ ، أَوْ يُنَابِزَ بالأَلْقَابِ المكرُوهَةِ عِنْدَ مَنْ لُقِّبَ بِهَا مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ ، أَو يَنْتَسِبَ إِلَى غَيرِ أَبِيْهِ ، أو يَطْعَن في الانْسَابِ الثَّابِتَةِ في ظَاهِرِ الشَّرْعِ ، أو نِيَاحَةٍ عَلَى مَيِّتٍ ، أَوْ امْتِنَاعِ المَرْأَةِ مِنْ فِرَاشِ زَوْجِهَا بِلَا عُذْرٍ ، أَوْ يَقُولُ لِمُسْلِمٍ يا كَافِرُ ، أَوْ يا عَدُوّ اللهِ ، أَوْ يَسُبُّ الدَّهْرَ ، أو يَعْصِرُ العِنبَ لِلْخمرِ ، أَوْ يَزْرَعُ الدُّخَانَ ، أَوْ يَبِيْعُه أَوْ يُورِّدُه ، أَوْ يَحْلِقُ لِحَى المُسْلِمِيْنَ ، أو يُسَاعِدُهُم عَلَى التشبُّهِ بأَعْدَاءِ اللهِ بِتَصْلِيْحِ خَنافِسِهِم ، وَجُعْلَانِهِم وَتَوَالِيَاتِهِم ، وَنَحوِ ذَلِكَ ، أَوْ يُقَامِرُ ، أَوْ يَشْهَدُ

بالرِّبَا ، أَوْ يُوكِّلُه ، أَوْ يكْتُبُهُ ، أَوْ يمْنَعُ ابْنَ السَّبِيْلِ عَنْ فضل ما ، أَوْ يمُنُّ بالعَطَاءِ ، أَو يُسْبِلُ وَيَجُرُّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءً أَوْ يَجُورُ في الحُكْمِ ، أَوْ يُحْدِثُ في الدِّيْنِ ، أَوْ يُؤْوِي مُحْدِثا أَوْ يَتَكَبَّرُ ، أَوْ يَخْتالُ في مَشْيَتِهِ ، أَوْ يَعْتَادُ الكَذِبَ أَوْ يَكْذِبُ مِنْ غَيْرِ ضَرُوْرَةٍ ، أَوْ يَسْتَمِعُ لِمَنْ يَكْرَهُوْنَ سَمَاعَهُ ، أَوْ يَكُونُ ذَا وَجْهَيْنِ أَوْ يَغُلُّ مِنْ الغَنِيْمَةِ ، أَوْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ ، أَوْ يَقْتُلُ ذمِّياً ، أَوْ يَأْكُلُ الحَرَامَ مِنْ غَيْرِ ضَرُوْرَةٍ ، أَوْ سُخْرِيَةٌ ، وَاسْتِهْزَاءُ بِمُسْلِمٍ ، أَوْ تَعَلُّمُ العِلْمَ لِغَيْرِ وَجْهِ اللهِ ، أَوْ يُفَسِّرُ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ ، أَوْ يَكْتُمُ عِلْماً شَرْعِيّاً مَعَ تَعَيُّنِ الجَوَابَ عَلَيْهِ ، أَوْ مِرَاءٌ في القُرْآنِ ، أَو مُرُورٌ بَيْنَ يَدَيْ مُصَلٍّ ، أو يَسْتَدِيْنَ ولا يُرِيْدُ الوَفَاءَ ، أو يُحَلِّلَ المَرْأَةَ لِغَيْرِهِ ، أَوْ تُحَلِّلَ لَهُ ، أَوْ افشَاءُ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ السِّرَّ الذِي بَيْنَهُمَا. أو يَجْعَلُ عندهُ في بَيْتِهِ كُفاراً لَخَدَّامِين ومُرَبِّين وسَوَّاقِينَ وطَبَّاخِينْ وخَياطِين رِجَالاً ونِسَاءً أو يَتَسَبَّبْ لإِتْيَانِهم لبلادِ المسلمين.

وَنَحْوُ هَذِهِ المَعَاصِيْ ، وَرُبَّمَا خَرَجَ مِنْ صَحِيْفَةِ الإِنْسَانِ مَعْصِيَة يَظُنُّهَا سَهْلَةً ، وَهِيَ عِنْدَ اللهِ عَظِيْمَةٌ ، قَالَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِنَّ العَبْدَ لِيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيْهَا ، يَزِلُّ بِهَا في النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ » وَرُبَّمَا عَمِلَ أَعْمَالاً ظَنَّهَا حَسَنَاتٍ ، فَتَبْدُو يَوْمَ القِيَامَةِ سَيِّئَاتٍ ، بِسَبِ رِيَاءٍ أو غَيْرِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(فَصْلٌ)

ثُمَّ تَفَكَّرْ ـ بَعْدَ تَفَكُّرِ فِيْمَا سَبَقَ ـ في الصِّرَاطِ ، الذِيْ هُوَ الجَسْرُ المنصُوْبُ عَلَى مَتْنِ جهَنَّمَ ، بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنارِ ، خَرَّجَ البَيْهَقِيّ مِنْ حَدِيْثِ زِيَادٍ النُّمَيْرِيّ ، عَنْ أَنس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنْ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ « الصِّرَاطُ كَحَدِّ الشَّفْرَةِ ، أَوْ كَحَدِّ السَّيْفِ ، وَانَّ الملائِكَةَ

يَنجُوْنَ المُؤْمِنِيْنَ ، وَأَنَّ جِبْرِيْلَ لآخِذٌ بِحُجْزَتِي ، وَإِنِّي لأَقُولُ يَا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، فالزَّالُّوْنَ والزَّالاَّتُ يَوْمَئِذٍ كَثِيْرٌ » وَعَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ عَنْ النَّبي صَلَّى اللهُ عليه وَسَلمَ فذكَرَ حَدِيْثاً طَوِيْلاً قالَ فِيْهِ « ثُمَّ يُضْرَبُ الجَسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ ، فَيَقُولُونَ اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ » قِيْلَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الجَسْرُ ؟ قالَ « دَحْضٌ مَزَلَّةٌ ، فِيْهِ خَطَاطِيْفُ وَكَلاَلِيْبُ ، وَحَسَكَةٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ ، فِيْهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ المُؤْمِنُ كَطَرْفِ العَيْنِ وَكَالبَرْقِ ، وَكَالرِّيْحِ ، وَكالطَّيْرِ ، وَكَأَجَاوِدِ الخَيْلِ والرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، وَمُكَرْدَسٌ عَلَى وَجْهِهِ في النَّارِ » خَرَّجَاهُ في الصَّحِيْحَيْنِ .

وَخَرَّجَ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيْثِ أَبِي مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَأَبِي مَالِكٍ ، عن رَبْعِيِّ ، عَن حُذَيْفَةَ كِلاَهُمَا عَنْ النبي صلى اللهُ عليه وسَلمَ ، فذكرَ حَدِيْثَ الشَّفَاعَةِ ، وَفِيْهِ قَالَ « فَيَأْتُونَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ ، فَيَقُومُ ، وَيُؤْذَنُ لَهُ وَتُرْسَلُ مَعَهُ الأَمَانَةُ والرَّحِمُ ، فَيَقُومَانِ جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِيْناً وَشِمَالاً ، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كالبَرْقِ » قالَ قُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ البَرْقِ ؟ قالَ « أَلَمْ تَرَ إِلَى البَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ في طَرْفَةِ عَيْنٍ ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيْحِ ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ ، وَأَشَدِّ الرِّجَالِ ، تَجْرِي بِهِم أَعْمَالُهم ، وَنَبِيُّكُم صَلَّى اللهُ عليه وَسَلم قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ : رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، حَتَّى تَعْجَزُ أَعْمَالُ العِبَادِ ، وَحَتَّى يَجِيْءُ الرَّجُلُ ، فلا يَسْتَطِيْعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفَا » قَالَ « وفي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلاَلِيْبُ مُعَلَّقَةٌ ، مَأْمُوْرَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِأَخْذِهِ فَمُخَدَّشٌ نَاجٍ ، وَمُكَرْدَسٌ في النَّارِ » وَالذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعِيْنَ خَرِيْفاً .

وَرَوَى أَبُو الزَّعْرَاءِ عن ابْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ : يَأْمُرُ اللهُ بالصِّرَاطِ فَيُضْرَبُ عَلَى جهَنَّمَ ، فَيَمُرُّ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِم زُمَراً زمراً ، أَوَائِلُهم كلَمْحِ البَرْقِ ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ، ثُمَّ كَمرِّ الطَّيْرِ ، ثُمَّ كَمَرِّ البَهَائِم ، حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ سَعْياً ، وَحَتَّى يَمرَّ الرَّجُلُ مَشْياً ، حتى يَجْيءَ آخِرُهم يَتَلَبَّطُ على بَطْنِه ، فيَقُولُ : يَا رَبِّ لِمَ بَطَّأْتَ بِيْ ؟ فيَقولُ : إنِّيْ لَمْ أُبْطِيءْ بِكَ ، إنَّمَا بَطَّأَ بِكَ عَمَلُكَ » ، وَذَلِكَ أَنَّ الإيْمَانَ وَالعَمَلَ الصَّالِحَ في الدُّنْيَا ، هُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيْمُ في الدُّنْيَا ، الذِيْ ، أمَرَ اللهُ العِبَادَ بِسُلُوكِهِ ، والاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَهُمْ بِسُؤَالِ الهِدَايَةِ إلَيْهِ ، فَمَنْ اسْتَقَام سَيْرُهُ عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ في الدّنْيَا ، وَلَمْ يَنْحرِفْ عَنْهُ يَمْنَةً وَلاَ يَسْرَةً اسْتَقَامَ سَيْرُهُ على الصِّرَاطِ المَنْصُوبِ على مَتْنِ جهنمَ ومَن لَمْ يَسْتَقِمْ سَيْرُهُ على الصراطِ المُسْتَقِيْمِ في الدُّنَيا بَلْ انْحَرَفَ عنه إمَّا إلى فِتْنَةِ الشُّبُهَاتِ ، أَوْ إلَى فِتْنَةِ الشَّهَوَاتِ كانَ اخْتِطَافُ الكَلاَلِيْبِ لَهُ عَلَى صِرَاطِ جَهَنَّمَ ، بِحَسَبِ اخْتِطَافِ الشُّبُهَاتِ والشَّهواتِ لَهُ عَنْ هَذا الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ .

شِعْرَاً :

أَمَامِي مَوْقِفٌ قُدَّامَ رَبِّي
يُسَائِلنِي وَيَنْكَشِفُ الغِطَاءُ
وَحَسْبِي أَنْ أَمُرَّ عَلَى صِرَاطٍ
كَحَدِ السَّيْفِ أَسْفَلُهُ لَظَاءُ

فَفكِّرْ في أَهْوَالِ الصِّرَاطِ وعَظائِمِهِ ، وَمَا يَحِلُّ بالإنْسَانِ مِنْ الذُّعْرِ وَالخَوْفِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ، ووُقُوعِ بَصَرِكَ عَلَى جَهَنَّمَ مِنْ تَحْتِهِ ، وَسَمَاعِكَ شَهِيْقَهَا وَتَغَيُّظَهَا عَلَى الكَفَرَةِ ، وَقَدْ اضْطُرِرْتَ إلَى أَنْ تَمْشِي على الصِّرَاطِ الذِيْ مَرَّتْ صِفَتُه وَصِفَةُ المُرُوْرِ عَلَيْهِ ، مَعَ ضَعْفِ حَالِكَ ، وَكَوْنِكَ حَافِياً

عَارِياً ، وَثِقَلِ الظَّهْرِ بالأَوْزارِ المَانِعَةِ عَنْ المَشْيْ في الأرْضِ المُسْتَوِيَةِ ، فَضْلاً عَنْ المشْيْ على حَدِّ الصِّرَاطِ ، فَتَصَوَّرْ وَضْعَكَ رِجْلَكَ عَلَيْهِ ، وَإحْسَاسَكَ بِحِدَّتِهِ ، وَأَنْتَ مُضْطَرٌّ إلَى أَنْ تَرْفَعَ رِجْلاً وَتَضَعَ الأُخْرَى ، وَأَنْتَ مُنْدَهِشٌ مِمَّا تَحْتَكَ وَأَمَامَكَ ، مِمَّنْ يَئِنُّوْنَ ، وَآخَرُونَ يَزِلُّونَ ، وَآخَرُونَ يُخْطَفُونَ بالخَطَاطِيْفِ وبالكَلاَلِيْب ، وَالعَوِيْلُ وَالبُكَاءُ تَسْمَعُ لَه تَتَابُعاً وَدَوِيّاً ، وَتَنْظُرُ الذِيْنَ يَنْتَكِسُونَ عَلَى رُؤُوسِهِم ، وَآخَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِم ، فَتَعْلُوا الأرْجُلُ ، فَيَا لَهُ مِنْ مَنْظَرٍ فَظَيْعٍ ، وَمُرْتَقىً مَا أَصْعَبَهُ ، وَمَجَازٍ مَا أَضْيَقَهُ ، وَمَكانٍ مَا أَهْوَلَهُ ، وَمَوْقِفٍ ما أَشَقَّهُ ، وَكَأَنِّي بِكَ مَمْلُوءٌ مِنْ الرُّعْبِ والذُّعْرِ ، تَلَفَّتُ يَمِيْناً وَشِمَالاً إِلَى مَنْ حَوْلَكَ مِنْ الخَلْقِ ، وَتُجِيْلُ فِيْهِم بَصَرَكَ ، وَهُمْ يَتَهَافَتُونَ قُدَّامَكَ في جَهَنَّمَ ، وَالزَّعَقَاتُ بالوَيْلِ وَالثُّبُورِ قَدْ ارْتَفَعَتْ مِنْ قَعْرِ جَهَنَّمَ ، لِكَثْرَةِ مَنْ يَزِلُّ عَنْ الصِّرَاطِ ، وَالنَبيُّ صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ يَقُولُ « رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ » فَتَصَوَّرْ لَوْ زَلَّتْ قَدَمُكَ ، فَهَلْ يَنْفَعُكَ نَدَمُكَ ، وَتَحَسُّرُكَ في ذَلِكَ الوَقْتِ كلا « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الانسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَىٰ » .

شِعْرَاً :

« رحلة ومصير »

يـا مَـنْ يُتَـابِـعُ سَـيِّـدَ الثَّـقَـلانِ
كُـنْ لِلْمُـهَـيْـمِـنِ صَـادِقَ الإيْـمَـانِ
واعْلَمْ بـأنَّ اللّهَ خَـالِقُـكَ الـذِي
سَـوَّاكَ لـم يَحْـتَـجْ إلـى إنْـسَـانِ

خلَقَ البَـرِيَّةَ كُلَّهَـا مِن أَجْلِ أَنْ
تَـدْعُـوَهُ بـالاخْـلاَصِ والاذْعَـانِ
قَـدْ أَرْسَلَ الآيـاتِ مِنْهُ مُخَـوِّفاً
لِعِبَـادِهِ كَـيْ يُخْلِصَ الـثَّقَـلاَنِ
وَأَبَـانَ لِـلإِنْسَـانِ كُـلَّ طَـرِيْقَـةٍ
كَيْ لا يَكُـونَ لَـهُ اعْتِـذَارٌ ثَـانِي
ثـم اقْتَضَى أَمْـراً وَنَهْـيـاً عَـلَّهَـا
تَتَمَيَّـزُ التَّقْـوَى عن العِصْيَـانِ
وَوُلِـدْتَ مَفْـطُوراً بِفِـطْرتَـكِ الَّتِي
لَيْسَتْ سِـوَى التَّصْـدِيْقِ والايمـانِ
وبُـلِيْتَ بـالتَّكْـلِيْفِ أَنْتَ مُخَيَّـرٌ
وَأَمَـامَـك النَّجْـدَانِ مُفْـتَتَحَـانِ
فَعَمِلْتَ مـا تَهْـوَى وَأَنْتَ مُـرَاقَبٌ
مَـا كُنْتَ مَحْجُـوبـاً عن الـدَّيَـانِ
ثم انْقَضَى العُمْـرُ الـذِيْ تَهْنَـا بِـهِ
وَبَـدَأْتَ فِي ضَعْفٍ وفي نُـقْصَـانِ
وَدَنَـا الفِـرَاقُ ولاتَ حِيْـنَ تَهَـرُّبُ
أَيْنَ المَـفَـرُّ مِن الـقَضَـاءِ الـدَّانِـي
والْتَفَّ صَحْبُـكَ يَـرْقُبُـوْنَ بِحَسْـرَةٍ
مَـاذا تَكُـونُ عَـوَاقِبُ الحَـدَثَـانِ
واسْتَـلَّ رُوْحَـكَ والقُلُوبُ تَقَـطَّعَتْ
حَـزَنـاً وَالْـقَتْ دَمْعَهَـا الـعَيْـنَانِ

فاجْتَاحَ أَهْلَ الدَّارِ حُزْنٌ بَالِغٌ
واجْتَاحَ مَن حَضَرُوا مِن الجِيْرَانِ
فالبِنْتُ عَبْرَى لِلْفِرَاقِ كَئِيْبَةً
والدَّمْعُ يَمْلأُ سَاحَةَ الأَجْفَانِ
والزَّوْجُ ثُكْلَى والصِّغَارُ تَجمَعُوا
يَتَطَلَّعُوْنَ تَطَلُّعَ الحَيْرَانِ
والابنُ يَدْأبُ في جَهَازِكَ كَاتِماً
شيئاً مِن الأحْزَانِ والأَشْجَانِ
وَسَرَى الحَدِيْثُ وقَدْ تَسَاءَلَ بَعْضُهُمْ
أَوَ مَا سَمِعْتُم عَنْ وَفَاةِ فُلاَنِ
قَالُوا سَمِعْنَا والوَفَاةُ سَبِيْلُنَا
غَيْرُ المُهَيْمِنِ كُلُّ شَيْءٍ فَانِي
وأَتَى الحَدِيْثُ لِوَارِثِيْكَ فَأَسْرَعُوا
مِن كُلِّ صَوْبٍ لِلْحُطَامِ الفَانِي
وأَتَى المُغَسِّلُ والمُكَفِّنُ قَدْ أَتَى
لِيُجَلِّلُوكَ بِحُلَّةِ الأَكْفَانِ
ويُجَرِّدُوْكَ مِن الثِّيَابِ ويَنْزَعُوْا
عَنْكَ الحَرِيْرَ وَحُلَّةَ الكَتَّانِ
وَتَعُودُ فَرْداً لَسْتَ حَامِلَ حَاجَةٍ
مِن هَذِهِ الدُّنْيَا سِوَى الأَكْفَانِ
وَأَتى الحَدِيْثُ لِوَارِثِيْكَ فَأَسْرَعُوا
فَأَتُوا بِنَعْشٍ وَاهِنَ العِيْدَانِ

صَلُّوْا عَلَيْـكَ وَأَركَبُـوكَ بِمَـرْكَبٍ
فَـوقَ الـظُّهُـورِ يُحَفُّ بـالأحْـزَانِ
حَتَّى إِلَى القَبْرِ الذِيْ لَـكَ جَهَّـزُوا
وَضَعُـوكَ عِنْـدَ شَفِيْـرِهِ بِـحَنَـانِ
وَدَنَـا الأَقَـارِبُ يَـرْفَعُـونَـكَ بَيْنَهُم
لِلَّحْـدِ كَيْ تُمْسِيْ مَـعَ الـدِّيْـدَانِ
وَسَكَنْتَ لَحْـداً قَـدْ يَضِيْقُ لِضِيْقِـهِ
صَـدْرُ الحَلِيْمِ وَصَـابِـرُ الحَيَـوانِ
وَسَمِعْتَ قَـرْعَ نِعَـالِهِم مِنْ بَعْـدِ مَـا
وَضَعُـوكَ في البَيْتِ الصَّغِيْرِ الثَّـانِي
فيـهِ الـظَّلَامُ كَـذَا السُّكُـوْنُ مُخَيِّمٌ
والـرُّوْحُ رَدٌّ وَجَـاءَكَ الـمَـلَكَـانِ
وَهُنَـا الحَقِيْقَـةُ والمُحَقِقُ قَـدْ أَتَى
هَـذَا مَقَـامُ النَّصْـرِ والـخُـذْلَانِ
إِنْ كُنْتَ في الـدُّنْيَا لِرَبِّكَ مُخْلِصَـاً
تَـدْعُـوْهُ بـالتَّـوْحِيْـدِ والإِيْمَـانِ
فَتَـظَلُّ تَـرْفُـلُ في النَّعِيْمِ مُـرَفَهـاً
بِـفَسِيْـحِ قَبْـرٍ طَـاهِـرِ الأَرْكَـانِ
وَلَـكَ الـرَّفِيْقُ عن الفِـرَاقِ مُسَلِيَـاً
يُـغْنِي عـن الأحْبَـابِ والأَخْـدَانِ
فُتِحَتْ عَلَيْـكَ مِن الجِنَـانِ نَـوَافِـذٌ
تَـأْتِيْـكَ بـالأَنْـوَارِ والـرِّيْحَـانِ

وَتَظَلُّ مُنْشَرِحَ الفُؤَادِ مُنَعَّمـاً
حَتَّى يَقُومَ إِلَى القَضَا الثَّقَلانِ
تَأْتِي الحِسَابَ وَقَدْ فَتَحت صَحِيْفَةً
بـالنُّوْرِ قَدْ كُتِبَتْ وبِالرِّضْوَانِ
وَتَرَى الخَلاَئِقَ خَائِفِيْنَ لِذَنْبِهِمْ
وَتَسِيْرُ أَنْتَ بِعِزَّةٍ وَأَمَانِ

وَيُظِلُّكَ اللهُ الكَرِيمُ بِظِلِّهِ
والناسُ في عَرَقٍ إِلَى الآذانِ
وتَرَى الصِّرَاطَ ولَيْسَ فيهِ صُعُوبَةٌ
كالبَرْقِ تَعْبُرُ فِيْهِ نَحْوَ جِنَانِ
فَتَرى الجِنَانَ بِحُسْنِهَا وَجَمَالِهَا
وَتَرَى القُصُورَ رَفِيْعَةَ البُنْيَانِ
طِبْ في رَغِيْدِ العَيْشِ دُوْنَ مَشَقَّةٍ
تَكْفِي مَشَقَّةُ سَالِفِ الأَزْمَانِ
وَالبَسْ ثِيَابَ الخُلْدِ واشْرَبْ وَاغْتَسِلْ
وابْعِدْ عن الأَكْدَارِ والأَحْزَانِ
سِرْ وانْظُرِ الأَنْهَارَ واشْرَبْ مَاءَهَا
مِن فَوْقِهَا الأثْمَارُ في الأفْنَانِ
والشَّهْدُ جَارٍ في العُيُونِ مُطَهَّرٌ
مَعَ خَمْرَةِ الفِرْدَوْسِ والأَلْبَانِ
والزَّوْجُ حُورٌ في البُيُوتِ كَوَاعِبٌ
بِيْضُ الوُجُوهِ خَوَامِصُ الأَبْدَانِ

أَبْكَـارُ شِبْـهِ الـدُّرِ في أَصْـدَافِـهِ
والـلؤْلُؤِ الـمَـكْـنُـونِ والـمُـرْجَـانِ
وَهُـنَـا مَـقَـرٌ لا تَـحُـولَ بَـعْـدَهُ
فِيْـهِ السُـرُوْرِ بِـرُؤْيَـةِ الـرَّحْـمَنِ
أَمَّـا إِذَا مَـا كُنْتَ فِيْهَـا مُجْـرِمـاً
مُـتَـتَـبِـعـاً لِـطَرَائِـقِ الـشَّـيْـطَانِ
ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ كَيْفَ تَحْتَمِـلُ الأَذَى
أَمْ كَيْفَ تَصْبِـرُ في لَـظَىٰ النِّيْـرَانِ
فَـإِذَا تَفَـرَّقَ عَنْـكَ صَحْبُكَ وانْثَنَى
حُمَّـالُ نَعْشِـكَ جَـاءَكَ المَـلَكَـانِ
جَـاءآكَ مَـرْهُـوْبَيْنِ مِن عَيْـنَيْـهِمَـا
تُـرمَـىٰ بِـأَشْـوَاظِ مِـنَ الـنِّـيْـرَانِ
سَـأَلاَكَ عَـن رَبٍ قَـدِيْـرٍ خَـالِـقٍ
وَعَـن الـذي قَـدْ جَـاءَ بِـالقُـرْآنِ
فَتَقُـولُ لاَ أَدْرِيْ وَكُنْتُ مُـصَـدقـاً
أَقْـوَالُ شِبْـهِ مَقَـالَـةِ الـثَّـقَـلاَنِ
فَيُـوبِخَـانِـكَ بِـالـكَـلاَمِ بِشِـدَّةِ
وَسَيَـضْـرِبَـانِـكَ ضَـرْبَـةَ السَّجَـانِ
فَتَصِيْـحَ صَيْحَـةَ آسِفٍ مُتَـوَجِـعٍ
ويَجِي الشُّجَـاعُ وَذَاكَ هَـوْلٌ ثَـانِي
ويَجِيْ الـرَّفِيْقُ فَيَـا قَبَـاحَـةَ وَجْهِـهِ
فَـكَـأَنَّـهُ مُـتَـمَـرِّدٌ مِـن جَـانَ

وَتَقُـوْلُ يَـا وَيْـلاَ أَمَـالِي رَجْعَـةٌ
حَتَّـى أَحُـلَّ بِسَـاحَـةِ الإيمَـانِ
لـو عُدْتَ لِلدنيَـا لَعُدْتَ لِمَـا مَضَى
في جَـانِبِ التَّكْـذِيْبِ والعِصْيَـانِ

اللهُمَّ يا جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيْهِ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الصِّدْقِ وَالنِّيةِ الصَّالِحَةِ والاخلاصِ والخُشُوعِ والمُرَاقبَةِ واليَقِيْنِ والعِلْمِ والمَعْرِفَةِ والفَصَاحَةِ والبَيَانِ وَالفَهْمِ في القُرْآنِ وَخُصَّنا مِنْكَ بالمَحَبَّةِ وَالاصْطِفَائِيَّةِ وَوَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ الرَّشِيْدِ والرِّزْقِ الهَنِيْءِ الذي لاَ حِجَابَ بِهِ في الدُّنْيَا وَلاَ حِسَابَ ولا سُؤالَ ولا عِقَابَ عَلَيْهِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فهرس الجزء الثالث من موارد الظمآن

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة
موعظة بليغة في ذكر بعض نعم الله على خلقه	١١١ /١١٢
حديث جليل نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس	١١٣ /١٢٠
وصية الامام الموفق وابن القيم رحمهما الله	١٢١ /١٢٢
قصيدة في الحث على أخذ الزاد للدار الآخرة من كلام ابن القيم رحمه الله	١٢٣ /١٢٤
قصيدة بليغة في التضجر من أهل هذا الزمان	١٣٧
من كلام ابن القيم في الجهاد	١٤٢ /١٤٨
من نظم ابن عبد القوي في الجهاد في سبيل الله	١٤٩ /١٥١
فائدة جليلة ويليها موعظة بليغة	١٥٢ /١٦٠
فصل يحتوي على نبذة يسيرة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ...	١٦١
قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم	١٦٢ /١٦٣
بعد مولده صلى الله عليه وسلم وقصة اول رضاعة	١٦٤
خروجه صلى الله عليه وسلم مع عمه ابي طالب الى أن بلغ بصري .	١٦٥
تزوجه صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها	١٦٦
رعية الغنم واتجاره صلى الله عليه وسلم وذكر اولاده	١٦٨
قصيدة لبعض الصحابة حول دعوته صلى الله عليه وسلم للتوحيد ..	١٦٩
كلام شيخ الاسلام رحمه الله حول صفات النبي صلى الله عليه وسلم	١٧٠
قصة أبي أيوب الانصاري ونزول الرسول صلى الله عليه وسلم عنده	١٧٣ /١٧٦
موعظة بليغة في التحذير من الغضب	١٧٨
من وفائه صلى الله عليه وسلم وما جرى له عند تزوجه بخديجة وتأييد خديجة له رضي الله عنها	١٨٢ /١٨٨

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة
فصل في تحريم الظلم، حده ذكر بعض مضاره، ومفاسده والأدلة على تحريمه	
تحريمه، وأمثلة لآثاره، ويليها موعظة بليغة في الحث على محبة المولى جل وعلا والابتعاد عن المعاصي	٤٠٥/٤٠٨
قصيدة زهدية فيها عبر ومواعظ	٤٠٩/٤١١
الاحاديث الواردة في التحذير من الظلم واتقاء دعوة المظلوم وأبيات في وصفها وأبيات في وصفها	٤١٣
ذكر طرف من مافي صحف ابراهيم وموسى يليها موعظة بليغة الحث على نصر المظلوم، الظلم لا يختص بارباب الوضائف	٤١٤/٤١٩
موعظة بليغة في التحذير من الشر وأهله	٤٢٢
كلام نفيس لشيخ الاسلام حول الظلم والأمثلة الموضحة لذلك	٤٢٣/٤٢٥
ذكر بعض الكبائر والتحذير من الظلمة واعوانهم	٤٢٦
مشهد يوضح لك ما يكون امامك بعد البعث	٤٢٨
قصيدة في التحذير من الظلم وأنه سيقتص من الظالم	٤٣٠
موعظة في التحذير من الظلم وسائر المعاصي	٤٣٣/٤٣٤
فصل في مشهد من مشاهد القيامة عند نشر الصحائف	٤٣٥
وبعدها أبيات فيها تمجيد لله وتضرع	٤٣٦/٤٣٧
موعظة في الحث على التزود للآخرة وفيها عبر ومواعظ ويليها قصيدة زهدية في الحث على الاستعداد للموت وما بعده	٤٣٨/٤٣٩
فصل في تحريم القتل وذكر آثاره السيئة وعواقبه الوخيمة	٤٤٠
ما قاله العلماء حول جريمة القتل وبعده الأدلة على تحريم القتل	٤٤١
أدلة على تحريم القتل وانه لا توبة للقاتل عند بعض اهل العلم	٤٤٣
ذكر من يرى انه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا عدوانا، بيان	٤٤٦

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضــوع	رقم الصفحة

الموضــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة
الفوائد المأخوذة من الأحاديث المتقدمة في التصوير	٥٧٣/٥٧٠
قصيدة في الحث على قيام الليل والزهد في الدنيا والوصية بالتقوى ...	٥٧٤
موعظة بليغة عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه	٥٧٦
فصل في تحريم الرشوة وبيان اضرارهاومفاسدها	٥٧٧
معنى الراشي والمرتشي والأدلة على تحريمها	٥٨١
قصيدة زهدية فيها عبر ومواعظ	٥٨٣
موعظة بليغة في الحث على الورع وتجنب اكل الأموال بالباطل	٥٨٧/٥٨٥
حكم التأمين وصفة التأمين والأدلة على تحريمه	٥٨٨
التأمين على الحياة والمال ابطاله من وجوه عديدة	٥٩٣/٥٨٩
التأمين على السيارات وحوادثها	٥٩٤
موعظة وبعدها قصيدة في الحث على الاستعداد للموت	٥٩٦/٥٩٥
فصل في التحذير من الغش	٥٩٩/٥٩٨
الغش يدخل في اشياء كثيرة نذكر بعضها	٦٠٤/٦٠١
ابيات في الحث على التوبة والالتجاء الى الله جل وعلا وتقدس	٦٠٥
اضرار انتقاص الحقوق بالبخس والتطفيف	٦٠٧/٦٠٦
من اضرار الغش مسائل متعددة	٦٠٩/٦٠٨
قصيدة زهدية ويليها موعظة بليغة وبعدها قصيدة	٦١٦/٦١١
اليمين الغموس والأدلة على تحريمها والحث على تجنبها	٦١٦
تهاون الناس بالايمان وبالاخص عند البيع والشراء والاجارة	٦٢١
موعظة بليغة في الحث على تعظيم الله والاستحياء منه	٦٢١
ابيات في الحث على التزود وللآخرة	٦٢٣
القذف والتحذير من فعله والأدلة على تحريمه	٦٢٤
اضرار القذف كثيرة ويليها موعظة بليغة وبعدها قصيدة	٦٢٩/٦٢٥

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

إلى هنا إنتهى فهرس الجزء الثالث
من موارد الضمآن

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
(إدارة الطبع والترجمة)
٣

موارد الظمآن لدروس الزمان

خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان

تأليف
عبد العزيز المحمد السلمان

الجزء الرابع

الطبعة الحادية عشر

وقف لله تعالى . يوزع مجاناً ولا يباع . ومن استغنى عنه فليدفعه لغيره

١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م

« فَصْــلٌ »

في الشـفاعة العظمى

تَأَمَّلْ مَا في حَدِيْثِ الشَّفَاعَةِ العُظْمَى الذي رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : كُنَّا مَعَ النبي صَلى اللهُ عليه وَسَلَمَ في دُعْوَةٍ ، فَرُفِعَ اليْهِ الذِّرَاعُ ـ وَكَانَتْ تُعْجِبُه ـ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَه وَقَالَ « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذاكَ ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأُولين وَالآخِرِيْنَ ـ في صَعِيْدٍ واحِدٍ ، فَيُبْصِرُهُمْ النّاظِرُ ، وَيُسْمِعُهم الدَّاعِيْ ، وَتَدْنُو منهم الشَّمْسُ ، فَيَبْلغُ النَّاسُ مِنْ الغمِّ والكَرْبِ مَا لَا يُطِيْقُـونَ ولا يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقُولُ الناسُ : ألا تَرَوْنَ إلى ما أَنْتُم فيه وإلى ما بَلغكُم ، ألاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لكُم إلى رَبّكُم ؟ فيقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أبُوكُم آدَمُ ، فَيَأْتُـونَهُ فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو البَشرِ ، خلقَكَ اللهُ بِيَدِهِ ، وَنفخَ فيْكَ مِنْ رُوْحِه ، وَأَمَرَ الملائِكةَ فَسَجَدُوا لكَ ، وَأَسْكنكَ الجَنَّةَ ، ألا تَشْفَعُ لَنا إلى رَبّكَ ؟ أَلا تَرى مَا نَحْنُ فيْهِ وَمَا بَلغْنَا ؟ فَقَالَ : انَّ رَبِّي غضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلهُ ، وإنه نَهانِيْ عَنْ الشَّجرةِ فَعَصَيْتُ ، نَفْسِيْ نَفْسِي نَفْسِيْ ، إِذْهَبُوا إلىَ غَيْرِيْ ، إِذْهَبُوا إلَى نُوْحٍ ، فَيأْتُون نوْحاً فيَقُولُون : يَا نُوْحُ أَنْتَ أَوّلُ رَسُولٍ إلى أَهْلِ الأَرْضِ ، وَقد سَمَّاكَ اللهُ عَبْدَاً شَكُورَا ، ألا تَرى إلى ما نحنُ فيْهِ ؟ أَلا تَرى إِلى ما بَلَغْنَا ؟ ألا تَشْفعُ لَنَا إلَى رَبِّك ؟ فَيَقُولُ : إِن رَبّي غضِبَ اليَوْمَ غضَباً لَم

يَغْضَبْ قبْلهُ مثلهُ ، وَلنْ يَغْضَبَ بَعْدَه مِثْلهُ ، وَانهُ قدْ كانَ لِيْ دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِيْ ، نَفْسِي نَفْسِيْ نَفْسِيْ ، إِذْهَبُوا إلى غَيْرِي ، إِذهَبُوا إلى إبْرَاهِيْمَ فَيَأتونَ إِبْرَاهِيْمَ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيْلُهُ ، مِنْ أَهْل الأَرْضِ ، إِشْفَعْ لنا إِلى رَبِّكَ ، ألا ترى إِلَى ما نَحْنُ فيْهِ ؟ فَيَقُولُ لَهُم : إِنّ رَبِّيْ قَد غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ ، فذكرَهَا ، نَفْسِيْ نَفْسِي نَفْسِيْ ، إِذْهَبُوا إلى غَيْرِيْ ، إِذهَبُوا إلى مُوْسَى ، فَيَأْتُونَ مُوْسى ، ، فَيَقُولُونَ : يَا مُوْسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، فَضَّلَكَ اللهُ برسَالاتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنا إلى رَبِّكَ ، أَمَا تَرى إلى مَا نَحْنُ فِيْهِ ؟ فَيَقُولُ : إنّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّيْ قد قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُوْمَرْ بقَتْلِهَا ، نَفْسِيْ نَفْسِيْ نَفْسِيْ ، إِذهَبُوا إلى غَيْرِيْ ، إِذْهَبُوا إلى عِيْسَى ، فَيَأْتُونَ عِيْسَى ، فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، وَكَلِمَتُه ألقاهَا إلى مَرْيَمَ، وَرُوْحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ في المَهْدِ ، اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ ، أَلاَ تَرى إلى مَا نَحْنُ فيْهِ ؟ فَيَقُولُ عِيْسَى : إنَّ رَبِّيْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثلهُ ، ولم يَذْكُرْ ذَنْباً ، نَفْسِيْ نَفْسِيْ نَفْسِيْ ، إِذهَبُوا إلى غَيْرِيْ إِذهَبُوا إلى مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسَلمَ ، فَيَأْتُونَ فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، اشْفَعْ لَنَا إلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرى إلَى مَا نَحْنُ فيْهِ ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِيْ تَحْتَ العَرْشِ ، فأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّيْ ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِن مَحَامِدِهِ ، وَحُسْنِ الثنَاءِ عَلَيْهِ ، شَيْئاً لم يَفْتَحْهُ عَلى أَحَدٍ قَبْلِيْ ، ثم يُقالُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ

تشَفعْ ، فأرْفَعُ رَأْسِيْ ، فأقُولُ أُمّتِي يَا رَبِّ يَا رَبِّ أُمَّتِيْ يَا رَبِّ ، فَيُقَالُ : يا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِن أُمَّتِكَ مَن لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنْ البَابِ الأيْمَن مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكاءُ النَّاسِ فِيْمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الأبْوَابِ ، ثُمَّ قالَ : وَالذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ انَّ ما بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مصَارِيْعِ الجَنَّةِ ، كَمَا بَيْنَ مَكة وَهَجَرْ ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكةَ وَبُصْرَى » رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسِلمٌ . وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ .

شِعْراً

إِلَـهَ الـعَـالَـمِـيْـنَ وَكُـلِّ أَرْضٍ
وَرَبَّ الـرَّاسِـيَـاتِ مِـن الـجِـبَـالِ
بَـنَـاهَـا وابْـتَـنَـى سَـبْـعَـاً شِـدَاداً
بِـلاَ عَـمَـدٍ يُـرَيْـنَ وَلاَ رِجَـالِ
وَسَـوَّاهَـا وَزَيَّـنَـهَـا بِـنُـورٍ
مِـن الـشَّـمْـسِ الـمُـضِـيْـئَـةِ والـهِـلاَلِ
ومِـنْ شُـهُـبٍ تَـلأْلأُ فـي دُجَـاهَـا
مَـرَامِـيْـهَـا أَشَـدُّ مِـنَ الـنِّـصَـالِـي
وَشَـقَّ الأَرْضَ فـانْـبَـجَـسَـتْ عُـيُـونـاً
وأَنْـهَـاراً مِـنَ الـعَـذْبِ الـزِّلاَلِ
وَبَـارَكَ فِـيْ نَـواحِـيْـهَـا وَزَكَّـى
بِـهَـا مَـا كَـانَ مِـن حَـرْثٍ وَمَـالِ
فَـكُـلُّ مُـعَـمَّـرٍ لاَ بُـدَّ يَـوْمـاً
وذِيْ دُنْـيَـا يَـصِـيْـرُ إِلَـى الـزَّوَالِ

وَيفْنَى بَعْدَ جِدَّتِهِ وَيبْلَى
سِوَى البَاقِيْ المُقَدَّسِ ذِي الجَلالِ
وَسِيْقَ الـمُجْرِمُونَ وَهُمْ عُرَاةٌ
إلَى ذَاتِ السَّلاسِلِ والنَّكَالِ
فَنَادَوْا وَيْلَنَا وَيْلاً طَوِيلاً
وَعَجُّوْا فِي سَلاَسِلِهَا الطِّوَالِ
فَلَيْسُوا مَيِّتِيْنَ فَيَسْتَرِيْحُوا
وَكُلُّهُمُ بِحَرِّ النَارِ صَالِ
وَحَلَّ المُتَقُونَ بِدَارِ صِدْقٍ
وَعَيْشٍ نَاعِمٍ تَحْتَ الظِّلاَلِ
لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ وَمَا تَمَنُّوْا
مِنَ الأَفْرَاحِ فِيْهَا والكَمَالِ

اللهُمَّ يَا مُثَبِّتَ القُلُوبِ ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَوَفِّقْنَا لِمَحَبَّةِ أوْلِيَائِكَ وَبُغْضِ أَعْدَائِكَ وَيَسِّرْنَا لليُسْرَىٰ وَجَنِّبْنَا العُسْرَى وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وبكتَابكَ وبرُسُلِكَ مُقْتَدِيْنَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِه وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْــلٌ »

وَتَأَمَّلْ إِذَا جِيْءَ بِجَهَنَّمَ إلَى المَوْقِف ، تُقَادُ بِسَبْعِيْنَ ألْفِ زَمَامٍ مَعَ كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا ، قَالَ تَعَالَى ﴿ وَجِيْءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّم ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الانْسَانُ وَأَنَّى لهُ الذِّكْرَى ، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ

لِحَيَاتِي ، فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ، وَلَا يُوْثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ وقال ﴿ وبُرِّزت الجحيم لِلغاوين ﴾ .

وقالَ تَعالَى ﴿ فإذَا جاءَتْ الطَّامَّةُ الكُبْرَى ، يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى ، وَبُرِّزَتْ الجَحِيْمُ لِمَنْ يرى ﴾ وَقَالَ تَعالَى ﴿ وَعرضْنا جهَنَّم يَوْمَئِذٍ للكافِرِيْنَ عرْضاً ﴾ ﴿ خاشِعِيْنَ مِنْ الذُّلِّ ، يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيّ ﴾ وَقَال ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذِيْنَ كَفَرُوا عَلى النَّارِ ، أَلَيْس هَذا بالحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَى وَرَبِّنَا . قالَ : فَذُوقُوا بِمَا كُنْتُم تَكْفُرُوْنَ ﴾ وَقَالَ تَعالَى ﴿ لَتَرَوُنَّ الجَحِيْمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِيْنِ ﴾ .

في ذَلِكَ الوَقْتِ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ سَعْيَه ، وَيَسْتَحْضِرْ إنْ كَانَتْ أَحْوَالُ الدنيا وشَواغِلُ المَتَاعِ اغْفَلَتْهُ وأَنسَتْهُ ، أَيّاً كانَ يَتَذَكَّرُه ، وَيَسْتَحْضِرُهُ ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يُفِيْدُ التَّذَكُّرُ وَالاسْتِحْضَارُ إلا الحَسْرَةَ والنَّدَامَةَ ، وَتَصَوُّرَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ العَذَابِ والبَلْوَى .

وَقَالَ في آيَةِ قَ ﴿ لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هَذا ، فكَشَفنا عَنْكَ غِطَاءَكَ ، فَبصَرَكَ اليَوْمَ حَدِيْدٌ ﴾ قَوِيٌّ لَا يَحْجِبُهُ حِجَابٌ ، وَهَذا هُوَ الموعِدُ الذِيْ غفلْتَ عنهُ ، وهَذَا هُوَ الموْقِفُ الذِي لم تَحْسِبْ لَهُ حِسَابَهُ ، وهَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ التي كُنْتَ لَا تَتوقعُها ، وَلَا تَهْتَمُّ لَهَا وَتَسْتَهِيْنُ بِهَا في الدنيا ، فالآنَ فانْظُرْ ﴿ فَبصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيْدٌ ﴾ وَفي الآيَةِ الأخْرَى يَقُولُ تَعالَى ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ، لَكِنْ الظالِمُونَ اليَوْمَ في ضَلَالٍ مُبِيْنٍ ﴾ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ « يُؤْتى بِجَهَنَّم لَهَا سَبْعُونَ أَلْفِ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَام سَبْعُونَ ألفِ مَلكٍ ، يَجُرُّوْنَها » رَوَاهُ مُسْلِمٌ . فَبَيْنَمَا النَّاسُ في الكُـروبِ وَالأهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ ، سَمِعُوا لَهَا زفِيْراً وَجَرْجَرَةً .

تُفْصِحُ عَنْ شِدَّةِ الغَيْظِ وَالغَضَبِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَيْقَنَ المُجْرِمُونَ بالعَطبِ ، وَجَثَتْ الأمَمُ عَلَى الرُّكَبِ ، قالَ اللهُ تَعالَى ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكانٍ بَعِيْدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وَزَفِيْراً ﴾ ثبتَ عَنْ النَّبيّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلم أنهُ قالَ « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوّءْ بَيْنَ عَيْنَيْ جَهَنَّمَ مَقْعَداً » قَالُوا : وَهَلْ لَهَا مِنْ عَيْنَيْنِ ؟ ، قالَ « نَعَمْ أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ اللهِ تَعَالَى . . ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعيْدٍ ﴾ قِيْلَ : المكانُ البَعِيْدُ مَسِيْرَةُ مائةِ عام ، وَقِيْلَ خَمْسُمائةِ عَام ، وَذَلِكَ إذَا أُتْيَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِسَبْعِيْن ألفِ زِمَام ، يُشَدّ بكُلّ زمَامٍ سَبْعُونَ ألفِ مَلكٍ ، لو تُرِكَتْ لأتَتْ على كلِّ برّ وفاجرٍ ، وَأَخْرَجَ الترمذيّ مِنْ حَدِيْثِ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ، قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلم « يَخْرُجُ عنُقٌ مِنْ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، لَهُ عَيْنَان يُبْصِرَانِ وَأذنـانِ يَسْمَعَا ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ ، يقُولُ : إِنِّيْ وُكلْتُ بثلاثَةِ ، بِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللهِ إلهـاً آخـر ، وَبِكلِّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ ، وَبالمُصَوِّرِ » وَعَنْ ابْنِ عَبّاسٍ قالَ : انَّ العَبْدَ لِيُجَرُّ إلَى النَّارِ ، فَتَشْهَقُ إليهِ شَهْقَةُ البَغْلَةِ إلى الشَّعِيْر ، ثُمَّ تَزْفُر زَفْرَةً لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إلا خَافَ هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أبي خَاتِم مُخْتَصَراً .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : إِذَا بَقِيَ في النَّارِ مَنْ يُخَلَّدُ فِيْهَا جُعِلُوا في تَوَابِيْتَ مِنْ نَارٍ، فِيْهامَسَامِيْرُ مِنْ نارٍ ، ثُمَّ جُعِلَتْ تِلْكَ التَّوابِيْتُ في توابيْتَ مِنْ نَارٍ ، ثُمَّ جُعِلتْ تِلكَ التَّوابِيْتُ في تَوَابِيْتَ مِنْ نارٍ ، ثُمَّ قُذِفُوا في نَارِ

الجحِيْمِ ، فَيَرَوْنَ أنّهُ لا يُعَذَّبُ في النَّارِ غَيْرُهم ، ثمّ تلا ابْنُ مَسْعودٍ ﴿ لَهُم فِيْهَا زفِيْرٌ ، وَهُمْ فِيْهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ ورَأى المجْرِمُونَ النَّارَ ، فَظَنُّوا أنهُمْ مُوَاقِعُوهَا ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ .

عَنْ أبي سَعِيْدٍ الخُدْرِيّ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم قالَ « إِنَّ الكافِرَ لِيَرَى جَهنَّمَ ، فَيَظِنُّ أنَّها مُوَاقِعَتُه مِنْ مَسِيْرَةِ أَرْبَعِمائَةِ سَنةٍ » لِيَكُونَ ذلكَ مِنْ بابِ تَعْجِيْلِ الهَمِّ والحَزَنِ لَهُم ، فَإِنَّ توَقّعَ العَذَابِ ، وَالخَوْفِ مِنْهُ قَبْلَ وُقُوعِه عَذابٌ نَاجِزٌ ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿ إذا أُلْقُوا فِيْهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيْقاً وهِيَ تفُورُ ، تكادُ تَمَيَّزُ مِنْ الغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيْهَا فَوْجٌ سَأَلَهُم خَزنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُم نَذِيْرٌ ﴾ الآياتِ ، أَيْ يكادُ بَعْضُها يَنْفَصِلُ عَنْ بَعْضٍ مِنْ شِدّةِ غَيْظِها عَلَيْهم ، وَحَنقِهَا بهم ، وَبَعْدَ قَذْفِهِم بِهَا تَغْلِيْ بهم ، كَمَا يَغْلِيْ الحَبُّ القَلِيْلُ في الماءِ الكَثِيْرِ ، قَالَهُ العُلْمَاءُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَوّلَ مَنْ تُسَعَّرُ بهم جَهَنَّمُ مَنْ ذُكِرُوا في مَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَم « إِنَّ أَوَّلَ ناسٍ يُقْضَى بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتَى بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرفَها ، قالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيْهَا ؟ قَالَ قَاتَلْتُ فِيْكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقالَ جَرِيْءٌ فقدْ قِيلَ ، ثُمَّ أمرَ به فَسُحِبَ على وَجْهِهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرأَ القرْآنَ ، فأتى بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرفَهَا ، قالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيْهَا ؟ قالَ : تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرأْتُ فِيْكَ القُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيقال عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ القرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِىءٌ، فَقَدْ قِيْلَ ، ثُمَّ أمرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، حَتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عليْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ

المالِ كُلِّهِ ، فَأَتى بِهِ ، فعرّفهُ نِعمَهُ فَعَرَفَهَا ، قالَ : فمَا عَمِلْتَ فيهَا ؟ قَالَ : ما تَرَكْتُ مِنْ سَبِيْلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيْهَا إِلَّا أَنْفقتُ فِيْها لكَ ، قالَ : كذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوادٌ ، فَقَدْ قِيْلَ ، ثُمَّ أمر بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِه ، حَتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ » أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمذي بمَعْنَاهُ ، وَقالَ مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ ـ وَذَكَرَ عُلَمَاءَ السُّوْءِ : مَنْ إذا وَعَظَ عَنَّفَ ، أَوْ وُعِظَ أَنِفَ ، فذاكَ في أوَّلِ دَرَكٍ منْ النَّارِ ، ومِنْ العُلَمَاءِ مَنْ يأخُذُ عِلمَهُ مَأْخَذ السُّلْطَانِ فَذلك في الدَّرْكِ الثَّاني مِن النّارِ ومِن العُلمَاءِ مَنْ يُحْرِزُ عِلْمَهُ ، فَذلِكَ في الدَّرْكِ الثَّالِثِ منْ النَّارِ ، ومِنْ العُلمَاءِ مَنْ يَتخَيَّرُ الكَلاَمَ وَالعِلْمَ لِوُجُوه النَّاسِ ، وَلَا يَرى سَفَلَةَ النَّاسِ لَهُ مَوْضِعاً ، فذلكَ في الدَّرْكِ الرَّابع ، وَمِن العلماءِ مَنْ يَتكَلَّمُ كَلاَمَ اليَهُودِ والنَّصارَى وأَحَادِيثَهُمْ ، لِيَكثُر حَدِيْثَهُمْ ، فذلِكَ في الدَّرْكِ الخامِسِ مِنْ النَّارِ وَمِنْ العُلَمَاءِ مَنْ يَنْصِبُ نَفْسَهُ للفُتْيَا ، يَقُولُ للنَّاسِ سَلُونِيْ ، فذلِكَ الذيْ يُكتَبُ عندَ اللهِ مُتَكلّفاً ، واللهُ لا يُحبُّ المتَكَلِّفِيْنَ ، فَذلكَ في الدَّرْكِ السَّادِس مِنْ النَّارِ ، وَمِنْ العُلمَاءِ من يَتَّخِذُ عِلْمَهُ مُرُوْءَةً وَعَقْلا ، فَذَلِكَ في الدرْكِ السّابِعِ مِنْ النَّارِ ، ذكرَهُ غيْرُ وَاحِدٍ مِنْ العُلَمَاءِ .

قَالَ القُرْطُبِيّ مِثْلُه لا يَكُونُ رَأْياً ، وَإِنَّمَا يُدْرَكُ تَوْقِيْفاً .

وَفي حَدِيْثٍ ذَكَرَهُ أَسَدُ بْنُ مُوْسَى أنهُ صلى اللهُ عليه وَسلم قالَ « انَّ في جَهَنَّمَ لوَادِياً ، جَهَنَّمُ لتَتَعَوّذُ مِنْ شَرِّ ذَلِكَ الوَادِيْ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَانَّ في ذلكَ الوَادِي لَجُبّاً ، إِنّ جَهَنَّمَ وَذَلِكَ الوَادِيْ لِيَتَعَوّذَانِ باللّهِ مِنْ شَرِّ ذلكَ الجُبِّ ، وَإن في ذلِكَ الجُبِّ لَحَيّةً ، إنّ جَهَنَّم والوَادِي وَذَلكَ الجُبّ لِيَتعَوّذُونَ مِن شَرِّ تِلْكَ الحَيّةِ ، أَعَدَّهَا اللهُ للأشْقِيَاءِ مِنْ حَمَلَةِ القُرْآنِ » .

اللهُمَّ افْتَحْ لِدُعَائِنَا بَابَ القَبُولِ وَالاجابَةِ وَوَفِّقْنَا لِلتَّوبَةِ النَّصُوحِ وَالانابَةِ وَثبِّتْ مَحَبَّتكَ في قُلُوبنا تَثْبِيْتَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ وَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ آنَاءَ الليْلِ وَالنَّهارِ وَثَبِّتْنَا عَلى قَوْلِكَ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ الدنيَا وفي الآخِرَةِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْـــلٌ »

فَمَا ظَنُّكَ أَيُّهَا المُهمِلُ المُفَرِّطُ في عُمْرِهِ بِسُكَّانِ هَذِهِ الدَّارِ ، ضَيِّقَةِ الأَرْجَاءِ ، مُظْلِمَةِ المسَالِكِ ، مُبْهَمَة المَهَالِك ، يَخْلدُ فِيْها الأَسِيْرُ ، وَيُوْقَدُ فِيْهَا السَّعِيْرُ ، طَعَامُ أَهْلِهَا الزَّقُومُ ، وَشَرَابُهم الحَمِيْمُ ، قالَ اللهُ تَعالَى ﴿ ثُمَّ إنكُمْ أَيُّها الضَّالُّوْنَ المكَذِّبُوْنَ ، لآكِلون مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقوْمٍ ، فَمَالِئُونَ مِنْهَا البُطُونَ ، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ الحَمِيْم ، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيْمِ ، هَذَا نُزلُهم يَوْمَ الدِيْنِ ﴾ وَالنّزلُ هُوَ ما يُعَدُّ للضَّيْفِ عِنْدَ قدومِه ، فَدَلَّتْ هَذِه الآيَاتُ عَلى أنّ أَهْلَ النَّارِ يُتْحفُونَ عِنْدَ دُخُولِهَا بالأَكْلِ مِنْ شَجَرةِ الزَّقُّومِ والشَّرَابِ مِنْ الحَمِيْم ، وَهُمْ إنَّمَا يُسَاقُونَ إليْها عِطَاشاً ، كَمَا قالَ تَعالىَ (وَنَسُوقُ المجْرمِيْنَ إِلَى جَهنَّمَ وِرْداً) قالَ أَبُو عُمْرَانَ الجَوْنِيّ بَلغَنَا أَنَّ أَهْلَ النّارِ يُبْعَثُونَ عِطَاشاً يَقفُونَ في مَشَاهِدِ القِيَامَةِ عِطاشاً ، ثُمَّ قَرأ (وَنَسُوقُ المجْرِمِيْنَ إلِىَ جَهنَّمَ وِرْداً) .

وَقَالَ تَعالىَ أَذلِكَ خيرٌ نُزُلاً أمْ شَجرةُ الزَّقُّوْمِ ، إنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً للظَّالمِيْنَ ، إنّهَا شَجَرةٌ تَخرُجُ في أَصْلِ الجَحِيْم ، طَلْعُهَا كأنّهُ رُؤوُسُ الشَّيَاطِينَ ، فإنهُم لآكلُون مِنها ، فَمَالِئُونَ مِنهَا البُطُونِ ثمّ إنّ لهُم عليها لَشَوْباً مِن حَمِيْم) .

خَرَّجَ التّرمذِي وابنُ ماجه وابنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِه مِنْ حَدِيْثِ ابن عَبّاس أنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم قرأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ اتقُوا اللهَ حَقّ تُقاتِهِ ، وَلَا تَمُوتنَّ إلا وَأنتُم مُسْلِمُون ﴾ فقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم « لَوْ أَنَّ قَطرَةً مِنْ الزّقُّوم قَطرَتْ في دَارِ الدّنْيَا ، لأفْسَدَتْ عَلى أَهْلِ الدُنْيَا مَعَائِشَهُم فَكَيْفَ بمَنْ تكونُ طعَامه » وَقَالَ الترمِذيّ صَحِيْحٌ .

وَرُوِيَ مَوْقُوفاً علَى ابْن عَبّاس ، وعَنْ سَعِيْدِ بْن جُبَيْرٍ قَالَ : إذا جَاعَ أَهْلُ النّارِ اسْتَغَاثُوا مِنْ الجُوْعِ ، فَأغِيْثُوا بِشَجَرَةِ الزّقُّومِ ، فَأَكلُوا مِنْهَا فانْسَلَخَتْ وُجُوهُهُم ، حَتَّى لَوْ أَنَّ ماراً مَرَّ عَلَيْهِم يَعْرِفُهم ، لَعَرَفَ جُلُودَ وُجُوْهِهِمْ ، فَإِذَا أَكلُوا مِنْهَا أُلْقِيَ عَليهم العَطشُ، فاسْتَغَاثُوا مِنْ العَطْشِ ، فَأُغِيْثُوا بِمَاءٍ كالمُهْلِ والمُهْلُ الذِي قَدْ انْتَهَى حَرُّهُ ، فاذَا أَدْنوْهُ مِنْ أفوَاهِهِمْ أَنْضجَ حَرُّهُ الوُجُوهَ ، فَيُصْهَرُ بِهِ ما في بُطُونِهم ، وَيُضْرَبُونَ بمَقامِعَ مِنْ حَدِيْدٍ ، فَيَسْقُط كلُّ عُضْوٍ علَى حِيَالِهِ ، يَدْعُونَ بالثُّبورِ ، وَيَدُلُّ عَلى هَذَا قَوْله تَعَالَى ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ التِي يُكذّبُ بِهَا المجْرِمُونَ ، يَطُوْفُونَ بينَها وبينَ حَمِيْمٍ آنٍ ﴾ والمَعْنَى يَتَرَدَّدونَ بينَ جَهَنَّمَ والحَمِيْمِ ، فَمَرّةً إلَى هَذَا ، وَمَرَّةً إلى هَذَا ، قالَهُ قتَادَةُ وابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرِهِمَا .

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ انَّ لَدَيْنَا أَنْكالاً وَجَحِيْماً ، وطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيْماً ﴾ وَقَالَ ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلا مِنْ ضَرِيْعٍ ، لَا يُسْمنُ وَلَا يُغْنِيْ مِنْ جُوْعٍ ﴾ .

وَرَوَى الإمَامُ أَحْمَدُ باسْنَادِهِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ في قَوْلِه تَعَالَى ﴿ وَطَعَاماً ذا غُصَّةٍ ﴾ قالَ : شوْكٌ يأخُذ بالحلقِ لا يَدْخُلُ ولا

يَخْرُجُ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مِنْ ضَرِيْع ﴾ قَالَ : شَجَرٌ في جَهَنَّمَ . وقالَ مُجَاهِدُ : الضَّرِيْعُ الشُّبْرُقُ اليَابِسُ ، ورُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : الشُّبْرُقُ نَبْتٌ ذُو شَوكٍ لاطٍ بالأرْضِ ، فإذا هَاجَ سُمِّيَ ضَرِيْعاً ، وَخَرَّجَ التّرمذيّ مِنْ حَدِيْثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النبي صَلى اللهُ عليه وسَلم .

« يُلقى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الجُوعُ فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيْهِ مِنْ العَذَابِ ، فَيَسْتَغِيْثُونَ ، فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيْعٍ ، لاَ يُسْمِنْ وَلاَ يُغْنِيْ مِنْ جُوْعٍ ، فَيَسْتَغِيْثُونَ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذا غُصَّةٍ ، فَيَذّْكُرونَ أنهُم كانُوا يُجِيْزُونَ الغُصَصَ في الدّنْيَا بالشَّرَابِ ، فَيَسْتَغِيْثُونَ ، بالشَّرَابِ ، فَيُدْفَعُ إلِيْهِم الحَمِيْمُ ، بِكَلاَلِيْبِ الحَدِيْدِ ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِم شَوَتْ وُجُوهَهُم ، فإِذَا وَصَلَتْ بُطُونَهُم قَطَعَتْ مَا في بُطُونِهِم » وذَكَرَ بَقِيَّةَ الحَدِيْثِ ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مَوْقُوفاً عَلَى أَبِيْ الدَّرْدَاءِ .

وَقَالَ جَلَّ وَعَلا وَتَقَدَّسَ ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هَهُنَا حَمِيْمٌ ، وَلاَ طَعَامٌ إلا مِنْ غِسْلِيْنَ ، لا يَأْكُلُهُ إلا الخَاطِئُونَ ﴾ رُوِيَ عَن عَلي بْنِ أبي طَلْحَةَ عن ابنِ عبّاسٍ ﴿ مِنْ غِسْلِين ﴾ قالَ : هو صَدِيْدُ أَهْلِ النارِ . وَقَالَ شَبِيْبُ بنُ بشْرٍ ، عَنْ عكرِمَةَ ، عَنْ ابْنِ عبّاسٍ . الغِسْلِيْنُ الدَّمُ وَالمَاءُ يَسِيْلُ مِنْ لُحُومِهِم ، وَهُوَ طَعَامُهم ، وَعَنْ مُقَاتِلٍ قَالَ : إذا سَالَ القَيْحُ وَالدَّمُ بَادِرُوا إلى أَكْلِهِ ، قَبْلَ أَنْ تَأْكُلَهُ النَّارُ .

وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيْماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُم ﴾ وَقَالَ جَلَّ وَعَلا ﴿ لاَ يَذوقُونَ فيها بَرْدَاً وَلاَ شَرَاباً ، إلا حَمِيْماً وَغَسَّاقاً ﴾ وَقَالَ جَلَّ وَعَلا ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيْمٌ وَغَسَّاقٌ ، وَآخرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ وَقال

تَعَالَى ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيْدٍ ، يَتَجَرَّعُهُ ، وَلَا يَكَاغُ يُسْيْغهُ ﴾ وَقَالَ عَزَّ مِنْ قائِلٍ ﴿ يُصَبُّ مِنْ فوْقِ رُؤُسِهِم الحَمِيْمُ ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِم والجُلُود ﴾ وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا ﴿ وإنْ يَسْتَغِيْثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كالمهْلِ ، يَشْوِيْ الوُجُوه ، بِئْسَ الشَّرَابُ ، وَسَاءَتْ مُرْتَفَقَا ﴾ الحَمِيْمُ الذِي قَد انتَهَى حَرُّهُ ، والغسَّاقُ قِيْلَ : إنهُ مَا يَسِيْلُ مِنْ بَيْنِ جلْدِ الكافِرِ وَلَحْمِهِ ، وَقِيْلَ : الزَّمْهَرِيرُ البَارِدُ الذِي يُحْرِقُ مِنْ بَرْدِهِ ، قالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو قَالَ : الغَسَّاقُ القَيْحُ الغَلِيْظُ ، لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْهُ تُهْرَقُ في المَغْرِبِ لأنْتَنَتْ أَهْلَ المَشْرِقِ ، وَلَوْ أُهْرِيْقَتْ في المَشْرِقِ ، لأَنْتَنَتْ أَهْلَ المَغْرِب ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ . (غسَّاقُ) الذِي لَا يَسْتَطِيْعُونَ أَنْ يَذُوقُوهُ مِنْ بَرْدِهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : هُوَ مَا يَغْسِقُ أيْ يَسِيْلُ مِنْ القَيْحِ وَالصَّدِيْدِ مِنْ جُلُودِ أَهْلِ النَّارِ وَلُحُومِهُم ، وَفُروجِ الزّناةِ وَدُمُوعِ أَهْلِ النَّارِ وَعُرُوقِهِم ، وَقَالَ كَعْبٌ : غسّاقُ عَيْنٌ في جَهَنَّمَ يَسِيْلُ إلَيْهَا حُمَةُ كُلِّ ذاتِ حُمَةٍ من حيَّةٍ وَعقْرَبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَيَسْتَنْقِعُ فَيُؤتَى بالآدَمِيّ فَيُغْمَسُ فِيْهَا غَمْسَةً وَاحِدَةً ، فَيَخْرُجُ وَقَدْ سَقَطَ جِلدُه وَلَحْمُه عَنْ العِظَامِ .

وَيَتَعَلَّقُ جِلْدُهُ وَلَحْمُهُ في عَقِبَيْهِ وَكَعْبَيْهِ وَيَجُرُّ لَحْمَهُ كَمَا يَجُرُّ الرَّجُلُ ثوبَهُ رَوَاهُ ابنُ أبي حَاتِم . وأَمَّا الصّدِيْدُ فَقَالَ مُجَاهِدٌ في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيْدٍ ﴾ قالَ يَعْنِي القَيْحُ وَالدَّمُ وَقَالَ قتادَةُ مَا يَسِيْلُ مِنْ بَيْنِ لَحْمِهِ وَجِلْدِهِ وقال تعالى ﴿ يَتجَرَّعُهُ ولا يَكَادُ يُسِيْغُهُ ﴾ .

وَخرَّجَ الامَامُ أَحْمَدُ وَالتّرمِذّي مِنْ حَدِيْثِ أبي أُمَامَةَ عَنْ النّبي صَلى اللهُ عليه وَسَلم في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَيُسْقى مِنَ مَاءٍ صَدِيْدٍ يَتجَرَّعه ﴾ : قالَ يُقَرَّبُ إلَى فِيْهِ فيكرَعُهُ ، فإذَا ادْنِيَ مِنْهُ شَوى وَجْهَهُ ، وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأسِهِ ،

فإذَا شَرِبَهُ قطَّعَ أمْعَاءَهُ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ ، وفي صَحِيْحِ مُسْلِم عَنْ جَابِر عَنْ النبي صَلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « إنَّ لِلهِ عَهْدا لمَنْ شَرِب المُسْكِرَاتِ ، لَيُسْقِيَنَّهُ مِنْ طِيْنَةِ الخبَالِ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ما طِيْنَةَ الخبَالِ ؟ قال « عَرقُ أهْلِ النَّارِ ، أوْ عُصَارَةُ أهلِ النَّارِ » .

وَخَرَّجَ الامَامُ أحْمَدُ وابْنُ حِبَّان في صَحِيْحِه مِنْ حَدِيْثِ أبي مُوْسَى عن النبي صَلى اللهُ عليه وسلم قَالَ « مَنْ مَاتَ مُدْمِنُ خَمْرٍ ، سَقاهُ اللهُ مِن نَهْرِ الغُوطَةِ ، قِيْلَ مَا نَهْرُ الغُوطَةِ ، قَالَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ فُرُوْجِ المُوْمِسَاتِ ، يُؤْذِيْ أَهْلَ النّارِ نَتَنُ فُرُوْجِهِم » .

وَعَنْ أَبي سَعِيْدٍ عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم في قَوْلِ اللهِ تَعَالَى (كالمهْلِ) قالَ « كَعَكَرِ الزَّيْتِ ، فإذَا قُرِّبَ إلَى وَجْهِهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ » وَقَالَ عَطِيّةُ سُئِلَ ابْنُ عَبَّاس عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ كالمُهْلِ ﴾ قالَ غَلِيْظٌ كَرَدِيّ الزَّيْتِ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ : أذَابَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِضَّةً مِنْ بَيْتِ المالِ ، ثُمَّ أَرْسَلَ أَهْلِ المَسْجِدِ ، فَقالَ مَنْ أَحَبّ أَيَنْظرَ إلى المُهْل ، فَلْيَنْظُرْ إلى هَذَا .

وَخَرّجَ الطبرَانِيْ مِنْ طَرِيْقِ تَمَّامِ بْنِ نُجَيْحِ عَنْ الحَسَنِ عَنْ أَنَسٍ عن النبي صلى اللهُ عليه وَسَلَم « لَوْ أَنَّ غَرْباً مَنْ حَمِيْمِ جَهَنَّمَ جُعِلَ في وَسَطَ الأَرْضِ ، لآذَى نَتَنُ رِيْحِه وَشِدّةُ حَرِّهِ مَا بَيْنَ المشْرِقِ والمَغْرِبِ » .

شِــعْراً :

أَفْنَى شَبَــابَــكَ كَــرُّ الــطَّرْفِ والنَّفَس
فــالمَوتُ مُقْتَــرِبٌ والدَّهْــرُ ذُو خَلَسِ
لَا تَأْمَنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نَفَسٍ
وإن تَمَنَّعْتَ بــالحُجَّــابِ والحَــرَسِ
فَمَـا تَـزَالُ سِهَــامُ المَوتِ صَــائِبَةً
في جَنْـبِ مُــدَّرِعٍ مِنْـهَــا وَمُتَّــرِسِ
أَرَاكَ لَــسْــتَ بِــوَقَّــافٍ ولا حَــذِرٍ
كالحَاطِبِ الخَابِطِ الأَعْوَادِ في الغَلَسِ
تَـرْجُـو النَّجَـاةَ وَلَم تَسْلُكْ مَسَـالِكَهَـا
إِنَّ السَّفِيْنَــةَ لا تَجْـرِيْ على اليَبَسِ
أَنىَّ لَكَ الصَّحْوُ مِن سُكْرٍ وَأَنْتَ مَتَى
تَصِّـحُ مِن سَكْرَةٍ تَغْشَـاكَ مِن نَكَسِ
مـا بَـالُ دِيْنِـكَ تَـرْضَى أَن تُــدَنِّسَــه
وثــوبُكَ الــدَّهْرَ مَغْسُــولٌ مِن الدَّنَسِ
لا تــأَمَنِ الحَتْفَ فِيْمَــا تَسْتَـلِذُ وإنْ
لانتْ مَــلَامِسُــهُ في كَفِّ مُــلْتَمِسِ
الحَمْـدُ للهِ شُكْـراً لا شَــرِيْكَ لَــهُ
كَمْ مِن حَبِيْبٍ مِن الأَهْلِيْنَ مُخْتَلَسِ

اللهُمَّ انْفَعْنَا بمَا عَلَّمْتَنا وَوَفِّقْنَا للعَمَل بمَا فَهَّمْتَنا وَزِدْنَا عِلْماً

وعلمنا ما ينفعنا وبارك في علومنا واجعلها حجة لنا .

اللهُم اعْمُرْ قُلُوبَنا وَألْسِنَتَنا بذِكْرِك وَشُكْرِكَ ووَفِّقْنَا للامْتِثَالِ لأمْركَ وَأَمِّنا مِنْ سَطْوَتِك وَمكرِكَ واجْعَلْنا مِنْ أَوْلِيَآئِكَ المُتَّقِيْنَ وَحِزْبِكَ المفْلِحِيْنَ وَاغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَميع المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الـرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّـى اللهُ عَـلَى مُحَـمَّـدٍ وَعَلى آلِـهِ وَصَـحْبِـهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْـــلٌ »

وَأَمَّا كُسْوَةُ أَهْلِ النَّارِ ، فَقَد ذكرَ جَلَّ وَعَلا ثِيَابهَم ، فَقَالَ ﴿ فالذين كفَرُوا قُطِّعَتْ لهُم ثِيَابٌ مِنْ نارٍ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ سَرابِيْلُهم مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ .

وفي كِتَابِ أَبِيْ دَاوُدَ وَالنَّسائِي وَالتِّرمِذِي عَن بُرَيْدَةَ ، أَنَّ النّبي صلى الله عليه وسَلم رَأى على رَجُلٍ خاتماً من حَدِيْدٍ ، فَقَالَ « مَا لِيْ أَرَى عَلَيْكَ حِلْيَةَ أَهْلِ النَّارِ » وَرَوى حَمَّادُ بْنُ سَلمَةَ عَنْ عليّ بْنِ زَيْدٍ ، عَنْ أنسٍ أنّ النبي صلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « إِنَّ أوَّلَ مَنْ يُكْسَى حُلّةً مِنْ النَّارِ إِبْلِيْسُ ، يَضَعُهَا عَلى حَاجِبِهِ ، وَيَسْحَبُها مِنْ خَلْفِه ، ذُرِّيَّتُهُ خَلْفَهُ ، وَهُوَ يَقُولُ : يَا ثُبُورَهُ . وَهُمْ يُنَادُونَ : يَا ثُبورَهُم . حَتّى يَقِفُوا عَلى النَّارِ ، فَيَقُولُ : يَا ثُبورَهُ وَيَقُولُون : يَا ثُبُورَهُمْ ، فَيُقالُ ﴿ لَا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثبوراً كَثِيْراً ﴾ خَرَّجَهُ الامَامُ أَحْمَدُ .

وَفي صَحِيْحِ مُسْلِم عَنْ أَبي مَالِك الأَشْعَرِيّ ، عَنْ النّبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَّم قالَ « النَّائِحَهُ إذا لَمْ تَتُبْ قَبلَ مَوْتِها ، تُقامُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وعليْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » وفي مُسْنَدِ الامَامِ أَحْمَدَ ،

عَن حَبِيْبِ بْنِ المُغَفَّلِ ، عَنْ النبي صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَمَ أنَهُ قَالَ « مَا تَحْتَ الكَعْبَيْنِ مِنْ الازارِ في النّارِ » قَالَ العُلَمَاءُ : إنَّ المُرَادَ مَا تَحْتَ الكَعْبِ مِنْ البَدَنِ والثَّوْبِ مَعاً ، وَأَنَّهُ يَسْحَبُ ثَوْبَهُ في النّارِ ، كَمَا كَانَ يَسْحَبُه في الدّنْيَا خُيلاَءَ ، وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُد وَغيْرُه ، مِنْ حَدِيْثِ المُسْتَوْرِدِ ، عَنْ النبي صلى اللهُ عليه وَسَلمَ قالَ « مَنْ أَكَلَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْلَةً في الدُنيا ، أَطْعَمَهُ اللهُ مِثْلَها في جَهَنَّمَ ، وَمَن كُسيَ أو اكْتَسَى بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ ثَوْباً ، كَسَاهُ اللهُ مِثْلَهُ في جَهَنَّمَ » .

وَقَالَ تَعَالى ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِم ظُلَلٌ مِنْ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ .. فَطَعَامُهم نَارٌ وَشَرَابُهم نَارٌ . قَالَ اللهُ تَعالى ﴿ أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلوْنَ في بُطُوْنِهم إلّا النَّارُ ﴾ وَلِبَاسُهم نَارٌ ، وَمِهَادُهُمْ نَارٌ ، قَالَ تَعَالَى ﴿ لَهُم مِن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ، وَمِنْ فَوْقِهم غَوَاشٍ ﴾ .

وقَالَ تَعَالَى ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ في النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم ذُوْقُوا مَسَّ سَقَر ﴾ فهُم بَين مُقَطَّعاتِ النّيْرَانِ ، وَسَرَابِيْلِ القطِرَانِ وَضَرْبِ المَقَامِع قالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ وَلَهُم مَقَامِعُ مِنْ حَدِيْدٍ كُلَّمَا أَرَادُوْا أَنْ يَخْرُجوا مِنْهَا مِنْ غَمّ أُعِيْدُوا فِيْهَا ﴾ وَعَنْ أبي سَعِيْدِ الخُدْرِيّ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ قَالَ « لَو أَنّ مِقمَعاً مِنْ حَدِيدٍ وُضِعَ في الأَرْضِ فاجْتَمَعَ لَهُ الثّقَلانُ مَا أقلُّوهُ مِنْ الأَرْضِ » وَعَن أبي سَعِيْدِ الخُدْرِي قال قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « لَو ضُرِبَ الجَبَلُ بِمِقْمَعٍ مِنْ حَدِيْدٍ لَتَفَتَّتَ ثم عَادَ كَمَا كَانَ » .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَهُمُ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيْدٍ ﴾ قَالَ يُضْرَبُونَ بِهَا ، فيَقَعُ كلُّ عُضْوٍ عَلَى حِيَالِه ، فيَدْعُونَ بالثبُورِ .

وَقَالَ تَعَالى ﴿ فليَذُوقُوه حمِيْمٌ وغسّاقٌ ﴾ الغسّاقُ ما سَالَ مِنْ جُلُودِ

أهْلِ النَّارِ ، مِنْ القَيْحِ وَالصَّدِيْد ، وَقَالَ القُرْطُبِيّ هُوَ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ ، وَقَالَ السَّدِّي هُوَ الذِي يَسِيْلُ من دُمُوع أهْلِ النّار ، يُسْقونَهُ مَعَ الحَمِيْم ، وَقَوْلُهُ ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أزواجٌ ﴾ أي وَعَذابٌ آخرُ، أو مَذُوقٌ آخَرُ، أو نَوْعٌ آخَرُ ، مِنْ شَكلِ ذلكَ العَذابِ .

ومَعْنَى (أَزْوَاجٌ) أَجْنَاسٌ وَأَنْوَاعٌ ، وَأَشْبَاهٌ ، وَنَظَائِرُ وَقِيْلَ هُوَ الزَّمْهَرِيْرُ ، وَقَوْلُه ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُم ﴾ الآيةِ أيْ الاتْبَاعُ دَاخِلُوْنَ مَعَكُم بِشِدَّةٍ، وَالاقْتِحَامُ الالْقَاءُ في الشَّيْءِ بِشِدةٍ ، فانّهُم يُضرَبُونَ بمَقَامِعَ مِنْ حَدِيْدٍ ، حَتّى يَقْتَحِمُوْهَا ، بأنْفُسِهم، خَوْفاً مِنْ تِلكَ المقامِعِ ، فأخبَرَ جَلَّ وَعَلا عَنْ قِيْل أهْلِ النَّارِ ، بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ كَما قَالَ تَعَالَى في الآيةِ الأُخْرَى ﴿ كُلَّما دَخلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أخْتَهَا .

فَبَدَلَ السَّلام يَتَلاعَنُوْنَ ، وَيَتَكَاذَبُونَ ، وَيَكفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، فَتَقُولُ الطّائِفَةُ الأُوْلَى دُخُولاً لِلتِي بَعْدَهَا لَا مَرْحَباً بهِم .. أيْ لا اتَّسَعَتْ مَنَازِلُهم ، في النَّارِ ، وَالرَّحبُ السَّعَةُ وَالمَعْنَى لا كَرَامَةَ لَهُم ، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْ اللهِ جَلَّ وَعَلا بانْقِطَاع المَوَدَّةِ بَيْنَهُم وَأنّ مَوَدَّتَهُم في الدُّنْيا تَصِيْر عَدَاوَةً ، كَمَا قَالَ في الآيَةِ الأخْرَى ﴿ الأخِلاَءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لبَعْضٍ عَدُوّ إلا المُتَّقِيْنَ ﴾ .

فَتَأَمَّلْ حالَ أُوْلَئِكَ التُّعَسَاءِ ، الذِيْنَ كَانَ بَعْضُهُم يُمْلِيْ لِبَعْض في الضَّلالِ ، كَيْفَ تَنَاكَرُوا ، وَتَلاعَنُوا في جَهَنَّمَ، وَأَصْبَحُوا يَتَقَلَّبُوْنَ في أنْوَاعِ العَذَابِ ، وَيُعَانُونَ في جَهَنَّمَ مَا لَا تُطِيْقُه الجِبَالُ وَما يُفَتِّتُ ذِكْرُهُ الأَكْبَادُ ، يَقْتَحِمُونَ إلَى جَهَنَّمَ إقْتِحَاما .

وَيَتَجَلْجَلُونَ في مَضَائِقِهَا ، وَيَتَحَطَّمُوْنَ في دَرَكَاتِها ، وَيَضْطَرِبُونَ بَيْنَ غَوَاشِيْهَا ، وَيَطُوْفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيْمٍ آنٍ ، وَلَا تَسْأَلْ عَمَّا يُعَانُوْنَه مِنْ ثِقَلْ السَّلاسِل وَالأَغْلَالِ ، قَالَ اللهُ تَعالى ﴿ إِذَا الاغْلَالُ في أَعْنَاقِهِم وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ في الحَميم ثُمّ في النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَجَعَلْنَا الاغْلَالَ في أَعْنَاقِ الذِيْنَ كَفَروا ﴾ .

وَقَال : ﴿ ثم في سِلْسِلَةٍ ذرْعُها سَبْعُون ذِرَاعاً فاسْلُكُوهُ ﴾ فَهَذِهِ ثَلاثَةُ أَنْوَاعٍ ، أحدُها الأَغْلَالُ ، وهِيَ في الأَعْنَاقِ ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَقَال مَعْمَرٌ عن قَتَادَةَ في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مُقَرّنِيْنَ في الأَصْفَادِ قَالَ مُقرَّنيْنَ في القُيُوْدِ وَالأَغْلَالِ ﴾ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ باسْنَادِه عَنْ مُوْسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ أَنَّهُ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بوَجْهِهِ سُوْءَ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ قَالَ تُشَدُّ أيْدِيْهِم بالأَغْلَالِ في النَّارِ ، فَيَسْتَقْبِلُون العَذَابَ بوجُوهِهِمْ ، قَدْ شُدَّتْ أَيْدِيْهِم ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يتقُوا بهَا كُلُّ مَا جَاءَ نَوْعٌ مِنْ العَذَابِ ، يَسْتَقْبِلُون بُوُجُوهِهِم وباسْنَادِه عن فَيْضِ بْنِ اسْحَاقَ عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ « اذا قَالَ الرَّبُّ تبَارَكَ وَتَعَالَى (خذوهُ فَغُلُّوهُ) تَبْدُرُه سَبْعُونَ ألفِ مَلكٍ ، كُلُّهُم يَتبَدَّرُ أَيّهُم يَجْعَلُ الغِلّ في عُنُقِه ، النَّوْعُ الثَّانِي الأنكالُ ، وهِيَ القُيُودُ قالهُ ابنُ عبَّاسٍ وعِكْرِمَة وَمُحَمدٌ بنُ كعْبٍ وَطَاوُوس وأبُو عِمْرَانَ الجَوْنِيّ وَغَيْرُهُم .

وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ الجَوْنِيّ قُيُودٌ لا تُحَلُّ وَاللهِ أَبَداً ، وَرَوَى أَبُو سِنَانَ عَنْ الحَسَن أمَا وَعزتِه مَا قَيَّدَهُم مَخَافَة أَنْ يُعْجِزُوهُ ، وَلكنْ قَيَّدَهُم لِترْسَى في النَّارِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ في الحُطَمَةِ، وَمَا أَدْرَاكَ ما الحُطَمَةِ نَارُ اللهِ الموْقَدَةِ التِي تَطَّلَعُ عَلَى الأَفْئِدَة ﴾ قَالَ مُحمدُ بنُ كَعْبِ القُرَظِيّ في قَوْله تَعَالَى ﴿ تطّلعُ عَلَى الأفْئِدَةِ ﴾ تَأْكُلُه النّارُ إلَى فُؤَادِه فإذَا بَلغَتْ فُؤاده أنْشِىءَ خَلْقُه .

وَعَنْ ثَابت البُنَانِيّ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ قَالَ تُحْرِقُهُم إلَى الأَفْئِدَةَ وَهُمْ أَحْيَاءَ ، لقَدْ بَلَغَ مِنْهُم العَذَابُ ثُمَّ يَبْكِيْ .

وَقَالَ العَوْفِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَولِ اللهِ تَعَالَى ﴿ في عَمَدٍ مُمَدَّدَة أَدْخَلهُمْ في عمَدٍ مُمَدَدةٍ عَلَيْهِم بِعِمَادٍ في أعْنَاقِهِمْ السّلاَسِلُ فَسُدَّتْ بِهَا الأَبْوَابُ ﴾ .

اللهُمّ اقْبَلْ تَوْبَتَنَا وَاغْسِلْ حَوْبَتَنا وَأجِبْ دَعْوَتَنَا وَثَبِّتْ حُجَّتَنا وَاهْدِ قلُوبَنا وَسَدّدْ الْسِنَتَنَا وَاسْلُلْ سَخِيْمَةَ قُلُوْبِنَا واجْعَلنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلوَالِدَينا ولجَمِيع المُسْلِمِينَ برَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« **فصل** »

قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ ثُمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ تُسْلكُ في دُبُره حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ مِنْخَرَيْهِ حَتَّى لاَ يقُومَ عَلَى رِجْلَيْهِ وَقَالَ ابنُ جُرَيْجٍ قالَ ابنُ عباسٍ السّلْسِلةُ تُدْخلُ في اسْتِهِ ، ثم تُخرَجُ مِنْ فِيْهِ ، ثمّ يُنَظِمُونَ فِيْهَا كَمَا يُنْظَمُ الجَرَادُ في العُودِ ، حيَن يُشْوَى خَرّجَهُ ابْنُ أَبِيْ حَاتِمْ .

وَقَالَ جُوَيْبِرُ في قَوْلِ اللهِ تعَالَى ﴿ فيُؤْخَذُ بالنَّواصِيْ وَالاقْدَامِ ﴾ قَالَ يُجْمَعُ بَيْنَ ناصِيَتِه وقدَمَيْهِ في سِلْسِلَةٍ مِنْ وَرَاءِ ظهْرِهِ .

وَقال السُّدِّي ـ في هَذِه الآيةِ ـ : يُجْمَعُ بينَ ناصِيَةِ الكافِر وَقِدَمَيْه ، فتُرْبَطُ نَاصِيَتُه بِقَدَمِه وَظَهْرِهِ، وَيُفْتَلُ ، وَذَكرَ الأَعْمَشُ عَنْ جَاهِد عَنْ ابْن عَبّاسٍ قالَ ، يُؤْخَذُ بنَاصِيَتِهِ وَقَدَمَيْهِ وَيُكْسَرُ ظَهْرُهُ ، كَمَا يُكْسَرُ الحَطبُ في التَّنُّور . وَبِئْسَ المَصِيْرُ .

وَقَالَ اللهُ تعَالَى ﴿ تلْفَحُ وُجُوهَهُم النَّارُ وَهُم فِيْهَا كَالِحُوْنَ ﴾ عَنْ أُبَيْ عَنْ النبي صَلى اللهُ عليه وسَلمَ قالَ « تَشْويْهِ النَّارُ ، فتَقلَّصُ شَفَتُهُ العُليَا ، حَتَّى تبْلُغ وَسَطَ رَأْسِهِ ، وَتسْتَرْخِي شَفَتُه السُّفْلَى حَتّى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ » خرّجَهُ الامَامُ أحْمَدُ وَالتّرْمِذيّ وَالحَاكِمُ وَقالا صَحِيْحٌ وقالَ (أفمَنْ يَتّقِي بوَجْهِهِ سُوْءَ العَذاب يَوْمَ القِيَامَةِ) قالَ عَطاءُ يُرْمَى بهِ في النَّارِ مَنْكُوساً فَأوَّلُ شَيْءٍ مِنْهُ تمَسُّهُ النَّارُ وَجْهُهُ . .

وَقدْ أجْرَى اللهُ العَادَةَ أَنَّ الانْسَانَ يَقِيْ وَجْهَهُ بيَدَيْهِ وجِسْمِهِ فأمَّا هُنَا فهُوَ لا يَمْلِكُ أنْ يَدْفعَ عَنْ نَفْسِهِ النَّارُ بيَدَيْهِ وَلا برِجْليْهِ فيَدْفعُها بوَجْهِهِ ، وَيتّقِي بهِ سُوْءَ العَذابِ ، مِمَّا يَدُلُّ علىَ شِدّةَ الهَوْلِ وَالاضْطِرَابِ فمُجَّردُ تصَوّرِهِ يُزْعِجُ ويُقِلقُ ويُفْزِعُ .

وفي زحْمَةِ هَذا العَذابِ يَتلقَّى التّوْبيْخَ ، وَالتّأنِيْبَ ، وَتُدْفَعُ إليهِ حَصِيْلَةُ حيَاتِه ، ويَا لهَا مِنْ حَصِيْلةٍ ، (وقِيْلَ لِلظَالمِيْنَ ذُوقُوا مَا كنْتُم تكْسِبُون) وَقَالَ تعَالَىَ (نُمَتِعّهُم قلِيْلاً ثمّ نضْطرُّهُمْ إلىَ عَذابٍ غَلِيْظٍ وَفي الآيَةِ الأخْرَى) قَالَ (وَمنْ كفَر فَأُمتِّعُهُ قلِيْلاً ثُمَّ أضْطرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَبِئْسَ المَصِيْرُ .

شعراً :

قَـدْ أَمْسَـتِ الـطَّيْـرُ والأَنْـعَـامُ آمِـنَـةً
والنُّـونُ في البَحْـرِ لَمْ يُخْبـأْ لَهَـا فَـزَعُ
وْالآدَمِـيُّ بِـهَـذَا الـكَسْـبِ مُـرْتَـهَـنٌ
لـه رَقِـيْـبٌ عَـلَى ألأَسْـرَارِ يَـطَّلِعُ
إذا الـنَّـبِـيُّـونَ وألأَشْـهَـادُ قَـائِـمَـةٌ
وَالجِنُّ والإِنسُ وألأَمْـلاَكُ قَـدْ خَـشَعُـوا
وطَـارَتِ الصُحْفُ في ألأَيْـدِي مُنَشَّـرَةً
فِـيْهَـا الـسَّـرَائـرُ وألأَخْـبَـارُ تُـطَّلَعُ
فَـكَيْـفَ سَهْـوُكَ وألأَنْـبَـاءُ واقِـعَـةٌ
عـمَّـا قَلِيْـلٍ ولا تَـدْرِي بِمَـا تَقَـعُ
أَفِـي الـجِنَـانِ وَفَـوْزِ لا انْـقِـطَاعَ لَـهُ
أم الـجَـحِـيْـم فَـلاَ تُـبْقِـي وَلاَ تَـذَرُ
تَهْـوِي بسَـاكِـنَـهـا طَـوْراً وَتَرْفَعُهُمْ
اذا رَجَـوْا مَخْـرجـاً مِنْ غَمِّهَـا قُمِعُـوَا
طَـالَ الـبُكَـاءُ فَـلَمْ يَنْفَـعْ تَضَـرُعُـهُـم
هَـيهَـاتَ لا رِقَّـةٌ تُغْـنِـي ولا جَـزَعُ
لِيْنفَـع العِلْمُ قَـبْلَ المَـوْتِ عَـالِمَـهُ
قـد سَالَ قَـوْمٌ بِهَا الـرُّجْعَى فَمَـا رَجَعُـوا

موعظة

عِبَادَ اللهِ ، إنَّ بَيْنَ أيْدِيْكُم يَوْمٌ لا شَكَّ فيْهِ وَلا مِرَاءْ ، يَقَعُ فِيْهِ الفِرَاقُ وَتَنفَصِمُ فِيْهِ العُرَى ، فتَدَبَّرُوا أمْرَكُم ، قَبْلَ أنْ تحْضُروا ، وَانْظُرُوا لأنْفُسِكُمْ نَظَرَ مَنْ قد فَهِمَ ودَرَى ، قالَ اللهُ تعَالَى ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ﴾ يَا لهُ مِنْ يَوْم يَشِيْبُ فيْهِ الوِلْدَانُ ، وَتَسِيْرُ فِيْهِ الجِبَالُ ، وَتظْهَرُ فيْهِ الخَفَايَا ، وَتَنْطِقُ فَيهِ الأَعْضَاءُ ، شَاهِدَةً بَالأَعْمَالِ ، فَانْتَبِهْ يَا مَنْ قَدْ وَهَى شَبَابُه ، وَامْتَلأَ بالأَوْزَارِ كِتابُهِ ، عِبَادَ الله ، أمَا بَلَغَكُم أَنَّ النَّارَ لِلكُفّارِ وَالعُصَاةِ أُعِدَّتْ ، إِنَّهَا لَتُحْرِقُ كُلَّ مَا يُ يُلْقَى فِيْهَا ، قالَ اللهُ تَعالَىَ ﴿ إذا أُلْقُوا فِيْها سَمِعُوا لهَا شَهِيْقاً وهِيَ تفُورُ تكَادُ تَمَيْزُ مِنْ الغَيْظِ ﴾ وَقالَ ﴿ إِنَّها ترْمِي بشَررٍ كالقَصْرِ ، كأنَّهُ جِمَالَةُ صُفرٌ ﴾ عِبَادَ اللهِ ، أَمَا بَلَغكُم أنَّ طَعَامَ أَهْلِهَا الزَّقُّومُ ، وَشَرابُهم الحَمِيْمُ ، قالَ عَليْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزّقّوم قَطَرَتْ في الأَرْضِ لأَمَرَّتْ عَلىَ أَهْلِ الدّنْيَا مَعِيْشَتَهُم » فكيفَ بِمَنْ هُو طَعَامُهِ ، لا طَعَامَ لَهُ غَيْرُهُ ، قالَ تَعالىَ ﴿ أنَّ شَجَرَةَ الزّقّوم طَعَامُ الاثِيْمِ كالمُهل يَغْلِيْ في البُطُونِ كغَلْيِ الحَمِيْمِ ﴾ .

أَخْرَجَ الطبراني وَابْنُ أَبِي حَاتِمْ مِنْ طَرِيْقِ مَنْصُورِ بْنِ عَمَّارٍ حَدَّثنَا بَشِيْرُ بْنُ طَلحَة عن خالِدِ بنِ الدّرِيكِ عنْ يَعْلى بن مُنيِّةٍ رَفَع الحَدِيْثَ إلىَ النبي صلى اللهُ عليهِ وسَلمَ قالَ « يُنْشِءُ اللهُ لأهْلِ النّارِ سَحَابَةً سَوْدَاءَ مُظلِمَةً ، فيُقالُ يَا أَهْلَ النَّارِ أيُّ شيْءٍ تَطْلُبونَ ، فيذكُرونَ بهَا سَحَابَةَ ألدّنيا ، فَيَقُولُونَ يَا ربّنا الشَّرَابَ ، فَتُمْطِرُ أغْلالاً تَزِيْدُ في أَغْلالِهم ، وسَلاسِلَ تَزِيْدُ في سَلاسِلهم ، وجَمْراً يَلْتَهِبُ عليهم » .

اللهُمّ اغْفِرْ لنَا ذُنُوبَنا قبْل أَنْ تَشْهَدَ علَيْنا الجَوَارِحُ وَنَبِّهْنَا مِنَ رَقَدَاتِ الغَفَلاتِ فأَنْتَ الحَلِيمُ المُسَامِحُ ، وَاغْفِرْ لنَا وَلوَالدَيْنَا وَلجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلى اللهُ على مُحمَّدٍ وعَلى آلِه وصَحْبِه أَجْمَعِيْنَ .

(فصل)

ثُمَّ تَفَكَّرْ عافانا اللهُ واياك وجميع المسلمين ، وَأَدِمِ الفِكْرَ في جَهَنَّمَ ، واعْلَمْ أَنَّ لهَا سَبْعَةَ أَبْوَابٍ كمَا أَخْبَرَ جَلَّ وَعَلَا ، قال عَزَّ مِن قائِلٍ (وإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُم أَجْمَعِيْنَ ، لَهَا سبعةُ أَبْوَابٍ ، لِكُلِّ بابٍ منهم جُزْءٌ مَقْسُوْم) .. وخَرَّجَ الامامُ أَحمدُ والترمذيُ مِن حديثٍ ابنِ عمرَ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ لِجَهَنَّمَ سَبْعةَ أَبْوَابٍ بابٌ مِنْهَا لِمنْ سَلَّ سَيْفَهُ على أُمَّتِيْ » .

وفي حديثِ أَبِي رَزِيْنٍ العُقَيْلِي عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ لِعُمَرَ « أَنَّ لِلنارِ سَبْعَة أبوابٍ ما مِنْهُنَّ بَابَانِ إِلَّا ويَسِيْرُ الرَّاكِبُ بَيْنَهُمَا سَبْعِيْنَ عَامَاً » ، خَرَّجَهُ عبدُ اللهِ بنُ الامامِ أحمدَ وابنُ أَبِي عاصِمٍ والطبرانيُ والحاكمُ وغيرُهُم .

وَخَرَّجَ ابنُ أَبي حاتِمٍ مِن طَرِيْقِ حَطَّانِ الرَّقَاشِي قال سمعتُ عَلِياً يَقُولُ : هَلْ تَدْرُوْنَ كيفَ أبوابِ جَهَنَّمَ ؛ قُلْنَا هي مِثْلُ أَبْوابِنَا هٰذه ، قال لا هِيَ هَكَذَا بَعْضُهَا فوقَ بَعْضٍ ، وفي رواية لَهُ بَعْضُهَا أَسْفَلَ مِنْ بَعْضٍ .

وقَال تعالى ﴿ وسِيقَ الذين كَفَروا إِلى جَهَنَّمَ زُمَرًا حتى إِذا جاؤُها

فُتِحَت أبوابُها وقال لهم خَزَنتُها ألم يأتِكم رسلٌ مِنكم يتلوُنَ عليكُم آياتِ ربكمُ ويُنْذِرُوْنَكُم لِقَاءَ يومِكِمُ هذا قال بَلَى ولكِنْ حَقّتْ كَلِمَةُ العَذابِ عَلَى الكَافِرِيْن قِيْلَ أُدْخلوُا أبوابَ جَهَنْمَ خَالِدين فِيْهَا فَبئس مَثْوَى المُتَكَبِرِين ﴾ فَتَأَمّلْ حالَ هَؤلاَء الأشقِيَآءِ الكُفَار كيفَ يُسَاقوُنَ سَوْقاً عَنيْفاً إلى جَهَنَّمَ ، بزجَرْ وتَوْبِيْخ ، وتَقْرِيْعٌ وتَهْدِيْدٍ ، وَوَعِيْدٍ كمَا قَالَ عَزَّ وَجلَّ ﴿ يومَ يُدَعُوَنَ إلِىَ نارِ جَهَنَّمَ دَعّا ﴾ أيَ يُدْفَعُوَنَ إليهَا دَفْعاً هَذَا وَهُم عُطاشَ ظِمَاء جِيَاعُ نَصِبُوْنَ وجِلُونَ قَدْ بَلَغَ منهم الخَوْفُ وَالرُعْبُ كُلَّ مَبْلغٍ . قال تَعالَى ﴿ وَنَسُوقُ المُجرمِين إلِى جَهَنَّمَ وِرْدَا ﴾ وهُمْ في تِلْكَ الحَالِ صُمٌ وبُكمٌ وعُمْيٌ مِنْهُم مَنْ يَمْشِيْ عَلى وَجْهِهِ قال تعالى ﴿ ونَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَة على وُجُوهِهِم عُمْاً وبُكْماً وصْماً مأوَاهُمْ جهَنَّمُ كُلَّمَا خبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيْراً ﴾ .

وَرَوَى مَخْلَدُ بنُ الحَسَن عن هِشَامِ بن حَسَّانَ ، قال خَرَجْنَا حُجَّاجاً فَنَزْلَنَا مَنْزِلاً في بَعْض الطَّرِيْقِ ، فقَرَأ رَجُلٌ مَعَنَا هَذِهِ الآية ﴿ لهَا سَبْعَةُ أبوابِ ﴾ فَسَمعَتْهُ امْرَأَةٌ فقالَتْ : أعِدْ رَحِمَكَ اللهُ . فأعَادَهَا فَقَالَتْ : خَلَّفْتُ في البَيْتِ سَبْعَةَ أعْبُدٍ ، أُشْهِدُكُمْ أَنَّهُمْ أحْرَارٌ ، لِكُلِّ بَابٍ وَاحِدٍ مِنهُم. خرجه ابن أبي الدنيا .

شعراً :

يـا غافِلاً عَنْ مَنَـايـاً سَـاقَهَـا القَـدَرُ
مـاذَا الَّـذِيْ بَعْـدَ شَيْبِ الرَّأْس تَنْتَـظِرُ
عَـايِـنْ بِقَـلْبِـكَ إنَّ العَـيْنَ غَـافِـلَةٌ
عـن الحَـقِيْـقَـةِ واعْـلَمْ أَنَّـهَـا سَقَـرُ

سَـوْدَآءُ تَـزْفُـرُ مـن غَيْظٍ إِذَا سُـعِـرَتْ
لِـلظَالِـمِـيْـنَ فَـمَـا تُـبْـقِـيْ وَلَا تَـذَرُ
لَـوْ لَمْ يَكُنْ لَـكَ غَيْـرَ المَـوْتِ مَـوْعِـظَةٌ
لـكَـانَ فِـيْـهِ عَـنِ الَّـلذَاتِ مُـزْدَجَـرُ

قال الضَّحاكِ في قَوْلِ الله تعالى ﴿ لها سَبْعَةُ أبواب ﴾ هيَ سَبْعَةُ أَدْرَاكٍ بَعْضُهَا فوقَ بَعْض فأَعْلَاهَا فيه أَهْلُ التَوْحِيْدِ يُعَذَّبُوْنَ عَلىَ قَدْرِ ذُنُوبِهِم ثُمَّ يُخْرَجُونَ والثانِي فيه النَّصَارَى والثالثُ فيهِ اليَهُودُ والرَّابعُ الصَّابِئونَ ، والخامِسُ فيه المَجُوسُ ، والسادسُ فيه مشركُوا العَرَبِ والسابعُ فيهِ المنافقُونَ .

وعن ابن جُرَيْجٍ في قوله تعالى ﴿ لها سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ قال أَوَّلُهَا جَهَنَّمُ ثُمَّ لَظَى ثم الحُطَمَةُ ثم السَّعِيْرُ ثُمَّ سَقَرُ ثمَّ الجَحِيْمُ وفيها أَبُو جَهْلٍ ثم الهَاوِيَةُ خرجه ابنُ أبِي الدنيا وغيرُه ، وقَد وَصَفَ اللهُ الأَبوابَ بأنها مُغْلَقَةٌ عَلَيْهِم ، فقال ﴿ إنها عَليهم مُؤصَدَةٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ عليهم نارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ قَال مقاتل : يَعْنِي أَبْوَابُهَا مُطْبَقَةٌ عليهم ، فلا يُفْتَحُ لها بابٌ ، ولا يَخْرُجُ مِنْهَا غَمٌ ، ولا يَدْخُلُ فِيها رَوْحٌ آخِرَ الأَبَدِ .

وهذا الاطباقُ نَوْعَانِ ، أَحدُهُمَا خَاصٌ لِمَنْ يَدْخُلُ في النَّارِ أو مَنْ يُرِيْدُ اللهُ التَّضْيِيْقَ عليه ، أَجارَنَا اللهُ والمسلمينَ مِن ذِلكَ ، قال أبُو تَوْبَةَ اليَزَنِي إنَّ في النارِ أَقْوَاماً مُؤْصَدَةٌ عَلَيْهِم ، كَمَا يُطْبَقُ الحِقُّ على طَبَقِهِ ، خرجه ابن أبي حاتم .

والثانِي الإِطْبَاقُ العَامُ وهُوَ إطبَاقُ النَّارِ على أَهْلِهَا المُخَلَّدِينَ فيها وقد قال سَفيانُ وغيرُهُ في قَولِ الله تعالى ﴿ لا يَحْزُنُهُمْ الفَزَعُ الأكبرُ ﴾

قالوا هُوَ طَبْقُ النارِ على أَهْلِهَا .

وقال أَبُو الزَّعْرَاءِ عن ابنِ مسعودٍ : وإِذَا قِيْلَ لَهُمْ (اخْسَؤُا فِيْهَا ولا تُكَلِّمُوْن) . . أُطْبِقَتْ عَلَيْهِم ، فلا يَخْرُجُ منهم أَحَدٌ .

وقال أبو عِمْرانَ الَجَوْني إذا كَان يَوْمُ القِيامَةِ أَمَرَ اللهُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ ، وكُلِّ شَيْطانٍ مرِيْدٍ ، وبِكُلِّ مَنِ يَخَافُ مِن شَرِّهِ العَبِيْدُ ، فأوْثِقُوا بالحَدِيدِ ، ثُمَّ أُمِرَ بهِم إلى جَهَنَّمَ التي لا تَبِيْدُ ، ثم أوْصَدَهَا عَلَيْهِم مَلائكةُ رَبِّ العَبيد ، قال فَلاَ وَاللهِ لا تَسْتَقِرُّ أقْدَامُهُمْ عَلىَ قَرَارٍ أبَدَا ، ولا وَاللهِ لا يَنْظُرُوْنَ فِيْهَا إِلىَ أَدِيْمِ سَمَاءٍ أَبَدَاً ، وَلاَ وَاللهِ لا تَلْتَقِي جُفُونُ أَعَيْنُهُمْ على غَمْضِ نَوْمٍ أَبَدَاً ، وَلاَ والله لا يَذُوْقُوْنَ فِيها بارِدَ شَرَابٍ أَبَدَاً .

وقَدْ أَخْبَرَ سُبْحانَهُ وتعالى أَنَّ الكفارَ يُحاوِلُونَ الخُرُوْجَ ويُرغَمون على البقاء فيها .

قال تعالى ﴿ يُرِيْدُوْنَ أنْ يخْرُجُوا مِن النارِ وما هُمْ بخَارجيْنَ مِنْهَا ولَهُمْ عذابٌ مُقِيْمٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوْا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيْدُوْا فِيْها ﴾ الآية فلا يَزَالُون يُرِيْدُوْنَ الخُرُوْجَ مِمَّا هُمْ فيه مِن الشِّدَةِ وأَلِيمِ مَسِّ العَذَابِ ولا سَبِيْل لَهُمْ إلى ذلكَ ، كُلَّمَا رفعَهُمْ اللَّهَبُ فصارُوْا في أعلاجَهنَّمَ ضَرَبَتْهُمْ الزَّبَانِيَةُ بمَقَامِعَ الحَدِيد فَيرُدّوْنَهُمْ إلى أسْفَلِها .

وأَخْبَرَ جَلَّ وعَلاَ أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الخُرُوْجَ مِنْهَا فقَالَ مُخْبراً عَمَّا قالُوا « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فإِنْ عُدْنَا فإنا ظالمون » . والجَوابُ على ذلكَ يقُولُ .

الرَّبُ جَلَّ وَعَلاَ اخْسَئُوا فِيْهَا ولا تُكَلِّمُون .

أَمَا نِيِّهُمُ فِيْهَا الهَلاَكُ وما لهَمُ مِن النارِ فِكَاكٌ قال الله تعالى ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنهُم وهُمْ فِيه مُبْلسِوُن ﴾ وقال تَعَالَى ﴿ ونَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قال إنكمُ ماكِثُون ﴾ وقال ﴿ ويَأتِيْهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكانٍ وما هُوَ بمَيّت ﴾ الآية وقال ﴿ ثمَّ لا يَمُوْتُ فِيها ولا يَحْيَا) .

وقال ﴿ إنَّ عذَابهَا كانَ غرَامًا ﴾ وقال ﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِم فَيَمُوْتُوْا ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِن عَذَابِهَا ﴾ وقال ﴿ أُولَئِكَ يَئِسُوْا مِن رَحْمَتِي ﴾ وقال جَلَّ وَعَلا ﴿ فذُوْقُوا فَلَنْ نَزِيْدَكُمْ إلا عَذَابًا ﴾ وقال ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيْم ﴾ وقال جَلَّ وَعَلا وما هُمْ بِخَارِجِيْنَ مِن النارِ ﴾ وقال ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ .

ومِن السُّنَّةِ ما خَرَّجَهُ الشَّيْخَانِ عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يَدْخُلُ أَهْلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ ثم يَقُومُ مُؤَذِّنٌ بَينَهُم يا أهلَ النارِ لَا مَوْتٌ ويا أَهْلَ الجنةِ لَا مَوْتٌ كُلٌ خَالِدٌ بما هُوَ فِيه ﴾ .

وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « يُؤْتَي بالموتِ في صُوْرَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُوقَفُ بَيْنَ الجنةِ والنارِ وَيُذْبحُ وَيُقَالُ يَا أَهْلَ الجنةِ خُلُودٌ فلا مَوْتٌ ويا أَهْلَ النارِ خُلُودٌ فَلا مَوْت ﴾ رواه البخاري .

وما أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُ وَأَبو نُعَيْمٍ وابْنُ مَرْدُوَيْهِ عن ابن مَسْعُودٍ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « لو قِيْلَ لِأَهْلِ النارِ إِنَّكُم ماكِثُونَ في النارِ عَدَدَ كُلِّ حَصَاةٍ في الدُّنْيَا لَفرِحُوْا وَلَوْ قِيْلَ لِأَهْلِ الجنةِ إنكُم ماكِثُونَ

في الجنةِ عَدَدَ كُلِّ حَصَاةٍ لَحَزِنُوْا ولكن جُعِلَ لَهُم الأَبَدُ » هذا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ فناءِ النارِ وَبَقَاءِ أَهْلِهَا فِيْهَا يَتَقَلَّبُونَ في أَنْوَاعِ العذَابِ لا رَاحَةَ وَلَا نَوْمَ ، ولا هُدُوْءَ ولا قَرَارَ لَهُم ، بَلْ مِن عَذَابٍ إلى آخَرَ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَدٌّ مَعْلُومٌ ، على قَدْرِ عِصْيَانِهِ وَذَنْبِهِ ، إلا أَنَّ أَقلهُم لَوْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِحَذَافِيْرِهَا لا افْتَدَى بِهَا مِن شِدَّةِ مَا هُوَ فيه ، قال صلى اللهُ عليه وسلم « إن أَدْنَى أَهْلِ النارِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِن نَارٍ يَغْلِيْ دِمَاغُهُ » مِن حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ فانْظُر الآنَ إلى مَنْ خُفِّفَ عَلَيْهِ ، واعْتَبرْ بمَنْ شُدِّدَ عَلَيْهِ العَذَابُ ، مِمَّنْ يُسْحَبُونَ على وَجُوهِهِم في النارِ، ويُقَالُ لَهُم ذُوْقُوْا مَسَّ سَقَرْ ، وقال سَأُصْلِيْهِ سَقَرَ وما أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِيْ وَلَا تَذَر ، أَيْ تَأْكُلُ لُحُومَهُم وعُرُوْقَهُم وَعَصَبَهُم وجُلُودَهُم ، ثُمَّ تُبَدِّلُ غَيْرَ ذلِكَ .

وقال تعالى « يَوْمَ تُقَلَّبُ وجُوهُهُمْ في النارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّه وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ » قال قَتَادَةُ قال ابنُ عباسٍ (صَعُوداً) صَخْرَةٌ في جَهَنَّمَ يُسْحَبُ عَلَيْهَا الكَافِرُ عَلى وَجْهِهِ .

مَــوْعِظَــةٌ

عِبَادَ اللهِ عليكُم بتَقْوى اللهِ ، فإِنَّ تَقْواهُ عُرْوَةٌ مَالَهَا انْفِصَامٌ وَقُدْوَةٌ يَأْتَمُّ بها الكِرَام ، وسِرَاجٌ يُضِيْءُ لِلأَفْهَام ، مَنْ تَعَلَّقَ بهَا حَمَتْهُ بإذن اللهِ مَحذُوْرَ العاقبة ، وَمَنْ تَحقَّقَ بِحَمْلِهَا وَقَتْهُ بإِذْنِ اللهِ شُرُوْرَ كُلِّ نـائِبَةْ ، والحَذَرَ مِن دَارِ فُرْقَةٍ مالهَا أَسْلَافٍ ، وقَرَارٍ حُرْقَةٍ مَالَهَا انْصِرَافٍ ، وأَمَانِيْ رَجْعَةٍ مَالَهَا إِسْعَافٍ ، فانْهَضُوا عِبَادَ اللهِ في اسْتِعْمَالِ ما يُقَرِبُكُم مِن دَارِ القَرَارِ ، واتْرُكُوا كُلَّ ما يُدْنِيْكُم مِن دَارِ البَوَارِ، فإِنَّها المُصِيْبَةُ الجَامِعَةُ

والعُقُوبَةُ الوَاقِعَةُ ، يا لَهَا دَارٌ انقطَعَ مِنَ الرَّجَاءِ انْحِلاَلُهَا وَامْتَنَعَ مِن الفَنَاءِ بَقَاءُ نكالِهَا ، وشِعَارُ أَهْلِهَا الوَيْلَ الطَوِيْلَ ، ودِثَارُهُم البُكَاءُ والعَوِيْلُ ، وسَرَابِيْلُ الخزيْ الوبِيْلُ ، وَمَقِيْلُهُم الهَاوِيَةُ ، وَبِئْسَ المَقِيْلُ ، يُقَطِّعُ مِنْهُم الحَمِيْمُ أَمْعَاءً طَالَمَا وَلِعَتْ بأكلِ الحَرَامِ ، وَتُضَعْضِعُ مِنْهُم الجَحِيمُ أَعْضَاءً طَالما أَسْرَعَتْ إلى اكْتِسَابِ الآثام قَدْ كَثُرَ مِنْهُم الأنِيْنُ ، وَحلَّتْ بِهِم المَثُلاَتُ فجلُودُهُم كُلَّما نَضِجَتْ بُدِلَتْ جُلُوْداً غيْرَهَا ، وَكُرِّرَ عَلَيْهِمُ العَذَابُ ، وَوُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ لِسُوءِ الحِساب ، والزَّبَانِيَةُ تَقْمَعُهُم فَيَذُوقونَ أليمَ العِقاب ، يُنَادُوْنَ إِلهاً ضَيَّعُوا أَوَامِرَهُ وارْتَكَبُوا نَوَاهِيَهُ وَنسُوْهُ ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ في الآجِلَةِ حُكْمُهُ لَمَّا أَغضَبُوْهُ يقولُونَ « رَبَّنا أَخرجْنَا منها فإِنْ عُدْنَا فإنَّا ظَالِمُون » ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عنه وإنَّهُم لَكَاذِبُون ﴾ فَيُجِيْبُهُمْ بَعْدَ حِيْن إجَابَةَ دعوةِ ذِي قُوَّةٍ مَتِيْن ﴿ اخسَؤُوا فِيهَا ولا تُكلِّمُون ﴾ فَحِيْنَئِذٍ يَنْقَطِعُ عِنْدَهَا واللهِ تَأْمِيْلُ المُذْنِبِيْنَ وَيَجْتَمِعُ التَّنْكِيْلُ على المُذْنبين وَيَرْتَفِعُ في جَهَنَّمَ عَوِيْلُ المُجرمِيْنَ المُعَذَّبِيْنَ ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوْا فالنارُ مَثْوَى لَهُم وانْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِن المُعْتَبِين ﴾ فيا لَهَا مِن حَسْرةٍ وَيَا لَهَا مِن نَدَامَةٍ لاَ تُشْبِهُهَا نَدَامَةٌ وَيَا لَهَا مِن خَسَارَةٍ لا تُعَادِلُهَا خَسَارَةٌ ﴿ قُلْ إن الخَاسِرِينَ الذين خَسِرُوا أنفسَهم وأهلِيْهِم يومَ القِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسرانُ المبين ﴾ .

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم

شِعْرَاً :

إنْ كُنْتَ تَطْمَعُ في الحَيَاةِ فَهاتِ
كَمْ مِن أَبٍ لَكَ صَارَ في الأَمْوَاتِ

مَـا أَقْـرَبَ الشَّيءَ الجَـدِيْـدَ مِنَ البِلَى
يَـومـاً وَأَسْـرَعَ كُـلَّ مَـا هُـوَ آتِ
اللَّيْـلُ يَعْـمَـلُ وَالنَّـهَـارُ وَنَـحْـنُ عَـمَّـ
ـمَـا يَعْـمَـلانِ بـأغْـفَـلِ الـغَـفَـلاَتِ
يـا ذا الـذِي اتَّخَـذَ الـزَّمَـانَ مَـطِيَّـةً
وخُـطَا الـزَّمَـانِ كَـثِيْـرَةُ الـعَـثَـرَاتِ
مَـاذَا تَـقُـولُ وَلَـيسَ عِـنْـدَكَ حُـجَّـةٌ
لَـوْ قَـدْ أَتَـاكَ مُـنَـغِّصُ الـلَّذَاتِ
أَوْ مَـا تَـقُـولُ إذا سُئِلْتَ فَـلَمْ تُـجِبْ
وإذا دُعِـيْـتَ وَأَنْـتَ فـي الـغَـمَـرَاتِ
أَوَ مَـا تَـقُـولُ إِذَا حَـلَلْتَ مَـحَـلَّةً
لَـيْسَ الـثِّـقَـاتُ لأَهْـلِهَـا بِـثِـقَـاتِ
أَوَ مَـا تَقُـوْلُ وَلَيْسَ حُـكْـمُـكَ نَـافِـذَاً
فِـيْـمَـا تُـخَـلِّفُـهُ مِـن الـتَّـرِكَـاتِ
مَـا مَنْ أَحَبَّ رِضَـاكَ عَـنْـكَ بِخَـارِجٍ
حَـتَّـى تَـقَـطَّعَ نَـفْـسُـهُ حَـسَـرَاتِ
زُرْتُ القُبُـورَ قُبُورَ أَهْـلِ المُلْكِ في الـدُّ
دُنْـيَـا وَأَهْـلِ الـرَّتْـعِ في الـشَّـهَـوَاتِ
كَـانُـوا مُـلُوْكَ مَـآكِـلٍ وَمَـشَـارِبٍ
وَمَـلابِسٍ وَرَوَائِـحٍ عَـطِرَاتِ

فَـإِذَا بِـأَجْسَـادٍ عَـرِيْنَ مِـن الـكِسَـا
وَبِـأَوْجُـهٍ فـي الـتُّـرْبِ مُـنْعَـفِـرَاتِ
لَمْ تُبْقِ مِنْهَـا الأرْضُ غَيْـرَ جَمَـاجِمٍ
بِـيْضٍ تَلُـوْحُ وَأَعْـظُمٍ نَـخِـرَاتِ
إِنَّ الـمقَـابِـرَ مَـا عَـلِمْتُ لَـمَـنْـظِرٌ
يَهْـدِي الشَّـجَـا وَيُـهَيِّجُ العَبَـرَاتِ
سُبْحَـانَ مَـنْ قَـهَـرَ الـعِبَـادَ بِقُـدْرَةٍ
بَـارِي السُّكُـونِ وَنَـاشِـرِ الـحَـرَكَـاتِ

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا ذِكركَ وشكرك وَوَفِّقْنَا لامْتِثَال أَمْرِكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَصْـلٌ

فَتَفَكَّرْ يَا أَخِيْ في حَالِ هَؤُلآءِ الذِيْنَ قَدْ عَرِيَتْ مِن اللَّحْم عِظَامُهُمْ فَبَقِيَتْ الأَرْوَاحُ مَنُوْطَةً بالعُرُوْقِ وَعَلاَئِقِ العَصَبِ وَهِيَ تَنُشُّ في لَفْحِ تِلْكَ النِيْرَان ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَمَنَّوْنَ الموتَ ، فلا يَمُوْتُون ، فَكَيْفَ بِكَ أَيُّها العَاصِي لَوْ نَظَرْتَ إلى هَؤُلآءِ المُجْرِمِيْنَ ، وَقَدْ اسْوَدَّتْ وُجُوْهُهُمْ ، وَأَعْمِيَتْ أَبْصَارُهُمْ ، وَأُبْكِمَتْ أَلْسِنَتُهُمْ ، وَقُصِمَتْ ظُهُورُهُم ، وَكُسِرَتْ عِظَامُهُمْ ، وَجُدِّعَتْ آنَافُهُم ، وآذَانُهم ، وَمُزِّقَتْ جُلُودُهُم ، وَغُلَّتْ أَيْدِيْهِم إلى أَعْنَاقِهِم وَجُمعَ بَيْنَ نَوَاصِيْهِمْ وَأَقْدَامِهِمْ وَلَهِيْبُ النَّارِ سَارٍ في بَوَاطِنِهِم وَحَياتُ جَهَنَّمَ وعقارِبُهَا مُتَشَبِّثَةٌ بِظَوَاهِرِهِمْ .

ثم انْظُرْ في أَوْدِيَةِ جَهَنَّمَ ، وشِعَابِهَا ، فعن أبي سَعيد الخدرِي رضي اللهُ عنه عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم قال « وَيْلٌ وَادٍ في جَهَنَّمَ يَهْوِيْ فِيه الكافِرُ أَرْبَعِيْنَ خرِيْفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ » رواه أحمد والترمذي إلَّا أنه قَالَ وَادٍ بَيْنَ جَبَلَيْن يَهْوِي فيه الكافِرُ سَبْعِيْنَ خَرِيْفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَه .

وَعن ابن مسعود رضي اللهُ عنه « فَسَوْفَ يَلْقَونَ غيًّا » قال وادٍ في جَهَنَّمَ يُقْذَفُ فِيه الذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ رواه الطبراني والبيهقي .

وعن علي رضي اللهُ عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم تَعَوَّذُوا باللهِ مِن جُبّ الحَزَنِ أَوْ وَادِي الحَزَنِ قِيْلَ يا رسولَ اللهِ وما جُبُّ الحَزَنِ أَوْ وَادِي الحَزَنِ قَالَ وَادٍ في جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِيْنَ مَرَّةً أَعَدَّهُ اللهُ لِلْقُرَّاءِ المُرَائِيْنَ رواه البيهقي باسناد حسن .

ثُمَّ انْظُرْ يَا أَخِي وَتَأَمَّلْ في قَعْرِ جهَنَّمَ وَظُلُمَاتِهَا وَتَفَاوُتِ دَرَكَاتِهَا فَعَنْ خَالدِ بنِ عُمَيْرٍ قَالَ خَطَبَ عُتْبَةُ بنُ غَزْوَانَ رَضِي اللهُ عنه فقال إِنَّهُ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الحَجَرَ يُلْقَى مِن شَفِيْرِ جهَنَّمَ فَيَهْوِي فيها سَبعينَ عَاماً مَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا واللهِ لَتُمْلأَنَّهُ أَفَعَجِبْتُم رواه مسلم هكذا .

وعن أبي هريرةَ رَضِي اللهُ عنه قال كُنَّا عندَ النبي صلى اللهُ عليه وسلم فَسَمِعْنَا وَجْبَةً فقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم « أَتَدْرُوْنَ ما هذا قُلْنَا اللهُ ورسولُهُ أَعْلَم قال هَذَا حَجَرٌ أَرْسَلَهُ اللهُ في جَهَنَّمَ منذ سَبْعِيْنَ خَرِيْفَا فالآنَ حِيْنَ انْتَهى إلى قَعْرِهَا » رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رَضي اللهُ عنه عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم قال

أُوقِدَ على النارِ ألفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أوقِدَ عَلَيْها ألفَ سَنَةٍ حتى اسْوَدَّتْ فهي سَوْدَاءُ مظلمة رواه مالك والترمذي .

وعنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ نَارُ بن آدَمَ التي يُوْقِدُوْنَ مِنْهَا جُزْءٌ مِن سَبْعِيْنَ جُزْأً مِن نارِ جَهَنَّمَ فقالُوا يا رسول اللهَ وإِنْ كَانَتْ لَكَافِيَة قَالَ فإِنَّها فُضِّلَتْ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّيْنَ جُزْأً أخرجه مالكٌ وَمُسْلِم وَزَادَ كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا وعن أَنَسٍ رَضي اللهُ عنه قال قال رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إِنَّ ناركم هَذِه جُزءٌ من سبعين جزأً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَلَوْ لاَ أَنَّها أُطْفِئَتْ بالماءِ مَرَّتَيْنِ ما انْتَفَعْتُمْ بِها وإِنَّهَا لَتَدْعُوا اللهَ أَنْ لاَ يُعِيْدَهَا فِيْهَا رواه ابن ماجه .

وروى الأئمة عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم اشْتَكَت النارُ إِلى رَبِّهَا فَقَالَتْ رَبي أَكَلَ بَعْضِيْ بَعْضَا فَجَعَلَ لَهَا نَفَسَيْنِ نَفَساً في الشِتَاءِ وَنَفَساً في الصيفِ فَشِدَّةُ ما يَجِدُوْنَ مِن البَرْدِ مِن زَمْهَرِيْرِهَا وَشِدَّةُ مَا يَجِدُوْنَ مِن الحَرِّ مِن سَمُوْمِهَا أَخْرَجَهُ البُخَارِي وَمُسلمٌ والترمذي .

اللهم ثَبِّتْنا عِنْدَ نُزُوْلِ غَمرَاتِ هَادِمِ اللَّذَاتِ وَخَفِّفْ عَنَّا شِدَّةَ كَرْبِ السِّيَاقِ وَغُصَصِ السَّكَرَاتِ اللَّهُم وآنِسْ وَحْشَتَنَا في القَبْرِ الضَيّقِ العَطَنِ وَلَقِّنا جوَابَ الملكِ المُوَكّلِ بالفِتَن وارْحَمْنَا عند مُضَاجَعَةِ التُّرَاب والدِّيْدَانِ وَمُفَارَقَةِ الأَهْلِ والاخْوَانِ وَأَمِّنَّا عِنْدَ طُلُوعِ هَوْلِ المَطْلَع الفَظِيْع وَبُلُوغِ صَوْتِ المُنَادِي إلى أُذُنِ كُلِّ سَمِيْعٍ ، وَثَبِّتْ قُلُوبَنَا عِنْدَ تَقَلُّب القُلُوب إِذَا مُدَّ الصِرَاطُ على النِيْرَانِ وَتَطَايَر العُقُولُ إِذَا نُصِبَ المِيْزَانُ وَمتِّعْنَا بالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ الكَرِيم يَاذَا الفَضْلِ العَمِيْمِ بِمَنِّكَ وَجُوْدِكَ يا كَرِيْمُ وَاغْفِرْ لَنَا

وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْــلٌ »

ثُمَّ تَفَكَّر بِقَلْبِكَ ، وَأَلْقِ السَّمْعَ لِقَولِهِ تَعَالَى ﴿ وَهم يَصْطَرِخُونَ فِيها : رَبَّنَا أَخرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً ، غَيرَ الذِي كُنَّا نَعْمَل ﴾ الآية وَقَولِهِ عَزَّ مِن قَائِلٍ ﴿ ولَو تَرَى إِذَا المُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُوْسِهِم عِندَ رَبهم ، رَبَّنَا أَبْصرْنَا وَسَمِعْنَا ، فارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً ، إِنا مُوْقِنُون ﴾ وقولِهِ تعالى ﴿ يَقُولُ الذِيْنَ نَسُوْهُ مِن قَبْلُ : قد جَاءَتْ رُسُلُ رَبّنَا بالحَقّ ، فَهَلْ لنا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوْا لنا ، أَوْ نُرَدُّ فَنعْمَل غَيرَ الذيْ كُنَّا نَعْمَلُ ، قد خَسِرُوا أنفسَهم ، وَضَلَّ عنهم ما كانُوا يَفْتَرُون ﴾ وقولِهِ تعالى ﴿ وَلَو ترى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النارِ فقالُوا : يَالَيْتَنا نُرَدُّ ، ولا نُكَذِّبَ بآياتِ رَبّنَا ، ونكونَ مِن المؤمنين ﴾ وقولِهِ تعالى ﴿ وَلَو تَرَى اذْ وُقِفُوا على رَبهم ، قال : أَلَيْسَ هذا بالحَقِ ؟ قالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ، قال فذُوقُوا العَذَابَ بما كُنْتُم تَكْفُرُون ﴾ الآيتين .

رَوَى الأَعْمَشُ عن يَزِيْدِ الرَّقَاشِيْ ، عَن أَنَسٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ « يُلْقَى البُكَاءُ على أَهْلِ النارِ ، فَيَبْكُونَ حتى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ ، ثم يَبْكُونَ الدَّمَ ، حتى يَصِيْرَ في وُجُوْهِهِم كَهَيْئَةِ الأُخْدُوْدِ ، وَلَوْ أَرْسِلَتْ فِيه السُّفُنُ لَجَرَتْ » خرجه ابْنُ ماجه ، وَرَوى سلامُ بنُ مِسْكِين ، عن قَتَادَةَ عن أبي بُرْدَةَ بنِ أَبِي مُوْسَى ، عن أَبِيه قال : انَّ أَهْلَ النارِ لَيَبْكُونَ الدُمُوعَ في النارِ ، حَتَّى لَو أَجْرِيت السُّفُنُ في دُمُوعِهم لَجَرَتْ ،

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ بالدَّم بَعْدَ الدُمُوعِ ، وَلِمِثْلِ مَاهُمْ فِيْهِ فَلْيُبْك . وقال صالحُ المَرِي : بَلَغَنِي أَنَّهُم يَصْرَخُونَ في النارِ حَتَّى تَنْقَطِعَ أَصْوَاتُهُم ، فلا يَبْقَى مِنْهُم إِلَّا كَهَيْئَةِ الأنِيْنِ مِن المُذْنِفِ .

وَرَوَى الوَلِيْدُ بنُ مُسْلِمٍ ، عن أَبِي سَلمة الدَّوْسِي ـ واسْمُهُ ثابِتُ بنُ شُرَيْحٍ ـ عن سَالِمِ بنِ عبدِ اللهِ ، عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، أنه كانَ يَدْعُو « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْن ، يَشْفِيَانِ القَلْبَ بذُرُوْفِ الدُمُوعِ مِن خَشْيَتِكَ ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الدَّمْعُ دَماً ، والأَضْرَاسُ جَمْرَا » سالِمُ بنُ عبدِ اللهِ هُوَ المُحَارِبِي ، وحديثُه مُرْسَلٌ ، وَرَوَى الوليدُ بنُ مُسْلِمٍ أيضاً ، عن عَبدِ الرَّحمن بنِ يَزِيْد بن جابرٍ ، عن اسماعيلَ بن عبيدِ اللهِ قال : إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْـهِ السلامُ قـال ﴿ رَبِّ ارْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْنِ ، يَبْكِيَـانِ بِـذُرُوْفِ الدُمُوعِ ، وَيَشْفِيَانِ مِن خَشْيَتِكَ ، قبلَ أَنْ يَعُودَ الدَّمْعُ دَماً ، والأَضْراسُ جَمْرَا » قال : وكانَ دَاوُدُ عليه السلامُ يُعَاتَبُ في كَثْرَةِ البُكَاءِ ، فَيَقُولُ : دَعُونِي أَبْكِي قَبْلَ يوم البُكَاءِ، قَبْلَ تَحْرِيْقِ العِظَام ، واشْتِعَالِ اللُّحَى ، وقَبْلَ أَنْ يؤْمَرَ بِي ﴿ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ، لَا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُم وِيَفْعَلُون مـا يُؤْمَـرُوْنَ ﴾ وَرَوَى يُـونُسُ بنُ مَيْسَـرَةَ عن أَبِي ادْرِيْس الخَوْلَانِي ، قال : إِنَّ دَاوُدَ عليه السلامُ قال : أَبْكِي نَفْسِيْ قَبْلَ يَوْمِ البُكَاء ، أَبْكِيْ نَفْسِيْ قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعُ البُكَاءُ ، ثم دَعَا بجَمْرٍ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا حَرَّهُ رَفعَهَا ، وقال : أَوَّهْ لِعَذَابُ اللهِ ، أَوَّهْ أَوَّهْ ، قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ أَوَّهْ .

وَرَوَى ثَابتُ البُنَانِي ، عن صَفْوَانَ بنِ مُحْرِزٍ ، قالَ : كانَ لِدَاوُدَ عليهِ السَّلَامُ يَوْماً يَتَأَوَّهُ فِيْهِ ، يَقُولُ أَوَّهْ أَوَّهْ مِن عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَع أَوَّهْ ، قَالَ : فَذَكَرَهُ صَفْوَانُ ذَاتَ يَوْمٍ في مَجْلِسٍ ، فَبَكَى حَتَّى

غَلَبَهُ البُكَاء فقَامَ . وَقَالَ : عَبْدُ اللهِ بنُ رَبَاحٍ الأنْصَارِي ، سَمِعْتُ كَعْباً يَقُولُ : ﴿ إن ابْرَاهِيْمَ لَحليْمٌ أَوَّاهٌ مُنِيْبٌ ﴾ قال : كَانَ إِذَا ذَكَرَ النارَ قال أَوَّهْ مِن النار ، أَوَّهْ مِن النارِ والتأوُّهُ هُوَ التَّـوَجُعُ ، والتَّحَـزُنُ قال المُثَقَّفُ العَبْدِي .

إذَا مَـا قُـمْـتُ أَرْحَـلُهَـا بِـلَيْـلٍ
تَـأَوَّهُ آهَـةَ الـرَّجُـلِ الـحَـزِيْـنِ

وفي حَـدِيْثِ الأَعْمَشِ ، عن شِمْرِ بن عَـطِيَّةَ ، عن شَهْـرِ بنِ حَوْشَب ، عَن أمّ الدَّرْدَاءِ ، عَن أَبِي الدَّرْدَاءِ عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذِكْرِ أَهْلِ النارِ قَالَ « فَيَقُولُونَ ادْعُو خَزَنَةَ جهَنَّمَ ، فيقولُون ﴿ ألم تَكُ تأتِيْكُم رُسلُكُم بالبينات ؟ ، قالوا بَلَى ، قالوا فادْعُوا ، وما دُعَاءُ الكافِرين إلّا في ضلال ﴾ قال : فيقولون : ادْعُوا مالِكاً ، فيقولُون ﴿ يا مَالكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّك ، قال إنكُم مَاكِثُون ﴾ قال الأعمش : نُبئْتُ أَنَّ بَيْنَ دُعَائِهم وَبَيْنَ إجَابَةِ مالكٍ لَهُم أَلفُ عَام ، قال : فيقولونَ ادْعُوا رَبَّكُم ، فإنه لَيْسَ أَحَدٌ خيْراً مِن رَبِّكُم فيقولُون ﴿ رَبَّنَـا غَلَبَتْ عَلَينَا شِقْوتُنَا ، وَكُنَّا قَوماً ضَالِّينَ ، رَبَّنَا أَخْرجْنَا مِنها ، فان عُدْنَا فإنا ظالِمُون ﴾ قال : فيُجِيْبُهُم ﴿ اخسَؤُا فيها ولا تُكَلِّمُون ﴾ قال : فعِنْدَ ذَلِكَ يَئِسُوا مِن كُلِّ خَيْر ، وعندَ ذَلِكَ يأخذُونَ في الحَسْرَةِ والزَّفِيْرِ والوَيْلِ . . خرجه الترمذي مرفوعا ، وموقوفا على أبي الدرداء .

وروى أَبُو مَعْشَرٍ عن مُحَمَّدِ بن كَعْبِ القُرَظِيْ قال : لأَهْلِ النارِ خمسُ دَعَوَاتٍ ، يُكَلِّمُونَ في أَرْبَعٍ مِنها ، وَيُسْكَتُ عنهم في الخامِسَةِ فلا يُكَلِّمُون ، يقُولُونَ ﴿ رَبَّنَا أمتّنا اثْنَتَيْنِ ، وَأَحْيَيْتنَا اثْنَتَيْنِ ، فاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ،

فَهَلْ إلى خُرُوْجٍ مِن سَبِيْل ﴾ فيُرَدُّ عَلَيْهِم ﴿ ذَلكُم بأَنَهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُم ، وانْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ ثُمَّ يَقُولُون ﴿ رَبّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ، فارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوْقِنُون ﴾ فيُرَدُّ عَلَيْهِم ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاها ﴾ إلى آخِرِ الآيَتَيْنِ ، ثُمَّ يَقُولُون ﴿ رَبّنَا أَخِّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيْبٍ ، نُجِبْ دَعوَتَكَ ، وَنَتّبِعِ الرُسُلَ ﴾ فَيُرَدُ عَلَيْهِمْ ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُـوا أَقْسَمْتُم مِن قَبْلُ مَالَكُم مِن زَوَال ﴾ ثُمَّ يَقُولُونَ ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالحاً غَيْرَ الذِي كُنَّا نَعْمَل ﴾ فَيُرَدُّ عَلَيهم ﴿ أَوَلَمْ نُعَمّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيه مَنْ تَذَكَّرَ ، وَجَاءَكُم النذِير ﴾ ثم يَقُولُونَ ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوتُنَا ، وَكُنَّا قَوْمَاً ضَالِيْنَ ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنها ، فانْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُون ﴾ فَيُرَدُّ عَلَيْهِم ﴿ قال اخْسَؤُا فِيْهَا ولا تُكَلِّمُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَكُنْتُم مِنْهُمْ تَضْحَكُون ﴾ قال فلا يَتَكَلَّمُونَ بَعْدَ ذَلِكَ . اخرجه آدَمُ بنُ أَبِي إِيَّاسٍ وابنُ أَبِي حاتِمٍ :

قال ابن القيم رحمه الله

فَيَـاسَـاهِيَـاً فِي غَمْـرَةِ الجَهْـلِ والهَوَى
صَـرِيْـعَ الأَمَـانِيْ عَنْ قَـرِيْبٍ سَتَنْـدَمُ
أَفِقْ قَـدْ دَنَى الـوَقْتُ الـذِيْ لَيْسَ بَعْدَهُ
سِـوَى جَـنَّـةٍ أَوْ حَـرِّ نَـارٍ تَـضَـرَّمُ
وبـالـسُّنَّـةِ الـغَـرَّاءِ كُنْ مُـتَمَـسِّكـاً
هِيَ العُـرْوَةُ الـوُثْقَى الَّتِي لَـيْس تُفْـصَمُ
تَمَسَّـكْ بِهَـا مَسْـكَ البَخِيْـلِ بِمَـالِـهِ
وَعَضَّ عَـلَيْـهَـا بـالـنَّـواجِـذِ تَـسْـلَمِ
وَدَعْ عَنْكَ مَا قَـدْ أَحْدَثَ النَّـاسُ بَعْدَهَـا
فَـمَـرْتَـعُ هَـاتِيْـكَ الـحَـوَادِثِ أَوْخَـمُ

وَهَيءْ جَـوَابـاً عِنْـدَمَـا تَسْمَـعُ النِّـدَا
مِـنَ اللهِ يَـوْمَ الـعَـرْضِ مَـاذَا أَجَبْتُـمُ

بِـهِ رُسُلِيْ لَمَّـا أَتَـوْكُـمْ فَـمَنْ يَكُـنْ
أَجَـابَ سِوَاهُمْ سَـوْفَ يُخْـزَى وَيَنْـدَمُ

وَخُـذْ مِن تُقَى الـرَّحْمٰنِ أَعْـظَمَ جُنَّـةٍ
لِـيَـوْمٍ بِـهِ تَبْـدُوْ عِـيَـانـاً جَـهَـنَّـمُ

وَيُنْصَبُ ذَاكَ الجَسْـرُ مِنْ فَـوْق مَتْنِهَـا
فَـهَـاوٍ وَمَـخْـدُوْشٌ ونـاجٍ مُـسَـلَّمُ

وَيَـأْتِـيْ إِلَـهُ الـعَـالَـمِـيْـنَ لِـوَعْـدِهِ
فَيَفْـصِـلُ مَـا بَيْـنَ الـعِبَـادِ وَيَـحْكُـمُ

وَيَـأْخُـذُ لِـلْمَـظْلُوم رَبُـكَ حَـقَّـهُ
فَـيَـابُؤْسَ عَـبْـدٍ لِلْخَـلاَئِـقِ يَـظْلِمُ

وَيُنْشَـرُ دِيْـوَانُ الحِسَـابِ وَتُـوْضَـعُ الْـ
ـمَـوَازِيْنُ بـالقِسْطِ الـذِي لَيْسَ يَـظْلِمُ

فَـلاَ مُـجْـرِمٌ يَـخْـشَـى ظُـلاَمَـةَ ذَرَّةٍ
ولا مُـحْـسِنٌ مِـن أَجْـرِهِ ذَاكَ يُـهْـضَـمُ

وَتَشْهَـدُ أَعْـضَـاءُ المُسِيءِ بِـمَـا جَنَى
كَـذَاكَ عَـلَى فِيْـهِ المُـهَـيْمِنُ يَـخْـتُـمُ

فَيَـالَيْت شِعْـرِيْ كَيْفَ حَـالُكَ عِنْـدَمَـا
تَـطَايَـرُ كُـتْـبُ الـعَـالَـمِيْنَ وَتُـقْـسَـمُ

أَتــأْخُــذُ بــالـيُمْنَى كِتَــابَــكَ أَمْ تَكُــنْ
بــالاخْــرَى وَرَاءَ الــظَّهْــرِ مِنْــكَ تَسَــلَّمُ
وَتَــقْــرَأُ فِــيْــهَــا كُــلَّ شَــيْءٍ عَــمِــلْتَــهُ
فَيُشْــرِقُ مِنْكَ الــوَجْــهُ أَوْ هُــوَ يُــظْلِمُ
تَــقُــوْلُ كِــتَــابِــي فــاقْــرَؤُهُ فــإِنَّــهُ
يُــبَــشِّــرُ بــالـفَــوْزِ الـعَــظِيْــمِ وَيُعْــلِمُ
وَان تَــكُــنِ الاخْــرَى فــانَّــكَ قَــائِــلٌ
أَلَا لَــيْــتَــنِــيْ لَــمْ أُوْتَــهُ فَــهُــوَ مَــغْــرَمُ
فَبَــادِرْ إِذاً مَــا دَامَ في العُمْــرِ فُسْحَــةٌ
وعَــدْ لُــكَ مَــقْــبُــوْلٌ وَصَــرْفُــكَ قَــيِّــمُ
وَجُــدَّ وَسَــارِعْ واغْــتَــنِــمْ زَمَــنَ الــصِّبَــا
فــفِي زَمَــنِ الامْــكَــانِ تَــسْــعَــى وَتَــغْــنَــمُ
وَسِــرْ مُسْرِعــاً فــالمَــوتُ خَلْفَكَ مُسْرِعــاً
وَهَــيْــهَــاتَ مَــا مِــنْــهُ مَــفَــرٌّ وَمَــهْــزَمُ

اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيْمَانَ وَزَيِّنْهُ في قُلُوبِنَا واغْفِرْ لَنَا وَلِـوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

« فَصْــلٌ »

في الثَّنَـاءِ على أَهْلِ الجَنَّـةِ وَتَبْشِيْرِهِمْ ، وَتَبْكِيْتِ أَهْـلِ النارِ ، وَتَقْرِيْعِهِم على إِهْمَالِهِمْ وَتَفْرِيْطِهِمْ .

رَوَى صَفْوَانُ بنُ عَمْرو قال : سَمِعْتُ أَيْفَعَ بنَ عَبْدِ الكُلاَعِي يَقُولُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « إِذَا دَخلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النارِ النارَ ، قال اللهُ : يا أَهْلَ الجنةِ ﴿ كَمْ لَبِثْتُم في الأَرْضِ عَدَدَ سِنِيْنَ ؟ قالُوا لَبِثْنَا يوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قَالَ : نِعْمَ مَا اتَّجَرْتُم في يَوْمٍ أَو بَعْضِ يَوْمٍ ، رَحْمَتِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِيْ ، أُمْكُثُوْا فِيها خَالِدِيْنَ مُخَلَّدِيْنَ . ثُمَّ يَقُولُ لأَهْلِ النارِ ﴿ كمْ لَبِثْتُمْ في الأَرْضِ عَدَدَ سنيْنَ ، قالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَو بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فَيَقُول بِئْسَ ما اتَّجَرْتُمْ في يَوْمٍ أو بَعْض يَوْمٍ سَخَطِيْ وَمَعْصِيَتِيْ وَنَارِي ، إِمْكثُوا فِيها خالِدِيْنَ مُخَلَّدِيْنَ ، فيقولُـونَ ، ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا منها ، فانْ عُدْنَا فإِنا ظَـالِمُون ﴾ فيقـولُ ﴿ اخْسَئُوا فيهـا ولا تُكَلِمُون ﴾ فَيَكُونُ ذلك آخرَ عَهْدِهِم بكلامِ رِبهِمْ عَزَّ وَجَلَّ » خَرَجه أبو نعيم ، وقال : كذا رواه أيفع مرسلاً .

وعن أَنَسٍ رضي اللهُ عنه ، قال قال رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « يُؤْتَي بانْعَم الناسِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِن أَهْلِ النارِ ، فَيُصْبَغُ في النارِ صِبْغَةً ، ثُمَّ يُقالُ : يا ابنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قطُ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيْمٌ قَطُ ؟ فَيَقُولُ : لاَ وَاللهِ يَا رَبُّ ، وَيُؤْتى بأَشَدِّ الناسِ بُؤْساً في الدُنْيَا مِن أَهْلِ الـجَنَّةِ ، فَيُصْبَغُ في الجَنَّةِ صِبْغَةً ، فَيَقَالُ : يا ابنَ آدمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُ ؟ هَلْ مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُ ؟ فَيَقُولُ لاَ وَاللهِ يَا رَبُّ ، مَا مَرَّ بيْ بُؤْسٌ قط ، ولا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُ » أخرجه مسلم ، وأَخْرَجَهُ ابنُ مَاجَةَ أَيْضاً عَن أنسٍ بنِ مالكٍ ، قال قالَ رَسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَنْعَم أَهْلِ الدُنْيَا من الكُفَّارِ ، فَيُقَالُ : اغْمِسُوهُ في النارِ غَمْسَةً فَيُغْمَسُ فِيْهَا ثُمَّ يُخْرَجُ ، فيقالُ : أَيْ فُلاَنُ هَلْ أَصابَكَ نَعِيْمٌ قَطُ ؟ فيقولُ : ما أَصَابَنِي نَعِيْمٌ قَطُ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِ المؤمنين ضَرَراً وَبلاءً ، فَيُقَالُ : اغْمِسُوهُ

في الجَنَّةِ غَمْسَةً ، فَيُغْمَسُ فِيْهَا غَمْسَةً ، فَيُقَالُ لَهُ : أَيْ فُلَانٌ هَلْ أَصَابَكَ ضَرٌ وَبَلَاءٌ فيقولُ : لَا مَا أَصَابَنِي ضَرٌ قطُ ولا بَلَاءٌ » .

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ : واعْظَمُ عَذَابِ أَهْلِ النارِ حِجَابُهُمْ عن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وإِبْعَادِهِم عنه ، واعْرَاضُه عَنْهُمْ ، وَسَخْطُه عَلَيْهِم ، كَمَا أَنَّ رِضْوَانَ اللهِ عَلَى أَهْلِ الجَنَّةِ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ نَعِيْمِ الجنةِ ، وَتَجَلِّيْهِ لَهُمْ ، وَرُؤْيَتُهُمْ إِيَّاهُ ، أَعْظَمُ مِن جَمِيْعِ أَنْوَاعِ نَعِيْمِ الجنةِ ، قال الله تعالى ﴿ كلا إنهم عن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبون ثم إنهم لَصَالُوا الجَحِيْمِ ، ثم يُقَال هَذَا الذِي كُنتُم بِه تكذِبون ﴾ فذكَرَ تَعَالَى لَهُم ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِن العَذَابِ ، حِجَابُهُمْ عنه ، ثم صَلْيُهُمْ الجَحِيْم ، ثم تَوْبِيْخُهُمْ بِتَكْذِيْبِهِم به في الدُّنْيَا ، وَوَصْفِهِم بالرَّانِ على قُلُوبهم ، وَهُوَ صَدَأُ الذُّنوب الذِي اسْوَدَّتْ بِهِ قُلُوبِهِم ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ في الدُّنْيَا شَيْءٌ مِن مَعْرِفَةِ اللهِ ، وَلَا مِن إِجْلَالِهِ وَمَهَابَتِهِ ، وَخَشْيَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ ، فَكَمَا حُجِبَتْ قُلُوبُهُمْ في الدُّنْيَا عن اللهِ ، حُجِبُوا في الآخرةِ عَنْ رُؤْيَتِهِ ، وهَذَا بِخِلَافِ حَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، قال تعالى ﴿ للذيْنَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوْهَهُم قَتَرٌ ولا ذِلَّة ﴾ والذينَ أَحْسَنُوا هُمْ أَهْلُ الاحسانِ والاحسانُ « أَنْ تَعْـــبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تراه » كَمَا فَسَّرَه النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا سَأَلَهُ عنه جِبْرِيْلُ عليهِ السلامُ ، فَجَعَل جَزَاءَ الاحسانِ الحُسْنَى ـ وهو الجَنَةُ ـ والزِّيَادَةُ ـ وهِيَ النَّظَرُ إلى وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَمَا فَسَّرَهُ بذلكَ رَسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، في حديثِ صهيبٍ وغيرِهِ. انتهى .

قَالَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

أَوَ مَـا سَـمِـعْـتَ مُـنَـادِيَ الإِيْـمَـانِ
يُـخْبِـرُ عـن مُنَـادِي جَنّـةِ الـحَيَـوانِ
يـا أَهْلَهـا لَكُمُ لـدَى الـرحمن وَعْـ
دٌ هـوَ مُـنْـجِـزُهُ لـكُـمْ بـضَـمَـانِ
قـالُـوا أَمَـا بَيَّضْـتَ أَوْجُـهَـنَا كَـذَا
أَعْـمَـالَـنَـا ثَـقَّـلْتَ فـي الـمِـيْـزَانِ
وَكَـذَاكَ قَـدْ أَدْخَلْتَنَـا الجَنـاتِ حِيْ
نَ أَجَرْتَنَا مِـنْ مَـدْخَـلِ الـنِـيـرانِ
فـيقـولُ عِنْـدِي مَـوْعِـدٌ قَـدْ آنَ أنْ
أُعْـطِيْـكُـمُـوهُ بِـرَحْـمَـتِـيْ وَحَـنَـانِـيْ
فَـيَـرَوْنَـهُ مِن بَـعْـدِ كَشْـفِ حِـجَـابِـهِ
جَـهْـراً رَوَى ذَا مُـسْـلِم بِـبَـيَـانِ
وَلَـقَـدْ أَتَـانَـا في الـصَّـحِـيْـحَـيْـنِ اللَّذي
نِ هُـمَـا أَصَـحُّ الـكُتْـبِ بَعْـدَ قُـرآنِ
بِـروَايَـةِ الـثِّـقَـةِ الـصَّـدُوْقِ جَـرِيـرٍ الْ
بَـجَـلِيِّ عَـمَّـن جَـاء بـالـقُـرْآنِ
أَنَّ الـعِـبَـادَ يَـرَوْنَـهُ سُـبْـحَـانَـهُ
رُؤْيـا الـعِيَـانَ كَـمَـا يُـرَى القَـمَـرَانِ
فـإِنْ اسْتَـطَعْتُمْ كُـلَّ وَقْتٍ فـاحْـفَـظُوا الْ
بَـرْدَيْنِ مـا عِـشْـتُم مَـدَى الأزمـانِ

ولقد رَوَى بِضْعٌ وَعشْرُوْنَ امْرُوءٌ
مِن صَحْبِ أَحْمَدِ خِيْرةِ الرّحْمَنِ
أَخْبَارَ هَذَا الباب عَمَّنْ قد أَتَى
بالوَحْيِ تَفْصِيْلًا بلا كِتْمَانِ
وَأَلَذُ شَيءٍ لِلْقُلُوب فَهَذِهِ الْـ
أَخبارُ مَعْ أَمْثَالِهَا هِيَ بَهْجَةُ الايْمَانِ
واللهِ لَو لَا رُؤْيَةُ الرَّحْمَنِ في الْـ
جَنَّاتِ ما طَابَت لِذِي العِرْفَانِ
أَعْلَى النَّعِيْمِ نَعِيْمُ رُؤْيَةِ وَجْهِهِ
وَخِطَابُه في جَنَّةِ الحَيَوانِ
وَأَشدُّ شَيءٍ في العَذَابِ حِجَابُهُ
سُبْحَانَه عَن سَاكِنِي النِيْرَانِ
وإِذَا رَآهُ المُؤْمِنُونَ نَسُوْا الَّذِيْ
هُمْ فِيه مِمَّا نَالَتِ العَيْنَانِ
فاذا تَوَارَى عَنْهُم عَادُوا إِلَى
لَذَاتِهم مِن سَائِرِ الأَلْوَانِ
فَلَهُم نَعِيْمٌ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ سِوَى
هَذَا النَّعِيْم فَحَبَّذَا الأَمْرَانِ
أَو مَا سَمِعْتَ سُؤَالَ أَعْرفِ خَلْقِه
بِجَلَالِهِ الْمَبْعُوثِ بالقُرْآنِ

شَــوقــاً إلــيــهِ وَلَــذَةِ الــنَّــظَرِ الــذِي
بجَـــلاَلِ وَجْــهِ الــربِ ذِي الــسُــلْطَانِ
فــالشَّــوْقُ لَــذَةُ رُوُحــه في هَــذِهِ الــدُّ
نْــيَــا وَيَــوْمَ قِــيَــامَــةِ الأبْــدَانِ
تَــلْتَــذُ بــالــنَّــظَرِ الــذي فَــازَتْ بِــهِ
دُوْنَ الــجَــوارِح هَــذِهِ الــعَــيْــنَــانِ
والــلهِ مَــا فــي هَــذِهِ الــدُنْــيَــا أَلَــذُ
ذُ مِــن اشْــتِيَــاقِ الــعَــبْــدِ لِلرَّحْــمَــنِ
وَكَــذَاكَ رُؤْيَــةُ وَجْــهِــهِ سُــبْــحَــانَــهُ
هِــيَ أَكْــمَــلُ الــلَّذَاتِ لِــلإنْــسَــانِ

اللهُمَّ انْفَعْنَا بمَا علَّمْتَنَا ، وَعلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا ، وَوَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بمَا فَهَّمْتَنَا ، اللهُمَّ إنْ كُنَّا مُقَصِّرِيْنَ في حِفْظِ حَقِّكَ ، وَالوَفَاءِ بعَهْدِكَ ، فأنْتَ تَعْلَمُ صِدْقَنا في رَجَاءِ رِفْدِكَ ، وَخَالِصِ وُدِّكَ ، اللهُمَّ أَنْتَ أَعْلَمُ بِنَا مِنَّا ، فَبِكَمَالِ جُوْدِكَ تَجَاوَزْ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، الأحْيَاءِ مِنْهُم والمَيِّتِيْنَ ، برَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْــلٌ »

عِبَادَ اللهِ قَدْ سَبَقَ ذِكْرُ النَّارِ وَأَهْوَالِهَا ، وَغُمُومِهَا وَأَنْكَالِهَا وَطَبَقَاتِهَا ، وَشَرَابِ أَهْلِهَا وطَعَامِهم ، وَمَا إلى ذَلِكَ مِمَّا أَعَدَّهُ اللهُ جَلَّ وَعَلا لأَهْلِهَا ، مِنْ أَنْوَاعِ العَذَابِ الأَلِيْمِ الأبَدِيِّ السَّرْمَدِيّ أَعَاذَنا اللهُ وَإِيَّاكُم وَجَمِيْعَ

المُسْلِمين منها ، وَيُقَابلُهَا دَارٌ أخْرَى دَارُ قَرارِ وَنَعِيمٍ ، وَسُرُورٍ وَحُبُورٍ ، وَأَمْنٍ وَصِحَّةٍ ، وَحياةٍ أَبَدِيَّةٍ فِيْهَا مَا تَشْتَهِيْه الأَنْفُسُ ، وَتَلذّ الأعْيُنُ ، مِمَّا لا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَر ، دَارٌ جَعَلَهَا الكَرِيْمُ ، الرَّحِيْمُ ، الغَافِرُ الجَوادُ الماجِدُ ، دَارَ ضِيَافَةٍ ، يُكْرِمُ فيها عِبادَهُ الأخيَارُ ، الذيْنَ وَفَّقَهُم لِخِدْمَتِه ، وَالعَمَلِ بِطَاعَتِه ، ولا تَظُنَّنَّ هَذِهِ الضّيَافَةَ فِيْهَا مَحْدُوْدَةً ، وَلاَ أَنَّ الكَرَامَةَ فيها تَنْتَهِيْ ، بَلْ كُلُّ مَا تُحِبُّه وَتَتمنَّاهُ أَمَامَكَ ، إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْ اللهِ الحُسْنَى .

فَاسْتَثِرْ الخَوْفَ مِنْ قَلْبِكَ ، بِطُوْلِ فِكْرِكَ في أَصْحَاب جَهَنَّم ، وفي أَحْوَالِهم وَتَقَلّبَاتِهم ، وَحَسْـرَتِهم ، وَنَدَامَتِهم عَلَى تَفـرِيْطِهم ، واذكُـرْ طَعَامَهُم وَشَرَابَهُم ، وَأَلْوَانَ عَذَابهم وَخُلُودَهُم ، وَاسْتَثِرْ الرَّجَاءَ ، بِطُوْلِ فِكْرِكَ فِيْمَا أَعَدَّهُ اللهُ لِأَوْلِيَائِه وَأَصْفِيَائِه ، في دَارِ كَرَامَتِه ، مِنْ النَّعِيم المُقِيْمِ ، والعَيْشِ السَّلِيْمِ ، المَوْعُودِ لِأَهْلِ الجَنَّةِ ، جَعَلَنَا اللهُ وايَّاكَ وَجمِيْعَ المُسْلِمِيْن مِمَّنْ يَحُلُّها ، وَسُقْ نَفْسَكَ بِسَوْطِ الخَوْفِ ، وَقُدْهَا بزِمَامِ الرَّجَاءِ ، إِلى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ ، لِتَنالَ المُلكَ العَظِيْمَ ، وَتَسْلَمَ مِنْ العَذَابِ الأليْمِ ، وَتَفكَّرْ في قُدُومِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَمَا يُلاَقُونَ مِنْ الحَفَاوَةِ والتَّكْرِيْمِ ، وَمَا يُقَالُ لهُم عِنْدَ قُدُومِهِم .

قالَ تَعَالَى ﴿ وَسِيْقَ الذيْنَ اتَّقَوا رَبَّهُم إِلى الجَنَّةِ زُمَراً ، حَتَّى اذا جَاءُوها، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُها ، وَقالَ لَهُم خزنتُها : سَـلامٌ عَلَيْكُم ، طِبْتُمْ ، فادْخُلُوهَا خَالِدِيْنَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَقِيْلَ الحَمْدُ لله رَبِّ الـعالَمِيْنَ ﴾ بَعْدَ أَنْ ذكرَ جَلَّ وَعَلاَ أَحْوَالَ الأَشْقِيَاءِ ، وَمَا يُلاَقُونَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، مِنْ الأَهْوَالِ والكُرُوبِ والشَّدَائِدِ ، أَرْدَفَ ذلكَ بِـذِكْرِ أَحْوَالِ السُّعَدَاءِ ، وَمَا

يُلاَقُونَهُ إِذْ ذَاكَ مِنَ النَّعِيْم ، وَمَا يُقَالُ لهُم والمُرَادُ بالسَّوْقِ هُنَا الاسْرَاعُ بهم إِلى دَارِ الكَرَامَةِ والرِّضْوَانِ كَمَا يُفْعَلُ بِمَنْ يُكْرَمُ مِنَ الوَافِدين على بَعْضِ المُلُوكِ ، بخِلاَفِ السَّوْقِ المُتقدِّمِ في حَقِّ الكُفَّار ، فانَّهُ طَرْدُهُم إِلَى العَذَابِ ، والذُّلِّ والهَوانِ، كمَا يُفْعَلُ بالمُجْرِمِ الأَسِيْرِ ، إِذا سِيْقَ إِلَى السِّجْنِ أَوِ القَتْلِ فشَتَّانَ مَا بَيْنَ السَّوْقَيْنِ ، ﴿ حَتَّى إِذا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُها ﴾ المَعْنَى أَنَّهُم إِذا وَصَلُوا اليها وَقَد فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا لَهُم ، كَمَا تَفْتَحُ الخَدَمُ بَابَ المَنْزِلِ لِلضَّيْفِ عِنْدَ قُدُوْمِهِ ، ، وَتَقِفُ لَهُ مُنْتَظِرَةً حُضُوْرَهُ ، فَرِحاً واسْتِبْشَاراً لِقُدُومِهِ ، فَرِحُوا بِمَا أَفَاءَ اللهُ عليهم مِنَ النَّعِيْم ، وَبِمَا شَاهَدَتْ أَعْيُنُهم ، مِمَّا لا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أذنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَر على قَلْبِ بَشَر ، ثُمَّ أخْبَرَ جَلَّ وَعَلا أَنَّ خزنَةَ الجَنّةِ يُسَلِّمُون عَلى المُؤْمِنِيْنَ ، فقَالَ عِزَّ مِنْ قائل ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سلامٌ عليْكُم طِبْتُم ، فادْخُلُوهَا خَالِديْنَ ﴾ فَبَدَؤُهُم بالسَّلام ، المُتَضَمِّنِ لِلسَّلامَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَمَكْرُوهٍ ، أَيْ سَلِمْتُم فلاَ يَلْحقُكم بَعْدَ اليَوْمِ مَا تَكْرَهُونَ ، ثُمَّ قَالُوا لَهُم ﴿ طِبْتُم فادْخُلُوها خَالِدِيْنَ ﴾ .

أَيْ سَلاَمَتُكم وَدُخُولُكُمْ بطِيْبِكُم ، فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَهَا إلَّا عَلَى الطَّيِّبينَ ، فَبَشَّرُوهُم بالسَّلاَمَةِ والطِّيْب ، والدُّخُولِ والخُلُودِ ، ثُمَّ أخبَرَ عَمَّا يَقُولُه المؤمِنُونَ اذا عَايَنُوا ذَلِكَ النَّعِيْمَ المُقِيْمَ ، وَالعَطَاءَ الجَزِيْلَ ، بَعْدَ دُخُولِهم وَاسْتِقْرَارِهم ، حَامِدِيْنَ لِله عَلَى مَا أَوْلاَهُم ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْهم ، وَهَدَاهُم لَهُ ، ﴿ الحَمْدُ للهِ الذِي صَدَقنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ ، نَتَبَوَّأُ مِنْ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ وَنَحو هَذِهِ الآيَةِ ﴿ وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ الذِي هَدَانَا لِهَذا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِي لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ ﴾ .

قال ابن القيم :

أَبْـوَابُـهـا حـقٌّ ثـمَـانِـيَـةٌ أَتَـتْ
في النَّصِّ وَهِـيَ لِصَـاحِـبِ الاحْـسَـانِ
بـابُ الـجِـهَـادِ وَذَاكَ أَعْـلاَهَـا وَبَـا
بُ الصَّـوْمِ يُـدْعَى البـابُ بـالـرَّيَـانِ
وَلِـكُـلِ سَـعْـيٍ صَـالـحٍ بَـابٌ وَرَ
بُ الـسَّـعْـيِ مِـنْـهُ دَاخِـلٌ بِـأَمَـانِ
وَلَسَـوفَ يُـدْعَى المَـرْءُ مِن أَبْـوابِـهَـا
جَـمْـعـاً إِذَا وَافَـى حُـلَى الإِيْـمَـانِ
مِـنهُـمْ أَبُـو بَـكْـرٍ هُـو الـصِّـدِيْـقُ ذَا
كَ خَـلِيْـفَـةُ الـمَـبْـعُـوثِ بـالـقُـرْآنِ

وَتفَكَّرْ في وُجُوهِ أَهْلِ الجَنَّةِ التِي أَخْبَر اللهُ عَنْهَا بِقَوْلِهِ ﴿ تَعْرِفُ في وُجُوْهِهِم نَضْرَةَ النَّعِيْم ﴾ أي بَهَاءُه وَنَضارَتُه وَرَوْنَقُه فانَّ تَوَالِى اللذاتِ والمَسرَّاتِ والأفْرَاح يُكْسِبُ الوَجْهَ نُوْراً وَحُسْناً ، وَبَهْجَةً واشْرَاقاً ، تَبْرُقُ منْهُ أَسَارِيرُ الوَجْهِ .

ثُمَّ أخبرَ جَلَّ وَعَلا عَمَّا يُسْقَاهُ الأبْرَارُ مِنْ الشَرَاب الطَّيِّب اللّذِيْذ ، فقالَ ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ ، خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ الرَّحِيْقُ مِنْ أَسْمَاءِ الخمْر ، قالُه ابنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدُ وَالحَسَنُ وَقتَادَةُ ، وَابْنُ زَيْدٍ وَقَالَ الامَامُ أَحْمَدُ : حَدَثَنا حَسَنٌ ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ ، عن سَعِيْدٍ عَن أبي المُحَاصِر الطَّائِيّ ، عن عَطِيَّة بْنِ سَعْدٍ العَوْفِيّ ، عن أَبي سَعِيْدٍ الخُدْرِيّ ، أَرَاهُ قد رَفَعَهُ الى النبي صلى الله عليه وسلم قالَ « ايُّما مُؤمِنٍ

سَقَى مُؤْمِناً شَرْبَةَ مَاءٍ على ظَمأٍ ، سَقَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ من الرَّحِيْقِ المَخْتُومِ وأيُّما مُؤْمِنٍ أطعَمَ مُؤْمِناً عَلَى جُوْعٍ ، أَطْعَمَهُ اللهُ مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ ، وأيُّما مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِناً ثَوْباً على عُرْيٍ ، كَسَاهُ اللهُ مِنْ خُضْرِ الجَنَّةِ » وَقَوْلُه (خِتَامُه مِسْكٌ) أي خِلْطُهُ مِسْكٌ .

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: هُوَ شَرَابٌ أَبْيَضُ ، مِثْلُ الفِضَّةِ ، يَخْتِمُونَ بِهِ شَرَابَهُم ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الدّنْيَا ، إدْخَل اصْبُعَهُ فِيْهِ ثُمَّ أَخْرَجَها ، لَمْ يَبْقَ ذُو رُوْحٍ إلَّا وَجَدَ طِيْبَها ، وَقَوْلُه ﴿ وفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسُ المُتَنَافِسُونَ ﴾ المَعْنَى ـ واللهُ اعْلَمُ ـ وفي مِثْلِ هَذَا الحَالِ فَلْيَرْغَبْ الرَّاغِبُونَ ، بالمُبَادَرَةِ إلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَلْيَتَفَاخَرْ المُتَفَاخِرُونَ ، وَلِيَتَبَاهَى المُتَبَاهُونَ ، وَيُكَاثِرْ وَيَسْتَبِقْ إلى مِثْلِهِ المُسْتَبِقُونَ ، كَقَوْلِهِ تَعالَى ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ العَامِلُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَمِزَاجُه مِن تَسْنِيْم ، عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ ﴾ المَعْنَى أَنَّ هَذَا الشَّرَابُ المَوْصُوفُ المَخْتُومُ بالمِسْكِ ، يُفَضُّ خَتْمُه ، ثم يُمْزَجُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِه العَيْنِ المُسَمَّاةِ ﴿ تَسْنِيم ﴾ التي ﴿ يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُون ﴾ وَهُوَ أَشْرَفُ شَرَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَعْلاَهُ ، قالَهُ أَبُو صَالِحٍ والضَّحّاكُ ، وَلِهَذَا قالَ ﴿ عَيْنَاً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ ﴾ أيْ يَشْرَبُهَا المُقَرَّبُونَ ، وَقِيْلَ : يَشْرَبُ مِنْهَا المقرّبُون ، وَقَالَ تَعالَى ﴿ وَيُطافُ عليهم بآنِيَةٍ من فِضَّةٍ ، وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوارِيْرَ ، قَوارِيْـرَ مِن فِضَّةٍ ، قَدَّرُوها تقدِيْراً ، وَيُسْقَوْنَ فِيْهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيْلا ، عَيْنَاً فِيْهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيْلَا ، وَيَطُوفُ عليهم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون ، إِذَا رَأَيْتَهُم حَسِبْتَهُم لُؤْلؤاً مَنْثُورَا ﴾ بَعْدَ مَا أَخْبَرَ جَلَّ وعَلا أنهُ وَقَاهُمْ شَرَّ ذلك اليَوْمِ ، فلا يَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكْبَرُ ، وَأَنَّهُ لَقَّاهُم نَضْرَةً في وُجُوهِهم ، وسُرُوْراً في قُلُوبِهم ، فَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ النَّعِيمِ الظَّاهِر ، والنَّعِيْمِ البَاطِن ، وَأَنَّهُ ﴿ جَزَاهُم بِمَا

صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيْرَا ﴾ ، وأَنَّهُم في جَلْسَةٍ مُرِيْحَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ ، وَالجَوُّ حَوْلَهُمْ رَخَاءٌ ناعِمٌ ، دَافِىءٌ في غَيْرِ حَرٍّ نَدِيٌّ ، في غَيْرِ بَرْدٍ ، فَلَا شَمْسَ تَلْهَبُ ، ولا بَرْدٌ يَقْرِسُ ، وَقَرِيْبَة أَغْصَانُها وَثِمَارُهَا مِن مُرِيْدِهَا يَنَالُه قَاعِداً أَو قائِماً ، أَخْبَرَ عَمَّا يَدُوْرُ بِهِ الوِلْدَانُ والخَدَمُ ، مِنْ الطَّعَامِ والشَّرَابِ الذِيْ عَلى قَدْرِ رَيِّهِم ، لا يَـزِيْدُ عَنْهُ ولا يَنْقُصُ قَالَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ وَاصِفاً لِطَعَامِهِم وَشَرابِهِمْ :

وَطَعَامُهُم مَا تَشْتَهِيْهِ نُفُوسُهُم
وَلُحُومُ طَيْرٍ نَاعِمٍ وسِمَانِ
وَفَواكِهٌ شَتَّى بِحَسْبِ مُنَاهُمُ
يَا شِبْعَة كَمُلَتْ لِذِي الإِيْمَانِ
لَحْمٌ وخَمْرٌ والنِسَا وفَوَاكِهٌ
والطِّيْبُ مَعْ رَوْحٍ ومَعْ رَيْحَانِ
وصِحَافُهم ذَهَبٌ تَطُوفُ عَلَيْهِمُ
بِأَكفِ خُدَّامٍ مِن الوِلْدَانِ
وانْظُر إِلَى جَعْلِ اللَّذَاذَةِ لِلْعُيُو
نِ وشَهْوَةٍ لِلنَّفْسِ فِي القُرآن
لِلْعَيْنِ منها لَذَةٌ تَدْعُو إِلى
شَهَوَاتِهَا بالنَّفْسِ والأَمْرانِ
سَبَبُ التَّنَاوُلِ وهو يُوجِبُ لَذَةً
أُخْرى سوَى مَا نَالَتِ العَيْنَانِ

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ التِي وُعِدَ المتّقُونَ ، فِيْهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لبَنٍ لَمْ يتَغيّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَةٍ للشَّارِبِيْنَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَل مُصَفًّى ، وَلهُم فيْهَا مِنْ كُلِّ الثّمراتِ ، ومَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم ﴾ هَذا الكَلامُ اسْتِئْنَافٌ ، مَسُوْقٌ لِشَرْح محَاسِن الجَنَّةِ الموعُودِ بها المؤمِنين وبيَانِ كَيْفِيَّةِ أَنْهَارِهَا التِي أُشِيرَ إِلَيْهَا وَأَنَّها وأنها تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهِم ، فَقَال ـ مُفسِّراً لذلِكَ ـ ﴿ فِيهَا أَنهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِن ﴾ أي غير مُتَغَيِّرةِ الطَّعْمِ والرِّيحِ واللوْنِ ، بَلْ هُوَ أعْذَبُ المِيَاهِ وَأَصْفَاها ، وَأَطْيَبها وَألذَها شُرْبًا وَالثّاني ﴿ أنهَارٌ مِنْ لَبنٍ لَمْ يتغيَّرْ طَعْمُه ﴾ لا بحُمُوْضَةٍ ولا غَيْرِهَا .

الثَّالث ﴿ وَانْهَارٌ مِنْ خمْرٍ لَذةٍ للشَّارِبِيْن ﴾ لَمْ تُدنَسْهَا الأَرْجُلُ ، ولم تُكدِّرْهَا الأيْدِي ، وليْسَ فيها كَرَاهَةُ طَعْمٍ ولا رِيْحٍ وَلا غائِلَةُ سُكْر ، بْل يَلْتَذ شاربُها لَذّةً عظِيْمَةً ، لا كخَمْر الدَنيا التِيْ يُكرَهُ مَذاقُها ، وَتَصْدَعُ الرَّأْسَ ، وَتُزيلُ العَقْلَ .

وَالرّابعُ ﴿ أنهارٌ من عَسَل مُصَفًّى ﴾ أيْ قَدْ صُفِيَ عَنْ القَذَى وَالوَسَخ ، وَمَا يَكُونُ في عَسَلِ الدُنْيَا قَبْلَ تَصْفِيَتِهِ مِنْ الشَّمْعِ ، وَفَضَالاَتِ النّحْل ، وَغيْرِهَا ، وَبُدِيء بالماءِ لأنهُ لا يُسْتَغْنَى عنهُ في الدنيا ، ثمَّ باللبَنِ لأنهُ يَجْرِي مَجْرَى الطَّعامِ لكثِيْرِ مِنْ العَربِ في غَالِبِ أَوْقَاتِهم ، ثمَّ بالخَمْرِ ، لِأَنهُ إِذا حَصَل الرِّيُّ والشِّبَعُ تَشوَّقَتْ النَّفْسُ لما يُسْتَلَذُّ بِهِ ، ثُمّ بالعَسَل لأنَّ فِيْهِ الشِّفَاءُ في الدنيا مِمّا يُمْرِضُ مِنْ المطعُوم وَالمَشْرُوبِ .

الخامِسُ ﴿ وَلهُم فيها مِنْ كُلّ الثّمراتِ ﴾ أيْ وَلَهُم في الجَنَّةِ أَنْوَاعٌ مِنْ الثّمَارِ المخْتَلِفةِ الطُّعُومِ وَالرَّوائِح وَالأشْكالِ ، مِنْ نَخِيْلٍ وَأعْنَابٍ ، وَتُفَّاح وَرُمَّانٍ وَتِيْنٍ وغيْرِ ذلِكَ ، مِمّا لا نَظِيْرَ لهُ في الدُّنْيَا :

وَقَالَ ابْنُ القَيّم رَحِمَهُ اللهُ في شَرابِ أهْلِ الجَنّةِ .

يُسْقَونَ مِن خَمْرٍ لَذِيْذ شُرْبُهَا
بِالمِسْكِ أَوَّلُهَ كَمِثْلِ الثانِي
مِن خَمْرةٍ لَذَّتْ لِشَارِبِها بِلاَ
غَوْلٍ وَلا دَاءٍ ولا نُقْصَانِ
والخَمْرُ في الدُنيا فهذا وَصْفُهَا
تَغْتَالُ عَقْلَ الشَارِبِ السَّكْرَانِ
وبها مِنَ الأَدَّوَاءِ مَا هِيَ أَهْلُهُ
ويُخَافُ مِن عَدَمٍ لِذِي الوِجْدَانِ
فَنَفَى لَنَا الرحمنُ أَجْمَعَهَا عن الْـ
خَمْرِ التي في جَنَّةِ الحَيَوانِ
وشَرابُهم مِن سَلْسَبْيلٍ مَزْجُهُ الْـ
كَافُورُ ذَاكَ شَرابُ ذِي الاحْسَانِ
هَذا شَرَابُ أولِى اليَمِيْن وَلَكِن الْـ
أَبْرَارُ شُرْبُهم شَرابُ ثَانِي
يُدْعَى بتَسْنِيمٍ سَنَامُ شَرَابِهِم
شُرْبُ المُقَرَّبِ خِيْرةِ الرحمنِ
صَفَّى المُقَرَّبُ سَعْيَهُ فَصَفَا لَهُ
ذَاكَ الشَّرَابُ فَتِلْكَ تَصْفِيَتَانِ
لَكِنَّ أَصْحَابَ اليَمِيْنِ فَأَهْلُ مَزْ
جٍ بالمُبَاحِ ولَيسَ بالعِصْيَانِ

مُـزِجَ الشَّـرابُ لَهم كَمَـا مَـزَجُـوا هُمُ
أَعْـمَـالَ ذَاكَ الـمَـزْجُ بـالـمِـيْـزَانِ
هــذَا وذُو الـتَّـخْـلِيْطِ مَـزْجـاً أَمْـرُهُ
والـحُـكْـمُ فـيـه لِـرَبِـنَـا الـدَّيـانِ

« فصل »

قَالَ تَعَالَى ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُم لُؤْلُؤاً مَنْثُورا ، وَإِذا رَأيْتَ ثَمَّ رَأيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيْرا عَالِيهُم ثِيَابُ سُـنْدُسٍ ، خُضْرٍ وَاسْتَبْرق ، وحُلُّوا أَسَاورَ مِنْ فِضَّةٍ ، وسَقَاهُمْ رَبُّهم شَرَاباً طَهُورَا ، إِنَّ هَذا كانَ لكُمْ جَزَاءً ، وَكانَ سَعْيُكُم مَشْكُوراً ﴾ بَعْدَ أن ذكرَ جَلَّ وَعَلاَ وَصْفَ أَوَانِي مَشْرُوبهِمْ، وَوَصَفَ مَشْرُوْبهِمُ، ذَكَرَ أَوْصَافَ السُّقَاةِ الذيْنَ يَسْقُوْنَهُم ذلكَ الشَّرَابِ، وأَنَّهُم وِلْدَانٌ مِنْ وِلْدَانِ الجَنَّةِ ، يأتُونَ عَلىَ مَا هُمْ عَليْهِ مِنْ الشَّبَابِ وَالطَّرَاوَةِ والنَّظَارَةِ ، لا يَهْرَمُونَ وَلا يَتَغَيَّرُونَ ، وَلا تَضْعُفُ أَجْسَامُهم عن الخِدْمَةِ ، وَإِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَ هَؤلاءِ الولدَانِ . خِلْتَهُم لِحُسْنِ الوَانِهم ، وَنضَارَة وُجُوهِهم لُؤْلُؤاً مَنْثُورا ، وَلَمَّا ذَكَرَ جَلَّ وَعَلا نَعِيمَ أَهْلِ الجَنَّةِ ، ذَكَرَ أَنَّ هُنَاكَ أُمُـورٌ عَـالِيَـةٌ عَـظِيْمَـةٌ ، يَعْنِي في الجَنَّـةِ وَسعَتِهـا وَارْتِفـاعِهَـا ، وَمَـا فِيْهَا من المَسَاكِن ، والغُرَفِ المزيَّنَةِ المُزَخْرَفَةِ ، مِمَّا لا يُدْرِكُهُ الوَصْفُ ، وَلَدَيْهِ منْ البَسَاتِيْن الزَّاهِرَةِ ، وَالثِّمَارِ الدّانِيَةِ ، وَالفَوَاكِهِ الشَّهِيَّةِ ، وَلُحُوم الطُّيُورِ الطَّرِيَّةِ ، والأَنْهَارِ التِيْ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلاَ عَنْهَا ﴿ فِيْهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْر آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتغَيَّر طَعْمُه ، وَأَنهارٌ مِنْ خَمرٍ لَذَّةٍ للشّارِبيْنَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفَّى ، وَلَهُم فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ .

وقالَ في سُوْرَةِ الـوَاقِعَةِ ـ مُخْبِـراً عَمّا هُمْ فِيْـهِ مِنْ النَّعِيْمِ وَأَنَّهُم مَخْدُومُونَ في شرَابِهم وطَعَامِهم ، مَكْفيُّون مَؤُنةَ مَا يُرِيْدُون (يَـطُوفُ عَـلَيْهِم وِلْـدَانٌ مُخَلدُوْنَ ، بأكْـوَابٍ وَأبَـارِيْقَ ، وَكَـأْسٍ مِنْ مَعِيْنٍ لا يُصَدَّعُوْنَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُوْنَ) وَبَعْدَ وَصْفِ الشَّرَابِ ، وَصَفَ جَلَّ وعَلا الطَّعَامَ ، فقَالَ (وَفاكِهَةٍ ممَّا يَتَخَيَّرُونَ ، وَلَحْمِ طَيْر مِمَّا يَشْتَهُونَ) ثُمَّ بَعْدَ ذِكْر الطَّعَام وَالشَّرَابِ ذكرَ نِسَاءَهُمْ فَقَالَ (وحُـوْرٌ عِيْنٌ ، كأمْثَالِ اللؤْلُؤ المكْنُوْنِ) .

ثُمَّ ذَكرَ السَّبَبَ في مُتْعَتِهِمْ بكُلِّ هَذا النَّعِيْمِ فقَالَ (جَزاءً بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فكمَا حَسُنَتْ مِنْهُم الأَعْمَالُ ، أَحْسَنَ اللهُ لهُمْ الجَزاءَ ، وَوَفَّرَ لهُم الفَوْزَ وَالنَّعِيمَ ، فجَازَاهُمْ عَلىَ مَا عَمِلُوا وَأثابَهُم بمَا كَسَبُوا في الدُّنْيَا ، وَزَكَّوْا بِهِ أنْفُسَهُم مِنْ صَالحِ الأَعْمَالِ ، وَنَصبُوا لهُ بأدَاءِ فَرَائِضِهِ علىَ أتَمِّ الوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا ، فهُمُ كَانُوَا قوَّامِيْنَ الليْلَ ، صَوَّامِيْنَ النَّهَارَ ، كانُوا قَليْلا مِنْ الليْل مَا يَهْجَعُونَ ، وَبالاسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُوْنَ ، وفي أمْوَالِهم حقٌّ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُوْم) .

وَبَعْدَ أنْ وَصَفَ نِسَاءَهُم وَصَف جَلَّ وَعَلا حَدِيْثَهُم حِيْنَئِذٍ فِقالَ (لا يَسْمَعُونَ فِيْهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيْماً ، إلا قِيْلاً سَلاماً سَلامَا) أيْ لا يَسْمَعُونَ في الجَنَّةِ اللَّغْوَ أَيْ الهُرَاءَ مِنْ الحَدِيْثِ ، وَلاَ هُجْرَ القَوْلِ ، وَمَا تتقَزَّزُ مِنْهُ النُّفُوسُ الرَّاقِيَةُ ، ذاتُ الأخْلاقِ العَالِيَةِ وَلا يَسْمَعُونَ كلاماً يُؤثِّمُ صَاحِبَه ، وَلَكن يَسْمَعُونَ أطْيَبَ الكلامِ وَهُوَ التَّسْلِيْمُ مِنْ بَعْضِهم عَلى بَعْضٍ ، وَذلك أنّها دَارُ الطَّيِّبيْنَ ، وَلاَ يَكُونُ فِيْهَا إلاّ كُلُّ طَيِّب، وهَذَا دَلِيْلٌ على حُسْنِ أدَبِ أهْلِ الجَنَّةِ في خِطَابِهِم فِيْمَا

بَيْنَهم ، وَأنَّهُ أطْيَبُ السَّلام ، وَسَامِيْ الكلام ، مِمّا يُسْتَسَاغُ ، كما قَالَ تعَالى ﴿ تحِيَّتُهم فِيْهَا سَلامٌ ، وَآخِرُ دَعْواهُم أنِ الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالمِيْنَ ﴾ .

ثُمَّ بَعْدَ أَنْ ذكرَ حَالَ السَّابِقِيْنَ، وَبَيَّنَ مَالهُمْ مِنْ نَعِيْمٍ مُقِيْمٍ في جَنَّاتِ النعيْم ، أرْدَفَ ذلكَ بذِكْر أصْحَاب اليَمِيْن فقَالَ ﴿ وَأَصْحَابُ اليمين مَا أَصْحَابُ اليَمين ؟ في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَظِلّ مَمْدُودٍ ، وَمَاءٍ مَسْكوبٍ ، وَفَاكِهَةٍ كَثِيْرَةٍ ، لا مَقْطُوْعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ، وفُرشٍ مَرْفُوعَةٍ ، إنّا أَنْشأناهُنّ إنشاءَ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ، عُرُباً أتْرَاباً ، لأَصْحَابِ اليَمِين ﴾ فِفيهَا كُلُ مَا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ ، وَتلَذُّ الأعْيُنُ به ، مِنْ مَطَاعِمَ وَمَشَارِبَ ، ومَلابَسَ وَمَنَاكِحَ ، وَمَنَاظِرَ حسَنَةٍ ، ويرَى فيهَا الاشجَارَ الملتَفَّةْ ، وَالمَبانِيْ المُزَخْرَفَةْ ، ويرى فِيْهَا الرِّيَاضَ المُعْجبة ، وَالطُّيُورَ المُطربَة المُشْجِيَة ، مَا يَأخُذُ بالقُلُوب ، وَيَسُرُّ النُّفُوسَ ويُفْرِحُهَا ، وتجِدُ الواحِدَ عنْدَهُ مِنْ الزَّوْجَاتِ اللاتِيْ في غَايَةِ الجَمَالِ ، الجَامِعَاتِ لِجَمَالِ الظَّاهِرِ وَالبَاطِن ، اللاتِيْ قَالَ اللهُ عَنْهُنَّ ﴿ فِيْهِنّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ مَا يَمْلؤُ القلْبَ سُرُوْرا وَلذَّةً وفَرحاً ، وَعِنْدهُ مِنْ الخدَمِ وَالغِلْمَانِ المُخَلَّدِيْنَ مَا بِهِ تحْصُلُ الرَّاحَةُ وَالطُّمَأْنِيْنَةُ وَالأُنْسُ ، وَتَتمُّ بِهِ لَذَّةُ العَيْش ، وَتَكمُلُ بِهِ الغِبْطَةُ ، وَفَوْقَ ذلكَ رِضَى بَدِيْعِ السَّمَواتِ وَالأرْض ، وسَمَاعُ كلامِهِ ، وَلَذةُ القُرْبِ مِنْهُ ، وَالابْتِهَاجِ وَالسُّرُورِ برِضَاهُ ، وَالخُلُوْدُ الدَّائِمُ الأبَدِيّ ، الخَالِيْ مِنْ المُكَدِّرَاتِ وَالمُنَغِّصَات ، وَتزايُدُ مَا هُمْ فيهِ مِنْ النَعِيْمِ المُقِيْم ، والعَيْشِ السَّلِيْم ، كُلَّ وَقْتٍ وَحِيْنٍ ، قَالَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ ـ في صِفَةِ عَرائِسِ الجَنَّةِ ، وَحُسْنِهِنّ وَجمَالِهِنَّ ، وَلذةِ وِصَالِهِنَّ وَمُهُورِهِنَّ : ـ

يــا مَن يَــطُوفُ بكَعْبَــةِ الـحُسْنِ التي
حُــفَّــتْ بِــذَاكَ الــحِــجْــرِ والأَرْكَــانِ
وَيَــظَلُّ يَسْعَى دَائِمــاً بَيْــنَ الصَّــفَــا
وَمُــحَــسِّــرٌ مَــسْــعَــاهُ لَا الــعَــلَمَــانِ
وَيَــرُوْمُ قُــرْبَــانَ الــوِصَــالِ عَــلى مِنَى
والــخَــيْــفُ يَــحْــجِبُــه عــن الــقُــرْبَــانِ
فَــلِذَا تَــراهُ مُــحْــرِمــاً أَبَــداً وَمَــوْ
ضِــعُ حِــلِّهِ مِــنْــهُ فَــلَيْسَ بِــدَانِــي
يَبْغِي التَّــمَــتُّــعَ مُــفْــرداً عن حِــبِّــهِ
مُــتَــجَــرِّداً يَــبْــغِــي شَــفِــيْــعَ قِــرَانِ
فَــيَظَلُّ بــالــجَــمَــراتِ يَــرْمِي قَلْبَــهُ
هَــذِي مَــنَــاسِــكُــهُ وَكُــل زَمَــانِ
والنــاسُ قَــد قَضَّــوْا مَنــاسِكَهم وَقَــدْ
حَــثُــوا رَكَــائِــبَــهــم إلــى الأَوْطَــانِ
وَخَــدَتْ بِــهِم هِــمَــمٌ لَــهُــمْ وَعَــزَائِــمٌ
نَــحْــوَ الــمَــنَــازِلَ أَوَّلَ الأَزْمَــانِ
رُفِعَتْ لَهُمْ في السَيْــرِ أَعْلَامُ الــوِصَــا
لِ فَــشَــمَّــرُوْا يَــا خَــيْــبَــةَ الــكَــسْــلَانِ
وَرَأَوا عَــلى بُــعْــدٍ خِــيَــامَــاً مُــشْــرِفَــا
تٍ مُــشْــرِقَــاتِ الــنُّــوْرِ والــبُــرْهَــانِ

فَتَيَمَمُوا تِلْكَ الخِيَامَ فآنَسُوْا
فِيْهِنَّ أَقْمَاراً بِلاَ نُقْصَانِ

مِن قَاصِراتِ الطَّرْفِ لا تَبْغِي سِوَى
مَحْبُوبِهَا مِن سَائِر الشُبَّانِ

قَصَرَتْ عَليهِ طَرْفَهَا مِن حُسْنِهِ
والطَرَفُ في ذَا الوَجْهِ لِلنِّسْوَانِ

أَوْ أَنَّهَا قَصَرَتْ عَليهِ طَرْفَهُ
مِن حُسْنِهَا فالطَّرْفُ لِلذُكْرانِ

والأَولُ المَعْهُودُ مِن وَضْعِ الخِطَا
بِ فلا تَحُدْ عَن ظَاهِرِ القُرْآنِ

وَلَرُبَّمَا دَلَّتْ إشَارَتُه عَلَى التَّ
ثَانِي فَتِلْكَ إشَارَةٌ لِمَعَانِي

هَذَا وَلَيْسَ القَاصِراتُ كَمَنْ غَدَتْ
مَقْصُورةً فَهُمَا إذاً صِنْفَانِ

يَا مُطْلِقَ الطَّرْفِ المُعَذَّبِ في الأُلَى
جُرِّدْنَ عن حُسْنٍ وَعَن إحْسَانِ

لا تَسْبِيَنَّكَ صُوْرَةٌ مِن تَحْتِهَا الدَّ
دَاءُ الدَّفِيْنُ تَبُوءُ بالخُسْرَانِ

قَبُحَتْ خَلاَئِقُهَا وَقُبِّحَ فِعْلُهَا
شَيْطَانَةٌ في صُوْرَةِ الإِنْسَانِ

تَـنْـقَـادُ لِـلأَنْـذَالِ والأَرْذَالِ هُـمْ
أَكْـفَـاؤُهـا مِـن دُونِ ذِي الاحـسـانِ

مـا ثَـمَّ مِـن دِيْـنٍ ولا عَـقْـلٍ ولا
خُـلُقٍ ولا خَـوفٍ مِـن الـرحـمـنِ

وَجَـمَـالُـهـا زورٌ وَمَـصْـنُـوعٌ فـإِنْ
تَـرَكْتُـه لم تَـطْمَـحْ لَـهـا العَـيْنَـانِ

طُبِعَـتْ عَلى تَـرْكِ الـحِفَـاظِ فَـمَـالَهَـا
بِـوَفَـاءِ حَـقِ الـبَـعْـلِ قَطُ يَـدَانِ

إِنْ قَـصَّـرَ الساعِـي عَـلَيْهَـا سَـاعَـةً
قَـالَـتْ وَهَـلْ أَوْلَيْـتَ مِـنْ إِحْسَـانِ

أَو رَامَ تَـقْـويمـاً لَـهَـا اسْتَـعْصَـتْ ولَمْ
تَقْبَـلْ سِـوى التَّعْـوِيْـجِ والنُّقْـصَـانِ

أَفْكَـارُهَـا في المُكْـرِ والـكيـدِ الـذي
قَـدْ حَـارَ فِـيـهِ فِـكْـرَةُ الانـسـانِ

فَـجَـمَـالُـهـا قِـشْـرٌ رَقِـيْـقٌ تَـحْـتَـهُ
مـا شِئْـتَ مِن عَـيْـبٍ ومِـن نُـقْـصَـانِ

نَـقْـدٌ رَديءٌ فَـوْقَـهُ مِـن فِـضَّـةٍ
شـيءٌ يُـظَـنُ بـه مِـن الأَثْـمَـانِ

فـالـنَّـاقِـدُوْنَ يَـرْوَنَ مَـاذَا تَـحْـتَـهُ
والـنـاسُ أَكْـثَـرُهُـم مِن الـعُـمْـيَـانِ

أَمَّا جَمِيْلاَتُ الوُجُوهِ فَخَائِنَا
تُ بُعُولَهِنَّ وَهُنَّ لِلْأَخْدَانِ

والحَافِظَاتُ الغَيْبِ مِنْهُنَّ التِي
قَدْ أَصْبَحَتْ فَرْدَاً مِنَ النِسْوَانِ

فَانْظُرْ مَصَارِعَ مَن يَلِيْكَ وَمَن خَلاَ
مِن قَبْلُ مِن شِيْبٍ ومِن شُبَّانِ

وارْغَبْ بِعَقْلِكَ أن تَبِيْعَ الغَالِي الْـ
بَاقِي بِذَا الأَدْنَى الذِي هُو فَانِي

إِنْ كَانَ قَدْ أَعْيَاكَ خُودٌ مِثْلَ مَا
تَبْغِي وَلَم تَظْفَرْ إِلَى ذَا لآنِ

فَاخْطُبْ مِن الرحمن خُوْداً ثُمَّ قَدْ
دِمْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ

ذَاكَ النِكَاحُ عَلَيْكَ أَيْسَرُ إن يَكُنْ
لَكَ نِسْبَةٌ لِلْعِلْمِ والإِيْمَانِ

واللهِ لم تُخْرَجْ إلى الدُنْيَا لِلَّذْ
ذَةِ عَيْشِهَا أَوْ لِلْحُطَامِ الفَانِي

لَكِنْ خَرَجْتَ لِكَيْ تُعِدَّ الزَاد لِلْـ
أُخْرَى فَجِئْتَ بِأَقْبَحِ الخُسْرَانِ

أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ بَلْ
فَاتَ الذِيْ أَلْهَاكَ عَن ذَا الشَّانِ

وَالـلَّهِ لَـو أَنَّ القُـلُوبَ سَلِيْمَـةٌ
لَـتَقَـطَّعَـتْ أَسـفـاً مِـن الـحِـرْمَـانِ
لكنَّهـا سَكَـرى بِـحُبِ حَـيَـاتِهَـا الـدُ
دُنْـيَـا وَسَـوْفَ تَـفِـيْـقُ بَـعْـدَ زمـانِ

اللهُم ثَبِّتْ مَحَبَّتَك في قُلُوبِنَا ثُبوتَ الجِبَال الرّاسِيَاتِ وَجَنّبْنا الخَطَايَا وَالذّنُوبَ المُوبقَاتِ وَوَفّقْنَا لِلعَمَلِ بالبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وَأَلْهِمْنا ذِكْركَ في جَمِيْعِ الأوْقَاتِ وَزَحْزِحْنا عَنْ النّارِ وَأَدْخِلْنا فَسِيْحَ الجَنَّاتِ يا رَفِيْعَ الدَّرَجَاتِ وَصَلى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَسَلَمَ تَسْلِيْماً كَثِيْراً .

« فَصْـــلٌ »

وَبَعْدَ أَنْ وَصَفَ اللهُ جَلَّ وَعَلا شَرَابَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَآنِيَتَهُ ، وَمَا هُمْ فِيْهِ مِنْ النَّعِيْمِ ، وَصَفَ مَلاَبِسَهُم بِقَوْلِهِ ﴿ عَالِيَهُم ثِيَابُ سُنْدسٍ خُضْرٍ ﴾ وَذكرَ بَعْدَهُ حُلِيَّهُم فقَالَ ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وفي سُوْرَةِ فَاطِر يَقُولُ جُلَّ وَعَلا ﴿ يُحَلّوْنَ فِـيْهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ، وَلِبَاسُهُمْ فِيْهَا حَرِيْرٌ ﴾ .

وَقَالَ في الآيَةِ الأُخْرَى ﴿ إِنَّ المتَّقِيْنَ في مَقَام أَمِيْنٍ ، في جَنَّاتٍ وَعُيونٍ ، يَلبَسُونَ مِنْ سُنْدُس وَاسْتَبْرقٍ مُتَقابلين ، كذلكَ وَزَوَّجْنَاهُم بحُور عِيْن ﴾ الخ وقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِل ﴿ إِنَّ الذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنّا لَا نُضيعُ أَجْرَ مَن أَحْسَنَ عَمَلا ، أُولَئِكَ لَهُم جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِيْ مِن تَحْتِهم الأَنْهَارُ ، يُحَلَّوْنَ فيها من أَسَاوِرَ مِن ذَهَب ، ويَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ واسْتَبْرَقٍ ، مُتّكِئيْنَ فِيْهَـا عَلَى الأَرائِك ، نِعْمَ الثَّوَابُ ،

وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقا ﴾ فَفِي آيَةِ سُوْرَةِ الدُّخَانِ ذكرَ جَلَّ وَعَلاَ مِنْ ضُرُوبِ نَعِيْمِهم خَمْسَةَ أَلْوَانٍ :

١ ـ مَسَاكِنَهم فَقالَ ﴿ في مَقَامٍ أَمِيْنٍ ، في جَنَّاتٍ وعُيُونٍ ﴾ وَالمَسْكَنْ يَطِيْبُ بأمْرَيْنِ .

« أ » أَنْ يَكُونَ السَّاكِنُ فيهِ آمِناً من جَمِيْعِ مَا يَخَافُه وَيَحْذَرُ مِنْهُ ، وَهُوَ المَقَامُ الأمِيْنُ .

«ب» أَنْ يَكُونَ فِيْهِ أَسْبَابُ النُّزْهَةِ مِنْ الجَنَّاتِ وَالعُيُونِ ، وَذلِكَ في قَوْلِهِ ﴿ فِيْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ .

٢ ـ مَلاَبِسَهم وَهِيَ التِيْ ذَكَرَهَا بِقَوْلِهِ ﴿ يَلْبَسُونَ من سُنْدُسٍ واسْتَبْرَقٍ ﴾ .

٣ ـ اسْتِئْنَاسَ بَعْضِهم بِبَعْضٍ ، بِجُلُوسِهم عَلَى جِهَةِ التَّقَابُلِ وَهُوَ ما أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ ﴿ مُتَقَابِلِيْنَ ﴾ .

٤ ـ الأزْوَاجَ وَهُوَ المُشَارُ إلَيْهِ بقَوْلِهِ ﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُوْرٍ عِيْنٍ ﴾ .

٥ ـ المَأْكُولُ كَمَا في قَوْلِهِ ﴿ يَدْعُوْنَ فيهَا بكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِيْنَ ﴾ هَذَا جَزَاءُ المُتَّقِيْنَ لِلّهِ ، الذيْنَ تَجَنَّبُوا مَا يُسْخِطُهُ مِنْ المَعَاصِيْ ، وَفَعلُوا مَا يُرْضِيْهِ منْ الطَّاعَاتِ ، وَبَعْدَ أَنْ وَصَفَ مَا هُمْ فِيْهِ مِنْ نَعِيْمٍ مُقِيْمٍ ، بَيَّنَ أَنَّ حَيَاتَهُم في هَذَا النَّعِيْم مُسْتَمِرَّةٌ دَائِمَةٌ لَا يَلْحَقُها مَوْتٌ وَلاَ فَنَاءٌ ولا انْقِطَاعٌ فقالَ ﴿ لَا يَذوقُونَ فِيْهَا المَوْتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأُوْلَى ، وَوَقَاهُم عذابَ الجَحِيْم ﴾ فَلاَ يَخْشَوْنَ في الجَنَّةِ مَوْتاً وَلاَ فَنَاءً أَبداً ، فَفِيْ الصَّحِيْحَيْنِ أَنَّ

رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسَلم قالَ « يُؤْتَى بالمَوْتِ في صُوْرَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ ، فيُوقَفُ بيْنَ الجَنَّةِ وَالنّارِ ، ثُم يُذبَحُ ثمّ يُقالُ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلوْدٌ فلا مَوْتَ ، ويَا أَهْلَ النَّارِ خلُود فلا مَوْتَ » وَرَوَى أَبو هُرَيْرَةَ وَأَبُو سَعِيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّم قالَ « يُقالُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ إِنَّ لَكُم أَنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أَبَدا وَأَن لكُم أنْ تَعِيْشُوا فلا تَمُوتُوا أَبَدا ، وَإِنَّ لَكُم أنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أَبَدا ، وَإِنَّ لَكُم أنْ تَشُبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدا » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَمَعَ هذا النَّعِيْمِ ، فَقَدْ نَجَّاهُمْ مِنْ عَذَابِ الجَحِيْمِ ، تَفَضُّلًا مِنْهُ وَاحسَانًا ، فاعْطَاهُم مَا يَطْلُبُوْنَ ، وَنَجَّاهُمْ مِمَّا يَرْهَبُونَ وَهَذَا هُوَ الفَلَاحُ وَالفَوْزُ العَظِيْمُ .

قَالَ ابْنُ القَيِّم

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِذَبْحِهِ لِلْمَوتِ بَيْـ
نَ المَنْزِلَيْنِ كَذَبْحِ كَبْشِ الضَّانِ
حَاشَا لِذَا المَلَكِ الكَرِيم وإِنَّمَا
هُوَ مَوْتُنَا المَحْتُومُ لِلإِنْسَانِ
وَاللَّهُ يُنْشِئُ مِنْهُ كَبْشاً أَمْلَحاً
يَومَ المَعَادِ يُرَى لَنَا بِعِيَانِ

وَقَالَ رَحِمَهُ اللّهُ :

هَذَا وَخَاتِمَةُ النَّعِيْمِ خُلُودُهُم
أَبَداً بِدَارِ الأَمْنِ وَالرِّضْوَانِ

أو مـا سَـمِـعْـتَ مُـنَـادِيَ الايـمـانِ
يُـخْبِـرُ عَـنْ مُنَـادِيـهم بِـحُـسْـنِ بَـيَـانِ
لَـكُـمُ حَـيـاةٌ مَـا بِـهَـا مَـوتٌ وعـا
فِـيَـةٌ بِـلا سُـقْـمٍ ولا أَحْـزَانِ
وَلَـكُـمْ نَـعِـيْـمٌ مـا بـه بُـؤْسٌ وَمَـا
لِـشَـبَـابِـكُـم هَـرَمٌ مَـدَى الأَزْمَـانِ
كَـلَّا ولا نَـومٌ هُـنَـاكَ يَـكُـونُ ذا
نَـوْمٌ ومَـوْتٌ بَـيْـنَـنَـا أَخَـوانِ
هَـذَا عَـلِمْنَـاهُ اضْـطِرَاراً مِـن كِـتَـا
بِ اللهِ فـافْـهَـمْ مُـقْـتَـضَـى الـقُـرآنِ

وَنَعُودُ إِلَى لِبَاسِ أَهْلِ الجَنَّةِ والكلامِ عَلَيْهِ .

فلِبَاسُ أَهْلِ الجَنَّةِ في الجَنَّةِ الحَرِيْرُ ، وَمِنْهُ سُنْدُسٌ ، وَهُوَ رَفِيْعُ الدِّيْبَاجِ ، لِلْقُمْصَانِ وَالغَلائِل ، وَنَحْوِهَا مِمَّا يَلِي أَبْدَانَهُم ، والاسْتَبْرَقُ هُوَ غَلِيْظُ الدّيْبَاجُ لاَمِعُهُ ، مِمَّا يلي الظَّاهِرَ ، كَمَا هُوَ المَعْهُودُ في لِبَاسِ الدنْيَا ، وَأَمَّا الحُلِيّ فَقِيْلَ إِنَّ صِفَةَ حُلِيّ الأَبْرَارِ أَنَّهُ مِنْ فِضَّةٍ وَصِفَةُ حُلِيّ المُقَرَّبِيْنَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَقِيْلَ لِأَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَلْبَسُونَ هَذَا تَارَةً والآخرَ تَارَةً ، وقَدْ يَجْمَعُوْنَ بَيْنَهُمَا واللهُ أَعْلَمُ .

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ ذَكَرَ جَلَّ وعَلَا وَتَقَدَّسَ أَنَّهُم يُسْقَوْنَ شَرَاباً آخرَ طَهُوراً قِيْلَ طَاهِرٌ مِن الأَقْذَارِ والأَقذاءِ ، لَمْ تُدَنِّسْهُ الأَيْدِيْ والأَرْجُلُ ، كَخَمْرِ الدنيا وَقِيْلَ إِنَّه لا يَصِيْرُ بَوْلاً نَجساً وَلَكِنَّهُ يَصِيْرُ في أَبْدَانِهِم كَرِيْحِ المِسْكِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُم يُؤْتَوْنَ بالطَّعَامِ فَيَأْكُلونَ ، فإذا كَانَ آخِرُ ذلك أُتُوا بالشَّرَابِ الطَّهُورِ فَيَشْرَبُونَ ،

قالَ ابْنُ القيّم رَحِمَهُ اللّهُ :

وَلَــقَــدْ رَوَيْـنَــا أَنَّ شُــغْــلَهُــم الــذِي
قَــدْ جَــاءَ فِــي يس دُوْنَ بَــيَــانِ
شُغْـلُ العَـرُوسِ بعِـرسِـهِ مِن بَعـدِمَـا
عَــبِـثَــتْ بــه الأشْــوَاقُ طُــوْلَ زَمَــانِ
بــالــلـهِ لا تَــسْــأَلْــهُ عَــنْ أَشْــغَــالِــهِ
تِــلكَ الــلَّيــالِــيْ شَــأنُــه ذُو شَــانِ
وَاضْــرِبْ لَهُم مَثَــلاً بصَــبٍ غَــابَ عن
مَــحْـبُــوبِــهِ فــي شَــاسِــعِ الــبُــلْدَانِ
والــشَّــوْقُ يُــزْعِــجُــهُ إِلــيــهِ وَمَــالَــهُ
بــلِقَــائِــهِ سَــبَــبٌ مِــن الإمْــكَــانِ
وَافَــي إِلــيــهِ بَــعــدَ طُــولِ مَــغِــيْــبِــهِ
عــنــه وَصَــارَ الــوَصْــلُ ذَا إِمْــكَــانِ
أَتَــلُومُــه أَنْ صَــارَ ذا شُــغْــل بِــهِ
لا والــذِي أَعْــطَى بــلا حُــسْــبَــانِ
يــا ربُّ غَــفْــراً قــد طَــغَــتْ أَقْلاَمُنَــا
يــا ربُّ مَــعْــذِرَةً مِــن الــطُّغْــيَــانِ

واللهُ أَعْلَمُ وَصلى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَتَـطْهُرُ بُطُوْنُهم ، وَيَصِيْرُ مَا أكلُوا رَشْحاً ، يَخْرُجُ مِن جُلُودِهم أَطْيَبَ مِنْ المِسْكِ الأَذْفَرِ ، وَتَضْمُرُ بُطُونُهم ، وَتَعُودُ شَهْوَتُهم ، وَقَالَ مُقاتِلُ : هُوَ عَيْنُ مَاءٍ عَلَى بَابِ الجَنَّةِ ، مَنْ شَرِبَ منها نَزَعَ اللهُ ما في قلْبِه مِنْ غِلّ وَغِشّ وَحَسَدٍ ، وعَنْ أَمِيرِ المؤ مِنِيْنَ عَليّ بْنِ أبي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنْهُ أَنَّهُ قَالَ : إذَا انْتَهى أَهْلُ الجنَّةِ إلَى باب الجَنَّةِ وَجَدُوا هُنَالِكَ عَيْنَيْنِ ، فَكَأَنَّمَا أُلْهِمُوا ذَلِكَ ، فَشَرِبُوا مِنْ إِحْدَاهُمَا ، فَأَذْهَبَ اللهُ مَا فِي بُطُونِهم مِنْ أَذَى ، ثُمَّ اغْتَسَلُوا مِنْ الأُخْرَى ، فَجَرَتْ عَلَيهم نَضْرَةُ النَّعِيْم ، فأخبرَ سُبْحَـانَهُ وَتَعَالَى بِحَالِهم الظَّاهِرُ ، وَجَمَالِهم البَاطِن ، وَقَالَ تعَالَى ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ في شُغُل فاكِهُونَ ، هُمْ وَأَزْوَاجُهم في ظِلالٍ على الأرائِك مُتّكِئُونَ ، لَهُم فِيْهَا فاكِهَةٌ ، وَلَهُم مَا يَدَّعُونَ سَلاَمٌ قَوْلًا مِـنْ رَبّ رَحِيْم ﴾ في هَذِه الآياتِ يُخْبِرُ جَلَّ وَعَـلا عَن أَهْلِ الجَنَّةِ ، أَنَّهم يَوْمَ القِيَامَةِ اذا ارْتَحلُوا مِن العَرَصَاتِ ، فنزَلُوا في رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ ، أَنَهُم في شُغُلٍ مُفَكّهٍ لِلنَّفْس ، مُلذٍ لَهَا ، مِنْ كُلّ ما تَهْوَاهُ النُّفُوسُ ، وتَلَذهُ العُيونُ ، قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيّ وَاسْمَاعِيْلُ بْنُ خالِد : في شُغُلٍ عَمّا فيهِ أَهْلُ النّارِ من العَذَابِ ، وَقَالَ ابنُ مَسْعُودٍ وابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيْدُ بْنُ المَسيّبِ وَعِكْرِمَةُ وَالحسَنُ وَقتادَة والأَعْمَشُ وسُليْمَانُ التّيمِيّ والاوْزَاعِيّ شَغَلَهُم إفْتِضَاضُ الأبكارِ .

والخُلاصَةُ أَنّ مَن يَدْخُلُ الجَنَّةَ يَتمتّعُ بنَعِيْمِهَا وَلَّذاتِهَا ، وَيَكُونُ بذلكَ في شُغُلٍ عَمَّا سِوَاهُ ، إِذْ يَرَى مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ ، فَأَنَى لَهُ أَنْ يُفكّر فيْمَا سِوَاهُ وَهُو بذلكَ فَرِحٌ مُسْتَبْشِرٌ ، ضَحُوكُ السِّنّ ، هَادِيءُ البَالِ ، لا يَرى شَيْئاً يَغُمُّهُ ، أَو يُنَغّصُ عليهِ حُبُورَهُ وَسُرُورَهُ ،

« فَصْــلُ »

قَالَ تَعَالَى ﴿ يَا عِبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ، وَلَا أَنْتُم تَحْزَنُونَ ، الذين آمَنُوا بآيَاتِنا ، وَكانُوا مُسْلِمِيْنَ ، ادْخُلُوا الجَنَّةَ أنتم وَأَزْوَاجُكم تُحْبَرُون ، يُطَافُ عليهم بصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وفيها مَا تَشْتَهِيْهِ الأنفُسُ ، وَتَلَذُّ الاعْيُنُ ، وأنتُمْ فيْهَا خالِدُونَ ، وَتلكَ الجَنَّة التِي أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتَم تَعْمَلُونَ. لكُم فيها فاكِهَة كثِيْرَةٌ ، مِنْهَا تَأْكُلُون ﴾ يَذكرُ جَلَّ وَعَلا مَا يَتلَقَّى بِهِ عِبَادَه المؤمنِينَ ، المُتَحَابِّيْنَ فيهِ ، تَشْرِيْفاً لهُم وَتكْرِيْماً ، وَتَسْكِيْناً لِرَوْعِهِم ، مِمَّا يَكُونُ في ذَلِكَ اليَــوم مِنْ الأَهْوَالِ وَالكُرُوْبِ والشَّدَائِد ، فقالَ ﴿ يا عِبَادِي ﴾ الآية ثم بيّن مَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا النِّدَا فقالَ ﴿ الذِيْنَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وكانُوا مُسْلِمِيْنَ ﴾ فَعِنْدَمَا يَسْمَعُ النَّاسُ المُنَادِي يُنَادِيْ بالآيَةِ الأُولَى ، وَهِيَ قَوْلُهُ ﴿ يا عِبَادِي لا خَوْفٌ عليكُم اليَوْمَ ، وَلاَ أَنْتُم تَحزَنُونَ ﴾ يَرْجُوهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ فإِذا سَمِعُوا الآيَةَ التِي تَلِيْها يَئِسَ النَّاسُ منها غَيْرُ المؤمِنِينَ ثم ذَكَرَ ما يُقالُ لهُم على سَبِيْلِ البُشْرَى ﴿ ادْخُلوا الجَنّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكم تُحْبَرُون ﴾ وبعدَ ذَلِكَ ذَكرَ طَرَفاً مِمَّا يَتَنَعَّمُونَ بهِ منْ النَّعِيْم ، فقَالَ ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أي وَبَعْدَ أَنْ يَسْتَقِرُّوا بالجَنَّةِ ، وَيَهْدَأُ رَوْعُهم ، تَدُوْرُ عليهم خُدَّامُهم مِنْ الوِلْدَانِ المُخَلّدِيْنَ ، بِصِحَافٍ مِنْ الذَّهَبِ ، مُتْرَعَةٌ بأَلْوَانِ الأَطْعِمَةِ ، وَبِأَكْوَابٍ فِيْهَا أَصْنَافُ الشَّرَابِ ، مِمَّا لَذَّ وَطَابَ .

وَعَنْ أَنَسٍ قالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُعْجِبُهُ الرُّؤْيَا ، فَرُبَّما رَأَى الرَّجُلُ الرُّؤْيَا ، فيَسْأَلُ عَنْهُ إذا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهْ ، فإذا أُثْنِيَ عَلَيْهِ مَعْرُوفٌ كانَ أَعْجَبَ لِرُؤْيَاهُ إِلَيْهِ ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْتُ

كأنِّي أُتِيْتُ ، فأخرجْتُ مِنْ المَدِيْنَةِ ، فَأُدْخِلْتُ الجَنّةَ ، فسَمِعْتُ وَجْبَةً ، انْفَتَحتْ لَهَا الجَنةُ ، فَنظَرْتُ فإذا فلانٌ وَفلانٌ وفُلانٌ ، فَسَمَّتْ اثْنَى عَشَرَ رَجُلاً كَانَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وَسَلَم قَدْ بَعَثَهُم في سَرِيَّةٍ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَجِيْءَ بِهِم ، عليْهم ثِيَابٌ طُلْسٌ ، تَشْخَبُ أوْداجُهُم، فَقِيْلَ اذْهَبُوا بِهم إِلى نَهْرِ البَيْذخِ ، فَغُمِسُوا فِيْهِ ، فخَرجُوا وَوُجُوهُهم كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ، فَأُتُوا بِصَحْفَةٍ من ذَهَبٍ ، فِيْهَا بُسْرٌ ، فَأَكَلُوا مِنْ ذَلِكَ البُسْرِ مَا شَاؤُا ، فَمَا يَقْلِبُونَها مِن وَجْهٍ إِلاَّ أَكَلُوا مِنْ الفاكِهَةِ مَا أَرَادُوا ، وَأَكَلْتُ مَعَهُم ، فَجَاءَ البَشِيْرُ مِنْ تِلْكَ السَّرِيّةِ ، فقالَ أَصِيْبَ فلانٌ وَفُلانٌ ، حتى عَدَّ اثْنَى عَشَرَ رَجُلاً ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم المرْأَةَ ، فقال قُصِّيْ رُؤْيَاكِ ، فَقَصَّتْهَا وَجَعَلتْ تَقُولُ جِيْءَ بِفُلانٍ وَفُلانٍ ، كَمَا قالَ ، رَواهُ الامَامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِه بِنَحْوِهِ ، واسْنَادُه عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ .

وَبَعْدَ هَذَا التَّفْصِيْلِ لِبَعْضِ مَا في الجَنَّةِ من نَعِيْمٍ ، عَمَّمْ في ذَلِكَ فَقَالَ ﴿ وَفِيْهَا مَا تَشْتَهِيْهِ الأَنْفُسُ ، وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ، وَأَنْتُم فِيْهَا خَالِدُوْنَ ﴾ فَفِيْهَا مَا تَشْتَهِيْهِ أَنْفُسُ أَهْلِهَا مِنْ صُنُوفِ الأَطْعِمَةِ وَالاشْرِبَةِ والأَلْبِسَةِ ، والأَشْيَاءِ المَعْقُولَةِ وَالمَسْمُوعَةِ ، وَنَحْوِهَا مِمّا تَطْلُبُهُ النُّفُوسُ وَتَهْوَاهُ ، كائِناً مَا كَانَ .

وَقَالَ تَعالَى ﴿ إِنَّ لِلمُتَّقِيْنَ مَفازاً ، حَدَائِقَ وَأَعْنَابا ، وَكَواعِبَ أَتْرَابا ، وَكَأْساً دِهَاقَا ﴾ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ جَلَّ وَعَلاَ حَالَ المُجْرِمِيْنَ المكَذِّبِيْنَ الطَّاغِيْنَ ، أَعْقَبَهُ بِمَآلِ المتَّقِيْنَ ، وَمَا يَفُوزُوْنَ بِهِ مِنْ الجَنَّاتِ التِيْ وَصَفَهَا ، وَوَصَفَ مَا فِيْهَا ، وَذَكَرَ أَنَّهَا عَطَاءٌ مِنْهُ ، فَفِي ذِكْرِهَا اسْتِنْهَاظٌ ، وَحَثٌّ لِعَوالِيْ الهِمَمْ ، بِدَعْوَتِهم إِلَى المُثابَرَةِ على الطَّاعَاتِ والازْدِيَادِ مِنْهَا ، وفي تذكُّرِ مَا في هَذَا المَفَازِ والمَنْجَى البَعِيْدِ عَنْ النَّارِ ،

والزَّوْجَاتِ الكَوَاعِبِ ، اللاتِيْ عَلَى سِنٍّ وَاحِدٍ مُتقَارِبٍ ، ما يَمْنَعُ ذا اللبِّ مِنْ الانهِمَاكِ في الدُّنْيَا وَلذاتِها ، وَقَتْلِ الأَوْقَاتِ في طَلَبِهَا وَتَحْصِيْلِهَا .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فَصْلٌ فِيْمَا أَعَدَّ اللهُ لأَوْلِيَائِهِ المُتَمَسِّكِيْنَ بالكِتَابِ والسُّنَّةِ .

يَـا خَـاطِبَ الحُـورِ الحِسَـانِ وَطَـالبـاً
لِـوِصَـالِـهِـنْ بِـجَـنَّـةِ الـحَـيَـوانِ
لَـو كُـنْتَ تَـدْرِي مَن خَطَبْتَ وَمَن طَلَبْـ
ـتَ بَـذَلْتَ ما تَحْـوِي مِنَ الأَثْمَـانِ
أَوْ كُـنْتَ تَـدْرِي أَيْـنَ مَسْكَنُهَـا جَعَلْـ
ـتَ السَّعْيَ مِنْـكَ لَهَـا عَلَى الأَجْفَـانِ
وَلَقَـدْ وَصَفْتُ طَـرِيْقَ مَسْكَـنِهَـا فـإنْ
رُمْـتَ الـوِصَـالَ فـلا تَكُـنْ بـالـوَانِـي
أَسْـرِعْ وَحُـثَّ السَيْـرَ جَـهْـدَكَ إنَّـمَـا
مَـسْـرَاكَ هَـذَا سَـاعَـةً لِـزَمَـانِ
فـاعْشِقْ وَحَـدِّثْ بـالـوِصَـالِ النَّفْسَ وَابْـ
ـذِلْ مَـهْـرَهَـا مَـا دُمْـتَ ذا إمْـكَـانِ
واجْعَـلْ صِيَـامَـكَ قَبْـلَ لُقْيَـاهَـا وَيَـوْ
مَ الـوَصْـلِ يَـوْمَ الفِـطْرِ مِن رَمَضَـانِ
واجْعَـلْ نُعُـوتَ جَمَـالِهَـا الحَـادِي وسِـرْ
تَـلْقَـى الـمَـخَـاوُفَ وَهِـيَ ذَاتُ أَمَـانِ

لاَ يُـلْهِيَـنَّـكَ مَنْـزِلٌ لَـعِـبَـتْ بِـهِ
أَيْـدِي الـبِـلاَ مِن سَـالِـفِ الأَزْمَـانِ

فَـلَقَـد تَـرَحَّـلَ عَنـه كُـلُّ مُـسَـرَّةٍ
وَتَـبَـدَلَـتْ بـالـهَـمِّ والأَحْـزَانِ

سِجْنٌ يَضِيْقُ بِصَـاحِبِ الإِيمـانِ لا
كِـنْ جَـنـةُ المَـأْوَى لِـذِي الكُـفْـرانِ

سُكَّـانُهـا أَهْـلُ الـجَـهَـالَـةِ والـبَـطَا
لَـةِ والـسَّـفَـاهَـةِ أَنْـجَسُ الـسُّـكَـانِ

وَأَلَـذُّهُـم عَـيْـشـاً فَـأَجْـهَـلُهُـم بِـحَـ
ـقِ الـلهِ ثـم حَـقَـائِـقِ الـقُـرآنِ

عَمْـرتْ بِهِم هَـذِي الـدِيـارُ وَأَقْفَـرَتْ
مِـنـهـم رُبُـوعُ الـعِـلْمِ والايـمـانِ

قَـد آثَـرُوا الـدُنْـيـا ولَـذَةَ عَيْـشِـهَـا الْـ
فَـانِـي علـى الـجنـاتِ والـرِضـوانِ

صَـحِبُـوا الأمـانِـيَ وابْتُـلُوا بحُـظُـوظِـهِم
وَرَضُـوْا بِـكُـلِ مَـذَلَّـةٍ وَهَـوانِ

كَـدْحـاً وَكَـداً لا يُـفَـتَّـرُ عَـنْـهُـم
مـا فـيـه مِـن غَـمٍّ ومِـن أَحْـزَانِ

والله لَـو شَـاهَـدتَ هَـاتِيْـكَ الصُـدُو
رِ رَأَيْـتَـهَـا كَـمُـراجِلِ الـنِـيْـرَانِ

وَوَقُـودُهَـا الشَّهَـواتُ والـحَسَـراتُ والْآ
لامُ لا تَـخْـبُـو مَـدَى الأزْمَـانِ

أَبْـدَانُـهـم أَجْـدَاثُ هَـاتِيْـكَ النُـفُـو
سِ الـلآءِ قَـد قُـبِـرتْ مَـعَ الأَبْـدَانِ

أَرْوَاحُـهُـمْ في وَحْشَـةٍ وَجُـسُـوْمُـهُـم
في كَـدْحِهَـا لا في رِضَـا الـرحمنِ

هَـرَبُـوا مِن الـرِّقِ الـذي خُلِقُـوا لَـهُ
فَـبُـلُوا بِـرِقِّ الـنَّـفْسِ والـشَّـيْـطَانِ

لا تَـرْضَ مـا اخْتَـارُوا هُمُ لِنُفُـوسِـهِم
فَـقَـدِ ارْتَـضُـوا بـالـذِلِ والـحِـرمـانِ

لَـوْ سَـاوَتْ الـدنيـا جَنَـاحَ بَعُـوضَـةٍ
لـم يَسْقِ منـهـا الـربُّ ذَا الكُـفْـرَانِ

لَـكِـنَّـهَـا والـلهِ أَحْـقَـرُ عِـنْـدَهُ
مِـن ذَا الجَـنَـاحِ القَـاصِـرِ الـطَّيَـرَانِ

ولـقـد تَـولَّتْ بَعْـدُ عن أصْحَـابِـهـا
فـالـسَّعْـدُ منـهـا حَـلَّ بـالـدَّبَـرانِ

لا يُـرتـجى منهـا الـوَفَـاءُ لِصَبِـهَـا
أيْـنَ الـوَفَـا مِـن غَـادِرٍ خَـوَّانِ

طُبِعَتْ على كَـدْرٍ فَكَيـفَ يَنَـالُـهَـا
صَـفْـوٌ أَهَـذَا قَطُّ فـي إمـكَـانِ

يـا عـاشِـقَ الـدُنْيـا تَـأَهَّبْ لِـلَّذِي
قَـد نَـالَـه الـعُـشَـاقُ كُـلَّ زَمَـانِ
أَوْ مَـا سَمِعْتَ بَـل رَأَيْتَ مَـصَـارِع الْـ
ـعُـشَّـاق مِن شَـيْـبٍ ومِـن شُـبَّـانِ

اللهُمَّ إِلَيْكَ بِدُعَائِنَا تَوَجَّهْنَا وَبِفِنَائِكَ أَنَخْنَا وَإيَّاكَ أَمَّلْنَا ولما عِنْدَكَ مِنْ الجُودِ والاحْـسانِ طلبْنَا وَلِرَحْمَتِكَ رَجَوْنَا وَمِنْ عَذَابِكَ أَشْفَقْنَا وَلِعَفْوكَ وَغُفْرَانِكَ تَعَرَّضْنَا فَاعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْـلٌ »

قَـالَ الـلهُ تَـعَـالَـى ﴿ جَـنَّـاتُ عَـدْنٍ الـتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بالغَيْبِ أَنَّهُ كَانَ وَعْدُه مَأْتِيًا ، لا يَسْمَعُونَ فِيْهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً ، ولَهُم رِزْقُهُم فِيْهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، تِلْكَ الجَنَّةُ التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ﴾ لما ذكرَ تَعالَى أَنَّهُ يُدْخِلُ التَّائِبِيْنَ الجنَّةَ ، وَصَفَ هَذِهِ الجَنَّةَ بِجُمْلَةِ أَوْصَافٍ (أَوَّلا) أَخْبَرَ أَنَّها جَنَّاتُ إِقَامَةٍ دَائِمَةٍ ، لَا كَجَنَّاتِ الدّنْيَا ، وَقَدْ وَعَدَ بِهَا المُتّقِيْنَ ، وَهِيَ غَائِبَة لَمْ يُشَاهِدُوهَا ، وَوَعْدُ اللهِ حَقٌّ لَا يُخْلَفُ ، فَهُمْ آتُوهَا لا مَحالَة ، (ثانيا) أَنَّهُم لا يَسْمَعُونَ فِيْهَا كلاماً سَاقِطاً تافِهاً لا مَعْنَى لَهُ ، كَمَا يُوْجَدُ في الدّنْيَا ، بَلْ يَسْمَعُونَ فِيْهَا سَلاماً ، وَالسَّلَامُ اسْمٌ جَامِعٌ لِلخَيْرِ ، لأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ السَّلامَة (ثالثاً) أنَّ لَهُم ما يَشْتَهُونَ مِنْ المَطَاعِمِ والمَشَارِبِ ، في قَدْرِ وَقْتِ البُكْرَةِ وَوقْتِ العَشِيّ مِنْ نَهَارِ أَيَّام الدّنْيَا ، أَيْ إِنَّ الذِي بَيْنَ غَدَائِهِم وَعَشائِهِم في الجَنّةِ قَدْرَ مَا بَيْنَ غَدَاءِ أَحَدِنا في الدنيا وَعَشَائِهِ .

وَلَمَّا ذَكَرَ جَلَّ وعَلا وَتَقَدَّسَ أَنَّ هَذِهِ الجَنَّةَ تُخَالِفُ جَنَّاتِ الدُّنْيَا ذكرَ مَا هُو سَبَبُ اسْتِحْقَاقِهَا فقالَ ﴿ تِلْكَ الجَنَّةُ التي نُوْرِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كانَ تَقِيًّا ﴾ المَعْنَى : هَذِهِ الجَنَّةُ التِي وُصِفَتْ بِهَذِهِ الصِّفاتِ الشَّرِيْفَةِ ، نُوْرِثُهَا عِبَادَنا المتَّقِيْنَ الذِيْنَ يُطِيْعُوْنَ اللهَ في السِّرِّ والعَلنِ ، وَمَعْنَى إِيْرَاثِهِمُ الجَنَةَ الإِنْعَامُ عَلَيْهِمْ بالخُلُودِ فِيْهَا في أَكْمَلِ نَعِيْمٍ ، وَقِيْلَ نَجْعَلُها لهُم كَمُلْكِ المِيْرَاثِ الذِي هُوَ أَقْوَى تَمْلِيْكٍ ، بِأَنْ نُبْقِي عَلَيْهِ الجَنَّةَ ، كَمَا نُبْقِيْ عَلَى الوَارِثِ مَالَ المُورِّثِ ، وَلأَنَّ الأَتْقِيَاءَ يَلْقَوْنَ رَبَّهمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وقد انْقَضَتْ أَعْمَالُهم ، وَثَمرَتُها بَاقِيَةٌ وهي الجَنَّةُ ، فإذا أَدْخَلَهُم الجَنَّةَ فقَدْ أَوْرَثَهُم مِنْ تَقْوَاهُم ، كَمَا يُوْرَّثُ الوَارِثُ مِنْ المتوفَّى المالَ الذِي خَلَّفَهُ .

وَجَاءَ بِمَعْنَى الآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ قَد أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ ، الذِيْنَ هُم في صَلاَتِهِم خاشِعُونَ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿ أُوْلئِكَ هُمْ الوَارِثُونَ ، الذِيْن يَرِثُون الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَالذِيْنَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ ، خَالِدِيْنَ فِيْهَا أبداً لَهُم فِيْهَا أَزْوَاجٌ مُطَهرَةٌ ، وَنُدْخِلُهم ظِلاّ ظَلِيْلا ﴾ ، وَقَالَ ﴿ جَنَّات عَدْنٍ مُفَتَّحَة لَهُمْ الأَبْوَابُ ، مُتَّكِئِيْن فِيْهَا ، يَدْعُونَ فِيْهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيْرَةٍ وشرَابٍ وَعِنْدَهُم قاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ، هَذَا مَا تُوعَدُون لِيَوم الحِسَابِ ، إِنَّ هَذَا لرزْقُنَا مَالَه مِنْ نَفَادٍ ﴾ وقَالَ ﴿ أُولَئِكَ لَهُم جَنَّاتُ عَدْنٍ ، تَجْرِيْ مِن تَحْتِهم الأَنْهَارُ ، يُحلونَ فِيْهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدسٍ وَاسْتَبْرَقٍ ، مُتَّكِئِيْنَ فِيْهَا عَلى الأَرائِك ، نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنتْ مُرْتَفَقاً ﴾ وقَالَ تَعالَى ﴿وَالذِيْنَ صَبَرُوْا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهم ، وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً ، وَيَدْرَؤُونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ ، أوْلئك

لَهُم عُقْبَى الدَّار ، جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، وَمَنْ صَلحَ مِنْ آبَائِهم وَأزوَاجِهم وَذُرِّياتِهِمْ ، وَالملائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ إلى غَيْر ذَلكَ مِنْ الآيَاتِ المُنوهَةِ بذِكرِهم وَشَرَفِهم وَعِظَم جَزَائِهم فَنَكْتَفِيْ بالآياتِ التِيْ ذَكَرْنَا ، وَمَا أَوْضَحْنَاهُ مِنْ مَعَانِيْ الآيَاتِ السَّابِقَاتِ نَسْأَلُ اللهَ الحَيَّ القَيُّومَ ، ذا الجَلاَلِ والاكْرَام ، بَدِيْعَ السَّمَوَاتِ والأَرْض ، الوَاحِدَ الأَحَد ، الفَرْدَ الصَّمَدْ ، الذِي ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْواً أَحَدٌ ﴾ أنْ يَنْفَعَ بِهَا إِنَّهُ القَادِرُ على ذَلِكَ .

وَأَمَّا الأَحَادِيْثُ الوَارِدَةُ في الجَنَّةِ ، فمِنْهَا مَا وَرَدَ عَن أبي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ قَالَ « قَالَ اللهُ تَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيْ الصَّالِحِيْنَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُن سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » وَاقرَؤُا إنْ شِئْتُم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزَاءً بمَا كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وَعَنْهُ قَال قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُوْرَةِ القَمر لَيْلَةَ البَدْرِ ، ثُمَّ الذِيْنَ يَلُونَهُم عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ في السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتْفِلُونَ وَلَا يَمْتَخِطُون ، أَمْشَاطهُم الذَهَبُ ، ورَشْحُهم المِسْكُ ، وَمَجَامِرُهم الأَلوَّةُ ، أَزْوَاجُهم الحُوْرُ العِيْنُ ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، عَلى صُوْرَةِ أَبِيْهِم آدَمُ ، سِتُّوْنَ ذِرَاعاً في السَّمَاءِ » مُتَّفقٌ عليْهِ . قَالَ ابْنُ القَيِّمِ . . .

هـذا وسِنُّهُـم ثـلاثُ مَـعَ ثَـلَا
ثِـينَ الّـتـي هِـيَ قُـوَّةُ الـشُـبَّـانِ
وَصَـغِـيْـرُهُـم وَكَـبِـيْـرُهُـم فـي ذا عَـلَى
حَـدٍ سَـوَاءٌ مَـا سِـوَى الـوِلْـدَانِ

ولقد رَوَى الخُضَرِيُ أيْضاً أنَّهم
أبْنَاءُ عَشْرٍ بَعْدَهَا عَشْرَانِ
وكِلاهُمَا في الترمِذِي وَلَيس ذا
بِتَنَاقُضٍ بل هَا هُنَا أمْرَانِ
حَذْفُ الثَّلاثِ ونيِّفٌ بَعْدَ العُقُوْ
دِ وَذِكْرَ ذلكَ عِنْدَهُمُ سِيَّانِ
عِنْدَ اتِّسَاعٍ في الكَلامِ وعندَمَا
يَأتُوا بِتَحْرِيْرٍ فبِالمِيْزَانِ
والطُّوْلُ طُوْلُ أبِيْهِم سِتُونَ لا
كِنْ عَرْضُهم سَبْعٌ بلا نُقْصَان
الطُوْلُ صَحَّ بِغَيرِ شَكٍّ في الصَّحِيْحَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا لَنَا شَمْسَان
والعَرْضُ لم نَعْرِفْهُ في إحْدَاهُمَا
لَكِنْ رَوَاهُ أحْمَدُ الشَّيْبَانِي
هذا ولا يَخْفي التَنَاسُبُ بَيْنَ هَذَا العَرْضِ والطُولِ البَدِيْعِ الشَّانِ
كُلٌّ على مِقْدَارِ صَاحِبِهِ وَذَا
تَقْدِيْرُ مُتْقِنِ صَنْعَةِ الإنْسَانِ
هذا كمالُ الحُسْنِ في أبْشَارِهِم
وشُعُورِهِم وَكَذلِكَ العَيْنَانِ
ألْوَانُهُم بِيْضٌ وَلَيسَ لَهُم لُحَى
جُعْدُ السُعُور مُكَحَّلُوا الأجْفَانِ

اللهُمَّ اسْلُكْ بِنَا سَبِيْلَ النَّجاةِ ، وَبَلِّغْ كلامنَا مَا أَمَّلَهُ ورجَاهُ وَاجْعَل لَنَا عِنْدَكَ أَعْظَم قَدْرٍ وَجَاهْ ، وَلا تَحْرِمْنَا من فَضْلِكَ العَظِيْمِ يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِيْنَ ،

وَارْحَمِ الرَّاحِمِيْنَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْــلٌ »

في بَيانِ أدنَى أهلِ الجنةِ منزلةً

عن المغيرَةِ بن شُعْبَةَ رَضِيَ اللهُ عنه ، عن النبي صلى اللهُ عليهِ وَسَلم ، أنْ مُوسَى عليهِ السَّلامُ سَألَ ربَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الجَنّةِ مَنْزِلةً ؟ فقَالَ « رَجُلٌ يَجِيْءُ بَعْدَ ما دَخلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، فَيُقَالُ لَهُ : ادْخُلْ الجَنّة ، فَيقولُ : ربِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُم ؟ وَأَخذُوا أُخْذَاتِهم ، فَيُقالُ لَهُ : أَتَرْضَى أنْ يَكُونَ لَكَ مثلَ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيْتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ لَهُ : لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ ومــثْلُهُ ، فقَالَ في الخَامِسَةِ : رَضِيْتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : هذَا لَكَ وعَشَرةُ أمثَالِهِ ، وَلَكَ ما اشْتَهَت نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ ، فَيَقُولُ : رَضِيْتُ رَبِّ ، قَالَ : رَبِّ فَأعْلاهُم مَنْزِلَةً ؟ قَالَ إوْلَئِكَ الذين أَرَدْتُ ، غَرسَ كَرامَتِهم بيَدِيْ ، وَختمْتُ عَلَيْهَا ، فلمْ ترَ عينٌ ، ولم تَسْمَعْ أُذنٌ ، ولم يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضْيَ اللهُ عنه ، قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ « انِّيْ لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوْجاً مِنْهَا ، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُوْلاً الجَنَّةَ ، رَجُلاً يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْواً ، فيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَهُ : اذْهَبْ فادْخُلِ الجَنَّة ، فَيَأْتِيْهَا فيُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّها مَلأى ، فيَقُولُ : يَا رَبِّ وَجدْتُها مَلأى ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إذْهَبْ فادْخُلْ الجَنَّة ، فَيأْتِيْها فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّها مَلأى ، فَيرجعُ فيَقُولُ : يا ربِّ وَجَدْتُهَا

مَلأى ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إذهَبْ فادْخُلْ الجَنَّةَ ، فانَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيا وَعشَرَةَ أَمّثَالِهَا ، فيَقُوْلُ أَتَسْخَرُ بي ، أو تَضْحكُ بِيْ وَأَنْتَ المَلِكُ » قالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، فَكَانَ يَقُولُ : « ذَلِكَ أَدْنى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ أَبِيْ مُوْسَى رَضْيَ اللهُ عنهُ أَنَّ النبي ﷺ قالَ « إنّ لِلْمُؤ مِن في الجَنَّةِ لَخَيْمَةٌ مِن لُؤ لؤ ةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُوْلُهَا في السَّمَاءِ سِتُّوْنَ مِيْلاً ، لِلْمُؤْمِن فِيْهَا أَهْلُونَ ، يَطُوفُ عَليْهِم المُؤْمِنُ ، فَلاَ يَرَى بَعْضُهُم بَعْضَا » مُتَّفَقٌ عليه المِيْلُ سِتَّةُ آلافِ ذِرَاع وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عنه عن النبي ﷺ قالَ « والذِي نفْسُ مُحَمّدٍ بيَدِهِ إنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيْعِ الجَنَّة لكمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ » متّفقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ أبي سَعِيْدٍ الخُدْرِيّ رضْيَ اللهُ عنه ، عَنِ النَّبِيَّ ﷺ قالَ « إنَّ في الجَنةِ شَجَرَةٌ يَسِيْرُ الرَّاكِبُ الجَوَادُ المُضَمَّرُ السَّرِيْعُ مَائةَ سَنة مَا يَقْطَعُهَا » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ وَعَنْـهُ عَنْ النبي ﷺ قَال «انَّ أَهْلَ الجَنَّة لَيَتَرَاءَوْنَ أهْلَ الغُرَفِ مِن فَوْقِهم كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ في الأُفُقِ مِنْ المشْرِقِ أَوِ المغْربَ ، لِتَفَاضُلِ مَابَيْنَهم» قالُوا : يَا رَسُوْلَ اللهِ تِلكَ مَنَازِلُ الانْبِيَاءِ ، لاَ يَبْلُغُها غَيْرُهُمْ ، قَالَ « بَلَى وَالذِي نَفْسِيْ بيَدِه ، رِجَالٌ آمَنُوا باللهِ وَصَدَّقُوا المرسَلِيْنَ » مُتّفقٌ عَلَيهِ ، وعن أبي هُرَيْرَة رَضْيَ اللهُ عنهُ . أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قالَ « لَقَابُ قَوْسٍ في الجَنَّةِ ، خَيْرٌ مِمّا تَطْلُعُ عليْهِ الشَّمْسُ أو تَغْرُبُ » مُتّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَعَنْ أنس رَضْيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قالَ « إنَّ في الجَنَّةِ سُوْقاً يَأْتُونها

كُلَّ جُمُعَةٍ ، فَتَهبُّ رِيحُ الشَّمَالِ ، فَتَحْثُو في وُجُوهِهِم وَثِيَابِهِم ، فَيَزْدَادُونَ حُسْناً وجَمَالا فَيَرْجعُونَ إلَى أهلِيْهِم وَقَد ازدَادُوا حُسْناً وَجمالاً ، فيَقُولُ لَهُمْ أهْلُوهُم : وَاللهِ لَقَدْ أزْدَدْتُم حُسْناً وَجمالاً ، فيَقُولُونَ : وَأَنْتُم وَاللهِ لَقَدْ ازْدَدْتُم بَعْدَنا حُسْناً وَجمالاً » رَواهُ مُسْلِمٌ .

وَعَن مُعَاذ بْن جَبَلٍ رَضْيَ اللهُ عنه أنَّ النبي ﷺ قالَ « يَدْخُلُ أهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ جُرْداً مُرْدَا مُكَحَّلِيْنَ ، بَنِيْ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِيْنَ » رَواهُ التِّرْمِذيّ وَقَالَ : حَدِيْثٌ حَسَنٌ غَرِيْبٌ .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضْيَ اللهُ عنه قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ حَدِّثنا عن الجنةِ ما بِنَاؤُها ، قالَ « لَبِنَةُ ذَهَبٍ ، وَلبِنَةُ فِضَّةٍ ، وَمِلاطُها المِسْكُ ، وحَصْبَاؤُها اللؤْلُؤُ ، وَاليَاقُوتُ ، وَتُرَابُها الزَّعْفَرانُ ، مَنْ يَدخُلَها يَنْعَمُ وَلاَ يَبْئَسُ ، وَيَخْلُد لا يَمُوتُ ، لا تَبْلَى ثِيَابُه ، وَلاَ يَفْنَى شَبَابُه » الحَدِيْثُ رَواهُ أَحْمَدُ واللفْظُ لَهُ وَالتِّرْمِذيّ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بن عَمْرٍو رَضْيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « إنَّ في الجَنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُها مِنْ ظاهِرِهَا » فقالَ أبُو مَالكٍ الأَشْعَرِيّ : لِمَنْ هِيَ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ « لِمنْ أَطَابَ الكلامَ ، وأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَبَاتَ قَائِماً وَالنَّاسُ نِيَامٌ » رَواهُ الطَّبَرَانِيّ وَالحَاكِمُ وَقَالَ: عَلَى شَرْطِهِمَا . وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ .

وعن عَبْدِ اللهِ بْن مَسْعُودٍ رَضْيَ اللهُ عنهُ قَالَ « لِكُلِّ مُسْلِم خَيِّرَة ، ولِكُلِّ خَيِّرَةٍ خَيْمَةٌ ، ولِكُلِّ خيْمَةٍ أرْبعَةُ أبْوَابٍ ، يَدْخُلُ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ بَابٍ تُحْفَةٌ وَهَدِيَّة وَكَرَامَة لَم تَكُنْ قَبْلَ ذلكَ ، لاَ مَرِحَاتٍ ، وَلاَ دَفِرَاتٍ ، وَلاَ سَخِرَاتٍ ،

وَلَا طَمَّاحَاتٍ ، حُوْرٌ عِيْنٌ ، كَأنَّهُن بيضٌ مِكنُونٌ » رَوَاهُ ابنُ أبِي الدنيَا مِن رِوَايَةِ جَابِرِ الجَعفِي مَوْقُوْفا .

وَعَنْ أنَس رَضْيَ اللهُ عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ « بَيْنَا أنَا أسِيْرُ في الجَنَّةِ، اذا أنا بَنْهرٍ حَافتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤ المُجوَّفِ ، فقُلتُ ما هَذَا يا جبْريلُ ، قالَ : هذا الكَوْثرُ الذيْ أعْطَاكَ ربُّك . قَالَ فَضَربَ المَلَكُ بيَدِهِ . فاذا طِيْنُهُ مِسْكٌ أذْفرُ » رَوَاهُ البُخَارِيّ .

وَرُوِيَ عن حَكِيْم بْن مُعَاوِيَة القُشَيْرِيّ عن أبيهِ رَضْيَ اللهُ عنهُ قَالَ : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ « في الجَنةِ بَحْرٌ للمَاءِ ، وَبَحرٌ لِلَبَنِ ، وبحرٌ لِلعَسَلِ ، وبَحرٌ لِلخَمْرِ ، ثم تَشَقَّقُ الأنهَارُ منها بَعْدُ » رواهُ البَيهقيّ .

وعن ابن عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما قالَ قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ « خَلَقَ اللهُ جنةَ عَدْنٍ بيدِه ، وَدَلَّى فيها ثِمَارَها ، وَشَقّ فيها أنهَارَها ،ثم نَظَرَ إليها، فقالَ لَها ، تكلّمِيْ فقالَتْ : قَدْ أفلحَ المؤمِنُوْنَ ، فقالَ : وَعِزّتي لا يُجَاوِرُني فِيْكِ بَخِيْلٌ » رَواهُ الطَبَرَانِيّ في الكَبِيـر والأوْسَطِ ، باسْنَادَيْن أحدُهُمَا جَيّدٌ ، وَرَواهُ ابنُ أبي الدنيا من حديثِ أنسٍ أطوْلَ منهُ ، ولفظُهُ قالَ رسولُ الله ﷺ « خلقَ اللهُ جنةَ عَدْنِ بيَدِهِ لَبنَةٌ من دُرَّةٍ بَيْضَاءَ وَلَبنَةٌ من يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ ، وَلَبنَةٌ من زَبَرْجَدَةٍ خَضْرَاء ، ومِلاطُهَا مِسْكٌ ، حَشِيْشُها الزَّعْفرانُ ، حَصْبَاؤُهَا اللؤْلؤُ ، تُرابُها العَنْبَرُ ، ثمّ قَالَ لَها انْطقي قَالَتْ قد أَفْلَحَ المؤمنُونَ . فقالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ : وعِزّتِي وَجلَالِيْ لَا يُجَاورني فِيْكِ بَخِيْلٌ »ثمّ تَلاَ رسُولُ اللهِ ﷺ (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِه فَأُوْلئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ) .

قَالَ ابنُ القَيم رَحِمَهُ اللهُ :

وَالجَنَّهُ اسْمُ الجنسِ وهْيَ كَثِيْرَةٌ
جِدَا ولَكَنْ أَصْلُها نوعَانِ

ذَهَبِيَّتَانِ بِكُلِ مَا حَوتَاهُ مِنْ
حُلْيٍ وَآنِيَةٍ وَمِن بُنْيَانِ

وَكَذَاكَ أَيْضاً فِضَّةٌ ثِنْتَانِ مِنْ
حُلْيٍ وَبُنْيَانِ وَكُلِ أَوانِ

لَكِنَّ دارَ الخُلْدِ والمَأْوَى وَعَدْ
نِ والسلامِ إِضَافَةٌ لِمَعانِ

أَوْصَافُها اسْتَدعَتْ إِضَافتَها إِلَيْهَا مِدْحَةً مَعَ غَايَةَ التِبْيَانِ

لَكِنَّمَا الفِرْدَوس أَعْلاَهَا وَأَوْ
سَطُهَا مَسَاكِنُ صَفْوَةِ الرحمنِ

أَعْلاَهُ مَنْزِلَةً لأَعْلَى الخَلْقِ مَنْ
زِلةً هُوَ المَبْعُوثُ بالقُرآنِ

وَهِيَ الوَسِيْلَةُ وَهِيَ أَعْلَى رُتْبَةً
خَلُصَتْ لَه فَضْلاً مِن الرحمنِ

ولقد أتى في سُوْرَةِ الرحمنِ تَفْصِيْلُ الجِنَانِ مُفَصَّلاً بِبَيَانِ

هِيَ أَرْبَع ثِنْتَانِ فَاضِلَتَانِ وَا
يَالِيْهِمَا ثِنْتَانِ مَفْضُولانِ

فالأَوْلَيَانِ الـفُـضْـلَيَـانِ لأَوْجُـهٍ
عَـشْـرٍ وَيَـعْـسُـرُ نَـظْـمُـهَـا بِـوزَانِ
وإذا تَـأَمَّـلْتَ الـسِّـيَـاقَ وَجَـدْتَـهَـا
فِـيْـهِ تَـلُوحُ لِـمَـنْ لَـهُ عَيْنَانِ

سُبحـانَ مَنْ غَـرَسَتْ يَـدَاهُ جَنَّةَ الفِـرْدَوسِ عِنْدَ تَكَـامُـلِ البُنْيَـانِ

وَيَـدَاهُ أيـضـاً اتْـقَـنَـتْ لِـبِـنَـائِـهَـا
فَـتَـبَـارَكَ الـرحـمـنُ أَعْـظَمُ بَـانِـي
لَـمَّـا قَضَـى رَبُ العِبَـادِ الغَـرْسَ قَـا
لَ تَـكَـلِمـيْ فَـتـكَـلَّمَـتْ بِـبَـيَـانِ
قَـد أَفْـلَحَ العبـدُ الـذي هُـوَ مُؤْمِـنٌ
مَـاذَا ادَّخَـرْتَ لَـهُ مِـن الإِحـسَـانِ

اللهُمَّ يا مَنْ بِيَدِهِ خَزائِنُ السَّمواتِ والأرْض ، عَافِنَا مِنْ مِحَنِ الزَّمَانِ ، وَعوَارِض الفِتَنِ ، فإنَّا ضُعَفَاءُ عن حَمْلِهَا ، وَانْ كُنَّا مِنْ أَهْلِهَا ، اللهُمَّ وَفقْنا لِصَالحِ الأعْمَالِ ، وَنَجِّنا مِنْ جَمِيْعِ الأهْوَالِ ، وَأَمِّنَّا مِنْ الفَزَعِ الأَكْبَرِ يَوْمَ الرَّجْفِ وَالزِّلْزَالِ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَميْعِ المُسْلِمِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْـــلٌ »

رُوِيَ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنْ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسلمَ قالَ « أرْضُ الجَنَّةِ بَيْضَاءُ ، عَرْصَتُها صُخورُ الكافُورِ وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ المِسْكُ ، مِثْلُ كُثْبَانِ الرَّمْلِ ، أَنْهارٌ مُطَّرِدَةٌ ، فَيَجْتَمِعُ فِيْهَا أَهْلُ الجَنَّةِ ، أَدْنَاهُم

وَآخِرُهُمْ ، فَيَتَعَارَفُونَ ، فَيَبْعَثُ اللهُ رِيْحَ الرَّحْمَةِ ، فتهِيْجُ عليهم رِيْحُ المِسْكِ ، فَيَرْجِعُ الرَّجُلُ إِلَى زَوْجَتِهِ وقَدْ ازْدَادَ حُسْناً وَطِيْبًا ، فَتقُولُ لَهُ : لَقد خَرَجْتَ مِنْ عِنْدِيّ وَأَنَا بِكَ مُعْجَبَةٌ ، وَأَنَا بِكَ الآنَ أَشَدُّ اعْجَاباً » رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا .

وَعَنْ كُرَيْبٍ أَنَّهُ سَمِعَ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُوْلُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ « ألا مُشَمِّرٌ إِلَى الجَنَّةِ ، فإِنَّ الجَنَّةَ لاَ خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَرَبِّ الكَعبَةِ نُورٌ يَتلألأُ ، وَرِيْحَانةٌ تَهْتَزُّ وقَصْرٌ مَشِيْدٌ ، وَنَهْرٌ مُطّردٌ ، وثمرةٌ نضِيْجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيْلَةٌ، حُللٌ كثِيْرَةٌ ، وَمَقامٌ في أَبدٍ ، في دارٍ سَلِيْمَةٍ ، وَفَاكِهَةٌ وَخُضْرَةٌ ، وَحبرَة وَنِعْمَةٌ ، في مَحَلّةٍ عَالِيَةٍ بهيّة » قالُوا : نَعَمْ يا رَسُولَ اللهِ ، نَحْنُ المشَمِّرُونَ ، قالَ « قُولُوا انْ شَاءَ اللهُ » فقالَ القَوْمُ : إِنْ شَاءَ اللهُ ، رَواهُ ابْنُ مَاجَهْ وَابْنُ أبِي الدّنْيَا وَالبَزّارُ ، وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ وَالبَيْهَقِيّ .

وعن سَمّاك أنهُ لَقِيَ عَبْدَ اللهِ بنْ عَبَّاسٍ بالمدِيْنَةِ ، بَعْدَ مَا كُفَّ بَصَرُهُ ، فَقَالَ : يَا بْنَ عَبَّاسٍ مَا أَرْضُ الجَنَّةِ ؟ قالَ : مَرْمَرةٌ بَيْضَاءُ مِنْ فِضَّةٍ ، كأنّها مِرْآةٌ . قلْتُ : مَا نُورُهَا ؟ قالَ : مَا رَأَيْتَ السَّاعَةَ التِيْ يَكُونُ فِيْهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ ؟ فَذَلِكَ نُورُهَا ، إِلَّا أَنّهُ لَيْسَ فِيْهَا شَمْسٌ ولا زَمْهَرِيْر ، قال : قُلْتُ فمَا أَنْهارُهَا ؟ أَفِي أُخْدُودٍ ؟ قالَ : لا وَلكنَّها تَجْرِي عَلى أرْض الجَنَّة ، مُسْتَكِفَّةً ، لا تَفِيْضُ هَا هُنَا وَلا هَا هُنَا . قَالَ اللهُ لهَا : كُوْنِيْ فكانَتْ . قُلْتُ فما حُللُ الجَنَّةِ ؟ قالَ : فِيْهَا شَجرَةٌ فِيْهَا ثَمرٌ ، كأنهُ الرُّمَّانُ ، فإذا أرَادَ وَلِيُّ اللّهِ مِنْهَا كِسْوَةً ، انْحَدَرتْ إِليْهِ من غُصْنِهَا ، فانْفَلَقتْ لَهُ عَنْ سَبْعِيْنَ حُلّة ، أَلْواناً بَعْدَ أَلْوانٍ ، ثم تَنْطَبِقُ فَتَرْجِعُ كمَا كَانَتْ . رَواهُ ابْنُ أَبِي الدّنْيَا مَوْقُوفاً باسْنَادٍ حَسَنٍ .

وَرُوِيَ عَنْ عِمْرَانَ بْن حُصَيْنٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَالا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ ومَسَاكِنَ طَيِّبَةٍ في جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ قَالَ « قَصْرٌ في الجَنَّةِ مِنْ لؤْلُؤَةٍ ، فِيْهَا سَبْعُونَ داراً مِنْ يَاقوتَةٍ حَمْرَاءَ ، في كلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتاً ، مِنْ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ ، في كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَرِيْراً ، عَلَى كُلِّ سَرِيْرٍ سَبْعُونَ فِرَاشاً مِنْ كُلِّ لَونٍ ، عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ امْرَأَةٌ ، في كلِّ بَيْتٍ سَبْعُوْنَ وَصِيْفاً ووَصِيْفَةً ، يُعْطَى المؤمِنُ مِنَ القوَّةِ مَا يَأْتِيْ عَلَى ذلكَ كُلِّهِ في غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ » رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ .

وَعَنْ أَسْمَاء بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ ـ وذكرَ سِدْرَةَ المُنْتَهى ـ فَقَالَ « يَسِيْرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّ الفَنَنِ مِنْهَا مائَةَ سَنَةٍ ، أَوْ يَسْتَظِلُّ بِهَا مَائَةُ رَاكِبٍ شَكَّ يَحْيِي ، فِيْهَا فِرَاشُ الذَّهَبِ ، كَأَنَّ ثِمَارَهَا القِلالُ » رَوَاهُ التِّرْمِذيّ وَقَالَ : حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ غَرِيْبٌ .

وفي حَدِيْثِ أَبَيّ بْنِ كَعْبٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ قِيْلَ لهُ : مَا الحَوْضُ ؟ قالَ « وَالذيْ نَفْسِيْ بَيَدِه إِنَّ شَرابَهُ أَبْيَضُ منَ الَّلبَن ، وَأَحْلىَ مِنْ العَسَلِ ، وأبْرَدُ مِنْ الثَّلج وَأَطْيَبُ رِيْحاً مِنْ المِسْكِ ، وَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ عَدَداً مِنْ النُّجوم ، لا يَشْرَبُ منه إِنسَانٌ فَيَظْمأُ أبداً ، ولا يُصْرَفُ عنهُ انْسَانٌ فَيَرْوَى أَبَداً » رواهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ وَغَيْرُهُ .

وَأَخْرجَ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « حَوْضِي مَسِيْرَةُ شَهْرٍ ، مَاؤُه أَبْيَضُ مِنْ اللبَنِ ، وَرِيْحُه أَطْيَبُ مِنْ رِيْحِ المِسْكِ ، كِيْزانُه كَنُجوم السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَا يَظْمَأ أَبَداً » وَأَخْرَجَ مُسْلِم في صَحِيْحِه من حَدِيْثِ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، انَّ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلم

قَالَ « ليَرِدَنَّ عليَّ الحَوْضَ أَقْوَامٌ ، فيُختَلَجُون دُوْنِي ، فَأَقُـولُ : رَبِّ أَصْحَابِيْ ، رَبِّ اصْحَابِي ، فيُقَالُ : إنكَ لا تَدْرِيْ مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ » .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرانِيّ وَابْنُ حِبَّانَ ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ خبَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلمَ قالَ سَيَكُونُ أُمراءُ مِنْ بَعْدِي ، فلا تُصَدِّقُوهم بكَذِبهم ، ولا تُعِيْنُوهم على ظُلمِهم ، فَمَنْ فعَلَ لَمْ يَرِدْ عَليَّ الحَوْضَ » .

وَأَخْرَجَ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُما ، مِنْ طَرِيْقِ أَبِي حَازِمٍ ، عَن سَهْل بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ قالَ « أنَا فَرطُكُم عَلى الحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً ، وَلِيَرِدَنَّ عَلَيَّ أقوَامٌ أَعْرِفهُم وَيَعْرِفُونِيْ ، ثُمَّ يُحالُ بيْنِي . وَبَيْنَهُم ، قالَ أَبُو حَازِمٍ :
فَسَمِعَ النّعَمَانُ ابْنُ أبي عَيّاشٍ وَأَنا أُحدِّثُ هَذَا الحَدِيْث ، فقالَ هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلاً يَقُولُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ فَقَالَ : وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى أَبي سَعِيْدٍ الخُدْرِيّ ، سَمِعْتُه يَزِيْدُ « أَنَّهُم مِنِّيْ » فَيُقَالُ إِنَّكَ لا تَدْرِيْ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ سُحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِيْ » .

وَعَـنْ عُـتْبَـةَ بْـن عَـبْـدٍ رضِـيَ الـلهُ عَـنْـهُ ، قَـالَ : جَاءَ اعْرَابيّ الى رسُول اللهِ صلى الله عليه وَسَلَمَ ، فقَالَ : مَا حَوْضُك الذِيْ تُحدِّثُ عَنْهُ ؟ فذكرَ الحَدِيْثَ إلى أَنْ قَالَ : فقالَ الأعْرَابيّ : يا رَسُولَ اللهِ فيْهَا فاكِهَة ؟ قالَ « نَعَمْ وَفِيْهَا شَجرَةٌ تُدْعَى طُوبَى ، هِيَ تُطَابِقُ الفِرْدَوْس » فقَالَ أيُّ شَجَرِ أَرْضِنَا تُشْبهُ ؟ قالَ لَيْسَ تُشْبِهُ شَيْئاً مِنْ شَجرِ أَرْضِك ، وَلَكِنْ أَتيْتَ

الشَّامَ ؟ » قَالَ : لَا يَا رَسُولَ اللهِ . قالَ « فإِنَّهَا تُشْبِهُ شَجَرَةً في الشَّام ، تُدْعَى الجَوْزَةَ ، تَنْبُتُ عَلى سَاقٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ يَنْتَشِرُ أَعْلَاهَا » قالَ : فَمَا عِظَمُ أَصْلِهَا ؟ قَالَ « لَوْ ارْتَحلْتَ جَذْعَةً مِنْ إِبلِ أَهْلِكَ ، لَمَا قَطَعْتَهَا حَتَّى تَنْكَسِرَ تُرْقُوَتُهَا هَرَماً » قالَ فِيْهَا عِنَبٌ ؟ قَالَ « نَعَمْ » قَالَ : فمَا عِظَمُ العُنْقُودِ مِنْهَا ؟ قالَ « مَسِيْرَةُ شَهْرٍ لِلْغُرَابِ الأَبْقَعِ ولا يَنْثَنِيْ وَلَا يَفْتُر » قالَ : فَمَا عِظَمُ الحَبَّةِ مِنْهُ ؟ قالَ « هَلْ ذَبَحَ أَبُوكَ تَيْساً مِنْ غَنَمِه عَظِيْماً ، فَسَلَخَ إِهَابَهُ ، فَأَعْطَاهُ أُمَّكَ ، فَقَالَ : ادْبُغِي هَذَا ، ثم افْرِيْ لَنا مِنْهُ ذَنُوباً ، يُرْوِيْ مَا شِيَتَنَا » ؟ قالَ : نعَمْ . قالَ : فَإِنَّ تِلكَ الحَبَّةَ تُشْبِعُنِيْ وَأَهْلَ بَيْتِيْ . فقالَ النَّبيّ صَلى اللهُ عليه وسلمَ « وعامَّةَ عَشِيْرَتَكَ » رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ في الكبيرِ وَالأوْسَطِ ، وَاللفْظُ لَهُ ، والبَيْهَقِيّ بنَحْوِهِ ، وابْنُ حِبّانَ في صَحِيْحِهِ ، بذِكْرِ الشَّجَرَةِ في مَوْضِعٍ وَالعِنَبِ في آخَر ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ باخْتِصَارٍ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا ، قَالَ قَالَ رَسُوْلُ اللّهِ صَلى اللهُ عليه وسلم « الكَوْثَرُ نَهرٌ في الجَنَّةِ، حَافتَاهُ مِن ذَهَبٍ وَمَجْرَاهُ على الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنْ المِسْكِ ، وَمَاؤُه أَحْلَى مِن العَسَلِ ، وأَبْيَضُ مِن الثّلجِ » رَوَاهُ ابنُ مَاجه وَالتِّرْمذيّ وَقَالَ : حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ .

وَعَنْ جرِيْرِ بْنِ عبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : نَزَلْنَا الصِّفَاحَ ، فإذا رَجُلٌ نَائِمٌ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، قَدْ كَادَتْ الشَّمْسُ تَبْلُغه قَالَ : فَقُلْتُ لِلغُلَامِ : انْطَلِقْ بِهَذَا النِّطْعِ فَأَظِلَّهُ . قَالَ : فانْطَلَقَ فَأَظَلَّهُ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ ، فإِذَا هُوَ سَلْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَأَتَيْتُه أُسَلِّمُ عليه ، فقالَ : يَا جرِيْرُ تَوَاضَعْ لِله ، فإِنَّهُ مَنْ تَوَاضَعَ لِلّهِ في الدّنْيا رَفعَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، يَا جرِيْرِ هَلْ تَدْرِيْ مَا الظُّلُمَاتُ يَوْمَ القِيَامَةِ ؟ قُلْتُ : لَا أَدْرِيْ . قالَ : ظُلْمُ النَّاسِ بَيْنَهم ثمَّ أَخذَ عُودا لَا أكادُ

أَرَاهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْهِ . فَقَالَ : يَا جَرِيْرُ لَوْ طَلَبْتَ فِي الجَنَّةِ مِثْلَ هَـذَا لَمْ تَجِـدْهُ ، قُلْتُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ فَأَيْنَ النَّخْلُ وَالشَّجَرُ ؟ قَالَ : أُصُوْلُهَا اللّؤْلُؤ وَالذهَبُ ، وَأَعْلَاهُ الثمَرُ ، رَوَاهُ البَيْهَقِيّ بإسْنَادٍ حَسَنٍ ، وَعَنْ البَرَاءِ بْن عَازِبْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيْلًا ﴾ قَالَ : إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَأْكُلُوْنَ مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ ، قِيَاماً وَقُعُوْداً وَمُضْطَجِعِيْنَ ، رَوَاهُ البَيْهَقِيّ وَغَيْرُه مَوْقُوفاً بإسْنَادٍ حَسَنٍ .

وعن عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : يُسَاقُ الذِيْنَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَرا ، حَتَّى إذا انْتَهوا إِلَى أَوَّلِ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَجَدُوا عِنْدَهَا شَجَرَةً ، يَخْرُجُ من تَحْتِ سَاقِهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ، فَعَمَدُوا إلى احْدَاهُمَا ، كَأَنَّمَا أُمِرُوا بِهَا ، فَشَرِبُوا مِنْهَا ، فَأَذْهَبَ مَا فِي بُطُوْنِهِم مِنْ قَذَى وَأَذَى ، ثُمَّ عَمِدُوا إلى الأُخْرَى فَتَطَهَّرُوا مِنْهَا ، فَجَرَتْ عَلَيهِم نَضْرَةُ النَّعِيْمِ ، فَلَنْ تَتَغَيَّرَ أَبْشَارُهم بَعْدَهَا أَبَداً ، وَلَنْ تَشْعَثَ أَشْعَارُهُم ، كَأَنَّمَا دُهِنُوا ، ثم انْتَهوْا إلى خَزَنَةِ الجَنّةِ ، فقالُوا (سَلامٌ عَلَيْكُم طِبْتُم، فَادْخُلُوهَا خالِدِيْنَ) ثُمَّ تَتَلَقَّاهُم الـوِلْدَانُ، يُطِيْفُونَ بِهِم ، كَمَا يُطِيْفُ وِلْدَانُ أَهْلِ الدّنْيَا بالحَمِيْمِ يَقْدُمُ مِنْ غَيْبَتِهِ ، يَقُولُونَ لَهُ : أَبْشِرْ بِمَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ مِنْ الكَرَامَةِ ، قالَ : ثمّ يَنْطَلِقُ غُلامٌ مِنْ أُوْلَئِكَ الغِلْمَانِ ، إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ مِنَ الحُورِ العِيْنِ ، فَيَقُولُ : قد جَاءَ فلانٌ ـ باسْمِه الذي كانَ يُدْعى بِهِ في الدنيا ـ فَتَقُوْلُ : أَنْتَ رَأَيْتَهُ . فَيَقُولُ أَنَا رَأَيْتُهُ . وَهُوَذا في أَثَرِي . فَيَسْتَخِفُّ إِحْدَاهُنَّ الفَرَحُ ، حتَّى تقُومَ على أسْكُفَةِ بَابِهَا فإذا انْتَهى إلى مَنْزِلِهِ نَظَرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ أَسَاسُ بُنْيَانِه فإذا جَنْدَلُ اللُّؤْلُؤ فَوْقَه صَرْحٌ أَخضَرُ وَأَصْفَرُ وَأَحْمرُ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ ثُمّ رَفعَ رَأْسَهُ فنظرَ إِلَى سَقْفِهِ فإِذا مِثْلُ البَرْقِ فَلَو لَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدَّرَه لَهُ لَألَمَّ أنْ يَذْهَبَ بَصَرُهُ ثم طَأْطَأَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلى

أَزْوَاجِهِ وَأَكوَابِ مَوْضُوعَةٍ وَنَمَارِقَ مَصْفُوْفَةٍ وَزَرابيّ مَبْثُوثَةٍ فَنَظَرُوا إِلَى تِلْكَ النِّعْمَةِ ثمّ اتكئُوا فقَالُوا الحَمْدُ للهِ الذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كنّا لِنَهْتَدِيْ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ ثُمَّ يُنَادِيْ مُنَادٍ تَحْيَونَ فلا تَمُوتُونَ وَتُقِيْمُونَ فلا تَظْعَنُونَ ﴾

قال ابن القيم

فَاسْمَعْ صِفَاتِ عَرَائِسِ الجَنَّاتِ ثُمْ
مَ اخْتَرْ لِنَفْسِكَ يَا أَخَا العِرْفَانِ

حُورٌ حسانٌ قَدْ كَمَلْنَ خَلائِقاً
وَمَحَاسِناً مِن أَجْمَلِ النِّسْوَانِ

حَتَّى يَحَارُ الطَّرْفُ في الحُسْنِ الذي
قَدْ أُلْبِسَتْ فالطَّرْفُ كالحَيْرَانِ

وَيَقولُ لَمَّا أَنْ يُشَاهِدَ حُسْنَهَا
سُبْحَانَ مُعْطِي الحَسْنِ والاحسانِ

والطَّرْفُ يَشْرَبُ مِن كُؤُسِ جَمَالِهَا
فَتَرَاهُ مِثلَ الشَارِبِ النَّشْوَانِ

كَمُلَتْ خَلاَئِقُهَا وَأُكمِلَ حُسْنُهَا
كالبَدْرِ لَيلَ السِّتِ بَعْدَ ثَمَانِ

والشَّمْسُ تَجْرِيْ في مَحَاسِنِ وَجهِهَا
وا لّيلُ تَحتَ ذوائِبِ الأَغْصَانِ

فَتَرَاهُ يَعْجَبُ وَهُوَ مَوْضِعُ ذَاكَ مِن
لَيلٍ وَشَمْسٍ كَيفَ يَجْتَمِعَانِ

فَيَقُولُ سُبْحَانَ الَّذِيْ ذَا صُنْعُه
سُبْحَانَ مُتْقِنِ صَنْعَةَ الانْسانِ

وَكِلاَهُمَا مِرْآةُ صَاحِبِهِ إذا
مَا شَاءَ يُبْصِر وَجْهَهُ يَرَيَانِ

فَيَرَى مَحَاسِنَ وَجْهِهِ في وَجْهِهَا
وَتَرى مَحَاسِنَهَا بِه بِعَيْنَانِ

حُمْرُ الخُدُوْدِ ثُغُورُهُنَّ لآلِيءٌ
سُودُ العُيُونِ فَوَاتِرُ الأجْفَانِ

والْبَدْرُ يَبْدُو حِينَ يَبْسُمُ ثَغْرُهَا
فَيُضِيءُ سَقْفُ القَصْرِ بالجُدْرَان

وَلَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ بَرْقاً سَاطِعَاً
يَبْدُوْ فَيَسْأَلُ عنه مَن بِجِنَانِ

فَيُقَالُ هَذَا ضَوْءُ ثَغْرٍ ضَاحِكٍ
في الجنةِ العُلْيَا كَمَا تَرَيَانِ

لِلهِ لاَثِمُ ذَلِكَ الثَّغْرِ الذي
في لَثْمِهِ إدْرَاكُ كُلِ أَمَانِ

رَيَانَةُ الأَعْطَافِ مِن مَاءِ الشَّبَا بِ فَغُصْنُهَا بالماءِ ذُو جَرَيَانِ

لما جَرَى مَاءُ الشبابِ بغُصْنِهَا
حَمَلَ الثِمَارَ كَثِيْرَةَ الأَلْوَانِ

فالْوَرْدُ والتُّفَاحُ والرُّمَانُ في
غُصْنٍ تَعَالَى غَارِسُ البُسْتَانِ

إلى أَنْ قال :

وَاضْـرِبْ لَهم مَثَـلاً بِصَبٍ غَـابَ عَنْ
مَـعْشُـوقِـهِ فـي شَـاسِـعِ البُـلْدَانِ

وَالـشَّـوْقُ يُـزْعِـجُـهُ إلـيـهِ وَمَـالَـهُ
بِـلِقَـائِـهِ سَـبَـبٌ مِـن الإمْـكَـانِ

وَافَـى إليـهِ بَـعْـدَ طُـوْلِ مَغِـيْـبِـهِ
عَـنـه وَصَـارَ الـوَصْـلُ ذُو إمْـكَـانِ

أَتَـلُومُـهُ أَنْ كَـانَ ذَا شُغْلٍ بِـهِ
لا وَالـذي أَعْـطَى بِـلا حُـسْـبَـانِ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ وَقَوِّي إِيْمَانَنَا بكَ وَمَلائِكَتِكَ وَكُتُبِكَ وَرُسُلِكَ وَاليَوم الآخِرِ وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، اللهُم نَوِّرْ قُلُوبنَا بنُورِ الايْمَانِ وَاشْرَحْ صُدُوْرنَا وَاجْعَلنا هُدَاةً مهتَدِيْنَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَجَمِيْعِ المسلمين برَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ وصلى الله عَلى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

« فَصْـلٌ »

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَم : « يَأكُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ وَيَشْرَبُونَ ،وَلاَ يَمْتَخِطُونَ ،وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَبُولُونَ ، طَعَامُهم ذلكَ جُشَاءٌ كَرِيْحِ المِسْكِ ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيْحَ وَالتَّكْبِيْرَ ، كَما تُلْهَمُونَ النَّفس » رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُد .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ

إلى النبي صلى الله عليه وَسَلَمَ ، فقَالَ : يَا أَبَا القاسِم تَزْعُم أَنَّ أَهْلَ الجَنّةِ يَأْكُلُونَ ويَشْرَبُونَ ؟ قالَ « نَعَمْ » ، وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إنَّ أَحَدَهُم لِيُعْطَى قُوَّةَ مائَةِ رَجُلٍ في الأكْلِ والشُّرْبِ وَالجِمَاعِ » قالَ : فإن الذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تكُونُ لَهُ الحَاجَةُ ، وَلَيْسَ في الجَنَّةِ أَذَى ، ؟ قالَ « تكُونُ حَاجَة أَحَدِهم رَشْحاً يَفِيْضُ مِنْ جُلُودِهم ، كَرَشْحِ المِسْكِ ، فَيَضْمُرُ بَطْنُهُ » . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِي ، وَرُوَاتُهُ مُحْتَجّ بِهِم في الصَّحِيْحِ .

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ باسْنَادٍ صَحِيْحٍ . وَلَفْظُهُ في احْدَى رِوَايَاتِهِ قالَ : بَيْنَمَا نَحنُ عِنْدَ النبي صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ، إذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ اليَهُودُ ، يُقَالُ لَهُ ثَعْلَبَةُ بْنُ الحَارِثِ فَقالَ : السَّلامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، فقالَ « وَعَلَيْكُم » فَقَالَ لَهُ اليَهُودِيُّ : تَزْعُمُ أَنَّ في الجَنَّةِ طَعَاماً وَشَراباً وَأَزْوَاجاً ، فَقَالَ النبي صلى اللهُ عليه وسلمَ « نعَمْ تُؤْمِنُ بشَجَرةِ المِسْكِ » ؟ قالَ : نعَم . قالَ : « وَتَجِدُهَا في كِتَابِكُم ؟ » قالَ : نَعم : قالَ « فإنَّ البَوْلَ وَالجَنَابَةَ عَرَقٌ ، يَسِيْلُ مِنْ تَحْتِ ذَوَائِبِهم ، إلَى أَقْدَامِهِمْ مِسْكٌ » .

ـ وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ وَالحَاكِمُ وَلَفْظُهُمَا : أَتَى النَّبي صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ رَجُلٌ مِنْ اليَهُودِ ، فقَالَ : يَا أبا القَاسِم : أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيْهَا وَيَشْرَبُونَ ؟ ، وَيَقُولُ لأصْحَابِهِ : إنْ أقَرَّ لِيْ بِهَذا خَصَمْتُه ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ : « بَلَى ، وَالذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إنَّ أحَدَهُم لَيُعْطَى قُوَّةَ مائَةِ رَجُل في المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَالشَّهْوَةِ وَالجِمَاعِ » فقالَ اليَهُودِيّ فإنَّ الذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تكُوْنُ لَهُ الحاجَةُ فقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « حَاجَتُهم يَفِيْضُ مِنْ جُلُودِهم مِثْلُ المِسْكِ ، فإِذَا البَطْنُ قَدْ ضَمُرَ » وَلَفْظُ النسائِيّ نَحْوُ هَذا .

هـذا وَتَـصْـرِيْفُ الـمـآكـلِ مِنْـهُـمُـوا
عَـرَقٌ يَـفِـيْضُ لَـهُـم مِـنْ الأبْـدَانِ
كَـرَوائـحِ المِسْـكِ الـذِي مَـا فِيْـهِ مِنْ
خِـلْطٍ لَـه مِـنْ سَـائِـرِ الألْـوَانِ
فَـتَعُـودُ هَـاتِيْـكَ الـبُـطُونُ ضَـوامِـرٌ
تَـبْغِـي الـطعـامَ عـلى مَـدَى الأَزْمَـانِ
لا غَـائِطٌ فِـيْـهَـا ولا بَـوْلٌ ولاَ
مَـخَطٌ ولا بَـصْـقٌ مِـن الانـسـانِ
وَلَـهُـم جُـشَـاءٌ رِيْـحُـهُ مِـسْـكٌ يَـكُـو
نُ بـه تَـمَـامُ الـهَـضْـمِ بـالاحـسـانِ
هَـذَا وَهَـذَا صَـحَّ عـنـه فَـوَاحِـدٌ
فـي مُـسْـلِمٍ ولأحْـمَـدَ الأَثَـرَانِ

وَعَن أَنَس بْنِ مَالكٍ رضي اللهُ عنه يَرفَعُه قالَ : « انَّ أَسْفَلَ أَهْلِ الجَنّةِ أَجْمَعِيْنَ مَنْ يَقُومُ على رَأْسِهِ عَشَرَةُ آلافِ خَادِمٍ ، مَعَ كلِّ خادِمٍ صَحْفَتَانِ ، وَاحِدَةٌ مِن فِضَّةٍ ، وَوَاحِدَةٌ مِن ذَهَبٍ ، في كل صَحْفةٍ لَوْنٌ لَيْسَ في الأُخْرَى مِثْلُها ، يَأكلُ مِنْ آخرِهِ كَمَا يَأْكُلُ مِنْ أَوّلِه ، يَجِدُ لآخِرِهِ مِنْ اللذةِ وَالطَّعْمِ مَا لا يَجِدُ لأوَّلِهِ ، ثمَّ يَكُون فوْقَ ذَلِكَ رَشَحُ مِسْكٍ وَجُشَاءُ مِسْكٍ ، لاَ يَبُولُونَ ولا يَتَغوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ » رَوَاهُ ابْنُ أبي الدّنْيَا وَاللفْظُ لَهُ ، والطَّبَرانِيّ وَرُوَاته ثِقَاتٌ .

وَعَن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً انَّ لَهُ لسَبْعُ دَرَجَاتٍ وَهُو عَلَى السَّادِسَةِ ،

وَفَوْقَهُ السَّابِعَةُ ، إِنَّ لَهُ لثَلاَثُمائةِ خَادِمٍ ، وَيُغْدَى عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ وَيُرَاحُ بِثَلاَثمائَةِ صَحْفَةٍ ، ـ وَلاَ أَعْلَمُهُ إِلاَّ قَالَ ـ مِنْ ذَهَب ، في كلِّ صَحْفَةٍ لَوْنٌ لَيْس في الأُخْرَى ، وَإِنَّهُ لَيَلَذُّ أَوَّلُه كَمَا يَلَذُّ آخِرُهُ ، وَمِنْ الأَشْرِبَةِ ثلاثُمِائةِ إِنَاءٍ ، في كُلِّ إِناءٍ لَوْنٌ لَيْسَ في الآخرِ ، وَإِنَّهُ لَيلِذُّ أَوَّلَهُ كَمَا يُلُذُّ آخِرُه ، وَانَّهُ لَيقُولُ : يَا رَبِّ لَو أَذِنْتَ لِيْ لاطْعَمْتُ أَهْلَ الجَنَّةِ وَسَقَيْتُهُم ، لَمْ يَنْقُصْ مِمَّا عِنْدِي شَيْءٌ » الحَدِيْثُ رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ شَهْرٍ عَنْهُ .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم « إِنَّ طيْرَ الجَنَّةِ كَأَمْثَالِ البُخْتِ ، تَرْعَى في شَجَرِ الجَنَّةِ فقالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هَذِهِ لَطَيْرٌ نَاعِمَة ، فَقَالَ : « أَكْلَتُها أَنْعَمُ مِنْهَا » : قالهَا ثَلاَثاً ، « وإِنّي لأَرْجُو أَنْ تكُونَ مِمَّنْ يَأْكُلُ مِنْهَا » . رَوَاهُ أَحْمَدُ باسْنَادٍ جَيِّدٍ ، وَالتِّرْمِذيّ وَقَالَ : حَدِيْثٌ حَسَنٌ ، وَلَفْظُهُ : قَالَ : سُئِلَ النبي صلى اللهُ عليه وسَلمَ : مَا الكَوْثَرُ ؟ قَالَ : « ذَاكَ نَهْرٌ أَعْطَانِيْهِ اللهُ ، يَعْنِي في الجَنَّةِ ، أَشَدُّ بَيَاضاً مِنْ اللبَنِ ، وَأَحلَى مِنْ العَسَلِ ، فِيْهِ طَيْرٌ أَعْنَاقُها كأَعْنَاقِ الجُزُرِ » ، قَالَ عُمَرُ : إِنَّ هَذِهِ لنَاعِمَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسَلم « أَكْلَتُها أَنْعَمُ مِنْهَا » . (البُخْتُ) بضَمِّ المُوحَّدَةِ ، وَاسْكَانِ الخَاءِ المُعْجَمَةِ ، هِيَ الإِبِلُ الخُرَاسَانِيّة .

فَمَا العَيْشُ إِلاَّ ذَاكَ لا عَيْشُ عَزَّةٍ
وَسُعْدَى وَلاَ لَيْلَى وَلاَ أُمِّ سَالِمِ
وذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتيْهِ مَنْ يَشَا
وَيُرْجَى لِعَبْدٍ قَارِعِ البَابِ لاَزِمِ

وَعَنْ سليْم بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ يقُولُونَ : انَّ اللهَ لِيَنْفَعُنا بالأعْرَابِ وَمَسائِلِهم ، قالَ : أَقْبَلَ أعْرَابِيّ يَوْماً ، فقالَ : يَا رَسُولَ الله ذكرَ اللهُ عَزّ وجَلَّ في الجَنَّةِ شجَرَةً مؤذِيَةً ، وَمَا كُنْتُ أرَى أنَّ في الجَنّةِ شَجَرَةً تُؤْذِي صَاحِبَها ؟ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ وما هِيَ ؟ قال : السِّدْرُ ، فإِنَّ لَهُ شَوْكاً مُؤذِياً ، قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ : أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ : ﴿ في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ ؟ خَضَدَ اللهُ شَوْكَهُ ، فَجَعَلَ مَكانَ كلِّ شَوْكةٍ ثمرةً ، فإنها لَتُنْبتُ ثَمَراً ، تفتَّقُ الثَّمَرَةُ مِنْهَا عَنْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِيْنَ لَوْناً مِنْ طَعَام ، مَا فِيْهَا لَوْنٌ يُشْبهُ الآخر » رَوَاهُ ابْنُ أبي الدنْيا ، وَاسْنَادُه حَسَنٌ . وَرَوَاهُ أَيْضاً عَنْ سَلِيْم بْن عَامِر ، عَنْ أبي أُمامَة البَاهِليّ ، عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم مِثْلهُ - وَرُوِي عَنْ ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قالَ : الرُّمَّانَةُ مِنْ رُمَّانِ الجَنة يَجْتَمِعُ حَوْلهَا بَشَرٌ كَثِيْرٌ يَأْكُلونَ مِنْهَا ، فإِنْ جَرَى على ذِكْرِ أَحَدِهِمْ شَيْءٌ يُرِيْدُهُ وَجدهُ في مَوْضِع يَدِهِ حَيْثُ يَأكلُ » . رَوَاهُ ابْنُ أبي الدنيا ، وَرَوَى باسْنَادِهِ أَيْضاً عنهُ قالَ : انَّ التَّمْرَةَ مِنْ تَمْرِ الجَنّةِ طُوْلُهَا اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعاً ، لَيْسَ لَهُ عَجَمٌ .

شِعْرَاً :

فَسِرْ في الطَّرِيْقِ المُسْتَقِيْم إلَى العُلاَ
على الصِّدْقِ وَالاخْلاصِ وَالبِرّ وَالتُّقى
وإيَّاكَ والدنيا الغَرُوْرَ فانَّها
مَتَاعٌ قليلٌ مالَهَا أَبَداً بَقا
وَتُلْهِيْكَ عن جَنَاتِ خُلْدٍ نَعِيْمُهَا
يَدُومُ وَيَصْفُو حَبذَا ذَلِكَ مُلْتَقَى

وفيهـا رِضَا الـرّبِ الكـريمِ وقُـرْبُـه
ورُؤْيَـتُـه أَكْـرِمْ بِـذَلِـكَ مُـرْتَـقَـى

وَصَـلِ وَسَلِم ذُو الجَـلَالِ على أَحْمَـدٍ
شفيـعِ البَـرَايَا كُلَّما المُـزْنُ أَغْـدَقَا

اللهُمَّ أَعِذْنَا مِنْ شَرِّ نُفُوسِنَا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَمِنْ شَرِّ الهَوَى وَمِنْ شَرِّ الدّنْيَا وَآتِنَا في الدّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِك يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْـلٌ »

في ثيابهم وحللهم

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنْ النبي صَلى اللهُ عليه وَسَلَمَ قالَ : « مَنْ يَدْخُلْ الجَنَّةَ يَنْعَمْ وَلَا يَبْأَسْ ، لَا تَبْلَى ثِيَابُه ، وَلَا يَفْنَى شَبابُه ، في الجَنَّةِ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خطرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ يَعْنِيْ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه ، عَنْ النبي صلى اللهُ عليه وسلمَ قالَ : « أَوّلُ زمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ كَأَن وُجُوْهَهُم ضَوْءُ القَمرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ، والزّمْرةُ الثَّانِيَةُ عَلَى لَوْنِ أَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍ في السَّمَاءِ ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُم زَوْجَتَانِ مِنْ الحُورِ العِيْنِ ، على كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلّةً ، يَرَى مُخَّ سُوْقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ لُحُومِهِمَا وحُلَلِهِمَا ، كَمَا يَرَى الشَّرَابَ الأَحْمَرَ في الزُّجَاجَةِ البَيْضَاءِ » . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ باسْنَادٍ صَحِيْحٍ ، والبَيْهَقِيّ باسْنَادٍ حَسَنٍ ، وَتَقَدَّمَ

حَدِيْثُ أبي هُرَيْرَةَ المُتَّفَقُ عَلَيْهِ بِنَحْوِهِ .

وَعَنْ أَبيْ سَعِيْد الخُدْرِيّ رَضِيَ اللهُ عنهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ قالَ : « إِنَّ الرّجُلَ لِيَتَّكِيءُ في الجَنَّة سَبْعِيْنَ سَنَة ، قبْلَ أنْ يَتحوَّلْ ، ثُمَّ تَأْتِيْهِ إِمْرَأة فَتَضْرِبُ مَنْكِبَهُ ، فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ في خَدِّهَا ، أَصْفَى مِنْ المرْآةِ ، وإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤةٍ عَلَيْهَا تَضِيْءُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ ، فَتُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، فَيَرُدُّ السَّلاَمَ وَيَسْأَلُهَا مَنْ أَنْتَ ؟ فَتَقُول : أَنا مِنْ المزِيْدِ ، وَإِنَّهُ لِيَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبَاً ، أَدْنَاهَا مِثْلُ النُّعْمَانِ ، مِنْ طُوْبَى ، فَيَنْفذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ ، وَإِنَّ عَلَيْهَا مِنْ التِّيْجَانِ إِن أَدْنَى لُؤْلؤةٍ مِنْهَا لَتُضِيْءُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ » . رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيْقِ ابْنِ لَهِيْعَةَ ، عَنْ دَرَّاجَ ، عَنْ أَبِيْ الهَيْثَم ، وَابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِه مِنْ طَرِيْقِ عَمْرِو بْنِ الحَارِثِ ، عَنْ دَرّاج عَنْ أَبِيْ الهَيْثَمَ .

وَرَوَى التِّرْمِذيّ مِنْهُ ذِكْرُ التِّيْجَان فَقَطْ ، مِنْ رِوَايَةِ رُشْدِيْنَ عَنْ عَمْرو بْنِ الحَارِثِ ، وَقَالَ : لاَ نَعْرِفُه إلاَّ مِنْ حَدِيْثِ رُشْدِيْنَ

وَعَنْ شُرَيْح بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ قَالَ كَعْبٌ : لَوْ أَنَّ ثَوْباً مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ الجنّةِ لُبِسَ اليَوْمَ في الدّنيا لصَعِقَ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَمَا حَمَلَتْهُ أَبْصَارُهُم . رَوَاهُ ابْنُ أبي الدّنْيَا ، وَيَأْتِي حَدِيْثُ أَنَسٍ المَرْفُوعُ « وَلَوْ اطَّلَعَتْ امْرَأةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلَى الأَرْضِ لَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيْحاً ، ولأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُما ، وَلَنصِيْفُها يَعْنِي خِمَارَهَا ـ عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنْ الدّنْيَا وَمَا فِيْهَا . رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلِمٌ .

وفي الصَّحِيْحَيْن مِنْ حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْس قَالَ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلمَ إِنَّ لِلْعَبْدِ المؤمِن في الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤةٍ مُجَوَّفَة طُوْلُهَا ستُّونَ مِيْلاً لِلْعَبْدِ المؤمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوْفُ عَليهم لا يَرى بَعْضُهم بَعْضَا وَأَخْرَجَ ابْنُ أبي الدنيا عَنْ سَعِيْدِ بْن جُبَيْر إِنَّ شَهْوَتَهُ لتَجْرِيْ في جَسَدِهِ سَبْعِيْنَ عَـامًا يَجِدُ اللَّـذَةَ ولاَ يَلْحقُهمْ بِذَلِكَ جَنَابَةَ فَيَحْتَاجُـونَ إلى التَّطْهِيْر وَلاَ ضَعْفٌ ولا انْحِلالُ قُوَّةٍ ، وَطْؤُهُم وَطْءُ التِذَاذٍ ، نَعِيْمٌ لا آفَةَ فِيْهِ بِوَجْهٍ مِنْ الوُجُوهِ وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْم قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ يَسْتَطِعُ نُورٌ في الجَنَّةِ فَيَرْفَعُونَ رُؤُسَهُم فإذا هُوَ مِنْ ثَغْرِ حَوْرَاءَ ضَحِكَتْ في وَجْهِ زَوْجِهَا وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّاعِرُ :

شِـعْرًا :

فَلَوْ أَنَّ حَـوْراً في الـدَّيَـاجِيْ تَبَـسَّمَـتْ
تَجلَّى دُجَى الـظَّلْمَاءِ في الأَرْضِ نُـوْرُهَـا
ولـو مُـزِجَ الـمَـاءُ الأُجَـاجُ بِـرِيْقِـهَـا
لَأَصْبَـحَ عَـذْبَـاً سَلْسَبِيْـلاً بُحُـوْرُهَـا

آخـرُ :

يـا عـاشِقـاً لِلْغَـوانِي مُغْـرَمـاً بِهَـوى
دَارِ الـغُـرُوْرِ وَعَـيْشٍ شِيْبَ بـالـنَّكَـدِ
إِنَّ الغَـوانِي الحِسَـانَ الحُـوْرَ مَسْكَنُهَـا
دَارُ السُـرُوْرِ على فُـرشٍ عـلى السُـرُرِ

فِي سُنْـدُسِ الفُرْشِ أَقْمَـارٌ عَلَى سُرُرٍ
مِـن الْيَـواقِيْتِ فِـي قَصْـرٍ مِـن الـدُرَرِ
يُشَاهِدُ المُـخَّ فِي السَاقَيْنِ نَـاظِرُهَـا
مِن فَـوقِ سَبْعِينَ مَلْبُـوسـاً مِن الحِـبَـرِ
قَـد طِلْنَ شَـوْقَـاً إِلَى أَزْوَاجِـهِنَّ كَـمَـا
يَشْتَـاقُ لِلْغَـائِبِ المَحْبُـوْبِ فِي السَّفَـرِ

هذه القصيدة جامعة لغالب أحوال يوم القيامة فألق لها سمعك وأحظر لها قلبك لتفهم ما فيها

شِـعْرَاً :

الـلّهُ أَعْـظَمَ مِمَّـا جَـالَ فِـي الـفِكَـرِ
وَحُكْمُـهُ فِـي البَـرَايَـا حُكْمُ مُـقْتَـدِرِ
مَـوْلَـىً عَـظِيْمٌ حَـكِيْـمٌ وَاحِـدٌ صَـمَـدٌ
حَيٌّ قَـد يـرمُّـرِ يـد فَـاطِـرَ الفِـطَرِ
يَـا رَبُّ يَا سَـامِعَ الأَصْـواتِ صَـلِّ عَلَى
رَسُـولِـكَ المُجْتَبِي مِنْ أَطْـهَـرِ الْبَشَـرِ
وَآلِـهِ والـصّحَـابِ الْـمُـقْـتَـدِيْنَ بِـهِ
أَهْـلِ التُّقَى وَالـوَفَـا وَالنُّصْـحِ لِلْبَشَـرِ
أَشْكُـو إِلَيْـكَ أُمُـوراً أَنْتَ تَـعْلَمُـهَـا
فُتـورَ عَـزْمِي وَمَـا فَـرَّطْتُ فِي عُمُـرِي
وَفَـرْطَ مَيْلِي إلى الـدّنْيَـا وَقَـدْ حَسَـرَتْ
عَنْ سَـاعِـدِ الْغَـدْرِ فِي الآصَـالِ وَالْبُكَـرِ

يَـا ربِّ زِدْنِـيَ تَـوْفِيْـقَـاً وَمَـعْـرِفَـةً
وَحُسْنَ عَـاقِبَـةٍ فِي الـوِرْدِ وَالـصَّـدَرِ
قَـدْ أَصْبَحَ الْخَلْقُ فِي خَـوْضٍ وفي دُعُـرٍ
وَزوْرِ لَـهْـوٍ وَهُمْ فـي أَعْـظَمِ الـخَـطَـرِ
وَلِـلْقِـيَـامَـةِ أَشْـرَاطٌ وَقَـدْ ظَـهَـرَتْ
بَعْضُ الْعَـلاَمَـاتِ وَالْبَـاقِي عَلَى الأَثَـرِ
قَـلَّ الْـوَفَـاءُ فلا عهْدٌ وَلاَ ذِمَـمُ
واسْتَحْكَمَ الجَهْـلُ في الْبَـادِيْنَ وَالْحضَـرِ
دَعَـوْا لِأَدْيَانِـهِمْ بالبَخْس مِنَ سُحْـتٍ
وأظْهَـرُوا الفِسْقَ والعُـدْوَانَ بـالأَشَـرِ
وجَـاهَـرُوا بـالْمَعَـاصِي وارْتَضَـوا بِـدَعـاً
عَمّتْ فَـصَـاحِبُـهـا يَمْشِي بِـلاَ حَـذَرِ
وَطَـالِـبُ الْحَـقّ بَيْـنَ الـنّاس مُسْـتَتِـرُ
وَصَـاحِبُ الإِفْـكِ فِيْهِم غَـيْـرُ مُسْـتَتِـرِ
والْـوَزْنُ بـالْـوَيْـلِ والأَهْـوَاءِ مُعْتَبَـرٌ
وَالْـوزْنُ بـالْحَقّ فِيْهـمِ غَيْـرُ مُعْتَبَـرِ
وَقَـدْ بَـدَاَ النَّقْضُ بالإِسْلاَمِ مُشْتَهِـراً
وبُـدِّلَـتْ صَفْوَةُ الْخَـيْـرَاتِ بِـالْكَـدَرِ
فَسَـوْفَ يَخْـرُجُ دَجّـالُ الـضَلاَلَـةِ فِي
هَرْجٍ وَقُـحْطٍ كَمَـا جَـاءَ فِـي الْخَـبَـرِ
وَيَـدَّعِـي أَنَّـهُ رَبُّ الْـعِـبَـادِ وَهَـلْ
تَخْفَى صِفَـاتُ كَـذوبٍ ظَـاهِـرِ الْعَـوَرِ

فَـنَــارُهُ جَـنَّــةُ طُـوْبَـي لِـدَاخِـلِهـا
وَزُوْرُ جَـنّـتِـهِ نَـارٌ مِـنَ الـسُّـعُـرِ

شَـهْـرٌ وَعَـشْـرٌ لَـيَـالِيُ طـول مُـدَّتِـهِ
لَـكِنّـهُ عَـجَبٌ فـي الـطُّولِ وَالْـقِـصَـرِ

فَـيَبْـعَـثُ اللهُ عِـيْسَـى نَـاصِراً حَـكَـمَـاً
عَـدْلاً وَيَـعْـضِـدُه بـالـنَّـصْـرِ والـظَّـفَـرِ

فَـيَـتْـبَـعُ الْـكَـاذِبَ الْـبَـاغِـي ويَقْتُلُهُ
وَيَـمْحَـقُ الـلّهُ أَهْــلَ الْـبَـغْـي والـضَّـرَرِ

وَقَـامَ عِـيْسَـى يُـقِـيْـمُ الـحَـقّ مُـتَّـبِـعـاً
شَـرِيْـعَـةَ الْمُـصْـطَـفَى الْمُـخْتَـارِ مِنْ مُـضَـرِ

فـي أَرْبَعِـيْـنَ مِـنَ الأعْـوَام مُـخْـصِـبَـةٌ
فَـيَكْـسِبُ الْـمَـالَ فِـيْـهَـا كُـلُّ مُـفْـتَـقِـرِ

حَـتَّـى إِذَا أَنْـفَـذَ الـلّهُ الْـقَـضَـاءَ دَعَـى
عِيْسَـى فَـأَفْنَـاهُـمُ المَـوْلَـى عَلَى قَـدَرِ

وَعَـادَ لِلنَّـاسِ عِـيْـدُ الْخَـيْـرِ مُـكْـتَمِـلاً
حَـتَّـى يَـتِمَّ لِـعِـيْـسَـى آخِـرُ الْـعُـمُـرِ

والشَّـمْسُ حِيْنَ تُـرَى في الْغَـرْبِ طَـالِعَـةً
طُـلُوعُـهـا آيَـةٌ مِـنْ أَعْـظَـمِ الْـكِـبَـرِ

فَـعِـنْـدَ ذَلِـكَ لاَ إِيْـمَـانَ يُـقْـبَـلُ مِـنْ
أَهْــلِ الـجُـحُـودِ وَلاَ عُــذْرٌ لِـمُـعْـتَـذِرِ

وَدَابَةٌ في وُجُوهِ المؤمِنِيْنَ لَهَا
وَسْمٌ مِنْ النُّورِ وَالكُفَّارِ بالْقَتَرِ
وَخَلْفُهَا الْفِتْنَةُ الدَّجَّالُ قَبْلَهُمَا
أَوْ بَعْدُ قَدْ وَرَدَ القَوْلاَنِ في الْخَبَرِ
وَكَمْ خَرَابٍ وَكَمْ خَسْفٍ وَزَلْزَلَةٍ
وَفَيْحِ نَارٍ وآيَاتٍ مِنَ النُّذُرِ
وَنَفْخَةٌ تُذْهِبُ الأَرْوَاحَ شِدَّتُهَا
إِلَّا الّذِيْنَ عُنُوا في سُورَةِ الزُّمَرِ
وأَرْبَعُونَ مِنَ الأَعْوَام قَدْ حُسِبَتْ
لِكَيْ تُبَثَّ بِهَا الأَرْوَاحُ في الصُّوَرِ
قَامُوا حُفَاةً عُرَاةً مِثْلَ مَا خُلِقُوا
مِنْ هَوْلِ مَا عَايَنُوا سَكْرَى بِلاَ سُكُرِ
قَوْمٌ مُشَاةٌ وَرُكْبَانٌ عَلَى نُجُبٍ
عَلَيْهِمَا حُللٍ أَبْهَى مِنَ الزهرِ
وَيُسْحَبُ الظَّالِمُونَ الكَافِرُونَ عَلَى
وُجُوهِهِمْ وَتُحِيْطُ النَّارُ بالشَّرَرِ
والشَّمْسُ قَدْ أُدْنِيَتْ والنَّاسُ في عَرَقٍ
وفي زِحَامٍ وَفي كَرْبٍ وفي حَصَرِ
وَالأَرْضُ قَدْ بُدِّلَتْ بَيْضَاءَ لَيْسَ لَهَا
مَخْفَى ولاَ مَلْجَأٌ يَبْدُو لِمُسْتَتِرِ

طَـالَ الْـوُقُـوفُ فَجَاؤُا آدَمـاً فَـرَجَـوا
شَـفَـاعَـةً مِـنْ أَبِـيْـهِـمْ أَوَّلُ الْـبَـشَـرِ

فَـرَدَّ ذَاكَ إِلَـى نُـوحٍ فَـرَدَّ هُـمُـوا
إِلى الخَلِيْـل فَـأَبْـدَى وَصْفَ مُـفْتَـقِـرِ

إِلَـى الْكَـلِيْمِ إِلـى عِيْسَى فَـرَدَّهُـمُـوا
إِلَـى الْحَـبِـيْـبِ فَلَبَّـاهَـا بِـلاَ حَـصَـرِ

فَيَسْـأَلُ الْمُصْـطَفَى فَصْـلَ الْقَضَـاءِ لَهُمْ
لِـيَسْـتَـرِيْـحُـوا مِـنَ الأَهْـوَالِ وَالْـخَـطَـرِ

تُـطْوَى السَّـمَـواتُ وَالأَمْـلاَكُ هَـابِـطَةٌ
حَـوْلَ الْـعِـبَـادِ لِـهَـوْلٍ مُـعْـضِـلٍ عَـسِـرِ

والشَّمْسُ قَـدْ كُوِّرَتْ وَالْكُتُبُ قَـدْ نُشِـرَتْ
والأَنْجُمُ انْكَـدَرَتْ نَـاهِيْـكَ عَـنْ كَـدَرِ

وَقَـدْ تَـجَلَّى إِلَـهُ الـعَـرْشِ مُـقْـتَـدِراً
سُبْحَـانَـهُ جَـلَّ عَنْ كَيْـفٍ وَعَنْ فِـكَـرِ

فَـيَـأْخُـذُ الْحَـقَّ لِلْمَـظْلُومِ مُـنْـتَـصِـفـاً
مِـنْ ظَـالـمٍ جَـارٍ بِـالْـعُـدْوَانِ وَالْـبَـطَـرِ

وَالـوَزْنُ بِـالْقِسْطِ وَالأَعْمَالُ قَـدْ ظَهَـرَتْ
وَوَزْنُـهَـا عِـبْـرَةٌ تَـبْـدُو لِـمُـعْـتَـبِـرِ

وَكُـلُّ مَـنْ عَـبَـدَ الأَوْثَـانَ يَـتْـبَـعُـهَـا
بِـإِذْنِ رَبِّـي وَصَـارَ الْكُـلُّ فـي سَـقَـرِ

وَالمُسْلِمُــونَ إِلَى المِيْــزَانِ قَــدْ قُسِمُــوا
ثَــلاَثَــةً فــاسْمَعُــوا تَــقْسِيمَ مُـخْتَـصِـرِ

فَسَــابِقٌ رَجَــحَــتْ مِــيْــزَانُ طَــاعَتِــهِ
لَــهُ الْــخُــلُودُ بِــلَا خَــوْفٍ وَلَا ذُعُــرِ

وَمُــذْنِــبٌ كَــثُــرَتْ آثَــامُــهُ فَــلَهُ
شَــفْــعٌ بِــأوْزَارِهِ أَوْ عَــفْــوُ مُــغْــتَــفِــرِ

وَوَاحِــدٌ قَــدْ تَــسَــاوَتْ حَــالَتَــاهُ لَــهُ
حَبْسٌ طَــوِيْــلٌ وَبَيْنَ البِــشْــرِ وَالحَــصَــرِ

ويُــكْــرِمُ اللهُ مَــثْــوَاهُ بِــجَــنَّــتِــهِ
بِجُــوْدِ فَضْــلٍ عَمِيْمٍ غَيْــرِ مُنْحَــصِــرِ

وفي الـطَّرِيقِ صِــرَاطٌ مُــدَّ فَــوْقَ لَــظَى
كَــحَــدٍّ سَيْــفٍ سَــطَا فِي دِقَّــةِ الــشَّعَــرِ

النــاسُ في وِرْدِهِ شَتَّى فَمُسْــــتَبِقٌ
كــالبَــرْقِ والــطَّيْرِ أَوْ كَــالخَيْــلِ في النَّظَرِ

سَــاعِيْ ومَــاشٍ وَمَــخْــدُشٍ وَمُــعْــتَلِقٍ
نَــاجٍ وَكَــمْ سَــاقِطٍ في الــنــارِ مُنْتَشِرِ

لِلْــمُــؤْمِــنِــيْــن وُرُوْدٌ بَــعْــدَهُ صَــدَرٌ
والــكــافِــرُون لَــهُــمْ وِرْدٌ بِــلَا صَــدَرِ

فَــيَشْــفَــعُ المُــصْــطَفَى والأنــبيــاءُ وَمَــنْ
يَــخْتَــارُهُ الــمَــلِكُ الــرَّحْــمَــنُ فــي زُمَــرِ

فِي كُـلِّ عَـاصٍ لَـهُ نَفْسٌ مُـقَصِّـرَةٌ
وقَلْبُـهُ عَنْ سِوَى الـرَّبِّ العَـظِيْمِ بَـرِي
فَـأَوَّلُ الشُـفَـعَـا حَـقـاً وآخِـرُهـمْ
مُـحَمَّـدٌ ذُو الـبَـهَـاءِ الـطَّـيِّـبِ العَـطِرِ
والحَـوْضُ يَشْـرَبُ مِنْـهُ المُؤْمِنُـونَ غَــدَاً
كـالأَرْيِ يَجْـرِي عَلَى اليَـاقُـوْتِ والـدُّرَر
وَيَــخْــلُقُ اللهُ أَقْــوَامَــا قَـدْ احْـتَـرَقُـوْا
كَـانُـوا أُولِي العِـزَّةِ الشَّنْعَـاءِ والنَّـجَـرِ
والـنَــارُ مَثْـوىً لأَهْـلِ الـكُفْـرِ كُـلِّهِمُ
طِبَاقُهَا سَبْعَةٌ مُسْوَدَّةُ الحُفَرِ
جَـهَـنَّـمٌ وَلَـظَى والـحَـطْمُ بَـيْـنَـهُـمَـا
ثُمَّ السَّعِيْـرُ كَـمَـا الأَهْـوَالُ فِي سَـقَـرِ
وَتَـحْـتَ ذَاكَ جَـحِـيْـمٌ ثُـمَّ هَـاوِيَـةٌ
يَـهْـوِيْ بِهَـا أَبَـدَاً سُـحْقَـاً لِمُـحْـتَقِـرِ
فِي كُـلِّ بَـابٍ عُقُـوْبَـاتٌ مُضَـاعَفَـةٌ
وكُـلُّ وَاحِـدَةٍ تَـسْـطُوْا عَـلَى الـنَّـفَـرِ
فِـيهَـا غِـلَاظٌ شِـدَادٌ مِنْ مَـلَائِكَـةٍ
قُـلُوبُـهُـمْ شِـدَّةً أقْـسَى مِن الـحَـجَـرِ
لَـهُـمْ مَـقَـامِـعُ لِلتَّـعْـذِيْـبِ مُـرْصَـدَةٌ
وكُـلُّ كِـسْـرٍ لَـدَيْهِـمْ غَـيْـرِ مُـنْـجَـبِـرِ

سَــوْدَاءُ مُــظْلِمَــةٌ شَعْثَــاءُ مُــوْحِشَــةٌ
دَهْــمَــاءُ مُحْــرِقَــةٌ لَــوَّاحَــةُ الــبَشَــرِ

فِيها الجَحِيْمُ مُذِيْبٌ لِلْوُجُـوْهِ مَـعَ أَلْ
أَمْعَاءِ مِنْ شِــدَّةِ الاحْــرَاقِ والــشَّــرَرِ

فِيْهَـا الغِسَاقُ الشَّــدِيْـد البَـرْدِ يَقْطَعُهُمْ
إذَا اسْتَـغَــاثُـوا بِـحَــرٍّ ثُـمَّ مُسْتَـعِــرِ

فِـيْهَــا الـسَّلاَسِــلُ والأَغْلاَلُ تَجْـمَعُـهُمْ
مــعَ الشَّيَــاطِيْنِ قَسْــراً جَمْــعَ مُنْقَـهِــرِ

فِيْهَــا العَقَــارِبُ والحَيَّاتُ قَــدْ جُعِلَتْ
جُلُودُهُمْ كَــالْبِغَــالِ الــدُّهْـمِ والحُـمُـرِ

والجُــوْعُ والعَــطَشُ المُضْنِيْ لأَنْـفُسِهِم
فِـيْهــا وَلاَ جَلَدٌ فِـيْـهَــا لِمُـصْـطَبِـرِ

لَـهَــا إذَا مَــا غَـلَتْ فَـوْرٌ يُـقَـلِّـبُـهُـمْ
مَــا بَيْـنَ مُـرْتَـفِـعٍ مِـنْـهَــا وَمُنْـحَـدِرِ

جَمْـعُ النَّـوَاصِيْ مَــعَ الأَقْـدَامِ صَيَّــرَهُمْ
كَــالقَـوْسِ مَحْنِيَّــةً مِنْ شِــدَّةِ الــوَتَــرِ

لَهُمْ طَـعَــامٌ مِن الــزَّقُّــوْمِ يَـعْلَقُ فـي
حُلُوْقِهِـمْ شَـوْكُـهُ كَــالصَّــابِ والـصَّبِــرِ

يَــا وَيْلَهُم تُـحْــرِقُ النِّيْــرَانُ أَعْــظُمَهُمْ
بِــالمَوْتِ شَهْــوَتُهُمْ مِن شِــدَّةِ الضَّجَــرِ

ضَجَّوْا وَصَاحُوا زَمَانَاً لَيْسَ يَنْفَعُهُمْ
دُعَاءُ دَاعٍ ولا تَسْلِيْمُ مُصْطَبِرِ
وَكُلُّ يَوْمٍ لَهُمْ في طُوْلِ مُدَّتِهِمْ
نَزْعٌ شَدِيْدٌ مِن التَّعْذِيْبِ والسَّعَرِ
كَمْ بَيْنَ دَارِ هَوَانٍ لا انْقِضَاءَ لَهَا
وَدَارِ أَمْنٍ وَخُلْدٍ دَائِمِ الدَّهَرِ
دَارِ الَّذِيْنَ اتَّقُوْا مَوْلاَهُمُ وَسَعَوْا
قَصْدَاً لِنَيْلِ رِضَاهُ سَعْيَ مُؤْتَمِرِ
وآمَنُوْا واسْتَقَامُوْا مِثْلَ مَا أُمِرُوْا
واسْتَغْرَقُوْا وَقْتَهُمْ في الصَّوْمِ والسَّهَرِ
وَجَاهَدُوْا وانْتَهَوْا عَمَّا يُبَاعِدُهُمْ
عَنْ بَابِهِ واسْتَلاَنُوْا كُلَّ ذِيْ وَعَرِ
جَنَّاتُ عَدْنٍ لَهُمْ مَا يَشْتَهُوْنَ بِهَا
في مَقْعَدِ الصِّدْقِ بَيْنَ الرَّوْضِ والزَّهَرِ
بِنَاؤُهَا فِضَّةٌ قَدْ زَانَهَا ذَهَبٌ
وَطِيْنُهَا المِسْكُ والحَصْبَا مِنَ الدُّرَرِ
أَوْرَاقُهَا ذَهَبٌ مِنْهَا الغُصُونُ دَنَتْ
بِكُلِّ نَوْعٍ مِن الرَّيْحَانِ والثَّمَرِ
أَوْرَاقُهَا حُلَلٌ شَفَّافَةٌ خُلِقَتْ
واللُّؤْلؤُ الرَّطْبُ والمُرْجَانُ في الشَّجَرِ

دَارُ النَّعِيْمِ وَجَنَّاتُ الخُلُودِ لَهُمْ
دَارُ السَّلَامِ لَهُمْ مَأْمُوْنَةُ الغِيَرِ
وَجَنَّةُ الخُلْدِ والمَأْوَى وَكَمْ جَمَعَتْ
جَنّاتُ عَدْنٍ لَهُمْ مِن مُوْنِقٍ نَضِرِ
طِبَاقُهَا دَرَجَاتٌ عَدُّهَا مائةٌ
كُلُّ اثْنَتَيْنِ كَبُعْدِ الأَرْضِ والقَمَرِ
أَعْلَى مَنَازِلِهَا الفِرْدَوْسُ عَالِيَهَا
عَرْشُ الإِلَهِ فَسَلْ واطْمَعْ ولا تَذَرِ
أَنْهَارُهَا عَسَلٌ مَا فِيْهِ شَائِبَةٌ
وخَالِصُ اللَّبَنِ الجَارِي بِلَا كَدَرِ
وأَطْيَبُ الخَمْرِ والمَاءِ الذِي خَلِيَتْ
مِنَ الصُدَاعِ وَنُطْقِ اللَّهْوِ والسَّكَرِ
والكُلُّ تَحْتَ جِبَالِ المِسْكِ مَنْبَعُهَا
يُجْرُوْنَهُ كَيْفَ شَاؤُوْا غَيْرَ مُحْتَجَرِ
فِيْهَا نَوَاهِدُ أَبْكَارٌ مُزَيَّنَةٌ
يَبْرُزْنَ مِن حُلَلٍ فِي الحُسْنِ والخَفَرِ
نِسَاؤُهَا المُؤْمِنَاتُ الصَّابِرَاتُ عَلَى
حِفْظِ العُهُوْدِ مَعْ الإِمْلَاقِ والضَّرَرِ
كَأَنَّهُنَّ بُدُوْر فِي غُصُوْن نَقَا
عَلَى كَثِيْبٍ بَدَتْ فِي ظُلْمَةِ السَّحَرِ

كُــلُّ امـرِىءٍ مِنْهُمْ يُعْـطَى قُـوَى مِـائَـةً
في الأكْـلِ والشُرْبِ والإِفْضَـا بِـلاَ خَـوَرِ
طَعَـامُهُمْ رَشْـحُ مِسْـكٍ كُلَّمَـا عَـرِقُـوْا
عَادَتْ بُـطُوْنُـهُمُ فـي هَضْـمِ مُنْـضَمِـرِ
لاَ جُــوْعَ لاَ بَـرْدَ لاَ هَـمٌ وَلاَ نَـصَــبٌ
بَـلْ عَيْشُهُمْ عن جَمِيْعِ النَّـائِبَـاتِ عَـرِي
فِـيْـهَـا الوَصَائِفُ والْغِلْمَـانُ تَـخْـدُمُـهُـمْ
كـلُؤْلُؤ فـي كَـمَـالِ الـحُـسْـنِ مُـنْـتَـثِـرِ
فِيْهَـا الغِنَـا والجَـوَارِي الغَـانِيَـاتُ لَهُمْ
بـأحْسَنِ الـذِكْـرِ لِلْمَوْلَى مَـعَ السَّمَـرِ
لِبَـاسُـهُـمْ سُـنْـدُسٌ حُـلاَهُـمُ ذَهَـبٌ
وَلُـؤْلُـؤٌ وَنَـعِـيْـمٌ غَـيْـرُ مُـنْـحَـصِـرِ
والـذِكْـرُ كَـالنَّفَسِ الجَارِي بِــلاَ تَعَبٍ
وَنُــزِّهُــوْا عَـن كَــلاَم اللَّغْــوِ والـهَـذَرِ
وأَكْـلُهَــا دَائِـمٌ لاَ شَـيْءَ مُـنْـقَـطِعٌ
كَــرِّرْ أَحَـادِيْـثَهَـا فـي أَطْيَـبِ الـخَـبَـرِ
فِيْهَـا مِنَ الخَيْرِ مَـا لَمْ يَجْرِيْ في خَلَدٍ
وَلَـمْ يَكُـنْ مُـدْرُكـاً لِـلسَّـمْـعِ والبَصَرِ
فِيْهَـا رِضَـا المَلِكَ المَـوْلَى بِـلاَ غَضَبٍ
سُـبْـحَـانَـهُ وَلَـهُـمْ نَـفْـعٌ بِــلاَ غِيَـرِ

لَـهُـمْ مِـن اللهِ شَـيْءٌ لاَ نَـظِيْـرَ لَـهُ
سَمَـاعُ تَسْلِيْمِـهِ والـفَـوْزُ بـالـنَّـظَرِ

بِـغَيْـرِ كَـيْفٍ وَلا حَـدٍّ ولا مَـثَـلٍ
حَقـاً كَمَـا جَـاءَ في الْقُـرْآنِ والـخَبَـرِ

وهْـيَ الـزِّيَـادَةُ والحُسْنَى الَّتِيْ وَرَدَتْ
وأعْـظَمُ المَوْعِـدِ المَـذْكُـوْرِ في الزُّبُـرِ

للهِ قَـوْمٌ أَطَـاعُـوْهُ وَمَـا قَـصَـدُوا
سَـوَاهُ إِذْ نَـظَرُوْا الأَكْـوَانَ بـالـعِـبَـرِ

وَكَـابَـدُوْا الـشَّـوْقَ والأَنْكَـادُ قُـوْتُـهُـمْ
ولازَمُـوْا الـجِـدَّ والأَذْكَـارَ في الـبُـكَـرِ

يَـا مَالِـكَ المُلْكِ جُـدْ لِيْ بالـرِّضَا كَـرَماً
فـأَنْتَ لِيْ مُحْسِـنٌ في سَـائِـرِ العُمُـرِ

يـا رَبِّ صَـلِّ عَلَى الهَـادِي البَشِيْـرِ لَنَـا
وآلِـهِ وانْـتَـصِـرْ يَـا خَـيْـرِ مُنْـتَـصِـرِ

مَـا هَبَّ نَشْـرُ الصَّبَـا واهْتَـزَّ نَبْتُ رُبَـا
وفَـاحَ طِيْبُ شَـذَا في نَسْمَـةِ الـسَّحَـرِ

أَبْيَـاتُهَـا تِسْـعُ عَشْـرٍ بَعْـدَهَـا مـائَـةٌ
كَـلاَمُـهَـا وَعْـظُهـا أَبْهَـى مِـن الـدُّرَرِ

مـــوعظـــة

عِبَادَ اللهِ لَقَدْ امْتَنَّ اللهُ عَلَى خَاتَمِ رُسُلِهِ ، وَصَفْوَةِ خَلْقِهِ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بأَشْرَفِ المِنَنِ ، واخْتَصَّهُ بأجَلِّ النِّعَمِ ، وَآتاهُ مِنْ فَضْلِه مَا لَمْ يُؤْتِ أحَداً سِوَاهُ ، أَدَّبَهُ فَأَحْسَنَ تَأدِيْبَهُ ، وَهَذَّبَه فأكْمَلَ تَهْذِيْبَهُ ، وَمَنَحهُ مِنْ الصِّفَاتِ الجَمِيْلَةِ غَايَتُهَا ، وَمِنْ الأخْلاقِ الكَرِيْمَةِ نِهَايَتَها ، ثمَّ أثْنَى عَلَيْهِ فَقَالَ ﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلقٍ عَظِيْمٍ ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : كَانَ خَلقُه القُرْآنُ يَرْضَى بِرِضَاهُ ، وَيَسْخَطُ بِسَخطِهِ ، وَكَانَ ﷺ أوْسَعَ النَّاسِ صَدْرَاً ، وَأَصْدَقَهم قَوْلاً ، وأَلْيَنَهم جَانِباً ، وَأكْرَمَهُم عِشْرَةً ، يُؤَلِفُ النَّاسَ وَلاَ يُنَفِّرُهُم ، ويُكْرِمُ كَرِيْمَ كُلِّ قَوْمٍ ، وَيُوَلِّيْهِ عَلَيْهِم ، يَتَفَقَّدُ أصْحَابَهُ وَيُعْطِي كُلَّ جَلِيْسٍ نَصِيْبَهُ ، حَتَّى لاَ يَحْسَبُ جَلِيْسُه أحَداً أكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ ، مَنْ جَالسَهُ أو قَارَبَهُ بِحَاجَةٍ سَايرَهُ ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ المنْصَرِفُ عنْهُ ، قَدْ وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُه ، فَصَارَ لَهُم أباً رَحِيْماً . وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الحَقِّ سَوَاءٌ ، لِذَلِكَ اجْتَمَعْتَ عَلَيْهِ القُلُوبُ بَعْدَ نُفُورَها ، وَتَأَلَّفَتْ النُّفُوسُ بَعْدَ جُمُوحِهَا ، تَحْقِيْقاً لِقَوْلِهِ تعَالَى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللهِ لِنْتَ لَهُم ، وَلَوْ كُنْتَ فَظَّاً غَلِيْظَ القَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ وَكَانَ ﷺ حَلِيْماً مَعَ الأذَى ، عَفُوّاً مَعَ القُدْرَةِ ، صَبُوراً عَلَى المَكَارِهِ ، وَتِلْكَ خِصَالٌ أدَّبَهُ بِهَا رَبُّهُ ، فَقَالَ ﴿ خُذْ العَفْوَ ، وَأمُرْ الْعُرْفِ ، وأعْرِضْ عَنْ الجَاهِلِيْنَ ﴾ .

سَأَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلامُ عَنْ تَفْسِيْرِهَا ، فَقالَ : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِي من حَرَمَكَ ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكْرَمَ النَّاسِ ، وَأَسْخَاهُم يَدَا ، وَأَطْيَبهم

نَفْسا ، مَا سُئِلَ عَن شَيْءٍ قطُّ فَقَالَ لا ، مَنْ سَأَلهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بها ، أو بِمَيْسُورٍ منْ القَوْلِ ، يـجِيْبُ دَعْوةَ مَنْ دَعَاهُ ، وَيَقْبَلُ الهَدِيَّةَ ولو كانَتْ كُرَاعاً ، وَيُكَافِىءُ عَلَيْهَا خيْراً مِنْهَا ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَشْجعَ النَّاسِ ، وَأَعْظَمَ النَّاسِ غَيْرَةً وَاقْدَامَا ، فَرَّ الفُرْسَانُ وَالابْطالُ عنه غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَهُو ثابتٌ لا يَبْرَحُ ، مُقْبِلٌ لا مُدْبِرٌ ، وَلَا يتزَحْزَحُ ، وَكَانَ صلواتُ اللهِ وَسَلامُه عليه أَشَدَّ النَّاس حَياءً ، وَأَكْثَرَهُم عَنْ العَوْرَاتِ إِغْضَاءً قَالَ أَبو سَعِيْدٍ الخُدْرِيّ : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ أشَدَّ حياءً مِنْ العَذْرَاءِ في خِدْرِهَا ، وَكَانَ اذا كره شَيْئاً عَرفْنَا في وَجْهِهِ وَكَانَ لَا يُخَاطِبُ أَحَدا بِمَا يَكْرَهُ حَياءً وَكَرَماً .

أَمَّا شَفِقَتُه وَرَحْمَتُه وَرَأفَتُه وَلُطْفُه بِجَمِيْعِ الخَلْقِ ، فَمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ ﴿ لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكم ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ، حَرِيْصٌ عَلَيْكُمْ ، بالمؤْمِنيْنَ رَؤوفٌ رَحِيْمٌ ﴾ وَقَالَ عزَّ مِنْ قائِلٍ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِيْنَ ﴾ وَأَمَّا تَوَاضُعُه ـ مَعَ عُلُوِّ مَنْصِبِهِ وَمَكانَتِه ، وَرفْعِ رُتْبَتِه ـ فقد خيَّرهُ اللهُ بينَ أَنْ يكُونَ مَلِكاً نبيّا ، أو عبْداً نبيّا ، فاخْتَارَ عَبْداً نَبِيا ، وَكَانَ يَقُولُ « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ » وَكَانَ يُجَالِسُ الفُقَرَاءَ ، وَيَعُودُ المَسَاكِيْنَ ، وَيَجْلِسُ مَعَ أَصْحَابِهِ مُخْتَلِطاً بِهِمْ ، كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُم ، وَكَانَ يَقُولُ « اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيْناً ، وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً ، وَاحْشُرْنِي في زُمْرَةِ المسَاكِيْن » .

وَأَمَا عَدْلُه وَأَمَانَتُهُ ، وَعِفَّتُه وَمُرُوْءَتهُ ، وَوَقارُهُ وَهَيْبَتُه ، وَصِدْقُه وَوَفَاؤُه بالعَهْدِ وَحِفْظُه لِلْوَعْدِ ، وَصِلَتُه لِلأَرْحَام ، وَعَطْفُه عَلَى الأَيْتَام ، فَقَدْ بَلَغَ في كُلِّ ذَلِكَ الغَايَةَ ، وَوَصَلَ إِلَى النِّهَايَةِ وَأَمَّا زُهْدُه وَوَرَعُه ، فَقَدْ قَالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَمَ « إِنِّيْ عُرِضَ عَلَيَّ أَنْ تُجْعَلَ لِيْ بَطْحَاءُ مَكَّةَ ذَهباً ، فَقُلْتُ ، لا

يَارَبِّ . أَجُوْعُ يَوْماً ، وَأَشْبَعُ يَوْماً ، فَأَمَّا اليَوْمُ الذِيْ أجوعُ فيهِ فاتَضَرَّعُ إليْكَ وَأَدْعُوكَ ، وَأَمَّا اليَوْمُ الذي أَشْبَعُ فِيْه فَأَحْمَدُكَ وَأُثْنِيْ عَلَيْكَ » وَقَالَتْ ، أَمُّ المؤ مِنين عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : إنَّا كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ لَنَمْكُثُ شَهْراً مَا نَسْتَوْقِدُ ناراً ، إنْ هُوَ إلاَّ التَّمْرُ وَالمَاءُ ، وَأَمَّا خَوْفُه مِنْ رَبِّهِ ، وَطَاعَتُه لَهُ فعلى قَدْرِ عِلْمِهِ بِهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ « لوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُم قَلِيْلاً ، وَلَبَكَيْتُم كَثِيْراً ، أَرَى مَا لا تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ ، أَطَّتْ السَّماءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيْهَا مَوْضِعُ ارْبَع أَصَابع إلاَّ وَمَلكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلَّهِ وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُم قَلِيْلاً ، وَلَبَكَيْتُم كَثِيْراً ، وَلَمَا تَلَذَّذْتُم بالنِّسَاءِ عَلَى الفِرَاشِ وَلَخَرَجْتُم إلى ا لصُّعَدَاتِ تَجْأَرُونَ إلَى اللهِ تَعَالَى » . . وَكَانَ صلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يُصَلي حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفرَ اللهُ لك مَا تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِك وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ « أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُورَا » ؟ هَذَا يا عِبَادَ اللهِ قَلِيْلٌ مِنْ كَثِيْرٍ مِنْ صِفَاتِ سَيِّدِ المرْسَلِيْنَ ، ذِيْ الخُلُقِ العَظِيْم ، والقدْرِ الفَخِيْم ، فَهَلْ لَكُم أَنْ تَتَأَمَّلُوا هَذِه الصِّفَاتِ الجَلِيْلَةَ ، وَالخِصَالَ الحَمِيْدَةَ ، فَتَمَسَّكُوا بِهَا وَتَسيرُوا عَلَى نَهْجِهَا ، قَالَ تَعَالَى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُوْلِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنة ﴾ الآيَة .

شِـعراً :

يَـا نَفْسُ تُـوبِي فَـإنَّ المَـوْتَ قَـدْ حَـانَـا
وَاعْصِي الْهَـوى فـالْهَـوى مَـا زَالَ فَتَّـانَـا
أَمَـا تَـرَيْـنَ الـمَـنَـايَـا كَـيْـفَ تَـلْقُـطُـنَـا
لَـقْـطاً فَـتُـلْحِـقُ أُخْـرَانَـا بِـأُوْلاَنَـا

فِي كُـلِ يَـوْمٍ لَـنَـا مَـيْـتٌ نُـشَـيِّـعُـه
نَـرَى بِـمَـصْـرَعِـهِ آثَـارَ مَـوْتَـانَـا
يَـا نَـفْسُ مَـالِي وَلِـلأَمْـوَالِ أَتْـرُكُـهَـا
خَـلْفِي وَأُخْـرَجُ مِـن دُنْيَـايَ عُـرْيَـانَـا
أَبَـعْـدَ خَمْسِيْنَ قَـدْ قَضَيْتُهَـا لِعِبَـا
قَـد آنَ أَنْ تَـقْـصُرِي قَـدْ آنَ قَـدْ آنَـا
مَـا بَـالُنَـا نَتَعَـامَى عَـن مَـصَـائِـرنَـا
نَنْسَى بِغَفْلَتِنَـا مَن لَيْسَ يَنْسَـانَـا
نَـزْدَادُ حِـرْصـاً وَهَـذَا الـدهرُ يَـزْجُـرَنَـا
كَـان زَاجِـرنَـا بِـالـحِـرصِ أَغْـرَانَـا
أَيْـنَ الـمُـلوكُ وَأَبْـنَـاءُ الـمُـلُوكِ وَمَـن
كَـانَـتْ تَـخِـر لَـه الأَذْقَـانُ إِذْعَـانَـا
صَـاحَتْ بِهِم حَـادِثَـاتُ الدهـرِ فَانْقَلَبُـوا
مُـسْتَـبْـدِلِـيْـنَ مِـن الأَوْطَـانِ أَوْطَـانَـا
خَـلَّوا مَـدَائِـنَ كَـانَ الـعِـزُّ مَفْـرَشُـهَـا
واسْتُـفْـرِشُـوْا حُـفُـراً غُـبْـراً وَقِـيْـعَـانَـا
يَـا رَاكِضـاً في مَيَـادِينِ الـهَـوَى مَـرِحـاً
وَرَافِـلاً فِـي ثِـيَـابِ الـغَـيِّ نَـشْـوَانَـا
مَضَى الـزمَـانُ وَوَلَّى العُـمْـرُ في لَـعِبٍ
يَكفِيكَ مَـا قَـدْ مَضَى قَـد كَـانَ مَـا كَـانَا

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا تَوْفِيْقاً يَقِيْنا عَنْ مَعَاصِيْكَ ، وَأَرْشِدْنَا إِلَى السَّعْي إِلَى مَا

يُرْضِيكَ ، وَأَجِرْنَا يا مَوْلَانَا مِنْ خِزْيِكَ وَعَذَابِكَ ، وَهَبْ لَنا مَا وَهَبْتَهُ لأَوْلِيَائِكَ وَأَحْبَابِكَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالمَيِّتِيْنَ ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

فَصْـــلٌ

في وَصْفِ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ قالَ « لغَدْوَةٌ في سَبِيْلِ اللّهِ أَوْ رَوْحَة خَيْرٌ مِنْ الدُّنيا وَمَا فِيْهَا وَلقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُم أو مَوْضِعُ قَيْدِهِ ـ يَعْنِيْ سَوْطَهُ ـ مِنْ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدنيَا وما فِيْهَا ، وَلَوْ اطَّلَعَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلَى الأَرْضِ لَمُلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيْحاً ، وَلأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُما ، وَلنصِيْفُها عَلَى رَأسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدّنيَا وما فِيْهَا » . رَوَاهُ البُخارِيّ وَمُسْلِمٌ وَالطَّبَرانِيّ مُخْتَصَراً باسْنَادٍ جَيِّدٍ ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : « ولتَاجُهَا عَلَى رَأسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا » .

(النصِيْفُ) : الخِمَارُ .

(أَلْقَابُ) : هُوَ القَدْرُ ، وَقَالَ أَبُو مَعْمَرٍ : قَابُ القَوْسِ مِنْ مَقْبَضِهِ إِلَى رَأْسِهِ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلم قالَ : « إِنَّ أَوّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلونَ الجَنّةَ على صُوْرَةِ القمرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ، وَالتي تَلِيْهَا على أَضْوَءِ كَوْكَبٍ دُرِّيّ في السَّمَاءِ وَلِكُلِّ امْرِيءٍ مِنْهُم زَوْجَتَانِ اثْنَتانِ ، يَرى مُخَّ سُوقِهما مِنْ وَرَاءِ اللحْمِ ، وما في الجَنَّةِ أَعْزَبٌ » رَواهُ

البُخارِيّ وَمُسْلِمٌ .

وَعَنْ ابْن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنّ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلمَ قالَ « إنَّ المرْأَةَ مِن نِسَاءِ أَهْلِ الجَنّةَ لَيُرَى بَيَاضُ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبعينَ حُلةً ، حتّى يُرَى مُخُهَا ، وَذلِكَ بأنّ اللهَ عزّ وَجلَّ يَقُولُ : ﴿ كأنهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرْجَانُ ﴾ فأمَّا اليَاقُوتُ فإنَّهُ حَجَرٌ لَو أَدْخَلْتَ فِيْهِ سِلْكاً ثمَّ اسْتَصْفَيْتَهُ لرَأيتَه مِنْ وَرَائِه » رَوَاهُ ابْنُ أبي الدنيا ، وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِه ، وَالتِّرْمِذيّ واللفظُ لهُ وَقَالَ : وَقَدْ رُوِي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَلَمْ يَرْفَعْهُ ، وَهُوَ أَصَحُّ .

وَرُوِيَ عن أَنَس بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه ، قالَ : حَدَّثني رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : قالَ « حَدَّثَني جِبْرِيْلُ عليه السَّلامُ : قالَ : يَدْخُلُ الرَّجُلُ على الحَوْرَاءِ ، فَتَسْتقْبِلُه بالمُعَانَقةِ وَالمُصَافَحةِ » قالَ رسُولُ الله صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « فَبأَيِّ بنَانٍ تُعَاطِيْهِ ، لَوْ أَنَّ بَعْضَ بنَانِهَا بَدا ، لَغلبَ ضَوْؤُهُ ضَوْءَ الشّمْسِ وَالقَمرِ ، وَلَوْ أنَّ طَاقةً مِنْ شَعْرِهَا بَدَتْ ، لَمَلأَتْ مَا بَيْنَ المَشْرقِ وَالمَغْرِبِ مِنْ طِيْبِ رِيْحِهَا ، فَبَيْنَما هُوَ مُتَّكِيءٌ معَها على أَرِيْكَتِه، إذ أشْرَفَ عَلَيهِ نُوْرٌ مِن فَوْقِه ، فيظُنُّ أنَّ الله عَز وجَلَّ قدْ أَشْرَفَ عَلى خَلْقِه ، فإذا حَوْرَاءُ تُنَادِيْهِ : يَا وَلِيَّ اللهِ . أَمَا لَنَا فِيْكَ مِن دَوْلَةٍ ؟ فَيَقُولُ : مَنْ أنْتَ يا هَذِه . فَتَقُولُ : أَنا مِنْ اللَّوَاتِي قَالَ اللهُ تباركَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيْدٌ ﴾ فَيَتحَوَّلُ عِنْدَهَا ، فإذا عِنْدَهَا مِنْ الجَمَالِ وَالكَمَالِ مَا لَيْسَ مَعَ الأولَى ، فَبَيْنَمَا هُوَ مُتَّكِيءٌ مَعَها على أَرِيْكَتِهِ ، وَإذا حَوْرَاءُ أُخْرَى تُنَادِيْهِ : يَا وَلِيَّ اللهِ أَمَالنا فِيْكَ مِنْ دَوْلَةٍ؟ فَيقُولُ : مَنْ أَنْتِ يَا هَذِهِ ، فَتقُولُ : أَنَا مِنْ اللوَاتِي قَالَ اللهُ عَزّ وَجلّ ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا

أُخْفِيَ لهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾ فلا يَزالُ يَتحَوَّلُ مِنْ زَوْجَةٍ إلى زَوْجَةٍ . رَوَاهُ الطّبَرَانِي في الأَوْسَط .

وَعَنْ أَبي سَعِيْدٍ الخُدْري رَضِيَ اللهُ عنه عَن النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلمَ : في قَوْلِهِ : (كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ والمرْجَانُ) قَالَ : يَنْظُرُ إلى وَجْهِهِ في خدِّهَا أَصْفَى مِنْ المرْآةِ ، وَإِنَّ أدْنَى لُؤْلؤةٍ عَلَيْهَا لتُضِيْءُ مَا بَيْنَ المشْرِقِ والمَغْرِبِ ، وَإِنّهُ ليَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلة يَنْفُذُهَا بَصَرُه ، حتّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذلكَ » رَوَاهُ أحْمَدُ وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيْحِهِ في حَدِيْثٍ تَقَدَّمَ بِنَحْوِه ، وَالبَيْهَقِيّ باسْنَادِ ابْنِ حبَّانَ واللفْظُ لهُ .

قالَ ابْنُ القيّمِ رَحِمَهُ اللهُ في صِفَةِ عُرَائِسِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَحُسْنِهِنَّ وَجمَالِهِنّ وَوِصَالِهِنَّ .

وإِذَا بَـدَتْ فـي حُـلَّةٍ مِـنْ لُـبْـسِـهَـا
وَتَـمَـايَلَتْ كَـتَـمَـايُـلِ الـنَّـشْـوَانِ
تَهْتَـزُّ كَـالغُصْنِ . الـرَّطِيْـب وَحَمْـلُه
وَرْدٌ وَتُـفَـاحٌ عَـلـى رُمَـانِ
وَتَـبَخْتَـرَتْ في مَشْيِـهَـا وَيَحِقُ ذَا
كَ لِمِثْلِهَـا في جَنَّـةِ الحَيَـوانِ
وَوَصَـائِـفٌ مِن خَلْفِهَـا وَأَمَـامِهَـا
وعـلى شَمَـائِـلِهَـا وَعَـن أَيْـمَـانِ
كـالبَـدْرِ لَيلةَ تِمّـِهِ قَـدْ حُفَّ في
غَسَقِ الـدُّجَى بكَـواكِـبِ المِيْـزَانِ

فَـلِسَـانُـهُ وَفُـوآدُهُ والـطَّرفُ فِـي
دَهَشٍ وإِعْـجَـابٍ وفـي سُـبْـحَـانِ
فَـالقَلْبُ قَبلَ زِفَـافِهَا في عُـرْسِهِ
والـعُـرَسُ إِثْـرَ العُـرْسِ مُـتَّـصِـلاَنِ
حَـتَّـى إِذَا مَـا وَاجَـهَـتْـهُ تَـقَـابَـلاَ
أَرَأَيْـتَ إِذْ يَـتَـقَـابَـلُ الـقَـمَـرَانِ
فَسَلِ المُتيَّمَ هَلْ يَحِلُ الصبرُ عَن
ضَـمٍ وَتَـقْـبِـيـلٍ وَعَـن فُـلْتَـانِ
وَسَـلِ الـمُـتيَّمَ أَيْـنَ خَـلَّفَ صَـبْـرَهُ
فـي أَيِ وَادٍ أَمْ بِـأَيِ مَـكَـانِ
وَسَـلِ المُتَيَّم كَـيْفَ حَـالَتُـه وَقَـدْ
مُـلِئَـتْ لَـه الأُذُنَـانِ والـعَـيْـنَـانِ
مِـن مَنْطِقٍ رَقَّـتْ حَـوَاشِيْـهِ وَوَجْـ
ـهٍ كَـمْ بِـهِ لِـلشَّـمْسِ مِـن جَـرَيَـانِ
وَسَـلِ الـمُتيَّم كَـيْفَ عِـيشَـتُـهُ إذاً
وَهُـمَـا عَـلَى فُـرَشَـيْـهِـمَـا خَـلَوَانِ
يَـتَـسَـاقَـطَانِ لَئَـآلئَـاً مَـنْـثُـورَةً
مِـن بَيْـنِ مَنْـظُومٍ كَـنَـظْمِ جُـمَـانِ
وَسَـل المُتَيَّمَ كَيْفَ مَجْلِسُه مَعَ الْـ
مَـحْبُـوْبَ فـي رَوْحٍ وفـي رَيْـحَـانِ

وَتَدورُ كاسَاتُ الرَحِيْقِ عَلَيْهِمَا
بأَكُفِ أقمارٍ مِن الوِلْدَانِ

يَتَنَازَعَانِ الكَأسَ هَذَا مَرَّةً
والخُودُ أُخْرَى ثُمَّ يَتَكِئَانِ

فَيَضُمُّهَا وَتَضُمُّهُ أَرَأَيْتَ مَعْ
شُوْقَيْنِ بَعدَ البُعْدِ يَلْتَقِيَانِ

غابَ الرَّقِيْبُ وَغَابَ كُلُّ مُنَكِّدٍ
وَهُمَا بثَوْبِ الوَصْلِ مُشْتَمِلانِ

أَتَرَاهُمَا ضَجِرَيْنِ مِن ذَا العَيْش لا
وَحَياةِ ربِكَ مَا هُمَا ضَجِرَانِ

وَيَزِيْدُ كُلٌ مِنْهُمَا حُباً لِصَا
حِبِهِ جَدِيْداً سَائِرَ الأَزْمَانِ

وَوِصَالُهُ يَكْسُوهُ حُباً بَعْدَهُ
مُتَسَلْسِلاً لا يَنْتَهِي بِزَمَانِ

فالوَصْلُ مَحْفُوْفٌ بحُبٍ سَابِقٍ
وَبِلاَحِقٍ وَكِلاَهُمَا صِنْوَانِ

فَرْقٌ لَطِيْفٌ بَيْنَ ذَاكَ وَبَيْنَ ذَا
يَدْرِيْهِ ذُوْ شُغْلٍ بِهَذَا الشَّانِ

وَمَزِيْدُهُم في كُلِّ وَقْتٍ حَاصِلٌ
سُبْحانَ ذِي المَلكُوتِ والسُلْطَانِ

يـا غـافـلاً عَمَّا خُلِقْتَ لَـهُ انْتَبِهْ
جَـدَّ الـرَّحِيْـلُ وَلَسـتَ بـاليَـقْـظَانِ
سَـارَ الـرِفَـاقُ وَخَلفُـوكَ مَـعَ الأُولى
قَنعُـوا بِـذَا الحَظِ الخَسِيْسِ الفَـانِ
وَرَأَيْـتَ أَكْثَـرَ مَـنْ تَـرَى مُتَخَلِّفَـاً
فَتَبَعْتَهُـم فَـرَضِيْتَ بـالـحِـرْمَـانِ
لَكِنْ أَتَيْتَ بخُـطَّتَيْ عَـجْـزٍ وَجَهْـلٍ
بَـعْـدَ ذا وَصـحِـبْـتَ كُـلَّ أَمَـانِ
مَنّتْكَ نَفْسُـكَ بالحُـوقِ مَـعَ القُعُـو
دِ عَـنِ الـمَسِيْـرِ وَرَاحَـةِ الأَبْـدَانِ
وَلَسَـوْفَ تَعْلَمُ حِيْنَ يَنْكَشِفُ الغِـطَا
مَـاذا صَـنَعْـتَ وَكُـنْـتَ ذَا إِمْـكَـانِ

(فَصْـلٌ)

قال ابن القيم رحمه الله

« وَكَيْفَ يُقَدَّرُ قَدْرُ دَارٍ غَرَسَها اللهُ بِيَدِهِ ، وَجَعَلَها مَقَرّاً لأحْبابِهِ ، ومَلأَها مِنْ رَحْمَتِهِ وَكَرامَتِه وَرِضْوانه ، وَوَصَفَ نَعِيْمَها بالفَوْزِ العَظِيْمِ ، ومُلْكَها بالمُلْكِ الكَبِيْر ، وَأَوْدَعَها جَمِيْعَ الخَير بحَذافِيْرِهِ ، وَطَهَّرَها مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَآفَةٍ وَنَقْصٍ .

فإِنْ سَأَلْتَ عَن أَرْضِهَا وَتُربتِهَا ، فَهيَ المِسْكُ والزَّعْفَرانُ .

وإنْ سَأَلْتَ عن سَقْفِهَا فَهُوَ عَرْشُ الرَّحْمَنِ .

وإنْ سَأَلْتَ عن بَلَاطِهَا فَهُوَ المسْكُ الأَذْفَرُ .

وانْ سَأَلْتَ عن حَصْبَائِهَا فَهُو اللُّؤْلُؤ وَالجَوْهَرُ .

وإنْ سَأَلْتَ عن بنَائِهَا ، فَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ ، وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ .

وإنْ سَأَلْتَ عن أَشْجَارِهَا ، فَمَا فِيْهَا شَجَرَةٌ إلا وَسَاقُها مِن ذَهبٍ وفِضَّةٍ ، لا مِنْ الحَطبِ وَالخَشَبِ .

وإنْ سَأَلْتَ عن ثَمرِهَا ، فأمْثَالُ القِلالِ ، أَلْيَنُ مِنْ الزُّبْدِ ، وَأَحْلَى مِنْ العَسل .

وَإنْ سَأَلْتَ عَن وَرَقِهَا ، فَأَحْسَنُ ما يَكُونُ من رِقَائِقِ الحُلَل .

وإنْ سَأَلْتَ عن أَنْهَارِهَا ، فَأَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْر آسِنٍ (وأنهَارٌ مِنْ لَبن لم يَتَغَيَّرْ طَعْمُه ، وأنهَارٌ من خَمْرٍ لذةٍ للشَّارِبيْن ، وَأَنْهَارٌ من عَسَل مُصَفًّى) .

وَإنْ سَأَلْتَ عَن طَعَامِهم ، (فَفَاكِهَةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) .

وَإنْ سَأَلْتَ عن شَرابهم ، فَالتَّسْنِيْمُ ، وَالزَّنْجبِيْلُ والكَافُورُ .

وَإنْ سَأَلْتَ عن آنيَتِهم فآنِيَةُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، في صَفاءِ القَوارِيْرِ .

وإنْ سَأَلْتَ عن سَعَةِ أَبْوَابِهَا ، فَبيْنَ المِصْرَاعَين مَسِيْرَةُ أَرْبَعِيْنَ مِنْ الأَعْوَام ، وَلِيَأْتِينَّ عليه يَوْمٌ وَهُو كَظِيْظٌ مِنْ الزِّحَام .

وإن سَأَلْتَ عن تَصْفِيْقِ الرِّيَاحِ لأَشْجَارِهَا ، فإنّهَا تَسْتَفِزُّ بالطَّرَبِ لِمَنْ

يَسْمَعُهَا .

وإن سَأَلْتَ عن ظِلِّهَا ، فَفِيْهَا شَجرةٌ واحِدةٌ يَسِيْرُ الرَّاكِبُ المُجِدُّ السَّرِيعُ في ظِلِهَا مائةَ عام لا يَقْطَعُها .

وإنْ سَأَلْتَ عن سَعَتِها ، فأدْنَى أَهْلِهَا يَسِيْرُ في مُلْكِهِ وَسُرُرِه وَقُصُورِه وَبَسَاتِيْنِه مَسِيْرَةَ أَلْفَيْ عَام .

وَإِنْ سَأَلْتَ عن خِيَامِهَا وَقِبَابِهَا ، فالخَيْمَةُ الوَاحِدَةُ مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ ، طُوْلُها سِتّونَ مِيْلاً مِنْ تِلْكَ الخِيَامِ .

وإنْ سَأَلْتَ عن عَلالِيْهَا وَجَواسِقُها ، فَهِيَ (غُرَفٌ مِن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ ، تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ) .

وإن سَأَلْتَ عَن ارْتِفَاعِهَا ، فانْظُرْ إلى الكَوْكَبِ الطَّالِعِ أَو الغَارِبِ في الأُفُقِ الذِيْ لا تكادُ تَنالُه الأَبْصَارُ .

وَإنْ سَأَلْتَ عَنْ لِبَاسِ أَهْلِهَا ، فَهُوَ الحريرُ وَالذَّهَبُ .

وإنْ سَأَلْتَ عن فُرُشِهم فَبطائِنُها مِن اسْتَبْرَقٍ مَفْرُوشَةٍ في أَعْلَى الرُّتَبِ .

وَإنْ سَأَلْتَ عن أرائِكِهَا ، فَهِيَ الأَسِرَّةُ عَلَيْهَا الْبُشْخَانَاتُ وَهِيَ الحِجَالُ ، مُزَرَّرَةٌ بأزرَارِ الذَهَبِ ، فَمالَهَا مِنْ فُروجٍ ولا خِلالٌ .

وإنْ سَأَلْتَ عن وُجوهِ أَهْلِهَا وَحُسْنِهم فعَلى صُوْرَةِ القَمرِ .

وَإنْ سَأَلْتَ عن أَسْنَانِهم ، فَأَبْنَاءُ ثلاثٍ وَثَلاثِيْنَ ، على صُوْرَةِ آدمَ عليهِ السَّلامُ أَبِي البَشَرْ .

وان سَأَلْتَ عن سمَاعِهِمْ ، فغِنَاءُ أَزْوَاجِهِم مِنْ الحُوْرِ العِيْنِ وَأَعْلَى مِنْهُ سَمَاعُ أَصْوَاتِ الملائِكةِ وَالنَّبِيِّيْنَ ، وَأَعْلَى مِنْهُمَا خِطَابُ رَبِّ العَالميْنَ .

(فصلٌ في سماع أهل الجنة)

وقال في النونية :

قَالَ ابْنُ عباسٍ ويُرسِلُ رَبُّنَا
رِيْحاً تَهُزُ ذَوَائِبَ الأَغْصَانِ

فَتُثِيْر أَصْوَاتاً تَلَذُّ لِمَسْمَعِ الْـ
إِنْسَانِ كَالنَّغَمَاتِ بالأوزَانِ

يا لَذَّةَ الاسْمَاعِ لا تَتَعَوَّضِيْ
بِلَذَاذَةِ الأوتارِ والعِيْدانِ

أَوَ مَا سَمِعْتَ سَمَاعَهم فيها غِنَا
ءَ الحُوْرِ بالأصواتِ والألحَانِ

وَاهاً لِذَيَّاكَ السَّمَاعِ فإِنَّه
مُلِئَتْ بِهِ الاذُنَانِ بالإحِسْانِ

وَاهاً لِذَيَّاكَ السَّماعِ وَطِيْبِهِ
مِن مِثْلِ أَقْمارٍ عَلى أَغْصَانِ

واهاً لِذَيَّاكَ السَّمَاعِ ولَم أَقُلْ
ذَيَّاكَ تَصْغِيْراً لَهُ بِلِسَانِ

واهـاً لِـذَيَّـاكَ الـسَّـمـاعِ فَـكَـم بِـهِ
لِـلْقَـلْبِ مِـن طَـربٍ ومِـن أَشْـجَـانِ

مـا ظَـنَّ سـامِـعُـه بِصَـوتِ أَطْيَـب الـْ
أَصْـوَاتِ مِـن حُـوْرِ الـجِـنَـانِ حِـسَـانِ

نَـحنُ الـنَّـواعِـمُ والـخَـوالِـدُ خَـيِّـرَا
تٌ كَـامِـلاتُ الـحُـسْـنِ والإحْـسَـانِ

لَـسْنَـا نَـمُـوتُ ولا نَـخَـافُ وَمَـالَـنـا
سَـخَطٌ ولا ضَـغَـنٌ مِـن الأَضْـغَـانِ

طُـوبـيَ لِـمَـنْ كُـنَّـا لَـهُ وَكَـذَاكَ طُـوْ
بَـي لِـلَّذِي هُـوَ حَـظُنـا لَـفْـظَانِ

فـي ذَاكَ آثَـارٌ رُوِيْـنَ وَذِكْـرُهَـا
فـي التِـرْمِـذِّي وَمُـعْـجَـمِ الـطَّبَـرانِـي

وَرَوَاهُ يَـحْـيَ شَـيْـخُ الاوزَاعِـي تَـفْـ
سِـيْـرا لِـلَفْـظَةِ يُـحْـبَـرُوْنَ أَغـانِـي

نَـزِّهْ سَـمَـاعَـكَ إِنْ أَرَدْتَ سَـمَـاعَ ذَيْـ
ـيَّـاكَ الـغِـنَـا عَـن هَـذِهِ الأَلْـحَـانِ

لا تُـؤْثِـرِ الأَدْنَـى عـلى الأَعْـلَى فَـتُـحْـ
رَمُ ذَا وَذَا يَـا ذِلَّـةَ الـحِـرْمَـانِ

إن اخْـتِـيَـارَكَ لِـلسَّـمَـاعِ الـنَّـازِل الْـ
أَدْنَـى عـلَى الأعْـلَى مِـن الـنُـقْـصَـانِ

والـلـهِ إِنَّ سَـمَـاعَـهُـم فـي الـقَـلْـبِ والْـ
أَبـدانِ مِـثْـلُ الـسُـمِ فـي الأَبْـدانِ

والـلـهِ مَـا انْـفَـكَّ الَّـذِي هُـوَ دَأبُـه
أَبـداً مِـن الاشْـرَاكِ بـالـرَّحْـمَـنِ

فـالـقَـلْبُ بَـيْـتُ الـرَّبِ جَـلَّ جَـلاَلُـه
حُـبـاً واخْـلاَصـاً مَـعَ الإِحْـسَـانِ

فـإِذا تَـعَـلَّقَ بـالـسَّـمَـاعِ أَصَـارَهُ
عَـبْـداً لِـكُـلِّ فُـلانَـةٍ وَفـلانْ

حُـبُّ الـكِـتَـابِ وَحُـبُ أَلْـحَـانِ الـغِـنَـا
فـي قَـلْـبِ عَـبْـدٍ لَـيْسَ يَـجْـتَـمِـعَـانِ

ثُمَّ قَالَ في تَتِمَّةِ كَلامِه في أَهْلِ الجَنَّةِ :

وَانْ سَأَلْتَ عَنْ مَطَايَاهُم التِي يَتزَاوَرُوْنَ عَلَيْهَا ، فَنجائِبُ أنْشَأهَا اللهُ مِمَّا شَاءَ تَسِيْرُ بِهِم حَيْثُ شَاؤا مِنْ الجِنَانِ .

وإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حُلِيِّهم وَشَارَتِهم فَأسَاوِرُ الـذَّهَبِ وَاللُّؤْلُؤِ عَلَى الرّؤُوسِ مَلاَبِسُ التّيْجَانِ .

وَانْ سَـأَلْتَ عَنَ غِلْمَانِهِم ، (فَـوِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ، كَـأَنَّهُم لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ) .

وَان سَأَلْتَ عن عَرَائِسِهُمْ وَأَزْوَاجِهِمْ فَهُنَّ الكَوَاعِبُ وَالأَتْرَابُ ، اللاتي جَرَى في أَعْضَائهن مَاءُ الشَّبَاب ، فلِلْوَرْدِ وَالتُّفَّاح مَا لَبِسَتْهُ الخدُوْدُ ، وللرُّمَانِ مَا تَضَمَّنَتْهُ النُّهُودُ ، وَلِلؤلُؤ المَنْظُوْم مَا حَوتهُ الثُّغُورُ ، ولِلرِّقَةِ وَاللَّطَافَةِ ما دَارَتْ عليه الخصُورُ ، تَجْرِي الشَّمْسُ مِنْ مَحَاسِن وَجْهِهَا إِذَا بَرزَتْ ، وَيُضِيْءُ البَرْقُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهَا إذا ابْتَسَمَتْ ، إِذا قَابَلَتْ حِبَّهَا فقُلْ مَا تَشَاءُ في تَقَابُلِ النَّيِّرَيْن ، وَإِذا حَادَثَتَه فَمَا ظَنُّكَ بمُحَادَثَةِ الحِبَّيْنِ وَإِنْ ضَمَّهَا إِلَيْهِ فما ظَنُّكَ بتَعَانُقِ الغُصْنَيْنِ ، يَرَى وَجْهَهُ في صَحْنِ خَدِّهَا ، كَمَا يَرَى في المرْآةِ التي جَلاهَا صَيْقَلُها ، وَيَرَى مُخَّ ساقِهَا مِن وَرَاءِ اللَّحْمِ ، ولا يَسْتُره جِلْدُهَا ولا عَظْمُها وَلا حُلَلُها .

لوْ اطَّلَعَتْ على الدُّنْيَا لَمَلأَتْ مَا بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ رِيْحاً ، وَلاسْتَنْطَقَتْ أَفْوَاهُ الخَلائِقِ تَهْلِيْلاً وتكبِيْراً وَتَسْبِيْحاً، وَلِتَزَخْرَفَ لهَا مَا بَيْنَ الخَافِقَيْن ، وَلأَغمَضَتْ عَنْ غَيْرِهَا كُلُّ عَيْنٍ ، وَلَطَمَسَتْ ضَوْءَ الشَّمْس ، كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُوم ، وَلآمَنَ مَنْ عَلَى ظَهْرِهَا باللهِ الحَيِّ القَيُّومِ

وَنَصِيْفُها عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنْ الدّنْيَا وَمَا فِيْهَا ، وَوِصَالُهَا أَشْهَى إِلَيْهِ من جَمِيْع أَمَانِيْهَا ، لا تَزْدَادُ عَلَى طُوْلِ الأَحْقَاب إلَّا حُسْناً وَجمالاً ، وَلَا يَزْدَادُ لَها طُوْلَ المَدَى إلا مَحَبَّةً وَوِصَالا ، مُبَرَّأَةٌ مِنْ الحَمْل وَالوِلَادَةِ وَالحَيْض وَالنِّفَاسِ ، مُطَهَّرَةٌ مِنْ المُخَاطِ وَالبُصَاقِ وَالبَوْلِ والغَائِطِ وَسَائِرِ الأَدْنَاس ، لا

يَفْنَى شَبَابُها ، ولا تَبْلَى ثِيَابُها وَلا يَخْلقُ ثَوْبُ جَمَالِها ، ولا يُمَلُّ طِيْبُ وِصَالِهَا .

قَدْ قَصَرَتْ طَرْفَها عَلَى زَوْجِهَا ، فَلا تَطْمَحُ لأَحَدٍ سِوَاهُ ، وَقَصَرَ طَرْفَه عَلَيْهَا فَهِيَ غَايَةُ أَمْنِيَتِهِ وَهَوَاهُ ، إنْ نَظَرَ إلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإنْ أَمَرَهَا بِطَاعَتِهِ أَطَاعَتْهُ ، وَإنْ غَابَ حَفِظَتْهُ ، فَهُوَ مَعَهَا في غَايَةِ الأَمَانِيّ وَالأَمَانِ .

هَذَا وَلَم يُطْمِثْهَا قَبْلَهُ انسٌ ولا جَانٌّ ، كُلَّمَا نَظَرَ إِلَيْهَا مَلأَتْ قَلْبَهُ سُرُوراً ، وَكُلَّما حَدَّثَتْهُ مَلأَتْ أُذُنَهُ لُؤْلُؤاً مَنْظُوماً مَنْثُورَاً .

وَإذا بَرزَتْ مَلأَتْ القَصْرَ وَالغُرْفَةَ نُوْرَا .

وَإنْ سَأَلْتَ عَنْ السِّنِّ فَأتْرَابٌ في أَعْدَلِ سِنِّ الشَّبَابِ .

وَإنْ سَأَلْتَ عَنْ الحُسْنِ فَهَلْ رَأَيْتَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ .

وَإنْ سَأَلْتَ عن الحَدَقِ فأحْسَنُ سَوَادٍ في أَصْفَى بيَاضٍ في أحْسَن حَوَرٍ .

وإنْ سَأَلْتَ عَنْ القُدُوْدِ فَهَلْ رَأَيْتَ أَحْسَنَ الأغْصَانِ ، وان سَأَلْتَ عن النُّهودِ فَهُنَّ الكَوَاعِبُ ، نُهودُهنّ كَأَلْطَفِ الرُّمَّانِ .

وإن سَأَلْتَ عن اللَّوْنِ فكأنَّهُ اليَاقُوتُ وَالمَرْجَانُ .

وإنْ سَأَلْتَ عن حُسْنِ أَلْخَلْقِ فَهُنَّ الخَيْرَاتِ الحِسَانِ اللاتِ جُمِعَ لَهُنَّ بَيْنِ الحُسْنِ والاحْسَان ، فَأُعْطِيْنَ جَمَالَ البَاطِنِ وَالظَاهِر ، فَهُنَّ أَفْرَاحُ النُّفُوسِ ، وَقُرَّةُ النَّوَاظِر .

وَإنْ سَأَلْتَ عَنْ حُسْنِ العِشْرَةِ ، وَلَذَّةِ مَا هُنَالِكَ ، فَهُنَّ العُرُبُ المُتَحَبِّبَاتُ إلى الأزْوَاجِ ، بلَطَافَةِ التَّبَعُّلِ التِيْ تَمْتَزِجُ بالرُّوْحِ أيَّ امْتِزَاجٍ ، فَمَا ظَنُّكَ بامْرَأةٍ إذَا ضَحِكتْ في وَجْهِ زَوْجِهَا أَضَاءَتْ الجَنَّةُ مِنْ ضَحِكِهَا ، وَإذا انْتَقَلَتْ مِنْ قَصْرٍ إلى قَصْرٍ قُلْتَ هَذِهِ الشَّمْسُ مُتَنَقِلَةٌ في بُرُوْجِ فَلَكِهَا ، وإذا حَاضَرَتْ زَوْجهَا فَيا حُسْنَ تِلْكَ المُحَاضَرَةِ ، وَانْ خَاصَرَتْهُ فَيالَذَّةَ تِلْكَ المُعَانَقَةِ وَالمُخَاصَرةِ .

وَحَـديْثُهـا السِّحْـرُ الحَـلالُ لَـو أنَّـهُ
لـم يَجْـنِ قَتْـلَ المُسْـلِمِ المُـتَحَـرِّزِ
إنْ طَـالَ لَـم يُمْـلَلْ وان هِـي حَـدَّثَـتْ
وَدَّ الـمُـحَـدَّثُ أنَّـهـا لَـم تُـوْجِـزِ

وَإنْ غَنَّتْ فَيَا لَذَّةَ الأَبْصَارِ وَالأَسْمَاعِ ، وَإنْ آنسَتْ وَأمْتَعَتْ فَيا حَبَّذا تِلْكَ المؤَانَسَةِ والامْتَاعِ ، وَانْ قَبَّلَتْ فلا شَيْءَ أشْهَى مِنْ ذَلِكَ التَّقْبِيْلِ ، وَإنْ نَوَّلَتْ فلا ألذَّ وَلَا أَطْيَبَ مِنْ ذَلِكَ التَّنْوِيْلِ .

هَذَا وان سَأَلْتَ عَنْ يوم المَزِيْدِ ، وَزيارَةِ العَزِيْزِ الحَمِيْدِ ، وَرُؤْيَةِ وَجْهِهِ المُنَزَّهِ عن التَّمْثِيْلِ وَالتَّشْبِيْهِ ، كَمَا تَرَى الشَّمْسَ في الظهِيْرَةِ ، وَالقمَرَ لِيْلَةَ البَدْرِ ، كَما تَوَاتَرَ عَنْ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ النَّقْلُ فِيْهِ ، وَذَلِكَ مَوْجُودٌ في الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالمَسَانِيْدِ ، مِنْ رِوَايَةِ جرِيْرٍ وَصُهَيْبٍ وَأَنسٍ وَأَبي هُرَيْرَةَ وَأَبِي مُوْسَى وَأَبي سَعِيْدٍ ، فاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي المنَادِي : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ إنَّ رَبَّكُم تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَسْتَزِيْرُكُمْ فَحَيَّ على زِيَارَتِهِ ، فيقُولُونَ : سَمْعاً وَطَاعَةً ، وَيَنْهَضُوْنَ إلى الزِّيَارَةِ مُبَادِرِيْنَ ، فإذا بالنَّجَائِبِ قد أُعِدَّتْ لهُم ، فَيَسْتَوُونَ

على ظُهُورِهَا مُسْرِعِيْنَ ، حتى إذا انْتَهوا إلى الوَادِي الأفَيْح الذي جَعَل لَهم مَوْعِدَاً ، وَجُمِعُوا هُنَاك ، فلم يُغَادِرِ الدَّاعِي منهم أَحداً ، أَمَرَ الرَّبُّ تبارك وتَعَالَى بكُرْسِيِّهِ فَنُصِبَ هُنَاكَ ، ثم نُصِبَتْ لَهُم مَنَابِرُ مِنْ نُوْرٍ ، وَمَنَابِرُ مِن لُؤلُؤ ، وَمَنابِرُ من زَبَرْجَدٍ ، ومَنَابِرُ مِن ذهبٍ ، وَمَنابِرُ مِن فِضّةٍ ، وَجَلسَ أَدْنَاهُم ـ وَحَاشَاهُم أنْ يكُونَ فيهم دَنِيْءٌ ـ عَلى كُثْبَانِ المِسْكِ ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَرَاسِيْ فَوْقَهُم في العَطَايَا .

حَتَّى إذا اسْتَقَرَّتْ بهم مَجَالِسُهم ، وَاْطمَأَنَّتْ بهم أَماكِنُهم ، نَادَى الْمنَادِي : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ إنَّ لكمُ عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً يُرِيْدُ أَنْ يُنْجزْكُمُوه ، فَيَقُوْلُونَ : مَا هُو ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوْهَنَا ؟ وَيُثَقِّلَ مَوازِيْنَنَا ؟ وَيُدْخِلَنا الجَنَّةَ ، وَيُزَحْزِحَنا عَن النَّارِ ، فَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ ، إذْ سَطَعَ لهُم نُوْرٌ أَشْرَقَتْ لَهُ الجَنَّةُ ، فَرَفَعُوْا رُؤُوسَهُم فإذا الجَبَّارُ جَلَّ جلالهُ ، وَتقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهم مِن فَوْقِهم ، وَقالَ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ سَلامٌ عليكُم . فلا تُرَدُّ هَذه التَّحيَّة بأحْسَنَ مِنْ قَوْلِهم : اللَّهُمَّ أنْتَ السَّلامُ ، وَمِنْكَ السَّلامُ تَبَارَكْتَ ياذا الجَلال وَالاكرَام ، فَيَتَجَلَّى لهُم الرَّبُّ تَبارَكَ وَتَعالى يَضْحَكُ إليهم ، وَيَقُوْلُ : يا أَهْلَ الجَنَّةِ فَيَكُونُ أَوَّلُ ما يَسْمَعُونَ مِنْهُ تَعالى : أَيْنَ عِبَادِي الذِيْنَ أَطاعُوْنِي بالغيْبِ ، وَلَمْ يَرَوْنِيْ ، فَهذا يَوْمُ المَزِيْدِ فَيَجْتَمِعُونَ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : أَنْ قَدْ رَضِيْنَا فَارْضَ عَنّا ، فَيَقُوْلُ : يا أَهْلَ الجَنَّةِ إنِّي لَوْ لَمْ أَرْضَ عَنْكُم لَمْ أَسْكِنْكُم جَنَّتِي ، هَذا يَوْمُ المَزِيْدِ فَاسْأَلُوْنِيْ ، فَيَجْتَمِعُونَ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : أَرِنَا وَجْهَكَ ننظُرُ إلَيْهِ . فَيَكْشِفُ لهُم الرَّبُ جَلَّ جَلاَلُه الحُجُبَ ، وَيَتَجَلّى لهُم ، فَيَغْشَاهُم مِنْ نُوْره مَا لَوْلا أنَ اللهَ تَعَالى قَضَى أنْ لا يَحْتَرِقُوا لاحْتَرَقُوا ، وَلَا يَبْقَى في ذلِكَ المَجْلِس أَحدٌ إلاَّ حَاضَرُه رَبُّه تَعالى مُحَاضَرَةً ، حَتَّى إنه

لَيقُوْلُ : يَا فلانُ أَتَذْكُرُ يَوْمَ فَعَلْتَ كذا وَ كذا ؟ يُذَكِّرُه ببَعْض غَدَرَاتِه فِي الدُّنيا . فَيقُولُ : يَا رَبِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لِيْ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى بِمَغْفِرَتِي بَلَّغَتُكَ مَنْزِلَتِكَ هَذِهِ ، فَيَا لَذَّةَ الاسْمَاعِ بِتِلْكَ المُحَاضَرَةِ ، وَيَا قُرَّةَ عُيُونَ الأَبْرَارِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيْمِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ ، ويَا ذِلَّةَ الرَّاجِعِينَ بِالصَّفْقَةِ الخَاسِرَةِ ، ﴿ وُجُوْهٌ يَوْمَئِذٍ ، إِلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، وَ؟وجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَة ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ .

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا
مَنَازِلُكَ الأَوْلَى وفيهَا المُخَيَّمُ
ولكِنّنَا سَبْيُ العَدوُ فَهَلْ تَرَى
نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا ونُسَلِّمُ

انتهى كلامه رحمه الله

شعر

أَرَى الناسَ في الدنيا معافاً ومُبْتَلَى
وما زالَ حُكْمُ اللهِ في الأَرْضِ مُرْسَلا
مَضَى في جَمِيع الناس سَابِقُ عِلْمِهِ
وفَصَّلَهُ مِنْ حَيثُ شَاءَ وَوَصَّلاَ
وَلَسْنَا عَلى حُلْوِ القَضَاءِ ومُرِّهِ
نَرَى حكَماً فِيْنَا مِنَ اللهِ أَعْدَلاَ
بَلاَ خَلْقَه في الخَيْرِ والشَرِّ فِتْنَةً
لِيُرْغَبَ فِيْمَا في يَدَيْهِ ويُسْأَلاَ

وَلَـمْ يَـبْـغِ إلا أَنْ نَـبُـوءَ بِـفَـضْـلِهِ
عَـلَيـنـا وإلَّا أَنْ نَـتُـوبَ فَـيَـقْـبَـلاَ
هُـو الأحَـدُ القَيُّـوْمُ مِن بَعْـدَ خَلْقِـهِ
وَمَـا زَالَ فـي دَيْـمُـوْمَـةِ الـخَـلْقِ أولاَ
وَمَـا خَـلَقَ الإنْـسَـانَ إلَّا لِـغَـايَـةٍ
وَلَم يَتْـرِكِ الانسَـانَ في الأَرْض مُهْمَـلاَ
كَـفَى عِـبْـرَةً أَنّـا وأَنَّـكَ يـا أَخِـيْ
نُـصَـرِّفُ تَصْـرِيْـفـاً لَـطِيْـفـاً ونُـبْـتَـلَى
كـأَنَّـا وَقَـدْ صِـرْنَـا حَـدِيْثـاً لِغَيْـرِنَـا
يُخَاضُ كَمَا خُضْنَـا الحَـدِيْثَ بِمَن خَـلاَ
تَـوَهَّمْتُ قَـوْمـاً قَـدْ خَـلُوا فَكَـأَنَّـهُم
بِـأَجْـمَعِـهِـم كَـانُـوْا خَـيَـالاً تُـخُـيِّـلاَ
وَلَـسْتُ بِـأَبْـقَى مِـنـهُـمُ فـي دِيَـارِهِـم
ولَـكِـنَّ لِـي فِـيْـهَـا كِـتَـابـاً مُـؤَجَّـلاَ
ومـا الـنـاسُ إلَّا مَيِّت وابـنُ مَـيِّـتٍ
تَـأَجَّـلَ حَـيٌّ مِنـهُـمُ أو تَـعَـجَّـلاَ
فَـلا تَـحـسَـبَـنَّ اللهَ يُـخْـلِفُ وَعْـدَهُ
بِمَـا كَـانَ أَوْصَى الـمُـسْـلِمِـيْـنَ وَأَرْسَـلاَ
هو الموتُ يـا ابنَ المَوتِ والبَعْثُ بَعْدَهُ
فَمِنْ بَيْنِ مَـبْـعُـوْثٍ مُـخِـفـاً وَمُـثْـقَـلاَ
ومِن بَيْنِ مَسْحُـوبٍ عَلَى حُـرِ وَجْهِـهِ
ومِـن بَيـنِ مَـن يَـأْتِـي أَغَـرَّ مُـحَـجَّـلاَ

عَشْقْنَـا مِـن الـلَّذاتِ كُـلَّ مُـحَـرَّمٍ
فـأفٍ عَـلَيْـنَـا مَـا أَغَـرَّ وأَجْـهَـلا
لَقَـدْ كَـانَ أَقْـوَامٍ مِن النـاسِ قَبْـلَنَـا
يَعَـافُـوْنَ مِنْهُـنَّ الـحَـلاَلَ الـمُـحَلَّلاَ
رَكَنَـا إلى الـدُنيـا فَـطَالَ رُكُـونُنَـا
ولَسْنَـا نَـرَى الـدُنْيَـا عَلَى ذَاكَ مَنْـزِلاَ
فَـلِلهِ دَارٌ مَـا أَحَـثَّ رَحِـيْـلَهَـا
وَمَـا أَعْـرَضَ الآمَـالَ مِـنـهـا وأَطْـوَلاَ
أَبـيَ الـمَـرءُ إلاَّ أَنْ يَـطُولَ اغْـتِـرَارُهُ
وتـأبَـى بِـهِ الـحَـالاتُ إلا تَـنَـقُـلاَ
إذا أَمَّـلَ الانْـسَـانُ أمـراً فَـنَـالَـهُ
سَمَـا يَبْتِغَـي فَـوقَ الـذي كـانَ أَمَّـلاَ
وَكَمْ مِن ذَلِيْـلٍ عَـزَّ مِن بَـعـدِ ذِلَّـةٍ
وكم مِن رَفيعٍ كَانَ قَـد صَـارَ أَسْفَـلاَ
وَلَـمْ أَرَ إلاَّ مُـسْـلِمـاً فـي وَفَـاتِـه
وانْ أَكْـثَـرَ البـاكِـي عَـلَيْـهِ وأَعْـوَلاَ
وَكَمْ مِن عَـظِيْمِ الشأنِ في قَعْـر حُفْـرَةٍ
تـلَحفَ فِيْـهَـا بـالـثَّـرَى وَتَـسَـرْبَـلا
أيَـا صَـاحِبَ الـدُنْيَـا وثِقْتَ بمَنْـزِلٍ
تَـرَى المَـوتَ فيـه بـالعَبـاد مُـوَكَّـلا
تُـنَـافِسُ في الـدنيـا لِتَبْلُغَ عِـزَّهَـا
وَلَـسْتَ تَـنَـالُ الـعِـزَّ حَـتَّى تَـذلَّـلا

إِذَا اصْطَحَبَ الأَقْوَامُ كَانَ أَذَلَّهُم
لأَصْحَابِهِ نَفْساً أَبَرَّ وأفْضَلاَ
وَمَا الفَضْلُ في أَنْ يُؤثِرَ المرءُ نَفْسَهُ
ولكنَّ فَضْلَ المَرْءِ أَنْ يَتَفَضَّلاَ

اللهُمَّ يَا مَنْ عَمَّ العِبادَ فَضْلُه وَنعْمَاؤُهُ ، وَوَسِعَ البَرِيَّةَ جُوْدُه وَعطاؤُه ، نَسْأَلُ مِنْكَ الجُوْدَ وَالاحْسَانَ ، وَالعَفْوَ وَالغُفْرَان ، وَالصَّفْحَ وَالأَمَان ، وَالعِتْقَ مِنْ النِّيْرَانِ ، وَتَوْبَةً تَجْلُو أَنْوَارُها ظُلُمَاتُ الاساءَةِ وَالعِصْيَانِ ، يَا كَرِيْمُ يا مَنَّانُ ، واغفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ ، بَرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ .

« فصل »

« في نَظَرِ أَهْلِ الجَنَّةِ إلَى رَبِّهِمْ تبارَكَ وَتَعالَى »

عَنْ أبي هُريرَة رَضيَ اللهُ عنه ، أَنَّ ناساً قَالُوا : يَا رَسُوْلَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنا يومَ القِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ : « هَلْ تُضارُّونَ في رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ » ؟ قالُوا : لا يا رَسُوْلَ اللهِ . قَالَ : « هَلْ تُضارُّونَ في الشَّمْسِ لَيْسَ دُوْنَها سَحَابٌ » ؟ قَالُوا : لا ، قالَ : « فانّكُم تَرَوْنَهُ كذلِك » فذكرَ الحَدِيْثَ بطُوْلِهِ . رَوَاهُ البُخارِيّ ومُسْلِمٌ .

وَعَن صُهَيْبٍ رضي الله عنه قالَ : قَالَ رسولُ الله ﷺ : « إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنّةِ الجنة ، يقُولُ اللهُ عَزَّ وجل تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيْدُكُم ؟ ، فَيَقُولونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوْهَنَا ؟ ، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ ؟ ، وَتُنَجِّنا مِنْ النَّارِ » ؟ قالَ : « فَيُكْشَفُ

الحِجَابُ ، فَمَا أعْطُوا شَيْئاً أَحبُّ إليهم مِنَ النَّظَرِ إلَى رَبِّهم ﴾ ثم تلا هَذهِ الآيَةِ ﴿ للذِيْنَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَة ﴾ رَوَاهُ مُسْلِمٌ والتِّرْمَذي وَالنِّسَائِي .

وعن أبي مُوْسَى رَضي اللهُ عنه أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قالَ . « إنَّ في الجنة خَيْمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، عَرْضُهَا سِتُّوْنَ مِيْلاً . في كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أهْلٌ ، مَا يَرَوْنَ الآخَرِيْنَ ، يَطُوْفُ عليهم المُؤمِنُ ، وجَنَّتَانِ مِن فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيْهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنَيْتُهما وَمَا فِيْهِمَا ، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إلى رَبِّهم إلَّا رِداءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ في جَنَّاتِ عَدْنٍ » . رَوَاهُ البُخَارِيّ واللفْظُ لَهُ ، ومُسْلِمٌ والتِّرْمِذيّ .

وَرُوِيَ عَنْ جَابِرِ بنْ عَبْدِ اللهِ رَضْيَ اللهُ عنهما قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ : « بَيْنَا أَهْلُ الجنَّةِ في مَجْلِسٍ لهُم ، اذْ سَطَعَ لهُم نُورٌ على بَابِ الجَنَّةِ ، فَرَفَعُوا رُؤُوسَهم ، فاذا الرَّبُّ تَبارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَشْرَفَ عليهم ، فَقَالَ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ سَلُونِي ، فقَالُوا : نَسْأَلُكَ الرِّضَا عَنَّا . قَالَ : رِضَائِي أحَلّكُم دَارِيْ ، وَأَنالكُم كَرامَتِيْ ، وهَذَا أوانُها فَسَلُوْنِيْ ، قَالُوا : نَسْأَلكَ الزِّيادَة ، قَال فيُؤتَوْنَ بنَجائِبَ مِنْ يَاقُوتٍ أحْمَرَ ، أزِمَّتُها مِنْ زُمُرُّدٍ أخْضَرٍ ، وَيَاقُوتٍ أحْمَر ، فيُحْمَلُوْن عَلَيْهَا ، تَضَعُ حَوافِرَها عنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهَا ، فيأْمُر اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأشْجَارٍ عَلَيْهَا الثِّمَارُ ، فَتَجِيْءُ حَوْرَاءُ مِنَ الحُوْرِ العِيْنِ ، وَهُنّ يَقُلْنَ : نَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلا نَبْأَسُ ، وَنَحْنُ الخَالِدَاتُ فَلا نَمُوتُ ، أزْوَاجُ قَوْمٍ مُؤْمِنِيْنَ كِرَام ، وَيَأمُرُ اللهُ عزَّ وَجلَّ بِكُثْبَانٍ مِنْ مِسْكٍ أبيَضَ ، فيُنْشرُ عليهم رِيْحاً يُقَالُ لَها : المثِيْرَةُ حتَّى تَنْتَهي بِهِمْ إلَى جَنَّةِ عدْنٍ وَهِيَ قَصبَة الجَنَّةِ ، فَتَقُولُ الملائِكَةُ : يا رَبَّنَا قد جَاءَ القَوْمُ ، فَيَقُول : مَرْحَباً بالصَّادِقِيْنَ ، مَرْحَباً بِالطَّائِعِيْنَ . قالَ : فيَكْشِفُ لهُم الحِجَابُ ، فَيَنْظُرُونَ إلَى اللهِ تَبَارَكَ

وَتعالَى ، فَيَتَمَتَّعُونَ بنورِ الرَّحْمَنِ ، حَتَّى لا يَنْظُرَ بَعْضُهم بَعْضاً ، ثم يَقُولُ : أَرْجِعُوهُم إلى القُصُور بالتُّحَفِ ، فَيَرْجِعُونَ وَقَدْ أَبْصَرَ بَعْضُهُم بَعْضاً ، فقالَ رسُولُ الله ﷺ : « فذلكَ قولَهُ : ﴿ نُزُلًا مِن غفورٍ رَحِيْم ﴾ . رَوَاهُ أَبُو نَعيْم وَالبَيْهَقِيّ وَاللفْظُ لَهُ : وقالَ وقد مَضَى في هَذَا الكِتَابِ يَعْنِيْ في كِتَابِ البَعْثِ . وفي كِتَابِ الرُّؤ يَةِ مَا يُؤكِّدُ ما رُوِيَ في هَذَا الخبَرَ انْتَهَى .

وهُو عِنْدَ ابْنِ مَاجَهْ وابْنِ أبِيْ الدنيَا مُخْتَصَرٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ

« بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ في نَعِيْمِهِمْ ، إذْ سَطَعَ لهم نُورٌ ، فَرَفَعُوا رُؤُوسَهم ، فاذا الرَّبُّ جلا جَلَالُهُ قَدْ أشْرَفَ عليهم مِنْ فَوْقِهِم ، فقالَ : السَّلامُ عليكم ، يَا أهْلَ الجَنَّة وَهُوَ قَوْلَهُ عز وجلَّ : ﴿ سَلامٌ قَوْلًا منْ رَبٍّ رَحِيْم ﴾ فَلاَ يَلْتَفِتُونَ إلى شَيْءٍ ممَّا فِيْهِ مِنْ النَّعِيْم ، مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إلَيْهِ ، حَتَّى يَحْتَجبَ عَنْهُم ، وَتَبْقَى فِيْهِم بَرَكَتُه وَنُورُه ﴾ . هَذَا لَفْظُ ابْنُ مَاجَه ، والآخرُ بنَحْوه .

وعَنْ أنَس بنْ مَالِكٍ رَضْيَ اللهُ عنه قَال : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَتَانِيْ جبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وفي يَدِهِ مِرْآةٌ بَيْضاءُ فِيْهَا نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فقُلْتُ : مَا هَذِهِ يا جِبْرِيْلُ ؟ قالَ : هَذِه الجُمُعَةُ يَعْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ ، لِتَكُونَ لكَ عِيْداً ، وَلِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِكَ ، تكُونُ انْتَ الأَوَّلُ ، وتَكُونُ اليَهُودُ والنَّصارَى مِنْ بَعْدِكَ ، قَالَ : مَا لَنا فِيْهَا ؟ قالَ : فِيْهَا خَيْرٌ لكمُ ، فِيْهَا ساعَة مَنْ دَعَا ربَّه فيها بخَيْر - هُوَ لَهُ قُسِمَ - إلّا أعْطَاهُ إيّاهُ ، أوْ لَيْسَ لهُ بِقِسْم إلاّ ادّخِرَ لهُ ما هُوَ أعْظَمُ مِنْهُ ، أو تَعوَّذَ فِيْهَا منْ شَرّ هُوَ عَليْهِ مَكتُوبٌ الا اعَاذَهُ أو لَيْسَ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ الا أعاذَهُ مِنْ أعْظَمَ مِنْهُ ، قُلْتُ : مَا هَذِهَ النُّكْتَةُ السَّوْدَاءُ فِيْهَا ؟ قَال : هَذِهِ السَّاعَةُ تقُمُ يَوْم الجُمُعَةِ ، وهُوَ سَيِّدُ الآيَّام عنْدَنَا ، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ في الآخِرَةِ : يَوْمَ المُزِيْدِ . قَالَ : قُلْتُ لِمَ تَدْعُونَه يومَ المَزِيدِ ؟ قالَ : انَّ ربَّك عزَّ وجلّ اتخذَ في الجَنَّةِ

وادِياً أفْيَحَ ، مِنْ مِسْكٍ أبْيَضَ فاذا كانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ نَزَلَ تَبارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عِلِّيِّيْنَ عَلَى كُرْسِيِّهِ ثم حُفَّ الكُرْسِيّ بمَنَابرَ مِنْ نُور ، وَجَاءَ النَبِيُّونَ ، حتّى يَجْلِسُوا عليها ، ثم يَجِيءُ أهْلُ الجَنَّةِ ، حَتَّى يَنْظُرُوا إلى وَجْههِ ، وهُو يقُولُ أنا الذِي صدَقتُكم وَعْدِي ، وأتمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي ، هَذَا مَحَلُّ كَرامَتِيْ ، فَسَلُونِيْ ، فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا ، فيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : رضائِي أحَلَّكُم دَارِي ، وَأنالكُم كَرَامَتِيْ ، فَسَلُوْنِيْ ، فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى تَنتهي رَغبَتُهم ، فَيَفْتَحُ لهم عند ذَلكَ مَالا عَيْنٌ رَأتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ ، الى مِقْدَارِ مُنْصَرَفِ الناس يومَ الجمعةِ ، ثم يَصْعَدُ الربُّ تبارَكَ وتعَالَى على كُرْسِيِّهِ فَيَصْعَدُ مَعَهُ الشُهَدَاءُ والصِدِّيْقُوْنَ » . أَحْسَبُه قال ﴿ وَيَرجِعُ أهلُ الغُرف إلى غُرَفِهِمْ ، دُرَّةً بيضاءَ ، لا فَصَمَ فيها ولاَ وَصَم ، أو ياقُوتة حَمْرَاءَ ، أو زَبَرْجَدَةً خَضْرَاءَ ، مِنْها غُرَفُها ، وأبْوَابُها ، مُطَّرَدَةً فيها أنهارُها ، مُتَدَلِّيَةً فيها ثمارُهَا ، فيها أزواجُها وَخدَمُها ، فَلَيْسُوا إلى شَيْءٍ أحوجَ مِنهم إلى يوم الجُمُعةِ لِيَزْدَادُ فيهِ كَرامةً ، ولِيزْدادُوا فيهِ نَظَراً إلى وَجْهِهِ تباركَ وتعالَى ولِذَلِكَ دُعِيَ يَوْمَ المَزِيْدِ ﴾ رَوَاهُ ابنُ أبي الدُنيا والطَبَرَانِي في الأوسَطِ ، باسنادَيْن ، أحدُهُما جيدٌ قويٌّ ، وأبُو يَعْلَى مُخْتَصَراً ورُوَاتُهُ رواةُ الصحيحِ ، والبَزَّارُ واللفظ له .

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ :

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِشَأْنِهِم يَومَ المزيدِ وأنَّه شانٌ عَظِيْمُ الشَّانِ
هوَ يَوْمُ جُمْعَتِنَا وَيومُ زِيَارَةِ الرَّحمانِ وَقْتَ صَلاَتِنَا وَأَذَانِ
والسَّابقونَ إلى الصَّلاةِ هُمُ الأولَى
فازُوْا بذَاكَ السَّبْقِ بالإحسانِ

سَبْقٌ بِسَبْقٍ والـمُـؤَخَّـرُ هَـا هُـنَـا
مُـتَـأَخِّـرٌ فـي ذَلِـكَ الـمَـيْـدَانِ

والأَقْرَبُونَ إِلَى الإِمَامِ فَهُمْ أُولُوا الـزُلْفَي هُنَاكَ فَهَـا هُنَا قُـرْبَانِ

قُـرُبٌ بِـقُـربٍ والـمـبُـاعَـدُ مِـثْـلُهُ
بُـعْـدٌ بِبُـعْـدٍ حِـكْـمَـةُ الـدَّيَـانِ

ولَـهُـم مَـنَـابِـرُ لُـؤْلُـؤٍ وَزَبَـرجَـدٍ
ومَـنَـابِـرُ الـيَـاقُـوتِ والـعِـقْـيَـانِ

هَـذَا وأَدْنَـاهُـمْ ومَـا فِـيْـهِـمْ دَنِـيْ
مَـن فَـوْقَ ذاكَ الـمِسْـكِ كـالكُـثبـانِ

مَـا عِـنْـدَهُمْ أَهْـلُ الـمَنَابِـرِ فَـوْقَهُم
مِـمَّـا يَـرَونَ بِـهِـمْ مِـنَ الإحـسـانِ

فَـيَـرَوْنَ ربَّـهُـمُ تَـعـالَـى جَـهْـرَةً
نَـظَرَ الـعِيَـانِ كَـمـا يُـرَى الـقَـمَـرانِ

ويُحَـاضِـرُ الـرحمنُ وَاحِـدَاهُم مُـحَـا
ضَـرةَ الـحَبـيْب يـقـوُلُ يـا بْـنَ فُـلانِ

هَل تَذكُرُ اليومَ الذي قَدْ كُنْتَ فيهِ مُبَارِزاً بالذنب والعِصيانِ

فـيقـولُ ربِّ أَمَـا مَـنَـنْـتَ بـغَـفْـرَةٍ
قِـدْمـاً فـإِنَّـكَ واسـعُ الـغُـفْـرانِ

فَـيُجِـيْبُـه الـرحـمنُ مَـغْـفِـرَتِـي الَّـتِـي
قـد أَوصَـلَتْـكَ إلى الـمَحَـلِ الـدَّانِـي

موعظة

عِبادَ اللهِ يجبُ عليكُمْ أنْ تَعْلمُوا أنكُمْ ما دُمْتُمْ في هذِهِ الدارِ فأنتُمْ في دارِ المُعامَلاتِ ، وأنَّ لكُمْ داراً أُخرَى أَبَدِيَّةً ، فيها تَسْتَوْفُونَ مَا لكُمْ على هذهِ المعاملاتِ مِنْ جَزَآءتٍ ، فإنْ أحسنتُمْ هُنَا أو أَسأتُمْ ، كانَ جَزَاؤُكُمْ هُنَاكَ إحْساناً أو إساءاتٍ ، هكذا وعدَكُمْ ربُّكُمْ ، وهو عليمٌ بكلِّ الأعمال ، وعلى جَزائِكُمْ عليها قديرٌ ، قال اللهُ تعالَى (يومَ يَبْعثُهُمْ اللهُ جميعاً ، فينبّؤُهُمْ بما عَمِلوُا ، أحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوْه) وقالَ (وَنَضَعُ الموازينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ ، فَلاَ نُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً، وإن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتَيْنَا بِهَا، وَكَفَى بنا حاسِبين) وَقَالَ (يَوْمَ تأتِيْ كلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ، وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وهم لا يُظْلَمون)مِنْ هَذا قَطْعاً تَعْلَمُ أَنَّ شأنَ هَذِهِ المُعَامَلاَتِ عَظِيمٌ ، عِظَماً لا يَعْرِفُ قَدْرَهُ إلا الرَّجُلُ العَاقِلُ ، البَعيدُ النَّظَرِ الحَكِيمُ ، فإنَّ عليها يَترتَّبُ غضبُ اللهِ ، وعقابُهُ أوْرِضَاهُ ، والنعِيمُ المُقيمُ ، وشَيْءٌ هذا قَدْرُهُ لا يتوقّفُ ولا يَتردَّدُ في بَذْلِ العِنَايةِ بِهِ رجُلٌ بَصِيرٌ ، وهذه المعاملاتُ تارةٍ تكونُ بينكُمْ وبينَ اللهِ ، وتارةً تكونُ معَ عِبادِ اللهِ ، فأَمَّا المعامِلةُ معَ اللهِ جلَّ وعَلا فبِأَنْ تسمَعَ وَتُطيعَ فيمَا أَمَرَ ونَهى ، وأَمَّا معاملتُكَ معَ عِبادِ اللهِ المؤمنينَ ، فَبِأَنْ تُحِبَّ لهُمْ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وذلك بأنْ تجعَلَ نفسكَ مِيزَاناً في مُعامَلَةِ كبيرهِمْ وصَغيرهِمْ ، أنتَ تكرَهُ إساءَتَهُمْ لَكَ ، وتُحِبُّ إحْسَانَهُمْ ، فَاحذَرْ إِسَاءَتَهُمْ ، وعامِلْهُمْ بالإحْسَان ، وكما تَكْرَهُ أَنْ يَمسُّوا مَالكَ بسُوءٍ ، فَلْتَكُنْ أَموالُهُمْ مِنْكَ في أَمَانٍ ، وكَما تَكْرَهُ أَنْ يَتَعرَّضُوا لأَوْلادكَ وأَهْلِكَ وَشَخْصِكَ بِشَرٍّ ، فكُنْ لهم خَيْرَ حفيظٍ ونَصِيْر وكما تُحِبُّ أَنْ يُرِيْحُوكَ إذا جَاوَرُوكَ، فَأَرِحْهُمْ عندَ مُجاوَرَتِكَ لَهِمْ، وَكَمَا تُحِبُّ أَنْ يَنْصَحُوْكَ

وَيْصدُقُوكَ في وُعُودِهْم وعُقُودِهِمْ وأَخْبارِهِمْ ، فاسْبِقْهُمْ أنتَ إلى ذلِك ، وكما تُحِبُّ أنْ يفرَحُوا لِفَرَحِكَ ، ويَحْزَنُوا لِحُزْنِكَ ، فَكُنْ أَنتَ كذلِكَ مَعَهُمْ ، وكما تُحِبُّ أنْ لا يتكلمُوا فيكَ إلا بخَيْر ، فلا تكُنْ أَنتَ معهم بِضِدِّ ذلِكَ ، وَقِسْ على ذلِكَ ما يتعلقُ بالمَوْضُوعِ ، وأَمَّا مُعَامَلتُكَ مع نَفْسِكَ ، فَهِيَ أنْ تُعَوِّدَهَا دائماً على الخَيْرِ بِلا ضَجَرٍ .

شعراً

أَلم تَرَ أَنَّ الحَقَّ أَبلجَ لائِحُ
وأَنَّ لِحَاجَاتِ النفوسِ جَوائِحُ
إذا المَرْءُ لم يَكْفُفْ عن الناسِ شَرَّهُ
فليسَ لـه ما عَاشَ منهم مُصَالِحُ
إذا كَفَّ عبدُالله عَمَّا يَضُرُّهُ
وأكثَرَ ذِكْرَ اللهِ فالعَبْدُ صَالِحُ
إذا العبدُ لم يَمْدَحْهُ حُسْنُ فِعالِهِ
فَليسَ لـه والحَمْدُ لِلهِ مَادحُ
إذا ضاقَ صدرُ المَرْءِ لم يَصفُ عيشُه
وما يَسْتَطِيبُ العَيْشَ إلا المُسَامِحُ
وَبَيْنَا الفَتَى والمُلهِيَاتُ يُذقْنَهُ
جنَى اللَّهْوِ إذْ نَاحَتْ عَلَيه النَّوَائِحُ
وإنَّ امْرأً أَصْفَاكَ في اللّهِ وِدَّهُ
وَكَانَ على التَّقْوى مُعِيْنَاً لَصَالِحُ

وإنَّ أَلَبَّ النَاسِ مَنْ كَانَ هَمُّهُ
بمَا شَهِدَتْ مِنْهُ عَلَيْهِ الجَوَارِحُ

اللهُمَّ عامِلْنا بِلُطْفِكَ وإحسانِكَ ، وَوفِّقْنا لطاعِتِكَ ومَرْضاتِكَ واغْفِرْ لنا ولوالِديْنا وجميع المسلمين ، برحْمتِكَ يا أرحَمَ الراحمين ، وصلى اللهُ على مَحمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعين .

اللهُمَّ أَحْيِنَا مسلمين وتوَفَّنا مسلمين غَيْرَ خزايَا ولا مَفْتُونِينَ واغفِرْ لَنا ولوالِدِينا ولجميعِ المسلمين برحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ اجمعين .

« فصل »

وَرُوِيَ عنْ حُذَيفةَ رضِيَ اللهُ عنهُ ، قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « أَتانِي جبريلُ ، فإذا في كَفِّهِ مِرْآةٌ كأصْفَى المَرَايا وأحْسَنِها ، وإذا في وَسَطِهَا نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، قال : قُلْتُ : يا جِبْريلُ ما هَذِهِ ؟ قال : هذهِ الدُنْيَا صَفَاؤُها وَحُسْنُهَا، قال : قُلتُ وما هذهِ اللَّمْعَةُ السَّوْداءُ في وَسَطِهَا ؟ قال : قال هذِهِ الجُمُعَةُ قال : قلتُ : وما الجُمُعة : قال يَومٌ من أيامِ رَبِّكَ عظيمٌ ، وسأُخبِرُكَ بشَرَفِهِ وفضْلِهِ واسْمِهِ في الدنيا والآخِرَةِ ، أمَّا شَرَفُهُ وفضْلُهُ واسْمُهُ في الدنيا ، فإنَّ اللهَ تبارك وتعالَى جَمَعَ فيه أمرَ الخَلْقِ وأمَّا مايُرْجَى فيهِ ، فإنَّ فيه سَاعةً لا يوافِقُها عبْدٌ مُسْلمٌ أو أمةٌ مُسْلِمَةٌ يَسْألانِ اللهَ فِيهَا خيْراً إلَّا أَعْطَاهَا إياه ، وأمَّا شرفُهُ وفضْلُهُ واسْمُهُ في الآخرةِ فانَّ اللهَ تعالى إذا صَيَّرَ أهلَ الجنةِ الى الجَنةَ ، وأَدْخَلَ أَهْلَ النارِ النَّارَ ، وجَرَتْ عليهْم أَيامُهَا وساعاتُها ، ليسَ بها لَيلٌ ولا نَهارٌ إلا قدْ عَلِمَ اللهُ مِقدارَ ذلك وساعاتِهِ ، فإذا كان يومُ الجُمعةِ في الحِينِ الذي يَبْرُزُ أو يَخرُجُ فيهِ أَهلُ الجُمُعةِ ،

نادَى منادٍ : يا أهلَ الجنةِ أُخرُجوا إلى دارِ المزيدِ ، لا يَعْلَمُ سعَتَها وعَرْضَهَا وطُولَها إلا اللهُ عزَّ وجَلَّ ، فيخرُجُونَ في كُثْبَانٍ مِن المِسْكِ ، قالَ حذيفةُ : وإنَّهُ لَهُوَ أَشَدُّ بَياضاً مِنْ دَقيقِكُمْ هذا ، قال ، فَيَخرُجُ غِلمانُ الأَنبياءِ بمَنابرَ مِنْ نُورٍ ، وَيَخرُجُ غِلْمانُ المُؤمنينَ بكَراسِي مِنْ ياقوت ، قال : فإذا وُضِعَتْ لهمْ ، وأَخَذَ القومُ مَجَالِسَهُمْ ، بَعَثَ اللهُ تبارَكَ وتعالَى عليْهِمْ رِيْحاً تُدْعَى المُثِيرَةَ ، تُثِيرُ عليهِمْ أثابِيْرَ المِسْكِ الأَبْيَضِ ، فتُدْخِلُهُ مِنْ تَحْتِ ثِيَابِهِمْ ، وتُخْرِجُهُ في وُجُوهِمْ واشْعَارِهِم ، فَتِلْكَ الرِّيحُ أَعْلَمُ كيفَ تَصْنَعُ بذلكَ المِسْكِ ، مِن امْرَأةِ أَحدِكُمْ لَوْ دفَعَ إليها كُلَّ طِيْبٍ على وجْهِ الأَرْضِ ، لكانَتْ تِلْكَ الرِيحُ أَعْلَمَ كَيْفَ تَصْنَعُ بذلكَ المِسْكِ ، مِنْ تِلكَ المَرْأةِ لَوْ دَفَعَ إليْهَا ذَلِكَ الطِّيْبَ بإذنِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ ، قال : ثم يُوحِي اللهُ سبحانَهُ إلَى حَمَلةِ العَرْشِ فيُوْضَعُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ الجنةِ ، وَبَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ الحُجُبُ فَيَكُوْنُ أَوْلَ مَا يَسْمَعُونَ منه أنْ يَقُولَ : أَيْنَ عِبادِي الذِيْنَ أَطَاعُوني بالغيْبِ ولَمْ يَرَوْنِي ، وصَدَّقُوا رُسُلِي ، واتَّبَعُوا أمْرِي ، فَسَلُونِي فهذا يومُ المَزِيدِ . قال : فَيَجْتَمِعُونَ على كَلَمةٍ وَاحِدَةً : رَبِّ رَضِيْنا عنكَ ، فارْضَ عَنَّا ، قال : فيَرْجعُ اللهُ تعالَى في قولِهِمْ أنْ يا أَهْلَ الجَنةِ إني لَوْلَمْ أرْضَ عنكُم لَمَا أَسْكنتُكُمْ جَنَّتِي فَسَلُوني فهذا يَومُ الْمَزِيْدِ ، قال فَيَجْتَمِعُونَ على كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ : رَبِّ وجْهَكَ أرِنَا نَنْظُرْ إليْه . قال : فَيَكْشِفُ اللهُ تَبارَكَ ، وتعالَى تِلْكَ الحُجُبَ وَيَتَجلَّى لهُمْ ، فَيَغْشَاهُمْ مِنْ نُوْرِهِ شَيءٌ ، لَوْلا أنَّهُ قَضَى عَلَيْهِمْ أنْ لا يَحْتَرِقُوا ، مِمَّا غَشِيَهُمْ مِنْ نُورِهِ . قال : ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ : إرجعُوا إلى مَنَازِلِكُمْ قال : فيَرجِعُونَ إلى مَنَازِلِهِم ، وقدْ خفُوا على أزواجِهِمْ ، وَخَفِيْنَ عليهِمْ ، مِمَّا غَشاهُمْ مِن نُورِهِ . انتهى .

وقال أَبو هُريرةَ قلتُ يا رسولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا قالَ نعمْ هل تَتمارَوْنَ في رؤيَةِ الشمسِ والقمرِ ليلةَ البدْرِ قُلْنا لا قالَ كذلك لا

تَتمارَوْنَ في رُؤيةِ رَبِّكُمْ عزَّ وَجَلَّ ولا يَبْقى في ذلك المَجْلِسِ أَحدٌ إلا حاضَرَهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مُحاضَرَةً حتى انْ يقُولَ للرجُلِ منكمْ ألاَ تَذْكُرُ يا فلانُ يومَ عَمِلْتَ كذا وكذا يذكِّرُهُ بَعْضَ غَدَراتِهِ في الدنيا فيقولُ يا ربِّ أَفَلَمْ تَغْفِرْ لِي فيقولُ بَلَى فَبِسَعَةِ مَغْفِرَتي بَلَغتْ مَنْزِلَتكَ هذه فبينما هُمْ كذلكَ غَشِيَتْهُمْ سحابَةٌ مِنْ فوقِهِمْ فأمْطَرَتْ عليهِمْ طِيْباً لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيْحِهِ شَيئاً قطُّ ثُمَّ يَقولُ قُومُوا إلى ما أعْدَدْتُ لكمْ مِنَ الكَرامَةِ فَخُذُوا ما اشْتَهيْتُمْ قالَ فنأتِي سُوقاً قد حَفَّتْ بِهِ الملائكةُ فيهِ ما لَمْ تَنظُرْ العُيونُ إلى مِثْلِهِ وَلَمْ تسْمع الآذانُ ولَمْ يَخْطُرْ على القلُوبِ قال فيُحْمَلُ لنا ما اشْتَهيْنَا ليسَ يُباعُ فيهِ شَيءٌ ولا يُشْتَرى وفي ذلك السُوقِ يَلْقَى أهلُ الجَنةِ بعضُهُمْ بَعْضاً فيُقْبِلُ الرجلُ ذُو المَنزلَةِ المُرتَفعةِ فيَلْقى مَنْ هُوَ دُوْنَهُ وما فِيهِمْ دَنِيٌّ فيَرُوعُهُ ما يَرى عليهِ مِنَ اللِباسِ فما يَنْقَضِ آخِرُ حَديثِهِ حتى يَتمثَّلَ له عليهِ أَحْسَنَ منهُ وذلكَ أنهُ لا يَنْبَغِي لِأحَدٍ أَنْ يَحزَنَ فيها قال ثم نَنْصَرِفُ إلى مَنازِلِنَا فَتَلْقانا أَزواجُنَا فَيَقُلْنَ مَرْحباً وَأَهلاً لقدْ جِئْتَ وإنَّ بِكَ مِنَ الجَمالِ والطِّيبِ أفْضَلَ مِمَّا فارَقْتَنَا عليهِ فنَقُولُ إنا جالَسْنا اليومَ رَبَّنا الجَبّارَ عزَّ وَجلَّ ويَحِقُّنا أنْ نَنقَلِبَ بِمِثْلِ ما أنقَلبْنا .

قال ابن القيم في سُوق الجَنة

فَيَقُولُ جَلَّ جلالُهُ قُومُوا إلَى
ما قد ذَخَرْتُ لَكُم مِنَ الإحْسَانِ
يَأتُونَ سُوقاً لا يُبَاعُ ويُشْتَرَى
فيهِ فَخُذْ منه بلا أثْمَانِ

قد أسْلَفَ التُّجّارُ أثْمانَ المَبِيْعِ بعَقْدِهِم في بيعةِ الرِضوانِ

للهِ سُوْقُ قَدْ أَقَامَتُهُ المَلاَ
ثِكَةُ الكِرَامُ بكُلِّ مَا إحسانِ
فيه الذِي واللهِ لا عَيْنُ رَأَتْ
كَلاَ ولا سَمِعَتْ به أُذُنَانِ
كَلاَ ولم يَخْطُر عَلَى قَلْبِ امْرءٍ
فَيَكُونُ عَنه مُعَبِّراً بلِسَانِ
فَيَرَى امْرَأً مَنْ فَوْقَهُ في هَيْئَةٍ
فَيَرُوْعُهُ مَا تَنْظُرُ العَيْنَانِ

فاذا عَلَيْهِ مِثْلُهَا إذْ لَيْسَ يَلْحَقُ أَهْلَهَا شَيْءٌ مِن الأحْزَانِ

واهاً لِذَا السُّوقِ الذي مَن حَلَّهُ
نَالَ التَّهانِي كُلَّها بأَمَانِ
يُدْعَى بسُوقِ تَعَارُفٍ مَا فِيه مِن
صَخَبٍ ولا غِشٍّ ولا أيْمَانِ
وتِجَارَةٍ مَن لَيسَ تُلْهِيْهِ تِجَا
رَاتٌ ولا بَيْعٌ عَن الرحمنِ
أَهْلُ المُرُوءَةِ والفُتُّوةِ والتُقَى
والذِكرِ لِلرَّحمنِ كُلَّ أوانِ
يا مَن تَعَوَّضَ عنه بالسُوقِ الذِي
رُكِزَتْ لَدَيْهِ رَايَةُ الشَّيْطَانِ

لـو كُنْتَ تـدْرِي قَدْرَ ذَاكَ السُّـوقَ لَمْ
تَـرْكَـنْ إلـى سُـوْق الـكَسَـادِ الـفَـانِ

اللهمَّ إنَّ حَسَنَاتِنا مِنْ عَطَائِكَ ، وَسَيِّئَآتِنا مِنْ قَضَائِكَ ، فَجُدُ اللهمَّ بما أَعْطَيْتَ ، على ما بِهِ قَضَيْتَ ، حتى تمحُوَ ذلكَ بذلِكَ ، اللهم إنَّ مَسَاوِيَنَا قَطَعَتْ عنا الوَسَائِلَ ، غَيْرَ أنا عَلِمْنَا أنك رَبٌّ كريمٌ ، وَمَوْلَى رَؤُوفٌ رَحِيْمٌ ، فَجَرَّأَنا مَعَ قُبْحِ أَفْعَالِنَا ، وَضَعْفِ أَعْمَالِنَا ، عِلْمُنا بذلِكَ ، وَحَمَلَنا ـ مَعَ البُعْدِ عَنْكَ ـ رَجَاؤُنا في نَوَالِكَ ، فاسْتَجِبْ لنا ، واغفِرْ لنا وارحمْنَا ، وتُبْ علينا ، وعافنا واعْفُ عنا ، وحَقِّقْ رَجاءَنا ، واسْمعْ دُعاءَنا برحمتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْــلٌ »

في الجهادِ في سبيلِ اللهِ

إعْلمْ وَفَّقَنا اللهُ وإياكَ وجميعَ المسلمين أَنَّ الجهادَ في سَبيـلِ اللهِ أَفضـلُ تَطوُّع البَـدَنِ ، وَعَدَّهُ بعضُ العُلماءِ رُكْناً سادِساً لِـدِيْنِ الإسْـلامِ ، وَهُوَ ذِرْوَةُ سَنَـامِ الإسلامِ ، ومُـوْجِبُ الهدَايَـةِ ، وَحَقِيقَةُ الاخْـلاصِ ، والزُهْـدِ في الـدنيـا ، وَمَنـازِلُ أَهلِهِ أعْلَى المَنـازِلِ في الجَنَّةِ ، كَمَا لَهُمْ الرِّفْعَةُ في الدُنْيا ، فَهُم الأَعْلَوْنَ في الآخِرَةِ ، وكَانَ كَثِيْرٌ مِنَ الناسِ يَتَلَهَّفُونَ على الجِهادِ الـذِي أُغلِقَتْ أَبْوابُـهُ مِنْ زَمَنٍ بَعيدٍ ، مِنْ عَهدِ أَنْ كانَ الرجُلُ يَخْرُجُ بنَفْسِهِ وبمالِهِ ، آمِلاً أَنْ يُنْفِقَ

كُلَّ مالِهِ في سبيلِ اللهِ ، وأنْ يَحْظَى بالشهادةِ في سبيلِ اللهِ ، فإذا رَجَعَ سالِماً إلى أَهْلِهِ ، رَجَعَ حَزِيناً على ما فَاتَهُ مِن مَقامِ الشهادةِ التي كانَ يَحْرِصُ عليها كلَّ الحِرْصِ ، ولقَدْ كان المسلمونَ في أَوَّلِ هَذِهِ الأُمَّةِ أَقَلِّيَّةً بَيْنَ الأُمَمِ ، وكانُوا مَعَ ذَلِكَ فُقَراءَ مِنَ المالِ ، ولكنْ كانُوا أَغْنِيَاءَ ، بِمَا وَهَبَهُمُ اللهُ مِنَ البُطُولَةِ ، غِنَىً لمْ يَرْوِ لَنا التاريخُ نَظِيرَهُ بَيْنَ ذَوِيْ البُطُولاتِ ، يَعْتَمِدُوْنَ في تِلْكَ البُطولَةِ على مَعونةِ مولاهُمْ لَهُم في كُلِّ حالٍ مِنَ الأَحوالِ .

ولقدْ كانتْ أَحْوَالُهُمْ وَأَعْمالُهُمْ تُبَيِّضُ الوُجُوهَ ، وتَمْلأُ القُلُوبَ سُروراً وَفَرَحاً ، كَانُوا إذا نَازَلُوا الأَعْدَاءَ رَجَعُوا ظَافِرِينَ مُنْتَصِرِيْنَ ، لا يُرَى عَلَيْهِمْ أَثَرُ كَآبَةٍ ، اللهمَّ إلا كَآبَةُ الحُزْنِ ، على أَنَّ أَحَدَهُم لَمْ يَفُزْ بمَقامِ الشهادَةِ التي كانتْ عندَهُمْ مُنْتَهَى الآمالِ ، لِذَلِكَ دَوَّخُوا الدُنيا ، وكانُوا عِندَ الكُلِّ سَادَةَ الأَعِزّاءِ ، كانُوا لا يَطْمَعُ فِيْهِمْ طَامِعٌ ، مَعَ أَنَّهُمْ أَقَلِيَّةٌ ، وَكَانُوا إِذا نُسِبُوا لِغَيْرِهِمْ فُقَرَاءَ ، ولَكِنَّهُمْ أَغْنِيَاءُ بالتَّوَكُّلِ على مَنْ بيَدِهِ القُلوبُ ، وَبِيَدِهِ كلُّ شيءٍ .

وَلَقَدْ كانَ مَعَهُمْ صَفْوَةُ الخَلْقِ ، وَعَنْ إِرْشَادَاتِهِ يُصْدِرُونَ ما يُصْدِرُونَ مِنْ أَعْمَالٍ ، وَهُوَ كانَ لَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ، إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ جَلَّ وعلا بذَلِكَ ، أَمَّا نَحْنُ فَعُدَّ مِنَّا بِمِئَاتِ الأُلُوفِ وَقُلْ مَا تُرِيْدُ في غِنَانَا فالوَاحِدُ مِنَّا يَمْلِكُ المَلايِيْنَ ، وَمِنَ العَقَاراتِ الشَّيءَ الكَثِيْرَ ، ولكِنَّنَا مَعَ ذَلِكَ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، نُحِبُّ هَذِهِ الحَيَاةَ ، حُباً مَلَكَ مَشاعِرَنَا كُلَّهَا اللَّحْمَ والعَظْمَ والعُروقَ وكُلَّ شيءٍ ، وَنَكْرَهُ الموتَ كَراهَةً شَدِيْدَةً والسَّبَبُ في ذلك ـ واللهُ أعلمُ ـ

أنَّ حُبَّ الدُنْيَا ، والتَعَلُّقَ بها ، هُوَ الذِي أَنْسَانَا ، وَأَلْهَانَا عَن تَذَكُّرِ الجِهادِ ، والحَثّ عليهِ وَتَمَنّيهِ ، وَبَذْلِ النَّفِيْسِ فِيْمَا يُقَرّبُ إليه ، نسألُ اللهَ أنْ يُوْقِظَ قُلُوبَنَا ، وَيُوَفِقَنا لِسُلُوكِ سَبِيْلِ سَلَفِنَا . لِنُقيمَ عَلَمَ الجِهادِ ، وَيَجْعَلَنَا مِنْ أَنْصارِ دِيْنِهِ ، وَحِزبِهِ المُفْلِحِيْنَ آمِيْنَ يا ربَّ العالمين وصلى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

« فَصْلٌ »

وَقَدْ وَرَدَ في فَضْلِ الجِهَادِ ، والحَثِّ عليهِ ، وَبَيَانِ عَظِيْمِ ثَوَابِهِ ، آياتٌ وأحادِيْثُ كثيرةٌ ، نَذْكُرُ طَرَفاً مِنها إنْ شاءَ اللهُ تَعالَى .

فمِنَ الآياتِ قولُهُ تَعالى ﴿ إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤمنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بأنَّ لهُمُ الجنةَ ، يُقَاتِلُونَ في سَبِيْلِ اللهِ ، فَيَقْتلون ويُقْتَلُون ، وَعْداً عليهِ حقّاً ، في التوراةِ والانجيلِ والقُرآنِ ، وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ؟ فاسْتَبْشِرُوْا بِبَيْعِكُم الذي بايَعتمْ بِهِ ، وذلكَ هُوَ الفوزُ العَظِيْمُ ﴾ فَفِي هذه الآيةِ الكريمةِ ترغيبٌ في الجِهادِ ، على أَبْلَغِ وَجْهٍ ، وأحْسنِ صُوْرَةٍ ، قال ابنُ القَيّمِ رحمه اللهُ على هذه الآية : فجعلَ سبحانَهُ ها هُنا الجنةَ ثمناً لِنفوسِ المؤمنينَ وأَمْوَالِهِمْ ، اذا بَذلوها فيه اسْتَحَقُّوا الثمَنَ ، وعقَدَ معهمْ هَذا العَقْدَ ، وَأَكَّدهُ بِأَنْوَاعٍ مِن التأكِيْدَاتِ .

أولاً : إخْبَارُهُمْ بصِيْغَةِ الخَبَرِ المؤَكَّدِ بأداةِ إنّ .

ثانياً : الأخْبَارُ بذلِكَ بصِيْغَةِ الماضِي الذي وقعَ وَثَبتَ واسْتَقَرَّ .

ثالثاً : إضافةُ هذا العَقْدِ إلى نَفْسِهِ سُبْحَانَه ، وأنهُ هو الذي اشْتَرَى هذا المَبِيْعَ .

رابعاً : أنهُ أخْبَرَ بأنه وَعَدَ بِتَسْلِيْم هَذَا الثَّمَنِ ، وعْداً لا يُخْلِفُهُ ولا يَتْرُكُهُ .

خامساً : أنه أتَى بِصِيْغَةِ (على) أَلَّتي لِلوُجوب ، إعْلاماً لِعِبَادِهِ بأنَّ ذلكَ حقٌ عليه ، أحَقَّه هو على نَفْسِهِ .

سادساً : أنه أكَّدَ ذلكَ بكونِهِ حَقاً عليه .

سابعاً : أنه أَخْبَرَ عنْ مَحَلِّ هذا الوَعْدِ ، وَأَنَّهُ في أَفْضَلِ كُتُبِهِ المُنَزَلةِ مِن السَّمَاءِ ، وهيَ التوراةُ والانجيلُ والقرآنُ .

ثامناً : إعْلامُهُ لِعِبادِهِ بصِيغَةِ استفهامِ الانكارِ ، وأنه لا أحَدَ أوفى بعَهدِهِ منهُ سُبْحانَهُ .

تاسعاً : أنه سُبْحانَهُ وتعالى أَمَرَهُمْ أنْ يَسْتَبْشِرُوا بهذا العَقْدِ ، وَيُبَشّرَ بِهِ بَعْضُهمْ بعضاً ، بَشارةَ مَنْ قَدْ تَمَّ لهُ العَقْدُ وَلَزِمَ ، بحَيْثُ لا يَثْبُتُ فيه خِيَارٌ ، ولا يَعْرِضُ له ما يَفْسَخُهُ .

عاشراً : أنهُ أخْبَرَهُمْ إخباراً مؤكّداً بأنَّ ذلك البيعَ الذي بايعُوهُ بِهِ هو الفوزُ العظيمُ . والبيعُ ها هُنا بمَعْنى المَبِيْع الذي أخذوهُ بهذا الثمن ، وهو الجنةُ ، وقوله (بايَعْتُمْ بِهِ) أي عاوَضْتُمْ وثامَنْتُمْ بِهِ ، ثم ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أهْلَ هذا العَقدِ الذي وقَّعَ العقْدَ وتَمَّ لَهُمْ دونَ غيرِهِمْ ، وهمْ التَائِبُون الخ انتهى .

ويقولُ سيدُ قَطْبٍ رحمهُ اللهُ على هَذِهِ الآية :

هذا النصُّ الذي تَلَوتُه مِنْ قَبْلُ ، وَسَمِعْتُهُ ألفَ مَرَّةٍ أَوْ تَزِيْد في

أثناء حِفظي للقرآنِ ، وفي أثناءِ تِلاوَتِهِ بعدَ ذلِكَ ودِرَاسَتِهِ ، في أكثَرَ مِنْ رُبعِ قَرْنٍ ، هذا النَّصُّ أشْهَدُ أنّنِيْ أُدْرِكُ منهُ اللحظةَ ما لَمْ أُدْرِكْهُ في ألفِ مَرَّةٍ أوْ تَزِيدُ ، إنّهُ نَصٌّ رَهِيبٌ ، يَكْشِفُ عنْ حَقِيقةِ العَلاقَةِ التي تَربطُ المُؤمنينَ الصادقينَ باللهِ ، وَعَنْ حَقِيقَةِ البَيْعَةِ التي في أعْنَاقِهِمْ طُولَ الحَياةِ ، فمَنْ بايَعَ البَيْعَةَ ، وَوَفَى بها فَهُوَ المُؤمِنُ الحَقُّ ، الذي يَنْطَبقُ عَلَيْهِ معنَى المُؤْمِنِ وحقيقَتِهِ ، وإلّا فهي دَعْوَى تُحتاجُ إلى التصديقِ والتحقيق .

حقيقةُ هذهِ البَيْعَةِ ـ أو هذه المُبَايَعَةِ كما سماها اللهُ كَرَماً منه وَفَضْلاً ـ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ استَخْلَصَ لنفْسِهِ أنْفُسَ المُؤمنينَ وأموالَهُمْ ، فَلَمْ يَعُدْ لهم منها شيءٌ ، لَم يَعُدْ لَهُمْ أنْ يَسْتَبقُوا منها بقِيَّةً ، لا يُنْفِقُوْنَها في سبيلِ اللهِ ، لَم يَعُدْ لَهُمْ خِيارٌ في أنْ يَبْذُلُوا أوْ يُمسِكُوا ، كلا إنها بَيْعةٌ كاملةٌ ، فالثمَنُ الجَنةُ والطريقُ الجهادُ ، والنِهايةُ هي النصْرُ أو الاستِشْهادُ ، ومِنْ رحمتِهِ أنْ جَعَلَ لِلصَّفْقَةِ ثَمناً ، وإلّا فهو مالِكُ الأنفُسِ والأَموَالِ ولَكِنّهُ كَرَّمَ هذا الإنسانَ ، فَجَعَلَهُ مُرِيداً ، وكرَّمَهُ فجَعل لَهُ أنْ يَعقِدَ العُقودَ وَيُمْضِيها حتَّى مَعَ اللهِ وكرَّمَهُ فقيَّدَهُ بِعُقُودِهِ وَعُهُودِهِ ، وجعلَ وَفاءَهُ بِهَا مِقْيَاسَ آدَمِيَّتِهِ الكَرِيمةِ ، كما جعلهُ مَنَاطَ الحِسابِ والجَزَاءِ .

وإنها لَبَيْعَةٌ رَهِيْبَةٌ بلا شَكٍّ ، ولكِنَّها في عُنُقِ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، لا تَسْقُطُ عنهُ إلا بسُقُوطِ إيمانِهِ والعِياذُ باللهِ ، يا اللهُ عونَكَ ، فإنّ العَقْدَ رَهيبٌ ، وهؤلآءِ القاعدونَ بالملايينِ ، في مَشارِقِ الأرْضِ وَمَغارِبِها يَدَّعُون أنهم مؤمنونَ بكَ ، وهُمْ قاعِدون ، لا يُقاتلون لإعْلاءِ

كَلِمَتِـكَ ، ولا يَقْتلون ولا يُقْتَلُون ، ولا يُجاهِـدون جهاداً مـا ، دونَ القِتالِ والقَتْلِ ، يَسُدُّون به ثَغْرةً ويُساهِمونَ بِهِ في الدِّفاعِ عن دِيْنِك الذي أَرْدَت له النصْرَ والاستعلاءَ ، قال .

ولقد كانتْ هذه الكلماتُ تدخُلُ إلى قلوب مُسْتَمِعيها الأوَّلِينَ ، على عهدِ الرسولِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ، فَتَتَحوَّلُ مِنْ فَوْرِهَـا إلى وَاقِعٍ مِنْ واقع حَياتِهِمْ ، ولم تَكُنْ مُجَرَّدَ مَعَانٍ يَتَمَلَّوْنَها بـأذهانِهِمْ ، وَيُحِسُّونَها مُجَرَّدَةً في مَشَاعِرِهِمْ ، كانُوا يَتَلَقَّوْنَها للْعَمَل المباشِر بها ، لِتَحْوِيلِها إلى حَرَكَةٍ منظورَةٍ ، لا إلى صُورَةٍ متأمَّلَةٍ ، هكَذا أَدْرَكَها عبدُ اللهِ بْنُ رَوَاحة رضيَ اللهُ عنْهُ في بَيْعةِ العَقَبَةِ .

قال محمدُ بْنُ كعب القُرَظِي : قالَ عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ لِرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَمَ ـ يَعْني لَيلةَ العقبةِ ـ اشْتَرطْ لِرَبِّك ولِنَفْسِك ما شِئْتَ ، فقالَ « اشتـرطُ لِرَبِّي أنْ تَعْبُـدُوهُ ولا تُشْركُـوا بِهِ شيئـاً ، وأشْتَرطُ لِنفْسِي أنْ تَمْنعُوني مِمَّا تَمْنَعُونَ منهُ أنفُسَكمْ وَأَمْوَالَكُمْ » قالَ : فمَا لَنا إذا فعلْنا ذلك ؟ قال « الجنة » قالُوا : رَبِح البَيْعُ ، لا نُقِيلُ ولا نَسْتَقِيْل ، فنزلتْ ﴿ إنّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المؤمنين أنفُسَهُمْ وَأَموالَهُمْ بأنَّ لهُمُ الجَنةَ ﴾ انتهى باختصار .

ترغيبٌ في إقامةِ الدعوةِ والنصيحةِ في الدِيْن :

تَـألَقَ بَـرْقُ الحَقِ في العـارضِ النَّجْـدِي
فَعَمَّ جَمِيَـعَ الكَـونِ في الغَـوْرِ والنَّجْـدِ

وَأَوْرَقَتِ الأَشْجَارُ وانْتَهَضَتْ بِهَا
يَوانِعُ أنواعٍ من الثَمَرِ الرَّغْدِ
وأَشْرَقَتِ الأَنْوَارُ مِن زَهْرِ وَرْدِهِ
وأَعْبَقَتِ الأَقْطَارُ مِن طِيْبِهِ النَّدِ

وَغَرَّدَتِ الأَطْيَارُ بالذِكْرِ تُطْرِبُ المَسَامِعَ جَهْراً فَوْقَ أَغْصَانِهَا المُلْدِ

وقَامَ خَطِيبُ الكَائِنَاتِ لِرَبِّهَا
على الخُصْبِ بَعدَ المَحْلِ بالشُكْرِ والحَمْدِ
فَذَاكَ الحَيَا يُحْيِي القُلُوْبَ رَبِيْعُهَا
وَمَطعومِهَا مَشْرُوْبُهَا طَيِّبُ الوِرْدِ
فَهَا نَحْنُ نَجْنِي مِن ثِمَارِ غِرَاسِهَا
ونَرجُو جَنَاهُ العَفْوَ في جَنَّةِ الخُلْدِ
فإِنْ كُنْتَ مُشْتَاقاً إِلى ذَلِكَ الجَنَا
فَذُقْهُ تَجِدْ طَعماً أَلَذَّ مِن الشَّهْدِ
هُوَ الوَحْيُ دِيْنُ اللهِ عِصْمَةُ أَهْلِهِ
وَحَظُّهُمُ الأَوْفَى وَجَدُّهُمْ المُجْدِي
به يُنْتَجَى والناسُ في هَلَكَاتِهِمْ
به يُرْتَجَى نَيلُ الرغَائِبِ والرِفْدِ
بِهِ الأَمْنُ في الدنيا وفي الحَشْرِ واللِقَا
ومِن قَبْلُ عِنْدَ الاحْتِضَارِ وفي اللَّحْدِ
به تَصْلُحُ الدُنيا به تُحْقَنُ الدِّمَا
به يُحْتَمَى مِن كُلِّ بَاغٍ وذِي حِقْدِ

بــه زُعْــزُعَتْ أَرْكَــانُ كِسْــرَى وَقَـيْصَـرٍ
ولم يُجَـد مَـا حَـازَا مِن المَـالِ والجُنْـدِ
وأَمْثَـالُهـا فـي السَّـالِكينَ طَـرِيْقَهَـمْ
أرَنَـا كَمَا قَـد قَـالَـهُ صَادِقُ الـوَعْـدِ
فَـلِلهِ حَـمْـدٌ يَـرْتَـضِيْـهِ لِـنَـفْـسِـهِ
عَلَى نِعَـمٍ زَادَتْ عَن الـحَصْـرِ والـعَـدِّ
فَـأعْـظَهُمَـا بَعْثُ الـرَّسُـولِ مُحَـمَّـدٍ
أمَيْنُ إلَـه الـحَقِّ وَاسِـطَةَ الـعِـقْـدِ
دَعَـانَـا إِلَـى الاسـلامِ دِيْـنِ إلـهِنَـا
وتَـوْحِيْـدِهِ بـالقَـوْلِ والفِعْـلِ والقَصْـدِ
هَـدَانَـا بِـهِ بَعْـدَ الضَّـلاَلَـةِ والعَمَـى
وأنْـقَـذَنَـا بَعْـدَ الـغِـوَايَـةِ بـالـرُّشْـدِ
حَبَـانَـا وأعْـطَانَـا الـذِي فَـوْقَ وَهْمِنَـا
وأَمْكَـنَـنَـا مِن كُـلِّ طَـاغٍ وَمُـعْـتَـدٍ
وأَيَّـدَنَـا بـالـنَّـصْـرِ واتَّـسَعَـتْ لَـنَـا
مَمَـالِكُ لاَ تَـدْعُـو سِـوَى الـوَاحِـدِ الفَـرْدِ
فَــنَسْــأَلُــهُ إتْـمَـامَ نِـعْـمَـتِـهِ بِـأَنْ
يُـثَـبِّـتَـنَـا عِـنْـدَ الـمَـصَادِرِ كَـالـوِرْدِ
فـيـا فـوزَ عـبـدٍ قَـامَ للهِ جَـاهِـدَاً
عَلَى قَـدَمِ التجريـدِ يَهْـدِيْ وَيَسْتَهْـدِي
وَجَـرَّدَ فـي نَصْـرِ الـشَّـرِيْعَـةِ صَـارِمـاً
بِعَزْمٍ يُرَى أَمْضَى مِن الصَّـارِمِ الهِنْـدِي

وتـابَعَ هَـدْيَ المُصْطَفَى الـطُهْـرَ مُخْلِصـاً
لِـخَـالِقِـهِ فِيْـمَـا يُـسِـرُّ وَمَـا يُبْـدِي
ويَـا حَـسْـرَةَ المَـحْـرُوْمِ رَحْمَـةَ رَبـهِ
بـإعْرَاضِـهِ عن دِيْنِ ذِي الجُـوْدِ والمَجْـدِ
لَقَـدْ فَـاتَـه الخَيْـرُ الكَثِيْرُ وَمَـا دَرَى
وَقَـد خَابَ واختـارَ النُحُوسَ عَلَى السَّعْـدِ
ومِن بَعْـدِ حَمْـدِ اللهِ أَزْكَـى صَـلاَتِـهِ
وَتَـسلِيْـمِـهِ الأَوْفَى الـكَثِيْـرِ بـلاَ حَـدِ
عَـلَى المـصـطَفَى خَـيـرِ الانـامِ وآلِـهِ
وأصحـابِـهِ أَهْـلِ السَّـوابِـقِ والـزُهْـدِ

اللهمَّ ثَبِّتْ إيْمَانَنَا بِكَ وبملاَئِكَتِكَ وَكُتُبِكَ وَرُسُلِك واليَوْمِ الآخِرِ والقَدَرِ خيرِهِ وَشَرِّهِ واغْفِرْ لَنا ولوالِدِيْنَا ولِجَمِيْعِ المسلمينَ برَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الراحِمِينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

« فَصْـلٌ »

وَمِنَ الآيـاتِ الَّتِي وَرَدَتْ في الحثِّ على الجهادِ ، والتـرغيبِ فيهِ ، وملازمةِ الصَّبْرِ عليه ، قولُه تعالى ﴿ ولا تقولوا لِمَنْ يُقْتَـلُ في سبيلِ اللهِ أمواتٌ ، بلْ أَحْيَاءٌ ، ولَكِنْ لا تشعرون ﴾ وقولُهُ تعالى ﴿ ولا تحسَبَنَّ الـذين قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ أَمْـوَاتاً ، بـلْ أَحْيَـاءٌ عنـدَ رَبِّهِـمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بما آتاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبشِرونَ بـالذينَ لَمْ

يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ، أَنْ لا خَوفُ عليهم ، ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُون بنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ، وأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجْرَ المُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ يا أَيُّها الذين آمَنُوا هلْ أدُلُّكُمْ على تجارةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عذابٍ أليمٍ ، تُؤْمِنونَ باللهِ ورسُولِهِ ، وتُجاهِدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِكُمْ وأنفُسِكُمْ ، ذلِكُمْ خيرٌ لكمْ ، إنْ كُنْتُمْ تعْلَمُون ، يَغْفِرْ لكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَناتِ عَدْنٍ ، ذلك الفوزُ العظيمُ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيلِ اللهِ بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ ، أعظمُ دَرَجَةً عندَ اللهِ ، وأؤلئكَ هُمُ الفائِزون يُبَشِّرُهُم رَبُهُمْ برَحْمةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ ، وَجَنَّاتٍ لهُمْ فيها نَعِيمٌ مُقيمٌ ، خالدين فيها أبداً ، إنَّ اللهَ عندَهُ أجْرٌ عظيم ﴾ .

وقال تعالى ﴿ لا يَسْتَوي القاعدونَ مِنَ المؤمنينَ ، غَيْرُ أُولِي الضررِ ، والمُجَاهدونَ في سَبيلِ اللهِ بأموالِهِمْ وأنفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ المُجاهدينَ بأموالِهِمْ وأنفُسِهِمْ على القاعِدينَ دَرَجَةً ، وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ المجاهدينَ عَلى القاعِدِينَ أَجْراً عظيماً ، درجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وكانَ اللهُ غَفُوراً رحيما ﴾ .

وقال تعالى ﴿ انْفرُوا خِفافاً وثِقالاً ، وَجَاهِدُوا بأموالكم وأنفسكم في سَبيلِ اللهِ ذٰلكم خَيرٌ لكُمْ إنْ كنتم تعلمون ﴾ .

وقال تعالى ﴿ لكِن الرسول والذين آمنوا مَعَهُ جاهَدُوا بأمْوالِهِمْ وأنفُسِهِمْ ، وأولـئك لهُمُ الخَيْرَاتُ ، وأولـئكَ هُمُ المُفْلِحون ، أَعَدَّ اللهُ لهُمْ جَناتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ ، خالدينَ فيها ، ذَلِكَ الفوزُ العظيمُ ﴾ .

وأمَّا الأحاديثُ الواردةُ في فَضْلِ الجهادِ ، والحَثّ عليْهِ بالنفسِ والمالِ ، فإلَيْكَ مِنْهَا طَرَفاً ، فتَأمّلْهُ ، وَاسْأَل الله أنْ يُقيْمَ عَلَمَ الجِهادِ في سبيلِهِ ، وأَنْ يَرْزُقَنَا وإيَّاكَ الشَّهادَةَ ، وأنْ يُلْحِقَنَا بالسَّلَفِ الصالِحِ ، وَيَجْمَعَنَا وإيَّاهُمْ في مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِهِ إنه جوادٌ كريم .

فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ سُئِلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيُّ العَمَلِ أفضَلُ ؟ قال « إيمانٌ باللهِ ورسولِهِ » قيل : ثُمَّ ماذا ؟ قال « الجِهادُ في سبيلِ اللهِ » قيل : ثُمَّ ماذا ؟ قال « حَجٌّ مَبْرورٌ » متفق عليه .

وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ : قُلتُ يا رسولَ اللهِ أَيُّ العَمَلِ أَحبُّ إلى اللهِ تعالى ؟ قال « الصلاةُ على وَقْتِها » قلتُ ثُمَّ أيُّ ؟ قالَ « بِرُّ الوالدينِ » قلتُ : ثُمَّ أيُّ ؟ قَالَ « الجِهادُ في سبيلِ اللهِ » متفقٌ عليه .

وعنْ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ أَيُّ الأعمالِ أفضَلُ ؟ قالَ « الإيمانُ باللهِ والجِهادُ في سَبيلِهِ » متفقٌ عليه .

وعنْ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « لَغَدْوَةٌ في سبيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خيرٌ مِنَ الدنيا ومَا فِيها » متفقٌ

عليه .

وعَنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ : أَتَى رجُلٌ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فقال : أَيُّ الناسِ أَفْضَلُ ؟ قـال « مؤمِنٌ يجاهِدُ بنفسِهِ ومالِهِ في سبيلِ اللهِ » قالَ : ثُـمَّ مَنْ ؟ قال « مؤمِنٌ في شِعْبٍ مِنَ الشِّعابِ ، يَعْبُدُ اللهَ ، وَيَدَعُ الناسَ مِنْ شَرِّهِ » متفقٌ عليه ، وعن سَهْلِ بنِ سعدٍ رضِيَ اللهُ عنهُ ، أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ « رِباطُ يَوْمٍ في سبيلِ اللهِ خَيـرٌ مِنَ الدنيـا وما عَلَيْهـا ، والرَوْحةُ يَرُوحُها العبْدُ في سبيلِ اللهِ تعالى ، أَو الغَدْوةُ ، خَيـرٌ مِنَ الدنيا وما عليها » متفقٌ عليه .

وعن سَلْمَانَ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليـهِ وسلَّمَ يقولُ « رِبـاطُ يـومٍ وليلةٍ ، خيـرٌ مِنْ صِيَـامِ شَهْـرٍ وقِيامِهِ ، وإِنْ ماتَ فيهِ جَرَى عليهِ عملُهُ الذي كانَ يَعْمَلُ وأُجرِيَ عليهِ رِزْقُه ، وَأَمِنَ الفَتَّانَ » رواه مسلم .

وعن فُضَالَةَ بنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ « كلُّ مَيّتٍ يُخْتَمُ على عَمَلِهِ إلَّا المُرابطَ في سبيـلِ اللهِ ، فإنهُ يُنَمّي له عَمَلَهُ إلى يومِ القيامةِ ، وَيُؤْمَنُ فِتْنَةَ القَبْرِ » رواهُ أبو داودَ والتِرمِذي ، وقال حديثٌ حسنٌ صحيح .

وعن عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ « رِباطُ يومٍ في سبيلِ اللهِ ، خيرٌ مِنْ أَلْفِ يومٍ فيما سِواهُ مِنَ المنازِلِ » رواه التِرمِذي وقال : حديثٌ حَسَنٌ صحيح .

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ في سبيلِهِ ، لا يُخْرِجُهُ إلا جِهادٌ في سَبيلي ، وإِيمانٌ بي ، وَتَصْديقٌ بِرُسُلِي ، فهو ضامِنٌ أنْ أُدخِلَهُ الجَنَّةَ ، أَوْ أُرْجِعَهُ إلى مَنْزِلِهِ الذي خَرَجَ مِنْهُ ، بِمَا نالَ مِنْ أَجْرٍ أو غَنيمَةٍ ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ ما مِنْ مَكْلومٍ يُكْلَمُ في سَبيلِ اللهِ ، إلا جاءَ يَومَ القيامةِ كَهيْئَةِ يَوْمَ كُلِمَ ، لَوْنُهُ لَونُ دَمٍ ، وريحُهُ رِيحُ مِسْكٍ ، والذي نفسُ محمدٍ بيَدِهِ ، لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ على المسلمين ، ما قَعَدْتُ خِلافَ سريَّةٍ تغزُو في سبيلِ اللهِ أَبَداً ولكنْ لا أَجِدُ سَعَةً فأحْمِلُهُمْ ، ولا يَجِدُوْنَ سَعَةً ، وَيَشُقُّ عليهِمْ أنْ يَتَخَلَّفُوا عَني ، والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزُوَ في سبيلِ اللهِ فأُقْتَلَ ، ثم أغزُوَ فأُقْتَلَ » رواه مُسْلمٌ ، وعنهُ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « ما مِنْ مَكْلُوْمٍ يُكْلَمُ في سَبِيْلِ اللهِ إلا جَاءَ يومَ القيامةِ وَكَلْمُهُ يَدْمَى ، اللَّوْنُ لون دَمٍ ، والرِّيْحُ رِيْحُ مِسْكٍ » متفق عليه .

وعن مُعَاذٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، عن النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ « مَن قاتلَ في سبيلِ اللهِ مِنْ رَجُلٍ مسلم ، فُوَاقَ ناقَةٍ ، وَجَبَتْ له الجنةُ ، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحاً في سبيلِ الله ، أَوْ نُكِبَ نَكْبةً ، فإنَّها تَجيءُ يومَ القيامةِ كأغْزَرِ ما كانتْ ، لونُها الزعْفَرانُ ، وريحُها كالمِسْكِ » .

وعنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، قالَ مرَّ رجلٌ مِنْ أصْحابِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بشِعْبٍ فيه عُيَيْنَةٌ مِنْ ماءٍ عَذْبَةٌ ، فاعْجَبَتْه فقالَ : لوْ اعتزَلْتُ الناسَ ، فأقمْتُ في هذا الشِّعْبِ ، ولنْ أفعَلَ حتى استأذنَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فذَكَر ذلك

لـرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليـهِ وسلَّمَ ، فقالَ « لا تَفْعَـلْ ، فإنَّ مُقَـامَ أَحَدِكُمْ في سبيلِ اللهِ أفضَلُ مِنْ صلاتِهِ في بيتِهِ سبعينَ عـاماً ، ألا تُحِبُّونَ أنْ يغفِرَ اللهُ لكُمْ ، وَيُدْخِلَكُمْ الجنةَ أُغْزُوا في سبيلِ اللهِ ، مَنْ قاتلَ في سبيلِ اللهِ فُوَاقَ ناقةٍ وَجَبَتْ لهُ الجنةُ » رواهُ التِرْمذِي . وقال حديثٌ حسَنٌ .

وعنهُ قالَ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ما يَعْدِلُ الجهاد في سبيلِ اللهِ ؟ قالَ « لا تستطيعُونَهُ » فأَعَادُوا عليهِ مرَّتَيْنِ أو ثلاثاً ، كلُ ذَلِكَ يقولُ « لا تَسْتَطيعُونَهُ » ثم قالَ « مثَلُ المجاهِدِ في سبيلِ اللهِ ، كَمَثَلِ الصائِمِ ، القـانِتِ بآيـاتِ اللهِ ، لاَ يَفْتُرُ مِنْ صـلاةٍ ولا صِيامٍ ، حتى يَـرْجِـعَ المجاهِدُ في سبيلِ اللهِ » متفقٌ عليه ، وهذا لفظُ مُسْلمٍ ،

وفي رِوايةٍ للبُخارِي أَنَّ رجُلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ دُلَّنِي على عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهادَ : قالَ « لا أجِدُهُ » ثُمَّ قالَ « هلْ تَسْتَطِيعُ إذا خرَجَ المجاهِدُ أنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ ، فَتقومَ ولا تَفْتُرُ، وتصُومَ ولا تُفْطِرَ ؟ » فقالَ : وَمَنْ يَسْتطيعُ ذلك ؟ .

وعنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ « مِنْ خَيرِ مَعَاشِ الناسِ لهمْ رجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ في سبيلِ اللهِ ، يَطِيرُ على مَتْنِهِ ، كُلما سَمِعَ هَيْعَةً أو فَزْعَةً طارَ على مَتْنِهِ يَبْتَغِي القتلَ أو الموتَ مَظانَّه ، أو رجلٌ في غنيمةٍ أو شَعْفَةٍ مِنْ هذِهِ الشعَفِ ، أو بَطْنِ وادٍ مِنْ هذِهِ الأودِيَةِ ، يُقيمُ الصَّلاةَ ويؤتي الزكاةَ ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حتى يأتِيَهُ اليَقِينُ ، ليسَ من الناسِ إلا في خيْر » رواه مسلم .

وعنه أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قال « إنَّ في الجنةِ مائةَ دَرَجةٍ ، أعدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيلِ اللهِ ، ما بينَ الدرجتينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ » .

اللهم وَفِّقْنا لقولِ الحقِ واتِّباعِهِ وَخَلِّصْنا مِنْ وساوِسِ قلوبنَا الحاملةِ على التورُّطِ في هُوَّةِ الباطِلِ وابتداعِهِ واجْعلْ إيمَانَنَا إيماناً خالصاً صادِقاً قوِيّاً وَكُنْ لنا مؤيِّداً ولا تجعْلْ لِفاجِرٍ علينا يَداً واجْعَلْ عيشَنَا عَيْشاً رَغَداً . ولا تُشْمِتْ بِنا عَدُوّاً ولا حاسِداً وارزُقْنا في مَحَبَّتِكَ عِلْماً نافِعاً ورِزْقاً واسعاً وعملاً مُتَقبَّلًا وحِفْظاً كاملًا وَفَهْماً ذَكِيّاً وطَبْعاً صَفِيّاً وأَدَباً مُرْضِياً واغْفِرْ لنا ولِوالِدَيْنَا ولجميعِ المسلمين برحمَتِكَ يا أرحمَ الراحِمينَ وصلّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

« فَصْلٌ »

عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ رضِيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ « مَنْ رَضِيَ باللهِ ربّاً ، وبالاسلام دِيْناً ، وبمحمدٍ رسولًا ، وَجَبَتْ لهُ الجنةُ » فعَجِبَ لها أبو سعيدٍ ، فقالَ أعِدْهَا عليَّ يا رسولَ اللهِ . فأعادَها عليهِ ، قال « وأُخْرَى يرفَعُ اللهُ بِهَا العبدَ مائةَ دَرَجَةٍ في الجنةِ ، ما بينَ كُلِّ درجتين كما بينَ السماءِ والأرضِ » قالَ : وما هيَ يا رسولَ اللهِ ؟ قال « الجهادُ في سبيلِ اللهِ ، الجهادُ في سبيلِ اللهِ » رواهُ مسْلم .

وعنْ أبي بكرِ بْن أبي مُوسى الأشْعَرِي قَالَ : سمعتُ أبي رَضِيَ اللهُ عنه ـ وهو بِحضْرَةِ العَدُوِّ ـ يقولُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم « إِنَّ أَبوابَ الجَنةِ تحتَ ظِلالِ السُيوفِ » فقامَ رجُلٌ رثُّ الهيْئةِ ، فقالَ : يا أبا موسى أنتَ سمعتَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ هذا ؟ قالَ : نعمْ . فَرجَعَ إلى أَصْحابِهِ فقالَ : أقرأُ عليكُم السلامَ ، ثم كَسَرَ جفْنَ سيفِهِ ، فألقَاهُ ، ثم مشَى بسيفِهِ إلى العدُوِّ ، فَضَرَبَ بِهِ حتى قُتِلَ ، رواهُ مسلمٌ .

وعن أبي عَبْسٍ عبدِ الرحمنِ بنِ جَبْرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « ما اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ في سبيلِ اللهِ فَتَمَسَّهُ النارُ » رواهُ البُخاري .

وعنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « لا يَلِجُ النارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيةِ اللهِ ، حتى يَعُودَ اللَّبَنُ في الضِّرْعِ ، ولا يَجْتمِعُ على عَبدٍ غُبارٌ في سبيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنمَ » رواهُ الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيح .

وعن ابن عباسٍ رضِيَ اللهُ عنهما قالَ سمعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ « عَيْنانِ لا تَمسُّهما النارُ ، عَينٌ بَكَتْ مِن خَشْيةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ باتتْ تَحْرُسُ في سبيلِ اللهِ » رواهُ الترمذيُ وقالَ حديثٌ حسنٌ .

وعن زيدِ بنِ خالدٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ « مَنْ جهَّزَ غَازِياً في سَبيلِ اللهِ فقدْ غزَا ، وَمَنْ خلَفَ غازِياً في أَهْلِهِ بخيرٍ فقدْ غزَا » متفقٌ عليه .

وعنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ أَنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ « ما أَحَدٌ يدخُلُ الجنةَ يُحِبُّ أنْ يَرْجِعَ إلى الدُنْيَا ، ولهُ مَا على الأرْضِ مِنْ شَيءٍ ، إلا الشهيدُ ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إلى الدنيا ، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَراتٍ ، لِما يَرَى مِنْ الكَرَامةِ » وفي رِوايةٍ « لِمَا يَرى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ » .

وعَنْ عبدِ اللهِ بنِ عَمْروٍ بن العاصِ رضِيَ اللهُ عنهُما أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَمَ قالَ « يُغْفَرُ للشَّهيدِ كلُّ ذَنْبٍ إلا الدَّيْن » رواهُ مُسْلم ، وفي روايةٍ لهُ « القتلُ في سبيلِ اللهِ يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إلا الدَّيْن » .

اللهمَّ آعصِمْنا وآحْمِنا عَن الرُّكُونِ إلى عِداكَ وارزُقْنا بُغضَهُمْ وأعْوانِهِم وَوَفِّقْنا لِمَحبتكَ وَمَحَبَّةِ رُسُلِكَ وَأَوْلِيَائِكَ واجْعَلْنا هُداةً مُهْتَدِينَ واغْفِرْ لنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الراحِمِينَ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

موعظة

عِبَادَ اللهِ ، إنَّ الأولادَ بدُونِ تَربيةٍ لا قِيمةَ لهُمْ بينَ صُفُوفِ الأولادِ ، بَلْ هُمْ بدونِ تَرْبِيَةٍ مُصيبةٌ كُبْرَى على الوالِدَيْنِ خاصةً وعلى المُجْتَمَعِ كُلِّهِ وخيرٌ مِنْ وُجودِهِمْ بِدُونِ تَرْبيةٍ أَوْ بتَرْبِيَةٍ فاسِدَةٍ عَدَمُهُمْ ، لأَنَّهُ ليسَ في عَدَمِهِمْ ضَرَرٌ ، لا على الوالدينِ ولا على الجماعةِ ولا على الأفرادِ ، بلْ في عَدَمِهِمْ مَصَالِحُ مُتَعَددةٌ ، هذا بيانُ حالِهِمْ بلا تَرْبيةٍ أو بتربيةٍ فَاسدةٍ ، فَلْيَعْلَمْهُ الرجُلُ الحكيمُ ، أما التربيةُ فشَيءٌ هَيِّنٌ

يسيرٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ فَمِنَ الأَسْبابِ إذا أرادَ اللهُ أن لا تَعْمَلَ أنت وزوجتُكَ أمامَ أولادِكُما شيئاً يكونُ فاعلُهُ مُتَوَجّهاً عليهِ قَدْرٌ من اللوْمِ ، بَلْ تَلْزمانِ الآدابَ السامية والأخْلاقَ الفاضِلَةَ ليقْتَدُوا بكُمَا ، ذلكَ لأنَّ الولدَ يُقَلِّدُ غالباً أُمَّهُ وأباهُ تقليداً مُطْلَقاً لاعِقالَ لهُ ولا زِمامَ ويتحَدَّثُ عنْ سِيْرةِ أَبَوَيْهِ وَأفعالِهِمَا ويفتخِرُ بهِما وبما لَهُما مِنْ سَجَايا ويمْدَحُهُما ويذُبُّ عَنْهُمَا بكُلِّ ما يستطيعُ هذا في الغالبِ كما ذَكرْنا ويندُرُ خِلافُه تأمَّلْ ما حكاهُ القرآنُ الكريمُ لِتعْلَمَ أنَّ ذلك صدقٌ وأنَّ صلاحَ الأَبَوَينِ وَتَوْجيهَهُما تَوْجيهاً حَسَناً عليهِ مدارٌ عظيمٌ ذكرَ اللهُ في كتابهِ العزيز مرَّاتٍ أنَّ الرُسُلَ بعدَ اظْهارِ المُعْجزاتِ يَدْعُوْنَ قومَهُمْ للكَمالِ فيُكَذِّبونَهُم في دَعْوَتِهِمْ وهُمْ رُسُلُ اللهِ بِحُجّةِ أَنَّ آبائهُمْ لَيْسَتْ أَعْمَالُهُمْ كهذِهِ الأَعْمالِ فيُرَجّحُونَ عَمَلَ آبائِهِمْ وهو كفْرٌ على ما جاءَ بهِ الرُسُلُ وهو دِينُ رَبّنا ذِي الجَلالِ والإكْرامِ قالَ تعالَى عنْ ما قالوه ﴿ إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنّا على آثارِهِمْ مُقْتَدون ﴾ وفي الآيةِ الأُخرى ﴿ وإنا على آثارِهِمْ مُهْتَدون ﴾ هكذا الآباءُ عِنْدَ الأبناءِ بهذِهِ المَنْزِلَةِ العُظْمَى التي عِندَهُمْ لا تُدانِيها مَنْزِلةٌ عظيمٍ واسْمَعْ إلى قَوْلِ الفَرَزْدَق يَتَحَدَّى جريراً :

أُولئكَ آبائي فجِئني بِمِثْلِهِم
إذَا جَمَعَتْنَا يا جَرِيرُ المَجَامِعُ

ويقول الآخر

إنَّا لَنَبْني على مَا شَيَّدَتْهُ لنا
آبَاؤُنا الغُرُّ مِن مَجدٍ مِن كَرَمِ

آخر :

وَيَـنْشَـأُ نَـاشِـيءُ الفِـتْـيَـانِ مِـنَّـا
عَـلى مَـا كَـان عَـوَدَهُ أَبُـوْهُ

حتى إنهُم كانوا في الجاهليةِ يَحْلفونَ بآبائِهِمْ حتى نهاهُمُ النبيُ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فقالَ «لا تحْلِفوا بآبائكم وكذلك نَهَى عن الحَلْفِ بغيرِ الآباءِ، ولذلك أبناءُ الوالدَيْنِ الكامِلَيْنِ لا يعمـلانِ إلا الأعمالَ الحسنةَ التي رَأَوْا والدَيْهِم يعملانِهَا فَيشِبُّونَ وَيَشِيبُون لا يَعْـرفونَ إلا الكَمالَ ولو كَلفْتَهُم غيرَهُ قالوا : إنَّ هذا والدانا لا يَعْرِفانِه، وَتَجِدُ أبناءَ المُنْحَرِفينَ الفاسِدينَ فاسِدِينَ كآبائِهِمْ غَالِباً، لأنهم وَرِثُوا الفَسَادَ مِنْ أَبَوَيْهِمْ، ولذلك تجِدُ أبناءَ الفاسِدِينَ الفاسِقِينَ يحكُوْنَ عنْ آبائِهِمْ ما يَتَغيَّرُ لَهُ وجْهُ صاحِبِ الدِّيْنِ ومِنَ النادِرِ أنْ تَجِدَ وَلَدَ الفاسِدينَ ليسَ فاسِداً ومِنَ الشُذوذِ أيضاً أن تَجدَ ولدَ التَّقِيِّ والتقيَّةِ شَقِيّاً فاسداً هذا يُعرَفُ قديماً قبلَ أنْ يَتَوَلَّى تعليمَ الشَّبابِ ضِعَافُ الدِّيْنِ وَمَنْ لا دِيْنَ لَهُمْ ولا أخلاقَ وإنْ شِئْتَ فاقرَأْ قولَ اللهِ تَعَالَى ﴿يا أُخْتَ هارونَ ما كان أبوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وما كانتْ أُمكِ بَغِيًّا﴾ ولم يُبَرِّئْهَا قَومُها من الفاحِشَةِ إلا بعدَ أنْ بَّرأَهَا اللهُ جَلَّ وعَلا عَقِبَ الوِلاَدَةِ على لِسانِ ولدِهَا عِيسَى عليهِ السلامُ عَرَفَ قومُها أنَّ الولدَ يَتْبَعُ أَبَوَيْهِ في الغالِبِ حَسْبَ العادَةِ التي أجْرَاهَا اللهُ جَلَّ وعَلا في الصَّلاحِ والفسادِ في الأَبَوَيْنِ فاسْتغْرَبُوا مِنْ مَرْيَمَ الطاهِرَةِ العفيفةِ أَنْ تفعَلَ الفاحِشَةَ لِمَا رَأَوْا بأعيُنِهِمْ على كَتِفِها وَلداً مِنْ الأولادِ وبحَسْبِ ما أجرى اللهُ مِنَ العادةِ أَنَّهُ لا يَجِيءُ الولدُ إلا مِنْ والِدٍ لِذلِكَ فهِمَ قومُها فيها أنها جاءَتْ هكذا مِنْ والدَيْنِ صَالِحَيْنِ على خِلَافِ المعْتادِ ولَمْ يَعْرِفُوا أَنَّها جاءَتْ كالعادةِ صالحةً مِنْ صالِحَيْنِ إلا

بَعْدَ أَنْ كَلَّمَهُمْ ولدُها عيسى عليهِ السلامُ عَقِبَ ولادَتِهِ بما يُبرِّؤُهَا رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ كلامَهُمْ أَقْبَلَ عليهِمْ وَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَأَشَارَ بيَمِيْنِهِ ، ثُمَّ بَدَأَ يَتَكَلَّمُ فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِجُمْلَةِ صِفَاتٍ فقالَ ﴿ إِنِّي عبدُ اللهِ آتانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيَّاً وَجعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَما كنْتُ وأَوْصَانِي بالصَّلاةِ والزَّكاةِ مَا دُمْتُ حَيَّاً وَبَرّاً بوالِدَتِي ولَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ، والسلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ، ويومَ أموتُ ، ويومَ أُبْعَثُ حَيَّاً ﴾ .

فولادَةُ عيسَى عليهِ وعلَى نبيّنَا أفضَلُ الصلاةِ والسلام عجيبَةٌ حَقّاً بالقِيَاسِ إلى مَأْلوفِ البَشَرِ وَلَكِنْ لا غَرَابَةَ فِيْهَا عِنْدَما تُقَاسُ إلى خَلْقِ آدَمَ أبي البَشَرِ قَالَ اللهُ تعالى ﴿ إنَّ مَثَلَ عيسى عندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فيكونُ ﴾ فاللهُ جَلَّ وعَـلا لَا يُعْجِزُهُ شَيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ والهَدَفُ المقصودُ مِنْ مَا تقدَّمَ الحِرْصُ والجِدُّ والاجتهادُ على توْجيهِ الأولادِ إلى الأعْمَالِ الصالِحَةِ والأخْلَاقِ الفاضِلَةِ وَأَنْ يَحْرِصُوا جِدّاً على مُلاحَظَتِهِمْ وَحِفْظِهِمْ عَنْ مُرافقةِ الأشْرَارِ وَمَنْعِهِمْ مِنْ حُضُور الملاهي والمنكَرَاتِ كالتلفزيون مَقْبَرَةُ الأخْلَاقِ والفِيْدِيُو مُعَلِّمِ الفَسَاد والكورةِ مُوْرِثَةِ العَدَاوَةِ والفُرقَةِ بينَ القُلُوبِ والأبْدَان وَمِنَ الخُرُوج لَيْلاً حَسْبَ الاستِطَاعَةِ والقُدْرَةِ والهِدَايَةُ والتوفيقُ بيدِ اللهِ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَلَوْ كَانَ مِنْ ذُرِّيَّةِ الرُّسُلِ وَيَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ ولو كانَ مِنْ أَوْلَادِ الفَرَاعِنَةِ والكَفَرَةِ قالَ بَعْضُهُمْ :

إِذَا المَرْءُ لم يُـخْلَقْ سَـعِيْـداً تَـخَلَّفَـتْ
ظُـنُـونُ مُـرَبِّيْـهِ وَخَـابَ الـمُـؤَمِّـلُ

فَمُـوسَى الـذي رَبَّـاهُ جِبريـلُ كَـافِـرٌ
وَمُـوسَى الـذي رَبَّـاهُ فِـرعَـونُ مُـرْسَـلُ

اللهمَّ أَرِنَا الحَقَّ حَقّاً وارزُقْنا اتِّباعَهُ وَأَرِنَا الباطِلَ باطلاً وارزُقْنا اجْتِنَابَهُ واغْفِرْ لَنَا ولـوالِدِينـا ولِجَمِيعِ المسلمينَ بِـرَحْمَتِكَ يـا أَرْحَمَ الراحمينَ وصلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين .

« فَصْــلٌ »

في هذه الآيات الكريمات ، والأحـاديثِ الشريفـةِ بيانُ فَضْـلِ الجِهادِ والشُّهَدَاءِ وكرامَتُهُمْ ، وما مَنَّ اللهُ عليهِمْ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وإحْسانِهِ ، وفي ضِمْنِهَا تَسْليةٌ للأَحْيَاءِ عنْ قَتْلاهم ، وتعْزِيَةٌ لهم ، وتنشيطٌ لهم على القِتالِ في سبيلِ اللهِ والمثـابَرَةِ عليـهِ ، والتعرُّضِ لِلشَّهَـادَةِ ، والجِدِّ والاجتهـادِ في الحُصُـولِ عليهـا ، نسـأَلُ اللهَ الحيَّ القيـومَ ، العليَّ العظيمَ ، أنْ يوفِقَنَا لها ، إنه القادِرُ على ذلك .

عن أَنَسٍ بن مالكٍ ـ في أَصْحَابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، الذين أرسلَهُمْ نبيُّ اللهِ إلى بئرِ مَعُونَةَ ـ قالَ لا أَدْري أربعينَ أو سبعينَ ، وعلى ذلك الماءِ عامرُ بنُ الطفيلِ الجعفريُّ ، فخرَجَ أولئك النَفَرُ مِنْ أصْحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ، حتى أَتَوْا غاراً مُشْرِفاً على الماءِ ، فقعَدُوا فيهِ ، ثم قالَ بعضُهُم لِبعْضٍ : أيُّكُمْ يُبَلِّغُ رسالةَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أهْلَ هذا الماءِ ؟ فقالَ ـ أُراهُ ـ أَبو مِلْحانَ الأنْصارِي : أَنَا أُبَلِّغُ رِسَـالَةَ رسـولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ ، فَخَرَجَ حتى أَتى حَوْلَ بيتِهِمْ ، فاختبأ أَمامَ البُيوتِ ، ثُمَّ قالَ : يا أَهْلَ بئْرِ مَعُونَةَ ، إني رسولُ رسولِ اللهِ إليكُمْ ، أني أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ

اللهُ ، وأنّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، فآمِنُوا باللهِ ورسُولِه ، فَخَرَجَ رَجُلٌ من كِسْرِ البيتِ برمْحٍ ، فضَرَبَه في جَنْبِهِ حتى خَرج من الشّقّ الآخر ، فقالَ : اللهُ أكبَرُ فُزْتُ وربِّ الكعبةِ ، فاتَّبَعُوا أَثَرَهُ ، حتى أَتَوْا أصحابَه في الغار ، فقَتَلَهُمْ أجمعين عامرُ بنُ الطفيلِ ، وقال اسحاقُ وهو ابنُ أبي طلحةَ حدثني أنسُ بنُ مالكٍ أنَّ اللهَ أنزلَ فيهِمْ قُرآنا ﴿ بَلِّغُوا عنا قَومَنَا أنَّا قَدْ لَقِيْنا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنا ، وَرَضِيْنا عنه ﴾ ثم نُسِخَتْ ، فَرُفِعَتْ بعْدَ ما قرأناها زَماناً ، وأنزل الله تعالى ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً ، بلْ أحيآء عندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقون ﴾ فقال : أمَا أنَّا قَدْ سَأَلْنا عن ذلك رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فقالَ « أرواحُهُمْ في جوفِ طيْرٍ خُضْرٍ ، لها قناديلُ مُعَلَّقةٌ بالعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنةِ حَيْثُ شاءَتْ ، ثم تأوِي إلى تلك القناديلِ ، فاطَّلَعَ عليهم ربُّهُم إطلاعةً ، فقال « هل تشتهون شيئاً ؟ فقالُوا : أيَّ شيءٍ نشتهي ونحنُ نَسْرَحُ مِن الجنةِ حيثُ شِئْنَا ؟ ففعل ذلك بهِمْ ثلاثَ مراتٍ ، فلمَّا رأَوْا أنهم لن يُتْرَكُوا مِنْ أنْ يُسْألوا قالُوا : يا ربُّ نريدُ أنْ تَرُدَّ أرواحَنا في أَجْسَادِنَا ، حتى نُقْتَلَ في سبيلِكَ مرةً أُخْرى ، فلمَّا رأى أنْ ليس لهُمْ حاجةً تُرِكُوا » .

قالَ ابنُ القَيِّمِ رحمه اللهُ : عَزَّي اللهُ نبيَّهُ وأولياءَهُ عَمَّنْ قُتِلَ منهُمْ في سبيلِهِ ، أَحْسَنَ تعزيةٍ وألطَفَهَا ، وأدْعاهَا إلى الرِّضَا بما قضاهُ لهمْ ، فقالَ ﴿ ولا تحسَبَنَّ الذين قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً ﴾ الآية فجمَعَ لهُمْ إلى الحياةِ الدائمةِ منزلةَ القُرْبِ منْهُ ، وأنهم عندَهُ ، وَجَريانَ الرزْقِ المستَمِّرِ عليهم وفرَحَهُمْ بما آتاهمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ وهو فوقَ الرِّضَا واستبشارَهُمْ باخوانِهِمْ الذين باجتماعِهِمْ بهِمْ يتمُّ سرورُهُم ونعيمُهُمْ

واستبشارَهُم بما يُجدِّدُ لهم كلَّ وقتٍ مِنْ نِعْمَتِهِ وكرَامَتِهِ .

وعن أَنَسٍ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قال « ما مِنْ نفسٍ تموتُ لها عندَ اللهِ خيرٌ ، يَسُرُّها أَنْ ترْجِعَ إلى الدنيا ، إلا الشَهيدَ ، فإنهُ يسرُّهُ أن يرجِعَ إلى الدنيا ، فَيُقْتلَ مرةً أُخْرى مِمَّا يَرَى مِنْ فضْلِ الشَّهادَة » تَفَرَّدَ بهِ مُسْلم .

وعن جابر قالَ قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « أَعَلِمْتَ أنَّ اللهَ أحيا أباكَ ، فقال له : تَمَنَّ . فقالَ له : أُرَدُّ إلى الدنيا ، فأقتَلُ فيكَ مرةً أُخْرَى ، قالَ : إنِي قَضَيْتُ أنهُم إليها لا يُرْجَعُون » وعنْ جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ لمَّا قُتِلَ أبي جعلتُ أبكي ، وأكشِفُ الثوبَ عن وجهِهِ ، فجعلَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلمَ يَنْهَوْنَني ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ لم يَنْه ، فقال النبيُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ « لا تبْكِهْ ـ أو ما تَبْكيه ـ ، ما زالتْ الملائكةُ تُظِلُّهُ بأَجْنِحَتِها حتى رُفع » وعن ابنِ عباسٍ رضِيَ اللهُ عنهما ، قال قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم « لَمَّا أُصِيْبَ إخْوانُكم يَوْمَ أُحُدٍ ، جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ في أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، تَرِدُ أَنْهارَ الجَنَّةِ ، وَتَأْكُلُ مِن ثِمَارِها ، وَتَاوِيْ إلى قَنادِيْلَ مِن ذَهَبٍ في ظِلِّ العَرْشِ ، فَلَمَّا وَجَدُوْا طِيْبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ ، وحُسْنَ مَقِيْلِهِم ، قالُوا : يا لَيْتَ اخْوَانَنا يَعْلَمُوْنَ مَا صَنَعَ اللهُ بِنَا لِئَلاَّ يَزْهَدُوا في الجِهَاد ، ولا يَنْكُلُوا عن الحَرْبِ ، فقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أنا أَبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ ، فأُنْزلَ هَذه الآياتِ ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا في سَبِيْلِ اللهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبّهِم يُرْزَقُون ، فَرِحِيْنَ بِمَا آتَاهُم الله مِن فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُوْنَ بالذِيْنَ لَمْ يَلْحَقُوْا بِهِم مِنْ خَلْفِهِم ، أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا

هُمْ يَحْزَنُون ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ، وأنَّ الله لا يُضِيْعُ أَجْرَ المؤمنين ﴾ الآيات .

قال ابن القيم رحمه الله :

فـالشَّـأنُ لِـلأرْوَاحِ بَـعْـدَ فِـراقِـهَـا
أبـدانـهَـا والـلهِ أَعْـظَمُ شَـانِ
إمَّـا عَـذَابٌ أَوْ نَـعِـيْـمٌ دَائِـمٌ
قَـدْ نُـعِـمَـتْ بـالـرَّوْحِ والـرَّيْحَـانِ
وتَصِيْـرُ طَيْـراً سَـارِحـاً مَـعْ شِكْلهَـا
تـجْنِي الثِّمَـارَ بـجَـنَّـةِ الـحَـيَـوانِ
وَتَـظَلُّ وَارِدَةً لِأَنْـهَـارٍ بِـهَـا
حَـتَّـى تَـعُـودَ لِـذَلِـكَ الجُـثْـمَـانِ
لَـكِـنَّ أَرْوَاحَ الـذِيْـنَ اسْـتُـشْـهِـدُوا
فـي جَـوفِ طَـيْـرٍ أَخْـضَـرٍ رَيَّـانِ
فـلَهُـمْ بِـذَاكَ مَـزِيَّـةٌ فـي عَـيْـشِـهِـم
وَنَـعِـيـمُـهُـم لِـلرُّوْحِ والأبْـدَانِ
بَـذَلُـوا الجُسُـومَ لِـربهم فـأَعَـاضَـهُمْ
أجْـسَـامَ تِلكَ الـطيـرِ بـالإحْـسَـانِ
وَلَـهَـا قَـنَـادِيـلُ إلـيْـهَـا تَـنْـتَـهِـي
مَـأوىً لَـهَـا كَـمَـسَـاكِـنِ الإنْـسَـانِ
فـالرُّوْحُ بَعـدَ الموتِ أَكْمَـلُ حَـالَـةٍ
مِـنْـهَـا بـهـذِي الـدَارِ فـي جُـثْـمَـانِ

وَعَــذَابُ أَشْـقَـاهَــا أَشَــدُّ مِـن الــذِي
قَــد عَــايَـنَــتْ أَبْـصَــارُنَــا بِـعِـيَــانِ

اللهم ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَثَبِّتْنَا على قَوْلِكَ الثابِتِ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ واغفر لنا ولِوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

وقال عبدُ الله بنُ عَمْروٍ بن حَرَام : رَأَيْتُ في النَّوْم قَبْلَ أُحُدٍ مُبَشِّرَ بنَ عَبْدِ المُنْذِرِ يَقُولُ لِيْ : أَنْتَ قَادِمٌ عَلَيْنَا في أيَّام . فقُلْتُ وَأَيْنَ أَنْتَ ؟ فقال : في الجَنَّةِ نَسْرَحُ فِيْهَا حَيْثُ نَشَاءُ ، قُلْتُ لَهُ أَلَمْ تُقْتَلْ يوم بَدْرٍ ؟ فقالَ : بَلَى ، ثم أُحِيْيْتُ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، فقالَ « هَذِهِ الشَّهَادَةُ يَا جَابِرُ وقال خيثَمَةُ وكانَ ابْنُهُ قَدْ اسْتُشْهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يومَ بَدْرٍ ـ : لَقَدْ أَخْطَأَتْنِي وَقْعَةُ بَدْرٍ ، وَكُنْتُ واللهِ عليها حَرِيْصا .

حَتَّى سَاهَمْتُ ابْنِيْ في الخُرُوْجِ ، فَخَرَجَ سَهْمُهُ فَرُزِقَ الشَّهَادَةَ وقد رَأَيْتُ البَارِحَةَ ابْنِي في النَومِ في أَحْسَنِ صُوْرَةٍ ، يَسْرَحُ في ثِمَارِ الجَنَّةِ وَأَنْهَارِهَا ، يَقُولُ : الحقْ بِنَا تُرَافِقُنَا في الجَنةِ، فقدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَ رَبِي حَقًا ، وَقَدْ وَاللهِ يَا رسولَ اللهِ أَصْبَحْتُ مُشْتَاقاً إلى مُرَافقَتِهِ في الجنةِ ، وقَدْ كَبُرَتْ سِنِّي ، وَرَقَّ عَظْمِي وَأَحْبَبْتُ لِقَاءَ رَبي ، فَادْعُ اللهَ يا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَرْزُقَنِي الشهادةَ ومُرَافَقَةَ سَعْدٍ في الجنةِ ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ بِذَلِكَ ، فَقُتِلَ بأُحُدٍ شَهِيْدًا ، وقال عَبْدُ الله بنُ جَحْشٍ في ذلكَ اليومِ : اللَّهُمَّ إني أُقْسِمُ عَلَيْكَ أنْ الْقَى العَدُوَّ غَدًا

فَيَقْتُلُوني ثم يَبْقُرُوْا بَطْنِي ، وَيَجْدَعُوا أَنْفِي وَأُذُنِي ، ثم تَسْأَلُنِي فِيْمَ ذَلِكَ فَأَقُولُ : فِيْكَ .

وكانَ عَمْرو بنُ الجَمُوحِ أَعْرَجَ ، شَدِيْدَ العَرَجِ ، وكانَ لَهُ أَرْبَعَةُ بَنِيْنَ شَبَابٌ ، يَغْزُوْنَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم إِذَا غَزَا ، فَلَمَّا تَوَجَّهَ إِلى أُحُدٍ ، أَرَادَ أَنْ يَتَوَجَّهَ مَعَهُ ، فقال له بَنُوْهُ : إِنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ لَكَ رُخْصَةً ، فلَو قَعَدْتَ وَنَحْنُ نَكْفِيْكَ وقَدْ وَضَعَ اللهُ عَنْكَ الجِهَادَ ، فَأَتَى عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال : يا رسولَ اللهِ إِنَّ بَنِيَّ هَؤلآءِ يَمْنَعُونِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَكَ ، واللهِ إِنِي لأَرْجُو أَنْ أُسْتَشْهَدَ ، فَأَطَأَ بعَرَجَتِي هَذِهِ في الجَنَّةِ ، فقال لَهُ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلم « أما أَنْتَ فَقَدْ وَضَعَ اللهُ عَنْكَ الجِهَادَ » وقال لِبَنِيْهِ « ومَا عليكُم أَنْ تَدعُوْهُ ، لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجل أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ » فَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَقُتِلَ يَومَ أُحُدٍ شَهِيْدَا » .

وعن أنس رضِيَ الله عنه قال : غَابَ عَمِي أنسُ بنُ النَّضْرِ رَضِيَ اللهُ عنه عن قِتَالِ بَدْرٍ ، فقال : يا رسولَ اللهِ غِبْتُ عن أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المُشْرِكِيْنَ ، لَئِنِ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِيْنَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ ، فلمَّا كانَ يوم أُحُدٍ ، وانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ قال : اللَّهُم إني أَعْتَذِرُ إليكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤلآءِ ، يَعْنِي أَصْحَابَهُ ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤلآءِ ، يَعْنِي المُشْرِكِيْنَ - ثم تَقَدَّمَ ، فاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ ، فقالَ : يَا سَعْدُ بنَ مُعَاذٍ الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ ، إِنِّي أَجِدُ رِيْحَهَا مِن دُوْن أُحُدٍ ، قال سَعْدٌ : فما اسْتَطَعْتُ يا رسولَ اللهِ ما صَنَعَ ، قال أنسٌ : فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعاً وَثَمَانِيْنَ ضَرْبَة بالسَّيْفِ ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ

قُتِلَ ، وَمَثَّلَ بِهِ المُشْرِكُونَ ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إلا اخْتُهُ بِبَنَانِهِ قال أَنَسٌ : كُنَّا نَرَى أَوْ نَظُنُّ - أَنْ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ ﴿ مِن المؤمنينَ رجالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عليه، فمنهم مَن قضَى نَحْبَهُ ﴾ إلى آخرها متفق عليه .

وعن سمرة رضي اللهُ عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت الليلة رجلين أتياني ، فصعدابي الشجرة ، فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل ، لم أر قط أحسن منها ، قالا أما هذه الدار فدار الشهداء » رواه البخاري .

شِعْرَاً :

لِيَبْكِ رسولَ اللهِ مَن كانَ بَاكِيَا
ولا تَنْسَ قَبراً بالمدينةِ ثَاوِيَا
جَزَى اللهُ عنَّا كُلَّ خيرٍ محمداً
فقد كان مَهْدِياً دَلِيْلاً وَهَادِيَا
وَلَنْ تَسْرِيَ الذِكْرى بمَا هُو أهلُهُ
إذا كُنْتَ لِلْبِرِّ المُطَهَّرِ نَاسِيَا
أتَنْسَى رَسُولَ اللهِ أفضلَ مَن مَشَى
وآثارُهُ بالمَسْجِدَيْنِ كَمَا هِيَا
وكان أَبَرَّ الناسِ بالناسِ كُلِّهِم
وَأَكْرَمَهُم بَيْتاً وشَعْبَاً وَوَادِيَا
تَكَدَّرَ مِن بَعدِ النبيِ مُحَمَّدٍ
عليهِ سلامُ اللهِ مَا كَانَ صَافِيَا

فَكَم مِن مَنَـارٍ كَـانَ أوضَحَـهُ لَنَـا
ومِن عَلَمٍ أَمْسَى وَأَصْبَـحَ عَـافِيَـا
رَكَنَـا إلى الـدُّنْيَـا الـدَّنِيَّـةِ بَعْـدَهُ
وكَشَّفَتِ الأَطْمَـاعُ مِنَّـا الـمَسَـاوِيَـا
وَإنَّـا لَـنُـرْمَـى كُـلَّ يَـومٍ بِـعَـبْـرَةٍ
نَـراهـا فَـمَـا نَـزْدَادُ إلَّا تَـمَـادِيَـا
نُـسَـرُّ بِـدَارٍ أَوْرَثَـتْـنَـا تَـضَـاغُـنَـا
عَـلَيـهَـا وَدَارٍ أَوْرَثَـتْـنَـا تَـعَـادِيَـا
إذَا المَـرْءُ لم يَلْبَسْ لِبَـاسـاً مِن التُّقَى
تَـقَلَّبَ عُـرْيَـانـاً وإنْ كَـانَ كَـاسِيَـا
أَخِيْ كُنْ عَلى يَـأْسٍ مِن النـاسِ كُلِّهِم
جَميعـاً وكُنْ مَـا عِشْتَ لِلهِ رَاجِيَـا
أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـلهَ يَـكْـفِـيْ عِـبَـادَهُ
فَـحَسْـبُ عِـبَـادِ اللهِ بـاللهِ كَـافِيَـا
وكَمْ مِن هَنَـاتٍ مَـا عَلَيْـكَ لَـمَستَهَـا
من النـاسِ يـومـاً أَوْ لَمسْتَ الأَفَـاعِيَـا
أَخِي قَـد أَبَى بُخْلِي وَبُـخْلُكَ أَنْ يُـرَى
لِـذِي فَـاقَـةٍ مِنِي ومِـنْـكَ مُـوَاسِيَـا
كِـلاَنَـا بَـطِيْنٌ جَنْبُـهُ ظَـاهِـرُ الكِسى
وفي النـاسِ مَن يُمْسِي وَيُصْبِحُ طَـاوِيَـا
كَـأَنَّـا خُـلِقْـنَـا لِـلْبَـقَـاءِ وَأَيُـنَـا
وإنْ مُـدَّتِ الـدُّنْيَـا لَـهُ لَيْسَ فَـانِيَـا

أَبَى المـوتُ إلَّا أنْ يَكُـونَ لِمَنْ ثَـوى
مِن الخَـلقِ طُـراً حَيْـثُمَـا كَـانَ لاَقِيَـا
حَسَمْتَ المُنَى يا مَـوْتُ حَسْمـاً مُبرِّحـاً
وَعَلَمْتَ يَـا مَـوْتُ البُكَـاءَ البَـواكِيَـا
وَمَـزَّقْـتَـنَـا يـا مَـوْتُ كُـلَّ مُـمَـزَقٍ
وعَـرَّفْتَنَـا يَـا مَـوتُ مِنْـكَ الـدَوَاهِيَـا
ألاَ يَـا طَـوِيـلَ السَّهْـوِ أَصْبَحْتَ سَـاهِيـاً
وَأَصْبَحـتَ مُغْـتـراً وَأَصْـبَـحْـتَ لاَهِـيَـا
أَفِـي كُـلِّ يَـومٍ نَحْنُ نَـلْقَـى جَنَـازَةً
وفي كُـلِّ يَـومٍ نَحْنُ نَسْـمَـعُ نَـاعِيَـا
وفي كُـلِّ يَـومٍ مِنْـكَ نَـرْثِى لِمُعْـوِلٍ
وفي كُـلِّ يَـومٍ نَحنُ نُسْعِـدُ بَـاكِيَـا
أَلاَ أَيُّهَـا البَـانِـي لِغَـيْـرِ بَـلاَغِـهِ
أَلاَ لِخَـرَابِ الـدهـرِ أَصْبَحْتَ بَـانِيَـا
أَلا لِـزَوَالِ الـعُـمْـرِ أَصْبَحْـتَ جَـامِعـاً
وَأَصبَحْـتَ مُخْتَـالاً فَخُـوراً مُبَـاهِـيَـا
كَـأَنَّـكَ قَـد وَلَيْتَ عـن كُلِّ مَـا تَـرَى
وخُـلْفَتَ مَـن خَلَّفْتَـهُ عَـنْـكَ سَـالِـيَـا

اللهم أَحْسِنْ عَاقِبَتَنا في الأُمُورِ كُلِّهَا وَأَجِرْنا مِن خِزي الدنيا وعذابِ الآخرةِ واغفر لنا ولوالدينَا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

فـي وقعــة بــدر

فَلَمَّا كَانَ في رَمَضَانَ في العام الثاني ، في سَبْعَةَ عَشَرَ ، في صبيحةِ يوم الجُمعةِ ، وَقَعَتْ بَدْرُ بَيْنَ محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم وجيشِهِ ، وبينَ القَومِ الكـافِرين ، أعـداءِ اللهِ ورسولـهِ ، وهِيَ قِصَّةٌ مَشْهُوْرَةٌ مَعْرُوْفَةٌ ، مَذْكُوْرَةٌ في كُتُبِ السِيَرِ والتَّوَارِيْخِ وَمُلَخَّصُها أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرُ العِيْرِ المُقْبِلَةِ مِن الشـام لِقُريشٍ ، العِيْرُ التي خَرَجُوا في طَلَبِهَا ، لَما خَرَجَتْ مِن مَكَّةَ ، وَكَانُوا نَحْوَ أَرْبَعِيْنَ رَجُلاً ، وَفِيْهَا أَمْوالٌ عَظِيْمَةٌ لِقُرَيْشٍ ، حَتَّى لَقَدْ قِيْلَ إِنَّهُ قَوْمَ مَا فِيْهَا بِنَحْوِ خَمْسِيْنَ أَلْف دِيْنَارٍ ، فَتَرَامَتْ إِلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنْبَاؤُها ، بِأَنَّهَا قَدْ فَصَلَتْ مِن الشَّامِ ، عَائِدَةً إلى مَكَةَ ، فَنَدَبَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَصْحَابَهُ ، لِلْخُرُوْجِ إليها ، وَأَمَرَ مَن كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِراً بالنُهُوضِ ، ولَمْ يَنْتَظِرْ مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ غَائِباً ، ولم يَحْتَفِلْ لَهَا احْتِفَالاً بَلِيْغاً ، لِأَنهُ خَرَجَ مُسْرِعاً وَمَعَهُ ثَلاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةٌ عَشَرَ رَجُلاً ، مِن المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصارِ ، وَسَارَ صَلى اللهُ عليه وسلم حَتَّى بَلَغَ بُيُوتَ السُفيَا ، وهِيَ آبَارٌ عَذْبَةُ الماءِ ، على نَحْو مِيْلٍ مِن المدينةِ ، فَنَزَلَ بِهَا يومَ الأَحد ، فَضَرَبَ عَسْكَرَهُ هُنَاكَ .

ثم عَرَضَ الجُنْدَ ، فَرَدَّ مِنْهُمْ صِغَارَهُمْ ، الذينَ لَا يَقْوَوْنَ عَلَى حَمْلِ السِّلَاحِ ، فَكَـانَ مِمَّنْ رَدَّهُمْ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَـرَ ، وَرَافِعُ بنُ خَدِيْجٍ ، وَالبَرَاءُ بنُ عَازِبٍ ، وَأُسَيْدُ بنُ حُضَيْرِ بنِ سِمَـاكٍ وزيدُ بنُ

الأرقم ، وزيدُ بنُ ثابتٍ ، وَعَرَضَ عُمَيْرَ بن أَبِي وَقَّاصٍ فاسْتَصْغَرَهُ فَبَكَى عُمَيْرٌ ، فَأَجَازَهُ ، وَسَيَّرَهُ مَعَ الجَيْشِ ، وَرَوَى الواقدي عن سَعْد ابن أبي وقَّاصٍ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ أَخِيْ عُمَيْرَ بن أَبِي وَقَّاصٍ ، قَبْلَ أَنْ يَعْرِضَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَتَوَارَى ، فَقُلْتُ مَالَكَ يَا أَخِيْ ؟ قال : إنّي أَخَافُ أَنْ يَرَانِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وَيَسْتَصْغِرُنِيْ فَيَرُدَّنِي ، وأنا أُحِبُّ الخُرُوْجَ ، لَعَلَّ اللهَ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ ، قَالَ فعُرِضَ على رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فاسْتَصْغَرَهُ ، فقال « ارْجِعْ » فَبَكَى عُمَيْرٌ ، فَأَجَازَهُ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، قالَ : فكان سَعْدٌ يَقُولُ : كُنْتُ أَعْقِدُ لَهُ حَمَائِلَ سَيْفِهِ . . فَقُتِلَ بِبَدْرٍ وَهُوَ ابنُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَة .

وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم مِن بُيُوْتِ السُّقْيَا في نَحْوِ خَمْسَةَ عَشَرَ وَثَلَاثِمِائَةَ ، وَرُوِيَ أن النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم لَمَّا عَدَّ أَصْحَابَهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَجَدَهُمْ ثلاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلاً ، فَفَرِحَ بذلك وقال « عِدَّةَ أَصْحَاب طَالُوتَ الذيْنَ جازوا مَعَهُ النَّهْرَ » وكان فِيْهِمْ نَحْو سَبْعِيْنَ مِن المُهَاجِرِيْنَ ، وَنَحْوُ مائتَيْن وَأَرْبَعِيْنَ من الأنصارِ ، ولم يَكن مَعَهُم مِن الخَيْلِ إلَّا فَرَسَانِ ، فَرَسٌ لِلزُبَيْرِ بن العَوَّامِ ، وَفَرَسٌ لِلْمِقْدَادِ بنِ الأَسودِ الكِنْدِي ، وكان مَعَهُم سَبْعُونَ بَعيراً ، يَعْتَقِبُ الرَّجُلَانِ والثَّلاثَةُ على البَعِيرِ الواحِدِ ، والأَرْبَعَةُ عَلَى بَعِيرٍ واحِدٍ ، يَتَبادَلُون الرُكُوبَ عَلَيْهِ ، فكانَ رَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، وَعَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ ، وَمَرْثَدُ بنُ أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوِيّ يَعْتَقِبُونَ بَعِيراً ، وكانَ حَمْزَةُ ، وَزَيْدُ بنُ حَارِثَةَ، وأبُو كَبْشَةَ ، وانَسَة موْلَيَا رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم

يَعْتَقِبُونَ بَعِيْراً ، وكانَ أَبُوْ بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَبْدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ يَعْتَقِبُونَ بَعِيْراً .

وَهكَذا كَانَ كُلُ جَماعَةٍ يَتَعاقَبُوْنَ المَشْيَ ، وَيَتَبادَلُونَ الرُكُوبَ على بَعِيْرِهِم ، وكان صَلَّى اللهُ عليه وسلم يَأْبَى إِلَّا أَنْ يُشَارِكَ أَصْحَابَهُ في تَعبَهِمْ ورَاحَتِهِمْ ، وإلا أَنْ يَأْخُذَ دَوْرَهُ في المَشْي وفي الرُكوبِ كَوَاحِدٍ منهمْ ، فكانَ صلى الله عليه وسلم إذا انْتَهَتْ نَوْبَتُهُ في الرُكوب نَزَلَ ، فَيَقُولُ لهُ رَفِيْقَاهُ : إِرْكَبْ يَا رسولَ اللهِ ، حتى نَمْشِيَ عَنْكَ . فَيَقُولُ لَهُمَا « مَا أَنْتُمَا بِأقْوَى مِني على المَشِيْ ، وَمَا أَنَا بأَغْنَى عن الأَجْرِ مِنْكُمَا » .

وكان أصحابُهُ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ في حاجَةٍ شَدِيْدَةٍ ، فَقرٌ وَعُرِيٍّ ، ولِذَلِكَ فقد رُوِيَ أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ نَظَر إلى أَصْحَابِهِ حينَ خَرَجُوا إلى بَدْرٍ ، فَأَثَّرَ في نَفْسِهِ مَنْظَرُهُمْ ، فَدَعَا اللهَ لَهُمْ ، فقال « اللهُمَّ إِنهُمْ حُفاةٌ فاحْمِلْهُمْ وَعُرَاةٌ فاكْسُهُمْ ، وجِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ ، وَعَالَةٌ فَأَغْنِهِمْ مِنْ فَضْلِكَ » واسْتَخْلَفَ على المَدِينَةِ وعلى الصَّلاةِ ابْنَ أُمّ مَكْتُومٍ ، وَلَمَّا كانَ بالرَّوْحَاءِ رَدَّ أَبا لُبَابَةَ بنَ عبْدِ المُنْذِرِ ، واسْتَعْمَلَه على المدينة .

شِعْرَاً :

وَنَشْهَدُ أنَّ اللهَ خَصَّ رَسُولَهُ
بأَصْحَابِهِ الأبرارِ فَضْلاً وَأَيَّدَا

فَهُمْ خيرُ خَلْقِ اللهِ بَعْدَ أنبيائِهِ
بِهِمْ يَقْتَدِي في الدِّيْنِ كُلُ مَن اقْتَدَا

وَأَفضلُهم بَعْدَ النبي مُحَمَّدٍ
أَبُو بَكْرٍ الصِدّيقُ ذُو الفَضْلِ والنَّدا

لَقَد صَدَّقَ المُخْتَارَ في كُلِ قَولِهِ
وآمَن قَبلَ النَّاسِ حَقًّا وَوَحَّدَا

وَفَادَاهُ يَومَ الغَارِ طَوعاً بِنَفْسِهِ
وَوَاسَاهُ بالأمْوَالِ حَتَّى تَجَرَّدَا

وَمِن بَعْدِهِ الفَارُوْقُ لَا تَنْسَ فَضْلَهُ
لَقَدْ كَانَ لِلإسْلَامِ حِصْناً مُشَيَّدَا

لَقد فَتَحَ الفَارُوْقُ بالسَّيْفِ عَنْوةً
كَثِيرَ بِلَادِ المُسْلِمِينَ وَمَهَّدَا

وَأَظْهَرَ دِينَ اللهِ بَعْدَ خَفَائِهِ
وَأَطْفَأَ نَارَ المُشْرِكِينَ وَأَخْمَدَا

وَعُثمانُ ذُو النورَيْنِ قَدْ مَاتَ صَائِماً
وقَدْ قامَ بالقُرآنِ دَهْراً تَهَجَّدَا

وَجَهَّزَ جَيْشَ العُسْرِ يَوماً بِمَالِهِ
وَوَسَّعَ لِلْمُخْتَارِ والصُّحْبِ مَسْجِدَا

وَبَايَعَ عنه المُصْطَفَى بِشِمَالِهِ
مُبَايَعَةِ الرِّضْوانِ حقاً وَأَشْهَدَا

ولا تَنْسَ صِهْرَ المُصْطَفَى وابنَ عَمِهِ
فقد كانَ حَبراً لِلْعُلُوم وَسَيِّدَا

وَفَادَى رَسولَ طَوْعاً بِنَفْسِهِ
عَشِيَّةَ لَمَّا بالفِراشِ تَوَسَّدَا

وَمَنْ كَـانَ مَـوْلاَهُ النَّبِيُّ فَقَـدْ غَـدَا
عَـلِيٌّ لَـهُ بِـالـحَـقِ مَـولاً وَمُـنْـجِـداً
وَطَـلْحَـتُـهُـم ثُـمَّ الـزُّبَـيْـرُ وَسَـعْـدُهُـم
كَـذَا وَسَعِـيْـدٌ بِـالـسَّـعَـادَةِ أُسْـعِـدَا
وكَـانَ ابْنُ عـوفٍ بـاذِلَ المَـالِ مُنْفِقـاً
وكَـانَ ابـنُ جَـرَّاحٍ أَمـيـنـاً مُـؤَيَّـدَا
ولا تَنْسَ بـاقِي صَـحْبِـهِ وأهْـلَ بَيْتِـهِ
وأنـصَـارَهُ والـتـابـعـينَ عـلى الـهُـدَى
فَـكُـلُهُـمُ أَثْـنَـى الإلـهُ عَـلَيْـهِـمُ
وأثْـنَـى رَسُـولُ الـلهِ أَيْـضـاً وَأَيَّـدَا

اللهم إنا نعوذُ بكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ وَعَمَلٍ لا يُرْفَعُ وَدُعَاءٍ لا يُسْمَعُ واغْفِرْ لنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المسْلمينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصَلَّى اللهُ على محمدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْـلٌ »

وكانَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَدْ خَرَجَ مِنْ المدينةِ على غَيْرِ لِوَاءٍ مَعْقُودٍ ، ولكِنَّهُ مُنْذُ خَرَجَ مِنْ بُيُوتِ السُقيَا وَضَعَ رِجَالَـهُ في تَشْكِيْلٍ حرْبِيّ ، يُلاَئِمُ ظُرُوفَ السَّيْر في أَرْضِ العَـدُوّ ، فقدْ يَلْقَـوْنَ عَدُوَّهُمْ فُجْأَةً ، وهم على غَير أُهْبَةٍ لِلْقتالِ ، وقدْ يَأْخُذُهُم عَدُوُّهُمْ عَلَى غِرَّةٍ مِنَ الخَلْفِ ، وَهُمْ كُلَّمَا بَعُدُوا عن المدينةِ تَقَدَّمُوا في أرضٍ يُسَيْطِرُ عليها

المشْركونَ مِنْ قريشٍ ، وَمَنْ يُشَابهونَهُم في عَدَاوَةِ الإسْلامِ ، وَمِنْ أجْل هَذَا أَخَذَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في تَنْظِيْمِ رِجالِهِ ، على النَحْوِ الذي أَحْرَى أنْ يَأْمَنَ بهِ المُفَاجَأَةَ ، فَجَعَلَ على السَّاقَةِ قيْسَ ابنَ أبي صَعْصَعَةَ ، وعلى المُقَدِّمَةِ الزُبَيْرَ بنَ العوَّامِ ، وأظهَرَ السِّلاحَ ، وَعَقَدَ أَلْوِيَةً ثلاثةً لِوَاءً أبيضَ يَحْمِلُهُ مُصْعبُ بنُ عُميرٍ ، ورَايَتَانِ سَوْدَاوَانِ ، إحْداهُمَا مع عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ، والتي للأنْصارِ إلى سَعْدِ بنِ مُعاذٍ .

وسارَ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ ، ولما قَرُبَ مِنَ الصَّفْراءِ قَدَّمَ عَيْنين لهُ إلى المشركينَ ، يتجسَّسَانِ أَخْبَارَ العِيْرِ ، والعَيْنَّانِ بسْبَسُ بنُ عَمْروٍ الجُهَنِي ، وعَدِيُّ بنُ أبي الزَغْبَاءِ الجُهَنِي ، فانتَهَيا إلى مَاءِ بدرٍ ، فوجَدَا هُنَاكَ جارِيَتَيْن تَسْتَقِيَانِ مِنَ الماءِ ، وَعَلِمَا مِنْ حِوَارِهِما أَنَّهُمَا تَتَرَقَّبانِ عِيْرَ قُريْشٍ ، وأنها تَصِلُ إلى بَدْرٍ غَداً أوْ بَعْد غدٍ ، فَرَجَعَا إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فأخْبَرَاهُ بذلك .

وأمَّا أبو سُفْيانُ فقد وَصَلَ إليهِ الخَبَرُ بأَنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ يَتَرَصَّدُونَ عوْدَتَه ، فأرْسَلَ على عَجَلٍ رَسُولاً إلى قُرَيْشٍ ، يُنَبِّئُهَا بما عزَمَ عليهِ محمدٌ وصحْبُهُ ، وَيَسْتَفِزُّهَا لِحِمَايَةِ أَمْوَالِهَا واسْتَأْجَرَ ضَمْضَمَ بنَ عَمْروٍ الغِفَارِيّ إلى مَكَةَ ، مُسْتَصْرِخاً لِقُرَيْشٍ بالنَّفِيرِ إلى عِيْرِهِمْ ، لِيَمْنَعُوهُ مِنْ محمدٍ وأصْحابِهِ ، ووَصَّى رسُولَهُ أن يَتَّخذَ لذلك كُلَّ وَسِيلةٍ تُثِيرُ مَشاعِرَ القَوْمِ ، وَتَسْتَنْهِضُ هِمَمَهُمْ لِلْغَوْثِ والنَّجْدَةِ ، فاتَّخَذَ رَسُولُهُ لِذَلِكَ كُلَّ مَظَاهِرِ الصَّارِخِ المَلْهوفِ ، فَجَدَعَ بَعِيْرَهُ ، وَحَوَّلَ رَحْلَهُ ، وَشَقَّ قَمِيصَهُ ، وَوَقَفَ يَصْرُخُ بِبَطْنِ الوَادِي ، قَائِلاً : يا مَعْشَر قُرَيْشٍ اللَّطِيْمَةَ اللَّطِيْمَةَ ، أَمْوَالُكُمْ مَعَ أبي سُفْيانَ ، قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمَّدٌ

وأصْحَابُهُ ، لا أَرَى أَنْ تُدْرِكُوهَا ، الغَوْثَ الغوْث ، فَبلَغَ الصَّرِيخُ أَهْلَ مَكَّةَ ، فَنَهَضُوا وَأَوْعَبُوا في الخُروجِ ، وأعانَ قويُهُمْ ضَعِيْفَهُمْ حتى ما مِنهُمْ رجلٌ إلا خَرَجَ ، أَوْ بَعَثَ مَكانه رَجُلًا ، وَيَقُولُ الرُّواةُ إِنَّ أُميَّةَ بنَ خَلَفٍ أَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّفَ عن النَّفيرِ ، فَجَاءَهُ عقبةُ بنُ أبي مُعيْطٍ ، ومَعْهُ مِجْمرةٌ وبَخُورٌ فَوضَعهَا أَمَامَهُ ، وَهُوَ جَالِسٌ في نَدِيِّ القَوْمِ ، وقالَ لَهُ اسْتَجْمِرْ أَبَا علي ، فأنّما أَنْتَ مِنَ النِّساءِ ، فَخَجلَ واسْتَحْيَا ، وقامَ مِنْ فوْرِهِ ، فَتَجهّزَ وسارَ مَعَ الناسِ، ولمْ يَتَخَلَّفْ مِنْ أشْرافِهِمْ سِوَى أَبِي لَهَبٍ ، فإنَّهُ عَوَّضَ عنْهُ رجلًا يُقالُ لهُ العاصُ بنُ هِشَامٍ ، كانَ لأبِي لَهَبٍ عليهِ دَيْنٌ ، ولمْ يتخَلَّفْ عنهُمْ مِنْ بُطونِ قُرَيْشٍ إلا بَنِي عَدِيٍّ ، فلمْ يخرُجْ مَعَهُمْ منهمْ أَحَدٌ وَخرَجُوا من دِيَارِهم كمَا قال اللهُ تعالى ﴿ بَطَراً وَرِئاءَ الناسِ ويَصُدّوُنَ عن سبيلِ اللهِ ﴾ .

وسَارَ أبو سُفيانَ بالعِيْرِ يَتَشَمَّم الأخبارَ في طَرِيْقِهِ ، حتَّى إِذَا قَرُبَ مِنْ بَدْرٍ ، تَقدَّمَ العِيْرَ حَذَراً ، حتى ورَدَ الماءَ ، فَسأَلَ هُنَاكَ عن أخبارِ المسلمين ، فعَلِمَ أنَّ راكِبَيْنِ كانا قَدْ نَزلا على تَـلٍّ هُناك ، فـأنَاخَـا راحِلَتَيْهِما سَاعةً ، حتى اسْتَقَيَا مِنَ الماءِ ، ثُمَّ رَحلا ، فَذَهَب أَبُو سُفيانَ إلى ذلكَ التَّلِّ ، وَنظَرَ في مُناخِ الراحلتين ، فأخَذَ مِنْ أَبْعَارِهِما ، وَفركَهُ في يَدِهِ ، فوجَدَ فيهِ آثارَ النَّوَى ، فَعَلِمَ أنَّ الرَّاكِبَيْن مِنَ المدِيْنَةِ ، فقالَ هَذِهِ واللهِ علائِفُ يَثْرِبَ ، وهَذِهِ عُيُونُ مُحمَّدٍ ، قَدْ أَقْبَلتْ ، تتجَسَّسُ أَخْبارَنَا وَرَجَعَ مسْرِعاً إلى العِيْرِ ، فجعلَ يَضْرِبُ وُجُوهَهَا وَيُحَوّلُها عَنِ السَّيْرِ إلى بَدْرٍ ، مُتَّجِهاً بها إلى ساحِلِ البحرِ ، تارِكاً بَدْراً إلى يَسارِهِ ، فاسْتَطاعَ أنْ يَنْجُوَ بأمْوال قُرَيْشٍ ، وَلَمَّا رأى أَنَّهُ قدْ نَجا وأحْرزَ العِيْرَ ،

كَتَبَ إلى قريشٍ أن ٱرْجِعُوا ، فإنكُمْ إنَّمَا خَرَجْتُمْ لِتُحْرِزُوا عِيرَكُمْ ، فأتاهُمْ الخَبَرُ وَهُمْ بالجُحْفَةِ ، فهَمُّوا بالرُّجُوعِ وَرَغِبَ كثيرٌ منهُمْ بذلكَ ، ولكِنَّ أبا جَهْلٍ رَكِبَ رَأْسَهُ ، وعَزَّ عليهِ أنْ يَرْجِعُوا ، فَتَضْعُفَ شَوْكَتُهُمْ بَيْنَ العربِ ، وَيَطْمَعَ فيهِمْ المُسْلِمُونَ وَغيرُهُمْ ، فأخَذَ يَصِيحُ في القَوْمِ ويقُولُ : واللهِ لا نَرْجِعُ حتى نَرِدَ بَدْراً ، فنُقِيمَ بهَا ، وَنُطْعِمَ مَنْ حَضَرَنا مِنَ العَرَبِ وَنَسْقِيَ الخمْرَ ، وَتَعْزِفَ عَلَينا القِيَانُ ، وَتَسْمَعَ العربُ بنا ، وبمَسِيْرِنا ، وَجَمْعِنا ، ولا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا ، وَجَعَلَ يُحَرِّضُ الناسَ .

وانقَسمَ الناسُ إلى قِسْمينِ ، فريقٌ يَرَى أنَّ الخُرُوجَ إنَّما كانَ لإنْقَاذِ العِيْرِ ، وقدْ نَجَّاها اللهُ ، فلا مَعْنَى إذاً لِلسَّيْرِ ، وفَرِيْقٌ يرَى رَأْيَ أبي جَهْل ، فَيَدْعُو إلى مُواصَلَةِ السَّيْرِ، وكانَ مِنَ الفـريقِ الأوَّلِ بَنُو عَدِيٍّ ، وَبَنُو زُهْرَةَ ، ومِمَّنْ أَشَارَ بالرُّجُوعِ الأخْنَسُ بنُ شَرِيقٍ ، فَعَصَوْهُ فَرَجَعَ هُوَ وَبنُو زُهْرَةَ ، فلمْ يَشْهَدْ بَدْراً زُهْرِيٌّ ، فَاغْتَبَطَتْ بَنُوْ زُهْرَةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِرَأْيِ الأخْنَسِ ، فَلَمْ يَزَلْ فِيْهِم مُطَاعَاً مُعَظَّماً ، وأَمَّا الفَرِيْقُ الثانِي فَقَدْ واصَلُوا السَّيْرَ تَحْتَ ضَغْطِ أَبي جَهْلٍ وَشِيْعَتِهِ ، وَإِنْ كان بعضُهُمْ يَسِيْرُ على غَيرِ ما يَرَى مِنَ الرأيِ ، وما يُضْمِرُ مِنَ العَقِيْدَةِ ، إنما يَسِيْرُ تَحَرُّجاً ، وَمُـدَارَاةً لِسَفَاهَـةِ السُفهاءِ ، ومـا زَالُوا يَسِيْـرونَ وَيَنْحَرُونَ ، وَيُطْعِمُونَ ، وَيشرَبُونَ الخمْرَ ، وَيُغَنُّونَ وَيُصَفِّقون وَيُعلِنُونَ عنْ أنفُسِهِمْ بِكُلِّ الوَسائلِ والدِّعاياتِ ، حتى وَصَلُوا إلى وادي بَدْر ، فنزلُوا بالعُدْوَةِ القُصْوَى .

وَلَمَّا بلغَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ خُروجُ قُرِيشٍ اسْتَشَارَ أَصْحابَهُ ، فَتَكَلَّمَ المُهَاجِرُوْنَ فَأَحْسَنُوا ، فاسْتشارَهُمْ ثانِياً ، فَتَكَلَّمُوا أَيْضاً

فَأَحْسَنُوا، ثم اسْتشَارَهُمْ ثَالِثاً ، ثم قالَ « أشِيْرُوا عَلَيَّ أيُّها الناسُ » يُرِيدُ بذلكَ الأنْصَارَ ، لأَنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ القَوْمِ عَدَداً ، وكانُوا قد عَاهَدُوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنْ يَمْنعُوهُ في دِيارِهِمْ ، أمَّا في خَارِجِ دِيارِهِمْ فلمْ يَكُنْ عهدٌ يُلزِمُهُمْ بذلك ، إلَّا أنْ يَرَوْا ذَلِكَ مِنْ أنْفُسِهِمْ ، فَلَمَّا سَمِعُوا قولَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ فَهِمُوا أَنَهُ يَعْنِيهِمْ ، فَبادَرَ سَعْدُ بنُ مُعاذٍ فقال : يا رسولَ اللهِ كأَنَّكَ تريدُنا . قال « أَجَلْ » فقال سعدُ : إنكَ عَسَى أنْ تكونَ خَرَجْتَ لأِمْرٍ ، وأحدَثَ اللهُ لكَ غَيْرَهُ ، فانظُر الذِيْ أحدَثَ اللهُ إليكَ ، فامْضِ إليْهِ ، فإنَّا قد آمنَّا بكَ وصدَّقْنَاكَ وشهِدْنَا أن ما جِئْتَ بهِ هو الحقُّ ، وأعطَيْناكَ عُهودَنا على السمعِ والطاعةِ ولَعَلَّكَ يا رسولَ اللهِ تخْشَى أنْ لا تكونَ الأنْصَارُ تَرَى عليها ، أَنْ لَا يَنْصُرُوكَ إلا في دِيارِهِمْ ، وإنّي أَقولُ عن الأنْصارِ ، وأُجِيبُ عنهُمْ ، فاظْعَنْ يا رسولَ اللهِ حيْثُ شِئْتَ ، وَصِلْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ ، واقطَعْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ ، وَخُذْ مِنْ أمْوالِنَا ما شِئْتَ ، وَأَعْطِنَا مِنها ما شِئتَ ، وما أخذتَ مِنّا أحَبُّ إليْنَا مِمَّا تَرَكْتَ ، وما أَمَرْتَ فيه مِنْ أَمْرٍ فأمْرُنَا تَبَعٌ لأَمْرِكَ ، فواللهِ لَئِنْ سرْتَ حتَّى تبلُغَ البركَ مِن غمْدَانَ لَنَسِيْرَنَّ مَعَكَ ، وَوَاللهِ لَو اسْتعرَضْتَ بِنَا هذا البَحْرَ فخُضْتَهُ لَخُضْناه مَعَكَ ، ما تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ واحِدٌ ، وما نَكْرَهُ أنْ تَلْقَى بنَا عَدُوَّنَا غَداً ، إنَّا لَصُبُرٌ في الحَرْبِ ، صُدَّقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَلَعَلَّ اللهَ يُرِيْكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بهِ عينُكَ ، فَسِرْ على بَرَكَةِ اللهِ ، فَسُرَّ لِذَلِكَ وَجْهُ رَسُوْلِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، وانْبَسَطَ وَجْهُهُ ، وَبَدَا عليهِ البِشْرُ والرِضَى والنَّشَاط .

وقال لَهُ المقدادُ : لا نَقُولُ لَكَ كَما قَالَ قومُ مُوسى لِمُوسَى

(اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فقاتِلَا ، انا هَا هُنَا قاعدون) . ولكن نُقَاتِلُ عن يَمِيْنِكَ ، وعن شِمَالِكَ ، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ ، وَمِنْ خَلْفِكَ ، فاشْرَقُ وجهُهُ صلى الله عليه وسلم وسُرَّ بما سَمِعَ ، وقال « سِيْرُوْا على بَرَكَةِ اللهِ وَأَبْشِرُوا ، فإنَّ اللهَ وَعَدَنِي إحدى الطائفتين ، وإنّي قَدْ رَأَيْتُ مَصَارِعَ القَوْم » فَسَارَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ إلى بَدْرٍ حتى نَزَلَ عِشَاءً أَدْنى مَاءٍ مِنْ مِيَاهِ بَدْرٍ ، فقال الحُبابُ بن المُنذِر ـ وكان خَبِيْراً بمِيَاهِ بَدْرٍ ـ : يا رسولَ اللهِ أَهَذَا مَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللهُ ، لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ مِنْهُ أَوْ نَتَأَخَرُ ، أَمْ هُوَ الرأيُ والحربُ والمَكِيْدَةُ ؟ فقال صلى اللهُ عليه وسلم « بلْ هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ » فقال الحُبابُ : يا رسولَ اللهِ لَيْسَ هذا بمَنْزِلٍ ، فانْهَضْ بالناسِ حتى نأتيَ أَدْنى مَاءٍ مِن القَومِ ، فَنَنْزِلَه ، فإني أَعْرِفُ غَزارَةَ مَائِهِ وَكَثْرَتَه ، فننْزِلُهُ وَنُغَوّرُ ما عَدَاهُ مِنْ الآبارِ ، ثم نَبْنِي عليه حَوْضاً ، فَنَمْلؤُهُ مَاءً ، فَنَشْرَبُ ولا يَشْرَبُون ، فقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « لَقَدْ أَشَرْتَ بالـرأي » وَنَهَضَ بأصحـابِهِ حتّى نَزَلُوا ، ثم بَنَوُا الحَوْضَ على البِئرِ ، حَيْثُ أشارَ الحُبَابُ ، وَطَمَسُوا كلَّ مَا وَرَاءَهُمْ مِن الآبارِ .

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ إهْتِفُوا بالقُلوب لَعَلَّها تَسْتَيْقِظُ مِنْ وَسَنِ الرُّقَادِ واصْرِفُوا نُفُوسَكُمْ عنْ مَوَارِدِ الإبْعادِ واتَّبعُوا في دارِ النُقْلَةِ والزَّوَالِ آثارَ السَّلفِ الزُهَّادِ فقد نَاحَتْ الدُنيا على أهْلِها بأَلْسُنِ الإنْقِلاب ولاحَتْ لكُمْ مِن الآخرةِ شَواهِدُ الإقْتِراب وَأَنْتُمْ عَمَّا أَضَلَّكُمْ مِنهَا غَافِلُونُ وبمَا غـرَّكُمْ

وأَلْهَاكُمْ عَنْهَا مُتَشَاغِلُوْنَ كأنَّكُمْ بحَقِيْقَةِ مَعْرِفَتِهَا جَاهِلُونَ أَوْ كَأَنكُمْ إلى غَيْرِهَا رَاحِلُونَ فإنا لِلهِ وإنا إليهِ رَاجِعُونَ فاتْرُكُوا مَا أَنْتُمْ عنهُ مُنقَلِبون وانْهَضُوا في التَّزَوُّدِ لِمَا أنتُم إليهِ صائِرُوْنَ فإنَّ أمامَكمْ صَيْحَةٌ تُلْحِقُ الأَحْيَاءَ مِنْكُمْ بالأمواتِ وَتَذْهَلُ مَعَهَا النُّفُوسُ عَنْ مُلَابَسَةِ اللذاتِ فمَا أَقرَبَ الوُصُولِ إليْهَا لِمَنْ مَطَايَاهُ اللَّيْلُ والنَّهَارُ المُبْلِيَانِ لِكُلِّ جَدِيْدٍ المُقَرّبانِ لِكُلِّ بَعِيْدٍ قال بعضُ الحُكماءِ مَنْ كانَتْ الأَيَّامُ واللّيالِي مَطَاياهُ سَارَتْ بهِ وانْ لمْ يَسِرْ وكَتَبَ بَعضُ السَّلَفِ إلى أخٍ لَهُ فقالَ اعْلَمْ يا أَخِيْ أنهُ يُخيَّلُ إليْكَ أنَّكَ مُقِيْمٌ وأنْتَ دَائِبُ السَيْرِ تُساقُ سَوْقاً حَثِيْثاً والمَوتُ مُتَوجّهٌ إليكَ والدُنْيَا تُطْوَى مِنْ وَرَائِكَ وما مَضَى مِنْ عُمُرِكَ فلَنْ يَرْجَعَ إليكَ .

شـعْرَاً :

تَمُرُّ الليالِى والحَوادثُ تنقضِي
كأضْغَاثِ أحْلام ونَحْنُ رُقُودُ

وأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنَّها كُلَّ ساعَةٍ
تَجدُّ بنا سَيْرَاً ونَحْنُ قُعُودُ

آخر: ومـا هَـذِهِ الأَيَّـامُ إلَّا مَـرَاحِـلُ
يَحُثُّ بهـا حَـادٍ مِن المَـوْتِ قَـاصِـدُ

وأَعْـجَبُ شَـيْءٍ لَـو تَـأَمَّـلْتَ أَنَّـهَـا
مَـنَـازِلُ تُـطْوَى والـمُـسَـافِـرُ قَـاعِـدُ

آخر: أَتَحْسَـبِ الـعُـمْـرَ مَـرْدُوْداً تَـصَـرُمُـهُ
هَيْهَـاتَ أَن يَرْجِـعَ المَـاضِي مِن الحُقَبِ

فَبَـادِرِ العُمْـرَ قَبْـلَ الفَـوْتِ مُغْتَنِمـاً
مـا دُمْتَ حَياً فـإنَّ المـوتَ في الطَّلَبِ

فَـالـعُمُـرُ مُنْصَـرِمٌ والـوَقْـتُ مُغْتَنَـمٌ
والـدهـرُ ذُو غِيْـرٍ فـاجِهْـدَ بـه تُصِبِ

كان بعضُ السَّلَفِ إذا أَرادَ أَنْ يَنامَ قالَ لأهلِهِ أَسْتَوْدِعُكُمْ اللهَ فلَعَلَّها أنْ تَكُونَ مَنِيَّتي التِي لا أَقُومُ مِنْهَا وكان هذَا دَأبَهُ إذا أَرادَ النوْمَ وقالَ آخرُ إنْ اسْتَطَاعَ أحدُكُمْ أَن لا يَبِيْتَ إلَّا وَعَهْدُهُ عِنْدَ رَأسِهِ مَكْتُوبٌ فليفعَلْ فإنهُ لا يَدْرِي لَعَلَّهُ يبيتُ في أهْلِ الدُنْيَا ويُصبحِ في أَهْلِ الآخِرَةِ قُلْتُ وَيَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ أَرادَ الخُروجَ لِمَحَلٍ تَطْرُقُهُ السَّيَارَاتُ في وَقْتِنَا الذي كَثُرَ فيهِ مَوْتُ الفُجْاءِ بسَببِ السُرعَةِ المُفْرطَةِ مِنْ سَائِقي السيَّاراتِ الذين ليسَ عندَهُمْ حُرْمَةٌ لِلْمُسْلم نسألُ اللهَ الحيَّ القيُّومَ أنْ يوفِقَ وُلاتَنا لِلأَخْذِ على أَيْدِيْهِمْ وَرَدْعِهِمْ لِيأمَنَ المشاةُ وَيَطْمَئِنُّوا بإذْنِ اللهِ تعالى :

إنــي أرِقْـتُ وذكـرُ الـموتِ أَرَّقَـنِـيْ
وقـلتُ لِلدَّمْـع أَسْعِـدْنِي فَـأَسْعَـدَنِي

يــا مَنْ يَمُـوتُ فَـلَمْ تُحْـزِنْـهُ مِيْتَتُـهُ
وَمَــنْ يَـمُـوتُ فَـمَـا أَولاهُ بـالـحَـزَنِ

تَبْغِي النَّجَــاةَ مِنَ الأَحْـدَاثِ مُحْتَـرِسـاً
وإنَّــمـا أَنْــتَ والـعِـلاتُ فـي قَـرَنِ

يا صَاحِبَ الرَّوحِ ذِي الأَنْفَاسِ في بَـدَنٍ
بَيْنَ الـنـهـارِ وَبَيْـنَ الـلَّيْـلِ مُـرْتَـهَـنِ

لَـقَـلَّمَـا يَـتَـخَـطَّاكَ اخْـتِـلافُـهُـمَـا
حَـتَّـى يُـفَـرِّقَ بَـيْـنَ الـرُّوْحِ والـبَـدَنِ

طِـيْبُ الـحَيـاةِ لِـمَـنْ خَـفَّـتْ مَـؤُونَـتُـهُ
ولـم تَـطِـبْ لِـذَوِي الأَثْـقَـالِ والـمُـؤَنِ

لم يَبْقَ مِمَّا مَضَى إلَّا تَوَهَمُهُ
كَأَنَّ مَن قَد مَضَى بالأَمْسِ لَمْ يَكُن
وَإِنَّما المَرْءُ في الدُنْيَا بِسَاعَتِهِ
سَائِلْ بِذَلِكَ أَهْلَ العِلْمِ بالزَّمَنِ
ما أَوضَحَ الأَمْرَ لِلْمُلْقِي بِعِبْرَتِهِ
بَيْنَ التَّفَكُّرِ والتَجْرِيْبِ والفِطَنِ
أَلَسْتَ يَا ذَا تَرَى الدُنْيَا مُوَلِّيَةً
فما يَغُرُكَ فِيهَا مِن هَنٍ وَهَنِ
لأَعْجَبَنَّ وَأَنَّى يَنْقَضِي عَجَبِي
النَاسُ في غَفْلَةٍ والمَوتُ في سُنَنِ
وَظَاعِنٍ مِن بَيَاضِ الرَّيْطِ كِسْوَتُهُ
مُطَيَّبٍ لِلْمَنَايَا غَيْرِ مُدَّهَنِ
غَادَرْتُه بَعْدَ تَشْيِيْعِيْهِ مُنْجَدِلاً في قُرْبِ دَارٍ وفي بُعْدٍ مِن الوَطَنِ
لا يَسْتَطِيْعُ انتَقَاصَاً في مَحَلّتِهِ
من القَبِيْحِ ولا يَزْدَادُ في الحَسَنِ
ما بَالُ قَومٍ وَقَد صَحَّتْ عُقُولُهُم
فِيْمَا ادَّعَوا يَشْتَرُوْنَ الغَيَّ بالثَّمَنِ
لَتَجْذِبَنَّ يَدُ الدُنيا بِقُوّتِهَا
إلى المَنَايَا وَإِنْ نَازَعَتُهَا رَسَنِي
وَأَيُّ يَومٍ لِمَنْ وَافَى مَنِيَّتَهُ
يَوْمُ تَبَيَّنَ فِيْهِ صُوْرَةُ الغَبَنِ

لِـلـهِ دُنـيـاً أُنَـاسٍ دَائِـبـيْـنَ لَـهَـا
قَـدْ أَرْتِعُـوا في رِيـاضِ الغَيِ والـفِتَـنِ
كَسَـائِـمَـاتٍ رَوَاعٍ تَـبْـتَـغِيْ سِـمَـنـاً
وَحَـتْـفُـهَـا لَـو دَرَتْ في ذَلِـكَ السِّمَنِ

اللهمَّ طهِرْ قلوبَنَا مِن النفاق وعمَلَنا منَ الرِّياءِ وألْسِنَتَنا مِن الكَذب وأعيُنَنا مِن الخِيانةِ واغفِرْ لنا ولوالِدِينا ولجميع المُسْلمينَ برحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الراحمينَ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعين .

« فَصْــلٌ »

وكان صلى اللهُ عليهِ وسلمَ شديدَ الحِرْص على كِتْمَانِ أَمْرِهِ عن الناسِ ، حتى لا يقِفَ على حقيقتِهِمْ أَحَدٌ ، ولا يَعْرِفَ مَقْصَدَهُمْ أحدٌ ، فَجَعَلَ كُلَّما نَزَلَ منزِلاً يَسْأَلُ عَنْ أَخْبَارِهِمْ ، وَيَبْحَثُ عنهم في حَيْطَةٍ وَحَذرٍ .

وَرَوَى ابنُ اسحاقَ أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نَزَلَ قريباً مِنْ بَدْرٍ ، فرَكِبَ هو وَرَجُلٌ مِنْ أصحابِهِ حتى وقفَ على شيخٍ مِن العَرَبِ ، فسألَهُ عنْ قُرَيْشٍ ، وعنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ وما بَلَغَهُ عنهُمْ ، فقالَ الشيخُ : لاَ أُخبِرُكُما حتى تُخْبرانِي مِمَّنْ أنتُما . فقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « أوَ ذَاكَ بِذَاكَ » قالَ : نَعَمْ . قال : فإنهُ بَلَغَنِي أنَّ محمداً وَأَصْحَابَهُ خَرَجُوْا يومَ كَذَا وكَذَا ، فإنْ كانَ صَدَقَ الذي أَخْبَرَنِي فهمْ اليومَ بِمَكانِ كذا وكذا ، لِلْمكانِ الذي بِهِ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وبلَغَنِي أَنَّ قُريشاً خَرَجُوا يومَ كَذَا وَكَذَا ، فإنْ كانَ

الذيْ أَخْبَرَنِي صَدَقَنِي فَهُمْ اليومَ بِمَكَانِ كذا وكذا ، لِلْمكانِ الذي بِهِ قُرَيْشٌ ، فلمَّا فَرَغَ مِنْ خَبَرِهِ قال : مِمَّنْ أنتُمَا ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ « نحنُ مِنْ مَاء » ثُمَّ انصرَفَ عنهُ ، قالَ يَقُولُ الشيخُ مِنْ ماءٍ أمِنْ ماءِ العِراق ؟ .

فلمَّا أَمْسَى بَعَثَ عليَّ بنِ أبي طالبٍ ، والزُبَيْرُ بنَ العَوَّام ، وَسَعْدَ بنَ أبي وقّاصٍ ، في نَفرٍ مِنْ أصحابِهِ إلى مَاءِ بَدْرٍ ، يَلْتَمِسُونَ الخَبَرَ ، فَوَجَدُوْا سُقاةَ قُرِيشٍ يَسْقون لهُمْ فأمْسَكُوْا بغُلاَمَيْنِ مِنْهُمْ ، فَجاؤُا بِهِمَا وَرَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يُصلِّي ، فَجعَلَ القومُ يسألونَهُما لِمَنْ أنتُما ؟ وهمْ يَرْجُونَ أنْ يكونَا مِنْ سُقاةِ العِيْرِ ، فقال الغلامان : نَحْنُ مِنْ سُقاةِ قُرِيشٍ ، بَعَثُونَا نسْقِيهِمْ مِنَ المَاءِ ، فَظَنُوا أَنَّهُمَا يَكْذِبَانِ ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُوْنَهُما ، ثُمَّ يَسْأَلُونَهُما فيَقُولانِ : نَحنُ لِقُرَيشٍ . فَلَمَّا أَوْجَعُوهُما ضَرْباً قالا : نَحْنُ لأَبِي سُفيانَ فتَرَكُوهُمَا ، فَلَمَّا فَرَغَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مِنْ صَلاَتِهِ قال « إذا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا ، وإذا كَذَبَاكُم تَرَكْتُمُوهُمَا ، صدَقَا واللهِ إنهمَا لِقُرِيشٍ ، ثم سَأَلَهُمَا عنْ قُرِيشٍ ، فقالا : هُمْ واللهِ وَرَاءَ هذا الكثيبِ الذيْ تَرَى ، بالعُدْوةِ القُصوَى ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ « كَمْ القَوْمُ ؟ » قالا : كَثِيْرٌ : قالَ « ما عِدَّتُهُمْ ؟ » قالا : لا نَدْرِي ، قال « كَمْ يَنحَرُونَ كلَّ يوم ؟ » قالا : يَوْماً تِسْعاً وَيَوْماً عَشْراً مِن الجُزُرِ ، فقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « القومُ ما بينَ التّسْعِمَائةِ والألفِ » ثم قالَ « فمَنْ فيهِمْ مِنْ أشْرافِ قُرِيشٍ » فَجعَلا يَذْكُرَانِ لَهُ ، فقالَ الرسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لأصحابِهِ « هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ ألقَتْ إليكُمْ أفْلاَذَ كَبِدِها » فَعلِمَ المُسْلِمُونَ أنَّهَا الحَرْبُ لا مَحالَةَ .

وكما أشارَ الحُبابُ بنُ المُنذرِ ببنَاءِ الحوضِ ، أشارَ سعدُ بنُ مُعاذٍ رضِيَ اللهُ عنـهُ أنْ يَبْنُوا لَـهُ عَرِيْشـاً، يُشْرِفُ منـهُ على المَعْـرَكَـةِ ، وَيُوَجِّهُهَا ، وَيأْمَنُ غِرَّةَ العَدُوِّ ، فقالَ : يا نَبيَّ اللهِ ألا نَبْني لكَ عَرِيْشاً ، تكونُ فيهِ ، وَنُعِدُّ عندَكَ رَكَائِبَكَ ، ثُمَّ نَلْقَى عَدُوَّنا ، فإذَا أعزَّنـا اللهُ وأظهرَنا على عَدوِّنا ، كان ذلكَ مَا أَحْبَبْنَا وإنْ كانَتْ الأُخْرَى جَلَسْتَ عَلَى ركائِبِكَ ، فَلَحِقْتَ بِمَنْ وَرَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا ، فقدْ تَخَلَّفَ عَنْكَ أَقْوَامٌ ما نَحْنُ بأَشَدَّ مِنْهُمْ حُبّاً لكَ ولوْ ظَنُّوا أنَّكَ تَلْقَى حَرْباً ما تَخَلَّفُوا عنْكَ ، يَمْنَعُكَ اللهُ بهِمْ ، وَيُناصِحُونَك ، وَيُجَاهِدُوْنَ مَعَكَ ، فأَثْنَى عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ ، ثُم بُنِيَ العَرِيشُ على تَلٍّ ، كما أَشَارَ سعدٌ ، وَأُعِدَّتْ عِنْدَهُ أَنجَبُ الرَّكَائِبِ ، وقامَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ يُسَوِّي الصُفوفَ ، وَيَتَفَقَّدُ الرِّجَالَ ، وَيُهَيِّءُ أَصْحَابَهُ لِلْقِتَالِ ، وَدَفَعَ رَايتَهُ إلى مُصْعَبِ بن عُمَيْرٍ ، فَتقدَّمَ بها إلى مَوْضِعِها الذي أمَرَهُ أَنْ يَضَعَهَا فِيْه، ثم وَقَفَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَنظُرُ إلى الصُّفُوفِ ، فاسْتَقْبَلَ الغرْبَ وجَعَلَ الشمسَ وَرَاءَهُ ، وأقْبلَ المُشْرِكُونَ ، فاسْتَقْبَلُوا الشمْسَ .

وَخَطَبَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ أَصْحَابَهُ ، يَحُثُّهُمْ على الجِهَادِ في سَبيْلِ اللهِ ، وَيُرَغِّبُهُمْ في الأجْرِ ، فَحَمِدَ اللهَ وأثْنَى عليهِ ، ثُمَّ قال « أَمَّا بعدُ فإنِّي أحُثُّكُمْ على ما حَثَّكُمْ اللهُ عليهِ وأنهاكُمْ عَنْ ما نَهَاكُمْ عنْهُ ، فإنَّ اللهَ عظيمٌ شأْنُهُ ، يَأمُرُ بالخَيْرِ ، وَيُحِبُّ الصِدْقَ ، وَيُعْطِي الخَيْرَ أَهْلَهُ ، على منازِلِهِمْ عِنْدَهُ ، وإنكم قد أصْبَحْتُمْ بِمَنْزِلٍ مِن مَنَازِلِ الحقِ ، لا يَقْبلُ اللهُ فيه مِن أَحَدٍ إلَّا ما ابْتُغِيْ بِهِ وَجْهُهُ ، وإنَّ

الصَّبْرَ في مَوَاطِنِ البَأسِ مِمَّا يُفرّجُ اللهُ بِهِ الهَمَّ ، وَيُنجي بِهِ مِن الغَمِّ ، وَتُدْرَكُ بِهِ النَّجَاة في الآخِرَة، فِيْكُمْ نبيُ اللهِ ، يُحَذِّرُكُم وَيأْمُـرُكُم ، فاسْتَحْيُوا اليومَ أنْ يَطَّلِعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على شَيْءٍ مِن أَمْرِكُم يَمْقُتُكُمْ عليه ، فإنَّ اللهَ يَقُولُ ﴿ لَمَقْتُ اللهِ أكْبَرُ مِن مَقْتِكُم أنفسكم ﴾ وأبْلُوا ربَّكم في هَذِهِ المَوَاطِنِ أَمْرَاً تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الذي وَعَدَكُم مِن رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ ، فإنَّ وَعْدَهُ حَقَ ، وَقَولَهُ صِدْقٌ ، وعِقَابَهُ شَدِيْدٌ ، وانَمَا أَنَا وَأَنْتُم باللهِ الحي القَيُوم ، إليهِ الجَأْنَا ظُهُورَنَا ، وبه اعْتَصَمْنَا ، وَعَلَيْهِ تَوَكلنَا ، وإليهِ المَصِيْر ، يَغْفِرُ اللهُ لِي ولِلْمُسْلِمِيْن » .

وَأَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ تَنْصَبُّ إلى الوَادِي مِن الكَثِيْب ، وَعَدَدُ المُشْرِكِيْنَ قَرِيْبٌ مِن الأَلْفِ مقاتِل ، وَمَعَهُمْ مائَةُ فَرَسٍ ، وَسَبْعُمائَةِ بَعِيْر ، وَرُوِيَ أَنَّ أَيْمَاءَ بْنَ رُخْصَةَ بَعَثَ إلى قُرَيْشٍ ابْنًا لَهُ بعَشْرِ جَزَائِر ، أَهْدَاهَا لَهُمْ ، وقـال : إنَّ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَمُدَّكُم بسِـلاحٍ وَرِجَالٍ فَعَلْنـا ، فأَرْسَلُوا إليـهِ أَوْصَلَتْك رَحِمٌ ، فَلَئِنْ كُنَّا إِنَّمَا نُقاتِلُ الناسَ فَمَا بِنَا ضَعْفٌ عَنْهُم ، وإن كُنَّا نقاتِلُ اللهَ كَمَا يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ فَمَا لأَحَدٍ باللهِ طَاقَةٌ ، فلَمّا رَأى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كَثْرَتَهُمْ ، وقِلَّةَ أَصْحَابِهِ ، تَوَجَّهَ إلى اللهِ يَسْتَعِيْنُـهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ « اللَّهُمَّ هَـذِهِ قُرَيْشُ ، قَـدْ أَقْبَلَتْ بخيَـلائِهَـا وَفَخْرِهَا ، تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُوْلَكَ ، اللهم فَنَصْـرَكَ الذي وَعَـدْتَنِي ، اللهم فأحِنْهُمُ الغَد » .

اللهم أَبْرِمْ لِهَذِهِ الأمةِ أَمْرَ رُشْدٍ يُعَزُّ فيهِ أَهْلُ طَاعَتِكَ وَيُذَلُّ فِيْهِ أَهْلُ مَعْصِيَتِكَ وَيُؤْمَرُ فيهِ بالمعْروفِ وَيُنْهَى فيهِ عَن المُنكرِ إنك سَمِيْعُ الدُّعَاء اللهم تَوفنَا مُسلمين وألحِقْنا بالصَّالحِين واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ

المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْــلٌ »

وَأَرَادَ المُشْـرِكُونَ أَنْ يَسْتَـوْثِقُوا مِن رِجَـالِ المُسْلِمِيْنَ ، قَبْلَ أَنْ يُنَازِلُوْهُمْ ، فَأَرْسَلُوا عُمَيْرَ بن وَهْبِ الجُمَحِي يَحْزُرُ لَهُمْ أَعْدَادَ المُسْلِمِيْنَ تَقْرِيْباً ، وَيَتَعَرَّفُ أَحْوَالَهُمْ ، فَلَمَّا اطَّلَعَ عَلَيْهِمْ عُمَيْرُ رَأَى المُسْلِمِيْنَ في مَنْظِرٍ يَبْعَثُ الرُّعْبَ والذُّعْرَ والخَوفَ وَيَسْتَوْجِبُ الحذَرَ الشَّدِيْدَ ، قَوْمٌ قَلِيْلٌ عَدَدُهُمْ ، ولكنْ صُوَرُ الموتِ تَتَراءى مِن مَنَاظِرِهِمْ ، قَدْ تَرَاصَتْ صُفُـوفُهُمْ ، كَمَا يَتَـرَاصُّ البُنْيَانِ ، وَتَـلاحَمَتْ أَجْسَامُهُمْ كَمَـا يَتَلاحَمُ الحَـدِيْدُ ، وَجَثَـوْا عَلَى الرُكَبِ مُسْتَـوْفِزِيْن ، يَتَنَمَـرُوْنَ تَنَمُّـرَ الأُسُـوْدِ الضَّوارِي ، وَيَتلَمَظُونَ تَلَمُّظَ الأفَاعِي ، وَيَدُوْرُوْنَ بعُيُونٍ تَبْعَثُ الموتَ حَيْثَمَا دَارَتْ ، وَتَتَحَرَّكُ شِفَـاهُهم بمَا لا تُـظْهِرُهُ أَصْـوَاتُهُمْ ، يَسُوْدُهُمْ صَمْتٌ رَهِيْبٌ ، وَتَصْمِيْمٌ عَجِيْبٌ ، وَعَزْمٌ صَارِمٌ عَلَى الاسْتِمَاتَةِ في سَبِيْلِ اللهِ ، حَتَّى لكأَنَّهُمْ بَاعُوْا لَهَا نُفُوسَهُمْ ، فلا يُرِيْدُوْنَ أن يَرْجِعُوا إلى أَهْلِيْهِم ، فَأَخَذَ عُمَيْرُ بِهَذَا المَنْظِرِ المُفْزِعِ المُقْلِقِ ، وَرَجَعَ إلى قَوْمِهِ فقال لَهُمْ : يا مَعْشَر قُرَيْشٍ البَلاَيَا تَحْمِلُ المَنَايَا . نَوَاضِحُ يَثْرِبَ تَحْمِلُ الموتَ النَّاقِعَ ، قومٌ لَيْسَ لَهم مَنَعَةٌ ، ولا مَلْجأ إلَّا سُيُوْفَهُمْ ، واللهِ ما أَرَى أن يُقْتَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ رَجُلاً مِنكُمْ ، فإذا أَصَابُوا مِنْكم

أَعْدَادُهُمْ فَمَا خَيْرُ العَيْشِ بَعْدَ ذَلِك ، فَرُوْا رَأْيَكُم ، فَتَعَاظَمَتْ في أَعْيُنِ قُرَيْشٍ هَيْبَةُ المُؤْمِنِيْنَ ، وانْهَارَتْ قوَاهُمْ المَعْنَوِيَّةِ ، وحَلَّ الخَوْفُ مَحَلَّ التَّكَبُّرِ والزَّهْوِ والطُّغْيَانِ والاحتقارِ ، ولكن ضافَ على الخوفِ التَّجلُدُ والمُجَامَلَةُ ، وَأَخَذَ الخلافُ يَدِبُّ بَيْنَ صُفُـوفِهِمْ مِنْ جَدِيْـدٍ ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمْشِي إلى بَعْضٍ ، رَجَاءَ أَنْ يَنْفَضُوا قَبْلَ أن تَنْشَبَ الحَرْبُ ، وَيَحْتَدِمُ القِتَالُ ، وَأَدْرَكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ما بَيْنَهُم مِن خِلافٍ ، فَأَرَادَ أَنْ يُعْذِرَ إِلَيْهِم مِنْ نَفْسِه ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِم عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ يَقُولُ لَهُمْ ارْجِعُوا فإِنَّهُ إِنْ يَلِيْ هَذا مِنِّي غَيْرُكُم ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَنْ تَلُوْهُ مِنِّي ، فقال حكيمُ بن حِزامٍ : قَد عَرَضَ واللهِ نَصَفاً فاقْبَلُوهُ وَمَشَى إِلى عُتْبَةَ بْن رَبِيْعَةَ فقال لَهُ : يَا أَبَا الوَلِيْدِ أَنْتَ كَبِيْرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدَهَا والمُطَاعَ فِيْهَا ، فَهَلْ لَكَ أَلاَ تَزالَ تُذْكَرَ مِنها بخَيْرٍ آخِرَ الدَّهْرِ ، قَالَ وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا خَالِدٍ ؟ قالَ : تَرْجِعُ بالناسِ ، وَتَحْمِلُ دَمَ حَلِيْفِكَ ابْنِ الحَضْرَمِي ، وما أَصَابَ مُحَمَّدٌ مِن تِلْكَ العِيْرِ بِبَطْنِ نَخْلَةَ ، قالَ عُتْبَةُ : **قَدْ فَعَلْتُ وَأَنْتَ عَلَيَّ بِـذَلِـكَ** ، ثُـمَّ قَـامَ عُـتْبَـةُ في المُشْـرِكِيْنَ يَـقُـولُ:

يَا قَوْمُ أَطِيعُونِي لا تُقَاتِلُونَ هَـذَا الرَّجُـلَ وأَصْحَابَـهُ ، واعْصُبُوا هَـذَا الأَمْرَ بِرَأْسِي، واجْعَلُوْا جُبْنَهَابِي فإِنَّ مِنْهُمْ رِجَالاً قَرابَتَهُمْ قرِيْبَةً ، وَلَئِنْ أَصْبْتُمُوه لا يَزالَ الرجلُ مِنكُم يَنْظُرُ إِلى قَاتِلِ أَبيْهِ أَوْ أَخِيْهِ ، فَيُوْرِثُ ذلك مِنكُمْ شَحْنَاءَ وَأَضْغَاناً ، وَلَنْ تَخْلَصُوا إِلى قَتْلِهِم حَتَّى يُصِيْبُـوا مِنْكُم عَدَدَهُمْ ولا آمَنُ أَنْ تَكُونَ الدَّبرَةُ عَلَيْكُم ، وأَنْتُم لا تَطْلُبُونَ إِلَّا دَمَ هَذَا الرَّجُلِ ، والعِيْرِ التِي أَصَابَ ، وَأَنَا أَحْتَمِلُ ذَلِكَ ، وَهُوَ عَلَيَّ ، يا قومُ إِنْ يَكُ مُحَمَّدٌ كَاذِباً يَكْفِيْكُمُوهُ ذُؤبَانُ العَرَبِ ، وانْ يَكُنْ مَلِكاً أَكَلْتُم في

مُلْكِ ابنِ أَخِيْكُمْ ، وإنْ يَكُنْ نبياً كُنْتُم أَسْعَدَ الناسِ بِهِ ، يا قوْمُ لا تَرُدُّوْا نَصِيْحَتِي ، ولا تُسَفِّهُوا رَأْيِي .

وكان أبُو جَهْلٍ شَيْطَانُ هَذِهِ المَعْرَكَةِ ، فَجَعَلَ يُسَفِّهُ رَأْيَ عُتْبَةَ بن رَبِيْعَةَ ، وَيَصِفُهُ بالجُبْنِ ، وَيُشِيْعُ في الناسِ أنه لَمْ يَقُلْ ما قالَ إلَّا خوفاً على ابنِهِ أَبِي حُذَيْفَةَ ، فقد رَأَى أصحابَ مُحمدٍ أَكْلَةَ جَزُوْرٍ ، فَخَافَ عَلَى ابْنِهِ أَنْ يُقْتَلَ مَعَهُمْ ، وَجَعَلَ يُحَرِضُ الناسَ على الشَّرِ ، وَيَقولُ لا وَاللهِ لا نَرْجِعُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ، واسْتَفْتَحَ في ذَلِكَ اليَومِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ أَقْطَعَنا لِلرَّحِمِ ، وآتانا بِمَا لاَ نَعْرِفُ فأَحِنْهُ الغَدَاة .

اللهم أَيُّنَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ ، وَأَرْضَى عِنْدَكَ ، فانْصُرْهُ اليومَ فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوْا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْحُ ، وإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وإِنْ تَعُودُوْا نَعُدْ ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُم فِئَتُكُم شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ، وإِنَّ اللهَ مَعَ المُؤْمِنِيْن ﴾ .

وَبَعَثَ إِلى عَامِرِ بنِ الحَضْرَمِي الذِي قُتِلَ أُخُوْهُ في نَخْلَةَ ، فَجَعَلَ يُحَرِّضُهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ ثَارَ أَخِيْهِ ، فقَامَ ابنُ الحَضْرَمِي ، « فَجَعَلَ يَحْثُو على نَفْسِهِ التُرَابَ ويَصِيْح واعُمَرَاهْ واعُمَرَاهْ » فَحَمِيَ الناسُ واسْتَوْثَقُوا على مَا هُمْ عَليهِ مِن الشَّرِ ، وأَخَذُوْا أُهْبَةَ الزَّحْفِ ، واسْتَعَدُّوا لِلْقِتَالْ .

« مَـوْعِظَـةٌ »

عِبَادَ اللهِ انْتَبِهُوا لِلْمَوَاعِظِ واعْمَلُوا بهَا فَقَدْ وَرَدَ عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّه قال أَيُّمَا عَبْدٍ جاءَتْهُ مَوْعِظَةٌ مِن اللهِ في دِيْنِهِ فإِنَّمَا هِيَ نِعْمَةٌ مِن اللهِ سِيْقَتْ إِلَيْهِ فإِنْ قَبِلَهَا بشكرٍ وإلا كانت حُجَّةً مِن اللهِ

عليهِ لِيَزْدَادَ بِهَا اثْماً وَيَزْدَادُ اللهُ عليهِ بها سُخْطَا .

عِبَادَ اللهِ كَمْ قَدْ نُهِيْتُم عن الاغْتِرَارِ بالـدُنْيَا وَحُـطَامِهَا الفَـانِي والطُّمَأْنِيْنَةِ إِلَيْهَا والانْخِدَاعِ بِزَخَارِفِهَا وَكَمْ قَدْ نُهِيْتُمْ عن الايثَارِ لَهَا على الآخِرَةِ والاشْتِغَالِ بهَا عَنْهَا قال الله تعالى ﴿ بَلْ تُؤثِرُوْنَ الحَيَاةَ الدنيا والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَى ﴾ وقال عَزَّ مِنْ قائل ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى وآثَرَ الحَيَاةَ الدُنْيَا فإِنَّ الجَحِيْمَ هِيَ المَأْوَى ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَفْسَ عَنِ الهَوى فَإِنَّ الجنةَ هِيَ المَأْوَى ﴾ وقال تعَالَى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيْهَا ما نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيْدُ ثم جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُورَا ﴾ وقالَ عَزَّ مِن قائِل ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الآخِرَةَ نزدْ لَه في حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِـهِ مِنْهَا وَمَـالَهُ في الآخِـرَةِ مِن نَصِيْب ﴾ وإِنَّ دَارَا يا عِبَادَ الله أَوْصَافُها في كتاب الله وَسُنَّةِ رَسُوْلِهِ إِنَّها غُرُوْرٌ وَمَتَاعٌ قَلِيْلٌ وَلَعِبٌ وَلَهْوٌ وَمَمَرٌ وَطَرِيْقٌ إِلى الآخِرَةِ كَمَا هُوَ الوَاقِعُ دَارٌ مَمْلُؤَةٌ بالأكْدَارِ والمَصَائِب والآلام والأحْزَانِ دَارٌ مَا أَضْحَكَتْ إِلَّا وَأَبْكَتْ ولا سَرَّتْ إلا وأَسَاءَتْ دَارٌ نِهَايَةُ قُوَّةِ سَاكِنِيْهَا إِلى الضَّعْفِ وَنِهَايَةُ شَبَابِهِمْ إِلَى الهَرَمِ وَنِهَايَةُ حَيَاتِهِم المَوْت .

شِـعْرَاً :

أَلَمْ تَـرَى رَيْبَ الـدهرِ في كُـلِّ سَـاعةٍ
لَـهُ عـارِضٌ فِيْـهِ الـمَـنِيَّـةُ تَـلْـمَـعُ
أَيَـا بَـانِي الـدُنْيَـا لِغَيْـرِكَ تَبْتَـنِي
ويَـا جَـامِـعَ الـدُنْيَـا لِغَيْـرِكَ تَجْمَـعُ

أَرَى المَـرْءَ وَثَّابـاً على كُـلِ فُـرْصَـةٍ
وللمَـرءِ يَـوْمـاً لا مَحَـالَـةً مَـصْـرَعُ

آخـر :

يَـأْتِـي عَلَى الـنـاسِ إصْبَـاحٌ وَإمْسَـاءُ
وَحُـبُّـنَـا هَـذِهِ الـدُّنْـيَـا هُـوَ الـدَّاءُ

كَمْ أَيْقَـضَتْ بِصُروْفٍ مِن حَـوادِثِـهَـا
وكـلُنـا لِـصُـرُوْفِ الـدَّهْـرِ نَـسَّـاءُ

أيْـنَ المُـلُوكَ وَأَبْـنَـاءُ الـمُـلُوكِ وَمَـنْ
قـادُوا الجُنُـودَ ونَـالُـوا كُـلَّ مَـا شَـاؤُا

وَأيْـنَ عَـادٌ واقْـيَـالُ الـمُـلُوكِ وَمَنْ
كـانَتْ لَهُـم عِـزَّةٌ في الـمُلْكِ قَـعْسَـاءُ

قَـدْ مُتِعُـوا بِقَـلِيْـلٍ مِـنْ زَخَـارِفِـهَـا
فـي عِـزَّةٍ فَـإذَا الـنَّـعْـمَـاءُ بـأْسَـاءُ

نَـالُـوْا يَسِيْـراً مِنَ اللَّذات وانْصَـرفُـوا
عَـن دَارِهَا واقْـتفَى اللَّذَاتِ أَسْـوَاءُ

دَارٌ هَذَا وَصْفُهَا وَوَاقِعُهَا فَهَلْ يَغْتَرُّ بِهَا مَنْ لَهُ عَقْلٌ هَلْ يَأْمَنُهَا أَوْ يَطْمَئِنُ إلَيْهَا ذُو عَقْلٍ رَزِيْن هَلْ يُعَادِيْ وَيُشَاحِنُ وَيُوَالِي مِن أَجْلِهَا إلَّا نَاقِصُ العَقْلِ والدِيْن فاتَّقُوا اللهَ يا عبادَ اللهِ وكُونُوا مِنْ تَقلبهَا عَلى غَايَةِ الحَذَرِ وَكُونُوا مِن أبْناءِ الآخِرَةِ وَذَلِّلُوْا دُنْيَاكُم لآخِرَتِكُم واسْتَخْدِمُوهَا في الذي يُرْضِيْ رَبَّكُمْ فإنَّ الدُنْيَا نِعْمَ المَطِيَّةُ لِمَنْ اسْتَخْدَمَها لِلآخِرَةِ وَلَنْ يَصْحَبَ الانسانَ اذا فَارَقَهَا وانْتَقَلَ مِنْهَا إلَّا مَا قَدَّمَهُ فِيْهَا مِن صَالِحِ

الأعْمَالِ قال اللهُ تعالى ﴿ والباقياتُ الصَّالِحَاتُ خيرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ولْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ واتَّقُوا اللهَ إن اللهَ خَبِيْرٌ بما تَعْمَلُون ﴾ فاتقوا الله عِبَادَ اللهِ وَبَادِرُوْا بالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ هُجُوم هَادِمِ اللَّذَاتِ وَمُفَرِّقِ الجَمَاعَاتِ قَبْلَ أَنْ تَأْتِي فِتَنٌ كَقِطَعِ الليلِ المُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كافِراً يَبِيْعُ دِيْنَهُ بِعَرَضٍ مِن الدنيَا وَرَوَى البُخَارِيُ عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِمَنْكِبَيَّ فقال « كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أو عَابِرُ سَبِيْلٍ فكَانَ ابنُ عُمَرَ يَقُوْلُ إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ وَيَقُولُ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم فِيْمَا رَوَاهُ الحَاكِمُ وصَحَّحَهُ عن ابنِ عَبَّاسٍ اغْتَنِمْ خمساً قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ .

عَسَى تَوْبَةٌ تُمْحَى بِهَا كُلُّ زَلَّةٍ
وَتَغْسِلُ أَدْرَانَ القُلُوبِ المَرِيْضَةِ
أَجِدَّكَ مَا الدُّنْيَا وَمَاذَا نَعِيْمُهَا
وَهَلْ هِيَ إِلَّا دَارُ بُؤْسٍ وَحَسْرَةِ
ولم أَرَى فِيْهَا مَا يَرُوْقَ بَلَى بِهَا
تُرِيْقُ دَمَ الأَعْمَارِ أَسْيَاقُ غَفْلَةِ
إِذَا أُدْرِكَتْ فِيْهَا مَسَرَّةُ سَاعَةٍ
أَتَتْكَ إِسَاءَاتٌ تُنَسِيْكَ بِالَّتِي

وَإِنْ عَـطَفَتْ فـالعَـطْفُ عَـطْفَ تَـوَهُمٍ
فـإِيَّـاكَ أَنْ تَـغْـتَـرَّ مِـنْـهَـا بِـعَـطْفَـةِ
رَأَيْنَـا أُنَـاسـاً قَـدْ أَنَـاخَتْ بِسَـوْحِهِم
وَقَـالَتْ خُـذُوا مِن زَهْـرَتِي كُـلَّ مُنْيَـةِ
فَغَـرَّتْهُمُ حَتَّـى اسْتَبَـاحُـوا حَـرِيْمَهَـا
وَحَـطُّوا بِهَـا الأَثقَـالَ مِن كُـلِّ شَهْـوَةِ
فَمَـا هِـيَ إِلَّا أَنْ أَرَتْـهُـمْ نَـعِـيْـمَـهَـا
وَمَـدُّوْا أَعْـنَـاقـاً إِلَـى كُـلِّ لَـذَّةِ
أَتَتْهُـم فـأَجْـلَتْ عَـنهُـمُ كُـلَّ شَهْـوةٍ
أَرادُوا وَأَخْـلَتْ مِـنْـهُـم كُـلَّ غُـرْفَـةِ
فَصَـارُوا أَحَـادِيْـثـاً لِـكُـلِّ مُـحَـادِثٍ
وَهُمْ سَمَـرُ السُّمَـارِ فـي كُـلِّ سَمْـرَةِ
وَلِلْعَيْـنِ كَـانُـوا قُـرَّةً ثُـمَّ أَصْبَـحُـوْا
وَهُمْ عِبْـرَةٌ تَـجْـرِي بِهَـا كُـلُ عَـبْـرَةِ
تَـبَـدَّلَ مِـنـهـا كُـلُ شَـيءٍ بِـضِـدِّهِ
فـإِيَّـاكَ أَنْ تَـغْـتَـرَّ فِـيْـهَـا بِـرُتْـبَـةِ
فَـصِحَّـتُهَـا والـعِـزُّ والـمَـالُ بَـعْـدَهَـا
سَـقَـامٌ وذِلٌ وافْـتِـقَـارٌ بِـقِـلَّةِ
أَرَى هَـذِهِ الأَعْـمَـارَ أَحْـلامَ نـائـمٍ
وَلَـذَتَـهَـا طَـيْـفـاً أَلَـمَّ بِـمُـقْـلَتِـي
أَلَسْت تَـرى الأَتْـرَابَ قَـدْ رَحَـلُوا إِلَى
تُـرابٍ وَحَـلُّوْا فـي مَـنَـازِلِ وَحْـشَـةِ

مُـقِيْـمِيْـنَ فِـيـمَـا يَـنْـظُرونَ مَـتَـى مَـتَـى
تَـرُوْحُ إِلـيْـهِـم فـي عَـشِـيٍّ وَبُـكْـرَةِ
وَتُـقْبِـلُ فـي جَيْشٍ قُـصَـارَى مَـرَامِهِـم
نُـزُولُـكَ فَـرْداً حُـفْـرَةً أَيَّ حُـفْـرَةِ
وَيَحْثُـو عَـلَيْـكَ التُـرْبَ كُـلُ مُـشَيّـعٍ
ثَـلاثَـاً وَهَـذَا مِـن فِـعَـالِ الأَحِـبَـةِ
فَـتَـنْـزِلُ دَارَ لا أَنِـيْسَ بِـهَـا وَلاَ
خَـلِيـلَ بـهـا تُـفْضِـيْ إِلـيـهِ بِـخُـلَّتِي
سِـوَى رَحْمَـةِ الـرَّحْمٰنِ يَـا خَيْـرَ رَاحِم
أَسَـأْنَـا فَـقَـابِلْنَـا بِـعَـفْـوٍ وَرَحْـمَـةِ
وَصَلِّـى عَـلَى الـمُـخْـتَـارِ والآلِ إِنَّـهَـا
لِـحُسْـن خِتَـامٍ فـي نِـظَامِ القَـصِـيْـدَةِ

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِسُلُوكِ مَنَاهِجِ المتقِين وَخصَّنا بالتَّوفِيق المُبيْن واجْعَلْنَا بِفَضْلِكَ مِن عِبَادِكَ المُخْلِصِيْن الذِيْنَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِـرَحْمَتِكَ يَـا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى محمَّدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

« فَصْــلٌ »

وَعَبَّأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ تَعْبِئَةٍ لِأَصْحَابِهِ، وَحَثَّهم عَلى الثَّبَاتِ والصَّبْرِ، وقال لَهُمْ «لا تَحْمِلُوا حَتَّى آمركُم، وإِنْ اكْتَنَفَكُم القَـوْمُ فـانْضَحُـوْا عَنْكُم بـالنَّبْـلِ، ولا تَسْلُوا السُّيُـوفَ حَتَّى يَغْشُوْكُم» ثُمَّ رَجَعَ إِلى العَرِيْشِ، فَدَخَلَهُ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَقَامَ سَعْدُ ابنُ مُعَاذٍ وَاقِفاً عَلَى البَابِ بَابِ العَرِيْشِ، مُتَقَلِّداً سَيْفَهُ، ومَعَهُ رِجَالٌ مِن الأَنْصَارِ، يَحْرِسُوْنَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم خَوْفاً عَلَيْهِ أَنْ يَدْهَمُهُ العَدُوُ مِنَ المُشْرِكِيْن، والنَّجَائِبُ مُهَيَّئَةٌ لَهُ، إِنْ احْتَاجَ إِلِيْهَا رَكِبَهَا وَبَدَأَتْ قُرَيْشٌ الزَّحْفَ، فَانْدَفَعَ مِن صُفُوفِهَا الأَسْوَدُ ابنُ عَبْدِ الأَسَـدِ المَخْزُوْمِي، إِلَى حَوْضِ الماءِ الَّذِي أَقَامَهُ المُسْلِمُونَ، وَهُوَ يَقُولُ أُعَاهِدُ اللهَ لَأَشْرَبَنَّ مِن حَوْضِهِمْ، أَوْ لَأَهْدِمَنَّهُ، أَوْ لَأُموتَنَّ مِن دُوْنِهِ، فَتَلَقَاهُ حَمْزَةُ بنُ عبدِ المطلبِ بضَربةٍ مِنْ سَيْفِهِ أَطَنَّ بهَا سَاقَه، فوقعَ على الأَرضْ، ثُمَّ اسْتَمر يَزْحَف حتَّى وصَلَ إلى الحوضْ، فجعَل حَمْزَة يُتَابِعه بالسيف حتى قَتَلَهُ في الحَوْض، وَحَمِيَ عُتْبَة بنُ رَبِيْعَةَ مِن قَوْلِ أَبي جَهْلٍ، فانْدَفَعَ مِن الصَّفِ بَيْنَ أَخِيْهِ شَيْبَةَ، وَابْنِهِ الوَلِيْدِ، يَدْعُونَ إلى المُبَارَزَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ ثلاثَةٌ مِن الأَنْصَارِ، عَبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَة وَعوفُ وَمُعَوِّذُ أَبْنَاءُعَفراءَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتم؟ فَقَالُوْا: مِنَ الأَنْصَارِ. قَالُوا: أَكْفَاءٌ كِرَام، وإِنَّمَا نُرِيْدُ بَنِي عَمِّنَا، ونادَوْا يا مُحَمَّدُ أَخرجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا، فَأَخْرَجَ لَهُم رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حَمْزَةَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَعُبَيْدَةَ بنَ الحَـارِثِ بن عَبْـدِ المُطَّلب، وَعَلِيَ بنَ أَبِي

طَالِبِ ، فَبَارَزَ عُبَيْدَةُ عُتَبَةَ ، وبارزَ حَمْزَةُ شَيْبَةَ ، وبارزَ عَليٌّ الوَلِيْدَ ، فَأَمَّا حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ فَلَمْ يَلْبَثْ كُلٌّ مِنْهُمَا أَنْ قَتلَ صَاحِبَهُ ، وَأَمَّا عُبَيْدَةُ وَعُتْبَةُ فَقَدْ اخْتَلَفَا فِيْمَا بَيْنَهُمَا ضَرْبَتَيْن ، فَوَقَعَ كِلاَهُمَا عَلى الأرضِ ، فَكَرَّ حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ بِأَسْيَافِهِمَا عَلَى عُتْبَةَ ، فَذَفَّفَا عَلَيْهِ ، وَحَملاَ عُبَيْدَةَ فَجَاءَ آبهِ إِلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ قُطِعَتْ سَاقُهُ ، وَجَعَلَ مُخُهَا يَسِيل ، فَأَفْرَشَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قَدمَهُ الشَّرِيْفَة ، وَبَشَّرَهُ بالشَّهَادَةِ ، وَهُنَا حَمِيَ المُشْرِكُون ، وَهَجَمُوْا على صُفُوفِ المُسْلِمِيْن ، هُجُومَ السَّيْلِ الجَارِفِ ، فَأَمَرَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيـه وسلم أَنْ يَكْسِرُوْا هَجَمَاتِهِمْ بالنَّبْلِ ، وَهُمْ مُرَابِطُونَ في أَمَاكِنِهِم ، فَلَمَّا أَوْشَـكَ الصَّفَانِ أَنْ يَتَلاَحَمَا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم أَنْ يَحْمِلُوا عَلَيْهِم ، وَنَادَى قائِلاً « والذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُقَاتِلُهُم اليومَ رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ » فَهَجَمَ المُسْلِمُونَ بِقُلُوبٍ مِلْؤُهَا الإِيْمَانُ بالحَقِ ، والرَّغْبَةُ في الشَّهَادَةِ ، والطَّمَعُ في ثَوَابِ اللهِ ، وَجَعَلُوا أَهْـدَافَهُم رُؤُوْسَ الكَفَرَةِ ، يَتَصَيَّـدُوْنَهُم وَسَطَ الجُمُوْعِ الزَّاحِفَة ، ثُمَّ يَنْقَضُونَ عَلَيهِمْ كَالصَّـواعِقِ ، وَهُمْ يَتَصَايَحُـونَ تَصَائِـحَ الأُسُودِ : يَا مَنْصُورُ أَمِتْ أَمِتْ .

ثُمَّ حَمِيَ الوَطِيْسُ ، واسْتَدَارَتْ رَحَى الحَرْبِ ، واشْتَدَّ القِتَالُ ، وَهَانَتْ على المُسْلمين الحَيَاةُ ، ولَذَّتْ لَهُمُ الشَّهَادَةُ ، واسْتَعْجَلُوا المَوْتَ في سَبِيْلِهَا ، حَتَّى إِنَّ عُمَيْرَ بنَ الحُمَامِ لِيَصِيْحُ مِن فَـرْطِ سُرُوْرِهِ ، وَيَقُولُ : بَخٍ بَخٍ أَفَمَا بَيْنِي وبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَقْتُلَنِي هَؤُلَآءِ ؟ ثم يَرْمِي مِن يَدِهِ تَمَـراتٍ كـانَ يـأْكُـلُ مِنْـهَـا ، ويقـولُ لَئِنْ أَنـا حَيِيْتُ

حَتَّى أَكلَ تمرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَياةٌ طَوِيْلَةٌ ، ثم يَنْدَفِعُ إِلَى المَعْرَكَةِ انْدِفَاعَ السَّهْمِ ، وَحَتَّى إِنّ عَوْفَ بنَ الحَارِثِ لَيَسْأَلُ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم عَمَّا يَضحَكُ الرَّبُ مِن عَبْدِهِ ، فَيَقُولُ لَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « غَمْسُهُ يَدَهُ في العَدُوّ حَاسِراً » فَيَنْزِعُ دِرْعَهُ فَيَقْذِفُهَا ، ثُمَّ يَأخُذُ سَيْفَهُ ، وَيَخُوضُ في المَعْرَكَةِ، لَا يُبَالِي أَوَقعَ عَلَى المَوتِ ، أَمْ وَقَعَ المَوتُ عَليهِ ، وأَخَذَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ملءَ كَفِّهِ مِن الحَصَى ، فَرَمَى بها وُجُوهُ العَدُوِ ، فلم تَتْرُكْ رَجُلا مِنْهُم إلَّا مَلأَتْ عَيْنَيْهِ ، وَشُغِلُوا بالتُّراب في أَعْيُنِهم ، وَشُغِلَ المُسْلِمُونَ بقَتْلِهم ، فأَنزلَ اللهُ في شأنِ هَذِهِ الرَّمْيَةِ على رسول اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ﴿ ومَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ، ولكنَّ اللهَ رَمَى ﴾ وكانَتِ الملائكةُ يَوْمَئِذٍ تُبادِرُ المُسْلِمِيْنَ إلى قَتْلِ أَعْدَائِهِم ، قال ابنُ عباسٍ بَيْنَمَا رَجُلٌ مِن المُسْلِمِيْنَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُ في أَثَرِ رَجُلٍ مِن المُشْرِكِيْنَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بالسَّوْطِ فَوْقَهُ ، وَصَوْتَ الفارسِ فَوْقَهُ ، يَقُولُ أَقْدِمْ حَيْزُوْمُ ، إِذْ نَظَرَ إِلى المُشْرِك أَمَامَهُ مُسْتَلْقِياً ، فَنظَرَ إِليهِ فإذا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ ، وَشُقَّ وَجْهُهُ ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ ، فأَحْضَرَ ذَلِكَ أَجْمَعُ ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُ فَحَدَّثَ بذَلِكَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال « صَدَقْتُ ، ذَلِكَ مِن مَدَدِ السَّمَاءِ الثالِثِةِ » وقال أَبُو دَاوُدَ الأَنْصَارِي : إِنِّي لأَتْبَعُ رَجُلًا مِن المُشْرِكِيْنَ لأَضْرِبَهُ ، اذْ وَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي ، وَجَاءَ رَجُلٌ بالعباس بن عبدِ المطلب أسِيْراً ، فقال العَبَّاسُ إِنَّ هَذَا واللهِ ما أَسَرَنِي ، لَقَدْ أَسَرنِي رَجُلٌ أَجْلَحُ مِن أَحْسَنِ الناس وَجْهَاً على فَرَسٍ أَبْلَقَ ، وَمَا أَرَاهُ في القَوْمِ ، فقال الأنصارِيُ أَنا أَسَرْتُهُ يا رسولَ اللهِ ، فقال : اسْكُتْ فَقَدْ أَيَّدَكَ اللهُ بمَلَكٍ كَرِيْمٍ ، وأُسِرَ مِن بَنِي

عَبْدِ المُطَّلِبِ ثَلاثَةً ، العَبَّاسُ وَعَقِيْلٌ ، وَنَوْفَلُ بنُ الحَرثِ .

وَذَكَر الطَّبرانِي عن رِفَاعَةَ بنِ رَافِعٍ قَالَ : لَمَّا رَأَى ابْلِيْسُ ما يَفْعَلُ الملائكةُ بالمشرِكِينَ يومَ بَدْرٍ أَشْفَقَ أَنْ يَخْلُصَ القَتْلُ إليهِ ، فَتَشَبَّثَ بِهِ الحَرْثُ بن هِشَامٍ ، وَهُوَ يَظُنُّهُ سُرَاقَةَ بنَ مَالِكٍ فَوَكَز في صَدْرِ الحَرْثِ فَأَلْقَاهُ ، ثُمَّ خَرجَ هَارِباً ، حَتَّى أَلْقَى نَفْسَهُ في البَحْرِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ نَظْرَتَكَ إيَّاي ، فَأَقْبَلَ أَبو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ فقالَ : يَا مَعْشَرَ النَّاسِ لا يَهْزِمَنَّكُمْ خُذْلَانُ سُرَاقَةَ إيَّاكُم ، فإِنَّهُ كَانَ عَلَى مِيْعَادٍ مِن مُحَمَّدٍ ، ولا يَهُوْلَنَّكُم قَتْلُ عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَالوَلِيْد ، فإِنَّهُمْ قَدْ عَجَّلُوا ، فَوَالَّلاتِ والعُزَّى لا نَرْجِعُ حَتَّى نَقرِنَهُم بالحِبَالِ ، ولا أَلْفِيَنَّ رَجُلاً مِنْكُمْ قَتلَ مِنْهُمْ رَجُلاً ، وَلَكِنْ خُذُوْهُمْ أَخذَا ، حَتَّى نُعَرِّفَهُمْ سُوْءَ صَنِيْعِهِمْ ، وَلَا تَزَالُ تُضَاعفُ شَجَاعَةُ المُسْلِمِيْن وَتَزْدَادُ قُوَاهُمُ المَعْنَوِيَّةُ والحِسِّيَّةُ وَتَزْدَادُ حَمَاسَتُهُمْ ، حَتَّى لَيُحِسُ الوَاحِدَ مِنْهُمْ أَنَّهُ كُفْءٌ لِعَشَرَةٍ مِن المُشْرِكِيْنَ ، وَتَضَاءَلَتْ في أَعْيُنِ المُؤْمِنِيْن كَثْرَةُ المُشْرِكِيْنَ ، فَجَعَلُوا يَفْتَرِسُونَهُمْ كَمَا تَفْتَرِسُ الذِئَابُ الغَنَمَ ، وَيَكْتَسِحُوْنَهُمْ كَمَا يَكْتَسِحُ السَّيْلُ الغُثَاءَ ، وانْعَقَدَ فَوْقَ المَعْرَكَةِ جَوٌ رَهِيْبٌ ، مَلأَ قُلُوبَ المُشرِكِينَ بالرُّعْبِ ، كَمَا مَلأَ قُلُوبَ المُؤمِنينَ بالقُوَّةِ والثَّبَاتِ مِن اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم .

وَرُوِيَ أَنَّ خُبَيْبَ بنَ يَسَافٍ كَانَ رَجُلاً شُجَاعاً ، وَكَانَ يَأْبَى الإِسلامَ ، فَلمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم إِلَى بَدْرٍ ، خَرجَ هُوَ وَقَيْسُ بنُ مُحْرِثٍ ، فَعَرضَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم أَنْ يَخْرُجَا مَعَهُ ، فَقَالَ لا يَخْرُجْ مَعَنَا رَجُلٌ لَيْسَ عَلَى دِيْنِنَا ، فَقَالَ خُبَيْبٌ : قَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنِّي عَظِيْمُ الغِنَاءِ في الحَرْبِ ، فَأُقَاتِلُ مَعَكَ لِلْغَنِيْمَةِ ، قَالَ « لَا ، وَلَكِنْ أَسْلَمَ ثُم قَاتَلَ » .

اللهم ارْزُقْنا حُبَّكَ وَحُبَّ مَن يُحِبُكَ وَحُبَّ العَمَلِ الذِي يُقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّكَ اللَّهُم أَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَوَفِّقْنَا لِشُكْرِكَ وَاحْفَظْنَا مِن الاغْتِرَارِ بالدُنيَا والهَوَى والنَّفسِ وَعَدُوِّكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحمَ الراحمين إنك وَليُ ذَلِكَ والقادِرُ عليه وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِه وصحبه وسلم .

« فَصْــلٌ »

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في عَرِيْشِهِ ، يُتَابِعُ المَعْرَكَةَ ، وَقَلْبُهُ مُتعَلِّقٌ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَتارَةً يَنْزِلُ إِلَيْهم ، فَيُنَهِضُ هِمَمَهُمْ ، وَيُقَوي بإِذْنِ اللهِ قُلُوبَهُم ، وَيَحُثُّهُم على القِتَالِ وتارةً يَصْعَدُ إِلى الجَبَلِ يَدْعُوْ رَبَّهُ ، وَيُكَرِّرُ دُعَاءَهُ وابْتِهَالَهُ لِلهِ ، وَمُنَاشَدَتُهُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، حَتَّى سَقَطَ رِداؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَرَدَّهُ عليه الصديقُ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، وقال : بَعْضُ مُنَاشَدَتِكَ رَبَّكَ ، فانَّهُ مُنْجِزٌ لكَ مَا وَعَدَكَ ، فأغْفِيَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إغْفَاءَةً وَاحِدَةً ، وَأَخَذَ القومُ النُعَاسُ في حَالِ الحَرْبِ ، ثم رَفَعَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم رَأْسَهُ فقال « أَبْشِرْ يا أبا بَكْرٍ ، هذا جِبْرِيْلُ على ثَنَايَاهُ النَّقْعُ ، وَجَاءَ النَّصْرُ ، وَأَنْزَلَ اللهُ جُنْدَهُ ، وَأَيَّدَ رَسُوْلَهُ وَالمُؤْمِنِين ، وَمَنَحَهُم أَكْتَافَ المُشْرِكِيْنَ أَسْراً وَقَتْلاً ، وَنَزَلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلى أَصْحَابِهِ ، يَشُدُّ عَزَائِمَهُمْ ، وَيُبَشِّرُهُمْ بِنَصْرِ اللهِ ، وَيَقُولُ لَهُم « شُدُّوا ، (سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ، وَيُولُونَ الدُبر) . . مَنْ قَتَلَ قَتِيْلاً فَلَهُ سَلَبُهُ ، وَمَن أَسَرَا أَسِيْراً فَهُوَ لَهُ ، فَحَمَلَ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِم حَمْلَةً صَادِقَةً ، تَصَدَّعَتْ لَهَا جُمُوعُهُم ، وانْهَارَتْ أَمَامَهَا قُوَاهُم وَرَأَى المُشْرِكُونَ مَا أَصَابَ سَادَتِهِم ، فَأَلْقِيَ الرُّعْبُ في قُلُوبِهِمْ وَأَخذُوْا يُلْقُونَ بِأَثْقَالِهِمْ ، وَيَفِرُّوْنَ مِنَ المَعْرَكَةِ ، نَجاةً بِأَنْفُسِهِمْ مِن

المَوْتِ ، فانْقَضَّ المُسْلِمُونَ يَأسِرُوْنَ وَيهْزِمُوْنَ وَيغْنَمُوْنَ ، ولمَا وَضَعَ القَومُ أَيْدِيْهُمْ يَأْسِرُوْنَ ، نَظَرَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلِى سَعْدِ بن مُعَاذٍ ، فَرَأى في وَجْهِهِ الكَرَاهَةَ لِمَا يَصْنَعُونَ ، فقال « لَكَأَنَّكَ يا سَعْدُ تَكْرَهُ ما يَصْنَعُ القَومُ ؟ » فقالَ : أَجَلْ واللهِ يا رَسُولَ اللهِ ، كَانَتْ أَوَّلَ وَقْعَة أَوْقَعَهَا اللهُ بأَهْلِ الشِرْكِ ، فَكَانَ الاثْخَانُ في القَتْل أَحبُّ إِلَيَّ مِن اسْتِبْقَاءِ الرِّجَالِ ، وَهَكَذَا تَصَدَّعَتْ جُمُوعُ الشِّرْكِ ، أَمَامَ قُوَّةِ الإِيْمَانِ باللهِ وَرَسُولِهِ وانْجلَتِ المَعْرَكَةُ عن سَبْعِيْنَ قَتِيْلاَ ، وَسَبْعِيْنَ أَسِيْرَا ، مِنْ المشركين ، وغَنِمَ المُسْلِمُونَ كُلَّ مَا خَلَّفَ المُشْرِكُونَ وَرَاءَهُمْ ، مِنْ زَادٍ وَعَتَادٍ ، أَمَّا الذِيْن فَازُوْا بالشَّهَادَةِ مِن المُؤْمِنِيْنَ فكَانُوْا أَرْبعَةَ عَشَرَ ، فَبَدأَتِ المَعْرَكَةُ في الصَّبَاحِ ، وانْتَهتْ في عَصْرِ ذَلِكَ اليَوم ، الذِي هُوَ السَّابِعَ عَشَر مِن رَمَضَانَ ، مِن السَّنةِ الثانِيةِ لِلْهِجْرَةِ ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنْ يُدْفَنَ الشُّهَدَاءُ مِن المُؤْمِنِيْن، وأَنْ يُوارَيَ القَتْلَى مِنَ المُشْرِكِيْنَ في قَلِيْبٍ هُنَاكَ مَهْجُوْرَة ، فَلَمَا وُضِعُوْا في القَلِيْب ، وَقَفَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم فقال « يَا أَهْلَ القَلِيْب ، هَلْ وَجَدْتُم مَا وَعَدَ رَبُكُم حَقَا ؟ فَإِنّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَني رَبي حَقاً » فقال لَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه : يا رَسُولَ اللهِ ما تُخاطِبُ مِنْ أَقْوَامٍ قَدْ جَيَّفُوا . فقال « والذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ ما أَنْتُمْ بأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُم ، وَلَكِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيْعُونَ الجَوَاب » .

وَرَوَى البُخَارِي في الصَّحِيْحِ عن عبدِ الرحمنِ بنِ عَوفٍ ، قال إِنِّيْ لَفِي الصَّفِ يَومَ بَدْرٍ ، إِذْ التَفْتُ فإذا عن يَمِيْنِي وعن يَسَارِي فَتَيَانِ ، حَدِيْثَا السِّن ، فكأَنِّي لَمْ آمَن بمَكانِهما ، إذْ قال لِي أَحَدُهُمَا سِراً مِن صَاحِبه : يا عَمُّ أَرِنِي أَبَا جَهْلٍ ، فَقُلْتُ : يا ابْنَ أَخِي فَمَا تَصْنَعُ بِهِ ؟ قال : أُخْبِرْتُ أنه يَسُبُّ

رَسُولَ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلم فَوَ الذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ ، حَتَّى يَمُوتَ الأعْجَلُ مِنَّا ، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ ، قال وَغَمَزَنِي الآخَرُ ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا ، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ ، فَقُلْتُ أَلاَ تَرَيَانِ ، هَذا صَاحِبُكُمَا الذِي تَسْأَلانِي عنه ، قَالَ : فابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا ، فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلاهُ ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقالَ « أَيُّكُمَا قَتَلَهُ ؟ » فقال كُلُ مِنْهُمَا : أَنَا قَتَلْتُهُ . قال « هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا فقالاَ : لاَ ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم إلى السَّيْفَيْنِ فقال « كِلاَكُمَا قَتَلَهُ » وَقَضَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بسَلَبِهِ لِمُعَاذِ بن عَمْرو بنِ الجَمُوحِ ، والرَّجُلانِ مُعَاذُ بنُ عَمْرِو بن الجَمُوحِ ، وَمُعَاذُ بنُ عَفْرَاء :

بُغْضُ الحَيَاةِ وَخَوْفُ اللّهِ أَخْرَجَنِي
وَبَيْعُ نَفْسِي بما لَيْسَتْ لَه ثَمنَا
إنِي وَزَنْت الذي يَبْقَى لِيَعْدِلَهُ
ما لَيْس يَبْقى فلا واللّهِ مَا وَزَنَا

« مِن مَوَاعِظِ النبيِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَم وَوَصَايَاه »

قال صلى اللهُ عليه وسلم « حَلُّوْا أَنْفُسَكُمْ بالطَّاعَةِ ، وَأَلْبِسُوهَا قِنَاعَ المَخَافَةِ ، واجْعَلُوا آخِرَتَكُم لأَنْفُسِكُم بالطاعةِ ، لِمُسْتَقَرِكُم ، واعْلَمُوا أَنَّكُم عن قَلِيْلٍ رَاحِلُون ، وإلى اللهِ صَائِرُوْن وَلا يُغْنِي عَنْكُم هُنَالِكَ إلَّا صَالِحُ عَمَلٍ قَدَّمْتُمُوْهُ ، أَوْ حُسْنُ ثَوَابٍ حُزْتُمُوه .

وقال صلى الله عليه وسلم في بَعْضِ خُطَبِهِ « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الأَيَّامَ تُطْوَى ، والأَعْمَارَ تَفْنَى ، والابْدَانَ في الثَرى تَبْلى ، وإِنَّ اللَّيْلَ والنهارَ

يَتَرَاكَضَانِ تَرَاكُضَ البَرِيْدِ ، يُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيْدٍ ، وَيُخْلِقَانِ كُلَّ جَدِيْدٍ ، وفي ذَلِكَ عِبَادَ اللهِ ما أَلْهَى عن الشَّهَواتِ ، وَرَغَّب في البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم في بَعْضِ خُطَبِهِ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لَكُم نِهَايَةً ، فانْتَهُوا إِلى نِهَايَتِكُم ، وإِنَّ لَكُم مَعَالِمَ ، فانْتَهُوَا إِلى مَعَالِمِكُم ، وإِنَّ المُؤْمِنَ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ : أَجلٍ قَدْ مَضَى ، لَا يَدْرِي ما اللهُ صَانِعُ فِيْهِ ، وَأَجَلٍ قَدْ بَقِي ، لَا يَدْرِي ما اللهُ قاضٍ فِيه فَلْيَتَزَوَّدِ العَبْدُ لِنَفْسِهِ مِن نَفْسِهِ ، وَمِن دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، وَمِن الحَيَاةِ قَبْلَ المَوْتِ ، فَإِنَّ الدُنْيَا خُلِقَتْ لَكُم ، وَأَنْتُم خُلِقْتُمْ لِلآخِرَةِ ، فَوَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ما بَعدَ المَوتِ مِن مُسْتَعْتَبٍ ، ولا بَعْدَ الدنيا إِلَّا الجَنَّةُ أو النَّارُ .

وقال صلَّى الله عليه وسلم « أَيُّهَا النَّاسُ كَأَنَّ المَوتَ عَلى غَيرنا كُتِبَ ، وكأَنَّ الحَقَ عَلَى غَيْرِنَا وَجبَ ، وَكَأَنَّ الذِيْ نُشَيِّعُ مِن الأَمْوَاتِ سَفَرٌ عَمَّا قَلِيْل إِلَيْنَا رَاجِعُون ، نُبَوِئهم أَجْدَاثَهُمْ ، ونأكُلُ تُرَاثَهُم ، كَأَنَّا مُخَلَّدُوْنَ بَعْدَهُمْ ، نَسِيْنَا كلَّ وَاعِظَةٍ ، وَأَمِنَّا كُلَّ جَائِحَةٍ ، طُوْبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُه عن عُيُوب النَّاس ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفقَ مالا اكْتَسَبَهُ مِن غَيرِ مَعْصِيَةٍ ، وَجَالَسَ أَهْلَ الفِقْهِ والحِكْمَةِ وَخَالَطَ أَهْلَ الذِلّةِ والمَسْكَنَةِ طُوْبَى لِمَنْ ذَلَّتْ نَفْسُهُ ، وَحَسُنَتْ خَلِيْقَتُهُ ، وَطَابَتْ سَرِيْرَتُهُ ، وَعَزَلَ عَن الناسِ شَرَّهُ ، طُوْبَى لِمَنْ أَنْفَقَ الفَضْلَ مِن مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الفَضْلَ مِن قَوْلِهِ وَوَسِعَتْهُ السُنةُ ، ولم تَسْتَهْوِهِ البِدْعَةُ » أهـ .

قِيْلَ إِن خَيْرِي الدُنْيَا والآخِرَةِ في خَمْسِ خِصَالٍ وَهِيَ غِنَى النَّفْسِ ، وَكَفُ الأذَى ، وَكَسْبُ الحلَال، وَلِبَاسُ التَّقْوَى والثِّقَةِ باللهِ على كُلِّ حَالٍ وَقد

نَظَمَهَا أَحَدُ العُلَمَاءِ فقال :

أَرَى خَيْرَيْ الدارينِ يُجْمَعُ كُلُّهُ
بِخَمسِ خلالٍ يا لَها مِن لَطَائِفِ
غِنَى النَّفْسِ مَعْ كَفِ الأَذَى واكْتِسَابِ مَا
يَحِلُّ وَمَلْبُوسُ التُقَى حِصْنُ خَائِفِ
على كُلِّ حَالٍ كُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقَاً
بِنَفْعٍ وَكَشْفِ الضُرِّ عِنْدَ اَلمَخَاوِفِ

اللَّهُمَّ اسْلك بِنَا سَبِيْلَ أَهْلِ الطَاعَة ، وَوَفِّقنَا لِلْثَّبَات عَلَيْهَا والاستقامَة ، وعَافِنَا مِن مُوجِبَات الحَسْرةِ والنَدَامة ، وأَمنَاَ مِن فَزع يَوم القِيَامَةِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجميع المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أَجْمَعِيْن .

« فَصْلٌ »

وَلَمَّا بَرَدَتِ الحَرْبُ ، وَوَلَّى القَوْمُ مُنْهَزِمِيْنَ ، قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم « مَنْ يَنْظُر لَنَا مَا صَنَعَ أَبو جَهْلٍ » ؟ فانْطَلَقَ ابنُ مَسْعُودٍ فَوَجَدَهُ قَدْ ضَرَبَهُ أَبْنَاءُ عَفْرَاءَ حَتَّى بَردَ ، فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ ، وقال : أَنْتَ أَبو جَهْلٍ . فقال : لِمنْ الدَّائِرَةُ اليَوْمَ ؟ فقال لِلهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَهَلْ أَخْزَاكَ اللهُ يَا عَدُوَ اللهِ ؟ فقال : وَهَلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلَهُ قَوْمُه ؟ فَقَتَلَهُ عَبْدُ اللهِ ، ثم أَتَى النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلَّم فقال : قَتَلْتُهُ . فقال « الله الذي لا إله إلا هو » فَرَدَّدَهَا ثلاثاً ، ثم قال « اللهُ أَكْبَر ، الحَمْدُ لِلهِ الذي صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الاحزابَ وَحْدَهُ ، انْطَلِقْ أَرِنِيْهِ » فأَنْطلقْنَا فأَرَيْتُهُ إِيَّاهُ ، فَقَالَ « هَذَا فِرعَونُ هَذِهِ الأُمَّة » .

وَأَسَرَ عَبْدُ الرحمن بنُ عَوْفٍ أُمَيَّةَ بنَ خَلَفٍ ، وابْنَهُ علياً ، فَأَبْصَرَهُ بِلَالُ ، وكانَ أُمَيَّةُ يُعَذِّبُ بِلالاً بِمَكَّةَ ، فَقَالَ : رَأسُ الكُفْرِ أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ ، لا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا ، ثُمَّ اسْتَصْرَخَ جَمَاعَةَ مِن الأنْصَارِ ، واشْتَدَّ عبْدُ الرَّحمن بهمَا يُحْرِزُهُمَا مِنْهُمْ ، فَأَدْرَكُوهُمْ فَشَغَلَهُمْ عن أُمَيَّةَ بابْنِهِ ، فَفَرغوا مِنْهُ وَلَحِقُوهُمَا ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحمن بنُ عَوْفٍ : أُبْرُكْ . فَبَرَكَ ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ عَلَيْهِ ، فَضَرَبُوهُ بالسَّيْفِ مِنْ تَحْتِهِ فَقَتَلُوهُ ، وَأَصَابَتْ بَعْضُ السُّيُوفِ رِجْلَ عَبْدِ الرحمنِ بن عَوْفٍ .

وباتَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم لَيْلَتَهُ بِوَادِيْ بَدْرٍ ، ثُمَّ أَصْبَحَ مُرْتَحِلاً بأَصْحَابِهِ إلى المَدِيْنَةِ ، وَمَعَهُ الأسَارَي مِن المُشْرِكِيْن ، والنَّفَلُ الذِيْ أَصَابَه المُسْلِمُونَ مِن الكُفَارِ ، حَتَّى إذا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيْقِ ، نَزَلَ فَقَسَمَ النَّفَل على أَصْحَابِهِ بالسَّواءِ وَجَعَلَ لِلْفرَسِ نَصِيْبا ، وَلِلْفَارِسِ نَصِيْباً ، وَجعَلَ لِوَرَثَةِ من اسْتُشْهِدَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ حِصَّةً، وَكَانَ فَرِيْقٌ مِن المُؤْمِنِيْنَ لَمْ يَحْضُرُوا الوَقْعَةَ ، لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم كَلَّفَهُمْ أَعْمَالاً غَيْرَ أَعْمَالِ القِتَالِ ، وَفَرِيْقٌ حجزَهُ عُذْرٌ قَاهِرٌ ، كانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَعْلَمَهُ ، فأسْهَمَ لَهُمْ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم مَعَ المُؤْمِنِيْنَ ، فَكَانُوا كَمَنْ حَضَرَ القِتَالَ ، ثُمَّ ارْتَحَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، حَتَّى إِذَا كَانَ بالرَّوْحَاءِ لَقِيَهُ المُسْلِمُونَ يُهَنِّئُونَهُ بمَا فَتَحَ اللهُ عليهِ وَعَلى المُسْلِمِيْن ، وَجَعَلُوا يَعْتَذِرُوْنَ لَه عَمَّا كانَ من تَأَخرِهِمْ مِن الخُرُوْجِ مَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ أسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ : يا رسول اللهِ الحمدُ للهِ الذِيْ أَظْفَرَكَ ، وَأَقَرَّ عَيْنُكَ ، واللهِ يا رَسُولَ اللهِ ما كَانَ تَخَلُّفِيْ عَن بَدْرٍ ، وَأَنَا أَظُنُ أَنَّكَ تَلْقَى عَدُواً ، ولكِنْ ظَنَنْتُ أَنَّهَا عِيرٌ وَلَوْ ظَنَنْتُ أَنَّها عَدُوٌ مَا تَخَلَّفْتُ ، فقال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم « صَدَقْتَ » .

ثم أخذَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في السَّيْرِ إِلَى المَدِيْنَةِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الأثِيْلَ ، اسْتَعْرَضَ الأَسْرَى هُنَا ، فَأَمَرَ باثْنَيْنِ منهم أَنْ يُقْتَلَا ، وَهُمَا النَّضْرُ بنُ الحَارِثِ ، وَعُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعَيْطٍ وكانَ كِلاهُمَا شَيْطاناً مِن شَيَاطِينِ قُرَيشٍ ، ومِن أَشَدِّ المشرِكِينَ إِيْذَاءً لِرَسُوْلِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ولِأَصْحَابِهِ ، وَأَفَظَعَهُم تَقَوُّلاً على كِتابِ اللهِ ، وَعَلَى رَسُولِهِ ، لَا يَفْتَرانِ مِن الإِيْذَاءِ لا لَيْلاً ولا نَهَاراً ، أَمَّا النَّضْرُ بنُ الحَارِثِ فَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَظْرَةً هَلَعَ لَهَا قَلْبُهُ ، وَأَيِسَ مِن البَقَاءِ بَعْدَهَا ، فَقَالَ لِرَجُلٍ إلى جَنْبِهِ مُحَمَّدٌ وَاللهِ قَاتِلِي ، فَقَدْ نَظَرَ إِلَيَّ بعيْنَيْنِ فِيْهِمَا الموتُ ، فقال لَهُ صَاحِبُهُ : ما هَذَا وَاللهِ مِنْكَ إِلَّا رُعْبٌ ، وَجعَلَ النَّضْرُ يَلْتَمِسُ شَفِيْعاً لَهُ عِنْدَ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ، لَعَلَّهُ أَنْ يَعْفُو عنه ، فَذَهَبَ إلى مُصْعَبِ بن عُمَيْرٍ ، وكانَ أَقْرَبَ المُسْلِمِيْنَ إليه رَحِماً ، فقال لَهُ : كَلِّمْ صَاحِبَكَ أَنْ يَجْعَلَنِي كَرَجُلٍ مِن قُرَيْشٍ ، فَهُو وَاللهِ قَاتِلِي إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ، فقال مُصْعَبُ : إِنَّكَ تَقُولُ في كِتَابِ اللهِ وفي نَبِيِّهِ كذا وَكَذَا ، وكُنْتَ تُعَذِّبُ أَصْحَابَهُ ، فقال لَهُ النَّضْرُ لَوْ أَسَرَتْكَ قُرَيْشٌ مَا قَتَلَتْكَ وَأَنَا حَيٌّ أَبَدًا ، قال مُصْعَبُ : اللهَ إِنِّي لَأَرَاكَ صَادِقًا ، ثُمَّ إِنِّي لَسْتُ مِثْلُكَ ، فَقَدْ قَطَعَ الاسلامُ العُهُودَ ، وكانَ النَّضْرُ أَسِيْراً لِلْمِقْدَادِ بنِ عَمْرو ، فَلَمَّا سَمِعَ الحَدِيثَ يَدُوْرُ حَوْلَ قَتْلِهِ ، صَاحَ قَائِلاً : النَّضرُ أَسِيْرِي . فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم « اضْرِبْ عُنُقَهُ ، واللهم أَغْنِ المِقْدَادَ مِن فَضْلِكَ » . فَقُتِلَ ضَرْباً بالسَّيْفِ ، وَأَمَّا الآخرُ وهو عُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَقَدْ أَمَرَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بقَتْلِهِ وهو بعِرْقِ الظَّبْيَةِ ، وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم بقَتْلِ عُقْبَةَ قَالَ : أَتَقْتُلَنِي يا مُحَمَّدُ مِن بَيْنِ قُرَيْشٍ ؟ قال « نَعَمْ . أَتَدْرُوْنَ مَا صَنَعَ هَذَا بِي ؟ جَاءَ وَأَنَا سَاجِدٌ خَلفَ

المقامِ ، فَوَضَعَ رِجْلَهُ على عُنُقِي وَغَمزَها ، فَما رَفَعَها حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ عَيْنَيَّ سَتَنْدُرَانِ ، وَجَاءَ مرةً أُخْرَى بِسَلاَشَاةٍ فَأَلْقَاهُ على رَأْسِي وَأَنا سَاجِدٌ ، فَجَاءَتْ فاطِمَةُ فَغَسَلَتْهُ عن رَأْسِي » ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فقُتِلَ ، ثُمَّ مَضَى صلى اللهُ عليه وسلم في طَرِيقِهِ إلى المَدِينَةِ ، فَدَخَلَهَا قَبْلَ الأُسَارَى بِيومٍ ، وكان دُخُولُهُ مِن ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ ، وَذَلِكَ ، في يَومِ الأَرْبعاءِ ، الثاني والعِشْرُوْن مِن رَمَضَان ، فَتَلَقَّاهُ المُسْلِمُونَ يُهَنِئُونَهُ بِفَتْحِ اللهِ ، فَقَدِمَ صلى الله عليه وسلم المَدِيْنَةَ مُؤَيَّداً مَنْصُوراً مُظَفَراً ، مَكْبُوتاً عَدُوُّهُ ، مَسْرُوْراً صَدِيْقُهُ ، قد أَعْلى كَلِمَةَ اللهِ ، وَمَكَّنَ لَهُ رَبُّهُ ، وَنَصَرَهُ وَأَعَزَّهُ .

ومِن اللَّطَائِفِ التِي ذُكِرَتْ في هَذَا المَوْقِفِ أَنَّ المُسْلِمِيْنَ لَمَا أَقْبَلُوا على رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُهَنِئُونَهُ ، قالَ لَهُم سَلَمَةُ بْنُ سَلاَمَةَ : ما الذِي تُهَنِئُوْنَنَا بِهِ ، فَواللهِ إنْ لَقِيْنَا إلا عَجَائِزاً صُلْعاً ، كالبُدُنِ المُعَقَلَةِ ، فَنَحَرْناهَا ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ قالَ « أَيْ ابنَ أَخِيْ أُوْلَئِكَ المَلَا » أَيْ هُمُ الأَشْرَافُ والسَّادَةُ الذِيْنَ لا يُسْتَهَانُ بِبلاَئِهِم في القِتَالِ ، ولا بمَكَانِهِم في القَوْمِ وَقَدْ أَخَذَ هَذَا المَعْنَى أَبُوا الطِّيبِ فقال :

وما عَدِمَ اللاَّقُوْكَ بَأساً وشِدَّةً
ولكنَّ مَن لاَقَوْا أَشَدُّ وَأَنْجَبُ

وَرَوَى ابنُ اسْحَاقَ وَغَيْرُهُ أَنَّ عَاتِكَةَ بنْتَ عَبْدِ المُطَّلب رَأَتْ في مَنَامِهَا ـ وَقَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ قُرَيْشٌ بثَلاَثِ لَيَالٍ ـ أَنَّ رَاكِباً أَقْبَلَ على بَعِيْرٍ ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى قُرَيْش ، ثُمَّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يا آلَ غُدَر ، انْفُرُوْا إِلَى مَصَارِعِكُم في ثَلاَثٍ ، وَضَلَّ يُكَرِّرُهَا هُنَا وَهُنَاكَ ، والنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَخَذَ صَخْرَةً

فَرَمَى بِهَا مِن أَعْلَى الجَبَلِ فَأَقْبَلَتْ تَهْوِيْ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بأَسْفَلِهِ، تَنَاثَرَتْ أَجْزَاؤُهَا في كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَمَا بَقِيْ بَيْتٌ ولا دَارٌ بِمَكَّةَ إِلَّا دَخَلَتْهُ مِنْهَا فِلْقَةٌ، وَبَعْدَ ثَلاثٍ مِن هَذِهِ الرُّؤْيَا جَاءَ رَسُولُ أَبِي سُفْيَانَ يَصِيْحُ بالقَوْمِ، وَيَسْتَفِزُّهُمْ لِيُنْقِذُوْا عِيْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُم.

وَرُوِيَ ان جُهَيْمَ ابنَ الصَّلْتِ رَأَى وَهُمْ في طَرِيْقِهِم إِلَى بَدْرٍ - كَأَنَّ رَاكِباً أَقْبَلَ عَلَى فَرَسِهِ، وَمَعَهُ بَعِيْرٌ، حَتَّى وَقَفَ على رَأْسِهِ، فَقَالَ: قُتِلَ فُلانٌ وَفُلانٌ، وَأُسِرَ فُلانٌ وَفُلانٌ، لِرِجَالٍ سَمَّاهُمْ مِن قُرَيْشٍ، ثُمَّ ضَرَبَ بِخَنْجَرِهِ في لَبَّةِ بَعِيْرِهِ، وَأَرْسَلَهُ في العَسْكَرِ، فَمَا بَقِيَ خِبَاءٌ مِن أَخْبِيَتِهِم إلا أَصَابَه مِن دَمِه.

وَرَوَى الوَاقِدِي أَنَّ ضَمْضَمَ بنَ عَمْرو جَاءَ إِلَى الحَارِثِ بْنِ عامِرٍ، فقال لَهُ: إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْياً كَرِهْتُهَا، رَأَيْتُ - وَأَنا كاليقظَانِ على رَاحِلَتِي - كَأَنَّ وَادِياً يَسِيْلُ دَماً، فَقَالَ الحَارِثُ لَوْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مَا خَرَجْتُ، أَوْ قَالَ: مَا سِرْتُ خَطْوَةً، فاطْوِ هَذَا الخَبَرَ أَنْ تَعْلَمَهُ قُرَيْش، فإِنَّهَا تَتَّهِمُ كُلَّ مَنْ عَوَّقَهَا عن المَسِيْرِ.

« مَـوْعِظَـةٌ »

عِبَادَ اللهِ تَأَمَّلُوا كَيْفَ تَغَيَّرتْ أَحْوَالُ النَّاسِ في زَمَنٍ قَلِيْلٍ، وَكَيْفَ آثَروا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى ما عِندَ اللهِ، وَكَيفَ شَغَلَتْهُمُ الأَمْوَالُ. والأَهلُ، والأَوْلادُ وَالمَلاَهِيْ، والمُنْكَرَاتُ، عن ذِكْرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ مَهْمَا عَاشُوْا وَمَهْمَا نَالُوا مِن الدنيا، وَمَهْمَا تَلَذذُوْا فإِنَّهُمْ رَاحِلُونَ وَمَا في أَيْدِيْهِمْ زَائِلٌ عَنْهُمْ وَخَالِفُهُمْ فِيْهِ غَيْرُهُمْ وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَ اللهِ وَأَنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ

مَلْعُونٌ مَا فِيْهَا إلاَّ ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاهُ وَمَن اشْتَرى العَاجِلَ بالآجِل ولَمْ يَتَّخِذِ الدُنْيَا مَطِيَّةً تُوصِلُهُ إلى المَقْصَدِ الذِي يَرْضَاهُ والمُسْتَقَرِ الأخِيْرِ الذِيْ يَهْوَاهُ مَعَ الذِيْنَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهم مِن النَّبِيِّيْنَ والصِّدِيْقِيْنَ والشُهَدَاءِ والصَّالِحِيْنَ ، فَذَلِكُمُ الذي لا تُفِيْدُهُ المَوَاعِظُ ، ولا تَجْدِيْ فِيْهِ النَّصَائِحُ ولا تَرُدُهُ العِبَرُ عن غَيِّهِ ، واقْتِحَامِهِ القَبَائِحَ ، وذَلِكَ هُوَ الذي خَسِرَ الدُنْيَا والآخِرَةَ ، عِبَادَ اللهِ حَلاَلُ هَذِهِ الدُنْيَا حِسَابٌ ، وَحَرَامُهَا عِقَابٌ ، وَمَآلُهَا إلَى الدَّمَارِ والخَرَابِ ، ولا يَطْمَئِنُ إلَيْهَا إلاَّ جَاهِلٌ مُرْتَابٌ ، قَدْ فَقَدَ الرُّشْدَ وأَبْعَدَ عن الصَّوَابِ ، فكَمْ مِن ذَهَابٍ بلا إِيَابٍ ، وكَمْ مِن حَبِيْبٍ عَلَى الرَّغْمِ قَدْ فَارَقَ الأحْبَابِ ، وَتَرَكَ الأَهْلَ وَالأصْحَابَ ، وَانْتَقَلَ إلى ثَوَابٍ جَزِيْلٍ أَوْ عِقَابٍ ، وَأَنْتَ أَيُّهَا المُغَفَّلُ المَخْدُوْعُ عَلَى جَمْعِهَا حَرِيْصٌ مَعَ ما تُشَاهِدُهُ مِن الأَكْدَارِ والتَّنْغِيْصِ ، وكان يَكْفِيْكَ منهَا القَلِيْلُ .

وَلَــو كــانَ ذَا عَقْــلٍ لأغْـنَـتْـهُ بُـلْغَـةٌ
مِن العَيْشِ في الدُنْيَا وَلَمْ يَـكُ يَجْشَعُ
إلى أَنْ تُــوَافِيهِ الــمنيةُ وَهُــوَ بالــقَنَاعَةِ فــيهَا آمناً لا يُرَوِّعُ .

قال الله تعالى ﴿ وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخِرَةَ ولا تنسَ نصيبَك مِن الدنيا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً منهم زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدنيا لِنَفْتِنَهُم فِيه ورزقُ رَبكَ خيرٌ وأَبقى » .

نَعَمْ لا بَأسَ في جَمْعِ المالِ واكتسابِ الحلالِ لِلتَّمَتُعِ بِهِ في هذه الدارِ الفانيةِ إذا لم يَكُن ذَلِكَ شَاغلاً عن عِبَادَةِ اللهِ والاستعدادِ لِلدَّارِ الآخرةِ لا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِمَّنْ وَفقَهُ اللهُ لانفَاقِهِ في المَشَارِيْعِ الدِّيْنِيَّةِ كَبِنَاءِ المَسَاجِدِ وَتَرْمِيْمِهَا

وَوَضْعِ الماءِ لِلشَّارِبِيْنَ وَنَحْوِ ذَلِك بلْ كَسْبُ المالِ فَرِيْضَة عليكَ لأنَّ عَلَيكَ أَنْ تُحَافِظَ على حَيَاتِكَ وعلى حَيَاةِ مَنْ تَجِبُ لَهُم عليكَ النَّفَقاتِ وَأَنْتَ لا تُحَافِظُ على تِلْكَ الأَنْفُسِ إلَّا باعْطَائِهَا مَا لِلْحَياةِ مِن ضَرُورِيَّاتٍ وَهَذِهِ الضَّرُورِيَاتِ لا يُمْكِنُكَ أَنْ تَحْصُلَ عَلَيْهَا إلَّا بمَالٍ تَبذِلُهُ عِندَ المُبَادَلاتِ إِذَنْ كَسْبُ المَالِ لِلْمُحَافَظَةِ على الحَيَاةِ فَرِيْضَةٌ وإذَا أَرَدْتَ هَذَا الكَسْبَ فانْوِ عندَ طَلَبِكَ لَهُ القِيَامَ بِمَا أَوْجَبَهُ اللهُ عليكَ والتَّقَوِّيْ بهِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ حَتَّى تَنْقَلِبَ عَادَاتُكَ عِبادَاتٌ ومِن أَفْضَلِ مَا تأكلُ مَا كَسَبْتَهُ بيَدِكَ وَتَحَرَّ الحَلاَلَ في كَسْبِهِ فإنَّهُ يُنِيْرُ القَلْبَ وَسَبَبٌ لِقَبُولِ الدُعَاءِ بإِذْنِ اللهِ وَتَوَقَّ الحَرَامَ فَإنَّهُ يُظْلِمُ القُلُوبَ وَيُثَقِلُ الأَبْدَانَ عن الأعمالِ الصالِحَاتِ وَهُوَ سَبَبٌ لِعَدَمِ قَبُولِ الدُعَاءِ وابْتَعِدْ عن الشُبُهَاتِ في كَسْبِكَ واجْتَنِبْ الغِشَّ والكَذِبَ والايْمَانَ في كُلِّ مُعَامَلاَتِكَ وكنْ صَادِقاً سَمْحاً لَيِّنَ الجَانِبِ لِلْمُسْلِمِيْنَ مُحِباً لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَكُنْ قَانِعاً في الدُنْيَا رَاضِياً بمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ صَارِفاً جُلَّ أَوْقَاتِكَ لِلآخِرَةِ .

شِـعْرَاً :

لا تَـأْسَـفَـنَّ أَخَـا عِـلْمٍ لِـفَـائِـتَـةٍ
فَكُـلُّ مـا لَيْسَ مِن رِزْقِ الفَتَى فَـاتَـا
كَم مِن فَتىً وَاصَـلَ الأَسْفَـارَ مُجْتَهِـداً
مِن أَرْضِ دَارِيْنَ حَتَّى حَـلَّ أَغْمَـاتَـا
لَـمْ يُسْعِفْ الـرِزْقُ بـالأَقْـدَارِ بُـغْيَتَـهُ
وَلَـوْ أَقَـامَ أَتَـاهُ الـرِّزْقُ مِـيْـقَـاتَـا
مَـولاكَ يَكْفِيْكَ فَـالْزَمْ بَـابَ طَـاعَتِـهِ
فَـقَـدْ كَفَى النَـاسَ أَحْيَـاءً وَأَمْـوَاتَـا

مَن يَعْتَمِدْ غَيْرَهُ يَرْجِعْ بِمَحْرُمَةٍ
كَالمُبْتَغِي بالفلا الصَحْرَاءِ أَحْوَاتَا

آخرُ :

دَعِ الحِرْصَ وانْظُرْ في تَمَتُّعِ قَانِعٍ
لِتَفْرِيْقِ ارْثٍ كَانَ ذُو الحِرْصِ جَامِعُ
وَشَاهِدْ ذُبَاباً سَاقَهَا الحِرْصُ طُعْمَةً
إلى عَنْكَبُوتٍ تَلْزَمُ البَيْتَ قَانِعُ

اللهم ألهِمْنَا القِيَامَ بَحِقِّكَ ، وبارِكْ لَنَا في الحَلالِ مِن رِزْقِكَ ولا تفْضَحْنَا بيَنَ خَلْقِكَ ، يا خَيْرَ مَن دَعَاه دَاعٍ ، وَأَفْضَلَ مَن رَجَاهُ رَاجٍ ، يا قاضِيَ الحاجَاتِ ، ويا مُجِيبَ الدَّعواتِ ، هَبْ لنا مَا سَألنَاهُ ، وَحَقِّقْ رَجَاءَنَا فِيْمَا تَمَنَيْنَاهُ وَأَمَّلْنَاهُ ، يا مَن يَمْلِكُ حَوَائِجَ السَّائِلِيْنَ ، وَيَعْلَمَ ما في ضَمَائِرِ الصَّامِتِيْنَ ، أَذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ ، وَحَلاَوَةَ مَغْفِرَتِكَ ، يا أَرْحَمَ الراحِمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْلٌ »

في غزوة أُحد

أُحُد جبَلٌ مَشْهُورٌ بالمَدِينةِ ، على أَقَلَّ مِن فَرْسَخٍ مِن المَدِيْنَةِ ، وَسُمِيَ بذلكَ لِتَوَحُدِهِ وانقطاعِهِ عن الجِبَالِ الأخرِ هُنَاكَ ، وهو الذي قال فِيه النبيُ صلى اللهُ عليهِ وسلم « أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبّهُ » وكانَتْ عِندَهُ الوَقعةُ المَشْهُورَةُ في

شَوَّالِ ، بالاتفاقِ يَوْمَ السَّبتِ ، لأَحْدَى عَشْرَ لَيْلَةٍ خَلَتْ مِن شَوال ، وقِيْلَ لِسَبْعِ لَيَالٍ خلَوْنَ مِنهُ، وقِيْلَ في نِصْفِهِ ، وَقِيْلَ غَيْرُ ذلك والله أعلم.

وكان سَبَبُهَا أنَّ قُرَيْشاً لَمَّا رَجعُوا مِن بَدْرٍ ، وَقَدْ قُتِلَ أَشْرَافُهُم ، وَأُصِيْبُوا بِتِلْكَ المُصِيْبَةِ التِي لم يُصَابُوا بِمِثْلِهَا ، وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بعِيْرِهِ ، مَشَى عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي رَبِيْعَةَ ، وَعِكْرَمَةُ بنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَصَفْوانُ بنُ أُمَيَّةَ ، في رِجَالٍ مِن قُرَيْشٍ مِمَّنْ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وأَبْنَاؤُهُمْ وإِخْوانُهُمْ يوم بَدْرٍ ، فَكَلَّمُوْا أَبَا سُفْيَانَ بن حَرْب ، وَمَنْ كَانَ لَهُ في تِلْكَ العِيْرِ مِن قُرَيْشٍ تِجَارَةً ، فقَالُوا : يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّ مُحَمَّداً قَدْ وَتَرَكُمْ ، وَقَتَلَ خِيارَكُمْ ، فَأَعْيُنُوْنَا بِهَذا المَالِ على حَرْبِهِ ، فَلَعَلَّنَا أَنْ نُدْرِكَ مِنْهُ ثأْرَنا بِمَنْ أَصَابَ مِنَّا فَفَعَلُوا ، وَفِيْهِمْ ـ كَمَا قَالَ ابنُ اسْحَاقِ وَغَيْرُهُ ـ نَزَلَتْ الآيَةُ قَولُهُ تَعالى ﴿ إِن الذِيْنَ كفروا يُنْفِقُونَ أموالَهم لِيَصُدُّوا عن سبيلِ اللهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عليهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُوْنَ والذين كَفَرُوْا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُوْنَ ﴾ .

وَأَخذَتْ قُرَيْشٌ تُعِدُّ لِذَلِكَ العُدَّةَ ، وَتَرْصُدُ الأَمْوَالَ ، وَتُعَبِىءُ القُوَى ، وَتَجْمَعُ السِّلَاحَ ، وَبَعَثَتْ رُسُلَهَا فِيْمَنْ حَوْلَهَا مِن قَبَائِلِ العَرَب تَسْتَنْصِرُهُمْ ، وَتَسْتَعِيْنُ بِهِم على تَمْكِيْنِ الضَّرْبَةِ ، وَكَانَ مِن هَؤلَاءِ الرُّسُلِ أَبُو عَزَّةَ عَمْرُو بنُ عَبْدِ اللهِ الجُمَحِيْ ، قَدْ مَنَّ عليهِ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يَومَ بَدْرٍ ، وكانَ فَقِيْراً ، ذَا عِيَالٍ وَحَاجَةٍ ، فَأَطْلَقَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم بِلَا فِدَاء ، وَأَخَذَ عليهِ العَهْدَ والمِيْثَاقَ أَنْ لَا يُظَاهِرَ عَلَيهِ أَحَدًا ، ولا يُكَثِّرَ عَلَيهِ جَمْعًا ، فَنَقَضَ العَهدَ والمِيْثاقَ ، وَذَهَبَ مَعَ الذاهِبِيْن إلى كِنَانَةَ وَتِهَامَةَ يُحَرِّضُ عَلَى القِتَالِ ، قِتَالِ النَّبِي صلى اللهُ عليه وسلم ويُكَثِّرُ عَلَيهِ .

وَهَكَذَا ظَلَّتْ قُرَيْشٌ طِوَالَ عَامِهَا تَبْذِلُ مِنْ أَمْوَالِهَا ، وَتَجْمَعُ مِنْ أَنْصَارِهَا ، وَتُعِدُ مِن قُوَّتِهَا ، حَتَّى بَلَغَتْ مِن ذَلِكَ مَا أَرَادَتْ وَغَدَتْ في أَتَمِّ أُهْبَةٍ ، وَأَكْمَلِ اسْتِعْدَادٍ ، فَلَمْ تَلْبَثْ حَتَّى حَصَلَتْ على جَيْشٍ لَجِبٍ ، مِن رِجَالِهَا ، وَمِمَّنْ حَالَفَهَا مِن الأَحَابِيْشِ ، مِنْ بَنِي المُصْطَلِقِ ، وَبَنِيْ الهُوْنِ بنِ خُزَيْمَةَ ، وَتَوَجَّهَتْ إلى المَدِيْنَةِ في حَمَاسَةِ المَوْتُوْرِ ، وَسَوْرَةِ المَغِيْظِ المُحنَقِ ، لِتَضْرِبَ الضَرْبَةَ القَاضِيَةَ في زَعْمِهَا ، وأَبَتْ نِسَاءُ قُرَيْشٍ إلَّا أَنْ يَكُنَّ مَعَ الجَيْشِ يُحَمِّسْنَ الرِّجَالَ ، وَيُثِرْنَ الحَمِيَّةَ ، فَخَرَجَ مِنْهُنَّ مِن رَبَّاتِ الخُدُوْرِ نَحْوُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ امْرَأَةً ، عَلَى رَأْسِهِنَّ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ ، زَوْجُ أَبِي سُفْيَانَ بنِ حَرْبٍ ، وَخَرَجَ مَعَ الجَيْشِ أَبُوْ عَامِرٍ الأَوْسِيْ الفاسِقُ ، وَكَانَ مُقَاوِماً لِلنَّبِي صلى الله عليه وسلم ، وَمُبَاعِداً لَهُ ، وَمُنْكِراً لِنُبُوَّتِهِ ، وكانَ قبلَ ذَلِكَ مُتَرَهِّباً يَزْعُمُ أَنَّهُ يَنْتَظِرُ النَّبِيَ المَبْعُوثَ ، وَيَذْكُرُ لِلنَّاسِ كَثِيْراً مِن صِفَاتِهِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ : إِنَّهُ قَدْ قَرُبَ خُرُوْجُهُ ، فَلَمَّا هَاجَرَ صلى اللهُ عليه وسلم إِلَى المَدِيْنَةِ ، واتَّضَحَتْ صِفَاتُهُ لِلأَنْصَارِ واتَّبَعُوْهُ حَسَدَهُ أَبو عَامِرٍ وأَنكرَ نُبُوَّتَهُ ، وكانَ رَئِيْساً في الأَوْسِ قَبَّحَهُ اللهُ ، كَعَبْدِ اللهِ بن أُبَيْ في الخَزْرَجِ ، فَكُلُّ مِنْهمَا حَسَدَ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم لكِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنِ أُبَي دَخَلَ في الإِسلامِ ظَاهِراً وَهُوَ مَعَ الكُفَّارِ باطِناً وَأَبو عَامِرٍ خَرَجَ مِن الاسلامِ كَافِراً مُبَاعَداً ، وَخَرَجَ مَعَهُ خَمْسُونَ مِن شِيْعَتِهِ ، مِن شَبَابِ الأَوْسِ وَغِلْمَانِهِمْ ، فَأَقَامَ في مَكَّةَ مُنَاصِراً لِقُرَيْشٍ مُحَرِّضاً لَهَا عَلَى قِتَالِ النبي صلى اللهُ عليهِ وسلم ، فَلَمَّا عَزَمَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الخُرُوْجِ إِلى أُحُدٍ ، مَنَّاهَا أَبُو عَامِرٍ أَنْ يُخَذِّلَ لَهَا قَوْمَهُ الأَوْسَ ، عن رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، وأَنْ يَخْرُجَ مِن صُفُوفِ المُسْلِمِيْنَ ، إِلى صُفُوفِ المُشْرِكِيْنَ إِذَا الْتَقى الجَمْعَانِ ، وكانَ في ذَلِكَ مُعْتَمِداً على مَا كانَ لَهُ مِن سَابِقِ المَكَانَةِ في قَوْمِهِ ، مُعْتَقِداً أَنَّهُ بِهَذِهِ المَكانَةِ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يُحْدِثُ مَا يَشَاءُ ،

مِن التَّفْرِيْقِ في صُفُوفِ المُسْلِمِيْنَ ، وكانَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَكْفِيْ لِذَلِك أَنْ يَظْهَر لَهُمْ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَأَنْ يُسْمِعَهُمْ صَوْتَهُ ، فَيَسْتَجِيْبُوْنَ لَهُ ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ يَقُولُ لِقُرَيْشٍ ، في يَقِيْنِ الوَاثِقِ المُطْمَئِنِّ ـ لَوْ قَدِمْتُ عَلَى قَوْمِي لَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ رَجُلَانِ ، وَهَؤُلَاءِ مَعِيْ نَفَرٌ مِن قَوْمِي ، وَكَانَ النَّبي صلى الله عليه وسلم قد رَأى رُؤْيَا ، فلما أَصْبَحَ يومَ الجُمعةَ ، واجْتَمَعَ الناسُ ، خَطَبَ عَلَى المِنْبَرِ ، فَحَمد اللهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قالَ « أَيُّهَا الناسُ إِنّيْ رَأَيْتُ في مَنَامِي رُؤْيَا ، رَأَيْتُ كأنِي في دِرْعٍ حَصِيْنَةٍ وَرَأَيْتُ كَأَنَّ سَيْفِيْ ذُوْ الفُقَارِ انْقَصَمَ مِن عِنْدِ ظَبَّتِهِ ، ورَأَيْتُ بَقَراً تُذْبَحُ ، وَرَأَيْتُ كَأَنِّي مُرْدِفٌ كَبْشاً » ، فقالَ الناسُ : فَمَا أَوَّلْتَهَا ؟ قَالَ « أما الدِّرْعُ الحَصِيْنَةُ فَهِيَ المَدِيْنَةُ ، فامْكُثُوْا فِيْهَا ، أَمَّا انْفِصَامُ سَيْفِي مِنْ عِنْدِ ظَبَّتِهِ فَمُصِيْبَتِي في نَفْسِيْ ، وَأَمَّا البَقَرُ فَقَتْلَى في أَصْحَابِي ، وأَمَّا أَنِّي مُرْدِفٌ كَبْشاً ، فَكَبْشُ الكَتِيْبَةِ ، نَقْتُلُهُ إِن شَاءَ اللهُ » وفي رِوَاية « وَأَمَّا انْفِصَامِ سَيْفِيْ ، فَقَتْلُ رَجُلٍ مِن بَيْتِي .

اللهم جُدْ علينا بكَرمِكَ ، وأفضْ علينا مِن نِعَمِكْ ، وتغمدنا برَحْمَتِكَ ، وعاملنا برأفتكْ ، وَوَفِّقْنَا لِخِدْمَتِكْ ، واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه اجمعين .

« فَصْــلٌ »

وفي أَوَائِلِ شَهْرِ شَوَالٍ ، من السنة الثانيةِ مِن الهِجْرَةِ وَقِيْلَ في السَّنَةِ الثالثةِ ، خَرَجَ الجَيْشُ الجَرَّارُ مِن مَكَّةَ ، يَقُوْدُهُ أَبُو سُفْيَانَ ابنُ حَرْبٍ ، وَيَحمِلُ لِوَاءَهُ طَلْحَةُ بنُ أَبِي طَلْحَةَ ، وَعَلى مَيْمَنَتِهِ خَالِدُ ابنُ الوَلِيْدِ ، وَعَلى مَيْسَرَتِهِ عِكْرِمَةُ بنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَعَلى رِجَالَتِهِ صَفْوانُ بنُ أُمَيَّةَ . . وَعَدَدُهُم ثَلاَثَةُ آلافِ مُقَاتِلٍ ، في أَكْمَلِ اسْتِعْدَادٍ ، وأَحْسَنَ تَعْبِئَةٍ ، مِنْ بَيْنِهِمْ مائَتَانِ مِنَ الفُرْسَانِ، المُــدَرَّبِيْــنَ عــلَى ظُهُــورِ الــخَيْــلِ وَسَبْعُـمَــائَــةٍ مِنَ الــدَّارِعِيْنَ المُحَصَّنِيْنَ بالزَرَدِ والدُرُوْعِ الوَاقِيَةِ ، يَحْمِلُهُمْ عَدَدٌ وَافِرٌ مِنَ الرَّكَائِبِ ، وَيَتْبَعُهُمْ حَشْدٌ كَبِيْرٌ مِن العَبِيْدِ والغِلْمَانِ، يَقْضُوْنَ حَوائِجَهُمْ ، ويَحْرِسُوْنَ مَتَاعَهُم ، وكانَ مَعَ العَبِيْدِ عَبْد حَبَشِيٌّ اسْمُهُ وَحْشِيٌّ ، وكانَ يُجِيْدُ الرِّمَايَةَ بالحِرَابِ ، على طَرِيْقَةِ الحَبَشَةِ ، فَأَغْرَاهُ سَيِّدُهُ جُبَيْرٌ بنُ مُطْعِمٍ بقَتْلِ حَمْزَةَ بن عَبْدِ المُطَّلبِ ، عَمّ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وقال لَهُ : إِنْ قَتَلْتَهُ فَأَنْتَ عَتِيْقٌ . وَكَذلِكَ أَغْرتْهُ بِهِ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ وَوَعَدَتْهُ على قَتْلِهِ خَيْراً كَثِيْراً ، وكانَ حَمْزَةُ رَضِيَ اللهُ عنهُ قَدْ قَتَلَ في وَقْعَةِ بَدْرٍ طُعَيْمَةَ بنَ عَدِي ، عَمَّ جُبَيْرِ ، وَعُتْبَةَ بنِ رَبِيْعَةَ أَبَا هِنْدٍ .

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ فِيْمَا يَبْدُوْ قَدْ خَرَجَتْ عَلَى خُطَّةٍ مَوْضُوْعَةٍ ، هِيَ أَنْ تُفَاجِيءَ المُسْلِمِيْنَ في عَقْرِ دَارِهِمْ ، قَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدُّوْا فإِنْ أَخْفَقُوْا في هَذِهِ الخُطَّةِ ، بأنْ لَمْ يَحْصُـلْ لَهُمْ مُفَاجَـأَةُ المُسْلِمِيْنَ ، وعَلِمَ المُسْلِمُون بخُرُوْجِهِمْ ، واسْتَعَدُّوْا لَهُمْ ، فالخُطَّةُ الثَّانِيَةُ هِيَ التَّخْذِيلُ والارْجَافُ ، والتَّفْرِيْقُ بَيْنَ صُفُوفِ المُسْلِمِيْنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ فإِنْ أَخْفَقَتْ هذِهِ الخُطَّةُ ، وَلَمْ

يَنْجَحُوْا فِيْهَا ، فالخُطَّةُ الثالِثةُ هِيَ الفَتْكُ بِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ثُمَّ بِرُءُوسِ أَصْحَابِهِ مِن المُهَاجِرينَ ، كَمَا فَتَكَ المُسْلِمُونَ بِرُءُوسِهِم في وَقْعةِ بَدْرٍ ، من أَجْلِ ذَلِكَ كَتَمَتْ قُرَيْشٌ أَمْرَهَا عَلَى المُسْلِمِيْنَ وَخَرَجَتْ تُواصِلُ السَّيْرَ في سِرٍّ ، حَتَّى نَزَلَتْ بِوَادِي أُحُد ، عَلى أَقَلَّ مِنْ فَرْسَخٍ مِن المَدِيْنَةِ ، ولَكِنْ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِرَسُولِهِ وبالمُؤْمِنِيْنَ ، أَنَّ العَبَاسَ بنَ عَبْدِ المُطلبِ كَتَبَ لِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كِتَاباً ، أَخْبرَهُ فِيْهِ بمَخْرَجِ قُرَيْشٍ هذَا ، وبِمَا أَعَدَّتْ لَهُ مِن الرِّجَالِ والعَتَادِ ، وَبَعَثَ بِكِتَابِهِ هَذَا مَعَ رَجُلٍ مِن بَنِيْ غِفَارٍ ، فَوَاصَلَ السَّيْر بِهِ ، حَتَّى بَلَغَ المَدِيْنَةَ في ثَلاَثِ لَيَالٍ ، فَلَمَّا بَلَغَهَا عَلِمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قُبَاءٍ فانْطَلَقَ إليه ، فَسَلَّمَهُ الكِتَابَ ، فَدَفَعَهُ صَلَّى اللهُ عليه وسلم إِلَى أُبَيِّ بن كَعْبٍ ، فَقرَأَهُ عَلَيْهِ ، فاسْتَكْتَمْهُ الخبَرَ ، ثُمَّ دَخلَ على سَعْدِ بنِ الرَّبيع ، فَأَخْبَرَهُ خبرَ الكِتَابِ ، فَقَالَ سَعْدُ : واللهِ إنّي لأَرْجُوْ أَنْ يَكُونَ في ذَلِكَ خَيْرًا ، وأُرْجِفَ اليَهُودُ والمُنافِقُونَ بأمرِ الكِتَابِ ، فَشَاعَ الخَبَرُ بَيْنَ الناسِ ، وهَذَا مَا كَانَتْ تَخْشَاهُ قُرَيْشٌ .

رَوَى الوَاقِدِيُّ عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْروبْن أَبي حَكِيْمَةَ الأَسْلَمِي قَالَ : لَمَّا أَصْبَحَ أَبُو سُفْيَانَ قَالَ : أَحْلفُ باللهِ أَنَّهُم جَاؤُا مُحَمَّداً فَخَبَّرُوْهُ مَسِيْرَنَا ، وَحَذَّرُوْهُ ، وَأَخْبَرُوْهُ بِعدَدِنَا ، فَهُمُ الآنَ يَلْزَمُوْنَ صَيَاصِيَّهُمْ ، فَمَا أَنْ نُصِيْبُ مِنْهُمْ شَيْئاً في وَجْهِنَا ، فَقَالَ صَفْوانُ : إنْ لَمْ يُصْحِرُوْا لَنَا عَمدْنَا إِلى نَخْلِ الأَوْسِ والخَزْرَجِ فَقَطَعْنَاهُ، فتَرَكْنَاهُمْ ولا أَمْوَالَ لَهُم ، فلا يَجْتبرُوْنَهَا أَبدَا ، وإِن أَصْحَرُوْا لَنَا فَعَدَدُنَا أَكْثَرُ مِن عَدَدِهِم ، وسِلاَحُنا أَكْثَرُ مِن سِلاَحِهِمْ ، ولنا خَيْلٌ ولا خَيْلَ مَعَهُمْ ، وَنَحْنُ نُقَاتِلُ عَلَى وَتَرٍ عِندَهُم ، ولا وَتَر لَهُم عِنْدَنَا .

اللَّهم أَظِلَّنَا تَحتَ ظِلِّ عَرْشِكَ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّكَ وَلاَ بَاقٍ إِلاَّ وَجْهُكَ

وَأَسْقِنَا مِن حَوْضِ نَبِيّكَ شَرْبَةً هَنِيْئَةً لا نَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على محمدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن .

« فصل »

وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُيُوْنَهُ يَسْتَطْلِعُوْنَ لَهُ خَبَرَ القَوْمِ ، فَجَاؤُوا إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوْهُ بِمَنزِلِهِمْ مِنْ وادِي أُحُدٍ ، وَحَزَرُوْا لَهُ عَدَدَهُمْ، وَعِتَادَهُمْ وَكَانَ المُشْرِكُونَ قَدْ أَطْلَقُوْا خُيُوْلَهُمْ وإِبْلَهُمْ في مَزَارِعِ المَدِيْنَةِ ، فَجَعَلَتْ تَأْكُل الزَّرْعَ، والشَّجَرَ حَتَّى أَوْشَكَتْ أَنْ تَدْخُلَ المَدِيْنَةِ وَبَاتَ الخَطَرُ جَاثِمَاً عَلَى الأَبْوَابِ، وَغَدَا الأَمْرُ لا يَقْبَلُ التَّسْوِيْفَ ، وَصَارَ مِن الوَاجِب عَلَى المُسْلِمِيْنَ أَنْ يَأخُذُوْا حِذْرَهُمْ وَيَسْتَعِدُّوْا ، وَحُرِسَتِ المدِيْنَةُ كُلُّها طِوَالَ اللَّيْلِ ، فَبَاتَ وُجُوْهُ المُسْلِمِيْنَ مِن أَهْلِهَا في المَسْجِدِ ، وَعَلَيْهِم السِّلاحُ خَوْفاً عَلَى النبي ﷺ .

فلمَّا أَصبحُوا جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ الرَّأْيِ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَجَعَلُوا يَتَشَاوَرُوْنَ كَيْفَ يَلْقَوْن عَدُوَّهُمْ اللَّدُوْدَ .

رَوَى الوَاقِدِي أَنَّ النَّبِيَ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ أَشِيْرُوْا عَلَيَّ فَقَامَ عَبْدُ الله بنُ أبي رَئِيْسَ المُنَافِقِيْنَ ، فَقَالَ يَا رَسولَ اللهِ كُنَّا في جَاهِلِيَةٍ نُقَاتِلُ فِيْهَا وَنَجْعَلُ النِسَاءَ والذَّرَارِيَّ في هذِهِ الصَّيَاصِيْ ، وَيُجْعَلُ مَعهُم الحِجَارَةَ ،

وَنَشْبِكُ المَدِيْنَة بالبُنْيَانِ ، فَتكُونُ كالحِصْنِ مِن كُلّ نَاحِيَةٍ ، وتَرْمِي المرأةُ والصَبِيُّ مِنْ فَوْقِ الصَّيَاصِي والآطام ، ونُقَاتِلُ بأسْيَافِنَا في السِّكَكِ يا رسُولَ اللهِ إنَّ مَدِيْنَتَنَا عَذْرَاءُ ، مَا فُضَّتْ عَلَيْنَا قطُ ، وَمَا خَرَجْنَا إلَى عَدُّوٍ قَطُّ مِنْهَا إلاَّ أَصَابَ مِنَّا ، وَمَا دَخلَ عَلَيْنَا قطُ إلاَّ أَصَبْنَاهُ ، فَدَعْهُم يا رَسُولَ اللهِ فَإنَّهُم إنْ أَقَامُوْا أَقَامُوْا بِشَرِ مَحْبَسٍ وإِنْ رَجَعُوْا رَجَعُوْا خَائِبِيْنَ مَغْلُوبِيْنَ لَم يَنَالُوا خَيْرا .

يا رَسُولَ اللهِ أطِعْني في هذَا الأَمْرِ، واعْلَمْ أنِّيْ وَرِثْتُ هَذَا الرَّأْيَ مِن أكابرِ قَوْمِي، وأَهْلِ الرَّأْيِ مِنهُم ، فهُم كانُوا أَهْلَ الرَّأيِ والتَّجْربَةِ .

وَكَانَ هَذَا الرَّأْيُ هُوَ رَأْيُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَهُوَ أَنْ لا يَخْرُجُوْا مِن المَدِيْنَة ، وأنْ يَتَحَصَّنُوا بِهَا فانْ دَخلُوهَا قَاتلَهُمْ المُسْلِمُوْنَ عَلَى أَفْوَاهِ الأَزِقَّةِ والنِسَاءُ مِنَ فَوْقِ البُيُوْتِ ، وهُوَ رَأيُ الأكابِرِ مِن الصحابَةِ مِن المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصارِ .

فقَال رسولُ اللهِ ﷺ امْكثُوا في المَدِيْنَةِ واجْعَلُوْا النِسَاءَ والذَّرَارِي في الآطامِ فانْ دَخلُوا عَلَيْنا قَاتَلْنَاهُمْ في الأزِقَّةِ ، فَنَحْنُ أَعْلَمُ بِهَا مِنْهُمْ ورَمَوْا النِسَاءُ والصِبْيَانُ مِن فَوْقِ الصَيَاصِيْ والآطام ، فَبادَرَ جَمَاعَةٌ مِن الصَّحَابَةِ مِمَّنْ فاتَهُمُ الخُرُوْجُ يَوْمَ بَدْرٍ وَرَغِبُوا في الشَّهَادَة ، وأحَبُّوا لِقَاءَ العَدُوِ ، وأشَارُوْا عَلَيْهِ بالخُرُوْجِ ، وأَلَحُوْا عَلَيْهِ في ذلك .

وَقَال رجَالٌ مِن أَهْلِ النِّيَةُ الحَسْنَةِ ، إنَّا نَخْشَى يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَظُنَّ عَدُونَا أَنا كَرِهْنَا الخُرُوْجَ إِلَيْهِم جُبْناً عن لِقَائِهِم ، فَيكُونُ هَذَا جُرْأَةٌ مِنْهُمْ عَلَيْنَا وَقَدْ كُنْتَ يَومِ بَدْرٍ في ثلاثِمائةٍ فَظَفَّرَكَ اللهُ عليهم ، وَنَحْنُ اليَوْمَ

خَلْقٌ كَثِيْرٌ ، وَقَدْ كُنَّا نَتَمَنَّى هَذَا اليومَ وَنَدْعُو اللهَ بِهِ ، فَقَدْ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْنَا فِي سَاحَتِنَا .

وَقَالَ مَالكُ بنُ سِنَان، يَا رسُولَ اللهِ نَحْنُ بَيْنَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ ، إِمَّا يُظفِرُنَا اللهُ بِهِم فَهَذَا هُوَ الذِي نُرِيْدُ، والأُخْرَى يَا رسُول اللهِ يَرْزُقُنَا اللهُ بهَا الشَّهَادَةَ ، واللهِ يَا رسُولَ اللهِ ما أُبَالِي أَيُّهُمَا كَانَ ، إِنَّ كُلًّا لَفِيْهِ خَيْرٌ .

وَقَال حَمْزَةُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ ، والذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ ، لَا أَطْعَمُ اليَوْمَ طَعَاماً حَتَّى أُجَالِدَهُمْ بِسَيْفِي خَارِجاً مِن المَدِيْنَةِ .

وقال النُّعْمَانُ بنُ مالكٍ يا رسولَ اللهِ لِمَ تَحْرِمْنَا الجَنَّةُ فَوالذِي لَا إِلَه إِلَا هُوَ لَأَدْخُلَنَّهَا فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ بِـمَ فـقَال إِنِّي امْرُؤٌ أُحِبُّ اللهَ ورَسُوْلَهُ وَلَا أفِرُّ يَوْمَ الزَّحْفِ .

وَقَالَ إِياسُ بنُ أَوْسٍ لا أُحِبُّ أَنْ تَرْجِعَ قُرَيْشٌ إِلى قَوْمِهَا فَيَقُوْلُونَ حَصَرْنَا مُحَمَّداً في صَيَاصِيْ يَثْرِبَ وإِطَامِهَا فتكونُ هَذِهِ جُرْأَةٌ لِقُرَيْشٍ عَلَيْنَا وَقَدْ وَطِئُوا سَعَفَنَا فاذا لم نَذُبَّ عن غَرْسِنَا لَمْ يُزْرَعْ .

وَرَأى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ الخُرُوْجَ هُوَ الرَّغْبَةَ الغَالِبَةَ وأَنَّ كَثْرَةَ النَّاسِ تَدْعُوْ إِلَيْهِ فَصَلَى بِهِم الجُمُعَةِ ، ثُمَّ وَعَظَهُمْ ، وأَمَرُهُم بالجِدِّ والجِهَادِ .

وأَخبرَهُمْ أَنَّ لَهُمُ النَّصرَ مَا صَبَرُوْا ، فَفَرِحَ النَّاسُ بالشُخُوصِ إِلَى عَدُوِهِمْ ، وَلَكِنَّ كَثِيْراً كَرِهُوْا ذَلِكَ المَخْرَجِ ، لِمَّا رَؤا في وَجْهِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مِنَ الكَرَاهَةِ لَهُ .

وَأَخذَ النَّاسُ يَتَأَهَّبُوْنَ لِلْقِتَالِ ، فَيَلْبَسُوْنَ دُرُوْعَهُمْ وَسِلَاحَهُمْ وَيَتَوَافَدُوْنَ عَلَى

مَسْجدِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، فَلَمَّا كَانَ العَصْرُ كَانَ النَّاسُ قَدْ تَجَمَّعُوْا واحْتَشَدُوْا فَصَلَّى بِهِمْ صَلاَةَ العَصْرِ وَأَمَرَ أَنْ يُرْفَعَ النِّسَاءُ والأَوْلاَدُ في الآطَامِ والحُصُوْنِ ثُمَّ دَخَلَ بَيْتَهُ لِيَلْبَسَ لاَمَتَهُ ، والنَّاسُ في خَارِجِ البَيْتِ ، يَتَنَاقَشُوْنَ وَيَتَجَادَلُوْنَ في أَمْرِهِمْ ، وَلاَ يَزَالُ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ يَروْنَ أَنَّ البَقَاءَ هُوَ الأَصْوَبُ ، وأَنَّ النَّاسَ قَدْ اسْتَكْرَهُوْا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ على الخُرُوْجِ ، فَعَزَمَ عليهِ .وَهُوَ كَارِهٌ لَهُ .

وَجَاءَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ وأُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ فقَالاَ قُلْتُمْ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ ما قُلْتُمْ واسْتُكرَهْتُمُوهُ عَلَى الخُرُوْجِ والأَمْرُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ من السَّمَاءِ ، فَرُدُّوْا الأَمْرَ إِلَيْهِ ! فَمَا أَمَرَكُمْ فافعَلُوْهُ ، وَمَا رَأَيْتُمْ لَهُ فِيْهِ هَوَى أَوْ رَأْياً فأَطِيْعُوْهُ .

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ، وَقَدْ لَبِسَ لاَمَةَ الحَرْبِ ، فَقَالَ الذِيْنَ كَانُوا يُلِحُّوْنَ في الخُرُوْجِ ، يَا رَسُوْلَ اللهِ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُخَالِفَكَ ، فاصْنَعْ مَا بَدَالَكَ فقَالَ قَدْ دَعَوْتُكُمْ إلى هَذَا الحَدِيْث ، فَأَبَيْتُمْ ، وَلاَ يَنْبغِيْ لِنَبِي إِذَا لَبِسَ لاَمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكِمُ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ .

انْظُرُوْا ما أَمَرْتُكُمْ بِهِ فاتَّبِعُوْهُ ، وامْضُوْا على اسْمِ اللهِ ، فَلَكُمُ النَّصْرُ مَا صَبَرْتُمْ .

وَعَقَدَ ﷺ ثَلاَثَةَ أَلْوِيَةٍ ، لِوَاءٌ بِيَدِ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ ، ولِوَاءٌ لِلْمُهَاجِرِيْنَ ، بِيَدِ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ . وَقِيْلَ بيَدِ عَلِي بنِ أَبِيْ طَالِبٍ ، وَدَفَعَ لِوَاءَ الخَزْرَجِ ، بِيَدِ الحُبَابِ بنِ المُنْذِرِ .

وقِيْلَ بِيَدِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ ، ثُمَّ دَعَا بفَرَسِهِ ، فَرَكِبَهُ وَخَرَجَ في أَلفٍ

مِن أَصْحابِهِ ، فِيْهِمْ مائَةُ دَارِعٍ ، والناسُ عَن يَمِيْنِهِ وشِمَالِهِ والسَّعْدَان يَعْدُوَانِ أَمَامَهُ ، سَعْدُ بنُ عُبادَةَ وسَعْدُ بنُ مُعَاذٍ ، وكانَ ذلكَ يوْمَ الجُمُعَةِ ، لِستٍ خَلَونَ مِن شَوَالٍ ، بَعْدَ أَنْ أَمَّرَ على المدينةِ ابنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ، يُصَلى بِالناسِ .

اللهم أَقِمْ عَلمَ الجِهَاد واقْمَعْ أهْلَ الكُفْرِ والزَّيْغِ والعِنَادِ وانْشُرْ رَحْمَتكَ عَلَى هؤلاءِ العِبَادِ يا مَن له الدُنيَا والآخِرَةِ وإِلَيه المَعَادُ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

موعظة

عِبَادَ اللهِ كَانَ سَلَفُنَا في أَرْقَى دَرَجَةٍ ، وأَصْبَحْنَا بَعْدَهُمْ كَما تَرَوْنَ في حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا مِن التَّهَالُكِ عَلَى الدُنْيَا واهْمَالِ الآخِرَةِ ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّ الآخِرَةِ لا تَنْتَهِيْ حَيَاتُهَا ، وأَنَّ الدُنْيَا تَنْتَهِيْ في أَيَّامٍ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ مَتَاعِهَا أَنَّهُ قَلِيْلٌ ، فَوَضَعُوا حَيَاةَالأَبَدِ نَصْبَ أَعْيُنِهِم ، وَجَدُّوْا وَاجْتَهَدُوا في العَمَلِ لَهَا ، كَمَا أَمَرَهُم اللهُ ، فَلاَ تَكَادُ تَرَاهُمْ في لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِم إِلّا وَهُمْ بعَمَلٍ مِن الأَعْمَالِ يَعْمَلُونَ وَذَلِكَ العَمَل مِن أَعمالِ الآخِرَةِ .

ولقد كانُوا في كُلِّ نفس من أنفاسِهِمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ النَّفَسُ الأَخِيْرُ ، الذِي تَنْتَهِي بِهِ آجَالُهُمْ ، فَلَوْ قِيْل لَهُمْ إنّكم بَعْدَ سَاعَةٍ تَنْتَهِي حَيَاتُكَم مَا زَادُوا عَلَى ما هُمْ عَلَيْهِ مِن الإِكْثَارِ مِن الباقِيَاتِ الصالِحَاتِ .

أَمَّا اشْتِغَالُهُم بهذهِ الحَيَاةِ فَما كَانَإلاّ لأَنَّهُ وَسِيْلَةٌ مِن الوَسَائِلِ التي

تُدْنِي إلى الجَنَاتِ ، وَتُبعِدُ عن النَّارِ ، لِهَذَا كَانُوا لَا يَخافُوْنَ المَوتَ ، وَيَحْرِصُوْنَ عَلَى الجِهَادِ في سَبِيْلِ اللهِ ، لَعَلَّهُمْ يَنالُونَ الشَّهَادَةَ ، وَيَبْكُون إذا لَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُمْ الخُرُوْجُ إِلَى الجِهَادِ ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنهُم ، وكَمَا مَرَّ عَنْهُمْ في الأَحَادِيْثِ السابقةِ ، لِذَلِكَ بَلَغُوا مِن الشَّجَاعَةِ مُنْتَهَاهَا ، وعاشُوا وَمَاتُوا وهُمْ سَادَةُ العَالِمين .

أَمَّا زُهْدُهُم في هَذِهِ الدُنْيا فَكَانَ مَوْضِعَ العَجَب ، لأَنَّ مَقْصُوْدَهُمْ غَيْرَهَا ، ولِهَذَا كانُوا أَشْرَفَ أُمَّةٍ تَحَلَّى بِرُؤْيَتِهَا الزَّمَانُ .

أَمَّا نَحنُ فَقَصُرَ نَظَرُنَا قَصْراً مِن العَارِ أَنْ يُنْسَبَ إلى عُقَلَاءِ الرِّجَالِ ، وَهَلْ يُتَصَوَّرْ أنّ العَاقِلَ تَمْلِكُ قَلْبَهُ وَقَالِبَهُ الدُنْيَا وحُطَامُهَا الفَانِي ، فَيَجْعَلُ كُلَّ مَقْصُوْدِهِ المَالُ ، مَعَ أَنَّهُ يَقْرأ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ ازْوَاجاً مِنْهُم زَهْرَةَ الحَياةِ الدُنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبْقَى ﴾ .

هذَا هُوَ الذِي كَانَ مِنَّا فالآخِرَةُ لا تَخْطُرُ لَنا عَلَى بَالٍ ، فَلِلدُّنْيَا أَبْدَانُنَا وقُلُوبُنَا ، ولَهَا رضَانَا وسَخَطُنَا ، وانْ زُجِرنَا عَنْهَا ازْدَادَ وَلَعُنَا بِهَا وَزَادَ إِقْبَالُنَا عَلَيْهَا وَتَضَاعَفَ جُهْدَنا لَهَا .

على حد قول الشاعرَ .

واذا زجَـرتَ النَّفْسَ عن شَغَفٍ بهـا
فـكـأنَّ زَجْـرَ غَـوِيِّـهَـا إِغْـرَاؤُهَـا

لِهَذَا كَرِهْنَا المَوتَ كَرَاهَةً شَدِيْدَةً ، فَفَقَدْنَا الشَّجَاعَةَ ، وَأَصَابَنَا الوَهَنُ والخَوَرُ والضَّعْفُ والجُبْنُ .

ولِهَذَا وَصِلَتْ بِنَا الحَالُ إِلَى أَنْ مَنَعْنَا الزَّكَاةَ أَوْ بَعْضَها وَهِيَ قَرِيْنَةُ الصَّلاة ، وَمِن أَجْل الدُنْيَا داهَناً ، وَتَمَلَقْنَا لأَعْدَاءِ اللهِ وَقُلْنَا لَهُ يا سَيِّدُ أَوْ يَا مُعَلِّمُ أَوْ يَا أُسْتَاذُ هَذَا خِطَابُنَا لأَعْدَاءِ اللهِ مَعَ أَنَّ الوَاجِب عَلَيْنَا نَحوَهُمْ هِجْرَانُهُم والابْتِعَادُ عَنْهُمْ وبُغْضُهُمْ للهِ قال تَعَالَى ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُوْنَ باللهِ واليَوم الآخِرِ يُوَادُوْنَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُوْلَهُ وَلَو كَانُوا آبَاءَهُم أو أبناءهم وأخوانَهُم أو عَشِيْرَتَهم أولئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهُم الإِيمانَ وأَيَّدَهُمْ برُوْحٍ منهُ ﴾ فَلَا حَوْلَ وَلَا قوةَ إِلَّا باللهِ العلي العَظِيْم ، هَذَا يَا أَخِيْ هُوَ السَّبَبُ الوَحِيْدُ في انْحِطَاطِنَا ، وفي عِزِّ سَلَفِنَا الأَجلاءِ الكِرَامِ ، وَلَو سَلَكْنَا طَرِيْقَهُم ما أَصَابَنَا هَذَا الذُلُّ والهَوَانُ .

قَصِيْدَة زُهْدِيَّةٌ في غُرْبَةِ الدِّيْنِ والْوَلَاءِ والبَرَاءِ والتَّقَلُّلِ من الدُنْيَا

إِلَى اللهِ نَشْكُـوا غُـربَـةَ الـدِّيْنِ والهُـدَى
وفُـقْـدَانَـه مِنْ بَـيْـنِ مَـنْ رَاحَ أَوْ غَـدَا
فَعَــادَ غَـرِيْبَــاً مِثْـلَ مَــا كَـانَ قَـدْ بَـدَا
عَلَى الــدِّيْنِ فَلْيَبْكِي ذَوُوْ العِلْمِ والهُــدَى
فَقَد طَمَسَتْ أَعْلَامُهُ في العَوَالِمِ
حَـوَى الـمَــالَ أَنْذَالُ الـوَرَى وَرذَالُـهُـم
وقَــدْ عَمَّ في هَـذَا الـزمـانِ ضَـلَالُهُم
وَلَا تَــرتَـضِي أَقْــوَالَــهـم وفِـعَــالَـهُـمْ
وَقَــدْ صَــارَ إِقْبَــالُ الـوَرَى واحْتِيَــالُهم
على هَذِهِ الدُّنْيَا وَجَمْعِ الدَّرَاهِمِ

فَـذُوْ المَـالِ لا تَسْـأَلْ أَخَصُّ خَـدِيْنِهِم
وَقَـدْ نَفِقَ الـجَهْـلُ العَظِيْـمُ بِـحِيْـنِهِـم
بـإعْـرَاضِـهِـمْ عَـنْ دِيْـنِـهِـمْ وَمَدِيْنِهِم
وإصْـلَاحِ دُنْـيَـاهُم بـإفْسَـادِ دِيْـنِـهِـم
وَتَحْصِيْلِ مَلْذُوْذَاتِهِم والمَطَاعِمِ
مُـحِبُّـوْنَ لِـلدُّنْـيَـا مُـحِبُـوْنَ قَـيْـلَهَـا
وَلَـوْ مُـعْـرِضـاً عَـنْ دِيْنِـهِ وَلَهَـا لَهَـا
وَكُـلُّـهُـمُ لَا شَـكَّ دَنْـدَنَ حَـوْلَـهَـا
يُـعَـادُونَ فِـيْـهَـا بَـلْ يُـوَالُـوَن أَهْلَهَـا
سَوَاءٌ لَدَيْهِم ذُو التُقَى والجَرَائِمِ
إِلَى اللهِ في هَـذَا الصَبَاحِ وفي المَسَـا
نَبُثُّ الـدُّعـا فـالْقَلْبُ لا شَكَّ قَـدْقَسَا
وَحُبُّ الوَرَى الدُّنْيَا فَفِي القَلْبِ قَدْ رَسَى
إِذَا انْتُقِصَ الانْسَـانُ مِنهَـا بمَـا عَـسَى
يَكُونُ له ذُخْرَاً أتَى بالعَظَائِمِ
بَكَى واعْتَرَاهُ المَسُ مِنْ عُظْمِ مَا حَسَى
وَخَـرَّ صَـرِيْعـاً إذْ بَـدَا النَّقْصُ وافْلَسَـا
وانْحَـلَ جِسْمَـاً نَـاعِمَـاً قَبْـلُ مَـا عَسَى
وأبـدَى أعـاجِيْبـاً مِن الحُـزنِ والأسَـى
على قِلَّةِ الأَنْصَارِ مِن كلِ حَازِمِ
وَنَـادَى بـصَـوتٍ مـزْعجٍ مُـتَـكَـلِّمـاً
وبَـاتَ حَـزِيْـنـاً قَـلْبُـه مُـتَـكَـلِّمـاً

وَقَـامَ عَـلَى سَـاقٍ لِحَـرَّاهُ مُـعْـلِمـاً
وَنَـاحَ عَـلَيْـهَـا آسِـفـاً مُـتَـظَلِّمـاً
وبَاتَ بمَا في صَدْرِهِ غَيْرَ كاتِمِ
فَـذَا شَـأْنُ أَهْـلِ الغَيِ والجَهْـلِ والـرَّدَى
إذَا انْتُقِصُـوا الدُنْيَـا أَصَارُوا الثَّـرَى نَـدَى
وَبَكَّـوْا وأَبْكَـوا كُـلَّ مَن رَاحَ أَوْ غَـدَا
فـأمَّـا على الـدِّيْنِ الحَنِيْفِـيِّ والهُـدَى
ومِلَّةِ ابْرَاهِيْمَ ذَاتِ الدَّعَائِمِ
وَلَـوْ قُـطِّعَتْ في كُـلِّ أَرْكَـانِهـا القُـوَى
وَلَـوْ سَلكَتْ كُلُّ الـوَرَى سُبْلَ مَن غَـوَى
أَوِ اتَّـخَـذَ المَـخْلُوقُ مَـعْبُـودَهُ الـهَـوَى
فَـلَيسَ عَـلَيـهَـا والـذِيْ فَـلَقَ الـنَّـوَى
مِن الناسِ مِنْ بَاكٍ وآسٍ ونَادِمِ
بُنُـودٌ لَهَـا فِيْمَـا مَـضَى بَـيْنَنَـا انْتَفَتْ
وُكُلُّ مُـحَـامِـيٍّ لَـهَـا مَـالَ والـتَـفَـتْ
وَمَـحْبُـوبُـنَـا مَنْ أَبْـغَـضَـتْـهُ وَمَنْ نَـفَـت
وَقَـدْ دَرَسَتْ منهـا المَعَـالِمُ بَـلْ عَفَتْ
وَلَم يَبْقَ إلَّا الإِسْمُ بَيْنَ العَوَالِمِ
وَقَـدْ ظَهَـرَتْ تِلْكَ الفَـوَاحِشُ والـجَفَـا
ولا شَـكَّ في فِعْـلِ اللَّواطِ مَـعَ الـزِنَى
وَقَـلْبِي إذاً مِـمَّـا بَـدَى مَسَّـهُ الـضَّنَى
فَـلَا آمِـرٌ بـالـعُـرْفِ يُعْـرَفُ بَـيْـنَـنَـا

ولا زَاجِرٍ عن مُعْضَلاَتِ الجَرَائِمِ

بِحَــارُ المَعَــاصِيْ قَــدْ طَمَى الآنَ لُجُهَــا
ومُــتَّسِــعُ بَــيْــنَ الــبَــرِيَّــةِ ثَــجُّــهَــا
وَقَــد لاَحَ مِن فَــوقِ البَسِيْــطَةِ فَجُّهَــا
ومِــلَّةُ ابــراهــيــمَ غُــوْدِرَ نَــهْــجُــهَــا

عَفَاءً وأَضْحَتْ طَامِسَات المَعَالِمِ

نَــوَاظِــرُنَــا كَــلَّتْ وأَنْــوَارُهَــا طَــفَــتْ
وأَلْسُنُنَــا عن بَــحْثِ مِنْهَــاجِهَــا حَفَتْ
مَنَــاهِــجُهَــا واللهِ مِــن بَــيْــنِنَــا عَــفَــتْ
وَقَــدْ عُــدِمَتْ فِيْنَــا وَكَيفَ وقَــدْ سَفتْ

عَليهَا السَوافِيْ مِن جَمِيعِ الأقالِمِ

تَــظُنُّــونَ أَنَّ الــدِّيْنَ لَبَيْكَ فِي الفَــلاَ
وفِعْــلَ صَــلاةٍ والسُكُــوتَ عَن الــمَــلاَ
وسَــالِمْ وخَالِطْ مَن لِــذَا الــدِّيْنِ قَــدْ قَــلاَ
ومــا الــدِّيْنُ إلاَّ الحُبُ والبُغْضُ والــوَلاَ

كَذَاكَ البَرَا مِنْ كُلِ غَاوٍ وَآثِمِ

فَــأَفْــرَادُنَــا ظَنُّــوْا النَّجَــا في التَّنَسُّــكِ
وغَــالِبُنَــا مِنْهَــاجُهُــم فــي التَــسّــلُّكِ

ومِـلَّةُ إبْـرَاهِـيْمَ مِـن خَـيْـرِ مَسْـلَكِ
وَلَـيْسَ لَهَـا مِـن سَالِـكٍ مُـتَـمَـسِّـكِ
بِدين النَّبِي الأَبْطَحِي بنِ هَاشِمِ
فَلَسْنَا نَرَى مَا حَـلَ في الـدِينِ وامْحَتْ
بِـهِ المِلَّةُ السَّمْحَاءُ إحـدَى القَـواصِمِ
عَسَى تَـوبَةٌ تَمْحُـو ذُنُـوبـاً لِمُـرْتَجِي
عَسَى نَـظْرَةٌ تَسْلُـكُ بِنَـا خيـرَ مَنْهَـجِ
عَسَى وَعَـسَى مِـن نَفْحَـةٍ عَلَّهَـا تَـجِي
فَنَـأْسَي عَلَى التَقْصِيْـرِ مِنَّـا وَنَـلْتَجِي
إلى اللهِ في مَحْوِ الذُنُوْبِ العَظَائِمِ
فَكُـلُ الـوَرَى في كَثْـرَةِ المـالِ نَـافَسَتْ
وَرَانَتْ ذُنُـوْبٌ في القُلُوبِ وقَـدْ رَسَـتْ
وفي النَهْيِ عَن كُـلِّ المَعَـاصِي تَنَـاعَسَتْ
فَنَشْـكُـوا إلى اللهِ الـقُلوبَ الـتِي قَـسَتْ
وَرانَ عَلَيْها كَسْبُ تِلكَ المآثِمِ
نُـزَاعِيْ أخَـا الـدُنْيَـا فَـذَاكَ هُـوَ الأَخُ
ولـو كـانَ في كُـلِّ المَعَـاصِي مُـلَطَّخُ
ألَـسْـنَـا بـأوْضَـارِ الـخَـطَا نَـتَـضَمَّـخُ
ألَـسْـنَـا إذا مَـا جَـاءنَـا مُـتَـضَمِّـخُ
بأَوْضَارِ أهْلِ الشِرْكِ مِن كُلِ ظَالِمِ
أتَـيْناهُ نَـسْعَى مِـن هُـنَـاكَ وَمِـن هُـنَـا
وفـي عَصْـرِنَـا بَـعْضٌ يُـرَدُ وَلَـو عَنَـى

أَتَيْنَـا سِـرَاعـاً والـرِّضَـى عَنْـه حثنَـا
نَـهُشُّ إلـيْـهِـم بـالـتَّـحِـيَّـةِ والـثَّـنَـا
ونَهْرَعُ في إكْرَامِهِم بالوَلاَئِمِ

أَذَا يُـرْتَضَى في الـدِينِ هَـلْ مِن مُعَلِّم
أفِقْ أيُهـا الـمَغْبُـونُ هَـلْ مِن تَـنَـدُمٍ
أَيَـرْضَـى بِهـذَا كُـلُّ أَبْـسَـلَ ضَيْغَـمٍ
وَقَـد بَـرِيَ المَعْصُـومُ مِن كُـلِّ مُسْلِمٍ
يُقِيْمِ بِدَارِ الكُفْرِ غيرَ مُصَارِمِ

ولا مُنْكِـرٍ أَقْـوَالَـهم يَـا ذَوي الـهُـدى
ولا مُبْغِضٍ أَفْعَـالَ مَن ضَـلَّ واعْـتَـدَى
ولا آمـرٍ بـالـعُـرْفِ مِن بَـيْنِـهِـم غَـدَا
ولا مُـظهِـرٍ لِـلدِّيْنِ بَـيْـنَ ذَوِي الـرَّدَى
فَهَلْ كَانَ مِنَّا هَجْرُ أَهْلِ الجَرَائِمِ

وَهَـلْ كَـانَ فـي ذَاتِ الـمُـهَيْمِنِ وُدُّنَـا
وهَـلْ نَحْنُ قَـاتَلْنَـا الـذِي عَنْـهُ صَـدَّنَـا
وَهَـلْ نَحْنُ أَبْعَـدْنَـا غَـدَا والـذي دَنَـا
ولـكِنَّـمَـا العَـقْـلُ المَعِيْشِيُ عِـنْـدَنَـا
مُسَالَمَةُ العَاصِيْنَ مِنَ كُلِّ آثِمِ

أَيَـا وَحْشَـةً مِن بَيْنِ تِلْـكَ المَـنَـازِلِ
ويَـا وَصْـمَـةً لِـلدِيْـنِ مِـنْ كُـلِّ نَـازِلِ

تَـكَـلَّـمَـتْ الأَوْبَـاشُ وَسْطَ الـمَـحَـافِـلِ

فَيَـا مِحْنَـةَ الإسـلامِ مِن كُـلِّ جَـاهِـلِ

ويا قِلَّةَ الانْصَارِ مِن كُلِ عَالِمِ

فَنَفْسَـكَ فـاخْـزِمْهَـا إِذَا كُنْتَ حَـازِمـاً

ومِـن بَـابِـه لا تَلْتَـفِـتْ كُـنْ مُـلازِمـاً

وَصَبْـرٌ فَـرَبُّ الـعَرْشِ لِلشِّرْكِ هَـازِمـاً

وهَـذَا أَوَانُ الـصَّبْـرِ إِنْ كُـنْتَ حَـازِمـاً

على الدِّيْنِ فاصْبِرْ صَبْرَ أَهْلِ عَزَائِمِ

ومُـدَّ يَـداً للهِ كُـلَّ عَـشِـيَّـةٍ

وسَـلْ رَبَّـكَ التَّثْبِيْتَ فـي كُـلِّ لَحْـظَةِ

عَـلى مِـلَّةِ الإِسْلاَمِ أَزْكَى الـبَـرِيَـةِ

فَمَنْ يَـتَـمَـسَّك بـالـحَـنِـفِـيْـةِ الَّـتِـي

أَتَتْنَا عَنِ المَعْصُومِ صَفْوَةِ آدَمِ

وعُضَّ عَـلَيهَـا بـالـنَّـوا جِـذِ إِذْ غَـدَا

وحِيْـداً مِنَ الـخِـلاَّنِ مَـا ثَّم مُـسْعِـداً

عَـلَى قِـلَّةِ الأَنْـصَـارِ أَصْـبَـحَ وَاحِـداً

لَـهُ أَجْـرُ خَمْسِيْنَ امـرأً مِن ذَوِي الهُدَى

مِن الصَّحْبِ أَصْحَابِ النَّبِيَ الأَكَارِمِ

وكُنْ عَن حَـرَامٍ فـي المـآكِلِ سَـاغِبـاً

ولا تَـمْشِ مِنْ بَيْنِ الـعِبَـادِ مُـشَـاغِبـاً

وَمُـدَّ يَـداً نَـحْـوَ المُـهَـيْـمِـنِ طَـالِـبـاً
ونُـحْ وابْـكِ واسْتَنْصِـرْ بَرَبِّـكَ رَاغِبـاً
إليه فانَّ اللهَ أرْحَمُ رَاحِمِ
لِيَنْصُـرَ هَـذَا الـدِّيْنِ مِن بَعْـدَمَـا عَفَتْ
مَعَـالِمُـهُ فـي الأَرْضِ بَيْـنَ الـعَوَالِمِ
وأن يَـكْبُـتَ الأعْـدَا وَيَـفْـنَـوا بِـغِـلِّهِـمْ
ويَـخْـذُلَ أَعْـدَاءَ الـهُـدَى بـأقَـلِّهِـم
مِـن المُـؤْمِنِيْنَ الـصَـالـحِـيـنَ وخِـلِّهِـمْ
وصَـلِّ عَـلَى المَـعْـصُـومِ والآلِ كُـلِّهِـمْ
وأَصْحَابِهِ أَهْلِ التُقَى والمكَارِمِ
بِعَـدِّ ومِيْضِ البَـرقِ والـرَّمْـلِ والحَصَى
ومـا انْهَـلَّ وَدْقٌ مِن خِـلاَلِ الغَمَـائِـمِ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ عَمَّ الوَرَى جُوْدُهُ واحسانُه لنَسْأَلُكَ باسمِكَ الأَعْظَمِ الذِيْ إذا سُئِلْتَ بِهِ أَعْطَيْتَ وإِذَا دُعِيْتَ بِهِ أَجَبْتَ أنْ تُثَبِّتَ وَتُقَوِّيْ قُلُوْبَنَا في الايمانِ بِكَ وبِمَلاَئِكَتِكَ وبِكُتُبِكَ وبِرُسُلِكَ وباليومِ الآخرِ وبالقدرِ خيرِهِ وشرِهِ وأَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَجميع المسلمين برحمتك يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل »

وَمَضَى ﷺ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ الشَّيْخَيْنِ ،فَعَسْكَرَ بِهِ، ثُمَّ اسْتَعْرَضَ الجَيْشَ ، فَرَدَّ مَنْ اسْتَصْغَرَهُ مِنْ جُنُوْدِهِ .

وَكَانَ فِيْمَنْ رَدَّ رسولُ اللهِ ﷺ مِن هَؤُلاءِ الصِّغَارِ رَافِعُ بنُ خَدِيْجٍ ، وسَمُرَةُ بنُ جُنْدُبٍ ، فَقِيْلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إن رَافِعاً يُحْسِنُ الرِّمَايَةَ فَأَجَازَهُ ، فَبَكَى سَمُرَةُ ابْنُ جُنْدُبٍ ، وقالَ أَجَازَ رَافِعاً وَرَدَّنِي مَع أنِيْ أَصْرَعُهُ ، فَسَمِعَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فأَمَرَهُمَا أَنْ يَتَصَارَعَا فكانَ الغَالِبُ سَمُرَةَ، فأجَازَهُ .

وَبَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَتَهُ تِلكَ بِالشَّيْخَيْنِ واسْتَعْمَلَ عَلَى حَرَسِ الجَيْشِ مُحَمَّدَ بنَ سَلَمَةَ ، وَعَلَى حَرَسِهِ ، ذَكْوَانَ بنَ قَيْسٍ .

وَنَامَ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ السَّحَرُ ، قال أَيْنَ الأَدِلاَّءُ ، مَن رَجُلَ يَدُلُّنَا على الطَّرِيقِ ، يُخْرِجُنَا عَلَى القَومِ مِن كَثَبٍ ، فَقَامَ أَبُو خَيْثَمَةَ الحَارِثِي ، فقالَ أنا يَا رَسُولَ اللهِ .

وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ الشَّوْطَ ، وَهُوَ بُسْتَانٌ بَيْنَ المَدِيْنَةِ وَأُحُدٍ ، انْشَقَّ الجَيْشُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فرجع عبد الله بن أبي بثلاثمائةٍ مِن أصحابه، وهو يقول أَطَاعَ الغُلْمَانَ وعَصَانِي ، فَعَلاَمَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَهُنَا ، فَجَعَلَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرو بن حَرَامٍ يُحَاوِلُ أنْ يَثْنِيْهُمْ عَنْ عَزْمِهِمْ هَذَا ، ويُنَاشِدُهُمُ اللهَ أَلاَّ يَشُقُّوْا عَصَا الجَمَاعَةِ ، وأَنْ لا يَخْذُلُوا قَوْمَهُمْ ونَبِيَّهُمْ ، في حَضْرَةِ العَدُوِّ ، فَيَقُولُونَ لَهُ مُتَهَكِمِيْنَ بِهِ « لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ » .

وَقَدْ أَحْدَثَتْ هَذِهِ الفِعْلَةُ الشَّنِيْعَةُ ، خَلْخَلَةً عَظِيْمَةً في بِنَاءِ الجَيْشِ ، في هَذَا الوَقْتِ الحَرِجِ ، وَأَحْدَثَتْ زَلْزَلَةً شَدِيْدَةً في نُفُوسِ المُسْلِمِيْنَ ، حَتَّى لَقَدْ هَمَّتْ بَنُوْ حَارِثَةَ مِن الخَزْرَجِ ، وَبَنُوْ سَلَمَةَ الأَوْسِ ، أَنْ تَفْعَلاَ كَمَا فَعَلَ أَصْحَابُ ابنُ أُبَيَ ، وَلَكِنْ عَصَمَهُمُ اللهُ ، فَعَادُوْا إِلَى صُفُوفِ الجَمَاعَةِ ، وَسَارُوْا مَعَ الجَيْشِ، كَمَا يَسِيْرُوْنَ .

وَمَضَى رسولُ اللهِ ﷺ إلى أُحُدٍ ، وَهُوَ جَبَلٌ كَثِيْرُ المَسَالِكِ ، والشِّعَابِ ، تَقْطَعُهُ عِدَّةُ وِدْيَانٍ ، وَيَدُوْرُ دَوْرَةً وَاسِعَةً في مُوَاجَهَةِ السَّهْلِ الضَّيِّقِ الذِي وَقَفَتْ عِنْدَهُ قُرَيْشٍ ، كَمَا أَنَّ تَعرجَاتِ الأَرْضِ جَعَلَتْ في انْحِدَارِهِ فَجَوَاتٍ ، تُشْبِهُ الحُفَرَ ، تَصْلُحُ للإِخْتِفَاءِ في الحَرْبِ الدِّفَاعِيَّةِ ، لِقَذْفِ النِبَالِ .

فَنَزَلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ في شَعبِ عَلَى عُدْوَةِ الوَادِي ، إِلَى جَانِب تلٍّ مُشْرِفٍ ، يُقَالُ لَهُ جَبلُ عَيْنَيْن ، وَهُنَاكَ أَخَذَ ﷺ يَصُفُ أَصْحَابَهُ ، وَيُعَبِئُهُمْ لِلْقِتَالِ ، فَجَعَلَ ظُهُوْرَهُمْ إِلَى الجَبَلِ بِحَيْثُ يَحْتَمُوْنَ بِهِ مِنَ خَلْفِهِمْ وَجَعَلَ وَجُوْهَهُمْ إلى المَدِيْنَةِ ، بِحَيْثُ يَسْتَقْبِلُوْنَ الوَادِي ، وَيُشْرِفُوْنَ عَلَيْهِ مِنْ أَعْلاَهُ وَجعَلَ خَمْسِيْنَ مِن الرُّمَاةِ عَلَى جَبَل عَيْنَيْن .

وأَمَّرَ عَلَيْهِم عَبدَ اللهِ بنَ جُبَيْرٍ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَحْمُوْا ظُهُوْرَ المُسْلِمِيْنَ عِنْدَ القِتَالِ ، وأَنْ لا يُمَكِّنُوْا العَدُوَّ مِن اقْتِحام هَذَا الحِصْنِ ، وأَنْ لاَ يَبْرَحُوْا مَكَانَهُمْ هَذَا ، سَوَاءٌ أكَانَ النَّصْرُ لِلْمُسْلِمِيْنَ أَمْ عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ عَلَّمَهُمْ أَنْ يَنْضَحُوْا الخَيْلَ كُلَّمَا أَقْبَلَتْ نَحْوَهُمْ بالنَّبْلِ ، وأَكَّدَ الوَصِيَّةَ عَلَيْهِمْ أَنْ لا يُغَادِرُوا مَوَاضِعَهُمْ ، وإِنْ رَأَوْا أَصْحَابَهُمْ تَتَخَطَّفُهُمْ الطَّيْرُ .

فَلَمَّا انْتَهى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مِن تَعْدِيْلِ الصُّفُوْفِ ، وإعْدَادِ المَوَاضِعِ ، خَطَبَ في الناسِ يُحَرِّضُهُمْ عَلَى القِتَالِ ، وَيَحُثُّهُمْ عَلى الصَّبْرِ ، وأمَرَهُمْ أنْ لا يَبْدَؤُا بِقِتَالٍ حَتَّى يُؤَاذِنَهُمْ ، وَبَيْنَمَا كَانَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلم مُشْتَغِلاً بِصَفِّ جُنُودِهِ ، ظَهَرَ القُرَشِيُّوْنَ في السَّهْلِ المُنْبَسِطِ ، تَحْتَ التَّلِّ ، وصَارَ الجَيْشَانِ وَجْهاً لِوَجْهٍ .

وَظَهَرَتْ نِسَاءُ قُرَيْشٍ ، يَمْشِيْنَ بَيْنَ الصُّفُوْفِ ، وَيَضْرِبْنَ بالدُّفُوْفِ ، ويُنْشِدْنَ الأنَاشِيْدِ ، تَحْرِيْضاً عَلَى القِتَالِ ، وإثَارَةً لِلْحَمِيَّةِ بَيْنَ الرِّجَالِ .

فَلَمَّا التَقَى الجَمْعَانِ ، بَدَأَ أَبُو سُفْيَانَ خُطَّةَ التَّخْذِيْلِ ، بَيْنَ الانْصَارِ والمُهَاجِرِيْنَ ، فَنَادَى يَا مَعْشَرَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ ، خَلُّوْا بَيْنَ وَبَيْنَ عَمِّنَا ، وَنَنْصَرِفُ عَنْكُمْ ، فَذَهَبَ نِدَاؤُهُ صَرْخَةً في الفَضَاءِ .

فَأَعْقَبَهُ أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِقُ ، فَبَرَزَ بَيْنَ الصُّفُوْفِ يُنَادِي قَوْمَهُ الأَوْسَ ، يَا لَلأَوْسِ إليَّ إليَّ ، فَمَا كَانَ جَوَابُهُ مِنْهُمْ إلَّا اللَّعْنَ والسَب والشَتْمَ والرمِيَ بالحِجَارَةِ والطَّرْدِ حَتَّى وَلَّى مُخْتَزِياً خَجْلَانَ ، يَقُولُ لِقُرَيْشٍ لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بَعْدِي شَرٌّ .

وأَخْفَقَتْ خُطَّةُ التَّخْذِيْلِ ، كَمَا أَخْفَقَتْ خُطَّةُ المُفَاجَأَةِ ، فَلَم يَبْقَ مِنْ القِتَالِ مَفَرٌّ ، وَهُنَا حَاوَلَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تُطَوِّقَ المُسْلِمِيْنَ ، وَتَضُمُّ عَلَيْهِم جَنَاحَيْهَا بِحَرَكَةِ الْتِفَافٍ سَرِيْعَةٍ .

فَتَحَرَكَ لِوَاءُ عِكْرَمَةَ مِنَ المَيْسَرَةِ ، يُرِيْدُ أَنْ يَدُورَ حَوْلَ عَسْكَرِهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِك .

فَحَاوَلَ مِثْلَهُ خَالِدُ بنُ الوَلِيْدِ مِن المَيْمَنَةِ ، فَأَمْطَرَهُ الرُّمَاةُ وابِلاً مِنَ النِّبَالِ ، فارْتَدَّتْ الخيلُ على أَعْقَابِها مُسْرِعَةً .

فَعادَ الكُفارُ إلى أَمَاكِنِهِمْ كَمَا كَانُوا أَوَّلاً وبَدَأَ القِتَالُ بالمُبَارَزَةِ . فخَرَجَ مِن صُفُوفِ المُشْرِكِيْنَ رَجُلٌ يَطْلُبُ المُبَارَزَةَ ، فَبرَزَ لَهُ الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ ، فَقَتَلَهُ ، فسُرَّ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَكَبَّر فَكَبَّرَ المُسْلِمُونَ .

وَشَدُّوْا عَلَى المُشْرِكِيْنَ ، وَهُمْ يَتَصَايَحُوْنَ صَيْحَةَ الحَرْبِ ، « أَمِتْ أَمِتْ » فَهَجَمَ عَلِيُّ بنُ أَبي طَالِبٍ عَلَى حَامِلِ لِوَائِهِمْ طَلْحَةِ بن أَبِيْ طَلْحَة فَقَتَلَهُ، فَكَبَّرَ المُسْلِمُوْنَ ، وسُرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِهِ ، فإِنَّهُ هُوَ كَبْشُ الكَتِيْبَةِ .

وكانَ قَزْمَانُ يُعْرَفُ بالشَّجاعَةِ ، وَقَدْ تَأَخَّرَ ، فَعَيَّرَتْهُ نِساءُ بَنِيْ ظَفَرٍ ، فأَتَى رسولَ اللهِ ﷺ ، وهُوَ يُسَوِّيْ الصُفُوْفَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الصَّفِّ الأَوَّلِ ، فَكَانَ عَلَى مَا قِيْلَ أَوَّلُ مَنْ رَمَى في صَفِ المُسْلِمِيْنَ بِسَهْمٍ ، فَجَعَلَ يُرْسِلُ نَبْلاً كَأَنَّهَا الرِّمَاحُ ، وَيَكُتُّ كَتِيْتَ الجَمَلِ ، ثُمَّ فَعَلَ بالسَّيْفِ الأَفاعِيْلَ حَتَّى قَتَلَ سَبْعَةً .

وأَصَابَتْهُ جِرَاحٌ فَوقَع ،فَنَادَاهُ قَتَادَةُ بنُ النُعْمَان : أَبَا الغَيْدَاقِ هَنِيْئاً لَكَ الشَّهَادَةُ ، فقالَ إِنِّيْ واللهِ ما قَاتَلْتُ يَا أَبَا عَمْروٍ على دِيْنٍ ، مَا قَاتَلْتُ إِلاَّ عَلَى الحِفاظِ ، أَنْ تَسِيْرَ قُرَيْشٌ إِلَيْنا حَتَّى تَطأَ سَعفَنَا ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقتَلَ نَفْسَهُ ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِي ﷺ ، فقالَ مِنْ أَهْلِ النارِ ، إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّيْنَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ .

ثم أَخَذَ اللِّوَاءَ أَخُو طَلْحَةَ عُثْمَانُ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ حَمْزَةُ فقتَلَهُ ، فَأَخَذَ اللِّوَاءَ أَخُوْهُمَا سَعِيْدٌ ، فَرَمَاهُ سَعْدُ بْنُ أَبي وَقَّاصٍ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ فَتَنَاوبَ اللِّوَاءَ بَعْدَهُ أَرْبَعَةٌ مِنْ أَوْلادِ طَلْحَةَ ، وكُلُّهُمْ يُقْتَلُونَ وَاحِداً بَعْد وَاحِدٍ ، فَحَمَلَ اللِّوَاءَ غُلَامَ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ صُوءَابُ ، فَقُتِلَ ، وَسَقَطَ اللِّواءُ عَلَى الأَرْضِ ، فَأُخِذَ المُشْرِكُونَ بِذَلِكَ أَخذاً شَدِيْداً وانْكَسَرتْ شَوْكَتُهُمْ ، وَانْفَرجَتْ صُفُوْفُهُمْ ،

فَحَمَلَ المُسْلِمُوْنَ عَلَيْهِمْ حَمْلَةً صَادِقَةً ، وَأَمْعَنُوا فِيْهِم ضَرْباً بالسُيُوفِ ، وَطَعْناً بالرِّمَاحِ ، وَرَمْيَاً بالسِّهَام ، فانْكَشفُوا وَوَلَّوْا الأَدْبَار، وَجَعَلَتْ نِسَاؤُهُمْ تَصِيْحُ وَتُوَلْوِلُ ، وَأَخذنَ في الهَرَب والفِرَار ، مِن الأَسْرِ مُشَمِّرَاتٍ ، عَن أَسْيَاقِهِنَّ ، وَخَلاَخِيْلِهِنَّ ، وَتَتَبعَ المُسْلِمُونَ أَعْدَاءَهُمْ يَضَعُوْنَ فِيْهِم السِّلاَحَ حَيْثُ شَاؤُا ، حَتَّى أَبْعَدُوْا عَن مُعَسْكَرِهِمْ .

اللَّهمَّ إن نَوَاصِيْنَا بِيَدَيْك ، وأُمُوْرُنا تَرْجعُ إِلَيْك ، وأَحْوَالُنَا لاَ تَخْفَي عَلَيْك ، وآلامُنَا وأَحْزَانُنَا وهُمُومُنَا وغُمُومُنَا كُلُّهَا مَعْلُوْمَةٌ لَدَيْكَ ، اللهم قَدْ عَجزَتْ قُدْرَتُنَا ، وقَلَّتْ حِيْلَتُنَا ، وَضَعَفَتْ قُوَّتُنَا، وَتَاهَتْ فِكْرَتُنَا ، واجْتَمَعَتْ عَلَينا هُمُوْمُنَا وأَوْصَابُنَا ، وأَنْتَ مَلْجَؤُنَا ، وَمَلاذُنَا ، وَمَوْلاَنَا ، وسَيِّدُنَا ، وإِلَيْكَ نَرْفَعُ بَثَّنَا وَحُزْنَنا ، وَشِكَايَتُنَا ، يَا مَن يَعْلَم سِرَّنَا وعَلاَنِيَتَنا ، اللَّهم اجْعَلْنَا مِمَنْ تَوكَّلَ عَلَيْكَ ، وأَمِّن خَوْفَنَا إذَا وَصلْنَا إلَيْك ، ولا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا إذَا صِرْنَا بَيْنَ يَدَيْكَ ، واجْعَلْنَا مِمَّن تَسُوقُهُ الضَّرُوْرَاتُ إِلَيْك ، وَهَبْ لَنا مِن فَضْلِكَ العَظِيْم ، وَجُدْ عَلَينا باحْسَانِكَ العَمِيْمْ وَمَتِّعْنَا بالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الكَرِيْم ، واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برَحمَتك يا أرحَمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل »

ثُمَّ وَقَعُوا عَلَى الغَنَائِم والأَسْلاَبِ يَجْمَعُونَهَا وَيَنْتَهِبُوْنَهَا وَهُمْ مُطْمَئِنُونَ إلى أَنْ ظُهُوْرَهُم لا تزالُ مَحْمِيَّةً بِرُمَاتِهِمْ ، أمَّا الرُّمَاةُ فَقَدْ خُيِّلَ لَهُمْ أَنَّ المَعْرَكَةَ انْتَهَتْ • وأَنَّ الهَزِيْمَةَ قَدْ تَمَّتْ ، وَخَشُوْا أَنْ يَسْبِقَهُم إِخْوَانُهُمْ في جَمْعِ الغَنَائِمِ ، فَقَال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، مَا بَقَاؤُنَا هُنَا ، وَقَد هَزَمَ اللهُ العَدُوَّ ، هَؤُلاءِ

إِخْوَانُكُمْ يَغْنَمُونَ ، فادْخُلُوْا فاغْنَمُوْا مَعَ إِخْوَانِكُمْ ، فَذَكَّرَهُمْ أَمِيْرُهُمْ عَهْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَوَصِيَّتَهُ لَهُمْ ، وَحَذَّرَهُمْ عَاقِبَةَ الخِلاَفِ والعِصيانِ ، ولكِنْ لَمْ يَسْمَعُوْا مِنْهُ ، وظَنُّوا أَنْ لَيْسَ لِلْمُشْرِكِينَ رَجْعَةٌ ، فَذَهَبُوا في طَلَبِ الغَنِيْمَةِ ، وأَخْلَوا الثَّغْرَ ، وَتَرَكُوْا أَمِيْرَهُمْ في نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ لاَ يُجَاوِزُوْنَ الْعَشَرَةَ ، فانْكَشَفَ بِذَلِكَ الحِصْنُ الذي كَانَ يَحْمِيْ ظُهُوْرَ المُسْلِمِيْنَ ، وَكَانَ خَالِدُ بنُ الوَلِيْدِ يَتَقَهْقَرُ وَعَيْنُهُ إِلى التَّلِ لاَ تُفَارِقُهُ ، فَلَمَّا رَأى الرُّمَاةَ يَتْرُكُوْنَ مَوَاقِفَهُمْ انْقَلَبَ رَاجِعاً في دَوْرَةٍ ، وَاسِعَةٍ مُتَّخِذاً مِن الأَرَاضِي المَسْتُوْرَةِ دَرْبَاً وَطَرِيْقَاً لَهُ ، وَجَاءَ في أَعْقَابِهِ عِكْرِمَةُ بِلِوَائِهِ ، فَتَسَلَّلُوا فَوْقَ الجَبَلِ وأزاحُوْا الرُّمَاةَ البَاقِيْنَ مِنْ أَمَاكِنِهِمْ ، واقْتَحَمُوْا خُطُوطَ المُسْلِمِيْنَ مِن الخَلْفِ ، وَجَعَلُوْا يَتَنَادَوْنَ بِشِعَارِهِمْ ، يَا لَلْعُزَّى ، يَا لِهَبَلْ ، فَأَقْبَلَ المُشْرِكُونَ بَعْدَ إِدْبَارِهِمْ ، وأخَذَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ عَلْقَمَةَ الحَارِثِيَّةُ اللِّواءُ فَرَفَعَتْهُ ، فَجَعَلوا يلُوْذُوْنَ بِهِ ، وفُوْجِىءَ المُسْلِمُونَ بِأَعْدَائِهِم قَدْ حَاصَرُوْهُمْ وأَوْجَعُوْا فِيْهِمْ قَتْلاً ذَرِيْعاً ، فاضْطَرَبَ أَمْرُهُمْ وانْتَقَضَتْ صُفُوْفُهُمْ ، وَجَعَلُوا يُقَاوِمُوْنَ عَلَى غَيْرِ نِظَامٍ ، ويُقَاتِلُونَ عَلَى غَيْرِ شِعَارٍ ، وَتَرَكُوا مَا انْتَهَبوا وَخَلُّوا مَنْ أَسَرُوْا ، وتَفَرَّقُوْا في كُلِّ وَجْهٍ .

وَنَظَرَ حُذَيْفَةُ إِلَى أَبِيْهِ اليَمَانِ والمُسْلِمُونَ يُرِيْدُوْنَ قَتْلَهُ وَهُمْ يَظُنُّونَهُ مِن المُشْرِكِيْنَ ، فَقَالَ أيْ عِبَادَ اللهِ أَبِي ، فَلَمْ يَفْهَمُوا قَوْلَهُ حَتَّى قَتَلُوهُ ، فَقَالَ يَغْفِرُ اللهُ لكُمُ ، فأَرَادَ رسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَدِيَهُ ، فَقَالَ قَدْ تَصَدَّقْتُ بِدِيَتِهِ على المسلمين فَزَادَ ذَلِكَ حُذَيْفَةَ خيْرا عِنْدَ النبي ﷺ .

وَقَال زَيْدُ بنُ ثَابتٍ بَعَثَنِي رسولُ اللهِ ﷺ يومَ أُحُدٍ أطْلُبُ سَعْدَ بْنَ الرَّبِيْعِ فَقَالَ لِيْ إِنْ رأَيْتَهُ فَاقْرأْهُ مِنِّيْ السَّلاَمَ وقُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَيْفَ

تَجِدُكَ قَالَ فَجَعَلْتُ أَطُوفُ بَيْنَ القَتْلَى فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ بآخِرِ رَمَقٍ وفيهِ سَبْعُوْنَ ضَرْبَةً مَا بَيْنَ طَعْنَةٍ بِرُمْحٍ وَضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ وَرَمْيَةٍ بِسَهمٍ .

فَقُلْت يَا سَعْدُ إنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامُ وَيَقُولُ لَكَ أَخْبِرْنِي كَيْفَ تَجِدُكَ فَقَالَ وَعَلى رَسُولِ اللهِ ﷺ السلام قُلْ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ أجِدُ رِيْحَ الجَنَّةِ وقل لِقَومي الأنصار لاَ عُذْرَ لَكُم عندَ اللهِ إنْ خُلِصَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِيْكُم عَيْنٌ تَطْرُفُ وَفَاضَتْ نَفْسُهُ مِنْ وَقْتِهِ .

وَمَرَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ بِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَهُوَ يَتَشَحَّطُ في دَمِهِ فقالَ يَا فُلانُ أَشَعَرْتَ أنَّ مُحَمَّداً قَدْ قُتِلَ فقال الانصاري إنْ كان مُحَمَّدٌ قَدْ قُتِلَ فَقَدْ بَلَّغَ فَقَاتِلُوْا عَنْ دِيْنِكُم فَنَزَلَ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية .

وأكْرَمَ اللهُ بالشَّهَادَةِ مَن أكْرَمَ وَهُمْ سَبْعُوْنَ ، وفي وَسَطِ هَذِهِ الدَّهْشَةُ البَالِغَةُ صَرَخَ إبْلِيْسُ بأَعْلَى صَوْتِهِ إنَّ « مُحَمَّداً قَدْ قُتِلَ ، وَوَقَعَ ذَلِكَ في قُلوبِ كَثِيْرٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ ، وَفَرَ أَكْثَرُهُمْ ، وَكَانَ أمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً .

وَمَرَّ أنَسُ بْنَ النَّضْرِ بقَوْمٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ قَدْ أَلْقَوْا بِأَيْدِيْهِمْ ، فَقَالَ مَا تَنْتَظِرُوْن ، فَقَالُوا قُتِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ فَمَا تَصْنَعُونَ بالحَياةِ بَعْدَهُ ، قُوْمُوْا مُوْتُوْا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيهِ .

وَخَلَص المُشْرِكُونَ إلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، وَثَبتَ ﷺ في وَجْهِ العَدُوِّ ، وَقَاتَلهُم قِتَالاً شَدِيداً فَظَلَّ يَرْمِيْ بِالنَّبْل حَتَّى فَنِيَ نَبْلُهُ ، وانكَسَرَتْ سِيَّةُ قَوْسِهِ ، وانْقَطَعَ وَتَرُهُ ، ثم ظَلَّ يَرْمِيْهِم بالحِجَارَةِ ، حَتَّى وَقَعَ لِشِقِّهِ .

وَثَبتَ مَعَهُ نَفرٌ مِن أَصْحَابِهِ ، قِيْلَ إنَّهُمْ دُوْنَ العَشَرَةِ ، وَقِيْلَ إِنَّهُمْ فوق

العَشَرَةِ ، فَبَايَعُوْهُ عَلى المَوْتِ ، وَأَحَاطُوْا بِهِ ، يَصُدُّوْنَ عَنْهُ هَجَمَاتِ العَدوِّ ، الذِيْنَ أَحْدَقُوْا بِهِ مِنْ كُلّ نَاحِيَةٍ .

وَشَدُّوْا عَلَيْهِ، يَرِيْدُوْنَ أَنْ يَقْتُلُوهُ، فَمَازَالَ هَؤُلاَءِ النَّفَرُ يَذُوْدُوْنَ عَنْهُ، وَيُقَاتِلُونَ دُوْنَهُ ، وَيَتَلَقَّوْنَ ضَرَبَاتِ العَدُوِّ ، وَلَكِنَّ العَدُوَّ جَرَحَ وَجْهَهُ ﷺ ، وَكَسَرَ رَبَاعِيَّتَهُ، وَهَشَمُوْا البَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وَرَمَوْهُ بِالحِجَارَةِ ، حَتَّى وَقَعَ وَسَقَطَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ الحُفَرِ الَّتِيْ كَانَ أَبُوْ عَامِرٍ الفَاسِقُ يَكِيْدُ بِهَا المُسْلِمِيْنَ، فَأَخَذَ عَلِيٌّ بِيَدِهِ ، وَاحْتَضَنَه طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ ، وَكَانَ الذِي تَوَلَّى أَذَاهُ ﷺ عَمْرو بنُ قَمِئَة وَعُتبة بْنُ أَبِيْ وَقَّاصٍ ، وَقِيْلَ إِنَّ الذِي شَجَّهُ عَبْدُ اللهِ بنُ شِهَابٍ الزُهْرِيْ عَمُّ مُحَمَّد بن مُسْلِم بن شِهَاب الزُهْرِي ، وَقُتِلَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَدَفَعَ اللِّوَاءَ إلى عَلِي بنِ أَبِيْ طَالِبٍ ، وَنَشَبَتْ حَلْقَتَانِ مِنْ حِلَقِ المِغْفَرِ فِي وَجْهِهِ ، فَانْتَزَعَهُمَا أبو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ ، وَعَضَّ عَلَيهِمَا حَتَّى سَقَطَتْ ثَنِيَّتَاهُ مِن شِدَّةِ غَوْصِهِمَا فِي وَجْهِهِ ﷺ .

اللهم ثبت مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَحَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنَ واغفر لنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرحَمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فصل

وَقَدْ أَبْلَى النَّفَرُ الذينَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ في الدِّفَاعِ عَنْهُ أَحْسَنَ البَلَاءِ ، وامْتَازَ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ في دِفَاعِهِ بِالصِّدْقِ والشَّجَاعَة ، فَقَدْ قَاتَلَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ عَنهُ قِتالاً شَدِيْدَاً ، وَصَارَ يَذُوْدُ عَنْهُ بالسَّيْفِ مِن بَيْن يَدَيْهِ ومِنْ خَلْفِهِ وعن يَمِيْنِهِ وعن شِمَالِهِ ، وَيَدُوْرُ حَوْلَهُ يُتَرِّسُ بِنَفْسِهِ دُوْنَهُ، وَالسيُوْفُ تَغْشَاهُ ، والنَّبْلُ يَأْتِيْهِ مِن كُلِّ جِهَةٍ .

فَلَمْ يَزَلْ يَقِيْ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَجْهَضَهُمْ عنهُ ، فَانكَشَفُوا عَنْهُ ، فَكَانَ أَعْظَمَ الناسِ غِنَاءً عن رسولِ اللهِ ﷺ ، فَجَعَلَ ﷺ يَقُولُ قَدْ أَوْجَب طَلْحَةُ .

وفي مَغَازِي الأَمَوي أَنَّ المُشْرِكِينَ صَعِدُوْا عَلَى الجَبَلِ فَقَال رسولُ الله ﷺ لِسَعْدٍ ، اجْبُنْهُمْ ـ يَقُولُ ارْدُدْهُمْ ـ فقال كَيْفَ أَرُدُّهُمْ وَحْدِي ، قَالَ ذلك ثَلَاثاً .

فَأَخَذَ سَعْدُ سَهْماً مِن كِنَانَتِهِ فرَمَى بهَا رَجُلاً فَقَتَلَهُ ، قَالَ ثُمَّ أَخَذْتُ سَهْمِيْ أَعْرِفُهُ فَرَمَيْتُ بِهِ آخرَ فَقَتَلْتُهُ ، ثُمَّ أَخَذْتُهُ أَعْرِفُهُ فَرَمَيْتُ بِهِ آخرَ فَقَتَلْتُهُ ، فَهَبَطُوا مِن مَكَانِهِمْ ، فَقُلْتُ هَذا سَهْمٌ مُبَارَكٌ فَجَعَلْتُهُ في كِنَانَتِي فَكَانَ عِنْدَ سَعْدٍ حَتَّى مَاتَ ، ثُمَّ كَانَ عِنْدَ بَنِيْهِ .

وَقَاتَلَتِ المَلَائِكَةُ يَوْمَ أُحُدٍ عَن رَسُوْلِ اللهِ ﷺ . فَفِي الصَّحِيْحَيْن عَن سَعْدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ قال رأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يومَ أُحدٍ ، وَمَعَهُ رَجُلَانِ

يُقَاتِلاَنِ عَنْهُ عَلَيهِمَا ثِيَابُ بِيْضٌ كأشدِّ القَتَالِ ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ .

وَقَالَ نَافِعُ بنُ جُبَيْرٍ سَمِعْتُ رَجُلاً مِن المُهَاجِرِيْنَ يَقُولُ شَهِدْتُ أُحُداً فَنَظَرْتُ إِلَى النَّبْلِ يَأتِيْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَطَهَا كُلُ ذَلِكَ يُصْرَفُ عَنْه .

وَرَمَى حِبَّانُ بنُ العَرِقَةِ بِسَهْمٍ فأصابَ ذَيْلَ أُمِّ أَيْمَنَ ـ وَقَدْ جَاءَتْ تَسْقِيْ الجَرْحَى ـ فَانكَشَفَ عَنْهَا فإِسْتَغرَقَ في الضَّحِكِ .

فَشَقَّ ذَلِكَ علَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَفَع إلى سَعْد ابن أبِي وَقَّاصٍ سَهْماً لا نَصْلَ لَهُ فَقَالَ ارْمِ فَوقَعَ السَّهْمُ في نَحْرِ حِبَّانَ فَوقَعَ مُسْتَلْقِياً وَبَدَتْ عَوْرَتُهْ .

فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ حَتى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ. ثُمَّ قَالَ: اسْتَقَادَ لَهَا سَعْدٌ أَجَابَ اللهُ دَعْوَتَكَ وَسَدَّدَ رَمْيَتَكْ .

وَكَانَ شَمَّاسُ بنُ عُثْمَانَ بنِ الشَّرِيْدِ المَخْزُوْمِيْ لاَ يَرْمِيْ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَصَرَهُ يَمِيْناً ولاَ شِمَالاً إلاَّ رَآهُ في ذَلِكَ الوَجْهِ بِسَيْفِهِ حَتَّى غُشِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَرَّسَ بِنَفْسِهِ دُوْنَهُ حَتَّى قُتِلَ رَحِمَهُ اللهُ .

وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَامِياً شَدِيْدَ الرَّمْي فَنَثَرَ كِنَانَتَهُ بَيْنَ يَدَي رسولِ اللهِ ﷺ وَصَارَ يَرْمِي عَنْهُ وَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُلَّمَا مَرَّ بِهِ أَحَدٌ مِن أَصْحَابِهِ مَعَهُ كِنَانَةٌ يَقُولُ لَهُ أَنْثُرْهَا لأَبِي طَلْحَةَ .

وَكُلَّمَا رَمَى أَبُو طَلْحَة سَهماً نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن وَرَائِهِ لِيَرَى مَوْقِعَ السَّهْمِ فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ يا نَبِيَّ اللهِ بِأَبِيْ أَنْتَ وأُمِّيْ لاَ تَنْظُر يُصِيْبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ القَوْمِ نَحْرِيْ دوْنَ نَحْرِكَ وَوَجْهِي لِوَجْهِكَ فَدَاءٌ .

وَتَرَّسَ أَبُو دُجَانَةَ بِنَفْسِهِ دُوْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ النَّبْلُ يَقَعُ في ظَهْرِهِ وهُو مُنْحَنٍ على رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى كثر فِيْهِ النَّبْلُ وَرَمَى سَعْدُ بنُ أَبِيْ وَقَّاصٍ دُوْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُنَاوِلُهُ النَّبْلَ وَهُوَ يَقُولُ « ارْمِ فِدَاكَ أَبِيْ وأُمِيْ » حَتَّى إِنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ السَّهْمَ مَالَهُ نَصْلٌ فَيَقُولُ لَهُ أَرْمِ بِهِ ،فَيَرْمِي بِهِ .

وَدَافَعَتْ عَن رَسولِ اللهِ ﷺ أُمُّ عِمَارَةَ وَهِيَ نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبِ المَازِنِيَّةُ وَكَانَتْ تَسْقِيْ الناسَ يومَ أُحُدٍ فَلَمَّا رأَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أُحِيْطَ بِهِ وَانْهَزَمَ عَنْهُ الناسُ وَضَعَتْ سِقَاءهَا وَأَخَذَتْ سَيْفاً فَجَعَلَتْ تُقَاتِلُ أَشَدَّ القِتَالِ وَإِنَّهَا لَحَاجِزَةٌ ثَوْبَهَا عَلَى وَسَطِهَا حَتَّى جُرِحَتْ ثَلاثَةَ عَشَرَ جُرْحاً وَظَلَّ عَلَى عَاتِقِهَا مِن هَذهِ الجِرَاحِ جُرْحٌ أَجْوَفَ لَهُ غَوْرٌ أَصَابَهَا بِهِ ابْنُ قَمِئَةَ .

وَقَدْ سُمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ يَوْمَئِذٍ « مَا الْتَفتُ يَمِيْناً وَلاَ شِمَالاً إلاَّ أنا أَرَاهَا تُدَافِعُ دُوْنِي » .

وَجَاءَ في رِوَايَةٍ خَرَجَتْ نُسَيْبَةُ يَوْمَ أُحُدٍ وَزَوْجُهَا زَيدُ بْنُ عَاصِمٍ وأَبْنَاهَا حَبِيْبُ وَعَبْدُ اللهِ وَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ باركَ اللهُ عَلَيْكُم أَهْلَ البَيْتِ فَقَالَتْ لَهُ نُسَيْبَةُ رَضِيَ اللهُ عَنها أدْعُ اللهَ أَنْ نُرَافِقَكَ في الجَنَّةِ .

فَقَالَ اللَّهُمَّ إجْعَلْهُمْ رُفَقَائِي في الجَنَّةِ .

وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَا أُبَالِيْ مَا أَصَابَنِيْ مِنَ أَمْرِ الدُّنْيا فَهَذِهِ حَقاً شَجَاعَةٌ مُدْهِشَةٌ لإمْرَأَةٍ وَقَدْ تَحَمَّلَتْ مَا أَصَابَهَا مِن الجِرَاحِ في سَبِيْلِ اللهِ وَهُوَ مَا يَعْجَزُ عن تَحَمُّلَهُ الرِّجَالُ فَضْلاً عَنِ النِّسَاءِ (ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفضلِ العظِيم) .

اللهم اجعلنا مِن الذينَ إذَا أحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوْا وإذَا أسَاؤُا اسْتَغْفَرُوْا اللهم زِدْنا وَلاَ تَنْقُصْنَا وأكْرِمْنَا ولا تُهِنَّا وأعطِنا ولا تَحْرِمْنَا وآثِرْنَا ولاَ تُؤْثِرْ عَلَيْنَا وأَرْضِنَا وارْضَ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْن برَحْمَتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجْمَعِيْن .

« فصل »

وَكَانَ الحُبَابُ بنُ المُنْذِرِ يَحُوْشُ المُشْرِكِيْنَ كَمَا تُحَاشُ الغَنَمُ واشْتَمَلُوا عَلَيْه مَرَّةً حَتَّى قِيْلَ قَدْ قُتِلَ .

ثُمَّ بَرَزَ والسَّيْفُ في يَدِهِ ، وَقَدْ افْتَرَقُوا عَنْهُ ، وَجَعَلَ يَحْمِلُ عَلَى فِرْقَةٍ مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَهْرَبُوْنَ .

وَقَامَ زِيَادُ بنُ السَّكَنِ في نَفَرٍ مِن الأَنْصَارِ فَقَاتَلُوا دُوْنَ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلاً ثُمَّ رَجُلاً وَهُمْ يُقْتَلُوْنَ دُوْنَهُ حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ زِيَادُ فَقَاتَلَ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الجِراحُ فَوَسَّدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ رِجْلَهُ حَتَّى مَاتَ .

وَمَاتَ مِصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ دُوْنَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَتَلَقَى عَنْهُ ضَرْبَةً قَدْ سُدِّدَتْ إِلَيْهِ قَتَلَهُ ابْنُ قَمِئَةَ وَهُوَ يَحْسِبُهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ يُذِيْعُ بَيْنَ الكُفَّارِ .

وَقَدْ مَاتَ في ذَلِكَ اليَوم دُوْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَلْقٌ كَثِيْرٌ كُلُّهُمْ يُفَدِّيْهِ بِنَفْسِهِ وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ العَدُوِ حَتَّى يُصْرَعَ .

وَرَوَى الوَاقِدِي عَن سُفْيَانَ بن عُيَيْنَةَ قَالَ لَقَدْ أُصِيْبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ نَحْوٌ مِنْ ثَلاَثِيْنَ كُلُّهُمْ يَجِيْءُ حَتَّى يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ

يَقُولُ وَجْهِيْ لِوَجْهِكَ الفِدَاءُ وَنَفْسِيْ لِنَفسِكَ الفِدَاءُ وَعَلَيكَ سَلامُ اللهِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ .

ثم عَرَفَ المُسْلِمُونَ أن رَسولَ الله ﷺ لا يَزَالُ حَيَّاً فأحَاطُوْا بِهِ حَتَّى كَشَفُوْا عَنْهُ العَدُوَّ .

وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ عَرفَ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ عَرَفْتُ عَيْنَيْهِ تَزْهُرَانِ مِن تَحْتِ المِغْفَرِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِيْنَ أبْشِرُوْا هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فأَشَارَ إليَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَنْصِتْ .

وَفَاءَتْ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ جَماعَةٌ مِن المُسْلِمِيْنَ فَنَهَضُوْا بِهِ إلى الشِّعْبِ فَاحْتَمَى بِهِ مع مَن كَانَ يَحْتَمِيْ هُنَاكَ مِن أَصْحَابِهِ .

وَنَهَضَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إلى صَخْرَةٍ مِنْ الجَبَلِ لِيَعْلُوهَا فلَمْ يَقْدِرْ لِكَثْرَةِ النَّزِيْفِ الذِي خَرَجَ مِن الجِرَاحِ فَجَلَسَ تَحْتَهُ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ فَنَهَضَ به حَتَّى اسْتَوى عَلَيْهَا .

وَحانَتِ الصَّلاَةُ فَصَلَّى بِهِمْ جَالِساً وَصَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ اليَومِ تَحْتَ لِوَاءِ الأَنْصَار وَشَدَّ حَنْظَلَةُ الغَسِيْلُ ـ وَهُوَ حَنْظَلَةُ بنُ أَبِي عَامِرٍ ـ عَلِيَ أبي سُفْيَان فَلَمَّا تمكَّنَ مِنْهُ حَمَلَ عَلِي حَنْظَلَةَ شَدَادُ بنُ الأَسْوَدِ فَقتَلَهُ وَكَانَ جُنُباً فَانَّهُ سَمِعَ الصَّيْحَةَ وَهُوَ عَلَى امْرَأَتِـهِ فَقَامَ مِن فَـوْرِهِ إلى الجِهَادِ فَـأَخْبَـرَ رسُولُ اللهِ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنَّ الملائِكَةَ تُغَسِّلُهُ ثُمَّ قَالَ « سَلُوا أَهْلَهُ مَا شَأْنُهُ فَسَأَلُوا امْرَأَتَهُ فَأَخبرَتْهُمْ الخَبَرَ . وَعِنْدَمَا امْتَدُّوْا صُعُوْداً في الجَبَلِ أَدْرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ عَلَى جَوَادٍ لَهُ اسْمَه العَوْدُ كَانَ يُطْعِمُهُ في مَكَّةَ وَيَقُولُ أَقْتُلُ عَلَيْهِ مُحَمَّداً ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، قَالَ بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إنْ شَاءَ اللهُ فَلَمَّا

أَدْرَكَهُ تَنَاوَلَ ﷺ ؛ الحَرْبَةَ مِنَ الحَارِثِ ، وَطَعَنَ بِهَا عَدُوَ اللهِ في تَرْقُوَتِهِ فَكَرَّ عَدُو اللهُ مُنْهَزِماً ، فَقَالَ لَهُ المشركون واللهِ ما بِكَ مِن بَأْسٍ ، فَقَالَ واللهِ لَوْ كَانَ مَا بِي بِأَهْلِ المَجَازِ لَماتُوا أَجْمَعِيْنَ ، وَمَاتَ في طَرِيْقِهِ بِسَرِفٍ مَرْجِعَهُ إِلَى مَكَة .

وَقَالَ ابنُ عُمَرَانِيّ لأَسِيْرُ بِبَطْنِ رَابغ بَعْدَ هُوِي مِن اللَّيْلِ إذا نَارٌ تَأَجَّجُ لِيْ فَيَمَّمْتُهَا فاذَا رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنها فِي سِلْسِلَةٍ يَجْتَذِبُهَا يَصِيْحُ العَطَش العَطَشَ ، وإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لا تَسْقِهِ هَذَا قَتِيْلُ رَسولِ اللهِ ﷺ هَذا أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ .

وظَنَّ المشركون أَنَّهُم قَدْ انْتَقَمُوا لِيوم بَدْرٍ وَشَفُوا نُفُوْسَهُمْ وأَخَذَتِ المَعْرَكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ تَهْدأُ حِدَّتُهَا وَتَخْمُدُ حَرارَتُها ، فانْحازَ المشركُونَ إِلَى مُعَسْكَرِهِمْ ، وَشُغِلُوْا بِدَفْنِ قَتْلاهُمْ ، وَأَخذَتْ نِسَاؤُهُمْ يُمَثِّلْنَ بالقَتْلَى مِن المُسْلِمِيْنَ ، وَمَثَّلَتْ هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ بِحَمْزَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه أَفْظَعَ تَمْثِيْلَ حَتَّى بَقَرَتْ بَطْنَهُ وَأَخْرَجَتْ كَبِدَهُ ولاكَتْهَا فَلَمْ تَقْدِرْ عَلى أَنْ تُسِيْغَهَا وَلَفَظَتْهَا .

وَلَمَّا وَقَفَ عَلَيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ المَعْرَكَةِ تَأَثَّرَ تَأَثُّراً شَدِيْداً وَقَالَ ﷺ لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَداً وَمَا وَقَفْتُ قَطُ مَوْقِفاً أَغْيَظَ مِن هَذَا .

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَكَلَتْ شَيْئاً » قالُوا : لاَ . قَالَ « مَا كَانَ اللهُ لِيُدْخِلَ شَيْئاً مِنْ حَمْزَةَ في النَارِ » .

وَقَالَ ﷺ لـوَحْشِي الذِيْ قَتَلَ حَمْزَةَ هَلْ تَسْتَطِيْعُ أَنْ تُغَيِّبَ وَجْهكَ عَنِّيْ قَالَ وَحْشِيْ فَخَرَجْتُ فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَخرجَ مُسَيْلِمَةُ الكَذابُ قُلْتُ لأَخْرُجَنَّ إِلَيْهِ لَعَلِّي أَقْتُلُهُ فَأُكَافِيءُ بِهِ حَمْزَةَ قَالَ فَخَرَجْتُ مَعَ الناسِ ثمَّ رَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي فَأَضَعُهَا بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِن بَيْنِ كَتِفَيْهِ قَالَ وَوَثَبَ عَلَيهِ رَجُلٌ مِن

الأَنْصَارِ فَضَرَبَهُ بالسَّيْفِ عَلَى هَامتِهِ .

قَالَ ابنُ هِشَامٍ فَبَلَغَنِيْ أَنَّ وَحْشِياً لَمْ يَزَلْ يُحَدُّ فِي الخَمْرِ حَتَّى خُلِعَ مِن الدِّيْوَانِ .

فكانَ عُمَرُو بنُ الخطابِ يَقُولُ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ قَاتِلَ حَمْزَةَ .

وَرَوَى الدارَ قُطْنِيُ باسنادٍ عَلَى شَرْطِ الشَيْخَيْنِ عن سَعِيْدِ بْنِ المُسَيَّبَ قَالَ كُنْتُ أَعْجَبُ لِقَاتِلِ حَمْزَةَ كَيْفَ يَنْجُوْ حَتَّى إِنَّهُ مَاتَ غَرِيْقَاً في الخَمْرِ .

وَقَالَ عبدُ اللهِ بنُ جَحْشٍ بنُ خُزَيْمَةَ الأَسَدِيُ يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ هَؤُلَاءِ القَومَ قَدْ نَزَلُوا حَيْثُ تَرَى ، وَقَدْ سَأَلْتُ اللهَ فَقُلْتُ : اللّهم إِنِّيْ أُقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ نَلْقَى العَدُوَّ غداً ، فَيَقْتُلُوْنَنِي ، وَيَبْقُرُوْنَنِي ، وَيُمَثِّلُونَ بِيْ ، فألقَاكَ مَقْتُولاً قَدْ صُنِعَ هذا بِي،فَتَقُولُ فِيْمَ صُنِعَ هَذَا بكَ ، فَأَقُولُ فِيْكَ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ أُخْرَى ، أَنْ تَلِيَ تَرِكَتِي مِنْ بَعْدِيَ ، فَقَالَ نَعَمْ فَخَرَجَ حَتَّى قُتِلَ ، وَمُثِّلَ بِهِ وَدفن هو وحمزة رضي الله عنهما في قبر واحد .

وَوَلِيَ تَرِكَتَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فاشْتَرَى لابْنِهِ مَالاً بخَيْبَرَ ، فَأَقْبَلَتْ أُخْتُهُ حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَا حَمْنَةُ احْتَسِبِيْ ، قَالَتْ مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ خَالَكَ حَمْزَةَ ، قَالَت إنَّا للهِ وإنا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنْ ، غَفَرَ اللهُ لَهُ وَرَحِمَه هَنِيْئاً لَهُ الشَّهَادَةُ .

ثم قَالَ لَهَا احْتَسِبِيْ قَالَتْ مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ ، قَالَتْ وَاحَزنَاهْ ، وفي روايةٍ أَنَّهَا قَالَت واعَقْرَاهْ ، فَقَالَ ﷺ إنَّ لِلزَّوْجِ مِنَ المَرْأَةِ

مَكَاناً مَا هُوَ لأحَدٍ .

ثم قَالَ لَهَا لِمَ قُلْتِ هَذَا قَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتُ يُتْمَ بَنِيْهِ فَرَاعَنِيْ ، فَدَعَا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ لِوَلَدِهِ أَنْ يُحْسِنَ عَلَيْهِمُ الخَلَفُ ، فَتَزَوَجَتْ طَلْحَةَ ، فَوَلَدَتْ لَهُ مُحَمَّدَ بْنَ طَلْحَةَ ، فكانَ أَوْصَلَ الناسِ لِوَلَدِهَا ، وَكانَتْ حَمْنَةُ خَرَجَتْ يَوْمَئِذٍ إِلَى أُحدٍ مَعَ النِّسَاءِ يَسْقِيْنَ المَاءَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا

شعرا :

تَبَارَك مَنْ عَمَّ الوَرَى بِنَوَالِهِ
وَأَوسَعَهُمْ فَضْلاً بِإِسْبَاغِ نِعْمَةِ
وَقَدَّرَ أَرْزَاقاً لَهُمْ وَمَعَايِشاً
وَدَبَّرَهُمْ فِيْ كُلِّ طَوْرٍ وَنَشْأَةِ
أَحَاطَ بِهِمْ عِلْماً وَأَحْصَى عَدِيْدَهُم
وَصَرَّفَهُم عَن حِكْمَةٍ والمَشِيْئَةِ
وللهِ بَيْنَ المُؤْمِنِيْنَ وَمِنْهُم
بِكُلِ زَمَانٍ كَمْ مُنِيْبٍ وَمُخْبِتِ
وَكَمْ سَالِكٍ كَمْ نَاسِكٍ مُتَعَبِّدٍ
وَكَمْ مُخْلِصٍ في غَيْبِهِ والشَّهَادَةِ
وَكَمْ صابِرٍ كَمْ صَادِقٍ مُتَبَتِلٍ
إلى اللهِ عَنْ قَصْدٍ صَحِيْحٍ وَنِيَّةِ
وَكَمْ قَانِتٍ أَوَّابَ في غَسَقِ الدُجَى
مِنَ الخَوْفِ مَحْشُوُ الفُؤَادِ وَمُهْجَةِ

يُـنَاجِيْ بـآيـاتِ الـقُـرآنِ إِلَـهَـهُ
بِصَـوْتٍ حَـزِيْنٍ مَـعْ بُكَـاءٍ وَخَشْيَـةِ

وَكَمْ ضَـامِـرِ الأَحْشَـاءِ يَـطْوِي نَهَـارَهُ
بِـحَـرِ هُـجَيْـرٍ مَـا تَـهَـنَّـا بشَـرْبَـةِ

وَكَـمْ مُـقْـبِـلٍ فـي لَـيْـلِهِ وَنَـهَـارِهِ
عَـلَى طَـاعَـةِ المَـوْلَـى بِجِـدٍّ وَهِـمَّـةِ

وَكَمْ زَاهِـدٍ في هَـذِهِ الـدَارِ مُعْـرِضٍ
وَمُقْـتَـصِـرٍ منهـا عَـلَى حَـدِ بُـلْغَـةِ

تَـزَيَّـنَـتِ الـدُنْـيَـا لَـهُ وَتَـزَخْـرَفَـتْ
فَـغَضَّ وَلَـم يَـغْـتَـرَّ مِـنْـهَـا بِـزِيْـنَـةِ

وَكَـمْ عَـالِـمٍ بـالـشَّـرْعِ للهِ عَـامِـلٌ
بِمُـوجَبِـهِ فـي حَـالِ عُـسْـرٍ وَيُـسْـرَةِ

وَكَمْ آمِـرٍ بـالـرُّشْـدِ نَـاهٍ عَنْ الـرَّدَى
سَـرِيْعٍ إِلى الخَيْـراتِ مِنْ غير فَتْـرَةِ

فَـإِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَـا سَعِيْـداً مُـوَفَقَـاً
وَتُحْـظَى بِفَـوزٍ عِنْـدَ نَشْـرِ الصَّحِيْفَـةِ

فَحَـافِظْ عَلَى المَفْرُوْض مِنْ كُـلِّ طَاعَةٍ
وأَكْـثِـرْ مِنَ الـنَّقْـلِ المُفـيْـدِ لِقُـرْبَـةِ

بِـكُنْتُ لَـه سَمْعـاً إِلَى آخِـرِ الـنَّبَـا
عَـنِ اللهِ في نصِّ الـرَّسُـولِ المُـثْبَتِ

وكُنْ في طَعَامٍ والْمَنَامِ وَخِلْطَةٍ
ونُطْقٍ على حَدِّ اقْتِصَارٍ وقِلَّةِ
وَجَالِسْ كِتَابَ اللهِ واحْلُلْ بِسَوْحِهِ
وَدُمْ ذَاكِراً فالذِّكْرُ نُوْرُ السَّرِيْرَةِ
عَلَيْكَ بِهِ في كُلِّ حِيْنٍ وحَالَةٍ
وبالفِكْرِ إنَّ الفِكْرَ كُحْلُ البَصِيْرَةِ
وَكُنْ أَبَداً في رَغْبَةٍ وَتَضَرُّعٍ
إلى اللهِ عن صِدْقِ افْتِقَارٍ وَفَاقَةِ
وَوَصْفِ اضْطِرَارٍ وانْكِسَارٍ وَذِلَّةٍ
وقَلْبٍ طَفُوْحٍ بالظُّنُوْنِ الجَمِيْلَةِ
وَبَعْدُ فإنَّ الحَقَّ أَفْضَلُ مَسْلَكٍ
سَلَكْتَ وَتَقْوَى اللهِ خَيْرُ بِضَاعَةِ
وَمَن ضَيَّعَ التَّقْوَى وَأَهْمَلَ أَمْرَهَا
تَغَشَّتْهُ في العُقْبَى فُنُونُ النَّدَامَةِ
وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا قُصَارَى مُرَادِهِ
فقَدْ بَاءَ بالخُسْرَانِ يَومَ القِيَامَةِ
وَمَن لَمْ يَكُنْ في طَاعَةِ اللهِ شُغْلُهُ
عَلَى كُلِّ حَالٍ لا يَفُوزُ بِبُغْيَةِ
وَمن أَكْثَرَ العِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوبَةٍ
فَذَاكَ طَرِيْحٌ في فَيَافي الغِوَايَةِ

بعيـدٌ مِنَ الخَيْـرَاتِ حَـلَّ بِـه البَـلاَ
وَوَاجَهَـهُ الخُـذْلاَنُ مِـن كُـلِّ وِجْهَـةِ

عَجِبْتُ لِمَـنْ يُـوْصِيْ سِـوَاهُ وَإِنَّـهُ
لأَجْـدَرُ مِـنْـهُ بـاتِّـبَـاعِ الـوَصِيَّـةِ

يَـقُـولُ بِـلاَ فِـعْـلٍ وَيَـعْـلَمُ عَـامِـلاً
عَلَى ضِـدِّ عِلْمٍ يَـا لَهَا مِنْ خَسَارَةِ

عُـلُومٌ كَـأَمْثَـالِ الـجِبَـالِ تَـلاَطَـمَـتْ
وَأَعْـمَـالُـهُ في جَـنْبِـهَـا مِـثْـلُ قَـطْرَةِ

وَقَـدْ أَنْـفَقَ الأَيَّـامَ في غَـيْـرِ طَـائِلٍ
كَـمِـثْـلِ اللَّيَـالِيْ إِذْ تَـقَـضَّـتْ وَوَلَّـتِ

عَلَى السَّوْفِ والتَّسْوِيْفِ شَـرُّ مُصَاحِبٍ
وَقَـوْلِ عَـسَى عَـنْ فَـتْـرَةٍ وَبَـطَالَـةِ

تَـنَكَّـبَ عَجْـزاً عَـنْ طَـرِيْـقِ عَـزِيْـمَـةٍ
وَمَـالَ لِتَـأْوِيْـلٍ ضَـعِـيْـفٍ وَرُخْـصَـةِ

يَـهِـمُّ بِـلاَ جِـدٍّ وَلَـيْـسَ بِـنَـاهِضٍ
عَلَى قَـدَمِ التَـشْمِيْـرِ مِنْ فَـرْطِ غَـفْلَةِ

وَقَـدْ سَارَ أَهْـلُ العَـزْمِ وَهُـوَ مُخَلَّفٌ
وَقَـدْ ظَفِـرُوْا بِـالقُرْب مِنْ خَيْـرِ حَضْـرَةِ

وَقَـدْ أَدْرَكُـوا الـمَـطْلُوبَ وَهُـو مُقَـيَّـدٌ
بِـقَيْدِ الأَمَـانِيْ وَالْحُـظُوظِ الخَسِيْسَـةِ

وَلَمْ يَنْتَهِزْ مِن فَائِتِ العُمْرِ فُرْصَةً
وَلَم يَغْتَنِمْ حَالَيْ فَرَاغٍ وَصِحَّةِ

وَلَمْ يَخْشَى أَنْ يَفْجَاهُ مَوتٌ مُجَهِّزٌ
فَإِنَّ مَجِيءَ المَوْتِ غَيْرُ مُؤَقَّتِ

وَلَمْ يَتَأَهَّبْ لِلرُّجُوْعِ لِرَبِّهِ
وَلَمْ يَتَزَوَّدْ لِلطَّرِيْقِ البَعِيْدَةِ

وَبينَ يَدَيْهِ المَوْتُ والقَبْرُ والبَلَى
وَبعْثٌ ومِيْزَانٌ وَأَخْذُ الصَّحِيْفَةِ

وَجَسْرٌ عَلَى مَتْنِ الجَحِيْمِ وَمَوْقِفٌ
طَوِيْلٌ وَأَحْوَالُ الحِسَابِ المَهُوْلَةِ

وَلكنَّهُ يرجُو الذِي عَمَّ جُوْدُهُ
وإحْسَانُهُ وَالفَضْلُ كُلَّ الخَلِيْقَةِ

إلهٌ رَحِيمٌ مُحْسِنٌ مُتَجَاوِزٌ
إِليهِ رُجُوعِي فِي رَخَائِي وَشِدَّتِي

غِيَاثِيْ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي
وَمِنْهُ أُرَجِّي كَشْفَ ضَرِّي وَمِحْنَتِي

فَيَا ربُّ ثَبِّتْنَا عَلَى الحَقِ والهُدَى
وَيَا رَبَّنَا اقْبِضْنَا عَلَى خَيْرِ مِلَّةِ

وَعُمَّ أُصُولاً والفُرُوْعَ بِرَحْمَةٍ
وأَهْلاً وَأَصْحَاباً وكُلَّ قَرَابَةِ

وَسَائِرَ أَهْلِ الدِّيْنِ مِن كُلِّ مُسْلِمٍ
أَقَامَ لَكَ التَّوْحِيْدَ مِنْ غَيْرِ رِيْبَةِ
وَصَلِّ وَسَلِّم دَائمَ الدَّهْرِ سَرْمَدَا
عَلَى خَيْرِ مَبْعُوْثٍ إِلَى خَيْرِ أُمَّةِ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ عَمَّ العِبَادَ فَضْلُهُ وَنَعْمَاؤُهُ وَوَسِعَ البَرِيَةَ جُوْدُهُ وَعَطَاؤُه نَسْأَلُكَ أنْ تُوَفِّقَنَا لِإِمْتِثَالِ أَمْرِكَ واجْتِنَابِ نَهْيِكَ وأنْ تُلْهِمَنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وأنْ تَرْزُقنا حُبَّكَ وُحَبُّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَمَلِ الذِي يُقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّكَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيْعِ المسلمين برحمتك يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل »

وَبَعْدَ ذلِكَ مَشَى أَبُوْ سُفْيَانَ يَتَفَقَّدُ القَتْلَى مِنْ المُسْلِمِيْنَ ، وَيَتَعَرَّفُ وُجُوْهَهُمْ ، فَلَمَّا وَجَدَ حَمْزَةَ صَرِيْعاً بَيْنَهُمْ ، جَعَلَ يَضْرِبُ فِي شِدْقِهِ بِكَعْبِ الرُّمْحِ ، وَيَقُولُ ذُقْ عَقَقُ ، فَرَآهُ الحُلَيْسُ سَيِّدُ الأَحَابِيْشِ ، فَأنْكَرَ عَلَيهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِابْنِ عَمِّهِ ، وَهُوَ مَيِّتٌ ، فاسْتَحْيَا أَبُو سُفْيَانَ مِن هَذِهِ الزَّلَةِ ، وطَلَبَ إِلَيْه أَنْ يَكْتُمَهَا عَلَيْهِ ، وَلاَ يُذِيْعُهَا فِي النَاس ، لِأَنَّهَا سَخَافَةٌ وَسَمَاجَةٌ وَقَضَا عَاجِزٍ وَكَانَ هَمُّ أَبِي سُفْيَانَ أن يَجِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ في القَتْلَى ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْهُ بَيْنَهُمْ ، أَخَذَ الشَّكُ يُخَامِرُهُ في أَنَّهُم قَتَلُوهُ ، فَذَهَبَ إِلى نَاحِيَةِ الشِّعْبِ الذِي اعْتَصَمَ بِهِ الرَّسُوْلُ ﷺ وأَصْحَابُهُ ، وَجَعَلَ يُنَادِيْ ، أفِيْكُمْ مُحَمَّدٌ ، أَفِيْكُمْ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ، أَفِيْكُمْ ابنُ الخَطَّابِ ، فَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُجِيْبُوْهُ ، فَلَمَّا لَم يُجِبْهُ أَحَدٌ ، أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِن المُشْرِكِيْنَ ، فَقَال لَهُمْ أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ

كُفِيْتُمُوْهــمْ ، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفسَهُ أَنْ قَالَ كَذَبْتَ واللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ ، قَدْ أَبْقَى اللهُ لَكَ مَا يَسُوءُكَ ، فَقَالَ أَبُوْ سُفْيَانَ ، وَكَأَنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَعْتَذِرَ مِمَّا فَعَلَتْ نِسَاءُ قُرَيْشٍ بِقَتْلَى المُسْلِمِيْنَ : إِنَّكُمْ سَتَجِدُوْنَ في القَومِ مُثْلَةً لَم آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِيْ ، ثُمَّ جَعَلَ يَرْتَجِزْ قَائِلاً نِعْمَتْ فِعَالُ ، إِنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ ، أُعْلُ هَبَلْ .

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « قُوْلُوا لَهُ اللهُ أَعْلَى وَأَجل » قَالَ أَبُو سُفْبَانَ : لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « قُولُوا لَهُ ؛ اللهُ مَوْلاَنَا وَلاَ مَوْلَى لَكُم » فقالَ أبو سُفْيَانَ : يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قُولُوا لَهُ لاَ سَوَاءَ قَتْلاَنَا في الجَنَّةِ وقَتْلاَكُمْ في النَارِ .

ثُمَّ أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُدْفَنَ الْقَتْلَى حَيْثُ صُرِعُوْا ، وَقَالَ لُفُوْهُمْ في ثِيَابِهِمْ ، وَدِمَائِهِمْ ، وَجِرَاحِهِمْ . . . وانْظُرُوْا أَيُّهُم أَكْثَرَ أَخْذاً لِلْقُرْآنِ ، فإِذَا أَشَارُوْا إِلَى رَجُلٍ قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ .

وَكَانَ يَدْفُنُ الإِثْنَيْنِ ،والثلاثَةِ في القَبْرِ الوَاحِدِ ، لِمَا كَانَ عَلَيهِ الصَّحَابَةُ يَوْمَئِذٍ مِن الإِعْيَاءِ والضّعْفِ ، والجِرَاحِ ، فَيَعجَزُوْا أَنْ يَحْفِرُوْا لِكُلّ وَاحِدٍ قَبراً ، وَدُفِنَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرو بن حَرَامٍ وَعَمْرُو ابنُ الجَمُوْح في قَبرٍ وَاحِدٍ ، لِمَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِن المَحبَّةِ فَقَالَ ادْفُنُوْا هَذَيْنِ المُتَحَابَيْنِ في الدُنْيَا في قَبرٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ حُفِرَ عنْهُـمَا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيْلٍ وَيَدُ عَبْدِ اللهِ بن حرامٍ عَلَى جِرَاحَتِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِيْنَ جُرِحَ ، فَأُمِيْطَتْ يَدُهُ عن جِرَاحَتِهِ ، فانْبَعَثَ الدَّمُ فَرُدَّتْ إِلى مَكَانِهَا، فَسَكَنَ الدَّمُ، وَمَا تَغَيَّرَ مِن حَالِهِ قَلِيْلٌ وَلاَ كَثِيْرٌ قِيلَ لَهُ أَفَرَأَيْت أَكْفَانَهُ فَقَالَ إِنَّمَا دُفِنَ في نَمِرَةٍ خُمِّرَ بِهَا وَجْهَهُ وَعَلَى رِجْلَيْهِ الحَرْمَلِ فَوُجِدتِ النَّمِرَةُ كَمَا هِي وَعَلَى رِجْلَيْهِ الحَرْمَلُ عَلَى هَيْأَتِهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ سِتَّةٌ وَأَرْبَعُوْنَ سَنَةً .

وَلَمَّا فَرَغَ رسولُ الله ﷺ من دَفْنِ أَصْحَابِهِ رَكِبَ فَرَسَهُ وَتَوَجَّهَ نَحْوَ المَدِيْنَةِ ، والمُسْلِمُونَ مِن حَوْلِـهِ ، أَكْثَرُهُمْ جـرْحَى ، يَتَحامَلُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، مِمَّا بِهِمْ مِن شِدَّةِ الجُهْدِ ، وَيَتَلاَوَمُوْنَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِن خِلافٍ لِإمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَيَرْجُوْنَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ هَذِهِ الزَّلَةَ وَيَتَجاوَزُ لَهُمْ عَنْهَا .

وَلَمَّا وَصلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى المَدِيْنَةِ ، وَجَدَ النِسَاءَ عِندَ بَابِهَا يَبْكِيْنَ قَتْلاَهُنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ مُقبلاً نَسِيْنَ مَا هُنَّ فِيه مِن الحُزْنِ ، وأَسْرَعْنَ إِلَيْهِ ، يَنْظُرْنَ إِلى سَلاَمَتِهِ ، فَلَمَّا رأيْنَهُ في سَلاَمَةٍ ، هَانَتْ عَلَيْهِنَّ المُصِيْبَةُ .

وَجَاءَتْ أُمُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ تَعْدُوْ نَحْوَهُ ، وَتَتَأَمَّلُهُ حَتَّى إِذَا اطْمَأَنَّتْ على سَلاَمَتِهِ ، قَالَتْ أَمَّا إِذَا رَأَيْتُكَ سَالِماً فَقَدْ اشْوَتِ المُصِيْبَةُ فَعزَّاهَا رَسُولُ الله ﷺ بابْنِهَا عَمْرِو بن مُعَاذٍ ، ثُمَّ قال لَهَا يَا أُمَّ سَعْدٍ ، أَبْشِرِيْ ، وَبَشِّرِيْ أَهْلِيْهِمْ أَنَّ قَتْلاَهُمْ تَرَافَقُوا في الجَنَّةِ جَمِيْعاً، قَالَتْ رَضِيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ، وَمَنْ يَبْكِيْ عَلَيْهِم بَعْدَ هَذ ا .

ثم قَالَتْ أَدْعُ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَنْ خَلَّفُوْا ، قَالَ اللَّهُمَّ أَذْهِبْ حُزْنَ قُلُوْبِهِمْ ، واجْبُرْ مُصِيْبَتَهُمْ ، وأَحْسِنْ الخَلَفَ عَلَى مَنْ خَلَّفُوَا ثمَّ عَزَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ ، مِن الجَرْحَى أَنْ يَرْكَنُوْا إِلى بُيُوْتِهِمْ ، وَلِيُدَاوُوْا جِرَاحَهُمْ ، فَتَخَلَّفَ عَنْهُمْ كُلُّ مَجْرُوْحٍ ، وَبَاتُوا يُوْقِدُوْنَ النَّارَ ، ويُكَمِّدُوْنَ بِهَا الجِرَاحَ .

وَمَضَى ﷺ ، حَتَّى جَاءَ بَيْتَهُ ، فَمَا نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ إلاَّ حَمْلاً ، ثُمَّ مَشَى يَتَحامَلُ عَلَى السَّعْدِيْنِ ، سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، وَسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ ، فَلَمَّا أَذَّنَ بِلالُ لِصَلاةِ المَغْرِبِ خَرَجَ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الحَالِ ، يَتَوَكَأُ عَلَى السَّعْدَيْنِ ، فَصَلَى ثُمَّ عَادَ إِلى بَيْتِهِ ، وَبَاتَ وُجُوْهُ الأَوْسِ ، والخَزْرَجِ عَلَى بَابِهِ في المَسْجِدِ، يَحْرِسُوْنَهُ ، مَخَافَةَ أَنْ تَكِرَّ قُرَيْشٌ ، وَهُمْ غَافِلُونَ .

فَـلاَ يَـغُـرَنَّكُـمْ لَـمَّـا جَـرَى قَـدَرٌ
فَـرُبَّـمَـا فِـيـهِ تَـأدِيْـبٌ وتِـبْـيَـانُ
لِـيَـنْـتَـبِـهْ غَـافِـلاً أو قَـائِـلاً زَلَـلاً
وَمُـعْـجَـبٌ غَـرَّهُ بـالـعُـجْـبِ شَـيْـطَانُ
كَمَـا جَـرَى في حُنَيْنْ إذْا قَـالَ قَـائِلُهُمْ
الـيَـوْمَ مِـنْ كَـثْـرَةٍ يَـأتِـيْ لَـنَـا شَـانُ
فـأَدْبَـرُوْا عـن رَسُـولِ اللهِ وانْـهَـزَمُـوا
لـم يَلُوْا مِنْ أَحَـدِ والْكُـلُّ فُـرْسَـانُ
لَـمْ يَبْـقَ إلا نَـبِـيُّ اللهِ يَـطْعُنُـهُـمْ
أَنَـا ابنُ مُطَّلِبٍ والـجَـدُ عَـدْنَـان
حَتَّى إذَا قَـالَ يَـا أَصْحَـابَ سَمْـرَتِنَـا
هَـلُمَّ إنَّ عَـلَى الـرِّضْـوَانِ رِضْـوَانُ
جَـاؤُوا يُـلَبُّـونَ والأَسْيَـافُ مُصْلَـتَةٌ
كَـأنَّـهُـنَّ بـأَيْـدِي الـقَـوم نِـيْـرَان
تِـلكَ الأُمُـورُ مِـنَ الـبَـارِي يُـدَاوِلُـهَـا
فـكُـل يـوم لَـهُ في خَـلْقِـهِ شَـانُ
لَـم يَـأْتِ مِـن خَـلَلٍ إلَّا لَـهُ سَـبَـبٌ
فـانـظُرْ فَمِنْ أيِ بَـاب جَـاء نَقْصَـانُ

إجْـعَـلْ مُـرَادَكَ دِيْـنَ اللهِ تَـنْـصُـرُهُ
فـالْمُلْكُ بـالـدِّيْنِ لا بـالجُنْـدِ يُنْصَـانُ

وَكُنْ مـعَ اللهِ لاَ تَخْشَى المَـلاَ أَبَـداً
يَـكُـنْ لَـكَ اللهُ والأَمْـلاَكُ أَعْـوَانُ

والـنـاسُ إلاَّ قَـلِيْـلٌ قَـالَ أَكْـثَـرُهُـمْ
إِذَا رَأَوْا نَـاصِـحـاً قَـالُـوا بِـهِ جَـانُ

عن نَصْـرَةِ الـدِّيْـنِ أَمْـوَاتٌ بِهِـمْ وَهَنٌ
وَنُصْـرَةُ الـمَـالِ فُـرْسَـانٌ وَشُـجْعَـانُ

صَلِّحْ لِـدُنْيَـاكَ مَـا يَخْصُصْـكَ مِن أَحَـدٍ
لِـلـنَّـاسِ وَادٍ وَقَـدْ آوَتْـكَ وُدْيَـانُ

تُنَفِّـرُ الـنـاسَ والإِخْـوَانُ قَـدْ سَكَـتُـوا
أَعْـرِضْ وَكُنْ مِثْلَهم ودِنْ بمـا دَانُـوْا

كُنْ لِلْمُلُوكِ عَلَى الأَهْـوَاءِ تَعِشْ مَعَـهُمْ
فـاللهُ فـي جَـنْـبِـهِ عَـفْـوٌ وَغُـفْـرَانُ

يَـا قَاتَلَ اللهُ مَـنْ هَـذِلي مَـقَـالَـتُـهُ
هَـذَا ابْـنُ ابْـلِيْسَ غَـشَّـاشٌ وَفَـتَّـانُ

يـا حَسْـرَةَ الـدِينِ مِن هَـذَا وَشِيْعَتِـهِ
إِنْ سُـوْعِـدُوْا لَـمْ يَقُـمْ لِلدِّيْـنِ بُنْيَـانُ

«هَـذَا وأَمْـثَـالُـهُ كَـمْ ثَـبَّـطُوْا أمَـمـاً
عَـن نَـصْـرِ دِيْـنٍ ولِـلشَّـيْـطَانِ أَعْـوَانُ»

«في كُـلِّ وَقْتٍ فَكُنْ مِنْهـم عَلَى حَـذِرٍ
لا يَخْـدَعُـوكَ فَهُم في المَكْـرِ فُرْسَـانُ»

«واصْحَبْ أَخاً الزُهْـد لا تَبغِيْ بِهِ بَـدَلاً
النَّــاصِــرَ الــدِّيْنِ لِـلتَّـــوْحِيْـدِ مِـعْــوَانْ»

اللَّهم أَقِمْ عَلَمَ الجِهَادِ وأَقْمَعْ أهْلَ الشَرِّ والزَّيغِ والكُفْرِ والعِنَادِ واغفر لنا ولِوَالدينا ولِجميع المسلمين الأحياءِ مِنهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

موعظة

عِبَادَ اللهِ نَحْنُ في زَمَانٍ كَمَا تَرَوْنَ قَدْ كَثُرَ فِيْهِ الشَّرُ وَوَسَائِلُهُ وانْتَشَرَ في الأَرْضِ انْتِشَاراً لا يَخْطُرُ عَلَى الأَفْكَارِ فإذَا رُمْتُمْ حَاجَةً مِن السُّوْقِ فاقْضُوْهَا بِسُرْعَةٍ مُنْكِرِيْنَ في قُلُوْبِكُمْ وفي ألسِنَتِكُمْ حَسَبَ قُدْرَاتِكُمْ عَلَى مَنْ رَأَيْتُمُوْهُ يَعْمَلُ المُنْكَراتِ واتْرُكُوْا الإِجْتِمَاعَ مَعَ مَن لا تَسْلَمُوْنَ مِن الإِثْم إذَا اتَّصَلْتُمْ بِهِ لا سِيَّمَا وَقَدْ كَثُرَ مَنْ لا تُؤْمَنُ شُرُوْرُهُ وأَضْرارُهُ وَمَفَاسِدُهُ وأَحْرَصُوا عَلَى غَضِّ أَبْصَارِكُمْ فإِنَّكُم إنْ أَطْلَقْتُمْ لَهَا العِنَانَ رَأَيْتُمْ مِنَ البَلاَيَا مَالاَ يُحْصِيْهِ العَدُّ ولاَ يَأْتِي عَلَيهِ البَيَانُ تَرَوْنَ النِسَاءَ في حَالَةٍ تُؤْلِمُ قَلْبَ كُلِّ مُؤْمِنٍ ذِيْ مُرُوْءَة وَشِيْمَةٍ وَغَيْرَةٍ دِيْنِيَّةٍ وَتَرَوْنَ الغِشَّ السَّائِدَ في كُلِّ المُعَامَلاَتِ بدَرجَةٍ قَلَّ أنْ يَنْجُوْ مِنْهَا أَذْكَى النَّاس وأَيْقَظُهُمْ وأَقْوَاهُم فِرَاسَةً وَتَرَى الدُّخَانَ عَن يَمِيْنِكَ وَيَسَارِكَ تُؤْذِيْكَ رَائِحَتُهُ الكَرِيْهَةُ وَتَرَى حَلاَقِيْ اللِّحَى وَمُصَلِّحِي التَّوَالَيْتَاتِ والخَنَافِس وَتَرَى النِّسَاءَ تَرْكَبُ مَعَ أيٍّ وَاحِدٍ بِدُوْن مَحْرَمٍ وَتَدْخُلُ عَلَى الخَيَّاطِ يَقِيْسُ عَلَيْهَا وَتَرَوْنَ الكَثِيْرَ مِنَ الناسِ لا يُعَرِّجُونَ على المَسَاجِدِ أَوْقَاتَ الصَّلاةِ وَتَرَوْنَ المُجَاهِرِيْنَ بالمَعَاصِيْ يَدُوْرُوْنَ في الأَسْوَاقِ لَيْسَ لَهُمْ شُغْلٌ إلا مَا يُحْزِنُ قَلْبَ كُلِّ غيورٍ لِدِيْنِهِ وَتَراهُمْ نَبَذُوْا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُوله وَرَاءَ ظُهُورِهِم وأَقْبَلُوا عَلَى المَلاَهِيْ والمُنْكَرَاتِ إِقْبَالاً فَوْقَ مَا يَتَصَوَّرُهُ العَاقِلُ اللَّبِيْبُ وَتَرَاهُمْ إِذَا قَضَوْا

مَآربَهُمْ مِن كُتُبٍ تَحْتَـوِيْ عَلَى الدِّيْنِ وَغَيْرِهِ فِيْهَا آياتٌ وأَحَادِيْثُ أَلْقَوْهَا في الأَسْوَاقِ والمَزَابِلِ مَعَ القُمَامِ وَكَذَلِكَ بَاقِي النِّعَم تَجِدُهَا مُلْقَاةً مَعَ القَاذُوْرَاتِ وَتَراهُمْ دَائِماً في مُطَالَعَةِ الجَرَائِدِ والمَجَلَّاتِ ولَوْ نَاوَلْتَ أَحَدَهُمْ مُصْحَفاً أَو البُخَارِيَّ أَوْ مُسْلِماً يَقْرأُ شَيْئاً مِنْه لَسَارَعَ إِلَى الضَّحِكِ أَوِ النَّوْمِ واسْتَرْخَتْ مَفَاصِلُهُ كَأَنَّكَ نَاوَلْتَهُ مَا يُذْهِبُ العُقُولَ وَيُرْقِدُ الأَبْدَانَ وَتَراهُ يَسْهَرُ كُلَّ لَيْلِهِ في صُنُوْفِ المَعَاصِيْ وَعِنْدَ المَلاَهِيْ لَكِنْ يَثْقُلُ عَلَيْهِ جِداً أَنْ يَسْهَرَ سَاعةً في طَاعَةِ مَوْلاَهُ وَتَرَاهُمْ أمامَ التَّلْفزيُوْنِ مُقَابِلِيْنَ لَهُ وَمُقْبِلِيْنَ بقُلُوبِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ وأَسْمَاعِهِمْ ولَوْ نُودِيْ أَحَدُهُمْ لَشَتَمَ المُنَادِيْ وسَبَّهُ بَلْ رُبَّمَا لَعَنَهُ وَقَذَفَهُ خَوْفاً مِن فَوَاتِ مَا يَظْهَرُ فِيْهِ مِن مُنْكَراتٍ مِن نِسَاءٍ سَافِرَاتٍ وَتَمْثِيْلِياتٍ خَلِيْعَةٍ وأَغَانِي مُهَيِّجَةٍ لِلْفَسَادِ وَنَحْو ذَلك تَمرُّ السَّاعَاتُ لا يَمُلُّون بَلْ هُمْ مُرْتَاحُوْنَ لَهُ وَأَمَّا أَمَامَ رَبِّ العَالَمِيْنَ الذِيْ خَلَقَهُم وَرَزَقَهُمْ فَعَشَرُ الدَّقَائِقِ الَّتِي يَقِفُوْنَهَا في الصَلاةِ أَثْقَلُ مِنْ رَضْوَى وَأُحُدٍ وَيَتَسَابَقُونَ إِلَى الذِي يَمُرُّهَا مَرَّ السَّحاب وإِذا تَأَخَّرَ الإِمامُ ولو دَقِيْقَةً رَأَيْتَهُمْ يَتَلَفَّتُوْنَ وَيَبْحَثُوْنَ عَنْه فَإِنْ كانَ حَاضِراً أَكْثَرُوْا مِن الاسْتِغْفَارِ والحَوْقَلَةِ والتَّهْلِيْلِ لِيُفْهِمُوْه أَنَّهُمْ يُرِيْدُوْنَ أَنْ يُعَجِّلَ فَيُصَلِّى كَأَنَّ على رُؤُوسِهِمْ حِمْلاً أَوْ عَلَى أَظْهُرِهِمْ حَتَّى الذِي يَتأَخَّرُ بَعْدَ الصَّلاةِ وَيَقْعُدُ يَتَكَلَّمْ في أُمُورِ الدُّنْيَا المَنْهِيِّ عَنْهُ في المَسْجِدِ وَهَذِهِ حَالَةٌ واللهِ يُرْثَى لَهَا قَالَ ابن القيم :

يَا نَاصِرَ الإِسْلامِ والسُّنَنِ الَّتِي
جَاءَتْ عَنِ المَبْعُوْثِ بِالفُرْقَانِ
يَا مَن هُوَ الْحَقُّ المُبِيْنُ وَقَوْلُهُ
ولِقَاؤُه وَرَسُولُهُ بِبَيَانِ

اشْــرَحْ لِـدِيْنِـكَ صَــدْرَ كُــلِّ مُــوَحِّــدٍ
شَــرْحــاً يَــنَــالُ بِــهِ ذُرَى الإِيْــمَــانِ
واجْـعَـلْهُ مُـؤْتَـمـاً بِــوَحْـيِــكَ لا بِـمَــا
قَــد قَــالَــهُ ذُو الإِفْــكِ والــبُــهْــتَــانِ
وانْصُــرْ بِــهِ حِــزْبَ الهُــدَى واكْبِتْ بِــهِ
حِــزْبَ الــضَّــلاَلِ وشِــيْــعَــةَ الــشــيْــطَانِ
وانْــعَــشْ بِــهِ مَــنْ قَــصْــدُهُ إِحْــيَــاؤُهُ
واعْــصِــمْــه مِــنْ كَــيْــدِ امْــرِىءٍ فَــتَّــانِ

اللهم إنّا نَعُوذُ بكَ مِن زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحوُّل عَافِيَتِكَ وَفَجْاءَةِ نِقْمَتِكْ وَجَمِيْعِ سَخَطِكْ ونَسْأَلُكَ أنْ تَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدِيْنا ولِجَمِيعِ المسلمين برحمتك يا أرحمَ الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبهِ أجمعين .

« فصل »

في ذِكْرِ بَعْضِ الحِكَمِ التِي كَانَتْ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ

قَالَ ابنُ القيمِ رحمه اللهُ وقد أشارَ الله سبحانَهُ إلى أُمَّهَاتِهَا وأُصُوْلِهَا في سُوْرَةِ آلِ عِمْرَانَ حَيْثُ افْتَتَحَ القِصَّةَ بقولِهِ (واذ غَدَوْتَ مِن أَهْلِكَ تُبوءُ المؤمِنِيْنَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) إلى تَمَامِ سِتِّيْنَ آيَةٍ : قَالَ فَمِنْهَا : تَعْرِيْفُهُمْ بِسُوْءِ عَاقِبَةِ المَعْصِيَةِ، والفَشَلِ والتَّنَازُعِ ، وأَنَّ الذيْ أَصَابَهُمْ إِنَّما هُوَ بِشُؤْمِ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تعالى (٣ : ١٥٢) ولقد صَدَقَكم اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُوْنَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ في الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنكُم مَنْ يُرِيْدُ الدُنيا ومنكُمْ مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرفَكُم عَنْهُم لِيَبْتَلِيَكُم وَلَقَد عَفا

عَنْكُم)

فَلَمَّا ذَاقُوا عَاقِبَةَ مَعْصِيَتِهِمْ لِلرَّسُولِ وَتَنَازُعِهِمْ وَفَشَلِهِمْ كَانُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَشَدَّ حَذَراً وَيَقْظَةً وَتَحَرُّزاً مِن أَسْبَابِ الخُذْلَانِ .

ومنها أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ . وَسُنَّتَهُ في رُسُلِهِ ، وأَتْبَاعِهِمْ : جرَتْ بأَنْ يُدَالُوا مَرَّةً ، ويُدَالَ عَلَيْهِمْ أُخْرَى ، لَكِنْ تَكُونُ لَهُمُ العاقِبَةُ ، فَإِنَّهُمْ لَو انْتَصَرُوْا دائماً دَخَلَ مَعَهُمْ المُسلِمُوْنَ ، وَغَيْرُهُمْ ، وَلَمْ يَتَمَيَّزِ الصَّادِقُ مِن غَيْرِه ، وَلَو انْتَصَرُوْا عَلَيْهِمْ دَائِماً ، لَمْ يَحْصُلِ المَقْصُوْدُ مِن البِعْثَة والرِّسَالَةِ ، فاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ جَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ ، لِيَتَمَيَّزَ مَنْ يَتْبَعُهُمْ ، وَيُطِيْعهُمْ ، لِلْحَقِّ وَما جَاؤُوا بِهِ ، مِمَّنْ يَتْبَعُهُمْ عَلَى الظُّهُورِ والغَلَبَةِ خَاصَةٍ .

وَمِنْهَا أَنَّ هَذَا مِنْ أَعْلَامِ الرُّسُلِ كَما قَالَ هِرَقْلُ لأَبِيْ سُفْيَانَ « هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ » قَالَ نَعَمْ : قَالَ كَيْفَ الحَرْب بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ، قَالَ سِجَالٌ نُدَالُ عَلَيْهِ المَرَّةَ ، وَيُدَالُ عَلَيْنَا الأُخْرَى ، قَالَ : كَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ رواه البخاري .

ومنها أَنْ يَتَمَيَّزَ المُؤْمِنُ الصَادِقُ مِن المُنَافِقِ الكاذِب ، فانَّ المُسْلِمِيْنَ لَمَّا أَظْهَرَهُمُ اللهُ عَلَى أَعْدَائِهِم يَوْمَ بَدْرٍ وَطَارَ لَهُمُ الصِّيْتُ دَخَلَ مَعَهُمْ في الإِسْلَامِ ظَاهِراً مَنْ لَيْسَ مَعَهُمْ فِيْهِ بَاطِناً ، فاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ سَبَّبَ لِعِبَادِهِ ، مِحْنَةً مَيَّزَتْ بَيْنَ المُؤْمِنِ والمُنَافِقِ فَأَطْلَعَ المُنَافِقُونَ رُؤُوْسَهُمْ في هَذِهِ الغَزْوَةِ ، وَتَكَلَّمُوْا بِمَا كَانوا يَكْتُمُوْنَهُ ، وَظَهَرَتْ مُخَبآتُهُم ، وَعَادَ تَلْوِيْحُهُمْ تَصْرِيْحَا وانْقَسَمَ النَاسُ إلى كَافِرٍ ، وَمُؤْمِنٍ ، وَمُنَافِقٍ ، إِنْقِسَاماً ظاهِراً لا يُفَارِقُهُمْ ، فاسْتَعَدُّوْا لَهُمْ ، وَتَحَرَّزُوْا مِنْهُمْ .

قَالَ اللهُ تَعالَى (٣ :١٧٩وَمَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِيْنَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يمِيْزَ الـخَبِيْثَ مِنَ الطَّيب وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُم عَلَى الغَيب ولكن اللهَ يَجْتَبِي مِن رُسُلِهِ مَن يَشَاء) أَيْ مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَكُم عَلَى مَا أَنْتُم عَلَيهِ مِن الْتِبَاسِ المُؤْمِنِيْنَ بالمُنَافِقِيْن ، حَتَّى يُمَيِّزَ أَهْلَ الإِيْمَانِ مِن أَهْلِ النِّفَاقِ كَمَا مَيَّزَهُمْ بِالمِحْنَةِ يَوْمَ أُحُدٍ ﴿ وَمَا كَان اللهُ لِيُطْلِعَكُم عَلَى الغَيْبِ ﴾ الذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ هؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فإِنَّهُمْ مُتَمَيِّزُوْنَ في عِلْمِهِ وَغَيْبِهِ .

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُرِيْدُ أَنْ يُمَيِّزَهُمْ تَمْيِيزاً مَشْهُوداً ، فَيَقَعُ مَعْلُومُهُ الذِي هُوَ غَيْبٌ شَهَادَةً ، وَقَولُهُ ﴿ ولكن اللهَ يَجْتَبِيْ مِن رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ اسْتِدْرَاكٌ لِمَا نَفَاهُ، مِن اطْلاعِ خَلْقِهِ عَلَى الغَيْبِ كَمَا قَال ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَن ارْتَضَى مِن رَسُوْل ﴾ فَحَظُّكُم أَنتُم وَسَعَادَتُكم في الايمان بالغَيْبِ الذي يُطْلِعُ عليه رُسُلَهُ ، فإِنْ آمَنْتُمْ بِهِ واتَّقَيْتُم كَانَ لَكُم أَعْظَمُ الأَجْرِ والكَرَامَةِ .

وَمِنْهَا اسْتِخْرجُ عُبُودِيَةِ أَوْلِيَائِهِ وَحِزْبِهِ في السَّراءِ والضَّراءِ وفِيْمَا يُحِبُّونَ وَمَا يَكْرَهُونَ ، وفي حَالِ ظَفَرِهِمْ ، وفي حَالِ ظَـفَر أَعْدَائِهِمْ بِهِمْ ، فاذا ثَبَتُوْا عَلَى الطَّاعَةِ والعُبُوْدِيَة فِيمَا يُحِــبُّوْنَ وَما يَكْرِهُوْنَ ، فَهُمْ عَبِيْدُهُ حقاً ، وَلَيْسُوْا كَمَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ واحِدٍ مِن السَّراءِ والنِّعْمَةِ والعَافِيَةِ .

ومنها أنهُ سُبْحَانَهُ لَوْ نَصرَهُمْ دَائِماً ، وَأَظْفَرَهُمْ بِعَدُوِّهِمْ ، في كُلِّ مَوْطِن ، وَجَعَلَ لَهُمْ التَّمكُنَ ، والقَهْرَ لِأَعْدَائِهِم أَبَدَا ، لَطَغَتْ نُفُوسُهُمْ ، وَشَمَخَتْ وارْتَفَعَتْ ، فَلَو بَسَطَ لَهُمْ النصرَ ، والظَّفَرَ لَكانُوْا في الحَالِ الَّتِيْ يَكُونُونَ فِيْهَا لَوْ بَسطَ لَهُمْ الرِّزْقَ فَلاَ يُصْلِحُ عِبادَهُ إلَّا السَّرَاءُ والضَّراءُ ، والشِّدَّةُ والرَّخَاءُ ، والقَبْضُ والبَسْطُ ، فَهُوَ المُدَبِّرُ لِإمْرِ عِبَادِهِ ، كَمَا يَلِيْقُ بِحِكْمَتِهِ ،

إنَّهُ بِهِمْ خَبِيْرٌ بَصِيْر .

ومنها أَنَّهُم إِذَا امْتَحَنَهُمْ بالغَلَبَةِ ، والكَسْرَةِ والهَزِيْمَةِ ، وَذَلُّوا وانْكَسَرُوْا وَخَضَعُوْا ، فَاسْتَوْجَبُوْا مِنْهُ العِزَّةَ والنَّصْرَ ، فإِنَّ خِلْعَةَ النَّصْرِ إنَّما تَكُونُ مَعَ وِلاَيَةِ الذُّلِّ والإِنْكِسَارِ ، قال اللهُ تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ ﴿ وَيَومُ حُنَيْن إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُم شَيْئاً ﴾ فَهُوَ سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُعِزَّ عَبْدَهُوَيَجْبُرَهُ وَيَنْصُرَهُ ، كَسَرَهُ أَوَّلاً وَيَكُونُ جَبْرُهُ لَهُ وَنَصْرُهُ عَلَى مِقْدَار ذُلِّهِ وانْكِسَارِهِ .

ومنها أَنَّه سُبْحَانَهُ هَيَّأَ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِيْنَ مَنَازِلَ في دَارِ كَرَامَتِهِ لَمْ تَبْلُغْهَا أَعْمَالُهُمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا بالغِيْهَا إلا بالبَلاءِ والمِحْنَةِ ، فَقَيَّضَ لَهُمْ الأَسْبَاب الَّتِي تُوْصِلُهُمْ إِلَيْهَا ، مِن ابْتِلاَئِه وامْتِحَانِهِ ، كَمَا وَفَّقَهُمْ لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ التِيْ هِيَ مِن جُمْلَةِ أَسْبَابِ وُصُوْلِهَا :

وَمِنهَا أَنَّ النُّفُوسَ تَكْتَسِبُ مِن العَافِيَةِ الدَّائِمَةِ ، والنَّصْرِ والغِنَى طُغْيَاناً ، وَرُكوناً إِلَى العَاجِلَةِ ، وَذَلكَ مَرَضٌ يَعُوْقُهَا عن جِدِّهَا في سَيْرِهَا إِلى اللهِ والدارِ الآخِرَةِ ، فإِذَا أَرَادَ بِهَا رَبُّهَا وَمَالِكُهَا وَرَاحِمُهَا كَرَامَتَهُ ، قَيَّضَ لَهَا مِن الإِبْتِلاَءِ والإِمْتِحَانِ مَا يَكُونُ دَوَاءً لِذَلِكَ المَرَض العَائِق عن السَّيْر الحَثِيْثِ إِلَيْهِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ البَلاَء والمِحْنَةُ بِمَنْزِلَةِ الطَّبِيْبِ يَسْقِيْ العَلِيْلَ الدَّوَاءَ الكَرِيْه وَيَقْطَعُ مِنْهُ العُرُوْقَ المُؤْلِمَةَ ، لِاسْتِخْرَاجِ الأَدْوَاءِ مِنْهُ ، وَلَوْ تَرَكَهُ لَغَلَبَتْهُ الأَدْوَاءُ ، حَتَّى يَكُونَ فِيْهَا هَلاَكُهُ .

وأَنَّ ذَوِي الإِيمَانِ والعِلْمِ والنُهَى هُمُ الغُرَبا طُوْبَى لَهُمْ مَا تَغَرَّبُوا

أنـاسٌ قَـلِيْـلٌ صَـالِـحُـوْنَ بـأُمَّـةٍ
كَـثِيْـرِيْـنَ لَكِـنْ بـالضَّـلاَلَـةِ أُشْـرِبُـوْا
وقِـيْـلَ هُمُ الـنُـزَّاعُ في كُـلِّ قَـرْيَـةٍ
عَلَى حَـرْبِهِم أَهْلُ الضَّـلاَلِ تَحَـزَّبُـوا
وَلَكِنْ لَهُم فِيْهَـا الـظُهُـورُ عَلَى العِـدَا
وإِنْ كَـثُـرت أَعْدَاؤُهُـم وَتَـأَلَّـبُـوا
وَكَمْ أَصْلَحُـوا مَا أَفْسَدَ النَّـاسُ بالهَـوَى
مِـن السُّـنَّـةِ الغَـرَا فَـطَابُـوْا وَطَـيَّـبُـوا
وَقَـدْ حَـذَّرَ المُخْتَـارُ مِنْ كُـلِ بِـدْعَـةٍ
وَقَـامَ بِـذَا فَـوقَ الـمَنَـابِـرِ يَـخْـطُبُ
فَـقَـالَ عَـلَيْـكُـمْ بـاتِّـبَـاعِيْ وَسُـنَّـتِـيْ
فَعُضُـوا عَـلَيهَـا بـالـنَّـواجِـذِ وارْغَبُـوا
وإِيَّـاكُـمْ والإِبْـتِـدَاعَ فَـإِنَّـهُ
ضَـلاَلٌ وفـي نَـارِ الجَـحِيْـمِ يُكَـبْـكِـبُ
فَـدُومُـوا على مِنهـاجِ سُنَّـةِ أَحْـمَـدٍ
لِكَيْ تَـرِدُوا حَـوضَ الـرَّسُوْلِ وتَشْـرَبُـوا
فـإِنَّ لَـه حَـوْضـاً هَـنِـيْئـاً شَـرَابُـهُ
مِنَ الـدُّرِ أَنْقَـى في الـبَيَـاضِ وأَعْـذَبُ

لَــه يَــرِدُ الـسُنِيُ مِـن حِـزْبِ أَحْـمَــدٍ
وَعَــنْــهُ يُــنَحى مُــحْــدِثٌ وَمُـكَــذِبُ

وَكَم حَــدَثَتْ بَعْـدَ الـرَّسُــوْلِ حَــوَادِثٌ
بَكَــادُ لَهَــا نُــورُ الـشَّـيـرَيْعَــةِ يُسْـلَبَ

وكَم بِــدْعَــةٍ شَنْعَــاءَ دَانَ بِهَــا الْـوَرَى
وَكَــمْ سُنَّــةٍ مَـهْـجُـورَةٍ تُـتَـجَـنَّــبُ

لِـذَا أَصْبَحَ المَعْـرُوْفُ في الأَرْضِ مُنْكـراً
وذُوْ الـنُكْــرِ مَـعْــرُوفٌ إليْـهِـمْ مُـحَـبَّـبُ

ومــا ذَاكَ إِلَّا لإِنْــدِرَاسِ مَـعَــالِــم
مِنَ العِـلْمِ إِذْ مَــاتَ الهُــداتُ وَغُـيِّبُــوا

وَلَيْسَ اغْتِــرَابُ الــدِّيْن إِلَّا كَمَــا تَــرَى
فَسَــلْ عَنْهُ يُنْبِيْــكَ الخَبِيْــرُ المُجَــرِبُ

وَقَــدْ صَحَّ أَنَّ الــعِلْمَ تَعْفُــوْ رُسُــومُهُ
وَيَفْشُــوْ الـزِّنَا والجَهْلُ والخَمْــرُ تُشْـرَبُ

وَتِــلْكَ أَمَــارَاتٌ يَــدُلُ ظُــهُــوْرُهَــا
عَــلَى أَنَّ أَهْــوَالَ الــقِـيَـامَـةِ أَقْـرَبُ

فَـسَــارِعْ لِمَــا يُــرْضِيْ الإِلَــهَ بِـفِـعْـلِهِ
وَدَعْ كُــلَّ شَــيْءٍ كَــانَ للهِ يُـغْـضِــبُ

وَخُــذْ إِنْ طَلَبْتَ العِلْمَ عَن كُــلِّ عَــالمٍ
تَــرَاهُ بــآدَابِ الــهُـدَى يَـتَــأَدَبُ

لِأَهْــلِ السُّــرَى تَهْـدِى نَجُـومُ عُلُومِـهِ
وتُـرْمى العِــدَى مِنْ شُهْبِهَـا حِيْنَ تُثْقَبُ

فَــلاَزِمْــهُ واسْتَصْبِــحْ بِمِصْبَــاحِ عِـلْمِـهِ
لِتَخَلُصَ مِنْ جَسْــرٍ عَلَى النـارِ يُضْــرَبُ

فَخَيــرُ الأُمُــوْرِ السَّــالِفاتُ عَلَى الهُــدى
وشَــرُ الأُمُــوْرِ الــمُــحْــدَثَــاتُ فَجَنَّبُوا

وَمــا الـعِـلْمُ إلَّا مِــنْ كِـتَــابٍ وَسَــنَّــةٍ
وَغَـيــرُهُــمـا جَـهــلٌ صَــرِيْــحُ مُــرَكَــبُ

فَخُــذْ بِهِمَــا والعِلْمَ فــاطْلُبُــه مِنْهُمــا
وَدَعْ عنــكَ جُهــالاً عن الحَقِّ أَضْــرَبُــوا

خَفَــافِيْشُ أَعْـشَــاهَــا النَّـهَــارُ بضَــوئِــهِ
فَــوَافَـقَهـبا مِـنْ ظُلْمَــةِ الـلَّيْــلِ غَيْـهَـبُ

فَـظَلَّتْ تُحَاكِي الـطَّيْرَ في ظُلْمَـةِ الـدُّجى
وإِنْ لاَحَ ضَــوْءُ الصُّبْحِ لِلْعِشِ تَهْــرَبُ

وَخَـتْـمُ نِـظَامِي بِــالـصــلاةِ مُــسَلِّمــاً
مَـدَى الـدَّهْــرِ مَـا دَامَتْ مَعَــدٌ وَيَعْـرِبُ

عَلَى خَــاتَمِ الـرُّسْــلِ الكِــرَامِ مُحَمَّــدٍ
بِــهِ طَــابَ خَـتْـمُ الأَنْـبِـيَــاءِ وطُــيِـبُــوْا

كَـذَا الآلِ والصَّحْـبِ الأُلَى بِـجِهَـادِهِـم
أَضَــاءَ بِـدِيْــنِ اللهِ شَــرْقٌ وَمَـغْــرِبُ

اللهم امْنُنْ عَلَينَا بالاقبالِ عَلَيْكَ والتَّوفِيْق وأَعِذْنَا مِن الخُذْلاَنِ

والتَّعْوِيْق ، وَفَرِّجْ عَنَّا كُلَّ هَمٍّ وَغَمٍّ وَضِيْق ، وَلَا تُحَمِّلْنَا ما لا نَقْوَى وَلَا نُطِيْق ، يَا مَنْ كُلُّ نَفْسٍ إلى جُوْدِهِ افْتَقَرَتْ اللهم جَلِّلْنَا بِسِتْرِكْ واعفُ عَنَّا بِكَرَمِك ، وَعَامِلنا بِلُطْفِكْ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل »

وَمِنْهَا أَنْ الشَّهَادَةَ عِنْدَهُ مِن أَعْلَى مَرَاتِبَ أَوْلِيَائِهِ وَالشُّهَدَاءُ هُمْ خَوَّاصُهُ المُقَرَّبُوْنَ مِن عِبَادِهِ وَلَيْسَ بَعْدَ دَرجَةِ الصِّدِيْقِيَّةِ إِلَّا الشَّهَادَةُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ عِبَادِهِ شُهَدَاءَ تُرَاقُ دِمَاؤُهُمْ فِي مَحَبَّتِهِ وَمَرْضَاتِهِ وَيُؤْثِرُوْنَ رِضَاهُ وَمَحَابَّهُ عَلَى نُفُوْسِهِمْ وَلَا سَبِيْلَ إِلَى نَيْلِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ إِلَّا بِتَقْدِيْرِ الأَسْبَابِ المُفْضِيَةِ إِلَيْهَا مِن تَسْلِيْطِ العَدُوِّ .

وَمِنْهَا أَنَّ اللهَ سُبْحانَه إِذَا أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ أَعْدَاءَهُ وَيَمْحَقَهُمْ قَيَّضَ لَهُمْ الأَسْبَابَ الَّتِيْ يَسْتَوْجِبُوْنَ بِهَا هَلَاكَهُمْ ، وَمَحْقَهُمْ ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا بَعْدَ كُفْرِهِمْ بَغْيُهُمْ ، وَطُغْيَانُهُمْ ، وَمُبَالَغَتُهُمْ ، فِي أَذَى أَوْلِيَائِهِ ، وَمُحَارَبَتُهُمْ ، وَقِتَالُهُمْ ، وَالتَّسَلُّطُ عَلَيْهِمْ ، فَيَتَمَحَّصُ بِذَلِكَ أَوْلِيَاؤُهُ ، مِنْ ذُنُوْبِهِم ، وَعُيُوْبِهِم ، وَيَزْدَادُ بِذَلِكَ أَعْدَاؤُهُ ، مِن أَسْبَابِ مَحْقِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ ، وَقَدْ ذَكَر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (٣ : ١٣٩ ـ ١٤١ ولا تَهِنُوْا ولا تَحْزَنُوْا وأَنْتُمْ الأَعْلَوْن إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْن إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الذينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِيْن وليُمَحِّص اللهُ الذينَ آمَنُوْا وَيَمْحَقَ الكافِرِين ﴾ .

فَجَمَعَ لَهُمْ في هَذَا الخِطَابِ ، بَيْنَ تَشْجِيْعِهِمْ ، وَتَقْوِيَةِ نُفُوسِهِم ، وإحْيَاءِ عَزَائِمِهِمْ ، وَهِمَمِهِم ، وَبَيْنَ حُسْنِ التَّسْلِيَة ، وَذِكْرِ الحِكَمِ البَاهِرَةِ ، الَّتِيْ اقْتَضَتْ إدَالَةَ الكُفَّارِ عَلَيْهِمْ ، فقَال ﴿ إنْ يَمْسَسْكم قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ فَقَدْ اسْتَوَيْتُمْ فِي الرَّجَاءِ والثَّوَاب ، كَمَا قَالَ (٤ : ١٠٤ إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فإنَّهم يألَمُونَ كَمَا تَألَمُونَ ، وَتَرجُوْنَ مِن اللهِ مَالاَ يَرْجُوْنَ ﴾ فَمَا بَالُكُمْ تَهِنُـوْنَ وَتَضْعُفُوْنَ عِنْدَ القَرْحِ والألَمِ فَقَدْ أَصابُوا ذَلِكَ في سَبِيْلِ الشَّيْطَانِ وأَنْتُمْ أَصَبْتُمْ في سَبِيْلِيْ وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي .

ثم أَخْبَرَ أَنَّهُ يُدَاوِلُ أَيَّامَ هَذِهِ الحَيَاةِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَأَنَّهَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يَقْسِمُهَا دُوَلاً بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ ، بِخِلاَفِ الآخِرَةِ ، فإِنَّ عِزَّهَا وَنَصْرَهَا وَرَجَاءَهَا خَالِصٌ لِلذِيْنَ آمَنُوْا .

ثُمَّ ذَكَرَ حِكمَةً أُخْرَى وهيَ اتِّخَاذُهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ ، فإِنَّهُ يُحِبُّ الشُّهَدَاءَ مِن عِبَادِهِ ، وَقَدْ أَعَدَّ لَهُمْ أَعْلَى المَنَازِلِ ، وَأَفْضَلَهَا وَقَد اتَّخَذَهُمْ لِنَفْسِهِ ، فَلاَ بُدَّ أَنْ يُنِيْلَهُمْ دَرجَةَ الشَّهَادَةِ .

وفي قوله ﴿ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِيْن ﴾ تَنْبِيْهٌ لَطِيْفُ المَوْقِعِ جِدًا عَلَى كَرَاهَتِه وبُغْضِهِ لِلْمُنَافِقِيْنَ ، الذينَ انْخَذَلُوا عَنْه يَومَ أُحدٍ ، فَلَمْ يَشْهَدُوْهُ ، ولم يَتَّخِذْ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ ، لأَنَّهُ لَمْ يُحِبَّهُمْ فَأَرْكَسَهُمْ وَرَدَّهُمْ ، لِيَحْرِمَهُمْ مَا خَصَّ بِهِ المُؤْمِنِيْنَ في ذَلِكَ اليَوْمِ ، وَمَا أَعْطَاهُ مَنْ اسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ ، فَثَبَّطَ هَؤُلاَءِ الظَالِمِيْن ، عن الأَسْبَابِ التِي وَفَّقَ لَهَا أَوْلِيَاءه وَحِزْبَهُ .

ثُمَّ حِكْمَةً أُخرَى فِيْمَا أَصابَهُمْ مِن الذُنُوْب ذَلِكَ اليَوْم ، وهيَ تَمْحِيْصُ الذِيْنَ آمَنُوا وهُوَ تَنْقِيَتَهُمْ وَتَخْلِيْصُهُمْ مِن الذُّنُوْبَ ، وَمِن آفَاتِ النُفُوسِ .

وَمِنْهَا أنَّ وَقْعَةَ أُحُدٍ كَانَتْ مُقَدَّمَةً وَارْهَاصاً بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِ النبي ﷺ ، فَنبَأهمْ وَوبَّخهُمْ عَلَى انْقِلَابِهِمْ عَلَى أَعْقَابِهِم إنْ مَاتَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، أوْ قُتِلَ بَلْ الوَاجِبُ لَهُ عَلَيْهِمْ : أَنْ يَثْبُتُوْا عَلَى دِيْنِه ، وَتَوْحِيْدِهِ ، وَيَمُوْتُوْا عَلَيهِ ، أَوْ يُقْتَلَوا ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُوْنَ رَبَّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوْتُ ، فَلَو مَاتَ مُحَمَّدٌ أَوْ قُتِلَ لَا يَنْبَغِيْ لَهُمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ ذَلِكَ عنْ دِيْنِهِ ، وَمَا جَاءَ بِهِ ، فَكُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ .

وَمَا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ إليهِمْ لِيُخَلَّدَ لَا هُوَ وَلَا هُمْ ، بَلْ لِيَمُوْتُوْا عَلَى الإِسْلَامِ والتَّوْحِيْدِ ، فَإِنَّ المَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ ، سَوَاء مَات رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَوْ بَقِيَ وَلِهَذَا وَبَّخَهُمْ عَلَى رُجُوْعِ مَنْ رَجَعَ مِنْــهُمْ عَنْ دِيْنِهِ ، لَمَّا صَرَخَ الشَّيْطَانُ بِأَنَّ مُحَمَّداً قَدْ قُتِلَ ، فَقَالَ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُوْلٌ قَد خَلَت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين) .

والشَّاكِرُوْنَ هُمُ الذِيْنَ عَرفُوْا قَدْرَ النِّعْمَةِ فَثَبَتُوْا عَلَيْهَا حَتَّى مَاتُوْا أَوْ قُتِلُوا ، فَظَهَرَ أَثَرُ هذا العِتَابِ، وحُكْمُ هَذَا الخِطَاب يَومَ مَاتَ رسُولُ اللهِ ، ﷺ وارْتَدَّ مِن ارْتَدَّ عَلَى عَقبَيْهِ ، وَثَبَتَ الشَّاكِرُوْنَ عَلَى دِيْنِهِم ، فَنَصَرَهُمُ اللهُ ، وَأَعَزَّهُم ، وأَظْفَرَهُمْ ، بأَعْدَائِهِم وَجَعَلَ العَاقِبَةَ لَهُمْ .

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ نَفْسٍ أَجَلًا لَا بُدَّ أَنْ تَسْتَوفِيَهُ تَنَوَّعَتْ أَسْبَابُهُ ، وَيَصْدُرُونَ عَن مَوْرِدِ القِيَامَةِ ، مَصَادِرَ شَتَّى ، فَرِيْقٌ في الجنةِ وَفَرِيْقٌ في السَّعِيْرِ .

ثم أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ جَمَاعَةً كَثِيْرَةً من أَنْبِيَائِهِ قُتِلُوْا ، وَقُتِلَ مَعَهُمْ أَتْبَاعٌ لهُم

كَثِيْرُوْن ، فَمَا وَهَنَ منْ بَقِيَ مِنْهُمْ ، لِمَا أَصَابَهُمْ في سَبِيْل اللهِ ، وَمَا ضَعُفُوا ، وما اسْتَكَانُوا وَما وَهَنُوا عِنْدَ القَتْلِ ، وَلَا ضَعُفُوا ولا اسْتَكَانُوا ، بَلْ تَلَقُوا الشَّهَادَةَ بالقُوةِ والعَزِيْمَةِ ، والاقْدَام ، فلَمْ يُسْتَشْهَدُوْا مُدْبِرِيْنَ مُسْتَكِيْنِيْن أَذِلَةً بَلْ اسْتُشْهِدُوْا أَعِزَةً كِراماً مُقْبِلِيْنَ غَيْرَ مُدْبِرِيْنَ والصَّحِيْحُ أَنَّ الآيَةَ تَتَنَاوَلُ الفَرِيْقَيْنِ كِلَيْهِمَا ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَمَّا اسْتَنْصَرَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ وأُمَمُهمْ عَلَى قَوْمِهِمْ مِن اعْتِرَافِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ واسْتِغْفَارِهِمْ وَسُؤالِهِم رَبَّهُمْ أَنْ يُثَبِّتَ أَقدَامَهُمْ وأَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فَقَالَ ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا واسْرَافَنَا في أَمْرِنَا وثَبِّتْ أقـدَامَنَا وانْصُرْنَا عَلَى القوم الكافريْن فآتاهُمُ اللهُ ثواب الدُّنْيَا وَحُسْن ثواب الآخِرةِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنين .

لَمَّا عَلِمَ القَوْمُ أَنَّ العَدُوَّ إنَّمَا يُدَالُ عَلَيْهِمْ بذُنُوبِهِمْ ، وَأَنَّ الشيطانَ إنَّمَا يَسْتَزِلُّهُمْ وَيَهْزِمُهُمْ بِهَا ، وأَنَّهَا نَوْعَانِ تَقْصِيْرٌ في حَقٍّ ، أَوْ تَجَاوُزٌ لِحَدٍ ، وأنَّ النَّصْرَ مَنُوْطٌ بالطَّاعَةِ ، (قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِر لَنَا ذُنُوبَنَا ، وإِسْرَافَنَا في أَمْرِنَا) ثُمَّ عَلِمُوْا أَنَّ رَبَّهُمْ تبَارَكَ وَتَعَالَى ، إنْ لَمْ يُثَبّتْ أَقْدَامَهُمْ وَيَنْصُرْهُمْ لَمْ يَقْدِرُوْا هُمْ عَلَى تَثْبِيْتِ أَقْدَامِ أَنْفُسِهِمْ ، وَنَصْرِهَا عَلَى أَعْدَائِهِم ، فَسَأَلُوْهُ ما يَعْلَمُوْنَ أَنَّهُ بِيَدِهِ ، دُوْنَهُمْ ، وأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُثَبّتْ أَقْدَامَهُمْ وَيَنْصُرْهم لم يَثْبُتُوا ، ولم يَنْتَصِرُوا .

ثُمَّ ذَكَرَ حِكْمَةً أُخرَى ، وهي أَنْ يَتَمَيَّزَ المُؤْمِنُونَ مِن المُنافِقِيْنَ فَيَعْلَمُهُمْ عِلْمَ رُؤْيَةٍ وَمُشَاهَدَةٍ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَعْلُومِيْنَ في غَيْبِهِ ، وذلكَ العِلْمُ الغَيْبي لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ ثَوَابٌ ، ولا عِقَابٌ ، وإِنَّمَا يَتَرَتَّبُ الثَّوَابُ والعِقَابُ عَلَى المَعْلُومِ ، إِذَا صَارَ مُشَاهَداً واقِعاً في الحِسِّ .

فَوَفَّوْا المَقَامَيْنِ حَقَّهُمَا ، مَقَامَ المُقْتَضِيْ ، وَهُوَ التَّوْحِيْدُ والإِلْتِجاءُ إليهِ

سُبْحَانَهُ ، وَمَقَام إزَالَةِ المانِعِ مِن النُّصْرَة ، وَهُوَ الذُنُوبِ والإسراف ، وَحَذَّرَهُمْ مِن طَاعَةِ عَدُوِّهِمْ ، وأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إنْ أَطَاعُوْهُمْ خَسِرُوْا الدُنْيَا والآخِرَةَ .

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَوْلَى المُؤْمِنِيْن، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِيْن فَمَنْ وَالاَهُ فَهُوَ المَنْصُوْرُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَهُ سَيُلْقِي في قُلُوبِ الذينَ كَفَرُوْا الرُّعْبَ ، الذِيْ يَمْنعُهُمْ مِنْ الهُجُوم عَلَيهم ، والاقْدَام عَلَى حَرْبِهِمْ ، فإنَّهُ يُؤَيِّدُ حِزْبَهُ بجندٍ مِن الرُّعْبِ ، يَنْتَصِرُوْنَ بِهِ عَلَى أَعْدَائِهم ، وَذَلك الرُّعْبُ بِسَبَب مَا فِي قُلُوْبِهِم من الشِرْكِ باللهِ وعلى قَدْرِ الشِّرْكِ يَكُونُ الرُّعْبُ ، والذينَ آمَنُوْا ، وَلَمْ يَلْبِسُوْا إيْمَانَهُمْ بالشِّرْكِ، لَهُمْ الأَمْنُ والهُدَى والفَلاحُ ، ثمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ صَدَقَ وَعْدَهُ في النُّصْرَةِ عَلَى عَدُوِهِ ، وَهُوَ الصَّادِقُ الوَعْدِ ، وأَنَّهُمْ لَو اسْتَمَرُّوْا على الطَّاعَةِ ولُزُوْم مَرَاكِزِهِمْ إمْتِثَالاً لأَمْرِ النَّبِي ﷺ ، لاسْتَمَرَّتْ نُصْرَتُهُمْ ، ولكِنْ انْخَلَعُوْا عَن الطاعَةِ ، وفَارَقُوْا مَرَاكِزَهُمْ ، فانْخَلَعُوْا عَن عِصْمَةِ الطَّاعَةِ ، فَفَارَقَتْهُمُ النُّصْرَةُ ، فَصَرَفَهُمْ عَنْ عَدُوِّهِمْ ، عُقُوْبَةً وابْتِلاَءً ، وَتَعْرِيْفاً لَهُمْ بِسُوءِ عَاقِبَةِ المَعْصِيَةِ ، وَحُسْنِ عَاقِبَةِ الطَّاعَةِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ عفا عَنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وأَنَّهُ ذُوْ فَضْلٍ على المؤ مِنِيْنَ انْتَهى بتَصَرُّفٍ يَسِيْر ، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

قال ابن القيم رحمه الله

يَـا أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ المُـرِيْـدُ نَجَـاتَـهُ

إسْـمَـعَ مَـقَـالَـةَ نَـاصِـحٍ مِـعْـوَانِ

كُنْ فِي أُمورِكَ كُلِّهَا مُتَمَسِّكاً
بالوَحْيِ لا بِزَخَارِفِ الهَذَيَانِ

وانْصُرْ كِتَابَ اللهِ والسُّنَنَ التي
جَاءَتْ عن المَبْعُوثِ بالقُرْآنِ

واضْرِبْ بسَيْفِ الوَحْيِ كُلَّ مُعَطِّلٍ
ضَربَ المُجَاهِدِ فوقَ كُلِّ بَنَانِ

واحْمِلْ بِعَزْمِ الصِدْقِ حَمْلَةَ مُخْلِصٍ
مُتَجَرِدٍ للهِ غَيْرَ جَبَانِ

واثْبُتْ بِصَبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الهُدَى
فإِذَا أُصِبْتَ فَفِي رِضَا الرَّحْمانِ

واجْعَلْ كِتَابَ اللهِ والسُّنَنَ التِي
ثَبَتَتْ سِلاَحَكَ ثُمَّ صِحْ بِجَنَانِ

مَن ذَا يُبَارِزُ فَلْيُقَدِّمْ نَفْسَهُ
أَوَ مَنْ يُسَابِقُ يَبْدُ فِي المَيْدَانِ

واصْدَعْ بمَا قَالَ الرَّسُوْلُ ولا تَخَفْ
مِن قِلَّةِ الأَنْصَارِ والأَعْوَانِ

فاللهُ نَاصِرُ دِيْنِهِ وَكِتَابِهِ
واللهُ كَافٍ عَبْدَهُ بأَمَانِ

لَا تَخْشَى مِنْ كَيْدِ الْعَدوِّ وَمَكْرِهِم
فَقِتَالُهُم بالكِذْبِ والبُهْتَانِ

فَجُنُودُ اتْبَاعِ الرَّسُوْلِ مَلاَئِكٌ
وَجُنُودُهُم فَعَسَاكِرُ الشَيطَانِ

شَتَانَ بَيْنَ العسْكَرِيْنِ فَمَنْ يَكُنْ
مُتَحَيِّزاً فَلْيُنْظُرِ الفِئَتَانِ

واثْبُتْ وَقَاتِلْ تَحْتَ رَايَاتِ الهُدَى
واصْبِرْ فَنَصْرُ اللهِ رَبِّكَ دَانِ

واذْكُرْ مُقَاتَلَهُمْ لِفُرْسَانِ الهُدَى
للهِ دَرُّ مُقَاتِلِ الفُرْسَانِ

وادْرَأْ بِلَفْظِ النَّصِ في نَحْرِ العِدَى
وارْجُمْهُمُ بِثَوَاقِبِ الشُّهبَان

لَا تَخْشَى كَثْرَتَهُم فَهُمْ هَمَجُ الوَرَى
وَذُبَابُه أَتَخَافُ مِن ذُبَّانِ

واشْغَلْهُمُ عِنْدَ الجِدَالِ بِبَعْضِهِمْ
بَعْضاً فَذَاكَ الحَزْمُ لِلْفُرْسَانِ

وإِذَا هُمُوا حَمَلُوا عَلَيْكَ فَلاَ تَكُنْ
فَزِعاً لِحَمْلَتِهِمْ وَلاَ بِجَبَانِ

واثْبُتْ وَلاَ تَحمِلْ بِلاَ جُنْدٍ فَمَا
هَذَا بِمَحْمُودٍ لَدَى الشُجْعَانِ

فَإِذَا رَأَيْتَ عِصَابَةَ الإِسْلاَمِ قَدْ
وافَتْ عَسَاكِرَهَا مَعَ السُلْطَانِ

فَهُنَاكَ فَاخْتَرِقِ الصُفُوفَ ولا تَكُنْ
بالعَاجِزِ الوَانِيْ ولا الفَزْعَانِ
وَتَعَرَّ مِنْ ثَوْبَيْنِ مَنْ يَلْبَسْهُمَا
يَلْقَى الرَّدَى بِمَذَمَّةِ وَهَوانِ
ثوبٍ مِنَ الجَهْلِ المُرَكَّب فَوْقَهُ
ثَوْبُ التَّعَصُّب بِئْسَتِ الثَّوْبَانِ
وَتَحَلَّ بالإنْصَافِ أَفْخَرَ حُلَّةٍ
زِيْنَتْ بِهَا الأَعْطَافُ والكَتِفَانِ
واجْعَلْ شِعَارَكَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ مَعْ
نُصْحِ الرسولِ فَحَبَذَا الأَمْرَانِ
وَتَمَسَّكَنَّ بِحَبْلِهِ وبِوَحْيِهِ
وَتَوَكَّلَنَّ حَقِيْقَةَ التُّكْلاَنِ

فالحَقُّ وَصْفُ الرَّبِ وهُو صِرَاطُهُ الْهَادِي إليهِ لِصَاحِبِ الايمانِ
وهو الصِّراطُ عليهِ رَبُّ العرشِ أيْضاً وذَا قد جَاءَ في القُرآنِ

والحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلاَ
تَعْجَبْ فَهَذِيْ سُنَّةُ الرحمنِ

وبذَاكَ يَظْهَرُ حُزْبُهُ مِن حِرْبِهِ
ولاجْلِ ذَاكَ النَاسُ طَائِفَتَانِ

ولأَجْلِ ذَاكَ الحَرْبُ بَيْنَ الرسِلِ والْكَفارِ مُذْ قَامَ الوَرَى سِجْلانِ

لـكِـنَّـمَـا الـعُـقْبَـى لأَهْـلِ الـحَـقِ إنْ
فـاتَـتْ هُـنَـا كَـانَـتْ لَـدَى الـدَّيَـانِ
واجْـعَـلْ لِقَـلْبِـكَ هِجْـرَتَـيْنِ وَلاَ تَـنَـم
فَـهُـمَـا عَـلَـى كُـلِّ امْـرِءٍ فَـرْضَـانِ
فالهِجْرَةُ الأُولَى إلَى الرَّحْمٰنِ بالإِخْلاصِ في سِرٍّ وفي إعْلانِ
فـالقَصْدُ وجـهُ اللهِ بالأَقْـوَالِ والأَعْـمَـالِ والـطَّاعَـاتِ والشُّكْـرَانِ
فَـبِـذَاكَ يَنْـجُـو العَـبْـدُ مِنْ إشْـرَاكِـهِ
ويَـصِـيْـرُ حَـقـاً عَـابِـدَ الـرَّحْـمَـنِ
والهِجْرةُ الأُخْرَى إِلَى المَبْعُوثِ بالحَقِ المُبِيْنِ وَوَاضِحِ البُرهَانِ
فَـيَـدُوْرُ مَـعْ قَـوْلِ الـرَّسُـوْلِ وَفِـعْـلِهِ
نَـفْـيـاً وإثْـبَـاتـاً بِـلاَ رَوَغَـانِ
وَيُـحَـكِّـمُ الـوَحْيَ الـمُبِيْنَ عَـلَى الَّـذِي
قَـالَ الـشُّـيُـوْخُ فَـعِـنْـدَهُ حَـكَـمَـانِ
لا يَحْكُمَانِ بباطِلٍ أَبداً وكُلُ العَدْلِ قَـدْ جاءَتْ بـه الحَكَمَانِ
وَهُـمُـا كـتـابُ اللهِ أعْـدَلُ حَـاكِـمٍ
فـيـه الـشِّـفَـا وَهِـدَايَـةُ الـحَـيْـرَانِ
وَالـحَـاكِـمُ الـثَّـانِيْ كَـلاَمُ رَسُـوْلِـهِ
مَـا ثَـمَّ غَـيْـرُهُـمَـا لِـذِي إيْـمَـانِ
فـإِذَا دَعَـوْكَ لِغَيْـرِ حُـكْـمِـهِـمَـا فَـلاَ
سَـمْعـاً لِـدَاعِـي الكُـفْـرِ والـعِـصْـيَـانِ

قُـلْ لاَ كَـرَامَـةَ لا وَلاَ نُـعْـمَـاً وَلاَ
طَوْعاً لِـمِـنْ يَـدعُـوْ إِلَـى الـطُّغْـيَـانِ
وإِذَا دُعِيْتَ إِلَى الـرَّسُـوْلِ فَقُـلْ لَـهُمْ
سَـمْعـاً وَطَـوْعـاً لَـسْـتُ ذَا عِـصْـيَـانِ
وَإِذَا تَـكَـاثَـرَتِ الخُـصُـوْمُ وَصَـيَّـحُـوْا
فَـاثْـبُتْ فَـصَـيْـحَـتُـهُـمْ كَـمِـثْـلِ دُخَـانِ
يَـرْقَى إِلَى الأَوْجِ الـرَّفِـيْـعِ وَبَـعْـدَهُ
يَـهْـوِيْ إِلَى قَـعْـرِ الحَـضِيْضِ الـدَّانِـي
هَـذَا وإِنَّ قِتَـالَ حِـزْبِ اللَّهِ بـالأعـمَـالِ لا بِتكَـائِبِ الشُّجْعَـانِ
واللهِ مَـا فَـتَـحُـوا الـبِـلاَدَ بِـكَـثْـرَةٍ
أَنَّـي وَأَعْـدَاهُـمْ بِـلاَ حُـسْـبَـانِ
وَكَـذَاكَ مَا فَتَحُـوا القُلُوبَ بِهَـذِهِ الآراءِ بَـلْ بِـالعِلْمِ والإِيْمَـانِ
وَشَجَـاعَـةُ الفُـرْسَـانِ نَفْسُ الـزُهْـدِ في
نَـفْـسٍ وذَا مَـحْـذُوْرُ كُـلِّ جَـبَـانِ
وشَجَاعَةُ الحُكَّامِ والعُلَمَاءِ زُهْـدٌ في الثَّنَا مِن كُـلِّ ذي بُطْلاَنِ
فَـإِذَا هُـمَـا اجْـتَـمَـعَـا لِـقَـلْـبٍ صَـادِقٍ
شُـدَّتْ رَكَـائِـبُـهُ إِلَـى الـرَّحْـمَـنِ
واقْـصِـدْ إِلَى الأَقْـرَانِ لاَ أَطْـرَافِـهَـا
فَـالـعِـزُّ تَـحْـتَ مَـقَـاتِـلِ الأَقْـرَانِ
واسْمَـعْ نَصِيْحَـةَ مَـنْ لَـهُ خَبَـرٌ بِـمَـا
عِـنْـدَ الـوَرَى مِنْ كَـثْـرَةِ الـجَـوَلاَنِ

مَـا عِـنْـدَهُـمْ واللهِ خَـيْـرٌ غَيْـرَ مَـا
أَخَـذوْهُ عَـمَّـنْ جَـاءَ بـالـقُـرْآنِ

والْـكُـلُّ بَـعْـدُ فَـبِـدْعَـةٌ أَوْ فَـرِيَـةٌ
أَوْ بَـحْـثُ تَـشْكِـيْـكٍ وَرَأْيُ فُـلاَنِ

فَـاصْدَعْ بِـأَمْـرِ اللهِ لاَ تَخْشَ الـوَرَى
فـي اللهِ واخْـشَـاهُ تَـفُـزْ بِـأَمَـانِ

واهْـجُـرْ وَلَـو كُـلَّ الـوَرَى فـي ذَاتِـهِ
لا فـي هَـوَاكَ وَنَـخْـوَةِ الـشَّـيْـطَانِ

واصْـبِـرْ بغَـيْـرِ تَسَـخُّطٍ وشِكَـايَـةٍ
واصْفَـحْ بِغَيْ بِغَيْـرِ عِتَـابِ مَن هُـوَجَـانِ

واهْجُـرهُم الهَجْـرَ الجَمِيْـلَ بِـلاَ أَذَى
إنْ لَـمْ يـكُـنْ بُـدٌّ مِـن الْـهِـجْـرَانِ

وانْـظُرْ إلَـى الأَقْـدَارِ جَـارِيَـةٌ بِـمَـا
قَـدْ شَـاءَ مِـن غَـيٍّ ومِـن إيّـمَـانِ

واجْـعَـلْ لِقَلْبِـكَ مُقْلَتَيْـنِ كِـلاَهُـمَـا
بـالـحَـقّ في ذَا الـخَـلْقِ نَـاظِـرَتَـانِ

فَـانْـظُرْ بعَيْنِ الحُـكْمِ وارْحَـمْهُـمْ بِهَـا
إذْ لا تُـرَدُّ مَـشِـيْـئَـةُ الـدَّيَـانِ

وانْـظُرْ بـعَـيْـنِ الأَمْـرِ واحْـمِـلْهُـمْ عَـلَى
أَحْـكَـامِـهِ فَـهُـمَـا إذاً نَـظَرَانِ

واجْعَـلْ لِـوَجْهِـكَ مُقْلَتَيْنِ كِـلاَهُمَـا
مِنْ خَشْـيَـةِ الـرَّحْمَـنِ بَـاكِيَـتَـانِ
لَـوْ شَـاءَ رَبُّـكَ كُنْتَ أَيْضـاً مِثْلَهُمْ
فـالـقَلْبُ بَـيْنَ أَصَـابِـعِ الـرَّحْـمَـنِ
واحْـذَرْ كَمَـائِنَ نَفْسِـكَ الـلاَّتِي مَتَـى
خَـرَجَتْ عَلَيْـكَ كُسِـرْتَ كَسْـرَ مُهَـانِ
وإِذَا انْتَصَـرْتَ لَهَـا فَـأَنْتَ كَـمَنْ بَـغَى
طَـفْيَ الـدُّخَـانِ بِـمَـوْقَـدِ النِّـيْرَانِ
واللهُ أَخْـبَـرَ وَهُـوَ أَصْـدَقُ قَـائِـلٍ
أَنْ سَـوْفَ يَـنْـصُـرُ عَـبْـدَهُ بِـأَمَـانِ
مَنْ يَعْمَـلِ الـسوءَ آ سَيُجْـزَي مِثْلَهَـا
أَوْ يَـعْـمَـلِ الـحُسْنَى يَفُـزْ بِـجِنَـانِ
هَـذِيْ وَصِـيَّـةُ نَـاصِـحٍ وَلِـنَـفْـسِـهِ
وَصـى وَبَـعْـدُ لِـسَـائِـرِ الإِخْـوَانِ

صفات المنافقين للامام ابن القيم

فصل

وَأَمَّا النِّفَاقُ : فَالدَّاءُ العُضَالُ ، وَالبَاطِنُ الذِي يكونُ الرَّجُلُ مُمْتَلِئاً مِنْهُ ، وَهُوَ لا يَشْعُرُ . فإِنَّهُ أمرٌ خَفِيٌّ على النَّاسِ . وَكَثِيراً مَا يَخْفَى عَلَى مَنْ تَلَبَّسَ بِهِ فَيَزْعُمُ أَنَّهُ مُصْلِحٌ وَهُوَ مُفْسِدٌ .

وَهُوَ نَوْعَانِ : أَكْبَرُ ، وَأَصْغَرُ . فالأَكْبَرُ : يُوْجِبُ الـــخُلُوْدَ في النَّارِ في دَرْكِها الأَسْفلِ وَهُوَ أنْ يُظْهِرَ للمُسْلِمينَ إِيْمَانهُ باللهِ ومَلائِكتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ . وَهُوَ في البَاطِنِ مُنْسَلِخٌ مِن ذَلِكَ كُلِّه مُكذِّبٌ بهِ . لا يُؤ مِنُ بأَنَّ اللهَ تكَلَّمَ بكَلامٍ أنزلَهُ على بَشَرٍ جَعلَهُ رَسُولاً للنَّاسِ ، يَهْدِيْهِم بإِذْنِه ، وَيُنْذِرُهم بَأْسَهُ ، وَيُخَوِّفُهم عِقَابَهُ .

وَقَدْ هَتَكَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَسْتَارَ المُنَافِقِينَ ،وَكَشَفَ أَسْرَارَهُم في القُرْآنِ ، وَجَلّى لِعِبَادِهِ أمُوْرَهُم لِيكُوْنُوا مِنْهَا ومِنْ أَهْلِهَا عَلَى حَذرٍ ، وذكرَ طَوَائِفَ العَالَمِ الثَّلاثَةَ في أوَّلِ سُوْرَةِ البَقرة : المُؤ مِنينَ ، وَالكُفَّار ، والمُنَافِقِيْنَ ، فذكرَ في المُؤمنينَ أرْبَعَ آياتٍ ، وفي الكُفارِ آيتَينِ ، وفي المُنافِقِينَ ثلاثَ عشرَةَ آيَةِ لِكَثْرَتِهِم وَعُمُومِ الإِبتِلاءِ بهِم ، وشِدَّةِ فِتْنَتِهم على الإِسْلامِ وَأَهْلِهِ ، فإِنَّ بَلِيَّةَ الاسلامِ بهِم شَدِيْدَةٌ جِدّاً ، لِأَنَّهُم مَنْسُوبُونَ إليهِ ، وَإلى نُصْرَتِه وَمُوَالاَتِه ، وهُم أعْدَاؤُه في الحَقيْقَةِ ، يُخْرِجُوْنَ عَدَاوَتَهُ فِي كُلِّ قَالَبٍ ، يَظُنُّ الجَاهِلُ أَنَّهُ عِلْمٌ وإِصْلاَحٌ وَهُوَ غَايَةُ الجَهْلِ والافْسَادِ .

فَلِلهِ كَمْ مِنْ مَعْقَلٍ للإِسْلامِ قَدْ هَدَمُوْهُ !؟ وَكمْ مِنْ حِصْنٍ لَهُ قَدْ قَلَعُوا أَسَاسَهُ وَخَرَّبُوه ؟! وَكَمْ مِنْ عَلَمٍ لَهُ قَد طَمَسُوهُ ؟! وكَمْ مِنْ لِوَاءٍ لَهُ مَرْفُوع قَدْ وَضَعُوه ؟! وَكَمْ ضَرَبُوا بمَعَاوِلِ الشُّبَهِ في أُصُولِ غِرَاسِهِ لِيُقْلَعُوهَا ؟! وَكَمْ عَمَّوا عُيُونَ مَوَارِدِه بآرَائِهِمْ لِيَدْفِنُوها وَيَقْطَعُوهَا !؟ .

فَلاَ يَزَالُ الإِسْلامُ وَأَهْلُه مِنْهُم في مِحْنَةٍ وَبَلِيَّة ، وَلاَ يَزَالُ يَطْرُقُه مِنْ شُبَهِهم سَرِيَّةٌ بَعْدَ سَرِيَّةٍ ، وَيَزْعُمُونَ أنَّهم بذلكَ مُصْلِحُونَ ﴿ ألا إِنَّهُم هُمَ المُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُوْنَ ﴾ ﴿ يُرِيْدُوْنَ لِيُطْفِئُوا نُوْرَ اللهِ بأَفْوَاهِهِم وَاللهُ مُتِمُّ

نُوْرِهِ وَلَوْ كَرِه الكَافِرُوْنَ ﴾

اتَّفَقُوا عَلَى مُفَارَقَةِ الوَحْيِ ، فهُم عَلَى تَرْكِ الإهْتِدَاءِ بِهِ مُجْتَمِعُوْنَ ﴿ وَتَقَطَّعُوا أمْرَهُم بَيْنَهُم زُبُراً . كلُّ حِزْبٍ بمَا لدَيْهم فرِحُوْن ﴾ ﴿ يُوحِيْ بَعْضُهُم إلَى بعْضٍ زخْرُفَ القَوْلِ غُرُوْرَا ﴾ وَلأَجْلِ ذلكَ ﴿ اتخذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوْرَا ﴾ .

دَرَسَتْ مَعَالِمُ الإيْمَانِ في قُلُوبِهم فَلَيْسُوا يَعْرِفُونَهَا ، وَدَثرَتْ مَعَاهِدُه عِنْدَهُم فلَيْسُوا يَعْمُرُوْنَها ، وَأَفلَتْ كَوَاكِبُه النَّيِّرَةِ مِنْ قُلوبهُم فلَيْسُوا يُحْيَوْنَها . وَكَسَفَتْ شَمْسُه عِنْدَ اجْتِمَاعِ ظُلَم آرائِهم وأفكَارِهم فَلَيْسُوا يُبْصِرُونَهَا ، لمْ يَقْبَلُوا هُدَى اللهِ الذي أرسَلَ به رَسُولَهُ . وَلَمْ يَرْفَعُوا بِهِ رَأْساً ، وَلَمْ يَرَوْا بالأعْرَاضِ عنْهُ إلَى آرائِهِم وَأَفْكَارِهِمْ بَأساً ، خَلَعُوا نُصُوصَ الوَحْي عنْ سَلْطَنَةِ الحَقِيْقَةِ ، وَعَزَلُوهَا عَنْ وِلَايَةِ اليَقِيْنِ وَشَنُّوا عَلَيْهَا غارَاتِ التَّأْوِيْلات البَاطِلَةِ ، فَلاَ يَزَالُ يَخْرُجُ عَليها مِنْهُم كَمِيْنٌ بَعْدَ كَمِيْنٌ ، نَزَلَتْ عليهم نُزُوْلَ الضَّيفِ على أقْوَامٍ لِئامٍ ، فقابَلُوهَا بغيرِ مَا يَنْبَغِي لَهَا مِنْ القَبُولِ والاكرَام ، وَتَلَقَّوْها مِنْ بَعِيْدٍ ، ولكِنْ بالدَّفْع في الصُّدُوْرِ مِنْهَا والأَعْجَاز ، وَقَالُوا : مَالَكِ عِندَنا مِنْ عُبُورٍ ـ وَإِنْ كَان لَا بُدَّ ـ فَعَلَى سَبِيْلِ الإجْتِيَازِ ، أَعَدُّوا لِدَفْعِهَا أَصْنَافَ العُدَدِ وضُرُوْبَ القَوَانِيْن ، وَقَالُوا ـ لَمَّا حَلَّتْ بِسَاحَتِهم ـ مَا لَنَا وَلِظَوَاهِرَ لَفْظِيَّةٍ لا تُفِيْدُنا شَيْئاً مِنْ اليَقِيْن ، وَعَوَامُّهم قَالُوا : حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ خَلْفُنَا مِنْ المُتَأَخِّرِيْن ، فإنهمُ أَعْلَمُ بهَا مِنْ السَّلفِ المَاضِيْنَ ، وَأَقْوَمُ بطَرَائِق الحُجَجِ والبَرَاهِيْن ، وَأولَئِكَ غَلَبَتْ عَليهم السَّذاجَةُ وَسَلَامَةُ الصُّدُورِ وَلم يَتَفرَّغُوا لِتَمْهِيدِ قَوَاعِدِ النَّظَرِ ، وَلَكِنْ صَرَفُوْا هَمَّهُم إلى فِعْل المأمُورِ وَتَرْكِ المَحْظُوْرِ ، فَطَرِيْقَةُ المُتَأخرِيْنَ : أعْلَمُ وأحْكَمُ ، وطَرِيْقَةُ السَّلَفِ المَاضِيْنَ : أجْهَلُ ،

لَكِنَّها أسْلَمُ

أَنْزَلُوا نُصوصَ السُّنَّةِ والقُرآنِ مَنْزِلَةَ الخَلِيْفَةِ في هَذَا الزمانِ ، اسْمُهُ على السِّكَّةِ وفي الخُطْبَةِ فوقَ المَنابِرِ مَرْفُوعٌ ، والحُكْمُ النَّافِذُ لِغَيْـرِهِ ، فحُكْمُهُ غَيْرُ مَقْبُوْلٍ وَلاَ مَسْمُوْعٍ ، لَبِسُوا ثِيابَ أَهلِ الإيمانِ على قُلُوبِ أَهْلِ الزَّيْغِ والخُسْـرَانِ ، وَالغِلِّ والكُفْرَانِ ، فالظَوَاهِرُ ظَوَاهِرُ الأَنْصارِ ، والبَوَاطِنُ قَدْ تَحيزَتْ إلى الكُفَّارِ ، فـألسنَتُهم ألسِنَـةُ المُسَـالِمِيْنَ ، وقُلُوبُهُم قُلوبُ المُحَارِبِيْن ، ويقولُونَ : ﴿ آمنَّا باللهِ وباليومِ الآخرِ وما هم بمؤمنين ﴾ .

رَأْسُ مَالِهم الخَدِيْعَةُ والمَكْرُ ، وبِضَاعَتُهُم الكَذِبُ والخَتْرُ ، وَعِنْدَهِم العَقْلُ المَعِيْشِي : أنَّ الـفَرِيْقَيْن عَنْهُمْ رَاضُونَ ، وَهُمْ بَيْنَهُم آمِنُـون ﴿ يُخَادِعُونَ الله والذينَ آمَنُوا . وَما يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهم وَمَا يَشْعُرون ﴾ .

قَدْ أنهَكَتْ أَمْرَاضُ الشُبُهَاتِ والشَّهوَاتِ قُلُوْبَهُمْ فأهْلَكَتْهَا وَغَلَبَتِ القُصُورُ السَّيِئَةُ عَلَى إرَادَاتِهِمْ وَنِيَّاتِهِم فَأفسَدَتْهَا ،فَفَسَادُهُمْ قَدْ تَرَامَى إلى الهَلاَكِ ، فَعجِزَ عَنْهُ الأَطِبَّاءُ العَارِفُونَ ﴿ في قُلُوبهم مَرضٌ فزادَهم اللهُ مَرضاً ولهم عَذَابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون ﴾ .

مَنْ عَلِقَتْ مَخالِبُ شُكُوكِهم بأَدِيْمِ إيْمَانِهِ مَزَّقَتْهُ كُلَّ تَمْزِيْقٍ ، وَمَنْ تعَلَّقَ شَرَرُ فِتْنَتِهِمْ بقَلْبِهِ ألقاهُ في عَذَابِ الحَرِيْقِ ، وَمَنْ دَخَلَتْ شُبُهَاتُ تَلْبِيْسِهم في مَسَامِعِهِ حَالَتْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ التَّصْدِيقِ ، فَفَسَادُهُم في الأَرْضِ كَثِير وأَكْثَرُ الناسِ عنهُ غَافِلُون ﴿ وإذَا قيلَ لهم : لا تُفْسِدُوا في الأَرضِ قَالُوا إنما نَحْنُ مُصْلِحُون ، ألاَ إنهُمْ هُمُ المُفْسِدُوْنَ ولكن لا يَشْعُرون ﴾ .

المُتَمَسِّكُ عِندَهُم بالكتابِ والسنةِ صَاحِبُ ظَوَاهِرٍ ، مَبْخُوسُ حَظٍّ مِنَ المَعقُولِ ، والدَّائِرُ مَعَ النُصُوصِ عندَهُم كَحِمَارٍ يَحْمِلُ أَسْفَاراً فَهْمُه في حَمْلِ المَنْقُولِ وبضَاعَةُ تاجِرِ الوَحْيِ لدَيْهِمْ كَاسِدَةٌ ، وَمَا هُوَ عِندَهُم بِمَقْبُوْلٍ، وأَهْلُ الأَتبَاعِ عِنْدَهُم سُفَهَاءُ فَهُم في خَلَوَاتِهِم وَمَجَالِسِهِم بِهِمْ يَتَطَيَّرُوْنَ ﴿ وإذَا قِيلَ لهُم آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ أَلَا إِنَّهُم هُمُ السُّفَهَاءُ ولَكِنْ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ .

لِكُلٍّ مِنْهُم وَجْهَانِ : وَجْهٌ يَلْقَى بِهِ المُؤْمِنِيْنَ ، وَوَجْهٌ يَنْقَلِبُ بِهِ إِلَى إِخوَانِهِ مِنْ المُلْحِدِيْنَ ، ولهُ لِسَانَانِ : أَحَدُهُمَا يَقْلِبُه بظَاهِرِ المُسْلِمِين ، والآخَرُ يترجمُ بِهِ عن سِرِّهِ المَكْنُونِ ﴿ واذا لَقُوا الذِيْنَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَاذا خَلَوا إلَى شَيَاطِيْنِهِم قَالُوا إِنَّا مَعَكُم إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾

قَدْ أَعْرَضُوا عَنْ الكِتَابِ والسُّنَّةِ اسْتِهْزَاءً بِأَهْلِهِمَا وَاسْتِحْقَاراً ، وَأَبَوا أَنْ يَنْقَادُوا لِحُكْمِ الوَحْيَيْنِ فُرِحاً بِمَا عِنْدَهُم مِنْ العِلْم الذِي لَا يَنْفَعُ الاسْتِكْثَارُ مِنْهُ إلا شَرّاً واسْتِكْبَاراً ، فَتَرَاهُم أبداً بالمُتَمَسِّكِين بصَرِيْحِ الوَحْي يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بهم وَيَمُدُّهم في طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ ﴾ .

خَرَجُوا في طَلَبِ التِّجَارةِ البَائِرةِ في بِحَارِ الظُّلُمَاتِ ، فَرَكِبُوا مَرَاكِبَ الشُّبَه وَالشُّكُوكِ تَجْرِي بهِم في مَوْجِ الخَيَالاتِ ، فَلَعِبَتْ بِسُفنِهِم الرِّيْحُ العَاصِفُ ، فَأَلْقَتْهَا بَيْنَ سُفنِ الهَالِكِيْنَ ﴿ أوْلَئِكَ الذِيْنَ اشْتَروا الضَّلَالَةَ بالهُدى ، فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهم ، وَمَا كَانوا مُهْتَدِيْنَ ﴾ .

أَضَاءَتْ لهُم نَارُ الإِيْمَانِ فَأَبْصَرُوا في ضَوْئِهَا مَوَاقِعَ الهُدَى وَالضَّلَالِ ، ثم طَفِيءَ ذلك النُّورُ ، وبقِيَتْ نَاراً تتأَجَّجُ ذَات لَهَبٍ واشْتِعَال ، فَهُم بتلكَ النَّار مُعذبُون ، وفي تلكَ الظُّلمَاتِ يَعْمَهُونَ﴿ مَثلهُم كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلمّا

أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بنُورِهِم وَتَركَهُم في ظُلمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴾ .

أَسْمَاعُ قُلُوبهم قَدْ أثْقلَهَا الوَقرُ ، فهِيَ لا تَسْمَعُ مُنَادِيْ الايْمَان ، وعيُونُ بَصَائِرهم عليها غِشَاوَةُ العَمَى ، فهي لا تُبْصِرُ حَقَائِقُ القُرْآن ، وألْسِنَتُهم بهَا خَرَسٌ عَنْ الحَقِّ ، فهُم بهِ لا يَنْطِقُونَ ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهُم لَا يَرْجعُونَ ﴾ .

صَابَ عليهم صَيِّبُ الوَحْي ، وَفيْهِ حَيَاةُ القُلُوبِ والأرْوَاحِ ، فَلمْ يَسْمَعُوا منه إلا رَعْدَ التَّهْدِيْدِ وَالوَعِيْدِ والتّكَالِيْفِ التِيْ وُظِّفَتْ عَلَيْهم في المسَاءِ وَالصَّبَاح ، فـجَعَلُوا أَصَابعَهُم في آذَانِهم ، وَاسْتَغْشَوا ثِيَابَهُم ، وَجَدُّوا في الهَربِ ، والـطَّلَبُ في آثَارِهِم وَالصِّيَاحُ ، فَنُودِيَ عَلَيْهم عَلَى رُؤوْسِ الأشْهَادِ ، وكُشِفَتْ حَالُهم لِلْمُسْتَبْصِرِيْنَ ، وضَربَ لهُم مَثَلانِ بحَسَب حَالِ الطَّائِفَتَيْنِ مِنْهُم : المُنَاظِرِيْنَ وَالمُقَلِّدِيْنَ ، فقِيْلَ (أَو كَصَيِّبٍ مِنْ السَّماءِ فيه ظُلمَاتٍ وَرَعدٍ وبَرْق يَجْعَلُونَ أصَابعَهُم في آذانـهم مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ ، وَاللهُ مُحِيْطٌ بالكافِرِيْنَ) .

ضَعُفَتْ أبْصَارُ بَصَائِرهِم عَنْ احْتِمَالِ مَا في الصَّيِّبِ مِنْ بَرُوقِ أَنْوَارِهِ وَضِياءِ معَانِيْهِ ، وعَجزَتْ أسْمَاعُهُم عَنْ تلَقِّيْ رُعودِ وُعُودِه وَأوَامِرِهِ وَنَوَاهِيْهِ ، فقَامُوا عِنْدَ ذلكَ حَيَارَى فِيَ أوْدِيَةِ التِّيْهِ ، لا يَنْتَفِعُ بِسَمْعِهِ السَّامِعُ ، وَلا يَهْتَدِيْ بَبَصَرِهِ البَصِيْرُ (كلمَا أضَاء لهُم مَشَوْا فِيْهِ ، وَاذا أُظلَم عَلَيْهم قامُوا ، وَلوْ شَاءَ اللهُ لذَهَبَ بسَمْعِهم وَأَبْصَارِهِم ، إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر) .

لهُم عَلامَاتٌ يُعْرَفُون بَها مُبَيَّنَةٌ في السُّنَّةِ وَالقُرْآنِ ، بادِيَةٌ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا مِنْ أَهْلِ بصَائِرِ الإيْمَانِ ، قامَ بهم ـ وَاللهِ ـ الرِّيَاءُ ، وَهُوَ أقبَحُ مَقَامٍ قَامَهُ الانْسَانُ ، وَقَعَدَ بهم الكسَلُ عَمَّا أُمِرُوا بهِ مِن أَوَامِرِ الرَّحْمنِ ، فَأَصْبَحَ الإِخْلاصُ عليهم

لِذلكَ ثَقِيْلا (وَاذا قامُوا إلى الصَّلاةِ قَـامُوا كسَالى يُرَاؤُونَ النَّاسَ ، وَلَا يَذْكُرونَ اللهَ إلا قلِيْلا) .

أَحَدُهُم كَالشَّاةِ العَائِرَة بينَ الغَنَمَينِ ، تَيْعَرُ إِلى هَذِه مَرَّةً وإلى هَذه مَرَّةً ، ولا تَسْتَقِرُّ مَعَ إحْدَى الفِئَتَينِ ، فهُم وَاقِفُونَ بَيْنَ الجَمْعَين ، يَنْظُرُونَ أيُّهم أقْوَى وَأَعزُّ قَبِيْلا (مُذَبْذبينَ بَيْنَ ذلك لا إلىَ هَؤلاءِ ، وَلا إلى هؤلاءِ ، وَمَنْ يُضْلِلَ اللهُ فَلَنْ تجِدَ لهُ سَبِيْلا) .

يَتَرَبَّصُونَ الدَّوَائِرَ بِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالقُرْآنِ . فإنْ كانَ لهُم فَتْحٌ مِنْ اللهِ ، قالُوا : ألَمْ نَكُنَ مَعَكُم ؟ وَأقْسَمُوا عَلى ذلكَ باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهم ، وَإنْ كانَ لِأعْدَاءِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِن النُّصْرَةِ نَصِيْبٌ ، قالُوا : ألَمْ تَعْلَمُوا أنَّ عَقْدَ الإِخَاءِ بَيْننَا مُحْكَمٌ ، وَأنَّ النَّسَبَ بَيْننَا قَرِيْبٌ ؟ فَيَا مَنْ يُرِيْدُ مَعْرِفَتَهم ، خُذْ صِفَاتِهِمْ مِنْ كَلامِ رَبِّ العَالمين ، فلا تَحْتَاجُ بَعْدَهُ دَلِيْلاً (الذيْنَ يَتربَّصُونَ بكُم فَإنْ كانَ لكُم فتْحٌ مِنْ اللهِ ، قَالُوا : ألَمْ نكُن معَكُم ؟ وَانْ كانَ للكافِرِيْنَ نَصِيْبٌ ، قَالُوا : ألم نَسْتَحْوِذ عَليْكُم وَنمْنَعْكُم مِنْ المؤمِنين ؟ فاللهُ يَحْكُم بَيْنَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَلنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافِرِيْنَ على المؤمِنيْن سبِيْلا))

يُعْجبُ السَّامِعَ قَوْلُ أَحَدِهِم لِحَلاوَتِه وَلِيْنِه ، وَيُشْهِدُ اللّهُ عَلى مَا في قَلبِه مِنْ كَذِبه وَمَيْنِه ، فَترَاهُ عِندَ الحَقِّ نَائِماً، وفي البَاطِل عَلى الأقدَامِ فَخُذْ وَصْفَهُم مِنْ قَوْلِ القُدُّوسِ السَّلامِ : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُه في الحيَاةِ الدُّنْيا ويُشْهِدُ اللهَ على مَا في قلبِهِ ، وهُوَ ألدُّ الخِصَامِ) .

أَوَامِرُهُم التِي يَأْمُرُونَ بهَا أَتْبَاعَهُم مُتَضَمِّنَةٌ لِفَسَادِ البلادِ وَالعِبَادِ ، وَنَوَاهِيْهِم عَمَّا فِيْهِ صَلاحُهم في المَعَاشِ وَالمَعَادِ ، وَأَحَدُهُم تَلْقَاهُ بَيْنَ جَمَاعَةِ أَهْلِ الإيْمَانِ في الصَّلاةِ وَالذكرِ وَالزُّهْدِ والاجْتِهَادِ ﴿ وَإذا تَوَلَّى سَعَى في

الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيْهَا وَيُهْلِكَ الحَرْث وَالنَّسْلَ ، وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ .

فَهُم جِنْسٌ بَعْضُه يُشْبِهُ بَعْضَا ، يَأْمُرُوْنَ بالمُنْكَر بَعْدَ أَنْ يَفْعَلُوه ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ المَعْرُوفِ بَعْدَ أَن يَتْرُكُوه ، وَيَبْخَلُون بالمَالِ في سَبِيْلِ اللهِ وَمَرْضَاتِهِ أَنْ يُنْفِقُوهُ، كَمْ ذَكَّرَهُمْ اللهُ بنعمِهِ فَأَعْرَضُوا عَنْ ذِكْرِهِ وَنَسُوهُ ؟ وَكَمْ كَشَفَ حَالهُم لِعِبَادِهِ المُؤمِنِيْنَ لِيَجْتَنِبُوه ؟ فَاسْمَعُوا أَيُّهَا المُؤمِنِيْنَ : ﴿ المنَافِقُونَ والمنَافِقَاتِ بَعْضُهم مِنْ بَعْضٍ ، يَأمُرُوْنَ بالمنكرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ المَعْرُوفِ ، وَيَقْبِضُون أَيْدِيْهِم ، نسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُم ، إِنَّ المنافِقِيْنَ هُمْ الفَاسِقُونَ ﴾ .

إِنْ حَاكَمْتَهُم إِلى صَرِيْحِ الوَحْي وَجَدْتَهُم عَنْهُ نَافِرِيْنَ ، وَإِنْ دَعَوْتَهُم إِلَى حُكم كِتَابِ اللهِ وَسُنّة رَسُولِهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلمَ رَأَيْتَهُم عَنْهُ مُعْرِضِيْنَ ، فَلَوْ شَهِدْتَ حقَائِقَهُم لَرَأَيْتَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الهُدَى أَمَداً بَعِيْداً ، وَرَأَيْتَهَا مُعْرِضَةً عَنْ الوَحْي إِعْرَاضاً شَدِيْدَاً ﴿ وَاذَا قِيْلَ لَهُم : تعالَوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ، رَأَيْتَ المنافِقِيْنَ يَصُدُّوْنَ عَنْكَ صُدُوْدَا ﴾ .

فَكَيْفَ لَهُم بالفَلاحِ وَالهُدى ! بَعْدَ مَا أُصِيْبُوا في عُقُولِهم وَأَدْيَانِهم وَأَنَّى لهُم التخَلُّصُ مِنْ الضَّلالِ وَالرَّدَى ؟ وَقَدْ اشْتَرَوا الكُفرَ بإيْمَانِهم ؟ فَمَا أَخْسَرَ تِجارَتَهم البَائِرَة ! وَقَد اسْتَبْدَلُوا بالرَّحِيْقِ المَختُوم حَرِيْقَا ﴿ فَكَيْفَ إِذا أَصَابَتْهُم مُصِيْبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيْهِم ، ثُمَّ جَاؤُوْكَ يَحْلِفُونَ باللّهِ : إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ احْسَاناً وَتَوْفِيْقَاً ﴾ .

نَشَبَ زَقُّومُ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ في قُلُوبهم . فَلا يُجِيْدُونَ لَهُ مَسِيْغَا ﴿ أولئك الذين يَعْلَمُ اللهُ ما في قُلُوبهم ، فَأَعْرِضْ عَنْهُم وَعِظهم ، وَقُلْ لَهُم في أنفُسِهِم قَوْلاً بَلِيْغَا ﴾ .

تَبّاً لَهُم ، مَا أبعَدَهُم عن حَقيقةِ الإِيْمَانِ ! وَمَا أَكْذَبَ دَعْوَاهُم لِلتَّحْقيق وَالعِرْفَانِ ، فالقَومُ في شَأنٍ وَاتّبَاعُ الرَّسُولِ في شَأنٍ

لقدْ أقْسَمَ اللهُ جلَّ جلالُهُ في كتَابِهِ بنَفْسِه المُقَدَّسَةِ قسَماً عَظِيْماً يَعْرِفُ مَضْمُونَه أوُلُوا البَصَائِرِ ، فَقُلُوبُهم منه على حَذرٍ إجْلالاً له وتَعْظِيْماً ، فَقَالَ تَعَالَى تَحْذِيْراً لِأَوْلِيَائِه وَتَنْبِيْهاً على حَالِ هَؤلَآءِ وَتفْهِيْماً : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُوْنَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيْمَا شَجَرَ بينَهم ، ثم لا يَجِدُوا في أنفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ، ويُسَلِّمُوا تَسْلِيْما ﴾ .

تَسْبِقُ يَمِيْنُ أَحَدِهِم كَلاَمَهُ مِنْ غيرِ أن يُعْتَرَضَ عليه ، لِعِلْمِهِ أَنَّ قُلوبَ أَهْلِ الإِيْمَانِ لا تَطْمَئِنُّ إليه ، فَيَتَبَرَّأ بِـيَمِيْنِهِ مِنْ سُوْءِ الظَّنِّ بهِ وَكَشْفِ مَا لَدَيْهِ ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيْبَةِ يَكْذِبُونَ ، وَيَحْلِفُونَ لِيَحْسَبَ السَّامِعُ أَنَّهُمْ صَادِقُونَ قد ﴿ اتَّخذُوا أَيْمَانَهُم جُنَّةً ، فَصَدُّوا عن سَبيْلِ اللهِ ، إنهم سآء ما كانوا يعملون ﴾ .

تَبّاً لهُم بَرزُوا إِلَى البَيْدَاءِ مَعَ رَكْبِ الإِيْمَانِ ، فَلَمَّا رَأَوْا طُولَ الطَّرِيْقِ وَبُعْدَ الشُّقَّةِ نَكَصُوا عَلى أَعْقَابِهم وَرَجَعُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُم يَتَمَتَّعُون بِطَيِّبِ العَيْشِ وَلَذَّةِ المَنَامِ في دِيَارِهِم ، فَمَا مُتِّعُوا بِهِ ولا بِتِلْكَ الهَجْعَةِ انْتَفعُوا ، فَمَا هُوَ إلا أَنْ صَاحَ بِهِم الصَّائِحُ فَقامُوا عن مَوائِدِ أَطْعِمَتِهم وَالقَوْمُ جِيَاعٌ مَا شَبِعُوا ، فَكَيْفَ حَالُهم عِنْدَ اللِّقاءِ ؟ وقَد عَرَفُوا ثم أنكرُوا ، وَعَمُوا بَعْدَ مَا عَايَنُوا الحَقَّ وَأَبْصَرُوا ﴿ ذَلِكَ بأنهُم آمَنُوا ثم كفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهم فَهُم لا يَفْقَهُونَ ﴾ .

أَحْسَنُ النَّاسِ أَجْسَاماً وَأَخْلَبُهم لِسَاناً وَأَلْطَفُهُم بياناً وَأَخْبَثِهُم قُلُوباً وَأَضْعَفُهُم جَنَاناً ، فهمُ كالخَشَبِ المُسَنَّدَةِ التِي لا ثَمرَ لَهَا ، قد قُلِعَتْ مِنْ

مَغَارِسِهَا فَتَسَانَدَتْ إِلى حَائِطٍ يُقِيمُها لِئَلّا يَطَأَهَا السَّالِكُونَ ، ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُم تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهم ، وإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِم ، كَأَنَّهُم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِم ، هُمْ العَدُوّ فَاحْذَرْهُم ! قَاتَلَهُم اللهُ ! أَنّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ !

يُؤَخِّرُونَ الصَّلاةَ عَنْ وَقْتِهَا الأَوَّلِ إِلَى شَرْقِ المَوْتَى ، فالصُّبْحُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْس ، وَالعَصْرُ عِنْدَ الغُرُوبِ ، وَيَنْقُرُونَهَا نَقْرَ الغُرابِ ، اذْ هِيَ صَلاةُ الأَبْدَانِ لَا صَلاةُ القُلوبِ ، وَيَلْتَفِتُونَ فِيهَا التِفَاتَةِ الثَّعْلَبِ ، إِذْ يَتَيَقَّنُ أَنَّهُ مَطْرُودٌ مَطْلُوبٌ ، وَلاَ يَشْهَدُونَ الجَمَاعَةَ ، بَلْ إِنْ صَلَّى أَحَدُهُم فَفِي البَيْتِ أَوِ الدُّكّانِ ، وَإِذا خَاصَمَ فَجرَ ، وَإِذا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ ، هَذِهِ مُعَامَلَتُهُمْ لِلْخَلْقِ ، وَتِلْكَ مُعَامَلَتُهم لِلْخَالِقِ ، فَخُذْ وَصْفَهُم مِنْ أَوَّلِ ﴿ المُطَفِّفِيْنَ ﴾ وَآخِرِ ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَارِقْ ﴾ فلا يُنَبِّئُكَ عَنْ أَوْصَافِهم مِثْلُ خَبِيْرٍ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبي جَاهِدْ الكُفّارَ والمنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيهم وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيْرُ ﴾ .

فَمَا أَكْثَرَهُم ! وَهُمْ الأَقَلُّونَ ، وَمَا أَجْبَرَهُم !ـ وَهُمْ الأَذَلُّونَ ، وَمَا أَجْهَلَهُم ! وَهُمْ المُتَعَالِمُونَ ، وَمَا أَغَرَّهُم باللهِ ! إِذْ هُمْ بِعَظَمَتِهِ جَاهِلُون ﴿ وَيَحْلِفُونَ باللهِ إِنَّهُم لَمِنْكُمْ ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ .

إِنْ أَصَابَ أَهْلُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَافِيَةٌ وَنَصْرٌ وَظُهُورٌ ، سَاءَهُم ذلكَ وَغَمَّهُم ، وَإِنْ أَصَابَهم ابْتِلاءٌ مِنْ اللهِ وَامْتِحَانٌ يُمَحِّصُ بِهِ ذُنُوبَهُمْ وَيُكَفِّرُ بِهِ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِم أَفْرَحَهُم ذَلِكَ وَسَرَّهُمْ وَهَذَا يُحَقِّقُ إِرْثَهُم وَإِرْثَ مَنْ عَدَاهُم ، وَلَا يَسْتَوِي مَنْ مَوْرُوْثُه الرَّسُولُ وَمَنْ مَوْرُوثُهم المُنَافِقُونَ ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَة

تسُؤْهُم ، وَانْ تُصِبكَ مُصِيْبَةٌ يَقُولُوا قد أَخذَنَا أمْرَنا مِنْ قَبْلُ ، وَيَتَوَلّوا وَهُم فَرِحُونَ، قُلْ لنْ يُصِيْبَنا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكلُ المُؤْمِنُوْنَ ﴾ وَقَالَ تعَالَى في شَأْنِ السَّلَفَيْنِ المُخْتَلِفَيْنِ ، وَالحَقُّ لا يَنْدَفِعُ بِمُكَابَرةِ أَهْلِ الزَيْغ وَالتَّخليْطِ ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُم حَسَنَة تَسُؤْهُم ، وَإِنْ تُصِبْكُم سَيِّئة يَفْرحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُم كَيْدُهُم شَيْئاً ، إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُون مُحِيْطٌ ﴾ .

كَرِهَ اللهُ طَاعَاتِهِم لِخُبْثِ قُلُوبهم وَفَسَادِ نِيَّاتِهم ، فَثَبَّطَهُم عَنْهَا وَأَقْعَدَهُم ، وَأَبْغَضَ قُرْبَهم مِنْهُ وَجَوَارَهُ ، لِمَيْلِهم إلى أَعْدَائِهِ، فَطَرَدَهُم عَنْهُ وَأَبْعَدَهُم، وَأَعْرَضُوا عَنْ وَحْيِهِ فَأَعْرَضَ عَنْهُم ، وَأَشْقَاهُمْ وَمَا أَسْعَدَهُمْ ، وَحَكَمَ عَلَيْهِم بِحُكْم عَدْلٍ لا مَطْمَعَ لهُم في الفَلَاح بَعْدَهُ إلَّا أَنْ يَكُونُوا مِنْ التَّائِبِيْنَ ، فقالَ تَعَالَى ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوْجَ لأعدُّوا لَهُ عدّةً ، وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُم فَثَبَّطَهُم وَقِيْلَ اقْعُدوا مَع القَاعِدِيْنَ ﴾ ثم ذَكَرَ حِكْمَتَهُ في تَثْبِيْطِهِم وَإِقْعَادِهِمْ ، وَطَرْدِهم عَنْ بَابِهِ وَإِبْعَادِهِم ، وَانَّ ذَلِكَ مِنْ لُطْفِهِ بِأَوْلِيَائِهِ وَاسْعَادِهِم ، فقالَ وَهُوَ أَحْكَمُ الحَاكِمِيْنَ : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيْكُم مَا زَادُوكُم إِلَّا خَبَالًا ، وَلأَوْضَعُوا خِلالكُم يَبْغُونَكُم الفِتْنَة ، وَفِيْكُم سَمَّاعُونَ لَهُم ، وَاللهُ عَلِيْمٌ بالظالِمِينَ ﴾ .

ثَقُلَتْ عَلَيْهِم النُّصُوصُ فَكَرِهُوهَا ، وَأَعْيَاهُم حَمْلُهَا فَأَلْقَوْهَا عَنْ أَكْتَافِهِم وَوَضَعُوهَا ، وَتَفَلَّتَتْ مِنْهُم السُّنَنُ أَنْ يَحْفَظُوهَا فَأَهْمَلُوهَا ، وَصَالَتْ عَلَيْهِمْ نُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَوَضَعُوا لَهَا قوانِيْنَ رَدُّوْهَا بِهَا وَدَفَعُوهَا ، وَلَقَدْ هَتَكَ اللهُ أَسْتَارَهُم ، وَكَشَفَ أَسْرَارَهُم ، وَضَرَبَ لِعِبَادِه أَمْثَالَهُم ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ كُلَّمَا انقَرَضَ مِنْهُم طَوَائِفُ خَلفَهم أَمْثَالُهُم ، فَذَكَرَ أَوْصَافِهم لِأَوْلِيَائِهِ لِيَكُونُوا

مِنْهَا على حَذَرٍ ، وَبيَّنها لَهُم فَقَالَ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُم كرِهُوا مَا أنزلَ اللهُ فأحْبَطَ أَعْمَالَهُم ﴾ .

هَذا شَأْنُ مَنْ ثَقُلَتْ عَليْهِ النُّصُوصُ ، فرَآهَا حَائِلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ بِدْعَتِه وَهَوَاهُ ، فَهِيَ في وَجْهِهِ . كالبُنْيَانِ المَرْصُوصِ ، فَباعَهَا بمُحَصَّل مِنَ الكَلَامِ البَاطِل ، وَاسْتَبْدَلَ مِنْهَا بالفُصُوصِ فَأَعْقَبَهم ذلكَ أَنْ أَفْسَدَ عليهم إعْلانَهُم وَإِسْرَارَهُم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَالُوا للذِيْنَ كرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ : سَنُطِيْعُكم في بَعْضِ الأَمْرِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُم ، فكيفَ إذا تَوَفَّتْهم الملائِكةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم وَأَدْبَارَهم ؟ ذلِكَ بِأَنَّهُم اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهُ ، وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ، فأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم ﴾ .

أَسَرُّوا سَرَائِرَ النِّفَاقِ ، فَأَظْهَرَهَا اللهُ عَلى صَفحَاتِ الوُجُوهِ مِنْهُم وَفَلَتَاتِ اللِّسَانِ ، وَوَسَمَهُم لأَجْلِهَا بِسِيْمَاءٍ لا يَخْفَوْنَ بِهَا على أَهْلِ البَصَائِرِ وَالإِيْمَانِ ، وَظَنُّوا أَنَّهُم إِذْ كَتَمُوا كُفْرَهُم وَأَظْهَرُوا إِيْمَانَهم رَاجُوا عَلى الصَّيَارِفِ وَالنُّقَادِ ، كَيْفَ ؟ وَالنَّاقِدُ البَصِيْرُ قد كَشَفَهَا لَكُم ﴿ أَمْ حَسِبَ الذِيْنَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ أنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهم ؟ وَلَو نشَاءُ لأَرَيْنَاكُم فَلَعَرفْتَهُمْ بِسِيْمَاهُم ، وَلِتَعْرِفَنَّهُم في لَحْنِ القَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالكم ﴾ .

فَكَيْفَ إِذَا جُمِعُوا لِيَومِ التَّلاقِ ، وَتَجَلَّى اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ لِلعِبَادِ وَقَدْ كَشَفَ عن سَاقٍ ؟ وَدُعُوا إِلى السُّجُودِ فلا يَسْتَطِيْعُونَ ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهم تَرْهَقُهم ذِلّةٌ ، وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ .

أَمْ كَيْفَ بهم إِذَا حُشِرُوا إِلَى جَسْرِ جَهَنَّمَ ؟ وَهُوَ أَدَقُّ مِنْ الشَّعْرَةِ ، وَأَحَدُّ مِنْ الحُسَام ، وَهُوَ دَحْضٌ مَزَلَّةٌ ، مُظْلِمٌ ، لا يَقْطَعُه أَحَدٌ إِلا بنُورٍ يُبْصِرُ بِهِ مَواطِيءَ الأَقْدَامِ ، فَقُسِّمَتْ بَيْنَ النَّاسِ الأَنْوَارُ ، وَهُمْ عَلى قَدْرِ تَفاوُتِها في

المُرور وَالذَّهَابِ ، وَأُعْطُوا نُوراً ظاهِراً مَعَ أَهْلِ الاسْلام ، كَمَا كانُوا بَيْنَهُم في هَذِهِ الدَّارِ يَأْتُون بالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَالحَجّ والصِّيَام ، فَلَمَّا تَوَسَّطُوا الجَسْرَ عَصَفَتْ على أنوَارِهِم أَهْوِيَةُ النِّفاقِ . فَأَطْفَأَتْ مَا بِأيْدِيْهِم مِنَ المَصَابِيح ، فَوَقَفُوا حَيَارَى لَا يَسْتَطِيْعُونَ المُرُوْرَ فضُرِبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الإيمَانِ بسُوْرٍ لَهُ بَابٌ ، وَلَكِنْ قَدْ حِيْلَ بَيْنَ القَوْمِ وبَيْنَ المَفَاتِيْحِ ، بَاطِنُه ـ الذي يَلِيْ المُؤْمِنِيْنَ فِيْهِ الرَّحْمَةُ ، وَمَا يَلِيْهِمْ مِن قِبَلِهم العَذَابُ وَالنّقمةُ ، يُنادُوْنَ مَنْ تَقَدَّمَهم مِنْ وَفْد الإِيْمَانِ ، وَمَشاعِلُ الرَّكْبِ تَلُوحُ عَلَى بُعْدٍ كالنُّجُوم تَبْدُو لِنَاظِرِ الانْسَانِ ، ﴿ انْظُرُوْنَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُم ﴾ لِنَتَمكنَ في هَذا المَضِيْقِ مِنْ العُبُورِ ، فقدْ طَفِشَتْ أَنْوَارُنا ، ولا جَوَازَ اليَوْمَ إِلَّا بِمِصْبَاح مِنَ النّورِ ﴿ قِيْلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُم ، فالتَمِسُوا نُوْرَا ﴾ حَيْثَ قُسّمَتْ الأنْوارُ ، فَهَيْهَاتَ الوُقُوفُ لِأَحَدٍ في مِثْلِ هَذا المِضْمَارِ ! كَيْفَ نَلْتَمِسُ الوُقُوفَ في هَذا المَضِيْقِ ؟ فَهَلْ يَلْوِيْ اليَوْمَ أَحَدٌ عَلى أَحَدٍ في هَذا الطَّرِيْقِ ؟ وَهَلْ يَلْتَفِتُ اليَوْمَ رَفِيْقٌ إِلى رَفِيْقٍ ؟ فذَكَّرُوهُم باجْتِمَاعِهم مَعَهُم وَصُحْبَتِهم لهُم في هَذِهِ الدارِ ، كَمَا يُذَكِّرُ الغَرِيْبُ صَاحِبَ الوَطَنِ بِصُحْبَتِه لَهُ في الأَسْفَارِ ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُم ؟ ﴾ نَصُومُ كما تَصُومُونَ ، وَنُصَلِّي كَمَا تُصَلُّونَ ، وَنَقْرَأُ كَمَا تَقْرَأُونَ ، وَنَتَصَدَّقُ كَمَا تُصَدّقُونَ ، وَنَحُجُّ كَمَا تَحُجُّونَ ؟ فَمَا الذِي فَرَّقَ بَيْنَنَا اليَوْمَ حَتَّى انْفَرَدْتُم دُوْنَنَا بالمُرُورِ ؟ ﴿ قَالُوا بَلى ﴾ ولكِنَّكُم كَانَتْ ظَوَاهِرُكُم مَعَنَا وبوَاطِنُكم مَعَ كلِّ مُلْحِدٍ ، وَكُلِّ ظَلُومٍ كَفُورٍ ﴿ وَلَكِنكُم فَتَنْتُم أنفُسَكُم وَتَرَبَّصْتُم وَارْتَبْتُم وَغَرَّتْكُم الأَمَانِيُّ ، حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللّهِ وَغَرَّكُمْ باللهِ الغَرُورُ ، فاليَوْمَ لا يُؤْخَذ مِنْكُم فِدْيَةٌ ولا مِنْ الذِيْنَ كَفَرُوا ، مَأْوَاكُم النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُم وَبِئْسَ المَصِيْرُ ﴾ .

لا تَسْتَطِلْ أَوْصَافَ القَوْمِ ، فَالمَتْرُوكُ ـ وَالـلهِ ـ أَكْثَرُ مِنَ المَذْكُورِ ،

كَادَ القُرْآنُ أَنْ يَكُونَ كُلهُ في شَأْنِهم ، لِكَثْرَتِهم عَلى ظَهْرِ الأرْضِ وفي أَجْوَافِ القُبورِ ، فلا خَلَتْ بِقاعُ الأرْضِ مِنْهُم لِئَلا يَسْتَوْحِش المُؤ مِنُون في الطُّرُقَاتِ ، وَتَتعطَّلَ بِهِم أَسْبَابُ المَعَايِشِ ، وَتَخطَّفُهمْ الوُحُوشُ وَالسِّبَاعُ في الفَلَوَاتِ ، سَمِعَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلاً يَقُولُ : اللهُمَ أَهْلِكْ المُنَافِقِينَ ، فقالَ « يَا ابْنَ أَخِيْ ، لَوْ هَلَكَ المُنَافِقُونَ لاسْتَوْحَشْتُم في طُرُقاتِكُم مِنْ قِلَّةِ السَّالِكِ » .

تَالله لقَدْ قَطَعَ خَوْفُ النِّفَاقِ قُلُوبَ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ لِعِلْمِهم بِدِقِّهِ وَجُلِّه ، وَتَفَاصِيْلِهِ وَجُمَلِهِ ، سَاءَتْ ظُنُونُهُم بِنُفوسِهِمْ ، حتّى خَشُوا أَنْ يَكُونُوا مِنْ جُمْلَةِ المُنَافِقِيْنَ ، قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ لِحُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عنهما : « يَا حُذَيْفَةُ ، نَشَدْتُكَ باللهِ ، هَلْ سَمَّاني لكَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ مِنْهُم ؟ قالَ : لا ، وَلَا أُزَكِي بَعْدَكَ أَحداً ، وَقَالَ ابْنُ أبي مُلَيْكَةَ ، أَدْرَكْتُ ثلاثينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّد صلى اللّهُ عليه وسلمَ كُلُّهُم يَخَافُ النِّفَاقَ على نَفْسِه ، مَا مِنْهُم أَحَدٌ يَقُولُ : إنَّ إِيْمَانَهُ كَإِيْمَانِ جِبْرِيْلَ وَمِيكَائِيل » ذكرَهُ البُخَارِيّ ، وَذُكِرَ عنْ الحَسَنِ البَصْرِيّ « مَا أَمِنَهُ إلا مُنافِقٌ ، وَمَا خَافهُ إلا مُؤ مِنٌ » وَلَقَدْ ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الصَّحابةِ : أنهُ كانَ يَقُولُ في دُعائه : « اللهُمّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِنْ خُشوعِ النِّفَاقِ ، قِيْلَ : وَمَا خُشُوْعُ النِّفاقِ ؟ قَالَ : أَنْ يُرَى البَدَنُ خاشِعاً وَالقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ » .

تالله لَقَدْ مُلِئَتْ قُلُوبُ القَوْمِ إِيْماناً وَيَقِيْناً ، وَخَوْفُهُمْ مِنْ النِّفَاقِ شَدِيْدٌ وَهَمُّهُم لِذَلِكَ ثَقِيْلٌ ، وَسِوَاهُم كَثِيْرٌ مِنْهُم لا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُم ، وَهُمْ يَدَّعُونَ أنَّ إِيمَانَهُمْ كَإِيْمَانِ جِبْرِيْلَ وَمِيْكَائِيْل .

زَرْعُ النِّفاقِ يَنْبُت على سَاقِيَتَيْنِ : سَاقِيَةُ الكَذِبِ ، وَسَاقِيَةُ الرِّيَاءِ ، وَمَخْرَجُهمَا مِن عَيْنَينِ : عينِ ضَعْفِ البَصِيْرَةِ ، وَعَيْنِ ضَعْفِ العَزِيْمَةِ ، فإذا

تَمَّتْ هَذِهِ الأَرْكَانُ الأَرْبَعُ ، اسْتَحْكَمَ نَبَاتُ النِّفاقِ وَبُنْيَانُه ، وَلَكِنَّه بِمَدَارِجِ السُّيُولِ عَلى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، فإذا شَاهَدُوا سَيْلَ الحَقَائِق يَوْم تُبْلَى السَّرَائِرُ ، وَكُشِفَ المَسْتُورُ ، وَبُعْثِرَ ما في القُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَافي الصُّدُورِ ، تَبَيَّنَ حِيْنَئِذٍ لِمَنْ كَانَتْ بِضَاعَتَهُ النِّفَاقُ ، أَنَّ حَوَاصِلَهُ التي حَصَّلَهَا كَانَتْ كَالسَّرَاب ﴿ يَحْسَبُه الظمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ، وَاللهُ سَرِيْعُ الحِسَابِ ﴾ .

قُلُوبُهُم عَنْ الخَيْراتِ لاَهِيَةٌ ، وَأَجْسَادُهم إليها سَاعِيَةٌ ، وَالفَاحِشَةُ في فِجَاجِهِمْ فاشِيَةٌ ، وَإِذا سَمِعُوا الحَقَّ كانَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ سَمَاعِهِ قاسِيَةٌ . وَإِذا حَضَرُوا البَاطِلَ وَشَهِدُوا الزُّوْرَ ، انْفَتَحَتْ أَبْصَارُ قُلُوبِهِمْ ، وَكَانَتْ آذانُهمْ وَاعِيَةً .

فَهَذِهِ - وَاللهِ - أَمَارَاتُ النِّفَاقِ ، فَاحْذَرْهَا أَيُّهَا الرَّجُلُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ بِكَ القَاضِيَةُ ، إذا عَاهَدُوا لَمْ يَفُوا ، وَإِنْ وَعَدُوا أَخْلَفُوا وانْ قالُوا لَمْ يُنْصِفُوا ، وَإِنْ دُعُوا إِلَى الطَّاعَةِ وَقَفُوا ، وَإِذا قِيْلَ لَهُم : تَعالَوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ صَدَفُوا ، وإذا دَعَتْهُم أَهْوَاؤُهم الى أغرَاضِهِم أَسْرَعوا إليها وَانْصَرَفُوا ، فَذَرْهُم وَمَا اخْتَارُوا لأَنْفُسِهِم مِنْ الهَوانِ ، والخِزْي وَالخُسْرانِ ، فَلاَ تَثِقْ بِعُهُودِهِم ، وَلاَ تَطْمَئِنَّ إِلَى وُعُودِهِم ، فانَّهُم فِيْهَا كَاذِبُونَ ، وَهُمْ لِمَا سِوَاهَا مُخَالِفُونَ ﴿ وَمِنْهُم مَنْ عاهَدَ اللهَ : لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ ، لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِيْن، فَلَمَّا آتاهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُم نِفَاقاً في قُلُوبهم إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

* * *

لشيخنا عبد الرحمن الناصر السعدي رحمه الله

سَعِـدَ الـذِيْنَ تَـجَنَّبُـوا سُبُـلَ الـرَّدَى
وَتَـيَـمَّـمُـوْا لِـمَـنَـازِلِ الـرِّضْـوَانِ
فَهُم الـذِيْنَ قَـدْ أَخْلَصُـوْا في مَشْيِهِمْ
مُـتَـشَـرِّعِـيْـنَ بِـشَـرْعَـةِ الإِيْـمَـانِ
وَهُـم الـذِيْنَ بَـنَـوْا مَـنَـازِلَ سَيْـرِهِـمْ
بَـيْـنَ الـرَّجَـا والـخَـوْفِ لِلدَّيَّـانِ
وَهُـم الـذِيْـنَ مَـلاَ الإِلٰـهُ قُـلُوْبَـهُـمْ
بِـوِدَادِهِ وَمَـحَـبَّـةِ الـرَّحْـمَـنِ
وَهُـمْ الـذِيْنَ قَـدْ أَكَـثَـرُوْا مِن ذِكْـرِهِ
فـي الـسِّـرِّ والاعْـلاَنِ والأَحْـيَـانِ
يَـتَـقَـرَّبُـوْنَ إِلـى الـمَلِيْـكِ بِـفِـعْلِهِـمْ
طَـاعَـاتِـهِ والـتَّـرْكِ لِـلْعِـصْـيَـانِ
فِـعْـلُ الـفَـرَائِضِ والـنَّـوَافِـلِ دَأْبُـهُـمْ
مَـعْ رُؤْيَـةِ الـتَّـقْـصِيْـرِ والـنُّـقْـصَـانِ
صَبَـرُوْا النُّفُـوسَ على المَكَـارِهِ كُـلِّهَـا
شَـوْقـاً إِلَـى مَـا فِـيْـهِ مِـن إِحْـسَـانِ
نَـزَلُـوْا بِمَنْـزِلَـةِ الـرِّضَـى فَهُـمُـوْا بِهَـا
قَـدْ أَصْـبَـحُـوْا فـي جُـنَّـةٍ وَأَمَـانِ

شَكَـرُوْا الـذِيْ أَوْلَى الـخَـلاَئِقَ فَضْلَهُ
بـالـقَـلْبِ والأقْـوَالِ والأَرْكَـانِ
صَحِبُـوْا التَّـوَكُّـلَ في جَمِيْعِ أُمُـوْرِهِم
مَـعْ بَـذْلِ جُهْـدٍ في رِضَى الـرَّحْمَـانِ
عَـبَـدُوْا الإلـهَ على اعْـتِقَـادِ حُضُـوْرِهِ
فَـتَـبَـوَّؤُا فـي مَـنْـزِلِ الاحْـسَـانِ
نَصَحُـوْا الخَلِيْقَـةَ في رِضَى مَحْبُـوْبِهِمْ
بـالـعِـلْمِ والارْشَـادِ والاحْـسَـانِ
صَحِبُـوْا الخَـلاَئِقَ بـالجُسُـوم وإنَّمـا
أَرْوَاحُـهُـمْ فـي مَـنْـزِلٍ فَـوْقَـانِـي
عَـزَفُـوا القُلُوبَ عَنِ الشَّـوَاغِـلِ كُلِّهـا
قَـدْ فَرَّغُـوهَـا مِن سِـوَى الـرَّحْمَـانِ
حَـرَكَـاتُـهُـم وَهُـمُـومُـهُـم وَعُـزُوْمُـهُـمْ
لِـلّهِ لا لِـلْخَـلْقِ والـشَّـيْـطَانِ
نِـعْمَ الـرَّفِيْقُ لِـطَالِـبِ السُبْـلِ الَّـتِي
تُـفْـضِـيْ إلـى الـخَـيْـرَاتِ والاحْـسـانِ

وقال رحمه الله

فائدة

قَوْلُه تَعَالى في المُصْطَفينَ الذين أَوْرَثْهم اللهُ الكِتَابَ ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ومنهُم مُقْتَصِدٌ ومنهم سَابِقٌ بالخَيْرَاتِ ﴾ اشْتَرَكَ هَؤُلاَءِ الثلاثَةِ في أَصْلِ الإيمانِ وفي اخْتِيَارِ اللهِ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ الخَلِيْقَةِ وفي أَنَّهُ مَنَّ عَلَيْهم بالكِتَابِ وفي

دُخُولِ الجنةِ وافْتَرَقُوْا في تَكْمِيْلِ مَرَاتِبِ الإِيْمَانِ وفي مِقْدَارِ الاصْطِفَاءِ مِن اللهِ وميراثِ الكِتَابِ وفي مَنَازِل الجنةِ وَدَرَجَاتِهَا بِحَسَبِ أَوْصَافِهم .

أَما الظالمُ لِنَفْسِهِ فَهُوَ المُؤْمِنُ الذِيْ خَلَطَ عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً ، وَتَرَكَ مِن وَاجِبَاتِ الإِيمانِ ما لا يَزُوْلُ مَعَهُ الإِيمانُ بالكُلِّيَةِ وَهذَا القِسْمُ يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ .

أَحَدُهُمَا : مَنْ يَرِدُ القِيَامَة وَقَدْ كُفِّرَ عنه السَّيئَاتُ كُلُّهَا إِمَّا بِدُعَاءٍ أَوْ شَفَاعَةٍ أَوْ آثَارٍ خَيْرِيَّةٍ يُنْتَفعُ بها في الدُنْيَا أَوْ عَذَابٍ في البَرْزَخِ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ ، ثُمَّ رُفِعَ عنه العِقابُ ، وَعَمِلَ الثَّوابُ عَمَلَهُ . فهذا مِن أَعْلَى هَذَا القِسْم وهُوَ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ .

القِسْمُ الثاني : مَنْ وَرَدَ القِيَامَةَ وَعَلَيهِ سَيئَآتٌ فَهَذَا تُوْزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَآتهُ ثُمَّ هُمْ بَعْدَ هَذَا ثَلاثَةُ أَنْوَاعٍ : أَحَدُهَا مَنْ تَرْجَحُ حسَنَاتُهُ على سَيئَآتِهِ . فَهَذَا لَا يَدْخُلُ النارَ بَلْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَبِحسناتِهِ وهي مِن رَحْمَةِ الله .

ثَانِيْهِمَا : مَنْ تَسَاوَتْ حَسَناتُهُم وَسَيئَآتُهُمْ فَهَؤُلَآءِ هُمُ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ وَهِي مَوْضِعٌ مُرْتَفِعٌ بَيْنَ الجنةِ والنارِ يَكُونُونَ عليه ، وفيه ما شَاءَ اللهُ ثم بعدَ ذَلِكَ يدخلُونَ الجنةَ كَمَا وُصِفَ ذلكَ في القُرْآنِ .

ثَالِثُهَا : مَنْ رَجَحَتْ سَيئَآتُهُ على حَسَنَاتِهِ فَهَذَا قَدْ اسْتَحَقَّ دُخُولُ النارِ إلا أَنْ يَمْنَعَ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ مِن شَفَاعَةِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لَهُ أَوْ شَفَاعَةِ أَحَدٍ مِن أقارِبه أو مَعَارِفه مِمَّنْ جَعَلَ اللهُ لَهُمْ في القيَامَةِ شَفَاعَةً لِعُلُوِّ مَقَامَاتِهِم عندَ اللهِ وَكَرَامَتِهم عليه ، أَوْ تُدْرِكُهُ رَحْمَةُ اللهِ المَحْضَةِ بلا وَاسِطَةٍ وإلا فلا بُدَّ لَهُ مِن دُخُولِ النَارِ يُعَذَّبُ فِيها بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ .

ثُمَّ مآلُهُ إلى الجَنَّةِ ولا يَبْقَى في النَّارِ أَحَدٌ في قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْـقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيْمَانٍ كَمَا تَوَاتَرَتْ بذَلِكَ الأحَادِيْثُ عن النبي صلى الله عليه وسلم وَأَجْمَعَ عليهِ سَلَفُ الأمةِ وَأَئمتُهَا .

وَأما المُقْتَصِدُ فَهُوَ الذِي أَدَّى الوَاجِبَاتَ وَتَرَكَ المحرماتَ وَلَمْ يُكْثِرْ مِن نَوافِلِ العِبَادَاتِ وإِذَا صَدَرَ مِنه بَعْضُ الهَفَواتِ بَادَرَ إلى التوبَةِ فعَادَ إلى مَرْتَبَتِهِ فَهؤلآءِ أَهْلُ اليَمِيْنِ وَأَمَّا مَن كَانَ مِن أصحابِ اليمينِ ﴿ فسلامٌ لَكَ مِن أصحابِ اليمين ﴾ فهؤلآءِ سَلِمُوا مِن عَذَابِ البَرْزَخِ وَعَذَابِ النارِ وَسَلَّمَ اللهُ لَهُمْ إِيْمَانَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ فأَدْخَلَهُم بِهَا الجنةَ كُلٌّ على حَسَبِ مَرْتَبَتِهِ .

وَأما السابقُ إلى الخَيْرَاتِ فَهُوَ الذي كَمَّلَ مَرَاتِبَ الإسلامِ وَقَامَ بِمَرْتَبَةِ الإحْسَانِ فَعَبَدَ الله كَأَنَّهُ يَرَاهُ فإنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فإنه يَرَاهُ ، وَبَذَلَ ما اسْتَطَاعَ مِن النَّفْعِ لِعِبَادِ اللهِ فكانَ قَلْبُهُ ملآناً مِن مَحَبَّةِ اللهِ والنُّصْحِ لِعِبَادِ اللهِ فأَدَّى الوَاجِبَاتَ والمُسْتَحَبَّاتَ وَتَرَكَ المحرماتَ والمكروهاتَ وفضولَ المباحاتِ المُنَقِّصَةِ لِدَرَجَتِهِ فهؤلآءِ هُم صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ ، وَهُمُ المُقرَّبُونَ في جَنَّاتِ النَّعِيْمِ إلى الله وَهُمْ أَهْلُ الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى فإن اللهَ كَمَا أَنَّهُ رَحِيْمٌ واسِعُ الرَّحْمَةِ فإنَّه حَكِيْمٌ يُنَزِّلُ الأُمورَ مَنَازِلَهَا وَيُعْطِي كُلُّ أَحَدٍ بِحَسَبِ حَالِهِ وَمَقَامِهِ فكَمَا كَانُوا هُمُ السابِقِيْنَ في الدنيا إلى كُلِّ خَيْرٍ كانُوا في الآخِرَةِ في أَعْلَى المُنَازِلِ وَكَمَا تَخَيَّرُوْا مِن الأعمالِ أَحْسَنَهَا جَعَلَ اللهُ لَهُمْ مِن الثوابِ أَحْسَنَهُ ولِهَذَا كَانَتْ عَيْنُ التَّسْنِيْمِ أَعْلَى أَشْرِبَةِ أَهْلِ الجنةِ التي لا نَقْصَ فِيها بوَجْهٍ مِن الوُجُوهِ .

كَمَا قَالَ تعالَى : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عيناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ ﴾ وهكذا بقيَةُ ألوانِ وأَصْنَافِ نَعيْمِ الجَنَّةِ لِهَؤُلآءِ السابِقِينَ مِنهُ أعْلاَهُ وأَكْمَلُهُ وَأَنْفَسُهُ وإِنْ كَانَ لَيْسَ في نَعِيْمِ الجنةِ دَنِي ولا نَقْصٌ ولا كَدَرٌ بِوَجْهٍ مِن الوُجُوهِ

بَلْ كَانَ مَنْ تَنَعَمَ بِأي نَعِيْمٍ مِن نَعِيْمِهَا لَمْ يَكُنْ في قَلْبِهِ شَيْءٌ أَعْلَى مِنه .

فَإِنَّ اللهَ أَعْطَاهُمْ وَأَرْضَاهُمْ وَخِيَار هَؤُلآءِ الأنبياءُ عليهم الصلاةُ والسلامُ عَلى مَرَاتِبهم ثم الصِّديقونَ عَلى مَرَاتِبهم ولِكُلّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا فسبحانَ مَنْ فَاوَتَ بَيْنَ عِبَادِهِ هَذَا التَّفَاوُتَ العظيم والله يختصُ برحمته مَن يشاء والله ذُو الفَضْلِ العظيم انتهى .

اللهم اجعلنا بتذكِيرك منتفعين ولكتابك ورسولك متبعين وعلى طاعتِك مجتمعين وتوفنا يا ربنا مسلمين والحقنا بعبادك الصالحين واغفر لنا وَلِوَالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

قصة عمير بن سعد الأنصاري

وَمِمَّا يَحْسُنُ سِيَاقُه وَيَحْلُو ذِكْرُه قِصَّةُ عُمَيْر بْنِ سَعْدٍ الأَنْصَارِيّ ، كانَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ يَتِيْماً مَاتَ أَبُوهُ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ مَالاً وَلَا مُعِيْلَا لَكِنَّ أُمَّهُ لَمْ تَلْبَثْ إلَّا مُدَّةً يَسِيْرَةً ثُمَّ تَزَوَّجَتْ بالجُلاّسِ بن سُوَيدٍ فَكَفَلَ ابْنَهَا عُمَيْراً وَضَمَّهُ إِلَيْهِ .

وَقَدْ لَقِيَ عُمَيرٌ مِنْ بِرِّ الجُلاّسِ ورِعَايَتِه وَجَمِيْل عَطْفِه بِهِ مَا جَعَلَهُ يَنْسَى أَنَّهُ يَتِيمٌ فَأَحبَّ عُمَيْرٌ الجُلاسَ حُبَّ الابْنِ لأَبِيْهِ وَكَذَلِكَ الجُلاسُ وَلِعَ بِعُمَيْرٍ وَأَحَبَّهُ حُبَّ الوَالِدِ لوَلَدِهِ فيْمَا ذُكِرَ عَنْهُ .

وَكَانَ كُلَّمَا شَبَّ عُمَيْرٌ ازْدَادَ الجُلاسُ لَهُ حُبّاً وَازْدَادَ به إِعْجَابًا لِمَا يَتخَيَّلُ فِيْهِ مِنْ أَمَارَاتِ الفِطْنَةِ وَالنَّجَابَةِ التِي تَبْدُو في كُلِّ عَمل مِنْ أَعْمَالِهِ

وَتَبْدُو في شَمَائِلِهِ وَتَصَرُّفاتِهِ .

وَقَدْ أَسْلَمَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ وَهُوَ صَغِيْرٌ لَمْ يُجَاوِزِ العَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ إلا قَلِيْلاً فَوَجَدَ الإِيْمَانُ في قَلْبِهِ الغَضِّ مَكاناً خالياً فَتَمكن مِنْهُ وَأَلْفَى الإِسْلاَمُ في نَفْسِ عُمَيْرٍ الصَّافِيَةِ تُرْبَةً خُصْبَةً فَتَغَلْغَلَ فِيْهَا .

فكانَ على صِغَرِ سِنِّهِ لا يَتَأَخَّرُ عَنْ الصَّلاةِ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ وكانَتْ أُمُّهُ تُسَرُّ وَتَغْمُرُهَا الفَرْحَةُ إذا رَأَتْـهُ ذَاهِباً إلى المَسْجِدِ أَو رَاجِعاً مِنْهُ .

وَسَارَتْ حَيَاتُه على هذا النَّحْوِ هَانِئَةً هَادِئَةً وَادِعَةً لا يُعَكِّرُ صَفْـوَها مُعَكِّرٌ إلى أَنْ قَدَرَ اللهُ عَلى عُمَيْرٍ مِحْنَة مِنْ أَشَدِّ المِحَنِ قَلَّمَا مَرَّتْ على فتىً مِثْلِهِ في السِّنِّ .

فَفِيْ غَزْوَةِ تَبُوكٍ لَمَّا رَأى بَذْلَ المُسْلِمِيْنَ أَمْوَالَهُم عِنْدَما حَثَّهُم صلواتُ اللهُ عليهِ وسلامُه على الجِهادِ وَأَمَرَهُم بالصَّدَقَةِ وَحَثَّهُم على النَّفَقَـةِ وَرَغِبَ أَهْـلُ الثَّـرْوَةِ بـالخَيْـرِ وَحَثَّ المُـوْسِـرِيْنَ عَلى تَجْهِيْـزِ المُعْسِرِيْنَ ، وَأَبْصَرَ أبا بَكْرٍ يَجِيْءُ بِمَا عِنْدَهُ وَعُمَرَ يَأْتِي بِنِصْفِ مَالِهِ وَعُثمانَ يَأْتِيْ بِجِرَابٍ فِيْهِ أَلفُ دِيْنارٍ ذَهَباً وَيُقَدِّمُهُ للنَّبيِّ صَلى اللهُ عليه وسلم وعبدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ يَحْمِلُ عَلى عَاتِقِهِ مائَتي أُوْقِيَّةٍ مِنْ الذَّهَبِ وَيُلْقِيْهَا بَيْنَ يَدَيْ النَّبِي صَلى اللهُ عليه وسلم .

وَنِسَاءُ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصارِ يَنْزَعْنَ حُلِيّهِنَّ وَيُلْقِيْنَهُ بَيْنَ يَدَيْ النبي صلى الله عليه وسلمَ لِيُجَهِّزَ بثمَنِهِ الجَيْشَ الغَازِيْ في سَبِيْلِ اللهِ بَلْ رَأَى رَجُلاً يَعْرِضُ فِرَاشَه لِلْبَيْعِ لِيَشْتَرِي بثمَنِه سَيْفاً يُجَاهِدُ بِهِ في سَبِيْلِ اللهِ .

فَتَعَجَّبَ عُمَيْرٌ مِنْ تَأَخُّرِ الجُلَّاسِ وَتَبَاطِئِهِ عَنْ الاسْتِعْدَادِ لِلرَّحِيْلِ مَعَ النبي صلى اللهُ عليه وسلمَ وَتَأَخُّرِهِ عَنْ البَذْلِ في سَبِيْلِ اللهِ عَلى الرَّغْمِ مِنْ قُدْرَتِهِ وَغِنَاهُ .

وَأَرادَ عُمَيْرٌ أَنْ يَسْتَثِيْرَ هِمَّةَ الجُلَّاسِ وَيَبْعَثَ الحَمِيَّةَ وَالمُروْءَة في نَفْسِهِ فَشَرَعَ يَقُصُّ عَلى الجُلّاسِ أَخْبَارَ مَا رَأَى وَمَا سَمِعَ وَخَاصَّةً البَكّائِيْنَ الذين قَدِمُوا عَلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ وَسَأَلُوه أنْ يَحْملِهُم وَاعْتَذرَ صَلى اللهُ عليه وسَلم بأَنَّه لا يَجِدُ مَا يَحْمِلُهم فَتَولَّوا وَأَعْيُنهم تَفِيْضُ مِنْ الدَّمْعِ . حَزناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُبَلِّغُهُم أُمْنِيَتَهُم في الجِهَادِ في سَبِيْلِ اللهِ .

لَكِنَّ الجُلّاسَ مَا كادَ أنْ يَسْمَعَ مِنْ عُمَيْرٍ مَا سَمِعَ حَتَّى تكلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَطَارَتْ عَقْلَ الفَتَى عُمَيرٍ مِنْ كِبَرِهَا إذا سَمِعَهُ يَقُولْ وَالعِيَاذُ بِهِ ﴿ إِنْ كَانَ مُحَمَّدُ صَادِقاً فِيمَا يَدَّعِيْهِ مِنَ النُّبُوَّةِ فَنَحْنُ شَرٌّ مِنْ الحَمِيرِ ﴾ لَقَدْ انْدَهَشَ عُمَيْرٌ مِمَّا سَمِعَ فَمَا كَانَ يَظُنُّ أَنَّ رَجُلاً عَاقِلاً كَبِيْرَ السِّنِّ يَنْطِقُ بِمِثْلِ هَذِهِ الكَلِمَةِ التِيْ تُخْرِجُ قَائِلَهَا عَنْ الإِيْمَانِ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَتُدْخِلُهُ في الكُفْرِ .

ذَهَبَ عُمَيْرُ بنُ سَعَدٍ يُفكِّرُ في تِجَاهِ هَذِهِ الحَادِثَةِ الفَظِيْعَةِ المُوبقَةِ فَرَآى أَنَّ السُّكُوتَ عنْ الجُلاسِ والسَّتْرَ عليهِ خِيَانَةٌ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَإِضْرَاراً بالاسْلامِ الذي يَكِيْدُ لَهُ المُنَافِقُونَ .

وَرَأى أنَّ في إِخْبَارِهِ فِيْمَا سَمِعَ مِنْ الجُلَّاسِ عُقُوقاً بالرَّجُلِ الذِيْ يُنْزِلُه مِن نَفْسِهِ مَنْزِلَةَ الوَالِدِ لِوَلَدِه فالجُلَّاسُ هُوَ الذِي كَفَلَهُ يَتِيْماً وَرَبَّاهُ

وَعوَّضَهُ عَنْ فَقْدِ أَبيْهِ .

فَاخْتَارَ النَّصِيْحَةَ للَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَالْتَفتَ إلى الجُلاّسِ وَقَالَ وَاللهِ يَا جُلَّاسُ ما كانَ على ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وَسَلمَ أَحَبَّ إليَّ مِنْكَ فأنْتَ أقْرَبُ النَّاسِ إلَيَّ وَأَجَلُّهُم إِلَيَّ يدا وَأَعْظَمُهم نِعْمَة عَلَيَّ .

وَلَقَدْ قُلْتَ مَقالَةً إِنْ ذَكَرْتُها فَضَحْتُك وإِنْ أَخْفَيْتُها خُنْتُ أَمَانَتِيْ وَأَهْلَكْتُ نَفْسِي وَدِيْنِي وَقَدْ عَزَمْتُ عَلى أَنْ أَمْضِيْ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ وَأُخْبِرَه بِما قُلْتَ فكُنْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِكَ ثُمَّ مَضى عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ إلى المَسْجِدِ وَأَخْبَرَ النبي صلى اللهُ عليه وسلمَ بما سَمِعَ مِنْ الجُلاَّسِ بْنِ سُوَيْدٍ فَأَقْعَدَهُ النبي صلى اللهُ عليه وسلمَ عندَه وَأَرْسَلَ أَحَدَ أَصْحَابِهِ إلَى الجُلاَسِ يَدْعُوه أَنْ يَأْتِيْ .

وَمَا هُو إِلَّا قَلِيْلٌ حَتَّى جَاءَ الجُلَّاسُ فَحَيَّا رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ فقالَ لَهُ النبي صلى اللهُ عليه وسلمَ ما مَقَالَةٌ سَمِعَهَا مِنْكَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ وَذَكَرَ لَهُ ما قَالَهُ فقالَ كَذَبَ عَليٌّ يَا رَسُولَ اللهِ وَافترَى فَمَا تَفوَّهْتُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

وَجَعَلَ الصَّحَابَةُ يُدِيْرُونَ أَبْصَارَهُم في الجُلَّاسِ وَعُمَيْرِ بْن سَعْدٍ كَأَنَّهُمْ يُرِيْدُونَ أَنْ يَقْرَؤُا على صَحِيْفَتَي وَجْهَيْهِمَا مَا يُكِنّهُ صَدْرَاهُمـا وَجَعَلُوا يَتَهامَسُونَ فقالَ وَاحِدٌ مِنْ الذِيْنَ في قُلُوبهم مَرَضٌ فَتىً عاقٌّ أَبَى إلَاّ أَنْ يُسِيْءَ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ وَقَالَ آخَرُوْنَ بَلْ إِنَّهُ غُلامٌ نَشَأَ في طَاعَةِ اللهِ وإِنَّ مَلَامِحَ وَجْهِهِ لَتَنْطِقُ بِصِدْقِهِ وَالْتَفَتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلمَ

إِلَى عُمَيرٍ فَرَآى وَجْهَهُ قَدْ احْتَقَنَ بالدَّم والدُّمُوعُ تَنْحَدِرُ مِدْرَاراً مِنْ عَيْنَيْهِ فَتَتَسَاقَطُ على خَدَّيْهِ وَصَدْرِهِ وَهُوَ يَقُولُ اللهُمَّ أَنْزِلْ على نَبِيِّكَ بَيَانَ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ يُكَرِّرُهَا فانْبَرَى الجُلاسُ وَقَالَ إِنَّ ما ذكَرْتُه لكَ يَا رَسُولَ اللهِ هُوَ الحَقُّ وانْ شِئْتَ تَحالَفْنَا بَيْنَ يَدَيْكَ وإِنِّيْ أَحْلِفُ باللهِ أَنِّيْ مَا قُلْتُ شَيْئاً مِمَّا نَقَلَهُ لَكَ عُمَيرٌ فَمَا أَنْ انْتَهى مِنْ حَلِفِهِ وَأَخَذَتْ عُيُونَ النَّاس تَنْتَقِلُ عنه إِلى عُمَيرِ بنِ سَعْدٍ حتى غَشِيَتْ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم السَّكِيْنَةُ

فعَرَفَ الصَّحابَةُ أَنَّه الـوَحْي فَلَزِمُوا أَمَـاكِنهم وسَكَنَتْ جَوَارِحُهم وَلَاذُوا بالصَّمْتِ وَتَعَلَّقَتْ أَبْصَارُهم بالنبي صلى الله عليه وَسَلَمَ وَهُنَا ظَهَر الخَوْفُ وَالوَجَلُ على الجُلَّاسِ وَبَدَا التَّلهُّفُ والتَّشَوُّقُ على عُمَيـرٍ ثم سُرِّيَ عن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم فتَلا قَوْلَ اللهِ تَعالَى :

﴿يَحْلِفُونَ باللهِ مَا قَالُـوا وَلَقَدْ قَـالُوا كَلِمَـةَ الكُفْرِ وَكَفَـرُوا بَعْدَ اسْلامِهم﴾ الى قَولِهِ ﴿ فإنْ يَتُوبُوا يَكُ خيراً لَهُم وانْ يَتولّوا يُعَذِّبْهُم اللهُ عَذاباً أَلِيْمَا في الدنيَا وَالآخِرَةِ﴾ .

فَارْتَعَدَ الجُلَّاسُ مِنْ هَوْلِ مَا سَمِعَ وَكَادَ يَنْعَقِدُ لِسَانُهُ مِنْ الجَزَعِ وَالرَّوْعَةِ ثمّ التَفَتَ إلى رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ وَقَالَ بلْ أَتُوبُ يَا رَسُولَ اللهِ بَلْ أَتُوبُ صَدَقَ عُمَيرٌ يَا رَسُولَ اللهِ وَكُنْتُ مِنْ الكاذِبينَ ، أَسْأَلُ اللهَ أنْ يَقْبَلَ تَوْبَتِيْ جُعِلْتُ فِدَاكَ يا رَسُولَ اللهِ .

وَهُنَا توَجَّهَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ إلى عُمَيرِ بْنِ سَعْدٍ فَمَدَّ يَدَهُ الشَّرِيْفَةُ إلى أذُنهِ وَأَمْسَكها بِرِفْقٍ وَقَالَ وَفَتْ أُذُنُكَ يا غُلَامُ ما سَمِعَتْ وصَدَّقَكَ رَبُّكَ .

اللهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنْ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ وَوَفِّقْنَا لِحُسْنِ العَمَلِ وَآتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ على نَبِيِّنَا وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

قصة أخرى لعمير بن سعد

كانَ أَهْلُ حِمْصٍ شَدِيْدِي التَّذمُّر مِنْ وُلاتِهم كثِيري الشَّكْوَى مِنْهُم ، فَمَا جَاءَ مِنْ وَالٍ إلا ذَكَرُوا لَهُ عُيوباً وَأَحْصَوا لَهُ ذُنُوباً وَرفَعُوا أَمْرَهُ إلى خَلِيْفَةِ المُسْلِمِيْنَ وَطَلَبُوا مِنْهُ بَدَلَهُ خيراً مِنْهُ .

فعزَمَ عمرُ بنُ الخَطَابِ أَنْ يَبْعَثَ اليهم بِوَالٍ لا يَجدُونَ فيْهِ مَطْعَناً ولا يَرَوْنَ في سِيْرَتِهِ مَغْمزاً فاخْتَارَ عُميرَ بنَ سَعْدٍ وَعَهدَ إليْهِ بِولايةِ حِمْص وَأَمرَهُ بالتَّوَجُّهِ إِليهَا فَقبِلَ الأَمْرَ على إِغْمَاضٍ مِنْهُ لِأَنَّهُ كانَ لَا يُؤثِرُ شَيْئاً على الجِهَادِ في سَبِيْلِ اللهِ .

وَلَمَّا بَلغَ عُميرٌ حِمْصاً جَمعَ النَّاسَ وخَطَبهُمْ وَبَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ وأثنى عليه وَصَلَّى على محمَّدٍ قالَ أيُّها النَّاسُ إنَّ الإِسْلَامَ حِصْنٌ مَنِيْعٌ وَبَابٌ وَثِيْقٌ وحِصْنُ الإِسْلَامِ العَدْلُ وَبَابُه الحَقُّ فإذا دُكَّ الحِصْنُ وَحُطِّمَ البَابُ اسْتُبِيْحَ حِمَى الدِّيْنِ .

وانَّ الإِسلامَ مَا يَزالُ مَنِيْعاً مَا اشْتَدَّ السُّلطانُ وَلَيْسَتْ شِدَّةُ السُّلْطَانِ ضَرْباً بالسَّوْطِ وَلا قَتْلاً بالسَّيْفِ وَلَكِنْ قَضَاءٌ بالعَدْلِ وَأَخْذاً بالحَقِّ ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى عَمَلِهِ لِيُنَفذَ مَا اخْتَطَّهُ لَهُم

قَضَى عُمَيرُ بْنُ سَعْدٍ حَوْلا كَامِلاً في حِمْصَ لم يَكْتُبْ لِأَمِيْرِ

المؤمِنِيْنَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ كِتاباً وَلَمْ يَبْعَثْ إلى بَيْتِ المَالِ مِنْ الفَيْءِ وَلاَ دِرْهَماً ولا دِيْنَاراً .

فَقَالَ عُمَرُ لِكاتِبِهِ اكْتُبْ لِعُمَيرٍ وَقُلْ إِذَا جَاءَكَ كِتَابُ أَمِيْرِ المؤمِنين فـأَقبلْ وَاتْـرُكْ حِمْصَ وَأَقْبِلْ عَلَيْـهِ وَاحْمِلْ مَعَـكَ مَا جَبَيْتَ مِنْ فيءِ المسْلِمينَ .

وَلَما وَصَلَ كِتابُ عُمرَ إلى عُمَيْر أَخذَ جِرَابَ زَادِهِ وحَملَهُ على عَاتِقِهِ وَحَمَلَ قَصْعَتَهُ وَوِعَاءَ وُضُوْئِه وَانْطَلقَ يَمْشِيْ إلَى المُدِيْنَةِ فَلمَّا وَصلَ المَدِيْنَة وَإذا لَوْنُهُ مُتغَيرٌ ويُدَنُه مُتضَعْضِعٌ قد هَزُلَ جِسْمُه وَطَالَ شعْرُه وَظَهَرَتْ عليهِ وَعْثَاءُ السَّفَر وكآبةُ المَنْظَر .

وَلمّا دَخلَ على عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنه دُهِشَ وَتَأَلَم مِنْ حَالَتِهِ وَقَالَ ما بكَ يَا عُمُيرُ فقالَ ما بي شَيْءٌ يَا أَمِيْرَ المؤمنينَ فَأَنَا صَحِيْحٌ بِحَمْدِ اللهِ أَحْمِلُ مَعِي الدّنْيَا كُلَّهُا وَأجرُّها .

فَقَالَ وَمَا مَعَكَ مِنْ الدُّنيا « وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ معه مَالاً يَحْمِلُه لِبَيْتِ مَالِ المسْلِمينَ » فقَالَ مَعِيْ جِرَابي وَقَد وَضَعْتُ فيهِ زَادِي ومَعِي قَصْعَتِي آكلُ فيهَا وَأَغْسِلُ عَلَيْهَا ثِيَابِي وَمَعِي قِرْبَةٌ لِوُضُوئِي وَشَرَابِي .

ثُمَّ إِنَّ الدنيا كُلَّهَا يَا أَمِيرُ المؤمِنينَ تَبَعٌ لِهَذَا المُتَاع لا حَاجَةَ لِيْ فِيْهَا غيرَ هَذَا ، فقالَ عُمَرُ وَهَلْ أَتَيْتَ مَاشِياً ، قَالَ نَعَمْ يَا أَمِيْرَ المؤمِنينَ فَقَالَ أَمَا أُعْطِيْتَ مِنْ الإِمَارَةِ دَابّةً تَرْكَبُها فَقَالَ هُمْ لَمْ يُعْطُونِيْ وَأَنَا لَمْ أَطْلُبْ مِنْهُم .

فَقَالَ وَأَيْنَ ما أَتَيْتَ بهِ لِبَيْتِ المَالِ فقَالَ لَمْ آتِ بِشَيْءٍ فَقَالَ عُمَرُ وَلِمَ لَمْ تَأْتِ بِشَيْءٍ .

فَقَـالَ لَمَّا وَصَلْتُ إلَى حِمْص جَمَعْتُ صُلَحَـاءَ أَهْلِهَا وَوَلَّيْتُهُم جَمِيعَ فَيْئِهم وَكَانُوا كُلَّمَا جَمَعُوا شَيْئاً اسْتَشَرْتُهُم في أَمْرِهِ وَوَضَعْتُه في مَوَاضِعِهِ وَأَنْفَقْتُه على المُسْتَحِقِّيْنَ مِنْهُم .

فَقَالَ عُمَرُ لِكَاتِبِهِ جَدِّدْ عَهْداً لِعُمَيْرٍ على وِلايَةِ حِمْص فَقَالَ عُمَيرُ هَيْهَاتَ فإِنَّ ذَلِك شَيْءٌ لا أُرِيْدُهْ وَلَنْ أَعْمَلَ لَكَ ولاَ لِأَحَدٍ بَعْدَكَ يَا أَمِيْرَ المؤ مِنينَ .

ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ بالذَّهَابِ إلى قَرْيَةٍ في ضَوَاحِي المَدِيْنَةِ يُقِيْمُ بِهَا أَهْلُه فأذِنَ لَهُ ، لَمْ يَمْضِ على عُمَيرٍ إلاَّ مُدَّةً يَسِيرةً بَعْدَ ذَهَابِهِ لِلْقَرْيَةِ حَتّى أَرَادَ عمرُ أَنْ يَختبرَهُ فقالَ لِوَاحِدٍ مِن ثِقاتِهِ يُقالُ لَهُ الحَارِثُ انطلِقْ إِلى عُميرِ بن سَعْدٍ وَانْزِلْ عِندَه كأنَكَ ضَيْفٌ فإنْ رَأَيْتَ عليه آثارَ نِعْمَةٍ فعُدَ كَمَا أَتَيْتَ وَانْ وَجَدْتَ حَالاً شَدِيْدَةً فَأَعْطِهِ هَذِهِ الدَّنَانيرَ وناوَلَهُ صُرَّةً فيها مائةُ دِيْنَارٍ .

انْطَلَقَ الحَارِثُ حتّى بَلغَ القَريةَ التِي فيها عُميرُ بنُ سَعْدٍ فسَأَلَ عنه فَدُلَّ عليهِ فلمَّا لَقِيَهُ سَلَّمَ عليه فَرَدَّ عليهِ السَّلامَ وَسَأَلَهُ مِنْ أَيْنَ قَدِمَ فقال الحَارِثُ مِنْ المَدِيْنَةِ فقَالَ كَيْفَ تَرَكْتَ المسْلِمِيْنَ ، فقالَ بِخَيْرٍ .

فَقَالَ كَيْفَ أَمِيْرُ المُؤْمنينَ قالَ صَحِيْحٌ صَالِحٌ فَقَـالَ أَلَيْسَ يُقِيْمُ الحُدُودَ قالَ بَلَى فقالَ اللهُمَّ أَعِنْ عُمَرَ فَإِنّي لا أَعْلَمُهُ إلا شَدِيْدَ الحُبِّ لكَ .

أَقَامَ الحَارِثُ فـي ضِيَافَةِ عُمَيرٍ ثَلاثَ لَيَالٍ فكَانَ يُخْرِجُ لَهُ كُلَّ لَيْلَةِ قُرْصاً مِنْ الشَّعِيْرِ فلمَّا كانَ اليَومُ الثالِثُ قالَ لِلحارِثِ رَجُلٌ مِنْ القَومِ لَقَدْ أَجْهَدْتَ عُمَيْراً وَأَهْلَهُ فلَيْسَ لَهُم إلَّا هَذَا القُرْصُ مِنْ الشَّعِيْرِ الذِيْ يُؤْثِرُونَكَ بِهِ على أَنْفُسِهم وَقَد أَضَرَّ بِهِم الجُوْعُ والجَهْدُ فإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرْحَلَ عَنْهُم فَافْعَلْ .

عِنْدَ ذَلِكَ أَخْرَجَ الحَارِثُ الدَّنَانِيْرَ وَدَفَعَهَا إلَى عُمَير فَقَالَ مَا هَذِهِ فقالَ الحَارِثُ بَعَثَ بِهَا أَمِيرُ المؤمِنينَ إِليكَ فقالَ رُدَّهَا إِلَيْهِ وَقُلْ لا حَاجَةَ لِعُمَيرٍ بِهَا فقالَتْ لَهُ امْرَأَتُه خُذهَا يا عُمَيرُ فإِنْ احْتَجْتَ إِليهَا أنفقْتَها وإِلَّا وَضَعْتَها في مَواضِعِهَا فالمُحْتاجُونَ هُنَا كَثِيرٌ فلمَّا سَمِعَ الحَارِثُ قَوْلَهَا ألقَى الدّنانيرَ بَيْنَ يدَيْ عُمَيرٍ وَانْصَرَفَ .

فَأَخَذَها عُمَيرُ وَجَعَلَهَا في صُرَرٍ صَغِيرَةٍ ولم يَبِتْ تِلْكَ اللَيْلَةَ إلَّا وقَدْ فَرَّقَها على الفُقَراءِ وخَصَّ مِنْهُم أبْنَاءَ الشّهَدَاءِ ، وَلَمَّا عادَ الحَارِثُ إلى المَدِينةِ وَوَاجَهَ عُمَرُ قالَ لَهُ ما رَأَيْتَ يا حَارِثُ فَقَالَ حَالاً شَدِيْدَةً يا أَميرَ المؤمِنينَ فقالَ أَدفَعْتَ إليْهِ الدَّنانيرَ فقالَ نَعْمَ يَا أَمِيْرَ المؤمِنينَ فَقَالَ عمرُ وَمَا صَنَعَ بِهَا عُمَيْرُ فقالَ لا أدْرِيْ وَمَا أَظُنُّه يُبْقِي لِنفْسِهِ مِنْهَا شَيْئاً مِنْهَا وَلَا دِرْهَماً .

فكَتَبَ عُمَرُ إلى عُمَيرِ يَقُولُ إذَا جَاءَكَ كِتَابِي فَلَا تَضَعْهُ مِن يَدِكَ حَتَّى تُقْبلَ عَليَّ فَتَوَجّهَ عُميرُ بْنُ سَعْدٍ إلى المدِيْنَةِ وَدَخَلَ على عُمَرَ فَحيَّاهُ وَرَحَّبَ بِهِ وَأَدْنَى مَجْلِسَه ، ثم قالَ لَهُ مَا صَنَعْتَ بالدَّنانيرِ يَا عُمَيْرُ فقالَ وَمَا عليْكَ مِنْهَا يَا عُمَرُ بَعْدَ أنْ أَخْرَجتَهَا لِيْ عَنكَ .

فقالَ عَزَمْتُ عَلَيْكَ أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا صَنَعْتَ بِهَا فَقَالَ ادَّخَرْتُها لِنَفْسِيْ لانْتَفِعَ بِهَا يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ . فَدَمَعْتَ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ الذِينَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهم وَلَو كَانَ بهم خَصَاصَةٌ .

ثم أمرَ بوَسَقٍ مِن طعَامٍ وَثوبَين ، فَقَال أَمَّا الطَّعَامُ فلا حَاجَةَ لَنَا بِهِ يا أَمِيْرَ المؤمِنينَ فقد تركْتُ عندَ أَهْلِيْ صَاعَيْنِ مِنْ شَعيرٍ وَإذا أَكَلْنَاهُما يَأتِيْ اللهُ لَنَا برزْقٍ وَأمَّا الثوبَيْنِ فآخُذُهُما لِأُمِّ فُلانٍ يُرِيْدُ زوْجَته فَقَد بَلِيَ وَخلقَ ثوبُها وَكَادَتْ تَعْرَىٰ .

فَمَضَى عُمَيرٌ بَعْدَ ذلكَ في طَرِيْق الآخِرَةِ وَادِعَ النّفْسِ وَاثِقَ الخَطْوِ لَا يُثْقِلُه شَيْءٌ مِنْ أَحْمَالِ الدّنيا وَأَمْتِعَتِهَا ، وَلِمَا بَلَغَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه وَفَاةَ عُميرٍ حَزِن عليهِ، وَقَالَ وَدِدْتُ أَنَّ لِيْ رِجَالاً مِثْلَ عُمَيرٍ أَسْتَعِيْنُ بهم في أَعْمَالِ المسْلِمينَ . انتهَى مِنْ صُوَرٍ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابةِ بِتَصَرُّفٍ يَسِيْرٍ .

شِـعْرًا :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيْداً مَدَىٰ العُمْرِ
وَتَسْكُنَ بَعْدَ المَوْتِ في رَوْضَةِ القَبْرِ
وَتُبْعَثَ عِنْدَ النَّفْخِ في الصُّوْرِ آمِناً
مِنْ الخَوفِ وَالتَّهْدِيْدِ وَالطَّرْدِ والخُسْرِ
وَتُعْرَضَ مَرْفُوعاً كَرِيْماً مُبَجَّلًا
تُبَشِّرُكَ الامْلاكُ بِالفَوْزِ وَالأَجْرِ

وَتَــرْجَـحَ عِنْـدَ الـوَزْنِ أَعْمَــالُـكَ التِيْ
تُسَـرُّ بِهَـا فِي مَـوْقِفِ الحَشْـرِ وَالنَّشْـرِ
وَتَـمْضِـيْ على مَتْنِ الـصِّـرَاطِ كَـبَـارِقٍ
وتشْرَبَ مِنْ حَوْضِ النَّبي المُصْطَفَى الطُّهْرِ
وَتَـخْلُدَ فـي أَعْـلى الـجنـانِ مُنَعَّمـاً
حَظِيّاً بقُــرْبِ الـوَاحِـدِ الأَحَـدِ الـوِتْـرِ
عَـلَيْـكَ بِـتَـوْحِـيْـدِ الإِلٰـهِ فَـإِنَّـهُ
إِذَا تَمَّ فَـازَ العَبْـدُ بـالقُــرْبِ وَالأَجْـرِ
وَخُــذْ مِنْ عُلُومِ الـدِّيْنِ حَـظّاً مُـوَفـراً
فَبِـالعِلْمِ تَسْمُـو في الحَيَـاةِ وفي الحَشْـرِ
وَوَاظِـبْ عَلى دَرْسِ الـقُــرْآن فَــإِنَّ فـي
تِــلاَوَتِــهِ الأَرْبَــاحُ والــشَّــرْحُ لِـلصَّــدْرِ
أَلا إِنَّــهُ الـبَـحْـرُ الـمُحِـيْطُ وَغَـيْـرُهُ
مِـنْ الكُـتْبِ أَنْـهَـارٌ تُمَـدُّ مِـنَ البَـحْـرِ
تَــدَبَّــرْ مَـعَــانِيــه وَرَتِّــلْهُ خَــاشِـعــاً
تَفُـوزُ مِنْ الأَسْـرَارِ بـالكَنْـزِ والـذُّخْـرِ
وَكُـنْ رَاهِبـاً عِـنْـدَ الـوَعِـيـدِ وَرَاغِـبـاً
إِذَا مـا تَلَوْتَ الـوَعْـدَ في غَـايَـةِ البِشْرِ
بَعِيْـداً عـن الـمَنْـهِـيّ مُـجْـتَـنِبـاً لَـهُ
حَـرِيْصاً على المـأمُورِ في العُسْـرِ وَاليُسْرِ

وَإِنْ رُمْتَ أَنْ تَحْظَى بِقَلْبٍ مُنَوَّرٍ
نَقِيّ مِنْ الأغيَارِ فاعْكُف عَلى الذِّكْرِ

وَوَاظِبْ عَلَيْهِ في الظلام وفي الضِّيَا
وفي كُلِّ حَالٍ بِاللسَانِ وفي السِّرِّ

وَصَفٍّ مِنْ الأكْدَارِ سِرَّكَ إِنهُ
إِذَا مَا صَفَا أَوْلاكَ مَعْنىً مِنْ الفِكْرِ

وَبِالجِدِّ وَالصَّبْرِ الجَمِيْلِ تَحِلُّ في
فَسِيْحِ العُلى فاسْتَوْصِ بالجِدِّ وَالصَّبْرِ

وَكُنْ شَاكِراً لِلّهِ قَلْباً وَقَالَباً
عَلى فَضْلِهِ إِنَّ المَزِيْدَ مَعَ الشُّكْرِ

تَوَكَّلْ عَلى مَوْلَاكَ وَارْضَ بِحُكْمِهِ
وَكُنْ مُخْلِصاً لِلّهِ في السِّرِّ والجَهْرِ

قَنُوعاً بِمَا أَعْطَاكَ مُسْتَغْنِياً بِهِ
لَهُ حَامِداً في حَالَيْ العُسْرِ وَاليُسْرِ

وَكُنْ باذِلاً لِلْفَضْلِ سَمْحاً وَلَا تَخَفْ
مِنْ اللّهِ إِقْتَاراً ولا تَخْشَ مِنْ فَقْرِ

وَإِيَّاكَ وَالدُّنْيَا فَإِنَّ حَلَالَهَا
حِسَابٌ وفي مَحْظُوْرِهَا الهَتْكُ لِلسِّرِّ

وَلَا تَكُ عَيّاباً وَلَاتَكُ حَاسِداً
وَلَا تَكُ ذا غِشّ وَلَا تَكُ ذَا غَدْرِ

وَلَا تَطْلُبَنَّ الجَاهَ يا صَاح إِنَّهُ
شَهِيٌّ وفيْهِ السُّمُّ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِيْ

وَإِيَّاكَ وَالأَطْمَاعَ إِنَّ قَرِيْنَهَا
ذَلِيْلٌ خَسِيْسُ القَصْدِ مُتَّضِعُ القَدْرِ

وَإِنْ رُمْتَ أَمْراً فَاسْأَلِ اللهَ إِنَّهُ
هُوَ المُفْضِلُ الوَهَّابُ لِلْخَيْرِ وَالوَفْرِ

وَأُوْصِيْكَ بالخَمْسِ التِي هُنَّ يا أَخِيْ
عِمَادٌ لِدِيْنِ اللهِ واسِطَةُ الأَمْرِ

وَحَافِظْ عَلَيْهَا بالجماعَةِ دائِماً
وَوَاظِبْ عليْهَا في العِشَاءِ وفي الفَجْرِ

وَقُمْ في ظَلَامِ الليْلِ لِلهِ قانِتاً
وَصَلِّ لَهُ وَاخْتِمْ صَلَاتَك بالوِتْرِ

وَكُنْ تائِباً مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ أَتَيْتَهُ
وَمُسْتَغْفِراً في كُلِّ حِيْنٍ مِنْ الوِزْرِ

عَسَى المُفْضِلُ المَوْلَى الكَرِيْمُ بِمَنِّه
يجُودُ على ذَنْبِ المُسِيْئِيْنَ بالغَفْرِ

فَإِحْسَانُهُ عَمَّ الأنامَ وَجُوْدُه
عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ وَإِفْضَالُهُ يَجْرِيْ

وَصَلِّ عَلى خَيْرِ البَرِيَّةِ كُلِّهَا
مُحَمَّدٍ المَبْعُوثِ بالبِشْرِ وَالنُّذْرِ

اللهُمَّ قَنِّعْنَا مِنْ الدّنيا باليَسِيْر وَسَهِّلْ عَلَيْنَا كُلَّ أَمْر عَسِيْرٍ وَوفَقْنَا لِما تُحِبُّه وَتَرْضَاهُ إِنكَ على كلِّ شَيْءٍ قَدِيْر وَأَسْكِنَّا دَارَ كَرامَتِك يَا مَنْ هُوَ مَلْجَؤُنا وَمَلاذُنا وَإلَيْهِ المَصِيرُ واجْعَلْ لَنَا مِنْ كُلِّ هَمٍّ فرَجا وَمَنْ كُلِّ ضِيْق مَخْرَجا وَاغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلَّى اللهُ عَلى مُحَمدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

عبد الرحمن بن عوف

هُوَ أَحَدُ العَشَرَةِ المبَشَّرينَ بالجَنَّةِ اسْمُهُ في الجَاهِلِيَّةِ عَبْدُ عَمْرو فَلَمَّا أَسْلَم دَعَاهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ .

أَسْلَم بَعْدَ إِسْلامِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بِيَوْمَينِ فَقَطْ وَلَقِيَ مِنْ التَّعْذِيْب في سَبيلِ اللهِ ما لَقِيَهُ المُسْلِمُونَ الأوَّلُونَ فَصَبَرَ كَمَا صَبَرُوا وَثَبَتَ كَمَا ثَبَتُوا وَصَدَقَ كَمَا صَدَقُوا وَفَرَّ بِدِيْنِهِ إلى الحَبَشةِ كَمَا فَرَّ كَثِيْرٌ منهُم بِدِيْنِهِ مِنْهُم .

وَلَمَّا أُذِنَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابُهُ بالهِجْرَةِ إلى المَدِيْنَةِ كَانَ في طَلِيْعَةِ المُهاجِرِيْنَ الذِيْنَ هَاجَرُوا إلى المدينة ، وَلَمَّا آخَى صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ بَيْنَ أَصْحابِهِ المَهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ آخَى بينَ عبْدِ الرَّحمن بنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بنِ الرَّبِيْعِ الأنصَاريّ فقالَ سَعْدُ لِعَبْدِ الرَّحمَن بن عَوْفٍ أيْ أَخِيْ أَنَا أَكْثرُ أَهْلِ المدِيْنةِ مَالاً وَعِنْدِي بُسْتَانان وَلِيْ امْرَأَتانِ فانْظُرْ أيَّ بُسْتَانَيَّ أَحَبُّ إِلَيْكَ وَأَيَّ امْرَأتَيَّ أَرْضَى عِندكَ أُطَلِّقْهَا لَكَ .

فقالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللهُ لَكَ في مَالِكَ وَأَهْلِكَ وَلَكِنْ دُلَّنِيْ عَلى السُّوْقِ فَدَلَّهُ عليهِ فَجَعَلَ يَتَّجِرُ وَبَعْدَ مُدَّةٍ اجْتَمَعَ لَدَيْهِ مَالٌ فَتزَوَّجَ وَجَاءَ إلى النبي صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ وَعَلَيْهِ أَثَرُ الطِّيْبِ فقالَ له صلى الله عليه وسلم « مَهْيَمْ »

يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ « وهِيَ كَلِمَةٌ يَمَانِيَّةٌ تُفِيْدُ التَّعَجُّبَ » فقالَ تَزَوَّجْتُ فقالَ ومَا أَعْطَيْتَ زَوْجَتَكَ مِنَ المَهْرِ قَالَ وَزْنَ نَواةٍ مِنْ ذَهَبٍ .

قَالَ أَوْلِمْ وَلَو بِشَاةٍ بَارَكَ اللهُ لَكَ في مَالِكَ قَالَ عبدُ الرحمن فأَقْبَلَتْ الدّنيا عليَّ حَتّى رَأَيْتُنِي لَوْ رَفَعْتُ حَجَراً لَتوقَّعْتُ أَنْ أَجِدَ تَحْتَهُ ذَهَباً أَو فِضَّةً وقد جَاهَدَ عَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ عَوْفٍ يَوْمَ بَدْرٍ وَفي يَوْمِ أُحُدٍ ثَبَتَ حتى زُلْزِلَتْ أَقْدَامُ المُشْرِكِيْنَ وَصَمَدَ حِيْنَ فرَّ المنهزِمُوْنَ وَخَرجَ مِنْ المَعْرَكَةِ وَفِيْهِ بِضْعَةٌ وَعِشْرُونَ جُرْحَا .

وَلَكِنَّ جِهَادَ عبْدِ الرَّحْمَنِ بِنَفْسِه قَلِيْلٌ إِذَا قِيْسَ بِجَهَادِهِ بِمَالِهِ، فلمَّا أن أَرَادَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ أَنْ يُجَهِّزَ سَرِيَّة وَقالَ « تَصَدَّقُوا فإنِي أُرِيْدُ أَنْ أَبْعَثَ بَعْثاً » .

فَبَادَرَ عبدُ الرّحمن وانطلقَ إلى مَنزِلِه وَعَادَ مُسْرِعاً وقالَ يا رَسُولَ اللهِ عنْدِي أربعةُ آلافٍ ألفَانِ مِنْهما أَقْرَضْتُها رَبِّي وَألفانِ تَرَكْتُهُمَا لِعِيَالِيْ فقالَ له رَسُول اللهُ صلى اللهُ عليه وسلم بارَكَ اللهُ لك فيْمَا أعْطَيْتَ وَبَارَكَ لكَ فِيْمَا أَبْقَيْتَ .

وَلَمَا عَزَمَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم على غَزْوَةِ تَبُوكٍ كَانَتْ الحَاجَةُ إلى المَالِ لَا تَقِلُّ عَنْ الحَاجَةِ إلى الرِّجَالِ فَجَيْشُ الرُّوْمِ وَافِرُ العَدَدِ كثِيرُ العُدَدِ والسَّنَةُ في المَدِيْنَةِ سَنَةُ جَدْبٍ وَالسَّفَرُ طَوِيْلٌ وَالمَؤُنَةُ قَلِيْلَةٌ والرَّوَاحِلُ أَقَلُّ .

حَتَّى إِنَّ نَفراً مِنْ المُؤمِنينَ جَاؤا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ يَسْأَلُونَهُ في حُرْقَةٍ أن يَأْخذَهُمْ مَعَهُ فرَدَّهُم لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عِندَه ما يَحْمِلهُم عليهِ

وَهُمْ البَكّاؤُنَ تولَّوْا وَأَعْيُنُهُم تَفِيْضُ مِنْ الدَّمْعِ حَزَنا ألا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُوْنَ .

وَأُطْلِقَ على الجَيْشِ جَيْشَ العُسْرَةِ عِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَصْحَابَهُ بالنَّفقةِ في سَبِيْلِ اللهِ وَاحْتِسَابِ ذلك عِنْدَ اللهِ .

فَهَبَّ المُسْلِمُونَ يَسْتَجِيْبُونَ لِدَعْوَةِ النبي صَلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ وكانَ في طَلِيْعَةِ المُتصَدّقِينَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَتَصَدَّقَ بِمِائتي أُوقِيَّةٍ ذهَباً فقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ لِلنَبِي صلى اللهُ عليه وسلم إني لا أَرَى عبدَ الرَّحمنِ بنِ عَوْفٍ إلَّا مُرْتكِباً إِثْماً فَمَا تَرَكَ لِأَهْلِهِ شَيْئاً .

فقالَ الرسول صلى الله عليه وسلم لِعَبْدِ الرحمَن هَلْ تَرَكْتَ لأَهْلِكَ شَيْئاً فقالَ نَعَمْ تركْتُ لَهُمْ أَكْثَر مِمَا أَنْفَقْتُ وَأَطْيَبَ قالَ كَمْ قَالَ مَا وَعَدَ اللهُ وَرَسُولَهُ مِنْ الرِّزْقِ وَالخَيْرِ وَالأَجْرِ .

وَمَضَى الجَيْشُ إلى تَبُوك وَهُنَاكَ أَكرمَ اللهُ عَبدَ الرحمنِ بْنِ عَوْفٍ فقد دَخَلَ وقتُ الصَّلاةِ وَرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم غائِبٌ فأَمَّ المُسلمِينَ عبدُ الرَّحمنِ بْنِ عَوْفٍ وَمَا كَادَتْ تَتِمُّ الرَّكْعَةُ الأُوْلَى حَتَّى لَحِقَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالمُصَلِّيْنَ وَاقْتَدَى بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَصَلَّى خَلْفَهُ .

وَلَما لَحِقَ النبي صلى اللهُ عليه وسلَمَ بالرَّفِيْقِ الأَعْلَى جَعَلَ عبدُ الرَّحمن بنُ عَوفٍ يقُومُ بِمَصَالِح أُمَّهاتِ المؤمنِينَ فكانَ يَنْهَضُ مَعَهُنَ وَيَخْرُجُ لِحَاجَتِهِنَّ إذا خَرَجْنَ وَيَحُجُ مَعَهُنَّ إِذَا حَجَجْنَ وَيَجْعَلُ عَلى هَوادِجِهِنَّ الطَّيَالِسَةُ وَيَنْزِلُ بِهِنَّ في الأَمَاكِنِ التِي تَسُرُّهُنَّ .

وَتِلكَ مَنْقَبةٌ مِنْ مَنَاقِب عَبْدِ الرَّحْمَن بْنِ عَوْفٍ وَلَقَدْ بَلغَ مِنْ برِّ عبدِ الرحمن بن عَوْفٍ بالمُسْلِمينَ وَأمَّهَاتِ المُؤمنينَ أنْ باعَ أَرْضاً بأرْبَعينَ ألفِ

دِيْنَارٍ فَقَسَمَهَا كُلَّهَا في بَنِي زُهْرَةَ وَفُقَرَاءِ المُسْلِمِيْنَ والمُهَاجِرِيْنَ وَأَزواجِ النبي صلى الله عليه وَسَلم فلمّا بَعَثَ إلى أمِّ المؤمنينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عنها قالَتْ مَنْ بَعَثَ هَذَا المَالَ فَقِيْلَ عبْدُ الرَّحْمَن بْنُ عَوْفٍ فَقَالَتْ قالَ رَسُولُ اللهُ صلى الله عليه وسلم لا يَحْنُوا عَلَيْكُنَّ مِنْ بَعْدِي إِلا الصَّابِرُوْنَ .

بَقِيَتْ دَعْوةُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم لِعَبْدِ الرَّحْمَن بْنِ عَوْفٍ بأنْ يُبارِكَ اللهُ لَهُ حتَّى صَارَ أَغْنَى الصَّحابَةِ فقد أَخذَتْ تِجارَتهُ تَنْمُو وتَزْدَادُ وَصَارَتْ قَوافِلُه تَترَدَّدُ ذاهِبَةً مِنْ المَدِيْنَةِ أَو رَاجِعَةً إِلَيْهَا تَحْمِلُ البُرَّ وَالدَّقِيْق وَالدُّهْنَ وَالثِّيَاب وَالآنِيَةَ وَالطِّيْب وَكُلَّ ما يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ .

وفي ذاتِ يَوْم قَدِمَتْ عِيْرٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَن عَلى المُدِيْنَةِ وَكَانَتْ مُؤَلَّفة مِنْ سَبْعمائةِ رَاحِلةٍ تَحْمِلُ المِيْرَةَ والمَتَاعَ وَكُلُّ ما يَحْتَاجُ إليْهِ النَّاسُ فمَا أَنْ دَخلتْ المدِيْنَة حَتَّى رُجَّتْ الأَرْضُ بِهَا رَجّاً وَسُمِعَ لأَهْلِها دوِيٌّ وَضَجَّةٌ .

فقالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَا هَذِهِ الرَّجَّةُ فَقِيْلَ لَهَا عِيرُ عَبْدِ الرَّحْمَن بْن عَوْفٍ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ تَحْمِلُ البُرَّ وَالدَّقِيْقَ والطَّعَامَ فقالَتْ عَائِشَةُ بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيْمَا أَعْطاهُ في الدّنيا وَلثَوابُ الآخِرَةِ أَعْظَمُ فَلقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُوْلُ يَدْخُلُ عبدُ الرّحمنِ بنُ عَوْفٍ الجَنَّة حَبْواً .

وَقَبْلَ أَنْ يَتْرُكَ النُّوقَ كَانَ البَشِيْرُ يَنْقُلُ إلى عَبْدِ الرَّحْمَن بْن عَوْفٍ مَقَالَةَ أمِّ المُؤمِنينَ وَيُبَشِّرُهُ بالجَنَّة فَمَا أَنْ وَصلتْ هَذِهِ البِشَارَةُ سَمْعَهُ حَتَّى طَارَ مُسْرعاً إِلى عَائِشَة وَقَالَ يا أُمَّاهُ أَأَنْتِ سَمِعْتِ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ فقَالَتْ نَعمْ .

فاسْتَطَارَ فرحاً وَقَالَ لَئِنْ اسْتَطَعْتُ لأَدْخُلنَّها قائِماً أُشْهِدُكِ يا أُمَّاهُ أَنَّ هَذِهِ

العِيرَ جَمِيْعَها بِأَحْمَالِهَا وَأَقْتابِهَا وَاحْلَاسِهَا في سَبِيْلِ اللهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ الذِي بُشِّرَ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ عَوْفٍ بدُخُولِ الجَنَّةِ تَعَاظَمَ إِقْبَالَهُ على بَذْلِ المَالِ حَتَّى أَنّهُ تَصَدَّقَ ذَاتَ يَوْمٍ بِأَرْبَعِينَ أَلْفِ دِرْهَم مِنَ الفِضّةِ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأَرْبَعِيْنَ أَلْفِ دِيْنارٍ ذَهَباً ثُمَّ تَصَدَّق بمِئتي (٢٠٠) أوقيَّةٍ مِنَ الذّهَبِ .

ثم حَمَلَ مُجَاهِدِيْن في سَبِيْلِ اللهِ على خَمْسِمائةِ فَرَس ثُمَّ حَمَلَ آخرِيْنَ على أَلفٍ وَخَمْسُمائةِ رَاحِلةٍ وَلَمَّا حَضَرَتهُ الوَفاةُ أَعْتَقَ خَلْقَا كَثِيْراً مِنْ مَمَالِيْكِهِ .

وَأَوْصَى لِكُلِّ رَجُلٍ بَقِيَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ بِأَرْبَعمائَةِ دِيْنَارٍ ذَهَباً فَأَخَذُوهَا وَكَانَ عَدَدَهُم مائة وَأَوْصَى لِكُلِّ وَاحِدةٍ مِنْ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ بِمَالٍ جَزِيْل .

ثُمَّ إِنَّهُ بَعد ذَلِكَ كُلِّهِ خلَّفَ مَالاً كَثِيْراً لِوَرَثَتِهِ فَتَرَكَ أَلْفَ بَعِيْرٍ وَمائَةَ فَرَسٍ وَثَلاثَةُ آلافِ شَاةٍ وَكَانَتْ نِسَاؤُهُ أَرْبَعٌ فَبَلَغَ رُبْعُ الثُّمنِ الذِي خَصَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ منهُنَّ ثَمانِينَ أَلفاً وَتَرَكَ مِنْ الذهَبِ والفِضّةِ ما قُسِّمَ بالفُؤوسِ .

ولا غَرابةَ فقد دَعَا لَهُ النبي صلى الله عليه وسلم بأَنْ يُبارِكَ لَهُ في مَالِهِ ، لَكِنَّ ذلكَ المَالَ لَمْ يَفتِنْ عَبْدَ الرَّحمَن وَلَمْ يُغيِّرهُ فكانَ النَّاسُ إذا رَأوهُ بين مماليْكِه لم يُفرِّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُم وفي يَوْمٍ مَا أُتِيَ بِطَعَامٍ وَهُوَ صَائِمٌ فَنَظَر إليه ثُمَّ قالَ لَقَدْ قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمير وَهُوَ خَيرٌ مِنِّي فَمَا وَجَدْنَا لَهُ إلا كَفناً إِنْ غَطَّى رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلاهُ وَإِنْ غَطَّى رِجْلَيْهِ بَدا رَأْسُهُ ثم بَسَطَ اللهُ لنا مِنْ الدّنْيا ما بَسَطَ وَإِنّي لأَخْشَى أَنْ يَكُونَ ثَوابُنَا قد عُجِّلَ لَنَا ثم جَعَلَ يَبْكِي وَيَنْشَجُ حتى عَافَ الطَّعَامَ طُوبَى لِعَبْدِ الرحمن بْنِ عَوْفٍ وَأَلفُ غِبْطَةٍ .

فقد بَشَّرَهُ بالجَنَّةِ الصَّادِقُ المُصْدُوقُ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ وَحَمل جَنَازَتَه خَالُ رَسُولِ اللهِ سَعْدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ .

وَصَلى عَلَيْهِ ذُو النُّورَيْن عُثْمَانُ بنُ عَفَّان وَشَيَّعَهُ أَمِيرُ المؤمنين عليٌّ بنُ أبي طَالِب وَهُو يَقُولُ لَقَدْ أَدْرَكْتَ صَفْوَهَا وَسَبَقْتَ زَيْفَهَا يَرْحَمُكَ اللهُ . انْتَهى من صُوَرٍ منْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ بِتَصَرّفٍ يَسِير ، وَاللهُ أَعْلَمُ وصلى اللهُ على مُحمدٍ وآلِه وَسَلم .

شِعْرَاً :

فِيْمَ الرُّكُونُ إلى دَارٍ حَقِيْقَتُهَا
كالطَّيْفِ في سِنَةٍ وَالظِّلِّ مِنْ مُزَنِ
دَارِ الغُرور وَمَأْوَى كُلِّ مُرْزِيَةٍ
وَمَعْدِنِ البُؤسِ وَاللَّواءِ وَالمِحَنِ
الزُّورُ ظَاهِرُهَا وَالغَدرُ حَاضِرُهَا
وَالمَوْتُ آخِرُهَا وَالكَوْنُ في الشَّطَنِ
تُبِيدُ مَا جَمَعَتْ تُهِيْنُ مَنْ رَفَعْتَ
تَضُرُّ مَنْ نَفَعَتْ في سَالِفِ الزَّمَنِ
النَّفْسُ تَعْشِقُهَا وَالعَيْنُ تَرْمُقَهَا
لِكَوْنِ ظَاهِرِهَا في صُوْرَةِ الحَسَنِ
سَحَّارةٌ تُحْكِمُ التَّخْيِيْلَ حتى يُرَى
كَأَنَّهُ الحَقُّ إذْ كانَتْ مِنَ الفِتَنِ

إِنَّ الإِلـهَ بَرَاهَا كَـيْ يُـمَـيْـزُ بِـهَـا
بَيْنَ الفَـرِيقـينِ أَهْـلَ الـحُمْـقِ وَالفِـطَنِ

فَذُو الحَمَاقَـةِ مَنْ قد ظَـلَّ يَجْمَعُهَـا
يُعَـانِيَ الـسَّعْـيَ مِنْ شَـامٍ إلى يَمَـنِ

مُشَمِّـراً يَـرْكَـبُ الأخْـطَارَ مُـجْتَـهِـداً
لأَجْلِهَـا يَسْتَلِيْـنُ المَـرْكَبَ الـخَشِـنِ

وَذُو الحِجَـا يَقْلِهَـا زُهْـداً وَيَنْبُـذُهَـا
وَرَاءَه نَـبْـذَةَ الأقْـذَارِ فـي الـدِّمَـنِ

يَـرْمِيْ بِقَلْبٍ بَصِيْـرٍ في مَصَـائِـرِهَـا
فَـلاَ يُصَـادِفُ غَيْـرَ الـهَمِّ وَالـحَـزَنِ

يَجُولُ بـالفِكْـرِ في تَـذْكَـارِ مَنْ صَرَعَتْ
مِنْ مُؤْثِـرِيْهَـا بِسَعْيِ القَلْبِ وَالـبَـدَنِ

مِـمَّـنْ أَشَـادَ مبَـانِيْهَـا وَأَحْكَـمَـهَـا
لِـيَـسْتَـجِـنَّ مِـنْ الأَقْـدَارِ بـالـجُـنَـنِ

نَـالُـوا مَكَـارِمَهَـا أَحْـيَـوا مَعَـالِمَهَـا
سَـلُّوا صَـوَارِمَـهَـا لِـلْبَـغْـيِ وَالـظِّـغَنِ

رَقَـوْا مَـنَـابِـرَهَـا قَـادُوا عَسَـاكِـرَهَـا
بِـقُـوَّةٍ وَابْـتَـنَـوا الامْـصَـارَ وَالـمُـدُنِ

وَعَبَّـدُوا النَّـاسَ حَتَّى أَصْبَحُـوا ذُلُـلاً
لأَمْـرِهِـمْ بَـيْـنَ مَـغْـلُوبٍ وَمُـمْـتَـهَـنِ

وَجَمَّعُوا المَالَ وَاسْتَصْفَوا نَفَائِسَهُ
لِمُتْعَةِ النَّفْس في مُسْتَقْبَلِ الزَّمَنِ
حَتَّى إِذَا امْتَلَئُوا بِشْراً بِمَا ظَفِرُوا
وَمُكِّنُوا مِنْ عُلاهَا أَبْلَغَ المِكَنِ
نَادَاهُمُوا هَادِمُ اللذَّاتِ فاقتَحَمُوا
سُبْلَ المَمَاتِ فأَضْحَوا عِبْرَةَ الفِطَنِ
تِلْكَ القُبُورُ وَقَدْ صَارُوا بِهَا رِمَماً
بَعْدَ الضَّخَامَةِ في الأَجْسَامِ وَالسِّمَنِ
بَعْدَ التَّشَهِّي وَأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ غَدَا
يَأْكلُهُم الدُّودُ تَحْتَ التُرْبِ وَاللَّبِنِ
تَغَيَّرتْ مِنْهُمُ الألْوَانُ وَانْمَحَقَتْ
مَحَاسِنُ الوَجْهِ وَالعَيْنَيْنِ وَالوُجَنِ
خَلَتْ مَسَاكِنهُم عَنْهُم وَأَسْلَمَهُم
مَنْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ في السِّرِّ وَالعَلَنِ
وَعَافَهُم كُلُّ مَنْ قَدْ كانَ يَأْلَفُهم
مِنْ الأَقَارِبِ وَالأَهْلِيْنَ وَالخِدَنِ
مَا كَانَ حَظُّهُمُ مِنْ عَرَضٍ مَا اكتَسَبُوا
غَيْرَ الحَنُوطِ وغيرَ القُطْنِ وَالكفَنِ
تِلكَ القُصُورُ وَتِلْكَ الدُّورُ خَاوِيَةٌ
يَصِيْحُ فِيْهَا غُرَابُ البَيْنِ بالوَهَنِ

فَلَوْ مَـرَرْتَ بِهَـا وَالبُـومُ يَـنْـدُبُـهَـا
في ظُلْمَـةِ الليْـلِ لم تَـلْتَـذَّ بـالـوَسَنِ
وَلَا تَـجَـمَّـلْتَ بـالأَرْيـاشِ مُـفْـتَـخِـراً
وَلا افْـتَتَـنْـتَ بِـحُـبِّ الأَهْـلِ وَالـسَّـكَـنِ
وَلَا تَـلَذَّذْتَ بـالـمَـطعُـومِ مُـنْـهَـمِـكـاً
وَلَا سَـعَـيْـت لِـدُنْـيَـا سَـعَـيَ مُـفْـتَـتِـنِ
وَلَا اعْـتَبَـرْتَ إِذَا شَـاهَـدْتَ مُـعْـتَـبَـراً
تَـرَاهُ بـالـعَـيـنِ أو تَـسْـمَـعْـهُ بـالأُذُنِ
إِنَّ الـمَـواعِظَ لا تُغْـنِـي أَسِـيْـرَ هَـوَى
مُـقْـفَّـلَ الـقَلْـبِ فـي حَـيْـدٍ عَـنْ الـسُّـنَنِ
مُسْتَـكْـبِـراً يَـبْـطُـرُ الحَـقَّ الـصَّـرِيْـحَ إِذَا
يُـلْقَى إِلـيْـهِ لِفَـرْطِ الـجَـهْـلِ وَالـشَّـنَـنِ
يُـمَـنِّـيُ الـنَّـفْسَ أَمْـراً لَـيْسَ يُـدْرِكُـهُ
إِنَّ الأَمَـانِـيَّ مِـقْـطَـاعٌ عَـنْ الـمِـنَـنِ
يَـكْـفِـي اللَّـبِـيْبَ كِـتَـابُ الـلهِ مَـوْعِـظَةً
كَـمَـا أَتَى فِي حَـدِيْثِ الـسَّـيِّـدِ الحَـسَـنِ
مُـحَـمَّـدٍ خَـيْـرِ خَـلْقِ الـلهِ قُـدْوَتِنا
مُـطَهَّـرِ الـجَـيْـبِ عَنْ عَـيْـبٍ وَعَـنْ دَرَنِ
عَـلَيْـهِ مِـنَّـا صَـلَاةُ الـلهِ دَائِـمَـةً
مَـا سَـارَتْ الـرِّيْـحُ بـالأَمْـطَارِ والسُّفُنِ
وَالآلِ وَالـصَّـحْـبِ مَـا غَـنَّـتْ مُـطَوَّقَـةٌ
وَمَـا بَـكَتْ عَـيْـنُ مُـشْـتَـاقٍ إِلَـى وَطَـنِ

مَـوْعِظَـةٌ

عِبَادَ اللهِ إِنَّ طَاعَةَ اللهِ صَلاحٌ في الأَرْضِ لِهَذَا أَمرَ عزَّ وَجلَّ بالطاعَاتِ ، وَهَذه الطاعَاتُ تُرْضِي اللهَ سُبْحَانَهُ لأَنَّها شُكْرٌ لَهُ على نِعَمِهِ المُتوالِيَاتِ ، فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَحُثَّ عليْهَا وَأَنْ نَأْمُرَ مَنْ تَرَكَ الطاعَةَ أَنْ يَعُودَ إليها إذا كانَتْ مِنْ فَرَائِضِ الدِّيْنِ كالصَّلاةِ وَالزّكاةِ وَالصِّيَامِ وَالحَجِّ ، وَأَنْ نَنْكِرَ على مَنْ رَأَيْنَاهُ يَقْتَرِفُ مَعْصِيَةً مِنْ المَعَاصِي ، لأَنَّ المَعَاصِيْ بكلِّ أَنْوَاعِهَا شُرُورٌ وَأَضْرَارٌ وَفَسَادٌ وَلَهَا شُؤْمٌ قَدْ يَعُمُّ الدنيا وَيَفْعَلُ الأفاعِيْلَ العِظَامَ في بَنِيْ الانْسَانِ وَمِنْ آثارِهَا المُضِرَّةُ بالقَلْبِ وَالبَدنِ : أَنَّهَا إِفْسَادٌ لِلعَقْلِ فَإِنَّ العَقْلَ نُورٌ والمَعْصِيَةُ تُطْفِىءُ نُورَ العَقْلِ ومنها أنَّ المَعَاصِي مَدَدٌ مِنْ الإِنْسَانِ يَمُدُّ بها عَدُوَّه عليه وَجَيْشٌ يُقَوِّيْهِ بِهِ على حَرْبِهِ وَمِنْهَا أَنَّهَا تُوْهِنُ القَلْبَ وَالبَدَنَ وَمِنْهَا أنها تَزْرَعُ أَمْثَالِهَا مِنْ المَعَاصِيْ وَمِنْهَا أَنَّهَا تَمْحَقُ برَكةَ العُمْرِ وَمِنْهَا أَنَّهَا تُسَبِّبُ شَمَاتَةَ الأَعْدَاءِ وَمِنْهَا أنها تَعَسِّرُ على الانْسَانِ أُمُورَهُ ، ومِنْهَا أَنَّهَا تسبِّبُ الوَحْشَةَ بينَ العَاصِي وبينَ أَهْلِ الخَيْرِ وَمِنْهَا أَنَّهَا تُذْهِبُ الحَيَاءَ ومنها أنْ تَسْتَدْعِي نِسْيَانَ اللهِ لِعَبْدِهِ وَتَرْكِهِ ، ومِنْهَا أَنَها تُطْفِىءُ مِنْ القَلْبِ نَارَ الغيرةِ ومنها أنّهَا تُضْعِفُ في القَلْبِ تَعْظِيْمَ الرَّبِّ ومنْهَا أنها تُعْمِي بَصِيْرَةَ القَلْبِ وَتَطْمِسُ نُورَهُ وَمِنْهَا أنها تُسْقِطُ الجَاهَ وَالمُنْزِلَةَ عِندَ اللهِ إِلَى مَالا نِهَايَةَ لَهُ مِنْ الأَضْرَارِ لِهَذَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَنْهِيَ عَنْ المَعَاصِيْ لا سِيَّما إذا كَانَتْ مِنْ كِبَارِ المَعَاصِيْ ، ولا تَنْسَ أَنَّ بني اسْرَائِيْلَ لَعَنَهُم اللهُ لَمَّا فَقَدُوا الغيرَةَ على انتِهَاكِ الحُرمَاتِ وَلاَ تَنَاهَوْ عَنْ المُنْكرِ ، وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ الأُمَمِ وَمَا حَلَّ بهَا مِنْ العُقوبَاتِ بِأَسْبَابِ الذّنُوبِ قالَ تَعالَى ﴿ فَكُلّاً أَخَذْنا بذنْبِهِ فَمِنْهُم مَنْ أَرْسَلنَا عليهِ حَاصِباً ومنهُم مَنْ أَخذتْهُ الصَّيْحَةُ ومنهم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ومنهُم مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُم وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهم يَظْلِمُون ﴾ .

وَذَكَرَ ابْنُ كثِيرٍ أَنَّ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِيْنَ وَخَمْسُمائة ٥٩٧ اشْتَدَّ الغَلاَءُ بأَرْضِ مِصْرَ فَهلَكَ خَلْقٌ كَثِيْرٌ جِدّاً مِنْ الفُقَرَاءِ والأَغْنِيَاءِ ثمّ أعْقَبَهُ فَنَاءٌ عَظِيْمٌ حَتَّى حكَى الشَّيْخُ أَبُو شَامَة في الذَّيْلِ أنَّ العَادِلَ كفَّنَ مِنْ مَالِهِ في مُدَّةِ شَهْرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ نَحْواً مِنْ مَائَتيْ أَلْفٍ وَعِشْرِيْنَ أَلْفِ مَيِّتٍ (٢٢٠٠٠٠) وَأُكِلَتْ الكِلابُ وَالمَيْتَاتُ فيْهَا بمِصْرَ وأُكِلَ مِنْ الصِّغَارِ وَالأَطْفَالِ خَلْقٌ كَثِيْرٌ يَشْوِيْ الصَّغِيْرَ وَالِدَاهُ وَيأكُلانِهِ وكَثُرَ في النّاسِ هَذَا جِدّاً حتى صار لاَ يُنْكَرُ بَيْنَهم ، فلمّا فَرِغَتْ الأطْفَالُ وَالمَيْتاتُ غَلَبَ القَوِيُّ الضَّعِيْفَ فَذَبَحهُ وَأَكلَهُ وَكَانَ الرَّجُلُ يَحْتَالُ على الفَقِيْرِ فَيأْتِيْ بِهِ لِيُطْعِمَهُ أو لِيُعْطِيَهُ شَيْئاً ثُمَّ يَذْبَحُهُ وَيَأْكُلهُ وَكَانَ أَحَدُهُم يَذْبَحُ امْرَأَتَهُ وَيأْكُلُها وَشَاعَ هَذَا بَيْنَهم بلا إنكارٍ وَلا شَكْوى بَلْ عَذَرَ بَعْضُهم بَعْضاً وَوُجِدَ عنْدَ بَعْضِهم أَرْبَعمِائةِ رَأْسٍ وَهلكَ كَثِيْرٌ مِنْ الأَطبَّاءِ الذِيْنَ يُسْتَدْعَونَ إلَى المَرْضَى فكانُوا يُذْبَحُوْنَ وَيُؤْكَلُونَ كانَ الرَّجُلُ يَسْتَدْعِيْ الطبيْبَ ثم يَذْبَحه وَيأْكلُه . وَقد اسْتَدْعَى رَجُلٌ طَبِيْباً حَاذِقاً وَكَانَ الرَّجُلُ مُوْسِراً مِنْ أَهْلِ المَالِ فَذَهَبَ الطَبِيْبُ مَعَهُ على وَجَلٍ وَخَوْفٍ فَجعَلَ الرَّجُلُ يَتَصَدَّقُ على مَنْ لَقِيَهُ في الطريْقِ ويَذكُر اللهَ وَيُسَبِّحُه وَيُكْثِرُ مِنْ ذَلِكَ فارْتَابَ بِهِ الطبِيْبُ وَتخَيَّلَ مِنْهُ وَمَعَ هَذَا حَمَلَهُ الطَّمَعُ على الاسْتِمْرَارِ مَعَهُ حَتَّى دَخل دَارَهُ فإذَا هِيَ خَرِبَةٌ فارْتَابَ الطَبِيْبُ أَيْضاً فَخَرَجَ صَاحِبُه فقالَ لَهُ :

وَمَعَ البُطْءِ جِئْتَ لَنَا بِصَيْدٍ فَلَمَّا سَمِعَها الطَّبِيْبُ هَرَبَ فَخَرَجَا خَلْفَهُ سِرَاعاً فَمَا خَلَصَ إلا بَعْدَ جَهْدٍ وَشَرٍّ .

وفي هَذِهِ السَّنَةِ سنة ٥٩٧ وَقَعَ وَبَاءٌ شَدِيْدٌ ببلادِ عَنْزَة بَيْنَ الحِجَازِ وَاليَمنِ وَكانُوا عِشْرِيْنَ قَرْيَةً فَبَادَتْ مِنْهَا ثَمَانِيَة عَشَرَ لَمْ يَبْقَ دَيَّارٌ ولا نافِخُ نارٍ وَبَقِيَتْ أَنعَامُهُمْ وَأَمْوَالُهم لا قَانِيَ لَهَا . ولا يَسْتَطِيْعُ أَحَدٌ أنْ يَسْكنَ تلكَ القُرى ولا

يَدْخُلها . بَلْ كَانَ مَنْ اقترَبَ إلى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ القُرىَ هَلَكَ مِنْ سَاعَتِه .

نَعُوذُ باللهِ مِنْ بَأْسِهِ وَعَذابِهِ وَغَضَبِهِ وَعِقَابِهِ أَمَّا القَرْيَتَانِ البَاقِيَتَانِ فلم يَمُتْ مِنْهُمَا أَحَدٌ ولا عِنْدَهُم شُعورٌ بما جَرَى عَلى مَن حَوْلَهمْ بَلْ هُمْ عَلى حَالِهِم لَمْ يُفْتَقَدْ مِنْهُم أَحَدٌ فسبُحَانَ الحَكِيْمِ العَلِيْمِ انتَهَى كَلامُه .

هَذَا كُلُّهُ مِنْ آثَارِ المَعَاصِيْ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعلا ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبتْ أيدِيكم وَيَعْفُو عن كثِيْرٍ ﴾ وَمَنْ نَظَرَ إلى الحَالةِ اليَوْمَ وَمَا ظَهَرَ وَانْتَشَرَ مِنْ المَعَاصِيْ انتِشارَ الوَبَاءِ وَرَأَى النِّعَمَ في المَزابِلِ وَرأى الكُتُبَ الدِيْنِيَّةِ تُطْرَحُ كذَلِكَ مَعَ القُمَامَةِ وفي الشَّوَارِعِ تُدَاسُ وَلاَ آمِرَ ولا ناهِيَ مَلأَ الخَوْفُ مِنْ العُقُوبَةِ صَدْرَهُ وانْ كان قَوِيَّ الدِّيْنِ وَعِنْدَهُ غَيْرَةٌ لِدِيْنِهِ مَرِضَ مِمَّا رَأى وَسَمِعَ ، نَسْأَلُ الله أنْ يَخُصَّ بالعُقُوبَةِ مَنْ فَعَلَهَا وَمَن رَضَىَ بِهَا وَمَنْ عَلِمَ بِهَا وَقَدرَ عَلى ازالَتِهَا وَلَمْ يَفْعَلْ .

اللهُمّ ابْرمْ لِهَذِهِ الأمَّةِ أمرَ رُشْدٍ يُعزُّ فيهِ أَهْلُ طَاعَتِكَ وَيُذَلُّ فيهِ أَهْلُ مَعْصِيَتِكَ وَيُؤْمَرُ فيه بالمَعْرُوْفِ وَيُنْهَى فيهِ عَنْ المنكرِ وَيُزالُ فيه مَا حَدَثَ مِنْ بِدَعٍ وَمُنْكِرَاتٍ وَمَعَاصِيْ وَيُحْيا بِهِ بَدَلُهَا مَا أُمِيْتَ مِن سُنَّةٍ وغَيْرَةٍ وَشِيْمَةٍ كَرِيْمَةٍ وَمُرُوْءةٍ جَمِيْلةٍ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْروبالاجَابَةِ جَدِيرٌ وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ .

وقال الشيخ عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن مُعَمَّر

يَرْثِي أَهْلَ الدِّرْعِيَّة بعدَ ما هَدَمَهَا الظالمُ الطَّاغِيَةُ وَجُنُوْدُهُ إبراهيمُ بَاشَا جازَاهُ اللهُ بِمَا يَسْتَحِقُ هُوَ وَأَعْوانَهُ

إِلَيْـكَ إِلَـهَ العَـرْشِ أَشْكُـو تضَـرُّعَـا
وَأَدْعُـوكَ فِـي الضَّـراءِ رَبِّي لِتَسْمَعَـا

فَكَمْ قَتَلُوا مِنْ فِتْيَةِ الحَقِّ عُصْبَةً
هُدَاةً وَضاةً سَاجِدِينَ وَرُكَّعَا

وَكَمْ دَمَّرُوا مِنْ مَرْبَعٍ كانَ آهِلاً
وَقَدْ تَرَكُوا الدَّارَ الأَنِيْسَةَ بَلْقَعَا

فَأَصْبَحَتْ الأَمْوَالُ فِيْهِمْ نَهَائِباً
وَأَصْبَحَتْ الأَيْتَامُ غَرْثَى وَجُوَّعَا

وَفَرَّ عَنْ الأَوْطَانِ مَنْ كَانَ قَاطِناً
وَفُرِّقَ إِلْفٌ كان مُجْتَمِعاً مَعَا

مَضَوْا وَانْقَضَتْ أَيَّامُهُمْ حِيْنَ أَوْرَدُوا
ثَنَاءً وذِكْراً طِيْبُه قَدْ تَضَوَّعَا

فَجَازَاهُمُ اللهُ الكَرِيمُ بِفَضْلِهِ
جِنَاناً وَرِضْوَاناً مِنْ اللّهِ رَافِعَا

فَإِنْ كَانَتْ الأَشْبَاحُ مِنَّا تَبَاعَدَتْ
فَإِنَّ لأَرْوَاحِ المُحِبِّيْنَ مَجْمَعَا

عَسَى وَعَسَى أَنْ يَنْصُرَ اللهُ دِيْنَهُ
وَيَجْبرَ مِنَّا مَأْمَناً قَدْ تَصَدَّعَا

وَيُظْهِرَ نُورَ الحَقِّ يَعْلُو ضِيَاؤُه
فَيُضْحِي ظَلامُ الشِّرْكِ وَالشَّكِّ مُقْشِعَا

إِلهي فَحَقِّقْ ذا الرَّجَاءَ وَكُنْ بِنَا
رَؤُفاً رَحِيْماً مُسْتَجِيْباً لَنَا الدُّعَا

أَلاَ أَيُّـهـا الإِخْـوَانُ صَبْـراً فَـإِنَّـنِـيْ
أرَى الصَّبْـرَ لِـلْمَقْـدُورِ خَـيْـراً وَأَنْفَـعَـا
فَـلاَ تَيْأَسُـوا مِنْ كَشْفِ مَـا ثـابَ إِنَّـهُ
إِذَا شَـاءَ رَبِّي كَشْفَ كَـرْبٍ تَمَـزَّعَـا
وَمَـا قُلْتُ إِذَا أَشْكُـو إِلى الخَلْقِ نَكْبَـةً
ولا جَـزَعـاً مِـمَّـا أَصَـابَ فَـأَوْجَعَـا
فَـمَـا كَـانَ هَـذَا الأَمْـرُ إِلَّا بِـقُـدْرَةٍ
بِـهَـا قَـهَـرَ الـلَّهُ الـخَـلاَئِـقَ أَجْـمَـعَـا
وَذَلِـكَ عَـنْ ذَنْـبٍ وَعِصْيَـانِ خَـالِـقٍ
أُخِـذْنَـا بِـهِ حِيْنـاً فَحِيْنـاً لِنَـرْجِـعَـا
وَقَـدْ آنَ أَنْ نَـرْجُـو رِضَـاهُ وَعَـفْـوَهُ
وَأَنْ نَـعْـرِفَ الـتَّـقْـصِيـرَ مِنَّـا فَـنُـقْـلِعَـا
فَيَـا مُحْسِنـاً قَـدْ كُنْتَ تُحْسِنُ دَائِمـاً
وَيَـا وَاسِعـاً قَـدْ كَـانَ عَفْـوُكَ أَوْسَعَـا
نَعُـوذُ بِـكَ اللَّهُـمَّ مِنْ سُـوءِ صُـنْعِـنَـا
فَـإِنَّ لَنَـا فِي العَفْـوِ مِنْـكَ لَمَـطْمَعَـا
أَغِثْنَـا أَغِـثْـنَـا وَارْفَـعْ الـشِّـدَّةَ الَّـتِي
أَصَـابَتْ وَصَـابَتْ وَاكشِفِ الضُّـرَّ وَارْفَعَـا
وَجُـدْ وَتَـفَـضَّـلْ بِـالَّـذِي أَنْـتَ أَهْلُهُ
مِنْ العَفْـوِ والغُفْـرَانِ يَـا خَيْـرَ مَنْ دَعَـا

واللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ على محَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . . .

نُبْذَةٌ مِنْ حَيَاةِ جعْفر بْنِ أبي طَالِبٍ

جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ هو أخُو عليّ بن أبي طَالِبٍ كانَ أبُو طَالِبٍ على الرَّغْمِ مِنْ سُمُوّ شَرَفِهِ في قُرَيْشٍ وَعُلوّ مَنْزِلَتِهِ في قَوْمِهِ رَقِيْقَ الحَالِ كَثيرَ العِيَالِ وَقد ازدَادَتْ حَالهُ سُوْءاً بسَبَبِ تِلك السَّنةِ المُجْدِبةِ التي نَزَلَتْ بقُرَيْش فأهْلَكَتْ الزَّرْعَ وَأيْبَسَتْ الضَّرْعَ وأكَلَ بَعْضُ النَّاسِ العِظَامَ البَالِيَةَ .

وَلَمْ يَكُنْ في بَنِيْ هَاشِمٍ يَوْمَئِذٍ أيْسَرُ مِن مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ومِنْ عَمِّهِ العَبَّاسِ فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لِعَمِّهِ العبَّاسِ يا عَمِّ إِنَّ أخَاكَ أبا طَالِبٍ كَثِيرُ العِيَالِ وَقد أصَابَ النّاسَ مَا تَرَى مِنْ شِدَّةِ القَحْطِ وَمَضَضِ الجُوْعِ فانطَلَقْ بِنَا إليْهِ حَتَّى نَحْمِلَ عنه بَعْضَ عِيَالِهِ فآخُذُ أنا فتىً مِنْ بَنِيْهِ وتأخُذُ أنْتَ فَتىً آخرَ فَنَكْفِيْهِمَا عنهُ .

فقالَ العَبَّاسُ لَقَدْ دَعَوْتَ إلى خَير وَحَضَضْتَ على بِرّ ثُمَّ انْطَلَقَا حَتَّى أتَيَا أبا طَالِبٍ فَقَالا لهُ إنا نُرِيْدُ أنْ نُخَفِفَ عنكَ بَعْضَ مَا تَحْمِلُه مِنْ عِبْءِ عِيَالِكَ حَتَّى يَنْكَشِفَ هَذَا الضُرُّ الذي مَسَّ النَّاسِ فقالَ لهُما إذا تَرَكْتُمَا عَقِيْلا فاصْنَعَا ما شِئْتما .

فأَخَذَ النبي صلى اللهُ عليه وسلم عَلِياً وضَمَّه إليه وأَخذَ العَبَّاسُ جَعْفرا وجَعَلهُ في عِيَالِهِ فلمْ يَزلْ عَليٌّ مَعَ محمّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم حتَّى بَعَثَهُ اللهُ بِدِيْنِ الحَقِّ والهُدى فكانَ أوّلَ مَنْ آمَنَ بهِ مِنْ الفِتْيانِ.

وَبَقِيَ جَعْفرُ مَعَ عَمِّهِ العَبَّاسِ حَتّى شَبَّ وأسْلَم واسْتَغْنَى عَنْهُ، انضَمَّ جَعْفرُ إلى رَكبِ النُورِ هُوَ وَزَوْجَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُنْذُ أوَّلِ الطَّرِيْقِ فقد أسْلَمَا على يَدَيْ الصِّدِّيْقِ رضي اللهُ عنهُ وَعَنْهُمَا قَبْلَ أنْ يَدْخُلَ الرَّسُولُ صلى اللهُ عليه وسلمَ دَارَ الأرْقَمِ وَلَقِيَ جَعْفَرُ وَزَوْجَتُهُ مِن أذَى قُرَيْشٍ ونكالِهَا مَا لَقِيَهُ

المسْلِمُونَ الأوّلُون فَصَبرَا على الأذَى لِأنهُمَا كانا يَعْلَمَانِ أنَّ طَرِيْقَ الجَنَّةِ مَفْرُوشٌ بالأشْوَاكِ مَحْفُوفٌ بالمَكَارِهِ .

وَلَكِنْ الذِي كَانَ يُنَغِّصُهُمَا وَيُنَغِّصُ على إِخْوَانِهِمَا في اللَّهِ أنَّ قُرَيْشاً كانَتْ تَحُولُ دُوْنَهُم ودُوْنَ شَعَائِرِ الاسْلامِ وَتَحْرِمُهم مِنْ أنْ يَتَذَوَّقُوا لَذَّة العِبَادَةِ فَقد كانَتْ تَقِفُ لهُم في كُلِّ مَرْصدٍ .

عِنْدَ ذلك اسْتَأْذَنَ جَعْفَرُ بْنُ أبي طَالِبٍ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ بأنْ يُهَاجِرَ مَعَ زَوْجَتِه وَنفرٍ مِنْ الصَّحَابَةِ إلى أرْضِ الحَبَشَةِ فأذِنَ لَهُم وَهُوَ حَزِيْنٌ فَقَد كانَ يَعِزُّ عليْهِ أنْ يُرْغَمَ هَؤُلاَءِ الأطْهَارِ عَلَى مُفَارَقَةِ دِيَارِهِم وَمُبَارَحَةِ مَرَاتِعِ طَفولَتِهِم ودِيَارِهِم دُوْنَ ذَنْبٍ جَنَوْهُ إِلا أنَّهُم قالُوا رَبُّنا اللهُ ولَكِنْ لَم يَكُن يَمْلِكُ مِنْ القُوّةُ ما يَدْفَعُ بِهِ أذَى قُرَيْشٍ .

مَضَى رَكْبُ المُهَاجِرِيْنَ إلَى أرْضِ الحَبَشَةِ وَعَلَــى رأْسِهِم جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ رضي اللهُ عنه واسْتَقَرُّوا عِنْدَ النَّجَاشِيّ المَلِكِ الصَّالِحِ فَتذَوّقُوا مُنْذُ أسْلمُوا طَعْمَ الأمْنِ وَاسْتَمْتَعُوا بحَلاوَةِ العِبادَةِ دُوْنَ أنْ يُكَدِّرَ عَلَيْهِم مُكَدِّرٌ .

لكِنْ قُرَيْشٌ مَا كَادَتْ تَعْلَمُ بِرَحِيْلِ هَذَا النَّفَرِ مِنْ المُسْلِمينَ إلَى أرْضِ الحَبَشَةِ ، وَتَقِفُ على مَا نالُوه في حِمَى مَلِيْكِهَا مِنْ الطّمَأنِيْنَةِ على دِيْنِهِم ، والأَمْنِ عَلَى عَقِيْدَتِهِم ، حَتَّى جَعَلَتْ تَأْتَمِرُ بهم .

قَالَتْ أُمُّ سَلمَةَ لَمّا نَزَنْا أَرْضَ الحَبَشَةِ لَقِينَا فِيْهَا خَيْرَ جِوَارٍ فأمِنَّا على دِيْنِنَا وعبَدْنَا اللهَ تعَالى مِن غيرِ أنْ نُؤْذَى .

فَلمَّا بلغَ ذلك قُرَيْشٌ ائْتَمَرَتْ بنا فأرْسَلَتْ إلَى النَّجَاشِيّ رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ مِنْ رِجَالِهَا أحَدُهُمَا عَمْرُو بن العاص وَالثَّانِيْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أبِي رَبِيْعَةَ وَبَعَثْتْ

قُرَيْشٌ مَعَهُمَا بِهدايَا كَثِيرَةٍ لِلنَّجَاشِيّ ولِبَطارِقَتِهِ ـ البطْرِيْقُ رَجُلُ الدِّيْنِ عِنْدَ النَّصارَى ـ

ثم أَوْصَتْهُمَا بأَنْ يَدْفَعَا لِكَلِّ بِطْرِيْقٍ هَدِيَةً قَبْلَ أنْ يُكَلِّمَا مَلِكَ الحَبَشَةِ في أمْرِ المُهاجِرِيْنَ ، فَلَمّا قَدِمَ عَمْرُو وعبدُ اللهِ على الحَبَشةِ لَقِيَا بَطارِقَةَ النَجاشِيّ وَدَفَعَا إلى كُلِّ بِطْرِيْقٍ هَدِيَّتَهُ .

وَقَالا إِنَّهُ قَدْ حَلَّ في أرْضِ الْمَلِكِ غِلْمَانٌ مِنْ سُفَهَائِنَا صَبَؤُا عَنْ دِيْنِ آبَائِهِم وَأَجْدَادِهِم وَفَرَّقُوا كَلِمَةَ قَوْمِهِم فإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ في أمْرِهِم فأَشِيْرُوا عليه بأنْ يُسَلِّمَهُم إلينا دُوْنَ أنْ يَسْأَلَهُم عن دِيِنِهِم فإِنَّ أَشْرَافَ قَوْمِهِم أبْصَرُ بِهِم وَأعْلَمُ بمَا يَعْتَقِدُوْن .

فقالَ البَطارِقَةُ لَهُمَا نَعَمْ فَقَالَتْ أُمُّ سلمَةَ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ أَكْرَهُ لِعَمْرٍو وَصَاحِبه مِنْ أنْ يَسْتَدْعِي النَّجاشِي أحَداً مِنّا وَيَسْمَعَ كَلاَمَهُ ثُمَّ أتيَا النجاشِيّ وَقَدَّما إليهِ الهَدَايَا فاسْتَحْسَنَها وَأُعْجِبَ بهَا .

ثُمَّ كَلّمَاهُ فقَالا أيُّها الْمَلِكُ إنَّهُ قَدْ جَاءَ إِلَى مَمْلَكَتِكَ طَائِفَةٌ مِنْ شِرَارِ غِلْمَانِنَا قَدْ جَاؤا بدِيْنٍ لا نَعْرفُه نَحْنُ ولا أنتُم فَفَارَقُوا دِيْنَنَا وَلَمْ يَدْخُلُوا في دِيِنِكُم وَقَد بَعَثَنَا إليكَ أشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إلَيْهِمْ وَهُمْ أعْلَمُ النَّاسِ بِمَا أحْدَثُوهُ مِنْ فِتْنَةٍ .

فَنظَرَ النَّجَاشِيّ إلَى بَطارِقَتِهِ فَقَالَ البَطارِقَةُ صَدَقَا أيُّها الْمَلِكُ فإنّ قَوْمَهُم أبصَرُ بهم وأعلمُ بمَا صَنعُوْا فَرُدَّهُم إلَيْهِم لِيَروْا رأيَهُمْ فِيهِم فَغَضِبَ النَّجَاشِيُ غَضَباً شَدِيْداً مِنْ كَلامِ بَطارِقَتِهِ .

وقالَ لا وَاللّهِ لا أُسَلِّمُهم لأحَدٍ حَتَّى أَدْعُوهُمْ وَأَسْأَلَهم عمَّا نُسِبَ إلَيْهِمْ

فَإنْ كانُوا كَمَا يَقُولُ هذانِ الرَّجُلانِ أسْلَمْتُهم لَهُمَا وَانْ كَانُوا عَلى غَيرِ ذَلِكَ حَمَيْتُهُم وَأَحْسَنْتُ جوارَهُم مَا جَاوَرُونِي .

قَالَتْ أُمُّ سَلمَة فأرْسَلَ النَجَاشِيُّ إلَيْنَا يَدْعُونا لِلِقَائِهِ فَاجْتَمَعْنَا قَبْلَ الذَّهَابِ إلَيْهِ وَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْض إنَّ المَلِكَ سَيَسْألُكُمْ عَن دِيْنِكُم فاصْدَعُوا بِمَا تُؤْمِنُونَ بِهِ وَلِيَتكَلَّمْ عَنْكُم جَعْفَرُ بنُ أبِيْ طَالِبٍ وَلَا يَتَكَلَّمْ أحَدٌ غيرُه .

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَة ثم ذَهَبْنَا إلى النَّجَاشِيّ فَوَجَدْنَاهُ قَدْ دَعَا بَطَارِقَتَه فَجَلَسُوا عن يَمِيْنِهِ وعن شِمَالِه وقد لَبِسُوا طَيَالِسَتَهُم وَاعْتَمَرُوا قَلانِسَهُم وَنَشَرُوا كُتُبَهُم بَيْنَ أيْدِيْهِم وَوَجَدْنَا عَمْرَو ابنَ العَاصِ وعبدَ اللهِ بْنَ رَبِيْعَةَ .

فلمَّا اسْتَقَرَّ بنَا المَجْلِسُ التَفَتَ الينَا النَّجَاشِيّ وَقَالَ ما هَذَا الدِّيْنُ الذِي اسْتَحْدَثْتُمُوهُ لِأَنْفُسِكُم وَفَارَقْتُم بِسَبَبِه دِيْنَ قَوْمِكُم وَلَمْ تَدْخُلُو في دِيْنِيْ .

فَتَقَدَّمَ منه جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ وقَالَ أيُّها الملكُ كنَّا قَوْماً أهْلَ جاهِلِيَّةٍ نَعبُدُ الأصْنَامَ وَنأكُلُ المَيتةَ وَنَأتِي الفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الأرْحَامَ وَنُسِيْءُ الجِوَارَ وَيَأكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَعِيْفَ وبقِيْنَا على ذلكَ حتَّى بَعثَ اللهُ إلينا رسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نسَبهُ وَصِدْقَهُ وأَمَانَتَهُ وَعفافَهُ .

فلمَّا دَعَانَا إلى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنّا نعْبُدُ وَآبَاؤُنا مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ الحِجَارَةِ والأَوْثَانِ .

وَقَدْ أمرَنا بِصِدْقِ الحَدِيْثِ وَأداءِ الأمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وحُسْنِ الجِوَارِ وَالكَفِّ عَنْ المَحَارِمِ وَحَقْنِ الدِّمَاءِ ـ أيْ حِفْظِهَا وَعدَمِ سَفْكِهَا .

وَنهَانَا عَنْ الفَوَاحِش وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ اليَتِيْمِ وَقَذْفِ المُحصَنَاتِ

وَأمرَنا أنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَأنْ نُقِيمَ الصَّلاةَ وَنؤْتِيَ الزَّكاةَ وَنَصُومَ رَمَضَان .

فَصَدَّقْنَاهُ وآمَنَّا بِهِ واتَّبَعْنَاهُ على مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَحَلَّلْنَا مَا أحَلَّ لَنَا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، فَمَا كانَ مِنْ قَوْمِنَا أيُّها الْملِكُ إلاَّ أنْ عدَوْا عَلَيْنَا فَعذَّبُونا أَشَدَّ العَذَابِ لِيَفْتِنُونَنَا عَنْ دِيْنِنَا وَيَرُدُّوْنَا إلى عِبَادَةِ الأوْثَانِ .

فَلَمَّا ظَلمُونا وَقَهَرُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا وَحالُوا بَيْنَنا وبَيْنَ دِيْنِـنَا خَرجْنَا إلى بِلَادِكَ واخْتَرْنَـاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا في جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أنْ لاَ نُظْلَم عندك .

قَالَتْ أمُّ سَلمَةَ فالتَفَتَ النَّجَاشِيِّ إلَى جَعْفَرِبْنِ أَبِيْ طَالبٍ وَقَالَ هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكم عَنْ اللهِ قَالَ نَعَمْ فَقرَأَ عَلَيْهِ « كَهيَعَص ذِكرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عبْدَه زَكَرِيَّا » حَتَّى أتمَّ صَدْراً مِنْ السُّوْرَةِ .

قَالَتْ أُمُّ سَلمَةَ فَبَكَى النَجَاشِي حتى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ بالدُّمُوعِ - أيْ تبَلَّلَتَ - وبَكى أسَاقِفَتُهُ حتى بَلّلُوا كتُبَهُمْ لِما سَمِعُوا مِنْ كلامِ اللهِ وهُنَا قالَ النَّجَاشِيّ إنَّ هَذا الذي جاءَ بِهِ نَبيُّكم وَالذِي جَاء بِهِ عِيْسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكاةٍ وَاحِدَةٍ ثم التَفتَ النّجَاشِيّ إلى عَمْرو وصَاحِبِهِ وَقالَ لهُما : انْطَلِقَا فلا واللَّهِ لا أُسَلِّمُهُم إلِيْكُما أبَدَا قالَتْ أمُّ سَلمَةَ فلمّا خَرجْنَا مِن عندِ النَّجَاشِي تَوعَّدَنا عَمْرُو ابنُ العَاصِ وَقالَ لِصَاحِبه واللهِ لآتينَّ الْمَلِكَ غداً ولَأذْكُرَنَّ لَهُ مِن أمْرِهِم ما يَمْلأُ صَدْرَهُ غَيْظاً منهُم ويَشْحَن فُؤَادَهُ كُرْهاً لَهُم ولأحْمِلنَّه عَلَى أنْ يَسْتَأْصِلَهُم مِنْ جُذوْرِهِم .

فقَالَ عبْدُ اللهِ بْنُ رَبْيعَة لا تَفْعَلْ يا عَمْرو فإنَّهم مِنْ ذَوِيْ قِرْبَانَا وَإنْ كانُوا قد خالَفُونَا فقالَ لَهُ عَمْرُو دَعْ عنْكَ هَذا واللهِ لأخبِرَنّـه بمَا يُزَلْزِلُ أقْدامَهم وَاللهِ

لأقُولنَّ لَهُ إنَّهمُ يَزْعُمُونَ أنَّ عِيسى بن مَرْيمَ عَبْدٌ .

فلمَّا كانَ الغَدُ دخلَ عَمْرو عَلى النَّجاشِيّ وَقالَ لهُ أيُّها الملِكُ إنَّ هَؤُلآءِ الذين آوَيْتَهُم وحَمَيْتَهُم يَقُولُونَ في عِيَسى بْنِ مَرْيم قوْلاً عظِيْماً ، فأرْسِلْ إليهم وسَلْهُم عمَّا يقوُلوُنه فِيْهِ .

قَالَتْ أُمُّ سَلمَة فَلمّا عَرَفنَا ذلكَ نَزَلَ بنَا مِنْ الهَمِّ وَالغَمِّ مَا لَمْ نَتَعَّرضْ لِمِثْلِهِ وَقالَ بعْضُنا لِبَعْضٍ مَاذا تقوُلوُنَ في عِيْسَى ابْنِ مَرْيَم إذا سَألَكُم عنه .

فَقُلْنَا وَاللهِ لا نَقوُلُ فيه إلاَّ مَا قَالَ اللهُ ولا نَخْرُجُ في أَمْرِهْ قَيْدَ أَنْمُلةٍ عمَّا جَاءنَا به نَبيُّنا وَلْيكُن بسَبَبِ ذلكَ مَا يكونُ .

ثمّ اتفقْنَا عَلى أنْ يتوَلى الكلامَ عنّا جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِب فلمَّا دَعَانَا النَّجاشِيّ دَخَلْنَا عليه فوَجَدْنا عنْدَهُ بَطارِقتَه عَلى الهَيْئَةِ التِي رَأيْنَاهُم عليهَا مِنْ قَبْلُ .

ووجَدْنَا عندَهُ عَمْرو بْنَ العَاصِ وصَاحِبَهُ فَلمَّا صِرْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ بَادَرَنَا بقَوْلِهِ مَاذَا تَقوُلوُنَ في عِيْسَى بْنِ مَرْيمَ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بنُ أبي طالبٍ إنَّمَا نَقُولُ ما جَاءَ بِهِ نَبيُّنَا فقالَ النَّجاشِيْ وما الذِي يَقُولُ فيه .

فَأَجَابَهُ جعْفَرُ يقُولُ عنْهُ « إنَّه عبدُ اللهِ ورَسُولُه ورُوْحُهُ وَكلِمَتُه التِي ألقَاهَا الى مَرْيَمَ العَذْرَاءَ البَتُولَ » فلمَّا سَمعَ النَّجاشِيّ قوْلَ جَعْفَرٍ ضرَبَ بيدِه الأَرْضَ وَقَالَ واللهِ مَا خَرَجَ عِيْسَى بنُ مَرْيَمَ عَمَّا جَاءَ بِهِ نبيُكم مِقْدَارَ شَعْرَةٍ .

فَتَناخَرَتْ البَطَارِقَةُ مِنْ حَوْلِ النَّجَاشِيّ اسْتِنْكَاراً لِمَا سَمِعُوْا مِنْهُ فقالَ وإنْ نَخرْتُم ثمَّ الْتَفتَ إلَيْنَا وقالَ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ آمِنُونَ مَنْ سَبَّكُم غَرِمَ وَمَنْ تَعَرَّضَ لكُم عُوْقِبَ وَوَاللهِ ما أُحِبُّ أَنْ يكُونَ لِيْ جَبَلٌ مِنْ ذَهَبٍ وَأَنْ يُصَابَ أَحَدٌ منكُم .

ثمّ نظَرَ إلى عَمْروٍ وصاحِبِهِ وَقَالَ رُدُّوا عَلَى هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ هَدَايَاهُمَا فَلا حِاجَةَ لِيْ بِهَا .

قَالت أمُّ سَلمَة فخرَجَ عَمْروٌ وصَاحبُه مَكْسُوريْنَ مَقْهُوريْنَ يَجُرَّانِ أذْيَالَ الخَيْبَةِ ، أمَا نَحْنُ فقد أقَمْنَا عِنْدَ النَّجَاشِيّ بخَيرِ دارٍ مَعَ أكرَمِ جَارٍ .

أمضَى جعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ هُوَ وزَوْجَتُه في رِحَابِ النَّجَاشِيِّ عَشْرَ سَنواتٍ آمِنينَ مُطمئِنينَ وفي السَّنَةِ السَّابعَةِ لِلْهِجْرَةِ غَادَرُوا بلادَ الحبَشَةِ مَعَ نَفَرٍ مِنْ المُسْلِمينَ إلى المَدِيْنَةِ فلمّا بَلغُوهَا كانَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم عائِداً مِنْ خَيْبَرَ بعَدَ أنْ فَتَحَهَا اللهُ لهُ ففَرِحَ بِلقَاءِ جَعْفر فرَحاً شَدِيْداً حتَّى قالَ مَا أدْرِيْ بأيِّهِما أنَا أشَدُّ فَرحاً أبفتحِ خيْبَرَ أمْ بقُدومِ جَعْفرٍ .

ولَمْ تكنْ فرْحَةُ المسْلِمينَ وَالفُقَراء خاصَّةً بعَوْدَةِ جَعْفرٍ بأقَلَّ مِنْ فَرْحَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عليهِ فقد كانَ جعْفَرُ شديْدَ الحَدْبِ على الضُعَفاءِ والمسَاكِين كَثِيرَ البِرِّ بهِم حَتَّى كانَ يُلَقَبُ بأبِيْ المسَاكِين .

أخبَرَ عنْهُ أبُو هُرَيْرَةَ فقَالَ كانَ خَيرَ النَّاسِ لَنا مَعْشَرَ المسَاكِينِ جَعْفَرُ بْنُ أبِي طَالِبٍ فقَدْ كانَ يمْضِيْ بِنَا إلى بَيْتِهِ فَيُطْعِمُنَا مَا يَكُونُ عندَهُ حتَّى إذَا نفدَ طَعَامُهُ أخْرَجَ لنَا العُكَّةَ التِي يُوْضَعُ فيها السَّمْنُ ولَيْسَ فِيْهَا شَيْءٌ فنَشُقُّهَا وَنَلْعَقُ مَا عَلِقَ بِداخِلهَا .

وفي أوَائِل السَّنَةِ الثَّامِنَةِ للهِجْرةِ جَهَّزَ النَّبي صَلى اللهُ عليه وسَلمَ جَيْشاً لِمُنازَلَةِ الرُّوْمِ في بِلادِ الشّام وَأمّرَ على الجَيْشِ زَيْدَ بنَ حَارِثة وقَالَ إنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفرٌ فانْ قُتِلَ جَعْفرُ فعَبدُاللهِ ابْنُ رواحَةَ فانْ قُتِلَ عبدُاللهِ بْنُ رَوَاحَة فَلْيَخْتَرْ المُسْلِمُونَ لأنْفُسِهِم أمِيْراً مِنْهُم .

فَلَمَّا وَصَلَ المِسْلِمُونَ إلى مُؤْتَةَ وهِيَ قَرْيَةٌ وَاقِعَةٌ عَلَى مَشَارِفِ الشَّامِ في الأَرْدُن وَجَدُوْا أنَّ الرُّومُ قد أعدُّوا لَهُمْ مائةَ ألْفٍ تُعاونُهم مَائةُ ألْفٍ أخْرَى مِنْ نَصَارَى العَربِ مِنْ قَبَائِلِ لَخْمٍ وجُذَامٍ وَقُضَاعَة وَغيرِهَا .

أمَّا جَيْشُ المسْلمينَ فكان ثَلاثَةُ آلافٍ ومَا أَنْ الْتَقى الجَمْعَانِ وَدَارَتْ رَحىَ الحَرْبِ حتَّى خَرَّ زَيدُ بْنُ حَارِثَةَ صَرِيعاً مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِرٍ .

فمَا أسْرَعَ أَنْ وَثَبَ جَعْفَرُ بْنُ أَبي طَالِبٍ عن ظَهْرِ فَرسِهِ ثم عَقَرَهَا حتَّى لا يَنْتَفِعَ بهَا الأعْدَاءُ بَعْدهُ ثمّ حَمَلَ الرَّايَةَ ودَخلَ في صُفُوفِ الرُّومِ وهُو يُنْشِدُ :

يَا حَبَّذَا الجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا
طَيِّبَةٌ وبَارِدٌ شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رُوْمٌ قَدْدَنَا عَذَابُهَا
كَافِرَةٌ بَعِيْدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إذ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

وَظَلَّ يجُولُ بسَيْفِهِ في صُفُوفِهِم ويَصُولُ حتَّى أصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ قَطَعَتْ يَمْينَهُ فأخذَ الرَّايةَ بِشمَالِهِ فمَا لَبثَ أنْ أصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ أخرَى قَطعَتْ شِمَالَهُ فأخذَ الرّايةَ بِصَدْرِه وَعَضُدَيْهِ فما لَبِثَ أنْ أَصَابَتْهُ ضَرْبةٌ ثالِثَةٌ قسَمَتْهُ نِصْفَيْنِ .

فَأخَذَ الرَّايَةَ عبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَةَ فمَا زَالَ يُقَاتِلُ حتَّى لَحِقَ بصَاحِبَيْهِ .

بَلَغَ النبي صلى اللهُ عليه وسَلم مَصْرَعَ قُوَّادِه الثَّلاثَةِ فحَزِنَ عليهم أشَدَّ الحُزْنِ وَأمَضَّهُ وَانْطلقَ إلى بَيْتِ ابْنِ عمِّهِ جَعْفرِ بنِ أبي طَالِبٍ فوَجَدَ زَوجَتَهُ أسْمَاءَ تتأهَّبُ لِاسْتِقبال زوْجِهَا الغَائِبِ قد عَجَنَتْ عجِيْنَها وغسلتْ بَنِيْهَا وَدَهَنَتْهُم وَأَلْبَسَتْهم .

قالتْ أسْمَاءُ فَلمَّا أَقْبَلَ علَيْنا رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ رأيْتُ غُلاَلَةً مِنْ الحُزنِ توَشِّحُ وَجْهَهُ الكرِيْمَ .

فَسَرَتْ المَخَاوِفُ في نَفْسِي غَيرَ أنّي لمْ أشأ أنْ أسْأَلَهُ عن جَعْفَر مَخَافَةَ أنْ أسْمَعَ مِنْه ما أكْرَهُ فَدَعَوْتُهم لهُ فَهبُّوا نَحْوَهُ فَرِحِيْنَ وَأَخَذُوْا يَتَزَاحَمُونَ عليْهِ كُلٌّ يُرِيْدُ أنْ يَسْتَأْثِرَ بِهِ .

فأَكَبَّ عليهِمْ وَجَعَل يَشُمُّهُم وعَيناهُ تَذْرِفَان مِن الدَّمْعِ فَقُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ بأبي أَنْتَ وأُمّي ما يُبكيكَ أَبَلَغكَ عَنْ جَعْفرٍ وصَاحِبَيْه شَيْءٌ قالَ نعَمْ لقَدْ اسْتَشْهِدُوا هَذا اليَومَ .

عِنْدَ ذلكَ غاضَتْ البَسْمَةُ مِنْ وُجوْهِ الصِّغَارِ لمَّا رَأَوْا وسَمِعُوا أمَّهُم تَبْكِي وَتَنْشَجُ وَجَمَدُوا أمَاكِنَهُم كأنَّ على رُؤُسِهِم الطّيرُ .

أمَّا رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسَلم فَمَضَى وهُوَ يُكَفْكِفُ عَبَرَاتِه وَيقُولُ ، اللهُمّ اخْلُفْ جَعْفراً في وَلدِه اللهُمّ اخْلُفْ جَعْفراً في أَهْلِه ثمّ قال صلى اللهُ عليه وسلم لقدرَأيْتُ جَعْفراً في الجَنَّةِ لهُ جَنَاحَانِ مُضَرَّجَانِ بالدِّمَاءِ وهُوَ مَصْبُوغُ القَوادِمِ .

واللهُ أعلمُ وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وسَلمَ .

انْتَهى مِنْ صُوَرٍ مِن حَياةِ الصَّحَابةِ بِتصَرُّفٍ يَسِيْرٍ .

قصة أسيد بن الحضير

قَدِمَ الفتى المَكِّيّ مُصْعَبُ بنُ عمَيرٍ الى يَثْرِبَ فنَزلَ عَلى أَسْعَدِ ابنِ زُرَارَةَ أحَدُ أشْرَافِ الخزْرَجِ واتّخذَ دارَهُ مَقاماً لنفْسِه وَمُنْطلقاً لِبثِّ دَعْوَته إلِىَ اللهِ

والتَبْشِيْر بِنَبيّهِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

وَأخذَ أبْنَاءُ يَثرب يُقْبلوُنَ على مَجَالِس الدَّاعِيَةِ مُصْعَب بنِ عُمَيرٍ اقْبَالاً كبِيْراً وَكانَ يُرَغّبهُم فيهِ عُذوبةُ حَدِيثِهِ ووُضُوحُ حُجَّتِه ورقّةِ شمَائِلهِ وَوَضَأةِ الإِيْمَان التِي تُشْرِقُ في وَجْهِهِ .

وَكانَ يَجْذِبُهم إِليهِ شَيْءٌ ، آخَرُ فوْقَ ذلك كلِّهِ هُوَ هذَا القُرْآنُ العَظِيْمُ الذِي كانَ يَتلُوهُ عَليْهم السَّاعَةَ بَعْدَ السَّاعَةِ بَعْضاً مِن آيَاته البيِّناتِ بصَوْته الحَسَنِ الجَمِيْلِ الرَّخِيْمِ وَنَبراتِهِ الحُلْوَةِ الآسِرَةِ فيَسْتَلِينُ بهَا القُلُوبَ القَاسِيَة ويَسْتدِرُّ بهَا الدُّمُوعَ العَاصِيَةَ فلاَ يَنْفَضُّ المجْلِسُ مِنْ مَجالِسِهِ إلا عنْ أناسٍ أَسْلمُوا وَانْضَمُّوا الىَ كتَائِبِ الايْمَانِ .

وفي ذات يَوْمٍ خرَجَ سَعْدُ بنُ زرَارة بمُصْعَبِ بْنِ عُمَير لِيَلْقَى جَمَاعَة مِنْ بني عبدِ الأشْهَل ويَعْرُضَ عليهم الاسْلامَ فدَخَلا بُسْتاناً مِنْ بَساتِينَ بنِيْ عَبْدِ الأشْهَلِ وجَلسَا عند بئْرِهَا العَذْبَةِ في ظِلالِ النّخِيْل فَاجْتَمع على مُصْعبٍ جَماعَةٌ قد أَسْلمُوا وآخَرُونَ يُرِيْدُونَ أنْ يسْمَعُوا فانْطلقَ يَدْعُو ويُبَشِّرُ وَالنَّاسُ إِليْهِ مُنْصِتُونَ .

فجَاءَ مَنْ أخبَر أُسَيْدَ بْنَ الحُضَيْر وسَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ وَكانَا سَيِّدَا الأَوْس بأنَّ الدَّاعِيةَ المَكِيَّ قَدْ نَزلَ قَرْيباً مِنْ دِيَارِهِمَا وَأنَّ الذي جَرَّأهُ على ذَلكَ أسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ مُسْتَغِلاً قرَابتَهُ مِن سَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ إذ كانَ ابْنَ خَالَتِه .

فَقَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ لأُسَيْدِ بْنِ الحُضَيرِ لاَ أبَا لَكَ يا أُسَيْدُ انْطَلِقْ إلى هَذا الفَتى المَكِيِّ الذي جاءَ إلى بُيُوتِنا لِيُغْرِيَ ضُعَفَاءَنا وَيُسَفّه آلِهَتَنَا وازْجُرْهُ وحَذّرْهُ مِنْ أنْ يطأ دِيارنَا بَعْدَ اليَوْم .

ثمّ أرْدفَ يَقُولُ ولَوْلاَ أنَّهُ في ضِيَافَةِ ابْنِ خَالِيْ أَسْعَدِ بْنِ زُرَارَةَ لكَفَيْتُكَ ذلكَ وأخذَ أُسَيْدُ حَرْبتَه ومَضى نحْوَ البُسْتَانِ فلمّا رآهُ أسْعَدُ بْنُ زُرَارَةٍ قالَ لِمُصْعَبٍ وَيْحَكَ يا مُصْعَبُ هَذا سَيِّدُ قوْمِه وَأرْجَحُهم عَقْلاً وأكمَلهُم كمَالاً أسَيْدُ بنُ الحُضَير فَإنْ يُسْلِمْ يَتْبَعْهُ في إسْلامِه خَلْقٌ كثِيرٌ فاصْدُقِ اللهَ فِيْهِ وَأحْسِنْ التَّأتِيْ لهُ ـ أيْ عَرْضَ الأمْرِ عليْهِ ـ .

وَقَفَ أُسَيْدُ بْنُ الحُضَير عَلى الجَمْعِ وَالتَفتَ إِلى مُصْعَبٍ وَصاحِبه وَقالَ ما جَاءَ بكُمَا الى ديَارنا وَأغرَاكُما بضُعَفائِنَا . اعْتَزِلا هَذا الحَيَّ إنْ كانَتْ لكُما حَاجَةٌ بنَفْسَيْكُمَا .

فالتَفَتْ مُصْعَبُ الى أُسَيْد بوَجْهِهِ المُشْرِقِ بنُورِ الايْمَانِ وَخَاطَبَهُ بلهْجَتِه الصَّادِقةِ وَقالَ لهُ يا سَيِّدَ قَوْمِه هَلْ لكَ في خَيْرٍ مِنْ ذلكَ قالَ وما هُوَ قالَ تجْلِسُ إلَيْنَا فتَسْمَعَ مِنَّا فإنْ رَضِيْتَ مَا قُلناهُ قَبلْتَهُ وانْ لم تَرْضَهُ تحَوَّلنا عنْكم وَلم نعُدْ إليكم فقالَ أسَيْدٌ لقَدْ أنْصفْتَ وَركَزَ رُمْحَهُ في الأَرْضِ وجَلَسَ .

فأقْبلَ عليه مُصْعَبٌ يَذْكُرُ لَهُ حَقِيْقَةَ الاسْلام ويَقْرَأُ عليْهِ شَيْئاً مِنْ آيَاتِ القُرْآنِ فأشْرَقتْ أَسَارِيْرُهُ وَأشْرَق وَجْهُه وَقالَ مَا أحْسَنَ هذا الذِي تَقُولُ وما أجْمَلَ الذي تَتْلوُ كيْفَ تصْنعُونَ إذَا أرَدْتُم الدُّخُولَ في الاسْلامِ .

فقَالَ مُصْعَبُ تَغْتَسِلُ وتُطَهِّرْ ثِيَابَك وَتَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهَ وأنَّ مُحمَّداً رسُولَ اللهِ وتُصَلي رَكْعَتينِ فقَامَ إلى البئر فتطهَّرَ بمَائِهَا وشَهِدَ أنْ لا الهَ الا اللهُ وأن مُحمّداً رسُولَ اللهِ وصَلى ركعَتينِ فَانْضَمَّ في ذلكَ اليومِ إلى كَتَائِبِ الاسْلامِ .

وَكَانَ فَارِساً قَارِئاً كَاتِباً في مُجْتَمعٍ نَدَرَ فيهِ مَنْ يَقْرَأُ أو يَكْتُبُ وَكَانَ

اسْلامُه سَبباً في اسْلامِ سَعْدِ بْنِ مُعاذٍ وَكَانَ إسْلامُهما سَبباً في أَنْ تُسْلِمَ جمُوعُ كثيْرَةٌ مِنَ الأوْسِ وَأنْ تُصْبحَ المَدِيْنَة مُهاجرَاً لأصْحَابِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ ومَوْئِلاً وقَاعِدَةً لِدَوْلَةِ الإسْلامِ العُظْمَى .

وقد أُوْلِعَ أُسَيْدُ بنُ الحُضَير بالقُرْآنِ مُنْذُ سَمعَهُ مِنْ مُصْعَب ابْنِ عُمَيْرٍ وَلعَ المُحبِّ بحَبِيْبِهِ وَأقبَلَ عليْهِ إِقْبالَ الظَّامِيء على المَوْرِدِ العَذْبِ في اليَوْمِ القَائِضْ وجَعَلَهُ شُغْلَهُ الشَّاغِلَ فكَانَ لا يُرى إلَّا مُجَاهِداً غازِياً في سَبيْل اللهِ أو عَاكِفاً يَتْلوُ كِتابَ اللهِ .

وكانت تَطِيْبُ لهُ القِرَاءةُ أَكثَر مَا تَطِيبُ إِذَا سَكنَ الليْلُ وَنَامَتْ العُيونُ وصَفَتْ النُفُوسُ وكانَ الصَّحَابةُ يتَحَيَّنُون أوْقات قِرَاءَته وَيتَسابقُون إلى سَمَاعِ تِلاوَتِه وقَدْ اسْتَعْذبَ أَهْلُ السَّمَاءِ قِرَاءتِهُ كمَا اسْتَعْذبَها أهْلُ الارْضِ .

ففِي جَوْفِ لَيْلةٍ مِنْ اللياليْ كانَ أسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ جَالِساً في مِربَدِه وابنُه يَحْيى نَائِمٌ إلى جَانِبه وفَرَسُهُ قد أَعدَّها لِلْجِهَادِ في سَبيل اللهِ مُرْتَبَطَة غَيْرُ بَعِيْدةٍ عنهُ وكانَ الليْلُ سَاجِيَا فَتاقتْ نَفْسُ أسَيْدِ بْنِ الحُضَيْرِ لِلْقِراءةِ .

فشَرعَ يَقرَأُ ﴿ألم ذَلكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً للْمُتَّقينَ . الذينَ يُؤمِنُونَ بالغَيْبِ ويُقيمُونَ الصّلاةَ ومِمَّا رَزقناهُم يُنْفقُونَ وَالذِينَ يؤمِنُونَ بمَا أنزلَ اليْك ومَا أُنزلَ منْ قَبْلِكَ وبالآخِرَةِ هُم يُوْقِنونَ﴾ .

فإذا بِهِ يَسْمَعُ فَرَسَهُ وَقَدْ جَالَتْ جَوْلَةً كادَتْ تُقَطِّعُ بسَبَبِهَا رباطَهَا فَسَكتَ فسَكَنَتْ الفَرسُ وَقَرَّتْ فعَادَ يَقْرَأُ « أوْلئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِم وَأُوْلَئِكَ هُم المفْلِحُونَ » فَجَالَتْ جَوْلَةً أشَدَّ مِنْ التي قَبْلَهَا فَسَكَتَ فَسَكَنتْ فخافَ على ابْنِهِ يَحْيى أنْ تَطأهُ .

فمَضَى إليه لِيُوقِظَهُ وهُنَا حَانَتْ مِنه التِفَاتَةٌ نحْوَ السَّماءِ فَرَأى غمَامَةَ كالمِظَّلةِ لَمْ تَرَى العَيْنُ أرْوَعَ وَلا أَبْهَى منَها قَطُّ وقد عُلِّقَ بهَا أمْثَالُ المَصَابِيح فَملأتِ الآفاقَ ضِيَاءً وسَنَاءً وهِىَ تَصْعَدُ إلِىَ السَّمَاءِ حَتَّى غَابَتْ عَن عَيْنَيْهِ .

فلمَّا أَصْبَحَ مَضَى إلِى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ وَقَصَّ علَيْهِ خبَرَ مَا رَأى فقَالَ لَهُ صلى اللهُ عليه وسَلم تِلْكَ الملائِكَةُ تَسْتَمِعُ لَكَ يَا أُسَيْدُ وَلَوْ أنَّكَ مَضَيْتَ في قِراءتِكَ لرَآهَا النَّاسُ ، وَكانَ يُحِبُّ الرَّسُولَ صلى اللهُ عليه وسلم حُبّاً شَدِيْدَاً وَكانَ كثِيراً ما يَتمَنَّى أنْ يَمَسَّ جسَدُهُ جَسَدَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ .

وَقَدْ أُتِيْحَ لَهُ ذَلِكَ مَرَّةً فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ أُسَيْدُ يُطْرِفُ النَّاسَ بِمُلَحِهِ فغَمَزَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في خاصِرَتِه بِيَدِهِ كأنهُ يَسْتَحْسِنُ ما يقُولُ فقَالَ أُسَيْدٌ أَوْجَعْتَنِي يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اقْتَصَّ مِنِّيْ ، فقالَ أُسَيْدٌ إنَّ عَلَيْكَ قَمِيْصاً وَلَمْ يَكُنْ عَلَيَّ قَمِيْصٌ حِيْنَ غمَزْتَنِيْ .

فَرَفَعَ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّم قَمِيْصَه عنه فاحْتَضَنَهُ أُسَيْدُ وَجعَلَ يُقبلُ ما بَيْنَ ابْطِهِ وَخَاصِرَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ بِأبِي أَنْتَ وَأُمِّيْ يَا رَسُولَ اللهِ إنها لَبُغيَتِيْ كُنْتُ أتَمَنَّاهَا مُنْذُ عَرِفْتُكَ وَقَد بَلغْتُها الآنَ .

وكانَ صلى اللهُ عليه وسَلمَ يُبَادِلُ أُسَيْداً حُبّاً بحُبٍّ وَيَحْفَظُ لَهُ سَابقَتَه في الإسْلام وذَوْدَهُ عنه يومَ أُحُدٍ حتَّى إنهُ طُعِنَ سَبْعَ طَعَنَاتٍ مُمِيْتاتٍ في ذلكَ اليَوْمِ .

وكان صلى اللهُ عليه وسلم يَعْرِفُ لَهُ قَدْرَهُ وَمَنْزِلَتَه في قَوْمِه فإذا

شفعَ في أَحَدٍ مِنْهُم شَفَّعَهُ فيه حَدَّثَ أَسَيْدٌ قالَ جِئْتُ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ فذكَرْتُ لَهُ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ الأَنْصَارِ فيهم حَاجَة وَجُلُّ ذَاكَ البَيْتِ نِسْوَةٌ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لقد جِئْتَنَا يَا أُسَيْدُ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقْنَا مَا بِأَيْدِيْنَا فإذا سَمِعْتَ بِشَيْءٍ قد جَاءنا فاذكُرْ لَنَا أَهْلَ ذَلِكَ البَيْتِ :

فَجَاءَهُ بعد ذَلِكَ مَالٌ مِنْ خَيْبَر فقَسَمَهُ بَيْنَ المسلمِينَ فـأَعْطى الأَنْصَارَ وَأَجْزَلَ وَأَعْطى أَهْلَ ذَلِكَ البَيْتِ وَأَجْزَلَ فَقُلْتُ لَهُ جَزَاكَ اللهُ عَنْهُم خيراً يا نَبيِّ اللهِ فَقَالَ وَأَنْتُم مَعْشَر الأَنْصَارِ جَزَاكُمْ اللهُ أَطْيَبَ الجَزاءِ فإنكمُ ما عَلِمْتُ أَعِفَّةٌ صُبَّرٌ وَإنكُم سَتلقَونْ أَثَرَةً بَعْدِي فَاصْبِرُوا حتَّى تَلْقَوْنِيْ وَمَوْعِدُكم الحَوْضُ .

قَالَ أُسَيْدُ فَلَمَّا آلَتْ الخِلاَفَةُ إلى عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَسَّمَ بَيْنَ المسْلِمينَ مُالاً وَمُتَاعاً فَبعَثْ إلَيَّ بِحُلَّةٍ فاسْتَصْغَرْتُهَا فَبَيْنَمَا أَنا في المسْجِدِ إذْ مَرَّ بِي شَابٌّ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَيْهِ حُلةٌ سَابِغَةٌ مِنْ تِلْكَ الحُلَلِ التِي أَرْسَلَهَا إلَيَّ عُمَرَ وَهُوَ يَجُرُّهَا عَلى الأَرْضِ جَرَّا . .

فَذَكَرْتُ لِمَنْ مَعِيْ قَولَ رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسَلم إنَّكُم سَتَلقَونَ أَثرَة مِنْ بَعْدِيْ وقلتُ صَدَقَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم فإنْطَلقَ رَجُلٌ إلى عُمرَ وأخبرَهُ بِمَا قُلتُ فَجَاءنِي مُسْرعاً وَأَنا أُصَلّي فقَالَ صَلِّ يَا أُسَيْدُ فَلمّا قَضَيْتُ صَلاَتِي أَقبلَ عليَّ وَقَالَ مَاذَا قُلْتَ ؟ .

فَأَخبَرْتُه بِمَا رَأَيْتُ وَبِمَا قُلْتُ فَقَالَ عَفَا اللهُ عَنْكَ تِلْكَ حُلَّةٌ بعَثْتُ

بِهَا إلى فُلانٍ وَهُوَ أَنْصَارِيّ عَقَبِيّ بَدْرِيّ أُحُدِيّ فشَراهَا منهُ هَذَا الفتَى القُرَشِيّ وَلَبِسَها فقالَ أَسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ وَاللهِ يَا أَمِيرَ المؤمنينَ لقد ظَنَنتُ أَنّ ذلكَ لاَ يَكُونُ في زَمَانِكَ وَلَمْ يَعِشْ أُسَيْدٌ بعدَ ذلك طَوِيْلاً فَقَدْ اخْتَارَهُ اللهُ إلى جِوَارِه في عَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

ولشيخنا عبد الرحمن الناصر السعدي رحمه الله

وَكُـنْ ذَاكِـراً لِـلّهِ فـي كُـلِّ حَـالَـةٍ
فَـلَيْسَ لِـذِكْـرِ الـلهِ وَقْـتٌ مُـقَـيَّـدُ
فَـذِكْـرُ إِلٰـهِ الـعَـرْشِ سِـرّاً وَمُعْلِنَـاً
يُـزِيْلُ الشَّقَـا والهَـمَّ عَنْـكَ وَيَـطْرُدُ
وَيَـجْـلِبُ لِـلخَـيْـرَاتِ دُنْياً وَآجِــلاً
وَإِنْ يَـأْتِكَ الـوَسْـوَاسُ يَـومـاً يُشَـرَّدُ
فَقَـدْ أَخْبَـرَ المُخْتَـارُ يَـوْمـاً لِصَـحْبِـهِ
بِـأَنَّ كَثِيْرَ الـذِّكْـرِ في السَّبْقِ مُفْـرَدُ
وَوَصَّـى مُـعَـاذاً يَـسْـتَـعِـيْـنُ إِلٰـهَـهُ
عَلَى ذِكْـرِهِ وَالشُّكْـرِ بـالحُسْنِ يعبـد
وَأَوْصَـى لِشَـخْصٍ قَـد أَتَى لِنَصِيْـحَـةٍ
وَقَـد كَـانَ في حَمْـلِ الشَّـرَائِـعِ يَجْهَـدُ
بِـأَنْ لا يَـزَلْ رَطْبـاً لِسَـانُـك هَـذه
تُـعِيْـنُ عَـلى كُـلِّ الأُمُـورِ وَتُـسْـعِـدُ
وَأَخْـبَـرَ أَنَّ الـذِّكْـرَ غَـرْسٌ لِإهْـلِهِ
بِجَنَّـاتِ عَـدْنٍ وَالـمَسَـاكِنُ تُمْـهَـدُ

وَأَخْـبَـرَ أَنَّ الـلهَ يَـذْكُـرُ عَـبْـدَهُ
وَمَـعْـهُ عَـلى كُـلِّ الأُمُـورِ يُـسَـدِّدُ
وَأَخْـبَـرَ أَنَّ الـذِّكْـرَ يَـبْـقَى بِـجَـنَّـةٍ
وَيـنْـقَـطِـعُ الـتَّـكْـلِيْـفُ حِـيَـنْ يُخَـلَّـدُ
وَلَـوْ لَمْ يَـكُـن فِي ذِكْـرِهِ غَـيْرَ أَنَّـهُ
طَـرِيْـقٌ إلى حُـبِّ الإِلْـهِ وَمُـرْشِـدُ
وَيَـنْهى الـفَـتى عَـنْ غِـيْـبَـةٍ وَنِمَـيْـمَـةٍ
وَعَـنْ كُـلِّ قَـوْلٍ لِـلدِّيَـانَـةِ مُـفْـسِـدُ
لَـكَـانَ لَـنَـا حَظٌّ عَـظِـيْـمٌ وَرَغْـبَـةٌ
بِـكَـثْـرَةِ ذِكْـرِ الـلهِ نِـعْـمَ الْمُـوَحِّـدِ
وَلَـكِـنَّـنَـا مِـنْ جَـهْـلِنَـا قَـلَّ ذِكْـرُنَـا
كَـمَا قَـلَّ مِـنَّـا لِـلإِلْـهِ الـتَّـعَـبُّـدُ

اللهُمَّ أَذِقْنَا عَفْوَكَ وَغُفْرَانَكَ وَاسْلُكْ بِنَا طَرِيْقَ مَرْضَاتِكَ . وَعَامِلْنَا بِلُطْفِكَ وَاحْسَانِكْ وَاقْطَعْ عَنَّا مَا يُبْعِدُ عَنْ طَاعَتِكَ اللهُمَّ وَثَبِّتْ مَحَبَّتَك في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَيَسِّرْ لنا مَا يَسَّرْتَهُ لِأَوْلِيَائِك وَاغْفِرْ لنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والميتِين بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وَصَلىَّ اللهُ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنْ .

قصـة أبي الـدرداء

أَبُو الدَّرداءِ كُنْيَةُ عُوَيمِر بن مَالك الخَزْرَجيّ ومِن قصته أنه كان له صَنمٌ نَصَبَه في أَشْرَفِ مَكانٍ مِن بَيْتِه فنَهَضَ إليه يَوْماً فَحَيَّاهُ وَضَمَّخه

بأنْفَس مَا حَواهُ مَتْجَرُه الكبيُر مِنْ الطِّيْبِ ثم أَلْقى عليهِ ثَوْباً جَدِيْدَاً من فاخِرِ الحَرِيْرِ .

وَلَمَّا ارْتفَعتْ الشَّمْسُ غَادَرَ أَبُو الدَّرْدَاءِ مَنْزِلَهُ يُرِيْدُ الذَّهَابَ إلى مَحَلِّ تِجَارَتِه فإذا شَوَارِعُ المَدِيْنَةِ وَطُرُقاتُها تَضِيْقُ بِأَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسَلم وَهُمْ عَائِدُونَ مِنْ بَدْرٍ وَأَمَامَهم أَفْوَاجُ الأَسَرَاءِ مِنْ قُرَيْشٍ .

فَأَعْرَضَ أَبُو الدَّرْدَاءِ عَنْهُم وَأَقْبَلَ على فَتًى مِنْهُم وَسَأَلَهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ فَطَمْنَهُ الفتىَ عَلَيْهِ لِمَا كَانَ يَعْلَمُه مِنْ الصَّدَاقَةِ بَيْنَهُما في الجَاهِلِيَّةِ .

فَلَماَّ جَاءَ الاسْلامُ بَادَرَ إليه عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَظَلَّ أَبُو الدَّرْدَاءِ على شِرْكِه وَلَمْ يَقْطَعْ ابْنُ رَوَاحَةَ الصِّلةَ التي بَيْنَهُما بَلْ ظَلَّ يَتعَهَّدُه بالزِّيارَةِ وَيَدْعُوهُ إلى الإِسْلامِ وَيَحُثُّهُ عَلَيْهِ وَيُرَغِّبُهُ فِيْهِ .

وَعِنْدَمَا وَصلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إلىَ مَتْجَرِهِ يَبِيْعُ وَيَشْتَرِي اتَّجَهَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ إلى مَنْزِلِ أَبي الدَّرْدَاءِ فلماَّ وَصَلَهُ رَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ في الفِنَاءِ ـ أي سَاحَةِ البَيْتِ ـ فقالَ السَّلامُ عَلَيْكِ يَا أَمَةَ اللّهِ فقالَتْ وَعَلَيْكَ السَّلامُ يَا أخا أبا الدَّرْدَاءِ .

فَقَالَ أَيْنَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فقالَتْ ذَهَبَ إلى مَتْجَرِهِ فَقَالَ أَتَأْذَنِينَ فَقَالَتْ عَلى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ وَأَفْسَحتْ لَهُ الطَّرِيْقَ وَمَضَتْ إلى حُجْرَتِها وَانْشَغَلَتْ عَنْهُ باصْلاحِ شَأْنِ بَيْتِهَا وَرِعَايَةِ أَطْفَالِهَا .

دخلَ عبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَةَ إلى الحُجْرَةِ التي وَضَعَ فِيْهَا أَبُو الدَّرْدَاءِ

صَنَمَهُ وَأَخْرَجَ قَدُّوماً أَحْضَرَهُ مَعَهُ وَمَالَ إلى الصَّنَمِ وَقَطَّعَهُ بِهِ وَكَسَّرهُ وَهُوَ يَقُولُ أَلَا كُلُّ مَا يُدْعَى مَعَ اللهِ بَاطِلُ .

ثمّ غادَرَ البَيْتَ ثُمَّ دَخلَتْ أُمُّ الدّرْدَاءِ إلىَ الُحجْرَةِ التيْ فِيْهَا الصَّنَمُ فَرَأَتْهُ مُكسّراً على الأَرْضِ فَقَالَتْ أَهْلَكْتَنِي يا ابْنَ رَوَاحَةَ .

وَلّمَا عَادَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَأى امْرَأَتَهُ جَالِسَةً عِنْدَ بَاب الُحجْرَة التيْ فِيْهَا الصَّنَمُ وَهِيَ تَبْكِي خَائِفَةً منه فقالَ مَا شَأْنُكِ قالتْ أَخُوكَ عبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَة جَاءنَا في غَيْبَتِكَ وَكَسرَ الصَّنَمَ .

فَنَظَرَ إلى الصَّنَم فوَجَدَهُ حُطَاماً فَغَضِبَ وَهَمَّ أَنْ يَسْتَنْصِرَ لَهُ لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ إلاَّ قَلِيْلاً حَتىَّ سَكَتَ غَضَبُه ثمَّ قالَ لَوْ كانَ في الصَّنَمِ خيرٌ لَدَفَعَ عَنْهُ الأذَى .

ثُمَّ انْطَلَقَ فَوْراً إلىَ ابْن رَوَاحَةَ وَمَضَيَا إِلىَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلَمَ وَأَعْلَنَ دُخُولَهُ في الإِسلَامِ وَنَدِمَ نَدَماً كَبيْراً على مَا فَاتَهُ مِنْ خَيرٍ وَأَدْرَكَ ادْرَاكاً عَميْقاً مَا سَبَقَهُ إليه أَصْحَابُهُ مِنْ فِقْهٍ لِديْنِ اللهِ وَحِفْظٍ لِكِتَابِ اللهِ وَعِبَادَةٍ وَتَقْوَى ادَّخَرُوهُمَا لأَنْفُسِهم عِنْدَ اللّهِ .

فَعزَمَ عَلى أَنْ يَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَهُ بالُجهْدِ الجَاهِدِ وَأَنْ يُوَاصِلَ كَلالَ الليْلِ بكَلاَلِ النهَّارِ حَتىَّ يَلْحَقَ بالرَّكب فانْصَرَفَ إلى العِبَادَةِ انْصِرَافَ مُتَبَتِّلَ ـ أَيْ مُنْقَطِعٌ عَنْ الدّنْيَا ـ وَأَقْبَلَ عَلى العِلْمِ اقْبَالَ الظّمْآنِ وَأَقْبَلَ عَلى كِتَابِ اللهِ يَحْفَظُ كَلِمَاتِهِ وَيَتَعَمَّقَ في فَهْمِ آيَاتِهِ .

وَلَما رَأىَ التِّجَارَةَ تُنَغِّصُ عليهِ لَذَّةَ العِبَادَةِ وَتُفَوِّتُ عليْهِ مَجَالِسَ العِلْمِ

تَرَكَهَا غيرَ مُتَرَدِّدٍ وَلاَ آسِفٍ، وقد سَأَلَهُ عن ذلك سَائِلٌ فَأَجاب لَقَدْ كُنْتُ تاجِراً قَبْلَ عَهْدِي بِرَسُولِ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلمَ فلماّ أَسْلَمْتُ وَدِدْتُ أَنْ أَجْمَعَ بينَ التِّجارَةِ وَالعِبَادَةِ فَلَمْ يَسْتَقِمْ لِي مَا أَرَدْتُ فَتَرَكْتُ التِّجَارَةَ وَأَقْبَلْتُ عَلى العِبَادَةِ .

ثُمَّ التفتَ إلى سَائِلِهِ وَقَالَ إِنِّي لا أَقُولُ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ البَيْعَ وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ مِن الذِيْنَ لَا تُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عن ذِكرِ اللهِ وَلَمْ يَتْرُكْ أَبُو الدَّرْدَاءِ التِّجارَةِ فَحَسْبُ وَإِنَّمَا تَرَكَ الدنيا وَأَعْرَضَ عَن زِيْنَتِهَا وَزُخْرُفِهَا وَاكْتَفَى مِنْهَا بِلُقْمةٍ خَشِنَةٍ تُقِيْمُ صُلبَهُ وَثَوبٍ صَفِيْقٍ يَسْتُرُ بِهِ جَسَدَهُ .

وفي يَوْمٍ مَا نَزَلَ عليه جَمَاعَة في لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَأَرْسَل إليهم طَعَاماً سَاخِناً ولم يَبْعَثْ إِلَيْهِم لُحُفاً فلماّ أَرَادُوا النَّوْمَ جَعَلُوا يَتَشَاوَرُونَ في أَمْرِ طَلَبِ اللُّحُفِ لَهم فقَالَ وَاحِدٌ مِنْهم أَنَا أَذْهَبُ إِليْهِ وَأُكَلِّمُهُ .

فَقَالَ لَهُ آخرُ دَعْهُ فَأَبَى وَمَضَى حَتَّى وَقَفَ على بَابِ الحُجْرَةِ فرآهُ قد اضْطَجَعَ وَامْرَأَته جالِسَة قَرِيْباً مِنْهُ لَيْسَ عَلَيْهَا ولا عَلَيْهِ إِلَّا ثَوبٌ خَفِيفٌ لَا يَقِيْ مِنْ حَرٍّ ولا يَدْفَعُ البَرْدَ .

فقالَ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ مَا أَرَاكَ بِتَّ إِلَّا كَمَا بِتْنَا أَيْنَ مَتَاعُكُمْ فَقالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَنَا دَارٌ هُنَاكَ نُرْسِلُ إِلَيْهَا تِبَاعاً كُلَّ مَا نَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ مَتَاعٍ وَلَوْ كُنَّا اسْتَبْقَيْنَا في هَذِهِ الدَّارِ شَيْئاً لَبَعَثْنَا بِهِ إِلَيْكُم .

ثُمَّ إِنَّ في طَرِيْقِنَا الذي نَسْلُكُه إلى تِلْكَ الدَّارِ عَقبَةٌ كَؤُودٌ المُخِفُّ فِيْهَا خَيْرٌ مِنْ المثقِل فأَرَدْنا أَنْ نُخَفِّفَ مِنْ أَثْقَالِنَا لَعَلَّنَا نَجْتَازُ ، ثُمَّ قَالَ

أَفَهِمْتَ فقَالَ نَعَمْ فَهِمْتُ وَجُزِيْتَ خَيْراً .

وفي خِلافَةِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنه أَرَادَ مِنْ أبي الدَّرْدَاءِ أَنْ يَلي لَهُ عَملاً في الشّام فأبَى فَأَصَرَّ عَلَيْهِ فَقَالَ إِذَا رَضِيْتَ مِنّيْ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِم لأُعَلِّمَهُم كِتَابَ رَبِّهم وَسُنَّةَ نَبِيِّهم وَأُصَلِّيْ بِهِم ذَهَبْتُ .

فَرَضَى مِنْهُ عُمَرُ بِذَلِك وَمَضَى هُوَ إلى دِمَشْقَ فلمَّا بَلَغَهَا وَجَدَ النّاسَ قد أُوْلِعُوا بالتَّرَفِ وَانْغَمَسُوا في النَّعِيْمِ فَهَالَهُ ذَلِكَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى المَسْجِدِ فَاجْتَمَعُوا عليه فَوَقَفَ فِيْهِمْ .

وَقَالَ يَا أَهْلَ دِمَشْقَ أَنْتُمْ الإِخْوَانُ في الدِّيْنِ وَالجِيْرَانُ في الدَّارِ وَالأَنْصَارُ عَلى الأَعْدَاءِ يَـا أَهْلَ دِمَشْقَ مَـا الذيْ يَمْنَعُكم مِنْ مَـوَدَّتِيْ وَاسْتِجَابَةً لِنَصِيْحَتِيْ وَأَنا لاَ أَبْتَغِيْ مِنْكُم شَيْئاً فَنَصِيْحَتِيْ لَكُم وَمؤُنَتِيْ على غَيْرِكُم .

مَالِيْ أَرَى عُلَمَاءَكُم يَذْهَبُونَ وَجُهَّالَكُم لاَ يَتعَلَّمُونَ وَأَراكُم قَدْ أَقْبَلْتُم على مَا تَكَفَّلَ اللهُ لَكُمْ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَركْتُم مَا أُمِرْتُمْ بِهِ مَالِيْ أَرَاكُم تَجْمَعُونَ مالا تَأْكُلُوْنَ وَتَبْنُونَ مَالاَ تَسْكُنُونَ وَتُؤمِّلُونَ مالا تَبْلُغُونَ .

لَقَدْ جَمَعَتْ الأَقْوَامُ التِيْ قَبْلَكُم وَأَمَّلَتْ فَمَا هُوَ إِلاَّ قَلِيْلٌ حَتَّى أَصْبَحَ جَمْعُهم بُوْرَا وَأَمَلُهُم غُرُورَا وَبُيُوتُهم قُبُورَا هَذِهِ عَادٌ يَا أَهْلَ دِمَشْق قَد مَلأَتْ الأَرْضَ مَالاً وَوَلداً فَمَنْ يَشْتَرِيْ مِنّي تِركَة عادٍ بِدِرْهَمَيْنِ .

فَجَعَلَ النَّاسُ يَبْكُونَ حَتَّى سُمِعَ نَشِيْجُهم مِنْ خَارِجِ المَسْجِدِ .

وَمُنْذُ ذلكَ اليَوْم طَفِقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَؤُمُّ مَجَالِسَ القَوْمِ في دِمَشْقَ

وَيطُوفُ أَسْوَاقَهُم فَيُجِيْبُ السَّائِلَ وَيُعَلِمُ الجَاهِلَ وَيُنَبِّهُ الغَافِلَ مُغْتَنِماً كُلَّ فُرْصَةٍ مُسْتَفِيْدَاً مِنْ كلِّ مُنَاسَبَةٍ .

وَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ بِجَمَاعَةٍ قَدْ تَجَمْهَرُوا عَلى رَجُل وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ وَيَشْتُمونَهُ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِم وَقَالَ مَا الخَبَرُ قَالُوا رَجُلٌ وَقَعَ في ذَنْبٍ كَبِيْرٍ قَالَ أَرَأَيْتُم لَوْ وَقَعَ في بِئْرٍ أَفَلا تَكُونُوا تَسْتَخرجُونَه مِنْهُ قالُوا بَلى .

قَالَ لَا تَسُبُّوهُ وَلَا تَضْرِبُوه وَإِنَّما عِظُوْهُ وَبَصِّرُوه وَاحْمَدُوا اللهَ الذِيْ عَافَاكُم مِنْ الوُقوعِ في ذَنْبِهِ ، قالُوا أَفلَا تُبْغِضُهُ قالَ إِنَّمَا أُبْغِضُ فِعْلَهُ فإِذَا تَرَكَهُ فَهُو أَخِيْ فَأَخَذَ الرَّجُلُ يَنْتَحِبُ وَيُعْلِنُ تَوْبَتَهُ .

وَجَاءَ شَابٌّ إلى أَبِيْ الدَّرْدَاءِ يَقُولُ يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ أَوْصِنِيْ فَيَقُولُ لَهُ يَا بُنَيَّ اذْكُرْ اللهَ في السَّراءِ يَذْكُرْكَ في الضَّرَّاءِ يَا بُنيَّ كُنْ عَالماً أو مُتَعَلِّماً أو مُسْتَمِعاً وَلَا تَكُنْ الرَّابِعَ فَتَهْلَكَ .

يَا بُنَيَّ لِيَكُنْ المَسْجِدُ بَيْتُكَ فإنِيْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ يَقُولُ : « المسَاجِدُ بَيْتُ كُلِّ تَقِيّ وَقَدْ ضَمِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ كَانَتْ المَسَاجِدُ بُيُوتَهُم الرَّوْحَ والرَّحْمَةَ وَالجَوازَ ـ أي المُرْورَ ـ عَلى الصِّراطِ إلى رِضْوَانِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ .

وفي أَثْنَاءِ إِقَامَة أبي الدَّرْادَاءِ بِدِمَشْق بَعثَ إِلَيْهِ وَإِلَيْهَا مُعَاوِيَةُ بنُ أبي سُفْيَانَ يَخْطُبُ إِبْنَتَهُ الدَّرْدَاءَ لإِبْنِهِ يَزيْدُ فَأَبَى أَنْ يُزَوِّجَها لَهُ وَأَعْطَاهَا لِشَابٍّ مِنْ عَامَّةِ المُسْلِمِيْنَ رَضِيَ دِيْنَه وَخُلقَهُ .

فَسَارَ ذَلِكَ في النَّاسِ وَجَعَلُوا يَقُولُونَ خَطَبَ يَزِيْدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بِنْتَ

أَبِيْ الدَّرْدَاءِ فَرَدَّهُ وَزَوَّجَهَا لِرَجُلٍ مِنْ عَامَّةِ المُسْلِمِيْنَ .

فَسَأَلَ أَبَا الدَّرْدَاءِ سَائِلٌ عن سَبَب ذَلِكَ فَقَالَ إِنَّمَا تَحَرَّيْتُ فِيْمَا صَنَعْتُه صَلاحَ أَمْرِ الدَّرْدَاءِ فقالَ السَّائِلُ وَكَيْفَ ذلك فقـالَ ما ظَنُّكُم بالدَّرْدَاءِ إِذا قامَ بينَ يَدَيْهَا العَبِيْدُ يَخْدِمُونَهَا وَوَجَدَتْ نَفْسَها في قُصُورٍ يَخْطِفُ لَأْلَأْوُهَا البَصَرَ أَيْنَ يُصْبِحُ دِيْنُهَا يَوْمَئِذٍ .

وفي خِلالِ وُجُودِ أبي الدَّرْدَاءِ في بلادِ الشَّـام قَدِمَ عليـهِ أَمِيرُ المُؤمِنينَ عُمَرُ بنُ الخطّاب مُتَفَقّداً أَحْوَالِهَا فزارَ صَاحِبَهُ أبا الدّرْداءِ في مَنْزلِهِ لَيْلاً فَدَفعَ البَابَ فَإِذَا لَيْسَ غَلَقٌ فَدَخَلَ في بَيْتٍ مُظْلِمٍ لَا ضَوْءَ فِيْهِ .

فَلَما سَمِعَ أَبُو الدَّرْدَاءِ حِسَّهُ قَامَ إِليهِ وَرَحَّبَ بِهِ وَأَجْلَسَهُ وَأَخذَ الرَّجُلان يَتَفَـاوَضَانِ الأَحَـادِيْثَ والظَّلامُ يَحْجِبُ كُـلّاً مِنْهُمَا عَنْ عَيْنَيْ صَاحِبِهِ .

فَجَسَّ عُمَرُ وِسَادَةَ أَبِيْ الدَّرْدَاءِ فإذا هِيَ بَرْذَعَةٌ ـ كِسَاءٌ يُلْقَى على ظَهْرِ الدَّابَّةِ ـ وَجَسَّ فِرَاشَهُ فإذا هُوَ حَصَى وَجَسَّ دِثَارَهُ ـ غِطَاءَهُ ـ فإذا هُوَ كِسَاء رَقِيْقٌ لَا يَقِيْ شَيْئاً في البَرْدِ في دِمَشْقَ .

فقالَ لَهُ رَحِمَكَ اللهُ أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ أَتَذْكُرُ يَا عُمَرُ حَدِيْثاً حَدَّثَنَاهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ قالَ أيُّ حَدِيْثٍ قَالَ أَلَمْ يَقُلْ لِيَكُنْ بَلاغُ أَحَدِكُمْ مِنْ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ .

قالَ بَلَى قَالَ فَمَاذَا فَعلنَا بَعْدَه يا عُمرُ فَبكَى عُمَرُ وَبَكَى أَبُو الدَّرْدَاءِ وَمَا زَالا يَتَجَاوَبَانِ بالبُكَاءِ حَتَّى طَلَعَ عليهما الصُّبْحُ .

ظَلَّ أبُو الدَّرْدَاءِ في دِمَشْقَ يَعِظُ أَهْلَهَا وَيُذَكِرُهم وَيُعَلِمُهم الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ حَتَّى أَتَاهُ اليَقِيْنُ .

وَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَ المَوْتِ دَخَلَ عليهِ أَصْحَابُه فَقَالُوا مَا تَشْتَكِيْ قَالَ ذُنُوبِيْ قَالُوا وَمَا تَشْتَهِيْ قَالَ عَفْوَ رَبِّيْ ثم قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ لَقِّنُونِيْ لا إِلَهَ إِلَّا الله مُحَمَّد رَسُولُ اللهِ فَمَا زَالَ يُرَدِّدُهَا حَتَّى فَارَقَ الحَيَاةَ .

وَلَمَّا لَحِقَ أَبُو الدرداءِ بجوَارِ رَبِّهِ رَأَى عَوْفُ بنُ مَالِكٍ الأَشْجَعِيّ فِيْمَا يَرَى النّائِمُ مَرْجاً أَخْضَر . فَسِيْحَ الأَرْجَاءِ وَارِفَ الأَفْيَاءِ فيه قُبّةٌ عَظِيْمَةٌ مِنْ أَدَمٍ ـ أَيْ جِلْدٍ ـ حَوْلَهَا غَنَمٌ رَابِضَةٌ لم تَر العَيْنُ مِثْلَهَا قَطُّ .

فَقَالَ لمن هَذِه فَقِيْلَ لِعَبْدِ الرَّحْمَن بْنِ عَوْفٍ فَطَلَعَ عليه عَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ عَوْفٍ مِنْ القُبَّةِ وَقَالَ له يا ابْنَ مالِك هَذا ما أَعْطَانا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالقُرْآن وَلَو أَشْرَفْتَ على هَذِهِ الثَّنِيَّةِ رَأَيْت مَا لَمْ تَرَ عَيْنُك وَسَمِعْتَ مَا لَمْ تَسْمَعْ أُذُنكَ ولم يَخْطُرْ على قَلْبكَ فقالَ ابنُ مالكٍ وَلِمَنْ ذَلِكَ كُلهُ يا أبا مُحَمَّدِ فقالَ أَعَدَّهُ اللهُ عزَّ وَجلَّ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ لِأَنَّهُ كانَ يَدْفَعُ عنه الدنيا بالرَّاحَتَيْنِ وَالصَّدْرِ ، انْتَهى من صُوَرٍ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ بِتَصَرُّفٍ يَسِيْرٍ .

وقال بَعضُهم ناظِماً لِمَا ذَكَرَهُ ابنُ القيمِ مِنْ مَفَاتِيْحِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ :

حَمِدْتُ الذِيْ يُوْلِي الجَمِيْلَ وَيُنْعِمُ
لَهُ الفضْلُ يُؤْتي مَنْ يَشَاءُ وَيُكْرِمُ

وَأَزْكَى صَلاةِ اللهِ ثمَّ سَلامُهُ
عَلى خيرِ مَخْلُوقٍ عليه يُسَلَّم
مُحَمَّدٍ الهَادِيْ وَأَصْحَابِهِ الأُلَى
بِحُسْنِ اجْتِهادٍ عَلَّمُوا وَتَعَلَّمُوا
وبَعْدُ فقَدْ عَنَّ الوَفَاءُ لِسَائِل
بِوَعْدِيَ إِيَّاهُ بِأَنِّي أَنْظِمُ
مَفَاتِيْحَ كَانَتْ لِلشُّرُوْرِ وَضِدِّهَا
فقد فازَ مَنْ بالخَيرِ والشَرِّ يَعْلَمُ
وَأَضْحَى بِمَا يَدْرِيْ مِنَ الحَقِّ عَامِلا
فَكُنْ عَامِلاً بالعِلم إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ
وَقَدْ جَعَلَ المَوْلَى لَهُنَّ مَفَاتِحاً
تُنَالُ بِهَا وَاللهُ بالحَقِّ أَعْلَمُ
فمِفْتَاحُ شَرْعِيِّ الصَّلاةِ طَهُوْرُنَا
وَيَفْتَحُ حَجّاً مُحْرِمٌ حِيْنَ يُحْرِمُ
وَبالصِّدْقِ فَتْحُ البِرِّ وَالعِلْمُ فَتْحُهُ
بِحُسْنِ سُؤَالٍ عن فَتىً يَتَعَلَّمُ
وَمُسْتَحْسَنُ الاصْغَاءِ وَالنَّصْرُ فَتْحُه
مَعَ الظَّفِرَ المَحْمُودِ بالصَّبْرِ فَاعْلَمُوا
وَتَوْحِيْدُنَا للهِ مِفْتَاحُ جَنَّةِ النَّ
ـعيمِ فَبالتَّوْحِيْدِ دِيْنُوا تُنَعَّمُوا

وَبِـالشُّـكْـرِ لِلنَّـعْـمَـاءِ فَتْـحُ زِيَـادَةً
وَيَـحْـصُـلُ حُـبٌّ وَالـوِلَايَـةُ تُـغْـنَـمُ

بِمِفْتَـاحِـهِ الـذِّكْـرِ الشَّـرِيْفِ وَذُو التَّقَى
يَـنَـالُ بِـتَـقْـوَاهُ الـفَـلَاحَ وَيُـكْـرَمُ

وَمِفْتَـاحُ تَـوْفِيْقِ الـفتَـى صِـدْقُ رَغْبَـةٍ
وَرَهْـبَـتِـهِ ثُـمَّ الـدُّعَـاءُ الـمُـكَـرَّمُ

لَـدَى اللّهِ مِفْتَـاحُ الإِجَـابَـةِ وَاعْلَمَنْ
بِـأَنَّ جَـمِيْـلَ الـزُّهْـدِ لِلْعَبْـدِ مَغْنَمُ

وَيُـفْـتَـحُ لِلْعَـبْـدِ التّجَـلِيّ بِـرَغْبَـةٍ
بِـدَارِ الـبَقَـاءِ فَـازْهَـدْ لَـعَلَّك تَـغْنَـمُ

وَمِـفْتَـاحُ إِيْـمَـانِ الـعِـبَـادِ تَـفَـكّـرٌ
بِـمَـا كَـانَ رَبُّ الـعَـالَـمِيْـنَ دَعَـاهُـم

إِلَـى نَـظَـرٍ فِـيْـهِ وَأَنْ يَـتَـفَـكّـرُوا
بِـهِ وَدُخُـولُ الـعَـبْـدِ ذَاكَ الـمُـفَـخَّـمُ

عَـلَى رَبِّـهِ مِـفْـتَـاحُ ذَاكَ سَـلَامَـةٌ
وَاسْـلَامُ قَـلْـبٍ لِـلإِلَـهِ فَـأَسْـلِمُـوا

وَمَـعْ ذَاكَ إِخْـلَاصٌ بِـحُـبّ وَبُـغْـضِـهِ
وَفِـعْـلٍ وَتَـرْكٌ كُـلُّ ذَلِـكَ يَـلْزَمُ

وَيُـحْـيِ قُـلُوبَ الـعَـارِفِـينَ تَـضَـرُّعٌ
بِـأَوْقَـاتِ أَسْحَـارٍ فَكُـنْ أَنْتَ مِنْـهُـم

كَــذَا الــوَحْيُ إِذْ يُتْلَى بِحُسْنِ تَــدَبُّــر
وَتَــرْكُ الــذنُــوبِ فَـهِيَ لِلْقَلْبِ تُـؤْلِـمُ

واحْـسَــانُ عَـبْـدٍ فِـي عِـبَـادَةِ رَبِّـهِ
وَنَـفْـعُ الـعِـبَـادِ وَالـقِـيَـامُ عَـلَيْـهِـمُ

لإِصْـلاحِهِمْ مِفْتَـاحُ تَحْصِيْلِ رَحْمَةِ الْـ
إِلَـهِ فَـلاَزِمْ ذا لَـعَـلَّكَ تُـرْحَـمُ

وَمِفْتَــاحُ رِزْقِ العَبْــدِ سَعْيٌ مَـعَ التُّقَـى
وَكَـثْــرَةُ الاسْتِغْـفَـارِ إِذْ هُــوَ مُـجْـرِمُ

وَمِـفْـتَـاحُ عِـزِّ الـعَـبْـدِ طَـاعَــةُ رَبِّـهِ
وَطَـاعَــةُ خَيْـرِ الـمُـرْسَلِيْنَ فَـعَـظِّمُـوا

وَمِـفْـتَــاحُ الاسْـتِـعْـدَادُ مِـنْـكَ لِمَـا لَـهُ
تَـصِيـرُ مِنْ الـدَّارِ الـتِيْ هِـيَ أَعْـظَمُ

هُــوَ الـقَـصْــرُ لِــلآمَــالِ وَالـخَـيْــرُ كُـلُّه
فَـمِفْـتَـاحُـهُ رَغْبٌ مِنْ الـعَـبْـدِ يُـعْـلَمُ

بِــمَــوْلاَهُ وَالــدَّارِ الـتِــي بَـعْـدَ هَـذِه
وَمِـفْـتَـاحُ كُـلِّ الـشَّــرِّ إِنْ كُنْتَ تَفْـهَـمُ

إِطَــالَتُــكَ الآمَــالَ فَــاحْــذرْ غُـــرُوْرَهَــا
وَحُـبُّــكَ لِـلدُّنْـيَــا الـتِـيْ تَـتَـصَـرَّمُ

وَمِـفْـتَــاحُ نَـارِ الـخُـلْدِ شِـرْكٌ بِـرَبِّـنَـا
وَكِبْـرُ الفَتَى فَـالكِبْـرُ حُـوْبٌ مُـعَـظَّمُ

وَاعْـرَاضُـهُ عَـمَّـا عَـنْ الـلهِ قَـدْ أَتَـى
بِـهِ المُصْـطَفَى الهَـادِي النَّبِيُّ المُكَـرَّمُ

وَغَـفْـلَتُـه عَـن ذِكْـرِهِ وَقِـيَـامِـهِ
بِـحَقِّ لِـذِي الـعَـرْشِ المَلِيْـكِ يُحَـتِّمُ

وَمِـفْتَـاحُ إِثْـمٍ يُـوْبِقُ الـعَبْـدَ مُـسْكِـرٌ
مِنْ الْخَـمْـرِ فـاحْـذَرْهَـا لَعَـلَّكَ تَسْـلَمُ

وَمِفْتَـاحُ ذِي المَقْتِ الـزِّنَـاسَيِّءُ الغِنَـا
وذَلِـكَ قُـرْآنُ الـلَّعِـيْـنِ وَمَـأْثَـمُ

وَاطْـلاَقُ طَـرْفِ الشَّخْص مِفْتَـاحُ عِشْقِهِ
لِـمُسْتَحْسَنِ الأشْبَـاحِ فَـهُـوَ مُـحَـرَّمُ

وَبـالكَسَـلِ المَـذْمُـوم مَـعْ رَاحَـةِ الفَتَى
يَخِيْـبُ وَكُـلُّ الخَـيْـرِ لاَ شَـكَّ يُحْـرَمُ

وَمِـفْـتَـاحُ كُـفْـرَانِ الـفَـتَـى وَبَرِيْدُهُ
مَعَـاصِيْـهِ وَالعَـاصِي قَـرِيْـبـاً سَيَـنْـدَمُ

وَبَـابُ نِـفَـاقِ الـعَـبْـدِ يَفْـتَـحُـهُ إِذَا
يَـكُـونُ كَـذُوبـاً وَالـكَـذُوبُ مُـذَمَّـمُ

وَشُـحُّ الفَتَـى وَالحِـرْصُ مِـفْتَـاحُ بُـخْلِهِ
وَمِفْتَـاحُ أَخْـذِ المَـالِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُ

بِـأَنْ لَيْسَ حِـلاًّ مَـعْ قَـطِيْعَـةِ رَحْـمِـهِ
وَكُـلُّ ابْـتِـدَاعٍ فـي الـخَلِيْـقَـةِ يُعْلَمُ

فَمِفْتَـاحُـهُ الاعْـرَاضُ عَمَّـا أتَـى بِـهِ
نَـبِـيُّ الـهُـدَى مِـنْ سُـنَّـةٍ نَـتَـعَـلَّـمُ
وَأَخْـتِمُ قَـوْلِـيْ فـي الـقَـرِيْضِ بِـأَنَّـنِـيْ
أصَـلِّيْ عَـلى خَـيْـرِ الـوَرَى وَأُسَـلِّـمُ
وَآلٍ مَـعَ الصَّحْبِ الكِـرَامِ الَّـذِيْنَ هُمْ
لِـمُـقْـتَـبِسٍ عِـلْـمَ الـشَّـرِيْـعَـةِ أَنْـجُـمُ

وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَسَلَّمَ .

صُوَر مِن حَيَاةِ الرَّسُول صلى الله عليه وسلم

قَالَ في صُورٍ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ صلى اللهُ عليه وسلم عِنْدَمَا ذَكَر فَتْحَ مكة كانت مَكَةُ أمُّ القُرَى مَعْقِلَ الوَثَنِيَّةِ في جَزِيْرَةِ العَرَب كلِّها وَكَانَتْ مَجْمَعَ الأَصْنَام وَقِبْلَةَ الأَنْصَارِ وَمَطْمَعَ آمالِ القَبَائِل قَرِيْبَهَا وَبعِيْدِهَا وَكَانَتْ قُرَيْشٌ حَارِسَةَ الكَعْبَةِ وَسَادِنَةَ البَيْتِ وَإِلَيْهَا الرِّيَاسَةُ وَالقِيَادَةُ .

وَكَانَتْ مَنْزِلَةُ القبَائِل مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ هَذِه النَّاحِيَةِ مَنْزِلَةُ الْمَسُودِ مِنَ السَّيِّدِ وَالتَّابِعِ مِنَ الْمتبُوعِ وَمِنْ هُنا كانَتْ القَبَائِلُ مِنْ العَرَبِ تَنْظُرُ إلى المَعْرَكَةِ الدَّائِرَةِ بيْنَ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلمَ وقريشٍ نَظْرَةَ الجِدِّ والاهْتِمَامِ وَتُتَابِعُ حَرَكاتِها وَخُطُوَاتِها مُتَابَعةً دَقِيقةً .

وَكانَت كُلُّ حَرَكَةٍ مِنْ هَذِهِ الحَرَكاتِ وَخُطْوَةٍ مِنْ هَذِهِ الخُطَى تَتْرُكُ في اتِّجَاهَاتِ القَبَائِل أَثَراً بَارِزاً مِنْ حَيْثُ إِقْبَالِهَا عَلى الإِسْلام أَوْ إعْرَاضِهَا عنه وَمِنْ حَيْثُ اجْتِمَاعِهَا لَهُ أو اجْتِمَاعِهَا عليه .

ومَعَ أَنَّ الحَوادِث وَالمَعَارِكَ الَّتِي وَقَعَتْ في الجَزِيْرَةِ بَيْنَ

المُسْلِمِيْنَ وَقُرَيْش وَبَيْنَ المسلمين واليَهُوْدَ وَبَيْنَ المسلمينَ والرُّوم وَبَيْنَ المسلمينَ وَقَبائِلَ العَرَبِ في نَوَاحِيْ الجَزِيْرَةِ كَانَتْ ذَاتَ أَثَرٍ في ظُهُورِ الإِسْلامِ وَانْتِشَارِه في كَثِيرٍ مِنْ القَبَائِلِ.

فَإِنَّ بَقَاءَ مَكّةَ على شِرْكِهَا وهِيَ أمُّ القُرَى وَمَعْقلُ الوَثَنِيَّةِ ظَلَّ سَدّاً حَائِلاً دُوْنَ خلُوصِ الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ لِلإِسْلامِ وَحْدَهُ وَظَلَّتْ هِيَ العقَبَةُ الْكَؤُودُ في طَرِيْقِهِ.

وَكانَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ وَبَيْنَ قُريشٍ في أَوَاخِرِ السَّنةِ السَّادِسَةِ أَوَّل مَفَاتِيْحِ هَذَا المَعْقِلِ العَتِيْدِ فقد اعْتَرَفَتْ قرَيْشٌ في ذَلك الصُّلْح بأنّ مُحمَّداً صلى اللهُ عليه وسلم صَاحِبُ مَذْهَبٍ جَدِيْدٍ وَأَنَّهُ لا بَأْسَ مِنْ أَنْ تُقِيْمَ بَيْنَهُ وبيْنَها عَهْدَاً يَسْتَقِرُّ بِهِ السِّلْمُ فِيْمَا بَيْنها وبينهُ بَعْدَ ما عَجَزَتْ كُلَّ العَجْزِ وَفَشَلَتْ عَنْ القَضَاءِ عليه وَعلى مَذْهَبِهِ لَقَدْ ظَلَّتْ قُرَيْشٌ دَهْرَاً طَوِيْلاً لا تَعْتَرِفُ بِمُحَمَّدٍ ولا بِمَا ذَهَبَ إِليهِ مِنْ هَذَا الدِّيْنِ القَوِيْمِ الذِي خَالفَ به دِيْنَها وَعَقَائِدَهَا وَخرَجَ به على تَقَالِيْدِهَا وَتَقَالِيْدِ آبَائِهَا وَقَلَبَ بِهِ أَوْضَاعِهَا رَأْساً على عَقِبٍ وَظَلَّتْ قُرَيْشٌ في كِبْرِيَائِهَا وَتَعَاظُمِهَا تَفْتَرِيْ عَلَيْهِ الأكاذِيْبَ وَتَصِفُهُ بِمَا تَشَاءُ مِنْ الأوْصَافِ التِيْ تُشَوِّهُ سُمْعَتَهُ وَدَعْوَتَهُ بَيْنَ العَربِ فَلَمَّا عَجَزَتْ وَانْقَطَعَتْ بِكُلِّ وَسَائِلهَا أَنْ تَقْضِيْ عَلَيْهِ وَعَلى دَعْوَتِهِ اضْطَرَّتْ أَنْ تُنْزِلَهُ مِنْهُم مَنْزِلَةَ النِّدِّ مِنْ النِّدِّ وَأَن تُصَالِحُه وَلَو إلى حِيْنٍ لِتَتَّقِيْ خَطرَهُ وَتَأْمَن جَانِبَهُ فَكَانَ هَذَا الصُّلْحُ أَوّلَ مِفْتاحٍ فَكَّ اللهُ بِهِ أَغْلاقَ مَكة.

ثُمَّ كانَتْ عُمْرَةُ القَضَاءِ بَعدَ ذَلِكَ بِعَامٍ هِيَ المِفْتَاحُ الثَّانِي مِنْ

مَفاتِيْحِ ذَلِكَ الحِصْنِ فقد كانَ مَظْهَرُ المسلِمين في هَذِه العُمْرَةِ وَهُم في تَوادِّهِم وَتَراحُمِهم وفي ائْتِلافِهِم وَتَضَامُنِهم وفي حُسْنِ انْقِيَادِهِم وَدِقَّةِ نِظَامِهِم وفي صِدْقِ مَحَبَّتِهم وَإِخْلاصِهم لِرَسُوْلِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ وفي عَظِيْمِ حَمَاسَتِهم لِدِيْنِهم وَشِدَّةِ تَمَسُّكِهم بآدَابِهِ وفي بَالِغِ تَقْدِيْسِهم لِلبَيْتِ وَتَعْظِيْمِ حُرُمَاتِهِ وفي كُلِّ مَا كانوا يُؤدُّوْنَهُ مِنْ شَعَائِر هَذِه العُمْرَةِ وهم في هذه الحمَاسَةِ وهذه الألفَةِ وهذا النِظامِ وهذا التّرَفُّع عن كلِّ ما يَشِيْنُ أَخْلاقَ الرِّجَالِ كَانَ مَظْهَرُ المُسْلِمِيْنَ في كُلِّ هَذَا مَظْهَراً هَزَّ نُفُوسَ أَهْلِ مَكَةِ هَزّاً عَنِيْفاً وَلَمَسَ مَكَانَ العَقِيْدَةِ مِنْ قُلُوبهم فَزَلْزَلهَا زلزالاً شَدِيْدَا فأخذُوا يَنْظُرُوْنَ إلى المُسْلِمِينَ نَظرَةَ الإِعْجَاب والإِكبَارِ والإِعْظَامِ وَيَنْظُرُوْنَ إلَى الاسْلام نَظرَةَ التَّفْكِيْرِ وَالتَّأمُّلِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّم وَجعَلُوا يُقَارِنُونَ بينَ هَذَا الدِّيْنِ القَوِيْمِ وَما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ دِيْن وَعقِيْدَةٍ وَمِنْ تَقَالِيْدَ لا يَقبَلُهَا عَقْلٌ سَلِيْمٌ ولا يُقِرُّهَا مَنْطِقٌ وَيُوازِنُونَ بينَ هَذه الشَّعَائِر التِي يُؤَدِّيْهَا المُسْلِمُونَ في خُشُوْعٍ وانسِجَام وَخُضُوعٍ واطْمِئْنانٍ وبينَ مَا يَفْعَلُونَ هُمْ في عِبَادَتِهم مِن لَغْوٍ وَلَهْو وَلَعِبٍ وَبَاطِل وَما يَقُومُونَ بهِ عندَ بَيْتِ اللهِ مِنْ مُكاءٍ وتَصْدِيَةٍ - أي صَفِيْرٍ وَتَصْفِيْقٍ -.

نَعْم أَخذُوا يَنْظُرُوْنَ وَيتَفكَّرُونَ فَوَجَدُوا فَرْقَاً شَاسِعاً ، وَبَوْناً بَعِيداً بينَ ما هُم عليه مِنْ الضَّلالِ وَما عليهِ مُحَمّدٌ وأتْبَاعُهُ مِنْ النّورِ فلانَتْ قُلُوبُهُم للإسْلامِ .

وصَغَتْ إليه أفْئِدَتُهم فَأَسْلَمَ مِنْهُم مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْهَرَ باسْلامِه . وأسَرَّ الإسْلامَ مَنْ لَم يَقْدرْ عَلَى إظْهَارِه ، وَتَهَيّأَ كَثِيرٌ مِنْهُم لأَنْ يُسْلِمُوا لَوْلَا بَعْضُ المَوَانِع التِي قَدَّرَهَا اللهُ ، فكانَتْ هَذه الزَّلْزَلَةُ التِي أُصِيْبَتْ

بهَا عَقِيْدَةُ أهْلِ مَكَّةَ في عُمْرَةِ القَضَاءِ مِفْتَاحاً آخَرَ فَكَّ اللهُ بهِ أَغْلاقَ مَكّةَ ، ثم أَرادَ اللهُ بَعْدَ ذَلكَ أَنْ يَفُكَّ كُلَّ ما بَقِيَ مِنْ أَغْلاَقِ هَذا الحِصْن ، فكانَ ما كانَ في السَنَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ الهِجْرَةِ مِن نَقْضِ قُرَيْشٍ لِعَهْدِ الحُدَيْبيَةِ ، ذلك أنّهُ كَانَ بينَ قَبيْلَتَيْ بَكْرٍ وَخُزَاعَةَ دماً وَتِرَاتاً في الجَاهِلِيّةِ فلمَّا كانَ صُلْحُ الحُدَيْبيَة وَدَخَلَتْ خُزَاعَةُ في عهْدِ رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ وَدَخلتْ بكرٌ في عَهْدِ قُريش هَدَأَتْ الحَرْبُ بينَ القَبِيْلَتَيْنِ ، وَأَمِنَ كلُّ فَرِيْقٍ جَانِبَ عَدُوِّهِ ، انْتهى واللهُ أعْلمُ وصلى اللهُ على مُحمدٍ وآلِهِ وَسَلم .

قالَ ابنُ القَيِّمِ : فلمَّا اسْتَمرَّتْ الهُدْنَةُ اغْتَنَمَهَا بنُو بَكْرٍ مِنْ خُـزَاعَة وأرَادُوا أنْ يُصِيْبُوا مِنْهُم الثَّأرَ القدِيْمَ فَخَرَجَ نَوْفَلُ ابنُ مُعَاوِيَةَ الدِّيْلِيْ في جمَاعَةٍ مِن بَنِي بَكْر فَبَيَّتَ خُزَاعَةَ وهُم على الوَتِيْرِ فأصَابُوا مِنهم رِجالاً وتَنَاوَشُوا وَاقْتَتَلُوا وَأَعَانَتْ قُرَيْشٌ بنُو بَكْرٍ بِالسِّلاحِ وَقَاتَلَ مَعَهُم مِنْ قريْشٍ مَنْ قَاتَلَ مُسْتَخْفِياً .

فَلَجَأَتْ خُزَاعَةُ إلى الحَرمِ لِتَحْتَمِيْ بِهِ وَلَكِنَّ ذلكَ لَمْ يَمْنَعْ رِجَالَ بَكْرٍ مِنْ مُتَابَعَتِهَا حَتّى قَتَلُوا منهُم عِشْرينَ رَجُلاً فَلَمَّا دَخَلَتْ خُزَاعَةُ مكة لَجؤُوا إلى دَارِ بُدَيل بنِ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيّ وَ مَوْلَى لَهُم يُقَالُ لَهُ رَافِعُ وَخَرَج عَمْرُو بنُ سَالِمٍ الخُزَاعِي حَتّى قَدِمَ علَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينةِ فَوَقَفَ عليه وَهُوَ جَالِسٌ في المسْجدِ بينَ ظَهْرَانَيْ أصْحَابِهِ .

فَقَال : يَارَ بِّ إنِّيْ نَاشِـدٌ مُحَمَّدَا
حِـلْفَ أبِـيْـنـا وَأَبِـيْـهِ الأتْـلَدَا

قَـدْ كُـنْـتُـمُـوا وِلْـدَاً وَكُـنّـا وَالِـدَا
ثُـمَّ أَسْـلَـمْـنَـا فَـلَـمْ نَـنْـزَعْ يَـدَ
فَـانْـصُـرْ هَـدَاكَ اللهُ نَصْـراً أَيِّـدَا
وادْعُ عِـبَـادَ اللهِ يَـأْتُـوا مَـدَدَا
فِـيْـهِـم رَسُـولُ اللهِ قـد تَـجَـرَّدَا
أَبْيَضُ مِثْـلُ البَـدْرِ يَسْـمُـو صُعُـدَا
إنْ سِيْمَ خَسْفـاً وَجْهُـه تَـرَبَّـدا
في فَيْلَقٍ كـالبَحْـرِ يَجْـرِيْ مُزْبِـدَا
إنَّ قُـرَيْـشـاً أَخْـلَـفُـوْكَ الـمَـوْعِـدَا
وَنَـقَـضُـوا مِـيْـثَـاقَـكَ الـمُـؤَكَّـدَا
وَجَـعَـلُوا لِـي فِـي كَـدَاءَ رَصَـدَا
وَزَعَـمُـوا أنْ لَسْـتُ أدْعُـو أحَـدا
وهُـم أذلُّ وأقَـلُّ عَـدَدَا
هم بيَّـتُونَا بـالـوَتِـيْـرِ هُـجَّـدَا
وَقَتَّلُونَا رُكّعاً سُجَّدَا

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله علي وسَلم « نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنَ سَالم » ثم عَرَضَتْ سَحَابةٌ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ فقالَ « إنّ هَذِهِ السَّحابةَ لَتَسْتَهِلّ بنصْرِ بَنِيْ كَعْبٍ ثم خَرَج بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَـاءَ في نَفرٍ مِنْ خُـزَاعَ حتّى قدِمُوا على رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ فأخْبَرُوهُ بمَا أُصِيْبَ فِيهم وبِمظاهِرِ قرَيْشٍ لِبَنِيْ بَكْر ثم رَجعُوا إلى مَكةَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ « كأنكُمْ بأَبِي سُفْيَانَ قَد جَاءكُم

لِيَشُدَّ في العَقْدِ وَيزِيْدَ في المُدَّةِ » وَوَقَعَ طِبْقَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وهذه مُعْجِزَةٌ وَقَدْ أَحَسَّتْ قُرَيْش بمَا وَرَاءَ غَدْرِهَا ذَاكَ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ فَأَوْفَدَتْ إلى المَدِينةِ زَعِيْمَها أبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ لَعَلَّهُ يَتلافَى هَذِه الغَلْطَةَ وَنَتَائِجَها وَكَانَ أبُو سُفْيَانَ يُحِسُّ خَطَرَ هَذَا الأَمْرِ الذي هُوَ مُقْدمٌ عليه فلَمْ يَشَأْ الذَهَابَ إلى رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسَلم تَوّاً ، بل لا بُدَّ مِنْ تَمْهِيْدِ الطَّرِيْقِ لِلِقَائِهِ .

فَدَخَلَ على ابْنَتِه أُمِّ حَبِيْبَةَ زَوْجَ النبي صلى اللهُ عليه وسلم يَسْتَشْفِعُ بهَا إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ ، فلمَّا أن أَرَادَ أنْ يَجْلِسَ عَلى فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَمَ طَوَتْهُ عنهُ أمُّ حَبِيْبَةَ .

فَعجِبَ أبُو سُفْيَانَ لِمَا رَأى مِنْ فِعْلِ ابْنَتِهِ وَقَالَ لَها بُنَيَّةُ مَا أَدْرِي أَرَغِبْتِ بي عَنْ هَذَا الفِرَاشِ أَم رَغِبْتِ بِهِ عَنّي فَجَابَهَتْهُ ابْنَتُه في صَرَاحَةٍ تقُولُ بَلْ فِرَاشُ رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسَلمَ وَأَنْتَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ نَجِسٌ فلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلى فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ فكانَتْ هَذِهِ صَدْمَة شَدِيْدَة الوَقْعِ عَلى نَفْسِ أَبِيْ سُفْيَانَ لمْ يَكُنْ يَتوَقَّعُهَا مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إلَيْهِ .

فَلَمْ يَمْلِكْ أَنْ قالَ لابْنَتِه مُعَبِّراً عَمَّا نالهُ مِنْ الاهَانَةِ وَاللّهِ لَقَدْ أَصَابَكِ بَعْدِي يَا بُنَيَّة شَرٌّ ثم خرَجَ خَجِلاً مُضَعْضَعَ النَّفْسِ مَكْلُومَ الفُؤَادِ ثم خَرَجَ حَتَّى دَخلَ على رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فكلمَهُ فلَمْ يَرُدَّ عليه شَيْئَاً فكانَتْ هَذِهِ الصَّدْمَةُ أَنْكَى مِنَ الأُوْلَى .

فخرَجَ مِنْ المَسْجِدِ أَشَدَّ مَا يَكُونُ خَجَلاً وَتَضَعُّفَا وَانْكِسَاراً وَذَهَبَ يَسْتَشْفِعُ بِأَصْحابِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلمَ فذهَبَ إلى أَبي بَكْرٍ فَكَلَّمَهُ أَنْ يُكلمَ رَسُول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالَ ما أنا بِفاعِلٍ وَذَهَبَ إلى عُمرَ فأغْلظ لَهُ القَوْلَ وَرَدَّ عليهِ في جَفاءٍ وغِلْظَةٍ .

فقَالَ أنا أَشْفَعُ لَكُم إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ فَواللهِ لَوْ لَمْ أَجدْ إِلَّا الذرَّ لجَاهَدْتكم بهِ وهذه صَدْمَةٌ عَظِيْمَةٌ حَطَّمَتْهُ زيَادَةً ، ثمّ ذَهَبَ إلى عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ وعندَهُ فَاطِمَةُ وَحَسَنٌ غُلامٌ يَدِبُّ بَيْنَ يَدَيْهما فقالَ يا عليُّ إنكَ أمَسَّ القَوْمِ بِي رَحِمَا وإِنّيْ قدْ جِئْتُ في حَاجةٍ فلا أَرْجِعَنَّ كَمَا جِئْتُ خَائِبَا اشْفَعْ لِي إلَى مُحمدٍ فقالَ وَيْحَكَ يـا أبا سُفْيَانَ واللهِ لَقَدْ عَزَمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وَسَلم على أَمْرٍ ما نَسْتَطِيْعُ أَنْ نُكَلِمَهُ فيْهِ .

فالتَفَتْ إلى فَاطِمَةَ فقالَ هَلْ لَكِ أَنْ تَأْمُرِيْ ابْنَكِ هَذَا فَيُجِيْرُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَكُونُ سَيِّدَ العَرَبِ إِلى آخِرِ الدّهْرِ ؟ .

قَالَتْ « وَاللهِ مَا يَبْلُغ ابْنِيْ ذَاكَ أَنْ يُجير بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَا يُجِيْرُ أَحَدٌ على رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسَلم » قالَ : يَا أبا الحَسَنِ ، إِنّي أَرَى الأمُورَ قد اشْتَدَّتْ عَلَيَّ ، فانْصَحْنِيْ ، قالَ « واللهِ مَا أَعْلَمُ لَكَ شَيْئاً يُغْنِي عَنْكَ ، وَلَكنّكَ سَيِّدُ بنِيْ كِنَانَةَ ، فَقُمْ فأَجْرِ بينَ النَّاسِ ، ثم الحَقْ بأَرْضِكَ » .

قَالَ : أو تَرَى ذلكَ مُغْنِياً عنِّي شَيْئاً ؟ قَالَ « لا ، وَاللّهِ مَا أَظُنّه ، وَلكنّي ما أجدُ لكَ غيرَ ذلك » فقَامَ أبو سُفْيَانَ في المسْجدِ ، فقالَ ، أيُّها النَّاسُ ، إِني

قَدْ أَجِرْتُ بينَ النَّاسِ ، ثم رَكِبَ بَعِيْرَهُ ، فانطَلَقَ . فلمّا قَدِمَ على قُرَيْشٍ قالوا : ما وَرَاءَكَ ؟

قالَ : جِئْتُ مُحمّداً فكلَّمْتُه ، فوَاللهِ ما رَدَّ عليّ شَيْئاً ، ثم جِئْتُ ابْنَ أبي قُحَافة فلم أَجِدْ فِيْهِ خَيْرَا، ثم جِئْت عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ فوَجَدتُه أَوْفى العَدُو ، ثم جِئْتُ علياً فوَجَدْتُه أَلْيَنَ القَوْم . قد أَشَارَ عليّ بشَيْءٍ صَنَعْتُه ، فَوَاللهِ مَا أدْرِيْ : هَلْ يُغْنِي عَنِّي شَيْئاً ، أَمْ لا ؟ .

قالُوا : وَبِمَ أمَرَكَ ؟ قالَ : أَمَرنِيْ أَنْ أُجِيرَ بَيْنَ النَّاس ، فَفَعَلْتُ ، فَقَالُوا : فَهَلْ أَجَازَ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ ؟ قالَ : لا ، قَالُوا : وَيْلكَ ، واللهِ ان زَادَ الرَّجُلُ على أَنْ لَعِبَ بِكَ ، قالَ : لا وَاللهِ مَا وَجَدْتُ غيرَ ذَلِكَ .

وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلمَ النّاسَ بالجهَاز ، وَأَمَرَ أَهْلَهُ أن يُجَهِّزُوهُ ، فَدَخلَ أَبُو بَكْرٍ على ابْنَتِهِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، وَهِيَ تُحرِّكُ بَعْضَ جِهَازِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ ، فقَالَ : أَيْ بُنَيَّةُ ، أمرَكُنَّ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِتَجْهِيْزِهِ ؟ .

قَالَتْ : نَعَمْ ، فتجهَّزْ ، قَالَ : فَأَيْنَ تَرِيْنَهُ يُرِيْدُ ؟ قَالَتْ : لَا وَاللهِ ، مَا أَدْرِيْ . ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ سَائِرٌ إلى مَكةَ ، فأَمَرهُم بالجِدِّ والتَّجهُّزِ ، وَقَالَ « اللهُمَّ خُذْ العُيُونَ والأخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ ، حَتَّى نَبْغَتَها في بِلَادِهَا » فَتَجَهَّزَ النَّاسُ ، فكتَبَ حَاطِبُ بنُ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى قُرَيْشٍ كِتَاباً يُخْبِرُهُم فِيْهِ بِمَسِيرِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلمَ إليهم ، ثم أَعْطَاهُ امْرَأةً ، وجعلَ لهَا جُعْلاً على أنْ تُبَلِّغَهُ قرَيْشاً ، فَجَعلَتْهُ في قُرُوْنِ رَأْسِهَا ، ثم خَرَجَتْ بِهِ . وَأَتَى

رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم الخَبَرُ مِنْ السَّمَاءِ بِمَا صَنَعَ حَاطِبٌ ، فَبَعَثَ عَلِيّاً وَالزُّبَيْر .

وَغَيْرُ ابْنِ اسْحَاقَ يَقُولُ : بَعَثَ عَلِيّاً وَالمِقْدَادَ ـ فَقَالَ : « انْطَلِقا حَتَّى تَأْتِيَا رَوْضَةَ خاخْ ، فإنَّ بِهَا ظَعِيْنَةً مَعَهَا كِتَابٌ إلى قُرَيْشٍ ، فإنْطَلَقَا تَعَادَى بِهِمَا خَيْلُهمَا ، حَتَّى وَجَدَا المَرْأَةَ بِذَلِكَ المَكَانِ ، فاسْتَنْزَلاهَا ، وَقَالا : مَعَكِ كِتَابٌ ؟ فقالَتْ : مَا مَعِيَ كِتَابٌ ، فَفَتَّشَا رَحْلَهَا فلمْ يَجِدَا شَيْئاً ، فقالَ لَهَا عَليٌّ : أَحْلِفُ باللهِ ، مَا كَذَبَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ ولا كَذَبْنَا ، وَاللهِ لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنكِ ، فَلَمَّا رَأَتْ الجِدّ مِنْهُ .

قَالَتْ : أَعْرِضْ . فَأَعْرَضَ . فَحَلَّتْ قُرُونَ رَأْسِهَا ، فاسْتَخْرَجَتْ الكِتَابَ مِنْهَا ، فَدَفَعَتْهُ إلَيْهِمَا ، فَأَتَيَا بِهِ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلمَ ، فأذا فيهِ « مِنْ حَاطِب بْنِ أَبِيْ بَلتعَة إلَى قُرَيْشٍ ، يُخْبِرُهم بِمَسِيْرِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وَسَلَمَ إليهم » .

فدعَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم حَاطِباً ، فَقَالَ ما هَذَا يا حَاطِبُ ؟ فَقَالَ : لَا تَعْجَلْ عَليَّ يَا رَسُوْلَ اللهِ ، وَاللّهِ إنّيْ لَمُؤْمِنٌ باللهِ وَرَسُولِهِ ، ومَا ارْتَدَدْتُ ولا بَدَّلْتُ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقاً في قُرَيْشٍ لَسْتُ مِنْ أَنْفُسِهِم ، وَلِيْ فِيْهِم أَهْلٌ وَعَشِيْرَةٌ وَوَلَدٌ ، ولَيْسَ لِيْ فِيْهِم قَرَابَةٌ يَحْمُونَهُم ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ لَهُم قَرَابَاتٌ يَحْمُونَهم ، فأَحْبَبْتُ إِذْ فاتَنِيْ ذَلِكَ : أَنْ أَتّخِذَ عِنْدَهُم يَداً يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِيْ .

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ : دَعْنِيْ يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ ، فَإِنَّهُ

قد خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وقد نافَقَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليهِ وَسَلَمَ : إِنَّهُ قد شَهِدَ بَدْراً ، وَمَا يُدْرِيْكَ يَا عُمَرُ؟ لَعَلَّ اللهَ قد اطَّلَعَ عَلى أَهْلِ بَدْرٍ ، فقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم ، فَذَرَفَتْ عَيْنَا عُمَرَ ، وَقَالَ : اللهُ ورسولُهُ أَعْلَمْ » .

ثم مَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، وَهُوَ صَائِمٌ والناسُ صائِمُون، حتَّى إذا كانُوا بالكُدَيْدِ ـ وَهُوَ الذي يُسَمِيْهِ الناسُ اليومَ قُدَيْداً ـ أَفْطَرَ وَأفــطَرَ الناسُ مَعَهُ ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى نَزَلَ مَرَّ الظَّهْرَانِ ، وَهُوَ بَطْنُ مَرٍ ، وَمَعَهُ عَشَرَةُ آلافٍ ، وَعَمَّى اللهُ الأخبارَ عن قريشٍ ، فَهُمْ عَلى وَجَلٍ وارْتِقَابٍ .

وكان أَبُو سُفْيَانَ يَخْرُجُ يَتَجَسَّسُ الأَخبارَ ، فَخَرَجَ هُوَ وَحَكِيْمُ بنُ حِزَامٍ وَبُدَيْلُ بنُ وَرْقَاءَ يَتَجَسَّسُونَ الأَخبارَ ، وكان العباسُ قَدْ خَرَجَ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ مُسْلِماً مُهاجِرَا ، فَلَقِيَ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالجُحْفَةَ ـ وَقِيْلَ : فَوقَ ذَلِكَ ـ وَكَانَ مِمَّنْ لَقِيَهُ في الطريقِ ابنُ عَمّهِ أَبُو سُفْيَانَ بنُ الحَرْثِ ، وَعَبْدُ اللهِ بنُ أَبِيْ أُمَيَّةَ ، لَقِيَاهُ بالأَبْوَاءِ ، وَهُمَا ابنُ عَمّهِ وابنُ عَمَّتِهِ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُمَا لِمَا كَانَ يَلْقَاهُ مِنْهُمَا مِن شِدَّةِ الأذى والهَجْوِ .

فقالَتْ لَهُ أُمُّ سَلَمَةَ « لَا يَكُنْ ابنُ عَمّكَ وابنُ عَمَّتِكَ أَشْقَى الناسِ بكَ » وقالَ عَليٌ لأَبِي سُفْيَانَ ـ فِيْمَا حكاهُ أَبو عُمَرَ بنُ عَبْدِ البرـ « ائْتِ رَسُولَ اللهِ صلى الله علي وسلم مِن قِبَلِ وَجْهِهِ ، فَقُلْ لَهُ مَا قَالَ اخْوَةُ يُوْسُفَ لِيُوْسُفَ (١٢ : ٩١ تالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ، وانْ كُنَّا

لَخَاطِئِين) فإِنَّهُ لا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلاً ، فَفَعَلَ ذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ فقال لَهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (لا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُم اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْن) فَأَنْشَدَهُ أَبُو سُفْيَانَ بنُ الحَرْثِ أبياتاً ، منها :

لَعَمْــرُكَ إنّي حِيْنَ أَحْمِــلُ رَايَــةً
لِتَغْلِبَ خَيْــلُ الـلاتِ خَيْــلَ مُحَمَّــدِ
لَكَ الْمُــدْلِــجِ الحَيْــرَانَ أَظْلَمَ لَيْلُهُ
فَهَــذَا أَوانِيْ حِيْنَ أُهْــدَي فَــأَهْتَـدِي
هُــدانِـي هَــادٍ غيــرَ نَـفْسِي وَدَلَنِـي
على اللهِ مَنْ طَــرَّدْتـه كُــلَّ مَـطْرَدِ

فَضَرَبَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم صَدْرَهُ ، وقال « أَنْتَ طَرَدْتَنِي كُلَّ مَطْرَدِ ؟ » وَحَسُنَ إسْلامُهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيُقَالُ : إنَّهُ ما رَفَعَ رَأْسَهُ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مُنْذُ أَسْلَمَ ، حَيَاءً مِنه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحِبُّهُ وَشَهِدَ لَهُ بالجَنَّةِ ، وقال « أَرْجُو أَنْ يَكُونَ خَلَفاً مِن حَمْزَةَ » وَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قال « لا تَبْكُوا عَلَيَّ ، فواللهِ ما نَطَقْتُ بِخَطِيْئَةٍ مُنْذُ أَسْلَمْتُ » .

عَادَ الحَدِيْثُ : فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَرَّ الظَّهْرَانِ نَزَلَهُ عِشَاءً فأمَرَ الجَيْشَ فَأَوْقَدُوا النِيْرَانَ ، فَأُوْقِدَتْ عَشَرَةُ آلافِ نَارٍ ، وَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على الحَرَسِ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ، وَرَكِبَ العَبَاسُ بَغْلَةَ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم البَيْضَاءَ ، وَخَرَجَ يَلْتَمِسُ ، لَعَلَّهُ يَجِدُ بَعْضَ الحَطَّابَةِ ، أَوْ أَحداً يُخْبِرُ

قُرَيْشاً لِيَخْرُجُوْا يَسْتَأْمِنُوْنَ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا عَنْوَةً .

قالَ « واللهِ إِنّي لأَسِيْرُ عَلَيْهَا إذ سَمِعْتُ كَلَام أَبي سُفْيَانَ ابن حَرْبٍ وَبديلِ بن وَرْقَاءَ ، وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ ، وَأَبُو سُفْيَانَ يقولُ : ما رَأَيْتُ كالليلةِ نِيْرَاناً قَطْ ولا عَسْكراً . قال : يقول بُدَيْلُ : هَذِهِ واللهِ خُزَاعَةُ خَمَشَتْهَا الحَرْبُ ، فيقولُ أَبُو سُفْيَانَ : خُزَاعَةُ أَقَل وَأَذَلُّ مِن أَنْ تَكُونَ هَذِهِ نِيْرَانَها وَعَسْكَرُهَا . قال : فَعَرَفْتُ صَوْتُه ، فَقُلْتُ : أَبَا حَنْظَلَةَ ؟ فَعَرَفَ صَوْتِي ، فقال : أَبَا الفَضْلِ قُلْتُ : نَعَمْ .

قالَ : مالكَ ؟ فِدَاكَ أَبي وَأُمِّيْ ، قال : قُلْتُ : هَذَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في الناسِ ، واصبَاحَ قُرَيْشٍ واللهِ ، قالَ : فما الحِيْلَةُ ، فِدَاكَ أَبِي وَأمِّي ؟ قُلْتُ : واللهِ لَئِنْ ظَفِرَ بِكَ لَيَضْرِبَنَّ عُنقَكَ ، فارْكَبْ في عَجُزِ هَذِهِ البَغْلَةِ ، حتى آتي بِكَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فأَسْتَأمِنْهُ لَكَ ، فَرَكَبَ خَلْفِي وَرَجَعَ صَاحِبَاهُ .

قال : فَجِئْتُ بِهِ ، فَكُلَّمَا مَرَرْتُ بِهِ عَلى نَارٍ من نِيْرَانِ المُسْلِمِيْنَ قالُوا : مَنْ هَذَا ؟ فَإِذَا رَأَوا بَغْلَةَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَأَنَا عَلَيْهَا ، قَالُوا : عَمُّ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على بَغْلَتِهِ ، حَتَّى مَرَرْتُ بنارِ عُمَرَ بنِ الخطابِ ، فقال : مَنْ هَذَا ؟ وقام إِلَيَّ .

فلَمَّا رَأَى أَبَا سُفْيَانَ على عَجُزِ الدَّابَّةِ ، قال : أَبُو سُفْيَانَ عَدُوُ اللهِ ، الحَمْدُ للهِ الذي أَمْكَنَ مِنْكَ بِغَيْرِ عَقْدٍ ولا عَهْدٍ ، ثم خَرَجَ يَشْتَدُّ نَحْوَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَرَكَضْتُ أَلْبَغْلَةَ ، فَسَبَقْتُ ،

فاقْتَحَمْتُ عن البَغْلَةِ ، فَدَخَلْتُ على رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَدَخَلَ عليه عُمَرُ ، فقال : يا رسولُ اللهِ ، هذا أَبُو سُفْيَانَ ، فَدَعْنِي أَضْرِبُ عُنَقَهُ . قال : قُلْتُ : يَا رسولَ اللهِ ، إِنِي قَدْ أَجَرْتُهُ ، ثم جَلَسْتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذْتُ بِرَأْسِهِ ، فَقُلْتُ : واللهِ لَا يُنَاجِيْهِ اللَّيلةَ أَحَدٌ دُوْنِي .

فَلَمَّا أكثَرَ عُمَرُ في شَأْنِهِ ، قُلْتُ : مَهْلاً يَا عُمَرُ ، فَوَاللهِ لوْ كَانَ مِن رِجَالِ بَنِيْ عَدِي بْنِ كَعْبٍ مَا عَمِلْتَ مِثْلَ هَذَا ، قال : مَهْلاً يا عباسُ ، فواللهِ لإِسْلاَمُكَ كان أَحَبَّ إِليَّ مِن اسْلامِ الخطاب ، فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « اذهَبْ بهِ يا عَباسُ إلى رَحْلِكَ ، فإذَا أَصْبَحْتَ فَأتِنِيْ بهِ » فَذَهَبْتُ ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ بِهِ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَلَمَّا رَآهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قال « وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ أَلَمْ يَأْنِ لكَ أَنْ تَعْلَمَ أَن لا إِلهَ إِلَّا اللهُ ؟ » قال : بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ !! لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لَو كَانَ مَعَ اللهِ إِلهُ غَيْرُهُ لَقَدْ أَغْنَى عَنِيْ شَيْئاً بَعْدُ .

قال « وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّيْ رَسُولُ اللهِ ؟ » قال : بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ !! أَمَّا هَذِهِ : فإِنَّ في النَّفْسِ حَتَّى الآن مِنْهَا شَيْءٌ ، فقال لَهُ العَبَّاسُ : أَسْلَمْ وَأَشْهَد أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عُنُقُكَ ، فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الحَقِّ .

فقال العَبَّاسُ : يا رسولَ اللهِ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ الفَخْرَ ،

فاجْعَلْ لَهُ شَيْئاً ، قال « نَعَمْ ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ عليه بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ الحَرَامَ فَهُوَ آمِنٌ » وَأَمَرَ العَبَّاسَ أَنْ يَحْبِسَ أَبَا سُفْيَانَ بِمَضِيْقِ الوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الجَبَلِ ، حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللهِ فَيَرَاهَا ، فَفَعَلَ فَمَرَّتْ القَبَائِلُ على رَايَاتِهَا . كُلَّمَا مَرَّتْ بِهِ قَبِيْلَةٌ قال أَبُوْ سُفْيَانَ يا عَبَّاسُ ، مَنْ هَذِهِ ؟ فأَقُولُ : سُلَيْمٌ . قال : فَيَقُولُ مَالِي وَلِسُلَيْمٍ ، ثم تَمُر بِهِ القَبِيْلَةُ فيقولُ : يا عباسُ ، مَنْ هَؤُلَآءِ ؟ فأقولُ : مُزَيْنَةُ ، فيقولُ : مالِيْ وَلِمُزَيْنَة ، حَتَّى نَفَذَتْ القَبَائِلُ ، ما تَمُرُّ بِهِ قَبِيْلَةٌ إِلَّا سَأَلَنِي عنها ، فإِذَا أَخْبَرْتُهُ بِهِمْ قال : مالِيْ وَلِبَنِي فُلانٍ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم في كَتِيْبَتِهِ الخَضْرَاءِ ، فيها المُهَاجِرُوْنَ والأَنْصَارُ ، لا يُرَى مِنهم إلا الحَدَقُ مِن الحَدِيْدِ ، قال : سُبْحَانَ اللهِ ! يَا عَبَّاسُ ، مَنْ هَؤُلَآءِ ؟ قال : قُلْتُ : هذا رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ .

قال : ما لِأَحَدٍ بِهَؤُلَآءِ قِبَلٌ ولا طَاقَةٌ ، ثم قال : واللهِ يا أَبَا الفَضْلِ لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابنِ أَخِيْكَ اليومَ عَظِيْماً . قال : قُلْتُ : يا أبا سُفْيان ، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ ، قال : فَنِعَمْ إِذاً .

قال : قُلْتُ : النَّجاء إِلى قَوْمِكَ ، وكانَتْ رَايَةُ الأَنْصَارِ مَعَ سَعْدِ بن عُبَادَةَ ، فَلَمَّا مَرَّ بِأَبِي سُفْيَانَ قال لَهُ : اليومَ يَوْمُ المَلْحَمَةِ ، اليومَ تُسْتَحَلُّ الحُرْمَةُ ، اليومَ أَذَلَّ اللهُ قُرَيْشاً .

فَلَمَّا حَاذَى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَبَا سُفْيَان قال : يا رسولَ اللهِ ، أَلَمْ تَسْمَعْ ما قَالَ سَعْدٌ ؟ قال « وَمَا قَالَ ؟ » قال : قال كذا

وكذا ، فقال عُثْمَانُ وَعَبْدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ : يا رسولَ اللهِ ، ما نَأْمَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ في قُرَيْشٍ صَوْلَةٌ ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « بل اليومَ يومٌ تُعَظَّمُ فيه الكَعْبَةُ ، اليومَ يَوْمٌ أَعزَّ اللهُ فيه قُرَيْشاً » ثم أَرْسَلَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلى سَعْدٍ ، فَنَزَعَ مِنه اللِّوَاءَ ، وَدَفَعَهُ إلى قَيْسٍ ابْنِهِ ، وَرأى أَنَّ اللِّوَاءَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سَعْدٍ ، إذ صَارَ إلى أبْنِهِ ، قال أَبُوْ عُمَر : وَرُوِي « أنَّ النبيَ صلى اللهُ عليه وسلم لما نَزَع مِنه الرَّايَةَ دفَعهَا إلى الزُبَيْرِ » .

وَمَضَى أَبُو سُفْيَانَ ، حتى إذا جاءَ قُرَيْشاً صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ فِيْمَا لَا قبلَ لَكُم بِه ، فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، فقَامَتْ إِليه هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ فَأَخَذَت بِشَارِبِهِ ، فَقَالَتْ : اقْتُلُوا الحُمَيْتَ الدَّسِمَ الأَحْمَشَ السَّاقَيْن ، قُبِّحَ مِن طَلِيْعَةِ قَوْمٍ .

قالَ : وَيْلَكُم ، لَا تَغُرَّنَكُم هَذِهِ من أَنْفُسِكُم ، فإِنَّهُ قَدْ جَاءَكُمْ بِمَا لَا قبلَ لَكُم بِهِ ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، فقالوا : قاتَلَكَ اللهُ ، وما تُغْنِيْ عَنَّا دَارُكَ ؟ قال : وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ .

فَتفرَّقَ النَاسُ إلى دُوْرِهِمْ ، وإِلى المَسْجِدِ ، وَسَارَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَدَخَلَ مَكَّة مِن أَعْلَاهَا ، وَضُرِبَتْ لَهُ هُنَالِكَ قُبَّةٌ ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم خَالدَ بنَ الوَلِيد أَنْ يَدْخُلَهَا مِن أَسْفَلِهَا . وكانَ عَلى المَجْنَبَةِ اليُمْنَى وفيها أَسْلَمُ وَسُلَيْمٌ وَغِفَارٌ وَمُزَيْنَةَ

وَجُهيْنَةَ ، وقبائِلُ مِن قَبَائِلِ العَرَبِ وكان أَبُو عُبَيْدَةَ على الرِّجَالَةِ والحُسَّرِ ، وَهُمْ الذِيْن لا سِلَاحَ مَعَهم ، وقال لِخَالِدٍ وَمَنْ مَعَهُ « إِنْ عَرَضَ لَكُم أَحَدٌ مِن قُرَيْشٍ فاحْصُدُوهُمْ حَصْدَاً ، حَتَّى تُوافُوني على الصَّفَا » فما عَرَضَ لَهُمْ أَحدٌ إلا أَنَامُوْهُ . وَتَجمَّعَتْ سُفَهَاءُ قُرَيْش وَأَخفَّاؤُهَا مَعَ عِكْرِمَةَ ابنِ أبي جَهْلٍ ، وصَفْوَانِ بنِ أَمَيَّةَ ، وَسُهَيْلِ بنِ عَمْرو بالخَنْدَمَةِ لِيُقاتِلُوا المُسْلِمِيْن .

وكان حَمَّاسُ بنُ قَيْسٍ بن خَالِدٍ أَخُوْ بَنِيْ بَكْرٍ يُعِدُّ سِلَاحاً قَبْلَ دُخُولِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : لِمَاذَا تُعِدُّ مَا أَرَى ؟ قال لِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، قَالَتْ : واللهِ ما يَقُومُ لِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْئَاً ، قال : إِنِّيْ وَاللهِ لأَرْجُوْ أَنِي أُخْدِمُكِ بَعْضَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ :

إِنْ يقْبلُوا اليَوْمَ فَمَالِي عِلَّهْ
هَذَا سِلَاحُ كَامِلٌ وإِلَّهْ
وَذُوْ غِرَارَيْنِ سَرِيْعَ السَّلهَ

ثُمَّ شَهِدَ الخَندَمَةَ مَعَ صَفْوَانَ وَعِكْرِمَةَ وَسُهَيْلِ بن عَمْرو ، فَلَمَّا لَقِيَهُمُ المُسْلِمُونَ نَاوَشُوهُمْ شَيْئاً مِن قِتَالٍ ، فَقُتِلَ كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ الفِهْرِي ، وَخُنَيْسُ بنُ خَالِدِ بنِ رَبِيْعَةَ مِن المُسْلِمِيْنَ ، وَكَانَا في خَيْلِ خَالِدِ بنِ الوَلِيْدِ ، فَشَذَّا عَنْهُ ، فَسَلَكَا طَرِيْقاً غَيْرَ طَرِيْقِهِ فَقُتِلَا جَمِيْعاً فَأُصِيْبَ مِنَ المُشْرِكين نَحْوُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً ، ثم انْهَزَمُوْا ، وانْهَزَمَ حَمَّاسُ صَاحِبُ السِّلاحِ ، حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ فقال لِامْرأَتِهِ : أَغْلِقِيْ عَلَيَّ بَابِيْ ، فَقَالَتْ :

وَأَيْنَ مَا كُنْتَ تَقُولُ؟

فقال : إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَةْ
إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ
وَأَبُو يَزِيْدٍ قَائِمٌ كالمُؤْتَمَهْ
واسْتَقْبَلْتَنَا بالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ
ضَرْباً ، فَلاَ يُسْمَعُ إلا غَمْغَمَهْ
لَهُمْ نَهِيْتٌ حَوْلَنَا وَهَمْهَمَهْ
لَمْ تَنْطِقِي في اللَّومِ أَدْنَى كَلِمَهْ

وقال أَبُو هُرَيْرَةَ : أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَدَخَلَ مَكة ، فَبَعَثَ الزُبَيْرَ على إحْدَى المَجْنَبَتَيْنِ ، وَبَعَثَ خَالِدَ بنَ الوَلِيْدِ عَلَى المَجْنَبَةِ الأُخْرَى ، وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ على الحُسَّرِ ، وَأَخَذُوْا بَطْنَ الوَادِيْ ، وَرَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في كَتِيْبَتِهِ.

قال : وَقَدْ وَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشاً لَهَا ، فَقَالُوا : نُقَدِّمُ هَؤُلآءِ ، فَإِنْ كانَ لِقُرَيْشٍ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ ، وانْ أُصِيْبُوْا أَعْطَيْنَا الذِيْ سُئِلْنَا ، فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هُريرةَ ، فَقُلْتُ : لَبَيْكَ يا رسولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ ، فقال : اهْتِفْ لِيْ بالأَنْصَارِ ، ولا يَأْتِيْنِي إلا أَنْصَارِيٌّ ، فَهَتَفَ بِهِمْ ، فَجَاءُوْا فَأَطَافُوا بِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقالَ : أَتَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِمْ؟ ثُمَّ قَالَ بِيَدِيْهِ ـ إِحْدَاهُمَا على الأُخْرَى احْصُدُوْهُم حَصْدًا حَتَّى تُوَافُونِي بالصَّفا ،

فَانْطَلَقْنَا ، فَمَا يَشَاءُ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ مِنْهم إلا شَاءَ ، وما أَحَدٌ مِنْهُمْ وَجَّهَ إِلَيْنَا شَيْئاً ، وَرَكَزْتُ رَايَةَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالحُجُوْنِ عِنْدَ مَسْجِدِ الفَتْحِ .

ثُمَّ نَهَضَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، والمُهَاجِرُوْنَ والأَنْصَارُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَخَلْفَهُ وَحَوْلَهُ ، حَتَّى دَخَلَ المَسْجِدَ ، فَأَقْبَلَ إلى الحَجَرِ الأَسْوَدِ ، فَاسْتَلَمَهُ ، ثم طَافَ بالبَيْتِ ، وفي يَدِهِ قَوْسٌ وَحَوْلَ البَيْتِ وَعَلَيْهِ ثَلاثُمَائَةٍ وَسِتُّوْنَ صَنَما ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بالقَوْسِ ، وَيقولُ : (جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ، إِن البَاطِلَ كان زَهُوْقاً) جاءَ الحَقُّ ، وما يُبْدِىءُ الباطلُ وما يُعِيْد ، والأَصْنَامُ تَتَسَاقَطُ على وُجُوْهِهَا .

وكان طَوافُه على راحِلَتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ مُحْرِمَا يَوْمَئِذٍ ، فَاقْتَصَرَ على الطوافِ ، فَلَمَّا أَكْمَلَهُ دَعَا عُثْمَانَ بنَ طَلْحَة ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الكَعْبَةِ ، فَأَمَر بِهَا فَفُتِحَتْ ، فَدَخَلَهَا ، فَرَأَى فِيْهَا الصُوَرَ ، وَرَأَى فيها صُوْرَةَ ابراهيمَ واسماعيلَ ، يَسْتَقْسِمَانِ بالأَزْلَامِ ، فقال « قَاتَلَهُم اللهُ ، واللهِ إِنْ اسْتَقْسَمَا بهَا قطُّ » ورأى في الكعبةِ حَمَامَةً من عِيْدَانٍ ، فَكَسَرَهَا بِيَدِهِ ، وَأَمَرَ بالصُوَرِ فَمُحِيَتْ ، ثم أُغْلِقَ عَلَيْهِ البَابُ ، وعلى أُسامَةَ وبلالٍ ، فاسْتَقْبَلَ الجِدَارَ الذي يُقابِلُ البَابَ ، حَتَّى إذا كانَ بَيْنَهُ وَبيْنَهُ قَدْرُ ثَلاثَةِ أَذْرُعٍ وَقَفَ وَصَلَّى هُنَاكَ ، ثم دَارَ في البَيْتِ وَكَبَّرَ في نَوَاحِيْهِ ، وَوَحَّدَ اللهَ ، ثم فَتَحَ البابَ وَقُرَيْشٌ قَدْ مَلأَتِ المَسْجِدَ صُفُوفاً ، يَنْتَظِرُوْنَ ماذا يَصْنَعُ ، فأخذَ بعِضَادَتَي البَابِ ، وَهُمْ تَحْتَهُ ، فقال : « لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأحزابَ وَحْدَهُ أَلَا كلُ مَأْثَرَةٍ أَوْ مَالٍ أَوْ دَمٍ : فَهُوَ تَحْتَ قَدَميَّ هَاتَيْنِ ، إِلَّا سِدَانَةَ البَيْتِ

وَسِقَايَةَ الحَاجّ ، أَلاَ وَقَتْلُ الخَطَأ شِبْهُ العَمْدِ : السَّوطُ والعَصا، فَفِيْهِ الدِيَّةُ مُغَلَّظَةٌ (مائَةٌ مِن الإبلِ) أرْبَعُونَ مِنْهَا في بُطُونِهَا أَوْلاَدُهَا .

يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنِ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُم نِخْوَةَ الجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعْظُمُهَا بالآباء ، الناسُ مِن آدَمَ ، وآدَمُ مِن تُرَاب ، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَة (٤٩ : ١٣ يا أَيُّها الناسُ ، إنا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكرٍ وأُنْثَى وجعلناكُم شُعوباً وقبائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَ أَكْرَمَكُم عند اللهِ أتقاكُم ، إن الله عليم خبير ﴾ يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ ما تَرَوْنَ أَنِّيْ فَاعِلٌ بكم ؟ قالوا : خَيْرا ، أَخٌ كَرِيْمٌ ، وابنُ أَخٍ كَرِيْم .

قال : فإني أَقُولُ لكم كما قالَ يُوسفُ لإِخْوتِهِ ﴿ ١٢ : ٩١ لا تَثْرِيْبَ عليكم اليومَ ﴾ اذْهَبُوْا ، فأنتُم الطُّلَقَاءُ ، ثم جَلَسَ في المسجدِ .

فقامَ إليه عليُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ وَمِفْتَاحُ الكَعْبَةِ في يَدِهِ ، فقال : يَا رَسُولَ اللهِ ، اجْمَعْ لنَا الحِجَابَةَ مَعَ السِّقَايَةَ ، صلى اللهُ عليكَ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : أَيْنَ عُثْمَانُ بنُ طَلْحَةَ ؟ فَدُعِي لَهُ ، فقالَ لَهُ : « هَاكَ مِفْتَاحَكَ يَا عُثْمانُ ، اليَوْمُ يَوْمُ بِرٍ وَوَفاء » .

وَذَكَرَ ابنُ سَعْدٍ في الطَّبَقَاتِ عن عُثْمَانَ بن طَلْحَةَ قال « كُنَّا نَفْتَحُ الكَعْبَةَ في الجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ والخَمِيْس ، فَأَقْبَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَوْماً يُرِيْدُ أَنْ يَدْخُلَ الكَعْبَةَ مَعَ الناسِ فَأَغْلَظْتُ لَهُ ، فَنِلْتُ مِنْهُ ، فَحَلُمَ عَنِّيْ ، ثُمَّ قالَ : يا عُثْمَانُ لَعَلَّكَ سَتَرَى هَذا المفْتَاحَ يوماً بِيَدِي ، أَضَعُهُ حَيْثُ شِئْتُ ، فَقُلْتُ : لَقَدْ هَلَكَتْ قُرَيشٌ يَوْمَئِذٍ وَذَلَّتْ ، فَقَالَ : بل عَمرَتْ وَعَزَّتْ يَوْمَئِذٍ ، وَدَخَلَ الكَعْبَةَ فَوَقَعَتْ كَلِمَتُهُ

مِنّيْ مَوْقِعاً ، ظَنَنْتُ يَوْمَئِذٍ أَنَّ الأمرَ سَيَصِيْرُ إلى مَا قَال .

فَلَمَّا كان يومَ الفَتْحِ قال : يا عُثْمَانُ ، ائْتِنِيْ بالمِفْتَاحِ ، فَأَتَيْتُهُ بِهِ ، فَأَخَذَهُ مِنّي ، ثم دَفَعَهُ إليَّ ، وقَالَ : « خذوْهَا خَالِدَةً تَالِدَةً ، لا يَنْزِعُهَا مِنْكُم إلا ظَالِمٌ ، يا عُثْمَانُ إن اللهَ اسْتَأْمَنَكُم على بَيْتِهِ ، فَكَلُوا مِمَّا يَصِلُ إليكُم مِن هَذَا البَيْتِ بالمَعْرُوْفِ ، قال : فَلَمَّا وَلَّيْتُ نادَانِي ، فَرَجَعْتُ إليهِ ، فقَالَ : « أَلَمْ يَكُنْ الذِيْ قُلْتُ لكَ ؟ » قَالَ : فَذَكَرْتُ قَوْلَهُ لِيْ بِمَكَّةَ قَبْلَ الهِجْرَةِ : « لَعَلَّكَ سَتَرَى هَذَا المِفْتَاحَ بِيَدِيْ أَضَعُهُ حَيْثُ شِئْتُ » فَقُلْتُ : بَلَى ، أَشْهَـدُ أنكَ رَسُولُ اللهِ » .

وَذَكَرَ سَعِيْدُ بنُ المُسَيَّبِ أَنَّ العَبَاسَ تَطَاوَلَ يَوْمَئِذٍ لِأَخْذِ المِفْتَاحِ في رِجَالٍ مِن بَنِيْ هَاشِمٍ ، فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم إلى عُثْمَانَ بن طَلْحَةَ ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِلَالاً : أَنْ يَصْعَدَ فَيُؤَذِّنَ عَلَى الكَعْبَةِ ، وَأَبُوْ سُفْيَانَ ابنُ حَرْبٍ وَعَتَّابُ بنُ أُسَيْدٍ ، والحَارِثُ بنُ هِشَامٍ ، وَأَشْرَافُ قُرَيْشٍ جُلُوسٌ بِفِنَاءِ الكَعْبَةِ ، فقال عَتَّابُ : لَقَدْ أَكْرَمَ اللهُ أُسَيْداً أَنْ لا يَكُونَ سَمِعَ هَذا ، فَيَسْمَعَ مِنْهُ ما يَغِيْظُهُ ، فقال الحَارِثُ : أَمَا وَاللهِ ، لَوْ أَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ لَاتَّبَعْتُهُ ، فقالَ أَبُو سُفْيَانَ : أَمَا وَاللهِ ، لَا أَقُولُ شَيْئا ، لَوْ تَكَلَّمْتُ لَأَخبَرَت عَنِّيْ الحَصَبَاءُ ، فَخَرَجَ عَلَيْهِم النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال لَهُمْ : قَدْ عَلِمْتُ الذِيْ قُلْتُمْ ، ثُمَّ ذَكَر ذَلِكَ لَهُمْ ، فقالَ الحَرثُ وعَتَّابُ : نَشْهَدُ أَنَكَ رسولُ اللهِ ، واللهِ ما اطَّلَعَ على هَذا أَحَدٌ كانَ مَعَنا ، فَنَقُولُ : أَخْبَرَكَ » وَهَذِهِ مُعْجِزَةٌ حَيْثُ أَخْبَرَهُمْ بمَا قَالُوا صَلَّى اللهُ عليه وسلم .

فَصْــلٌ

ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم دَارَ أُمِّ هَانِىء بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ ، فاغْتَسَلَ ، وصَلَى ثَمَانَ رَكَعَاتٍ في بَيْتِهَا ، وكان ضُحَى ، فظنَّها مَنْ ظَنَّهَا صَلَاةَ الضُحَى ، وإنما هَذِهِ صَلاةُ الفَتْحِ ، وكان أُمَرَاءُ الاسلام إِذَا فَتَحُوْا حِصْناً أَوْ بَلدَاً صَلَّوْا عَقِيْبَ الْفَتْحِ هَذِهِ الصَّلاةَ ، اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم.

وفي القصة : مَا يَدُلُ عَلَى أَنَّهَا بِسَبَب الفَتْحِ ، شُكْراً لِلّهِ عليهِ ، فإِنَّ أمَّ هانِىءٍ قالَتْ «ما رَأَيْتُهُ صَلاَهَا قَبْلَهَا ولا بَعْدَهَا» وأَجارَتْ أمُّ هَانِىءٍ حَمْوَيْنِ لَهَا ، فقالَ لَها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم «قد أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِىءٍ» .

فَصْــلٌ

ولَمَّا اسْتَقَرَّ الفَتْحُ أَمَّنَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الناسَ كُلَّهُمْ ، إلا تِسْعَةَ نَفَرٍ ، فإنه أَمَرَ بقَتْلِهِمْ ، وإِنْ وُجِدُوْا تَحْتَ أَسْتَارِ الكَعْبَةِ وَهُمْ : عَبْدُ الله بنُ سَعْدِ أَبي سَرْحٍ ، وعكرمةُ ابنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَعَبْدُ العزَّى بنُ خَطَلٍ ، والحَارِثُ بنُ نُفَيْلِ بنُ وَهَبٍ ، وَمَقِيْسُ بنُ صُبَابَةَ ، وَهَبَّارُ بنُ الأَسْوَدِ ، وَقَيْنَتَانِ لابنِ خَطَلٍ ، كانتَا تُغَنِّيَانِ بِهجَاءِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَسَارَةُ مَوْلاَةٌ لِبَعْضِ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ .

فأمَّا ابنُ أبِي سَرْحٍ ، فأسْلَمَ فَجَاءَ بِهِ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ ، فاسْتَأْمَنَ لَهُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقِبَلَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ أَمْسَكَ عَنْهُ ، رَجَاءَ أَنْ يَقُومَ إليْهِ بَعْضُ الصَّحَابَةِ فَيَقْتُلَهُ .

وكان قَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ ذَلِكَ وَهَاجَرَ ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَرَجَعَ إلى مَكَّةَ ، وَأَمَّا عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْلٍ ، فاسْتَأْمَنَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ بَعْدَ أَنْ فَرَّ ، فأَمَّنَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، فقَدِمَ وَأَسْلَمَ وَحَسُنَ اسْلاَمُهُ وأمَّا ابنُ خَطَلٍ والحَارِثُ وَمِقْيَسُ واحْدَى القَيْنَتَيْنِ ، فَقُتِلُوا وَكَانَ مَقِيْسُ قدْ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَقَتَلَ وَلَحِقَ بالمُشْرِكِيْنَ ، وَأَمَّا هَبَّارُ بنُ الأَسْوِدِ، فَهُوَ الذِي عَرَضَ لِزَيْنَب بِنْتِ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم حِيْنَ هَاجَرَتْ ، فَنَخَسَ بَطْنَهَا حَتَّى سَقَطَتْ على صَخْرَةٍ وَأَسْقَطَتْ جَنِيْنَهَا ففَرَّ ، ثُمَّ أَسْلَمَ وَحَسُنَ اسْلامُهُ .

واسْتُؤمِنَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِسَارَةِ ولإِحْدَى القَيْنَتَيْنِ فأمَّنَهُمَا فَأَسْلَمَتَا .

فَلَمَّا كان الغَدُ مِن يَومِ الفَتْحِ قَامَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في الناسِ خَطِيْباً ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بما هُوَ أَهْلُه ، ثم قَالَ « أَيُّها النَاسُ ، انَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَةَ يَومَ خَلَقَ السمواتِ والأَرْضَ ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ، فلا يَحِلُ لامرىءٍ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيْهَا دَماً ، أَوْ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً ، فإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَقُولُوا : إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَم يَأْذَنْ لَكَ ، وإنما أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِن نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ

حُرْمَتُهَا اليومَ كَحُرْمَتِهَا بالأَمْسِ ، فَلْيُبَلِغِ الشاهدُ الغائبَ » .

ولمَّا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ على رسولِهِ ـ وهيَ بَلَدُهُ وَوطَنُهُ وَمَوْلِدُهُ ـ قال الأنصارُ فِيْمَا بَيْنَهُمْ : أَتَرَوْن رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم أَذْ فَتَحَ اللهُ عليهِ أَرْضَهُ وَبَلَدَهُ ، يُحِبُ أنْ يُقِيْمَ بها وهُوَ يَدْعُوْ عَلَى الصَّفَا، رَافِعاً يَدَيْهِ ، فَلَمَّا فَرَغ من دُعَائِهِ قَال « مَاذَا قُلْتُمْ ؟ قالُوا: لا شَيْءَ يا رَسُولَ اللهِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِم حَتَّى أَخْبَرُوْهُ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : مَعَاذَ اللهِ ، المَحْيَا مَحْيَاكُمْ ، والمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ » .

وهَمَّ فَضَالَةُ بنُ عُمَيْرِ بنِ المُلوِّحِ أَنْ يَقْتُلَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وهُوَ يَطُوفُ بالبَيتِ ، فَلمَّا دَنَا مِنْهُ قَال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَفَضَالَةَ ؟ قال : نَعَمْ ، فَضَالَةَ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : مَاذَا كُنْتَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ ؟ قالَ : لا شَيْءَ كُنْتُ أَذْكُرُ اللهَ ، فَضَحِك النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم ، ثم قَالَ : اسْتغْفِر اللهَ ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ على صَدْرِهِ ، فَسَكَنَ قَلْبُهُ » .

وكانَ فَضَالَةُ يَقُولُ « واللهِ ما رَفَعَ يَدَهُ عن صدرِي حَتَّى ما خَلَقَ اللهُ شَيْئاً أَحَبَّ إليَّ مِنْهُ » قال فَضَالَةُ : فَرَجَعْتُ إلى أَهْلِي ، فَمَرَرْتُ بِامْرَأةٍ كُنْتُ أَتَحَدَّثُ إلَيْهَا ، فَقَالَتْ هَلُمَّ إلي الحَدِيث ، فَقُلْتُ : لا ، وانْبَعَثَ فضالة يقولُ :

قَالَتْ : هَلُمَّ إلى الحَدِيثِ ، فَقُلْت : لاَ
يَأْبَى عَلَيْكِ اللهُ والاسلامُ
لَوْ قَدْ رَأَيْتِ مُحَمَّداً وَقَبِيْلَهُ
بالفَتْحِ يَوْمَ تَكَسَّرُ الأَصْنَامُ

لَـرَأَيْـتِ دِيْـنَ الـلهِ أضْـحَـى بَـيِّـنـاً
والـشِّـرْكَ يَـغْـشَـى وَجْـهَـهُ الأظْـلامُ

وَفَرَّ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانُ بْنُ أمَيَّةَ ، وعِكْرِمةُ بنُ أبي جَهْلٍ ، فأمَّا صَفْوانُ ، فاسْتَأمَنَ لَهُ عُمَيْرُ بنُ وَهْبٍ الجُمَحِي رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فأَمَّنَهُ ، وأعْطَاهُ عِمَامَته التي دَخَلَ بهَا مكَّةَ ، فَلحقهُ عُمَيْرُ ، وَهُوَ يُرِيْدُ أَنْ يَرْكَبَ البَحْرَ ، فَرَدَّهُ فَقَالَ : اجْعَلْنِي بالخِيَارِ شَهْرَيْن ، فَقَال : أنْتَ بالخيارِ أرْبَعَةَ أَشْهُرٍ .

وكانَتْ أمُ حَكِيْمٍ بنْتُ الحَارِثِ بنِ هشامٍ تَحْتَ عِكْرَمَةَ بنِ أبِيْ جَهْل فأسْلمَتْ ، واسْتَأْمَنَتْ لَهُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فأَمَّنَهُ ، فَلَحِقَتْهُ باليَمن ، فأَمَّنَتْهُ فَرَدَّتْهُ، وَأَقَرَّهما رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم هُوَ وَصَفْوَانُ على نكاحهما الأول .

ثم أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم تَمِيْمَ بْنَ أُسَيْدٍ الخُزَاعِيَّ فَجَدَّدَ أنْصَابَ الحَرَم .

وَبَعَثَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم سَرَايَاهُ إلى الأَوْثَانِ التِي كانَتْ حَوْلَ الكَعْبَةِ ، فَكُسِّرَتْ كُلُّهَا ، مِنْهَا اللاتُ ، والعُزَّى ومناةُ الثالثةُ الأخرى ، وَنَادَى مُنَادِيْه بمَكَّةَ « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فلا يَدَعْ في بَيْتِهِ صَنَماً إلَّا كَسَرَهُ » .

وَبَعَثَ خَالِدَ بنَ الوليدِ إلى العُزَى لِخَمْسِ لَيَالٍ بقيْنَ مِن شَهْرِ رَمَضَان لِيَهْدِمَهَا ، فَخَرَج إلَيْهَا في ثلاثِيْن فَارساً مِن أَصْحَابِهِ ، حَتَّى انْتَهَوْا إليها ،

فَهدَمَهَا ثُمَّ رَجَعَ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فأخْبَرَهُ فقال « هَلْ رَأيتَ شَيْئاً ؟ قال: لا قال : فانّكَ لَمْ تَهْدِمْهَا ، فارْجِعْ إليْهَا فاهْدِمْهَا ، فَرجَعَ خَالِدُ ـ وَهُوَ مُتَغَيِّظٌ ـ فَجَرَّدَ سَيْفَهُ ، فَخَرَجَتْ إليه امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ سَوْدَاءُ نَاشِرَةً الرَّأْس، فَجَعَلَ السَّادِنُ يَصِيحُ بهَا فضَربَهَا خَالِدُ، فَجزَلَها باثنتين، وَرجَعَ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فأخْبَرَهُ ، فقال : نَعَمَ ، تِلْكَ العُزَى ، وَقَدْ أيسَتْ أنْ تُعْبَدَ في بلادكُم أبداً » وكانَتْ بنَخْلَة ، وكانَتْ لِقُرَيْشٍ وَجَمِيْعُ بَنِيْ كِنَانَةَ ، وكَانَتْ أعْظَمَ أصْنَامِهِمْ ، وكانَ سَدَنَتُهَا مِن بَنِيْ شَيْبَانَ . فَفِي هذِه مُعْجِزَةٌ مِن مُعْجِزَاتِهِ صلى الله عليه وسلم .

ثم بَعَثَ عَمْرو بنَ العاصِ الى سُواعٍ ـ وَهُوَ صَنَمٌ لِهُذَيْلٍ ـ لِيَهْدِمَهُ ، قال عَمْرُوٍ « فانْتَهَيْتُ إليْهِ ، وَعِنْدَهُ السَّادِنُ ، فقال : ما تُرِيْدُ ؟ قُلْتُ : أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أنْ أهْدِمَهُ ، فقال : لا تَقْدِرُ على ذلكَ ، قُلْتُ : لِمَ ؟ قالَ : تُمْنَعُ ، قُلْتُ حَتَّى الآنَ أنتَ عَلَى البَاطِلِ ؟ وَيْحَكَ ، فَهَلْ يَسْمَعُ أَوْ يُبْصِرُ ؟ قال : فَدَنَوتُ منْهُ فكَسَّرتُهُ ، وأَمَرْتُ أصْحَابِي فَهَدَمُوْا بَيْتَ خَزَّانَةَ ، فَلَمْ يَجِدُوْا فِيْهِ شَيْئا ، ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله » .

ثُمَّ بَعَثَ سَعْدَ بنَ زَيدٍ الأَشْهَلِي إلى مَنَاة وَكَانَتْ بِالمُشَلَّلِ ، عِنْدَ قُدَيْدٍ للأَوْسِ والخَزْرَجِ وغَسَّانَ وَغيرهِمْ ، فَخَرَجَ في عِشْرِيْنَ فَارِساً ، حَتَّى انْتَهَى إلَيْهَا ، وَعِنْدَهَا سَادِنٌ ، فقَالَ السَّادِنُ : مَا تُرِيْدُ ؟ قُلْتُ : أَهدِمُ مَنَاة ، قَالَ : أَنْتَ وَذاكَ ، فأقبَلَ سَعْدُ يَمْشِيْ إليها ، وَتَخْرُجُ إليهِ امْرأَةٌ عُرْيَانَةٌ سَوْدَاءُ ، ثَائِرَةُ الرَّأْسِ ، تَدْعُو بالوَيْلِ ، وَتَضْرِبُ صَدْرَهَا ، فَقَالَ لَهَا السَّادن : مَنَاةُ ، دُوْنَكَ بَعْضُ عَصَاتِكَ ، فضَرَبَهَا سَعْدٌ فقَتَلَهَا وَأَقْبَلَ إلَى الصَّنَمِ فَهدَمَهُ وكَسَّرهُ وَلَمْ يَجِدُوْا في خِزَانَتِهِ شَيْئاً .

شعرا في الحَثِّ على كِتَابِ اللهِ وَتَدبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ والعَمَلِ بِهِ :

وبــالتَّــدبُــرِ والتَّــرْتِيْــلِ فــاتْــلُ كِتَــا
بَ اللهِ لا سِيَّمَــا في حِنْدِسِ الــظُلَمِ

حَــكِّمْ بَــرَاهِيْنَــهُ وَاعْــمَــلْ بمُحْكَــمِــهِ
حِــلًّا وَحــظْراً وَمــا قَــدْ حَــدَّهُ أقِــمِ

واطْلُبْ مَعَــانِيْهِ بــالنَّقْــلِ الــصَّرِيْحِ ولا
تَخُضْ بِــرَأْيِــكَ واحْــذَرْ بَــطْشَ مُنْتَقِــمِ

فِيْمَــا عَلِمْتَ بِمَحْضِ النَّقْــلِ مَنْــهُ فَقُــلْ
وَكِــلْ إلَى الــلهِ مَعْنَى كُــلِّ مُنْبَــهِمِ

ثُمَّ المِــرَا فِيْــهِ كُفْــرٌ فــاحْــذَرَنْــهُ وَلَا
يَــسْتَــهْــوِيَنَّــكَ أقْــوَامٌ بِــزَيْــغِــهِــمِ

وعن مَنَــاهِيْــهِ كُنْ يَــا صَاحِ مُنْــزَجِراً
والأمْــرَ مِــنْــهُ بِــلَا تَــرْدَادَ فــالْــتَــزِمِ

ومــا تَــشَــابَــهَ فَــوِّضْ لِــلالِــهِ وَلَا
تَخُضْ فَخَــوضُــكَ فِيْــهِ مُــوْجِبُ النِّقَمِ

ولا تُــطِعْ قَــوْلَ ذِيْ زَيْــغٍ يُــزَخْــرِفُــهُ
مِنْ كُــلِّ مُبْتَــدِعٍ في الــدِيْنِ مُتَّــهَمِ

حَيْــرَانَ ضَــلَّ عن الحَقِّ الــمُبِيْن فَــلَا
يَنْفَــكُّ مُنْحَــرِفاً مُــعَــوّجَ لَــم يَقُــمِ

هُـوَ الـكِـتَـابُ الـذِي مَـنْ قام يَقْرؤُهُ
كَـأنَّـمَـا خَـاطَبَ الـرَّحْـمَنَ بـالـكَلِمِ

هُـوَ الصِّـرَاطُ هُـوَ الحَبْـلُ المَتِيْنُ هو الْـ
مِيْـزَانُ والعُـرْوَةُ الوثْقَـى لِـمُعْـتَصِـمِ

هُوَ البَيَـانُ هُوَ الـذِكْـرُ الحَكِيْمُ هُوَ التّـ
تَفْصِيْـلُ فـاقنَـعْ بِـهِ في كُـلِّ مُنْبَهِمِ

هُـوَ البَصَـائِرُ والـذِكْـرَى لِمُـدَكِّـرٍ
هُـوَ المَـواعِظُ والبُشْـرَى لِغَيْـر عَمِي

هُـوَ الـمُـنَـزَّلُ نُـوْراً بَـيِّـنـاً وهُـدَى
وهُـو الشِفَـاءُ لِمَـا في القَلْبِ مِن سَقَمِ

لـكِـنَّه لأُولِـي الإِيْـمَـانِ اذْ عـمِـلُوا
بـمَـا أتَى فيـه مِن عِـلْمٍ ومِن حِـكَمِ

أمَّـا عَلَى مَنْ تَـوَلَّى عَنْـهُ فَهْـوَ عَمَى
لِكَـوْنِـهِ عَن هُـدَاهُ الـمُسْـتَنِيْـرُ عَمِي

فَـمَنْ يُـقِمْـهُ يَـكُنْ يَـوْمَ الـمَعَـادِ لَـهُ
خَـيْـرُ الإِمَـام إلى الـفِـرْدَوْسِ والنِّـعَمِ

كَمَـا يَسُـوْقُ أُولِي الأَعْـرَاضِ عنهُ إلَى
دَارِ الـمَقَـامِـعِ وَالأنْـكَـالِ والأَلَـمِ

وَقَـدْ أتَى النَّصُّ في الـطُوْلَيْـنِ أنَهُـمَـا
ظِـلاَلِـتَـالِيْهِمَـا في مَـوْقِفِ الـغَمَمِ

وأنَّــهُ فــي غَــدٍ يــأتِــي لِــصَــاحِــبِــهِ
مُـبَـشِّــراً وَحَـجِـيْـجــاً عَــنْــهُ إنْ يُــقِــمِ

والـمُـلْكَ والـخُـلْدَ يُـعْـطِيْــهِ وَيُلْبِسُـهُ
تَــاجَ الــوَقَــارِ الالــهُ الحَقُّ ذُوْ الكَــرَمِ

يُقَــالُ اقْـرَأْ وَرَتِّــلْ وَارْقَ في غُـرَفِ الْـ
جَنَّــاتِ كَيْ تَـنْتَـهِي لِـلْمَنْــزِلِ النَّعِـمِ

وَحُـلَّتَــانِ مِن الـفِـرْدَوْسِ قَــدْ كُسِيَـتْ
لِــوَالِــدَيْــهِ لَــهَــا الأَكْــوَانُ لَـمْ تَـقُـمِ

قَــالاَ بِـمَــاذَا كُسَيْنَــاهَــا فَقِيْــلَ بِـمَــا
أَقْــرَأْتُمَــا ابْنَكُمَــا فَـاشْكُــرْ لِـذِي النِّعَمِ

كَـفَـى وَحَـسْـبُــكَ بــالـقُــرآنِ مُـعْـجِـزَةً
دَامَـتْ لَــدَيْنَــا دَوامــاً غَـيْــرَ مُنْصَــرِمِ

لَــمْ يَـعْـتِــرِهْ قَطُ تَـبْـدِيْــلٌ ولا غِــيَــرٌ
وجَــلَّ فــي كَثْــرَةِ التَّــرْدَادِ عَنْ سَــأَمِ

مُـهَـيْـمِـنــاً عَــرَبِــيــاً غَـيْــرَ ذِي عِــوَجٍ
مُـصَـدِّقـاً جَـاءَ في التَّنْـزِيْــلِ في القِـدَمِ

فِيْــهِ التَّفَــاصِيْــلُ لِــلأَحْكَــامِ مَــعْ نَبَــإٍ
عَمَّــا سَيَــأْتِي وعن مَــاضٍ مِن الأُمَمِ

فَــأنْظُرْ قَــوَارِعَ آيــاتِ الــمَعَــادِ بِــهِ
وانْــظُرْ لِمَــا قَصَّ عنِ عَــاد وَعَــنْ إرمِ

وانْظُرْ بِهِ شَرْحَ أَحْكَامِ الشَّرِيْعَةِ هَلْ
تَرَى بِهَا مِن عَوِيْصٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ

أَمْ مِن صَلَاحٍ وَلَمْ يَهْدِ الأَنَامَ لَهُ
أَمْ بَابِ هُلْكٍ وَلَمْ يَزْجُرْ ولَمْ يَلُمِ

أَمْ كَانَ يُغْنِيْ نَقِيْراً عن هِدَايَتِهِ
جَمِيْعُ ما عِنْدَ أَهْلِ الأَرْضِ مِن نُظُمِ

أَخْبَارُهُ عِظَةٌ أَمْثَالُهُ عِبَرٌ
وكُلُّهُ عَجَبٌ سُحْقاً لِذِي صَمَمِ

لَمْ تَلْبَثِ الجِنُّ إِذْ أَصْغَتْ لِتَسْمَعَهُ
أَنْ بَادَرُوْا نُذُراً مِنْهُمْ لِقَوْمِهِم

اللهُ أَكْبَرُ مَا قَدْ حَازَ مِن عِبَرٍ
ومِن بَيَانٍ واعْجَازٍ ومِن حِكَمِ

والـلَّهُ أَكْبَرُ إِذْ أَعْيَتْ بَلَاغَتُهُ
وحُسْنُ تَرْكِيْبِهِ لِلْعُرْبِ والعَجَمِ

كَمْ مُلْحِدٍ رَامَ أَنْ يُبْدِيْ مُعَارَضَةً
فَعَادَ بِالذُّلِّ والخُسْرانِ والرَّغَمِ

هَيْهَاتَ بُعْداً لِمَا رَامُوا وَمَا قَصَدُوْا
وما تَمَنَّوْا لَقَدْ بَاؤُوْا بِذُلِّهِمِ

خَابَتْ أَمَانِيْهُمْ شَاهَتْ وُجُوْهُهُمُ
زَاغَتْ قُلُوبُهُمُ عن هَدْيِهِ القَيِمِ

كَمْ قَـدْ تَحَدَّى قُرَيْشاً في القَـدِيْم وهُمْ
أَهْـلُ الـبَـلاَغَـةِ بَيْنَ الـخَلْقِ كُـلِّهِـمِ
بِـمِـثْـلِهِ وَبِـعَـشْـرٍ ثُـمَّ وَاحِـدَةٍ
فَـلَمْ يَـرُوْمُـوْهُ إِذْ ذَا الإِمْـرَ لَـمْ يُـرَمِ
الجِنُّ والإِنْسُ لم يَـأتُـوا لَـوْ اجْتَمَعُـوْا
بِـمِـثْلِهِ وَلَـوِ انْـضَـمُّـوْا لِـمِـثْلِهِـمِ
أَنَّـي وَكَـيْـفَ وَربُ الـعَـرْشِ قَـائِـلُهُ
سُبْحَـانَـهُ جَـلَّ عن شِبْـهٍ لَـهُ وَسَمِي
مَـا كَـانَ خَـلْقـاً ولا فَيْضـاً تَـصَـوَّرَهُ
نَـبِـيُّـنَـا لاَ وَلاَ تَـعْـبِـيْـرَ ذِي نَـسَـمِ
بَـلْ قَـالَـهُ رَبُّـنَـا قَـوْلاً وأَنْـزَلَـهُ
وَحْـيـاً على قَـلْبِـهِ المُـسْتَيْقِظِ الـفَهِـمِ
والـلهُ يَـشْـهَـدُ والأمـلاكُ شَـاهِـدَةٌ
والـرُّسْـلُ مَـعْ مُؤْمِنِيْ العُـرْبَـانِ والعَجَمِ

اللهم أرزقْنا عِلماً نافعاً وعملاً مُتَقَبَّلًا ورزقاً واسعاً نَسْتَعِيْنُ به على طَاعَتِكَ وقلباً خاشعاً ولِساناً ذَاكِراً وإيماناً خَالِصاً وَهَبْ لَنا إنابةَ المُخْلِصِيْنَ وخشوعَ المُخبتين وأعْمَالَ الصالِحين وَيَقِيْنَ الصادِقِين وسعادَةَ المُتقِين ودَرَجَاتِ الفَائِزِين يا أَفْضَلَ مَنْ رُجِيْ وقُصِدَ وأَكْرَم مَنْ سُئِلَ واغفرْ لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قصة عبد الله بن مسعود

كانَ عبدُ الله بنُ مسْعُودٍ فتىً لَمْ يُجَاوِز الحُلُمَ وكانَ يَسْرَحُ في شِعاب مَكةَ بَعِيْداً عن الناسِ وَمَعَهُ غَنَمٌ يرْعَاهَا لِعُقْبَةَ بنِ مُعَيْطٍ وكان الناسُ يُنَادُونَهُ « ابنَ أُمِّ عَبْدٍ » .

أما أسْمُهُ فَهُو عبدُ اللهِ وأَمَّا إسَمُ أَبِيْهِ فَمَسْعُودٌ كان الغُلامُ يَسْمَعُ بأخبارِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم فلا يَأبَهُ لَهَا لِصِغَرِ سِنِّهِ مِن جِـهَةٍ ولِبُعْدِهِ عن المُجْتَمَعِ المَكِّي مِن جِهَةٍ أُخْرَى فَقَد دَأَبَ على أنْ يَخْرُجَ بغَنَمِ عُقْبَةَ مُبَكِّراً ثُمَّ لا يَعُوْدُ بِهَا إلَّا إذا أَقْبَلَ الليلُ .

وفي ذَاتِ يَوْمٍ أَبْصرَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ كَهْلَيْنِ عَلَيْهِما الوَقَارُ يَتَّجِهَانِ نَحْوَهُ مِن بَعِيْدٍ وقد أَخَذَ الجُهْدُ مِنْهُمَا كُلَّ مَأْخَذٍ واشتدَ عَلَيْهِمَا الظَّمأُ حَتَّى جَفَّتْ مِنْهُمَا الشِّفَاهُ والحُلُوقُ .

فَلَمَّا وَقَفَا عَلَيْه سَلَّمَا وَقَالاَ يا غُلامُ احْلِبْ لَنَا مِن هَذِهِ الشِيَاه ما نُطْفِىءُ بِهِ ظَمَأنا ونَبُلُّ به عُرُوْقَنَا فَقالَ لا أَفْعَلُ فالغَنَمُ لَيْستْ لِيْ وأنا علَيْها مُؤْتَمنٌ فَلَمْ يُنْكِرِ الرَّجلانِ عليهِ قَوْلَهُ وَبَدَا عَلَى وَجْهَيْهِمَا الرِّضَاءُ عنه .

ثُمَّ قالَ لَهُ أَحَدُهُمَا دُلَّنِي عَلَى شَاةٍ لَمْ يَنْزُو عَلَيْهَا فَحْلٌ فَأَشَارَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ الى شَاةٍ صَغِيْرَةٍ قَرِيْبَةٍ منه فَتَقَدَّمَ إلَيْهَا الرَّجُلُ واعْتَقَلَهَا وَجَعَلَ يَمْسَحُ ضَرْعَهَا بِيَدِهِ وهُوَ يَذْكُرُ عَلَيها اسْمَ اللهِ فَنظَرَ عبْدُ اللهِ في دَهْشَةٍ قَائلاً في نَفْسِهِ وَمَتَى كَانَتِ الشَّاةُ الصَّغِيْرَةُ التِي لَمْ تَنْزُوْ عَلَيْهَا الفُحُوْلُ تُدِرُّ لَبَناً .

لكِنَّ ضَرْعَ الشَّاة لَمْ يَلْبَثْ أَنْ انْتَفَخَ مِن اللَّبَنِ وَطَفِقَ اللَّبَنُ يَنْبَثِقُ مِنْهُ ثراً

غزيْراً .

فأخَذَ الرَّجُلُ الآخَرُ حَجراً مُجَوَّفاً مِن الأَرْضِ وَمَلأَهُ باللَّبَنِ وَشَرِبَ مِنْهُ هُوَ وَصَاحِبُهُ ثم سَقَيَانِيْ مَعَهُمَا وَأَنا لا أَكَادُ أُصدِّقُ ما أرى ، فَلَمَّا ارْتَوَيْنَا قَالَ الرَّجُلُ المُبَارَكُ لِضَرْعِ الشَّاةِ انْقَبِضْ فَمَا زَالَ يَنْقَبِضُ حَتَّى عَادَ إلى ما كَانَ عليهِ عندَ ذلكَ قُلْتُ لِلرَّجُلِ المُبَارَك عَلِّمْنِي مِن هَذَا القَوْلِ الَّذِيْ قُلْتَهُ فقالَ لِيْ إنَّكَ غُلامٌ مُعَلَّمٌ .

كانَتْ هَذِهِ بِدايَةُ قِصَّةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُوْدٍ مَعَ الإِسْلام وأَمَّا الرَّجُلُ المُبَارَكُ فَرسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأَمَّا الذي مَعَهُ فَأبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ رضي اللهُ عنه فَقَدْ نَفَرَا في ذَلِكَ إلى شِعَابِ مَكة لِفَرْطِ مَا أَرْهَقَتْهُمَا قُرَيْشٌ ولِشِدَّةِ مَا أَنْزَلَتْ بِهِمَا مِن البَلاءِ .

وكَمَا أحَبَّ الغُلامُ الذي هُوَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعودٍ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَصَاحِبَهُ وَتَعَلَّقَ بهما فَقَدْ أُعْجِبَ صَلَّى الله عليه وسلم وَصَاحِبُهُ بِعَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ وأَكْبَرَا أَمَانَتَهُ وَحَزْمَهُ وَتَوسَّمَا فيه الخَيْرَ ولم يَمْضِ إلاَّ مُدَّةٌ يَسِيْرَةٌ حَتَّى أَسْلَمَ عبدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ وَعَرَضَ نَفْسَهُ على النبي صلى اللهُ عليه وسلم لِيَخْدِمَهُ فَقَبِلَهُ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم وَوَضَعَهُ في خِدْمَتِهِ .

ولزِمَ عبدُ الله بنُ مَسْعودٍ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَكانَ يُرَافِقُهُ في حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ يُوْقِظُهُ إذا نَامَ وَيَسْتُرُهُ عندَ الغُسْلِ وَيُلْبِسُهُ نَعْلَيْهِ إذا أَرادَ الخُرُوْجَ وَيَخْلَعَهُا مِن قَدَمَيْهِ إذا أَرادَ الدُخُولَ وَيَحْمِلُ لهُ عَصَاهُ وَسِوَاكَهُ وَيَلِجُ الحُجْرَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ إذا آوَى إلى حُجْرَتِهِ .

فَتَرَبَّى عبدُ اللهِ في بَيْتِ رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم فاهْتَدَى بِهَدْيِهِ وتخلَّق بشَمَائِلِهِ وَتَابَعَهُ في كُلِّ خَصْلَةٍ مِن خِصَالِهِ وَتَعَلَّمَ ابنُ مَسْعُودٍ في مَدْرَسَةِ

النبي صلى اللهُ عليه وسلم فكانَ مِن أقْرَأِ الصَّحابَةِ لِلْقُرْآنِ وأفقَهِهِمْ لِمَعانِيْهِ ومِن أعْلَمِهِمْ بِشَرْعِ اللهِ .

ولا أَدَلَّ على ذلكَ مِن حِكَايَةِ ذَلِكَ الرَّجُلُ الذِي أقْبَلَ عَلَى عُمَرَ ابْنِ الخَطَّابِ وَهُوَ وَافٍ بعرَفَةَ فقال لَهُ جئْتُ يا أمِيْرَ المؤمنين مِن الكُوفَةِ ـ وَتَرَكْتُ بِهَا رَجُلاً يُمْلِي المَصَاحِفَ عن ظَهْرِ قَلْبِهِ فَغَضِبَ عُمَرُ غضباً شَدِيْداً وقال مَنْ هُوَ وَيْحك قال عبدُ اللهِ ابنُ مَسْعُود فَمَا زَالَ عُمَرُ يَنْطَفِي غَضَبُهُ وَيُسَرَّى عَنْهُ حَتَّى عادَ إلى حَالِهِ .

ثم قَالَ وَيْحَكَ واللهِ مَا أَعْلَمُ أَنَّهُ بَقِيَ أَحَدٌ من الناسِ أَحَقُّ بهذا الأمرِ منهُ وسَأُحَدِّثُكَ عن ذلكَ كانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم يَسْمُرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ عند أبي بَكْرٍ ـ أيْ يَتحَدَّثَان وَيَتَفَاوَضَانِ في أَمْرِ المُسْلِمِيْنَ وكُنْتُ مَعَهُمَا ثم خَرَجَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم وَخَرَجْنَا مَعَهُ فاذا رَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي بالمَسْجِدِ لم نَتَبَيَّنْهُ فَوَقَفَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يَسْمَعُ إليْهِ .

ثم التَفَتَ إلينَا وقال مَنْ سَرَّهُ أَن يَقرأُ القُرْآنَ رَطْباً كَمَا نَزَلَ فَلْيَقْرَأ على قِراءَةِ ابنِ أمّ عَبْدٍ ثم جَلَسَ عبدُ اللهِ يَدْعُوْ فَجَعَلَ الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ لَهُ سَلْ تُعْطَهْ سَلْ تُعْطَهْ ، قال عُمَرُ فقلتُ في نَفْسِي واللهِ لأغْدُوَنَّ على عبدِالله بنِ مَسْعُودٍ لأُبَشِّرَنَّهُ بِتَأْمِين رسولِ اللهِ صلى اللهُ علبه وسلم على دُعَائِهِ فَغَدَوْتُ عليه فَبَشَّرْتُهُ فَوَجَدْتُ أبَا بَكْرٍ قَد سَبَقَنِي إليه فَبَشَّرَهُ .

لا واللهِ ما سَابَقْتُ أبَا بَكْرٍ إلى خَيْرٍ قَطُ إلاَّ سَبَقَنِي إليهِ وَلَقَدْ بَلَغَ مِن عِلْمِ عَبْدِ اللهِ بن مَسْعودٍ بكتابِ اللهِ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ واللهِ الذي لا آلهَ غَيْرُهُ ما نَزَلَتْ آيَةٌ مِن كِتَابِ اللهِ إلا وَأنَا أعْلَمُ أيْنَ نَزَلَتْ وَأَعْلَمُ فِيْمَا نَزَلَتْ وَلَوْ أَعْلَمُ أنَّ أحداً أعْلَمُ مِنِّيْ بِكِتَابِ اللهِ تَنالُهُ المَطِيُ لأتَيْتُهُ .

ولم يَكُنْ عبدُ الله بنُ مَسْعُودٍ مُبالِغاً فِيْمَا قَالَهُ عن نَفْسِهِ فَهذَا عُمَرُ بنُ الخطَابِ رضي اللهُ عنه يَلْقَى رَكْباً في سَفَرٍ مِن أسْفَارِهِ والليْلُ مُخيِّمٌ يَحْجبُ الرَّكْبَ بظَلامِهِ وكان في الرَّكْبِ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ فأمَرَ عُمَرُ رَجُلاً أنْ يُنَادِيْهِم مِنْ أينَ القَوْمُ فَأَجَابَهُ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ من الفَجِّ العَمِيْقِ .

فقال عُمَرُ أين تُرِيْدُونَ فَقَالَ عَبدُاللهِ البَيْتَ العَتِيْقَ فقال عُمَرُ إنَّ فِيْهِم عالماً وأَمَرَ رَجُلاً فَنَادَاهُمْ أيُّ القُرْآنِ أعْظَمُ فَأجَابَهُ عبدُ الله بنَ مسعود « اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحيُّ القَيُّومُ » الآيَةَ قال نَادِهِم أيُّ القُرْآن أحْكَمُ فقال عَبدُ اللهِ « إن اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والاحسانِ وايتاءِ ذِي القُرْبَى » .

فَقَالَ نَادِهِمْ أَيُّ القُرْآنِ أَجْمَعُ فقال عبدُ الله « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّة شَراً يَرَهُ » فقال عُمَرُ نَادِهِم أيُ القرآنِ أخوفُ فقال عبدُ الله « لَيْسَ بأمانِيّكمُ ولا أمانِي أهلِ الكِتابِ مَن يَعْمَلْ سُوْءاً يُجْزَ بِهِ » الآية .

فَقَالَ عُمَرُ نادِهِمْ أيُّ القُرْآنِ أرْجِي فقالَ عبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ « قُلْ يا عِبَادِي الذينَ أسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُنُوبَ جَميْعاً إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرحيم » فقال نادِهِم أَفِيْكُم عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ قَالُوا اللَّهُمَّ نَعَمْ .

ولم يَكُنْ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ قَارِئاً عَالِماً عَابِداً زَاهِداً فَحَسْب وإِنَّمَا كَانَ مَعَ ذَلكَ قَوِيّاً حَازِماً مُجَاهِداً مِقْدَاماً شُجَاعاً إذا جَدَّ الجِدُّ فَحَسْبُهُ أنَّهُ أوَّلُ مُسْلِمٍ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ جَهَرَ بالقُرآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

فقدِ اجْتَمَعَ يَوْماً أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في مكة

وكانُوا قِلَّةً مُسْتَضْعَفِيْنَ فَقَالُوا وَالله ما سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَذَا القُرآنَ يُجْهَرُ بِهِ قَطُ فَمَنْ رَجُلٌ منكُمْ يُسْمِعُهُمْ إِيَّاهُ فَقَال عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعودٍ أنا أُسْمِعُهُمْ إيَّاه فقالُوا إنا نَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ إِنَّمَا نُرِيْدُ رَجُلاً لَهُ عَشِيْرَةٌ تَحْمِيْه وَتَمْنَعهُ مِنهُمْ إذا أَرادُوْهُ بِشَرٍ .

فقال دَعُونِي فإِنَّ اللَّهَ سَيمْنَعُنِيْ وَيَحْمِيْنِي ثُمَّ غَدَا إلَى المَسْجِدِ حَتَّى أَتَى مَقَامَ ابْرَاهِيْمَ في الضُّحَى وقُرَيْشٌ جُلُوْسٌ فوقَفَ عِنْدَ المَقَامِ وَقَرأ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرحِيم رَافعاً صَوْتَهُ ﴿ الرحمنُ عَلَّمَ القُرْآنَ خَلَقَ الانسانَ عَلَّمَهُ البَيَانِ ﴾ .

وَمَضَى يَقرؤها فتَأَمَّلَتْهُ قُرَيْشٌ وَقَالَتْ مَاذَا قَالَ ابنُ أُمِّ عَبْدٍ تَباً لَهُ . . . إنَّه يَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِه مُحَمَّدٌ وَقَامُوا إليْهِ وَجَعَلُوْا يَضْرِبُوْنَ وَجْهَهُ وَهُوَ يَقْرَأُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَبْلُغَ .

ثم انْصَرَفَ إلى أَصْحَابِهِ والدَّمُ يَسِيْلُ مِنْهُ فَقَالُوا لَهُ هَذَا الَّذِي خَشِيْنَا عَلَيْكَ فَقَالَ واللهِ مَا كَانَ أعْدَاءُ اللهِ أهْوَنَ في عَيْنِي مِنْهُمُ الآنَ وإنْ شِئْتُم لأُغَادِيَنَّهُمْ بِمِثْلِهَا غداً قَالُوا لا حَسْبُكَ لَقَد أسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُوْنَ .

ومِن كَلاَمِهِ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّهُ كانَ يَقُولُ إنَّ الرَّجُلَ لَيَدْخُلُ على السُلطَانِ وَمَعَهُ دينه فَيَخْرُجُ ولا دِيْنَ مَعَهُ لأَنَّهُ مُعَرَّضٌ أنْ يَعْصِي اللهَ تَعَالَى إمَّا بِفِعْلِهِ وإمَّا بسُكُوْتِهِ وإمَّا باعْتِقَادِهِ .

وكانَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ رَجُلاً قَامَ بَيْنَ الرُكْنِ والمَقَامِ يَعْبُدُ اللهَ تعالى سَبْعِيْنَ سَنَةً وَهُوَ يُحِبُّ ظَالِماً لَبَعَثَهُ اللهُ يوم القِيَامَةِ مَعَ مَن يُحِبُّ وَسَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ اللَّهُمَّ إني أُحِبُّ أَنْ أكُونَ مِن المُقَربين ولا أحبُّ أَن أَكُونَ مِن أَصْحَابِ

اليَمِيْنِ فقال ابنُ مَسْعُوْدٍ هَا هُنَا رَجُلٌ يَوَدُّ أَنَّه إذا مَاتَ لَا يُبْعَثُ يَعْنِي نَفسَه رضيَ اللهُ عنه .

وَخَرَجَ مَرَّة مَعَه نَاسٌ يُشَيِّعُونَهُ فقالَ لَهُمْ أَلَكُمْ حَاجَةٌ قالُوا لا فقالَ ارْجِعُوا فإِنَّهُ لِلتَّابِعِ وفِتْنَة لِلْمَتْبُوعِ وكانَ يَقُولُ لَيْسَ العِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِوَايَةِ انَّما العِلْمُ بالخشْيَةِ .

وكانَ يقُولُ ذَهَبَ صَفْوُ الدُنْيَا وَبَقِيَ كَدَرُهَا والمَوْتُ اليومَ تُحْفَةٌ لِكُلِ مُسْلِمٍ ومِن كَلَامِهِ إني لا أُبْغِضُ الرَّجُلَ أَنْ أراهُ فَارِغاً لَيْسَ في شَيءٍ مِنْ عَمَلِ الدُنْيَا ولا عَمَلِ الآخِرَةِ ﴾ .

مَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ الصَّلَاةُ بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَهُ عَنِ المُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ بِهَا مِن اللهِ إلَّا بُعْدَا ، إنَّكُم تَرَوْنَ الكافِرَ مِن أَصَحِّ الناسِ جِسْماً وأمْرَاضِهِمْ قَلْباً وَتَلْقَوْنَ المُؤْمِنَ مِن أَصَحِّ الناسِ قَلْبا وأمْرَضِهِمْ جِسْماً وَأَيْمُ اللهِ لَوْ مَرِضَتْ قُلُوبُكُم وَصَحَّتْ أَبْدَانُكُم لَكُنْتُمْ أهْوَنَ على اللهِ مِن الجُعْلَانِ .

يَكُونُ في آخِرِ الزَمَانِ أَقْوَامٌ أَفْضَلُ أَعْمَالِهِمْ التَّلَاوُمُ بَيْنَهُمْ يُسَمَّوْنَ الأَنْتَانَ .

عاشَ عبدُ اللهِ بنُ مَسْعُوْدِ الى زَمَنِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عنه فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَ المَوْتِ جَاءَهُ عثمَانُ عَائِداً فقَالَ له مَا تَشْتَكِيْ قال ذُنُوْبِي قَال فَمَا تَشْتَهِيْ قَال رَحْمَةَ رَبِيْ قَال ألَا آمُرُ لَكَ بِعَطَائِكَ الذي امْتَنَعْتَ عن أخْذِهِ مُنْذُ سِنِيْن .

فقال لا حَاجَةَ لي بِهِ فقالَ يَكُونُ لِبَنَاتِكَ مِن بَعْدِكَ فَقَالَ أَتَخْشَى على بَنَاتِي الفَقْرَ إنِّي أَمَرْتَهُنَّ أَنْ يَقْرَأنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُوْرَةَ الْوَاقِعَةِ وإنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ مَن قَرَأَ الوَاقِعَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبداً .

وَلَما أَقْبَلَ الليلُ تُوفِي عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه ولِسَانُهُ رَطْبُ بِذِكْرِ اللهِ نَدِيٌ بآياتِهِ مَاتَ في المَدِيْنَةِ ودُفِنَ في البَقِيْعِ وَصَلّى عليه عُثمانُ وله ثلاثٌ وسِتُونَ سَنَةً رضي الله عنه .

اللهم وَفِّقْنا لِسُلوكِ سبِيْلِ أهْلِ الطّاعَةِ وارزقنا الثبات عليه والاستقامة وعافنا من موجبات الحسرة والندامة وأمنا مِن فزع يوم القيامة واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

شعراً : فيما جرى على الاسلام وأهله مِن الظلمة والطغاة والمجرمين : جَازَاهُم اللهُ بِمَا يَسْتَحِقُّوْن :

وَدَارَتْ عَلَى الاسْلام أَكْبَرُ فِتْنَةٍ
وسُلَّتْ سُيُوفُ البَغْيِ مِنْ كُلِّ غَادِرِ
وذَلَّتْ رِقَابٌ مِن رِجَالٍ أَعِزَّةٍ
وكَانُوا على الاسْلامِ أَهْلَ تَنَاصُرِ
وأَضْحَى بَنُو الاسْلامِ في كُلِّ مَأْزَقٍ
تَزُوْرُهُمُوا غَرْثَى السِّبَاعِ الضَّوَامِرِ
وهُتِّكَ سِتْرٌ لِلْحَرَائِرِ جَهْرَةً
بأَيْدِي غُوَاتٍ مِن بَوَادٍ وَحَاضِرِ
وجَاءُوا مِن الفَحْشَاءِ ما لَا يَعُدُّهُ
لَبِيْبٌ ولا يُحْصِيْهِ نَظْمٌ لِشَاعِرِ
وبَاتَ الأَيَامَى في الشِّتَاءِ سَوَاغِباً
يُبَكِّيْنَ أَزْواجاً وخَيْرَ العَشَائِرِ

وجَـاءَتْ غَـرَاشٍ يَشْهَـدُ النَّصُّ أَنَّهَـا
بِمَـا كَسَبَتْ أَيْدِي الـغُـوَاةِ الغَـوَادِرِ

وجَـرَّ زَعِـيْـمُ الـقَـومِ لِلتُّرْكِ دَوْلَـةً
عَلَى مِلَّةِ الاسـلامِ فِعْـلَ المُكَـابِـرِ

وَوَازَرَهُ فِـيْ رَأْيِـهِ كُـلُّ جَـاهِـلِ
يَـرُوْحُ ويَغْـدُوْ آثِمـاً غَيْـرَ شَـاكِـرِ

وآخَـرُ يَبْتَـاعُ الـضَّـلاَلَـةَ بـالهُـدى
ويَخْتَالُ في ثَـوْبٍ مِن الكِبْرِ وَافِـرِ

وثَـالِثُهُمْ لاَ يَعْبَـؤُ الـدَّهْـرُ بـالتِي
تَبِيْـدُ مِن الاسلامِ عَـزْمَ المَـذَاكِـرِ

وَلَـكِـنَّـهُ يَـهْـوَى وَيَـعْـمَـلُ لِلْهَـوَى
وَيُصْبِـحُ في بَحْـرٍ من الـرَّيْبِ عَـامِـرِ

وقَدْ جَاءَكُمْ فِيْمَا مَضَى خَيْرُ نَـاصِحٍ
إِمَـامُ هُـدىً يَبْنِي رَفِيْـعَ الْمَفَـاخِـرِ

ويُنْقِـذُهُمْ مِن قَـعْـرِ ظَلْـمَا مُـضِلَّةٍ
لِسَـالِكِهَا أَوْ مِنْ لَـظَى والـمَسَاعِـرِ

ويُخْبِـرُهُمْ أَنَّ السَّـلامَـةَ في التِي
عَلَيْهَا خِيَارُ الصَّحْبِ مِن كُلِّ شَاكِـرِ

فَلَمَّا أَتَاهُمْ نَصْرُ ذِي العَرْشِ واحْتَوى
أَكَـابِـرُهُمْ كَنْـزَ اللُّهى والـذَّخَـائِـرِ

سَعَوْا جُهْدَهُمْ في هَدْمِ مَا قَدْ بَنَى لَهُمْ
مَشَـائِخُهُمْ واسْتَنْـصَـرُوْا كُـلَّ دَاغِـرِ
وَسَـارُوا لأَهْـلِ الشِّـرْكِ واسْتَسْلَمُـوْا لَهُمْ
وَجَـاؤُا بِهِمْ مِن كُـلِّ إفْـكٍ وَسَـاحِـرٍ
ومُـذْ أَرْسَلُوهَـا أَرسَلُوهَـا ذَمِيْـمَـةً
تُهَـدِّمُ مِن رَبْعِ الهُـدَى كُـلَّ عَـامِـرِ
وبَـاؤُا مِنَ الخُسْـرَانِ بـالصَّفَقَـةِ التِي
يَبُـوءُ بِهَـا مِن دَهْـرِهِ كَـلّ خَـاسِـرِ
وَصَـارَ لِأَهْلِ الـرُّفْضِ والشِّرْكِ صَـوْلَةٌ
وقَـامَ بِهِمْ سُـوْقُ الـرَّدَى والمَنَـاكِـرِ
وعَـادَ لَـدَيْـهِـمْ لِـلُّوَاطِ ولِـلْـخَـنَـا
مَعَـاهِـدُ يَغْـدُوْ نَحْـوَهَـا كُـلَّ فَـاجِـرِ
وشُتِّتَ شَمْـلُ الـدِّيْنِ وانْبَتَّ حَـبْلُهُ
وَصَـارَ مُضَـاعـاً بَيْنَ شَـرِّ العَسَـاكِـرِ
وأُذِّنَ بـالنَّـاقُـوسِ والـطَّبْـلِ أَهْلُهَـا
وَلَمْ يَـرْضَ بالتَّـوْحِيْدِ حِـزْبُ المَزَامِـرِ
وأَصْبَـحَ أَهْـلُ الحَقِّ بَيْـنَ مُعَـاقَـبٍ
وَبَيْنَ طَرِيْدٍ في القَبَـائِلِ صَـائِرِ
فَقُـلْ لِلْغَـوِّي المُسْتَجِـيْـرِ بِظُلمِهِـمْ
سَتُحْشَـرُ يَـوْمَ الـدِّيْن بَيْن الأَصَـاغِـرِ

وَيُكْشَفُ لِلْمُرْتَابِ أَيَّ بِضَاعَةٍ
أَضَاعَ وَهَلْ يَنْجُو مُجِيْرُ أُمِّ عَامِرِ
ويَعْلَمُ يَوْمَ الجَمْعِ أَيَّ جِنَايَةٍ
جَنَاها وما يَلْقَاهُ مِن مَكْرِ مَاكِرِ
فَيَا أُمَّةً ضَلَّتْ سَبِيْلَ نَبِيِّهَا
وآثَارَهُ يَوْمَ اقْتِحَامِ الكَبَائِرِ
يَعِزُّ بِكُمْ دِينُ الصَّلِيْبِ وأَهْلِهِ
وأَنْتُمْ بِهِم مَا بَيْنَ رَاضٍ وآمِرِ
وتُهْجَرُ آيَاتُ الهُدَى ومَصَاحِفٌ
ويُحْكَمُ بالقَانُونِ وَسْطَ الدَّسَاكِرِ
هَوَتْ بِكُمُ نَحْوَ الجَحِيْمِ هَوَادَةٌ
وَلَذَّاتُ عَيْشٍ نَاعِمٍ غَيْرِ شَاكِر
سَيَبْدُوْا لَكُمْ مِن مَالِكِ المُلْكِ غَيْرُ مَا
تَظُنُّونَهُ بَعْدَ الثَّوَى فِي المَقَابِرِ
يَقُوْلُ لَكُمْ مَاذَا فَعَلْتُمْ بِأُمَّةٍ
عَلَى نَاهِجٍ مِثْلَ النُّجُوْمِ الزَّوَاهِرِ
سَلَلْتُمْ سَيُوفَ البَغْيِ فِيْهِمْ وَعُطِّلَتْ
مَسَاجِدُهُم مِن كُلِّ دَاعٍ وذَاكِرِ
وَوَالَيْتُمُ أَهْلَ الجَحِيْمِ سَفَاهَةً
وَكُنْتُمْ بِدِيْنِ اللهِ أَوّلَ كَافِرِ

نَسِيْتُمْ لَنَـا عَهْـداً أَتَـاكُمْ رَسُـوْلُنَـا
بِـهِ صَـارِخـاً فَـوْقَ الذُّرَى والمَنَـابِـرِ

فَسَـلْ سَاكِنِ الأَحْسَـاءِ هَلْ أَنْتَ مُـؤْمِنٌ
بِهَـذَا ومَـا يَجْـرِي صَحِيْـحُ الـدَّفَـاتِـرِ

وَهَـلْ نَـافِـعٌ لِلْمُجْـرِمِيْنَ اعْتِـذارُهُمْ
إذا دَارَ يَـوْمَ الجَمْعِ سُـوْءُ الـدَّوَائِـرِ

وقـال الشَّقِيُّ المُفْتَـرِيْ كُنْتُ كَـارِهـاً
ضَعِيْفـاً مُضَـاعـاً بَيْنَ تِلْكَ العَسَـاكِـرِ

امَـانِـيَّ تَـلْقَـاهَـا لِـكُـلِّ مُـتَـبَّـرٍ
حَقِيْقَتُهَـا نَبْـذُ الـهُـدَى والشَّـعَائِرِ

تَعُـودُ سَـرَابـاً بَعْـدَ مَـا كَـانَ لامِعـاً
لِكُـلِّ جَهُـولٍ فِي المَهَـامِـهِ حَـائِـرِ

فَـإِنْ شِئْتَ أن تُحْضَى بِـكُـلِّ فَضِيْلَةٍ
وتَـظْهَرَ فِي ثَـوْبٍ مِـنَ المَجْدِ بَـاهِرِ

وتَـدْنُـوْا مِن الجَبَّـارِ جَـلَّ جَـلاَلُـهُ
إِلى غَـايَـةٍ فَـوْقَ العُلَى والمَـظَاهِـرِ

فَهَـاجِـرْ إِلَى رَبِّ البَـرِيَّـةِ طَـالِبـاً
رِضَـاهُ وَرَاغِمْ بـالهُـدَى كُـلَّ جَـائِـرِ

وَجَـانِـبِ سَبِيْـلَ العَـادِلِيْنَ بِـرَبِّـهِمْ
ذَوِيْ الشِّرْكِ والتَّعْطِيْلِ مَعَ كُلِّ غَادِرِ

وَبـادِرْ إلى رَفْـعِ الشِّكَـايَـةِ ضَـارِعـاً
إلى كَـاشِفِ البَلْوَى عَـلِيْمِ السَّرَائِـرِ
وكَـابِدْ إِلَى أَنْ تَبلُغَ النَّفْسُ عُـذْرَهَـا
وتُـرْفَعَ في ثَـوْبِ من العَفْـوِ سَـاتِـرِ

وَلَا تَـيْـأَسَـنْ مِـن صُـنْـعِ رَبِّـكَ إِنَّـهُ
مُـجِـيْـبٌ وإِنَّ الـلَّـهَ أَقْـرَبُ نَـاصِـرِ

أَلَـمْ تَـرَى أَنَّ اللهَ يُـبْـدِيْ بِـلُطْفِـهِ
وَيُعقِبُ بَعْـدَ العُسْـرِ يُسْـراً لِصَـابِـرِ
وأَنَّ الـدِّيَـارَ الـهَـامِـدَاتِ يَمُـدُّهَـا
بِـوَبْـلٍ مِن الـوَسْمِي هَـامٍ ومَـاطِـرِ
فَتُصْبِحُ فِي رَغْدٍ مِن العَيْشِ نَـاعِمٍ
وتَهْتَزُ في ثَـوْبٍ مِن الحُسْنِ فَاخِـرِ

اللَّهُمَّ يا مَنْ فَتَحَ بَابَهُ لِلطَّالِبِيْن وَأَظْهَرَ غِنَاءَهُ لِلرَّاغِبِيْنَ أَلْهِمْنَا ما أَلْهَمْتَ عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ وأيقضْنَا مِن رَقْدَةِ الغَافِلِيْن إِنَّكَ أَكْرَمُ مُنْعِمٍ وأعزُّ مُعِيْن واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قصة عبد الله بن عباس

عبدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ بنُ عَمّ المُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عليه وسلم اجْتَمَعَ لَهُ رضي الله عنه مَجْدُ الصُّحَبْةِ وَمَجْدُ القَرَابَةِ لِلرَّسُولِ صلى اللهُ

عليه وسلم وَمَجْدُ العِلْمِ وَمَجْدُ التُّقَي ، فقدْ كانَ صَوَّاماً بِالنهارِ قَوَّاماً بالليل بَكَاء مِنَ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى قِيْلَ إن الدَّمْعَ حفَرَ خَدَّيْهِ أَعْلَمُ الأمةِ بِكِتَابِ اللهِ وأفـقَهُهَا بتأويْلِهِ وأَقْدَرُهَا على النُّفُوذِ إلى أَغْوارِهِ وَإِدْرَاكِ مَرَامِيْهِ وأَسْرَارِهِ .

وُلِدَ رَضِيَ اللهُ عَنه قَبْلَ الهجْرَةِ بِثَلَاثِ سَنَواتٍ ولَمَّا تُوفي رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كان لَهُ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةَ فَقَطْ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ حَفِظَ لِلْمُسْلِمِيْنَ عن نَبِيِّهِمْ أَلْفاً وَسِتَّمَائَةٍ وسِتِّينَ حَديثاً أَثْبَتَها البُخَارِيُ وَمُسْلِمُ في صحيحهما .

وَلَمَّا وَضَعَتْهُ أُمُّهُ حَمَلَتْهُ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَحَنَّكَهُ بِرِيقِهِ صَلى اللهُ عليه وسلم فكانَ أَوَّلَ ما دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ النَبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم المُبارَكُ الطاهِرُ وعندمَا دَخلَ سِنَّ التَّمْيِيْزِ لازمَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم مُلازَمَةَ العَيْنِ لِأُخْتِهَا .

فكَانَ يُعِدُّ لَهُ مَاءَ وُضُوْئِهِ إِذَا هَمَّ أَنْ يَتوضَأَ ويُصَلِيْ خَلْفَهُ إذا وَقَفَ لِلصَّلاةَ ويكونُ رَدِيْفَه إذَا عَزَمَ عَلَىَ سَفَرٍ وهُوَ في ذَلِكَ يَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَلْباً وَاعِياً وَذِهْناً صَافِياً .

حَدَّثَ عَنِ نَفْسِهِ قَالَ هَمَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالوُضُوءِ ذَاتَ مَرَّةٍ فَمَا أَسْرَع أنْ أَعْدَدْتُ لَهُ المَاءَ فَسُرَّ بِمَا صَنَعْتُ ولَمَّا هَمَّ بالصلاةِ أَشَارَ إِليَّ أنْ أَقِفَ بازَائِهِ فَوَقَفْتُ خَلْفَهُ .

فَلَمَّا انْتَهتِ الصَّلاةُ مَالَ عَلِيَّ وَقَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكُونَ بازَائِيْ يَا

عَبْدَ اللهِ فَقُلْتُ أَنْتَ أَجَلُ في عَيْنِي وأعَزُّ مِن أُوَازِيْكَ يا رَسُولَ الله .

فَرَفَعَ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ وقال « اللَّهُمَّ آتِـهِ الحِكْمَةَ » وقَدْ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَةَ نَبِيِّهِ فآتاهُ مِن الحِكْمَةِ مَا فَاقَ به أَسَاطِيْنَ الحُكَمَآءِ .

من ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اعْتَزَلَ بَعْضُ أَصْحَابِ عَلِي بن أَبِي طَالِبٍ وَخَذَلُوهُ في نِزَاعِهِ مَعَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال عبدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ لِعَلِي رضِيَ اللهُ عنهُ ائذَنْ لِيْ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنْينَ أَنْ آتِي القومَ وأُكَلِمَهُمْ فقال إِنِيّ أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَ مِنْهُمْ فقال كَلَّا إِنْ شَاءَ اللهُ .

ثم دَخَلَ عَلَيْهِم فَلَمْ يَرَ قَوْماً أَشَدَّ اجْتِهَاداً مِنهُمْ في العِبَادَةِ فقالُوا مَرْحَباً بِكَ يَا ابنَ عَبَاسٍ مَا جَاء بِكَ فَقَالَ جِئْتُ أُحدِثُكُمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لا تُحَدِّثُوْهُ وقال بَعْضُهُمْ بَلْ نَسْمَعُ مِنْكَ .

فَقَالَ أَخْبِرُوْنِي مَا تَنْقِمُونَ عَلَىَ ابْنِ عَمّ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وزوجِ ابْنَتِه وأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ قالُوا نَنْقِمُ عليه ثلاثَة أُمُورٍ أَوَّلُهَا أَنَّهُ حَكَّمَ الرِجَالَ وَثَانِيْهَا أَنّهُ قَاتَلَ عَائِشَةَ وَمُعَاوِيَةَ وَلَمْ يَأخُذْ غنائِمَ وَلاَ سَبَايَا وَثَالِثُهَا أَنَّه مَحَا عن نَفْسِهِ لَقَبَ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ مَعَ أنَّ المُسْلِمِيْنَ قَدْ بَايَعُوهُ وأَمَّرُوْهُ .

فَقَالَ أَرَأَيْتُم ، إِنْ أَسْـــمَعْتُكُم مِن كِتَابِ اللهِ وَحَدَّثْتُكم مِن حَدِيْثِ رَسُولِ اللهِ مَالاَ تُنْكِرُوْنَهُ أفتَرْجعُونَ عَمَّا أَنْتُمْ فِيْه قالُوا نَعَمْ قَال أَمَّا قولُكُم أَنَّهُ حَكَّمَ الرِّجالَ في دِيْنِ اللهِ فاللهُ سُبْحَانَهُ وتعالى يَقُولُ « يا أَيُهَا الذينَ آمَنُوْا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُم حُرُمٌ وَمَنْ قتَلَهُ مُتعمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِن النَّعَمِ يُحْكَم به ذَوا عدلٍ منكم » .

أَنْشُدُكُم اللهَ أَفَحُكْمُ الرِجّالِ في حَقْنِ دمَائِهِم وَأَنْــفُسِهِمْ

وَصَلاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ أَحَقُّ أَمْ في أَرْنَب ثَمَنُهَا رُبْعُ دِرْهَمٍ فَقالُوا بَلْ في حَقْنِ دِمَاءِ المُسْلِمِيْنَ وَصَلاحِ ذَاتِ بَيْـــنِهِمْ فقال أَخَرَجْنَا مِن هَذِهِ قالوُا اللَّهُمَّ نَعَمْ .

قَالَ وأَمَّا قَوْلُكُم إنَّ عَلِياً قَاتَلَ ولَمْ يَسْب - أيْ لَمْ يَأْخُذْ سَبَايَا كَمَا سَبِىَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَفَكُنْتُمْ تُرِيْدُوْنَ أَنْ تَسبُوْا أُمَّكُم عَائِشَةَ كَمَا تُسْتَحَلُّ السَّبَايَا فإِنْ قُلْتُمْ نَعَمْ كَفرْتُمْ وإِنْ قُلْتُمْ إِنَّها لَيْسَتْ بأُمِّكُم كَفَرْتُمْ أَيْضا فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ « النبيُ أَوْلَى بالمُؤْمِنِيْنَ مِن أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » فاخْتَارُوْا لأَنْفُسِكُم ما شِئْتُمْ ثُمَّ قَالَ أَخَرَجْنَا مِن هَذِهِ قَالُوا اللَّهُمَّ نَعَمْ .

قال وأَمَّا قَوْلُكُم إنَّ عَلِياً مَحَا عَن نَفْسِهِ لَقَبَ امْرَةَ المُؤْمِنِيْنَ فإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم حِيْنَ طَلَبَ مِن المُشْرِكِينَ يومَ الـــحُدَيْبِيَةِ أَنْ يَكْتُبُوْا في الـــصُلْحِ الذي عَقَدَهُ مَعَهُمْ هَذا ما قاضَى عليهِ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ ، قالُوا لَوْ كُنَّا نُؤْمِنْ أَنَّكَ رَسُوْلُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنَ البَيْتِ ولاَ قَاتَلْنَاكَ وَلَكِنْ أُكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ فَنَزَلَ عِنْدَ طَــلَبِهِمْ وهَوَ يَقُولُ والله إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وانْ كَذَّبْتُمُوني فَهَلْ خَرَجْنَا مِن هَذِهِ فقالُوا اللَّهُمَّ نَعَمْ .

وكانَ من ثَمرَة هَذَا اللِّقَاءِ وَمَا وَفَّقَ اللهُ فِيْهِ عَبْدَ اللهِ بنَ عَبَّاسٍ مِن حِكْمَةٍ وَحُجَّةٍ أَنْ عَادَ مِنْهُمْ عِشْرُوْنَ أَلْفَاً إلى صُفُوفِ عَلِي وأصَرَّ أَرْبَعَةُ آلافٍ عَلَىَ خُصُوْمَتِهمْ لِعَلِي ، ولَمَّا لَحِقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بِجوَارِ رَبِّهِ اتَّجَهَ عَبدُ اللهِ بنُ عَباسٍ إلى البقيةِ البَاقِيَةِ مِن عُلَماءِ الصَّحابَةِ يَأْخُذُ عَنهُمْ العِلْمَ ويَتَلَقَّى عَــنْهُمْ .

وَحدَّثَ ابنُ عباسٍ عَن نَفْسِهِ فـقالَ كَانَ إِذَا بَلَغَني الحَدْيث عِنْدَ

رَجُلٍ مِن صَحَابَةِ رَسُوْلِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَتَيْتُ بَابَ بَيْتِهِ في وَقتِ قَيْلُولَتِهِ وتَوَسَّدْتُ رِدَائِي عِنْدَ عَتَبَةِ دَارِهِ فَتَسْفِي عليَّ الرِيحُ مِن التُرَابِ ما تَسْفِي ولَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْتَأْذِنَ عليه لأَذِنَ لِي .

وإِنَّمَا كُنْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ لِأُطَيِّبَ نَفْسَهُ فإذا خَرَجَ مِن بَيْتِهِ رَآنِي عَلَى هَذِهِ الحَالِ وقالَ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ما جَاءَ بِكَ هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فآتِيْكَ فأَقُولُ أَنَا أَحَقُّ بالمَجِيْءِ إِليكَ فالْعِلْمُ يُؤْتَى ولا يَأْتِي ثم أَسْأَلُهُ عن الحَدِيْثِ .

وكَمَا كَانَ ابنُ عَبَّاسٍ يُذِلُّ نَفْسَهُ في طَلَبِ العِلْمِ فَقَدْ كانَ يُعْلِي مِنْ قَدَرْ العُلَمَاءِ فَهَا هُوَ ذا زَيْدُ بْنُ ثابتٍ كاتِبُ الوَحِي ورَأْسُ أَهْلِ المَدِيْنَةِ في القَضَاءِ والفِقْهِ والقِرَاءةِ والفَرَائِضِ يَهَمُّ بِرُكُوبِ دَآبَّتِهِ فَيَقِفُ عَبْدُ اللهِ بنُ عباسٍ بينَ يَدَيْهِ ويُمْسِكُ لَهُ رِكابَهُ ويأْخُذُ بِزِمَامِ دابَّتِهِ ، فقالَ زَيْدٌ دَعْ عَنْكَ يَا ابنَ عَمِّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال ابنُ عباس هَكذا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بعُلَمَائِنَا .

وقَدْ إجْتَهَد إبنُ عَبَّاسٍ في طَلَبِ العِلْمِ حَتَّى بَلَغَ فيه مَبْلغاً وأَدْهَشَ الفُحُولَ فَقَالَ فِيهِ مَسْرُوْقُ بْنُ الأَجْدَعِ أَحَدُ التَّابِعِيْنَ كِنْتُ إذا رَأَيْتُ ابنَ عَبَّاسٍ قَلْتُ أَجْمَلُ الناسِ فإذا نَطقَ قُلَتُ أَفْصَحُ الناسِ فاذا تَحَدَّثَ قُلْتُ أَعْلَمُ الناسِ .

ولم يَكُنِ ابْنُ عَبَّاسٍ مِن الذِينَ يَقُولُونَ مالا يَفْعَلُون ويَنْهَوْنَ ولا يَنْتَهُون وانَّمَا كانَ صَوَّاماً بالنهارِ قَوَّاماً بالليلِ .

أَخْبَرَ عَنْهُ عَبْدُ اللهِ بنُ مُلَيْكَةَ قالَ صَحِبْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضي اللهُ

عَنهُمَا مِنْ مَكَّةَ إلى المَدِيْنَةِ فَكُنَّا إِذَا نَزَلْنَا مَنْزِلاً قَامَ شَطْرَ اللَّيْلِ والناسُ نِيَامٌ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ ولَقَدْ رَأَيْتُهُ ذاتَ لَيْلَةٍ يَقْرأ «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيْد» فَظَلَّ يُكَرِّرُهَا وَيَنْشُجُ حَتَّى طَلَعَ عَلَيْهِ الفَجْرُ.

وحَسْبُنَا بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ عَبَّاسٍ كَانَ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ وَجْهاً فَمَا زَالَ يَبْكِيْ في جَوْفِ اللَّيلِ مِن خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى أَحْدَثَ الدَّمْعُ عَلَى خَدَّيْهِ مَجْرَيَيْنِ شَبَّهَهُمَا بَعْضُهُمْ بِشِرَاكَيْ النَّعْلِ.

وَقَدْ بَلَغَ ابنُ عَبَّاسٍ مِنْ مَجْدِ العِلْمِ غَايَتَهُ ذَلِكَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ ابنَ أَبِي سُفْيَانَ خَرَجَ ذاتَ سَنَةٍ حَاجاً وخَرَجَ عَبدُ اللهِ بنُ عباسٍ حَاجاً أَيْضاً ولَمْ يَكُنْ لَهُ صَوْلَةٌ ولا أَمَارَةٌ فَكَانَ لِمُعَاوِيَةَ مَوْكِبٌ مِن رِجَالِ دَوْلتِهِ وَكانَ لِعَبْدِ اللهِ بنِ عباسٍ مَوْكِبٌ مِن طَلَبَةِ العِلْمِ يَفُوقُ مَوْكِبَ مُعَاوِيَةَ.

رَوَى بَعْضُ أَصْحَابِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَقَدْ رَأَيْتُ مِن ابْنِ عَبَّاسٍ مَجْلساً لَوْ أَنَّ جَمِيْعَ قَرَيْشٍ افْتَخَرَتْ بِهِ لَكَانَ لَهَا مَفْخَرَةٌ فلَقَدْ رَأَيْتُ النَّاسَ اجْتَمَعُوا في الطُّرُقِ المُؤَدِيَةِ إلى بَيْتِهِ حَتَّى ضَاقَتْ بِهم وَسَدُّوْهَا في وُجُوْهِ الناسِ فدَخَلْتُ عليهِ وأَخْبَرْتُهُ باحْتِشَادِ الناس على بَابِهِ.

فقال ضَعْ لِي وُضُوءاً فتَوَضَأَ وَجلَسَ وقَالَ أُخْرُجْ وَقُلْ لَهُمْ مَنْ كَانَ يُرِيْدُ أَنْ يَسْأَلَ عَن القُرآنِ وحُرُوْفه فَلْيَدْخل فَخرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ فَدَخلُوا حَتَّى مَلَؤُا البَيْتَ والحُجْرَةَ فما سَأَلُوا عَن شَيْءٍ إلا أَخْبَرَهُمْ بِهِ وزَادَهُمْ مِثْلَ مَا سَأَلُوا عَنْه وَأَكْثَرَ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ افْسَحُوْا الطَّرِيْقَ لإِخْوَانِكُمْ فَخرَجُوْا.

ثُمَّ قَالَ أُخْرُجَ فَقُلْ مَن أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عن تَفْسِيْر القُرْآنِ وتَأْوِيْلِهِ فَلْيَدْخُلْ فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ فَدَخلُوْا حتى مَلؤُوْا البَيْتَ والحُجْرَةِ فَمَا سَأَلُوْهُ عن شَيءٍ إلَّا أَخبَرَهُمْ به وَزَادَهُمْ مِثْل مَا سَأَلُوا عَنهُ وأَكْثَرَ ثُمَّ قالَ لَهُمْ افْسَحُوْا الطَّرِيْقَ لإِخْوَانِكُمْ فَخَرَجُوْا .

ثم قَالَ لِيْ أُخْرُجْ فَقُلْ مَن أَرَادَ أَنْ يَسأَلَ عن الحَلاَلِ والحَرَامِ والفِقْهِ فَلْيَدْخُلْ فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ فَدَخَلُوا حَتَّى مَلَؤُا البَيْتَ والحُجْرَةَ فَمَا سَأَلُوْهُ عَنشَيْءٍ إلَّا أَخْبَرَهُمْ بِهِ وَزَادَهُمْ مِثْلَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ أَفْسَحُوْا الطَّرِيق لإِخْوَانِكُمْ فَخَرَجُوا .

ثُمَّ قَالَ اخْرُجْ فَقُلْ مَن أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَن الفَرَائِضِ وَمَا أَشْبَهَهَا فَلْيَدْخُلْ فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ لَهُمْ فَدَخَلُوا حَتَّى مَلؤُوا البَيْتَ والحُجْرَة فَمَا سَأَلُوهُ عن شَيْءٍ إلَّا أَخْبِرُهُمْ بِهِ وَزَادَهُمْ مِثْلَهُ ثُمَّ قال لَهُمْ افْسَحُوْا الطَّرِيْقَ لإِخْوَانِكُمْ فَخَرَجُوْا .

ثُمَّ قَالَ أُخْرُجْ فَقُلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ العَرَبِيَّةِ والشِّعْرِ وغَرِيْبِ كَلَامِ العَرَبِ فلْيَدْخُلْ فَدَخلُوا حَتَّى مَلؤُا البَيْتَ والحُجْرَةَ فما سأَلُوهُ عن شَيْءٍ إلَّا أَخْبَرَهُمْ بِهِ وَزَادهُمْ مِثْلَهُ قال رَاوِي الخَبَرِ فَلَوْ أَنَّ قُرَيْشاً كُلَّهَا فَخَرَتْ بِذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ لَهَا فَخْراً .

وكان ابنُ عباسٍ رَأَى أَنْ يُوَزِّعَ العُلُومَ عَلَى الأَيَّامِ حَتَّى لا يَحْدُث على بَابِهِ مِثْلُ ذَلِكَ الزِّحَامِ فَصَارَ يَجْلِسُ في الأُسْبُوعِ يوماً لا يَذْكُرُ فيه إلَّا التَّفْسِيْرَ ويوماً لا يَذْكُرُ فيه إلَّا الفِقْهَ ويوماً لا يَذْكُرُ فيه إلَّا المَغَازِيَ وَيَوماً لَا يَذكُرُ فِيْه إلَّا أيامَ العَرَبِ .

وقَدْ غَدَا ابنُ عَباسٍ بِفَضْلِ مَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ العِلْمِ والفِقْهِ مُسْتَشَاراً لِلْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ على الرَّغْم مِن حَدَاثَةِ سِنِهِ فكانَ إِذَا عَرَضَ لِعُمَرَ بن الخَطَابِ أَمْرٌ وَواجَهَتْهُ مُعْضِلَةٌ دَعَا جُلَّةَ الصَّحَابَةِ وَدَعَا مَعَهُمْ عَبْدَ اللهِ بنَ عَبَّاس فاذَا حَضَرَ رَفَعَ مَنْزِلَتَهُ وأَدْنَى مَجْلِسَهُ وَقَالَ لَهُ لَقَدْ أَعْضَلَ عَلَيْنا أَمْرٌ أَنْتَ لَهُ ولأَمْثَالِهِ .

وَقَدْ عُوْتِبَ عُمَرُ مَرَّةً في تَقْدِيْمِهِ لابْنِ عَبَّاسٍ وَجَعْلِهِ مَعَ الشُّيُوْخِ وَهُوَ مَا زَالَ فَتًى فَقَالَ إِنَّهُ فَتَى الكُهُوْلِ لَهُ لِسَانٌ وقَلب عقول أ هـ .

قال ابنُ عَبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا فَأَذِنَ لَهُمْ يَوْماً وأَذِنَ لِيْ مَعَهُمْ فَسَأَلَهُمْ عَنْ هَذِهِ السُوْرَةِ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ ﴾ فقالُوْا أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صلى اللهُ عَليهِ وسلم إِذ فَتحَ اللهُ عليه أَنْ يَسْتَغفِرَ وَأَنْ يَتُوْبَ إِلَيْهِ .

فَقَالَ مَا تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّا سٍ فَقُلْتُ لَيْس كَذَلِكَ ولَكِنَّهُ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ بِحُضُوْرِ أَجَلِهِ فقال ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ ﴾ فَتْحُ مَكةَ وَرَأَيْتَ الناسَ يَدْخُلوْنَ في دِيْنِ اللهِ أَفْوَاجاً أَيْ فَعِنْدَ ذَلِكَ عَلَامَةُ مَوْتِك فَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّابا .

فَقَالَ لَهُـمْ كَيْفَ تَلُوْمُوْنَنِيْ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا تَرَوْنَهُ وقِيْلَ لابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّى أَصَبْتَ هَذا العِلْمَ قالَ بِلِسَانٍ سَؤوْلٍ وقَلْبٍ عَقُوْلٍ وقال ابنُ مَسْعُوْدٍ نِعْمَ تَرْجمَانُ القُرآنِ ابنُ عَبَّاسٍ وقال مُجَاهِدُ كانَ ابنُ عباسٍ يُسَمَّى البَحْرَ لِكَثْرَةِ عِلْمِهِ .

عَلَى أَنَّ ابنَ عَبَّاسٍ حِيْنَ انْصَرفَ إِلى الخَاصَّةِ لِيُعَلِّمَهُمْ ويُفَقِّهَهُمْ لَمْ يَنْسَ حَقَّ العَامَّةِ فكَانَ يَعْقِدُ لَهُمْ مَجالِسَ الوَعْظِ والارْشَادِ والتَّذْكِيرِ .

فَمِنْ مَوَاعِظِهِ قَوْلُهُ مُخَاطِباً أَصْحَابَ الذُنُوبِ وَالمَعَاصِيْ : يا صَاحِبَ الذَّنْبِ لا تَأْمَنْ عَاقِبَةَ ذَنْبِكَ وأعْلَمْ أَنَّ ما يَتْبَعُ الذَّنْبَ أعْظَمُ مِن الذَّنْبِ نَفْسِهِ فَانَّ عَدَمَ اسْتِحْيَائِكَ مِمَّنْ عَلَى يَمِيْنِكَ وعلى شِمَالِكَ وأَنْتَ تَقْتَرِفُ الذَّنْبِ لا يَقِلُّ عن الذنبِ .

وإنَّ ضِحْكَكَ عِنْدَ الذَّنْبِ وأَنْتَ لاَ تَدْرِيْ مَا اللهُ صَانِعٌ بكَ أَعْظَمُ مِن الذَّنب وإنَّ حُزْنَكَ على الذَّنْب إِذَا فَاتَكَ أَعْظَمُ مِن الذَّنْب وَإِنَّ خَوْفَكَ مِن الرِيْحِ إِذَا حَرَّكَتْ سِتْرَكَ وَأَنْتَ تَرْتَكِبُ الذَّنبَ مَعَ كَوْنِكَ لاَ يَضْطَرِبُ فُؤَادُكَ مِن نَظَرِ اللهِ إِلَيْكَ أَعْظَمُ مِنْ الذَّنْبِ .

يا صَاحِبَ الذَّنْبِ مَا كَانَ ذَنْبُ أَيُوبَ عَلَيهِ السلامُ فابْتَلاَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِجَسَدِهِ ومَالِهِ إِنَّمَا كانَ ذَنْبُهُ أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِهِ مِسْكِيْنٌ لِيَدْفَعَ عنهُ الظُّلْمَ فَلَمْ يُعِنْهُ .

وكانَ يَقُولُ أَعُوْلُ أَهْلَ بَيْتٍ مِن المُسْلِمِيْنَ شَهْراً أَوْ جُمُعَةً أَوْ مَا شَاءَ اللهُ أَحِبُّ إِليَّ مِن حَجَّةٍ بَعْدَ حَجَّةٍ وَلَطَبَقٌ بدَانِقٍ أَهْدِيْهِ إِلىَ أَخٍ لِيْ فِي اللهِ أَحَبَّ إِليَّ مِن دِيْنَارٍ أَنْفِقُهُ في سَبِيْلِ اللهِ .

وكانَ يَقُولُ آخِرُ شِدَّةٍ يَلْقَاهَا المُؤْمِنُ المَوْتَ وَيَقُولُ خُذ الحِكْمَةَ مِمّنْ سَمِعْتَ فإِنَّ الرَّجُلَ يَتَكَلَّمُ بالحِكْمَةِ وَلَيْسَ بحَكِيْمٍ فَتَكُونُ كالرَّمْيَةِ خَرَجَتْ مِن غَيْرِ رَامِي ، عُمِّرَ ابنُ عَبَّاسٍ احْدَى وسَبْعِيْنَ سَنَةٍ مَلأَ فِيْهَا الدُنْيَا عِلْمَا وفَهْمَا وحِكْمَةٍ وزهداً وتقى .

ولَمَّا سَقَطَ في عَيْنَيْهِ المَاءُ وذَهَبَ بَصَرُهُ قِيْلَ لَهُ خَلٍّ بَيْنَنَا وبَيْنَ

عَيْنَيْكَ نُسِيلُ مَاءَهُمَا ولَكِنَّكَ تُمْسِكُ خَمْسَةَ أَيَّامٍ لا تَسْجُدُ فقال لَا وَاللهِ ولَا رَكْعَةٍ وَاحَدَةٍ إِنِّي حُدِّثْتُ أَنَّهُ مَنْ تَرَكَ صَلاةً وَاحِدَةً مُتعَمِّداً لَقِيَ اللهَ وهُوَ عَلَيهِ غَضْبَانُ .

قَال مَيْمُونُ بنُ مِهْرَانَ شَهدتُ جَنازَةَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عبَّاسٍ بالطَّائِفِ فلمَّا وُضِعَ لِيُصَلَّى عَلَيْهِ جَاءَ طَائِرٌ أَبْيَضُ حَتَّى دَخَلَ في أَكْفَانِهِ فَالْتُمِسَ فَلَمْ يُوْجَدْ فَلَمَّا سُوِيَ عليهِ الرُّابُ سَمِعْنَا صَوْتاً ولا نَرى شَخْصاً « يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِيْ إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي في عِبَادِي وادْخُلِيْ جَنَّتِي » أ هـ بتصرف بزيادة ونقص .

قِصَّةُ سَلْمَان الفَارِسِي

قال سلمَانُ كُنْتُ رَجُلًا فَارِسِياً مِن أَهْلِ أَصْبهَانِ مِن قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا جَيَّانِ وكانَ أَبِيْ دَهْقانُ القَرْيَةِ وَأَغْنَى أَهْلِهَا وَأَعْلاَهُمْ مَنْزِلَةً وَكُنْتُ أَحبُّ خَلْقَ اللهِ إِلَيْهِ مُنْذُ وُلِدْتُ ثُمَّ مَا زَالَ حُبُّه لِيْ يَشْتَدُّ وَيَزْدَادُ حَتَّى حَبَسَنِيْ في البَيْتِ خَشْيَةً عَلَيَّ كَمَا تُحْبَسُ الفَتَيَاتُ .

قَالَ سَلْمَانُ وَقَدْ اجْتَهَدتُ في المَجُوْسِيَّةِ حَتَّى غَدَوْتُ قِيَمَ النَّارِ الَّتِي كُنا نَعْبُدُهَا قَالَ سَلْمَانُ وَأُنِيْطَ بِي أَمْرُ إِضْرَامِهَا حَتَّى لَا تَخْبُو سَاعَةً في لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ وَكَانَ لِأَبِي ضَيْعَةٌ عَظِيْمَةٌ ـ الأَرْضُ المُغِلَّةُ ـ تُدِرُّ عَلَيْنَا غَلَّةً كَبِيْرَةً وكان أَبِي يَقُومُ عَلَيْهَا وَيَجْنِي غَلَّتَهَا .

وفي ذَات مَرَّةٍ شَغَلَهُ عن الذَّهَاب إلى القَرْيَةِ شَاغِلٌ فَقَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ عَن الضَّيْعَةِ بِمَا تَرَى فَاذْهَبْ إليها وَتَوَلَّى اليَوْمَ عَني شَأْنَها فَخَرَجْتُ أَقْصُدُ ضَيْعَتَنَا .

وَبَيْنَمَا أَنَا في بَعْض الطَّرِيْقِ مَرَرْتُ بِكَنِيْسَةٍ مِن كَنَائِسِ النَّصَارَى فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُم فِيْهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ فَلَفَتَ ذَلِكَ انْتِبَاهِيْ وَذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ النَّصَارَى ولا أَمْرِ غَيْرِهِمْ مِن أَصْحَابِ الأَدْيَانِ لِطُولِ مَا حَجَبَنِيْ أَبِي عن الناسِ في بَيْتِنَا.

فَلَمَّا سَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ لِأَنْظُرَ مَا يَصْنَعُوْنَ فَلَمَّا تَأَمَّلْتُهُمْ أَعْجَبَتْنِي صَلَاتُهُمْ وَرَغِبْتُ في دِيْنِهِم وَقُلْتُ واللهِ هَذَا خَيْرٌ مِن الذي نَحْنُ عَلَيْهِ فواللهِ مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ أَذْهَبْ إلى ضَيْعَةِ أَبِيْ ثُمَّ سَأَلْتُهُمْ أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّيْنِ قَالُوا في بِلَادِ الشَّامِ.

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ عُدْتُ إلى بَيْتِنَا فَتَلَقَانِي أَبِي يَسْأَلُنِي عَمَّا صَنَعْتُ فَقُلْتُ يَا أَبتِ إِنِّيْ مَرَرْتُ بِأُنَاسٍ يُصَلُّونَ في كَنِيْسَةٍ فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِن دِيْنِهِمْ وَمَا زِلْتُ عِنْدَهُم حَتَّى غَرِبَتِ الشمسُ فَذُعِرَ أَبِي مِمَّا صَنَعْتُ.

وقال أَيْ بُنَيَّ لَيْسَ في ذَلِكَ الدِّيْنِ خَيْرٌ دِيْنُكَ ودِيْنُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ قُلْتُ كَلَّا ـ وَاللهِ ـ إِنَّ دِيْنَهُمْ لَخَيْرٌ مِن دِيْنِنا فَخَافَ أَبي مِمَّا أَقُولُ وَخَشِيَ أَنْ أَرْتَدَّ عن دِيْنِيْ وَحَبَسَنِيْ بالبَيْتِ وَوَضَعَ قَيْداً في رِجْلِي.

وَلَمَّا أُتِيْحَتْ لِيْ الفُرْصَةُ بَعَثْتُ إلى النَّصَارَى أَقُولُ لَهُمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ يُرِيْدُ الذَّهَابَ إلى بِلَادِ الشَّامِ فَأَعْلِمُوْنِيْ فَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيْلٌ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مُتَجِهَةٌ إلى الشَّامِ فَأَخْبَرُوْنِي بِهِ فاحْتَلْتُ على قَيْدِيْ حَتَّى حَلَلْتُهُ وَخَرَجْتُ مَعَهُمْ مُتَخَفِياً حتى بَلَغْنَا بِلَادَ الشامِ.

فَلَمَّا نَزَلْنَا فِيهَا قُلْتُ مَن أَفْضَلُ رَجُلٍ مِن أَهْلِ هَذَا الدِّيْنِ قَالُوا الأُسْقُفْ ـ مَرْتَبَةٌ فَوْقَ القِسِيْسِ عِنْدَ النَّصَارَى ـ رَاعِيَ الكَنِيْسَةِ فَجِئْتُهُ

فَقُلْتُ إِنّيْ رَغِبْتُ في النَّصْرانِيَّةِ وَأَحْبَبْتُ أن أَلْزَمكَ وَأَخْدِمَكَ وَأَتَعَلَّمَ مِنْكَ وَأُصَلِي مَعَكَ فقال أُدْخُلْ فَدَخَلْتُ عِنْدَهُ وَجَعَلْتُ أَخْدِمُهُ.

ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ عَرفْتُ أَنَّ الرَّجُلَ رَجُلُ سُوْءٍ فَقَدْ كَانَ يَأْمُرُ أَتْبَاعَهُ بالصَّدَقَةِ وَيُرَغِبُهُمْ بِثَوابِهَا فإذا أَعْطَوْهُ مِنْهَا شَيْئاً لِيُنْفِقَهُ في سَبِيْلِ اللهِ اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ الفُقَرَاءَ والمَسَاكِيْنَ مِنْهُ شَيْئاً حَتَّى جَمعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِن ذَهَبٍ فَأَبْغَضْتُهُ بُغْضاً شَدِيْدَاً لِمَا رَأَيْتُهُ مِنْهُ.

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ مَاتَ فَاجْتَمَعَتْ النَّصَارَى لِدَفْنِهِ فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ صَاحِبَكُم كَانَ رَجُلُ سُوْءٍ يَأْمُرُكُمْ بالصَّدَقَةِ وَيُرَغِبُكُمْ فِيْهَا فَإِذَا جِئْتُمُوْهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِيْنَ مِنْهَا شَيْئاً قَالُوا مِنْ أَيْنَ عَرفْتَ ذَلِكَ قُلْتُ أَنَا أَدُلُّكُمْ على كَنْزِهِ.

قَالُوْا نَعَمْ دُلَّنَا عَلَيْهِ فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ فاسْتَخْرَجُوْا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةً ذَهَباً وَفِضَّةً فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا واللهِ لا نَدْفُنُهُ ثم صَلَبُوهُ وَرَجَمُوهُ بالحِجَارَةِ ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيْلٍ حَتَّى نَصَبُوْا رَجُلاً آخَرَ مَكَانَهُ فَلَزِمْتُهُ فَمَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَزْهَد مِنْهُ في الدُّنْيَا ولا أَرْغَبَ مِنْهُ في الآخِرَةِ وَلاَ أَدْأَبَ مِنْهُ عَلى العِبَادَةِ لَيْلاً وَنَهَاراً فَأَحْبَبْتُهُ حُباً جَمَّاً وَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَاناً.

فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قُلْتُ يَا فُلانُ إِلى مَنْ تُوْصِيْ بِي وَمَعَ مَنْ تَنْصَحُنِي أَنْ أَكُونَ مِن بَعْدِكَ فقالَ أَيْ بُنَيَّ لا أَعْلَمُ أَحداً على ما كُنْتُ عَلَيْهِ إِلَّا رَجُلاً بالمَوْصِلِ هُوَ فُلانٌ لَمْ يُحَرِّفْ وَلَمْ يُبَدِّلْ فَأَلْحَقْ بِهِ فَلَمَّا مَاتَ صَاحِبِيْ لَحِقْتُ في المَوْصِلِ فَلَمَّا قَدِمْتُ عليه قَصصْتُ عَلَيْهِ خَبَرِيْ وَقُلْتُ لَهُ إِنَّ فُلاناً أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ مُتَمَسِّكٌ

بِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الحَقِّ فقال أَقِمْ عِنْدِيَّ فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ فَوَجَدْتُهُ على خَيْرِ حَالٍ .

ثُمَّ انَّه لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فَلَمَّا حضَرَتْهُ الوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ يَا فُلَانُ لَقَدْ جَاءَكَ مِن أَمْرِ اللهِ مَا تَرَى وَأَنْتَ تَعْلَمُ مِنْ أَمْرِي مَا تَعْلَمُ فإلى مَنْ تُوْصِي بِيْ وَمَنْ تَأْمُرُني باللّحَاقِ بِهِ فقالَ أَيْ بُنَيَّ واللهِ مَا أَعْلَمُ أَنَّ رَجُلاً على مِثْلِ ما كُنَّا عليهِ إلا رَجُلاً بنَصِيْبِيْن وَهُوَ فُلانٌ فالْحقْ بِهِ فَلَمَّا غُيبَ الرَّجُلُ في لَحِدِهِ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيْبِيْنَ وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِيْ وما أَمَرنِي به صَاحِبِيْ فَقَالَ لِيْ أَقِمْ عِندَنَا فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ فَوَجَدْتُهُ على ما كَانَ عَلَيْهِ صَاحِبَاهُ مِنْ الخَيْرِ .

فَوَاللّهِ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ المَوتُ فَلَمَّا أَنْ حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ لَقَدْ عَرَفَتَ مِن أَمْرِيْ مَا عَرَفْتَ فَإِلَى مَنْ تُوْصِيْ بِيْ فقال أَيْ بُنَيَّ واللهِ إِنِّيْ مَا أَعْلَمُ أَحَداً بَقِيَ عَلَى أَمْرِنَا إلَّا رَجُلاً بِعَمُّورِيَّةَ هُوَ فُلانٌ فَالْحَقْ بِهِ فَلَحِقْتُ بِهِ وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِيْ فَقَالَ أَقِمْ عِنْدِي فأَقَمْتُ عِنْدَ رَجُلٍ كَانَ ـ واللهِ ـ على هَدْيِ أَصْحَابِهِ وقد اكْتَسَبْتُ وأنا عندَهُ بَقَراتٍ وَغُنَيْمَةً .

ثُمَّ مَا لَبَثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ ما نَزَلَ بِأَصْحَابِهِ مِنْ أَمْرِ اللهِ فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ إِنكَ تَعْلَمُ مِن أَمْرِي ما تَعْلَمُ فَإِلى مَنْ تُوصِيْ بِي وَمَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَفْعَلَ فقال يا بُنَيَّ : واللهِ ـ مَا أَعْلَمُ أن هُناكَ أَحَداً مِنَ النَاسِ بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ مُسْتَمْسِكاً بِمَا كُنَّا عَلَيْهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّ زَمَانٌ يَخْرُجُ فِيْهِ بِأَرْضِ العَرَبِ نَبِيٌّ يُبْعَثُ بدِيْنِ إِبْرَاهِيْمَ ثُمَّ يُهَاجِرُ مِن أَرْضِهِ إلى أَرْضٍ ذَاتِ نَخْلٍ بَيْنَ حَرَّتَيْن وَلَهُ علامَاتٌ لا تَخْفَى فَهُو يأْكُلُ الهَدِيَةَ وَلَا يَأْكُلُ

الصَّدَقَةَ وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُبوةِ فإنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ البِلَادِ فَأَفْعَلْ .

ثُمَّ وَافَاهُ الأَجَلُ فَمَكَثْتُ بَعْدَهُ بِعَمُّورِيَّةَ زَمَنَاً إلى أَنْ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِن تُجَّارِ العَرَبِ مِن قَبِيْلَةِ كَلْبٍ فَقُلْتُ لَهُمْ ان حَمَلْتُمُوْنِي مَعَكُم إلى أَرْض العَرَب أَعْطَيْتُكُم بَقَراتِي هَذِهِ وَغُنَيْمَتِي فَقَالُوا نَعَمْ نَحْمِلُكَ فَأَعْطَيْتُهُم إِيَّاهَا وَحَمَلُونِي مَعَهُمْ حَتَّى إذَا بَلَغْنَا وَادِي القُرَى غَدَرُوْا بِي وَبَاعُوْنِي لِرَجُلٍ مِن اليَهُودِ فالْتَحَقْتُ بِخِدْمَتِهِ .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ زَارَهُ ابنُ عَمّ لَهُ مِن بَنِي قُرَيْظَةَ فاشْتَرَانِي مِنْهُ وَنَقَلَنِيْ مَعَهُ إلى يَثْرِبَ فَرَأَيْتُ النَّخْلَ الذِي ذَكَرَهُ لِيْ صَاحِبِيْ بِعَمُّورِيَّةَ وَعَرَفْتُ المَدِينةَ بالوَصْفِ الذي نَعَتَهُا بِهِ فَأَقَمْتُ بِهَا مَعَهُ وَكَانَ النَّبِيُّ حِيْنَئِذٍ يَدْعُوْ قَوْمَه بِمَكَةَ لَكِنِّي لَم أَسْمع لَهُ بِذِكْرٍ لانْشِغَالِي بِمَا يُوْجِبُهُ عَلَيَّ الرِّقُّ .

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ هَاجَرَ الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم إلَى يَثْرِبَ فَواللهِ إِنّي لَفِيْ رَأْسِ نَخْلَةَ لِسَيِدِي أَعْمَلُ فِيْهَا بَعْضَ العَمَلِ وَسَيِّدِيْ جَالِسٌ تَحْتَهَا إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ابنُ عَمّ لَهُ وقال لَهُ قَاتَلَ اللهُ بَنِيْ قَيْلَةَ واللهِ إِنَّهُمْ الآنَ لَمُجْتَمِعُوْنَ بِقُبَاء عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ اليومَ مِنْ مكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ .

فَمَا إِنْ سَمِعْتُ مَقَالَتَهُ حَتَّى مَسَّنِيْ مَا يُشْبِهُ الحُمَّى وَاضْطَرَبْتُ اضْطِرَاباً شَدِيْدَاً حَتَّى خَشِيْتُ أَنْ أَسْقُطَ على سَيِّدِي وَبَادَرْتُ إلى النُّزُوْلِ عن النَّخْلَةِ وَجَعَلْتُ أَقُولُ لِلرَّجلِ مَاذا تَقُولُ أَعِدْ عَلَيَّ الخَبَرَ فَغَضِبَ

سَيِّدِيْ وَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيْدَةً وقالَ لِي مَالَكَ ولِهَذَا عُدْ إلى مَا كُنْتَ فِيْهِ مِن عَمَلِكَ .

وَلَمَّا كَانَ المَسَاءُ أَخَذْتُ شَيْئاً مِن تَمراتٍ كُنْتُ جَمَعْتُهُ وتَوَجَّهْتُ إلى حَيْثُ يَنْزِلُ الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ وَمعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُوْا حَاجَةٍ وَهَذَا كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ فَرَأَيْتُكُم أَحَقَّ بِهِ مِن غيرِكُم ثُمَّ قَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ .

فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ كُلُوْا وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ فَقُلْتُ في نَفْسِيْ هَذِهِ وَاحِدَةٌ ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَأَخَذْتُ أَجْمَعُ بَعْضَ التَّمْرِ فَلَمَّا تَحَوَّلَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم إلى المَدِيْنَةِ جِئْتُهُ فَقَلْتُ لَهُ إِنِي رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَهِذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ فَقُلْتُ في نَفْسِيْ هَذِهِ الثَّانِيَةُ .

ثُمَّ جِئتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وهُوَ بِبَقِيْعِ الْغَرْقَدِ حَيْثُ كانَ يُوَارِي أَحَدَ أَصْحَابِهِ فَرَأَيْتُهُ جَالِساً وَعَلَيْهِ شَمْلَتَانِ فَسَلَّمْتُ عليهِ ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إلى ظَهْرِهِ لَعَلِيْ أَرَى الخَاتَمَ الذِي وَصَفَهُ لِي صَاحِبِيْ في عَمُّوْرِيَّةَ .

فَلَمَا رَآنِي أَنْظُرُ إلى ظَهْرِهِ عَرَفَ غَرَضِيْ فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عن ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ الخاتَمَ فَعَرَفْتُهُ فَانكَبَبْتُ عليهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِيْ فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَا خَبَرُكَ فَقَصَصْتُ عليه قِصَّتِيْ فَأُعْجِبَ بِهَا وَسَرَّهُ أَنْ يُسْمِعَهَا أَصْحَابَهُ فأَسْمَعْتُهُم إِيَّاهَا فَعَجِبُوْا مِنْهَا أَشَدَّ العَجَبِ وَسُرُّوْا بِهَا أَعْظَمَ السُرور أهـ بتصرف يسير .

ثُمَّ شغَلَ سَلَمانُ الرِّقُ حَتَّى فَاتَهُ بَدْرٌ وَأُحُدٌ قال سَلْمَانُ ثم قال لِيْ رَسُولُ اللهِ صلَى اللهُ عليه وسلم كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ فكاتَبْتُ صَاحِبِيْ عَلى ثَلاثِمِائَةِ نَخْلَةٍ أُحْيِيْهَا لَهُ بِالفِقَرِ وَبِأَرْبَعِيْنَ أُوقية فقال رَسول الله صَلى الله عليهِ وسلم لِأَصْحَابِهِ أَعِيْنُوْا أَخَاكُم فأَعَانُونِي حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِيْ ثَلاثُمائَةِ وَدْيَةٍ .

قالَ سَلْمَانُ فقال لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم اذْهَبْ فافْقُرْ لَهَا فإِذَا فَرَغْتَ فأْتِنِيْ أَكنْ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدِيْ قال فَفَقَرْتُ لَهَا وَأَعَانَنِيْ أَصْحَابِي فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إِلَيْهَا فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ الوَدْيَ وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم بِيَدِهِ فَوالذِي نَفْسُ سَلْمَانُ بِيَدِهِ مَا مَاتَ مِنْهَا وَدْيَةٌ وَاحِدَةٌ فَبَقِيَ عَلَيَّ المالُ .

فَفِيْ هَذِهِ القِصَّةِ مُعْجزَةٌ عَظِيْمَةٌ حَيْثُ لَمْ يَمُتْ مِمَّا غَرَسَهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم ولا وَاحِدَةٌ قال سَلْمَانُ فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِن ذَهَبٍ فَقَالَ ما فَعَلَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُ المُكَاتَبُ فَدُعِيْتُ لَهُ فَقَالَ هَذِهِ أَدِّبهَا مَا عَلَيْكَ قُلْتُ وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِه يَا رَسُولَ اللهِ مِمَّا عَلَّي قالَ خُذْهَا فإِنَّ اللهَ سَيُؤَدِيْ بِهَا عَنْكَ .

فأَخَذْتُهَا فَوزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا والذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ أَرْبَعِيْنَ أُوْقِيَّةً وَعَتَقْتُ فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ الخَنْدَقَ ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ وَاحِدٌ وَهذِهِ أَيْضَا مُعْجِزَةٌ عَظِيْمَةٌ .

وكان سلمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَرِعاً زَاهِداً قال الحَسَنُ كانَ عَطَاءُ سَلْمَانَ خَمْسَةُ آلافٍ وكان أَمِيْراً عَلَى زُهَاء ثلاثِينَ أَلْفا مِن المُسْلِمِيْنَ

وكان يَخْطُبُ الناسَ في عَبَاءَة يَفْتَرِشُ بَعْضَهَا وَيَلْبَسُ بَعْضَها فَإِذَا خَرَجَ عَطَاؤُهُ أَمْضَاهُ ـ يَعْنِيْ أَنَّه كَانَ يَتَصَدَّقُ بِوَصِيْفَتِهِ مِن بَيْتِ المَالِ وَيَأْكُلُ مِن سَفِيْفِ يَدَيْهِ أَيْ يَسِفُ الخُوْصَ وَيَأْكُلُ مِنْ قِيْمَتِه إِذا باعَهُ .

وعنه رَضِيَ الله عنه قال اشْتَرِيْ خُوْصاً بِدِرْهَم فَأَعْمَلُهُ فَأَبِيْعُهُ بِثَلاثَة دَرَاهِمَ فَأُعِيْدُ دِرْهَماً فِيْهِ وَأُنْفِقُ دِرْهَماً عَلى عِيَالِي وَأَتَصَدَّقُ بِدِرْهَمٍ وكانَ سَلْمَانُ أَمِيْراً عَلَى المُدَائِنِ فَجَاءَ رَجُلٌ مَعَهُ حِمْلُ تِبْنٍ وَعَلَى سَلْمَان عَبَاءَةٌ فقال لَهُ تَعَالَى احْمِلْ وَهُوَ لا يَعْرِفُهُ فَحَمَل فَرَآهُ الناسُ فَقَالُوا هَذَا الأَمِيْرُ فَقَالَ الرَّجُلُ لِسَلْمَانَ لَم أَعرِفُكَ فقال لَهُ سَلْمَانُ إِنِّي قَدْ نَوَيْتُ فِيْهِ نِيَّةً فَلَنْ أَضَعَهُ حَتَّى أَبْلُغَ بَيْتَهُ ، هَذِهِ نُبْذَةٌ يَسِيْرَةٌ مِن سِيْرَةِ سَلْمَانَ الفَارِسِي رَضِيَ اللهُ عنه .

اللَّهُمَّ نَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُورِ الإيمانِ وثَبِّتْ محَبَّتَكَ فِيْها وَقَوِّهَا وَأَلْهِمْنَا ذِكْرَكَ وَشُكْرَكَ وَارْزُقْنا حُبَّ أَولِيَائِك وَبُغْض أَعْدَائِكَ وآتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النار واغْفِرْ لنا وَلِوَالِدَيْنا وَجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجمَعِيْن .

« غَزْوَةُ تَبُوك »
أَوِ العُسْرَةِ

تَبُوكُ مَوْضِعُ بَيْنَ وَادِي القُرَى والشَّام بَيْنَهُ وَبَيْنَ المدينة من جهة الشَّامِ أربعَ عَشْرَةَ مَرْحَلة وَبَيْنَ دِمَشْقٍ إِحْدَى عَشْرَة مَرْحَلَةً وهِيَ غَزْوَةُ العُسْرَةِ أَخْذاً مِنْ قَوْلِهِ تَعالى ﴿ الذينَ اتَّبَعُوْه في سَاعةَ العُسْرَةِ ﴾ .

وكانَتْ في رَجَبَ سَنَةَ ٩ هـ مِنْ الهِجْرَةِ وَهِيَ آخِرُ غَزْوَاتِهِ صلى اللهُ عليه وسلم وهِيَ التَّي افْتَضَحَ المُنافِقُون فِيْهَا وَكانَ الوَقتُ حِيْنَ خُرُوْجِهِ صلى الله عليه وسلم حَراً شَدِيْداً وقُحْطاً شَدِيْداً وكانُوا مِن شِدَّةِ العَطَشِ والحَرِّ يَنْحَرُوْنَ البَعِيْرَ فَيَعْصِرُوْنَ فَرْثَهُ الذي في الكَرْشِ ويَشْرَبُوْنَهُ فَلِذَا سُمِيتْ غَزْوَةَ العُسْرَةِ أَيْ الشَّدَّةِ والضِّيْقِ .

وسَبَبُهَا أَنَّ الرُّوْمَ قدْ جَمَعَتْ جُمُوعاً كَثِيْرَةً بالشَّام وأَنَّ هِرَقْلَ قَدْ رَزَقَ أَصْحَابَهُ لِسَنَةٍ وأَجْلَبَتْ مَعَهُ لَخْمٌ وجُذَامٌ وعَامِلةٌ وغَسَّانُ وَزَحَفُوْا وَقَدَّمُوا مُقَدِّمَاتِهِمْ إِلى الْبَلْقَاءِ وَعَسْكَرُوْا بِهِا .

فَبَلَغَ ذلكَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم فَنَدَبَ الناسَ إلى الخُرُوْجِ وأَظْهَرَ لهَمُ الأَمرَ لِيَتأَهَّبُوْا لِذَلِكَ أُهْبَتَهُمْ وأَخْبَرَهَمُ بالوَجْهَ الذِيْ يُرِيْدُ وَبعَثَ إِلَى القَبَائِلِ مَكَّةَ يَسْتَنْفِرُهُمْ إِلى عَدُوِهِمْ وخَطَبَ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ في الناسِ فَحضَّ عَلَى الجِهَادِ وأَمَرَهُمْ بالصَّدَقَةِ وحَثَّهُمْ عَلى النَّفَقَةِ ورَغَّبَ أَهْلَ الثَّرْوَةِ بالَخيْرِ والمَعْرُوْفِ وَحَثَّ المُوسِرِيْنَ عَلى تَجْهِيزِ المُعْسِرِيْنَ .

فَتبَادَرَ المُسْلِمونَ وَجَاءُوْا بصَدَقاتٍ كَثِيرَةٍ وتَنَافَسُوْا في تَجْهِيز جَيْشِهِمْ فَكانَ أَوَّلُ مَنْ جَاءَ أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ رَضِيَ اللهُ عَنه جَاءَ بمَالِهِ كُلِّهِ أَرْبَعَةَ آلافِ دِرْهَمٍ .

فقال لَهُ رَسولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم هَلْ أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ شَيْئاً قال أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللهَ وَرَسُوْلَهُ وجَاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه بِنِصِفِ مَالِهِ فَسَأَلَهُ صَلى اللهُ عليه وسلم هَلْ أَبْقَيتَ لأَهْلِكَ شيئاً قالَ نَعَمْ نِصْفَ مَالِي وَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَن بنُ عوفٍ رَضِى اللهُ عنه بِمَائَةِ أُوْقِيَةِ فِضَّةً .

وَجَاءَ العَبَّاسُ بمالٍ كَثِيرٍ وَجَاءَ طَلْحَةُ بِمَالٍ وَجهَزَّ عثْمَانُ بنُ عَفَّانَ ثُلُثَّ الجَيْشِ وَجَاءَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ بمَالٍ وَجَاءَ مُحَمَّد بنُ مَسْلَمَةَ بمَالٍ وَجَاءَ عَاصِمُ بنُ عَدِي بِتِسْعِينَ وَسَقا مِن تَمْرٍ وَبعَثَ النِسَاءُ كُلَّ مَا قَدِرْنَ عَلَيهِ مِن مِسْكٍ وَحُلْيٍ مَعَاضِدَ وَخَلاَخِلَ وأقْرَاطٍ وَخَوَاتِمَ .

قال ابنُ اسحاق فَذَكَر لنَا الزُهْرِيُ ويَزِيْدُ بنُ رُوْمَانَ وَعَبْدُ اللهِ بنُ أَبي بَكْرٍ وعَاصِمُ بنُ عُمَرَ وغيرُهُمَ مِن أَصْحَابِنَا وبَعْضُ القَومِ يُحَدِّثُ مَا يُحَدِّثُ بَعْضٌ أنَّ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَمَرَ أَصْحَابَهُ بالتَّهَيُؤ لِغَزْوِ الرُوْمِ وذَلِكَ في زَمَنِ عُسْرَةٍ مِنَ النَّاسِ وشِدَّةٍ مِن الحَرِّ وجُدْبٍ مِن البِلاَدِ حِيْنَ طَابَتِ الثِّمَارُ والناسُ يُحِبُّونَ المقامَ وَيكْرَهُونَ الشُخُوصَ عَلَى حَالٍ مِنَ الزمانِ الذي هُمْ عَليهِ .

وكان رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَلَّ مَا يَخْرُجُ في غَزْوَةٍ إلاَّ كَفَا عنْهَا وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُرِيْدُ غَيْرَ الوَجْهِ الذي يَعْمِدُ إليه إلاَّ مَا كَانَ مِن غَزْوَةِ تَبُوكَ فَإِنَّهُ بَيَّنها لِلنَّاسِ لِبُعْدِ المشَقَّةِ وشِدَّةِ الزَّمَانِ وكَثْرَةِ العَدُوِّ الذي يَعْمِدُ لَهُ لِيتأَهَبَ الناسُ لِذَلِكَ أُهْبَتَهُ .

فَأَمَرَ النَاسَ بالجَهَازِ وأَخْبَرَ أنَّهُ يُرِيْدُ الرُّوْمَ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلم ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ في جَهَازِهِ ذلكَ للْجَدِ بنِ قَيْسٍ أَحَدِ بَنِيْ سَلِمَةَ يَا جَدُّ هَلْ لَكَ العامَ في جَلادِ بَنِيْ الأَصْفَرِ .

فقَال يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ تَأْذَنُ لِيْ وَلاَ تَـفْتِنِي ، فَوَاللهِ لَقَدْ عَرَفَ قَوْمِي أَنَّهُ مَا مِن رَجُلٍ أَشَدَّ عُجْباً بالنِّسَاءِ مِنِّيْ وإِنِّي أَخْشَى إنْ رَأيْتُ نِسَاءَ بَنِيْ الأَصْفَرِ أَنِّي لاَ أَصْبرُ فَأَعْرَضَ عَنَهُ رَسُوْلُ الله صلى اللهُ عليه وسلم وَقَالَ قَدْ أَذِنْتُ لَكِ فَفِيْهِ نَزَلَتْ هَذِهْ الآيَةُ ﴿ ومنهم مَن يَقُولُ ائذَنْ لِي ولا

تَفْتِنِي أَلَا في الفِتْنَةِ سَقَطُوَا وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيْطَةٌ بالكَافِرْين ﴾ .

وقَالَ قَوْمٌ مِنَ المُنَافِقْينَ لا تَنْفِرُوْا فِي الحَرِّ ، زَهَادَةً في الجِهَادِ وَشَكاً في الحَقِّ وارْجَافاً بالرَّسُولِ صلى اللهُ عليه وسلم فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وقال لا تَنْفِرُوْا فِي الحرِّ ، قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حراً لَوْ كانُوا يَفْقَهُون ﴾ .

ثم إِنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم جَدَّ في سَفَرِهِ وعَجز نَفَرٌ مِن فُقَرَاءِ المُسْلِمِيْنَ عن تَجْهِيز أَنْفُسِهِمْ وهُم البَكَّاؤُنَ وهُمْ سَبْعَة نَفرٌ مِن الأَنْصَارِ وغَيرِهِمْ مِنَ بَنِيْ عَمْرو بن عَوْفٍ وَسَالمُ ابْنُ عُمَيْرٍ ، وَعُلَيَّةُ بنُ زَيْدٍ ، أَحَدُ بَنِيْ حَارِثَةَ ، وأَبُو لَيْلَى عَبْدُ الرحمن أَخُو بَنِيْ مَازِنْ بُن النَّجَارِ ، وعَمرُو بنُ الحُمَامِ ، وعَبْدُ اللهِ بنُ مُغَفَّلٍ المَازِنِي وَبَعْضُ الناسِ يَقُولُ عبدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو المازِني وهَرْمِيُ بنُ عبدِ اللهِ وعِرْبَاضُ بنُ سَارِيَةَ .

فاسْتَحْمَلوُا رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وكانُوا أَهْلَ حَاجَةٍ فقَالَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُم عَلَيهِ فتَوَلَوُا يَبْكُونَ وأعيُنُهُمْ تَفِيْضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوْا ما يُنْفِقُون .

وقَامَ عُلَيَّةُ بنُ يَزِيْد فَصَلَّى مِن اللَّيْلِ وَبَكَى وقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ أَمَرتَ بالجِهَادِ وَرَغَبَّتْ فِيهِ ثُمَّ لَمَ تَجْعَلْ عِنْدِيْ مَا أَتَقَّوى بِهِ مَعَ رَسُولِكَ ولم تَجْعَلْ في يَدِ رَسُولِكَ مَا يَحْمِلُنِي عَلَيهِ وَإِنِّيْ أتصَدَّقُ عَلَى كُلِّ مُسْلمٍ بكُلِّ مَظْلَمَةٍ أَصَابَنِيْ فِيْهَا مِن مَالٍ أَوْ جَسَدٍ أَو عِرْضٍ .

ثُمَّ أَصْبَحَ مَعَ الناسِ فَقَالَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم : أَيْنَ المُتَصَدِّقُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فَلَمْ يَقُمْ إِليهِ أَحَدٌ قَالَ أَيْنَ المُتَصَدِّقُ فَلْيَقُمْ فقَامَ

إليْهِ فأَخْبَرَهُ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أَبْشِرْ فَوَالذِي نَفسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَقدْ كُتِبَتْ في الزَّكَاةِ الـمُتَقَـبَّلَـةِ فَفِيْ هَذا مُعْجِزَةٌ مِن مُعْجزَاتِه صلى الله عليه وسلم وذلك باخبارِهِ المُتَصدِّق :

فَلَقِيَ اثْنَانِ مِنْهُمَا يَامِيْنَ بنَ عُمَيْرِ بنِ كعبِ النَّفَري فقال مَا يُبْكِيْكما قالاَ جِئْنَا إلَى رَسُولِ اللهِ صلىَ اللهُ عليه وسلم لِيَحْمِلنَا فَلَمْ نَجدْ عِنْدَهُ مَا يَحْمِلُنَاعَلَيه وليْسَ عِنْدَنا مَا نَتقَوَّى بِهِ عَلى الخُرُوْجِ وَنَحْنُ نَكْرَهُ أَنْ تَفُوتَنَا غزْوَةٌ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فأَعْطَاهُمَا نَاصِحاً لَهُ ، البَعِيْرَ الذي يَحْمِلُ عَلَيهِ الماءَ فارْتَحَلاَهُ وَزَوَّدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهما صَاعَين مِن تَمْرٍ وَحَمَلَ العَباسُ بنُ عَبدِ الـمُطّلب رَجُلَينِ وَحَملَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ مِنْهُمْ ثلاثةً .

أَمَّا المُنَافِقُونَ فَقدْ أَخذُوْا يَتعَلَّلُونَ وينْتَحِلُوْنَ الأَعْذَارَ لِيَتَخَلَّفُوْا عن الرَّكْب وكانُوا مِن الأَغْنِيَاءِ القادِرِيْنَ عَلَى تَجْهيْزِ أَنْفُسِهِمْ وَغَيرِهِمْ وَلَكِنَّ النِّفَاقَ ضَرَبَ عَلَىَ قُلوبِهِم فلَجَؤُا إلى الحِيْلَةِ يَعْتَذِرُوْنَ وَجعَلُوا يَسْتَأْذِنُونَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلم في القُعُودِ فَيأذَنُ لَهُمْ ويُعْرِضُ عَنْهُمْ .

ولَم يَقْتَصِرِ المُنَافِقُونَ على تَخَلُّفِهِمْ وَقُعُودِهِمْ بَلْ بَثُّوا شُرُوْرَهُمْ وَجَعَلُوا يُثَبِّطُونَ الناسَ ويُخَوِّفُوْنَهُمْ لِقَاءَ الرُّوْمِ وَيُرْجِفُونَ برَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَيقُولُونَ فِيْمَا يَقولُونَ يَغْزُوْ مُحَمَّدٌ بَنِي الأصْفَرِ مَعَ جُهْدِ الحَالِ والحَرِّ والبَلَدِ البَعِيْدِ أيَحْسَبُ مُحَمَّدٌ أَنَّ قِتَالَ بَنِيْ الأصْفَرِ بَسِيْطٌ كَقِتَالِ العَرَبِ بَعْضِهِمْ بَعْضَا واللهِ لَكَأَنَّكُمْ بأصْحَابِهِ غداً مُقرَّنِيْنَ في الحِبَالِ .

وكانَ العَرَبُ يَنْظُرُوْنَ إلى دَوْلَةِ الرُّوْمِ حِيْنَذَاكَ كَنَظر كَثِيْرٍ مِن الناسِ اليَوْمَ إلى دُوَلِ الكُفْرِ دُوَلَ أوْرُبَّا وأمَرِيْكَا وَرُوْسِيَا ، قال اللهِ تعالى ﴿ وجاء المُعذِرُوْنَ مِن الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ

وقعَدَ الـذينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ولَكِنّ ذَلكَ لَمْ يَمْنَعْ المُسْلِمِينَ مِن أنْ يُعِدُّوَا لِلْخُرُوْج عُدَّتَهُ .

وَتَتابَعَ الناسُ يَتَوافَدُوْنَ عَلى المَدِيْنَةِ مِن كُلِّ صَوْبٍ حَتَّى زَادَ عَدَدُهُمْ عَلى ثَلاثِيْنَ أَلْفَاً وضَرَبَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عَسْكَرَهْ على ثَنِيَّةِ الوَدَاع واسْتَخْلَفَ عَلَيْهِ أبا بكرٍ الصِّدِّيْقَ يُصَلى بالناسِ واسْتَخْلَفَ عَلى المَدِيْنَةِ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةْ .

وخَلَّفَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم عَلى أَهْلِهِ عَليَّ بْنَ أَبِيْ طَالِب وَأَمَرَهُ بالإقامةَ فِيْهِمْ فَأُرْجِفَ بِهِ المُنَافِقُون وقالُوا مَا خَلَّفَهُ إلا اسْتِشْقَالاً لَهُ وَتَخفُفاً مِنْهُ فلمَّا قَالَ المُنافِقُوْنَ ذَلِكَ أَخَذَ عَليٌّ سِلاَحَهُ ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى رَسُوْلَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالجُرْفِ مَوْضِعٌ عَلَى ثلاثَةِ أمْيَالٍ مِن المَدِيْنَة) .

فَقَالَ يَا نَبِي اللهِ زَعَمَ المُنافِقُوْنَ أَنَّكَ إنَّمَا خَلَّفْتَنِيْ أَنَّكَ اسْتَثْقَلْتَنِيْ وَتَخففْتَ مِنِّيْ فقالَ كَذبُوا وَلَكِنِّيْ إنَّمَا خَلَّفْتُكَ لِمَا وَرَائِي فارْجِعْ فاخْلُفْنِيْ في أَهْلِيْ وَأَهْلِك أفلاَ تَرْضَى يَا عَلي أَنْ تَكُونَ مِنِّيْ بِمَنْزِلةِ هَارُوْنَ مِن مُوْسَى إلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِيْ فرجَعَ عَلِيٌّ .

وَعقَدَ الأَلْوِيَةَ والرَّايَاتِ فَدَفَع لِوَاءَهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَدَفَعَ رَايَتَهُ إلى الزُّبَيْرِ وَدَفَعَ رَايَةَ الأَوْسِ إلى أَسِيْدِ بنِ حُضَيْرٍ وَرَايَةَ الخَزْرَج إلى الحُبَاب بنِ المُنْذِرِ وَأَمَرَ كلَّ بَطْنٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَقَبَائِلِ العَرَبِ أَنْ يَتَّخِذُوْا لِوَاءً أَوْ رَايَةً .

وَخَرَجَ في شَهْرِ رَجَبَ في السَّنَة التَّاسِعَةِ قَاصِداً نَاحِيَةَ الشَّام فِي ثلاثينَ ألفَا مِن الناسِ والخَيْلُ عَشْرَةُ آلافِ فَرَسٍ وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ رَئِيْسَ المُنَافِقِيْنَ خَرَجَ في حُلَفَائِهِ مِن اليَهُوْدِ والمُنَافِقِيْنَ فَعَسْكَرَ بِهِمْ إزاءَ

عَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

فلمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم على السَّيْرِ تَخَلَّفَ عنه عبدُ اللهِ بنُ أُبَي وَمن كَانَ مَعَهُ كَمَا تَخَلَّفَ عنْهُ في غَـزْوة أُحُدٍ وَلَمْ يَكُنْ الطَّرِيْقُ سَهْلاً ولا السَّفرُ قَرِيْباً ولا الوَقْتُ مُلائِماً للسَّيْرِ إِنَّما كانَ كَمَا تَقدَّم زَمَانُ عُسْرَةٍ وَشِدَّةِ حَرٍّ وجُدْبٍ وَحِيْنَ طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلاَلَ فالناسُ يُحِبُّوْنَ المَقَامَ في ثِمَارِهِمْ وظِلاَلِهِمْ .

ولكِنَّ الجِهَادَ لِدَفْعِ عَدُوٍّ مُهَاجمٍ وَرَدِّ خَطَرٍ جَاثِمٍ عَلَى الأَبْوَابِ فَمَا كَانَ المُؤْمِنُونَ وَهُمْ أَهْلُ الدَّعْوَةِ وحُـمَاتُهَا لِيَنْكُلوا عن الجِهَادِ مَهْمَا تَكُنِ الأَسْبَابُ غَيْرَ مُوَاتِيَةٍ وَمَهْمَا تَكُنِ الظُّرُوْفُ غَيْرُ مُلاَئِمَةٍ قَال تعالى ﴿ مَا كَانَ لإِهْلِ المَدِيْنَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِن الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عن رَسُولِ اللهِ ولا يَرْغَبُوْا بِأَنْفُسِهِمْ عن نَفْسِهِ ذلك بأنهُمْ لا يُصِيْبُهُمْ ظَماءٌ ولا نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ في سَبِيْلِ اللهِ ولا يَطَأُوْنَ مَوْطِئاً يَغِيْظُ كُفَّارِ وَلاَ يَنَالُوْنَ مِن عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحُ إن اللهَ لا يُضِيْعُ أَجْرَ المُحْسِنِيْن ولا يُنْفِقُوْنَ نَفقَةً صَغِيْرَةً وَلاَ كَبِيْرَةً ولا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمْ اللهُ أحسنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَقَدْ قَاسَى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأَصْحَابُهُ في هَذِهِ السَّفْرَةِ مَشَقَّةٌ عَظِيْمَةً وَعَنتاً وَنَصباً كَثِيْراً قال قَتَادَةُ خَرجُوا إلى الشام عامَ تَبُوكَ في لَهَبَانِ الحَرِّ عَلَى مَا يَعْلمُ اللهُ مِن الجُهْدِ فَأَصَابَهُمْ فِيهَا جُهْدٌ شَدِيْدٌ حَتَّى لَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ كَانَا يَشُقَّانِ التَّمْرَةِ بَيْنَهُمَا وَكَانَ النَّفَرُ يَتَدَاوَلُونَ التَّمرةِ بَيْنَهُمْ يَمُصُّهَا هَذَا ثُمَّ يَشْرَبُ عَلَيْهَا ثُمَّ يَمُصُّهَا هَذَا ثُمَّ يَشْرَبُ عَلَيها .

ورُوِيَ أَنَّهُ قِيْلَ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه حَدِّثْنَا عن شَأْنِ سَاعَةِ العُسْرَةِ فقال عُمرُ خَرَجْنَا إلى تَبُوْكَ في قَيْضٍ شَدِيْدٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً وَأَصَابَنَا فيهِ عَطَشٌ حتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنقَطِعُ وَحَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْحَرُ بَعِيْرَهُ فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ ثم يجعل ما بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ .

فَقَالَ أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيْقُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ قَدْ عَوَّدَكَ في الدُّعَاءِ خَيْراً فادْعُ اللهَ لنا فَقَالَ أَوَ تُحِبُّ ذَلِكَ قَالَ نَعَمْ فَرَفَعَ رَسُوْلُ اللهِ صلى اللهُ عَليه وسلم يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حَتَّى قَالت السَّمَاءُ ـ أَيْ آذنَتْ بِمَطَرٍ فَأَطَلَّتْ ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلَؤُا مَا مَعَهُمْ ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فلم نَرَهَا جَاوَزَتْ العَسْكَرَ .

وَهَذِهِ مُعْجِزَةٌ أَيْضَا وَلَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ المَشَقَّةُ العَظِيْمَةُ الَّتِي عَانَاهَا المُسْلِمُونَ في السَّيْرِ إلى تَبُوْكَ امْتِحَاناً مِن اللهِ لَهُمْ أَرَادَ بِهِ تَمْحِيْصَ المُؤْمِنِيْنَ واسْتِخْلاَصَهُمْ وَاعْدَادَهُمْ لإِحْتِمَالِ مَشَاقِّ الجِهَادِ في سَبِيْلِهِ ولِيَنْظِرُ مَبْلَغَ صَبْرَ الصَّابِرِيْن وصِدْق الصَادِقِيْنَ في سَبِيْلِ الذَّبَ عن دِيْنِهِمْ .

فكانَ لَا يَحْتَمِلُ هَذِهِ المَشقَّاتُ إلا الذِينَ لَهُمْ إِيْمَانٌ عَمِيْقٌ رَاسِخَةٌ عَقِيْدَتُهُمْ أَمَا الذِينَ نَافقُوْا وَتَظَاهَرُوْا بالايْمَانِ فَقَدْ تَضَعْضَعُوْا وَضَعُفُوا وَخَارَتْ عَزَائِمُهُمْ فكانُوا يَتسَلّلُونَ مِن وَرَاءِ الصُّفُوف رَاجعِيْنَ .

موعظة: عِبَادَ اللهِ إِنَّ الحَيَاءَ كَمَا عِلِمْتُمْ لَا يَأْتِيْ إلا بِخَيْرٍ وَإِنَّهُ خُلُقُ الاسلام وَذَلِكَ أَنَّهُ يَجُرُّ إلَى الكَمَالاتِ والفضَائلِ وَهوَ خُلُقُ الكِرَامِ وَسِمَةُ أَهْلِ المُرُوْءَةِ وَعُنْوَانُ الفَضْلِ والنُّبْلِ .

والحَيَاءُ بَاعِثَهُ إحْسَاسٌ رَقِيْقٌ وَشُعُورٌ دَقِيْقٌ يَبْدُوْ في العَيْنِ مَظْهَرُهُ وعلى الوَجْهِ أَثرُهُ ومَنْ حُرِمَهُ حرِمَ الخَيرَ كُلَّهُ وَمَنْ تَحَلَّى بهِ ظَفِرَ بالعِزِّ والكَرَامَةِ وَنَالَ الخَيْرَ أَجْمعَ .

وَلَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ هُمْ أَهْلُ الحَيَاءِ فَعلَيْنَا أَنْ نَقْتَدِيَ بِهِمْ في ذَلِكَ الخُلُقِ الجَمِيْلِ وَلَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ مِن شِدَّةِ حَيَائِهِنَّ إِذَا خَرَجْنَ لِحَاجَةٍ أَوْ ضَرُوْرَةٍ لا يُرَى مِنْهَا شَيْئاً أَبَدَاً وَتَبْتَعِدُ عن الرِّجَالِ لاصِقَةٍ بالجِدَارِ مُرْخِيَة ثَوْبَهَا شِبْراً أَوْ ذِرَاعا. في ثوبٍ رَثٍّ خَلقٍ وعَبَاءَةٍ كذَلِكَ.

مَضَى على هَذَا مُدَّةً من الزَّمَنِ ثُمَّ لَمَا غَشوْنَا الأَجَانِبُ وَكثِرُوا عِنْدَنَا وَهُمْ لَا يَرَوْنَ في التَّبرُجِ والسُّفُوْرِ بأساً ضَعُفَ دَاعِيْ الحَيَاءِ وَأَثَّرُوْا على كَثِيْرٍ مِن النِسَاءِ .

ولا شَكَّ أَنَّ التَّبَرُجَ وَإِبْدَاءَ الزِّيْنَةِ الَّتِيْ حَرَّمَ اللهُ إِبْدَاءَهَا مِنَ المُنْكَرَاتِ الَّتِي يَجِبُ إِنْكَارُهَا وَمَنْعُهَا لما يَنْشَأُ عَنْهَا مِن الفَوَاحِشِ والمَعَاصِيْ وافْسَادِ الأَخلَاقِ وإلَيْكَ الأدلةُ الدالةُ على تَحْرِيم السُّفُوْرِ والتَّبرُجِ .

قَالَ الله تَعَالى « وإذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذِالِكُم أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُم وَقُلُوبِهنَّ » فَهَذِهِ الآيةُ دَلِيْلٌ واضِحٌ على أنهُ يَجبُ على النِسَاءِ الاحْتِجَابُ عن الرِجالِ

وَقَال جَلَّ وَعَلاَ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُ قُلْ لِإِزْوَاجِكَ وَبنَاتِكَ وَنِسَاءِ المُؤْمِنِيْن يُدْنِيْنَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيْبِهِنَّ ذلكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فلا يُؤْذَيْنَ ﴾ .

وَقال تَعالَى ﴿ والقَوَاعِدُ مِن النساءِ اللاَّتِي لا يَرْجُوْنَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِيْنَةٍ وأَنْ يَسْتَعْفِفنَ خيرٌ لَهُنَّ ﴾ الآيَةَ ، فَدَلَّتِ الآيَةُ على أنَّ مَن لَهَا تَشَوُّقٌ إلى النِّكَاحِ بأنْ كانتْ تَرْجُوْهُ عَلَيْهَا جُنَاحٌ وهو الإِثْمُ إِن وَضَعَتْ ثِيَابَهَا وَرآهَا الأَجَانِبُ مِنْهَا فَالشَّابَاتُ مِن بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى لا يَجُوزُ لَهُنَّ وَضْعُ ثِيَابِهِنَّ لإِنَّ الفِتْنَةَ بِهِنَّ أَشَدُّ واثْمُهُنَّ أَعْظَمُ فتأَمَّلْ.

وقَالَ تعالى ﴿ ولا يُبْدِيْنَ زِيْنَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُوْلَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ الآيَةَ وَأَعْظَمُ مَا تَبْدُوْ بِهِ الزِيْنَةُ الوَجْهُ .

وَقَال تَعَالَى ﴿ ولا يَضْرِبْنَ بأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَم مَا يُخْفِيْنَ مِنْ زِيْنَتِهِنَّ ﴾ وَوَجْهُ الدَّلاَلَةِ على الاحْتِجَابِ أَنَّهُ اذا كَانَ قَدْ نُهِيْ عن أن تَضْرِبَ بِرجْلِهَا إِذَا مَشَتْ لِيُسْمَع صَوْتَ خِلْخَالِهَا مَنْ يَسْمَعُهُ مِن الرجَالِ فَتَتَحَرَّكَ الشَّهْوَةُ فكَيْفَ بابْدَاءِ الوَجْهِ الذِيْ فِتْنَتُهُ أَعْظَمُ وَتَحْرِيْكُهُ للشَّهْوَةِ أَشدُّ وَهُوَ الذِي إذا نَظَر إِلَيْهِ الانْسَانُ أَقْدَم أَوْ أَحْجَمَ .

وَقَال تعالى ﴿ وقُلْ لِلْمُؤْمِنِيْن يَغُضُوْا من أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوْا فُرُوْجَهُم ذلكَ أزكَى لَهُم إنَّ اللهَ خَبِيْرٌ بما يَصْنَعُونَ ﴾ قال في فتح القدير وفي هذِهِ دَلِيْل على تَحْرِيم النظرِ إلى غيرِ مَن يَحِلُّ النظرُ إليه أ هـ .

وَمِن الأدلةِ قَولُه تَعالَى نَاهِياً لِأَزْوَاجِ النَّبي صلى اللهُ عليه وسلم ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بالقَولِ فَيَطْمَع الذِي في قَلبه مَرَضٌ ﴾ .

هَذَا النَّهي وهذَا التَّحْذِيْر في عَهْدِ النبي صلى الله عليه وسلم في عَهْدِ الصَّفْوَةِ المُخْتَارَةِ مِن البَشَرِ لِصُحْبَةِ رَسُولِهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم

فَكَيْفَ بهذا المُجْتَمَعِ الذِي نَعِيْشُ فِيه اليَوْمَ في عَصْرِنَا المَرِيْضِ الدَّنِسِ الهَابِطِ الذي تَهِيْجُ فيه الفِتَنُ وَتَثُورُ فيه الشَّهَوَاتُ وتَرِفُ فيه الأَطْمَاعُ نسأل الله أنْ يُفَيْضَ لِدِيْنِهِ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْر وبالاجَابَةِ جَدِيْر .

ثم مِنَ الأَدِلَّةِ الدَالةِ على وجُوبِ الحِجَابِ والسَّتْرِ عَن الأَجَانِبِ ما وَرَدَ عن أَبِي حُمَيْدٍ أَوْ حُمَيْدَة قَال قَال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذَا خطَبَ أَحَدُكُم إمْرَأَةً فَلا جُنَاحَ عليهِ أنْ يَنْظُر مِنْهَا إذَا كانَ إنمَا يَنْظُر إلَيْهَا لِخُطْبَةٍ وانْ كانَتْ لا تَعْلَمْ رَوَاهُ أَحْمَدُ .

وَوَجْهُ الدلالَةِ أنه صلى اللهُ عليه وسلم نَفَى الجُنَاحَ وهو الاثمُ عن الخاطِبِ إذَا نَظَرَ إلَيْهَا إذا كَانَ إنَّمَا يَنْظُرُ إليها لِلْخُطْبَةِ فدل الحديثُ على أَنَّ النَّاظِرَ لِغيرِ الخُطْبَةِ آثِمُ .

ومن الأدلةِ قولهُ صلى الله عليهِ وسلم مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيلاءَ لَمْ يَنْظُر اللهُ إليه يَوْمَ القِيَامَةِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلمَةَ فَكَيْفَ يَصْنَعُ النِسَاءُ بِذُيُوْلِهِنَّ ، قَالَ يُرْخِيْنَهُ شِبْراً قَالَتْ إذاً تَنْكَشِفُ أَقْدَامُهُنَّ قال يُرْخِيْنَ ذِرَاعاً لا يَزِدْنَ عَلَيْهِ .

وَوَجْهُ دَلاَلَتِهِ على وجُوْبِ التَّسَتُّرِ عن الأَجَانِبِ أَنَّ القَدَمَ وَهُوَ أقلُ فِتْنَةٍ مِن الوَجْهِ يَجِبُ سَتْرُهُ فيكونُ وُجُوبُ سَتْرِ الوَجْه مِن بابِ أَوْلَى وَأَحْرَى .

وَمِنَ الأدلةِ على وجُوبِ التَّستُرِ مَا وَرَدَ عَن أُمِّ المُؤْمِنِينَ عائِشَةَ رضي اللهُ عنها قَالَتْ كَان الرُّكْبَانُ يَمُرُّوْنَ بِنَا وَنَحْنُ مُحْرِمَاتٌ مَعَ رسولِ

اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فاذا حَاذَوْا بِنَا سَدَلَتْ إحْدَانَا جِلْبَابَهَا على وَجْهِهَا مِن رَأْسِهَا فاذا جاوَزُونا كَشَفْنَاهُ رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

فالحديثُ يدُلُّ دَلاَلَةً وَاضِحَةً على وجُوْبِ تَغْطِيَةِ الوَجْهِ عن الأجانِبِ إذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى المُسْلِم أنْ يَتَّقِي اللهَ ويأخُذَ على أيْدِي نِسَائِهِ وَيَمْنَعُهُنَّ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِنَّ مِن السُفُورِ والتَّبرُجِ .

ولاَ عِبْرَة بالأجَانِبِ الذينَ تَربَّوْا على السُّفُورِ وَنَشؤُا عَلَيْهِ وَقَلَّدُوْا فيهِ أَعْدَاءَ الاسْلامِ وَصَارُوْا لا يُبَالُونَ بِهِ وبِمَا هُوَ أعظَمُ مِنه مِن المَعَاصِي والعِيَاذُ باللهِ مِن تَرْكِ صَلاَةٍ مَعَ الجَمَاعَةِ وَحُضُورِ مُنْكَرَاتٍ وَرُكُوبِ النِسَاء بلا مَحْرَم وخَلْوَةٍ بالرجالِ الأجَانِبِ وَمُبَاشَرَتِهِم وَنَحْو ذَلِكَ .

اللهم يا مُصْلِحَ الصالحينَ أصْلِحْ فَسَادَ قلُوبِنَا واسْتُرْ في الدُنْيَا والآخِرَةِ عُيُوْبَنَا واغفِرْ بِعفْوِكَ وَرَحمَتِكَ ذُنُوْبَنَا وَهَبْ لَنا مُوْبِقَاتِ الجَرَائِرِ واسْتُرْ عَلَيْنَا فَاضِحَاتِ السَّرَائِرِ ولا تُخْلِنَا في مَوْقِفِ القِيَامَةِ مِن بَرْدِ عَفْوِكَ وَغُفْرَانِكَ وَلَا تَتْرُكْنَا مِن جَمِيْلِ صَفْحِكَ واحْسَانِكَ واغْفِرْ لَنَا ولِوَالِدِيْنَا ولِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ برحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الر احمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

نَظْمٌ في الحَثِّ على الأخْذِ بالحَدِيْثِ وَتَقْدِيْمِهِ عَلَى الآراءِ »

وَقَـدِّمْ أَحَـادِيْـثَ الـرسـولِ وَنَـصَّـهُ
عَلَى كُـلِّ قَـوْلٍ قَـدْ أَتَى بـإِزَائِـهِ

فــإِنْ جَـاءَ رَأْيٌ لِلْحَـدِيْثِ مُعَــارِضٌ
فلِلرَّأْيِ فـاطْـرَح واسْتَـرِحْ مِن عَنَـائِهِ

فَهَـلْ مَعْ وُجُـوْدِ البَحْـرِ يَكْفِيْ تَيَمُّمٌ
لِمَنْ لَيْسَ مَعْــذُوْراً لَــدَى فُقَهَــائِــهِ

وَهَـلْ يُوْقِـدُ النَّاسُ المَصَابِيْح لِلضِّيَا
إذَا مَــا أَتَى رَدْؤُ الضُّحَى بضِيَـائِـهِ

سَــلامِي علَى أَهْــلِ الحَــدِيْثِ فَــإِنَّهُمْ
مَصَـابِيْـحُ عِلْمٍ بَــلْ نُجُـوْمُ سَمـائِـهِ

بِهِمْ يَهْتَــدِيْ مَنْ يَقْتَــدِيْ بعُـلُوْمِهِمْ
وَيَــرْقَى بِهِـمْ ذُو الــدَّاءِ عِلَّةَ دَائِــهِ

وَيَحْيَـا بِهِمْ مَنْ مَاتَ بِـالجَهْلِ قَلْبُـهُ
فَهُمْ كَــالْحَيَـا تَحْيَ البِقَــاعُ بمَــائِــهِ

لَهُمْ حُلَلٌ قَــدْ زَيَّنَتْهُمْ مِن الـهُـدَى
إذا مَــا تَــرَدَّى ذُو الــرَّدَا بِــرِدَائِــهِ

وَمَنْ يَكُنِ الـوَحْيُ المُـطَهَّـرُ عِلْمُـهُ
فَـلَا رَيْبَ فِي تَـوْفِيْـقِـهِ واهْتِـدَائِـهِ

وما يَسْتَوِيْ تَـالِي الحَدِيْثِ وَمَن تَـلَا
زَخَــارِفَ مِــن أَهْــوَائِــهِ وَهُــذَائِــهِ

وكُنْ رَاغِباً فِي الوَحْيِ لا عَنْه رَاغِباً
كَخَــابِطِ لَيْـلٍ تَــائِـهٍ فِي دُجَــائِــهِ

إِذَا شَامَ بَرْقَاً في سَحَابٍ مَشَى بِهِ
وإلا بَقِيْ في شَكِّهِ وامْتِرَائِهِ
وَمَنْ قَالَ ذَا حِلٌّ وَهَذَا مُحَرَّمٌ
بِغَيْرِ دَلِيْلَ فَهْوَ مَحْضُ افْتِرَائِهِ
وكُلُّ فقِيْهٍ في الحَقِيْقَةِ مُدَّعٍ
ويَثْبُتُ بالوَحْيَيْنِ صِدْقُ ادِّعَائِهِ
هُمَا شَاهِدَا عَدْلٍ ولكِنْ كلاَهُمَا
لَدَى الحُكْمِ قَاضٍ عَادِلٍ في قَضَائِهِ
فَوَاحَرَّ قَلْبِيْ مِن جَهُوْلٍ مُسَوَّدٍ
بِهِ يُقْتَدَى في جَهْلِهِ لِشَقَائِهِ
إِذَا قُلْتُ قَوْلَ المُصْطَفَى هُوَ مَذْهَبِيْ
مَتَى صَحَّ عِنْدِي لَمْ أَقُلْ بِسِوَائِهِ
يَرَى أَنَّهَا دَعْوَى اجْتِهَادٍ صَحِيْحَةً
فَوَا عَجَباً مِن جَهْلِهِ وَجَفَائِهِ
فَسَلْهُ أَقَوْلُ اللهِ مَاذا أَجَبْتُمُ؟
لِمَنْ هُوَ يَوْمَ الحَشْرِ عِنْدَ نِدَائِهِ
أَيَسْأَلُهُمْ مَاذَا أَجَبْتُمْ مُلُوْكَكُمْ
وما عَظَّمَ الإنسانُ مِن رُؤَسَائِهِ
أَمِ اللهُ يَوْمَ الحَشْرِ يَمْتَحِنُ الوَرَى
بِمَاذَا أَجَابُوا الرُّسْلَ مِن أَنْبِيَائِهِ

وهَلْ يُسْأَلُ الانسانُ عن غَيْرِ أحْمَدٍ
إذا مَا ثَوَى في الرَّمْسِ تَحْتَ ثَرَائِهِ
وَهَلْ قَوْلُهُ يَا رَبُّ قَلَّدْتُ غَيْرَهُ
لَدَى اللهِ عُذْرٌ يَومَ فَصْلِ قَضَائِهِ

اللهم قَنِعْنَا مِن الدُنيَا باليَسِيْرِ وَسَهِّل عَلينا كُلَّ أَمْر عَسِير وَوَفِّقْنَا لِمَا تُحبهُ وتَرضَاهُ إِنَّكَ على كُلِّ شيءٍ قَدِير وأَسْكِنَّا دَارَ كَرَامَتِكَ يا مَنْ هُوَ مَلْجَؤُنَا ومَلاَذُنَا وإليهِ المَصِيْر واجْعَلْ لنَا مِن كُلِّ هَمٍّ فَرَجا ومِن كُلِّ ضِيّقٍ مَخْرَجا وَاغْفِرَ لنَا ولِوَالِدِينَا ولِجَميْعِ إخْوانِنَا المُسْلِمِيْن بِرحْمَتِكَ يا أَرْحَم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وضَلَّتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليهْ وسلم بِبَعْضِ الطَّرِيْقِ فَخَرَجَ أَصْحَابُهُ في طَلَبِهَا وعِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم رَجُلٌ مِن بَعْضِ أَصْحَابِهِ يُقَالُ لَهُ عِمَارَةَ بنَ حَزْمٍ الأنصارِي.

وكَان في رَحْلِهِ زَيْدُ بنُ لُصَيْتٍ القَيْنُقَاعِي وكان مُنَافِقاً فَقَالَ زَيْدُ بنُ لُصَيْتٍ وَهُوَ فِي رَحْلِ عُمارَةَ وعمَارَةُ عِنْدَ رَسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم؛ أَلَيْسَ يَزْعُمُ مُحَمَّدُ انَّه يُخْبِرُكُم مِن خَبَرِ السَّمَاءِ وَهُوَ لا يَدْرِيْ أَيْنَ نَاقتُهُ.

فَقَال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وَعُمَارَةُ عِنْدَه إنَّ رَجُلاً قَالَ إنَّ مُحَمَّداً يُخْبِرُكُم أَنَّهُ نَبِيّ وَهُوَ يَزْعُمُ أنَّهُ يخْبِركُمْ بخَبَرِ السَّمَاءِ وهُوَ لا يَدْرِيْ أَيْنَ نَاقَتُهُ وإنّي واللهِ مَا أَعْلَمُ إلاّ ما أَعْلَمَنِي اللهُ وقَدْ دَلَّنِي اللهُ علَيْها وهي في الوَادِيْ في شِعْبِ كَذَا وَكَذَا قَدْ حَبَسَتْهَا شَجَرَةٌ بِزِمَامِهَا

فانطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوْا بِهَا .

فَذَهَبُوا فَجَاؤُا بها وقَدْ وَجَدَهَا الحَارِثُ بنُ خـزَمَةَ الأَشْهَلِي كَمَا قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ فقالَ زَيْدٌ لَكَأَني لَمْ أُسْلِمْ إلا اليَوْمَ فَقَدْ كُنْتُ شَاكاً في مُحَمَّدٍ وقد أَصْبَحْتُ وَأنا فِيهِ ذُوْ بَصِيْرَةٍ أَشْهَدُ أَنَّه رَسُولُ اللهِ ففي هذه القصة معجزة واضحة .

ثم مَضَى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم سَائِراً فَجَعَلَ يَتَخَلَّفُ عَنهُ الرَّجُلُ فيَقُولُونَ يا رَسُولَ اللهِ تَخَلَّفَ فُلانٌ فَيَقُولُ دَعُوْهُ فان يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُمْ وإن يَكُ غَيْرَ ذلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُم اللهُ مِنهُ حَتَّى قِيْلَ يَا رَسُولَ الله تَخَلَّفَ أَبُو ذَرٍ وَأَبْطَأَ بِهِ بَعِيْرِه فقالَ دَعُوْهُ فإِنْ يَكُ فِيه خيرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُمْ وإِنْ يَكُ غيرَ ذلِكَ فَقَدَ أراحَكَمِ اللهُ مِنْهُ .

وتَلَوَّمَ أَبُو ذَرٍ عَلَى بَعِيْرِهِ فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ بعِيْرُهُ ـ أَيْ انْقَطَعَ ـ أَخَذَ المَتَاعَ مِن عَلَيهِ فَحَمَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ خَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم مَاشِياً وَنَزَلَ رَسُول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَنَازِلَهُ فَنَظَرَ نَاظِرٌ مِن المُسْلِمِيْنَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ هَذَا رَجُلٌ يَمْشِيْ عَلى الطَّرِيْقِ وَحْدَهُ .

فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كُنْ أَبَا ذَرٍ فَلمَّا تَأَمَّلَهُ القَوْمُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ هُوَـ وَاللهِ أَبُو ذَرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم رَحِمَ اللهُ أَبَا ذَرٍ يَمْشِيْ وَحْدَهُ وَيَمُوْتُ وَحْدَهُ وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ وَقَدْ تَحقَّقَ قَولُهُ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ فإِنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عنه لَمَّا نَفَى أَبَا ذَرٍ نَزَلَ أَبُوْ ذَرٍ الرَّبْذَةَ فَأَصَابَهُ بِهَا قَدَرُهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَحدٌ إلَّا امْرَأَتَه

وَغُلامُهُ فَأَوْصَاهُمَا أَنْ غَسِّلانِيْ وَكَفِّنَانِيْ .

ثم ضَعَانِي عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيْقِ فَأَوَّلُ مَرْكَبٍ يَمُرُّ بِكُم فَقُوْلُوْا لَهُ هَذَا أَبُو ذَرٍ صَاحِبُ رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم فَأَعِيْنُوْنَا عَلَى دَفْنِهِ فَلَمَّا مَاتَ فَعلا ذَلِكَ بِهِ ثُمَّ وَضَعَاهُ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيْقِ .

فَأَقْبَلَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَرَهْطٌ مَعَهُ أَهْلُ العِرَاقِ عُمَّاراً فَلَمْ يَرُعْهُمْ إلا جَنَازَةٌ على الطَّرِيْقِ قَدْ كادَتْ الإِبلُ تَطَؤُهَا وَقَامَ الغُلامُ فقال هَذَا أَبُو ذَرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَأَعِيْنُوْنَا عَلَى دَفْنِهِ .

فاسْتَهَلَّ عَبدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ يَبْكِيْ وَيَقُوْلُ صَدَقَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « تَمْشِيْ وَحْدَكَ وَتَمُوتُ وَحْدَكَ وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ » .

ثم نَزَلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَوَارَوْهُ ثُمَّ حَدَّثَهُمْ ابنُ مَسْعُودٍ حَدِيْثَهُ وَما قَالَهُ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في مَسِيْرِهِ إلى تَبُوكَ واسْمُ أَبِي ذَرٍ « جُنْدُبُ بنُ جُنَادَةَ » وَمَاتَ في سنة ٣٢ هـ .

وَذَكَرَ أبو حَاتِمٍ بنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ وَغَيْرُه في قِصَّةِ وَفَاتِه عَنْ مُجَاهِدٍ عن إبْرَاهِيْمَ بن الأَشْتَرِ عَن أَبِيْهِ عن أُمِّ ذَرٍ قَالَتْ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا ذَرٍ الوَفَاةُ بَكَيْتُ فَقَالَ مَا يُبْكِيْك فَقُلْتُ مَا لِيْ لَا أَبْكِيْ وَأَنْتَ تَمُوْتُ بفَلاَةٍ مِن الأَرْضِ وَلَيْسَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسَعُكَ كَفَناً وَلَا يَدَانِ لِيْ في تَغْيِيْبِكَ .

قَالَ أَبْشِرِيْ ولا تَبْكِيْ فإنِّيْ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ لنَفَرٍ أنا فِيْهِمْ لَيَمُوْتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ

مِنَ المُسْلِمِين وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُوْلئكَ النَّفرِ إلَّا وَقَدْ مَاتَ في قَرْيَةٍ وَجمَاعَةٍ فَأَنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ فَوَ اللهِ مَا كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ فَأَبْصِرِيْ الطَّرِيْقَ فقُلْتُ أنَّي وَقَدْ ذَهَبَ الحَاجُ وَتَقَطَّعَتِ الطُرُقُ .

فَقالَ اذْهَبِيْ فتبَصَّرِيْ قَالَت فكُنْتُ أَشْتَدُّ إلى الكَثِيْبِ أَتبَصَّرُ ثُمَّ أرْجِعُ فَأُمَرِّضُهُ فَبَيْنَا أنا وَهُوَ كَذَلِكَ إذَا أنا بِرجَالٍ على رِحَالِهِم كأنَّهُمْ الرَّخَمُ تخِبُّ بهِمْ رَوَاحِلُهُمْ قَالَتْ فَأشَرْتُ إلَيْهِمْ فَأَسْرَعُوْا إليَّ حَتَّى وَقَفُوا عَلَيَّ .

فَقَالُوا يَا أمَةَ اللهِ مَا لَكِ قُلْتُ امْرُؤٌ مِنَ المُسْلِمِيْنَ يَمُوْتُ قَالُوا وَمَن هُوْ قُلْتُ أَبُوْ ذَرٍ قَالُوا صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم قُلْتُ نَعَمْ فَفَدَّوْهُ بآبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَأَسْرَعُوْا إليْهِ حَتَّى دَخَلُوا عَلَيهِ .

فقال لَهُمْ أَبْشِرُوْا فإنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ لِنَفرٍ أنا فِيْهِمْ لِيَمُوْتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلاةٍ مِن الأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ وَلَيْسَ مِن أولئك النَّفَرِ رَجُلٌ إلَّا وَقَدْ هَلَكَ في جَمَاعَةٍ .

واللهِ مَا كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ وإِنَّهُ لَوْ كَانَ عِنْدِيْ ثَوْبٌ يَسَعُني كَفَناً لِي أَوْ لإمْرَأَتِي لَمْ أُكَفَّنْ إلا فِي ثَوْبٍ هُوَ لِيْ أو لَهَا وَإِنِّي أَنْشُدُكُمُ اللهَ أنْ لا يُكَفِنَنِيْ رَجُلٌ مِنْكُم كَانَ أميْراً أَوْ عَرِيْفاً أَوْ بَرِيْداً أَوْ نَقِيْباً وَلَيْس مِن أُوْلَئِكَ النَّفَرِ أَحَدٌ إلَّا وَقَدْ قَارَفَ بَعْضَ مَا قَالَ إلا فَتىً مِنَ الأنْصَارِ .

قَالَ أَنَا أكفِنُكَ يَا عَمُّ أُكَفِّنُكَ في رِدَائِي هَذَا وَفي ثَوْبَيْنِ مِن عَيْبَتِيْ مِن غَزْلِ أُمِّيْ قَالَ فَأَنْتَ تُكَفِّنُنِيْ فكفنَهُ الأنْصارِيُ وَقَامُوْا عليه وَدَفَنُوْهُ في نَفَرٍ كلُّهمْ يمان .

وفي هَذِهِ القصة أيضاً مُعْجِزَةٌ حيثُ وَقَعَ طِبْقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ صلى الله عليه وسلم فتأَمَّلْ.

قال ابن اسحاق ثم إنَ أَبَا خَيْثَمَةَ رَجَعَ ـ بَعْدَ مَا سَارَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أياماً إلى أهْلِهِ في يَوْمٍ حَارٍ فَوَجَدَ أمْرَأَتَيْنِ لَهُ في عَرِيْشٍ لَهُمَا في حَائِطِهِ قَدْ رَشَّتْ كلُ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَرِيْشَها وَبَرَّدَتْ لَهُ فِيْهِ مَاءً وَهَيَأَتْ لَهُ فِيهِ طَعَاماً .

فَلَمَّا دَخَلَ قَامَ على بَابِ العَرِيْشِ فنظَرَ إلى امْرَأَتَيْهِ وَمَا صَنعَتَا لَهُ فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في الضَّحِّ ـ لَهَبُ الشَّمْسِ وَحَرَارَتُها ـ والرِّيْحِ والحَرِّ وأَبُوْ خَيْثَمَةَ فِي ظِلٍّ بَارِدٍ وَطَعَامٍ مُهَيأٍ وامْرَأَةٍ حَسْنَاء في مآلِهِ مُقِيْمٌ ما هذا بالنَّصَفِ والعَدْلِ .

ثمَ قَالَ واللهِ لا أَدخُلَ عَرِيْشَ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا حَتَّى أَلْحَق برَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فهيئا لِيْ زَاداً فَفَعَلَتَا ثُمَّ قَدَّمَ نَاضِحَهُ فَارْتَحَلَهُ ـ أيْ أَحْضَرَ جَمَلَهُ فَوَضَعَ عَلَيهِ الرَّحلَ وَأَعَدَّهُ لِلسَّفَرِ ـ .

ثم خَرَجَ في طَلَبِ رسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم حَتَّى أَدْرَكَهُ حِيْنَ نَزَلَ تَبُوْكَ وَكَانَ عِنْدَمَا أَقْبَلَ قَالَ النَّاسُ هَذَا رَاكِبٌ عَلَى الطَّرِيْقِ فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ فقالُوا يا رسولَ اللهِ هُوَ واللهِ أَبُو خَيْثَمَةَ فلمَّا أناخَ رَاحِلَتَهُ أَقْبَلَ فَسَلَّمَ على رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأَخْبَرَ خَبَرَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم خَيْراً وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ وفي هَذِهِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرة حيْث وَقَعَ طِبْقَ ما أخبَرَ .

وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُنَافِقِيْنَ مِنْهُمْ وَدِيْعَةُ بنُ ثَابتٍ وَمِنْهُمْ

مَخْشِيّ بنُ حِمْيَرَ قَال بَعْضُهم لِبَعْضٍ أَتَحْسَبُونَ جِلَادَ بَنِيْ الأَصْفَرِ كَقِتَالِ العَرَبِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً واللهِ لَكَأَنَّكُمْ غداً مُقَرَّنِيْنَ في الحِبَالِ إرجافاً وَإِرْهَاباً لِلْمُؤْمِنِيْنَ.

فَقَالَ مَخْشِيُ وَاللهِ لَودِدْتُ أَنِّيْ أُقَاضَي عَلَى أَنْ يُضْرَبَ كُلُّ مِنَّا مَائِةَ جَلْدَةٍ وَأَنَّا نَنْقَلِبُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِيْنا قُرْآنٌ لِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ وَقَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِعَمَّارِ بْن يَاسِرٍ « أَدْرِكْ القَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدِ احْتَرَقُوْا فَسَلْهُم عَمَّا قَالُوا فَإِنْ انْكَرُوْا فَقُلْ بَلَى قُلْتُمْ كَذَا وكَذَا فَانْطَلَقَ إِلَيْهِمْ عَمَّارٌ فقالَ ذلِكَ لَهُمْ.

فَأَتَوا رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَعْتَذِرُوْنَ إليْهِ فقال وَدِيْعةُ بنُ ثَابتٍ كُنَّا نَخُوْضُ وَنَلْعَبُ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلتَهُمْ لَيَقولن إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبْ فَقَال مَخْشِيُ بنُ حِمْيَرَ: يا رسولَ اللهِ قَعَدَ بِيْ اسْمِيْ وَاسْمُ أَبِيْ فَكَانَ الذِي عَفَا عَنْهُ في هذِه الآيةِ وتَسَمَّى عبدَ الرحمن وسأل اللهَ أنْ يُقتلَ شَهِيْداً لا يُعْلَمُ بِمَكَانِهِ فَقُتِلَ يَوْمَ اليَمَامَةِ فَلَمْ يُوْجَدْ لَهُ أثرٌ ، ففي هَذِهِ القصةَ مُعْجزَةٌ أيضاً وهي إِخْبَارُهُ بِمَا قَالُوا .

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَذَكَرَ ابنُ عَائذٍ في مَغَازِيْهِ أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَزَلَ تَبُوكَ في زَمانٍ قَلَّ مَاؤُهَا فِيْه فَاغْتَرَفَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم غُرْفَةً بِيَدِهِ مِن مَاءٍ فَمَضْمِضَ بِهَا فَاهُ ثُمَّ بَصَقَهُ فِيْهَا فَفَارَتْ عَيْنُهَا حَتَّى امْتَلأَتْ فَهِيَ كَذَلِكَ حَتَّى السَّاعَةَ.

قُلْتُ ؛ في صَحِيْحِ مُسْلِمٍ : أَنَّهُ قَبْلَ وُصُوْلِهِ إِلَيْهَا قَالَ إِنَّكُمْ

سَتَأْتُونَ غداً إنْ شَاءَ اللهُ تعالَى - عَيْنَ تبُوْكٍ وَإنكُم لَنْ تَأْتُوْهَا حَتَّى يُضْحِي النَّهارُ فَمَنْ جَاءَهَا فَلاَ يَمَسَّ مِن مَائِهَا شَيْئاً حَتَّى آتِي .

قَالَ فَجِئْنَاهَا وَقَدْ سَبَقَ إلَيْهَا رَجُلاَن والعَيْنُ مِثْلُ الشِّرَاكِ تَبُصُ بِشَيْء مِن مَائِهَا فَسَأَلَهُمَا رَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم هَلْ مَسَسْتُمَا مِن مَائِهَا شَيْئاً قَالاَ نَعَمْ .

فَسَبَّهُمَا وَقَالَ لَهُمَا مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَقُولَ ثُمَّ غَرَفُوا مِن العَيْنِ قَلِيْلاً قَلِيْلاً حَتَّى اجْتَمَعَ في شَيْءٍ ثُمَّ غَسَل رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ ثُمَّ أَعَادَهُ فِيْهَا فَجَرَتِ العَيْنُ بمَاءٍ كَثِيْرٍ فاسْتَقَى الناسُ .

ثم قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُوْشِكُ يَا مُعَاذُ إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مُلِيءَ جِنَاناً .

وقَال عَبدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ قُمْتُ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ وَأَنَا مَعَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في غَزْوَة تَبُوْكَ فَرَأَيْتُ شُعْلَةً مِنْ نَارٍ في نَاحِيَةِ العَسْكَرِ فَاتَّبَعْتُهَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا فاذَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ واذا عَبدُ اللهِ ذُوْ البِجَادَيْنِ والبِجَادُ الكِسَاءُ الأَسْوَدُ الغَلِيْظُ - المُزَنِيُّ قَدْ مَاتَ .

وإذَا هُمْ قَدْ حَفَرُوْا لَهُ وَرَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في حُفْرِتِهِ وَأَبُوْ بَكْرٍ وَعُمَرُ يُدْلِيَانِهِ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ أَدْنِيَا إلَيَّ أَخَاكُمَا فَدَلَّيَاهُ إليهِ فَلَمَّا هَيأَهُ لِشِقَّةِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ أَمْسَيْتُ رَاضِياً عَنْهُ فارْضَ عَنْهُ قَال يَقُول عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ يَا لَيْتَنِيْ كُنْتُ صَاحِبَ الحُفْرَةِ .

وَلَمَّا وَصَلَ صلَّى اللهُ عليه وسلم إلى تَبُوْكَ وَصَارَ عَلَى حُدُوْدِ دَوْلَةِ الرُّوْمِ لَمْ يَجِدْ أَحداً مِن العَدُوِّ وَمِنَ المُحْتَمَل أنْ يكُونَ الرُّوْم آثرُوا الانْسِحَابَ إلى دَاخِلِ بِلَادِ الشَّامِ لِيَتَحَصَّنُوْا بحُصُوْنِهَا حِيْنَ بَلَغَهُمْ أَمْر هَذَا الجَيْشِ وَقُوَّتَهُ .

وأيُّمَا كَانَ الواقِعُ فَقَدْ وَقَفَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عِنْدَ تَبُوكَ لَمْ يُجَاوِزْهَا وَبَعثَ سَرَايَاهُ إلى مَنْ حَوْلَ تَبُوكَ فَأتَاهُ صَاحِبُ إيْلَة فَصَالَحَهُ وأعْطَاهُ الجِزْيَةَ وأتاهُ أهْلُ جِرْبَاءَ وأذْرُحْ فأعْطُوْهُ الجِزْيَةَ وَكَتَبَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كِتاباً فَهُوَ عِنْدَهُم .

وَكَتَبَ لِصَاحِبِ إيلَةَ « بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم . هَذَا أَمَنَةٌ مِن اللهِ وَمُحَمَّدِ النَّبي رَسولِ اللهِ لِيُوْحِنَةَ ابن ذُؤْبَةَ وَأَهْل إيلةَ لِسُفُنِهِمْ ولِسَيَّارَاتِهِمْ ولِبَحْرِهِمْ ولِبَرِّهِمْ ذِمَّةُ اللهِ وذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النبي ولِمَن كَانَ مَعَهُم مِن كُلِّ مَارٍ مِنَ الناسِ مِن أهْلِ الشامِ وأهْلِ اليَمَنِ وأهْلِ البَحْرِ .

فَمَنْ أحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثاً فَإنَّهُ لا يَحُولُ مَالُهُ دُونْ نَفْسه وَإنَّهُ لِمَنْ أَخَذَهُ مِن الناسِ وَإنَّهُ لا يَحِلُ أنْ يُمْنَعُوْا مَاءً يَرِدُوْنَهُ وَلَا طَرِيْقاً يَرِدُوْنَهَا مِن بَرٍ وَبَحْرٍ هَذَا كِتَابُ جُهَيْمِ بْنِ الصَّلْتِ أ هـ .

(فصل)

وَلَمَّا دَخَلَ رَسُوْلُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم المَدِيْنَةَ بَدَأ بالمَسْجِدِ ، فَصَلَى فيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ للنَّاسِ . فَجَاءَهُ المُخَلَّفُوْنَ فَطَفِقُوْا يَعْتَذِرُوْنَ إليْهِ ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ . وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِيْنَ رَجُلاً . فَقَبِلَ

مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم عَلاَنِيَتَهُمْ ، وبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلَى اللهِ .

وَجَاءَه كَعبُ بنُ مَالِكٍ . فلمَّا سَلَّمَ عَلَيهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ له « تَعَالَ ، قال : فَجئتُ أَمْشِيْ حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فقال لِيْ : مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ فَقلْتُ : بَلَى واللهِ إنّي لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِن أَهْلِ الدُنيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخطِهِ بِعُذْرٍ ، وَلَقَدْ أُعْطِيْتُ جَدلاً وَلَكِنِّيْ واللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حَدِيْثَ كَذِبٍ تَرْضَى بهِ عَنّي ، لَيُوْشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَسْخِطَكَ عَليَّ . ولئِنْ حَدَثْتُكَ حَدِيْثَ صِدْقٍ ، تَجِدُ عَليَّ فِيْهِ ، إنِّي لأَرْجُوْ فِيْهِ عَفْوَ اللهِ . لاَ واللهِ مَا كَانَ لِيْ مِنْ عُذْرٍ ، واللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أقْوَى وَلاَ أَيسَرَ مِنِّيْ حِيْن تَخلَّفْتُ عَنْكَ .

فقالَ رَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : أَمَّا هَذَا فَقَدَ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِي اللهُ فِيْكَ ، فَقُمْتُ . وثَارَ رِجَالٌ مِن بَنِي سِلمَةَ ، فاتَّبَعُوْنِي يُؤَنِبُوْنَنِيْ ، فَقَالُوا لِيْ : واللهِ ما عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْباً قَبْلَ هَذَا ، ولقدْ عَجِزْتَ أنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِمَا اعْتَذرَ إليهِ المُخَلَّفُونَ ، فَقَدْ كَانَ كَافِيْكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَكَ .

قَالَ . فَو اللهِ ، مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِيْ حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِيْ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ هَذَا معِيْ أَحَدٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، رَجُلاَن قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ ، فَقِيْلَ لَهُمَا مِثْلَ الذِيْ قِيْلَ لَكَ . فَقُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟ قَالوا : مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيْعِ العَامِري ، وهِلاَلُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيْ ، فَذَكَرُوْا لِيْ رَجُلَيْن صَالِحِينِ شَهِدَا بَدْرَا فِيْهِمَا أُسْوَةٌ . فَمَضَيْتُ حِيْنَ ذَكَرُوْهُمَا لِي .

وَنَهَى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم المسلمينَ عَنْ كَلَامِنَا ـ أَيُّهَا الثلاثَةُ ـ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ . فاجْتَنَبَنَا النَّاسُ ، وَتَغَيَّرُوْا لَنَا حَتَّى تَنَكَرَتِ لِيْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ ، فَمَا هِيَ التِي أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِيْنَ لَيْلَةً .

فَأَمَّا صَاحِبَايَ : فَاسْتَكَانَا ، وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا : فَكُنْتُ أَشبَّ القَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ وأَشْهَدُ الصَّلاةَ مَعَ المُسْلِمِيْن ، وَأَطُوْفُ فِي الأَسْوَاقِ ، ولا يُكَلِمُنِيْ أَحَدُ وآتِيْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فأسَلِّمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِه بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَأَقُوْلُ فِي نَفْسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ عَلَيَّ أَمْ لاَ .
ثُمَّ أُصلِيْ قَرِيْباً مِنْهُ ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ . فاذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِيْ أَقْبَلَ إليَّ ، وإذا الْتَفَتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِي ، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِن جَفْوَةِ المُسْلِمِيْن : مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أبي قَتَادَةَ ـ وهُوَ ابنُ عَمِّي ، وَأَحَبُّ الناسِ إليَّ ـ فَسَلَمْتُ عليه . فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَليَّ السلامَ .

فَقُلْتُ : يا أَبَا قَتَادَةُ ، أنشُدُكَ اللهَ ، هَلْ تَعلَمُنِيْ أُحِبُّ اللهَ وَرَسولَهُ ؟ فَسَكَتَ . فَعُدْتُ لَهُ ، فَنَشَدْتُهُ ، فَسَكَت . فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ . فَقَالَ : اللهُ وَرَسُولُهْ أَعْلَمْ . فَفَاضَتْ عَيْنَايَ ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ .

فَبَيْنَا أنا أَمْشِي بِسُوْقِ المدِينةِ وَإِذَا نَبَطِيٌ مِن أَنْبَاطِ الشام مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبِيْعُهُ بالمَدِيْنَةِ ، يَقُولُ : مَنْ يَدُلُ على كَعْب بن مَالِكٍ ؟ فَطَفَق النَاسُ يُشِيْرُوْنَ لَهُ ، حَتَّى إذا جَاءَنِي دَفَعَ إليَّ كِتاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ ،

فَإِذَا فِيْهِ : أَمَّا بَعْدُ ، فانه قَدْ بَلَغَنِيْ أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جفَاكَ ، ولم يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ ولا مَضْيَعَةٍ ، فالحقْ بِنَا نُوَاسِكَ .

فَقُلْتُ ، لَمَّا قَرَأْتُهَا : وهَذَاأَيْضاً مِنَ البَلاءِ ، فَتَيَمَمْتُ بِهَا التَّنُوْرَ فَسَجَّرْتُهَا ، حَتَّى إذا مَضَتْ أربعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِيْنَ اذا رَسُوْلِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم يَأْتِيْنِيْ ، فَقَالَ : انَّ رَسُوْلَ الله صلى اللهُ عليه وسلمَ يَأْمُرُكَ أنْ تعتزلَ امْرَأَتك . فَقُلْتُ : أُطَلِّقُـهَا ، أمْ مَاذَا أفْعَلْ ؟ قَال : لَا . ولكِنْ اعْتَزِلْهَا ولا تَقْرَبْهَا .

وأرْسَلَ إلى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلكَ . فَقُلْتُ لامْرَأَتِي ، الْحَقِيْ بأَهْلِك ، فَكُوْنِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِي اللهُ في هَذَا الأَمْر، فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَال بن أُميَّةَ ، فَقَالَتْ : يا رسولَ اللهِ ، إنَّ هلالَ بنَ أُميَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ، فَهَلْ تَكْرَهُ أنْ أخْدِمَهُ ؟ قَالَ لا ، ولكِنْ لا يَقْرَبُكَ ، قَالَتْ : إنه وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إلى شَيْءٍ . واللهِ ما زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِن أمْرِهِ مَا كَان إلى يَوْمِهِ هَذَا .

قَال كَعْبٌ : فقال لِيْ بَعْضُ أَهْلِيْ : لَو اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ الـــلهِ في امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لإِمْرَأَةِ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدِمَهُ ؟ فَقُلْتُ : واللهِ لا أَسْتَأذِنُ فِيهَا رسولَ اللهِ وَمَا يُدْرِيْنِيْ مَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيْهَا ، وأَنَا رَجُلٌ شَابٌ .

قَال : فَلِبْثُتُ بَعْدَ ذَلكَ عَشْرَ لَيَالٍ ، حَتَّى كَمُلَتْ لَنَا خَمْسُوْنَ لَيْلَةَ مِن حِيْنَ نَهَى رَسُولُ اللهِ عَنْ كَلَامِنَا . فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِيْنَ لَيْلَةَ ، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِن بُيُوْتِنَا ، فَبَينَمَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى

الحَالِ التِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى ، قَدْ ضَاقَتْ عَليَّ نَفْسِيْ ، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأرض بمَا رحُبَتْ ، سَمِعْتَ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْ في على جَبَلِ سَلْعٍ بَأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا كَعْبَ بنَ مَالِكٍ ، أَبْشِرْ .

فَخَرَرْتُ سَاجِدَا ، فَعَرَفتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ مِن اللهِ ، وآذَنَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بتَوْبَةِ اللهِ عَلَينَا حِيْنَ صَلى الفَجْرَ . فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُوْنَنا . وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُوْنَ ، وَرَكَضَ إليَّ رَجُلٌ فَرَساً ، وَسَعى سَاعٍ مِن أَسْلَمَ ، فَأَوْفَى عَلَى ذِرْوَةِ الجَبَلِ ،وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرعَ مِنَ الفَرَسِ .

فَلَمَا جَاءَنِي الذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِيْ نَزَعْتُ لَهُ ثَوبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إيَّاهُما بِبُشْرَاهُ ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا . واسْتَعَرْتُ ثَوْبَين فَلَبسْتُهُمَا .

فانْطَلَقْتُ إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَتَلَقَانِي الناسُ فَوْجاً فَوْجَا يُهَنِئُونَنِيْ بالتَّوْبَةِ ، يَقُولُون : لِيَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ ، قال كَعْبٌ : حتى دَخَلْتُ المَسْجِدَ ، فاذَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ ، فَقَامَ إليَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيد اللهِ يُهَروِلُ ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي ، واللهِ مَا قَامَ إليَّ رَجُلٌ مِن المُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ ، ولا أنْسَاهَا لِطَلْحَةَ .

فلمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُرُوْرِ أَبْشِرْ بخَيرِ يومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ ، قُلْتُ : أَهُوَ مِن عندَكَ يا رسولَ اللهِ ، أَمْ مِن عندِ اللهِ ؟ قال : لَا ، بَلْ مِن عندَ اللهِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ إذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ ، وَكُنَّا نَعْرفُ ذَلِكَ مِنْهُ .

فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إنَّ مِنْ تَوْبَتِي أنْ أَنْخلِعَ مِن مَالِي صَدَقَةً إلى اللهِ وإلى رسولِهِ ، فقال : أمْسِكْ عليكَ بَعْضَ مَا لَكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ . قُلْتُ : فإِنِّيْ أُمْسِكُ سَهْمِي الذِي بخَيْبَرَ ، وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِيْ بالصِّدْقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي : أَنْ لا أَتَحَّدثَ إلا صِدْقاً ما بَقِيْتُ .

فواللهِ ما أَعْلَمُ أَحداً مِن المُسْلِمِيْنَ أَبْلاَهُ اللهُ في صِدْقِ الحَديْثِ مُنْذُ ذَكَرَتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إلَى يَوْمِي هَذَا مَا أَبْلاَنِيْ . واللهِ مَا تَعَمَّدْتُ بَعدَ ذَلِكَ إلى يَوْمِيْ هَذَا كَذباً ، وإنّي لأَرْجُوْ أَنْ يَحْفَظَنِيْ اللهُ فِيْمَا بَقِيْتُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى عَلَى رَسُولِهِ (١٩ : ١١٧ ـ ١١٩) لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِي والمُهَاجِرِيْنَ والأنْصارِ ـ إلى قَوْلِهِ ـ يا أَيُّها الذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوْا اللهَ وكونُوا مَعَ الصَّادِقِيْنَ ﴾ .

فَواللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عليَّ نِعْمَةً قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي للإِسْلامِ ـ أَعْظَمُ في نَفْسِي مِن صِدْقِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : أنْ لا أكونَ كَذَبْتُهُ ، فَأَهْلَكُ كَمَا هَلَكَ الذِيْنَ كَذَبُوا ، فَإِنَّ الله قالَ لِلذِيْنَ كَذَبُوا حِيْنَ أَنْزَلَ الوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لإِحدٍ ، قَال ﴿ ٩ : ٩٥ ، ٩٦ سَيَحْلِفُونَ باللهِ لَكُمْ إذا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ـ إلى قولِهِ ـ فانَّ اللهَ لا يَرْضَى عَن الْقَوْمِ الفَاسِقِين ﴾ .

قَالَ كَعْبٌ : وَكُنَّا تَخلَّفْنَا أَيُّها الثلاثةُ عن أَمْرِ أُولئكَ الذين قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ حِيْنَ حَلَفُوْا لَهْ ، فَبَايَعَهُمْ ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَأَرْجَأَ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فيهِ ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ ﴿ وَعَلَى الثلاثةِ الذينَ خَلِّفُوا ﴾ ولَيْسَ الذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خَلَّفَنَا : عَنِ الغَزْوِ ، وإنّمَا هُوَ تَخْلِيْفُهُ إيانَا ، وارْجاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حلفَ لَهُ واعْتَذَرَ إِلَيْهِ ، فَقَبِلَ مِنْهُ .

وَقالَ عثمانُ بنُ سعيْدِ الدَّارِمِي : حَدَثَنا عبدُ اللهِ بنُ صَالِحٍ حدثَنِي مُعَاوِيَةُ بنُ صَالِحٍ عن علي بنِ أبي طلحة عن أبنِ عباسٍ في قوله (٩ : ١٠٢ وآخرُوْنَ اعْتَرَفُوْا بِذُنُوْبِهم خَلَطُوْا عَمَلاً صَالِحاً وآخرَ سَيِئاً) قال « كانُوا عَشَرَة رَهْطٍ ، تَخَلَّفُوا عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في غَزْوَةِ تَبُوْكَ .

فَلَمَّا حَضَرَ رُجُوْعُ رسولِ اللهِ أَوْثَقَ سَبْعَةٌ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِسَوارِي المَسْجِدِ . وَكَانَ مَمَرُّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم إذا رَجَعَ في المَسْجِدِ علَيْهِمْ ، فَلَمَّا رَآهُمْ ، قَالَ : مَن هَؤلاءِ المُوثِقُوْنَ أنفسَهم بالسَّوَارِي ؟ قالُوا : هَذَا أَبُوْ لُبَابَة وأَصْحَابٌ لَهُ تَخَلَّفُوا عَنْكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ ، أَوْثَقُوْا أَنْفُسَهُمْ ، وحَلَفُوْا أَنَّهُم لا يُطْلِقُهُمْ أَحَدٌ حَتَّى يُطْلِقَهُمُ النبي صلى اللهُ عليه وسلم ويَعْذُرَهُمْ .

فَقَالَ : وأَنَا أُقسِمُ باللهِ لا أُطْلِقُهُمْ ولاَ أَعْذُرُهُمْ ، حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الذِي يُطْلِقُهُمْ ، رَغِبُوْا عَنِي ، وَتَخَلَّفُوْا عن الغَزْوِ مَعَ المُسْلِمِيْن . فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذَلكَ قَالُوا : وَنَحْنُ نُقْسِمُ باللهِ لا نُطْلِقُ أَنْفُسَنا حَتَّى يكُونَ اللهُ هُوَ الذِي يُطْلِقُنَا ، فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وآخَرُوْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوْبِهِمْ خَلَطُوْا عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيئاً عَسَى اللهُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِم ـ وَعَسَى مِن اللهِ وَاجِبٌ ـ إِنَّه هُوَ التَّوابُ الرَّحِيْم ﴾ .

فَلَمَّا نَزَلَتْ أَرْسَلَ إِلَيْهِم النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم فَأَطْلَقَهُمْ ، وَعَذَرَهُمْ ، فَجَاءُوا بأَمْوَالِهِم ، فقالُوا : يَا رسُولَ اللهِ هَذِهِ أَمْوالُنَا فَتَصَدَّقْ بِهَا عَنَّا ، واسْتَغْفِرْ لَنَا ، قَالَ : ما أُمِرْتُ أَن آخُذَ أَمْوَالَكُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ ٩ : ١٠٣ خُذْ مِن أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ـ يَقُولُ : اسْتَغْفَرَ لَهُمْ ـ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكنٌ لَهُمْ ﴾ فَأَخَذَ مِنْهُمْ الصَّدَقَة ، واسْتَغْفَرَ لَهُمْ .

وَكَانَ ثَلاثَةُ نَفرٍ لَمْ يُوْثِقُوا أَنْفُسَهُمْ بالسَّوارِي ، فأرْجِئُوا لاَ يَدْرُوْن أيعذبُون أم يتاب عليهم فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿ لَقد تَابَ اللهُ على النبي والمهاجرينَ والأنصارِ ـ إلى قوله : وَعَلَى الثَّلاثةِ الذِيْنَ خلِّفُوا ـ إلى قوله : إنَّ اللهَ هُوَ التوابُ الرَّحِيْم ﴾ .

وقال بعضهم :

ومـالِيْ ولِـلدُّنْيَـا وَلَـيْسَـتْ بـبُـغْيَتِي
ولا مُـنْتَـهَى قَـصْـدِيْ وَلَسْـتُ أَنَـالَـهَـا
وَلَـسْـتُ بـمـيَّـالٍ إلَـيْـهَـا وَلاَ إلَـى
رِيَـاسَـتِهَـا تَـبـاً وقُـبْحـاً لِـحَـالِـهـا
هِـيَ الـدَّارُ دَارُ الهَـمِّ والـغَـمِّ والـعَـنَـا
سَـرِيْـعٌ تَـقَـضّـيْـهَـا وَشِـيْـكٌ زَوَالُـهَـا
مَـيَـاسِـرُهَـا عُـسْـرٌ وَحُـزْنٌ سُـرُوْرُهَـا
وأرْبَـاحُـهَـا خُـسْـرٌ وَنَـقْـصٌ كَـمَـالُـهَـا
إذَا أَضْـحَـكَـتْ أبْكَـتْ وانْ رَامَ وَصْـلَـهَـا
غَبيٌ فَيَـا سِرْعَ انْقِـطَاعِ وِصَـالِهَا
فَـأَسْئَـلُ رَبـي أَنْ يَـحُـولَ بـحَـوْلِـهِ
وَقُـوَّتِـهِ بَـيْـنِ وبَـيْـنَ اغْـتِـيَالِـهَا
فَيَـا طَالِبَ الـدُّنْيَا الـدَّنِيَّـةَ جَـاهِـداً
أَلا أطْـلُبْ سِـوَاهَـا إنَّهَـا لاَ وَفَـالَهَـا
فَكَمْ قَـدْ رَأَيْنَـا مِن حَـرِيْصٍ ومُـشْفِـقٍ
عَلَيْهَـا فلَمْ يَظْـفُرْ بِهَـا أنْ يَنَـالَهَـا

لَقَـدْ جَاءَ فِي أَيِ الحَـدِيْـدِ ويُـوْنِسٍ
وفي الكَهْفِ إِيْضَـاحٌ بِضَـرْبِ مِثَـالِهَـا

وفـي آلِ عـمْـرَانٍ وسُـوْرَةِ فَـاطِـرٍ
وفي غَـافِرٍ قَـدْ جَاءَ تِبْيَـانُ حالِهَـا

وفـي سُـوْرَةِ الأحْـقَـافِ أَعْـظَمُ واعِظٍ
وكَمْ مِن حَـدِيْثٍ مُـوْجِبٍ لإِعْـتِـزَالِهَـا

لَـقَـدْ نَـظَرْ أَقْـوَامٌ بِـعَـيْـنِ بَـصِـيْـرَةٍ
إِلَيْهَـا فَلَمْ تَغْـرُرْ هـمُـوْا بـاخْتِيَـالِهَـا

أُولئِـكَ أَهْـلُ الـلهِ حَـقـاً وَحِـزْبُـهُ
لَهُمْ جَنَّـةُ الفِـرْدَوْسِ إِرْثـاً فَـيَـا لَهَـا

وَمَـالَ إِلـيْـهَـا آخَـرُوْنَ بِـجَـهْـلِهِـم
فَـلَمَّـا اطْمَـأَنُّـوْا أَرْشَـقَتْـهُـم نِـبَـالَـهَـا

أُولَئِـكَ قَـوْمٌ آثَـرُوْهَـا فَـأُعْـقِـبُـوْا
بهَـا الخِزْيَ في الأخْـرَى فَذَاقُـوْا وَبَـالَهَـا

فَـقُـلْ لِـلذِيْـنَ اسْـتَـعْـذَبُوْهَـا رُوَيْـدَكُـمْ
سَـيَـنْـقَلِبُ الـسُّـمُ الـنَقِـيْـعُ زِلَالَـهَـا

لِيَلْهُـوْا وَيَـغْتَـرُّوْا بِـهَـا مَـا بَـدَا لَهُـمْ
مَتَى تَبْلُغُ الـحُلْقُـوْمَ تَـصْـرِمْ حِبَـالَـهَـا

وَيَـوْمَ تُـوفَّـى كُـلُّ نَفْسٍ بِكَسْبِهَـا
تَـوَدُّ فِـدَاءً لَـوْ بَـنِـيْـهَـا وَمَـالَـهَـا

وَتَأْخُذُ إمَّا باليمِيْنِ كِتَابَهَا
إذَا أَحْسَنَتْ أَوْ ضِدَّ ذَا بِشِمَالِهَا

وَيَبْدُوْ لَدَيْهَا مَا أَسَرَّتْ وَأَعْلَنَتْ
وَمَا قَدَّمَت مِن قَوْلِهَا وَفِعَالِهَا

بأَيْدِيْ الكِرَامِ الكاتِبِيْنَ مُسَطَّرٌ
فلَمْ يُغْنِ عَنْهَا عُذْرَةٌ وَجِدَالُهَا

هُنَالِكَ تَدْرِيْ رِبْحَهَا وَخَسَارَهَا
وإِذْ ذَاكَ تَلْقَى مَا عَلَيْهَا وَمَالَهَا

فإِنْ تَكُ مِن أَهْلِ السَّعَادَةِ والتُّقَى
فَإِنَّ لَهَا الحُسْنَى بحُسْنِ فِعَالِهَا

تَفُوْزُ بِجَنَّاتِ النَّعِيْمِ وحُوْرِهَا
وتُحْبَرُ في رَوْضَاتِهَا وظِلاَلِهَا

وتُرْزَقُ مِمَّا تَشْتَهِي مِن نَعِيْمِهَا
وتَشْرَبُ مِنْ تَسْنِيْمِهَا وَزلاَلِهَا

فإِنَّ لَهُمْ يَوْمَ المَزِيْدِ لَمَوْعِداً
زِيَارَةُ زُلْفَى غَيْرُهُمْ لا يَنَالَهَا

وُجُوْهٌ إلى وَجْهِ الإِلٰهِ نَوَاظِرٌ
لَقَدْ طَالَ بالدَّمْعِ الغَزِيْرِ ابْتِلاَلُهَا

تَجَلَّى لَهُمْ رَبٌّ رَحِيْمٌ مُسلِّماً
فَيَزْدَادُ مِن ذاكَ التَّجَلِي جَمَالُهَا

بِمَقْعَدِ صِدْقٍ حَبَّذَا الجَارُ رَبُّهُمْ
وَدارُ خُلُوْدٍ لَمْ يَخَافُوْا زَوَالَهَا
فَوَاكِهُهَا مِمَّا تَلَذُّ عُيُوْنُهُمْ
وَتَطَّرِدُ الأنْهَارُ بَيْنَ خِلالِهَا
عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوْنَةٍ ثَمَّ فُرْشُهُمْ
كَمَا قَالَ فِيْهَا رَبُّنَا وَاصِفاً لَهَا
بَطَائِنُ مِن إِسْتَبْرَقٍ كَيْفَ ظَنُّكُمْ
ظَوَاهِرَهَا لا مُنْتَهَى لِجَمَالِهَا
وانْ تَكُنِ الأُخْرَى فَوَيْلٌ وَحَسْرَةٌ
وَنَارُ جَحِيْمٍ مَا أَشَدَّ نَكَالَهَا
لَهُمْ تَحْتَهُم مِنْهَا مِهَادٌ وَفَوْقَهُمْ
غواشِي ومِن يَحْمُوْمٍ سَأظِلالُهَا
طَعَامُهُمُ الغِسْلِيْنُ فِيْهَا وانْ سُقُوا
حَمِيْماً بِهِ الأمْعَاءُ كَانَ انْحِلالُهَا
أَمَانِيْهُمُوْا فِيْهَا الخُرُوْجُ ومَالَهُمْ
خُرُوْجٌ ولا مَوْتٌ كَمَا لا فَنَى لَهَا
مَحَلَّيْنِ قُلْ لِلنَّفْسِ لَيْسَ سِوَاهُمَا
لِتَكْتَسِبَنْ أو تَكْتَسِبْ مَا بَدَا لَهَا
فَطُوْبَي لِنَفْسٍ جَوَّزَتْ فَتَخَفَّفَتْ
فَتَنْجُوْا كَفَافاً لا عَلَيْهَا ولا لَهَا

اللهم أنا نَعُوذُ بِكَ مِن جَهْدِ البَلاَءِ ودَرْكِ الشَّقَاءِ وشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ وسُوْءِ المَنْظَرِ في الأهلِ والمالِ والولدِ اللهم حَبِّبْ إِلينا الايمانَ وزَيِّنْهُ في قُلُوبِنا وكَرِّهْ

إلينا الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ وَاجْعَلْنا مِن الراشدين واغفرْ لَنَا وَلِوَالِدَينا وَجميعِ المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل »

في ذِكْرِ بَعْضِ مَحَاسِنِ الدِّيْنِ الاسْلامي نَصرَهُ اللَّهُ

عباد الله قال الله تعالى ـ وهو أصدق القائلين ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دِيْنَكم ، وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيْتُ لكُمُ الاسلامَ دِيناً ﴾ أَكْمَلَ الدِّيْنَ ، بالنَّصْرِ ، والإِظْهارِ على الأَدْيَانِ كُلِّهَا ، فَنصرَ عَبْدهُ وَرَسُوْلَهُ ، وَخَذَلَ أَهْلَ الشِّرْكِ انْخِذالاً عَظِيْماً ، بَعْدَ مَا كَانُوا حَرِيْصِيْنَ عَلَى صَدِّ المُؤْمِنِيْنَ عَن دِيْنِهِمْ ، طَامِعِيْنَ فِي ذَلِكَ ، فَلَمَّا رَأَوْا عِزَّ الإِسْلامِ وانْتِصَارَهُ يَئِسُوا كُلَّ اليَأْسِ مِن المُؤمِنِيْنَ ، أنْ يَرْجِعُوْا إلى دِيْنِهِمْ ، وَصَارُوا يَخَافُونَ مِنْهُمْ وَيَخْشَوْنَ :

وأتَمَّ جَلَّ وَعَلاَ عَلَى عباده نِعْمَتَه بالهِدَايَةِ والتَّوْفِيْقِ ، والعِزِّ والتأييْدِ ، ورَضِيَ الاسلامَ لَنَا دِيْناً ، اخْتَارَهُ لَنَا مِن بَيْنِ الأَدْيَان ، فَهُوَ الدِيْنُ عندَ اللهِ لا غيْرُه ، قال تعالى ﴿ وَمَن يَبْتغِ غيرَ الاسلامِ دِيْناً فَلَنْ يَقْبَلَ منه ، وهُوَ في الآخِرَةِ مِن الخاسِرين ﴾ عبادَ اللهِ نَظَرَ أَصْحَابُ الأفكارِ البَرِيْئَةِ السَّلِيْمَةِ في أَحْكَام الاسْلام ، فاعْتَنَقُوْهُ ، وَتَأَمَّلُوا في حِكَمِه الجَلِيْلَةِ فَأَحَبُّوْهُ وَمَلَكَتْ قُلُوْبَهُم مَبَادِئُهُ الحَكِيْمَةُ فَعَظَّمُوه ، وكُلَّما كَانَ المُرْءُ سَلِيْمَ العَقْلِ ، نَيِّرَ البَصِيْرَةِ ، مُسْتَقِيْم الفِكْرِ ، اشْتَدَّ تَعَلُّقُه بِهِ ، لِمَا فِيهِ مِن جَمِيْلِ المَحاسِنِ، وجَلِيلِ الفَضَائِلِ ، جَاءَ الدِّيْنُ الاسلامِيُ بعَقائدِ التوحيْدِ ، التي يَرتَاحُ لَها العَقلُ السليمُ ويُقرُهَا الطَّبعُ المُسْتَقِيمُ ، يَدْعُوا إلى اعْتِقَادِ أَنَّ لِلْعَالَمِ إلهاً واحداً لا شريكَ لَه ، أَوَّلاَ

لا ابْتِدَاءَ لَهُ ، وآخِراً لا انْتِهَاءَ لَه ، ﴿ لَيسَ كَمِثْلِه شيء ، وهو السميعُ البصير ﴾ لَهُ القُدْرَةُ التَّامَةُ ، والإرادَةُ المُطْلَقَةُ ، والعِلْمُ المُحِيْطُ ، يَلْزِمُ الخَلْقَ الخُضُوعُ لَهُ والانقيادُ ، والعَمَلَ على مَرْضَاتِهِ ، بامْتِثَالِ أمرِهِ سُبْحَانَهُ ، واجْتِنَابِ نَهْيِهِ نَصَبَ الأدلةَ والبَرَاهِيْنَ ، في الأَنْفُسِ والآفاقِ ، وَحثَّ العقولَ على النَّظَرِ والاسْتِدلاَلِ ، لِتَصلَ بالبُرْهَان إلى مَعْرِفَتِهِ وَتَعْظِيْمِهِ ، والقِيامِ بحُقُوْقِهِ ، فَتَرَاهُ تَارةً يَلْفُتُ نَظَرَكَ إلَى أنه لا يُمْكِنُ أن توْجِـدَ نفسَكَ ، ولَا أن تُوْجدَ مِن دُوْنِ مُوْجِدٍ ﴿ أم خُلُقوا مِن غيرِ شَيءٍ ؟ أمْ هُمُ الخَالِقُون ﴾ أمَّا كَوْنُ الانسانِ موْجِداً لِنَفْسِهِ فهذَا أَمْرٌ ما ادَّعَاهُ الخَلْقُ ، وأما وُجُودُ الانسانِ هكذا مِن غيرِ مُوْجِدٍ ، فأمْرٌ يُنْكِرُهُ مَنْطِقُ الفِطْرِةِ ابتداءً ولا يَحْتَاجُ إلى جَدَلٍ كَثيرٍ أو قليلٍ ، واذا كانَ هذان الفَرْضَانِ باطِلَيْن ، فانه لا يَبْقَى إلا الحقيقةُ ، التي يَقُولُها القُرآنُ ، وهيَ أن الخَلْقَ خَلَقَهُ اللهُ الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي ﴿ لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، وَتَارَةً يَلْفُتُ النظرَ إلى السمواتِ والأرضِ ، فَهَلْ هُمْ خَلَقُوهَا ، فانها لم تَخْلُقْ نفسَها ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَخْلَقُوا أنفسَهُم ، وتارةً يَفْتَحُ أمامَ العقلِ والبصَرِ صَحِيْفَةَ السماءِ ، وما حَوَتْ مِن شَمْسٍ مُشْرِقَةٍ ، وَقَمرٍ مُنْيرٍ، وَنَجْمٍ مُضِيءٍ ، فَيَقُوْلُ ﴿ تَبارَكَ الذي جَعَلَ في السَّماءِ بُرُوْجاً ، وَجَعَلَ فيها سِرَاجاً وَقَمراً مُنِيْراً ﴾ وفي الآية الأخرى يقول ﴿ هو الذي جعل الشمسَ ضِياءَ والقمَرَ نُوراً ، وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ، لِتَعْلَمُوْا عَدَدَ السِنِيْنَ والحِسَاب ﴾ وَيَقُولُ ﴿ فالقُ الإصباحِ ، وجَعَلَ الليلَ سكناً والشمسَ والقمرَ حُسْبَاناً ذلكَ تقديرُ العزيزِ العَلِيم ﴾ ويَقُول ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُروا إلى السماءِ فَوقَهم ، كيفَ بَنَيْنَاها ، وَزَيَّنَّاهَا ، وما لَهَا مِن فُرُوْجٍ ﴾ ويقول ﴿ أفلم يَنْظُرُوْا في مَلَكُوتِ السمواتِ والأَرْضِ ، وما خلقَ اللهُ من شيءٍ ﴾ وَيَقُولُ

﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَموَاتٍ طِبَاقَا ، مَا تَرَى في خَلْقِ الرَّحمَنِ مِن تَفَاوُتٍ، فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِن فُطُور ؟ ثُمَّ ارجِع البَصَر كَرَّتَيْنِ ، يَنْقَلِبْ إليكَ البَصَرُ خَاسِئاً وهُوَ حَسِيْر ﴾ وَمَرةً يَلْفُتُ النَّظَرَ إلَى الأرضِ ، وما فِيْهَا مِن أشْجَارٍ مُتَنَوِّعةٍ ، ﴿ وفي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِرَاتٌ ، وجناتٌ مِن أعنابٍ ، وزرعٌ ونخيلٌ ،صِنْوَانٌ وغيرُ صِنْوانٍ ، يُسْقَى بماء واحدٍ ، ونُفَضِلُ بعضَها على بعض في الأكل ﴾ فتشاهِدُ شَجَرَ العِنبِ ، بجوارِ شَجَرِ الحُنْظُلِ ، في قِطْعَةٍ واحِدَةٍ ، تُسْقَى بماءٍ واحِدٍ ، وقَدْ جَعَلَ لِكُلِ شَجَرةٍ جُذُوْراً ، تَمْتَصُّ بِها مِن الأَرْضِ ما يُنَاسِبُهَا مِن الغِذَا الذي بِهِ قِوامُهَا وَحَيَاتُهَا ، وَتَنْفَتِحُ كلُ واحدةٍ عن ثَمَرَةٍ تُخَالِفَ الأخْرَى في اللَّونِ والطَّعْمِ والرائحةِ ، وكذلكَ باقي الأشجارِ المُتَجاوِرَةِ التي أرضُها واحِدَةٌ ومَاؤُها واحِدٌ ، ألاَ يَدْلُ هَذا على وُجُودِ صَانِعٍ حَكِيمٍ قادرٍ (إن في ذلك لآية) وَمَرةً يلفُتُ النظرَ إلى ما يُنزِّلُه مِن السماء ، مِنَ المَاءِ الذي به قِوامُ الحَياةِ ، ولوْ شاءَ لَجَعلَهُ أُجاجاً ، لا نَفْعَ فِيْهِ ، وَمَرةً يَتَحدَّثُ عن وحْدَانيته وانْفِرَادِهِ بالمُلْكِ والتَّدْبير ، ﴿ ما اتخذَ اللهُ مِن وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إله ﴾ الآية وفي الآية الأخْرَى يقُولُ في جَزَالَةِ لَفْظٍ ، وَفَخَامَةِ مَعْنَى ﴿ لَو كَانَ فِيْهِما آلهةٌ إلا اللهُ لفَسَدَتَا ﴾ إلى غَير ذَلِكَ مِن الأَدِلَةِ ، وشَرَعَ لِعِبَادِهِ مِن العِبَادَاتِ مَا يُهَذِّبُ النُفُوسَ ويُصَفِيْهَا ويُنَظِّمُ العِلاَقَاتِ ويُقَوِّيهَا، ويَجْمَعُ القُلُوب ويُزَكِيهَا ، وهذا الذي جاءَ بِهِ الاسْلامُ اتَّفَقَتْ في الدعوةِ إليه كلُ الرُّسُل ، قال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِن الدِّيْن مَا وَصَّى بهِ نُوْحاً ، والذي أوْحَيْنَا إليكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيْمَ ومُوْسَى وعِيْسَى، أنْ أقِيْمُوْا الدِّيْنَ ، ولا تَتَفرَّقُوا فيهِ ، كَبُرَ على المشْرِكِيْنَ مَا تَدْعُوْهُمْ إليهِ اللهُ يَجْتَبِي إليه مَنْ يَشاءُ ويَهْدِي إليهِ مَن يُنِيْب ﴾ .

اللهم نَوِّر قُلُوبَنَا بنُوْرِ الايمانِ وأعِذْنا مِن شَرِ نُفُوْسِنَا والشيطان وَوَفِّقْنَا لِطَاعَتِكَ وَجَنِبْنَا العصِيَانِ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فصل

فَقَدِ اعْتَرَفَ المُحَقِّقُونَ المُنْصِفُوْنَ : أَنَّ كلَّ عِلْمٍ نَافِعٍ دِيْنِي أو دُنْيَوِي أو سِيَاسِي قَد دَلَّ عَليه القُرآنُ دَلالةً لا شَكَ فيها ، فَلَيْسَ في شَرِيعةِ الاسلام ما تُحِيْلُه العقُولُ ، وانما فيه ما تشهدُ العُقولُ السَّلِيْمَةُ الزَّكِيَّةُ بصِدْقِهِ وَنَفْعِهِ وَصَلاَحِهِ، وكذلكَ أوامِرُهُ كلُّهَا عَدْلٌ، لا حَيْفَ فِيْهَا وَلاَ ظُلْمَ، فَمَا أَمَرَ بشَيْءٍ إلا وَهُوَ خَيْرٌ خالصٌ ، أو راجحٌ ، وما نَهَى عن شيء إلَّا وهُوَ شِرٌ خَالِصٌ ، أو مَا تَزِيْدُ مَفْسِدَتُهَ على مَصْلَحَتِهِ ، وكُلَّما تَدَبَّرَ العاقِلُ اللبيبُ احكامَ الاسلامِ قويَ ايمانهُ وإخْلاَصُهُ ، وعِنْدَمَا يَتَأَمَلُ مَا يَدْعُو إليهِ هَذَا الدِّينُ القويمُ يجِدُهُ يَدْعُو إلى مَكَارِمِ الأخْلاَقِ ، يَدْعُو إلَى الصِّدْقِ والعفافِ والعَدلِ ، وحِفْظِ العُهُودِ ، وأداءِ الأمانَاتِ ، والإحسانِ إلى اليتيمِ والمِسكين ، وحُسْنِ الجِوَارِ ، واكْرَامِ الضيفِ ، والتَّحلِي بمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ ، يَدْعُو إلى تَحْصِيل التَّمَتُعِ بلذَائِذِ الحَيَاةِ في قَصْدٍ واعْتِدَالٍ ، يَدْعُوْ إلى البرِ والتَّقْوَى وَيَنْهَى عن الفَحْشَاءِ والمنكرِ، والاثمِ والعدوانِ ، لا يأمرُ الا بما يَعُودُ على العَالَم بالسعادَةِ والفَلاَحِ ، ولا يَنْهَي إلا عَمَّا يَجْلِبُ الشقاءَ والمَضَرَّة لِلْعِبَادِ .

وتأملْ مَحَاسِنَ شَرَائِع الاسلامِ الكبارِ ، التي هِيَ إقامُ الصلاةِ ، وايتاءُ الزكاةِ ، وصومُ رمضان ، وحجُ البيتِ ، فَعنْدَمَا تأمَلْ الصَلاةَ التي هيَ صِلَةُ

بينَ العبدِ وبين ربهِ ، تجدْ فِيْهَا الاخلاصَ للهِ ، والاقبالُ عليهِ ، والأدبَ والاحترامَ ، والثناءَ والدُعَاءَ ، والخُضُوعَ له ، وَمَظْهَرُ الإجلال مِن العبدِ لِربهِ ، يُؤَدِيْ واجِبَ الإكبَارُ والتَّعْظِيْمِ والتَّقْدِيْسِ لِسَيدِهِ وَمَوْلَاهُ ، شأنُ العَبْدِ بَيْنَ يَدِيْ سيده ، يَقِفُ المرءُ بينَ يَدَي رَبِهِ ، فَيَبْتَدِىءُ بالاعْتِرَافِ للهِ بأَنَّهُ أكْبَرُ منْ كُل شَيء ، وأنَّهُ مُسْتَحِقٌ لأنْ يُعَظَّمَ ويُجَلَّ ويُقَدَّرْ (اللهُ أكْبَرُ) ، ثم يأخُذُ في الثَّنَاءِ عَلَى اللهِ بما هُوَ أهلُهُ ، ويَخُصُه بالـعِبَادَةِ ، وطَلبِ المَعُوْنَةِ ضَارِعاً اليهِ بأنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ المُسْتَقِيْمَ، صِرَاطَ الذِيْنَ أنْعَمَ اللهُ عليهم بالتوفيق والهِدَايةِ ، وأنْ يُجنِّبَهُ عن طَرِيقِ المَغْضُوْبِ عليهِم ، لانْحِرَافِهِم عن سَوَاءِ السَّبِيْل ، بَعدَ أن عَرَفُوه ، وأن يُبْعِدَه عن طَرِيقِ الضَالِين، المُنْحَرِفِيْنَ الذينَ عبَدُوا أهْوَاءَهُمْ وشَيَاطِيْنَهُم .

وعِنْدَئذٍ تَمْتَلِىءُ النَّفْسُ مِن عَظَمَةِ اللهِ وَهَيْبَتِهِ وَجَلَالِهِ ، فَيَخرُ المَرءُسَاجِدَاً للهِ على أشْرَفِ أعْضَائِهِ ، مُظْهِراً لِلذِّلَّةِ والمَسكنةِ إلى مَن بيَدِه مَقَاليدُ السمواتِ والأرضِ ، فَمزَايَا الصلاةِ مِن ناحيةِ الدِيْنِ ، خُضُوعٌ لِرَبِ العالمين ، وخشُوعٌ واعِتْرَافٌ بعظَمَةِ القَاهِرِ القَادِرِ ، ومَتَى اسْتَشْعَر القلبُ ذلك . وامتلأتِ النفسُ مِن هَيبَةِ اللهِ ، كَفَّ عن المُحَرمَاتِ ، ولا عَجبَ مِن ذلكَ ، فإِنَّ اللهَ يقولُ عن الصلاةِ ﴿ ان الصلاةَ تَنْهَي عن الفَحشَاءِ والمنكرِ ولذكرُ الله أكبر ﴾ وهيَ أكبرُ عونٌ لِلعَبْدِ على مصَالِحِ دِينِهِ ودنياهُ ، قال الله تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ .

أما عونُها على مصالِح دِينه ، فلأن العبدَ اذا دَاوَمَ على الصلاةِ ، وحَافَظَ عليها ، قَويَتْ رَغْبَتُه في الخَيْرِ ، وَسَهُلَتْ عليه الطاعاتُ ، وبَذْلُ الاحسانِ ، بطمأنينَةِ نَفْسَ ، واحْتِسَابٍ ، ورجاءٍ لِلثَّوابِ ، وأما عَوْنُها على مصَالِح

الدُنيا ، فانها تُهَوِّنُ المَشَاقَ ، وتُسَلِّي عن المَصَائِبِ ، والله سبحانه لا يُضِيْعُ أجْرَ مَن أحسَنَ عَمَلاَ ، فيجازِيهِ بتَيْسِيْرِ أُمُورهِ ، ويُبَارِكْ في مالِه وأعمالِهِ .

وفي تأديتِها جماعةً يَحْصُلُ التعارفُ والتواصلُ ، والتوادُدُ والتعاطفُ والتراحمُ ، ويَسُوْدُ الوَقارُ والمَحَبةُ بينَ الصغيرِ والكبيرِ ، ويحْصُلُ بذلكَ تعْلِيْمُ فِعْلِيٌّ لِصِفَةِ الصلاة .

وانظرْ الى ما أوجَبَهُ اللهَ مِن الزكاة ، تَرَى مَحَاسِنَ جَمَّةً ، منها اصلاحُ حالِ الفُقَرَاءِ ، وسَدِ حاجةِ المِسكِين ، وقَضَاءِ دَيْنِ المَدِيْنِ ، ومنها التَخَلُقُ بأخلاقِ الكِرامِ ، مِن السَخاءِ والجُودِ ، والبُعدِ عن أخلاقِ اللئامِ ، ومنها أنها تُطَهِّرُ القلبَ مِن حُبِ الدنيَا ببذلِ اليَسِيرِ، ومنها حِفْظُ المَالِ مِنَ المُكَدِّرَاتِ والمُنَغِصَاتِ الحِسِّيَّة والمَعْنَوِيَّةِ ، ومنها الاستعانةُ بها على الجِهَادِ في سبيلِ اللهِ . والمَصَالِحِ الكُلِيةِ ، التي لا يَسْتَغْنِيّ عنها المُسلمون ، ومنها دَفْعُ صَوْلَةِ الفُقراءِ ، ومنها أنها دَوَاءٌ لِلمُجْتَمَعِ ، وطِبٌّ لِلّنفوسِ بها يَطْهُرُ المَرءُ مِن رَذِيْلَةِ الشُحِ ، قال تعالى ﴿ وَمَن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ ومنها أنها لو أخرجَهَا الأغْنِيَاءُ لانْقَطَعَ دَابِرُ الاشْتِرَاكِيةِ المُتَطَرِفَةِ ، والشُيُوعِيَّةِ المُسْرِفَةِ ، ومِنْها أنها لَو أُدِيْت تَماماً لَحَصَل : بذلكَ راحةُ الحُكَّامِ ، وصَرْفُ مَجْهُودَاتِهم إلى مَا يَعُودُ على الأُمَم بالفلاحِ وَرَغدِ العَيشِ .

قَصِيْدَةٌ تَتَضَمَّنُ التَّضَرعَ للهِ جَلَّ وَعَلَا :

يــا فَــاطِــرَ الخَلْقِ البَــدِيْــعِ وكـــافِــلاً
أرْزَاقَ مَـــن هُـــوَ صَـامِــتٌ أوْ سَـــائِـلُ

أوْسَعْتَهُم جُوْداً فَيا مَن عِنْدَهُ
رِزْقُ الجَميعِ سَحَابُ جُوْدكَ هَاطِلُ
يا مُسبغَ البرِّ الجَزِيل ومُسْبِلَ العَفْو العَظِيْم عظيمُ فَضْلِكَ وابِلُ
يا صاحبَ الاحسانِ يا مُرْخٍ لَنَا السِّترِالجَمِيْلَ عمِيْمُ طَوْلِكَ طَائِلُ
يا عَالِمَ السِّر الخَفِيِّ ومُنجِزَ الْـ
مِيْعَادٍ صِدْقٌ قَدْ حَكَاهُ الفَاصِلُ
يا مَنْ عَلَى العَرشِ اسْتَوى يَا صَادِقَ الْـ
وَعْدِ الوَفِي قَضَاءُ حُكْمِكَ عَادِلُ
عَظُمَتْ صِفَاتُكَ يَا عَظِيْمُ فَجَلَّ أنْ
يأْتِيْ المُشَبُّهُ ظَالِمَاً وَيُشَاكِلُ
جَلَّتْ فَضَائِلُكَ العِظَامُ فَلَمْ نَجِدْ
يُحْصَى الثناءَ عَلَيْك فِيهَا قَائِلُ
الذَّنْبُ أنْتَ لَهُ بِمَنِّكَ غَافِرٌ
مَا لَم يَكُنْ شِرْكاً فَفَضْلُكَ حَاصِلُ
يَعْصِيْكَ جَمٌّ ثُمَّ تَصْفَحُ عَنْهُمُ
ولِتَوبَةِ العَاصِيْ بِحِلْمِكَ قَابِلُ
رَبٌ يُرَبِّي العَالَمِيْنَ بِبِرِّهِ
ويَزِيْدُهُم مِن فَضْلِهِ ويُوَاصِلُ
يُعْطِيْهِمُوا ما أَمَّلُوا مِن جُوْدِهِ
ونَوالُهُ أبَداً إليهم وَاصِلُ
تَعْصِيْهِ وهْوَ يَسُوْقُ نَحْوَكَ دَائِماً
نِعَماً وعن شُكْرٍ لَهَا أَنْتَ غَافِلُ

سَتَرَ الـذُنُوبَ وزَادَ في بَـذْلِ العَـطَا
مَـالَا تـكُـونُ لِـبعضِـهِ تَـسْـتَـاهِـلُ
مُـتَـفَـضِّـلٌ أبـداً وأنْـتَ لِـجُـودِهِ
تَنْسَى وَتَغْـفُـلُ هَـلْ تَعِي يَـا غَـافِـلُ
يَـدْنُـوا وتُـبْـعِـدُ ثُـمَّ أَنْـتَ لِفَضْلِهِ
بِقَبَـائِـحِ العِصْيَـانِ مِنْـكَ تُـقَـابِـلُ
وَإِذَا دَجَـى لَـيـلُ الـخُـطُوبِ وأظْـلَمَتْ
طُـرُقُ السَّـلامَـةِ بَـلْ قَـلاَكَ النَّـازِلُ
وَعَـلِمْتَ أنْ لا مَـنْجي ثُـمَّ تَـلاَحَـمَتْ
سُبُـلُ الخَـلاصِ وخَـابَ فيهـا الآمِـلُ
وَأَيِسْتَ مِن وَجْـهِ النَّجَـاةِ فَمَـالَـهَـا
طُـرُقٌ وقـد عَـظُمَ البَـلا المُتَنَـازِلُ
وَقَنِـطْتَ مِن ضُـعْفِ اليَقِيْنِ ولـم يَكُـنْ
سَـبَـبٌ ولا يَـدْنُـو لَـهَـا مُـتَـنَـاوِلُ
يـأتِيْـكَ مِن الْـطَافِـهِ الـفَـرَجُ الـذي
فـيـه نَـجَـاتُـكَ لـيْسَ يشغـل شَـاغل
فـي لَـحْـظَةٍ يَـأْتِـيْـكَ لُـطْفٌ فَـارِجٌ
لـم تَـحْـتَسِـبـه وأنْـتَ عَـنـهُ غَـافِـلُ
يـا مُـوْجِـدَ الأشْـيَـاءِ مَنْ أَلْـقَى إلَى
أحَـدٍ سِـواكَ فـإنَّ ذَلـك بـاقِـلُ
يـا طَـيِّبَ الأسْـمَـاءِ مَن يَـقْـصُـدْ إلَى
أبْـوَابِ غَـيـرِكَ فَـهْـوَ غِـرٌّ جَـاهِـلُ

وَمَــنِ اسْتَــرَاحَ بِـغَـيْـرِ ذِكْرِكَ أَوْرَجَــا
مِن غيــرِكُـمْ فَضْــلاً فَـذَاكَ الـمَــائِــلُ
وَمَـنِ اسْـتَـظَلَّ بـغَـيـرِ ظِـلِّكَ رَاجِـيــاً
أَحَـداً سِـوَاكَ فَـذَاكَ ظِـلٌّ زَائِـلُ
ومَــن اسْــتَـعَــاذَ إِذَا عَـرَتْـهُ مُـلِمَّـةٌ
بـجَـلالِـكُـمْ ذَا الـرَّئْـيُ رَائـيٌ بَـاسِـلُ
والـرَّائـيُ في عَـكْسِ الـذي حَـبَّـرْتُـهُ
بـســوى جَـنَـابِـكَ فـهـو رَائْـيٌ مَـائِـلُ
عَــمَــلٌ أُرِيــدَ بــهِ سِــوَاكَ فَأَنَّهُ
عمَــلٌ يُــرَدُّ على الــذي هُــوَ عَـامِـلُ
لَــوْ صَــلَّى ذَاكَ وَصَــامَ حَــجَّ فــإِنَّ ذَا
عَـمَـلٌ وَإِنْ زَعَـمَ الـمُـرَائِـيْ بَـاطِـلُ
وَإِذَا رَضِـيْـتَ فَـكُـلُ شَـيْءٍ هَـيِّـنٌ
حَـسْـبِـيْ رِضَـاكَ فَـكُـلُ شَـيْءٍ زَائِـلُ
أَنْتَ المُنَى وَرِضَـاكَ سُؤْلِي في الـدُّجى
وإذا حَـصَلْـتَ فـكُـلُ شَـيْءٍ حَـاصِـلُ
أَنَــا عَـــبْــدُ سُـــوءٍ آبِـقٌ كَـلٌ عَـلَى
مَـعْـبُـودِهِ يـا بِئْسَ مـا أَنَـا فَـاعِـلُ
وَلَـقَـدْ أَتَى الـعَـبْـدُ الـمُسِـيْءُ مُيَـمِّـمـاً
مَـوْلَاهُ أَوْزَار الـكَـبَـائِـرِ حَـامِـلُ
قَــدْ أَثْقَلَتْ ظَهْـرِيْ الـذُّنُـوبُ وَسَــوَّدَتْ
وَجْهِيْ الـمَعَـاصِـي ثُمَّ ذَا أَنَـا سَـائِـلُ

مَــالِيْ سِــوَاكَ وَلَسْتُ أَرْجُو غَــافِــراً
صُحْفَ العُيُــوبِ وسِتْرُ عَفْــوِكِ شَامِــلُ
هَــا قَــدْ أَتَيْتُ وَحُسْنُ ظَنِّيْ شَــافِعِيْ
إِذْ لم يَكُنْ عَمَــلٌ لَدَيَّ يُقَــابِــلُ
ولَبِسْتُ ثَوْبَ الخَوْفِ مِنْكَ مَعَ الرَّجَى
وَوَسَــائِـلِي نَــدَمٌ وَدَمْــعٌ سَــائِـلُ
فَاغْفِرْ لِعَبْدِكَ مَا مَضَى وَارْزُقْهُ تَــوْ
بَةَ مُقْلِعٍ فِيْهَــا الشُــرُوْطُ كَــوَامِــلُ
وارْزُقْــهُ عِــلْمــاً نَافِعاً وارْزُقْهُ تَوْ
فِيْقــاً لِمَــا تــرضَى فَفَضْلُكَ كَــامِــلُ
وافْـعَــلْ بــهِ مَــا أَنْــتَ أَهْــلُ جَمِيْلِهِ
يــا مَنْ لَــهُ اسْمــاً حِسَــانٌ فَــوَاضِــلُ
فَــإِذَا فَــعَــلْتَ فَحُســنُ ظَنِّي صَائِــبٌ
والــظَنُّ كُــلَّ الــظَّنِّ أَنَّــكَ فَــاعِــلُ

اللهم اجعلنا لَكَ شَاكِرِين واجعلنا لَكَ مِن الذَاكِرين واجعلنا مِنْ عِبَادِكَ الصابِرين المحسنين المتقين الذين أَهَّلْتَهُمْ لِخِدْمَتِك ووفقتهم لمحبتك وطاعتك واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى اله وصحبه أجمعين .

« فصل »

وتأمَل الصِّيَام وما فيهِ من المَحَاسِنِ التي منها أَنَّهُ يَبْعَثُ في الانسانِ فضِيْلَةَ الرَّحْمَةِ بالفقراءِ ، والعَطْفِ علىالبَائِسِيْن فإن الانسانَ إِذَا جاعَ تَذَكَّر الفَقِيْرَ الجَائِعَ ، ومنها أَنَّهُ بامْتِناعِهِ عَنِ الاكلِ يَعْرِفُ فَضلَ نِعْمَةِ اللهِ عليهِ فيشكُرَهَا ، ومنها أنَّ الصِيَامَ يُقَوِّي النَّفس على الصَّبروالحِلْم ، وهُمَاتَجَنُّبُ كلَّ مَا مِن شَأْنِهِ اثارَةالغَضَب ، لأَنَّ الصوْمَ نِصْفُ الصَّبْرِ ، والصُّبرُ نِصْفُ الايمانِ ، ومنها أَنَّهُ يُنَقِّي الجِسْمَ مِنْ الأَخْلَاطِ الرَّدِيْئَةِ ، ومنها أَنَّهُ مُهَذِّبٌ للنُّفُوْس ، ومُصَفى للأَرْوَاح ، وَمُطَهِّر للأَجْسَام ، فَله الأثرُ العَجِيْبُ في حِفْظِ القُوَى البَاطِنَةِ ، وَحِمَايَتِهَا مِمَّا يَضُرُّهَا ثُمَّ هُوَ عِبَادَةٌ وامْتِثَالٌ لأَمْرِ اللهِ سُبْحَانَه ، والمَشَقَّةُ الحاصِلَةُمِن الصَومِ لَيْسَتْ بشيْءٍ في جانِبِ رِضَى اللهِ ، طَمَعاً في الثَّوابِ ، والزُّلفي والأجْرِ العَظِيْمِ ، إلى غَيْر ذَلِكَ مِنَ المَحَاسِنِ .

وتأملْ ما في حجِّ بيتِ اللهِ مِنَ المَحَاسِنِ ، التِي منها أَنَّهُ مَجْمَعٌ لِسُراةِ المُسْلِمِيْنَ ، يَجْتَمِعُونَ فِيه مِن مَشَارِقِ الأَرْض وَمَغَارِبهَا في صَعِيْدٍ وَاحِدٍ ، يَعْبُدُوْنَ إلهاً وَاحِداً ! قُلُوبهم مُتَّحِدَةٌ ، وأرْوَاحُهُمْ مُؤْتَلِفَة في الحَج ، يَتَذَكَّرُ المُسْلِمُوْنَ الرَّابِطَةَ الدِّيْنِيَّةِ ، وَقُوةَ الوحدةِ الإِسْلامِيَّةِ، وفي الحج تَذَكُّرٌ لِحَالِ الأنبياءِ والمُرْسَلِيْنَ وَمَقَامَاتِ الأَصْفِيَاءِالمُخْلِصِيْنَ، كما قال تعالى ﴿ واتَّخِذُوا

مِنْ مقام ابراهيمَ مصلًّي ﴾ وتَذكيرٌ بحالِ سيدِ المرسلينَ وإمامهم ، ومَقَامَاتِه في الحجِ التِي هيَ أجلُّ المقاماتِ ، وهَذَا التَّذْكِيْرُ أَعْلَى أَنْوَاعِ التذْكِيْرَاتِ ، فإنه تذكِيرُ بأَحْوَالِ عُظماءِ الرُسُل ، ابراهيمَ ومحمدٍ صلى الله عليه وسلم ، ومآثِرهِمْ الجليلةِ ، وتَعَبُّدَاتِهِمْ الجَمِيْلَةِ والمُتذكِّرُ بذَلِكَ مُؤْمِنٌ بالرُسُلِ ، مُعَظِّمٌ لَهُمْ ، مُتَأَثِّرٌ بمَقَامَاتِهِم السَّامِيَةِ ، مُقْتَدٍ بهِمْ ، وبآثارِهم الحَمِيْدَة ، ذَاكِرٌ لِمَنَاقِبِهم وَفَضَائِلِهِمْ ، فَيَزْدَادُ بهِ العَبْدُ إيماناً وَيَقِيْناً .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الحجِ تَصْفِيَةُ النَّفس ، وَتَعْوِيْدها البَذْلَ والانفاقَ ، وَتحمُّلَ المَشاقِ ، وَتَرْكَ الزينةِ والخُيَلاءِ ، ومِنْهَا شُعُوْرُ المرءِ بمُسَاوَاتِهِ لِغَيْرِهِ ، فلا مَلِكٌ ولا مَمْلُوكٌ ، ولا غَنِيٌّ ولا فقيرٌ ، بل الكُلُّ هُنَاكَ سَوَاءٌ ، ومِنْ مَحَاسِن الحَجِ التَنَقُّل في البلادِ لِمَعْرِفَةِ أحْوَالِها ، وعَادَاتِ سُكَّانِها ، وزيارَةِ مَهْبَطِ الوَحْيِ ، والرُسُلِ الكرامِ ، وَمِنْ مَحَاسِنِ الحجِ تَذَكُّرُ المَجْمَعِ العظيم في صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يُسْمِعُهُم الدَّاعِيْ ، وينْفذُهُم البَصَرُ ، وَذَلِكَ في المَحْشَرِ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناسُ لِربِّ العالمِيْن ﴾ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ، وَمِنْ مَحَاسِنِهِ تَوطِيْنُ النفسِ عَلَى فِراقِ الأهْلِ وَالْوَلَدِ ، إذْ لا بُدَّ مِن مُفارَقَتِهِم ، فَلَوْ فَارَقَهُم فُجَأَةً حَصَلَ صَدْمَةٌ عَظيمةٌ عِنْدَ الفراقِ ، ومِنْ مَحَاسِن الحَجِ أنَّه مَتَى قَصَدَهُ يَتَزَوَّدُ لِسَفَرِه بكلِّ ما يَحْتَاجُ إليهِ ، مُدَّةَ ذَهَابِهِ وإيابه ، فَيَتزوَّدُ لِلْعُقْبَى ، وهيَ السَّفْرَةُ الطَّوِيْلَةُ ، التي لا رُجُوْعَ بَعْـدَهَا ، حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ الأَوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ .

وَفي سَفَرِ الحَجِّ قَدْ يَجِدُ مَا يَحْتَاجُ إليهِ في غَيْرِ بَلَدِهِ ، وَلاَ يَجِدُ في العُقْبَى ما يَحْتَاجُ إليه لِلدَّارِ الآخرَةِ ، إلَّا اذا تَزَوَّدَهُ في الدُنْيَا ، قال تعالى ﴿ وَتَزَوَّدوا فإن خَيْرَ الزاد التقوى ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أنَّ الانسانَ يَعْتَادُ التوكُلَ عَلَى اللهِ ، لأنهُ لا يُمْكِنُه أنْ يَحْمِلَ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إليه في سَفَره لِلْحجِ ، فلا بدَّ مِنَ التَّوكُلِ عَلَى اللهِ تَعَالَى فِيْمَا حَمَلَهُ ، وفيْمَا لَمْ يَحْمِلْهُ مَعَ نَفْسِهِ ، فَيَعْتَادُ تَوَكُّلَهُ إلى كُلِ مَا يَحْتَاجُ إليه ، ومِن مَحَاسِنِه أنَّه إذَا أَحْرَمَ نَزَعَ المَخِيْطَ الذِي هُوَ لِبَاسُ الأحيَاءِ ، وَيَلْبَسُ غَيْرَه مِمَّا هو أَشْبَهُ بِلِبَاسِ الأمْوَاتِ ، فَيَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ في الاسْتِعْدَادِ لمَا أمامَهُ إلى غيرِ ذَلكَ مِن المَحَاسِنِ التِي يَصْعُبُ حَصْرُهَا .

ثم تَأَمَّلْ مَحَاسِنَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ ، إذْ فيه قَمْعُ أَعْدَاءِ اللهِ ، ونصرُ أوْلِيَائِهِ ، وإعْلَاءُ كَلمَةِ الاسلامِ ، وحَمْلُ الكافِرِ على تَرْكِ الكُفْرِ الذِي هُوَ أَقْبَحُ الأشْيَاءِ ، والاقْبَالُ عَلَى مَا هُوَ أحْسَنُ الأشْيَاءِ ، وفيه إخْرَاجُ البَشَرِ عَنْ دَرَجَةِ الأَنْعَامِ ، قال تعالى - في حقِّ الكَفَرةِ ﴿ إنْ هُمْ إلا كالانعامِ ، بَلْ هُمْ أضلُّ ﴾ ومِن مَحَاسِنِه اكتِسَابُ حَيَاةِ الأَبدِ ، فَإِنَّهُ إنْ قَتَلَ فَقدْ أَعْلَى دِينَ اللهِ ، وإنْ قُتِلَ فقَدْ أحْيَا نَفْسَهُ ، قَالَ تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الذِينَ قُتِلُوْا في سَبِيْلِ اللهِ أَمْواتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عندَ ربهِم يُرْزَقُون ﴾ .

ومنها ما يَحْصَلُ لِلْمُجَاهِدِ في سَبيلِ الله مِن الثَّوابِ الجَزِيْلِ ومنها تكثير المُسْلِمِيْنَ ، وَتَقْلِيْلُ الكَفَرَةِ ، ومنها وَهُوَ أعلاهَا امتِثَالُ أمْرِ الله حَيْثُ يقُولُ ﴿ وقَاتِلُوهُم حَتّى لا تكونَ فِتْنَةٌ ﴾ وقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتِلوا الذينَ يلونكم مِنَ الكفارِ ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الجهادِ انَّهم في الانْتِصَارِ يَغنَمُون وَيَشْكُرُوْن وَيقْتَوُوْن ، وإن أدِيلَ عليهِمُ الكُفَّارُ عَرَفُوا أنَّ ذَلكَ بِسَبَبِ مَعْصِيَتِهِم وَذُنُوبِهِمْ ، وَفَشَلِهِمْ وَتَنَازُعِهِمْ ، فَيَلْجَؤا إلى اللهِ مُتَضَرِعينَ تَائِبِيْنَ ، وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أنَّ تَرْكَ الجِهَادِ

سَبَبٌ لِلذُّلِّ، لِمَا وَرَدَ عَن ابن عُمَرَ قال قال رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلم « إذا تَبَايَعْتُم بالعِينَة، وأَخَذْتُم بأَذْنابِ البَقَرِ، وَتَركتم الجهاد سلَّطَ اللهُ عليْكُم ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إلى دِيْنِكِم » رواه أبو داود، ومِنْ مَحَاسَنِ الجِهَادِ السَّلامَةُ مِنَ النِّفَاقَ، لِحَدِيْثِ « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِهِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِن النِّفَاقِ » رواه أبو داود والنسائي، وفي الحديث الآخرِ « مَنْ لَقِيَ اللهَ بِغَيْرِ أَثَرِ جِهَادٍ، لَقِيَ اللهُ وفِيه ثلمةٌ » وفي الحديثِ الآخرِ « ما تَركَ قَوْمٌ الجِهَادَ الا عَمَّهُمُ اللهُ بالعذابِ » ومِنْ مَحَاسِنِهِ اسْتِخْرَاجُ عُبُودِيَّةِ أَوْلِيَاءِ اللهِ، في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، وفِيْمَا يُحِبُّوْنَ وَيَكْرَهُوْنَ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِن الأدلَةِ الدالة على مَحَاسِنِ الجِهَادِ في سبيل اللهِ، لإِعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ.

ثم تأملْ ما جَاءَتْ بهِ الشريعةُ مِن المُعَامَلاَتِ، فَمِنْ مَحَاسِنِ البَيْعِ والشِرَاءِ وُصُولُ الانسانِ إلى ما يَحْتَاجُ إليهِ مِن مأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ وَمَلْبَسٍ وَمَسْكَنٍ، ومِن مَحَاسِنِهِ قَطْعُ مَسَافَةِ الطَّلَبِ، فإِنَّ مَنْ طَلَبَ الشَّيْءَ مِنْ مَعْدَنِه يَحْتَاجُ إلى الأسفارِ، ورُكُوبِ المَرْكُوبِ، وتَحملِ الأخطارِ، ومَتى وَجَدَهُ بالبَيْعِ سَلِمَ مِن الأخطار وَسَقَطَ عنه مَؤْنَةِ الأَسْفَارِ، فَانْظُرْ إلى العُوْدِ والمِسْكِ، والسَّيَارَات والمَكَائِنِ والأَقْمِشَة والهَيْلِ والسُكَّرِ وَنَحوِ ذَلِك، مَعَادِنُها بَعِيْدَةٌ، فمِن لُطفِ الله بعِبَادِه أنْ سَخَّر بَعْضَ النَاسِ لِبَعْضٍ، وجَاءَتْ الشَّرِيْعَةُ الكَامِلَةُ بِحِلِّ أنْوَاعِ المُعَامَلاَتِ، كالإجَارَاتِ والشَّرِكَاتِ، إلاَّ مَا دَلَّ الدَّلِيْلُ عَلَى تَحْرِيْمِهِ، مِمَّا فيه ضَرَرٌ أَوْ ظُلْمٌ أَوْ جَهَالَةٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ، فَمَنَ تَأَمَّلَ المُعَامَلاَتِ الشَّرْعِيَّةَ، رَأى ارْتِبَاطَهَا بِصَلاحِ الدِّيْنِ والدُنْيَا، وَشَهِدَ لِلهِ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ، وَحِكْمَتِهِ حَيْثُ أَبَاحَ لِعِبَاده جَمِيْعَ الطَّيِّبَاتِ، وَلَمْ يَمْنَع مِن ذَلكَ إلاّ كُلَّ خَبِيْثٍ، ضَارٍ على الدِّيْنِ أوِ العَقلِ أوِ البَدَنِ أو المالِ.

فَمِنْ مَحَاسِنِ الإِجَارَةِ دَفْعِ حَاجَاتِ العِبَادِ ، بِقَلِيْلٍ مِن الإِبْدَالِ وَيَسِيْرٍ مِنَ الأَمْوَالِ ، فَلاَ كُلُ أَحَدٍ يَمْلِكُ دَاراً يَسْكُنُهَا ، وَلاَ سَيَّارَةً يَرْكَبُهَا ، ولا طَائِرَةً يَرْكَبُهَا ، ولا طَاحُوْنَةً يَطْحَنُ فِيْهَا ، ولا مَخْزَناً لِأَمْوَالِهِ ، وَنَحْو ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ تَعْدَادُهُ ، فَجُوِّزَتْ الإِجَارَةُ ، وَلاَ حَاجَةَ إلى ذَكر مَحَاسن الصُّلْح ، فَهُوَ كَمَا ذَكَرَهُ الله خير قال الله تعالى ﴿ والصلح خير ﴾الآية .

وأَمَّا الوَكالةُ والكفالةُ ففيهما مِنَ الإحسان ما لا يَخْفَي على أحدٍ مِمَّن اعْتَقَد الشَّرْعَ ، وَمَن لَمْ يَعْتَقِد ، وَعَقَلَ الشَّرَائِعَ ، أَوْلَم يعقِلْ ، احْتَاجَ إلى الوَكَالَةِ والكفَالَةِ ، فإِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الخلائقَ ، وَجَعَلَهُمْ مُخْتَلِفِيْنَ في القَصْدِ والهِمَمِ ، فَلَيْسَ كُلُ أَحَدٍ يَرْغَبُ أَن يُبَاشِرَ الأَعْمَالَ بنفْسِه ، ولا كُلُّ يَهْتَدِي إلى المُعَامَلاَت فَمِنْ لُطْفِ اللهِ بِخَلْقِهِ إِبَاحَتُها ، فلا يَلِيْقُ بأَصْحَابِ المُرُوْآتِ ، وَأَوْلِيَآءِ الأُمور، مُبَاشَرَةُ البِيَاعاتِ كلِّهَا بِأَنْفِسِهِمْ ، فالنبيُ صلى الله عليه وسلم باشَرَ بَعْضَ الأُمُوْرِ بِنفْسِهِ ، تَعْلِيْماً لِسُنَّةِ التَّوَاضُعِ ، وَبَيَاناً لِجوَازِهِ ، وَأَضَافَ بَعْضَ الأُمُوْرِ إلى غَيْرِهِ ، وَبَاشَرَ ذَبْحَ الأُضْحِيَةِ بِنَفْسِه ، وفوَّضَ إِلَى عَلِيٍّ ذَبحَ قِسْمٍ مِنْ هَديِهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وسلم .

وأما الحسنُ في الكَفَالَةِ ، فإِنَّ فِيْهَا إظهَارُ الشَّفقَةِ والرحمةِ وَمُرَاعَاةُ الأُخُوَّةِ ، يَبْذُلُ الذِّمةَ لِيَضُمَّها إلى الذمةِ ، فَيَنْفَسِحَ وَجْهُ المُطَالَبةِ ، ويَسْكُنُ قلبُ المُطَالِبِ بِسَببِ السَّعَة ، قال الله تعالى ﴿ وما كُنْتَ لَدَيْهِم إذْ يُلقُون أقلامَهُم أَيُهم يَكْفُلُ مَرْيَم ﴾ إلى أن جَعَلَ كَافِلَهَا زَكَرِيا ، كَمَا قال تعالى ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ وإِذا عَلِمْتَ مَحاسِنَ الوَكالَةِ وَالكَفالَةِ ، فالحَوالَةُ وَاضِحةٌ مَحَاسِنُهَا فَفِي الحَوالةِ كَفَالَةٌ وَوكالةٌ ، وَزِيَادةُ فَرَاغِ ذِمةِ الأَصِيْلِ ، عَنْ الحُزْنِ الطَّوِيْل ، فَإِذَا قُبِلَت حَوالَتَهُ ادْخَلْتَ على قَلْبِ أَخِيْكَ - بِفراغِ ذِمَّتهِ - سُرُوْراً ،

ولا يَخْفَي ما في إدْخالِ السُرُوْرِ عَلَى المُسْلِمِ مِنَ الأَجْرِ .

وَمِنْ مَحاسنِ الشُّفْعَةِ أَن الجَارَ ربَّما يَكُون في حَاجَةٍ إلى هَذِهِ الحِصَّةِ المَبْيْعَةِ ، كأنْ يكونَ بَيْته ضَيِّقاً ، وَيُرِيْدُ اتِّسَاعَهُ ، أوَ تكُونَ الأَرْضُ المُشْتَرَكَةُ بِجوَارِ مزَارِعِهِ ، وَيَحْتَاجُ إلَيْهَا ، وَمِنْ مَحَاسِنِها التَّنبيهُ على عِظَمِ حَق الجارِ والشَّرِيْكِ ، حَيْث أنَّ لَهُ الحَقُّ في التَّقدُم على غَيْرِه في الشِّرَآءِ ، إلا إذا أَسْقَطَ حَقَّه بامْتِنَاعِهِ عن الشِرَاءِ ، وَمِنْهَا دَفْعُ ضَرِرِ الجَارِ ، وَهُوَ مَادَةُ الضرَرِ .

وقال صلى الله عليه وسلم « لا ضَرَرَ وَلَا إضرارَ في الاسلام ولا شَكَّ عند أحدٍ في حُسْنِ دَفْعِ ضَرَرِ التأذِّي بِسَبَبِ المُجَاوَرَةِ على الدَّوَامِ ، مِن إيقادِ نِيْرانٍ ، وإعلاءِ جِدَارٍ ، وإثَارَةِ غُبَارٍ ودخَّانٍ ، وأَعْظَمُ مِنْ ذلك سَمَاعُ التَّلفِزْيُون والمذياعِ ، وإحداثُ أَشْيَآءُ تَضُّر بمُلْكِهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِن أَنْوَاعِ الضَّررِ .

وأما الوَدِيْعَةُ فَمَحَاسِنُها ظاهِرَةٌ ، إذْ فِيْهَا إعانَةُ عِبَادِ اللهِ في حِفْظِ أَمْوَالِهِمْ ، وَوَفَاءِ الأَمانَةِ ، وَهُوَ مِنْ أَشْرَفِ الخِصَالِ عَقْلًا وَشَرْعاً ، وَمِنْ مَحَاسِنِها أَنَّها إحْسانٌ إلى عِبَادِ اللهِ ، وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِيْنَ ، ومنها أَنَّها سَبَبٌ لِلتَّآلُفِ والتآخِيْ بَيْنَ المسلمينَ وسَبَبٌ لِمحبةِ بَعْضِهم لِبَعْضٍ .

وِمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ النَّهيُ عَنْ سُوءِ الزَّوجِ لِزَوْجَتِه ، وأنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُقَارِنَ بَيْنَ المَحَاسِنِ والمَسَاوِي ، فإذا كَانَ مُنْصِفاً غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ المَسَاوِي ، إذا كَانَتْ مَحَاسِنُها تَغْمُرها ، لاضمِحْلاَلِهَا فيها ، وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « لا يَفْرُكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً ، إنْ كَرِهَ مِنْهَا خلُقاً رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ » رواه مسلم .

وأَمَّا الفرائضُ وَتَوْزِيعُ المالِ على الوَرَثَةِ فَقَدْ وَضَعَهُ اللهُ بِنَفْسِهِ ، بِحَسَبِ

ما يَعْلَمُه مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدٍ وَنَفْع ، وما هُوَ أَوْلَى بِبِرِّ العَبْدِ ، وَرتَّبهُ تَرْتِيْباً تَشْهَدُ لَهُ العُقولُ الصَّحِيْحَةُ بالحُسْنِ وَأَنَّه لَوْ وُكِلَ الأَمرُ إلى آراءِ الناسِ وَأَهْوَائِهِمْ وإرَادَاتِهِمْ ، لَحَصَل بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنَ الخلَلِ والاخْتِلَال ، وَزَوَالِ الانْتِظَام ، وسوءِ الاختيارِ فَوْضَى ، وَمِنْ جُمْلَةِ المَحاسِنِ أَنَّ أُلحِقَ السَّبَبَ بالنَّسَبِ فالسَّببُ المُناكَحَةُ وَالوَلاَءُ ، وَلَمَّا جَعَلَ اللهُ سُبْحانَهُ عَقْد النِّكاحِ ذَرِيْعَةَ المَحبَّةِ والأُلفِةِ ، والازْدِوَاجِ ، والاسْتِئْنَاسِ بَيْنَ الناسِ ، فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَلْحقَها عِندَ مَوْتِ أَحَدِهِمَا مَضَاضَةُ أَلمِ الفِرَاقِ ، مِن غَيْرِ أَنْ يَرْتَفِقَ أَحَدُهُما بِمَا فَضُلَ عَنْهُ نَوْعَ ارْتِفَاقٍ ، ثُمَّ جَعَلَ لِلزوجِ ضِعْفَ ما لِلْمَرْأَةِ مِن الزَّوْج .

وَمِن جُمْلَةِ المَحاسِنِ أنه لَمْ يُوَرِّث عِنْدَ اخْتِلافِ الدِّيْنِ ، إذا مَاتَ المُسْلِمُ فالكافِرُ لا يُورِّثُ مِنْهُ ، لأَنَّ الكافرَ وإن كان قَرِيْباً نَسَباً ، فهو بَعِيْدٌ دِيْناً ، لِأَنَّ الكَافِرَ مَيِّتٌ لا يَرِثُ المَيِّتَ ، قال الله تعالى ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوْراً يَمْشِيْ بِهِ في النَّاسِ ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ يُخْرِجُ الحيَّ من الميِّتِ ، وَيُخْرِجُ الميَّتَ من الحيِّ ﴾ ، وأما الكافرُ فَيَرِثُ الكافرَ ، لاستواء حالَيْهِما ومالَيْهِما .

وأَما الهِبَةُ فَمُسْتَحَبَّةٌ ، إذا أُرِيْدَ بِهَا وَجْهُ الله ، والأَصلُ فيها قَبْلَ الاجْمَاعِ ـ قَوْلُه تعالى ﴿ فإن طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شيءٍ مِنْهُ نَفْساً، فَكُلُوه هَنِيْئاً مَرِيْئاً ﴾ وَقَوْلُه ﴿ وآتَى المالَ عَلَى حُبِّه ﴾ والله سُبْحَانَهُ كَرِيْمٌ جَوَادٌ وهَّاب ، ومِنْ مَحَاسِنِهَا أَنَّها سَبَبٌ لِلتَّحابِّ والتَّوادِّ ، كَما في الحديث « تَهادَوْا تَحابُّوا » ، ومِنْ مَحاسِنِها أَنَّهَا تَسُلُّ السَّخِيْمَةَ ، وفي الحديث « تَهادَوا فإن الهديَّةَ تَسُلُّ السَّخِيْمَةَ » ، وقَدْ أَهْدَى صلى اللهُ عليه وسلم لِلنَّجاشِيْ حُلَّةً ، وَأَواقِيْ مِنْ مِسْكٍ ، وكان صلى الله عليه وسلم يَقْبَلُ الهديَّةَ وَيُثِيْبُ عَلَيْها ، وَمِنْ مَحاسِنِها

أَنَّها تُقَوّيْ الصِّلَةَ ، وَمَتى قَوِيَتْ الصلةُ سارَتْ الأُمَّةُ بِقَدَمٍ ثابِتٍ ، فَحُسْنُ الصِّلةِ بَيْنَ أفرادِ الأُمَّةِ سِرُّ نَجاحِها ، وَمِنْ مَحاسِنِهَا وَفْرَةُ الثِّقَةِ بَيْنَ الْمُتهَادِينَ ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِن المحاسن .

وأمَّا النكاحُ فَمُسْتَحَبٌّ ، وَمَحاسِنُه كَثِيْرَةٌ ، مِنْهَا تَحْصِيْنُ الفَرْجِ ، ومنها تَحْصِيْنُ الزَّوْجَةِ ، وَمِنْهُ حِفْظُها والقِيامُ بِهَا ، وَمِنْ مَحَاسِنِه أنَّه طَرِيْقَةُ الرُسُلِ ، وَمِنْ مَحَاسِنِه تَكْثِيْرُ الأُمَّةِ ، وَتَكْثِيْرُ النَّسلِ ، ومنها تَحْقِيْقُ مُبَاهاةِ النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها قَضَاءُ حَوَائِجِهِ مِنْ طَبْخٍ وَنَحْوِهِ ، ومنها حِفْظُ بَيْتِهِ وَأَوْلَادِهِ ومنها سُكُونُهُ وَطُمَأْنِيْنَتُه إِلَيْها ، واسْتِئْنَاسُهُ بِها ، وَمُعَاشَرَتُها وَغَيْرُ ذلك مِنَ المَصَالِحِ اللتي لا يَتَّسِعُ هَذا المَقَامُ لِعَدِّهَا.

وَأَمَّا الطلاقُ فَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُلْكَ الطلاقِ إلى الزَّوجِ ، وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنْ حَكَمَ بالحُرْمَةِ الغَلِيْظَةِ بَعْدَ الطَّلقاتِ الثلاثِ ، لِأَنَّ الظاهِرَ أَنَّ مَنْ طَلَّقَ ثَلاثَاً رَأى الصلاحَ في الفِرَاقِ وَعَلَّقَ الشَّرْعُ حِلَّ المُطَلَقَةِ ثلاثاً بالتَّزْوِيْجِ بِزَوْجٍ آخَرَ ، والدُّخُوْلِ بها ، لِيَصِيْرَ هذا الشَّرْطُ مانِعاً لَهُ مِنَ العَوْدِ إِلَيْهَا ، وَيَثْبُتَ على رَأْيٍ مِنَ الصَّلاحِ في مُفَارَقَتِها ، وَمِنَ المَحَاسِنِ أَنَّهُ لَمْ يَحْكُمْ بِحُرْمَتِها على وَجْهٍ لا رُجُوعَ فِيْهِ أَصْلاً ، فإِنَّهُ رُبَّما لا يَصْبِرُ عَنْهَا فَيَهْلِكُ في ذَلِكَ ، فالشَّرْعُ جَعَلَ لِلْوُصُولِ إليْهِ سَبِيْلاً ، لكن بَعْدَما يَذُوْقُ الآخَرُ عُسَيْلَتَهَا ، وَتَذُوْقُ عُسَيْلَتَهُ ، ولا يَجُوزُ عَنْ طَرِيْقِ التَّحْلِيْلِ ، لِحَدِيْث « لَعَنَ اللهُ المُحَلِلَ ، وَالمُحَلَلَ لَهُ » وَمِنْ مَحَاسِنِ الطلاقِ أَن يَكونَ في طُهْرٍ لَمْ يُجَامِعْها فِيْه ، هذا هُوَ السُّنةُ ، فإنه إذا قَضَى وَطَرُهُ مِنْها ، إنْتَقص مَيْلُه إِلَيْهَا طَبْعاً ، فَيُبَادِرُ إلى مُفَارَقَتِهَا بِقَلِيْلِ داعِيَةٍ ، وَيَسِير أَذيَّةٍ ، فإِنَّ المَرْءَ إذا شَبعَ مِنْ شَيْءٍ سَقَطَ مِن عَيْنه ، وَهَانَ عَليه ، وإذا جَاعَ قَوِيَ ذَلِكَ في قَلْبِهِ فَلَا يَحْصُلُ

الطلاقُ عَنْ رَوِيَّةٍ ، وَرُبَّمَا يَنْدَمُ عَلَى ذَلِكَ ، فَيَحْتَاجُ إلى نَقْضِ الطلاقِ ، فَكَانَ الطلاقُ الحَسَنُ المَسنُونُ ، أَنْ يُطَلِّقَهَا في طُهْرٍ لَمْ يُجَامِعْهَا فِيْهِ ، فإنَّ هَذِهِ الحَالُ حالةُ كَمَالِ الرَّغْبَةِ ، وَتَمام المَيْلِ ، فالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يُقْدِمُ عَلَى الطَّلاقِ في هَذِهِ الحَالةِ ، إلا لِحَاجَةٍ دَاعيةٍ ، فَرُخِّصَ لَهُ في الطلاقِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنْ جَعلَ هَزْلَهُ جِدًّاً ، قَالَ صلى الله عليه وسلم « ثلاثٌ جِدُّهنَّ جِدٌ ، وَهزْلُهنَّ جِدٌ ، الطلاقُ والعَتَاقُ والنكاحُ فإذا عَرفَ الانسانُ انه بِمُجَرَدِ تَلَفُظِهِ بِهِ ، وَلَوْ مَازِحاً يَقَعُ ، امْتَنَعَ بإذنِ اللهِ إذا كَانَ عَاقِلاً .

وَمِنْ مَحَاسِنِ القِصاصِ ، وَفَرضِ العُقُوباتِ ، زَجْرُ النُفُوْسِ الباغِيةِ ، وَرَدْعِ القُلوبِ القاسِيَةِ ، الخَالِيَةِ مِنَ الرَّحمةِ والشَّفقَةِ وَمِنْ مَحَاسِنِه تَأْدِيْبُ الجمَاعاتِ الطاغِيةِ ، فَحكَمَ بِقَتْلِ القاتِلِ وأمَرَ بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ ، لِيَحْقِنَ الدِّمَاءَ ، قال تعالى ﴿ ولَكُم في القِصَاصِ حياةٌ ﴾ الآية ، والقَطْعُ لِحفْظِ الأَمْوَالِ ، فَيَعِيْشُ الناسُ آمِنِيْنَ مُطْمَئِنِيْنَ ، قال تعالى ﴿ والسارِقُ والسارِقةُ ، فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِمَا كَسَبا ، نكالاً مِنَ اللهِ ، والله عزيزٌ حَكِيْمٌ ﴾ وَحَرَّمَ الزِّنا ومُقدِّماتِهِ ، كالنَّظرِ إِلَى الأجْنَبِيَّةِ ، والخَلْوَةِ بِها ، والقُبْلَةِ واللمْسِ وأَمَرَ بِرَجْمِ الزَّانِي ، وَقَتْلِ اللُّوْطِيِّ ، عَلَى رُؤ سِ الأَشْهَادِ وَحَكَمَ بِجَلْدِ الزَّانِي البِكْر ، مائَةَ جَلْدَة والتَغْرِيْبِ ، كلُّ ذَلِكَ مُحافَظَةً على الأَنْسَابِ ، والأَعْرَاضِ ، وحِمَايَة لِلأخْلَاقِ ، وَصِيَانةً لِلْأُمَةِ مِنَ الفَنَاءِ والفَسَادِ ، وحرَّمَ الخَمْرَ ، وَعَدَّهَا أَمَّ الخَبَائِثِ ، وَحكَمَ على مُتَعاطِيْها بالجَلْدِ ، لارتِكَابِهِ النَّقَائِصَ والخَسَائِسَ ، كلُّ ذلك لِيبْقَى العَقْلُ سَلِيْماً ، وَيَظَلُّ المَالُ مَصُوْناً ، وَيَدُومُ الشَّرفُ والخُلُقُ طاهِراً نَقِيّاً .

شــعراً :

لَـقَـدْ أَيْقَظَ الإِسْــلامُ لِلْمَجـدِ والـعُلَى
بَـصَـائِـرَ أَقْـوَامٍ عَـنِ الـمَـجْـدِ نُــوَّمِ

فَــأَشْــرَقَ نُــورُ الـعِلْمِ مِـنْ حُجُـرَاتِــهِ
عَلَى وَجْـهِ عَصْـرٍ بِــالجَهَــالَــةِ مُـظْلِمِ

وَدَكَّ حُـصُــوْنَ الـجَـاهِلِيَّــةِ بِــالـهُـدَىْ
وَقَــوَّضَ أَطْـنَـابَ الضَّـلاَلِ الـمُـخَـيِّـمِ

وَأَنْـشَطَ بِــالـعِـلْمِ الـعَــزَائِمَ وابْـتَـنَـىْ
لأَهْـلِيْـهِ مَـجْـداً لَـيْسَ بِــالـمُـتَـهَـدِّمِ

وَأَطْـلَقَ أَذْهَــانَ الــوَرَى مِـنْ قُـيُــودِهـا
فَــطَارَتْ بِأَفْكَـارٍ عَلَى المَجْـدِ حُــوَّمِ

وَفَــكَّ أُسَــارَ الـقَــوْمِ حَتَّى تَـحَـفَّـزُوا
نُهــوضَــاً إِلَى العَلْيَــآءِ مِنْ كُــلِّ مَجْثِمِ

وَعَـمَّــا قَلِيْــلٍ طَـبَّقَ الأَرْضَ حُـكْـمُـهُـمْ
بِــأَسْـرَعَ مِنْ رَفْـعِ الـيَـدَيْنِ إلى الفَمِ

اللَّهم رَبِّ قُلُوبنا على مَحَبَّتِكَ وطاعَتِكَ وَثَبِّتْنا على قَوْلِكَ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ وألهِمْنا ذِكْرَكَ وشكرَكَ وآتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النارِ واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحمَ الراحمينَ وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

وَمِنْ مَحَاسِنِ الإِسلامِ الحَثُ عَلَى المَشُوْرَةِ والأَخْذِ بِهَا ، مَتَى كَانَتْ صائِبَةً ، مُتَّفقةً مَعَ العَقْلِ والمَنْطِقِ والتَّجْرِبَةِ ، قال تعالى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنهم ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِه أنَّ أفْضَلَ الناسِ عِنْدَ اللهِ أَكْثَرُهُمْ صَلاَحَاً وَتَقْوى ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ اكْرَمَكم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِه الحثُّ على العِتْقِ ، وَتَحْرِيْر الأَرِقَاءِ ، وَالاحْسَانِ إلى المَمْلُوكِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ الحَثُّ على الاحسانِ إلى الجَارِ والضَّيْفِ والمِسكينِ واليَتِيْمِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ أنَّه يَدْعُو إلى تَبَادُلِ الإِلْفَةِ والمَحَبَّةِ ، والتَّصَافِي والتَّعاوُنِ ، قال صلى الله عليه وسلم « المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كالبُنْيَان ، يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضاً » .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنَّه يَذُم النِّزَاعَ وَالكَرَاهِيَـةَ والتَّفرِقَـةَ ، قال تعـالى ﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾ وقال الرسول صلى الله عليه وسلم « المُؤْمِنُ لِلْمُؤمِنِ كالبُنْيَانِ ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضَاً » .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ النَّهيُ عَن النَّمِيْمَةِ والغِيْبَةِ ، والحَسَدِ والتَّجَسُسِ ، والكَذِبِ والخِيَانَةِ ، والآياتُ والأَحَادِيْثُ الدَّالةُ على ذَلِكَ كَثِيْرَةٌ جِدَاً ، فَتَذَكَّرْ لَهَا تَجِدْهَا .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ النَّهيُ عَنِ الظُّلمِ ، وَالأَمْرِ بالعَدْلِ ، مَعَ القَرِيْبِ والبَعِيْدِ ، قال تعالى ﴿ يا أَيْها الذين آمنوا كُونوا قوَّامين للَّهِ شُهَدَاءَ بالقِسْطِ ، ولا يَجْرِمَنَّكم شَنئآن قومٍ على أَنْ لَا تَعْدِلوا اعْدِلُوا ﴾ وقال ﴿ إن اللَّه يأمُرُ بالعَدْلِ والاحسانِ ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ الحثُ عَلَى العَفْوِ عَن المُعْتَدِي ، قال تعالى ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ وقال ﴿ ادْفَع بالَّتي هِيَ أَحْسَن ﴾ وقال ﴿ وإن تَعْفُوا أَقْرَبُ للتَّقوى ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِه الدَّعوةُ إلى الصُّلْحِ بَيْن الأخَـوَيْنِ ، والنَّهيُ عن الهُجْرَانِ ، قال تعالى ﴿ إنَّما المؤْمِنُونَ إخْوَةٌ ، فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم ﴾ وقال ﴿ والصُّلْحُ خَيْر ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ النَّهيُ عَنِ التَّقَاطُعِ والتَّدابُرِ ، والتَّبَاغُضِ والتَّحَاسُدِ ، قال صلى الله عليه وسلم « لا تَقَاطَعوا ولا تَدَابَروا ، ولا تَباغَضُوا ولا تَحَاسَدُوا » الحديث .

وَمِنْ مَحَاسِنِهْ النهيُ عَنِ الاسْتِهْزاءِ بالناس ، وَذِكْرِ عُيُوبِهم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ الآية .

وَمِنْ مَحَاسِنِه النَّهيُ عن بَيْعِ الانسانِ على بَيْعِ أَخِيْهِ ، والخِطْبَةِ على خِطْبَتِهِ ، إلا أن يَأْذَنُ أَوْ يُرَدَّ ، لِمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِك مِن العَدَاوةِ والتَّقاطُعِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ مَشْرُوْعِيَّةُ السلامِ عَلَى المُسْلِمِ ، عَرَفَهُ أَوْ لَمْ يَعْرِفَهُ . وَمِنْ مَحَاسِنِهِ الأَمْرُ بِرَدِّ التَّحِيَّةِ بأحْسَن مِنْها أو رَدِّهَا قال تعالى ﴿ وإذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّها ﴾ الآية .

وَمِنْ مَحَاسِنِه الأَمرُ بالتَّثَبُّتِ فِيمَا نَسْمَعُه ، قال تعالى ﴿ يا أَيُّها الذِيْنَ آمَنُوا إن جَاءَكم فاسِقٌ بنبأٍ فَتبَيَّنُوا ، أَنْ تُصِيْبُوا قوماً بِجهَالَةٍ ، فَتُصْبِحُوا عَلَى ما فَعَلْتُم نَادِمِيْن ﴾ وقال ﴿ ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ الآية .

ومن مَحَاسِنِهِ النَّهْيُ عَنِ البَوْلِ في الماءِ الرَّاكدِ ، وفي ذَلِكَ العِنَايَةُ بالنَّاحِيَةِ الصِّحيَّةِ ، والوقايةُ مِنَ النَّجَاسَةِ والأمراضِ بإذنِ اللهِ .

ومن محاسنه النَهي عن ايذاء المؤمنين والاضرار بهم ، قال تعالى ﴿ والّذِيْنَ يُؤْذُونَ المؤْمِنِيْنَ والمؤمنَاتِ بِغَيْرِ ما اكْتَسبُوا، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وإثْماً مُبِيْناً ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من أَكَلَ الثُّومَ والبَصَلَ والكُرَّاث ، فَلاَ يَقْرَبنَّ مَسْجِدَنَا ، فإن الملائكةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتأذَّى مِنْهُ بَنُو آدَم » .

وَمِن مَحَاسِنِه النَّهيُ عَنِ الأَكْلِ بالشِّمالِ ، والشُّرْبِ بِهَا ، لِأَنَّها لإزالَةِ ما يُسْتَقْذَرُ ، ولأنَّ الشَّيْطانَ يَأْكُل بِشِمَالِهِ ، كَمَا في الحديث .

وَمِنْ مَحَاسِنِه الأَمْرُ باتِّبَاعِ جنازة المسلم ، لِمَا في ذَلِكَ مِن الدُّعَاءِ والتَّرحُمِ عَلَيْهِ ، والصلاةِ عَلَيْه ، وجَبْرِ خَوَاطِرِ أَهْلِهِ المؤمنين .

ومِن مَحَاسِنِ الاسلامِ تَشْمِيْتِ العاطِسِ ، وإبرارِ المقسِمِ ، لِمَا في ذَلِكَ مِنَ التَّآلُفِ والتَّآخِي ، والدُعَاءِ لأخِيْكَ بالرَّحْمَةِ ، وَلِمَا في إبرارِ القَسَمِ مِنْ جَبْرِ خَاطِرِه ، وإجَابَةِ طَلَبِه ، ما لَمْ يَكُنْ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ مُخَالَفَةِ الشَّرْعِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِه إجَابَةُ دَعْوَتِه ، وَلَا سِيَّما إذا كَانَ لِعُرْسٍ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيْهَا مَا يُخَالِفُ الشَّرِيْعَةَ ، أَو يُخلُّ بالمَرُوءَةِ والانْسَانِيَّةِ كما تَراه اليومَ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ الملاهِيْ والمنكَرَاتِ ، لأنَّ في حُضُورِه والحَالَةُ هَذِهِ تَشْجِيْعٌ لِلْفَسَقَةِ وَأَهْلِ المُجُونِ ، وإعانَةٌ على نَشْرِ المَعَاصِيْ ، وَعَدمِ المبالاةِ فيها فإن كان يَقْدِر على إنْكارِ المنكرِ كإزَالةِ التلفزيون ونحوه حَضَر وأزَالَهُ وَإِلّا

امْتَنَعَ.

وَمِن مَحَاسِنِ الدّينِ الاسلاميِّ أَنَّه حَرَّم عَلَى المُسْلِمِ تَرْوِيعَ أَخِيْهِ المُسْلمِ ، إما بإخْبَارِهِ بِخَبرٍ يُفْزِعُهُ ، أَوْ يُشِيْرُ إِلَيْهِ بِسِلَاحٍ ، أَو نَحْوِ ذَلِكَ . .

وَمِن مَحَاسِن الدِيْنِ الاسلامي أَنه نَهَىْ عَنْ تَشَبُّه الرِّجالِ بالنِسَآءِ ، وبالعَكْسِ بأَن تَتَشَبَّهَ النسَآءَ بالرِّجَالِ ، لِمَا في ذَلِكَ مِنَ المَفَاسِدِ ، التي مِنْها التَّخَنُّثُ فِيْمَن يَتَشَبَّه بِهِنَّ ، في مَلَابِسِهِنَّ وَحَرَكَاتِهِنَّ وَكَلَامِهِنَّ ، كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ عِنْدَ بَعْضِ المُنْحَلِّيْن ، المَغْرُوْرِيْن أَصْحَاب الخَنَافِس والتواليتات مَحْلُوقِي اللِّحَا .

وَمِنْ مَحَاسِن الاسلام اتِّقاءُ مَوَاضِع التُّهَمِ والرِّيَبِ ، كَيْ يَصُونُ أَلْسِنَةَ النَّاسِ وَقُلُوبَهُم عن سُوْءِ الظَّنِ بِهِ ، وَوَرَدَ أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِي صلى اللهُ عليهِ وسلم جَاءَتْ تَزْوره وَهُوَ مُعْتَكِفُ ، فَقَامَ مَعَهَا مُوَدِّعا ، حَتَّى بَلَغَتْ بَابَ المَسْجِدِ ، فَرَآهُ رَجُلَانِ مِن الأَنصارِ ، فَسَلَّما عَلَيْهِ ، فقال « عَلَى رِسْلِكُما ، إِنَّما هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ » فقالَا : سُبْحانَ اللهِ يا رسولُ اللهِ ؟ وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الانسانِ مَبْلَغَ الدمِ ، وإِنِّي خَشِيْتُ أَنْ يَقْذِفَ في قُلُوبِكُما شَيْئاً » فَهَذَا أَشْرَفُ الخَلْقِ وأَزْكَاهُم ، أَبْعَدَ التُّهْمَةَ والشَّك عَنْ نَفسِهِ ، وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه : مَنْ أَقَامَ نَفْسَهُ مَقَامَ التُّهَم ، فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَ ، وَمَرَّ عُمَرُ بِرَجُلٍ يُكَلِّمُ إِمْرَأَته على ظَهْرِ الطَرِيقِ ، فَعَلاهُ وَضَرَبه بالدُّرةِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا أَمِيْرَ المؤمنينَ إنها امْرَأَتِي . فقال عُمَرُ : هَلَّا كَلَّمْتها حَيْثُ لَا يَراكَ أحدُ مِنَ النَّاسِ .

فالإسلام من مَحَاسِنِه الابْتِعَادُ عَنْ مَوَاضِع التهم والشُّبُهاتِ ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَىْ مَنْ تَدْخُلُ على الخَيَّاطِ ، يُفَصِّلُ على بَدَنِهَا وَحْدَهُ ، خَالِياً بِهَا ، أَوْرأَى

مَنْ تَدْخُلُ على المُصَوِّرِ وَحْدَها ، أَوْ رَأَى مَنْ تَرْكَبُ مَعَ مَنْ لَيْسَ مَحْرَماً لَهَا ، أَوْ سَافَرَتْ مُسْلِمَةٌ إلى بِلادِ الكُفْرِ بِدُوْنِ مَحْرَمٍ ، أَوْ دَخَلَتْ عَلَى الدُّكْتُوْرِ وَحْدَهَا باسم الكَشْفِ الطِّبِيْ ، أو نَحْوِ ذَلِكَ ، مِمَّا حَدَثَ في زَمَنِنَا الَّذِيْ كَثُرَتْ فيه الفِتَنْ ، وَقَلَّ فِيْهِ الأَمْرُ والنَّهْيُ ، وَرَدْعُ أَهْلِ الشَّرِ والفَسَادِ الذِيْنَ قَوِيَتْ شَوْكَتُهُم ، وَسَانَدَ بَعْضُهُمْ بَعْضَاً عَكْسَ ما عَلَيْهِ أهلُ الخَيْرِ والصَّلَاحِ ، مِنَ التَّفَكُّك والتَّخَاذُلِ والمُصَانَعَاتِ ، فالله المستعان .

أَيَـا عُـلَمَـاءُ الـدِّيْـنِ مَـالِـيْ أَرَاكُـم
تَـغَـاضَـيْـتُـم عَـنْ مُـنْـكَـرَاتِ الأَوَامِـرِ
أَمَـا الأَمْـرُ بـالمَعْـرُوفِ والنَّهْيُ فَـرْضُكُم
فَـأَعْـرَضْتُمُ عَنْ ذَاكَ إِعْـرَاضَ هَـاجِـرِ
أَمَـا أَخَـذَ الـمِـيْـثَـاقَ رَبِّـيْ عَـلَـيْـكُـمُ
بِـأَنْ تَنْصَحُـوا بـالحَقِّ أَهْـلَ المَنَـاكِـرِ
فَـإِنْ هُمُ عَصَوْكُمُ فَـاهْجُـرُوهُم وَهَـاجِـرُوا
تَنَـالُـوا بِنَصْـرِ الـدِّيْنِ أَجْـرَ المُهَـاجِـرِ
إِذَا كَـانَ هَـذَا حَـالُ قَـاضٍ وَعَـالِمٍ
وَحَـالُ وَزِيْـرٍ أَوْ أَمِـيْـرٍ مُـظَاهِـرِ
وَلَـمْ تَنْتَـهُـوا عَـنْ غَـيِّـكُـمْ فَـتَـرَقَّـبُـوا
صَـوَاعِـقَ قَـهَّـارٍ وَسَـطْوَةَ قَـاهِـرِ
فَـمَـا الـلَّه عَـمَّـا تَـعْـمَـلُوْنَ بِـغَـافِـلٍ
وَلَـكِـنَّـه يُـمْـلِـيْ لِـطَاغٍ وَفَـاجِـرِ

وَقَـدْ أَرْسَـلَ الآيَـاتِ مِنْـهُ مُخَـوِّفـاً
وَلَكِنْ غَـفَلتُـم عَنْ سَمَـاعِ الـزَّوَاجِـرِ
أَجِيْبُـوا عِبَـادَ اللَّهِ صَـوْتَ مُنَـاصِـحٍ
دَعَـاكُمْ بِصَـوْتٍ مَـالَـهُ مِـنْ مُنَـاصِـرِ
وَقُـومُـوا سِـرَاعـاً نَحْـوَ نَصْـرَةِ دِيْنِكُمْ
إِذا رُمْتُمُ فـي الحـشْـرِ غُفْـرَانَ غَـافِـرِ
وَحُسْنُ خِتَـامِ النَّـظْمِ أَزْكَى صَـلاَتِنَـا
عَلَى المُصْـطَفَى والآلِ أَهْـلِ المَفَـاخِـرِ

اللَّهمَّ بارِكْ في أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَنَوِّرِ قُلُوبِنَا وَأَصْلِح ذَاتَ بَيْنِنَا وَأَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا واهدِنَا سُبُلَ السَّلامِ وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النور وَجَنِّبْنَا الفواحشَ ما ظهرَ مِنْها وَمَا بَطنَ واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المسلمينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرحَمَ الراحمينَ وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلام أَنَّ الانسانَ إذا ابْتُلِيَ بِشَرِّيْرٍ مِنَ الأَشْرَارِ ، أَوْ فَاجِرٍ مِنَ الفُجَّارِ ، أَوْ مُحِبٍ لِلإِجْرامِ ، يَنْبَغِي أَنْ يَحْذَرَهُ وَيَبْتَعِدَ عَنْ شَرِّهِ، وَيُدَارِيْهِ وَيَتَجَنَّبَه مَا أَمْكَن ، قال أَبُو الدَّرداءِ : إنَّا لَنَبُشُّ في وُجُوهِ قَوْمٍ ، وإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهم ، وَمَعْنَى هَذَا مُدَاراةَ الأشرارِ الذينَ لا تَقْدِرُ عَلَى رَدْعِهِمْ ، والانكارِ عَلَيْهِمْ ، لِخوفِكَ مِنْ شَرِّهِمْ وَأَذِيَّتِهِمْ ، وَإِجْرَامِهِمْ ، وَتُنْكِرُ بِقَلْبِكَ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ الأمرُ بإصلاح ذاتِ البَيْنِ ، والأدِلَّةُ عَلى ذلك مِنَ الكِتَابِ والسُّنَةِ كثيرةُ مُتَظَاهِرَة .

وَمِن مَحَاسِنِهِ الأمرُ بِسَترِ عَوْراتِ المُسلمينَ ، وَعُيُوبِهم ونَقَائِصهم ، قال صلى اللّه عليه وسلم « وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللّه » وقال صلى اللّه عليه وسلم « يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِه ، وَلَمْ يَدْخُل الإيمانُ قَلْبَه ، لا تَغْتَابُوا المسلمين ، ولا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهم » الحديث وتقدم .

ومِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ ادْخَالُ السُرُورِ على قَلْبِ المُسْلِمِ ، وَمُسَاعَدَةِ المُحْتَاجِ ، قال صلى اللّه عليه وسلم « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكم حتَّى يُحِبَ لأخِيْهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِه » وقال « وَمَنْ كانَ في حَاجَة أخيه ، كان اللّه في حَاجَتِهِ » .

وَمِن مَحَاسِنِ الاسلامِ تَوْقِيْرُ المْسلمِ ، ولاسِيما ذِي الشَّيْبَةِ ، وَرَحْمَةُ الصِّبْيَان ، قال صلى اللّه عليه وسلم « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوقِرُ كَبِيْرَنَا ، وَيَرْحَمْ صَغِيْرَنا » وقال صلى اللّه عليه وسلم « إنَّ مِنْ إجْلَالِ اللّهِ إكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ » الحديث .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ النَّهيُ عَنِ الفُحشِ ، وَبَذَاءَةِ اللِّسَانِ ، قال صلى اللّه عليه وسلم « لَيْسَ المؤمِنُ بالطَّعانِ ، ولا اللَّعَانِ ، ولا الفاحِشِ ، ولا البَذِيْ » .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الإسلام النَّهيُ عن التَّكَلُّم سِرَّاً بَيْن اثْنَينِ ، مَعَ وُجُودِ ثالثٍ ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُ الثَّالثَ ، فَيَظُنُ أَنَّهُمْ يَتَنَاجَوْنَ بِهِ ، فهذا يُنَافِي الأدَبَ ، وكذلك لَيْسَ مِن الأَدَبِ أَنْ تَتَحَدَّث بِلُغَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ ، إذا كَانَ هُنَاكَ مَنْ لَا يَعْرِفُها ، قال صلى اللّه عليه وسلم « إذا كُنْتُمْ ثَلاثَةً فَلا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُوْنَ الآخَرِ ، حَتَّى تَخْتَلِطُوْا بالنَّاسِ ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ » .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدِّين الاسلامِيّ أَنْ لاَ يَتَدَخَّلَ الانْسَانُ فِيْمَا لاَ يَعْنِيْهِ ، وَهَذِهِ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، كَمَا في الحديث « مِنْ حُسْنِ اسلامِ المرءِ تَرْكُه ما لا يَعْنِيْه » أَخَذَهُ بَعْضُهُمْ وَصَاغَهُ بِعِبَارَةِ : (ابْحَثْ عَنْ عَمَلِكَ الخَاصِّ) . وَلَوْ تَتَبَّع المُسْلِمُون ارشادَاتِ نَبِيِّهم ، وَنَصَائِحِه صلى اللّهُ عليه وسلم ، لاسْتَرَاحُوا وَأَرَاحُوا غَيْرَهُم ، ولو تَتَبَّعْتَ أَكْثَرَ المَشَاكِلِ ، والمُنَازَعَاتِ والمُخَاصماتِ والمُجَادَلات ، لَوَجَدْتَ سَبَبَها الوَحِيْدَ التَّدخُلُ فِيْمَا لا يَعْنِي .

وَمِن مَحَاسِن الدِّيْن الاسلامِي النَّهْيُ والتَّحْذِيْرُ عن الجُلُوسِ في الطُرقَاتِ ، لِمَا في ذَلِكَ مِن التَّعَرُضِ لِمَا لاَ يَنْبَغِيْ ، وَلِمَا يَلْزَمُ الانسانَ القيامُ بِهِ وَرُبَّما لَمْ يَقُم به مِنَ الأَمْر بالمَعْرُوْفِ ، والنهيِ عن المُنْكَرِ ، وَنَصْرِ المظلومِ ، وَرَدْعِ الظالمِ ، وَذَلِكَ نَصْرُهُ ، واعانةِ المُسلمِ ، وَغَضِّ البصرِ ، وردِّ السلامِ ، وكفِّ الأذى .

وَمن مَحاسِنِ الدينِ الاسلامي أَنَّ مَن استعاذَنَا باللَّه عَلَيْنا أَنْ نُعِيْذَهُ ، وأنَّ مَنْ سَأَلَنَا باللَّه نُعطِيَهُ ، وَنُكَافِيءَ مَن صَنَعَ إلَيْنَا مَعْرُوْفاً إن اسْتَطَعْنَا ، فإن لَمْ نَسْتَطِع نَدْعُو لَهُ أَنْ يَجْزِيَه اللَّهَ جَزَاءً حَسَناً ، على ما أَسْدَاهُ إِلَيْنَا مِنَ المَعروفِ ، عَمَلاً بالحديث « مَنْ اسْتَعَاذَكُم باللَّه فَأَعِيْذُوه » الحديث واللَّه أعلم وصلى اللَّهُ على محمدٍ وآله وسلم .

(فَصْــلٌ)

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدِّيْنِ الاسلامِي أَنْ تُنْصِفَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَنْ تُحِبَ للنَّاسِ مَا تُحِبُ لِنَفْسِكَ ، وَتَضَعَ نَفْسَكَ مَوْضِعَ إخوانَك المسلمينَ ، وتُعَامِلُهُم المُعَامَلَةَ التي تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بها ، وَتُؤَدِّي حُقُوقَهُم ، قال صلى اللّه عليه وسلم « لا يَسْتَكْمِلُ العبدُ الايمانَ حَتَّى يَكونَ فيه ثلاثُ خِصَالٍ ، الانفاقُ مِنَ الإقْتَارِ ، والإنصافُ مِنْ نَفْسِهِ ، وبذلُ السَّلامِ » وقال تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أنْفُسِهِم ، ولو كانَ بِهِمْ خَصَاصَة ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم « طَعَامُ الاثْنَيْنِ يَكْفِي الثَّلاثَةَ » إلى آخرِ الحديث ، وفي الحديث الآخرِ « ومَنْ كانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ ، فَلْيُعِد بِهِ على مَنْ لاَ ظَهْرَ له ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ ، فَلْيُعِد بِهِ على مَنْ لاَ زَادَ لَه » فَذَكَرَ مِن أَصْنَافِ المالِ ما ذَكَر ، قال أبو سَعِيْد : حَتَّى رَأَيْنَا أنَّه لا حَقَّ لِأَحدٍ مِنَّا في فَضْل . رواه مُسلم .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلام ، وأخلاقِهِ السَّامِيَةَ ، أَنْ يَصُونَ الانسانُ عِرضَ أَخِيْهِ المسلم ، وَنَفْسَه وَمَالَه ، مِنْ ظُلمِ أصابَه بقدرِ استِطَاعَتِه ، وَيَرُدَّ عَنْه الظلمَ والعُدوانَ ، وَيُدافِعَ وَيُنَاضِلَ عَنْهُ حَسَبَ قُدْرَتِهِ ، فَرَوَى أَبُو الدرداءِ رَضِيَ الله عنه أنَّ رَجُلاً نَالَ مِنْ رَجُلٍ عِنْدَ رَسولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم ، فَرَدَّ عَنْهُ رَجُلٌ ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم « مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيْهِ ،

كانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ » وَوَرَدَ عنه صلى اللّه عليه وسلم أنّه قَالَ « مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيْهِ ، رَدَّ اللَّه عَنْ وَجْهِهِ النارَ يَوْمَ القيامةِ » رواه الترمذي .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ الأَمْرُ بالتَّوَسُطِ بَيْنَ البُخْلِ والاسْرَافِ ، قال تعالى ﴿ ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ، ولا تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ وقال ﴿ والذين إذا أَنْفَقُوا لم يُسْرِفُوا ، ولم يَقْتُروا ، وكانَ بَيْنَ ذلكَ قَوَاماً ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ الحَثُ على الصَّبرِ بِأَنْواعِهِ الثلاثةِ ، الصَّبرِ على طاعةِ اللَّهِ حَتَّى يُؤَدِيَها ، والصَّبْرِ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَتْرُكَهَا ، والصَّبْرِ على اقْدَارِ اللَّهِ المُؤْلِمَةِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ العَطْفُ عَلَى الضُّعَفَاءِ ، والشَّفَقَةِ على الفُقَرَاءِ ، والرأفةِ باليَتَامَى ، والخَدَمِ والعَبِيْدِ والإماءِ ، والإحسانِ إلَيْهِم ، وَدَفعِ الأَذى عَنْهم ، وَحُسْنِ مُعَامَلَتِهم ، والتَّواضُعِ مَعَهُم ، وَمُلاَطَفَتِهم وَخَفضِ الجَنَاحِ لَهُم ، وَلِيْنِ الجانِبِ مَعَهُمْ ، قالَ تعالى لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ﴿ واخْفِضْ جَنَاحَك لِلْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ وقال ﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِيْنَ يَدْعُونَ رَبَّهم بالغداةِ والعَشيِّ ، يُرِيْدُونَ وَجْهَهُ ﴾ وقال ﴿ فَأَمَّا اليَتِيْمَ فلا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فلا تَنْهَر ﴾ وقال ﴿ أَرَأَيْتَ الذي يُكَذِبُ بالدِّينِ ، فَذَلِكَ الذي يَدُّعُ اليَتِيْمَ ، ولا يَحُضُّ على طَعَامِ المسكِينِ ﴾ وقال ﴿ وما أَدْرَاكَ ما العقبةَ ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إطعامٌ في يومٍ ذِيْ مَسْغَبَةٍ ، يَتِيْماً ذا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيْناً ذا مَتْرَبَةٍ ﴾ وقال ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ، وما يُدْرِيْكَ لَعَلَّه يَزَّكَّى ﴾ الآية .

وَمِن مَحَاسِنِ الدينِ الاسلامى الرَّأفَةُ والرَّحْمَةُ والشَّفَقَةُ ، لَا القَسْوَةُ

والغِلْظَةُ والتَّعْذِيْبُ ، حتى في حَقِّ الحَيَوَانَاتِ البَهِيْمَيَّةِ ، عن ابن عمرَ رَضِي اللَّه عَنْهُما أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم قال « عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْها حَتَّى مَاتَتْ ، فدَخَلَتْ فِيها النارَ ، لا هِيَ أَطْعَمَتْها وَسَقَتْهَا ، ولا هِيَ تَرَكَتْها تَأْكُلُ مِن خَشَاشِ الأَرضِ » متفق عليه .

وَرَوَى الشَّيْخانِ وَغَيْرُهما مَرْفُوعاً « أَنَّ رَجُلاً دَنا مِنْ بِئْرٍ فَنَزَلَ وشَرِبَ مِنْها ، وَعَلَى البِئْرِ كَلْبٌ يَلْهَثُ مِنَ العَطَشِ ، فَرَحِمَه فَنَزَعَ أَحَدَ خُفَّيْهِ فَسَقَاهُ ، فَشَكَرَ اللَّه لَهُ ذَلك فَأَدْخَلَه الجَنَّةَ » .

وروى مُسلمُ وَغَيْرُه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم مَرَّ على حِمَارٍ قَدْ وُسِمَ في وَجْهِهِ فقال « لَعَنَ اللَّهُ الذي وَسَمَهُ » .

شِعْراً :

أَنَا العَبْدُ الذي كَسَبَ الذُّنُوبَا
وَصَدَّتْهُ الأَمَانِي أَنْ يَتُوبَا
أَنَا العَبْدُ الذِيْ أَضْحَى حَزِيْناً
عَلَى زَلَّاتِهِ قَلِقاً كَئِيْبًا
أنا العَبْدَ الذي سُطِرَتْ عَلَيْهِ
صَحَائِفَ لَمْ يَخَفْ فِيْهَا الرَّقِيْبَا
أَنَا العَبْدُ المُسِيْءُ عَصَيْتُ سِرَّاً
فَمَا لِي الآنَ لَا أُبْدِي النَّحِيْبَا
أَنَا العَبْدُ المُفَرِطُ ضَاعَ عُمْرِي
فَلَمْ أَرْعَ الشَّبِيْبَةَ وَالمَشِيْبَا

أَنَا الـعَبْـدُ الـغَـرِيْـقُ بِـلُجِّ بَـحْـرٍ
أصِـيْـحُ لَـرُبَّمـا أَلْـقَـى مُـجِـيْـبَـا

أَنَـا الـعَبْـدُ السَّقِيْـمُ مِـنَ الـخَـطَايَـا
وَقَـدْ أَقْـبَـلْتُ الـتَـمِسُ الـطَّبِـيْـبَـا

أَنَـا الـعَبْـدُ الـمُـخَـلَّفُ عَـنْ أُنَـاسٍ
حَـوَوْا مِـنْ كـلِّ مَـعْـرُوفٍ نَـصِـيْـبَـا

أَنَـا الـعَبْـدُ الشَّـرِيْـدُ ظَلَمْـتُ نَفْسِي
وَقَـدْ وَافَـيْـتُ بَـابَـكُـم مُـنِـيْـبَـا

أَنَـا الـعَبْـدُ الـفَـقِـيْـرُ مَـدَدْتُ كَـفِّـي
إِلَـيْـكُـم فَـادْفَـعُـوا عَـنِّـي الـخُـطُوبَـا

أَنَـا الـغَـدَّارُ كَـمْ عَـاهَـدْتُ عَـهْـداً
وَكُـنْـتُ عَـلَـى الـوَفَـاءِ بِـهِ كَـذُوبَـا

أَنَـا الـمَـقْـطُوعُ فَـارْحَـمْـنِي وَصِلْـنِي
وَيَـسِّـر مِـنْـكَ لِـيْ فَـرَجَـاً قَـرِيْـبـا

أَنَـا الـمُـضْـطَرُّ أَرْجُـو مِـنْـكَ عَـفْـواً
وَمَـنْ يَـرْجُـو رِضَـاكَ فَلَـنْ يَـخِـيْـبَـا

فَـيَـا أَسَـفَـيْ عَـلَى عُـمْـرٍ تَـقَـضَّى
وَلَـمْ أَكْـسِـبْ بِـهِ إِلَّا الـذُّنُـوبَـا

وَأَحْـذَرُ أَنْ يُـعَـاجِـلُنِـيْ مَـمَـاتٌ
يُـحَـيِّـرُ هَـوْلُ مَـصْـرَعِـهِ اللَّبِـيْـبَـا

وَيَـا حَـزْنَـاهُ مِنْ حَشْـرِيْ وَنَشْـرِيْ
بِـيَـوْمٍ يَجْـعَـلِ الـولـدانَ شِيْـبَـا
تَـفَـطَّرَتْ الـسـمـاءُ بِـهِ وَمَـارَتْ
وَأَصْـبَـحَـتِ الجِـبَـالُ بِـهِ كَثِـيْـبَـاً
إِذَا مَـا قُـمْـتُ حَـيْـرانَـاً ظَـمِـيْئَـاً
حَـسِـيْـرَ الـطَّرْفِ عُـرْيَـانـاً سَـلِيْبَـا
وَيَـا خَـجْـلاَهُ مِـنْ قُـبْـحِ اكْـتِـسَـابِـي
إذا مَـا أَبْـدَتِ الـصُّـحُـفُ الـعُـيُـوْبَـا
وَذِلَّـةِ مَـوْقِـفٍ وَحِـسَـابِ عَـدْلٍ
أَكُـونُ بِـهِ عَـلَى نَـفْـسِـيْ حَـسِـيْـبَـا
وَيَـا حَـذْرَاهُ مِـنْ نَـارٍ تَـلَظَّى
إِذَا زَفَـرَتْ وَأَقْـلَقَـتِ الـقُـلُوْبَـا
تَـكَـادُ إذا بَـدَتْ تَـنْـشَـقُّ غَـيْـظَاً
عـلى مَـن كـان ظَـلَّامـاً مُـرِيْـبَـا
فَـيَـا مَـنْ مَـدَّ فِـيْ كَـسْـبِ الـخَـطَايَـاْ
خُـطَاهُ أَمَـا يَـأْنِـيْ لَـكَ أَنْ تَـتُـوْبَـا
أَلَا فَـاقْـلِعْ وَتُـبْ واجْـهَـد فَـإِنَّـا
رَأَيْـنـا كُـلَّ مُـجْـتَـهِـدٍ مُـصِـيْـبَـا
وَأَقْـبِـلْ صَـادِقـاً فِي الـعَـزْمِ وَاقْصُـدْ
جَـنَـابَـاً لِـلْمُـنِـيْـبِ لَـهُ رَحِـيْـبَـا
وَكُـنْ لِـلْصَـالِـحِـيْـنَ أَخَـاً وَخِـلاًّ
وَكُـنْ فِـي هَـذِهِ الـدُّنْـيَـا غَـرِيْـبَـا

وَكُنْ عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ جَبَاناً
وَكُنْ في الخَيْرِ مِقْدَاماً نَجِيْبَا

وَلاَحِظْ زِيْنَةَ الدُّنْيَا بِبُغْضٍ
تَكُنْ عَبْداً إلى المَوْلَى حَبِيْبا

فَمَنْ يَخْبُرْ زَخَارِفَها يَجِدْهَا
مُخَالِبَةً لِطَالِبِهَا خَلُوْبَا

وَغُضَّ عَنِ المَحَارِمِ مَنكَ طَرْفاً
طَمُوحاً يَفْتِنُ الرَّجُلَ الأَرِيْبَا

فَخَائِنَةُ العُيُونِ كَأُسْدِ غَابٍ
إذا مَا أُهْمِلَتْ وَثَبْتَ وُثُوْبَا

وَمَنْ يَغْضُضْ فُضُوْلَ الطَّرْفِ عَنْهَا
يَجِدْ في قَلْبِهِ رَوْحاً وَطِيْبَا

وَلاَ تُطْلِقْ لِسَانَكَ في كَلاَمٍ
يَجُرُّ عَلَيْكَ أَحْقَاداً وَحُوبَا

وَلاَ يَبْرَحْ لِسانُكَ كُلَّ وَقْتٍ
بِذِكْرِ اللَّهِ رَيَّاناً رَطِيْبَا

وَصَلِّ إذا الدُّجَى أَرْخَى سُدُولاً
وَلاَ تَضْجَرْ بِهِ وَتَكُن هَيُوْبَا

تَجِدْ أُنْساً إذَا أُودِعْتَ قَبْراً
وَفَارَقْتَ المُعَاشِرُ والنَّسِيْبَا

وَصُـمْ مَـا تَـسْـتَـطِيـعُ تَـجِـدْهُ رِيّـاً
إذا مـا قُـمْـتَ ظَـمْـآنـاً سَـغِـيْـبَـا
وَكُـنْ مُـتَـصَـدِّقـاً سِـرّاً وَجَـهْـراً
وَلَا تَـبْـخَـلْ وَكُـنْ سَـمْـحـاً وَهُـوْبَـا
تَـجِـدْ مـا قَـدَّمَـتْـهُ يَـدَاكَ ظِـلَّاً
إذا مـا اشْـتَـدَّ بـالـنَّـاسِ الـكُـرُوبَـا
وَكُـنْ حَـسَـنِ الـسَّـجَـايَـا وَذَا حَـيَـاءٍ
طَـلِيْـقَ الـوَجْـهِ لَاشَـكْـسـاً غَـضُـوبَـا

اللهم وفِّقْنا تَوْفِيْقاً يَقِيْناً عن مَعَاصِيْكَ ، وَأَرْشِدْنَا بِرُشدِكَ الى السعيِ فيما يُرْضِيْكَ ، وأجرنا يا مولانا من خِزيِكَ وعَذَابِك ، وهب لنا ما وهبته لأوليائِكَ وأحبابِكَ ، وآتنا في الدنيا حَسَنَةً ، وفي الآخرة حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، واغفر لنَا ولوالـدينا وَلِجَميعِ المسلمين ، برحمتك يا أرحمَ الراحمين ، وصلى اللّه على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

ومن مَحَاسِنِ الاسلام مراعاةُ الحِكْمَةِ ، وذلك أن نَضَعَ كُلَّ انسانٍ مِن المؤمنينَ في مَنْزِلَتِه ، ونُرَاعِيْ كَرَامَتَهُ وَشُعُوْرَهُ ، ونَجْعَلَهُ في المَكانِ الذي يَلِيْقُ بِهِ .

عَن عَائِشَةَ رضي اللَّهُ عنها أَنَّ النبيَّ صلى اللَّه عليه وسلم قال « أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ » رواه أبو داود ، وَرُوِيَ أَنَّ عائِشَةَ رضي اللَّه عنها كَانَتْ مُسَافِرَةً ، فَنَزَلَتْ مَنْزِلاً تَسْتَرِيْحُ فيه ، وَتَتَنَاوَلُ طَعَامَهَا ، فَجَاءَ سائِلٌ فَقِيْرٌ ،

فَقَالَتْ : نَاوِلُوا هذا المِسْكِيْنَ قُرصاً ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ يَرْكَبُ فَرَساً ، فقالتِ : ادْعُوْهُ إلى الطَّعَامِ . فَقِيْلَ لَهَا : لِمَاذا تُعْطِيْن المِسْكِيْنَ قُرْصاً ، وَتَدْعِيْنَ هَذَا الغَنِيَّ إلى الطَّعَام ، فأَجَابَتْ إنَّ اللَّهَ تعالى أنزلَ الناسَ مَنازِلَ ، لا بُدَّ لنا أن نُنْزِلَهُم تِلكَ المَنازِلَ ، هذا المِسكِينُ يَرْضَى بِقُرْصٍ ، وَقَبِيْحٌ بِنَا أَنْ نُعْطِي هَذَا الغَنِيَّ ـ وَهُوَ عَلى هَذِهِ الهَيْئَةِ ـ قُرْصَاً ، فَرحِمها اللَّهُ ما أَحْسَنَ هذا مِنْ جَوَابِ رَدٍ ، دَلَّ على الحِكْمَةِ ، وَحُسنِ الذَّوْقِ ، وَنُبْلِ الخُلُقِ ، وَكَرَمِ المُعَامَلَةِ ، والاقتداءِ التَّامِ بإرشادَاتِ اللَّهِ ورسولِهِ صلى اللَّه عليه وسلم .

وَرُوِيَ أن رسولَ اللَهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم دَخلَ بَيْتاً مِنْ بُيُوْتِهِ ، فَدَخَلَ عليه أَصْحَابُه ، حَتَّى امْتَلأَ المَجْلِسُ ، فَجَاءَ جَرِيْرُ إبنُ عَبْدِ اللَّهِ البَجَلِيُ ، فَلَمْ يَجِدْ مَكَاناً ، فَقَعَدَ عَلَى البابِ ، فَلَفَّ رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم رِداءَهُ ، وَقَدَّمَهُ لَه لِيَجْلِسَ عَلَيْهِ ، وقال له « إجْلِسْ عَلَى هَذَا » فَأَخَذَ جَرِيْرُ الرِّداءَ ، وَوَضَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، وَجَعَلَ يُقَبِّلُه وَيَبْكِيْ ، مُتَأَثِّراً مِنْ إكْرَامِ النبي صلى اللَّهُ عليه وسلم لَهُ ، ثُمَّ لَفَّه وَرَدَّه إلى النبي صلى اللَّهُ عليه وسلم شَاكِراً مُقَدِّراً ، وقال : ما كُنْتُ لأَجْلِسَ على ثَوْبِكَ يا رسولَ اللَّهِ أَكْرَمَكَ اللَّهُ يا رسولَ اللَّهِ كَمَا أَكْرَمْتَنِيْ ، فَنظَرَ المُصْطَفَى صلى اللّهُ عليه وسلم يَمِيْناً وَشِمَالاً ، ثم قال « إذَا أتاكُمْ كَرِيْمُ قومٍ فَأكرِمُوه » .

فانْظرْ إلى هَذِهِ المُعَامَلَةِ الجَمِيْلَةِ ، تَجِدْ المَثَلَ الكَاملَ في مُعَامَلَةِ الرسولِ لَهُ ، حَيْثُ رَاعَى شُعُورَ جَرِيرٍ وأَكْرَمهُ ، وَكَيْفَ تَأَثَّرَ جَرِيْرٌ بهذِه المُعَامَلَةِ الكَرِيْمَةِ النَّبِيْلَةِ اللَّطِيْفَةِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ أنَّه أثْبَتَ لِلزَّوجاتِ على الأَزْواجِ حُقُوْقاً ، مِثْلُ

الحُقُوقِ التي لِلرِّجالِ بالمَعْرُوْفِ ، وَحُسْنِ العِشْرَةِ ، وتَرْكِ الإضرارِ ، وَجعل (للرِّجالِ عَلَيْهِن درَجَة) أيْ في الفَضِيْلةِ في الخُلُقِ والمَنْزِلَةِ ، وَطاعَةِ الأَمْرِ ، والانْفَاقِ ، وَأداءِ المَهْرِ ، والقِيَامِ بالمَصَالِحِ ، والفَضْلِ في الدنيا والآخرةِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلام انَّ المَرْأَةَ عِنْدَ بَعْضِ العَرَبِ في الجَاهِليةِ تُعَدُّ جُزْأً مِنْ ثَرْوَةِ أَبيْهَا أو زَوْجها ، وكان ابنُ الرجلِ يَرِثُ أَرْمَلةَ أَبِيْهِ بَعْدَ وَفَاتِها ، وكان العَرَبُ قَبْلَ الاسلام يَرِثُونَ النِسَاءَ كُرْهاً ، بِأَنْ يَأْتِيَ الوَارِثُ وَيُلْقِيْ ثَوْبَه على زَوْجَةِ أبيهِ ، ثم يَقُولُ وَرِثْتُها كما وَرِثْتُ مالَ أَبِيْ ، فإذا أَرادَ أَنْ يَتزَوَّجَها تَزَوَّجَهَا بِدُوْنِ مَهْرٍ، أو زَوَّجها لأَحَدٍ عِنْدَهُ وتَسلَّمَ مَهْرَهَا مِمَّنْ يَتزَوَّجها ، أو حَرَّمَ عَلَيْهَا أن تَتزوَّج كَيْ يَرِثُها ، فَمَنَعَتِ الشَّريعةُ الاسْلاميّة هَذا الظُّلمَ وهَذَا الإرْثَ ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يَحِلُّ لَكُم أن تَرِثُوا النساء كَرْهاً) وكانَ العَرَبُ في الجَاهِلِيَّةِ يَمْنَعُونَ النِّساءَ مِنَ الزِّوَاج ، فالابنُ الوَارِثُ كان يَمْنَعُ زوجةَ أبيهِ مِنَ التَّزوْجِ ، كَيْ تُعْطِيَه مَا أَخذَتْهُ مِنْ مِيْراثِ أَبِيْهِ ، والأَبُ يَمْنَعُ ابنَتَهُ مِنَ التَّزوُجِ حَتَّى تَتْرُكَ لَهُ ما تَمْلِكُه ، والرَّجلُ يُطَلِقُ زَوْجَتَهُ وَيمْنَعُهَا مِنَ الزَّوَاجِ ، حَتَّى يَأْخُذَ منْها ما يَشَاءُ : والزَّوْجُ المُبْغِضُ لِزَوْجَتِهِ يُسِيءُ عِشْرَتَها ، وَيُمَلِّلُها ، ولاَ يُطَلِقُها حَتَّى تَرُدَّ إلَيْهِ مَهْرَهَا ، فالعَرَبُ قَبْلَ الاسلام يَظْلِمُونَ المَرْأَةَ ، وَيَتحَكَّمُونَ فيها، قال تعالى ﴿ وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ، لِتَذْهَبُوا بِبعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ وكانُوا لا يَعْدِلُونَ بَيْنَ النِّسَاءِ، في النَّفَقَةِ والكِسْوَةِ والمُعَاشَرَةِ ، فأَمَرَ الاسلامُ بالعَدَالَةِ بَيْنَهُنَّ ، قال تعالى (وَعَاشِرُوهُنَّ بالمعروفِ) الآية ، وقال (فإنْ خِفْتُم أَنْ لا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) وقال ﴿ وإن أَرَدْتُم اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ، وآتَيْتُم إحْدَاهُنَّ قِنطَاراً ، فلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ، أتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وإثماً مُبِيْناً ﴾ وقال في نَاحِيَةِ الدِّيْنِ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً

مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَنُحْيِيَنَّه حياةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهم أَجْرَهُم بأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُون﴾ وفي نَاحِيَةِ الأهْلِيَّةِ والمُلْكِ قال تعالى ﴿ للرِّجَالِ نَصِيْبٌ مِمَّا تَرَكَ الوالدانِ والأَقْرَبُونَ ، وللنِّساءِ نَصِيْبٌ مِمَّا تَرَكَ الوالدان والأَقْرَبُونَ ﴾ وقال ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيْبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ، وللنِّساءِ نَصِيْبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ .

وَحَسْبُ الاسْلامِ مَا كَفَلَ لِلْمَرْأةِ مِنْ مُسَاوَاةٍ دِيْنِيَّةٍ ، وَمِنْ مُسَاواةٍ في التَّمَلُّكِ والكَسْبِ ، وما حَقَقَ لَهَا مِنْ ضَمَانَاتٍ في الزَّواجِ ، بإذنِها ورِضَاهَا دُونَ إكْراهٍ ولا إهْمَال ، قال صلى الله عليه وسلم « لا تُنْكَحُ الثَّيبُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ ، ولا تُنْكَحُ البِكرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنْ ، وإِذْنُها الصُّمُوت » وفي مَهْرِهَا قال ﴿ فآتوهُنَّ أُجُورَهنَّ فريضةً ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلام أنَّ العَرَبَ قَبْلَ الإسلامِ يَئِدُوْنَ البَنَاتِ ، ويَدْفِنُونَهُنَّ وَهُنَّ على قَيْدِ الحَيَاةِ ، خَوْفاً مِنَ العارِ ، يُهِلُّ على ابْنَتِهِ التُّرابَ حَتَّى تَمُوتَ ، فَجَاءَ الإسْلامُ وَحرَّمَ وَأْدَهُنَّ وَقَتْلَهُنَّ ، تَحْرِيْماً قاطِعاً ، وَمَنَحَهُنَّ الحَقَّ في الحَيَاةِ ، وبِهَذَا أنْصَفَ الإسْلامُ المَرْأَةَ كُلَّ الانْصَافِ ، وَحَافَظَ عَلَى حَيَاتِهَا وَحُقُوْقِهَا الإنْسَانِيَّةِ .

اللهم أعذنا مِن الهَمّ والحَزَنِ والعَجْزِ والكَسَلِ والْجُبْنِ والبُخْلِ وغلبة الدَّينِ وَقَهْرِ الرِّجالِ وَشَماتَةِ الأَعْدَاءِ واغفر لنا ولوالدينا وَجَمِيْعِ المسلمين برحمتك يا أرحمَ الرحمين وصلى اللّه على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(فَصْــلٌ)

وَمِنْ مَحاسِنِ الإسلام ابْطَالُ الكِهَانَةِ وَتَحْرِيْمُهَا ، وَتَحْرِيْمُ زَجْرِ الطَّيْرِ ، وتَحْرِيمُ المَيْسِرِ ، وهُوَ نَوْعٌ مِنَ القِمَارِ ، وَمِنْهَا الأزلَامُ والبَحِيْرَةُ والسَّائِبَةُ والوَصِيلةُ والحَامي .

وَمِنْهَا رَمْيُ البَعْرةِ، كَانَتِ المَرْأَةُ في الجَاهِلِيَّةِ إذَا مَاتَ زَوْجُها دَخلَتْ حُشِفاً ، وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِها ، وَلَمْ تَمسَّ طِيْباً ، حَتَّى تَمْضِيْ عَلَيْهَا سَنَة ، ثُمَّ تُؤْتَى بِدَابَةٍ ، حِمَارٍ أو طَيْرٍ أَوْ شَاةٍ فَتَفْتَضُّ به ، فَقَلَّمَا تَفْتَضُّ بِشَيءٍ إلا مَاتَ ، ثم تَخْرُجُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَتُعْطَى بَعْرَةً ، فَتَرْمِي بها ، ثُمَّ تُرَاجِعُ مَا شَاءَتْ .

وَمِنْهَا قَتْلُ الأولَادِ خَشْيَةَ الفَقْرِ ، فَكَانَ الرَّجلُ يَقْتُلُ وَلَدَهُ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَهُ إلى أَنْ نَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ بقوله ﴿ ولا تَقْتُلوا أولادَكُمْ خَشْيَةَ إملاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُهم وإيَّاكُمْ ، إنَّ قَتْلَهُمْ كان خطْأً كَبِيْراً ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدينِ الاسلامِي أَنَّه حَوَّلَ الوَثَنِيِّينَ والمُشركِيْنَ والكُفارَ إلى مُؤْمِنِيْنَ صَالِحِيْنَ ، أَتْقِيَاءَ زُهَّاداً ورِعِيْنَ ، يَخَافُونَ اللَّهَ ، وَيَعْبُدُونه وَحْدَه لا شَرِيْكَ لَهُ ، وَيَقِفُونَ بِجَانِبِ الحَقِ ، لا تَأْخُذُهُمْ في اللَّهِ لَوْمَةُ لَائم ، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم ، ولو كان بهم خَصَاصَة ﴾ .

ومِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ تَحْرِيْمُ الغَدْرِ ، قال تعالى ﴿ يا أَيُّها الذين آمنوا أَوْفُوا بالعُقُودِ ﴾ وقول تعالى ﴿ وَأَوْفُوا بالعَهْدِ ، إنَّ العهدَ كانَ مَسْؤلاً ﴾ ؟ وَوَرَدَ عَنْهُ صلى اللَّه عليه وسلم أَنَّه قال « لِكلِّ غَادِرٍ لِوَاءُ يَوْمَ القيامةِ ، يُقالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فلانٌ » وقال « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ كانَ مُنَافِقاً خالِصاً » وَعَدَّ مِنها « وإذا

عاهَدَ غَدَرْ » وقال « يَقُولُ اللَّهُ ثَلاثَةٌ أنا خَصْمُهم يَوْمَ القيامةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرْ » الحديث رواه البخاري .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدِّيْنِ الإسْلامِي الحَثُ عَلَى العَمَلِ ، وَكَسْبُ الرِّزْقِ ، وَتَرْكُ الكسلِ ، وَسُؤَالِ الناسِ إلا عِنْدَ الضَّرُورَةِ ، فالإسلامُ دِيْنُ سَعْيٍ وَعَمَلٍ واجْتِهَادٍ ، لا دِيْنُ كَسَلٍ وَعَجْزٍ وَتوانٍ ، دِيْنٌ يُحَافِظُ عَلَى العِزَّةِ الانْسَانِيَّةِ ، والكَرامَةِ الشَّخْصِيَّةِ ، قال تعالى ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُه ﴾ وقال وأَنْ لَيْسَ لِلإنْسانِ إلا مَا سَعَى ، وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ وَيَحثُّ على الجَمْعِ بَيْنَ العَمَلِ لِلدِّيْنِ والدُّنْيَا ، فَيَقُولُ جَلَّ وَعَلا ﴿ وابْتَغِ فيما آتاكَ اللَّهُ الدارَ الآخرَةَ ، ولا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ويقول ﴿ فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانْتَشِرُوْا في الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الإسلامِ القَصْدُ في الطَّعامِ والشَّرَابِ ، قال اللَّهُ جلَّ وعلا ﴿ وكُلوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفوا ، إنه لا يُحِبُّ المسرِفِيْنَ ﴾ وعن المِقْدادِ بنِ مَعْدِي كَرِبْ قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم « ما مَلأَ ابنُ آدَمَ وِعَاءً شَراً مِنْ بَطْنِهِ ، بِحَسْبِ ابنِ آدَمَ لُقَيْماتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فإن كانَ لا مَحَالَةَ فاعِلاً فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ » أخرجه الترمذي وابن ماجه .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الإسلامِ النَّهيُ عن المُمَاطَلَةِ في الحُقُوقِ ، قال صلى اللَّه عليه وسلم « مَطْلُ الغنيِّ ظُلْمٌ ، وإذا أتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ » رواه البخاري ومسلم .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدينِ الاسلامي الأمرُ بإنْظَارِ المُعْسِرِ ، قال تعالى ﴿ وإن كان ذُو عُسْرَةٍ ، فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرةٍ ﴾ وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه ، عن النَّبي صلى اللّه عليه وسلم قال « كان تاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ ، فإذا رَأَى مُعْسِراً ،

قال لِفِتْيَانِهِ : تَجاوَزُوْا عنه ، لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجاوزُ عَنَّا ، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عنه » رواه البخاري ، وقال صلى اللَّه عليه وسلم « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً فَلَهُ بكلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ » .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ النَّهيُ عن الرِّشْوَةِ ، عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، قال قال رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلم « لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَ والمُرتَشِيَ في الحُكْمِ » رواه الترمذي ، وَوَرَدَ « لَعَن اللَّهُ الراشيَ والمُرتَشِيَ ، والرَّائِشُ الذي يَمْشِي بَيْنَهُما » .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدينِ الاسلامي الحثُ على إقالةِ النادِمِ ، لِمَا في ذَلِكَ مِن الإِحْسَانِ ، والمَعْرُوْفِ وجَبْرِ خَاطِرِهِ ، ففي الحديث « مَنْ أقال مُسْلِماً أَقَالَ اللَّهُ عثْرَتَه » وفي رواية « من أَقال نَادِماً ، أقالَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ » وصلى اللَّه على محمد وآله وسلم .

(فَصْــلٌ)

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدينِ الاسلامي بَذْلُ النَّصِيْحَةُ للَّهِ ، ولِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِه ، وللأَئِمةِ المُسلمينَ ، وعامَتِهم فالنَّصِيْحَةُ لِلَّهِ الايمانُ بِهِ ، وَنَفْي الشَّرِيْكِ عَنْهُ ، وَتَرْكُ الالْحَادِ في أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَوَصْفُهُ بِأَوْصَافِ الكَمالِ ، وَتَنْزِيْهُهُ عَنْ النَّقَائِصِ والعُيُوبِ ، وَطَاعَةُ أَمْرِه واجْتِنَابُ نَهْيِهِ ، وَمُوَالاةُ مَن أَطَاعَهُ ، ومُعَادَاةُ مَنْ عَصَاهُ ، وَغَيْرُ ذلِكَ مِمَّا يَجِبُ لَهُ ، وَأَمَّا النَّصِيْحَةُ لِكِتَابِ اللَّهِ ، فالإِيمَانُ بِهِ بِأَنَّه كلامُ اللَّهِ ، مُنَزَّلٌ غيرُ مَخْلُوقٍ ، وَتَحْلِيْلُ ما حَلَّلَهُ ، وَتَحْرِيمُ ما حَرَّمه ، والاهتداءُ بِهَدْيِهِ والتَّدبُّرُ لِمَعَانيهِ ، والقِيامُ بِحُقوقِهِ ، والاتِّعَاظُ بِمَوَاعِظِهِ ، والاعْتِبَارُ بِزَوَاجِرِهِ ، وَأَمَّا النَّصِيْحَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه

وسلم ، فَتَصْدِيْقُهُ فِيْمَا جاءَ بِهِ ، وَمَحَبَّتُهُ ، وَتَقْدِيْمُهُ فِيْهَا على النَّفسِ والمَالِ والوُلِدَ ، وتوْقِيْره حياً وَمَيِّتاً ، وَمَعْرِفَةُ سُنَّتِه ، وَنَشْرُها ، والعَمَلُ بها ، وَتَقْدِيْمُ قَوْلِهِ على قَولِ كُلِّ أَحَدٍ كَائِناً مَا كَانَ ،وَأَمَّا النَّصِيْحَةُ لِأَئِمَّةِ المُسلِمينَ ، فَهِيَ إعانَتُهُم على الحَقِّ وطاعَتُهُم فِيه ، وَأَمْرُهُم بِهِ ، وَتَذْكِيْرُهم بِحَوائِجِ العِبادِ وَنُصْحُهم بِرِفْقٍ وَلِيْنٍ وَعَدْلٍ واعْتِقَادُ ولايَتِهِمْ والسَّمعُ وَالطَّاعَةُ لَهُم في غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّه ، وحثُّ النَّاسِ على ذَلِكَ ، وَبَذْلُ ما تَسْتَطِيْعُهُ مِن إرْشَادِهم ، وَتَنْبِيْهُهُم إلى ما يَنْفَعُهم ، وَيَنْفَعُ النَّاسَ والقِيامُ بواجِبِهِم ، وأما النَّصِيْحَةُ لِعَامَّةِ المُسلمينَ ، فهِيَ إرْشَادُهُم إلى مَصَالِحِهْم في دُنْيَاهُم وأُخْرَاهُم ، وكَفُّ الأذى عَنْهم ، وَتَعْلِيْمُهُم ما جهِلُوا مِن أَمْرِ دِيْنِهم ، وَأَمْرُهُم بالمَعْرُوْفِ ، وَنَهْيُهُم عَنِ المُنْكَر وَأَنْ يُحِبَّ لَهُم ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَيَكْرَهُ لَهُم ما يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ ، وَيَسْعى في ذَلِكَ حَسَبَ الإمكان .

وَمِن مَحَاسِنِ الدينِ الاسلامي النَّهيُ عَنْ قَطِيْعَةِ الرَّحم ، قال اللّه تعالى ﴿ فَهَل عَسَيْتُمْ إن تَوَلَّيْتُم انْ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ ، وَتُقَطِّعوا أَرْحَامَكم ﴾ وقال صلى اللّهُ عليه وسلم « الرَّحِمُ مُتَعَلِّقَةٌ بالعَرْشِ ، تَقُولُ : مَنْ وَصَلَنِيْ وَصَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَنِيْ قَطَعُهُ اللَّهُ » رواه البخاري ، ورواه الطبراني عَنْ عبدِ اللَّهِ بنِ أبي أَوْفِي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال « إن الملائكةَ لا تَنْزِلُ على قَوْمٍ فِيْهِمْ قَاطِعُ رَحِمٍ».

وَمِنْ محاسنِ الدينِ الاسلامي النَّهيُ عَنِ التَّشدُدِ في الدِّيْنِ ، وعن الزُّهْدِ في الطَّيباتِ ، لِأنَّ الإِسلامَ دِيْنُ اليُسْرِ والسُهُوْلَةِ والاعْتِدَالِ ، فعن أنسٍ رضي اللّهُ عنه ، قال جاءَ ثلاثةُ رَهْطٍ الى بُيُوتِ أزواجِ النبي صلى اللّه عليه وسلم ، يَسْأَلونَ عن عِبادَتِهِ ، فلمَّا أُخْبِرُوا كأنَّهم تَقَالُّوهَا ، فقالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ مِن النَّبِي صلى اللّه عليه وسلم ، وقَدْ غَفَرَ اللّهُ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وما

تَأَخَّرَ فقال أَحَدُهُم : أَمَّا أنا فأصلِّي الليلَ أَبَدَاً ، وقال الآخرُ : أنا أَصُوْمُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ . وقال الآخرُ : وَأَنَا أَعْتَزِلُ النِسَاءَ ، فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدَا ، فَجَاءَ إِلَيْهِم رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، فقال « أَنْتُمُ الذِيْنَ قُلْتُمْ كذَا وكذَا ؟ أما وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُوْمُ وأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِيْ فَلَيْسَ مِنِّي » رواه الشيخان .

قصيدة في غربة الاسلام

أَقُـولُ وَأَوْلَى مـا يُـرَى في الـدَّفَـاتِـرِ
وَأَحْسَنُ فَـيْضـاً مِنْ عُيُـونِ الـمَحَـابِـرِ
هُـوَ الحَمْدُ لِلْمَعْبُـودِ والشُّكْـرُ والثَّنـاء
تَـقَـدَّسَ عَـنْ قَـوْلِ الـغُـواةِ الـغَـوَادِرِ
وَجَـلَّ عـن الأَنْـدَادِ لَا رَبَّ غَـيْـرُهُ
وَعَـنْ شَـافِـعٍ في الابْـتِـدا أو مُـوَازِرِ
وَصَـلَّى عَـلَى مَـنْ قَـامَ لِـلَّهِ دَاعِـيـاً
وَشَـيَّـدَ أَعْـلَامَ الـهُـدَى والـشَّعَـائِـرِ
وَأَوْضَـحَ دِينَ اللَّهِ مِنْ بَعْـدِ مـا سَفَتْ
عليـه السَّوافِي في القُـرَى والجَـزَائِـرِ
وَعَـادَا وَوَالـى في رِضَـى الـلَّهِ قَـوْمَـهُ
وَلَـمْ يَـثْـنِـه عـن ذَاكَ صَـوْلَـةُ قَـاهِـرِ
مُـحَمَّـدُ الـمَبْعُـوثُ لِـلنَّـاسِ رَحْـمَـةً
نِـذَارَتُـهُ مَـقْـرونَـةٌ بـالـبَـشَـائِـرِ

وَبَعدُ فإن تَعْجَب لِخَطْبٍ تَبَلْبَلَتْ
لِفَادِحِهِ أَهْلُ النُّهَى وَالبَصَائِرِ
فلا عَجَباً يَوْمٌ مِنَ الدَّهرِ مِثْلَ مَا
أَنَاخَ بِنَا مِنْ كُلِّ بَادٍ وَحَاضِرِ
وَما ذَاكَ إلَّا غُرْبَةُ الدِّيْنِ يَا لَهَا
مُصِيْبَةُ قَوْمٍ مِن عِظَامِ الفَوَاقِرِ
تَرَى أَهْلَهُ مُسْتَضْعَفِيْنَ أَذِلَّةً
فَمَا بَيْنَ طَعَّانٍ عَلَيْهِمْ وَنَافِرِ
وَمُسْتَهْزِءٍ مِنْهُم فَيُنْغِضُ رَأْسَهُ
وَيَرْمُونَهُمْ شَزْرَ العُيُونِ النَّوَاضِرِ
وَعَادَاهُمُ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ والحِجَى
وكُلُ خَلِيْلٍ أَوْ قَرِيْبٍ مُصَاهِرِ
فَمَا شِئْتَ مِنْ شَتْمٍ وَقَذْفٍ وَغِيْبَةٍ
وَتَنْقِيْصُهِم في كُلِّ نَادٍ لِفَاجِرِ
وَأَكْبَرُ مِنْ هَذَا وَأَعْظَمُ فِرْيَةٍ
مُوَلَاةُ أَهْلِ الشِّرْكِ مِنْ كُلِّ كَافِرِ
وَأعْيُنُهُمْ في فِعْلِ ذَاكَ قَرِيْرَةٌ
فَمِنْ صَامِتٍ في فِعْلِهِ أَوْ مُجَاهِرِ
وَمَنْ قَامَ بِالإِنْكَارِ فَهُوَ مُشَدَّدٌ
يَكَادُونَ أَنْ يُبْدُوهُ فَوقَ المَنَابِرِ

فإن يَحْكُموا بالسَّوْطِ ضَرْباً فإنْ يَكُنْ
رُجُوْعٌ وإلَّا بالضُّبَا والخَنَاجِرِ

وأصْبَحَ ذُو الإيْمَانِ فِيْهِمْ كَقَابِضٍ
عَلَى الجَمْرِ أَوْ في الجَنْبِ صَليُ المَجَامِرِ

وإخْوانُه النُّزَّاعُ في كلِّ قَرْيَةٍ
لَدَى أَهْلِهَا في ذُلِّهِمْ كَالأَصَاغِرِ

وَما زَادَهُمْ إلا ثَبَاتاً مَعَ الرِّضَى
بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ لِلْمُهَيْمِنِ شَاكِرِ

فَأَكْرِمْ بِهِمْ مِنْ عُصْبَةِ الحَقّ إنَّهُمْ
لِحِفْظِ نُصُوصِ الدِّينِ أَهْلُ تَنَاصُرِ

إذَا مَا بَدَا نَصَّ الكِتَابِ وسُنَّةٍ
تَنَادَوا عِبَادَ اللَّهِ هَلْ مِنْ مُثَابِرِ

وَعَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجِذِ فاهْتَدَوْا
ومَا رَغِبُوا عَنْهَا لِخَرْصِ الخَوَاطِرِ

عَلَيْكَ بِهَاتِيْكَ الصفاتِ مُنَافِساً
فَلِلَّهِ مَا أَسْنَا سَنَاهَا لِسَائِرِ

هُمْ القَوْمُ لا يَثْنِيْهُمْ عَنْ مُرَادِهِمْ
مَلامَةُ لُوَّامٍ وَخُذْلانُ نَاصِرِ

بِنَفْسي فَتَى مَا زَالَ يَدْأَبُ دَائِماً
إلى رَبِّه أَكْرِمْ بِهِ مِن مُهَاجِرِ

مُـكبّـاً عــلـى أيِ الـكـتــابِ وَدَرْسِــهِ
بِـقَلْبٍ حَــزِيْـنٍ عِـنْــدَ تِـلْكَ الــزَّوَاجِــرِ
فَــيَــا لَـيْــتَـنِـي أَلْـقَــاهُ يَــوْمــاً لَــعَــلَّهُ
يُخَبِّــرُنِي عَمَّــا حَــوَى في الضَّـمَــائِــرِ
وَنَــرْفَــعُ أَيْــدِيْنَــا إلى الـلَّهِ بــالــدُّعَــا
لِيَنْصُــرَ دِيْنَ المُصْــطَفَى ذِي المَفَــاخِــرِ
وَيَنْصُــرَ أَحْــزَابَ الـشَّــرِيْعَــةِ والـهُــدَى
وَيَقْمَــعَ أَهْـلَ الــزَّيْغِ مِنْ كــلِّ فــاجِــرِ
فــآهٍ عَلَى تَفْــرِيْقِ شَمْــلٍ فَـهَــلْ لِمَــا
مَـضَى عَــوْدَةٌ نَـحْــوَ السِّنِيْـنِ الغَــوَابِــرِ
عَـسَى نَـصْــرَةٌ لِلدِّيْـنِ تَجْـمَــعُ شَمْلَنَــا
تَـقــرُّ بِهَــا مِـمَّــا تَــرَى عَـيْـنُ نَــاظِــرِ
فَـيَــرْتَــاحُ أَهْــلُ الــدِّيْنِ فِـيْـهَــا أَعِــزَّةً
وأَعْــدَاؤُهُ تَـحْـتَ الـقَـنَــا والـحَــوَافِــرِ
وأَخْتُمُ نَظْمِيْ بالصلاةِ مُسَلِّماً مَدَى الدَّهْرِ مَا نَاضَتْ بُرُوْقُ المُوَاطِرِ
عَلَى أَحْمَــدٍ والآلِ والـصَّحْـبِ والّــذِيْ
لَـهُمْ تَــابِــعٌ يَـسْعَـى بِـفِـعْـلِ الأَوَامِــرِ

اللهم لا تَجْعَل الدُنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا ولا مَبْلَغَ عِلْمِنا ولا إلى النارِ مَصِيْرَنَا ولا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا بِذُنُوْبِنَا مَنْ لاَ يَخافُكَ فِيْنَا وَلاَ يَرْحَمُنا واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى اللّه على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(فَصْــلٌ)

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدِّيْنِ الإِسْلَامِيْ التَّرْغِيْبُ في الدَّعْوةِ إِلَى الخيرِ ، والأَمْرُ بالمُعروفِ ، والنَّهْيُ عن المُنكَرِ ، فعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال « مَن دَعَا إِلَى هُدى ، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ ، لا يَنْقُص ذَلِكَ مِنْ أُجُوْرِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلى ضَلاَلَةٍ كانَ عليهِ مِنَ الاثْمِ مِثْلُ آثامِ مَنْ اتْبَعَهُ ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثامِهِمْ شَيْئاً » رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدِيْنِ الاسلامِي حَثُّ المَرْءِ على انْتِهَازِ فُرْصَةِ الحَيَاةِ ، لِعَمَلِ ما يَنْفَعُهُ في الآخِرَةِ ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه ، عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال « إذا ماتَ ابنُ آدَمَ انقطعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلَاثٍ ، صَدَقَةٍ جارِيَةٍ ، أَوْ عِلَمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٌ يَدْعُوْ لَهُ » رواه مسلم . وقال اللَّه تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللَّهَ ولتَنْظُر نَفْسٌ ما قدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدِّيْنِ الاسلامي الحثُ عَلَى وُجُوبِ الاعْتِمَادِ على اللَّهِ ، ثُمَّ على إِيمانهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِح ، لا عَلَى مَالَهُ مِنْ صِلَةٍ بالمُقَرَّبِيْنَ إلى اللَّهِ ، فَعَن أبي هُرَيْرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال : قَامَ رَسُولَ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حِيْنَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وأَنْذِرْ عَشِيْرَتَك الأقربين ﴾ فقال « يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اشْتَرُوْا أَنْفُسَكُم ، لاَ أُغْنِيْ عَنْكُم مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، يا بَنِيْ عَبْدِ مَنَافٍ لا أُغْنِيْ عَنْكُم مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، يا عَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المطلِبِ ، لا أُغْنِيْ عَنْكِ مِن اللَّهِ شَيْئاً ، وَيا صَفِيَّةُ

عمةُ رسُولِ اللّهِ ، لَا أُغْنِيْ عَنْكَ مِن اللّهِ شَيْئاً ، ويَا فاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، سَلِيْنِي مِنْ مَالِي ، لَا أُغنيْ عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً » ، رواه الشيخان والترمذي .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ الأَمْرُ بِتَعَهُّدِ النَّفْسِ بالاصْلَاحِ فَيُلْزِمُها باداء مَا أَمرَ اللَّهُ بهِ ، واجْتِنَابِ ما نَهى عَنْهُ ، والأَمْرِ بالمَعْرِوفِ ، والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ . والآياتُ في الحَثِ على التَّقْوَى كَثِيْرَةٌ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الإِسْلَامِ أنَّه يَجْعَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صِلَةٍ دَائِمَةٍ بِرَبِّهِ، حِيْنَ تَفِدُ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ ، وَحِيْنَ تَنْزِلُ بِهِ الشِّدَّةُ ، قال صلى اللّه عليه وسلم « عَجَباً لِأَمْرِ المُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَراءُ شَكَرَ ، فكانَ خَيْراً لَهُ ، وَإِن أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانَ خَيْراً لَهُ » رواه مسلم .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسْلامِ أنَّه يَحُثُّ الخَلْقَ ، وَيُوَجِّهُهم إلى اصْلَاحِ أنفُسِهِم وَمُجْتَمَعِهِم ، وَيُرْشِدُهم ، وَيُبَيِّن لَهُمْ كَيْفَ يُحَرِرُونَ عُقُولَهم ، وَيَسْمُون بها عَنْ مَهَاوِي الضَّلالِ ، إلى أن يَخُصُوا اللَّهَ جَلَّ وعلا بالعِبَادَةِ ، وَيُوَضِحُ لَهُم كَيْفَ يَصْقُلُونَ نُفُوسَهُمْ ، وَيُغذُّونَ أَرْوَاحَهُم ، بالصَّلاةِ كلَّ يومٍ خَمسَ مَرَّاتٍ ، وَيُوَضِّح لَهُمْ كَيْفَ يُطَهِّرون أَمْوَالَهُمْ ، بِأَدَاءِ حَقِ اللّهِ ، وَكَيْفَ يَبْنُونَ الأُسْرَةَ المُسْلِمَةَ ، التي هِيَ نَوَاةُ المُجْتَمَعِ ، عَلَى أُسُسٍ سَلِيْمَةٍ قَوِيَّةٍ ، وَذَلِكَ بِتَوَاصُلِهم ، وَمَعْرِفَتِهم لِحَقِّ قَرابَتِهِمْ ، والآياتُ والأَحَادِيْثُ تَدُلُّ على ذَلِكَ ، فَعَنْ أبي أَيُوْبَ الأَنْصَارِي ، أَنَّ رَجُلًا قال : يا رَسُولَ اللّهِ أَخْبِرْنِي بعَمَلٍ يُدْخِلُنِيْ الجَنَّةَ ، فَقَال القَوْمُ : مَالَهُ؟ فقال رسولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم « أَرَبٌ مَالَهُ تَعْبدُ اللّهَ ، لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ، وَتُقِيْمُ الصَّلاةَ ، وَتُؤْتِي الزكاةَ ، وتَصِلُ الرَّحِمَ » الحَدِيْث رواه الشيخان .

وَمِن مَحَاسِنِ الدِّيْنِ الاسلامِي تَحْرِيمُ الخُصُوْمَةِ بالبَاطِلِ لِمَنْ يَعْلَمْ ، وَتَحْرِيمُ الشفاعةِ التِي تُعَطِّلُ إقامَةَ الحُدُوْدِ التِي شَرَعَهَا اللّهُ ، وَتَحْرِيْمُ القَوْلِ عَلَى المؤمنِ بِمَا لَيْسَ فِيْهِ ، فَمِنَ الغايَاتِ التي حَرَصَ الإسلامُ على تَحْقِيْقِهَا أنْ يُقيمَ المُجْتَمَعَ الإنْسَاني عَلَى أُسُسٍ قَوِيَّةٍ ، مِنَ العَدَالَةِ والتَّرَاحُمِ ، وأنْ تَسُودَ أَعْضَاءَهُ رُوْحُ المَوَدَّةِ ، والتعاونِ المُثْمرِ ، وَيَسْلَمُ مِنْ عَوَامِلِ الضَّعْفِ ، فَعَن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عنهما قال : سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم يقول « مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍ مِنْ حُدودِ اللّهِ ، فَقَدْ ضَادَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَن خَاصَمَ في البَاطِلِ وَهُوَ يَعْلَمُ ، لَمْ يَزَلْ في سَخَطِ اللّهِ حتى يَنْزَعَ ، وَمَنْ قال في مُؤمنٍ ما لَيْسَ فِيْهِ ، أَسْكَنَهُ اللّهُ رَدْغَةَ الخَبَالِ ، حتى يَخْرُجَ مِمَّا قال » أخرجه أحمد أبو داود .

ومِن مَحَاسِنِ الدِيْنِ الاسلامِي تَحْرِيْمُ شَهَادَةِ الزُوْرِ ، وَقَوْلِ الزُوْرِ ، لِمَا في ذَلِكَ مِنَ الأضْرَارِ والمَفَاسِدِ ، التِيْ مِنْهَا بَيْعُهُ آخِرَتَه بِدُنْيَا غَيْرِه ، ومنها إساءَتُه إلى مَنْ شَهِدَ لَهُ ، بإعانتِهِ على ظُلْمِهِ ، ومنها إِسَاءَتُهُ إلى مَنْ شَهِدَ عَلَيْهِ ، باضَاعَةِ حَقِّهِ ، ومنها إِسَاءَتُه إلى القَاضِيْ ، بإِضلاَلِهِ عَنِ المَحَجَّةِ ، ومنها إِساءَتُهُ إلى الأُمَّةِ ، بِزَلْزَلَةِ الحُقُوقِ فِيْها ، وَعَدَمِ الاطْمِئْنَانِ عليها .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدِيْنِ الاسْلاَمِيْ ابْطَالُ مَا عَلَيْهِ أهْلُ الجَاهِلِيَّةِ وَتَحْرِيْمُهُ ، وَهُمَا الطَّعنُ في الانْسَابِ ، والنِّيَاحَةُ على المَيِّتِ ، لِمَا في صحيح مُسْلِم ، عن أبي هريرة رضي اللّه عنه ، أن رسولَ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم قال « اثنَتَانِ في الناسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ ، الطَّعْنُ في النَّسَبِ ، والنِّيَاحَةُ على المَيْتِ » .

وَمِنْ مَحَاسِن الدِيْن الاسلامِي النَّهْيُ عَن لَطْمِ الخُدُوْدِ ، وَشَقِّ الجُيُوبِ في المُصِيْباتِ ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي اللَّه عنه ، قال قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم « لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُود ، وَشَقَّ الجيوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ » .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدِيْنِ الإِسْلَامِي النَّهْيُ عَن الإِسْتِيْلَاءِ على المَاءِ الذِيْ لَا يَخْتَصُّ بِأَحَدٍ ، وَمَنْعِهِ ابنَ السَّبِيْلِ ، عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم « ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُم اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، ولا يَنْظُر إِلَيْهِمْ ، ولا يُزَكِّيْهِم ، وَلَهُمْ عذابٌ أليمٌ ، رَجُلٌ على فَضْلِ ماءٍ بِفَلَاةٍ ، يَمْنَعُه ابنَ السَّبِيْلِ » متفق عليه ، وفي روايةٍ وَقَالَ فيه « وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ ماءٍ ، فيقول فَيَقُوْلُ اللَّهُ لَهُ : اليومَ أَمْنَعُكَ فَضْلِيْ ، كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ » .

اللَّهم نَوِّر قُلوبَنَا بِنُوْرِ الإِيمانِ واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْنِ وَأَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصالِحِيْنَ الذين لَا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُون واغفر لنا ولوالدينا وجميع المُسلمين برحمتك يا أرحمَ الراحمين وصلى اللَّه على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

ومن محاسن الدينِ الاسلامي أنه يُحَرِّمُ الاعتداءَ ، أو النيلَ مِن النَّفس أو المَالِ أو العِرضِ أو العُقلِ ، وَكُلُّ جَرِيْمَةٍ مِن جَرائِمِ الاعتداءِ عَلَيْهَا عُقُوبَةٌ ، مِن قِصَاصٍ أَوْحَدٍ ، والأَخْلاقُ الإِسلامِيَّةِ مِن الصِّدقِ والأمانةِ والوَفاءِ والعِفةِ وغَيرِها ، لَيْسَتْ أُمُوْراً كَماليَّةً في نَظَرِ الإِسلامِ ، كَمَا يَتَوَهَّمُه بَعْضُ

الناسِ ، بَلْ هِيَ وَاجِبَاتٌ ، يَحْرِصُ عَلَيْها ، وَمُعَرَّضٌ كُلُّ مَن يَخْرُجُ عن دَائِرتِها ، بِأَنَّهُ سَيُقْتَصُّ منه في الآخرةِ إن لَمْ يَتُبْ وَيَتَدَارَكْ ، وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، انَّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال « أَتَدْرُوْنَ مَن المُفلِسِ » قالوا : المُفْلِسُ فِيْنَا مَنْ لَا دِرْهَمَ له ولا مَتَاع . فقال « انَّ المُفْلسَ مِن أُمَّتِي مَنْ يأتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بصلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكاةٍ ، وَيَأْتِي وقدْ شَتَمَ هَذَا ، وقذفَ هَذَا ، وأكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَربَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فإن فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أن يُقْضَى ما عَلَيْه ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ في النارِ » رواه مسلم .

وَمِن مَحَاسِنِ الدِيْنِ الاسلامِي انه يُرْشِدُ مُعْتَنِقَهُ إلى أَنَّ صَلاحَ حَيَاتِهِ يَتطلَّبُ منه أَنْ يَكُونَ عِفًّا في كَلامِهِ ، فلا يَغْتَابُ ، وَلَا يَنِمُّ ، ولا يَسُبُّ ، ولا يَقْذِفُ مُسْلِماً ، وَلَا يَلْعَنُهُ ، وَلَا يَسْتَهْزِىءُ بِهِ ، ولا يَفْتَرِي ، ولا يَكْذِبُ ، عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم أنَّه قال « مَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليومِ الآخرِ فَلْيَقُل خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ » وقال « إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُم حَرَامٌ » .

وَمِنْ محاسنِ الدينِ الاسلامي أَنَّه يَحُثُّ المُؤمِنَ على أَدَاءِ وَاجِبِه ، وأَنْ لَا يُدَّخِرَ جُهداً في تَوْجِيْهِ أَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ ، وَأَقْرِبَائِهِ وَجِيْرَانِهِ ، وَكُلِّ مَنْ تَرْبُطُهُمْ بِهِ صِلَةٌ وَثِيْقَةٌ إلى الخَيْرِ ، وَوَسِيْلَتُهُ إلى هذا التوجِيهِ هِيَ التَّواصِيْ بالحَقِّ ، وَالتَّواصِيْ بالصَّبْرِ ، والأمرِ بالمَعروفِ والنهيِ عن المُنْكَرِ .

ومِنْ محاسنِ الدينِ الاسلامي الأَمْرُ بالحياءِ الذي هو أَصْلُ كلُ فَضِيْلَةٍ ، وعصمةٌ مِنْ كُلِّ شرٍ ، لِمَنْ وَفَّقهُ اللَّهُ ، وفي حديث عبد اللَّه بن مَسْعُود أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال « اسْتَحْيُوا مِن اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ »

قُلْنا : يا رسولَ اللَّهِ إنا نَسْتَحْيي والحَمْدُ لِلَّهِ . قال « لَيْسَ ذَاكَ ، وَلَكِنْ الاسْتِحْيَاءُ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ أنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، والبَطْنَ وما حَوَى ، وَلْتَذْكر الموتَ والبِلَى ، ومن أَرادَ الآخرةَ تَرَكَ زِيْنَةَ الدُّنْيَا » رواه الترمذي وأحمد والحاكم بسند صحيح .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدينِ الإسلامي النهيُ عن اتِّخاذِ شَيءٍ فيهِ رُوْحٌ غَرَضاً يُرمَى إليه ، لِمَا في الصحيحين أنَّ ابنَ عُمَرَ مَرَّ بِفِتْيَانٍ مِن قُرَيشٍ ، قَدْ نَصَبُوْا طيراً وَهُمْ يَرْمُونَهُ ، فَلَمَّا رَأَوا ابنَ عُمر تَفَرَّقُوا ، فقال ابنُ عُمَرَ : مَنْ فَعَلَ هَذَا ؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا ، إنَّ رَسُوْلَ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليهِ وسلم لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئاً فيهِ الرُوْحُ غَرَضاً .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدينِ الاسلامي النهيُ عَنْ بَيْعِ الحُرِّ ، قال صلى اللَّه عليه وسلم « قال اللَّه تعالى ثلاثة أنا خَصْمُهم يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِيْ ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ باعَ حُرّاً ثُمَّ أَكَلَ ثَمَنُه ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيْراً ، فاسْتَوْفَى مِنْه العَمَلَ ، وَلَمْ يُوفِّه أَجْرَهُ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدينِ الاسلامي الوَعِيْدُ الشَّدِيْدُ عَلَى مَنْ اسْتأجَرَ أجِيْراً ، واستوفي مِنْه العَمَلَ ، ولم يُوفِهِ أَجْرَهُ ، للحديث المتقدم .

وَمِنْ محاسنِ الدينِ الاسلامي تَحريمُ السِّحرِ ، وَتَحْرِيْمُ تَصْدِيْقِ الكاهِنِ ، قال صلى اللَّه عليه وسلم « لَيْسَ مِنا مَنْ تَطَيَّر أَو تُطِيِّر له ، أَوْ تَكَهَّن أَو تُكِهِّنَ لَه ، أو سَحَرَ أو سُحِرَ لَهُ ، وَمَنْ أَتَى كاهِناً فَصدَّقَه بِمَا يَقُول ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى اللَّهُ عليهِ وَسَلَّم » .

ومِن مَحَاسِنِ الدينِ الاسلامي تحْرِيْمُ القِيَادَةِ والعِيَاذُ باللَّهِ ، وهِيَ الجَمْعُ بَيْنَ رَجُلٍ وامرأةٍ أَجْنَبِيَّة ، سواءً كان الجامِعُ رَجُلاً أو امرأةً .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الاسلامِ تحريمُ السِّعَايَةُ عِنْدَ السُّلطانِ بِمَضَرَّةِ مُسْلِمٍ .

وَمِن مَحَاسِن الاسلامِ تَحرِيمُ غَصْبِ المالِ ، لأَنَّه نَوعٌ مِن الظُّلمِ والفَسَادِ .

وَمِن مَحَاسِن الاسلامِ تَحْرِيْمُ غَصْبِ المالِ ، لأَنَه نوعٌ مِن الظُلم ، واللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِيْنَ .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدِّينِ الاسلامي الحثُ على الاستِقَامَةِ ، التي هي الاِعتِدَالُ في جمِيْعِ الأمورِ ، مِن الأقوالِ والأفعالِ ، والمُحَافَظَةُ على جميعِ الأحوالِ ، التي تكونُ بها النَّفسُ على أَفْضَلِ حَالةٍ وأَكْمَلِها ، فلا يَظْهَر مِنْها قَبِيْح ، ولا يُتَوَجَّه إليها ذَمٌّ ، ولا لَومٌ وذلك إِنَّما يكونُ بالمُحَافظَةِ على الشَّرعِ الشَّرِيْفِ ، والتَّمَسُّكِ بالدِّينِ القَوِيم ، والوُقوفِ عِنْدَ حُدُوْدِهِ ، مَعَ التَّخَلُقِ بالأَخْلاقِ الفاضلةِ ، والصِفاتِ الكامِلَةِ ، قال اللَّهُ تعالى ﴿ إِنَّ الذِيْنَ قالوا رَبُنا اللَّهُ ثم استقاموا ، تَتَنزَّلُ عليهم الملائكةُ ، ألا تخافوا ولا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِروا بالجنَّةِ التي كُنْتُم تُوْعَدُون ﴾ وقال لِنَبِيِّه صلى اللَّه عليه وسلم ﴿فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ وقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم لِسُفْيَانَ بن عبدِ اللَّهِ « قل آمَنْتُ باللَّهِ ثم اسْتَقِمْ » .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدينِ الاسلامي أَنَّهُ ما حَرَّمَ شَيْئاً ، عَلَيْهم إلَّا عَوَّضَهُم خيراً مِنْهُ ، مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّه ويُغْنِي عَنْه ، كما بَيَّن ذلك ابنُ القَيِّم رحمه اللَّهُ تعالى حرَّم عليهمُ الاسْتِقْسَامَ بالأَزْلامِ ، وَعَوَّضَهُم مِنْه دُعَاءَ الاسْتِخَارةِ ، وحرَّم عليهمُ الرِّبا ، وَعَوَّضَهُم التِّجارةَ الرابحةَ .

وَحَرَّم عليهم القِمَارَ ، وَأَعَاضَهُم مِنْه أَكْلَ الْمَالِ بالمُسَابَقَةِ بالخَيْلِ والإبلِ والسِّهامِ .

وَحَرَّم عليهِمْ الحَرِيْرَ ، وَأَعَاضَهُم مِنْه أنواعَ المَلابِسِ الفَاخِرةِ مِن الصُّوفِ والكتَّانِ والقِطْنِ .

وَحَرَّم عليهم شُربَ المُسْكِراتِ ، وأعاضَهُم عَنْه بالأَشْرِبَةِ اللَّذِيْذَةِ ، النافِعةِ للرُّوْحِ والبَدَنِ .

وحَرَّم عليهم الخَبَائِثَ مِن المَطْعُومَاتِ ، وأعاضَهُم عَنْهَا بالمَطَاعِمِ الطيباتِ ، وهكذا إِذَا تَتَبَّعنا تعالِيْمَ الإسلامِ كُلَّها ، وجَدْنَا أَنَّه جلَّ وَعَلاَ لَمْ يُضَيِّقْ على عِبَادِه في جانِبٍ ، إلَّا وسَّعَ علَيْهِمْ في جانبٍ آخَرَ مِن جِنْسِهِ واللَّهُ أعلمُ وصلى اللَّهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبه وَسَلَّم .

« فَصْـــلٌ »

وَمِنْ مَحَاسِنِ الدِّيْنِ الاسْلامي أَنَّهُ يُقَدِّرُ البَوَاعِثَ الكَرِيْمَةَ ، والقَصْدَ الشَّرِيْفَ ، والنِّيَةَ الطيِّبَةَ ، في تَشْرِيْعَاتِهِ وَتَوْجِيْهَاتِهِ كُلِّهَا ، قال صلى اللَّهُ عليه وسلم « إِنَّما الأَعْمَالُ بالنِّياتِ ، وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوى » وبالنيَّةِ العطيبةِ تَنْقلِبُ المُباحَاتُ والعَادَاتُ إلى طَاعَاتٍ وَقُرُبَاتٍ الى اللَّهِ ، فَمَنْ تناول غِذَاءَه بِنِيَّةِ حِفْظِ حَيَاتِه وَتقْوِيَةِ جَسَدِهِ ، لِيَسْتَطِيْعَ القِيَامَ بِمَا أَوْجَبَه عليه رَبُّه ، من حُقُوقٍ وتَكالِيْفَ لِأَهْلِهِ وَأَوْلادِهِ ، كَانَ طَعَامُه وَشَرَابُه مَعَ النيةِ الصَّالِحةِ عِبَادَةً ، وَمَن أَتى شَهْوَتَهُ مَعَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ مِن زَوْجَةٍ أَوْ مَمْلُوكَةٍ لَهُ ، يَقْصِدُ إعْفَافَ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وابْتِغَاءَ ذُرِيَّةً صَالِحَةً ، كانَ ذَلِكَ عِبادَةً ، تَسْتَحِقُّ المَثُوبَةَ والأَجْرَ مِنَ اللَّهِ ، وفي ذَلِكَ يَقُولُ النبيُ صلى اللَّهُ عليه وسلم » وفي بُضْعِ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ » قالوا : يا رسولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنا شَهْوَتَه ، وَيَكُونُ لَهُ فِيْهَا أَجرٌ ؟ » قال « أَلَيْسَ إنْ وَضَعَها في حَرَامٍ كانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ، فكذلك إذا وَضَعَها في حَلاَلٍ كانَ لَهُ أَجْرٌ » .

ومِنْ مَحَاسِنِ الدينِ الإسْلاَمِيْ أَنَّه حَرَّم على المُسْلِم شِرَاءَ ما غُصِبَ أَوْ سُرِقَ أو أُخِذَ مِنْ صَاحِبِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، لأَنَّهُ إذا فعَلَ ذَلِكَ يَكُونُ مُعِيْناً لِلْغَاصِبِ والسَّارِقِ والآخِذِ ، وَهَذَا إذا عَلِمَ أَنَّها سَرِقَةٌ ، وَلَوْ طَالَ زَمَنُ غَصْبِهِ أوسَرِقَتِهِ في يَدِ الغَاصِبِ أَوِ السارِقِ أَوِ النَّاهِبِ ، فإِنَّ طول الزَّمَنِ في الشَّرِيْعَةِ الاسلامِيَّةِ ، لاَ يَجْعَلُ الحَرَامَ حلالاً ، ولا يُسْقِطُ حَقَّ المالكِ الأصلِّي بالتَّقَدُّم . وهذا أيضاً مِنْ مَحَاسِنِهِ .

وَمِنْ محاسنِ الدينِ الاسلامي تحريمُ الرِّبا ، لأَنَّ الرِّبا يَقْتَضِيْ أَخْذَ مَالِ الإنْسانِ مِن غَيْرِ عِوَض ، لأَنَّ مَنْ يَبِيْعُ دِرْهَماً بِدِرْهَمَيْنِ يَحْصُلُ لَهُ زِيَادَةُ دِرْهمٍ مِنْ غَيْرِ عِوَضٍ ، ومالُ الإنسانِ مُتَعَلِّقُ حاجَتِهِ ، وَلَهُ حُرْمَةٌ عَظِيْمَةٌ ، كَمَا هُوَ مَعْرُوْفٌ : ثانياً اسْتِعْمَالُ الرِّبا يُفْضِيْ إلى انْقِطَاعِ المَعْرُوْفِ بَيْنَ النَّاسِ مِنَ القَرْضِ ، ثالثاً يَمْنَعُ مِنْ تَحَمُّلِ المَشاقِّ تِجاهَ الاكتسابِ ، فلا يَكَادُ يَتَحَمَّلُ مَشقَةَ الكَسْبِ ، وَذَلِكَ يُفْضِيْ إلى انْقِطَاعِ منَافِعِ الخَلْقِ ، وَتَكْسِيْلِهِم عن الجدِّ والاجتهادِ في الطَّلبِ ، وقد لعَنَ اللَّهُ آكلَ الرِّبَا وَمُوْكِلَه وكاتِبَه وشَاهِدَيْه .

عِبَادَ اللَّهِ إن مَا سَمِعْتُم مِن المَحَاسِنِ نُقْطَةٌ مِن بَحْرِ مَحَاسِنِ الدِّيْنِ الاسلامي ، الذِيْ جَمَعَ اللَّهُ بِهِ فِرْقَةَ العَرَبِ وَشَتَاتَهُمْ ، وَوَحَّد بِهِ قُلُوبَهُم وَصُفوفَهم ، وَهَذَّبَ طِبَاعَهُم وأخلاقَهُم ، حَتَّى أَوْجَدَ مِنْهُم أمةً شَدِيْدَةَ البأسِ ، وَاسِعَةَ السُّلْطانِ ، مَلَكَتْ نَاصِيَةَ الأرضِ ، ونَشَرَتْ عَلَمَ الاسلامِ في نَوَاحِيْها ، قالَ اللَّهُ تعالى ﴿ واذكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم إذ كُنْتُم أعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قلوبكُم ، فأصْبَحْتُم بِنِعْمَتِه إخواناً ﴾ وقال ﴿ واذْكُرُوْا إذْ أَنْتُم قَلِيْلٌ مُسْتَضْعَفُونَ في الأرضِ تَخافُونَ أَنْ يَتخطَّفَكُمُ الناسُ ، فآوَاكُمْ ، وَأَيَّدَكُم

بِنَصْرِهِ ﴾ .

دِيْنٌ نَشَرَهُ اللَّهُ في أَرْجَاءِ المَعْمُورَةِ ، كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ ، لَا يُحْجَبُ شَعَاعُها ، وكالقَمَرِ الزَّاهِرِ ، لَا يَخْفَى ضَوْءُهُ ، ولا يَخْسُفُ نُورُه .

دِيْنٌ تَرَى أَعْدَاءَهُ مُبْغِضِيْهِ يَقْتَرِبُوْنَ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ ، مِنْ حَيْثُ يَشْعُرُوْنَ ، وَمِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُوْنَ ، لِأَنَّهم بِمُخْتَرَعَاتِهِم وَعُلُومِهِمْ لم يَزِيْدُوْا عَلَى أَنَّهُمْ بِهِ يَشْهَدُوْن ، قال تعالى ﴿ سَنُرِيْهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقِ ﴾ دِيْنٌ يَكِيْدُ لَهُ أَعْدَاؤُهُ وَحُسَّادُهُ ، مِنْ يَوْمِ أُنْزِلَ ، وَهُوَ كَمَا تَرَى ، لَم يَطْفَأْ لَهُ نُوْرٌ ، وَلَمْ يَضْعُفْ لَهُ بُرْهَانٌ قَالَ تعالى ﴿ يُرِيْدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بأفواهِهِم ، واللَّهُ مُتِمُّ نُوْرِهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُون ﴾ .

أَيُّها المُسْلِمُ حَسْبُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الدِيْنَ الإِسْلَامِيْ يَحْتَوِيْ على خَيْرِي الدُنْيَا والآخِرَةِ ، وَنَعِيْمِ العَاجِلَةِ والآجِلَةِ ، فَمَا مِنْ فَضِيْلَةٍ إِلَّا حَثَّ عَلَيْهَا ، وما مِن رَذِيْلَةٍ إِلَا نَفَّرَ مِنْهَا ، فإِذَا اعْتَصَمْتَ بِحَبْلِهِ المَتِيْنِ ، وَحَرِصْتَ عَلَى العَمَلِ بِأَحْكَامِهِ ، والتَّحَلِّي بآدَابِهِ ، عِشْتَ سَعِيْداً ، وَمُتَّ سَعِيْدَاً حميداً .

وقال ابن القيم رحمه اللَّه تعالى :

هَـذَا وَنَـصْـرُ الـدِّيْـنِ فَـرْضٌ لَازِمٌ
لا لِـلْكِـفَـايَـةِ بَـلْ عَـلَى الأَعْـيَـانِ
بِـيَـدٍ وإِمَّـا بـالـلِّسَـانِ فـإِنْ عَـجَـزْ
تَ فَـبِـالـتَّـوَجُّـهِ والـدُّعَـا بِـجَـنَـانِ

مَا بَعْـدَ ذَا واللَّهِ لِـلإِيمـانِ حَبَّـةُ خَـرْدَلٍ يَـا نَـاصِـرَ الإِيمـانِ

بِحَيَاةِ وَجْهِكَ خَيْرِ مَسْؤُولٍ بِهِ
وَبِنُوْرِ وَجْهِكَ يَا عَظِيْمَ الشَّانِ
وَبِحَقِ نِعْمَتِكَ الَّتِيْ أَوْلَيْتَهَا
مِن غَيْرِ مَا عِوَضٍ ولا أَثْمَانِ
وبحَقِ رَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ جَمْيعَ الخَلقِ مُحْسِنَهُم كَذاك الجانِي
وبحقِ أَسْمَاءٍ لَكَ الحُسْنَى مَعَاً
فِيْهَا نُعُوتُ المَدْحِ لِلرَّحْمَنِ
وبحَقِ حَمْدِكَ وهُوَ حَمْدٌ وَاسِعَ الْـ
أَكْوَانِ بَلْ أَضْعَافُ ذِى الأَكْوَانِ
وبأَنَّكَ اللّهُ الإلهُ الحَقُّ مَعْبُوْدُ الوَرَى مُتَقَدِّسٌ عَنْ ثَانِ
بَلْ كُلُ مَعْبُودٍ سِوَاكَ فَبَاطِلٌ
مِن دُوْنِ عَرْشِكَ لِلثَّرَى التَّحْتَانِي
وبِكَ المَعَاذُ ولا مَلاَذَ سِوَاكَ أنْتَ غِيَاثُ كُلِ مُلَدَّدٍ لَهْفَانِ
مَنْ ذَاكَ لِلْمُضْطَرِ يَسْمَعُهُ سِوَا
كَ يُجِيْبُ دَعْوَتَهُ مَعَ العِصْيَانِ
إِنَّا تَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ لِحَاجَةٍ
تُرْضِيْكَ طَالِبُهَا أَحَقُّ مُعَانِ
فَاجْعَلْ قَضَاهَا بَعْضَ أَنْعُمِكَ الَّتِي
سَبَغَتْ عَلَيْنَا مِنْكَ كُلَّ زَمَانِ
انْصُرْ كِتَابَكَ والرَّسُولَ وَدِيْنَكَ العَالِي الذي أَنْزَلْتَ بالبُرْهَانِ
واخْتَرْتَهُ دِيْناً لِنَفْسِكَ واصْطَفَيْتَ مُقِيْمَةُ مِن أُمَّةِ الإِنسَانِ

وَرَضِيْتَـهُ دِيْنـاً لِمَـنْ تَـرْضَـاهُ مِن
هَـذَا الـوَرَى هُـو قَـيِّـمُ الأَدْيَـانِ
وَأَقِـرَّ عَيْنَ رَسُـوْلِـكَ المَبْعُـوثِ بـالـدِّ
يْنِ الـحَـنِيْـفِ بِنَـصْـرِهِ الـمُـتَـدَانِ
وانْصُـرْ بـه النَّصْرَ العَـزِيْـزَ كَمِثْلِ مَـا
قَـدْ كُـنْـتَ تَـنْـصُـرُهُ بِـكُـلِ زَمَـانِ
يا رَبَّ وانْصُـرْ خَيْـرَ حِـزْبِيْنَـا عَـلى
حِـزْبِ الـضَّـلالِ وَعَـسْكَـرِ الشَّـيْـطَانِ
يَـا رَبِّ وَاجْعَـلْ شَـرَّ حِـزْبَيْنَـا فِـداً
لِـخـيـارِهِـم وَلِـعَـسْـكَـرِ الـقُـرْآنِ
يَا ربِّ واجْعَلْ حِزْبَكَ المَنْصُـوْرَ أَهْلَ تَرَاحُمٍ وَتَـواصُلٍ وَتَـدَانِ
يَـا رَبِّ وَاحْـمِهُـمُ مِن الـبِـدَعِ الـتي
قَـدْ أُحْـدِثَتْ في الـدِّيْـنِ كُـلَّ زَمَـانِ
يَـا رَبِّ جَـنِّبْـهُـم طَـرَائِـقَـهَـا الـتي
تُـفْـضِـي بِسَـالِـكِـهَـا إلـى الـنِّـيْـرَانِ
يَـا رَبِّ واهْـدِهِـمْ بِنُـوْرِ الـوَحْـي كَيْ
يَـصِـلُوا إلَـيْـكَ فَـيَـظْفَـرُوا بِـجِـنَـانِ
يـا رَبِّ كُـنْ لَـهُـمْ وَلِـيـاً نَـاصِـراً
واحْـفَـظْهُـمُ مِـنْ فِـتْـنَـةِ الـفَـتَّـانِ
وانْـصُـرْهُـمْ يـا رَبِّ بـالـحـقِّ الَّـذِي
أَنْـزَلْـتَـه يـا مُـنْـزِلَ الـقُـرآنِ

يــا رَبُّ إِنَّــهُـمُ هُـمُ الـغُـرَبَـاءُ قَـدْ
لَـجَـؤُا إِلَـيْـكَ وَأَنْـتَ ذُوْ الإِحْـسَـانِ

يَا رَبُّ قَدْ عَادَوْا لأَجْلِكَ كُلَّ هَـذا الخَلْقِ إلا صَادِقَ الإِيمانِ

قَـدْ فَـارَقُـوْهُم فِيْـكَ أَحْـوَجَ مـا هُمُ
دُنْـيَـاً إِلَـيْـهِـم فـي رِضَـى الـرَّحْـمـنِ
وَرَضُــوا وَلاَيَـتَـكَ الَّتِيْ مَـنْ نَـالَـهَـا
نَـالَ الأَمَـانَ وَنَـالَ كُـلَّ أَمَـانِ
وَرَضُـوْا بِوَحْيِـكَ مِنْ سِـوَاهُ وَمَـا ارْتَضَـوْا
بِـسِـوَاهُ مِـنْ آرَاءِ ذِي الـهَـذَيَـانِ

يــا رَبُّ ثَبِّتْهُمْ على الإِيْمــانِ واجْعَلْهُمْ هُـدَاةَ التَّـائِـهِ الحَيْـرانِ

وانْصُــرْ عَلَى حِـزْبِ النُّفَـاةِ عَسَاكِرَ الـ
إِثْـبَـاتِ أَهْـلَ الـحَـقِّ والـعِـرْفَـانِ
وَأَقِـمْ لِأَهْـلِ الـسُّـنَّـةِ الـنَّبَوِيَّةِ الْـ
أَنْـصَـارَ وانْـصُـرْهُـمُ بِـكُـلِّ زَمَـانِ
واجْـعَـلْهُـمُ لِـلْمُـتَّـقِـيْـنَ أَئِـمَّـةً
وارْزُقْـهُـمُ صَـبْـراً مَـعِ الإِيْـقَـانِ
تَهْـدِيْ بِـأَمْـرِكَ لَا بِمَا قَـدْ أَحْـدَثُـوا
وَدَعَـوْا إِلَـيْـهِ الـنَّـاسَ بـالـعُـدْوانِ
وأَعِـزَّهُـمْ بـالـحَـقِّ وانْـصُـرْهُـمْ بِـهِ
نَـصْـراً عَـزِيْـزَاً أَنْـتَ ذُوْ الـسُّـلْطانِ

واغْـفِـرْ ذُنُـوبَـهُـمُ وَأَصْلِحْ شَـأْنَـهُـمْ
فَـلأَنْـتَ أهْـلُ الـعَـفْـوِ والـغُـفْـرَانِ
وَلَـكَ المَحَـامِـدُ كُلُّهـا حَمْـداً كَمَـا
يُـرْضِيْـكَ لَا يَـفْـنَـى عَـلَى الأَزْمَـانِ
مِـلءَ الـسَّمـواتِ الـعُلَى والأَرْضِ والْـ
مَـوْجُـودِ بَـعْـدُ وَمُـنْـتَـهـى الإمْـكَـانِ
مِـمَّـا تَـشَـاءُ وَرَاءَ ذَلِـكَ كُـلِّهِ
حَـمْـداً بِـغَـيْـرِ نِـهَـايَـةٍ بِـزَمَـانِ
وَعَلَى رَسُولِكَ أَفْضَلُ الصَلَوَاتِ والتَّسْلِيْمِ مِنْكَ وَأَكْمَلِ الرِّضْوَانِ
وعـلى صَـحَـابَـتِـهِ جَـمِـيْـعـاً والأُلـى
تَـبِـعُـوهُـمُ مِـنْ بَـعْـدُ بـالإِحْـسَـانِ

وختاماً فاليك كلمة موجزة قالها أحد العلماء

أَرْسِلْ طَرْفَكَ إِلى نَشْأَةِ الأُمَّةِ وَتَبَيَّنْ أَسْبَابَ نُهُوضِهَا الأَوَّلَ فَترى أَنَّ مَا جَمَعَ كَلِمَتَهَا وَأَنْهَضَ هِمَمَ آحَادِهَا وَلَحَّمَ بَيْنَ أَفْرَادِهَا وَصَعَدَ بِهَا إِلَى مَكَانَةٍ تُشْرِفُ مِنْهَا عَلَى رُؤُوسِ الأُمَمِ وَتَسُوْسُهُمْ وهي في مَقَامِهَا بِدَقِيْقِ حِكْمَتِهَا إِنَّمَا هُوَ « دِيْنٌ » قَوِيْمُ الأُصُولِ مُحْكِمُ القَوَاعِدِ شَامِلٌ لأَنْوَاعِ الحَكمِ بَاعِثٌ عَلَى الأُلفَةِ دَاعٍ إِلى المَحَبَّةِ مُزَكٍّ لِلنُّفُوسِ مُطَهِّرٌ لِلْقُلُوبِ مِن أَدْرَانِ الخَسَائِسِ مُنَوِّرٌ لِلْعُقُولِ بِاشْرَاقِ الحَقِّ مِن مَطَالِعِ قَضَايَاهُ كَافِلٌ لِكُل مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الانْسَانُ مِن مبَانِي الاجْتِمَاعَاتِ البَشَرِيَّةِ وَحَافِظٌ وُجُوْدَهَا وَيُنَادِي بِمُعْتَقِدِيْهِ إِلى جَمِيْعِ فُرُوْعِ المَدَنِيَّةِ الصَّحِيْحةِ ، إِنظُرْ إِلى التاريخِ قَبْلَ بِعْثَةِ الدِيْنِ وما كانَتْ عَلَيْهِ مِن الهَمَجِيَّةِ والشَّتَاتِ واتْيانِ الدَّنَايَا والمُنْكِرَاتِ حَتَّى إِذا جَاءَهَا الدِّيْنُ

وَحّدَهَا وَقوّاهَا وَهَذّبهَا وَنوَّرَ عُقُوْلَهَا وَقوّمَ أخْلاقَهَا وسَدّدَ أحْكامَهَا فَسَادَتْ على العالَمِ وَسَاسَتْ مَنْ تَولَّتْهُ بالعَدْلِ والإنْصَافِ أ هـ .

اللهم عافِنا مِن مَكْرِكَ وزَيِّنا بِذِكْرِكَ واسْتَعْمِلْنَا بِأَمْرِكْ ولا تَهْتِكْ عَلَيْنَا جَمِيْلَ سِتْرَكَ وآمنن علينا بلُطْفِكَ وَبِرِّكْ وَأَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وشُكْرِكْ اللَّهُمَّ سَلِّمْنا مِن عَذَابِكْ وَأمِّنَا مِنْ عِقَابِكْ .

اللهم وَفِقْنَا للاسْتِقَامَةْ والعَدْلِ فِيْمَا وَلَيْتَنا عَلَيْهِ اللهم إنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن دُنْياً تَمْنَعُ خَيْرَ الآخِرَةْ وَنُعوذُ بِكَ مِن حياة تَمْنَعُ خير الْمَمَاتْ وَنُعوذُ بِكَ مِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ العَمَلْ ونسأَلكَ أن تَنَوّرَ قُلُوبَنَا وَتُثَبّتَنَا على قَوْلِكَ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ الدُنْيَا وفي الآخِرَة وأن تَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدِيْنَا وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى اللهُ على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

في ذكر بعض معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

عِبَادَ اللهِ لَمَا كانَتْ مُعْجِزَاتُ النبي صلى الله عليه وسلم أَنْـوَارٌ تُشْرِقُ على القُلُوبِ الطَّافِحَةِ بالإيمانِ وَتَزِيْدُهَا قُوَّةً وَثَبَاتاً واسْتِقَامَةً أَحْبَبْتُ أَنْ أَذْكُرَ مَا تَيَسَّرَ منها واللهُ المسؤولُ أن يَجْعَلَ عَمَلَنَا خَـالِصاً لِـوَجْهِهِ الكَرِيْم .

إعْلَم وَفَّقَنَا اللهُ وايَّاك وَجَمِيْعَ الْمُسْلِمِيْنَ لِمَا يُحِبُّهُ ويَرْضَاهُ أَنّ اللَّه قد جَمَعَ لِنَبِيِّنَا صلى اللَّه عليه وسلم جَمِيْعَ أَنْوَاعِ الْمُعْجِزَاتِ والخَوَارِقِ . أما العِلْمُ وَالأَخْبَارُ الغَيْبِيَّةُ والسَّمَاعُ والرُّؤْيَةُ .

١ ـ فمثل إخْبَارُه صلى اللَّه عليه وسلم عَنِ الأنبياءِ الْمتقَدمِينْ وأُممِهِمْ .

٢ ـ ومَخُاطَبَتِهِ لهم وَأَحْوَالِهِ مَعَهُم .

٣ ـ وكذلك أخباره عن أُمُورِ الرَّبوية والملائِكَةِ والجَنَّةِ والنارِ بما يُوَافِقُ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ مِنْ غيرْ تَعَلُّمٍ مِنْهم ، وَيُعْلَمُ أَنَّ ذلك مُوَافِقٌ لِنَقُول الأنبيَاءِ تارةً بما في أيْدِيهْمْ مِنَ الكُتُبِ الظَّاهِرةِ ونَحْوِ ذَلِكَ مِنَ النَّقْلِ الْمتَوَاتِرِ .

٤ ـ وتَارَةً بما يَعْلَمُهُ الخَاصَّةُ مِن عُلَمَائِهِمْ .

٥ ـ فإِخْبَارُهُ عَن الأُمُوْرِ الغَائِبَةِ مَاضِيْهَا وَحَاضِرِهَا هُوَ مِنْ بابِ العِلْمِ الخَارِقِ لِلْعَادَةِ .

٦ ـ وكذلِكَ إِخْبَارُهُ عَن الأُمُوْرِ الْمسْتَقْبَلَةِ .

٧ ـ مِثْل مملكَةِ أُمَّتِهِ .

٨ ـ وَزَوَالِ مملَكَةِ فَارِسَ .

٩ ـ والرُوْمِ .

١٠ ـ وقِتَالِ التُرْكِ وَأُلُوف مُؤَلَّفَة مِنَ الأَخْبَارِ التي أَخْبَرَ بِهَا . واما القُدْرَةُ والتَّأثِيْرُ .

١١ ـ فانْشِقَاقُ القَمَرِ .

١٢ ـ وكذا مِعْرَاجُهُ إلى السَّمَوَاتِ .

١٣ ـ وكِثْرَةُ الرَّمْي بالنُّجُوْمِ عِنْدَ ظُهُوْرِهِ .

١٤ ـ وكذا إِسْرَاؤُهُ مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلى المَسْجِدِ الأَقْصَى .

١٥ ـ وَتَكْثِيرُ الماءِ فِي عَينِ تَبُوْكَ .

١٦ ـ وَعَينُ الحُدَيْبِيَةِ .

١٧ ـ ونَبْعِ الماءِ مِن بَينْ أَصَابِعِهِ .

١٨ ـ وكذا تَكْثِيْرُ الطَّعامِ . وَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْضُهَا مُوَضَّحاً مُفَصَّلاً قَرِيْباً .

١٩ ـ وفي صحيحِ مسلمٍ مِن حديثِ جابرٍ قـال : « سِرْنَـا مَعَ رسولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم حَتىَّ نَزَلْنَا وَادِياً أَفْيَحَ فَذَهَبَ رسولُ اللهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم يَقْضِيْ حَاجَتَهُ فإتبعتُهُ بإِدَاوَةٍ مِن مَاءٍ فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليهِ وسلم فَلَم يَرَ شَيْئاً يَسْتَتِرُ فإِذَا شَجَرَتَان بشَاطِئِ الوَادِي فانْطَلَقَ رَسُوْلُ اللَّهِ صَلى اللَّهُ عليهِ وسَلم إلى احْدَاهُمَا فأَخَذَ بِغُصْنِ مِنْ أَغْصَانِهَا فقَالَ انْقَادِيْ عَليَّ بإِذْنِ اللَّه .

فانْقَادَتْ مَعَهُ كَالبَعِيرْ المَخْشُوْمِ الذي يُصَانِعُ قَائِدَهُ حتىَّ أَتى الشَّجَرَةَ الأُخْرَى فأَخَذَ بَعْضَ أَغْصَانِهَا فقالَ انْقَادِي عَلَّي بإِذنِ اللَّهِ فانْقَادَتْ كذلكَ حَتىَّ إذا كَانَ بالمُنْتَصِفِ فِيمَا بَيْنَهُمَا فلاَئَمَ بَيْنَهُمَا حَتىَّ جَمَعَ بَيْنَهُمَا ، فقال التَئِمَا عَلَّي بإذنِ اللَّهِ فالْتَأَمَتَا عَلَيه .

فخَرَجَت أحْضُرُ مَخَافَةَ أَنْ يُحَسَّ رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم بقُرْبِي فَتَبَاعَدَتْ فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي فَحَانَتْ مِنيِّ لَفْتَةٌ فإذا أَنَا برَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم مُقْبِلاً وإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدْ افْتَرَقَتَا فقَامَتْ كلُّ واحِدَةٍ مِنْهمَا على سَاقٍ » وذكَر الحديث .

٢٠ ـ ومِنْهَا أَنَّهَا انْكَسَرتْ رِجْلُ عبدِ اللَّهِ بن عُتَيْك رَضِيَ اللَّه عَنْهُ بَعْدَمَا قتَلَ أَبَا رَافِعٍ الذِيْ يُؤْذِيْ النَّبِيَّ صلى اللَّهُ عليه وسلم قَالَ فانْتَهَيْتُ إِلى النبيِّ صلى اللَّهُ عليه وسلم فَحَدَّثْتُهُ فقال لِيْ « أَبْسِطْ رِجْلَكَ » فَبَسَطْتُ رِجْلِي فَمَسَحَها فكَأَنَّهَا لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ .

٢١ ـ وقِصَّةُ أمّ مَعْبَدٍ مَشْهُوْرَةٌ مِنْ حَدِيْثِهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلىَّ اللَّهُ عليهِ وَسَلَّمَ حِيْنَ مرَّ بِهَا طَلَبَ لَبناً أَوْ لَحْمًا يَشْتَرُونَهُ وكانُوا مُرْمِلِين مُسْنِتِيْنَ فلَمْ يَجِدُوْا عِنْدَهَا شَيْئاً قَطُّ فَنَظَرَ إلى شَاةٍ في كِسْرِ الخَيْمَةِ خَلَّفَهَا الجُهْدُ عن الغَنَم ، فسأَلَهَا هَلْ بها مِن لَبَنٍ ؟ فقالَتْ : هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذلِك ، فَقَالَ : أَتَأذَنِينَ لي أَنْ أَحْلِبَها ! فَقَالَتْ بأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِي إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْباً .

فَدَعَا بالشَّاةِ فاعْتَقَلها وَمَسَحَ ضَرْعَهَا فَدَرَّتْ واجْتَرَّتْ وَدَعَا بإناءٍ يُشْبِعُ الرَّهْطَ فَحَلَبَ حَتىَّ مَلأَهُ وَسَقَى القَومَ حَتىَّ رَوَوْا ثُمَّ شَرِبَ آخِرُهُمْ ثُمَّ حلَبَ فِيه مَرَّةً أُخْرَى عَللاً بَعْدَ نهلٍ ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا وَذَهَبُوْا فَجاءَ أَبُو مَعْبَدٍ فَلَماَّ رَأَى اللَّبَنَ قَالَ مَا هَذَا يا أُم مَعْبَدٍ ؟ أَنىَّ لَكِ هَذَا والشَّاةُ عَازِبٌ حِيَالٌ وَلاَ حَلُوبَةَ بالبَيْتِ فَقَالَتْ لاَ وَاللَّهِ إلا أَنَّهُ مرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبارَكٌ فقالَ صِفِيْهِ فَوَصَفَتْهُ له ، وَذَلِكَ في طَرِيْقِ هِجْرَتِهِ صلى اللَّه عليه وسلم إِلى المَدِيْنَة .

وقَدْ قِيْلَ في ذَلِكَ الأَبْيَاتُ المَشْهُورَةُ قَالَتْ أَسماءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنها فَلَماَّ سَمِعْنَا قَوْلَهُ عَرَفْنَا حَيْثُ وَجَّهَ رَسُول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم تُشِيْرُ إِلىَ مَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّه أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الجِنِّ مِن أَسْفَلِ مَكَّةَ يَتَغَنىَّ بِأَبْيَاتٍ مِن شِعْرٍ غِنَاءَ العَرَبِ وَأَنَّ الناسَ لَيَتْبَعُونَهُ يَسْمَعُونَ صَوْتَه وما يَرَوْنَهُ حتى خَرَجَ مِنْ أَعْلىَ مكةَ وهو يقول :

جَــزَى اللَّهُ رَبُّ النـاسِ خَـيرَ جَـزَائـه
رَفِيْقَـيـنِ حَـلَّا خَيْـمَـتَيْ أُمِّ مَـعْـبَـدِ
هُمَـا نَـزَلَا بـالـبِـرِّ ثـم تَـرَوَّحَـا
فـأفْـلَحَ مَـن أَمْسَـى رَفِـيْـقَ مُحَمَّـدِ
لِيَهْـنِ بَـنِي كَـعْـبٍ مَـكَـانُ فَـتَـاتِهِـم
وَمَـقْـعَـدُهَـا لِـلْمُـؤْمِـنِـيَنْ بِمَـرْصَـدِ
سَلُو أُخْـتَـكُـم عـن شَـاتَهَـا وَإِنـائِـهَـا
فَـإِنَّكُمُـوا إِنْ تَسْـأَلُـوا الشـاةَ تَـشْهَـدِ
دَعَـاهَـا بِـشَـاةٍ حَـائِـلٍ فَـتَـحَـلَّبَـتْ
لَـهُ بِـصَـرِيْـحِ ضَـرَّةِ الشَّـاةِ مُـزْبِـدِ
فَـغَـادَرَهُ رَهْـنـاً لَـدَيْـهَـا لِحَـالِـبٍ
يُـدِرُّ لَهَـا فِي مَـصْـدَرِ ثُـمَّ مَـوْرِدِ

فلما سَمِعَ حَسَانُ بنُ ثابت أنشأ يَقُول مجُيْباً لِلْهَاتِفِ :

لَـقَـدْ خَـابَ قَـومٌ زَالَ عَنهُم نَـبِـيُّـهُـم
وَقُـدِّسَ مَـنْ يَسْـرِيْ إِلـيْهِـم وَيَغْـتَـدِي
تَـرَحَّـلَ عـن قَـوْمٍ فَـظَلَّتْ عُـقُـولُهُـم
وَحَـلَّ عَـلَىَ قَـومٍ بِـنُـوْرٍ مُجَـدَّدِ
هَـدَاهُـم بِهِ بَعد الـضَّـلَالَـةِ رَبُّهُـم
وَأرْشَـدَهُـم مَن يَـتْـبَـعِ الحَقَّ يَـرْشُـدِ
وَقَـدْ نَـزَلَتْ مِنـه عـلى أَهـل يَـثْـرِبٍ
رِكَـابُ هُـدىً حَلَّتْ عَلَيْهم بِـأَسْـعَـدِ

نَبيٌ يَــرى مـا لا يَــرَى النَّـاسُ حَــوْلَـهُ
وَيَتْـلُو كِتــابَ الـلـهِ في كُــلِّ مَــسْـجِـدِ
وإن قــال في يَــومٍ مَــقــالَــةَ غَــائِــبٍ
فَتَصْـدِيْقُهُا في الـيـومِ أَوْ في ضُحَى الغَـدِ
لِـيَـهْـنِ أَبَـا بَـكْـرٍ سَـعَــادَةُ جـدِّهِ
بِصُحْبَتِـه مَـنْ يُـسْعِـدِ الـلَّهُ يَـسْـعَـدِ

٢٢ ـ وفي الترمذي عن علي رضي اللَّه عنه قال: «كُنْتُ مَعَ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بِمكةَ فَخَرجْنَا في بَعضِ نَوَاحِيْها فما اسْتَقْبَلَهُ شَجَرٌ ولا جَبَلٌ إلاَّ وَهُوَ يَقُولُ السلامُ عَلَيْكَ يا رسولَ اللَّه» رواه الحاكم في صحيحه.

٢٣ ـ وجاء أَعْرَابيٌّ إلى النبيِّ صلى اللَّه عليـه وسلم فقال بِمَ أَعْرِفُ أنَّكَ نبي؟ قال «إنْ دَعَوْتُ هَذَا العِذْقَ مِنْ هَذِهِ النَّخْلَةِ أَتَشْهَدُ أَنِّي رسولَ اللَّه؟ قال «نَعَمْ فَدَعَاهُ رسولُ اللَّهِ صلى اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فَجَعَلَ يَنْزِلُ مِن النَّخْلةِ حَتَّى سَقَطَ إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم ثم قالَ ارْجِعْ فَعَادَ، فأَسْلَمْ الأعرابيُّ.

واللَّه أعلم وصلى اللَّه على محمد:

« فَصْــلٌ »

٢٤ ـ ولَمَّا بَعَثَتْ قُرَيْشٌ في فِدَاءِ أسراهُم إلى رَسُوْلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عليه وَسَلَّم بَعْدَ بَدْرٍ فَفَدَىٰ كُلُّ قَوْمٍ أَسِيْرَهُم بِمَا رَضُوا وَكَانَ العَبَاسُ أَسِيْراً قال يا رسولَ اللَّهِ قَدْ كُنتُ مُسْلِماً فقال رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم « اللَّهُ أعلمُ باسْلامِكَ فإنْ يَكُن كَمَا تَقُولُ فإِنَّ اللَّهَ يَجْزِيْكَ وأما ظَاهِرُكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا فافْتَدِ نَفْسَكَ وابْنَيْ اخَوَيْكَ » قال العَبَاسُ . ما ذَاكَ عِنْدِيْ قال رسولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم « فأَيْنَ المالُ الذِيْ دَفَنْتَهُ أَنْتَ وأُمُّ الفَضْلِ فَقُلْتَ لَهَا إِنْ أُصِبْتُ في سَفَرِيْ هَذَا فَهَذَا المالُ الذِيْ دَفَنْتُهُ لِبَنِيَّ الفَضْلَ وَعَبْدُ اللَّهِ وَقُثَم » .

قالَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لأَعْلَمُ أَنَّكَ رسولُ اللَّهِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ ما عَلِمَهُ أَحدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمّ الفَضْلِ . . الخ .

٢٥ ـ وَقِصَّةُ ارتِجَافُ أُحُدٍ وَذَلِكَ أَنَّ النبيَ صلى اللَّهُ عليه وسلم صَعِدَ أُحُداً وَمَعَهُ أَبُوْ بَكْرٍ وَعُمَرُ وعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ فَقَالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عليه وسلم أُثْبُتْ أَحُدٌ فَإِنمَّا عليكَ نَبِيٌّ وصديقٌ وشهيدان .

٢٦ ـ وقِصَّةُ مَاءِ الرَّكْوَةِ وَهِيَ مَا وَرَدَ عن جابر بنِ عبدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا قال عَطِشَ الناسُ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ والنَّبِيُّ صلى اللَّهُ عليهِ وسلم

بَيْنَ يَدَيْه رَكْوَةٌ يَتَوَضأُ فَجَهَشَ الناسُ نَحْوَهُ فقالَ : « مالكُم ؟ » قالُوا : لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضأُ ولا نَشْرَبُ إلا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ قال جَابِرٌ فَوَضَعَ النبيُ صلى اللَّهُ عليه وسلم يَدَهُ في الرَّكْوَة فَجَعَلَ الماءُ يَثُورُ بَيْنَ أصَابِعِهِ كامْثَالِ العُيُوْنِ فَشَرِبْنَا وَتَوَضأْنَا قال سَالِمٌ قُلْتُ لِجَابِرٍ كَمْ كُنْتُمْ قال لَوْ كنُا مائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا خَمْسَ عَشْرَةَ مائَةٍ (١٥٠٠) .

٢٧ ـ وقِصَّةُ مَوْتِ النَّجاشِي وهِيَ مَا وَرَدَ عَن أُمِّ كُلْثُوم بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ رَبِيْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم قَالَتْ لَمَّا تَزَوَّجَ النبيُّ صلى اللَّهُ عليه وسلم أُمَّ سَلَمَةَ قال لَهَا « إنِّي قَدْ أَهْدَيْتُ لِلنَّجاشِي أَوَاقِيَ مِن مِسْكٍ وَحُلَّةً وإنّيْ لَا أَرَاهُ إلَّا قَدْ مَاتَ وَلا أرى الهَدِيَّةَ إلَّا سَتُرَدُّ إليَّ ، فإذا رُدَّت إليَّ فَهِيَ لَكِ » فكانَ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم ، مَاتَ النَّجَاشِيُ وَرُدَّتْ إلى النبي صلَّى اللَّهُ عليه وسلم هَدِيَّته فأعْطَى كُلَّ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ أُوْقِيَّةً مِنْ ذَلِكَ المِسْكُ وأَعْطَى سَائِرَهُ أمَّ سَلَمَةَ .

٢٨ ـ وقِصَّةُ عُكَّاشَةِ بن مِحْصَن بنِ حَرْثانِ الأَسَديِّ حِيْنَما انْدَفَعَ يُقَاتِلُ المُشْرِكِيْنَ يَوْمَ بَدْرٍ وَيَحْصُدُ فِيهم حَصْداً حَتَّى انْكَسَرَ سَيْفُهُ فَلَمْ يَثْنِهِ ذَلِكَ عن خَوْضِ المَعْرَكَةِ وَلَمْ يَتَّخِذْ مِنْ كَسْرِ سَيْفِهِ مَعْذِرَةً عَن القِتَالِ فَجَاءَ إلى النَّبي صلى اللَّهُ عليه وسلم يُخْبِرُهُ بِكَسْرِ سَيْفِهِ وَإرَادَةِ غَيْرِهِ فَدَفَعَ صلى اللَّهُ عليه وسلم لَهُ جَذْلاً مِنْ حَطَبٍ فَقَالَ لَهُ قَاتِلْ بِهَذَا يَا عُكَاشَّةُ .

فَلمَّا أَخذَهُ عُكَّاشَةُ مِنْ رَسُول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم هَزَّهُ فَعادَ في يَدِهِ سَيْفاً صَارِماً طَوِيْلَ القَامَةِ شَدِيْدَ المَتْنِ أَبْيَضَ الحَدِيْدَةِ فقاتَلَ بِهِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنه حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ تعالى علَى المُسْلِمِيْنَ وَلَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ ذَلِكَ السَّيْفُ يَشْهَدُ بِهِ المَشَاهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلم حَتَّى اسْتُشْهِدَ في قِتَالِ الرِّدةِ في خِلافَةِ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رَضِيَ اللَّهُ عنه .

٢٩ ـ وَقِصَّةُ عُمَيْرِ بنِ وَهْبِ الجُمَحِي وذلكَ أنَّه كَانَ مَعَ صَفْوَانَ بنِ أمَيَّةَ بَعْدَ مُصَابِ أَهْلِ بَدْرٍ وكانَ عُمَيْرٌ شَيْطَاناً مِنْ شَيَاطِيْنِ قُرَيْشٍ وَمِمَّن كانَ يُؤْذِيْ رسولَ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم وَأَصْحَابَهُ وَيَلْقَوْن مِنْهُ عَنَاءً وَهُوَ بمكةَ وكانَ ابنُهُ وَهْبُ ابنُ عُمَيْرٍ في أُسَارَى بَدْرٍ قال فَذَكَرَ عُمَيْرٌ أَصْحَابَ القَلِيْبِ وَمُصَابَهُم فقال صَفوَانُ واللَّهِ مـا في العَيْشِ بَعْدَهُم خيرٌ .

قال عُمَيْرٌ صَدَقْتَ واللَّهِ أَما واللَّهِ لَوْلَا دَينٌ عليَّ لَيْسَ لَهُ عِنْدِيْ قَضَاءٌ وعِيَالٌ أَخْشَى عَلَيْهِم الضَّيْعَة بَعْدِيْ لَرَكِبْتُ إلى مُحَمَّدٍ حَتَّى أَقْتُلَهُ فإنَّ لِيْ قِبَلَهُم عِلَّةً ابْنِيْ أسِيْرٌ في أَيْدِيْهِمْ قالَ فاغْتَنَمَهَا صَفْوَانُ وقالَ عَلَيَّ دَيْنُكَ أَنَا أَقْضِيْهِ عَنْكَ وَعِيَالُكَ مَعَ عِيَالِيْ أُواسِيْهِمْ ما بَقُوْا لا يَسعُنِي شَيْءٌ يَعْجَزُ عَنْهُمْ .

فَقَالَ عُمَيْرٌ فاكْتُمْ شَأْنِيْ وَشَأْنَكَ قَالَ أَفْعَلُ ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى قَدِمَ المَدِيْنَةَ فَبَيْنَا عُمَرُ بنُ الخطابِ في نَفَرٍ مِنْ المُسْلِمِيْنَ يَتَحَدَّثُون عن يَوْمِ بَدْرٍ وَمَا أَكْرَمَهُم اللَّهُ به وَمَا أراهُمْ مِنْ عَدُوهِم إذْ نَظَرَ عُمَرُ إلى عُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ حِيْنَ أَنَاخَ رَاحِلَتَه عَلى بَابِ المَسْجِدِ ، مُتَوَشِّحاً السَّيْفَ ، فقال عُمَرُ هَذَا الكَلْبُ عَدُوُ اللَّهِ واللَّهِ ما جَاءَ إلا لِشَر .

ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ على رَسولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم فَقَالَ يَا نَبِيَّ

اللَّه هَذَا عَدُوُ اللَّهِ عُميرُ بنُ وَهْبٍ ، قَدْ جَاءَ مُتَوَشِّحاً سَيْفَهُ . قالَ فأدْخِلْهُ عَلَيَّ فَأَقْبَلَ عُمَرُ حتَّى أَخَذَ بِحَمَالَةِ سَيْفِهِ في عُنُقِه فَلَبَّبهُ بِهَا .

وقال لِرِجَالٍ مِن الأَنْصَارِ ادْخُلُوا على رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم فاجْلِسُوا عِنْدَهُ واحْذَرُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الخَبِيْثِ فإِنَّهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ ثُمَّ دَخَلَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليهِ وسلم فَلَمَّا رَآهُ رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم قَالَ أرْسِلْهُ فَدَنَا عُمَيْرُ .

فقال رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم « فَمَا جاءَ بِكَ يَا عُمَيْرُ ؟ » قال جِئْتُ لِهَذَا الأَسِيرِ الذِيْ في أَيْدِيْكُم فَأَحْسِنُوا فِيْهِ يَعْنِيْ وَلَدَهُ قالَ فَمَا بَالُ السَّيْفُ في عُنِقِكَ قالَ قَبَّحَهَا اللَّهُ مِن سُيُوفٍ وهَلْ أَغْنَتْ عَنَّا شَيْئاً قال « أُصْدُقْنِي ما الذِيْ جَاءَ بِكَ » قال مَا جِئْتُ إلَّا لِذَلِكَ .

قال رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم « بَلْ قَعَدْتَ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بنُ أمَيَّةَ في الحِجْر فَذَكَرْتُمَا أَصْحَابَ القَلِيْبِ مِنْ قُرَيْشٍ ثُمَّ قُلتَ لَوْلا دَيْنٌ عَلَيَّ وَعِيَالٌ عِنْدِيْ لَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْتُلَ مُحَمَّداً فَتَحَمَّل لَكَ صَفْوَانُ بِدَيْنِكَ وَعِيَالِكَ عَلَى أَنْ تَقْتُلَنِيْ لَهُ ، واللَّهُ حَائِلٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ » .

فقالَ عُمَيْرٌ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ قد كُنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُكَذِّبُكَ بِمَا كُنْتَ تَأْتِيْنَا بِهِ مِنْ خَبَرِ السَّماءِ ومَا يَنْزِلُ عَلَيْكَ مِن الوَحْيِ وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَحْضُرْهُ إلَّا أَنَا وَصَفْوَانُ فَوَاللَّهِ إِنّي لأَعْلَمُ مَا أَتَاكَ بِهِ إلَّا اللَّهُ فالحَمْدُ للَّهِ الذِيْ هَدَانِيْ لِلإِسْلامِ وَسَاقَنِيْ هَذَا المَسَاقَ ثُمَّ شَهِدَ شَهَادَةَ الحَقِّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليهِ وسلم « فَقِّهُوا أَخَاكُمْ في دِيْنِهِ واقْرِئُوهُ القُرآنَ وأَطْلِقُوا لَهُ أَسِيْرَهُ » فَفَعَلُوا الخ . واللَّه أعلم وصلى اللَّه على محمد .

شِـعْرَاً :

فُـؤَادٌ مـا يَـقِـرُ لَـهُ قَـرَارٌ
وأجْـفَـانٌ مَـدَامِـعُـهَـا غِـزَارُ

ولَـيْـلٌ طَـالَ بـالأنـكـادِ حَـتَّـى
ظَـنـنـتُ الَّيـل لَـيْسَ لَـهُ نَـهَـارُ

ولِـمْ لَا والـتُّـقَـى حَـلَّتْ عُـرَاهُ
وبـانَ عـلى بَـنِـيْـهِ الانْـكِـسَـارُ

لِـيَبْـكِ مَـعِيْ على الـدِّيْـنِ البَـوَاكِي
فَـقَـدْ أَضْـحَـتْ مَـوَاطِـنُـه قِـفَـارُ

وَقَـدْ هُـدَّتْ قَـوَاعِـدُهُ اعْـتِـدَاءً
وَزَالَ بِـذَاكُـمُـوْا عـنـه الـوَقَـارُ

وَأَصْـبَـحَ لا تُـقَـامُ لَـهُ حُـدُوْدٌ
وأَمْـسَـى لَا يُـبَـنَّ لَـهُ شِـعَـارُ

وَعَـادَ كَـمَـا بَـدَا فِـيْـنَـا غَـرِيْـبـاً
هُـنَـالِـكَ مَـالَـهُ فـي الـخَـلْقِ جَـارُ

فَـقَـد نَقَـضُـوا عُهُـودَ هُـمُـوا جِـهَـاراً
وَأَسْـرَفُـوا فـي الـعَـدَاوَةِ ثـم سَـارُوْا

اللهم إنَّكَ تَعْلَمُ سِرَّنَا وَعَلاَنِيَتَنا وَتَسْمَعُ كَلامنَا وَترى مَكَانَنَا لاَ يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِن أَمْرِنَا نَحْنُ البُؤَسَآءُ الفُقَراءُ إليكَ المُستَغِيثُونَ المُستجِيرونَ بِكَ نَسْألك أنْ تُقَيّضَ لِدِيْنِكَ مَنْ يَنْصُرَهُ وَيُزِيْلَ مَا حَدَثَ مِن البِدَعِ والمُنْكِرَاتِ وَيَقِيْمَ عَلَمَ الجِهَادِ وَيَقْمَعَ أَهْلَ الزَّيْغِ والكُفْرِ

والعِنَادِ ونسأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وجميعِ المسلمينَ برحْمَتِكَ يا أرحم الراحمين وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

٣٠ ـ وَقِصَّةُ حَنِيْنِ الجِذْعِ مَا وَرَدَ عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ امْرَأَةً مِنَ الأنصارِ قالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم أَلا أَجْعَلُ لَكَ شَيْئاً تَقْعُدُ عَلَيْهِ فإن لِيْ غُلَاماً نَجَّاراً قال إِنْ شِئْتِ قالَ فَعمِلَتْ لَهُ المِنْبَرَ فَلَمَّا كَانَ يومُ الجُمعَةِ قَعَدَ النبيُّ صلى اللَّهُ عليه وسلم على المِنْبَرِ الذِيْ صُنِعَ فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ التِي كَانَ يَخْطِبُ عِنْدَهَا حَتَّى كادَتْ أنْ تَنْشَقَّ فَنَزَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّه عليه وسلم حَتَّى أَخَذَهاَ فَضَمَّها إِليه فَجُعلتْ تَئِنُ أَنِيْنَ الصَّبِيِّ الذِي يُسَكْتْ .

٣١ ـ وقِصةُ عِكَّةِ أُمِ سُلَيْمْ لِمَا وَرَدَ عن أنس عن أُمِّهِ قال كانَتْ لَنَا شَاةُ جَمَعْتُ مِنْ سَمْنِهَا في عُكَّةٍ فَملأَتِ العُكَّةَ ثُمَّ بَعَثْتَ بِهَا مَعَ رَبِيْبَةٍ فَقَالَتْ يَا رَبِيْبَةُ فبَلِّغِيْ هَذِهِ العُكَّةَ رَسُوْلَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عليه وسلم يَأْتَدِمُ بِهَا فانْطَلَقَتْ بِهَا الرَّبِيْبَةُ حَتَّى أَتَتْ رَسُول اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلم فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ عُكَّةُ سَمْنٍ بَعَثَتْ بها إِليكَ أمُّ سُلَيْمٍ فقال أَفْرِغُوْا لَهَا عُكَّتَها فَفُرِّغَتْ العُكَّةُ فَدُفِعَتْ إِلَيْهَا فانطَلَقَتْ بِهَا .

وجـاءَتْ وأمُ سُلَيْمٍ لَيْسَتْ في البَيْتِ فَعَلَّقَتْ العُكَّةَ عَلَى وَتَـدٍ

فَجاءَتْ أمُّ سُلَيْمٍ فَرَأَتْ العُكَّةَ مُمْتَلِئَةً تَقْطُرُ فقَالَتْ أمُّ سُلَيْم يا رَبِيْبَةُ أَلَيْسَ أَمَرْتُكِ أنْ تَنْطَلِقِي بهَا إلى رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسَلَّم فقالَتْ قَدْ فَعَلْتُ فإِنْ لَمْ تُصَدِّقِيْنِي فانْطَلِقِي فَسَلِيْ رَسـولَ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم . فانْطَلَقَتْ وَمَعَهَا الرَّبِيْبَةُ .

فقالَتْ يا رسولَ اللَّهِ إِنِّيْ قَدْ بعَثْتُ مَعهَا إِلَيْكَ بِعُكَّةٍ فِيْهَا سَمْنٌ قالَ قَدْ فَعَلَتْ قَدْ جَاءتْ قَالَتْ والذِيْ بَعَثَكَ بالحَقِّ وَدِيْنِ الحَقِّ إِنَّها لَمُمْتَلِئَةٍ تَقْطُرُ سَمْناً قالَ : فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم « يا أُمَ سُلَيْمٍ أَتَعْجَبِيْنَ إِنْ كَانَ اللَّهُ أطْعَمَكِ كَمَا أُطْعِمَ نَبِيَّهُ كُلِيْ وَأَطْعِمِيْ » قالَتْ فَجِئْتُ إلى البَيْتِ فقَسَمْتُ في قُعْبٍ لَنَا كَذَا وَكَذَا وَتَرَكْتُ فِيْهَا مَا ائْتَدَمْنَا بِهِ شَهْرَيْن .

٣٢ ـ وَقِصَّةُ طِيْب عُتْبَةَ صَاحِب رسول اللَّهِ صلى اللَّه عليهِ وسلم قالَتْ أمُ عاصِم امْرأَةُ عُتْبَةَ بْن فَرْقَد كُنَّا عِندَ عُتْبَةَ ثَلاثَ نِسْوَةٍ مَا مِنَّا وَاحِدَةٌ إلَّا وَهِيَ تَجْتَهِدُ في الطِّيب لِتَكُونَ أَطْيَبَ مِن صَاحِبَتِهَا ومَا يَمَسُّ عُتْبَةُ بنُ فَرْقَدٍ طِيْباً إلا أَنْ يَلْتَمِسَ دُهْناً وكانَ أَطْيَبَ رِيْحاً مِنَّا فَقُلْتُ لَهُ في ذَلِكَ .

فَقَالَ أَصَابَنِيْ الشَّرَى « حِكَّةٌ في الجلْدِ » عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليهِ وسلم فَأَقْعَدَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَجَرَّدْتُ وَأَلْقَيْتُ ثِيَابِيْ عَلَى عَوْرَتِي فَنَفَثَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلم في كَفِّهِ ثُمَّ دَلَكَ بِهَا الأخْرَى ثُمَّ أَمَرهُمَا على ظَهْرِي فَعَبَقَ بِهَا مَا تَرَوْنَ .

٣٣ ـ وَقِصَّةُ قَتَادَةَ بنِ النُّعْمَانِ فَعَن أَبِيْ سَعِيْدٍ الخُدْرِي أَنَّ رسولَ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ لِصَلاَةِ العِشَاءِ وَهَاجَتِ الظَّلْمَاءُ مِنْ السَّمَاءِ وبَرَقَتْ بَرْقَةٌ فَرأَى رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم قَتَادَةَ بنَ النُّعْمانِ فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم قَتَادةُ قال نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِمْتُ إِنَّ شَاهِدَ الصلاةِ اللَّيلةِ قَلِيلٌ فأحْبَبْتُ أَنْ أَشْهَدَهَا .

فقالَ لَهُ رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم إِذَا انْصَرَفْتَ فَأْتِنِيْ فَلمَّا انْصَرَفْ أَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم عِرْجُوناً وقال « خُذْهُ فَسَيُضِيءُ أَمَامَكَ عَشْراً وَخَلْفَكَ عَشْراً » .

٣٤ ـ وقِصَّةُ أَبِي جَابِرٍ وهي ما وَرَدَ عن جابرِ بن عبدِ اللَّهِ رضي اللَّهُ عنه قال تُوفِّيَ أَبِيْ شَهِيْداً في أُحُدٍ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فاسْتَعَنْتُ النبيَّ صلى اللَّهُ عليه وسلم عَلَى غُرَمَائِهِ فَلَمْ يَفْعَلُوا فقال لِيْ النَّبِيُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلم « اذْهَبْ فَصَنِّفْ تَمْرَكَ أَصْنَافاً العَجْوَةَ على حِدَة وَعِذْقَ زَيْدٍ عَلَى حِدَةٍ » (أَنْوَاعُ التَّمْرِ) .

« ثُمَّ أَرْسِل إليَّ » قال جَابِرُ : فَفَعَلتُ ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلى رَسُوْلِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليهِ وسلم فَجلَسَ عَلَى أَعْلاَهُ أَوْ فِي وَسَطِه ثُمَّ قالَ كِلْ لِلْقَوْمِ قال جابرٌ فَكِلْتُهُم حَتَّى أَوْفَيْتُهُم الذِيْ لَهُمْ وَبَقِيَ تَمْرِيْ كأنْ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْءٌ

٣٥ ـ وَقِصَّةُ حاطِب بنِ أَبِيْ بَلْتَعَةَ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُوْلَ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم عِنْدَمَا أَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّه سَائِرٌ إلى مَكَّةَ وَأَمَرَهُم بالجِدِّ والتَّهَيُّؤُ وقال « اللَّهُمَّ خُذِ العُيُوْنَ والأخبارَ عن قُرَيْشٍ ، حَتَّى نَبْغَتَهَا في بِلادِها »

فَلَمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم عَلَى المَسِيْرِ، كَتَبَ حَاطِبُ كِتَاباً إِلى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ بالذِيْ أَجْمَعَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ علَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الأَمْرِ بالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ.

ثُمَّ أَعْطَاه امْرَأةً وَجعَلَ لَهَا عَطَاءً على أَنْ تُبَلِّغَهُ قُرَيْشاً فَجَعَلَتْهُ في رَأْسِها ثُمَّ فَتَلَتْ عَلَيْهِ قُرُوْنَها « جَدَائِلَها ».

وَأَتى رَسُولَ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم الخَبَرُ مِنَ السَّماءِ بِمَا صَنَعَ حَاطِبٌ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم عَليَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ وَالزُّبَيْرَ بنَ العَوَّام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فقالَ أَدْرِكَا امْرَأَةً قَدْ كَتَبَ مَعَهَا حَاطِبُ بنُ أَبِيْ بَلْتَعَةَ بِكِتَابٍ إِلَى قُرَيْشٍ يُحَذِّرُهُمْ ما أَجْمَعْنَا عليه في أمْرِهِمْ.

فَخَرَجَا حَتَّى أَدْرَكَاهَا بالخَلِيْقَةِ « اسمُ مَوْضِعٍ » فاسْتَنْزَلاَهَا فَالْتَمَسَا في رَحْلِهَا فَلَمْ يَجِدَا شَيْئاً فَقَالَ لَهَا عَليُّ بنُ أَبِيْ طَالِبٍ إِنِّيْ أَحْلِفُ باللَّهِ ما كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم ولا كَذَبْنَا وَلَتُخْرِجِنَّ لَنا هَذَا الكِتَابَ أَوْ لَنَكْشِفَنَّكِ.

فَلَمَّا رَأَتِ الجِدَّ مِنْهُمَا قَالَتْ أَعْرِضْ فَأَعْرَضَ فَحَلَّتْ قُرُوْنَ رَأْسِهَا فاسْتَخْرَجَتِ الكِتَابَ مِنْهَا فَدفَعَتْهُ إِلَيْهِ فأتَى بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم فَدَعَا رَسُوْلُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم حَاطِباً فقال يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا.

فقال يا رسول اللَّه أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَمُؤْمِنٌ باللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا غَيَّرتُ

ولا بَدَّلْتُ وَلَكِنِّي امْروءٌ لَيْسَ لِيْ في القَوْمِ مِن أَصْلٍ ولا عَشِيْرَةٍ وكانَ لِيْ بَيْنَ أظهرِهِمْ وَلَدٌ وَأَهْلٌ فَصَانَعْتُهم عَلَيْهم .

فقال عُمَرُ بنُ الخطاب يا رسولَ اللَّهِ دَعْنِي فَلأَضْربُ عُنَقَهُ فإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ نَافَقَ . فقال رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم « وما يُدْرِيْكَ يا عُمَرُ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ اطَّلَعَ إلى أَصْحَابِ بَدْرٍ فقال اعْمَلُوا ما شِئْتُم قَدْ غَفَرْتُ لَكُم » فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّيْ وَعَدُوَّكم أَوْلِيَآءَ ﴾ الآيـة . واللَّه أعلم وصلى اللَّه على محمداً وآلـه وصحبه وسلم .

« فَصْـــلٌ »

٣٦ ـ وقِصَّةُ لَبَنِ أَهْلِ الصُّفةِ وذلكَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَعدَ يوماً عَلَى الطريقِ فمرَّ به رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم فَتَبَسَّمَ حِيْنَ رَآهُ وَعرَفَ ما في نَفْسِه وما في وَجْهِهِ ثم قال « يا أبا هُرَيْرَةَ » قال قلتُ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قال إلحَقْ وَمَضى فَتَبِعْتُه فاسْتَأذَنَ فأُذِنَ لِيْ فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَناً في قَدَحٍ فقالَ مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ قالُوْا مِن فُلانٍ أَوْ فُلانةٍ .

قالَ أَبَا هِرٍّ قُلْتُ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إلحَقْ إِلى أَهْلِ الصُّفَّةِ فادْعُهم لِيْ قَالَ أَبو هُرَيْرَةَ فَسَاءَنِيْ ذَلِكَ فَقُلْتُ وَمَا هَذَا اللَّبنُ في أَهْلِ الصُّفةِ كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصِيْبَ مِن هَذَا اللَّبنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا فإِذَا جَاؤُوْا أَمَرنِيْ فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيْهِمْ وما عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِيْ مِن هَذَا اللَّبَنِ .

قال فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُم فأقْبَلُوا فاسْتَأْذَنُوا فأذِنَ لَهُمْ وَأَخَذُوْا مَجالِسَهم مِن البَيْتِ فقالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قُلْتُ لَبَّيْكَ يا رَسُولَ اللَّهِ قال خُذْ فَأَعْطِهِمْ قالَ فأَخَذْتُ القَدَحَ فَجَعَلْتُ أَعْطِي الرَّجُل فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ثم يَرُدُّ عليَّ القَدَحَ . حتى انْتَهَيْتُ إلى النَّبِي صلى اللَّهُ عليه وسلم وَقَدْ رَوَىَ القومُ كُلُّهُم .

فأخَذَ القَدَحَ فَوَضَعَهُ على يَدِهِ فَنظَرَ إليَّ فَتَبسَّم فقال يَا أَبَا هِرّ قُلْتُ لَبَّيْكَ يا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ بَقِيْتُ أَنَا وَأَنْتَ قُلْتُ صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قال أُقْعُدْ فاشْرَبْ فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ فقال اشْرَب فَشَرِبتُ فَمَا زَالَ يَقُوْلُ اشْرَبْ حَتَّى قُلْتُ والذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكاً .

قَالَ فَأَرِنِي فَأَعْطَيْتُه القَدَحَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَسَمَّى وَشَرِبَ الفَضْلَةَ صلى اللَّه عليه وسلم .

٣٧ ـ وَقِصَّةُ طَعَامِ جَابِرٍ وَذَلِكَ ما وَرَدَ عَنْهُ قالَ لَمَّا حُفِرَ الخَنْدَقُ رَأَيْتُ بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم خَمْصاً شَدِيْدَاً فانْكَفَأْتُ إلى امْرَأَتِيْ فَقُلْتُ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ فإنّيْ رَأَيْتُ بِرَسُولَ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم خَمْصاً شَدِيْداً .

فَأَخْرَجَتِ إِلَيَّ جِراباً فيه صَاعُ مِن شَعِيرٍ وَلَنا بُهَيْمةٌ دَاجِنْ فَذَبَحْنَاها وَطَحنتْ الشَّعِيْرَ فَفَرَغَتْ إلى فَراغِيْ وَقَطَّعتْهَا في بُرْمَتِها ثُمَّ وَلَّيْتُ إلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم فَقَالَتْ لا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم فَجِئْتُه فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ يا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنا صَاعاً مِن شَعِيْرٍ كانَ عِنْدَنَا فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَك .

فَصَاحَ النبيُ صلى اللّه عليه وسلم يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ إنَّ جابِراً قَدْ صَنَعَ سُؤْراً فَحَيَّ هَلاً بكُم فقال رَسُوْلَ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم لا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُم ولا تَخبِزُنَّ عَجِيْنَكُم حَتَّى أَجِيءَ فَجِئْتُ وجاءَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يَقْدُمُ الناسَ حتى جئْتُ امْرأتِيْ فقالتْ بِكَ وَبِكَ فَقُلْتُ قَدْ فَعَلتُ الذِيْ قُلْتِ فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِيْناً فَبصَقَ فِيْهِ وبارَكَ ثُمَّ عَمَدَ إلى بُرْمَتِنا فَبَصَقَ وبَارَكَ .

ثم قال ادْعِي خَابِزَةً فَلْتَخبِزْ مَعَكِ واقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمُ ولا تُنْزِلُوها وَهُمْ أَلفٌ فأُقْسِمُ باللّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وانْحَرَفُوا وإنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ وَإنَّ عَجِيْنَنا لِيُخبَزُ كَمَا هُوْ .

٣٨ - وعن عليٍّ رضي اللّه عَنه قَال كُنْتُ شَاكِياً فَمَرَّ بي رَسُولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم وأنَا أَقُوْلُ اللّهُمَّ إنْ كَانَ أَجَلِيْ قَدْ حَضَرَ فَأَرِحْنِيْ وإنْ كان مُتَأخِّراً فارْفَعْنِي وإنْ كَانَ بَلاءً فَصَبِّرْنِي .

فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسَلم كَيْفَ قُلْتَ فَأعادَ عليه ما قال فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ وقال اللّهم عافِهِ أَوْ اشْفِهِ شَكَّ شُعْبَةُ قال فَمَا اشْتَكَيْتُ وَجعِيْ بَعْدُ . قال الترمذي حديث حسن صحيح .

٣٩ - ومن ذلك رَدُّ عَيْنِ قَتَادَةَ بنِ النُعْمانِ فَقَدْ أصِيْبَت عَيْنُهُ في غَزْوَةِ أُحُدٍ حَتَّى وَقَعَتْ على وِجْنَتِه فَرَدَّهَا النبيُ صلى اللّهُ عليه وسلم فكانَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْه وأَحَدَّهُما نَظَراً وفي ذلك يَقُول ابْنُهُ :

أنا ابنُ الذيْ سَالَتْ على الخَدِّ عَيْنُه
فَرُدَّتْ بِكَفِّ المُصْطَفى أَحْسَنُ الرَّدِ

فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لأَوَّلِ مَرَّةٍ
فَيَا حُسْنَ مَا عَيْنٍ وَيَا حُسْنَ مَا خَدِّ

واللّه أعلم وصلى اللّه على محمد وآله وسلم .

« فصلٌ »

٤٠ ـ ومِن ذلك اسْتِسْقَاؤُهُ وَاسْتِصْحَاؤُه صلى اللّهُ عليه وسلم . ففي الصحيحين عن أنس أنه صلى اللّهُ عليه رَفَعَ يَدَيْهِ ثم قال « اللَّهم أغِثْنَا اللَّهم أغِثْنَا » قالَ أنسٌ واللّهِ مَا نَرَىٰ في السماءِ مِن سَحَابٍ ولا مِنْ قَزَعَةٍ وانَّ السَّماءَ لَمِثلِ الزُجَاجَةِ وما بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِن دَارٍ .

فوالذي نَفْسِيْ بِيَدِهِ مَا وَضَعَ يَدَيْهِ حَتَّى ثَارَ السَّحابُ أَمْثَالَ الجِبَالِ ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِل مِنْ مَنْبَرِه حتى رأيتُ المَطَرَ يَتَحَدَّرُ عن لِحْيَتِهِ ، وفي رِوَايَةٍ أُخرَى قال : « فَلاَ واللّهِ ما رَأَيْتُ الشَّمْسَ سَبْتاً قال : ثم دَخَلَ رَجُلٌ مِن ذلكَ البَابِ في الجُمُعَةِ المُقْبِلَةِ فاسْتَقْبَلَهُ قائماً فقال يَا رَسُولَ اللّهِ هَلَكَتِ الأموالُ وانْقَطَعَتِ السُبُلُ فادْعُ اللَّهَ أَنْ يُمْسِكَها عَنَّا ، قال فَرَفَعَ رسولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم يَدَيْهِ ثم قَال : « اللَّهم حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا اللهم على الآكَامِ والظِّرَاب وبُطُونِ الأَوْدِيَة وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ » ، قال فَمَا يُشِيْرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ إلَّا انْفَرَجَتْ حَتَّى رَأَيْتُ المَدِيْنَةَ في مِثْلِ الجَوْبَةِ وسالَ الوَادِي قَنَاةً شَهراً .

ومِنْ قَولِ أبِي طَالِبٍ يَمْدَحُ النبيَّ صلى اللّهُ عليه وسلم :

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثِمالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ للأَرَامِلِ

وهُوَ مِنْ قَصِيْدَةٍ لأَبِي طَالِبٍ قَالَهَا لَمَّا تَمالأَتْ عليهِ قُرَيْشٌ وَنَفَرُوا عنه وَأَوَّلُها

وَلَمَّا رَأيتُ القَوْمَ لا وِدَّ عِنْدَهُمْ
وَقَدْ قَطَعُوْا كُلَّ العُرَى وَالوَسَائِلِ
وَقَدْ جَاهَرُونا بالعَدَاوةِ والأَذَى
وَقَد طَاوَعُوا أَمْرَ العَدُوِ المُزَائِلِ
صَبَرْتُ لهم نَفْسِي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ
وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِن تُراثِ المَقَاوِل
وَأَحْضَرْتُ عِندَ البَيْتِ رَهْطِي وإِخْوَتِي
وأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بالوَصَائِلِ
أَعُوذُ بِرَبِ النَاسِ مِن كُلِّ طَاعِنٍ
عَلينَا بِسُوءٍ أَوْ مُلِحٍّ بِبَاطِلِ
لَقَدْ عَلِمُوْا أَنَّ ابْنَنَا لاَ مُكَذَّبٌ
لَدَيْنَا وَلَا يَعْنَى بقَوْلِ الأَبَاطِلِ
كَذَبْتُم وَرَبِ العَرش نَبْزِي مُحَمَّداً
وَلَمَّا نُطَاعِنْ عِندَهُ وَنُنَاضِلِ
ونُسْلِمُهُ حَتى نُصَرَّعَ دُوْنَهُ
وَنَذْهل عن أَبْنَائِنَا والحَلاَئِلِ

وَيَنْهَضُ قَوْمٌ بالحديدِ إليكُمُ
نُهُوضَ الرَّوايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلاصِلِ
وَيَنْهَضَ قَوْمٌ نَحْوَكُم غَيْرَ عُزَّلٍ
بِبِيْضٍ حَدِيْثٍ عَهْدُهَا بالصَّيَاقِلِ
وَمَا تَرْكُ قَومٍ لا أبَالَكَ سَيِّداً
يَحُوطُ الذِّمَارَ غَيْرَ ذَرْبٍ مُوَاكِلِ
وأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
يَلُوذُ بِه الهُلَّاكُ مِن آلِ هَاشِمٍ
فَهُم عِنْدَهُ في رَحْمَةٍ وَفَواصِلِ
لَعَمْري لَقَدْ كُلِّفْتُ وجْداً بأحْمَدٍ
وإخْوَتِهِ دَأْبَ المُحِبِ المُوَاصِلِ
فَمَنْ مِثْلُه في الناسِ أيُّ مُؤَمَّلٍ
إذَا قَاسَهُ الحُكَّامُ عِندَ التَّفَاضُلِ
حَلِيْمٌ رَشِيْدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ
يُوَالِي إلهاً لَيْسَ عَنهُ بِغَافِلِ
ومِيزانُ حَقٍ مَا يَعُوْلُ شَعِيْرَةً
وَوَزَّانُ حَقٍ وَزْنُهُ غَيرُ عَائِلِ
فَوَاللّهِ لَوْلاَ أَنْ أَجِيءَ بِسُبَّةٍ
تَجُرُّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي المَحَافِلِ

لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ
مِنَ الدَّهْرِ جِداً غيرَ قوْلِ التَّهَازُلِ
فَأَصْبَحَ فِيْنَا أَحْمَدُ ذُو أَرُومَةٍ
تُقَصِّرُ عنها سَوْرَةُ المُتَطَاوِلِ
حَدَبْتُ بِنَفْسِي دُوْنَهُ وَحَمَيْتُهُ
وَدَافَعْتُ عَنْهُ بالذُرَى والكَلاَكِلِ
فأيَّدَهُ رَبُّ العِبَاد بِنَصْرِهِ
وَأَظْهَرَ دِيْناً حَقُّهُ غَيْرُ بَاطِلِ

٤١ - ومِن ذَلِكَ ما في غَزْوَةِ خَيْبَرَ مِن أَنَّه صلى اللّهُ عليه وسلم أَرسَلَ إلى عَلِيّ وَهُوَ أرْمَدَ فَبصَقَ في عَيْنَيهِ فَبَرِىءَ كَأنْ لم يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ .

٤٢ - وروى الامام أحمد عن أنسٍ قال جَاءَ جبريلُ إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ذَاتَ يومٍ وهُوَ جالِسٌ حَزِينٌ قَدْ خُضِبَ بالدِمَاءِ ، ضَرَبَهُ بَعْضُ أَهْلِ مكةَ فقَالَ مَالَكَ قَالَ : فَعلَ هؤُلاَءِ وَفعَلُوا ، قال : فقَال لَهُ جِبْرِيْلُ أتُحِبُّ أَنْ أُرِيْكَ آيَةً ؟ قَال نَعَمْ فَنظَرَ إلى شَجَرَةٍ مِن وَرَاءِ الوَادِي فقال ادْعُ تِلكَ الشَّجَرَةَ فَدَعَاهَا فَجَاءَتْ تَمْشِيْ حَتى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْه فقَالَ مُرْها فَلْتَرْجع إلى مَكَانِها فقالَ لَهَا ارْجِعِيْ فَرَجَعَتْ حَتَّى عادَتْ إلى مَكَانِها فقال صلى اللّه عليه وسلم حَسْبِيْ . واللّه أعلم وصلى اللّه على محمد وآله وسلم .

« فصل »

٤٣ ـ ومنها اطْعامُه صلى اللّه عليه وسلم الذينَ يَحْفِرُون الخَنْدَقَ مِن أصحابِهِ بتَمرَاتٍ قَلِيْلَةٍ ، فَفِيْ كُتُبِ السِّير وَغَيْرِها انَّ ابْنةً لِبَشِيْرِ بنِ سَعْدٍ أختُ النُعْمانَ بنِ بشِيرٍ ، قالتْ ، دَعَتْنِيْ أُمِّيْ عَمْرَةُ بِنْتُ رواحَةَ فاعْطَتْنِيْ حَفْنَةً مِنْ تَمرٍ في ثَوْبِي ، ثم قالتْ أَيْ بُنَيَّةُ اذْهَبِيْ إلى أَبِيْكِ وخالِكِ عبدِ اللّهِ بنِ رَوَاحَةَ بِغَدَائِهِما .

قَالَتْ : فَأَخَذْتُها ، فانْطَلَقْتُ بهَا ، فَمَرَرْتُ بِرسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَنَا التَمِسُ أبِيْ وَخَالِيْ ، فقال « تَعَالَيْ يا بُنَيَّةُ ، مَا هَذَا مَعَكِ » ؟ قالتْ : قُلْتُ يا رسولَ اللّهِ هَذَا تَمْرٌ بَعَثَتْنِيْ بهِ أُمِّيْ إلى أَبِيْ بَشِيْرُ بنُ سَعْدٍ وَخَالِي عَبْدِ اللّه بنِ رَوَاحَةَ يَتَغَدَّيانِهِ ، قال « هَاتِيْهِ » قَالَتْ فَصَبَبْتُه في كَفَّيْ رَسُولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، فما مَلأَتْهُما .

ثمَّ أَمَرَ بِثَوْبٍ فَبُسِطَ لَهُ ، ثم دَحَا بالتَّمْر عَلَيْهِ فَتَبَدَّدِ فَوْقَ الثوب ، ثم قال لإنسانٍ عِنْدَه « أصرخ في أَهْلِ الخَنْدَقِ ، أنْ هَلُمَّ إلى الغَدَا » فاجْتَمَع أهْلُ الخَنْدَق عليه فَجَعَلُوا يأكلُونَ مِنهُ ،

وَجَعَلَ يَزِيْدُ ، حَتَّى صَدَرَ أهلُ الخَنْدَقِ عنّه ، وأنَّه لَيَسْقُطُ مِن أطْرَافِ الثوبِ .

٤٤ ـ ومنها إخْبَارُهُ صلى الله عليه وسلم أَصْحَابَهُ قَبْلَ مَسِيْرِهم إلى فَتْحِ مَكَّةَ وَهُمْ يَتَجَهَّزُون لِلْمَسِيْر أنَّه يَصِيْرُ بَيْنَهُم وَبَيْنَ قُرَيْشٍ دِمَاءٌ قَلِيْلَةٌ ، فكانَ الأمرُ كَما أخْبَرَ به صلى اللّهُ عليه وسلم ، فإنَّه وقَعَ بَيْنَ بعضِ كَتائِبِه حِيْنَ دُخُولِهم مَكَّةَ وَبَيْنَ قَومٍ مِن قُرَيْشٍ قَعَدُوا بالخَنْدَمَة ، لِيَردُّوا النبي صلى اللّه عليه وسلم بِزَعْمِهم عن دُخُولِ مَكَّةَ مُنَاوَشَةٌ قلِيْلَةٌ . وقُتِلَ بعضُ المُشْرِكِيْنَ ، وانْهَزَم البَاقُونَ ، وَقَدْ مَلَكَهُمُ الرُّعبُ والذُّعْرُ وَجَلَّلهُم الخَوْفُ ، وحَدِيْثُهُم في خَبَرِ الفَتْحِ مَشْرُوْحٌ .

٤٥ ـ وَمِنْهَا قَولُه صلى اللّه عليه وسلم لأصْحَابِهِ لَمَّا رَجَعَ الأحْزَابُ خَائِبِيْنَ « الآنَ نَغْزُوهُم ولا يَغْزُونَنَا » فكانَ الأَمْرُ كَمَا قَالَ ، فإنَّ قُرَيشاً بعد ذلك لم يَرْجعوا إلى غَزْوِ المَدِيْنَةِ ، وإن رسولَ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم توجَّه إلَى مَكَّة عَامَ الحُدَيْبِيَةِ ، فَصَالَحُوه وَهَادَنُوهُ ، ثم دَخَلَ مكةَ مِنْ قَابِلْ مَعَ أصحابِهِ آمنين ، ثمَّ فَتَحَهَا بَعْدَ ذَلِكَ .

٤٦ ـ وَمِنْهَا إخبارُهُ صلى الله عليه وسلم انَّ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ أَوَّلُ أهلِ بَيْتِهِ لُحُوقاً به ، فكانَ كَذَلِكَ ، فإنها رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا تُوُفِّيَتْ بَعْدَهُ بأَرْبَعِيْنَ يَوْماً ، أَوْ خَمْسٍ وَسَبْعِين يَوْماً ، أَوْ سِتَّةِ أَشْهُر ، على اخْتِلَافِ الرِّوايَاتِ ، وَلَم يُتَوفَّ قَبْلَهَا أَحَدٌ مِن أَهْلِ بَيْتِهِ .

٤٧ ـ ومِن ذَلِكَ أنَّ عَامِرَ بنَ الطُّفَيْلِ ، وأرْبَدَ بنَ قَيْسٍ ، وهُوَ أخو لَبِيْدِ بنِ رَبِيْعَةِ ، وَفَدَا على رسولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، في قَوْمِهِمَا مِن بَنِي عَامِرٍ ، فقال عَامِرٌ لأرْبَدَ ، إذَا قَدِمْنَا على مُحَمَّدٍ ، فإني شَاغِلٌ عنكَ وَجْهَهُ ، فاعْلُهُ أنْتَ بالسَّيْفِ ، حتى تَقْتُلَه ، قَال ارْبَدُ أفْعَلُ ، ثُمَّ أقْبَلَ عَامِرُ يَمْشِي ، وَكَانَ رَجُلاً جَمِيْلاً ، حَتَّى قَامَ على رَأْس رَسُوْلِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، فقَال يَا مُحَمَّدُ ، مَالِيْ إنْ أسْلَمْتُ ، فقالَ لَكَ مَا للإسلامِ ، وَعَلَيْكَ ما عَلَى الإسلامِ ، قَال ألا تَجْعَلُنِي الوَالِيْ مِنْ بَعْدِكَ .

قال لَيْسَ ذَلِكَ ،لَكَ وَلَا لِقَوْمِكَ ، وَلَكِنْ لَكَ أعِنَّةَ الخَيْلِ، تَغْزُوْ بِهَا، قالَ أوَ لَيْسَت لِيَ اليومُ ، ولكن اجْعَلْ لي وَلَكَ المَدَدَ ، قَال لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ ، فَقَالَ قُمْ يا مُحَمَّدُ ، إلى هَهُنا ، فَقَامَ إليْهِ ، فَوَضَع عَامِرٌ يَدَهُ بَيْنَ منكبَيْه ، ثمَّ أوْمَأَ إلَى أرْبَدَ ، أنْ أضْرِبْ ، فَسَلَّ أرْبدُ سَيْفَه ، قَرِيْباً مِنْ ذِرَاعٍ ، ثمَّ أمْسَكَ اللَّهُ يَدَهُ ، فلم يَسْتَطِعْ أنْ يَسُلَّه ، وَلَا يُغْمِدْهُ .

فَالْتَفتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم إلى أرْبَدَ ، فَرَآهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْه ، فقالَ اللَّهُمَّ اكْفِيْنهما بمَا شئت اللَّهم اهْدِ بَنِيْ عَامِرٍ ، واغنِ الدِيْنَ عن عَامِرٍ ، فانْطَلَقَا وعَامِرٌ يَقُولُ ، وَاللَّهِ لأملأنَّها عَلَيْكَ خَيْلًا دُهْماً ، وورْداً ، فقال رسولُ اللَّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم يأبَى اللَّهُ ذَلكَ ، وأبْنَاءُ قَيْلَةَ ، يَعْنِي الأنصارَ ، ثم قَال عامِرُ لأرْبَدَ ، وبلْكَ لِمَاذَا أمْسَكْتَ عَنْهُ ؟ فَقَالَ والَّلهِ مَا هَمَمْتُ بِهِ مَرَّةً ، إلا رأيْتُكَ ، ولا أرَى غيْرَك ، أفَأضْربُكَ بالسيفِ .

وَسَارَ عَامِرٌ ، فَطَرَحَ اللَّهُ عليهِ الطَّاعُوْنَ في عُنُقِهِ ، فَقَتَلَهُ في بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي سَلُولٍ ، وَجَعَلَ يَقُولُ يَا آلَ عَامِرٍ ، غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَعِيْرِ ، ومَوْتٌ في بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ ، وانْتَهَتْ حَيَاتُهُ لَعَنَهُ اللَّهُ وأَمَّا أَرْبَدُ ، فَقَدِمَ على قومِهِ ، فقالُوا مَا وَرَاءَكَ ، يَا أَرْبَدُ ، فقالَ واللَّهِ لَقَدْ دَعَانَا مُحمَّدٌ ، إِلى عِبَادَةِ شَيْءٍ ، لَوَدِدْتُ أنهُ عِنْدِيَ الآنَ ، فَأَرْمِيَهُ بِنَبْلِي هَذَا ، حَتَّى أَقْتُلَهُ .

ثم خَرَجَ بَعْدَ مَقَالَتِهِ ، بيوم أَوْ يَوْمَيْنِ ، وَمَعَهُ جَمَالٌ لَهُ تَتْبَعُه فَأَرْسَلَ اللّهَ عليه صَاعِقَةً ، فأَحْرَقَتْهُ ، وَقِيْلَ نَزَلَ في صَاعِقَتِهِ « هُوَ الذِيْ يُرِيْكُم البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ـ إلى قَوْلِهِ ـ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيْبُ بها مَنْ يَشَاءُ » .

٤٨ ـ ومِنْهَا إِطْعَامُه صلى اللَّهُ عليه وسلم ، بَنِيْ المُطَّلب بِذِراعِ جَزُوْرٍ وَعُسٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَقَدَ ذَكَرَ أَهْلُ النَّقْلِ أنه لَمَّا نَزَلَ على النبي صلى اللّه عليه وسلم (وانْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبين) أَمَرَ عِلياً ، فقالَ لَهُ « يا عَليُّ إنَّ اللّه أَمَرَنِيْ أنْ أُنْذِرْ عَشِيْرَنِي الأَقْرَبِيْنَ ، فَضِقْتُ بذَلِكَ ذَرْعاً ، وَعَرَفْتُ أَنِيْ مَتَى أُبَادِيْهِمْ بهذَا الأَمْرِ أَرَى مِنْهُم ما أَكْرَهُ ، فَصَمَّتُ عَلَيْهَا ، حَتَّى جَاءَنِي جِبْرِيْلُ ، فَقَال لِيْ يا مُحَمَّدُ إِلا تَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ بِهِ يُعَذِّبُكَ رَبُّكَ . فَاصْنَعْ لَنَا صَاعاً مِنْ طَعَامٍ ، واجْعَلْ عَلَيهَا رِجْلُ شَاةٍ ، وامْلأْ لَنَا عُساً مِنْ لَبَنٍ .

ثُمَّ اجْمَعْ لِيْ بَنِيْ عَبْدِ المُطَّلِبِ حَتَّى أُبَلِّغُهُمْ مَا أُمِرْتُ بِهِ ،

فَفَعَلْتُ مَا أَمَرَنِيْ بِهِ ، ثُمَّ دَعَوْتُهُمْ لَه ، وَهُمْ يومَئِذٍ أَرْبَعُوْنَ رَجُلاً يَزِيْدُوْنَ رَجُلا أو يَنْقُصُوْنَـهُ ، فِيْهِمْ أَعْمَامُـهُ أَبُو طَالب وحَمْزَةُ والعَبَاسُ رَضِيَ اللّهُ عنْهُمَا وَأَبُوْ لَهَبٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوْا إلَيْـهِ ، دَعَانِيْ بـالطَّعـامِ الذِيْ صَنَعْتُهُ ، فَجِئتُ بِهِ .

فَلَمَّـا وَضَعْتُه تَنـاوَلَ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّهُ علَيـهِ وَسَلم جَذْبَـةً مِنَ اللَّحْمِ فَشَقَّهَا بأسْنَانِهِ، ثُمَّ أَلْقَـاهَا في نَـوَاحِيْ الصَّحْفَةِ ثم قـال خُذْ باسْمِ اللّهِ ، فَأَكَلَ القَـوْمُ حَتَّى مَالَهُمْ بِشَيءٍ حَـاجَةٌ ، وايْمُ اللّهِ إِن كَانَ الرَّجلُ الوَاحِدُ مِنْهُم ليَأكلُ مِثْلَ مَا قَدَّمتُ لِجَمِيْعِهِمْ

ثُمَّ قَـالَ اسْقِ القَوْمَ ، فَجِئتُهُم بـذَلِكَ العُسِ ، فَشَـرِبُـوا حَتَّى رَوَوْا جَمِيْعـاً ، وايْمُ اللّهِ انْ كَـانَ الـرَّجُـلُ الـواحِدُ مِنْهُم لَيَشْـرَبُ مِثْلَهُ .

فَلَمَّـــا أَرَادَ رَسُـولُ اللّهِ صَلى اللّهُ عليــه وسلم أنْ يُكَلِّمُهُمْ ، بَدَرَهُ أَبُوْ لَهَب فقَال سَحَرَكُمْ صَاحِبُكُم ، فَتَفرَّقَ القَومُ ، ولـم يُكَلِّمْهُم رسولُ اللّهِ صلَّى اللّهِ عليه وسلم .

فقـال الغَـدِ « يَـا عَلِيُّ إنَّ هَـذَا الـرَّجـلِ قَـدْ سَبَقَنِي إلى مَـا سَمِعْتَ ، فَتَفَرَّقَ القومُ قَبْلَ أنَ أُكَلِّمهُمْ ، فَعُدْ لَنـا مِن الطَّعَـامِ مِثْلَ مَا صَنَعْتَ ثُمَّ اجْمَعْهُمْ » فَفَعَلْتُ ، ثُمَّ جَمَعْتُهُم ، فَدَعَانِي بالطَعَامِ ، فَقَرَّبْتُهُ ففَعَلَ كَمَا فَعَلَ بالأَمْسِ ، فَأَكَلُوْا وَشَرِبُوْا .

ثُمَّ تكلَّمَ رَسُولُ اللّه صلى اللّهُ عليهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا بَنِيْ عَبدِ المُـطَّلِبِ إنِّي قَدْ جِئتُكُم بِخَيْـري الدُنْيـا والآخِرَةِ ، وَقَـدْ أَمَرَنِيْ اللّهُ

أنْ أدْعُـوَكُمْ إليهِ ، وَعَـرَضَ عَلَيْهِمْ مُؤآزَرَتَه على ذَلِـكَ ، فَلَمْ يُجِبْـهُ إلاَّ عَلِيُ بنُ أبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ ، فهَذَا مِنْ الأُمورِ الخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ ، أَظْهَرَهُ اللّهُ على يَـدَيْ نَبِيِّهِ صَلى اللّهُ عليـهِ وَسَلَّمَ تَصْدِيقـاً لَهُ .

٤٩ ـ ومِنْهَـا ما ذَكَـرَهُ في أَعْلاَمِ النُّبـوَّةِ ، أَنَّ مَعْمَرَ بنَ يَـزِيْد وَكَانَ أشْجَعَ قَـومِهِ ، اسْتَغَـاثَتْ به قـريشٌ ، وَشَكَوْا إليْـهِ رَسُولَ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، وَكَانَتْ بَنُوْ كِنَانة تَصْدُرُ عن رَأْيِـهِ ، وَتُطِيْـعُ أَمْرَهُ ، فَلَمَّا شَكَوْا إليْهِ ، قَالَ لَهُمْ إنِّيْ قَادِمٌ إلى ثَـلاَثٍ ، وَأُرِيْحُكُمْ مِنْـهُ ، وَعِنْدِيْ عِشْـرُوْنَ أَلْفِ مُدَجَّـجٍ ، فَلاَ أَرَى هَـذَا الحَيِّ ، مِن بَنِيْ هَاشِمٍ يَقْدِرُ عَلَى حَرْبِي .

وإنْ سَأَلُونِي الدِّيةَ ، أَعْـطَيْتُهُمْ عَشَرُ دِيَـاتٍ ، فَفِيْ مَالِيْ سَعَـةٌ وَهُوَ مَشْهُوْرٌ بالشَّجَاعَةِ ، والبَأْسِ ، فَلَبِسَ يَوْمَ وَعْدِهِ قُرَيْشاً سِـلاَحَهُ ، وظَـاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْن ، فَـوَافَقَهُم بـالحَـطِيْم ، وَرَسُـولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم في الحِجْرِ يُصَلِّيْ ، وَقَدْ عَرَفَ ذَلِـكَ ، فَمَا التَفَتَ، وَلاَ تَزَعْزَعَ ، وَلاَ قَصَّرَ في صلاةِ .

فَقِيْلَ لَهُ هَذَا مُحَمَّدٌ سَاجِدٌ ، فَأَهْوَى إليْـهِ . وَقَدْ سَـلَّ سَيْفَهُ ، وَأَقْبَلَ نَحْوه فَلَمَّا دَنَا مِنْـه رَمَى بِسَيْفِهِ ، وَعَـادَ ، فَلَمَّا صَـارَ إلى بابِ الصَّفَا ، عَثَرَ في دِرْعِه ، فَسَقَطَ ، فَقَامَ وَقَدْ أدْمَى وَجْهَهُ بالحِجَارَةِ ، يَعْـدُوْ كَأشَـدِّ العَدْوِ ، حَتَّى بَلَغَ البَـطْحَـاءَ ، مَـا يَلْتَفِتُ إلى خَلْفٍ ، فاجْتَمَعُوْا وَغَسَّلُوا ، عن وَجْهِهِ الدَّمَ ، وَقَـالُوْا : مَـاذَا أَصَابَـكَ ، قالَ

وَيْحَكُمْ ، المَغْـرُوْرُ مَنْ غَرَرْتُمُـوْهُ ، قَالُـوا مَا شَـأْنُكَ قَـالَ مَـا رَأَيْتُ كـاليَوم ، دَعُـوْنِي تَرْجِـعُ إليَّ نَفْسِيْ فَتَركُـوْهُ ، سَاعَـةً ، وَقَـالُـوا مَـا أَصَابَكَ يَا أَبَا اللَّيْثِ ، قَالَ إِنِّيْ لَمَّا دَنَـوْت مِنْ مُحَمَّدٍ ، فَـأَرَدْتُ أَنْ أَهْوِيْ بِسَيْفِي إِلَيْهِ ، أَهْوَى إِليَّ مِنْ عِنْدِ رَأْسِهِ شُجَاعَانِ ، أَقْرَعَـانِ ، يَنْفخَانِ بالنِّيْرَانِ ، تَلْمَعُ مِن أَبْصَارِهِمَا ، فَعَـدَوْتُ فَمَا كُنْتُ لأَعُـوْدَ ، في شَيْءٍ مِن مَسَاءَةِ مُحَمَّدٍ .

٥٠ ـ قَالَ وَمِن أَعْلامِهِ :

أنَّ كِلْدَةَ بنَ أَسَدٍ أَبَا الأَشَدِّ ، وَكَانَ مِنَ القوَّةِ بمَكَانٍ ، خَاطَرَ قُرَيْشاً يَوْماً في قَتْلِ رَسُوْلِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليـهِ وَسَلَّم ، فَأَعْـظَمُوْا لَـهُ الخَـطَرْ ، إنْ هُوَ كَفَـاهُمْ ، فَرَأى رَسُـوْلَ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم في الـطَّرِيْقِ يُـرِيْـدُ المَسْجِـدَ ، مَـا بَيْنَ دَارِ عَقِيـلٍ وعِقَـال ، فَجَـاءَ كِلْدَةُ ، وَمَعَهُ المِزْرَاقُ ، فَرَجَعَ المزراقُ في صَدْرِهِ ، فَـرَجَعَ فَـزِعاً ، فقـالَتْ لَهُ قُـرَيْشٌ مَالَـكَ يَا أَبَـا الأَشَدِّ ، فَقَـالَ وَيْحكُم ، مَا تَـرَوْنَ الفَحْلَ خَلْفِي ، قَالوا لا مَا نَرَىْ شَيْئاً ، قَال وَيْحكُم فإِنِّي أَرَاهُ ، فَلَمْ يَزل يَعْدُو حَتَّى بَلَغَ الـطَّائِفَ ، فَـاسْتَهْـزَأَتْ بـه ثَقِيْفٌ ، فقـال أَنَـا أَعْذُرُكم ، لَوْ رَأَيْتُم ما رَأَيْتُ لَهلَكْتُمْ .

واللّه أعلم وصلى اللّه على محمد وعلى آله وسلم .

« فصل »

٥١ ـ ومنها ارْسَالُ الـرِّيـحِ الشَّـدِيْـدَةِ عَلَى الأَحْـزَاب ، وَهُمْ قُـرَيْشٌ ، وَمَنْ مَعَهُم يَـوْمَ الخنـدقِ أَرْسَلَهَـا اللّهُ عَلَيْهِمْ لَيْـلاً ، قَـالَ عِكْرَمَةُ قَالَتِ الجَنُوبُ لِلشَّمَالِ لَيْلَةَ الأَحْزَاب ، انـطَلِقِي نَنْصُرُ رَسُـولَ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، فَقَالَتْ الشَّمَـالُ إِنَّ الحَـرَّةَ لا تَسْـرِي بلَيْلٍ ، وَكَانَتْ الرِّيحُ التِيْ أَرْسَلَهَا اللَّهُ عليهم الصَّبَا ، فَفَرُّوْا لِشِدَّتِهـا عن بَعْضِ أثقـالِهِم وأَمْتِعَتِهِم ، وَلَـوْ أَقَـامُـوْا إِلى الصَّبَـاحِ لَهَلَكُـوا جمِيْعاً .

وَهُوَ المَدْلُولُ عليه بقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَا أيهـا الذين آمنُـوا اذْكُرُوْا نعمةَ اللّهِ عليكم إِذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فأرسلنا عليهم رِيْحاً وَجُنُوداً لم تَرَوْهَا وَكان اللَّهُ بِما تَعملونَ بَصِيرا ﴾ .

فَفِي خَبَـرِ القِصَّةِ أَنَّ رَسُـولَ اللّهِ صَلى اللّهُ عليـه وسلم لَمَّـا رَأَى مِنْ أَصْحَابِهِ الجزَعَ لِطُولِ الحِصَارِ ، صَعِدَ إِلى الجَبَلِ فَـدَعَا الله وكـانَ فِيْمَا دَعَـاهُ أن قـال « واصْـرِف عنَّـا شَـرَّ هؤلاءِ القـومِ بقُوْتِكَ وَحَوْلِكَ وَقُدْرَتِكَ » .

فَنَزَلَ جبريل يُخْبِرهُ عن اللّهِ بأنَّهُ اسْتَجَابَ لَهُ وأمَرَ اللّهُ الرِّيْحَ والمَلائكةَ أنْ يَهْزُمُوْا قُرَيْشاً والأحْزَابَ تلْكَ اللَّيْلَةِ ، فَأَمَرَ صَلى اللّهُ عليه وسلم حُذَيْفَةَ بنَ اليمَانِ أنْ يَدْخُلَ مُعَسْكَرَهُمْ أيْ قُرَيْشٍ ، ويَأتِيْ بأخْبَارِهِم ، وقَالَ لَهُ إنَّ اللّه عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَخْبَرَنِي أنهُ أرسَلَ على قُرَيْشٍ الرِّيْحَ ، وَهَزَمَهُم .

قَالَ فَدَخَلْتُ في القَومِ والرِّيْحُ وَجُنُوْدُ اللَّهِ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ ، لا تُقرُّ لَهُمْ قِدْراً ، ولا ناراً ، ولا بِنَاءً ، فَقَطَعَتْ أَطْنَابَ الفِسْطَاطِ ، وقَلَعَتْ الأوْتَادِ ، وأكْفَأتِ القدُوْرَ ، وجَالَتِ الخَيْلُ بَعْضُهَا في بَعْضٍ ، وَكَثُر تَكْبِيْرُ المَلائِكَةِ في جَوَانِبِ المُعَسْكَرِ .

قَالَ وقَالَ أبُو سُفْيَانَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْش ، إنَّكُمْ وَاللَّه مَا أصْبَحْتُم بِدَارِ مَقَامٍ ، لَقَدْ هَلَكَ الكُرَاعُ والخُفُّ ، ولَقَيْنَا مِن شِدَّةِ الرِّيْحِ مَا تَرَوْنَ ، مَا تَطْمَئِنُ لَنَا قِدْرٌ ولا تَقُومُ لَنَا نَارٌ ، ولا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ ، فَارْتَحِلُوْا فإنِّيْ مُرْتَحِلٌ ، فَرُدُّوْا بِغَيْظِهِمْ ﴿ وَكَفَى اللّهُ المُؤْمِنِيْنَ القِتَالَ ﴾ .

فالبَارِي جَلَّ وَعَلاَ أَرْسَلَ الرِّيْحَ عَلَى أُوْلَئك المُشْرِكِيْنَ ، نَصْراً لِنَبِيِّه مُحَمَّدٍ صلَّى اللّهُ عليه وسلم وَتَصْدِيْقاً لِدَعْوَتِهِ ، واسْتِجَابَةً لِدُعَائِهِ ، لِعِلْمِهِ تَعَالَى أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صلى اللّهُ علي وسلم ذلكَ اليوم لا يَقُوْمُونَ بِقِتَالٍ أُولئِكَ فَفِي هَذِهِ مُعْجِزَةٌ عَظِيْمَةٌ .

٥٢ ـ ومِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُوْ هُرَيْرَة رَضِيَ اللّهُ عنه ، قَالَ لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ ، أُهْدِيَتْ لِلنَبي صلى اللّه عليه وسلم شاةٌ فِيهَا سُمٌّ

فقال « اجْمَعُوْا لِي مَنْ كَانَ هُنَا مِنَ اليَهُوْدِ » فَجُمِعُوا ، فقال لَهُمْ « إنِّي سَائِلُكم عن شَيْءٍ ، فَهَلْ أنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ » ؟ قَالُوا نَعَمْ ، يَا أَبَا القَاسِمِ ، فقال لَهُمْ « مَنْ أَبُوكُمْ » ؟ قالُوا : فُلاَنٌ ، قال : « كَذَبْتُمْ ، أَبُوكُمْ فُلانٌ » قالُوا صدَقْتَ ، وَبَرَرْتَ ، قَالَ « فَهَلْ أنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ » ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، وَإِنْ كَذَبْنَاكَ عَرَفتَ ، كَمَا عَرَفتَهُ في أَبِيْنَا ، قَالَ لَهُمْ « مَنْ أَهْلُ النارِ » ؟ قَالُوا : نَكُونُ فيها يَسِيْرا ، ثمَّ تَخْلُفُونا فِيْهَا .

قَالَ « اخْسَؤُا فِيْهَا ، واللَّهِ لا نَخْلِفُكُمْ فِيْهَا أَبَدَا » قَالَ « هَلْ أنْتُم صَادِقِيّ عَنْ شَيْءٍ إنْ سَأَلْتُكُم عَنْهُ » ؟ قَالُوا نَعَمْ ، قَال « هَلْ جَعَلْتُم في هَذِهِ الشاةِ ؟سُمَّاً » ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَال « فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ » ؟ قَالُوا : أَرَدْنَا إنْ كُنْتَ كَاذِباً نَسْتَرِيْحُ مِنْكَ، وإنْ كُنتَ صَادِقاً لَمْ يَضُرُّك ، رواه البخاري .

٥٣ ـ ومِنْ ذلكَ مَا وَرَدَ عَن صَفْوَانَ بنِ عَسَّالٍ : قَالَ بَعْض اليَهُود لِصَاحِبه، اذْهَبْ بِنَا إلى هَذَا النَّبي ، فَقَا لَهُ صَاحِبُهُ ، لاَ تَقُلْ نَبِيٌّ ، إِنَّه لَوْ سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أعْيُنٍ ، فَأَتَيَا النَّبيَّ صلى اللَّهُ عليه وسلم فسألاَهُ عَن تِسْعِ آياتٍ بَيِّنَاتٍ .

فقال لَهُمْ « لاَ تُشْرِكُوا باللّهِ شَيْئاً ، ولا تَسْرِقُوا ، ولاَ تَزْنُوا ، ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللّهُ إلاَّ بالحَقِّ ، ولا تَمْشُوْا بِبَرِيءٍ إلى ذِيْ سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَه ، ولا تَسْحَرُوْا ، ولا تَأْكُلُوا الرِّبَا ، ولا تَقذِفُوا مُحْصَنَةً ، ولا تُوَلُوا الأَدْبَارَ يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَعَلَيْكُم خَاصَّةً اليَهُوْدُ ،

أنْ تَعْـدُوْا يومَ السَّبْتِ » فَقبَّـلا يدَهُ ، وَرِجْلَهُ ، وَقَـالا : نَشْهَـدُ أَنَّـك نَبِيٌّ .

فقالَ « مَا يَمْنَعُكُمَا أنْ تَتْبَعَانِيْ ؟ قَالاَ إنَّ دَاوُدَ دَعَا رَبَّـهُ ، أَنْ لا يَـزَالَ مِن ذُرِّيتِهِ نَبِيٌّ ، وَإنـا نَخافُ إن اتَّبعنَـاكَ ، تَقْتُلُنَا اليَهُـودُ ، للترمذي والنسائي .

٥٤ ـ وعن جابر قال غَزَوْنَـا مَعَ النبي صلى اللّهُ عليـه وسلم غـزاةً قبلَ نَجْـدٍ ، فَأدْرَكْنَـا النبيّ صلى اللّه عليه وسلم في القَـائِلةِ في وَادٍ كَثِيْرِ العِضَاه ، فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فَعَلَّقَ سَيْفَـهُ بغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِها .

وَتَفَرَّقَ النَّاسُ في الوَادِيْ ، يَسْتَظِلُّون بالشَّجَرْ ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : « إنَّ رَجُلًا أتانِيْ وَأَنَا نَائِمٌ ، فَأَخَذَ السَّيْفَ ، فَاسْتَيْقَظْتُ ، وَهُوَ قَائِمٌ على رَأْسِيْ ، والسَّيْفُ صَلْتاً في يدِهِ ، فقالَ مَنْ يَمْنَعُك مِنِّيْ ، قُلْتُ اللَّهُ ، فَشَامَ السَّيْفَ فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ» ثمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ وَكَانَ مَلِكُ قَوْمِهِ ، فانْصَرَفَ حِيْنَ عَفَى عَنْهُ ، فقال لا أَكُوْنُ في قَوْمٍ هُمْ حَرْبٌ لَكَ ، متفق عليه .

٥٥ ـ ومِنْهَا إِخْبَارُهُ صلى اللّه عليه وسلم أنَّ الأَرْضَةَ أَكَلَتْ مِنْ صَحِيْفَةِ قريشٍ ما فيه ظُلْمٌ ، وَقَطِيْعَةُ رَحِمٍ .

وأَبْقَتْ ما فِيْهَا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تعالى .

ومِن حَدِيْثِهَا أنَّ قُرَيْشَاً كَتَبُوا فِيْمَا بَيْنَهُمْ صَحِيْفَةً بِأَنْ لا يَبِيْعُوا بَنِي

هَاشِمٍ ، ولاَ يَبْتَاعُوْا مِنهم ، ولاَ يُنَاكِحُوهُم ، ولا يُكَلِّموهم ، أَوْ يَدْفَعُوْا إلَيْهِمْ مُحَمَّداً لِيَقْتُلُوه ، وَدَفَنُوْها في الكَعْبَةِ ، فَقَامَ أَبُوْ طَالِبٍ وَمَنْ مَعه بِحِمَايَةِ النبي صلى اللّهُ عليه وسلم ، فَبَقُوْا مَحْصُوْرِيْنَ في الشِّعْبِ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً .

قال ابنُ هِشَامٍ وَقَدْ ذَكَرَ بعضُ أَهْلِ العِلْمِ أن رسولَ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم قال لأَبِي طَالِب : يا عمٌّ ، إنَّ اللَّهَ قَدْ سَلَّطَ الأَرَضَةَ على صَحِيْفَةِ قُرَيْشٍ فَلَمْ تَدَعْ فِيْهَا اسْماً هُوَ لِلَّهِ إلاَّ أَثْبَتَتْهُ فِيْهَا ، وَنَفَتْ مِنْهَا الظُّلْمَ ، والقَطِيْعَةَ ، والبُهْتَانَ ، فقالَ أَرَبُكَ أَخْبَرَك بهذا ، قال نَعَمْ ، قَالَ فَوَاللَّهِ مَا يَدْخُلُ عَلَيْك أَحَدٌ .

ثم خَرَجَ إلى قُرَيْشٍ فقال يَا مَعْشَرَ قريشٍ ، إنَّ ابنَ أخِيْ أَخْبَرَنِيْ بكذَا وَكَذَا فَهَلُمَّ صَحِيْفَتَكُم ، فإنْ كَانَتْ كَمَا قَالَ ابْنُ أخِيْ فانتَهُوْا عن قَطِيْعَتِنَا ، وانْزِلُوا عَمَّا فِيْهَا ، وانْ كَانَ كَاذِباً ، دَفَعْتُ إليكُمْ ابنَ أخِيْ ، فقالَ القومُ رضِيْنا ، فَتَعَاقَدُوا على ذَلِكَ .

ثم نَظَرُوْا فإذا هِيَ كَمَا قَال صلى اللّهُ عليه وسلم ، فزَادهُمْ ذَلِكَ شَراً فَعِنْدَ ذَلِكَ صَنَعَ الرَّهْطُ مِنْ قُرَيْشٍ في نَقْضِ الصَّحِيْفَةِ ما صَنَعُوا .

٥٦ ـ ومِنْهَا مَا رُوِيَ عنهُ صَلى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قَالَ لِعَلِيٍّ يَوْمَ أُحُدٍ بَعْدَ انْجِلاَءِ الهَيْجاءِ ، إنَّ قريشاً لَنْ يُصِيْبُوا مِنَّا مِثْلَها بَعْدَ هَذَا ، حَتَّى يَفْتَحَ اللّهُ عَلَينَا مَكَّةَ ، فكانَ الأمرُ كَمَا قَالَ ، فإنَّهُ لَمْ تُصِبْ قُرَيْشٌ مِنْ أَصْحابِ النبي صلى اللّهُ عليه وسلم بَعْدَ أُحُدٍ مَا أَصَابَتْ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ .

وَمَا زَالَ أمرُ النَّبي صلى اللّهُ عليه وسلم يَعْلُو عَلَيْهم حَتَّى غَزَاهُم

في عَقْرِ دَارِهِم ، وَمَحَلِّ قَرارِهِم ، وَلَمْ يَسْتَطِيْعُوا دَفْعَهُ ، بل اسْتَأْسَرُوا لَهُ رَاغِمِينَ ، فَمَنَّ عَلَيْهِم فاطْلَقَهُم مِن حِبَالَةِ القَتلِ ، واعْتَقَهُم مِن رِقِّ الأَسْرِ، ونَادَاهُمْ وَهُم مَرْعُوبُون «أخرُجُوْا فأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ» وذلك يَوْمُ فَتْحُ مكة بالسَّنَةِ الثامِنةِ مِن الهِجرة .

٥٧ ـ ومِنْ ذَلِكَ ما وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ رضي اللَّه عنها ، أنها قالتْ لِلنَّبي صلى اللَّه عليه وسلم، هَلْ أَتَى عَلَيكَ يَوْمٌ كَانَ أَشد مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ، قال «لَقَدْ لَقِيْتُ مِن قَوْمِكِ ، وكانَ أَشَدَ مَا لَقِيْتُهُ منهم يومَ العَقَبةِ ، اذْ عَرَضْتُ نَفْسِيْ على ابنِ عَبْدِ يا لِيْل ، بنِ عَبْدِ كِلَال ، فَلَمْ يُجِبْنِيْ إلى مَا أَرَدْتُ ، فانْطَلَقْتُ ، وأنا مَهْمُومٌ على وَجْهِيْ ، فَلَمْ اسْتَفِقْ إلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثعالب، فَرَفَعْتُ رأسِيْ ، وَإِذَا أنا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتنِي ، فَنَظَرْتُ فإِذَا فِيهَا جِبْرِيْلُ عليه السلامُ ، فنَادَانِيْ ، فقال إن اللّه تعالى قَدْ سَمِعَ قَولَ قَومِكَ لَكَ ، وَما رَدُّوْا عَلَيْكَ ، وقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ ، لِتَأْمُرَهُ بما شِئْتَ فِيْهِم، فَنَادَانِيْ مَلَكُ الجبالِ ، فسلَّم عليَّ ، ثم قال: يا مُحَمَّدُ ، إنَّ اللَّهَ قد سَمِعَ قَولَ قَوْمِكَ لَك ، وأنا مَلَكُ الجِبَال ، وَقَد بَعَثَنِيْ رَبِّي إِلَيْكَ لِتأمُرَنِيْ بأمْرِكَ ، فَمَا شِئْتَ ، إنْ شِئْتَ أَطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الأخشَبَيْن» فقال النبي صلَّى اللّه عليه وسلم «بَلْ أَرْجُوْ ، أَنْ يُخرجَ اللَّهُ مِن أَصْلابِهِمْ ، مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لا يُشْرِكُ به شَيْئا» متفق عليه .

٥٨ ـ ومِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن سُهَيْلَ بنِ أبي صَالِحٍ عن أبيهِ عن أبي هُرَيْرة قال : صَعِدَ النبيُّ صلى اللَّه عليه وسلم حِرَاءَ ، ومَعَه أَبُو بكرٍ ، وعُمَرُ ، وعُثمانُ ، وعليٌ ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف ، والزبيرُ ، وطلحةٌ ، وسعيدٌ ، فَتَحرَّكَ الجبلُ ، فقال النبي صلى الله عليـه وسلم اسْكُنْ

حِرَاءَ ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ إلا نَبِيٌّ ، أَوْصديق، أو شَهِيْدٌ ، فَسَكَنَ الجَبَلُ .

٥٩ ـ ومِنْ أعلامِ نُبُوَّتِهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ بَعَثَ خالدَ بنَ الوليدِ مِن تَبُوْكٍ ، في أَرْبعِ مِائةٍ وعشْرِيْنَ فَارِساً ، إِلى أُكَيْدِرِ دُوْمَةِ الجَنْدَلِ ، مِن كِنْدَةَ ، فَقَالَ خالدٌ يا رسولَ اللهِ ، كَيْفَ لِيْ بِهِ وَسَطَ بلادِ كَلْبٍ ، وَإِنَّما أنا في عَدَدٍ يَسِيْرٍ ، فقالَ سَتَجِدُهُ يَصِيْدُ البَقَرَ ، فَتَأْخُذَهُ، فَخَرَجَ خالدٌ حَتَّى إذا كَانَ مِنْ حِصْنِهِ بِمَنْظَرِ العَينِ ، في لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ صافِيَةٍ ، وهُو عَلَى سَطْحٍ لَهُ ، مِن شِدَّةِ الحَرِّ ، مَعَ امْرَأَتِهِ ، فَأَقْبَلَتِ البَقَرُ ، تَحُكُّ بِقُرُوْنِها بابَ الحِصْن ، فقالَ أكَيْدِر دَوْمة : وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ بَقَراً جَاءَتْنَا لَيْلاً غيرَ هَذِهِ اللَّيْلَةُ ، لَقَدْ كُنْتُ أُضَمِّرُ لَهَا الخَيْلَ ، إذا أَرَدْتُهَا شَهْراً أَو أَكْثَرَ ، ثُمَّ نَزَلَ فَرَكِبَ بالرِّجالِ ، والآلةِ ، فَلَمَّا فَصَلُوا مِنَ الحِصْنِ ، وَخَيْلُ خالدٍ تَنْظُرُ اليهم ، لا يَصْهَلُ مِنْهَا فَرَسٌ ، ولا يَتَحَرَّكُ ، فَسَاعَةَ فَصَلَ ، أَخَذَتْهُ الخَيْلُ ، فاسْتُؤْسِرَ أُكَيْدِرُ دَوْمَة .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى .

يا قَومُ فَرْضُ الهِجْرَتَيْنِ بِحَالِهِ
والـلّهِ لم يُنْسَخْ إلى ذَا الآنِ
فالهِجرةُ الأولَى إلى الرحمَنِ بالْـ
إخْلَاصِ في سِرٍ وفي إعلانِ
حتى يَكُونَ القَصْدُ وجهُ اللّهِ بالْـ
أقْوَالِ والأعمالِ والإيمانِ
ويَكُونُ كُلُ الدينِ لِلرَّحمنِ ما
لِسِوَاهُ شيء فيه مِن إنسانَ
والحَبُ والبُغضُ اللذَيْنِ هُمَا لِكُلِ ولايَةٍ وَعَداوةٍ أصلان

لِلَّهِ أيضاً هَكَذَا الإِعْطَاءُ والسَّمْعُ اللذانِ عَلَيْهِمَا يَقِفَانِ
واللّهِ هذا شطرُ دِينِ اللّهِ والتَّحْكِيمِ لِلْمُخْتَارِ شَطْرٌ ثانِ
والهجرةُ الأُخْرَى إلى المَبْعُوثِ بالْـ
إِسْلامِ والإِيمانِ والإحسانِ
أَتَرَوْن هَذي هِجْرَةَ الأَبْدَانِ لا
واللّهِ بَل هِيْ هِجْرَةُ الإيمانِ
قطعُ المَسَافَةِ بالقُلُوبِ إليهِ في
دَرَكِ الأُصُولِ مَعَ الفُرُوْعِ وذانِ
أبداً إليهِ حُكْمُهَا لا غَيْرُهُ
فالحُكْمُ مَا حَكَمَتْ به النَّصَانِ
يا هجرةً طالَتْ مَسَافَتُهَا على
مَنْ خُصَّ بالحِرمَانِ والخُذْلاَنِ
يا هِجْرةً طَالَتْ مَسَافَتُهَا عَلَى
كَسَلان مَنْخُوبِ الفُؤادِ جَبَانِ
يا هِجْرَةً والعَبْدُ فَوْقَ فِرَاشِهِ
سَبَقَ السُّعَاةَ لِمَنزلِ الرِّضْوَان
سَارُوا أَحَثَّ السَّيْرِ وهُوَ فَسَيْرُهُ
سَيْرَ الدَّلِيْلِ ولَيْسَ بالذَّمِلانِ
هَذَا وَتَنْظُرُهُ أَمَامَ الرَّكْبِ كَالْعَلَمِ العَظِيم يُشَافُ في القِيْعَانِ
رُفِعَتْ لَهُ أعلامُ هَاتِيْكَ النُّصُوْ
صِ رُؤُسُها شَابَتْ مِن النِّيْرانِ

نـارٌ هِـيَ النُـوْرُ الـمُـبِـيْـنُ ولَـمْ يَـكُـنْ
لِـيَـراهُ إلا مَــنْ لَــه عَــيْــنَــانِ

مَـكْـحُـولـتَـانِ بـمِـرْوَدِ الـوَحْـيَـيْـنِ لا
بـمَــرَاوُدِ الآرَاءِ والـهَـذَيـانِ

فـلِذَاكَ شَـمَّـرَ نَـحْـوَهَـا لَـمْ يَـلْـتَـفِـتْ
لا عــن شَــمَــائِـلِهِ ولا أيْــمَــانِ

يـا قـومُ لَـو هَـاجَـرْتُـمُـوْا لَـرَأَيْـتُـمُ
أَعْـلامَ طَـيْـبَـةَ رُؤْيَـةً بـعـيـانِ

وَرَأَيْـتُـمُ ذاكَ الـلِّـوَاءَ وَتَـحْـتَـهُ الـرُّ
سْـلُ الـكِـرامُ وَعَـسْـكـرُ الإيْـمَـانِ

أصـحـابَ بَـدْرٍ والأُولى قَـدْ بَـايَـعُـوْا
أزكَـى الـبَـرِيَّـةِ بَـيْـعَـةَ الـرِّضْـوَانِ

وَكَـذَا المُـهَـاجِـرَةُالأُولَى سَبَقُوا كَـذَا الْـ
أَنْـصَـارُ أَهْـلُ الـدارِ والإِيْـمَـانِ

والـتَّـابِـعُـونَ لَـهُـم بِـإِحْـسَـانٍ وَسَـا
لِـكُ هَـدْيِـهِـمْ أبـداً بـكُـلِ زَمَـانِ

لَـكِـنْ رَضِـيْـتُـمْ بـالأمَـانِـي وابْـتُـلِيْـتُـم
بـالـحـظوظ ونَـصْـرَةِالاخْـوَانِ

بَـلْ غَـرَّكُم ذَاكَ الغَـرُوْرُ وسَـوَّلَـتْ
لـكـمُ الـنُـفُـوسُ وَسَـائِسَ الـشَّـيْـطَانِ

وَنَبَـذْتُـم غِـلَّ الـنُـصُـوصِ وَرَاءَكُـمْ
وقَـنِـعْـتُـمُ بقطارة الآذانِ

وَتَـرَكْـتُـمُ الـوَحْـيَيْنِ زُهْـدَاً فِـيْـهِـمَـا
وَرَغِـبْـتُـمُ فـي رأيِ كُـلِّ فُـلانِ

وعَـزَلْـتُـمُ الـنَّـصَـيْـنِ عَـمَّـا وُلِـيَّـا
لِـلْـحُـكْـم فـيـه عَـزْلَ ذِي عُـدْوَانِ

وَزَعَـمْـتُـمْ أنَّ لَـيْسَ يَـحْـكُـم بَيْـنَـنَـا
إلا الـعُـقُـولُ ومَـنْـطِقُ الـيَـوْنَـانِ

حَتَّى اذا انْـكَشَـفَ الغِـطَـاءُ وَحُصِّـلَتْ
أعْـمَـالُ هـذا الـخَـلْقِ بـالـمِـيْـزَانِ

وإذا انْجَلَى هَـذَا الغُبَارُ وَصَـارَ مَيْـدَانُ السِّبَـاقِ تَنَـالُـه العَيْنَـانِ

وبَـدَتْ على تِلكَ الـوُجُـوهِ سِمَـاتُـهَـا
وسْـم الـمَـلِيْـكِ الـقَـادِرِ الـدَّيَـانِ

مُـبْـيَـضَّـةً مِـثْـلَ الـرِّيَـاضِ بـجـنَّـةٍ
والـسُـوْدُ مِـثْـلَ الـفَـحْـمِ لِلنّـيْـرَانِ

فَـهُـنَـاكَ يَـعْـلَمُ رَاكِـبٌ مـا تَـحْـتَـهُ
وهُـنَـاكَ يُـقْـرَعُ نَـاجِـذُ الـنَّـدْمَـانِ

وهُـنَـاكَ تَعْـلَم كُـلُّ نَفْسٍ مَـا الـذِي
مـعَـهَـا مِـن الأَرباحِ والـخُـسْـرَانِ

وهُنَـاكَ يَعْلَمُ مُؤْثِـرُ الآراءِ والشَّـطحـاتِ والهَـذَيـانِ والبُـطْلانِ

أيَّ البَضَائِعِ قَد أَضاعَ وما الذي
مِنْهَا تَعَوَّضَ في الزَمَانِ الفَانِ
سُبْحَانَ رَبِ الخَلْقِ قَاسِمِ فَضْلِهِ
والعَدْلِ بَيْنَ الناسِ بالمِيْزَانِ
لو شَاءَ كان النَاسُ شَيْئاً واحِداً
ما فِيْهِمُ مِن تَائِهٍ حَيْرَانِ
لَكِنَّه سُبْحَانَه يَخْتَصُّ بالْفضلِ العَظِيمِ خُلاَصَةَ الإِنسانِ
وسِوَاهُمُ لا يَصْلَحونَ لِصَالِحٍ
كَالشَّوكِ فَهْوَ عِمَارَةُ النِيْرَانِ
وعِمَارَةُ الجَنَاتِ هُمْ أهلُ الهُدَى
اللّهُ أكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَان
فَسَلِ الهِدَايَةَ مَنْ أزمَّه أمْرِنَا
بِيَدَيْهِ مَسْأَلةَ الذَلِيْلِ العَانِ
وسَلِ العِيَاذِ مِن اثْنَتَيْنَ هُمَا اللتَا
نِ بِهُلْكِ هَذا الخلقِ كافِلَتَانِ
شَرِ النُفُوسِ وسَيءِ الأعْمَالِ مَا
والَّلهِ أعظَمُ مِنْهُمَا شَرَّانِ
وَلَقد أتَى هَذَا التعوُذُ مِنْهُمَا
في خُطْبَةِ المَبْعُوثِ بالقُرانِ
لو كَانَ يَدْرِيْ العَبْدُ أَنَّ مُصَابَهُ
في هذِهِ الدنيا هُو الشَّرانِ

جَـعَـلَ الـتَّـعَـوُذَ مِـنـهُـمَـا دَيْـدَانَـهُ
حَـتَّـى نَـرَاهُ دَاخِـلَ الأكْـفَـانِ

اللهم ثَبِّتْ مَحَبَّتَكَ في قلوبنا وَقَوِّهَا ووفقنا لِشُكرِكَ وذكرك وارزقنا التأهُّبَ والاسْتِعْدَاد لِلِقَائِكَ واجْعَلْ خِتَامَ صَحَائِفِنَا كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى اللّه على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فصل »

٦٠ ـ ومِنْهَا أَخْذُ اللَّهِ المُشْرِكِيْنَ المُسْتَهْزِئِينَ بالنبيِّ صلى اللّهُ عليه وسلم بما شَغَلَهُم عنه وأَزَالَ مَنْعَهم إيَّاهُ عن تَبْلِيْغِ الرِّسالةِ ، وهُوَ المُشَارُ إلَيْهِ بِقَولِهِ تعالى ﴿ انَّا كَفَيْنَاكَ المستهزئين ﴾ .

وهُمْ خَمْسَةُ نَفَر مِن رؤساء قُرَيْش ، الوَلِيْدُ بنُ المُغِيْرةِ الْمَخْزُوْمِي ، وكانَ رَأسَهم ، والعَاصُ بنُ وائِلٍ السَّهْمِي ، والأسْودُ بنُ عبْدِ المُطَّلِبِ بنِ الحَارِثِ بنِ أسَدٍ بنِ عَبْدِ العُزى ابنِ زَمْعَةَ .

وكَانَ رسولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم قَدْ دَعَا عَلَيْهِ ، فقال « اللَّهم اعْمِ بَصَرَهُ ، وأثْكِلْه بِولَدِه » والأسْوَدُ بنُ عَبْدِ يَغُوْثَ ابنِ وَهْبٍ ، والحَارِثُ بنُ قَيْسٍ بنِ الطَّلاطِلَة .

فأَتَى جِبْرِيْلُ النبيَّ صلى اللّه عليه وسلم والْمُسْتَهْزِؤُن يطُوفُونَ بالبَيْتِ .

فَقَامَ جِبْرِيْلُ إلى جَنْبِه ، فَمرَّ به الوَلِيْدُ بنُ المُغِيْرَةِ ، فقال جِبْرِيْلُ يا محمدُ كيفَ تَجِدُ هَذَا ، فَقَالَ « بِئْسَ عَبْدُ اللَّهِ » ، فقال قد كُفِيْته ، وَأَوْمَأَ

إلى سَاقِ الوَلِيْدِ ، فَمرَّ برَجُل مِن خُزاعَةَ نَبَّالٍ يَرِيْشُ نِبالَهُ ، وَعَليهِ بُرْديَماني ، وهُوَ يَجُرُّ ازارَهُ ، فَتعَلَّقَتْ شَظِيَّةٌ من نَبْلِهِ بازَارِه ، فَمنَعَهُ الكِبْرُ أنْ يُطأْطِيءَ رَأْسَهُ فينزعَها ، وَجعَلَتْ تَضْرِبُ سَاقَهُ ، فَخدَشَتْهُ ، فَمَرِضَ مِنْهَا فَمَاتَ .

وَمَرَّ بِهِ العَاصُ بنُ وَائِلٍ ، فَقَال جِبْرِيْلُ كَيْفَ تجدُ هَذا يَا مُحَمَّدُ ، قال « بِئْسَ عَبْدُ اللَّهِ » ، فأشَارَ جِبْرِيْلُ إلى أخْمُصِ رِجْلَيْهِ ، وَقَالَ قَدْ كُفِيْتَه ، فَخرج على حِلَتِه ، وَمَعه ابْنَانِ لَهُ يَتَنَزَّه ، فَنَزَلَ شِعباً مِن تِلْكَ الشِّعَابِ ، فَوَطِيءَ على شُبْرُقَةٍ ، فَدَخَلْت مِنْها شَوْكَةٌ في أخْمُصِ رِجْلِهِ ، فَقَالَ لُدِغْتُ لُدِغتُ، فَطَلَبُوا فَلَمْ يَجِدُوْا شَيْئاً ، وانْتَفَخَتْ رِجْلُهُ ، حَتَّى صَارَتْ مِثْلَ عُنُقِ البَعِيْرِ ، فَمَاتَ مَكَانَهُ .

فَمَرَ بهِ الأَسْوَدُ بنُ عَبدِ المُطَّلِبِ ، فَقَالَ جِبْرِيْلُ كَيْفَ تَجِدُ هَذا يَا مُحَمَّدُ ، قال « بِئْسَ عَبْدُ اللّهِ فأشَارَ بيده الى عَينيه ، وَقَال : قد كفيته ، فعَمَى ، قال ابنُ عباسٍ رماهُ جِبْرِيْلُ بورَقَةٍ خضراءَ ، فعَمِيَ فَذَهَبَ بَصَرُهُ ، وَوَجِعَتْ عَيْنَاهُ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُ بِرَأْسِهِ الجِدَارَ ، حَتَّى هَلَكَ .

وَمَرَّ بِهِ الأسْوَدُ بنُ عَبْدِ يَغُوْثَ ، فَقَالَ جِبْرِيْلُ كَيْفَ تَجِدُ هَذَا يَا مُحَمَّدُ ، قال « بِئْسَ عبْدُ اللّهِ عَلَى أنَّه ابنُ خالِيْ » فقال : قَدْ كُفِيْتَهُ . وأَشَارَ إلى بَطْنِهِ ، فاسْتَسْقَى بَطْنُه فَمَاتَ، وَمَرَّ بِهِ الحَارِثُ بنُ قَيْسٍ ، فقال جِبْرِيْلُ كيف تَجِدُ هَذَا يَا مُحَمَّدُ ، فقال « عَبْدَ سُوْءٍ » فَأَوْمَأ إلى رَأسِهِ ، وَقَالَ قَدْ كُفِيْتَهُ ، فامْتَخطَ قَيْحاً ، فقَتَلَهُ ، وَقِيْلَ أكَلَ حُوْتاً مَالِحاً ، فَلَمْ يَزَلْ يَشْرَبُ حَتَّى انقَدَّ بَطْنُهُ .

٦١ ـ ومِن أَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ صلى الله عليه وسلم ، ما رُوِيَ أَنَّ الحَطَمَ ـ واسْمُهُ شُرَيْحُ بنُ صَبِيْعَةَ ، البَكْرِي ـ أَتَى المدينةَ ، وَخَلَّفَ خَيْلَهُ خارِجَ المَدِيْنَةِ ، وَدَخَلَ وَحْدَهُ ، على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقالَ لَهُ إلامَ تَدْعُوْ الناسَ ، فقال « إلى شَهَادَةِ أنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رسُوْلُ اللّهِ وأقامِ الصلاة وايتاءِ الزكاةِ » .

فقال حَسَنْ، وَلَكِنْ أنْظِرْنِي ، فَلِيَ مَنْ أُشَاوِرُهُ ، فلا أَقْطَعُ أمْراً دُوْنَهُم ، وَلَعَلِّي أُسْلِمُ ، وَآتيَ بِهِمْ ، وَكَانَ النبي صلى اللّهُ عليه وسلم قَدْ قَالَ لِإصْحَابِهِ « يَدْخُلُ اليومَ عَلَيْكم رَجُلٌ من رَبِيْعَةَ يَتَكَلَّم بِلسَانِ شَيْطَانٍ » ثم خَرَجَ شُرَيْحٌ ، مِن عِنْدِهِ ، فَقَالُ صلى اللّهُ عليه وسلم « لَقَدْ دَخَلَ بوَجْهِ كَافِرٍ، وَخَرجَ بِقَفا غَادِرٍ ، وَمَا الرَّجُلُ بِمُسْلِمْ » فَمرَّ بِسَرْحِ المَدِيْنَةِ ، فاسْتَاقَهُ، وانْطَلَقَ ، فاتَّبَعُوهُ فلم يُدْرِكُوهُ .

فَلَمَّا كَان العامُ القَابلُ ، خَرَجَ حاجاً ، في حُجَّاج بَكْرِ بنِ وَائِلٍ ، مِنَ اليَمامةِ ، ومَعَهُ تِجَارَةٌ عَظِيْمَةٌ وَقَدْ قَلَّدُوْ الهَدْيَ فَقَال المُسْلِمُونَ لِلنبي صلى اللّهُ عليه وسلم هَذَا الحَطْمُ، قَدْ خَرَجَ حاجاً ، فَخَلِّ بَيْنَنا وَبَيْنَهُ .

فَقَا صلى اللّهُ عليه وسلم « إنَّهُ قَلَّدَ الهَدْيَ » فَقَالُوا يا رَسُولَ اللّه ، هَذا شَيْءٌ كنّا نَفْعَلُه في الجَاهِلِيَّةِ ، فأبَى النَّبيُّ صلَى اللّهُ عليه وسلَّم ، فأنْزَلَ اللّهُ عزَّ وَجلَّ ﴿ يَا أيها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللّهِ ، ولا الشَّهْرَ الحَرامَ ، ولا الهَدْيَ ﴾ الآية .

٦٢ ـ ومِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، قَوْلُهُ في لَيْلَةَالإسْرَاء ، حِيْنَ أَصْبَحَ « إنَّ من آيةِ مَا أقولُ لَكُمْ ، إنّي مَرَرْتُ بعِيْرٍ لَكُمْ ، في مَكَانِ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ أَضَلُّوا بعيراً لَهُمْ ، فَجَمَعَهُ لَهُم فُلانٌ ، وإنَّ مَسِيْرَهُم يَنْزِلُون بِكَذا ،

ثمَّ كَذَا ، وَيأتُونكُم يَوْمَ كَذَا وكَذَا ، يَقْدُمُهُم جَملٌ آدَمُ ، عَلَيْهِ مِسْحٌ أَسْوَدْ ، وَغِرَارَتَانِ ، سَوْدَاوَانِ » فَلَمَّا كانَ ذَلِكَ اليَوْمُ ، أَشْرَفَ الناسُ يَنْظُرُونَ ، حِيْنَ كانَ قَرِيْباً مِنْ نِصْفَ النهارِ ، حَتَّى أَقْبَلَتِ العِيْرُ ، يَقْدُمُهُمْ ذَلِكَ الجَمَلُ ، الذِيْ وَصَفَهُ رَسُولُ اللّهِ عليه وسلم .

فكَانَ كَمَا أَخْبَرَ .

٦٣ ـ ومِن ذَلِكَ دَعَاؤُه صَلَّى اللّهُ عليه وسلم عَلَى أَفْرَادٍ مِنَ المُشْرِكيْنَ أَصْحَابِ الْقَلِيْب ، فَعَنِ ابنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللّهُ عنه قالَ : بَيْنَما رَسُوْلُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم يُصَلِّي عندَ البَيْتِ ، وأبو جَهْلٍ ، وَأَصْحَابُهُ ، جُلُوسٌ ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُوْرٌ بالأَمْسِ ، فقالَ أَبُوْ جَهْلٍ ، أَيُكُمْ يَقُوْمُ إلى سَلاَجَزُوْرِ بَنِيْ فُلانٍ ، فَيَضَعُهُ بَيْنَ كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إذَا سَجَدَ ، فَانْبَعَثَ أشْقَى القَوْمِ ، فَأَخَذَهُ .

فَلَمَّا سَجَدَ النبيُّ صلى اللّهُ عليه وسلم وَضَعَهُ بَيْنَ كَتفَيهِ ، فَاسْتَضْحَكُوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهم يَمِيْلُ على بَعْضٍ ، وأَنَا قَائِمٌ أنْظُرُ ، لَوْ كَانَتْ لِيْ مَنعَةٌ ، طَرَحْتُه عَنْ ظَهْرِهِ ، والنبي صلى اللّهُ عليه وسلم ، ما يَرْفَعُ رأْسَه ، حَتَّى انْطَلَقَ انْسَانٌ إلى فَاطِمَةَ رَضِيَ اللّهُ عنْهَا .

فَجَاءَتْ وهِيَ جُوَيْرِيَةٌ ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتُمُهُم ، فَلَمَّا قَضَى صَلاَتَهُ صلى اللّهُ عليه وسلم ، رَفَعَ صَوْتَهُ ، ثم دَعَا عَلَيهم ، وكَانَ . إذَا دَعَا ، دَعَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، وإذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلاثَا فَقالَ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ فَلمَّا سَمِعُوْا صَوْتَهُ ، ذَهَبَ عَنْهُمْ الضَّحِكُ ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ .

ثمَ قَال اللَّهُم عَلَيْكَ بأبِي جَهْل بن هِشَامٍ ، وَعُتْبَةَ بن رَبِيْعَةَ ، وَشَيْبَة بن رَبِيْعَةَ ، والوَلِيدِ بنِ عَتبةَ ، وأميةَ بنِ خلفٍ ، وعقبةَ ابن أبي مُعَيْطٍ ، وَذَكَرَ

السَّابِعَ ، وَلَمْ أَحْفَظْهُ ، فَوَالذِي بَعَثَ مُحَمَّداً صلى اللّٰهُ عليه وسلم بالحَقِّ ، لَقَدْ رَأَيْتُ الذيْنَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ .

ثم سُحِبُوا إلى القَلِيْب ، (قَلِيْبِ بَدْرٍ) أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ والنسائي) تيسيرَ الوصول ج ٤ ص ٢١٦ .

٦٤ ـ ومن ذَلِكَ ما فِي صَحِيْحِ البُخَارِي ، عن يَزِيْدَ بن أَبِيْ عُبَيْدٍ ، قَالَ : رَأَيْتُ أَثَرَ ضَرْبَةٍ في سَاقِ سَلَمَةَ ، فَقُلْتُ : يا أَبَا مُسْلِمٍ ما هَذِهِ الضَّرْبَة ، فَقَالَ هَذِهِ ضَرْبَةٌ أَصَابَتْنِي يَوْمَ خَيْبَرَ فقال الناسُ : أُصِيْبَ سَلَمَةُ ، فَأَتَيْتُ رسول اللّٰهِ صلى اللّٰهُ عليه وسلَّمَ فَنَفَثَ فِيْهِ ثَلَاثَ نفثَاتٍ ، فَمَا أَشْتَكِيْها حَتَّى السَّاعَةَ .

٦٥ ـ ومِنْ ذَلِكَ أنّهُ صلى اللّٰهُ عليْهِ وسَلَّمَ لَمَّا أَرادَ الهِجْرَةَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ ، وَمَعَهُ أَبُوبَكْرٍ ، فَدَخَلَ غاراً في جَبَلِ ثَوْرٍ ، لِيَسْتَخْفِيْ مِن قُرَيش ، وَقَدْ طَلَبَتْهُ ، وَبَذَلَتْ لِمَنْ جَاءَ بِهِ مائة ناقَةٍ ، فأعانَهُ اللّٰهُ بإِخْفَاءِ أثَرِهِ ، وَنَسَجَتِ العَنكَبُوْتُ عَلَى بابِ الغَارِ .

وَلَمَّا خَرَجَ ، لَحِقَهُ سُرَاقَةُ بنُ مَالِكِ بنُ جُعْشُمٍ ، وَهُو مِن جُمْلَةِ مَنْ تَوجَّه لِطَلَبِهِ ، فقالَ أَبُو بَكْرٍ هذا سُرَاقةُ قَدْ قَرُبَ، فقال رَسُولَ اللّٰهِ صلى اللّٰهُ عليه وسلم « اللَّهُمَّ أكْفِنَا سُرَاقَةَ » فأَخَذَتِ الأَرْضُ قَوَائِمَ فَرَسِهِ إلى ابْطِها ، فقالَ سُرَاقَةُ ، يا مُحَمَّدُ ادْعُ اللّٰهِ أَنْ يُطْلِقَنِيْ ، وَلَكَ عليَّ أنْ أردَّ مَنْ جاءَ يَطْلُبُكَ ، وَلَا أُعِيْنُ عَلَيْكَ أَبَداً ، فقال « اللّٰهم إنْ كَانَ صَادِقاً فَأَطْلِقْ عَنْ فَرَسِهِ » فاطْلَقَ اللّٰهُ عنه ، ثُمَّ أَسْلم سُرَاقَةُ ، وَحسُنَ اسْلامُهُ .

٦٦ ـ ومِنْ ذَلِكَ ما ذَكَرَهُ المَاوَرْدِيْ في أعلامِ النُّبُوَّة ، مِنْ أنَّ أَبَا

لَهَبٍ ، خَرَجَ يوماً ، وَقَدْ اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ ، فقالُوا لَهُ يَا أَبَا عُتْبَة ، إنَّكَ سَيِّدُنا ، وأَنْتَ أَوْلَى بِمُحَمَّدٍ مِنَّا ، وَإِنَّ أبَا طَالِب ، هُوَ الحَائِلُ بَيْنَنا وَبَيْنَهُ ، وَلَوْ قَتَلْتَهُ لَمْ يُنْكِره أَبُو طَالِبٍ ، ولا حَمْزَةُ ، مِنْكَ شَيْئاً ، وأنْتَ بَرِيءٌ مِن دَمِهِ ، نُؤَدِيْ نَحْنُ الدِّيَةَ ، وَتَسودُ قَوْمَكَ ، فقالَ فإني أكْفِيْكُمْ ، فَفَرِحُوا بذلكَ، وَمَدَحَتْهُ خُطَبَاؤُهُم .

فلمَّا كَانَ في تِلْكَ اللَّيْلَة ، وكَانَ مُشْرِفاً عَلَيْهِ ، نَزَلَ أَبُوْ لَهَبٍ ، وَهُوَيُصَلِّيْ وَتَسَلَّقتِ إِمْرَأَةُ أَبِيْ لَهَبٍ ، أمُّ جَمِيْل الحَائِطَ ، حَتَّى وَقَفَتْ على رسولِ اللّه صلى اللّهُ عليه وسلم ، وَهُوَ سَاجِدٌ فَصَاحَ بِهِ ، أَبُو لَهَبٍ ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إليْهِ ، وَهُمَا كَانَا لَا يَنْقُلَانِ أَقْدَامَهُمَا ، ولا يَقْدُرَانِ عَلَى شَيْءٍ ، حَتَّى تَفَجَّرَ الصُّبْحُ ، وَفَرَغَ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، فَقَالَ لَهُ أَبُو لَهَبٍ يا مُحَمَّدٍ ، أَطْلِقْ عَنَّا ، فقال «ما كُنْتُ لأُطْلِقَ عَنْكُمَا ، أوْ تَضْمَنَا لِي انكُمَا لَا تُؤذِيَانِيْ » . قالاَ : قَدْ فَعَلْنَا ، فَدَعَا ربَّه فَرَجَعَا .

٦٧ ـ ومِنْ ذَلِكَ أنَّ النَّاسَ لَمَّا انْهزَمُوا عَن رَسُولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلم يَوْمَ حُنَيْنٍ ، وهُوَ مُعْتَزِلٌ عَنْهُم ، رآه شيبةُ بْنُ عُثْمَانَ ، بنُ أَبِي طَلْحَةَ ، فقال اليَوْمَ أُدْرِكُ ثأرِيْ مِن مُحَمَّدٍ ، فَأَقْتُلَه ، لِأَنَّ أبَا شَيْبَة قُتِلَ يَوْمَ أحُدٍ في جَمَاعَةٍ إِخوتُهُ وأعْمَامُهُ ، قالَ شَيبةُ فلَمَّا أَرَدْتُ قَتْلَهُ ، أقْبَلَ شَيءٌ حتَّى تَغَشَّى فُؤادِيْ فَلَمْ أُطِقْ ذَلِكَ فَعَلِمْتُ أنَّهُ مَمْنُوْعٌ .

واللّه أعلم وصلى اللّه على محمد وآله وسلم .

« فصل »

٦٨ ـ ومِن ذلكَ قِصَّةُ أبِي جَهْلٍ وَحَجَرِهِ ، فَفِي السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ أبا جَهْلٍ قَالَ يَوْماً ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنَّ مُحَمَّداً قَدْ أَبى إلَّا ما تَرَوْنَ ، مِن عَيْبِ دِيْنِنا ، وَشَتْمِ آبائِنَا ، وَتَسْفِيْهِ أَحْلامِنَا ، وَشَتْمِ آلِهَتِنَا ، وَإِنِّي أُعاهِدُ اللّه لأجْلِسَنَّ لَهُ غداً ، بِحَجَرٍ مَا أُطِيْقُ حَمْلَهُ ، فإذَا سَجَدَ في صَلاَتِهِ ، فَضَخْتُ بِهِ رأسَهُ ، فأسْلِمُوْنِي عِندَ ذَلِكَ ، أَوِ امْنَعُونِي ، فَلْيَصْنَعَ بَعْدَ ذَلِكَ عَبْدُ مَنَافٍ ما بَدَا لَهُم ، قَالُوا : واللّهِ لا نُسلِمُك لِشَيْءٍ أبدا ، فامْضِ لِمَا تُرِيْدُ .

فَلمَّا أصْبَحَ أبُو جَهْلٍ أخذَ حَجَرَا كَمَا وَصَفَ ، ثمَّ جَلَسَ لِرَسُوْلِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلم يَنْتَظِرُهُ ، وَغَدا رَسُولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم كَمَا كَانَ يَغْدُوْ ، فَقَامَ يُصَلِّي، وَقَدْ غَدَتْ قُرَيْشٌ ، فَجَلَسُوا في أَنْدِيَتِهم ، يَنْتَظِرُوْنَ مَا أَبُو جَهْلٍ فَاعِلٌ ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللّه صلى اللّهُ عليه وسلم ، احْتَمَلَ أبُو جَهْل الحَجَرَ ، ثُمَّ أقْبَلَ نَحْوَهُ ، حَتَّى إذا دَنَا مِنْهُ ، رَجَعَ مُنْهزماً ، مُنْتَقِعاً لَوْنُهُ ، مَرْعُوْباً ، قَدْ يَبِسَتْ يَدَاهُ على حَجَرِهِ حَتَّى قَذَفَ الحَجَرَ مِن يَدِهِ .

وقَامَ إليْهِ رِجَالٌ مِن قُرَيْش فَقَالُوا لَهُ مَالَكَ يَا أَبَا الحَكَمْ ، قَال قُمْتُ إليه لأفعلَ به ما قُلْتُ لكم البارِحَةَ، فَلَمَّا دَنَوْتُ منه، عَرَض لِيْ دُوْنَه، فَحْلٌ مِن الإبل ، لا واللّه ما رَأَيْتُ مِثْلَ هَامَتِهِ ، ولا قِصْرَتِهِ ، ولا أنْيَابِهِ ، لِفَحْلٍ قطُ ، فهَمَّ بِي أَن يَأكُلَنِيْ ، وَرُوِيَ أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال ذلك جِبريلُ لو دنا لأخَذَهُ .

٦٩ ـ ومنها قِصَّةٌ أُخْرَى مَعَ أبي جَهْلٍ فعن أبي هريرةَ ، قال قال أَبُو جَهْلٍ ، هَلْ يُعَفِّرُ محمدٌ وجْهَهُ بينَ أَظْهرِكُم ، قالُوا نَعَمْ ، قَالَ فَقَالَ واللاتِ والعُزَّى ، لَئِنْ رأيتُه يُصَلِّي كذلكَ لأَطَأَنَّ على رَقَبتِهِ، وَلأُعفِّرَنَّ وَجْهَهُ في التُرَاب ، فَأَتى رَسُولَ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، وهو يُصَلِّي لِيَطَأَ على رَقَبَتِه ، قَال فَمَا فَجَأَهُم مِنه إلا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْه ، وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ .

قَالَ فَقِيْلَ لَهُ مَالَكَ ، فقالَ إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَه خنْدَقاً مِن نَارٍ ، وَهَوْلاً ، وأَجْنِحَةً ، قالَ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم « لَوَ دنا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ المَلائِكَةُ عُضْواً عُضْواً »قالَ فَأَنْزَلَ اللّه لا أَدْرِيْ في حَدِيْثِ أَبِيْ هُرَيْرَة أَمْ لاَ (كَلَّا إِنَّ الانْسَانَ لَيطغى) إلى آخر السورة

٧٠ ـ ومِن أَعْلاَم نُبُوَّتِهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، مَا يَلي : قَالَ مُحَمَّدُ بنُ كَعْبٍ القُرَظِيُ ، حُدِّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيْعَةَ كانَ سَيِّداً حَلِيْماً، قالَ يَوْماً وهوَ جالِسٌ ، في نَادِيْ قُرَيْشٍ ، وَرَسُولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم جَالِسٌ ، وَحْدَهُ في المَسْجِدِ ، قال يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَلاَ أَقومُ إِلى مُحَمَّدٍ ، وأُكَلِّمُه ، وأعْرُضُ عَلَيْهِ أُمُوْراً ، لَعَلَّهُ يَقْبَلُ مِنَّا بَعْضَهَا فَنُعْطِيْهُ ، وَيَكُفَّ عَنَّا ، وَذلِكَ حِيْنَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُوْلِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، يَزِيْدُوْنَ ، وَيَكثُرُوْنَ .

فَقَالُوْا بَلَى ، يا أَبَا الوَلِيْدِ ، فَقُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمهُ، فَقَامَ عُتْبَةُ ، حتَّى جَلَسَ إِلى رسُولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِيْ أَنَّكَ مِنَّا حَيْثُ عَلِمْتَ ، مِنَ البَسْطَةِ ، في العَشِيْرَةِ ، والمَكَانِ في النَسبِ وإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ ، بـأَمْرٍ عَـظِيْمٍ ، فَرَّقْتَ جمَـاعَتَهُم وَسَفَّهْتَ أحلامَهُم، وعِبْتَ آلهَتَهُم ، وكَفَّرْتَ مَنْ مَضَى مِن آبائِهِم ، فاسْمَعْ مِنِّي ، أَعْرِضْ عَلَيْكَ

أُمُوْراً تَنْظُرُ فيها ، فقال رسولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، (قُلْ يَا أَبَا الوَلِيدِ) .

فقالَ يَا ابْنَ أَخِيْ ، إِنْ كُنْتَ تـرِيْدُ شَرَفاً ، سَوَّدناكَ عَلَيْنا ، وَإِنْ كُنْتَ تُـرِيْدُ مَالاً بمَا جِئْتَ بِهِ ، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا ، حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً ، وإِنْ كَانَ الذِي بِكَ رَئِيًّاً ، لا نَسْتَطِيعُ رَدَّه ، طَلَبْنا لَكَ الطِبَّ ، وَلَعَلَّ هَذَا شِعْرٌ جَاشَ بِصَدْرِكَ ، فإنكمُ لَعمْرِي ، بَنِي المُطَّلِب ، تَقْدُرُوْنَ مِن ذلكَ مَا لَا يَقْدِرُ عليه غيرُكُمْ ، حَتَّى إذا فَرَغَ مَا عِنْدَه ، مِن سَائرِ الأُمُوْرِ التِي يَزْعُمُ أَنَّها تَرُدُّهُ عَمَّا يَقُولُ ، فقالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم « أَوَ قَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ » ؟ قَالَ نَعَمْ .

قَالَ « فاسْتَمِعْ مِنِّيْ » قَالَ فَافْعَلْ فقَال صلى اللّهُ عليه وسلم (بسم اللّه الرحمن الرحيم ، حم . تَنْزِيْلٌ مِنَ الرحمن الرحيم . كِتابٌ فُصِّلَتْ آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون) ثم مَضَى فِيْهَا يَقْرأُ ، فَلَمَّا سَمِعَهَا عُتْبَةُ ، أَنْصَتَ لَهُ ، وأَلْقَى يَدَيْهِ خَـلْفَ ظَهْرِهِ ، مُعْتَمِداً عَلَيْهَا يَسْتَمِعُ مِنْهُ ، حَتَّى انْتَهَى رَسُولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم إلى السَّجْدَةِ فَسَجَدَ ، ثُمَّ قَالَ « قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيْدِ فأَنْتَ وَذَاكَ » فَقَامَ عُتْبَةُ إلى أَصْحَابِهِ ، فقالَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ نَحْلِفُ باللّهِ ، لَقَدْ جاءَكُم أبُو الْوَلِيدِ ، بَغْيرِ الوَجْهِ الذِي ذَهَبَ بِهِ .

فَلَمَّا جَلَسَ فِيْهِم ، قَالُوْا مَا وَرَاءَكَ ، يَا أَبَا الوَلِيْدِ ، فَقَالَ وَرَائِي إِنِّي سَمِعْتُ قَـوْلاً ، وَاللّهِ مـا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ، قَطُ ، مَـا هُـوَ بـالشِّعـر ، ولا السِّحر ، ولا الكِهَانَةِ ! يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَطِيْعُوْنِيْ ، خَلُوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ ، وبَيْنَ مَا هُوَ فِيْهِ ، وَاعْتَزِلُوْهُ ، فَوَاللّهِ لَيَكُوْنَنَّ لِقَوْلِهِ الذِي سَمِعْتُ نَبَأً ، فإِنْ تُصِبْهُ العَرَبُ فَقَدْ كُفِيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُم ، وإِنْ يَظْهَرَ عَلَى العَرَبِ ،

فَمُلْكُهُ مُلْككُم ، وعِزُّهُ عِزُّكُمْ ، فأنْتُم أَسْعَدُ النَّاسِ بهِ ، فَقَالُوا سَحَرَكَ وَاللَّهِ يَا أَبَا الوَلِيْدِ بِلِسَانِهِ فقالَ هَذَا رَأْيِي لكُم فاصْنَعُوا ما بَدَالَكُم .

٧١ ـ ومنها ما رُوِيَ عنه صلى اللّه عليه وسلم مِن أنَّ ابنَ بِنْتِهِ فَاطِمَة الحُسَيْنَ بنَ عليٍّ يُقْتَلُ بالعِرَاقِ فكانَ الأمرُ كَما أَخبَرَ فَقُتِلَ الحُسَيْنُ رَضِيَ اللّهُ عنه في كَرْبَلاء سَنَة إحْدَى وسِتِّين وَلَهُ أرْبعٌ وخَمْسُوْنَ سَنةً وسِتةُ أشْهُرٍ ونِصْفُ الشَّهْر .

٧٢ ـ ومنها دُعَاؤُه صلى اللّهُ عليه وسلم لأنَسِ بنِ مَالِـكٍ ، واسْتِجَابَةُ اللَّهِ لِدُعَائِهِ، فَعَن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قالَ جَاءَتْ بي أمِّي أمُّ أنسٍ إلى رَسُوْل اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم، وَقَدْ آزَرَتْنِيْ بنِصْفِ خِمَارِها ، وَرَدَّتْنِيْ بنِصْفِهِ ، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللّهِ ، هَذَا أُنَيْسُ ، ابْنِيْ أَتَيْتُكَ به يَخْدِمُكَ ، فادْعُ اللّه لَهُ ، فقـال « اللَّهُمَّ أكْثِرْ مَـالَهُ ، وَوَلَدَهُ » .

قال أنسٌ ، فَوَاللَّهِ أنَّ مَالِيْ كَثِيْرٌ ، وَإنَّ وَلَدِيْ وَوَلَدَ وَلَدِيْ لَيَتَعادَوْن على نَحْوِ المِائَةِ اليَومَ ، أخرجه مسلم ، وعن أَبي خَلْدَةَ خَالِدِ بنِ دِيْنَارٍ ، قال قُلْتُ لِأَبِي العَالِيَةَ ، سَمِعَ أنسٌ مِن رَسُولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم ، قَال خَدَمَهُ عَشْرَ سِنِيْنَ ، وَدَعَا لَهُ ، وكان لَهُ بُسْتَانٌ يَحْمِلُ في السَّنَةِ الفَاكِهَةَ مَرَّتَيْن ، وَكَانَ فِيْهِ رَيْحَانٌ ، يَجِيُءِ مِنْهُ رِيْحُ المِسْكِ ، أخرجه الترمذي .

٧٣ ـ ومِنْ ذَلِكَ إخْبَارُهُ صَلى اللَّهُ عليه وسلم عن مَقْتَلِ القُرَاءِ، فَعَن أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللّهُ عنه قال جَاءَ ناسٌ إلى النبي صلى اللّه

عليه وسلم ، فقالُوا إبْعَثْ مَعَنَا رِجَالاً يُعَلِّمُوْنا القُرآنَ والسُّنَةَ ، فَبَعَثَ إلَيْهِم سَبْعِيْنَ رجلاً مِنَ الأنْصَارِ ، يُقَالُ لَهُمُ القُرَاءُ فِيْهم خَالِيْ حَرَامٌ ، يُقْرِؤُنَ القرآنَ، وَيَتَدارَسُونَ باللَّيْلِ ، يَتعلَّمون .

وكانُوْا بالنَّهارِ يَجِيْئُونَ بالمَاءِ ، فَيَضَعُونَهُ في المَسْجِدِ ، وَيَحْتَطِبُوْنَ ، فَيَبِيْعُونَه وَيَشْتَرُوْنَ بِهِ الطَّعَامَ لأهْلِ الصُّفةِ ، ولِلْفُقَرُاءِ ، فَبَعَثَهُم النبيُ صلى اللّهُ عليه وسلم إليْهم ، فَعَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا المَكانَ ، فَقَالُوا اللَّهُمَّ بلِّغ عَنَّا نَبِيَّنا ، أنَّا قَدْ لَقِيْنَاكَ فَرَضِيْنَا عَنْك ، وَرَضِيْتَ عَنَّا .

قال : وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامَ ، خَالَ أنسٍ ، مِنْ خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حتَّى أنْفَذَهُ ، فقال حَرَامٌ ، فُزْتُ وَرَبِّ الكعبةِ ، فقال رسولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم لأَصْحَابِهِ « إنَّ اخوانَكُم قَدْ قَتِلُوا وإِنَّهُمْ قالُوا اللَّهُم بَلِّغْ عَنَّا نَبِيِّنَا ، أنا قَدْ لقَيْنَاكَ فَرَضِيْنَا عَنْكَ ، وَرَضِيْتَ عَنَّا » .

٧٤ ـ ومِن ذَلِكَ ما رُوِيَ أن النبيَ صلى اللّه عليه وسلم لَمَّا تلا (والنَّجْمِ إذا هَوَى) قالَ عُتْبَةُ بنُ أبِي لَهَبْ ، كَفَرْتُ بالذِيْ دَنَا فَتَدَلَّى ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم « اللَّهم سلِّطْ عليهِ كَلْباً مِن كِلاَبِكَ » يَعْنِي الأَسَدَ ، فَخَرَجَ عُتْبَةُ مَعَ أصْحَابِهِ ، في عِيْرٍ إلى الشَّامِ ، حتى إذا كانُوا في طَرِيْقِهِمْ ، زَأَرَ الأسدُ ، فَجَعَلَتْ فَرائِصُ عُتبةَ تَرْتَعِدُ ، فقال أصحابُه مِنْ أيِّ شيْءٍ تَرْتَعِدُ ، فَوَاللَّهِ مَا نَحْنُ وأنتَ إلا سَوَاءٌ ، فقال إنَّ محمداً دَعَا عليَّ ، وَمَا تُرَدُّ لَهُ دَعْوَةٌ ، ولا أصْدَقَ مِنْه لَهْجَةً .

فَوَضَعُوا العَشَاءَ ، فَلَمْ يُدْخِلْ يَدَهُ فيهِ ، وحَاطَ القَومُ أنْفُسَهُم بمتَاعِهِم ، وَجَعَلُوا عُتْبَةَ وَسَطَهُم ، وَنَامُوا ، فجاءَ الأسدُ يَشُمُّ رُؤُوْسَهُم ،

رَجُلاً رَجُلاً ، حَتَّى انتهى إلى عُتْبَةَ ، فَهَشَمَهُ هَشْمَةً أوصَلَتْهُ إلى آخِرِ رَمَقٍ ، فقال وهو بآخِرِ رَمَقٍ ، أَلَمْ أَقُلْ لَكُم إِنَّ مُحَمَّداً أَصْدَقُ الناسِ لَهْجَةً .

٧٥ ـ ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ صلى اللّه عليه وسلم لابنِ عَباسٍ ، وهُوَ يَوْمَئِذٍ غُلامٌ : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيْلَ » فَخَرَجَ أَفْقَهَ الناسِ في الدِّيْنِ ، وأَعلَمَهم بالتَّأْوِيْلِ ، حَتَّى سُمِّيَ البَحْرَ ، لِسَعَةِ عِلْمِهِ ، رَضِيَ اللَّهُ عنه .

٧٦ ـ ومنها مَا رَوَاهُ الامامُ أحمدُ في مُسْنَدِهِ مِن أنَّ عَائِشَةَ لَمَّا أَقْبَلَتْ وَبَلَغَتْ مِيَاهَ بَنِي عَامِرٍ لَيْلاً ، نَبَحَتْ الكِلابُ ، فَقَالَتْ أَيُّ مَاءٍ هذا ، قَالُوْا ماءُ الحَوْأَبْ ، قالتْ مَا أَظُنُّنِي إلاَّ أَنِيْ رَاجِعَةٌ ، قال بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهَا بَلْ تَقدمين ، فَيَراكِ المُسْلِمُونَ ، فَيُصْلِحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَاتَ بَيْنِهِم ، قَالَتْ إِنَّ رَسُوْلَ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم قالَ لَهَا ذَاتَ يَوْمٍ « كَيْفَ بإِحْدَاكُنَّ ، تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلاَبُ الحَوْأَبِ » وفي حديثِ ابن عَباسٍ قال : قال رسولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم « لَيْتَ شِعْرِيْ ، أَيّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الجَمَلِ المُدَبَّبِ ، تَخْرُجُ فَيَنْبَحُهَا كِلَابُ الحَوْأَبِ ، يُقْتَلُ عَن يَمِيْنِهَا وعن يَسَارِهَا قَتْلَى كَثِيْرٌ ، ثُمَّ تَنْجُوْ بَعْدَمَا كَادَتْ » رواه البزار ورجالُهُ ثِقات كُلّ ذَلِكَ يَقَعُ طِبْقَ مَا أخبَرَ الصَّادِقُ المَصْدُوْقُ صلواتُ اللّه وسلامُه عليه .

واللّه أعلم وصلى اللّه على محمد وآله وسلم .

« فصل »

٧٧ ـ ومِنْ ذَلِكَ إخْبَارُه صلى اللّه عليه وسلم أُمَّ حَرَامٍ عن غَزْوِهَا في البَحْرِ وعُلوِّ مَكَانَتِها فَفِي صَحِيْحِ البُخَارِي عن اسْحَقَ ابن عبدِ اللَّه بنِ أبِي طَلْحَةَ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللّهُ عنه ، أَنَّهُ سَمِعَه يَقُولُ كان رَسُوْلُ اللّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم إذا ذَهَبَ إلَى قُبَاء يَدْخُلُ عَلَى أمِّ حَرَامِ بِنْتِ مِلْحَانَ فَتُطْعِمُهُ ، وَكَانَتْ تَحْتَ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِت .

فَدَخَلَ يَوْماً فاطْعَمَتْه ، فَنَامَ رسولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليْهِ وَسَلَّم ثم اسْتَيْقَظَ يَضْحَكُ قَالَتْ فقلتُ ما يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللّهِ ، فقال « ناسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً في سَبِيْلِ اللّهِ ، يَرْكَبُوْنَ ثَبَجَ هَذَا البَحْرِ ، مُلُوكاً على الأَسِرَّةِ ـ أَوْ قَالَ مِثْلَ المُلُوكِ عَلَى الأسرَّةِ » شَكَّ اسْحَقُ ، قَالتْ أدْعُ اللّهِ أنْ يَجْعَلَنِيْ مِنْهُمْ ، فَدَعَا لَهَا رَسُولُ اللّهِ صلى اللّهُ عليه وسلم .

ثمَّ وَضَعَ رَأسَه ! ثم اسْتَيْقَظَ ، وهُوَ يَضْحَكُ ، قَالَتْ قُلتُ ما يُضحِكُكَ يا رسولَ اللَّهِ ، قال « ناسٌ مِن أُمَّتي عُرِضُوا عَليَّ غُزاةً في سَبِيْلِ اللّهِ » كَمَا قَالَ في الأوْلَى ، فَقُلْتُ يَا رسولَ اللّهِ أدْعُ اللّهَ أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، قَالَ « أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِيْنَ » فَرَكِبتَ البَحْرَ زَمَانَ مُعَاوِيَةَ ،

فِصُرِعَتْ عَنْ دَابَتِهَا حِيْنَ خَرجَتْ مِن البَحْرِ فَهلَكَتْ ، فَوَقَعَ كَمَا أُخْبَرَ صَلى اللَّهُ عليه وسلم .

٧٨ ـ ومنها إخْبَارُهُ عن أَوَّل زَوْجَاتِهِ لُحوقاً بِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَعَنْ عائِشَة رَضيَ اللَّهُ عنها أنَّ بَعضَ أَزْوَاجِ النبي صلى اللَّهُ عليه وسلم قُلْنَ يَا رَسُولَ اللّهِ أَيُّنا أسْرَعُ بِكَ لُحُوْقاً ، قَالَ أطْولُكُنَّ يداً ، فأخَذْنَ قَصَبَةً يَذْرَ عنهَا فَكَانَتْ سَوْدَةُ أَطْوَلَهُنَّ يداً، فَعَلِمْنَا بَعْدُ إنَّمَا كَانَ طولُ يَدِهَا الصَّدَقَةِ ، وَكَانَتْ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ ، وَكَانَتْ أَسْرَعُنا لُحُوْقاً بهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، أخرجه الشيخان .

٧٩ ـ ومِنْ ذَلِكَ إخْبَارُهُ صلى اللَّهُ عليهِ وسلم عَامِلَ كِسْرَى مَلِكِ الفُرْسِ على اليَمَنِ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ أَنْ يَقْتُلَ كِسْرى في يَوْمٍ كَذَا وكَذَا مِنْ شَهْرٍ كَذا وَكَذَا ومنْ حَدِيْثِهِ أَنَّ كِسْرَى كَتَبَ إلى عَامِلِهِ على اليَمَنِ باذَانَ أَنَّهُ بَلَغَنِيْ أَنَّ رَجُلاً مِن قُرَيْشٍ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَسِرْ إِلَيْهِ فاسْتَتِبْهُ فإنْ تابَ والا فابْعَثْ إليَّ بِرأْسِهِ .

فَبَعَثَ باذَانُ بِكِتَابِ كِسْرَى إلى رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم .

فَكَتَبَ إليه رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم « انَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي أَنْ يَقْتُلَ كِسْرَى في يَوْمٍ كَذَا وكَذَا ، مِن شَهْرٍ كَذا وَكَذَا » فَلَمَّا أَتَى باذَانَ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم تَوَقَّفَ ، لِيَنْظُرَ ، وَقَالَ انْ كَانَ نَبِياً فَسَيَكُونُ مَا قَالَ ، فَقُتِلَ كِسْرَى ، في اليَوْمِ الذي قالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، قُتِلَ على يَدِ ابْنِهِ ، شِيْرَوَيْه .

فلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ باذَانَ بَعَثَ باسْلامِهِ ، واسْلامِ مَنْ مَعَهُ ، مِنَ الفُرْسِ

إلى رَسُوْلِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، فَقَالَتِ الرُّسُلُ مِنَ الفُرْسِ ، إلى مَنْ نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قال « انْتُمْ مِنَّا وَإلَيْنا أَهْلَ البَيْتِ » .

٨٠ ـ ومِنْ ذَلِكَ ما رَوَاهُ الامامُ أحمدُ عَن أَبِيْ سَعِيْدٍ الخُدْرِي قَالَ عَدَا الذِئبُ على شَاةٍ فأخَذَهَا فَطَلَبَهُ الرَّاعِي فانْتَزَعها مِنْهُ ، فأَقْعَى الذِئْبُ عَلَى ذَنَبِهِ ، فَقَالَ ألا تَتَّقِيْ اللَّهَ تَنْزِعُ مِنِّيْ رِزْقاً سَاقَهُ اللَّهُ إليَّ ، فقال يَا عَجَبِيْ ذئبٌ يُكَلِّمُنِيْ كلامَ الأنِسِ ، فقالَ الذئبُ أَلَا أخبِرُكَ بأعْجَبَ مِن ذَلِكَ ، مُحَمَّدُ صلى اللَّهُ عليه وسلم بِيَثْرِبَ ، يُخْبِرُ النَّاسَ بِأَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، قَالَ فَأَقْبَلَ الرَّاعِي يَسُوق غَنَمَهُ ، حَتَّى دَخَلَ المَدِيْنَةَ ، فَزَوَاهَا إلى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا .

ثم أَتَى رَسُولَ اللَّه صلى اللَّهُ عليه وسلم فأخْبَرَهُ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم فَنُودِيَ الصلاةُ جامِعَةٌ ، ثم خَرَجَ فقال لِلرَّاعِيْ أَخْبِرْهُمْ ، فأخبَرَهُم ، فقالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم « صَدَقَ ، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَا تقومُ السَّاعةُ ، حَتَّى يُكلمُ الرَّجُلُ عَذْبَةُ سَوْطِهِ ، وَشِرَاكُ نَعْلِهِ ، وَيُخْبِرُهُ فَخِذُهُ ، بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ » .

قال ابنُ كَثِيرٍ وهَـذَا اسْنَادٌ على شَـرْطِ مُسْلِمٍ ، وَقَدْ صَحَّحَـهُ البَيْهَقِي ، وَلَمْ يَرْوِهِ إلَّا التِّرْمِذِيُّ مِن قولِهِ : والَّذي نَفْسِيْ بِيَدِهِ لا تقومُ الساعةُ حتى يُكَلِّمُ السِّبَاعُ الأنْسَ إلى آخره .

٨١ ـ ومِن ذَلِـكَ تَوْقِيْتُـهُ صَلى اللَّهُ عليـه وسلم مَـوَاقِيْتَ الحَجَ الـمَكَانِيَّةَ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَيَّنَهَا مِنْ قَبْلِ فَتْحِ بُلْدَانِهَا قال الناظم :

واحْـرَامُ حَـجٍّ مِن مَـوَاقِيْـتِ خَمْسَـةٍ
لِـطَيْبَـةَ وَقت ذَا الـحُـلَيْـفَـةِ وَاقْـصِـدِ
وَلِلشَّـام والمِـصْرِ والغَـرْبِ جُحْفَـةً
وَلِلْيَمَـنِ التَّـالِـي يَلْمَـلَمُ فـارْصـدِ
وخُـذْ ذَاتَ عِـرْقٍ لِـلْعِـرَاقِ وَوَفْـدِهِ
وَقَـرْنـاً لِـوَفْـدٍ طَـائِـفِـيٍ وَمُـنْـجِـدِ
وَتَـعْـيِيْـنُـهَـا مِـنْ مُـعْجِـزَاتِ نَـبِـيِّـنَـا
لِتَعْـيِيْـنِـهِ مِن قَـبْـلِ فَتْـحِ الـمُـعَـدَّدِ

٨٢ ـ ومن ذَلِكَ إِنْذارُهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم بِرِيْحٍ شَدِيْدَةٍ في تَبُوكَ ، وَطَلَبَ مِن أَصْحَابِهِ أَنْ يَأْخُذُوا حِذْرَهُم ، فَفِيْ صَحِيح مُسْلِمٍ عن أَبِيْ حُمَيْدٍ ، قال خَرَجْنَا مَعَ رَسُوْلِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، في غزوةِ تَبُوكَ ، فَأَتَيْنَا وَادِيَ القُرَى ، على حَدِيْقَةٍ لإِمْرَأةٍ ، فقال رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم اخْرُصُوْهَا ، فَخَرَصْنَاهَا ، وَخَرَصَها رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم عَشَرَةَ أَوْسُقٍ ، وقال : أَحْصِيْها ، حَتَّى نَرجِعَ إِليكِ انْ شَاءَ اللَّهُ ، وانْطَلقْنَا ، حَتَّى قَدِمْنا تَبُوْكَ ، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم « سَتَهُبُّ رِيْحٌ شَدِيْدَةٌ » فَقَامَ رَجُلٌ فَحَمَلَتْهُ الرِيْحُ إِلى أنْ أَلْقَتْهُ بِجَبلَيْ طَيء ، وَجَاءَ رَسُولُ صَاحِبِ إِيْلَةَ ، إِلى رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم بِكِتَابٍ ، وَأَهْدَى لَهُ بَغلَةً بَيْضاءَ ، فَكَتَبَ إِليه رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، وَأَهْدَى لَهُ بُرْداً ، ثم أَقْبَلْنا ، حَتَّى قَدِمْنَا ، وادِيَ القُرَى ، فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم المَرْأَةَ ، عن حَدِيْقَتِها كَمْ بَلَغَ ثَمَرُها ، فَقَالَتْ عَشَرَةُ أَوْسُقٍ ، تَمَاماً كَمَا أَخْبَرَ : ٨٣ وَهَذِهِ أَيْضَا مُعْجِزَةٌ.

٨٤ ـ وَمِنْ ذَلِكَ إِخْبارُهُ صلى اللّه عليه وسلم أَنَّهُ سَيَأْتِي زَمَانٌ تَرْتَحِلُ فيهِ الظَّعِيْنَةُ مِنَ الحِيْرَةِ إِلَى الكَعْبَةِ ، لاَ تَخَافُ إلا اللّهَ وَوَقَعَ طَبَقَ ما أَخْبَر .

ففي صحيح البخاري عن عَدِي بنِ حَاتِمْ قال : بَيْنا أَنَا عِنْدَ النبي صلى الله عليه وسلم إِذْ أَتاهُ رَجُلٌ ، فَشَكَا إِليهِ الفَاقَةَ ، ثم أتاهُ آخرُ فشَكَا قَطْعَ السَبِيْل ، فقالَ « يا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الحِيْرَةَ ؟ » قُلْتُ : لَمْ أَرَهَا ، وَقَد أُنْبِئْتُ عَنْهَا . قال « فإِن طَالَتْ بكَ حَياةٌ ، لَترَيَنَّ الظَّعِيْنَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيْرَةِ حَتَّى تَطُوْفَ بالكَعْبَةِ ، لا تَخَافُ أَحَداً إلَّا اللّهَ » قُلْتُ فِيْمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيْنَ دِعَارُ طَيءٍ ـ أَيْ قُطَّاعِ الطَّرِيْقِ ـ الذينَ سَعَرُوْا البِلاَدَ ـ « وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ ، لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى » قُلْتُ كِسْرَى ابنُ هُرْمُزٍ ، قال « كِسْرَى بنُ هُرْمُزٍ ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ ، لَترينَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُه مِنْه فلا يَجِدُ أَحَدَا يَقْبَلُهُ مِنْهُ .

وَلَيُلْقَيَنَّ اللّهَ أَحَدُكُمْ يومَ يَلْقَاهُ ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِم لَهُ فَيَقُوْلَنَّ : أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُوْلاً فَيُبَلِّغَكَ ، فَيَقُولُ بَلَى : فَيَقُوْلُ أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً ، فَيَقُولُ بَلَى ، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِيْنِهِ ، فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ ، فلا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ » قال عَدِيٌّ ، سَمِعْتُ النبيَّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ « اتَّقُوْا النَّارَ وَلَوْ بشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » .

وقال عَدِيٌ فَرَأَيْتُ الظَّعِيْنَةَ تَرْتَحِلُ مِن الحِيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلَّا اللّهَ ، وَكُنْتُ فِيْمَنْ فتَحَ كُنُوْزَ كِسْرَى بنِ هُرْمُز ، وَلَئِنْ طَالَتْ

بكُمْ حَيَاةٌ ، لَتَرَوْنَ ما قَالَ النبيُ أَبُو القَاسِمِ صلى اللَّه عليه وسلم « يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ » .

٨٥ ـ وَمِنْ ذَلِكَ دُعَاؤُه صلى اللَّهُ عليه وسلم لِلنَّابِغَةِ الجَعْدِي ، بِقَوْلِهِ لَه « لا يَفْضُفِضُ اللَّهُ فاكَ » فَعُمِّرَ ، وكان أَحْسَنُ النَّاسِ ثَغْراً ، كُلَّمَا سَقَطَتْ لَهُ سِنٌّ ، نَبَتَتْ لَهُ أُخْرَى .

٨٦ ـ وَمِنْ ذَلِكَ سُقُوطُ الأَصْنَامِ ، باشَارَةٍ مِن قَضِيْبٍ ، كَانَ في يَدِهِ ، فإِنَّه كانَ حَوْلَ الكَعْبَةِ ثَلاثُمائَةٍ وَسِتُّوْنَ صَنَماً ، أَرْجُلُها مُثَبَّتَةٌ بالرَّصَاصِ ، في الحِجَارَةِ ، تَثْبِيْتاً مُحْكَماً ، فَلَمَّا دَخلَ عَامَ الفَتْحِ إلى المَسْجِدِ الحَرَامِ ، جَعَلَ يُشِيْرُ بِقَضِيْبِ في يَدِه، إلى تِلْكَ الأصنامِ فَوَقَعَتْ لِوُجُوهِهَا ، وَظُهُوْرِهَا ، حَسَبَ إشارَتِهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم .

٨٧ ـ ومِنْ ذَلِكَ ما رُوِيَ أَنَّ العباسَ بنَ عبدِ المُطَّلبِ ، بَعَثَ ابنَهُ عَبدَ اللَّهِ ، إلى رسولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم في حَاجَةٍ ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ رَجُلاً ، فَرَجَعَ وَلَمْ يُكَلِّمْهُ ، مِن أَجْلِ مَكَانِ الرَّجُلِ ، فَلَقِيَ العباسُ رسولَ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ ، فقال « وَرَآهُ ؟ » قال نَعَمْ « قال أَتَدْرِيْ مَنْ ذَاكَ الرَّجُلُ ؟ » ذَاكَ جِبْرِيْلُ .

وَلَنْ يَمُوْتَ حَتَّى يَذْهَبَ بَصَرُهُ ، وَيُؤْتَى عِلْماً » وَقَدْ مَاتَ ابنُ عَبَّاسٍ ، سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّيْن ، بَعْدَ مَا عَمِيَ بَصَرُه ، رَضِيَ اللَّه عنه وَصَارَ بَحْراً زَاخِراً في العِلْم .

٨٨ ـ ومِن ذَلِكَ ما رواه البيهقيُ عن خِمَارَة عن أُنَيْسَةَ بِنْتِ زَيْدِ بْنِ

أَرْقَمَ ، عن أَبِيْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم دَخَلَ عَلى زَيْدٍ يَعُوْدُهُ في مَرَضٍ كَانَ بِهِ ، قال « لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ مَرَضِكَ بأسٌ ، ولكِنْ كَيْفَ بِك إذا عُمِّرتَ بَعْدِي ، فَعَمِيْتَ ؟ » قالَ : إذاً احْتَسِبُ وأصْبِرُ ، قالَ : « إذاً تَدْخُل الجنةَ ، بِغَيْرِ حِسَاب » قال فَعَمِيَ بَعْدَ مَا مَات . رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ عليهِ بَصَرَهُ ، ثُمَّ مَاتَ .

٨٩ ـ ومِنْ ذَلِكَ إخبارُهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم عن مِحْنَةِ عُثْمَانَ رضي اللَّهُ عنه ، ففي صَحِيْحِ البخاري عن أبي موسى رضي اللَّه عنه ، قال كُنْتُ مَعَ النبي صلى اللَّه عليه وسلم في حَائِطٍ مِن حِيْطانِ المَدِيْنَةِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ فاسْتَفْتَحَ ، فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم « افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرهُ بالجَنَّةِ » فَفَتَحْتُ ، فإذا هُوَ أَبُوْ بَكْرٍ ، فَبَشَّرتُه بمَا قال النبي صلى اللَّه عليه وسلم فَحَمِدَ اللَّهَ .

ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ فاسْتَفْتَحَ ، فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم « افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بالجنةِ » فَفَتَحْتُ ، فإذا هُوَ عُمَرُ ، فَأَخْبَرتُهُ بِمَا قال النبي صلى اللَّه عليه وسلم ، ثم اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ فقال لِيْ « افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بالجَنةِ ، على بَلْوَى تُصِيْبُهُ » فإذا هُوَ عُثْمَانُ فأخْبَرْتُهُ بما قال النبي صلى اللَّه عليه وسلم فَحَمِدَ اللَّهَ ، ثم قال : اللَّهُ المُسْتَعَانُ .

٩٠ ـ ومِن ذلك ما وَرَدَ عن عبدِ الرحمنِ بن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِيْقِ ، قال كُنَّا مَعَ النبي صلى اللَّهُ عليه وسلم ثلاثِيْنَ وَمَائَةً فقال صلى اللهُ عليه وسلم هَلْ مَعَ أَحَدٍ مِنْكُمْ طَعَامٌ ، فإذا مَعَ رَجُلٍ صاعٌ مِنْ طَعَامٍ ، أَوْ نَحْوِهِ ، فَعَجَن ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مُشْعَانٌ طَوِيْلٌ بِغَنَمٍ يَسُوْقُهَا ، فقالَ صلى

اللَّهُ عليه وسلم « بَيْعاً ، أَمْ هِبَةً ؟ » قال بَلْ بَيْعٌ ، فاشْتَرى مِنْهَا شَاةً ، فَصُنِعَتْ ، فَأَمَرَ صلى اللَّهُ عليه وسلم بسَوَادِ البَطْنِ أَنْ يُشْوَى ، وَايْمُ اللَّهِ ، ما في الثَّلاثِيْنَ والمَائَةِ ، رَجُلٌ إلَّا قَدْ حُزَّ لَهُ حَزَّةً مِنْ سَوَادِ بَطْنِهَا إنْ كَانَ شَاهِداً أَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، وَإِنْ كَانَ غَائِباً خبأَ لَهُ ، فَجَعَلَ مِنْهَا قَصْعَتين ، فأكَلُوا أَجْمَعُوْنَ ، وَشَبِعْنَا فَفَضُلَتْ القَصْعَتَانِ فَحُمِلَتَا عَلَى البَعِيْرِ رواه الشيخان .

٩١ ـ وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عن سَمُرَةَ ، قالَ كُنَّا مَعَ النبي صلى اللَّهُ عليه وسلم نَتَدَاوَلُ من قَصْعَةٍ ، مِنْ غَدْوَةٍ حَتَّى اللَّيْلَ ، تَقُوْمُ عَشَرَةٌ ، وَتَقْعُدُ عَشَرَةٌ فَقُلْنَا فَمِمَّا كَانَتْ تُمَدُّ ، قَالَ مِنْ أَيْ شَيْءٍ تَعْجَبُ ، مَا كَانَتْ تُمَدُّ إلَّا مِنْ هَاهُنَا ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إلى السَّماءِ ، رواه الترمذي .

٩٢ ـ ومِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ جابرٌ ، أَنَّ النَّبِي صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلم جَاءَهُ رَجُلٌ يَسْتَطْعِمُهُ ، فأطْعَمَهُ شَطْرَ وَسَقِ شَعِيْر ، فَمَا زَالَ الرَّجُلُ يأكلُ مِنهُ ، وامْرَأته ، وَضَيْفُهما ، حتى كَالَهُ ، فَفَنِيَ ، فأتى النبيُّ صلى اللَّه عليه وسلم فقالَ : « لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لأَكَلْتُم مِنْهُ ، وَلَقَامَ لَكُمْ » رواه مسلم .

٩٣ ـ ومِن ذَلِكَ دُعَاؤُهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم على مُضَرَ ، وإمْسَاكُ القطرِ عنهم ، فإنَّهُم لَمَّا كَذَّبُوْهُ ، وآذَوْهُ ، في نَفْسِهِ ، وأَصْحَابِهِ ، دَعَا عَلَيْهِمْ ، فقال « اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلى مُضَرَ ، وَابْعَثْ عليهم سِنِيْنَ كَسِنِي يُوْسُفَ صلى اللَّه عليه وسلم » فَأُمْسِكَ عَنْهُم القَطْرُ ، حَتى جَفَّ النَبَاتُ ، والشَّجرُ ، وَمَاتَتْ الماشِيَةُ ، وَحَتَّى اشْتَوَوْا القِدَّ ، وأَكَلُوْا العَلْهَرَ ، وتَفرقُوا فِي البِلادِ ، لشدَّةِ الحال .

فَوَفَدَ حاجِبُ بنُ زُرَارَةَ ، إِلى كِسْرَى فَشَكَا إِلَيْهِ مَا نَالَهُمْ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ له في الرَّعْيِ ، بالسَّوادِ ، وَرَهَنَهُ قَوْسَهُ .

والقِصَّةُ مَشْهُوْرَةٌ ، يَسُوْقُهَا أَهْلُ التَّفْسِيْر ، عندَ قَولِ اللَّهِ تعالى : ﴿ فارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخَانٍ مُبِيْن ﴾ .

قال ابنُ القيم رحِمَهُ اللَّه :

يَا قَاعِداً سَارَتْ بِهِ أَنْفَاسُهُ
سَيْرَ البَرِيْدِ وَلَيْسَ بالذِّمِلاَنِ
حَتَّى مَتَى هَذَا الرُقَادُ وَقَدْ سَرَى
وَفْدُ المَحَبَّةِ مَعْ أُوْلِي الإِحْسَانِ
وَحَدَتْ بِهِم عَزَمَاتُهُم نَحْوَ العُلَى
لاَ حَادِيَ الرُكْبَانِ والأَضْعَانِ
رَكِبُوْا العَزَائِمَ واعْتَلَوا بِظُهُورِهَا
وَسَرَوْا فَمَا حَنُّوْا إِلى نُعْمَانِ
سَارُوْا رُوَيْداً ثُمَّ جَاؤُوا أَوَّلاً
سَيْرَ الدَّلِيْلِ يَؤُمُ بالرُكْبَانِ
سَارُوْا بإِثبَاتِ الصِّفَاتِ إِلَيْهِ لاَ التَـ
لاَ تَعْطِيْلِ وَالتَّحْرِيْفِ والنُكْرَانِ
عَرَفُوهُ بالأَوْصَافِ فامْتَلأَتْ قُلُوْ
بُهُمُ لَهُ بالحُبِ والإِيْمَانِ
فَتَطَايَرَتْ تلكَ القُلُوبُ إِلَيْهِ بالـ
شْواقِ إذ مُلِئَتْ مِن العِرْفَانِ

وَأَشَــدُّهُــم حُـبَـاً لَــهُ أَدْرَا هُـمُــوْا
بِـصِــفَــاتِــهِ وَحَــقــائِــقِ الــقُــرآنِ

فــالـحُـبُّ يَـتْـبَـعُ لِلشُّـعُــورِ بِـحَـسْـبِـهِ
يَـقْــوَى وَيَـضْـعُـفُ ذَاكَ ذُوْ تِــبْـيَــانِ

وَلِــذَاكَ كَــانَ الــعَــارِفُــون صِــفَــاتِــهِ
أَحْـبَــابَــهُ هُــمْ أَهْــلُ هَــذَا الــشَّــانِ

وَلِــذَاكَ كَــانَ الــعَــالِـمُــونَ بِــرَبِـهِــمْ
أَحْـبَـابَــه وَبِـشِــرْعَــةِ الإِيْــمَــانِ

وَلِــذَاكَ كَــانَ المُنْكِــرُونَ لَهَــا هُمُ ال
أَعْـدَاءُ حَــقــاً هُــمْ أُولُــو الــشُّــنَـئَــآنِ

ولِــذَاكَ كَــانَ الـجَــاهِــلونَ بِــذَا وَذَا
بُـغَـضَــاؤهُ حَــقــاً ذَوِيْ شَــنَـئَــآنِ

وَحَـيَــاةُ قَلْبِ الـمَــرْءِ فِي شَـيْـئَـيْـن مَـنْ
يُـرْزَقْـهُـمَـا يَـحْـيَـى مَـدَى الأَزْمَـانِ

فِي هَــذِهِ الــدُنْـيَــا وفِي الأَخْــرَى يَكُــوْ
نُ الــحَــيَّ ذَا الــرِضْــوَانِ والإِحْــسَــانِ

ذِكْــرِ الإِلَــهِ وحُــبِــهِ مِــن غَــيْــرِ إِشْ
رَاكٍ بِــهِ وَهُــمَــا فَــمُــمْـتَــنِــعَــانِ

مِن صَــاحِبِ التعـطيـلِ حَقّــاً كَـامتنـا
عِ الـطـائِــرِ المَقْـصُــوصِ مِن طَـيْــرانِ

أَيُحِبُهُ مَنْ كَانَ يُنْكِرُ وَصْفَهُ
وَعُلُوَّهُ وَكَلَامَهُ بِقُرآنِ

لَا وَالذِي حَقاً عَلَى العَرْشِ اسْتَوى
مُتَكَلِماً بالوَحْيِ والفُرقَانِ

اللَّهُ أَكْبَرُ ذَاكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْ
تِيْهِ لِمَنْ يَرْضَى بلا حُسْبَانِ

وَتَرى المُخَلَّفَ في الدِّيَارِ تَقُوْلُ ذَا
إحْدَى الأَثَا فِي خُصَّ بالحِرْمَانِ

اللَّهُ أَكْبَرُ ذَاكَ عَدْلُ اللَّهِ يَقْ
ضِيْهِ على مَن شَاءَ مِن إنْسَانِ

وَلَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا الحَمْدُ في الْ
أُوْلَى وفي الأُخْرَى هُمَا حَمْدَانِ

حَمْدٌ لِذَاتِ الرَّبِ جَلَّ جَلَالُه
وكذاكَ حَمْدُ العَدْلِ والإحْسَانِ

يا مَن تَعُزُّ عَلَيْهُمْ أَرْوَاحُهُمْ
وَيَرَوْنَ غَبْناً بَيْعَهَا بِهَوَانِ

وَيَرَوْنَ خُسْراناً مُبِيْناً بَيْعَهَا
في إثْرِ كُلِ قَبِيْحَةٍ وَمُهَانِ

وَيَرَوْنَ مَيْدَانَ التَّسَابُقِ بَارِزاً
فَيُتَارِكُون تَقَحُّمَ المَيْدَانِ

وَيَـرَوْنَ أَنْـفَـاسَ الـعِـبَـادِ عَـلَيْـهِـمُ
قَـدْ أُحْـصِـيَـتْ بـالـعَـدِ والـحُـسْـبَـانِ
وَيَـرَوْنَ أَنَّ أَمَـامَـهُـمْ يَـوْمَ الـلِّقَـا
لِـلَّهِ مَـسْـأَلَـتَـانِ شَـامِـلَتَـانِ
مـاذا عَـبَـدْتُـمْ ثُـمَّ مـاذَا قَـدْ أجـبْ
تُـمْ مَـنْ أَتَـى بـالـحَـقِ والـبُـرْهَـانِ
هـاتُـوا جَـوابـاً لِـلـسُّـؤآلِ وَهَـيِئُـوا
أَيْـضَـاً صَـوَابـاً لِـلْجَـوابِ يُـدَانِ
وَتَـيَـقَـنُـوا أَنْ لَـيْسَ يُـنْـجِـيْـكُـمْ سِـوَى
تَـجْـرِيْـدِكُـم بِـحَـقَـائِـقِ الإِيْـمَـانِ
تَـجْـرِيْـدُكُـم تَـوْحِـيْـدَهُ سُـبْـحَـانَـه
عـن شِـرْكَـةِ الـشَـيـطانِ والأَوْثَـانِ
وَكَـذَاكَ تَـجْـرِيـدُ اتِّـبـاعِ رَسُـولِـهِ
عـن هَـذِهِ الآراءِ والـهَـذَيـانِ
والـلَّهِ مَـا يُـنْـجِـي الـفَـتَـى مِـنْ رَبِـهِ
شَـيءٌ سِـوَى هَـذَا بـلا رَوَغَـانِ
يَـا رَبُّ جَـرِّدْ عَـبْـدَكَ المِـسْـكِـيْـنَ رَا
جِيْ الفَـضْـلَ مِـنْـكَ أَضْـعَـفَ الـعُـبْـدَانِ
لـم تَـنْـسَـهُ وَذَكَـرْتَـه فـاجْـعَـلْهُ لاَ
يَـنْـسَـاكَ أَنْـتَ بَـدَأْتَ بـالإِحْـسَـانِ

وَبِـهِ خَتَمْتَ فَكُنْتَ أَوْلَى بـالـجَمِيْـ
لِ وبـالثَّنَـاءِ مِنَ الجَهُـولِ الجَـانِي

فَـالعَبْـدُ لَيْسَ يَضِيْـعُ بَيْنَ خَـوَاتِمٍ
وَفَـواتِـحٍ مـن فَضْـلِ ذِي الـعِـرْفَـانِ

أَنْـتَ الـعَـلِيْـمُ بِـهِ وَقَـدْ أَنْـشَـأْتَـهُ
مِـنْ تُـرْبَـةٍ هِـيَ أَضْـعَـفُ الأَرْكَـانِ

والـضَّعْـفُ مُسْتَـوْلٍ عَلَيْنَـا مِن جَمِيْـ
ـعِ جِهَـاتِنـا سِيْمَـا مِـن الإيمـانِ

يـا رَبُّ مَـعْـذِرَةً إِلَيْـكَ فَـلَمْ يَكُـنْ
قَـصْـدُ العِبَـادِ رُكُـوبَ ذَا العِصْيَـانِ

لَـكِنْ نُـفُـوسٌ سَـوَّلَـتْـهَـا وَغَـرَّهَـا
هَـذَا الـعَـدُوُّ لَـهَـا غُـرُوْرَ أَمَـانِ

فَـتَـيَـقَـنْـتْ يَـا رَبُّ أَنَّـكَ واسِـعُ الـ
ـغُـفْـرانِ ذُوْ فَـضْـلٍ وَذُو إِحْـسَـانِ

وَسَـعَتْ إِلـى الأَبَـوَاْيِنِ رَحْـمَتُـكَ الَّتِي
وَسِـعَـتْـهُـمَـا فَـعَـلَا بِـكَ الأَبِـوَانِ

هَـذَا ونَـحْـنُ بَـنُـوهُـمَـا وحُـلُوْمُـنَـا
فِـي جَـنْـبِ حِلْمِـهِـا لَـدَى الـمِـيْـزَانِ

جُـزْءٌ يَـسِـيْـرٌ والـعَـدُوُّ فَـواحِـدٌ
لَـهُـمَـا وَأَعْـدَانَـا بـلا حُـسْـبـانِ

وَمَـقَـالُـنَـا مـا قَـالَـه الأَبَـوانِ قَـبْـ
ـلَ مَـقَـالَـةِ العَـبْـدِ الـظَّلُومِ الـجَـانِ
نَحْنُ الأُولَى ظَلَمُـوا وإِنْ لَمْ تغـفـر الـ
ـذَنْـبَ الـعَـظِيْـمَ فَـنَـحْـنُ ذُوْ خُـسْـرَانِ
يَـا رَبُّ فَـانْـصُـرْنَـا على الشيطان لَيـ
ـسَ لَـنَـا بِـهِ لَـوْلاَ حِـمَـاكَ يَـدَانِ

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ وَقَوِي إِيْمَانَنَا بِكَ وَبِمَلائِكَتِكَ وَبِكُتُبِكَ وَبِرُسُلِكَ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وبالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ اللَّهُمَّ عَامِلْنا بِعَفْوِكَ وغُفْرانك وامْنُنَّ عَلَيْنا بِفَضْلِكَ وَاحْسَانِكْ ونَجِّنَا مِن النارِ وَعافِنَا مِن دَارِ الخِزْيِ والبَوَارِ وادخلنا بفضلكَ وكرمكَ وجودكَ الجنةَ دارَ القرار واجعلنا مَعَ عبادِكَ الذين أَنْعَمْتَ عليهم مِن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في دَارِ رِضْوانِكَ وصلى اللَّه على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْـــلٌ »

٩٤ ـ ومِنْ ذَلِكَ إِخْبَارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن مِحْنَةِ المُسْلِمِيْنَ ، وَتَدَاعِيْ الأُمَمِ عَلَيْهِم ، فَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ ، عن ثَوْبَانَ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، « يُوْشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا الأَكَلَةُ إِلى قَصْعَتِها » فَقالَ قَائِلٌ : وَمِن قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قال : « بَلْ أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِير ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِن صُدُوْرِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُم ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ في قُلُوبِكُم الوَهْنَ » فقال قَائِلٌ : يا رسولَ اللَّهِ وما الوَهْنُ ؟ قال « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَةُ المَوْتِ » وأخرجه أيضاً أحمد في مسنده .

٩٥ ـ ومِن ذلكَ إخبارُهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم باتِّسَاعِ مُلْكِ المُسْلِمِيْنَ وَفَوْزِهِمْ بِكُنُوزِ كِسْرَى وَقَيْصَر واضْطِرَابِ أَمْرِ المُسْلِمِيْن في النِّهَايَةِ

ففي صحيح مسلم عَن ثَوْبَانَ قالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عليه وسلم : « إنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَها ، وَانَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغ مُلْكُها ما زُوِيْ لِيْ مِنْهَا ، وأُعْطِيْتُ الكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ والأبيضَ ، وإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِيْ أَنْ لَا يُهْلِكَها بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَنَّ لا يُسَلِطَ عَلَيْهِم عَدُواً مِن سِوَى أَنْفُسِهِم فَيَسْتَبِيْحَ بَيْضَتَهُمْ .

وَإِنَّ اللَّهَ قال لِيْ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّيْ إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّيْ أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُم بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِم عَدُواً مِن سِوَى أَنْفُسِهِم يَسْتَبِيْحُ بَيْضَتَهُمْ ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِم مَنْ بأقطارِهَا ، أَوْ قَالَ مِنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً .

٩٦ ـ وَمِنْ ذَلِكَ ما في صحيح البخاري عن أنس رضي اللَّهُ عنه قال كان رَجُلٌ نَصْرانياً فأسْلَمَ وَقرأ البَقَرَةَ وآلَ عِمْرانَ فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِي صَلى اللَّهُ عليه وسلم فَعَادَ نَصْرَانِياً ، فكانَ يَقُولُ : مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ فَدَفَنُوْهُ فأصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ ، فَقَالُوا هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ ، نَبَشُوْا عَنْ صَاحِبِنَا ، فَأَلْقوْهُ ، فَحَفَرُوْا لَهُ ، فَأَعْمَقُوا ، فَأَصْبَحَ قَدْ لَفَظَتْهُ الأرْضُ ، فَعَلِمُوْا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ .

٩٧ ـ ومِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عن عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِب رضي اللَّهُ عَنْهُ قال : بَعَثَنِيْ رسولُ اللَّهِ صلى اللَّه عَلَيْهِ وسلم إلى اليمنِ فَقُلْتُ يا رَسول اللَّهِ تَبْعَثُنِيْ وَأَنَا حَدَثُ السِّنِّ لَا عِلْمَ لِيْ بالقَضَاءِ قال « انْطَلِقْ فإن اللَّهَ تعالَى سَيَهْدِيْ قَلْبَكَ

وَيْثبِتْ لِسَانَكَ » قَالَ عَليٌّ رضيَ اللَّهُ عنه فَمَا شَكَكْتُ في قَضَاءٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى الله عليه وسلم « أَقْضَاكُمْ عَليٌّ » .

٩٨ ـ وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ عَن قَيْسٍ بنِ أَبِي حازِمٍ عن أَبِي شَهْمٍ وكانَ رَجُلاً بَطَّالاً فَمَرَّتْ بِهِ جارِيَة فَأَهْوَى بِيَدِهِ إلى خَاصِرَتِهَا قالَ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم مِنَ الغَدِ وَهُوَ يُبَايعُ النَّاسَ فقَبَضَ يَدَهُ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم : « أَصَاحِبُ الجَبْذَةِ أَمْسِ ؟ » قال فَقُلْتُ لَا أَعُوْدُ يا رَسُولَ اللَّهِ فقال صلى اللَّهُ عليه وسلم « فَنَعَمْ إذاً » الحديثَ أخرجه النسائي .

٩٩ ـ ومِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ ابنُ عُمَرَ رَضِي اللَّه عنهما ، قال كُنْتُ جالساً مَعَ النَّبِي صلى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ في مَسْجِدِ مِنَى ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، وَرَجُلٌ مِن ثَقِيْفٍ ، فَسَلَّمَا ، ثُمَّ قالا ، يا رسولَ اللَّهِ جِئْنا نَسْأَلُكَ ، فقال « إِنْ شِئْتُمَا أَخْبَرْتُكَمَا ، بِمَا جِئْتُمَا تَسْأَلانِي عَنْهُ فَعَلْتُ ، وإن شِئْتُمَا أَنْ أُمْسِكَ وَتَسْأَلَانِيْ فَعَلْتُ » فَقَالَا أَخبِرْنَا يا رَسُوْلَ اللَّهِ ، فَقَالَ الثَّقَفِيُّ لِلأَنْصَارِي ، سَلْ ، فقال أَخْبرنِيْ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فقالَ « جِئتَ تَسْأَلُنِيْ عن مَخْرَجِكَ مِنْ بَيْتِكَ تَؤُمُّ البَيْتَ الحَرَامَ ، وما لَكَ فِيْهِ ، وعن رَكْعَتَيْكَ بَعْدَ الطَّوافِ ، وَمَا لَكَ فِيْهَا ، وعن طَوَافِكَ بين الصَّفَا والمَرْوَةِ ، وَمَا لَكَ فِيْهِ ، وعن وُقُوْفِكَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ، وَمَالَكَ فِيْهِ ، وعن رَمْيكَ الجِمَارَ ، وَمَالَكَ فِيهِ ، وَعَنْ نَحْرِكَ ، وَمَا لَكَ فِيْهِ ، مَعَ الإِفَاضَةِ » فقال : والَّذِيْ بَعَثَكَ بالحَقِّ لَعَنْ هَذا جِئْتُ، أَسْأَلُكَ .

قَالَ « فإِنَّك إِذَا خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ تَؤُمَّ البَيْتَ الحَرَامَ ، لَا تَضَعُ نَاقَتُكَ خُفَّاً ، ولا تَرْفَعُهُ ، إلا كَتَبَ اللَّهُ لَكَ بِهِ حَسَنَةً ، وَمَحا عَنْكَ خَطِيْئَةً ، وَأَمَّا

رَكْعَتَاكَ بَعْدَ الطَّوَافِ ، كَعِتْقِ رَقَبَةٍ من بَنِيْ اسْمَاعِيْلَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بالصَّفَا والمَرْوَةِ ، كَعتقِ سَبْعِيْنَ رَقْبَةً ، وأَمَّا وُقُوفُكَ عَشِيَّةَ عَرفَةَ ، فإِنَّ اللَّهَ يَهْبِطُ إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيُبَاهِي بِكُم المَلاَئِكَةِ يَقُولُ عِبَادِيْ جَاؤُنِيْ شُعثاً ، مَنْ كُلِّ فَجٍ عَمِيْقٍ ، يَرْجُوْنَ جَنَّتِيْ ، فَلَو كَانَتْ ذُنُوبُكُمْ كَعَدِدِ الرَّملِ ، أَوْ كَقَطْرِ المَطَرِ ، أَوْ كَزَبَدِ البَحْرِ ، لَغفَرْتُهَا ، أَفِيْضُوْا عِبَادِيْ ، مَغْفُوْراً لَكُمْ ، وَعَمَّنْ شَفَعْتُمْ لَهُ .

وَأَمَّا رَمْيُك الجِمَارَ ، فَلَكَ بِكلِّ حَصَاةٍ رَمَيْتَهَا ، تَكْفِيْرُ كَبِيْرَةٍ مِنَ المُوْبِقَاتِ ، وَأَمَّا نَحْرُكَ فَمَذْخُوْرٌ لَكَ عِنْدَ رَبِّكَ ، وَأَمَّا حِلاَقُكَ رَأْسَكَ ، فَلَكَ بكلِّ شَعْرَةٍ حَلَقْتَهَا حَسَنَةً ، وَيُمحَى عَنْكَ بِهَا خَطِيْئَةٌ ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بالبَيْتِ ، بَعْدَ ذَلِكَ ، فَإِنَّكَ تَطُوْفُ وَلاَ ذَنْبَ لَكَ ، يَأْتِي مَلَكٌ يَضَعُ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْكَ ، فَيَقُولُ اعْمَلْ فِيْمَا تَسْتَقْبِل فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى » رواه الطبرانيُ في الكبيرِ والبَزَّارُ واللَّفْظُ لَهُ ورواه ابنُ حبانَ في صحيحه .

١٠٠ ـ وَمِنْهَا اخْبَارُهُ صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَقْتَلِ عَلي بنِ أَبِيْ طَالِبٍ ، وانَّ قَاتِلَهُ يَخضِّبُ لِحَيَةَ عَليٍّ مِن دَمِ رَأْسِهِ ، فَعَن فَضَالَةَ بنِ أَبِيْ فَضَالَةَ الأَنْصَارِي ـ وكانَ ابنُ فَضَالَةَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ ـ قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ أَبِيْ عَائِداً لِعَليّ بْنِ أَبِيْ طَالِبٍ ، مِنْ مَرَضٍ أَصَابَهُ ثَقُلَ مِنْهُ ، قال فَقَالَ لَهُ أَبِيْ مَا يُقِيْمُكَ بِمَنْزِلِكَ هَذَا لَوْ أَصَابَ أَجَلُكَ إِلاَّ أَعْرَابُ جُهَيْنَةَ ، تُحْمَلُ إلى المَدِيْنَةِ ، فإنْ أَصَابَكَ أَجْلُكَ وَلِيَكَ أَصْحَابُكَ ، وَصَلُّوْا عَلَيْكَ .

فَقَالَ عَليٌّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم عَهِدَ إِليَّ أَنْ لاَ أَمُوْتَ حَتَّى أُؤْمَّرَ ، ثُمَّ تُخْضَّبُ هَذِهِ ، ـ يَعْنِي لِحْيَتَهُ مِن دَمِ هَذِهِ ـ يَعْنِيْ هَامَتَهُ ، وعن عُثْمَانَ بنِ صُهَيْبٍ عن أَبِيْهِ ، قال قال عَليٌّ قال لِيْ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ

عليه وسلم « مَنْ أَشْقى الأَوَّلِيْنَ ؟ » قُلْتُ : لاَ عِلْمَ لِيْ يَا رَسولَ اللَّهِ . قَالَ « الذِيْ يَضْرِبُكَ عَلَى هَذِهِ ـ وَأَشَارَ عَليٌّ إِلَى يَافُوْخِهِ بِيَدِهِ ـ فَيُخَضِّبُ هَذِهِ مِن هَذِهِ » يَعْنِي لِحْيَتَهُ مِن دمِ رَأْسِهِ ، قَالَ : فَكَانَ يَقُوْلُ وَدِدْتُ أَنَّهُ قَدْ انْبَعَثَ أَشْقَاكُمْ .

وقُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيْلَةَ الجُمعَةِ لِسَبْعَ عَشْرَةَ ليلةٍ خلَتْ مِن رَمَضَان سنة ٤٠هـ ، عِنْدَمَا خَرَجَ يُوْقِظُ الناسَ لِصَلاةِ الفَجْرِ ، فَضَرَبَهُ ابنُ مُلْجِمٍ بالسَّيْفِ على قَرْنِهِ ، فَسَالَ دَمُه على لِحْيَتِهِ ، رضي اللَّهُ عَنْهُ وأَرضَاهُ ، فَوقَعَ طِبْقَ ما أَخْبَرَهُ بِهِ النبيُ صلى اللَّهُ عليه وسلم .

١٠١ ـ وَمِنْهَا إِجَابَةُ دُعَائِهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلم لِأَبِي هُريرةَ ، في تَحْبِيْبِهِ إلى الناسِ وأُمِّهِ ، فَقَدْ وَرَدَ عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنه قال ، واللَّه ما خَلَقَ اللَّه مُؤمناً يَسْمَعُ بِي أَوْ يَرَانِي إِلاَّ أَحَبَّنِيْ ، قال إِنَّ أُمِّي كَانَتْ امْرَأَةً مُشْرِكَةً ، وَإِنِّيْ كُنْتَ أَدْعُوهَا إلى الاسْلامِ ، وكانَتْ تَأْبى عَليَّ فَدَعَوْتُهَا يَوْماً ، فأسْمَعَتْنِيْ في رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم مَا أَكْرَهُ .

فَأَتَيْتُ رسولَ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم وأنَا أَبْكِيْ ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّيْ إِلى الإِسْلامِ ، فَكَانَتْ تَأْبى عَليَّ ، وإِنِّي دَعَوْتُها اليَومَ فاسْمَعَتْنِي فِيْكَ مَا أَكْرَهُ ، فادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أمَّ أَبِيْ هُريرةَ ، فقال « اللَّهُمَّ اهْدِ أمَّ أَبِي هُرَيْرَة » فَخَرَجْتُ أَغْدُو أُبشِّرُها ، بِدُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم .

فَلَمَّا أَتَيْتُ البَابَ إذا هُوَ مُجَافٍ ، وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةً ،

(خَشْخَشَةً) وسَمِعْتُ خَشْفَ رِجْلٍ ـ يَعْنِيْ وَقْعَهَا ، فَقَالَتْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كَمَا أَنْتَ ، ثُمَّ فَتَحتِ الباب ، وَقَدْ لَبِسْتْ دِرْعَهَا ، وَعَجلَتْ عن خِمَارِها أَنْ تَلْبَسَهُ ، وَقَالَتْ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ ، فَرَجَعْتُ إلى رَسُوْلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليهِ وَسَلَّم أَبْكِيْ مِنَ الفَرَحِ ، كَمَا بَكَيْتُ مِن الحُزْنِ .

فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ ، فَقَدْ اسْتَجَابَ اللّهُ دُعَاءَكَ ، قَدْ هَدَى اللَّهُ أمَّ أبي هُرَيْرَةَ ، وقُلْتُ يا رَسُولَ اللَّهِ ، أَدْعُ اللَّهِ أَنْ يُحَبِّبَنِيْ وَأُمِّيْ إلى عِبَادِهِ المُؤْمِنين .

فقال « اللَّهُمَّ حَبِّبْ عبَيْدَكَ هَذَا وَأمَّهُ إلى عِبَادِكَ المؤمنين وَحَبِبْهُمْ إِلَيْهِمَا » قال أَبُو هُرَيْرَة ، فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ مُؤْمِنٍ يَسْمَعُ بِي ولا يَرَانِيْ أَوْ يَرَى أُمِّيْ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُنِي .

١٠٢ ـ وَمِنْهَا قِصَّةٌ أخرى ، مَعَ أَبِيْ هُريرةَ ، وهِيَ مَا وَرَدَ عن سَعِيْدٍ المَقْبُرِي عن أَبِي هريرةَ ، قَالَ قُلْتُ يا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّيْ أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيْثاً كَثِيْراً فَأَنْسَاهُ ، فَقَالَ « ابْسطْ رِدَاءَكَ » ، فَبَسَطْتُهُ ، ثُمَّ قَالَ « ضُمَّهُ » ، فَضَمَمْتُهُ ، فَمَا نَسِيْتُ حَدِيْثاً بَعْدُ ، رواه البخاري .

وقال الامامُ أَحْمَدُ حدثنا سُفْيَانُ ، عن الزُهْرِيْ ، عن عبدِ الرَّحمنِ الأعرجِ ، قالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَة يَقُولُ إِنَّكُم تَزْعُمُونَ أنَ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الحديثَ عن رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، واللّهُ المُوعِدُ إِنِّنِيْ كُنتُ أَمْرأً مِسْكِيْناً ، أَصْحَبُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مِلْءِ بَطْنِيْ ، وَكَانَ المُهَاجِرُوْنَ يَشْغُلُهم الصَّفْقُ في الأَسْوَاقِ ، وَكَانَتْ الأنصارُ

يَشْغُلُهُم القِيَامُ عَلَى أَمْوَالِهِم ، فَحَضَرْتُ مِن رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم يَوْماً مَجْلِساً ، فَقَالَ « مَنْ بَسَطَ رِدَاءَهُ حَتَّى أَقْضِيْ مَقَالَتِيْ ثم يَقْبِضُهُ إِلَيه فَلَنْ يَنْسَى شَيْئاً سَمِعَهُ مِنِّيْ » فَبَسَطْتُ بُرْدَةً عَلَيَّ ، حَتى قَضَى مَقَالَتَهُ ، ثُمَّ قَبَضْتُهَا إِلَيَّ ، فَوَالذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ، ما نَسِيْتُ شَيْئاً سَمِعْتُهُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ .

اللهم ثَبِّت مَحَبَّتَكَ في قُلُوبِنَا وَقَوِّهَا وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا بِنُوْرِ الايمانِ واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِيْن وتَوَفَنا مُسْلِمِيْنَ والحِقنَا بالصالحِين واغفر لنا ولِوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى اللَّه على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

١٠٣ ـ وَمِنْهَا إِخْبَارُهُ صلى اللَّه عليه وسلم أَنَّ الحَسنَ بنَ عَليٍّ وهُوَ ابنُ فاطِمَةَ يُصْلِحُ اللَّهُ بهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيْمَتَيْنِ ، فَتَمَّ ذَلِكَ بِمُصَالَحَةِ الحَسَنِ لِمُعَاوِيَةَ بن أَبِيْ سُفْيَانَ ، وَذَلِكَ بَعْدَ وَفَاةِ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بثلاثينَ سَنَة .

١٠٤ ـ وَمِنْهَا إِخْبَارُهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم بأَنَّ عَمَّارَ بنَ ياسِرٍ تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلى الجَنَّةِ ، وَهُمْ يَدْعُونَهُ إِلى النَّار ، وَيَكُونُ آخِرُ زَادِهِ ضِيَاحاً مِنْ لَبَنٍ ، فَقَتَلَهُ أَصْحابُ مُعَاوِيَةَ بِصِفِّين ، وَهُوَ مَعَ عَليِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَكَانَ آخِرَ زَادِهِ مِن الدُنْيا ضِيَاحاً مِنْ لَبَنْ (والضِيَاحُ) اللَّبَنُ الخَاثِرُ يُصبُّ فِيْهِ المَاءَ ثمَّ يُخْبَط .

١٠٥ ـ وَمِنْهَا إخبارُهُ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم أَصْحَابَه ، وَهُمْ يَحْفِرُون الخَنْدَقَ بأنَّ اللَّه يَفْتَحُ عَلَيْهِ اليَمَنَ والشَامَ والمَغْرِبَ والمَشْرِقَ ، فَفِي السِّيرِ والتَّفَاسِير عن سَلمَانَ الفَارِسيْ ، قال : ضَرَبْتُ في نَاحِيَةٍ مِنَ الخَنْدَقِ ، فَغَلُظَتْ عَليَّ صَخْرَةٌ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم قَرِيْبٌ مِنِّيْ .

فَلَمَّا رَآنِيْ أَضْرِبُ ، وَرَأى شِدَّةَ المَكَانِ عَلَيَّ ، نَزَلَ فَأَخَذَ المِعْوَلَ مِن يَدِيْ ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً لَمَعَتْ تَحْتَ المِعْوَلِ بَـرْقَـةٌ ، قالَ ثُمَّ ضَرَبَ به ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى ، قالَ ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثالثَةَ ، فَلَمعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى ، قال قُلْتُ بأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا هَذَا الذِيْ رَأَيْتُ لَمَعَ تَحْتَ المعْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ قالَ « أَوَ قَـد رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ ؟ » قالَ قلتُ : نعم .

قالَ أَمَّا الأُولَى ، فإنَّ اللَّهَ فَتَحَ عليَّ بِهَا اليَمَن ، وأمَّا الثَّانِيَةُ فإنَّ اللَّه فَتَحَ عليَّ بِهَا الشَّامَ والمَغـرِبَ ، وأمَّا الثالثَةُ فإنَّ اللَّهَ فَتَحَ عليَّ بِهَا المَشْرِقَ ، فكانَ الأَمْرُ كَمَا أَخْبَرَ عَلَى التَفْصِيْل ، فإنَّ أَوَّلَ ما فُتِحَ مِن البُلْدَانِ المذكُوْرَةِ اليَمَنُ ، فُتِحَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُوْلِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، وَفُتِحَتْ بَعْدَها الشَّامُ والمَغْرِبُ ، وَفَتِحَ بَعْدَ الشام المَشْرِقُ ، في مُدَّةٍ قَلِيْلَةٍ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم .

١٠٦ ـ وَمِنْهَا قِصَّةُ جَمَلِ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عنه أَنَّه كَانَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ قَدْ أَعْيَا فَأَرَادَ أَنْ يُسَيِّبَه قَالَ : فَلَحِقَنِيَ النَّبِيُّ صلى اللَّهُ عليه وسلم فَدَعَا لِيْ وَضَرَبَهُ ، فَسَارَ سَيْراً لَمْ يسرْ مِثْلَهُ ، فَقَالَ « بِعْنِيْه بأُوْقِيَّةٍ » قُلْتُ : لاَ . ثُمَّ قال « بِعْنِيهِ » فَبِعْتُهُ بأُوْقِيَّةٍ ، واشْتَرَطْتُ حُمْلانَهُ إلى أَهْلِيْ ، فَلمَّا بَلَغْتُ أَتَيْتُهُ بالجَمَل ، فَنَقَدَنِيْ ثَمَنَهُ ، ثم رَجَعْتُ فَأَرْسَلَ

في أَثَرِي ، فقال « أَتُرَانِيْ ما كَسْتُكَ لآخُذَ جَمَلَكَ ، خُذْ جَمَلَكَ وَدَرَاهِمَكَ فَهُوَ لَكَ » متفق عليه .

١٠٧ ـ ومِن ذَلِكَ اخْبَارُهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم أَصْحَابَهُ عَمَّا وَقَعَ لِخُبَيْبِ بنِ عَدِي ، فَعَنْ أبي هريرة رضيْ اللَّهُ عَنْهُ قال بَعَثَ النبي صلى اللَّهُ عليه وسلم عَشَرَةَ عَيْناً ، وأمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بنَ ثابِتٍ الأَنْصَارِيْ ، جَدَّ عَاصِمِ بنِ عُمَرَ بن الخطاب ، حَتَّى إذا كَانُوا بالهَدَّةِ ، بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَةَ ، ذُكِرُوا لِحَّى مِنْ هُذَيْلٍ ، يُقَالُ لَهُمْ بَنُوا لِحْيَان .

فَنَفَرُوْا لَهُمْ بِقَرِيْبٍ مِن مائَةِ رَجُلٍ رَامٍ ، فاقْتَصُوْا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مأْكَلَهُم التَّمْرَ في مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ ، فقَالُوا تَمْرَ يَثْرِبَ ، فاتَّبَعُوْا آثارَهُمْ ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ ، لَجَئُوْا إلى مَوْضِعٍ ، فَأَحَاطَ بِهِمُ القَوْمُ ، فقالُوا لَهُم انْزِلُوا فأعْطُوا بِأَيْدِيْكُمْ وَلَكُم العَهْدُ والمِيْثَاقُ أَنْ لاَ نَقْتُلَ منكُم أَحداً ، فقال عَاصِمٌ بنُ ثَابتٍ : أَيُّهَا القَوْمُ أَمَّا أَنَا فَلاَ أَنْزِلُ في ذِمَّةِ كَافِرٍ .

ثُم قَالَ : اللَّهُمَّ أخْبِرْ عنَّا نَبِيَّكَ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، فَرَمَوْهُم بالنَّبل ، فَقَتَلَوا عَاصِماً ، وَنَزَلَ إِلَيْهِم ثلاثَةُ نَفَرٍ ، عَلَى العَهْدِ والمِيْثاقِ ، مِنْهُمْ خُبَيْبٌ ، وَزَيْدِ بنِ الدَّثِنَّةِ ، وَرَجُل آخَرُ ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوْا مِنْهُمْ ، أَطْلَقُوْا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ ، فَرَبَطُوهُمْ بِهَا ، قال الرُّجُلُ الثالِثُ ، هَذَا أَوَّلُ الغَدْرِ ، واللَّهِ لا أَصْحَبُكُم ، إنَّ لِيْ بِهَؤلآءِ أُسْوَةً ، يُرِيْدُ القَتْلَى ، فَجَرَّرُوْهُ ، وَعَالَجُوْهُ ، فأَبَى أن يَصْحَبَهُمْ .

فانْطَلَقُوْا بِخُبَيْبِ وَزَيْدِ بنِ الدَّثِنَةِ ، حَتَّى باعُوهُمَا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، فابْتَاعَ

بَنُوا الحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بِنِ نَوْفَلَ خُبَيْباً ، وكانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ بن عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيراً ، حَتَّى أَجْمَعُوْا عَلَى قَتْلِهِ ، فاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الحَارِثِ مُوْسَىً ، يَسْتَحدُ بِهَا ، فَأَعَارَتْهُ ، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا ، وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ ، فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلى فَخِذِهِ ، والمُوسَى بِيَدِهِ .

قالَتْ فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فقَالَ أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ ، مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَلِكَ ، قَالَتْ واللَّهِ ما رَأَيْتُ أسيراً قَطُ ، خَيْراً مِن خُبَيْبٍ ، واللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْماً يَأْكُلُ قِطْفاً مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ ، وإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بالحَدِيْدِ ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ ، وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ للَّهُ خُبَيْباً .

فَلَمَّا خَرَجوا مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوه فِي الحِلِّ ، قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ دَعُونِيْ أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ ، فَتَرَكُوْهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ، فَقَالَ لَوْلاَ أَنْ تَحْسَبوا أَنَّ ما بِيْ جَزَعٌ لَزِدْتُ ، ثُمَّ قالَ : اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَداً ، واقْتُلْهُمْ بَدَدَا ، ولا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحداً ثم أَنْشَأَ يَقُولُ :

فَلَسْتُ أُبَالِي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِماً
عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلهِ وَإِنْ يَشَأْ
يُبَارِكْ عَلى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثم قامَ إِليه أَبُو سَرْوَعَةَ ، عُقْبَةُ بنُ الحَارِثِ فقَتَلَهُ ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرَا الصَّلاَةَ ، وَأَخْبَرَ النبيُ صلى اللَّه عليه وسلم أَصْحَابه يَوْمَ أُصِيْبُوْا خَبَرَهُم ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِن قُرَيْشٍ إلى عَاصِمِ بن

ثابتٍ ، حِيْنَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ ، أَنْ يؤْتُوْا بِشَيء مِنه ، يُعْرَفُ ، وَكَانَ قَتَلَ رَجُلاً عَظِيْماً مِنْ عُظَمَائِهِمْ ، فَبعَثَ اللَّهُ لِعَاصِم مثَالَ الظُلَّةِ مِن الدَّبرِ فَحَمَتْهُ مِن رُسُلِهم فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئاً ، والشَّاهِدُ في إِخْبَارِ الرَّسُوْلِ صلى اللَّه عليه وسلم أَصْحَابَهُ يومَ أُصِيْبُوْا .

١٠٨ ـ ومن ذلك إِخْبَارُهُ صَلى اللَّهُ عليهِ وسلم بأنَّ عَليَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَفْتَحُ اللَّهُ على يـديه خَيْبَرَ .

ففي الصحيحن عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم قالَ يوْمَ خَيْبَر « لأعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غداً رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَيُحِبُه اللَّهُ ورسُولُهُ يَفْتَحُ اللَّهُ على يَدَيْهِ » فَبَاتَ النَّاسُ يَدوكُونَ لَيْلَتهُم ، أَيُّهُمْ يُعطاهَا فقال « أَيْنَ عَليُ بنُ أَبِي طَالِبٍ ؟ » فَقِيْلَ هُوَ يَشْتَكِي عينيه فَأَرْسَلُو إِلَيْهِ فأُتِى بهِ فَبَصَقَ في عَيْنَيْه وَدَعَا لَهُ فَبَرأَ كأنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ ، فأعْطَاهُ الرَّايَةَ فقال « أَنْفِذْ عَلى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإِسْلامِ وأخبِرْهُم بِما يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِن حَقِّ اللَّه تعالى فِيه فَواللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً واحِداً خيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعمِ » فَفَتَحَ اللَّهُ على يَدَيْهِ فَكَانَ كَما قَالَ .

١٠٩ ـ وَمِنْ ذَلِكَ نَعْيُهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم زَيْداً ، وَجَعْفَراً وابنَ رَوَاحَةَ ، فقد رَوَى البُخاري عن أنسٍ بنِ مالكٍ أن رَسُولَ اللَّه صلى اللَّهُ عليه وسلم نَعَى زَيْداً وَجعْفَراً وابنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِي خَبَرُهُم ، فقال : « أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَاصِيْبَ ، ثم أَخذَهَا جَعْفَرٌ فأصِيْبَ ، ثُمَّ أَخذَهَا ابنُ رَوَاحَةَ فأصِيْبَ ، وعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ ، حَتَّى أَخذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِن سُيُوفِ اللَّهِ » يَعْنِي خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ واللَّه أعلم وصلى اللَّه على محمد وآله وسلم .

« فصْلٌ »

١١٠ ـ ومنها مَا وَرَدَ عن رِفَاعَةَ بنِ رَافعٍ ، قال رُمِيْتُ بِسَهْمٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَفُقِئَتْ عَيْنِيْ ، فَبَصَقَ فيها رسولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، ودَعَا لِيْ ، فَمَا آذانِيْ منها شيءٌ بَعْدُ .

١١١ ـ ومِن ذلك أَنَّهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم اسْتَسْقَىْ مَرَّةً ، فَقَامَ أبو لُبَابَةُ ، فقال يا رسول اللَّه إنَّ التَّمْرَ في المَرَابِدِ .

فقال « اللَّهُمَّ اسْقِنَا حَتَّى يَقُوْمَ أَبُوْ لُبَابَةُ عُرْياناً فَيَشُدُّ مِرْبَدَهُ بازَارِهِ » فأمْطَرَتْ فاجْتَمَعُوْا إلى أَبِيْ لُبَابَةَ فقالُوا إِنَّها لَنْ تُقْلِعَ حَتَّى تَقُومَ عُرياناً فَتَشُدَّ ثَعْلَبَ مِرْبَدِكَ بإزارِكَ فَفَعَلَ فأقْلَعتِ السَّمَاءُ .

١١٢ ـ ومنها قِتَالُ الملائكةِ معه صلى اللَّه عليه وسلم يومَ أُحُدٍ ففي الصحيحن عن سعدِ بنِ أبي وقاصٍ ، قال رَأَيْتُ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يَوْمَ أحد ، وَمَعَهُ رَجُلانِ يُقَاتِلَانِ عنه ، عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيْضٌ ، كَأَشَدِّ القِتَالِ ، مَا رَأَيْتُهما قَبْلُ ولا بَعْدُ .

١١٣ ـ ومنها ما وَرَدَ عَن نَافِعِ بنِ جبير ، قال سَمِعْتُ رَجُلاً مِنَ

المُهَاجِرِيْنَ يَقُولُ شَهِدْتُ أُحُداً ، فَنَظَرْتُ إلى النَّبْلِ يأتِيْ مِنْ كلِّ ناحيةٍ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم وَسَطُها ، كُلُ ذَلِكَ يُصْرَفُ عنه .

١١٤ ـ وَمِنْهَا دُعَاؤه صلى اللَّه عليه وسلم لأَبي طَلْحَة وأُمّ سَلمَة ، واسْتِجَابةُ اللَّهِ لِدَعْوتِه ، فَعَنْ أنسٍ رضي اللَّه عنه قال : كانَ لأَبِيْ طلحة ابنٌ يَشْتكِي فَخرَجَ أَبُو طَلْحةُ فَقُبِضَ الصَّبِيُّ ، فَلَمَّا رَجعَ أَبُو طَلْحَةَ قالَ مَا فَعَل الصَّبِيُّ قَالَتْ أُمُّ سُلَيمٍ وَهِيَ أُمُّ الصَّبِي ، هُوَ أَسْكَنُ مَا كَانَ ، فَقرَّبَتْ لَهُ العَشَاءَ ، فَتعَشَّى ، ثم أَصَابَ مِنْها ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَتْ : وَارُوْا الصَّبِيَّ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُوْ طَلْحَةَ ، أَتَى رَسُوْلَ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم فَأَخْبَرَهُ ، فقال أَعَرَّسْتُم اللَّيْلَة ، قال نَعَمْ ، قال « اللَّهمَّ بَارِكْ لَهُمَا » فَوَلَدَتْ غُلاماً ، فقال لِيْ أَبُوْ طَلْحَةَ ، احْمِلْهُ ، حَتَّى تأتِيَ بِهِ النبيَّ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، وَبَعَثَ مَعَهُ بِتمرَاتٍ ، فقال « أَمَعَهُ شَيْءٌ ؟ » قال : نَعَمْ ، تَمرَاتٌ ، فَأَخَذَهَا النبيُ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، فَمَضَغَهَا ، ثُمَّ أَخذَهَا مِنْ فِيهِ ، فَجعَلَهَا في فيه الصَّبي ، ثم حَنَّكَهُ ، وَسَمَّاهُ ، عَبْدُ اللَّهِ . وفي رواية لِلبخاري قال ابنُ عُيَيْنَة فقال رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ـ فرأيتُ تِسْعَةَ أَوْلادٍ ، كُلُهُمْ قَدْ قرَؤُا القُرْآنَ ، يَعْنِيْ مِن أَوْلَادِ عَبدِ اللَّهِ المَوْلُوْدِ

١١٥ ـ وَمِنْ ذَلِكَ الكُدْيَةُ ، وَهِيَ الصَّخْرَةُ الصَّلْبَةُ ، التي لَا تَعْمَلُ فيها المَعَاوِلُ ، فَشَكَوْها إلى رسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، فَدَعَا بإناءٍ مِن مَاءٍ ، فَتفَلَ فيهِ ثُمَّ دَعَا بِمَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُوْ بِهِ ، ثُمَّ نَضحَ المَاءَ على تِلْكَ الكُدْيَةِ ، فيَقُولُ مَنْ حَضرَهـا ، فوالـذي بَعَثَه بـالحقِّ نَبيَّاً لانْهَالَتْ ، حَتَّى عادَتْ كالكَثِيْبِ ، لا تَردُّ فأساً ، ولا مِسْحاةً .

١١٦ ـ وَمِنْهَا ما رواه مسلم ، عن جابر بن عبد اللَّهِ ، أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ، فلما كان قُربَ المُدينةَ ، هاجَتْ ريحٌ شديدةٌ ، تكَادُ أن تَدْفِنَ الرَّاكبَ ، فزَعَمَ أنَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال « بُعِثَتْ هَذِهِ الريحُ لِمَوْتِ مُنَافِق » فلمَّا قَدِمَ المدينةَ إذا عَظِيْمٌ مِنَ المنافقين قَدْ ماتَ .

١١٧ ـ ومنها ما رواه عبدُ اللَّهِ بنُ عَمْرو الخُزَاعِي عن أبيهِ قال دعانِيْ النبي صلى اللَّه عليه وسلم ، وأرادَ أن يَبْعَثَني بِمَالٍ ، إلى أَبِي سُفْيَانَ بمكةَ ، لِيَقْسِمَهُ في قُرَيْش ، بَعْدَ الفَتْحِ ، فقال « التَمِسْ صَاحباً » فَجَاءَنِي عَمْرو بنُ أمية الضَّمرِيْ ، فقال : بَلَغَنِيْ أَنَّكَ تُرِيْدُ الخُرُوْجَ إلى مَكَّةَ ، فَتَلْتَمِسُ صَاحِباً ، قُلْتُ أَجَلْ ، قال فَأنا لَكَ صاحِبٌ .

فَجِئْتُ النبي صلى اللَّه عليه وسلم ، فَقُلْتُ قَدْ وَجَدْتُ صَاحباً ، قال مَنْ ، قُلْتُ عَمْرو بن أمية ، قال « إذا هَبَطْتَ بِلَادَ قَوْمِهِ ، فاحْذَرْهُ ، فإنَّهُ قَدْ قالَ القَائِلُ : أَخُوْكَ البَكَرِيُ لا تَأْمَنْهُ » فَخَرَجْنا ، حَتَّى إذا كُنَّا بالأَبْوَاء ، قال إنِّيْ أرِيْدُ حَاجَةً إلى قَوْمِي ، وَوَدِدْتُ أَنْ تَلْبَثَ لِيْ قَلِيْلاً ، فَقُلْتُ انْصَرِفْ رَاشِداً ، فَلَمَّا وَلَّى ذَكَرْتُ ، قَوْلَ النبي صلى اللَّه عليه وسلم ، فَشَدَدْتُ عَلَى بَعِيْري ، فَخَرجتُ أُوْضِعُهُ ، حَتَّى إذَا كُنتُ بالأَصَافِرِ ، إِذَا هُوَ يُعَارِضُنِيْ في رَهْطٍ ، فَأَوْضَعْتُ ، فَسَبَقْتُه ، فَلَمَّا رَآنِيْ جَاءَنِيْ ، فقالَ قَدْ كَانَتْ لِيْ إلى قَوْمِي حَاجَةٌ ، قُلْت أَجَلْ ، وَمَضَيْنا ، حَتَّى قَدِمْنَا مكةَ ، فَدَفَعْتُ المَالَ إلى أَبِي سُفْيَان .

١١٨ ـ ومِن ذلك ما رواه البخاريْ ومسلمٌ أنَّ ابنَ مَسْعُودٍ سُئِلَ مَنْ

آذَنَ النَّبيَ صلى اللّه عليه وسلم بالجِنّ لَيْلَةَ اسْتَمَعُوا القُرآنَ ، فقال آذَنْت بِهِمْ شَجَرَةٌ .

١١٩ ـ ومنها مَا ذَكَرَهُ أَبُو رَجاء ، قال دَخَلَ النبيُ صلى اللّه عليه وسلم حائِطاً لِبَعْضِ الأنصارِ ، فقال لَهُ « ما تَجْعَلُ لِيْ إن أَروَيْتُ حَائِطَكَ هَذا ؟ » قال لَهُ إِنِّي أَجْهِدُ أَرْوِيهِ فلا أُطِيْقُ ، قال صلى اللّه عليه وسلم « تَجْعَلُ لِيْ مائة تَمْرَةٍ ، اخْتَارُها مِنْ تَمْـرِكَ ؟ » قال : نَعَمْ . فَـأَخَذَ الغَرْبَ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ أَرْوَاه ، حتى قال الرَّجُلُ غَرَّقْتَ علي حَائِطِي ، فاخْتَارَ مائَة تَمْرَةٍ ، فَأَكَلَ هُوَ وأصحابُهُ ، حتى شَبِعُوا .

ثُمَّ رَدَّ عليه مَائَةَ تَمْرَةٍ كَمَا أَخَذَها ، رواه الطبراني في الكبير .

واللّه أعلم وصلى اللّه على محمد وآله وسلم .

« فَصْــلٌ »

١٢٠ ـ ومنها ما رَوَاهُ البزارُ مِنْ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ تَبِعَ النبيَّ صلى اللّه عليه وسلم يَوْماً ، فَجَلَسَ قال : فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ ، فقال : « يَا أَبَا ذَر : مَا جَاءَ بِكَ ؟ » قُلْتُ اللّه وَرَسُوله ، فَجَاءَ أَبُوْ بَكْرٍ فَسَلَّم وَجَلَسَ عن يَمِيْنِه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال له « ما جاءَ بِكَ يا أَبَا بَكْر ؟ » قال : اللّه ورسوله ، فَجَاء عُمَرُ ، فَجَلَسَ عن يَمِيْنِ أَبِيْ بَكر ، فقال « يا عُمَرُ ما جاءَ بِكَ ؟ » قال : اللّه ورسوله ، ثم جاءَ عثمانُ ، فَجَلَسَ عن يَمِيْنِ عُمَر ، فقال « يَا

عُثْمَانُ مَا جَاءَ بِكَ ؟ » قال : اللَّه ورسوله ، فَتَنَاوَلَ صلى اللَّه عليه وسلم سَبْعَ حَصَيَاتٍ ، أَوْ تِسْعَ حَصَيَاتٍ ، فَسَبَّحْنَ في يَدِهِ ، حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِيْناً كَحَنِيْنِ النَّحْلِ .

ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ في يَدِ أَبِيْ بَكْرٍ فَسَبَّحْنَ في يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتُ لَهُن حَنِيْناً كَحَنِيْنِ النَّحْلِ ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ في يَدِ عُمر فَسَبَّحْنَ في يَدِهِ ، حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَ حَنِيْناً كَحَنِيْنِ النَّحْلِ ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنْ فَوَضَعَهُن في يَدِ عُثمانَ ، فَسَبَّحنَ في يَدِهِ ، حتَّى سَمِعْتُ لَهُنَ حَنِيْناً كَحَنِيْنِ النَّحلِ ، ثُمَّ وَضَعهنَّ فَخَرِسْنَ ، وقال الزُّهري يَعْنِي الخِلاَفَة .

١٢١ ـ ومنها قِصَّة المَزَادَتَيْنِ أو السَّطِيْحَتَيْنِ فَعَنْ عِمرانَ ابن حصين أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم في بعض أسفاره وشكى إليه النَّاسُ مِنَ العَطَشِ فَدَعَا فُلاَناً وَدَعَا عَلِيّاً ، فقال « اذْهَبَا فابْغِيَا الماءَ » فانْطَلَقَا ، فَلَقِيَا امْرَأَةً بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ أَوْ سَطِيْحَتَيْنِ مِنْ مَاءٍ عَلَى بَعِيْرٍ لَهَا .

فقالاَ لَهَا ، أَيْنَ الماءَ ، فَقَالَتْ عَهْدِيْ بالماءِ أَمْسِ هَذِهِ الساعةَ وَنَفَرُنَا خُلُوفٌ ، قالا انْطَلِقِي إذاً قَالَتْ إلى أَيْنَ ، قالا إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، قالَتْ : الذيْ يُقالُ لَهُ الصَابىء قالا : هُوَ الذِيْ تَعْنِيْنَ ، فانْطَلِقِيْ ، فَجَاءا بِهَا النَّبِيَّ صَلى اللَّهُ عليهِ وسلم وَحَدَّثَاهُ الحديثَ ، فاسْتَنْزَلُوها عن بَعِيْرِها ، وَدَعَا صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسَلَّم باناءٍ فَأَفْرَغَ فِيْهِ مِنْ أَفْواهِ المَزَادَتَين ، أَوِ السَّطِيْحَتَيْنِ ، وَأَوْكَأ أَفْوَاهَهُما ، واطْلَقَ العُزَالي ، فَنُودِيَ في النَّاسِ إسْقَوا ، واسْتَقُوا ، فَسَقَي مَنْ شاءَ ، واسْتَقَى مَن شَاءَ وكانَ آخِرُ ذَلِكَ أَنْ أَعْطَى رَجُلاً أَصَابَتْهُ جَنَابَةٌ إناءً مِنَ ماءٍ ، فقال

« إِذْهَبْ فَأَفْرِغْهُ عَلَيْكَ » وَهِيَ قَائِمَةٌ تَنْظُرُ مَا يُفْعَلُ بِمَائِهَا .

وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ أَقْلَعَ عَنْها وإنهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْنا أَنَّها أَشَدُّ مَلأَةً مِنْها حِيْنَ ابْتدأَ فِيها ، فقال صلى اللَّه عليه وسلم « اجْمَعُوا لَهَا » فَجَمَعُوا لَهَا مِن بَيْنِ عَجْوةٍ وَدَقِيْقَةٍ وَسَوِيْقَةٍ ، حَتَّى جَمَعُوا لَهَا طَعَاماً ، فَجعَلُوهُ في ثَوْبٍ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى بَعِيرِهَا وَوَضَعُوْا الثَّوبَ بَيْنَ يَدَيْها ، وقال لَهَا : تَعْلَمِيْنَ ما رَزَأنا مِنْ مَائِكَ شَيْئاً .

وَلَكِنْ اللَّهُ هُو الذِي أَسْقانا ، فَأَتَتْ أَهْلَهَا وَقَدْ احْتُبِسَتْ عنهم ، وقالُوا ما حَبَسَكِ يا فُلانةُ ، قَالَتْ العَجَبُ ، لَقِيَنِي رَجُلانِ فَذَهَبَا بِيْ إلى هَذَا الصَّابىء ، فَفَعلَ كَذَا وَكَذَا ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَأَسْحَرُ الناسِ من بَيْنِ هَذِهِ وهَذِهِ ، تَعْنِي السما إلى الأرضِ ، أَوْ إِنَّه لَرَسُوْلُ اللَّهِ حقاً ، فَكَانَ المُسْلِمونَ بَعْدُ يَغِيْرُونَ على مَنْ حَوْلها مِن المُشْرِكِيْنَ ، ولا يُصِيْبُون القوم الذي هِيَ مِنْه .

فقالَتْ يَوْماً لِقَوْمِهَا ، ما أَرَى إِلَّا أَنَّ هؤلاءِ القومُ يَدعُوْنَكُمْ عَمْداً ، فَهَلْ لَكُم في الإِسْلَامِ ، فَأَطَاعُوها ، فَدَخَلُوا في الإِسْلامِ ، وفي رواية قَالَتْ لَهُما هَيهات هَيْهَاتَ لا مَاءَ لَكُم ، وفيه فَأَخْبَرَتْهُ صلى اللَّه عليه وسلم أَنَّهَا مُؤْتَمَّةٌ فَأَمَرَ بِرَاوِيَتِهَا ، فأُنِيْخَتْ ، فَمَجَّ في العَزْلَاوَيْنِ العُلْيَاوَيْن .

ثُمَّ بَعَثَ بِراوِيَتِهَا فَشَرِبْنَا ، وَنَحْنُ أَرْبَعُوْنَ رَجُلاً ، عِطَاشاً ، حَتَّى رَوِيْنا ، وَمَلأْنا كلَّ قِرْبَةٍ مَعنا ، وإِدَاوَةٍ وَغَسَّلْنَا صَاحِبَنَا ، غَيْرَ أَنَّا لَمْ نَسْقِ

بَعِيْراً ، وَهِيَ تَكَادُ تَتَضَرَّج بالمَاءِ ، يَعْنِيْ المَزَادتَين ، رواه الشيخان مطولا .

١٢٢ ـ وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ سَلَمَةَ بنَ الأكْوَعِ ، قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النبي صلى اللَّه عليه وسلم في غَزْوَةٍ ، فَأَصَابَنَا جَهْدٌ حَتَّى هَمَمْنَا أن نَنْحَرَ بَعْضَ ظَهْرَنَا ، فَأَمَرَ النَّبِيُ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم فَجَمَعْنا أَزْوَادَنا ، وَبَسَطَ لَنَا نَطْعاً ، فاجْتَمَعَ زادُ القَوْمِ عَلَى النَّطْعِ ، فَتَطَاوَلتُ لأحْزُرَهُ كَمْ هُوَ ، فإذَا هُوَ كَرَبْضَةِ العَنْزِ ، وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مائةً (١٤٠٠) فَأَكَلْنَا حتَّى شَبِعْنا جَمِيْعاً ، ثُمَّ حَشَوْنا جُرْبَنَا ، فقال صلى اللَّه عليه وسلم ، « فَهَل مِنْ وُضُوءٍ ؟ » فَجَاءَ رَجُلٌ بإدَاوَةٍ فِيْهَا نُطْفَةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَأَفْرَغها في قَدَحٍ ، فَتَوَضَأْنَا كُلُنا ، نُدَغْفِقُه دَغْفَقَةً . رواه الشيخان .

١٢٣ ـ وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الترمذيُ عن أَبِي هُرَيْرَة ، قال أَتَيْتُ النبي صلى اللَّه عليه وسلم يوماً بتمَرَاتٍ ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَدْعُ فِيْهِنَّ بالبَرَكَةِ ، فَضَمَّهِنَ، ثم دَعَا لِيْ فِيْهِنَ ، ثم قَالَ « خُذْهُنَّ ، فاجْعَلْهُنَّ في مِزْوَدِكَ هَذَا أَوْ في المِزْوَدِ ، فَكُلَّمَا أَرَدْتَ أن تَأْخُذَ مِنهُ شَيْئاً أَدْخِلْ يَدَكَ فِيْهِ ، وَخُذْ وَلَا تَنْثُرْهُ نَثْرَا » فَفعَلْتُ ، فَلَقَدْ حَمَلتُ مِنْ ذَلِكَ التَّمرِ كَذَا وَكَذَا مِنْ وَسَقٍ في سَبِيْلِ اللَّهِ ، فَكُنَّا نَأْكُلُ مِنْهُ وَنُطْعِمُ ، وَكَانَ لَا يُفَارِقُ حَقوِي ، حتى كانَ يَوْم قَتْلِ عُثْمَانَ انْقَطَعَ واللَّه أعلم .

« فَصْــلٌ »

١٢٤ ـ ومنها ما رواه الشيخان عن السائبِ بنِ يزيدَ ، قال ذَهَبَتْ بِيْ خَالَتِي إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقالَتْ يا رسول اللّه ، إنَّ ابنَ أُخْتِي وَجِعٌ : فَمَسَحَ رَأْسِيْ ، وَدَعَا لِيْ بالبَرَكَةِ : فَتَوَضأَ ، فَشَرِبْتُ مِنْ وضُوئِه ، ثُمَّ قُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ ، فَنَظَرْتُ إلى خاتَمِ النُّبُوَّة بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، مِثْلَ زِرِّ الحَجَلَةِ ، وقال الجُعَيْدُ ، رأيتُ السائِبَ بنَ يَزِيْدَ ، ابنَ أربع وَتِسْعِين ، جَلْداً مُعْتَدِلاً : فقالَ قَدْ عَلِمْتُ ما مُتِعتْ به سَمْعِيْ وَبَصَرِي إلاَّ بِدُعَاءِ النبي صلى اللّه عليه وسلم .

١٢٥ ـ ومنها ما رواه الترمذي ، قال أَبُوْ زَيْدِ بن أَخْطَب ، مَسَحَ النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم بِيَدِهِ عَلَى وَجْهِي ، وَدَعَا لِيْ ، قال عَزْرَةُ : فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدَمَا عَاشَ عِشْرِيْنَ وَمائَةَ سَنَةٍ ، وَلَيْسَ في لِحْيَتِهِ إلاَّ شُعَيْراتٍ تُعدُّ بِيْضٌ .

١٢٦ ـ ومنها ما رواه البخاري عن أنس رضي اللّه عنه قال : بَلَغَ عبدُ اللّهِ بنُ سلام ، مَقْدَمُ النبي صلى اللّه عليه وسلم المَدِيْنَةَ فأتاهُ ، وَقَالَ : إنِّيْ سَائِلُكَ عَن ثَلاثٍ ، لاَ يَعْلَمُهن إلاَّ نَبِيّ ، مَا أَولُ أَشْرَاطِ الساعةِ ، وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجنةِ ، وَمِنْ أيّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الوَلَدُ إلَى

أَبِيْهِ ، وَمِن أَيّ شَيءٍ يَنْزِعُ إلى أَخْوالِهِ ، فقال صلى اللّه عليه وسلم « أَخْبَـرَنِي بِهِنَّ آنِفاً جِبْـرِيْلُ » قـال : عَبدُ اللّه ذَاكَ عَـدُوُّ اليَهُوْدِ مِن المَلاَئِكَةِ .

« أَمَّا أَوَّلُ أَشْراطِ السَّاعةِ ، فَنَارٌ تَحْشُر النَّاسَ مِن المَشْرِقِ إلى المَغْرِبِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَام يَأْكُلُه أَهْلُ الجَنَّةِ ، فَزِيَادَةُ كَبِدِ الحُوْتِ ، وَأَمَّا الشَّبهُ في الوَلَدِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشَى المَرْأَةَ فَسَبَقَها ماؤُه ، كانَ الشَّبَهُ لَهُ ، وإِذَا سَبقَتْ كَانَ الشَّبَهُ لَهَا » قال أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللّهِ ، الحديث .

١٢٧ ـ ومِن ذَلِكَ إِخْبَارُهُ صلى اللّهُ عليه وسلم إِنَّ أُمَّته تَحْذُوْ حَذْوَ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ ، وَحَذْوَ مَنْ كَانَ قَبْلَهم مِن الأُمَمِ ، حَذْوَ القُذَّةِ بالقذةِ ، والنَّعْلِ بالنَّعْلِ .

وَكَانَ الأَمْرُ حَذَتْ حَذْوَهُم في الاخْتِلَافِ ، والتَّفَرُّقِ ، وارْتِكابِ المُحَرَّمَاتِ ، والإِحْدَاثِ في الدِيْن ، والكَذِب ، على النبي صلى اللّه عليه وسلم حَذْوَ اليَهُودِ والنَّصَارَى .

١٢٨ ـ وَمِنْ ذَلِكَ إِخْبَاره صلَّى اللّهُ عليه وسلم يَومَ هَوَازِنَ بِقَتْلِ ذِي الخُوَيْصِرَةِ ، حُرْقُوص بنِ زُهَيْرَ السَّعْدِي ، وَأَصْحَابِهِ مَارِقِيْنَ مِن الدِّيْنِ ، خَارِجِيْنَ عَــلَى حِيْنِ فِرْقَةٍ من الناس .

وَحديثُهم مَذْكُورٌ في بعضِ السِّيرِ ، وَكُتُبِ الحَدِيْثِ ، وَمَضْمُونُه أَنَّ ذا الخُوَيْصِرَةِ قامَ إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وهُوَ يَقْسِمُ غَنَائِمَ هَــوَزَنَ ، فقال إِعْدِلْ يا مُحَمَّدُ ، فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ فقال لَهُ النبي صلى اللّه عليه وسلم « تَرِبَتْ يَدَاكَ فَمَنْ يَعْدِلْ إذا لَمْ أَعْدِلْ أَنَا » فَقَامَ عُمَرُ بنُ

الخَطَابِ رَضِيَ اللَّهُ عنه ، فقال يا رسول الله إنه نَافَقَ فَمُرْنِي أَضْرِبُ عُنُقَه .

فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم «دَعْهُ فإنَّ لَهُ أَصْحَاباً يَحْقِرُ أَحَدُكُم صلاتَهُ عِنْدَ صَلاَتِهِمْ وَقِرَاءَتَه عِنْدَ قِرَاءَتَهُم ، يَمْرُقُونَ مِن الدِّيْنِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيَّة ، يَخْرُجُونَ على حِيْنِ فِرْقَةٍ مِن الناس ، يَقْتُلُهُم أُوْلَى الطَّائِفَتِيْن بالحَقِّ ، آيَتُهُمْ المُخَدَّجُ ، يَعْني ذَا الثُّدَيَّةِ ، فكانَ الأَمْرَ كَمَا أَخْبَرَ صلى اللَّهُ عليه وسلم ، فإنَّ الرَّجُلَ المذكورَ وأَصْحابَهُ خَرَجُوا على أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ علي بن أبي طالبٍ بَعْدَ حَرْبِ صِفِّيْنِ .

فَقَتَلَهُم عَليٌ رضي اللَّهُ عنه في النَّهرَوَان ، واسْتَخْرَجَ المُخَدَّجَ ذَا الثُدَيَّة ، مِن المَاءِ مَقْتُولاً ، حَتَّى نَظَرَ إليهِ الناسُ مِن عَسْكَرِه وكانُوا ما يَقْرُبُ مِن سِتِيْنَ أَلْفاً ، فَكَبَّر عليٌ حِيْنَ وَجَدَهُ ، وَسَجَدَ سَجْدَةَ شُكْرٍ ، وَكَبَّر العَسْكَرُ الذِي مَعَهُ فَرَحاً وَسُرُوْراً بِمَا شَاهَدُوْهُ مِن خَبَرِ رسولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم الذِيْ وَقَعَ طِبْقَ ما قال .

١٢٩ ـ ومِن ذلكَ مَا أَخْبَرَ بِهِ في حَيَاتِهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم وَذَلِكَ مَأْخُوذُ مِن القُرآنِ ، قال تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبْ ، ما أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وما كَسَب ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبِ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَب ، في جِيْدِهَا حبْلٌ مِنْ مَسَد ﴾ .

فَأَخْبَرَ أَنَّ عَمَّهُ أَبَا لَهَبٍ سَيَدْخُلُ النَّارَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ ، وَعَاشَا مُدَّةً ، وَقَدَّرَ اللَّهُ أَنَّهُمَا مَاتَا عَلَى شِرْكِهِمَا ، وَلَمْ يُسْلِمَا حَتَّى ولا ظَاهِراً ، وَهَذَا مِن دَلاَئِل النُّبُوَةِ البَاهِرَةِ .

وَمِن ذَلِكَ مَا أَتَى بِهِ في القُرآنِ قالَ تَعالى ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الانسُ والجِنُ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآن لا يأْتُونَ بِمِثْلِهِ ولو كان بَعْضُهم لِبَعْضٍ ظَهِيْرا ﴾ وَتَحَدَّاهُمْ بِعَشْرِ سُوَرٍ ، وَبِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ أَبَدا ، وَلَمْ يَقَعْ ، وَلَنْ يَقَعَ : صَدَقَ اللَّهُ العَظِيْم ، فهذا مِنْ المُعْجِزَاتِ البَاهِرَة .

١٣٠ ـ وقال تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا منكُم وعملُوا الصالحاتِ لِيَسْتَخْلِفنَهُم في الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ مِن قَبْلِهم وليمَكنن لَهُم دِيْنَهُم الذِيْ ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوفِهِم أَمْناً ﴾ وهكذا وَقَعَ سَواءً بِسَوَاءٍ ، مَكَّنَ اللَّهُ هَذَا الـدِيْــنَ وَأَظْهرَهُ وَأَعْلاَهُ وَنَشَرَهُ في الآفاقِ وأَنْفَذَهُ وأَمْضَاهُ .

١٣١ ـ وقال تعالى ﴿ قل للمخلفينَ مِن الأَعْرَابِ ، سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُولِي بأسٍ شَدِيدٍ ، تُقَاتِلُونَهُم أو يسلمون ﴾ ، قيل إنهم فارسُ ، وقِيلَ الرُوْمُ ، وقِيل هَوَازِنُ ، وَثَقِيْفُ ، وَغَطَفَانُ ، يَوْمَ حُنَيْنٍ ، وَقِيْلَ بَنُو حَنِيْفَةَ ، قَومُ مُسَيْلِمَةَ الكَذاب ، والمُهِمُّ أنهُ وقَعَ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ .

١٣٢ ـ وقال تعالى ﴿ وعَدَكُم اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيْرَةً تَأْخُذُوْنَها فَعَجَّلَ لَكُم هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ الناسِ عنكم ـ إلى قولِهِ ـ وكَانَ اللَّهُ على كل شَيْءٍ قَدِيْرا ﴾ وَسَواءٌ كان هَذَا خَيْبَرَ ، أَوْ مَكةَ ، فَقَدْ فُتِحتْ ، وأخِذَتْ كَمَا وَقَعَ بِهِ الوَعْدُ سَواءً بسَوَاءٍ .

١٣٣ ـ وقال تعالى ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِيْنَ ، مُحَلِّقِيْنَ رُؤُوْسَكم ، وَمقَصِّرِيْنَ ، لَا تَخافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُـوا ،

فَجَعَل مِن دُوْنِ ذَلِكَ فتحاً قَرِيْبا ﴾ فوقَعَ إنْجازُ هَذَا الوَعْدِ في سَنَةِ سَبْعٍ عامَ عُمْرَةِ القَضَاء .

١٣٤ ـ وقال تعالى ﴿ واذ يَعِدُكم اللَّهُ إحْدَى الطائِفَتَينِ أَنَّهَا لَكُم ، وَتَوَدُّوْنَ أَنَّ غيرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تكونَ لَكم ﴾ فَوَقَعَ طِبْقَ ما أَخْبَرَ اللَّهُ .

١٣٥ ـ وقـال تعالى ﴿ يا أيهـا النبي قُلْ لِمَنْ في أيـديكُم مِن الأَسْرَى ، إنْ يَعْلَم اللَّهُ في قُلُوبِكُم خَيْراً يُؤتِكُم خَيْراً مِمَّا أَخَذَ مِنكم وَيَغْفِرْ لَكُم ، واللَّهُ غفورٌ رَحِيْمٌ ﴾ وهكذا وَقَعَ ، فإنَّ اللَّهَ عَوَّضَ مَن أَسْلَمَ مِنْهُم بِخَيْرَي الدنيا والآخرة .

١٣٦ ـ وقال تعالى ﴿ وإن خِفْتُم عَيْلَةً ، فَسَوفَ يُغْنِيكُم اللَّهُ مِن فضله إن شاءَ إن اللَّهَ عَلِيْمٌ حكيمٌ ﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ عوضَهُم اللَّهُ عَمَّا كانَ يَغْدو إِلَيْهِم مَعَ حُجَاجِ المُشْرِكِيْنَ بِمَا شَرَعَه لَهُمْ مِن قِتَالِ أَهلِ الكِتَابِ ، وَضَربِ الجزية عليهم ، وسَلْبِ أموالِ مَن قُتِلَ منهم على كُفْـرِهِ ، كما وَقَع بكفارِ أَهْلِ الشام مِن الرُّوْمِ ، ومَجُوسِ الفُرس بالعِرَاقِ ، وغيرِهَا مِن البُلْدَانِ ، التي انْتَشَر الاسلامُ على أرجائِها .

١٣٧ ـ وقال تعالى ﴿ سَيَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُم اذا انْقَلَبْتُمْ إليهم لِتُعْرِضُوا عنهم فأعْرِضُوا عَنهم إنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ الآية وهكذا وَقَعَ لَمَّا رَجع صلى اللَّه عليه وسلم مِن غَزْوَةِ تَبُوْكَ كانَ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْهُ طَائِفَةٌ مِن المُنَافِقِيْنَ فَجَعَلُوا يَحْلِفُونَ باللَّهِ ، لَقَدْ كانوا مَعذورِيْنَ في تَخَلُفِهِم ، وَهُمْ في ذَلِكَ كاذِبُونَ ، فَأَمرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم أن يجْرِيَ أَحْوَالَهُمْ على ظَوَاهِرِهَا ، ولا يَفْضَحْهُمْ عِندَ الناسِ .

١٣٨ ـ وقال تعالى ﴿ وَان كَادُوْا لَيَسْتَفِزُوْنَكَ من الأَرْضِ لِيُخْرِجُوْكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إلا قَلِيْلاً ﴾ وهكذا وَقع لَمَّا اشْتَوَرُوا عليه لِيُثْبِتُوْهُ أَوْ يَقْتُلُوهُ أَوْ يُخْرِجُوْهُ مِن بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ المُهم أَنَّهُ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ سَواءً بِسَواءٍ .

مــوعظــة

عِبَادَ اللَّهِ لَقَدْ تغَيَّرَ الناسُ اليَوْمَ في أَحْوَالِهِمْ الدِيْنِيَّةِ تَغَيِّراً يُدْهِشُ النَّاظِرِيْنَ هَذِهِ الصلاةُ التِي هِيَ ثَانِيْ أَرْكَانِ الاسْلاَمِ وهي عَمُوْدُهُ أَعْرَضَ الناسُ عَنْهَا غَيْرَ مُبَالِيْنَ وَلاَ نَادِمِيْنَ جَهِلُوْا مَا هِيَ الصلاةُ وَأَيُّ قِيْمَةٍ قِيْمَتُهَا وَمَا مَنْزِلَتُهَا مِن بَيْنِ سَائِر الطاعاتِ وَمَا عَلِمُوا أَنَّهَا الصِّلةُ بَيْن العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ فَهِيَ خَيْرُ مَوْضُوْعٍ وُضِعَ لِلتَّقَرُّبِ إلى الرَّحْمٰنِ وَلِذَلِكَ هِيَ تُطَهِّرُ المُصَلِي المُقِيْمِ لَهَا مِنْ ذُنُوبِهِ إذا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ فَعَلَيْكَ أَيُّهَا المُسْلِمُ أَنْ تَحْرِصْ عَلَيْهَا كُلَّ الحِرْصِ وَأَنْ تَعْتَنِي بِهَا كُلَّ الاعْتِنَاءِ ولا تُضَيِّعْ هَذَا الوَاجِبَ العَظِيْمَ الذِيْ بأدَائِـهِ تكونُ مِن المُؤْمِنِيْنَ المَـوْعُودِيْنَ بـالفَوز بالمَطْلُوبِ والنَّجَاةِ مِن المَرْهُوبِ . وَبِتَرْكِ هَذَا الوَاجِبِ تكونُ مِن الكافِرِيْنَ المَوْعُوْدِيْن في الجَحِيْمِ أَبدَ الآبِدِيْنَ فإذَا حَانَ وَقْتُهَا فاهْتَمُوْا بِهَاوتَهَيَّئُوْ لِمُنَاجَاةِ خَالِقِكم العَزِيْز الحَكِيم وَخُذُوْا زِيْنتكُم مُمْتَثِلينَ قوله تعالى : ﴿ يا بَنِيْ آدمَ خُذُوا زِيْنَتكُم عندَ كُلِ مَسْجِدٍ ﴾ واعْتَنُوا أولاً بالطَّهَارَةِ التِيْ هِيَ مِفْتَاحُهَا ثُمَّ أَدوْهَا بِخُضُوعٍ وَخُشُوعٍ واطْمِئْنَانٍ ولا تكونوا كالذينَ يُصَلُّونَ بأجْسَامِهِمْ وَيُحَرِكُونَ أَلْسِنَتهُمْ وشِفَاهَهُمْ وَيَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ مُكبرِيْنَ وَيَحْنُون ظُهُورَهُمْ رَاكِعِيْنَ وَسَاجِدِيْنَ ولكنَّ قُلُوبَهُمْ لم تَتَحَرَّكْ إلى اسْتِحْضَارِ عَظَمَةِ مَوْلاَهُمْ وَلَم تَتَدَبَّرْ مَعَانِيْ مَا تَلْفُظُ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ لأَنَّهَا في أَوْدِيَةِ الدُنيا سَارِحَةٌ

تُفكِّرُ في العَقَارَاتِ والمُدَايَانَاتِ والفُلَلِ والعَمَائِرِ التِيْ عَنْ قَرِيب سَيُخَلِّفُونَهَا رَغْمَ أُنُوفِهِم إِذا نَظَرْتَ إلى أَحَدِهِم وهو يُصَلِيْ لاهِياً في تَفْكِيْرِهِ يَعْبَثُ في ثَوبِهِ تَارَةً وفي سَاعَتِهِ تارةً وفي أَنْفِهِ تارةً وَيُنَقِّشُ سِنَّهُ تارَةً وَبَعْضُهُمْ يَلْمَسُ مَكَانَ لِحْيَتِهِ أَوْ يُصَلِّحُ مَيَازِيْبَ غُتْرَتِهِ أَوْ يُقَلِّمُ أظفارهُ بأسْنَانِه. وهَكَذا حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهَا صِفْراً مَا مَعَهُ مِنْهَا اللَّهُ أَعْلَمُ إلَّا العُشْرِ وَلِهَذَا لَوْ تَأَمَّلْتَ المُؤدِيْ لَهَا هَكَذَا رَأَيْتَ أَنْ الصَّلاةَ هَذِهِ لَمْ تُؤثِرْ عَلَيْهِ لا فِي تَتْمِيْمِ الوَاجِبَاتِ ولا في تَرْكِ المُحَرَّمات والمَكْرُوْهَاتِ بَلْ ولا في تَخْفِيْفِها لأَنَّ الصَّلاةَ الصحِيْحَةَ التِيْ أَقَامُهَا صَاحِبُهَا مِن شأنها أَنَّهَا تُهَذِّبُ النَّفْسَ وَتُرَقِّقُ الخُلُقَ وَتَنهَى عن الفَحْشَآءِ والمُنْكرِ.

فإِذَا رَأَيْنَا إِنْسَاناً يُصَلِّي لَكِنَّهُ يَأْكُلُ الرِّبَا وَيَحْضُرُ المَلاهِيْ والمُنْكَرات أَوْ يَبِيْعَهَا أَوْ يَشْتَرِيْهَا أَوْ رَأَيْنَاهُ مَعَ السُفَلِ الذينَ يُلاحِقُونَ النِسَا في الأَسْوَاقِ أَوْرَأَيْنَاهُ يُجاهِرُ بالمَعَاصِي مِن شُرْبِ دخَّانٍ بَيْنَ الناسِ أَوْ يَحْلِقُ لِحْيَتَهُ أَوْ يَحْلِقُ لِحَاءَ الناسِ أَوْ يَجْعَلُ خَنَافِسَ أَوْ يَرْتَشِيْ أَوْ يجْملُ النِسَاء بِدُوْنِ مَحْرَمٍ أَوْ يَخْلُوْ بهن بِدُوْنِ مَحْرَمٍ أَوْ يُصَوِّرْ لِذَوَاتِ الأَرْوَاحِ أَوْ يَبِيْعُ الصُّوَرَ أَوْ يَسْخَرُ بالمُسْلِمِيْنَ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ مِن المَعَاصِيْ والمنكَراتِ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِه الصَّلاةِ التِيْ يُصَلِّيْ أَنَّهَا لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ فَلَمْ يَزْدَدْ مِن اللَّهِ إلا بُعْدَاً وَرُبَّمَا كَانَ المُتَّصِفُ بِشَيْءٍ مِن الصِّفَاتِ السَّابِقَةِ مَعَ صَلاتِهِ أَنَّهُ يَكِيْدُ بِهَا النَاسَ وَيَتخِذُهَا أُحْبُولة يَتَصَيَّدُ بها ثَنَاءَ الناسِ عَلَيْهِ أَوْ لِلْحُصُولِ عَلى شَيْءٍ مِنَ الدُنْيَا قال بَعْضُهُمْ في مُصَلٍ يَتَصَيَّدُ بِصَلاَتِهِ.

ذِئبٌ رَأَيْتُ مُصَلِّيَا
فَإِذَا مَرَرْتُ بِهِ رَكَعْ

يَـدْعُـوْ وَجُـلُّ دُعَـائِـهِ
مَـا لِـلْفَـرِيْـسَـةِ لَا تَـقَـعْ
عَـجِّـلْ بِـهَـا عَـجِّـلْ بِـهَـا
إِنَّ الـفُـؤادَ قَـدْ انْـصَـدَعْ

ويقول الآخر :

إِذَا رَامَ كَـيْـداً بـالـصـلاةِ مُقيمُهَا
فَتَاركها سَهْواً إلـى الـلهِ أَقْرَبُ

وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ فَمَا أَبْعَدَهُ عن الدِّيْن وما أَقْرَبَهُ إِلَى الرِّيَاءِ والنِّفَاقِ نسأَلَ اللَّه العصمة لَنَا ولإِخْوَانِنَا المُسْلِمِينَ عن ما يُخِلُ بالدِين إنه جَوَادٌ كَرِيْم . .

وصلى اللَّه على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

« فَصْــلٌ »

١٣٩ ـ وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ مِن أَنَّ سَبَبَ نُزُوْلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم ﴿ قل يَا أَيُّهَا الكَفِرُوْنَ ﴾ إلى آخر السورةِ ، هُوَ أَنَّ رَهْطاً مِن قُرَيْشٍ مِنْهُمُ الحَارِثُ بَنُ قَيْسٍ السَّهْمِيْ ، والعَاصُ بنُ وَائِلٍ ، والوليدُ بِنُ المُغْيرَة ، والأَسْوَدُ بنُ عَبدِ يَغُوث ، والأسودُ بنُ المُطَّلبِ بن أُسد ، وأَميَّةُ بنُ خلفٍ ، قالوا : يَا مُحَمَّدُ هَلُّمَ فاتّبعْ دِيْنَنا وَنَتَّبعُ دِيْنَكَ ، وَنُشْرِكُكَ في أَمْرِنا كُلِّهِ تَعْبُدُ آلِهتَنَا سَنَةً وَنَعْبُدُ إِلهكَ سَنَةً ، فإِنْ كَانَ الذِيْ جِئْتَ بِهِ خَيْراً كُنَّا قَدْ شَرِكْنَاكَ فِيْهِ ، وَأخذنَا حَظَّنَا مِنْهُ، وإِنْ كانَ الذِيْ بِأَيْدِيْنا خَيْراً كُنْت قَدْ شَرِكْتَنَا فِيْهِ ، وأَخَذْتَ بِحَظِّكَ مِنْهُ .

فَقَالَ « مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أُشْرِكَ بِهِ غَيْرَهُ » قَالُوا : فاسْتَلِمْ بَعْضَ آلِهَتِنَا ، نُصَدِّقُكَ وَنَعْبُدُ إلهَكَ . فقال لا حَتَّى أَنْظُرَ ما يَأْتِيْنِي مِنْ عِنْدِ رَبِّيْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ الى آخر السورة ، فكانَ كَمَا قال صلى اللَّهُ عليه وسلمَ فَلَمْ يَتْبَعْهُمْ ولم يَتْبَعُوْهُ في عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ .

١٤٠ ـ وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَعَدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ في حَالِ ضَعْفِهِمْ ، مِن أَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُهُمْ وَيُمَكِّنُهُمْ ، وَيُقَوِّيْهِمْ ، وَيُظْهِرُهُمْ ، فَيُقِيْمُونَ الصلاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزكاةَ ، ويأمرونَ بالمَعْرُوْفِ ، وَيَنْهَونَ عن المُنْكَرِ ، وَتكونُ العُقْبَى لَهُمْ ، وَتَلاَ بِذَلِكَ القُرآنَ .

فقال عَزَّ مِن قَائِلٍ ﴿ أُذِنَ لِلذِيْنَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ على نَصْرِهِم لَقَدِيْرٍ ﴾ ـ إلى قولِهِ ـ الذينَ إِنْ مَكَّنَاهُمْ في الأرضِ أقَامُوا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأَمَرُوا بالمعروفِ وَنَهَوْا عن المُنْكَرِ ولِلّهِ عاقبةُ الأُمورِ ﴾ فَتَمَكَّنَ أَصْحَابُهُ وَخُلَفَاؤُهُ ، وأقامُوا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ ، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكرِ ، وكانَتِ العُقْبَى لَهُمْ ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ المَصْدُوْقُ صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عَلَيْهِ .

١٤١ ـ ومِن ذَلِكَ إِلْقَاءُ النُّعَاسِ عَلَى المُجَاهِدِيْنَ مَعَ رَسُوْلِ الله صلَّى اللَّهُ عليهِ وَسَلَّم أماناً أَمَّنَهُمْ اللَّهُ بِهِ مِن خَوْفِهِمْ الذِيْ حَصَلَ لَهُمْ مِن كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ ، وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، وكذلك فَعَلَ بِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ : قال تعالى ﴿ إِذْ يُغَشِّيْكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾ والآية الأخرى .

ومِنْ ذلِكَ تَقْلِيْلُ المُجَاهِدِيْنَ مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أَعْيُنِ المُشْرِكِيْنَ وَتَقْلِيْلِ المُشْرِكِيْنَ في أَعْيُنِ المُؤْمِنِيْنَ لِيُقْدِمَ المُؤْمِنُوْنَ وَيَتَجرَّؤُا ويَطْمَعُوا فِيْهِمْ وَلِئِلا يَهْرَبَ المشركُونَ : قال تعالى ﴿ وإذْ يُرِيْكُمُوهُمُ إذ التَقَيْتُم في أَعْيُنِكُم قِليلاً وَيُقَلِّلُكُمْ في أعينهم ﴾ .

١٤٢ ـ ومِنْ ذَلِكَ إِنْزَالُ المَطَرِ عَلَى المُجَاهِدِيْنَ مَعَ النبي صلى اللَّهُ عليه وسلم ، فَأَطْفَأَ الغُبَارَ ، وَتَلَبَّدَتْ بِهِ الأَرضُ ، حَتى ثَبَتَتْ الأَقْدَام ، وَتَوَضَؤُا مِنْهُ ، وَسَقَوا الرِّكَابَ ، وَمَلَؤُا الأَسْقِيَةَ وَزَالَتْ عَنْهُمْ وَسوَسَةُ الشَّيْطَانِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَزَلُوا يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى كَثِيْبٍ أَعْفَرَ ، تَسِيْخُ فِيْهِ الأَقْدَامُ ، وَحَوَافِرُ الدَّوَابِ ، وقد سَبَقَهُمْ الكُفَّارُ إلى مَاءِ بَدْرٍ ، وَأَصْبَحَ المُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ مُحْدِثِيْنَ ، وَبَعْضُهُمْ مُجْنِبِيْنَ ، وَأَصَابَهُمْ الظَّمَأُ ، وَوَسْوَسَ إِلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، وقالَ : تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ عَلَى الحَقّ ، وفِيْكُمْ نَبِيُّ اللَّهِ ، وَأَنَّكُم أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ، وَقَدْ غَلَبَكُمْ المُشْرِكُونَ عَلَى المَاءِ ، وَأَنْتُم تُصَلُّوْنَ مُجْنِبِيْنَ ، وَمُحْدِثِيْنَ ، فَكَيْفَ تَرْجُوْنَ أَنْ تَظْهَرُوْا عَلَيْهِمْ ، وَأَصَابَ المُشْرِكِيْنَ مِن ذَلِكَ المَطَرِ مَا لَمْ يَقْدِرُوْا عَلَى أَنْ يَرْحَلُوا مَعَهُ .

١٤٣ ـ وَمِنْ ذَلِكَ مَا نَزَلَ في رِجَالٍ بِأَعْيَانِهِمْ ، مِن أَنَّهُمْ يُصِرُّوْنَ عَلَى كُفْرِهِمْ إلى أَنْ يَمُوْتُوْا ، مِنْ ذَلِكَ مَا نَزَلَ في أَبِي جَهْلٍ ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ فقال أَبُو جَهْلٍ : أَتُوْعِدُنِي يا مُحَمَّدُ ، واللَّهِ ما تَسْتَطِيْعُ أَنت ولا رَبُّكَ أَنْ تَفْعلَ شَيْئاً وَإِنّي لأَعزُّ مَنْ مَشي بَيْنَ جَبلَيْهَا فلَمَا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ صَرَعَهُ اللَّهُ شَرَّ مَصرَعٍ ، وَقَتَلَهُ أَسْوأَ قِتْلَةٍ ، وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إن لِكُلِّ أُمَّةٍ فِرْعَوْناً وَإِنَّ فِرْعَونَ هَذِهِ الأُمَّةِ

أَبُوْ جَهْلٍ » وَنَزَلَ في أَبِيْ جَهْل قولُه تَعالى ﴿ إِن شَجَرَةِ الزَّقُومِ طَعَامُ الأَثِيْمِ كالمُهْلِ يَغْلِيْ في البُطُونِ ، كَغَلي الحَمِيْمِ ﴾ ذَكَرَ ذَلِكَ غيرُ وَاحِدٍ مِن المُفَسِّرِيْنَ .

١٤٤ ـ ومنها قِصَّةُ البَكَّاؤُوْنَ الذينَ اسْتَحْمَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى اللهُ عليه وسلم وكانُوا أَهْلَ حَاجَةٍ فقالَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عليه فَتَوَلَّوْا يَبْكُون وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيْضُ مِن الدَّمْعِ حَزَنَاً أَلاّ يَجِدُوْا ما يُنْفِقُون .

وقامَ عُلَيَّةُ بنُ يَزِيْدٍ فَصَلَى مِن اللَّيْلِ وَبَكَى وقالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ بالجِهَادِ وَرَغَّبْتَ فِيْهِ ثُمَّ لَمْ تَجْعَلْ عِنْدِي ما أَتَقَوَّى بِهِ مَعَ رَسُولِك ولم تَجْعَلْ في يَدِ رَسُولِكَ مَا يَحْمِلُنِي عليه وَإِنِّي أَتَصَدَّقُ على كُلِّ مُسْلِمٍ بِكُلِّ مَظْلَمَةٍ أَصَابَنِي فِيْهَا مِنْ مَالٍ أَو جَسَدٍ أَوْ عِرْضٍ .

ثم أَصْبَحَ مَعَ الناسِ فقالَ النبيُ صلى اللهُ عليه وسلم : **أَيْنَ المُتَصَدِّقُ هَذِهِ الليلةَ فَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ أَيْنَ المُتَصَدِّقُ فَلْيَقُمْ فَقَامَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ** فقال النَّبِيُ صَلى اللَّهُ عليه وسلم : **أَبْشِرْ فَوالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ كُتِبَتْ في الزَّكَاةِ المُتَقَبَّلَةِ ففي هَذا مُعْجِزَةٌ مِن مُعْجِزاتِهِ صلى اللَّهُ** عليه وسلم لأَنَّ هَذَا غَيْبٌ أَعْلَمَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وسلم .

١٤٥ ـ ومنها ما رُوِيَ أَنَّهُ قِيْلَ لِعُمَرَ بنِ الخَطابِ رَضِيَ اللهُ عنه حَدِّثْنَا عن شَأْنِ سَاعَةِ العُسْرَة فقال عُمَرُ خَرَجْنَا إِلى تَبُوكَ في قَيْضٍ شَدِيْدٍ فَنَزَلْنَا مَنْزلاً وأصابنا فيهِ عَطَشٌ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ وَحَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْحَرُ بَعِيْرَهُ فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِي عَلَى كَبِدِهِ .

فقالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهِ قَدْ عَوَّدَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرَاً فادْعُ اللهَ لَنَا فقالَ أَوَ تُحِبُّ ذلكَ قَالَ نَعَمَ فَرَفَعَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حتَّى قالَتَ السَّماءُ ـ أيْ آذَنتْ بِمَطَرٍ فأطلَلَّتْ ثُم سَكَبَتْ فَمَلَؤُا ما مَعَهُم ثُمَ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نرَهَا جَاوَزَتْ العَسْكَرَ .

١٤٦ ـ ومنها حِيْنَمَا ظَلَّتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم بِبَعْضِ الطَّرِيْقِ فَخَرَجَ أَصْحَابُهُ في طَلَبِهَا وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَجُلٌ مِن بَعْضِ أَصْحَابِهِ يُقَالُ لَهُ عَمَارَةُ ابنُ حَزْمِ الأنصاري .

وكان في رَحْلِهِ زَيْدُ بنُ لُصَيْتٍ القَيْنُقَاعي وكان مُنَافِقاً فقال زَيْدُ بنُ لُصَيْتٍ وَهُوَ في رَحْلِ عَمارَةَ وَعَمَارَةُ عندَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : أَلَيْسَ يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنْ يُخْبِرُكُمْ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ وَهُوَ لا يَدْرِيْ أَيْنَ نَاقَتِهِ .

فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَعَمَارَةُ عِنْدَهُ إِنَّ رَجُلًا قال إِنَّ مُحَمَّداً يُخْبِرُكُم أَنَّهُ نَبِيٌّ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنْ يُخْبِرَكُمْ بِخَبَر السَّماءِ وَهُوَ لا يَدْرِيْ أَيْنَ نَاقَتُهُ وإِنِّي واللهِ ما أَعْلَمُ إِلَّا مَا أَعْلَمَنِيْ اللهُ وقَدْ دَلَّنِي اللهُ عَلَيْهَا وَهِي فِي الوَادِيْ في شِعْب كَذَا وكَذَا قَدْ حَبَسْتَها شَجَرَةٌ بِزِمَامِهَا فانْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا بِهَا .

فَذَهَبُوا فَجَاؤُا بِهَا وَقَدْ وَجدَهَا الحَارِثُ بنُ خَزْمَةَ الأَشْهَلِي كَمَا قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال زَيْدٌ لَكَأَنِّيْ لَمْ أُسْلِمْ إِلَّا اليَوْمَ فَقَدْ كُنْتُ شَاكاً في مُحَمَّدٍ وقد أَصْبَحْتُ وأنا فِيْهِ ذُوْ بَصِيْرَةٍ أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ .

١٤٧ ـ وَمنها أَنَّه لَمَّا مَضَى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسلم سَائِراً فَجَعَلَ يَتخَلَّفُ عنه الرَّجُلُ فيقُولُونَ يا رسولَ اللهِ تَخلَّفَ فُلاَنٌ فيقولُ دَعُوهُ فإن يَكُ فِيْهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُمْ وَإِنْ يَكُ غيرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُم اللهُ منه حَتَّى قِيْلَ يا رسولَ الله تَخَلَّفَ أَبُو ذَرٍ وَأَبْطَأَ بِهِ بَعِيْرُهُ فَقَالَ دَعُوْهُ فإِنْ يَكُ فِيْهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُم وانْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُم اللهُ مِنه .

وَتَلوَّمَ أَبُو ذَرٍّ عَلَى بَعِيْرِهِ فَلَّمَا أَبْطَأَ عَلَيْهِ بَعِيْرُهُ ـ أَيْ انْقَطَعَ ـ أَخَذَ المَتَاعَ مِن عَلَيْهِ فَحَمَلهُ على ظَهْرِهِ ثُمَّ خَرَجَ يَتْبَعُ أَثْرَ رَسُول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَاشِياً وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم مَنَازِلَهُ فَنَظَرَ نَاظِرٌ مِن المُسْلِمِيْنَ فقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هَذَا رَجُلٌ يَمْشِيْ عَلَى الطَّرِيْقِ وَحْدَهُ .

فقال رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كُنْ أَبَا ذَرٍ فَلَمَّا تَأَمَّلُهُ القومُ قالُوا يا رَسُولَ اللهِ هُوَ ـ واللهِ أَبُو ذَرٍ فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَحِمَ اللهُ أَبَا ذَرٍ يَمْشِيْ وَحْدَهُ وَيَمُوتُ وَحْدَهُ وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ وَقَدْ تَحقَّقَ قَولُه صلى اللهُ عليه وسلم فإِنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عنه لَمَّا نَفَى أَبَا ذَرٍ نَزَلَ أَبُو ذَرٍ الرَّبْذَةَ فَأَصَابَهُ بِهَا قَدَرُهُ ولم يَكُنْ مَعَهُ أَحدٌ إِلاَّ امْرَأَتُهُ وَغُلاَمُهُ فأَوْصَاهُمَا أَنْ غَسّلاَنِي وَكَفناني .

ثم ضعانِي عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيْقِ فَأَوَّلُ رَكْبٍ يَمُرُّ بِكُمْ فَقُولُوا لَهُ هَذَا أَبُو ذَرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فاعِيْنُوْنَا عَلَى دَفْنِهِ فَلَمَّا مَاتَ فَعَلاَ ذَلِكَ بِهِ ثُمَّ وَضَعَاهُ على قَارِعَةِ الطريق .

فأَقْبَلَ عَبدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَرَهْطٌ مَعَهُ مِن أَهْلِ العِرَاقِ عُمَّاراً فَلَمْ يَرُعْهُمْ إِلاَّ جَنَازَةٌ عَلَى الطَّرِيْق قَد كَادَت الابلُ تَطَؤُهَا

وَقَامَ الغُلَامُ فقال هَذَا أَبُو ذَرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَأَعِيْنُونَا على دَفْنِهِ .

فاسْتَهَل عبدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ يَبْكِي وَيَقُولُ صَدَقَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « تَمْشِيْ وَحْدَكَ وَتَمُوتُ وَحْدَكَ وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ » .

ثُمَّ نَزَلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَوَارَوْهُ ثُمَّ حَدَّثَهُم ابنُ مَسْعُودٍ حَدِيْثَهُ وما قالَهُ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في مَسِيْرِهِ إِلَى تَبُوكَ واسْمُ أَبِي ذَرٍ « جُنْدُبُ بنُ جُنَادَةَ » وماتَ في سَنَةِ **٣٢هـ**.

وذكرَ أَبُو حَاتِمٍ بنُ حِبّان في صَحِيْحِهِ وغَيْرُهُ في قِصَّةِ وَفَاتِهِ عن مُجَاهِدٍ عن ابراهيمَ بنِ الأَشْتَرِ عن أَبِيْهِ عن أمّ ذرٍ قَالَتْ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا ذَرٍ الوَفَاةُ بَكَيْتُ فقالَ مَا يُبْكِيْكِ فَقُلْتُ مَا لِيْ لَا أَبْكِيْ وَأَنْتَ تَمُوْتُ بِفَلاةٍ مِن الأَرْضِ وَلَيْسَ عِنْدِيْ ثَوْبٌ يَسَعُكَ كَفَناً ولا يَدَانِ لِيْ في تَغْيِيْبِكَ .

قال أَبْشِرِيْ ولا تَبْكِي فإِنّيْ سَمِعْتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ لِنَفر أَنا فِيْهِمْ لَيَمُوْتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلاةٍ مِن الأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِن المُسْلِمِيْنَ وَلَيْسَ أَحَدٌ منْ أولَئِكَ النَّفَر إِلَّا وَقَدْ مَاتَ في قَرْيَةٍ وَجَمَاعَةٍ فَأَنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ فَواللهِ ما كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ فَأَبْصِرِيْ الطَّرِيْقَ فَقُلْتُ أَنَّي وَقَدْ ذَهَبَ الحَاجُّ وَتَقَطَّعَتِ الطُّرُقُ .

فقال أذْهَبِيْ فَتَبَصَّرِيْ قَالَتْ فَكُنْتُ أَشْتَدُّ إلى الكَثِيْبِ أَتَبَصَّرُ ثم أَرْجِعُ فأُمرِضُهُ فَبَيْنَا أنا وَهُو كَذَلِكَ إِذَا أنا بِرِجَالٍ على رِحَالِهِمْ كَأَنَّهُمُ الرَّخَمُ تَخبُّ بِهِمْ رَوَاحِلُهُمْ قَالَتْ فَأَشَرْتُ إِلَيْهِمْ فَأَسْرَعُوْا إِليَّ حَتَّى وَقَفُوْا عَلَيَّ .

فقالُوا يا أَمَةَ اللهِ مَا لَكِ قُلْتُ امْرُؤٌ مِن المُسْلِمينَ يَمُوْتُ قالُوا وَمَنْ هُوَ قُلْتُ أبُو ذَرٍ قَالُوا صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قُلْتُ نَعَمْ فَفَدَّوْهُ بِآبَائِهِمْ وأمَّهَاتِهِمْ وَأَسْرَعُوا إِلَيْهِ حَتَّى دَخلُوا عَلَيْهِ .

فقالَ لَهُمْ أَبْشِرُوْا فإِنِّيْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم يقُولُ لِنفرٍ أَنَا فِيْهِم لَيَمُوْتَنَّ رَجلٌ مِنْكُمْ بفلاَةٍ من الأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِن المؤمنِيْنَ وَلَيْس مِن أولئكَ النَّفَرِ رَجُلٌ إِلَّا وقد هَلَكَ في جَمَاعَةٍ .

واللهِ ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ وإِنَّهُ لَوْ كَانَ عِنْدِيْ ثَوْبٌ يَسَعُنِيْ كَفَناً لِي أَوْ لامْرَأَتِي لَمْ أُكَفَّنْ إِلَّا فِي ثَوْبٍ هُوَ لِيْ أَوْ لَهَا وَإِنِّيْ أَنْشُدُكُمُ اللهَ أنْ لا يُكَفِّنَنِيْ رَجُلٌ مِنْكُم كانَ أَميراً أَوْ عَرِيْفاً أَو بَرِيْداً أَوْ نَقِيْباً وَلَيْسَ مِن أَولئك النَّفرِ أَحَدٌ إلا وَقَدْ قارَفَ بَعْضَ مَا قَالَ إِلا فَتىً مِن الأَنْصَارِ .

قالَ أَنَا أَكَفِّنُكَ يَا عَمُّ أُكَفِّنُكَ في رِدَائِي هَذَا وَفي ثَوْبَيْنِ مِن عَيْبَتِي مِن غَزْلِ أُمِّيْ قالَ فأنْتَ تُكَفِّنُنِي فَكَفَّنَهُ الأَنْصَارِيُ وَقَامُوْا عليهِ وَدَفَنُوهُ في نَفَرَ كُلِ يمان فَفِيْ هَذِهِ مُعْجِزَةٌ .

١٤٨ ـ وَمِنْهَا مَا ذَكَرَهُ ابنُ اسْحَاقَ مِن أَنَّ أبا خَيْثَمَةَ رَجَعَ ـ بَعْدَ مَا سَارَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَيَّاماً إِلى أَهْلِهِ في يَوْمٍ حَارٍ فَوَجَدَ امْرَأَتَيْنِ لَهُ في عَرِيْشٍ لَهُمَا في حَائِطِهِ قَدْ رَشَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَرِيْشَهَا وَبَرَّدَتْ لَهُ فِيْهِ مَاءً وهَيَّأَتْ لَهُ فِيْهِ طَعَاماً .

فلمَّا دَخلَ قَامَ عَلَى بَابِ العَرِيْشِ فَنَظَر إلى امْرَأَتَيْهِ وَمَا صَنَعَتَا لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عليـه وسلم في الضَّحِّ ـ لَهَبِ الشَّمْسِ وَحَرَارَتِهَا ـ والرِّيْحِ والحَرُّ وَأَبُو خَيْثَمَةَ في ظِلٍّ بَارِدٍ وطعامٍ مُهَيَأٍ وامْرَأةٍ

حَسْنَاءَ في مَالِهِ مُقِيْمٌ مَا هَذَا بالنِّصفِ والعَدْلِ .

ثم قَالَ واللهِ لاَ أَدْخُلُ عَرِيْشَ وَاحِدَةٍ منْكُما حَتَّى أَلْحَقَ برسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَهَيئاَ لِيْ زَاداً فَفَعَلَتَا ثُمَّ قَدَّمَ نَاضِحَهُ فارْتَحلَهُ ـ أَيْ أَحْضَرَ جَمَلَهُ فَوَضَعَ عليهِ الرَّحْلَ وأَعدَّهُ للسَّفرِ ـ

ثم خَرجَ في طَلَبِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حتى أَدْرَكَهُ حِيْنَ نَزَلَ تَبُوْكَ وكان عِنْدَمَا أَقْبَلَ قالَ النَّاسُ هَذَا رَاكِبٌ على الطَّرِيقِ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ .

فقالُوا يَا رَسولَ اللهِ هُوَ واللهِ أَبُو خَيْثَمَةَ فَلَمَّا أَناخَ رَاحِلَتَهُ أَقْبَلَ فَسَلَّمَ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَأَخْبَرَ خَبَرَهُ فقال لَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم خَيْراً وَدَعا لَهُ بِخَيْرٍ وفي هَذِهِ مُعْجِزَة .

١٤٩ ـ وَمنها ما ذُكِرَ من أَنَّ جَمَاعَةً مِن المُنَافِقِيْنَ مِنْهُم وَدِيْعَةُ بنُ ثابِتٍ ومنهم مَخْشِيُّ بنُ حِمْيرٍ قال بَعضُهُمْ لِبَعْضٍ أَتَحْسَبُونَ جِلادَ بَنِي الأَصْفَرِ كَقِتَالِ العَرَبِ بَعْضِهِمْ بَعْضَا واللهِ لَكَأَنَّكُمْ غَداً مُقَرَّنِيْنَ في الحِبَالِ إِرْجَافاً وارْهَاباً لِلْمُؤْمِنِيْنَ .

فقالَ مَخْشِيْ واللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقَاضِي على أَنْ يُضْرَبَ كُلٌّ مِنَّا مائَةَ جَلْدَةٍ وَأَنا نَنْقَلِبُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِيْنَا قُرْآنٌ لِمَقالَتِكُم هَذِه وقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ « أَدْرِكِ القَوْمَ فإِنَّهُمْ قَدِ احْتَرَقُوا فَسَلْهُمْ عَمَّا قَالُوا فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ بَلَى قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا فَانْطَلَقَ إِلَيْهِمْ عَمَّارٌ فَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ .

فأَتَوْا رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَعْتَذِرُون إِلَيْهِ فَقَالَ وَدِيْعَةُ بنُ ثَابِتٍ كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيْهِمْ « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم لَيَقُولَنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَب » فقالَ مَخْشِيُّ بنُ حِمْيرٍ : يا رسولَ اللهِ قَعَدَ بِي اسْمِي واسْمُ أَبِيْ فَكَانَ الذي عَفَا عَنْهُ في هَذِهِ الأيةِ وَتَسَمَّى عَبدُ الرحمنِ وسأَل اللهَ أَنْ يُقْتَلَ شَهِيْداً لا يُعْلَمُ بِمَكَانِهِ فَقُتِلَ يومَ اليَمَامَةِ فَلَمْ يُوْجِدْ لَهُ أَثَرٌ ، فَفِي هَذِهِ القِصَّة مُعْجِزَةٌ أيضاً .

١٥٠ ـ وَمِنْهَا ما ذَكَرَهُ ابنُ عَائِذٍ في مَغَازِيْهِ مِن أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم نَزَلَ تَبُوكَ في زَمَانٍ قَلَّ مَاؤُهَا فيهِ فاغْتَرَفَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم غُرْفَةً بِيَدِهِ مِن ماءٍ فَمَضْمَضَ بِهَا فَاهُ ثُمَّ بَصَقَهُ فِيْهَا فَفَارَتْ عَيْنُهَا حَتَّى امْتَلأَتْ فَهِيَ كَذَلِكَ حَتى السَاعَة .

قُلْتُ : في صحيحِ مُسْلمٍ : أَنَّهُ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَيْهَا قَالَ إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غداً إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى ـ عَيْنَ تَبُوْكَ وإِنَّكُم لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِي النهارُ فَمَنْ جَاءَهَا فلا يَمَسَّ مِن مَائِهَا شَيْئاً حَتَّى آتِي .

قال فَجِئْنَاهَا وَقَدْ سَبَقَ إِلَيْهَا رَجُلاَنِ وَالعَيْنُ مِثْلَ الشِّرَاكِ تَبُضُ بِشَيْءٍ مِنْ مَائِهَا فَسَأَلَهُمَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم هَلْ مَسَسْتُمَا مِن مَائِهَا شَيْئاً قَالاَ نَعَمْ .

فَسَبَّهُمَا وقالَ لَهُمَا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ ثُمَّ غرفُوْا مِن العَيْنِ قَلِيْلاً قَلِيْلاَ حَتَّى اجْتَمَعَ في شَيْءٍ ثُمَّ غَسَل رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ ثم أَعَادَهُ فِيْهَا فَجَرَتِ العَيْنُ بِمَاءٍ كَثِيْرٍ فاسْتَقَى الناسُ فَفِيْ هَذِهِ مُعْجِزَةٌ واضحة .

١٥١ ـ وَمِنْهَا قِصَّةُ أَبِي رِغَالٍ لِمَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ أَنَّ النبيَ صَلى اللهُ عليه وسلم قالَ هَذا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ وآيَةُ ذلكَ أَنَّ مَعَهُ غُصْناً مِن ذَهَبٍ إِنْ رَأَيْتُمْ نَبَشْتُمْ عنْهُ أَصَبْتُمُوهُ مَعَهُ فابْتَدَرَهُ الناسُ فاسْتَخْرَجُوْا الغُصْنَ وَهَذِهِ مُعْجِزَة أيضاً

١٥٢ ـ وَمِن ذَلِكَ الوَعْدُ بارْجَاعِ النبي صلى الله عليه وسلم إِلى مَكَّةَ قال الله تعالى « إِن الذي فرضَ عليكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ » قال المُفَسِّرُوْنَ إِلى مَكَّةَ وَوَقَعَ طِبْقَ مَا أَخْبَرَ فيكونُ عَلَماً عَلى نُبُوتِهِ صلى الله عليه وسلم .

١٥٣ ـ وَمِن ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَن المُؤْمِنِيْنَ إِذْ يُبَايُعونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ إِلى قَوْلِهِ وكانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْراً ﴾ .

١٥٤ ـ فَفي هَذِهِ الآياتِ إِخبارٌ عن غُيُوْبٍ كَثِيرةٍ منها تَزْكِيَةُ المُؤْمِنِيْنَ المُبَايِعِيْنَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وإِعْلانُ الرِّضَا عَنْهُمْ وَهُم عَدَدٌ كَثِيْرٌ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الأَمْرَ كما قَالَ إِذَ لَوْ كَانَ في إِيْمَانِ أَحدهم دَخَلٌ لَشَكَّ وارْتَابَ وأَعْلَنَ ارْتِدَادَهُ وَكُفْرَهُ وَلَوْ كانَ القُرآنُ مِن مُحَمَّدٍ لَمْ يُقْدِمْ عَلَى هَذَا الاعلانِ الخَطِيْرِ إِذْ لا يَعْلَم مَا في بَوَاطِنِهم إلا اللهُ فدل ذلكَ على صِحَّةِ هَذَا الاخبار وأنها أعلام على نبوته صلى الله عليه وسلم .

١٥٥ ـ وَمِنْ ذَلِكَ الإِخْبَارُ بِحَوَادِث خَاصَّةٍ كَمَا في قَولِهِ تَعَالَى ﴿ وإِذْ أَسَرَّ النبِيُ إِلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيْثاً فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عليهِ عَرَّفَ بَعْضهوأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فلمَّا نَبأَهَا بِهِ قَالَتْ من أَنْبَأَكَ هَذا قَالَ نَبأَنِي العَلِيْمُ الخَبِيْر ﴾ فَفِي هَذَا عَلَم عَلَى نُبُوتِهِ صلى الله عليه وسلم لأَنَّ هَذِهِ

أُمُوْرٌ غَيْبِيَّةٌ أَطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ عَلَيْهَا .

١٥٦ ـ وَمِنْ ذَلِكَ قولُه تَعَالَى ﴿ وَيُؤْثِرُوْنَ على أَنْفُسِهِم وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلاً جاءَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إِنِّيْ مَجْهُوْدٌ فأَرْسَلَ إلى بَعْضِ نِسَائِهِ فقالَتْ والذِيْ بَعَثَكَ بالحق ما عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ ثم أَرْسَل إِلى أخرَى فقالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ حتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ فقال صلى الله عليه وسلم مَنْ يُضِيْفُ هَذَا الليلةَ رَحِمَهُ اللهُ .

فَقَامَ رَجُلٌ مِن الأَنْصَارِ فقالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ فانْطَلَقَ بِهِ إِلى رَحْلِهِ فقال لامْرَأَتِهِ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ قالَتْ لاَ إِلَّا قُوْتُ صِبْيَانِي قَالَ فَعَلِّلِيْهِم بِشَيْءٍ فإذا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَأَرِيْهِ أَنَا نأكُلُ قالَ فَقَعَدُوا وأَكَلَ الضَّيْفُ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا على رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : قَدْ عَجِبَ اللهُ من صَنِيْعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ فَهَذَا غَيْبٌ مِن الغُيُوبِ أَعْلَمَ الله نَبِيَّهُ بِهِ فهُو مُعْجِزَةٌ واضِحَةٌ .

١٥٧ ـ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ولا تكُنْ لِلْخَائِنِيْنَ خَصِيْمًا واسْتَغْفِر اللهَ إِنَّ اللهَ كان غفوراً رَحِيْمًا ولا تُجَادِلْ عن الذِيْنَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيْما إلى قولِهِ تعالى وكان فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيْماً ﴾ .

أخرجَ الترمذي وابنُ المُنْذِر وابنُ أَبِي حَاتِم وَأَبو الشيخِ والحَاكِمُ وصَحَّحَهُ عن قتادةَ بن النُعْمَانِ رَضِيَ اللهُ عنه ، قال كانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقالَ لَهُم بَنُو أُبَيْرِق بِشْرٌ وَبَشِيْرٌ وَمُبَشِّرٌ ، وكان بَشَرٌ رَجُلاً مُنافِقاً يَقُولُ الشِّعْر

يَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم ثم يَنْحَلُه لِبَعْضِ العَرَبِ ثُمَّ يَقُولُ قال فلانٌ كذا وكَذَا فإذَا أَسَمِعَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَالُوا واللهِ مَا يَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ إلا هَذَا الرَّجُلُ الخَبِيْثُ أَوْ كَمَا قالَ الرَّجُل وَقَالُوا ابنُ الأُبَيْرَق قَالَها قالَ وكانُوا أَهْلَ بَيْتٍ وَحَاجَةٍ وفاقَةٍ في الجاهِلِيَّةِ والاسلامِ .

وكانَ الناسُ إِنَّمَا طَعَامُهُم بالمَدِيْنَةِ التَّمْرُ والشَّعِيْرُ وكان الرَّجُلُ إذا كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَقَدِمْتَ ضافِطَةُ مِن الشامِ مِن الدَّرْمَكِ ابْتَاعَ الرَّجُلُ مِنْهَا فَخصَّ بِهَا نَفْسَه وأَمَّا العِيْالِ فإِنَّمَا طَعَامُهُمْ التَّمْرُ والشَّعِيْرُ .

فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِن الشامِ فابْتَاعَ عَمِيْ رِفَاعَةُ بنُ زَيْدٍ حِمْلاً مِن الدَّرْمَكِ فَجعَلَهُ في مَشْرَبَةٍ لَهُ وفي المَشْرَبَةِ سِلاَحٌ وَدِرْعٌ وَسَيْفٌ فَعُدِيَ عليهِ مِن تَحْتِ البَيْتِ فَنُقِبَتِ المَشْرَبَةُ وَأُخِذَ الطَّعَامُ والسِلاحُ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَانِي عَمِي رِفَاعَةُ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِيْ قَدْ عُدِيَ عَلَيْنَا في لَيْلَتِنَا هَذِهِ فَنُقِبَتْ مَشْرَبَتُنَا فَذُهِبَ بِطَعَامنَا وسِلاَحِنا قالَ فَتَحَسَّسْنَا في الدَّارِ وَسَأَلْنَا فَقِيْلَ لَنَا قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أُبَيْرِقٍ اسْتَوْقَدُوا في هَذِه اللَّيْلَةِ ولا نَرَى فِيْمَا نَرَى إلَّا عَلَى بَعْضِ طَعَامِكم .

قال وكانَ بَنُو أُبَيْرِقَ قَالُوا وَنَحْنُ نَسْأَلُ في الدَّارِ واللهِ مَا نَرَى صَاحِبَكُم إلا لِبَيْدُ بنُ سَهْل رَجُلاً مِنَّا لَهُ صَلاَحٌ واسْلاَمٌ . فَلَمَّا سَمِعَ لَبِيْدُ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ .

وقالَ : أَنَا أَسْرِقُ واللهِ لَيُخالِطَنَّكُم هَذَا السَّيْفُ أَوْ لَتُبَيِّنُنَّ هَذِهِ السَّرِقَة

قالُوا إِلَيْكَ عَنَّا أَيُّها الرَّجُلُ فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا فسألنا في الدَّار حَتى لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُم أَصْحَابُهَا فَقَالَ لِي عَمِّي يا ابنَ أَخِي لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ .

قَالَ قتادَةُ فَأَتَيْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَقُلْتُ إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ أَهْلَ جَفاءٍ عَمَدُوْا إِلى عَمِّي رِفاعَةَ بنِ زَيْدٍ فَنَقَبُوا مَشْرَبَةً لَهُ وَأَخَذُوْا سِلاَحَهُ وَطَعَامَهُ ، فَلْيَرُدُوْا عَلَيْنَا سِلاحَنَا ، فَأَمَّا الطَّعَامُ فلا حَاجَةَ لَنَا فِيْهِ فقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ سَآمُرُ في ذَلِكَ .

فلمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ بَنُوْ الأُبَيْرِقِ أَتَوا رَجُلاً مِنْهُمْ يُقَالَ لَهُ أُسَيْدُ ابنُ عُرْوَةَ فكَلمُوْهُ في ذَلِكَ فاجْتَمَعَ في ذَلِكَ أُناسٌ مِن أَهْلِ الدَّارِ فقالُوا يا رَسُولَ اللهِ انَّ قَتادَةَ بنَ النُعْمَانِ وَعَمَّهُ عَمَدَا إِلى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلِ اسْلامٍ وَصَلاَحٍ يَرْمُوْنَهُم بالسَّرقةِ مِن غَيْرِ بَيْنَةٍ وَلاَ ثَبْتٍ .

فَأَتَيْتُ النبيَ صَلى اللهُ عليه وسلم فَكَلَّمْتُهُ فَقَالَ عَمَدْتَ إلى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنهُم إِسْلامٌ وَصَلاحٌ تَرْمِيْهِمْ بالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثِبْتٍ ولا بَيِّنَةٍ .

قال فَرَجَعْتُ وَلَودِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِن بَعْضِ مَالِيْ وَلَمْ أُكَلِّمْ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وَسَلم في ذَلِكَ فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فقال يا ابْنَ أَخِيْ مَا صَنَعْتَ فَأَخبَرْتُهُ بمَا قالَ لِيْ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال الله المستعان .

فلَمْ نَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ القُرآنُ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنا إليكَ الكِتَابَ بالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ بما أَرَاكَ اللهُ ولا تَكُنْ لِلْخَائِنِيْنَ خَصِيْمًا ﴾ يَعْنِي بَنِيْ أُبَيْرَق وَاسْتَغْفِرِ اللهَ مِمَّا قُلْتَ لِقَتَادَةَ . . . فَلَمَّا نَزَلَ القُرآنُ أُتِيَ رَسُولُ اللهِ صلى

اللهُ عليه وسلم بالسلاحِ فَرَدَّهُ إلى رِفَاعَةَ .

١٥٨ ـ وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ في تَبْرِئَةِ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها مِن الإِفْكِ قَال تعالى ﴿ إِنَّ الذينَ جَاؤُا بالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُم لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ الآية .

عَشْرُ آياتٍ كُلُّهَا نَزَلَتْ في شَأْنِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها حِيْنَ رَمَاهَا أَهْلُ الإِفْكِ والبُهْتَانِ مِن المُنَافِقِيْنَ بِمَا قَالُوا مِن الكَذِبِ البَحْتِ والفِرْيَةِ الَّتِي غَارَ اللهُ لَهَا وَلِنَبِيِّهِ صَلى اللهُ عليه وسلم .

فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى بَرَاءَتَهَا صِيَانَةً لِعِرْضِ الرَّسُولِ صلى اللهُ عليه وسلم بَعْدَ مَا بَقِيَتْ الأَلْسِنَةُ تَخُوْضُ في حَادِثَةِ الإِفْكِ قَرِيْباً مِنَ الشَّهْرِ والرسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم لا يُوْحَى إليهِ كَمَا جَاءَ في صَحِيْحَيْ البُخَارِي وَمُسْلِم ـ وَهُوَ حَائِرٌ مُتَرَدِّدٌ في أَمْرِ عَائِشَةَ يَسْأَلُ وَيَسْتَشِيْر .

والمُنَافِقُونَ يُشِيْعُونَ الفَاحِشَةَ حَتَّى وَقَعَ فِيْهَا مَنْ وَقَعَ مِن المُسْلمين .

ثُمَّ جَاءَهَا الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم في بَيْتِ أَهْلِهَا ثُمَّ قالَ يَا عَائِشَةُ فإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيْئَةً فَسَيُبْرِئُكِ اللهُ وإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فاسْتَغْفِري اللهَ وَتُوْبِي إليهِ فإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تابَ تَابَ اللهُ عليه .

فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ ولا خَرَجَ أَحَدٌ مِن أَهْلِ البَيْتِ حَتَّى أَنْزَلَ عليهِ فَأَخَذَهُ ما كانَ يَأْخُذُهُ مِن البُرَحَاءِ حَتَّى انَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِن

العَرَقِ في يَوْمٍ شَاتٍ .

فَلَمَّا سُرِيَ عن رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَهُوَ يَضْحك فَكَانَ أولَّ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِيْ يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللهَ فَقَدْ بَرَّأكِ اللهُ فقالَتْ لِيْ أُمِّي قُوْمِي إلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَقُلْتُ لاَ واللهِ لا أَقُوْمُ إليه ولاَ أَحْمَدُ إلا اللهَ .

فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى ﴿ إنَّ الذينَ جَاؤُا بالإفْكِ عُصْبَةٌ منكم ﴾ الأياتِ ففِي هَذِهِ القِصّة عَلَمٌ مِن أَعْلاَمِ نُبُوّتِهِ صلى اللهُ عليهِ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ وَتَفَهَّمَهُ فقدْ كانَ مَوْقِفُهُ صلى اللهُ عليه وسلم مِن عَائِشَةَ بَعْدَ اشَاعَةِ الفِرْيَةِ والبُهْتَانِ مَوْقِفَ التَّرَدُدِ وَالحَيْرَةِ .

ثُمَّ تَحَوَّلَ بَعْدَ الوَحْيِ فُجْاءَةً إلى مَوْقِفِ الثِّقَةِ والاطْمِئْنَانِ وَهَذا التَّحَوُلُ لاَ يُمْكِنُهُ أنْ يَكُونَ لَوْ لَمْ يَكُنْ وَاثِقاً بِبَرَائَتِهَا بإِخْبَارٍ مِن العَلِيْمِ الخَبِيْرِ جَلَّ وَعَلاَ وَتَنَزَهَ وَتَقَدَّسَ .

١٥٩ ـ ومن ذَلِكَ تَحدِّيْ اليَهُودَ في تَمَنِي المَوْتَ مَرَّتَيْن فقَالَ قُلْ يَا أَيُّها الذِيْنَ هَادُوا أَنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُم أَوْلِيَآءُ لِلهِ مِن دُوْنِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الموتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْن وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيْهِمْ واللهُ عَلِيْمٌ بالظالمين .

وَوَجْهُ الدَّلاَلةِ أَنَّه طَلَبَ مِن اليَهُوْدِ أَنْ يَتَمَنَّوُا المَوْتَ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً فَمَا تَمَنَّاهُأَحَدٌ مِنْهُمْ مَعَ حِرْصِهِمْ عَلَى تَكْذِيْبِ الرسولِ صلى اللهُ عليه وسلم وَمُعَارَضَتِهِمْ لَهُ وكَيْدِهِمْ لَهُ فقَامَ ذلك دليلًا صادقاً على نبوته ومعجزة عظيمة .

قال شَيْخُ الاسلامِ فَأَخْبَرَ عَن اليَهُودِ أَنَّهُمْ لَنْ يَتمَنَّوْا المَوْتَ أَبَدَا وكانَ كَمَا أَخبَرَ فَلاَ يَتمَنَّى اليَهُوْدُ المَوْتَ أَبَدَا وَهَذَا دَلِيْلَ مِنْ وَجْهَيْنِ مِن جِهَةِ إِخْبَارِهِ بأنْ لاَ يَكُونَ أَبَدَا ومن جِهَةِ صَرْفِ اللهِ لِدَوَاعِي اليَهُودِ عن تَمَنّي الموتَ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ مَقْدوْرٌ لَهُمْ وَهَذا مِن أَعْجَبِ الأُمُوْرِ الخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ وَهُمْ مَعَ حِرْصِهِم عَلَى تَكْذِيْبِهِ لَمْ تَنْبَعِثْ دَوَاعِيْهِم لِإِظْهَارِ تَكْذِيْبِهِ بإظهَارِ تَمَنِيٍّ المَوْتَ أهـ .

١٦٠ ـ وَمِنْ ذَلِكَ الوَعْدُ بِحِفْظِ القُرْآنِ قَالَ تَعالَى إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظَونَ وهذَا الإِخْبَارُ إِنَّمَا هُوَ مِن الغَيْبِ وَوَقَعَ كَمَا جَاءَ فِي القُرآنِ فَحُفِظَ وَتَمَّ وَعدُ اللهِ بِذَلِكَ .

وَلَنْ يَأْتِيْهِ تغْيِيْرٌ يَعُمُ جَمِيْعَ المَصَاحِفِ المَوْجُوْدَةَ عَلَى وَجْهِ الأَرض قال تعالى ﴿ لاَ يَأْتِيْهِ البَاطِلُ مِن بين يديهِ ولا مِن خلفهِ تَنْزِيلٌ مِن حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ ﴾ .

١٦١ ـ وَمِنْ ذَلِكَ الوَعْدُ بعِصْمَةِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم مِن الناسِ قال تعالى ﴿ يا أَيُّها الرسولَ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ اليكَ مِن رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِن النَّاسِ ﴾ وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ وَعْدَهُ فَحَفِظَ نَبِيَّهُ وَلَمْ يَقْدِرْ أَحدٌ على قَتْلِهِ مَعَ كَثْرَةِ المُحَاوَلاَتِ مِن أَعْدَائِهِ فَفِي ذَلِكَ عَلَمٌ من أَعْلاَم نُبوته معجزة واضحة .

١٦٢ ـ ومِن ذَلِكَ قَوْلُـهُ تعالى ﴿فَسَيَكْفِيْكَهُمُ اللهُ وهـو السمِيعُ العليمُ ﴾ قال البِغويُ أَيْ يَكْفِيْكَ شَرَّ اليَهُودِ والنَّصَارَى وقَدْ كَفَى بإِجْلاءِ بَنِيْ النَّظِيْرِ وَقَتْلِ بَنِيْ قُرَيْظَةَ وَضَرَبَ الجِزْيَةَ على اليَهُودِ والنصارَى أهـ

وهذا إخبار عن الغَيْب فيَكُونُ معجزاً دالاً عَلَى صِدْقِهِ حَيْثُ وَقَعَ طِبْقَ ما أَخْبَر.

١٦٣ ـ وَمِن ذَلِكَ المُبَاهَلَةُ قال الله تعالى ﴿ الحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِن المُمْتَرِيْنَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيْهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِن العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُوا أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُم وأَنْفُسَنَا وَأَنفُسَكُم ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ على الكاذبين ﴾.

قِيْل إن سَبَبَ نُزُوْلِ هَذِهِ الآيَةِ هُوَ أَنَّ العَاقِبَ والسَّيِّدَ صَاحِبَي نَجْرَانَ جَاءَا إِلى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَجَادَلاَهُ في أَمْرِ عِيْسَى عليهِ السَّلامُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى آيَةَ المُبَاهَلَةِ وَالمُبَاهَلَةُ دُعَاءُ اللهِ والابْتِهَالُ إليه أَنْ يُنْزِلَ لَعْنَتَهُ على الكَاذِبِيْن فواعَدَاهُ على أَنْ يُلاعِنَاهُ الغَدَاةَ.

فَغَدَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلم فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِّيٍ وَفَاطِمَةَ والحَسَنَ والحُسَيْنَ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمَا فَأَبَيَا أَنْ يُجِيْبَاهُ وَأَقَرا لَهُ بالخَرَاجِ قال فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « والذِي بَعَثَنِي بالحَقِّ لَوْ قَالاَ لأَمْطَر عَليهم الوَادِيْ ناراً فَفِيْ هَذَا عَلَمٌ من أَعلامِ نُبوتِهِ فلَوْلاَ أَنَّهُمْ عَرفُوا مِن التَّوْرَاةِ والانْجِيْل ما يَدُلُّ على نُبُوَّتِهِ لَمَا أحْجَمُوْا عن المُبَاهَلَةِ ثانياً وَثُوْقُهُ صلى اللهُ عليه وسلم بذلكَ.

١٦٤ ـ وَمِنْ ذَلِكَ مَا قِيْلَ مِن أَنَّهُ نَزَلَ في الأَخْنَسِ بن شَرِيْقٍ ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمزةٍ، الذِيْ جَمعَ مالاً وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَه، كَلا لَيُنْبَذَنَّ في الحُطَمَةِ ﴾ فَمَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، وَقَالَ مُقَاتِلُ: نَزلَتْ في الوَلِيْدِ بنِ المُغيْرَةِ كانَ يَغْتَابُ النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَطْعَنُ عليهِ في وَجْهِهِ، وَنَزَلَ فِيْهِ.

١٦٥ ـ قَوْلُهُ تَعالى ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيْدًا ﴾ إلى قَولِهِ تعالى ﴿ سَأُصْلِيْهِ سَقَره ﴾ فَلَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ مَالاً وَلَا وَلداً بَعْدَ هَذَا كَمَا أَخْبَرَ ، وَصَارَ في نُقْصَانٍ من مَالِهِ وَوَلَدِهِ الى أَنْ مَاتَ كَافِراً ، وَقَدْ كَانَ عِنْدَ نُزُوْلِ ذَلِكَ حَيًّا سَلِيْما .

١٦٦ ـ وَمِنْهُمُ النَّضْرُ بنُ الحَارِثِ بنِ كِلْدَةَ ، أَخُو بَنِي عَبْدِ الدارِ ، وَكَانَ شَدِيْدَ الرَّدِّ عَلى اللَّهِ وعلى رَسُولِهِ ، شَدِيْدَ العَدَاوَةِ ، والارْصَادِ ، وقدْ كَانَ رَحَلَ في عَدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم ، إلى فَارِسَ ، وَطَلَبَ مَا يَكِيْدُ بِهِ الاسلامَ ، فاشْترى أَخْبَارَ العَجَمِ ، وَقَدِمَ بِهَا مَكَّةَ يُحَدِّثُ بِهَا قُرَيْشاً وَيَقُولُ إنَّ مُحَمَّداً يُحَدِّثُكُم بِحَدِيْثِ عَادٍ وَثَمُوْدَ وَأَنا أحَدِثُكُمْ بِحَدِيْثِ رُسْتُمْ وَاسْفِنْدِيَار ، وَأَخْبَارِ الأكَاسِرَةِ ، فَيَسْتَمْلِحُونَ حَدِيْثَهُ ، وَيَتْرُكُونَ اسْتِمَاعَ كَلَامَ اللَّهِ .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ ، ﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يَشْتَرِيْ لَهْوَ الحَدِيْثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ ﴾ قَالَهُ مُقاتِلُ والكَلْبِي .

وَقِيْلَ : نَزَلَ فيهِ أَيْضاً غَيْرُهَا وَقِيْلَ : إِنَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَتْهُ جِراحَةٌ ذَهَبَتْ بقُحْفِ رَأْسِهِ وَحَلَ في أَيْدِيْ المُسْلِمِيْنَ مِنْ جُمْلَةِ المأسُوْرِيْنَ وقالَ لَا أَذُوْقُ طَعَاماً ولا شَرَاباً ما دُمْتُ في أَيْدِيْهِمْ فَمَاتَ مِن الضَرْبَةِ وَصَارَ إلى النَّارِ بَعْدَ أَنْ أَذَاقَهُ اللَّهُ العَذَابَ المُهِيْنَ في الدُنْيَا كَمَا قالَ وكَمَا أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَ .

واللَّه أعلم وصلى اللَّه على محمد وآله وسلم .

« فَصْــلٌ »

١٦٧ ـ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ آلم ، غُلِبَتِ الـرُوْمُ ، في أَدْنَى الأَرضِ ، وَهُمْ مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، في بَضْعِ سِنِيْنَ ، لِلّهِ الأمرُ مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنونَ بنصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ العَزِيْزُ الرَّحِيْم ، وعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الناسِ لاَ يَعْلَمُون ﴾ نَزَلَتْ هَذِهِ الآياتُ حِيْنَ غَلَبَ سَابُورُ مَلِكُ الفُرْسِ على بِلاَدِ الشَّامِ ، وَمَا وَالاَهَا مِن بِلاَدِ الجَزِيْرَةِ ، وَأَقَاصِيْ بِلاَدِ الرُوْمِ ، حَتَّى أَلْجَأَهُ إلى القِسْطِنْطِيْنِيَّةِ ، وَحَاصَرَهُ مُدَّةً طَوِيْلَةً، ثم عَادَتْ الدَّوْلَةُ إِلَى هِرَقْلَ ، كَمَا بَشَّرَ القُرآنُ قَبْلَ سَبْعِ سَنواتٍ ، مِن انْتِصَارِهِ على الفُرْسِ ، فَوَقَعَ طِبْقَ مَا أَخْبَرَ ، فَهَذِهِ مُعْجزَةٌ مِن القُرْآنِ على رِسَالَةِ الرَّسُوْلِ صلى اللَّهُ عليه وسلم .

١٦٨ ـ ومِن ذَلِكَ مَا أَخبَرَ بِهِ ، وَهُوَ مَوْجُوْدٌ في القُرْآنِ ذِكْرُه مَا جَاء عَن آدَمَ وَنَشْأَتِهِ ، وَمَا وَسْوَسَ بِهِ إِلَيْهِ ابْلِيْسُ ، وما وَقَعَ لَهُ مِن الهُبُوطِ إلى الأَرْضِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ في الجَنَّةِ .

١٦٩ ـ وَحَدَّثَنا عن نُوحٍ أَوَّل المُرْسَلِيْنَ وَمَا لَقِيَه مِن قَوْمِهِ ، مِن أَذى

وَسُخْرِيَّةٍ ، ومُدَّةِ لُبْثِهِ فِيهِمْ، وَمَا أَرْشَدَهُ اللَّهُ إليهِ مِن صُنْعِ الفُلْكِ ، وَرُكُوبِهِ ، وانْجَائِهِ ، وَمَنْ مَعَ نُوْحٍ وَهُمْ أَصْحَابُ السَّفِيْنَةِ ، وَدَعْوته لإِبْنِهِ ، وَعِصْيَانِ ابْنِه لَهُ ، وَجوابُ اللَّهِ لَهُ حِيْنَ ما قَال ﴿ إِنَّ ابْنِيْ مِن أَهْلِي ﴾ وانْهِمَارِ السَّماءِ بالماء ، وَتَفَجُّرِ الأرضِ عُيُوْناً ، واغْرَاقِ الكَافِرِينَ ، وَنَجَاةِ المُؤْمِنِيْنَ .

١٧٠ ـ وَأَخْبَرَ القُرآنُ عَنْ مُوْسَى عليهِ السلامُ وَمَا تَمَّ لَهُ عِنْدَ ولاَدَتِه ، وَمَا وَقَعَ لَهُ في مِصْرَ ، وَمَا حَدَثَ لَهُ في مَدْيَنَ ، وما رَآهُ في جَبَلِ الطُوْرِ ، وَمَا كُلِّفَ بِهِ مِن أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ ، وَمَا دَار بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِرْعَونَ مِن حِوَارٍ ، وَمَا جَرَى مِن السَّحَرَةِ ، وَمَا انْتَهَى إليهِ أَمْرُ فِرْعَونَ ، وَمَلَئِهِ ، وَمُوْسَى وَقَوْمِهِ .

١٧١ ـ وأَخْبَرَ القُرآنُ عَن عِيْسَى .

١٧٢ ـ وَأُمِّهِ عَلَيْهِمَا السَّلامُ ، وَمَا وَقَعَ لَهُمَا مِن الخَوارِقِ ، وَمَا صَنَعَهُ لَهُمَا بَنُوْا اسْرَائِيْلَ مِن مَكَائِدَ .

١٧٣ ـ وَأَخْبَرَ عن دَاوُدَ .

١٧٤ ـ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السلامُ وَذِكَر الإِحْسَانَ إِلَيْهِمَا وَمَا آتاهُمَا مِن العِلْمِ والفِهْمِ قال اللَّه تعالى ﴿ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْمَا ﴾ فأَنْعَمَ اللَّهُ على دَاوُدَ بِتَسْخِيْرِ الجِبَالِ والطَّيْرِ لِلتَّسْبِيْحِ مَعَهُ وَأَخْبَرَ أَنَّه جَلَّ وَعَلاَ عَلَّمَهُ صَنْعَةَ الدُّرُوْعِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْعَمَ على سُلَيْمَانَ بتَسْخِيْرِ الرِّيْحِ العَاصِفَةِ التي تَجْرِيْ بِأَمْرِهِ وَتَسْخِيْرِ الشيَاطِين تَغُوصُ في البِحَارِ وَتَعْمَل لَهُ أَعْمَالاً أُخْرَى .

١٧٥ ـ وَأَخْبَرَ عن ابْرَاهِيْمَ خَلِيْـلِ الرحمن ، وَمُحَـاجَّتِهِ لِلْمَلِكِ الجَبَّارِ ، وَهُوَ نُمْرُوْدُ ، البَابِلي ، المُعَطِّلِ ، المُنْكِرِ ، لِرَبِّ العَالَمِيْن ، إلى أَنْ وَقَفَ ، وانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ ، وَاضمَحَلَّتْ شُبْهَتُهُ ، وأَخْبرَ عَن طَلَبِهِ لِرَّبِهِ ، أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحيِي الموتَى ، وإجابَةِ اللَّهِ دَعْوتَهُ ، وَتَلْبِيَةِ طَلَبَتِهِ ، وعَن ما ابْتَلاَهُ بِهِ مِن ذَبحْ ابْنِهِ اسْمَاعِيْلَ وَأَخْبَرَ عن ما مَنَّ عَلَيْهِ بِهِ مِن العِلْم ، والدَّعْوَةِ ، والصَّبْرِ ، وَمَا أَكْرَمَهُ بهِ مِن الذُرِّيَةِ الصَّالِحَةِ ، والنَّسْلِ الطَّيِّبِ ، وأَنَّهُ جَعَلَ صَفْوَةَ الخَلْقِ مِن نَسْلِهِ .

١٧٦ ـ وأَخْبَرَ عَن يُوْسُفَ عَلَيْهِ السلامُ ، وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ اخْوَتِهِ ، وَمِقْدَارِ لُبْثِهِ في السِّجْنِ ، وَمُرَاوِدَةِ امْرَأةِ العَزِيْزِ لَهُ ، وظُهُورِ بَرَاءَتِهِ ، وَبَيَانِ صِدْقِهِ ، وايْثَارِ اللَّهِ لَهُ عَلَى إخْوَتِهِ ، وَما جَرَى لِأَبِيْهِ يَعْقُوْبَ .

١٧٧ ـ وأَخْبَرَ عن لُوْطٍ ، وَمَا قَالَهُ لِقَوْمِهِ ، تَوْبِيْخاً لَهُمْ ، وَجَوَابِهِمْ السَّخِيْفِ لَهُ جَزَاءَ نُصْحِهِ ، وَانْجَاءِ اللَّهِ لَهُ ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ إلَّا امْرَأَتَهُ ، وَأَخْبَرَ عن مَجِيءِ الرُسُلِ إِلَيْهِ ، وأنه سَاءَهُ مَجِيْئُهُمْ ، وَذَلِكَ لِمَا يَتَوَقَّعُهُ مِن اعْتِدَاءِ قَوْمِهِ عَلَيْهِم وَفِعْلاً جَاؤُا يُهْرَوُلُونَ إِلَيْهِ ، وَأَخْبَرَ عَنْ مَا أَوْقَعَهُ اللَّهُ بِهِمْ مِن العُقُوبَةِ العَظِيْمَةِ ، جَزَاءَ فِعْلَتِهِم ، الشَّنِيْعَةِ ، التِي لَمْ يَسْبِقَهُمْ بِهَا أَحَدٌ .

١٧٨ ـ وَأَخْبَرَ عَن زَكَرِيَا ، وَنِدَائِهِ لِرَبِهِ ، وَآثَارِهِ الصَّالِحَةِ وَمَنَاقِبِهِ الجَمِيْلَةِ ، وَتَبْشِيْرِ اللَّهِ لَهُ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى ، وَطَلَبِهِ من رَبِهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ آيةً ، يَطْمَئِنُ بِهَا قَلْبُهُ ، وَلَيْسَ شَكاً في خَبَرِ اللَّهِ ، وإِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ الخَلِيْلُ ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتَى قالَ : أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى

وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ واجابَةِ اللَّهِ إِلى طِلْبَتِهِ ، وَمَنْعِهِ مِن الكلامِ ، ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً .

١٧٩ ـ وأخبر عن يحيى عليه السلام وأن الله جعله برا بِوَالِدَيْه ، ولا يَتَعَالَى عَن قَبُولِ الحَقِ ، وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ كلِّهَا مَنَاهِـجَ لِلْخَيْرِ ، وَوَسَائِلِ لِلطَّاعَةِ ، أَوَّلُهَا قَوْلُهُ تَعالَى ﴿ وآتيناهُ الحُكْمَ صَبِياً ﴾ إلى أَنْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ جَزَاءَهُ ، عَلَى مَا قَدَّمَ مِن عَمَلٍ صَالح ، وأَسْلَفَ مِن طَاعَة رَبِهِ .

١٨٠ ـ وأخبر عما أخبر اللَّه به جَلَّ وَعَلاَ عن مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرَانَ ، وأَنَّهُ أَنجبَ مِنْهَا وَلَدَاً مِن غَيْرِ أَبٍ ، وَتَقَدَّمَ الكلامُ حَوْلَهَا وَوَلَدِهَا عَلَيْهِمَا السلامُ ، وما لَقِيَا مِنَ الابْتِلاَءِ والامْتِحَانِ ، وما قَابَلاَ بِهِ ذَلِكَ .

١٨١ ـ وأَخْبَـرَ عن يُوْنُسَ عليـه السلامُ ، وإِبَـاقِهِ إِلى الفُلْكِ ، وَمُسَاهَمَتِهِ لأَهْلِ الفُلْكِ ، والتِقَامِ الحوتِ لَهُ ، وانَّهُ كانَ مِنْ المُسَبِّحِيْنَ ، الذينَ يَذْكُرُوْنَ اللَّهَ كَثِيْراً ، وعن نَبْذِهِ في مَكَانٍ خَالٍ لا نَبَاتَ فِيْهِ ،وأخْبَرَ عَن لُطْفِهِ بِهِ ورِعَايَتِهِ لَهُ ، وَعِنَايَتِهِ بِهِ ، بانْبَاتِ شَجَرَةِ اليَقْطِيْنِ ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَهُ ﴿ إلى مَائَةِ أَلفٍ ، أَوْ يَزِيْدُون﴾ وأَنَّهُمْ آمَنُوْا ، وَمَتَعَهُمُ اللَّهُ إلى حِيْن .

« مَـوْعِظَـةٌ »

عِبَادَ اللَّهِ لِلْعِلْمِ الدِيْنِيْ آثارٌ جَلِيْلَةٌ كَمْ جَلَّ بِهَا رَجُلٌ حَقِيْرٌ وَكُلَّمَا كانَ الرَّجُلُ أَعْلَمَ بالعِلْمِ الدِيْنِي كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وعندَ العُقَلاءِ جَلِيْلٌ مَضَى السَّلفُ الصَّالِحُ الذِيْنَ يَطِيْبُ المَجْلِسُ بِذِكْرِهِمْ لِقَدْرِهِمُ المُنْقَطِعِ النَّظِيْرِ كأنوار رِجَالاً مِثْلَنَا وَلَكِنْ بِبرَكَاتِ مَا وَهَبَهُمْ مَوْلاَهُمْ مِن العِلْمِ الدِيْنِي وَآثَارِهِ

الجَلِيْلَةِ كَانُوا خَيْرَ الناسِ بَعْدَ النَّبِيِّيْنَ كانُوْا أَغْنَى العَالَمِ لأَنَّهُمْ رَضُوْا بِقِسْمَةِ مَوْلَانا الحَكِيم الخَبِيْرِ وكانوا أَشْجَعَ الناسِ لأنَّهُم عَلِمُوْا أَنَّ الأَجل لا يُطِيْلَهُ الجُبْنُ الذَّمِيْمُ فَكَمْ مِن قَتْلَةٍ قُرِنَتْ بالجُبْنِ كَمَا قِيْلَ :

كَمْ مَخْلَصٍ وَعُلاً في خَوْضِ مَهْلَكَةٍ
وَقَتْلَةٍ قُرِنَتْ بالذَّمِ في الجُبُنِ

وكانُوا في الحِلْمِ والعَقْلِ كالجبالِ الرَّوَاسِيْ وكانُوا مَحَطَّ رِحَالِ الجُوْدِ والكرمِ لأنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ البَخِيْلَ بَعِيْدٌ مِن اللَّهِ بَعِيدٌ مِن الناسِ وانَّ الذِي يَرْضَى بالبُخْلِ وَيَحُثُّ عَلَيْهِ ابْلِيْسُ لَعَنَهُ اللَّهُ وكانُوا يَسْتَقْبِلُون البَلَايَا مَهْمَا قَسَتْ بالصَّبْرِ الجَمِيْلِ لِعِلْمِهِم أَنَّها تَصَرُّفُ الحَكِيْمِ الخَبِيْرِ وكانُوا يَسْتَقْبِلُوْنَ النِعَمَ بالحَمْدِ والشُكْرِ لِجَزْمِهِمْ أنها لِلَّهِ وَمِن اللَّهِ وَأَنَّهُ يَزِيْدُ الشَّاكِرِيْنَ وَيَرْضَى عن الحَامِدِيْن وكانُوا أَبْعَدَ الناسِ عن الشَّرِ ولا يُحِبُّوْنَ أَهْلَهُ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ يُغْضِبُ اللَّهَ وكانُوا يُحِبُّونَ الخَيْرَ لإِخْوَانِهِمْ المسْلِمِيْنَ وكانُوا لا يُضْمِرُوْنَ حَسَداً ولا شَراً لأحدٍ مِن اخْوَانِهِمْ المُؤْمِنِين لِعِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ يُحِيْطُ عِلْماً بِمَا يُسِرُّوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ وَكانُوا إذا قالوا أَوْ فَعَلُوا يَتَحَرَّوْنَ ما يُرْضِيْ اللَّهَ تعالى فِيْمَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ وكَانُوا لَا يَشْهَدُوْنَ المنكر والزُوْرَ بَلْ يُنْكِرُوْنَ عَلَى مَنْ يَحْضُرُوْنَ وَكَانُوْا يَحُنُّوْنَ إلى مَجَالِسِ الذِكْرِ حَنِيْنَ الإِلْفِ فارَقَهُ الإِلفُ وهَكَذَا كانُوْا إِذا أَرَادُوْا أَنْ يَتَحَرَّكُوا أَوْ يَسْكُنُوْا باسْتِشَارَةِ العِلْمِ الدِيْنِيْ يَتَحَرَّكُوْنَ ويَسْكُنُوْن لِهَذا كَانُوا لِلْيَوْمِ مَوْضِعَ اعْجَابِ الشَّرْقِ والغَرْبِ وَنَالُوا فَوْقَ هَذَا رِضَى رَبِّ العَالَمِيْن هَكَذا كانُوْا بِبَرَكاتِ ما وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِن العِلْمِ الدِيْنِيْ أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ كُنَّا مَوْضِعَ إِعْجَابٍ مِن نَاحِيَةٍ أَنَّ هَدَفَنا في التَّعْلِيْمِ هُوَ الحُطَامُ الفَانِي لا غَيْرُ لِهَذَا كانَ الوَاحِدُ مِنَّا إِذا رَسَبَ يَكادُ

يَنْتَحِرُ وَيَقُولُ فَاتَ عَلَيَّ سَنَةٌ مَحْصُولُ رَوَاتِبِهَا لاَ يَقِلُّ عَن خَمْسَةِ آلافٍ وَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ العِلْمَ بِمَا جَهِلَهُ وَتَوْجِيْهَ عِبَادَ اللَّهِ عِنْدَمَا يَنْجَحُ كانَ عِنْدَه يَتَسَاوَى السُّرْعَةُ والبُطْءُ لِأَجْلِ أَنْ يَمْهَرَ في المَعْلُومَاتِ لِهَذَا القَصْدِ مَاتَتَ الفَضَائِلُ وانْتُزِعَتْ بَرَكَةُ العِلْمِ وفُقِدَتْ هَيْبَةُ العَالِمِ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَصَارَ كُلٌّ يُفْتِيْ وَكُلٌّ يُرَشِّحُ نَفْسَه لِلْفُتْيَا فَوْراً وَلَكِنَّ النَّاسَ الوَرِعِيْنَ لاَ يَطْمَئِنُّوْنَ إلَّا إلى النَّوادِرِ مِمَّنْ يُوْثَقُ بِدِيْنِهِمْ وَأَمانَتِهِمْ وَيَتْرُكُونَ المُرَائِيْنَ والمُحِبِّيْنَ لِلظُّهُوْرِ والشُّهْرَةِ الذين ضَاعُوا وضَيَّعُوا عِبادَ اللهِ .

وَخِتَاماً فَلَوْ أَنَّنا أَحْيَيْنَا طَرِيْقَةَ سَلَفِنَا في العِلْمِ المُطَابِقِ لِلْعَمَلِ لأَصْبَحْنَا وَقَدْ أَحْيَيْنَا عِزَّهُمْ وَشَرَفَهُمْ الدَّفِيْنَ رَحْمَةُ اللَّهِ على تِلْكَ الأَرْوَاحِ العَامِلَةِ بِمَا عَلِمَتْ . .

شِعْرَاً:

إذَا أَنْتَ لَمْ تَبْكِ العُلُومَ وَأَهْلَهَا
وَقَدْ غَيَّبْتَهَا في التُّرَابِ لُحُوْدُ
فَأَنْتَ بَهِيْمِيُّ الطِّبَاعِ وَإِنَّما
قُصَارَاكَ ثَوبٌ نَاعِمٌ وَثَرِيْدُ
سَتَبْكِيْ العُلاَ قَوْماً تَسَامَوْا لِنَيْلِهَا
كَأَنَّ لَهُمْ دَمْعَ العُيُونِ هُجُودُ
يُعِيْدُوْنَ مِنْهَا مَا تَعَفَّتْ رُسُوْمُهُ
فَتُضْحِيْ عَلَيْهَا لِلْفِخَارِ بُرُوْدُ
كَفَى غُرْبَةً لِلدِّيْنِ هَذَا الذِيْ نَرَى
فَلَيْسَ عَلَى ذَا الاغْتِرَابِ مَزِيْدُ

أَلَـمْ تَبْقَ فِي أَهْـلِ الـدِيَـانَـةِ هِمَّـةٌ
أَلَـمْ يَـبْـقَ شَـخْصٌ لِـلطُّغَـاةِ يَـذُوْدُ

اللَّهم ثَبِّتْنا على قَوْلِكَ الثابتِ في الحَيَاةِ الدنيا وفي الآخرةِ وَوَفِّقْنَا لِمَا وَفقتْ لَهُ عِبَادَكَ الصَالِحين مِن امْتِثَالِ أوامِرِكَ واجتنابِ نَوَاهِيْكَ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى اللَّه على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

« فَصْــلٌ »

١٨٢ ـ وأَخْبَرَ عن صالحٍ عليه السلامُ ، وإِرْسَالِهِ إِلى ثَمُودَ القَبِيْلَةِ المَعْرُوْفَةِ ، الذين يَسْكُنُونَ الحِجْرَ ، وَمَا حَوْلَهُ ، وأَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلى التَّوْحِيْدِ ، وَنَهَاهُمْ عن الشِّرْكِ ، وأَنَّهُ جاءَهُم بِآيةٍ ، خارقةٍ مِن خَوَارِقِ العَادَاتِ ، وَهِيَ نَاقَةٌ شَرِيْفَةٌ ، فَاضِلَةٌ .

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ بوأَهُمْ في الأرضِ ، وَمَكَّنَ لَهُمْ فِيْهَا ، وسَهَّلَ لَهُمْ الأَسْبَابَ ، المُوْصِلَةِ إِلَى مَا يُرِيْدُوْنَ ، وَأَمَدَّهُمْ بالقُوَّةِ ، وأَنَّهُمْ قَابَلُوا اخْلاَصَ صَالِحٍ وَنُصْحَهُ ، بِعَقْرِ النَّاقَةِ ، والتَّحَدِيْ بالعَذَابِ ، وَآخِرُ الأَمْرِ ﴿ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا في دَارِهِم جاثِمِيْنَ ، كأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ولكن كانُوا أَنْفُسَهم يَظْلِمُون ﴾ .

١٨٣ ـ وَأَخْبَرَ عن هُوْدٍ عَلَيهِ السلامُ ، وارسالِهِ إِلى عادٍ الأُوْلَى ، في أَرْضِ اليَمَنِ ، يَدْعُوهُمْ إِلى التَّوْحِيْدِ ، وَيَنْهَاهُمْ عن الشِّرْكِ ، وَأَنَّهم قَابَلُوا دَعْوَتَهُ بِرَمْيِهِ بالسَّفَاهَةِ ، والكَذِبِ ، واسْتَنْكَرُوا التَّوْحِيْدَ ، واحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِمَا لاَ يَصْلَحُ عَقْلاً وَلاَ شَرْعاً أَنْ يَكُونَ حُجَّةً ، مِنْ تَقْلِيْدِ الآباءِ ، والأَجْدَادِ ، وَتَحَدَّوْهُ

بإِتْيَانِهِ بالوَعِيْدِ ، وأَجَابَهُمْ هُوْدٌ على مَقَالَتِهِم ، وآخِرُ الأَمْرِ أَنْجَى اللَّهُ هُوداً والذينَ آمنوا معه ، وقَطَعَ دَابِرَ المكذِبِين بآياتِ اللَّهِ .

١٨٤ ـ وأَخْبَرَ عن شُعَيْبٍ عليه السلامُ ، وإرسَالِهِ إلى مَدْيَنَ ، وَأَنْ لَا يَبْخَسُوا الناسَ أشْيَائَهُمْ ، وَأن لَا يَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِين ، وَأَنَّ أَشْرَافُهُمْ والكُبَرَاءَ مِنْهُمْ قَابَلُوا ذَلِكَ بالتَّهْدِيْدِ باسْتِعْمَالِ القُوَّة السَّبُعِيَّةِ ، وَلَمْ يُرَاعُوْا دِيْناً ، ولا ذِمَّةً ، ولا حَقاً ، بَلْ اتَّبَعُوْا عُقُولَهُم السَّخِيْفَةِ ، وآخِرُ الأَمْرِ أَخَذَتْهُمْ الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيْدَةُ ، فأصْبَحُوا في دَارِهِم جَاثِمِيْن .

١٨٥ ـ وَأَخْبَرَ عن أَصْحَابِ الكَهْفِ ، وأَنَّهُمْ فِتيةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم ، وأنَّ اللَّهَ لَطَفَ بِهِم حَيْثُ وَفقَهُمْ لِلإِيْمَانِ ، وأَنَّهُمْ اعْتَزَلُوا قومَهُم ، وآوَوْا إلى الكَهْفِ ، وَبَيَّنَ حَالَهُمْ بَعْدَ أَنْ آوَوْا إلى الكَهْفِ وَهُوَ أَنَّ الشَّمْسَ تَمِيْلُ عن كَهْفِهِمْ جِهَةَ اليَمِيْن ، وَعِنْدَ الغُرُوْبِ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِمَالِ ، فَلاَ تُصِيْبُهُمْ الشَّمْسُ في طُلُوعِهَا ، ولا غُرُوبِهَا ، وَبَيَّنَ أَنَّ هِدَايَتَهُمْ ، كَانَتْ بِعِنَايَةِ اللَّهِ إلى آخِرِ قِصَّتِهِمْ .

١٨٦ ـ وَأَخْبَرَ عَن أَيُوبَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَمَا أَصَابَهُ الشيطانُ بِهِ ، وَنِدَاءَهُ لِرَبِهِ واسْتِجَابَةِ اللَّهِ لَهُ ، وَكَشْفِ مَا بِهِ مِن ضُرٍ ، وإعطائِهِ أَهْلَهُ ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ .

١٨٧ ـ وَأَخْبَرَ عَن إِسْمَاعِيْلَ عَلَيْهِ السلامُ ، وأَنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَأَنَّهُ مِن وَفَائِه بالوَعْدِ لَمَّا وَعَدَ مِن نَفْسِهِ الصَّبْرَ على ذَبْحِ أَبِيْهِ لَهُ ، قَالَ سَتَجِدُنِيْ إنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَفىَّ بِذَلِكَ ، وَمَكَّنَ أَبَاهُ من الذَّبحِ ، الذِيْ هُوَ أَعْظَمُ مُصِيْبَةٍ تُصِيْبُ الإِنْسَانَ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصَّلاةِ والزكاةِ الخ .

١٨٨ ـ وَأَخْبَرَ عن إِدْرِيْسَ عَلَيْهِ اللاَّمُ وَأَنَّ اللَّهَ وَصَفَهُ بِصِفَاتِ الكَمَالِ ، حَيْثُ جَمَعَ لَهُ بَيْنَ الصِّدِّيْقِيَّةِ وَبَيْنَ اصْطِفَائِهِ لِوَحْيِهِ وَأَنَّهُ رَفَعَهُ مَكَاناً عَالِياً .

١٨٩ ـ وَأَخْبَرَ عن اسْحَاقَ عَلَيْهِ السلامُ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ اخْتَارَهُمْ اللَّهُ واصْطَفَاهُمْ ، وَشَرَّفَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَقَوَّاهُمْ على العَمَلِ لِمَا يُرْضِيْهِ ، وَآتَاهُمُ البَصِيْرَةَ في الدِّيْنِ قال اللَّه تعالى ﴿ واذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيْمَ واسْحَاقَ وَيَعْقوبَ أُولى الأَيْدِي والأَبْصَارِ إنا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَة ذِكْرَى الدَّارِ ، وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ المُصْطَفيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ .

١٩٠ ـ وأَخْبَرَ عَن ذِيْ القَرْنَيْنِ ، وَأَنَّه بَلَغَ المَشَارِقَ والمَغَارِبَ ، وَأَنَّ اللَّه أَعْطَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبَا ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ ، وَجَدَ مِن دُوْنِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُوْنَ يَفْهَمُوْنَ كَلَامَ أَتْبَاعِهِ ولا كَلَامَ غَيْرِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ أَخْبَرُوْهُ ، عن إِفْسَادِ يَأْجُوْجَ وَمَأْجُوْجَ ، وَأَنَّهُم أَرَادُوْا أَنْ يَجْمَعُوْا لَهُ وَيَجْعَلُوا لَهُ خَرَجاً على أَنْ يَسُدَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَأْجُوْجَ ومأْجُوْجَ وأنَّه قال مَا أَنَا فِيْهِ خَيْرٌ مِمَّا تَبْذِلُونَهُ وَأَجَابَهُم إِلى طَلَبِهِمْ وَهُوَ السَّدُ على يَأْجُوْجَ ومأجُوْجَ بأَنْ يَجْعَل رَدْماً بَيْنَهُم وَبَيْنَ يَـأجُوج وماجُوج.

١٩١ ـ وَأَخْبَرَ عَن لُقْمَانَ وَأَنَّ اللَّه آتاهُ الحِكْمَةَ ، وَأَخْبَرَ عَن مَوْعِظَتِهِ لابْنِهِ ، المُتَضَمِّنَةِ لِلتَّحْذِيْرِ مِن الشِرْكِ ، وَالأَمْرِ بالاخلاص لِلّهِ وَحْدَهُ وَذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا أَمْرَهُ لَهُ بالشُّكْرِ ، وَأَنَّ شُكْرَ الشاكِرِ يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ، وَانَّ مَن كَفَرَ فاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيْدٌ فلا يَضُرُّ الكُفْرُ إلَّا صَاحِبَهُ ، وأنّ مِن وَصَايَا لُقْمَانُ القَيِّمةِ لابْنِهِ الأَمْرُ باقامةِ الصلاةِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، والصبرُ على ما يُصِيْبُهُ ، وَأَنَّ تِلْكَ

الوَصَايَا مِن الأُمُوْرِ المُهِمَّةِ التِي يُعْزَمُ عَلَيْهَا ، وَيَتَحَتَّمُ على العِبَادِ فِعْلُهَا ، ولا مَحِيْصَ مِنْهَا ، ثُمَّ حَذَّرَهُ مِن أَشْيَاءَ أُخَرَ أَوَّلُهَا الكِبْرُ الخ .

١٩٢ ـ وَأَخْبَرَ عن الخَضِرِ ، وما اخْتُصَّ بِهِ مِن العِلْمِ ، وما جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُوْسَى ، عِنْدَمَا اتَّصَلَ بِهِ ، وَمَا جَرَى لِمُوْسَى وَفَتَاهُ ، في سَفَرِهِ إِلى الخَضِرِ ، وَمَا تَزَوَّدَاهُ في السَّفَرِ ، إلى آخِرِ القِصَّةِ واللَّه أعلم وصلى اللَّه على محمد وآله وسلم .

« فَصْــلٌ »

١٩٣ ـ وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ القَرْيَةِ ، إِذ جَاءَهَا المُرْسَلُون ، وما جَرَى مِن أَهْلِ القَرْيَةِ ، مِن التَّكْذِيْبِ لِلرُّسل ، وَمَا قَالَهُ الرُّسُلُ ، وأن أَهْلَ القرية حِيْنَمَا تَوعَدُوْا الرُّسُلَ وَهَمُّوْا بِقَتْلِهِمْ جَاءَ رَجُلٌ يَسْعَى مِن أَطْرَافِ المَدِيْنَةِ ، لِيَنْصَحَ قَوْمَهُ ، وَيَحُضُّهُمْ على اتِّبَاعِ الرُّسُل ، وَيَذُبُّ عن الرُسُلِ ، وَأَنَّهُ أَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ ما اخْتَارَ لَهُمْ إِلَّا مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، وَهَذَا يُشْبِهُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَونَ الذِي دَافَعَ عن مُوْسَى عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَأَخْبَرَ عَن مَا حَلَّ بِأَهْلِ القَرْيَةِ ، مِن النَّكَالِ والعُقُوبَةِ .

١٩٤ ـ وَأَخْبَرَ عَن سَبَأٍ ، وَمَا أَمَدَّهُمْ بِهِ مِن البَسَاتِيْنِ ، والمِيَاهِ العَظِيْمَةِ ، والثِّمَارِ التِي بِهَا يَتَنَعَمُونَ ، وَيَحْصلُ لَهُمْ بِهَا الغِبْطَةُ ، والسُرُوْرُ ، وأَنَّهُمْ ظَلَمُوْا أَنْفُسَهُمْ ، وَكَفَرُوْا باللَّهِ ، وَبِنِعْمَتِهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ ، وَذَهَبَ بالبَسَاتِيْنِ ، وَأَهْلَكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وَبُدِلُوا بِتِلْكَ الجِنَانِ ، والبَسَاتِيْنَ الحَسْنَةِ ، بُسْتَانَيْنِ لَيْسَ فِيهِمَا إلا أَشْجَارٌ تَافِهَةٌ ، لَا يُؤْبَهُ لَهَا ، وما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ولَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون .

١٩٥ ـ وَأَخْبَرَ عن قَارُوْنَ وَمَا أُوتِيَهُ من كُنُوزٍ ، وَأَنَّ مَفَاتِحَهُ تَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولى القُوَّةِ ، وأَنَّهُ بَغَى عَلَى مُوْسَى وَقَوْمِهِ ، وَأَنَّ قَوْمَهُ نَصَحُوْهُ ، بِعِدَّةِ نَصَائِحَ ، وَأَنَهُ قَابَلَهَا بالإباءِ ، وَكُفْرانِ النِّعْمَةِ ، وأنه خَرَجَ مَرةً عَلَى قَومِهِ في زِيْنَتِهِ ، وأَخْبَرَ عَن مَا قَالَ لَهُ مُرِيْدُوْا الحَيَاةِ الدُنْيا ، وما قَالَ لَهُمْ أَولُو العِلْمِ ، وَذَكَرَ مآلَ بَطَرِهِ وأشرهِ ، وما حَلَّ بِهِ من الوَبَالِ ، والنَّكالِ ، وَهُوَ الخَسْفُ بِهِ وبِدَارِهِ .

وقال اللَّهُ تَعالى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ محمدٍ صلى اللَّهُ عليه وسلم ﴿ وما كُنْتَ بجانبِ الطورِ إذ نادَيْنا ﴾ وقال ﴿ وما كُنْتَ بجانبِ الغربِي إذْ قضينا إلى مُوْسى الأَمرَ ، وما كُنْتَ مِن الشاهِدِيــن ﴾ وقال ﴿ ذَلِكَ مِن أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيْهِ اليكَ وما كُنْتَ لَدَيْهِم إذ يُلْقُونَ أقلامَهُمْ أَيُّهُم يَكْفُلُ مَرْيمَ ﴾ وقال تعالى ﴿ تِلكَ مِن أَنْباءِ الغيبِ نوحِيْهَا إليكَ ما كُنْتَ تعلَمُهَا أَنْتَ ولا قومُكَ مِن قبلِ هذا ، فاصبرْ إن العاقبةَ لِلْمتقِين ﴾ .

وقال تعالى ﴿كذلك نَقُصُّ عليكَ مِن أَنْبَاءِ ما قَدْ سَبَقَ ﴾ الآية .

وقال تعالى ﴿ نحنُ نَقُصُّ عليكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بما أَوْحَيْنَا اليكَ هذا القرآنَ وإن كُنْتَ مِن قبلِهِ لَمِنَ الغافِلين ﴾ وقال ﴿ ذَلِكَ مِن أنباءِ الغَيْبِ نُوحِيْهَا اليكَ وما كنتَ لَدَيْهِم إِذْ أجْمَعُوا أَمْرَهُم وَهُم يَمكرون ﴾ .

فالنبي صلى اللَّه عليه وسلم لم يَعْلَمْهَا عن مُشَاهَدَةٍ وَلَكِنْ أَعْلَمَهُ إيَّاهَا الذِيْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً الذي لا تَخْفَى عليهِ خَافِيَةٌ في الأرضِ ولا في السماءِ وقال تعالى ﴿ فَلَنَقُصَنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وما كُنَّا غَائِبِين ﴾ وَأَخْبَرَ النبيُّ صلى اللَّهُ عليهِ وسلم بِأُمُوْرٍ غَيْبِيَّةٍ غَيْرَ ما ذَكَرْنَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِهَا وفي بَعْضِ ما

ذَكَرنا كِفَايَةٌ تَامَّةٌ لِمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَهَا وَيَتَأَمَلَهَا لِيَقْوَى إِيْمَانُهُ باللَّهِ ورسلِهِ وَبِمَا أَخْبَرُوْا بِهِ صَلوات اللَّهِ وسلامُه عليهم أَجْمَعِين .

(فَصْـــلٌ)

وقال شيخُ الاسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رحمهُ اللَّهُ وسيرةُ النبي صلى الله عليه وسلم مِن آياتِهِ وأَخْلاَقُهُ وَأَقْوالُهُ وَأَفْعَالُهُ وَشَرِيْعَتُه مِن آيَاتِهِ وَأُمَّتُهُ مِن آياتِهِ وكَرَامَاتُ صَالِحِي أُمَّتِهِ مِن آياتِهِ .

وَذَلِكَ يَظْهَرُ بِتَدَبُرِ سِيْرَتِهِ مِن وُلِدَ إِلى أَنْ بُعِثَ وَمِن حِيْنِ بُعِثَ إِلى أَنْ مَاتَ وَبِتَدَبُّرِ نَسَبِهِ وَبَلَدِهِ وَأَصْلِهِ وَفَصْلِهِ فإِنَّهُ كان مِن أَشْرَفِ أَهْلِ الأَرْضِ نَسَبَا مِن صَمِيْمِ سُلاَلةِ إِبْرَاهِيْمَ الذي جَعَلَ اللَّهُ في ذُرِّيَتِهِ النُبُوَّةَ والكِتَاب .

فَلَمْ يَأْت نَبِيٌّ مِن بَعْدِ ابْرَاهِيْمَ إلا مِن ذُرِيَّتِهِ وَجعلَ لَهُ ابْنَيْنِ اسْمَاعِيْلَ واسْحَاقَ وَذُكِرَ في التَّوْرَاةِ هَذَا وهَذَا وَبُشِّرَ في التَّوْرَاةِ بِمَا يَكُونُ مِن وَلَدِ اسْمَاعِيْل .

ولم يَكُنْ في وَلَدِ اسْمَاعِيْلَ مَن ظَهَرَ فِيْمَا بَشَّرَتْ بِهِ النُّبُوَّاتُ غَيْرَهُ وَدَعَا ابراهيمُ لِذُرِّيَةِ اسْمَاعِيْل بأنْ يَبْعَثَ فِيْهِمْ رَسُوْلاً مِنْهُمْ ثُمَّ هُوَ مِن قُرَيْشٍ صَفْوَةِ بَنِيْ إِبْرَاهِيْمَ مِن بَنِيْ هَاشِمٍ صَفْوَةِ قُرَيْشٍ .

وَمِنْ مَكَّةَ أُمِّ القُرَى وَبَلَدُهُ البَيْتُ الذِيْ بَنَاهُ إِبْرَاهِيْمُ وَدَعَا الناسَ إِلى حَجِّهِ ، وَلَمْ يَزَلْ مَحْجُوْجَاً مِن عَهْدِ إِبْرَاهِيْمَ مَذْكُوراً في كُتبِ الأَنْبِيَاءِ بِأَحْسَن

وَصْفٍ ، وكانَ مِن أَكْمَلِ النَّاسِ تَرْبِيَةً وَنَشْأَةً لَمْ يَزَلْ مَعْرُوْفاً بالصِّدْقِ والبِرّ والعَدْلِ وَمَكَارِمِ الأخلاقِ وتَرْكِ الفَوَاحِشِ والظُّلْمِ وَكُلِّ وَصْفٍ مَذْمُوْمٍ .

مَشْهُوداً لَهُ بِذَلِكَ عندَ جَمِيْعِ مَنْ يَعْرِفُهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَمِمَّنْ آمَن بِهِ وَكَفَرَ بَعْدَ النُّبُوَةِ ، لَا يُعْرَفُ لَهُ شَيْءٌ يُعَابُ بِهِ لا في أقوالِهِ ولا في أفعالِهِ ولا في أخلاقِهِ ولا جُرِّبَتْ عَليهِ كِذْبَةٌ قطُ ولا ظُلْمٌ ولا فَاحِشَةٌ .

وَكَانَ خُلُقُهُ وَصُوْرَتُهُ مِن أَكْمَلِ الصُوَرِ وَأَتَمِهَا وَأَجْمَعِهَا لِلْمَحَاسِنِ الدَّالَةِ عَلَى كَمَالِهِ ، وكانَ أُمّياً مِن قَومٍ أُمّيِيْنَ لا يَعْرِفُ لا هُوَ ولا هُمْ مَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الكِتَابِ « التَّورَاةِ والانجيل » .

ولم يَقْرَأْ شَيْئاً مِن عُلُومِ الناسِ ولا جَالَسَ أَهْلَهَا وَلَم يَدَّعِ بِنُبُوَةٍ إلى أَنْ أَكْمَلَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً فأتَى بِأَمْرٍ هُوَ أَعْجَبُ الأُمُوْرِ وَأَعْظَمُهَا وَبِكَلَامٍ لَمْ يَسْمَعْ الأَوَّلُونَ والآخرونَ بِنَظِيْرِهِ .

وَأَخْبَرَ بِأَمْرٍ لَمْ يَكُنْ في بَلَدِهِ ولا في قَوْمِهِ مَنْ يَعْرِفُ مِثْلَهُ وَلَمْ يُعْرَفْ قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ ، لا في مِصْرٍ مِن الأَمْصَارِ ولا في عَصْرٍ مِن الأَعْصَارِ مَن أَتَى بِمِثْلِ مَا أَتَى بِهِ ولا مَنْ ظَهَرَ كَظُهُوْرِهِ .

وَلَا مَنْ أَتَى مِن العَجَائِبِ والآياتِ بِمِثْلِ مَا أَتَى بِهِ ولا مَن دَعَا إلى شَرْيعَةٍ أَكْمَلَ مِن شَرِيْعَتِهِ ، ولا مَنْ ظَهَرَ دِيْنُهُ على الأَدْيَانِ كُلِّهَا بالعِلْمِ والحُجَّةِ وباليَدِ والقُوَّة كَظُهُوْرِهِ .

ثم إنَّهُ اتَّبَعَهُ أَتْبَاعُ الأَنْبِيَاءِ وَهُمُ الضُعَفَآءُ مِن الناسِ وَكَذَّبَهُ أَهْلُ الرِئَاسَةِ

وَعادَوْهُ وَسَعوْا في هَــلاَكِهِ وَهَــلاَكِ مَن تَبعَهُ بِكُلِّ طَرِيْقٍ ، كَمَا كَانَ الكُفَارُ يَفْعَلُونَ مَعَ الأنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِم .

والذِيْنَ اتَّبَعُوهُ لَمْ يَتَّبِعُوْهُ لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَالٌ يُعْطِيْهِم ولا جِهَاتٍ يُوَلِيْهِم إِيَّاهَا ولا كانَ لَهُ سَيْفٌ بَلْ كَانَ السَّيْفُ والجَاهُ والمالُ مَعَ أَعْدَائِهِ ، وقَدْ آذَوْا أَتْبَاعَهُ بِأَنْوَاعِ الأَذىٰ وَهُمْ صَابِرُوْنَ مُحْتَسِبُونَ لا يَرْتَدُوْنَ عن دِيْنِهِم لَمَّا خَالَطَ قُلُوْبَهُمْ حَلاَوَةُ الإِيمانِ والمَعْرِفَةِ .

وكانَتْ مَكَّةُ يَحُجُّهَا العَرَبُ مِن عَهْدِ إِبْرَاهِيْمَ فَتَجْتَمِعُ في المَوْسِمِ قَبَائِلُ العَرَبِ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ يُبَلِغُهُمْ الرِّسَالَةَ وَيَدْعُوْهُمْ إِلى اللَّهِ صَابِراً على مَا يَلْقَاهُ مِن تَكْذِيْبِ المُكَذِبِ وَجَفَاءِ الجَافِي واعْرَاضِ المُعْرِضِ إِلى أَنْ اجْتَمَعَ بِأَهْلِ يَثْرِبَ وكانُوا جِيْرَانَ اليَهُودِ قَدْ سَمِعُوْا أَخبارَهُ مِنْهُمْ وَعرَفُوْهُ .

فَلَمَّا دَعَاهُم عَلِمُوْا أَنَّهُ النَّبِيُّ المُنْتَظَرُ الذي تُخْبِرُهُمْ بِهِ اليَهُوْدُ وَكَانُوا قَدْ سَمِعُوْا مِن أَخْبَارِهِ مَا عرَفُوا بِهِ مَكَانَتَهُ ، فَإِنَّ أَمْرَهُ كَانَ قَدْ انْتَشَرَ وَظَهرَ في بِضْعِ عَشْرَةَ سَنَةً فَآمَنُوا بِهِ وَتَابَعُوْهُ على هِجْرَتِهِ وَهِجْرَةِ أَصْحَابِهِ إِلى بَلَدِهِم وَعَلَى الجِهَادِ مَعَهُ فَهَاجَرَ هُوَ وَمَن اتَّبَعَهُ إِلى المَدِيْنَةِ وبها المُهَاجِرُوْنَ والأَنصارُ لَيْسَ فِيْهِم مَن آمنَ بِرَغْبَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ ولا بِرَهْبَةٍ إِلا قليلاً مِن الأَنْصَارِ أَسْلَمُوا في الظاهِرِ ثُمَّ حَسُنَ اسْلاَمُ بَعْضِهِم ثُمَّ أُذِنَ لَهُ في الجِهادِ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ .

وَلَم يَزَلْ قائماً بِأَمْرِ اللهِ عَلَى أَكْمَلِ طَرِيْقَةٍ وَأَتَمِهَا مِن الصِّدْقِ والعَدْلِ والوَفَاءِ لا يُحْفَظُ عليهِ كِذْبَةٌ واحِدةً ولا ظُلْمٌ لِأَحدٍ ولا غَدْرٌ بأَحدٍ ، بل كانَ أَصْدَقَ الناسِ وأَعْدَلَهُمْ وأَبَرَّهُمْ وَأَوْفَاهُمْ بالعَهْدِ مَعَ اخْتِلاَفِ الأَحْوَالِ عليهِ مِن

حَرْبٍ وَسِلْمٍ وأَمْنٍ وَخوْفٍ وَغِنىً وَفقْرٍ وَقِلَّةَ وَكَثْرَةٍ وَظُهُوْرِهِ على العَدُوِ تارةً وَظُهُورِ العدوِ عليه تارة .

وَهُوَ عَلى ذَلِكَ كُلِّهِ مُلاَزِمٌ لِأَكْمَلِ الطُّرُقِ وَأَتَمِّهَا حَتَّى ظَهَرَتِ الدعوة في جَمِيْعِ أَرْضِ العَرَبِ التِي كَانَتْ مَمْلُوءَةً مِن عِبَادَةِ الأَوثانِ وَمِن أَخْبَارِ الكُهَّانِ وطَاعَةِ المَخْلُوقِ في الكُفْرِ بالخالِقِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ المُحَرَّمَةِ وَقَطِيْعَةِ الأَرْحَامِ لا يَعْرِفُونَ آخِرَةً ولا مَعَاداً .

فَصَارُوْا أَعْلَمَ أَهْلِ الأَرْضِ وَأَدْيَنَهُمْ وَأَعْدَلَهُمْ وَأَفْضَلَهُمْ وَهَذِهِ آثارُ عِلْمِهِم وَعَمَلِهِم في الأَرْضِ وآثارُ غَيْرِهِم يَعْرِفُ العُقَلاَءُ فَرْقَ ما بَيْنَ الأَمْرَيْنِ وهو صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم مَعَ ظُهُورِ أَمْرِهِ وَطَاعَةِ الخَلْقِ لَهُ وَتَقْدِيْمِهِم لَهُ على الأَنْفُسِ والأَمْوَالِ مَاتَ وَلَمْ يُخَلِّفْ دِرْهَماً ولا دِيْناراً ولا مَتاعاً وَلاَ دَابَّةً إلا بَغْلَتَهُ وَسِلاَحَهُ وَدِرْعُهُ مَرْهُوْنَةٌ عِنْدَ يَهُوْدِيٍ عَلى ثَلاَثِيْنَ وَسَقاً مِن شَعِيْرٍ ابْتَاعَهَا لِأَهْلِهِ .

وَكَانَ بِيَدِهِ عَقارٌ يُنْفِقُ مِنْهُ عَلَى أَهْلِهِ والبَاقِي يَصْرِفُهُ في مَصَالِحِ المُسْلِمِيْنَ فَحَكَمَ بِأَنَّهُ لا يُوْرَثُ ولا يَأْخُذُ وَرَثَتُهُ مِنه شَيْئاً وَهُوَ في كُلِّ وَقْتٍ يَظْهَرُ عَلى يَدَيْهِ مِن الآياتِ وَفُنُونِ الكَرَاماتِ ما يَطُولُ وَصْفه .

وَيُخْبِرُهُم بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَيَأْمُرُهُم بالمَعْرُوْفِ وَيَنْهَاهُمْ عن المُنكَرِ ويُحِلُّ لَهُم الطَّيِبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَشْرَعُ الشَّرِيْعَةَ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ .

أُكْمَلَ اللهُ دِيْنَهُ الذي بُعِثَ بِهِ وَجَاءتِ شريعتُه أكمل شَرِيْعَةٍ لَمْ يبق مَعْرُوفَ تَعْرِفُ العُقُولَ أنه مَعْرُوْف إلَّا أَمَرَ بِهِ ولا مُنْكَرٌ تَعرِفُ العُقُولُ أنه مُنْكَرٌ إلَّا نَهى عنه .

لم يَأْمُرْ بِشَيءٍ فَقِيْلَ لَيْتَهُ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ ولا نَهى عَن شَيْءٍ فَقِيْلَ لَيْتَهُ لم يَنْهَ عَنْهُ وَأَحَلَّ الطيباتِ لم يُحَرِّمْ شَيْئاً مِنها كَمَا حُرِّمَ في شَرْعِ غَيْرِه وَحَرَّمَ الخَبائِثَ لم يُحِلَّ منها شَيْئاً كَمَا اسْتَحَلَّهُ غيرُهُ .

وَجَمَعَ مَحاسِنَ مَا عَلَيْهِ الأُمَمُ فلا يُذْكَرُ في التَّوراةِ والانجيلِ والزَّبُورِ نَوعٌ مِن الخَبَرِ عن اللهِ وعن مَلائِكَتِهِ وعن اليومِ الآخرِ إلَّا وقَدْ جَاءَ بِهِ على أكملِ وجهٍ وَأَخبرَ بِأَشْيَاءَ لَيْسَتْ في هَذِهِ الكُتُبِ .

وَأُمَّتُهُ أَكْمَلُ الأُمَمِ في كُلِّ فَضِيْلَةٍ فإِذَا قِيْسَ عِلْمُهُمْ بِعِلْم سَائِرِ الأُمَمِ ظَهَرَ فَضْلُ عِلْمِهِم وإِن قِيْسَ دِيْنُهُمْ وَعِبَادَتُهُم وطاعَتُهُم للهِ بِغَيْرِهِم ظَهرَ أَنَهُم أَدْيَنُ مِن غَيرِهِم وإذا قِيْسَ شَجَاعَتُهُم وَجِهادُهُم وَصَبْرُهُمْ على المَكَارِهِ في ذَاتِ اللَّهِ ظَهَرَ أَنَّهُم أَعْظَمُ جِهاداً وَأَشْجَعُ قُلُوباً وَهَذِهِ الفَضَائِلُ بِهِ نالُوْهَا وَمِنْهُ تَعَلَّمُوهَا وَهُوَ الذِي أَمَرَهُم بِهَا أهـ .

وقال آخَرُ : غَيْرُ شَيْخِ الإِسْلام

اعْلَمْ أَنَّ مَن شَاهَدَ أَحْوالَهُ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ وَأَصْغَى إلى سَمَاعِ أَخْبَارِهِ المُشْتَمِلَةِ على أَخْلاَقِهِ وَأَفعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ وعَادَاتِهِ وَسَجَايَاهُ وَسِيَاسَتِهِ لِأَصْنَافِ الخَلْقِ وهِدَايَتِهِ إلى ضَبْطِهِمْ وَتَأَلُفِهِ أَصْنَافَ الخَلْقِ وَقَوْدِهِ إِيَّاهُمْ إلى طاعَتِهِ .

مَعَ ما يَحْكِيْ مِن عَجَائِبِ أَجْوِبَتِهِ في مَضَائِقِ الأَسْئِلَةِ وَبَدائِعِ تَدْبِيْرَاتِهِ في مَصَالِحِ الخَلْقِ وَمَحَاسِنِ إِشَارَاتِهِ في تَفْصِيْلِ ظَاهِرِ الشَّرْعِ التي يَعْجَزُ الفُقَهاءُ والعُقَلاءُ عن إِدْرَاكِ أوائِلِ دَقَائِقِهَا في طُوْلِ أَعْمَارِهِم لَمْ يَبْقَ لَهُ رَيْبٌ ولا شَكٌ في أنَّ ذَلِكَ لم يَكُنْ مُكْتَسباً بِحِيْلَةٍ تَقُومُ بِهَا القُوَّةُ البَشرِيَّةِ .

بل لا يَتَصَوَّرُ ذَلِكَ إلا بالاسْتِمْدَادِ مِن تَأْيِيْدٍ سَمَاوِيٍ وَقُوَّةٍ إلهيَّةٍ وأنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لا يَتصَوَّرُ لِكَذَّابٍ وَلاَ مُلَبِّسٍ بل كانَتْ شَمَائِلُهُ وَأَحْوَالُهُ شَوَاهِدُ قَاطِعَةٌ بِصِدْقِهِ حَتَّى إنَّ العَرَبِيَّ القُحَّ كان يَرَاهُ فَيَقُولُ : واللهِ ما هَذَا وَجْهُ كَذابٍ .

فكانَ يُشْهَدُ لَهُ بالصِّدْقِ بِمُجَرَّدِ رُؤْيَتِهِ لِشَمَائِلِهِ فَكَيْفَ مَنْ شَاهَدَ أَخْلاَقَهُ وَمَارَسَ أَحْوَالَهُ في جَمِيْعِ مَصَادِرِهِ وَمَوارِدِهِ أهـ .

اللَّهمَّ ألْهِمْنَا ذِكْرَكَ وشُكْرَكَ وَأَرْزقنا حُبَّكَ وَسَهِّلْ علينا طاعَتَكَ وَفرِّغْنَا لِلتَّفَكُّرِ في مَخْلُوقَاتِكَ واجْعَلْ لَنَا رِضَاكَ مَوْئِلاً وعاقِبَةً واغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيْعِ المسلمين الأحياءِ منهم والميتين برحمتك يا أرحم الرَاحِمين وصَلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

إلـى الـلـهِ نَـشْـكُـوْا قَـسْـوةً وَتَـوَحُّـدَا
وَنَـرْجُـوْهُ غُـفْـرَانـاً فَـرَبُّـك أوْحَـدُ
وَدُوْنَـكَ مِنِّي النُّصْحَ يَـا ذَا الْمُـوَحِّـدُ
قُـمِ اللَّيـلَ يَـا هَـذا لَـعَـلَّكَ تَـرْشُـدُ
إلى كَمْ تَنَامُ الليلَ والعُمْرُ يَنْفَدُ

تَـيَـقَّظْ وَتُـبْ فَـالـلهُ لِـلْـخَـلْقِ رَاحِـمٌ
وإنِّـي لِـنَـفْـسِـي نَـاصِـحٌ وَمُـلاَزِمٌ
فَـقُمْ لاَ تَـنَمْ فَـالـشَّهْـمُ بالَّلَيْل قَـائِمٌ
أَراكَ بِـطُوْلِ الـلَّيـلِ وَيْـحَـكَ نَـائِـمٌ
وَغَيْرُكَ في مِحْرابِهِ يَتَهَجَّدُ

لَـقَـدْ فَـازَ أَقْـوَامٌ وَنَـحْـنُ نُـشَـاهِـدُ
أَمَـا تَسْتَحِيْ أَوْ تَـرْعَـوِي أَوْ تُجَـاهِـدُ
فَـلَيْسَ سَـواءٌ قَـائِـمٌ ذَا وَرَاقِـدُ
وَلَـوْ عَـلِمَ الـبَـطَّالُ مَـا نَـالَ زَاهِـدُ
مِنَ الأَجْرِ والاحْسَان مَا كَانَ يَرْقُدُ

فَـكَـمْ قَـدْ أَكَـلْنَـا والتَّـقِيُّـونَ صُـوَّمُ
وَنُـمْنـا وَهُـمْ بـالـلَّيْـلِ يَـبْـكُـونَ قُـوَّمُ
وَلَـوْ مُفْلِسٌ يَـدْرِيْ وَهَـلْ أَيْنَ خَيَّمُـوْا
لَـصَـامَ وَقَـامَ الـلـيـلَّ والـنـاسُ نُـوَّمُ
إِذَا مَا دَنَى مِنْ عَبْدِهِ المُتَفَرِّدُ

وَأَسْبَـلَ فِي الـدَّاجِي دُمُـوعـاً بِعَبْـرَةٍ
وتَـابَ وَأَبْـدَى الخَـوْفَ مِن كُـلِّ هَيْبَـةٍ
وَقَـامَ وصَـلَّى خَـائِـفـاً فِـي مَـحَـبَّـةٍ
بِـحَـزْمٍ وَعَـزْمٍ واجْـتِـهَـادٍ وَرَغْـبَـةٍ
وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ ذُوْ العَرْشِ يُعْبَدُ

فَحَـاذِرْ مِن الـدُّنْيَـا وَمِنْ لَـدْغِ صِلِّهَـا
فَـلَيْسَ لَهَـا عَـهْـدٌ يَفِـيْ لَـوْ لِخِـلِّهَـا
فَـسَـافِـرْ وَطَـلِّقْـهَـا ثَـلَاثـاً وَخَـلِّهَـا
وَلَـوْ كَـانَـتِ الـدُّنْيَـا تَـدُوْمُ لأَهْـلِهَـا
لَكَانَ رَسُولُ الله فِيْهَا مُخَلَّدُ

أَلَـمْ يَـأْنِ أَنْ نَخْشَـعْ وَأَيْنَ التَّـهَـجُـدُ
أَفـي سِـنَـةٍ كُـنَّـا أَمِ الـقَـلْـبُ جَـلْـمَـدُ
تَـيَـقَّظْ أَخِـيْ وَاحْـذَرْ وإِيَّـاكَ تَرْقُدُ
أَتَـرْقُـدُ يَـا مَـغْـرُوْرُ والـنـارُ تُـوْقَـدُ

فلا حَرُّهَا يَطْفَى ولا الجَمْرُ يَخْمُدُ

أَمَـا لَـوْ عَلِمْنَـاهـا نَهَضْنَـا إِذَا شَـظَى
نَـعُـجُّ وَبَعْضُ الـقَـوْمِ لِلبَـعْضِ أَيْقَـظَا
وَلَمْ تَغْتَمِضْ عَـيْنـاً بِـتَـذكَـارِنَـا اللَّظَى
أَلاَ إِنَّـهَـا نَـارٌ يُـقَـالُ لَـهَـا لَـظَى

فَتَخْمُدُ أَحْيَاناً وَأَحْيَانَ تُوْقَدُ

على الخَمْسِ تَـوْدِيْعـاً بِجِدٍّ فَصَلِّهَـا
وَحَـافِظْ عـلى تِلْكَ الـنَّـوافِـلِ كُـلِّهَـا
وَتُـبْ عَـن ذُنُـوبٍ لا تَـذِلُّ بِـذُلِّـهَـا
فَيَـا رَاكِبَ العِصْيَانِ وَيْحَـكَ خَلِّهَا

سَتُحْشَـرُ عَطْشَاناً وَوَجْهَكَ أَسْوَدُ

أَلاَ إِنَّ أَهْـلَ الـعِلْمِ فـي عِلْمِ غَـيْـبِـهِ
لَـهُـمْ كُـلُ خَـيْـرٍ مِـن إِلَـهِـيْ بِـقُـرْبِـهِ
سَـمَـوْ بـالـهُـدَى والـنـاسُ مِن فَـوْقِ تُـرْبِـهِ
فَـكَـمْ بَـيْـنَ مَـسْـرُوْرٍ بِـطَـاعَـةِ رَبِّـهِ

وَآخَـرُ بالذَّنْـبِ الثَّقِيْـلِ مُقَيَّدُ

إِذَا كُـوِّرَتْ شَـمْسُ العِـبَـادِ وَأَنْـجُـم
وَقُـرِبَـتِ الـنَّـارُ الـعَـظِيْـمَـةُ تُـضْـرَمُ
وُكُبْكِبَ هَذَا ثُمَّ هَذَا مُسَلَّمُ

فـهـذا سـعـيـد فـي الـجـنـان منـعـم

وهذا شقى في الجحيـم مُـخَـلَّـدُ
وقـد كـان هـذا الحكم من ربنـا مضى
ولا بـد هذا الحكم في الحشـر يُمْتَضَى
إلهـي انلني العفـو منك مـع الـرضى
اذا نصب الـميـزان لـلفصـل والـقضـى
وقد قام خير العالمين محمد
نبي الهـدى المعصـوم عـن كـل زلـة
شفيـع الـورى أكـرم بهـا من فضيلة
ومـلتـه يـا صـاحـبـي خـيـر مـلة
عـليـه صـلاة الـله فـي كـل لـيـلة
مع الال والأصحاب ما دار فرقد

(فَصْــلٌ)

وقال المَاوَرْدِيْ رَحِمَهُ اللهُ في ذِكْرِ خَصَائِصِ الرَّسُوْلِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم وَفَضَائِلِهِ وَشَرَفِ أَخْلَاقِهِ وَشَمَائِلِهِ المُؤَيِّدَةِ لِنُبُوَّتِهِ والمُبَرْهِنَةِ عَلَى عُمُومِ رسالَتِهِ :

فالكَمَالُ المُعْتَبَرُ في البَشَرِ يَكُونُ مِن أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ : كَمَالِ الخَلْقِ وَكَمَالِ الخُلُقِ وفَضَائِلِ الأَقْوَالِ وَفَضَائِلِ الأَعْمَالِ .

فَأَمَّا الوَجْهُ الأَوَّلُ في كَمَالِ خَلْقِهِ بَعْدَ اعْتِدَالِ صُوْرَتِهِ فَيَكُونُ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ أَحَدُهَا : السَّكِيْنَةُ البَاعِثَةُ عَلَى الهَيْبَةِ والتَّعْظِيْمِ الدَّاعِيَةُ إلى التَّقدِيْمِ والتَّسْلِيْمِ .

وكانَ أَعْظَمَ مَهِيْبٍ في النُفُوسِ حَتى ارْتَاعَتْ رُسُلُ كِسْرَى مِنْ هَيْبَتِهِ حِيْنَ أَتُوْهُ مَعَ ارْتِيَاعِهِمْ بِصَوْلَةِ الأَكَاسِرَةِ وَمُكَاثَرَةِ المُلُوكِ الجَبَابِرَةِ .

فكان صلى الله عليه وسلم في نُفُوسِهِم أَهْيَبَ وفي أَعْيُنِهِمْ أَعْظَمَ وإِنْ لَمْ يَتَعَاظَمَ بِأُهْبَةٍ وَلَمْ يَتَطَاوَلُ بِسَطْوَةٍ بَلْ كَانَ بالتَّوَاضُعِ مَوْصُوْفاً وَبالْوَطْأَةِ ـ أَيْ السُّهُوْلَةِ ـ مَعْرُوْفاً .

والثاني : في الطَّلاَقةِ المُوْجِبَةِ لِلإِخْلاَصِ والمَحَبَّةِ البَاعِثَةِ على المُصَافَاةِ والمَوَدَّةِ .

وقد كانَ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ مَحْبُوباً اسْتَحْكَمَتْ مَحَبَّةُ طَلاَقَتِهِ في النُّفُوسِ حَتَّى لَمْ يَقْلُهُ مُصَاحِبٌ ولم يَتَبَاعَدْ مِنْهُ مُقَارِبٌ وكانَ أَحَبَّ إلى أَصْحَابِهِ مِن الآباءِ والأَبْنَاءِ وَشُرْبِ الماءِ البَارِدِ على الظَّمَأ .

والثالِثُ : حُسْنُ القَبُولِ الجالِبِ لِمُمَايَلَةِ القُلُوبِ حَتَّى تُسْرِعَ إلى طَاعَتِهِ وَتُذْعِنَ بِمُوَافَقَتِهِ وَقَدْ كَانَ قَبُوْلُ مَنْظِرِهِ صلى اللهُ عليه وسلم مُسْتَولِياً عَلَى القُلُوبِ وَلِذَلِكَ اسْتَحْكَمَتْ مُصَاحَبَتُهُ في النُّفُوسِ حَتَّى لَمْ يَنْفُر مِنهُ مُعَانِدٌ ولا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ مُبَاعِدٌ إلا مَنْ سَاقَهُ الحَسَدُ إلى شِقْوَتِهِ وَقَادَهُ الحِرْمَانُ إلى مُخَالَفَتِهِ .

والرَّابعُ : مَيْلُ النُّفُوسِ إلى مُتَابَعَتِهِ وانْقِيَادُهَا لِمُوَافَقَتِهِ وثَبَاتُهُ على شَدَائِدِهِ وَمُصَابَرَتِهِ ، فَمَا شَذَّ عَنهُ مَعَهَا مَنْ أَخْلَصَ ولا نَدَّ عنه فِيْهَا مَنْ تَخَصَّصَ .

وَهَذِهِ الأَرْبَعَةُ مِن دَوَاعِي السَّعَادَةِ وقَوَانيْنِ الرِّسَالَةِ وَقَدْ تَكَامَلَتْ فِيْهِ فَكَمَلَ لِمَا يُوَازِيْهَا واسْتَحَقَّ مَا يَقْتَضِيْهَا .

وأَمَّا الوَجْهُ الثَّانِيْ في كَمَالِ أَخْلاَقِهِ فَيكُونُ بِستٍ خِصَالٍ :

(إِحْدَاهُنَّ) : رَجَاحَةُ عَقْلِهِ وَصِحَّةُ وَهْمِهِ وَصِدْقُ فِرَاسَتِهِ وَقَدْ دَلَّ عَلَى وُفُورِ ذَلِكَ فِيْهِ صِحَّةُ رَأْيِهِ وَصَوابُ تَدْبِيْرِهِ وَحُسْنُ تَأَلُّفِهِ .

وَأَنَّهُ مَا اسْتُغْفِلَ في مَكِيْدَةٍ ولا اسْتُعْجِزَ في شَدِيْدَةٍ بَلْ كانَ يَلْحَظُ

الأعْجَازَ في المَبَادِىءِ فيَكْشِفُ عُيُوْبَهَا وَيَحِلُّ خُطُوبَهَا وَهَذَا لاَ يَنْتَظِمُ إلابأصْدَقِ وَهْمٍ وَأوْضَحِ جَزْمٍ .

والخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ : ثَبَاتُهُ في الشَّدَائِدِ وَهُوَ مَطْلُوبٌ وَصَبْرُهُ على البَأْسَآءِ والضَّرَآءِ وَهُوَ مَكْرُوْبٌ وَمَحْرُوْبٌ وَنَفْسُهُ في اخْتِلاَفِ الأحْوَالِ سَاكِنَةٌ لا يَخُوْرُ في شَدِيْدَةٍ ولا يَسْتَكِيْنُ لِعَظِيْمَةٍ وقد لَقِيَ بِمَكَّةَ مِن قُرَيْشٍ ما يُشِيْبُ النَّوَاصِيْ وَيَهُدُّ الصَّيَاصِيْ وهو مَعَ الضُّعْفِ يُصَابِرُ صَبْرَ المُسْتَعْلِي وَيَثْبُتُ ثَبَاتَ المُسْتَوْلِي .

والخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ : زُهْدُهُ في الدُّنْيَا واعْرَاضُهُ عَنْهَا وَقَنَاعَتُهُ بالبَلاَغِ مِنها فَلَمْ يَمِلْ إلى غَضَارَتِهَا وَلَمْ يَلْهَ لِحلاَوَتِهَا وَقَدْ مَلَكَ مِن أقْصَى الحِجَازِ إلى عِذَارِ العِرَاقِ وَمِن أقْصَى اليَمَنِ إلى شَحْرِ عُمَان .

وَهُوَ أَزْهَدُ النَّاسِ فِيْمَا يُقْتَنى وَيُدَّخَرُ وَأَعْرَضُهُمْ عَمَّا يُسْتَفَادُ وَيُحْتَكَرُ لَمْ يُخَلِّفْ عَيْناً ولا دَيْنا ولا حَفَرَ نَهراً وَلاَ شَيَّدَ قَصْراً وَلَمْ يُوَرِّثْ وَلَدَهُ وَأَهْلَهُ مَتَاعاً ولا مَالاً لِيَصْرِفَهُمْ عَنِ الرَّغْبَةِ في الدُّنْيَا كَمَا صَرَفَ نَفْسَهُ عَنْهَا فَيَكُونُوْا عَلَى مِثْلِ حَالِهِ في الزُّهْدِ فِيْهَا .

وَحَقِيْقٌ بِمَنْ كَانَ في الدُّنْيَا بِهَذِهِ الزَّهَادَةِ حَتَّى اجْتَذَبَ أَصْحَابَهُ إلَيْهَا أَنْ لاَ يُتَّهَمَ بِطَلَبِهَا وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ تَعَالَى في ادِّعَاءِ الآخِرَةِ وَيَقْنَعَ في العَاجِلِ وَقَدْ سُلِبَ الآجِلَ بالمَيْسُورِ النَّزْرِ وَرَضِيَ بالعَيْشِ الكَدِرِ .

والخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ : تَوَاضُعُهُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أتْبَاعٌ وَخَفْضُ جَنَاحِهِ لَهُمْ وَهُوَ مُطَاعٌ يَمْشِيْ في الأَسْوَاقِ وَيَجْلِسُ على التُّرَابِ وَيَمْتَزِجُ بأصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ فَلاَ يَتَميَّزُ عَنْهُمْ إلاَّ بِإِطْرَاقِهِ وَحَيَائِهِ ، فَصَارَ بالتَّوَاضُعِ مُتَميِّزاً ، وبالتَّذَلُّلِ مُتَعَزِّزاً .

ولَقَدْ دَخل عَلَيْهِ بَعْضُ الأعرابِ فَارْتَاعَ من هَيْبَتِهِ فقال خَفِّضْ عَلَيْكَ فإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأةٍ كانَتْ تأْكُلُ القَدِيْدَ بِمَكَّةَ وَهَذَا مِن شَرفِ أَخْلاقِهِ وكَرِيْمِ شَيمِهِ فَهِيَ غَرِيْزَةٌ فُطِرَ عَلَيْهَا وَجِبِلَّةٌ طُبِعَ بِهَا لَمْ تَنْدُرْ فَتُعَد ولَمْ تُحْصَرْ فَتُجَدْ .

والخَصْلَةُ الخَامِسَةُ : حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ عن طَيْشٍ يَهُزُّهُ أَوْ خُرقٍ يَسْتَفِزُّهُ فَقَدْ كَانَ أَحْلَمَ في النِّفَارِ مِن كُلِّ حَلِيْمٍ وَأَسْلَمَ في الخِصَامِ مِن كُلِّ سَلِيْم .

وقدْ مُنِيَ بِجَفْوَةِ الأَعْرَابِ فَلَمْ يُوْجَدْ مِنْه نَادِرَةٌ وَلَمْ يُحْفَظْ عَلَيْهِ بَادِرَةٌ ولا حَلِيْمَ غَيْرُهُ إِلا ذُوْ عَثْرَةٍ ولا وَقُوْرَ سِوَاهُ إِلا ذُوْ هَفْوَةٍ فإِنَّ اللهَ تَعَالَى عَصَمَهُ مِن نَزْعِ الهَوَى وَطَيْشِ القُدْرَةِ لِهَفْوَةٍ أَوْ عَثْرَةٍ لِيَكُونَ بِأُمَّتِهِ رَؤُوْفاً وعلى الخَلْقِ عَطُوْفَا قَدْ تَنَاوَلَتْهُ قُرَيْشٌ بِكُلِّ كَبِيْرَة وَقَصَدَتْهُ بِكُلِّ جَرِيْرَةٍ وَهُوَ صَبُورٌ عَلَيْهِمْ وَمُعْرِضٌ عَنْهُم .

وما تَفَرَّدَ بِذَلِكَ سُفَهَاؤُهُمْ عن حُلَمَائِهِمْ ولا أَرَاذِلُهم دُوْنَ عُظَمَائِهِم بَلْ تَمَالأَ عَلَيْهِ الجُلَّةُ والدُوْنُ ، فَكُلَّمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِن الأَمْرِ ـ أَلَحَّ كَانَ عَنْهُم أَعْرَضَ وَأَصْفَحَ حَتَّى قَهَرَ فَعَفَا ، وَقَدِرَ فَغَفَرَ .

(وَقَالَ لَهُمْ) حِيْنَ ظَفِرَ بِهِمْ عَامَ الفَتْحِ وَقَدْ اجْتَمَعُوْا إِلَيْهِ ما ظَنُّكُمْ بِي قَالُوا بْنَ عَمٍّ كَرِيْمٍ فإِنْ تَعْفُ فَذَاكَ الظَّنُّ بِكَ وإِنْ تَنْتَقِمْ فقد أَسَأْنَا فقالَ بَلْ أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوْسُفُ لإِخْوَتِهِ « لا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُم اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحمين .

وقال : اللَّهُمَّ قَدْ أَذَقْتَ أَوَّلَ قُرَيْشٍ نَكالاً فَأَذِقْ آخِرَهُمْ نَوالاً وأَتَتْهُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ وَقَدْ بَقَرَتْ بَطْنَ عَمِّهِ حَمْزَةَ وَلاكَتْ كَبْدَهُ فَصَفَحَ عَنْهَا وَأَعْطَاهَا يَدَهُ لِبَيْعَتِهَا .

فإنْ قِيْلَ فقَدْ ضَرَبَ رِقابَ بَنِي قُرَيْظَةَ صَبْراً في يَوْمٍ وَاحِدٍ وَهُمْ نَحْوُ سَبْعُمِائَةٍ فَأَيْنَ مَوْضِعُ العَفْوِ والصَّفْحِ قِيْلَ إنَّما فَعَلَ ذَلِكَ في حُقُوْقِ اللهِ تعالى .

وقدْ كَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ رَضُوا بِتَحْكِيْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ عَلَيْهِم فَحَكَمَ أَنَّ مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ المُوْسَى قُتِلَ وَمَنْ لَمْ تَجْرِ عَلَيْهِ اسْتُرِقَّ فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : هَذَا حُكمُ اللهِ مِن فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ ، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَعْفُو عن حَقٍّ وَجَبَ لِلهِ تعالى عَلَيْهِم وانَّما يَخْتَصُّ عَفْوُهُ بِحَقِ نَفْسِه .

والخَصْلَةُ السَّادِسَةُ : حِفْظُهُ لِلْعَهْدِ وَوَفَاؤُهُ بالوَعْدِ فَإِنَّهُ ما نَقَضَ لِمُحَافِظٍ عَهْداً ولا أَخْلَفَ لِمُرَاقِبٍ وَعْداً يَرَى الغَدْرَ مِن كَبَائِرِ الذُّنُوبِ والإِخْلَافَ مِن مَسَاوِيءِ الشِّيَمِ فَيَلْتَزِمُ فِيْهِمَا الأَغْلَظَ وَيَرْتَكِبُ فِيْهِمَا الأَصْعَبَ حِفْظَاً لِعَهْدِهِ وَوَفَاءً بِوَعْدِهِ حتى يَبْتَدِيءُ مُعَاهِدُوْهُ بِنَقْضِهِ فَيَجْعَلَ اللهُ تَعَالَى لَهُ مَخْرَجَا كَفِعْلِ اليَهُودِ مِن بَنِي قُرَيْظَةَ وَبَنِي النَّضِيْرِ وَكَفِعْلِ قُرَيْشٍ بِصُلْحِ الحُدَيْبِيَةَ فَيَجْعَلُ اللهُ تَعَالَى لَهُ في نَكْثِهِمْ الخِيْرَةَ .

فَهَذِهِ سِتُ خِصَالٍ تَكَامَلَتْ في خُلُقِهِ ، فَضَّلَهُ اللهُ تَعَالَى على جَمِيْعِ خَلْقِهِ .

وأما الوَجْهُ الثالِثُ في فَضَائِلِ أَقْوَالِهِ فَمُعْتَبَرُ بِثَمَانِ خِصَالٍ :

(إِحْدَاهُنَّ) : مَا أُوْتِيَ مِن الحِكْمَةِ البَالِغَةِ ، وَأُعْطِى مِن العُلُومِ الجَمَّةِ البَاهِرَةِ ، وَهُوَ أُمِّي مِن أُمَّةٍ أُمِّيَةٍ لَمْ يَقْرَأْ كِتَاباً وَلَا دَرَسَ عِلْماً ولا صَحِبَ عَالِماً وَلَا مُعَلِّماً فَأَتَى بِمَا بَهَرَ العُقُولَ وَأَذْهَلَ الفِطَنَ مِن اتْقَانِ مَا أَبَانَ وإِحْكَامِ ما أَظْهَرَ فَلَمْ يَعْثُرْ فِيه بِزَلَلٍ في قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ .

وقد شَرَعَ مَنْ تَقَدَّمَ مِن حُكَمَاءِ الفَلاَسِفَةِ سُنناً حَمَلُوْا الناسَ على التَّدَيُّنِ بِهَا حِيْنَ عَلِمُوْا أَنَّهُ « لاَ صَلاَحَ لِلْعَالَمِ إلا بِدِيْنٍ يَنْقَادُوْنَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ بِهِ » فَمَا رَاقَ لَهَا أَثرٌ ولا فَاقَ لَهَا خَبَرٌ .

والخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ : حِفْظُهُ لِمَا أَطْلَعَهُ اللهُ تعالى عَلَيْهِ مِن قِصَصِ الأَنْبِيَاءِ مَعَ الأُمَمِ وأَخْبَارِ العَالَمِ في الزَّمَنِ الأَقْدَمِ حَتَّى لَمْ يَعْزُبُ عَنْهُ مِنْهَا صَغِيْرٌ ولا كَبِيْرٌ ولا شَذَّ عَنْهُ مِنهَا قَلِيْلٌ ولا كَثِيْر .

وهُوَ لاَ يَضْبِطُهَا بِكِتَابٍ يَدْرُسُهُ وَلاَ يَحْفَظُها بِعَيْنٍ تَحْرِسُهُ وما ذَاكَ إلاَّ مِن ذُهْنٍ صَحِيْحٍ وَصَدْرٍ فَسِيْحٍ وَقَلْبٍ شَرِيْحٍ وَهَذِهِ الثلاثةُ آلَةُ مَا أَسْتُودِعَ مِن الرِّسَالَةِ وَحُمِّلَ مِن أَعْبَاءِ النُبُوَّةِ فَجَدِيْرٌ أَنْ يَكُونَ بِهَا مَبْعُوثاً وعلى القِيَامِ بِهَا مَحْثُوْثاً .

والخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ : إِحْكَامُهُ لِمَا شَرَعَ بِأَظْهَرِ دَلِيْلٍ وَبَيَانُهُ بِأَوْضَحِ تَعْلِيْلٍ حَتَّى لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ مَا يُوْجِبُهُ مَعْقُولٌ ولا دَخَلَ فِيْهِ ما تَدْفَعُهُ العُقُولُ .

وَلِذَلِكَ قال صلى اللهُ عليه وسلم « أُوْتِيْتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ وَاخْتُصِرَتْ لِي الحِكْمَةِ اخْتِصَاراً » لأَنَّهُ نَبَّهَ بالقَلِيْلِ عَلى الكَثِيْرِ فَكَفَّ عن الإِطَالَةِ وَكَشَفَ عن الجَهَالَةِ وما تَيَسَّرَ ذَلِكَ إلا وَهُوَ عَلَيْهِ مُعَانٌ وإليه مُقَادٌ .

والخَصْلَةُ الرابعةُ : ما أَمَرَ بِهِ مِن مَحَاسِنِ الأَخْلاَقِ وَدَعَا إليه من مُسْتَحْسَنِ الآدابِ وَحَثَّ عَلَيْهِ مِن صِلةِ الأَرْحَامِ وَنَدَبَ إليه مِن التَّعَطُّفِ على الضُعَفَاءِ والأَيْتَامِ .

ثُمَّ مَا نَهَى عَنْهُ مِنَ التَّبَاغُضِ والتَّحَاسُدِ وَكَفَّ عَنْهُ مِن التَّقَاطُعِ والتَّبَاعُدِ

لِتكُونَ الفَضَائِلُ فِيهِم أَكْثَر وَمَحَاسِنُ الأَخْلاَقِ بَيْنَهُم أَنْشَر ، وَمُسْتَحْسَنُ الآدَابِ عَلَيْهِمْ أَظْهَرَ وتكونُ إلى الخَيْرِ أَسْرَعَ وَمِن الشَّرِ أَمْنَعَ .

فَيَتَحقَّقُ فِيهِم قَوْلَ اللهِ تَعَالَى ﴿ كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُوْنَ بِالمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ ﴾ فَلَزِمُوْا أَمْرَهُ وَاتَّقَوْا زَوَاجِرَهُ فَتَكَامَلَ بِهِمْ صَلاَحُ دِيْنِهِم وَدُنْيَاهُمْ حَتَّى عَزَّ بِهِم الاسلامُ بَعْدَ ضَعْفِهِ وَذَلَّ بِهِمْ الشِّرْكُ بَعْدَ عِزِّهِ فَصَارُوْا أَئمَةً أَبْرَاراً وقَادَةً أَخْيَاراً .

والخَصْلَةُ الخَامِسَةُ : وُضُوحُ جَوَابِهِ إِذَا سُئِلَ وَظُهُوْرُ حِجَاجِهِ إِذَا جَادَلَ لا يَحْصُرُهُ عِيٌّ ولا يَقْطَعُهُ عجْزٌ ولا يُعَارِضُهُ خَصْمٌ في جِدَالٍ إلا كَانَ جَوَابُهُ أَوْضَحَ وَحِجَابُهُ أَرْجَحَ .

والخَصْلَةُ السادِسَةُ : أَنَّهُ مَحْفُوظُ اللسانِ مِن تَحْرِيْفٍ في قولٍ وَاسْتِرْسَالٍ في خَبَرٍ يَكُونُ إلى الكَذِبِ مَنْسُوبًا وَلِلصِّدْقِ مُجَانِبًا فإنَّه لَمْ يَزَلْ مَشْهُوراً بالصِّدْقِ في خَبَرِهِ فَاشِياً وَكَثِيْراً حتى صَارَ بالصِّدْق مَرْقوماً وبالأَمَانَةِ مَرْسُوماً .

وكانَتْ قُرَيْشٌ بِأَسْرِهَا تَتيَقَّنُ صِدْقَهُ قَبْلَ الإِســلام فَجَهَرُوْا بِتَكْذِيْبِهِ في اسْتِدْعَائِهِم إليه فَمِنْهُم مَن كَذَّبَهُ حَسَداً وَمِنهُم مَنْ كَذَّبَهُ عِناداً وَمِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَهُ اسْتِبْعَاداً أَنْ يَكُونَ نَبِياً أَوْ رَسُوْلاً .

وَلَوْ حَفِظُوا عَلَيْهِ كِذْبَةً نَادِرَةً في غَيْرِ الرِّسَالَةِ لَجَعَلُوهَا دَلِيْلاً على تَكْذِيْبِهِ في الرِّسَالَةِ ، وَمَنْ لَزِمَ الصِّدْقَ في صِغَرِه كانَ لَهُ في الكِبَرِ أَلْزَمَ وَمَنْ عُصِمَ مِنْهُ في حَقِّ نَفْسِهِ كانَ في حُقُوقِ اللهِ تَعالى أَعصَمُ وَحَسْبُكَ بِهَذَا دَفْعاً لِجَاحِدٍ وَرَداً لِمُعَانِدٍ .

والخَصْلَةُ السابِعَةُ : تَحْرِيْرُ كَلامِهِ في التَّوَخّي بِهِ إِبَّانَ حَاجَتِهِ والاقْتِصَارِ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ كِفَايَتِهِ فلا يَسْتَرْسِلُ فيهِ هَذْراً ولا يُحْجِمُ عَنْهُ حُصْراً وَهُوَ فِيْمَا عَدَا حَالَتَيْ الحَاجَةِ والكِفَايَةِ أَجْمَل الناسِ صَمْتاً وَأَحْسَنُهُمْ سَمْتاً .

وَلِذَلِكَ حُفِظَ كَلاَمُهُ حَتَّى لَمْ يَخْتَلْ وظَهَرَ رَوْنَقُهُ حَتَّى لم يَعْتَلْ واسْتَعْذَبَتْهُ الأَفْوَاهُ حَتَّى بَقِيَ مَحْفُوظَاً في القُلُوبِ مُدَوَّناً في الكُتُبِ فَلَنْ يَسْلَم الإِكْثَارُ مِن الزَّلل ولا الهَذرُ مِن المَلَلِ .

والخَصْلَةُ الثَّامِنَةُ : أَنَّهُ أَفْصَحَ الناسِ لِسَاناً وَأَوْضَحَهُمْ بَياناً وَأَوْجَزَهُمْ كَلاماً وَأَجْزَلَهُمْ أَلْفَاظاً وَأَصَحَّهُمْ مَعَانِي لاَ يَظْهَرُ فِيْهِ هُجْنَةُ التَّكَلُّفِ ولا يَتَخَلَّلُهُ فَيْهَقَةُ التَّعَسُّفِ .

وَقَدْ دُوِّنَ كَثِيْرٌ مِن جَوَامِعِ كَلِمِهِ وَمِن كَلاَمِهِ الذِي لا يُشَاكَلُ في فَصَاحَتِهِ وَبلاَغَتِهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَلا يَأْتِيْ عَلَيْهِ إِحْصَاءٌ ولا يَبْلُغُهُ اسْتِقْصَاءٌ .

وَلَوْ مُزِجَ كَلاَمُهُ بِغَيْرِهِ لَتمَيَّزَ بِأُسْلُوبِهِ وَلَظَهرَ فِيْهِ آثارُ التَّنافرِ فَلَمْ يَلْتَبِسْ حَقُّهُ مِنْ بَاطِلِهِ وَلَبَانَ صِدْقُهُ مِن كَذْبِهِ هَذَا وَلَمْ يَكُنْ مُتَعَاطِياً لِلْبَلاَغَةِ وَلاَ مُخَالِطاً لِأَهْلِهَا مِن خُطَبَاءَ أَوْ شُعراءَ أَوْ فُصَحَاءَ وَإِنَّمَا هُوَ مِن غَرَائِزِ طَبْعِهِ وَبِدَايَةِ جِبِلَّتِهِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِغَايَةِ تُرَادُ وَحَادِثَةٍ تُشَادُ .

وَأَمَّا الوَجْهُ الرَّابِعُ فِي فَضَائِلِ أَفْعَالِهِ فَمُخْتَبَرٌ بِثَمانِ خِصَالٍ :

(احْدَاهُنَّ) حُسْنُ سِيْرَاتِهِ وَصِحَّةُ سِيَاسَتِهِ فِي دِيْنٍ نَقَلَ بِهِ الأُمَّةَ عن مَأْلُوفٍ وَصرَفَهُمْ بِهِ عَن مَعْرُوْفٍ إِلى غيرِ مَعْرُوْفٍ فَأَذْعَنَتْ بِه النُّفوسُ طَوْعاً وانْقَادَتْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَشَدِيْدِ عَادَةٍ مُنْتَزَعَةٍ إِلَّا لِمَنْ كَانَ مَعَ التَّأْيِيْدِ الإِلَهِي مُعَاناً بِحَزْمٍ صَائِبٍ وَعَزْمٍ ثَاقِبٍ .

وَحَسْبُكَ بِمَا اسْتَقَرَّتْ قَوَاعِدُهُ عَلَى الأَبَدِ حَتَّى انْتَقَل عن سَلَفٍ إلى خَلَفٍ يَزْدَادُ فِيْهِم حَلاَوَتُهُ وَيَشْتَدُّ فِيْهِم جِدَّتُهُ وَيَرَوْنَهُ نِظَاماً لأَعْصَارٍ تَنْقَلِبُ صُرُوْفُهَا وَيَخْتَلِفُ مَأْلُوفُهَا أَنْ يَكُونَ لِمَن قَامَ بِهِ بُرْهَاناً وَلِمَنْ ارْتَابَ بِهِ بَيَاناً .

والخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ : أَنْ جَمعَ بَيْنَ رَغْبَةِ مَنْ اسْتمال وَرَهْبَةِ مَنْ اسْتَطَاعَ حَتَّى اجْتَمعَ الفَرِيْقَانِ على نُصْرَتِهِ وَقَامُوْا بِحُقُوقِ دَعْوَتِهِ رَغباً في عَاجِلٍ وَآجِلٍ وَرَهَباً مِن زَائِلٍ وَنَازِل ، لاخْتِلَافِ الشِّيَم والطِّبَاعِ في الانقِيَادِ الذي لا يَنْتَظِم بِأَحَدِهِمَا ولا يَسْتَدِيْمُ إلَّا بِهِمَا فَلِذَلِكَ صَارَ الدِّيْنُ بِهِمَا مُسْتَقِراً والصَّلاحُ بِهِمَا مُسْتَمِراً .

والخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ : أَنَّهُ عَدَلَ فِيْمَا شَرَعَهُ مِن الدِّيْن عن الغُلُوِّ والتَّقْصِيْرِ إلى التَّوَسُّطِ وَخَيْرُ الأُمُوْرِ أَوْسَاطُهَا وَلَيْسَ لِمَا جَاوَزَ العَدْلَ حَظٌّ مِن رُشْدٍ ولا نَصِيْبٌ مِن سَدَادٍ .

والخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ : أَنَّهُ لَمْ يَمِلْ بِأَصْحَابِهِ إِلى الدُنْيَا وَلاَ إِلَى رَفْضِهَا وَأَمَدَّهُمْ فِيْهَا بالاعْتِدَالِ ، وقال : « خَيْرُكُمْ مَنْ لَمْ يَتْرُكْ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ ولا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ وَلَكِنْ خَيْرُكُمْ مَنْ أَخذَ مِن هَذِهِ وَهَذِهِ » وَهَذَا صَحِيْحٌ لأَنَّ الانْقِطَاعَ إلى أَحَدِهِمَا إِخْتِلَالٌ والجَمْعَ بَيْنَهُمَا اعْتِدَالٌ .

وقال صَلَّى اللهُ عليه وسلم « نِعْمَ المَطِيَّةُ الدُنْيَا فارْتَحِلُوْهَا تُبَلِّغُكُمْ الآخِرَةَ » وإِنَّما كَانَ كَذَلِكَ لأَنَّ مِنْهَا يَتزَوَّدُ لآخرَتِهِ . وَيَسْتَكْثِرَ فِيْهَا مِن طَاعَتِهِ وأَنَّهُ لَا يَخْلُو تَارِكُهَا مِن أَنْ يَكُونَ مَحْرُوْماً مُضَاعاً أَوْ مَرْحُوْماً مُرَاعَى وَهُوَ في الأَوَّلِ كَلٌّ وفي الثَّانِي مُسْتَدَلٌّ .

والخَصْلَةُ الخامِسَةُ : تَصَدِّيْهِ لِمَعَالِمِ الدِّيْنِ وَنَوازِلِ الأَحْكَامِ حَتَّى أَوْضَحَ لِلأُمَّةِ ما كُلِّفُوْهُ مِنَ العِبَادَاتِ وَبَيَّنَ لَهُمْ ما يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ مِن مُبَاحَاتٍ وَمَحْظُوْرَاتٍ وَفَصَّلَ لَهُمْ مَا يَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ مِن عُقُودٍ وَمَنَاكِحَ وَمُعَامَلَاتٍ .

حَتى احْتَاجَ أَهْلُ الكِتابِ في كَثِيْرٍ مِن مُعَامَلَاتِهِمْ وَمَوارِيْثِهِمْ لِشَرْعِهِ وَلَمْ يَحْتَجْ شَرْعُهُ إلى شَرْعِ غَيْرِهِ ثُمَّ مَهَّدَ لِشَرْعِهِ أُصُولاً تَدُلُّ على الحَوَادِثِ المُغْفَلَة وَيُسْتَنْبَطُ لَهَا الأَحْكَامِ المُعَلَّلَةِ فَأَغْنَى عَن نَصٍّ بَعدِ ارْتفاعِهِ وعَن التِبَاسٍ بَعْدَ اغْفَالِهِ ثُمَّ أَمَرَ الشَّاهِدَ أَنْ يُبَلِّغَ الغَائِبَ لِيَعْلَمَ بانْذَارِهِ وَيَحْتَجَّ بإِظْهَارِهِ فقال صلى اللهُ عليه وسلم « بَلِّغُوْا عَنِّي ولا تَكْذِبُوْا عَلَيَّ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِن سَامِعٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ » .

فأَحْكَم مَا شَرَعَ مِن نَصٍ أَوْ تَنْبِيْهٍ وَعَمَّ بِمَا أَمَرَ مِن حَاضِرٍ وَبَعِيْدٍ حَتَّى صَارَ لِمَا تَحَمَّلَهُ مِن الشَّرْعِ مُؤَدِّياً وَلِما تَقَلَّدُهُ مِن حُقُوقِ الأُمَّةِ مُوَفِياً لَئِلَا يَكُونَ في حُقُوقِ اللهِ زَلَلٌ وَذَلِكَ في بُرْهَةٍ مِنْ زَمَانِهِ لَمْ يَسْتَوْفِ تَطاوُلَ الاسْتِيْعَابِ حَتَّى أَوْجَزَ وَأَنْجَزَ وَمَا ذَاكَ إلا بَدِيْعٌ مُعْجِزٌ .

والخَصْلَةُ السَّادِسَةُ : انْتِصَابُهُ لِجِهَادِ الأَعْدَاءِ وَقَدْ أَحَاطُوْا بِجِهَاتِهِ وَأَحْدَقُوْا بِجَنَبَاتِهِ وَهُوَ في قُطْبٍ مَهْجُوْرٍ ، وَعَدَدٍ مَحْقُورٍ فَزَادَ بِهِ مَنْ قَلَّ وَعَزَّ بِهِ مَنْ ذَلَّ وَصَارَ بإثْخَانِهِ في الأَعْدَاءِ مَحْذُوْرَاً وبالرُعْبِ مِنْهُ مَنْصُوْراً فَجَمَعَ بَيْنَ التَّصَدِّيْ لِشَرْعِ الدِّيْن حَتَّى ظَهَرَ وانْتَشَرَ وَبَيْنَ الانْتِصَابِ لِجِهَادِ العَدُوِّ حَتَّى قَهَرَ وانْتَصَرَ والجَمْعُ بَيْنَهُمَا مِعْوِزٌ إلَّا لِمَنْ أَمَدَّهُ اللهُ بِمَعُوْنَتِهِ وَأَيَّدَهُ بِلُطْفِهِ والمُعْوِزُ مُعْجِزٌ .

والخَصْلَةُ السَّابِعَةُ : مَا خُصَّ بِهِ مِن الشَّجَاعَةِ في حُرُوْبِهِ والنُّجْدَةِ في

مُصَابَرَةِ عَدُوِّهِ فإنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ حَرْباً في فِزَاعٍ الا صَابِرٌ حَتَّى انْجَلَتْ عن ظَفَرٍ أَوْ دِفَاعٍ وَهُوَ في مَوْقِفه لم يزل عنه هرباً ولا حاز فيه رغباً .

بَلْ ثَبَتْ بِقَلْبٍ آمِنٍ وَجَأْشٍ سَاكِنٍ قَدْ وَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ يَوْمَ حُنَيْنٍ حَتَّى بَقِيَ بازاءِ جَمْعٍ كَثِيْرٍ وَجَمٍ غفِيْرٍ في تِسْعَةٍ مِن أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ على بَغْلَةٍ مَسْبُوْقَةٍ إنْ طُلِبَتْ غَيْرَ مُسْتَعِدَّةٍ لِهَرَبٍ ولا طَلَبٍ وَهُوَ يُنَادِيْ أَصْحَابَهُ وَيُظْهِرُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ إِليَّ عِبَادَ اللهِ « أَنَا النَّبِيُ لا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَلِبْ » فَعَادُوْا أَشْدَاداً وَأَرْسَالاً وَهَوَازِنُ تَرَاهُ وَتُحْجِمُ عَنْهُ فَمَا هَابَ حَرْبَ مِنْ كَاثِرَةٍ ولا انْكفأ عن مصاولة من صابره .

وَقَدْ عَضَدَهُ اللهُ تَعَالَى بِأَنْجَادٍ وَأَنْجَادٍ فانْحَازُوْا وَصَبَرَ حتى أَمَدَّهُ اللهُ بنصْرِهِ وَمَا لِهَذِهِ الشجَاعَةِ من عَدِيْلٍ وَلَقَدْ طَرَقَ المَدِيْنَة فَزَعٌ فانْطَلَقَ النَاسُ فَتَلَقَوْهُ نَحْوَ الصَّوْتِ فَوَجَدُوْا رَسُوْلَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَيْهِ فَتَلَقَوْهُ عَائِداً عَلى فَرَسٍ عُرِي لأَبِي طَلْحَةَ الأَنْصَارِي وعَلَيْهِ السَّيْفُ فَجَعَلَ يَقُولُ أَيُّهَا الناسُ لَمْ تُرَاعُوْا لَمْ تُرَاعُوا ثُمَّ قالَ لأَبِي طَلْحَةَ إِنَّا وَجْدَنَا بَحراً وكانَ الفَرَسُ يُبْطِيءُ فَمَا سَبَقَهُ فَرَسٌ بَعْدَ ذَلِكَ .

وما ذاكَ إلا عَنْ ثِقَةٍ مِن أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيَنْصُرُهُ وأَنَّ دِيْنَهُ سَيُظْهِرُهُ تَحْقِيْقاً لِقَوْلِهِ تعالى ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِيْنِ كلهِ ﴾ وَتَصْدِيْقاً لِقَولِ رسُولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم « زُوِيَتْ لِي الأَرْضُ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيْ لِيْ مِنْهَا » وَكَفى بِهَذَا قِيَاماً بِحَقِهِ وَشَاهِداً على صِدْقِهِ .

والخَصْلَةُ الثامِنةُ : ما مُنِحَ مِن السَّخَاءِ والجُوْدِ حَتَّى جَادَ بِكُلِّ مَوْجُودٍ

وآثَرَ بِكُلِّ مَطْلُوبٍ وَمَحْبُوبٍ ومَاتَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُوْدِي على آصُعٍ مِن شَعِيْرٍ لِطَعَامِ أَهْلِهِ .

وقَدْ مَلَكَ جزِيْرَةَ العَرَبِ وَكَانَ فِيْهَا مُلُوكٌ وَأَقْيَالٌ لَهُمْ خزَائِنُ وَأَمْوَالٌ يَقْتَنُونَهَا ذُخراً وَيَتَبَاهُوْنَ بِهَا فَخْرَاً وَيَسْتَمْتِعُوْنَ بِهَا أَشَراً وَبَطَرَاً وَقَدْ حَازَ مُلْكَ جَمِيْعِهِمْ فَمَا اقْتَنَى دِيْناراً ولا دِرْهَماً لَا يَأْكُلُ إلا الخَشِنَ ولا يَلْبَسُ إلا الخَشِنَ .

وَيُعْطِيْ الجَزْلَ الخَطِيْرَ وَيَصِلُ الجَمَّ الغفِيْرَ وَيَتَجَرَّعُ مَرارَةَ الاقْلَالِ وَيَصْبِرُ عَلَى سَغَبِ الأخْتلَال وكانَ يَقُولُ « أَنَا أَوْلَى بالمُؤْمِنِيْنَ مِن أَنْفُسِهِم فَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَياعاً فَعَليَّ وَمَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِوَرَثَتِه » فَهَلْ مِثْلَ هَذَا الكَرَمِ والجُوْدِ كَرَمٌ وَجُوْدٌ أَمْ هَلْ لِمِثْلِ هَذَا الإعْرَاضِ والزَّهَادَةِ إعْرَاضٌ وَزُهْدٌ هَيْهَاتَ .

هَلْ يُدْرَكُ شَأْوُ مَنْ هَذِهِ شُذُوْرٌ مِن فَضَائِلِهِ وَيَسِيْرٌ مِن مَحَاسِنِهِ التِي لا يُحْصَى لَهَا عَدَداً ولا يُدْرَكُ لَهَا أَمَداً لَمْ تَكْملْ في غيرِهِ فَيُسَاوِيْهِ وَلَا كَذَّبَ بِهَا ضِدٌ يُنَاوِيْهِ وَلَقَدْ جَهِدَ كُلُ مُنَافِقٍ وَمُعَانِدٍ وَكُلُ زِنْدِيْقٍ وَمُلْحِدٍ أنْ يُزْرِيْ عَلَيْهِ في قَوْلٍ أَوْ فعلٍ .

أَوْ يَظْفر بِهَفْوَةٍ في جِدٍ أَوْ هَزَلٍ فَلَمْ يَجِدْ إِلَيْهِ سَبِيْلَا وَقَدْ جَهِدَ جُهْدَهُ وَجَمَعَ كَيْدَهُ .

فَأَيُّ فَضلٍ أَعْظَمُ مِن فَضْلَ شَاهَدَه الحَسَدَةُ والأَعْدَاءُ فَلَمْ يَجِدُوْا فِيْهِ مَغْمَزاً لِثَالِبٍ أَوْ قَادِحٍ وَلَا مَطْعَناً لِجَارِحٍ أَوْ فَاضِحٍ فَهُوَ كَمَا قَال الشَّاعِر :

شَهِدَ الأَنَامُ بِفَضْلِهِ حَتَّى العِدَا
والفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأَعْدَاءُ

وبالجُمْلَةِ فآيَةُ أَخلاقِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ آيَةٌ كُبْرَى وَعَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ نُبُوتِهِ العُظْمَى وَقَدْ أَجْمَلَهَا بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ وَآيَةٌ أُخْرَى لَا يَعْرِفُها إلا الخَاصَّةُ وَمَتى ذُكِرَتْ الخَاصَّةُ فالعَامَّةُ في ذَلِكَ مِثْلُ الخَاصَةِ .

وَهِيَ الأَخْلَاقُ والأَفعَالُ التِي لَمْ تَجْتَمعْ لِبَشَرٍ قطُ قَبْلَهُ ولا تَجْتَمِعُ لِبَشَرٍ بَعْدَهُ وَذَلِكَ أَنَا لَمْ نَرَ وَلَمْ نَسْمَعْ لأَحَدٍ قطُ كَصَبْرِهِ ولا كَحِلْمِهِ ولا كَوَفَائِهِ ولا كَزُهْدِهِ ولا كَجُودِهِ ولا كَنُجْدَتِهِ ولا كَصِدْقِ لَهْجَتِهِ ولَا كَكَرَم عِشْرَتِهِ ولا كَتَوَاضُعِهِ ولا كَحِفْظِهِ ولا كَصَمْتِهِ إذا صَمَتَ ولا كَقَولِهِ إِذَا قَالَ ولا كَعَجِيْبِ مَنْشَئِهِ ولا كَعَفْوِهِ ولا كَدَوَامِ طَرِيْقَتِهِ وَقِلَّةِ امْتِنَانِهِ .

وَلَمْ تَجِدْ شُجَاعاً قطُ إلَّا وَقَدْ جَالَ جَوْلَةً وَفرَّ فَرَّةً وانْحازَ مَرَّةً ولا يَسْتَطِيْعُ مُنَافِقٌ ولا زِنْدِيْقٌ ولا دَهْرِيٌ أنْ يُحَدِّثَ أَنَّهُ صَلى اللهُ عليه وسلم جَالَ جَوْلَةً قطُ ولا فَرَّ فَرَّةً قطُ ولا حَامَ عَنْ غَزْوَةٍ ولا هَابَ حَرْباً مِن مُكَاثَرَةٍ .

وَذَلِكَ مِن أَعْجَبِ مَا آتاهُ اللهُ نَبِياً قطُ مَعَ سَائِرِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الآياتِ ومِن ضُرُوْبِ البُرْهَانَاتِ إِذْ أَعْدَاؤُهُ جَمٌّ غَفِيْرٌ وَجَمْعُهُمْ كَثِيْرٌ فَخَصَمَهُمْ حِيْنَ جَادَلُوْهُ وَصَابَرَهُمْ حِيْنَ عَانَدُوْهُ وَكَابَدَ مِنَ الشَّدائِدِ مَا لَمْ يَثْبُتْ عَلَيْهَا إلا كُلُّ مَعْصُومٍ وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا إلا مَنْصُوْرٌ إلى أَنْ عَلَتْ كَلِمَتُهُ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ .

وَكُلُ هَذِهِ آياتٌ تُنْذِرُ بالحَقِ وَتُلائِمُ الصِّدْقَ ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِيْ كَيْدَ الخَائِنِيْن ولا يُصْلِحُ عَمَلَ المفسِدِيْن ، انتهى كلامه

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بنا مَنَاهِجَ السَّلامةِ وَعَافِنَا مِن مُوْجِبَاتِ الحَسْرَةِ والنَّدَامَةِ وَوَفِّقْنَا للاسْتِعْدَادِ لِمَا وَعَدْتَنا وَأَدِمْ لَنَا إِحْسَانَكَ وَلُطْفَكَ كَما عَوَّدْتَنا وَأَتْمِمْ عَلَيْنَا

مَا بِهِ أَكْرَمْتَنَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْن وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين .

« قصيدة في غربة الاسلام وإهمال نصره »

« ممَّنْ ينْتَسِبُ إليه »

لَهْفِي عَلَى الإِسْلَامِ مِنْ أَشْيَاعِهِ
لَهْفِي عَلَى القُرآنِ والإِيْمَانِ
لَهْفِي عَلَيْهِ تَنَكَّرَتْ أَعْلَامُهُ
إلا عَلَى الخِرِّيْتِ في ذَا الشَّانِ
لَهْفِي عَلَيْهِ أَصْبَحتْ أَنْوارُهُ
مَحْجُوْبَةً عَن سَالِكٍ حَيْرَانِ
لَهْفِي عَلَيْهِ أَصْبَحَتْ أَنْصَارُهُ
في قِلَّةٍ في هَذِهِ الأَزْمَانِ
لَهْفِي عَلَيْهِ أَهْلُهُ في غُرْبَةٍ
أَضْحَوْا وَهُمْ في الأَهْلِ وَالأَوْطَانِ
لَهَفِيْ عَلَيْهِمْ أَصْبَحُوا في ضَيْعَةٍ
أَنْوَارُهُمْ تَخْفَى عَلَى العُمْيَانِ
لَهَفِي عَلَيْهِمْ كَمْ لَنَا قَدْ أَخْلَصُوْا
في النُّصْحِ لَوْ كَانَتْ لَنَا أُذْنَانِ
لَهَفِي عَلَى مَنْ يَجْلِبُونَ عَلَيْهِمُوْا
بِالنُّصْحِ كُلَّ أَذَىً وَكُلَّ هَوَانِ

لَهَفِيْ عَلَى مَنْ هُمْ مَصَابِيْحُ الهُدى
مَا بَيْنَنَا لَوْ تُبْصِرُ العَيْنَانِ
لَهَفِيْ عَلَيْهِم أُوْجِدُوْا في أُمَّةٍ
قَنِعَتْ مِنَ الإِسْلَامِ بالعُنْوَانِ
لَا يُعْرَفُ المَعْرُوْفُ فِيْمَا بَيْنَنَا
والنُّكْرُ مَأْلُوفٌ بِلَا نُكْرَانِ
خَذَلَتْ ذَوِيْ النُّصْحِ الصَّحِيْحِ وَأَصْبَحَتْ
عَوْناً لِكُلِّ مُضَلِّلٍ فَتَّانِ
يَا وَيْحَ قَوْمٍ لَا يُمَيِّزُ جُلُّهُمْ
ذَا الْحَقِّ مِن ذِيْ دَعْوَةِ البُطْلَانِ
فَتَصَدَّرَ الجُهَّالُ والضُّلَّالُ فِيْـ
ـهِمْ بادِّعَاءِ العِلْمِ والْعِرْفَانِ
مِنْ كُلِّ مَنْ يَخْتَالُ في فَضْفَاضِهِ
فَدْمٌ ثَقِيْلٌ وَاسِعُ الأَرْدَانِ
مُتَقَمِّشٌ مِن هَذِهِ الأَوْضَاعِ والْـ
أَرَاءِ إِمَّعَةٌ بِلَا فُرْقَانِ
يُبْدِيْ التَّمَشْدُقَ في المَحَافِلِ كَيْ يُرَى
لِلنَّاسِ ذَا عِلْمٍ وذَا إتقانُ
تَباً لَهُ مِن جَاهِلٍ مُتَعَالِمٍ
مُتَسَلِّطٍ بِوِلَايَةِ السُّلْطَانِ

رَفَعَتْ خَسِيْسَتَهُ المَنَاصِبُ فازْدَرَى
أَهْلَ الهُدَى والعِلْمِ والإِيْمَانِ
لَيْسَ التَّرَفُّعُ بالمَنَاصِبِ رِفْعَةً
بالعِلْمِ والتَّقْوَى عُلُوُّ الشَّانِ
تَرَكَ المَنَابِرَ مَنْ يَقُوْمُ بِحَقِّهَا
مِنْ كُلِّ ذِيْ لَسْنٍ وَذِيْ عِرْفَانِ
وَنَزَا عَلَيْهَا سَفْلَةٌ يَا لَيْتَهُمْ
قَدْ أُدْرِجُوْا مِنْ قَبْلُ فِي الأَكْفَانِ
خَطَبُوْا التَّفَرُّقَ فَوْقَهَا وَلَطَالَمَا
خُطِبَتْ عَلَيْهَا إِلْفَةُ الإِخْوَانِ
كَمْ يَأْمُرُوْنَ بِمُحْدَثَاتٍ فَوْقَهَا
تَقْضِيْ عَلَى سُنَنٍ سُنَنٌ حِسَانِ
تَبْكِيْ المَنَابِرُ مِنْهُمُوْا وَتَوَدُّ لَوْ
تَنْدَكُّ تَحْتَهُمُوْا إلى الأَرْكَانِ
مَا عِنْدَهُمْ بالأَمْرِ الأَوَّلِ خِبْرَةٌ
بَلْ نَقْلُ آرَاءٍ أَوْ اسْتِحْسَانِ
ثَكِلَتْهُمْ الآبَاءُ إِنَّ حَيَاتَهُمْ
مَوْتٌ لِسُنَّةِ خَاتَمِ الأَدْيَانِ
جَهِلُوْا كِتَابَ اللهِ وَهُوَ نَجَاتُهُمْ
وَهُدَى النَّبِيِّ مُبَيِّنِ القُرْآنِ

وَجَفَوْا مَنَاهِجَ خَيْرِ أَسْلَافٍ لَهُمْ
في العِلْمِ والتَّقْوَى وَفِي الإتْقَانِ
لَا يَرْجِعُوْنَ لآيَةٍ أَوْ سُنَّةٍ
أَوْ سِيْرَةِ المَاضِيْنَ بالإحْسَانِ
بَلْ يَرْجِعُونَ لِرَأْيِ مَنْ أَلْقَوْا لَهُمْ
بِأَزِمَّةِ التَّقْلِيْدِ والأَرْسَانِ
وَكَذَاكَ يَرْجِعُ مَنْ تَصَوَّفَ فِيْهِمُوْا
لِذَّوْقِ أَوْ لِتَخَيُّلٍ شَيْطَانِي
فَالأَوَّلُونَ أَتَوْا بِأَحْكَامٍ لَنَا
فِيْهَا مُخَالِفُ سُنَّةٍ وَقُرَانِ
والآخَرُوْنَ أَتُوْا لَنَا بِطَرَائِقٍ
غَيْرِ الطَّرِيْقِ الأَقْوَمِ القُرْآنِي
وَمُحَصَّلُ الطُّرُقِ الَّتِي جَاءُوْا بِهَا
أَوْضَاعُ سُوْءٍ رَدَّهَا الوَحْيَانِ
وَكَذا رُؤُسُهُمُ الطَّغَاةُ فَإِنَّهُمْ
لَمْ يَرْفَعُوْا رَأْساً بِذَا الفُرْقَانِ
مَا حَكَّمُوْا فِيْهِمْ شَرَائِعَ دِيْنِهِمْ
وَالعَدْلُ فِيْهَا قَائِمُ الأَرْكَانِ
بَلْ حَكَّمُوْا في النَّاسِ آرءً لَهُمْ
مِنْ وَحْيِ شَيْطَانٍ أَخِيْ طُغْيَانِ

وَيْحَ الشَّرِيْعَةِ مِنْ مَشَايِخِ جُبَّةٍ
واللَّابِسِيْنَ لَنَا مُسُوْكَ الضَّانِ
غَزَوُا الوَرَى بالزِّيِّ والسَّمْتِ الذي
يُخْفِي مَخَازِيْ الجَهْلِ والعِصْيَانِ
وَرُؤُس سُوْءٍ لَا اهْتِمَامَ بِهِمْ بِدِيْـ
ـنٍ قَامَ أَوْ قَدْ خَرَّ لِلأَذْقَانِ
وَلَرُبَّمَا أَبْدَوْا عِنَايَتَهُمْ بِهِ
بِسِيَاسَةٍ تَخْفَى على الإِنْسَانِ
تَعْساً لِمَنْ أَضْحَى يُتَابِعُ قَوْلَ مَنْ
بَخَسَ الهُدَى وَمَزِيَّةَ الأَذْهَانِ
تَرَكُوْا هِدَايَةِ رَبِّهِمْ وَرَسُوْلِهِمْ
هَذَا وَرَبِّكَ غَايَةُ الخُذلَانِ
حُرِمُوْا هِدَايَةَ دِيْنِهِمْ وَعُقُوْلِهِمْ
هَذَا وَرَبِّكَ غَايَةُ الخُسْرَانِ
تَرَكُوْا هِدَايَةَ رَبِّهِمْ فَإِذَا بِهِمْ
غَرْقَى مِنَ الآرَاءِ في طُوْفَانِ
وَتَفَرَّقُوْا شِيَعاً بِهَا عَنْ نَهْجِهِ
مِنْ أَجْلِهَا صَارُوْا إلى شَنَآنِ
كُلٌّ يَرَى رَأْياً وَيَنْصُرُ قَوْلَهُ
وَلَهُ يُعَادِي سَائِرَ الإِخْوَانِ
وَلَوْ أَنَّهُمْ عِنْدَ التَّنَازُعِ وُفِّقُوْا
لَتَحَاكَمُوْا لِلهِ دُوْنَ تَوَانِ

وَلَأَصْبَحُوْا بَعْدَ الخِصَامِ أَحِبَّةً
غَيْظَ العِدَا وَمَذَلَّةَ الشَّيْطَانِ
لَكِنَّهُمْ إِذْ آثَرُوْا وَادِي تَخَيُّـ
ـيَبٍ أَصْبَحُوْا أَعْدَاءَ هَذَا الشَّانِ
فَالمُقْتَدِيْ بِالوَحْيِ فِي أَعْمَالِهِ
يَلْقَى الأَذَى مِنْهُمْ وَكُلَّ هَوَانِ
لِعُدُوْلِهِ عَنْ أَخْذِهِ بِمَذَاهِبٍ
فِي الرَّأْيِ مَا قَامَتْ عَلَى بُرْهَانِ
جَعَلُوا مَذَاهِبَهُمْ مُسَيْطِرَةً عَلَى
فَهْمِ الحَدِيْثِ وَمَنْزِلِ القُرْآنِ
ذَادُوْا ذَوِيْ الأَلْبَابِ عن فِقْهِ الكِتَا
بِ وَفِقْهِ سُنَّةِ صَاحِبِ التِّبْيَانِ
وَغَدَتْ شَرِيْعَتُنَا بِمُوْجَبِ قَوْلِهم
مَنْسُوْخَةً فِي هَذِهِ الأَزْمَانِ
حَجَبُوْا مَحَاسِنَهَا بِتَأْوِيْلَاتِهِم
فَغَدَتْ مِنَ الآرَاءِ فِي خُلْقَانِ
وَلَو أَنَّها بَرَزَتْ مُجَرَّدَةً لَهَا
مَ الأَذْكِيَاءُ بِحُسْنِهَا الفَتَّانِ
لَكِنَّهُمْ قَامُوْا حَوَائِلَ دُوْنَهَا
كَالأَوْصِيَاءِ لِقَاصِرِ الصِّبْيَانِ
مَا عِنْدَهُمْ عِنْدَ التَّنَاظُرِ حُجَّةٌ
أَنَّى بِهَا لِمُقَلِّدٍ حَيْرَانِ

لا يَـفْـزَعُـوْنَ إلى الـدَّلِـيْـلِ وإنَّمَـا
في الـعَـجْـزِ مَـفْـزَعُـهُـمْ إلى السُّـلْطَانِ
لا عُـجْـبَ إِذْ ضَـلُّوا هِـدَايَـةَ دِيْـنِهِـمْ
أَنْ يَـرْجِـعُـوْا لِـلْجَـهْـلِ والـعِـصْـيَـانِ
هَـا قَـدْ غَـلَوْا في الأَوْلِيَـاء وَقُـبُـوْرُهُـمْ
أَضْـحَـتْ يُحَـجُّ لَهَـا مِـن الـبُـلْدَانِ
وَبَـنَـوْا عَـلَى تِلْكَ الـقُـبُـورِ مَـسَـاجِـداً
وَالـنَّصُّ جَـاءَ لَهُـمْ بِـلَعْـنِ الـبَـانِي
وكَـذَا عَـلَيْهَـا أَسْـرَجُـوْا والـلَّعْنَ جـا
فِي الـفِعْـلِ ذَا أَيْـضَـا مَـعَ الـبُـنْـيَـانِ
وَكَـذاكَ قَـدْ صَنَعُـوْا لَهَـا الأَقْفَـاصَ تُـوْ
ضَـعُ فَـوْقَـهَـا في غَـايَـةِ الاتْـقَـانِ
يَـكْـسُـوْنَهَا بِمَـطَارِفٍ مَـنْـقُـوْشَـةٍ
قَـدْ كَـلَّفَـتْـهُـمْ بـاهِظَ الأَثْـمَـانِ
بَـلْ عِـنْـدَ رَأْسِ الـقَـبْـرِ تَلْقَـى نُصْـبَـةً
قَـدْ عَـمَّـمُـوْهَـا عِـمَّـةَ الـشَّـيْـخَـانِ
وَلَسَـوْفَ إِنْ طَـالَ الـزَّمَـانُ بِهِمْ تَـرَى
وَلَهَـا يَـدَانِ تَـلِيْـهِـمَا الـرِّجْـلاَنِ
وَدَعَـوْهُمُـوْا شُـفَـعَـآءَهُـمْ أَيْـضـاً كَـمَا
قَـدْ كَـانَ يَـزْعُـمُ عَـابِـدُوْ الأَوْثَـانِ
وَتَـقَـرَّبُـوْا لَهُـمُـوْا بِـتَسْـيِـيْـبِ الـسَّـوَا
ئِـبِ والـنُّـذُوْرِ وَسَـائِـرِ الـقُـرْبَـانِ

وَتَمَسَّحُوْا بِقُبُورِهِمْ وَسُتُوْرِهِمْ
وَكَذَاكَ بِالأَقْفَاصِ والجُدْرَانِ
وإِذَا رَأَيْتَهُمُوْا هُنَاكَ تَرَاهُمُوْا
مُتَخَشِّعِيْنَ كَأَخْبَثِ العُبْدَانِ
مَا عِنْدَهُمْ هَذَا الخُشُوعُ إِذَا هُمُوْا
صَلَّوْا لِرَبِّهِم العَظِيْمِ الشَّانِ
واسْتَنْجَدُوْا بِهِمُوْا لِمَا قَدْ نَابَهُمْ
نَاسِيْنَ فَاطِرَ هَذِهِ الأَكْوَانِ
وَدَعَوْهُمُوْا بَراً وَبَحْراً لَا كَمَنْ
خَصُّوْا الدُّعَاءَ بِرَبِّهِمْ فِي الثَّانِي
فَهُمُوْا بِهَذَا الوَجْهِ قَدْ زَادُوْا عَلَى
مَنْ أَشْرَكُوْا فِي غَابِرِ الأَزْمَانِ
تَرَكُوْا دُعَاءَ الحَيِّ جَلَّ جَلَالُهُ
لِدُعَاءِ أَمْوَاتٍ بِلَا حُسْبَانِ
وإِلَيْهِمُوْا جَعَلُوا التَّصَرُّفَ فِي الوَرَى
فَهُمُوْا مُغِيْثُ السَّائِلِ الحَيْرَانِ
فَكَأَنَّهُم أَرْجَى لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ
وَعَلَيْهِمُوْا أَحْنَى مِنَ الرَّحْمَنِ
وَكَأَنَّهُم وُكَلَاؤُهُ فِي خَلْقِهِ
سُبْحَانَهُ عَن إِفْكِ ذِيْ بُهْتَانِ
وَكَأَنَّهُمْ حُجَّابُ رَحْمَةِ رَبِّهِمْ
هُمْ قَاسِمُوْهَا بَيْنَهُمْ بِوِزَانِ

يَـا قَـوْمُ لا غَـوْثٌ يَـكُـونُ مُغِيْثُكُـمْ
إِنَّ الْمُـغِـيْـثَ الـلهُ لِـلإِنْـسَـانِ
يَـا قَـوْمُ فـادْعُـوْ اللَّهَ لا تَـدْعُـوْا الـوَرَى
أَنْـتُـمْ وَهُـمْ بـالْـفَـقْـرِ مَـوْسُـوْمَـانِ
مَـا بَـالُكُمْ لَمْ تُخْلِصُـوْا تَـوْحِيْـدَكُمْ
تَـوْحِـيْـدُكُـمْ وَالـشِّـرْكُ مُـقْـتَـرِنَـانِ
هَـا أَنْتُمُـوْا أَشْبَهْتُمُـوْا مَـنْ قَبْلَـكُمْ
فِي شِـرْكِـهِـمْ بِـعِـبَـادَةِ الـدَّيَّـانِ
إِنْ كَـانَ هَـذَا الـفِـعْـلُ لا يُسْمُوْنَهُ
بِـعِـبَـادَةٍ فَـهِـيَ اسْـمُـهُ الـقُـرآنِي
مَـعْـنَى الـعِـبَـادَةِ ثَـابِـتٌ مُـتَـحَـقَّـقٌ
فِي فِـعْـلِـكُـمْ شَـرْعـاً وَعُـرْفِ لِـسَـانِ
إِنَّ الـدُّعَـاءَ عِـبَـادَةٌ بَـلْ مُخُّـهَـا
قَـدْ قَـالَ ذَا مَـنْ جَـاءَ بـالـفُـرْقَـانِ
فَـإِذَا زَعَـمْـتُـمْ أَنَّهُمْ شُـفَـعَـآؤُكُـمْ
تَـتَـوَسَّـلُونَ بِـهِـمْ إِلى الـرَّحْمَـنِ
فـالجـاهِـلِيَّـةُ كَـانَ هَـذَا زَعْـمُـهُـمْ
أَيْـضـاً وقـد نُـسِـبُـوْا إلى الـكُـفْـرَانِ
مَـا كَـانَ أَهْـلُ الـشِّـرْكِ يَعْتَقِدُوْنَهُمْ
خَـلَقُـوْا هُمُـوْا يَـا جَـاهِـلَ الـقُـرْآنِ
والـلَّـهُ مَـا شَـرَعَ الـتَّـوَسَّـلَ لِـلْوَرَى
إِلا بِـطَـاعَـتِـهِ مَـعَ الإِيْـمَـانِ

والـفِـعْـلِ لَـيْسَ بِـطَاعَـةٍ حَتَّى يَجِـي
أَمْـرٌ بِـهِ شَـرْعـاً إِلى الإِنْـسَـانِ
والـعَـامِـلُونَ عـلـى وِفَـاقِ الأَمْـرِ لَا
يَـعْـدُوْنَـهُ بـالـزَّيْـدِ والـنُّـقْـصَـانِ
والـعَـامِـلُونَ بِمُـقْـتَـضَـى أَهْـوَائِـهِـم
هُـمْ مُـؤْثِـرُوْنَ لِـطَاعَـةِ الـشَّـيْـطَانِ
هَـلْ مَـا فَـعَـلْتُـمْ جَـاءَكُـمْ أَمْـرٌ بِـهِ
مِـنْ رَبِّـكُـمْ عـن صَـاحِـبِ التِّـبْـيَـانِ
أَوْ هَـلْ أَتَى مِنْ قُـدْوَةٍ فِي الـدِّيْنِ مِنْ
صَـحْـبِ الـنَّـبِـي وَتَـابِـعِ الاحْـسَـانِ
وَهُـنَـا لَكُـمْ عِـنْـدِيْ نَـصِـيْـحَـةُ مُخْـلِصٍ
لا يَمْـتَـرِيْ فِـيْـهَا يَـقُـولُ اثْـنَـانِ
أَنْ تَـأْخُـذُوْا بـالاحْـتِـيَـاطِ لِأَمْـرِكُـمْ
قَـبْـلَ الخُـلُودِ بِمَـوْقِـدِ الـنِّـيْـرَانِ
إِن كَـانَ مَـا تَـأْتُـونَ لَـيْسَ بِـوَاجِـبٍ
وَالـشِّـرْكُ مَخْـشِـيٌّ لَـدَى الاتْـيَـانِ
فـالابْـتِـعَـادُ عَـنِ المَـخُـوْفِ مُـقَـدَّمٌ
عَـقْـلًا عَـلَى الأَقْـدَامِ لِـلإِنْـسَـانِ

خَاتِمَة وَنِدَاء لِلعلماء

يـا مَـعْـشَـرَ الـعُـلَمَاءِ لَـبُّـوا دَعْـوَةً
تُـعْـلِي مَـقَـامَـكُـوْا عَـلَى كِـيْـوَانِ

يـا مَـعْشَـرَ الـعُلَمَـآءِ هُـبُّـوْا هَـبَّـةً
قَـدْ طَـالَ نَـوْمَـكُـو إِلَـى ذَا الآنِ
يَـا مَعْشَـرَ العُلَمَـآءِ قُـوْمُـوْا قَـوْمَـةً
لِـلَّهِ تُـعْـلِيْ كِـلْمَـةَ الإِيْـمَـانِ
يَـا مَعْشَـرَ العُلَمَـآءِ عَـزْمَـةَ صَـادِقٍ
مُـتَـجَـرِّدٍ لِـلَّهِ غَـيْـرَ جَـبَـانِ
يـا مَعْشَـرَ العُلَمَـآءِ أَنْـتُـمْ مُـلْتَجَـا
لِـلدِّيـنِ عِـنْـدَ تَـفَـاقُـمِ الـحَـدَثَـانِ
يَـا مَـعْـشَـرَ الـعُـلَمَـآءِ كُـوْنُـوا قُـدْوَةً
لِـلنَّـاس فـي الإِسـلامِ والإِحـسـان
يـا مَعْشَـرَ الـعُـلَمَـآءِ أَنْـتُـمْ حُـجَّـةٌ
لِـلنَّـاسِ فـادْعُـوْهُـمْ إِلـى الـقُـرْآنِ
يـا مَعْشَـرَ العُلَمَـآءِ إِنَّ سُـكُـوْتَكُـمْ
مِـن حُـجَّـةِ الـجُـهَّـالِ كُـلَّ زَمَـانِ
يـا مَعْشَـرَ العُلَمَـآءِ لا تَـتَـخَـاذَلُـوْا
وَتَـعَـاوَنُـوا فـي الـحَـقِّ لا الـعُـدْوَانِ
وَتَـجَـرَّدُوْا لِـلَّهِ مِـنْ أَهْـوَائِـكُـمْ
وَدَعُـوْا التَّنَـافُسَ فـي الحُـطَامِ الـفَـانِي
وَتَـعَـاقَـدُوْا وَتَـعَـاهَـدُوْا أَنْ تَـنْـصُـرُوْا
مُـتَـعَـاضِـدِيْـنَ شَـرِيْـعَـةَ الـرَّحْـمٰـنِ

كُـوْنُـوا بِحَيْثُ يَكُـونُ نَـصْبَ عُيُـوْنِكُمْ
نَـصْـرُ الـكِـتَـابِ وَسُـنَّـةُ الإِيْـمَـانِ

قَـدْ فَـرَّقَـتْـنَـا كَـثْـرَةُ الآرَاءِ إِذْ
صِـرْنَـا نُـشَـايِـعُـهَـا بِـلاَ بُـرْهَـانِ

وَمِـنَ أَجْلِهَـا صِـرْنَـا يُـعَـادِيْ بَعْـضُـنَـا
بَـعْـضـاً بِـلاَ حَـقٍّ ولاَ مِـيْـزَانِ

وَغَـدَتْ أُخُـوَّةُ دِيْـنِـنَـا مَـقْـطُوْعَـةً
والـظُّلْمُ مَـعْـرُوْفٌ عـن الإِنْـسَـانِ

والـلَّهُ أَلَّـفَ بَـيْـنَـنَـا فِـي دِيْـنِـهِ
وَعَـلَى الـتَّـفَـرُّقِ عَـابَ فـي الـقُـرْآنِ

عُـوْدُوْا بِنَـا لِسَـمَـاحَـةِ الـدِّيْنِ الـذِيْ
كُـنَّـا بِـهِ فـي عِـزَّةٍ وَصِـيَـانِ

عُـوْدُوْا لِمَـا كَـانَتْ عَلَيْـهِ مِن الـهُـدَى
أَسْـلاَفُـكُـمْ فـي سَـالِـفِ الأَزْمَـان

فَـإِلَـيْـكُـمُـوا تَـتَـطَلَّعُ الأَنْـظَارُ فِـي
تَـوْحِـيْـدِ كِلْمَـتِـنَـا عَـلَى الإِيْـمَـانِ

فَـالـلَّهُ يَـنْـصُـرُ مَنْ يَـقُـوْمُ بِـنَـصْـرِهِ
والـلَّهُ يَـخْـذُلُ نَـاصِـرَ الـشَّـيْـطَانِ

(فَصْــلٌ)

وقال الامامُ ابنُ حَزْمٍ : وبُرْهَانٌ ضَرُوْرِيٌّ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ حِسيٌّ لاَ مَحِيْدَ عَنْهُ وَهُوَ أنَّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم أَتَى إلى قَوْمٍ لِقاحٍ لَا يُطِيْعُون لأَحَدٍ ولا يَنْقادُوْنَ لِرَئِيْسٍ نَشَأَ عَلَى هَذَا آبَاؤُهُمْ وَأَجْدَادُهُمْ وَأَسْلاَفُهُمْ مِنْذُ أُلُوفٍ من الأَعْوَامِ قدْ سَرَى الفَخْرُ والعِزُّ والنَّخْوَةُ والكِبْرُ والظُّلْمُ والأَنَفَةُ في طِبَاعِهِمْ وَهُمْ أَعْدَادٌ عَظِيْمَةٌ مَلأُوْا جَزِيْرَةَ العَرَبِ وَهِيَ نَحْوُ شَهرَيْنِ في شَهْرَيْنِ قَدْ صَارَتْ طِبَاعُهُمْ طِبَاعَ السِّبَاعِ وَهُمْ أُلُوفُ الأُلُوفِ قَبَائِلُ وَعَشَائِرُ يَتَعَصَّبُ بعضُهم لِبَعْضٍ أَبَدَا فَدَعَاهُمْ بِلاَ مَالٍ ولا أَتْبَاعٍ - بَلْ خَذَلَهُ قَوْمُهُ - إلى أَن يَنْحَطُّوْا مِن ذَلِكَ العِزِّ إلى غُرْمِ الزَّكَاةِ .

وَمِنْ الحُرِّيَةِ والظُّلْمِ إلى جَرْيِ الأَحْكَامِ عَلَيْهِمْ وَمِنْ طُوْلِ الأَيْدِيْ بِقَتْلِ مَنْ أَحَبُّوْا وَأَخْذِ مَالِ مَنْ أَحَبُّوْا إلى القِصَاصِ مِن النَّفْسِ وِمِن قَطْعِ الأَعْضَاءِ وَمِنْ اللَّطْمَةِ مِن أَجَلِّ مَنْ فِيهِم لأَقَلِّ عِلْجٍ غَرِيْبٍ دَخَلَ فِيْهِمْ وَإِلى إِسْقَاطِ الأَنفَةِ والفَخْرِ إلى ضَرْبِ الظُّهُوْرِ بالسِّيَاطِ وبالنِّعَالِ إنْ شَرِبُوْا خَمْرَاً أَوْ قَذَفُوْا إِنْسَاناً .

وإلى الضَّرْب بالسَّوْطِ والرَّجْمِ بالحِجَارَةِ إلى أَنْ يَمُوتُوْا إنْ زَنُوا

فانْقَادَ أَكْثَرُهُمْ لِكُلِّ ذَلِكَ طَوْعاً بلاَ طَمَعٍ ولا غَلَبَةٍ ولا خَوْفٍ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ أَخِذَ بغَلَبَةٍ إلا مَكَّةَ وَخَيْبَرَ فقطْ وَمَا غزَا قطُّ غزْوَةً يُقَاتِلُ فِيْهَا إلا تِسْعَ غَزَوَاتٍ بَعْضُهَا عَلَيْهِ وَبَعْضُهَا لَهُ . فَصَحَّ ضَرُوْرَةً أَنَّهُم إِنَّمَا آمَنُوْا طَوْعَاً لا كُرْهَاً .

وَتَبَدَّلَتْ طَبَائِعُهُمْ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى مِن الظُّلْمِ إِلَى العَدْلِ وَمِنْ الجَهْلِ إِلى العِلْمِ وَمِنَ الفِسْقِ والقَسْوَةِ إلى العَدْلِ العَظِيْمِ الذِي لَمْ يَبْلُغْهُ أَكَابِرُ الفلاسِفَةِ وَأَسْقَطُوا كُلُّهُمْ أَوَّلُهُمْ عَن آخِرِهِمْ طَلَبَ الثَّأْرِ وَصَحِبَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ قَاتِلَ ابْنِهِ وَأَبِيْهِ وَأَعْدَى النَّاس لَهُ صُحْبَةَ الأخْوَةِ المُتَحَابِيْنَ دُوْنَ خَوْفٍ يَجْمَعُهُمْ ولا رِيَاسَةٍ يَنْفَرِدُوْنَ بِهَا دُوْنَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَلاَ مَالٍ يَتَعَجَّلُوْنَهُ فَقَدْ عَلِّمَ الناسَ كَيْفَ كَانَتْ سِيْرَةُ أَبِيْ بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضي اللهُ عَنْهُمَا وَكَيْفَ كَانَتْ طَاعَةُ العَرَبِ لَهُمَا بلا رَزْقٍ ولا عَطَاءٍ ولا غلبةٍ .

فَهَلْ هَذَا إلَّا بِغَلَبَةٍ مِن اللهِ تَعالى عَلى نُفُوْسِهِمْ كَمَا قال تَعالى ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ ما في الأَرْضِ جَمِيْعاً ما ألفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ ثُمَّ بَقِيَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كذلكَ بينَ أَظْهُرِهِمْ بلا حَارِسٍ ولا دِيْوَانِ جُنْدٍ وَلاَ بَيْتِ مَالٍ مَحْرُوْساً مَعْصُوْماً .

وقال ابنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللهُ أَيْضاً قَبْلَ ذَلِـكَ : كَانَتِ العَرَبُ بلا خِلاَفٍ قَوْماً لِقاحاً لا يَمْلِكُهُمْ أَحَدٌ كَمُضَرَ وَرَبِيْعَةَ وإياد وَقُضَاعَةَ أَوْ مُلُوكاً في بِلاَدِهِم يَتَوَارَثُونَ المُلْكَ كابراً عَنْ كَابِرٍ كَمُلُوكِ اليَمَنِ وَعُمَانٍ وَشَهْرِ بن اَرَامِ مَلِكِ صَنْعَا والمُنْذِرِ بْن سَاوَى مَلِكِ البَحْرَيْنِ والنَّجَاشِيْ مَلِكِ الحَبَشَةَ وَجَيْفَرٍ وَعِيَاذٍ ابْنَيْ الجَلَنْدِي وَمَلِكَيْ عُمَان فانْقَادُوْا كُلُهم لِظُهُورِ الحَقِ

وَبُهُوْرِهِ وَآمَنُوا بِهِ صلى اللهُ عليه وسلم طَوْعاً وَهُم آلافُ آلافَ وَصَارُوْا إِخْوةً كَبَنِي أَبٍ وَأُمٍّ وانْحلَّ كُلُّ مَنْ أَمْكَنَهُ الانْحِلاَلُ عن مُلْكِهِ مِنْهُمْ إلى رُسُلِهِ طَوْعاً بلا خَوْفِ غَزْوٍ ولا إعْطَاءِ مَالٍ ولا طَمَعٍ في عِزٍ بَلْ كُلُّهُمْ أَقْوَى جَيْشاً مِنْ جَيْشِهِ وَأَكْثَرَ مَالاً وَسِلاَحاً مِنهُ وَأَوْسَعَ بَلَداً مِن بَلَدِهِ كَذِي الكُلاَعِ وَكَانَ مَلِكاً مُتَوَّجاً ابنَ مُلُوكٍ مُتَوَّجِيْنَ تَسْجُدُ لَهُ جَمِيْعُ رَعِيَّتِهِ يَرْكَبُ أَمَامَهُ أَلفُ عَبْدٍ مِنْ عَبِيْدِهِ سِوَى بَنِيْ عَمِّهِ مِن حِمْيَرَ وذِي ظَلِيْمٍ وذِي زَوْدٍ وذِي مُرانَ وَذِي عَمْرو وغيرِهِمْ كُلُّهُمْ مُلُوكٌ مُتَوَّجُوْنَ في بِلاَدِهِم .

هَذَا كُلُّهُ أَمْرٌ لاَ يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِن حَمَلَةِ الأَخْبَارِ بَلْ هُوَ مَنْقُولٌ كَنَقْلِ كَوْنِ بِلاَدِهِمْ في مَوَاضِعِهَا وَهَكَذَا كانَ اسْلاَمُ جَمِيْعِ العَرَبِ أُوْلاَهُمْ كالأَوْسِ والخَزْرَجِ ثُمَّ سَائِرِهِم قَبِيْلَةً قَبِيْلَةً لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ مِن آياتِهِ وَبَهَرَهُمْ مِن مُعْجِزَاتِهِ وما اتَّبَعَهُ الأَوْسُ والخَزْرَجُ إلا وَهُوَ فَرِيْدٌ نَابَذَهُ قَوْمُهُ حَسَداً لَهُ .

إذْ كَانَ فَقِيْراً يَتِيْماً أُمياً لا يَقْرَأُ وَلاَ يَكْتُبُ نَشَأَ في بِلاَدِ الجَهْلِ والجَاهِلِيَّةِ يَرْعَى غَنَمَ قَوْمِهِ يَتَقَوَّتُ بِهَا فَعَلَّمَهُ اللهُ تعالى الحكمةَ دُوْنَ مُعَلِّمٍ وَعَصَمَهُ مِن كلِ مَنْ أَرَادَهُ بلا حَرَسٍ وبلا حَاجبٍ ولا بَوَّابٍ ولا قَصْرٍ يَمْتَنِعُ فِيْهِ عَلَى كَثْرَةِ مَنْ أَرادَ قَتْلَهُ مِنْ شُجْعَانِ العَرَبِ وَفُتَّاكِهِمْ كَعَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ وأَرْبَدَ بنِ جُزْءٍ وَغُوْرَثِ بن الحَارِثِ وَغَيْرِهِم مَعَ اقْرَارِ أَعْدَائِهِ بِنُبُوَّتِه كَمُسَيْلِمَةَ وَسَجَاحٍ وَطُلَيْحَةَ والأَسْوَدَ وَهُوَ مُكَذِّبٌ لَهُمْ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا بُرْهَانٌ أَوْ بَعْدَ هَذِهِ الكِفَايَةِ مِن اللهِ تَعَالى كِفَايَةَ وَهُوَ لا يَبْغِي دُنْياً ولا يُمَنِّيْ بها من اتَّبَعَهُ بَلْ أَنْذَرَ الانصَارَ بالأَثَرَةِ عَلَيهِم بَعْدَهُ وَتَابَعُوْهُ عَلَى الصَّبْرِ على ذلك .

قَامَ لَهُ أَصْحَابُهُ عَلى قَدَمٍ فَمَنَعُهُمْ وَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ القِيَامَ لِلّهِ تَعَالَى لَا لِخَلْقِهِ وَرَضُوا بالسُّجُوْدِ لَهُ فاسْتَعْظَمَ ذَلِكَ وَأَنْكَرَهُ إلا لِلهِ وَحْدَهُ .

ولا شَكَّ في أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ صِفَةَ طَالِبِ دُنْيَاً قَطُ أَصْلاً ولا صِفَةَ رَاغِبٍ في غَلَبَةٍ ولا بُعْدَ صَوْتٍ بَلْ هَذِهِ حَقِيْقَةُ النُّبُوَّةِ الخَالِصَةِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَدْنَى فَهْمٍ .

ثُمَّ قَالَ الامامُ ابنُ حَزْمٍ وَأَيْضاً فإِنَّ سِيْرَةَ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم لِمَنْ تَدَبَّرَهَا تَقْتَضِي تَصْدِيْقَهُ ضَرُوْرَةً وَتَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حَقاً فَلَوْ لَمْ تَكُنْ لَهُ مُعْجِزَةٌ غَيْرُ سِيْرَتِهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَكَفَى وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَلاَةُ والسلامُ نَشَأَ كَمَا قُلْنَا في بِلَادِ الجَهْلِ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ وَلَا خَرَجَ عَنْ تِلْكَ البِلَادِ قَطُ إلا خَرْجَتَيْن .

إِحْدَاهُمَا إلى الشَّام وَهُوَ صَبِيٌّ مَعَ عَمِّهِ إِلى أَوَّلِ أَرْضِ الشَّامِ وَرَجَعَ والأُخْرَى أَيْضاً إلى أَوَّلِ الشَّام وَلَمْ يَطِلْ بِهَا البَقَاءَ وَلَا فَارَقَ قَوْمَهُ قَطُ ثُمَّ أَوْطَأَهُ اللهُ تَعَالَى رِقَابَ العَرَبِ كُلَّهَا فَلَمْ تَتَغَيَّرْ نَفْسُهُ ولا حَالَتْ سِيْرَتُهُ إلى أَنْ مَاتَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ في شَعِيْرٍ لِقُوْتِ أَهْلِهِ .

أَصْواعِ لَيْسَتْ بالكَثِيْرَةِ وَلَمْ يَبِتْ قَطُ في مُلْكِهِ دِيْنَارٌ ولا دِرْهَم وكان يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ مَا وَجَدَ وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ بِيَدِهِ وَيَرْقَعُ ثَوْبَهُ وَيُؤْثِرُ عَلِى نَفْسِهِ وَقُتِلَ رَجُلٌ من أَفَاضِلِ أَصْحَابِهِ مِثْلُ فَقْدِهِ يَهُدُّ عَسْكَراً قُتِلَ بَيْن أَظْهُرِ أَعْدَائِهِ مِن اليَهُوْدِ فَلَمْ يَتَسَبَّبْ إلى أَذَى أَعْدَائِهِ بِذَلِكَ إِذْ لَمْ يُوْجِبِ اللهُ تعالى لَهُ ذَلِكَ ولا تَوَصَّل بِذَلِكَ إلى دِمَائِهِمْ ولا إلى دَم وَاحِدٍ مِنْهُمْ ولا

إلى أموالهم بَلْ فَدَاهُ مِن عِنْدِ نَفْسِهِ بِمَائَةِ نَاقةٍ .

وهُوَ في تِلْكَ الحَالِ مُحْتَاجٌ إلى بَعِيْرٍ وَاحِدٍ يَتقَوَّى بِهِ وَهَذَا أَمْرٌ لا تَسْمَحُ بِهِ نَفْسُ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الأَرْضِ وَأَهْلِ الدُنْيَا مِن أَصْحَابِ بِيُوتِ الأَمْوالِ بِوَجْهِ مِن الوُجُوْهِ ولا يَقْتَضِيْ هَذَا أيْضاً ظَاهِرَ السِيْرَةِ والسِّيَاسَةِ فَصَحَّ يَقِيْناً بِلاَ شَكٍ أَنَّهُ إنَّما كان مُتَّبِعاً مَا أَمَرَ بِهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَواءٌ كانَ ذَلِكَ مُضِراً بِهِ فِي دُنْيَاهُ غَايَةَ الإِضْرَارِ أَوْ كَانَ غَيْرَ مُضِرٍ بِهِ وَهَذَا عَجِيْبٌ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ .

ثُمَّ حَضَرَتْهُ صلى اللهُ عليه وسلم المَنِيَّةُ وَأَيْقَنَ بالمَوْتِ ولَهُ عَمٌّ أَخوْ أَبِيْهِ هُوَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ وابْنُ عَمّ هُوَ مِن أَخَصِّ النَّاسِ بِهِ وَهُوَ أَيْضاً زَوْجُ ابْنَتِهِ وَكِلاَهُمَا عِنْدَهُ مِن الفَضْلِ والدِّيْنِ والسِّيَاسَةِ في الدُّنْيَا والبَأْسِ والحِلْمِ وخِلاَلِ الخَيْرِ ما كان كُلُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَقِيْقاً بِسِيَاسَةِ العَالَمِ كُلِّهِ فَلَمْ يُحَابِهِمَا وَهُمَا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ مَحَبَّةً فِيْهِ وَهُوَ مِن أَحَبِّ الناسِ فِيْهِمَا .

إِذْ كَانَ غَيْرُهُمَا مُتَقَدِّماً لَهُمَا في الفَضْلِ قَاصِداً اتِّبَاعَ ما أَمَرَ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَلَمْ يُوَرِّثْ وَرَثَتَهُ ابْنَتَهُ وَنِسَاءَهُ وَعَمَّهُ فِلْسَاً فَمَا فَوْقَهُ وَهُمْ كُلُّهُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ وَأَطْوَعُهُمْ لَهُ ، وَهَذِهِ أُمُوْرٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهَا كَافِيَةٌ مُغْنِيَةٌ في أَنَّهُ إِنَّمَا تَصَرَّفَ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى لَهُ لاَ بِسِيَاسَةٍ ولا بِهَوىً فَوَضَحَ بِمَا ذَكَرْنَا وَلِلّهِ الحَمْدُ كَثِيْراً أَنَّ نَبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ وَأَنَّ شَرِيْعَتَهُ التِي أَتَى بِهَا هِيَ التِيْ وَضَحَتْ بَرَاهِيْنُهَا واضْطَرَّتْ دَلاَئِلُهَا إِلى تَصْدِيْقِهَا والقَطْعِ عَلَى أَنَّهَا الحَقُّ الذيْ لاَ حَقَّ سِوَاهُ وَأَنَّهَا دِيْنُ اللهِ تعالى الذِي لا

دِيْنَ لَهُ في العَالَمِ غَيْرُهُ إنْتَهَى كَلاَمُه

وقال بعضهم يخاطب نفسه ويوبخها على تفريطها واهمالها :

يــا نَفْسُ هَــذَا الــذِي تَــأْتِيْنَــهُ عَجَبٌ
عِــلْمٌ وَعَـقْــلٌ ولا نُــسْــكٌ وَلاَ أَدَبُ
وَصْفُ النِّفَـاقِ كَمَـا في النَّصِّ نَسْمَعَهُ
عِلْمُ اللِّسَــانِ وَجَهْــلُ القَلْبِ والسَّبَبُ
حُبُّ المَتَــاعِ وَحُبُّ الجَــاهِ فــانْتَبِهِيْ
مِن قَبْلُ تُطوى عَلَيْكَ الصُّحفُ والكُتُبُ
وَتُـصْبِـحِيْـنَ بِـقَـبْــرٍ لاَ أَنِيْسَ بِــهِ
الأَهْـلُ والصَّحْبُ لَمَّـا أَلْحَــدُوْا ذَهَبُـوْا
وَخَـلَّفُـوكِ وَمَــا أَسْلَفْـتِ مِـن عَـمَـلٍ
المــالُ مُسْتَـأْخِــرٌ والكَسْبُ مُـصْـطَحَبُ
واسْتَيْقِنِي أَنَّ بَعْــدَ المَــوْتِ مُجْتَمَعــاً
لِلْعَــالَمِيْـنَ فَـتَــأْتِيْ الـعُجْـمُ والعَــرَبُ
والخَلْقُ طُــراً وَيَجْــزِيْهِمْ بِمَــا عَـمِلُوْا
في يَـوْمٍ لا يَنْفَـعُ الأَمْــوَالُ والحَسَبُ
وَاخْشَيْ رُجُـوْعاً إلى عَـدْلٍ تَـوَعَـدَ مَنْ
لاَ يَتَّقِيْــهِ بِنَــارٍ حَشْــوُهَــا الـغَـضَبُ
وَقُــوْدُهَــا النَّــاسُ والأَحْجَـارُ حَــامِيَــةٌ
لاَ تَـنْـطَفِـيْ أَبَــدَ الآبَــادِ تَــلْتَـهِــبُ

والبُعْـدِ عَن جَنَّةِ الخُلْدِ التِي حُشِيَتْ
بـالـطِّيبَـاتِ ولا مَـوْتٌ ولا نَـصَبُ
فِيْهَـا الـفَـوَاكِـهُ والأَنْهَـارُ جَـارِيَـةٌ
والنُّـوْرُ والحُـوْرُ والـوِلْـدَانُ والقُبَـبُ
وَهَـذِهِ الـدَّارُ دَارٌ لا بَـقَـاءَ لَـهَـا
لَا يَفْتِنَنَّـكِ مِنْهَـا الـوَرْقُ والـذَّهَبُ
والأَهْـلُ والمَالُ والمَـرْكُوبُ تَـرْكَبُهُ
والـثَّـوبُ تَلْبَسُـهُ فـالكُـلُ يَـنْـقَـلِبُ
لا بَارَكَ اللهُ في الدُّنْيَا سِوَى عَـوَضٍ
مِنْهَـا يُعَـدُّ إِذَا مَـا عُـدَّتِ القُـرُبَ
يُـرِيْـدُ صَـاحِبُـهُ وجْـهَ الإِلَـهِ بِـهِ
دُوْنَ الـرِّيَـا إِنَّـهُ التَّلْبِيْسُ والكَـذِبُ
لَا يَقْبَـلُ اللهُ أَعْمَـالاً يُـرِيْـدُ بِـهَـا
عُمَّـالُهَا غَيْـرَ وَجْـهِ اللَّهِ فـاجْتَنِبُـوْا
تَمَّتْ وَصَلُّوا عَلَى المُخْتَـارِ سَيِّـدِنَـا
والآل والـصَّحْبِ قَـوْمٌ حُبُّـهُـمْ يَـجِبُ

ومما أشير فيه الى بعض المعجزات التي وردت في القرآن ما يلي :

هــو اللهُ مَن أَعْـطَى هُـدَاهُ وَصَـحَّ مِن
هــواه أراه الــخَـارِقَـاتِ بـحِـكْـمَـةِ

بِـذَاكَ عَلى الـطُّوفَـانِ نُـوْحٌ وَقَـدْ نَجَـا
بِـهِ مَنْ نَجَـا في قَـوْمِـهِ في السَّفِيْنَـةِ
وَغَـاضَ لَـهُ مَـا فَـاضَ عَنْـهُ اسْتِجَـابَـةً
وَجَـدَّ إلى الجُـوْدِيْ بِهَـا وَاسْتَقَـرَّتِ
وَسَـارَ ومَتْنُ الـرِّيْـحِ تَحْتَ بِسَـاطِـهِ
سُلَيْمَـانُ بِـالجَيْشَيْن فَـوْقَ الـبَسْـطَةِ
وَقَبْـلَ ارْتِدَادِ الـطَّرْفِ أُحْضِرَ مِنْ سَبَـا
لَـهُ عَـرْشُ بِلْقِيْسٍ بِـغَيْـرِ مَشَـقَّـةِ
وَأَخْـمَـدْ لإِبْـرَاهِـيْـمَ نَـارَ عَـدُوِّهِ
وَفي لُـطْفِـهِ عَـادَتْ لَـهُ رَوْضَ جَنَّـةِ
وَلَمَّـا دَعَـا الأَطْيَـارَ في رَأْسِ شَـاهِقٍ
وَقَـدْ قُـطِعَّتْ جَـاءَتْـهُ غَيْـرَ عَصِيَّـةِ
وفي يَـدِهِ مُـوْسَى عَـصَـاهُ تَلَقَّـفَـتْ
مِنَ السِّحْـرِ أهْـوَالاً عَلَى النُّفْسِ شَقَّـةِ
وَمِنْ حَجَـرٍ أَجْرَى عُيُـونـاً بِضَـرْبَـةٍ
بِهَـا دَائِمـاً سَقَّت وَلِلْبَحْـرِ شَـقَّتِ
وَيُـوْسُفُ إذ أَلْقَى البَشِيْـرُ قَمِيْصَهُ
عَلَى وَجْـهِ يَعْقُـوبٍ عَلَيْـهِ بِأَوْبَـةِ
رَآهُ بِـعَيْنٍ قَبْـلَ مَـقْـدَمِـهِ بَكَـى
عَـلَيْـهِ بِهَـا شَـوْقـاً إِليـه فَكَفَّـتِ
وفي آلِ إِسْـرَائِيـلَ مَـائِـدَةُ الـسَّمَـا
لِعِيْسَى بنِ مَـرْيَمْ أُنْـزِلَتْ ثُمَّ مُـدَّتِ

وَمِنْ أَلَمٍ أَبْـرَى وَمِـنْ وَضَـحٍ غَـدَا
شَفَى وَأَعَـادَ الـطَّيْـرَ طَيْـراً بِنَفْخَـةِ

وَصَـحَّ بِـأَخْـبَـارِ الـتَّـواتُـرِ أَنَّـهُ
أَمَـاتَ وَأَحْيَـا بِـالـدُّعَـا رَبَّ مَيِّتِ

وَأَبْعَـدُ مِن هَـذَا عَـن السِّحْـرِ أَنَّـهُ
رَضِيْـعٌ يُنَادِي بِـاللِّسَـانِ الفَصِيْحَـةِ

يُنَـزِّهُ عن رِيبِ الـظُّنُـونِ عَفِيْفَـةً
مُـبَـرَّأَةً مِـن كُـلِّ سُـوْءٍ وَرِيْـبَـةِ

وقـال لأَهْـلِ السَّبْتِ كُـونُـوا إِلَهُنَـا
قُـرُوْداً فَـكَـانُـوا عِـبْـرَةً أَيَّ عِـبْـرَةِ

وَصَـرَّعَ أَهْـلَ الفِيْـلِ مِن دُوْنِ بَيْتِـهِ
بِـطَيْـرِ أَبَـابِـيْـلٍ صِغَـارٍ ضَـعِيْفَـةِ

وأَحْـرَقَ رَوْضَ الـجَنَّـتَـيْنُ عُـقُـوبَـةً
بِـكَـافٍ وَنُـونٍ عِـبْـرَةً لِـلْـبَـرِيَّـةِ

وقال يُوْسُفُ بنُ مُحَمَّدٍ الصَّرْصَرِي رحمه اللهُ :

مُـحَمَّـدٌ الـمَبْـعُـوْثُ لِلْخَلْقِ رَحْـمَـةً
يُـشَيِّـدُ مَـا أَوْهَـى الضَّـلاَلُ وَيُـصْلِحُ

لَئِنْ سَبَّـحَتْ صُمُّ الجِبَـالِ مُجِيْبَـةً
لِـدَاودَ أَوْ لأنَ الـحَـدِيْـدُ المُـصَفَّـحُ

فَـإِنَّ الصُّـخُـورَ الـصُمَّ لانَـتْ بِكَـفِّـهِ
وإِنَّ الـحَـصى فـي كَـفِّـهِ لَـيُـسَـبِّـحُ

وإنْ كَانَ مُوسَى أَنْبَعَ الْمَامِن الحَصَى
فَمِنْ كَفِّهِ قَدْ أَصْبَحَ المَاءُ يَـطْفَحُ

وإنْ كـانَتِ الـرِّيْحُ الـرُّخَـاءُ مُطِيْعَـةً
سُلَيْمَـانَ لا تَـأْلُـوْ تَـرُوْحُ وَتَسْـرَحُ

فَـإِنَّ الصَّبَـا كَـانَـتْ لِنَصْـرِ نَبِيِّنَـا
بِـرُعْبٍ على شَهْرٍ بِـهِ الخَصْمُ يَكْلَحُ

وإنْ أُوْتِيَ المُلْكَ العَـظِيْمَ وَسُخِّـرَتْ
لَـهُ الجِنُّ تَشْفِي مَـا رِضِيْـهِ وَتَـلْدَحُ

فَـإِنَّ مَفَـاتِيْـحَ الكُنـوزِ بِـأَسْـرَهـا
أَتَـتْـهُ فَـرَدَّ الـزَّاهِـدُ الـمُـتَـرَجِّـحُ

وإنْ كـانَ إبـراهِـيمُ أُعْـطِيَ خُـلَّةً
وَمُـوْسَى بِتَكْلِيْمٍ عَلَى الـطُورِ يُمْنَـحُ

فَهـذَا حَبِيْـبٌ بَـلْ خَـلِيْـلٌ مُكَـلمٌ
وخُصِّصَ بـالـرُّؤْيَـا وبـالحَقِ أَشْـرَحُ

وَخُصِّصَ بـالحَـوْضِ العَـظِيْمِ وبـالِلّوَا
وَيَشْفَـعُ لِلْعَـاصِيْنَ والنَّـارُ تَـلْفَـحُ

وبـالمَقْعَـدِ الأَعْلَى المُقَـرَّب عِـنْـدَهُ
عَـطَاءٌ بِـبُـشْـرَاهُ أُقِـرُّ وَأَفْـرَحُ

وبـالـرُتْبَـةِ العُلْيَـا الـوَسِيْلَةِ دُوْنَهَـا
مَـرَاتِـبُ أرْبَـابِ المَـواهِـبُ تَـلْمَـحُ

وفـي جَنَّـةِ الـفِـرْدَوْسِ أَوَّلُ دَاخِـلٍ
لَـهُ سَـائِـرُ الأَبْـوَابِ بـالخَيْرِ تُفْتَـحُ

اللهم احفظنا بالاسلام قَائِمِين ، واحفظنا بالاسـلام قاعِـدِيْن ، واحفظنا بالاسلام راقِدين ، ولا تشمت بنا الأعداءَ ولا الحاسـدين ، اللهم قَوِّ إيمانَنَا بِفَهْمِ آيَاتِكَ ، وارزقنا العَمَلَ بِهَا ، وَزِدْنا عِلْما يَنْفَعُنَا ، وَأَصْلح نِيَّاتِنَا ، وَوَفِّقْنَا لِذِكْـرِكَ وَشُكْرِكَ ، وارْزُقْنَـا حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ ، وَحُبَّ العَمَلِ الذِي يُقَرِّبُنَا إِلى حُبِّكَ ، واغفر لنا ولـوالدينـا ولجميع المسلمين ، الأحياءِ منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبَعْدُ فقد رَأَيْتُ أنه مِن المناسب أن أختِمَ هذا الكتاب المُحتوي على كثيرٍ مِن الأحكامِ والآدابِ بِمَنْـظُومَةِ الآداب لابن عبـدِ القَوي لاشْتِمَالِهَا عَلَى كَثِيرٍ مِن الآدابِ الشرعِيَّةِ وأسأَل اللَّهَ الحَيَّ القَيُّومَ العَلِيَّ العَظِيْمَ القَوِيَّ العَزِيْزَ الحكيمَ ذَا الجَلاَلِ والاكرام الواحِدَ الأحَدَ الفردَ الصمدَ الذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُوْلَدْ ولم يَكنْ له كفواً أَحَدٌ أن يَنْفَعَ بِهَا نَفْعاً عَاماً مَن قَرَأَهَا وَمَن سَمِعَهَا وَمَنْ حَضَرَهَا وَأْن يَفْتَحَ لَنَا ولاخْوَانِنَا المُسْلِمِين بابَ القُبُولِ والإجَابَةِ اللهم صلى على محمد وآله وسلم آمين يارب العالمين .

من منظومة الآداب لابن عبد القوي رحمه الله

بحمْـدِكَ ذِي الاكْرَامِ مَـا رُمْتُ أبْتَدِي
كَثِيْـراً كَمَـا تَـرْضَى بِغَيْـرِ تَـحَـدُّدِ
وَصَـلِّ عـلى خَـيْـرِ الأَنـامِ وآلِـهِ
وأَصْحَـابِـهِ مِن كُـلِّ هَـادٍ وَمُهْتَـدِي

وَبَعدُ فإنّي سَوْفَ أَنظِمُ جُمْلَةً
مِن الأَدَبِ المأثُوْرِ عَن خَيْرِ مُرْشِدِ
مِن السُّنَّةِ الغَراءِ أَوْ مِن كِتَابِ مَنْ
تَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِ الغُواةِ وَجُحَّدِ
ومِن قَوْلِ أَهلِ العِلْم مِن عُلَمَائِنا
أَئِمَةِ أَهْلِ السِلْمِ مِن كُلِّ أَمْجَدِ
لَعَلَّ إلهَ العَرْشِ يَنْفَعُنَا بِهِ
وَيُنْزِلُنَا في الحَشْرِ في خَيْرِ مَقْعَدِ
الأَمَن لَه في العِلْمِ والدِّيْنِ رَغْبَةٌ
لِيُصْغِ بِقَلْبٍ حَاضِرٍ مُتَرَصِّدِ
وَيَقْبَلَ نُصْحاً مِن شَفِيْقٍ على الوَرَى
حَرِيْصٍ على زَجْرِ الأَنَامِ عَنِ الرَّدِي
فَعِنْدِيَ مِن عِلْمِ الحَدِيْث أَمَانَةٌ
سَأَبْذِلُهَا جُهْدِي فأهْدِي وأهْتَدِيْ
أَلا كُلُّ مَن رَامَ السَّلامَةَ فَلْيَصُنْ
جَوَارِحَهُ عن مَا نَهى اللَّهُ يَهْتَدِي
يَكُبُ الفَتَى في النَّارِ حَصْدُ لِسَانِهِ
وارْسَالُ طَرْفِ المَرءِ أنْكَى فَقَيِّدِ
وَطَرْفُ الفَتَى يَا صَاحِ رَائِدُ فَرْجِهِ
وَمُتْعِبُهُ فَاغْضُضْهُ ما اسْطَعْتَ تَهْتَدِي
وَيَحْرُمُ بُهْتٌ واغْتِيَابٌ نَمِيْمَةٌ
وإفْشَاءُ سِرٍ ثُمَّ لَعْنُ مُقَيَّدِ

وَفُحْشٌ وَمَكْـر وَالبِـذَا وَخَـدِيْعَـةٌ
وَسُخْـرِيَّـةٌ والهُـزْؤُ والـكِـذْبَ قَيِّـدِ
بِغَيْـرِ خِـدَاعِ الكَـافِـرِيْنَ بِحَـرْبِهِم
وَللعـرْس أَوْ إِصْـلاَحِ أَهْـلِ التَّنَكُّـدِ
وَيَـحْـرُمُ مِـزْمَـارٌ وَشُـبَّـابَـةٌ وَمَـا
يُضَـاهِيْهِمَا مِنْ آلَـةِ اللَّهْـوِ والـرَّدي
وَلَـوْ لَمْ يُقَـارِنْهَـا غِنَـاءٌ جَمِيْعُهَـا
فَـمِـنْـهَـا ذَوُوْ الأَوْتَـارِ دُوْنَ تَـقَـيُّـدِ
ولا بَـأسَ بـالشِّـعْـرِ المُبَاحِ وَحِفْـظِهِ
وَصَـنْـعَـتِـهِ مَـنْ رَدَّ ذَلِـكَ يَـعْـتَـدِي
فقـد سَمَـعَ المُخْتَـارُ شِعْـرَ صَحَـابَةٍ
وَتَشْبِيْبَهُـم مِـن غَيْـرِ تَعِيِيْـنِ خُـرَّدِ
وَحَـظْرَ الهِجَا والمَـدْحِ بالـزورِ والخَنَـا
وَتَـشْـبِـيْـبِـهِ بِـالأَجْـنَـبِـيَّـاتِ أَكِّـدِ
وَوَصْفِ الزِّنَا والخَمْرِ والمُرْدِ والنِسَا الْـ
ـفَتِيَّـاتِ أَوَ نَـوْحِ التَّسَـخُّطِ مُـوْرَدِ
وَأَوْجِبْ عَن المَحْضُـورِ كَفَّ جَوَارِحٍ
وَنَـدْبٌ عن المَكـروهِ غَيْـرَ مُـشَـدَّدِ
وَأَمْـرُكَ بِـالمَعْـروفِ والنَّهْيِ يـا فَتَى
عن المُنْكَـر اجْعَلْ فَـرْضَ عَيْنٍ تُسَـدَّدِ
على عَـالِمٍ بِـالحَـظْرِ والفِعْـلِ لَمْ يَقُم
سِـوَاهُ بِـهِ مَـعْ أَمْنِ عُـدْوَانِ مُعْتَـدِي

وَلو كَانَ ذَا فِسْقٍ وَجَهْلٍ وفي سِوَى الْـ
لَذِيْ قِيْلَ فَرْضٌ بالكِفَايَةِ فاحْدُدِ
وبالعُلَمَا يَخْتَصُّ مَا اخْتَصَّ عِلمُهُ
بِهِم وَبِمَنْ يَسْتَنْصِرُوْنَ بِهِ قَدِ
وَأَضْعَفُه بالقَلْبِ ثُمَّ لِسَانِهِ
وأَقْوَاهُ انْكَارُ الفَتَى الجَلْدِ باليَدِ
وأنْكِرْ عَلى الصِبْيَانِ كُلَّ مُحَرَّمٍ
لِتَأْدِيْبِهِم والعِلْمِ في الشَّرْعِ بالرَّدِي
وبالأسْهَلِ ابْدَأْ ثُمَّ زِدْ قَدْرَ حَاجَةٍ
فإنْ لَمْ يَزُلْ بالنَّافِذِ الأَمْرَ فاصْدُدِ
إذَا لَمْ يَخَفْ في ذَلِكَ الأَمْرَ حَيْفُهُ
إذَا كَانَ ذَا الانْكَارِ حَتْمَ التَّأَكُّدِ
ولا غُرْمَ في دَفِّ الصَّنُوْجِ كَسَرْتَهُ
وَلَا صُوَرٍ أَيْضاً وَلَا آلَةِ الدَّدِ
وآلَةِ تَنْجِيْمٍ وَسِحْرٍ وَنَحْوِهِ
وَكُتُبٍ حَوَتْ هَذَا وَأَشْبَاهُهُ أَقْدُدِ
«وَقُلْتُ كَذَاكَ السّيْنَمَاءُ وَمِثْلُهُ
بِلا رَيْبَ مِذْيَاعٌ وَتِلْفَازُ مُعْتَدِي»
«وَأَوْرَاقُ أَلْعَابٍ بها ضَاعَ عُمْرُهُم
وكُوْرَاتِهم مَزِّقْ هُدِيْتَ وَقَدِّدِ»
«كَذَا بَكَمَاتٌ والصَّلِيْبُ وَمِزْمَرٌ
وآلَةُ تَصْوِيْرٍ بها الشَّرُ مُرْتَدِي»

«كَـذَلِـكَ دُخَّـانٌ وشِيْشَـةُ شُـرْبِـهِ
وآلَـةُ تَـطْفَـاةٍ لَـهُ اكْـسِـرْ وَبَـدِّدِ»
«وَمِنْ بَعْـدِ ذا فاسْمَعْ كَلاماً لِنَـاظِمٍ
يَسُـوقُ لَكَ الآدَابَ عن خَيْـرِ مُرْشِـدِ»
وَبَـيْضٍ وَجَـوْزٍ لِلْقِمَـارِ بِقَـدْرِ مَـا
يُـزِيْـلُ عن المَنْكُـورِ مَقْصَدَ مُفْسِـدِ
ولا شَقٍ زِقِّ الخَـمْـرِ أَوْ كَسْـرِ دِنِّـهِ
إذا عَـجَـزَ الانْـكَـارُ دُوْنَ الـتَّـقَـدُّدِ
وَإِنْ يَـتَـأَتَـى دُوْنَـهُ دَفْـعُ مُـنْـكَـرٍ
ضَمِنْتَ الـذي يُنْقَى بِـتَغْسِيْـلِهِ قَـدِ
وَهِجْـرانُ مَن أَبْـدَى المَعَـاصِيَ سُنَّـةٌ
وَقَـدْ قِيْـلَ إِنْ يَـرْدَعْـهُ أَوْجِبْ وَأَكِّـدِ
وَقِيْـلَ عَلَى الاطْـلاَقِ مَـا دَامَ مُعْلِنـاً
وَلاَقِـهْ بِـوَجْـهٍ مُـكْـفَـهِـرٍ مُعَـرْبَـدِ
وَيَـحْـرُمُ تَـجْـسِيْسٌ عَـلَى مُـتَـسَتِّـرٍ
بِفِسْقٍ ومَـاضِي الفِسْقِ إِنْ لَم يُجَـدِّدِ
وَهِجْـرَانُ مَنْ يَـدْعُـو لأَمْـرٍ مُضِـلٍ أَوْ
مُـفَـسِّـقٍ احْـتِـمْـهُ بِـغَـيْـرِ تَـرَدُّدِ
على غَيْرِ مَنْ يَقْوَى عَلَى دَحْض قَـوْلِه
وَيَـدْفَـعُ إِضْـرَارَ الـمُضِـلِ بِـمِـذْوَدِ
وَيَـقْضِـي أُمُـورَ الـنـاسِ في أَتَـيَـانِـهِ
ولا هَـجْـرَ مَـعْ تَسْلِيْـمِـهِ الـمُـتَـعَـوِّدِ

وَحَظْرُ انْتِفَا التَّسْلِيْمِ فَوقَ ثَلاَثَةٍ
على غَيْرِ مَن قُلْنَا بِهَجْرٍ فَأَكِّدِ
وَكُنْ عَالِماً إِنَّ السَّلامَ لَسُنَّةٌ
وَرَدُّكَ فَرْضٌ لَيْسَ نَدْبٌ بأَوْطَدِ
وَيُجْزِىءُ تَسْلِيْمُ امْرِىءٍ مِن جَمَاعَةٍ
وَرَدُّ فَتىً مِنهُم على الكُلِّ يا عَدِي
وَتَسْلِيْمُ نَزْرٍ والصَّغِيْرِ وَعَابِرِ
سَّبِيْلِ وَرُكْبَانٍ عَلى الضِدِّ أيِّدِ
وإنْ سَلَّمَ المَأْمُوْرُ بالرَّدِ مِنهُمُ
فَقَدْ حَصَلَ المَسْنُونُ إذْ هُوَ مُبْتَدِي
وَسَلِّمْ إِذَا مَا قُمْتَ عَن حَضْرَةِ امْرِىءٍ
وَسَلِّمْ إِذا مَا جِئْتَ بَيْتَكَ تَهْتَدِي
وافْشَاؤُكَ التَّسْلِيْمَ يُوْجِبْ مَحَبَّةً
مِن الناسِ مَجْهُولاً وَمَعْرُوْفاً أقْصُدِ
وَتَعْرِيْفُهُ لَفْظُ السلامِ مُجَوَّزٌ
وَتَنْكِيْرُهُ أَيْضاً على نَصِّ أَحْمَدِ
وقَد قِيْلَ نَكِّرْهُ وَقِيْلَ تَحِيَّةً
كَلِلْمَيْتِ والتَّوديْعِ عَرِّفْ كرَدِّدِ
وَسُنَّةٌ اسْتِئْذَانُه لِدُخُوْلِهِ
على غَيرِهِ مِن أَقْرَبِيْنَ وَبُعَّدِ
ثَلاثاً وَمَكْرُوْهٌ دُخُولٌ لِهَاجِمٍ
ولا سِيْمَا مِن سَفْرَةٍ وَتَبَعُّدِ

وَوَقْــفَــتُــهُ تِــلْقَــاءَ بَــابٍ وَكُــوَّةٍ
فَإِنْ لَم يُجَبْ يَمْضِي وإِنْ يَخْفَ يَزْدَدِ
وَتَحْــرِيْــكُ نَعْلَيْــهِ واظْهَــارُ حِسِّــهِ
لِــدَخْلَتِــهِ حَتَّى لِمَنْــزِلِــهِ اشْهَــدِ
وَكُــلُّ قِــيَــامٍ لاَ لِــوَالٍ وَعَــالِــمٍ
وَوَالِــدِهِ أَو سَــيِّــدٍ كُــرْهَــهُ امْــهَــدِ
وَصَــافِــحْ لِمَنْ تَلْقَــاهُ مِن كُــلِّ مُسْلِمٍ
تَنَــاثَــرْ خَــطَايَــاكُمْ كَمَــا في المُسَنَّــدِ
وَلَيْسَ لِغَيْــرِ الــلَّهِ حَــلٌّ سُــجُــوْدُنَــا
وَيُكْــرَهُ تَــقْبِيْــلُ الــثَّــرَى بِــتَشَــدُّدِ
وَيُكْــرَهُ مِنْــكَ الانْــحِــنَــاءُ مُــسَــلِّمــاً
وَتَقْبِيْــلُ رَأْسِ المَــرْءِ حَــلٌّ وفي اليَــدِ
وحَــلٌّ عِــنَــاقٌ لِلْمُــلاَقِــي تَــدَيُّــنَــاً
وَيُكْــرَهُ تَقْبِيْــلُ الــفَمِ أَفْــهَمْ وَقَــيِّــدِ
وَنَــزْعُ يَــدٍ مِمَّنْ يُــصَافِحُ عَــاجِــلاً
وَأَنْ يَتَنَــاجَى الجَمْــعُ مِن دُوْنِ مُفْــرَدِ
وَأَنْ يَجْلِسَ الإِنْسَــانُ عِنْــدَ مُــحَــدِّثٍ
بِسِــرٍ وَقِيْــلَ احْضِــرْ وإِنْ يَــأْذَنِ اقْعُــدِ
وَمَــرْأَى عَجُــوزٍ لم تُــرْدِ وَصِفَــاحُهَــا
وَخُلْوَتُهَــا اكْــرَهْ لا تَحِيْــتُهَــا أَشْــهَــدِ
وَتَشْمِــيْتُــهَــا واكْــرَهْ كِــلاَ الخَــصْلَتَــيْنِ
لِلشَّبَــابِ مِن الصِّنفَيْنِ بُعْــدَى وَأَبْعِــدِي

وَيَحْـرُمُ رَأْيُ المُـرْدِ مَـعْ شَهْـوَةٍ فَقَطْ
وَقِيْـلَ وَمَـعْ خَـوْفٍ وَلِلْكُـرْهِ جَـوِّدِ
وَكُنْ واصِـلَ الأَرْحَـامِ حَتَّى لَكَـاشِحٍ
تُـوَفَّـرَ في عُـمْـرٍ وَرِزْقٍ وَتَـسْعَـدِ
وَيَـحْسُـن تَحْسِيْنٌ لِخُلْقٍ وَصُحْبَـةٍ
ولا سِـيَّمَـا لِـلْوَالِـدِ الـمُـتَـأَكِّـدِ
وَلَـوْ كَـانَ ذَا كُفْـرٍ وَأَوْجَبَ طَـوْعَـهُ
سِـوَى في حَـرَامٍ أَوْ لأَمْـرٍ مُؤَكَّـدِ
كَتَـطْلاَبِ عِلْمٍ لاَ يَضُـرُّهُـمَـا بِـهِ
وَتَـطْلِيْـقِ زَوْجَـاتٍ بِـرَأْيٍ مُـجَـرَّدِ
وَأَحْسِنْ إلى أَصْحَـابِـهِ بَعْـدَ مَـوْتِـهِ
فَـهـذَا بَقَـايَـا بِـرِّهِ الـمُـتَـعَـوَّدِ
وَيُـكْـرَهُ في الـحَـمَّـامِ كُـلُّ قِـرَاءَةٍ
وَذِكْـرٍ لِـسَـانٍ والـسَّـلامُ لِمُـبْـتَـدِي
وغَيـر بِغَيْـرِ الأَسْـوَدِ الشَّيْبَ وَأَبْقِـهِ
وَلِـلْقَـزَعِ اكْـرَهْ ثُمَّ تَـدْ لِـيْسَ نُهَـدِ
وَيُشْـرَعُ إِيْكَـاءُ السِقَـا وَغِـطَا الإِنَـا
وايْـجَـافُ أَبْـوَابٍ وَطَـفْـءٌ لِمُـوْقَـدِ
وَتَـقْـلِيْـمُ أَظْـفَـارٍ وَنَـتْـفٌ لإِبْـطِه
وَحَلْقـاً وَلِلتَّنْـوِيْـرِ لِلْعَـانَـةِ أَقْـصـدِ
وَيَحْسُنُ خَفْضُ الصَّوتِ مِن عَاطِسٍ وأَنْ
يُغَـطِّيَ وَجْهـاً لاسْتِتَـارٍ مِـن الـرَّدِي

وَيَحْمَـدُ جَهْـراً وَلْيُشَمِّتْـهُ سَـامِـعٌ
لِتَحْمِيْدِهِ والْيُبْـدِ رَدَّ الـمُعَـوَّدِ
وَقُـلْ لِلْفَتَى عُـوْفِيْتَ بَعْـدَ ثَـلَاثَـةٍ
وَلِلطِّفْلِ بُـوْرِكْ فِيْـكَ وَأْمُرْهُ يَحْمَـدِ
وَغَطِّ فَمـاً واكْـظُمْ تُصِبْ في تَثَـاؤُبٍ
فَـذَلِـكَ مَسْنُـونٌ لأَمْـرِ الـمُـرَشِّـدِ
وَلَا بَـأْسَ شَـرْعـاً أَنْ يَطِبَّـكَ مُسْلِمٌ
وشَكْوَى الذي تَلْقَى وبـالحَمْدِ فـابْتَدِي
وَتَـرْكُ الـدَّوا أَوْلَـى وَفِعْـلُكَ جَـائِـزٌ
ولـم تَتَيَقَنْ فيـه حُـرْمَـةَ مُـفْـرَدِ
وَرَجِّحْ عَلَى الخَوْفِ الرَّجَا عِنْدَ يَأْسِـهِ
ولَاقِ بِحُسْـنِ الـظَّنِّ رَبَّـكَ تَسْعَـدِ
وَيُشْـرَعُ لِلْمُـرْضَى العِيَـادَةُ فَـأْتِهِمْ
تَخُضْ رَحْمَـةً تَغْمُـرْ مَجَـالِسَ عُـوَّدِ
فَسَبْعُـونَ ألفـاً مِن مَـلَائِكَـةِ الـرِّضَـا
تُصَلِّي على مَن عَـادَ مُمْسىً إلى الغَدِ
وانْ عَـادَهُ فـي أَوَّلِ اليَـوْمِ وَاصَـلَتْ
عليـهِ إلى اللَّيْـلِ الصَّـلاةِ فـأَسْنِـدِ
فَمِنْهُمْ مُغِبـاً عُـدْهُ خَفِّفْ وَمِنْهُمْ الْـ
ـلَذِيْ يُـورِثُ التَّـطْوِيْـلَ مِن مُتَـوَرِّدِ
وَفَكِـرْ وَرَاعِ في العِيَـادَةِ حَـالَ مَـن
تَعُـوْدُ وَلَا تُكْـثِـرْ بسُؤآلاً تُـنَكِّـدِ

وَمَكْـرُوْهٌ اسْتِـأَمَـانُنَـا أَهْـلَ ذِمَّـةٍ
لِإِحْـرَازِ مَـالٍ أَوْ لِـقِسْـمَتِـهِ اشْهَـدِ
وَمَـكْـرُوْهٌ اسْتِـطْبَـابُـهُـم لَا ضَـرُوْرَةً
ومـا رَكَّـبُـوْهُ مِـن دَوَاءٍ مُـوَصَّـدِ
وانْ مَـرِضَتْ أُنْثَى وَلَمْ يَجِـدُوْا لَهَـا
طَبِيْبـاً سِـوَى فَحْـلٍ أَجِـزْهُ وَمَهِّـدِ
وَيـكْـرَهُ حَقْنُ الـمَـرْءِ إِلَّا ضَـرُوْرَةً
وَيَـنْـظُرُ مَـا يَحْتَـاجُـهُ حَـاقِنٌ قَـدِ
كَـقَـابِـلَةٍ حِـلٌ لَـهَـا نَـظَرٌ إِلَـى
مَكَـانِ ولَادَاتِ النِسَـا فِي التَّـوَلُّـدِ
وَيُكْـرَهُ إِنْ لَمْ يَسْـرِ قَـطْعُ بَـوَاسِـرٍ
وَبَطِّ الأَذى حِـلٌ كَـقَـطْعٍ مُـجَـوِّدِ
لِآكِـلَةٍ تَـسْـرِي بِـعـضْـوٍ أَبِـنْـهُ إِنْ
تَـخَـافَـنَّ عُـقْـبَـاهُ وَلَا تَـتَـرَدَّدِ
وَقَبْـلَ الأَذى لَا بَعْـدَهُ الكَيَّ فـاكْـرَهَنْ
وَعَـنْـهُ عَلَى الاطْـلَاقِ غَيْـرَ مُقَيَّـدِ
وَفِيْهَا عَدَا الأَغْنَامِ قَدْ كَـرِهُوْا الخِصَا
لِـتَعْـذِيْبـهِ المَنْهِيِ عَنـهُ بِـمُسْنَـدِ
وَقَـطْعُ قُـرُوْنٍ وَالآذَنِ وَشَـقُّـهَـا
بِـلا ضَـرَرٍ تَـغْـيِيْـرُ خَلْقٍ مُـعَـوَّدِ
وَيَحْسُنُ فِي الإِحْـرَامِ والحِلِّ قَتْلُ مَا
يَـضُـرُ بِـلا نَفْـعٍ كَـنِـمْـرٍ وَمَـرْثَـدِ

وَغِـرْبَـانِ غَيْـرِ الـزَّرْعِ أَيْضــاً وَشِبْهُهَـا
كَـذَا حَشَــراتُ الأَرْضِ دُوْنَ تَقَيُّــدِ
كَـبِـقٍّ وَبُــرْغُـوثٍ وَفَـأرٍ وَعَـقْـرَبٍ
وَدَبْــرو خَــيَّــاتٍ وشِـبْـهِ الـمُـعَــدَّدِ
وَيُكْـرَهُ قَتْــلُ النَّمْــلِ إِلَّا مَــعَ الأَذى
بِــهِ واكْـرَهَنْ بــالنَّـارِ إِحْــرَاقَ مُفْسِــدِ
ولـو قِيْـلَ بـالتَّحْـرِيْمِ ثُمَّ أُجِيْـزَ مَـعْ
أَذىً لــم يَــزُلْ إِلَّا بِــهِ لَـمْ أُبَـعِّـدِ
وَقَـدْ جَـوَّزَ الأَصْحَـابُ تَشْمِيْسَ قَـزِّهِمْ
وَتَــدْخِيـنَ زُنْـبُــورٍ وَشَـيــاً بِـمَــوْقِـدِ
وَيُكْـرَهُ لِنَهْيِ الشَّرْعِ عن قَتْلِ ضِفْدَعٍ
وَصِــرْدَانِ طَيْــرٍ قَتْــلُ ذَيْنِ وَهُــدْهُــدِ
وَيُكْــرَه قَتْــلُ الـهِــرِّ إِلَّا مَــعَ الأَذَى
وَإِنْ مُلِكَـتْ فَــاحْـظِرْ إِذاً غَيْــرَ مُفْسِدِ
وَقَـتْلُكَ حَـيَّــاتِ الـبُـيُــوتِ وَلَـمْ تَـقُــلْ
ثَــلاثَـا لَـهُ اذْهَـبْ سَـالِماً غَيْــرَ مُعْتَــدِ
وذَا الـطُّـفْـيَتَيْنِ أقْـتُــلْ وابْتَــرَ حَيَّــةٍ
ومــا بَعْـدَ إِيْــذَانٍ تُــرَى أَوْ بِفَــدْفَــدِ
ومــا فِيْــهِ إِضْــرَارٌ وَنَفْــعٌ كَـبَــاشَـقٍ
وكَـلْـبٍ وفَهْــدٍ لاقْـتِـصــادِ التَّـصَـيُّــدِ
إِذَا لَــمْ يَكُـنْ مُلْكـاً فَــأَنْتَ مُخَـيَّـرٌ
وانْ مُلِكَـتْ فـاحْـظِرْ وانْ تُؤْذِ فـاقْدُدِ

وَيُكْـرَهُ نَفْـخُ في الـغَـدَا وَتَـنَفُسٌ
وَجَـوْلاَنُ أَيْـدٍ فـي طَعَـام مُـوَحَّـدِ

فـإِنْ كَـانَ أَنـواعـاً فـلاَ بَـأْسَ فـالـذي
نُهيْ في اتَّحـادٍ قَـدْ عُفِي في التَّعَـدُّدِ

وَأَخْـذٌ واعْـطَاءٌ وأَكْـلٌ وشُـرْبُـهُ
بِـيُسْـرَاهُ فـاكْـرَهْـهُ ومُـتَّـكِئـاً ذُدِ

وأَكْلُكَ بـالثِّنْتَيْنِ والأُصْبُـعِ اكْـرَهَنْ
وَمَـعْ أَكْلِ شَيْنِ العُـرْفِ إِتْيَـانَ مَسْجِـدِ

وَيُكْـرَهُ بـاليُمْنَى مُبَـاشَـرَةُ الأَذَى
وَأَوْسـاخِـهِ مَـعْ نَثْـرِ مَـا أَنْفِـهِ الـرَّدِي

كـذا خَلْعُ نَـعْلَيْـهِ بِـهَـا واتِّـكَـاؤُهُ
على يَـدِهِ اليُسْـرَى وَرَا ظَهْـرِهِ أَشْهَـدِ

وَيُكْـرَهُ في الـتَّمْـرِ الـقِـرَانُ وَنَحْـوُهُ
وقِيْـلَ مَـعَ التَّشْـرِيْـكِ لاَ في التَّفَـرُّدِ

وَكُـنْ جَـالِسـاً فَـوْقَ الـيَسَـارِ وَنَـا صِبَ الْـ
يَمِيْنِ وَبَسْمِلْ ثُمَّ في الانْتِهَا أَحْمَدِ

وَيُكْـرَهُ سَبْقُ القَـوْمِ لِـلأَكْـلِ نَهْـمَـةً
وَلَكِنَّ رَبَّ الـبَيْـتِ إِنْ شَـاءَ يَبْـتَـدِي

ولا بَـأْسَ عِنْدَ الأَكْـلِ مِن شِبَعِ الفَتَى
وَمَـكْـرُوْهٌ الإِسْـرَافُ والـثُّـلْثُ أَكِّـدِ

وَيَحْسُنُ تَصْغِيْـرُ الفَتَى لُقْـمَـةَ الغَـدَا
وَبَعْـدَ ابْتِـلاَعِ ثَنِّ والمَـضْـغَ جَـوِّدِ

وَيَحْسُنُ قَبْلَ المَسْحِ لَعْقُ أَصَابِعٍ
وَأَكْلُ فُتَاتِ سَاقِطٍ بِتَشَرُّدِ
وَتَخْلِيْلُ مَا بَيْن المَواضِعِ بَعْدَهُ
وألْقِ وَجَانِبْ مَا نَهى اللَّهُ تَهْتَدِي
وَغَسْلُ يَدٍ قَبْلَ الطَّعَامِ وَبَعْدَهُ
وَيُكْرَهُ بالمَطْعُومِ غَيْرَ مُقَيَّدِ
وَكُلْ طَيِّباً أَوْ ضِدَّهُ وَأَلْبَس الذِي
تُلاقِيْهِ مِن حِلٍّ ولا تَتَقَيَّدِ
وما عِفْتَهُ فاتْرُكْهُ غَيْرَ مُعَنِفٍ
ولا عَائِبٍ رِزْقاً وبالشَّارِعْ اقْتَدِي
ولا تَشْرَبَنْ من في السِّقَاءِ وثُلْمَةِ الْـ
إنَا وانْظُرنْ فِيْهِ وَمَصاً تَزَرَّدِ
وَنَحِّ الانا عَن فِيْكَ واشْرَبْ ثَلاَثَةً
هُوْ أهْنا وَأَمْرَا ثم أَرْوَى لِمَنْ صُدِي
ولا تَكْرَهَنَّ الشُرْبَ مِن قَائِمٍ وَلاَ انْ
تِعَالُ الفَتَى في الأَظْهَرِ المُتَأَكِّدِ
وَيُكْرَهُ لُبْسٌ فيه شُهْرَةُ لاَبِسٍ
وَوَاصِفُ جِلْدٍ لاَ لِزَوْجٍ وَسَيِّدِ
وأنْ كانَ يُبْدِي عَوْرَةً لِسِوَاهُمَا
فَذَلِكَ مَحْظُورٌ بِغَيْرِ تَرَدُّد
وَخَيْرُ خِلاَلِ المَرْءِ جَمْعاً تَوَسُطُ الْـ
أُمُورِ وَحالٌ بَيْنَ أرْدَى وَأَجْوَدِ

وَلُبْس مِثَـالِ الحَيِّ فـاحْضِــرْ بـأَجْــود
وما لَمْ يُـدَسْ مِنْهَـا لِـوَهْنٍ فَشَــدِّدِ

وأَحْسـنُ مَـلْبُـوسٍ بَـيَـاضٌ لِـمَيِّـتٍ
وَحَـيٍّ فَـبَـيِّضْ مُـطْلَقـاً لاَ تُـسَـوِّدِ

وَلاَ بَـأْسَ بـالمَصْبُـوغِ مِن قَبْـلِ غَسْلِهِ
مَـعَ الجَهْلِ في أَصْبَـاغِ أَهْـلِ التَّهَـوُدِ

وَقِيْـلَ اكْـرَهَـنْـهُ مِثْـلَ مُسْتَعَمَـلِ الانـا
وانْ تَعْلَمِ التَّنْجِيْسَ فـاغْسِلْهُ تَـهْتَـدِى

وَأَحْمَــرَ قَــانٍ والمُعَصْفَــرَ فــاكْـرَهَنْ
لِلُبْس رِجَـالٍ حَسْبُ في نَصِّ أَحْمَدِ

وَلاَ تَكْـرَهَنْ في نَصٍّ مـا قَـدْ صَبَغْتَـهُ
مِن الـزَّعْفَـرانِ البَحْتِ لَـوْنَ المُـوَرَّدِ

وَلَيْسَ بِلُبْسِ الصُـوْفِ بَـأْسٌ ولا القَبَـا
ولا لِلنِّسَــا والبُـرْنُسِ افْهَمْـهُ واقْتَـدِي

ولُبْسُ الحَـرِيْرِ احْـظِرْ عَلى كُلِ بَـالِـغٍ
سِـوَى لِضَنىً أَوْ قَتْلٍ أَوْ حَـرْبِ جُحَّدِ

وَيَـحْـرُمُ بَـيْـعٌ لِلـرِّجَـال لِـلِبْـسِهِـمْ
وَتَخَيِيْـطُهُ والنَّسْـجُ في نَصِّ أَحْـمَـدِ

وَيَـحْـرُمُ لُبْسٌ مِـن لُجَيْنٍ وَعَـسْجَـدٍ
سِوَى مَا قَدِ اسْتَثْنَيْتُهُ في الـذِي ابْتُدِي

وَيَحْــرُمُ سَتْـرٌ أَوْ لِبَــاسُ الفَتَى الـذي
حَـوَى صُـوْرَةً لِلْحَيِّ في نَصِّ أَحْمَـدِ

وفي السِّتْرِ أَوْ مَا هُوَ مَظِنَّةٌ بِذْلَةٍ
لِيُكْرَه كَكَتْبٍ لِلْقُرَانِ المُمَجَّدِ
وَلَيْسَ بِمَكْرُوْهٍ كِتَابَةُ غَيْرِهِ
مِنَ الذِكْرِ فيْمَا لَمْ يُدَسْ وَيُمَهَّدِ
وَحَلَّ لمَنْ يَسْتَأْجِرُ البَيْتَ حَكُهُ التَّ
تَصَاوِيْرَ كَالحَمَّام لِلدَّاخِلِ اشْهَدِ
وفي نَصِّهِ اكْرَهْ لِلرِّجَالِ وللنِّسَا الـرَّ
رَقِيْق سِوَى لِلزَّوْجِ يَخْلُو وَسَيِّدِ
وَيُكْرَهُ تَقْصِيْرُ اللِّبَاسِ وَطُولُهُ
بِلا حَاجَةٍ كِبْراً وَتَرْكُ المُعَوَّدِ
وأَطْوَلُ ذَيْلِ المَرْءِ لِلْكَعْبِ والنِّسَا
بِلاَ الأزْرِ شِبْراً أَوْ ذِرَاعاً لِتَزْدَدِ
وأَشْرَفُ مَلْبُوسٍ إلى نِصْفِ سَاقِهِ
وما تَحْتَ كَعْبٍ فاكْرَهَنْهُ وصَعِّدِ
ولِلرُّصْغِ كُمُّ المُصْطَفَى فإِنْ ارْتَخى
تَنَاهَى إِلى أَقْصَى أَصَابِعِهِ قَدِ
ولا بَأْسَ في لُبْسِ السَّراوِيْلِ سِتْرَةً
أَتَمَّ مِن التَّأْزِيْرِ فالْبَسْهُ واقْتَدِ
بِسُنَّةِ ابْراهِيْمَ فِيْهِ وَأَحْمَدٍ
وَأَصْحَابِهِ والأُزْرُ أَشْهَرُ أَكِّدِ
وَيَحْسُنُ تَنْظِيْفُ الثِّيَابِ وَطِيُّهَا
وَيُكْرَهُ مَعْ طَوْلِ الغِنَا لُبْسُكَ الرَّدِي

ولا بَـأْسَ في لُبْسِ الفِرَاء واشْتِـرَائِهَـا
جُـلُودَ حَـلاَلٍ مَـوتُـه لَـمْ يُـوَطَّـدِ
وكاللَّحْم الأوْلَى احْـظِرَنْ جِلْدَ ثَعْلَبٍ
وعـنـه لِيُـلْبَسْ والصـلاةَ بِـهِ اصْـدُدِ
وَمَنْ يَـرتَضِي أَدْنَى اللِّبَاس تَـواضُعـاً
سَيُكْسَى الثِيَابَ العَبْقَـرِيَّـاتِ في غَـدِ
وَيَحْسُنُ حمْـدُ اللَّهِ في كُـلِّ حَـالَـةٍ
ولا سِيَّمَـا فـي لُبْسِ ثَـوبٍ مُـجَـدَّدِ
وَكُـنْ شَـاكِـرا لِلّهِ وارْضَ بِقَـسْـمِـهِ
تُـثَـبْ وَتُـزَدْ رِزْقـاً وازْغَـامَ حُـسَّـدِ
وَقُـلْ لِأَخٍ ابْـلِ وَأَخْلِقِ وَيُخْلِفُ الْـ
إلـهُ كـذَا قُـلْ عِش حَمِيْـداً تُسَـدَّدِ
ولا بَـأْسَ في الخَاتَـامِ مِن فِضَّةٍ وَمِنْ
عَـقِـيْـقٍ وَبَـلُورٍ وَشِـبْـهِ المُعَدَّدِ
وَيُكْـرَهُ مِن صُفْرٍ رَصَاصٍ حَـدِيْـدِهِمْ
وَيَـحْـرُمُ لِلذُّكْـرَانِ خَـاتَـمُ عَسْـجَـدِ
وَيَحْسُنُ في اليُسْـرَى كَأَحْمَـدْ وَصَحْبِـهِ
وَيُكْـرَهُ في الـوُسْـطَى وسَبَابَـةِ اليَـدِ
وَمَن لَمْ يَضَعْهُ في الدُّخول إلى الخَلاَ
فَعَنْ كُتْب قُـرآنٍ وذِكْـرٍ بِـهِ أَصْـدُدِ
وَيَحْسُنْ في اليُمْنَى ابْتِـدَاءُ إنْتِعَاله
وفي الخَلْع عَكْسٌ وَاكْرَهِ العَكْسَ تَرْشُدِ

وَيُكْـرَهُ مَشْي المَـرْءِ في فَـرْدِ نَعْـلِهِ
اخْتِيَاراً أَصِـخْ حَتَّى لإِصْـلاحِ مُفْسِـدِ
ولا بـأسَ في نَعْـلٍ يُصَلي بِـهِ بِـلاَ
أَذىً وافْتَقِـدْهَـا عنـدَ أَبْـوابِ مَسْجِـدِ
ويَحْسُنُ الاسْتِـرْجَاعُ في قَـطْعِ نَعْلِهِ
وَتَخْصِيْصُ حَـافٍ بالـطَّرِيْقِ المُمَهَّـدِ
وقَـدْ لَبِسَ السِّبْتِيَّ وَهُـوَ الـذي خَـلاَ
مِنَ الشَّعْـرِ مَعْ أَصْحَـابِهِ بِهِمُ اقْتَـدِي
وَيُـكْـرَهُ سِنْـدِيُّ النِّعَـالِ لِعُجْبِـهِ
بِصَـرَّارِهَـا زِيَّ اليَـهُـوْدِ فَـأبْعِـدِ
وَسِـرْ حـافيـاً أَوْ حـاذيـاً وامْشِ وارْكَبَنْ
تَمَعْـدَدْ واخْشَـوْشَنْ ولا تَـتَعَـوَّدِ
ويُكْـرَهُ في المَشْي المُطَيْطَا وَنَحْـوُهَـا
مَـظِنَّـةَ كِبْـرٍ غَيْـرَ في حَـرْبِ جُحَّـدِ
وَيُكْـرَهُ لُبْسُ الـخُفِ والأُزْرِ قَـائِـمـاً
كَـذاكَ الْتِصَـاقُ اثْنَيْنِ عُـرْيـاً بمَـرْقَـد
وثِنْتَيْنِ وافْـرُقْ في المَضَـاجِـعِ بَيْنَهُمْ
وَلَـوْ إِخْـوَةً مِن بَعْـدِ عَشْـرٍ تُسَـدَّدِ
وَيُكْـرَهُ نَـوْمُ المَـرْءِ مِن قَبْـلِ غَسْلِهِ
مِن الـدُّهْنِ والأَلْبَـانِ لِلْفَـمِ واليَـدِ
وَنَـوْمُكَ بَعْـدَ الفَجْـرِ والعَصْـرِ أَوْ على
قَفَـاكَ وَرَفْعُ الـرِجْلِ فَـوقَ اخْتِهَا امْدُدِ

وَيُكْــرَهُ نَــومٌ فَــوقَ سَــطْحٍ ولَمْ يُحَطْ
عليــهِ بِتَحْجِيْــرٍ لِخَــوفِ مِن الــرَّدِي
وَيُكْـرَهُ بَيْنَ الـظِلِّ والشَمْسِ جِلْسَــةٌ
ونَــوْمٌ عـلى وَجْــهِ الفَتَى الـمُتَـمَـدِّدِ
وقُـلْ في انْتِبَاهٍ والصَّبَاحِ وفي المَسَـا
ونَـوْمٍ مِن المَـرْوِيّ مَـا شِئْتَ تَـرْشُــدِ
وَيَحْسُنُ عنـدَ النَّـومِ نَفْضُ فِـرَاشِـهِ
وَنَــوْمٌ على اليُمْنَى وكُحْــلُ بــأَثْـمُـدِ
وَخُـذْ لَـكَ مِن نُصْحِي أُخَيَّ نَصِيْحَـةً
وَكُنْ حَـازِمـاً واحْضِـرْ بِقَلْبٍ مُؤَيَّـدِ
ولا تَنْكِـحَنْ إِنْ كُـنْتَ شَـيْخـاً فُـتَيَّـةً
تَعِشْ في ضِرَارِ العَيْشِ أَو تَرْضَ بالرَّدِي
ولا تَنْكِحَنْ مَن تَسْـمُ فَـوْقَـكَ رُتبـةً
تَكُنْ أبــداً في حُكْمِهَــا فــي تَنَـكُـدِ
ولا تَــرْغَـبَنْ فــي مَــالِهَــا وَأَثَــاثِـهَـا
إذا كُـنْـتَ ذا فَـقْــرٍ تُــذَلَّ وَتُـضْـهَـدِ
ولا تَسْكُنَنْ في دَارِهَــا عنــدَ أَهْلِهَــا
تَـسَـمَّــعْ إِذَنْ أَنْــوَاعَ مِــن مُـتَـعَـدِّدِ
فـلا خَيْرَ فِيْمَنْ كَـانَ في فَضْلِ عِـرسِه
يَـرُوْحُ على هُـوْنٍ إِلَيْـهَـا وَيَغْـتَـدِي
ولا تُـنْكِـرَنْ بَــذْلَ الـيَسِيْـرِ تَنَـكُـداً
وَسَــامِـحْ تَنَـلْ أَجْــراً وحُسْنَ التَّـوَدُدِ

ولا تَسْأَلَنْ عن مَا عَهِدْتَ وَغُضَّ عن
عَوارٍ إذا لَمْ يَذْمُمِ الشَّرْعَ تَرْشُدِ
وَكُنْ حَافِظَاً إنَّ النِسَاءَ وَدَائعٌ
عَوانٍ لَدَيْنَا احْفَظْ وَصِيَّةَ مُرْشِدِ
ولا تُكْثِرْ الانكارَ تُرْمَى بِتُهْمَةٍ
ولا تَرْفَعنَّ السَّوْطَ عن كُلِ مُعْتَدِ
ولا تَطْمَعَنْ في أَنْ تُقِيْمَ اعْوِجَاجِهَا
فَمَا هِيَ إلَّا مِثْلُ ضِلْعٍ مُرَدَّدِ
وَسُكْنَى الفَتَى في غُرْفَةٍ فَوْقَ سِكَةٍ
تَؤُلُ إلَى تُهْمَى البَرِيءِ المُشَدِّدِ
وإيَّاكَ يَا هَذَا وَرَوْضَةَ دِمْنَةٍ
سَتَرْجِعُ عَن قُرْبٍ إلى أَصْلِهَا الرَّدِي
ولا تَنْكِحَنْ في الفَقْرِ إلَّا ضَرُوْرَةً
وَلُذْ بِوِجَاءِ الصَّومِ تُهْدَى وَتَهْتَدِي
وكُنْ عَالِماً إنَّ النِّسَا لُعبٌ لنَا
فَحَسِّنْ إذَنْ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ وَجَوِّدِ
وخيْرُ النِسَا مَن سَرَّتِ الزَّوْجَ مَنْظِراً
وَمَنْ حَفِظَتْهُ في مَغِيْبٍ وَمَشْهَدِ
قَصِيْرَةُ أَلْفَاظٍ قَصِيْرَةُ بَيْتِهَا
قَصِيْرَةِ طَرْفِ العَيْنِ عَن كُلِّ أَبْعَدِ
عَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّيْنِ تَظْفُرُ بالمنى الْـ
وَدُوْدِ الوَلُودِ الأَصْلِ ذَاتِ التَّعَبُّدِ

حَسِيْبَـةَ أَصْـلٍ مِن كِـرَامٍ تَفُـزْ إذَنْ
بِـوِلْـدٍ كِـرَامٍ والـبَكَـارَةَ فَـاقْصِـدِ
وَوَاحِـدَةٌ أَدْنَى إلى العَـدْلِ فـاقْتَنِـعْ
وانْ شِئْتَ فَـابْلُغْ أرْبَـعـاً لَا تَـزَيَّـدِ
وَمَن عَفَّ تَقْـوىً عن مَحَـارِمِ غَيْـرِهِ
يُـعَفْ أَهْـلُه حقـاً وانْ يَـزْنِ يَـفْسُـدِ
فَكَـابِـدَ إلى أَنْ تَبْلُغَ النفسُ عُـذْرَهَـا
وكنْ في اقْتِبَـاسِ العلمِ طَـلَّاعَ انْجُـدِ
ولا يَذْهَبَنَّ الـعُـمُـرُ مِنْـكَ سَبَـهْللا
ولا تُغْبَنَنْ بـالـنَّـعْـمَتَيْنِ بَـلْ اجْـهِـدِ
فَمَنْ هَجَـرَ اللَّذاتِ نَـالَ المُنَى وَمَنْ
أَكَبَّ على الـلَّذَاتِ عَضَّ عَلى الـيَـدِ
وفي قَمْـعِ أَهْـوَاءِ النُفُـوسِ اعْتِـزَازُهَـا
وفي نَيْلِهَـا مـا تَشْتَهِيْ ذِلٌ سَـرْمَـدِ
فـلا تَشْتَغِـلْ إلا بِمَـا يُكْسِبُ العُـلَا
ولا تَـرْضَ لِلنَّفْسِ النَّفِيْسَـةِ بـالـرَّدِي
وفي خَلْوَةِ الإنْـسَـانِ بـالعِـلْمِ أُنْسُـهُ
وَيَسْلَمُ دِيْـنُ المَـرْءِ عـنـدَ التَـوَحُـدِ
وَيَـسْلَمُ مِـن قِـيْـلٍ وقَـالٍ ومِـن أَذَى
جَـلِيْسٍ وَمِـن وَاشٍ بَـغِـيْضٍ وَحُـسَّـدِ
وَكُنْ حِلْسَ بَيْتٍ فَهُـوَ سَتْـرٌ لِـعَـورةٍ
وَحِـرْزُ الفَتى عن كُـلِّ غَـاوٍ وَمُفْسِـدِ

وَخَيْـرُ جَلِيْسِ الـمَـرْءِ كتْبٌ تُفِيْـدُهُ
عُـلُومـاً وآدابـاً كَـعَـقْـلٍ مُـؤَيَّـدِ
وخَـالِطْ إذَا خَـالَـطَتَ كُـلَّ مُـوَفَّقٍ
مِـن العُلُمَـا أهْـلِ التُّـقَى والـتَّعَـبُّـدِ
يُفِيْـدُكَ مِن عِلْمٍ وَيَنْهَـاكَ عنَ هَـوَى
فَصَـاحِبْه تُهْـدَى مِن هُـدَاهُ وَتَـرْشُـدِ
وإيَّـاكَ والهَمَّـازَ إنْ قُمْتَ عنـه والْـ
بَـذِيَّ فـإنَّ المَـرْءَ بـالمَـرْءِ يَقْتَـدِي
ولا تَصْحَبِ الحَمْقَى فَذُوْ الجَهْلِ انْ يَرُمْ
صَـلاحاً لأمْـرٍ يَـا أَخَـا الحَـزْمِ يُفْسِـدِ
وَخَـيْـرُ مَقَـامٍ قُـمْتَ فِـيْـهِ وَخَـصْلَةٍ
تَـحَـلَيْـتَـهَـا ذِكْـرُ الإلَــهِ بِـمَـسْـجِـدِ
وكُفَّ عن العَـوَرا لِسَـانَـكَ والـيَكُـنْ
دَوامـاً بِـذِكْـرِ اللّهِ يَـا صَـاحِبِيْ نَـدِي
وَحَصِّنْ عن الفَحْشَـا الجَـوارِحَ كُلَّهـا
تَكُنْ لَـكَ فِي يَومِ الجَـزَا خَيْـرَ شُـهَّـدِ
وحـافِظْ على فِعْـلِ الفُـرُوْضِ بِـوَقْتِهَـا
وخُـذْ بِنَصِيْبٍ في الـدُجَـا مِن تَهَجُّـدِ
ونَـادِ إِذَا مَـا قُمْتَ بـاللَّيـلِ سَـامعاً
قَـرِيْبـاً مُجِيْبـاً بالفَـواضِـلِ يَبْتَـدِي
وَمُـدَّ إليـهِ كَـفَّ فَـقْـرِكَ ضَـارِعـاً
بِـقَلْبٍ مُـنِيْـبٍ وادْعُ تُـعْطَ وَتَـسْعَـدِ

ولا تَسْأَ مَنَّ العِلْمَ واسْهَرْ لِنيْلِهِ
بلا ضَجَرٍ تَحْمِدْ سُرَى اللَّيلِ في غَدِ
ولا تَطْلُبَنَّ العِلمَ لِلْمَالِ والرِّيَا
فإنَّ مِلاَكَ الأَمْرِ في حُسْنِ مَقْصَدِ
وكُنْ عَامِلاً بالعِلْمِ فِيْمَا اسْتَطَعْتَهُ
لِيُهْدَى بِكَ المَرْءُ الذي بِكَ يَقْتَدِي
حَرِيْصاً على نَفْعِ الوَرَى وَهُدَاهُم
تَنَلْ كُلَّ خَيْرٍ في نَعِيْمٍ مُؤَبَّدِ
وكُنْ صَابِراً بالفَقْرِ وادَّرِعِ الرِّضَا
بِمَا قَدَّرَ الرحمنُ واشْكُرْهُ تُحْمَدِ
فَمَا العِزَ إلا في القَنَاعَةِ والرِضَا
بِأَدْنَى كَفَافٍ حَاصِلٍ والتَّزَهُدِ
فَمَنْ لَمْ يُقَنِّعْهُ الكَفَافُ فما إلى
رِضَاهُ سَبِيْلٌ فاقْتَنِعْ وَتَقَصَّدِ
فَمَنْ يَتَغَنَّى يُغْنِهِ اللهُ والغِنَى
غِنَى النَّفْسِ لا عَنْ كَثْرةِ المُتَعَدِّدِ
وإيَّاكَ والاعْجَابَ والكِبْرَ تُحْظَ بالسَّ
سَعَادَةِ في الدَّارَيْنِ فارْشُدْ وَأَرشِدِ
وهَا قَدْ بَذَلْتُ النُّصحَ جُهْدِي وإنَّنِي
مُقِرٌ بِتَقْصِيْرِي وبِاللَّهِ أهْتَدِي
تَقَضَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ ذَمِيْمَةً
وَلَكِنَّها كالدُّرِ في عِقْدِ خُرَّدِ

يَحَارُ لَهَا قَلْبُ اللَّبِيْبُ وَعَارِف
كَرِيْمَانِ إِنْ جَالاَ بِفِكْرٍ مُنَضَّدِ
فَمَا رَوْضَةٌ حُفَّتْ بِنَوْرِ رَبِيْعِهَا
بِسَلْسَالِهَا العَذْبِ الزُلاَلِ المُبَرَّدِ
بِأَحْسَنَ مِن أَبْيَاتِهَا وَمَسَائِلٍ
أَحَاطَتْ بِهَا يَوماً بِغَيْرِ تَرَدُّدِ
فَخُذْهَا بِدَرْسٍ لَيْسَ بالنَّومِ تُدْرِكَنْ
لأَهْلِ النهى والفَضْلِ في كُلّ مَشْهَدِ
وقَدْ كَمُلَتْ والحَمدُ لِلّهِ وحْدَهُ
على كُلِّ حَالٍ دَائماً لم يُصَدِّدِ

اللهم يا حي يا قيوم ياذا الجلال والاكرام ثبت محبتك في قلوبنا وقوها والهمنا يا مولانا ذكرك وشكرك وأمنا من عذابك يوم تبعث عبادك واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .

اللهم اليك بدعائنا توجهنا وبفنائك أنخنا واياك أملنا ولما عندك من الكرم والجود والاحسان طلبنا ومن عذابك أشفقنا ولغفرانك تعرضنا فاغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله وسلم .

« نَظْمُ الكَبَائِرِ لابْنِ عبدِ القَوِّي »

وَكُنْ عَالِماً إِنَّ الذُّنُوبَ جَمِيْعَهَا
بِكُبْرَى وَصُغْرَى قُسّمَتْ في المُجَوَّدِ

فَمَا فِيْهِ حَدٌّ في الدُّنَا أَوْ تَوَعُدٌ
بِأُخْرَى فَسِمْ كُبْرَى عَلَى نَصِّ أَحْمَدِ

وَزَادَ حَفِيْدُ المَجْدِ أَوْ جَا وَعِيْدُهُ
بِنَفْيٍ لإِيْمَانٍ وَلَعْنٍ لِمُبْعَدِ

كَشِرْكٍ وَقَتْلِ النَّفْسِ إِلَّا بِحَقِّهَا
وَأَكْلِ الرِّبَا والسِّحْرِ مَعْ قَذْفِ نُهَّدِ

وأَكْلُكَ أَمْوَالَ اليَتَامَى بِبَاطِلٍ
تَوَلِّيْكَ يَوْمَ الزَّحْفِ في حَرْبِ جُحَّدِ

كذَاكَ الزِّنَا ثُمَّ اللِّوَاطُ وَشُرْبُهُم
خُمُوراً وَقَطْعٌ لِلطَّرِيْقِ المُمَهَدِ

وَسَرْقَةُ مَالِ الغَيْرِ أَوْ أَكْلُ مَالِهِ
بِبَاطِلِ صُنْعِ القَوْلِ والفِعْلِ واليَدِ

شَهَادَةُ زُوْرٍ ثُمَّ عَقٌّ لِوَالِدٍ
وَغِيْبَةُ مُغْتَابٍ نَمِيْمَةُ مُفسِدِ

يَمِيْنٌ غَمُوسٌ تَارِكٌ لِصَلَاتِهِ
مُصَلٍّ بِلَا طُهْرٍ لَهُ بِتَعَمُّدِ

مُصَلٍّ بِغَيْرِ الْوَقْتِ أَوْ غَيْرِ قِبْلَةٍ
مُصَلٍّ بِلَا قُرْآنِهِ المُتَأَكِّدِ

قُنُوطُ الفَتى مِن رَحْمَةِ اللهِ ثُمَّ قُلْ
إِسَاءَةُ ظَنٍّ بالآلهِ المُوَحَّدِ

وأَمْنٌ لِمَكْرِ اللهِ ثُمَّ قَطِيْعَةٌ
لِذِيْ رَحِمٍ والكِبْر والخُيَلَا اعْدُد

كَـذَا كَـذِبٌ إنْ كَـانَ يَـرْمِيْ بِفْتِنَـةٍ
أَوْ المُفْتَرِيْ يَوْماً على المُصْطَفَى أَحْمَدِ
قِـيَـادَةُ دَيُّـوثٍ نِـكَـاحُ مُـحَـلِّلٍ
وَهِـجْـرَةُ عَـدْلٍ مُـسْـلِمٍ وَمُـوَحِّـدِ
وَتَرْكُ لِحَـجٍ مُـسْتَـطِيْعـاً وَمَنْعُـهُ
زَكَـاةً وَحُـكْـمُ الـحَـاكِمِ الـمُـتَـقَـلِّدِ
بِـحَـقِّ لِـخَـلْقِ وارْتِـشَـاهُ وَفِـطْرُهُ
بـلا عُـذْرِهِ في صَـوْمِ شَهْـرِ التَّعَبُّـدِ
وَقَـوْلٌ بِـلاَ عِـلْمٍ عَـلَى الـلهِ رَبِّـنَـا
وَسَـبٌ لأَصْـحَـابِ الـنَّـبِيِّ مُـحَـمَّـدِ
مُـصِـرٌ على الـعِصْيَـانِ تـرْكُ تَنَـزُّهٍ
مِن البَـوْلِ في نَصِّ الحَدِيْثِ المُسَدَّدِ
واتْيَـانُ مَنْ حَـاضَتْ بِفَـرْجٍ وَنَشْزُهَـا
عَلَى زَوْجِهَـا مِن غَيْـرِ عُـذْرٍ مُمَهَّـدِ
وإلْحَـاقُهَـا بـالـزَّوْجِ مَنْ حَمَلَتْـهُ مِنْ
سِـوَاهُ وَكِـتْمَـانُ الـعُـلُوم لِـمُـجْـتَـدِ
وَتَصْـوِيْـرُ ذِيْ رُوْحٍ واتْيَـانُ كَـاهِـنٍ
واتْـيَـانُ عَـرَّافٍ وَتَـصْـدِيْـقُهُـمْ زِدِ
سُجُـودٌ لِغَيْـرِ اللهِ دَعْـوَةُ مَـنْ دَعَـا
إلى بِـدْعَـةٍ أَوْ لِلضَّـلاَلَـةِ مَـا هُـدِي
غُـلُولٌ وَنَـوْحٌ والـتَّـطَيُّـرُ بَـعْـدَهُ
وَأَكْـلٌ وَشُـرْبٌ في لُجَيْنٍ وَعَسْجَـدِ

وَجَـوْرٌ لِمُـوْصٍ فِي الـوَصَـايَـا وَمَنْعُـهُ
لِـمِـيْـرَاثِ وُرَّاثٍ إِبَـاقٍ لأَعْـبُـدِ

وإِتْيَـانُهَـا فِي الـدُّبْـرِ بَيْـعٌ لِحُـرَّةٍ
وَمَنْ يَسْتَحِـلُّ البَيْتَ قِبْلَةَ مَسْجِـدِ

وَمِنْهَـا اكْتِسَـابٌ لِلْرِّبَـا وَشَهَـادَةٌ
عَلَيْـهِ وَذُوْ الـوَجْهَيْنِ قُـلْ لِلتَّـوَعُّـدِ

وَمَـنْ يَـدَّعِيْ أَصْـلاً وَلَيْسَ بِـأَصْلِهِ
يَقُـولُ أَنَـا ابْنُ الفَـاضِـلِ المُتَمَجِّـدِ

فَـيَـرْغَـبُ عَـن آبَـائِـهِ وَجُـدُوْدِهِ
وَلا سِيَّمَـا أَنْ يَـنْـتَـسِبْ لِمُـحَـمَّـدِ

وَغِشُّ إِمَـامٍ لِـلرَّعِـيَّـةِ بَـعْـدَهُ
وُقُـوْعٌ عَلَى العَجْمَا البَهِيْمَـةِ يُفْسِـدِ

وَتَـرْكٌ لِتَجْـمِـيْـعٍ إِسَـاءَةُ مَـالِـكٍ
إلى القِنِّ ذَا طَبْـعٍ لَـهُ فِي المُعَبَّـدِ

تمَّ هذَا الكِتَابُ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَنَسْأَلُ اللهَ الحَيَّ القَيُّوْمُ العَلِيُّ العَظِيْمَ ذا الجَلَالِ والإِكْرَام الوَاحِدَ الأَحَدَ الفَرْدَ الصَّمَدَ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ولم يَكُنْ لَهُ كفواً أَحَد أَنْ يُعِزَّ الإِسْلَامَ والمُسْلِمِيْنَ وأَنْ يَخْذُلَ الكَفَرَةَ والمُشْرِكِيْنَ وَأَعْوَانَهُمْ وأَنْ يُصْلِحَ من في صلاحه صَلاحٌ للاسْلام والمُسْلِمِيْنَ وَيُهْلِكَ مِنْ في هَلَاكِهِ عز وصلاح للاسلام والمسلمينَ وَأَنْ يَلُمَّ شَعَثَ المُسْلِمِيْنَ وَيَجْمَعَ شَمْلَهُمْ وَيُوَحِّدَ كَلِمَتَهُمْ وَأَنْ يَحْفَظَ بِلَادَهُمْ وَيُصْلِحَ أولادَهُمْ وَيَشْفِ مَرْضَاهُمْ وَيُعَافِي مُبْتَلاهُمْ وَيَرْحَم مَوْتَاهُمْ وَيَأْخذ

بِأَيْدِيْنَا إلى كُلِّ خَيْرٍ وَيَعْصِمَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَيَحْفَظنا مِن كُلِّ ضُرٍ وأنْ يَغْفِرَ لنا ولوالدينا وجميع المسلمين بِرَحْمَتِهِ إِنَّه أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ وصلى الله على محمد وعلى آله وَصَحْبِهِ أجمعين .

فهرس الجزء الرابع من موارد الظمآن

الموضوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة
موعظة بليغة فى توجيه الأولاد توجيها صالحا	١٥٨/١٦١
قصة النفر الذين أرسلهم النبى ﷺ الى بئر معونة وقتلهم عامر بن الطفيل ويليها نظم لابن القيم	١٦٢/١٦٥
قصة عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح وأنس بن النظر	١٦٦/١٦٧
رثاء للنبى ﷺ	١٦٨/١٦٩
وقعة بدر وذكر سببها وماذا عمل ﷺ فيها	١٧١/١٧٣
قصيدة فى مدح الصحابة رضي الله عنهم	١٧٤
تنظيمه ﷺ أصحابه فى تشكيل حربي يلائم ظروف السير فى أرض العدو وتوجيهه عيونه تأتيه بالخبر	١٧٥/١٧٦
أبو سفيان يتشمم أخبار المسلمين فى طريقه، انقسام الناس الى قسمين	١٧٧
النبى ﷺ يستشير أصحابه عندما بلغه خروج قريش وأجوبة الصحابة على ذلك	١٧٨/١٨٠
موعظة بليغة تتضمن الحث على ايقاض القلوب فى رقدتها وأبيات زهدية	١٨٠/١٨١
قصيدة زهدية وعظيمة فيها حكم وعبر	١٨٢/١٨٣
حرص النبى ﷺ على كتمان أمره عن قريش وسؤاله عنهم وبعثه ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص الى ماء يلتمسون الخبر وبناء الحوض والعريش	١٨٤/١٨٧
ارسال المشركين عمير بن وهب يحزر لهم عدد المسلمين ورجوع عمير ممتلئا من الرعب والذعر والخوف والتعظيم لأصحاب النبى ﷺ بعد ما رجع عمير من المسلمين وأخبر المشركين بما رأى دب الخلاف بيهم	١٨٨
موعظة فى التزهيد فى الدنيا والحث على الرغبة فى الآخرة وبعدها قصيدة مثلها يتضمن ما تضمنته تلك	١٩٠/١٩٦
النبى ﷺ يعبئ جيشه أحسن تعبية	١٩٦
الدعاء الى المبارزة وتقدم الأكفاء لها من الصحابة وتنافسهم فيها وشجاعتهم وتهالكهم على الشهادة وامدادهم بالملائكة لتؤيدهم	١٩٦/١٩٨
ابليس يقود المشركين ويشجعهم ويورطهم ثم يهرب	١٩٩
متابعة النبى ﷺ المعركة واستنهاضه همم أصحابه، وعدد القتلى والأسرى	٢٠٠
قصة قتل أبي جهل لعنه الله وبيان من قتله وتحديد وقت المعركة ابتداء وانتهاء	٢٠١/٢٠٢
من موعظة لله	٢٠٢/٢٠٣
مقتل أمية بن خلف وانبه وقسم النفل	٢٠٥
مقتل عقبة بن أبي معيط لعنه الله والنظر بن الحارث	٢٦
موعظة بليغة فى الزجر عن التعليق بالدنيا وترك الآخرة	٢٠٨/٢١٠

الموضـــوع	رقم الصفحة
غزوة أحد وذكر سببها واعداد قريش لها	٢١٢/٢١١
أبو عامر الفاسق وظنه الفاشل لعنه الله	٢١٣
خروج جيش الكفرة والمنافقين يقوده أبو سفيان	٢١٦/٢١٥
استشارة النبى ﷺ أصحابه عندما بات الخطر جاثما على أبواب المدينة	٢٢٠/٢١٧
موعظة بليغة مقارنة بيننا معشر العجزة والكسلا وبين السلف المجدون المجتهدون الحافظون لأوقاتهم	٢٢٢/٢٢١
قصيدة زهدية وعظية فى غربة الاسلام والولاء والبراء	٢٣٠/٢٢٣
استعراض النبى ﷺ لجيشه فى مكان يقال له الشيخين وانشقاق الجيش بسبب عبد الله ابن أبي رئيس المنافقين	٢٣١
اخفاق خطط الكفرة والمشركين عندما التقا الجمعان	٢٣٣
قتل حاملي لواء المشركين وكسر شوكتهم وتوليهم الأدبار	٢٣٥/٢٣٤
مخالفة أهل الثغر لأمر النبى ﷺ أوقعتهم فى مفاجئة الكفار يحاصرونهم كارين راجعين	٢٣٧/٢٣٦
ابليس لعنه الله يصرخ وسط المعركة بأعلى صوته أن محمدا قد قتل	٢٣٧
ذكر جرح أعداء الاسلام الكفرة وجه النبى ﷺ وقتاله ﷺ لهم قتالا شديدا ودافع عنه ﷺ عدة من الصحابة منهم أبو دجانة وطلحة وشماس بن عثمان وأبو طلحة وأم عمارة ودعا لهم ولابنيها وزجها	٢٤٥/٢٣٨
قصيدة زهدية وعظية تثير عزائم أهل الطاعة	٢٥١/٢٤٦
خيوب ظن أبي سفيان وخلجه حيث ظهر ﷺ سالما خلافا لأمله الفاسد	٢٥٢
دفن الشهداء وجواب المسلمين لأبي سفيان حينما استعز واستنصر بالاصنام	٢٥٢
قصيدة فيها حكم وحث على الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر	٢٥٤
موعظة بليغة فى الزجر عن المعاصي والملاهى والحث على صيانة الوقت	٢٥٦
ذكر بعض الحكم التى وقعت فى أحد ونظم لابن القيم	٢٥٨
صفات المنافقين لابن القيم	٢٩٠/٢٧٦
منظومة للشيخ عبد الرحمن الناصر السعدى فى السير الى الله والدار الآخرة وفائدة جليلة فى المصطفين الذين أورثهم الله الكتاب له أيضا	٢٩٣/٢٩١
قصة لعمير بن سعد الأنصارى	٢٩٥
قصة أخرى له أيضـــا	٣٠٠
قصيدة زهدية وعظيـة	٣٠٧/٣٠٤
نبذة عن حياة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه	٣١٢/٣٠٨
قصيدة فى الحث على الاقبال على الآخرة والتحذير عن الدنيا وغرورها	٣١٦/٣١٣
موعظة فى ذكر بعض فوائد طاعة الله عز وجل	٣١٨/٣١٧

الموضـــوع	رقم الصفحة

ألى هنا إنتهى فهرس الجزء الرابع

من موارد الظمــآن